

تَطْبِيقٌ

نَفْسِيَرُ الْجَلَالِيْنَ

لِلْإِمَامَيْنِ

جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّي جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِي

حَاشِيَةٌ مُنْتَخَبَةٌ مِنْ أَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ تَفْسِيرًا

جَمْعُ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ

عَبْدُ اللَّهِ آلُ عَبْدِ الْمُحْسَنِ

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ الْمُؤَلِّفِ

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ وَقَفَّ لِلَّهِ تَعَالَى إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ طَبْعُهُ طَبْعَةً وَقَفِيَّةً

الطَّبْعَةُ الْأُولَى

١٤٤٥ هـ

ح) عبد الله آل عبد المحسن، ١٤٤٥ هـ

فهرست مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عبد المحسن، عبد الله

تطريز تفسير الجلالين / عبد الله عبد المحسن - ط ١ - الرياض

١٤٤٥ هـ

٩٣٣ ص؛ ١٢*٢٩ سم

رقم الإيداع: ١٧٦٠٦ / ١٤٤٥

ردمك: ٥-٩٦٩٤-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

الْمُقَدِّمَةُ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدي الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]. فإن أصدق الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، أما بعد:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وأصلي وأسلم على نبيه، المبعوث بالآيات البينات والمعجزات الواضحات، وعلى آله وصحبه الذين شادوا الدين ورفعوا لواءه في العالمين. وبعد، فإن من أنفع ما ينتفع به المرء في دينه ودنياه وآخرته الاشتغال بكلام الله تلاوة وتجويداً وحفظاً وتفسيراً وعملاً وتدبراً، فالقرآن حجة الله البالغة، ومعجزته الخالدة. قال عنه أعدائه: «إنَّ له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يُعلى عليه، وما هو بقول البشر»^(١). وقال عنه محبوه: «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الآراء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم»^(٢).

أما بعد: فإن كتاب تفسير الجلالين كتاب قد سارت به الركبان وبلغ مبلغ الليل والنهار، وتعددت عليه الشروح

(١) هو من قول الوليد بن المغيرة. أخرجه ابن إسحاق (١/ ٣٣٤ - ٣٣٦) معلقاً، وانظر الدر المنثور (٧/ ٣٢٩ - ٣٣١).

(٢) من كلام علي ابن أبي طالب (عليه السلام). فضائل القرآن ص: (١١ - ١٢). لابن كثير.

والحواشي، قال عنه حاجي خليفة: «هو مع كونه صغير الحجم كبير المعنى لأنه لب لباب التفاسير»^(١). وهو مختصر بل معتصر، قال بعض علماء اليمن: «عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلى سورة المزمل ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن فعلى هذا يجوز حمله بغير وضوء»^(٢).

فلا يخفى ما لتفسير الجلالين من مكانة وشهرة عظيمتين بين كتب التفسير؛ لأسلوبه المبتكر، ونمطه المختصر، مع ما تضمنه من معارف وعلوم قرآنية على طريقة الإيجاز في العبارة، من غير إخلال بتفسير كلام الله تعالى، ولا أدل على أهمية تفسير الجلالين من ثلاثة أمور:

أولاً: الكثرة الكاثرة للنسخ الخطية لتفسير الجلالين المتفرقة في أقطار العالم، حيث بلغت أكثر من ستمائة نسخة^(٣).
ثانياً: كثرة الشروح والحواشي التي حظي بها هذا التفسير المبارك، حيث بلغت أكثر من عشرين شرحاً وحاشية^(٤).
ثالثاً: كثرة الطباعات للكتاب ما بين طبعة مستقلة أو بهامش المصحف أو مع الحواشي^(٥).

وهذا الكتاب أصبح كالمتن لعلم التفسير، اعتمده الكثير من المشايخ والمعلمين لتفسير كتاب الله ومدارسته، بل وحفظه^(٦).

لذا أحببت أن أشارك في توضيح معانيه وفك مغاليقه، بطريقة مبتكرة بالنقل من كلام أئمة التفسير مباشرة من غير تعليق ولا تطويل، فليس لي فيه إلا الاختيار، قال ابن عبد ربه: «وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرات جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، ... مأخوذ من أفواه العلماء، ومأثور عن الحكماء والأدباء. واختيار الكلام أصعب من تأليفه. وقد قالوا: اختيار الرجل وإفد

(١) كشف الظنون (١/٤٤٥).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، علوم القرآن، مخطوطات التفسير وعلومه (١/٤٦٢).

(٤) انظر: مقدمة كتاب المفصل لقباوة (ص: ١١).

(٥) للاطلاع على بعضها، انظر: المصدر السابق (ص: ١٣).

(٦) مما يستملح ما جاء في ترجمة أحمد الشنقيطي: «كان يوماً يفسر وفي يده تفسير ... الجلالين، فقال للطلبة: سقط هنا شيء. فقالوا له: إن الكلام مستقيم لم يسقط شيء، فأبى إلا أن يكون سقط، فأخذوا نسخة أخرى فوجدوه كما قال، فقال لهم: إني أعرف تفقد كلمات هذا الكتاب كمعرفتي بتفقد بقراطي». انظر ترجمته في فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور (ص: ٧٠).

عَقْلُهُ»^(١).

واسميته «تطريز تفسير الجلالين» رجاء أن تكون زينةً له، إذ التطريز التزيين والزخرفة، يقال: ثوب مطرز بالذهب^(٢)، قال الشاعر في مدح النبي ﷺ:

يا خاتم الرسل الكرام ومن به حلل النبوة زانها التطريز^(٣)

إذ هو «كُنِيفٌ مُلِئٌ عِلْمًا»^(٤) من أقوال أئمة التفسير. أسأل الله أن يبارك فيه كما بارك في أصله، وأن يكتب له القبول، إنه سبحانه جواد كريم.

التعريف بتفسير الجلالين

اشتهر الكتاب باسم «تفسير الجلالين»، ومؤلفا الكتاب لم يسمياه بهذا الاسم، إذ المحلي توفي قبل أن يكمله، والسيوطي سمى ما قام به التكملة، وجاء من بعدهما من سمى الكتاب بهذا الاسم نسبة للمؤلفين. ولا شك أن الذي يقرأ تفسير الجلالين، لا يكاد يلمس فرقاً واضحاً بين طريقة الشيخين فيما فسّراه، ولا يكاد يشعر بمخالفة بينهما في ناحية من نواحي التفسير المختلفة، اللهم إلا في مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل^(٥).

منهج الجلالين في التفسير

لم يجعل الإمام جلال الدين المحلي مقدمة ولا خاتمة للجزء الذي فسره، أما الإمام جلال الدين السيوطي فقد جعل مقدمة مختصرة بين فيها أهم معالم منهجه باختصار للجزء الذي فسره فقال: «ذكر ما يفهم به كلام الله تعالى، والاعتماد على أرجح الأقوال، وإعراب ما يحتاج إليه، وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة، على وجه لطيف، وتعبير وجيز، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية»، كما جعل له خاتمة. كذلك اتبع

(١) العقد الفريد (١/ ٢-٤).

(٢) معجم ديوان الأدب للفارابي (٢/ ٣٥٧).

(٣) ذيل مرآة الزمان لليونيني (١/ ٢٨٥).

(٤) اقتباس من قول عمر لابن مسعود رضي الله عنه. انظر مصنف عبد الرزاق (١٨١٨٧).

(٥) انظر التفسير والمفسرون للذهبي حيث ذكر بعض الأمثلة للاختلافات بينهما (١/ ٢٣٩).

المفسران مسلكا واحدا، فقبل أن يشرعا في تفسير الآيات يذكر ما إذا كانت السورة مكية أو مدنية، ثم يذكر الأقوال الواردة في عدّها إذا وجد هناك خلاف.

ومن أهم معالم منهجهما عليهما رحمة الله تعالى نذكر ما يلي:

١ - جمعا فيه بين التفسير بالمعقول والتفسير بالمنقول.

٢ - تفسير القرآن بالقرآن: فإذا ذُكر المعنى مجملا في آيات من القرآن الكريم، كانا يستحضران الآيات التي ورد فيها مفصلا، وغير ذلك من الاستشهاد بالآيات.

٣ - تفسير القرآن بالسنة: فيستشهدان بالأحاديث صحيحها وعليلها في تفسير الآيات، وقد كانت طريقة استشهادهما بالأحاديث طريقة مبنية على الاختصار فلم يكن كل منهما يذكر الحديث بطوله، أو يتحرى نص لفظه إلا نادرا، بل كان يشير إلى الحديث بذكر طرف منه، أو بذكر بعض معناه المقصود ثم ينسبه إلى الحديث بقوله: «كما ورد في الحديث» أو «لحديث بذلك» أو قوله: «وفي الحديث كذا وكذا» أو نحو ذلك.

٤ - تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين: قد يذكران أكثر من قول في تفسير الآية، مع ذكر أصحاب هذه الأقوال أحيانا.

٥ - لم يعتمد الجلالان على قراءة واحدة بل كان اعتمادهما على عدة قراءات، فأحيانا يفسران آية معينة على قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري، ثم يفسران آية أخرى على قراءة عبد الله بن كثير المكي، ثم قراءة نافع، ثم على قراءة ابن عامر الدمشقي وهكذا. إلا أن الأغلب على قراءة الأول. كما تعرض المفسران إلى ذكر القراءات الشاذة على سبيل الاستئناس، دون ذكر رواية هذه القراءات. وعند ذكر القراءات المختلفة يقومون بتفسير كل قراءة بعبارة مختصرة. وأحيانا يبينان كيفية أداء القراءة بشكل مختصر.

٦ - إيراد بعض الإسرائيليات الباطلة التي لا أصل لها. قال الشيخ الشنقيطي: ومن المعلوم أن ما يروى عن بني إسرائيل من الأخبار المعروفة بالإسرائيليات له ثلاث حالات في واحدة منها يجب تصديقه وهي ما إذا دل الكتاب أو السنة الثابتة على صدقه، وفي واحدة يجب تكذيبه وهي إذا ما دل القرآن والسنة على كذبه، وفي الثالثة لا يجوز التكذيب ولا التصديق... وهي ما إذا لم يثبت في كتاب ولا سنة صدقه ولا كذبه. وبهذا التحقيق تعلم أن القصص المخالفة للقرآن والسنة الصحيحة التي توجد بأيدي بعضهم زاعمين أنها في الكتب المنزلة يجب تكذيبهم فيها لمخالفتها نصوص

الوحي الصحيح التي لم تحرف ولم تبدل والعلم عند الله تعالى^(١).

٧- الالتزام بالأخذ بقول المذهب الشافعي في الفروع وإن كان أحياناً مرجوحاً.

٨- في العقيدة التزام المذهب الأشعري غالباً، سواء في تأويل الصفات، أو مباحث الإيمان، أو القدر.

٩- الإيجاز الشديد في التفسير أحياناً إلى حد الغموض، أو السكوت مطلقاً أحياناً أخرى إزاء آيات تحتاج إلى

تفسير.

١٠- صعوبة الوقوف على تفسير الآية أحياناً، لأن مؤلفيه يردان القارئ إلى البحث عن تفسير الآية فيما سبق ولا

يحددان له المواضع المطلوبة^(٢).

مصادر تفسير الجلالين

ذكر الحافظ السيوطي في ترجمة الإمام الكواشي: وله التفسير الكبير والصغير، وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره، واعتمدت عليه أنا في تكملته، مع الوجيز وتفسير البيضاوي وابن كثير^(٣). وعد بعضهم مصادر أخرى ولكنها أقل في الاقتباس^(٤).

التعريف بالجلالين

(١) أضواء البيان للشنقيطي (٤/ ٢٠٣).

(٢) للتوسع في معرفة منهج الجلالين والدراسات التي كتبت عنه ينظر للدراسات الموسعة في ذلك منها: «منهج الجلالين في تفسير القرآن القسم الثاني» لنور الدين عتر، (منهج السيوطي في تفسير الجلالين) لحيدر مختار محمود، (منهج الجلالين في القراءات) لولاء البرادعي، (الرواية في تفسير الجلالين ونقد ما فيه من روايات باطلة وإسرائيليات) لنور الدين عتر، (معالم الدعوة في تفسير الجلالين) لالجيلي البلال، (إشارات نحوية من تفسير الجلالين) لمحمد علي، (القراءات الواردة في تفسير الإمامين الجلالين في الربع الأول) لوداعة أحمد، (تخريج الأحاديث المرفوعة في تفسير الجلالين) لإبراهيم أبو سليمان، (منهج الجلالين في اختيارات المعاني في تفسير الجلالين) لأمين الهواري، (الإسرائيليات في تفسير الجلالين عرض ودراسة) لمحبي الدين حمزة، (اختيارات الجلالين في تفسير القرآن الكريم) لعواطف محمد، (المقاصد القرآنية الاعتقادية في تفسير الجلالين) لعائشة الثبتي، (وضع الظاهر موضع المضمهر في تفسير الجلالين) لعلي العنزي، سلسلة رسائل جامعية باسم (تعقبات الشيخ ابن عثيمين على تفسير الجلالين) لعدة مؤلفين.

(٣) بغية الوعاة (١/ ٤٠١).

(٤) انظر: مقدمة كتاب المفصل لقباوة (ص: ٢٤).

الأول: جلال الدين المحلي: هو محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي الشافعي، ولد بمصر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، واشتغل وبرع في الفنون، وكان رحمه الله آيةً في الذكاء والفهم، حتى قال بعض أهل عصره: إن ذهنه يثقب الماس، لكنه مع قوة هذا الفهم والذكاء قال عن نفسه: إنه لم يك يقدر على الحفظ، وكان رحمه الله على درجة من الصلاح والورع، أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، لا تأخذه في الحق لومة لائم، وقد ألف كتباً كثيرة غاية في التحرير والاختصار والتنقيح، وسلامة العبارة، وحسن المزج، منها: شرح جمع الجوامع، شرح الورقات، شرح المنهاج للنووي، القسم الثاني من هذا التفسير، توفي في أول يوم من سنة أربع وستين وثمانمائة، مترجم في كتب الشافعية المتأخرة، وأيضاً مترجم في طبقات المفسرين للداودي، وشذرات الذهب لابن العماد.

الثاني: جلال الدين السيوطي: وهو عبد الرحمن بن أبي بكر محمد خضيري السيوطي الشافعي، ولد سنة تسع وأربعين وثمانمائة، ونشأ يتيماً، قد مات والده وعمره خمس سنوات، وأخذ عن جمعٍ غفير من أهل العلم، كان آية في سرعة الفهم والتأليف، وأخبر عن نفسه أنه كان يحفظ مائتي ألف حديث، حتى قال: لو وجدت أكثر من هذا لحفظته، زادت مصنفاته على الستمائة، منها ما هو في مجلدات، ومنها ما هو في ورقة. لما بلغ الأربعين سنة أخذ في التجرد للعبادة والانقطاع إلى الله، والاشتغال به، والإعراض عن الدنيا وأهلها، حتى كأنه لم يكن يعرف أحداً، وشرع في تحرير مؤلفاته، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك في مؤلف سماه: التنفيس، خلف مصنفاتٍ كثيرة، ذوات فنون متعددة، فمن أشهرها: الدر المنثور والإتقان في علوم القرآن، وأيضاً له نصيب من هذا التفسير، ومقداره النصف، وله الجامع الكبير والصغير في الحديث، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مات ليلة الجمعة التاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشرة وتسعمائة، مترجم في حسن المحاضرة له، وفي شذرات الذهب وغيرها.

منهج التطريز في الكتاب

أما منهجي في التطريز فهو على النحو التالي:

- ١- ترتيبه على ترتيب الجلالين، لذا تجد تفسير سورة الفاتحة في آخر التفسير.
- ٢- إثبات القراءات برسم المصحف العثماني على ما أوردها الجلالان، بينما كانت طبعات الكتاب السابقة بالرسم الإملائي.

٣- تمييز القراءات الشاذة من غيرها.

٤- تخريج أحاديث الكتاب بعزو الحديث إلى مصادره.

- ٥ - التدقيق والتحقيق في إخراج الكتاب على ما أراده الجلالان من خلال مقارنة النسخ المطبوعة والمخطوطة، من غير ذكر الفروق رغبة في الاختصار^(١).
- ٦ - تشكيل التفسير بالكامل.
- ٧ - تتبع الأخطاء العقدية، والضعيف من الأقوال الفقهية، والأباطيل الإسرائيلية، بقول المحققين من أئمة التفسير.
- ٨ - في النقل من التفاسير وثقت كل نقل بالجزء والصفحة^(٢).

(١) انظر مراجع المخطوطات والمطبوع في الملاحق في آخر الكتاب.

(٢) انظر ثبت المراجع وشرح رموز المؤلفين في الملاحق في آخر الكتاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا مُوَافِقًا لِنِعَمِهِ، مُكَافِئًا لِمَزِيدِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَجُنُودِهِ. هَذَا مَا اشْتَدَّتْ إِلَيْهِ حَاجَةُ الرَّاعِبِينَ، فِي تَكْمِلَةِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الَّذِي أَلْفَهُ الْإِمَامُ الْمُحَقِّقُ جَلَّالُ الدِّينِ: مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ الْمَحَلِّيُّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَتَتِمُّيمُ مَا فَاتَهُ، وَهُوَ: مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ إِلَى آخِرِ الْإِسْرَاءِ، بِتَتِمَّةٍ عَلَى نَمَطِهِ، مِنْ ذِكْرِ مَا يُفْهَمُ بِهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْإِعْتِمَادِ عَلَى أَرْجَحِ الْأَقْوَالِ، وَإِعْرَابُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَتَنْبِيهِ عَلَى الْقِرَاءَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ الْمَشْهُورَةِ، عَلَى وَجْهِ لَطِيفٍ، وَتَعْبِيرٍ وَجِيزٍ، وَتَرْكِ التَّطْوِيلِ بِذِكْرِ أَقْوَالٍ غَيْرِ مَرْضِيَّةٍ، وَأَعَارِيبَ مَحَلُّهَا كُتُبُ الْعَرَبِيَّةِ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ النَّفْعَ بِهِ فِي الدُّنْيَا، وَأَحْسَنَ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ فِي الْعُقْبَى، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ^(١).

(١) هذه مقدمة الإمام السيوطي وقد ابتدأ الإمام المحلي تفسيره من سورة الكهف إلى الناس، ثم رجع إلى سورة الفاتحة وفسرها، وتوفي رحمه الله عند نهاية تفسير الفاتحة وقيل وآيات من البقرة، ثم أكمل التفسير من أول البقرة إلى نهاية الإسراء الإمام السيوطي رحمه الله، لذلك تجد تفسير الفاتحة في آخر الكتاب على ترتيب المحلي رحمه الله.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مَائَتَانِ وَسِتُّ أَوْ سَبْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١). ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: هَذَا ﴿الْكِتَابِ﴾ الَّذِي يَقْرُؤُهُ مُحَمَّدٌ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ خَبَرٌ مُبْتَدَأُهُ ﴿ذَلِكَ﴾، وَالْإِشَارَةُ بِهِ لِلتَّعْظِيمِ ﴿هُدًى﴾ خَبَرٌ ثَانٍ، أَي: هَادٍ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾
﴿٢﴾ الصَّائِرِينَ إِلَى التَّقْوَى بِامْتِثَالِ الْأَوَامِرِ، وَاجْتِنَابِ النَّوَهِى، لَا تَقَائِهِمْ بِذَلِكَ النَّارِ. ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ^(٣) ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ مِنَ الْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ^(٤) ﴿وَيُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ﴾ أَي: يَأْتُونَ بِهَا بِحَقِّهَا ﴿وَمِمَّا

(١) أي: أبتدئ بكل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء الحسنى. [السعدي (ص: ٣٩)].

(٢) السور المفتحة بالحروف المقطعة تسع وعشرون سورة أولها البقرة هذه وآخرها القلم، ومنها: الأحادية مثل: «ص»، «ق»، «ن»، ومنها الثنائية مثل: «طه»، «يس»، «حم»، ومنها الثلاثية والرابعة والخماسية، ولم يثبت في تفسيرها عن النبي ﷺ شيء، وكونها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه أقرب إلى الصواب، ولذا يقال فيها: ﴿الْم﴾ الله أعلم بمurاده بذلك. وقد استخرج منها بعض أهل العلم فائدتين: الأولى: أنه لما كان المشركون يسمعون سماع القرآن مخافة أن يؤثر في نفوس السامعين كان النطق بهذه الحروف: «حم. طس. ق. كهيعص» وهو منطوق غريب عنهم يستميلهم إلى سماع القرآن فيسمعون فيتأثرون وينجذبون فيؤمنون ويسمعون وكفى بهذه الفائدة من فائدة. والثانية: لما أنكر المشركون كون القرآن كلام الله أو حاه إلى رسوله محمد ﷺ كانت هذه الحروف بمثابة المتحدّي لهم كأنها تقول لهم: إن هذا القرآن مؤلف من مثل هذه الحروف فألفوا أنتم مثله. ويشهد بهذه الفائدة ذكر لفظ القرآن بعدها غالباً. [أبو بكر الجزائري (١/ ١٩)].

(٣) الإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض... أما الإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عبيد وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. [ابن كثير (١/ ١٦٥)].

(٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَتَى أَلْقَى إِخْوَانِي؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا إِخْوَانُكَ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانِي الَّذِينَ آمَنُوا بِي وَلَمْ يَرُونِي». أخرجه أحمد (١٢٥٧٩)، وأبو يعلى في مسنده (٣٣٩٠). وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ مَا آمَنَ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْ إِيْمَانِ بَغِيبٍ ثُمَّ قَرَأَ ﴿الْم﴾ الْآيَةَ. وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح كلاماً مفيداً باعتبار ما ورد في الصحابة، وحاصله أن فضيلة الصحابة لا يعدلها عمل لمشاهدة رسول الله ﷺ، ومجرد زيادة الأجر لا يستلزم أفضلية غير الصحابة على الصحابة لأن الأجر إنما يقع مفاضلة بالنسبة إلى ما يماثله من العمل، ومشاهدة النبي ﷺ لا يعدلها عمل، هذا حاصل ما أشار إليه وهو محتاج إليه لأنه كثيراً ما يستشكل الجمع بين الأحاديث والله أعلم. [صديق حسن (١/ ٧٨)].

رَزَقْنَاهُمْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾^(٣) فِي طَاعَةِ اللَّهِ^(١). ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أَي: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، وَغَيْرِهِمَا ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٤) يَعْلَمُونَ^(٥). ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ^(٦) ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٧) الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ النَّاجُونَ مِنَ النَّارِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَأَبْي جَهْلٍ، وَأَبْي لَهَبٍ، وَنَحْوَهُمَا^(٨) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَتَيْنِ، وَإِنْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا، وَتَسْهِيلِهَا، وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ، وَالْأُخْرَى وَتَرْكِه ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٩) لِعِلْمِ اللَّهِ مِنْهُمْ ذَلِكَ، فَلَا تَطْمَعُ فِي إِيْمَانِهِمْ، وَالْإِنْدَارُ: إِعْلَامٌ مَعَ تَخْوِيفٍ. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ طَبَعَ عَلَيْهَا وَاسْتَوَثَقَ فَلَا يَدْخُلُهَا خَيْرٌ ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ أَي: مَوَاضِعِهِ، فَلَا يَتَنَفَّعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنَ الْحَقِّ^(١٠) ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ﴾ غِطَاءٌ فَلَا يُبْصِرُونَ الْحَقَّ

(١) عبر في هذه الآية الكريمة بـ «من» التبعية الدالة على أنه ينفق لوجه الله بعض ماله لا كله. ولم يبين هنا القدر الذي ينبغي إنفاقه، والذي ينبغي إمساكه. ولكنه بين في مواضع أخر أن القدر الذي ينبغي إنفاقه: هو الزائد على الحاجة وسد الخلة التي لا بد منها، وذلك كقوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والمراد بالعفو: الزائد على قدر الحاجة التي لا بد منها على أصح التفسيرات، وهو مذهب الجمهور. [الشنقيطي (١/٥٦)].

(٢) المراد بذلك البعث بعد الموت، وما يتبعه مما يكون يوم القيامة من الثواب، والعقاب، وغيرهما؛ وإنما نص على الإيقان بالآخرة مع دخوله في الإيمان بالغيب لأهميته؛ لأن الإيمان بها يحمل على فعل المأمور، وترك المحذور؛ و «الإيقان» هو الإيمان الذي لا يتطرق إليه شك. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/٣١)].

(٣) اختلف المتأولون فيمن المراد بهذه الآية، وبالتالي قبلها، فقال قوم: الآيتان جميعاً في جميع المؤمنين، وقال آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب، وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني العرب، والثانية في مؤمني أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وفيه نزلة. [ابن عطية (١/٨٦)].

(٤) الكفر بالضم إخفاء النعمة، وبالفتح: الستر مطلقاً وهو مشتق من كفر إذا ستر. ولما كان إنكار الخالق أو إنكار كماله أو إنكار ما جاءت به رسله ضرباً من كفران نعمته على جاحدها، أطلق عليه اسم الكفر وغلب استعماله في هذا المعنى. [ابن عاشور (١/٢٤٨)]. والكفر في الاصطلاح الشرعي هو: عدم الإيمان بالله ورسله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن الإيمان حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، فالكفر صفة لكل من جحد شيئاً مما افترض الله الإيمان به، بعد أن بلغه ذلك سواء جحد بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان. [انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٢/٣٣٥)، والإحكام في أصول الأحكام لابن حزم: (١/٤٥)].

(٥) وإنما وحد السمع مع جمع القلوب كما تقدم والابصار كما سيأتي لأنه مصدر يقع على القليل والكثير، أو لوحدة المسموع وهو الصوت، وإنما خص هذه الأعضاء بالذكر لأنها طرق العلم، فالقلب محله وطريقه إما السماع وإما الرؤية. [صديق حسن (١/٨٩)].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾ قَوِيٌّ دَائِمٌ. وَنَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ^(١): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ أَئِىَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّهُ آخِرُ الْأَيَّامِ ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٨﴾ رُوِيَ فِيهِ مَعْنَى ﴿مَنْ﴾، وَفِي ضَمِيرِ ﴿يَقُولُ﴾ لَفْظُهَا. ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِإِظْهَارِ خِلَافٍ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامَهُ الدُّنْيَوِيَّةَ ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ وَبَالَ خِدَاعِهِمْ رَاجِعٌ إِلَيْهِمْ، فَيَمْتَصِّحُونَ فِي الدُّنْيَا بِإِطْلَاعِ اللَّهِ نَبِيِّهِ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ، وَيُعَاقِبُونَ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ٩﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ خِدَاعَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُخَادَعَةُ هُنَا مِنْ وَاحِدٍ كَ «عَاقَبْتُ اللَّصَّ»، وَذَكَرَ اللَّهُ فِيهَا تَحْسِينَ^(٢)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَمَا يُخَدِّعُونَ﴾. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ، فَهُوَ يُمَرِّضُ قُلُوبَهُمْ، أَيْ: يُضْعِفُهَا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ لِكُفْرِهِمْ بِهِ^(٣) ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلَمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠﴾ بِالتَّشْدِيدِ، أَيْ: نَبِيِّ اللَّهِ، وَبِالتَّخْفِيفِ أَيْ: قَوْلِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا﴾. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ: لَهُؤَلَاءِ ﴿لَا

(١) النفاق مشتق من نفاقاء اليربوع، لأن اليربوع له جحران: أحدهما يقال له النفاقاء، والثاني القاصعاء. فالنفاقاء موضع يرققه بحيث إذا ضرب رأسه عليه ينشق، وهو يكتمه ويظهر غيره فإذا جاءه من قبل القاصعاء الظاهرة ضرب النفاقاء برأسه ثم خرج، فهو يظهر القاصعاء ويخفي النفاقاء [لسان العرب (١٠/٣٥٩)]. فكلمة النفاق تدل على إظهار الإنسان خلاف ما يبطن فيتضمن الدخول في الإسلام ظاهراً وهو لا يؤمن به باطناً، ولذلك يقول الإمام البغوي رحمه الله تعالى: سمي المنافق منافقاً لأنه يستتر كفره، ويغيبه، فشبّه بالذي يدخل النفق، وهو السرب فيستتر به. [شرح السنة للبغوي (١/٧١)]. وذكر الله طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين، والكفار، والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية، لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه، وإلى نصرته وموالاته، وهم أعداؤه في الحقيقة، يخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد. [مدارج السالكين لابن القيم (١/٥٣٥)].

(٢) بل ذلك من «التفاعل» الذي لا يكون إلا من اثنين، كسائر ما يُعرف من معنى «يفاعل ومُفاعِل» في كل كلام العرب. وذلك: أن المنافق يُخادع الله جل ثناؤه بكذبه بلسانه... والله تبارك اسمه خادِعُهُ، بخذلانه عن حسن البصيرة بما فيه نجاة نفسه في آجل مَعَادِهِ، كالذي أخبر في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لَّا أَنْفُسَهُمْ إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وبالمعنى الذي أخبر أنه فاعلٌ به في الآخرة بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. [الطبري (١/٢٨٢)].

(٣) قيل: هو دعاء عليهم... وعلى هذا يكون في الآية دليل على جواز الدعاء على المنافقين، وقيل: هو إخبار من الله تعالى عن زيادة مرضهم، أي: فزادهم الله مرضاً إلى مرضهم، كما قال في آية أخرى: ﴿فَزَادْنَاهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. أي: وكلهم إلى أنفسهم، وجمع عليهم هموم الدنيا فلم يتفرغوا من ذلك إلى اهتمام بالدين. [القرطبي (١/١٩٧)].

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بِالْكَفْرِ وَالْتَّعْوِيقِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ١١ ﴿وَلَيْسَ مَا نَحْنُ فِيهِ بِفَسَادٍ﴾ ١٢ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَا لِلنَّبِيِّ إِنْهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٣ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ ١٤ أَي: أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَالُوا أَنْوْمُنْ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ ١٥ الْجُهَالُ؟ أَي: لَا نَفْعَلُ كَفَعْلِهِمْ، قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٦ ذَلِكَ ١٧. ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ ١٨ أَصْلُهُ: «لَقِيُوا»، حُذِفَتْ الزَّيْمَةُ لِلِاسْتِثْقَالِ، ثُمَّ الْيَاءُ لِاتِّقَائِهَا سَاكِنَةً مَعَ الْوَاوِ ﴿الَّذِينَ ءَامِنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا مِنْهُمْ وَرَجَعُوا﴾ ١٩ إِلَى شَيْطَانِهِمْ ﴿رُؤَسَائِهِمْ﴾ ٢٠ ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ ٢١ فِي الدِّينِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ ٢٢ بِهِمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ. ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ ٢٣ يُجَارِيزُهُمْ بِاسْتَهْزَائِهِمْ ٢٤ ﴿وَيَمْدُهُمْ﴾ ٢٥ يُمْلِئُهُمْ ٢٦ ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ٢٧ بِتَجَاوُزِهِمْ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ٢٨ يَتَرَدَّدُونَ تَحِيرًا، حَالٌ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهَدْيِ﴾ ٢٩ أَي: اسْتَبَدَّلُوا بِهَا بِهٖ ﴿فَمَا رَبِحَتْ تَجَارَتُهُمْ﴾ ٣٠

(١) فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعوا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جنائية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه. [السعدي (ص: ٤٢)].

(٢) أي: قالوا: أنكون كالذين خفت عقولهم؟ و«السفه»: الرقة الداعية إلى الخفة، يقال: «ثوب سفیه» إذا كان رقيقا لهلhel النسج. وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاء، فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم السفهاء للرين الذي على قلوبهم. [ابن عطية (١/ ٩٤)].

(٣) تعدي «خلا» بـ «إلى» ضَمَّنْ معنى: «مشوا وذهبوا، أو ركنوا»، وقيل: إلى بمعنى: «مع»، أو بمعنى: «الباء». [ابن جزي (١/ ٧٢)].

(٤) الشيطان: المتمرد العاتي من الجن والإنس ومن كل شيء. وأصله البعد، يقال بثر شطون، أي: بعيدة العمق. سمي الشيطان شيطانا لامتداده في الشر وبعده من الخير. وقال مجاهد: إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. [البغوي (١/ ٦٨)].

(٥) من عصمة دمائهم وأمواهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة، يعني من العذاب والنكال؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك. [ابن كثير (١/ ١٨٤)]. وقد قيل: إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاءً وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ ٣١، وقيل وهو أصوب: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشر إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه. وحسن، وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يُحمد عليه عدلاً منه وحكمة. [إعلام الموقعين لابن القيم (٣- ٢٠٥)].

(٦) أي: يتركهم ويمهلهم وبطيل لهم المدة، كما قال ﴿إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ ٣٢ [آل عمران: ١٧٨]، والمد: الزيادة، قال يونس بن حبيب: يقال أمد في الشر وأمد في الخير. [صديق حسن (١/ ٩٦)].

أَيُّ: مَا رِيحُوا فِيهَا بَلْ خَسِرُوا لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١٦) ﴿فِيمَا فَعَلُوا﴾ (١٧) ﴿مَثَلُهُمْ﴾ صِفَتُهُمْ فِي نِفَاقِهِمْ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ أَوْقَدَ ﴿نَارًا﴾ فِي ظُلْمَةٍ ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ أَنْارَتْ ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ فَأَبْصَرَ وَاسْتَدْفَأَ وَأَمِنَ مِمَّنْ يَخَافُهُ ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أَطْفَأَهُ، وَجُمَعَ الضَّمِيرُ مُرَاعَاةً لِمَعْنَى: ﴿الَّذِي﴾ (١٨) ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩) ﴿مَا حَوْلَهُمْ﴾، مُتَحَرِّينَ عَنِ الطَّرِيقِ خَائِفِينَ، فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ أَمِنُوا بِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ، فَإِذَا مَاتُوا جَاءَهُمُ الْخَوْفُ وَالْعَذَابُ. ﴿صُمُّ﴾ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿بُكْمٌ﴾ خُرُسٌ عَنِ الْخَيْرِ فَلَا يَقُولُونَهُ ﴿عُمًى﴾ عَنِ طَرِيقِ الْهُدَى فَلَا يَرَوْنَهُ ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (٢٠) عَنِ الضَّلَالَةِ (٢١). ﴿أَوْ﴾ مَثَلُهُمْ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ أَيُّ: كَأَصْحَابِ مَطَرٍ، وَأَصْلُهُ «صَيُوبٌ» مِنْ: صَابَ يَصُوبُ، أَيُّ: يَنْزِلُ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ السَّحَابِ ﴿فِيهِ﴾ أَيُّ: السَّحَابِ ﴿ظُلُمَتْ﴾ بِتَكَاثُفِهِ ﴿وَرَعْدٌ﴾ هُوَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ، وَقِيلَ: صَوْتُهُ ﴿وَبَرْقٌ﴾ لِمَعَانٍ سَوَطِهِ الَّذِي يَزْجُرُهُ بِهِ (٢٢)

(١) أي: رغبوا في الضلالة، رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان النفيسة. وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة، التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبئس التجارة، وبئس الصفقة صفقتهم. [السعدي (ص: ٤٣)].

(٢) المثل: قول يشبه قولاً آخر بينهما مشابة ليبين أحدهما الآخر ويصوره. ولهذا ضرب الله الأمثال في كتابه. وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان، لأنه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، ولأن المثل تشبيه الشيء الخفي بالجلي فيتأكد الوقوف على ماهيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه. [صديق حسن (١/ ٩٧)].

(٣) ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بنارهم لتطابق أول الآية؛ فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو النور وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النار. وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل: بضوئهم مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾؛ لأن الضوء هو زيادة في النور، ولو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان النور أصل الضوء كان الذهاب به ذهاباً بالشيء وزيادته، وأيضاً فإنه أبلغ في النفي عنهم وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، وأيضاً: فإن الله سبحانه وتعالى سمى كتابه نورا، ورسوله ﷺ نورا، ودينه نورا، وهده نورا، ومن أسمائه النور، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله. [اجتماع الحيوش الإسلامية لابن القيم ص: ٤١].

(٤) لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم. [السعدي (ص: ٤٤)].

(٥) أخرج أحمد (٢٤٨٣)، والترمذي (٣١١٧) وصححه، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالت: أخبرنا ما هذا

﴿يَجْعَلُونَ﴾ أَي: أَصْحَابُ الصَّيْبِ ﴿أَصْبِعُهُمْ﴾ أَي: أَنَامِلُهُمْ^(١) ﴿فِي آذَانِهِمْ مِّنْ﴾ أَجَلٍ ﴿الصَّوَاعِقِ﴾ شِدَّةِ صَوْتِ الرَّعْدِ لئَلَّا يَسْمَعُوهَا ﴿حَذَرَ﴾ خَوْفَ ﴿الْمَوْتِ﴾ مِّنْ سَمَاعِهَا، كَذَلِكَ هُوَ لَا، إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ وَفِيهِ ذِكْرُ الْكُفْرِ الْمُسَبِّهِ بِالظُّلُمَاتِ، وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ الْمُسَبِّهِ بِالرَّعْدِ، وَالْحُجَجِ الْبَيِّنَةِ الْمُسَبِّهِةِ بِالْبَرْقِ، يَسُدُّونَ آذَانَهُمْ لئَلَّا يَسْمَعُوهُ فَيَمِيلُوا إِلَى الْإِيمَانِ وَتَرَكَ دِينَهُمْ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ مَوْتُ^(٢) ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً فَلَا يَفُوتُونَهُ^(٣). ﴿يَكَادُ﴾ يَتَقَرَّبُ ﴿الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ يَأْخُذُهَا بِسُرْعَةٍ ﴿كُلَّمَا أَصَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ﴾ أَي: فِي صَوْتِهِ ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ وَفَقُوا، تَمَثِيلٌ لِإِزْعَاجِ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُجَجِ قُلُوبُهُمْ وَتَصْدِيقِهِمْ بِمَا سَمِعُوا فِيهِ مِمَّا يُحِبُّونَ، وَوُقُوفِهِمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ^(٤) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بِمَعْنَى أَسْمَاعِهِمْ ﴿وَأَبْصَرِهِمْ﴾ الظَّاهِرَةَ كَمَا ذَهَبَ بِالْبَاطِنَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ

الرعد؟ قال: «مَلَكٌ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، بِيَدِهِ مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ يَرْجُرُ بِهِ السَّحَابَ، يُسَوِّقُهُ حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ»، قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع، قال: «صَوْتُهُ»، قالوا: صدقت... وقد روى عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك كقول من يقول أنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك، فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدا وكذلك الراعد يسمى رعدا كما يسمى العادل عدلا، والحركة توجب الصوت، والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان، وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة، وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحا للرب وأمرامه معروف وناهيا عن منكر، فالرعد يزجر السحاب وكذلك البرق، قد قيل لمعان الماء أو لمعان النار، وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافي أن يكون اللامع مخراقا بيد الملك، فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجي المطر، والملك يزجي السحاب كما يزجي السائق للمطي. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٤/٢٦٣)].

(١) ذكر الأصابع أبلغ لأنها أعظم من الأنامل، ولذلك جمعها مع أن الذي يجعل في الآذان السبابة خاصة. [ابن جرير (١/٧٣)].

(٢) وقد أوضح ﷺ هذا المثل المشار إليه في الآيتين في حديث أبي موسى رضي الله عنه المتفق عليه، حيث قال ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقَهُ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلِمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢). [الشنقيطي (١/٦٠)].

(٣) أي: مهلكهم، ويشهد لهذا القول، قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: تهلكوا عن آخركم. [الشنقيطي (١/٦٣)].

(٤) هذا المثل ينطبق على قوم منافقين لم يؤمنوا إطلاقا، وهم منافقون اليهود؛ لأن المنافقين منهم عرب من الخزرج والأوس، ومنهم يهود من بني إسرائيل، اليهود لم يذوقوا طعم الإسلام أبدا، لأنهم كفار من الأصل، لكن أظهروا الإسلام خوفا من النبي ﷺ بعد أن أعزه الله في بدر، هؤلاء ليسوا على هدى كالأولين، الأولين استوقدوا النار، وصار عندهم شيء من النور بهذه النار، ثم والعياذ بالله اتكسوا، لكن هؤلاء من

(٦) المثل في الآية لرد دعاوي المكذبين في اختلاف دعاويهم، فإن منهم من قال: القرآن كلام بشر. ومنهم من قال: هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال: إنما يعلمه بشر. وهاته الوجوه في معنى الآية تفند جميع الدعاوي، فإن كان كلام بشر فأتوا بمماثله أو بمثله، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يعلمه بشر فأتوا أنتم من عنده بسورة فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه.

ثَلَاثُ آيَاتٍ^(١) ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ أَلْهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: مَنْ غَيْرِهِ لِيُعِينَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ فِي أَنْ مُحَمَّدًا قَالَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ، فَافْعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ عَرِيثُونَ فَصَحَاءُ مِثْلُهُ. وَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا ذَكَرَ لِعَجْزِكُمْ ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذَلِكَ أَبَدًا لِيُظْهِرَ إِعْجَازَهُ، اعْتِرَاضٌ^(٢) ﴿فَاتَّقُوا﴾ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ الْبَشَرِ ﴿الَّتِي تَقُودُهَا النَّاسُ﴾ الْكُفَّارُ ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ كَأَصْنَافِهِمْ مِنْهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا مُفْرِطَةٌ الْحَرَارَةِ تَتَقَدُّ بِمَا ذُكِرَ، لَا كَنَارِ الدُّنْيَا تَتَقَدُّ بِالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ﴿أُعِدَّتْ﴾ هِيَئَتْ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ يُعَذِّبُونَ بِهَا^(٣)، جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَوْ حَالٌ لَازِمَةٌ. ﴿وَبَشِّرِ﴾ أَخْبِرِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صَدَّقُوا بِاللَّهِ^(٤) ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ^(٥) ﴿أَنَّ﴾ أَي: بِأَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ حَدَائِقَ ذَاتِ أَشْجَارٍ وَمَسَاكِينِ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَي: تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَقُصُورِهَا ﴿الْأَنْهَارُ﴾ أَي: الْمِيَاهُ فِيهَا، وَالنَّهْرُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ؛ لِأَنَّ الْمَاءَ يَنْهَرُهُ، أَي: يَخْفِرُهُ، وَإِسْنَادُ الْجَرِيِّ إِلَيْهِ مَجَازٌ ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ أُطْعِمُوا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أَي: مِثْلُ مَا ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَهُ فِي الْجَنَّةِ، لِتَشَابُهِ ثَمَارِهَا، بِقَرِينَةٍ: ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ أَي: جِئُوا بِالرِّزْقِ ﴿مُتَشَبِهًا﴾ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَوْنًا وَيَخْتَلِفُ طَعْمًا^(٦) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ مِنَ الْحُورِ وَغَيْرِهَا ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْحَيْضِ وَكُلِّ قَذَرٍ ﴿وَهُمْ

وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة وتسجيل للإعجاز عند عدمها. [ابن عاشور (١/٣٣٨)].

(١) السورة الطائفة من القرآن المسماة باسم خاص سميت بذلك لأنها مشتملة على كلماتها كاشتغال سور البلدة عليها، وأقل ما تتألف منه السورة ثلاث آيات. [صديق حسن (١/١٠٦)].

(٢) لنفي التأييد، أي: ولن تفعلوا ذلك أبدا. وهذه أيضا معجزة أخرى، وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبدا وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأنى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء؟ وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين؟! [ابن كثير (١/١٩٩)].

(٣) في قوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافا للمعتزلة، وفيها أيضا، أن الموحدين وإن ارتكبوا بعض الكبائر لا يخلدون في النار. [السعدي ص: ٤٥].

(٤) أي: الذين آمنوا بالله وبمحمد ﷺ وبما جاء به من عنده، وصدقوا بإيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة. [الطبري (١/٤٠٦)].

(٥) لما ذكر تعالى جزاء الكافرين عقبه بجزاء المؤمنين ليجمع بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد كما هي عادته سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. [صديق حسن].

(٦) قيل: متشابهة في الاسم، مختلف الطعوم، وقيل: متشابهة في اللون، مختلفا في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضا، في الحسن، واللذة، والفكاهة، ولعل هذا الصحيح. [السعدي (ص: ٤٦)].

فِيهَا خَلِيدُونَ ﴿٢٥﴾ مَا كُنُونَ أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ، وَلَا يَخْرُجُونَ^(١). وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْيَهُودِ لَمَّا ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ بِالذَّبَابِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذَّبَابُ شَيْئًا﴾ [الحج: ٧٣]، وَالْعَنْكَبُوتِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، مَا أَرَادَ اللَّهُ بِذِكْرِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْخَسِيسَةِ؟ فَانْزَلَ اللَّهُ: ﴿*إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ*﴾ يَجْعَلُ^(٢) ﴿مَثَلًا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿مَا﴾ نَكْرَةٌ مَوْصُوفَةٌ بِمَا بَعْدَهَا، مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيُّ: أَيُّ مَثَلٍ كَانَ، أَوْ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْخِسَّةِ، فَمَا بَعْدَهَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي ﴿بَعُوضَةً﴾ مَفْرُودُ الْبَعُوضِ، وَهُوَ صِغَارُ الْبَقِّ ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ أَيُّ: أَكْبَرُ مِنْهَا^(٣). أَيُّ: لَا يَتْرُكُ بَيَانَهُ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَيُّ: الْمَثَلُ ﴿الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الْوَاقِعُ مَوْقَعُهُ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ تَمَيِّزٌ، أَيُّ: بِهَذَا الْمَثَلِ، وَ﴿مَا﴾ اسْتِفْهَامُ انْكَارٍ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿ذَا﴾ بِمَعْنَى: «الَّذِي» بِصِلَتِهِ خَبَرُهُ، أَيُّ: أَيُّ فَائِدَةٍ فِيهِ؟ قَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ: ﴿يُضِلُّ بِهِ﴾ أَيُّ: بِهَذَا الْمَثَلِ ﴿كَثِيرًا﴾ عَنِ الْحَقِّ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِتَصْدِيقِهِمْ بِهِ ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٤) الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ. ﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ ﴿يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ مَا عَهْدُهُ إِلَيْهِمْ فِي الْكُتُبِ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ^(٥) ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾

(١) كما جاء في الحديث: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَمْرُضُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَأَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا». أخرجه مسلم (٢٨٣٧).

(٢) أي: يذكر مثلاً ما. يقال ضرب مثلاً، ذكره، فيتعدى لمفعول واحد. أو صير، فلمفعولين. [القاسمي (١/ ٢٧٨)]. وفي هذه الآية الكريمة: إثبات صفة الحياء لله سبحانه وتعالى، وقد جاء في السنة إثبات الحياء صريحاً في قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَيٌّ كَرِيمٌ». أخرجه أبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥). [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٩٨)]. ولكن كما هي القاعدة عندنا أن كل صفة أثبتها الله لنفسه فهي مفارقة لصفات المخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(٣) وقيل: فما دونها في الصغر، والحقارة، كما إذا وصف رجل باللؤم والشح، فيقول السامع: نعم، وهو فوق ذلك، يعني فيما وصفت. [ابن كثير (١/ ٢٠٧)].

(٤) العهد قيل: هو الذي أخذه الله على بني آدم حين استخرجهم من ظهره. وقيل: هو وصية الله تعالى إلى خلقه، وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه على السنة رسله، ونقضهم ذلك ترك العمل به. وقيل: بل نصب الأدلة على وحدانيته بالسموات والأرض وسائر الصنعة هو بمنزلة العهد، ونقضهم ترك النظر في ذلك. وقيل: هو ما عهده إلى من أوتي الكتاب أن يبينوا نبوة محمد ﷺ ولا يكتنوا أمره. فالآية على هذا في أهل الكتاب. قال أبو إسحاق الزجاج: عهده عز وجل ما أخذه على النبين ومن اتبعهم ألا يكفروا بالنبي ﷺ. ودليل ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ [آل عمران: ٨١] أي عهدي. قلت: وظاهر ما قبل وما بعد يدل على أنها في الكفار. فهذه خمسة أقوال، والقول الثاني يجمعها. [القرطبي (١/ ٢٤٦)].

تَوَكِّدُهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَالرَّحِمِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ﴿أَنْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿بِهِ﴾ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْمَعَاصِي وَالتَّعْوِيقِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿هُمْ﴾ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴿لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِاللَّهِ وَ﴾ قَدْ ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نُطْفًا فِي الْأَصْلَابِ ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فِي الْأَرْحَامِ وَالْدُّنْيَا بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيكُمْ، وَالْإِسْتِنْفَاحِ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ كُفْرِهِمْ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ، أَوْ لِلتَّوْبِيخِ ﴿ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ تُرْجُونَ بَعْدَ الْبَعْثِ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. وَقَالَ دَلِيلًا عَلَى الْبَعْثِ لَمَّا أَنْكَرُوهُ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ: الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا ﴿جَمِيعًا﴾ لِيَتَنَفَّعُوا بِهِ وَتَعْتَبِرُوا ﴿ثُمَّ أُسْتَوَى﴾ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ، أَيِ: قَصْدًا^(١) ﴿إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهَا﴾ الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الْجُمْلَةِ الْآيِلَةِ إِلَيْهِ، أَيِ: صَيَّرَهَا، كَمَا فِي آيَةِ أُخْرَى: ﴿فَقَضَّيْنَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٩﴾ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى خَلْقِ ذَلِكَ إِبْتِدَاءً - وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْكُمْ - قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِكُمْ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يَخْلُفُنِي فِي تَنْفِذِ أَحْكَامِي فِيهَا وَهُوَ آدَمُ^(٢) ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ يُرِيقُهَا بِالْقَتْلِ، كَمَا فَعَلَ بَنُو الْجَانِّ وَكَانُوا فِيهَا، فَلَمَّا أَفْسَدُوا أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ، فَطَرَدُوهُمْ إِلَى الْجَزَائِرِ وَالْجِبَالِ^(٣) ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أَيِ نَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ نُزَّهَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ، فَالْأَلَامُ زَائِدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ، أَيِ: فَنَحْنُ أَحَقُّ بِالِاسْتِخْلَافِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ مِنَ الْمَصْلَحَةِ فِي اسْتِخْلَافِ آدَمَ وَأَنَّ دُرِّيَّتَهُ فِيهِمُ الْمُطِيعُ وَالْعَاصِي، فَيُظْهَرُ الْعَدْلُ بَيْنَهُمْ. فَقَالُوا: لَنْ يَخْلُقَ رَبُّنَا خَلْقًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ؛ لِسَبْقِنَا لَهُ، وَرُؤْيَيْنَا مَا لَمْ يَرَهُ. فَخَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ مِنْ أَدِيمِ

(١) الاستواء هاهنا تضمن معنى القصد والإقبال؛ لأنه عدي بـ(إلى). [ابن كثير (١/٢١٣)].

(٢) وقيل: قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خُلَافَ الْأَرْضِ﴾ وليس المراد هاهنا بالخليفة آدم، عليه السلام فقط، كما يقوله طائفة من المفسرين. [ابن كثير (١/٢١٦)].

(٣) فإن قلت: من أين عرف الملائكة ذلك حتى تعجبوا منه، وإنما هو غيب؟ أجيب: بأنهم عرفوه: إما بعلم خاص، أو بما فهموه من الطبيعة البشرية. فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف: ﴿مِنْ صَلَصلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، أو فهموا من «الخليفة» أنه الذي يفصل بين الناس، ما يقع بينهم من المظالم، ويردعهم عن المحارم والمآثم. قال العلامة برهان الدين البقاعي في تفسيره: وما يقال من أنه كان قبل آدم عليه السلام في الأرض خلق يعصون، قاس عليهم الملائكة حال آدم عليه السلام كلام لا أصل له. بل آدم أول ساكنيها بنفسه. [القاسمي (١/٢٨٥)].

الْأَرْضِ، أَي: وَجْهَهَا، بِأَنْ قَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً مِنْ جَمِيعِ أَلْوَانِهَا، وَعُجِنَتْ بِالْمِيَاهِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَسَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ فَصَارَ حَيَوَانًا حَسَّاسًا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمَادًا. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ أَي: أَسْمَاءَ الْمُسَمَّيَاتِ ﴿كُلَّهَا﴾ حَتَّى الْقُصْعَةَ وَالْقُصَيْعَةَ، وَالْفُسُوءَةَ وَالْفُسَيْيَةَ، بِأَنْ أَلْقَى فِي قَلْبِهِ عِلْمَهَا ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ﴾ لَهُمْ تَبَكُّيتًا: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ﴾ الْمُسَمَّيَاتِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٣١) فِي أَنِّي لَا أَخْلُقُ أَعْلَمَ مِنْكُمْ، أَوْ أَنْتُمْ أَحَقُّ بِالْخِلَافَةِ^(١)، وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلٌّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ. ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ﴾ تَزْيِيرًا لَكَ عَنِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْكَ ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إِيَّاهُ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْكَافِ ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٣٢) الَّذِي لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿يَتَّذَرُ أَنْبِئُهُمْ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أَي: الْمُسَمَّيَاتِ، فَسَمَّى كُلَّ شَيْءٍ بِاسْمِهِ، وَذَكَرَ حِكْمَتَهُ الَّتِي خُلِقَ لَهَا ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ مُوبَخًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ مَا تُظْهِرُونَ مِنْ قَوْلِكُمْ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٣٣) تُسَرُّونَ مِنْ قَوْلِكُمْ: لَنْ يَخْلُقَ أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنَّا وَلَا أَعْلَمَ^(٢). ﴿وَأُذْكَرُ﴾ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ^(٣) ﴿أَبَى﴾ امْتَنَعَ عَنِ السُّجُودِ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ﴾ تَكَبَّرَ عَنْهُ، وَقَالَ: أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٤) فِي عِلْمِ اللَّهِ. ﴿وَقُلْنَا يَتَّذَرُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلزَّمِيرِ الْمُسْتَرِ، لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ ﴿وَزَوْجُكَ﴾ حَوَاءُ بِالْمَدِّ، وَكَانَ خَلَقَهَا مِنْ ضِلَعِهِ الْأَيْسَرِ^(٤) ﴿الْحَتَّةَ وَكُلًّا مِنْهَا﴾ أَكَلًا ﴿رَغَدًا﴾ وَاسْعًا لَا حَجَرَ فِيهِ ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَهِيَ: الْحِنْطَةُ، أَوْ الْكَرْمُ،

(١) قول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله، ولا على وجه الحسد لبني آدم، كما قد يتوهمه بعض المفسرين، ... وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك، يقولون: ياربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء. [ابن كثير (١/٢١٦)].

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) استثناء متصل عند من قال: إنه كان ملكًا. ومنقطع عند من قال: كان من الجن. [ابن جزي (١/٧٩)]. قال الحسن: كان من الجن لقوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، ولأنه خُلِقَ مِنَ النَّارِ، والملائكة خُلِقُوا مِنَ النُّورِ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة. [انظر السمعاني (١/٦٧)].

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبَتْ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسَرُهَا طَلَاقُهَا». أخرجه مسلم (١٤٦٨).

أَوْ غَيْرَهُمَا^(١) ﴿فَتَكُونَا﴾ فَفَصِّرَا ﴿مَنْ الظَّالِمِينَ﴾^(٢٥) الْعَاصِينَ. ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ إِبْلِيسُ أَذْهَبَهُمَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ نَحَاهُمَا ﴿عَنْهَا﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ^(٣)، بِأَنْ قَالَ لَهُمَا: هَلْ أَذْلَكُمَا عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ؟ وَقَاسَمَهُمَا بِاللَّهِ إِنَّهُ لَهُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ، فَأَكَلَا مِنْهَا ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ مِنَ النَّعِيمِ ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ إِلَى الْأَرْضِ، أَيِ: أَنْتُمَا بِمَا اِسْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿بَعْضُكُم﴾ بَعْضُ الذَّرِّيَّةِ ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ مِنْ ظُلْمِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مَوْضِعٌ قَرَارٍ ﴿وَمَتَّعٌ﴾ مَا تَمَتَّعُونَ بِهِ مِنْ نَبَاتِهَا ﴿إِلَى حِينٍ﴾^(٣٦) وَقَتِ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ. ﴿فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتًا﴾ أَلْهَمَهُ إِيَّاهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: يَنْصِبِ ﴿آدَمَ﴾ وَرَفَعَ ﴿كَلِمَتًا﴾ أَيِ: جَاءَهُ، وَهِيَ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ الْآيَةَ، فَدَعَا بِهَا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ﴾ عَلَى عِبَادِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾^(٣٧) بِهِمْ. ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿جَمِيعًا﴾ كَرَّرَهُ لِيُعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامٌ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كِتَابٌ وَرَسُولٌ ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ فَأَمَّنَ بِي، وَعَمِلَ بِطَاعَتِي ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣٨) فِي الْآخِرَةِ بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كُتِبْنَا ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾^(٣٩) مَا كُثُونَ أَبَدًا لَا يَفْنَوْنَ وَلَا يَخْرُجُونَ. ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَوْلَادُ يَعْقُوبَ^(٤٠) ﴿أذْكُرُوا النَّعْمَتِ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيِ: عَلَى آبَائِكُمْ مِنَ الْإِنجَاءِ مِنْ فِرْعَوْنَ، وَفَلَقِ الْبَحْرِ، وَتَطْلِيلِ الْغَمَامِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ بِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الَّذِي عَاهَدْتُهُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ^(٤١) ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الَّذِي عَاهَدْتُ إِلَيْكُمْ، مِنَ الثَّوَابِ عَلَيْهِ بِدُخُولِ

(١) ذلك مفتقر إلى نقل صحيح، واللفظ مبهم. [ابن جزي (١/ ٨٠)].

(٢) اختلفوا في الجنة التي أمر آدم بسكنائها، فقيل: إنها جنة كانت في الأرض، وقيل: هي دار الجزاء والثواب، لأنها المعهودة، وقيل: هي جنة بأرض فلسطين أو بين فارس وكرمان، خلقها الله امتحاناً لآدم، وحمل الإهباط على النقل منها إلى أرض الهند كما في قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ [البقرة: ٦١]، لما أن خلق آدم كان في الأرض بلا خلاف، ولم يذكر في هذه القصة رفعه إلى السماء ولو وقع ذلك لكان أولى بالذكر والتذكير، لما أنه من أعظم النعم، ولأنها لو كانت دار الخلد لما دخلها إبليس... وقيل الكل ممكن والأدلة العقلية متعارضة فوجب التوقف وترك القطع، قاله أبو السعود. قلت وقد استوعب الحافظ ابن القيم في كتابه حادي الأرواح دلائل الفريقين من غير تصريح برجح أحدهما القولين والله تعالى أعلم. [صديق حسن (١/ ١٣٤)].

(٣) لما قدم دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم: دعا بني إسرائيل خصوصاً وهم اليهود، وجرى الكلام معهم من هنا إلى حزب: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ فتارة دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارة بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم، وذكر العقوبات التي عاقبهم بها. [ابن جزي (١/ ٨٠)].

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٦٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ

الْجَنَّةِ ﴿وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ ٥٠ خَافُونَ فِي تَرْكِ الْوَفَاءِ بِهِ دُونَ غَيْرِي. ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ بِمُؤَافَقَتِهِ لَهُ فِي التَّوْحِيدِ وَالنَّبُوَّةِ ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ لِأَنَّ خَلْفَكُمْ تَبَعَ لَكُمْ فَإِنَّهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ تَسْتَبْدِلُوا ﴿بِأَيَّتِي﴾ الَّتِي فِي كِتَابِكُمْ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ عَوَضًا يَسِيرًا مِنَ الدُّنْيَا، أَيْ: لَا تَكْتُمُوهَا خَوْفَ فَوَاتٍ مَا تَأْخُذُونَهُ مِنْ سِفَلَتِكُمْ ٥١ ﴿وَإِنِّي فَاتَّقُونَ﴾ ٥٢ خَافُونَ فِي ذَلِكَ دُونَ غَيْرِي. ﴿وَلَا تَلْبِسُوا﴾ تَخْلُطُوا ﴿الْحَقَّ﴾ الَّذِي أُنزِلَتْ عَلَيْكُمْ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الَّذِي تُغَيِّرُونَهُ ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٥٣ أَنَّهُ الْحَقُّ. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ٥٤ صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّينَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. وَنَزَلَ فِي عُلَمَائِهِمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لِأَقْرَبَائِهِمُ الْمُسْلِمِينَ اثْبُتُوا عَلَى دِينِ مُحَمَّدٍ فَإِنَّهُ حَقٌّ ٥٥: ﴿*أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ بِالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ تَتْرَكُونَهَا فَلَا تَأْمُرُونَهَا بِهِ ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ وَفِيهَا الْوَعِيدُ عَلَى مُخَالَفَةِ الْقَوْلِ الْعَمَلِ ٥٦ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٥٧ سُوءَ فِعْلِكُمْ فَتَرْجِعُونَ؟ فَجُمْلَةُ النَّسِيَانِ مَحِلُّ الْإِسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ. ﴿وَأَسْتَعِينُوا﴾ أُطْلَبُوا الْمَعُونَةُ عَلَى أُمُورِكُمْ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ الْحَبْسِ لِلنَّفْسِ عَلَى مَا تَكْرَهُ ﴿وَالصَّلَاةَ﴾ أَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ، تَعْظِيمًا لِسَانِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «كَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ بَادَرَ إِلَى الصَّلَاةِ» ٥٨، وَقِيلَ: الْخِطَابُ لِلْيَهُودِ لَمَّا عَاقَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ الشَّرُّ وَحُبُّ الرِّيَاسَةِ، فَأَمَرُوا بِالصَّبْرِ وَهُوَ الصَّوْمُ؛ لِأَنَّهُ يَكْسِرُ الشَّهْوَةَ، وَالصَّلَاةُ؛ لِأَنَّهَا تُورِثُ الْخُشُوعَ، وَتَنْفِي الْكِبَرِ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أَيْ: الصَّلَاةُ ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾

الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ [الأعراف: ١٥٦-١٥٧].

(١) الاشتراء هنا استعارة في الاستبدال: كقوله: ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة: ١٦]، والآيات هنا هي الإيمان بمحمد ﷺ، والتمن القليل ما ينتفعون به في الدنيا من بقاء رياستهم، وأخذ الرشا على تغيير أمر محمد ﷺ، وغير ذلك، وقيل: كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنهوا عن ذلك، واحتج الحنفية بهذه الآية على منع الإجارة على تعليم القرآن. [ابن جزي (١/٨٢)].

(٢) قال قوم: جعل الركوع لما كان من أركان الصلاة عبارة عن الصلاة كلها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر؛ لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع، وقالت فرقة: إنما قال: ﴿مَعَ﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله: ﴿مَعَ﴾ بشهود الجماعة. [ابن عطية (١/١٣٦)].

(٣) [وقيل: تقرأون التوراة فيها نعتة وصفته. [البغوي (١/٨٨)].

(٤) أخرجه أبو داود (١٣١٩)، وأحمد (٢٣٢٩٩)، بلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.

ثَقِيلَةً ﴿٤٥﴾ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ السَّائِكِينَ إِلَى الطَّاعَةِ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ يَطُئُونَ ﴿٤٨﴾ أَنْهُمْ مَلَكُوا رَبَّهُمْ ﴿٤٩﴾ بِالْبَعْثِ ﴿٥٠﴾ وَأَنْهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٥١﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيَجْازِيهِمْ. ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أَي: أَبَاءَكُمْ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ عَالَمِي زَمَانِهِمْ ﴿٥٣﴾. ﴿وَاتَّقُوا﴾ خَافُوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ فِيهِ ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تُقْبَلُ﴾ بِالتَّائِبِ وَالْبَائِسِ ﴿مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ أَي: لَيْسَ لَهَا شَفَاعَةٌ فَتَقْبَلُ، ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠] ﴿وَلَا يُوْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فِدَاءٌ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أَي: أَبَاءَكُمْ، وَالْخَطَابُ بِهِ وَبِمَا بَعْدَهُ لِلْمَوْجُودِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا، بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى آبَائِهِمْ، تَذَكُّيرًا لَهُمْ بِنِعَمِ اللَّهِ لِيُؤْمِنُوا ﴿مَنْ عَالَ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذَيِّقُونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَشَدَّهُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ ﴿يُذَيِّجُونَ﴾ بَيَانٌ لِمَا قَبْلَهُ ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ لِقَوْلِ بَعْضِ الْكُهَنَةِ لَهُ: إِنْ مَوْلُودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ يَكُونُ سَبَبًا لِدَهَابِ مُلْكِكَ ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الْعَذَابِ، أَوِ الْإِنجَاءِ ﴿بَلَاءٌ﴾ إِبْتِلَاءٌ، أَوْ إِنْعَامٌ ﴿مَنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ ﴿إِذْ فَرَقْنَا﴾ فَلَقْنَا ﴿بِكُمْ﴾ بِسَبَبِكُمْ ﴿الْبَحْرَ﴾ حَتَّى دَخَلْتُمُوهُ هَارِبِينَ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ مِنَ الْغَرَقِ ﴿وَأَعْرَفْنَا عَالَ فِرْعَوْنَ﴾ قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ إِلَى انْطِبَاقِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِذْ وَعَدْنَا﴾ بِالْأَلْفِ وَدُونِهَا ﴿مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ نُعْطِيهِ عِنْدَ انْقِضَائِهَا التَّوْرَةَ لَتَعْمَلُوا بِهَا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾ الَّذِي صَاغَهُ لَكُمْ السَّامِرِيُّ إِلَهَا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَي: بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى مِيعَادِنَا ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ بِاتِّخَاذِهِ، لَوْضَعِكُمُ الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَحَلِّهَا. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ مَحَوْنَا ذُنُوبَكُمْ ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الْإِتِّخَاذِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ نِعْمَتَنَا عَلَيْكُمْ. ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ عَطْفُ

(١) أي: المخبتين، والخشوع: الإخبات ومنه الخشعة للرملة المتطامنة. والخضوع: اللين والانقياد، ولذلك يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب. [البيضاوي (١/٧٨)].

(٢) أي: سيقاؤون الله عز وجل، وذلك في يوم القيامة. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/١٦٦)]. كما قال تعالى في عموم الناس: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال النبي ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ». أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٣) فلا يتناول من مضى ولا من يوجد بعدهم، لقوله تعالى عن أمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. [صديق حسن (١/١٦١)].

تَفْسِيرٍ، أَي: الْفَارِقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ^(١) ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢) بِهِ مِنَ الضَّلَالِ. ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الَّذِينَ عَبْدُوا الْعِجْلَ ﴿يَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إِلَهَا ﴿فَتَوْبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ خَالِقِكُمْ مِنْ عِبَادَتِهِ^(٣) ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: لِيَقْتُلَ الْبَرِيءُ مِنْكُمْ الْمُجْرِمَ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْقَتْلُ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ﴾ فَوَقَّكُمْ لِفَعْلِ ذَلِكَ، وَأَرْسَلَ عَلَيْكُمْ سَحَابَةً سَوْدَاءَ، لِيَلَّا يُبْصِرَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَيَرْحَمَهُ، حَتَّى قُتِلَ مِنْكُمْ نَحْوُ سَبْعِينَ أَلْفًا ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٤) وَإِذْ قُلْتُمْ ﴿وَقَدْ خَرَجْتُمْ مَعَ مُوسَى لَتَعْتَذِرُوا إِلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَسَمِعْتُمْ كَلَامَهُ: ﴿يَمُوسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عَيَانًا ﴿فَأَخَذْتُكُمْ الصَّعِقَةَ﴾ الصَّيْحَةُ فَمُتُّمْ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(٥) ﴿مَا حَلَّ بِكُمْ﴾^(٦) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ﴾ أَحْيَيْنَاكُمْ^(٧) ﴿مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٨) نِعْمَتَنَا بِذَلِكَ. ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾ سَتَرْنَاكُمْ بِالسَّحَابِ الرَّقِيقِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فِي النَّيِّ^(٩) ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ ﴿الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ هُمَا التَّرْنَجِينُ، وَالطَّيْرُ السَّمَانِيُّ^(١٠) بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ

(١) وقيل الفرقان، أي: الحجة والبيان بالآيات التي أعطاه الله من العصا واليد وغيرهما وهذا أولى وأرجح، ويكون العطف على بابه كأنه قال: آتينا موسى التوراة والآيات التي أرسلناه بها معجزة له. [الشوكاني (١/ ١٠١)].

(٢) وإنما خص هنا اسم الباري؛ لأن فيه توبيخاً للذين عبدوا العجل كأنه يقول كيف عبدتم غير الذي برأكم. [ابن جزي (١/ ٨٤)].

(٣) وعندي أن مفعول تنظرون محذوف وأن تنظرون بمعنى تحدقون الأنظار عند رؤية السحاب على جبل الطور طمعاً أن يظهر لهم الله من خلاله لأنهم اعتادوا أن الله يكلم موسى كلاماً يسمعه من خلال السحاب كما تقوله التوراة في مواضع، ففائدة الحال إظهار أن العقوبة أصابتهم في حين الإساءة والعجرفة إذ طمعوا فيما لم يكن لينال لهم. [ابن عاشور (١/ ٥٠٨)].

(٤) البعث في كلام العرب على وجهين: أحدهما: الإرسال كقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى﴾ [الأعراف: ١٠٣]. والثاني: إثارة بارك أو قاعد، يقال: بعثت البعير عن مبركه، وبعثت النائم، ونشر الميت: بعث، لأنه كبعث النائم، وذلك إثارته عن مكانه. قال قتادة: بعثهم الله ليستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم، ولو ماتوا بآجالهم لم يبعثوا، ولكنه كان ذلك الموت عقوبة لهم على ما قالوا. وقال ابن الأنباري: كل موت حصل البعث بعده في الدنيا كهذا، وكقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣] يكون حكمه حكم النوم، ويجري مجرى موت النائم؛ لأن الله تعالى أثبت للخلق الإمامة في دار الدنيا مرة واحدة، وهو قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الجنات: ٢٦]. [الواحدي (٢/ ٥٤٣)].

(٥) عبارات المفسرين متقاربة في شرح ﴿الْمَنَّ﴾ فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر والله أعلم أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، ... ولكن ليس هو المراد من الآية وحده؛ والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «الْكَمَاءُ مِنَ الْمَنَّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». رواه البخاري. وأما ﴿السَّلْوَى﴾ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: السَّلْوَى

وَالْقَصْرِ، وَقُلْنَا: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وَلَا تَدْخِرُوا، فَكَفَرُوا النِّعْمَةَ وَادَّخَرُوا فَقُطِعَ عَنْهُمْ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بِذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ٥٧ ﴿لَأَنْ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَهُمْ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ التِّيهِ: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، أَوْ أَرِيحَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وَاسِعًا لَا حَجَرَ فِيهِ ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أَي: بَابَهَا ﴿سُجَّدًا﴾ مُنَحْنِينَ ﴿وَقُولُوا﴾: مَسْأَلَتُنَا ﴿حِطَّةً﴾، أَي: أَنْ تَحُطَّ عَنَّا خَطَايَانَا ﴿تَغْفِرْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِأَلْيَاءِ وَالتَّاءِ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ فِيهِمَا ﴿لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٨ ﴿بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا﴾. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ﴾ ٥٩ ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فِيهِ وَضَعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ مُبَالَغَةً فِي تَقْبِيحِ شَأْنِهِمْ ﴿رِجْزًا﴾ عَذَابًا طَاعُونًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ٦٠ ﴿بِسَبَبِ فَسْقِهِمْ، أَي: خُرُوجِهِمْ عَنِ الطَّاعَةِ، فَهَلَكَ مِنْهُمْ فِي سَاعَةٍ سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ أَقْلٌ. ﴿*و﴾ اذْكُرْ إِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى طَلَبَ السَّقْيَا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وَقَدْ عَطِشُوا فِي التِّيهِ ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ وَهُوَ الَّذِي فَرَبَثُوهُ خَفِيفَ مُرْبَعٍ كَرَأْسِ الرَّجُلِ، رُحَامٍ أَوْ كَذَانٍ ٦١، فَضْرَبَهُ ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ اِنْشَقَّتْ وَسَالَتْ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بِعَدَدِ الْأَسْبَاطِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ سَبْطَ مِنْهُمْ﴾ مَشْرِبُهُمْ مَوْضِعَ شُرْبِهِمْ، فَلَا يَشْرِكُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ٦٢ حَالٌ مُّوَكَّدَةٌ لِعَامِلِهَا، مِنْ «عَيْي» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ أَفْسَدَ. ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نَّصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ﴾ أَي: نَوْعٍ ﴿وَاحِدٍ﴾ وَهُوَ الْمَنُّ وَالسَّلْوَى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا شَيْئًا مِّمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿بَقْلِهَا وَقَتَائِهَا وَفُومِهَا﴾ حِنْطَتِهَا ﴿وَعَدْسِهَا وَبَصْلِهَا﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى أَحْسُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أَشْرَفُ، أَتَأْخُذُونَهُ بِدَلْهِ، وَالْهَمْزَةُ لِلانْكَارِ، فَأَبَوْا أَنْ يَرْجِعُوا، فَدَعَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْبِطُوا﴾ اِنْزِلُوا ﴿مِصْرًا﴾ مِنَ الْأَمْصَارِ ﴿فَإِنَّ لَكُمْ فِيهِ﴾ مَا سَأَلْتُمْ مِنَ النَّبَاتِ ٦٣ ﴿وَضَرَبْتُ﴾ جُعِلَتْ ﴿عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ﴾ الدُّلُّ وَالْهَوَانُ ﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ أَي: أَثَرُ الْفَقْرِ، مِنَ السُّكُونِ وَالْخِزْيِ

طائر شبيه بالسماطي، كانوا يأكلون منه. [ابن كثير (١/ ٢٧١)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، فَبَدَّلُوا وَقَالُوا: حِطَّةٌ: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ». أخرجه البخاري (٤٤٧٩).

(٢) الْحَجَرُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُعِينًا فَيَكُونُ اللَّامُ لِلْعَهْدِ وَهُوَ الَّذِي فَرَبَثُوهُ فَلَمَّا سَأَلُوهُ السَّقْيَا ضَرَبَهُ، وَيَحْتَمِلُ أَلَّا يَكُونَ مُعِينًا فَتَكُونُ لِلْجِنْسِ وَهُوَ أَظْهَرُ فِي الْمَعْجِزَةِ وَأَقْوَى لِلْحِجَّةِ. [صديق حسن (١/ ١٩٧)].

(٣) أي: هو كثير في أي بلد دخلتموه وجدتموه. [ابن كثير (١/ ٢٨٢)].

فَهِىَ لَا زِمَةَ لَهُمْ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ لُزُومَ الدَّرْهِمِ الْمَضْرُوبِ لِسَكَّتِهِ ﴿وَبَاءُوا﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ﴾ أَي: الضَّرْبُ وَالْغَضَبُ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كَزَكْرِيَّا وَيَحْيَىٰ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: ظُلْمًا ^(١) ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿يَتَجَاوَزُونَ الْحَدَّ فِي الْمَعَاصِي، وَكَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ.﴾
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ﴾ وَالَّذِينَ هَادُوا ﴿هُمُ الْيَهُودُ﴾ وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ طَائِفَةٌ مِّنَ الْيَهُودِ أَوْ النَّصَارَى ^(٢) ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا﴾ وَعَمِلَ صَالِحًا بِشَرِيعَتِهِ ^(٣) ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾
 أَي: ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿رُوِيَ فِي ضَمِيرِ ﴿آمَنَ﴾ وَ﴿عَمِلَ﴾ لَفْظُ

(١) تعظيم للشنعة والذنب الذي أتوه. فإن قيل: هذا دليل على أنه قد يصحح أن يقتلوا بالحق، ومعلوم أن الأنبياء معصومون من أن يصدر منهم ما يقتلون به. قيل له: ليس كذلك، وإنما خرج هذا مخرج الصفة لقتلهم أنه ظلم وليس بحق، فكان هذا تعظيماً للشنعة عليهم، ومعلوم أنه لا يقتل نبي بحق، ولكن يقتل على الحق، فصرح قوله: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ عن شنعة الذنب ووضوحه. فإن قيل: كيف جاز أن يخلي بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامة لهم وزيادة في منازلهم، كمثل من يقتل في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك بخذلان لهم. قال ابن عباس والحسن: لم يقتل نبي قط من الأنبياء إلا من لم يؤمر بقتال، وكل من أمر بقتال نصر. [القرطبي (١/ ٤٣٢)].

(٢) ﴿الصَّبِيَّانَ﴾ الأظهر... أن أصل كلمة الصابى أو الصابئة أو ما تفرع منها هو لفظ قديم من لغة عربية أو سامية قديمة هي لغة عرب ما بين النهرين من العراق، وفي دائرة المعارف الإسلامية: أن اسم الصابئة مأخوذ من أصل عبري هو (ص ب ع) أي: غطس، عرفت به طائفة المنديا وهي طائفة يهودية نصرانية في العراق يقومون بالتعميد كالنصارى، ويقال الصابئون بصيغة جمع صابى والصابئة على أنه وصف لمقدر، أي: الأمة الصابئة، وهم المتدينون بدين الصابئة ولا يعرف لهذا الدين إلا اسم الصابئة على تقدير مضاف، أي: دين الصابئة. وهذا الدين دين قديم ظهر في بلاد الكلدان في العراق وفي حران من بلاد الجزيرة. وكان أهل هذا الدين نبطاً في بلاد العراق فلما ظهر الفرس على إقليم العراق أزالوا مملكة الصابئين ومنعواهم من عبادة الأصنام فلم يجسروا بعد على عبادة أوثانهم. وكذلك منع الروم أهل الشام والجزيرة من الصابئين فلما تنصر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر فبطلت عبادة الأوثان منهم من ذلك الوقت وتظاهروا بالنصرانية فلما ظهر الإسلام على بلادهم اعتبروا في جملة النصارى. وجامع أصل هذا الدين هو عبادة الكواكب السيارة والقمر وبعض النجوم، ودين الصابئة كان معروفاً للعرب في الجاهلية، بسبب جوار بلاد الصابئة في العراق والشام لمنازل بعض قبائل العرب مثل ديار بكر وبلاد الأنباط المجاورة لبلاد تغلب وقضاة. ألا ترى أنه لما بعث محمد ﷺ وصفه المشركون بالصابى وربما دعوه بآبى كبشة الذي هو أحد أجداد أمانة الزهرية أم النبي ﷺ، كان أظهر عبادة الكواكب في قومه فزعوا أن النبي ورث ذلك منه وكذبوا. [ابن عاشور (١/ ٥٣٣)].

(٣) أي: شريعة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولقوله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمَةِ: يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي، إِلَّا دَخَلَ النَّارَ». أخرجه مسلم (١٥٣)، وغير أهل الكتاب من الكفار من باب أولى.

﴿مَنْ﴾، وَفِيمَا بَعْدَهُ مَعْنَاهَا. ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عَهْدَكُمْ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ ﴿وَقَدْ رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ الْجَبَلَ، إِقْتْلَعْنَاهُ مِنْ أَصْلِهِ عَلَيْكُمْ لَمَّا أَبَيْتُمْ قَبُولَهَا، وَقُلْنَا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿النَّارِ، أَوِ الْمَعَاصِي.﴾ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الْمِيثَاقِ عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ لَكُمُ بِالْتَّوْبَةِ، أَوْ تَأْخِيرِ الْعَذَابِ ﴿لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿أَهَالِكِينَ.﴾ ﴿وَلَقَدْ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿عَلِمْتُمْ﴾ عَرَفْتُمْ ﴿الَّذِينَ أَعْتَدُوا﴾ تَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ بِصَيْدِ السَّمَكِ، وَقَدْ نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ، وَهُمْ أَهْلُ آيَةٍ ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ﴿مُبْعَدِينَ، فَكَانُواهَا، وَهَلَكُوا بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾. ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أَي: تِلْكَ الْعُقُوبَةُ ﴿نَكَالًا﴾ عِبْرَةً مَانِعَةً مِنْ إِرْتِكَابِ مِثْلِ مَا عَمِلُوا ﴿لَمَّا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أَي: لِلْأَمَمِ الَّتِي فِي زَمَانِهَا أَوْ بَعْدَهَا ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿اللَّهِ، وَخُصُّوا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمْ الْمُتَفَتِحُونَ بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ.﴾ ﴿وَأَذْكُرْ﴾ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ قَتِيلٌ لَا يُدْرَى قَاتِلُهُ، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ فِدَاعَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِنَا حَيْثُ تُحْيِينَا، بِمِثْلِ ذَلِكَ؟ ﴿قَالَ أَعُودُ﴾ أَمْتَنُ ﴿بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الْمُسْتَهْزِئِينَ. فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُ عَزَمَ ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أَي: مَا سَنُهَا ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ مُسِنَّةٌ ﴿وَلَا بَكْرٌ﴾ صَغِيرَةٌ ﴿عَوَانٌ﴾ نَصَفٌ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ السِّنِينَ ﴿فَأَفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ بِهِ مِنْ ذَبْحِهَا. ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شَدِيدُ الصُّفْرِ ﴿تَسْرُ النَّظِيرِينَ﴾ إِلَيْهَا بِحُسْنِهَا، أَي: تُعْجِبُهُمْ. ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ أَسَائِمَةٌ، أَمْ عَامِلَةٌ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ أَي: جِنْسَهُ الْمَنْعُوتَ بِمَا ذُكِرَ ﴿تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ لِكَثْرَتِهِ، فَلَمْ نَهْتَدِ إِلَى الْمَقْصُودَةِ ﴿وَأَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إِلَيْهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ لَمْ يَسْتَشُوا لَمَا بَيَّنَّتْ لَهُمْ آخِرُ الْأَبْدِ». ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ غَيْرُ مُذَلَّلَةٍ بِالْعَمَلِ ﴿تَثِيرُ الْأَرْضَ﴾ تُقْلِبُهَا لِلزَّرَاعَةِ، وَالْجُمْلَةُ صِفَةُ «ذَلُولٍ» دَاخِلَةٌ فِي النَّفْيِ ﴿وَلَا تَسْقَى الْحَرْثَ﴾ الْأَرْضُ الْمُهَيَّاءُ لِلزَّرَاعَةِ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مِنَ الْعُيُوبِ وَآثَارِ الْعَمَلِ ﴿لَا شِيَةَ﴾ لَوْنٌ ﴿فِيهَا﴾ غَيْرُ لَوْنِهَا ﴿قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ نَطَقْتَ بِالْبَيَانِ

(١) في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه (٢٦٦٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ ذكرت عنده القرادة قال مسعر: وأراه قال: والخنازير من مسخ فقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقَبًا، وَقَدْ كَانَتْ الْقِرَدَةُ وَالْخَنَازِيرُ قَبْلَ ذَلِكَ».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٣٨٩ / ١)، وابن كثير (١٣٤ / ١) وعزاه لابن أبي حاتم وابن مردويه.

الْتَّامَ، فَطَلَبُوا مَا فَوَّجَدُوا عِنْدَ الْفَتَى الْبَارِّ بِأَمِّهِ، فَاشْتَرَوْهَا بِمِلْءٍ مَسْكِيهَا ذَهَبًا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ (٧١) لَغَلَاءٍ ثَمَنِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَوْ ذَبَحُوا أَيَّ بَقْرَةٍ كَانَتْ لَأَجْزَأَتْهُمْ، وَلَكِنْ شَدُّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» (١). ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارْتُمْ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّلَالِ، أَيُّ: تَخَاصُمْتُمْ وَتَدَافَعْتُمْ ﴿فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مُظْهِرٌ﴾ ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (٧٢) مِنْ أَمْرِهَا، وَهَذَا اعْتِرَاضٌ وَهُوَ أَوَّلُ الْقِصَّةِ. ﴿فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ﴾ أَيُّ: الْقَتِيلَ ﴿بِبَعْضِهَا﴾ فَضْرِبَ بِلِسَانِهَا أَوْ عَجَبَ ذَنْبِهَا (٣)، فَحَيِّي وَقَالَ: قَتَلَنِي فَلَانٌ وَفُلَانٌ لِابْنِي عَمِّهِ، وَمَاتَ فَحُرِمَا الْمِيرَاثَ وَقَتْلًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْإِحْيَاءِ ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دَلَائِلُ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٧٣) تَتَدَبَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِحْيَاءِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ نُفُوسٍ كَثِيرَةٍ، فَتُؤْمِنُونَ (٤). ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أَيُّهَا الْيَهُودُ، صَلَبَتْ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ ﴿مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ، مِنْ إِحْيَاءِ الْقَتِيلِ وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الْآيَاتِ ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فِي الْقَسْوَةِ ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ مِنْهَا ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الشَّيْنِ ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ﴾ يَنْزِلُ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى أَسْفَلٍ ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ وَقُلُوبُكُمْ لَا تَتَأَثَّرُ، وَلَا تَلِينُ وَلَا تَخْشَعُ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٧٤) وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ لَوْفَتِكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّخْتَانِيَّةِ، وَفِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ. ﴿*أَفَتَطْمَعُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ ﴿لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ طَائِفَةٌ﴾ مِنْهُمْ ﴿أَخْبَارُهُمْ﴾ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يُغَيِّرُونَهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ فَهَمُّوهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) أَنَّهُمْ مُفْتَرُونَ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، أَيُّ: لَا تَطْمَعُوا فَلَهُمْ سَابِقَةٌ بِالْكَفْرِ. ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أَيُّ: مُنَافِقُوا الْيَهُودِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بِأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ نَبِيُّ وَهُوَ الْمُبَشِّرُ بِهِ فِي كِتَابِنَا ﴿وَإِذَا خَلَا﴾ رَجَعَ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا﴾ أَيُّ: رُؤَسَاؤُهُمُ الَّذِينَ لَمْ يُنَافِقُوا لِمَنْ نَافَقَ: ﴿أَتَحِدُّونَهُمْ﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّ: عَرَّفَكُمْ فِي التَّوْرَةِ مِنْ نِعَتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾ لِيُخَاصِمُوكُمْ، وَاللَّامُ لِلصَّيْرُورَةِ ﴿بِهِ﴾ عِنْدَ رَبِّكُمْ

(١) هو تلمة للحديث السابق.

(٢) لا حاجة إلى ذلك مع ما فيه من القول بغير علم، ويكفي أن نقول أمرهم الله بأن يضربوه ببعض ضروبها فأي بعض ضربوا به فقد فعلوا ما أمروا به، وما زاد على هذا فهو من فضول العلم إذا لم يرد به برهان، وليس في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ما يدل على ذلك البعض ما هو، وذلك يقتضي التخيير. [صديق حسن (١/ ٢٠٠)].

(٣) وفي هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حينئذ، حُكي لمحمد ﷺ ليعتبر به إلى يوم القيامة، وذهب الطبري إلى أنها خطاب لمعاصري محمد ﷺ، وأنها مقطوعة من قوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾. [ابن عطية (١/ ١٦٥)].

فِي الْآخِرَةِ، وَيُقِيمُوا عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ فِي تَرْكِ اتِّبَاعِهِ مَعَ عِلْمِكُمْ بِصِدْقِهِ ﴿٧٦﴾ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَنَّهُمْ يُحَاجُّونَكُمْ إِذَا حَدَّثْتُمُوهُمْ فَتَتَّبِعُوهُمَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ أَلَا اسْتَفْهَامٌ لِلتَّقْرِيرِ وَالْوَاوُ الدَّاخِلَةُ عَلَيْهَا لِلْعَطْفِ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُظْهِرُونَ مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ، فَيَرَعَوْا عَنْ ذَلِكَ. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ ﴿أُمِّيُونَ﴾ عَوَامٌ ^(١) ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَمَانِي﴾ أَكَاذِيبَ تَلَقَّوْهَا مِنْ رُؤْسَائِهِمْ فَاَعْتَمَدُوهَا ^(٢) ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ﴾ فِي جَحْدِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ وَغَيْرِهِ مِمَّا يَخْتَلِفُونَهُ ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ﴿٧٨﴾ ظَنًّا وَلَا عِلْمَ لَهُمْ. ﴿فَوَيْلٌ﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ ^(٣) ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُتُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَيِ: مُخْتَلَفًا مِنْ عِنْدِهِمْ ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُمْ الْيَهُودُ غَيَّرُوا صِفَةَ النَّبِيِّ فِي التَّوْرَةِ آيَةَ الرَّجْمِ وَغَيْرُهُمَا، وَكَتَبُوهَا عَلَى خِلَافِ مَا أَنْزَلَ ^(٤) ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْمُخْتَلَقِ ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ مِنَ الرِّشَاءِ ^(٥). ﴿وَقَالُوا﴾ لَمَّا وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ النَّارَ ﴿لَنْ تَمْسَنَا﴾ نُصَيِّنَا ﴿النَّارُ إِلَّا آيَامًا مَعْدُودَةً﴾ قَلِيلَةً أَرْبَعِينَ، مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمْ الْعِجَلِ، ثُمَّ تَرَوُلٌ ^(٦) ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿اتَّخَذْتُمْ﴾ حَذَفَتْ مِنْهُ هَمْزَةُ الْوَصْلِ اسْتِغْنَاءً بِهَمْزَةِ الْإِسْتِفْهَامِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ مِيثَاقًا مِنْهُ بِذَلِكَ ﴿فَلَنْ يُخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ بِهِ، لَا ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَلَى﴾ تَمَسُّكُمْ وَتُخْلَدُونَ فِيهَا. ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ شَرَكًا ﴿وَأَحْطَطَ بِهِ﴾ خَطِيئَتُهُ ^(٧) بِالْأَفْرَادِ وَالْجَمْعِ، أَيِ: اسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ

(١) الأمي منسوب إلى الأمة الأمية التي هي على أصل ولادتها من أمهاتها لم تتعلم الكتابة ولا تحسن القراءة للمكتوب، ومنه حديث: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ». أخرجه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠). [الشوكاني (١/ ١٢٢)].

(٢) وقيل: الأمانى التلاوة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، أي: إذا تلى ألقى الشيطان في تلاوته، أي: لا علم لهم إلا مجرد التلاوة من دون تفهم وتدبر، وقراءة عارية عن معرفة المعنى. [صديق حسن (١/ ٢٠٧)].

(٣) الويل لفظ دال على الشر أو الهلاك ولم يسمع له فعل من لفظه... قال الفراء إن «ويل» كلمة مركبة من «وي» بمعنى الحزن ومن مجرور باللام المكسورة، فلما كثر استعمال «اللام» مع «وي» صيروهما حرفاً واحداً فاختروا ففتح اللام. وهو يستعمل دعاء وتعجبا وزجراً، مثل قولهم: لا أب لك، وثكلتك أمك. ومعنى ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُتُونَ الْكِتَابَ﴾: دعاء مستعمل في إنشاء الغضب والزجر. [ابن عاشور (١/ ٥٧٦)].

(٤) القليل فيه تأويلان: أحدهما: ليأخذوا به عرض الدنيا، لأنه قليل المدة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعُ اللَّهُ الدُّنْيَا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] وهذا قول أبي العالية. والثاني: أنه قليل لأنه حرام. [الماوردي (١/ ١٥٢)].

(٥) قيل: من الرشاء ونحوها، وقيل: من المعاصي، وكرر الويل تغليظاً عليهم وتعظيماً لفعلهم وهتكاً لأستارهم. [الشوكاني (١/ ١٢٣)].

(٦) في البخاري (٣١٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه في حديث فتح خيبر وفيه: قال ﷺ لليهود: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيراً، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي ﷺ: «أَحْسِنُوا فِيهَا، وَاللَّهِ لَا نَخْلُقُكُمْ فِيهَا أَبَدًا».

وَأَحَدَقْتُ بِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ بِأَنْ مَاتَ مُشْرِكًا ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨١) ﴿رُوعِي فِيهِ مَعْنَى
 ﴿مَنْ﴾. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٨٢) ﴿وَذَكَرْ﴾ إِذْ أَخَذْنَا
 مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ وَقُلْنَا: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ بِالْتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ، وَقُرِيَ: ﴿لَا
 تَعْبُدُوا﴾ (٨٣) ﴿و﴾ أَحْسِنُوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بَرًّا ﴿وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الْقَرَابَةِ، عَطْفٌ عَلَى الْوَالِدَيْنِ ﴿وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ﴾ قَوْلًا ﴿حَسَنًا﴾ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالصَّدَقِ فِي شَأْنِ مُحَمَّدٍ،
 وَالرَّفْقِ بِهِمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ السَّيْنِ، مَصْدَرٌ وَصِفَ بِهِ مُبَالِغَةً ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾
 فَقَبِلْتُمْ ذَلِكَ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ، فِيهِ الْفَتْاتُ عَنِ الْغَيْبَةِ، وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ
 مُّعْرِضُونَ﴾ (٨٤) عَنْهُ كَابَائِكُمْ. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وَقُلْنَا: ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ تَرْيِقُونَهَا بِقَتْلِ بَعْضِكُمْ
 بَعْضًا ﴿وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾ لَا يُخْرِجُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مِنْ دَارِهِ ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قَبِلْتُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاقَ
 ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٨٥) عَلَى أَنْفُسِكُمْ. ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ يَا ﴿هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ بِقَتْلِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴿وَتُخْرِجُونَ
 فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِّنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الظَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِهَا،
 تَتَعَاوَنُونَ ﴿عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ﴾ بِالْمَعْصِيَةِ ﴿وَالْعُدُونِ﴾ الظُّلْمِ ﴿وَإِنْ يَأْتُواكُمُ أُسْرَىٰ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أُسْرَىٰ﴾
 ﴿تَفْدُوهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تُقَدُّوهُمْ﴾ تُنْقِذُوهُمْ مِنَ الْأَسْرِ بِالْمَالِ أَوْ غَيْرِهِ، وَهُوَ مِمَّا عَاهَدَ إِلَيْهِمْ ﴿وَهُوَ﴾ أَيِ: الشَّانُ
 ﴿مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَتُخْرِجُونَ﴾ وَالْجُمْلَةُ بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، أَيِ: كَمَا حُرِّمَ تَرْكُ الْفِدَاءِ.
 وَكَانَتْ قُرَيْظَةُ حَالِفُوا الْأَوْسَ، وَالنَّضِيرُ الْخَزَرَجُ، وَكَانَ كُلُّ فَرِيقٍ يُقَاتِلُ مَعَ حَلَفَائِهِ وَيُخْرِبُ دِيَارَهُمْ وَيُخْرِجُهُمْ، فَإِذَا
 أُسِرُوا فَدَوْهُمْ. وَكَانُوا إِذَا سُئِلُوا: لِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ وَتَفْدُونَهُمْ؟ قَالُوا: أُمِرْنَا بِالْفِدَاءِ، فَيَقَالُ: فَلِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ؟ فَيَقُولُونَ حَيَاءً
 أَنْ يُسْتَدَلَّ حَلَفَاؤُنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وَهُوَ الْفِدَاءُ ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِ﴾ وَهُوَ تَرْكُ الْقَتْلِ
 وَالْإِخْرَاجِ وَالْمُظَاهَرَةِ ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ هَوَانٌ وَذُلٌّ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَقَدْ خُزُوا
 بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ، وَنَفَى النَّضِيرِ إِلَى الشَّامِ، وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا
 يَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ بِالْيَاءِ وَالْتَّاءِ. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ بِأَنْ أَثَرَوْهَا عَلَيْهَا ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ
 الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦) يُمْنَعُونَ مِنْهُ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾

(١) وهي قراءة شاذة، والغالب في قول الجلالين: «قرئ» إشارة إلى القراءة الشاذة، و«في قراءة» للسبعية.

أَيُّ: أَتَبَعْنَاهُمْ رَسُولًا فِي إِثْرِ رَسُولٍ ﴿وَعَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ، كَحَيَاءِ الْمَوْتَى وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَهِ وَالْأَبْرَصِ ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قَوَيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ مِنْ إِضَافَةِ الْمُوصُوفِ إِلَى الصِّفَةِ، أَيُّ: الرُّوحُ الْمَقْدَسَةُ جِبْرِيلُ لَطَهَارَتِهِ، يَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ، فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى﴾ تُحِبُّ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ مِنَ الْحَقِّ ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ عَنْ إِتْبَاعِهِ، جَوَابُ «كَلَّمَا» وَهُوَ مَجْلُ الْأَسْتَفْهَامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ ﴿فَفَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كَعِيسَى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ٨٧ ﴿الْمُضَارِعُ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، أَيُّ: قَتَلْتُمْ، كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى.﴾ وَقَالُوا﴾ لِلنَّبِيِّ اسْتَهِزَأَ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ جَمْعُ «أَغْلَفَ»، أَيُّ: مُغْشَاةٌ بِأَغْطِيَةٍ فَلَا تَعِي مَا تَقُولُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ لِلْإِضْرَابِ﴾ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ، وَخَذَلَهُمْ عَنِ الْقَبُولِ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿وَلَيْسَ عَدَمُ قَبُولِهِمْ لِيُخَلِّلَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴿مَا: زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ، أَيُّ: إِيْمَانُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا ٨٩﴾. ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ، وَهُوَ: الْقُرْآنُ ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِ ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يَسْتَنْصِرُونَهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ أَنْصِرْنَا عَلَيْهِمُ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوثِ آخِرِ الزَّمَانِ» ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مِنَ الْحَقِّ، وَهُوَ بَعْثُ النَّبِيِّ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حَسَدًا وَخَوْفًا عَلَى الرِّيَاسَةِ، وَجَوَابُ ﴿لَمَّا﴾ الْأُولَى دَلَّ عَلَيْهِ جَوَابُ الثَّانِيَةِ ﴿فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ٨٩ بِئْسَمَا أَشْتَرُوا﴾ بِأَعْوَا ﴿بِهِ﴾ أَنْفُسَهُمْ ﴿أَيُّ: حَظَّهَا مِنَ الثَّوَابِ، وَ«مَا» نَكْرَةٌ بِمَعْنَى: «شَيْئًا»، تَمَيِّزٌ لِفَاعِلِ «بِئْسَ»، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ أَيُّ: كُفَرُهُمْ ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَغْيًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، لِيَكْفُرُوا﴾ أَيُّ: حَسَدًا عَلَى ﴿أَنْ يُنْزَلَ اللَّهُ﴾ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الْوَحْيِ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ لِلرَّسَالَةِ ﴿مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ مِنْ اللَّهِ بِكُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ اسْتَحَقُّوه مِنْ قَبْلُ، بِتَضْيِيعِ التَّوْرَةِ وَالْكَفْرِ بِعِيسَى ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ٩٠ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ الْقُرْآنَ وَغَيْرِهِ ﴿قَالُوا نُوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: التَّوْرَةَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَكْفُرُونَ﴾ الْوَاوُ لِلْحَالِ ﴿بِمَا وَرَاءَهُ﴾ سِوَاهُ، أَوْ بَعْدَهُ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ حَالُ ﴿مُصَدِّقًا﴾ حَالُ ثَانِيَةٍ مُؤَكِّدَةٌ ﴿لِمَا مَعَهُمْ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أَيُّ: قَتَلْتُمْ ﴿أَنْبِيََاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ٩١ بِالتَّوْرَةِ، وَقَدْ نُهَيْتُمْ فِيهَا عَنْ قَتْلِهِمْ،

(١) ويجوز أن يكون «قليلا» هنا مستعملا في معنى العدم فإن القلة تستعمل في العدم في كلام العرب، ... يقولون فلان قليل الحياء وذلك إما مجاز لأن القليل شبه بالعدم، وإما كناية وهو أظهر؛ لأن الشيء إذا قل آل إلى الاضمحلال فكان الانعدام لازما عرفيا للقلة ادعائيا فتكون ما مصدرية ... قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] فالمعنى نفى التذكير. [ابن عاشور (١/ ٦٠٠)].

وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْجِدِينَ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ. ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ بِالْمُعْجَزَاتِ: كَالْعَصَا، وَالْيَدِ، وَفَلَقِ الْبَحْرِ ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْمِيقَاتِ ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ بِاتِّخَاذِهِ. ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عَلَى الْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَةِ ﴿وَقَدْ رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ الْجَبَلَ حِينَ امْتَنَعْتُمْ مِنْ قَبُولِهَا لِيَسْقُطَ عَلَيْكُمْ، وَقُلْنَا: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قَوْلَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَكَ ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أَيُّ: خَالَطَ حُبَّهُ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُخَالِطُ الشَّرَابُ ﴿بِكُفْرِهِمْ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بِسْمَا﴾ شَيْئًا ﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾ إِيْمَانُكُمْ بِالتَّوْرَةِ عِبَادَةَ الْعِجْلِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ بِهَا كَمَا زَعَمْتُمْ، أَلَمَعْنَى: لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ لَا يَأْمُرُ بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَالْمُرَادُ آبَاؤُهُمْ، أَيُّ: فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَةِ وَقَدْ كَذَّبْتُمْ مُحَمَّدًا، وَالْإِيْمَانُ بِهَا لَا يَأْمُرُ بِتَكْذِيبِهِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أَيُّ: الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً﴾ خَاصَّةً ﴿مِنَ الدُّنْيَا النَّاسِ﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ ﴿فَتَمَتَّعُوا أَلَمْ تَمُوتُوا﴾ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٠٣﴾ تَعَلَّقَ بِـ «تَمَتَّعُوا» الشَّرْطَانِ، عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ قَيْدٌ فِي الثَّانِي، أَيُّ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهَا لَكُمْ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ يُؤَثِّرُهَا وَالْمُوصِلُ إِلَيْهَا أَلَمْ تَمُوتُوا. ﴿وَلَنْ يَتَمَتَّعُوا أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ مِنْ كُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمُسْتَلَزِمِ لِكُذِّبِهِمْ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾ الْكَافِرِينَ فَيَجَازِيهِمْ. ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ لَا مَقَسَمٍ ﴿أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَحْرَصَ ﴿مِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ عَلَيْهَا، لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَصِيرَهُمُ النَّارَ دُونَ الْمُشْرِكِينَ لِانْكَارِهِمْ لَهُ ﴿يَوَدُّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ﴿لَوْ﴾: مَصْدَرِيَّةٌ بِمَعْنَى: أَنْ، وَهِيَ بِصَلَتِهَا فِي تَأْوِيلِ مَصْدَرٍ مَفْعُولٌ ﴿يَوَدُّ﴾ ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيُّ: أَحَدُهُمْ ﴿بِمُرْحَازِهِ﴾ مُبْعِدُهُ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ النَّارِ ﴿أَنْ يُعَمَّرَ﴾ فَاعِلٌ «مُرْحَازِهِ»، أَيُّ: تَعْمِيرُهُ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ فَيَجَازِيهِمْ. وَسَأَلَ ابْنُ صُورِيَا النَّبِيَّ أَوْ عَمَرَ^(١) عَمَّنْ يَأْتِي بِالْوَحْيِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ: جِبْرِيلُ، فَقَالَ: هُوَ عَدُوْنَا يَأْتِي بِالْعَذَابِ، وَلَوْ كَانَ مِيكَائِيلَ لَأَمْنًا؛ لِأَنَّهُ يَأْتِي بِالْخُصْبِ وَالسَّلَامِ. فَتَزَلَّ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ فَلَيْمَتْ غِيظًا ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ﴾ بِأَمْرِ^(٢) ﴿اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَهَدَى﴾ مِنْ

(١) أجمع أهل التأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً على اليهود. [الطبري (١/٣١١)].

(٢) المقصود: أن الله سبحانه وكل بالعالم العلوي والسفلي ملائكة، فهي تدبر أمر العالم بإذنه ومشيتته وأمره، فلهذا يضيف التدبير إلى الملائكة تارة، لكونهم هم المباشرين للتدبير، كقوله: ﴿فَالْمَدْبِرَاتُ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]. ويضيف التدبير إليه كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، فهو المدبر أمراً وإذنًا ومشيتةً، والملائكة

الضَّلَالَةَ ﴿وَبُشِّرِى﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ٩٧ ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ بِكَسْرِ الْجِيمِ فَتَحَهَا بِلاَ هَمْزٍ، وَبِهِ يَاءٌ وَدُونُهَا ﴿وَمِيكَالَ﴾ عُطِفَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ، وَفِي أُخْرَى بِلاَ يَاءٍ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ٩٨ ﴿أَوْفَعَهُ مَوْقِعَ﴾ لَهُمْ ﴿بَيَانًا لِحَالِهِمْ﴾. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَيُّ: وَاضِحَاتٍ حَالٍ، رَدًّا لِقَوْلِ ابْنِ صُورِيَّا لِلنَّبِيِّ: «مَا جِئْنَا بِشَيْءٍ» ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ ٩٩ ﴿كَفَرُوا بِهَا﴾. ﴿أَوْكَلَّمَا عَهْدُوا﴾ اللَّهُ ﴿عَهْدًا﴾ عَلَى الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ إِنْ خَرَجَ، أَوِ النَّبِيِّ أَنْ لَا يُعَاوَنُوا عَلَيْهِ الْمُشْرِكِينَ ﴿نَبَذَهُ﴾ طَرَحَهُ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ بِنَقْضِهِ، جَوَابُ ﴿كَلَّمَا﴾ وَهُوَ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿بَلْ﴾ لِلاِتِّقَالِ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ١٠٠ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: التَّوْرَةَ ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أَيُّ: لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُولِ وَغَيْرِهِ ﴿كَانَتْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٠١ ﴿مَا فِيهَا مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ حَقٌّ، أَوْ أَنَّهَا كِتَابُ اللَّهِ﴾. ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿نَبَذَ﴾ ﴿مَا تَتْلُوا﴾ أَيُّ: تَلَّتِ ﴿الشَّيَاطِينُ عَلَى﴾ عَهْدِ ﴿مُلْكٍ سُلَيْمَنَ﴾ مِنَ السَّحْرِ، وَكَانَتْ دَفْتَهُ تَحْتَ كُرْسِيِّهِ لَمَّا نَزَعَ مُلْكُهُ، أَوْ كَانَتْ تَسْتَرِيقُ السَّمْعِ وَتَضُمُّ إِلَيْهِ أَكَاذِيبَ وَتُلْقِيهِ إِلَى الْكَهَنَةِ فَيَدُونُونَهُ، وَفَشَا ذَلِكَ وَشَاعَ أَنَّ الْجِنَّ تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَجَمَعَ سُلَيْمَانُ الْكُتُبَ وَدَفَنَهَا، فَلَمَّا مَاتَ دَلَّتِ الشَّيَاطِينُ عَلَيْهَا النَّاسَ فَاسْتَخَرُجُوهَا فَوَجَدُوا فِيهَا السَّحَرَ، فَقَالُوا إِنَّمَا مَلَكَكُمْ بِهَذَا، فَتَعَلَّمُوهُ وَرَفَضُوا كُتُبَ أَنْبِيَائِهِمْ. قَالَ تَعَالَى تَبَرُّئَةً لِّسُلَيْمَانَ، وَرَدًّا عَلَى الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: «أَنْظَرُوا إِلَى مُحَمَّدٍ يَذْكُرُ سُلَيْمَانَ فِي الْأَنْبِيَاءِ، وَمَا كَانَ إِلَّا سَاحِرًا»: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أَيُّ: لَمْ يَعْمَلِ السَّحَرَ؛ لِأَنَّهُ كَفَرَ ﴿وَلَكِنَّ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿الشَّيَاطِينِ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ السَّحَرَ﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ

المدبرات مباشرة وامثالا. [إغاثة اللهفان لابن القيم (٢/ ١٣٠)]. وظاهر هذه الآية أن جبريل ألقى القرآن في قلب النبي ﷺ من غير سماع قراءة، ونظيرها في ذلك قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ عَلَى قَلْبِكَ ﴿الآية﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] ولكنه بين في مواضع أخر أن معنى ذلك أن الملك يقرؤه عليه حتى يسمعه منه، فتصل معانيه إلى قلبه بعد سماعه، وذلك هو معنى تنزيله على قلبه، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ ١٧٠ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ١٧١ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ١٧٢ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ١٧٣ [القيامة: ١٦-١٩]. [الشنقيطي (١/ ٩٨)].

(١) أي: المتمردون من الكفرة، واللام للعهد، أي: الفاسقون المعهودون، وهم اليهود. أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولا أوليا. [القاسمي (١/ ٣٦١)].

﴿كَفَرُوا﴾ ﴿و﴾ يُعَلِّمُونَهُمْ ﴿مَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ أَي: أُلْهِمَاهُ مِنَ السَّحْرِ، وَقُرِئَ: بِكَسْرِ اللَّامِ^(١)، الْكَائِنَيْنِ ﴿بِبَابِلَ﴾ بَلَدٍ فِي سَوَادِ الْعِرَاقِ ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٍ لِلْمَلَكَيْنِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُمَا سَاحِرَانِ كَانَا يُعَلِّمَانِ السَّحْرَ، وَقِيلَ: مَلَكَانِ أُنْزِلَا لِتَعْلِيمِهِ إِبْنَاءَ مَنْ أَلَّهِ لِلنَّاسِ^(٢) ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ لَهُ

(١) قراءة شاذة.

(٢) قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ في الكلام تقديم وتأخير والتقدير: وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل. ﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ فهاروت وماروت بدل من الشياطين على قراءة التشديد والنصب في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾... وأما على قراءة التخفيف والرفع فهو منصوب على الذم وهو بدل بعض... وقال ابن جرير فإن قال لنا القائل: وكيف وجه تقديم ذلك، قيل: تقديمه أن يقال واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان وما أنزل الله على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل، لأن سحرة اليهود فيما ذكر كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وإن الذي يعلمونهم ذلك رجالان أحدهما هاروت والآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم انتهى، يعني أنه بدل من الناس، أي: يعلمان الناس خصوصاً هاروت وماروت. وقال القرطبي في تفسيره بعد أن حكى معنى هذا الكلام ورجح أن هاروت وماروت بدل من الشياطين ما لفظه: هذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ما قيل فيها، ولا يلتفت إلى سواه، فالسحر من استخراج الشياطين للطاقة جوهرهم ودقة أفهامهم وأكثر ما يتعاطاه من الأنس النساء وخاصة في حال طمثن، قال الله: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفرق: ٤]. ثم قال: إن قيل كيف يكون اثنان بدلاً من جمع والبدل إنما يكون على حد المبدل منه؟ ثم أجاب عن ذلك بأن الاثنين قد يطلق عليهما الجمع أو أنهما خصا بالذكر دون غيرهما لتمردهما، ويؤيد هذا أنه قرأ ابن عباس والضحاك والحسن: «الملكين» بكسر اللام، ولعل وجه الجزم بهذا التأويل مع بعده وظهور تكلفه تنزيه الله سبحانه أن ينزل السحر إلى أرضه فتنة لعباده على ألسن ملائكته، وعندني أنه لا موجب لهذا التعسف المخالف لما هو الظاهر، فإن الله سبحانه أن يمتحن عباده بما شاء كما امتحن بنهر طالوت، ولهذا يقول الملكان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ويؤيده ما قال أبو السعود أن مقام وصف الشياطين بالكفر وإضلال الناس مما لا يلائمه وصف رؤسائهم بما ذكر من النهي عن الكفر مع ما فيه من الإخلال بنظام الكلام، فإن الإبدال في حكم تنحية المبدل منه. وقال: هاروت وماروت عطف ببيان للملكين علمان لهما، وقرىء بالرفع على هما هاروت وماروت. انتهى المراد منه. قال ابن جرير: وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا إلى الأرض فكان من أمرهما ما كان. [صديق حسن]. وقد روي في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين، كمجاهد والسدي والحسن البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل ابن حيان وغيرهم، وقصها خلق من المفسرين، من المتقدمين والمتأخرين. وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل، إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق

نُصْحًا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ بَلِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ لِلنَّاسِ لِيَمْتَحِنَهُمْ بِتَعْلِيمِهِ، فَمَنْ تَعَلَّمَهُ كَفَرَ، وَمَنْ تَرَكَهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾^ط بِتَعْلِيمِهِ، فَإِنْ أَبَى إِلَّا التَّعْلِيمَ عَلَّمَاهُ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ بِأَنْ يُبْعِضَ كُلُّ إِلَى الْآخِرِ ﴿وَمَا هُمْ﴾ أَيِ: السَّحَرَةُ ﴿بِضَّارَيْنَ بِهِ﴾ بِالسَّحْرِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ^(١) ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ وَهُوَ السَّحَرُ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أَيِ: الْيَهُودُ ﴿لَمَنِ﴾ لَمْ اِبْتِدَاءٍ مُعَلِّقَةٍ لِمَا قَبْلَهَا، وَ«مَنْ» مَوْصُولَةٌ ﴿أُشْتَرِلَهُ﴾ اخْتَارَهُ، أَوْ اسْتَبَدَّلَهُ بِكِتَابِ اللَّهِ ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾ نَصِيبٍ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَلَيْسَ مَا شَيْئًا﴾ شَرُّوا ﴿بَاعُوا﴾ بِهَـ أَنْفُسَهُمْ ﴿أَيِ: الشَّارِينَ، أَيِ: حَظُّهَا مِنَ الْآخِرَةِ إِنْ تَعَلَّمُوهُ، حَيْثُ أَوْجَبَ لَهُمُ النَّارَ﴾ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ حَقِيقَةً مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ مَا تَعَلَّمُوهُ. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ ﴿ءَامَنُوا﴾ بِالنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عِقَابَ اللَّهِ بَتَرَكِ مَعَاصِيهِ كَالسَّحْرِ، وَجَوَابُ «لَوْ» مَحْذُوفٌ، أَيِ: لَا تُشْبِهُوا، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾ ثَوَابٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَاللَّامُ فِيهِ لِلْقَسَمِ ﴿مَنْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ خَبَرُهُ، مِمَّا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١٣) أَنَّهُ خَيْرٌ لِمَا أَثَرُوهُ عَلَيْهِ. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا﴾ لِلنَّبِيِّ ﴿رَاعِنَا﴾ أَمْرٌ مِنَ الْمُرَاعَاةِ، وَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ذَلِكَ، وَهِيَ بَلُغَةُ الْيَهُودِ سَبُّ مَنْ «الرُّعُونَةُ»، فَسَرُّوا بِذَلِكَ وَخَاطَبُوا بِهَا النَّبِيَّ، فَنَهَى الْمُؤْمِنُونَ عَنْهَا ﴿وَقُولُوا﴾ بِدَلَّهَا: ﴿انْظُرْنَا﴾ أَيِ: انْظُرْ إِلَيْنَا ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ مَا تَوْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٤) مُؤْلِمٌ هُوَ النَّارُ. ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ مِنَ الْعَرَبِ، عُطِفَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ، وَ﴿مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿أَنْ

المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى. وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فيها، فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ. [ابن كثير (١/ ٣٥١)].

(١) في هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدرى، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعى كما في قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿فَاتَّخَذُوا نَزْلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين. ثم ذكر أن علم السحر مضره محضة، ليس فيه منفعة لا دينية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْ لَفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] فهذا السحر مضره محضة، فالمنهيات كلها إما مضره محضة، أو شرها أكبر من خيرها. كما أن المأمورات إما مصلحة محضة أو خيرها أكثر من شرها. [السعدي (ص: ٦١)].

يُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ زَائِدَةٍ ﴿١٥٠﴾ خَيْرٍ ﴿١٤٩﴾ وَحِىٍّ ﴿١٤٨﴾ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿١٤٧﴾ حَسَدًا لَّكُمْ ﴿١٤٦﴾ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ ﴿١٤٥﴾ بَنُو نَهْ ﴿١٤٤﴾ مَن يَشَاءُ ﴿١٤٣﴾ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٤٢﴾. وَلَمَّا طَعَنَ الْكُفَّارُ فِي النَّسْخِ، وَقَالُوا: «إِنَّ مُحَمَّدًا يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ الْيَوْمَ بِأَمْرٍ وَيَنْهَى عَنْهُ غَدًا»، نَزَلَ: ﴿١٤١﴾ «مَا شَرِطِيَّةٌ ﴿١٤٠﴾ نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَيْ: نَزَلَ حُكْمَهَا، إِمَّا مَعَ لَفْظِهَا أَوْ لَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ النُّونِ مِنْ «أَنْسَخَ»، أَيْ: نَأْمُرُكَ، أَوْ جَبْرِيلَ بِنَسْخِهَا ﴿١٣٩﴾ أَوْ نَنْسَخُهَا ﴿١٣٨﴾ نُؤَخِّرُهَا فَلَا نُنْزِلُ حُكْمَهَا وَنَرْفَعُ تِلَاوَتَهَا، أَوْ نُؤَخِّرُهَا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿١٣٧﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ بِلَا هَمْزٍ مِنَ النَّسْيَانِ، أَيْ: نُنْسِكُهَا، أَيْ: نَمُحُّهَا مِنْ قَلْبِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ: ﴿١٣٦﴾ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴿١٣٥﴾ أَنْفَعَ لِلْعِبَادِ فِي السُّهُولَةِ، أَوْ كَثْرَةِ الْأَجْرِ ﴿١٣٤﴾ أَوْ مِثْلِهَا ﴿١٣٣﴾ فِي التَّكْلِيفِ وَالثَّوَابِ ﴿١٣٢﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٣١﴾ وَمِنَهُ النَّسْخُ وَالتَّبْدِيلُ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿١٣٠﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٢٩﴾ يَفْعَلُ فِيهِمَا مَا يَشَاءُ ﴿١٢٨﴾ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴿١٢٧﴾ أَيْ: غَيْرِهِ ﴿١٢٦﴾ مِّنْ زَائِدَةٍ ﴿١٢٥﴾ وَلِيٍّ ﴿١٢٤﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿١٢٣﴾ وَلَا نَصِيرٌ ﴿١٢٢﴾ يَمْنَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ إِنَّ آتَاكُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا سَأَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يُوسِعَهَا وَيَجْعَلَ الصَّفَا ذَهَبًا: ﴿١٢١﴾ بَلْ أَتْرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى ﴿١٢٠﴾ أَيْ: سَأَلَهُ قَوْمُهُ ﴿١١٩﴾ مِّنْ قَبْلُ ﴿١١٨﴾ مِّنْ قَوْلِهِمْ: ﴿١١٧﴾ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴿١١٦﴾ [النساء: ١٥٣]، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿١١٥﴾ وَمَنْ يَتَّبِدِلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴿١١٤﴾ أَيْ: يَأْخُذْهُ بِدَلْهِ، يَتْرِكِ النَّظَرَ فِي آيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَاقْتِرَاحِ غَيْرِهَا ﴿١١٣﴾ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١٢﴾ أَخْطَأَ الطَّرِيقَ الْحَقَّ، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْوَسْطُ. ﴿١١١﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ ﴿١١٠﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿١٠٩﴾ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيْمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا ﴿١٠٨﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، كَأَنَّا ﴿١٠٧﴾ مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ﴿١٠٦﴾ أَيْ: حَمَلْتَهُمْ عَلَيْهِ أَنْفُسُهُمُ الْخَبِيثَةُ ﴿١٠٥﴾ مِّنْ

(١) وقيل: جنس الرحمة من غير تعيين، كما يفيد ذلك الإضافة إلى ضميره تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الشوكاني (١/١٤٦)]. والفضل: ابتداء إحسان بلا علة. [البغوي (١/١٣٣)].

(٢) النسخ في كلام العرب على وجهين: أحدهما: النقل، كقتل كتاب من آخر، وعلى هذا يكون القرآن كله منسوخاً أعني من اللوح المحفوظ، ولا مدخل لهذا المعنى في هذه الآية ومنه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أَيْ: نَأْمُرُ بِنَسْخِهِ. الثاني: الإبطال والإزالة، وهو المقصود هنا، وهذا القسم الثاني ينقسم إلى قسمين عند أهل اللغة: أحدهما: إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه، ومنه نسخت الشمس الظل إذا أذهبته وحلت محله، وهو معنى قوله: ﴿مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ﴾ وفي صحيح مسلم (٥٢٧٢): «لَمْ تَكُنْ نَبُوءَةً قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ». أَيْ: تَحَوَّلَتْ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ. والثاني: إزالة الشيء دون أن يقوم مقامه آخر كقولهم نسخت الريح الأثر، ومن هذا المعنى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أَيْ: يزيله، وروي عن أبي عبيد أن هذا قد كان يقع في زمن رسول الله ﷺ فكانت تنزل عليه السورة فترفع فلا تتلى ولا تكتب، ومنه ما روي عن أبي عائشة ؓ أن سورة الأحزاب كانت تعدل سورة البقرة في الطول. وقال ابن جرير معنى ما نسخ: ما نقل من حكم آية إلى غيره فنبذله ونغيره، وذلك أن يحول الحلال حراماً والحرام حلالاً والمباح محظوراً والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فأما الإخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ. [الشوكاني (١/١٤٧)].

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ الْحَقُّ ﴿فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ﴾ ﴿فَاعْفُوا عَنْهُمْ، أَي: أَتْرَكُوهُمْ﴾ ﴿وَأَصْفَحُوا﴾ أَعْرِضُوا
فَلَا تُجَازُواهُمْ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ فِيهِمْ مِنَ الْقِتَالِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٦١ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ وَمَا تَقَدَّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ طَاعَةٍ، كَصَلَاةٍ وَصَدَقَةٍ﴾ ﴿مَجْدُوهٌ﴾ أَي: ثَوَابُهُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١٦٢ ﴿فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.﴾ ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾ جَمْعُ «هَائِدٍ» ﴿أَوْ نَصْرِي﴾ قَالَ
ذَلِكَ يَهُودُ الْمَدِينَةِ وَنَصَارَى نَجْرَانَ، لَمَّا تَنَاطَرُوا بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ، أَي: قَالَ الْيَهُودُ: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا الْيَهُودُ، وَقَالَ
النَّصَارَى: لَنْ يَدْخُلَهَا إِلَّا النَّصَارَى ﴿تِلْكَ﴾ الْقَوْلَةُ ﴿أَمَانِيَهُمْ﴾ شَهَوَاتُهُمُ الْبَاطِلَةُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾
حُجَّتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٦٣ ﴿فِيهِ.﴾ ﴿بَلَى﴾ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ غَيْرُهُمْ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أَي: انْقَادَ
لَأَمْرِهِ، وَخَصَّ الْوَجْهَ لِأَنَّهُ أَشْرَفُ الْأَعْضَاءِ فَغَيَّرَهُ أَوَّلَى ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوَحِّدٌ ١٦٤ ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أَي:
ثَوَابُ عَمَلِهِ الْجَنَّةُ ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٦٥ ﴿فِي الْآخِرَةِ.﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَى عَلَى
شَيْءٍ مُعْتَدٍّ بِهِ، وَكَفَرَتْ بَعِيسَى ﴿وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مُعْتَدٍّ بِهِ، وَكَفَرَتْ بِمُوسَى﴾ وَهُمْ
أَي: الْفَرِيقَانِ ﴿يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ الْمُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ، وَفِي كِتَابِ الْيَهُودِ تَصْدِيقُ عِيسَى، وَفِي كِتَابِ النَّصَارَى تَصْدِيقُ
مُوسَى، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ
﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ بَيَانٌ لِمَعْنَى «ذَلِكَ»، أَي: قَالُوا لِكُلِّ ذِي دِينٍ: لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٦٦ ﴿مَنْ أَمَرَ الدِّينَ، فَيَدْخُلُ الْمُحِقُّ الْجَنَّةَ وَالْمُبْطِلُ النَّارَ.﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ ﴿أَي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ﴾
﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ بِالْهَدْمِ أَوْ التَّعْطِيلِ، نَزَلَتْ
إِخْبَارًا عَنِ الرُّومِ الَّذِينَ خَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ، أَوْ فِي الْمُشْرِكِينَ لَمَّا صَدَّوْا النَّبِيَّ ﷺ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ عَنِ الْبَيْتِ ١٦٧
﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَي: أَخِيفُوهُمْ بِالْجِهَادِ، فَلَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ آمِنًا
﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ هَوَانٌ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَالْجَزْيَةِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ١٦٨ ﴿هُوَ النَّارُ. وَنَزَلَ لَمَّا

(١) أَي: مُتَبِعٌ فِيهِ الرِّسُولُ ﷺ. فَإِنَّ لِلْعَمَلِ الْمُتَقَبَّلِ شَرْطَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ خَالِصًا لِلَّهِ وَحْدَهُ. وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ صَوَابًا مُوَافِقًا لِلشَّرِيعَةِ.
فَمَتَى كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ؛ وَلِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٩٧)
بِنَحْوِهِ، وَمُسْلِمٌ (١٧١٨). [ابن كثير (١/٣٨٥)].

(٢) وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ «مَنَعَ» مِنْ كُلِّ مَسْجِدٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ، لِأَنَّ اللَّفْظَ عَامٌ وَرَدَ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ، فَتَخْصِيصُهَا بِبَعْضِ
الْمَسَاجِدِ وَبَعْضِ الْأَشْخَاصِ ضَعِيفٌ. [القرطبي (٢/٧٧)].

طَعَنَ الْيَهُودُ فِي نَسْخِ الْقِبْلَةِ، أَوْ فِي صَلَاةِ النَّافِلَةِ عَلَى الرَّاحِلَةِ فِي السَّفَرِ حَيْثُمَا تَوَجَّهَتْ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾^(١) أَي: الْأَرْضُ كُلُّهَا لِأَنَّهُمَا نَاحِيَتَاهَا ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وَجُوهَكُمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَمْرِهِ ﴿فَتَمَّ﴾ هُنَاكَ ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ قِبْلَتَهُ الَّتِي رَضِيَهَا^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ﴾ يَسَعُ فَضْلُهُ كُلَّ شَيْءٍ^(٣) ﴿عَلِيمٌ﴾^(١١٥) بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ. ﴿وَقَالُوا﴾ بِوَاوٍ وَبِدُونِهَا، أَي: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنْهُ ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا، وَالْمَلَائِكَةُ تَنْفِي الْأَوْلَادَةَ، وَعَبَّرَ بِـ ﴿مَا﴾ تَغْلِيًّا لِمَا لَا يَعْقِلُ ﴿كُلُّ لَهُ قَنْتُونَ﴾^(١١٦) مُطِيعُونَ كُلُّ بِمَا يُرَادُ مِنْهُ، وَفِيهِ تَغْلِيْبُ الْعَاقِلِ. ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُوجِدُهُمْ لَا عَلَى مِثَالِ سَبَقٍ ﴿وَإِذَا قَضَىٰ﴾ أَرَادَ ﴿أَمْرًا﴾ أَي: إِيجَادَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١١٧) أَي: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ جَوَابًا لِلْأَمْرِ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أَنَّكَ رَسُولُهُ ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةً﴾ مِمَّا اقْتَرَحْنَاهُ عَلَى صِدْقِكَ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ لِأَنِّيائِهِمْ ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ مِنَ التَّعَنُّتِ وَطَلَبِ الْآيَاتِ ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، فِيهِ تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١١٨) يَعْلَمُونَ أَنَّهَا آيَاتٌ فَيُؤْمِنُونَ، فَاقْتَرَحَ آيَةً مَعَهَا تَعَنُّتٌ. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالْهُدَى ﴿بَشِيرًا﴾ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ بِالنَّارِ ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾^(١١٩) النَّارِ، أَي: الْكُفَّارِ مَا لَهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا؟ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِجَزْمٍ ﴿تَسْأَلُ﴾ نَهْيًا. ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ

(١) تعددت أقوال أهل العلم في المراد بلفظ «وجه» في هذه الآية على أقوال أهمها ما يلي: القول الأول: أن هذه الآية من نصوص الصفات، والمراد بالوجه هنا صفة الله على الوجه اللائق به، وممن قال بهذا القول: أحمد بن حنبل، والدارمي، وابن خزيمة، والأصبهاني، وابن عبد البر، والسمعاني، وابن القيم، والسفاريني، والسعدي، وأكثر مثبتة الصفات. قال ابن القيم: الصحيح في قوله تعالى: ﴿فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أنه كقوله في سائر الآيات التي ذكر فيها الوجه، فإنه قد اطرَد مجيئه في القرآن والسنة مضافاً إلى الرَّبِّ تعالى، على طريقة واحدة، ومعنى واحد، وهذا لا يتعين حملة على القبلة والجهة، ولا يمتنع أن يراد به وَجْهُ الرَّبِّ حقيقةً، فحملة على غير القبلة كنظائره كلها أولى. [مختصر الصواعق؛ للموصلي (٣/ ١٠١١)]. القول الثاني: أن هذه الآية المراد بها القبلة والوجهة، وممن قال بهذا القول: مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وقتادة، ومقاتل، والشافعي، وابن تيمية، والشوكاني، وجمهور السلف، ويُنسب هذا القول لابن عباس رضي الله عنهما. ومما استدلوا به: السياق حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ، والمشرق والمغرب الجهات، والوجه هو الجهة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وَجْهٌ هُوَ مُوَلِّيُّهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]. تنبيه: اختلاف السلف في معنى الوجه في هذه الآية لا يعني اختلافهم في إثبات صفة الوجه بل هم مجمعون على إثبات صفة الوجه لله سبحانه وتعالى بأدلة أخرى.

(٢) أي: واسع الفضل والصفات عظيمها. [السعدي (ص: ٦٣)].

عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ^١ دِينَهُمْ ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ أَهْلًا فَلَا مَنَاصَ لَهُ إِلَّا سِلَاسُ مَا وَصَّىٰ﴾ أَيْ: الْإِسْلَامَ ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ^(١) ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿أَتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا فَرَضًا ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الْوَحْيِ مِنْ اللَّهِ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَحْفَظُكَ ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾^(٢) يَمْنَعُكَ مِنْهُ. ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أَيْ: يَقْرَأُونَهُ كَمَا أُنْزِلَ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ، وَ﴿حَقَّ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَالْخَبَرُ ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ وَأَسْلَمُوا ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أَيْ: بِالْكِتَابِ الْمَوْتَى بِأَنْ يُحَرِّفَهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٣) لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكَرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٤) تَقَدَّمَ مِثْلُهُ^(٥). ﴿وَاتَّقُوا﴾ خَافُوا ﴿يَوْمًا لَا تَجْزِي﴾ تُغْنِي ﴿نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ﴾ فِيهِ ﴿شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ فِدَاءٌ ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾^(٦) يُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ﴿*﴾ أذْكَرُ ﴿إِذْ أَبْتَلَى﴾ اخْتَبَرَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ رَبَّهُ بِكَلِمَتِ ﴿بِأَمْرٍ وَتَوَاهٍ كَلَّفَهُ بِهَا، قِيلَ: هِيَ مَنَاسِكُ الْحَجِّ، وَقِيلَ: الْمَضْمَضَةُ وَالِاسْتِنْشَاقُ وَالسَّوَاكُ وَقَصُّ الشَّارِبِ وَفَرْقُ الشَّعْرِ وَقَلَمُ الْأَطْفَارِ وَتَنْفُ الْإِبْطِ وَحَلْقُ الْعَانَةِ وَالْخِتَانِ وَالِاسْتِنْجَاءُ﴾^(٧) ﴿فَاتَّمَّهُنَّ﴾ أَذَاهُنَّ تَامَتِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فُدْوَةٌ فِي الدِّينِ ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَوْلَادِي إِجْعَلْ أُمَّةً ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي﴾ بِالْإِمَامَةِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾^(٨) الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَنَالُ غَيْرَ الظَّالِمِ. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الْكَعْبَةَ ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ مَرَجَعًا يَثُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَأَمَّا﴾ مَأْمَنًا لَهُمْ مِنَ الظُّلْمِ وَالْإِغَارَاتِ الْوَاقِعَةِ فِي غَيْرِهِ، كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى قَاتِلَ أَبِيهِ فِيهِ فَلَا يُهَيِّجُهُ ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ هُوَ الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ ﴿مُصَلًّى﴾ مَكَانَ صَلَاةٍ بِأَنْ تُصَلُّوا خَلْفَهُ رَكَعَتَيْ الطَّوَافِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْخَاءِ خَبَرٌ ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أَمْرُنَاهُمَا ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿طَهَّرَا بَيْتِي﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿لِلظَّالِمِينَ وَالْعَٰكِفِينَ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾^(٩) جَمْعُ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ، الْمُصَلِّينَ. ﴿وَإِذْ قَالَ

(١) فيه النهي العظيم، عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة

في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب. [السعدي (ص: ٦٤)].

(٢) أي: في الآيتين (٤٧، ٤٨) من سورة البقرة.

(٣) وقد اختلف العلماء في تعيين الكلمات فقليل هي: شرائع الإسلام، وقيل: ذبح ابنه، وقيل: أداء الرسالة، وقيل: هي خصال الفطرة، وقيل:

قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، وقيل: الطهارة، قال الزجاج: وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن هذا كله مما ابتلي به إبراهيم

انتهى، وظاهر النظم القرآني أن الكلمات هي قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ وما بعده، ويكون ذلك بيانًا للكلمات. [الشوكاني (١/ ١٦١)].

إِبْرَاهِيمَ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ذَا أَمْنٍ، وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، فَجَعَلَهُ حَرَمًا لَا يُسْفَكَ فِيهِ دَمُ إِنْسَانٍ وَلَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهُ وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ﴿وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّمَرَاتِ﴾ وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ الطَّائِفِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَقْفَرَ لَا زَرْعَ فِيهِ وَلَا مَاءً ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿أَهْلِهِ﴾، وَخَصَّصَهُم بِالْإِبْرَاهِيمِ مُوَافَقَةً لِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ﴿قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَرْزُقْ﴾ مَنْ كَفَرَ فَأَمْتِعُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، فِي الدُّنْيَا بِالرِّزْقِ ﴿قَلِيلًا﴾ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ﴿ثُمَّ أَصْطَرَّهُ﴾ أُلْجِئُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَى عَذَابِ النَّارِ﴾ فَلَا يَجِدُ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿الْمَرْجِعُ هِيَ﴾. ﴿وَأَذْكُرْ﴾ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ﴿الْأُسُسَ أَوِ الْجُدُرَ﴾ مِنْ أَلْبَيْتِ ﴿يَبْنِيهِ مُتَعَلِّقٌ بِ﴾ ﴿يَرْفَعُ﴾، ﴿وَإِسْمَاعِيلُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾، يَقُولَانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ بِنَاءَنَا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿بِالْفِعْلِ﴾. ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ﴾ مُتَقَادَيْنِ ﴿لَكَ وَ﴾ اجْعَلْ ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ أَوْلَادِنَا ﴿أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾ وَ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبَعِيضِ، وَآتَى بِهِ لِتَقْدِمَ قَوْلِهِ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، ﴿وَأَرِنَا﴾ عَلَّمْنَا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ شَرَائِعَ عِبَادَتِنَا، أَوْ حَجَّنَا ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿سَأَلَاهُ التَّوْبَةَ مَعَ عِصْمَتِهِمَا، تَوَاضَعًا وَتَعْلِيمًا لِدُرِّيَّتِهِمَا﴾. ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أَيُّ: أَهْلَ أَلْبَيْتِ ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أَيُّ: مَا فِيهِ مِنْ الْأَحْكَامِ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يَطَهِّرُهُمْ مِنَ الشَّرِّ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الْعَالِبُ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿فِي صُنْعِهِ﴾. ﴿وَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا ﴿يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فَيَتْرَكَهَا ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ جَهَلَ أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ يَجِبُ عَلَيْهَا عِبَادَتُهُ، أَوْ اسْتَحَفَّ بِهَا وَامْتَنَهَا ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ﴾ اخْتَرْنَاهُ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِالرَّسَالَةِ وَالْخَلَّةِ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

(١) عن محمد بن المنكدر، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا وَضَعَ اللَّهُ الْحَرَمَ نَقَلَ لَهُ الطَّائِفَ مِنَ الشَّامِ». أخرجه الأزرقي في أخبار مكة ١ / ٧٧ مرسلًا فهو ضعيف لا يحتج به، قال الشيخ عبد الرحمن البراك: يبدو أن هذه خرافة، والصواب: أن الله أجاب دعاءه بأن جعل الثمار تجبي إليه من كل مكان؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]. [التعليق والإيضاح للبراك (١ / ٢٦٩)] وثبت عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفَيْنِ مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَاتِ». أخرجه البخاري (١٨٨٥)، ومسلم (١٣٦٩).

(٢) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي: معاني الكتاب من دلائل التوحيد والنبوة والأحكام الشرعية. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمهم الحكمة وهي الإصابة في القول والعمل، ووضع كل شيء موضعه، والمراد بالحكمة هنا المعرفة بالدين والفقه في التأويل والفهم للشريعة، وقال قتادة: هي السنة. [صديق حسن (١ / ٢٨٥)].

﴿الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. اذْكُرْ﴾ (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ) انْقَدَ لِلَّهِ وَأَخْلَصَ لَهُ دِينَكَ ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (وَوَصَّى) وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَوْصَى﴾ ﴿بِهَآ﴾ بِالْمِلَّةِ ﴿إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾ بَنِيهِ^(١)، قَالَ: ﴿يَبْنِي إِنْ أَلَّاهُ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٢) نَهَى عَنْ تَرْكِ الْإِسْلَامِ وَأَمَرَ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى مُصَادَفَةِ الْمَوْتِ. وَلَمَّا قَالَ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ: أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ يَعْقُوبَ يَوْمَ مَاتَ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ؟ نَزَلَ: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ حُضُورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ﴾ بَدَلُ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ بَعْدَ مَوْتِي؟ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ ءَابَاؤُكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ عَدُّ إِسْمَاعِيلَ مِنَ الْأَبَاءِ تَغْلِيْبٌ، وَلِأَنَّ الْعَمَّ بِمَنْزِلَةِ الْأَبِ ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بَدَلُ مِنْ ﴿إِلَهَكَ﴾، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٣) وَ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى: هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، أَيُّ: لَمْ تَحْضُرُوهُ وَقَتَ مَوْتِهِ، فَكَيْفَ تَنْسُبُونَ إِلَيْهِ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ؟ ﴿تِلْكَ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَالْإِشَارَةُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَيَعْقُوبَ وَبَنِيهِمَا، وَأَنْتَ لِتَأْنِيثِ خَبَرِهِ ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سَلَفَتْ ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْعَمَلِ، أَيُّ: جَزَاؤُهُ، اسْتِثْنَاءٌ ﴿وَلَكُمْ﴾ الْخِطَابُ لِلْيَهُودِ ﴿مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٤) كَمَا لَا يُسْأَلُونَ عَنْ عَمَلِكُمْ، وَالْجُمْلَةُ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهَا. ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ أَوْ لِلتَّفْصِيلِ، وَقَائِلُ الْأَوَّلِ يَهُودُ الْمَدِينَةِ، وَالثَّانِي نَصَارَى نَجْرَانَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بَلْ﴾ نَتَّبِعُ ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ حَالٌ مِنْ إِبْرَاهِيمَ، مَاثِلًا عَنْ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٥) قُولُوا ﴿خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ مِنَ الصُّحُفِ الْعَشْرِ ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿وَعِيسَى﴾ مِنَ الْإِنْجِيلِ ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الْكُتُبِ وَالْآيَاتِ^(٢) ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فَنُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ

(١) الضمير في ﴿بِهَآ﴾ راجع إلى الملة الحنيفية أو إلى الكلمة، أي: أسلمت لرب العالمين، قال القرطبي: وهو أصوب لأنه أقرب مذكور، أي: قولوا أسلمنا انتهى، والأول أرجح لأن المطلوب ممن بعده هو اتباع ملته لا مجرد التكلم بكلمة الإسلام، فالتوصية بذلك أليق بإبراهيم وأولى بهم، قيل: كانوا ثمانية منهم إسماعيل وهو أول أولاده، وقيل: أربعة عشر ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ معطوف على إبراهيم، أي: وأوصى يعقوب بنيه كما أوصى إبراهيم بنيه، وكانوا اثني عشر، وقرئ: بنصب «يعقوب»، فيكون داخلا فيما أوصاه إبراهيم، قال القشيري: وهو بعيد، لأن يعقوب لم يدرك جده إبراهيم وإنما ولد بعد موته. [صديق حسن (١/٢٨٦)].

(٢) أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ... وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (١٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا [النساء: ١٥٠-١٥١] ... عن أبي هريرة

بِبَعْضِ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ١٣٦ فَإِنْ ءَامَنُوا ﴿أَيِ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ ﴿يُمِثِّلُ﴾ «مِثْلُ» زَائِدٌ ﴿مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴿عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ﴾ ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ خِلَافٍ مَعَكُمْ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ شِقَاقَهُمْ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ١٣٧ بِأَحْوَالِهِمْ، وَقَدْ كَفَاهُ إِيَّاهُمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ وَنَفْيِ النَّضِيرِ، وَضَرْبِ الْجَزِيَّةِ عَلَيْهِمْ. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لـ ﴿ءَامَنَّا﴾ وَنَضْبُهُ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَيِ: صَبَغَنَا اللَّهُ، وَالْمُرَادُ بِهَا دِينُهُ الَّذِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهِ، لِيُظْهَرَ أَثَرُهُ عَلَى صَاحِبِهِ كَالصَّبْغِ فِي الثَّوبِ ١٣٨ ﴿وَمَنْ﴾ أَيِ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ تَمَيِّزٌ ﴿وَنَحْنُ لَهُ عِبْدُونَ﴾ ١٣٩. قَالَ الْيَهُودُ لِلْمُسْلِمِينَ: «نَحْنُ أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَقَبْلَتُنَا أَقْدَمُ، وَلَمْ تَكُنِ الْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْعَرَبِ، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَكَانَ مِنَّا». فَتَرَلَّ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ تُخَاصِمُونَنَا ﴿فِي اللَّهِ﴾ أَنْ إِصْطَفَى نَبِيًّا مِنَ الْعَرَبِ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فَلَهُ أَنْ يَصْطَفِيَ مَنْ يَشَاءُ ﴿وَلَنَّا أَعْمَلُنَا﴾ نُبَازِي بِهَا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ تُجَازُونَ بِهَا، فَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْمَالِنَا مَا نَسْتَحِقُّ بِهِ الْإِكْرَامَ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ ١٤٠ الدِّينَ وَالْعَمَلَ دُونَكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِالْإِصْطِفَاءِ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَالْجُمْلَةُ الثَّلَاثُ أَحْوَالٌ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿تَقُولُونَ﴾ بِالتَّائِي وَالْيَاءِ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ أَيِ: اللَّهُ أَعْلَمُ، وَقَدْ بَرَأَ مِنْهُمَا إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ﴾ أَخْفَى عَنِ النَّاسِ ﴿شَهَادَةً عِنْدَهُ﴾ كَائِنَةً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أَيِ: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْهُ، وَهُمْ الْيَهُودُ كَتَمُوا شَهَادَةَ اللَّهِ فِي التَّوْرَةِ لِإِبْرَاهِيمَ بِالْحَنِيفِيَّةِ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ١٤١ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٤٢ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ ١٤٣. ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ الْجُهَالُ﴾ الْجُهَالُ ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ الْيَهُودِ

ﷺ قال: كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا». أخرجه البخاري (٤٤٨٥). [ابن كثير (١/٤٤٨)].

(١) أصل ذلك أن النصاري كانوا يصبغون أولادهم في الماء، وهو الذي يسمونه المعمودية، ويقولون: هذا تطهير لهم. وقال ابن عباس: هو أن النصاري كانوا إذا ولد لهم ولد فأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم يقال له ماء المعمودية، فصبغوه بذلك ليطهروه به مكان الختان، لأن الختان تطهير، فإذا فعلوا ذلك، قالوا: الآن صار نصرانيا حقا، فرد الله تعالى ذلك عليهم بأن قال: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ أَيِ: صِبْغَةُ اللَّهِ أَحْسَنُ صِبْغَةٍ وَهِيَ الْإِسْلَامُ، فَسَمِيَ الدِّينَ صِبْغَةً اسْتِعَارَةً وَمَجَازًا مِنْ حَيْثُ تَظْهَرُ أَعْمَالُهُ وَسَمَتَهُ عَلَى الْمُتَدِينِ، كَمَا يَظْهَرُ أَثَرُ الصَّبْغِ فِي الثَّوبِ. [القرطبي (٢/١٤٤)].

(٢) في الآية (١٣٤) من سورة البقرة.

وَالْمُشْرِكِينَ: ﴿مَا وَلَّهُمْ﴾ أَيُّ شَيْءٍ صَرَفَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿عَنْ قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ عَلَى اسْتِقْبَالِهَا فِي الصَّلَاةِ؟ وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وَالْإِتْيَانُ بِالسَّيْنِ الدَّلَالَةُ عَلَى الْإِسْتِقْبَالِ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغَيْبِ ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أَيُّ: الْأَجْهَاتُ كُلُّهَا، فَيَأْمُرُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى أَيِّ جِهَةٍ شَاءَ، لَا اعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدَايَتُهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٤٢ ﴿دِينِ الْإِسْلَامِ، أَيُّ: وَمِنْهُمْ أَنْتُمْ. دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ إِلَيْهِ ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ خِيَارًا عُدُولًا ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ رُسُلَهُمْ بَلَّغْتَهُمْ ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ صَيَّرْنَا ﴿الْقِبْلَةَ﴾ لَكَ الْآنَ الْجِهَةَ ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ أَوَّلًا وَهِيَ الْكَعْبَةُ، وَكَانَ ﷺ يُصَلِّي إِلَيْهَا، فَلَمَّا هَاجَرَ أَمَرَ بِاسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تَأْلُفًا لِلْيَهُودِ، فَصَلَّى إِلَيْهِ سِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، ثُمَّ حَوَّلَ ١٤٣ ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ عِلْمَ ظُهُورِ ١٤٤ ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ فَيَصْدُقُهُ ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أَيُّ: يَرْجِعُ إِلَى الْكُفْرِ شَكًّا فِي الدِّينِ وَظَنًّا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَقَدْ ارْتَدَّ لِذَلِكَ جَمَاعَةٌ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفِّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَيُّ: وَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ﴾ أَيُّ: التَّوَلَّيْتُ ﴿لِكَبِيرَةٍ﴾ شَافَّةٌ عَلَى النَّاسِ ﴿إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أَيُّ: صَلَاتُكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَلَّ يُشِيكُمُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نُزُولِهَا السُّؤَالُ عَمَّنْ مَاتَ قَبْلَ التَّحْوِيلِ ١٤٥ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ١٤٦ ﴿فِي عَدَمِ إِضَاعَةِ أَعْمَالِهِمْ، وَالرَّأْفَةِ شِدَّةِ الرَّحْمَةِ، وَقَدَّمَ الْأَبْلَغَ لِلْفَاصِلَةِ. ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَرَى تَقَلُّبَ﴾ تَصَرُّفَ ﴿وَجْهِكَ﴾

(١) فيها قولان: أحدهما: أنها الكعبة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما. والآخر: هو بيت المقدس، وهو قول قتادة وعطاء والسُّدِّي، وهذا مع ظاهر قوله: ﴿كُنْتَ عَلَيْهَا﴾؛ لأن النبي ﷺ كان يصلي إلى بيت المقدس، ثم انصرف عنه إلى الكعبة، وأما قول ابن عباس رضي الله عنهما: فتأويله بوجهين: الأول: أن كنت بمعنى أنت، والثاني: قيل: إن النبي ﷺ صلى إلى الكعبة قبل بيت المقدس، وإعراب ﴿الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ مفعول بجعلنا، أو صفة للقبة، ومعنى الآية على القولين: اختبار وفئة للناس بأمر القبة. [ابن جزي (١/٩٩)].

(٢) أي: علما يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها. [السعدي (ص: ٧٠)].

(٣) عن البراء رضي الله عنه أن النبي ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم. فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت. وكان الذي مات على القبة قبل أن تحول قبل البيت رجلا قتلوا لم ندر ما نقول فيهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]. [ابن كثير

(١/٤٥٢)]. وفي هذه الآية، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح. [السعدي (ص: ٧٠)].

فِي فِي جِهَةِ السَّمَاءِ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْوَحْيِ، وَمُتَشَوِّقًا لِلْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ، وَكَانَ يَوَدُّ ذَلِكَ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَلَئِنَّهُ أَدْعَى إِلَى إِسْلَامِ الْعَرَبِ ﴿فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ﴾ نُحَوِّلُكَ ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تُحِبُّهَا ﴿قَوْلَ وَجْهِكَ﴾ اسْتَقْبِلْ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَ﴾ نَحْوِ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَيِ: الْكَعْبَةِ ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ خِطَابٌ لِلأُمَّةِ ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿شَطْرَهُ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ﴿أَيِ: التَّوَلَّى إِلَى الْكَعْبَةِ﴾ الْحَقُّ ﴿الثَّابِتُ﴾ مِنْ رَبِّهِمْ ﴿لِمَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنَّهُ يَتَحَوَّلُ إِلَيْهَا﴾ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ بِالنَّاءِ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَبِالْيَاءِ أَيِ: الْيَهُودُ مِنْ إنْكَارِ أَمْرِ الْقِبْلَةِ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ الْقَسَمِ ﴿أَتَيْتُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ عَلَى صِدْقِكَ فِي أَمْرِ الْقِبْلَةِ ﴿مَا تَبِعُوا﴾ أَيِ: لَا يَتَّبِعُونَ ﴿قِبْلَتَكَ﴾ عِنَادًا ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ﴾ قَطْعَ لِطَمَعِهِ فِي إِسْلَامِهِمْ وَطَمَعِهِمْ فِي عَوْدِهِ إِلَيْهَا ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أَيِ: الْيَهُودُ قِبْلَةَ النَّصَارَى وَبِالْعَكْسِ ﴿وَلَيْنَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَدْعُونَكَ إِلَيْهَا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الْوَحْيِ ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ إِنْ اتَّبَعْتَهُمْ فَرَضًا ﴿لَيْنَ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ﴿أَيِ: مُحَمَّدًا﴾ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴿بِنَعْتِهِ فِي كُتُبِهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: «لَقَدْ عَرَفْتُهُ حِينَ رَأَيْتُهُ كَمَا أَعْرِفُ ابْنِي، وَمَعْرِفَتِي لِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ» ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ نَعْتُهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ. ﴿الْحَقُّ﴾ كَانَتْ ﴿مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ، أَيِ: مِنْ هَذَا النَّوعِ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ «لَا تَمْتَرِ». ﴿وَلِكُلِّ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿وَجْهَةً﴾ قِبْلَةً ﴿هُوَ مُوَلِّيَهَا﴾ وَجْهَهُ فِي صَلَاتِهِ، وَفِي قِرَاءَةِ: ﴿مُؤَلِّهَا﴾ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ بَادِرُوا إِلَى الطَّاعَاتِ وَقَبُولِهَا ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ ﴿لِسَفَرٍ﴾ قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ، وَكَرَّرَهُ لِبَيَانِ تَسَاوِي حُكْمِ السَّفَرِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ قَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ كَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ الْيَهُودِ، أَوِ الْمُشْرِكِينَ ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أَيِ: مُجَادَلَةٌ فِي التَّوَلَّى إِلَى غَيْرِهِ؛ لِتَنْتَفِي مُجَادَلَتُهُمْ لَكُمْ، مِنْ قَوْلِ الْيَهُودِ: «يَجْحَدُ دِينَنَا وَيَتَّبِعُ قِبْلَتَنَا»، وَقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ:

(١) الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظلما متوقعا فهو محمول على إرادة أمته، لعصمة النبي ﷺ، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخو طب النبي ﷺ تعظيما للأمر. [ابن عطية (١/ ٢٢٣)].

(٢) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٢٧١) ونسبه للثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده ساقط، وورد من وجوه أخر واهية.

﴿يَدْعِي مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ وَيُخَالِفُ قِبْلَتَهُ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بِالْعِنَادِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: «مَا تَحَوَّلَ إِلَيْهَا إِلَّا مِيلًا إِلَى دِينِ آبَائِهِ»، وَالْإِسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلٌ، وَالْمَعْنَى: لَا يَكُونُ لِأَحَدٍ عَلَيْكُمْ كَلَامٌ إِلَّا كَلَامٌ هَؤُلَاءِ ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ تَخَافُوا جِدَالَهُمْ فِي التَّوَلَّى إِلَيْهَا ﴿وَإِخْشَوْنِي﴾ بِامْتِثَالِ أَمْرِي ﴿وَلَا تَمَّ﴾ عُطِفَ عَلَى: ﴿لَعَلَّأَ يَكُونُ﴾، ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بِالْهِدَايَةِ إِلَى مَعَالِمِ دِينِكُمْ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٠﴾ إِلَى الْحَقِّ^(١). ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَنْتُمْ»، أَي: إِيَّامًا كَاتِمًا بِهَا بِإِرسَالِنَا ﴿فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيْكُمْ﴾ يُطَهِّرُكُمْ مِّنَ الشَّرِّ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٥١﴾ فَادْكُرُونِي﴾ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْبِيحِ وَنَحْوِهِ ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ: أَجَازِيْكُمْ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنِ اللَّهِ: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْ مَلَأَةٍ»^(٢). ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ نِعْمَتِي بِالطَّاعَةِ ﴿وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ بِالْمَعْصِيَةِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ عَلَى الْآخِرَةِ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ لِتَكَرُّرِهَا وَعَظَمِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٣﴾ بِالْعَوْنِ^(٣) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هُمْ ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَاءُ﴾ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ^(٤) ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾ تَعْلَمُونَ مَا هُمْ فِيهِ ﴿وَلَتَبْلُغَنَّكُمْ بَشَىءٌ مِّنَ الْخَوْفِ﴾ لِلْعَدُوِّ ﴿وَالْجُوعِ﴾ الْقَحْطِ ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ بِالْهَلَاكِ ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْمَوْتِ وَالْأَمْرَاضِ ﴿وَالشَّمَرَاتِ﴾ بِالْجَوَائِحِ، أَي: لَنَخْتَبِرَنَّكُمْ فَنَنْظُرَ أَنْصَبِرُونَ أَمْ لَا ﴿وَنَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ عَلَى الْبَلَاءِ بِالْجَنَّةِ. ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

(١) و«العل» و«عسى» من الله واجب. [صديق حسن (١/ ٣١٤)].

(٢) يعني بالحكمة: السنن والفقه في الدين. [الطبري (٢/ ٦٩٤)].

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). فأمر تعالى المؤمنين بذكره، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملاء الأعلى على مَنْ ذَكَرَهُ.

(٤) أي: بالعون والنصر وإجابة الدعوة، وهذه المعية التي أوضحها الله فيها أعظم ترغيب لعباده سبحانه إلى لزوم الصبر على ما ينوب من الخطوب فمن كان الله معه لم يخش من الأهوال، وإن كانت كالجبال، وهذه المعية خاصة بالمتقين والمحسنين والصابرين، وأما المعية بالعلم والقدرة فهي عامة في حق كل أحد كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾. [صديق حسن (١/ ٣١٧)].

(٥) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فِي حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضِرَ تَسْرُحُ فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى فَنَادِيلٍ مُّعَلَّقَةٍ بِالْعَرْشِ». أخرجه مسلم (١٨٨٧).

مُصِيبَةٍ ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ مُلْكًا وَعَبِيدًا، يَفْعَلْ بِنَا مَا يَشَاءُ﴾ ﴿وَأَنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيَجَازِينَا، فِي الْحَدِيثِ: «مَنْ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ أَجْرَهُ اللَّهُ فِيهَا، وَأَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ خَيْرًا»^(١)، وَفِيهِ أَنَّ مُصْبِحَ النَّبِيِّ ﷺ طَفِيَ فَاَسْتَرْجَعَ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّمَا هَذَا مُصْبِحٌ، فَقَالَ: «كُلُّ مَا سَاءَ الْمُؤْمِنَ فَهُوَ مُصِيبَةٌ»^(٢)، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي مَرَاْسِيْلِهِ. ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ نِّعْمَةٌ﴾ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ إِلَى الصَّوَابِ. ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ جَبَلَانِ بِمَكَّةَ﴾ ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ﴿أَعْلَامُ دِينِهِ، جَمْعُ «شَعِيرَةٍ»﴾ ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أَيُّ: تَلَبَّسَ بِالْحَجِّ أَوْ الْعُمْرَةِ، وَأَصْلُهُمَا الْقَصْدُ وَالزِّيَارَةُ ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ إِنْ «عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ» فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ ﴿بِهِمَا﴾ بِأَنْ يَسْعَى بَيْنَهُمَا سَبْعًا، نَزَلَتْ لَمَّا كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا وَعَلَيْهِمَا صَنَمَانِ يَمَسُحُونَهُمَا، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ السَّعْيَ غَيْرُ فَرَضٍ، لَمَّا أَفَادَهُ رَفْعُ الْإِثْمِ مِنَ التَّخْيِيرِ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَغَيْرُهُ: رُكْنٌ، وَبَيَّنَّ ﷺ فَرَضِيَّتَهُ بِقَوْلِهِ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ». رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ^(٣)، وَقَالَ: «إِبْدَأُوا بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»، يَعْنِي الصَّفَا، رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٤) ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتِيةِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ مَجْزُومًا، وَفِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِيهَا ﴿خَيْرًا﴾ أَيُّ: بِخَيْرٍ، أَيُّ: فَعَمِلَ مَا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ مِنْ طَوَافٍ وَغَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ لِعَمَلِهِ بِالْإِثَابَةِ عَلَيْهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿١٥٨﴾ بِهِ. وَنَزَلَ فِي الْيَهُودِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ النَّاسَ ﴿مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ كَايَةِ الرَّجْمِ وَنَعَتِ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ﴾ التَّوْرَةَ ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ يُبْعِدُهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ﴾ ﴿١٥٩﴾ الْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ، أَوْ كُلُّ شَيْءٍ بِالْإِذْنِ عَلَيْهِمُ بِاللَّعْنَةِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلُهُمْ ﴿وَبَيَّنَّا﴾ مَا كَتَمُوا ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ أَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦٠﴾

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (١٤٢١)، والطبري في «التفسير» (٢٣٢٩)، بلفظ: «مَنْ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ؛ جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَهُ، وَأَحْسَنَ عُقْبَاهُ، وَجَعَلَ لَهُ خَلْفًا يَرْضَاهُ».

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (ص: ٣١٣) مرسلاً. بلفظ: «كُلُّ شَيْءٍ سَاءَ الْمُؤْمِنَ فَهُوَ مُصِيبَةٌ».

(٣) الصلوات اختلف العلماء في معناها، ولكن أصح الأقوال فيها أن المراد بها الثناء عليهم في الملائع الأعلى، فالمعنى أن الله يشي على هؤلاء في الملائع الأعلى رفعاً لذكورهم وإعلاءً لشأنهم. وعطف الرحمة على الصلوات يدل على أنها مغايرة، ويدل على ضعف من قال إن الصلاة من الله بمعنى الرحمة. والرحمة إما حصول مطلوب وإما زوال مكروه، فهنا الرحمة تشمل الأمرين. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١٨٢/٢)].

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في الأحاد والمثاني (٣٤٥٤)، والطبراني (٥٢٩)، وأبو نعيم في المعرفة (٧٥٨٩)، والبيهقي (٩٨/٥).

(٥) أخرجه مسلم (١٢١٨). بلفظ: «تَبَدُّأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ».

بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ حَالٌ ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣١) ﴿أَيُّ: هُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالنَّاسُ قِيلَ: عَامٌّ، وَقِيلَ: الْمُؤْمِنُونَ ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: اللَّعْنَةُ وَالنَّارِ الْمَدْلُولِ بِهَا عَلَيْهَا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ طَرْفَةَ عَيْنٍ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ (١٣٢) ﴿يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْدَرَةٍ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: «صِفْ لَنَا رَبَّكَ» ﴿وَاللَّهُكُمْ﴾ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْكُمْ ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لَا نَظِيرَ لَهُ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هُوَ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (١٣٣) (١). وَطَلَبُوا آيَةً عَلَى ذَلِكَ، فَتَزَلَّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ﴿وَالْفُلْكِ﴾ السُّفُنِ ﴿الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ وَلَا تَرْسُبُ (٢)، مُوقَرَةٌ ﴿بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ مِنَ التَّجَارَاتِ وَالْحَمَلِ ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ مَطَرٍ ﴿فَاحْيَا بِهِ الْأَرْضُ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِهَا ﴿وَبَتْ﴾ فَرَقَ وَنَشَرَ بِهِ ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ لِأَنَّهُمْ يَنْمُونَ بِالْخِصْبِ الْكَائِنِ عَنْهُ ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ تَقْلِيلِهَا جَنُوبًا وَشَمَالًا حَارَّةً وَبَارِدَةً ﴿وَالسَّحَابِ﴾ الْغَيْمِ ﴿الْمُسَخَّرِ﴾ الْمَذَلَّلِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى يَسِيرُ إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بِلَا عِلَاقَةٍ (٣) ﴿لَا يَتِ﴾ دَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١٣٤) يَتَدَبَّرُونَ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿أَنْدَادًا﴾ أَصْنَامًا ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بِالْتَعْظِيمِ وَالْخُضُوعِ ﴿كَحُبِّ اللَّهِ﴾ أَيُّ: كَحُبِّهِمْ لَهُ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ مِنْ حُبِّهِمْ لِلْأَنْدَادِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْدِلُونَ عَنْهُ بِحَالٍ مَا، وَالْكُفَّارُ يَعْدِلُونَ فِي الشَّدَّةِ إِلَى اللَّهِ ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ تُبْصِرُ يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِاتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ ﴿إِذْ يَرَوْنَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ: يُبْصِرُونَ ﴿الْعَذَابَ﴾ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا، وَ﴿إِذْ﴾ بِمَعْنَى: إِذَا ﴿أَنَّ﴾ أَيُّ: لِأَنَّ ﴿الْقُوَّةَ﴾ الْقُدْرَةَ وَالْغَلْبَةَ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حَالٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ (١٣٥)

(١) أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو له، ولا مثل، ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل حي. [السعدي (ص: ٧٧)].

(٢) الفلك: اسم للجمع والواحد فإذا أريد به الجمع يؤنث، وإذا أريد به الواحد يذكر، وقد ورد بالصيغتين في القرآن، والمرادها هنا الجمع. والآية في الفلك تسخيرها وجريها على وجه الماء. وهي موقرة مثقلة لا ترسب تحت الماء بل تعلو على وجه الماء. [السمعاني (١/ ١٦٣)].

(٣) أي: الغيم المذلل، سمي سحاباً لانسحابه في الهواء وسحبت ذيلي سحباً وتسحب فلان على فلان اجترأ، والمسخر المذلل، وسخره بعثه من مكان إلى آخر، وقيل: تسخيره ثبوته بين السماء والأرض من غير عمد ولا علائق، والأول أظهر، والآية في ذلك أن السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة يبقى معلقاً بين السماء والأرض بلا علاقة تمسكه ولا دعامة تسنده. [صديق حسن (١/ ٣٣٠)].

وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَرَى﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْفَاعِلُ قِيلَ: ضَمِيرُ السَّامِعِ، وَقِيلَ: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فَهِيَ بِمَعْنَى: يَعْلَمُ، وَ﴿أَنَّ﴾ وَمَا بَعْدَهَا سَدَّتْ مَسَدَ الْمَفْعُولَيْنِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: لَوْ عَلِمُوا فِي الدُّنْيَا شِدَّةَ عَذَابِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْقُدْرَةَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَقَتَ مُعَايَنَتِهِمْ لَهُ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَمَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُنْدَادًا. ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿تَبَرَّأَ﴾ الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَيِ: الرُّؤَسَاءِ ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أَيِ: أَنْكَرُوا إِضْلَالَهُمْ ﴿و﴾ قَدْ رَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ عَظِفَ عَلَى ﴿تَبَرَّأَ﴾ بِهَمْزٍ عَنْهُمْ ﴿الْأَسْبَابُ ١٦٦﴾ أَلُوَصَلُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْحَامِ وَالْمَوَدَّةِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ رَجَعَةً إِلَى الدُّنْيَا فَتَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْمَتَّبِعِينَ ﴿كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا﴾ الْيَوْمَ، وَ﴿لَوْ﴾ لِلتَّمَنِّي وَ«نَتَبَرَّأَ» جَوَابُهُ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيِ: كَمَا أَرَاهُمْ شِدَّةَ عَذَابِهِ، وَتَبَرَّأَ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ السَّيِّئَةَ ﴿حَسَرَاتٍ﴾ حَالٌ، نَدَامَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ بَعْدَ دُخُولِهَا. وَنَزَلَ فِيمَنْ حَرَّمَ السَّوَائِبَ وَنَحَوَهَا: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَلًا﴾ حَالٌ ﴿طَيِّبًا﴾ صِفَةُ مُؤَكَّدَةٍ، أَيِ: مُسْتَلَذًا ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ﴾ طُرُقِ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ أَيِ: تَزِينُهُ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨﴾ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ. ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ الْإِثْمِ ﴿وَالْفَحْشَاءِ﴾ الْقَبِيحِ شَرْعًا ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ١٦٩﴾ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ وَغَيْرِهِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ، وَتَحْلِيلِ الطَّيِّبَاتِ ﴿قَالُوا﴾ لَا ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا﴾ وَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَتَحْرِيمِ السَّوَائِبِ وَالْبَحَائِرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَتَّبِعُونَهُمْ﴾ وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ إِلَى الْحَقِّ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿وَمَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) تنازع المعتزلة والأشاعرة في مسألة التحسين والتقييح، فقالت المعتزلة بالتحسين والتقييح العقليين، وقرروا أن الله يعذب الناس قبل ورود الشرع، وخالفوا قول الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ونفت الأشاعرة حسن الأشياء وقبحها بالعقل، وقالوا: الأفعال قبل ورود الشرع سواء في الحسن والقبح، وإنما يعرف حسنها وقبحها بالشرع وحده، وأجازوا أن يأمر الله سبحانه بالشرك والظلم والزنا والفواحش، وإنما كانت هذه محرمة لورود الشرع بالنهاي عنها، فدل الشرع على قبحها، أما العقل وحده فلا يدل على قبحها، وخالفوا قول الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله عز وجل: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وتكلم الأشاعرة في جواز أن يكلف الله العباد ما لا يطيقون فعله، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا أن للأفعال حسنا وقبحا ذاتيين يمكن إدراكه بالعقل كما يدرك بالشرع، وقرروا أن التكليف والعقاب لا يكون إلا بعد ورود الشرع، فلا يترتب ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي، فالفعل القبيح كالشرك والظلم والزنا هو قبيح في نفسه، ولا يمكن أن يأمر الله به، وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون موجبا للعقاب؛ فالله لا يعاقب الناس على فعل القبائح إلا بعد إرسال الرسل.

وَمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعُقُ﴾ يُصَوَّتُ ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ﴾ أَي: صَوْتًا وَلَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ، أَي: فِي سَمَاعِ الْمَوْعِظَةِ وَعَدَمِ تَدَبُّرِهَا كَالْبَهَائِمِ تَسْمَعُ صَوْتَ رَاعِيهَا وَلَا تَفْهَمُهُ^(١)، هُمْ ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٧٦) الْمَوْعِظَةُ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ﴾ حَلَالَاتِ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ عَلَى مَا أَحَلَّ لَكُمْ ﴿إِن كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٧٧) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴿أَي: أَكْلَهَا، إِذِ الْكَلَامُ فِيهِ، وَكَذَا مَا بَعْدَهَا، وَهِيَ مَا لَمْ يُذَكَّرْ شَرْعًا، وَالْحَقُّ بِهَا بِالسُّنَّةِ مَا أُبَيِّنَ مِنْ حَيٍّ، وَخُصَّ مِنْهَا السَّمَكُ وَالْجَرَادُ﴾^(٧٨) ﴿وَالْدَّمَ﴾ أَي: الْمُسْفُوحَ كَمَا فِي «الْأَنْعَامِ»^(٧٩) ﴿وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ﴾ خُصَّ اللَّحْمُ؛ لِأَنَّهُ مُعْظَمُ الْمَقْصُودِ، وَغَيْرُهُ تَبَعٌ لَهُ ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ أَي: ذُبِحَ عَلَى إِسْمِ غَيْرِهِ، وَالْإِهْلَالُ: رَفْعُ الصَّوْتِ. وَكَانُوا يَرْفَعُونَهُ عِنْدَ الذَّبْحِ لِإِلَهَتِهِمْ ﴿فَمِنْ اضْطُرَّ﴾ أَي: أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَةُ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِّمَّا ذُكِرَ، فَأَكَلَهُ ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ خَارِجٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مُتَعَدِّ عَلَيْهِمْ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فِي أَكْلِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾^(٨٠) بِأَهْلِ طَاعَتِهِ، حَيْثُ وَسَّعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ، وَخَرَجَ الْبَاغِي وَالْعَادِي، وَيُلْحَقُ بِهِمَا كُلُّ عَاصٍ بِسَفَرِهِ كَالْأَبْقِ وَالْمَكَاسِ، فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ أَكْلُ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مَا لَمْ يَتُوبُوا، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الْمُشْتَمِلِ عَلَى نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا يَأْخُذُونَهُ بِدَلَّةٍ مِنْ سَفَلَتِهِمْ، فَلَا يُظْهِرُونَهُ خَوْفَ فَوْتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾؛ لِأَنَّهَا مَا لَهُمْ ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يُظَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٨١) مُؤْلَمٌ هُوَ النَّارُ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أَخَذُوهَا بِدَلَّةٍ فِي الدُّنْيَا ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ الْمَعْدَّةُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ لَوْ لَمْ يَكْتُمُوا ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾^(٨٢) أَي: مَا أَشَدَّ صَبْرَهُمْ! وَهُوَ تَعَجُّبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِرْتِكَابِهِمْ مُوجِبَاتِهَا مِنْ غَيْرِ مُبَالَاهٍ، وَإِلَّا فَأَيُّ صَبْرٍ لَهُمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي ذُكِرَ مِنْ أَكْلِهِمُ النَّارَ وَمَا بَعْدَهُ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿نَزَّلَ﴾ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضِهِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِهِ بِكُتْمِهِ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ بِذَلِكَ، وَهُمْ الْيَهُودُ، وَقِيلَ: الْمُشْرِكُونَ فِي الْقُرْآنِ حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ: شَعْرٌ، وَبَعْضُهُمْ: سِحْرٌ، وَبَعْضُهُمْ: كَهَانَةٌ ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ خِلَافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾^(٨٣) عَنِ

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد. وقيل: مثل الكافر في دعاء آلهته التي يعبدونها من دون الله كمثل راعي البهيمة يسمع صوتها ولا يفهمه،

وهذا قول ابن زيد. [الماوردي (١/ ٢٢١)].

(٢) سورة الأنعام آية (١٤٥).

الْحَقُّ. ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ نَزَلَ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى حَيْثُ زَعَمُوا ذَلِكَ ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ أَيُّ: ذَا الْبِرِّ، وَقُرِئَ: بَفَتْحِ الْبَاءِ^(١)، أَيُّ: الْبَارَّ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أَيُّ: الْكُتُبِ ﴿وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ مَعَ ﴿حَبِهِ﴾ لَهُ ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ الْقَرَابَةِ ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَى السَّبِيلِ﴾ الْمُسَافِرِ ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ الطَّالِبِينَ ﴿وَفِي﴾ فَكَّ ﴿الرِّقَابِ﴾ الْمَكَاتِبِينَ وَالْأَسْرَى ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ، وَمَا قَبْلَهُ فِي التَّطَوُّعِ ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ اللَّهُ، أَوِ النَّاسَ ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ ﴿فِي الْبِئْسَاءِ﴾ شِدَّةِ الْفَقْرِ ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الْمَرَضِ ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ وَقَتِ شِدَّةِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي إِيْمَانِهِمْ أَوْ ادِّعَاءِ الْبِرِّ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ٧٧ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ الْمُمَائِلَةُ ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ وَصَفًا وَفِعْلًا ﴿الْأَخْرَى﴾ يُقْتَلُ ﴿بِالْأَخْرِ﴾ وَلَا يُقْتَلُ بِالْعَبْدِ ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى﴾ وَيَنْتِ السُّنَّةُ أَنَّ الذَّكَرَ يُقْتَلُ بِهَا، وَأَنَّهُ تُعْتَبَرُ الْمُمَائِلَةُ فِي الدِّينِ، فَلَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ وَلَوْ عَبْدًا بِكَافِرٍ وَلَوْ حُرًّا ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ﴾ مِنَ الْقَاتِلِينَ ﴿مِنْ﴾ دَمٍ ﴿أَخِيهِ﴾ الْمَقْتُولِ ﴿شَيْءٌ﴾ بِأَنْ تَرَكَ الْقِصَاصَ مِنْهُ، وَتَنْكِيرُ ﴿شَيْءٌ﴾ يُفِيدُ سَقُوطَ الْقِصَاصِ بِالْعَفْوِ عَنْ بَعْضِهِ، وَمِنْ بَعْضِ الْوَرَثَةِ، وَفِي ذِكْرِ ﴿أَخِيهِ﴾ تَعَطُّفٌ دَاعٍ إِلَى الْعَفْوِ، وَإِذَا بَانَ الْقَتْلُ لَا يَقْطَعُ أُخُوَّةُ الْإِيْمَانِ، وَ﴿مَنْ﴾ مُبْتَدَأٌ شَرْطِيَّةٌ، أَوْ مَوْصُولَةٌ، وَالْخَبَرُ: ﴿فَاتَّبَاعُ﴾ أَيُّ: فَعَلَى الْعَافِيِ اتِّبَاعٌ لِلْقَاتِلِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِأَنْ يُطَالِبَهُ بِالِدِّيَّةِ بِلا عُنْفٍ، وَتَرْتِيبُ الْإِتِّبَاعِ عَلَى الْعَفْوِ يُفِيدُ أَنَّ الْوَاجِبَ أَحَدُهُمَا، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، وَالثَّانِي الْوَاجِبُ الْقِصَاصُ وَالِدِّيَّةُ بَدَلُ عَنْهُ، فَلَوْ عَفَا وَلَمْ يُسَمِّهَا فَلَا شَيْءَ وَرُجِّحَ ﴿وَ﴾ عَلَى الْقَاتِلِ ﴿أَدَاءُ﴾ الدِّيَّةِ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيُّ: الْعَافِيِ وَهُوَ الْوَارِثُ ﴿يَا حَسَنُ﴾ بِلا مَطْلٍ وَلَا بَخْسٍ ﴿ذَلِكَ﴾ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ مِنْ جَوَازِ الْقِصَاصِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ عَلَى الدِّيَّةِ ﴿تَخْفِيفٌ﴾ تَسْهِيلٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ عَلَيْكُمْ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ بِكُمْ حَيْثُ وَسَّعَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يُحْتَمَ وَاحِدًا مِنْهُمَا، كَمَا حَتَمَ عَلَى الْيَهُودِ الْقِصَاصَ، وَعَلَى النَّصَارَى الدِّيَّةَ ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ﴾ ظَلَمَ الْقَاتِلُ بِأَنْ قَتَلَهُ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: الْعَفْوِ ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٧٨ ﴿مُؤْلَمٌ فِي الْآخِرَةِ بِالنَّارِ، أَوْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ. ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أَيُّ: بَقَاءٌ عَظِيمٌ ﴿يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ ذَوِي الْعُقُولِ؛ لِأَنَّ الْقَاتِلَ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَلُ ارْتَدَعَ فَأَحْيَا نَفْسَهُ وَمَنْ أَرَادَ قَتْلَهُ^(٢)، فَشَرَعَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ٧٩ ﴿الْقَتْلُ

(١) قراءة شاذة.

(٢) من جوامع الكلم فاق ما كان سائرا مسرى المثل عند العرب، وهو قولهم: القتل أنفى للقتل. [ابن عاشور (٢/ ١٤٥)]. كلام في غاية

مَخَافَةَ الْقَوْدِ. ﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَي: أَسْبَابُهُ ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مَا لَا ﴿الْوَصِيَّةَ﴾ مَرْفُوعٌ بِـ ﴿كُتِبَ﴾ وَمُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿إِذَا﴾ إِنْ كَانَتْ ظَرْفِيَّةً، وَدَالٌ عَلَى جَوَابِهَا إِنْ كَانَتْ شَرْطِيَّةً، وَجَوَابُ ﴿إِنْ﴾ مَحذُوفٌ، أَي: فَلْيُوصِ ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِالْعَدْلِ بَأَنْ لَا يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ، وَلَا يُفْضِلَ الْغَنَى ﴿حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝١٨﴾ اللَّهُ، وَهَذَا مَنسُوخٌ بِآيَةِ الْوَصِيَّةِ، وَبِحَدِيثٍ: «لَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١). ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أَي: الْأَيَّامَ مِنْ شَاهِدٍ وَوَصِيٍّ ﴿بَعْدَ مَا سَمِعَهُ﴾ عِلْمَهُ ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ أَي: الْأَيَّامُ الْمُبَدَّلِ ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ فِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِ الْمُوصِي ﴿عَلِيمٌ ۝١٩﴾ بِفِعْلِ الْوَصِيِّ، فَمَجَازٌ عَلَيْهِ. ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ﴾ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا ﴿جَنَفًا﴾ مِيلًا عَنِ الْحَقِّ خَطَأً ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ بَأَنْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الثَّلَاثِ، أَوْ تَخَصَّصَ غَنِيًّا مَثَلًا ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْمُوصِي وَالْمُوصَى لَهُ بِالْأَمْرِ بِالْعَدْلِ ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٢٠﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ ﴿فُرِضَ﴾ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الْأُمَمِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١﴾ الْمَعَاصِي، فَإِنَّهُ يَكْسِرُ الشَّهْوَةَ الَّتِي هِيَ مَبْدُؤُهَا. ﴿أَيَّامًا﴾ نُصِبَ بِـ ﴿الصِّيَامِ﴾ أَوْ «بِصُومُوا» مُقَدَّرًا ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ أَي: قَلَائِلَ أَوْ مُوَقَّاتٍ بَعْدَ مَعْلُومٍ، وَهِيَ رَمَضَانُ كَمَا سَيَأْتِي، وَقَلَّةٌ تَسْهِيلًا عَلَى الْمُكَلَّفِينَ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ حِينَ شُهِدَ «مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ» أَي: مُسَافِرًا سَفَرَ الْقَصْرِ، وَأَجْهَدُهُ الصَّوْمُ فِي الْحَالَيْنِ فَأَفْطَرَ ﴿فَعِدَّةٌ﴾ فَعَلَيْهِ عِدَّةٌ مَا أَفْطَرَ ﴿مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ يَصُومُهَا بَدَلَهُ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ لَا يُطِيقُونَهُ﴾ لِكِبَرٍ أَوْ مَرَضٍ لَا يُرْجَى بُرُؤُهُ ﴿فِدْيَةٌ﴾ هِيَ ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ أَي: قَدْرُ مَا يَأْكُلُهُ فِي يَوْمِهِ، وَهُوَ مُدٌّ مِنْ غَالِبِ قُوَّةِ الْبَلَدِ لِكُلِّ يَوْمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِإِضَافَةٍ: ﴿فِدْيَةٌ﴾ وَهِيَ لِلْيَبَانِ، وَقِيلَ «لَا» غَيْرُ مُقَدَّرَةٍ وَكَانُوا مُخَيَّرِينَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْفِدْيَةِ، ثُمَّ نَسَخَ بِتَعْيِينِ الصَّوْمِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِلَّا الْحَامِلُ وَالْمُرْضِعُ إِذَا أَفْطَرَا خَوْفًا عَلَى الْوَلَدِ فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ بِلَا نَسْخٍ فِي حَقِّهِمَا ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْقَدْرِ الْمَذْكُورِ فِي الْفِدْيَةِ ﴿فَهُوَ﴾ أَي: التَّطَوُّعُ ﴿خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا﴾ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنَ الْإِفْطَارِ وَالْفِدْيَةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ فافْعَلُوهُ. تِلْكَ الْأَيَّامُ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي

الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة، ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوعا من الحياة عظيما، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتصر من القاتل سلم الباقون فيكون ذلك سببا لحياتهم. [البيضاوي (١/١٢٢)].

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢٩٤)، وأبو داود (٣٥٦٥)، والتِّرْمِذِيُّ (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣).

أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴿مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْهُ﴾ (هُدَى) حَالٌ، هَادِيًا مِنَ الضَّلَالَةِ

(١) الاتفاق حاصل والإجماع قائم على صفة نزول القرآن الكريم المباشر على الرسول ﷺ وأنه نزل منجماً مفزاً من بعثته ﷺ إلى قرب وفاته ينزل أحياناً ابتداء بغير سبب وهو أكثر القرآن الكريم وأحياناً أخرى ينزل مرتبطاً بالأحداث والوقائع والأسباب. وأما نزوله جملة فهو ظاهر القرآن في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، فهو أنزل في ليلة اسمها ليلة القدر، وصفها أنها مباركة، وشهرها شهر رمضان. وهو صريح الأخبار الواردة عن ابن عباس رضيهما الله عنهما، والتي لها حكم الرفع إلى الرسول ﷺ. ومادام أن النزول جملة لا يعارض صراحة النزول السابق، ولا يرتبط به من خلال تلك النصوص. بل هو نزول خاص، ووجود معين حيث القرآن الكريم كلام الله ومنزل من عند الله يتلقاه جبريل عليه السلام من الله بلا واسطة عند نزوله به على الرسول ﷺ مباشرة. وإن كان قد نزل به إلى بيت العزة فذلك نزول خاص. وأحد وجودات القرآن الكريم المتعددة. حيث يوجد القرآن الكريم في اللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ويوجد أيضاً في الصحف المطهرة الموجودة في أيدي الكرام البررة من الملائكة كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ١١-١٦]، ويوجد كذلك في بيت العزة من السماء الدنيا كما دلت على ذلك الأخبار عن ابن عباس رضيهما الله عنهما. كما يوجد في الأرض بنزوله على الرسول ﷺ والنزول مقترن بما عدا الأول من الوجودات المذكورة. يقول البيهقي رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ يريد به والله أعلم إنا أسمعناه الملك، وأفهمناه إياه، وأنزلناه بما سمع فيكون الملك متقللاً به من علو إلى سفلى. (الأسماء والصفات للبيهقي ١/ ٣٦٢). ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد عرضٍ قرر فيه أن القرآن الكريم كلام الله منزل من عند الله كما هو صريح القرآن، قال: فعلم أن القرآن العربي منزل من الله ... وهذا لا ينافي ما جاء عن ابن عباس رضيهما الله عنهما وغيره من السلف في تفسير قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أنه أنزله إلى بيت العزة في السماء الدنيا، ثم أنزله بعد ذلك منجماً مفزاً بحسب الحوادث. ولا يتنافى أنه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل نزوله، ... فإن كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ وفي صحف مطهرة بأيدي الملائكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله سواء كتبه الله قبل أن يرسل به جبريل أو بعد ذلك وإذا كان قد أنزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل أن ينزله. (مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٢/ ١٢٦). فعلى هذا الوجه لا إشكال في القول بأن للقرآن تنزليين: نزول جملة، ونزول مفز، ولا يترتب عليه محذور. وإنما يقع المحذور ويحصل الإشكال في القول بأن جبريل يأخذ القرآن من الكتاب أو من بيت العزة عند نزوله به على الرسول ﷺ من دون سماع من الله تعالى. ومثل هذا الفهم لا يصح. فهو أولاً: لم يرد في تلك النصوص المفسرة والمفصلة لنزول القرآن جملة. وثانياً: أنه يلزم منه أن جبريل عليه السلام لم يسمع القرآن من الله عز وجل وأن القرآن نزل من مخلوق لا من الله وهذا باطل. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنبي ﷺ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل عليه به، وجبريل سمعه من الله تعالى، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة. قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] ... فبين أن جبريل نزل به من الله لا من هواء، ولا من لوح، ولا غير ذلك، وكذلك سائر آيات

﴿لِّلنَّاسِ وَبَيَّنَّتْ﴾ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ ﴿مِّنَ الْهُدَى﴾ مِمَّا يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿و﴾ مِنَ ﴿الْفُرْقَانِ﴾ مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾ حَضَرَ ﴿مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ، وَكُرِّرَ لِنَلَا يُتَوَهَّمُ نَسْخُهُ بِتَعْمِيمٍ «مَنْ شَهِدَ»، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وَلِذَا أَبَاحَ لَكُمْ الْفِطْرَ فِي الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ، وَلِكُونَ ذَلِكَ فِي مَعْنَى الْعِلَّةِ أَيْضًا لِلْأَمْرِ بِالصَّوْمِ، عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَلِتُكْمِلُوا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿الْعِدَّةَ﴾ أَي: عِدَّةَ صَوْمِ رَمَضَانَ ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ عِنْدَ إِكْمَالِهَا ﴿عَلَى مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٨٥﴾ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ. وَسَأَلَ جَمَاعَةُ النَّبِيِّ ﷺ: أَقَرِيبُ رَبَّنَا فَنُنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدُ فَنُنَادِيهِ؟ فَتَزَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ مِنْهُمْ بِلِقَائِي، فَأَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ ^(١) ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ بِإِنَالَتِهِ مَا سَأَلَ ﴿إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ دُعَائِي بِالطَّاعَةِ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ يُدَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِئِذٍ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾ يَهْتَدُونَ. ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ﴾ بِمَعْنَى الْإِفْضَاءِ ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ بِالْجِمَاعِ، نَزَلَ نَسْخًا لِمَا كَانَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ عَلَى تَحْرِيمِهِ وَتَحْرِيمِ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ بَعْدَ الْعِشَاءِ ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ كِنَايَةٌ عَنْ تَعَانُقِهِمَا، أَوْ اخْتِيجَ كُلُّ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ تَخُونُونَ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بِالْجِمَاعِ لَيْلَةَ الصِّيَامِ، وَقَعَ ذَلِكَ لِعُمُرٍ وَغَيْرِهِ، وَاعْتَذَرُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِكُمْ ﴿وَعَفَا عَنْكُمْ فَاَلَنْ﴾ إِذْ أُحِلَّ لَكُمْ

القرآن كقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. فقد بين في غير موضع أنه منزل من الله. فمن قال إنه منزل من بعض المخلوقات كاللوح، والهواء فهو مفتر على الله، مكذب لكتاب الله، متبع لغير سبيل المؤمنين، ثم إن كان جبريل لم يسمعه من الله وإنما وجدته مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل، وكان الكلام كلام جبريل ترجم به عن الله كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاماً ولم يقدر أن يتكلم به، وهذا خلاف دين المسلمين. (مجموع الفتاوى ١٢/٥١٩-٥٢٠). [نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول لمحمد السابع ص: ٣٢. بتصرف].

(١) لأنه تعالى، الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه، بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق. فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة. [السعدي (ص: ٨٧)]. عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياً إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير. قال: فدنا منا فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ أَقْرَبُ إِلَيَّ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». أخرجه البخاري (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿بَشِّرُوهُمْ﴾ جَامِعُوهُمْ ﴿وَابْتَغُوا﴾ اُطْلُبُوا ﴿مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَي: أَبَاحَهُ مِنَ الْجَمَاعِ، أَوْ قَدَرَهُ مِنَ الْوَلَدِ ﴿وَكُلُوا﴾
 وَأَشْرَبُوا ﴿الَّيْلَ كُلَّهُ﴾ حَتَّى يَتَبَيَّنَ ﴿يُظْهَرُ﴾ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ أَي: الصَّادِقِ
 بَيَانٌ لِلْخَيْطِ الْأَبْيَضِ، وَبَيَانُ الْأَسْوَدِ مَحْذُوفٌ، أَي: مِنَ اللَّيْلِ، شَبَّهَ مَا يَدُو مِنَ الْبَيَاضِ وَمَا يَمْتَدُّ مَعَهُ مِنَ الْغَبَشِ
 بِخَيْطَيْنِ أَبْيَضٍ وَأَسْوَدٍ فِي الْإِمْتِدَادِ^(١) ﴿ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ﴾ مِنَ الْفَجْرِ ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ أَي: إِلَى دُخُولِهِ بِغُرُوبِ الشَّمْسِ
 ﴿وَلَا تَبَشِّرُوهُمْ﴾ أَي: نِسَاءَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ مُقِيمُونَ بِنِيَّةِ الْإِعْتِكَافِ ﴿فِي الْمَسْجِدِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿عَاكِفُونَ﴾،
 نَهَى لِمَنْ كَانَ يَخْرُجُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ، فَيَجَامِعُ امْرَأَتَهُ وَيَعُودُ ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ حَدَّهَا لِعِبَادِهِ
 لِيَقْفُوا عِنْدَهَا ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أَلْبَغُ مِنْ ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، الْمَعْبَرُ بِهِ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّ
 لَكُمْ مَا ذَكَرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مَحَارِمُهُ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ أَي: يَأْكُلُ
 بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الْحَرَامِ شَرْعًا، كَالسَّرِقَةِ وَالْغَصْبِ ﴿وَلَا تَدُلُّوا﴾ تَلْقُوا ﴿بِهَا﴾ أَي: بِحُكْمَتِهَا،
 أَوْ بِالْأَمْوَالِ رِشْوَةً ﴿إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا﴾ بِالتَّحَاكُمِ ﴿فَرِيقًا﴾ طَائِفَةً ﴿مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ أَنْكُمْ مُبْطِلُونَ. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنِ الْأَهْلِ﴾ جَمْعُ «هَالٍ» لَمْ تَبْدُ دَقِيقَةً ثُمَّ تَزِيدُ حَتَّى
 تَمْتَلِئَ نُورًا، ثُمَّ تَعُودُ كَمَا بَدَتْ، وَلَا تَكُونُ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَالشَّمْسِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ^(٢): ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ﴾ جَمْعُ مِيقَاتٍ
 ﴿لِلنَّاسِ﴾ يَعْلَمُونَ بِهَا أَوْقَاتَ زَرْعِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ وَعِدَدَ نِسَائِهِمْ وَصِيَامَهُمْ وَإِفْطَارَهُمْ ﴿وَالْحَجَّ﴾ عُطِفَ عَلَى
 «النَّاسِ»، أَي: يُعْلَمُ بِهَا وَقْتُهُ، فَلَوْ اسْتَمَرَّتْ عَلَى حَالَةٍ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾
 فِي الْإِحْرَامِ بَأَنْ تَنْقُبُوا فِيهَا نَقَبًا تَدْخُلُونَ مِنْهُ وَتَخْرُجُونَ وَتَتْرَكُوا الْبَابَ، وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَهُ بَرًّا^(٣) ﴿وَلَكِنَّ

(١) عن عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾، قال: أخذت عقلا أبيض وعقلا أسود، فوضعتهما تحت وسادتي، فنظرت فلم أتيين، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فضحك فقال: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ طَوِيلٌ، إِنَّمَا هُوَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ». أخرجه البخاري (٤٥٠٩)، ومسلم (١٠٩٠).

(٢) الذي قرره أبو السعود والخازن أن الجواب مطابق للسؤال، وفي الآية بيان وجه الحكمة في زيادة الهلال ونقصانه وأن ذلك لأجل بيان المواقيت التي يوقت الناس عباداتهم ومعاملاتهم بها كالصوم والفطر والحج ومدة الحمل والعدة والإجازات والأيمان وغير ذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]، وقيل: هو جواب بغير ما سأل عنه تنبيهًا على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب لا عن سبب الاختلاف، فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها ولا يليق أن تبين له. [صديق حسن (١/٣٨٣)].

(٣) عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء بن عازب يقول: نزلت هذه الآية فينا. كانت الأنصار إذا حجوا فجاؤوا لم يدخلوا من قبل أبواب بيوتهم

الْبَرِّ أَي: ذَا الْبَرِّ ﴿مَنْ أَتَقَى﴾ اللَّهُ بَتَرَكَ مُخَالَفَتِهِ ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فِي الْإِحْرَامِ كَغَيْرِهِ ^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٨٩﴾ تَقُوزُونَ. وَلَمَّا صَدَّ ﷺ عَنِ الْبَيْتِ عَامَ الْحُدَيْيَةِ، وَصَالَحَ الْكُفَّارَ عَلَى أَنْ يَعُودَ الْعَامَ الْقَابِلَ، وَيُخْلُو لَهُ مَكَّةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَتَجْهَزَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاءِ، وَخَافُوا أَنْ لَا تَفِي قُرَيْشٌ وَيَقَاتِلُوهُمْ، وَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالَهُمْ فِي الْحَرَمِ وَالْإِحْرَامِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ، نَزَلَ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ عَلَيْهِمْ بِالْإِتْدَاءِ بِالْقِتَالِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿١٩٠﴾ الَّتِي جَاوَزِينَ مَا حَدَّ لَهُمْ. وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ «بَرَاءة» ^(٢)، أَوْ يَقُولُ: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أَي: مِنْ مَكَّةَ، وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ عَامَ الْفَتْحِ ^(٣) ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشَّرْكَ مِنْهُمْ ^(٤) ﴿أَشَدُّ﴾ أَعْظَمُ ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ لَهُمْ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ الَّذِي اسْتَعْظَمْتُمُوهُ ﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: فِي الْحَرَمِ ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فِيهِ﴾ ﴿فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ فِيهِ ^(٥)، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَا أَلْفٍ فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْقَتْلُ وَالْإِخْرَاجُ ﴿جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا عَنْ الْكُفْرِ وَأَسْلَمُوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿١٩٢﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا

ولكن من ظهورها. فجاء رجل من الأنصار فدخل من قبل بابه، فكأنه غير بذلك، فترلت: ﴿لَيْسَ الْبَرُّ﴾ الآية. أخرجه البخاري (١٨٠٣)، ومسلم (٣٠٢٦).

(١) وإنما ذكر ذلك بعد ذكر الحج لأنه كان عندهم من تمام الحج، وقيل: المعنى ليس البر أن تسألوا عن الأهلة وغيرها مما لا فائدة لكم فيه، فتأتون الأمور على غير ما يجب، فعلى هذا البيوت وأبوابها وظهورها استعارة: يراد بالبيوت المسائل، وبظهورها السؤال عما لا يفيد، وأبوابها السؤال عما يحتاج إليه. [ابن جزي (١/ ١١٢)].

(٢) أي: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

(٣) في هذا نظر، فإن المعروف أن النبي ﷺ لم يُجْلِ أحداً، بل أَمَنَهُمْ وعفى عنهم وخرج من خرج معه إلى حنين. [التعليق على تفسير الجلالين للبراك (ص: ٤٠٥)]. وكانوا يسمون الطلقاء. ينظر: صحيح البخاري (٤٣٣٣)، ومسلم (١٠٥٩)، (١٨٠٩).

(٤) [وقيل: فتنه المؤمن عن دينه أشد عليه من قتله. [ابن جزي (١/ ١١٣)].

(٥) اختلف أهل العلم في ذلك فذهب طائفة إلى أنها محكمة وأنه لا يجوز القتال في الحرم إلا بعد أن يتعدى متعد بالقتال فيه فإنه يجوز دفعه بالمقاتلة له، وهذا هو الحق، وقالت طائفة أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ويجب عن هذا الاستدلال بأن الجمع ممكن هنا ببناء العام على الخاص فيقتل المشرك حيث وجد إلا بالحرم، ومما يؤيد ذلك قوله ﷺ: «إِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ». أخرجه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥). وقد احتج القائلون بالنسخ بقتله ﷺ لابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة، ويجب عنه بأنه وقع في تلك الساعة التي أحل الله لرسوله ﷺ. [صديق حسن (١/ ٣٨٧)].

تَكُونُ ﴿تُوجَدُ﴾ فِتْنَةً ﴿شِرْكٌ﴾^(١) ﴿وَيَكُونُ الدِّينُ﴾ الْعِبَادَةُ ﴿لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ لَا يُعْبَدُ سِوَاهُ ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ﴾ عَنِ الشِّرْكِ
فَلَا تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَلَا عُذُونَ﴾ اِعْتِدَاءٌ بِقَتْلِ أَوْ غَيْرِهِ ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢) وَمَنْ انْتَهَى فَلَيْسَ
بِظَالِمٍ، فَلَا عُذْوَانٌ عَلَيْهِ. ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ﴾ الْمُحَرَّمُ مُقَابِلُ ﴿بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ فَكَمَا قَاتَلُوكُمْ فِيهِ فَاقْتُلُوهُمْ فِي مِثْلِهِ،
رَدٌّ لِاسْتِعْظَامِ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ ﴿وَالْحُرْمَتُ﴾ جَمْعُ حُرْمَةٍ: مَا يَجِبُ احْتِرَامُهُ ﴿قِصَاصٌ﴾ أَيُّ: يُقْتَصُّ بِمِثْلِهَا إِذَا
انْتَهَكَتْ ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بِالْقِتَالِ فِي الْحَرَمِ أَوْ الْإِحْرَامِ أَوْ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى
عَلَيْكُمْ﴾ سَمَّى مُقَابَلَتَهُ اِعْتِدَاءً لِسَبِّهَا بِالْمُقَابِلِ بِهِ فِي الصُّورَةِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي الْإِنْصَارِ وَتَرَكَ الْاِعْتِدَاءَ ﴿وَأَعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طَاعَتِهِ بِالْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ
أَيُّ: أَنْفُسَكُمْ، وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ﴾ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴿الْهَلَاكُ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ أَوْ تَرْكِهِ؛ لِأَنَّهُ يَقْوَى الْعَدُوَّ عَلَيْكُمْ
﴿وَأَحْسِنُوا﴾ بِالنَّفَقَةِ وَغَيْرِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٤) أَيُّ: يُشِيهِمُ^(٥). ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أَدَّوهُمَا
بِحَقِّقِهِمَا ﴿فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ﴾ مُنِعْتُمْ عَنْ إِتِمَامِهَا بَعْدُو ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيْسَرَ ﴿مِنْ الْهَدْيِ﴾ عَلَيْكُمْ وَهُوَ شَاةٌ ﴿وَلَا
تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ أَيُّ: لَا تَحْلَلُوا ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ الْمَذْكُورُ﴾^(٦) حَيْثُ يَحِلُّ ذَبْحُهُ، وَهُوَ مَكَانُ
الْإِحْصَارِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَيَذْبَحُ فِيهِ بَنِيَّةُ التَّحْلُلِ وَيُفَرِّقُ عَلَى مَسَاكِينِهِ وَيَخْلُقُ، وَبِهِ يَحْصُلُ التَّحْلُلُ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ
مَرِيضًا أَوْ بِهِ آذَى مِنْ رَأْسِهِ﴾ كَقَمَلٍ وَصُدَاعٍ، فَحَلَقَ فِي الْإِحْرَامِ ﴿فَفِدْيَةٌ﴾ عَلَيْهِ ﴿مِنْ صِيَامٍ﴾ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴿أَوْ
صَدَقَةٍ﴾ بِثَلَاثَةِ أَصْعٍ مِنْ غَالِبِ قُوْتِ الْبَلَدِ عَلَى سِتَّةِ مَسَاكِينَ ﴿أَوْ نُسْكِ﴾ أَيُّ: ذَبْحِ شَاةٍ، وَ﴿أَوْ﴾ لِلتَّخْيِيرِ وَالْحَقُّ بِهِ
مَنْ حَلَقَ لِغَيْرِ عُدْرٍ؛ لِأَنَّهُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ، وَكَذَا مَنْ اسْتَمْتَعَ بِغَيْرِ الْحَلْقِ، كَالطَّيِّبِ وَاللَّبْسِ وَالذَّهْنِ لِعُدْرٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَإِذَا
أَمِنْتُمْ﴾ الْعَدُوَّ بَانَ ذَهَبَ، أَوْ لَمْ يَكُنْ ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ﴾ اسْتَمْتَعَ ﴿بِالْعُمْرَةِ﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ فَرَاغِهِ مِنْهَا بِمَحْظُورَاتِ الْإِحْرَامِ
﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ أَيُّ: إِلَى الْإِحْرَامِ بِهِ، بَانَ يَكُونُ أَحْرَمَ بِهَا فِي أَشْهُرِهِ ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيْسَرَ ﴿مِنْ الْهَدْيِ﴾ عَلَيْهِ، وَهُوَ
شَاةٌ يَذْبَحُهَا بَعْدَ الْإِحْرَامِ بِهِ، وَالْأَفْضَلُ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الْهَدْيَ لِفَقْدِهِ أَوْ فَقْدِ ثَمَنِهِ ﴿فَصِيَامٌ﴾ أَيُّ: فَعَلَيْهِ
صِيَامٌ ﴿ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أَيُّ: فِي حَالِ الْإِحْرَامِ بِهِ، فَيَجِبُ حِينَئِذٍ أَنْ يُحْرِمَ قَبْلَ السَّابِعِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَالْأَفْضَلُ

(١) ﴿حَتَّى لَا تَكُونُ﴾ أَيُّ: لَا تَوْجَدُ فِي الْحَرَمِ ﴿فِتْنَةً﴾ أَيُّ: تَقْوِي بِسَبِّهِ يَفْتَنُونَ النَّاسَ عَنْ دِينِهِمْ، وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ إِظْهَارِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ﴿وَيَكُونُ

الدِّينُ لِلَّهِ﴾ خَالِصًا أَيُّ: لَا يَعْْبُدُ دُونَهُ شَيْءٌ فِي الْحَرَمِ، وَلَا يَخْشَى فِيهِ غَيْرَهُ، فَلَا يَفْتَنُ أَحَدٌ فِي دِينِهِ، وَلَا يُؤْذَى لِأَجْلِهِ. [القاسمي (٢/٥٩)].

(٢) فسر محبة الله بالإثابة، وهذا تأويل وصرف للكلام عن ظاهره وهذه طريقة من ينفي عن الله حقيقة المحبة، ويفسر بها بالثواب أو إرادة

الثواب، وهذه طريقة المؤلف عفا الله عنه كما سيأتي في نظائر هذه الآية. [التعليق والإيضاح للبراك ص: ٤٠٧].

قَبْلَ السَّادِسِ لِكِرَاهَةِ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَلَا يَجُوزُ صَوْمُهَا أَيَّامَ التَّشْرِيقِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إِلَى وَطَنِكُمْ مَكَّةَ أَوْ غَيْرَهَا، وَقِيلَ: إِذَا فَرَعْتُمْ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ، وَفِيهِ التَّفَاتُ عَنِ الْغِيَةِ ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ جُمْلَةٌ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿ذَلِكَ﴾ الْحُكْمُ الْمَذْكُورُ مِنْ وَجُوبِ الْهَدْيِ أَوْ الصِّيَامِ عَلَى مَنْ تَمَتَّعَ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بِأَنْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى دُونِ مَرَحَلَتَيْنِ مِنَ الْحَرَمِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، فَإِنْ كَانَ فَلَا دَمَ عَلَيْهِ وَلَا صِيَامَ وَإِنْ تَمَتَّعَ. وَفِي ذِكْرِ الْأَهْلِ إِشْعَارٌ بِاشْتِرَاطِ الْإِسْتِيطَانِ، فَلَوْ أَقَامَ قَبْلَ أَشْهُرِ الْحَجِّ وَلَمْ يَسْتَوْطِنْ وَتَمَتَّعَ فَعَلَيْهِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَحَدُ وَجْهَيْنِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، وَالثَّانِي لَا وَ«الْأَهْلُ» كِنَايَةٌ عَنِ النَّفْسِ وَالْحَقِّ بِالْمُتَمَتَّعِ فِيمَا ذُكِرَ بِالسَّنَةِ الْقَارِنُ وَهُوَ مَنْ أَحْرَمَ بِالْعُمْرَةِ وَالْحَجِّ مَعًا أَوْ يُدْخِلُ الْحَجَّ عَلَيْهَا قَبْلَ الطَّوَافِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ وَيَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٦٦﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿الْحَجُّ﴾ وَقْتُهُ ﴿أَشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ﴾ سُؤَالٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَعَشْرُ لَيَالٍ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ، وَقِيلَ كُلُّهُ ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ عَلَى نَفْسِهِ ﴿فِيهِنَّ الْحَجُّ﴾ بِالْإِحْرَامِ بِهِ ﴿فَلَا رَفْتٌ﴾ جِمَاعٌ فِيهِ ﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾ مَعَاصٍ ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ خِصَامٌ ﴿فِي الْحَجِّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بَفَتْحِ الْأَوَّلَيْنِ، وَالْمُرَادُ فِي الثَّلَاثَةِ النَّهْيُ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ كَصَدَقَةٍ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ فَيَجْازِيكُمْ بِهِ، وَنَزَلَ فِي أَهْلِ الْيَمَنِ وَكَانُوا يَحْجُونَ بِلَا زَادٍ فَيَكُونُونَ كَلَّا عَلَى النَّاسِ: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ مَا يُبَلِّغُكُمْ لِسَفَرِكُمْ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ مَا يُنْقِى بِهِ سُؤَالَ النَّاسِ وَغَيْرُهُ ﴿وَاتَّقُوا يَأْتُوا أَلْبَبِ﴾ ﴿١٦٧﴾ ذَوِي الْعُقُولِ. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تَطَلُّبُوا ﴿فَضْلًا﴾ رِزْقًا ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بِالتَّجَارَةِ فِي الْحَجِّ، نَزَلَ رَدًّا لِكِرَاهَتِهِمْ ذَلِكَ ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دَفَعْتُمْ ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بَعْدَ الْوُقُوفِ بِهَا ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بَعْدَ الْمَسِيَّتِ بِمُزْدَلِفَةٍ، بِالتَّلْبِيَةِ وَالتَّهْلِيلِ وَالدُّعَاءِ ﴿عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هُوَ جَبَلٌ فِي آخِرِ الْمُزْدَلِفَةِ يُقَالُ لَهُ فُزْحٌ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ ﷺ وَقَفَ بِهِ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَدْعُو حَتَّى أَسْفَرَ جَدًّا. رَوَاهُ مُسْلِمٌ ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ وَمَنَاسِكَ حُجَّهِ، وَالْكَافُ لِلتَّعْلِيلِ﴾ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قَبْلَ هُدَاهُ ﴿لِمَنِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٦٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا﴾ يَا قُرَيْشُ ﴿١٦٩﴾ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أَيُّ: مِنْ عَرَفَةَ بِأَنْ يَقْفُوا بِهَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا يَقْفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ تَرْفَعًا

(١) قيل: احمِلُوا زَادًا فِي السَّفَرِ، وَقِيلَ: تَزَوَّدُوا لِلْآخِرَةِ بِالتَّقْوَى، وَهُوَ الْأَرْجَحُ لِمَا بَعْدَهُ. [ابن جُرَيْجٍ (١/ ١١٥)].

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٣) فيه قولان: أحدهما: أنه أمر للجنس وهم قريش ومن تبعهم كانوا يقفون بالمزدلفة لأنها حرم، ولا يقفون بعرفة مع سائر الناس؛ لأنها حل، ويقولون: نحن أهل الحرم لا نقف إلا بالحرم، فأمرهم الله تعالى أن يقفوا بعرفة مع الناس ويفيضوا منها، وقد كان النبي ﷺ قبل ذلك يقف مع الناس بعرفة؛ توفيقاً من الله تعالى له، والقول الثاني: أنها خطاب لجميع الناس، ومعناها: أفيضوا من المزدلفة إلى منى، فـ ﴿ثُمَّ﴾:

عَنِ الْوُقُوفِ مَعَهُمْ، وَ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرْتِيبِ فِي الذِّكْرِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ. ﴿فَإِذَا قُضِيَتْمْ﴾ أَدَيْتُمْ ﴿مَنَسِكَكُم﴾ عِبَادَاتِ حَجِّكُمْ، بِأَنْ رَمَيْتُمْ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَطُقُتُمْ وَاسْتَقَرَّرْتُمْ بِمِنَى ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ وَالنَّشَاءِ ﴿كَذِكْرِكُمْ ءَابَاءَكُمْ﴾ كَمَا كُنْتُمْ تَذْكُرُونَهُمْ عِنْدَ فَرَاغِ حَجِّكُمْ بِالْمُفَاخَرَةِ ﴿أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ مِنْ ذِكْرِكُمْ إِيَّاهُمْ، وَنَضَبُ ﴿أَشَدَّ﴾ عَلَى الْحَالِ مِنْ ﴿ذِكْرًا﴾ الْمَنْصُوبِ بِـ «اذْكُرُوا» إِذْ لَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ لَكَانَ صِفَةً لَهُ^(١) ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا نَصِيبًا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فَيُؤْتَاهُ فِيهَا﴾ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿نَصِيبٍ﴾. ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ نِعْمَةً ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ هِيَ الْجَنَّةُ ﴿وَقَنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بَعْدَ دُخُولِهَا، وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَلِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَصْدُ بِهِ الْحَثُّ عَلَى طَلَبِ خَيْرِ الدَّارَيْنِ. كَمَا وَعَدَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مِمَّا﴾ مِنْ أَجْلِ ﴿مَا كَسَبُوا﴾ عَمَلُوا مِنَ الْحَجِّ وَالِدُّعَاءِ ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٢) يُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي قَدَرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِحَدِيثِ بِذَلِكَ^(٣). ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ عِنْدَ رَمْيِ الْجَمَرَاتِ ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ أَيُّ: أَيَّامِ التَّشْرِيقِ الثَّلَاثَةِ ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ أَيُّ: اسْتَعْجَلَ بِالنَّفَرِ مِنْ مَنَى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَيُّ: فِي ثَانِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ بَعْدَ رَمْيِ جِمَارِهِ ﴿فَلَا إِنَّمِ عَلَيْهِ﴾ بِالتَّعْجِيلِ ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ بِهَا حَتَّى بَاتَ لَيْلَةَ الثَّلَاثِ وَرَمَى جِمَارَهُ ﴿فَلَا إِنَّمِ عَلَيْهِ﴾ بِذَلِكَ، أَيُّ: هُمْ مُخَيَّرُونَ فِي ذَلِكَ، وَنَفْيُ الْإِثْمِ ﴿لِمَنْ

على هذا القول على بابها من الترتيب، وأما على القول الأول فليست للترتيب، بل للعطف خاصة. [ابن جُرَيْ (١/ ١١٥)].

(١) في هذا الإعراب نظرٌ، والصواب: أَنَّهُ نَائِبٌ عَنِ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٢٨)]. وانظر التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٥).

(٢) يُشِيرُ إِلَى مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: لَا يَتَصَفَّ النَّهَارُ مِنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَقِيلَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ. وَقِيلَ: إِنْ مَقْدَارُ الْيَوْمِ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ لِحَدِيثٍ: «يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى (٦٠٢٥) وَابْنُ حَبَانَ (٧٣٣٣). قَالَ صَدِيقُ حَسَنِ فِي تَفْسِيرِهِ (١/ ٤١١): الْحِسَابُ مَصْدَرُ كَالْمَحَاسِبَةِ وَأَصْلُهُ الْعِدْدُ وَالْمُرَادُ هُنَا الْمَحْسُوبُ سَمِي حِسَابًا تَسْمِيَةً لِلْمَفْعُولِ بِالمَصْدَرِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّ حِسَابَهُ لِعِبَادِهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ سَرِيعٌ مَجِيئُهُ فَبَادَرُوا ذَلِكَ بِأَعْمَالِ الْخَيْرِ، أَوْ أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِسُرْعَةِ حِسَابِ الْخَلَائِقِ عَلَى كَثْرَةِ عِدْدِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ لِيَدُلَّ ذَلِكَ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ عَنْ شَأْنٍ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى آلَةٍ وَلَا إِمَارَةٍ وَلَا مُسَاعَدَةٍ فَيَحَاسِبُهُمْ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] ... وَهَذَا تَمَثِيلٌ لِلسَّرْعَةِ لَا تَعْيِينَ لِمَقْدَارِ زَمَنِ الْحِسَابِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ الْعِبَادَ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ، وَهَذَا أَبْعَدُ، وَقِيلَ: الْمَحَاسِبَةُ الْمَجَازَةُ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ [الطلاق: ٨]، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ سَرِيعُ الْقَبُولِ لِدُعَاءِ عِبَادِهِ وَالْإِجَابَةِ لَهُمْ، وَقِيلَ: مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ إِتْيَانَ الْقِيَامَةِ قَرِيبٌ لَا مُحَالَةَ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى الْمُبَادَرَةِ بِالتَّوْبَةِ وَالدُّعَاءِ وَسَائِرِ الطَّاعَاتِ وَطَلَبِ الْآخِرَةِ.

أَتَقَى ﴿٢٣﴾ اللَّهُ فِي حَجِّهِ؛ لِأَنَّهُ الْحَاجُّ فِي الْحَقِيقَةِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَلَا يُعْجِبُكَ فِي الْآخِرَةِ لِمُخَالَفَتِهِ لِإِعْتِقَادِهِ ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ ﴿٢٥﴾ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ لَكَ وَلَا تَبَاعَكَ لِعِدَاوَتِهِ لَكَ، وَهُوَ الْأَخْسَنُ بِنُ شَرِيقٍ، كَانَ مُنَافِقًا حُلُوَ الْكَلَامِ لِلنَّبِيِّ ﷺ يَخْلِفُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ بِهِ وَمُحِبٌّ لَهُ فَيُذْنِي مَجْلِسَهُ فَأَكْذَبَهُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ. وَمَرَّ بِزَرْعٍ وَحُمُرٍ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَقَهُ وَعَقَرَهَا لَيْلًا^(١)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ انْصَرَفَ عَنْكَ ﴿سَعَى﴾ مَشَى ﴿فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ مِنْ جُمْلَةِ الْفَسَادِ^(٢) ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ ﴿٢٦﴾ أَيُّ: لَا يَرْضَى بِهِ^(٣). ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي فِعْلِكَ ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ حَمَلَتْهُ الْأَنْفَةُ وَالْحَمِيَّةُ عَلَى الْعَمَلِ ﴿بِالْإِثْمِ﴾ الَّذِي أَمَرَ بِاتَّقَائِهِ ﴿فَحَسْبُهُ﴾ كَافِيهِ ﴿جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿٢٧﴾ الْفِرَاشُ هِيَ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي﴾ يَبِيعُ ﴿نَفْسَهُ﴾ أَيُّ: يَبْذُلُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿أَبْتِغَاءَ﴾ طَلَبَ ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ رِضَاهُ، وَهُوَ صُهِيبٌ لَمَّا آذَاهُ الْمُشْرِكُونَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَتَرَكَ لَهُمْ مَالَهُ ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٢٨﴾ حَيْثُ أَرْشَدَهُمْ لِمَا فِيهِ رِضَاهُ^(٤). وَنَزَلَ فِي

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٣٢٤).

(٢) ﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ أدبر وانصرف عنك. وقيل: إذا غلب وصار والياً ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ كما فعله الأخنس بثقيف إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولادة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل. [البضاوي (١/ ١٣٣)]. وقال بعض المحققين: إن إهلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد، وإن التعبير به عن ذلك صار من قبيل المثل؛ فالمعنى: يؤذي مسترسلاً في إفساده ولو أدى إلى إهلاك الحرث والنسل. [القاسمي (٢/ ٨٣)].

(٣) فسر المحبة بالرضا، والمحبة والرضا متغايران لكن متلازمان إثباتاً ونفيًا، والأشاعرة لا يثبتون المحبة ولا الرضا، ولذا يفسرونهما بالإرادة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٣٤)].

(٤) يشري بمعنى يبيع، أي: يبيع نفسه في مرضاة الله، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال قتادة: هم المهاجرون والأنصار، ومثله قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخِيسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] وأصله الاستبدال ومنه قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١] والمرضاة الرضا، قال ابن عباس: نزلت في سرية الرجيع وكانت بعد أحد، وفي البخاري تمام قصته عن حديث أبي هريرة فإن شئت فارجع إليه. ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ وجه ذكر الرأفة هنا أنه أوجب عليهم ما أوجب ليجازيهم ويشيهم عليه، فكان ذلك رأفة لهم ولطفًا بهم، ومن رأفته أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته أنه يقبل توبة عبده وأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، وأن المصير على الكفر ولو مائة سنة إذا تاب ولو لحظة أسقط عنه عقاب تلك السنين وأعطاه الثواب الدائم. ومن رأفته أن نفس العباد وأموالهم له ثم أنه يشتري ملكه بملكه فضلاً منه ورحمة وإحساناً. وهذه أربعة أقسام اشتملت عليها تلك الآيات

عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا عَظَّمُوا السَّبْتَ وَكَرِهُوا الْإِبْلَ بَعْدَ الْإِسْلَامِ^(١): ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا: الْإِسْلَامُ ﴿كَافَّةً﴾ حَالٌ مِنَ ﴿السَّلَامِ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ طُرُقِ﴾ ﴿الشَّيْطَانِ﴾ أَي: تَزِينَهُ بِالتَّفْرِيقِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢) بَيْنَ الْعَدَاوَةِ. ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ مِلْتُمْ عَنِ الدُّخُولِ فِي جَمِيعِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْحُجُجُ الظَّاهِرَةُ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ عَنِ انتِقَامِهِ مِنْكُمْ ﴿حَكِيمٌ﴾^(٣) فِي صُنْعِهِ^(٤). ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُ التَّارِكُونَ الدُّخُولَ فِيهِ ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ أَي: أَمْرُهُ^(٥)؛ كَقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]، أَي: عَذَابُهُ ﴿فِي ظُلَلٍ﴾ جَمْعُ ظُلَّةٍ ﴿مِنْ الْغَمَامِ﴾ السَّحَابِ^(٦) ﴿وَالْمَلَكُوتُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ تَمَّ أَمْرُ هَلَاقِهِمْ ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٧) بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ، فِي الْآخِرَةِ فَيَجَازِي. ﴿سَلِّ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ تَبَكَّيْنَا ﴿كَمْ ءَاتَيْنَهُمُ﴾ ﴿كَمْ﴾: اسْتَفْهَامِيَّةٌ

الكريمات: أولها: راغب في الدنيا فقط ظاهراً وباطناً، والثاني: راغب فيها وفي الآخرة كذلك، والثالث: راغب في الآخرة وفي الدنيا باطنًا، والرابع: راغب في الآخرة ظاهراً وباطناً معرض عن الدنيا كذلك. [صديق حسن (١/٤١٨)].

(١) زعم عكرمة أنها نزلت في نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم، كعبد الله بن سلام، وثعلبة وأسد بن عبيد وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يسبّوا، وأن يقوموا بالتوراة ليلاً. فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها. وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت، وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفع بطلانه، والتعويض عنه بأعياد الإسلام. [ابن كثير (١/٥٦٦)].

(٢) لو قال: في شرعه؛ لكان أولى، فإنه تعالى حكيم في شرعه وقدره وفي خلقه وأمره. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٣٩)].

(٣) يريد أن الذي يأتي أمر الله؛ وهو عقابه، وهذا تأويلٌ وصرفٌ للكلام عن ظاهره، ومقصوده: أن الله لا يأتي، وهذا راجعٌ إلى أن الله لا تقوم به الأفعال الاختيارية، وهو مذهب الأشاعرة، وهو مذهبٌ باطلٌ؛ لأنه خلافٌ ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة من أنه تعالى: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ومذهب السلف إثبات الأفعال الاختيارية؛ كالاستواء والنزول والمعجىء، فالصواب: إجراء الآية على ظاهرها؛ وهو أن الله نفسه يأتي، ونظير هذه الآية؛ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقال فيها المؤلفُ نظير قوله في هذه الآية. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٤٠)]. وقد أبطل ابن القيم من حرف صفة المعجىء وفسرها بمعجىء أمره؛ من عشرة أوجه. [ينظر: مختصر الصواعق المرسلّة (٣/٨٥٦-٨٦٠)].

(٤) وصفه تعالى نفسه بالإتيان في ظلل من الغمام كوصفه بالمعجىء في آيات آخر ونحوهما مما وصف به نفسه في كتابه، أو صح عن رسول الله ﷺ. والقول في جميع ذلك من جنس واحد. وهو مذهب سلف الأمة وأئمتها: إنهم يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل. والقول في صفاته كالقول في ذاته. والله تعالى ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. [القاسمي (٢/٨٨)].

مُعَلَّقَةً ﴿سَلَّ﴾ عَنِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي، وَهِيَ ثَانِي مَفْعُولِ «آتَيْنَا»، وَمُمَيِّزُهَا: ﴿مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ ظَاهِرَةٌ، كَفَلَقَ الْبَحْرَ وَإِنزَالَ
الْمَنْ وَالسَّلَوَى، فَبَدَّلُوهَا كُفْرًا ﴿وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ﴾ أَي: مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِنَ الْآيَاتِ؛ لِأَنَّهَا سَبَبُ الْهِدَايَةِ ﴿مِنْ
بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ﴾ كُفْرًا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١٣١ ﴿لَهُ﴾. ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾
بِالْتَّمُؤِ بِهِ فَأَحْبَبُوهَا ١٣٢ ﴿و﴾ هُمْ ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لِفَقْرِهِمْ كِبَالًا وَعَمَارٍ وَصُهَيْبٍ، أَي: يَسْتَهْزِؤُونَ بِهِمْ
وَيَتَعَالَوْنَ عَلَيْهِمْ بِالْمَالِ ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشَّرْكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ ﴿فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ﴾ ١٣٣ ﴿أَي: رِزْقًا وَاسِعًا فِي الْآخِرَةِ، أَوِ الدُّنْيَا بِأَنْ يَمْلِكَ الْمَسْخُورُ مِنْهُمْ أَمْوَالَ السَّاخِرِينَ وَرِقَابَهُمْ﴾. ﴿كَانَ
النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عَلَى الْإِيمَانِ فَاخْتَلَفُوا بِأَنْ آمَنَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾ إِلَيْهِمْ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾
مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ بِمَعْنَى الْكِتَابِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَنْزَلَ﴾،
﴿لِيَحْكُمَ﴾ بِهِ ﴿بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ﴾ أَي: الدِّينِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾
أَي: الْكِتَابَ فَأَمَّنَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْحُجَجُ الظَّاهِرَةُ عَلَى التَّوْحِيدِ، وَمِنْ مُتَعَلَّقَةٍ
بِ﴿اخْتَلَفَ﴾ وَهِيَ وَمَا بَعْدَهَا مُقَدَّمٌ عَلَى الْإِسْتِنَاءِ فِي الْمَعْنَى ﴿بَغِيًّا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ١٣٤ ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدَايَتُهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٣٥ ﴿طَرِيقِ الْحَقِّ﴾ ١٣٦. وَنَزَلَ فِي جَهْدِ أَصَابِ الْمُسْلِمِينَ ١٣٧ ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا﴾ لَمْ

(١) يقال: من الذي زين لهم؟ قيل: فيه قولان: أحدهما: زينها لهم إبليس بما يمنيهم ويعددهم من شهواتها، قاله ابن كيسان والزجاج. والقول
الثاني: أن الله تعالى زينها لهم حين بسطها ووسعها عليهم، فهي همهم وطلبتهم ونيتهم وهم لا يريدون غيرها، كقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ
تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] وإنما فعل الله ذلك بهم للابتلاء، كما قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا
لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: ٧] ويدل على هذا قراءة حميد: ﴿زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بفتح الزاي يعني الله تعالى. [الواحدى (٤/ ١٠٤)].

(٢) أي بمشيئته، وإرادته؛ ولكنه سبحانه وتعالى لا يشاء شيئاً إلا لحكمة. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٣٠)]. قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

(٣) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟
قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت
تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم. رواه مسلم.

(٤) يشير إلى سبب النزول وذلك يوم الأحزاب. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٤٦)].

﴿يَأْتِكُمْ مَثَلٌ﴾ شَبَهُ مَا أَتَى ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَحَنِّ، فَتَصَبَّرُوا كَمَا صَبَرُوا ﴿مَسْتَهْمٌ﴾ جُمْلَةٌ مُسْتَأْنَفَةٌ مُبَيَّنَّةٌ مَا قَبْلَهَا ﴿الْبَأْسَاءُ﴾ شِدَّةُ الْفَقْرِ ﴿وَالضَّرَاءُ﴾ الْمَرَضُ ﴿وَزُلْزُلُوا﴾ أُرْجِعُوا بِأَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ﴿حَتَّى يَقُولَ﴾ بِالنَّصَبِ وَالرَّفْعِ، أَي: قَالَ ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ اسْتَبْطَاءً لِلنَّصْرِ لِنَتَاھِي الشَّدَّةِ عَلَيْهِمْ: ﴿مَتَى﴾ يَأْتِي ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾ الَّذِي وَعَدْنَاهُ^(١)؟ فَأُجِيبُوا مِنْ قِبَلِ اللَّهِ: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾^(٢) إِيَّانُهُ. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مَاذَا﴾ أَي: الَّذِي ﴿يُنْفِقُونَ﴾^(٣)؟ وَالسَّائِلُ عَمْرُو بْنُ الْجَمُوحِ، وَكَانَ شَيْخًا ذَا مَالٍ، فَسَأَلَ ﷺ عَمَّا يُنْفِقُ وَعَلَى مَنْ يُنْفِقُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ بَيَّانٌ لـ ﴿مَا﴾ شَامِلٌ لِلْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَفِيهِ بَيَّانُ الْمُنْفِقِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ شَقِي السُّؤَالِ، وَأَجَابَ عَنِ الْمَصْرِفِ الَّذِي هُوَ الشَّقُّ الْآخِرُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ أَي: هُمْ أَوْلَى بِهِ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ إِنْفَاقٍ أَوْ غَيْرِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾^(٤) فَمُجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿كُتِبَ﴾ فَرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ﴾ لِلْكَفَّارِ ﴿وَهُوَ كُرْهُ﴾ مَكْرُوهٌ ﴿لَكُمْ﴾ طَبْعًا لِمَشَقَّتِهِ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ لِمِيلِ النَّفْسِ إِلَى الشَّهَوَاتِ الْمُوجِبَةِ لِهَلَاكِهَا، وَنُفُورِهَا عَنِ التَّكْلِيفَاتِ الْمُوجِبَةِ لِسَعَادَتِهَا، فَلَعَلَّ لَكُمْ فِي الْقِتَالِ وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ خَيْرًا؛ لِأَنَّ فِيهِ إِمَّا الظَّفَرُ وَالْغَنِيمَةُ أَوْ الشَّهَادَةُ وَالْأَجْرُ، وَفِي تَرْكِهِ وَإِنْ أَحْبَبْتُمُوهُ شَرًّا؛ لِأَنَّ فِيهِ الدَّلَّ وَالْفَقْرَ وَحِرْمَانَ الْأَجْرِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥) ذَلِكَ، فَبَادِرُوا إِلَى مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ. وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَوَّلَ سَرَايَاهُ وَعَلَيْهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ، فَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ وَقَتَلُوا ابْنَ الْحَضَرَمِيِّ آخِرَ يَوْمٍ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ، وَالتَّبَسَّ عَلَيْهِمْ بَرَجِبٌ، فَعَيَّرَهُمُ الْكُفَّارُ بِاسْتِحْلَالِهِ، فَنَزَلَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الْمَحْرَمِ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ عَظِيمٌ وَزُرًّا^(٦)، مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ ﴿وَصَدٌّ﴾ مُبْتَدَأٌ، مَنَعٌ لِلنَّاسِ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿وَكُفْرُ بِهِ﴾ بِاللَّهِ ﴿و﴾ صَدٌّ عَنْ ﴿الْمَسْجِدِ

(١) قالت طائفة: في الكلام تقديم وتأخير، أي: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله، ويقول الرسول ألا إن نصر الله قريب. ولا ملجى لهذا التكلف لأن قول الرسول ومن معه ﴿مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ ليس فيه إلا استعجال النصر من الله سبحانه، وليس فيه ما زعموه من الشك والارتياب حتى يحتاج إلى ذلك التأويل المتعسف. [الشوكاني (١/٢٤٦)].

(٢) أي: القتال فيه أمر كبير مستنكر، والشهر الحرام المراد به الجنس، وقد كانت العرب لا تسفك فيه دماء ولا تغير على عدو، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، ثلاثة سرد، وواحد فرد، وهذه الأمور أعظم ذنبًا وأشد إثمًا من القتال في الشهر الحرام كذا قال المبرد وغيره، قيل: إنها محكمة وإنه لا يجوز الغزو في الشهر الحرام إلا بطريق الدفع، وقيل منسوخة بقوله: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وبقوله: ﴿فَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] وبه قال الجمهور. [صديق حسن (١/٤٣٥)].

﴿الْحَرَامُ﴾ أَي: مَكَّةَ ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ﴾ وَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ وَزَرًا ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الْقِتَالِ فِيهِ ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الشَّرْكُ مِنْكُمْ ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ لَكُمْ فِيهِ ﴿وَلَا يَزَالُونَ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿يَقْتُلُونَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿حَتَّى﴾ كَيْ ﴿يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ إِلَى الْكُفْرِ ﴿إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصَّالِحَةُ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فَلَا عِتْدَادَ بِهَا وَلَا ثَوَابَ عَلَيْهَا، وَالتَّقْيِيدُ بِالْمَوْتِ عَلَيْهِ يُفِيدُ أَنَّهُ لَوْ رَجَعَ إِلَى الْإِسْلَامِ لَمْ يَبْطُلْ عَمَلُهُ فَيُنَابِ عَلَيْهِ وَلَا يُعِيدُهُ كَالْحَجِّ مَثَلًا، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ^(١) ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٢٧). وَلَمَّا ظَنَّ السَّرِيَّةُ أَنَّهُمْ إِنْ سَلِمُوا مِنَ الْإِثْمِ فَلَا يَحْصُلُ لَهُمْ أَجْرٌ، نَزَلَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فَارْقُوا أَوْطَانَهُمْ ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ ثَوَابَهُ ^(٣) ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ ^(٤٨) بِهِمْ. ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ الْقِمَارِ مَا حُكْمُهُمَا؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فِيهِمَا﴾ أَي: فِي تَعَاطِيهِمَا ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ عَظِيمٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْمُثَلَّثَةِ لِمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِهِمَا مِنَ الْمُخَاصَمَةِ وَالْمُشَاتَمَةِ وَقَوْلِ الْفَحْشِ ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ بِاللَّذَّةِ وَالْفَرَحِ ^(٥) فِي الْخَمْرِ وَإِصَابَةِ الْمَالِ بِلاَ كَدٍّ فِي الْمَيْسِرِ ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أَي: مَا يَنْشَأُ عَنْهُمَا مِنَ الْمَفَاسِدِ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ

(١) هذه الآية الكريمة تدل على أن الردة لا تحبط العمل إلا بقيد الموت على الكفر، بدليل قوله: ﴿فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ﴾ وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الردة تحبط العمل مطلقا، ولو رجع إلى الإسلام فكل ما عمل قبل الردة أحبطته الردة، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الآية [المائدة: ٥] وقوله: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ الآية [الزمر: ٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] والجواب عن هذا أن هذه من مسائل تعارض المطلق والمقيد، فيحمل المطلق على المقيد، فتقيد الآيات المطلقة بالموت على الكفر وهذا مقتضى الأصول، وعليه الإمام الشافعي ومن وافقه، وخالف مالك في هذه المسألة وقدم آيات الإطلاق، وقول الشافعي في هذه المسألة أجرى على الأصول، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٤٦)].

(٢) المراد بالرحمة هنا يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته، أي: أن يرحمهم، ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته؛ وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَسْأَاءٍ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦). فجعل المخلوق رحمة له؛ لأنه من آثار رحمة الله، ولهذا قال: «أَرْحَمُ بِكَ» أما الرحمة التي هي وصفه فهي شيء آخر؛ فالآية محتملة للمعنيين؛ وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبداً أدخله الجنة التي هي رحمته. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٦٤)].

(٣) الخمر كل ما أسكر على وجه اللذة، والطرب. [ابن عثيمين تفسير البقرة (١/ ٦٧)] ولهذا السكران يرى نفسه في بحبوحة من العيش، وكأنه ملك من الملوك وكأنه مالك لكل شيء، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه: (وَشَرِبَهَا فَتَرَكْنَا مُلُوكًا)، وكما قال حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه للنبي ﷺ وكان قد ثمل من شرب الخمر: هل أنتم إلا عبيد أبي... وهي لذة متخيلة موهومة.

شَرِبَهَا قَوْمٌ وَامْتَنَعَ عَنْهَا آخَرُونَ، إِلَى أَنْ حَرَّمَهَا آيَةُ «الْمَائِدَةِ»^(١) «وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» أَي: مَا قَدَرُهُ؟ «قُلْ» أَنْفِقُوا «الْعَفْوُ» أَي: الْفَاضِلُ عَنِ الْحَاجَةِ، وَلَا تُنْفِقُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتُضَيِّعُوا أَنْفُسَكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ بِتَقْدِيرٍ: هُوَ «كَذَلِكَ» أَي: كَمَا بَيَّنَّ لَكُمْ مَا ذَكَرَ «يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ»^(٢) فِي «أَمْرِ» الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ «فَتَأْخُذُونَ بِالْأَصْلَحِ لَكُمْ فِيهِمَا» «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى» وَمَا يَلْقَوْنَهُ مِنَ الْحَرْجِ فِي شَأْنِهِمْ، فَإِنْ وَاكَلُوهُمْ يَأْكُمُوا، وَإِنْ عَزَلُوا مَا لَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَصَنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا وَحَدَهُمْ فَحَرَجَ «قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ» فِي أَمْوَالِهِمْ، بِتَنْمِيَّتِهَا وَمُدَاخَلَتِكُمْ «خَيْرٌ» مِنْ تَرْكِ ذَلِكَ «وَإِنْ تَخَالَطَوْهُمْ» أَي: تَخَلَطُوا نَفَقَتَكُمْ بِنَفَقَتِهِمْ «فَإِخْوَانُكُمْ» أَي: فَهُمْ إِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ، وَمِنْ شَأْنِ الْإِخْوَانِ أَنْ يُخَالِطَ أَخَاهُ، أَي: فَلَكُمْ ذَلِكَ «وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ» لِأَمْوَالِهِمْ بِمُخَالَطَتِهِ «مِنْ الْمُصْلِحِ» بِهَا، فَيَجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ» لَضَيِّقَ عَلَيْكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُخَالَطَةِ «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ «حَكِيمٌ»^(٣) فِي صُنْعِهِ. «وَلَا تُنكِحُوا» تَزَوَّجُوا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ «الْمُشْرِكَاتِ» أَي: الْكَافِرَاتِ «حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَآمَهُ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ» حُرَّةٌ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا الْعَيْبُ عَلَى مَنْ تَزَوَّجَ أُمَةً، وَتَرَغِيهُ فِي نِكَاحِ حُرَّةٍ مُشْرِكَةٍ «وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» لِحِمَالِهَا وَمَالِهَا، وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِغَيْرِ الْكِتَابِيَّاتِ بَايَةٍ: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» [المائدة: ٥]، «وَلَا تُنكِحُوا» تَزَوَّجُوا «الْمُشْرِكِينَ» أَي: الْكَافَرِ الْمُؤْمِنَاتِ «حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ» لِمَالِهِ وَجَمَالِهِ «أُولَئِكَ» أَي: أَهْلُ الشِّرْكِ «يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ» بِدُعَائِهِمْ إِلَى الْعَمَلِ الْمُوجِبِ لَهَا، فَلَا تَلِيقُ مُنَاكَحَتُهُمْ «وَاللَّهُ يَدْعُوا» عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ «إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ» أَي: الْعَمَلِ الْمُوجِبِ لَهُمَا «بِإِذْنِهِ» بِإِرَادَتِهِ^(٤) فَتَجِبُ إِجَابَتُهُ بِتَزْوِيجِ أَوْلِيَائِهِ «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ

(١) وهي قوله تعالى: «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» [المائدة: ٩٠].

(٢) «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ» أَي: لَهُ الْقُوَّةُ الْكَامِلَةُ، وَالْفَهْرُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ «حَكِيمٌ» لَا يَفْعَلُ إِلَّا مَا هُوَ مُقْتَضِي حِكْمَتِهِ الْكَامِلَةِ وَعَنَايَتِهِ التَّامَّةِ، فَعَزَمَتْهُ لَا تَنَافِي حِكْمَتُهُ، فَلَا يَقَالُ: إِنَّهُ مَا شَاءَ فَعَلَ، وَافَقَ الْحِكْمَةَ أَوْ خَالَفَهَا، بَلْ يَقَالُ: إِنَّ أَعْمَالَهُ وَكَذَلِكَ أَحْكَامَهُ، تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ، فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا عَبَثًا، بَلْ لَا يَدُلُّهُ مِنْ حِكْمَةٍ عَرَفْنَاهَا أَمْ لَمْ نَعْرِفْهَا، وَكَذَلِكَ لَمْ يَشْرَعْ لِعِبَادِهِ شَيْئًا مُجَرَّدًا عَنِ الْحِكْمَةِ، فَلَا يَأْمُرُ إِلَّا بِمَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، وَلَا يَنْهَى إِلَّا عَمَّا فِيهِ مَفْسَدَةٌ خَالِصَةٌ أَوْ رَاجِحَةٌ، لِتَمَامِ حِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ. [السَّعْدِيُّ (ص: ٩٩)].

(٣) الإِذْنُ عَلَى قِسْمَيْنِ: إِذْنُ كَوْنِي: وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَالتَّقْدِيرَاتِ، وَإِذْنُ شَرْعِي: وَهُوَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالتَّشْرِيعَاتِ، فَمِنْ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ» [البقرة: ٢٥٥]؛ وَمِنْ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ»

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ يَتَعَذَّبُونَ. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أَي: الْحَيْضِ، أَوْ مَكَانِهِ مَاذَا يُفْعَلُ بِالنِّسَاءِ فِيهِ؟ ﴿قُلْ هُوَ أَدْنَىٰ﴾ قَدْرٌ، أَوْ مَحَلُّهُ ﴿فَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ اُتْرَكُوا وَطَاهَرْنَ ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ أَي: وَقْتَهُ، أَوْ مَكَانَهُ ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ بِالْجَمَاعِ ﴿حَتَّىٰ يَظْهَرْنَ﴾ بِسُكُونِ الطَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا وَالْهَاءِ، وَفِيهِ إِدْغَامُ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ، أَي: يَغْتَسِلْنَ بَعْدَ انْقِطَاعِهِ ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بِالْجَمَاعِ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ بِتَجَنُّبِهِ فِي الْحَيْضِ وَهُوَ الْقُبْلُ، وَلَا تَعْدُوهُ إِلَىٰ غَيْرِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ﴾ يُشِيبُ وَيُكْرِمُ ﴿التَّوَّابِينَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ﴿مِنَ الْأَفْذَارِ﴾ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ أَي: مَحَلُّ زَرْعِكُمُ الْوَلَدِ ﴿فَاتُوا حَرْثَكُمْ﴾ أَي: مَحَلَّهُ وَهُوَ الْقُبْلُ ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مِنْ قِيَامٍ وَقُعُودٍ وَاضْطِجَاعٍ وَإِقْبَالٍ وَإِدْبَارٍ، نَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْيَهُودِ: مَنْ أَتَىٰ امْرَأَتَهُ فِي قُبْلِهَا، أَي: مِنْ جِهَةِ دُبُرِهَا جَاءَ الْوَلَدُ أَحْوَلُ ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ الْعَمَلَ الصَّالِحَ، كَالْتَّسْمِيَةِ عِنْدَ الْجَمَاعِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوَةٌ﴾ بِالْبَعْثِ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْهُ بِالْجَنَّةِ﴾. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ﴾ أَي: الْحَلِفَ بِهِ ﴿عُرْضَةً﴾ عِلَّةً مَانِعَةً ﴿لَا يَمْنِكُمْ﴾ أَي: نَصَبًا لَهَا بِأَنْ تُكْثِرُوا الْحَلِفَ بِهِ لَ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ فَتَكْرَهُ الْيَمِينَ عَلَىٰ ذَلِكَ، وَيَسْنُ فِيهِ الْحَنْثُ وَيُكْفَرُ، بِخِلَافِهَا عَلَىٰ فِعْلِ الْبِرِّ وَنَحْوِهِ فَهِيَ طَاعَةٌ، الْمَعْنَى: لَا تَمْتَنِعُوا مِنْ فِعْلِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْبِرِّ وَنَحْوِهِ إِذَا حَلَفْتُمْ عَلَيْهِ بَلِ اتُّوهُ وَكَفَرُوا؛ لِأَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا الْإِمْتِنَاعُ مِنْ ذَلِكَ ﴿٢٢١﴾

[يونس: ٥٩] يعني شرع لكم؛ والظاهر أن الإذن في هذه الآية والله أعلم يشمل القسمين؛ لأن دخول الإنسان فيما يكون سبباً للجنة، والمغفرة كوني؛ وما يكون سبباً للجنة، والمغفرة هذا مما شرعه الله. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/٧٨)].

(١) [هذا] تفسير للمحبة بلازمها، فإن من لازم محبة الله للعبد الإثابة والإكرام، وهذا التأويل يتضمن نفي حقيقة المحبة عن الله؛ فهو تأويل مبني على التعطيل، وهذا سبيل المعتزلة ومن تبعهم كالأشاعرة، وأهل السنة والجماعة يثبتون لله حقيقة المحبة ويجرون النصوص على ظاهرها مؤمنين بها مثبتين لما تدل عليه من صفات لله من غير تعطيل ولا تحريف ولا تمثيل ولا تكييف، وهذا معنى قول من قال من السلف: «أمروها كما جاءت بلا كيف»، في آيات الصفات وأحاديثها. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٤٧٢)]. قال عطاء ومقاتل بن سليمان والكلبي: يحب التوابين من الذنوب. [البغوي (١/٢٥٩)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٨).

(٣) أي: خيراً، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقيل: ابتغاء الولد، وقيل: التزويج بالعفاف، وقيل: التسمية والدعاء عند الجماع، وقيل غير ذلك. [الشوكاني (١/٢٦٠)].

(٤) العرصة بضم العين، فعلة بمعنى مفعول كالقبضة والغرفة وهي اسم ما تعرضه دون الشيء، من عرض العود على الإناء. فيعترض دونه ويصير حاجزاً ومانعاً منه. وكان الرجل يحلف على بعض الخيرات من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد ثم يقول:

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لَأَقُولَ الْكُفْرَ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٢٤﴾ بِأَحْوَالِكُمْ. ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ﴾ الْكَائِنِ ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ وَهُوَ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللَّسَانُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ الْحَلْفِ، نَحْوُ: وَاللَّهِ، وَبَلَى وَاللَّهِ، فَلَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا كَفَّارَةٌ ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أَي: قَصْدَتُهُ مِنَ الْإِيمَانِ إِذَا حَشِشْتُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَا كَانَ مِنَ اللَّغْوِ ﴿حَلِيمٌ﴾ ﴿٢٢٥﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ مُسْتَحِقَّتِهَا. ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أَي: يَحْلِفُونَ أَنْ لَا يُجَامِعُوهُنَّ ﴿تَرْبُصٌ﴾ إِنْتِظَارٌ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا﴾ رَجَعُوا فِيهَا أَوْ بَعْدَهَا عَنْ الْيَمِينِ إِلَى الْوُطْءِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا أَتَوْهُ مِنْ ضَرَرِ الْمَرْأَةِ بِالْحَلْفِ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٢٦﴾ بِهِمْ. ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أَي: عَلَيْهِ، بَأَنْ لَمْ يَفِيضُوا فَلْيُوقِعُوهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِهِمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٢٧﴾ بِعَزْمِهِمْ، الْمَعْنَى: لَيْسَ لَهُمْ بَعْدَ تَرْبُصٍ مَا ذَكَرَ إِلَّا الْفَيْئَةُ أَوْ الطَّلَاقُ. ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ أَي: يَنْتَظِرْنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ عَنِ النِّكَاحِ ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ تَمْضِي مِنْ حِينَ الطَّلَاقِ، جَمْعُ «قُرْءٍ» بَفَتْحِ الْقَافِ وَهُوَ الطَّهْرُ أَوْ الْحَيْضُ قَوْلَانِ^(١)، وَهَذَا فِي الْمَدْخُولِ بِهِنَّ، أَمَّا غَيْرُهُنَّ فَلَا عِدَّةَ عَلَيْهِنَّ بِقَوْلِهِ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وَفِي غَيْرِ الْآيَةِ وَالصَّغِيرَةِ: ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ﴾ [الطلاق: ٤]، وَالْحَوَامِلُ فَعِدَّتُهُنَّ: ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]، كَمَا فِي سُورَةِ الطَّلَاقِ، وَالْإِمَاءُ فَعِدَّتُهُنَّ قُرْءَانِ بِالْسُّنَةِ^(٢) ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ مِنَ الْوَلَدِ أَوْ الْحَيْضِ ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ﴾ أَرْوَاجُهُنَّ ﴿أَحَقُّ بِرِدِّهِنَّ﴾ بِمُرَاجَعَتِهِنَّ وَلَوْ أَبَيَنَّ ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أَي: فِي زَمَنِ التَّرَبُّصِ ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ بَيْنَهُمَا، لَا إِضْرَارَ الْمَرْأَةِ، وَهُوَ تَحْرِيطُ عَلَى قَصْدِهِ، لَا شَرْطَ لِحَوَازِ الرَّجْعَةِ، وَهَذَا فِي الطَّلَاقِ الرَّجْعِيِّ، وَ﴿أَحَقُّ﴾ لَا تَفْضِيلَ فِيهِ، إِذْ لَا حَقَّ

أَخَافُ اللَّهَ أَنْ أَحْثُ فِي يَمِينِي. فَيَتْرَكَ الْبِرَّ إِزَادَةَ الْبِرِّ فِي يَمِينِهِ ... وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ: الْآيَةُ: كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] وَالْمَعْنَى الْمَتَقَدِّمُ فِي الْآيَةِ اتَّفَقَ عَلَيْهِ جَمْهُورُ السَّلَفِ ... رَوَى مُسْلِمٌ (١٦٥٠) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ».. وَفِي الْآيَةِ وَجْهٌ آخَرُ ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَرِينَ. وَهُوَ النَّهْيُ عَنِ الْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِكَثْرَةِ الْحَلْفِ بِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ ذِكْرِ شَيْءٍ فِي مَعْنَى مِنَ الْمَعْنَى فَقَدْ جَعَلَهُ عَرْضَةً لَهُ. [القاسمي (١٢٨/٢)].

(١) قُرُوءٌ: جَمْعُ قُرْءٍ وَهُوَ مُشْتَرِكٌ فِي اللَّغَةِ بَيْنَ الطَّهْرِ وَالْحَيْضِ، فَحَمَلَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ عَلَى الطَّهْرِ لِقَوْلِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «الْأَقْرَاءُ هِيَ الْأَطْهَارُ»، وَحَمَلَهُ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى الْحَيْضِ؛ لِأَنَّهُ الدَّلِيلُ عَلَى بَرَاءَةِ الرَّحِمِ، وَذَلِكَ مَقْصُودُ الْعِدَّةِ. [ابن جُرَيٍّ (١٢٢/١)].

(٢) عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «طَلَاقُ الْأُمَةِ تَطْلِيقَتَانِ، وَقُرْؤُهَا حَيْضَتَانِ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢١٨٩)، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠٨٠)، وَالتِّرْمِذِيُّ (١١٨٢).

لِغَيْرِهِمْ مِنْ نِكَاحِهِنَّ فِي الْعِدَّةِ (وَلَهُنَّ) عَلَى الْأَزْوَاجِ (مِثْلُ الَّذِي) لَهُمْ (عَلَيْهِنَّ) مِنَ الْحُقُوقِ (بِالْمَعْرُوفِ) شَرْعًا، مِنْ حُسْنِ الْعِشْرَةِ وَتَرْكِ الْأِضْرَارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) فَضِيلَةٌ فِي الْحَقِّ، مِنْ وُجُوبِ طَاعَتِهِنَّ لَهُمْ لِمَا سَأَفَوْهُ مِنَ الْمَهْرِ وَالْإِنْفَاقِ ^(١) (وَاللَّهُ عَزِيزٌ) فِي مُلْكِهِ (حَكِيمٌ) ^(٢) فِيمَا دَبَّرَهُ لِخَلْقِهِ. (الطَّلَاقُ) أَيِ: التَّطْلِيقُ الَّذِي يُرَاجَعُ بَعْدَهُ (مَرَّتَانٍ) أَيِ: اثْنَتَانِ (فَإِمْسَاكٌ) فَعَلَيْكُمْ إِمْسَاكُهُنَّ بَعْدَهُ، بِأَنْ تَرَاغِبُوهُنَّ (بِمَعْرُوفٍ) مِنْ غَيْرِ ضَرَارٍ (أَوْ تَسْرِيحٌ) أَيِ: إِرْسَالُ لَهُنَّ (بِإِحْسَنِ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ) أَيُّهَا الْأَزْوَاجُ (أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ) مِنَ الْمُهُورِ (شَيْئًا) إِذَا طَلَقْتُمُوهُنَّ (إِلَّا أَنْ يَخَافَا) أَيِ: الزَّوْجَانِ (أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) أَيِ: لَا يَأْتِيَا بِمَا حَدَّهُ لَهُمَا مِنَ الْحُقُوقِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: (يُخَافَا) بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، فَ (أَلَّا يُقِيمَا) بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِيهِ، وَقُرِئَ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ فِي الْفَعْلَيْنِ ^(٣) (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ) نَفْسَهَا مِنْ أَلَمَالٍ لِيُطْلَقَهَا، أَيِ: لَا حَرَجَ عَلَى الزَّوْجِ فِي أَخَذِهِ، وَلَا الزَّوْجَةُ فِي بَذْلِهِ ^(٤) (تِلْكَ) الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ (حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ^(٥) (فَإِنْ طَلَّقَهَا) الزَّوْجُ بَعْدَ الثَّانِي (فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ) أَيِ: بَعْدَ الطَّلَاقِ الثَّلَاثَةِ (حَتَّى تَنْكِحَ) تَتَزَوَّجَ (زَوْجًا غَيْرَهُ) وَيَطَّأَهَا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ، رَوَاهُ الشَّيْخَانِ ^(٦) (فَإِنْ طَلَّقَهَا) أَيِ: الزَّوْجُ الثَّانِي (فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا) أَيِ: الزَّوْجَةُ وَالزَّوْجُ الْأَوَّلُ (أَنْ يَتَرَاجَعَا) إِلَى النِّكَاحِ بَعْدَ انْقِضَاءِ الْعِدَّةِ (إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ) الْمَذْكُورَاتُ (حُدُودَ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) ^(٧) (يَتَدَبَّرُونَ).

(١) كما قال تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) [النساء: ٣٤]، ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كال ميراث ونحوه. [السعدي (ص: ١٠١)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة. [السعدي (ص: ١٠٢)].

(٤) جاءت امرأة رفاعة القرظي إلى النبي ﷺ فقالت: إني كنت عند رفاعة القرظي فطلقني فبت طلاقي، فتزوجت عبد الرحمن ابن الزبير، وإنما معه مثل هدبة الثوب، فتبسم النبي ﷺ وقال: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَيَّ رِفَاعَةً؟ لَا، حَتَّى تَذُوقِي عُسَيْلَتَهُ وَيَذُوقَ عُسَيْلَتِكَ». أخرجه البخاري (٢٦٣٩)، ومسلم (١٤٣٣). والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغبا في المرأة، قاصدا لدوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج ... فأما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بدمه ولعنه، ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة، عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لَعَنَ اللَّهُ الْمُحْلِلَ وَالْمُحْلَلَّ لَهُ». أخرجه أبو داود (٢٠٧٦)، والترمذي (١١١٩)، وابن ماجه (١٩٣٥). [ابن كثير (١/ ٦٢٥)].

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ فَأَرْبِنَ انْقِضَاءَ عِدَّتِهِنَّ ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بِأَنْ تَرَاغِبُوهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مِنْ غَيْرِ ضَرَرٍ ﴿أَوْ سَرَحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أَتْرَكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ﴾ بِالرَّجْعَةِ ﴿ضَرَارًا﴾ مَفْعُولٌ لِأَجَلِهِ ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ عَلَيْهِنَّ بِالْإِلْجَاءِ إِلَى الْإِفْتِدَاءِ وَالتَّطْلِيقِ وَتَطْوِيلِ الْحَبْسِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ بِتَعْرِضِهَا إِلَى عَذَابِ اللَّهِ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا﴾ مَهْزُوعًا بِهَا بِمُخَالَفَتِهَا ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ^(١) ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ بِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انْقَضَتْ عِدَّتُهُنَّ ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خِطَابٌ لِلْأَوْلِيَاءِ، أَي: تَمْنَعُوهُنَّ مِنْ ﴿أَنْ يَنْكِحَنَّ أَرْوَاجَهُنَّ﴾ الْمُطَلَّقِينَ لَهُنَّ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا أَنَّ أُخْتَ مَعْقِلِ بْنِ يَسَارٍ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا، فَأَرَادَ أَنْ يُرَاجِعَهَا فَمَنَعَهَا مَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ. كَمَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ^(٣) ﴿إِذَا تَرَاضَوْا﴾ أَي: الْأَزْوَاجُ وَالنِّسَاءُ ﴿بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا ﴿ذَلِكَ﴾ النَّهْيُ عَنِ الْعَضْلِ ﴿يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ لِأَنَّهُ الْمُتَمَتِّعُ بِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: تَرَكَ الْعَضْلَ ﴿أَزْكَى﴾ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَظْهَرُ لَكُمْ وَلَهُنَّ، لِمَا يَخْشَى عَلَى الزَّوْجَيْنِ مِنَ الرَّبِيَّةِ بِسَبَبِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَهُمَا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) ذَلِكَ فَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ. ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ﴾ أَي: لِيُرْضَعْنَ ﴿أَوَّلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾ عَامَيْنِ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ صِفَةُ مُؤَكَّدَةٍ، ذَلِكَ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وَلَا زِيَادَةَ عَلَيْهِ ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أَي: الْأَبِ ﴿رِزْقُهُنَّ﴾ إِطْعَامُ الْوَالِدَاتِ ﴿وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ عَلَى الْأَرْضَاعِ إِذَا كُنَّ مُطْلَقَاتٍ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتُهَا ﴿لَا تُضَارُّ وَلِدَةً يُولَدُهَا﴾ أَي: بِسَبَبِهِ؛ بِأَنْ تُكْرَهَ عَلَى إِرْضَاعِهِ إِذَا امْتَنَعَتْ ﴿وَلَا﴾ يُضَارُّ ﴿مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُ لَهُ﴾ أَي: بِسَبَبِهِ؛ بِأَنْ يُكَلِّفَ فَوْقَ طَاقَتِهِ، وَإِضَافَةُ الْوَلَدِ إِلَى كُلِّ مِنْهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِاسْتِعْطَافِ ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ﴾ أَي: وَارِثِ الْأَبِ وَهُوَ الصَّبِيُّ، أَي: عَلَى وَلِيِّهِ فِي مَالِهِ ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الَّذِي عَلَى الْأَبِ، لِلْوَالِدَةِ مِنَ الرِّزْقِ وَالْكِسْوَةِ ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أَي: الْوَالِدَانِ ﴿فَصَالًا﴾ فِطَامًا لَهُ قَبْلَ الْحَوْلَيْنِ صَادِرًا ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ اتِّفَاقٍ ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾ بَيْنَهُمَا لِتَظْهَرِ مَصْلَحَةُ الصَّبِيِّ فِيهِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ خِطَابٌ لِلْأَبَاءِ ﴿أَنْ تَسَرِّضُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ مَرَاضِعَ غَيْرِ الْوَالِدَاتِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إِلَيْهِنَّ ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾

(١) هي السنة المبينة على لسان رسول الله ﷺ مراد الله فيما لم ينص عليه في الكتاب. [القرطبي (٣/ ١٧٥)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٢٩)، والحاكم (٢/ ١٧٤).

أَيُّ: أَرَدْتُمْ إِيْتَاءَهُ لَهُنَّ مِنَ الْأُجْرَةِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِالْجَمِيلِ كَطِيبِ النَّفْسِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٢) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يَمُوتُونَ ﴿مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يَتْرُكُونَ ﴿أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ﴾ أَيُّ: لِيَتَرَبَّصْنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بَعْدَهُمْ عَنِ النِّكَاحِ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ مِنَ اللَّيَالِي، وَهَذَا فِي غَيْرِ الْحَوَامِلِ، أَمَّا الْحَوَامِلُ فَعِدَّتُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ بِآيَةِ الطَّلَاقِ، وَالْأُمَّةُ عَلَى النِّصْفِ مِنْ ذَلِكَ بِالسَّنَةِ^(١) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انْقَضَتْ مُدَّةُ تَرَبُّصِهِنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ مِنَ التَّرْتُّبِ وَالتَّعَرُّضِ لِلْخُطَابِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرَعًا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٣٣) عَالِمٌ بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ لَوْحْتُمْ ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ فِي الْعِدَّةِ، كَقَوْلِ الْإِنْسَانِ مَثَلًا: إِنَّكَ لَجَمِيلَةٌ، وَمَنْ يَجِدْ مِثْلَكَ، وَرَبِّ رَاغِبٍ فِيكَ ﴿أَوْ أَكَنَنْتُمْ﴾ أَضْمَرْتُمْ ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مَنْ قَصَدَ نِكَاحَهُنَّ ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ بِالْخِطْبَةِ وَلَا تَصْبِرُونَ عَنْهُنَّ، فَأَبَاحَ لَكُمْ التَّعْرِيزَ ﴿وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ أَيُّ: نِكَاحًا ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أَيُّ: مَا عُرِفَ شَرَعًا مِنَ التَّعْرِيزِ فَلَكُمْ ذَلِكَ ﴿وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ﴾ أَيُّ: عَلَى عَقْدِهِ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ﴾ أَيُّ: الْمَكْتُوبُ مِنَ الْعِدَّةِ ﴿أَجَلَهُ﴾ بِأَنْ يَنْتَهِيَ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنَ الْعَزْمِ وَغَيْرِهِ ﴿فَأَحْذَرُوهُ﴾ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ إِذَا عَزَمْتُمْ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ يَحْذَرُهُ ﴿حَلِيمٌ﴾ (٣٤) بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنْ مُسْتَحَقِّهَا. ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾ أَيُّ: تُجَامِعُوهُنَّ ﴿أَوْ﴾ لَمْ ﴿تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ مَهْرًا، وَمَا مَصْدَرِيَّةٌ ظَرْفِيَّةٌ، أَيُّ: لَا تَبْعَةَ عَلَيْكُمْ فِي الطَّلَاقِ زَمَنَ عَدَمِ الْمَسِيسِ وَالْفَرَضِ بِإِثْمٍ وَلَا مَهْرٍ فَطَلَّقُوهُنَّ ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ﴾ الْغَنِيِّ مِنْكُمْ ﴿قَدَرُهُ﴾ وَعَلَى الْمُقْتِرِ الضَّيِّقِ الرِّزْقِ ﴿قَدَرُهُ﴾ يُفِيدُ أَنَّهُ لَا نَظَرَ إِلَى قَدَرِ الزَّوْجَةِ ﴿مَتَّعًا﴾ تَمَتُّعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرَعًا، صِفَةً ﴿مَتَّعًا﴾، ﴿حَقًّا﴾ صِفَةً ثَانِيَةً أَوْ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٥) الْمُطِيعِينَ. ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يَجِبُ لَهُنَّ وَيَرْجِعُ لَكُمْ النِّصْفُ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ يَعْفُونَ﴾ أَيُّ: الزَّوْجَاتُ فَيَتْرَكْنَهُ ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وَهُوَ الزَّوْجُ فَيَتْرَكُ لَهَا الْكُلَّ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْوَلِيُّ، إِذَا كَانَتْ مَحْجُورَةً فَلَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى

(١) وهي قوله تعالى: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وأما الأمة فسبق ذكر الحديث الخاص بحكمها عند

التعليق على آية (٢٢٨).

وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ أَيُّ: أَنْ يَتَفَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٢٧﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ الْخَمْسِ بِأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ هِيَ الْعَصْرُ أَوِ الصُّبْحُ أَوِ الظُّهْرُ أَوْ غَيْرُهَا أَقْوَالٌ^(١)، وَأَفْرَدَهَا بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهَا ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿قَانِتِينَ﴾ ﴿٢٢٨﴾ قِيلَ: مُطِيعِينَ لِقَوْلِهِ ﷻ: «كُلُّ قُنُوتٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ طَاعَةٌ»، رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ^(٢)، وَقِيلَ: سَاكِتِينَ، لِحَدِيثِ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ: كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ فَأَمَرْنَا بِالسُّكُوتِ وَنُهِينَا عَنِ الْكَلَامِ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٣) ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مِنْ عَدُوٍّ أَوْ سَيْلٍ أَوْ سَبْعٍ ﴿فَرَجُلًا﴾ جَمْعُ «رَجُلٍ»، أَيُّ: مُشَاةً صَلُّوا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جَمْعُ رَاكِبٍ، أَيُّ: كَيْفَ أَمَكْنَ، مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَةِ أَوْ غَيْرِهَا، وَيَوْمِي بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ مِنَ الْخَوْفِ ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ: صَلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢٩﴾ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ مِنْ فَرَائِضِهَا وَحُقُوقِهَا، وَالْكَافُ بِمَعْنَى: مِثْلُ، وَ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ، أَوْ مَوْصُولَةٌ. ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ فَلْيُوصُوا ﴿وَصِيَّةً﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ، أَيُّ: عَلَيْهِمْ ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ وَيُعْطُوهُنَّ ﴿مَتَّعًا﴾ مَا يَتِمَّتَعَنَّ بِهِ مِنْ النِّفَقَةِ وَالْكِسْوَةِ ﴿إِلَى﴾ تَمَامِ ﴿الْحَوْلِ﴾ مِنْ مَوْتِهِمُ الْوَاجِبِ عَلَيْهِنَ تَرْبُصُهُ ﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾ حَالٌ، أَيُّ: غَيْرِ مُخْرَجَاتٍ مِنْ مَسْكِنِهِنَّ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ يَا أَوْلِيَاءَ الْمَيِّتِ ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ شَرْعًا، كَالْتَزِينِ وَتَرْكِ الْأَحْدَادِ وَقَطْعِ النِّفَقَةِ عَنْهَا ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٣٠﴾ فِي صُنْعِهِ، وَالْوَصِيَّةُ الْمَذْكُورَةُ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمِيرَاثِ، وَتَرْبُصُ الْحَوْلِ بِآيَةِ ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]، السَّابِقَةُ الْمَتَأَخِّرَةُ فِي التَّزْوُلِ، وَالسُّكْنَى ثَابِتَةٌ لَهَا عِنْدَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ. ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَّعٌ﴾ يُعْطِيْنَهُ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ ﴿حَقًّا﴾ نُصِبَ يَفْعَلُهُ الْمُقَدَّرُ ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٣١﴾ اللَّهُ، كَرَّرَهُ لِيَعَمَّ الْمَمْسُوسَةَ أَيَّضًا، إِذِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ فِي غَيْرِهَا. ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا ذَكَرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٣٢﴾ تَدَبَّرُونَ. ﴿* أَلَمْ تَرَ﴾

(١) ليست من الوسط الذي معناه متوسط بين شيئين لأن فعلى معناها التفضيل ولا يبنى للتفضيل إلا ما يقبل الزيادة والنقص، والوسط بمعنى العدل والخيار يقبلهما بخلاف المتوسط بين الشيئين فإنه لا يقبلهما فلا يبنى منه أفعال للتفضيل. وأفرد الصلاة الوسطى بالذكر بعد دخولها في عموم الصلوات تشريفًا لها وقد اختلف أهل العلم في تعيينها على ثمانية عشر قولاً... وأرجح الأقوال وأصحها ما ذهب إليه الجمهور من أنها العصر لما ثبت عند البخاري (٢٩٣١)، ومسلم (٦٢٧)،... من حديث علي ﷺ قال: كنا نراها الفجر حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب: «سَعَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلَأَ اللَّهُ قُبُورَهُمْ وَأَجَوَّاهُمْ نَارًا». [صديق حسن (٢/ ٥٢)].

(٢) أخرجه أحمد (١١٥٤١)، وابن حبان (٣١٠)، بلفظ: «كُلُّ حَرْفٍ فِي الْقُرْآنِ يُذَكِّرُ فِيهِ الْقُنُوتُ فَهُوَ طَاعَةٌ».

(٣) أخرجه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩).

اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبٌ وَتَشْوِيقٌ إِلَى اسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ، أَي: يَنْتَهَ عِلْمُكَ ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ﴾ أَرْبَعَةٌ أَوْ ثَمَانِيَةٌ أَوْ عَشْرَةٌ أَوْ ثَلَاثُونَ أَوْ أَرْبَعُونَ أَوْ سَبْعُونَ أَلْفًا ﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقَعَ الطَّاعُونَ بِيْلَادِهِمْ فَفَرُّوا ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فَمَاتُوا ﴿ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ بَعْدَ ثَمَانِيَةِ أَيَّامٍ أَوْ أَكْثَرَ، بِدُعَاءِ نَبِيِّهِمْ حَزَقِيلَ بِكُسْرِ الْمُهْمَلَةِ وَالْقَافِ وَسُكُونِ الزَّايِ، فَعَاشُوا دَهْرًا عَلَيْهِمْ أَثَرُ الْمَوْتِ لَا يَلْبَسُونَ ثَوْبًا إِلَّا عَادَ كَالْكَفَنِ، وَاسْتَمَرَّتْ فِي أَسْبَاطِهِمْ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وَمِنْهُ أَحْيَاءُ هَؤُلَاءِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ هُمُ الْكَفَّارُ ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢) وَالْفُصْدُ مِنْ ذِكْرِ خَيْرٍ هَؤُلَاءِ تَشْجِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ. وَلِذَا عَطَفَ عَلَيْهِ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لَأَقْوَالِكُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾^(٣) بِأَحْوَالِكُمْ فَمُجَازِيكُمْ. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ يُنْفِقَهُ لِلَّهِ عَنْ طِيبِ قَلْبٍ ﴿فَيُضْعِفَهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَيُضْعِفُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ مِنْ عَشْرِ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ﴾ يُمَسِّكُ الرِّزْقَ عَمَّنْ يَشَاءُ إِبْتِلَاءً ﴿وَيَبْضُطُ﴾ يُوسِعُهُ لِمَنْ يَشَاءُ امْتِحَانًا ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤) فِي الْآخِرَةِ بِالْبَعْثِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿أَلَمْ تَر إِلَى الْمَلَأِ﴾ الْجَمَاعَةِ ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ﴾ مَوْتِ ﴿مُوسَى﴾ أَي: إِلَى قِصَّتِهِمْ وَخَبَرِهِمْ ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ﴾ هُوَ شَمُوِيلُ ﴿أَبْعَثْ﴾ أَقِمْ ﴿لَنَا مَلَكًا نَقْتُلْ﴾ مَعَهُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تَنْتَظِمُ بِهِ كَلِمَتَنَا وَنَرْجِعُ إِلَيْهِ ﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ لَهُمْ: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ خَبَرُ «عَسَى»، وَالِاسْتِفْهَامُ لِتَقْرِيرِ التَّوَقُّعِ بِهَا ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ بِسَبِيلِهِمْ وَقَاتِلِهِمْ، وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ قَوْمٌ جَالُوتَ، أَي: لَا مَانِعَ لَنَا مِنْهُ مَعَ وُجُودِ مُقْتَضِيهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ عَنْهُ وَجَبُّوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ عَبَرُوا النَّهْرَ مَعَ طَالُوتَ كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٥) فَمُجَازِيهِمْ. وَسَأَلَ النَّبِيُّ إِرسَالَ مَلِكٍ، فَأَجَابَهُ إِلَى إِرسَالِ طَالُوتَ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا قَالُوا أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سِبْطِ الْمَمْلَكَةِ وَلَا النَّبُوءَةِ، وَكَانَ دَبَّاعًا أَوْ رَاعِيًا ﴿وَلَمْ يُوْتِ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى إِقَامَةِ الْمُلْكِ؟ ﴿قَالَ﴾ النَّبِيُّ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ

(١) هذا القصص كله لِيِّنِ الْأَسَانِيدِ، وَإِنَّمَا الْإِلاَزمُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ نَبِيَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَخْبَارًا فِي عِبَارَةِ التَّنْبِيهِ وَالتَّوْقِيفِ عَنْ قَوْمٍ مِنَ الْبَشَرِ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ فَرَارًا مِنَ الْمَوْتِ، فَأَمَاتَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ أَحْيَاهُمْ لِيُرَوْا هُمْ، وَكُلٌّ مِنْ خَلْفٍ بَعْدَهُمْ أَنَّ الْإِمَامَةَ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ لَا بِيَدِ غَيْرِهِ، فَلَا مَعْنَى لَخَوْفِ خَائِفٍ، وَلَا لَاغْتِرَارٍ مَغْتَرٍ. وَجَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ مُقَدِّمَةً بَيْنَ يَدَيْ أَمْرِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْجِهَادِ. هَذَا قَوْلُ الطَّبْرِيِّ، وَهُوَ ظَاهِرٌ رَصْفِ الْآيَةِ. وَلِلمُورِدِيِّ الْقِصَصُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ زِيَادَاتٌ اخْتَصَرَهَا لِضَعْفِهَا. [ابن عطية (١/٣٢٨)].

أَصْطَفَيْنَاهُ أَخْتَارَهُ لِلْمَلِكِ ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً﴾ سَعَةً ﴿فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ وَكَانَ أَعْلَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَوْمَئِذٍ، وَأَجْمَلُهُمْ وَأَتْمَهُمْ خَلْقًا ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ إِيْتَاءَهُ لَا إِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ ۝٢٧﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهُ. ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ﴾ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ آيَةً عَلَى مُلْكِهِ: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ﴾ الصُّنْدُوقُ، كَانَ فِيهِ صُورُ الْأَنْبِيَاءِ ۝٢٨ أَنزَلَهُ اللَّهُ عَلَى آدَمَ وَاسْتَمَرَ إِلَيْهِمْ، فَغَلَبَهُمُ الْعَمَالِقَةُ عَلَيْهِ وَأَخَذُوهُ، وَكَانُوا يَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّهِمْ، وَيُقَدِّمُونَهُ فِي الْقِتَالِ وَيَسْكُنُونَ إِلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ طَمَآنِينَةٌ لِقُلُوبِكُمْ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَى وَءَالُ هَارُونَ﴾ أَي: تَرَكَاهُ هُمَا، وَهُوَ: نَعْلَا مُوسَى وَعَصَاهُ، وَعِمَامَةُ هَارُونَ، وَقَفِيزٌ مِّنَ الْاَلَمَنِ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ، وَرُضَاضٌ مِّنَ الْأَلْوَاحِ ۝٢٩ ﴿تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ حَالٌ مِّنْ فَاعِلٍ ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ﴾ عَلَى مُلْكِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٣٠﴾ فَحَمَلَتْهُ الْمَلَائِكَةُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ حَتَّى وَضَعَتْهُ عِنْدَ طَالُوتَ، فَأَقْرَأُوا بِمُلْكِهِ وَتَسَارَعُوا إِلَى الْجِهَادِ، فَاخْتَارَ مِنْ شَبَابِهِمْ سَبْعِينَ أَلْفًا. ﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خَرَجَ ﴿طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ مِّنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَكَانَ حَرًّا شَدِيدًا وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمَاءَ ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مُخْتَبِرُكُمْ ﴿بِنَهَرٍ﴾ لِيُظْهَرَ الْمَطِيعُ مِنْكُمْ وَالْعَاصِي، وَهُوَ بَيْنَ الْأَرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ﴾ أَي: مِنْ مَائِهِ ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَي: مَنْ أَتْبَاعِي ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ﴾ يَذْقُهُ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ﴿بِيَدِهِ﴾ فَاتَّقَى بِهَا وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ مِنِّي ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ لَمَّا وَافَوْهُ بِكَثْرَةِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَةِ، رُوي أَنَّهَا كَفَتْهُمْ لِسُرْبِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ، وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَبِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَةِ ﴿قَالُوا﴾ أَي: الَّذِينَ شَرِبُوا: ﴿لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَي: يَقْتَالُهُمْ، وَجَبُّوا وَلَمْ يُجَاوِزُوهُ ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يُوقِنُونَ ﴿أَنَّهُمْ مُّلتَقُوا اللَّهَ﴾ بِالْبَعْثِ وَهُمْ الَّذِينَ جَاوَزُوهُ: ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ بِمَعْنَى:

(١) هو صندوق له شأنٌ عند بني إسرائيل، روى فيه ابن جرير عن وهب بن منبه وغيره روايات إسرائيلية عجيبة لا يتوقف عليها ما أريد منّا فهمه من القرآن. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٥٤٩)].

(٢) وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره أخبر عن التابوت الذي جعله آية لصدق قول نبيه ﷺ الذي قال لأُمته: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ أن فيه سكينته منه، وبقيته مما تركه آل موسى وآل هارون. وجائز أن يكون تلك البقية: العصا، وكسر الألواح، والتوراة، أو بعضها، والنعلين، والثياب، والجهاد في سبيل الله وجائز أن يكون بعض ذلك. وذلك أمر لا يدرك علمه من جهة الاستخراج ولا اللغة، ولا يدرك علم ذلك إلا بخبر يوجب عنه العلم. ولا خبر عند أهل الإسلام في ذلك للصفة التي وصفنا. وإذا كان كذلك، فغير جائز فيه تصويب قول وتضعيف آخر غيره. [الطبري (٤/ ٤٧٧)].

كَثِيرٌ ﴿مِّنْ فِتْنَةٍ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِيهِ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِزَارَتِهِ ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِمَجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ أَي: ظَهَرُوا لِقِتَالِهِمْ وَتَصَافَّوْا ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أُصِيبَ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامُنَا﴾ بِتَقْوِيَةِ قُلُوبِنَا عَلَى الْجِهَادِ ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ ﴿كَسَرُوهُمْ﴾ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿بِإِزَارَتِهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ وَكَانَ فِي عَسْكَرِ طَالُوتَ ﴿جَالُوتَ وَعَاقِلَهُ﴾ أَي: دَاوُدَ ﴿اللَّهُ الْمَلِكُ﴾ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ النَّبُوءَةُ بَعْدَ مَوْتِ شَمُوِيلَ وَطَالُوتَ، وَلَمْ يَجْتَمِعَا لِأَحَدٍ قَبْلَهُ ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ كَصَنْعَةِ الدَّرُوعِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ^(١) ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِدَلٍّ بَعْضٍ مِّنَ النَّاسِ﴾، ﴿بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ بِغَلَبَةِ الْمُشْرِكِينَ وَقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ وَتَخْرِيبِ الْمَسَاجِدِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾ فَدَفَعَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ. ﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا﴾ نَقُصُّهَا ﴿عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٢﴾ التَّكْيِيدُ بِـ «إِنَّ» وَغَيْرِهَا رَدُّ لِقَوْلِ الْكُفَّارِ لَهُ: ﴿لَسْتُ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿*تِلْكَ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿الرُّسُلِ﴾ صِفَةٌ، وَالْخَبَرُ ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بِتَخْصِيصِهِ بِمَنْقَبَةٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ ﴿مِنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ كَمُوسَى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ أَي: مُحَمَّدًا ﷺ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ عَلَى غَيْرِهِ، بِعُمُومِ الدَّعْوَةِ وَخَتَمِ النَّبُوءَةِ بِهِ وَتَفْضِيلِ أُمَّتِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ وَالْمُعْجَزَاتِ الْمُتَكَاثِرَةِ وَالْخَصَائِصِ الْعَدِيدَةِ ﴿وَعَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قُوَيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ جِبْرِيلَ يَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُ سَارَ^(٢) ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿مَا أَقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ بَعْدَ الرُّسُلِ، أَي: أُمَمُهُمْ ﴿مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ لِاخْتِلَافِهِمْ وَتَضَلُّلِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا﴾ لِمَشِيَّتِهِ ذَلِكَ^(٣) ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ﴾ ثَبَّتَ عَلَى إِيْمَانِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ كَالنَّصَارَى بَعْدَ الْمَسِيحِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ تَأْكِيدُ

(١) وأيضاً من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله. [السعدي (ص: ١٠٨)].

(٢) وإنما وصف عيسى بهذين مع أن سائر الرسل أيدوا بالبينات وبروح القدس، للرد على اليهود الذين أنكروا رسالته ومعجزاته، وللرد على النصاري الذين غلوا فرعموا ألوهيته، ولأجل هذا ذكر معه اسم أمه، مهما ذكر، للتنبيه على أن ابن الإنسان لا يكون إلهاً، وعلى أن مريم أمة الله تعالى لا صاحبة. [ابن عاشور (٩/٣)].

(٣) فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب. [السعدي (ص: ١٠٩)].

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٢٥٢) ﴿مِنْ تَوْفِيقٍ مَنْ شَاءَ وَخِذْلَانٍ مَنْ شَاءَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ﴿زَكَاتُهُ﴾ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ﴾ ﴿فِدَاءٍ﴾ ﴿فِيهِ وَلَا خُلَّةَ﴾ ﴿صَدَاقَةٌ تَنْفَعُ﴾ ﴿وَلَا شَفَعَةً﴾ ﴿بِغَيْرِ إِذْنِهِ﴾، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِرَفْعِ الثَّلَاثَةِ ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بِاللَّهِ، أَوْ بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٥٤) ﴿لَوْضَعِهِمْ أَمَرَ اللَّهِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهِ﴾. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ﴾ أَيُّ: لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ فِي الْوُجُودِ ﴿إِلَّا هُوَ الْحَيُّ﴾ الدَّائِمُ الْبَقَاءُ ﴿الْقَيُّومُ﴾ الْمُبَالِغُ فِي الْقِيَامِ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ^(١) ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ نُعَاسٌ ﴿وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ لَهُ فِيهَا^(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: الْخَلْقُ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أَيُّ: مَنْ أَمَرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ أَيُّ: لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِّنْ مَّعْلُومَاتِهِ^(٣) ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَنْ يُعَلِّمَهُمْ بِهِ مِنْهَا بِإِخْبَارِ الرُّسُلِ ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ قِيلَ: أَحَاطَ عِلْمُهُ بِهِمَا، وَقِيلَ: مُلْكُهُ، وَقِيلَ الْكُرْسِيُّ نَفْسُهُ مُشْتَمِلٌ عَلَيْهِمَا لِعَظَمَتِهِ^(٤)، لِحَدِيثِ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أُلْقِيَتْ

(١) هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى. [السعدي (ص: ١١٠)].

(٢) في هذا الاستفهام من الإنكار على من يزعم أن أحدا من عباده يقدر على أن ينفع أحدا منهم بشفاعته أو غيرها والتفريع والتوبيخ له ما لا مزيد عليه، وفيه من الدفع في صدور عباد القبور والصد في وجوههم والفت في أعضادهم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه. [الشوكاني (١/ ٣١١)].

(٣) أي: لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلع عليه. ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شيء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]. [ابن كثير (١/ ٦٧٩)].

(٤) الكرسي هو موضع قدمي الله عز وجل وهو بين يدي العرش كالمقدمة له، وقد صح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً، وهل له حكم الرفع؟ لولا أن ابن عباس رضي الله عنهما ممن قيل عنه: إنه يأخذ عن الإسرائيليات، لقلنا: إن له حكم الرفع؛ لأن هذا من علم الغيب، وعلم الغيب لا مجال للاجتهاد فيه، وأهل السنة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل، وبهذا جزم شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من أهل العلم وأئمة التحقيق. [ابن عثيمين تفسير البقرة (٣/ ٢٥٤)]. وقد اختلف العلماء في المراد بالكرسي؛ فقيل: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: علمه، روي عن ابن عباس، وفي ثبوته عنه نظر، ولعله لا يصح، وذلك لأمرين الأول: أنه لا يعرف في اللغة إطلاق اسم الكرسي على العلم.

الثاني: أنه خلاف ما صح؛ من أن المراد بالكرسي موضع القدمين. وهو القول المعتمد عند جمهور أهل السنة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٥٦٦)].

فِي تَرْسٍ^(١) «وَلَا يُوَدُّهُ» يُثْقَلُهُ «حِفْظُهُمَا» أَي: السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ «وَهُوَ الْعَلِيُّ» فَوْقَ خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ^(٢) «الْعَظِيمُ»^(٣) «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ «قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ» أَي: ظَهَرَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ أَنَّ الْإِيمَانَ رُشْدٌ وَالْكُفْرَ غَيٌّ، نَزَلَتْ فِيمَنْ كَانَ لَهُ مِنَ الْأَنْصَارِ أَوْلَادٌ، أَرَادَ أَنْ يُكْرِهَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ^(٤) «فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ» الشَّيْطَانِ أَوْ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَالْجَمْعِ^(٥) «وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ» تَمَسَّكَ

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (٥٧٩٤)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٥٩١)، وأبو الشيخ في العظمة (٥٨٧/٢).

(٢) هذا التقيد لا وجه له، بل هو تعالى العلي على كل شيء ذاتاً وقدراً وقهراً، فله العلو بكل أنواعه سبحانه وتعالى والذين يقيدون علوه تعالى بالقدر أو القهر يفرون من إثبات علو الذات؛ لأن مذهبهم نفي علوه تعالى بذاته فوق خلقه، وهو مذهب باطل من أقوال المعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن تبعهم. ومذهب سلف الأمة وأئمتها: أنه تعالى بذاته فوق سماواته على عرشه، كما دلّت على ذلك النصوص من الكتاب والسنة. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٥٧٠)].

(٣) هذه الآية أفضل آية في القرآن. ومعنى الفضل أن الثواب على قراءتها أكثر منه على غيرها من الآيات، هذا هو التحقيق في تفصيل القرآن بعضه على بعض، وإنما كانت أفضل لأنها جمعت من أحكام الألوهية وصفات الإله الثبوتية والسلبية ما لم تجمعها آية أخرى. [صديق حسن (٢/٨٩)]. ولما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات. [السعدي (ص: ١١٠)]. عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَكْبَرُ؟» قال: قلت: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» قال: فضرب في صدري، وقال: «وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ». أخرجه مسلم (٨١٠).

(٤) قال ابن كثير: أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن عمي قلبه فإنه لا يفيد الدخول فيه مكرهاً مقسوراً، فالنفي بمعنى النهي. وهو ما ذهب إليه في تأويل الآية كثير، وذهب آخرون إلى أنه خبر محض، أي: أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكين والاختيار... ونظير هذه الآية قوله تعالى: «فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ» [الكهف: ٢٩] وقوله تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» [يونس: ٩٩]... تنبيه: علم من هذه الآية أن سيف الجهاد المشروع في الإسلام والذي لا يبطله عدل عادل ولا جور جائر لم يستعمل للإكراه على الدخول في الدين، ولكن لحماية الدعوة إلى الدين والإذعان لسلطانه وحكمه العدل. [القاسمي (٢/١٩٤)].

(٥) الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع. [أعلام الموقعين لابن القيم (١/١٠٣)]. وهو فاعول من الطغيان، زيدت التاء فيه بدلاً من لام الفعل، كقولهم حانوت وتابوت، فالتاء فيها مبدلة من هاء التأنيث. [البغوي].

﴿بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بِالْعَقْدِ الْمُحْكَمِ ^(١) ﴿لَا أَنْفِصَامَ﴾ انْقِطَاعَ ﴿لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿عَلِيمٌ﴾ ^(٢) ﴿بِمَا يُفْعَلُ﴾
 ﴿اللَّهُ وَلِيُّ﴾ نَاصِرُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ
 الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ ذَكَرَ الْإِخْرَاجَ إِمَّا فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ﴾، أَوْ فِيمَنْ
 آمَنَ بِالنَّبِيِّ قَبْلَ بَعْثِهِ مِنَ الْيَهُودِ ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ ^(٣) ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ^(٤) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ
 جَادِلَ ﴿إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ لَـ ﴿أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ أَيُّ: حَمَلَهُ بِطَرَفِهِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ نُمُودُ ﴿إِذْ﴾ بَدَّلَ
 مِنْ ﴿حَاجَّ﴾، ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ لَمَّا قَالَ لَهُ مَنْ رَبُّكَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟ ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيُّ: يَخْلُقُ الْحَيَاةَ
 وَالْمَوْتَ فِي الْأَجْسَادِ ﴿قَالَ﴾ هُوَ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ بِالْقَتْلِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ، وَدَعَا بِرَجُلَيْنِ فَقَتَلَ أَحَدَهُمَا وَتَرَكَ
 الْآخَرَ، فَلَمَّا رَأَاهُ غَيِّبًا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ مُتَقَلًّا إِلَى حُجَّةٍ أَوْضَحَ مِنْهَا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا﴾
 أَنْتَ ﴿مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تَحَيَّرَ وَدَهَشَ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٥) بِالْكَفْرِ إِلَى مَحَجَّةِ
 الْإِحْتِجَاجِ. ﴿أَوْ﴾ رَأَيْتَ ﴿كَالَّذِي﴾ الْكَافُ زَائِدَةٌ ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ هِيَ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، رَاكِبًا عَلَى حِمَارٍ وَمَعَهُ سَلَةٌ
 تَيْنٍ وَقَدْحُ عَصِيرٍ وَهُوَ عَزِيزٌ ^(٦) ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ سُقُوفُهَا لَمَّا خَرَبَهَا بُخْتَنْصَرُ ﴿قَالَ أُنَى﴾ كَيْفَ
 ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ اسْتِعْظَامًا لِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ وَأَلْبَنَهُ ﴿مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أَحْيَاهُ لِزِيَرَتِهِ
 كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ مَكَثْتَ هُنَا؟ ﴿قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ لِأَنَّهُ نَامَ أَوَّلَ النَّهَارِ فَقَبِضَ
 وَأُحْيِيَ عِنْدَ الْغُرُوبِ، فَظَنَّ أَنَّهُ يَوْمُ النَّوْمِ ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ﴾ التَّيْنِ ﴿وَشَرَابِكَ﴾ الْعَصِيرِ
 ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لَمْ يَتَغَيَّرْ مَعَ طُولِ الزَّمَانِ، وَالْهَاءُ قِيلَ: أَصْلٌ مِنْ «سَانَهْتُ»، وَقِيلَ: لِلْسَّكْتِ مِنْ «سَانَيْتُ»، وَفِي قِرَاءَةٍ:
 بِحَذْفِهَا ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ كَيْفَ هُوَ، فَرَأَاهُ مَيِّتًا وَعِظَامُهُ بَيِّضٌ تَلَوُّحٌ، فَعَلْنَا ذَلِكَ لِتَعْلَمَ، ﴿وَلَتَجْعَلَكَ ءَايَةً﴾ عَلَى

(١) العروة بضم العين ما يجعل كالحلقة في طرف شيء ليقبض على الشيء منه ... مثلت حال المتوكل بحال من أراد أن يتدلى من شاطئ فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه، فالمعنى أن المؤمن ثابت اليقين سالم من اضطراب القلب في الدنيا، وهو ناج من مهاوي السقوط في الآخرة، كحال من تمسك بعروة حبل متين لا ينفصم. [ابن عاشور (٢٩/٣)].

(٢) لما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل والنور بمنزلة طريق الحق فقد أفرد النور وجمعت الظلمات. فأولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه، من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات. [اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم (ص: ١٦)].

(٣) وقيل غيره، والمقصود تعريف منكري البعث قدرة الله على إحياء خلقه بعد إماتتهم لا تعريف اسم ذلك المار. [صديق حسن (١٠٤/٢)].

الْبَعْثِ ﴿لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ مِنْ حِمَارِكَ ﴿كَيْفَ نُنْشِرُهَا﴾ نُحْيِيهَا بِضَمِّ النُّونِ، وَفُرِيَ: بِفَتْحِهَا^(١) مِنْ «أَنْشَرُ، وَنَشَرُ» لُغَتَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّهَا وَالزَّايِ، نُحَرِّكُهَا وَنَرْفَعُهَا ﴿ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا﴾ فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ تَرَكَّبَتْ وَكُسِيتْ لَحْمًا وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوحُ وَنَهَقَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ ذَلِكَ بِالْمُشَاهَدَةِ ﴿قَالَ أَعْلَمُ﴾ عِلْمُ مُشَاهَدَةٍ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَعْلَمُ﴾ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بِقُدْرَتِي عَلَى الْإِحْيَاءِ؟ سَأَلَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِإِيمَانِهِ بِذَلِكَ، لِيُجِيبَهُ بِمَا سَأَلَ، فَيَعْلَمَ السَّامِعُونَ غَرَضَهُ^(٢) ﴿قَالَ بَلَى﴾ أَمَنْتُ ﴿وَلَكِنْ﴾ سَأَلْتُكَ ﴿لِيُظْمِنَنَّ﴾ يُسْكِنُ ﴿قَلْبِي﴾ بِالْمُعَايَنَةِ الْمَضْمُونَةِ إِلَى الْإِسْتِدْلَالِ^(٣) ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصِرْهُنَّ إِيَّاكَ﴾ بِكَسْرِ الصَّادِ وَضَمِّهَا، أَمْلَهُنَّ إِلَيْكَ وَقَطَّعْهُنَّ وَاخْلَطْ لَحْمَهُنَّ وَرِيشَهُنَّ ﴿ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ﴾ مِنْ جِبَالِ أَرْضِكَ ﴿مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ﴾ إِلَيْكَ ﴿يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا﴾ سَرِيعًا ﴿وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ فِي صُنْعِهِ، فَأَخَذَ طَاوُوسًا وَنَسْرًا وَغُرَابًا وَدِيكًا، وَفَعَلَ بِهِنَّ مَا ذَكَرَ، وَأَمْسَكَ رُؤُوسَهُنَّ عِنْدَهُ وَدَعَاهُنَّ، فَتَطَايَرَتْ الْأَجْزَاءُ إِلَى بَعْضِهَا حَتَّى تَكَامَلَتْ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ إِلَى رُؤُوسِهَا^(٤). ﴿مَثَلُ﴾ صِفَةُ نَفَقَاتِ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: طَاعَتِهِ ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ فَكَذَلِكَ نَفَقَاتُهُمْ تُضَاعَفُ لِسَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ الْمُضَاعَفَةَ. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا﴾ عَلَى الْمُنْفَقِ عَلَيْهِ، بِقَوْلِهِمْ مَثَلًا: قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ وَجَبَرْتُ حَالَهُ ﴿وَلَا أَذَى﴾ لَهُ بِذِكْرِ ذَلِكَ إِلَى مَنْ لَا يُحِبُّ وَقُوفَهُ عَلَيْهِ وَنَحْوَهُ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثَوَابُ انْفَاقِهِمْ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿*قَوْلُ﴾

(١) قراءة شاذة.

(٢) قال الجمهور: لم يشك إبراهيم في إحياء الموتى، وإنما طلب المعاينة، لأنه رأى دابة قد أكلتها السباع والحيات فسأل ذلك السؤال، ويدل على ذلك قوله: كيف، فإنها سؤال عن حال الإحياء وصورته لا عن وقوعه. [ابن جزي (١/١٣٣)]. وأما قول النبي ﷺ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ». أخرجه البخاري (٤٥٣٧)، فمعناه أنه لو كان شاكًا لكاننا نحن أحق به، ونحن لا نشك لإبراهيم أخرى ألا يشك. فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. [ابن عطية (١/٣٥٢)].

(٣) ولهذا قال النبي ﷺ: «لَيْسَ الْخَبِيرُ كَالْمُعَايَنَةِ». أخرجه أحمد (١٨٤٢)، وابن حبان (٢٠٨٧). [صديق حسن (٢/١٠٩)].

(٤) تعيين الطيور وكيفية ما فعله إبراهيم كما ذكر المؤلف هو من الروايات الإسرائيلية، وتعيين أنواع الطيور لا مصلحة فيه؛ فلذلك لم يعينها الله تعالى ولم يسمها والله عزيز حكيم. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٥٩٢)].

مَعْرُوفٌ ﴿كَلَامٌ حَسَنٌ وَرَدُّ عَلَى السَّائِلِ جَمِيلٌ﴾ وَمَغْفِرَةٌ ﴿لَهُ فِي الْحَاحِهِ﴾ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى ﴿بِالْمَنِّ وَتَعْيِيرٍ لَهُ بِالسُّؤَالِ﴾ وَاللَّهُ غَنِيٌّ ﴿عَنْ صَدَقَةِ الْعِبَادِ﴾ حَلِيمٌ ﴿٢٣٢﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَنِ الْمَانِّ وَالْمُؤْذِي. ﴿يَنَآيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ﴾ أَي: أَجُورَهَا ﴿بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ إِبْطَالًا ﴿كَالَّذِي﴾ أَي: كَابْطَالِ نَفَقَةِ الَّذِي ﴿يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ مُرَائِيًا لَهُمْ ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ هُوَ الْمُنَافِقُ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ حَجَرٍ أَمْلَسَ ﴿عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ مَطَرٌ شَدِيدٌ ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ صَلْبًا أَمْلَسَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ اسْتِنَافٌ لِّبَيَانِ مَثَلِ الْمُنَافِقِ الْمُنْفِقِ ﴿رِثَاءَ النَّاسِ﴾، وَجُمِعَ الضَّمِيرُ بِاعْتِبَارِ مَعْنَى «الَّذِي» ﴿عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ عَمَلُوا، أَي: لَا يَجِدُونَ لَهُ ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ، كَمَا لَا يُوْجَدُ عَلَى الصَّفْوَانِ شَيْءٌ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ لِإِذْهَابِ الْمَطَرِ لَهُ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وَمَثَلُ ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءً﴾ طَلَبَ ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: تَحْقِيقًا لِلثَّوَابِ عَلَيْهِ، بِخِلَافِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَهُ لِإِنْكَارِهِمْ لَهُ، وَمِنْ إِبْتِدَائِيَّةِ ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ﴾ بُسْتَانٍ ﴿بِرُبُوعَةٍ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا، مَكَانٍ مُّرْتَفِعٍ مُسْتَوٍ ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأْتَتْ﴾ أَعْطَتْ ﴿أُكْلَهَا﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَسُكُونِهَا، ثَمَرَهَا ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مِثْلِي مَا يَثْمُرُ غَيْرَهَا ﴿فَإِنْ لَّمْ يُصْبَهَا وَابِلٌ فَطُلَّ﴾ مَطَرٌ خَفِيفٌ يُصْبِهَا وَيَكْفِيهَا لِارْتِفَاعِهَا، الْمَعْنَى ثَمَرٌ وَتَرَكُوا كَثْرَ الْمَطَرِ أَمْ قَلَّ، فَكَذَلِكَ نَفَقَاتُ مَنْ ذَكَرَ تَزَكُّوْا عِنْدَ اللَّهِ كَثُرَتْ أَمْ قَلَّتْ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٣٥﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿أَيُّودٌ﴾ أَيَحِبُّ ﴿أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ ﴿مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا﴾ ثَمَرٌ ﴿مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَ﴾ قَدْ ﴿أَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ فَضَعُفَ مِنَ الْكِبَرِ عَنِ الْكَسْبِ ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّتُهُ ضِعْفَاءُ﴾ أَوْلَادٌ صِغَارٌ لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ فَقَقَدَهَا أَحْوَجَ مَا كَانَ إِلَيْهَا، وَبَقِيَ هُوَ وَأَوْلَادُهُ عَجَزَةً مُتَحِيرِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ، وَهَذَا تَمْثِيلٌ لِنَفَقَةِ الْمُرَائِي وَالْمَانِّ فِي ذَهَابِهَا وَعَدَمِ نَفْعِهَا أَحْوَجَ مَا يَكُونُ إِلَيْهَا فِي الْآخِرَةِ، وَالِاسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ لَرَجُلٍ عَمِلَ بِالطَّاعَاتِ، ثُمَّ بُعِثَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَعَمِلَ بِالْمَعَاصِي حَتَّى أَحْرَقَ أَعْمَالَهُ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّ مَا ذَكَرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٣٦﴾ فَتَعْتَبِرُونَ. ﴿يَنَآيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا﴾ أَي: زَكُّوا ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ﴾ جِيَادِ ﴿مَا كَسَبْتُمْ﴾ مِنَ الْمَالِ ﴿وَمِنْ﴾ نِ طَيِّبَاتِ ﴿مَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْحُبُوبِ وَالثَّمَارِ ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا﴾ تَقْصِدُوا ﴿الْحَبِيبَ﴾ الرَّدِيءَ ﴿مِنْهُ﴾ أَي: مِنَ الْمَذْكُورِ ﴿تُنْفِقُونَ﴾ لَهُ فِي الزَّكَاةِ، حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَيَمَّمُوا﴾، ﴿وَلَسْتُمْ بِأَخِذِيهِ﴾ أَي: الْخَبِيثِ، لَوْ أُعْطِيتُمُوهُ فِي حُقُوقِكُمْ ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بِالتَّسَاهُلِ وَغَضِّ الْبَصَرِ، فَكَيْفَ تُؤَدُّونَ مِنْهُ حَقَّ اللَّهِ؟ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عَنْ نَفَقَاتِكُمْ ﴿حَمِيدٌ﴾ ﴿٢٣٧﴾ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ. ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ

الْفَقْرَ يُخَوِّفُكُمْ بِهِ إِنَّ تَصَدَّقْتُمْ فَمَتَّسِكُوا ﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الْبَخْلُ، وَمَنْعَ الزَّكَاةِ ^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ﴾ عَلَى الْإِنْفَاقِ ﴿مَغْفِرَةً مِنْهُ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَفَضْلًا﴾ رِزْقًا خَلَفًا مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْلُهُ ﴿عَلِيمٌ﴾ ^(٢٦٨) بِالْمُنْفِقِ. ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ أَيِ: الْعِلْمَ النَّافِعَ الْمُؤَدِّيَ إِلَى الْعَمَلِ ﴿مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى السَّعَادَةِ الْآبِدِيَّةِ ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّلَالِ، يَتَّعِظُ ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ^(٢٦٩) أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ﴾ أَدَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ أَوْ صَدَقَةٍ ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ﴾ فَوَقَّيْتُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بِمَنْعِ الزَّكَاةِ وَالنَّذْرِ، أَوْ بَوْضَعِ الْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ مِنْ مَعَاصِي اللَّهِ ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ^(٢٧٠) مَا نَعِينَ لَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ﴿إِنْ تَبَدُّوا﴾ تَظْهَرُوا ﴿الْصَّدَقَاتِ﴾ أَيِ: النَّوَافِلِ ﴿فَنِعْمًا هِيَ﴾ أَيِ: نِعَمٌ شَيْئًا إِبْدَاؤُهَا ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ تُسِرُّوَهَا ﴿وَتَوْتُوهُمَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنْ إِبْدَائِهَا وَإِيْتَائِهَا الْأَغْنِيَاءَ، أَمَّا صَدَقَةُ الْفَرَضِ فَلَا فَضْلَ إِظْهَارِهَا لِيُقْتَدَى بِهِ وَلَيْلًا يُتَّهَمُ، وَإِيْتَاؤُهَا الْفُقَرَاءَ مُتَعَيِّنٌ ﴿وَيُكْفِّرُ﴾ بِالْيَأَى وَالنُّونِ مَجْزُومًا بِالْعَطْفِ عَلَى مَحَلٍّ ﴿فَهُوَ﴾ وَمَرْفُوعًا عَلَى الْإِسْتِنَافِ ﴿عَنْكُمْ مِنْ﴾ بَعْضِ ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ^(٢٧١) عَالِمٌ بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. وَلَمَّا مَنَعَ ﷺ مِنَ التَّصَدَّقِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ لِيُسَلِّمُوا نَزَلَ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ أَيِ: النَّاسِ إِلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدَايَتُهُ إِلَى الدُّخُولِ فِيهِ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ مَالٍ ﴿فَلَا نُنْفِسُكُمْ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَهُ لَهَا ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ﴾ أَيِ: ثَوَابِهِ ^(٢٧٢) لَا غَيْرَهُ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ^(٢٧٣) تُنْقُصُونَ مِنْهُ شَيْئًا، وَالْجُمْلَتَانِ تَأْكِيدٌ لِلْأُولَى. ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيِ: الصَّدَقَاتِ ﴿الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ: حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ، نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الصُّفَّةِ، وَهُمْ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُرْصِدُوا لِتَعْلَمِ الْقُرْآنَ

(١) قال الكلبي: كل الفحشاء في القرآن فهو الزنا إلا هذا. [البغوي (١/٣٣٣)].

(٢) قيل: إن المسلمين كانوا لا يتصدقون على أهل الذمة، فنزلت الآية مبيحة للصدقة على من ليس على دين الإسلام، وذلك في التطوع، وأما الزكاة فلا تدفع لكافر أصلاً، فالضمير في هداهم على هذا القول للكافر، وقيل: ليس عليك أن تهديهم لما أمروا به من الإنفاق، وترك المن والأذى والرياء، والإنفاق من الخبيث، إنما عليك أن تبلغهم والهدى بيد الله فالضمير على هذا للمسلمين. [ابن جزي (١/١٣٦)].

(٣) حمل الوجه على الثواب المنفصل من أبطل الباطل، فإن اللغة لا تحتل ذلك ولا يعرف أن الجزاء يسمى وجهاً للمجازي. كما أن الثواب مخلوق، فقد صح عن النبي ﷺ أنه استعاذ بوجهه الله فقال: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الْكَرِيمِ أَنْ تُضِلَّنِي». [أخرجه أبو داود (٥٠٥٢)] ... ولا

يظن برسول الله ﷺ أن يستعيز بمخلوق. [مختصر الصواعق المرسلات لابن القيم (ص: ٤٠٩)].

وَالْخُرُوجِ مَعَ السَّرَايَا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْبًا﴾ سَفَرًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ لِلتَّجَارَةِ وَالْمَعَاشِ لِشُغْلِهِمْ عَنْهُ بِالْجِهَادِ
 ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ﴾ بِحَالِهِمْ ﴿أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ أَي: لَتَعَفُّفِهِمْ عَنِ السُّؤَالِ وَتَرْكِهِ ﴿تَعْرِفُهُمْ﴾ يَا مُخَاطَبُ
 ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ عَلَامَتِهِمْ مِنَ التَّوَاضُعِ وَآثَرِ الْجَهْدِ ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ﴾ شَيْئًا فَيُلْحِقُونَ ﴿إِلْحَافًا﴾ أَي: لَا سُؤَالَ لَهُمْ
 أَصْلًا، فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ إِلْحَافٌ وَهُوَ الْإِلْحَاحُ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ فَمَجَازٌ عَلَيْهِ. ﴿الَّذِينَ
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٤﴾﴾ الَّذِينَ
 يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ أَي: يَأْخُذُونَهُ وَهُوَ الزِّيَادَةُ فِي الْمُعَامَلَةِ بِالنُّقُودِ وَالْمَطْعُومَاتِ فِي الْقَدْرِ، أَوِ الْأَجَلِ ﴿لَا يَقُومُونَ﴾
 مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿إِلَّا﴾ قِيَامًا ﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ يَصْرَعُهُ ﴿الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ الْجُنُونُ بِهِمْ، مُتَعَلِّقٌ بِهِمْ
 ﴿يَقُومُونَ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ فِي الْجَوَازِ، وَهَذَا مِنْ
 عَكْسِ التَّشْبِيهِ مُبَالِغَةً، فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بَلَغَهُ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ وَعَظٌ
 ﴿مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى﴾ عَنْ أَكْلِهِ ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قَبْلَ النَّهْيِ، أَي: لَا يُسْتَرَدُّ مِنْهُ ﴿وَأَمْرُهُ﴾ فِي الْعَفْوِ عَنْهُ ﴿إِلَى اللَّهِ
 وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَى أَكْلِهِ مُشَبَّهًا لَهُ بِالْبَيْعِ فِي الْحِلِّ ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧٥﴾﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا
 يُنْقِصُهُ وَيُذْهِبُ بَرَكَتَهُ ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَزِيدُهَا وَيُنْمِيهَا وَيُضَاعِفُ ثَوَابَهَا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ بِتَحْلِيلِ الرِّبَا
 ﴿أَثِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ فَاجِرٍ بِأَكْلِهِ، أَي: يُعَاقِبُهُ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ
 أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا﴾ اُتْرَكُوا ﴿مَا بَقِيَ

(١) فَسَّرَ الرِّبَا بِالزِّيَادَةِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ رَبَا يَرَبُو: إِذَا زَادَ، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّ الرِّبَا فِي الشَّرْعِ نَوْعَانِ: رَبَا فَضْلٌ، وَرَبَا نَسْأُ. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٦٣٣)].

(٢) لِأَنَّهُ أَخَذَ قَبْلَ نَزُولِ التَّحْرِيمِ. [النسفي (١/ ٢٢٥)].

(٣) قِيلَ: أَمَرَ الرِّبَا إِلَى اللَّهِ فِي تَحْرِيمِهِ عَلَى عِبَادِهِ وَاسْتِمْرَارِ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ عَائِدٌ إِلَى مَا سَلَفَ، أَي: أَمَرَ إِلَى اللَّهِ فِي الْعَفْوِ عَنْهُ
 وَإِسْقَاطِ التَّبَعَةِ فِيهِ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى الْمُرَبِّي، أَي: أَمَرَ مِنْ عَامِلٍ بِالرِّبَا إِلَى اللَّهِ فِي تَشْبِيهِهِ عَلَى الْإِنْتِهَاءِ أَوْ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَعْصِيَةِ، وَقِيلَ:
 إِنْ شَاءَ عَذِبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ. [صديق حسن (٢/ ١٤٠)].

(٤) لِأَنَّهُمْ بِالْإِسْتِحْلَالِ صَارُوا كَافِرِينَ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَحَلَّ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِرٌ، فَلِذَا اسْتَحَقَّ الْخُلُودَ، وَبِهَذَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا تَعْلُقُ لِلْمَعْتَرِ لِهَذِهِ الْآيَةِ
 فِي تَخْلِيدِ الْفَسَاقِ. [النسفي (١/ ٢٢٥)].

(٥) تَفْسِيرُ نَفْيِ الْمَحَبَّةِ بِالْعُقُوبَةِ، هَذَا جَارٍ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ لَا يُثَبِّتُ لِلَّهِ صِفَةَ مَحَبَّةٍ؛ لِذَلِكَ يُؤَوَّلُونَ الْمَحَبَّةَ بِالثَّوَابِ وَعَدَمَ الْمَحَبَّةِ بِالْعُقَابِ،
 فَيَجْمَعُونَ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ فِي الْحَقِيقَةِ تَحْرِيفٌ. وَالصَّوَابُ: أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ بَلْ يَمَقِّتُهُمْ
 كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّقْتَتِلِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [غافر: ١٠]. [التعليق والإيضاح للبراك (ص: ٦٣٥)].

مِنَ الرَّبِّوَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ صَادِقِينَ فِي إِيْمَانِكُمْ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ امْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، نَزَلَتْ لَمَّا طَالَ
 بَعْضُ الصَّحَابَةِ بَعْدَ النَّهْيِ بِرَبِّا كَانَ لَهُ مِنْ قَبْلُ. ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ ﴿فَإَذْنُوا﴾ اِعْلَمُوا ﴿بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ﴾ لَكُمْ، فِيهِ تَهْدِيدٌ شَدِيدٌ لَهُمْ، وَلَمَّا نَزَلَتْ قَالُوا: لَا يَدُلُّنَا بِحَرْبِهِ ﴿وَإِنْ تَبْتُمْ﴾ رَجَعْتُمْ عَنْهُ ﴿فَلَكُمْ رُءُوسٌ﴾
 أُصُولُ ﴿أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ﴾ بِزِيَادَةٍ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿بِنَقْصٍ﴾ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ وَقَعَ غَرِيمٌ ﴿ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ﴾
 لَهُ أَيُّ: عَلَيْكُمْ تَأْخِيرُهُ ﴿إِلَى مِيسْرَةٍ﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا، أَيُّ: وَقْتُ يُسْرِهِ ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى إِدْغَامِ
 التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، وَبِالتَّخْفِيفِ عَلَى حَذْفِهَا، أَيُّ: تَتَصَدَّقُوا عَلَى الْمُعْسِرِ بِالْإِبْرَاءِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ فَافْعَلُوهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظْلَمَ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.
 ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ تُرْجُونَ، وَلِلْفَاعِلِ تَصِيرُونَ ﴿فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ
 ﴿ثُمَّ تُوفَّى﴾ فِيهِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ جَزَاءً ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بِنَقْصِ حَسَنَةٍ، أَوْ
 زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَدَّيْنْتُمْ﴾ تَعَامَلْتُمْ ﴿بِدَيْنٍ﴾ كَسَلِمٍ وَقَرْضٍ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مَعْلُومٍ
 ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ اسْتِثْقَاءً وَدَفْعًا لِلنِّزَاعِ ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾ كِتَابَ الدَّيْنِ ﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بِالْحَقِّ فِي كِتَابَتِهِ، لَا يُزِيدُ فِي
 الْمَالِ وَالْأَجَلِ وَلَا يُنْقُصُ ﴿وَلَا يَأْبَ﴾ يَمْتَنِعُ ﴿كَاتِبٌ﴾ مِنْ ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهَا ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ أَيُّ:
 فَضَّلَهُ بِالْكِتَابَةِ فَلَا يَخْلُ بِهَا، وَالْكَافُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ ﴿يَأْبَ﴾، ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَلْيُمْلِلْ﴾ يُمْلِلِ الْكَاتِبَ ﴿الَّذِي عَلَيْهِ
 الْحَقُّ﴾ الَّذِينَ؛ لِأَنَّهُ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ فَيَقْرَأُ لِيَعْلَمَ مَا عَلَيْهِ ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فِي إِمْلَائِهِ ﴿وَلَا يَبْخَسْ﴾ يُنْقُصُ ﴿مِنْهُ﴾
 أَيُّ: الْحَقِّ ﴿شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا﴾ مُبَدَّرًا ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ عَنِ الْإِمْلَاءِ لِصِغَرِ أَوْ كِبَرِ ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ
 أَنْ يُمْلَ هُوَ﴾ لِخَرَسٍ أَوْ جَهْلٍ بِاللُّغَةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ مُتَوَلَّى أَمْرِهِ، مِنْ وَالِدٍ وَوَصِيِّ وَقِيَمٍ وَمُتَرَجِمٍ
 ﴿بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا﴾ أَشْهَدُوا عَلَى الدَّيْنِ ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ شَاهِدَيْنِ ﴿مِنْ رِّجَالِكُمْ﴾ أَيُّ: بِالْغِي الْمُسْلِمِينَ الْأَخْرَارِ
 ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا﴾ أَيُّ: الشَّاهِدَانِ ﴿رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ يَشْهَدُونَ ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لِدِينِهِ
 وَعَدَالَتِهِ، وَتَعَدُّدُ النِّسَاءِ لِأَجْلِ ﴿أَنْ تَضَلَّ﴾ تَنَسَّى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ الشَّهَادَةُ لِنَقْصِ عَقْلِهِنَّ وَضَبْطِهِنَّ ﴿فَتَذَكَّرْ﴾
 بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿إِحْدَاهُمَا﴾ الذَّاكِرَةُ ﴿الْأُخْرَى﴾ النَّاسِيَةُ، وَجُمْلَةُ الْإِذْكَارِ مَحَلُّ الْعِلَّةِ، أَيُّ: لِتُذَكَّرَ إِنْ ضَلَّتْ،
 وَدَخَلَتْ عَلَى الضَّلَالِ لِأَنَّهُ سَبَبُهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ ﴿إِنْ﴾ شَرْطِيَّةٌ وَرَفْعٌ ﴿تَذَكَّرْ﴾ اسْتِثْنَاءٌ جَوَابُهُ: ﴿وَلَا يَأْبَ﴾

الشَّهَادَةُ إِذَا مَا ﴿دُعُوا﴾ إِلَى تَحْمِلِ الشَّهَادَةِ وَأَدَائِهَا ﴿وَلَا تَسْمُوا﴾ تَمَلُّوا مِنْ ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ أَي: مَا شَهِدْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ لِكثْرَةِ وَقُوعِ ذَلِكَ ﴿صَغِيرًا﴾ كَانَ ﴿أَوْ كَبِيرًا﴾ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا ﴿إِلَى أَجَلِهِ﴾ وَقَتِ حُلُولِهِ، حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿تَكْتُبُوهُ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْكُتْبُ ﴿أَقْسَطُ﴾ أَعْدَلُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ أَي: أَعُونُ عَلَى إِفَامَتِهَا لِأَنَّهُ يُذَكِّرُهَا ﴿وَأَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ تَشْكُوا فِي قَدْرِ الْحَقِّ وَالْأَجَلِ ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ تَقَعَ ﴿تَجَرَّةٌ حَاضِرَةٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ فَـ ﴿تَكُونَ﴾ نَاقِصَةً، وَاسْمُهَا: ضَمِيرُ التَّجَارَةِ ﴿تُذِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ أَي: تَقْبِضُونَهَا وَلَا أَجَلَ فِيهَا ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُتَجَرُّ فِيهِ ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَدْفَعُ لِلِاخْتِلَافِ، وَهَذَا وَمَا قَبْلَهُ أَمْرٌ نَذِبٌ ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ صَاحِبُ الْحَقِّ وَمَنْ عَلَيْهِ، بِتَحْرِيفٍ أَوْ امْتِنَاعٍ مِنَ الشَّهَادَةِ أَوْ الْكِتَابَةِ، وَلَا يَضُرُّهُمَا صَاحِبُ الْحَقِّ بِتَكْلِيفِهِمَا مَا لَا يَلِيقُ فِي الْكِتَابَةِ وَالشَّهَادَةِ ﴿وَأَنْ تَفْعَلُوا﴾ مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ﴾ خُرُوجٌ عَنِ الطَّاعَةِ لِاحِقٌ ﴿بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ مَصَالِحَ أُمُورِكُمْ، حَالٌ مُقَدَّرَةٌ أَوْ مُسْتَأْنَفٌ ^(١) ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ * وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ أَي: مُسَافِرِينَ وَتَدَايَنْتُمْ ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرِهْنُ﴾ جَمْعُ رَهْنٍ ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ تَسْتَوْثِقُونَ بِهَا، وَيَبْتَئِ السُّنَّةُ جَوَازَ الرَّهْنِ فِي الْحَضَرِ وَوُجُودَ الْكَاتِبِ ^(٢)، فَالْتَّقِيدُ بِمَا ذَكَرَ لِأَنَّ التَّوْثِيقَ فِيهِ أَشَدُّ، وَأَفَادَ قَوْلُهُ: ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾ اشْتِرَاطَ الْقَبْضِ فِي الرَّهْنِ، وَالِاكْتِفَاءُ بِهِ مِنَ الْمُزْتَهِنِ وَوَكِيلِهِ ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أَي: الدَّائِنُ الْمَدِينُ عَلَى حَقِّهِ، فَلَمْ يَزْتَهِنِ ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ﴾ أَي: الْمَدِينُ ﴿أَمْنَتَهُ﴾ دَيْنَهُ ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ فِي أَدَائِهِ ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ إِذَا دُعِيتُمْ لِإِفَامَتِهَا ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَآثٌ قَلْبُهُ﴾ خُصَّ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَحَلُّ الشَّهَادَةِ، وَلِأَنَّهُ إِذَا أَثَمَ تَبِعَهُ غَيْرُهُ، فَيَعَاقَبَ عَلَيْهِ مُعَاقَبَةُ الْآثِمِينَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ^(٣) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ. ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا﴾ تَظْهَرُوا ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنَ السُّوءِ وَالْعَزْمِ عَلَيْهِ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تُسِرُّوهُ ﴿يُحَاسِبْكُمْ﴾ يُخْبِرْكُمْ ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَغْفِرَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةُ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَعَذِّيبُهُ ^(٤)،

(١) إخبار على وجه الامتنان، وقيل: معناه الوعد بأن من اتقى علمه الله وألهمه وهذا المعنى صحيح [ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

فُرْقَانًا﴾ [الأففال: ٢٩]، ولكن لفظ الآية لا يعطيه، لأنه لو كان كذلك لجزم ﴿يُعَلِّمُكُمُ﴾ في جواب ﴿اتَّقُوا﴾. [ابن جزي (١/ ١٤٠)].

(٢) الرهن في السفر ثابت بنص التنزيل، وفي الحضر بفعل رسول الله ﷺ كما ثبت أنه ﷺ رهن درعاً له عند يهودي. أخرجه البخاري (٢٠٦٩).

[الشوكاني (١/ ٣٤٨)].

(٣) وهو لمن أتى بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره. [السعدي (ص: ١٢٠)].

وَالْفَعْلَانِ بِالْجَزْمِ عَطْفًا عَلَى جَوَابِ الشَّرْطِ، وَالرَّفْعِ أَيُّ: فَهُوَ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤) وَمِنْهُ مُحَاسَبَتُكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ. ﴿ءَامَنَ﴾ صَدَقَ ﴿الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿كُلُّ﴾ تَنْوِينُهُ عَوْضٌ مِنَ الْمُصَافِ إِلَيْهِ ﴿ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْأَفْرَادِ ﴿وَرُسُلِهِ﴾ يَقُولُونَ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ فَتَوَّضَعُوا بَعْضٌ وَنَكْفَرُ بِبَعْضٍ كَمَا فَعَلَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ أَيُّ: مَا أَمَرْنَا بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ نَسْأَلُكَ ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨٥) الْمَرْجِعُ بِالْبُعْثِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الَّتِي قَبْلَهَا شَكَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْوَسْوَسَةِ، وَشَقَّ عَلَيْهِمُ الْمُحَاسَبَةُ بِهَا، فَنَزَلَ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أَيُّ: مَا تَسْعُهُ قُدْرَتُهَا ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ، أَيُّ: ثَوَابُهُ ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ مِنَ الشَّرِّ، أَيُّ: وَزْرُهُ، وَلَا يُؤَاخِذُ أَحَدٌ بَذَنْبِ أَحَدٍ، وَلَا بِمَا لَمْ يَكْسِبْهُ مِمَّا وَسَّوَسَتْ بِهِ نَفْسُهُ، قُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ بِالْعِقَابِ ﴿إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا﴾ تَرَكْنَا الصَّوَابَ لَا عَنْ عَمْدٍ، كَمَا آخَذْتَ بِهِ مَنْ قَبْلَنَا، وَقَدْ رَفَعَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ^(١)، فَسُؤَالُهُ اعْتِرَافٌ بِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أَمْرًا يَثْقُلُ عَلَيْنَا حِمْلُهُ ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أَيُّ: بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ، وَإِخْرَاجِ رُبْعِ الْمَالِ فِي الزَّكَاةِ، وَقَرْضِ مَوْضِعِ النَّجَاسَةِ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ﴾ قُوَّةَ ﴿لَنَا بِهِ﴾ مِنَ التَّكَالِيفِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾ أُمَحِّ ذُنُوبَنَا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فِي الرَّحْمَةِ زِيَادَةً عَلَى الْمَغْفِرَةِ ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ سَيِّدُنَا وَمُتَوَلِّي أُمُورِنَا ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢٨٦) بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَالْغَلْبَةِ فِي قِتَالِهِمْ، فَإِنَّ مِنْ شَأْنِ الْمَوْلَى أَنْ يَنْصُرَ مَوَالِيَهُ عَلَى الْأَعْدَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ فَقَرَأَهَا ﷺ قِيلَ لَهُ عَقِبَ كُلُّ كَلِمَةٍ: قَدْ فَعَلْتُ»^(٢).

(١) قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَا وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتَكْرِهُوا عَلَيْهِ» أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥) بلفظ: «وضع» بدلا من «تجاوز»، وابن حبان (٧٢١٩)، والبيهقي (١٥٤٩٠) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٢٦). وعن أبي مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ». أخرجه البخاري (٥٠٤٠)، ومسلم (٨٠٧).

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ
مَدَنِيَّةٌ، مَائَتَانِ أَوْ إِلَّا آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١). ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكِتَابَ﴾
الْقُرْآنَ مُلْتَبَسًا ^(٢) ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ فِي أَخْبَارِهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
٣﴾ مِنْ قَبْلُ أَيُّ: قَبْلَ تَنْزِيلِهِ ﴿هُدًى﴾ حَالٌ، بِمَعْنَى: هَادِيْنَ مِنَ الصَّلَاةِ ﴿لِلنَّاسِ﴾ مِمَّنْ تَبِعَهُمَا، وَعَبَّرَ فِيهِمَا بِـ
﴿أَنْزَلَ﴾ وَفِي الْقُرْآنِ بِـ ﴿نَزَلَ﴾ الْمُفْتَضِي لِلتَّكْرِيرِ؛ لِأَنَّهُمَا أَنْزَلَ دُفْعَةً وَاحِدَةً بِخِلَافِهِ ^(٣) ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ بِمَعْنَى
الْكِتَابِ الْفَارِقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَذَكَرَهُ بَعْدَ ذِكْرِ الثَّلَاثَةِ لِيَعْلَمَ مَا عَدَاهَا ^(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ
وغيرِهِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فَلَا يَمْنَعُهُ شَيْءٌ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ
٤﴾ عُقُوبَةٍ شَدِيدَةٍ مِمَّنْ عَصَاهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَحَدٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ كَائِنٌ ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ ٥﴾ لِعِلْمِهِ بِمَا يَقَعُ فِي الْعَالَمِ مِنْ كُلِّ وَجْزِيٍّ، وَخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْحِسَّ لَا يَتَجَاوَزُهُمَا. ﴿هُوَ الَّذِي
يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ مِنْ ذُكُورَةٍ وَأُنْثَى وَيَبَاضٍ وَسَوَادٍ، وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي
مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ ٦﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ وَاصِحَاتُ الدَّلَالَةِ﴾ هُنَّ
أُمُّ الْكِتَابِ أَصْلُهُ الْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْأَحْكَامِ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ لَا تُفْهَمُ مَعَانِيهَا كَأَوَّلِ السُّورِ ^(٥)، وَجَعَلَهُ كُلَّهُ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ومعنى ملابسته للحق اشتماله عليه في جميع ما يشتمل عليه من المعاني، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥].
[ابن عاشور (١٤٨/٣)].

(٣) [الصحيح] أن التعدية بالتضعيف لا تدل على التكرير، ولا التنجيم، وقد جاء في القرآن: «نزل» و«أنزل»، قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْكَ
الْكِتَابَ﴾ [آل عمران: ٧] ... فلو كان أحدهما يدل على التنجيم، والآخر يدل على النزول دفعة واحدة، لتناقض الإخبار، وهو محال.
[أبو حيان (١٦/٣)].

(٤) قيل: هو القرآن، وهو المرفق بين الحلال والحرام، وقيل: كل ما أنزل الله فهو فرقان؛ لكونه مفرقا بين الحلال والحرام، وفي الآية تقديم
وتأخير، وتقديره وأنزل التوراة والإنجيل من قبل، وأنزل الفرقان هدى للناس. [السمعاني (٢٩٢/١)].

(٥) فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يُرد

مُحْكَمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتَهُ﴾ [هود: ١] بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ، وَمُتَشَابِهًا فِي قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] بِمَعْنَى أَنَّهُ يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي الْحُسْنِ وَالصِّدْقِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ مِيلٌ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ ابْتِغَاءً﴾ طَلَبَ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ لِحُجَّتِهَا لَهُمْ بِوُقُوعِهِمْ فِي الشُّبُهَاتِ وَاللَّبْسِ ﴿وَابْتِغَاءً تَأْوِيلَهُ﴾ تَفْسِيرَهُ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾ تَفْسِيرَهُ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ وَحْدَهُ ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ الثَّابِتُونَ الْمُتَمَكِّنُونَ ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ ﴿يَقُولُونَ﴾ عَامِنًا بِهِ. أَي: بِالْمُتَشَابِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَلَا نَعْلَمُ مَعْنَاهُ^(١) ﴿كُلُّ﴾ مِنْ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ بِإِدْعَامِ اللَّتَاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَي: يَتَّعِظُ ﴿إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. وَيَقُولُونَ أَيْضًا إِذَا رَأَوْا مَنْ يَتَّبِعُهُ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾ تَمْلِهَا عَنِ الْحَقِّ بِابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ الَّذِي لَا يَلِيقُ بِنَا كَمَا أَزِغْتَ قُلُوبَ أَوْلِيَاكَ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَرَشَدْتَنَا إِلَيْهِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿رَحْمَةً﴾ تَشِيئًا^(٢) ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣). يَا رَبَّنَا

المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضا ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة. [السعدي (ص: ١٢٢)].

(١) للمفسرين في الوقوف على ﴿اللَّهُ﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشبهات تعرضا لما لا يعني، وتكلفا لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكتلون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ على ﴿اللَّهُ﴾ فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضا، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون: ﴿كُلُّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينا أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. [السعدي (ص: ١٢٢)].

(٢) أي: كائنة من عندك، و«من» لا ابتداء الغاية و«لَدُنْ» بفتح اللام وضم الدال وسكون النون وفيه لغات أخر هذه أفصحها، و«هو» ظرف مكان وقد يضاف إلى الزمان، وتنكير «رحمة» للتعظيم أي رحمة عظيمة واسعة تزلفنا إليك ونفوز بها عندك، أو توفيقًا للثبات على الحق، أو مغفرة للذنوب. [صديق حسن (٢/ ١٩١)].

إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ ﴿١﴾ تَجْمَعُهُمْ ﴿لِيَوْمٍ﴾ أَي: فِي يَوْمٍ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَتَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كَمَا وَعَدْتَ بِذَلِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿٢﴾ مَوْعِدُهُ بِالْبَعْثِ، فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، وَالْغَرَضُ مِنَ الدُّعَاءِ بِذَلِكَ بَيَانُ أَنَّ هَمَّهُمْ أَمْرُ الْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ سَأَلُوا الثَّبَاتَ عَلَى الْهِدَايَةِ لِيَنَالُوا ثَوَابَهَا، رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هَذِهِ آيَةَ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَقَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ^(١)، وَرَوَى الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي إِلَّا ثَلَاثَ خِلَالٍ، وَذَكَرَ مِنْهَا: أَنَّهُ يُفْتَحُ لَهُمُ الْكِتَابُ فَيَأْخُذُهُ الْمُؤْمِنُ يَتَغَيُّ تَأْوِيلَهُ وَلَيْسَ يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. الْحَدِيثُ^(٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ﴾ تَدْفَعُ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: عَذَابِهِ ﴿شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿٣﴾ بَفَتْحِ الْوَاوِ مَا يُوقَدُ بِهِ. دَأْبُهُمْ ﴿كَذَّابٌ﴾ كَعَادَةُ ﴿ءَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ كَعَادِ وَثُمُودَ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وَالْجُمْلَةُ مُفَسَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٤﴾. وَنَزَلَ لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ الْيَهُودَ بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ مَرْجِعِهِ مِنْ بَدْرٍ، فَقَالُوا: «لَا يَغُرَّنَّكَ أَنْ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ أَعْمَارًا لَا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ»^(٥). ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْيَهُودِ: ﴿سَتُعْلَبُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَضَرْبِ الْجَزِيَّةِ، وَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ﴾ فَتَدْخُلُونَهَا ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ﴿٦﴾ الْفِرَاشُ هِيَ. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ عِبْرَةٌ، وَذَكَرَ الْفِعْلَ لِلْفَصْلِ ﴿فِي فِتْنَتَيْنِ﴾ فِرْقَتَيْنِ ﴿الْقَتْلَ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْقِتَالِ ﴿فِتْنَةٌ تَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: طَاعَتِهِ، وَهُمْ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةً وَثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَعَهُمْ فِرْسَانٌ وَسِتُّ أَدْرُعٍ وَثَمَانِيَةُ سُيُوفٍ، وَأَكْثَرُهُمْ رَجَالَةٌ ﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿مِثْلِيهِمْ﴾ أَي: الْمُسْلِمِينَ، أَي: أَكْثَرُ مِنْهُمْ، وَكَانُوا نَحْوَ أَلْفٍ ﴿رَأَى الْعَيْنُ﴾ أَي: رُؤْيَا ظَاهِرَةً مُعَايَنَةً، وَقَدْ نَصَرَهُمُ اللَّهُ مَعَ قَلَّتِهِمْ ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ الْقَوِيَّ﴾ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ ذَكَرَ ﴿لَعِبْرَةٌ لَأُولَى الْأَبْصَارِ﴾ ﴿٧﴾ لِذَوِي الْبَصَائِرِ، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ فَتُؤْمِنُوا. ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ مَا تَشْتَهِيهِ النَّفْسُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ، زَيْنُهَا اللَّهُ ابْتِلَاءٌ أَوْ الشَّيْطَانُ ﴿مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ﴾ الْأَمْوَالِ

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٧)، ومسلم (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه الطبري في «مسند عمر» (٧٨٨)، والطبراني (٣٤٤٢) باختلاف يسير.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٠٠١)، والبيهقي (١٩١٠٠).

الْكَثِيرَةَ ﴿الْمُقَنْطَرَةَ﴾ الْمُجَمَّعَةَ ﴿مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ الْحَسَانَ ﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ أَي: الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ﴿وَالْحَرْثَ﴾ الزَّرْعِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُ بِهَا ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ الْمَرْجِعُ وَهُوَ الْجَنَّةُ، فَيَنْبَغِي الرَّغْبَةُ فِيهِ دُونَ غَيْرِهِ. ﴿* قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ: ﴿أُوْبِيئُكُمْ﴾ أَخْبِرُكُمْ ﴿بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ الشَّهَوَاتِ؟ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٍ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشَّرْكَ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ خَيْرٌ مُّبْتَدَأُهُ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ أَي: مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فِيهَا﴾ إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْحَيْضِ وَغَيْرِهِ مِمَّا يُسْتَقْدَرُ ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ لُغْتَانِ، أَي: رِضًا كَثِيرًا ^(١) ﴿مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ عَالِمٌ ﴿بِالْعِبَادِ ١٥﴾ فَيَجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ. ﴿الَّذِينَ﴾ نَعْتُ أَوْ بَدَلٌ مِنَ «الَّذِينَ» قَبْلَهُ «يَقُولُونَ»: يَا «رَبَّنَا إِنَّا أَمَتَّا» صَدَقْنَا بِكَ وَبِرَسُولِكَ ﴿فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٦﴾ الصَّابِرِينَ ﴿عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ، نَعْتُ (وَالصَّادِقِينَ) فِي الْإِيمَانِ (وَالْقَنِينِ) الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ (وَالْمُنْفِقِينَ) الْمُتَصَدِّقِينَ (وَالْمُسْتَغْفِرِينَ) اللَّهُ بِأَنْ يَقُولُوا: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا» (بِالْأَسْحَارِ ١٧) أَوْ آخِرَ اللَّيْلِ، خُصَّتْ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا وَقْتُ الْغَفْلَةِ وَلَذَلِكَ النَّوْمُ ^(٢). (شَهِدَ اللَّهُ) بَيَّنَ لَخَلْقِهِ بِالذَّلَائِلِ وَالْآيَاتِ «أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» أَي: لَا مَعْبُودَ فِي الْوُجُودِ بِحَقِّ «إِلَّا هُوَ» شَهِدَ بِذَلِكَ «الْمَلَكُ» بِالْإِقْرَارِ «وَأُولُوا الْعِلْمِ» مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِعْتِقَادِ وَاللَّفْظِ «قَائِمًا» بِتَدْيِيرِ مَصْنُوعَاتِهِ، وَنَضْبُهُ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الْجُمْلَةِ، أَي: تَفَرَّدَ «بِالْقِسْطِ» بِالْعَدْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا «الْعَزِيزُ» فِي مُلْكِهِ «الْحَكِيمُ» ١٨ فِي صُنْعِهِ. «إِنَّ الدِّينَ» الْمَرَضِيَّ «عِنْدَ اللَّهِ» هُوَ «الْإِسْلَامُ» أَي: الشَّرْعُ الْمُبْعُوثُ بِهِ الرُّسُلُ

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تَعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيتُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ قَالُوا: يَا رَبُّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٢) قال الحرالي: وفي إفهامه تهجدهم في الليل كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ^(١٨) [الذاريات: ١٧-١٨]، وقال الرازي: واعلم أن المراد منه من يصلي بالليل ثم يتبعه بالاستغفار والدعاء، لأن الإنسان لا يشتغل بالدعاء والاستغفار إلا أن يكون قد صلى قبل ذلك. وثبت عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: «يَنْزِلُ كُلُّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨). [القاسمي (٢/٢٩٤)].

الْمَنْبِيُّ عَلَى التَّوْحِيدِ^(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: يَفْتَحِ ﴿إِنَّ﴾ بَدَلُ مِنْ ﴿أَنَّهُ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اسْتِمَالٍ ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا﴾
 الْكِتَابَ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي الدِّينِ، بَأَنْ وَحَدَ بَعْضٌ وَكَفَرَ بَعْضٌ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بِالتَّوْحِيدِ
 ﴿بَغْيًا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ^(٢) ﴿بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٣) أَيِ: الْمُجَازَاةِ لَهُ. ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾
 خَاصَمَكَ الْكَفَّارُ يَا مُحَمَّدٌ فِي الدِّينِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ انْقَدْتُ لَهُ أَنَا ﴿وَمَنْ أَتَّبَعِنِ﴾
 وَخَصَّ الْوَجْهَ بِالذِّكْرِ لِشَرَفِهِ، فَغَيَّرَهُ أَوَّلَى ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَالْأُمِّيِّينَ﴾ مُشْرِكِي
 الْعَرَبِ: ﴿ءَأَسَلَّمْتُمْ﴾ أَيِ: أَسَلِمُوا ﴿فَإِنْ أَسَلِمُوا فَقَدْ أَهْتَدَوْا﴾ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾
 التَّبْلِيغُ لِلرَّسَالَةِ ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾^(٤) فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ^(٥). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَقْتُلُونَ﴾^(٦)، ﴿النَّبِيِّينَ بَغْيٍ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾
 بِالْعَدْلِ ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ، رُوِيَ أَنَّهُمْ قَتَلُوا ثَلَاثَةً وَأَرْبَعِينَ نَبِيًّا، فَنَهَاهُمْ مَائَةٌ وَسَبْعُونَ مِنْ عِبَادِهِمْ
 فَقَتَلُوهُمْ مِنْ يَوْمِهِمْ ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أَعْلِمَهُمْ ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٧) مُؤْلِمٍ، وَذَكَرَ الْبَشَارَةَ تَهْكُمُ بِهِمْ، وَدَخَلَتْ الْفَاءُ فِي
 خَبَرٍ ﴿إِنَّ﴾ لَشِبْهِهِ إِسْمَهَا الْمَوْضُولِ بِالشَّرْطِ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ مَا عَمِلُوا مِنْ خَيْرٍ،
 كَصَدَقَةٍ وَصَلَةٍ رَحِمٍ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فَلَا اعْتِدَادَ بِهَا لِعَدَمِ شَرْطِهَا^(٨) ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصْرِينَ﴾^(٩) مَانِعِينَ مِنْ

(١) كما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] قال الزجاج: الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه وأمرهم بالإقامة عليه، والإسلام هو الدخول في السلم، وهو الانقياد في الطاعة. وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان وإن كانا في الأصل متغايرين كما في حديث جبريل الذي بين فيه النبي ﷺ معنى الإسلام والإيمان وصدقه جبريل وهو في الصحيحين وغيرهما، ولكن قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك في الكتاب والسنة. قال قتادة: الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء به الرسول من عند الله، وهو دين الله الذي شرع لنفسه وبعث به رسوله، ودل عليه أوليائه لا يقبل غيره، وعن الضحاك قال: لم يبعث الله رسولا إلا بالإسلام. [صديق حسن (٢/٢٠٥)].

(٢) أي: الباعث لهم على الاختلاف هو البغي والحسد، لا الشبهة وخفاء الأمر. [الآلوسي (٢/١٠٤)].

(٣) قيل: الآية محكمة والمراد بها تسليية النبي ﷺ، وقيل: منسوخة بآية السيف. [صديق حسن (٢/٢٠٧)].

(٤) هذا سبق قلم من الشارح وتقديم؛ لأن القراءة الثانية خاصة بقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾.

(٥) أي: بطلت أعمالهم التي عملوها من البر والحسنات في الدارين، أما الدنيا فإبدال المدح بالذم، والثناء باللعن والخزي، ويدخل فيه ما ينزل بهم من القتل والسبي وأخذ الأموال منهم غنيمة، والاسترقاق لهم، إلى غير ذلك من الذل والصغار الظاهر فيهم. وأما حبوطها في الآخرة، فإبدال الثواب بالعذاب الأليم. وقد دلت الآية على عظم حال من يأمر بالمعروف، وعظم ذنب قاتله، لأنه قرن ذلك بالكفر بالله

الْعَذَابِ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرُ ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مِّنَ الْكِتَابِ﴾ التَّوْرَةِ ﴿يُدْعُونَ﴾ حَالَ ﴿إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ١٣﴾ عَنْ قَبُولِ حُكْمِهِ، نَزَلَ فِي الْيَهُودِ، زَنَى مِنْهُمْ اثْنَانِ فَتَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالرَّجْمِ فَأَبَوَا، فَجِيءَ بِالتَّوْرَةِ فَوُجِدَ فِيهَا فَرْجَمَا فَعَضِبُوا^(١). ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوَلَّى وَالْإِعْرَاضُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أَي: بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مُدَّةَ عِبَادَةِ آبَائِهِمْ الْعَجَلِ، ثُمَّ تَزَوَّلَ عَنْهُمْ^(٢) ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ١٤﴾ مِنْ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُهُمْ ﴿إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أَي: فِي يَوْمٍ ﴿لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ جَزَاءً ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَهُمْ﴾ أَي: النَّاسُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ ١٥﴾ بِنَقْصِ حَسَنَةٍ أَوْ زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ. وَنَزَلَ لَمَّا وَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ مُلْكَ فَارِسَ وَالرُّومِ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: هَيْهَاتَ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ يَا اللَّهُ ﴿مَلِكُ الْمُلِكِ ثَوَقِي﴾ تُعْطِي ﴿الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ مِنْ خَلْقِكَ ﴿وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِإِيَّتَائِهِ ﴿وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بِتَرْعِهِ مِنْهُ ﴿بِيَدِكَ﴾ بِقُدْرَتِكَ^(٣) ﴿الْخَيْرُ﴾ أَي: وَالشَّرُّ^(٤) ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٦﴾ تُوَلِّجُ ﴿تُدْخِلُ فِي اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَتُوَلِّجُ النَّهَارَ﴾ تَدْخُلُهُ ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ كُلَّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنَ الْآخِرِ ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ﴾

تعالى، وقتل الأنبياء. قال الحاكم: وتدل على صحة ما قيل: إنه يأمر بالمعروف وإن خاف على نفسه، وأن ذلك يكون أولى لما فيه من إعزاز الدين، ففي الحديث: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ». أخرجه أحمد (١١١٥٩). [القاسمي (٢/ ٣٠٠)].

(١) روى القصة البخاري (١٣٢٩)، ومسلم (٤٤٢٧).

(٢) انظر التعليق على آية (٨٠) من سورة البقرة.

(٣) أي: كل ذلك بيدك وإليك، لا يقدر على ذلك أحد، لأنك على كل شيء قدير، دون سائر خلقك، ودون من اتخذته المشركون من أهل الكتاب والأُمِّيِّين من العرب إلهاً ورباً يعبدونه من دونك، كالمسيح والأنداد التي اتخذها الأميون رباً. [الطبري (٥/ ٣٠٤)].

(٤) زعموا أن تقدير الآية: بيده الخير والشر، ولكن هذا وهم باطل، وليس المقام مقام حذف وقصر أو اقتصاد، المقام مقام ثناء والثناء ينبغي فيه البسط والتوسع في الكلام، فالحذف غير مناسب لفظاً وهو باطل معنى؛ لأن الله لا يضاف إليه الشر، ولا يجوز أن نقول: بيده الشر؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ» أخرجه مسلم (٧٧١). فلا يُنسب إلى الله الشرُّ قولاً ولا فعلاً، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل ويفعل الخير ولا يفعل الشر، وإذا وجد شرٌّ في المفعولات فهو شر من وجه وخير من وجه آخر، لكن إيجاد الله لهذه الأشياء الشريرة ليس شرّاً بل هو خير، خير محض، ففعل الله ليس فيه شرٌّ إطلاقاً، والشر إنما هو في المفعولات، لا في الأفعال، أما الخير فهو في المفعولات والأفعال؛ ولهذا ينسب إلى الله. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ١٥٨)].

مِنَ الْمَيِّتِ ﴿كَالْإِنْسَانِ وَالطَّائِرِ مِنَ النَّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ﴾ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ ﴿كَالنُّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ﴾ ﴿مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢٧﴾ أَي: رِزْقًا وَاسِعًا^(١). ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ يُوَالُونَهُمْ ﴿مِنْ دُونِ﴾ أَي: غَيْرِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَي: يُوَالِيَهُمْ ﴿فَلَيْسَ مِنْ﴾ دِينِ ﴿اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ مَصْدَرُ تَقَاتُوا، أَي: تَخَافُوا مَخَافَةً، فَلَكُمْ مَوَالِيَتُهُمْ بِاللِّسَانِ دُونَ الْقَلْبِ، وَهَذَا قَبْلَ عِزَّةِ الْإِسْلَامِ^(٢)، وَيَجْرِي فِيْمَنْ هُوَ فِي بَلَدٍ لَيْسَ قَوِيًّا فِيهَا ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ﴾ يُخَوِّفُكُمْ ﴿اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُوهُمْ^(٣) ﴿وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٨﴾ الْمَرْجِعُ فَيُجَازِيَكُمْ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنْ تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قُلُوبِكُمْ مِنْ مَوَالِيَتِهِمْ ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ تُظْهِرُوهُ ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَهُوَ﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمِنْهُ تَعْذِيبُ مَنْ وَالَاهُمْ. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ تَحْذَرُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ هُ ﴿مِنْ خَيْرٍ مُخْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾ هُ ﴿مِنْ سُوءٍ﴾ مُبْتَدَأً، خَبَرُهُ ﴿تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ غَايَةً فِي نِهَايَةِ الْبُعْدِ فَلَا يَصِلُ إِلَيْهَا ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ كَرَّرَ لِلتَّأْكِيدِ

(١) وقيل: يخرج الكافر من المؤمن والمؤمن من الكافر، فالحيوة والموت على هذا استعارة، وفي ذكر الحي من الميت المطابقة، وهي من أدوات البيان، وفيه أيضاً القلب لأنه قدم الحي على الميت، ثم عكس. [ابن جزي (١/١٤٩)].

(٢) أي: بغير عوض؛ لأن المحاسبة إنما تكون مع المعاوضة، فإن من لا يريد العوض لا يحاسبه، لكن من يريد العوض هو الذي يحاسب حتى يعلم هل ما أخذه مقابل لما أعطاه أو لا، وأما من لا يحتاج إلى عوض أو من لا يأخذ عوضاً فلا يحاسب... فالله سبحانه وتعالى يعطي بلا عوض، وما أكثر النعم التي أنعم بها علينا ولكن لا يحاسبنا، يعطينا منه سبحانه وتعالى تفضلاً وكرماً، وإن أمرنا بالشكر فشكرناه، فهذا عطاء ثانٍ، فشكر الإنسان ربه على نعمته هو من نعمته أيضاً. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/١٦٥)].

(٣) معنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار ومداونتهم ومبايعةهم إلا أن يكون الكفار غاليين ظاهرين، أو يكون المؤمنون في قوم كفار أفيدهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالا حراماً أو غير ذلك من المحرمات، أو يظهر الكفار على عورة المسلمين، والتقية لا تكون إلا مع خوف القتل مع سلامة النية قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]. [الخازن (١/٢٣٧)].

(٤) من فوائد الآية الكريمة: إطلاق النفس على الذات؛ لأن المراد نفسه، أي: ذاته ﴿يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ذاته، والتعبير بالنفس أولى من التعبير بالذات، وإن كان التعبير بالذات هو المشهور عند العلماء، لكن التعبير بالذات عن النفس ليس من اللغة العربية الفصحى كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وإنما هو متلقى من اصطلاح عرفي، وأصله أن «ذات» تستعمل مضافة، فيقال: ذات جمال، ذات دين، ذات مال، وما أشبه ذلك، فيعبرون بالذات عن العين المتصفة بصفات، ثم سلبوها من الإضافة وعبروا بكلمة «ذات» مجردة عن الإضافة، هذا هو الأصل في استعمال كلمة «ذات»، وإلا فإنها ليست عربية محضة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/١٧٥)].

﴿وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: «مَا نَعْبُدُ إِلَّا صَنَامَ إِلَّا حُبًّا لِلَّهِ لِيُقَرَّبُونَا إِلَيْهِ»: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُشِيكُمُ^(١) ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ اتَّبَعَنِي مَا سَلَفَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿رَحِيمٌ ٣١﴾ بِهِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ^(٢) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ٣٢﴾ فِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامِ الْمُضْمَرِ، أَيُّ: لَا يُحِبُّهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ^(٣). ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى﴾ اخْتَارَ ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَعَالَ إِبْرَاهِيمَ وَعَالَ عِمْرَانَ﴾ بِمَعْنَى أَنْفُسِهِمَا ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٣﴾ بِجَعْلِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَسْلِهِمْ. ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ﴾ وَلَدِ ﴿بَعْضٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾. أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ حَنَّةٌ لَمَّا أَسْنَتْ وَاشْتَاقَتْ لِلْوَلَدِ فَدَعَتْ اللَّهَ وَأَحْسَتْ بِالْحَمْلِ: يَا ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ أَنْ أَجْعَلَ ﴿لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عَتِيقًا، خَالِصًا مِنْ شَوَاغِلِ الدُّنْيَا لِخِدْمَةِ بَيْتِكَ الْمُقَدَّسِ ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿الْعَلِيمُ ٣٥﴾ بِالنِّيَّاتِ، وَهَلَكَ عِمْرَانٌ وَهِيَ حَامِلٌ. ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ وَلَدَتْهَا جَارِيَةً، وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا إِذْ لَمْ يَكُنْ يُحَرَّرُ إِلَّا الْغُلَامَانُ ﴿قَالَتْ﴾ مُعْتَذِرَةً: يَا ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ أَيُّ: عَالِمٌ ﴿بِمَا وَضَعْتُ﴾ جُمْلَةً إِعْتِرَاضٍ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ التَّاءِ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ﴾ الَّذِي طَلَبْتُ ﴿كَأَلْأُنْثَى﴾ الَّتِي وَهَبْتُ؛ لِأَنَّهُ يُقْصَدُ لِلْخِدْمَةِ، وَهِيَ لَا تَصْلُحُ لِضَعْفِهَا وَعَوَرَتِهَا وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْضِ وَنَحْوِهِ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ أَوْلَادَهَا ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٦﴾ الْمَطْرُودِ، فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا مَسَّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». رَوَاهُ الشَّيْخَانُ^(٤) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أَيُّ: قَبَلَ مَرْيَمَ مِنْ أُمِّهَا ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أَنْشَأَهَا بِخَلْقٍ حَسَنٍ، فَكَانَتْ تَنْبُتُ فِي الْيَوْمِ كَمَا يَنْبُتُ الْمَوْلُودُ فِي الْعَامِ^(٥)،

(١) هذا تأويل بالالزام، قال ابن كثير (٣٢ / ٢): أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية.

(٢) حذف المتعلق مشعر بالتعميم، أي: في جميع الأوامر والنواهي. [الشوكاني (١ / ٣٨٢)].

(٣) هذا تفسير بالالزام، والصواب: أن من نتائج عدم محبة الله لهم أن يعاقبهم.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمْسُهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦). @

(٥) المعنى: أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، قيل: إنها كانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام وفيه بعد، وقيل: هو مجاز عن

وَأَتَتْ بِهَا أُمُّهَا الْأَخْبَارَ سَدَنَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَقَالَتْ: دُونَكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَةُ، فَتَنَافَسُوا فِيهَا لِأَنَّهَا بِنْتُ إِمَامِهِمْ، فَقَالَ زَكَرِيَّا: أَنَا أَحَقُّ بِهَا لِأَنَّ خَالَتَهَا عِنْدِي، فَقَالُوا: لَا حَتَّى نَقْتَرِعَ، فَانْطَلَقُوا وَهُمْ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ وَالْقَوْمَا أَقْلَامُهُمْ عَلَى أَنَّ مَنْ ثَبَتَ قَلَمُهُ فِي الْمَاءِ وَصَعِدَ أَوَّلَى بِهَا، فَثَبَتَ قَلَمُ زَكَرِيَّا فَأَخَذَهَا وَبَنَى لَهَا غُرْفَةً فِي الْمَسْجِدِ بِسَلَامٍ لَا يَصْعَدُ إِلَيْهَا غَيْرُهُ، وَكَانَ يَأْتِيهَا بِأَكْلِهَا وَشُرْبِهَا وَذُھْنِهَا فَيَجِدُ عِنْدَهَا فَأَكِهَةً الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ وَفَأَكِهَةً الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ ضَمَّهَا إِلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّشْدِيدِ وَنَضَبِ ﴿زَكَرِيَّا﴾ مَمْدُودًا وَمَقْصُورًا، وَالْفَاعِلُ اللَّهُ ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ الْغُرْفَةُ وَهِيَ أَشْرَفُ الْمَجَالِسِ ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّى﴾ مِنْ أَيْنَ ﴿لَكَ هَذَا قَالَتُ﴾ وَهِيَ صَغِيرَةٌ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ يَأْتِينِي بِهِ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٧ ﴿رِزْقًا وَاسِعًا بِلَا تَبَعَةٍ﴾ ﴿هُنَالِكَ﴾ أَيُّ: لَمَّا رَأَى زَكَرِيَّا ذَلِكَ، وَعَلِمَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالشَّيْءِ فِي غَيْرِ حِينِهِ قَادِرٌ عَلَى الْإِثْنَانِ بِالْوَلَدِ عَلَى الْكِبَرِ، وَكَانَ أَهْلُ بَيْتِهِ انْقَرَضُوا ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ لَمَّا دَخَلَ الْمِحْرَابَ لِلصَّلَاةِ جَوْفَ اللَّيْلِ ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ وَلَدًا صَالِحًا ﴿إِنَّكَ سَمِيعٌ﴾ مُجِيبٌ ٣٨ ﴿الدَّعَاءِ﴾ فَدَادَتْهُ الْمَلَكَةُ ﴿أَيُّ: جَبْرِيلُ﴾ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ﴿أَيُّ: الْمَسْجِدِ﴾ ﴿أَنَّ﴾ أَيُّ: بَانَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ، بِتَقْدِيرِ الْقَوْلِ ﴿اللَّهُ يُبَشِّرُكَ﴾ مُثَقَّلًا وَمُخَفَّفًا ﴿بِخَيْرٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ﴾ كَاتِنَةٍ ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: بَعِيسَى أَنَّهُ رُوحُ اللَّهِ، وَسُمِّيَ كَلِمَةً لِأَنَّهُ خَلَقَ بِكَلِمَةٍ «كُنْ» ﴿وَسَيِّدًا﴾ مُتَّبِعًا ﴿وَحَصُورًا﴾ مَمْنُوعًا مِنَ النِّسَاءِ ٣٩ ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٤٠ ﴿رُوي أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَمْ يَهَمَّ بِهَا﴾ ٤١ ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لِي غُلَمٌ﴾ وَلَدٌ ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ﴾ أَيُّ: بَلَغْتُ نَهَايَةَ السِّنِّ مِائَةً وَعِشْرِينَ سَنَةً ﴿وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ بَلَغَتْ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ﴿قَالَ﴾ الْأَمْرُ ﴿كَذَلِكَ﴾ مِنْ خَلَقِ اللَّهِ غُلَامًا مِنْكُمْ ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ٤٢ لَا يُعْجِزُهُ عَنْهُ شَيْءٌ، وَلَا يُظَاهِرُ هَذِهِ الْقُدْرَةَ الْعَظِيمَةَ أَهْمَةُ السُّؤَالِ لِيُجَابَ بِهَا، وَلَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى سُرْعَةِ الْمُبَشِّرِ بِهِ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيُّ:

التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها. [الشوكاني (١/ ٣٨٥)].

(١) أي: سامعه ومجيبه. [صديق حسن (٢/ ٢٢٧)].

(٢) معناه: الذي لا يأتي النساء مع القدرة على ذلك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ... إذ العنة عيب لا يجوز على الأنبياء، وبتسليم أنها ليست بعيب

فلا أقل إنها ليست بصفة مدح، والكلام مخرجه المدح. [الآلوسي (٢/ ١٤٢)].

(٣) المراد من الصلاح ما فوق الصلاح الذي لا بد منه في منصب النبوة البتة من أقاصي مراتبه وعليه مبنى دعاء سليمان عليه السلام:

﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]. [أبو السعود (٢/ ٣٢)].

عَلَامَةً عَلَى حَمَلٍ أَمْرًا ي ﴿قَالَ ءَايَتُكَ عَلَيْهِ﴾ ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ أَي: تَمْتَنِعَ مِنْ كَلَامِهِمْ، بِخِلَافِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أَي: بِلَيَالِيهَا ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ إِشَارَةً ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ صَلَّ ١١ ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ ١٢ ﴿وَآخِرِ النَّهَارِ وَأَوَّلِهِ﴾ ١٣ ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾ أَي: جِبْرِيلُ ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ اخْتَارَكَ ﴿وَوَهَبَكِ﴾ مِنْ مَسِيْسِ الرِّجَالِ ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤ أَي: أَهْلِ زَمَانِكَ. ﴿يَمْرَيْمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ أَطِيعِيهِ ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ١٥ أَي: صَلِّي مَعَ الْمُصَلِّينَ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ زَكَرِيَّا وَمَرْيَمَ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أَخْبَارِ مَا غَابَ عَنْكَ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ فِي الْمَاءِ يَقْتَرِعُونَ لِيُظْهَرَ لَهُمْ ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ﴾ يُرَبِّي ﴿مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ١٦ فِي كَفَالَتِهَا فَتَعْرِفَ ذَلِكَ فَتُخْبِرَ بِهِ، وَإِنَّمَا عَرَفْتَهُ مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ. ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾ أَي: جِبْرِيلُ ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ أَي: وَلَدٍ ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ خَاطَبَهَا بِنِسْبَتِهِ إِلَيْهَا تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهَا تَلِدُهُ بِلَا أَبٍ، إِذْ عَادَةُ الرِّجَالِ نِسْبَتُهُمْ إِلَى آبَائِهِمْ ﴿وَجِيْهَا﴾ ذَا جَاهٍ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بِالشَّفَاعَةِ وَالدرجاتِ الْعُلَا ١٧ ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ١٨ عِنْدَ اللَّهِ. ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أَي: طِفْلًا قَبْلَ وَقْتِ الْكَلَامِ ﴿وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٩ قَالَتْ رَبِّ أَتَى كَيْفَ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ٢٠ بَتَزْوُجٍ وَلَا غَيْرِهِ ﴿قَالَ﴾ الْأَمْرُ ﴿كَذَلِكَ﴾ مِنْ خَلْقٍ وَلَدٍ مِنْكَ بِلَا أَبٍ ﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أَرَادَ خَلْقَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٢١ أَي: فَهُوَ يَكُونُ. ﴿وَنُعَلِّمُهُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿الْكِتَابِ﴾ الْخَطِّ ﴿وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ٢٢ ﴿وَنَجْعَلُ﴾ رُسُلًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿فِي الصَّبَا أَوْ بَعْدَ الْبُلُوغِ﴾ فَتَفْخَ جِبْرِيلُ فِي جَيْبِ دَرْعِهَا فَحَمَلَتْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهَا مَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ مَرْيَمَ، فَلَمَّا بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ [الصف: ٦]، ﴿أَنِّي﴾ أَي: بِأَنِّي ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ عَلَامَةٍ عَلَى صِدْقِي ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هِيَ ﴿أَنِّي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ، اسْتِنَافًا ﴿أَخْلُقُ﴾ أَصَوِّرُ ﴿لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ مِثْلَ صُورَتِهِ ٢٣، فَالْكَافُ اسْمٌ مَّفْعُولٌ ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ الضَّمِيرُ لِلْكَافِ ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ وَفِي

(١) الذكر المراد به: الذكر بالقلب والصلاة إن كان قد سلب قوة النطق، أو الذكر اللساني إن كان قد نهي عنها فقط. [ابن عاشور (٣/ ٢٤٣)].

(٢) هذه الآية يوهم ظاهرها أن بعض المخلوقين ربما خلق بعضهم، ... وقد جاءت آيات أخر تدل على أن الله هو خالق كل شيء، ... كقوله

تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، إلى غير ذلك من الآيات. والجواب ظاهر، وهو أن معنى خلق عيسى كهية الطير من الطين هو:

أخذه شيئا من الطين وجعله إياه على هيئة، أي: صورة الطير وليس المراد الخلق الحقيقي لأن الله متفرد به جل وعلا. [دفع إيهام الاضطراب

للسقراطي، ص: ٥٦]. فكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله. [السمرقندي (١/ ٢١٤)].

قِرَاءَةٍ: ﴿طَبِيرًا﴾، ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ^(١) فَخَلَقَ لَهُمُ الْخُفَاشَ لِأَنَّهُ أَكْمَلُ الطَّيْرِ خَلْقًا، فَكَانَ يَطِيرُ وَهُمْ يَنْظُرُونَهُ، فَإِذَا غَابَ عَنْ أَعْيُنِهِمْ سَقَطَ مَيِّتًا ﴿وَأُبْرِيءُ﴾ أَشْفِي ﴿الْأَكْمَةَ﴾ الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ وَخُصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا دَاءَا إَعْيَاءٍ، وَكَانَ بَعْثُهُ فِي زَمَنِ الطَّبِّ^(٢)، فَأَبْرَأَ فِي يَوْمِ خَمْسِينَ أَلْفًا بِالْدُّعَاءِ، بِشَرَطِ الْإِيمَانِ ﴿وَأُخِي الْمَوْتَى يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ كَرَّرَهُ لِنَفْيِ تَوَهُّمِ الْأُلُوْهِيَّةِ فِيهِ، فَأَحْيَا عَازِرَ صَدِيقًا لَهُ وَابْنَ الْعَجُوزِ وَابْنَةَ الْعَاشِرِ، فَعَاشُوا وَوُلِدَ لَهُمْ، وَسَامَ بْنَ نُوحٍ وَمَاتَ فِي الْحَالِ^(٣) ﴿وَأُتْبِئْتُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾ تُخَبِّتُونَ ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ مِمَّا لَمْ أُعَايِنُهُ، فَكَانَ يُخْبِرُ الشَّخْصَ بِمَا أَكَلَ وَبِمَا يَأْكُلُ بَعْدُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿و﴾ جِئْتُكُمْ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ قَبْلِي ﴿مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فِيهَا فَاحَلَّ لَهُمْ مِنَ السَّمَكِ وَالطَّيْرِ مَا لَا صِصَّةَ لَهُ، وَقِيلَ: أَحَلَّ الْجَمِيعَ، فَبَعْضُ بِمَعْنَى كُلِّ^(٤) ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا، وَلِيُنْفِي عَنْهُ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا﴾ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿صِرَاطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾. ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ عَلِمَ ﴿عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾

(١) أي: بإذنه الكوني والشرعي؛ لأن كونه يصور مضاهيًا لخلق الله يحتاج إلى إذن شرعي؛ لأن الأصل أنه لا يجوز لأحد أن يُصور على تصوير الله عز وجل، قال الله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي». أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، لكن الله تعالى أذن لعيسى عليه الصلاة والسلام لحكمة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/٢٨٢)].

(٢) قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه، فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام السحر وتعظيم السحرة، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار... وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة... وكذلك محمد ﷺ بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأناهم بكتاب من الله عز وجل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدا. [ابن كثير (٢/٤٥)].

(٣) هذا التفصيل في التصوير من قصة الخفاش إلى قصة سام ابن نوح، ليس عليه دليل وإنما هي متلقات من الإسرائيليات فلا تصدق ولا تكذب، وإنما نحن متبعون بتصديق الوحي الذي جاء به رسول الله ﷺ.

(٤) قيل: إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حرم عليهم بذنوبهم ولم يكن في التوراة، نحو أكل الشحوم وكل ذي ظفر. وقيل: إنما أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأخبار ولم تكن في التوراة محرمة عليهم. قال أبو عبيدة: يجوز أن يكون ﴿بَعْضُ﴾ بمعنى كل،... وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة، لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل في هذا الموضع، لأن عيسى عليه السلام إنما أحل لهم أشياء مما حرمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا الفاحشة. [القرطبي (٤/٩٦)].

وَأَرَادُوا قَتْلَهُ ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي﴾ أَعَوَانِي ذَاهِبًا ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ لِأَنْصُرَ دِينَهُ؟ ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أَعَوَانُ دِينِهِ، وَهُمْ أَصْفِيَاءُ عِيسَى أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْخَوَرِ، وَهُوَ: الْبَيَاضُ الْخَالِصُ، وَقِيلَ: كَانُوا قَصَارِينَ يَحُورُونَ الثِّيَابَ، أَيُّ: يُبَيِّضُونَهَا ﴿عَامَنَّا﴾ صَدَقْنَا ﴿بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ﴾ يَا عِيسَى ﴿بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٤﴾ رَبَّنَا عَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴿مِنَ الْإِنْجِيلِ﴾ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ ﴿عِيسَى﴾ فَكَتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ لَكَ بِالْوَحْدَانِيَّةِ وَلِرَسُولِكَ بِالصِّدْقِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَكْرُوا﴾ أَيُّ: كَفَّارُ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِعِيسَى، إِذْ وَكَلُوا بِهِ مَنْ يَقْتُلُهُ غِيلَةً ﴿وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾ بِهِمْ بِأَنْ أَلْقَى شَبَهَ عِيسَى عَلَى مَنْ قُصِدَ قَتْلُهُ فَقَتَلُوهُ، وَرَفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ٥٥﴾ أَعْلَمُهُمْ بِهِ^(١). ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فَابْضِكَ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ مُبْعِدُكَ ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ صَدَقُوا بِنُبُوتِكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِكَ وَهُمْ الْيَهُودُ، يَعْلُونَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ٥٥﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَأَخَذِ الْجَزِيَّةِ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ٥٦﴾ مَا نَعِينُ مِنْهُ. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بِأَلْيَاءِ وَالتُّونِ ﴿أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥٧﴾ أَيُّ: يُعَاقِبُهُمْ^(٢)، رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ إِلَيْهِ سَحَابَةً فَرَفَعَتْهُ، فَتَعَلَّقَتْ بِهِ أُمُّهُ

(١) الضمير يعود على الذين كفروا بعيسى، والمكر هو أن يتوصل إلى الانتقام من خصمه بأسباب غير متوقعة يعني بأسباب خفية، يعني أن الله سبحانه وتعالى مكر بهم حينما مكروا بعيسى. وفي قول الله عز وجل: ﴿وَمَكْرُوا وَاللَّهُ﴾ من صفات الله إثبات المكر لله عز وجل، والمكر في مقامه مدح وصفة كمال، والمكر في غير موضعه صفة نقص؛ لأن المكر في غير موضعه خيانة، والخيانة صفة ذم، ولهذا لم يصف الله بها نفسه ولا في باب المقابلة، ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنفال: ٧١]، قال بعدها: ﴿فَأَمَكَّنَ مِنْهُمْ﴾ ولم يقل: فخانهم؛ لأن الخيانة صفة ذم مطلقاً، إذاً يجب أن نصف الله بما وصف به نفسه من المكر في الحال التي وصف الله نفسه فيها بالمكر، وذلك في مقابلة مكر أعدائه، أما أن نصف الله بالمكر على الإطلاق، فنقول: إن الله ماكر ونطلق فهذا لا يجوز، لماذا؟ لاحتمال النقص؛ لأن المكر كما قلنا ليس كمالاً في كل حال ولا نقصاً في كل حال، فإذا أطلق صار قابلاً لأن يكون نقصاً، فإذا قيد بالحال التي يكون فيها كمالاً لم يحتمل أن يكون نقصاً، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ هذه صفة ثابتة مطلقة يعني لا تحتاج قيداً لأنها وُصفت بكمال، ما هو الكمال؟ ﴿خَيْرٌ﴾ يعني ما من أحد يمكر إلا ومكر الله فوقه وخير منه. والمكر من الصفات الفعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة لها سبب فهي متعلقة بالمشيئة؛ لأن مقدر السبب هو الله فإذا قدر السبب فقد شاءه ويترتب عليه ما يترتب من الصفات. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/٣١٦)].

(٢) فيه إثبات المحبة لله؛ لأن نفي المحبة عن الظالمين دليل على ثبوتها لغيرهم؛ ولو كانت متنتية عن الجميع لم يكن لتخصيصها بالظالمين فائدة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/٣٤٧)].

وَبَكَّتْ، فَقَالَ لَهَا: إِنَّ الْقِيَامَةَ تَجْمَعُنَا، وَكَانَ ذَلِكَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً، وَعَاشَتْ أُمُّهُ بَعْدَهُ سِتِّ سِنِينَ^(١)، وَرَوَى الشَّيْخَانِ حَدِيثَ: «أَنَّهُ يَنْزِلُ قُرْبَ السَّاعَةِ وَيَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ نَبِيِّنَا، وَيَقْتُلُ الدَّجَالَ وَالْخَنَزِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ»^(٢). وَفِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «أَنَّهُ يَمُكُثُ سَبْعَ سِنِينَ»^(٣). وَفِي حَدِيثٍ عَنْ أَبِي دَاوُدَ الطَّيَالِسِيِّ: «أَرْبَعِينَ سَنَةً وَيُتَوَفَّى وَيُصَلَّى عَلَيْهِ»^(٤). فَيَحْتَمِلُ أَنَّ الْمُرَادَ مَجْمُوعُ لُبِّهِ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ الرَّفْعِ وَبَعْدَهُ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ عِيسَى ﴿تَتْلُوهُ﴾ نَقْصُهُ ﴿عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ حَالٌ مِنَ الْهَاءِ فِي ﴿تَتْلُوهُ﴾، وَعَامِلُهُ مَا فِي ﴿ذَلِكَ﴾ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾^(٥٨) الْمُحْكَمِ أَيِ: الْقُرْآنِ. ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾ شَأْنُهُ الْغَرِيبِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ كَشَأْنِهِ فِي خَلْقِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي، وَهُوَ مِنْ تَشْبِيهِ الْغَرِيبِ بِالْأَعْرَبِ لِيَكُونَ أَقْطَعَ لِلْخَصْمِ وَأَوْقَعَ فِي النَّفْسِ ﴿خَلَقَهُ﴾ أَيِ: آدَمَ، أَيِ: قَالَهُ ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ بَشَرًا ﴿فَيَكُونُ﴾^(٥٩) أَيِ: فَكَانَ، وَكَذَلِكَ عِيسَى قَالَ لَهُ: «كُنْ» مِنْ غَيْرِ أَبِي، فَكَانَ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَيِ: أَمْرُ عِيسَى ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَرَيِّنِينَ﴾^(٦٠) الشَّاكِّينَ فِيهِ. ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ جَادَلَكَ مِنَ النَّصَارَى ﴿فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِأَمْرِهِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾ فَجَمَعَهُمْ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ نَتَضَرَّعُ فِي الدُّعَاءِ ﴿فَنَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٦١) بِأَنْ نَقُولَ: اللَّهُمَّ الْعَنِ الْكَاذِبَ فِي شَأْنِ عِيسَى، وَقَدْ دَعَا ﷺ وَفَدَّ نَجْرَانِ لِذَلِكَ لَمَّا حَاجَّوهُ فِيهِ، فَقَالُوا: حَتَّى نَنْظُرَ فِي أَمْرِنَا ثُمَّ نَأْتِيكَ، فَقَالَ دُوو رَأْيَهُمْ: لَقَدْ عَرَفْتُمْ بُيُوتَهُ، وَأَنَّهُ مَا بَاهِلَ قَوْمٌ نَبِيًّا إِلَّا هَلَكُوا، فَوَادِعُوا الرَّجُلَ وَأَنْصَرَفُوا، فَاتَوَّهُ وَقَدْ خَرَجَ، وَمَعَهُ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَفَاطِمَةُ وَعَلِيٌّ، وَقَالَ لَهُمْ: «إِذَا دَعَوْتُ فَأَمُّنُوا»، فَأَبَوْا أَنْ يَلَاعِنُوا وَصَالِحُوهُ عَلَى الْجِزْيَةِ، رَوَاهُ أَبُو نُعَيْمٍ^(٦٢)، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: لَوْ خَرَجَ الَّذِينَ يُبَاهِلُونَ لَرَجَعُوا لَا يَجِدُونَ مَا لَا وَلَا أَهْلًا، وَفِي رِوَايَةٍ: لَوْ خَرَجُوا لَأَخْتَرَقُوا. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمَذْكُورُ ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ﴾ الْخَبَرُ ﴿الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَمَا مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾^(٦٣) فِي صُنْعِهِ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾^(٦٤) فَيَجَازِيهِمْ، وَفِيهِ

(١) والله أعلم بصحة ذلك؛ لأنه لم يثبت عن المعصوم ﷺ في ذلك شيء، وهو أشبه بالإسرائيليات.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).

(٤) أخرجه الطيالسي في مسنده (٢٦٦٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الدلائل كما في الدر المنثور (٣/٣٢٣)، وأصل القصة عند البخاري (٣٧٤٥)، ومسلم (٢٤٠٤).

وَضَعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ. ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: مُسْتَوٍ أَمْرُهُمَا ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هِيَ ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كَمَا اتَّخَذْتُمُ الْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ التَّوْحِيدِ ﴿فَقُولُوا﴾ أَنْتُمْ لَهُمْ: ﴿أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ٦٤ ﴿مُوحِّدُونَ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُودُ: «إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيٌّ وَنَحْنُ عَلَى دِينِهِ»، وَقَالَتِ النَّصَارَى كَذَلِكَ: ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ تُخَاصِمُونَ ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ بَرَعِمَكُمْ أَنَّهُ عَلَى دِينِكُمْ ﴿وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ بِزَمَنِ طَوِيلٍ، وَبَعْدَ نَزُولِهِمَا حَدَّثَتِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٦٥ ﴿بُطْلَانٌ قَوْلُكُمْ؟﴾ ﴿هَذَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنْتُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ، يَا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ وَالْخَبَرُ: ﴿حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مِنْ أَمْرِ مُوسَى وَعِيسَى، وَزَعَمَكُمْ أَنْكُمْ عَلَى دِينِهِمَا ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ مِنْ شَأْنِ إِبْرَاهِيمَ؟ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ شَأْنُهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٦٦ هـ. قَالَ تَعَالَى تَبَرُّهُ لِإِبْرَاهِيمَ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ١) ﴿مُسْلِمًا﴾ مُوَحِّدًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٦٧ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ أَحَقَّهُمْ ﴿بِإِبْرَاهِيمَ﴾ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي زَمَانِهِ ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ مُحَمَّدٌ لِمُؤَافَقَتِهِ لَهُ فِي أَكْثَرِ شَرَعِهِ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنْ أُمَّتِهِ، فَهُمْ الَّذِينَ يَبْغِي أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ عَلَى دِينِهِ، لَا أَنْتُمْ ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٦٨ نَاصِرُهُمْ وَحَافِظُهُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا دَعَا الْيَهُودُ مُعَاذًا وَحَذِيفَةً وَعَمَارًا إِلَى دِينِهِمْ: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ إِيَّاهُمْ إِضْلَالُهُمْ عَلَيْهِمْ، وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يُطِيعُونَهُمْ فِيهِ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ٦٩ بِذَلِكَ. ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ٢) الْمُشْتَمِلِ عَلَى نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ٧٠ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حَقٌّ؟ ﴿يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ﴾ تَخْلُطُونَ ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّزْوِيرِ ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ أَيِ: نَعْتِ النَّبِيِّ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٧١ أَنَّهُ حَقٌّ؟ ﴿وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ الْيَهُودُ لِبَعْضِهِمْ: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿وَجَهَ النَّهَارِ﴾ أَوَّلَهُ ﴿وَاكْفُرُوا﴾ بِهِ ﴿ءَاخِرَهُو لَعَلَّهُمْ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ٧٢ عَنْ دِينِهِمْ، إِذْ يَقُولُونَ: مَا رَجَعَ هَؤُلَاءِ عَنْهُ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِيهِ وَهُمْ أُولُو عِلْمٍ إِلَّا لِعِلْمِهِمْ بُطْلَانَهُ. وَقَالُوا أَيْضًا: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ تُصَدِّقُوا

(١) الحنيف مأخوذ من الحنف، وهو الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه المستقيم،

ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق. [ابن عطية (١/٤٥١)].

(٢) [وقيل: المراد ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ ما في كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ. [صديق حسن (١/٤٠٢)].

﴿إِلَّا لِمَنْ﴾ أَلَّامٌ زَائِدَةٌ ﴿تَبِعَ﴾ وَافَقَ ﴿دِينَكُمْ﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿إِنَّ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَضَائِلِ، وَ﴿أَنْ﴾ مَفْعُولٌ ﴿تُؤْمِنُوا﴾، وَالْمُسْتَشْنَى مِنْهُ ﴿أَحَدٌ﴾ قُدِّمَ عَلَيْهِ الْمُسْتَشْنَى، الْمَعْنَى: لَا تُقَرُّوا بِأَنْ أَحَدًا يُؤْتَىٰ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ اتَّبَعَ دِينَكُمْ ﴿أَوْ﴾ بِأَنْ ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ أَيْ: الْمُؤْمِنُونَ يَغْلِبُوكُمْ ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّكُمْ أَصَحُّ دِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَنْ﴾ بِهَمْزَةٍ التَّوْبِيخِ أَيْ: إِيْتَاءَ أَحَدٍ مِثْلَهُ تُقَرُّونَ بِهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فَمِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَا ﴿يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾؟ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ كَثِيرُ الْفَضْلِ ^(١) ﴿عَلِيمٌ﴾ ^(٢) ﴿بِمَنْ هُوَ أَهْلُهُ﴾. ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٣) * وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ أَيْ: بِمَالٍ كَثِيرٍ ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لِأَمَانَتِهِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَوْ دَعَاهُ رَجُلٌ أَلْفًا وَمِائَتِي أَوْ قِيَّةً ذَهَبًا فَأَدَّاهَا إِلَيْهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لِخِيَانَتِهِ ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ لَا تُفَارِقُهُ، فَمَتَى فَارَقَتْهُ أَنْكَرُهُ، كَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ اسْتَوَدَعَهُ فُرَشِيَّ دِينَارًا فَجَحَدَهُ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ: تَرَكَ الْأَدَاءَ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بِسَبَبِ قَوْلِهِمْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّنَ﴾ أَيْ: الْعَرَبِ ﴿سَبِيلٌ﴾ أَيْ: إِنَّمَا، لَا اسْتَحْلَالَ لَهُمْ ظُلْمٌ مَنْ خَالَفَ دِينَهُمْ، وَنَسَبُوهُ إِلَيْهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فِي نِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ. ﴿بَلَىٰ﴾ عَلَيْهِمْ فِيهِ سَبِيلٌ ^(٥)، ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾ الَّذِي عَاهَدَ عَلَيْهِ، أَوْ بِعَهْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَغَيْرِهِ ﴿وَأَتَّقَى﴾ اللَّهُ بَرَكِ الْمَعَاصِي وَعَمَلَ الطَّاعَاتِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٦) فِيهِ وَضَعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، أَيْ: يُحِبُّهُمْ بِمَعْنَى يُشِيهُهُمْ ^(٧). وَنَزَلَ فِي الْيَهُودِ لَمَّا بَدَّلُوا نَعْتَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ، أَوْ فِيمَنْ حَلَفَ كَاذِبًا فِي دَعْوَى أَوْ فِي بَيْعِ سَلْعَةٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يَسْتَبْدِلُونَ ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ إِلَيْهِمْ فِي الْإِيمَانِ بِالنَّبِيِّ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ﴿وَأَيْمَنِهِمْ﴾ حَلَفِهِمْ بِهِ تَعَالَى كَاذِبِينَ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ﴾ نَصِيبَ ﴿لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ^(٨)

(١) واسع في كل صفاته، واسع العلم، واسع الرحمة، واسع الحكمة، واسع القدرة، في كل الصفات، عليم بمن يستحق الفضل سبحانه وتعالى؛ فهو يؤتي فضله من يشاء عن علم وحكمة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٠٩)].

(٢) قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ إثبات لما نفوه من السبيل، قال الزجاج: تم الكلام بقوله بلى، ثم قال: ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ﴾. [الشوكاني (١/ ٤٠٥)].

(٣) المحبة غير الثواب، إذا أحبَّ الله العبد أثابه؛ فالإثابة من لازم المحبة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٣٤)].

(٤) لا يكلمهم الله تكليم رضا، ولكن قد يكلمهم تكليم إهانة؛ فإن الله سبحانه وتعالى يقول لأهل النار: ﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون].

١٠٨، وهذا كلام من الله؛ لكنه كلام تفرع وتوبيخ وإهانة، والمنفي هو تكليم الرضا. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١/ ٤٤١)].

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ يَرَحْمُهُمْ ^(١) ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٧٧) ﴿مُؤْلَمٌ﴾ ﴿وَأَنَّ مِنْهُمْ﴾
 أَيُّ: أَهْلُ الْكِتَابِ ﴿لَفَرِيقًا﴾ طَائِفَةً، كَكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ﴿يَلُودُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ﴾ أَيُّ: يَعْطِفُونَهَا بِقِرَاءَتِهِ عَنِ
 الْمُنَزَّلِ إِلَى مَا حَرَفُوهُ، مِنْ نَعْتِ النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْوِهِ ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أَيُّ: الْمَحَرَّفَ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ ^(٧٨)
 ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾
 ﴿أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ نَصَارَى نَجْرَانَ: «إِنَّ عِيسَى أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهُ رَبًّا»، أَوْ لَمَّا طَلَبَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ
 السُّجُودَ لَهُ ﷺ: ﴿مَا كَانَ﴾ يَنْبَغِي ﴿لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ﴾ أَيُّ: أَلْفَهُمُ لِلشَّرِيعَةِ ﴿وَالْتَّبَوْتُمْ ثُمَّ﴾
 يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ يَقُولُ: ﴿كُونُوا رَبَّيِّنَ﴾ عُلَمَاءُ عَامِلِينَ مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبِّ
 بِزِيَادَةِ أَلْفٍ وَتُونٍ تَفْخِيمًا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ^(٧٩) أَيُّ:
 بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَإِنَّ فَائِدَتَهُ أَنْ تَعْمَلُوا. ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ بِالرَّفْعِ اسْتِثْنَاءً، أَيُّ: اللَّهُ، وَالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿يَقُولُ﴾، أَيُّ:
 الْبَشَرُ ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كَمَا اتَّخَذَتِ الصَّابِئَةُ الْمَلَائِكَةَ، وَالْيَهُودُ عَزِيرًا، وَالنَّصَارَى عِيسَى
 ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ^(٨٠) لَا يَنْبَغِي لَهُ هَذَا. ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾
 عَهْدَهُمْ ﴿لَمَّا﴾ بَفَتْحِ اللَّامِ لِلْإِنْدَاءِ وَتَوَكِيدِ مَعْنَى الْقَسَمِ الَّذِي فِي أَخْذِ الْمِيثَاقِ، وَكَسْرِهَا مُتَعَلِّقَةً بِ﴿أَخَذَ﴾، وَ«مَا»
 مَوْصُولَةٌ عَلَى الْوَجْهِينِ، أَيُّ: لِلَّذِي ﴿ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ إِيَّاهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ءَاتَيْنَاكُمْ﴾، ﴿مَنْ كَتَبَ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾
 رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴿مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴿جَوَابُ الْقَسَمِ إِنْ﴾

(١) بمعنى: لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة. [ابن كثير (٦٢/٢)].

(٢) الذي أنزله الله على أنبيائه، ... قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في اليهود والنصارى جميعاً، وذلك أنهم حرفوا التوراة والإنجيل والحقوا في كتاب الله ما ليس منه. [صديق حسن (٢٧١/٢)].

(٣) أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: اعبدوني من دون الله. أي: مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى؛ ولهذا قال الحسن البصري: لا ينبغي هذا المؤمن أن يأمر الناس بعبادته. قال: وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً - يعني أهل الكتاب - كانوا يتعبدون لأخبارهم ورهبانهم، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَارَهُمْ وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] ... [عن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، ما عبدوهم. قال: «بلى، إِنَّهُمْ أَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ وَحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَاتَّبَعُوهُمْ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ»]. أخرجه الترمذي (٣٠٩٥). فالجهلة من الأخبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ. [ابن كثير (٦٦/٢)].

أَدْرَكْتُمُوهُ، وَأَمَّهُمْ تَبَعَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ﴾ بِذَلِكَ ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ فَبِلْتُمْ ﴿عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ عَهْدِي؟ ﴿قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ وَأَتْبَاعِكُمْ بِذَلِكَ ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿٨١﴾ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ. ﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الْمِيثَاقِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ بِالْيَأْءِ وَالنَّأْءِ، أَيُّ: الْمُتَوَلَّوْنَ ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ انْقَادَ ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ بِلَا إِيَاءٍ ﴿وَكَرْهًا﴾ بِالسَّيْفِ وَمُعَايَنَةِ مَا يُلْجِئُ إِلَيْهِ ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ بِالنَّأْءِ وَالْيَأْءِ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالْتَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَةِ. وَنَزَلَ فِيمَنْ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالْكَفَّارِ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِ. ﴿كَيْفَ﴾ أَيُّ: لَا يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَيُّ: وَشَهِدَتْهُمْ ﴿أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَ﴾ قَدْ ﴿جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْحُجَجُ الظَّاهِرَاتُ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ أَيُّ: الْكَافِرِينَ. ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيُّ: اللَّعْنَةِ، أَوِ النَّارِ الْمَدْلُولِ بِهَا عَلَيْهَا ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ يُمْهَلُونَ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلُهُمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿٨٩﴾ بِهِمْ. وَنَزَلَ فِي الْيَهُودِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِعِيسَى ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بِمُوسَىٰ ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ إِذَا غَرَّعُوا، أَوْ مَاتُوا كُفْرًا ﴿٩٠﴾ ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ مِقْدَارًا مَا يَمْلَأُهَا ﴿ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ أَدْخَلَ الْفَاءُ فِي خَبَرٍ ﴿إِنَّ﴾ لَشَبَهُ ﴿الَّذِينَ﴾ بِالشَّرْطِ، وَإِذَا نَا بَتَسَبُّبِ عَدَمِ الْقَبُولِ عَنِ الْمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤَلَّمٌ ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ ﴿٩١﴾ مَا نَعِينُ مِنْهُ. ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾ أَيُّ: ثَوَابَهُ وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿حَتَّىٰ تُنْفِقُوا﴾ تَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مِنْ أَمْوَالِكُمْ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا﴾

(١) قال قتادة وعطاء الخرساني والحسن: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم ازدادوا بإقامتهم على كفرهم كفراً بمحمد ﷺ، وقيل: ازدادوا كفراً بالذنوب التي اكتسبوها ورجحه ابن جرير الطبري وجعلها في اليهود خاصة. وقيل: نزلت في جميع الكفار، وذلك أنهم أشركوا بالله بعد إقرارهم بأن الله خلقهم، ثم ازدادوا كفراً يعني بإقامتهم على الكفر حتى هلكوا. [صديق حسن (٢/ ٢٨٠)].

(٢) عن أنس بن مالك قال: كان أبو طلحة أكثر أنصاري بالمدينة مالا وكان أحب أمواله إليه «بئر حاء» وكانت مستقبلية المسجد، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس: فلما نزلت: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة: يا رسول الله، إن الله يقول: ﴿لَنْ

مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ فَيَجَازِي عَلَيْهِ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُودُ: «إِنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَكَانَ لَا يَأْكُلُ لُحُومَ الْإِبِلِ وَالْأَبْنَاهَا»: ﴿* كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا حَلَالًا﴾ ﴿لَبِنَى إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ﴾ يَعْقُوبُ ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾ وَهُوَ الْإِبِلُ، لَمَّا حَصَلَ لَهُ عِرْقُ النِّسَاءِ بِالْفَتْحِ وَالْقَصْرِ، فَتَنَذَّرَ إِنْ شَفِي لَا يَأْكُلُهَا، فَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ ^(٩١) «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ» وَذَلِكَ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْدِهِ حَرَامًا كَمَا زَعَمُوا ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: «فَاتَّبِعُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتَّبِعُوا» لِيَتَّبِعَنَّ صِدْقَ قَوْلِكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ فِيهِ فَبُهِتُوا وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أَيُّ: ظُهُورِ الْحُجَّةِ، بَأَنَّ التَّحْرِيمَ إِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَةِ يَعْقُوبَ، لَا عَلَى عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ. ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ فِي هَذَا، كَجَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا ﴿حَنِيفًا﴾ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا:

تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿وَإِنْ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَى يَرْحَمَ وَأَنهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ أَرْجُو بَرَهَا وَذَخَرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، فَضَعَهَا يَارَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِخ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَاكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ، وَأَنَا أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفَعَلَ يَارَسُولَ اللَّهِ. فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٦١)، وَمُسْلِمٌ (٩٩٨). ... [وَعَنْ] عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: يَارَسُولَ اللَّهِ، لَمْ أَصِبْ مَا لَا قِطَّ هُوَ أَنَفْسٌ عِنْدِي مِنْ سَهْمِي الَّذِي هُوَ بِخَيْرٍ، فَمَا تَأْمُرُنِي بِهِ؟ قَالَ: «حَبْسِ الْأَصْلِ وَسَبَلِ الثَّمَرَةِ». أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ (٣٦٠٤).

(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَضَرَتْ عَصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: حَدَّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأَلُكَ عَنْهُمْ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ. قَالَ: «سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَخَذَ يَعْقُوبُ عَلَى بَيْنِهِ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ». قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ. قَالَ: «فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ»، قَالُوا: أَخْبَرْنَا عَنْ أَرْبَعٍ خِلَالٍ: أَخْبَرَنَا أَنَّ الطَّعَامَ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ؟ وَكَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ وَأَخْبَرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأَمِي فِي النَّوْمِ؟ وَمَنْ وَلِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَأَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ لَنْ أَخْبِرَهُمْ لِيَتَابِعُنِي، وَقَالَ: «فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ لَئِنْ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ لَتَتَابِعُونِي»، فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، قَالَ: «أَنشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ - يَعْقُوبَ - مَرِضٌ مَرَضًا شَدِيدًا طَالَ سَقَمُهُ فِيهِ فَتَنَذَّرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ الْإِبِلُ، وَأَحَبُّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحُومُ الْإِبِلِ» فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «فَأَنشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ غَلِيظٌ أَبْيَضٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ رَقِيقٌ أَصْفَرُ فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ الْوَلَدُ، وَالشَّبَهُ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ». قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ عَلَيْهِمْ». وَقَالَ: «أَنشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ». قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: «اللَّهُمَّ أَشْهَدُ». قَالُوا: وَأَنْتَ الْآنَ فَحَدَّثْنَا مِنْ وَلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا نَجَامِعُكَ أَوْ نِفَارِقُكَ، قَالَ: «وَلِيِّي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ». قَالُوا: فَعِنْدَهَا نِفَارِقُكَ، وَلَوْ كَانَ وَلِيكَ غَيْرُهُ لَتَابَعْنَاكَ، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ الْآيَةُ [البقرة: ٩٧]. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٢٥١٤).

«قَبْلَتُنَا قَبْلَ قِبْلَتِكُمْ»: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ مُتَعَبِّدًا لِلنَّاسِ فِي الْأَرْضِ لِلَّذِي بَكَتْهُ بِالْبَاءِ لُغَةً فِي مَكَّةَ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبْكُ أَعْنَاقَ الْجَبَابِرَةِ، أَي: تَدُقُّهَا»^(١)، بَنَاهُ الْمَلَأَيْكَةُ قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ، وَوُضِعَ بَعْدَهُ الْأَقْصَى، وَبَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ^(٢)، وَفِي حَدِيثٍ: «أَنَّهُ أَوَّلُ مَا ظَهَرَ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ عِنْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ زُبْدَةٌ بَيْضَاءُ»^(٣) فَدُحِيتِ الْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ»^(٤) «مُبَارَكًا» حَالٌ مِنَ «الَّذِي»، أَي: ذَا بَرَكَةٍ^(٥) «وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ»^(٦) «لَآئِهَ قِبْلَتُهُمْ». «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِنْهَا «مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ» أَي: الْحَجَرُ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْدَ بِنَاءِ الْبَيْتِ فَأَثَرُ قَدَمَاهُ

(١) بكة علم للبلد الحرام وكذا مكة وهما لغتان، فإن العرب تعاقب بين الباء والميم كـ «لازب» و«لازم»، ... وقيل: إن بكة اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام، وقيل: بكة للمسجد ومكة للحرم كله، قيل: سميت بذلك لأنها كانت تبك أي تدق أعناق الجبابرة. وأما تسميتها بمكة فقيل: سميت بذلك لقله مائها. وقيل: لأنها تمك المخ من العظم بما ينال سكانها من المشقة، ومنه مككت العظم إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه وامتكه إذا امتصه، وقيل: سميت بذلك لأنها تمك من ظلم فيها، أي: تهلكه، وقيل: لأنها تمك الذنوب، أي: تزيلها وتمحوها. [صديق حسن (٢/٢٨٨)].

(٢) يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس، أي: لعموم الناس، لعبادتهم ونسكهم، يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده «لِلَّذِي بَكَتْهُ» يعني: الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل عليه السلام الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه. ولهذا قال: «مُبَارَكًا» أي: وضع مباركا «وَهْدَى لِلْعَالَمِينَ». عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ»، قال: قلت ثم أي؟ قال: «الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أَرْبَعُونَ سَنَةً»، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكْتُمْ الصَّلَاةَ بَعْدُ فَصَلُّهُ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ. أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠)، وعن الشعبي عن علي رضي الله عنه في قوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَكَتْهُ مُبَارَكًا» قال: كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله تعالى. وزعم السدي أنه أول بيت وضع على وجه الأرض مطلقا. والصحيح قول علي رضي الله عنه. [ابن كثير (٧٧/٢)].

(٣) أي: من زبد الماء، الأبيض الذي يعلوه.

(٤) قد رويت أحاديث وأثار تبين أن الكعبة كانت صخرة في الماء، وأن دحي الأرض كان من تحتها، وأنها مخلوقة قبل الأرض بألفي سنة، وكل ذلك لا يخلو من ضعف، وهي مردودة بالحديث الصحيح السابق ذكره الذي أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠) عن الصادق عليه السلام المصدوق عليه السلام.

(٥) يعني ذا بركة، وأصل البركة النمو والزيادة، والبركة هنا كثرة الخير الحاصل لمن استقر فيه أو يقصده، أي: الثواب المتضاعف. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَسَاجِدِ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ». أخرجه مسلم (١٣٩٥). [صديق حسن (٢/٢٨٩)].

فِيهِ، وَيَبْقَى إِلَى الْآنَ مَعَ تَطَاوُلِ الزَّمَانِ وَتَدَاوُلِ الْأَيَّامِ عَلَيْهِ، وَمِنْهَا تَضَعُفُ الْحَسَنَاتِ فِيهِ، وَأَنَّ الطَّيْرَ لَا يَعْلُوهُ^(١) ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ لَا يُتَعَرَّضُ إِلَيْهِ بِقَتْلٍ أَوْ ظُلْمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ وَاجِبٌ بِكُسْرِ الْحَاءِ وَفَتْحِهَا، لُغَتَانِ فِي مَصْدَرٍ: «حَجَّ» بِمَعْنَى: قَصَدَ، وَبَدَّلَ مِنَ «النَّاسِ»، ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا، فَسَرَهُ ﷺ بِ: «الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ وَغَيْرُهُ^(٢) ﴿وَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، أَوْ بِمَا فَرَضَهُ مِنَ الْحَجِّ﴾ فَإِنَّ اللَّهَ غَنَى عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، وَعَنْ عِبَادَتِهِمْ ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تَصْرِفُونَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: عَنْ دِينِهِ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ بِتَكْذِيبِكُمُ النَّبِيَّ وَكُتِمَ نَعْتُهُ ﴿تَبْعُونَهَا﴾ أَيُّ: تَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ﴿عِوَجًا﴾ مَصْدَرٌ، بِمَعْنَى: مُعْوَجَّةً، أَيُّ: مَائِلَةً عَنِ الْحَقِّ ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ عَالِمُونَ بِأَنَّ الدِّينَ الْمَرْضِيَّ هُوَ الْقِيَمُ دِينُ الْإِسْلَامِ، كَمَا فِي كِتَابِكُمْ ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ إِلَىٰ وَقْتِكُمْ لِيَجَازِيَكُمْ. وَنَزَلَ لَمَّا مَرَّ بَعْضُ الْيَهُودِ عَلَى الْأَوْسِ وَالْخَزَرِجِ فَعَاظَهُمْ تَأْلُفُهُمْ، فَذَكَرُوهُمْ بِمَا كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْفِتَنِ، فَتَشَاجَرُوا وَكَادُوا يَقْتُلُونَ: ﴿يَٰ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبٌ وَتَوْبِيخٌ ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ﴾ يَتَمَسَّكْ ﴿بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٠١﴾ يَٰ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ بِأَنْ يُطَاعَ فَلَا يُعْصَى وَيُشْكَرُ فَلَا يُكْفَرُ وَيُذَكَّرُ فَلَا يُنْسَى، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ يَقْوَىٰ عَلَىٰ هَذَا؟ فَسُيِّخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَآتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]^(٣)، ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ مَوْحَدُونَ^(٤). ﴿وَأَعْتَصِمُوا﴾ تَمَسَّكُوا

(١) لا دليل على صحة هذا القول، والواقع المشاهد يكذبه.

(٢) أخرجه الترمذي (٨١٣)، وابن ماجه (٢٨٩٦)، والحاكم (٤٤٢/١).

(٣) وقيل: إن قوله: ﴿فَآتَقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ بيان لهذه الآية. والمعنى: فاتقوا الله حق تقاته ما استطعتم، وهذا أصوب، لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى. [القرطبي (١٥٧/٤)].

(٤) أي: حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعياداً بالله من خلاف ذلك ... عن مجاهد: أن الناس كانوا يطوفون بالبيت وابن عباس جالس معه محجن، فقال: قال رسول الله ﷺ: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ، وَلَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزُّقُومِ قُطِرَتْ لَأَمَرْتُ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ عِشَّتَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا الزُّقُومُ؟». أخرجه الترمذي (٢٥٨٥)، والنسائي في السنن الكبرى

﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أَي: دِينِهِ ﴿جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ بَعْدَ الْإِسْلَامِ ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ إِنْعَامَهُ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الْأَوْسِ وَالْخَزَرَجِ ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ قَبْلَ الْإِسْلَامِ ﴿أَعْدَاءَ قَالَفٍ﴾ جَمَعَ ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ فَصِرْتُمْ ﴿بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فِي الدِّينِ وَالْوِلَايَةِ^(١) ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا﴾ طَرَفِ ﴿حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ لَيْسَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْوُقُوعِ فِيهَا إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كُفَّارًا ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّ لَكُمْ مَا ذَكَرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(١٣) وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ الْإِسْلَامِ ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ﴾ الدَّاعُونَ الْأَمْرُونَ النَّاهُونَ ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١٤) الْفَائِزُونَ، وَمِنْ اللَّتَبْعِيصِ؛ لِأَنَّ مَا ذَكَرَ فَرَضَ كِفَايَةً لَا يَلْزُمُ كُلَّ الْأُمَّةِ، وَلَا يَلِيقُ بِكُلِّ أَحَدٍ كَالْجَاهِلِ، وَقِيلَ: زَائِدَةٌ، أَي: لِتَكُونُوا أُمَّةً^(١٥). ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ عَنِ دِينِهِمْ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فِيهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ

(١١٠٧٠)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وأحمد (٢٧٣٥)... وعن جابر، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه مسلم (٢٨٧٧). [ابن كثير (٨٧/٢)].

(١) الحبل لفظ مشترك وأصله في اللغة السبب الذي يتوصل به إلى البغية، وهو إما تمثيل أو استعارة مصرحة أصلية تحقيقية، أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام أو بالقرآن. وقد وردت أحاديث بأن كتاب الله هو حبل الله، وأن القرآن هو حبل الله المتين، قال أبو العالية: بالإخلاص لله وحده. وعن الحسن بطاعته، وعن قتادة بعهد وأمره، وعن ابن زيد بالإسلام. ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ بعد الإسلام كما تفرقت اليهود والنصارى أو كما كنتم في الجاهلية متدابرين. وقيل: لا تحدثوا ما يكون عنه التفرق ويزول معه الاجتماع، والمعنى نهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف في الدين، وعن الفرقة، لأن كل ذلك عادة أهل الجاهلية. [صديق حسن (٣٠٢/٢)].

(٢) قال أهل العلم: فرض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق،... ومنها ألا يخاف الأمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانَهُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلَبَهُ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» أخرجه مسلم (٤٩)... والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: فيه اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام والولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى أحد نازلة بديهة من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. كما هي في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ [لقمان: ١٧]، و [أما] قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدرُوا على تغيير المنكر. [ابن عطية (٤٨٦/١)].

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿١٥﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ فَيَلْقَوْنَ فِي النَّارِ وَيُقَالُ لَهُمْ تَوَيْخًا: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يَوْمَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ ^(١) ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ أَي: جَنَّتِهِ ^(٢) ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٧﴾ تِلْكَ﴾ أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ بِأَن يَأْخُذَهُمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾ تَصِيرُ ﴿الْأُمُورُ﴾ ﴿كُنْتُمْ﴾ ﴿يَا أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى﴾ ^(٣) ﴿خَيْرٌ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ﴾ أَظْهَرَتْ ﴿لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ﴾ الْإِيمَانُ ﴿خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ﴿١٩﴾ الْكَافِرُونَ. ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ أَي: الْيَهُودُ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ بِشَيْءٍ ﴿إِلَّا أَذَى﴾ بِاللِّسَانِ مِنْ سَبِّ وَوَعِيدٍ ﴿وَإِنْ يُقْتَلُوا يُولُوكُمْ أُولَدُكُمْ الْأُدْبَارُ﴾ مُنْهَزِمِينَ ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ عَلَيْكُمْ، بَلْ لَكُمْ النَّصْرُ عَلَيْهِمْ. ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةَ أَيَّنَ مَا تُقِفُوا﴾ حَيْثُمَا وَجَدُوا، فَلَا عِزَّ لَهُمْ وَلَا اِعْتِصَامَ ﴿إِلَّا﴾ كَائِنِينَ ﴿بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ، وَهُوَ: عَهْدُهُمْ إِلَيْهِمْ بِالْأَمَانِ عَلَى آدَاءِ الْحِزْبِ ^(٤)، أَي: لَا عِصْمَةَ لَهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَبَاءُوا﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ أَمَرَ اللَّهُ ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ﴿٢١﴾

(١) المراد بالإيمان هنا إيمان الفطرة؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ» أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). ويحتمل أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الفطري الاختياري، وتكون الآية في سياق من ارتدوا بعد إيمانهم، لكن الأول أولى؛ لأنه أعم. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/٢٨)].

(٢) وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين. [السعدي (ص: ١٤٢)].

(٣) وقيل: كتتم مذ آمتهم خير أمة. وقيل: جاء ذلك لتقدم البشارة بالنبي ﷺ وأمته. فالمعنى كتتم عند من تقدمكم من أهل الكتب خير أمة. [القرطبي (٤/٧٠)].

(٤) المعنى: لا يسلمون من الذلة إلا إذا تلبسوا بعهد من الله، أي: ذمة الإسلام، أو إذا استنصروا بقبائل أولي بأس شديد، وأما هم في أنفسهم فلا نصر لهم. وهذا من دلائل النبوة فإن اليهود كانوا أعزة يثرب وخيبر والنضير وقريظة، فأصبحوا أذلة وعمتهم المذلة في سائر أقطار الدنيا. [ابن عاشور (٤/٥٦)].

يَتَجَاوَزُونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ. ﴿١٠٩﴾ لَيْسُوا أَيْ: أَهْلُ الْكِتَابِ ﴿سَوَاءٌ﴾ مُسْتَوِينَ ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ مُسْتَقِيمَةٌ ثَابِتَةٌ عَلَى الْحَقِّ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَصْحَابِهِ ﴿يَتْلُونَ عَايَاتِ اللَّهِ عَانَاءَ اللَّيْلِ﴾ أَيْ: فِي سَاعَاتِهِ ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ١١٠ ﴿يُصَلُّونَ، حَالٌ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ﴾ الْمُؤَصُّوفُونَ بِمَا ذَكَرَ اللَّهُ ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١١١ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَّيْسُوا كَذَلِكَ وَلَيْسُوا مِنَ الصَّالِحِينَ. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ بِالتَّاءِ: أَيُّهَا الْأُمَّةُ، وَالْيَاءِ، أَيُّ: الْأُمَّةُ الْقَائِمَةُ ﴿مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ نُكَفِّرُوهُ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ، أَيْ: تُعَدُّوا ثَوَابَهُ بَلْ تُجَاوِزُونَ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ١١٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ﴾ تَدْفَعُ ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيْ: مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْئًا﴾ وَخَصَّهْمَا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ تَارَةً بَدَاءَ الْمَالِ، وَتَارَةً بِالْإِسْتِعَانَةِ بِالْأَوْلَادِ ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ١١٣ ﴿مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ أَيْ: الْكُفَّارُ ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فِي عَدَاوَةِ النَّبِيِّ أَوْ صَدَقَةٍ وَنَحْوَهَا ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ حَرٌّ أَوْ بَرْدٌ شَدِيدٌ ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ﴾ زَرْعَ ﴿قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ﴿فَأَهْلَكْتَهُ﴾ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، فَكَذَلِكَ نَفَقَاتُهُمْ ذَاهِبَةٌ لَا يَنْتَفِعُونَ بِهَا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بِضَيَاعِ نَفَقَاتِهِمْ ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ١١٤ ﴿بِالْكَفْرِ الْمَوْجِبِ لِضَيَاعِهَا. يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾ أَصْفِيَاءَ تُطْلَعُونَهُمْ عَلَى سِرِّكُمْ ﴿مِنْ دُونِكُمْ﴾ أَيْ: غَيْرِكُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُنَافِقِينَ ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ نُصِبَ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَيْ: لَا يُقْصِرُونَ جُهْدَهُمْ لَكُمْ فِي الْفَسَادِ ﴿وَدُّوا﴾ تَمَنَّوْا ﴿مَا عَيْنَتْ﴾ أَيْ: «عَتَكُمْ» وَهُوَ: شِدَّةُ الضَّرَرِ ﴿قَدْ بَدَتْ﴾ ظَهَرَتْ ﴿الْبَعْضَاءُ﴾ الْعَدَاوَةُ لَكُمْ ﴿مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بِالْوَقِيعَةِ فِيكُمْ وَإِطْلَاعِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى سِرِّكُمْ ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ مِنَ الْعَدَاوَةِ ﴿أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْأَيَّاتِ﴾ عَلَى عَدَاوَتِهِمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ١١٥ ﴿ذَلِكَ فَلَا تَوَالُوهُمْ. ﴿هَـ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنْتُمْ﴾ يَا ﴿أَوَّلَاءِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مُحِبُّونَهُمْ﴾ لِقَرَابَتِهِمْ مِنْكُمْ وَصِدَاقَتِهِمْ ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ لِمُخَالَفَتِهِمْ لَكُمْ فِي الدِّينِ ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أَيْ: بِالْكِتَابِ كُلِّهَا، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ ﴿وَإِذَا لَقَوْكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ﴾ أَطْرَافَ الْأَصَابِعِ ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ شِدَّةُ الْغَضَبِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ إِتْلَافِكُمْ، وَيَعْبَرُ عَنْ شِدَّةِ الْغَضَبِ «بِعَضِّ الْأَنَامِلِ» مَجَازًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَضٌّ ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أَيْ: ابْتَقُوا عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْتِ فَلَنْ تَرَوْا مَا يَسُرُّكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ١١٦ ﴿بِمَا فِي الْقُلُوبِ، وَمِنْهُ مَا يُضْمِرُهُ هَؤُلَاءِ. ﴿إِنْ تَمَسَّسْكُمْ﴾ تُصَبِّكُمُ ﴿حَسَنَةً﴾ نِعْمَةً، كَنَصْرِ وَغَنِيمَةٍ ﴿تَسُوهُمْ﴾ تُخْزِنُهُمْ ﴿وَإِنْ تُصَبِّكُمُ سَيِّئَةً﴾ كَهَزِيمَةٍ وَجَذْبٍ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وَجُمْلَةُ الشَّرْطِ مُتَّصِلَةٌ بِالشَّرْطِ قَبْلُ، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ مُتَنَاهَوْنَ فِي عَدَاوَتِكُمْ، فَلِمَ تَوَالُوهُمْ؟ فَاجْتَنِبُوهُمْ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ عَلَى آذَانِهِمْ

﴿وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي مَوَالِيهِمْ وَغَيْرِهَا﴾ لَا يَضُرُّكُمْ بِكُسْرِ الضَّادِ وَسُكُونِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا وَتَشْدِيدِهَا ﴿كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾^{١٥٨} إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَالِيَاءٌ وَالتَّاءِ ﴿مُحِيطٌ﴾^{١٥٩} عَالِمٌ فَيَجَازِيهِمْ بِهِ^(١). ﴿وَ﴾ اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مِنْ الْمَدِينَةِ ﴿تُبَوِّئُ﴾ تَنْزِلُ ﴿الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ﴾ مَرَاكِزَ يَقْفُونَ فِيهَا ﴿لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لَا قَوْلَ الْكُفِّ ﴿عَلِيمٌ﴾^{١٦٠} بِأَحْوَالِكُمْ، وَهُوَ يَوْمٌ أُحُدٍ، خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بِالْفِ أَوْ إِلَّا خَمْسِينَ رَجُلًا، وَالْمُشْرِكُونَ ثَلَاثَةُ آلَافٍ، وَنَزَلَ بِالشَّعْبِ يَوْمَ السَّبْتِ سَابِعِ شَوَّالٍ سَنَةِ ثَلَاثٍ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ وَعَسْكَرَهُ إِلَى أُحُدٍ وَسَوَّى صُفُوفَهُمْ، وَأَجْلَسَ جَيْشًا مِنَ الرَّمَاةِ وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ بِسَفْحِ الْجَبَلِ، وَقَالَ: «انْضَحُوا عَنَّا بِالنَّبْلِ لَا يَأْتُوا مِنْ وَرَائِنَا، وَلَا تَبْرَحُوا غُلْبَنَا أَوْ نُصِرْنَا»^(٢). ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ بَنُو سَلَمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ جَنَاحَا الْعَسْكَرِ ﴿أَنْ تَفْشَلَا﴾ تَجْبِنَا عَنِ الْقِتَالِ وَتَرْجِعَا، لَمَّا رَجَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي الْمُنَافِقِ وَأَصْحَابُهُ، وَقَالَ: عَلَامَ نَقُتِلَ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادُنَا، وَقَالَ لِأَبِي جَابِرِ السَّلْمِيِّ الْقَائِلِ لَهُ: «أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ فِي نَبِيِّكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ»: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبَعُنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فَتَبَّتَهُمَا اللَّهُ وَلَمْ يَنْصُرِفَا ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ نَاصِرُهُمَا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^{١٦٢} لِيَتَّقُوا بِهِ دُونَ غَيْرِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا هَزَمُوا تَذْكِيرًا لَهُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ﴾ مَوْضِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ بِقِلَّةِ الْعَدَدِ وَالسَّلَاحِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^{١٦٣} نِعْمَهُ. ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾ ﴿تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تُوْعِدُهُمْ تَطْمِينًا: ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ﴾ يُعِينُكُمْ ﴿رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ﴾^{١٦٤} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ. ﴿بَلَى﴾ يَكْفِيكُمْ ذَلِكَ، وَفِي الْأَنْفَالِ: ﴿بِآفٍ﴾ [الأنفال: ٩]؛ لِأَنَّهُ أَمَدَّهُمْ أَوْ لَا بِهَا ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَةَ ثُمِّ صَارَتْ خَمْسَةً، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَصَبَّرُوا﴾ عَلَى لِقَاءِ الْعَدُوِّ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللَّهَ فِي الْمُخَالَفَةِ ﴿وَيَأْتُواكُمْ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْ فَوْرِهِمْ﴾ وَقَتِهِمْ ﴿هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾^{١٦٥} بِكُسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا، أَيِ: مُعَلِّمِينَ، وَقَدْ صَبَرُوا وَأَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ، بَأَنَّ قَاتَلَتْ مَعَهُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى خَيْلٍ بُلِقَ عَلَيْهِمْ عَمَائِمُ صُفْرٍ أَوْ بِيضٍ أَرْسَلُوهَا بَيْنَ أَكْتَافِهِمْ ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أَيِ: الْإِمْدَادَ ﴿إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تَسْكُنَ ﴿قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ فَلَا تَجْزَعُ مِنْ كَثْرَةِ الْعَدُوِّ وَقِلَّتِكُمْ ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^{١٦٦} يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَلَيْسَ بِكَثْرَةِ الْجُنْدِ. ﴿لِيَقْطَعَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿نَصَرَكُمُ﴾، أَيِ: لِيَهْلِكَ ﴿طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾

(١) والإحاطة هنا إحاطة العلم والقدرة والسلطان، فهو محيط بهم كإحاطة السور بمن في داخله؛ أي: لا يتمكن أن يفروا من قضاء الله عز وجل وعلمه وسلطانه وقدرته. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١٠٦/٢)]. والقراءة بالتاء شاذة.

(٢) أورده البيهقي في دلائل النبوة (٢٢٧/٣).

يَذَلُّهُمْ بِالْهَزِيمَةِ ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ لَمْ يَنَالُوا مَا رَأَوْهُ. وَنَزَلَ لَمَّا كُسِرَتْ رُبَاعِيَّتُهُ ﷺ وَشَجَّ وَجْهُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ بِالدِّمِ»^(١): «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» بَلِ الْأَمْرُ لِلَّهِ فَاصْبِرْ ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى: «إِلَى» أَنْ «يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» بِالْإِسْلَامِ ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ بِالْكَفْرِ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةُ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ تَعْذِيْبُهُ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢٩﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بِأَلْفِ وَدُونِهَا، بِأَنْ تَزِيدُوا فِي الْأَمْوَالِ عِنْدَ حُلُولِ الْأَجَلِ وَتَوَخَّرُوا الطَّلَبَ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِتَرْكِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ تَفْزُونَ. ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ أَنْ تُعَذِّبُوا بِهَا. ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ * وَسَارِعُوا بِأَوْدُونِهَا ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي: كَعَرْضِهَا لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَالْعَرْضُ السَّعَةُ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ اللَّهُ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ وَتَرْكِ الْمَعَاصِي. ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الْيُسْرِ وَالْعُسْرِ ﴿وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ﴾ الْكَافِينَ عَنْ إِمْضَائِهِ مَعَ الْقُدْرَةِ ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ، أَي: التَّارِكِينَ عُقُوبَتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾ بِهَذِهِ الْأَفْعَالِ، أَي: يُشَبِّهُهُمْ^(٢). ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ ذَنْبًا قَبِيحًا كَالزَّنا ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِمَا دُونَهُ كَالْقُبْلَةِ ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ أَي: وَعِيدَهُ ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن﴾ أَي: لَا ﴿يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ يَدْمُوا ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾ بَلْ أَقْلَعُوا عَنْهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ أَنَّ الَّذِي أَنْوَهُ مَعْصِيَةً. ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ، أَي: مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ فِيهَا إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ بِالطَّاعَةِ هَذَا الْأَجْرُ. وَنَزَلَ فِي هَزِيمَةِ أُحُدٍ: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ ﴿مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ طَرَائِقُ فِي الْكُفَّارِ، بِإِمْهَالِهِمْ ثُمَّ أَخَذَهُمْ ﴿فَسِيرُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ الرَّسُلُ، أَي: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، فَلَا تَحْزَنُوا لِغَلَبَتِهِمْ فَأَنَا أُمُهْلَهُمْ لَوْفَتِهِمْ. ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ كُلِّهِمْ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٨﴾ مِنْهُمْ. ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ تَضَعُفُوا عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَىٰ مَا أَصَابَكُمْ بِأَحَدٍ ﴿وَأَنْتُمْ

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٧٧)، وابن ماجه (٢٠٧٤)، وأحمد (١٢٨٣١).

(٢) في الآية إثبات المحبة لله عز وجل... وإرادة الإحسان أو الإثابة غير المحبة... والعقل دل على ثبوت المحبة لله، فإثابة الطائعين تدل على أن الله أحبهم، إذ لا يمكن أن يُثيب أحد عقلاً إلا وهو يحبه، فيكون إثابة الطائعين دليلاً عقلياً على ثبوت المحبة كما جعلتم أنتم التخصيص دليلاً عقلياً على ثبوت الإرادة، بل إن إثابة الطائعين أدل على المحبة من دلالة التخصيص على الإرادة. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (١٧٨/٢)].

«الْأَعْلُونَ» بِالْغَلْبَةِ عَلَيْهِمْ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ﴿١٣٩﴾ حَقًّا، وَجَوَابُهُ دَلٌّ عَلَيْهِ مَجْمُوعٌ مَّا قَبْلَهُ. «إِنْ يَمَسُّكُمْ» يُصِيبُكُمْ
 بِأَحَدٍ «فَرَحٌّ» بَفَتْحِ الْقَافِ وَضَمِّهَا، جَهْدٌ مِنْ جُرْحٍ وَنَحْوِهِ «فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ» الْكَفَّارُ «فَرَحٌ مِثْلُهُ» بِبَدْرِ
 «وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا» نُصَرَّفُهَا «بَيْنَ النَّاسِ» يَوْمًا لِفِرْقَةٍ وَيَوْمًا لِأُخْرَى، لِيَتَّعِظُوا «وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ» عِلْمَ ظُهُورِ
 «الَّذِينَ ءَامَنُوا» أَخْلَصُوا فِي إِيْمَانِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» يُكْرِمُهُمْ بِالشَّهَادَةِ «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
 الظَّالِمِينَ» ﴿١٤٠﴾ الْكَافِرِينَ، أَيُّ: يُعَاقِبُهُمْ، وَمَا يُنْعِمُ بِهِ عَلَيْهِمْ اسْتِدْرَاجٌ^(١). «وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا» يُطَهِّرُهُمْ
 مِنَ الذُّنُوبِ بِمَا يُصِيبُهُمْ «وَيُمَحِّقَ» يُهْلِكَ «الْكَافِرِينَ» ﴿١٤١﴾. «أَمْ» بَلْ أَمْ «حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا» لَمْ
 «يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ» عِلْمَ ظُهُورِ «وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» ﴿١٤٢﴾ فِي الشَّدَائِدِ. «وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ» فِيهِ
 حَذْفُ إِحْدَى النَّائِنِ فِي الْأَصْلِ «الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلْقَوْهُ» حَيْثُ قُلْتُمْ: لَيْتَ لَنَا يَوْمًا كَيَوْمِ بَدْرٍ، لِنَنَالَ مَا نَالَ
 شُهَدَاؤُهُ «فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ» أَيُّ: سَبَبُهُ الْحَرْبُ «وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» ﴿١٤٣﴾ أَيُّ: بُصَرَاءُ تَتَأَمَّلُونَ الْحَالَ كَيْفَ هِيَ، فَلِمَ
 أَنْهَزْتُمْ؟ وَنَزَلَ فِي هَزِيمَتِهِمْ لَمَّا أَشْبَعَ أَنَّ النَّبِيَّ قُتِلَ، وَقَالَ لَهُمُ الْمُنَافِقُونَ: «إِنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»: «وَمَا
 مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ» كَغَيْرِهِ «أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ» رَجَعْتُمْ إِلَى
 الْكُفْرِ؟ وَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ، أَيُّ: مَا كَانَ مَعْبُودًا فَتَرْجِعُوا «وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ
 يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا» وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ «وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» ﴿١٤٤﴾ نِعْمَهُ بِالثَّبَاتِ. «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ» بِقَضَائِهِ «كِتَبًا» مَصْدَرٌ، أَيُّ: كَتَبَ اللَّهُ ذَلِكَ «مُوجَلًّا» مُؤَقَّتًا لَا يَتَقَدَّمُ وَلَا يَتَأَخَّرُ، فَلِمَ أَنْهَزْتُمْ؟ وَالْهَزِيمَةُ
 لَا تَدْفَعُ الْمَوْتَ وَالثَّبَاتُ لَا يَقْطَعُ الْحَيَاةَ «وَمَنْ يُرِدْ» بِعَمَلِهِ «ثَوَابَ الدُّنْيَا» أَيُّ: جَزَاءُ مِنْهَا «نُؤْتِيهِ مِنْهَا» مَا قُسِمَ
 لَهُ وَلَا حَظَّ لَهُ فِي الْأَخِرَةِ «وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْأَخِرَةِ نُؤْتِيهِ مِنْهَا» أَيُّ: مِنْ ثَوَابِهَا «وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ» ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ
 كَمْ «مَنْ نَبِيٍّ قُتِلَ» وَفِي قِرَاءَةٍ: «قَتَلَ»، وَالْفَاعِلُ ضَمِيرُهُ «مَعَهُ» خَبَرٌ مُبْتَدَأُهُ «رَبِّيُونَ كَثِيرٌ» جُمُوعٌ كَثِيرَةٌ
 «فَمَا وَهَنُوا» جَبُّوا «لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» مِنَ الْجِرَاحِ وَقَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ «وَمَا ضَعُفُوا» عَنِ الْجِهَادِ
 «وَمَا أَسْتَكَانُوا» خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ كَمَا فَعَلْتُمْ حِينَ قِيلَ: قُتِلَ النَّبِيُّ «وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» ﴿١٤٦﴾ عَلَى الْبَلَاءِ، أَيُّ:
 يُشِيبُهُمْ^(٢). «وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ» عِنْدَ قَتْلِ نَبِيِّهِمْ مَعَ ثَبَاتِهِمْ وَصَبْرِهِمْ «إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا»

(١) نفي المحبة كناية عن البغض، وفي إيقاعه على الظالمين تعريض بمحبته تعالى لمقابلتهم. [أبو السعود (٢/ ٩٠)].

(٢) [فيه] إثبات المحبة لله، والمحبة صفة من صفات الله تعالى المتعلقة بمشيئته؛ فهي من الصفات الفعلية لأنها تتعلق بالمشيئة، ووجه

تَجَاوَزْنَا الْحَدَّ ﴿فِي أَمْرِنَا﴾ إِذَا نَا بَانَ مَا أَصَابَهُمْ لِسُوءِ فَعْلِهِمْ وَهَضَمًا لِنَفْسِهِمْ ﴿وَوَيْتٌ أَقْدَامَنَا﴾ بِالْقُوَّةِ عَلَى الْجِهَادِ
 ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴿النَّصْرَ وَالْغَنِيمَةَ﴾ ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ،
 وَحُسْنُهُ: التَّفَضُّلُ فَوْقَ الْإِسْتِحْقَاقِ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
 فِيمَا يَأْمُرُوكُمْ بِهِ ﴿يُرِيدُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ إِلَى الْكُفْرِ ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ ﴿نَاصِرُكُمْ﴾ وَهُوَ
 خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ فَأَطِيعُوهُ دُونَهُمْ. ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَصَمَّهَا: الْخَوْفَ،
 وَقَدْ عَزَمُوا بَعْدَ ارْتِحَالِهِمْ مِنْ أَحَدٍ عَلَى الْعُودِ وَاسْتِصْصَالِ الْمُسْلِمِينَ، فَرَعَبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ بِسَبَبِ
 إِشْرَاكِهِمْ ﴿بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حُجَّةٌ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَهُوَ الْأَصْنَامُ ﴿وَمَا أَوْلَاهُمْ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوًى﴾
 مَأْوًى ﴿الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٥١﴾ الْكَافِرِينَ هِيَ. ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ ﴿إِذْ مُحْسِنُوكُمْ﴾ تَقْتُلُونَهُمْ
 ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جَبْتُمْ عَنِ الْقِتَالِ ﴿وَتَنَزَّعْتُمْ﴾ اخْتَلَقْتُمْ ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أَيِ: أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ
 بِالْمَقَامِ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ لِلرَّمْيِ، فَقَالَ بَعْضُكُمْ: نَذَهَبُ فَقَدْ نَصَرَ أَصْحَابُنَا، وَبَعْضُكُمْ: لَا نُخَالِفُ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ
 ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أَمْرُهُ فَتَرَكْتُمْ الْمَرْكَزَ لِطَلَبِ الْغَنِيمَةِ ﴿مَنْ بَعْدَ مَا أَرْسَلَكُمْ﴾ اللَّهُ ﴿مَا تُحِبُّونَ﴾ مِنَ النَّصْرِ، وَجَوَابُ
 ﴿إِذَا﴾ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَيِ: مَنَعَكُمْ نَصْرَهُ ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ فَتَرَكَ الْمَرْكَزَ لِلْغَنِيمَةِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ
 الْآخِرَةَ﴾ فَثَبَّتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ﴾ عَطَفَ عَلَى جَوَابِ ﴿إِذَا﴾ الْمَقْدَرِ، رَدَّكُمْ
 بِالْهَزِيمَةِ ﴿عَنْهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ لِيَمْتَحِنَكُمْ فَيُظْهِرَ الْمُخْلِصَ مِنْ غَيْرِهِ ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ مَا
 ارْتَكَبْتُمُوهُ ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٥٢﴾ بِالْعَفْوِ. أَذْكُرُوا ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ تَبْعُدُونَ فِي الْأَرْضِ هَارِبِينَ
 ﴿وَلَا تَلُونَ﴾ تُعَرِّجُونَ ﴿عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أَيِ: مِنْ وَرَائِكُمْ، يَقُولُ: «إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ

كونها تتعلق بالمشيئة أنها مربوطة بسبب، وكل صفة مربوطة أو مُعلقة بسبب فإنها من الصفات الفعلية ... وأهل التعطيل ينكرون حقيقة
 المحبة، ويقولون: إن المراد بالمحبة الإثابة أو إرادة الإثابة، يعني الشيء المخلوق المنفصل عن الله وهو الثواب أو الإرادة. [ابن عثيمين
 تفسير آل عمران (٢/٢٦٣)].

(١) سميت الحجة سلطاناً لقوتها على دفع الباطل أو لوضوحها وإنارتها أو لحدتها ونفوذها، والنفي يتوجه إلى القيد والمقيد، أي: لا حجة ولا
 إنزال، والمعنى أن الاشرار بالله لم يثبت في شيء من الملل. [صديق حسن (٢/٣٥٢)].

(٢) يأذن الله الكوني والشرعي؛ يأذنه الكوني؛ لأنه قد وقع، وكل شيء قد وقع فإن الله قد أذن به كوناً، ويأذنه الشرعي لأن الله تعالى قد شرع
 لنا أن نقاتل الكفار، فيكون قتلنا لهم مأذوناً فيه شرعاً. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/٣٠٥)].

عِبَادَ اللَّهِ^(١). ﴿فَاتَّبِعْكُمْ غَمًّا﴾ بِالْهَزِيمَةِ ﴿يَعْمُرُ﴾ بِسَبَبِ عَمَلِكُمُ الرَّسُولَ بِالْمُخَالَفَةِ، وَقِيلَ: الْبَاءُ بِمَعْنَى «عَلَى»، أَيِ: مُضَاعَفًا عَلَى غَمٍّ فَوَتْ الْغَنِيمَةَ ﴿لِكَيْلًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿عَفَا﴾، أَوْ بِ﴿أَتَابَكُمْ﴾، فَ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿تَحْزُنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الْقَتْلِ وَالْهَزِيمَةِ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً ﴿أَمَنَةً﴾ أَمَّنَا ﴿نُعَاسًا﴾ بَدَلُ ﴿يَغْشَى﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ ﴿طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْتَ الْحُجَفِ^(٣)، وَتَسْقُطُ السُّيُوفُ مِنْهُمْ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ أَيِ: حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْهَمِّ فَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ إِلَّا نَجَاتُهَا دُونَ النَّبِيِّ وَأَصْحَابِهِ فَلَمْ يَنَامُوا، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾ ظَنًّا ﴿غَيْرَ﴾ الظَّنِّ ﴿الْحَقِّ ظَنٌّ﴾ أَيِ: كَظَنِّ ﴿الْجَهْلِيَّةِ﴾ حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيَّ قَتِلَ أَوْ لَا يُنْصَرُ ﴿يَقُولُونَ هَلْ﴾ مَا ﴿لَنَا مِنَ الْأَمْرِ﴾ أَيِ: النَّصْرِ الَّذِي وَعَدَنَا^(٤) ﴿مِنْ شَيْءٍ قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ﴾ بِالنَّصْبِ تَوْكِيدًا، وَالرَّفْعُ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ: ﴿لِلَّهِ﴾ أَيِ: الْقَضَاءُ لَهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ﴾ يُظْهِرُونَ ﴿لَكَ يَقُولُونَ﴾ بَيَانٌ لِّمَا قَبْلَهُ ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ أَيِ: لَوْ كَانَ إِلَّا خِيَارًا إِلَيْنَا لَمْ نَخْرُجْ فَلَمْ نُقْتَلْ لَكِنْ أَخْرَجْنَا كَرَهَا ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْقَتْلَ ﴿لَبَرَزَ﴾ خَرَجَ ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ قُضِيَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ مِنْكُمْ ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ مَصَارِعِهِمْ فَيَقْتُلُوا، وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُودُهُمْ؛ لِأَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى كَائِنْ لَا مَحَالَةَ ﴿و﴾ فَعَلَ مَا فَعَلَ بِأَحَدٍ ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾ يَخْتَبِرُ ﴿اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قُلُوبِكُمْ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّفَاقِ ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾ يُمَيِّزُ ﴿مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِرَ لِلنَّاسِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ عَنِ الْقِتَالِ ﴿يَوْمَ﴾ أَلْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴿جَمْعُ الْمُسْلِمِينَ وَجَمْعُ الْكُفَّارِ بِأَحَدٍ﴾ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا ائْتَنِي عَشْرَ رَجُلًا ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلَهُمْ﴾ أَرْزَلَهُمُ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ بِوَسْوَستِهِ ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الذُّنُوبِ، وَهُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرِ النَّبِيِّ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿حَلِيمٌ﴾^(٥) لَا يُعَجِّلُ عَلَى الْعَصَا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أَيِ: فِي شَأْنِهِمْ ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ سَافَرُوا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فَمَاتُوا ﴿أَوْ كَانُوا غُرَى﴾ جَمْعُ غَارٍ، فَقُتِلُوا ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أَيِ: لَا تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ^(٦) ﴿لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الْقَوْلُ فِي عَاقِبَةِ

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤٦/٦)، وابن المنذر (١٠٧٢).

(٢) الْحَجَفُ: ضَرْبٌ مِنَ التَّرْسَةِ مَقَوَّرَةٌ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ، الْوَاحِدَةُ حَجَفَةٌ. [العين للرازيدي (٨٥/٣)].

(٣) لأنهم ظنوا أن إخوانهم لو كانوا عندهم لم يموتوا ولم يقتلوا، وهذا قول من لا يؤمن بالقدر والأجل المحتوم. [ابن جزي (١٦٨/١)].

أَمْرِهِمْ ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فَلَا يَمْنَعُ عَنِ الْمَوْتِ فُجُودٌ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿بَصِيرٌ﴾ ﴿١٥٦﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿فَقُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيِ: الْجِهَادِ ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَكَسْرِهَا مِنْ مَاتَ يَمُوتُ، وَيَمَاتُ، أَيِ: أَتَاكُمْ الْمَوْتُ فِيهِ ﴿لَمَغْفِرَةً﴾ كَائِنَةً ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَرَحْمَةً﴾ مِنْهُ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَاللَّامُ وَمَدْخُولُهَا جَوَابُ الْقَسَمِ، وَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْفِعْلِ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ ﴿١٥٧﴾ مِنَ الدُّنْيَا بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿مُتُّمْ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فِي الْجِهَادِ أَوْ غَيْرِهِ ﴿لَا إِلَى اللَّهِ﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ ﴿تُحْشَرُونَ﴾ ﴿١٥٨﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيَجَازِيكُمْ. ﴿فَبِمَا﴾ «مَا» زَائِدَةٌ ﴿رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَهُمْ﴾ أَيِ: سَهَّلْتَ أَخْلَاقَكَ إِذْ خَالَفُوكَ ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا﴾ سَيِّءَ الْأَخْلَاقِ ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ جَافِيًا فَأَغْلَظْتَ لَهُمْ ﴿لَا نَفْضُوا﴾ تَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾ فَاعْفُ ﴿تَجَاوَزْ﴾ عَنْهُمْ ﴿مَا أَتَوْهُ﴾ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴿ذَنْبُهُمْ﴾ حَتَّى أَغْفِرَ لَهُمْ ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ اسْتَخْرِجْ آرَاءَهُمْ ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أَيِ: شَأْنِكَ مِنَ الْحَرْبِ وَغَيْرِهِ، تَطْيِيبًا لِقُلُوبِهِمْ وَلِيَسْتَنَّ بِكَ، وَكَانَ ﷺ كَثِيرَ الْمُشَاوَرَةِ لَهُمْ ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عَلَى إِمْضَاءِ مَا تُرِيدُ بَعْدَ الْمُشَاوَرَةِ ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِقْ بِهِ لَا بِالْمُشَاوَرَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ﴿١٥٩﴾ عَلَيْهِ. ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ﴾ يُعِنُّكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ كَيَوْمِ بَدْرٍ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ ﴿يَتْرُكْ نَصْرَكُمْ كَيَوْمِ أُحُدٍ﴾ ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيِ: بَعْدَ خِذْلَانِهِ، أَيِ: لَا نَاصِرَ لَكُمْ ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لَا غَيْرِهِ ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ لِيَتَّقِ ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾. وَنَزَلَ لَمَّا فَقِدْتَ قَطِيفَةَ حِمَرَاءِ يَوْمَ بَدْرٍ فَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لَعَلَّ النَّبِيَّ أَخَذَهَا: ﴿وَمَا كَانَ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لِنَبِيِّ أَنْ يَغُلَّ﴾ يَخُونُ فِي الْغَنِيمَةِ فَلَا تَنْظُنُوا بِهِ ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيِ: أَنْ يُنْسَبَ إِلَى الْغُلُولِ ﴿وَمَنْ يَغُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ حَامِلًا لَهُ عَلَى عُنْقِهِ ﴿ثُمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ الْغَالُ وَغَيْرُهُ جَزَاءً ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمَلَتْ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ شَيْئًا. ﴿أَفَمِنْ أَتْبَعِ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فَأَطَاعَ وَلَمْ يَغُلْ ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾ رَجَعَ ﴿بِسَخِطِ﴾ مِنَ اللَّهِ ﴿لِمَعْصِيَتِهِ وَغُلُولِهِ﴾ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ؟ لَا. ﴿هُمْ دَرَجَتٌ﴾ أَيِ: أَصْحَابُ دَرَجَاتٍ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَيِ: مُخْتَلِفُو الْمَنَازِلِ، فَلِمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ الثَّوَابُ، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ الْعِقَابُ ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ فَيَجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيِ: عَرَبِيًّا مِثْلَهُمْ لِيَهْمُمُوا عَنْهُ وَيَشْرَفُوا بِهِ، لَا مَلَكًا وَلَا عَجَمِيًّا ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّةَ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيِ: إِنَّهُمْ ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ: قَبْلَ بَعْثِهِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١٦٤﴾ بَيْنَ. ﴿أَوَلَمَّْا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ بِأَحَدٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ مِنْكُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ بِبَدْرِ بِقَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْرِ سَبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قُلْتُمْ﴾ مُتَعَجِّبِينَ ﴿أَنَّى﴾ مِنْ أَيْنَ لَنَا ﴿هَذَا﴾ الْخِذْلَانِ، وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ وَرَسُولُ اللَّهِ فِينَا؟

وَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ لِأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ الْمَرْكَزَ فَخَذَلْتُمْ
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٦٥) وَمِنْهُ النَّصْرُ وَمَنْعُهُ وَقَدْ جَازَاكُمْ بِخِلَافِكُمْ. ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾
بِأَحَدٍ ﴿فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ (١) ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ اللَّهُ عِلْمَ ظُهُورِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٦٦) حَقًّا. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ الَّذِينَ
﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ لَمَّا انْصَرَفُوا عَنِ الْقِتَالِ، وَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابُهُ: ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَعْدَاءُهُ ﴿أَوْ
ادْفَعُوا﴾ عَنَّا الْقَوْمَ بِتَكْثِيرِ سَوَادِكُمْ إِنْ لَمْ تُقَاتِلُوا ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ﴾ نَحْسِنُ ﴿قِتَالًا لَا تَبْعَنَكُمْ﴾ قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ:
﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ بِمَا أَظْهَرُوا مِنْ خِذْلَانِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَكَانُوا قَبْلَ أَقْرَبُ إِلَى الْإِيمَانِ مِنْ
حَيْثُ الظَّاهِرِ ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وَلَوْ عَلِمُوا قِتَالًا لَمْ يَتَّبِعُواكُمْ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ (١٦٧)
مِنَ الْفَقَاحِ ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلُ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ أَوْ نَعْتُ ﴿قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ فِي الدِّينِ ﴿و﴾ قَدْ ﴿قَعَدُوا﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿لَوْ
أَطَاعُونَا﴾ أَيُّ: شُهَدَاءُ أَحَدٍ أَوْ إِخْوَانُنَا فِي الْقُعُودِ ﴿مَا قَاتِلُوا قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿فَادْرُءُوا﴾ اذْفَعُوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٦٨) فِي أَنَّ الْقُعُودَ يُنْجِي مِنْهُ. وَنَزَلَ فِي الشُّهَدَاءِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا﴾ بِالَّتَخْفِيفِ وَالشَّدِيدِ
﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لِأَجْلِ دِينِهِ ﴿أَمْوَاتًا بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَرْوَاحُهُمْ فِي حَوَاصِلِ طُيُورٍ خُضِرَ تَسْرُحُ
فِي الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ (٢) ﴿يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) يَأْكُلُونَ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ. ﴿فَرِحِينَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ
﴿يُرْزَقُونَ﴾، ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَهُمْ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يَفْرَحُونَ ﴿بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾
مِنْ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُبَدِّلُ مِنَ «الَّذِينَ»: ﴿أَنْ، أَيُّ: بِأَنَّ﴾ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ ﴿أَيُّ: الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (١٧٠) فِي الْآخِرَةِ، الْمَعْنَى: يَفْرَحُونَ بِأَمْنِهِمْ وَفَرَحِهِمْ. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾ ثَوَابٍ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾
زِيَادَةٍ عَلَيْهِ ﴿وَأَنَّ﴾ بِالْفَتْحِ عَطْفًا عَلَى «نِعْمَةٍ»، وَبِالْكَسْرِ اسْتِنَافًا ﴿اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١) بَلْ يَأْجُرُهُمْ.
﴿الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿أَسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ دُعَاؤُهُ بِالْخُرُوجِ لِلْقِتَالِ، لَمَّا أَرَادَ أَبُو سُفْيَانَ وَأَصْحَابُهُ الْعُودَ وَتَوَاعَدُوا مَعَ
النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ سُوقَ بَدْرِ الْعَامِ الْمُقْبِلِ مِنْ يَوْمٍ أَحَدٍ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ بِأَحَدٍ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: ﴿لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَاتَّقُوا﴾ مُخَالَفَتَهُ ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢) هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلُ مِنَ ﴿الَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ، أَوْ نَعْتُ
﴿قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ أَيُّ: نَعِيمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ أَبَا سُفْيَانَ وَأَصْحَابَهُ ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الْجُمُوعَ

(١) أي: فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعة منكم وجراحتهم لآخرين، كان بقضاء الله وقدره، وله الحكمة في ذلك. [ابن كثير (٢/١٥٩)].

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

لَيْسَتْ صَلَوكُمْ ﴿فَأَخْشَوْهُمْ﴾ وَلَا تَأْتَوْهُمْ ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذَلِكَ الْقَوْلُ ﴿إِيْمَانًا﴾ تَصَدِّقًا بِاللَّهِ وَيَقِينًا ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾
كَافِينَا أَمْرُهُمْ ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿١٧٢﴾ الْمَفْوضُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ هُوَ، وَخَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَوَافُوا سُوقَ بَدْرٍ وَأَلْقَى اللَّهُ الرُّعْبَ
فِي قَلْبِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ فَلَمْ يَأْتُوا، وَكَانَ مَعَهُمْ تِجَارَاتٌ فَبَاعُوا وَرَبِحُوا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ رَجَعُوا مِنْ
بَدْرٍ ﴿بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ بِسَلَامَةٍ وَرَبِحَ﴾ ﴿لَمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ﴾ مِنْ قَتْلِ، أَوْ جَرْحٍ ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ بِطَاعَتِهِ
وَطَاعَةِ رَسُولِهِ فِي الْخُرُوجِ ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٧٤﴾ عَلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ أَي: الْقَائِلُ لَكُمْ: ﴿إِنَّ
النَّاسَ﴾ إِلَى آخِرِهِ ﴿الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ﴾ كُمْ ﴿أَوْلِيَآءُهُ﴾ الْكُفَّارَ ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ﴾ فِي تَرْكِ أَمْرِي ﴿إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ حَقًّا. ﴿وَلَا يُحْزِنُكَ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَكَسْرِ الزَّايِ وَبِفَتْحِهَا، وَضَمُّ الزَّايِ مِنْ «حَزَنَهُ» لُغَةً فِي أَحْزَنَهُ ﴿الَّذِينَ
يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يَقْعُونَ فِيهِ سَرِيعًا بِنُصْرَتِهِ وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ، أَوْ الْمُنَافِقُونَ، أَي: لَا تَهْتَمَّ لِكُفْرِهِمْ ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوْا
اللَّهَ شَيْئًا﴾ يَفْعَلُهُمْ وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا﴾ نَصِيًّا ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أَي: الْجَنَّةِ؛ فَلِذَلِكَ
خَذَلَهُمْ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٦﴾ فِي النَّارِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيْمَانِ﴾ أَي: أَخَذُوهُ بِدَلَّةٍ ﴿لَن يَضُرُّوْا
اللَّهَ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٧٧﴾ مُؤْلَمٌ. ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ﴾ أَي:
إِمْلَأْنَا ﴿لَهُمْ﴾ بِطَوِيلِ الْأَعْمَارِ وَتَأْخِيرِهِمْ ﴿خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ﴾ وَ«أَنَّ» وَمَعْمُولًا هَا سَدَّتْ مَسَدَ الْمَفْعُولَيْنِ فِي قِرَاءَةِ
التَّحْتَانِيَّةِ، وَمَسَدَ الثَّانِي فِي الْآخَرَى ﴿إِنَّمَا نُمِلُّ﴾ نُمِلُ لَّهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ
﴾ ﴿١٧٨﴾ ذُو إِهَانَةٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ﴾ لِيَتْرَكَ ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ﴾ أَيَّهَا النَّاسُ ﴿عَلَيْهِ﴾ مِنْ اخْتِلَاطِ
الْمُخْلِصِ بغيرِهِ ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، يَفْصِلُ ﴿الْحَبِيثَ﴾ الْمُنَافِقَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الْمُؤْمِنِ، بِالتَّكَالُفِ
الشَّاقَّةِ الْمُبِينَةِ لِذَلِكَ، فَفَعَلَ ذَلِكَ يَوْمَ أُحُدٍ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فَتَعَرَّفُوا الْمُنَافِقَ مِنْ غَيْرِهِ قَبْلَ التَّمْيِيزِ
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُجْتَبَى﴾ يَخْتَارُ ﴿مِنْ رَسُولِهِ﴾ مَنْ يَشَاءُ ﴿فَيُطْلِعُهُ عَلَى غَيْبِهِ﴾ كَمَا أَطْلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى حَالِ الْمُنَافِقِينَ
﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا﴾ النَّفَاقَ ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿الَّذِينَ
يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: بِزَكَاتِهِ ﴿هُوَ﴾ أَي: بُخْلُهُمْ ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ وَالضَّمِيرُ لِلْفَضْلِ،
وَالْأَوَّلُ «بُخْلُهُمْ» مُقَدَّرًا قَبْلَ الْمَوْصُولِ عَلَى الْفَوْقَانِيَّةِ، وَقَبْلَ الضَّمِيرِ عَلَى التَّحْتَانِيَّةِ ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا
بَخُلُوا بِهِ﴾ أَي: بِزَكَاتِهِ مِنَ الْمَالِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بَأَن يُجْعَلَ حَيَّةً فِي عُنُقِهِ تَنْهَشُهُ كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ^(١) ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ

(١) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَلَمْ يُوَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَيْبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِهِ زَمِيهٌ،

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿يَرِثُهُمَا بَعْدَ فَنَاءِ أَهْلِهِمَا﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بِالْبَاءِ وَالْيَاءِ ﴿خَبِيرٌ ١٨٠﴾ ﴿فَيَجَازِيكُمْ بِهِ﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴿وَهُمُ الْيَهُودُ قَالُوهُ لَمَّا نَزَلَ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وَقَالُوا لَوْ كَانَ غَنِيًّا مَا اسْتَقْرَضْنَا ﴿سَنَكْتُبُ﴾ نَأْمُرُ بِكُتُبِ ﴿مَا قَالُوا﴾ فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةِ بَالِيَاءٍ مُبَيَّنًّا لِلْمَفْعُولِ ﴿و﴾ نَكْتُبُ ﴿قَتَلَهُمْ﴾ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ ﴿الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَي: اللَّهُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ١٨١﴾ النَّارَ. وَيُقَالُ لَهُمْ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا: ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ ﴿بِمَا قَدَّمْتُمْ أُيْدِيكُمْ﴾ عَبَّرَ بِهَا عَنِ الْإِنْسَانِ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَزَاوُلَ بِهَا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ﴾ أَي: بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِّلْعَبِيدِ ١٨٢﴾ فَيَعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. ﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ لَ ﴿الَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالُوا﴾ لِمُحَمَّدٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ قَدْ ﴿عٰهَدَ الْبَيْنَا﴾ فِي التَّوْرَةِ ﴿أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ﴾ نَصَدَّقَهُ ﴿حَتَّى يَأْتِيََنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فَلَا نُؤْمِنُ لَكَ حَتَّى تَأْتِيَنا بِهِ، وَهُوَ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ مِنْ نَعَمٍ وَغَيْرِهَا، فَإِنْ قَبِلَ جَاءَتْ نَارٌ بِيَضَاءٍ مِنَ السَّمَاءِ فَأَحْرَقَتْهُ، وَإِلَّا بَقِيَ مَكَانَهُ، وَعُهِدَ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْمَسِيحِ وَمُحَمَّدٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ تَوْبِيحًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ كَرَكْرِيًا وَيَحْيَى فَقَتَلْتُمُوهُمْ، وَالْخَطَابُ لِمَنْ فِي زَمَنِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ لِأَجْدَادِهِمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٨٣﴾ فِي أَنْكُمْ تُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْإِتْيَانِ بِهِ. ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَالْكِتَابِ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بِإِثْبَاتِ الْبَاءِ فِيهِمَا ﴿الْمُنِيرِ ١٨٤﴾ الْوَاضِحُ، هُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا. ﴿كُلْ نَفْسٌ ذَا ذِيقَةٍ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ﴾ جَزَاءُ أَعْمَالِكُمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَحَ﴾ بَعْدَ ﴿عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ نَالَ غَايَةَ مَطْلُوبِهِ ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: الْعَيْشُ فِيهَا ﴿إِلَّا مَتَعٌ الْغُرُورِ ١٨٥﴾ الْبَاطِلُ يَتَمَتَّعُ بِهِ قَلِيلًا ثُمَّ يَفْنَى. ﴿لَسُبُّونَ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ: لَتَخْتَبِرَنَّ ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ بِالْفَرَائِضِ فِيهَا وَالْجَوَائِحِ ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ بِالْعِبَادَاتِ وَالْبَلَاءِ ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مِنَ الْعَرَبِ ﴿أَذَى كَثِيرًا﴾ مِنَ السَّبِّ وَالطَّعْنِ وَالتَّشْيِيبِ

يَعْنِي شِدْقَهُ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَثْرَكَ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ الْآيَةَ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٤٥٣).

(١) إِضَافَةُ الْكِتَابَةِ إِلَيْهِ سَبْحَانَهُ؛ لِأَن جُنُودَهُ يَكْتُبُونَ ذَلِكَ، وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ

يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]. [ابن عثيمين تفسير آل عمران (٢/٤٩١)].

بِنَسَائِكُمْ ﴿وَإِنْ نَصَبُوا﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللَّهَ ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ﴿١٨٦﴾ أَي: مِنْ مَعَزُومَاتِهَا الَّتِي يُعَزَّمُ عَلَيْهَا لَوْ جُوبِهَا. ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أَي: الْعَهْدَ عَلَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ ﴿لَيُبَيِّنَنَّ﴾ أَي: الْكِتَابَ ﴿لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ﴾ أَي: الْكِتَابَ بِالْيَأْ وَالنَّاءِ بِالْفَعْلَيْنِ ﴿فَتَبَذُوهُ﴾ طَرَحُوا الْمِيثَاقَ ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ أَخَذُوا بِدَلَّةِ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ سَفَلَتِهِمْ بِرِيَاسَتِهِمْ فِي الْعِلْمِ، فَكَتَمُوهُ خَوْفَ قُوَّتِهِ عَلَيْهِمْ ﴿فَبَيْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ شَرَاؤُهُمْ هَذَا. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَأْ ﴿الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ فَعَلُوا مِنْ إِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالْحَقِّ وَهُمْ عَلَى ضَلَالٍ ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ تَأْكِيدٌ ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بِمَكَانٍ يَنْجُونَ فِيهِ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ فِي الْآخِرَةِ، بَلْ هُمْ فِي مَكَانٍ يُعَذَّبُونَ فِيهِ وَهُوَ جَهَنَّمُ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٨٨﴾ مُؤَلَّمٌ فِيهَا، وَمَفْعُولٌ «يَحْسَبُ» الْأُولَى دَلٌّ عَلَيْهِمَا مَفْعُولًا الثَّانِيَّةَ عَلَى قِرَاءَةِ التَّحْتَايَةِ، وَعَلَى الْفَوْقَايَةِ حَذَفَ الثَّانِي فَقَطْ. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٨٩﴾ وَمِنْهُ تَعَذِيبُ الْكَافِرِينَ وَإِنجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بِالْمَجْيَاءِ وَالذَّهَابِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ﴿لَايَتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لَا وَلِيَ الْآلْبَابِ﴾ ﴿١٩٠﴾ لِذَوِي الْعُقُولِ. ﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ لِمَا قَبْلَهُ أَوْ بَدَلٌ ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ مُضْطَجِعِينَ، أَي: فِي كُلِّ حَالٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: يُصَلُّونَ كَذَلِكَ حَسَبَ الطَّاقَةِ. ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لِيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى قُدْرَةِ صَانِعِهِمَا، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الْخَلْقَ الَّذِي نَرَاهُ ﴿بَطِلًا﴾ حَالًا، عَبَثًا بَلْ دَلِيلًا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِكَ ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تَزَيُّهَا لَكَ عَنِ الْعَبَثِ ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ لِلْخُلُودِ فِيهَا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أَهْتَهُ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ، فِيهِ وَضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ إِشْعَارًا بِتَخْصِيصِ الْخِزْيِ بِهِمْ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَنْصَارٍ﴾ ﴿١٩٢﴾ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي﴾ يَدْعُو النَّاسَ ﴿لِلْإِيمَنِ﴾ أَي: إِلَيْهِ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ أَوْ الْقُرْآنُ ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ بِهِ ﴿رَبَّنَا فَاعْفُ رُبَّنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ﴾ عَطَّ ﴿عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ فَلَا تُظْهِرْهَا بِالْعِقَابِ عَلَيْهَا ﴿وَتَوَقَّنَا﴾ اقْبِضْ أَرْوَاحَنَا ﴿مَعَ﴾ فِي جُمْلَةِ ﴿الْأَبْرَارِ﴾ ﴿١٩٣﴾ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ. ﴿رَبَّنَا وَعَاتِنَا﴾ أَعْطِنَا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ بِهِ ﴿عَلَىٰ﴾ أَلْسِنَةِ ﴿رُسُلِكَ﴾ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ، وَسُؤَالُهُمْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ وَعْدُهُ تَعَالَى لَا يُخْلَفُ، سُؤَالٌ أَنْ يَجْعَلَهُمْ مِنْ مُسْتَحِقِّهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتَّقُوا اسْتِحْقَاقَهُمْ لَهُ، وَتَكَرَّرُ ﴿رَبَّنَا﴾ مُبَالِغَةً فِي التَّضَرُّعِ ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ﴿١٩٤﴾ الْوَعْدَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دُعَاءَهُمْ ﴿أَنِّي﴾ أَي: بِأَنِّي ﴿لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ﴾

مِّنْكُمْ مَّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ ۖ كَآئِنٌ ﴿مِّنْ بَعْضٍ﴾ أَي: الذُّكُورُ مِنَ الْإِنَاثِ وَبِالْعَكْسِ، وَالْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا، أَي: هُمْ سَوَاءٌ فِي الْمَجَازَةِ بِالْأَعْمَالِ وَتَرَكِ تَضْيِيعَهَا، نَزَلَتْ لَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَا أَسْمَعُ ذِكْرَ النِّسَاءِ فِي الْهَجْرَةِ بَشْيٍ^(١) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَوْدُوا فِي سَبِيلِ﴾ دِينِي ﴿وَقَتْلُوا﴾ الْكُفَّارَ ﴿وَقُتِلُوا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَقْدِيمِهِ ﴿لَا تُكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أَسْتَرَهَا بِالْمَغْفِرَةِ ﴿وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا﴾ مَصْدَرٌ مِنْ مَعْنَى ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾، مُؤَكَّدٌ لَهُ ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ التَّكَلُّمِ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١٩٥) الْجَزَاءُ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْمُسْلِمُونَ: «أَعْدَاءُ اللَّهِ فِيمَا نَرَى مِنْ الْخَيْرِ وَنَحْنُ فِي الْجَهْدِ»: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تَصَرُّفُهُمْ ﴿فِي الْبَلَدِ﴾^(١٩٦) بِالتَّجَارَةِ وَالْكَسْبِ. هُوَ ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ يَسِيرًا فِي الدُّنْيَا وَيَفْنَى ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾^(١٩٧) الْفِرَاشُ هِيَ. ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ أَي: مُقَدَّرِينَ بِالْخُلُودِ ﴿فِيهَا نُزُلًا﴾ وَهُوَ مَا يُعَدُّ لِلْضَّيْفِ، وَنُصِبُهُ عَلَى الْحَالِ مِنْ ﴿جَنَّتٍ﴾ وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الظَّرْفِ ﴿مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنْ الثَّوَابِ ﴿خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾^(١٩٨) مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا. ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ، وَالنَّجَاشِيِّ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿خَاشِعِينَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُؤْمِنُ﴾ مُرَاعَى فِيهِ مَعْنَى «مَنْ»، أَي: مُتَوَاضِعِينَ ﴿لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مِنْ نِعَتِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا بَأَن يَكْتُمُوهَا خَوْفًا عَلَى الرِّيَاسَةِ كِفْعَلٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الْيَهُودِ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يُؤْتَوْنَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا فِي «الْقَصَصِ»^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(١٩٩) يُحَاسِبُ الْخَلْقَ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا^(٤). ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا﴾ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْمَصَائِبِ وَعَنِ الْمَعَاصِي ﴿وَصَابِرُوا﴾ الْكُفَّارَ فَلَا يَكُونُوا أَشَدَّ صَبْرًا مِنْكُمْ ﴿وَرَابِطُوا﴾ أَقِيمُوا عَلَى الْجِهَادِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢٠٠) تَفُوزُونَ بِالْجَنَّةِ وَتَنْجُونَ مِنَ النَّارِ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٢٣)، والحاكم (٣٢٨ / ٢)، والطبراني في الكبير (٦٥١).

(٢) الآيات (٥٠-٥٥) من سورة القصص.

(٣) راجع التعليق على آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

سُورَةُ النِّسَاءِ

مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَخَمْسُ أَوْ سِتُّ أَوْ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ^(١) ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ أَيُّ: عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدَمَ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَاءَ بِالْمَدِّ، مِنْ ضِلْعٍ مِنْ أَضْلَاعِهِ الْيُسْرَى^(٢) ﴿وَبَثَّ﴾ فَرَّقَ وَشَرَّ ﴿مِنْهُمَا﴾ مِنْ آدَمَ وَحَوَاءَ ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ كَثِيرَةً ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ اللَّتَاءِ فِي الْأَصْلِ فِي السَّيْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّخْفِيفِ بِحَذْفِهَا، أَيُّ: «تَسَاءَلُونَ» ﴿بِهِ﴾ فِيمَا بَيْنَكُمْ، حَيْثُ يَقُولُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ: «أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ»، وَ «أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ» ﴿و﴾ وَاتَّقُوا ﴿الْأَرْحَامَ﴾ أَنْ تَقْطَعُوهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْجَرِّ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي ﴿بِهِ﴾، وَكَانُوا يَتَنَاشَدُونَ بِالرَّحِمِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِكُمْ فَيَجَازِيكُمْ بِهَا، أَيُّ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ^(٣). وَنَزَلَ فِي يَتِيمٍ طَلَبَ مِنْ وَلِيِّهِ مَالَهُ فَمَنَعَهُ: ﴿وَعَاتُوا الْيَتَامَى﴾ الصَّغَارَ الَّذِينَ لَا أَبَ لَهُمْ ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾ إِذَا بَلَغُوا ﴿وَلَا تَتَّبَدَّلُوا الْخَبِيثَ﴾ الْحَرَامَ ﴿بِالطَّيِّبِ﴾ الْحَلَالِ، أَيُّ: تَأْخُذُوهُ بِدَلْهِ كَمَا تَفْعَلُونَ، مِنْ أَخَذِ الْجَيِّدِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَجَعَلَ الرَّدِيءَ مِنْ مَالِكُمْ مَكَانَهُ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ مَضْمُومَةً ﴿إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ﴾ أَيُّ: أَكَلَهَا ﴿كَانَ حُوبًا﴾ ذَنْبًا ﴿كَبِيرًا ۝٢﴾ عَظِيمًا. وَلَمَّا نَزَلَتْ تَحَرَّجُوا مِنْ وَلَايَةِ الْيَتَامَى، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ تَحْتَهُ الْعُشْرُ أَوْ الثَّمَانِ مِنَ الْأَزْوَاجِ فَلَا يَعْدِلُ بَيْنَهُنَّ فَتَزَلَّ^(٤): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ تَعَدَّلُوا ﴿فِي الْيَتَامَى﴾ فَتَحَرَّجْتُمْ مِنْ أَمْرِهُمْ، فَخَافُوا أَيْضًا أَنْ لَا

(١) المراد بهم الموجودون عند الخطاب من بني آدم وهم أهل مكة، ويدخل فيه من سيوجد بدليل خارجي وهو الإجماع على أنهم مكلفون بما كلف به الموجودون. [صديق حسن (٩/٣)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ فَإِنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِنْ ضِلْعٍ». أخرجه البخاري (٥١٨٥)، ومسلم (١٤٦٨).

(٣) أي: هو مراقب لجميع أعمالكم وأحوالكم، كما قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩]. [ابن كثير (٢/٢٠٦)].

(٤) وجه ارتباط الجزاء بالشرط أن الرجل كان يكفل اليتيمة لكونه ولياً لها ويريد أن يتزوجها فلا يقسط لها في مهرها، أي: لا يعدل فيه ولا يعطيها ما يعطيها غيره من الأزواج، فنهاهم الله أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى ما هو لهن من الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. فهذا سبب نزول الآية فهو نهي يخص هذه الصورة، قال جماعة من السلف إن هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام من أن للرجل أن يتزوج من الحرائر ما يشاء فقصرهم بهذه الآية على أربع، فيكون وجه ارتباط الجزاء بالشرط أنهم إذا خافوا أن لا يقسطوا في اليتامى فكذلك يخافون أن لا يقسطوا في النساء، لأنهم كانوا يتخرجون في اليتامى ولا يتخرجون في النساء ...

تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ إِذَا نَكَحْتُمُوهُنَّ ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾ تَزْوِجُوا ﴿مَا﴾ بِمَعْنَى مَنْ ﴿طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْلِي وَثَلَاثَ وَرُبْعٍ﴾ أَيِ: اثْنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثًا ثَلَاثًا وَأَرْبَعًا أَرْبَعًا، وَلَا تَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ فِيهِنَّ بِالنَّفَقَةِ وَالْقِسْمِ ﴿فَوَاحِدَةً﴾ انكِحُوهَا ﴿أَوْ﴾ اقْتَصِرُوا عَلَى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ، إِذْ لَيْسَ لَهُنَّ مِنَ الْحُقُوقِ مَا لِلزَّوْجَاتِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ: نِكَاحِ الْأَرْبَعِ فَقَطْ أَوْ الْوَاحِدَةِ أَوْ التَّسْرِي ﴿أَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ ٣ ﴿تَجَوَّرُوا.﴾
﴿وَأَتُوا﴾ أَعْطُوا ﴿النِّسَاءَ صَدَقَتِهِنَّ﴾ جَمْعُ صَدَقَةٍ، مُهُورُهُنَّ ﴿نَحْلَةً﴾ مَصْدَرٌ، عَطِيَّةٌ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ تَمَيِّزُ مُحَوَّلٍ عَنِ الْفَاعِلِ، أَيِ: طَابَتْ أَنْفُسُهُنَّ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الصَّدَاقِ فَوَهَبَهُ لَكُمْ ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا﴾ طَيِّبًا ﴿مَرِيئًا﴾ ٤ ﴿مَحْمُودَ الْعَاقِبَةِ لَا ضَرَرَ فِيهِ عَلَيْكُمْ فِي الْآخِرَةِ، نَزَلَتْ رَدًّا عَلَى مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ.﴾
﴿وَلَا تُؤْتُوا﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿السُّفَهَاءَ﴾ الْمُبْدَرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالصَّبِيَّانِ ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ أَيِ: أَمْوَالَهُمُ الَّتِي فِي أَيْدِيكُمْ ﴿الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ مَصْدَرٌ: قَامَ، أَيِ: تَقُومُ بِمَعَاشِكُمْ وَصَلَاحِ أَوْدِكُمْ، فَيَضَعُوهَا فِي غَيْرِ وَجْهِهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قِيَمًا﴾ جَمْعُ قِيَمَةٍ مَا يَقُومُ بِهِ الْأَمْتَعَةُ ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ أَيِ: أَطْعِمُوهُمْ مِنْهَا ﴿وَأَكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ٥ ﴿عُدُوهُمْ عِدَّةً جَمِيلَةً بِإِعْطَائِهِمْ أَمْوَالَهُمْ إِذَا رَشَدُوا.﴾ ﴿وَابْتَلُوا﴾ اخْتَبِرُوا ﴿الْيَتَامَى﴾ قَبْلَ الْبُلُوغِ فِي دِينِهِمْ وَتَصَرُّفِهِمْ فِي أَحْوَالِهِمْ ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ﴾ أَيِ: صَارُوا أَهْلًا لَهُ بِالْإِحْتِلَامِ، أَوِ السِّنِّ وَهُوَ اسْتِكْمَالُ خَمْسَ عَشْرَةِ سَنَةً عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ١١ ﴿فَإِنْ عَانَسْتُمْ﴾ أَبْصَرْتُمْ ﴿مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ صَلَحًا فِي دِينِهِمْ وَمَالِهِمْ ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿إِسْرَافًا﴾ بِغَيْرِ حَقٍّ، حَالٌ ﴿وَبِدَارًا﴾ أَيِ: مُبَادِرِينَ إِلَى إِنْفَاقِهَا مَخَافَةَ ﴿أَنْ يَكْبُرُوا﴾ رُشْدَاءَ فَيَلْزِمُكُمْ تَسْلِيمُهَا إِلَيْهِمْ ﴿وَمَنْ كَانَ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ﴾ غَنِيًّا فَلْيَسْتَغْفِرْ ١٢ ﴿أَيِ: يَعْفَ عَنْ مَالِ الْيَتِيمِ وَيَمْتَنِعَ مِنْ أَكْلِهِ﴾ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ ١٣ مِنْهُ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ أُجْرَةِ عَمَلِهِ ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيِ: إِلَى الْيَتَامَى ﴿أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ﴾ أَنَّهُمْ تَسَلَّمُوهَا وَبَرَأْتُمْ، لِئَلَّا يَقَعَ اخْتِلَافٌ فَتَرْجِعُوا إِلَى الْيَتِيمَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ إِشَادٌ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿حَسِيبًا﴾ ١٤ حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ وَمُحَاسِبُهُمْ. وَنَزَلَ رَدًّا لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْجَاهِلِيَّةُ مِنْ عَدَمِ تَوْرِيثِ النِّسَاءِ وَالصِّغَارِ: ﴿لِلرِّجَالِ﴾ الْأَوْلَادِ وَالْأَقْرَبَاءِ ﴿نَصِيبٌ﴾ حِظٌّ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾

والمعنى: من غلب على ظنه التقصير في العدل لليتيمة فليتركها وينكح غيرها. [صديق حسن (١٤/٣)].

(١) الرشد: هو المعرفة بمصالحه وتدابيره، وإن لم يكن من أهل الدين، واشترط قوم الدين، واعتبر مالك البلوغ والرشد، وحيث يدفع

المال، واعتبر أبو حنيفة البلوغ وحده ما لم يظهر سفه، وقوله مخالف للقرآن. [ابن جزي (١/١٧٩)].

الْمُتَوَفَّوْنَ ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ﴾ أَي: الْمَالِ ﴿أَوْ كَثُرَ﴾ جَعَلَهُ اللَّهُ ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ ﴿٧﴾ مَقْطُوعًا بِتَسْلِيمِهِ إِلَيْهِمْ. ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ لِلْمِيرَاثِ ﴿أُولُوا الْقُرْبَى﴾ ذَوُو الْقَرَابَةِ مِمَّنْ لَا يَرِثُ ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ شَيْئًا قَبْلَ الْقِسْمَةِ ﴿وَقُولُوا﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ ﴿لَهُمْ﴾ إِذَا كَانَ الْوَرِثَةُ صِغَارًا ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ﴿٨﴾ جَمِيلًا، بِأَنْ تَعْتَذِرُوا إِلَيْهِمْ أَنْكُمْ لَا تَمْلِكُونَهُ وَأَنْتُمْ لِلصِّغَارِ، وَهَذَا قِيلَ: إِنَّهُ مُسَوَّخٌ، وَقِيلَ: لَا، وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاسُ فِي تَرْكِهِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ نَذْبٌ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَاجِبٌ. ﴿وَلْيَخْشَ﴾ أَي: لِيَخَفْ عَلَى الْيَتَامَى ﴿الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا﴾ أَي: قَارِبُوا أَنْ يَتْرُكُوا ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَي: بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿ذُرِّيَّةً ضِعَفًا﴾ أَوْلَادًا صِغَارًا ﴿خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ الضِّيَاعَ ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِ الْيَتَامَى، وَلْيَأْتُوا إِلَيْهِمْ مَا يُحِبُّونَ أَنْ يُفْعَلَ بِذُرِّيَّتِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ لِلْمَيِّتِ ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٩﴾ صَوَابًا، بِأَنْ يَأْمُرُوهُ أَنْ يَتَصَدَّقَ بِدُونِ ثَلَاثِهِ، وَيَدَعَ الْبَاقِيَ لَوَرِثَتِهِ وَلَا يَتْرُكْهُمْ عَالَةً^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا﴾ أَي: بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ﴾ أَي: مِلَأَهَا ﴿نَارًا﴾ لِأَنَّهُ يُؤَوَّلُ إِلَيْهَا ﴿وَسَيَصْلُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ: يَدْخُلُونَ ﴿سَعِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ نَارًا شَدِيدَةً يَحْتَرِفُونَ فِيهَا. ﴿يُوصِيكُمُ﴾ يَأْمُرُكُمْ ﴿اللَّهُ فِي﴾ شَأْنِ ﴿أَوْلَادِكُمْ﴾ بِمَا يُذَكَّرُ ﴿لِلذَّكَرِ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِثْلَ حَظِّ﴾ نَصِيبِ ﴿الْأُنثَيَيْنِ﴾ إِذَا اجْتَمَعَتَا مَعَهُ، فَلَهُ نِصْفُ الْمَالِ وَلَهُمَا النِّصْفُ، فَإِنْ كَانَ مَعَهُ وَاحِدَةٌ فَلَهَا الثُّلُثُ وَلَهُ الثُّلُثَانِ، وَإِنْ انفردَ حَازَ الْمَالُ ﴿فَإِنْ كُنَّ﴾ أَي: الْأَوْلَادُ ﴿نِسَاءً﴾ فَقَطْ ﴿فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِمَّا تَرَكَ﴾ الْمَيِّتُ، وَكَذَا الْإِثْنَانِ لِأَنَّهُ لِلْأُخْتَيْنِ، بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ فَهُمَا أُولَى، وَلَئِنْ أَلْبَنَتْ تَسْتَحِقُّ الثُّلُثَ مَعَ الذَّكَرِ فَمَعَ الْأُنثَى أُولَى، وَ﴿فَوْقَ﴾ قِيلَ: صِلَةٌ، وَقِيلَ: لِدَفْعِ تَوَهُمِ زِيَادَةِ النَّصِيبِ بِزِيَادَةِ الْعَدَدِ، لَمَّا فَهِمَ اسْتِحْقَاقُ الثَّلاثَيْنِ الثُّلُثَيْنِ مِنْ جَعْلِ الثُّلُثِ لِلوَاحِدَةِ مَعَ الذَّكَرِ ﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ الْمَوْلُودَةُ ﴿وَاحِدَةً﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فَ «كَانَ» تَامَةً ﴿فَلَهَا النِّصْفُ وَلَا بُؤْيُوهُ﴾ أَي: الْمَيِّتُ، وَيُبْدَلُ مِنْهُمَا ﴿لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى، وَنُكْتَةُ الْبَدَلِ إِفَادَةُ أَنَّهُمَا لَا يَشْتَرِكَانِ فِيهِ، وَالْحَقُّ بِالْوَلَدِ وَلَدُ الْإِبْنِ، وَبِالْأَبِ الْجَدُّ ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ﴾ فَقَطْ أَوْ مَعَ زَوْجٍ ﴿فَلِأُمِّهِ﴾ بِضَمِّ الْأَهْمَزَةِ وَكُسْرِهَا، فِرَارًا مِنَ الْإِنْتِقَالِ مِنْ ضَمَّةٍ إِلَى كُسْرَةٍ لِثِقَلِهِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿الْثُلُثُ﴾ أَي: ثُلُثُ الْمَالِ أَوْ مَا يَبْقَى

(١) الناس صنفان: ... الرجل إذا ترك ورثة مستقلين بأنفسهم أغنياء حسن أن يندب إلى الوصية، ويحمل على أن يقدم لنفسه، وإذا ترك ورثة ضعفاء مقبلين حسن أن يندب إلى الترك لهم والاحتياط، فإن أجره في قصد ذلك كأجره في المساكين، فالمرامى إنما هو الضعفاء، فيجب أن يمال معه. [ابن عطية (١٣/٢)].

بَعْدَ الزَّوْجِ، وَالْبَاقِي لِلْأَبِ ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ أَي: ائْتَانِ فَصَاعِدًا ذُكُورًا أَوْ إِنَاثًا ﴿فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ وَالْبَاقِي لِلْأَبِ وَلَا شَيْءَ لِلْإِخْوَةِ، وَإِثْرُ مَنْ ذَكَرَ مَا ذَكَرَ ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ تَفْهِيدِ ﴿وَصِيَّةِ يُوْصِي﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿بِهَا أَوْ﴾ قَضَاءِ ﴿دَيْنٍ﴾ عَلَيْهِ وَتَقْدِيمِ الْوَصِيَّةِ عَلَى الدَّيْنِ وَإِنْ كَانَتْ مُؤَخَّرَةً عَنْهُ فِي الْوَفَاءِ لِلْإِهْتِمَامِ بِهَا ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَظَانُّ أَنْ إِنَّهُ أَنْفَعُ لَهُ فَيُعْطِيهِ الْمِيرَاثَ فَيَكُونُ الْأَبُ أَنْفَعُ، وَبِالْعَكْسِ، وَإِنَّمَا الْعَالَمُ بِذَلِكَ هُوَ اللَّهُ، فَفَرَضَ لَكُمْ الْمِيرَاثَ ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ ﴿فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ﴾، أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ مِنْكُمْ أَوْ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوْصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وَالْحَقُّ بِالْوَلَدِ فِي ذَلِكَ وَلَدُ الْإِبْنِ بِالْإِجْمَاعِ ﴿وَلَهُنَّ﴾ أَي: الزَّوْجَاتِ تَعَدَّدْنَ أَوْ لَا ﴿الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ مِنْهُنَّ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِنَّ ﴿فَلَهُنَّ الشُّمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ وَوَلَدُ الْإِبْنِ فِي ذَلِكَ كَالْوَلَدِ إِجْمَاعًا ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ﴾ صِفَةً، وَالْخَبَرُ: ﴿كَلَالَةً﴾ أَي: لَا وَالِدَ لَهُ وَلَا وَلَدَ ﴿أَوْ أَمْرَأَةً﴾ تُوْرَثُ كَلَالَةً ﴿وَلَهُ﴾ أَي: الْمُوْرَثُ الْكَلَالَةُ ﴿أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾ أَي: مِنْ أُمٍّ، وَقَرَأَ بِهِ ابْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُ^(١) ﴿فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ مِمَّا تَرَكَ ﴿فَإِنْ كَانُوا﴾ أَي: الْإِخْوَةُ وَالْأَخَوَاتُ مِنَ الْأُمِّ ﴿أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أَي: مِنْ وَاحِدٍ ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلْثِ﴾ يَسْتَوِي فِيهِ ذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوْصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يُوْصِي﴾، أَي: غَيْرِ مُدْخِلٍ الضَّرَرَ عَلَى الْوَرَثَةِ، بَأَنْ يُوْصِيَ بِأَكْثَرِ مِنَ الثُّلْثِ ﴿وَصِيَّةٌ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لـ ﴿يُوْصِيكُمْ﴾، ﴿مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا دَبَّرَهُ لِيَخْلِقَهُ مِنَ الْفَرَائِضِ ﴿حَلِيمٌ﴾^(٢) بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَةِ عَمَّنْ خَالَفَهُ، وَخَصَّتِ السُّنَّةُ تَوْرِيثَ مَنْ ذَكَرَ، بِمَنْ لَيْسَ فِيهِ مَانِعٌ مِنْ قَتْلِ أَوْ اخْتِلَافِ دَيْنٍ أَوْ رِقٍّ. ﴿تِلْكَ﴾ الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ أَمْرِ الْيَتَامَى وَمَا بَعْدَهُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ شَرَائِعُهُ الَّتِي حَدَّهَا لِعِبَادِهِ لِيَعْمَلُوا بِهَا وَلَا يَتَعَدَّوْهَا ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِيمَا حَكَمَ بِهِ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بِالْبَيَاءِ وَالنُّونِ الْتِفَاتًا ﴿جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٣) وَمَنْ يَعُصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ﴾ فِيهَا ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾^(٤) ذُو إِهَانَةٍ، رُوْعِي فِي الصَّمَاثِرِ فِي الْآيَتَيْنِ لَفْظُ «مَنْ»، وَفِي ﴿خَالِدِينَ﴾ مَعْنَاهَا^(٥). ﴿وَالَّتِي

(١) وهي قراءة شاذة.

(٢) قال ابن عباس في معنى الآية: ومن لم يرض بقسمة الله ويتعد ما حده، وقال الكلبي: يكفر بقسمة الموارث فإذا كفر كان حكمه حكم

يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ ﴿الزَّانَا﴾ مِنْ تَسَايِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ ﴿أَيُّ: مِنْ رِّجَالِ الْمُسْلِمِينَ﴾ فَإِنْ شَهِدُوا عَلَيْهِنَّ بِهَا ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ إِحْبِسُوهُنَّ ﴿فِي الْبُيُوتِ﴾ وَامْنَعُوهُنَّ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ ﴿حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أَيُّ: مَلَائِكَتُهُ ﴿أَوْ﴾ إِلَى أَنْ ﴿يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ ﴿١٥﴾ طَرِيقًا إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهَا، أَمْرُوا بِذَلِكَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ جُعِلَ لَهُنَّ سَبِيلًا: بِجِلْدِ الْبِكْرِ مِائَةً وَتَغْرِيهَا عَامًا، وَرَجِمَ الْمُحْصَنَةُ، وَفِي الْحَدِيثِ: لَمَّا بَيَّنَّ الْحَدُّ قَالَ: «خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا»، رَوَاهُ مُسْلِمٌ. ^(١) ﴿وَالَّذَانِ﴾ بِتَخْفِيفِ النُّونِ وَتَشْدِيدِهَا ﴿يَأْتِيْنَهَا﴾ أَيُّ: الْفَاحِشَةُ الزَّانَا أَوْ اللَّوَاطُ ﴿مِنْكُمْ﴾ أَيُّ: الرِّجَالِ ﴿فَأَذُوهُمَا﴾ بِالسَّبِّ وَالضَّرْبِ بِالنَّعَالِ ﴿فَإِنْ تَابَا﴾ مِنْهَا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ أَلْعَمَلُ ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ وَلَا تُؤْذُوهُمَا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا﴾ عَلَى مَنْ تَابَ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿١٦﴾ بِهِ، وَهَذَا مَسْخُوحٌ بِالْحَدِّ إِنْ أُريدَ بِهَا الزَّانِي، وَكَذَا إِنْ أُريدَ بِهَا اللَّوَاطُ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ، لَكِنَّ الْمَفْعُولَ بِهِ لَا يُرْجَمُ عِنْدَهُ وَإِنْ كَانَ مُحْصَنًا، بَلْ يُجْلَدُ وَيُعْرَبُ، وَإِرَادَةُ اللَّوَاطِ أَظْهَرُ بِدَلِيلِ تَثْبِيَةِ الضَّمِيرِ، وَالْأَوَّلُ قَالَ: أَرَادَ الزَّانِي وَالزَّانِيَّةَ. وَيُرْذُ

الكفار في الخلود في النار إذا لم يتب قبل موته وإذا مات وهو مصر على ذلك كان مخلداً في النار، فلا دليل في الآية للمعتزلة على أن العصاة والفساق من أهل الإيمان يخلدون في النار... وهذا العلم من أعظم العلوم قدراً وأشرافها ذخراً وأفضلها ذكراً، وهو ركن من أركان الشريعة، وفرع من فروعها في الحقيقة، اشتغل الصدر الأول من الصحابة بتحصيلها وتكلموا في فروعها وأصولها، وبكفي في فضلها أن الله تولى قسمتها بنفسه وأنزلها في كتابه مبنية في محل قدسه، وقد حث رسول الله ﷺ على تعليمها... وقد ذكر بعض المفسرين أحكام الفرائض وأسباب الإرث في هذا المقام من تفسيره وإنما محلها كتب الفروع، وذكروا من تخارج هذا العلم ما لم يكن له مستند إلا محض الرأي. وليس مجرد الرأي مستحقاً للتدوين. فلكل عالم رأيه واجتهاده مع عدم الدليل ولا حجة في اجتهاد بعض أهل العلم على البعض الآخر، ويكفيك منها ما ثبت في الكتاب والسنة وما عرض لك وما لم يكن فيهما فاجتهد فيه برأيك عملاً بحديث معاذ المشهور. والسهام المحدودة في كتاب الله العزيز ستة: النصف والرَّبع والثلثان والثلث والسدس... والذي وردت به السنة المطهرة أنه يجب الابتداء بذوي الفروض المقدرة وما بقي للعبصة والأخوات مع البنات عصبه، ولبنت الابن مع البنت السدس تكملة للثلثين، وكذا الأخت لأب مع الأخت لأبوين وللجدة أو الجدات السدس مع عدم الأم، وهو للجد مع من لا يسقطه ولا ميراث للأخوة والأخوات مطلقاً مع الابن أو ابن الابن أو الأب، وفي ميراثهم مع الجد خلاف، ويرثون مع البنات إلا الإخوة للام ويسقط الأخ لأب مع الأخ لأبوين. وأولو الأرحام يتوارثون وهم أقدم من بيت المال، فإن تراحمت الفرائض فالعول، ولا يرث ولد الملاعنة والزانية إلا من أمه وقرابتها والعكس، ولا يرث المولود إلا إذا استهل، وميراث العتيق لمعتقه ويسقط بالعصبات وله الباقي بعد ذوي السهام، ويحرم بيع الولاء. وهبته، ولا توارث بين أهل ملتين ولا يرث القاتل من المقتول. هذا جميع ما ثبت بالسنة المطهرة فاشدد عليه يدك. [صديق حسن (٣/٤٩)].

(١) أخرجه مسلم (١٦٩٠).

تَسِينَهُمَا بِ «مِنْ» الْمُتَّصِلَةِ بِضَمِيرِ الرِّجَالِ وَاشْتِرَاكُهُمَا فِي الْأَذَى وَالتَّوْبَةِ وَالْإِعْرَاضِ، وَهُوَ مَخْصُوصٌ بِالرِّجَالِ لِمَا تَقَدَّمَ فِي النَّسَاءِ مِنَ الْحَبْسِ. «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ» أَي: الَّتِي كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ قَبُولَهَا بِفَضْلِهِ «لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ» الْمَعْصِيَةَ «بِجَهْلَةٍ» حَالٌ، أَي: جَاهِلِينَ إِذْ عَصَوْا رَبَّهُمْ^(١) «ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ» زَمَنِ «قَرِيبٍ» قَبْلَ أَنْ يُغْرَغُوا «فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» يَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا» بِخَلْقِهِ «حَكِيمًا» ﴿٧﴾ «فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ» الذُّنُوبَ «حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ» وَأَخَذَ فِي النَّزَعِ «قَالَ» عِنْدَ مُشَاهَدَةِ مَا هُوَ فِيهِ: «إِنِّي تُبْتُ أَلَعَنَ» فَلَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُ «وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ» إِذَا تَابُوا فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ لَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ «أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا» أَعَدَدْنَا «لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» ﴿٨﴾ «مُؤَلَّمًا». «يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ» أَي: ذَاتَهُنَّ «كَرْهًا» بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ لُغْتَانِ، أَي: مُكْرِهِيهِنَّ عَلَى ذَلِكَ، كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَرِثُونَ نِسَاءَ أَقْرِبَائِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا تَزَوَّجُوهُنَّ بِلا صَدَاقٍ أَوْ زَوَّجُوها وَأَخَذُوا صَدَاقَهَا أَوْ عَضَلُوهَا حَتَّى تَقْتَدِيَ بِمَا وَرِثَتْهُ أَوْ تَمُوتَ فَيَرِثُوهَا، فَهِيَ عَنْ ذَلِكَ «وَلَا» أَنْ «تَعْضَلُوهُنَّ» أَي: تَمْنَعُوا أَزْوَاجَكُمْ عَنْ نِكَاحٍ غَيْرِكُمْ بِإِمْسَاكِهِنَّ وَلَا رَغْبَةٍ لَكُمْ فِيهِنَّ ضِرَارًا «لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ» مِنَ الْمَهْرِ «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَي: بَيِّنَتْ، أَوْ هِيَ بَيِّنَةٌ، أَي: زِنًا أَوْ نُسُوزٍ، فَلَكُمْ أَنْ تُضَارُوهُنَّ حَتَّى يَفْتَدِينَ مِنْكُمْ وَيَخْتَلَعْنَ^(٢) «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» أَي: بِالْإِجْمَالِ فِي الْقَوْلِ وَالنَّفَقَةِ وَالْمَبِيتِ «فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ» فَاصْبِرُوا «فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا» ﴿٩﴾ «وَلَعَلَّهُ يَجْعَلُ فِيهِنَّ ذَلِكَ بَأَنْ يَرْزُقَكُمْ مِنْهُنَّ وَلَدًا صَالِحًا». «وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ» أَي: أَخَذَهَا بَدَلَهَا بَأَنْ طَلَقْتُمُوهَا «وَلَا» قَدْ «ءَاتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ» أَي: الزَّوْجَاتِ «قِنْطَارًا» مَالًا كَثِيرًا صَدَاقًا «فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا تَأْخُذُونَهُ بِهْتَنًا» ظُلْمًا «وَإِنَّمَا مُبِينًا» ﴿١٠﴾ «بَيْنًا، وَنَضَبُهُمَا عَلَى الْحَالِ. وَالْأَسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِخِ وَلِلْإِنْكَارِ فِي: «وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ» أَي: بِأَيِّ وَجْهِ «وَقَدْ أَفْضَى»

(١) المراد بالجهالة هنا السفاهة وليس الجهل؛ لأن فاعل السوء بجهل معذور لا ذنب عليه؛ لقول الله تعالى: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» [البقرة ٢٨٦]. [ابن عثيمين تفسير النساء (١/ ١٣٧)].

(٢) الأولى أن يقال إن الخطاب في قوله: «وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ» للمسلمين، أي: لا يحل لكم معاشر المسلمين أن تَرِثُوا النساءَ كرهاً كما كانت تفعله الجاهلية، ولا يحل لكم معاشر المسلمين أن تعضلوا أزواجكم، أي: تحبسوهن عنكم مع عدم رغبتكم فيهن، بل لقصد أن تذهبا بعض ما آتيتموهن من المهور يفتدين به من الحبس والبقاء تحتكم وفي عقدتكم مع كراهتكم لهن «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ» فحينئذ يجوز لكم مخالعتن ببعض ما آتيتموهن. [الشوكاني (١/ ٥٠٧)].

وَصَلَ ﴿بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ بِالْجَمَاعِ الْمُقَرَّرِ لِلْمَهْرِ ﴿وَأَخَذَنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا﴾ عَهْدًا ﴿غَلِيظًا ۝١١﴾ شَدِيدًا، وَهُوَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِهِنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحِهِنَّ بِإِحْسَانٍ. ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا﴾ بِمَعْنَى: «مَنْ» ﴿نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مِنْ فِعْلِكُمْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ مَعْفُو عَنْهُ ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: نِكَاحَهُنَّ ﴿كَانَ فَحِشَةً﴾ قِيحًا ﴿وَمَقْتًا﴾ سَبِيًّا لِلْمَقْتِ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَشَدُّ الْبُغْضِ ﴿وَسَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿سَبِيلًا ۝١٢﴾ طَرِيقًا ذَلِكَ. ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، وَشَمِلَتْ الْجَدَّاتِ مِنْ قَبْلِ الْأَبِ أَوْ الْأُمِّ ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وَشَمِلَتْ بَنَاتِ الْأَوْلَادِ وَإِنْ سَفَلْنَ ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ أَوْ الْأُمِّ ﴿وَعَمَّتُكُمْ﴾ أَي: أَخَوَاتُ آبَائِكُمْ وَأَجْدَادِكُمْ ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾ أَي: أَخَوَاتُ أُمَّهَاتِكُمْ وَجَدَّاتِكُمْ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِنَّ بَنَاتُ أَوْلَادُهُمْ ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾ قَبْلَ اسْتِكْمَالِ الْحَوْلَيْنِ خَمْسَ رَضَعَاتٍ كَمَا بَيَّنَّهُ الْحَدِيثُ ^(١) ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ﴾ وَيُلْحَقُ بِذَلِكَ بِالسُّنَّةِ الْبَنَاتُ مِنْهَا، وَهُنَّ مَنْ أَرْضَعْتَهُنَّ مَوْطُوأَتُهُ، وَالْعَمَّاتُ وَالْخَالَاتُ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ مِنْهَا. لِحَدِيثٍ: «يَحْرُمُ مِنَ الرِّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ^(٢) ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ﴾ جَمْعُ رَبِيبَةٍ وَهِيَ بِنْتُ الزَّوْجَةِ مِنْ غَيْرِهِ ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ تُرَبُّوْنَهُنَّ، صِفَةٌ مُوَافِقَةٌ لِلْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهَا ﴿مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أَي: جَامِعَتُمُوهُنَّ ﴿فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ فِي نِكَاحِ بَنَاتِهِنَّ إِذَا فَارَقْتُمُوهُنَّ ﴿وَحَلَائِلُ﴾ أَزْوَاجُ ﴿أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ بِخِلَافِ مَنْ تَبَنَيْتُمُوهُمْ فَلَكُمْ نِكَاحُ حَلَائِلِهِمْ ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ مِنْ نَسَبٍ أَوْ رِضَاعٍ بِالنِّكَاحِ وَيُلْحَقُ بِهِمَا بِالسُّنَّةِ الْجَمْعُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا ^(٣)، وَيَجُوزُ نِكَاحُ كُلِّ وَاحِدَةٍ عَلَى الْإِنْفِرَادِ، وَمِلْكُهُمَا مَعًا وَيَطَأُ وَاحِدَةً ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ نِكَاحِهِمْ بَعْضُ مَا ذَكَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِمَا سَلَفَ مِنْكُمْ قَبْلَ النَّهْيِ ﴿رَحِيمًا ۝١٣﴾ بِكُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿و﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أَي: ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ قَبْلَ مُفَارَقَةِ أَزْوَاجِهِنَّ، حَرَائِرُ مُسْلِمَاتٍ كُنَّ أَوْ لَا ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ بِالسَّبْيِ فَلَكُمْ وَطْؤُهُنَّ، وَإِنْ كَانَ لَهُنَّ أَزْوَاجٌ فِي دَارِ الْحَرْبِ بَعْدَ الْإِسْتِبْرَاءِ ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمُصْدَرِ، أَي: كَتَبَ

(١) عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرم من، ثم نسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول

الله ﷺ، وهن فيما يقرأ من القرآن». أخرجه مسلم (١٤٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥١١١)، ومسلم (١٤٤٥).

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «نهى رسول الله ﷺ أَنْ تُنْكَحَ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا أَوْ خَالَتِهَا». أخرجه البخاري (٥١٠٩)، ومسلم (١٤٠٨).

ذَلِكَ عَلَيْكُمْ وَأَحَلَّ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ أَي: سِوَى مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا النِّسَاءَ ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بِصَدَاقٍ أَوْ ثَمَنِ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ زَانِينَ ﴿فَمَا﴾ فَمَنْ ﴿اسْتَمْتَعْتُمْ﴾ تَمَتَّعْتُمْ ﴿بِهِ مِنْهُنَّ﴾ مِمَّنْ تَزَوَّجْتُمْ بِالْوَطْءِ ﴿فَقَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ الَّتِي فَرَضْتُمْ لَهُنَّ ﴿فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ﴾ أَنْتُمْ وَهُنَّ ﴿بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ مِنْ حَطِّهَا أَوْ بَعْضِهَا أَوْ زِيَادَةِ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ٢٤﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ. ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا﴾ أَي: غَنَى لـ ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْحَرَائِرَ ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ هُوَ جَزِيٌّ عَلَى الْغَالِبِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يَنْكِحُ ﴿مَنْ فَتَيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ فَانْكُفُوا بِظَاهِرِهِ وَكُلُوا السَّرَائِرَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِتَفَاصِيلِهَا، وَرُبَّ أَمَةٍ تَفْضُلُ حُرَّةً فِيهِ، وَهَذَا تَأْنِيسُ بِنِكَاحِ الْإِمَاءِ ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أَي: أَنْتُمْ وَهُنَّ سَوَاءٌ فِي الدِّينِ، فَلَا تَسْتَكْفُوا مِنْ نِكَاحِهِنَّ ﴿فَانْكُحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ مَوَالِيَهُنَّ ﴿وَعَاتُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ مِنْ غَيْرِ مَطْلٍ وَنَقْصٍ ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ عَفَافَاتٍ، حَالٌ ﴿غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ زَانِيَاتٍ جَهْرًا ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أَخْلَاءَ يَزْنُونَ بِهِنَّ سِرًّا ﴿فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ﴾ زَوْجَنَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ: تَزَوَّجْنَ ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ﴾ زِنَا ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْحَرَائِرِ الْأَبْكَارِ إِذَا زَنِينَ ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ الْحَدِّ، فَيُجْلَدْنَ خَمْسِينَ، وَيُغْرَبْنَ نِصْفَ سَنَةٍ، وَيُقَاسُ عَلَيْهِنَّ الْعَبِيدُ، وَلَمْ يُجْعَلِ إِلَّا حِصَانُ شَرْطًا لَوْ جُوبِ الْحَدِّ، لِإِفَادَةِ أَنَّهُ لَا رَجَمَ عَلَيْهِنَّ أَصْلًا ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: نِكَاحُ الْمَمْلُوكَاتِ عِنْدَ عَدَمِ الطَّوْلِ ﴿لِمَنْ خَشِيَ﴾ خَافَ ﴿الْعَنَتِ﴾ الزَّنَا وَأَصْلُهُ الْمَشَقَّةُ، سُمِّيَ بِهِ الزَّنَا؛ لِأَنَّهُ سَبَبُهَا بِالْحَدِّ فِي الدُّنْيَا وَالْعُقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ ﴿مِنْكُمْ﴾ بِخِلَافِ مَنْ لَا يَخَافُهُ مِنَ الْأَحْرَارِ فَلَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا، وَكَذَا مَنْ اسْتَطَاعَ طَوْلَ حُرَّةٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَخَرَجَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَنْ فَتَيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ الْكَافِرَاتُ، فَلَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُهَا وَلَوْ عَدَمَ وَخَافَ ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ عَنْ نِكَاحِ الْمَمْلُوكَاتِ ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لِئَلَّا يَصِيرَ الْوَلَدُ رَقِيقًا ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٢٥﴾ بِالتَّوَسُّعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ شَرَائِعَ دِينِكُمْ وَمَصَالِحَ أَمْرِكُمْ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ﴾ طَرِائِقَ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي التَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ فَتَسْبِعُوهُمْ ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ يَرْجِعَ بِكُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْهَا إِلَى طَاعَتِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِكُمْ ﴿حَكِيمٌ ٢٦﴾ فِيمَا دَبَّرَهُ لَكُمْ. ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ كَرَّرَهُ لِيُنَبِّئَ عَلَيْهِ: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَوْ الْمَجُوسُ أَوْ الزُّنَاةُ ٢٧ ﴿أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾

(١) وقيل: عام في كل متبع شهوة وهو أرجح. [ابن جزي (١/١٨٨)].

﴿٧٧﴾ تَعْدِلُوا عَنِ الْحَقِّ بِأَرْكَابِ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، فَتَكُونُوا مِثْلَهُمْ. ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ يُسَهِّلَ عَلَيْكُمْ أَحْكَامَ الشَّرْعِ ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ ٧٨ لَا يَصْبِرُ عَنِ النَّسَاءِ وَالشَّهَوَاتِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بِالْحَرَامِ فِي الشَّرْعِ كَالرِّبَا وَالْغَصْبِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ تَقَعَ ﴿تَجَرَّةً﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصَبِ، أَي: أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ أَمْوَالَ تِجَارَةٍ صَادِرَةٍ ﴿عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ وَطِيبِ نَفْسٍ فَلَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوهَا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بِأَرْكَابِ مَا يُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِهَا أَيَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ ٧٩، بِقَرِينَةٍ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ٨٠ فِي مَنَعِهِ لَكُمْ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَي: مَا نَهَى عَنْهُ ﴿عُدُونَا﴾ تَجَاوَزًا لِلْحَلَالِ، حَالٌ ﴿وُظْلَمًا﴾ تَأْكِيدٌ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ نُدْخِلُهُ ﴿نَارًا﴾ يَحْتَرِقُ فِيهَا ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ٨١ هِنَا. ﴿إِنْ تَحْتَبِئُوا كِبَارِيرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ وَهِيَ مَا وَرَدَ عَلَيْهَا وَعِيدٌ، كَالْقَتْلِ وَالزَّنا وَالسَّرِقَةِ ٨٢، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هِيَ إِلَى السَّبْعِمِائَةِ أَقْرَبُ ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الصَّغَائِرُ ٨٣ بِالطَّاعَاتِ ﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَي: إِدْخَالًا أَوْ مَوْضِعًا ﴿كَرِيمًا﴾ ٨٤ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ مِنْ جِهَةِ الدُّنْيَا أَوِ الدِّينِ، لِئَلَّا يُؤَدِّيَ إِلَى التَّحَاسُدِ وَالتَّبَاغُضِ ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ ثَوَابٌ ﴿مِمَّا اكْتَسَبُوا﴾ بِسَبَبِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ مِنْ طَاعَةِ أَزْوَاجِهِنَّ وَحِفْظِ فُرُوجِهِنَّ، نَزَلَتْ لَمَّا قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: «لَيْتَنَا كُنَّا رِجَالًا فَجَاهَدْنَا وَكَانَ لَنَا مِثْلُ أَجْرِ الرِّجَالِ» ﴿وَسْأَلُوا﴾ بِهَمْزَةٍ وَدُونِهَا ﴿اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ مَا احْتَجْتُمْ إِلَيْهِ يُعْطِيكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ٨٥ وَمِنْهُ مَحَلُّ الْفَضْلِ وَسُؤَالُكُمْ. ﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ ﴿جَعَلْنَا مَوَالِي﴾ عَصَبَةً يُعْطُونَ ﴿مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ لَهُمْ مِنَ الْأَمْالِ ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ﴾ بِالْفِ وَدُونِهَا ﴿أَيْمَانُكُمْ﴾ جَمْعُ يَمِينٍ بِمَعْنَى الْقَسَمِ أَوِ الْبَيْدِ، أَي: الْحُلَفَاءُ الَّذِينَ عَاهَدْتُمُوهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَلَى النُّصْرَةِ وَالْإِثْرِ ﴿فَأَتَوْهُمْ﴾ الْآنَ ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ حَظُّهُمْ مِنَ الْمِيرَاثِ، وَهُوَ السُّدُسُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ ٨٦ مُطْلَعًا وَمِنْهُ حَالُكُمْ، وَهَذَا مُنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأحزاب: ٦]. ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ﴾ مُسَلِّطُونَ ﴿عَلَى

(١) قال ابن عطية أجمع المفسرون أن المعنى: لا يقتل بعضكم بعضًا، قلت: ولفظها يتناول قتل الإنسان لنفسه، وقد حملها عمرو بن العاص رضي الله عنه على ذلك، ولم ينكره رسول الله ﷺ إذ سمعه. [ابن جرير (١/١٨٩)].

(٢) وأحسن ما أحدث به الكبار، أن الكبيرة: ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفى إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه. [السعدي (ص: ١٧٦)].

(٣) وحمل السيئات على الصغائر هنا متعين لذكر الكبار قبلها. [الشوكاني (١/٥٢٧)].

النِّسَاءِ ﴿يُؤَدُّونَهُنَّ وَيَأْخُذُونَ عَلَى أَيْدِيهِنَّ﴾^(١) ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أَي: بِتَفْضِيلِهِ لَهُمْ عَلَيْهِنَّ بِالْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالْوِلَايَةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾ عَلَيْهِنَّ ﴿مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالْصَّلَاحُ﴾ مِنْهُنَّ ﴿فَقِتْنَتْ﴾ مُطِيعَاتُ لَأَزْوَاجِهِنَّ ﴿حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ﴾ أَي: لِفُرُوجِهِنَّ وَغَيْرِهَا فِي غَيْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ ﴿بِمَا حَفِظَ﴾ هُنَّ ﴿اللَّهُ﴾ حَيْثُ أَوْصَى عَلَيْهِنَّ الْأَزْوَاجَ ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ عِصْيَانَهُنَّ لَكُمْ، بَأَنْ ظَهَرَتْ أَمَارَتُهُ ﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ فَخَوْفُهُنَّ اللَّهُ ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ اعْتَزِلُوا إِلَى فِرَاشٍ آخَرَ إِنْ أَظْهَرْنَ النُّشُوزَ ﴿وَأَضْرِبُوهُنَّ﴾ ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، إِنْ لَمْ يَرْجِعْنَ بِالْهَجْرَانِ ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فِيمَا يَرَادُ مِنْهُنَّ ﴿فَلَا تَبْغُوا﴾ تَطْلُبُوا ﴿عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ طَرِيقًا إِلَى ضَرْبِهِنَّ ظُلْمًا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾^(٢) فَاحْذَرُوهُ أَنْ يُعَاقِبَكُمْ إِنْ ظَلَمْتُمُوهُنَّ. ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ عَلِمْتُمْ ﴿شِقَاقَ﴾ خِلَافَ ﴿بَيْنَهُمَا﴾ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَالْإِضَافَةُ لِلتَّسَاعِ، أَي: شِقَاقًا بَيْنَهُمَا ﴿فَابْعَثُوا﴾ إِلَيْهِمَا بِرِضَاهُمَا ﴿حَكَمًا﴾ رَجُلًا عَدْلًا ﴿مِنْ أَهْلِهِ﴾ أَقَارِبِهِ ﴿وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ وَيُوكِّلُ الزَّوْجُ حَكَمَهُ فِي طَلَاقٍ وَقَبُولِ عَوَضٍ عَلَيْهِ، وَتُوكِّلُ هِيَ حَكَمَهَا فِي الْإِخْتِلَاعِ، فَيَجْتَهِدَانِ وَيَأْمُرَانِ الظَّالِمَ بِالرَّجُوعِ أَوْ يُفَرِّقَانِ إِنْ رَأَيَاهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يُرِيدَا﴾ أَي: الْحَكَمَانِ ﴿إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، أَي: يُقَدِّرُهُمَا عَلَى مَا هُوَ الطَّاعَةُ مِنْ إِصْلَاحٍ أَوْ فِرَاقٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿خَيْرًا﴾^(٣) بِالْبَوَاطِنِ كَالظَّوَاهِرِ. ﴿*وَاعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحُدُودُهُ ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ وَ﴿أَحْسِنُوا﴾ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ﴿بِرًّا وَلَيْنَ جَانِبِ﴾ وَبِذِي الْقُرْبَى ﴿الْقَرَابَةِ﴾ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ﴿الْقَرِيبِ مِنْكَ فِي الْجَوَارِ أَوْ النَّسَبِ﴾ وَالْجَارِ الْجُنُبِ ﴿الْبَعِيدِ عَنْكَ فِي الْجَوَارِ أَوْ النَّسَبِ﴾ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ ﴿الرَّفِيقِ فِي سَفَرٍ أَوْ صِنَاعَةٍ، وَقِيلَ: الزَّوْجَةِ﴾ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴿الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ﴾ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴿مِنَ الْأَرْقَاءِ﴾ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا مُتَكَبِّرًا ﴿فُخُورًا﴾^(٤) عَلَى النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ. ﴿الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿يَبْخُلُونَ﴾ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴿بِهِ﴾ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَالِ وَهُمْ الْيَهُودُ، وَخَبِرَ الْمُبْتَدَأُ: لَهُمْ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ ﴿بِذَلِكَ وَبِغَيْرِهِ﴾ عَذَابًا مُهِينًا ﴿ذَٰلِ الْإِهَانَةِ﴾. ﴿وَالَّذِينَ﴾ عَطَفُ عَلَى ﴿الَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ مُرَائِينَ لَهُمْ ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(١) كلام مستأنف سيق ليبيان سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث تفصيلاً إثر بيان تفاوت استحقاقهم إجمالاً، وعلل ذلك بأمرين أولهما وهبي، والثاني كسبي، والمعنى أنهم يقومون بالذب عنهم كما يقوم الحكام والأمراء بالذب عن الرعية، وهم أيضاً يقومون بما يحتجن إليه من النفقة والكسوة والمسكن. [صديق حسن (٣/١٠٥)].

كَالْمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا﴾ صَاحِبًا، يَعْمَلُ بِأَمْرِهِ كَهَوْلَاءِ ﴿فَسَاءَ﴾ بِنَسِّ ﴿قَرِينًا﴾ ﴿٢٨﴾ هُوَ. ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أَيُّ: أَيُّ ضَرَرٍ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ، وَلَوْ مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُّ: لَا ضَرَرَ فِيهِ، وَإِنَّمَا الضَّرَرُ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ﴿٢٩﴾ فَيَجَازِيهِمْ بِمَا عَمِلُوا. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ أَحَدًا ﴿مِثْقَالَ﴾ وَزْنٍ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرَ نَمْلَةٍ، بَأَن يُنْقِصَهَا مِنْ حَسَنَاتِهِ أَوْ يَزِيدَهَا فِي سَيِّئَاتِهِ ﴿وَإِنْ تَكُ﴾ الذَّرَّةُ ﴿حَسَنَةً﴾ مِنْ مُؤْمِنٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فَ «كَانَ» تَامَّةٌ ﴿يُضَعِّفُهَا﴾ مِنْ عَشْرِ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعِّفُهَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿وَيُوتُ مِنْ لَدُنْهُ﴾ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ الْمُضَاعَفَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٣٠﴾ لَا يَقْدَرُهُ أَحَدٌ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُ الْكُفَّارِ ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ نَبِيُّهَا ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْمَجِيءِ ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ﴾ أَيُّ: أَنْ ﴿تَسْوَى﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ مَعَ حَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ فِي الْأَصْلِ وَمَعَ إِدْغَامِهَا فِي السِّينِ، أَيُّ: تَسَوَّى ﴿بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ بَأَن يَكُونُوا تَرَابًا مِثْلَهَا لِعَظَمِ هَوْلِهِ، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠]، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ﴿عَمَّا عَمِلُوهُ، وَفِي وَقْتٍ آخَرَ يَكْتُمُونَهُ، وَيَقُولُونَ:﴾ وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٢٣]﴾. ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيُّ: لَا تَصَلُّوا ﴿وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾

(١) كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قلت: يا رسول الله، اقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «نَعَمْ، إِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فقرأت سورة النساء، حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال: «حَسْبُكَ الْآنَ»، فإذا عيناه تدرفان. أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠).

(٣) وجه الجمع في ذلك هو ما بينه ابن عباس رضي الله عنهما لما سئل عن قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ مع قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، وهو أن ألسنتهم تقول: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. فكتُم الحق باعتبار اللسان وعدمه باعتبار الأيدي والأرجل، وهذا الجمع يشير إليه قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]. وأجاب بعض العلماء بتعدد الأماكن فيكتمون في وقت ولا يكتمون في وقت آخر، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٩١)].

مِنَ الشَّرَابِ؛ لِأَنَّ سَبَبَ نَزُولِهَا صَلَاةُ جَمَاعَةٍ فِي حَالِ السُّكْرِ ﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ بِأَنْ تَصْحُوا^(١) ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ بِإِيلَاجٍ أَوْ إِنْزَالٍ، وَنَصَبُهُ عَلَى الْحَالِ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْمُفْرَدِ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا غَابِرِي﴾ مُجْتَازِي ﴿سَبِيلٍ﴾ طَرِيقٍ، أَيْ: مُسَافِرِينَ ﴿حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾ فَلَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا، وَاسْتَشْنَى الْمُسَافِرُ؛ لِأَنَّ لَهُ حُكْمًا آخَرَ سِيَائِي، وَقِيلَ: الْمُرَادُ النَّهْيُ عَنْ قُرْبَانِ مَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، أَيْ: الْمَسَاجِدِ إِلَّا عُبُورَهَا مِنْ غَيْرِ مُكْثٍ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مَرَضًا يَضُرُّهُ الْمَاءُ ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أَيْ: مُسَافِرِينَ وَأَنْتُمْ جُنُبٌ أَوْ مُحْدِثُونَ ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ هُوَ الْمَكَانُ الْمَعْدُّ لِقَضَاءِ الْحَاجَةِ، أَيْ: أَحَدَتْ ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَا أَلْفٍ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى، مِنَ اللَّمَسِ وَهُوَ الْجَسُّ بِالْيَدِ، قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَالْحَقُّ بِهِ الْجَسُّ بِبَاقِي الْبَشَرَةِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ هُوَ: الْجِمَاعُ^(٢) ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ تَطَهَّرُونَ بِهِ لِلصَّلَاةِ بَعْدَ الطَّلَبِ وَالتَّفْتِيشِ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى مَا عَدَا الْمَرَضَى ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ إِقْصِدُوا بَعْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ تُرَابًا طَاهِرًا، فَاضْرِبُوا بِهِ ضَرْبَتَيْنِ ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مَعَ الْمِرْفَقَيْنِ مِنْهُ^(٣)،

(١) هذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقا، فإن الخمر في أول الأمر كان غير محرم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ [المائدة: ٩٠]. ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل. [السعدي (ص: ١٧٩)].

(٢) الحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقا في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه. واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هل المراد بذلك: الجماع فتكون الآية نصا في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك. [السعدي (ص: ١٧٩)].

(٣) التيمم بدل عن الوضوء في التطهر به، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال: أحدها وهو مذهب الشافعي في الجديد: أنه يجب أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين؛ لأن لفظ اليدين يصدق إطلاقهما على ما يبلغ المنكبين، وعلى ما يبلغ المرفقين، كما في آية الوضوء، ويطلق ويراد بهما ما يبلغ الكفين، كما في آية السركة: ﴿فَأَقْصَوُا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨] قالوا: وحمل ما أطلق هاهنا على ما قيد في آية الوضوء أولى لجامع الطهورية... والقول الثاني:

و«مَسَحَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْحَرْفِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا غَفُورًا ٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا ﴿حَظًّا﴾ مِّنَ الْكِتَابِ وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ﴾ بِالْهُدَى ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ٤٤﴾ تُخْطِئُوا طَرِيقَ الْحَقِّ، لِتَكُونُوا مِثْلَهُمْ. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ مِنْكُمْ، فَيُخْبِرُكُمْ بِهِمْ لِتَجْتَنِبُوهُمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ حَافِظًا لَّكُمْ مِنْهُمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ٤٥﴾ مَا نَعَا لَكُمْ مِنْ كَيْدِهِمْ. ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قَوْمٌ ﴿يُحَرِّفُونَ﴾ يُعَيِّرُونَ ﴿الْكَلِمَ﴾ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الَّتِي وُضِعَ عَلَيْهَا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذَا أَمَرَهُمْ بِشَيْءٍ: ﴿سَمِعْنَا﴾ قَوْلَكَ ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرَكَ ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ حَالٌ بِمَعْنَى الدَّعَاءِ، أَي: لَا سَمِعْتَ ﴿وَقُولُونَ لَهُ:﴾ ﴿رَاعِنَا﴾ وَقَدْ نُهِيَ عَنْ خِطَابِهِ بِهَا، وَهِيَ كَلِمَةٌ سَبَّ بِلُغَتِهِمْ ﴿لَيَّا﴾ تَحْرِيفًا ﴿بِالْأَسْنَتِهِمْ وَطَعْنًا﴾ قَدْحًا ﴿فِي الدِّينِ﴾ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بَدَلٌ ﴿وَعَصَيْنَا﴾، ﴿وَأَسْمَعُ﴾ فَقَطْ ﴿وَأَنْظُرْنَا﴾ أَنْظُرْ إِلَيْنَا بَدَلٌ ﴿رَاعِنَا﴾، ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مِمَّا قَالُوهُ ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أَعْدَلُ مِنْهُ ﴿وَلَكِنْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ٤٦﴾ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ نَمْحُو مَا فِيهَا مِنْ أَلْعَيْنِ وَالْأَنْفِ وَالْحَاجِبِ ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ فَتَجْعَلَهَا كَالْأَقْفَاءِ لَوْحًا وَاحِدًا^(١) ﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ﴾ نَمْسَخُهُمْ قَرْدَةً ﴿كَمَا لَعَنَّا﴾ مَسَخْنَا ﴿أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ قَضَاؤُهُ ﴿مَفْعُولًا ٤٧﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، فَقِيلَ: كَانَ وَعِيدًا بِشَرْطٍ فَلَمَّا أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ رُفِعَ، وَقِيلَ: يَكُونُ طَمَسٌ وَمَسْخٌ قَبْلَ قِيَامِ

إنه يجب مسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين، وهو القول القديم للشافعي. والثالث: أنه يكفي مسح الوجه والكفين بضربة واحدة؛ قال الإمام أحمد: ... عن عمار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في التيمم: «ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَالْكَفَّيْنِ». أخرجه أحمد (١٨٣١٩). [ابن كثير (٣١٩/٢)].

(١) قيل: إنه طمس معنوي، بحيث لا ترى الحق ولا تسمعه ولا تتفجع به، ويردها الله على أعقابها فتُهوي في الكفر. وقيل: بل هو طمس حسي، وذلك بأن تطمس الوجوه حتى تكون كخف البعير، ليس فيها عين ولا أنف ولا شفة ولا حاجب، بل هي كالقفا تمامًا، ثم بعد ذلك ترد على الأدبار. وقيل: المراد بالطمس طمس حسي، ولكن هو أن تلوى الأعناق، وتكون الوجوه من الخلف، وهذا معنى قوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾ وكما قلنا لكم فيما سبق في القاعدة التفسيرية: إنه إذا كانت الآية تحتل وجهين لا يناقض أحدهما الآخر، فإنها تحمل على الوجهين جميعًا؛ لأن كلام الله معناه واسع، فإذا كان اللفظ يحتمل هذا وهذا وليس بينهما مناقضة، فالواجب حملة على الوجهين، فهنا نقول: إن الله تعالى هددهم بالطمس الحسي والطمس المعنوي. [ابن عثيمين تفسير النساء (١/٣٨١)].

السَّاعَةِ^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ﴾ أَي: الْإِشْرَاكَ ﴿بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ﴾ سِوَى ﴿ذَلِكَ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةَ لَهُ بِأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ بِلاَ عَذَابٍ، وَمَنْ شَاءَ عَذَّبَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِذُنُوبِهِ ثُمَّ يُدْخِلُهُ الْجَنَّةَ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا﴾ ذَنْبًا ﴿عَظِيمًا﴾^(٢) كَبِيرًا^(٣). ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ١٨]، أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ بِتَرْكِتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ ﴿بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَضُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿فَتِيلًا﴾^(٤) قَدَرِ قَشْرَةِ النَّوَاةِ^(٥). ﴿أَنْظُرْ﴾ مُتَعَجِّبًا ﴿كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بِذَلِكَ ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾^(٦) بَيِّنًا. وَنَزَلَ فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَنَحْوِهِ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ لَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ وَشَاهَدُوا قَتْلَى بَدْرٍ وَحَرَّضُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْأَخْذِ بِثَارِهِمْ وَمُحَارَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ﴾ صَنَمَانِ لِقُرَيْشٍ ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، حِينَ قَالُوا لَهُمْ: «أَنْحَنُ أَهْدَى سَبِيلًا وَنَحْنُ وُلَاةُ الْبَيْتِ، نَسْقِي الْحَاجَّ وَنُقْرِي الضَّيْفَ وَنَفُكُ الْعَانِي وَنَفْعُلُ، أَمْ مُحَمَّدٌ وَقَدْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَقَطَعَ الرَّحِمَ وَفَارَقَ الْحَرَمَ؟» «هَؤُلَاءِ» أَي: أَنْتُمْ «أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا»^(٧) أَقْوَمَ طَرِيقًا ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ﴾ هُ ﴿اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾^(٨) مَا نَعَا مِنْ عَذَابِهِ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾ أَي: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْهُ، وَلَوْ كَانَ ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ قَعِيرًا﴾^(٩) أَي: شَيْئًا تَافِهًا قَدَرِ النَّقْرَةِ فِي ظَهْرِ النَّوَاةِ، لَفَرَطَ بُخْلِهِمْ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ أَي: النَّبِيَّ ﷺ ﴿عَلَىٰ

(١) ﴿أَوْ نَلْعَنُهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ أو نخزيهم بالمسخ كما أخزينا به أصحاب السبت، أو نمسخهم مسخا مثل مسخهم، أو نلعنهم على لسانك كما لعناهم على لسان داود. والضمير لأصحاب الوجه أو للذين على طريقة الالتفات، أو للوجه إن أريد به الوجهاء، وعطفه على الطمس بالمعنى الأول يدل على أن المراد به ليس مسخ الصورة في الدنيا ومن حمل الوعيد على تغيير الصورة في الدنيا قال إنه بعد مترقب أو كان وقوعه مشروطا بعدم إيمانهم وقد آمن منهم طائفة. [البيضاوي (٧٧/٢)].

(٢) لا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته، وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء... وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال في هذه الآية: إن الله حرم المغفرة على من مات وهو كافر، وأرجأ أهل التوحيد إلى مشيئته فلم يؤيسهم عن المغفرة. وأخرج الترمذي وحسنه عن علي رضي الله عنه قال: ما في القرآن أحب إلي من هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. [الشوكاني (٥٤٩/١)].

(٣) هو الخيط الذي في نواة الثمر، وقيل: القشرة التي حول النواة، وقيل: هو ما يخرج بين أصبعيك أو كفك من الوسخ إذا فتلتها، فهو قليل بمعنى: مفتول، والمراد هنا الكناية عن الشيء الحقيق، ومثله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ قَعِيرًا﴾ وهو النكتة التي في ظهر النواة. [صديق حسن (١٤٥/٣)].

مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۖ مِنَ النَّبُوَّةِ وَكَثْرَةِ النِّسَاءِ؟ أَيْ: يَتَمَنُّونَ زَوَالَه عَنْهُ، وَيَقُولُونَ: لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَأَشْتَغَلَ عَنِ النِّسَاءِ ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ جَدَّهُ، كَمُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ النَّبُوَّةَ ﴿وَعَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ۝٥٤﴾ فَكَانَ لِدَاوُدَ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً، وَلِسُلَيْمَانَ أَلْفٌ مَا بَيْنَ حُرَّةٍ وَسُرِّيَّةٍ. ﴿فَمِنْهُمْ مَنٌ ءَامَنَ بِهِ﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿وَمِنْهُمْ مَنٌ صَدَّ﴾ أَعْرَضَ ﴿عَنْهُ﴾ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿وَكَفَىٰ بِهِمْ سَعِيرًا ۝٥٥﴾ عَذَابًا لِّمَن لَّا يُؤْمِنُ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ﴾ نُدْخِلُهُمْ ﴿نَارًا﴾ يَحْتَرِفُونَ فِيهَا ﴿كُلَّمَا نَضَجَتْ﴾ احْتَرَقَتْ ﴿جُلُودُهُمْ بِدَلْنِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ بِأَن تَعَادَ إِلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ غَيْرَ مُحْتَرَقَةٍ ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ لِيُقَاسُوا شِدَّتَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمًا ۝٥٦﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ مِنَ الْخَيْضِ وَكُلٌّ قَدَرٍ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ دَائِمًا لَا تَنْسُخُهُ شَمْسٌ، وَهُوَ ظِلُّ الْجَنَّةِ. ﴿*إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ﴾ أَيْ: مَا أُوتِئَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ نَزَلَتْ لَمَّا أَخَذَ عَلِيُّ ﷺ مِفْتَاحَ الْكَعْبَةِ مِنْ عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ الْحَجَبِيِّ سَادِنَهَا فَسَرَّاهُ، لَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ، وَمَنْعَهُ وَقَالَ: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَمْنَعُهُ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَدِّهِ إِلَيْهِ، وَقَالَ: «هَٰكَ خَالِدَةً تَالِدَةً»^(١)، فَعَجِبَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَرَأَ لَهُ عَلِيُّ الْآيَةَ فَأَسْلَمَ، وَأَعْطَاهُ عِنْدَ مَوْتِهِ لِأَخِيهِ شَيْبَةَ فَبَقِيَ فِي وَلَدِهِ، وَالْآيَةُ وَإِنْ وَرَدَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ فَعُمُومُهَا مُعْتَبَرٌ بِقَرِينَةِ الْجَمْعِ ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ يَأْمُرُكُمْ ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا ﴿فِيهِ إِدْغَامٌ مِمَّ﴾ «نِعَم» فِي «مَا» الْنَكْرَةِ الْمَوْصُوفَةِ، أَيْ: نِعَمَ شَيْئًا ﴿يَعْظُمُ بِهِ﴾ تَأْدِيَةُ الْأَمَانَةِ وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿بَصِيرًا ۝٥٨﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ أَي: الْوَلَاةَ ﴿مِنْكُمْ﴾ إِذَا أَمَرُوكُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ﴾ اخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيْ: إِلَى كِتَابِهِ ﴿وَالرَّسُولِ﴾ مُدَّةَ حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ إِلَى سُنَّتِهِ، أَيْ: اكْشِفُوا عَلَيْهِ مِنْهُمَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ﴾ أَيْ: الرَّدُّ إِلَيْهِمَا ﴿خَيْرٌ﴾ لَكُمْ مِنَ التَّنَازُعِ وَالْقَوْلِ بِالرَّأْيِ ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٥٩﴾ مَا لَا^(٢). وَنَزَلَ لَمَّا اخْتَصَمَ يَهُودِيٌّ وَمُنافِقٌ، فَدَعَا الْمُنَافِقُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ لِيَحْكَمَ بَيْنَهُمَا، وَدَعَا الْيَهُودِيُّ إِلَى

(١) أورده ابن هشام في السيرة بلفظ: ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ﷺ ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّنَ عُثْمَانُ بْنُ طَلْحَةَ؟» فدعي له، فقال: «هَٰكَ مِفْتَاحَكَ يَا عُثْمَانُ، الْيَوْمَ يَوْمٌ بَرٌّ وَوَفَاءٌ». [سيرة ابن هشام (٢/٤١٢)].

(٢) أمر بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس،

النَّبِيِّ ﷺ، فَأَتَاهُ فَقَصَّى لِلْيَهُودِيِّ، فَلَمْ يَرْضَ الْمُنَافِقُ، وَأَتَى عُمَرَ فَذَكَرَ الْيَهُودِيَّ ذَلِكَ فَقَالَ لِلْمُنَافِقِ: كَذَلِكَ، قَالَ: نَعَمْ، فَقَتَلَهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ الْكَثِيرِ الطَّاغِيَانِ وَهُوَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ ﴿وَقَدْ أَمَرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ وَلَا يُؤَالُوهُ ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ٦٠﴾ عَنِ الْحَقِّ ٦١. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْحُكْمِ ﴿وَالِى الرَّسُولِ﴾ لِيَحْكُمَ بَيْنَكُمْ ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ ﴿عَنْكَ﴾ إِلَى غَيْرِكَ ﴿صُدُّوًا ٦٢﴾ فَكَيْفَ يَصْنَعُونَ ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ عِقُوبَةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، أَيْ: أَيْقِدُرُونَ عَلَى الْإِعْرَاضِ وَالْفِرَارِ مِنْهَا؟ لَا ﴿ثُمَّ جَاءُوكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿يَصُدُّونَ﴾، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ﴾ مَا ﴿أَرَدْنَا﴾ بِالْمُحَاكَمَةِ إِلَى غَيْرِكَ ﴿إِلَّا إِحْسَنًا﴾ صُلَحًا ﴿وَتَوْفِيقًا ٦٣﴾ تَأْلِيفًا بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ بِالتَّقَرُّبِ فِي الْحُكْمِ دُونَ الْحَمْلِ عَلَى مَرِّ الْحَقِّ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ التَّفَاقِ وَكَذِبِهِمْ فِي عُذْرِهِمْ ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بِالصَّفْحِ ﴿وَعَظَّمُ﴾ خَوْفُهُمُ اللَّهَ ﴿وَقُلْ لَهُمْ فِي﴾ شَأْنِ ﴿أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ٦٤﴾ مُؤَثِّرًا فِيهِمْ، أَيْ: أَزْجِرُهُمْ لِيَرْجِعُوا عَنْ كُفْرِهِمْ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَحْكُمُ ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِأَمْرِهِ، لَا لِيُعْصَى

من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والالتقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمرُوا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم ألا يكون معصية. ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما أو عمومهما أو إيماء أو تنبيه أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما. فالرد إليهما شرط في الإيمان فلهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم. [السعدي (ص: ١٨٣)].

(١) هذا إنكار من الله، عز وجل، على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد التحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية: أنها في رجل من الأنصار ورجل من اليهود تخاصما، فجعل اليهودي يقول: بيني وبينك محمد. وذاك يقول: بيني وبينك كعب بن الأشرف. وقيل: في جماعة من المنافقين، ممن أظهروا الإسلام، أرادوا أن يتحاكموا إلى حكام الجاهلية. وقيل غير ذلك، والآية أعم من ذلك كله، فإنها ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا. [ابن كثير (٢/ ٣٤٦)].

وَيُخَالَفُ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِتَحَاكُمِهِمْ إِلَى الطَّاعُوتِ ﴿جَاءُوكَ﴾ تَائِبِينَ ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ ^(١) ﴿لَوْ جَدُّوا اللَّهَ تَوَابًا﴾ عَلَيْهِمْ ﴿رَحِيمًا ۝١٤﴾ بِهِمْ. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ﴾ اخْتَلَطَ ﴿بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا﴾ ضِيقًا أَوْ شَكًّا ﴿مِمَّا قُضِيَتْ﴾ بِهِ ﴿وَيُسَلِّمُوا﴾ يَتَقَادُوا لِحُكْمِكَ ﴿تَسْلِيمًا ۝١٥﴾ مِنْ غَيْرِ مُعَارَضَةٍ. ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ كَمَا كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أَيِ: الْمَكْتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَلَى الْبَدَلِ، وَالنَّصْبِ عَلَى الْإِسْتِثْنَاءِ ﴿مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ﴾ مِنْ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ۝١٦﴾ تَحْقِيقًا لِإِيمَانِهِمْ. ﴿وَإِذَا﴾ أَيِ: لَوْ ثَبَتُوا ﴿لَا تَنِينَ لَهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٧﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝١٨﴾ ^(٢). قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَيْفَ نَرَاكَ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنْتَ فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَنَحْنُ أَسْفَلُ مِنْكَ؟ فَتَرَلَّ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فِيمَا أَمَرَ بِهِ ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ أَفْضَلُ أَصْحَابِ الْأَنْبِيَاءِ لِمُبَالَغَتِهِمْ فِي الصَّدَقِ وَالصَّدِيقِ ﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾ أَلْقَتَلَىٰ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ غَيْرَ مَنْ ذَكَرَ ﴿وَحَسَنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۝١٩﴾ رُفَقَاءَ فِي الْجَنَّةِ بَأَن يُسْتَمْتَعَ فِيهَا بِرُؤُوسِهِمْ وَزِيَارَتِهِمْ وَالْحُضُورِ مَعَهُمْ، وَإِنْ كَانَ مَقَرُّهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ ^(٣). ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: كَوْنُهُمْ مَعَ مَنْ ذَكَرَ، مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ ﴿الْفُضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ، لَا أَنَّهُمْ نَالُوهُ

(١) وهذا المعجىء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء بل ذلك شرك. [السعدي (ص: ١٨٤)].

(٢) الصراط المستقيم هو الإيمان المؤدي إلى الجنة؛ قاله ابن عطية. وقيل: هو الطريق إلى الجنة. وقيل: الأعمال الصالحة. ولما فسر ابن عطية الصراط المستقيم بالإيمان قال: وجاء ترتيب هذه الآية كذا. ومعلوم أن الهداية قبل إعطاء الأجر؛ لأن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب؛ فالمعنى: وهديناهم قبل حتى يكونوا ممن يؤتى الأجر، انتهى. وأما إذا فسرت الهداية إلى الصراط هنا بأنه طريق الجنة، أو الأعمال الصالحة، فإنه يظهر الترتيب. [أبو حيان (٢/ ٧٥)].

(٣) وأعظم من هذا كله بشارة ما ثبت في الصحيح والمسانيد وغيرهما من طرق متواترة عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ سئل عن الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ فقال: «المرء مع من أحب». قال أنس: فما فرح المسلمون فرحهم بهذا الحديث. أخرجه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠). وفي رواية عن أنس أنه قال: إني لأحب رسول الله ﷺ وأحب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما وأرجو أن يعثني معهم وإن لم أعمل كعملهم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الْكَوْكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الْأَفْقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ» قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بَلَى

بَطَاعَتِهِمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ٧٥﴾ بِثَوَابِ الْآخِرَةِ، أَي: فَتَقُوا بِمَا أَخْبَرَكُمْ بِهِ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ مِنْ عَدُوِّكُمْ، أَي: احْتَرِزُوا مِنْهُ، وَتَقَظُّوا لَهُ ﴿فَأَنْفِرُوا﴾ أَنْهَضُوا إِلَى قِتَالِهِ ﴿ثُبَاتٍ﴾ مُتَفَرِّقِينَ سَرِيَّةً بَعْدَ أُخْرَى ﴿أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ٧٦﴾ مُجْتَمِعِينَ. ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ﴾ لَيَتَأَخَّرَنَّ عَنِ الْقِتَالِ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْمُنَافِقِ وَأَصْحَابِهِ، وَجَعَلَهُ مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ الظَّاهِرِ وَاللَّامِ فِي الْفِعْلِ لِلْقَسَمِ ﴿فَإِنْ أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ كَقَتْلِ وَهْزِيمَةٍ ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ٧٧﴾ حَاضِرًا فَأَصَابَ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَصَبَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾ كَفَتْحِ وَغَنِيمَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ نَادِمًا ﴿كَأَنَّ﴾ مُخَفَّفَةً، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: كَأَنَّهُ ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ مَعْرِفَةٌ وَصَدَاقَةٌ، وَهَذَا رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ﴾، أُعْزِضَ بِهِ بَيْنَ الْقَوْلِ وَمَقُولِهِ وَهُوَ: ﴿يَا﴾ لِلتَّنْيِيسِ ﴿لَيَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ٧٨﴾ أَخَذَ حَظًّا وَافِرًا مِنَ الْغَنِيمَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ﴾ يَبِيعُونَ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ﴾ يُسْتَشْهِدُ ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾ يَطْفُرْ بَعْدُوهُ ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٧٩﴾ ثَوَابًا جَزِيلًا. ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ، أَي: لَا مَانِعَ لَكُمْ مِنَ الْقِتَالِ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ﴾ فِي تَخْلِيسِ ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الَّذِينَ حَبَسَهُمُ الْكُفَّارُ عَنِ الْهَجَرَةِ وَأَذَوْهُمْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْهُمْ ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ دَاعِينَ: يَا ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ مَكَّةَ ﴿الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ بِالْكَفْرِ ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّى أُمُورَنَا ﴿وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٨٠﴾ يَمْنَعُنَا مِنْهُمْ، وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُمْ، فَيَسَّرَ لِبَعْضِهِمُ الْخُرُوجَ وَبَقِيَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنْ فُتِحَتْ مَكَّةُ، وَوَلَّى عَلَيْهِمُ ﷺ عَتَابَ بْنِ أَصِيدٍ فَأَنْصَفَ مَظْلُومِهِمْ مِنْ ظَالِمِهِمْ. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الشَّيْطَانِ ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ﴾ أَنْصَارَ دِينِهِ، تَغْلِبُوهُمْ لِقَوَاتِكُمْ بِاللَّهِ ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿كَانَ ضَعِيفًا ٨١﴾ وَاهِيًا، لَا يُقَاوِمُ كَيْدَ اللَّهِ بِالْكَافِرِينَ. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ عَنْ قِتَالِ الْكُفَّارِ، لَمَّا طَلَبُوهُ بِمَكَّةَ لِأَذَى الْكُفَّارِ لَهُمْ، وَهُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَحْشُونَ﴾ يَخَافُونَ ﴿النَّاسَ﴾ الْكُفَّارَ، أَي: عَذَابَهُمْ بِالْقَتْلِ

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رَجُلًا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٥٦)، وَمُسْلِمٌ (٢٨٣١). [ابن كثير (٢/٣٥٥)]. وَهَذِهِ الْآيَةُ مفسرة لقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. [ابن جرير (١/١٩٨)].

﴿كَخَشِيَّةٍ﴾ هُمْ عَذَابُ ﴿اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشِيَّةٍ﴾ مِنْ خَشِيَّتِهِمْ لَهُ، وَنُصِبَ ﴿أَشَدَّ﴾ عَلَى الْحَالِ، وَجَوَابُ ﴿لَمَّا﴾ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿إِذَا﴾ وَمَا بَعْدَهَا، أَيُّ: فَاجَأَتْهُمْ الْخَشِيَّةُ ﴿وَقَالُوا﴾ جَزَاءً مِنَ الْمَوْتِ: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَتَّعُ الدُّنْيَا﴾ مَا يَمْتَنِعُ بِهِ فِيهَا أَوْ لَا اسْتِمْتَاعُ بِهَا ﴿قَلِيلٌ﴾ آيِلُ إِلَى الْفَنَاءِ ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ أَيُّ: الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ عِقَابَ اللَّهِ بِتَرْكِ مَعْصِيَتِهِ ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ تُنْقَضُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ ﴿فَتِيلًا ۝٧٧﴾ قَدَرُ قِشْرَةِ النَّوَّةِ^(١)، فَجَاهِدُوا. ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ حُصُونٍ ﴿مُشِيدَةً﴾ مَرْتَفَعَةٍ، فَلَا تَخْشَوُ الْقِتَالَ خَوْفَ الْمَوْتِ ﴿وَإِنْ تُصِيبَهُمْ﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ ﴿حَسَنَةٌ﴾ خِصْبٌ وَسَعَةٌ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ جَذْبٌ وَبَلَاءٌ، كَمَا حَصَلَ لَهُمْ عِنْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ ﴿يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ، أَيُّ: بِشُؤْمِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كُلُّ﴾ مِنَ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ مِنْ قِبَلِهِ^(٢) ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ أَيُّ: لَا يُقَارِبُونَ أَنْ يَفْهَمُوا ﴿حَدِيثًا ۝٧٨﴾ يُلْقَى إِلَيْهِمْ، وَ«مَا» اسْتِنْفَاهُ تَعْجِيبٍ مِنْ فَرَطِ جَهْلِهِمْ، وَنَفْيِ مُقَارَبَةِ الْفِعْلِ أَشَدُّ مِنْ نَفْيِهِ. ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾ خَيْرٍ ﴿فَمِنْ اللَّهِ﴾ أَتَتَكَ فَضْلًا مِنْهُ ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ بَلِيَّةٍ ﴿فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ أَتَتَكَ، حَيْثُ ارْتَكَبْتَ مَا يَسْتَوْجِبُهَا مِنَ الذُّنُوبِ^(٣) ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝٧٩﴾ عَلَى رِسَالَتِكَ. ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾ أَعْرَضَ عَنْ طَاعَتِكَ فَلَا يُهَمِّنُكَ ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا ۝٨٠﴾ حَافِظًا لِأَعْمَالِهِمْ، بَلْ نَذِيرًا وَإِلَيْنَا أَمْرُهُمْ فَنُجَازِيهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيُّ: الْمُنَافِقُونَ إِذَا جَاءُوكَ: أَمْرُنَا

(١) انظر التعليق على الآية (٤٩) من هذه السورة.

(٢) أي: بقضائه وقدره وخلقه... فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك. وأن الرسل لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين. [السعدي (ص: ١٨٨)].

(٣) المراد بالحسنة والسيئة هنا النعم والمصائب التي تصيب العبد من الله، ولهذا قال: ﴿مَا أَصَابَكَ﴾ ولم يقل «ما أصبت». فكل نقص وبلاء وشر في الدنيا والآخرة، فسيبه الذنوب، ومخالفة أوامر الرب، فليس في العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها. وآثار الحسنات والسيئات في القلوب والأبدان والأموال أمر مشهود في العالم، لا ينكره ذو عقل سليم، بل يعرفه المؤمن والكافر، والبر والفاجر. وهذا إجماع من السلف في تفسير هذه الآية. قال أبو العالية: «وإن تصيبكم حسنة هذا في السراء وإن تصيبهم سيئة هذا في الضراء»... عن ابن عباس: «إن تصيبك حسنة الخصب وإن تصيبك سيئة الجذب والبلاء». وقال ابن قتيبة في هذه الآية: «الحسنة النعمة والسيئة البلية». [شفاء العليل لابن القيم (٢/٢٦)].

﴿طَاعَةٌ﴾ لَكَ ﴿فَإِذَا بَرَزُوا﴾ خَرَجُوا ﴿مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ بِإِذْعَامِ النَّاءِ فِي الطَّاءِ وَتَرْكِهِ، أَي: أَضْمَرَتْ
 ﴿غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ لَكَ فِي حُضُورِكَ مِنَ الطَّاعَةِ، أَي: عَصِيَانَكَ ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ﴾ يَأْمُرُ بِكُتُبِ ﴿مَا يُبَيِّتُونَ﴾ فِي
 صَحَائِفِهِمْ لِيَجَازُوا عَلَيْهِ ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ بِالصَّفْحِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾
 ﴿٨١﴾ مُفَوَّضًا إِلَيْهِ. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ يَتَأَمَّلُونَ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَعَانِي الْبَدِيعَةِ ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾
 لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ تَنَافُضًا فِي مَعَانِيهِ، وَتَبَايُنًا فِي نَظْمِهِ^(١). ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ﴾ عَنْ سَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ بِمَا
 حَصَلَ لَهُمْ ﴿مِّنَ الْأَمْنِ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿أَوْ الْخَوْفِ﴾ بِالْهَزِيمَةِ ﴿أَدَّاعُوا بِهِ﴾ أَفْشَوْهُ، نَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ أَوْ
 فِي ضِعْفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ، فَتَضَعُفُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَأَذَى النَّبِيُّ ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أَي: الْخَبَرُ ﴿إِلَى﴾
 الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴿أَي: ذَوِي الرَّأْيِ مِنْ أَكَابِرِ الصَّحَابَةِ، أَي: لَوْ سَكَتُوا عَنْهُ حَتَّى يُخْبِرُوا بِهِ﴾ ﴿لَعَلِمَهُ﴾ هَلْ
 هُوَ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُذَاعَ أَوْ لَا ﴿الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ يَتَّبِعُونَهُ وَيَطْلُبُونَ عِلْمَهُ وَهُمْ الْمَذِيْعُونَ ﴿مِنْهُمْ﴾ مِنَ الرَّسُولِ وَأُولَى
 الْأَمْرِ^(٢) ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ لَكُم بِالْقُرْآنِ ﴿لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنْ

(١) يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم
 والمعارف، وبه يستتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته. فإنه يعرف بالرب المعبود، وما
 له من صفات الكمال؛ وما يتره عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو
 الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب. وكلما ازداد العبد تأملاً فيه
 ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك وحث عليه وأخبر أنه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾
 ﴿مُبَارَكٌ لِّيَذَكِّرَ أَوْ لِيُنذِرَ أَوْ لِيُرْسِلَ﴾ [ص: ٢٩] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]
 ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً.
 فترى الحكم والقصة والأخبار تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن وأنه
 من عند من أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] أي:
 فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً. [السعدي (ص: ١٨٩)].

(٢) في هذه الآية تأديب لكل من يحدث بكل ما يسمع، وكفى به كذباً، وخصوصاً عن مثل السرايا والمناصيين الأعداء والمقيمين في نحر
 العدو، وما أعظم المفسدة في لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبارهم، خيراً أو غيره. وقد روى مسلم (٥)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول
 الله ﷺ أنه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ». وعند أبي داود (٤٩٩٢): «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا...». وثمرة الآية أنه يجب كتم ما
 يضر إظهاره للمسلمين، وأن إذاعته قبيحة، وأنه لا يخبر بما لم يعرف صحته، وتدل على تحريم الإرجاف على المسلمين، وعلى أنه يلزم

أَلْفَوَاحِشٍ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَتِلْ ﴿٨٣﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿٨٣﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَهْتَمَّ بِتَخْلُفِهِمْ عَنْكَ، أَلَمَعْنَى: قَاتِلْ وَلَوْ وَحْدَكَ فَإِنَّكَ مُوْعِدٌ بِالنَّصْرِ ﴿٨٣﴾ وَحَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ حُتَّهِمْ عَلَى الْقِتَالِ وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ ﴿٨٣﴾ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسْ ﴿٨٣﴾ حَرْبَ ﴿٨٣﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا ﴿٨٣﴾ مِنْهُمْ ﴿٨٣﴾ وَأَشَدُّ تَنَكِيلًا ﴿٨٤﴾ ﴿٨٤﴾ تَعْدِيًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرُجَنَّ وَلَوْ وَحْدِي»^(١)، فَخَرَجَ بِسَبْعِينَ رَاكِبًا إِلَى بَدْرِ الصُّغْرَى فَكَفَّ اللَّهُ بِأَسِ الْكُفَّارِ بِالْقَاءِ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِهِمْ وَمَنْعَ أَبِي سُفْيَانَ عَنِ الْخُرُوجِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي «آلِ عُمَرَ»^(٢). ﴿٨٥﴾ «مَنْ يَشْفَعُ» بَيْنَ النَّاسِ^(٣) ﴿٨٥﴾ «شَفَعَةً حَسَنَةً» مُوَافَقَةً لِلشَّرْعِ «يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ» مِنَ الْأَجْرِ «مِنْهَا» بِسَبَبِهَا «وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَعَةً سَيِّئَةً» مُخَالَفَةً لَهُ «يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ» نَصِيبٌ مِنَ الْوِزْرِ «مِنْهَا» بِسَبَبِهَا «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا»^(٤) ﴿٨٥﴾ مُقْتَدِرًا، فَيَجَازِي كُلَّ أَحَدٍ بِمَا عَمِلَ. «وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ» كَأَنَّ قِيلَ لَكُمْ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» ﴿٨٦﴾ «فَحَيُّوا» الْمَحْيِي «بِأَحْسَنَ مِنْهَا» بِأَنْ تَقُولُوا لَهُ: «عَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ» ﴿٨٦﴾ «أَوْ رُدُّوهُا» بِأَنْ تَقُولُوا لَهُ كَمَا قَالَ، أَيِ: الْوَاجِبُ أَحَدُهُمَا وَالْأَوَّلُ أَفْضَلُ ﴿٨٦﴾ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا»^(٥) ﴿٨٦﴾ مُحَاسِبًا، فَيَجَازِي عَلَيْهِ وَمِنْهُ رَدُّ السَّلَامِ، وَخَصَّتِ السُّنَّةُ: الْكَافِرَ وَالْمُبْتَدِعَ وَالْفَاسِقَ وَالْمُسْلِمَ عَلَى قَاضِي الْحَاجَةِ وَمَنْ فِي الْحَمَامِ وَالْأَكِلِ، فَلَا يَجِبُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ بَلْ يُكْرَهُ فِي غَيْرِ الْأَخِيرِ، وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ: «وَعَلَيْكَ». «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»، وَاللَّهُ «لِيَجْمَعَنَّكُمْ» مِنْ قُبُورِكُمْ «إِلَى» فِي «يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ» لَا شَكَّ «فِيهِ وَمَنْ» أَيِ: لَا أَحَدَ «أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا»^(٦) ﴿٨٧﴾ قَوْلًا. وَلَمَّا رَجَعَ نَاسٌ مِنْ أَحَدٍ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِمْ، فَقَالَ فَرِيقٌ: نَقْتُلُهُمْ، وَقَالَ فَرِيقٌ: لَا، فَتَرَلَّ: ﴿٨٨﴾ «فَمَا لَكُمْ» أَيِ: مَا شَأْنُكُمْ صِرْتُمْ ﴿٨٨﴾ فِي الْمُتَنَفِّقِينَ فِتْنَتَيْنِ ﴿٨٨﴾ فَرِيقَيْنِ ﴿٨٨﴾ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ ﴿٨٨﴾ رَدَّهُمْ ﴿٨٨﴾ بِمَا كَسَبُوا ﴿٨٨﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿٨٨﴾ أَتْرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ هُ ﴿٨٩﴾ «اللَّهُ» أَيِ: تَعُدُّوهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْمُهْتَدِينَ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِنْكَارِ ﴿٨٩﴾ «وَمَنْ يُضِلِلْ» هُ ﴿٨٩﴾ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى. ﴿٩٠﴾ «وَدُّوا» تَمَنَّوْا ﴿٩٠﴾ «لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ» أَنْتُمْ وَهُمْ ﴿٩٠﴾ «سَوَاءً» فِي الْكُفْرِ ﴿٩٠﴾ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿٩١﴾ تَوَالُوهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ ﴿٩١﴾ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ

الرجوع إلى العلماء في الفتيا، وتدل على صحة القياس والاجتهاد؛ لأنه استنباط. [القاسمي (٢٣٥/٣)].

(١) ذكره البغوي عن مجاهد وعكرمة (١٣٧/٢)، وابن أبي زمنين (٣٣٥-٣٣٦).

(٢) الآية (١٧٢).

(٣) أصل الشفاعة والشفعة ونحوهما من «الشفع» وهو الزوج، ومنه الشفيع لأنه يصير مع صاحب الحاجة شفعا... فهي على التحقيق

إظهار لمتزلة الشفيع عند المشفع وإيصال منفعة إلى المشفوع له، والشفاعة الحسنة هي في البر والطاعة. [الشوكاني (٥٦٩/١)].

﴿اللَّهُ﴾ هِجْرَةً صَحِيحَةً تُحَقِّقُ إِيمَانَهُمْ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وَأَقَامُوا عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا﴾ تَوَلَّوْنَهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ٨٩ ﴿تَتَصَرُّونَ بِهِ عَلَى عَدُوِّكُمْ﴾. ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ يَلْجَأُونَ ﴿إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عَهْدٌ بِالْأَمَانِ لَهُمْ وَلِمَنْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، كَمَا عَاهَدَ النَّبِيُّ ﷺ هَلَالَ بْنُ عُوَيْمِرٍ الْأَسْلَمِيِّ ﴿أَوْ﴾ الَّذِينَ ﴿جَاءُوكُمْ﴾ وَقَدْ ﴿حَصَرْتُمْ﴾ ضَاقَتْ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عَنْ ﴿أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ مَعَ قَوْمِهِمْ ﴿أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ مَعَكُمْ، أَي: مُمَسِّكِينَ عَنْ قِتَالِكُمْ وَقِتَالِهِمْ، فَلَا تَتَعَرَّضُوا إِلَيْهِمْ بِأَخْذٍ وَلَا قَتْلِ، وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ٩٠ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تَسْلِيْطُهُمْ عَلَيْكُمْ ﴿لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ يُقَوِّي قُلُوبَهُمْ ﴿فَلَقَاتِلُوكُمْ﴾ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَشَأْ، فَالْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴿فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ الصَّلَحَ، أَي: انْقَادُوا ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ ٩١ طَرِيقًا بِالْأَخْذِ وَالْقَتْلِ. ﴿سَتَجِدُونَ﴾ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ عِنْدَكُمْ ﴿وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ، وَهُمْ أَسَدٌ وَعُظْفَانٌ ﴿كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ﴾ دُعُوا إِلَى الشَّرِكِ ﴿أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ وَقَعُوا أَشَدَّ وَقُوعٍ ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ﴾ بَتَرَكِ قِتَالِكُمْ ﴿وَلَمْ يُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ لَمْ يَكْفُفُوا أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ﴿فَخُذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ٩٢ بُرْهَانًا بَيِّنًا ظَاهِرًا، عَلَى قَتْلِهِمْ وَسَبْيِهِمْ لِغَدْرِهِمْ. ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ أَي: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْدَرَ مِنْهُ قَتْلٌ لَهُ ٩٣ ﴿إِلَّا خَطَأً﴾ مُخْطِئًا فِي

- (١) قيل: هذا منسوخ بآية القتال، وقيل: محكمة محمولة على المعاهدين وهذا هو الظاهر. [صديق حسن (٣/ ١٩٧)]. روي ابن أبي حاتم (٥٧٥٧) عن الحسن أن سراقه بن مالك المدلجي حدثهم، قال: لما ظهر يعني النبي ﷺ على أهل بدر وأحد، وأسلم من حولهم، قال سراقه: بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج، فأتيته فقلت: أنشدك النعمة. فقالوا: صه، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهُ، مَا تَرِيدُ؟» قال: بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي، وأنا أريد أن توادعهم، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام، وإن لم يسلموا، لم تخشن قلوب قومك عليهم، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال: «أَذْهَبَ مَعَهُ فَأَفْعَلَ مَا يُرِيدُ»، فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ وإن أسلمت قريش أسلموا، فأنزل الله: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾. [ابن كثير (٢/ ٣٧٢)].
- (٢) هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمدا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصا عظيما، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدق قوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦). فعلم أن القتل من الكفر العملي وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله. [السعدي (ص: ١٩٢)].

قَتْلِهِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً﴾ بِأَنْ قَصَدَ رَمَى غَيْرِهِ كَصَيْدٍ أَوْ شَجَرَةً فَأَصَابَهُ أَوْ ضَرَبَهُ بِمَا لَا يَقْتُلُ غَالِبًا ﴿فَتَحْرِيرُ﴾ عَتَى ﴿رَقَبَةٍ﴾ نَسَمَةٍ ﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ عَلَيْهِ ﴿وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ﴾ مُؤَدَّاةٌ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ أَيُّ: وَرَثَةِ الْمَقْتُولِ ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ يَتَصَدَّقُوا عَلَيْهِ بِهَا بِأَنْ يَعْفُوا عَنْهَا، وَبَيَّتِ السَّنَةُ أَنَّهَا مِائَةٌ مِنَ الْإِبِلِ: عِشْرُونَ بِنْتُ مَخَاضٍ وَكَذَا بَنَاتُ لُبُونٍ وَبَنُو لُبُونٍ وَحِقَاقُ وَجَدَاعُ، وَأَنَّهَا عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ، وَهُمْ عَصَبَتُهُ إِلَّا الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ، مُورَعَةً عَلَيْهِمْ عَلَى ثَلَاثِ سِنِينَ عَلَى الْغَنِيِّ مِنْهُمْ نِصْفُ دِينَارٍ وَالْمُتَوَسِّطِ رُبْعُ كُلِّ سَنَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَفُوا فَمِنْ بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ فَعَلَى الْجَانِي ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ الْمَقْتُولُ ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ﴾ حَرْبٍ ﴿لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ عَلَى قَاتِلِهِ كَفَّارَةً، وَلَا دِيَّةَ تُسَلَّمُ إِلَى أَهْلِهِ لِحَرَائِثِهِمْ ﴿وَإِنْ كَانَ﴾ الْمَقْتُولُ ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ عَهْدٌ كَأَهْلِ الذِّمَّةِ ﴿فَدِيَّةٌ﴾ لَهُ ﴿مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾ وَهِيَ ثُلُثُ دِيَّةِ الْمُؤْمِنِ إِنْ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَثُلُثَا عَشْرَهَا إِنْ كَانَ مَجُوسِيًّا^(١) ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ عَلَى قَاتِلِهِ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرَّقَبَةَ بِأَنْ فَقَدَهَا وَمَا يُحْصِلُهَا بِهِ ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ عَلَيْهِ كَفَّارَةً^(٢)، وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا نِتْقَالَ إِلَى الطَّعَامِ كَالظُّهَارِ وَبِهِ أَخَذَ الشَّافِعِيُّ فِي أَصَحِّ قَوْلِهِ ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفَعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ ﴿فِيمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ﴾. ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾ بِأَنْ يَقْصِدَ قَتْلَهُ بِمَا يَقْتُلُ غَالِبًا عَالِمًا بِإِيمَانِهِ ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ ﴿فِي النَّارِ﴾ وَهَذَا مُؤَوَّلٌ بِمَنْ يَسْتَحِلُّهُ، أَوْ بِأَنْ هَذَا جَزَاؤُهُ إِنْ جُوزِيَ، وَلَا بُدَّ فِي خُلْفِ الْوَعِيدِ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهَا عَلَى ظَاهِرِهَا،

(١) المعنى عند الحسن، وجابر بن زيد، وإبراهيم، وغيرهم: وإن كان هذا المقتول خطأ مؤمناً من قوم معاهدين لكم، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، فكفارته التحرير وأداء الدية، وقرأ الحسن: «(وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق وهو مؤمن)» وقال ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم أيضاً: المقتول من أهل العهد خطأ لا يبالي كان مؤمناً أو كافراً على عهد قومه، فيه الدية كدية المسلم، ... واختلف على هذا في دية المعاهد، فقال أبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم، وروي ذلك عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال مالك وأصحابه: ديته على نصف دية المسلم، وقال الشافعي، وأبو ثور: ديته على ثلث دية المسلم. [ابن عطية (٢/٩٣)].

(٢) أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم. [السعدي (ص: ١٩٢)].

وَأَنَّهَا نَاسِحَةٌ لِّغَيْرِهَا مِنْ آيَاتِ الْمَغْفِرَةِ^(١). وَبَيَّنَّتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ^(٢) أَنَّ قَاتِلَ الْعَمْدِ يُقْتَلُ بِهِ وَأَنَّ عَلَيْهِ الدِّيَّةَ إِنْ عُفِيَ عَنْهُ، وَسَبَقَ قَدْرُهَا، وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ بَيْنَ الْعَمْدِ وَالْخَطَا قِتْلًا يُسَمَّى شِبْهَ الْعَمْدِ وَهُوَ أَنْ يَقْتُلَهُ بِمَا لَا يَقْتُلُ غَالِبًا، فَلَا قِصَاصَ فِيهِ بَلْ دِيَّةٌ كَالْعَمْدِ فِي الصِّفَةِ، وَالْخَطَا فِي التَّاجِيلِ وَالْحَمَلِ، وَهُوَ وَالْعَمْدُ أَوْلَى بِالْكَفَّارَةِ مِنَ الْخَطَا. وَنَزَلَ لَمَّا مَرَّ نَفَرٌ مِنَ الصَّحَابَةِ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ وَهُوَ يَسُوقُ غَنَمًا فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْنَا إِلَّا تَقِيَّةً، فَقَتَلُوهُ وَاسْتَأْفُوا غَنَمَهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ سَافَرْتُمْ لِلْجِهَادِ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ بِالْمُثَلَّثَةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ﴾ بِالْفِ وَدُونَهَا، أَيِ: التَّحِيَّةِ أَوْ الْإِنْقِيَادِ بِكَلِمَةِ الشَّهَادَةِ الَّتِي هِيَ أَمَارَةٌ عَلَى إِسْلَامِهِ ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا﴾ وَإِنَّمَا قُلْتَ هَذَا تَقِيَّةً لِنَفْسِكَ وَمَالِكَ، فَقَتَلُوهُ ﴿تَبَتُّعُونَ﴾ تَطْلُبُونَ بِذَلِكَ ﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ مَتَاعَهَا مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾ تُغْنِيكُمْ عَنْ قَتْلِ مِثْلِهِ لِمَالِهِ ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ تَعْصَمُ دِمَاؤُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ بِمُجَرَّدِ قَوْلِكُمْ الشَّهَادَةَ ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بِالِاشْتِهَارِ بِالْإِيمَانِ وَالِاسْتِقَامَةِ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أَنْ تَقْتُلُوا مُؤْمِنًا، وَافْعَلُوا بِالْدَّخْلِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا فَعَلَ بِكُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ﴿٩٦﴾ فَيَجَازِيَكُمْ بِهِ. ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ عَنِ الْجِهَادِ ﴿غَيْرُ أُولَى الضَّرَرِ﴾ بِالرَّفْعِ صِفَةً وَالنَّصْبِ إِسْتِثْنَاءً، مِنْ زِمَانَةٍ أَوْ عَمَى أَوْ نَحْوِهِ ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لَضَرَرِ ﴿دَرَجَةً﴾ فَضِيلَةً لِاسْتَوَائِهِمَا فِي النِّيَّةِ وَزِيَادَةِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْمُبَاشَرَةِ ﴿وَكُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ الْجَنَّةَ ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ﴾ لِغَيْرِ ضَرَرٍ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٩٧﴾. وَيُبْدِلُ مِنْهُ: ﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ﴾ مَنَازِلَ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الْكِرَامَةِ ﴿وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ مَنْصُوبَانِ بِفَعْلِهِمَا

(١) الصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها - فقال: وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضي الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه. وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين. ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتبارًا بمقتضي العقاب وموانعه، وإعمالًا لأرجحها. [السعدي (ص: ١٩٣)].

(٢) سورة البقرة آية (١٧٨).

الْمُقَدَّرِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لَاؤَلِيَّائِهِ ﴿رَحِيمًا ٩٦﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. وَنَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا وَلَمْ يَهَاجِرُوا، فَقَتَلُوا يَوْمَ بَدْرٍ مَعَ الْكُفَّارِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغُلَامَ ظَالِمٍ أَنْفُسِهِمْ﴾ بِالْمَقَامِ مَعَ الْكُفَّارِ وَتَرَكَ الْهَجْرَةَ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ مُؤَبِّخِينَ: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أَي: فِي أَيِّ شَيْءٍ كُنْتُمْ فِي أَمْرِ دِينِكُمْ؟ ﴿قَالُوا﴾ مُعْتَذِرِينَ: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ﴾ عَاجِزِينَ عَنْ إِقَامَةِ الدِّينِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مَكَّةَ، ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ مِنْ أَرْضِ الْكُفْرِ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ كَمَا فَعَلَ غَيْرُكُمْ؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧﴾ هِيَ (١).
 ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ الَّذِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الْهَجْرَةِ وَلَا نَفَقَةٍ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨﴾ طَرِيقًا إِلَى أَرْضِ الْهَجْرَةِ. ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا ٩٩﴾ * وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا مَهَاجِرًا ﴿كَثِيرًا وَسِعَةً﴾ فِي الرِّزْقِ (٢) وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مَهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فِي الطَّرِيقِ، كَمَا وَقَعَ لِحُجْنَدُ بْنُ صَمْرَةَ اللَّيْثِيِّ فَقَدْ وَقَعَ ﴿ثَبَتَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ سَافِرْتُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ بِأَنْ تَرُدُّوهَا مِنْ أَرْبَعٍ إِلَى اثْنَتَيْنِ ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ﴾ أَي: يَنَالَكُمْ بِمَكْرُوهِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بَيَانٌ لِلْوَاقِعِ إِذْ ذَاكَ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ، وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّفَرِ: الطَّوِيلَ، وَهُوَ: أَرْبَعُ بَرْدٍ وَهِيَ مَرَحَلَتَانِ، وَيُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أَنَّهُ رُخْصَةٌ لَا وَاجِبُ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ (٣) ﴿إِنْ

(١) هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات ... واستثنى المستضعفين حقيقة. ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَأَعْبُدُون﴾ [العنكبوت: ٥٦] قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه وانتفاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع. وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من الكبائر. [السعدي (ص: ١٩٥)].

(٢) أي: في البلاد، وقيل: بالرزق، وقال: عطاء سعة، أي: رخاء، وقيل: في إظهار الدين، أو في تبدل الخوف بالأمن، أو من الضلال إلى الهدى، ولا مانع من حمل السعة على ما هو أعم من ذلك. [صديق حسن (٣/ ٢١٨)].

(٣) ذهب الجمهور إلى أن الآية عني بها تشريع صلاة السفر، وإن معنى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ هو قصر الكمية، وذلك بأن تجعل الرباعية ثنائية، قالوا: وحكمها لمسافر في حال الأمن كحكمها في حال الخوف لتظاهر السنن على مشروعيتها مطلقا. عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ خرج من المدينة إلى مكة لا يخاف إلا رب العالمين، فصلى ركعتين. أخرجه الترمذي (٥٤٧). وعن أنس رضي الله عنه

الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١١﴾ بَيْنِي وَالْعَدَاوَةَ. ﴿وَإِذَا كُنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ حَاضِرًا ^(١) ﴿فِيهِمْ﴾ وَأَنْتُمْ تَخَافُونَ الْعَدُوَّ ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ وَهَذَا جَزِيٌّ عَلَى عَادَةِ الْقُرْآنِ فِي الْخِطَابِ، فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ^(٢) ﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ وَتَتَأَخَّرَ طَائِفَةٌ ﴿وَلْيَأْخُذُوا﴾ أَيِ: الطَّائِفَةُ الَّتِي قَامَتْ مَعَكَ ﴿أَسْلِحَتْهُمْ﴾ مَعَهُمْ ﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أَيِ: صَلُّوا ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ أَيِ: الطَّائِفَةُ الْآخَرَى ﴿مِنْ وَرَائِكُمْ﴾ يَخْرُسُونَ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ، وَتَذْهَبَ هَذِهِ الطَّائِفَةُ تَخْرُسُ ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ﴾ مَعَهُمْ إِلَى أَنْ تَقْضُوا الصَّلَاةَ، وَقَدْ فَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ كَذَلِكَ بِبَطْنِ نَخْلٍ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ ^(٣) ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ﴾ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً﴾ بَأَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْكُمْ فَيَأْخُذُوكُمْ، وَهَذَا عَلَّةُ الْأَمْرِ بِأَخْذِ السَّلَاحِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾

قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة، فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، قلت: أقمتكم بمكة شيئا؟ قال: أقمنا بها عشرا. أخرجه البخاري (١٠٨١)، ومسلم (٦٩٣). وحيثُ فقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ خرج مخرج الغالب حال نزول الآية؛ إذ كانت أسفارهم بعد الهجرة في مبدئها مخوفة. ويدل على أن المراد بالآية صلاة السفر [حديث] يعلى بن أمية قال: سألت عمر بن الخطاب، قلت له: قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر رضي الله عنه: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ». أخرجه مسلم (٦٨٦). [القاسمي (٢٩٨/٣)].

(١) ظاهرها يقتضي أنها لا تصلى بعد رسول الله ﷺ لأنه شرط كونه فيهم، وبذلك قال أبو يوسف، وأجازها الجمهور بعده رضي الله عنه، لأنهم رأوا أن الخطاب له يتناول أمته، وقد فعلها الصحابة بعده رضي الله عنه، واختلف الناس في صلاة الخوف على عشرة أقوال، لاختلاف الأحاديث فيها، ولسنا نضطر إلى ذكرها فإن تفسيرها لا يتوقف على ذلك، وكانت صلاة رسول الله ﷺ لصلاة الخوف في غزوة ذات الرقاع. [ابن جزي (٢٠٧/١)]. فإن الأئمة بعده رضي الله عنه نوابه، وقوام بما كان يقوم به فيتناولهم حكم الخطاب الوارد له رضي الله عنه كما في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]. وعن ثعلبة بن زهدم قال: كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال: أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ فقال حذيفة: أنا، ثم وصف له ذلك، فصلوا كما وصف، ولم يقضوا. أخرجه أبو داود (١٢٤٦)، والنسائي (١٥٣٠)، وأحمد (٢٣٣٨٩). وكان ذلك بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكره أحد منهم، وهم الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا يحل محل الإجماع، ويرد ما زعمه المزني من دعوى النسخ أيضا. [الآلوسي (١٢٩/٣)].

(٢) أي: فأردت أن تقيم الصلاة بهم. [النسفي (٣٩١/١)].

(٣) أخرجه البخاري (٤١٣٧)، ومسلم (٨٤٠).

فَلَا تَحْمِلُوهَا، وَهَذَا يُفِيدُ إِيْجَابَ حَمْلِهَا عِنْدَ عَدَمِ الْعُذْرِ، وَهُوَ أَحَدُ قَوْلَيْنِ لِلشَّافِعِيِّ، وَالثَّانِي أَنَّهُ سُنَّةٌ وَرُجِحَ ﴿وَحُدُوا حِذْرَكُمْ﴾ مِنَ الْعَدُوِّ، أَيِ: احْتَرِزُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٣٥﴾ ذَا إِهَانَةٍ. ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ﴾ فَرَعْتُمْ مِنْهَا ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّسْبِيحِ ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ مُضْطَجِعِينَ، أَيِ: فِي كُلِّ حَالٍ ﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ﴾ أَمْتُمْ ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ أَدْوَاهَا بِحَقْقِهَا ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا﴾ مَكْتُوبًا، أَيِ: مَفْرُوضًا ﴿مَوْقُوتًا ١٣٦﴾ أَيِ: مُقَدَّرًا وَقْتُهَا، فَلَا تُؤَخَّرُ عَنْهُ. وَنَزَلَ لَمَّا بَعَثَ ﷺ طَائِفَةً فِي طَلَبِ أَبِي سُفْيَانَ وَأَصْحَابِهِ، لَمَّا رَجَعُوا مِنْ أَحَدٍ فَشَكُوا الْجِرَاحَاتِ ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ تَضَعُفُوا ﴿فِي ابْتِغَاءِ﴾ طَلَبِ ﴿الْقَوْمِ﴾ الْكَفَّارِ لِقَاتِلِهِمْ ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ﴾ تَجِدُونَ أَلَمَ الْجِرَاحِ ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ أَيِ: مِثْلَكُمْ، وَلَا يَجْبُنُونَ عَنْ قِتَالِكُمْ ﴿وَتَرْجُونَ﴾ أَنْتُمْ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ مِنَ النَّصْرِ وَالثَّوَابِ عَلَيْهِ ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾ هُمْ، فَانْتَمَ تَزِيدُونَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونُوا أَرْغَبَ مِنْهُمْ فِيهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿حَكِيمًا ١٣٧﴾ فِي صُنْعِهِ. وَسَرَقَ طُعْمَةُ بْنُ أَبِي رَافٍ دِرْعًا وَخَبَأَهَا عِنْدَ يَهُودِيٍّ، فَوَجَدَتْ عِنْدَهُ فَرَمَاهُ طُعْمَةُ بِهَا وَحَلَفَ أَنَّهُ مَا سَرَقَهَا، فَسَأَلَ قَوْمَهُ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُجَادِلَ عَنْهُ وَيُبْرِئَهُ، فَنَزَلَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أَنْزَلَ﴾ لِيَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَلَكَ ﴿أَعْلَمَكَ﴾ اللَّهُ فِيهِ ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ﴾ كَطُعْمَةَ ﴿خَصِيمًا ١٣٨﴾ مُخَاصِمًا عَنْهُمْ. ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ مِمَّا هَمَمْتَ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ١٣٩﴾ وَلَا تُجَدِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ ﴿يَخُونُونَهَا بِالْمَعَاصِي؛ لَأَنْ وَبَالَ خِيَانَتِهِمْ عَلَيْهِمْ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا ﴿كَثِيرَ الْخِيَانَةِ﴾ أَثِيمًا ﴿١٤٠﴾ أَيِ: يُعَاقِبُهُ^(١). ﴿يَسْتَحْفُونَ﴾ أَيِ: طُعْمَةُ وَقَوْمُهُ حَيَاءً ﴿مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بِعِلْمِهِ ﴿إِذَا يُبَيِّتُونَ﴾ يُضْمِرُونَ ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ مِنْ عَزْمِهِمْ عَلَى الْحَلْفِ عَلَى نَفْيِ السَّرِقَةِ، وَرَمَى الْيَهُودِيَّ بِهَا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٤١﴾ عَلَمًا. ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ يَا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ خِطَابٌ لِقَوْمِ طُعْمَةَ ﴿جَدَلْتُمْ﴾ خَاصَمْتُمْ ﴿عَنْهُمْ﴾ أَيِ: عَنْ طُعْمَةَ وَذَوِيهِ، وَقُرِئَ: ﴿عَنْهُ﴾^(٢)، ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَدِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ إِذَا عَذَّبَهُمْ؟ ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٤٢﴾ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَيَذُبُّ عَنْهُمْ؟ أَيِ: لَا أَحَدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ ذَنْبًا يَسُوءُ بِهِ غَيْرُهُ، كَرَمِي طُعْمَةَ الْيَهُودِيَّ ﴿أَوْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ يَعْمَلُ ذَنْبًا قَاصِرًا عَلَيْهِ ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾

(١) هذا تفسير لعدم محبة الله بلازمها وهي العقوبة، وهذا لا ينافي أن يكون المراد به حقيقة الصفة، وهي: عدم المحبة.

(٢) قراءة شاذة.

مِنْهُ، أَي: يَتَّبِعُ، ﴿يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَراً﴾ لَهُ ﴿رَحِيماً ١١٠﴾ بِهِ. ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً﴾ ذَنْباً ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ لِأَنَّ وَبَالَهُ عَلَيْهَا، وَلَا يَضُرُّ غَيْرَهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ١١١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ ذَنْباً صَغِيراً ﴿أَوْ إِثْماً﴾ ذَنْباً كَبِيراً^(١) ﴿ثُمَّ يَرَمْ بِهِ بَرِيئاً﴾ مِنْهُ ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ﴾ تَحَمَّلَ ﴿بُهْتَانًا﴾ بَرَمِيهِ ﴿وَإِثْماً مُبِينًا ١١٢﴾ بَيْنَا يَكْسِبُهُ. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ بِالْعِصْمَةِ ﴿لَهَمَّتْ﴾ أَضْمَرَتْ ﴿طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ مِنْ قَوْمِ طُعْمَةٍ ﴿أَنْ يُضْلُوكَ﴾ عَنِ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ، بِتَلْيِيسِهِمْ عَلَيْكَ ﴿وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ زَائِدَةٍ﴾ شَيْءٍ ﴿لَأنَّ وَبَالَ إِضْلَالِهِمْ عَلَيْهِمْ﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴿الْقُرْآنَ﴾ وَالْحِكْمَةَ ﴿مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ﴾ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴿مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْغَيْبِ﴾ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ بِذَلِكَ وَغَيْرِهِ عَظِيماً ١١٣ * لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ أَي: النَّاسِ، أَي: مَا يَتَنَاجَوْنَ فِيهِ وَيَتَحَدَّثُونَ ﴿إِلَّا﴾ نَجْوَى ﴿مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ عَمَلٍ بِرٍّ ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ ﴿أَتَتَّعَاءً﴾ طَلَبَ ﴿مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ لَا غَيْرِهِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَي: اللَّهُ ﴿أَجْراً عَظِيماً ١١٤﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ ﴿يُخَالِفِ﴾ الرَّسُولَ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْحَقِّ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى﴾ ظَهَرَ لَهُ الْحَقُّ بِالْمُعْجَزَاتِ ﴿وَيَتَّبِعِ﴾ طَرِيقاً ﴿غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي: طَرِيقَهُمُ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ^(٢)، بَأَنْ يَكْفُرَ ﴿نُؤْلِهِ﴾ مَا تَوَلَّى ﴿نَجْعَلُهُ﴾ وَالْيَا لِمَا تَوَلَّاهُ مِنَ الضَّلَالِ، بَأَنْ نُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنُصْلِهِ﴾ نُدْخِلُهُ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ فَيَحْتَرِقَ فِيهَا ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا ١١٥﴾ مَرْجِعاً هِيَ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١١٦﴾ عَنِ الْحَقِّ^(٣). ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُ الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: اللَّهُ، أَي: غَيْرُهُ ﴿إِلَّا إِنْشَاءً﴾ أَصْنَاءً

(١) قيل: هما بمعنى واحد كرر للتأكيد، وقال الطبري: إن الخطيئة تكون عن عمد وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد، وقيل: الخطيئة الصغيرة، والإثم الكبيرة، وقيل: الأول ذنب بينه وبين ربه والثاني ذنب في مظالم العباد، وقيل: الخطيئة هي المختصة بفاعله والإثم المتعدي، إلى الغير. [صديق حسن (٣/ ٢٣٥)].

(٢) هذا ملازم للصفة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية، فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ، تشریفاً لهم وتعظيماً لنبیهم ﷺ وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة كثيرة... ومن العلماء من ادعى تواتر معناها، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل. وهو من أحسن الاستنباطات. [ابن كثير (٢/ ٤١٢)].

(٣) انظر التعليق على آية (٤٨) من هذه السورة.

مُؤَنَّثَةً، كَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ ﴿وَأِنْ﴾ مَا ﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ بِعِبَادَتِهَا ﴿إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ۝١٧﴾ خَارِجًا عَنِ الطَّاعَةِ لِبَاعْتِهِمْ لَهُ فِيهَا وَهُوَ إِبْلِيسُ. ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أَبْعَدَهُ عَنْ رَحْمَتِهِ ﴿وَقَالَ﴾ أَيُّ الشَّيْطَانِ ﴿لَا تَتَّخِذَنَّ﴾ لَأَجْعَلَ لِي ﴿مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مَفْرُوضًا ۝١٨﴾ مَقْطُوعًا، أَدْعُوهُمْ إِلَى طَاعَتِي. ﴿وَلَا ضَلَلْتَهُمْ﴾ عَنِ الْحَقِّ بِالْوَسْوَسَةِ ﴿وَلَا مَيَّيْتَهُمْ﴾ أَلْقِي فِي قُلُوبِهِمْ طُولَ الْحَيَاةِ، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ﴾ يُقَطَّعَنَّ ﴿ءَاذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِالْبَحَائِرِ ﴿وَلَا مُرْتَهُمْ فَلْيَغَيِّرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ دِينَهُ بِالْكَفْرِ، وَإِحْلَالِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ ١١ ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ يَتَوَلَّاهُ وَيُطِيعُهُ ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرِهِ ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝١٩﴾ بَيْنًا، لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِ. ﴿يَعِدُّهُمْ﴾ طُولَ الْعُمُرِ ﴿وَيُمَيِّتُهُمْ﴾ نَيْلَ الْأَمَالِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا جَزَاءَ ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بِذَلِكَ ﴿إِلَّا غُرُورًا ۝٢٠﴾ بَاطِلًا. ﴿أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ۝٢١﴾ مَعْدَلًا. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ أَيُّ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ۝٢٢﴾ أَيُّ: قَوْلًا. وَنَزَلَ لَمَّا افْتَخَرَ الْمُسْلِمُونَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ ﴿لَيْسَ﴾ الْأَمْرُ مُنَوَّطًا ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بَلْ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ إِمَّا فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِي الدُّنْيَا بِالْبَلَاءِ وَالْمِحَنِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ١٢ ﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرِهِ ﴿وَلِيًّا﴾ يَحْفَظُهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا ۝٢٣﴾ يَمْنَعُهُ مِنْهُ. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ شَيْئًا﴾ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ﴿بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ﴾ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ١٣ ﴿قَدْ نَرَى تَوَلَّى الْوَلَاةِ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ﴾ أَيُّ: انْقَادَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ ﴿لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوَحِّدٌ ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الْمُؤَافَقَةَ لِمِلَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿حَنِيفًا﴾ حَالًا، أَيُّ: مَاثِلًا عَنِ الْأَدْيَانِ

(١) اختلف العلماء في هذا التغير ما هو فقالت طائفة: هو الخصى وفقء العين وقطع الأذن، وقال آخرون: إن المراد هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر والأحجار والنار ونحوها من المخلوقات لما خلقها له فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة وبه قال الزجاج، وقيل: المراد تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقيل: نفى الأنساب واستلحاقها، أو بتغير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنت، أو بتغيير دين الإسلام، ولا مانع من حمل الآية على جميع هذه الأمور حملاً شمولياً أو بديلياً. [صديق حسن (٣/ ٢٤٥)].

(٢) المقصود حديث أبي بكر رضي الله عنه وفيه: قلت: يا رسول الله بأبي وأمي وأين لم يعمل السوء، وإننا لمجزون بكل سوء عملنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ وَأَصْحَابُكَ فَتَجْزُونَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا حَتَّى تَلْقُوا اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَيْسَتْ لَكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ فَيَجْمَعُ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه الترمذي (٣٠٣٩)، وأحمد (٢٣).

كُلَّهَا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ صَفِيًّا خَالِصَ الْمَحَبَّةِ لَهُ﴾. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ عِلْمًا وَقُدْرَةً، أَيُّ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يَطْلُبُونَ مِنْكَ الْفَتْوَى ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿النِّسَاءِ﴾ وَمِيرَاثِهِنَّ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ مِنْ آيَةِ الْمِيرَاثِ، وَيُفْتِيكُمْ أَيْضًا ﴿فِي يَتَمَّى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ﴾ فَرِضٌ ﴿لَهُنَّ﴾ مِنَ الْمِيرَاثِ ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾ أَيُّهَا الْأَوْلِيَاءُ عَنْ ﴿أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ لِذِمَامَتِهِنَّ، وَتَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَتَزَوَّجَنَّ طَمَعًا فِي مِيرَاثِهِنَّ، أَيُّ: يُفْتِيكُمْ أَنْ لَا تَفْعَلُوا ذَلِكَ ﴿وَ﴾ فِي ﴿الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ الصَّغَارِ ﴿مِنَ الْوُلَدِ﴾ أَنْ تُعْطُوهُمْ حُقُوقَهُمْ ﴿وَ﴾ وَيَأْمُرُكُمْ ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ فِي الْمِيرَاثِ وَالْمَهْرِ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَإِنْ أَمْرًا﴾ مَرْفُوعٌ بِفِعْلِ يُفَسِّرُهُ ﴿خَافَتْ﴾ تَوَقَّعَتْ ﴿مِنْ بَعْلِهَا﴾ زَوْجِهَا ﴿نُشُورًا﴾ تَرْفَعًا عَلَيْهَا بَتْرِكٍ مُضَاجَعَتِهَا وَالتَّقْصِيرِ فِي نَفَقَتِهَا، لِبُغْضِهَا وَطُمُوحِ عَيْنِهَا إِلَى أَجْمَلِ مِنْهَا ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ عَنْهَا بِوَجْهِهِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصْلَحَا﴾ فِيهِ إِدْعَاؤُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُصْلِحَا﴾ مِنْ «أَصْلَحَ» ﴿بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾ فِي الْقَسَمِ وَالنَّفَقَةِ، بِأَنْ تَتْرَكَ لَهُ شَيْئًا طَلَبًا لِبَقَاءِ الصُّحْبَةِ، فَإِنْ رَضِيَتْ بِذَلِكَ وَإِلَّا فَعَلَى الزَّوْجِ أَنْ يُوفِّيَهَا حَقَّهَا أَوْ يُفَارِقَهَا ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ مِنَ الْفُرْقَةِ وَالنُّشُورِ وَالْإِعْرَاضِ، قَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ مَا جُبِلَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسَ الشُّحَّ﴾ شِدَّةُ الْبُخْلِ، أَيُّ: جُبِلَتْ عَلَيْهِ فَكَأَنَّهَا حَاضِرَتُهُ لَا تَغِيبُ عَنْهُ، الْمَعْنَى: أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا تَكَادُ تَسْمَحُ بِنَصِيحَتِهَا مِنْ زَوْجِهَا، وَالرَّجُلُ لَا يَكَادُ يَسْمَحُ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ إِذَا أَحَبَّ غَيْرَهَا ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا﴾ عِشْرَةَ النِّسَاءِ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الْجَوْرَ عَلَيْهِنَّ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا﴾ تُسَوُّوا ﴿بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ فِي الْمَحَبَّةِ ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ﴾ إِلَى الَّتِي تُحِبُّونَهَا فِي الْقَسَمِ وَالنَّفَقَةِ ﴿فَتَذَرُوهَا﴾ أَيُّ: تَتْرَكُوا الْمُمَالَ عَنْهَا ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ الَّتِي لَا هِيَ أَيْمٌ وَلَا هِيَ ذَاتُ بَعْلٍ ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ بِالْعَدْلِ بِالْقَسَمِ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الْجَوْرَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِمَا فِي قُلُوبِكُمْ مِنَ الْمِيلِ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿١٢٩﴾ بِكُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا﴾ أَيُّ: الزَّوْجَانِ بِالطَّلَاقِ ﴿يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا﴾ عَنْ صَاحِبِهِ ﴿مِنْ سَعَتِهِ﴾ أَيُّ: فَضْلِهِ،

(١) الخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلًا لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إمامًا للناس، واتخذ خليلًا، ونوه بذكره في العالمين.

بِأَنْ يَرْزُقَهَا زَوْجًا غَيْرَهُ وَيَرْزُقَهُ غَيْرَهَا ﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ لِيَخْلُقَهُ فِي الْفَضْلِ ﴿حَكِيمًا ١٣٠﴾ فِيمَا دَبَّرَ لَهُمْ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِمَعْنَى الْكِتَابِ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَيَاكُمْ﴾ يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ ﴿أَنْ﴾ أَيِ: بَأْنَ ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿و﴾ قُلْنَا لَهُمْ وَلَكُمْ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾ بِمَا وَصَّيْتُمْ بِهِ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلَقًا وَمُلْكًا وَعَبِيدًا، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿حَمِيدًا ١٣١﴾ مَحْمُودًا فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا لِتَقْرِيرِ مُوجِبِ التَّقْوَى ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾ شَهِيدًا بِأَنْ مَا فِيهِمَا لَهُ. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يَا ﴿أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ بِدَلِكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ١٣٣﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ بِعَمَلِهِ ﴿ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لِمَنْ أَرَادَهُ لَا عِنْدَ غَيْرِهِ، فَلَمْ يَطْلُبْ أَحَدُهُمَا الْآخِسَ، وَهَلَا طَلَبَ الْأَعْلَى بِإِخْلَاصِهِ لَهُ، حَيْثُ كَانَ مَطْلَبُهُ لَا يُوجَدُ إِلَّا عِنْدَهُ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ١٣٤﴾ * يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿شُهَدَاءَ﴾ بِالْحَقِّ ﴿لِلَّهِ وَلَوْ﴾ كَانَتْ الشَّهَادَةُ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ فَاشْهَدُوا عَلَيْهَا بِأَنْ تُقَرُّوا بِالْحَقِّ وَلَا تَكْتُمُوهُ ﴿أَوْ﴾ عَلَى ﴿الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ﴾ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ ﴿غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾ مِنْكُمْ، وَأَعْلَمُ بِمَصَالِحِهِمَا ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى﴾ فِي شَهَادَتِكُمْ بِأَنْ تُحَابُوا الْغَيْبَ لِرِضَاهُ أَوْ الْفَقِيرَ رَحْمَةً لَهُ لَـ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَعْدِلُوا﴾ تَمِيلُوا عَنِ الْحَقِّ ﴿وَإِنْ تَلَوْا﴾ تُحَرِّفُوا الشَّهَادَةَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِ الْوَاوِ الْأُولَى تَخْفِيفًا ﴿أَوْ تُعْرِضُوا﴾ عَنْ أَدَائِهَا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ١٣٥﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا ءَامَنُوا﴾ دَاوَمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ﴿مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾ عَلَى الرُّسُلِ، بِمَعْنَى: الْكِتَابِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ فِي الْفَعْلَيْنِ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ١٣٦﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِمُوسَى وَهُمْ الْيَهُودُ﴾ ثُمَّ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ الْعَجَلِ ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا﴾ بَعْدَهُ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بِعِيسَى ﴿ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا﴾ بِمُحَمَّدٍ ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ مَا أَقَامُوا عَلَيْهِ ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ١٣٧﴾ طَرِيقًا إِلَى الْحَقِّ^(١).

(١) قيل: هي في المنافقين لترددهم بين الإيمان والكفر، وقيل: في اليهود والنصارى لأنهم آمنوا بأنبيائهم ثم كفروا بمحمد ﷺ، والأول أرجح؛ لأن الكلام من هنا فيهم، والأظهر أنها فيمن آمن بمحمد ﷺ، ثم ارتد ثم عاد إلى الإيمان، ثم ارتد وازداد كفرًا ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذلك فيمن علم الله أنه يموت على كفره، وقد يكون إضلالهم عقابًا لهم بسوء أفعالهم. [ابن جزي (١/٢١٣)].

﴿بَشِّرِ﴾ أَخْبِرْ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾ مُؤْلَمًا هُوَ عَذَابُ النَّارِ. ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلْ أَوْ نَعَتْ
لِلْمُنَافِقِينَ ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لِمَا يَتَوَهَّمُونَ فِيهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ ﴿أَيَّبَتُّغُونَ﴾
يَطْلُبُونَ ﴿عِنْدَهُمُ الْعِزَّةُ﴾ اسْتِفْهَامُ انْكَارٍ، أَي: لَا يَجِدُونَهَا عِنْدَهُمْ ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ،
وَلَا يَنَالُهَا إِلَّا أَوْلِيَائُهُ. ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ»^(١)
﴿أَنْ﴾ مُحَقَّقَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: أَنَّهُ ﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا
مَعَهُمْ﴾ أَي: الْكَافِرِينَ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إِنَّكُمْ إِذَا ﴿إِنْ قَعَدْتُمْ مَعَهُمْ﴾ ﴿مِثْلَهُمْ﴾ فِي
الْإِثْمِ ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ كَمَا اجْتَمَعُوا فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُفْرِ وَالِاسْتِهْزَاءِ.
﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلْ مِنْ ﴿الَّذِينَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يَتَرَبَّصُونَ﴾ يَنْتَظِرُونَ ﴿بِكُمْ﴾ الدَّوَائِرَ ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ﴾ ظَفَرٌ
وَعَنِيْمَةٌ ﴿مِنْ اللَّهِ قَالُوا﴾ لَكُمْ: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ وَالْجِهَادِ؟ فَأَعْطُونَا مِنَ الْعَنِيْمَةِ ﴿وَأِنْ كَانَ
لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ مِنَ الظَّفَرِ عَلَيْكُمْ ﴿قَالُوا﴾ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ﴾ نَسْتَوْلِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ وَنَقْدِرْ عَلَى أَخْذِكُمْ
وَقَتْلِكُمْ فَأَبْقَيْنَا عَلَيْكُمْ ﴿وَ﴾ أَلَمْ ﴿نَمْنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَنْ يَظْفَرُوا بِكُمْ، بِتَخْذِيلِهِمْ وَمُرَاسَلَتِكُمْ بِأَخْبَارِهِمْ؟ فَلَنَا
عَلَيْكُمْ أَلْمِنَةٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بِأَنْ يُدْخِلَكُمْ الْجَنَّةَ وَيُدْخِلَهُمُ النَّارَ ﴿وَلَنْ
يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾ طَرِيقًا بِالِاسْتِصَالِ. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخْدِعُونَ اللَّهَ﴾ بِإِظْهَارِ
خِلَافِ مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْرِ، لِيُدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامُهُ الدُّنْيَوِيَّةُ ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى خِدَاعِهِمْ، فَيُفْتَضِّحُونَ
فِي الدُّنْيَا بِإِطْلَاعِ اللَّهِ نَبِيَّهٖ عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ، وَيُعَاقِبُونَ فِي الْآخِرَةِ^(٢) ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَامُوا
كُسَالَى﴾ مُتَسَاقِلِينَ ﴿يُرَآءُونَ النَّاسَ﴾ بِصَلَاتِهِمْ ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ يُصَلُّونَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ رِيَاءً.
﴿مُذَبِّدِينَ﴾ مُتَرَدِّدِينَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ﴿لَا﴾ مَسْئُورِينَ ﴿إِلَى هَوَآءٍ﴾ أَي: الْكُفَّارِ ﴿وَلَا إِلَى
هَوَآءٍ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ﴾ هُ ﴿اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى. ﴿يَنَائِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِمُؤَالَاتِهِمْ ﴿سُلْطَانًا

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي عَائِيَّتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام: ٦٨].

(٢) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخْدِعُونَ اللَّهَ﴾ بِإِحْرَازِهِمْ بِنِفَاقِهِمْ دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، وَاللَّهُ خَادِعُهُمْ بِمَا حَكَمَ فِيهِمْ مِنْ مَنَعِ دِمَائِهِمْ بِمَا أَظْهَرُوا
بِالْسُّتْهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ، مَعَ عِلْمِهِ بِبَاطِنِ ضَمَائِرِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمُ الْكُفْرَ، اسْتِدْرَاجًا مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَلْقَوْهُ فِي الْآخِرَةِ، فَيُورِثُهُمْ بِمَا اسْتَبْطَنُوا
مِنَ الْكُفْرِ نَارَ جَهَنَّمَ. [الطبري (٦١١/٧)].

مُيِّنًا ﴿١٤٤﴾ بُرْهَانًا بَيْنًا عَلَى نِفَاقِكُمْ. ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْمَكَانِ﴾ ﴿الْأَسْفَلِ مِنَ الثَّارِ﴾ وَهُوَ فَعْرُهَا ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ ﴿١٤٥﴾ مَانِعًا مِنَ الْعَذَابِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنَ الْفَقَاقِ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلُهُمْ ﴿وَأَعْتَصَمُوا﴾ وَثِقُوا ﴿بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ مِنَ الرِّيَاءِ ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فِيمَا يُؤْتَوْنَهُ ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٤٦﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ الْجَنَّةُ. ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نِعَمَهُ ﴿وَعَامَنْتُمْ بِهِ﴾ وَالِاسْتِغْفَامَ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا يُعَذِّبُكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لِأَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِثَابَةِ ﴿عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٧﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ مِنْ أَحَدٍ، أَي: يُعَاقِبُ عَلَيْهِ ﴿١﴾ ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ فَلَا يُؤَاخِذُهُ بِالْجَهْرِ بِهِ، بَأَنْ يُخْبِرَ عَنْ ظُلْمِ ظَالِمِهِ وَيَدْعُو عَلَيْهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿عَلِيمًا﴾ ﴿١٤٨﴾ بِمَا يَفْعَلُ. ﴿إِنْ تَبَدُّوا﴾ تُظْهِرُوا ﴿خَيْرًا﴾ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تَعْمَلُوهُ سِرًّا ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ ظُلْمٍ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ بِأَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ دُونَهُمْ ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ مِنَ الرُّسُلِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ مِنْهُمْ﴾ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ الْكُفْرَ وَالْإِيمَانَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ طَرِيقًا يَذْهَبُونَ إِلَيْهِ. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿١٥١﴾ ذَا إِهَانَةٍ، وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ كُلُّهُمْ ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ بِالْيَأْسِ وَالنُّونِ﴾ ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿١٥٢﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿يَسْأَلُكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الْيَهُودُ ﴿أَنْ تُنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ جُمْلَةً، كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى تَعْتَنَّا، فَإِنْ اسْتَكْبَرْتَ ذَلِكَ ﴿فَقَدْ سَأَلُوا﴾ أَي: أَبَاؤُهُمْ ﴿مُوسَى أَكْبَرَ﴾ أَعْظَمَ ﴿مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ عِيَانًا ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ﴾ الْمَوْتُ عِقَابًا لَهُمْ ﴿بِظُلْمِهِمْ﴾ حَيْثُ تَعْتَنَّا فِي السُّؤَالِ ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ إِلَهًا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْمُعْجَزَاتُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ وَلَمْ نَسْتَأْصِلْهُمْ ﴿وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ ﴿١٥٣﴾ تَسَلُّطًا بَيْنًا ظَاهِرًا عَلَيْهِمْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ تَوْبَةً فَأَطَاعُوا. ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ﴾ الْجَبَلَ ﴿بِمِيثَاقِهِمْ﴾ بِسَبَبِ أَخْذِ الْمِيثَاقِ عَلَيْهِمْ لِيَخَافُوا فَيَقْبَلُوهُ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾ وَهُوَ مُظَلٌّ

(١) يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: ييغض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي ييغضه الله. ويدل مفهومها أنه يحب الحسن من القول

كالذكر والكلام الطيب اللين. [السعدي (ص: ٢١٢)].

عَلَيْهِمْ ﴿أَدْخُلُوا الْبَابَ﴾ أَي: بَابَ الْقَرْيَةِ ﴿سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْعَيْنِ وَتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَفِيهِ إِذْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَي: «لَا تَعْتَدُوا» ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بِاصْطِيَادِ الْحِيتَانِ فِيهِ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا ۝١٥٤﴾ عَلَى ذَلِكَ فَتَقْضُوهُ. ﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ﴾ «مَا» زَائِدَةٌ، وَالْبَاءُ: لِلْسَّبِيَةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَحْذُوفٍ، أَي: لَعْنَاهُمْ بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ ﴿مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ لَا تَعْيِ كَلَامَكَ ﴿بَلْ طَبَعَ﴾ خَتَمَ ﴿اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فَلَا تَعْيِ وَعَظًا ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥﴾ مِنْهُمْ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ. ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ ثَانِيًا بِعِيسَى، وَكَرَّرَ الْبَاءَ لِلْفَضْلِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ۝١٥٦﴾ حَيْثُ رَمَوْهَا بِالزَّنَى. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ مُفْتَخِرِينَ: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فِي زَعْمِهِمْ، أَي: بِمَجْمُوعِ ذَلِكَ عَذَابْنَاهُمْ، قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ فِي قَتْلِهِ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ الْمَقْتُولُ وَالْمَصْلُوبُ وَهُوَ صَاحِبُهُمْ بِعِيسَى، أَي: أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِ شَبَّهُهُ فَظَنُّوه إِيَّاهُ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أَي: فِي عِيسَى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ مِنْ قَتْلِهِ، حَيْثُ قَالَ بَعْضُهُمْ لَمَّا رَأَوْا الْمَقْتُولَ: الْوَجْهُ وَجْهُ عِيسَى وَالْجَسَدُ لَيْسَ بِجَسَدِهِ فَلَيْسَ بِهِ^(١)، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ هُوَ ﴿مَا لَهُمْ بِهِ﴾ بِقَتْلِهِ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَي: لَكِنْ يَتَّبِعُونَ فِيهِ الظَّنَّ الَّذِي تَخَيَّلُوهُ ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِنَفْيِ الْقَتْلِ. ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ بِعِيسَى ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أَي: الْكِتَابِيُّ حِينَ يُعَايِنُ مَلَائِكَةَ الْمَوْتِ، فَلَا يُنْفَعُهُ إِيْمَانُهُ، أَوْ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَى لَمَّا يَنْزِلُ قُرْبَ السَّاعَةِ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ^(٢) ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ﴾ عِيسَى ﴿عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩﴾ بِمَا فَعَلُوهُ لَمَّا بُعِثَ إِلَيْهِمْ. ﴿فَيُظْلَمُ﴾ أَي: فَيَسَبِّ ظُلْمٌ ﴿مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ هِيَ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ الْآيَةُ [الأنعام: ١٤٦] ﴿وَبَصَدَّهِمُ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ صَدًّا ﴿كَثِيرًا ۝١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهِيَ عَنْهُ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

(١) أي: ليس المقتول هو عيسى، وفي نسخة «بل التبس به». [قباوة (ص: ٣٥١)].

(٢) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشَكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَنَزِيرَ وَيَضَعَ الْجُزْيَةَ وَيَقْبِضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ حَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا». أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

بِالرَّشَا فِي الْحُكْمِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣١﴾ مُؤَلَّمًا^(١). ﴿لَكِنَّ الرَّاْسُخُونَ﴾ الثَّابِتُونَ ﴿فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَدْحِ، وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ^(٢) ﴿وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا ١٣٢﴾ ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ﴾ كَمَا ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ابْنَيْهِ ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنِ إِسْحَاقَ ﴿وَالْأَسْبَاطَ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿وَعِيسَى وَآيُوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا أَبَاهُ﴾ دَاوُدَ زُبُورًا ﴿١٣٣﴾ بِالْفَتْحِ اسْمٌ لِلْكِتَابِ الْمُؤْتَى، وَالضَّمُّ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: مَزُبُورًا، أَي: مَكْتُوبًا. ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا ﴿رُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ رُويَ أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ نَبِيِّ أَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ^(٣)، قَالَهُ الشَّيْخُ فِي سُورَةِ غَافِرٍ^(٤) ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ بِلا واسطة ﴿تَكْلِيمًا ١٣٤﴾ رُسُلًا ﴿بَدَلٌ مِنْ﴾ رُسُلًا ﴿قَبْلُ﴾ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ بِالثَّوَابِ مَنْ آمَنَ ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ بِالْعِقَابِ مَنْ كَفَرَ، أَرْسَلْنَاهُمْ ﴿لَعَلَّ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾ تُقَالُ ﴿بَعْدَ﴾ إِزْسَالِ ﴿الرُّسُلِ﴾ إِلَيْهِمْ، فَيَقُولُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَتَكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، فَبَعَثْنَاهُمْ لِقَطْعِ عُدْرِهِمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا ١٣٥﴾ فِي صُنْعِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا سُئِلَ الْيَهُودُ عَنْ نُبُوَّتِهِ ﷺ فَانْكُرُوهُ: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ﴾ بِسَبِّ نُبُوتِكَ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُعْجَزِ ﴿أَنْزَلَهُ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِعِلْمِهِ﴾ أَي: عَالِمًا بِهِ أَوْ وَفِيهِ عِلْمُهُ ﴿وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ لَكَ أَيضًا ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ١٣٦﴾ عَلَى ذَلِكَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَصَدُّوا﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ بِكَتْمِهِمْ نَعْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ١٣٧﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿وَزَلَمُوا﴾ نَبِيَّهُ

(١) إنما قال منهم لأن الله علم أن قوماً منهم سيؤمنون. [الخازن (١/٤٤٧)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾؛ يقتضي كثرة الأنبياء؛ دون تحديد بعدد؛ وقد قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]؛ وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح؛ الله أعلم بعدتهم صلى الله عليه وسلم. [ابن عطية (٢/١٣٧)].

(٤) أي: الشيخ جلال المحلي، عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

بِكْتَمَانٍ نَعْتِهِ ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾ مِنَ الطَّرِيقِ. ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أَي: الطَّرِيقَ الْمُوَدِّيَ إِلَيْهَا ﴿خَلِيدِينَ﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فِيهَا﴾ إِذَا دَخَلُوهَا ﴿أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ هَيْئًا. ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ﴾ أَي: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا﴾ بِهِ، وَاقْصِدُوا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ ﴿وَأَنْ تَكْفُرُوا﴾ بِهِ ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا، فَلَا يَضُرُّهُ كُفْرُكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الْإِنْجِيلِ ﴿لَا تَغْلُوا﴾ تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ ﴿فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْقَوْلَ﴾ الْحَقَّ ﴿مَنْ تَزَيَّيْهِ عَنِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ﴾ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا أَوْ صَلَّاهَا اللَّهُ ﴿إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ﴾ أَي: ذُو رُوحٍ ﴿مِنْهُ﴾ أُضِيفَ إِلَيْهِ تَعَالَى تَشْرِيفًا لَهُ^(١)، وَلَيْسَ كَمَا زَعَمْتُمْ ابْنَ اللَّهِ أَوْ إِلَهًا مَعَهُ أَوْ ثَالِثَ ثَلَاثَةٍ؛ لِأَنَّ ذَا الرُّوحِ مُرَكَّبٌ، وَالْإِلَهُ مُنَزَّهٌ عَنِ التَّرْكِبِ، وَعَنْ نَسَبِ الْمُرَكَّبِ إِلَيْهِ^(٢) ﴿فَقَامِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وَلَا تَقُولُوا ﴿الْإِلَهَةُ ثَلَاثَةٌ﴾ اللَّهُ وَعِيسَى وَامُّهُ ﴿أَنْتَهُوا﴾ عَنْ ذَلِكَ، وَأَتُوا ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ مِنْهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ﴾ تَزَيَّيْهَا لَهُ عَنْ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خَلْقًا وَمُلْكًا وَعَيْدًا، وَالْمَلَكِيَّةُ تُتَنَافَى الْبُنُوَّةُ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ. ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ يَتَكَبَّرَ وَيَأْتَفَ ﴿الْمَسِيحُ﴾ الَّذِي زَعَمْتُمْ أَنَّهُ إِلَهٌ عَنْ ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكِيَّةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَسْتَنْكِفُونَ أَنْ يَكُونُوا عِبِيدًا، وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْأَسْطُرَادِ، ذِكْرُ اللَّزْدِ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا إِلَهَةٌ أَوْ بَنَاتُ اللَّهِ، كَمَا رَدَّ بِمَا قَبْلَهُ عَلَى النَّصَارَى الزَّاعِمِينَ ذَلِكَ الْمَقْصُودَ خِطَابَهُمْ ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ

(١) أي: إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له: كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام، إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذن الله عز وجل، وصارت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فتزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب الأم والجميع مخلوق لله عز وجل؛ ولهذا قيل لعيسى: إنه كلمة الله وروح منه؛ لأنه لم يكن له أب تولد منه، وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن، فكان. والروح التي أرسل بها جبريل. [ابن كثير (٢/٤٧٧)].

(٢) هذا لفظ محدث مبتدع، لا ينبغي إطلاقه على الله تبارك وتعالى لا نفياً ولا إثباتاً، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: والتحقيق أن كلا الطائفتين مخطئة على اللغة، أولئك الذين يسمون كل ما هو قائم بنفسه جسمًا، وهؤلاء الذين سمو كل ما يشار إليه وترفع الأيدي إليه جسمًا، وادعوا أن كل ما كان كذلك فهو مركب، وأن أهل اللغة يطلقون لفظ الجسم على كل ما كان مركبًا. فالخطأ في اللغة، والابتداع في الشرع مشترك بين الطائفتين. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (٥/٤٢٩)].

جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فِي الْآخِرَةِ ۚ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۖ﴾ «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» ﴿١٧٣﴾ «وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا» عَنْ عِبَادَتِهِ ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُؤَلِّمًا، هُوَ عَذَابُ النَّارِ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿وَلِيًّا﴾ يَدْفَعُهُ عَنْهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿١٧٤﴾ يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَنٌ حُجَّةٌ﴾ (مِّن رَّبِّكُمْ) عَلَيْكُمْ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُم نُورًا مُّبِينًا﴾ ﴿١٧٥﴾ بَيْنًا، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا﴾ طَرِيقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿١٧٦﴾ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ. ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ فِي الْكَلَالَةِ ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِن أُمْرًا﴾ مَرْفُوعٌ بِفِعْلِ يُفَسِّرُهُ ﴿هَلَكَ﴾ مَاتَ ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أَي: وَلَا وَالِدٌ وَهُوَ الْكَلَالَةُ ﴿وَلَهُ أُخْتُ﴾ مِّنْ أَبَوَيْنِ أَوْ أَبٍ ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ﴾ أَي: الْأَخُ كَذَلِكَ ﴿يَرِثُهَا﴾ جَمِيعَ مَا تَرَكَتْ ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ فَإِنْ كَانَ لَهَا وَلَدٌ ذَكَرٌ فَلَا شَيْءَ لَهُ، أَوْ أُنْثَى فَلَهُ مَا فَضَّلَ مِنْ نَّصِيحِهَا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُخْتُ أَوْ الْأَخُ مِنْ أُمِّ فَرَضِهِ السُّدُسُ، كَمَا تَقَدَّمَ أَوَّلُ السُّورَةِ ﴿فَإِنْ كَانَتْ﴾ أَي: الْأَخْتَانِ ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ أَي: فَصَاعِدًا؛ لِأَنَّهَا نَزَلَتْ فِي جَابِرٍ^(٣)، وَقَدْ مَاتَ عَنْ أَخَوَاتٍ ﴿فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ الْأَخُ ﴿وَإِنْ كَانُوا﴾ أَي: الْوَرَثَةُ ﴿إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ شَرَائِعَ دِينِكُمْ لـ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَضِلُّوا﴾ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَمِنْهُ الْمِيرَاثُ، رَوَى الشَّيْخَانِ^(٤) عَنِ الْبَرَاءِ أَنَّهَا آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ، أَي: مِنَ الْفَرَائِضِ.

(١) الفرق بين الاستكاف والاستكبار: أن الاستكاف هو التكبر مع الأنفة، والاستكبار: هو الغلو، والتكبر من غير أنفة. [السمعاني (١/٥٠٧)].

(٢) قال رسول الله ﷺ: قال الله: «أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ». أخرجه البخاري (٢٧٩٣)، ومسلم (٢٨٢٦).

(٣) عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: «مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ يعوداني ماشيين، فأغمي علي، فتوضأ ثم صب علي من وضوئه فأفقت، قلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئا حتى نزلت آية الميراث: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾». أخرجه البخاري (٥٦٥١)، ومسلم (١٦١٦).

(٤) عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء ﷺ يقول: آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. وآخر سورة نزلت براءة. أخرجه البخاري (٤٦٠٥)، ومسلم (١٦١٨).

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

مَدِينَةٍ، وَأَيَّاتُهَا مِائَةٌ وَعِشْرُونَ آيَةً أَوْ وَاثِنَانِ أَوْ ثَلَاثٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ الْعُقُودُ الْمُؤَكَّدَةُ الَّتِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ^(١) ﴿أَحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، أَكْلًا بَعْدَ الذَّبْحِ ﴿إِلَّا مَا يُتَنَلَّى عَلَيْكُمْ﴾ تَحْرِيمُهُ فِي: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِيتَةُ﴾ الْآيَةُ [المائدة: ٣]، فَلَا سِيشَاءَ مُنْقَطِعٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا، وَالتَّحْرِيمُ لِمَا عَرَضَ مِنَ الْمَوْتِ وَنَحْوِهِ ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أَي: مُحْرَمُونَ، وَنَضَبٌ ﴿غَيْرٌ﴾ عَلَى الْحَالِ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿لَكُمْ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿مِنَ التَّحْلِيلِ وَغَيْرِهِ، لَا إِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ.﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ جَمْعُ شَعِيرَةٍ، أَي: مَعَالِمَ دِينِهِ بِالصَّيْدِ فِي الْإِحْرَامِ ^(٢) ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بِالْقِتَالِ فِيهِ ﴿وَلَا الْهَدْيَ﴾ مَا أُهْدِيَ إِلَى الْحَرَمِ مِنَ النَّعَمِ بِالتَّعَرُّضِ لَهُ ﴿وَلَا الْقَلْبِدَ﴾ جَمْعُ قِلَادَةٍ، وَهِيَ: مَا كَانَ يُقْلَدُ بِهِ مِنْ شَجَرِ الْحَرَمِ لِيَأْمَنَ، أَي: فَلَا تَتَعَرَّضُوا لَهَا وَلَا لِأَصْحَابِهَا ﴿وَلَا﴾ تَحْلُوا ﴿ءَامِينَ﴾ قَاصِدِينَ ﴿الْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ بِأَنْ تُقَاتِلُوهُمْ ﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا﴾ رِزْقًا ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بِالتَّجَارَةِ ﴿وَرِضْوَانًا﴾ مِنْهُ بِقَصْدِهِ بِزَعْمِهِمْ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ «بَرَاءة» ^(٣) ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ﴾ مِنَ الْإِحْرَامِ ﴿فَاصْطَادُوا﴾ أَمْرٌ بِإِيَاحَةٍ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يُكْسِبَنَّكُمْ ﴿شَتَانُ﴾ بَفَتْحِ النُّونِ وَسُكُونِهَا: بُغْضُ ﴿قَوْمٍ﴾ لِأَجْلِ ﴿أَنْ

(١) قيل: المراد بالعقود هي التي عدها الله على عباده وألزمهم بها من الأحكام، وقيل: هي العقود التي يعقدونها بينهم من عقود المعاملات والأمانات ونحوها، والأولى شمول الآية للأمرين جميعاً، قال الزجاج: المعنى أوفوا بعقد الله عليكم وبعقدكم بعضكم على بعض انتهى. والعقد الذي يجب الوفاء به ما وافق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فَإِنْ خَالَفَهُمَا فَهُوَ رَدٌّ لَا يَجِبُ الْوَفَاءُ بِهِ وَلَا يَحِلُّ ... قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أَي: مَا أَحَلَّ اللَّهُ وَمَا حَرَّمَ وَمَا فَرَضَ وَمَا حَدَّ فِي الْقُرْآنِ كُلِّهِ، لَا تَغْدُرُوا وَلَا تَنْكُثُوا. [الشوكاني (٦/٢)].

(٢) أَي: مُحْرَمَاتِهِ الَّتِي أَمَرَكُمْ بِتَعْظِيمِهَا، وَعَدَمُ فَعْلِهَا، وَالنَّهْيُ يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنْ فَعْلِهَا، وَالنَّهْيُ عَنْ اعْتِقَادِ حِلِّهَا؛ فَهُوَ يَشْمَلُ النَّهْيَ، عَنْ فَعْلِ الْقَبِيحِ، وَعَنْ اعْتِقَادِهِ. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ النَّهْيُ عَنْ مُحْرَمَاتِ الْإِحْرَامِ، وَمُحْرَمَاتِ الْحَرَمِ. [السعدي (ص: ٢١٨)].

(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَحْجُونَ وَيَعْتَمِرُونَ وَيَهْدُونَ الْهَدَايَا، وَيَعْظُمُونَ حُرْمَةَ الْمَشَاعِرِ، وَيَنْحَرُونَ فِي حَجِّهِمْ، فَأَرَادَ الْمُسْلِمُونَ أَنْ يَغْيِرُوا عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ إِلَى آخِرِهَا، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَنْسُوخًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وَقَوْلِهِ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وَقَوْلِهِ ﷺ: «لَا يَحْجَرَنَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٥٧). وَبِهِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ وَأَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ. [صديق حسن (٣/٣٢٧)].

صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا^(١) عَلَيْهِمْ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ^(٢) وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ^(٣) بِفِعْلِ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ^(٤) وَالتَّقْوَى^(٥) بِتَرْكِ مَا نَهَيْتُمْ عَنْهُ^(٦) وَلَا تَعَاوَنُوا^(٧) فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِينَ فِي الْأَصْلِ^(٨) عَلَى الْإِثْمِ^(٩) الْمَعَاصِي^(١٠) وَالْعُدُونَ^(١١) التَّعَدَّى فِي حُدُودِ اللَّهِ^(١٢) وَاتَّقُوا اللَّهَ^(١٣) خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ^(١٤) إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ^(١٥) لِمَنْ خَالَفَهُ^(١٦) حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ^(١٧) الْمَيْتَةُ^(١٨) أَيُّ: أَكْلُهَا^(١٩) وَالْدَّمُ^(٢٠) أَيُّ: الْمَسْفُوحُ كَمَا فِي «الْأَنْعَامِ»^(٢١) وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ^(٢٢) بِأَنْ ذُبَحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ^(٢٣) وَالْمُنْخَنِقَةُ^(٢٤) الْمَيْتَةُ خَنْقًا^(٢٥) وَالْمَوْقُودَةُ^(٢٦) الْمَقْتُولَةُ ضَرْبًا^(٢٧) وَالْمُتَرَدِّيَّةُ^(٢٨) السَّاقِطَةُ مِنْ عُلوٍّ إِلَى أَسْفَلٍ فَمَاتَتْ^(٢٩) وَاللَّطِيحَةُ^(٣٠) الْمَقْتُولَةُ بِنَطْحٍ أُخْرَى لَهَا^(٣١) وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ^(٣٢) مِنْهُ^(٣٣) إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ^(٣٤) أَيُّ: أَدْرَكْتُمْ فِيهِ الرُّوحَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فَذَبَحْتُمُوهُ^(٣٥) وَمَا ذُبِحَ عَلَى^(٣٦) اسْمِ^(٣٧) التُّصْبِ^(٣٨) جَمْعُ «نِصَابٍ» وَهِيَ: الْأَصْنَامُ^(٣٩) وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا^(٤٠) تَطْلُبُوا الْقِسْمَ وَالْحُكْمَ^(٤١) بِالْأَزْلَمِ^(٤٢) جَمْعُ «زَلَمٍ» بَفَتْحِ الزَّيِّ وَضَمِّهَا مَعَ فَتْحِ اللَّامِ: «قِدْحٌ» بِكَسْرِ الْقَافِ، صَغِيرٌ لَا رِيشَ لَهُ وَلَا نَصْلَ، وَكَانَتْ سَبْعَةً عِنْدَ سَادِنِ الْكُعْبَةِ عَلَيْهَا أَعْلَامٌ، وَكَانُوا يُحْكُمُونَهَا فَإِنْ أَمَرْتَهُمْ اتَّمَرُوا وَإِنْ نَهَيْتَهُمْ انْتَهَوْا^(٤٣) ذَلِكُمْ فَسُقُ^(٤٤) خُرُوجٍ عَنِ الطَّاعَةِ، وَنَزَلَ يَوْمَ عَرَفَةَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» أَنْ تَرْتَدُّوا عَنْهُ بَعْدَ طَمَعِهِمْ فِي ذَلِكَ، لِمَا رَأَوْا مِنْ قُوَّتِهِ^(٤٥) فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ^(٤٦) أَحْكَامَهُ وَفَرَائِضَهُ، فَلَمْ يَنْزِلْ بَعْدَهَا حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ^(٤٧) وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي^(٤٨) بِإِكْمَالِهِ، وَقِيلَ بِدُخُولِ مَكَّةَ آمِنِينَ^(٤٩) وَرَضِيْتُ^(٥٠) أَيُّ: اخْتَرْتُ^(٥١) لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مُخْمَصَةٍ^(٥٢) مَجَاعَةٍ إِلَى أَكْلِ شَيْءٍ مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ^(٥٣) غَيْرَ مُتَجَانِفٍ^(٥٤) مَائِلٍ^(٥٥) لِإِثْمٍ^(٥٦) مَعْصِيَةٍ^(٥٧) فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ^(٥٨) لَهُ مَا أَكَلَ^(٥٩) رَحِيمٌ^(٦٠) بِهِ فِي إِبَاحَتِهِ

(١) أي: قوله تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥].

(٢) أما البنادق المعروفة الآن: وهي بنادق الحديد التي يجعل فيها البارود والرصاص ويرمى بها ... قد سألني جماعة من أهل العلم عن الصيد بها إذا مات ولم يتمكن الصائد من تذكيته حيا، والذي يظهر لي أنه حلال لأنها تخرق وتدخل في الغالب من جانب منه وتخرج من الجانب الآخر، وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا رَمَيْتَ بِالْمِعْرَاضِ فَخَرَقَ فَكُلْهُ». أخرجه البخاري (٥٤٨٦)، ومسلم (١٩٢٩). فاعتبر الخرق في تحليل الصيد. [الشوكاني (١٢/٢)].

(٣) بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله. [السعدي (ص: ٢١٩)].

(٤) أي: فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضي الله وأحبه، وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه. [ابن كثير (٣/٢٦)].

لَهُ، بِخِلَافِ الْمَائِلِ لِإِثْمٍ، أَيِ: الْمُتَلَبِّسِ بِهِ كَقَاطِعِ الطَّرِيقِ وَالْبَاغِي مَثَلًا فَلَا يَحِلُّ لَهُ الْأَكْلُ. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ﴾ مِنَ الطَّعَامِ؟ ﴿قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ الْمُسْتَلَذَّاتُ ﴿وَ﴾ صَيْدُ ﴿مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ الْكَوَاسِبِ مِنَ الْكِلَابِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حَالٌ، مِنْ كَلَبْتُ الْكَلْبَ بِالتَّشْدِيدِ، أَيِ: أَرْسَلْتُهُ عَلَى الصَّيْدِ ﴿تَعْلَمُونَهُنَّ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿مُكَلِّبِينَ﴾، أَيِ: تُؤَدِّبُونَهُنَّ ﴿مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ مِنْ آدَابِ الصَّيْدِ ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ وَإِنْ قَتَلْتُهُ إِنْ لَمْ يَأْكُلْنِ مِنْهُ، بِخِلَافِ غَيْرِ الْمُعَلِّمَةِ فَلَا يَحِلُّ صَيْدُهَا، وَعَلَامَتُهَا: أَنْ تَسْتَرْسِلَ إِذَا أُرْسِلَتْ وَتَنْزَجِرَ إِذَا زَجِرَتْ وَتُمْسِكَ الصَّيْدَ وَلَا تَأْكُلَ مِنْهُ، وَأَقْلُ مَا يُعْرَفُ بِهِ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنْ أَكَلَتْ مِنْهُ فَلَيْسَ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَى صَاحِبِهِنَّ فَلَا يَحِلُّ أَكْلُهُ، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ وَفِيهِ: «أَنَّ صَيْدَ السَّهْمِ إِذَا أُرْسِلَ وَذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَصَيْدِ الْمُعَلِّمِ مِنَ الْجَوَارِحِ»^(١) ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عِنْدَ إِرْسَالِهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ الْمُسْتَلَذَّاتُ ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أَيِ: ذَبَائِحُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿حِلٌّ﴾ حَالٌ ﴿لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ﴾ إِيَّاهُمْ ﴿حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ الْحَرَائِرُ ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ حِلٌّ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ﴿إِذَا عَاتِيَتْموهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ مُهُورُهُنَّ ﴿مُحْصِنِينَ﴾ مُتَزَوِّجِينَ ﴿غَيْرِ مُسَفِّحِينَ﴾ مُعْلِنِينَ بِالزَّنى بِهِنَّ ﴿وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ مِنْهُنَّ تُسْرُونَ بِالزَّنى بِهِنَّ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ أَيِ: يَرْتَدُّ ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ الصَّالِحُ قَبْلَ ذَلِكَ، فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا يُثَابُّ عَلَيْهِ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إِذَا مَاتَ عَلَيْهِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ﴾ أَيِ: أَرَدْتُمْ الْقِيَامَ ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ وَأَنْتُمْ مُحَدِّثُونَ ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ أَيِ: مَعَهَا كَمَا بَيَّنَّهُ السُّنَّةُ^(٢) ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ الْبَاءُ لِلْإِلْصَاقِ،

(١) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِذَا أُرْسِلَتْ كَلْبُكَ وَسَمَّيْتَ فَأَمْسَكَ وَقَتَلَ فَكُلْ، وَإِنْ أَكَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّمَا أَمْسَكَ عَلَى نَفْسِهِ، وَإِذَا خَالَطَ كِلَابًا، لَمْ يُذَكَّرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهَا، فَأَمْسَكَ وَقَتَلَ فَلَا تَأْكُلْ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّهَا قَتَلَ، وَإِنْ رَمَيْتَ الصَّيْدَ فَوَجَدْتَهُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لَيْسَ بِهِ إِلَّا أَثَرُ سَهْمِكَ فَكُلْ، وَإِنْ وَقَعَ فِي الْمَاءِ فَلَا تَأْكُلْ». ... وعن عدي: أنه قال للنبي ﷺ: يرمي الصيد فيقتنر أثره اليومين والثلاثة، ثم يجده ميتا وفيه سهمه، قال: «يَأْكُلُ إِنْ شَاءَ». أخرجه البخاري (٥٠٦٢).

(٢) أي: ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم، وليس هذا إخبارا عن الحكم عندهم، اللهم إلا أن يكون خبرا عما أمروا به من الأكل من كل طعام ذكر اسم الله عليه، سواء كان من أهل ملتهم أو غيرها. والأول أظهر في المعنى. [ابن كثير (٤١/٣)].

(٣) عن وائل بن حجر قال: شهدت رسول الله ﷺ، وأتى بإناء فيه ماء ... [وفيه]: ثم أدخل يمينه في الإناء فغسل بها ذراعه اليمنى حتى جاوز المرفق ثلاثا، ثم غسل يساره بيمينه حتى جاوز المرفق ثلاثا. أخرجه الطبراني في الكبير (١١٨/٢٢). وعن جابر بن عبد الله قال: كان

أَيُّ: اَلصِّقُوا الْمَسْحَ بِهَا مِنْ غَيْرِ إِسَالَةٍ مَاءٍ، وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ فَيَكْفِي أَقْلُ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ، وَهُوَ مَسْحُ بَعْضِ الشَّعْرِ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ^(١) ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿أَيْدِيكُمْ﴾، وَبِالْجَرِّ عَلَى الْجَوَارِ ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ أَيُّ: مَعَهُمَا كَمَا بَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ ^(٢) وَهُمَا الْعِظْمَانِ النَّاتِيَانِ فِي كُلِّ رِجْلٍ عِنْدَ مَفْصِلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ الْمَغْسُولَةِ بِالرَّأْسِ الْمَمْسُوحِ يُفِيدُ وَجُوبَ التَّرْتِيبِ فِي طَهَارَةِ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَيُؤْخَذُ مِنَ السُّنَّةِ وَجُوبُ النِّيَّةِ فِيهِ كَغَيْرِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ فَاغْتَسِلُوا ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾ مَرْضًا يَضُرُّهُ الْمَاءُ ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أَيُّ: مُسَافِرِينَ ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ أَيُّ: أَحَدٌ ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ سَبَقَ مِثْلُهُ فِي آيَةِ النِّسَاءِ ^(٣) ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ بَعْدَ طَلَبِهِ ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ اقْصِدُوا ﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ تَرَابًا طَاهِرًا ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ مَعَ الْمَرْفَقَيْنِ ﴿مِنْهُ﴾ بِضَرْبَتَيْنِ، وَالْبَاءُ لِلِلِّصَاقِ، وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ الْمُرَادَ اسْتِيعَابَ الْعُضْوَيْنِ بِالْمَسْحِ ^(٤) ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ ضَيْقٍ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ وَالتَّيَمُّمِ ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالذُّنُوبِ ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ بَيَانِ شَرَائِعِ الدِّينِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ نِعْمَةٌ. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَمِيثَاقَهُ﴾ عَهْدَهُ ﴿الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ عَاهِدَكُمْ عَلَيْهِ ﴿إِذْ قُلْتُمْ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ حِينَ بَايَعْتُمُوهُ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرُ بِهِ وَتَنْهَى، مِمَّا

رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. أخرجه الدارقطني (١/ ٨٣)، والبيهقي (٢٥٩).

(١) اختلفوا في هذه «الباء» هل هي للإلصاق، وهو الأظهر أو للتبويض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة، ... [وفيها] أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم، فدعا بوضوء، فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. أخرجه البخاري (١٨٥) ومسلم (٢٣٥). فيه دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل، لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن. [ابن كثير (٣/ ٤٩)].

(٢) عن أبي زرعة قال: دخلت مع أبي هريرة دار مروان، فدعا بوضوء، فتوضأ، وغسل ذراعيه حتى جاوز المرفقين، فلما غسل رجليه، جاوز الكعبين إلى الساقين، فقلت: ما هذا؟ قال: هذا مبلغ الحلية. أخرجه أحمد (٧١٦٦).

(٣) الآية (٤٣).

(٤) انظر التعليق على آية (٤٣) من سورة النساء.

نُحِبُّ وَنُكَرُهُ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي مِيثَاقِهِ أَنْ تَنْقُضُوهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٧﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ فَبِعِزِّهِ أُولَى .
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ ﴿لِلَّهِ﴾ بِحُقُوقِهِ ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾
يَحْمِلَنَّكُمْ ﴿شَتَانُ﴾ بُغْضُ ﴿قَوْمٍ﴾ أَيْ: الْكُفَّارِ ﴿عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا﴾ فَتَنَالُوا مِنْهُمْ لِعَدَاوَتِهِمْ ﴿٨﴾ ﴿أَعْدِلُوا﴾ فِي الْعَدْوِ
وَالْوَلِيِّ ﴿هُوَ﴾ أَيْ: الْعَدْلُ ﴿أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ ﴿فَيَجَازِيكُمْ بِهِ﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿وَعَدًا حَسَنًا﴾ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ ﴿هُوَ الْجَنَّةُ﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا﴾
بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ هُمُ قُرَيْشُ
﴿أَنْ يَبْسُطُوا﴾ يَمْدُّوا ﴿إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ لِيَفْتَكُوا بِكُمْ ﴿فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ وَعَصَمَكُمْ مِمَّا أَرَادُوا بِكُمْ
﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١١﴾ * وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿بِمَا يُذَكِّرُ بَعْدُ﴾ ﴿وَبَعَثْنَا﴾ فِيهِ
الْكِتَابَ عَنْ الْعِيبَةِ، أَقَمْنَا ﴿مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ مِنْ كُلِّ سَبْطٍ نَقِيبٌ، يَكُونُ كَفِيلًا عَلَىٰ قَوْمِهِ بِالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ تَوْثِقَةً
عَلَيْهِمْ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنُّصْرَةِ ﴿لَبِنُ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَقِمُّوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾
وَعَامِنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴿نَصَرْتُمُوهُمْ﴾ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ﴾ ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ﴾
سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿الْمِيثَاقِ﴾ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْحَقِّ، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ الْوَسْطُ فَتَقَضُّوا الْمِيثَاقَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ﴾ ﴿مَا﴾
زَائِدَةٌ ﴿مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ أَبْعَدْنَاَهُمْ عَنْ رَحْمَتِنَا ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ لَا تَلِينُ لِقَبُولِ الْإِيمَانِ ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾
الَّذِي فِي التَّوْرَةِ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَغَيْرِهِ ﴿عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ الَّتِي وَضَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، أَيْ: يُبَدِّلُونَهُ ﴿وَنَسُوا﴾ تَرَكَوْا
﴿حَظًّا﴾ نَصِيبًا ﴿مِمَّا ذُكِّرُوا﴾ أَمُرُوا ﴿بِهِ﴾ فِي التَّوْرَةِ، مِنْ اتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﴿وَلَا تَزَالُ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿تَطْلُعُ﴾
تَظْهَرُ ﴿عَلَىٰ خَائِنَةٍ﴾ أَيْ: خِيَانَةٍ ﴿مِنْهُمْ﴾ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ مِمَّنْ أَسْلَمَ ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ^(١). ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿أَخَذْنَا

(١) عداه بعلى لتضمنه معنى الحمل، والمعنى لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كمثلة وقذف وقتل نساء وصبيّة ونقض عهد تشفيا مما في قلوبكم. [البيضاوي (١١٧/٢)].

(٢) فيها قولان: أحدهما: أن حكمها ثابت في الصّحاح والعفو إذا رآه. والثاني: أنه منسوخ، وفي الذي نسخه قولان: أحدهما: قوله تعالى: ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ٢٩] وهذا قول قتادة. والثاني: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]. [الماوردي (٢١/٢)]. وأختار القول الأول ابن كثير (٦٦/٣) وقال: وهذا هو عين النصر والظفر،

مِيثَقَهُمْ ﴿كَمَا أَخَذْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْيَهُودَ﴾ ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ﴿فِي الْإِنْجِيلِ مِنَ الْإِيمَانِ وَعِبرِهِ وَنَقَضُوا الْمِيثَاقَ﴾ ﴿فَأَغْرَيْنَا﴾ ﴿أَوْقَعْنَا﴾ ﴿بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿بِتَفْرِيقِهِمْ وَاختِلَافِ أَهْوَائِهِمْ، فَكُلُّ فِرْقَةٍ تَكْفُرُ الْأُخْرَى﴾ ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ﴾ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ ﴿الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ﴾ ﴿تَكْتُمُونَ﴾ ﴿مِنَ الْكِتَابِ﴾ ﴿التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، كَايَةِ الرَّجْمِ وَصِفَتِهِ﴾ ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿مِنْ ذَلِكَ فَلَا يُبَيِّنُهُ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ إِلَّا إِفْتِصَاحُكُمْ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ ﴿هُوَ النَّبِيُّ ﷺ﴾ ﴿وَكِتَابٌ﴾ ﴿قُرْآنٌ﴾ ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿بَيْنَ ظَاهِرٍ﴾ ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ ﴿أَيُّ: بِالْكِتَابِ﴾ ﴿اللَّهُ مِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَهُ﴾ ﴿بِأَنْ أَمَنَ﴾ ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ ﴿طُرُقَ السَّلَامَةِ﴾ ﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ﴿الْكُفْرِ﴾ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ ﴿الْإِيمَانِ﴾ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ ﴿بِإِرَادَتِهِ﴾ ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿دِينِ الْإِسْلَامِ﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿حَيْثُ جَعَلُوهُ إِلَهًا، وَهُمْ «الْيَعْقُوبِيَّةُ» فِرْقَةٌ مِنَ النَّصَارَى﴾ ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ ﴿أَيُّ: يَدْفَعُ﴾ ﴿مِنْ﴾ ﴿عَذَابِ﴾ ﴿اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَفِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ﴿أَيُّ: لَا أَحَدٌ يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ الْمَسِيحُ إِلَهًا لَقَدَّرَ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ

كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعني به: الصفح عمن أساء إليك.

(١) أي: مما تخفونه. لا يبينه. مما لا ضرورة في بيانه، صيانة لكم عن زيادة الافتضاح. أو يعفو فلا يؤاخذ. وفي هذه الآية بيان معجزة له ﷺ. فإنه لم يقرأ كتابا ولم يتعلم علما من أحد، فأخبره بأسرار ما في كتابهم إخبار عن الغيب، فيكون معجزا. [القاسمي (٤/ ٩١)].

(٢) يعني: بإذن الله جل وعز. وإذنه في هذا الموضع: تحييه إياه الإيمان برفع طابع الكفر عن قلبه، وخاتم الشرك عنه، وتوفيقه لإبصار سُبُل السلام. [الطبري (٢/ ٢٦٥)].

(٣) النصارى تفرعت مذاهب ثلاثة أشار إلى جميعها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ [النساء: ١٧١]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿عَآذَتْ قُلْتُ لِلنَّاسِ انَّخِذُونِي وَأُنِّجِي إِلَهِينِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] ... واليعقوبية يسمون الآن «أرثوذكس»، ظهروا في أواسط القرن السادس المسيحي، ... قالوا: انقلبت الإلهية لحما ودما، فصار الإله هو المسيح فلاجل ذلك صدرت عن المسيح خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فأشبهه صنعه صنع الله تعالى مما يعجز عنه غير الله تعالى ... وهم أتباع يعقوب البرذعاني، وكان راهبا بالقسطنطينية، ويقال لليعاقة: أصحاب الطبيعة الواحدة، وعليها درج نصارى الحبشة كلهم. ولا شك أن نصارى نجران كانوا على هذه الطريقة. ولقرب أصحابها الحبشة من بلاد العرب تصدى القرآن لبيان ردها هنا وفي الآية الآتية في هذه السورة. [ابن عاشور (٦/ ٥٧)].

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَاءَهُ^(١) ﴿قَدِيرٌ﴾ ١٧ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى أَيُّ كُفْلٍ مِنْهُمَا ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: كَأَنَّائِهِ فِي الْقُرْبِ وَالْمَنْزِلَةِ، وَهُوَ كَأَيْنَا فِي الرَّحْمَةِ وَالشَّفَقَةِ ﴿وَأَحْبَبُوهُ قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: ﴿فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ إِنْ صَدَقْتُمْ فِي ذَلِكَ؟ وَلَا يُعَذِّبُ إِلَّا الْبُؤْسَ وَلَدَهُ وَلَا الْحَبِيبُ حَبِيبَهُ، وَقَدْ عَذَّبَكُمْ فَانْتُمْ كَاذِبُونَ ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ جُمِلَةٌ﴾ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مِنَ الْبَشَرِ، لَكُمْ مَا لَهُمْ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةُ لَهُ ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَعَذِّيبُهُ، لَا إِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ^(٢) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ ١٨ ﴿الْمَرْجِعُ﴾. ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ﴾ شَرَائِعَ الدِّينِ ﴿عَلَى فِتْرَةٍ﴾ انْقِطَاعِ ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِيسَى رَسُولٍ، وَمُدَّةُ ذَلِكَ خَمْسُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَسِتُّونَ سَنَةً^(٣) لَ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَقُولُوا﴾ إِذَا عَذَّبْتُمْ: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ فَلَا عُذْرَ لَكُمْ إِذَا، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٩ ﴿وَمِنْهُ تَعَذِّيبُكُمْ، إِنْ لَمْ تَتَّبِعُوهُ﴾. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ يَقُومُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ ﴿أَيُّ: مِنْكُمْ﴾ ﴿أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ أَصْحَابَ خَدَمٍ وَحَشَمٍ ﴿وَعَاتَلَكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ٢٠ ﴿مِنَ الْأَمْنِ وَالسَّلَوى وَفَلَقَ الْبَحْرَ وَغَيْرِ ذَلِكَ﴾. ﴿يَقُومُوا أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ الْمَطَهَّرَةَ ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أَمْرَكُمْ بِدُخُولِهَا وَهِيَ الشَّامُ ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ﴾ تَنْهَزُوا خَوْفَ الْعَدُوِّ ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ٢١ ﴿فِي

(١) الصحيح أن الآية على عمومها. قال الشيخ ابن عثيمين: لأنه إذا خصت قدرة الله تعالى بما يشاءه كان ذلك نقصاً في مدلولها وقصرها لها عن عمومها، فتكون قدرة الله تعالى ناقصة حيث انحصرت فيما يشاءه، وهو خلاف الواقع فإن قدرة الله تعالى عامة فيما يشاءه وما لم يشأه، لكن ما شاءه فلا بد من وقوعه، وما لم يشأه فلا يمكن وقوعه. [المناهي اللفظية للشيخ ابن عثيمين (ص: ٢٧)].

(٢) لدينا قاعدة مهمة وهي: أن كل فعل قرنه الله بالمشيئة فلا بد أن يكون موافقاً للحكمة؛ لأن مشيئة الله ليست مشيئة مجردة ترجح شيئاً على شيء بدون سبب، وعلى هذا فقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: لمن اقتضت حكمته أن يغفر له، وهو التائب من الذنب. وكذلك من من الله عليه بالمغفرة بدون توبة، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعذب من يشاء أن يعذبه بأن فعل ما يقتضي التعذيب، وليس الأمر لمجرد مشيئة؛ لأن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢] لا ظُلْمًا: بزيادة السيئات، ولا هَضْمًا: بنقص الحسنات. [ابن عثيمين تفسير المائدة (١/ ٢٣٩)].

(٣) عن سلمان رضي الله عنه قال: فِتْرَةٌ مَا بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: سِتْمِائَةُ سَنَةٍ. أخرجه البخاري (٣٩٤٨). وعن قتادة قال: كان بين عيسى ومحمد عليهما السلام خمس مائة وستون سنة. أخرجه عبد الرزاق (١/ ١٨٦)، وابن جرير (٨/ ٢٧٤ - ٢٧٥).

(٤) عن ابن عباس في قوله: ﴿أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ قال: هي الطور وما حوله. وكذا قال مجاهد وغير واحد. [وعن ابن عباس] قال:

سَعِيَكُمْ. ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ مِنْ بَقَايَا عَادٍ طُؤَالًا ذِي قُوَّةٍ ﴿وَأَنَا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ٣٢﴾ لَهَا. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ ﴿رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ مُخَالَفَةً أَمْرٍ أَلَّهِ وَهُمَا يُوشِعُ وَكَالِبُ، مِنَ النَّقَبَاءِ الَّذِينَ بَعَثَهُمْ مُوسَى فِي كَشْفِ أحوَالِ الْجَبَّارَةِ ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بِالْعِصْمَةِ فَكَتَمَا مَا أَطْلَعَا عَلَيْهِ مِنْ حَالِهِمْ إِلَّا عَنْ مُوسَى، بِخِلَافِ بَقِيَّةِ النَّقَبَاءِ فَأَفْشَوْهُ فَجَبْنُوا^(١): ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ﴾ بَابَ الْقَرْيَةِ وَلَا تَخْشَوْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَجْسَادٌ بِلَا قُلُوبٍ ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ قَالَا ذَلِكَ تَيْقَنًا بِنَصْرِ اللَّهِ وَإِنْجَازِ وَعْدِهِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٣٣﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾ هُمْ ﴿إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ٣٤﴾ عَنِ الْقِتَالِ^(٢). ﴿قَالَ﴾ مُوسَى حَيْتَئِذٍ: ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي﴾ وَلَا ﴿أَخِي﴾ وَلَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا فَاجْبِرْهُمْ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿فَأَفْرُقْ﴾ فَافْصِلْ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٣٥﴾ قَالَ ﴿تَعَالَى لَهُ: ﴿فَإِنَّهَا﴾ أَيِ: الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ يَدْخُلُوهَا ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ﴾ يَتَحَيَّرُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وَهِيَ تَسْعَةُ فَرَاسِخَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ تَحْزَنْ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ٣٦﴾ رُوِيَ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ اللَّيْلَ جَادِينَ، فَإِذَا أَصْبَحُوا إِذَا هُمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي ابْتَدَأُوا مِنْهُ، وَيَسِيرُونَ النَّهَارَ كَذَلِكَ، حَتَّى انْقَرَضُوا كُلُّهُمْ إِلَّا مَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْعِشْرِينَ، قِيلَ: وَكَانُوا سِتِّمِائَةَ أَلْفٍ، وَمَاتَ هَارُونُ وَمُوسَى فِي النَّيِّهِ، وَكَانَ رَحْمَةً لَهُمَا وَعَذَابًا لِأُولَئِكَ، وَسَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ يُدْنِيَهُ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمِيَّةً بِحَجَرٍ، فَادْنَاهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ^(٣)، وَنَبِيٌّ يُوشِعُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ وَأَمَرَ بِقِتَالِ الْجَبَّارِينَ فَسَارَ بِمَنْ بَقِيَ مَعَهُ وَقَاتَلَهُمْ، وَكَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَوَقَفَتْ لَهُ الشَّمْسُ سَاعَةً حَتَّى فَرَغَ مِنْ

هي أريحا. وكذا ذكر غير واحد من المفسرين. وفي هذا نظر؛ لأن أريحا ليست هي المقصود بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر، حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحا أرض بيت المقدس، كما قاله السدي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الغور شرقي بيت المقدس. [ابن كثير (٣/ ٧٥)].

(١) صفة ثانية لرجلان، أي: أنعم عليهما بالإيمان واليقين بحصول ما وعدوا به من النصر والظفر، وقيل: أنعم عليهما بالعصمة فكتما ما اطلعوا عليه من حالهم إلا عن موسى بخلاف بقية النقباء فأفشوه فجبوا، وقيل: إنها جملة معترضة وهو أيضاً ظاهر، وقيل: حال من الضمير في يخافون أو من رجلان. [صديق حسن (٣/ ٣٩١)].

(٢) إفراط في العصيان وسوء الأدب بعبارة تقتضي الكفر والاستهانة بالله ورسوله، وأين هؤلاء من [الصحابه] الذين قالوا الرسول الله ﷺ: لسنا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. أخرجه أحمد (١٧٦٤١). [ابن جرير (١/ ٢٢٧)].

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

قَتَلَهُمْ، وَرَوَى أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَدِيثًا: «إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ، إِلَّا لِيُوشَعَ لَيْلِي سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ»^(١). ﴿وَاتْلُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى قَوْمِكَ ﴿نَبَأٌ﴾ خَبَرَ ﴿أَبْنَى آدَمَ﴾ هَابِيلَ وَقَابِيلَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿آتِلْ﴾، ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ إِلَى اللَّهِ، وَهُوَ كَبَشٌ لِهَابِيلَ وَزَرْعٌ لِقَابِيلَ ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وَهُوَ هَابِيلُ، بِأَنْ نَزَلَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْ قُرْبَانَهُ ﴿وَلَمْ يَتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وَهُوَ قَابِيلُ، فَغَضِبَ وَأَصْمَرَ الْحَسَدَ فِي نَفْسِهِ، إِلَى أَنْ حَجَّ آدَمُ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ قَالَ: لِمَ؟ قَالَ: لِيَتَقَبَّلَ قُرْبَانِكَ دُونِي ﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٢٧) لِيَن ﴿لَا مَقْسَمَ بِسَطْتِ﴾ مَدَدْتَ ﴿إِلَى يَدِكَ لِيَتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢٨) فِي قَتْلِكَ ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ﴾ تَرْجِعَ ﴿بِإِيْمِي﴾ بِإِيْمِ قَتْلِي ﴿وَإِيْمِكَ﴾ الَّذِي إِزْنَكَبْتَهُ مِنْ قَبْلِ ﴿فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ وَلَا أُرِيدُ أَنْ أَبُوءَ بِإِيْمِكَ إِذَا قَتَلْتِكَ فَأَكُونَ مِنْهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾^(٢٩) فَطَوَّعَتْ زَيْنَتْ ﴿لَهُ وَنَفْسُهُ قَتَلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ﴾ فَصَارَ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣٠) بِقَتْلِهِ، وَلَمْ يَدْرِ مَا يَصْنَعُ بِهِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلَ مَيِّتٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ، فَحَمَلَهُ عَلَى ظَهْرِهِ. ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ يَنْبُشُ التُّرَابَ بِمِنْقَارِهِ وَبِرَّجْلَيْهِ، وَيُشِيرُهُ عَلَى غُرَابٍ مَيِّتٍ حَتَّى وَارَاهُ ﴿لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى﴾ يَسْتُرُ ﴿سَوْءَةَ﴾ جِيفَةَ ﴿أَخِيهِ﴾ قَالَ يُوِيلَتِي أَعَجَزْتُ عَنْ ﴿أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾^(٣١) عَلَى حَمَلِهِ^(٣٢)، وَحَفَرَ لَهُ وَوَارَاهُ. ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ الَّذِي فَعَلَهُ قَابِيلُ ﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ﴾ أَيِ: الْإِنْسَانُ ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ قَتَلَهَا﴾ أَوْ بِغَيْرِ ﴿فَسَادٍ﴾ أَنَّهُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ كُفْرٍ أَوْ زِنَا أَوْ قَطْعِ طَرِيقٍ أَوْ نَحْوِهِ ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ بِأَنْ اِمْتَنَعَ عَنْ قَتْلِهَا ﴿فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مِنْ حَيْثُ انْتَهَاكَ حُرْمَتُهَا وَصَوْنُهَا^(٣٣) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ﴾ أَيِ: بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿رُسُلْنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي

(١) أخرجه أحمد (٨٣١٥)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٦٩)، والدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٣٢٩/١).

(٢) ندم على ما اقترف من قتل أخيه إذ رأى الغراب يحتفل بإكرام أخيه الميت ورأى نفسه يجترئ على قتل أخيه، وما إسرعه إلى تقليد الغراب في دفن أخيه إلا مبدأ الندامة وحب الكرامة لأخيه. ويحتمل أن هذا الندم لم يكن ناشئاً عن خوف عذاب الله ولا قصد توبة، فلذلك لم ينفعه. فجاء في الصحيح: «مَا مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دِمَهِهَا ذَلِكَ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ». أخرجه البخاري (٣٣٣٥)، ومسلم (١٦٧٧). [ابن عاشور (١٧٤/٦)].

(٣) أي: من حيث هتك حرمة الدماء، وسن القتل، وجرأ الناس عليه. أو من حيث إن قتل الواحد وقتل الجميع سواء، في استجلاب غضب الله تعالى والعذاب العظيم، ومن تسبب لبقاء حياتها بعفو أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الهلكة. فكأنما فعل ذلك بالناس

الْأَرْضَ لِمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ مُجَاوِزُونَ الْحَدَّ بِالْكُفْرِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَنَزَلَ فِي الْعُرَنِيِّينَ، لَمَّا قَدِمُوا الْمَدِينَةَ وَهُمْ مَرْضَى، فَأَذِنَ لَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَخْرُجُوا إِلَى الْإِبِلِ وَيَشْرَبُوا مِنْ أَبْوَالِهَا وَالْبَانِهَا، فَلَمَّا صَحُّوا قَتَلُوا رَاعِي النَّبِيِّ ﷺ وَاسْتَأْفَوْا الْإِبِلَ^(١): ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بِقَطْعِ الطَّرِيقِ ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أَي: أَيْدِيهِمُ الْيُمْنَى، وَأَرْجُلُهُمُ الْيُسْرَى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ ﴿أَوْ﴾ لِتَرْتِيبِ الْأَحْوَالِ، فَالْقَتْلُ لِمَنْ قَتَلَ فَقَطُّ، وَالصَّلْبُ لِمَنْ قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ، وَالْقَطْعُ لِمَنْ أَخَذَ الْمَالَ وَلَمْ يَقْتُلْ، وَالتَّنْفِي لِمَنْ أَخَافَ فَقَطُّ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ، وَأَصَحُّ قَوْلِيهِ: أَنَّ الصَّلْبَ ثَلَاثًا بَعْدَ الْقَتْلِ، وَقِيلَ: قَبْلَهُ قَلِيلًا، وَيُلْحَقُ بِالتَّنْفِي مَا أَشْبَهَهُ فِي التَّنْكِيلِ مِنَ الْحَبْسِ وَغَيْرِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ الْمَذْكُورُ ﴿لَهُمْ خِزْيٌ﴾ ذُلٌّ ﴿فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿هُوَ عَذَابُ النَّارِ.﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنَ الْمُحَارَبِينَ وَالْقَطَّاعِ ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا أَتَوْهُ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٣﴾ بِهِمْ، عَبَّرَ بِذَلِكَ دُونَ: «فَلَا تَحْدُوهُمْ»، لِيُفِيدَ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ بِتَوْبَتِهِ إِلَّا حُدُودُ اللَّهِ دُونَ حُقُوقِ الْآدَمِيِّينَ، كَذَا ظَهَرَ لِي وَلَمْ أَرِ مَنْ تَعَرَّضَ لَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، فَإِذَا قَتَلَ وَأَخَذَ الْمَالَ يُقْتَلُ وَيُقَطَّعُ وَلَا يُصَلَّبُ، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، وَلَا تُفِيدُ تَوْبَتُهُ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ شَيْئًا، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلِيهِ أَيْضًا^(٢). ﴿يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿وَابْتَغُوا﴾ اِطْلُبُوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ مَا يُقَرِّبُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ طَاعَتِهِ ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ لِإِعْلَاءِ دِينِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ تَفُوزُونَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ﴾ ثَبَتَ ﴿أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَا

جميعاً. والمقصود منه: تعظيم قتل النفس وإحيائها في القلوب ترهيباً عن التعرض لها، وترغيباً في المحاماة عليها. [البيضاوي (١٢٤/٢)].

(١) أي: إبل الصدقة، أخرجه أبو داود (٣٧٩٨)، والنسائي (٣٩٥٩)، وأصل الخبر في البخاري (٢٣١)، ومسلم (١٦٧١).

(٢) استثنى الله سبحانه التائبين من عموم المعاقبين بالعقوبات السابقة، والظاهر عدم الفرق بين الدماء والأموال وبين غيرها من الذنوب الموجبة للعقاب المعينة المحدودة، فلا يطالب التائب قبل القدرة بشيء من ذلك، وعليه محمل الصحابة. وذهب بعض أهل العلم إلى أنه لا يسقط القصاص وسائر حقوق الآدميين بالتوبة قبل القدرة والحق الأول، وأما التوبة بعد القدرة فلا يسقط بها العقوبة المذكورة في الآية كما يدل عليه ذكر قيد: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾. قال القرطبي: وأجمع أهل العلم على أن السلطان وليٌّ من حارب، فإن قتل محارب أخاً امرئ أو أباه في حال المحاربة فليس إلى طالب الدم من أمر المحاربة شيء ولا يجوز عفو ولي الدم، [وقوله: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بهم، عبر بذلك دون: «فلا تحدوهم» ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله دون حقوق الآدميين، قال السيوطي: كذا ظهر لي ولم أر من تعرض له والله أعلم انتهى، أي: من حيث فهمه من الآية وإن كان في نفسه ظاهراً. [صديق حسن (٤١١/٣)].

تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ ﴿٣٦﴾ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٧﴾ دَائِمٌ. ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ «أَل» فِيهِمَا مَوْصُولَةٌ مُبْتَدَأٌ، وَلِشَبْهِهِ بِالشَّرْطِ دَخَلَتْ أَلْفَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أَي: يَمِينَ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الْكُوعِ، وَبَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّ الَّذِي يُقْطَعُ فِيهِ رُبْعُ دِينَارٍ فَصَاعِدًا^(١)، وَأَنَّهُ إِذَا عَادَ قُطِعَتْ رِجْلُهُ الْيُسْرَى مِنْ مَفْصِلِ الْقَدَمِ، ثُمَّ الْيَدُ الْيُسْرَى، ثُمَّ الرَّجْلُ الْيُمْنَى، وَبَعْدَ ذَلِكَ يُعْزَرُ^(٢) ﴿جَزَاءً﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ ﴿بِمَا كَسَبَا نَكَالًا﴾ عُقُوبَةً لَهُمَا ﴿مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٣٨﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ﴾ رَجَعَ عَنِ السَّرِقَةِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلُهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٣٩﴾ فِي التَّعْبِيرِ بِهَذَا مَا تَقَدَّمَ، فَلَا يَسْقُطُ بِتَوْبَتِهِ حَقُّ الْأَدَمِيِّ مِنَ الْقَطْعِ وَرَدِّ الْمَالِ، نَعَمْ بَيَّنَّتِ السُّنَّةُ أَنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ قَبْلَ الرَّفْعِ إِلَى الْإِمَامِ يَسْقُطُ الْقَطْعُ^(٣)، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الْإِسْفَهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَعْدِيَةٌ ﴿وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الْمَغْفِرَةُ لَهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٤٠﴾ وَمِنْهُ التَّعْذِيبُ وَالْمَغْفِرَةُ^(٤). ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ صُنْعُ ﴿الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ يَقَعُونَ فِيهِ بِسُرْعَةٍ، أَي: يُظْهِرُونَهُ إِذَا وَجَدُوا فُرْصَةً ﴿مِّنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بِالْإِسْتِثْمِ، مُتَعَلِّقٌ بِ﴿قَالُوا﴾ ﴿وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قَوْمٌ ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ الَّذِي افْتَرَتْهُ أَحْبَابُهُمْ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿سَمَّعُونَ﴾ مِنْكَ

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الْقَطْعُ فِي رُبْعِ دِينَارٍ فَصَاعِدًا». أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٤٣٧٤). [قال ابن جزي (١/ ٢٣١): عموم الآية يقتضي قطع كل سارق؛ إلا أن الفقهاء اشتهروا في القطع شروطًا خصصوا بها العموم؛ فمن ذلك من اضطره الجوع إلى السرقة لم يقطع عند مالك؛ لتحليل الميتة له، وكذلك من سرق مال والده أو سيده، أو من سرق من غير حرز، أو سرق أقل من النصاب، وهو عند مالك ربع دينار من الذهب، أو ثلاثة دراهم من الفضة، أو ما يساوي أحدهما، وأدلة التخصيص بهذه الأشياء في غير هذه الآية.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال في السارق يسرق: «إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا يَدَهُ، ثُمَّ إِنْ سَرَقَ فَاقْطَعُوا رِجْلَهُ». أخرجه الدارقطني في السنن: (٣/ ١٨١).

(٣) عن عبد الله بن عمرو، أن امرأة، سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا، قال قومها: فنحن نفديها - يعني أهلها - فقال رسول الله ﷺ: «اقْطَعُوا يَدَهَا»، فقالوا: نحن نفديها بخمس مائة دينار، قال: «اقْطَعُوا يَدَهَا»، قال: فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، أَنْتِ الْيَوْمَ مِنْ خَطِيئَتِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»، فأنزل الله عز وجل في سورة المائدة: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ [المائدة: ٣٩] إلى آخر الآية. أخرجه أحمد (٦٦٥٧).

(٤) وذلك أن الله ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصارييف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته. [السعدي (ص: ٢٣٠)].

﴿لِقَوْمٍ﴾ لِأَجْلِ قَوْمٍ ﴿ءَاخِرِينَ﴾ مِنَ الْيَهُودِ ﴿لَمْ يَأْتُوكَ﴾ وَهُمْ أَهْلُ خَيْبَرَ، زَنَى فِيهِمْ مُحْصَنَانِ فَكَرِهُوا رَجْمَهُمَا، فَبَعَثُوا قُرَيْظَةَ لِيَسْأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ عَنْ حُكْمِهِمَا ^(١) ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ كَايَةَ الرَّجْمِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ الَّتِي وَضَعَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، أَيُّ: يُبَدِّلُونَهُ ﴿يَقُولُونَ﴾ لِمَنْ أَرْسَلُوهُمْ: ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا﴾ الْحُكْمَ الْمُحَرَّفَ، أَيِ: الْجَلْدَ الَّذِي أَفْتَاكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﴿فَخُذُوهُ﴾ فَاقْبَلُوهُ ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ﴾ بَلْ أَفْتَاكُمْ بِخِلَافِهِ ﴿فَاحْذَرُوا﴾ أَنْ تَقْبَلُوهُ ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ إِضْلَالَهُ ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فِي دَفْعِهَا ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَوْ أَرَادَهُ لَكَانَ ^(٢) ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ ذُلٌّ بِالْفُضِيحَةِ وَالْجِزْيَةِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ^(٣). هُمْ ﴿سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَلُونَ لِلْحَقِّ﴾ بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا، أَيِ: الْحَرَامِ كَالرَّشَا ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ﴾ لِتَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ هَذَا التَّخْيِيرُ مَنْسُوخٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٩]، فَيَجِبُ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ إِذَا تَرَفَعُوا إِلَيْنَا، وَهُوَ أَصَحُّ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، فَلَوْ تَرَفَعُوا إِلَيْنَا مَعَ مُسْلِمٍ وَجَبَ إِجْمَاعًا ﴿وَإِنْ تَعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرَّكَ شَيْئًا﴾ وَإِنْ حَكَمْتَ بَيْنَهُمْ ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ^(٤) الْعَادِلِينَ فِي الْحُكْمِ، أَيِ: يُشَبِّهُهُمْ ^(٥). ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾ بِالرَّجْمِ، اسْتَفْهَامٌ تَعْجِيبٌ، أَيِ: لَمْ يَقْصِدُوا بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ بَلْ مَا هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ﴾ يُعْرِضُونَ عَنْ حُكْمِكَ بِالرَّجْمِ الْمَوْافِقِ لِكِتَابِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ التَّحْكِيمِ ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٦) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى ﴿مِنَ الضَّلَالَةِ﴾ ﴿وَنُورٌ﴾ بَيَانٌ

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَةِ فِي شَأْنِ الرَّجْمِ؟»، فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك. فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما فأريت الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة. أخرجه البخاري (٣٦٣٥) ومسلم (١٦٩٩).

(٢) هذا فيمن هو أهل للإضلال، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف ٥]. [ابن عثيمين تفسير المائدة (١/٤٠١)].

والجملة استئناف مبين لكون إرادته تعالى لفتنتهم منوطة بسوء اختيارهم وقبح صنيعهم الموجب لها لا واقعة منه تعالى ابتداء. وفي هذه الآية دلالة على أن الله تعالى لم يرد إسلام الكافر وأنه لم يظهر قلبه من الشك والشرك ولو فعل ذلك لآمن، وهذه الآية من أشد الآيات على القدرة. [صديق حسن (٣/٤٢٣)].

(٣) وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه. [السعدي]. عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكُنَّا يَدَيْهِ يَمِينُ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا». أخرجه مسلم (١٨٢٧).

لِلْأَحْكَامِ ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ انْقَادُوا لِلَّهِ ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَنِيُّونَ﴾ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ ﴿وَالْأَحْبَارُ﴾ الْفُقَهَاءُ ﴿بِمَا﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ الَّذِي ﴿أَسْتَحْفِظُوا﴾ أَسْتَوْدِعُوهُ، أَيُّ: اسْتَحْفَظَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ ﴿مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أَنْ يُبَدِّلُوهُ ﴿وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ﴾ أَيُّهَا الْيَهُودُ فِي إِظْهَارِ مَا عِنْدَكُمْ مِنْ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالرَّجْمِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَأَخْشَوْنَ﴾ فِي كِتْمَانِهِ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا﴾ تَسْتَبْدِلُوا ﴿بِأَيَّتِي تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا تَأْخُذُونَهُ عَلَى كِتْمَانِهَا ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٤٤ ﴿بِهِ﴾ ٤٥. ﴿وَكَتَبْنَا﴾ فَرَضْنَا ﴿عَلَيْهِمْ فِيهَا﴾ أَيُّ: التَّوْرَةَ ﴿أَنَّ النَّفْسَ﴾ تُقْتَلُ ﴿بِالنَّفْسِ﴾ إِذَا قَتَلْتَهَا ﴿وَالْعَيْنَ﴾ تُفْقَأُ ﴿بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ﴾ يُجْدَعُ ﴿بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ﴾ تُقَطَّعُ ﴿بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ﴾ تُقْلَعُ ﴿بِاللِّسَنِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ فِي الْأَرْبَعَةِ ﴿وَالْجُرُوحَ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ ﴿قِصَاصٌ﴾ أَيُّ: يُقْتَصُّ فِيهَا إِنْ أَمَكْنَ، كَالْيَدِ وَالرَّجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمَا لَا يُمَكِّنُ فِيهِ: الْحُكُومَةُ، وَهَذَا الْحُكْمُ وَإِنْ كَتَبَ عَلَيْهِمْ فَهُوَ مُقَرَّرٌ فِي شَرْعِنَا ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أَيُّ: بِالْقِصَاصِ، بِأَنْ مَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ لِمَا آتَاهُ ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فِي الْقِصَاصِ وَغَيْرِهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٤٥ وَقَفَيْنَا ﴿أَتْبَعْنَا﴾ عَلَى آثَرِهِمْ ﴿أَيُّ: النَّبِيِّينَ﴾ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿قَبْلَهُ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى ﴿مِنْ

(١) الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار. والأصغر موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في الحديث: «اُتْنَتَانِ فِي أُمَّتِي، هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ». أخرجه مسلم (٦٧) ... وقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ». أخرجه البخاري (٦٨٦٨)، ومسلم (٦٦). وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة (رضي الله عنهم) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال ابن عباس: ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر، وكذلك قال طاوس، وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. ومنهم من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحدا له، وهو قول عكرمة، وهو تأويل مرجوح، فإن نفس جحوده كفر، سواء حكم أو لم يحكم. ومنهم من تأولها على ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، قال: ويدخل في ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام، وهذا تأويل عبد العزيز الكناني، وهو أيضا بعيد، إذ الوعيد على نفي الحكم بالمنزل، وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعة وبيعضه. ومنهم من تأولها على الحكم بمخالفة النص، تعمدا من غير جهل به ولا خطأ في التأويل، حكاها البغوي عن العلماء عموما. ومنهم من تأولها على أهل الكتاب، وهو قول قتادة، والضحاك وغيرهما، وهو بعيد، وهو خلاف ظاهر اللفظ، فلا يصار إليه. ومنهم من جعله كفرا ينقل عن الملة. والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكافرين، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم، فإنه إن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا كفر أصغر، وإن اعتقد أنه غير واجب، وأنه مخير فيه، مع تيقنه أنه حكم الله، فهذا كفر أكبر، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ، له حكم المخطئين. [مدارج السالكين لابن قيم (٥١٧/١)].

الضَّلَالَةَ ﴿وَتُورٌ﴾ بَيَانٌ لِلْأَحْكَامِ ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ حَالٌ ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَهَدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وَقُلْنَا: ﴿لِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَضْبٍ «يَحْكُمُ» وَكَسْرٍ لَا مِهْ عَطْفًا عَلَى مَعْمُولٍ ﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ ﴿مِنْ﴾ الْكِتَابِ وَمُهِمِّمًا ﴿شَاهِدًا﴾ عَلَيْهِ ﴿وَالْكِتَابَ﴾ بِمَعْنَى الْكِتَابِ ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، إِذَا تَرَاَفَعُوا إِلَيْكَ ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ إِلَيْكَ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ عَادِلًا ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْأُمَمُ ﴿شَرِيعَةً﴾ شَرِيعَةً ﴿وَمِنْهَا جَاءَ﴾ طَرِيقًا وَاضِحًا فِي الدِّينِ يَمْشُونَ عَلَيْهِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عَلَى شَرِيعَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿وَلَكِنْ﴾ فَرَقَكُمْ فَرَقًا ﴿لِّيَبْلُوكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿فِي مَا ءَاتَيْنَاكُمْ﴾ مِنَ الشَّرَائِعِ الْمُخْتَلِفَةِ، لِيَنْظُرَ الْأَمُطِيعَ مِنْكُمْ وَالْعَاصِيَّ ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ سَارِعُوا إِلَيْهَا ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بِالْبَعْثِ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، وَيَجْزِي كُلًّا مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ. ﴿وَأَنْ أَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ﴾ لَ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿يَفْتِنُوكَ﴾ يُضِلُّوكَ ﴿عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ الْحُكْمِ الْمُنَزَّلِ، وَأَرَادُوا غَيْرَهُ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ﴾ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ﴿بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ الَّتِي أَتَوْهَا، وَمِنْهَا التَّوَلَّى، وَيُجَازِيهِمْ عَلَى جَمِيعِهَا فِي الْآخِرَى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴿بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ﴾ يَطْلُبُونَ مِنَ الْمُدَاهَنَةِ وَالْمِيلِ إِذَا تَوَلَّوْا؟ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ ﴿وَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾

(١) تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر، والظلم، والفسق، كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراد به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة أخرى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ معارضة للرسول وإبطالاً لأحكام الله، فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة، ومن لم يحكم بما أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً فاعل قبيحاً فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وظاهر القرآن يدل على أن [الآية] الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب. [الشنقيطي (٢/ ١٢٥)].

(٢) معنى الآية: أنه جعل التوراة لأهلها، والإنجيل لأهلها، والقرآن لأهلها، وهذا قبل نسخ الشرائع السابقة بالقرآن، وأما بعده فلا شرعة ولا منهج إلا ما جاء به ﷺ... وقد وردت آيات دالة على عدم التباين في طريقة الأنبياء وعلى حصول التباين بينهم، والجمع بينها أن الأولى في أصول الدين، والثانية في فروعه وما يتعلق بظاهر العبادات والله أعلم. [صديق حسن (٣/ ٤٤٥)].

(٣) أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغبي، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى

لَقَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ ﴿يُوقِنُونَ ٥٥﴾ بِهِ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ لَأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَتَدَبَّرُونَهُ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ
وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ تَوَالُونَهُمْ وَتَوَادُّونَهُمْ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ لَا تَحَادِيهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ
مِنْهُمْ﴾ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥٦﴾ بِمَوَالِيَتِهِمُ الْكُفَّارَ^(١). ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ﴾ ضَعُفٌ اعْتِقَادٍ؛ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْمُنَافِقِ ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ فِي مَوَالِيَتِهِمْ ﴿يَقُولُونَ﴾ مُعْتَذِرِينَ عَنْهَا:
﴿نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ يَدُورُ بِهَا الدَّهْرُ عَلَيْنَا مِنْ جَدَبٍ أَوْ غَلَبَةٍ، وَلَا يَتِمُّ أَمْرُ مُحَمَّدٍ فَلَا يُمِيرُونَا، قَالَ تَعَالَى:
﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ بِالنَّصْرِ لِنَبِيِّهِ، بِإِظْهَارِ دِينِهِ ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بِهَتِكِ سِتْرِ الْمُنَافِقِينَ وَافْتِضَاحِهِمْ
﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنَ الشَّكِّ وَمَوَالَاةِ الْكُفَّارِ ﴿نَدِمِينَ ٥٧﴾ وَيَقُولُ بِالرَّفْعِ اسْتِنْفَافًا بِوَاوٍ
وَدُونِهَا، وَبِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَىٰ ﴿يَأْتِي﴾، ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لِبَعْضِهِمْ إِذَا هَتَكَ سِتْرَهُمْ تَعَجُّبًا: ﴿أَهْوَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ فِي الدِّينِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾
الصَّالِحَةُ ﴿فَاصْبَحُوا﴾ صَارُوا ﴿خَسِرِينَ ٥٨﴾ الدُّنْيَا بِالْفَضِيحَةِ، وَالْآخِرَةَ بِالْعِقَابِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِّنْ

فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى. [السعدي (ص: ٢٣٤)].

(١) والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وغيرهم، وأخبر أنه من اتخذهم نصيراً وحليفاً وولياً من دون الله ورسوله والمؤمنين، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين، وأن الله ورسوله منه بريئان. وقد يجوز أن تكون الآية نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي ابن سلول وحلفائهما من اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبي لبابة بسبب فعله في بني قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين اللذين ذكر السدي أن أحدهما هم باللاحق بدهلك اليهودي، والآخر بنصراني بالشأم، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر ثبت بمثله حجة، فيسلم لصحته القول بأنه كما قيل. فإذا كان ذلك كذلك، فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم على ما عم، ويجوز ما قاله أهل التأويل فيه من القول الذي لا علم عندنا بخلافه. غير أنه لا شك أن الآية نزلت في منافق كان يوالي يهوداً أو نصارى خوفاً على نفسه من دوائر الدهر، لأن الآية التي بعد هذه تدل على ذلك. وذلك قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ الآية. وأما قوله: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فإنه عنى بذلك: أن بعض اليهود أنصار بعضهم على المؤمنين، ويد واحدة على جميعهم، وأن النصارى كذلك، بعضهم أنصار بعض على من خالف دينهم وملتهم، معرّفاً بذلك عبادة المؤمنين: أن من كان لهم أو لبعضهم ولياً، فإنما هو وليهم على من خالف ملتهم ودينهم من المؤمنين، كما اليهود والنصارى لهم حرب. فقال تعالى ذكره للمؤمنين: فكونوا أنتم أيضاً بعضكم أولياء بعض، وللإهودي والنصراني حرباً كما هم لكم حرب، وبعضهم لبعض أولياء، لأن من والاهم فقد أظهر لأهل الإيمان الحرب، ومنهم البراءة، وأبان قطع ولايتهم. [الطبري (٨/ ٥٠٧)].

يَرْتَدَّ^(١) بِالْفُكِّ وَالْإِدْغَامِ؛ يَرْجِعُ «مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ» إِلَى الْكُفْرِ إِنْخَبَارًا بِمَا عَلِمَ اللَّهُ وَقُوعَهُ مِنْهُمْ، وَقَدْ ارْتَدَّتْ جَمَاعَةٌ بَعْدَ مَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ» بَدَلَهُمْ «بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» قَالَ ﷺ: «هُمْ قَوْمٌ هَذَا»، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ^(٢). رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ^(٣) «أَذَلَّةٌ» عَاطِفِينَ «عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ» أَشَدَّاءَ «عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَآئِمَةً» فِيهِ، كَمَا يَخَافُ الْمُنَافِقُونَ لَوْمَ الْكَفَّارِ «ذَلِكَ» الْمَذْكُورُ مِنَ الْأَوْصَافِ «فَضَّلَ اللَّهُ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ» كَثِيرُ الْفَضْلِ «عَلِيمٌ» بِمَنْ هُوَ أَهْلُهُ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَوْمَنَا هَاجَرُونَا»: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» خَاشِعُونَ، أَوْ يُصَلُّونَ صَلَاةَ التَّطَوُّعِ^(٤). «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا» فَيَعِينَهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» لِنَصْرِهِ إِيَّاهُمْ، أَوْ قَعَهُ مَوْقِعَ «فَانَّهُمْ» بَيَانًا لِأَنَّهُمْ مِنْ حِزْبِهِ، أَيْ: أَتْبَاعِهِ. «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا مَهْزُوءًا بِهِ» وَلَعِبًا مِّنَ اللَّيَّانِ «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارِ» الْمُشْرِكِينَ، بِالْجَرِّ وَالنَّصْبِ «أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ» بِتَرْكِ مَوَالِيَتِهِمْ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» صَادِقِينَ فِي إِيمَانِكُمْ. «وَالَّذِينَ إِذَا نَادَيْتُمْ» دَعَوْتُمْ «إِلَى الصَّلَاةِ» بِالْأَذَانِ «اتَّخَذُوهَا» أَيْ: الصَّلَاةَ «هُزُوءًا وَلَعِبًا» بَأَن يَسْتَهْزِئُوا بِهَا وَيَتَضَاحَكُوا «ذَلِكَ» الْإِتِّخَاذُ «بِأَنَّهُمْ» أَيْ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ

(١) الفُكُّ: إظهار الدالين في اللفظ، وبالإدغام، أي: بقراءة «يَرْتَدَّ». [قباوة (ص: ٤٠٤)].

(٢) قال علي، والحسن: نزل هذا في أبي بكر وأصحابه. وكان الحسن يحلف على هذا، أنه نزل في أبي بكر وأصحابه، وذلك أن النبي لما خرج إلى رحمة الله ارتدت العرب، ولم يبق الإسلام إلا في ثلاثة مساجد: مسجد مكة، ومسجد المدينة، ومسجد البحرين؛ فهم أبو بكر بالقتال، وكره الصحابة ذلك، وقالوا: إن بعضهم منع الزكاة، ولم يتركوا الصلاة، وقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، وقيل: إنه سل سيفه، وخرج وحده، وقال: أقاتل وحدي، ثم وافقه الصحابة، قال ابن مسعود: كرهننا ذلك في الابتداء، ثم حمدناه عليه في الانتهاء، قال أبو بكر بن عياش: سمعت أبا حصين يقول: ما ولد مولود بعد النبيين أفضل من أبي بكر، لقد قام مقام نبي من الأنبياء، يعني: في قتال أهل الردة، ووردهم إلى الإسلام. [السمعاني (٢/ ٤٦)]. [وهي في] كل من جاء بعدهم من المقاتلين للمرتدين في جميع الزمن. [الشوكاني (٢/ ٥٩)].

(٣) أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٣)، وابن جرير في التفسير (٦/ ٢٨٤)، والطبراني (١٧/ ٣٧١).

(٤) قوله: «وَهُمْ رَاكِعُونَ» قد توهم بعضهم أن هذه الجملة في موضع الحال من قوله: «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» أي: في حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك، لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء... وحتى إن بعضهم ذكر في هذا آثارا عن علي بن أبي طالب أن هذه الآية نزلت فيه، ذلك أنه مر به سائل في حال ركوعه، فأعطاه خاتمه... وليس يصح شيء منها بالكلية، لضعف أسانيدها وجهالة رجالها... وعن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا. [ابن كثير (٣/ ١٣٨)].

﴿قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾. وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْيَهُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «بِمَنْ تُؤْمِنُ مِنَ الرُّسُلِ؟» فَقَالَ: «بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» [البقرة: ١٣٦] آيَةً، فَلَمَّا ذَكَرَ عِيسَى، قَالُوا: «لَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ»^(١): ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنفَمُونَ﴾ تُنْكِرُونَ ﴿مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ إِلَى ٱلْأَنْبِيَآءِ ﴿وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَسِقُونَ ٥٩﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾، الْمَعْنَى: مَا تُنْكِرُونَ إِلَّا إِيْمَانَنَا وَمُخَالَفَتَكُمْ فِي عَدَمِ قَبُولِهِ، الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِٱلْفِسْقِ ٱلِلْإِزْمِ عَنْهُ، وَلَيْسَ هَٰذَا مِمَّا يُنْكِرُ. ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أَخْبِرْكُمْ ﴿بِشَرٍّ مِّنْ أَهْلِ﴾ (ذَلِكَ) الَّذِي تَنفَمُونَهُ (مَثُوبَةً) ثَوَابًا بِمَعْنَى جَزَاءٍ (عِنْدَ ٱللَّهِ) هُوَ (مَنْ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ) أَبْعَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ (وَعَظِبَ عَلَيْهِ) وَجَعَلَ مِنْهُمْ ٱلْقِرْدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ بِٱلْمَسْخِ (و) مَنْ (عَبَدَ ٱلطَّاغُوتَ) الشَّيْطَانَ بِطَاعَتِهِ^(٢)، وَرُوعِي فِي (مِنْهُمْ) مَعْنَى «مَنْ» وَفِيمَا قَبْلَهُ لَفْظُهَا وَهُمْ ٱلْيَهُودُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ بَاءٍ (عَبَدَ) وَإِضَافَتِهِ إِلَى مَا بَعْدَهُ إِسْمٌ جَمْعٌ لِّ «عَبَدَ»، وَنَضْبُهُ بِٱلْعَطْفِ عَلَى (ٱلْقِرْدَةِ)، (أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا) تَمَيِّزٌ؛ لِأَنَّ مَا وَأَهُمُ ٱلنَّارُ (وَأَضَلُّ عَنِ سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ٦٠) طَرِيقِ ٱلْحَقِّ، وَأَضَلُّ ٱلسَّوَاءِ ٱلْوَسْطُ، وَذِكْرُ (شَرٍّ)، (وَأَضَلُّ) فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِمْ: «لَا نَعْلَمُ دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ». (وَإِذَا جَآءُوكُمْ) أَي: مُنَافِقُو ٱلْيَهُودِ (قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا) إِلَيْكُمْ مُتَلَبِّسِينَ (بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا) مِنْ عِنْدِكُمْ مُتَلَبِّسِينَ (بِهِ) وَلَمْ يُؤْمِنُوا (وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ٦١) هُ مِنْ ٱلنَّفَاقِ (وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ) أَي: ٱلْيَهُودَ (يُسْرِعُونَ) يَقْعُونَ سَرِيعًا (فِي ٱلْإِثْمِ) ٱلْكَذِبِ (وَٱلْعُدُونِ) ٱلظُّلْمِ (وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ) ٱلْحَرَامَ كَٱلرِّشَا (لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٦٢) هُ عَمَلُهُمْ هَٰذَا. (لَوْلَا هَٰذَا) (يَنْهَلُهُمُ ٱلرَّبَّنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ) مِنْهُمْ (عَنْ قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمُ) ٱلْكَذِبُ (وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ) لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ٦٣) هُ تَرَكَ نَهْيَهُمْ. (وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ) لَمَّا ضَيَّقَ عَلَيْهِمْ بِتَكْذِيبِهِمُ ٱلنَّبِيَّ ﷺ بَعْدَ أَنْ كَانُوا أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ مَا لَا: (يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُوبَةٌ) مَقْبُوضَةٌ عَنْ إِدْرَارِ ٱلرِّزْقِ عَلَيْنَا، كُنَّا بِهِ عَنِ ٱلْبُخْلِ - تَعَالَى ٱللَّهُ عَنْ ذَٰلِكَ - قَالَ تَعَالَى: ﴿غُلَّتْ﴾ أُمْسِكَتْ (أَيْدِيَهُمْ) عَنْ فِعْلِ ٱلْخَيْرَاتِ، دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ (وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) مُبَالِغَةٌ فِي ٱلْوَصْفِ بِٱلْجُودِ، وَثَنِي ٱلْيَدُ لِإِفَادَةِ ٱلْكَثْرَةِ، إِذْ غَايَةُ مَا يَبْذُلُهُ ٱلسَّخِيُّ مِنْ مَالِهِ أَنْ يُعْطِيَ يَدَيْهِ^(٣) (يُنْفِقُ كَيْفَ

(١) انظر: الطبري: (٢٩٢/٦)، والدر المنثور: (١٠٨/٣).

(٢) انظر معنى «الطاغوت» التعليق على آية (٢٥٦) من سورة البقرة.

(٣) يد الله صفة من صفاته، كالسمع، والبصر، والوجه، وقال جل ذكره: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، وقال النبي ﷺ: «كَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٌ». أخرجه مسلم (١٨٢٧)، والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمرها كما جاءت بلا كيف». [البغوي (٧٧/٣)]. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ»

يَشَاءُ ﴿١٥﴾ مِنْ تَوْسِيعٍ وَتَضْيِيقٍ لَا اِعْتِرَاضَ عَلَيْهِ ﴿١٦﴾ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا اُنْزِلَ اِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿١٧﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿١٨﴾ طُعِنًا وَكُفْرًا ﴿١٩﴾ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿٢٠﴾ وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ اِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٢١﴾ فَكُلُّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ تَخَالَفُ الْاُخْرَى ﴿٢٢﴾ كُلَّمَا اُوقِدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ ﴿٢٣﴾ اَيُّ: لِحَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿٢٤﴾ اُطْفَاَهَا اللَّهُ ﴿٢٥﴾ اَيُّ: كُلَّمَا ارَادُوهُ رَدَّهُمْ ﴿٢٦﴾ وَيَسْعَوْنَ فِي الْاَرْضِ فَسَادًا ﴿٢٧﴾ اَيُّ: مُفْسِدِينَ بِالْمَعَاصِي ﴿٢٨﴾ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٩﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ ﴿٣٠﴾. ﴿٣١﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا ﴿٣٢﴾ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿٣٣﴾ وَاتَّقَوْا ﴿٣٤﴾ الْكُفْرَ ﴿٣٥﴾ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ ﴿٣٧﴾ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣٨﴾ بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِمَا، وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿٣٩﴾ وَمَا اُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴿٤٠﴾ مِنَ الْكِتَابِ ﴿٤١﴾ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكْلَوْا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿٤٢﴾ بِأَن يُوَسَّعَ عَلَيْهِمُ الرِّزْقُ، وَيَفِيضَ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ﴿٤٣﴾ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ ﴿٤٤﴾ جَمَاعَةٌ ﴿٤٥﴾ مُّقْتَصِدَةٌ ﴿٤٦﴾ تَعْمَلُ بِهِ، وَهُمْ مِّنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿٤٧﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءٌ ﴿٤٨﴾ بِشَسْ ﴿٤٩﴾ مَا ﴿٥٠﴾ شَيْئًا ﴿٥١﴾ يَعْمَلُونَ ﴿٥٢﴾ هـ. ﴿٥٣﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْغُ ﴿٥٤﴾ جَمِيعٌ ﴿٥٥﴾ مَّا اُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿٥٦﴾ وَلَا تَكْتُمُ شَيْئًا مِنْهُ خَوْفًا أَن تَنَالَ بِمَكْرُوهٍ ﴿٥٧﴾ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ ﴿٥٨﴾ اَيُّ: لَمْ تُبَلِّغْ جَمِيعَ مَا اُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴿٥٩﴾ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴿٦٠﴾ بِالْأَفْرَادِ وَالْجَمْعِ؛ لِأَنَّ كِتْمَانَ بَعْضِهَا كَكِتْمَانِ كُلِّهَا ﴿٦١﴾ وَاللَّهُ يَعْصَمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴿٦٢﴾ أَن يَقْتُلُوكَ، وَكَانَ ﷺ يُحَرِّسُ حَتَّى نَزَلَتْ، فَقَالَ: «انْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي اللَّهُ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ ﴿٦٣﴾ ﴿٦٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ ﴿٦٦﴾ مِنَ الدِّينِ مُعْتَدِّينَ بِهِ ﴿٦٧﴾ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا اُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ ﴿٦٨﴾ بِأَن تَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَمِنْهُ الْإِيمَانُ بِي ﴿٦٩﴾ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّا

سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقُ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَعْصَ مَا فِي يَمِينِهِ، قَالَ: «وَعَرَّشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَفِي يَدِهِ الْأُخْرَى الْقَبْضُ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»، قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «أَنْفَقُ أَنْفَقَ عَلَيْكَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ الْبُخَارِيِّ (٧٤١٩)، وَمُسْلِمٍ (٩٩٣).

(١) أي: من سجيّتهم أنهم دائماً يسعون في الإفساد في الأرض، والله لا يحب من هذه صفته. [ابن كثير (١٤٧/٣)]، والمحبة ثابتة لله، ... وهي محبة حقيقية أثبتتها أهل السنّة والجماعة على قاعدة معروفة وهي: وجوب إجراء النصوص على ظاهرها في باب صفات الله، وأن الله يُحب. خلافاً لمن فسّر المحبة بالثواب أو بإرادة الثواب ممن ينكرون قيام المحبة بالله عز وجل، ... حتى إذا قلنا: إنها ثواب، يلزم من الثواب المحبة؛ لأن الله لا يُثيب إلا من يحبه، حتى لو فسرناها بإرادة الثواب يلزم منها المحبة أيضاً؛ لأن الله لا يريد أن يُثيب أحداً إلا حيث يحبه. [ابن عثيمين تفسير المائدة (١٢٥/٢)]. ومثله تأويل «لا يحبه» بـ«يعاقبه» يلزم من العقاب ألا يحبه؛ لأن الله لا يعاقب إلا من لا يحبه.

(٢) ذكر المفسرون في سبب نزول الآية وجوها، واعلم أن هذه الروايات وإن كثرت إلا أن الأولى حملة على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم؛ وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في البين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها. [الرازي (٤٠١/١٢)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٤٦)، والحاكم (٣٢٢١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢٠٦/٦).

أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴿مِنَ الْقُرْآنِ﴾ طُغَيْنَا وَكُفِّرَا ﴿لِكُفْرِهِمْ بِهِ﴾ ﴿فَلَا تَأْسَ﴾ تَحْزَنُ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٦٨﴾
 إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ، أَيُّ: لَا تَهْتَمُّ بِهِمْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هُمُ الْيَهُودُ، مُبْتَدَأُ ﴿وَالصَّابِئُونَ﴾ فِرْقَةٌ مِنْهُمْ^(١)
 ﴿وَالنَّصْرَى﴾ وَيُبَدِّلُ مِنَ الْمُبْتَدَأِ ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ فِي الْآخِرَةِ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، وَدَالَ عَلَى خَبَرِ ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ عَلَى الْإِيمَانِ
 بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ ﴿مِنَ الْحَقِّ كَذَبُوهُ﴾ ﴿فَرِيقًا﴾
 مِنْهُمْ ﴿كَذَّبُوا وَفَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿يَقْتُلُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى، وَالتَّعْبِيرُ بِهِ دُونَ «قَتَلُوا» حِكَايَةً لِلْحَالِ الْمَاضِيَةِ،
 لِلْفَاصِلَةِ^(٢). ﴿وَحَسِبُوا﴾ ظَنُّوا ﴿أَنْ﴾ ن ﴿لَا تَكُونُ﴾ بِالرَّفْعِ وَ «أَنْ» مُخَفَّفَةٌ، وَالنَّصْبُ فَهِيَ نَاصِبَةٌ، أَيُّ: تَقَعُ ﴿فِتْنَةٌ﴾
 عَذَابٌ بِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَقَتْلِهِمْ ﴿فَعَمُوا﴾ عَنِ الْحَقِّ فَلَمْ يُبْصِرُوهُ ﴿وَصَمُّوا﴾ عَنِ اسْتِمَاعِهِ ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
 عَلَيْهِمْ﴾ لَمَّا تَابُوا ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا﴾ ثَانِيًا ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ^(٣) ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧١﴾
 فَيَجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ سَبَقَ مِثْلُهُ^(٤) ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ
 إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فَإِنِّي عَبْدٌ وَلَسْتُ بِإِلَهِ ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرُهُ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ
 اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ مَنَعَهُ أَنْ يَدْخُلَهَا ﴿وَمَا وَهُهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَنْصَارٍ﴾ ﴿٧٢﴾ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِ
 اللَّهِ. ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ﴾ إِلَهَةٍ ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أَيُّ: أَحَدُهَا، وَالْآخَرَانِ عِيسَى وَآمُّهُ، وَهُمْ فِرْقَةٌ مِنَ
 النَّصَارَى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ مِنَ التَّثْلِيثِ وَيُوحِّدُوا ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

(١) انظر التعليق على آية (٦٢) من سورة البقرة.

(٢) قال مقاتل: أخذ ميثاقهم في التوراة بأن يعملوا بما فيها. قال ابن عباس: كان فيمن كذبوا محمد وعيسى، وفيمن قتلوا زكريا ويحيى. قال الزجاج: فأما التأكيد فاليهود والنصارى يشتركون فيه. وأما القتل فيختص باليهود. [ابن الجوزي (١/ ٥٧٠)].

(٣) قال الإمام القفال: ذكر الله تعالى في سورة «بني إسرائيل» ما يجوز أن يكون تفسيراً لهذه الآية فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لُتْفِيسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا﴾ ١ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ٢ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ٣ [الإسراء: ٤-٦] فهذا في معنى: ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ ثم قال: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧] فهذا في معنى قوله: ﴿ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ انتهى. [القاسمي (٤/ ٢١١)].

(٤) في سورة النساء آية: (١٧١).

أَيُّ: ثَبَتُوا عَلَى الْكُفْرِ ﴿مِنْهُمْ عَذَابُ أَلِيمٌ ٧٣﴾ مُؤْلَمٌ، هُوَ النَّارُ. ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾ مِمَّا قَالُوا، اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لِمَنْ تَابَ ﴿رَحِيمٌ ٧٤﴾ بِهِ. ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فَهُوَ يَمْضِي مِثْلَهُمْ، وَلَيْسَ بِإِلَهِ كَمَا زَعَمُوا، وَإِلَّا لَمَا مَضَى ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ مُبَالِغَةٌ فِي الصَّدَقِ ﴿كَأَنَّا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ كَغَيْرِهِمَا مِنَ الْحَيَوَانَاتِ^(١)، وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَهًا لِتَرْكِيبِهِ^(٢) وَضَعْفِهِ وَمَا يَنْشَأُ مِنْهُ مِنَ الْبَوْلِ وَالْعَائِطِ ﴿انْظُرْ﴾ مُتَعَجِّبًا ﴿كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الْآيَاتِ﴾ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿ثُمَّ انْظُرْ أَتَى﴾ كَيْفَ ﴿يُؤْفَكُونَ ٧٥﴾﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ. ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لَاقْوَالِكُمْ ﴿الْعَلِيمُ ٧٦﴾ بِأَحْوَالِكُمْ، وَلَا اسْتَفْهَامٌ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قُلْ يَنَآهَلِ الْكِتَابُ﴾ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ﴿لَا تَغْلُوا﴾ تُجَاوِزُوا الْحَدَّ ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ غُلُّوا ﴿غَيْرِ الْحَقِّ﴾ بِأَنْ تَضَعُوا عِيسَى أَوْ تَرْفَعُوهُ فَوْقَ حَقِّهِ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ بَغْلُوهُمْ وَهُمْ أَصْلَافُهُمْ ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ٧٧﴾ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَالسَّوَاءِ فِي الْأَصْلِ: الْوَسْطُ. ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ﴾ بِأَنْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَمَسَّحُوا قِرْدَةً، وَهُمْ أَصْحَابُ «أَيْلَةَ» ﴿وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بِأَنْ دَعَا عَلَيْهِمْ فَمَسَّحُوا خَنَازِيرَ، وَهُمْ أَصْحَابُ «الْمَائِدَةِ» ﴿ذَلِكَ﴾ أَلْعَنُ ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ أَيُّ: لَا يَنْهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿عَنْ مُعَاوَدَةِ﴾ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ فَعَلُهُمْ هَذَا. ﴿تَرَى﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، بُغْضًا لَكَ ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ مِنَ الْعَمَلِ لِمُعَادِهِمُ الْمُوجِبِ لَهُمْ ﴿أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ﴾ أَيُّ: الْكَفَّارَ ﴿أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ٨١﴾ خَارِجُونَ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ؛ لِتَضَاعَفِ كُفْرُهُمْ وَجَهْلُهُمْ وَانْهَمَاكِهِمْ فِي اتِّبَاعِ آلِهَتِهِمْ ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ﴾ أَيُّ: قُرْبُ مَوَدَّتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿مِنْهُمْ قَسِيسِينَ﴾ عُلَمَاءَ ﴿وَرُهَبَانًا﴾ عِبَادًا ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ٨٢﴾ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، كَمَا يَسْتَكْبِرُ

(١) الحيوان: اسم يقع على كل شيء حي. [لسان العرب لابن منظور (١٤/ ٢١٤)]. [أي: يفتقران إليه افتقار الحيوانات، بين أولاً أقصى

ما لهما من الكمال ودل على أنه لا يوجب لهما ألوهية؛ لأن كثيراً من الناس يشاركهما في مثله، ثم نبه على نقصهما وذكر ما ينافي الربوبية.

[البيضاوي (١٣٨/ ٢)].

(٢) انظر التعليق على آية (١٧١) من سورة النساء.

الْيَهُودُ وَأَهْلَ مَكَّةَ، نَزَلَتْ فِي وَفْدِ النَّجَاشِيِّ الْقَادِمِينَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَبَشَةِ، قَرَأَ ﷺ سُورَةَ «يَس» فَبَكَوْا وَأَسْلَمُوا، وَقَالُوا: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِمَا كَانَ يَنْزِلُ عَلَى عِيسَى ^(١). قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا﴾ صَدَقْنَا بِنَبِيِّكَ وَكِتَابِكَ ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ^(٢) الْمُقَرَّبِينَ بِتَصَدِيقِهِمْ. ﴿و﴾ قَالُوا فِي جَوَابِ مَنْ عَيَّرَهُمْ بِالْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ ﴿مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾ الْقُرْآنِ، أَيُّ: لَا مَانِعَ لَنَا مِنَ الْإِيمَانِ مَعَ وُجُوبِ مُقْتَضِيهِ ﴿وَنَطْمَعُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿نُؤْمِنُ﴾، ﴿أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ ^(٣) الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٤) بِالْإِيمَانِ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ^(٥). وَنَزَلَ لِمَا هُمْ قَوْمٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَنْ يَلَازِمُوا الصَّوْمَ وَالْقِيَامَ وَلَا يَقْرُبُوا النِّسَاءَ وَالطِّيبَ وَلَا يَأْكُلُوا اللَّحْمَ وَلَا يَنَامُوا عَلَى الْفِرَاشِ ^(٦): ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ تَجَاوَزُوا أَمْرَ اللَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ^(٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا مَفْعُولٌ، وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ قَبْلَهُ حَالٌ مُتَعَلِّقٌ بِهِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ ^(٨) لَا يُؤَاخِذْكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ الْكَائِنِ ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ هُوَ مَا يَسْبِقُ إِلَيْهِ اللَّسَانُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ الْحَلْفِ، كَقَوْلِ الْإِنْسَانِ: «لَا وَاللَّهِ» وَ «بَلَى وَاللَّهِ» ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذْكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَقَدْتُمْ﴾، ﴿الْأَيْمَنُ﴾ عَلَيْهِ؛ بَأَنْ حَلَفْتُمْ عَنْ قَصْدٍ ﴿فَكَفَّرْتُمْ﴾ أَيُّ: الْيَمِينَ إِذَا حَسِثْتُمْ فِيهِ ﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ لِكُلِّ مِسْكِينٍ مُدٌّ ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ﴾ مِنْهُ ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ أَيُّ: أَقْصَدُهُ وَأَغْلَبُهُ، لَا أَعْلَاهُ وَلَا أَدْنَاهُ ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ بِمَا يُسَمَّى كِسْوَةً كَقَمِيصٍ وَعِمَامَةٍ وَإِزَارٍ، وَلَا يَكْفِي دَفْعُ مَا ذُكِرَ إِلَى مِسْكِينٍ وَاحِدٍ،

(١) يتعين هنا إرادة البعض وهو من جاء من الحبشة إلى النبي ﷺ لأن كل النصاري ليسوا كذلك. [الآلوسي (٤/ ٥)]. قال أبو بكر الرازي: من الجهال من يظن أن في هذه الآية مدحا للنصاري، وإخبارا بأنهم خير من اليهود، وليس كذلك؛ لأن ما في الآية من ذلك إنما هو صفة قوم قد آمنوا بالله وبالرسول ﷺ. [أبو حيان (٤/ ٣٤٤)]. وفي الحديث سأل سلمان الفارسي رسول الله ﷺ فقال: أخبرني عن النصاري؟ قال: «لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا فِيمَنْ أَحَبَّهُمْ»، فقامت وأنا مثقل فأنزل الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّ﴾، فأرسل الي فقال: «يَا سَلْمَانُ إِنَّ أَصْحَابَكَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرَ اللَّهُ». أخرجه الطبري (٧/ ٤)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦٦٧٩).

(٢) عن عائشة رضي الله عنها أن ناسا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر، فقال بعضهم: لَا أَكُلُ اللَّحْمَ. وقال بعضهم: لَا أَتَزُوجُ النِّسَاءَ. وقال بعضهم: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا، لِكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَنَامُ وَأَقُومُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزُوجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنتِي فَلَيْسَ مِنِّي». أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ﴿أَوْ تَحْرِيرٌ﴾ عَتَقَ ﴿رَقَبَةً﴾ أَي: مُؤَمَّنَةً، كَمَا فِي كَفَّارَةِ الْقَتْلِ وَالظَّهَارِ، حَمَلًا لِلْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ وَاحِدًا مِمَّا ذَكَرَ ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ كَفَّارَتُهُ، وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ التَّابِعُ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿كَفَّرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وَحَشِشْتُمْ ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أَنْ تَنْكُثُوهَا، مَا لَمْ يَكُنْ عَلَى فِعْلِ بَرٍّ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، كَمَا فِي سُورَةِ «الْبَقَرَةِ» ^(٢) ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ مَا بَيَّنَّ لَكُمْ مَا ذَكَرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ آيَاتِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ^(٣) هُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ﴾ الْمُسْكِرُ الَّذِي يُخَامِرُ الْعَقْلَ ﴿وَالْمَيْسِرُ﴾ الْقِمَارُ ﴿وَالْأَنْصَابُ﴾ الْأَصْنَامُ ﴿وَالْأَزْلَمُ﴾ قِدَاحُ الْأَسْتِقْسَامِ ﴿رِجْسٌ﴾ خَبِيثٌ مُسْتَقْدَرٌ ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الَّذِي يُزَيِّنُهُ ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أَي: الرَّجْسَ الْمَعْبَرُ بِهِ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنْ تَفْعَلُوهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(٤) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إِذَا أَتَيْتُمُوهُمَا، لِمَا يَحْصُلُ فِيهِمَا مِنَ الشَّرِّ وَالْفِتَنِ ﴿وَيُضِدَّكُمْ﴾ بِالْإِشْتِعَالِ بِهِمَا ﴿عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ خَصَّهَا بِالذِّكْرِ تَعْظِيمًا لَهَا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ^(٥) عَنْ إِيْتَانِهِمَا؟ أَي: انْتَهَوْا ^(٦). ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ الْمَعَاصِيَ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنْ الطَّاعَةِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ^(٧) الْإِبْلَاجُ الْبَيِّنُ، وَجَزَاؤُكُمْ عَلَيْنَا. ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ أَكَلُوا مِنَ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قَبْلَ التَّحْرِيمِ ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا﴾ الْمَحْرَمَاتِ ﴿وَعَامَنُوا﴾

(١) وقرئ: «متابعات» حكى ذلك عن ابن مسعود وأبي فتكون هذه القراءة مقيدة لمطلق الصوم، وبه قال أبو حنيفة والثوري وهو أحد قولي الشافعي، وقال مالك والشافعي في قوله الآخر يجزئ التفريق، وظاهره أنه لا يشترط التتابع. [صديق حسن (٤/ ٤٤)].

(٢) الآية (٢٢٤) من سورة البقرة.

(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة، وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألو رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [البقرة: ٢١٩]. فقال الناس: ما حرم علينا، إنما قال: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وكانوا يشربون الخمر، حتى كان يوما من الأيام صلى رجل من المهاجرين، أم أصحابه في المغرب، خلط في قراءته، فأنزل الله عز وجل آية أغلظ منها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] وكان الناس يشربون، حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفيق. ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] قالوا: انتهينا ربنا. وقال الناس: يا رسول الله، ناس قتلوا في سبيل الله، وناس ماتوا على سرفهم كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ [المائدة: ٩٣]، وقال النبي ﷺ: «لَوْ حُرِّمَ عَلَيْهِمْ لَتَرَكُوهُ كَمَا تَرَكَتُمْ». أخرجه أحمد (٨٦٠٥). [ابن كثير (٣/ ١٧٩)].

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقُوا وَءَامِنُوا ﴿ثَبُّوا عَلَى التَّقْوَىٰ وَالْإِيمَانِ﴾ ثُمَّ اتَّقُوا وَءَامِنُوا ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُبَيِّهُهُمْ^(١). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَنَّكُمْ ﴿اللَّهُ بَشَىٰ﴾ يَرْسِلُهُ لَكُمْ ﴿مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ﴾ أَيِ: الصَّغَارِ مِنْهُ ﴿أَيْدِيَكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ الْكِبَارِ مِنْهُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ وَهُمْ مُحْرِمُونَ، فَكَانَتِ الْوَحْشُ وَالطَّيْرُ تَغْشَاهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ عِلْمَ ظُهُورٍ ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ، أَيِ: غَائِبًا لَمْ يَرَهُ فَيَجْتَنِبِ الصَّيْدَ ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ النَّهْيُ عَنْهُ فَاصْطَادَهُ ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٩٤) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ﴿مُحْرِمُونَ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ﴾ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ ﴿بِالتَّنَوُّينِ وَرَفْعِ مَا بَعْدَهُ، أَيِ: فَعَلَيْهِ جَزَاءٌ هُوَ﴾ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ ﴿أَيِ: شَبْهُهُ فِي الْخِلْقَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِإِضَافَةِ «جَزَاءٍ»﴾ يَحْكُمُ بِهِ- ﴿أَيِ: بِالْمِثْلِ رَجُلَانِ﴾ ﴿ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ لَهُمَا فِطْنَةٌ يُمَيِّزَانِ بِهَا أَشْبَهَ الْأَشْيَاءِ بِهِ، وَقَدْ حَكَمَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فِي النَّعَامَةِ بِدَنَةٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ فِي بَقَرِ الْوَحْشِ وَحِمَارِهِ بِبَقَرَةٍ، وَابْنُ عُمَرَ وَابْنُ عَوْفٍ فِي الظَّبْيِ بِشَاةٍ، وَحَكَمَ بِهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُمَرُ وَغَيْرُهُمَا فِي الْحَمَامِ؛ لِأَنَّهُ يُشَبِّهُهَا فِي الْعَبِّ ﴿هَدِيًّا﴾ حَالٌ مِنْ «جَزَاءٍ» ﴿بَلِغِ الْكَعْبَةِ﴾ أَيِ: يُبْلَغُ بِهِ الْحَرَمُ فَيَذْبَحُ فِيهِ وَيَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَى مَسَاكِينِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُذْبَحَ حَيْثُ كَانَ، وَنَصَبَهُ نَعْتًا لِمَا قَبْلَهُ، وَإِنْ أَضِيفَ؛ لِأَنَّ إِضَافَتَهُ لَفْظِيَّةٌ لَا تَقِيدُ تَعْرِيفًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلصَّيْدِ مِثْلٌ مِنَ النَّعَمِ كَالْعُصْفُورِ وَالْجَرَادِ فَعَلَيْهِ قِيمَتُهُ ﴿أَوْ﴾ عَلَيْهِ ﴿كَفَّرَةٌ﴾ غَيْرُ الْجَزَاءِ، وَإِنْ وَجَدَهُ، هِيَ: ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ مِنْ غَالِبِ قُوَّةِ الْبَلَدِ، مَا يُسَاوِي قِيمَةَ الْجَزَاءِ لِكُلِّ مَسْكِينٍ مُدًّا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِإِضَافَةٍ ﴿كَفَّرَةٌ﴾ لِمَا بَعْدَهُ وَهِيَ لِلْبَيَانِ ﴿أَوْ﴾ عَلَيْهِ ﴿عَدْلٌ﴾ مِثْلُ ﴿ذَلِكَ﴾ الطَّعَامِ ﴿صِيَامًا﴾ يَصُومُهُ، عَنْ كُلِّ مُدٍّ يَوْمٌ وَإِنْ وَجَدَهُ وَجَبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ﴾ ثِقَلِ جَزَاءٍ ﴿أَمْرِهِ﴾ الَّذِي فَعَلَهُ ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ مَنْ قَتَلَ الصَّيْدَ قَبْلَ تَحْرِيمِهِ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَيْهِ ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾^(٩٥) مِمَّنْ عَصَاهُ، وَالْحَقُّ بِقَتْلِهِ مُتَعَمِّدًا فِيمَا ذَكَرَ الْخَطَأُ. ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ حَلَالًا كُنْتُمْ أَوْ مُحْرَمِينَ ﴿صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ أَنْ تَأْكُلُوهُ وَهُوَ مَا لَا يَعِيشُ إِلَّا فِيهِ كَالسَّمَكِ، بِخِلَافِ مَا يَعِيشُ فِيهِ وَفِي الْبَرِّ كَالسَّرَطَانِ^(٢)

(١) والله يحب المتقربين إليه بنوافل الأعمال التي يرضاهها. [الطبري (٨/ ٦٦٥)].

(٢) وقال سفيان أرجو ألا يكون بالسرطان بأس... قال أحمد يؤكل كل ما في البحر إلا الضفدع والتمساح، وقال ابن أبي ليلى ومالك يباح كل ما في البحر، وأخرج ابن جرير (٦٨/ ٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «طَعَامُهُ مَا لَفْظُهُ مَيْتًا فَهُوَ طَعَامُهُ»، وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صيد البحر ما تصطاده أيدينا وطعامه ما لاثه البحر، وفي لفظ طعامه كل ما فيه، وفي لفظ طعامه ميتته. ويؤيد هذا ما في الصحيحين من حديث العنبرة التي ألغاهها البحر فأكل الصحابة منها وأقرهم رسول الله ﷺ على ذلك، وحديث: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ وَالْحِلُّ

﴿وَطَعَامُهُ﴾ مَا يَقْذِفُهُ مَيْتًا ﴿مَتَعًا﴾ تَمْتِيعًا ﴿لَكُمْ﴾ تَأْكُلُونَهُ ﴿وَاللَّسْيَارَةَ﴾ الْمُسَافِرِينَ مِنْكُمْ يَتَزَوَّدُونَ ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْنَا صَيْدَ الْبَرِّ﴾ وَهُوَ مَا يَعِيشُ فِيهِ مِنَ الْوَحْشِ الْمَأْكُولِ، أَنْ تَصِيدُوهُ ﴿مَا دُمْتُمْ حُرْمًا﴾ فَلَوْ صَادَهُ حَلَالٌ فَلِلْمُحَرَّمِ أَكْلُهُ، كَمَا بَيَّنَّتْهُ السُّنَّةُ ^(١) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ^(٩٦) * جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴿الْمُحَرَّمِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ يَقُومُ بِهِ أَمْرُ دِينِهِمْ بِالْحَجِّ إِلَيْهِ، وَدُنْيَاهُمْ بِأَمْنٍ دَاخِلِهِ وَعَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُ، وَجَبِي ثَمَرَاتِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قِيَمًا﴾ بِلَا أَلِفٍ مَصْدَرٌ «قَامَ» غَيْرُ مُعَلٍّ ﴿وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ بِمَعْنَى الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمِ وَرَجَبٍ، قِيَمًا لَهُمْ بِأَمْنِهِمْ مِنَ الْقِتَالِ فِيهَا ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلِيدَ﴾ قِيَمًا لَهُمْ بِأَمْنِ صَاحِبَيْهَا مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُ ﴿ذَلِكَ﴾ الْجَعْلُ الْمَذْكُورُ ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ^(٩٧) فَإِنَّ جَعْلَهُ ذَلِكَ، لِيَجْلِبَ الْمَصَالِحَ لَكُمْ وَدَفَعَ الْمَضَارَّ عَنْكُمْ قَبْلَ وَقُوعِهَا، دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِهِ بِمَا هُوَ فِي الْوُجُودِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ. ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِأَعْدَائِهِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ ^(٩٨) بِهِمْ. ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ لَكُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تُظْهِرُونَ مِنَ الْعَمَلِ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ ^(٩٩) تُخْفُونَ مِنْهُ، فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ﴾ الْحَرَامُ ﴿وَالطَّيِّبُ﴾ الْحَلَالُ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أَيُّ: سَرَّكَ ﴿كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي تَرْكِهِ ﴿يَأُولُوا الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ^(١٠٠) تَفُوزُونَ. وَنَزَلَ لَمَّا أَكْثَرُوا سُؤَالَهُ ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ﴾ تُظْهَرُ ﴿لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ ﴿وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ﴾ أَيُّ: فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿تُبْدَ لَكُمْ﴾ الْمَعْنَى: إِذَا سَأَلْتُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فِي زَمَنِ نَزْلِ الْقُرْآنِ بِإِبْدَائِهَا، وَمَتَى أَبْدَاهَا سَاءَتْكُمْ، فَلَا تَسْأَلُوا عَنْهَا، قَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ﴿عَنْ مَسْأَلَتِكُمْ، فَلَا تَعُودُوا﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ^(١٠١) قَدْ سَأَلَهَا أَيُّ: الْأَشْيَاءَ ﴿قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أَنْبِيََاءُهُمْ، فَأَجِيبُوا بَيَانَ أَحْكَامِهَا ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا﴾ صَارُوا ﴿بِهَا كَافِرِينَ﴾ ^(١٠٢) بِتَرْكِهِمُ الْعَمَلِ بِهَا. ﴿مَا جَعَلَ﴾ شَرَعَ ﴿اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ كَمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَفْعَلُونَهُ،

مَيْتَتُهُ. أخرجه أبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (٥٩)، وابن ماجه (٣٨٦)، وأحمد (٨٧٣٥). وحديث: «أَحَلَّ لَكُمْ مَيْتَتَانِ وَدَمَانِ». أخرجه ابن ماجه (٣٣١٤)، وأحمد (٥٧٢٣). [صديق حسن (٤/٥٦)].

(١) عن أبي قتادة رضي الله عنه: أنه كان مع رسول الله ﷺ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة، تخلف مع أصحاب له محرمين، وهو غير محرم، فرأى حماراً وحشياً، فاستوى على فرسه، ثم سأل أصحابه أن يناولوه سوطاً فأبوا، فسألهم رمحه فأبوا، فأخذه ثم شد على الحمار فقتله، فأكل منه بعض أصحاب رسول الله ﷺ وأبى بعضهم، فلما أدركوا رسول الله ﷺ سألوه عن ذلك، فقال: «إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَكُمُوهَا اللَّهُ». أخرجه البخاري (٢٩١٤)، ومسلم (١١٩٦).

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ: الْبَحِيرَةُ: الَّتِي يُمْنَعُ دُرُّهَا لِلطَّوَاعِيتِ فَلَا يَحْلُبُهَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، وَالسَّائِبَةُ: الَّتِي كَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِإِلَهَتِهِمْ فَلَا يُحْمَلُ عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَالْوَصِيلَةُ: النَّاقَةُ الْبَكْرُ تُبَكِّرُ فِي أَوَّلِ نَتَاجِ الْإِبِلِ بِأَنْثَى ثُمَّ تُثْنِي بَعْدَ بَأْنَى، وَكَانُوا يُسَيِّبُونَهَا لِطَوَاعِيَتِهِمْ إِنْ وَصَلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى لَيْسَ بَيْنَهُمَا ذَكَرٌ، وَالْحَامُ: فَحْلُ الْإِبِلِ يَضْرِبُ الضَّرَابَ الْمَعْدُودَةَ، فَإِذَا قَضَى ضَرَابَهُ وَدَعُوهُ لِلطَّوَاعِيتِ وَأَعْفُوهُ مِنْ أَنْ يُحْمَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ وَسَمَّوْهُ الْحَامِي^(١). ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ فِي ذَلِكَ وَفِي نَسَبِهِ إِلَيْهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(١٣) ﴿أَنَّ ذَلِكَ افْتِرَاءٌ؛ لَأَنَّهُمْ قَلَّدُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ.﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أَي: إِلَى حُكْمِهِ، مِنْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمْتُمْ ﴿قَالُوا حَسْبُنَا﴾ كَافِينَا ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ حَسْبُهُمْ ذَلِكَ﴾ ﴿وَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١٤) إِلَى الْحَقِّ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: احْفَظُوهَا وَقُومُوا بِصَلَاحِهَا ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ غَيْرُهُمْ؛ لِحَدِيثِ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُسَنِيِّ: سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «اتَّبِعُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ نَفْسُكَ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَغَيْرُهُ^(١٥) ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٥) ﴿فَيَجَازِيكُمْ بِهِ.﴾ ﴿يَنَائِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أَي: أَسْبَابُهُ ﴿حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَي: لِيَشْهَدَ، وَإِضَافَةُ ﴿شَهْدَةُ﴾ لـ «بَيْنِ» عَلَى الْإِتْسَاعِ، وَ﴿حِينَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، أَوْ ظَرْفٌ لـ ﴿حَضَرَ﴾، ﴿أَوْ ءَاخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أَي: غَيْرِ مِلَّتِكُمْ ﴿إِنْ أَنْتُمْ صَرَبْتُمْ﴾ سَافَرْتُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْ لِمُصِيبَةِ الْمَوْتِ تَحْسُونَهُمَا﴾ تُوقِفُونَهُمَا صِفَةً ﴿ءَاخِرَانِ﴾، ﴿مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ﴾ أَي: صَلَاةِ الْعَصْرِ ﴿فَيُقْسِمَانِ﴾ يَحْلِفَانِ ﴿بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ﴾ شَكَكْتُمْ فِيهِمَا، وَيَقُولَانِ: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ بِاللَّهِ ﴿ثَمَنًا﴾ عَوَضًا نَأْخُذُهُ بَدَلَهُ مِنَ الدُّنْيَا، بَأَنَّ نَحْلِفَ بِهِ أَوْ نَشْهَدَ كَذِبًا لِأَجْلِهِ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ الْمُقْسَمُ لَهُ أَوْ الْمَشْهُودُ لَهُ ﴿ذَا قُرْبَى﴾ قَرَابَةٍ مِنَّا ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ الَّتِي أَمَرْنَا بِهَا ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إِنْ كَتَمْنَاهَا ﴿لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾^(١٦) فَإِنْ عُثِرَ أُطْلِعَ بَعْدَ حَلْفِهِمَا ﴿عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا﴾ أَي: فَعَلَا مَا يُوجِبُهُ مِنْ خِيَانَةٍ أَوْ كَذِبٍ فِي الشَّهَادَةِ، بَأَنَّ وَجَدَ عِنْدَهُمَا مَثَلًا مَا

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٣)، ومسلم (٢٨٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

إْتِهْمَا بِهِ، وَادَّعِيَا أَنَّهُمَا إِبْتِغَاءَهُ مِنَ الْمَيِّتِ أَوْ أَوْصَى لَهُمَا بِهِ ﴿فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا﴾ فِي تَوَجُّهِ الْيَمِينِ عَلَيْهِمَا
 ﴿مِنَ الَّذِينَ أَسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ الْوَصِيَّةُ، وَهُمْ الْوَرَثَةُ وَيُبدَلُ مِنْ ﴿عَاخِرَانِ﴾ ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾ بِالْمَيِّتِ، أَيِ: الْأَقْرَبَانِ إِلَيْهِ،
 وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الْأَوَّلَيْنِ﴾ جَمْعُ «أَوَّلٍ» صِفَةً، أَوْ بَدَلُ مِنَ «الَّذِينَ»، ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ عَلَى خِيَانَةِ الشَّاهِدَيْنِ،
 وَيَقُولَانِ: ﴿لَشَهِدْتُنَا﴾ يَمِينُنَا ﴿أَحَقُّ﴾ أَصْدَقُ ﴿مِنْ شَهِدْتِيهِمَا﴾ يَمِينُهُمَا ﴿وَمَا أَعْتَدَيْنَا﴾ تَجَاوَزْنَا الْحَقَّ فِي الْيَمِينِ
 ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ الْمَعْنَى: لِيُشْهِدَ الْمُحْتَضِرُّ عَلَى وَصِيَّتِهِ اثْنَيْنِ أَوْ يُوصِي إِلَيْهِمَا، مِنْ أَهْلِ دِينِهِ أَوْ غَيْرِهِمْ
 إِنْ فَقَدَهُمْ لِسَفَرٍ وَنَحْوِهِ، فَإِنْ إِرْتَابَ الْوَرَثَةُ فِيهِمَا، فَادَّعُوا أَنَّهُمَا خَانَا بِأَخْذِ شَيْءٍ أَوْ دَفَعَهُ إِلَى شَخْصٍ زَعَمَا أَنَّ الْمَيِّتَ
 أَوْصَى لَهُ بِهِ، فَلِيُخْلِفَا إِلَى آخِرِهِ. فَإِنْ إِطْلَعَ عَلَى أَمَارَةٍ تُكَذِّبُهُمَا فَادَّعِيَا دَافِعًا لَهُ حَلَفَ أَقْرَبُ الْوَرَثَةِ عَلَى كَذِبِهِمَا
 وَصَدَقَ مَا ادَّعَوْهُ، وَالْحُكْمُ ثَابِتٌ فِي الْوَصِيِّينِ مَنْسُوخٍ فِي الشَّاهِدَيْنِ، وَكَذَا شَهَادَةُ غَيْرِ أَهْلِ الْمِلَّةِ مَنْسُوخَةٌ، وَاعْتِبَارُ
 صَلَاةِ الْعَصْرِ لِلتَّغْلِيظِ، وَتَخْصِيصُ الْحَلْفِ فِي الْآيَةِ بِاثْنَيْنِ مِنْ أَقْرَبِ الْوَرَثَةِ لِخُصُوصِ الْوَاقِعَةِ الَّتِي نَزَلَتْ لَهَا، وَهِيَ
 مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١): أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي سَهْمٍ خَرَجَ مَعَ تَمِيمِ الدَّارِيِّ وَعَدِيِّ بْنِ بَدَاءٍ - أَيِ: وَهُمَا نَصْرَانِيَانِ - فَمَاتَ
 السَّهْمِيُّ بِأَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا مُسْلِمٌ، فَلَمَّا قَدِمَا بِتَرْكِتِهِ فَقَدُوا جَامًا مِنْ فِضَّةٍ مُخَوَّصًا بِالذَّهَبِ، فَرَفَعَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَتَرَكْتَ
 فَأَحْلَفَهُمَا ثُمَّ وَجَدَ الْجَامَ بِمَكَّةَ، فَقَالُوا: إِبْتِغَاءَهُ مِنْ تَمِيمٍ وَعَدِيِّ، فَتَرَكْتَ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ، فَقَامَ رَجُلَانِ مِنْ أَوْلِيَاءِ السَّهْمِيِّ
 فَحَلَفَا، وَفِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ^(٢): فَقَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَرَجُلٌ آخَرُ مِنْهُمْ فَحَلَفَا وَكَانَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ، وَفِي رِوَايَةِ فَمَرَضَ
 فَأَوْصَى إِلَيْهِمَا، وَأَمْرُهُمَا أَنْ يُبْلِغَا مَا تَرَكَ أَهْلُهُ، فَلَمَّا مَاتَ أَخَذَا الْجَامَ وَدَفَعَا إِلَى أَهْلِهِ مَا بَقِيَ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْحُكْمُ
 الْمَذْكُورُ مِنْ رَدِّ الْيَمِينِ عَلَى الْوَرَثَةِ ﴿أَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَنْ يَأْتُوا﴾ أَيِ: الشُّهُودِ أَوْ الْأَوْصِيَاءِ ﴿بِالشَّهَادَةِ عَلَى
 وَجْهِهَا﴾ الَّذِي تَحَمَّلُوهَا عَلَيْهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا خِيَانَةٍ ﴿أَوْ﴾ أَقْرَبُ إِلَى أَنْ ﴿يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَنُ بَعْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾
 عَلَى الْوَرَثَةِ الْمُدَّعِينَ، فَيُخْلِفُونَ عَلَى خِيَانَتِهِمْ وَكَذِبِهِمْ فَيَقْتَضِحُونَ وَيَغْرَمُونَ فَلَا يَكْذِبُوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِتَرْكِ الْخِيَانَةِ
 وَالْكَذِبِ ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ مَا تَوْمَرُونَ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝﴾ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَتِهِ، إِلَى
 سَبِيلِ الْخَيْرِ. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ﴾ لَهُمْ تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِمْ: ﴿مَاذَا﴾ أَيِ: الَّذِي
 ﴿أُجِبْتُمْ﴾ بِهِ حِينَ دَعَوْتُمْ إِلَى التَّوْحِيدِ؟ ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بِذَلِكَ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ۝﴾ مَا غَابَ عَنِ
 الْعِبَادِ وَذَهَبَ عَنْهُمْ عِلْمُهُ، لِشِدَّةِ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفَرَعِهِمْ، ثُمَّ يَشْهَدُونَ عَلَى أُمَّهِمْ لَمَّا يَسْكُنُونَ. أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٦١).

يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكَرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ ﴿بِشْكْرِهَا﴾ إِذْ أَيْدُتُكَ ﴿فَوَيْتُكَ﴾ (بُرُوحُ الْقُدُسِ) جِبْرِيلُ ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ حَالُ مَنْ الْكَافِ فِي ﴿أَيْدُتُكَ﴾، ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ أَيُّ: طِفْلاً ﴿وَكَهْلاً﴾ يُفِيدُ نَزْوَلَهُ قَبْلَ السَّاعَةِ؛ لِأَنَّهُ رُفِعَ قَبْلَ الْكُهُولَةِ كَمَا سَبَقَ فِي «آلِ عِمْرَانَ»^(١) ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ كَصُورَةٍ﴾ (الطِّينِ) وَالْكَافُ: اسْمٌ بِمَعْنَى «مِثْلُ»، مَفْعُولٌ ﴿بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ بِإِزَادَتِي^(٢) ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ أَحْيَاءً ﴿بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ حِينَ هَمُّوا بِقِتْلِكَ ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾ (سَحَرٌ)، أَيُّ: عِيسَى. ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أَمَرْتُهُمْ عَلَى لِسَانِهِ ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِ﴾ عِيسَى ﴿قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بِهِمَا ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ﴿أَذْكَرُ﴾ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَيُّ: يَفْعَلُ ﴿رَبُّكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَوْقَايَةِ وَنَضَبِ مَا بَعْدَهُ، أَيُّ: تَقْدِرُ أَنْ تَسْأَلَهُ ﴿أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ﴾ لَهُمْ عِيسَى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي افْتِرَاحِ الْآيَاتِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿قَالُوا نُرِيدُ﴾ سُؤَالَهَا مِنْ أَجْلِ ﴿أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ﴾ تَسْكُنَ ﴿قُلُوبُنَا﴾ بِزِيَادَةِ الْيَقِينِ ﴿وَنَعْلَمَ﴾ نَزَادَ عِلْمًا ﴿أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيُّ: أَنَّكَ ﴿قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ فِي ادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ ﴿وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا﴾ أَيُّ: يَوْمَ نَزْوَلِهَا ﴿عِيدًا﴾ نَعُظَّمُهُ وَنُسَرُّ فِيهِ ﴿لَا وَلَنَا﴾ بَدَلُ مَنْ: ﴿لَنَا﴾ بِإِعَادَةِ الْجَارِ ﴿وَعَاخِرِنَا﴾ مِمَّنْ يَأْتِي بَعْدَنَا ﴿وَعَايَةَ مِنْكَ﴾ عَلَى قُدْرَتِكَ، وَنُبَوِّتِي ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ إِيَّاهَا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مُسْتَجِيبًا لَهُ: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ أَيُّ: بَعْدَ نَزْوَلِهَا ﴿مِنْكُمْ﴾ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿فَنَزَلَتْ الْمَلَائِكَةُ بِهَا مِنَ السَّمَاءِ، عَلَيْهَا سَبْعَةُ ارْغِفَةٍ وَسَبْعَةُ أَحْوَاتٍ، فَأَكَلُوا مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَفِي حَدِيثٍ: «أَنْزَلَتْ الْمَائِدَةُ مِنَ السَّمَاءِ خُبْزًا وَلَحْمًا فَأَمْرُوا أَنْ لَا يَخُونُوا وَلَا يَدْخَرُوا لِغَدٍ، فَخَانُوا وَادْخَرُوا وَرَفَعُوا، فَمَسَحُوا قَرَدَةً وَخَنَازِيرَ»^(٣) ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ﴾ أَيُّ: يَقُولُ ﴿اللَّهُ﴾ لِعِيسَى فِي الْقِيَامَةِ تَوْبِيخًا لِقَوْمِهِ: ﴿يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

(١) الآية (٤٦) من سورة آل عمران.

(٢) كررها لبيان أن هذه الآية العظيمة لم تكن إلا بإذن الله، في الآية التي في آل عمران كرر الإذن مرتين، لكن من الذي قال ذلك في الآية التي

في آل عمران هل الله خاطب عيسى أو عيسى خاطب قومه؟ عيسى خاطب قومه، فافترقا. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/٥٠٣)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٦١)، وأبو يعلى (١٦٥١).

ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْمِي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ عِيسَى وَقَدْ أَرَعَدَ: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تَزِيهًا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ، مِنَ الشَّرِيكَ وَغَيْرِهِ ﴿مَا يَكُونُ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾ خَبَرٌ ﴿لَيْسَ﴾، وَ ﴿لِي﴾ لِلتَّيْسِينَ ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا﴾ أَخْفِيهِ ﴿فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أَي: مَا تُخْفِيهِ مِنْ مَعْلُومَاتِكَ^(١) ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾^(٢) مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ^(٣) وَهُوَ ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رَقِيبًا أَمْنُهُمْ مِمَّا يَقُولُونَ ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ فَبَضَّتْنِي بِالرَّفْعِ إِلَى السَّمَاءِ ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ الْحَفِظُ لِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ قَوْلِي لَهُمْ وَقَوْلِهِمْ بَعْدِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿شَهِيدٌ﴾^(٤) مُطَّلِعٌ عَالِمٌ بِهِ. ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ أَي: مَنْ أَقَامَ عَلَى الْكُفْرِ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ وَأَنْتَ مَالِكُهُمْ تَتَصَرَّفُ فِيهِمْ كَيْفَ شِئْتَ، لَا إِعْتِرَاضَ عَلَيْكَ ﴿وَأَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أَي: لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾^(٥) فِي صُنْعِهِ. ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ﴾ فِي الدُّنْيَا كَعِيسَى ﴿صِدْقُهُمْ﴾ لِأَنَّهُ يَوْمُ الْجَزَاءِ ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ^(٦) ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِثَوَابِهِ^(٧) ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٨) وَلَا يَنْفَعُ الْكَاذِبِينَ فِي الدُّنْيَا صِدْقُهُمْ فِيهِ، كَالْكَفَّارِ لَمَّا يُؤْمِنُونَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْعَذَابِ. ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَالرَّزْقِ وَغَيْرِهَا ﴿وَمَا فِيهِنَّ﴾ أَتَى بِـ ﴿مَا﴾ تَغْلِيًا لِغَيْرِ الْعَاقِلِ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٩) وَمِنْهُ إِثَابَةُ الصَّادِقِ وَتَعَذِيبُ الْكَاذِبِ، وَخَصَّ الْعَقْلَ ذَاتَهُ فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ^(١٠).

(١) النفس هنا بمعنى الذات، يعني أن ما في نفسي تعلمه وما في نفسي لا أعلمه، والفرق ظاهر؛ لأن الله هو الخالق، وعيسى مخلوق، والخالق يعلم مخلوقه، والمخلوق لا يعلم عن خالقه إلا ما أخبره به. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/٥٤٣)].

(٢) رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه. [الطبري (٩/١٤٢)]. وتامم الرضا إذا دخلوا الجنة؛ فإن الله تعالى يسألهم ماذا يريدون، فيعُدُّون عليه نعمه عليهم، فيقول: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ أُحِلَّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَغْضَبُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩). وهذا الرضوان الدائم الكامل. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/٥٦٨)].

(٣) رضواهم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم، من جزيل ثوابه. [الطبري (٩/١٤٣)].

(٤) أخطأ صاحب الجلالين في التفسير؛ حيث قال عند هذه الآية: «وَخَصَّ الْعَقْلَ ذَاتَهُ فَلَيْسَ عَلَيْهَا بِقَادِرٍ» فإن هذا قول منكر، لكن هذا مقتضى مذهبه حيث ينفي أن تقوم الأفعال الاختيارية بالله؛ يعني عنده أن الله لا يتزل ولا يستوي على العرش ولا يضحك ولا يفرح، ومن المعلوم أن الأفعال الاختيارية تكون بمشيئته فهو قادر على إيجادها وإعدامها، فالقول هذا منكر مبني على عقيدة فاسدة. [ابن عثيمين تفسير المائدة (٢/٥٧٦)].

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الْآيَاتِ الثَّلَاثُ، وَإِلَّا ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ الْآيَاتِ الثَّلَاثُ. مِائَةٌ وَخَمْسُ أَوْ سِتُّ وَسِتُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ﴾ وَهُوَ: الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ^(١)، ثَابِتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ وَهَلِ الْمُرَادُ الْإِعْلَامُ بِذَلِكَ لِلْإِيمَانِ بِهِ، أَوِ الثَّنَاءُ بِهِ، أَوْ هُمَا؟ اِحْتِمَالَاتٌ أَفِيدُهَا الثَّلَاثُ، قَالَه الشَّيْخُ^(٢) فِي سُورَةِ «الْكَهْفِ» ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ خَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمَا أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ لِلنَّاطِرِينَ ﴿وَجَعَلَ﴾ خَلَقَ ﴿الظُّلُمَاتِ وَالنُّورِ﴾ أَي: كُلَّ ظُلْمَةٍ وَنُورٍ، وَجَمَعَهَا دُونَهُ لِكَثْرَةِ أَسْبَابِهَا، وَهَذَا مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَعَ قِيَامِ هَذَا الدَّلِيلِ ﴿بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(٣) يُسَوُّونَ غَيْرَهُ فِي الْعِبَادَةِ^(٤). ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا﴾ لَكُمْ تَمُوتُونَ عِنْدَ انْتِهَائِهِ ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مَضْرُوبٌ ﴿عِنْدَهُ﴾ لِبَعْثِكُمْ ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْكُفَّارُ ﴿تَمْتَرُونَ﴾^(٥) تَشْكُونَ فِي الْبَعْثِ، بَعْدَ عِلْمِكُمْ أَنَّهُ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ فَهُوَ عَلَى الْإِعَادَةِ أَقْدَرُ. ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ مُسْتَحَقٌّ لِلْعِبَادَةِ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ مَا تَسْرُونَهُ وَمَا تَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنَكُمْ^(٦) وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ^(٧) تَعْمَلُونَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ.

(١) بدأ سبحانه هذه السورة بالحمد لله للدلالة على أن الحمد كله له وإن لم يحمده، وفيه تعليم اللفظ والمعنى مع تعريض الاستغناء ولا إقامة الحجة على الذين هم برههم يعدلون، والحمد اللغوي الوصف بالجميل ذكره الزمخشري في الفائق، وزاد صاحب المطالع وغيره كونه على جهة التعظيم والتبجيل، أي: ظاهراً وباطناً. وأما الحمد الاصطلاحي: فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعماً، قاله الكرخي. [صديق حسن (٩٧/٤)].

(٢) أي: الشيخ جلال المحلي رحمه الله، في أول سورة «الكهف».

(٣) وجهان للعلماء: أحدهما: أنه من العدول عن الشيء بمعنى الانحراف، والميل عنه، وعلى هذا فقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَفَرُوا﴾ وعليه فالمعنى: إن الذين كفروا برههم يميلون وينحرفون عن طريق الحق إلى الكفر والضلال، وقيل على هذا الوجه: إن «الباء» بمعنى «عن» أي: يعدلون عن ربهم، فلا يتوجهون إليه بطاعة، ولا إيمان. والثاني: أن «الباء» متعلقة بـ ﴿يَعْدِلُونَ﴾ ومعنى ﴿يَعْدِلُونَ﴾ يجعلون له نظيراً في العبادة، من قول العرب: عدلت فلاناً بفلان إذا جعلته له نظيراً وعديلاً... وهذا الوجه الأخير يدل له القرآن، كقوله تعالى عن الكفار الذين عدلوا به غيره: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ^(٩٨) [الشعراء: ٩٧-٩٨]. [الشنقيطي (٤٦٩/١)].

(٤) ﴿وَالْأَرْضُ﴾ ههنا للجنس؛ فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها. والبادي من هذا الترتيب أن السماء خلقت من قبل الأرض؛ وقد حكاها

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ أَي: أَهْل مَكَّةَ ﴿مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ٥ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَتْبَؤُا﴾ عَوَاقِبُ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٦ ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَغَيْرِهَا ﴿كَمْ﴾ خَبْرِيَّةٌ، بِمَعْنَى كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ مِّن قَرْنٍ﴾ أُمَّةٍ مِّنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مَكَتْنَهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ مَكَانًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْقُوَّةِ وَالسَّعَةِ ﴿مَا لَمْ نُمَكِّنْ﴾ نُعْطِ ﴿لَكُمْ﴾ فِيهِ الْإِنْفَاتِ عَنِ الْعِيَةِ ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ﴾ الْمَطَرَ ﴿عَلَيْهِمْ مَّدْرَارًا﴾ مُتَّابِعًا ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ تَحْتَ مَسَاكِينِهِمْ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ بِتَكْذِيبِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴿وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ ٧ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ مَكْتُوبًا ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ رَقٍّ كَمَا اقْتَرَحُوهُ ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَبْلَغُ مِنْ «عَايَنُوهُ»؛ لِأَنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إِنَّ ﴿مَا﴾ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ تَعْتَبًا وَعِنَادًا. ﴿وَقَالُوا لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مَلَكٌ﴾ يُصَدِّقُهُ ﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكًا﴾ كَمَا اقْتَرَحُوهُ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿لَقَضَى الْأَمْرُ﴾ بِهَلَاكِهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ﴾ ٨ ﴿يُمَهِّلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْدَرَةٍ، كَعَادَةِ اللَّهِ فِيَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ عِنْدَ وُجُودِ مُقْتَرِحِهِمْ إِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الْمُنْزَلَ إِلَيْهِمْ ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الْمَلَكُ ﴿رَجُلًا﴾ أَي: عَلَى صُورَتِهِ، لِيَتِمَكَّنُوا مِنْ رُؤْيِيهِ، إِذْ لَا قُوَّةَ لِلْبَشَرِ عَلَى رُؤْيَةِ الْمَلَكِ ﴿و﴾ لَوْ أَنزَلْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴿لَلْبَسْنَا﴾ شَبَهَنَا ﴿عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ ٩ ﴿عَلَى أَنْفُسِهِمْ، بَأَن يَقُولُوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾﴾ [المؤمنون: ٢٤] ١٠. ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ١١ ﴿وَهُوَ الْعَذَابُ، فَكَذَا يَحِقُّ بِمَنْ اسْتَهْزَأَ بِكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ ١٢﴾ الرُّسُلُ مِنْ هَلَاكِهِمْ بِالْعَذَابِ لِيَعْتَبِرُوا. ﴿قُلْ لِّمَنْ

الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأن الواو لا ترتب المعاني، والذي ينبغي من مجموع آي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يدحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك. [ابن عطية (٢/٢٦٥)].

(١) أي: لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيا لكان على هيئة رجل لتفهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلا منهم، ليدعو بعضهم بعضا، وليمكن بعضهم أن يتفهم بعض في المخاطبة والسؤال، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. [ابن كثير (٣/٢٤١)].

مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ إِن لَّمْ يَقُولُوهُ، لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿كَتَبَ﴾ قَضَى ﴿عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فَضَلًا مِنْهُ^(١)، وَفِيهِ تَلَطَّفٌ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ لِيُجَازِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴿بِتَغْرِيبِهَا لِلْعَذَابِ، مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ﴾ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٢﴾ * وَلَهُوَ ﴿تَعَالَى﴾ ﴿مَا سَكَنَ﴾ حَلَّ ﴿فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَي: كُلِّ شَيْءٍ، فَهُوَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَمَالِكُهُ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ بِمَا يُفْعَلُ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخَذَ وَلِيًّا﴾ أَعْبَدُهُ ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ يَرْزُقُ ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ يَرْزُقُ؟ لَا، ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿وَ﴾ قِيلَ لِي ﴿لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٤﴾ بِهِ. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِعِبَادَةِ غَيْرِهِ﴾ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿مَنْ يُصِرْ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَي: الْعَذَابِ، وَلِلْفَاعِلِ، أَي: اللَّهُ، وَالْعَائِدُ: مَحْذُوفٌ ﴿عَنْهُ يَوْمٌ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ تَعَالَى، أَي: أَرَادَ لَهُ الْخَيْرَ^(٢) ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾ النَّجَاةُ الظَّاهِرَةُ. ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بَلَاءٍ، كَمَرَضٍ وَفَقْرٍ ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ رَافِعٍ ﴿لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ كَصِحَّةٍ وَغَنَى ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٧﴾ وَمِنْهُ مُسْكٌ بِهِ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى رَدِّهِ عَنْكَ غَيْرُهُ. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الْقَادِرُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، مُسْتَعْلِيًّا ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْحَكِيمُ ﴿فِي خَلْقِهِ﴾ ﴿الْخَبِيرُ﴾ ﴿١٨﴾ بِبَوَاطِنِهِمْ كَطَوَاهِرِهِمْ. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّا بِمَنْ يَشْهَدُ لَكَ بِالنَّبُوَّةِ، فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْكَرُوكَ»^(٣): ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةٍ﴾ تَمَيِّزُ مُحَوَّلٍ عَنِ الْمُبْتَدَأِ ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ إِن لَّمْ يَقُولُوهُ، لَا جَوَابَ غَيْرُهُ، هُوَ ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ﴾ أَخَوْفَكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ عُطِفَ عَلَى ضَمِيرِ «أُنْذِرَكُمْ»، أَي: بَلَغَهُ الْقُرْآنُ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿إِنَّا نَكُنُّ لَكُمْ لَشَهِدُونَ﴾ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَى ﴿اسْتَغْفَاهُمْ إِنْكَارٍ﴾ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَا أَشْهَدُ﴾ بِذَلِكَ ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ. ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾ أَي: مُحَمَّدًا، بِنَعْنِهِ فِي كِتَابِهِمْ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ مِنْهُمْ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ بِهِ. ﴿وَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى

(١) يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهن، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة، كما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ كَتَبَ كِتَابًا عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي». أخرجه البخاري (٧٤٠٤)،

ومسلم (٢٧٥١). [ابن كثير (٢٤٢/٣)].

(٢) أي: من لوازم رحمته سبحانه، إرادة الخير له.

(٣) أسباب النزول للواحد (ص: ٢١٦).

اللَّهُ كَذِبًا) بِنِسْبَةِ الشِّرْكِ إِلَيْهِ، ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: الشَّانُ ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ١١ ﴿بِذَلِكَ﴾.
 ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ١٢ ﴿أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ؟﴾ (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ) بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿فَتَنَّتَهُمْ﴾ بِالنَّصْبِ وَالرَّفْعِ، أَي: مَعْدَرَتَهُمْ ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أَي: قَوْلُهُمْ: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا﴾ بِالْجَرِّ: نَعْتُ، وَالنَّصْبِ: نِدَاءٌ ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ١٣. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ بِنَفْيِ الشِّرْكِ عَنْهُمْ ﴿وَصَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ١٤ ﴿هُ عَلَى اللَّهِ مِنْ شُرَكَاءَ﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ١٥ إِذَا قَرَأْتَ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَعْطِيَةً لـ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ صَمَمًا، فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنَ ﴿إِلَّا أَسْطِيرٌ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ١٦ ﴿كَأَلَا ضَاحِكٍ وَالْأَعَاجِبِ ١٧﴾، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ. ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْهُ﴾ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَيَتَّبَعُونَ﴾ يَتَّبَعْدُونَ ﴿عَنْهُ﴾ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْهَى عَنْ أَذَاهُ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ ١٨ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿يُهْلِكُونَ﴾ بِالنَّائِي عَنْهُ ﴿إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ لِأَنَّ ضَرَرَهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ١٩ ﴿بِذَلِكَ﴾. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾ عَرَضُوا ﴿عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنَّا نُرَدُّ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿وَلَا نَكْذِبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ٢٠ ﴿بَرَفِعِ الْفَعْلَيْنِ اسْتِثْنَاءً، وَنَضْبِهِمَا فِي جَوَابِ التَّمْنَى، وَرَفْعِ الْأَوَّلِ وَنَضْبِ الثَّانِي، وَجَوَابُ «لَوْ»: لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ﴾ لِلإِضْرَابِ عَنْ إِرَادَةِ الْإِيمَانِ الْمَفْهُومِ مِنَ التَّمْنَى ﴿بَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ يَكْتُمُونَ، بِقَوْلِهِمْ: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] بِشَهَادَةِ جَوَارِحِهِمْ، فَتَمَنَّوْا ذَلِكَ ﴿وَلَوْ رُدُّوْا﴾ إِلَى الدُّنْيَا فَرَضًا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ٢١ ﴿فِي وَعْدِهِمْ بِالْإِيمَانِ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ أَي: مُنْكَرُوا أَلْبَعَثَ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هِيَ﴾ أَي: الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ ٢٢ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا﴾ عَرَضُوا ﴿عَلَى رَبِّهِمْ﴾ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ تَوْبِيخًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ أَلْبَعَثَ وَالْحِسَابُ ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا﴾

(١) يحتمل أنهم أرادوا نسبة أخبار القرآن إلى الكذب على ما تعارفوه من اعتقادهم في الأساطير. ويحتمل أنهم أرادوا أن القرآن لا يخرج عن كونه مجموع قصص وأساطير، يعنون أنه لا يستحق أن يكون من عند الله لأنهم لقصور أفهامهم أو لتجاهلهم يعرضون عن الاعتبار المقصود من تلك القصص ويأخذونها بمنزلة الخرافات التي يتسامر الناس بها لتقصير الوقت. [ابن عاشور (١٨٢/٧)].

(٢) وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبیر أنها نزلت في عمومة النبي ﷺ، وكانوا عشرة. فكانوا أشد الناس معه في العلانية، وأشدهم عليه في السر، ولا يخفى أن لفظ التنزيل مما يصدق على ما ذكر ولا ينافيه، وهو المراد بالنزول. [القاسمي (٣٣٧/٤)].

بَلَىٰ وَرَبِّنَا إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣١﴾ بِهِ فِي الدُّنْيَا ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ بِالْبُعْثِ ﴿حَتَّىٰ﴾ غَايَةُ التَّكْذِيبِ ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ﴾ الْقِيَامَةُ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَهُ ﴿قَالُوا يَحْسَرَتْنَا﴾ هِيَ شِدَّةُ النَّالِمِ، وَنَدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَيُّ: هَذَا أَوَانِكَ فَاحْضِرِي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا﴾ قَصَرْنَا ﴿فِيهَا﴾ أَيُّ: الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ بِأَنْ تَأْتِيَهُمْ عِنْدَ الْبُعْثِ فِي أَفْجَحِ شَيْءٍ صُورَةً وَأَتْنَه رِيحًا، فَتَرْكِبُهُمْ ﴿أَلَا سَاءَ﴾ بِسُّ ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ يَحْمِلُونَهُ حَمْلُهُمْ ذَلِكَ. ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: الْإِشْتَغَالُ بِهَا ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ وَأَمَّا الطَّاعَةُ وَمَا يُعِينُ عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَلَلْآدَارُ الْآخِرَةُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الشَّرَّكَ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، ذَلِكَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الشَّانَ ﴿لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لَكَ مِنَ التَّكْذِيبِ ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فِي السَّرِّ لِعِلْمِهِمْ أَنَّكَ صَادِقٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّخْفِيفِ، أَيُّ: لَا يُسَبِّحُونَكَ إِلَى الْكَذِبِ ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ وَضَعَهُ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿بَيَّاتٍ اللَّهُ﴾ الْقُرْآنَ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ يُكَذِّبُونَ. ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِ قَوْمِهِمْ، فَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ النَّصْرُ بِإِهْلَاكِ قَوْمِكَ ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ مَوَاعِيدِهِ ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَائِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ مَا يَسْكُنُ بِهِ قَلْبُكَ. ﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ عَظَمَ ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ لِجَرِّصِكَ عَلَيْهِمْ ﴿فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا﴾ سَرَبًا ﴿فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مِصْعَدًا ﴿فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا فَاذْعَلِ، الْمَعْنَى: أَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هِدَايَتَهُمْ ﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ وَلَكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ بِذَلِكَ ٣٧. ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ دُعَاكَ إِلَى الْإِيمَانِ

(١) مجاز وتوسع وتشبيه بمن يحمل ثقالا ... وأصله من الوزر وهو الجبل ... ومنه الوزير لأنه يحمل أثقال ما يسند إليه من تدبير الولاية، والمعنى: أنهم لزمهم الأثام فصاروا مثقلين بها. [القرطبي (١/٤١٣)].

(٢) الآية: مقصودها حمل النبي ﷺ على الصبر، والتسليم لما أراد الله بعباده من إيمان أو كفر، فإنه ﷺ كان شديد الحرص على إيمانهم، فقليل له: إن استطعت أن تدخل في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأتيهم بآية يؤمنون بسببها، فافعل وأنت لا تقدر على ذلك، فاستسلم لأمر الله، ... وحذف جواب «إن» لفهم المعنى، [وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ حجة لأهل السنة على القدرية [ابن جزي (١/٢٥٩)]. [وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ لم يقل: «لا تكن جاهلا» بل من قوم ينسبون إلى الجهل، تعظيما لنبية ﷺ بأن لم يسند الجهل إليه، للمبالغة في نفيه عنه. وما فيه من شدة الخطاب، سره تبعيد جنباه الكريم عن الحرص على ما لا يكون والجزع في مواطن الصبر، مما لا يليق إلا بالجاهلين. [الفاسمي (٤/٣٤٩)]. والمعنى: لو شاء الله أن يخلقهم بعقول قابلة للحق لخلقهم بها فلقبوا الهدى،

﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ تَفْهَمٍ وَاعْتِبَارٍ ﴿وَالْمُوتَى﴾ أَي: الْكُفَّارَ، شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ السَّمَاعِ ﴿يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ٣٦ ﴿يُرْدُّونَ فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كَالنَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْمَائِدَةِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿آيَةً﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٧ ﴿أَنْ نُزِّلَ عَلَيْهَا بَلَاءٌ عَلَيْهِمْ، لَوْ جُوبَ هَلَاكِهِمْ إِنْ جَحَدُواَهَا﴾. ﴿وَمَا مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿دَابَّةٍ﴾ تَمْشِي ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيرٍ يَطِيرُ﴾ فِي الْهَوَاءِ ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهَا وَرِزْقِهَا وَأَحْوَالِهَا ﴿مَا فَرَطْنَا﴾ تَرَكْنَا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الْلَوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ﴾ فَلَمْ نَكْتُبْهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ ٣٨ ﴿فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ، وَيَقْتَصُ لِلْجَمَاءِ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ ٣٩، ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا تَرَابًا. ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿صُمْ﴾ عَنْ سَمَاعِهَا سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَبُكْمٌ﴾ عَنْ النُّطْقِ بِالْحَقِّ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ﴾ إِضْلَالُهُ ﴿يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأْ﴾ هِدَايَتُهُ ﴿يَجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ٤٠ دِينَ الْإِسْلَامِ. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ الْقِيَامَةُ الْمُسْتَمْلَةُ عَلَيْهِ بَغْتَةً ﴿أَغْيَرَ اللَّهُ تَدْعُونَ﴾ لَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤١ ﴿فِي أَنْ الْأَصْنَامَ تَفْعَعُكُمْ فَادْعُوهَا﴾. ﴿بَلْ آيَاهُ﴾ لَا غَيْرُهُ ﴿تَدْعُونَ﴾ فِي الشَّدَائِدِ ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ أَنْ يَكْشِفَهُ عَنْكُمْ مِنَ الضَّرِّ وَنَحْوِهِ ﴿إِنْ شَاءَ﴾ كَشَفَهُ ﴿وَتَنْسَوْنَ﴾ تَتْرَكُونَ ﴿مَا تَشْرِكُونَ﴾ ٤٢ ﴿مَعَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ فَلَا تَدْعُونَهُ﴾. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿قَبْلِكَ﴾ رُسُلًا فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ﴾ شِدَّةِ الْفَقْرِ ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ الْمَرَضِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ٤٣ ﴿يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُوا﴾. ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿تَضَرَّعُوا﴾ أَي: لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ، مَعَ قِيَامِ الْمُقْتَضِي لَهُ ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فَلَمْ تَلِنْ لِلْإِيمَانِ ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٤٤ ﴿مِنَ الْمَعَاصِي، فَأَصْرُوا عَلَيْهَا﴾. ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ تَرَكُوا ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ وَعُظُوا وَخُوفُوا ﴿بِهِ﴾ مِنَ الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَلَمْ يَتَّعِظُوا ﴿فَتَحَنَّا﴾

ولكنه خلقهم على ما وصف في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥] الآية، ... وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود: ١١٨]، وبذلك تعلم أن هذه مشيئة كلية تكوينية، فلا تعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] الآية. فهذا من المشيئة المتعلقة بالخلق والتكوين لا من المشيئة المتعلقة بالأمر والتشريع. وبينهما بون، سقط في مهواته من لم يقدر له صون. [ابن عاشور (٢٠٦/٧)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَمَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْآنِ». أخرجه مسلم (٢٥٨٢).

(٢) كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيْهِمْ أَبْوَابٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾ مِنَ النَّعْمِ اسْتُدْرَجًا لَهُمْ ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ فَرحَ بَطَرٍ ﴿أَخَذْنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ^(١) ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: آخِرُهُمْ، بِأَنِ اسْتَوْصَلُوا ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ عَلَىٰ نَصْرِ الرُّسُلِ، وَإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ أَصَمَّكُمْ ﴿وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أَعْمَاكُمْ ﴿وَخَتَمَ﴾ طَبَعَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ فَلَا تَعْرِفُونَ شَيْئًا ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ بِمَا أَخَذَهُ مِنْكُمْ بِزَعْمِكُمْ ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَرَفَ﴾ نُبِينَ ﴿الْآيَاتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ يُعْرِضُونَ عَنْهَا فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ لَيْلًا، أَوْ نَهَارًا ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ الْكَافِرُونَ، أَي: مَا يُهْلَكُ إِلَّا هُمْ. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بِهِمْ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلُهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ يَخْرُجُونَ عَنِ الطَّاعَةِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ الَّتِي مِنْهَا يَرْزُقُ ﴿وَلَا﴾ إِنِّي ﴿أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ عَنِّي وَلَمْ يُوحَ إِلَيَّ ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿اتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ قُلِّ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ﴾ الْكَافِرُ ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ الْمُؤْمِنُ؟ لَا ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

(١) ربما اتكل بعض المغترين على ما يرى من نعم الله عليه في الدنيا وأنه لا يغير ما به، ويظن أن ذلك من محبة الله له، وأنه يعطيه في الآخرة أفضل من ذلك، فهذا من الغرور... عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَىٰ مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ»، ثم تلا قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا دُسُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. أخرجه أحمد (١٧٣١١). وقال بعض السلف: إذا رأيت الله يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره؛ فإنما هو استدراج منه يستدرجك به، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]. وقد رد سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥-١٧] أي: ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكرم منه، وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكرم منه، بل ابتلي هذا بالنعم، وأكرم هذا بالابتلاء. وعنه ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الْإِيمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ». أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢٧٥)، وأحمد (١١٣٤). وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه وهو لا يعلم، ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم. [الداء والدواء لابن القيم (١/٧٧)].

فِي ذَلِكَ فِتْنُونَ. ﴿وَأَنْذِرْ﴾ خَوْفٌ بِهِ ﴿أَيُّ الْقُرْآنِ﴾ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿أَيُّ غَيْرِهِ﴾ وَلِيُّ ﴿يَنْصُرُهُمْ﴾ وَلَا شَفِيعٌ يَشْفَعُ لَهُمْ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿يُحْشَرُوا﴾ وَهِيَ مَحَلُّ الْخَوْفِ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْمُؤْمِنُونَ الْعَاثُونَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ٥١﴾ اللَّهُ بِإِقْلَاعِهِمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ، وَعَمَلِ الطَّاعَاتِ. ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَجْهَهُ﴾ تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا وَهُمْ الْفُقَرَاءُ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ طَعْنُوا فِيهِمْ، وَطَلَبُوا أَنْ يَطْرُدَهُمْ لِيُجَالِسُوهُ، وَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ طَمَعًا فِي إِسْلَامِهِمْ ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ زَائِدَةٍ شَيْءٍ﴾ إِنْ كَانَ بَاطِنُهُمْ غَيْرَ مَرْضِيٍّ ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جَوَابُ النَّفْيِ ﴿فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ٥٢﴾ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ. ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا﴾ ابْتَلَيْنَا ﴿بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أَيُّ الشَّرِيفِ بِالْوَضِيعِ، وَالْغَنِيِّ بِالْفَقِيرِ، بَأَنْ قَدَّمَاهُ بِالسَّبْقِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿لِيَقُولُوا﴾ أَيُّ الشَّرَفَاءِ وَالْأَغْيَاءِ مُنْكَرِينَ ﴿أَهْتَوَلَاءِ﴾ الْفُقَرَاءِ ﴿مَنْ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيِّنَاتٍ بِالْهُدَايَةِ؟ أَيُّ لَوْ كَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُدًى مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ٥٣﴾ لَهُ فِيهِدِيهِمْ؟ بَلَى. ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ إِنَّهُ﴾ أَيُّ الشَّأْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْفَتْحِ «بَدَلٌ» مِنْ: ﴿الرَّحْمَةِ﴾^(١)، ﴿مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ﴾ مِنْهُ، حَيْثُ ارْتَكَبَهُ ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ رَجَعَ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بَعْدَ عَمَلِهِ عَنْهُ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلُهُ ﴿فَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿غَفُورٌ﴾ لَهُ ﴿رَحِيمٌ ٥٤﴾ بِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْفَتْحِ، أَيُّ: فَالْمَغْفِرَةُ لَهُ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذَكَرَ ﴿نُفِصِّلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ﴾ الْقُرْآنِ؛ لِيُظْهَرَ الْحَقُّ فَيَعْمَلَ بِهِ ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ تَظْهَرَ ﴿سَبِيلُ﴾ طَرِيقُ ﴿الْمُجْرِمِينَ ٥٥﴾ فَتُجْتَنَبَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِي أُخْرَى بِالْفَوْقَانِيَّةِ، وَنَصَبُ ﴿سَبِيلُ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِبُعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ فِي عِبَادَتِهَا ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا﴾ إِنْ اتَّبَعْتُهَا ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ بَيَانٍ ﴿مَنْ رَبِّي وَ﴾ قَدْ ﴿كَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ رَبِّي حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ ﴿مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿الْحُكْمُ﴾ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ ﴿إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ﴾^(٢) الْقَضَاءُ ﴿الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصْلِينَ ٥٧﴾ الْحَاكِمِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَقُضُ﴾، أَيُّ: يَقُولُ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾

(١) أي: أوجب ذلك إيجاب فضل وإحسان، وقيل: كتب ذلك في اللوح المحفوظ، قيل: هذا من جملة ما أمره الله سبحانه بإبلاغه إلى

أولئك الذين أمره بإبلاغ السلام إليهم تبشيراً بسعة مغفرة الله وعظيم رحمته. [الشوكاني (١٣٧/٢)]. وفي الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا فَهُوَ

عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي». أخرجه البخاري (٧٥٥٣)، ومسلم (٢٧٥١).

(٢) القراءة المفسرة لحمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وابن عامر.

لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١) بِأَنْ أَعْجَلَهُ لَكُمْ وَأَسْتَرِيحَ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَ اللَّهِ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾^(٥٨) مَتَى يَأْتِيهِمْ. ﴿وَعِنْدَهُ﴾ تَعَالَى ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ أَيُّ: خَزَائِنُهُ، أَوْ الطُّرُقُ الْمَوْصَلَةُ إِلَى عِلْمِهِ ﴿لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ وَهِيَ الْخَمْسَةُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الْآيَةُ، كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١) ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ يَحْدُثُ ﴿فِي الْبَرِّ﴾ الْقِفَارِ ﴿وَالْبَحْرِ﴾ الْقَرَى الَّتِي عَلَى الْأَنْهَارِ^(٢) ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿وَرَقَةٍ﴾، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٥٩) هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَالْإِسْتِثْنَاءُ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، مِنْ الْإِسْتِثْنَاءِ قَبْلَهُ. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ عِنْدَ النَّوْمِ^(٣) ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم﴾ كَسَبْتُمْ ﴿بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أَيُّ: النَّهَارِ بَرْدٌ أَرْوَاحَكُمْ ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ هُوَ أَجَلُ الْحَيَاةِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٦٠) فَيَجْازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ مُسْتَعْلِيًّا ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴿مَلَائِكَةً تَحْصِي أَعْمَالَكُمْ﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾ تَوَفُّهُ، ﴿رُسُلَنَا﴾ الْمَلَائِكَةُ الْمُوَكَّلُونَ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾^(٦١) يَقْصِرُونَ فِيمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ ﴿ثُمَّ رُدُّوهُ﴾ أَيُّ: الْخَلْقُ ﴿إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ﴾ مَالِكِهِمْ ﴿الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الْعَدْلُ، لِيُجَازِيَهُمْ ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِيهِمْ ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾^(٦٢) يُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ فِي قَدْرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِحَدِيثِ بَذَلِكَ^(٤). ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أَهْوَالِهِمَا فِي أَسْفَارِكُمْ حِينَ ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا﴾ عَلَانِيَةً ﴿وَحُفْيَةً﴾ سِرًّا، تَقُولُونَ: ﴿لَيْنٌ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَنْجَيْنَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَنْجَيْنَا﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿مِنْ هَذِهِ﴾ الظُّلُمَاتِ

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٩).

(٢) خصهما بالذكر لأنهما من أعظم مخلوقات الله، أي: يعلم ما فيهما من حيوان وجماد علمًا مفصلاً لا يخفى عليه منه شيء، أو خصهما لكونهما أكثر ما يشاهده الناس ويتطلعون لعلم ما فيهما، وعلى هذا هو بيان لتعلق علمه بالمشاهدات إثرياً بيان تعلقه بالمغيبات، قال الجمهور: هو البر والبحر المعروفان لأن جميع الأرض إما بر، وإما بحر وفي كل واحد منهما من عجائب وغرائب ما يدل على عظيم قدرته وسعة علمه. [صديق حسن (١٥٥/٤)].

(٣) التوفي حقيقته الإمامة، لأنه حقيقة في قبض الشيء مستوفى. وإطلاقه على النوم مجاز لشبه النوم بالموت في انقطاع الإدراك والعمل... والمراد بقوله: ﴿يَتَوَفَّاكُم﴾ ينيمكم بقرينة قوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾، أي: في النهار، فأراد بالوفاة هنا النوم على الشبيه. وفائدته أنه تقريب لكيفية البعث يوم القيامة، ولذا استعير البعث للإفاقة من النوم ليطم التقريب. [ابن عاشور (٢٧٥/٧)].

(٤) راجع التعليق على تفسير آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

وَالشَّادِدِ ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ٦٣ ﴿قُلْ لَّهُمْ﴾: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ غَمٌّ سِوَاهَا ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ٦٤ ﴿بِهِ﴾: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مِنَ السَّمَاءِ، كَالْحِجَارَةِ وَالصَّيْحَةِ ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كَالْخَسْفِ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ يَخْلِطُكُمْ ﴿شَيْعًا﴾ فِرْقًا مُّخْتَلَفَةً الْأَهْوَاءِ ﴿وَيُذِيقُ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بِالْقِتَالِ، قَالَ ﷺ لَمَّا نَزَلَتْ: «هَذَا أَهْوَنُ وَأَيْسَرُ»، وَلَمَّا نَزَلَ مَا قَبْلَهُ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَرَوَى مُسْلِمٌ حَدِيثًا: «سَأَلْتُ رَبِّي أَلَا يَجْعَلُ بَأْسَ أُمَّتِي بَيْنَهُمْ، فَمَنْعَنِهَا»، وَفِي حَدِيثٍ: لَمَّا نَزَلَتْ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهَا كَائِنَةٌ، وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ» ٣. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نُبِّنُ لَهُمْ ﴿الْآيَاتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ٦٥ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ بَاطِلٌ﴾. ﴿وَكَذَّبَ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الصَّدُقُ ﴿قُلْ لَّهُمْ﴾: ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ٦٦ ﴿فَأُجَازِيكُمْ، إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ﴾ ٣. ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ خَبِيرٌ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ وَقْتُ يَقَعُ فِيهِ وَيَسْتَقَرُّ، وَمِنْهُ عَذَابُكُمْ ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦٧ ﴿تَهْدِيدٌ لَهُمْ﴾. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِالِاسْتِهْزَاءِ ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وَلَا تَجَالِسْهُمْ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْعَامُ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ، فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يُنْسِيَنَّكَ﴾ بِسُكُونِ النُّونِ وَالتَّخْفِيفِ، وَفَتْحُهَا وَالتَّشْدِيدِ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ فَقَعَدَتْ مَعَهُمْ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ أَيِ: تَذَكُّرِهِ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٦٨ ﴿فِيهِ وَضِعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: «إِنْ قُمْنَا كُلَّمَا خَاضُوا لَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَجْلِسَ فِي الْمَسْجِدِ وَأَنْ نَطُوفَ»، فَتَزَلَّ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ اللَّهُ ﴿مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ أَيِ: الْخَائِضِينَ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ﴾ إِذَا جَالَسُوهُمْ ﴿وَلَكِنْ﴾ عَلَيْهِمْ ﴿ذِكْرَى﴾ تَذَكُّرُهُمْ وَمَوْعِظَةٌ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ٦٩ ﴿الْخَوْضَ﴾ ٤. ﴿وَذَرِ﴾ أَتْرَكَ

(١) الشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقوقها. [البغوي (١٥٢/٣)].

(٢) الحديث الأول أخرجه البخاري (٤٦٢٨)، والثاني أخرجه مسلم (٢٨٩٠)، والثالث أخرجه أحمد (١٣٨٧)، والترمذي (٢٩٩٢).

(٣) قيل: هذه الآية منسوخة بآية القتال، وقيل: ليست بمنسوخة إذ لم يكن إيمانهم في وسعه. [صديق حسن (١٦٣/٤)].

(٤) هذه الآية الكريمة يفهم منها أنه لا إثم على من جالس الخائضين في آيات الله بالاستهزاء والتكذيب. وقد جاءت آية تدل على أن من جالسهم كان مثلهم في الإثم، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠]، اعلم أولاً أن في معنى قوله: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ وجهين للعلماء: الأول: أن المعنى وما على الذين يتقون مجالسة الكفار عند خوضهم في آيات الله من حساب الكفار من شيء، وعلى هذا الوجه فلا إشكال في الآية أصلاً. الوجه الثاني: أن معنى الآية: وما على الذين يتقون ما يقع من الكفار من الخوض في آيات الله في

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمُ﴾ الَّذِي كُلُّوهُ ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ بِاسْتِهْزَائِهِمْ بِهِ ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فَلَا تَعَرَّضْ لَهُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ^(١) ﴿وَذَكِّرْ﴾ عِظْ ﴿بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ النَّاسَ لِيُذَكِّرُوا ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌ﴾ تُسَلَّمُ إِلَى الْهَلَاكِ ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَمَلَتْهُ ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿وَلِيٌّ﴾ نَاصِرٌ ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾ يَمْنَعُ عَنْهَا الْعَذَابَ ﴿وَأَنْ تَعْدِلَ كُلُّ عَدْلٍ﴾ تَفْدٍ كُلِّ فِدَاءٍ ﴿لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ مَا تَفْدِي بِهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مَاءٍ بَالِغِ نَهَايَةِ الْحَرَارَةِ ﴿وَعَذَابُ أَلِيمٍ﴾ مُؤْلَمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ^(٢) بِكُفْرِهِمْ. ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ أُنْعَبُدُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بِتَرْكِهَا، وَهُوَ: الْأَصْنَامُ ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا﴾ نَرْجِعُ مُشْرِكِينَ ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ﴾ أَضَلَّتْهُ ﴿الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ﴾ مُتَحِيرًا لَا يَدْرِي أَيْنَ يَذْهَبُ، حَالٌ مِنَ الْهَاءِ ﴿لَهُوَ أَصْحَبٌ﴾ رُفَقَةٌ ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ أَيُّ: لِيُهْدُوهُ الطَّرِيقَ، يَقُولُونَ لَهُ: ﴿اٰتِنَا﴾ فَلَا يُجِيبُهُمْ فَيَهْلِكُ، وَالْإِسْتِهْزَاءُ لِلْإِنْكَارِ، وَجُمْلَةُ التَّشْبِيهِ، حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿نُرَدُّ﴾ ^(٣)، ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ﴾ الَّذِي هُوَ الْإِسْلَامُ ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وَمَا عَدَاهُ ضَلَالٌ ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسْلِمَ﴾ أَيُّ: بِأَنْ نُسْلِمَ ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٤) وَأَنْ أَيُّ: بَانَ ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُوهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ^(٥) تُجْمَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ: مُحَقَّقًا ﴿وَأَذْكُرُ﴾ أَدْكُرُ ﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ لِلشَّيْءِ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ لِلْخَلْقِ: قُومُوا، فَيَقُومُوا ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ الصَّدَقُ الْوَاقِعُ لَا مَحَالَةَ ﴿وَلَهُ أَلْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الْقَرْنِ الثَّانِيَةِ

مجالستهم لهم من شيء. وعلى هذا القول فهذا الترخيص في مجالسة الكفار للمتقين من المؤمنين كان في أول الإسلام للضرورة، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُكُمْ﴾. وممن قال بالنسخ فيه مجاهد والسدي وابن جريج وغيرهم كما نقله عنهم ابن كثير، فظهر أن لا إشكال على كلا القولين. ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ على الوجه الأول: أنهم إذا اجتمعوا مجالستهم سلموا من الإثم، ولكن الأمر باتقاء مجالستهم عند الخوض في الآيات لا يسقط وجوب تذكيرهم ووعظهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لعلمهم يتقون الله بسبب ذلك. وعلى الوجه الثاني: فالمعنى أن الترخيص في المجالسة لا يسقط التذكير لعلمهم يتقون الخوض في آيات الله بالباطل إذا وقعت منكم الذكرى لهم، وأما جعل الضمير للمتقين فلا يخفى بعده، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ١٢٧)].

(١) قيل: إنها متاركة منسوخة بالسيف، وقيل: بل هي تهديد فلا متاركة ولا نسخ فيها. [ابن جزي (١/ ١٦٥)].

(٢) يقول: مثلكم، إن كفرتم بعد الإيمان، كمثّل رجل كان مع قوم على الطريق، فضل الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض، وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون: «اتننا فإننا على الطريق»، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد

ﷺ ومحمد هو الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام. [ابن كثير (٣/ ٢٧٩)].

مِنْ إِسْرَافِيلَ، لَا مُلْكَ فِيهِ لِغَيْرِهِ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي خَلْقِهِ ﴿الْخَبِيرُ﴾ ﴿٧٣﴾ بَيَاطِنِ الْأَشْيَاءِ كَظَاهِرِهَا. ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ عَازِرْ﴾ هُوَ لَقَبُهُ، وَاسْمُهُ: «تَارَخُ» ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ تَعْبُدُهَا؟ اِسْتَفْهَمُ تَوْبِيخِ ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ﴾ بِاتِّخَاذِهَا ﴿فِي ضَلَالٍ﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿مُبِينٍ﴾ ﴿٧٤﴾ بَيْنَ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا أَرَيْنَاهُ إِضْلَالَ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ ﴿نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ﴾ مُلْكِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ بِهَا، وَجُمْلَةُ: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وَمَا بَعْدَهَا اِعْتِرَاضٌ ^(١). وَعُطِفَ عَلَى ﴿قَالَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أَظْلَمَ ﴿عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾ قِيلَ هُوَ الزُّهْرَةُ ﴿قَالَ﴾ لِقَوْمِهِ وَكَانُوا نَجَّامِينَ: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فِي زَعْمِكُمْ ^(٢) ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ غَابَ ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ أَنْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا؛ لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّعْيِيرُ وَالِانْتِقَالُ ^(٣)؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ شَأْنِ الْحَوَادِثِ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ طَالِعًا ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لِمَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ يُشَبِّتِي عَلَى الْهُدَى ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٧٧﴾ تَعْرِضُ لِقَوْمِهِ بِأَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا﴾ ذَكَرَهُ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ مِنَ الْكَوْكَبِ وَالْقَمَرِ ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ وَقَوِيَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿قَالَ يَقُومُ إِنِّي بِرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ بِاللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَجْرَامِ الْمُحْدَثَةِ، الْمُحْتَاجَةِ إِلَى مُحْدِثٍ، فَقَالُوا لَهُ مَا تَعْبُدُ؟ قَالَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ فَصَدْتُ بِعِبَادَتِي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ خَلَقَ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿حَنِيفًا﴾ مَائِلًا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَمَا

(١) أي: من زمرة الراسخين في الإيقان البالغين درجة عين اليقين من معرفة الله، وهذا لا يقتضي سبق الشك كما لا يخفى. [الآلوسي (٤/ ١٨٧)].

(٢) أي: على وجه التنزل مع الخصم، أي: هذا ربي، فهل ينظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه، بغير حجة ولا برهان. [السعدي (ص: ٢٦٢)].

(٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: فما ورد إثباته لله تعالى من ذلك في الكتاب والسنة، وجب إثباته. وما ورد نفيه فيهما، وجب نفيه مع إثبات كمال ضده. وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه، فلا يثبت ولا ينفي، لعدم ورود الإثبات والنفي فيه. وأما معناه: فيفصل فيه؛ فإن أريد به حقٌ يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به معنى لا يليق بالله عز وجل وجب رده. [القواعد المثلى (ص: ٣٠)]. وهذا اللفظ الذي ذكره السيوطي مجمل، والألفاظ المجملة هي التي تحتمل أكثر من معنى بطبيعة الوضع، أو بالاستعمال، مع عدم ورود النص بها، لا إثباتا ولا نفيًا، كلفظ الجهة والحيز والانتقال في حق الله تعالى. وهذه يتوقف في لفظها لعدم ورودها، ومعلوم أن الصفات توقيفية. وأما المعنى، فإن كان يراد منها حق وباطل، فلا بد من التفصيل؛ لأنه لا يصح نفيها بإطلاق لما يؤدي إليه من نفي المعنى الحق، ولا يمكن إثباتها بإطلاق لما يؤدي إليه من إثبات المعنى الباطل.

أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ بِهِ. ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ جَادَلُوهُ فِي دِينِهِ وَهَدَّوْهُ بِالْأَصْنَامِ أَنْ تُصِيبَهُ بِسُوءٍ إِنْ تَرَكَهَا ﴿قَالَ أَتَحْجُبُونِي﴾ بِتَشْدِيدِ النَّوْنِ وَتَخْفِيفِهَا بِحَذْفِ إِحْدَى النُّونَيْنِ، وَهِيَ: نُونُ الرَّفْعِ عِنْدَ النُّحَاةِ، وَنُونُ الْوَقَايَةِ عِنْدَ الْقُرَاءِ، أَتَجَادِلُونِي ﴿فِي﴾ وَحَدَانِيَّةِ ﴿اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ تَعَالَى إِلَيْهَا ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ هُ ﴿بِهِ﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ، أَنْ تُصِيبَنِي بِسُوءٍ لِعَدَمِ قُدْرَتِهَا عَلَى شَيْءٍ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ مِنَ الْمَكْرُوهِ يُصِيبُنِي فَيَكُونُ ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَيُّ: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ هَذَا فَتَوَمَّنُوا. ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ بِاللَّهِ، وَهِيَ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ ﴿أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَبُرْهَانًا، وَهُوَ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ، أَنْحُنُ أَمْ أَنْتُمْ؟ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ مَنْ الْأَحَقُّ بِهِ، أَيُّ: وَهُوَ نَحْنُ؛ فَاتَّبِعُوهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا﴾ يَخْلُطُوا ﴿إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أَيُّ: شَرِكٍ، كَمَا فُسِّرَ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ ^(١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ ﴿مُبْتَدَأٌ وَيُبَدِّلُ مِنْهُ﴾ ﴿حُجَّتُنَا﴾ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ، مِنْ أَقْوَلِ الْكُوكَبِ وَمَا بَعْدَهُ، وَالْخَبَرُ: ﴿ءَاتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أَرْشَدْنَاهَا لَهَا حُجَّةً ﴿عَلَى قَوْمِهِ﴾ نَزَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِينِ، فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿٨٣﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابْنَهُ ﴿كُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أَيُّ: نُوحٍ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ ابْنَهُ ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ ابْنَ يَعْقُوبَ ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ ابْنَهُ ﴿وَعِيسَى﴾ ابْنَ مَرْيَمَ، يُفِيدُ أَنَّ الذَّرِّيَّةَ تَتَنَاوَلُ أَوْلَادَ الْبِنْتِ ﴿وَالْيَاسَ﴾ ابْنَ أَخِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى ﴿كُلُّ﴾ مِنْهُمْ ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ وَاسْمَعِيلَ﴾ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَالْيَسَعَ﴾ اللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ بَنَ هَارَانَ أَخِي إِبْرَاهِيمَ ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْهُمْ ﴿فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ بِالنَّبَوَةِ. ﴿وَمِنْ ءَابَائِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ عَظُفٌ عَلَى ﴿كُلًّا﴾ أَوْ ﴿نُوحًا﴾، وَ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبَعِيضِ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ فِي وَلَدِهِ كَافِرٌ ﴿وَأَجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ اخْتَرْنَاهُمْ ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ ﴿الَّذِينَ الَّذِينَ هُدُوا إِلَيْهِ﴾ هُدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

(١) عن عبد الله رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب النبي صلوات الله عليهم، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلوات الله عليه: «لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنِهِ: «يَبْنَى لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» [لقمان: ١٣]. أخرجه البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٢٤).

وَلَوْ أَشْرَكُوا ﴿فَرَضَا﴾ لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ بِمَعْنَى الْكِتَابِ ﴿وَالْحُكْمَ﴾ الْحِكْمَةَ ﴿وَالْتَّبُوءَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ أَي: بِهَذِهِ الثَّلَاثَةِ ﴿هَتُوْلَاءَ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أَرْصَدْنَا لَهَا ﴿قَوْمًا لِّيُسْوَ بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى﴾ هُمْ ﴿اللَّهُ﴾ فَبَهَّدْنَاهُمْ ﴿طَرِيقَهُمْ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالصَّبْرِ﴾ ﴿أَقْتَدِهِ﴾ بِهَاءِ السَّكْتِ وَقَفًّا وَوَضَلًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِهَا وَضَلًا ﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أَي: الْقُرْآنِ ﴿أَجْرًا﴾ تُعْطُونِيهِ ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾. ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ أَي: الْيَهُودُ ﴿اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أَي: مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، أَوْ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَقَدْ خَاصَمُوهُ فِي الْقُرْآنِ﴾ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ ﴿قَرَاتِيسَ﴾ أَي: يَكْتُبُونَهُ فِي دَفَاتِرٍ مُّقْطَعَةٍ ﴿يُبْدُونَهَا﴾ أَي: مَا يُحِبُّونَ إِبْدَاءَهُ مِنْهَا ﴿وَيُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ مِمَّا فِيهَا كَنَعَتْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿وَعَلَّمْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْيَهُودُ فِي الْقُرْآنِ ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَةِ، بَيَّانِ مَا التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ وَاخْتَلَفْتُمْ فِيهِ ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ أَنْزَلَهُ إِنْ لَمْ يَقُولُوهُ، لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ﴾ بَاطِلِهِمْ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٩١﴾ وَهَذَا الْقُرْآنُ ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ عَطْفٌ عَلَى مَعْنَى مَا قَبْلَهُ، أَي: أَنْزَلْنَاهُ لِلْبَرَكَةِ وَالتَّصْدِيقِ، وَلِتُنذِرَ بِهِ ﴿أُمُّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ وَسَائِرِ النَّاسِ ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهَا. ﴿وَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِادِّعَاءِ النُّبُوَّةِ وَلَمْ يَنْبَأْ ﴿أَوْ قَالَ أَوْحَى إِلَى وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ نَزَلَتْ فِي مُسَيْلِمَةَ^(١) ﴿وَمِنْ﴾ مِمَّنْ قَالَ سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَهُمُ الْمُسْتَهْزِئُونَ﴾ قَالُوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الْمَذْكُورُونَ ﴿فِي غَمَرَاتٍ﴾ سَكَرَاتٍ ﴿الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ﴾ إِلَيْهِمْ بِالضَّرْبِ وَالتَّعْذِيبِ، يَقُولُونَ لَهُمْ تَعْنِيفًا: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ إِلَيْنَا لِنَقْبِضَهَا^(٢) ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الْهُونَ ﴿بِمَا

(١) أي: زعم أنه بعثه نبيًا كمسيلمة والأسود العنسي، أو اختلق عليه أحكاما كعمرو بن لحي ومتابعيه. [البضاوي (١٧٣/٢)].

(٢) وقد بين الله تعالى كذبهم في افتراءهم هذا حيث ... صرح في سورة بني إسرائيل بعجز جميع الخلائق عن الإتيان بمثله في قوله: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فاتضح بطلان دعواهم الكاذبة. [الشنقيطي (٢٣٩/٢)].

(٣) فيه قولان: أحدهما: من أجسادكم عند معاينة الموت إرهابا لهم وتغليظا عليهم، وإن كان إخراجها من فعل غيرهم. والثاني: أخرجوا

كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ بِدَعْوَى النَّبِوةِ، وَالْإِيحَاءِ كَذِبًا ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ تَكْبَرُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيْعًا. ﴿و﴾ يُقَالُ لَهُمْ إِذَا بُعِثُوا: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾ مُنْفَرِدِينَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَي: حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَكُمْ﴾ أَعْطَيْنَاكُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿وَرَأَى ظُهُورَكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بَغِيرَ اخْتِيَارِكُمْ ﴿و﴾ يُقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ﴾ الْأَصْنَامَ ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أَي: فِي اسْتِحْقَاقِ عِبَادَتِكُمْ ﴿شُرَكَؤُا﴾ لِلَّهِ ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ وَصَلُّكُمْ، أَي: تَشَتَّتَ جَمْعُكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ ظَرْفٌ، أَي: وَصَلُّكُمْ بَيْنَكُمْ ﴿وَضَلَّ﴾ ذَهَبَ ﴿عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ شَفَاعَتِهَا. ﴿*إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ﴾ شَاقُّ ﴿الْحَبِّ﴾ عَنِ النَّبَاتِ ﴿وَالنَّوَى﴾ عَنِ النَّخْلِ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّائِرِ، مِنَ النَّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ﴾ النَّطْفَةِ وَالْبَيْضَةِ ﴿مِنَ الْحَيِّ ذَالِكُمْ﴾ الْفَالِقُ الْمُخْرِجُ ﴿اللَّهُ فَاتِي تُوَفُّوْنَ﴾ ﴿٩٥﴾ فَكَيْفَ تُصَرِّفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ، مَعَ قِيَامِ الْبَرَاهَانِ؟ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: الصُّبْحِ، أَي: شَاقُّ عَمُودِ الصُّبْحِ، وَهُوَ: أَوَّلُ مَا يَبْدُو مِنْ نُورِ النَّهَارِ عَنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ﴿وَجَعِلَ اللَّيْلَ سَكَنًا﴾ تَسْكُنُ فِيهِ الْخَلْقُ مِنَ اللَّعَبِ ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ ﴿الَّيْلِ﴾، ﴿حُسْبَانًا﴾ حِسَابًا لِلْأَوْقَاتِ،

أنفسكم من العذاب إن قدرتم، تقرعوا لهم وتوبيخوا بظلم أنفسهم، قاله الحسن. ويحتمل ثالثا: أن يكون معناه خلصوا أنفسكم بالاحتجاج عنها فيما فعلتم. [الماوردي (٢/١٤٤)].

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تُحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حُفَاةً عُرَاةً غُرُلًا»، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

(٢) هذا شروع في تعداد عجائب صنعه تعالى، وذكر ما يعجز آلهتهم عن أدنى شيء منه والفلق الشق، أي: هو سبحانه شاق الحب فيخرج منه النبات ﴿و﴾ فالق ﴿النَّوَى﴾ فيخرج منه الشجر الصاعد في الهواء،... والحب هو الذي ليس فيه نوى كالحنطة والشعير والأرز وما أشبه ذلك، والنوى جمع نواة يطلق على كل ما فيه عجم كالتمر والمشمش والخوخ، والمعنى أنه إذا وقعت الحبة أو النواة في الأرض الرطبة ثم مر عليها زمان أظهر الله منهما ورقاً أخضر، ثم يخرج من ذلك الورق سنبلة يكون فيها الحب، ويظهر من النواة شجرة صاعدة في الهواء وعروقاً ضاربة في الأرض، فسبحان من أوجد جميع الأشياء بقدرته وإبداعه وخلق، وتبارك الله أحسن الخالقين. [صديق حسن (٤/١٩٨)].

(٣) ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النبات الغض النامي من الحب اليابس ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ الحب اليابس من النبات النامي، أو الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، أو المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن. فاحتج الله عليهم بما يشاهدونه من خلقه، لأنهم أنكروا البعث، فأعلمهم أنه الذي خلق هذه الأشياء، فهو يقدر على بعثهم. [النسفي (١/٥٢٣)].

أَوِ الْبَاءَ مَحْدُوفَةً وَهُوَ حَالٌ مِنْ مُقَدَّرٍ، أَي: يَجْرِيَانِ بِحُسْبَانٍ؛ كَمَا فِي آيَةِ «الرَّحْمَنِ»^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْعَلِيمِ﴾^(٢) بِخَلْقِهِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ التَّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ فِي الْأَسْفَارِ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بَيْنَا ﴿الْآيَاتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٣) يَتَذَكَّرُونَ^(٤). ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هِيَ آدَمُ ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ مِنْكُمْ فِي الرَّحِمِ ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ مِنْكُمْ فِي الصُّلْبِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْفَافِ، أَي: مَكَانُ قَرَارٍ لَكُمْ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾^(٥) مَا يُقَالُ لَهُمْ. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا فِيهِ الْفُتَاتَ عَنِ الْغَيْبَةِ﴾^(٦) بِأَلْمَاءٍ ﴿نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ﴾ نَبْتُ ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ﴾ أَي: النَّبَاتِ شَيْئًا ﴿خَضِرًا﴾ بِمَعْنَى أَخْضَرَ ﴿تُخْرَجُ مِنْهُ﴾ مِنَ الْخَضِرِ ﴿حَبًّا مُتَرَاكِبًا﴾ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، كَسَنَابِلِ الْحِنْطَةِ وَنَحْوِهَا ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ خَبَرٌ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾ أَوَّلِ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَالْمُبْتَدَأُ ﴿قِنَوَانٌ﴾ عَرَاجِينُ ﴿دَانِيَةٌ﴾ قَرِيبٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴿وَ﴾ أَخْرَجْنَا بِهِ ﴿جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونِ وَالرُّمَّانِ مُشْتَبِهًا﴾ وَرَفُوهَا، حَالٌ ﴿وَعِغَرٍ مُتَشَبِهَةٍ﴾ ثَمَرُهُمَا ﴿أَنْظُرُوا﴾ يَا مُخَاطَبُونَ نَظَرَ إِعْتِبَارٍ ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ بِفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ وَبِضْمِهِمَا، وَهُوَ جَمْعُ «ثَمَرَةٍ»، كَشَجَرَةٍ وَشَجَرٍ، وَخَشَبَةٍ وَخَشْبٍ ﴿إِذَا أَثْمَرَ﴾ أَوَّلِ مَا يَبْدُو كَيْفَ هُوَ ﴿وَ﴾ إِلَى ﴿يَنْعِيهِ﴾ نُضْجِهِ إِذَا أَدْرَكَ كَيْفَ يَعُودُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٧) خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُتَفَعِّلُونَ بِهَا فِي الْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿شُرَكَاءَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ ﴿الْحُجْنِ﴾ حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ﴿وَ﴾ قَدْ ﴿خَلَقَهُمْ﴾ فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاءَ؟ ﴿وَحَرِّقُوا﴾ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَي: اخْتَلَقُوا ﴿لَهُو بَيْنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حَيْثُ قَالُوا: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وَالْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾^(٨) بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا. هُوَ ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿أَنِّي﴾ كَيْفَ ﴿يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ زَوْجَةً ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْلَقَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٩) ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾^(١٠) حَفِظٌ. ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ أَي: لَا تَرَاهُ وَهَذَا مَخْصُوصٌ لِرُؤْيَا الْمُؤْمِنِينَ لَهُ فِي

(١) قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

(٢) والذين يعلمون هم الذين انتفعوا بدلائل الآيات، وهم الذين آمنوا بالله وحده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[الأنعام: ٩٩]. [ابن عاشور (٧/٣٩٥)].

الْآخِرَةِ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۚ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]، وَحَدِيثِ الشَّيْخَيْنِ: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»^(١)، وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تُحِيطُ بِهِ^(٢) ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَرَ﴾ أَيُّ: يَرَاهَا وَلَا تَرَاهُ، وَلَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهِ أَنْ يُدْرِكَ الْبَصَرَ وَهُوَ لَا يُدْرِكُهُ أَوْ يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا^(٣) ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿الْخَبِيرُ ۝﴾ بِهِمْ. قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لَهُمْ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ﴾ حُجَجٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ هَا فَا مَنَ ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ أَبْصَرَ؛ لِأَنَّ ثَوَابَ إِبْصَارِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ عَنْهَا فَضَلَّ ﴿فَعَلَيْهَا﴾ وَبَالَ إِضْلَالِهِ ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ۝﴾ رَقِيبٍ لِأَعْمَالِكُمْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذَكَرَ ﴿نُصْرِفُ﴾ نَبِيْنُ ﴿الْآيَاتِ﴾ لِيَعْتَبِرُوا ﴿وَلِيَقُولُوا﴾ أَيُّ الْكُفَّارِ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ: ﴿دَارَسْتَ﴾ ذَاكَرْتَ أَهْلَ الْكِتَابِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿دَرَسْتَ﴾ أَيُّ: كُتِبَ الْمَاضِينَ، وَجِئْتَ بِهَذَا مِنْهَا ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝﴾ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ^(٤) أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا^(٥) رَقِيبًا فَتُجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝﴾ فَتُجَبِّرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هُمْ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: الْأَصْنَامَ

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣)، ومسلم (٦٣٣). بلفظ: قال جرير بن عبد الله رضي الله عنه: كنا عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال ﷺ: «أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرُونَ هَذَا».

(٢) الحق، أن المنفي في هذه الآية الإدراك المشعر بالإحاطة بالكنه، أما مطلق الرؤية فلا تدل الآية على نفيه بل هو ثابت بهذه الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة واتفاق أهل السنة والجماعة على ذلك. وحاصل هذا الجواب: أن الإدراك أخص من مطلق الرؤية لأن الإدراك المراد به الإحاطة، والعرب تقول: رأيت الشيء وما أدركته، فمعنى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَرُ﴾ لا تحيط به، كما أنه تعالى يعلمه الخلق ولا يحيطون به علما. وقد اتفق العقلاء على أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم، فانتفاء الإدراك لا يلزم منه انتفاء مطلق الرؤية، مع أن الله تعالى لا يدرك كنهه على الحقيقة أحد من الخلق. والدليل على صحة هذا الوجه ما أخرجه الشيخان من حديث أبي موسى مرفوعا: «حِجَابُهُ النُّورُ أَوْ النَّارُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَخْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ». أخرجه مسلم (١٧٩). فالحديث صريح في عدم الرؤية في الدنيا، ويفهم منه عدم إمكان الإحاطة مطلقا. والحاصل: أن رؤيته تعالى بالأبصار جائزة عقلا في الدنيا والآخرة لأن كل موجود يجوز أن يرى عقلا، ويدل لجوازها عقلا قول موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لأنه لا يجهل الجائز في حق الله تعالى عقلا. وأما في الشرع فهي جائزة وواقعة في الآخرة ممتعة في الدنيا، ومن أصرح الأدلة في ذلك: «إِنَّكُمْ لَنْ تَرَوْا رَبَّكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا». أخرجه أحمد (٢٢٨٦٤). والأحاديث بروية المؤمنين له يوم القيامة متواترة، والعلم عند الله تعالى. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ١٣١)].

(٣) أي: يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه؛ لأنه خلقها كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. [ابن كثير (٣/٣١١)].

﴿فَيْسُبُوا اللَّهَ عَدُوًّا﴾ اِعْتَدَاءً وَظُلْمًا ﴿بِعَيْرِ عِلْمٍ﴾ أَي: جَهْلًا مِنْهُمْ بِاللَّهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا زَيْنَّا لَهُوْلَاءِ مَا هُمْ عَلَيْهِ ﴿زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَاتَوَهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿فَيَجَازِيهِمْ بِهِ﴾. ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَي: غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَئِنْ جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهَا قُلٌّ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يُنَزِّلُهَا كَمَا يَشَاءُ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يُدْرِكُكُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِذَا جَاءَتْ. أَي: أَنْتُمْ لَا تَدْرُونَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ خَطَابًا لِلْكَفَّارِ، وَفِي أُخْرَى بَفَتْحٍ «أَنَّ» بِمَعْنَى «لَعَلَّ» أَوْ مَعْمُولَةٌ لِمَا قَبْلَهَا^(١)﴾ وَنُقِلَبَ أَفِيدَتْهُمْ ﴿نُحُولُ قُلُوبِهِمْ عَنِ الْحَقِّ فَلَا يَفْهَمُونَهُ﴾ ﴿وَأَبْصَرَهُمْ﴾ عَنْهُ فَلَا يُبْصِرُونَهُ، فَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾. أَي: بِمَا أُنْزِلَ مِنَ الْآيَاتِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ﴾ تَنَرَّكُهُمْ ﴿فِي طُعَيْنِهِمْ﴾ ضَلَالِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾ يَتَرَدَّدُونَ مُتَحِيرِينَ. ﴿*وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى﴾ كَمَا اقْتَرَحُوا ﴿وَحَشَرْنَا﴾ جَمَعْنَا ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا﴾ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ «قِيلٍ»، أَي: فَوْجًا فَوْجًا، وَبِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِ الْبَاءِ، أَي: مُعَايِنَةً، فَشَهِدُوا بِصَدَقِكَ ﴿مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا﴾ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إِيْمَانَهُمْ فَيُؤْمِنُوا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ كَمَا جَعَلْنَا هَؤُلَاءِ أَعْدَاءَكَ، وَيُبْدِلُ مِنْهُ ﴿شَيْطِينَ﴾ مَرَدَّةَ ﴿الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي﴾ يُوسَّسُ ﴿بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ﴾ مُمَوِّهَةً مِنَ الْبَاطِلِ ﴿غُرُورًا﴾ أَي: لِيُغْوُواهُمْ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أَي: الْإِيْحَاءُ الْمَذْكُورَ ﴿فَذَرُهُمْ﴾ دَعِ الْكُفَّارَ ﴿وَمَا يَفْقَرُونَ﴾ ﴿١٨٢﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ، مِمَّا زَيْنَّا لَهُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَلِتَضَعِيَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿غُرُورًا﴾، أَي: تَمِيلَ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَي: الزُّخْرَفِ ﴿أَفِيدَةً﴾ قُلُوبُ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا﴾ يَكْتَسِبُوا ﴿مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ مِنَ الذُّنُوبِ فَيَعَاقِبُوا عَلَيْهِ. وَنَزَلَ لِمَا طَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَكَمًا، قُل: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَبْتَغَى﴾ أَطْلَبُ ﴿حَكَمًا﴾ قَاضِيًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿مُفَصَّلًا﴾ مُبَيِّنًا فِيهِ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ

(١) قال الكسائي والفراء: أن «لا» زائدة، والمعنى: وما يشعركم أنها - أي: الآيات - إذا جاءت يؤمنون فزيدت «لا» كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥] وفي قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ آلًا تَسْجُدُ﴾ [الأعراف: ١٢]، وضعف الزجاج والنحاس وغيرهما زيادة «لا» وقالوا هو خطأ وغلط، وذكر النحاس وغيره أن في الكلام حذفًا والتقدير: «أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون» ثم حذف هذا المقدر لعلم السامع. [الشوكاني (١٧٣/٢)].

مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿١١٥﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ التَّقْرِيرُ لِلْكَفَّارِ أَنَّهُ حَقٌّ. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ بِالْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِيدِ
 صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ تَمَيِّزُ ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ بِنَقْصِ أَوْ خَلْفِ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿بِمَا يُفْعَلُ.
 وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَيِ: الْكَفَّارِ ﴿يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فِي
 مُجَادَلَتِهِمْ لَكَ فِي أَمْرِ الْمَيِّتَةِ، إِذْ قَالُوا: مَا قَتَلَ اللَّهُ أَحَقَّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿يَكْذِبُونَ
 فِي ذَلِكَ.﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَيِ: عَالِمٌ ﴿مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿فِيَجَازِي كُلًّا مِنْهُمْ.
 فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: ذُبِحَ عَلَى اسْمِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا
 ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الذَّبَائِحِ ﴿وَقَدْ فُصِّلَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ فِي الْفَعْلَيْنِ ﴿لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾
 فِي آيَةِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿إِلَّا مَا أَضْطَرُّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنْهُ، فَهُوَ أَيْضًا حَلَالٌ لَكُمْ، الْمَعْنَى: لَا
 مَانِعَ لَكُمْ مِنْ أَكْلِ مَا ذُكِرَ، وَقَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ الْمُحَرَّمَ أَكْلُهُ، وَهَذَا لَيْسَ مِنْهُ ﴿وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ﴾ بِفَتْحِ أَلْيَاءِ وَضَمِّهَا
 ﴿بِأَهْوَابِهِمْ﴾ بِمَا تَهَوَّاهُ أَنْفُسُهُمْ مِنْ تَحْلِيلِ الْمَيِّتَةِ وَغَيْرِهَا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعْتَمِدُونَهُ فِي ذَلِكَ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ
 بِالْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ.﴾ وَذَرُّوا ﴿أَتْرَكُوا﴾ ظَهَرَ الْإِثْمُ وَبَاطِنُهُ ﴿عَلَانِيَتُهُ وَسِرُّهُ، وَ
 الْإِثْمُ﴾ قِيلَ: الزَّنَى، وَقِيلَ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتَسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ
 ﴾ ﴿يَكْتَسِبُونَ.﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ بَانَ مَاتَ أَوْ ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ، وَإِلَّا فَمَا ذُبِحَهُ
 الْمُسْلِمُ وَلَمْ يُسَمَّ فِيهِ عَمْدًا أَوْ نِسْيَانًا فَهُوَ حَلَالٌ، قَالَهُ: ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَيِ: الْأَكْلُ مِنْهُ ﴿لَفِسْقٌ﴾
 خُرُوجٌ عَمَّا يَحِلُّ ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيُوحُونَ﴾ يُوسُوسُونَ ﴿إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ الْكَفَّارِ ﴿لِيَجْذِلُوكُمْ﴾ فِي تَحْلِيلِ الْمَيِّتَةِ
 ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا﴾ بِالْكَفْرِ
 ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بِالْهُدَى ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يَتَبَصَّرُ بِهِ الْحَقُّ مِنْ غَيْرِهِ، وَهُوَ: الْإِيمَانُ ﴿كَمَنْ
 مَثَلُهُ﴾ «مَثَلٌ» زَائِدَةٌ، أَيِ: كَمَنْ هُوَ ﴿فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ وَهُوَ الْكَافِرُ؟ لَا. ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا زُيِّنَ
 لِلْمُؤْمِنِينَ الْإِيمَانُ ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَعَلْنَا فُسْأَقَ مَكَّةَ
 أَكْبَرَهَا ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بِالصِّدِّ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ﴾
 لِأَنَّ وَبَالَهُ عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ أَيِ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿آيَةٌ﴾ عَلَى صَدَقِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿قَالُوا
 لَنْ نُؤْمِنَ بِهِ﴾ حَتَّى نُوَفِّيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ الْإِنْيَا؛ لِأَنَّا أَكْثَرُ مَالًا وَأَكْبَرُ سِنًا، قَالَ تَعَالَى:
 ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْأَفْرَادِ، وَ ﴿حَيْثُ﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لِفِعْلِ دَلَّ عَلَيْهِ ﴿أَعْلَمُ﴾، أَيِ: يَعْلَمُ

الْمَوْضِعَ الصَّالِحَ لَوْ ضَعَهَا فِيهِ فَيَضَعُهَا، وَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا أَهْلًا لَهَا^(١) ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ بِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ ﴿صَغَارٌ﴾
 ذُلٌّ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾^(١٢٤) أَي: بِسَبَبِ مَكْرِهِمْ. ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ
 صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ بِأَنْ يَقْدَفَ فِي قَلْبِهِ نُورًا فَيَنْفَسِحَ لَهُ وَيَقْبَلَهُ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ^(٢) ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ اللَّهُ ﴿أَنْ يُضِلَّهُ
 يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، عَنْ قَبُولِهِ ﴿حَرَجًا﴾ شَدِيدَ الضِّيقِ، بِكَسْرِ الرَّاءِ صِفَةً، وَفَتْحِهَا مَصْدَرٌ
 وَصِفَ فِيهِ مُبَالَعَةً، ﴿كَأَنَّمَا يَصْعَدُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَصْلَعُدُ﴾ وَفِيهِمَا إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، وَفِي أُخْرَى
 بِسُكُونِهَا ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ إِذَا كُلَّفَ الْإِيمَانَ لِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ^(٣) ﴿كَذَلِكَ﴾ الْجَعْلُ ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ﴾ الْعَذَابَ، أَوْ
 الشَّيْطَانَ، أَي: يُسَلِّطُهُ ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٢٥) وَهَذَا الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّدٌ ﴿صِرَاطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿رَبِّكَ
 مُسْتَقِيمًا﴾ لَا عَوَجَ فِيهِ، وَنَضْبُهُ عَلَى الْحَالِ الْمُؤَكَّدِ لِلْجُمْلَةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ بَيَّنَّا ﴿الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾^(١٢٦) فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَي: يَتَّعِظُونَ، وَخُصُّوا بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُتَفَعِّلُونَ. ﴿*لَهُمْ
 دَارُ السَّلَامِ﴾ أَي: السَّلَامَةُ وَهِيَ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١٢٧) وَ﴿أُذْكَرُ﴾ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ

(١) يريدون أنهم لا يؤمنون حتى يكونوا أنبياء متبوعين لا تابعين. وهذا نوع عجيب من جهالاتهم الغريبة وعجرفتهم العجيبة ونظيره: ﴿يُرِيدُ
 كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوْتَى صُحُفًا مُنْشَرَةً﴾ [المدثر: ٥٢]، فأجاب الله عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ أَي: أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ بِمَنْ
 يستحق أن يجعله رسولا ويكون موضعاً لها وأميناً عليها، وقد اختار أن يجعلها في محمد ﷺ صفيه وحبيبه، فدعوا طلب ما ليس من
 شأنكم، عن ابن جريج قال: قالوا للمحمد ﷺ حين دعاهم إلى ما دعاهم إليه من الحق: لو كان هذا حقاً لكان فينا من هو أحق أن يؤتى به
 من محمد، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. [صديق حسن (٤/٢٣٥)]. عن واثلة بن
 الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى
 مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ». أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) سئل رسول الله ﷺ عن شرح الصدر، قال: «نُورٌ يَقْدَفُهُ اللَّهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ فَيَنْشُرُ لَهُ وَيَنْفَسِحُ» الحديث. أخرجه عبد الرزاق في
 «تفسيره» (٨٥٢)، والطبري (١٣٨٥٦)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٥٧١)، عن أبي جعفر المدائني مرسلًا.

(٣) أعلم تعالى عباده أن الهداية بيده وأن الإضلال كذلك، يهدي من يشاء برحمته ويضل من يشاء بعدله، وأن لكل من الهداية والإضلال
 سنناً تتبع في ذلك فمن طلب الهداية ورغب فيها صادقاً علم تعالى منه وسهل له طرقها وهياً له أسبابها، ومن ذلك أنه يشرح صدره لقبول
 الإيمان وأنواره فيؤمن ويسلم ويحسن فيكمل ويسعد، ومن طلب الغواية ورغب فيها صادقاً علم الله تعالى ذلك منه فهياً له أسبابها وفتح
 له بابها فجعل صدره ضيقاً حرجاً لا يتسع لقبول الإيمان وحلول أنواره فيه حتى لكأنه يتكلف الصعود إلى السماء وما هو بقادر هذه سسته
 في الهداية والإضلال. [أبو بكر الجزائري (١١٦/٢)].

بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَي: اللَّهُ، الْخَلْقَ ﴿جَمِيعًا﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ بِإِغْوَائِكُمْ ﴿وَقَالَ أَوْلِيَائُهُمُ﴾ الَّذِينَ أَطَاعُوهُمْ ﴿مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ اِنْتَفَعَ الْإِنْسُ بِتَرْيِينِ الْجِنِّ لَهُمُ الشَّهَوَاتِ، وَالْجِنُّ بِطَاعَةِ الْإِنْسِ لَهُمْ ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا تَحَسُّرٌ مِنْهُمْ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ^(١): ﴿التَّارُ مَثُولُكُمْ﴾ مَأْوَاكُمْ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْأَوْقَاتِ الَّتِي يَخْرُجُونَ فِيهَا لِشُرْبِ الْحَمِيمِ فَإِنَّهُ خَارِجَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصفافات: ٦٨]، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «أَنَّهُ فِيمَنْ عَلَّمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ». فَ﴿مَا﴾ بِمَعْنَى «مِنْ»^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾^(٣) بِخَلْقِهِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا مَتَّعْنَا عُصَاةَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ ﴿نُؤَلِّي﴾ مِنَ الْوَلَايَةِ ﴿بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ أَي: عَلَى بَعْضٍ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٤) مِنَ الْمَعَاصِي. ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أَي: مِنْ مَجْمُوعِكُمْ، أَي: بَعْضُكُمْ الصَّادِقُ بِالْإِنْسِ، أَوْ رُسُلُ الْجِنِّ نُذِرُهُمُ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ كَلَامَ الرُّسُلِ فَيُبَلِّغُونَ قَوْمَهُمْ ﴿يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ عَائِتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ أَنْ قَدْ بَلَّغْنَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَرَّثْنَاهُمْ أَحْيَاؤَهُ الدُّنْيَا﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٥) ذَلِكَ أَي: إِرْسَالُ الرُّسُلِ ﴿أَنْ﴾ الْآلَامُ مُقَدَّرَةٌ وَهِيَ مُخَفَّفَةٌ، أَي: لِأَنَّهُ ﴿لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ مِنْهَا ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾^(٦) لَمْ يُرْسَلْ إِلَيْهِمْ رَسُولٌ يُبَيِّنُ لَهُمْ^(٧). ﴿وَلِكُلِّ﴾ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿دَرَجَاتٌ﴾ جَزَاءً ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(٨) بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ. ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ وَعِبَادَتِهِمْ ﴿ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْإِهْلَاكِ ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾^(٩) أَذْهَبَهُمْ، وَلَكِنَّهُ أَبْقَاكُمْ رَحْمَةً لَكُمْ. ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ السَّاعَةِ وَالْعَذَابِ ﴿لَآتٍ﴾ لَا مَحَالَةَ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾^(١٠) فَاتَّبِعْ عَذَابَنَا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ عَلَى حَالَتِي^(١١) ﴿فَسَوْفَ

(١) هذا خبر من الله تعالى ذكره عما هو قائل لهؤلاء الذين يحشرهم يوم القيامة من العادلين به في الدنيا الأوثان، ولقرنائهم من الجن، فأخرج الخبر عما هو كائن، مُخْرَجَ الخبر عما كان، لتقدم الكلام قبله بمعناه. [الطبري (٩/ ٥٥٧)].

(٢) الصحيح أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد، انظر حاشية تفسير آية (١٠٧) من سورة هود.

(٣) إعلام بأنه تعالى أعذر إلى الثقلين بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وتبيين الآيات، وإلزام الحجة بالإنذار والتهديد. وأنه تعالى لا يؤاخذ القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه، وهم لا تبلغهم دعوة رسول ينهاهم عنه، وينبهم على بطلانه؛ لأنه ينافي الحكمة. [القاسمي (٤/ ٤٩٥)].

(٤) والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه، فأنا أثبت على ما أنا عليه. فإن قيل: كيف يجوز أن يؤمروا بالثبات على ما هم عليه وهم كفار. فالجواب

تَعْلَمُونَ مَنْ ﴿١﴾ مَوْصُولَةٌ مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أَي: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، أَنْحَنُ أَمْ أَنْتُمْ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ يَسْعُدُ ﴿الظَّالِمُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ الْكَافِرُونَ. ﴿وَجَعَلُوا﴾ أَي: كَفَّارُ مَكَّةَ ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ خَلَقَ ﴿مِنْ الْحَرْثِ﴾ الزَّرْعِ ﴿وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ يَصْرِفُونَهُ إِلَى الصَّيْفَانِ وَالْمَسَاكِينِ، وَلِشُرَكَائِهِمْ نَصِيبًا يَصْرِفُونَهُ إِلَى سَدَنَتِهَا ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ﴿وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ فَكَانُوا إِذَا سَقَطَ فِي نَصِيبِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنْ نَصِيبِهَا اِلْتَقَطُوهُ، أَوْ فِي نَصِيبِهَا شَيْءٌ مِنْ نَصِيبِهِ تَرَكُوهُ، وَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ غَنِيَ عَنْ هَذَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: لِحِجَّتِهِ ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ﴾ بِسَّسَ ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ لَهُ حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا زَيْنَ لَهُمْ مَا ذَكَرَ ﴿زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ﴾ بِالْوَادِ ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ مِنَ الْجَنِّ، بِالرَّفْعِ فَاعِلٌ ﴿زَيْنَ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَائِهِ لِلْمَفْعُولِ، وَرَفَعَ ﴿قَتَلَ﴾ وَنَصَبَ «الْأَوْلَادَ» بِهِ، وَجَرَّ ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بِإِضَافَتِهِ، وَفِيهِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْمَفْعُولِ وَلَا يَصُرُّ، وَإِضَافَةُ الْقَتْلِ إِلَى الشُّرَكَاءِ لِأَمْرِهِمْ بِهِ ﴿لِيُرْذُوهُمْ﴾ يُهْلِكُوهُمْ ﴿وَلِيَلْبِسُوا﴾ يَخْلِطُوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرْتُ حِجْرٌ حَرَامٌ ﴿لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ﴾ مِنْ خَدَمَةِ الْأَوْثَانِ وَغَيْرِهِمْ ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ أَي: لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ ﴿وَأَنْعَمُ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ فَلَا تُرْكَبُ كَالسَّوَابِ وَالْحَوَامِي ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ ذَبْحِهَا، بَلْ يَذْكُرُونَ أَسْمَ أَصْنَامِهِمْ، وَنَسَبُوا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ ﴿أَفْتَرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ عَلَيْهِ. ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ﴾ الْمُحَرَّمَةِ وَهِيَ السَّوَابِ وَالْبَحَائِرُ ﴿خَالِصَةٌ﴾ حَلَالٌ ﴿لِذِكْرِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا﴾ أَي: النِّسَاءِ ﴿وَأَنْ تَكُنْ مِثْلَهُ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، مَعَ تَأْنِيثِ الْفِعْلِ وَتَذْكِيرِهِ ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ﴾ اللَّهُ ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ، أَي: جَزَاءُهُ ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿١٣٩﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿أَوْلَادَهُمْ﴾ بِالْوَادِ ﴿سَفَهًا﴾ جَهْلًا ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ مِمَّا ذَكَرَ ﴿أَفْتَرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ خَلْقَ ﴿جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مَعْرُوشَتٍ﴾ مَبْسُوطَاتٍ عَلَى الْأَرْضِ كَالْبَطِيخِ ﴿وَعِغَرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ بِأَنْ اِرْتَفَعَتْ عَلَى سَاقٍ كَالنَّخْلِ ﴿وَأَنْشَأَ﴾ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا

أن هذا تهديد، كما قال عز وجل: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]. ودل عليه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ

الدَّارِ﴾، أَي: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ الَّتِي يَحْمَدُ صَاحِبُهَا عَلَيْهَا. [القرطبي (٧/ ٨٩)].

(١) ﴿مَعْرُوشَتٍ﴾ مَمْسُوكَات، ﴿وَعِغَرَ مَعْرُوشَتٍ﴾ مَتْرُوكَات عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لَمْ تَعْرِشْ. وقيل: «المعروشَات» مَا فِي الْأَرْيَافِ

أَكْلُهُ ﴿ثَمَرُهُ وَحَبُّهُ﴾ فِي الْهَيْئَةِ وَالطَّعْمِ ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَبِهًا﴾ وَرَفُّهُمَا، حَالٌ ﴿وَعَيْرٌ مُتَشَبِهٌ﴾ طَعْمُهُمَا ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ قَبْلَ النَّضْجِ ﴿وَعَاتُوا حَقَّهُ﴾ زَكَاتُهُ ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ، مِنَ الْعُشْرِ أَوْ نَصْفِهِ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ بِإِعْطَاءِ كُلِّهِ، فَلَا يَبْقَى لِعِيَالِكُمْ شَيْءٌ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ ﴿و﴾ أَنْشَأَ ﴿مِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةً﴾ صَالِحَةً لِلْحَمْلِ عَلَيْهَا كَالْإِبِلِ الْكِبَارِ ﴿وَفَرَشًا﴾ تَصْلُحُ لَهُ كَالْإِبِلِ الصَّغَارِ وَالْغَنَمِ، سُمِّيَتْ فَرَشًا لِأَنَّهَا كَالْفَرْشِ لِلْأَرْضِ لِدُنُوبِهَا مِنْهَا ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ طَرَائِقُهُ مِنَ التَّحْرِيمِ وَالتَّحْلِيلِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٤٢﴾ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ. ﴿ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ﴾ أَصْنَافٌ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿حَمُولَةً وَفَرَشًا﴾، ﴿مِنَ الضَّأْنِ﴾ زَوْجَيْنِ ﴿أُنثَيْنِ﴾ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ﴾ بِالْفَتْحِ وَالسُّكُونِ ﴿أُنثَيْنِ قُلٌ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِمَنْ حَرَّمَ ذُكُورَ الْأَنْعَامِ تَارَةً، وَإِنَاثَهَا أُخْرَى، وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ: ﴿أَلَذَّكَرَيْنِ﴾ مِنَ الضَّأْنِ وَالْمَعَزِ ﴿حَرَّمَ﴾ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴿أَمِ الْأُنثَيْنِ﴾ مِنْهُمَا ﴿أَمَّا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ﴾ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى؟ ﴿تَبَيَّنِي بِعِلْمٍ﴾ عَنْ كَيْفِيَّةِ تَحْرِيمِ ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٤٣﴾ فِيهِ، الْمَعْنَى: مِنْ أَيْنَ جَاءَ التَّحْرِيمُ؟ فَإِنْ كَانَ مِنْ قِبَلِ الذُّكُورَةِ فَجَمِيعُ الذُّكُورِ حَرَامٌ، أَوْ الْأُنُوثَةُ فَجَمِيعُ الْإِنَاثِ، أَوْ اِشْتَمَالَ الرَّحِمِ فَالزَّوْجَانِ، فَمِنْ أَيْنَ التَّخْصِصُ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلْإِنْكَارِ. ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ أُنثَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ أُنثَيْنِ قُلٌ أَلَذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيْنِ أَمَّا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ أَمْ﴾ بَلْ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ ﴿حُضُورًا﴾ إِذْ وَصَلَكُمُ اللَّهُ بِهِذَا التَّحْرِيمِ فَاعْتَمَدْتُمْ ذَلِكَ؟ لَا، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ ﴿فَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِذَلِكَ ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ شَيْئًا ﴿مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مَيْتَةً﴾ بِالنَّصْبِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ مَعَ التَّحْتَانِيَّةِ ﴿١٤٥﴾ ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ سَائِلًا، بِخِلَافِ غَيْرِهِ كَالْكَبِدِ وَالطَّحَالِ ﴿أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ حَرَامٌ ﴿أَوْ﴾ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ﴿فَسَقَا أَهْلَ لَيْلٍ اللَّهُ بِهِ﴾ أَيُّ: ذُبِحَ عَلَى اسْمِ غَيْرِهِ ﴿فَمِنْ أَضْطَرَّ﴾ إِلَى شَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ فَأَكَلَهُ ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لَهُ مَا أَكَلَ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿١٤٦﴾ بِهِ، وَيُلْحَقُ بِمَا ذُكِرَ بِالسُّنَّةِ: كُلُّ ذِي نَابٍ مِنْ

والعمران مما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه، و«غير معروشات» مما أنبته وحشيا في البراري والجبال. فهو غير معروش. يقال: عرشت الكرم، إذا جعلت له دعائم وسمكتا تعطف عليه القضبان. وسقف البيت: عرشه. [الزمخشري (٢/ ٧٢)].

(١) أي: ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش. [الزمخشري (٢/ ٧٣)].

(٢) الصواب قراءة الرفع مع الفوقانية وليس التحتانية.

السَّبَاعِ وَمِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ^(١). ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ أَي: الْيَهُودَ ﴿حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وَهُوَ مَا لَمْ تَفَرَّقْ أَصَابِعُهُ؛ كَالْإِبِلِ وَالنَّعَامِ ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا﴾ الثُّرُوبُ^(٢) وَشَحْمُ الْكَلْبِ ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ أَي: مَا عَلِقَ بِهَا مِنْهُ ﴿أَوْ﴾ حَمَلَتْهُ ﴿الْحَوَايَا﴾ الْأَمْعَاءُ، جَمْعُ: حَاوِيَاءٍ أَوْ حَاوِيَةٍ ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ مِنْهُ، وَهُوَ شَحْمُ الْأَلْيَةِ، فَإِنَّهُ أَحَلَّ لَهُمْ ﴿ذَلِكَ﴾ التَّحْرِيمَ ﴿جَزَيْنَهُمْ﴾ بِهِ ﴿بِغْيِهِمْ﴾ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ بِمَا سَبَقَ فِي سُورَةِ «النِّسَاءِ»^(٣) ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾^(١٦٦) فِي أَخْبَارِنَا وَمَوَاعِيدِنَا. ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فِيمَا جِئْتَ بِهِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَسِعَةِ﴾ حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَفِيهِ تَلَطُّفٌ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَلَا يُرَدُّ بِأَسْوَءِ﴾ عَذَابِهِ إِذَا جَاءَ ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١٦٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا نَحْنُ ﴿وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ فَإِشْرَاكُنَا وَتَحْرِيمُنَا بِمَشِئَتِهِ، فَهُوَ رَاضٍ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا كَذَّبَ هَؤُلَاءِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلُهُمْ ﴿حَتَّى دَاقُوا بِأَسَنَّا﴾ عَذَابَنَا ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ بِأَنَّ اللَّهَ رَاضٍ بِذَلِكَ ﴿فَتَخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أَي: لَا عِلْمَ عِنْدَكُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ﴾ مَا ﴿أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾^(١٦٨) تَكْذِبُونَ فِيهِ. ﴿قُلْ﴾ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ حُجَّةٌ ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ التَّامَّةُ ﴿فَلَوْ شَاءَ﴾ هَدَايَتُكُمْ ﴿لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٦٩) قُلْ هَلُمَّ أَخْضَرُوا ﴿شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ الَّذِي حَرَّمْتُمُوهُ ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١٧٠) يُشْرِكُونَ. ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ أَقْرَأُ ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ نَ مُفسَّرَةٌ ﴿لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ﴾ أَحْسِنُوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بِالْوَادِ ﴿مِنْ﴾ أَجْلِ ﴿إِمْلَقٍ﴾ فَقَرَّ تَخَافُونَهُ ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ الْكَبَائِرَ كَالزُّنَا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ﴾ أَي: عَلَانِيَتُهَا وَسِرَّهَا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كَالْقَوْدِ وَحَدِّ الرَّدَّةِ وَرَجْمِ الْمُحْصَنِ، ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١٧١) تَتَذَبَّرُونَ. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي﴾ أَي: بِالْخَصْلَةِ الَّتِي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَهِيَ مَا فِيهِ صَلَاحُهُ ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ بِأَنْ يَحْتَلِمَ ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، وَتَرَكَ الْبَخْسَ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتَهَا فِي ذَلِكَ، فَإِنْ أَخْطَأَ فِي الْكَيْلِ

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ، وَعَنْ كُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنَ الطَّيْرِ». أخرجه مسلم (١٩٣٤).

(٢) الثرب: شحم رقيق يغني الكرش والأمعاء، والجمع ثروب. [العين للفراهيدي (٨/ ٢٢٢)].

(٣) أي: قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقُضُّهُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ

أَحَلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٦٠].

وَالْوِزْنَ - وَاللَّهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نَبِيِّهِ - فَلَا مَوْأَخَذَةَ عَلَيْهِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ ^(١) «وَإِذَا قُلْتُمْ فِي حُكْمٍ أَوْ غَيْرِهِ» فَأَعْدِلُوا بِالصِّدْقِ «وَلَوْ كَانَ» الْمَقُولُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ «ذَا قُرْبَى» قَرَابَةٍ «وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» ^(١٥٦) بِالتَّشْدِيدِ: تَتَعَطَّوْنَ، وَالسُّكُونِ. «وَأَنَّ» بِالْفَتْحِ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ، وَالْكَسْرِ اسْتِثْنَاءً «هَذَا» الَّذِي وَصَّيْتُكُمْ بِهِ «صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا» حَالٌ «فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» الطُّرُقَ الْمُخَالَفَةَ لَهُ «فَتَفَرَّقَ» فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّاءَيْنِ، تَمِيلَ «بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» دِينِهِ «ذَلِكُمْ وَصَدِّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» ^(١٥٧) ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ «التَّوْرَةَ» وَ «ثُمَّ» لِتَرْتَبِ الْأَخْبَارَ «تَمَامًا» لِلنِّعْمَةِ «عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ» بِالْقِيَامِ بِهِ «وَنَفْصِيلًا» بَيَانًا «لِكُلِّ شَيْءٍ» يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ «وَهَدَى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ» أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ «بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ» بِالْبُعْثِ «يَوْمُنُونَ» ^(١٥٨) وَهَذَا «الْقُرْآنُ» كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ «يَا أَهْلَ مَكَّةَ، بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ «وَاتَّقُوا» الْكُفْرَ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» ^(١٥٩) «أَنْزَلْنَاهُ لَ» «أَنْ» لَا «تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ» الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى «مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ» مُحَقَّقَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: إِنَّا «كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ» قِرَاءَتِهِمْ «لَغَفْلِينَ» ^(١٦٠) «لِعَدَمِ مَعْرِفَتِنَا لَهَا، إِذْ لَيْسَتْ بِلُغَتِنَا. «أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ» لِحُجُودَةِ أَذْهَانِنَا «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ» بَيَانٌ «مِّنْ رَبِّكُمْ وَهَدَى وَرَحْمَةً» لِمَنِ اتَّبَعَهُ «فَمَنْ» أَي: لَا أَحَدَ «أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ» أَعْرَضَ «عَنْهَا سَنَجَرَى» الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ «أَي: أَشَدَّهُ» بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ^(١٦١) «هَلْ يَنْظُرُونَ» مَا يَنْتَظِرُ الْمُكَذِّبُونَ «إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ» بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ «الْمَلَكَةُ» لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ «أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ» أَي: أَمْرُهُ بِمَعْنَى عَذَابِهِ ^(١٦٢) «أَوْ يَأْتِي

(١) عن سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا»، فَقَالَ: «مِنْ أَوْفَى عَلَى يَدِهِ فِي الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نَبِيِّهِ بِالْوَفَاءِ فِيهِمَا، لَمْ يُؤْخَذْ»، وَذَلِكَ تَأْوِيلُ «وُسْعَهَا». هَذَا مَرْسَلٌ غَرِيبٌ. ذَكَرَهُ السَّيُوطِيُّ فِي الدَّرِّ الْمَشْهُورِ (٣/ ٣٨٤) وَلَمْ يَعْزِهِ لِأَحَدٍ غَيْرِهِ، وَفِي إِسْنَادِهِ مَبْشَرُ بْنُ عُبَيْدٍ الْحَمَصِيُّ. قَالَ أَحْمَدُ: كَانَ يَضَعُ الْحَدِيثَ، وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: رَوَى عَنْهُ بِقِيَّةٍ، مَنَكَرَ الْحَدِيثَ. قَالَ صَدِيقُ حَسَنِ (٤/ ٢٧٧): الْمَعْنَى: أَيِ طَاقَتِهَا فِي كُلِّ تَكْلِيفٍ مِنَ التَّكَالِيفِ وَمِنْهُ التَّكْلِيفُ بِإِيْفَاءِ الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ فَلَا يَخَاطَبُ الْمُتَوَلَّى لِهَمَا بِمَا لَا يُمْكِنُ الْإِحْتِرَازُ عَنْهُ فِي الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ فَإِنْ أَخْطَأَ فِي الْكَيْلِ وَالْوِزْنِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ صِحَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا مَوْأَخَذَةَ عَلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يَضْمَنُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ كَمَا فِي كِتَابِ الْفُرُوعِ.

(٢) ذَكَرَ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ إِيْتَانِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَمَلَائِكَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَزَادَ فِيهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَجِبُونَ صُفُوفًا، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا» [الفجر: ٢٢]، وَذَكَرَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَزَادَ فِيهِ أَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَأْتِي فِي ظِلٍّ مِنَ الْغَمَامِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ» [البقرة: ٢١٠]، وَمِثْلُ هَذَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ

بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ ۖ أَيُّ: عَلَامَاتُهُ الدَّالَّةُ عَلَى السَّاعَةِ ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَتِ رَبِّكَ﴾ وَهِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ ^(١) ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ الْجُمْلَةُ صِفَةُ «النَّفْسِ» ﴿أَوْ﴾ نَفْسًا لَمْ تَكُنْ ﴿كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ طَاعَةً، أَيُّ: لَا تَنْفَعُهَا تَوْبَتُهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ ﴿قُلِ أَنْتَظِرُوا﴾ أَحَدَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ^(٢) ذَلِكَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلَافِهِمْ فِيهِ، فَأَخَذُوا بَعْضَهُ وَتَرَكُوا بَعْضَهُ ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ فِرَقًا فِي ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرَّقُوا﴾ أَيُّ: تَرَكُوا دِينَهُمُ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ، وَهُمْ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ^(٣) ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أَيُّ: فَلَا تَتَعَرَّضْ لَهُمْ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يَتَوَلَّاهُ ﴿ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ^(٤) فَيَجَازِيهِمْ بِهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ^(٥). ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيُّ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ^(٦) ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَثْمَالِهَا﴾ أَيُّ: جَزَاءُ عَشْرِ حَسَنَاتٍ ^(٧) ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا﴾ أَيُّ: جَزَاءُهُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ^(٨)

تعالى التي وصف بها نفسه يمر كما جاء ويؤ من بها، ويعتقد أنه حق، وأنه لا يشبه شيئا من صفات المخلوقين، فسبحان من أحاط بكل شيء علما. [الشنقيطي (٢/٣٤٤)].

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٩)، ومسلم (٢٧٠٣)، ولفظ مسلم: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ». (٢) الظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق... وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ١٣] الآية. وفي الحديث: «نَحْنُ مُعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ». أخرجه البخاري (٣٤٤٢). فهذا هو الصراط المستقيم، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده لا شريك له، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء. والرسول برآء منها كما قال الله تعالى: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. [ابن كثير (٣/٣٧٧)]. وقد أخرج أبو داود (٤٥٩٧) عن معاوية قال: قام فينا رسول الله ﷺ فقال: «أَلَا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْمِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ». ورواه الترمذي (٢٦٤٣) وفيه: قالوا من هي يا رسول الله؟ قال: «مَنْ كَانَ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

(٣) وعلى التأويل الآخر المذكور في الحاشية السابقة تكون الآية غير منسوخة.

(٤) الحسنة هنا: الإيمان، أي: من جاء بشهادة «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فله بكل عمل عمله في الدنيا من الخير عشرة أمثاله من الثواب. [القرطبي (٧/١٥١)]. (٥) هذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى، وهي قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقد وردت الأحاديث مطابقة لهذه الآية،... عن رسول الله ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ

يُنْقَضُونَ مِنْ جَزَائِهِمْ شَيْئًا. ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَيُبَدِّلُ مِنْ مَحَلِّهِ ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ مُسْتَقِيمًا^(١) ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي عِبَادَتِي، مِنْ حَجٍّ وَغَيْرِهِ﴾ ﴿وَمَحْيَايَ﴾ حَيَاتِي ﴿وَمَمَاتِي﴾ مَوْتِي ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَبِذَلِكَ﴾ أَي: التَّوْحِيدِ ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ إِلَهًا، أَي: لَا أَطْلُبُ غَيْرَهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ذَنْبًا﴾ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ ﴿تَحْمِلُ نَفْسٌ وِازِرَةً﴾ آثِمَةً ﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ جَمَعَ خَلِيفَةً، أَي: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِيهَا ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ ﴿فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أَعْطَاكُمْ لِيُظْهَرَ الْمُطِيعُ مِنْكُمْ وَالْعَاصِي^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصَاهُ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ.

وَاحِدَةً، أَوْ يَمْحُوهَا اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ. أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١). [ابن كثير (٣/٣٧٨)].

(١) وليس يلزم من كونه عليه السلام أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياما عظيما، وأكملت له إكمالا تاما لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال؛ ولهذا كان خاتم الأنبياء، وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود الذي يرهب إليه الخلق حتى إبراهيم الخليل عليه السلام ... عن ابن أبي، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «أُصْبِحْنَا عَلَىٰ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ وَكَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ وَدِينِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَمِلَّةِ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠١٧٥)، وأحمد (١٥٣٦٣). ... وعن ابن عباس رضيهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الْحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ». أخرجه أحمد (٢٢٣٤٥). [ابن كثير (٣/٣٨١)].

(٢) أي: ليختبركم في تلك الأمور، ويعاملكم معاملة المبتلى والمختبر، وهو أعلم بأحوال عباده منهم، أو ليلبي بعضكم ببعض كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠]. [صديق حسن (٤/٢٩٥)].

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ الثَّمَانِ أَوْ الْخَمْسِ آيَاتٍ، مِائَتَانِ وَخَمْسُ أَوْ سِتُّ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَص ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١). هَذَا ﴿كِتَبٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ ضَيْقٌ ﴿مِنْهُ﴾ أَنْ تُبَلِّغَهُ مَخَافَةً أَنْ تُكَذِّبَ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَنْزَلَ﴾، أَيُّ: لِلْإِنْذَارِ ﴿بِهِ﴾ وَذِكْرُ تَذَكُّرَةِ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ٢﴾ بِهِ. قُلْ لَهُمْ: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ تَتَّخِذُوا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: اللَّهِ، أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿أُولِيَاءَ﴾ تُطِيعُونَهُمْ فِي مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ تَتَّعِظُونَ، وَفِيهِ إِدْغَامُ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِهَا^(٢)، وَ ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ. ﴿وَكَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ مَفْعُولٌ ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أَرَدْنَا إِهْلَاكَهَا ﴿فَجَاءَهَا بِأُسْنًا﴾ عَذَابُنَا ﴿بَيْتًا﴾ لَيْلًا ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ٤﴾ نَائِمُونَ بِالظَّهِيرَةِ، وَالْقَيْلُولَةُ: اسْتِرَاحَةٌ نِصْفِ النَّهَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهَا نَوْمٌ، أَيُّ: مَرَّةً جَاءَهَا لَيْلًا، وَمَرَّةً جَاءَهَا نَهَارًا. ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ قَوْلُهُمْ ﴿إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥﴾ فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ أَيُّ: الْأُمَمَ عَنْ إِجَابَتِهِمُ الرُّسُلَ، وَعَمَلِهِمْ فِيمَا بَلَّغَهُمْ ﴿وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسِلِينَ ٦﴾ عَنِ الْإِبْلَاحِ. ﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ﴾ لَنُخْبِرَنَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ بِمَا فَعَلُوهُ ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ٧﴾ عَنِ إِبْلَاحِ الرُّسُلِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ فِيمَا عَمِلُوا. ﴿وَالْوِزْنَ﴾ لِلْأَعْمَالِ أَوْ لِصَحَائِفِهَا، بِمِيزَانٍ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ^(٣)، كَانَتْ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ: يَوْمَ السُّؤَالِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿الْحَقُّ﴾ الْعَدْلُ صِفَةُ ﴿الْوِزْنِ﴾، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بِالْحَسَنَاتِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٨﴾ الْفَائِزُونَ ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بِالسَّيِّئَاتِ ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِتَصْغِيرِهَا إِلَى النَّارِ ﴿بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ٩﴾ يَجْحَدُونَ. ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ﴾ يَا بَنِي آدَمَ ﴿فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾ بِالْيَاءِ، أَسْبَابًا تَعِيشُونَ بِهَا، جَمْعُ «مَعِيشَةٍ» ﴿قَلِيلًا مَا﴾ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ ﴿تَشْكُرُونَ ١٠﴾ عَلَى ذَلِكَ. ﴿وَلَقَدْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الصواب بفتحها مخففة، وليس بسكونها.

(٣) أخرج اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٦/ ١١٧٣) عن عبد الملك بن أبي سليمان قال: ذكر الميزان عند الحسن فقال: له

لسان وكفتان.

خَلَقْنَكُمْ ﴿١﴾ أَيُّ: أَبَاكُمْ آدَمَ ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ أَيُّ: صَوَّرْنَاهُ وَأَنْتُمْ فِي ظَهْرِهِ ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾
 سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْجَاءِ ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ أَبَا الْجَنِّ، كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ١١ ﴿قَالَ﴾
 تَعَالَى: ﴿مَا مَنَعَكَ آلَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿تَسْجُدْ إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾
 ١٢ ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أَيُّ: مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ ١٣ ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾
 مِنْهَا ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ ١٤ ﴿الذَّلِيلِينَ﴾ ١٥ ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي﴾ أَخَّرْنِي ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ ١٦ ﴿أَيُّ: النَّاسُ.﴾ ١٧ ﴿قَالَ إِنَّكَ﴾
 مِنَ الْمُنْظَرِينَ ١٨ ﴿وَفِي آيَةٍ أُخْرَى:﴾ ١٩ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]، أَيُّ: وَقْتُ النَّفْخَةِ الْأُولَى. ﴿قَالَ﴾
 فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴿أَيُّ: بِإِغْوَائِكَ لِي ٢٠، وَالْبَاءُ لِلْقَسَمِ، وَجَوَابُهُ ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أَيُّ: لِبَنِي آدَمَ ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٢١ ﴿

(١) قول إبليس لعنه الله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول،
 يعني لعنه الله: وأنا خير منه، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقته منه، وهو الطين، فنظر
 اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم، وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة
 نص قوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢] فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبلس من الرحمة، أي: أيس من الرحمة،
 فأخطأ قبحه الله في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضاً، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والثبوت، والطين محل النبات
 والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة
 والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة. وفي صحيح مسلم (٢٩٩٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال
 رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ إِبْلِيسُ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». [ابن كثير (٣/٣٩٢)]. والفاء في
 قوله تعالى: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ لترتيب الأمر على ما ظهر من اللعين، من مخالفة الأمر، وتعليقه بالأباطيل، وإصراره على ذلك؛ أي: فاهبط
 من الجنة، والإضممار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في عدن لا في جنة الخلد. وقيل: من زمرة الملائكة
 المعززين، فإن الخروج من زمرة هم هبوط وأي هبوط، وفي سورة الحجر: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ [الحجر: ٣٤]. وأما ما قيل من أن المراد:
 الهبوط من السماء؛ فيرده أن وسوسته لآدم عليه السلام كانت بعد هذا الطرد، فلا بد أن يحمل على أحد الوجهين قطعاً، وتكون وسوسته
 على الوجه الأول بطريق النداء من باب الجنة، كما روي عن الحسن البصري. [أبو السعود (٣/٢١٧)].

(٢) الجملة مستأنفة والباء للسببية، وبه قال الزمخشري، وقيل: قسمية وهو الظاهر كقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] أي:
 فبإغوائك إياي، والإغواء الإيقاع في الغي، وقيل: الباء بمعنى «مع» والمعنى فمع إغوائك إياي، وقيل: «ما» في ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ للاستفهام
 والمعنى: فبأي شيء أغويتني والأول أولى. ومراده بهذا الإغواء الذي جعله سبباً لما سيفعله مع العباد وهو ترك السجود منه وأن ذلك كان
 بإغواء الله له حتى اختار الضلالة على الهدى، وقيل: أراد به اللعنة التي لعنه الله بها، أي: فبما لعنتني فأهلكنتني ومنه: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ﴾
 غِيًّا [مريم: ٥٩] أي: هلاكاً. وقال ابن الأعرابي: يقال غوى الرجل يغوى غيًّا إذا فسد عليه أمره أو فسد هو في نفسه ومنه ﴿وَعَصَى آدَمُ﴾

أَيُّ: عَلَى الطَّرِيقِ الْمُوَصَّلِ إِلَيْكَ. ﴿ثُمَّ لَا يَنبَغُ لَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، فَأَمْنَعُهُمْ عَنْ سُلُوكِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ مِنْ فَوْقِهِمْ، لِئَلَّا يَحُولَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى»، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧﴾ مُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْءُومًا﴾ بِالْهَمْزَةِ مُعْيِيًا، أَوْ مَمْقُوتًا ﴿مَذْهُورًا﴾ مُبْعَدًا عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ مِنَ النَّاسِ، وَاللَّامُ لِلْإِبْتِدَاءِ، أَوْ مُوَطَّئَةٌ لِلْقَسَمِ، وَهُوَ: ﴿لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾ أَيُّ: مِنْكَ بِذُرِّيَّتِكَ وَمِنْ النَّاسِ، وَفِيهِ تَغْلِبُ الْحَاضِرِ عَلَى الْغَائِبِ، وَفِي الْجُمْلَةِ مَعْنَى جَزَاءٍ «مَنْ» الشَّرْطِيَّةِ، أَيُّ: مَنْ تَبِعَكَ أُعَذِّبُهُ ﴿و﴾ قَالَ: ﴿يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ﴾ تَأْكِيدٌ لِلزَّمِيرِ فِي «اسْكُنْ» لِيُعْطَفَ عَلَيْهِ ﴿وَزَوْجُكَ﴾ حَوَاءُ بِالْمَدِّ ﴿الْجَنَّةَ فَكَلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ بِالْأَكْلِ مِنْهَا، وَهِيَ: الْحِنْطَةُ^(١) ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴿إِبْلِيسُ﴾ لِيُبْدِيَ ﴿يُظْهِرُ﴾ لَهُمَا مَا وَدَرَى ﴿فَوَعَلَ مِنَ الْمُورَاةِ﴾ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ تِهْمًا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا ﴿كَرَاهَةً﴾ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴿وَقُرِئَ: بِكَسْرِ اللَّامِ ٢٠﴾ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠﴾ أَيُّ: وَذَلِكَ لِأَزْمٍ عَنِ الْأَكْلِ مِنْهَا، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿هَلْ أَذْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]. ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أَيُّ: أَقْسَمَ لَهُمَا بِاللَّهِ ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ٢١﴾ فِي ذَلِكَ. ﴿فَدَلَّاهُمَا﴾ حَطَّاهُمَا عَنْ مَنْزِلَتَيْهِمَا ﴿بِغُرُورٍ﴾ مِنْهُ^(٢) ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾ أَيُّ: أَكَلَا مِنْهَا ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَتُهُمَا﴾ أَيُّ: ظَهَرَ لِكُلِّ مِنْهُمَا قُبْلُهُ وَقَبْلُ الْآخِرِ وَدُبُّهُ، وَسُمِّيَ كُلُّ مِنْهَا سَوْءَةً: لِأَنَّ انْكِشَافَهُ يَسُوءُ صَاحِبَهُ ﴿وَوَظَفَا يَخْصِفَانِ﴾ أَخَذَا يُلْزِقَانِ^(٣) ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ لِيَسْتَرَا بِهِ ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ

رَبُّهُو فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١] أَيُّ: فَسَدَ عَيْشُهُ فِي الْجَنَّةِ، وَغَرَضُ اللَّعِينِ هَذَا أَخَذَ ثَأْرَهُ مِنْهُمْ لِأَنَّهُ لَمَّا طَرَدَ وَمَقَتَ بِسَبَبِهِمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَحَبَّ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُمْ أَخْذًا بِالثَّأْرِ. [صديق حسن (٤/٣١٣)].

(١) عَيْنُ لِهْمَا شَجَرَةٍ، وَنَهَاةً عَنْ أَكْلِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ مَا هِيَ، وَلَيْسَ فِي تَعْيِينِهَا فَائِدَةٌ لَنَا. [السَّعْدِيُّ (ص: ٢٨٥)].

(٢) قِرَاءَةُ شَاذَةٌ.

(٣) أَيُّ: أَطْعَمَهُمَا، وَأَصْلُهُ: الرَّجُلُ الْعَطْشَانُ يَدْلِي فِي الْبُئْرِ لِيُرِي مِنْ مَائِهَا، فَلَا يَجِدُ فِيهَا مَاءً، فَيَكُونُ مَدْلِيًا فِيهَا بِغُرُورٍ، فَوَضَعَتِ التَّدْلِيَّةُ مَوْضِعَ الْإِطْمَاعِ فِيمَا لَا يَجْدِي نَفْعًا، وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ أَهْبَطَهُمَا بِذَلِكَ مِنْ دَرَجَةِ عَالِيَةٍ، إِلَى رَتَبَةٍ سَافِلَةٍ. فَإِنَّ التَّدْلِيَّةَ وَالْإِدْلَاءَ إِسْرَالُ الشَّيْءِ مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَلٍ. [القَاسِمِيُّ (٥/٢٥)].

(٤) أَيُّ: يَطْبِقَانِ عَلَى أَبْدَانِهِمَا الْوَرَقَ. وَقَالَ الزَّجَاجُ: مَعْنَى ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يَجْعَلَانِ وَرَقَةً عَلَى وَرَقَةٍ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلَّذِي يَرِيقُ النُّعْلَ: خَصَّافٌ... وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ أَيُّ: يَطْبِقَانِ بَعْضُ الْوَرَقِ عَلَى بَعْضٍ. كَمَا يَخْصِفُ طَرَاتِقُ النُّعْلِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ. [الوَاحِدِيُّ (٩/٧٠)].

وَأَقُلْ لَكُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا بِمَعْصِيَتِنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا﴾ أَيُّ: آدَمَ وَحَوَّاءَ، بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿بَعْضُكُمْ﴾ بَعْضُ الذَّرِّيَّةِ ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ مِنْ ظَلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أَيُّ: مَكَانَ اسْتِقْرَارٍ ﴿وَمَتَّعٌ﴾ تَمَتَّعٌ ﴿إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ تَنْقُضِي فِيهِ آجَالَكُمْ.﴾ قَالَ فِيهَا﴾ أَيُّ: الْأَرْضِ ﴿تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ بِالْبَعْثِ، بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. ﴿يَبْنِي عَادَمٌ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ أَيُّ: خَلَقْنَاهُ لَكُمْ ﴿يُورِي﴾ يَسْتُرُ ﴿سَوْءَ تَكُمُ وَرِيشًا﴾ وَهُوَ مَا يَتَجَمَّلُ بِهِ مِنَ الثِّيَابِ ﴿وَلِبَاسُ الْقَوَى﴾ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَوْ السَّمْتُ الْحَسَنُ، بِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَى «لِبَاسًا»، وَالرَّفْعُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ جُمْلَةٌ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ عَايَةِ اللَّهِ﴾ دَلِيلٌ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ فَيُؤْمِنُونَ، فِيهِ الْفَتْاتُ عَنِ الْخِطَابِ إِلَى الْغَيْبَةِ. ﴿يَبْنِي عَادَمٌ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ يُضِلَّنَكُمْ﴾ الشَّيْطَانُ ﴿أَيُّ: لَا تَبْعُوهُ فَتُفْتِنُوا﴾ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ بِفِتْنَتِهِ ﴿مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ﴾ حَالٌ ﴿عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الشَّيْطَانُ ﴿يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ جُنُودُهُ ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ لِلطَّافَةِ أَجْسَادِهِمْ، أَوْ عَدَمِ أَلْوَانِهِمْ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أَعْوَانًا وَقُرَنَاءَ ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ كَالشَّرِكِ، وَطَوَافِهِمْ بِالْبَيْتِ عُرَاءَ قَائِلِينَ: «لَا نَطُوفُ فِي ثِيَابِ عَصِينَا اللَّهُ فِيهَا»، فَتُهَوِّا عَنْهَا ﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ أَيْضًا ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ أَنَّهُ قَالَ؟﴾ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٍ. ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَأَقِيمُوا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَعْنَى

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في فتوى له في معنى النزول: لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام فامتن سبحانه بما يتنفعون به من الأنعام في اللباس والأثاث ... وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب، فهي لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان. [القاسمي (٢٧/٥)].

(٢) رؤية ذوات الشياطين منتفية لا محالة، وقد يخول الله رؤية الشياطين أو الجن متشكلة في أشكال الجسمانيات، معجزة للأنبياء كما ورد في الصحيح: «إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ فِي صَلَاتِي فَهَمَمْتُ أَنْ أُوثِقَهُ فِي سَارِيَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ» الحديث. أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١). أو كرامة للصالحين من الأمم كما في حديث الذي جاء يسرق من زكاة الفطر عند أبي هريرة رضي الله عنه، وقول النبي ﷺ لأبي هريرة: «ذَلِكَ شَيْطَانٌ». أخرجه البخاري (٢٣١١). ولا يكون ذلك إلا على شكل الشيطان أو الجن في صورة غير صورته الحقيقية، بتسخير الله لتمكين منه الرؤية البشرية، فالمرئي في الحقيقة الشكل الذي ماهية الشيطان من ورائه، وذلك بمنزلة رؤية مكان يعلم أن فيه شيطانا، وطريق العلم بذلك هو الخبر الصادق، فلو لا الخبر لما علم ذلك. [ابن عاشور (٧٩/٨)].

﴿بِالْقِسْطِ﴾، أَي: قَالَ أَقْسِطُوا وَأَقِيمُوا، أَوْ قَبْلَهُ «فَاقْبَلُوا» مُقَدَّرًا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ لِلَّهِ ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أَي: أَخْلَصُوا لَهُ سُجُودَكُمْ ﴿وَادْعُوهُ﴾ أَعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ﴿تَعُودُونَ﴾ ٢٩ ﴿أَي: يُعِيدُكُمْ أَحْيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَرِيقًا﴾ مِنْكُمْ ﴿هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ٣٠ * يَبْنِي عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ مَا يَسْتُرْ عَوْرَتَكُمْ ٣١ ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عِنْدَ الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ مَا شِئْتُمْ ﴿وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٣٢ قُلْ إِنَّكَارًا عَلَيْهِمْ: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ مِنَ اللِّبَاسِ ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾ الْمُسْتَلَذَّاتِ ﴿مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بِالْإِسْتِحْقَاقِ وَإِنْ شَارَكَهُمْ فِيهَا غَيْرُهُمْ ﴿خَالِصَةً﴾ خَاصَّةٌ بِهِمْ، بِالرَّفْعِ، وَالنَّصْبِ: حَالٌ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ٣٣ ﴿يَتَذَكَّرُونَ فَإِنَّهُمْ لَمُتَّعُونَ بِهَا. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ الْكَبَائِرَ كَالزَّانَا ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أَي: جَهْرَهَا وَسِرَّهَا ﴿وَالْإِثْمَ﴾ الْمَعْصِيَةَ ﴿وَالْبَغْيَ﴾ عَلَى النَّاسِ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ هُوَ الظُّلْمُ ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿سُلْطَنًا﴾ حُجَّةً ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٣٤ مِنْ تَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْ وَغَيْرِهِ ٣٥. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مُدَّةٌ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ٣٦ عَلَيْهِ. ﴿يَبْنِي عَادَمَ إِمَّا﴾ فِيهِ: إِدْعَاؤُ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَى﴾ الشِّرْكَ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ عَمَلَهُ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ٣٧ ﴿فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ تَكَبَّرُوا ﴿عَنْهَا﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٣٨ فَمَنْ: أَي: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ﴾

(١) أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحا مشوها. ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس النظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وباستعمال التجميل فيها ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس. [السعدي (ص: ٢٨٧)].

(٢) قد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم ... وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها ... فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريما منه وهو الإثم والظلم، ثم ثلث بما هو أعظم تحريما منهما وهو الشرك به سبحانه، ثم رابع بما هو أشد تحريما من ذلك كله وهو القول عليه بلا علم، وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وفي دينه وشرعه. [أعلام الموقعين لابن القيم (١/ ٨٠)].

يُصِيبُهُمْ ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ حَظُّهُمْ ﴿مَنْ أَلَكِيبُ﴾ مِمَّا كُتِبَ لَهُمْ فِي اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ، مِنْ الرِّزْقِ وَالْأَجَلِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةُ ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا﴾ لَهُمْ تَبَكُّيتًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا﴾ غَابُوا ﴿عَنَّا﴾ فَلَمْ نَرَهُمْ ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ٣٧﴾ قَالَ ﴿تَعَالَىٰ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَدْخُلُوا فِي﴾ جُمْلَةٍ ﴿أُمِرَ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَدْخُلُوا﴾، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ النَّارِ ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ الَّتِي قَبْلَهَا لِضَلَالِهَا بِهَا ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَارُكُوا﴾ تَلَا حَقُّوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرِبُهُمْ﴾ وَهُمْ الْآتِبَاعُ ﴿لَأُولَٰئِهِمْ﴾ أَيِ: لِأَجْلَائِهِمْ وَهُمْ الْمَتَّبِعُونَ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ مُضَعَّفًا ﴿مِنَ النَّارِ قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ﴾ مِنْكُمْ وَمِنْهُمْ ﴿ضِعْفٌ﴾ عَذَابٌ مُضَعَّفٌ ﴿وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ، مَا لِكُلِّ فَرِيقٍ. ﴿وَقَالَتْ أُولَٰئِهِمْ لِأَخْرَبُهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ لِأَنَّكُمْ لَمْ تَكْفُرُوا بِسَيِّئِنَا، فَحَنُّ وَأَنْتُمْ سَوَاءٌ، قَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا ﴿تَكَبَّرُوا﴾ ﴿عَنْهَا﴾ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ إِذَا عُرِجَ بَارِوَاهِمُ إِلَيْهَا بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُهْبَطُ بِهَا إِلَى سَجِّينَ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ، فَيُفْتَحُ لَهُ وَيُصْعَدُ بِرُوحِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ ^(١) ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يَدْخُلَ ﴿الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ثُقُبِ الْإِبْرَةِ، وَهُوَ غَيْرُ مُمَكِّنٍ، فَكَذَا دُخُولُهُمْ ^(٢) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ ﴿نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ٤٠﴾ بِالْكَفْرِ. ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ فِرَاشٌ ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أَغْطِيَةٌ

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الْمَيِّتَ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ قَالُوا: اخْرِجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ، اخْرِجِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ، فَمَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَيُعْرَجَ بِهَا حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَيُسْتَفْتَحَ لَهَا فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيَقَالُ: مَرَّحًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرِيحَانٍ وَرَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّىٰ يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، أَطْنَهُ أَرَادَ السَّمَاءَ السَّابِعَةَ، قَالَ: وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السَّوْءُ قَالُوا: اخْرِجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ذَمِيمَةً وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَعَسَاقٍ وَآخَرَ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٍ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ تَخْرُجَ فَيَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقَالُ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَيَقَالُ: لَا مَرَّحًا بِالنَّفْسِ الْخَبِيثَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ، ارْجُعي ذَمِيمَةً فَإِنَّهُ لَا تُفْتَحُ لِكَ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، فَتُرْسَلُ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ تَصِيرُ إِلَى الْقَبْرِ». أخرجه أحمد (٨٧٦٩)، والنسائي في الكبرى (١١٣٧٨).

(٢) الولوج الدخول بشدة وخص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لكونه يضرب به المثل في كبر الذات وعظم الجرم عند العرب ... وخص سم الخياط وهو ثقب الإبرة بالذكر لكونه غاية في الضيق وأصيق المنافذ ... فثبت أن الموقوف على المحال محال، فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميؤوس منه قطعاً، والجمل الذكر من الإبل ... وقرأ ابن عباس «الْجَمَلُ» بضم الجيم وفتح الميم مشددة وهو حبل السفينة الذي يقال له القلس وهو حبال مجموعة قاله ثعلب. [صديق حسن (٤/ ٣٥٢)].

مِنَ النَّارِ، جَمْعُ «غَاشِيَةٍ» وَتَوَيْنُهُ عَوْضٌ مِنَ الْبَاءِ الْمَحْذُوفَةِ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ٤١ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مُبْتَدَأٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتَهَا مِنَ الْعَمَلِ، إِعْتِرَاضٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَبَرِهِ، وَهُوَ: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٤٢ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ حَقْدٌ كَانَ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ تَحْتَ قُصُورِهِمْ ﴿الْأَنْهَارُ وَقَالُوا﴾ عِنْدَ الْإِسْتِقْرَارِ فِي مَنَازِلِهِمْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ الْعَمَلِ الَّذِي هَذَا جَزَاؤُهُ ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ حَذَفَ جَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ لِدَلَالَةِ مَا قَبْلَهُ عَلَيْهِ ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَي: أَنَّهُ، أَوْ مُفَسَّرَةٌ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَمْسَةِ ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٤٣ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ تَقْرِيرًا وَتَبْكِيتًا: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ﴾ كُمْ ﴿رَبُّكُمْ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نَادَى مُنَادٍ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، أَسْمَعَهُمْ ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ٤٤ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أَي: يَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ﴿عِوَجًا﴾ مُعْوجَّةً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ ٤٥ ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أَي: أَصْحَابُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ﴿حِجَابٌ﴾ حَاجِزٌ، قِيلَ: هُوَ سُورُ الْأَعْرَافِ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾ وَهُوَ سُورُ الْجَنَّةِ ٣ ﴿رِجَالٌ﴾ اسْتَوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسَيِّئَاتُهُمْ؛ كَمَا فِي الْحَدِيثِ ٤ ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ﴿بِسِيمَلَهُمْ﴾ بِعَلَامَتِهِمْ، وَهِيَ: بَيَاضُ الْوُجُوهِ

(١) هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة أن ينزع ما في قلوبهم من غل بعضهم على بعض حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضًا، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، وقيل: نزع الغل في الجنة ألا يحسد بعضهم بعضًا في تفاضل المنازل. [الشوكاني (٢/ ٢٣٤)]. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم. فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض؛ لأنه قد فقدت أسبابه. [السعدي (ص: ٢٨٩)].

(٢) أي: بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم. وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ: «وَأَعْلَمُوا أَنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَدْخُلَهُ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَعَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ». أخرجه البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦). [ابن كثير (٣/ ٤١٦)].

(٣) الأعراف: جمع عرف وهو كل مرتفع من الأرض وهي هنا شرفات السور المضروب بينهم، ومنه عرف الفرس، وعرف الديك لارتفاعه على ما سواه من الجسد، سمي بذلك لأنه بسبب ارتفاعه صار أعرف وأبين مما انخفض. [صديق حسن (٤/ ٣٦٤)].

(٤) عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ اسْتَوَاتِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ، فَقَالَ: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ، لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ». رواه أبو الشيخ وابن عساكر في تاريخه كما في الدر المنثور (٣/ ٤٦٣).

لِلْمُؤْمِنِينَ، وَسَوَاءٌ هِيَ لِلْكَافِرِينَ، لِرُؤْيَيْهِمْ لَهُمْ إِذْ مَوْضِعُهُمْ عَالٍ^(١) ﴿وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أَي: أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ الْجَنَّةِ ﴿وَهُمْ يَظْمَعُونَ﴾^(٢) فِي دُخُولِهَا، قَالَ الْحَسَنُ: «لَمْ يَطْمَعُهُمْ إِلَّا لِكَرَامَةِ يُرِيدُهَا بِهِمْ»، وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: «بَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ، فَقَالَ: قُومُوا ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ». ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾ أَي: أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ ﴿تِلْقَاءَ﴾ جِهَةِ ﴿أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِي النَّارِ﴾ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ^(٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا ﴿مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ يَعْرفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ﴾ مِنَ النَّارِ ﴿جَمْعُكُمْ﴾ الْمَالُ أَوْ كَثَرَتُكُمْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٤) أَي: وَاسْتَكْبَارُكُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ مُشِيرِينَ إِلَى ضِعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ: ﴿أَهْلَؤَلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ قَدْ قِيلَ لَهُمْ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾^(٥) وَقُرِئَ: ﴿ادْخُلُوا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَ﴿دَخَلُوا﴾^(٦) فَجُمِلَتِ النَّفْيُ حَالًا، أَي: مَقُولًا لَهُمْ ذَلِكَ. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ مِنَ الطَّعَامِ ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ مَنَعَهُمَا ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٧) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِلُهُمْ تَتَرَكُهُمْ فِي النَّارِ ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ بِتَرَكِهِمُ الْعَمَلَ لَهُ ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾^(٨) أَي: وَكَمَا جَحَدُوا. ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ﴾ أَي: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِكِتَابٍ﴾ قُرْآنٍ ﴿فَصَلَّنَاهُ﴾ بَيِّنَاتٍ بِالْأَخْبَارِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حَالًا، أَي: عَالِمِينَ بِمَا فَصَّلَ فِيهِ ﴿هُدًى﴾ حَالًا مِنَ الْهَاءِ ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩) بِهِ. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ عَاقِبَةُ مَا فِيهِ ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهِ ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ﴾ هَلْ ﴿نُزِدُ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ نُوْحِدَ اللَّهُ وَنَتْرَكَ الشِّرْكَ؟ فَيَقَالَ لَهُمْ: لَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إِذْ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ ﴿وَضَلَّ﴾ ذَهَبَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(١٠) مِنْ دَعْوَى الشَّرِّيكِ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا^(١١)، أَي: فِي قَدْرِهَا؛

(١) السيماء: العلامة. أي: يعرفون كلاً من أهل الجنة والنار بعلاماتهم كيباض الوجوه وسوادها أو مواضع الوضوء من المؤمنين أو علامة يجعلها الله لكل فريق في ذلك الموقف يعرف رجال الأعراف بها السعداء من الأشقياء. [الشوكاني (٢/ ٢٣٧)].

(٢) قراءتان شاذتان.

(٣) يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عليه السلام. واختلفوا في هذه الأيام:

لَآئِنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَمَّ شَمْسٌ، وَلَوْ شَاءَ خَلَقَهُنَّ فِي لَمَحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لَتَعْلِيمَ خَلَقِهِ التَّثَبُّتُ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هُوَ فِي اللُّغَةِ: سَرِيرُ الْمَلِكِ، اسْتَوَاءً يَلِيْقُ بِهِ ^(١) ﴿يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ مُخَفَّفًا وَمُشَدَّدًا، أَيُّ: يُعْطَى كُلًّا مِنْهُمَا بِالْآخِرِ ﴿يَطْلُبُهُ﴾ يَطْلُبُ كُلُّ مِنْهُمَا الْآخَرَ طَلَبًا ﴿حَثِيثًا﴾ سَرِيْعًا ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالْجُومُ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿السَّمَوَاتِ﴾، وَالرَّفْعِ مُبْتَدَأً خَبَرُهُ ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ مُذَلَّلَاتٍ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بِقُدْرَتِهِ ^(٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ جَمِيعًا﴾ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ ﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَاظَمَ ﴿اللَّهُ رَبُّ﴾ مَالِكُ ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا حَالٌ تَذَلُّلاً ﴿وُخْفِيَّةً﴾ سِرًّا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ فِي الدَّعَاءِ، بِالتَّشْدِيدِ وَرَفْعِ الصَّوْتِ. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي ﴿بَعْدَ

هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما؟ فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع. فأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال: «خلق الله التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ الْجِبَالَ فِيهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ فِيهَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النَّوْرَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ بَعْدَ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ آخِرَ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ». فقد رواه مسلم (٢٧٨٩) ... وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال في ستة أيام؛ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة، عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم. [ابن كثير (٤٢٦/٣)]. وقيل المراد: في ستة أوقات، فإن اليوم يطلق على الوقت كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ﴾ [الأنفال: ١٦] أي: حين إذ يلقاهم زحفاً، ومقصود هذا القائل أن السماوات والأرض خلقت عالماً بعد عالم ولم يشترك جميعها في أوقات تكوينها، وأياً ما كان فالأيام مراد بها مقادير لا الأيام التي واحدها يوم الذي هو من طلوع الشمس إلى غروبها إذ لم تكن شمس في بعض تلك المدة، والتعمق في البحث في هذا خروج عن غرض القرآن. [ابن عاشور (١٦٢/٨)].

(١) مذهب السلف الصالح: مالك، والأوزاعي، والثوري، والليث بن سعد، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، هو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه. فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى. [ابن كثير (٤٢٧/٣)].

(٢) إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم، كل ذلك بأمره، أمرهن الله فأطعن أمره، ألا الله الخلق كله، والأمر الذي لا يخالف ولا يرد أمره، دون ما سواه من الأشياء كلها، ودون ما عبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تضر ولا تنفع، ولا تخلق ولا تأمر، تبارك الله معبودنا الذي له عبادة كل شيء، رب العالمين. [الطبري (٢٤٧/١٠)].

إِصْلَاحِهَا ﴿بِعَثِّ الرُّسُلِ﴾ وَأَدْعُوهُ خَوْفًا ﴿مِنْ عِقَابِهِ﴾ وَطَمَعًا ﴿فِي رَحْمَتِهِ﴾ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ الْمُطِيعِينَ، وَتَذَكِيرٌ ﴿قَرِيبٌ﴾ الْمُخْبِرِ بِهِ عَنْ ﴿رَحْمَتِ﴾ لِإِضَافَتِهَا إِلَى ﴿اللَّهِ﴾. وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ تُنْشِرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ ﴿أَيُّ: مُتَّفَقَةٌ قُدَّامَ الْمَطَرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الشَّيْنِ تَخْفِيفًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَفَتْحِ النَّونِ: مُصَدِّرًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَضَمِّ الْمَوْحَدَةِ بَدَلِ النَّونِ، أَيُّ: مُبَشِّرَاتٍ، وَمُفْرَدُ الْأُولَى «نُشُورٌ» كَ «رَسُولٌ»، وَالْأَخِيرَةِ «بَشِيرٌ»﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ ﴿حَمَلَتِ الرِّيَّاحُ﴾ سَحَابًا ثِقَالًا ﴿بِالْمَطَرِ﴾ سُقْنَهُ ﴿أَيُّ: السَّحَابِ، وَفِيهِ الْفِتَاتُ عَنْ الْعَيْبَةِ﴾ لِبَلَدٍ مَّيَّتٍ ﴿لَا نَبَاتَ بِهِ، أَيُّ: لِأَحْيَائِهِ﴾ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ﴿بِالْبَلَدِ﴾ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ۖ بِالْمَاءِ ﴿مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ﴾ كَذَلِكَ ﴿الْإِخْرَاجُ﴾ يُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ ﴿مِنْ قُبُورِهِمْ بِالْإِحْيَاءِ﴾ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ الْعَذْبُ التُّرَابِ ﴿يُخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ حَسَنًا ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ هَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ، يَسْمَعُ الْمَوْعِظَةَ فَيَنْتَفِعُ بِهَا ﴿وَالَّذِي خُبْتُ﴾ تَرَابُهُ ﴿لَا يُخْرِجُ﴾ نَبَاتُهُ ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ عَسِرًا بِمَشَقَّةٍ، وَهَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّا مَا ذَكَرَ ﴿نُصْرِفُ﴾ بَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ اللَّهُ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿لَقَدْ﴾ جَوَّابُ قَسَمٍ مَّحْذُوفٍ ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ بِالْجَرِّ صِفَةً لِّ﴿إِلَهِ﴾، وَالرَّفْعُ بَدَلٌ مِنْ مَحَلِّهِ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ عَبْدْتُمْ غَيْرَهُ ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٩﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الْأَشْرَافُ ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ بَيِّنُ. ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالٌ﴾ هِيَ أَعْمٌ مِنَ الضَّلَالِ، فَتَفِيهَا أَبْلَغُ مِنْ نَفِيهِ ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ ﴿بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ﴾ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ ﴿أُرِيدُ الْخَيْرَ﴾ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَمْ أَكَذَّبْتُمْ ﴿وَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ مَوْعِظَةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ لِسَانِ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴿الْعَذَابَ﴾ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ اللَّهُ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ بِهَا. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مِنَ الْغَرَقِ ﴿فِي الْفُلِكِ﴾ السَّفِينَةِ ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿*و﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الْأُولَىٰ ۖ ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴿وَحَدُّهُ﴾ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ تَخَافُونَهُ فَتُؤْمِنُونَ. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ ﴿جَهَالَةٍ﴾ ﴿وَإِنَّا لَنَنْظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ فِي رِسَالَتِكَ. ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٧﴾

(١) هو من ولد سام بن نوح، قيل: هو عاد بن عوص بن أرم بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وهي عاد الأولى. وعاد الثانية قوم صالح،

وهم ثمود، وبينهما مائة سنة. [صديق حسن (٤/٣٨٩)].

أَبْلَغُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ مَا مُمْرُونَ عَلَى الرَّسَالَةِ. ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ قُوَّةً وَطُولًا، وَكَانَ طَوِيلُهُمْ مِائَةَ ذِرَاعٍ، وَقَصِيرُهُمْ سِتِينَ ﴿فَإذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ﴾ نِعْمَهُ ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ تَفُوزُونَ. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ﴾ تَتْرَكَ ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ فِي قَوْلِكَ. ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عَذَابٌ ﴿وَعَضْبٌ أَتَجِدُلُونِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ أَي: سَمَّيْتُمْ بِهَا ﴿أَنْتُمْ وَعَآبَاؤُكُمْ﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أَي: بِعِبَادَتِهَا ﴿مِنْ سُلْطَنِ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿فَانتَظِرُوا﴾ الْعَذَابِ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ ﴿٧١﴾ ذَلِكُمْ بِتَكْذِيبِكُمْ لِي، فَأَرْسَلْتُ عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ. ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ﴾ أَي: هُوَذَا ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ﴾ الْقَوْمِ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَي: اسْتَأْصَلْنَاهُمْ ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿كَذَّبُوا﴾. ﴿و﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَى ثَمُودَ﴾ بَنِي إِسْرَافِيلَ، مُرَادًا بِهِ الْقَبِيلَةَ ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَفْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ مُعْجَزَةٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ حَالٌ، عَامِلُهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَكَانُوا سَأَلُوهُ أَنْ يُخْرِجَهَا لَهُمْ مِنْ صَخْرَةٍ عَيْنُوهَا ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ﴾ بِعَقْرِ أَوْ ضَرْبٍ ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ ﴿أَسْكَنْكُمْ﴾ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا ﴿تَسْكُنُونَهَا فِي الصَّيْفِ﴾ وَتَنْحِتُونَ الْحِجَالَ بُيُوتًا ﴿تَسْكُنُونَهَا فِي الشِّتَاءِ، وَنَصَبَهُ عَلَى الْحَالِ الْمُقَدَّرَةِ﴾ ﴿فَإذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٧٤﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴿تَكَبَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ﴾ لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴿أَي: مِنْ قَوْمِهِ، بَدَلُ مِمَّا قَبْلَهُ، بِإِعَادَةِ الْجَارِ﴾ ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ إِلَيْكُمْ ﴿قَالُوا﴾ نَعَمْ ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ﴾ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَكَانَتِ النَّاقَةُ لَهَا يَوْمٌ فِي الْمَاءِ، وَلَهُمْ يَوْمٌ، فَمَلُّوا ذَلِكَ ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ عَقَرَهَا «فَدَارَ» بِأَمْرِهِمْ بِأَنْ قَتَلَهَا بِالسَّيْفِ ﴿وَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَصْلِحْ أَئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى قَتْلِهَا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴿الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ مِنَ الْأَرْضِ، وَالصَّيْحَةُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثَمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكْبِ مَيِّتِينَ. ﴿فَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ صَالِحٌ ﴿عَنْهُمْ وَقَالَ يَفْقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَ﴿أَذْكُرْ﴾ لُوطًا ﴿وَيُبَدِّلُ مِنْهُ﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ﴿أَي: أَذْبَارَ الرِّجَالِ﴾ مَا سَبَقَكُمْ

بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿أَعْيَنْكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ، وَإِدْخَالِ الْأَلِفِ بَيْنَهُمَا، عَلَى الْوَجْهِينِ ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ ﴿٨١﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَالَ إِلَى الْحَرَامِ ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ﴾ أَيُّ: لُوطًا وَاتَّبَاعَهُ ﴿مَنْ قَرَيْتُكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ هُوَ حِجَارَةُ السَّجِيلِ فَأَهْلَكْتَهُمْ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ وَ﴿أَرْسَلْنَا إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ﴾ مُعْجَزَةٌ ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿فَأَوْفُوا﴾ أَتَمُّوا ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا﴾ تَقْصُوا ﴿النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بَعَثَ الرَّسُلَ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ مُرِيدِي الْإِيمَانَ فَبَادِرُوا إِلَيْهِ. ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ طَرِيقٍ﴾ تَوَعَّدُونَ ﴿تُخَوِّفُونَ النَّاسَ بِأَخْذِ ثِيَابِهِمْ، أَوْ الْمَكْسِ مِنْهُمْ﴾ ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ تَصْرِفُونَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ بِتَوَعُّدِكُمْ إِيَّاهُ بِالْقَتْلِ ﴿وَتَبْعُونَهَا﴾ تَطْلُبُونَ الطَّرِيقَ ﴿عِوَجًا﴾ مُعْوَجَّةً ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ قَبْلَكُمْ بِتَكْذِيبِ رُسُلِهِمْ، أَيُّ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ. ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ ﴿فَاصْبِرُوا﴾ اِنْتَظِرُوا ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ وَبَيْنَكُمْ؛ بِإِنْجَاءِ الْمُحَقِّ وَإِهْلَاكِ الْمُبْطِلِ ﴿وَهُوَ خَيْرٌ الْحَاكِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ أَعَدْلُهُمْ. ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ﴾ تَرْجِعَنَّ ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ دِينِنَا، وَغَلَبُوا فِي الْخِطَابِ الْجَمْعَ عَلَى الْوَاحِدِ لِأَنَّ شُعَيْبًا لَمْ يَكُنْ فِي مِلَّتِهِمْ قَطُّ، وَعَلَى نَحْوِهِ أَجَابَ: ﴿قَالَ أ﴾ نَعُودُ فِيهَا ﴿وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ لَهَا؟ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٍ. ﴿قَدْ أَفْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ ذَلِكَ، فَيُخَذُّلُنَا ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أَيُّ: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمِنْهُ حَالِي وَحَالِكُمْ ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ﴾ احْكُمْ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ الْحَاكِمِينَ. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ

(١) الصراط الطريق، قيل: كانوا يقعدون في الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه كما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ قاله ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وغيرهم، وقيل: المراد القعود على طرق الدين ومنع من أراد سلوكها، وليس المراد به القعود على الطرق حقيقة ويؤيده: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ كما سيأتي، والقول الأول أقرب إلى الصواب. [الشوكاني (٢/ ٢٥٥)].

كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۚ أَيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَيْنٍ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ٩٠ فَأَخَذْنَهُمُ
الرَّجْفَةَ ۚ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ﴾ ٩١ ﴿بَارِكِينَ عَلَى الرُّكْبِ مِثِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا﴾
مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿كَانَ﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: كَانَتْهُمْ ﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَا﴾ فِي دِيَارِهِمْ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا
شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ ٩٢ التَّأَكُّيدُ بِإِعَادَةِ الْمَوْصُولِ وَغَيْرِهِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِمُ السَّابِقِ ﴿فَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ
عَنْهُمْ وَقَالَ يَقَوْمُ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَلَمْ تُؤْمِنُوا ﴿فَكَيْفَ عَاسَى﴾ أَحْزَنُ ﴿عَلَى قَوْمٍ
كَافِرِينَ﴾ ٩٣ ؟ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ فَكَذَّبُوهُ ﴿إِلَّا أَخَذْنَا﴾ عَاقِبَتَنَا ﴿أَهْلَهَا
بِالْبَاسَاءِ﴾ بِشِدَّةِ الْفَقْرِ ﴿وَالضَّرَاءِ﴾ الْمَرَضِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ٩٤ يَتَذَلَّلُونَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ
﴿مَكَانَ السَّيِّئَةِ﴾ الْعَذَابِ ﴿الْحَسَنَةَ﴾ الْغَنَى وَالصَّحَّةَ ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ كَثُرُوا ﴿وَقَالُوا﴾ كُفْرًا لِلنَّعْمَةِ ﴿قَدْ مَسَّ
ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ﴾ كَمَا مَسَّنَا، وَهَذِهِ عَادَةُ الدَّهْرِ، وَلَيْسَتْ بِعُقُوبَةٍ مِنَ اللَّهِ، فَكُونُوا عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى:
﴿فَأَخَذْنَهُمُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٩٥ بِوَفَتْ مَجِيئِهِ قَبْلَهُ. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى﴾ الْمُكَذِّبِينَ
﴿ءَامَنُوا﴾ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِمْ ﴿وَاتَّقَوْا﴾ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ
السَّمَاءِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾ الرَّسُلَ ﴿فَأَخَذْنَهُمْ﴾ عَاقِبَتَاهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٩٦
أَفَامِنَ أَهْلَ الْقُرَى الْمُكَذِّبُونَ ﴿أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا﴾ عَذَابُنَا ﴿بَيْنًا﴾ لَيْلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ٩٧ ﴿غَافِلُونَ عَنْهُ﴾. ﴿أَوَامِنَ
أَهْلَ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا ضُحًى﴾ نَهَارًا ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ٩٨ أَفَامِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ﴿إِسْتَدْرَاجَهُ إِيَّاهُمْ بِالنَّعْمَةِ،
وَأَخَذَهُمْ بِغْتَةٍ﴾ ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٩٩ أَوَلَمْ يَهْدِ ﴿يَتَبَيَّنْ﴾ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ﴿بِالسُّكْنَى
مِنْ بَعْدِ﴾ هَلَاكِ ﴿أَهْلِهَا أَن﴾ فَاعِلٌ مُخَفَّفَةٌ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: أَنَّهُ ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ
﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كَمَا أَصْبَنَا مِنْ قَبْلَهُمْ، وَالْهَمْزَةُ فِي الْمَوَاضِعِ الْأَرْبَعَةِ لِلتَّوْبِيخِ، وَالْفَاءُ وَالْوَاوُ الدَّاخِلَةُ عَلَيْهِمَا لِلْعُطْفِ،
وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الْوَاوِ فِي الْمَوَاضِعِ الْأَوَّلِ، عَطْفًا بِ﴿أَوْ﴾، ﴿وَ﴾ نَحْنُ ﴿نَطْبَعُ﴾ نَخْتِمُ ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ﴾ ١٠٠ ﴿الْمَوْعِظَةَ سَمَاعَ تَدْبِيرٍ﴾. ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ الَّتِي مَرَّ ذِكْرُهَا ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾
أَخْبَارِ أَهْلِهَا ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ ﴿بِمَا
كَذَّبُوا﴾ كَفَرُوا بِهِ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ، بَلِ اسْتَمَرُّوا عَلَى الْكُفْرِ ﴿كَذَلِكَ﴾ الطَّبَعِ ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ

الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ أَهْلًا ﴿١١٢﴾ أَي: أَكْثَرُ النَّاسِ ﴿مَنْ عَاهَدَ﴾ أَي: وَفَاءً بِعَهْدِهِمْ يَوْمَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ ﴿وَأَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفْسِقِينَ﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أَي: أَرْسَلِ الْمَذْكُورِينَ ﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التَّسْعِ ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ قَوْمِهِ ﴿فَظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا ﴿بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ بِالْكَفْرِ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿إِلَيْكَ﴾. فَكَذَّبَهُ، فَقَالَ: أَنَا ﴿حَقِيقٌ﴾ جَدِيرٌ ﴿عَلَىٰ أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ، وَ ﴿حَقِيقٌ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿أَنْ﴾ وَمَا بَعْدَهُ ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿وَكَانَ اسْتَعْبَدَهُمْ﴾. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾ عَلَى دَعْوَاكَ ﴿فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ فِيهَا. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١١٥﴾ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أَخْرَجَهَا مِنْ جَبِيهِ ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ ذَاتُ شُعَاعٍ ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿١١٦﴾ خِلَافُ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأُدْمَةِ^(١). ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١١٧﴾ فَأُتِيَ فِي عِلْمِ السَّحْرِ، وَفِي «الشُّعْرَاءِ»^(٢): أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ فِرْعَوْنَ نَفْسِهِ، فَكَانَتْهُمْ قَالُوهُ مَعَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّشَاوُرِ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴿أَخَّرَ أَمْرَهُمَا﴾ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١٩﴾ جَامِعِينَ. ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَحَرٍ﴾ ﴿عَلِيمٍ﴾ ﴿يَفْضُلُ مُوسَىٰ فِي عِلْمِ السَّحْرِ، فَجُمِعُوا﴾. ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا أَءِذَا بَتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ، وَإِذْ خَالَ أَلْفٌ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ﴾ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ عَصَاكَ ﴿وَأِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١٢٢﴾ مَا مَعَنَا. ﴿قَالَ الْقَوَا﴾ أَمَرَ لِلْإِذْنِ بِتَقْدِيمِ الْقَائِمِ، تَوْصُلًا بِهِ إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ ﴿فَلَمَّا الْقَوَا﴾ حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ

(١) الضمير يرجع إلى أهل القرى المذكورين سابقاً، أي: عهد يحافظون عليه ويتمسكون به، بل دأبهم نقض العهود في كل حال، وقيل: الضمير يرجع إلى الناس على العموم، أي: ما وجدنا لأكثر الناس من عهد، وقيل: المراد بالعهد هو المأخوذ عليهم في عالم الذر، وقيل: الضمير يرجع إلى الكفار على العموم من غير تقييد بأهل القرى، أي: أكثرهم لا عهد ولا وفاء والقليل منهم قد يفى بعهده ويحافظ عليه. [صديق حسن (٤/٤٢٠)].

(٢) فخرجت بيضاء تلالاً من غير برص ولا مرض، كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ﴾ [النمل: ١٢]. [ابن كثير (٣/٤٥٥)].

(٣) كان موسى أسمر شديد السمرة، ثم أعاد يده إلى جيبه فعادت إلى لونها الأول. [القرطبي (٧/٢٥٧)].

(٤) سورة الشعراء آية (٣٤).

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ صَرَفُوهَا عَنْ حَقِيقَةِ إِدْرَاكِهَا ﴿وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ خَوْفُهُمْ، حَيْثُ خَيَّلَوْهَا حَيَاتٍ تَسْعَى ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَزِيمٍ﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴿بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ فِي الْأَصْلِ، تَبْلَعُ﴾ مَا يَأْكُونَ ﴿يَقْلِبُونَ بَتْمَوِيهِمْ﴾. ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ ثَبَتَ وَظَهَرَ ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مِنَ السَّحْرِ﴾ ﴿فَغَلِبُوا﴾ أَي: فَرَعَوْهُ وَقَوْمُهُ ﴿هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ صَارُوا ذَلِيلِينَ. ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ لِعَلِمِهِمْ أَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْعَصَا لَا يَتَأْتَى بِالسَّحْرِ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاَمَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ، وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا ﴿بِهِ﴾ بِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْ إِنَّ هَذَا﴾ الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ﴿لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَا يَنَالُكُمْ مِنِّي. ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أَي: يَدَ كُلِّ وَاحِدٍ الْيُمْنَى، وَرِجْلَهُ الْيُسْرَى ﴿ثُمَّ لَأَصْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا بَعْدَ مَوْتِنَا، بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا تَنْقِمُ﴾ تُنَكِّرُ ﴿مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ عِنْدَ فِعْلِ مَا تَوَعَدْنَا بِهِ؛ لِثَلَاثِ تَرْجَعُ كُفَّارًا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ لَهُ ﴿أَتَذَرُ﴾ تَتْرُكُ ﴿مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالِدُّعَاءِ إِلَى مُخَالَفَتِكَ ﴿وَيَذَرُكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ وَكَانَ صَنَعَ لَهُمْ أَصْنَامًا صِغَارًا يَعْبُدُونَهَا، وَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ وَرَبُّهَا، وَلِذَا قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ﴾ ﴿الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿قَالَ سَنَقُولُ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ،﴾ ﴿أَبْنَاءَهُمْ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَنَسْتَحْيِي﴾ نَسْتَبْقِي ﴿نِسَاءَهُمْ﴾ كَفَعَلْنَا بِهِمْ مِنْ قَبْلُ ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ قَادِرُونَ، فَفَعَلُوا بِهِمْ ذَلِكَ فَشَكَا بَنُو إِسْرَائِيلَ. ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ عَلَى آذَانِهِمْ ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا﴾ يُعْطِيهَا ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَالْعَقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ اللَّهُ. ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فِيهَا. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ بِالْفَحْطِ ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ يَتَعَطَّوْنَ فَيَوْمِنُونَ. ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الْخَصْبُ وَالْغَنَى ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أَي: نَسْتَحِقُّهَا، وَلَمْ يَشْكُرُوا عَلَيْهَا ﴿وَإِنْ نُصِيبْهُمْ سَيِّئَةً﴾ جَدْبٌ وَبَلَاءٌ ﴿يَظِيرُوا﴾ يَتَشَاءَمُوا ﴿بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْهِمْ﴾ شُؤْمُهُمْ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَأْتِيهِمْ بِهِ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنْ مَا يُصِيبُهُمْ مِنْ عِنْدِهِ. ﴿وَقَالُوا﴾ لِمُوسَى: ﴿مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ﴾

(١) قد كانت العرب تتطير بأشياء من الطيور والحيوانات، ثم استعمل بعد ذلك في كل من تشاءم بشيء في قول جميع المفسرين، ... قوله:

لَتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَدَعَا عَلَيْهِمْ. ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ وَهُوَ مَاءٌ دَخَلَ بُيُوتَهُمْ، وَوَصَلَ إِلَى خُلُوقِ الْجَالِسِينَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ﴿وَالْجَرَادِ﴾ فَأَكَلَ زَرْعَهُمْ، وَثَمَارَهُمْ كَذَلِكَ ﴿وَالْقُمَّلِ﴾ السُّوسِ أَوْ نَوْعٌ مِنَ الْقُرَادِ^(١)، فَتَبَعَ مَا تَرَكَ الْجَرَادُ ﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ فَمَلَأَتْ بُيُوتَهُمْ وَطَعَامَهُمْ ﴿وَالدَّمَ﴾ فِي مِيَاهِهِمْ^(٢) ﴿ءَايَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ مُبَيَّنَاتٍ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ الْعَذَابُ ﴿قَالُوا يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَنَّا إِنْ آمَنَّا ﴿لَئِنْ﴾ لَمْ قَسِمْ ﴿كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بِدُعَاءِ مُوسَى ﴿عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ، وَيُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ. ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ الْمِلْحِ^(٣) ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ لَا يَتَذَكَّرُونَهَا. ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ بِالْإِسْتِعْبَادِ، وَهُمْ بَنُو إِسْرَءِيلَ ﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بِالْمَاءِ وَالشَّجَرِ، صِفَةً لِلْأَرْضِ، وَهِيَ: الشَّامُ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] إِلَى آخِرِهِ، ﴿عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَى أَدَى عَدُوِّهِمْ ﴿وَدَمَرْنَا﴾ أَهْلَكْنَا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ مِنْ الْعِمَارَةِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ بِكُسْرِ الرَّاءِ وَضَمِّهَا، يَرْفَعُونَ مِنَ الْبُيُوتِ. ﴿وَجَوَزْنَا﴾ عَبَرْنَا ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ﴾ فَأَتَوْا ﴿فَمَرُّوا﴾ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ ﴿بِضَمِّ الْكَافِ وَكُسْرِهَا﴾ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ يُقِيمُونَ عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿قَالُوا يَمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صَنَمًا نَعْبُدُهُ ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ حَيْثُ قَابَلْتُمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، بِمَا

﴿طَلَبْتُمْ﴾ أَي: سبب خيرهم وشرهم ما ينالهم من خصب وقحط ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَأْتِيهِمْ بِهِ لَيْسَ بِسَبَبِ مُوسَى وَمِنْ مَعَهُ، وَكَانَ هَذَا الْجَوَابُ عَلَى نَمَطٍ مَا يَعْتَقِدُونَهُ وَبِمَا يَفْهَمُونَهُ وَلِهَذَا عَبَّرَ بِالطَّائِرِ عَنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ الَّذِي يَجْرِي بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ وَمَشِيتَتِهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بِهَذَا بَلْ يَنْسُبُونَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ جَهْلًا مِنْهُمْ وَالْحَقُّ أَنَّ الْكُلَّ مِنَ اللَّهِ. [الشوكاني (٢/ ٢٧١)].

(١) قيل: إنه الدباء، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف. [السعدي (ص: ٣٠١)].

(٢) روي أنه سال عليهم النيل دماً، قاله: مجاهد، وقيل: هو الرعاف، قاله: زيد بن أسلم، وقيل: مياههم انقلبت دماً فما يستقون من بئر ولا نهر إلا وجدوه دماً عبيطاً أحمر. [صديق حسن (٤/ ٤٤١)].

(٣) قال الأزهرى: «اليم» معروف لفظة سريانية عربتها العرب، ويقع على البحر الملح والعذب، والمراد به نيل مصر وهو عذب. [صديق حسن (٤/ ٤٤٣)].

فَلْتَمُوهُ^(١). ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ هَالِكٌ﴾ مَا هُمْ فِيهِ وَبِطُلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا مَعْبُودًا، وَأَصْلُهُ: أَبْغِي لَكُمْ ﴿وَهُوَ فَضْلُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ فِي زَمَانِكُمْ، بِمَا ذَكَرَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَ﴾ اذْكُرُوا ﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَنْجَاكُمْ﴾ ﴿مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ﴾ يُكَلِّفُونَكُمْ وَيُذَيِّقُونَكُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَشَدَّهُ، وَهُوَ: ﴿يُقْتِلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَسْتَبْقُونَ ﴿نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ﴾ الْإِنْجَاءِ، أَوِ الْعَذَابِ ﴿بَلَاءٌ﴾ إِنْعَامٌ أَوْ إِنْتِلَاءٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٤١﴾ أَفَلَا تَتَعَطُّونَ فَتَسْتَهْوَأَ عَمَّا قُلْتُمْ. ﴿وَوَاعَدْنَا﴾ بِالْأَلْفِ وَدُونَهَا ﴿مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ نُكَلِّمُهُ عِنْدَ انْتِهَائِهَا، بِأَنْ يَصُومَهَا، وَهِيَ: ذُو الْقَعْدَةِ، فَصَامَهَا، فَلَمَّا تَمَّتْ، أَنْكَرَ خُلُوفَ فِيهِ فَاسْتَاكَ، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِعَشْرَةٍ أُخْرَى؛ لِيُكَلِّمَهُ بِخُلُوفٍ فِيهِ^(٢)، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ وَقْتُ وَعْدِهِ بِكَلَامِهِ إِيَّاهُ ﴿أَرْبَعِينَ﴾ حَالٌ ﴿لَيْلَةً﴾ تَمِيزُ ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ﴾ عِنْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْجَبَلِ لِلْمُنَاجَاةِ ﴿أَخْلَفَنِي﴾ كُنْ خَلِيفَتِي ﴿فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ أَمْرُهُمْ ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٤٢﴾ بِمُؤَافَقَتِهِمْ عَلَى الْمَعَاصِي. ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ أَي: لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِالْكَلامِ فِيهِ ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بِلَا وَاسِطَةٍ، كَلَامًا سَمِعَهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ^(٣) ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي﴾ نَفْسَكَ ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ أَي: لَا تَقْدِرُ عَلَى رُؤْيِي، وَالتَّعْيِيرُ بِهِ دُونَ «لَنْ أَرَى» يُفِيدُ امْكَانَ رُؤْيِيهِ تَعَالَى ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الَّذِي هُوَ أَقْوَى مِنْكَ ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ﴾ ثَبَتَ

(١) عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلت: يا نبي الله اجعل لنا هذه - ذات أنواط - كما للكفار ذات أنواط، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة، ويعكفون حولها. فقال النبي ﷺ: «الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ» إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١١٨٥)، وأحمد (٢١٩٠٠).

(٢) جعل الله مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الزكية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، وقد ذكر بعض المفسرين قصة في سبب زيادة عشر ليال، لم تصح. ولم يزد على أربعين ليلة؛ إما لأنه قد بلغ أقصى ما تحتمله قوته البشرية فباعده الله من أن تعرض له السامة في عبادة ربه، وذلك يجنب عنه المتقون بله الأنبياء، وإما لأن زيادة مغيبه عن قومه تفضي إلى إضرار، كما قيل: إنهم عبدوا العجل في العشر الليالي الأخيرة من الأربعين ليلة. [ابن عاشور (٨٥/٩)].

(٣) ومما لم يرد إثباته ولا نفيه لفظ: «الجهة»، فلفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتاً ولا نفياً، ويُغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء، وأما معناه؛ فإما أن يراد به: جهة سُفْلٍ أو جهة عُلُوٍّ تحيط بالله أو جهة عُلُوٍّ لا تحيط به. فالأول باطل؛ لمنافاته لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة والإجماع، والثاني باطل أيضاً، لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، والثالث حق؛ لأن الله تعالى العلي فوق خلقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته. [القواعد المثلى لابن عثيمين (ص: ٤٠)].

﴿مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ أَي: تَثْبُتُ لِرُؤْيِي وَإِلَّا فَلَا طَاقَةَ لَكَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ أَي: ظَهَرَ مِنْ نُورِهِ قَدْرُ نِصْفِ
 أَنْمَلَةِ الْخِنْصِرِ كَمَا فِي حَدِيثٍ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ^(١) ﴿لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ بِالْقَصْرِ وَالْمَدِّ، أَي: مَذْكُوكًا مُسْتَوِيًّا
 بِالْأَرْضِ ﴿وَحَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ لِهَوْلِ مَا رَأَى ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تَنْزِيهًا لَكَ ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾
 مِنْ سُؤَالِ مَا لَمْ أَوْمَرْ بِهِ ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) فِي زَمَانِي. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ: ﴿يَمُوسَى إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ﴾ اخْتَرْتُكَ
 ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ أَهْلِ زَمَانِكَ ﴿بِرِسَالَتِي﴾ بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ ﴿وَبِكَلِمِي﴾ أَي: تَكْلِيمِي إِيَّاكَ ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ﴾
 مِنَ الْفَضْلِ ﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٣) لَا نَعْمِي. ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ﴾ أَي: الْأَوَاحِ التَّوْرَةَ^(٤) وَكَانَتْ مِنْ سِدْرِ
 الْجَنَّةِ أَوْ زَبْرَجِدٍ أَوْ زُمُرَدٍ، سَبْعَةٌ أَوْ عَشْرَةٌ^(٥) ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ ﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾ تَبَيِّنًا ﴿لِكُلِّ
 شَيْءٍ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ قَبْلَهُ ﴿فَخُذْهَا﴾ قَبْلَهُ «قُلْنَا» مُقَدَّرًا ﴿بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا
 بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾^(٦) فِرْعَوْنَ وَاتِّبَاعِهِ، وَهِيَ مِصْرُ لَتَعْتَبِرُوا بِهِمْ. ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ﴾ دَلَائِلَ
 قُدْرَتِي، مِنَ الْمَصْنُوعَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بِأَنْ أَخَذْلَهُمْ فَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا^(٧) ﴿وَأَنْ
 يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ﴾ طَرِيقَ ﴿الرُّشْدِ﴾ الْهُدَى الَّذِي جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾
 يَسْلُكُوهُ ﴿وَأَنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ﴾ الضَّلَالِ ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ﴾ الصَّرْفُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
 غَافِلِينَ﴾^(٨) تَقَدَّمَ مِثْلُهُ. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ مَا

(١) المستدرک (٢/ ٣٢٠)، ورواه ابن خزيمة في التوحيد (١١٤)، والترمذي (٣٠٧٦)، وابن الأعرابي في معجمه (٤٠٥)، من طريق عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة به.

(٢) في الخبر المأثور عن النبي ﷺ: «أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَخَلَقَ جَنَّةَ عَدْنَ بِيَدِهِ، وَكُتِبَ التَّوْرَةُ بِيَدِهِ». وهو مرسل، أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (٤١)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٩٢). قال ابن القيم في حادي الأرواح: المحفوظ أنه موقوف. (ص: ٩٨). ويشهد لأوله القرآن قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِدْنِي﴾ [ص: ٧٥].

(٣) الذي يغلب به الظن: أن كثيراً من السلف رحمهم الله كانوا يسألون اليهود عن هذه الأمور فلماذا اختلفت واضطربت الأقوال فيها فهذا يقول من خشب وهذا يقول من ياقوت وهذا يقول من زمرد وهذا يقول من زبرجد وهذا يقول من برد وهذا يقول من حجر. وقد اختلف في عدد الألواح وفي مقدار طولها وعرضها، والألواح جمع لوح وسمي لوحاً لكونه تلوح فيه المعاني. [صديق حسن (١٥/ ٥)].

(٤) أي: سَأَمْنَعُ فِهْمَ الْحَجِجِ وَالْأَدْلَةَ عَلَى عِظَمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ طَاعَتِي، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَي: كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذْلَهُمُ اللَّهُ بِالْجَهْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠] وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا أَرْعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. [ابن كثير (٤٧٥/ ٣)].

عَمَلُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ؛ كَصَلَاةٍ رَحِمَ وَصَدَقَةٍ، فَلَا ثَوَابَ لَهُمْ لِعَدَمِ شَرْطِهِ^(١) ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢) مِنَ التَّكْذِيبِ وَالْمَعَاصِي. ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: بَعْدَ ذَهَابِهِ إِلَى الْمُنَاجَاةِ ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ الَّذِي اسْتَعَارُوهُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَعْلَةَ عُرْسٍ، فَبَقِيَ عِنْدَهُمْ^(٣) ﴿عِجْلًا﴾ صَاغَهُ لَهُمْ مِنْهُ السَّامِرِيُّ ﴿جَسَدًا﴾ بَدَلُ، لَحْمًا وَدَمًا^(٤) ﴿لَهُ خَوَارٌ﴾ أَيُّ: صَوْتُ يُسْمَعُ، انْقَلَبَ كَذَلِكَ بِوَضْعِ التُّرَابِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ حَافِرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ فِي فَمِهِ، فَإِنَّ أَثَرَهُ الْحَيَاةِ فِيمَا يُوضَعُ فِيهِ^(٥)، وَمَفْعُولُ ﴿اتَّخَذَ﴾ الثَّانِي مَحْذُوفٌ أَيُّ: إِلَهًا ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ فَكَيْفَ يُتَّخَذُ إِلَهًا؟^(٦) ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ إِلَهًا ﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٧) بِاتِّخَاذِهِ. ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَيُّ: نَدِمُوا عَلَى عِبَادَتِهِ ﴿وَرَأَوْا﴾ عَلِمُوا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بِهَا، وَذَلِكَ بَعْدَ رُجُوعِ مُوسَى ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ فِيهِمَا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٨) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَنَ مِنْ جَهْتِهِمْ ﴿أَسِفًا﴾ شَدِيدَ الْحُزْنِ^(٩) ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿بِئْسَمَا﴾ أَيُّ: بِئْسَ خِلَافَةً ﴿خَلَقْتُمُونِي﴾ هَا ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ خِلَافَتُكُمْ هَذِهِ،

(١) قُفِدَ شَرْطُهَا وَهُوَ الْإِيمَانُ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَالتَّصَدِيقُ بِجَزَائِهِ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ فِي بَطْلَانِ أَعْمَالِهِمْ وَحُصُولِ ضِدِّ مَقْصُودِهِمْ ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فَإِنْ أَعْمَالٌ مِنْ لَا يُؤْمَنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، لَا يَرْجُو فِيهَا ثَوَابًا، وَلَيْسَ لَهَا غَايَةٌ تَنْتَهِي إِلَيْهَا، فَلِذَلِكَ اِضْمَحَلَتْ وَبَطَلَتْ. [السَّعْدِيُّ (ص: ٣٠٢)].

(٢) يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَلَقْنَا أَوْرَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]، وَزِينَةُ الْقَوْمِ هِيَ: حُلِيِّ الْقَبْطِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ؛ كَانُوا بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ قَبْلَ هَلَاكِهِمْ، وَقِيلَ: أَخَذُوهُ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ، فَقَالَ لَهُمُ السَّامِرِيُّ: اجْمَعُوا هَذَا الْحَلِيَّ فِي حَفْرَةٍ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ فِيهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ وَأَوْقَدَ السَّامِرِيُّ نَارًا عَلَى الْحَلِيِّ وَصَاغَ مِنْهُ عِجْلًا. [ابن جُرَيْجٍ (٢/١٢)].

(٣) اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ: هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لِهَ خَوَارٍ؟ أَوْ اسْتَمَرَ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيَصُوتُ كَالْبَقْرِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [ابن كثير (٣/٤٧٦)]. و[القول الأول] ضَعِيفٌ، أَعْنِي: كَوْنُهُ لَحْمًا وَدَمًا؛ لِأَنَّ الْآثَارَ وَرَدَتْ بِأَنَّ مُوسَى بَرَدَهُ بِالْمَبَارِدِ وَأَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَلَا يَبْرُدُ اللَّحْمُ، بَلْ كَانَ يَقْتُلُ وَيَقْطَعُ، وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: ذَكَرَ الْجَسَدُ دَلَالَةً عَلَى عَدَمِ الرُّوحِ فِيهِ. [أَبُو حَيَّانٍ (٥/١٧٧)].

(٤) رَاجِعَ تَفْسِيرَ الْآيَةِ (٩٦) مِنْ سُورَةِ طه.

(٥) لِأَنَّ مِنَ الْمَتَقَرَّرِ فِي الْعُقُولِ وَالْفَطَرِ، أَنَّ اتِّخَاذَ إِلَهٍ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ مِنْ أَبْطَلِ الْبَاطِلِ، وَأَسْمَجِ السَّفَهَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حَيْثُ وَضَعُوا الْعِبَادَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ كَلَامَ اللَّهِ، فَقَدْ أَنْكَرَ خِصَائِصَ إِلَهِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَنَّ عَدَمَ الْكَلَامِ دَلِيلٌ عَلَى عَدَمِ صِلَاحِيَّةِ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ لِلْإِلَهِيَّةِ. [السَّعْدِيُّ (ص: ٣٠٢)].

(٦) هَذَا بَيَانٌ لِمَا وَقَعَ مِنْ مُوسَى بَعْدَ رُجُوعِهِ، وَالْأَسْفُ: شَدِيدُ الْغَضَبِ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ، وَقِيلَ: هُوَ مَنْزِلَةٌ وَرَاءَ الْغَضَبِ أَشَدُّ مِنْهُ، قَالَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: الْأَسْفُ الْحُزْنُ وَالْأَسِيفُ الْحَزِينُ، قَالَ الْوَاحِدِيُّ: وَالْقَوْلَانِ مُتَقَارِبَانِ لِأَنَّ الْغَضَبَ مِنَ الْحُزْنِ وَالْحُزْنَ مِنَ الْغَضَبِ، فَإِذَا جَاءَكَ مَا تَكْرَهُ مِنْهُ هُوَ دُونَكَ غَضِبْتَ وَإِذَا جَاءَكَ مَا تَكْرَهُ مِنْهُ هُوَ فَوْقَكَ حَزَنْتَ فَتَسْمَى إِحْدَى هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ حُزْنًا

حَيْثُ أَشْرَكْتُمْ ﴿١٠٠﴾ أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَاخِ ﴿١٠١﴾ التَّوْرَةَ غَضَبًا لِرَبِّهِ فَتَكَسَّرَتْ ﴿١٠٢﴾ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ ﴿١٠٣﴾ أَيُّ: بِشَعْرِهِ بِيَمِينِهِ وَلَحْيَتِهِ بِشِمَالِهِ ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾ غَضَبًا ﴿قَالَ﴾ يَا ﴿أَبْنَ أُمِّ﴾ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا أَرَادَ أُمِّي، وَذَكَرَهَا أَعْطَفُ لِقَلْبِهِ ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا﴾ قَارَبُوا ﴿يَقْتُلُونَنِي فَلَا تَشْمِتْ﴾ تَفْرِحْ ﴿بِإِیَّائِكَ إِيَّايَ﴾ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٤﴾ بِعِبَادَةِ الْعَجَلِ فِي الْمُوَاخَذَةِ. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ مَا صَنَعْتُ بِأَخِي ﴿وَلِأَخِي﴾ أَشْرَكَ الدُّعَاءَ إِِرْضَاءً لَهُ، وَدَفْعًا لِلشَّمَاتَةِ بِهِ ﴿وَأَدْخَلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعَجَلَ﴾ إِلَهًا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ﴾ عَذَابٌ ﴿مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَعَذَّبُوا بِالْأَمْرِ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِمْ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزَى الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿١٠٦﴾ عَلَى اللَّهِ بِالْإِشْرَاكِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا﴾ رَجَعُوا عَنْهَا ﴿مِّنْ بَعْدِهَا وَعَاقِبُوا﴾ بِاللَّهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَيُّ: التَّوْبَةُ ﴿لَعُفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿١٠٧﴾ بِهِمْ. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ سَكَنَ ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ﴾ الَّتِي أَلْقَاهَا ﴿وَفِي نُسَخَتِهَا﴾ أَيُّ: مَا نُسَخَ فِيهَا، أَيُّ: كُتِبَ ﴿هُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ ﴿١٠٨﴾ يَخَافُونَ، وَأَدْخَلَ اللَّامَ عَلَى الْمَفْعُولِ لِقُدُّمِهِ. ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أَيُّ: مِنْ قَوْمِهِ ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ مِّمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعَجَلَ، بِأَمْرِ تَعَالَى ﴿لِمِيقَاتِنَا﴾ أَيُّ: لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَاهُ بِاتِّبَانِهِمْ فِيهِ، لِيَعْتَذِرُوا مِنْ عِبَادَةِ أَصْحَابِهِمْ الْعَجَلَ، فَخَرَجَ بِهِمْ ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَأَنَّهُمْ لَمْ يُزَايِلُوا قَوْمَهُمْ حِينَ عَبْدُوا الْعَجَلَ، قَالَ: وَهُمْ غَيْرُ الَّذِينَ سَأَلُوا الرُّوْيَةَ، وَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ ﴿١٠٩﴾ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِّن قَبْلُ﴾ أَيُّ: قَبْلَ خُرُوجِي بِهِمْ، لِيُعَايِنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ ذَلِكَ، وَلَا يَتَّهِمُونِي ﴿وَإِنِّي أَتَّهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾؟

والأخرى غضبًا، يقال: هو أسف وأسيف وأسفان وأسوف. قال ابن جرير الطبري: أخبره الله قبل رجوعه بأنهم قد فتنوا، وأن السامري قد أضلهم فلذلك رجع وهو غضبان أسفًا. [صديق حسن (٢٣/٥)].

(١) معنى العجلة: المتقدم بالشيء قبل وقته، ولذلك صارت مذمومة، والسرعة غير مذمومة؛ لأن معناها: عمل الشيء في أقل أوقاته. ومعنى ﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ قال ابن عباس: يعني ميعاد ربكم فلم تصبروا له. وقال الحسن: وعد ربكم الذي وعدتم من الأربعين ليلة، وذلك أنهم قدروا أنه مات لما لم يأت على رأس الثلاثين ليلة. وقال عطاء: يريد: تعجلتم سخط ربكم. ﴿وَالْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ قال ابن عباس: يريد النبي فيها التوراة، وروي أن النبي ﷺ قال: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبِرِ، أَخْبَرَهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاخَ، فَلَمَّا رَأَوْهُمْ وَعَايَنَهُمُ الْقَى الْأَلْوَاخَ». أخرجه أحمد (٢٤٤٧). [الواحدى (٣٦٨/٩)].

(٢) أي: غير المذكورين في الآيتين: (٥٥) من سورة البقرة و (١٥٣) من سورة النساء.

اسْتَفْهَامُ اسْتِعْطَافٍ، أَي: لَا تُعَذِّبْنَا بِذَنْبِ غَيْرِنَا^(١) ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هِيَ﴾ أَي: الْفِتْنَةُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا السُّفْهَاءُ ﴿إِلَّا فِتْنَتَكَ﴾
 ابْتِلَاؤُكَ ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ إِضْلَالُهُ ﴿وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ هِدَايَتُهُ^(٢) ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ مُتَوَلَّى أُمُورِنَا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا
 وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَفِيرِينَ﴾ * وَاكْتُبْ ﴿أَوْجِبْ﴾ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴿إِنَّا هُدْنَا﴾
 تَبْنَا ﴿إِلَيْكَ قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ تَعْذِيْبُهُ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ عَمَّتْ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ فِي الدُّنْيَا
 ﴿فَسَاكَتُ بِهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ
 الَّتِي الْأُمِّيُّ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ بِاسْمِهِ وَصِفَتِهِ ﴿يَأْمُرُهُمْ
 بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ مِمَّا حُرِّمَ فِي شَرْعِهِمْ ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ مِنَ
 الْمَيْتَةِ وَنَحْوِهَا ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ ثِقَلَهُمْ ﴿وَالْأَغْلَالَ﴾ الشَّدَائِدَ ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ كَقَتْلِ النَّفْسِ فِي التَّوْبَةِ،
 وَقَطْعِ أَثَرِ النَّجَاسَةِ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ وَقَرَّوهُ ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾
 أَي: الْقُرْآنَ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤) قُلْ ﴿خِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ﴾: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا
 الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَكَلِمَتِهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٥) تَرْشُدُونَ. ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُوسَى أُمَّةٌ جَمَاعَةٌ يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ
 ﴿بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٦) فِي الْحُكْمِ. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فَرَقْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ﴾ حَالَ ﴿أَسْبَاطٍ﴾ بَدَلٍ
 مِنْهُ، أَي: قَبَائِلَ ﴿أُمَمًا﴾ بَدَلٍ مِمَّا قَبْلَهُ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ﴾ فِي التَّيِّهِ ﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ

(١) الاستفهام للجحد، أي: لست ممن يفعل ذلك قاله ثقة منه برحمة الله، والمقصود منه الاستعطاف والتضرع، قاله ابن الأباري، وقيل:

معناه الدعاء والطلب، أي: لا تهلكنا قاله المبرد، وقيل: قد علم موسى أنه لا يهلك أحد بذنب غيره ولكنه كقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. [صديق حسن (٥/ ٣٠)].

(٢) معناه: لا تهلكنا بفعلهم، فإن تلك الفتنة كانت اختباراً منك وابتلاءً أضللت بها قوماً فافتنوا، وهديت قوماً فعصمتهم حتى ثبتوا على دينك... وهذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية التي لا يبقى لهم معها عذر. [الواحدي (٩/ ٣٩١)]. إن الأمر إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان، تضل من تشاء، وتهدي من تشاء، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك، والحكم كله لك، لك الخلق والأمر. [ابن كثير (٣/ ٣٨١)].

(٣) الأمي: الذي لا يقرأ ولا يكتب، وذلك من أعظم دلائل نبوته ﷺ لأنه أتى بالعلوم الجمة من غير قراءة ولا كتابة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَا زَتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. [ابن جزي (١/ ٣٠٤)].

الْحَجَرِ فَضْرَبَهُ ﴿فَأَنْبَجَسَتْ﴾ انْفَجَرَتْ ﴿مِنْهُ أَثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ بِعَدَدِ الْأَسْبَاطِ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ سَبَطُ مِنْهُمْ ﴿مَشْرَبُهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ فِي النَّيِّهِ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ هُمَا التَّرْنَجِينُ وَالطَّيْرُ السَّمَانِيُّ ^(١) بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ وَالْقَصْرِ، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا﴾ أَمْرُنَا ﴿حِطَّةً وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أَيُّ: بَابِ الْقَرْيَةِ ﴿سُجَّدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ ﴿تَغْفِرُ﴾ بِالنُّونِ وَالتَّاءِ، مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ ﴿لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٢) بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا. ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ، وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِمَ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا﴾ عَذَابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ ^(٣) وَسَلَّلَهُمْ ﴿يَا مُحَمَّدُ تَوَيْخًا﴾ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴿مُجَاوِرَةً بَحْرِ الْقُلُزْمِ، وَهِيَ أَيْلَةُ﴾ مَا وَقَعَ بِأَهْلِهَا ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يَعْتَدُونَ ﴿فِي السَّبْتِ﴾ بِصَيْدِ السَّمَكِ الْمَأْمُورِينَ بِتَرْكِهِ فِيهِ ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لِّـ ﴿يَعْدُونَ﴾، ﴿تَأْتِيهِمْ حِينَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ ظَاهِرَةٌ عَلَى الْمَاءِ ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ لَا يُعْطَمُونَ السَّبْتَ، أَيُّ: سَائِرِ الْأَيَّامِ ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ اِبْتِلَاءٌ مِنَ اللَّهِ ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ^(٤) وَلَمَّا صَادُوا السَّمَكِ، اِفْتَرَقَتْ الْقَرْيَةُ اثْنَلَاثًا: ثَلَاثُ صَادُوا مَعَهُمْ، وَثَلَاثُ نَهَوْهُمْ، وَثَلَاثُ أَمْسَكُوا عَنِ الصَّيْدِ وَالنَّهْيِ. ﴿وَإِذْ﴾ عَظْفٌ عَلَى ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾ لَمْ تَصِدْ وَلَمْ تَنْهَ، لِمَنْ نَهَى ﴿لَمْ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا﴾ مَوْعِظَتَنَا ﴿مُعَذِّرَةً﴾ نَعْتَذِرُ بِهَا ﴿إِلَى رَبِّكُمْ﴾ لِئَلَّا نُنْسَبَ إِلَى تَقْصِيرٍ فِي تَرْكِ النَّهْيِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ^(٥) الصَّيْدَ. ﴿فَلَمَّا نُسُوا﴾ تَرَكُوا ﴿مَا ذُكِّرُوا﴾ وَعُظُوا ﴿بِهِ﴾ فَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿أَحْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْأَعْتِدَاءِ ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شَدِيدٍ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ^(٦) فَلَمَّا عَتَوْا ﴿تَكَبَّرُوا﴾ عَنْ تَرْكِ ﴿مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ ^(٧) صَاغِرِينَ فَكَانُواهَا، وَهَذَا تَفْصِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا أَدْرِي مَا فَعَلَ بِالْفِرْقَةِ السَّاكِنَةِ»، وَقَالَ عِكْرِمَةُ: لَمْ تَهْلِكْ؛ لِأَنَّهَا كَرِهَتْ مَا فَعَلُوهُ وَقَالَتْ: ﴿لَمْ تَعْظُونَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَرَوَى الْحَاكِمُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَجَعَ إِلَيْهِ وَأَعْجَبَهُ ^(٨). ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أَعْلَمَ ﴿رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: الْيَهُودَ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ بِالذَّلِّ وَأَخَذِ الْجِزْيَةِ، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ سُلَيْمَانَ، وَبَعْدَهُ بُخْتَنَصَرَ، فَقَتَلَهُمْ وَسَبَّاهُمْ وَضَرَبَ عَلَيْهِمُ الْجِزْيَةَ،

(١) انظر التعليق على آية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٢).

فَكَانُوا يُودُّونَهَا إِلَى الْمَجُوسِ إِلَى أَنْ بُعِثَ نَبِيًّا ﷺ، فَضَرَبَهَا عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ عَصَاهُ ﴿وَأَنَّهُ وَاغْفُورٌ﴾ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ﴿رَحِيمٌ ١٦٧﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ﴾ فَرَّقْنَاهُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فِرْقًا ﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ﴾ نَاسٌ ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾ الْكُفَّارُ وَالْفَاسِقُونَ ﴿وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ﴾ بِالنَّعَمِ ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ النَّقَمِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٦٨﴾ عَنْ فِسْقِهِمْ. ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ عَنْ آبَائِهِمْ ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أَي: حُطَّامَ هَذَا الشَّيْءِ الدَّنِيِّ، أَي: الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ وَحَرَامٍ ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ مَا فَعَلْنَاهُ ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ﴾ الْجُمْلَةَ حَالًا، أَي: يَرْجُونَ الْمَغْفِرَةَ وَهُمْ عَائِدُونَ إِلَى مَا فَعَلُوهُ مُصِرُّونَ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ فِي التَّوْرَةِ وَعْدُ الْمَغْفِرَةِ مَعَ الْإِصْرَارِ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ﴾ اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «فِي» ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا﴾ عَطْفٌ عَلَى «يُؤْخَذُ»، قَرَأُوا ﴿مَا فِيهِ﴾ فَلَمْ كَذَبُوا عَلَيْهِ بِنِسْبَةِ الْمَغْفِرَةِ إِلَيْهِ مَعَ الْإِصْرَارِ؟ ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الْحَرَامَ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ ١٦٩﴾ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، أَنَّهَا خَيْرٌ فَيُؤْتِرُونَهَا عَلَى الدُّنْيَا. ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿بِالْكِتَابِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ١٧٠﴾ الْجُمْلَةُ خَيْرٌ ﴿الَّذِينَ﴾، وَفِيهِ وَضَعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، أَي: أَجْرُهُمْ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ﴾ رَفَعْنَاهُ مِنْ أَصْلِهِ ﴿فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا﴾ أَيْقَنُوا ﴿أَنَّهُ وَاوَقِعُ بِهِمْ﴾ سَاقِطٌ عَلَيْهِمْ بِوَعْدِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ بِوُقُوعِهِ، إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا أَحْكَامَ التَّوْرَةِ، وَكَانُوا أَبْوَهَا لِقَبْلِهَا فَقَبِلُوا، وَقُلْنَا لَهُمْ: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بِجَدٍّ وَاجْتِهَادٍ ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧١﴾ وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِمَّا قَبْلَهُ بِإِعَادَةِ الْجَارِّ ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بِأَنْ أَخْرَجَ بَعْضُهُمْ مِنْ صُلْبِ بَعْضٍ مِنْ صُلْبِ آدَمَ، نَسْلًا بَعْدَ نَسْلِ كَنَحْوِ مَا يَتَوالدُّونَ كَالدَّرِّ بِنِعْمَانِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَنَصَبَ لَهُمْ دَلَائِلَ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ وَرَكَّبَ فِيهِمْ عَقْلًا ١٧٢ ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أَنْتَ رَبُّنَا ﴿شَهِدْنَا﴾ بِذَلِكَ

(١) ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فيما يوجبون على الله من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها قاله ابن عباس. ﴿وَ﴾ الحال أنهم قد ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أَي: الكتاب وعلموه ولم يأتوه بجهالة فكان الترك منهم عن علم لا عن جهل، وذلك أشد ذنبًا وأعظم جرمًا، وقيل معناه: محوه بترك العمل به والفهم له، من قولهم: «درست الريح الآثار» إذا محتها. [صديق حسن (٥/٦٦)].

(٢) عن ابن عباس ؓ، عن النبي ﷺ قال: «أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ بِنِعْمَانٍ - يَعْنِي عَرَفَةَ - فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فَشَرَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ كَالدَّرِّ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قَبْلًا، قَالَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ١٧٢ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣]. أخرجه أحمد (٢٤٥٥)،

وَالْإِشْهَادِ ﴿أَنْ﴾ لَا يَقُولُوا بِالْبَيَاءِ وَالنَّاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، أَيِ: الْكُفَّارُ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ التَّوْحِيدِ ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ لَا نَعْرِفُهُ. ﴿أَوْ يَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ: قَبْلَنَا ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فَاقْتَدَيْنَا بِهِمْ ﴿أَفْتَهَلِكُنَا﴾ تُعَذِّبُنَا ﴿بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ مِنْ آبَائِنَا بِتَأْسِيسِ الشَّرِكِ؟ الْمَعْنَى لَا يُمَكِّنُهُمْ إِلَّا حَتَّاجُ بَذَلِكِ

والنسائي في الكبرى (١١١٩١). ونعمان، بفتح النون: واد لهذيل على ليلتين من عرفات. [قال الشوكاني (٢/٢٩٩): المعنى: أن الله سبحانه أخرج الأرواح قبل خلق الأجساد، وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه، وقيل: المراد ببني آدم هنا آدم نفسه كما وقع في غير هذا الموضع، والمعنى: أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره يمينه فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد، وهؤلاء هم عالم الذر.. [قال ابن كثير (٣/٥٠٠): يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلاهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو. كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ - وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَى هَذِهِ الْمِلَّةِ - فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُولَدُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ». أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). وعن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ، عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّتْ لَهُمْ». أخرجه مسلم (٢٨٦٥). هذه الأحاديث دالة على أن الله، عز وجل، استخرج ذرية آدم من صلبه، وميز بين أهل الجنة وأهل النار، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم، فما هو إلا في حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وفي حديث عبد الله بن عمرو وهما موقوفان لا مرفوعان، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف: إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد، كما في حديث أبي هريرة وعياض بن حمار المجاشعي، ومن رواية الحسن البصري عن الأسود بن سريع. وقد فسر الحسن البصري الآية بذلك، قالوا: ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل: (من آدم)، ﴿مِنْ طُحُورِهِمْ﴾ ولم يقل: (من طهره) ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: جعل نسلهم جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] ثم قال: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ أي: أوجدتهم شاهدين بذلك، قائلين له حالا وقالوا: والشهادة تارة تكون بالقول، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٠] الآية، وتارة تكون حالا كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧] أي: حالهم شاهد عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك، قالوا: ومما يدل على أن المراد بهذا هذا، أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم في الإشراف، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره، ليكون حجة عليه. فإن قيل: إخبار الرسول به كاف في وجوده، فالجواب: أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره. وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد؛ ولهذا قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: لئلا يقولوا ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا﴾ أي: التوحيد ﴿غَافِلِينَ﴾ ﴿٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْتَهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾.

مَعَ إِشْهَادِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوْحِيدِ، وَالتَّذْكِيرِ بِهِ عَلَى لِسَانِ صَاحِبِ الْمُعْجَزَةِ قَائِمٌ مَقَامَ ذِكْرِهِ فِي النَّفْسِ^(١).
 ﴿وَكَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ مَا بَيَّنَّا الْمِيثَاقَ لِيَتَذَكَّرُواهَا ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(١٧٤) عَنْ كُفْرِهِمْ. ﴿وَأَتْلُ﴾
 يَا مُحَمَّدٌ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ ﴿نَبَأٌ﴾ خَبَرَ ﴿الَّذِي أَتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَأَنْسَلَخَ مِنْهَا﴾ خَرَجَ بِكُفْرِهِ كَمَا تَخْرُجُ الْحَيَّةُ
 مِنْ جِلْدِهَا، وَهُوَ «بُلْعُمُ بْنُ بَاعُورَاءَ» - مِنْ عُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ - سُئِلَ أَنْ يَدْعُو عَلَى مُوسَى وَأُهْدِي إِلَيْهِ شَيْءٌ، فَدَعَا
 فَانْقَلَبَ عَلَيْهِ وَانْدَلَعَ لِسَانُهُ عَلَى صَدْرِهِ^(١٧٥) ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ فَأَذْرَكَهُ فَصَارَ قَرِيبَهُ ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا
 لَرَفَعْنَاهُ إِلَى مَنَازِلِ الْعُلَمَاءِ ﴿بِهَا﴾ بِأَنْ نُوَفِّقَهُ لِلْعَمَلِ ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ﴾ سَكَنَ ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ أَيِ: الدُّنْيَا وَمَالَ إِلَيْهَا
 ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فِي دُعَائِهِ إِلَيْهَا فَوَضَعْنَاهُ ﴿فَمَثَلُهُ﴾ صِفَتُهُ ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِمَلَ عَلَيْهِ﴾ بِالطَّرْدِ وَالزَّجْرِ
 ﴿يَلْهَثُ﴾ يَدْلَعُ لِسَانَهُ ﴿أَوْ﴾ إِنْ ﴿تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ﴾ وَلَيْسَ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانِ كَذَلِكَ، وَجُمَلْنَا الشَّرْطِ حَالٌ، أَيِ: لَا هِثًّا
 ذَلِيلًا بِكُلِّ حَالٍ، وَالْقَصْدُ التَّشْبِيهُ فِي الْوَضْعِ وَالْخِسَّةِ، بِقَرِينَةِ الْفَاءِ الْمُشْعِرَةِ بِتَرْتِيبِ مَا بَعْدَهَا عَلَى مَا قَبْلَهَا، مِنَ الْمِيلِ
 إِلَى الدُّنْيَا وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، وَبِقَرِينَةِ قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَثَلُ ﴿مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ﴾ عَلَى
 الْيَهُودِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١٧٦) يَتَذَكَّرُونَ فِيهَا فَيُؤْمِنُونَ. ﴿سَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ أَيِ: مِثْلُ الْقَوْمِ ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾^(١٧٧) بِالتَّكْذِيبِ. ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ
 الْخَاسِرُونَ﴾^(١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا خَلْقَنَا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْحِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ الْحَقُّ ﴿وَلَهُمْ

(١) أو تحتجون أيضا بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ﴾ فحذونا حذوهم، وتبعناهم في باطلهم
 ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله في فطركم، ما يدلکم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم
 ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه. نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين، ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه،
 عن حجج الله وبياناته، وآياته الأفيقية والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على
 الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات. وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره وأشهدهم
 على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقرؤا به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في
 الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك. فإن هذا العهد والميثاق، الذي ذكروا، أنه حين
 أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم الكالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي، فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس عندهم به
 خبر، ولا له عين ولا أثر. [السعدي (ص: ٣٠٨)].

(٢) وقيل: غير هذا، والأولى في مثل هذا إذا ورد عن المفسرين أن تحمل أقاويلهم على التمثيل لا على الحصر في معين، فإنه يؤدي إلى
 الاضطراب والتناقض والخلاف. [أبو حيان (٥/٢٢٢)].

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴿١٧٦﴾ دَلَائِلُ قُدْرَةِ اللَّهِ، بَصَرَ اعْتَبَارٍ ﴿١٧٧﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴿١٧٨﴾ الْآيَاتِ وَالْمَوَاعِظِ، سَمَاعٍ تَدَبُّرٍ وَاتِّعَاطٍ ﴿١٧٩﴾ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ ﴿١٨٠﴾ فِي عَدَمِ الْفَقْهِ وَالْبَصَرِ وَالِاسْتِمَاعِ ﴿١٨١﴾ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴿١٨٢﴾ مِنَ الْأَنْعَامِ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُبُ مَنَافِعَهَا وَتَهْرُبُ مِنْ مَضَارِّهَا، وَهَؤُلَاءِ يَقْدِمُونَ عَلَى النَّارِ مُعَانَدَةً ﴿١٨٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٨٤﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿١٨٥﴾ التَّسْعَةُ وَالتَّسْعُونَ الْوَارِدُ بِهَا الْحَدِيثُ ^(١)، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ الْأَحْسَنِ ﴿فَادْعُوهُ﴾ سَمُّوهُ ﴿بِهَا وَذَرُّوْا﴾ اُتْرُكُوا ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ مِنْ «الْحَدِّ» وَ«لَحَدَ»، يَمِيلُونَ عَنِ الْحَقِّ ﴿فِي أَسْمِيهِ﴾ حَيْثُ اشْتَقُوا مِنْهَا أَسْمَاءٌ لِأَهْلِيَّتِهِمْ؛ كَاللَّاتِ مِنَ اللَّهِ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ، وَمَنَاةٌ مِنَ الْمَنَانِ ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ فِي الْآخِرَةِ جَزَاءً ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨٦﴾ وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١٨٧﴾ هُمْ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثٍ ^(٢). ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٨﴾ وَأُمِّلِي لَهُمْ ﴿أُمِّهِلَهُمْ﴾ «إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» ﴿١٨٩﴾ شَدِيدٌ لَا يُطَاقُ. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فَيَعْلَمُوا ﴿مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مِنْ جَنَّةٍ﴾ جُنُونٍ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٩٠﴾ بَيْنَ الْإِنذَارِ. ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ﴾ مُلْكِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴾ فِي ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ بَيَانٌ لـ «مَا»، فَيَسْتَدِلُّوْا بِهِ عَلَى قُدْرَةِ صَانِعِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، ﴿وَ﴾ فِي ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: أَنَّهُ ﴿عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ﴾ قَرَبَ ﴿أَجْلُهُمْ﴾ فَيَمُوتُوا كُفَّارًا فَيَصِيرُوا إِلَى النَّارِ، فَيُبادِرُوا إِلَى الْإِيمَانِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٩١﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ بِالْبَيِّئِ وَالنُّونِ مَعَ الرَّفْعِ اسْتِنْفَافًا، وَالْجَزْمُ عَطْفًا عَلَى مَحَلٍّ مَا بَعْدَ الْفَاءِ ﴿فِي طُعَيْنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿١٩٢﴾ يَتَرَدَّدُونَ تَحِيرًا. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ الْقِيَامَةِ ﴿آيَاتٍ﴾ مَتَى ﴿مُرْسَلَهَا قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ مَتَى تَكُونُ ﴿عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا﴾ يُظْهِرُهَا ﴿لَوْفَتِهَا﴾ اللَّامُ بِمَعْنَى «فِي» ﴿إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ﴾ عَظُمَتْ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عَلَى أَهْلِهَا لِهَوْلِهَا ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ﴾ مُبَالِغٌ فِي السُّؤَالِ ﴿عَنْهَا﴾ حَتَّى عِلْمَتَهَا ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩٣﴾ أَنَّ عِلْمَهَا عِنْدَهُ تَعَالَى. ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَنْ أَحْصَاهَا كُلَّهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧). وأسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين لقوله ﷺ في الحديث المشهور: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ». أخرجه أحمد (٣٧١٢).

(٢) عن ابن جريج، في قوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، قال: ذكر لنا: أن النبي ﷺ قال: «هَذِهِ أُمَّتِي، بِالْحَقِّ يَحْكُمُونَ وَيَقْضُونَ، وَيَأْخُذُونَ وَيُعْطُونَ». أخرجه ابن جرير (٦٠٠ / ١٠).

أَجْلِبُهُ ﴿وَلَا صَرًّا﴾ أَدْفَعُهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ مَا غَاب عَنِّي ^(١) ﴿لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ مِنْ فَقْرٍ وَغَيْرِهِ، لِاخْتِرَازِي عَنْهُ بِاجْتِنَابِ الْمَضَارِّ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ بِالنَّارِ لِلْكَافِرِينَ ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ * ﴿هُوَ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَيُّ: آدَمَ ﴿وَجَعَلَ﴾ خَلَقَ ﴿مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَاءَ ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ وَيَأْلَفَهَا ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ جَامَعَهَا ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا﴾ هُوَ النُّطْفَةُ ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ ذَهَبَتْ وَجَاءَتْ لِخِفَتِهِ ﴿فَلَمَّا أَنْقَلَتْ﴾ بِكَبْرِ الْوَلَدِ فِي بَطْنِهَا، وَأَشْفَقَا أَنْ يَكُونَ بِهِمَا ﴿دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا وَلَدًا﴾ صَلَاحًا ﴿سَوِيًّا﴾ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ^(٢) ﴿لَكَ عَلَيْهِ﴾ ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا﴾ وَلَدًا ﴿صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكُسْرِ الشَّيْنِ وَالتَّوِينِ، أَيُّ: شَرِيكًا ﴿فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ بِتَسْمِيَّتِهِ عَبْدَ الْحَارِثِ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَبْدًا إِلَّا لِلَّهِ، وَلَيْسَ بِإِشْرَاكِ فِي الْعُبُودِيَّةِ لِعِصْمَةِ آدَمَ ^(٣)، وَرَوَى سَمُرَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «لَمَّا وَلَدَتْ حَوَاءُ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ، فَقَالَ: سَمِيَهُ عَبْدَ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّيْتُهُ فَعَاشَ فَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ». رَوَاهُ الْحَاكِمُ، وَقَالَ: صَحِيحٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ ^(٤) ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ^(٥) أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَالْجُمْلَةُ مُسَبَّيَّةٌ عَطْفٌ عَلَى ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وَمَا بَيْنَهُمَا إِعْتِرَاضٌ. ﴿أَيُّشْرِكُونَ﴾ بِهِ فِي الْعِبَادَةِ ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ^(٦) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ أَيُّ: لِعَابِدِهِمْ ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ^(٧) بِمَنْعِهَا مِمَّنْ أَرَادَ بِهِمْ سُوءًا، مِنْ كُسْرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّوْبِيخِ. ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أَيُّ: الْأَصْنَامَ

(١) وهذه الآية تدل على أنه ﷺ لم يكن يعلم من الغيب إلا ما علمه الله، وقد أمره تعالى أن يقول إنه لا يعلم الغيب في قوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٦٥]، إلى غير ذلك من الآيات. [الشنقيطي (٢/ ٤٠٠)].

(٢) معنى الآية أنه لما أتى آدم وحواء صالحا، كفر به بعد ذلك كثير من ذريتهما، وأسند فعل الذرية إلى آدم وحواء؛ لأنهما أصل لذريتهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، أي بتصويرنا لأبيكم آدم لأنه أصلهم؛ بدليل قوله بعده: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، ويدل لهذا الوجه الأخير أنه تعالى قال بعده: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ^(٥) أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ^(٦) [الأعراف: ١٩٠، ١٩١]، وهذا نص قرآني صريح في أن المراد المشركون من بني آدم، لا آدم وحواء، واختار هذا الوجه غير واحد لدلالة القرآن عليه، وممن ذهب إليه الحسن البصري، واختاره ابن كثير، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٢/ ٤٠١)].

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٧٧)، وأحمد (٢٠١١٧)، والطبري في تفسيره (١٤٦/٩)، والحاكم (٥٤٥/٢). وإسناده ضعيف، عمر بن إبراهيم - وهو العبدي أبو حفص البصري - في روايته عن قتادة ضعف، والحسن مشهور بالتدليس ولم يذكر سماعه من سمرة.

﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ إِلَيْهِ ﴿أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ﴾ ١٩٣ ﴿عَنْ دُعَائِهِمْ، لَا يَتَّبِعُوهُ لِعَدَمِ سَمَاعِهِمْ.﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ﴾ مَمْلُوكَةٌ ﴿أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ دُعَاءُكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٩٤ ﴿فِي أَنَّهَا إِلَهَةٌ. ثُمَّ بَيْنَ غَايَةِ عَجْزِهِمْ، وَفَضْلِ عَابِدِيهِمْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:﴾ ﴿اللَّهُمَّ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿لَهُمْ أَيْدٍ﴾ جَمْعُ يَدٍ ﴿يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ، أَي: لَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ لَكُمْ، فَكَيْفَ تَعْبُدُونَهُمْ وَأَنْتُمْ أَنْتُمْ حَالًا مِنْهُمْ؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ إِلَى هَلَاكِي ﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ ١٩٥ ﴿تَمْهَلُونَ، فَإِنِّي لَا أَبَالِي بِكُمْ.﴾ ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهُ﴾ يَتَوَلَّى أُمُورِي ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ١٩٦ ﴿بِحِفْظِهِ.﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ١٩٧ ﴿فَكَيْفَ أَبَالِي بِهِمْ.﴾ ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ أَي: الْأَصْنَامَ ﴿إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتُلُهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ، أَي: الْأَصْنَامَ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أَي: يُقَابِلُونَكَ كَالنَّاظِرِ ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ ١٩٨ ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ الْيُسْرَ مِنْ أَخْلَاقِ النَّاسِ، وَلَا تَبْحَثْ عَنْهَا ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ الْمَعْرُوفِ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ١٩٩ ﴿فَلَا تَقَابَلُهُمْ بِسَفَهِهِمْ﴾ ٢٠٠. ﴿وَأَمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونٍ ﴿إِنْ﴾ الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الْمَزِيدَةُ ﴿يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ أَي: إِنْ يَصْرِفَكَ عَمَّا أَمَرْتَ بِهِ صَارِفٌ ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَحْذُوفٌ، أَي: يَدْفَعُهُ عَنْكَ ٢٠١ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ٢٠٢ ﴿بِالْفِعْلِ.﴾

(١) هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشر له صدوره. ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أَي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه وعدم مقابلته بجهله، فمن آذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فَصِلْهُ، ومن ظلمك فاعدل فيه. [السعدي (ص: ٣١٣)].

(٢) هذا أمر لرسول الله ﷺ على الالتجاء إلى الله فيما عسر عليه، فإن ذلك شكر على نعمة الرسالة والعصمة، فإن العصمة من الذنوب حاصلة له، ولكنه يشكر الله بإظهار الحاجة إليه لإدامتها عليه، وهذا مثل استغفار الرسول ﷺ في قوله في حديث صحيح مسلم (٢٧٠٢): ﴿إِنَّهُ لَيَعَانُ عَلَى قَلْبِي فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾. فالشيطان لا يئس من إلقاء الوسوسة للأنبياء لأنها تنبعث عنه بطبعه، وإنما

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ﴾ أَصَابَهُمْ ﴿طَيْفٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿طَيْفٌ﴾ أَي: شَيْءٌ أَلَمَ بِهِمْ ﴿مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ تَذَكَّرُوا عِقَابَ اللَّهِ وَثَوَابَهُ ﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢١﴾ الْحَقَّ مِنْ غَيْرِهِ فَيَرْجِعُونَ. ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ أَي: إِخْوَانُ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أَي: الشَّيَاطِينُ ﴿فِي الْغَيِّ ثَمَّ﴾ هُمْ ﴿لَا يَقْصِرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ يَكْفُونَ عَنْهُ بِالتَّبَصُّرِ، كَمَا تَبَصَّرَ الْمُتَّقُونَ. ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿بِآيَةٍ﴾ مِمَّا اقْتَرَحُوا ﴿قَالُوا لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿أَجْتَبَيْتَهَا﴾ أَنْشَأْتَهَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي﴾ وَلَيْسَ لِي أَنْ آتِي مِنْ عِنْدِ نَفْسِي بِشَيْءٍ ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَصَائِرُ﴾ حُجَجٌ ﴿مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا عَنِ الْكَلَامِ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ نَزَلَتْ فِي تَرْكِ الْكَلَامِ فِي الْخُطْبَةِ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْقُرْآنِ لِاشْتِمَالِهَا عَلَيْهِ، وَقِيلَ: فِي قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا^(١). ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ أَي: سِرًّا ﴿تَضَرَّعًا﴾ تَذَلُّلاً ﴿وَخِيفَةً﴾ خَوْفًا مِنْهُ ﴿وَفَوْقَ السَّرِّ﴾ ﴿دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أَي: قَصْدًا بَيْنَهُمَا ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أَوَائِلِ النَّهَارِ، وَأَوَاخِرِهِ ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يَتَكَبَّرُونَ ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ وَيُسَبِّحُونَهُ ﴿يُزْهِوْنَ عَنْهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ﴾ ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ أَي: يَخْضَعُونَ بِالْخُضُوعِ وَالْعِبَادَةِ، فَكُونُوا مِثْلَهُمْ^(٢).

يترصد لهم مواقع خفاء مقصده طمعا في زلة تصدر عن أحدهم، وإن كان قد علم أنه لا يستطيع إغواءهم، ولكنه لا يفارق رجاء حملهم على التقصير في مراتبهم، ولكنه إذا ما هم بالوسوسة شعروا بها فدفعوها. [ابن عاشور (٩/ ٢٣٠)].

(١) هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه. وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرا كثيرا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدي متزايدًا. [السعدي (ص: ٣١٤)].

(٢) وإنما ذكرهم بهذا ليتشبه بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم؛ ولهذا شرع لنا السجود هاهنا لما ذكر سجودهم لله عز وجل، كما جاء في الحديث: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا، يُثْمِنُونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، وَيَتَرَاصُونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (١١٩). وهذه أول سجدة في القرآن، مما يشرع لتأليها ومستمعها السجود بالإجماع. [ابن كثير (٣/ ٥٣٩)].

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

مَدَنِيَّةٌ أَوْ إِلَّا ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ﴾ الْآيَاتِ السَّبْعِ فَمَكِّيَّةٌ، خَمْسٌ أَوْ سِتٌّ أَوْ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا اخْتَلَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي غَنَائِمِ بَدْرٍ، فَقَالَ الشَّبَّانُ: «هِيَ لَنَا لِأَنَّا بَاشَرْنَا الْقِتَالَ»، وَقَالَ الشُّيُوخُ: «كُنَّا رِذَاءَ لَكُمْ تَحْتَ الرِّيَاسَةِ، وَلَوْ اِنْكَشَفْتُمْ لَفَتَّمُ إِلَيْنَا، فَلَا تَسْتَأْثِرُوا بِهَا»، فَتَزَلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ الْغَنَائِمِ لِمَنْ هِيَ؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ يَجْعَلَانَهَا حَيْثُ شَاءَ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُمْ عَلَى السَّوَاءِ. رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ^(١) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أَيُّ: حَقِيقَةَ مَا بَيْنَكُمْ، بِالْمَوَدَّةِ وَتَرْكِ النَّزَاعِ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) حَقًّا. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الْكَامِلُونَ الْإِيمَانِ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: وَعِيدُهُ ﴿وَجِلَتْ﴾ خَافَتْ ﴿قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ تَصَدِّقًا^(٣) ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٤) بِهِ يَتَّقُونَ لَا بَغْيَ لَهُ. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يَأْتُونَ بِهَا، بِحَقِّهَا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾^(٥) فِي طَاعَةِ اللَّهِ. ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ صِدْقًا، بِلَا شَكٍّ^(٦) ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ مَنَازِلُ

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/ ٣٢٦).

(٢) ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان. [السعدي (ص: ٣١٥)]. كقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]. وقد استدلل البخاري وغيره من الأئمة بهذه الآية وأشباهها، على زيادة الإيمان وتفاضله في القلوب، كما هو مذهب جمهور الأمة، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة، كالشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي عبيد. [ابن كثير (٤/ ١٢)].

(٣) يعني يقينا: قال ابن عباس رضي الله عنهما: برئوا من الكفر. قال مقاتل: حقا لا شك في إيمانهم. وفيه دليل على أنه ليس لكل أحد أن يصف نفسه بكونه مؤمنا حقا لأن الله تعالى إنما وصف بذلك قوما مخصوصين على أوصاف مخصوصة، وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه. وقال ابن أبي نجيح: سأل رجل الحسن فقال: أمؤمن أنت؟ فقال: إن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب، فأنا بها مؤمن، وإن كنت تسألني عن قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، فلا أدري أمنهم أنا أم لا. [البغوي (٣/ ٣٢٦)].

فِي الْجَنَّةِ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ فِي الْجَنَّةِ. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ
 «أَخْرَجَ» ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿٦﴾ الْخُرُوجَ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ كَافٍ «أَخْرَجَكَ» وَ «كَمَا» خَبَرٌ
 مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ، أَي: هَذِهِ الْحَالُ فِي كَرَاهَتِهِمْ لَهَا، مِثْلُ إِخْرَاجِكَ فِي حَالِ كَرَاهَتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَكَذَلِكَ أَيْضًا،
 وَذَلِكَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَدِمَ بِعِيرٍ مِنَ الشَّامِ فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ لِيَغْنُمُوهَا، فَعَلِمَتْ قُرَيْشٌ فَخَرَجَ أَبُو جَهْلٍ
 وَمُقَاتِلُو مَكَّةَ لِيَذْبُؤُوا عَنْهَا وَهُمْ النَّفِيرُ، وَأَخَذَ أَبُو سُفْيَانَ بِالْعِيرِ طَرِيقَ السَّاحِلِ فَنَجَتْ، فَقِيلَ لِأَبِي جَهْلٍ ارْجِعْ فَأَبَى،
 وَسَارَ إِلَى بَدْرٍ، فَشَاوَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَصْحَابَهُ، وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ»^(١)، فَوَافَقُوهُ عَلَى قِتَالِ النَّفِيرِ، وَكَرِهَ
 بَعْضُهُمْ ذَلِكَ، وَقَالُوا: لَمْ نَسْتَعِدَّ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الْقِتَالِ ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ ظَهَرَ
 لَهُمْ ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ إِلَيْهِ عَيَانًا، فِي كَرَاهَتِهِمْ لَهُ. ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى
 الطَّائِفَتَيْنِ﴾ الْعِيرَ، أَوِ النَّفِيرَ ﴿أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ﴾ تُرِيدُونَ ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ﴾ أَي: الْبَاسِ وَالسَّلَاحِ، وَهِيَ
 الْعِيرُ ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لِقَلَّةِ عَدَدِهَا وَعُدَدِهَا، بِخِلَافِ النَّفِيرِ ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ يُظْهِرُهُ ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾
 السَّابِقَةِ بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧﴾ آخِرَهُمْ بِالْإِسْتِصْصَالِ، فَأَمَرَكَمُ بِقِتَالِ النَّفِيرِ. ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ
 وَيُبْطِلَ﴾ يَمْحَقَ ﴿الْبَاطِلَ﴾ الْكُفْرَ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٨﴾ الْمُشْرِكُونَ ذَلِكَ. أَذْكَرُ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾
 تَطْلُبُونَ مِنْهُ الْعَوْثَ، بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي﴾ أَي: بِأَنِّي ﴿مُمِدَّكُمْ﴾ مُعِينُكُمْ ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُرْدِفِينَ﴾ ﴿٩﴾ مُتَابِعِينَ يُرْدِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَعَدَهُمْ بِهَا أَوَّلًا، ثُمَّ صَارَتْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ ثُمَّ خَمْسَةَ، كَمَا فِي «آلِ
 عِمْرَانَ»^(٢)، وَقُرِئَ: ﴿بِأَلْفٍ﴾^(٣) كَ «أَفْلَسٍ» جَمْعٌ. ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أَي: الْإِمْدَادَ ﴿إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ
 قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾. أَذْكَرُ ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ الْغُصَاثُ أَمَنَةً﴾ أَمْنًا مِّمَّا
 حَصَلَ لَكُمْ مِنَ الْخَوْفِ ﴿مِنْهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَ كُمْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَحْدَاثِ وَالْجَنَابَاتِ
 ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ وَسُوسَتَهُ إِلَيْكُمْ، بِأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ عَلَى الْحَقِّ مَا كُنْتُمْ ظِمَاءً مُحْدِثِينَ وَالْمُشْرِكُونَ

(١) أخرجه ابن هشام: (٢/ ٦٣ - ٦٤).

(٢) المراد بالكلمات الآيات التي أنزلها في محاربة ذات الشوكة، ووعدهم منه بالظفر بها، وقيل: الكلمات عداته التي سبقت لكم من إظهار الدين وإعزازها، وقيل: أسباب النصر مثل نزول الملائكة وأوامره لهم بالإمداد. [صديق حسن (٥/ ١٣٦)].

(٣) أي: الآيتين (١٢٤ - ١٢٥) من آل عمران.

(٤) قراءة شاذة.

عَلَى الْمَاءِ ﴿وَلِيَرْبِطَ﴾ يَحْسِسَ ﴿عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بِالْيَقِينِ وَالصَّبْرِ ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١١﴾ أَنْ تَسُوخَ فِي الرَّمْلِ .
 ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الَّذِينَ أَمَدَّ بِهِمُ الْمُسْلِمِينَ ﴿أَنِّي﴾ أَيُّ: بَأَنِّي ﴿مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾
 الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْإِعَانَةِ وَالتَّبَشِيرِ ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الْخَوْفَ ﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾
 أَيُّ: الرُّءُوسَ ﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾ أَيُّ: أَطْرَافَ الْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَقْصِدُ ضَرْبَ رَقَبَةِ الْكَافِرِ
 فَتَسْقُطُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفُهُ^(١)، وَرَمَاهُمْ ﷺ بِقَبْضَةٍ مِنَ الْحَصَى فَلَمْ يَبْقَ مُشْرِكٌ إِلَّا دَخَلَ فِي عَيْنَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ^(٢)،
 فَهَزِمُوا. ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ الْوَاقِعُ بِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا﴾ خَالَفُوا ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ﴾
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١٣﴾ لَهُ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ ﴿فَذُوقُوهُ﴾ أَيُّهَا الْكَفَّارُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ فِي الْآخِرَةِ
 ﴿عَذَابَ النَّارِ ۝١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا أَيُّ: مُجْتَمِعِينَ كَانَتْهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ يَزْحَفُونَ
 ﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ۝١٥﴾ مُنْهَزِمِينَ. ﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ: يَوْمَ لِقَائِهِمْ ﴿دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾ مُنْعَطِفًا ﴿لِقِتَالٍ﴾
 بَأَنَّ يَرِيهِمُ الْفَرَّةَ مَكِيدَةً، وَهُوَ يُرِيدُ الْكُرَّةَ ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا﴾ مُنْضَمًّا ﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَسْتَنْجِدُ بِهَا ﴿فَقَدْ﴾
 بَاءَ ﴿رَجَعَ﴾ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَاؤُهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ، وَهَذَا مَخْصُوصٌ بِمَا إِذَا لَمْ يَزِدْ
 الْكَفَّارُ عَلَى الضَّعْفِ^(٣). ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ بِبَدْرِ بِقَوَّتِكُمْ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ بِنَصْرِهِ إِيَّاكُمْ ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ

(١) وقيل: ثبت به الأقدام بالصبر وقوة القلب. [البغوي (٣/ ٣٣٤)].

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشند في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت
 الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك
 أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ». أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٠٤ - ٢٠٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٣١٢٨).

(٤) اختلف العلماء في هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري: هذا في أهل بدر خاصة، ما كان يجوز لهم الانهزام لأن النبي ﷺ كان معهم، ولم
 يكن لهم فئة يتحيزون إليها دون النبي ﷺ، ولو انحازوا لانحازوا إلى المشركين، فأما بعد ذلك فإن المسلمين بعضهم فئة لبعض فيكون
 الفار متحيزا إلى فئة فلا يكون فراره كبيرة، وهو قول الحسن وقتادة والضحاك. قال يزيد بن أبي حبيب أوجب الله النار لمن فر يوم بدر، فلما
 كان يوم أحد بعد ذلك قال: ﴿إِنَّمَا أَسْتَرْزَلُهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ثم كان يوم حنين بعده
 فقال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة: ٢٧]. وقال عبد الله بن عمر: كنا في جيش
 بعثنا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فانهزمنا، فقلنا: يا رسول الله نحن الفرارون، قال: «بَلْ أَنْتُمْ الْكَرَّارُونَ، أَنَا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ». أخرجه
 أبو داود (٢٦٤٧)، والترمذي (١٧١٦)، وأحمد (٥٣٨٤) بلفظ: «الْعَكَارُونَ» بدل «الْكَرَّارُونَ». وقال محمد بن سيرين: لما قتل أبو عبيدة

أَعَيْنَ الْقَوْمَ ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ بِالْحَصْبَاءِ؛ لِأَنَّ كَفًّا مِنَ الْحَصْبَاءِ، لَا يَمْلَأُ عِيُونَ الْجَيْشِ الْكَثِيرِ بِرَمِيَّةٍ بَشَرٍ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بِإِيصَالِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ^(١)، فَعَلَ ذَلِكَ لِيَقْهَرَ الْكَافِرِينَ ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً﴾ عَطَاءً ﴿حَسَنًا﴾ هُوَ الْغَنِيمَةُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لَا قَوْلَ لَهُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾^(٢) بِأَحْوَالِهِمْ. ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْإِبْلَاءُ حَقٌّ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ﴾ مُضْعِفٌ ﴿كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾^(٣) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا أَيُّهَا الْكُفَّارُ، تَطْلُبُوا الْفَتْحَ، أَيِ: الْقَضَاءِ، حَيْثُ قَالَ أَبُو جَهْلٍ مِنْكُمْ: «اللَّهُمَّ إِنَّا كَانُوا أَقْطَعَ لِلرَّحِمِ، وَأَتَانَا بِمَا لَا نَعْرِفُ فَأَحْنَهُ الْغَدَاةَ»، أَيِ: أَهْلِكَهُ ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ الْقَضَاءُ بِهَلَاكِ مَنْ هُوَ كَذَلِكَ، وَهُوَ أَبُو جَهْلٍ وَمَنْ قُتِلَ مَعَهُ، دُونَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ^(٤) ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَالْحَرْبِ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ

جاء الخبر إلى عمر رضي الله عنه فقال: لو انحاز إلي كنت له فئة فأنا فئة كل مسلم. وقال بعضهم: حكم الآية عام في حق كل من ولى منهزما. جاء في الحديث: «مَنْ الْكَبَائِرِ الْفَرَارُ مِنَ الرَّحْفِ». أخرجه الطبراني (١٣٠٢٣). وقال عطاء بن أبي رباح: هذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ خَفَفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٦]، فليس لقوم أن يفروا من مثلهم فنسخت تلك إلا في هذه العدة، وعلى هذا أكثر أهل العلم أن المسلمين إذا كانوا على الشطر من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا أو يولوا ظهورهم إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة، وإن كانوا أقل من ذلك جاز لهم أن يولوا ظهورهم وينحازوا عنهم قال ابن عباس رضي الله عنه: من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن اثنين فقد فر. [البغوي (٣/٣٣٧)].

(١) هذه الآية نزلت في شأن رميه ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء، فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته. ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ، فكان منه ﷺ مبدأ الرمي وهو الحذف، ومن الرب تعالى نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه ونفي عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته. ونظير هذا قوله في الآية نفسها: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ فأخبر أنه وحده هو الذي تفرد بقتلهم، ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصباء إلى أعينهم، ولم يكن ذلك برسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابا ظاهرة لدفع المشركين، وتولى دفعهم وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافا إليه وبه، وهو خير الناصرين. [مدارج السالكين لابن القيم (٤/٤١٠)].

(٢) المراد بالفتح هنا في هذه الآية عند جمهور العلماء: الحكم وذلك أن قريشا لما أرادوا الخروج إلى غزوة بدر تعلقوا بأستار الكعبة، وزعموا أنهم قطان بيت الله الحرام، وأنهم يسقون الحجيج، ونحو ذلك، وأن محمدا ﷺ فرق الجماعة، وقطع الرحم، وسفه الآباء، وعاب الدين، ثم سألوا الله أن يحكم بينهم، وبين النبي ﷺ، بأن يهلك الظالم منهم، وينصر المحق، فحكم الله بذلك وأهلكهم، ونصره، وأنزل الآية، ويدل على أن المراد بالفتح هنا الحكم أنه تعالى أتبعه بما يدل على أن الخطاب لكفار مكة، وهو قوله: ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ﴾، ويبين ذلك إطلاق الفتح بمعنى الحكم في القرآن في قوله عن شعيب وقومه: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، أي: احكم بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الحاكمين، ويدل لذلك قوله تعالى: عن شعيب في نفس القصة ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِءَ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، وهذه لغة حمير؛ لأنهم يسمون القاضي فتاحا والحكومة فتاحة. [الشنقيطي (٢/٤٠٩)].

تَعُودُوا ﴿لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ﴾ نَعُدُّ لِنَصْرِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ﴾ تَدْفَعَ ﴿عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ﴾ جَمَاعَاتُكُمْ ﴿شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ بِكُسْرٍ ﴿إِنَّ﴾ اسْتِثْنَاءً، وَفَتْحُهَا عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا تُعْرِضُوا عَنْهُ﴾ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ الْقُرْآنَ وَالْمَوَاعِظَ. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سَمَاعٌ تَدْبِيرٌ وَاتِّعَاضٌ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، أَوِ الْمُشْرِكُونَ ﴿*﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ ﴿الْبُكْمُ﴾ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ هـ. ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ صَلَاحًا بِسَمَاعِ الْحَقِّ ﴿لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سَمَاعٌ تَفْهَمٌ ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ فَرَضًا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ لَا خَيْرَ فِيهِمْ ﴿لَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ عَنْ قَبُولِهِ، عِنَادًا وَجُحُودًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ الْحَيَاةِ الْآبِدِيَّةِ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُؤْمِنَ أَوْ يَكْفُرَ إِلَّا بِإِزَادَتِهِ ﴿وَأَنَّهُوَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾ إِنْ أَصَابَتْكُمْ ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بَلْ تَعُمَّهُمْ وَغَيْرُهُمْ، وَاتَّقَاؤُهَا بِانْكَارِ مُوجِبِهَا مِنَ الْمُنْكَرِ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مَكَّةَ ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ يَأْخُذْكُمْ الْكُفَّارُ بِسُرْعَةٍ ﴿فَتَاوَنُكُمْ﴾ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿وَأَيَّدَكُمْ﴾ قَوَائِمُ ﴿بِنَصْرِهِ﴾ يَوْمَ بَدْرٍ بِالْمَلَائِكَةِ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الْغَنَائِمِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ نِعْمَةٌ. وَنَزَلَ فِي أَبِي لُبَابَةَ مَرْوَانَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ وَقَدْ بَعَثَهُ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ لِيَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِهِ فَاسْتَشَارُوهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ ٣ لِأَنَّ عِيَالَهُ وَمَالَهُ فِيهِمْ ٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَ﴾ لَا ﴿تَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ﴾ مَا أَتَمَّمْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يدعو بها: يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك. قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء. فقال: «إِنَّ قَلْبَ الْآدَمِيِّ بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَرَاغَهُ وَإِذَا شَاءَ أَقَامَهُ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٧٧٣٧)، وأحمد (٢٤٦٠٤).

(٢) ﴿وَاتَّقُوا﴾ خطاب للمؤمنين مطلقاً صلحتهم وغيرهم ﴿فِتْنَةً﴾ المراد بها العذاب الدنيوي كالقحط والغلاء، وتسلط الظلمة وغير ذلك، أي: اتقوا سبب فتنة. [صديق حسن (١٥٨/٥)].

(٣) أي: بيده، وكانت هذه الإشارة معناها أن محمداً ﷺ سيحكم فيكم بالقتل والذبح.

(٤) لما ذكرهم تعالى بإسباغ نعمه عليهم ليشكروه، وكان من شكره الوقوف عند حدوده، بين لهم ما يحذر منها، وهو الخيانة. ويدخل في خيانة الله تعطيل فرائضه، ومجاوزة حدوده، وفي خيانة رسوله رفض سنته، وإفشاء سره للمشركين. وفي خيانة أمانتهم الغلول في المغانم،

الدِّينِ وَغَيْرِهِ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢٧ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ لَكُمْ صَادَةٌ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ٢٨ ﴿فَلَا تَفُوتُوهُ بِمُرَاعَاةِ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْخِيَانَةِ لِأَجْلِهِمْ. وَنَزَلَ فِي تَوْبَتِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ بِالْأَمَانَةِ وَغَيْرِهَا ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ مَا تَخَافُونَ فَتَنْجُونَ ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذُنُوبَكُمْ ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ٢٩ ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَقَدْ اجْتَمَعُوا لِلْمُشَاوَرَةِ فِي شَأْنِكَ بِدَارِ النَّدْوَةِ ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ يُوثِقُوكَ وَيَحْسِبُوكَ ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كُلُّهُمْ قَتَلَهُ رَجُلٌ وَاحِدٌ ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ مِنْ مَكَّةَ ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بِكَ ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بِهِمْ، بِتَدْيِيرِ أَمْرِكَ؛ بِأَنْ أَوْحَى إِلَيْكَ مَا دَبَّرُوهُ وَأَمَرَكَ بِالْخُرُوجِ ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ ٣٠ ﴿أَعْلَمُهُمْ بِهِ﴾ ٣١ ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ قَالَهُ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْتِي الْحِيرَةَ يَتَجَرُّ فَيَشْتَرِي كُتُبَ أَخْبَارِ الْأَعَاجِمِ، وَيُحَدِّثُ بِهَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا أَسْطِيرٌ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ٣٢ ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَقْرُؤُهُ مُحَمَّدٌ﴾ هُوَ الْحَقُّ ﴿الْمُنَزَّلَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣٣ ﴿مُؤْلِمٍ عَلَىٰ إِنكَارِهِ، قَالَهُ النَّضْرُ وَغَيْرُهُ، اسْتَهْزَأَ وَإِيهَا مَا أَنَّهُ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، وَجَزَمَ بِطُلَانِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ بِمَا سَأَلُوهُ ﴿وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِذَا نَزَلَ عَمَّ، وَلَمْ تُعَذِّبْ أُمَّةً إِلَّا بَعْدَ خُرُوجِ نَبِيِّهَا وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْهَا ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ٣٤ ﴿حَيْثُ يَقُولُونَ فِي طَوَافِهِمْ: «غُفْرَانَكَ غُفْرَانَكَ»، وَقِيلَ: هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الْمُسْتَضَعْفُونَ فِيهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] ٣٥. ﴿وَمَا لَهُمْ إِلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ بِالسَّيْفِ بَعْدَ خُرُوجِكَ وَالْمُسْتَضَعْفِينَ، وَعَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ: هِيَ نَاسِخَةٌ لِمَا قَبْلَهَا، وَقَدْ عَذَّبَهُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يَمْنَعُونَ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُسْلِمِينَ ﴿عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَنْ يَطُوفُوا بِهِ ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ ٣٦ ﴿كَمَا زَعَمُوا﴾ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٧ ﴿أَنْ لَا وَلايَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ.﴾ ٣٨ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾ صَفِيرًا ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تَصْفِيْقًا، أَيُّ: جَعَلُوا ذَلِكَ مَوْضِعَ صَلَاتِهِمْ الَّتِي

أي: السرقة منها، وخيانة كل ما يؤتمن عليه الناس من مال أو أهل أو سر، وكل ما تعبدوا به. وقد روي في نزول الآية شيء مما ذكرنا. ولفظ الآية مطلق يتناولها وغيره. [القاسمي (٢٧٩/٥)]. فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء. والخيانة تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية. [ابن كثير (٤/٤١)].

(١) انظر التعليق على آية (٥٤) من آل عمران.

(٢) قال الطيبي: وهذا الوجه أبلغ، لدلالته على أن استغفار الغير مما يدفع به العذاب عن أمثال هؤلاء الكفرة. [القاسمي (٢٨٥/٥)].

أَمْرُوا بِهَا ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ بِدَرٍ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٣٥ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي حَرْبِ النَّبِيِّ ﷺ لِيُضِدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ﴾ نَدَامَةٌ، لِفَوَاتِهَا وَفَوَاتِ مَا قَصَدُوهُ ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ إِلَى جَهَنَّمَ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ يُسَاقُونَ. ﴿لِيَمِيزَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿تَكُونُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَي: يَفْصَلُ ﴿اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ الْكَافِرَ ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ الْمُؤْمِنِ ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ يَجْمَعُهُ مُتْرَاكِمًا، بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ٣٧ ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كَأَيِّ سُفْيَانٍ وَأَصْحَابِهِ: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عَنِ الْكُفْرِ وَقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إِلَى قِتَالِهِ ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ٣٨ ﴿أَي: سُنَّتَنَا فِيهِمْ بِالْإِهْلَاكِ، فَكَذَا نَفْعَلُ بِهِمْ.﴾ وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ ﴿تُوجَدَ﴾ فِتْنَةٌ ﴿شِرْكُ﴾ وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا يُعْبَدُ غَيْرُهُ ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ عَنِ الْكُفْرِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ٣٩ ﴿فَيَجَازِيهِمْ بِهِ.﴾ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هُوَ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ٤٠ ﴿أَي: النَّاصِرُ لَكُمْ.﴾ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾ أَخَذْتُمْ مِنَ الْكُفَرِ قَهْرًا ﴿مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ يَأْمُرُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ قَرَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ، الَّذِينَ هَلَكَ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ فَقَرَاءُ ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ ذَوِي الْحَاجَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَي: يَسْتَحِقُّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ، عَلَى مَا كَانَ يَفْسِمُهُ، مِنْ أَنْ لِكُلِّ خُمُسُ الْخُمُسِ، وَالْأَخْمَاسُ الْأَرْبَعَةُ الْبَاقِيَةُ لِلْعَانِمِينَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ فَاعْلَمُوا ذَلِكَ ﴿وَمَا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿بِاللَّهِ﴾ ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْآيَاتِ ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أَي: يَوْمَ بَدْرٍ، الْفَارِقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿يَوْمَ أَتَقَى الْجُمُعَانِ﴾ الْمُسْلِمُونَ وَالْكَفَّارُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٤١ ﴿وَمِنْهُ نَصْرُكُمْ مَعَ قَلَّتْكُمْ وَكَثُرَتْهُمْ.﴾ ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنْ يَوْمٍ ﴿أَنْتُمْ﴾ كَانْتُمْ ﴿بِالْعُدُوَّةِ الدُّنْيَا﴾ الْقُرْبَى مِنَ الْمَدِينَةِ، وَهِيَ بِضَمِّ الْعَيْنِ وَكَسْرِهَا: جَانِبُ الْوَادِي ﴿وَهُمْ بِالْعُدُوَّةِ الْقُصُوصِ﴾ الْبُعْدَى مِنْهَا ﴿وَالرَّكْبُ﴾ الْغَيْرُ كَانْتُمْ بِمَكَانٍ ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مِمَّا يَلِي الْبَحْرَ ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أَنْتُمْ وَالنَّفِيرُ لِلْقِتَالِ ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ﴾ جَمَعَكُمْ بِغَيْرِ مِيعَادٍ ﴿لَيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فِي عِلْمِهِ وَهُوَ نَصْرُ الْإِسْلَامِ، وَمَحَقُ الْكُفْرِ، فَعَلَ ذَلِكَ: ﴿لِيَهْلِكَ﴾ يَكْفُرُ ﴿مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أَي: بَعْدَ حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ قَامَتْ عَلَيْهِ، وَهِيَ: نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ قَلَّتِهِمْ عَلَى الْجَيْشِ الْكَثِيرِ ﴿وَيُحْيِي﴾ يُؤْمِنُ ﴿مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ٤٢. أَذْكَرُ ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ﴾ أَي: نَوْمِكَ ﴿قَلِيلًا﴾ فَأَخْبَرْتَ بِهِ أَصْحَابَكَ فَسَرُّوا ﴿وَلَوْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلْتُمْ﴾ جَبْتُمْ

﴿وَلَتَنْزِعُنَّكُمْ﴾ اخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أَمْرِ الْقِتَالِ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ كُمْ مِنَ الْفَشْلِ وَالتَّنَازُعِ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿١٢﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿إِذْ أَلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ نَحْوَ سَبْعِينَ أَوْ مِائَةً وَهُمْ أَلْفٌ؛ لِتُقَدِّمُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَيَقْلِلْكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ لِيُقَدِّمُوا وَلَا يَرْجِعُوا عَنْ قِتَالِكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْتِحَامِ الْحَرْبِ، فَلَمَّا الْتَحَمَ أَرَاهُمْ إِيَّاهُمْ مِثْلِيهِمْ، كَمَا فِي «آلِ عِمْرَانَ»^(١) ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ﴾ تَصِيرُ ﴿الْأُمُورُ﴾ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴿جَمَاعَةً كَافِرَةً﴾ ﴿فَانْبُتُّوا﴾ لِقِتَالِهِمْ وَلَا تَنْهَزمُوا ﴿وَإِذْ كُرُوا﴾ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿أَدْعُوهُ بِالْأَنْصَرِ﴾ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤﴾ تَفُوزُونَ. ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا﴾ تَخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ تَجَبُّوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قُوَّتُكُمْ وَدَوْلَتُكُمْ ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ بِالْأَنْصَرِ وَالْعَوْنِ. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ لِيَمْنَعُوا عِيْرَهُمْ، وَلَمْ يَرْجِعُوا بَعْدَ نَجَاتِهَا ﴿بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ حَيْثُ قَالُوا: «لَا تَرْجِعْ حَتَّى نَشْرَبَ الْخَمْرَ، وَنَنْحَرَ الْجُزُورَ، وَتَضْرِبَ عَلَيْنَا الْقِيَانُ بِدَرٍ، فَيَسْمَاعَ بِذَلِكَ النَّاسُ»^(٢) ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بِالْإِيَاءِ وَالتَّأْيِ ﴿مُحِيطٌ﴾ ﴿١٦﴾ عِلْمًا، فَيَجَازِيهِمْ بِهِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ إِبْلِيسُ ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ بِأَن شَجَّعَهُمْ عَلَى لِقَاءِ الْمُسْلِمِينَ، لَمَّا خَافُوا الْخُرُوجَ مِنْ أَعْدَائِهِمْ بَنِي بَكْرٍ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ﴾ مِنْ كِنَانَةٍ، وَكَانَ أَنَاهُمْ فِي صُورَةِ سُرَاقَةٍ بَنٍ مَالِكٍ سَيِّدِ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتْ﴾ اِلْتَقَتْ ﴿الْفِئَتَانِ﴾ الْمُسْلِمَةُ وَالْكَافِرَةُ، وَرَأَى الْمَلَائِكَةُ وَكَانَ يَدُهُ فِي يَدِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ﴿نَكْصٌ﴾ رَجَعَ ﴿عَلَى عَقْبِيهِ﴾ هَارِبًا ﴿وَقَالَ﴾ لَمَّا قَالُوا لَهُ: أَتَخَذُلُنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ مِنْ جَوَارِكُمْ ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أَنْ يُهْلِكَنِي ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿١٧﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴿ضَعْفُ إِعْتِقَادٍ﴾ ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ أَيِ: الْمُسْلِمِينَ ﴿دِينُهُمْ﴾ إِذْ خَرَجُوا مَعَ قَلَّتِهِمْ، يُقَاتِلُونَ الْجَمْعَ الْكَثِيرَ، تَوَهُّمًا أَنَّهُمْ يُنْصَرُونَ بِسَبَبِهِ، قَالَ تَعَالَى فِي جَوَابِهِمْ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ يَتَّقِ بِهِ يَغْلِبْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِذْ يَتَوَفَّى﴾ بِالْإِيَاءِ وَالتَّأْيِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْمَلَائِكَةُ يُضْرَبُونَ ﴿حَالٌ﴾ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبَارُهُمْ بِمَقَامِعٍ مِنْ

(١) أي: الآية (١٣) من آل عمران.

(٢) انظر: الدر المنثور (٧/ ١٤٣ - ١٤٤).

(٣) القراءة بالتاء ليست من القراءات العشر.

حَدِيدٍ ﴿٥٠﴾ وَيَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥١﴾﴾ أَي: النَّارَ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا ﴿ذَلِكَ﴾
التَّعْذِيبُ ﴿بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ﴾ عَبَّرَ بِهَا دُونَ غَيْرِهَا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَزَاوُلَ بِهَا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ﴾ أَي:
بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِلْعَبِيدِ ﴿٥٢﴾﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. دَابُّ هَؤُلَاءِ ﴿كَذَابٍ﴾ كَعَادَةِ ﴿عَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِالْعِقَابِ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ جُمْلَةً ﴿كَفَرُوا﴾ وَمَا بَعْدَهَا مُفَسَّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ
قَوِيٌّ﴾ عَلَى مَا يُرِيدُهُ ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٣﴾﴾ ذَلِكَ ﴿أَي: تَعْذِيبُ الْكَفَرَةِ ﴿بِأَنَّ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنْ ﴿اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا
نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ مُبْدَلًا لَهَا بِالنِّقْمَةِ ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ يُبَدِّلُوا نِعْمَتَهُمْ كُفْرًا، كَتَبْدِيلِ كُفَّارٍ مَكَّةَ
إِطْعَامَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ وَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ، بِالْكَفْرِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَقَتَالَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ كَذَابٍ عَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا عَالِ
فِرْعَوْنَ ﴿قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿وَكُلُّ﴾ مِنْ الْأُمَمِ الْمُكَذِّبَةِ ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾. وَنَزَلَ فِي قُرَيْظَةَ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ أَنْ لَا يُعِينُوا الْمُشْرِكِينَ ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ
مَرَّةٍ﴾ عَاهَدُوا فِيهَا ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ اللَّهُ فِي عَذْرِهِمْ^(١). ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْعَاؤُ نُونٍ ﴿إِنْ﴾ الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الْمَزِيدَةُ
﴿تَتَقَفَّتْهُمْ﴾ تَجِدْنَهُمْ ﴿فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ﴾ فَرَّقَ ﴿بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ مِنَ الْمُحَارِبِينَ، بِالتَّنْكِيلِ بِهِمْ وَالْعُقُوبَةِ
﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَي: الَّذِينَ خَلَفَهُمْ ﴿يَذْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يَتَعَطَّوْنَ بِهِمْ. ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ عَاهَدُوكَ ﴿خِيَانَةً﴾ فِي الْعَهْدِ
بِأَمَارَةٍ تُلَوِّحُ لَكَ ﴿فَانْبِذْ﴾ إِطْرَحْ عَهْدَهُمْ ﴿إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ حَالٍ، أَي: مُسْتَوِيًّا أَنْتَ وَهُمْ فِي الْعِلْمِ بِنَقْضِ الْعَهْدِ
بِأَنَّ تَعْلَمَهُمْ بِهِ؛ لِئَلَّا يَتَّهِمُوكَ بِالْغَدْرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٩﴾﴾. وَنَزَلَ فِيمَنْ أَفَلَتَ يَوْمَ بَدْرٍ: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾
يَا مُحَمَّدُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ اللَّهُ، أَي: فَاتَوْهُ ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٦٠﴾﴾ لَا يَفُوتُونَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَايَةِ،
فَالْمَفْعُولُ الْأَوَّلُ مَحْذُوفٌ، أَي: أَنْفُسَهُمْ، وَفِي أُخْرَى بَفَتْحٍ «أَنَّ» عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ﴾ لِقَاتِلِهِمْ ﴿مَا
أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ﴾ قَالَ ﷺ: «هِيَ الرَّمْيُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ^(٢) ﴿وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى حَبْسِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
﴿تُرْهَبُونَ﴾ تُخَوِّفُونَ ﴿بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿وَعَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ﴾ أَي: غَيْرَهُمْ وَهُمْ

(١) أي: شر ما يدب على وجه الأرض في حكم الله وقضائه المصرون على الكفر المتمادون في الضلال، وجعلهم شر الدواب لا شر
الناس إيماء إلى انسلخهم عن الإنسانية ودخولهم في جنس غير الناس من أنواع الحيوان لعدم تعقلهم لما فيه رشادهم، ومع ذلك هم شر
من جميع أفرادها حسبما نطق به قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤]. [صديق حسن (١٩٧/٥)].

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٧) بلفظ: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ».

الْمُنَافِقُونَ أَوْ الْيَهُودُ ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿وَأَنْتُمْ لَا تظْلُمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ تُنْقَضُونَ مِنْهُ شَيْئًا. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ مَالُوا ﴿لِلسَّلَامِ﴾ بِكَسْرِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا، الصُّلْحِ ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ وَعَاهِدْهُمْ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «هَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ»، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَخْصُوصٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ إِذْ نَزَلَتْ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»^(١) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِقَ بِهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِقَوْلِ ﴿الْعَلِيمِ﴾ ﴿٦١﴾ بِالْفِعْلِ. ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بِالصُّلْحِ لِيَسْتَعِدُّوا لَكَ ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ كَافِيكَ ﴿اللَّهُ هُوَ الَّذِي آيَدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ وَالْفَّ جَمَعَ ﴿بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ بَعْدَ الْإِحْنِ ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٣﴾ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ حِكْمَتِهِ. ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَحَسْبُكَ﴾ ﴿مَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصٌ ﴿حُتَّ﴾ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴿لِلْكَفَّارِ﴾ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ مِنْهُمْ ﴿وَإِنْ يَكُنْ﴾ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ﴾ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ ﴿أَيُّ: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ﴾ ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَهَذَا خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيُّ: لِيُقَاتِلَ الْعَشْرُونَ مِنْكُمْ الْمِائَتِينَ، وَالْمِائَةُ الْأَلْفُ، وَيَثْبُتُوا لَهُمْ، ثُمَّ نَسَخَ لَمَّا كَثُرُوا^(٢)، بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

(١) وهذا فيه نظر؛ لأن السياق كله في وقعة بدر، وذكرها مكتنف لهذا كله... وقول ابن عباس رضي الله عنه فيه نظر أيضا؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك، فأما إذا كان العدو كثيفا، فإنه تجوز مهادنتهم، كما دلت عليه هذه الآية الكريمة، وكما فعل النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص، والله أعلم. [ابن كثير (٤/ ٨٤)].

(٢) قال في «اللباب»: فظاهر هذا أن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ ناسخ لما تقدم في الآية الأولى، وكان هذا الأمر يوم بدر، فرض الله سبحانه وتعالى على الرجل الواحد من المسلمين قتال عشرة من الكافرين، فثقل ذلك على المؤمنين، فنزلت: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ يعني في قتال الواحد للعشرة، فإن تكن منكم مائة صابرة محتسبة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. فرد العشرة إلى الاثنين، فإذا كان المسلمون على قدر النصف من عدوهم لا يجوز لهم أن يفروا، فأبى رجل فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر. انتهى. قال في «العناية»: وذهب مكي إلى أنها مخففة لا ناسخة، كتخفيف الفطر للمسافر. وثمرة الخلاف أنه لو قاتل واحد عشرة، فقتل، هل يأثم أو لا؟ فعلى الأول يأثم، وعلى الثاني لا يأثم... وبالجمله، فالآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص، والثانية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هؤلاء الجماعة، فلم يثبت ذلك الحكم، وعلى هذا فلا نسخ، ولا يقال إن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ مشعر بأن هذا التكليف كان متوجها عليهم قبله، لأن لفظ التخفيف لا يستلزم الدلالة على حصول التثقل قبله، لأن عادة العرب الرخصة بمثل هذا الكلام، كقوله تعالى في ترخيصه للحر في نكاح الأمة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وليس هناك نسخ، وإنما هو إطلاق نكاح الأمة لمن لا يستطيع نكاح الحرائر، فكذا هاهنا. ومما يدل على عدم النسخ

ضَعْفًا ﴿بِضَمِّ الضَّادِ وَفَتْحِهَا، عَنْ قِتَالِ عَشْرَةِ أَمْثَالِكُمْ﴾ ﴿فَإِنْ يَكُنْ﴾ بِالْيَاءِ وَالْتَاءِ ﴿مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ^(١)، وَهُوَ خَبَرٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيُّ: لِنُقَاتِلُوا مِثْلِيكُمْ وَتَتَبْنَا لَهُمْ ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ بِعَوْنِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا أَخَذُوا الْفِدَاءَ مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ^(٢): ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ﴾ بِالْتَاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَهُوَ أَسْرَى حَتَّى يُخْجَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ يُبَالِغُ فِي قَتْلِ الْكُفَّارِ ﴿تُرِيدُونَ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ حُطَامَهَا بِأَخْذِ الْفِدَاءِ ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾ لَكُمْ ﴿الْآخِرَةَ﴾ أَيُّ: ثَوَابَهَا بِقَتْلِهِمْ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ وَهَذَا مَنَسُوحٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِمَّا مَنَّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ [محمد: ٤]. ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ بِإِحْلَالِ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْرَى لَكُمْ ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنْ الْفِدَاءِ﴾ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَتَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الْأَسْرَى﴾ ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إِيمَانًا وَإِخْلَاصًا ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ مِنَ الْفِدَاءِ، بَانَ يُضَعِّفُهُ لَكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيُشِيكُمُ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ﴾ ذُنُوبَكُمْ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا﴾ أَيُّ: الْأَسْرَى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بِمَا أَظْهَرُوا

ذكر هذه الآية مقارنة للأولى وجعل الناسخ مقارنا للمنسوخ، لا يجوز إلا بدليل قاهر. [القاسمي (٣٢٣/٥)].

(١) أي: بمعاونته وتأنيده، إذ لا نصر بدون عون من الله تعالى وإذن. [أبو بكر الجزائري (٣٢٧/٢)].

(٢) أخرج مسلم في «أفراده» من حديث عمر بن الخطاب، قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة. أرى أن تأخذ منهم فدية. فتكون لنا قوة على الكفار. فعسى الله أن يهديهم للإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قلت: لا. والله ما أرى الذي رأى أبو بكر. ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم. فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه. وتمكني من فلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه. فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها. فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر. ولم يهو ما قلت. فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبيكان. قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك. فإن وجدت بكاء بكيت. وإن لم أجد بكاء تبكيت لبكائكما. فقال رسول الله ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، وَلَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَذَابُكُمْ أَذْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» - شجرة قريبة من نبي الله ﷺ - وأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُخْجَنَ فِي الْأَرْضِ﴾. أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(٣) وقد استقر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء: أن الإمام مخير فيهم: إن شاء قتل كما فعل بيني قريظة، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر، أو بمن أسر من المسلمين كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر... وفي المسألة خلاف آخر بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه. [ابن كثير (٩١/٤)].

مِنَ الْقَوْلِ ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ قَبْلَ بَدْرِ بِالْكَفْرِ ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بِبَدْرِ قَتْلًا وَأَسْرًا، فَلْيَتَوَقَّعُوا مِثْلَ ذَلِكَ إِنْ عَادُوا ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ٧١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْمُهَاجِرُونَ ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوْا﴾ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَنَصَرُوا﴾ وَهُمْ الْأَنْصَارُ ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ فِي النُّصْرَةِ وَالْإِرْثِ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلِيَّتِهِمُ بِكِسْرِ الْوَاوِ وَفَتْحِهَا﴾ مِّنْ شَيْءٍ ﴿فَلَا إِرْثَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَلَا نَصِيبَ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ﴾ حَتَّى يُهَاجِرُوا ﴿وَهَذَا مَنَسُوحٌ بِآخِرِ السُّورَةِ ٧٢﴾ وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ لَهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ﴾ عَهْدٌ، فَلَا تَنْصُرُوهُمْ عَلَيْهِمْ، وَتَتَّقُوا عَهْدَهُمْ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٧٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي النُّصْرَةِ وَالْإِرْثِ، فَلَا إِرْثَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أَي: تَوَلَّى الْمُسْلِمِينَ وَقَمَعَ الْكُفَّارَ ﴿تَكُنْ فِتْنَةً فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ٧٤﴾ بِقُوَّةِ الْكُفْرِ، وَضَعْفِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٧٥﴾ فِي الْجَنَّةِ ٣. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ﴾ أَي: بَعْدَ السَّابِقِينَ إِلَى الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ ذَوُو الْقَرَابَاتِ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ فِي الْإِرْثِ مِنَ التَّوَارِثِ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ، الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ٣ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧٥﴾ وَمِنْهُ حِكْمَةُ الْمِيرَاثِ.

- (١) قال كثير من المفسرين هذه الولاية هي في الموالاة والمؤازرة والمعاونة دون الميراث. [ابن عاشور (١٠ / ٨٥)]. وذلك أن تلك الآية، لما كانت محتملة للولاية بسبب الميراث، بين الله تعالى في هذه الآية أن ولاية الإرث إنما تحصل بسبب القرابة، إلا ما خصه الدليل، فيكون المقصود من الآية إزالة هذا الوهم. قال الرازي: وهذا أولى، لأن تكثير النسخ من غير ضرورة وحاجة، لا يجوز. [القاسمي (٥ / ٣٣٧)].
- (٢) أي: الكاملون في الإيمان، وليس في هذا تكرير لما قبله فإنه وارد في الثناء على هؤلاء، والأول وارد في إيجاب الموالاة والنصرة. [الشوكاني (٢ / ٣٧٦)]. ونصب حقاً على المصدر المؤكد أو تقديره إيماناً حقاً، قاله في جامع البيان. وقال أبو السعود: كلام مسوق للثناء عليهم والشهادة لهم بفوزهم بالقدح المعلى من الإيمان مع الوعد الكريم. والحاصل أنهم هم الكاملون في الإيمان لأنهم حققوه بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن، والانسلاخ من المال والدنيا لأجل الدين والعقبى. [صديق حسن (٥ / ٢٢١)].
- (٣) أي: في حكمه وشرعه. [السعدي (ص: ٣٢٧)].

سُورَةُ التَّوْبَةِ

مَدَنِيَّةٌ إِلَّا الْآيَتَيْنِ آخِرَهَا، مِائَةٌ وَثَلَاثُونَ أَوْ إِلَّا آيَةٌ

وَلَمْ تُكْتَبْ فِيهَا الْبَسْمَلَةُ؛ لِأَنَّهُ ﷺ لَمْ يَأْمُرْ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ حَدِيثِ رَوَاهُ الْحَاكِمُ^(١)، وَأُخْرِجَ فِي مَعْنَاهُ عَنْ عَلِيٍّ: «أَنَّ الْبَسْمَلَةَ أَمَانٌ، وَهِيَ نَزَلَتْ لِرَفْعِ الْأَمْنِ بِالسَّيْفِ»، وَعَنْ حُذَيْفَةَ: «إِنَّكُمْ تَسْمُونَهَا سُورَةَ التَّوْبَةِ وَهِيَ سُورَةُ الْعَذَابِ»، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ، عَنِ الْبَرَاءِ: «أَنَّهَا آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ»^(٢).

هَذِهِ ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَاصِلَةٌ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ عَهْدًا مُطْلَقًا، أَوْ دُونَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ أَوْ فَوْقَهَا. وَنَقَضُوا الْعَهْدَ بِمَا يُذَكَّرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسِيحُوا﴾ سِيرُوا آمِنِينَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أَوَّلُهَا شَوَّالٌ؛ بِدَلِيلِ مَا سَيَأْتِي، وَلَا أَمَانَ لَكُمْ بَعْدَهَا ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أَيُّ: فَاتَّبِعِي عَذَابَهُ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ مُذَلِّلُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ، وَالْآخِرَى بِالنَّارِ. ﴿وَأَذِّنْ﴾ إِعْلَامٌ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ يَوْمَ النَّحْرِ ﴿أَنَّ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿اللَّهُ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَعُهُودِهِمْ ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بَرِيءٌ أَيُّضًا، وَقَدْ بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلِيًّا مِنَ السَّنَةِ، وَهِيَ: سَنَةُ تِسْعٍ، فَأَذَّنَ يَوْمَ النَّحْرِ بِمَعْنَى بِهَذِهِ الْآيَاتِ، وَأَنَّ لَا يَحُجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ. رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٣) ﴿فَإِنْ تُبْتِغُوا مِنَ الْكُفْرِ﴾ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴿وَأِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ﴾ أَخْبَرَ^(٤) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ مُؤْلِمٍ، وَهُوَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي الدُّنْيَا، وَالنَّارُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ مِنْ شُرُوطِ الْعَهْدِ ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا﴾ يُعَاوَنُوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ مِنَ الْكُفَرِ ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى﴾ انْقِضَاءِ ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ الَّتِي عَاهَدْتُمْ عَلَيْهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤﴾ بِاتِّمَامِ الْعُهُودِ. ﴿فَإِذَا أُنْسِلَخَ﴾ خَرَجَ ﴿الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ﴾ وَهِيَ آخِرُ مُدَّةِ التَّأْجِيلِ ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ فِي حِلٍّ، أَوْ حَرَمٍ ﴿وَاخْذُوهُمْ﴾ بِالْأَسْرِ ﴿وَأَحْصُرُوهُمْ﴾ فِي الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ، حَتَّى يُضْطَرُّوا إِلَى الْقَتْلِ أَوْ الْإِسْلَامِ ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ طَرِيقٍ يَسْلُكُونَهُ، وَنَضَبٌ ﴿كُلِّ﴾ عَلَى

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٣٠)، وأخرج الحاكم أثر علي (٢/ ٣٣٤)، وحذيفة (٣/ ٣٣١) ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٥٤)، ومسلم (١٦١٤).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٩)، ومسلم (١٣٤٧).

(٤) عبر عن الإخبار بالبشارة تهكمًا بهم وفيه من التهديد ما لا يخفى. [صديق حسن (٥/ ٢٣٤)].

نَزَعَ الْخَافِضِ ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ مِنَ الْكُفْرِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ وَلَا تَعَرَّضُوا لَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿لِمَنْ تَابَ﴾. ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَرْفُوعٌ بِفَعْلٍ يُفْسِرُهُ﴾ ﴿اسْتَجَارَكَ﴾ اسْتَأْمَنَكَ مِنَ الْقَتْلِ ﴿فَاجِرُهُ﴾ أَمْنُهُ ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ أَيُّ: مَوْضِعَ أَمْنِهِ وَهُوَ دَارُ قَوْمِهِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنْ، لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾ دِينَ اللَّهِ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ لِيَعْلَمُوا^(١).
﴿كَيْفَ﴾ أَيُّ: لَا ﴿يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ وَهُمْ كَافِرُونَ بِهِمَا، غَادِرُونَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ يَوْمَ الْحُدَيْيَةِ، وَهُمْ «قُرَيْشٌ» الْمُسْتَشْنُونَ مِنْ قَبْلِ ﴿فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ﴾ أَقَامُوا عَلَى الْعَهْدِ وَلَمْ يَنْقُضُوهُ ﴿فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ عَلَى الْوَفَاءِ بِهِ، وَ «مَا» شَرْطِيَّةٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٧﴾ وَقَدْ اسْتَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَهْدِهِمْ، حَتَّى نَقَضُوا بِإِعَانَةِ بَنِي بَكْرٍ عَلَى خُرَاعَةٍ. ﴿كَيْفَ﴾ يَكُونُ لَهُمْ عَهْدٌ ﴿وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ يَظْفَرُوا بِكُمْ ﴿لَا يَرْقُبُوا﴾ يُرَاعُوا ﴿فِيكُمْ إِلَّا﴾ قَرَابَةً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ عَهْدًا، بَلْ يُؤْذَوُكُمْ مَا اسْتَطَاعُوا، وَجُمْلَةُ الشَّرْطِ حَالٌ ﴿يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بِكَلَامِهِمُ الْحَسَنِ ﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الْوَفَاءُ بِهِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ ﴿٨﴾ نَاقِضُونَ لِلْعَهْدِ. ﴿أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا، أَيُّ: تَرَكُوا اتِّبَاعَهَا لِلشَّهَوَاتِ، وَالْهَوَى ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دِينِهِ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ﴾ بِسْ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩﴾ لَهُ عَمَلُهُمْ هَذَا. ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ ﴿فِي الدِّينِ﴾ وَنُفُصْلٌ نُبِّنُ ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١١﴾ ﴿وَإِنْ نَكَثُوا﴾ نَقَضُوا ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ مَوَائِقَهُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ عَابَوْهُ ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ رُؤَسَاءَهُ، فِيهِ وَضِعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ﴾ عُهْدَ ﴿لَهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بِالْكَسْرِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ ﴿١٢﴾ عَنِ الْكُفْرِ. ﴿أَلَا﴾ لِلتَّخْضِيسِ ﴿تُقْتَلُونَ قَوْمًا

(١) أي: وإن استجارك أحد من المشركين الذين أمرت بقتالهم، أي: استأمنك بعد انقضاء أشهر العهد، فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله، أي: القرآن الذي تقرأه عليه، ويتدبره، ويطلع على حقيقة الأمر، وتقوم عليه حجة الله به، فإن أسلم ثبت له ما للمسلمين، وإن أبى فإنه يرد إلى مأمنه وداره التي يأمن فيها، ثم قاتله إن شئت... ودلت الآية على أن المستأمن لا يؤذى، وأنه يمكن من العود من غير غدر به ولا خيانة، ولذا ورد في الترهيب من عدم الوفاء بالعهد والغدر ما يزر أشد الزجر. عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَمَّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فَأَنَا بَرِيءٌ مِنَ الْقَاتِلِ، وَإِنْ كَانَ الْمُقْتُولُ كَافِرًا». أخرجه البزار (٢٣٠٨)، والطبراني في المعجم الأوسط (٤٢٥٢). [القاسمي (٣٥٥/٥)]. ولما كان القرآن أعظم المعجزات، علق السماع به، وذكر السماع؛ لأنه الطريق إلى الفهم. وقد يراد بالسماع الفهم، تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: أنت لم تسمع، تريد لم تفهم. [أبو حيان (٣٧٥/٣)].

نَكَثُوا ﴿نَقَضُوا﴾ أَيْمَانَهُمْ ﴿وَهُمْ أَوْفَوْا بِعَهْدِهِمْ﴾ وَمَهُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴿مِنْ مَكَّةَ﴾ لَمَّا تَشَاوَرُوا فِيهِ بِدَارِ النَّدْوَةِ ﴿وَهُمْ
 بَدَّوْكُمْ﴾ بِالْقِتَالِ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ حَيْثُ قَاتَلُوا خِزَاعَةَ حُلَفَاءِكُمْ مَعَ بَنِي بَكْرِ، فَمَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾
 أَتَخَافُونَهُمْ؟ ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فِي تَرْكِ قِتَالِهِمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣ قَتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ ﴿يَقْتُلُهُمْ
 بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهُمْ بِالْأَسْرِ وَالْقَهْرِ ﴿وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٤ ﴿بِمَا فَعَلَ بِهِمْ،
 هُمْ بَنُو خِزَاعَةٍ﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴿كَرَبَهَا﴾ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴿بِالرُّجُوعِ إِلَى الْإِسْلَامِ، كَأَبِي سَفْيَانَ
 ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥ أَمْ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَعْلَمْ اللَّهُ﴾ عِلْمَ ظُهُورِ ﴿الَّذِينَ
 جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ بِإِخْلَاصٍ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ بَطَانَةً وَأَوْلِيَاءَ، الْمَعْنَى:
 وَلَمْ يَظْهَرْ الْمُخْلِصُونَ - وَهُمْ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ - مِنْ غَيْرِهِمْ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٦ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ بِالْأَفْرَادِ وَالْجَمْعِ، بِدُخُولِهِ وَالْقُعُودِ فِيهِ ١٧ ﴿شَهِيدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ
 حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ لِغَدَمِ شَرْطِهَا ١٨ ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ١٩ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ أَحَدًا ﴿إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهَدِّينَ
 ٢٠﴾ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿أَيُّ أَهْلِ ذَلِكَ﴾ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴿فِي الْفَضْلِ﴾ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٢١ ﴿الْكَافِرِينَ، نَزَلَتْ رَدًّا عَلَى مَنْ
 قَالَ ذَلِكَ، وَهُوَ الْعَبَّاسُ أَوْ غَيْرُهُ﴾. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ

(١) هذا ابتداء غرض من أغراض معاملة المشركين، وهو منع المشركين من دخول المسجد الحرام في العام القابل، وهو مرتبط بما تضمنته
 البراءة في قوله: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] ولما اتصل بتلك الآية من بيان النبي ﷺ الذي
 أرسل به مع أبي بكر الصديق: «أَنْ لَا يَحْجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفَ بِالْبَيْتِ غُرْيَانٌ». أخرجه البخاري (٤٦٥٥)، ومسلم (١٣٤٧). وهو
 توطئة لقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨] ... والمراد المسجد
 الحرام وما يتبعه من المسعى، وعرفة، والمشعر الحرام، والجمرات، والمنحر من منى ... وشهادتهم على أنفسهم بالكفر حاصلة في كثير
 من أقوالهم وأعمالهم، بحيث لا يستطيعون إنكار ذلك، مثل قولهم في التلبية: «لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك»،
 ومثل سجودهم للأصنام، وطوافهم بها، ووضعهم إياها في جوف الكعبة وحولها وعلى سطحها. [ابن عاشور (١٣٩/١٠)].

(٢) أي: بطلت وذهبت أجورها، لأنها لم تكن لله بل كانت للشيطان. [الطبري (٣٧٥/١١)].

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال العباس حين أسر يوم بدر: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام،

دَرَجَةً ﴿رُبَّنَّاهُ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ﴿مِنْ غَيْرِهِمْ﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ ﴿الظَّآفِرُونَ بِالْخَيْرِ﴾. ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ دَائِمٌ.﴾ ﴿خَالِدِينَ﴾ حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ ﴿فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾. وَنَزَلَ فِيمَنْ تَرَكَ الْهَجْرَةَ لِأَجْلِ أَهْلِهِ وَتِجَارَتِهِ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنَّ أَسْتَحَبُّوا﴾ اخْتَارُوا ﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أَفْرِبَاؤُكُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَشِيرَتُكُمْ﴾، ﴿وَأَمْوَالٌ أَقْتَرْتُمُوهَا﴾ اِكْتَسَبْتُمُوهَا ﴿وَتِجْرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ عَدَمَ نَفَاقَهَا ﴿وَمَسَكِنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فَقَعَدْتُمْ لِأَجْلِهِ عَنِ الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ اِنْتَظِرُوا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ لِلْحَرْبِ ﴿كَثِيرَةً﴾ كَبَدِرٍ، وَقَرِيطَةٍ، وَالنَّصِيرِ ﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وَادِيبِينَ مَكَّةَ وَالطَّائِفَ، أَي: يَوْمَ قِتَالِكُمْ فِيهِ هَوَازِنَ، وَذَلِكَ فِي شَوَالِ سَنَةِ ثَمَانٍ ﴿إِذْ﴾ بَدَلُ مِنْ ﴿يَوْمٍ﴾، ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ فَقُلْتُمْ: لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا، وَالْكَفَّارُ أَرْبَعَةُ أَلْفٍ ﴿فَلَمْ نُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ «مَا» مَصْدَرِيَّةٌ، أَي: مَعَ رُحْبِهَا، أَي: سَعَتِهَا، فَلَمْ تَجِدُوا مَكَانًا تَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ لِشِدَّةِ مَا لَحِقَكُمْ مِنَ الْخَوْفِ ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ مُنْهَرِمِينَ، وَثَبَّتَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ، وَلَيْسَ مَعَهُ غَيْرُ الْعَبَّاسِ، وَأَبُو سُفْيَانَ أَخَذَ بِرِكَابِهِ ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طَمَئِنَّتَهُ ﴿عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَرَدُّوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا نَادَاهُمُ الْعَبَّاسُ بِإِذْنِهِ، وَقَاتَلُوا ﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مَلَائِكَةً ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ بِالْإِسْلَامِ﴾ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴿قَدَّرَ لِحُبِّهِ بَاطِنُهُمْ﴾ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ أَي: لَا يَدْخُلُوا الْحَرَمَ ﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ عَامِ تِسْعٍ مِنَ الْهَجْرَةِ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ فَقَرَأَا، بِانْقِطَاعِ تِجَارَتِهِمْ عَنْكُمْ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ وَقَدْ أَغْنَاهُمْ بِالْفَتْوحِ، وَالْجَزْيَةِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وَإِلَّا لَآمَنُوا بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ كَالْخَمْرِ ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الثَّابِتِ النَّاسِخِ لغيرِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ، وَهُوَ: دِينُ الْإِسْلَامِ ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بَيَّانُ لِـ ﴿الَّذِينَ﴾

ونسقي الحاج، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأخبر أن عمارتهم المسجد الحرام وقيامهم على السقاية لا ينفعهم مع الشرك بالله، والإيمان بالله، والجهاد مع النبي ﷺ خير مما هم عليه. [انظر: تفسير الطبري: (١٤/ ١٧٠)، أسباب النزول للواحدي (ص: ٢٧٩)].

﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أَي: الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ الْخَرَجَ الْمَضْرُوبَ عَلَيْهِمْ كُلِّ عَامٍ ﴿عَنْ يَدٍ﴾ حَالٍ، أَي: مُقَادِينَ، أَوْ بِأَيْدِيهِمْ لَا يُوَكِّلُونَ بِهَا ﴿وَهُمْ صَغُرُونَ﴾ ٣١ ﴿أَذِلَّةٌ مُنْقَادُونَ لِحُكْمِ الْإِسْلَامِ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ عِيسَى ﴿ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لَا مُسْتَنَدَ لَهُمْ عَلَيْهِ، بَلْ ﴿يُضِلُّهُونَ﴾ يُشَابِهُونَ بِهِ ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ مِنْ آبَائِهِمْ تَقْلِيدًا لَهُمْ ﴿قَتَلْتَهُمْ﴾ لَعَنَهُمُ ﴿اللَّهُ أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ ٣٢ ﴿يُضْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ﴾. ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ عُلَمَاءَ الْيَهُودِ ﴿وَرُهْبَنَهُمْ﴾ عِبَادَ النَّصَارَى ﴿أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حَيْثُ اتَّبَعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ ﴿وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا﴾ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا﴾ أَي: بِأَنْ يَعْبُدُوا ﴿إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٣٣ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ﴿شَرَعَهُ وَبَرَاهِينَهُ﴾ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴿بِقَوْلِهِمْ فِيهِ﴾ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ يُظْهِرَ ﴿نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ٣٤ ذَلِكَ. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ يُعْلِيهِ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ٣٥ ذَلِكَ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ﴾ يَأْخُذُونَ ﴿أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ﴾ كَالرُّشَا فِي الْحُكْمِ ﴿وَيُضْطَرُّونَ﴾ النَّاسُ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿وَالَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُمْسِكُونَهَا﴾ أَي: الْكُنُوزَ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: لَا يُؤَدُّونَ مِنْهَا حَقَّهُ مِنَ الزَّكَاةِ، وَالْخَبْرُ ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أَخْبِرْهُمْ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ٣٦ ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى﴾ تُحْرَقُ ﴿بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ وَتُوسَّعُ جُلُودُهُمْ حَتَّى تُوَضَعَ عَلَيْهَا كُلُّهَا، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا مَا كُنْتُمْ لَا أَنْفُسَكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ٣٧ أَي: جَزَاءَهُ. ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ الْمَعْتَدَّةَ بِهَا لِلْسَّنَةِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ الْلَوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا﴾ أَي: الشُّهُورِ ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ مُحَرَّمَةٌ: ﴿ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبٌ﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: تَحْرِيمُهَا ﴿الَّذِينَ الْقِيَمُ﴾ الْمُسْتَقِيمُ ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ﴾ أَي: الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ بِالْمَعَاصِي فَإِنَّهَا فِيهَا أَعْظَمُ وَزَرًا، وَقِيلَ فِي الْأَشْهُرِ كُلِّهَا ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ أَي: جَمِيعًا فِي كُلِّ الشُّهُورِ ٣٨ ﴿كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً﴾

(١) اختلف العلماء في تحريم القتال في الأشهر الحرم. فقال قوم: كان كبيراً ثم نسخ بقوله: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ كأنه يقول فيهن وفي غيرهن. وهو قول قتادة، وعطاء الخراساني، والزهرري، وسفيان الثوري، وقالوا: إن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين، وثقيفا بالطائف، وحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة. وقال آخرون: إنه غير منسوخ: قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح: ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم، ولا في الأشهر الحرم، إلا أن يُقاتلوا فيها وما نسخت. [البغوي (٤/٤٥)]. لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْبَ اللَّهِ وَلَا

وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ﴾ أَي: التَّأْخِيرُ لِحُرْمَةِ شَهْرٍ إِلَى آخَرٍ، كَمَا كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَفْعَلُهُ، مِنْ تَأْخِيرِ حُرْمَةِ الْمُحَرَّمِ إِذَا هَلَ وَهُمْ فِي الْقِتَالِ إِلَى صَفَرٍ ﴿زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ لِكُفْرِهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهِ ﴿يُضِلُّ﴾ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِهَا ﴿بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ﴾ أَي: النَّسِيءُ ﴿عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا﴾ يُوَافِقُوا بِتَحْلِيلِ شَهْرٍ وَتَحْرِيمِ آخَرٍ بِدَلَّةٍ ﴿عِدَّةٍ﴾ عَدَدَ ﴿مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْأَشْهُرِ فَلَا يَزِيدُوا عَلَى تَحْرِيمِ أَرْبَعَةٍ وَلَا يَنْقُصُونَ، وَلَا يَنْظُرُوا إِلَى أَعْيَانِهَا ﴿فِيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ فَظَنُّوهُ حَسَنًا ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾. وَنَزَلَ لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانُوا فِي عُسْرَةٍ وَشِدَّةٍ وَحَرٍّ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَافَلْتُمْ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الْمُثَلَّثَةِ وَاجْتِلَابِ هَمْزَةِ الْوَصْلِ، أَي: تَبَاطَأْتُمْ، وَمِلْتَمْتُمْ عَنِ الْجِهَادِ ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ وَالْقُعُودِ فِيهَا؟ وَالْإِسْتِفْهَامَ لِلتَّوْبِخِ ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وَلَذَاتِهَا ﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَي: بَدَلَ نَعِيمِهَا ﴿فَمَا مَتَعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي﴾ جَنْبِ مَتَاعِ ﴿الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ حَقِيرٌ. ﴿إِلَّا﴾ بِإِدْغَامِ «لَا» فِي نُونِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿تَنْفِرُوا﴾ تَخْرُجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ لِلْجِهَادِ ﴿يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ مُؤَلَّمًا ﴿وَيَسْتَبْدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَي: يَأْتِ بِهِمْ بِدَلَّكُمْ ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ﴾ أَي: اللَّهُ، أَوْ النَّبِيُّ ﷺ ﴿شَيْئًا﴾ بَتَرَكِ نَصْرِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُ دِينِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ وَمِنْهُ نَصْرُ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ. ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾ أَي: النَّبِيُّ ﷺ ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ مَكَّةَ، أَي: الْجَاوُهُ إِلَى الْخُرُوجِ، لَمَّا أَرَادُوا قَتْلَهُ أَوْ حَبْسَهُ أَوْ نَفْيَهُ بِدَارِ النَّدْوَةِ ﴿ثَانِي أَتْنَيْنِ﴾ حَالٌ، أَي: أَحَدَ اثْنَيْنِ وَالْآخَرُ أَبُو بَكْرٍ، الْمَعْنَى: نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالَةِ، فَلَا يَخْذُلُهُ فِي غَيْرِهَا ﴿إِذْ﴾ بَدَلَ مِنْ ﴿إِذْ﴾ قَبْلَهُ ﴿هُمَا فِي الْغَارِ﴾ نَقَبٍ فِي جَبَلٍ ثَوْرٍ ﴿إِذْ﴾ بَدَلَ ثَانٍ ﴿يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ أَبِي بَكْرٍ، وَقَدْ قَالَ لَهُ لَمَّا رَأَى أَقْدَامَ الْمُشْرِكِينَ: «لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ

الشَّهْرَ الْحَرَامَ» [المائدة: ٢]... وأما قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التهيج والتحريض، أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم فاجتمعوا أنتم أيضا لهم إذا حاربتموهم، وقتلوهم بنظير ما يفعلون، ويحتمل أنه أذن للمؤمنين بقتال المشركين في الشهر الحرام إذا كانت البداية منهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُقَتِّلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَتِّلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، وهكذا الجواب عن حصار رسول الله ﷺ أهل الطائف، واستصحابه الحصار إلى أن دخل الشهر الحرام، فإنه من تنمة قتال هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنهم هم الذين ابتدأوا القتال، ... وكان ابتداءه في شهر حلال، ودخل الشهر الحرام، فاستمر فيه أياما، ثم قتل عنهم لأنه يغتفر في الدوام ما لا يغتفر في الابتداء، وهذا هو أمر مقرر، وله نظائر كثيرة. [ابن كثير (١٤٩/٤)].

لَأَبْصِرَنَّا ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بِنَصْرِهِ ^(١) ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ طُمَأْنِينَتَهُ ﴿عَلَيْهِ﴾ قِيلَ: عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: عَلَى أَبِي بَكْرٍ ^(٢) ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ أَي: النَّبِيِّ ﷺ ﴿بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ مَلَائِكَةٍ فِي الْغَارِ، وَمَوَاطِنِ قِتَالِهِ ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَي: دَعْوَةَ الشِّرْكِ ﴿السُّفْلَى﴾ الْمَغْلُوبَةَ ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ﴾ أَي: كَلِمَةُ الشَّهَادَةِ ﴿هِيَ الْعُلْيَا﴾ الظَّاهِرَةُ الْغَالِبَةُ ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ^(٣) فِي صُنْعِهِ. ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ نِشَاطًا وَغَيْرَ نِشَاطٍ، وَقِيلَ: أَقْوِيَاءَ وَضُعَفَاءَ، أَوْ أَغْنِيَاءَ وَفُقَرَاءَ، وَهِيَ مَنسُوخَةٌ بِآيَةٍ: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ [التوبة: ٩١] ﴿وَجَهْدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) أَنَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ فَلَا تَتَأَقَّلُوا ^(٥). وَنَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا: ﴿لَوْ كَانَ﴾ مَا دَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ ﴿عَرَضًا﴾ مَتَاعًا مِنَ الدُّنْيَا ﴿قَرِيبًا﴾ سَهْلَ الْمَأْخَذِ ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ وَسَطًا ﴿لَاتَّبَعُوكَ﴾ طَلَبًا لِلْغَنِيمَةِ ﴿وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ الْمَسَافَةُ، فَتَخَلَّفُوا ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴿لَوْ أَسْتَطَعْنَا﴾ الْخُرُوجَ ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ^(٦) فِي قَوْلِهِمْ ذَلِكَ. وَكَانَ ﷺ أَذِنَ لِجَمَاعَةٍ فِي التَّخَلُّفِ بِاجْتِهَادٍ مِنْهُ ^(٧)، فَتَزَلَّ عِتَابًا لَهُ، وَقُدِّمَ الْعَفْوُ تَطْمِينًا لِقَلْبِهِ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ فِي التَّخَلُّفِ؟ وَهَلَّا تَرَكْتَهُمْ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي الْعُدْرِ ﴿وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ ^(٨) فِيهِ. ﴿لَا يَسْتَنْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فِي التَّخَلُّفِ، عَنْ ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ ^(٩) إِنَّمَا يَسْتَنْذِنُكَ ﴿فِي التَّخَلُّفِ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) عن أنس أن أبا بكر حدثه قال: قلت للنبي ﷺ، ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. قال: فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». أخرجه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١).

(٢) ويؤيد كون الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ للنبي ﷺ الضمير في ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ فإنه للنبي ﷺ... وقيل: إنه لا محذور في رجوع الضمير من ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى أبي بكر، ومن ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ إلى النبي ﷺ فإن ذلك كثير في القرآن وفي كلام العرب. [الشوكاني (٢/٤١٤)]. قالوا: لأن الرسول لم تزل معه سكينته. [ابن كثير (٤/١٥٥)].

(٣) قال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع المؤمنين فعبر عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾ الآية [التوبة: ١٢٢]، روي ذلك عن الحسن وعكرمة. وقال جل الناس: بل هذا حض، والأمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان. [ابن عطية (٣/٣٧)].

(٤) وقيل: إن هذا عتاب له ﷺ في إذنه للمنافقين بالخروج معه لا في إذنه لهم بالعودة عن الخروج... وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَنْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستبaths حتى يتبين الصادق من الكاذب، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الاستبaths. [الشوكاني (٢/٤١٧)].

وَأَرْتَابَتْ ﴿شَكَّتْ﴾ فُلُوبُهُمْ ﴿فِي الدِّينِ﴾ ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ يَتَحَيَّرُونَ. ﴿* وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾ مَعَكَ ﴿لَا عُدُو لَهُ عُدَّةٌ﴾ أَهْبَةً مِنَ الْآلَةِ وَالزَّادِ ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ﴾ أَيُّ: لَمْ يُرِدْ خُرُوجَهُمْ ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ كَسَلَهُمْ ﴿وَقِيلَ﴾ لَهُمْ: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ الْمَرْضَى وَالنِّسَاءَ وَالصَّبِيَّانَ، أَيُّ: قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ. ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فَسَادًا، بِتَخْذِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا وَضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أَيُّ: أَسْرَعُوا بَيْنَكُمْ بِالْمَشْيِ بِالنَّمِيمَةِ ﴿يَبْغُونَكُمْ﴾ يَطْلُبُونَ لَكُمْ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ بِالْإِقْدَاءِ الْعِدَاوَةِ ﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ مَا يَقُولُونَ سَمَاعَ قَبُولِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ لَقَدْ ابْتَغُوا لَكَ ﴿الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَوَّلَ مَا قَدِمْتَ الْمَدِينَةَ ﴿وَقَلِّبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أَيُّ: أَجَالُوا الْفِكَرَ فِي كَيْدِكَ، وَإِبْطَالِ دِينِكَ ﴿حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ﴾ النَّصْرُ ﴿وَوَظَّهَرَ﴾ عَزَّ ﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾ دِينُهُ ﴿وَهُمْ كَاِرُهُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَهُ، فَدَخَلُوا فِيهِ ظَاهِرًا. ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَتَذْنُ لِي﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ وَهُوَ الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ، قَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ؟»، فَقَالَ: إِنِّي مُغْرَمٌ بِالنِّسَاءِ، وَأَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ لَا أَصْبِرَ عَنْهُنَّ فَافْتِنَّ^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ بِالتَّخَلُّفِ، وَقُرِئَ: ﴿سَقَطَ﴾^(٢)، ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ لَا مَحِيصَ لَهُمْ عَنْهَا. ﴿إِنْ نُصِيبَكَ حَسَنَةً﴾ كَنْصَرٍ وَغَنِيمَةٍ ﴿تَسُوْهُمْ وَإِنْ نُصِيبَكَ مُصِيبَةً﴾ شِدَّةٌ ﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا بِالْحَزْمِ، حِينَ تَخَلَّفْنَا﴾ مِنْ قَبْلُ ﴿قَبْلَ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ﴾ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٦٠﴾ بِمَا أَصَابَكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ إِصَابَتُهُ ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ نَاصِرُنَا، وَمُتَوَلِّي أُمُورِنَا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٦١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ ﴿فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِيْنِ مِنَ الْأَصْلِ، أَيُّ: تَنْتَظِرُونَ أَنْ يَفْعَ﴾ بِنَا إِلَّا إِحْدَى ﴿الْعَاقِبَتَيْنِ﴾ ﴿الْحُسْنَيْنِ﴾ تَنْثِيَةً حُسْنَى، تَأْنِيْثُ أَحْسَنَ: النَّصْرِ أَوْ الشَّهَادَةِ ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ﴾ نَنْتَظِرُ ﴿بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ بِقَارِعَةٍ مِنَ السَّمَاءِ ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بِأَنْ يَأْذَنَ لَنَا بِقِتَالِكُمْ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بِنَا ذَلِكَ ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ عَاقِبَتُكُمْ. ﴿قُلْ أَنْفِقُوا﴾ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ﴾ مَا أَنْفَقْتُمُوهُ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَلْسِقِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ وَالْأَمْرُ هُنَا بِمَعْنَى الْخَبَرِ. ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ﴾ بِالتَّائِ وَالْيَاءِ ﴿مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ﴾ فَاعِلٌ، وَ﴿أَنْ تُقْبَلَ﴾ مَفْعُولٌ، ﴿كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ﴾ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴿مُشَاقِلُونَ﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاِرُهُونَ ﴿٦٤﴾ الْفَقَّةُ؛ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَهَا مَغْرَمًا. ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ﴾

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١٦٧٨٨)، وابن أبي حاتم في التفسير (١٠٣٩٩).

(٢) قراءة شاذة.

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) أَي: لَا تَسْتَحْسِنَ نِعْمَنَا عَلَيْهِمْ، فَهِيَ اسْتِدْرَاجٌ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ أَي: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ﴿بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بِمَا يَلْقَوْنَ فِي جَمْعِهَا مِنَ الْمَشَقَّةِ وَفِيهَا مِنَ الْمَصَائِبِ ﴿وَتَزْهَقَ﴾ تَخْرُجَ ﴿أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ الْعَذَابِ. ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ أَي: مُؤْمِنُونَ ﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ يَخَافُونَ أَنْ تَفْعَلُوا بِهِمْ كَالْمُشْرِكِينَ، فَيَحْلِفُونَ تَقِيَّةً. ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا﴾ يَلْجَأُونَ إِلَيْهِ ﴿أَوْ مَغْرَتٍ﴾ سَرَادِيبَ ﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾ مَوْضِعًا يَدْخُلُونَهُ ﴿لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ يُسْرِعُونَ فِي دُخُولِهِ وَالْإِنْصِرَافِ عَنْكُمْ، إِسْرَاعًا لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ، كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ. ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَلْمِزُكَ﴾ يَعِيكَ ﴿فِي﴾ قَسَمِ ﴿الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضًا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ﴿مِنَ الْغَنَائِمِ وَنَحْوِهَا﴾ وَقَالُوا حَسْبُنَا ﴿كَافِنَا﴾ اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴿مِنْ غَنِيمَةٍ أُخْرَى مَا يَكْفِينَا﴾ ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ أَنْ يُغْنِيَنَا، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾ الزَّكَاةُ مَصْرُوفَةٌ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَقَعُ مَوْقِعًا مِنْ كِفَايَتِهِمْ ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ ﴿وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أَي: الصَّدَقَاتِ، مِنْ جَابٍ وَقَاسِمٍ وَكَاتِبٍ وَحَاشِرٍ ﴿وَالْمَوْلَافَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ لِيُسْلِمُوا أَوْ يُثَبَّتَ إِسْلَامُهُمْ أَوْ يَسْلَمَ نُظَرَاؤُهُمْ أَوْ يَذُبُّوا عَنِ الْمُسْلِمِينَ - أَفْسَامٌ - الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ لَا يُعْطِيَانِ الْيَوْمَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ لِعِزِّ الْإِسْلَامِ، بِخِلَافِ الْآخَرِينَ فَيُعْطِيَانِ عَلَى الْأَصَحِّ ﴿وَفِي﴾ فَكٌ ﴿الرَّقَابِ﴾ أَي: الْمَكَاتِينِ ﴿وَالْعَرَمِينَ﴾ أَهْلُ الدِّينِ إِنْ اسْتَدَانُوا لِغَيْرِ مَعْصِيَةٍ، أَوْ تَابُوا وَلَيْسَ لَهُمْ وَفَاءٌ، أَوْ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَلَوْ أَغْنِيَاءُ ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: الْقَائِمِينَ بِالْجِهَادِ مِمَّنْ لَا فِيَّ لَهُمْ وَلَوْ أَغْنِيَاءُ ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ ﴿فَرِيضَةً﴾ نَصَبَ بِفَعْلِهِ الْمَقْدَرِ ﴿مَنْ اللَّهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٠﴾ فِي صُنْعِهِ، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُهَا لِغَيْرِ هَؤُلَاءِ، وَلَا مَنَعُ صِنْفٍ مِنْهُمْ إِذَا وَجَدَ، فَيَقْسِمُهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِمْ عَلَى السَّوَاءِ، وَلَهُ تَفْصِيلُ بَعْضِ أَحَادِ الصَّنْفِ عَلَى بَعْضٍ، وَأَفَادَتِ اللَّامُ وَجُوبَ اسْتِغْرَاقِ أَفْرَادِهِ، لَكِنْ لَا يَجِبُ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ إِذَا قَسَمَ لِعُسْرِهِ بَلْ يَكْفِي إِعْطَاءُ ثَلَاثَةٍ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ وَلَا يَكْفِي دُونَهَا، كَمَا أَفَادَتْهُ صِيغَةُ الْجَمْعِ^(١)،

(١) قد اختلف العلماء هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة، فذهب إلى الأولى حذيفة والشافعي وجماعة من أهل العلم، وذهب إلى الثاني مالك وأبو حنيفة وبه قال عمر وحذيفة وابن عباس وأبو العالية وسعيد بن جبير وميمون بن مهران. قال ابن جرير: وهو قول عامة أهل العلم، احتج الأولون بما في الآية من القصر وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته فأتى رجل فقال: أعطني من الصدقة، فقال له: إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو، فجزأها ثمانية أصناف فإن كنت من تلك الأجزاء

وَبَيَّنَتِ السُّنَّةُ أَنَّ شَرْطَ الْمُعْطَى مِنْهَا الْإِسْلَامُ، وَأَلَّا يَكُونَ هَاشِمِيًّا وَلَا مُطَّلِبِيًّا. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَي: الْمُنَافِقِينَ ﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بِعِيهِ وَبِنَقْلِ حَدِيثِهِ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ إِذَا نَهَوْا عَنْ ذَلِكَ لِئَلَّا يَبْلُغَهُ ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾ أَي: يَسْمَعُ كُلَّ قِيلٍ وَيَقْبَلُهُ، فَإِذَا حَلَفْنَا لَهُ أَنَّا لَمْ نَقُلْ صَدَقْنَا ﴿قُلْ﴾ هُوَ ﴿أَذُنٌ﴾ مُسْتَمِعٌ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لَا مُسْتَمِعَ شَرٌّ ﴿يُؤْمِنُ﴾ يُصَدِّقُ ﴿بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِيمَا أَخْبَرُوهُ بِهِ لَا لِعَيْرِهِمْ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ لِلْفَرْقِ بَيْنَ إِيْمَانِ التَّسْلِيمِ وَغَيْرِهِ ﴿وَرَحْمَةً﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿أَذُنٌ﴾، وَالْجَرَّ عَطْفًا عَلَى ﴿خَيْرٍ﴾، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ﴿أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ، فِيمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُمْ مِنْ أَدَى الرَّسُولِ، أَنَّهُمْ مَا اتَّوهُ﴾ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ ﴿بِالطَّاعَةِ﴾ ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ٦٢﴾ حَقًّا، وَتَوْحِيدُ الضَّمِيرِ لِتَلَازِمِ الرِّضَاءَيْنِ، وَخَبَرُ ﴿اللَّهُ﴾ أَوْ ﴿رَسُولُهُ﴾ مَحْذُوفٌ. ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ بِـ ﴿أَنَّهُ﴾ أَي: الشَّانَ ﴿مَنْ يُحَادِدُ﴾ يُشَاقِقُ ﴿اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جَزَاءً ﴿خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ٦٣﴾ يَحْذَرُ ﴿الْمُنْفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ النِّفَاقِ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا﴾ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ﴾ مُظْهِرٌ ﴿مَا تَحْذَرُونَ ٦٤﴾ إِخْرَاجُهُ مِنْ نِفَاقِكُمْ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿سَأَلْتُهُمْ﴾ عَنْ اسْتِهْزَائِهِمْ بِكَ وَالْقُرْآنِ، وَهُمْ سَائِرُونَ مَعَكَ إِلَى تَبُوكَ ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مُعْتَذِرِينَ ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ فِي الْحَدِيثِ لِنَقْطَعَ بِهِ الطَّرِيقَ، وَلَمْ نَقْصِدْ ذَلِكَ ٦٥ ﴿قُلْ لَهُمْ﴾ ﴿أَبِاللَّهِ وَعَآيَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا مِنْهُ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

أعطيتك. أخرجه الدارقطني كتاب الزكاة (١٣٧/٢). وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف لا لوجوب استيعاب الأصناف، ويان في إسناده الحديث: عبد الرحمن ابن زياد ابن أنعم الإفريقي وهو ضعيف. ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة، وصح عنه ﷺ أنه قال: «فَاعْلَمُوهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَرُدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ». أخرجه مسلم (١٩). وقد ادعى مالك الإجماع على القول الآخر. قال ابن عبد البر: يريد إجماع الصحابة فإنه لا يعلم له مخالفًا منهم وقدم الفقهاء لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدة فاقتهم وحاجتهم. [صديق حسن (٣٢٧/٥)].

(١) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرأتنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب. ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَعَآيَتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ. أخرجه الطبري في تفسير (٣٣٣/١٤).

إِيْمَانِكُمْ﴾ أَي: ظَهَرَ كُفْرُكُمْ بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِيْمَانِ ^(١) ﴿إِنْ يُعَفِّ﴾ بِالْيَاءِ مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ، وَالنُّونَ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ ﴿عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ بِإِخْلَاصِهَا وَتَوْبَتِهَا كَمَخْشِي بْنِ حُمَيْرٍ ﴿تُعَذِّبُ﴾ بِالتَّاءِ وَالنُّونِ ﴿طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ^(٢٦) ﴿مُصْرِينَ عَلَى الْإِنْفَاقِ وَالِاسْتِهْزَاءِ﴾. ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أَي: مُتَشَابِهُونَ فِي الدِّينِ، كَأَبْعَاضِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ الْإِيْمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي الطَّاعَةِ ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ تَرَكُوا طَاعَتَهُ ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ تَرَكَهُمْ مِنْ لُطْفِهِ ^(٣) ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ^(٢٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَتِ وَالْكَفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ ﴿جَزَاءٌ وَعِقَابٌ﴾ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴿أَبْعَدَهُمْ عَنْ رَحْمَتِهِ﴾ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ^(٢٨) ﴿دَائِمٌ﴾. أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا فَاسْتَمْتَعُوا﴾ تَمَتَّعُوا ﴿بِحُلُقِهِمْ﴾ نَصِيهِهِمْ مِنَ الدُّنْيَا ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ ﴿بِحُلُقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلُقِهِمْ وَخُضْتُمْ﴾ فِي الْبَاطِلِ وَالطَّغْنِ فِي النَّبِيِّ ﷺ ﴿كَالَّذِي حَاضُوا﴾ أَي: كَخَوْضِهِمْ ﴿أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ^(٢٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ قَوْمُ هُودٍ وَثَمُودٌ﴾ قَوْمٍ صَالِحٍ ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ قَوْمٍ شُعَيْبٍ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَتِ﴾ قُرَى قَوْمٍ لُّوطٍ، أَي: أَهْلِهَا ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ، فَكَذَّبُوهُمْ فَأَهْلِكُوا ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِأَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ^(٣٠) ﴿بَارَتْكَابِ الذَّنْبِ﴾. ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ عَنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ^(٣١) ﴿لَا يَضَعُ شَيْئًا إِلَّا فِي مَحِلِّهِ﴾. وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ ﴿إِقَامَةٌ﴾ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴿أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ^(٣٢) يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَهْدُ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّةِ ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾

(١) أَي: لَا تَشْتَغَلُوا بِاعْتِدَارَاتِكُمُ الْكَاذِبَةِ، فَالْنَهْيُ عَنِ الْإِشْتَغَالِ بِهِ وَإِدَامَتِهِ إِذْ أَصْلُهُ وَقَعَ ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ﴾ أَي: أَظْهَرْتُمُ الْكُفْرَ بِإِيْدَاءِ الرِّسُولِ ﷺ وَالطَّغْنِ فِيهِ وَبِاسْتِهْزَائِكُمْ بِمَقَالِكُمْ ﴿بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ أَي: بَعْدَ إِظْهَارِكُمُ الْإِيْمَانَ. قَالَ فِي «الْإِكْلِيلِ»: قَالَ الْكِيَا: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّاعِبَ وَالْجَادِي فِي إِظْهَارِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ سَوَاءٌ، وَأَنَّ الْإِسْتِهْزَاءَ بِآيَاتِ اللَّهِ كُفْرٌ، أَنْتَهَى. قَالَ الرَّازِي: لِأَنَّ الْإِسْتِهْزَاءَ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْتِخْفَافِ، وَالْعَمْدَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِيْمَانِ تَعْظِيمُ اللَّهِ تَعَالَى بِأَقْصَى الْإِمْكَانِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ. [القاسمي (٥/٤٤٨)].

(٢) أَي: عَامِلُهُمْ مَعَامَلَةً مِنْ نَسِيهِمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِلُكُمْ كَمَا دَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنات: ٣٤]. [ابن كثير (٤/١٧٣)].

بِالْإِنْتِهَارِ وَالْمَقْتِ ﴿وَمَا وَلَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٧٣ ﴿الْمَرْجِعُ هِيَ﴾ ﴿يَحْلِفُونَ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ مَا بَلَغَكَ عَنْهُمْ مِنَ السَّبِّ ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ، بَعْدَ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ ﴿وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ مِنَ الْفَنكِ بِالنَّبِيِّ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ عِنْدَ عَوْدِهِ مِنْ تَبُوكَ، وَهُمْ بَضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَضَرَبَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ وَجُوهَ الرَّاوَحِلِ لَمَّا غَشَوْهُ فَرْدُوًّا ٧٤ ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ أَنْكَرُوا ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بِالْغَنَائِمِ بَعْدَ شِدَّةِ حَاجَتِهِمْ، وَالْمَعْنَى: لَمْ يَنْلَهُمْ مِنْهُ إِلَّا هَذَا وَلَيْسَ مِمَّا يُنْقَمُ ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عَنِ التَّفَاقِ وَيُؤْمِنُوا بِكَ ﴿يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَحْفَظُهُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ ٧٥ ﴿يَمْنَعُهُمْ﴾ * وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَ ءَاتِنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴿فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الْأَصَادِ﴾ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ٧٥ ﴿وَهُوَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ، سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَدْعُو لَهُ أَنْ يَرْزُقَهُ اللَّهُ مَالًا وَيُؤَدِّيَ مِنْهُ إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، فَدَعَا لَهُ فَوَسَّعَ عَلَيْهِ، فَانْقَطَعَ عَنِ الْجُمُعَةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنَعَ الزَّكَاةَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بِخُلُوءٍ بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ ٧٦ ﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ أَيِ: فَصِيرَ عَاقِبَتَهُمْ ﴿نِفَاقًا﴾ ثَابِتًا ﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ أَيِ: اللَّهُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ٧٧ ﴿فِيهِ، فَجَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَكَاتِهِ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ»، فَجَعَلَ يَخْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، ثُمَّ إِلَى عُمَرَ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، ثُمَّ إِلَى عُثْمَانَ فَلَمْ يَقْبَلْهَا، وَمَاتَ فِي زَمَانِهِ ٧٨﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ أَيِ: الْمُنَافِقُونَ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ﴾ مَا أَسْرَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ مَا

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨١٠٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢٦٠/٥).

(٢) تفسير الطبري (٣٧٠/١٤)، وقد أنكر العلماء هذه القصة وقالوا بطلانها، فممن قال بذلك الإمام ابن حزم، قال في المحلى (٢٠٨، ٢٠٧/١١): على أنه قد رويناه أثرًا لا يصح وأنها نزلت في ثعلبة بن حاطب، وهذا باطل؛ لأن ثعلبة بدري معروف، ثم ساق الحديث بإسناده من طريق معان بن رفاعه عن علي بن يزيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة، وقال: وهذا باطل لا شك؛ لأن الله أمر بقبض زكوات أموال المسلمين، وأمر عليه السلام عند موته ألا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلمًا ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولا بد ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرا ففرض ألا يبقى في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك، وفي رواه معان بن رفاعه، والقاسم بن عبد الرحمن وعلي بن يزيد - هو ابن عبد الملك - وكلهم ضعفاء. وللفاضل عذاب الحمش رسالة في نقد هذه القصة جمع فيها أقوال أهل العلم فيها سماها (ثعلبة بن حاطب الصحابي المفترى عليه). قال القرطبي: وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، حسب ما يأتي بيانه في أول الممتحنة، فما روي عنه غير صحيح، وضعفها البيهقي في دلائل النبوة وابن الأثير في أسد الغابة والهيتمي في مجمع الزوائد وابن حجر في مواضع من كتبه ومن المعاصرين أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري والألباني في

تَنَاجَوْا بِهِ بَيْنَهُمْ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمُ الْغُيُوبَ﴾ ٧٨ ﴿مَا غَابَ عَنِ الْإِيَّانِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ، جَاءَ رَجُلٌ فَصَدَّقَ بِشَيْءٍ كَثِيرٍ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مُرَاءٍ، وَجَاءَ رَجُلٌ فَصَدَّقَ بِصَاعٍ، فَقَالُوا: إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، فَنَزَلَ: ﴿الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿يَلْمِزُونَ﴾ يَعْيُونَ ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ الْمُتَنَفِّلِينَ ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ طَاقَتُهُمْ فَيَأْتُونَ بِهِ ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ وَالْخَبْرُ ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ جَارَاهُمْ عَلَى سُخْرِيَّتِهِمْ ٧٩ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٧٩ ﴿أَسْتَغْفِرُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ تَخْيِيرٌ لَهُ فِي الْإِسْتِغْفَارِ وَتَرْكِهِ، قَالَ ﷺ: «إِنِّي خَيْرْتُ فَاخْتَرْتُ» - يَعْنِي الْإِسْتِغْفَارَ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ ٨٠. ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالسَّبْعِينَ الْمُبَالَغَةُ فِي كَثْرَةِ الْإِسْتِغْفَارِ. وَفِي الْبُخَارِيِّ حَدِيثٌ: «لَوْ أَعْلَمْتُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفْرًا لَزِدْتُ عَلَيْهَا» ٨١. وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْعَدَدُ الْمَخْصُوصُ، لِحَدِيثِهِ أَيْضًا: «وَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ» ٨٢. فَبَيَّنَ لَهُ حَسْمُ الْمَغْفَرَةِ، بِآيَةٍ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٨٣ ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ﴾ عَنْ تَبُوكَ ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أَيُّ: بِقُعُودِهِمْ ﴿خَلَفَ﴾ أَيُّ: بَعْدَ ﴿رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا﴾ أَيُّ: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿لَا تَنْفِرُوا﴾ تَخْرُجُوا إِلَى الْجِهَادِ ﴿فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ مِنْ تَبُوكَ فَالْأَوَّلَى أَنْ يَتَّقَوْهَا بِتَرْكِ التَّخَلُّفِ ﴿لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ٨٤ ﴿يَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا تَخَلَّفُوا﴾ ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلْيَبْكُوا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٨٥ ﴿خَبِرَ عَنْ حَالِهِمْ، بِصِيغَةِ الْأَمْرِ. ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ﴾ رَدَكَ ﴿اللَّهُ﴾ مِنْ تَبُوكَ ﴿إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ مِمَّنْ تَخَلَّفَ بِالْمَدِينَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿فَاسْتَذْنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ مَعَكَ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا

ضعيف الجامع الصغير ومقبل الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ... وقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين ... قلت: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم، إلا أن قوله: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا﴾ يدل على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل، إلا أن يكون المعنى: زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات.

(١) وهذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر بهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً. [ابن كثير (٤/ ١٨٨)].

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٦).

(٣) هو نفس الحديث السابق برقم (١٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٧٠)، ومسلم (٢٤٠٠).

مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ أَلَمْ تَخْلَفِينَ عَنِ الْغَزْوِ، مِنَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَغَيْرِهِمْ. وَلَمَّا صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ابْنِ أَبِي نَزَلَ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ لِدَفْنِ، أَوْ زِيَارَةِ ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ كَافِرُونَ. ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ﴾ تَخْرُجَ ﴿أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴿أَيُّ: طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُوا الطَّلُوفِ﴾ ذَوُو الْغَنَى ﴿مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ جَمْعُ «خَالِفَةٍ»، أَيُّ: النِّسَاءِ اللَّاتِي تَخَلَّفْنَ فِي الْبُيُوتِ ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الْخَيْرَ. ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ أَيُّ: الْفَائِزُونَ. ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بِإِذْغَامِ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَيُّ: «الْمُعَذِّرُونَ»، بِمَعْنَى: الْمَعْدُورِينَ، وَقُرِئَ بِهِ «مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ فِي الْقُعُودِ لِعُذْرِهِمْ، فَأَذِنَ لَهُمْ ﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي إِدْعَاءِ الْإِيمَانِ مِنْ مُنَافِقِي الْأَعْرَابِ عَنِ الْمَجِيءِ لِلْإِعْتِدَارِ ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ كَالشُّيُوخِ ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ كَالْعُمِيِّ وَالزَّمْنَى ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ﴾ فِي الْجِهَادِ ﴿حَرْجٌ﴾ إِثْمٌ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فِي حَالِ قُعُودِهِمْ، بِعَدَمِ الْإِرْجَافِ وَالشَّيْطِ وَالطَّاعَةِ ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ بِذَلِكَ ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ طَرِيقٍ بِالْمُؤَاخَذَةِ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ بِهِمْ فِي التَّوَسُّعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ مَعَكَ إِلَى الْغَزْوِ، وَهُمْ سَبْعَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَقِيلَ بَنُو مُقَرَّرٍ ﴿قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ حَالٌ ﴿تَوَلَّوْا﴾ جَوَابٌ ﴿إِذَا﴾، أَيُّ: انْصَرَفُوا ﴿وَأَعْيَتْهُمْ تَفِيضٌ﴾ تَسِيلٌ ﴿مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الذَّمْعُ حَزَنًا﴾ لِأَجْلِ ﴿أَلَا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ فِي الْجِهَادِ. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ﴾ فِي التَّخَلُّفِ ﴿وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ تَقَدَّمَ مِثْلُهُ. ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ﴾ فِي التَّخَلُّفِ

(١) قراءة شاذة.

(٢) قال السيوطي في «الإكليل»: في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ إلخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملا. [القاسمي (٥/ ٤٧٨)]. قال ﷺ: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا قَطَعْتُمْ وَاِدْيَا، وَلَا سِرْتُمْ مَسِيرًا إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ». قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: «نَعَمْ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ». أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).

﴿إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْغَزْوِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ نُصَدِّقُكُمْ ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أَي: أَخْبَرَنَا بِأَحْوَالِكُمْ ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ رَجَعْتُمْ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ مِنْ تَبُوكَ، أَنَّهُمْ مَعْدُورُونَ فِي التَّخَلُّفِ ﴿لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ بِتَرْكِ الْمُعَابَةِ ﴿فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ قَدَرُ لِحُبِّ بَاطِنِهِمْ ﴿وَمَا أُولَئِهِمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ أَي: عَنْهُمْ، وَلَا يَنْفَعُ رِضَاكُمْ مَعَ سَخَطِ اللَّهِ. ﴿الْأَعْرَابُ﴾ أَهْلُ الْبَدْوِ ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ مِنْ أَهْلِ الْمُدُنِ؛ لِجَفَائِهِمْ، وَغِلَظِ طِبَاعِهِمْ، وَبُعْدِهِمْ عَنْ سَمَاعِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَجْدَرُ﴾ أَوْلَىٰ ﴿أَنْ﴾ أَي: بَأَنَّ ﴿لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ وَالشَّرَائِعِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٩٧﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿مَغْرَمًا﴾ غَرَامَةً وَخُسْرَانًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَرْجُو ثَوَابَهُ بَلْ يُنْفِقُهُ خَوْفًا، وَهُمْ بَنُو أَسَدٍ وَغَطَفَانُ ﴿وَيَتَرَبَّصُّ﴾ يَنْتَظِرُ ﴿بِكُمْ الدَّوَائِرَ﴾ دَوَائِرَ الزَّمَانِ أَنْ تَقْلِبَ عَلَيْكُمْ، فَيَتَخَلَّصَ ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بِالضَّمِّ وَالْفَتْحِ، أَي: يَدُورُ الْعَذَابُ وَالْهَلَاكُ عَلَيْهِمْ، لَا عَلَيْكُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِأَقْوَالِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٨﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ كَجَهَنَّمَةِ وَمُزَيْنَةِ ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿قُرْبَتٍ﴾ تَقَرُّبُهُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَ﴾ وَسِيلَةً إِلَىٰ ﴿صَلَوَاتٍ﴾ دَعَوَاتِ ﴿الرُّسُولِ﴾ لَهُ ﴿أَلَا إِنَّهَا﴾ أَي: نَفَقَتُهُمْ ﴿قُرْبَةً﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا ﴿لَهُمْ﴾ عِنْدَهُ ﴿سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جَنَّتِهِ ^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿٩٩﴾ بِهِمْ. ﴿وَالسَّيِّقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ وَهُمْ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا، أَوْ جَمِيعَ الصَّحَابَةِ ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿بِإِحْسَنِ﴾ فِي الْعَمَلِ ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِثَوَابِهِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِزِيَادَةِ «مِنْ» ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ كَأَسْلَمَ وَأَشْجَعَ وَغِفَارٍ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ مُنَافِقُونَ أَيْضًا ﴿مَرَدُّوْا عَلَىٰ النِّفَاقِ﴾ لَجُّوا فِيهِ وَاسْتَمَرُّوا ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْفَضِيحَةِ، أَوِ الْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَىٰ﴾

(١) في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عبادته المؤمنين برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات، ويحيمهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات. [السعدي (ص: ٣٤٩)].

عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١١﴾ هُوَ النَّارُ. ﴿و﴾ قَوْمٌ ﴿ءَاخِرُونَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ مِنَ التَّخَلُّفِ، نَعْتُهُ وَالْخَبَرُ: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا﴾ وَهُوَ جِهَادُهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ أَوْ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ﴿وَعَاخِرَ سَيِّئًا﴾ وَهُوَ تَخَلُّفُهُمْ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَجَمَاعَةٍ، أَوْثَقُوا أَنْفُسَهُمْ فِي سَوَارِي الْمَسْجِدِ لَمَّا بَلَغَهُمْ مَا نَزَلَ فِي الْمُتَخَلِّفِينَ، وَحَلَفُوا لَا يُحِلُّهُمْ إِلَّا النَّبِيُّ ﷺ، فَحَلَّاهُمْ لَمَّا نَزَلَتْ^(١). ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فَاخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ وَتَصَدَّقَ بِهَا ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: أَدْعُ لَهُمْ ﴿إِنَّ صَلَوَتَكَ سَكَنٌ﴾ رَحْمَةٌ ﴿لَهُمْ﴾ وَقِيلَ: طُمَأْنِينَةٌ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُمْ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ يَقْبَلُ ﴿الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ عَلَى عِبَادِهِ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُمْ ﴿الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٣﴾ بِهِمْ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَالْقَصْدُ بِهِ هُوَ تَهْيِجُهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالصَّدَقَةِ. ﴿وَقُلْ﴾ لَهُمْ أَوْ لِلنَّاسِ: ﴿اعْمَلُوا﴾ مَا شِئْتُمْ ﴿فَسِيرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَرُدُونَ﴾ بِالْبُعْثِ ﴿إِلَى عَلِيمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَعَاخِرُونَ﴾ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ ﴿مُرْجُونَ﴾ بِالْهَمَزِ وَتَرْكِهِ، مُؤَخَّرُونَ عَنِ التَّوْبَةِ ﴿لَأَمْرُ اللَّهِ﴾ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ بِأَنْ يُمِيتَهُمْ بِلا تَوْبَةٍ ﴿وَأِمَّا يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ، وَهُمْ الثَّلَاثَةُ الْآتُونَ بَعْدَ: مَرَارَةَ بْنِ الرَّيِّعِ وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهَالِلُ بْنُ أُمَيَّةَ، تَخَلَّفُوا كَسَلًا وَمِيلًا إِلَى الدَّعَةِ لَا نِفَاقًا، وَلَمْ يَعْتَذِرُوا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ كَغَيْرِهِمْ، فَوَقَفَ أَمْرُهُمْ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَهَجَرَهُمُ النَّاسُ، حَتَّى نَزَلَتْ تَوْبَتُهُمْ بَعْدُ. ﴿و﴾ مِنْهُمْ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا﴾ وَهُمْ اثْنَا عَشَرَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿ضَرَارًا﴾ مُضَارَةً لِأَهْلِ مَسْجِدِ قُبَاءَ ﴿وَكُفْرًا﴾؛ لِأَنَّهُمْ بَنَوْهُ بِأَمْرِ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ لِيَكُونَ مَعْقَلًا لَهُ، يَقْدُمُ فِيهِ مَنْ يَأْتِي مِنْ عِنْدِهِ، وَكَانَ ذَهَبَ لِيَأْتِي بِجُنُودٍ مِنْ قَيْصَرَ لِقِتَالِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَتَفَرِّقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذِينَ يُصَلُّونَ بِقُبَاءَ، بِصَلَاةِ بَعْضِهِمْ فِي

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فلما حضر رجوع رسول الله ﷺ أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد، وكان ممر النبي ﷺ إذا رجع عليهم، فلما رآهم قال: «مَنْ هَؤُلَاءِ الْمُؤْتِقُونَ أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي»، قالوا: هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تطلقهم وتعذرهم قال: «وَأَنَا أَقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أُطْلِقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ: رَغَبُوا عَنِّي، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ»، فلما بلغهم ذلك قالوا ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا فنزلت ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٥ / ٢٧١ - ٢٧٢)، والطبري في تفسيره (١١ / ٦٥١). وقيل الآية تعم جميع المسلمين، والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وروى الطبراني عن أبي عثمان قال: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من هذه الآية. [الخازن (٢ / ٤٠٢)].

مَسْجِدِهِمْ ﴿وَإِذَا صَادُوا﴾ تَرْقُبًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ بِنَائِهِ، وَهُوَ أَبُو عَامِرٍ الْمَذْكُورُ ﴿وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ﴾ مَا ﴿أَرَدْنَا﴾ بِنَائِهِ ﴿إِلَّا﴾ الْفِعْلَةَ ﴿الْحُسْنَى﴾ مِنَ الرَّفْقِ بِالْمَسْكِينِ فِي الْمَطَرِ وَالْحَرِّ وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾﴾ فِي ذَلِكَ. وَكَانُوا سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يُصَلِّيَ فِيهِ، فَزَلَّ: ﴿لَا تَقُمْ﴾ تُصَلِّ فِيهِ أَبَدًا ﴿فَأَرْسَلَ جَمَاعَةً هَدَمُوهُ وَحَرَّقُوهُ وَجَعَلُوا مَكَانَهُ كُنَاسَةً تُلْقَى فِيهَا الْحِيفُ ﴿لَمَسْجِدُ أُسُسٍ﴾ بُنِيََتْ قَوَاعِدُهُ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴿وُضِعَ، يَوْمَ حَلَلْتَ بِدَارِ الْهَجْرَةِ، وَهُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ كَمَا فِي الْبَخَارِيِّ ﴿٣٨﴾﴾ مِنْهُ ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿تَقُومَ﴾ تُصَلِّيَ ﴿فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ﴾ هُمْ الْأَنْصَارُ ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿٣٩﴾﴾ أَي: يُشَبِّهُهُمْ^(١)، فِيهِ إِدْعَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الطَّاءِ، رَوَى ابْنُ خُزَيْمَةَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُوَيْمِرِ بْنِ سَاعِدَةَ أَنَّهُ ﷺ أَتَاهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الشَّنَاءَ فِي الطَّهُّورِ فِي قِصَّةِ مَسْجِدِكُمْ فَمَا هَذَا الطَّهُّورُ الَّذِي تَطَهَّرُونَ بِهِ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا نَعْلَمُ شَيْئًا إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَنَا جِيرَانٌ مِنَ الْيَهُودِ وَكَانُوا يَغْسِلُونَ أَذْبَارَهُمْ مِنَ الْغَائِطِ فَنَغْسِلُنَا كَمَا غَسَلُوا^(٢). وَفِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْبَزَّازُ: فَقَالُوا نَتَّبِعُ الْحِجَارَةَ بِالْمَاءِ، فَقَالَ: «هُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمْوه»^(٣). ﴿أَفَمَنْ أُسُسَ بُنَيْنَهُ عَلَى تَقْوَى﴾ مَخَافَةٍ ﴿مِنَ اللَّهِ وَ﴾ رَجَاءٍ ﴿رِضْوَانٍ﴾ مِنْهُ ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسُسَ بُنَيْنَهُ عَلَى شَفَا﴾ طَرَفٍ ﴿جُرْفٍ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا جَانِبٍ ﴿هَارٍ﴾ مُشْرِفٍ عَلَى السُّقُوطِ ﴿فَأَنْهَارُ بِهِ﴾ سَقَطَ مَعَ بَانِيهِ ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ خَيْرٌ؟ تَمَثِيلٌ لِلْبِنَاءِ عَلَى ضِدِّ التَّقْوَى بِمَا يُؤُولُ إِلَيْهِ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَي: الْأَوَّلُ خَيْرٌ وَهُوَ مِثَالُ مَسْجِدِ قُبَاءَ، وَالثَّانِي مِثَالُ مَسْجِدِ الضَّرَارِ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ لَا يَزَالُ بُنَيْنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً ﴿شَكًّا﴾ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ ﴿تَنْفَصَلَ﴾ قُلُوبُهُمْ ﴿بَانَ يَمُوتُوا﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴿بِخَلْقِهِ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾﴾ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿*إِنَّ﴾

(١) أخرجه البخاري (٣٩٠٦).

(٢) مذهب أهل السنة والجماعة أن الله يُحِبُّ وَيُحِبُّ حَقِيقَةً، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْقَوْمِ الَّذِينَ أَثْنَى عَلَيْهِمْ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة ٥٤]، وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران ٣١]... وَمِنَ التَّأْوِيلِ الْمَذْمُومِ الَّذِي هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ بِغَيْرِ حُجَّةٍ تَوْجِبُ ذَلِكَ. هَذِهِ التَّأْوِيلَاتُ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ وَلَا يُحِبُّ حَقِيقَةً، وَهَذَا عَيْنُ مَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ. وَأَمَّا الْأَشَاعِرَةُ فَيَنْفُونَ الْمَحَبَّةَ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَهْلُ التَّأْوِيلِ مِنْهُمْ يَفْسِرُونَهَا بِالْإِرَادَةِ أَوْ الْإِثَابَةِ. وَأَمَّا الْمَحَبَّةُ مِنْ جِهَةِ الْعَبْدِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَشْتَبِهَا كَمَا ذَكَرَ عَنِ الْمَازَرِيِّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُهَا كَمَا ذَكَرَ عَنِ ابْنِ التَّيْنِ. [البراك في التعليق على فتح الباري (٣٥٧/١٣)].

(٣) أخرجه أحمد (١٥٤٨٥)، وابن خزيمة (٨٣)، والحاكم (١٥٥/١).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٥٥)، والدارقطني (٦٢/١)، والحاكم (٥٥/١).

اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ يُبْذِلُوهَا فِي طَاعَتِهِ كَالْجِهَادِ ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ جُمْلَةً اسْتَنْفَ بَيَانٍ لِلشَّرَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَقْدِيمِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، أَيِ: فَيُقْتَلُ بَعْضُهُمْ، وَيُقَاتِلُ الْبَاقِي ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمَحْذُوفِ ﴿فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيِ: لَا أَحَدٌ أَوْفَى مِنْهُ ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ فِيهِ الْإِنْفَاتُ عَنِ الْغِيَةِ ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ وَذَلِكَ ﴿الْبَيْعُ﴾ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿الْمُنِيلُ غَايَةَ الْمَطْلُوبِ﴾ ﴿التَّسْبِيحُونَ﴾ رُفِعَ عَلَى الْمَدْحِ بِتَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ، مِنْ الشَّرِكِ وَالنَّفَاقِ ﴿الْعَبِيدُونَ﴾ الْمُخْلِصُونَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ ﴿الْحَمِيدُونَ﴾ لَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴿السَّابِقُونَ﴾ الْأَصَائِمُونَ ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ أَيِ: الْمُصَلُّونَ ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ لِأَحْكَامِهِ بِالْعَمَلِ بِهَا ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِالْجَنَّةِ. وَنَزَلَ فِي اسْتِغْفَارِهِ ﷺ لِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ وَاسْتِغْفَارِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ لِأَبَوَيْهِ الْمُشْرِكَيْنِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى﴾ ذَوِي قَرَابَةٍ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ النَّارِ، بِأَنْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ. ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ بِقَوْلِهِ: «سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي»، رَجَاءً أَنْ يُسَلِّمَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بِمَوْتِهِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ وَتَرَكَ اسْتِغْفَارَ لَهُ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ كَثِيرُ التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ ﴿حَلِيمٌ﴾ صَبُورٌ عَلَى الْآدَى. ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ لِلْإِسْلَامِ﴾ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنَ الْعَمَلِ، فَلَا يَتَّقُوهُ فَيَسْتَخِفُّوا الْإِضْلَالَ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَمِنْهُ مُسْتَحَقُّ الْإِضْلَالِ وَالْهِدَايَةِ^(١). ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ أَنْ يَحْيِيَ النَّاسَ﴾ أَيِ: غَيْرِهِ ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ﴾ أَيِ: غَيْرِهِ ﴿مَنْ وَلِيٌّ﴾ يَحْفَظُكُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٌ﴾ يَمْنَعُكُمْ عَنْ ضَرَرِهِ. ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ﴾ أَيِ: أَدَامَ تَوْبَتَهُ ﴿عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أَيِ: وَقْتِهَا، وَهِيَ حَالُهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، كَانَ الرَّجُلَانِ يَقْتَسِمَانِ تَمْرَةً، وَالْعُسْرَةُ

(١) هذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بينه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدا قط إلا بعد هذا البيان. وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت عنك شكوك كثيرة، وشبهات في هذا الباب، وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضلّه من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله: ﴿فَلَمَّا رَاغَوْا فَبُذِلَ اللَّهُ فُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ فُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ بَلَّ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ [النساء: ١٥٥] فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع، وقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠] فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه، بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له. [مدارج السالكين لابن القيم (١/٦٦)].

يَعْتَقِبُونَ الْبَعِيرَ الْوَاحِدَ، وَاشْتَدَّ الْحَرُّ حَتَّى شَرِبُوا الْفَرْثَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ تَمِيلُ ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ عَنِ اتِّبَاعِهِ إِلَى التَّخَلُّفِ، لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الشَّدَّةِ ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ بِالثَّبَاتِ ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَعُوفٌ رَحِيمٌ ٣١١﴾ وَ﴿تَابَ﴾ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا ﴿عَنِ التَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ بِقَرِينَةٍ﴾ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴿أَي: مَعَ رَحْبِهَا، أَي: سَعَتِهَا، فَلَا يَجِدُونَ مَكَانًا يَطْمَئِنُّونَ إِلَيْهِ﴾ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴿قُلُوبُهُمْ، لِلْغَمِّ وَالْوَحْشَةِ بِتَأْخِيرِ تَوْبَتِهِمْ، فَلَا يَسَعُهَا سُرُورٌ وَلَا أَنْسٌ﴾ وَظَنُّوا ﴿أَيَقْنُوا﴾ أَنْ ﴿مُخَفَّفَةٌ﴾ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ وَفَقَّهَهُمُ لِلتَّوْبَةِ ﴿لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٣١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ٣١٣﴾ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُهُودِ، بَأَنْ تَلْزَمُوا الصَّدَقَ ^(١). ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إِذَا غَزَا ﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ بِأَنْ يَصُونُوا عَمَّا رَضِيَهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَهُوَ نَهْيٌ بِلَفْظِ الْخَبَرِ ﴿ذَلِكَ﴾ النَّهْيُ عَنِ التَّخَلُّفِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ عَطَشٌ ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ جُوعٌ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطُئُونَ مَوْطِئًا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: «وَطِئًا» ﴿يَغِيظُ﴾ يُغْضِبُ ﴿الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ﴾ لِلَّهِ ﴿نَيْلًا﴾ قَتْلًا أَوْ أَسْرًا أَوْ نَهَبًا ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ٣١٤﴾ أَي: أَجْرَهُمْ بَلْ يُبَيِّهُهُمْ. ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ﴾ فِيهِ ﴿نَفَقَةٌ صَغِيرَةٌ﴾ وَلَوْ تَمَرَّةً ﴿وَلَا كَبِيرَةٌ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ بِالسَّيْرِ ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١٥﴾ أَي: جَزَاءَهُمْ. وَلَمَّا وَبَّخُوا عَلَى التَّخَلُّفِ وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ سَرِيَّةً نَفَرُوا جَمِيعًا، فَتَزَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، تخلفوا عن غزوة تبوك، من غير عذر ومن غير نفاق ولا قصد للمخالفة، فلما رجع رسول الله ﷺ عتب عليهم، وأمر ألا يكلمهم أحد، وأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، فبقوا على ذلك مدة إلى أن أنزل الله توبتهم، وقد روي حديثهم في البخاري ومسلم والسير، ومعنى ﴿خَلَفُوا﴾ هنا: أي: عن الغزوة. وقال كعب بن مالك معناه: خُلفوا عن قبول الضر وليس بالتخلف عن الغزو. يقوِّي ذلك كونه جعل إذا ضاقت غاية للتخلف ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ﴾ عبارة عما أصابه من الغم والخوف من الله ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أَي: رجع بهم ليستقيموا على التوبة، ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ يحتمل أن يريد صدق اللسان إذا كانوا هؤلاء الثلاثة قد صدقوا ولم يعتذروا بالكذب، ففهمهم الله بذلك، ويحتمل أن يريد أعم من صدق اللسان، وهو الصدق في الأقوال والأفعال والمقاصد والعزائم، والمراد بالصادقين: المهاجرون لقول الله في الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجَرِينَ﴾ [الحشر: ٨]، إلى قوله: ﴿هُمْ الصَّادِقُونَ﴾ وقد احتج بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه على الأنصار يوم السقيفة، فقال: نحن الصادقون، وقد أمركم الله أن تكونوا معنا، أي: تابعين لنا. [ابن جرير (١/٣٤٩)].

إِلَى الْغَزْوِ ﴿كَافَّةً فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ﴾ فِئْلَةٍ ﴿مِنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ، وَمَكَثَ الْبَاقُونَ ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾^(١) أَيِ: الْمَاكِثُونَ ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ مِنَ الْغَزْوِ بِتَعْلِيمِهِمْ مَا تَعَلَّمُوهُ مِنَ الْأَحْكَامِ^(٢) ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٣) عِقَابَ اللَّهِ بِامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَهَذِهِ مَخْصُوصَةٌ بِالسَّرَايَا، وَالَّتِي قَبْلَهَا بِالنَّهْيِ عَنْ تَخَلُّفِ وَاحِدٍ فِيمَا إِذَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ^(٤). ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتِلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أَيِ: الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبُ مِنْهُمْ^(٥) ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غُلْظَةً﴾ شِدَّةً، أَيِ: أَعْلَظُوا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦) بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أَيِ: الْمُنَافِقِينَ ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ لِأَصْحَابِهِ اسْتَهِزَاءً: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ تَصَدِيقًا؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ لِتَصَدِيقِهِمْ بِهَا ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٧) يَفْرَحُونَ بِهَا. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضَعْفُ اعْتِقَادٍ ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ كُفْرًا إِلَى كُفْرِهِمْ؛ لِكُفْرِهِمْ بِهَا ﴿وَمَا تَأْوُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^(٨) أَوَّلًا يَرَوْنَ بِالْبَيَاءِ، أَيِ: الْمُنَافِقُونَ، وَالتَّاءُ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ﴾ يُتَلَوْنَ ﴿فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِالْقَحْطِ وَالْأَمْرَاضِ ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ مِنْ نِفَاقِهِمْ ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٩) يَتَعَذُّونَ. ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فِيهَا ذِكْرُهُمْ وَقَرَأَهَا النَّبِيُّ ﷺ ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يُرِيدُونَ الْهَرَبَ يَقُولُونَ: ﴿هَلْ يَرِنُكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ إِذَا قُمْتُمْ؟ فَإِنْ لَمْ يَرَهُمْ أَحَدٌ قَامُوا، وَإِلَّا ثَبَتُوا ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عَنِ الْهُدَى ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(١٠) الْحَقَّ لِعَدَمِ تَدَبُّرِهِمْ. ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾

(١) قال السيوطي في «الإكليل»: في الآية أن الجهاد فرض كفاية، وأن التفقه في الدين، ونشر العلم، وتعليم الجاهلين كذلك، وفيها الرحلة في طلب العلم. [القاسمي (٥/٥٢٩)].

(٢) والقول الثاني: أن النبي كما دعا على مضر، وقال: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِنِيهِمْ كِسْفَ يَوْسُفَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥)، قال: فأصابهم قحط شديد وجدب، فجعلت القبيلة تقبل إلى المدينة بأجمعهم ويقولون: أسلمنا، فكانوا يضيّقون على أهل المدينة منازلهم ويلوثون الطرقات، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فردهم رسول الله إلى قبائلهم. [السمعاني (٢/٣٥٩)].

(٣) نقل عن بعض العلماء أنه قال أنزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] صارت ناسخة لهذه الآية. وقال المحققون من العلماء: ولا وجه للنسخ فإنه تعالى أمرهم بقتالهم كافة وأرشدهم الطريق الأصوب الأصح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب قرباً مكانياً لا قرباً نسبياً حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد، وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور، ولهذا السبب قد قاتل رسول الله ﷺ أولاً قومه، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال أهل الكتاب، وهم قريظة والنضير وخيبر وفدك، ثم انتقل إلى غزو الروم والشام فكان فتحه في زمن الصحابة ثم أنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب أولاً تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد. [الخازن (٢/٤٢٣)].

أَيُّ: مِنْكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَزِيزٌ﴾ شَدِيدٌ ﴿عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيُّ: عَتَيْتُمْ، أَيُّ: مَشَقَّتْكُمْ، وَلَقَاؤُكُمْ الْمَكْرُوهَ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أَنْ تَهْتَدُوا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ شَدِيدُ الرَّحْمَةِ ﴿رَحِيمٌ ١٣٨﴾ يُرِيدُ لَهُمُ الْخَيْرَ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ﴾ كَافِيَ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ بِهِ وَثِقْتُ لَا بَغْيَ لَهُ ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكُرْسِيِّ ١٣٩﴾ الْعَظِيمِ ﴿خَصَّهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ، وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، قَالَ: آخِرُ آيَةٍ نَزَلَتْ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ٣١﴾.

(١) قال ابن عباس ﷺ: إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته وقدره، وقال السيوطي: الكرسي، قال الصاوي: قوله الكرسي مرور على القول باتحاد العرش مع الكرسي، وهو خلاف الصحيح أن العرش غير الكرسي. اهـ وعبارة الخازن: اعترض بعضهم على هذا التفسير بأن العرش غير الكرسي وأن الكرسي أصغر من العرش فكيف يفسر به، وهو مدفوع بأن المسألة خلافية والمشهور ما سمعته؛ وقيل: إنهما اسمان لشيء واحد فالعرش والكرسي معناهما الجسم العظيم المحيط بجميع المخلوقات المسمى بالعرش على القول المشهور. أ. هـ. [صديق حسن (٤٣٣/٥)]. والصواب: أن الكرسي مخلوق آخر غير العرش، فالعرش فوق المخلوقات سواء كان محيطاً بالأفلاك أو غير ذلك، وهو فوق الكرسي، والكرسي فوق الأفلاك كلها، ونسبة الأفلاك وما فيها إلى الكرسي كحلقة في فلاة، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، إذن العرش أعظم المخلوقات، ثم يليه في العظم الكرسي، وهو مخلوق عظيم، قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله: هذا الذي عرفناه عن ابن عباس ﷺ صحيحاً مشهوراً، فالكرسي مخلوق عظيم، وهو موضع القدمين لله سبحانه كما روى ابن أبي شيبة والحاكم، وقال: على شرط الشيخين، عن ابن عباس ﷺ في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أنه قال: الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله. وعن أبي ذر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْنِ فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ». أخرجه الطبري في تفسيره (٣٩٩/٥) وهو منقطع وقد جاء موصولاً من طريق ابن أبي شيبة في صفة العرش (٥٨). [شرح العقيدة الطحاوية لعبد العزيز الراجحي (ص: ٢٠٠)].

(٢) عن البراء بن عازب ﷺ أن آخر آية نزلت: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ [النساء: ١٧٦]، وآخر سورة نزلت براءة. وعن ابن عباس ﷺ: آخر آية نزلت ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ... وحاول بعضهم التوفيق بين هذه الروايات بما لا يخلو عن كدر، وفي هذه الآية إشكال مشهور في كتب الحديث. [صديق حسن (٤٣٤/٥)].

سُورَةُ يُونُسَ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ الْآيَتَيْنِ أَوْ الثَّلَاثِ، أَوْ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الْآيَةُ، مِائَةٌ وَتِسْعٌ أَوْ عَشْرُ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١) ﴿تِلْكَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ»
 ﴿الْحَكِيمِ ١﴾ ﴿الْمُحْكَمِ﴾. ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ وَالْجَارُ وَالْمَجْرُورُ حَالٌ مِنْ قَوْلِهِ:
 ﴿عَجَبًا﴾ بِالنَّصْبِ خَبَرٌ «كَانَ»، وَبِالرَّفْعِ اسْمُهَا^(٢)، وَالْخَبَرُ وَهُوَ اسْمُهَا عَلَى الْأُولَى: ﴿أَنْ أُوحِيَنَا﴾ أَيُّ: إِيحَاؤُنَا ﴿إِلَى
 رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿أَنْ﴾ مُّفَسَّرَةٌ ﴿أَنْذِرِ﴾ خَوْفُ ﴿النَّاسِ﴾ الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ ﴿وَدَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ﴾
 أَيُّ: بِأَنَّ ﴿لَهُمْ قَدَمٌ﴾ سَلَفَ ﴿صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: أَجْرًا حَسَنًا بِمَا قَدَّمُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا﴾
 الْقُرْآنَ الْمُسْتَمَلَّ عَلَى ذَلِكَ ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ٢﴾ بَيْنٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لَسَحِرٌ﴾ وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ. ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ
 اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَيُّ: فِي قَدَرِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ
 وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمَحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لِتَعْلِيمِ خَلْقِهِ الثَّبُتَ^(٣) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِهِ^(٤) ﴿يُدَبِّرُ
 الْأُمْرَ﴾ بَيْنَ الْخَلَاقِ ﴿مَا مِنْ﴾ صَلَوةٍ ﴿شَفِيعٍ﴾ يَشْفَعُ لِأَحَدٍ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ
 لَهُمْ^(٥) ﴿ذَلِكَ﴾ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وَحْدُوهُ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ بِإِذْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي
 الذَّلَالِ^(٦). ﴿إِلَيْهِ﴾ تَعَالَى ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ مَصْدَرَانِ مَنْصُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمُقَدَّرِ ﴿إِنَّهُ﴾ بِالْكَسْرِ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قراءة شاذة.

(٣) ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة. [السعدي (ص: ٣٥٧)].

(٤) قال أبو العالية: استوى إلى السماء: ارتفع، وقال مجاهد: استوى على العرش علا، أي: بلا تمثيل ولا تكيف. [القاسمي (٦/٦)].

(٥) فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله ولا يأذن، إلا لمن ارتضى، ولا يرتضي إلا أهل الإخلاص والتوحيد له. [السعدي (ص: ٣٥٧)].

(٦) أي: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أَيُّ: أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ فِي أَمْرِكُمْ، تَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. [ابن كثير (٤/٢٤٧)].

اسْتِنَافًا، وَالْفَتْحِ عَلَى تَقْدِيرِ اللَّامِ ﴿يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ أَي: بَدَأَهُ بِالْإِنْشَاءِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يُثِيبَ
 ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ مَاءٌ بَالِغُ نَهَايَةِ الْحَرَارَةِ
 ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مُؤْلَمٌ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ٤﴾ أَي: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً﴾ ذَاتَ
 ضِيَاءٍ، أَي: نُورٍ^(١) ﴿وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ﴾ مِنْ حَيْثُ سِيرُهُ ﴿مَنَازِلَ﴾ ثَمَانِيَّةً وَعِشْرِينَ مَنَزَلًا فِي ثَمَانٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً
 مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَيَسْتَرُّ لَيْلَتَيْنِ إِنْ كَانَ الشَّهْرُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَوْ لَيْلَةً إِنْ كَانَ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ بِذَلِكَ^(٢) ﴿عَدَدَ
 السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ لَا عَبَثًا، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿يَفْصِلُ﴾ بَالِيَاءٍ وَالنُّونَ،
 يُبَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ٥﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيءِ، وَالزِّيَادَةِ
 وَالنُّقْصَانِ ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ مِنْ مَلَائِكَةٍ وَشَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿و﴾ فِي ﴿الْأَرْضِ﴾ مِنْ
 حَيَوَانٍ وَجِبَالٍ وَبِحَارٍ وَأَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ وَغَيْرِهَا ﴿لَايَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ٦﴾ هُ فَيُؤْمِنُونَ،
 خَصَّهُم بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُمُ الْمُتَتَفِعُونَ بِهَا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ بِالْبَعْثِ ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بِدَلِّ الْآخِرَةِ
 لِانْكَارِهِمْ لَهَا ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ سَكَنُوا إِلَيْهَا ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا﴾ دَلَائِلِ وَحَدَائِثِنَا ﴿غَفْلُونَ ٧﴾ تَارِكُونَ
 النَّظَرَ فِيهَا. ﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ أَلْثَارٌ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٨﴾ مِنَ الشَّرْكِ وَالْمَعَاصِي. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ﴾ يُرْشِدُهُمْ ﴿رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ بِهِ بِأَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نُورًا يَهْتَدُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمْ
 أَنْهَارٌ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا ﴿طَلَبَهُمْ يَشْتَهُونَهُ فِي الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولُوا: ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾ أَي: يَا اللَّهُ فَإِذَا
 مَا طَلَبُوهُ وَجَدُوهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ^(٣) ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَانِهِمْ أَنْ ﴿مُفَسَّرَةٌ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ^(٤). وَنَزَلَ لَمَّا اسْتَعْجَلَ الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ: ﴿*وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ﴾ أَي:
 كَاسْتِعْجَالِهِمْ ﴿بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، وَلِلْفَاعِلِ ﴿إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ، بِأَنْ يُهْلِكَهُمْ وَلَكِنْ

(١) الضياء ما كان بالذات والنور ما كان بالعرض، فما قام بالشمس يقال له ضياء وما قام بالقمر يقال له نور. ومن هنا قال الحكماء إن نور القمر مستفاد من ضوء الشمس. [الشوكاني (٢/٤٨٣)].

(٢) قال السيوطي: هذه الآية أصل في علم المواقيت والحساب ومنازل القمر والتاريخ. [القاسمي (٦/٧)].

(٣) أي: عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة. [السعدي (ص: ٣٥٨)].

يَمْلَهُمْ ﴿فَنَذِرْ﴾ نَتْرُكُ ﴿الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١﴾ يَتَرَدَّدُونَ مُتَحِيرِينَ. ﴿وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ ﴿الضُّرُّ﴾ الْمَرَضُ، وَالْفَقْرُ ﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ أَي: مُضْطَجِعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أَي: فِي كُلِّ
حَالٍ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ عَلَى كُفْرِهِ ﴿كَانَ﴾ مُخَفَّفَةً، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: كَانَهُ ﴿لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ
مَسَّهُ كَذَلِكَ﴾ كَمَا زَيْنَ لَهُ الدُّعَاءُ عِنْدَ الضَّرَرِّ، وَالْإِعْرَاضُ عِنْدَ الرَّخَاءِ ﴿زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ الْمُسْرِكِينَ ﴿مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ ﴿الْأُمَمَ﴾ مِنْ قَبْلِكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا﴾ بِالشَّرِكِ ﴿و﴾ قَدْ جَاءَتْهُمْ
رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿الذَّلَالَاتِ عَلَى صِدْقِهِمْ﴾ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا عَظْفٌ عَلَى ﴿ظَلَمُوا﴾، ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا أَهْلَكْنَا
أَوَّلِكَ ﴿نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿خَلِيفَ﴾ جَمْعُ خَلِيفَةٍ ﴿فِي
الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٤﴾ فِيهَا، وَهَلْ تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ فَتَصَدِّقُوا رُسُلَنَا. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ ﴿أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ
هَذَا﴾ لَيْسَ فِيهِ عَيْبٌ إِلَهَتَنَا ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَا يَكُونُ﴾ يَنْبَغِي ﴿لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ
تِلْقَائِي﴾ قَبْلَ ﴿نَفْسِي﴾ إِنَّ ﴿مَا﴾ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِتَبْدِيلِهِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
١٥﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾ أَعْلَمَكُمْ ﴿بِهِ﴾ وَ﴿لَا﴾ نَافِيَةٌ، عَظْفٌ
عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِلَامٍ جَوَابِ ﴿لَوْ﴾^(١)، أَي: لَا أَعْلَمُكُمْ بِهِ عَلَى لِسَانٍ غَيْرِي ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ﴾ مَكْنَتْ ﴿فِيكُمْ
عُمَرًا﴾ سَنِينَ أَرْبَعِينَ ﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾ لَا أُحَدِّثُكُمْ بِشَيْءٍ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٦﴾ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ قِبَلِي. ﴿فَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدَ
﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: الشَّانَ ﴿لَا
يُفْلِحُ﴾ يَسْعُدُ ﴿الْمُجْرِمُونَ ١٧﴾ الْمُشْرِكُونَ. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إِنْ لَمْ يَعْبُدُوهُ
﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ إِنْ عَبَدُوهُ، وَهُوَ الْأَضْنَامُ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عَنْهَا: ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتُنَبِّئُونَ
اللَّهَ﴾ تُخْبِرُونَهُ ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ، إِذْ لَوْ كَانَ لَهُ شَرِيكَ لَعَلِمَهُ، إِذْ لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ شَيْءٌ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾ هُ مَعَهُ. ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ عَلَى دِينٍ
وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ، مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ، وَقِيلَ: مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى عَمْرِو بْنِ لُحْيٍ ﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ بِأَنْ ثَبَتَ بَعْضُ
وَكَفَرَ بَعْضُ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: النَّاسُ فِي الدُّنْيَا

(١) أي: قراءة البزي عن ابن كثير ﴿وَلَا أَدْرَاكُمْ﴾.

﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٩﴾ مِنَ الدِّينِ، بِنَعْدِيبِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيُّ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كَمَا كَانَ لِلْأَنْبِيَاءِ، مِنَ النَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ﴾ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ، أَيُّ: أَمْرُهُ ﴿لِلَّهِ﴾ وَمِنْهُ الْآيَاتُ فَلَا يَأْتِي بِهَا إِلَّا هُوَ، وَإِنَّمَا عَلَيَّ التَّبْلِغُ ﴿فَانْتَظِرُوا﴾ الْعَذَابَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ ﴿أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ﴾ رَحْمَةً ﴿مَطَرًا وَخِصْبًا﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ بُؤْسٍ وَجَدَبٍ ﴿مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ بِالْإِسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ مُجَازَاةً ١١ ﴿إِنْ رُسُلُنَا﴾ الْحَفَظَةُ ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ٢١﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ. ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾، ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ الْسَّفْنِ ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ فِيهِ الْفَتَاتُ عَنِ الْخِطَابِ ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ لَيْتَةٍ ﴿وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شَدِيدَةُ الْهُبُوبِ، تَكْسِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أَيُّ: أَهْلِكُوا ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الدَّعَاءُ ﴿لَيْنٍ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الْأَهْوَالِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ٢٢﴾ الْمُؤَحِّدِينَ. ﴿فَلَمَّا أَنْجَلْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بِالشَّرْكِ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ ظَلْمُكُمْ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾؛ لِأَنَّ إِثْمَهُ عَلَيْهَا، هُوَ ﴿مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ تُمَتَّعُونَ فِيهَا قَلِيلًا ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٢٣﴾ فَنَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبٍ ﴿مَتَّعَ﴾ أَيُّ: تَمَتَّعُونَ. ﴿إِنَّمَا مَثَلُ﴾ صِفَةُ ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ مَطَرٍ ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ﴾ بِسَبَبِهِ ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ وَاشْتَبَكَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ مِنَ الْبَرِّ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَالْأَنْعَمُ﴾ مِنَ الْكَلَالِ ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ بِهَجَتَهَا مِنَ النَّبَاتِ ﴿وَأَزْيَنْتَ﴾ بِالزَّهْرِ، وَأَصْلُهُ ﴿تَزَيَّنَّتْ﴾ أُبْدِلَتِ النَّاءُ زَايَا، وَأُدْغِمَتْ فِي الزَّايِ ﴿وَضَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ مَتَمَكَّنُونَ مِنْ تَحْصِيلِ ثَمَارِهَا ﴿أَتَلَهَا أَمْرُنَا﴾ قَضَاؤُنَا، أَيُّ: عَذَابُنَا ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا﴾ أَيُّ: زَرْعَهَا ﴿حَصِيدًا﴾ كَالْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ ١٢ ﴿كَانَ﴾ مُحَقَّقَةً، أَيُّ: كَانَتْهَا ﴿لَمْ تَغْنِ﴾ تَكُنْ ﴿بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ﴾ نُبَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَمَكَّرُونَ

(١) قال مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله إنما يقولون سقيناه بنوء كذا وكذا. [الواحدي (١١/ ١٥٥)]. أَي: ... الله عز وجل أسرع مكرًا منكم فسوف يريكم عاقبة مكره بكم وهي إذلالكم وخزيكم في الدنيا وعذابكم في الآخرة إن متم على كفركم، وقوله: ﴿إِنْ رُسُلُنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تقرير لما أعلمهم به من مكر الله تعالى بهم إذ كتابة الملائكة ما يمكرون دليل على تبسيت الله تعالى لهم المكروه الذي يريد أن يجازيهم به على مكرهم. [أبو بكر الجزائري (٢/ ٤٦١)].

(٢) ضرب الله تعالى في هذه الآية الكريمة المثل للدنيا بالنبات الناعم المختلط ببعضه ببعض، وعمًا قليل يبس، ويكون حصيدًا يابسًا كأنه

﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ أَي: السَّلَامَةُ وَهِيَ الْجَنَّةُ، بِالْدَّعَاءِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ هِدَايَتُهُ ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿٢٥﴾ دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿الْحُسْنَى﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هِيَ: النَّظَرُ إِلَيْهِ تَعَالَى، كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ ^(١) ﴿وَلَا يَرَهُقُ﴾ يَغْشَى ﴿وُجُوهُهُمْ قَرَرٌ﴾ سَوَادٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ كَابَةٌ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ عَظُفٌ عَلَى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أَي: وَلِلَّذِينَ ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ عَمِلُوا الشَّرَّ ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ زَائِدَةٍ﴾ عَاصِمٌ مَانِعٌ ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ﴾ أَلْبِسَتْ ﴿وُجُوهُهُمْ قِطْعًا﴾ بَفَتْحِ الطَّاءِ جَمْعُ قِطْعَةٍ وَإِسْكَانُهَا، أَي: جُزْءًا ﴿مَنْ أَلِيلٌ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ وَ﴿وَأُذَكِّرُ﴾ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أَي: الْخَلْقَ ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ نُصَبِّبُ ﴿الزُّمَرُ﴾ مُقَدَّرًا ﴿أَنْتُمْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلضَّمِيرِ الْمُسْتَرِ فِي الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ؛ لِيَعْطِفَ عَلَيْهِ ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أَي: الْأَصْنَامُ ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مَيَّزْنَا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا فِي آيَةٍ: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ ﴿شُرَكَاءُكُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِلْفَاصِلَةِ. ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ﴾ مُحَقَّقَةٌ، أَي: إِنَّا ﴿كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ أَي: ذَلِكَ الْيَوْمَ ﴿تَبَلَّوْا﴾ مِنَ الْبَلْوَى، وَفِي قِرَاءَةٍ: بَتَاءَيْنِ مِنَ التَّلَاوَةِ ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ قَدَمَتْ مِنَ الْعَمَلِ ﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الدَّائِمُ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ عَلَيْهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ، أَي: خَلَقَهَا ﴿وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ

لم يكن قط، وضرب لها أيضا المثل المذكور في «الكهف» في قوله: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَزْلَمْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وأشار لهذا المثل بقوله في «الزمر»: ﴿ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١]، وقوله في «الحديد»: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [الحديد: ٢٠]. والتشبيه في الآيات المذكورة عند البلاغيين من التشبيه المركب؛ لأن وجه الشبه صورة منتزعة من أشياء، وهو كون كل من المشبه والمشبّه به يمكن ما شاء الله، وهو في إقبال وكمال، ثم عما قليل يضمحل ويزول، والعلم عند الله تعالى. [الشقيطي (٢/ ٥٦٤)].

(١) عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وَجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه مسلم (١٨١).

أَلَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ بَيْنَ الْخَلْقِ؟ (فَسَيَقُولُونَ) هُوَ (اللَّهُ فَقُلْ) لَهُمْ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) هُ فَنُؤْمِنُونَ. ﴿فَذَلِكُمْ﴾ الْفَاعِلُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ (اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ) الثَّابِتُ ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ، أَي: لَيْسَ بَعْدَهُ غَيْرُهُ، فَمَنْ أَخْطَأَ الْحَقَّ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ، وَقَعَ فِي الضَّلَالِ ﴿فَأَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿تُصْرَفُونَ﴾ (٣٢) عَنِ الْإِيمَانِ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ. ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا صَرَفَ هَؤُلَاءِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ كَفَرُوا، وَهِيَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] آيَةً، أَوْ هِيَ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤) تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ. ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بِنَصْبِ الْحُجَجِ، وَخَلْقِ الْإِهْتِدَاءِ (٣٥) ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ وَهُوَ اللَّهُ ﴿أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي﴾ يَهْدِي ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ وَتَوْبِيخٌ (٣٦) أَي: الْأَوَّلُ أَحَقُّ ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٧) هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ، مِنْ إِتِّبَاعِ مَا لَا يَحِقُّ إِتِّبَاعُهُ. ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ حَيْثُ قَلَّدُوا فِيهِ آبَاءَهُمْ ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ فِيمَا الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعِلْمُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٣٨) فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ. ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى﴾ أَي: إِفْتِرَاءً ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿وَلَكِنْ﴾ أَنْزَلَ ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ﴾

(١) الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً في القرآن كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وقوله: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٢) [الأعلى: ٢-٣]، وفعل الهداية يجيء متعدياً بـ «اللام» و «إلى» وهما بمعنى واحد، روى ذلك عن الزجاج. وقيل: كما يعدي بـ «إلى» لتضمنه معنى الانتهاء باللام للدلالة على أن المنتهى غاية الهداية والمعنى متقارب، وقد يحذف الحرف تخفيفاً وقد جمع بين المتعديين هنا بحرف الجر، فعدي الأول والثالث بـ «إلى» والثاني بـ «اللام» والتعدي بهذين الحرفين من باب التنفيس في البلاغة، ولذلك قال الزمخشري: هذاه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين، والمراد بالحق في المواضع الثلاثة ضد الباطل. ولما كانوا جاهلين بالجواب الحق في ذلك أو معاندين أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب بقوله: ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ (اللَّهُ) الَّذِي لَهُ الْإِحَاطَةُ الْكَامِلَةُ ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ من يشاء دون غيره ممن زعمتموهم شركاء، ودليل ذلك ما تقدم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات وإرساله للرسول وإنزاله للكتب، وخلق له لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام والأسماع والأبصار. [صديق حسن (٥٩/٦)].

(٢) فإن قيل: كيف قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ والصنم لا يتصور أن يهتدي ولا أن يهدي؟ قيل: معنى الهداية في حق الأصنام الانتقال، أي: أنها لا تنتقل من مكان إلى مكان إلا أن تحمل وتنقل، يتبين به عجز الأصنام. وجواب آخر وهو: أن ذكر الهداية على وجه المجاز، وذلك أن المشركين لما اتخذوا الأصنام آلهة وأنزلوها منزلة من يسمع ويعقل عبر عنها بما يعبر عن من يعلم ويعقل. [البغوي (١٣٣/٤)].

تَبَيَّنَ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ، مِنْ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿تَصْدِيقٍ﴾ أَوْ بِ
 «أُنْزِلَ» الْمَحْذُوفِ، وَقُرِئَ^(١) بِرَفْعِ ﴿تَصْدِيقٍ﴾ وَ ﴿وَتَفْصِيلٍ﴾ بِتَقْدِيرِ: «هُوَ» ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾
 اخْتَلَقَهُ مُحَمَّدٌ؟ ﴿قُلْ فَاتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ، وَالْبَلَاغَةِ، عَلَى وَجْهِ الْإِفْتِرَاءِ، فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُونَ فَصَحَاءُ مِثْلِي
 ﴿وَادْعُوا﴾ لِلْإِعَانَةِ عَلَيْهِ ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ فِي أَنَّهُ إِفْتِرَاءٌ فَلَمْ
 يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ وَلَمْ يَتَدَبَّرُوهُ ﴿وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَأْتِيهِمْ
 تَأْوِيلُهُ﴾ عَاقِبَةُ مَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴿كَذَلِكَ﴾ التَّكْذِيبِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُمْ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ، أَيُّ: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ؟ فَكَذَلِكَ يَهْلِكُ هَؤُلَاءِ. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ
 ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ لِعِلْمِ اللَّهِ ذَلِكَ مِنْهُمْ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أَبَدًا ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ تَهْدِيدٌ
 لَهُمْ. ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِلَى عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أَيُّ: لِكُلِّ جَزَاءٍ عَمَلِهِ ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا
 بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤١﴾ وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ^(٢). ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴿أَفَأَنْتَ
 تُسْمِعُ الصَّمَّمَ﴾ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴿وَلَوْ كَانُوا﴾ مَعَ الصَّمَمِ ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ يَتَدَبَّرُونَ.
 ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ شَبَّهَهُمْ بِهِمْ فِي عَدَمِ الْإِهْتِدَاءِ بَلْ أَعْظَمُ،
 ﴿فَاتَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا
 وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ كَأَنَّ أَيُّ: كَانَتْهُمْ ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي الدُّنْيَا أَوْ الْقُبُورِ ﴿إِلَّا سَاعَةً
 مِنَ النَّهَارِ﴾ لِهَوْلِ مَا رَأَوْا، وَجُمْلَةُ التَّشْبِيهِ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَعْرِفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِذَا بَعُثُوا، ثُمَّ
 يَنْقَطِعُ التَّعَارُفُ لِشِدَّةِ الْأَهْوَالِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَوْ مُتَعَلِّقٌ بِالظَّرْفِ^(٣) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾

(١) قراءة شاذة.

(٢) وقد قيل إن هذا منسوخ بآية السيف لما فيه من إيهام الإعراض عنهم وتخلية سبيلهم كما ذهب إليه جماعة من المفسرين منهم مقاتل
 والكلبي، وعن ابن زيد قال: أمره الله بهذا ثم نسخه فأمره بجهادهم. قال الرازي: وهو بعيد لأن شرط النسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ،
 ومدلول الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب وآية القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، بل هو
 باق فكان القول بالنسخ باطلاً. [صديق حسن (٦/٦٧)].

(٣) المراد باللبث هو اللبث في الدنيا، وقيل: في القبور، استقلوا المدة الطويلة إما لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا فجعلوا وجودها كالعدم،
 أو استقصروها للدهش والحيرة، أو لطول وقوفهم في المحشر، أو لشدة ما هم فيه من العذاب، نسوا لذات الدنيا وكأنها لم تكن ومثل هذا

بِالْبَعْثِ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ ٤٥ ﴿وَأَمَّا فِيهِ إِدْعَاؤُ نُونٍ﴾ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الْمَزِيدَةُ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيُّ: فَذَلِكَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قَبْلَ تَعْدِيهِمْ ﴿فَالَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ مُطْلَعٌ ﴿عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ ٤٦ ﴿مِنْ تَكْذِيبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، فَيُعَذِّبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ. ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنْ الْأُمَمِ﴾ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُ ﴿قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ، فَيُعَذَّبُونَ وَيُنَجَّى الرَّسُولُ وَمَنْ صَدَّقَهُ ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ ٤٧ ﴿بِتَعْدِيهِمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ، فَكَذَلِكَ نَفْعَلُ بِهَؤُلَاءِ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٨ ﴿فِيهِ. ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا﴾ أَدْفَعُهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أَجْلِبُهُ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ يُقْدِرَنِي عَلَيْهِ، فَكَيْفَ أَمْلِكُ لَكُمْ حُلُولَ الْعَذَابِ؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مُدَّةٌ مَعْلُومَةٌ لِهَلَاكِهِمْ ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَخِرُونَ﴾ يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ٤٩ ﴿يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهِ. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿بَيْنَاتًا﴾ لَيَالًا ﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا﴾ أَيُّ شَيْءٍ ﴿يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ أَيُّ: الْعَذَابِ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ ٥٠ ﴿الْمُشْرِكُونَ؟ فِيهِ وَضَعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ، وَجُمْلَةُ الْإِسْتِفْهَامِ جَوَابُ الشَّرْطِ؛ كَقَوْلِكَ: «إِنْ أَتَيْتَكَ مَاذَا تُعْطِينِي؟»

قولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، أو لأن مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة قليل جداً. والمقصود من هذا التشبيه كما قاله أبو السعود بيان كمال سهولة الحشر بالنسبة إليه تعالى ولو بعد دهر طويل، وإظهار بطلان استبعادهم وإنكارهم له بقولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَعْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] ونحو ذلك، أو بيان تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور فإن اللبث اليسير يلزمه عدم التبدل والتغير. والمراد بالساعة الزمن القليل فإنها مثل في غاية القلة وتخصيصها بالنهار لأن ساعاته أعرف حالاً من ساعات الليل. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلاً، بيان وتقرير لما سبق وذلك يقع في الحشر الذي هو الاجتماع، أَيُّ: في ابتدائه وينقطع في أثائه، وقيل: عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لما بين أيديهم من الأمور المدهشة للعقول المذهلة للأفهام، وأما البعث فلا تعارف فيه لعدم الاجتماع الذي هو لازمه. وهذا أحد وجهين في المقام ذكره البيضاوي وأبو البقاء، وغالب المفسرين على خلافه وهو تفسير الحشر بالبعث من القبور وجرى على هذا أبو السعود والخازن والقرطبي، وقيل: أن هذا التعارف هو تعارف التوبيخ والتقريع يقول بعضهم لبعض أنت أضللتني وأغويتني، لا تعارف شفقة ورأفة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فيجتمع بأن المراد بالتعارف هو تعارف التوبيخ، وعليه يحمل قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ [الأعراف: ٣٨] الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية، قال القرطبي: وهو الصحيح. وقد جمع بين الآيات المختلفة في مثل هذا وغيره بأن المواقف يوم القيامة مختلفة فقد يكون في بعض المواقف ما لا يكون في الآخر. [صديق حسن (٩٦/٦)].

وَالْمُرَادُ بِهِ التَّهْوِيلُ، أَي: مَا أَعْظَمَ مَا اسْتَعْجَلُوهُ. ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ حَلَّ بِكُمْ ﴿ءَامَنْتُمْ بِهِ﴾ أَي: اللَّهُ، أَوِ الْعَذَابِ عِنْدَ نَزْوِلِهِ، وَالْهَمْزَةُ لِانْكَارِ التَّأخِيرِ، فَلَا يُقْبَلُ مِنْكُمْ، وَيُقَالُ لَكُمْ: ﴿ءَالْتَنَ﴾ تَوْمُونٌ ﴿وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ اسْتَهْزَأَ. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أَي: الَّذِي تَخْلُدُونَ فِيهِ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿تُحْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءً ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ ﴿يَسْتَخْبِرُونَكَ﴾ ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أَي: مَا وَعَدْتَنَا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْبَعْثُ ﴿قُلْ إِي﴾ نَعَمْ ﴿وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ بِفَاتَيْنِ الْعَذَابِ. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كَفَرَتْ ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْأَمْوَالِ ﴿لَأُفْتَدَتْ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ﴾ عَلَى تَرْكِ الْإِيمَانِ ﴿لَمَّا رَأُوا الْعَذَابَ﴾ أَخْفَاهَا رُؤُسَاؤُهُمْ عَنِ الضُّعْفَاءِ الَّذِينَ أَضَلُّوهُمْ مَخَافَةَ التَّغْيِيرِ ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ شَيْئًا. ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ﴿حَقٌّ﴾ ثَابِتٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَي: النَّاسِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ. ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ فِي الْآخِرَةِ فَيَجْازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِدُهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ كِتَابٌ فِيهِ مَا لَكُمْ وَمَا عَلَيْكُمْ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَشَفَاءٌ﴾ دَوَاءٌ ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ مِنَ الْعَقَائِدِ الْفَاسِدَةِ وَالشُّكُوكِ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالِ ﴿وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ بِهِ. ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ﴾ الْإِسْلَامِ ﴿وَبِرَحْمَتِهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَبِذَلِكَ﴾ الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ﴿فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ مِنَ الدُّنْيَا، بَالِيَاءَ وَالتَّاءُ. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ خَلَقَ ﴿لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا﴾ كَالْبَحِيرَةِ وَالسَّائِبَةِ وَالْمَيْتَةِ ﴿قُلْ ءَاللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فِي ذَلِكَ بِالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ؟ لَا ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ تَكْذِبُونَ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ. ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى

(١) قيل: كلا الضميرين للقرآن، و﴿إِي﴾ بمعنى: نعم، وهو من لوازم القسم ولذلك يوصل بواوه في التصديق فيقال: ﴿إِي والله﴾ ولا يقال إِي وحده. [البضاوي (١١٦/٣)].

(٢) والأولى حمل الفضل والرحمة على العموم، ويدخل في ذلك ما في القرآن منهما دخولاً أولاً. فالمراد بالفضل من الله سبحانه تفضله على عباده في الآجل والعاجل بما لا يحيط به الحصر، والرحمة رحمته لهم. [صديق حسن (٨٣/٦)].

(٣) عبر عن إعطاء الرزق بالإنزال لأن معظم أموالهم كانت الثمار والأعنان والحبوب، وكلها من آثار المطر الذي هو نازل من السحاب بتكوين الله، فأسند إنزاله إلى الله بهذا الاعتبار، ومعظم أموالهم الأنعام، وحياتها من العشب والكأ وهي من أثر المطر، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿١﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٣﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٤﴾ وَعَبْنَا وَقَضَبًا ﴿٥﴾ وَرَزَقْنَاهَا نَخْلًا ﴿٦﴾ وَحَدَائِقِ غُلَبًا ﴿٧﴾ وَفَيْكَةً وَأَبًّا ﴿٨﴾ مَتَلَعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِيكُمْ ﴿٩﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]. [ابن عاشور (٢٠٩/١١)].

اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿أَيُّ شَيْءٍ ظَنُّهُمْ بِهِ﴾ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّهُ لَا يَعَافِيهِمْ؟ لَا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بِإِمَاهِهِمْ، وَالْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿وَمَا تَكُونُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِي شَأْنٍ﴾ أَمْرٍ ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ﴾ أَيُّ: مِنَ الشَّأْنِ، أَوِ اللَّهِ ﴿مِنْ قُرْءَانٍ﴾ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ خَاطَبَهُ وَأُمَّتُهُ ﴿مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ رُقَبَاءَ ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ تَأْخُذُونَ ﴿فِيهِ﴾ أَيُّ: الْعَمَلِ ﴿وَمَا يَعْرُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ﴾ وَزْنٍ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرَ نَمْلَةٍ ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿بَيْنَ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ﴾ ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ هُمْ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿اللَّهُ بِامْتِحَالِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ﴾ ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَسَرَتْ فِي حَدِيثٍ صَحَّحَهُ الْحَاكِمُ بِ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةِ يَرَاهَا الرَّجُلُ، أَوْ تَرَى لَهُ»^(١). ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ بِالْجَنَّةِ وَالنَّوَابِ^(٢) ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لَا خُلْفَ لِمَوَاعِيدِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ لَكَ: لَسْتَ مُرْسَلًا، وَغَيْرُهُ ﴿إِنْ﴾ اسْتِنَافُ ﴿الْعِزَّةِ﴾ الْقُوَّةُ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿بِالْفِعْلِ فَيَجَازِيهِمْ، وَيَنْصُرُكَ﴾ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ عَبِيدًا وَمُلْكًا وَخَلْقًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ أَصْنَامًا ﴿شُرَكَاءَ﴾ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ أَيُّ: ظَنُّهُمْ أَنَّهَا إِلَهَةٌ تَشْفَعُ لَهُمْ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ﴿يَكْذِبُونَ فِي ذَلِكَ﴾. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾ إِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مَجَازٌ؛ لِأَنَّهُ يُبْصَرُ فِيهِ ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعٌ تَدَبُّرٌ وَاتِّعَاضٌ. ﴿قَالُوا﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قَالَ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ عَنِ الْوَلَدِ ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُ الْوَلَدَ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ﴾ حُجَّةٍ ﴿بِهَذَا﴾ الَّذِي تَقُولُونَهُ ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ﴾. ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بِنِسْبَةِ

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣٨٩٨)، وأحمد (٢٢٦٨٨).

(٢) أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق. وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشري بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم. [السعدي ص: ٣٦٨].

الْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ ٦٩ ﴿لَا يَسْعُدُونَ لَهُمْ﴾ ﴿مَتَّعٌ﴾ قَلِيلٌ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بِالْمَوْتِ ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ ٧٠ * ﴿وَاتْلُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿نَبَأٌ﴾ خَبَرَ ﴿نُوحٌ﴾ وَيُبْدِلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ﴾ شَقٌّ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مَقَامِي ﴿لُبِّي فِيكُمْ﴾ ﴿وَتَذَكِيرِي﴾ وَعُظِي إِيَّاكُمْ ﴿بَيَّأَيْتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ إِعْزِمُوا عَلَى أَمْرِ تَفْعَلُونَهُ بِي ﴿وَشُرَّكَاءَكُمْ﴾ الْوَاوُ بِمَعْنَى: «مَعَ» ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ مُسْتَوْرًا، بَلْ أَظْهِرُوهُ وَجَاهِرُونِي بِهِ ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ اِمْضُوا فِيمَا أَرَدْتُمُوهُ ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ ٧١ ﴿تُمْهِلُونَ، فَإِنِّي لَسْتُ مُبَالِيًا بِكُمْ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عَنْ تَذَكِيرِي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ ثَوَابٍ عَلَيْهِ فَتَوَلَّوْا ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِي﴾ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٧٢ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ السَّفِينَةَ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: مَنْ مَعَهُ ﴿خَلِيفٌ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بِالطُّوفَانِ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُُنْذِرِينَ﴾ ٧٣ ﴿مِنْ إِهْلَاكِهِمْ، فَكَذَلِكَ نَفْعَلُ بِمَنْ كَذَّبَ﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: نُوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كَابِرَاهِيمَ، وَهُودٍ، وَصَالِحٍ ﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: قَبْلَ بَعَثِ الرُّسُلِ إِلَيْهِمْ ﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ﴾ نَخْتِمُ ﴿عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ ٧٤ ﴿فَلَا تَقْبَلُ الْإِيمَانَ، كَمَا طَبَعْنَا عَلَى قُلُوبِ أُولَئِكَ﴾ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ﴾ قَوْمِهِ ﴿بَيَّأَيْتَنَا﴾ السَّعِىَ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ ٧٥ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ٧٦ ﴿بَيْنَ ظَاهِرٍ﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ إِنَّهُ لَسِحْرٌ؟ ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَتَى بِهِ، وَأَبْطَلَ سِحْرَ السَّحَرَةِ ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ﴾ ٧٧ ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلْإِنْكَارِ. ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا﴾ لِنُرْدَنَّا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ الْمُلْكُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٧٨ ﴿مُصَدِّقِينَ﴾. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ٧٩ ﴿فَاتَّقِ فِي عِلْمِ السَّحْرِ﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى بَعْدَ مَا قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّمَا أَنْتُمُ تُقْلِقُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ٨٠ ﴿فَلَمَّا الْقَوْأُ﴾ حَبَالُهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ ﴿قَالَ مُوسَى مَا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ﴾ بَدَلٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِهَمْزَةٍ وَاحِدَةٍ إِنْخَبَارٌ فَ ﴿مَا﴾ مَوْصُولٌ مُبْتَدَأٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ أَيُّ: سَيَمْحَقُهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٨١ ﴿وَيُحِقُّ﴾ يُثَبِّتُ

وَيُظْهِرُ ﴿اللَّهُ أَحَقُّ بِكَلِمَتِهِ﴾ بِمَوَاعِيدِهِ ^(٨١) ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٨٢) فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ طَائِفَةٌ ﴿مِّنْ﴾
 أَوْلَادٍ ﴿قَوْمِهِ﴾ أَي: فِرْعَوْنَ ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ يَصْرِفُهُمْ عَنْ دِينِهِ بِتَعْذِيهِ ﴿وَأَنَّ فِرْعَوْنَ
 لَعَالٍ﴾ مُتَكَبِّرٌ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَأَنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ^(٨٣) الْمُتَجَاوِزِينَ الْحَدَّ بِادْعَاءِ الرُّبُوبِيَّةِ. ﴿وَقَالَ
 مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ^(٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً
 لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ^(٨٥)﴾ أَي: لَا تُظْهِرْهُمْ عَلَيْنَا، فَيُظَنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ فَيَفْتِنُونَا بِنَا ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ﴾ ^(٨٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾
 مُصَلًّى تَصَلُّونَ فِيهِ؛ لِتَأْمِنُوا مِنَ الْخَوْفِ، وَكَانَ فِرْعَوْنُ مَنَعَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ ^(٨٧) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَتَمُّوْهَا ﴿وَدَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٨٨) بِالنَّصْرِ وَالْجَنَّةِ. ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 رَبَّنَا آتَيْتَهُمْ ذَلِكَ ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ فِي عَاقِبَتِهِ ﴿عَنْ سَبِيلِكَ﴾ دِينِكَ ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ امْسَحْهَا ﴿وَأَشْدُدْ
 عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ اطْبَعْ عَلَيْهَا وَاسْتَوْتِقْ ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ^(٨٩) الْمُؤْلَمَ، دَعَا عَلَيْهِمْ وَأَمَّنَ هَارُونُ
 عَلَى دُعَائِهِ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ فَمُسِخَتْ أَمْوَالُهُمْ حِجَارَةً، وَلَمْ يُؤْمِنْ فِرْعَوْنُ حَتَّى أَدْرَكَهُ
 الْغَرَقُ ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ عَلَى الرِّسَالَةِ وَالِدَّعْوَةِ، إِلَى أَن يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ ﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٩٠) فِي
 اسْتِعْجَالِ قَضَائِي، رُوي أَنَّهُ مَكَثَ بَعْدَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً. ﴿* وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ﴾ لِحَقِّهِمْ
 ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ﴾ أَي: بِأَنَّهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ:
 بِالْكَسْرِ، اسْتِنَافًا ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ﴾ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ^(٩١) ﴿كَرَّرَ لِيُقْبَلَ مِنْهُ فَلَمْ يُقْبَلْ،
 وَدَسَّ جَبْرِيلُ فِيهِ مِنْ حَمَآةِ الْبَحْرِ مَخَافَةَ أَن تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ﴾ ^(٩٢). وَقَالَ لَهُ: ﴿ءَالَسْنِ﴾ تُوْمِنْ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ

(١) ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ التي أنزلها في كتبه على أنبيائه لاشتمالها على الحجج والبراهين، أو بوعده الصادق لموسى أنه يظهره، أو بما سبق من قضاؤه وقدره لموسى أنه يغلب السحرة، أو بأوامره وأحكامه، والأول أولى. [صديق حسن (٦/١٠٧)].

(٢) أي: اجعلوها محلا، تصلون فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع العامة. [السعدي (ص: ٣٧٢)].

(٣) قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما. [ابن كثير

(٤/ ٢٤١)]. وهذا التحديد ليس عليه دليل. قال الرازي: وهذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى وهارون كما أن قوله: ﴿لَيْنُ

أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا يدل على صدور الشرك منه. [صديق حسن (٦/ ١١٥)]

(٤) أخرجه الترمذي (٣١٠٧)، والنسائي في السنن الكبرى (١٢٣٨)، وأحمد (٢٨٢٠). بسند ضعيف وصح عن ابن عباس موقوفاً.

مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ بِضَلَالِكَ وَإِضْلَالِكَ عَنِ الْإِيمَانِ^(١). ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نُخْرِجُكَ مِنَ الْبَحْرِ ﴿بِدَنِكَ﴾ جَسَدِكَ الَّذِي لَا رُوحَ فِيهِ ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ بَعْدَكَ ﴿آيَةً﴾ عِبْرَةً، فَيَعْرِفُوا عُبودِيَّتَكَ وَلَا يُقَدِّمُوا عَلَى مِثْلِ فِعْلِكَ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ شَكُّوا فِي مَوْتِهِ، فَأُخْرِجَ لَهُمْ لَيَرَوْهُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿عَنِ آيَاتِنَا لَغْفِلُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا. ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾ أَنْزَلْنَا ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْوَأَ صِدْقٍ﴾ مَنَزَلَ كَرَامَةٍ، وَهُوَ الشَّامُ وَمِصْرُ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ بِأَن آمَنَ بَعْضُ، وَكَفَرَ بَعْضُ ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، بِإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَعْذِيبِ الْكَافِرِينَ. ﴿فَإِنْ كُنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ مِنَ الْقَصَصِ فَرَضًا ﴿فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ فَإِنَّهُ ثَابِتٌ عِنْدَهُمْ يُخْبِرُونَكَ بِصِدْقِهِ، قَالَ ﷺ: «لَا أَشْكُ، وَلَا أَسْأَلُ»^(٢)، ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ بِالْعَذَابِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَا يَنْفَعُهُمْ حِينُذُ. ﴿فَقُولَا﴾ فَهَلَا ﴿كَانَتْ قَرْيَةً﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿ءَامَنَتْ﴾ قَبْلَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهَا ﴿فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿قَوْمٌ يُؤَسُّسُ لِمَا ءَامَنُوا﴾ عِنْدَ رُؤْيَا أَمَارَةِ الْعَذَابِ، وَلَمْ يُؤَخِّرُوا إِلَى حُلُولِهِ ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ ﴿٩٨﴾ انْقِضَاءِ أَجَالِهِمْ. ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْذِرُ النَّاسَ﴾ بِمَا لَمْ يَشَأَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٩﴾ لَا. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ^(٣) ﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ الْعَذَابَ ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ يَتَدَبَّرُونَ آيَاتِ اللَّهِ. ﴿قُلِ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿أَنْظِرُوا مَاذَا﴾ أَيُّ: الَّذِي ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنَ الْآيَاتِ الدَّلَالَةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ﴾ جَمْعُ نَذِيرٍ، أَيُّ: الرَّسُلُ ﴿عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠١﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ. أَيُّ: مَا تَنْفَعُهُمْ

(١) وإنما لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُفْرَ وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨]. [ابن عاشور (١١/ ٢٧٧)].

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسير القرآن (٢/ ٢٩٨)، والطبري في تفسيره (١١/ ١٦٨).

(٣) يقول تعالى ذكره لنبية: وما كان لنفس خلقتها من سبيل إلى تصديقك يا محمد، إلا بأن أذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله. [الطبري (١٢/ ٢٩٩)].

﴿فَهَلْ﴾ فَمَا ﴿يَنْتَظِرُونَ﴾ بِتَكْذِيبِكَ ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ، أَي: مِثْلَ وَقَائِعِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ﴿قُلْ فَأَنْتَظِرُوا﴾ ذَلِكَ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ ١٣١ ثُمَّ نُنَجِّي الْمُضَارِعَ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ ﴿رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْإِنْجَاءُ ﴿حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٢ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابَهُ، حِينَ تَعَذِّبُ الْمُشْرِكِينَ. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَي: يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أَنَّهُ حَقٌّ ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ وَهُوَ الْأَصْنَامُ؛ لِشَكِّكُمْ فِيهِ ﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٣ وَ﴿قِيلَ لِي﴾: ﴿أَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مَا إِلَّا إِلَهِيهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١٣٤ وَلَا تَدْعُ تَعْبُدُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ﴾ إِنْ عَبْدْتَهُ ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إِنْ لَمْ تَعْبُدْهُ ﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ ذَلِكَ فَرَضًا ١٣٥ ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ١٣٦ وَإِنْ يَمَسُّكَ يُصِيبُكَ ﴿اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ كَفَقَرٍ وَمَرَضٍ ﴿فَلَا كَاشِفٌ﴾ رَافِعٌ ﴿لَهُوَ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ﴾ دَافِعٌ ﴿لِفَضْلِهِ﴾ الَّذِي أَرَادَكَ بِهِ ﴿يُصِيبُ بِهِ﴾ أَي: بِالْخَيْرِ ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٣٧ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ أَي: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لِأَنَّ ثَوَابَ اهْتِدَائِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لِأَنَّ وَبَالَ ضَلَالِهِ عَلَيْهَا ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ١٣٨ فَأَجْبِرْكُمْ عَلَى الْهُدَى. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ مِنْ رَبِّكَ ﴿وَاصْبِرْ﴾ عَلَى الدَّعْوَةِ وَأَذَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فِيهِمْ بِأَمْرِهِ ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ١٣٩ أَعْدَلُهُمْ، وَقَدْ صَبَرَ حَتَّىٰ حُكِمَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِالْقِتَالِ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ بِالْجَزْيَةِ.

(١) والمقصود من هذا الخطاب التعريض لغيره ﷺ. [صديق حسن (٦/ ١٣١)]. فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من

الظالمين المشركين فكيف بغيره؟! [السعدي (ص: ٣٧٥)].

سُورَةُ هُودٍ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ الْآيَةَ، وَإِلَّا ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾ الْآيَةَ، وَ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ الْآيَةَ، مِائَةٌ وَثْنَتَانِ أَوْ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١)، هَذَا ﴿كِتَبٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ﴾ بِعَجِيبِ النَّظْمِ، وَبَدِيعِ الْمَعَانِي ﴿ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ بُيِّنْتُ بِالْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاعِظِ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ١ ﴿أَيُّ: أَيُّ: بَانَ لَا ﴿نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ﴾ بِالْعَذَابِ إِنْ كَفَرْتُمْ ﴿وَبَشِيرٌ﴾ ٢ ﴿بِالثَّوَابِ إِنْ آمَنْتُمْ. ﴿وَأِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ مِنَ الشَّرْكِ ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ إِرْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿يُمَتِّعْكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مَتَّعًا حَسَنًا﴾ بِطَيِّبِ عَيْشٍ، وَسِعَةِ رِزْقٍ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هُوَ الْمَوْتُ ﴿وَيُؤْتِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ﴾ فِي الْعَمَلِ ﴿فَضْلُهُ﴾ جَزَاءُهُ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِينَ، أَيُّ: تُعْرِضُوا ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ ٣ ﴿هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٤ وَمِنْهُ الثَّوَابُ وَالْعَذَابُ. وَنَزَلَ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(٢)، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: فِيمَنْ كَانَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَتَخَلَّى، أَوْ يُجَامِعَ فِيْضِي إِلَى السَّمَاءِ، وَقِيلَ فِي الْمُنَافِقِينَ^(٣) ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يَتَغَطُّونَ بِهَا ﴿يَعْلَمُ﴾ تَعَالَى ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فَلَا يُغْنِي إِسْتِخْفَاؤُهُمْ ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ٥ ﴿أَيُّ: بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿وَمَا مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ هِيَ مَا دَبَّ عَلَيْهَا ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ تَكْفُلُ بِهِ فَضْلًا مِنْهُ تَعَالَى ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مَسْكَنَهَا فِي الدُّنْيَا أَوِ الصُّلْبِ ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، أَوْ فِي الرَّحِمِ ﴿كُلُّ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ٦ ﴿بَيْنَ، هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٢).

(٣) يقال: ثنى صدره عن الشيء، إذا أزور وانحرف عنه، فيكون في الكلام كناية عن الإعراض. وقيل: معناه يعطفون صدورهم على ما فيها من الكفر والإعراض عن الحق، وعداوة النبي ﷺ بحيث يكون ذلك مخفياً مستوراً فيها، كما تعطف الثياب على ما فيها من الأشياء المستورة، فيكون في الكلام كناية عن الإخفاء لما يعتقده من الكف كما كان دأب المنافقين، والوجه الثاني أولى، ويؤيده قوله: ﴿لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أَيُّ: من الله فلا يطلع عليه رسوله والمؤمنين، أو من رسول الله ﷺ. [صديق حسن (١٤٠/٦)].

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿أَوَّلَهَا الْأَحَدُ﴾، وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ﴾ قَبْلَ خَلْقِهِمَا ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ وَهُوَ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ ^(١) ﴿لِيَبْلُوكُمْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِخَلْقِ، أَي: خَلَقَهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ مَنَافِعَ لَكُمْ وَمَصَالِحَ لِيُخْتَبِرَكُمْ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَي: أَطْوَعُ لِلَّهِ ﴿وَلَيْنَ قُلْتَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ النَّاطِقُ بِالْبَعْثِ وَالَّذِي تَقُولُهُ ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿بَيْنَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سِحْرٌ﴾ وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ. ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى﴾ مَجِيءٍ ﴿أُمَّةٍ﴾ أَوْقَاتٍ ﴿مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ﴾ اسْتَهِزَاءً ﴿مَا يَحْبِسُهُ﴾ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ النَّزُولِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا﴾ مَدْفُوعًا ﴿عَنْهُمْ وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾. ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ الْكَافِرَ﴾ مِنَّا رَحْمَةً ﴿غَنَى وَصَحَّةٌ﴾ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوسُ ﴿قَنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ ﴿كَفُورٌ﴾ ﴿شَدِيدُ الْكُفْرِ بِهِ﴾. ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ فَقَرٍ وَشِدَّةٍ﴾ مَسْتَهْزِئَةً لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ ﴿الْمَصَائِبُ﴾ ﴿عَنِّي﴾ وَلَمْ يَتَوَقَّعْ زَوَالَهَا، وَلَا شَكَرَ عَلَيْهَا ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ﴾ بِطَرٍّ ﴿فَخُورٌ﴾ ﴿عَلَى النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ﴾. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى الضَّرَّاءِ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فِي النَّعْمَاءِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿هُوَ الْجَنَّةُ﴾. ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ﴾ فَلَا تُبَلِّغُهُمْ إِيَّاهُ لِتَهْوُونَهُمْ بِهِ ﴿وَضَائِقُ بِهِ﴾ صَدْرُكَ ﴿بِتِلَاوَتِهِ عَلَيْهِمْ﴾^(٢)، لِأَجْلِ ﴿أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ يُصَدِّقُهُ كَمَا اقْتَرَحْنَا ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ لَا الْإِتْيَانُ بِمَا اقْتَرَحُوهُ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿حَفِيطٌ فَيَجَازِيهِمْ﴾. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿يَقُولُونَ أَفْتَرَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ﴿مُفْتَرِيَّتٍ﴾ فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُونَ فَصَحَاءُ مِثْلِي، تَحَدَّاهُمْ بِهَا أَوْ لَا ثُمَّ بِسُورَةٍ^(٣) ﴿وَادْعُوا﴾ لِلْمُعَاوَنَةِ

(١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أَنَّهُ سَأَلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، عَلَى أَيِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَاءُ؟ قَالَ: عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ. أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي الْمَصْنُفِ (٩٠٨٩)، وَابْنُ جَرِيرٍ (٣٣٣/١٢)، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ (٢٠٠٥/٦)، وَأَبُو الشَّيْخِ (٢١٢)، وَالْحَاكِمُ (٣٤١/٢)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ (٨٠٢). وَالحديث المأثور عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٤١٨).

(٢) والمقصود بالآية تسليية للنبي ﷺ عن قولهم، حتى يبلغ الرسالة ولا ييالي بهم، وإنما قال: ﴿ضَائِقُ﴾ ولم يقل: «ضيق» ليدل على اتساع صدره عليه السلام وقلة ضيقه. [ابن جُرَيْي (٣٦٦/١)].

(٣) فإن قيل: قد قال في سورة يونس: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨] وقد عجزوا عنه فكيف قال: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ﴾ فهو كرجل يقول لآخر: أعطني درهما فيعجز، فيقول: أعطني عشرة؟ الجواب: قد قيل سورة هود نزلت أولا. وأنكر المبرد هذا، وقال: بل نزلت سورة

عَلَىٰ ذَٰلِكَ ﴿مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٣﴾ فِي أَنَّهُ افْتَرَاءٌ. ﴿فَإِ﴾ ن ﴿لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ أَي: مَنْ دَعَوْتُمُوهُمْ لِلْمُعَاوَنَةِ ﴿فَاعْلَمُوا﴾ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ وَلَيْسَ افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴿وَأَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَي: أَنَّهُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ بَعْدَ هَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ، أَي: أَسْلِمُوا. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ بِأَنْ أَصَرَ عَلَى الشَّرْكِ، وَقِيلَ: هِيَ فِي الْمُرَائِينَ ^(١) ﴿نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَي: جَزَاءَ مَا عَمِلُوهُ مِنْ خَيْرٍ، كَصَدَقَةٍ وَصِلَةٍ رَحِمَ ﴿فِيهَا﴾ بِأَنْ نُوَسِّعَ عَلَيْهِمْ رِزْقَهُمْ ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أَي: الدُّنْيَا ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ ﴿١٥﴾ يُنْقَصُونَ شَيْئًا. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ﴾ بَطَلَ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ هُ ﴿فِيهَا﴾ أَي: الْآخِرَةِ، فَلَا ثَوَابَ لَهُ ﴿وَبَطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ بَيَانٍ ﴿مِّنْ رَبِّهِ﴾ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ الْمُؤْمِنُونَ، وَهِيَ الْقُرْآنُ ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ يَتَّبِعُهُ ﴿شَاهِدٌ﴾ لَهُ بِصِدْقِهِ ﴿مِّنْهُ﴾ أَي: مِنْ اللَّهِ وَهُوَ جَبْرِيلُ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿كِتَابُ مُوسَى﴾ التَّوْرَةُ، شَاهِدٌ لَهُ أَيُّضًا ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حَالٌ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَا ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أَي: مَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ، فَلَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿جَمِيعَ الْكُفَّارِ﴾ فَالْنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ شَكٍّ ﴿مِّنْهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَي: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَي: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾ جَمْعُ شَاهِدٍ، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، يَشْهَدُونَ لِلرَّسُلِ بِالْبَلَاغِ، وَعَلَى الْكُفَّارِ بِالْكَذِبِ ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ الْمُشْرِكِينَ. ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ يَطْلُبُونَ السَّبِيلَ ﴿عَوَجًا﴾ مُعْوَجَةً ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿كَافِرُونَ﴾ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ ﴿اللَّهُ﴾ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ ﴿أَي: غَيْرُهُ﴾ ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أَنْصَارٍ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَابِهِ ﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بِإِضْلَالِهِمْ غَيْرُهُمْ ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لِلْحَقِّ ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ هُ، أَي: لِفِرَاطِ كَرَاهَتِهِمْ لَهُ كَانَتْهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ذَٰلِكَ. ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ عَلَى اللَّهِ مِنْ

يونس أولاً، وقال: معنى قوله في سورة يونس: ﴿فَأَنذَرْتُ نِسُورَةً مِّثْلَهُ﴾ أَي: مثله في الخبر عن الغيب والأحكام والوعد والوعيد، فعجزوا فقال لهم في سورة هود: إن عجزتم عن الإتيان بسورة مثله في الأخبار والأحكام والوعد والوعد فاتوا بعشر سور مثله من غير خبر ولا وعد ولا وعيد، وإنما هي مجرد البلاغة. [البغوي (٤/ ١٦٥)].

(١) والأول أرجح؛ لتقدم ذكر الكفار المناقضين للقرآن. [ابن جزي (١/ ٣٦٧)].

دَعَوَى الشَّرِيكَ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا ﴿سَكَنُوا وَاطْمَأْنَنُوا، أَوْ أَنَابُوا﴾ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ ﴿صِفَةُ﴾ ﴿الْفَرِيقَيْنِ﴾ الْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْبَحِ﴾ هَذَا مَثَلُ الْكَافِرِ ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ هَذَا مَثَلُ الْمُؤْمِنِ ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لَا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٤﴾ فِيهِ إِدْعَاؤُ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّلَالِ تَتَعَطُّونَ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ۖ أَيْ: بَنِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْكَسْرِ عَلَىٰ حَذْفِ الْقَوْلِ ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢٥﴾﴾ بَيْنَ الْإِنذَارِ. ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ عَبْدْتُمْ غَيْرَهُ ﴿عَذَابَ يَوْمِ إِلِيمٍ ٢٦﴾ مُؤْلِمٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ۖ وَهُمْ الْأَشْرَافُ﴾ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴿وَلَا فَضْلَ لَكَ عَلَيْنَا﴾ وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنَّا سَافِلُونَ، كَالْحَاكَةِ وَالْأَسَافَةِ ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ، أَيْ: ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ تَفَكُّرٍ فِيكَ، وَنَصْبُهُ عَلَى الظَّرْفِ، أَيْ: وَقْتُ حَدُوثِ أَوَّلِ رَأْيِهِمْ ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فَتَسْتَحِقُّونَ بِهِ الْإِتْبَاعَ مِنَّا ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبِينَ ٢٧﴾ فِي دَعْوَى الرِّسَالَةِ، أَدْرَجُوا قَوْمَهُ مَعَهُ فِي الْخِطَابِ. ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبَرُونِي ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ ﴿مَنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً﴾ نُبُوَّةٌ ﴿مَنْ عِنْدَهُ فَعَمِيَتْ﴾ خَفِيَتْ ﴿عَلَيْكُمْ﴾

(١) جمع أرذل وهم سفلة الناس، وإنما وصفوهم بذلك لفقرهم، جهلاً منهم واعتقاداً أن الشرف هو بالمال والجاه، وليس الأمر كما اعتقدوا، بل المؤمنون كانوا أشرف منهم على حال فقرهم وخمولهم في الدنيا... واختار ابن عطية أنهم أرادوا أنهم أرادل في أفعالهم لقول نوح: ﴿وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١٢]. [ابن جزي (١/٣٦٨)].

(٢) «بادي» قرأه أبو عمرو بالهمزة، والباقون بالياء. فأما الأول فمعناه: أول الرأي. بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل، أول وهلة. وأما الثاني: فيحتمل أن أصله ما تقدم، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو، كعلا يعلو. والمعنى: ظاهر الرأي دون باطنه، ولو تؤمل لعرف باطنه، وهو في المعنى كالأول... ولا خفاء في أنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، بل أتباعه هم الأشراف، ولو كانوا فقراء، والذين يابونه هم الأدنون، ولو كانوا أغنياء. وفي الغالب، ما يتبع الحق إلا ضعفة الخلق، كما يغلب على الكبراء مخالفته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] ولما سأل هرقل ملك الروم، أبا سفيان عن نعوت النبي ﷺ، قال لهم فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال هرقل: هم أتباع الرسل. أخرجه البخاري (٧). وأما البدار لاعتناق الحق فهو من أسمى الفضائل؛ لأن الحق إذا وضح فلا يبقى للرأي ولا للفكر مجال، ولا بد من اتباعه حالئذ لكل ذي فطنة، ولا يتردد إلا غبي أو عبي، ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام. [القاسمي (٨٧/٦)].

(٣) أي: على يقين وأمر جلي، ونبوة صادقة، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم. [ابن كثير (٤/٣١٧)].

وَفِي قِرَاءَةٍ: بِشَدِيدِ الْمِيمِ وَالْبَاءِ لِلْمَفْعُولِ ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مَكْمُومًا﴾ أَنْزَلْنَاهُمْ عَلَى قُبُولِهَا ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَرِهُونَ﴾ ٢٨ ﴿لَا تَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ﴾. ﴿وَيَقُومُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿مَالًا﴾ تُعْطُونِيهِ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِي﴾ ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَمَا أَمَرْتُمُونِي ﴿إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ فَيَجَازِيهِمْ وَيَأْخُذُ لَهُمْ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ وَطَرَدَهُمْ ﴿وَلَكِنِّي أَرْبُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ٢٩ ﴿عَاقِبَةُ أَمْرِكُمْ﴾. ﴿وَيَقُومُ مَنْ يَنْصُرُنِي﴾ يَمْنَعُنِي ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: عَذَابِهِ ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أَي: لَا نَاصِرَ لِي ﴿أَفَلَا﴾ فَهَلَا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ ٣٠ ﴿بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ تَعِظُونَ﴾. ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا إِنِّي﴾ أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ﴿بَلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي تَحْتَفِرُ ﴿أَعَيْنُكُمْ لَنْ يُوْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ قُلُوبِهِمْ ﴿إِنِّي إِذَا﴾ إِنْ قُلْتُ ذَلِكَ ﴿لِلْمَنِ الظَّالِمِينَ﴾ ٣١ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا ﴿خَاصَمْتَنَا﴾ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴿بِهِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣٢ ﴿فِيهِ﴾. ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيَكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ تَعْجِيلُهُ لَكُمْ، فَإِنَّ أَمْرَهُ إِلَيْهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ٣٣ بِفَاتَيْنِ اللَّهِ. ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أَي: إِغْوَاءَكُمْ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٣٤. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَمْ يَقُولُونَ ﴿أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ﴾ أَفْتَرَنَاهُ ﴿إِخْتَلَقَ مُحَمَّدٌ الْقُرْآنَ﴾ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي ﴿إِثْمِي﴾، أَي: عُقُوبَتُهُ ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ ٣٥ ﴿مِنْ إِجْرَامِكُمْ فِي نِسْبَةِ الْإِفْتِرَاءِ إِلَيَّ﴾. ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ تَحْزَنُ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ٣٦ ﴿مِنَ الشَّرْكِ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرُ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦] إِلَى آخِرِهِ، فَأَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ. وَقَالَ: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ﴾ السَّفِينَةَ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بِمَرَأَى مِنَّا وَحِفْظِنَا ﴿وَوَحِينَا﴾ أَمْرَنَا ٣٧ ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا بِتَرْكِ إِهْلَاكِهِمْ ﴿إِنَّهُمْ مُعْرِفُونَ﴾ ٣٨ وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ ﴿حِكَايَةُ حَالِ مَاضِيَةٍ﴾ وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأُ ﴿جَمَاعَةً﴾ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴿إِسْتَهْزَؤُوا بِهِ﴾ قَالَ إِنْ تَسَخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسَخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسَخَرُونَ ٣٩ ﴿إِذَا نَجَوْنَا وَغَرِقْتُمْ﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن مَّوْصُولُهُ، مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ﴾ يَنْزِلُ ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ٤٠ ﴿دَائِمٌ﴾. ﴿حَتَّى﴾ غَايَةُ

(١) وقد اختلف المفسرون في هذه الآية فقليل: أنها حكاية عن نوح وما قاله لقومه، وقيل: هي حكاية عن المحاورة الواقعة بين نبينا محمد ﷺ وكفار مكة قاله مقاتل، فعلى هذا تكون الآية معترضة في قصة نوح، والأول أولى؛ لأن الكلام قبلها وبعدها مع نوح عليه السلام.

[الشوكاني (٢/ ٥٦٤)].

(٢) أي: إليك، كيف تصنعها، وتعليمنا وإلهامنا. قيل: لم يكن قبله سفينة. [القاسمي (٦/ ٩٢)].

لِلصُّنْعِ ﴿إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَفَارَ التَّنُورُ﴾ لِلْخَبَازِ بِالْمَاءِ^(١)، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لَّنُوحٍ ﴿فُلْنَا أَحْمِلَ فِيهَا﴾ فِي السَّفِينَةِ ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، أَي: مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِهِمَا ﴿اثنَيْنِ﴾ ذَكَرًا وَأُنْثَى وَهُوَ مَفْعُولٌ، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ اللَّهَ حَشَرَ لَّنُوحٍ السَّبَاعَ وَالطَّيْرَ وَغَيْرَهَا، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِيَدِهِ فِي كُلِّ نَوْعٍ، فَتَقَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَرِ وَالْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى، فَيَحْمِلُهَا فِي السَّفِينَةِ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أَي: زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أَي: مِنْهُمْ بِالْإِهْلَاكِ، وَهُوَ وَلَدُهُ كَنْعَانُ^(٢) وَزَوْجَتُهُ وَاعِلَّةٌ، بِخِلَافِ سَامٍ وَحَامٍ وَيَافِثَ فَحَمَلَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمُ الثَّلَاثَةَ ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣) قِيلَ: كَانُوا سِتَّةَ رِجَالٍ وَنِسَاءَهُمْ، وَقِيلَ: جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانُونَ نِصْفُهُمْ رِجَالٌ وَنِصْفُهُمْ نِسَاءٌ ﴿*وَقَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ هَجْرُهَا وَمَرْسَلُهَا﴾ بِفَتْحِ الْمِيمَيْنِ^(٤)، وَضَمِّهِمَا مُصْدَرَانِ، أَي: جَرِيْهَا وَرَسُوْهَا، أَي: مُتَتَّهِ سَيْرِهَا ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٥) حَيْثُ لَمْ يَهْلِكْنَا. ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ فِي الِارْتِفَاعِ وَالْعِظَمِ ﴿وَنَادَى نُوحٌ أَبْنَاهُ﴾ كَنْعَانُ ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عَنِ السَّفِينَةِ ﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾^(٦) قَالَ سَأَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي يَمْنَعُنِي ﴿مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ عَذَابِهِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ رَّحِمَ﴾ اللَّهُ فَهُوَ الْمَعْصُومُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾^(٧) وَقِيلَ يَنَارُضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ ﴿الَّذِي نَبَعَ مِنْكَ، فَشَرِبَتْهُ دُونَ مَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ، فَصَارَ أَنْهَارًا وَبَحَارًا﴾ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي ﴿أَمْسِكِي عَنِ الْمَطَرِ، فَأَمْسَكَتْ﴾ وَغِيضٌ ﴿نَقَصَ﴾ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴿تَمَّ أَمْرُ هَلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ وَأُسْتُوتُ ﴿وَقَفَّتْ السَّفِينَةُ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ جَبَلٍ بِالْجَزِيرَةِ، بِقُرْبِ الْمَوْصِلِ ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ هَلَاكًا ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(٨) الْكَافِرِينَ^(٩).

(١) اختلفوا في التنور، قال عكرمة والزهري: هو وجه الأرض، وذلك أنه قيل لنوح: إذا رأيت الماء فار على وجه الأرض فاركب السفينة.

وروي عن علي عليه السلام أنه قال: فار التنور، أي: طلع الفجر ونور الصبح. وقال الحسن ومجاهد والشعبي: إنه التنور الذي يخبز فيه، وهو قول

أكثر المفسرين. [السمعاني (٢/٤٢٨)].

(٢) وهو غير جد الكنعانيين العرب.

(٣) قراءة شاذة.

(٤) أطبق علماء البلاغة على أن هذه الآية الشريفة بالغه من الفصاحة والبلاغة إلى محل يتقاصر عن الوصف وتضعف عن الإتيان بما

يقاربه قدرة القادرين على فنون البلاغة الثابتين الأقدام في علم البيان، الراسخين في اللغة المطلعين على ما هو مدون من خطب مصاقع

خطباء العرب وأشعار بواقع شعرائهم المرتاضين بدقائق علوم العربية وأسرارها. قال الصاوي وسليمان الجمل: قال بعضهم: هذه الآية

أبلغ آية في القرآن باحتوائها على أحد وعشرين نوعاً من أنواع البديع، والحال أن كلماتها تسعة عشر، انتهى. [صديق حسن (٦/١٩٠)].

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي﴾ كُنْعَانَ ﴿مِنْ أَهْلِي﴾ وَقَدْ وَعَدْتَنِي بِنَجَاتِهِمْ ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ الَّذِي لَا خُلْفَ فِيهِ ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكَمِينَ﴾ ٤٥ ﴿أَعْلَمُهُمْ وَأَعْدَلُهُمْ﴾. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿يَنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ النَّاجِينَ، أَوْ مِنْ أَهْلِ دِينِكَ ﴿إِنَّهُ﴾ أَيُّ: سُؤَالَكَ إِيَّاي بِنَجَاتِهِ ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ فَإِنَّهُ كَافِرٌ، وَلَا نَجَاةَ لِلْكَافِرِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ مِيمٍ ﴿عَمِلَ﴾ فِعْلٌ، وَنَصَبٍ ﴿غَيْرَ﴾ فَالضَّمِيرُ لـ «ابْنِهِ» ٤٦ ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ مِنْ إِنْجَاءِ ابْنِكَ ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٤٧ ﴿سُؤَالَكَ مَا لَمْ تَعْلَمْ﴾. ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُودُ بِكَ﴾ مِنْ ﴿أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرَ لِي﴾ مَا فَرَطَ مِنِّي ﴿وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ٤٨ ﴿قِيلَ يَنُوحُ أَهْبِطْ﴾ انْزِلْ مِنَ السَّفِينَةِ ﴿بِسَلَامٍ﴾ بِسَلَامَةٍ أَوْ بِتَحِيَّةٍ ﴿مَتَا وَبَرَكَاتٍ﴾ خَيْرَاتٍ ﴿عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ فِي السَّفِينَةِ، أَيُّ: مِنْ أَوْلَادِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَأُمَمٌ﴾ بِالرَّفْعِ مِمَّنْ مَعَكَ ﴿سَمِيعَةً﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٤٩ ﴿فِي الْآخِرَةِ، وَهُمْ الْكَافِرُونَ﴾. ﴿تِلْكَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْآيَاتُ الْمُتَضَمِّنَةُ قِصَّةَ نُوحٍ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أَخْبَارٍ مَا غَابَ عَنْكَ ﴿نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الْقُرْآنَ ﴿فَاصْبِرْ﴾ عَلَى التَّبْلِغِ وَأَذَى قَوْمِكَ، كَمَا صَبَرَ نُوحٌ ﴿إِنَّ الْعُقَبَةَ﴾ الْمَحْمُودَةَ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٥٠ ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ ﴿مِنَ الْقَبِيلَةِ﴾ هُودًا قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحُدُودُهُ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿إِلَّا غَيْرُهُ﴾ ٥١ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنْتُمْ﴾ فِي عِبَادَتِكُمْ الْأَوْثَانِ ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ ٥٢ ﴿كَاذِبُونَ عَلَى اللَّهِ﴾. ﴿يَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿أَجْرًا إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خَلَقَنِي ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ٥٣ وَيَقَوْمُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴿مِنْ الشِّرْكِ﴾ ﴿ثُمَّ تَوْبُوا﴾ ارْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ الْمَطَرَ، وَكَانُوا قَدْ مُنِعُوهُ ﴿عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ كَثِيرَ الدَّرُورِ ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى﴾ مَعَ ﴿قُوَّتِكُمْ﴾ بِالْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ ٥٤ ﴿مُشْرِكِينَ﴾. ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بُرْهَانٍ عَلَى قَوْلِكَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ﴾ أَيُّ: لِقَوْلِكَ ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ٥٥ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿نَقُولُ﴾ فِي شَأْنِكَ ﴿إِلَّا أَعْتَرْنَاكَ﴾ أَصَابَكَ ﴿بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ فَخَبَلَكَ لِسَبِّكَ إِيَّاهَا، فَأَنْتَ تَهْذِي ﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ﴾ عَلَيَّ ﴿وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ٥٦ ﴿هُ﴾ بِهِ. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ فَكَيْدُونِي ﴿إِحْتَالُوا فِي﴾

(١) فيه ثلاث تأويلات على قراءة الجمهور: أحدها: أن يكون الضمير في إنه لسؤال نوح نجات ابنه، والثاني: أن يكون الضمير لابن نوح وحذف المضاف من الكلام تقديره: إنه ذو عمل غير صالح، والثالث: أن يكون الضمير لابن نوح، وعمل: مصدر وصف به مبالغة كقولك: رجل صوم، وقرأ الكسائي ﴿عَمَلٌ﴾ بفعل ماضٍ «غير صالح» بالنصب، والضمير على هذا لابن نوح بلا إشكال. [ابن جزي (١/ ٣٧٢)].

هَلَاكِي ﴿جَمِيعًا﴾ أَنْتُمْ وَأَوْثَانُكُمْ ﴿ثُمَّ لَا تَنْظُرُونَ﴾ ٥٥ ﴿تُمْهَلُونَ﴾ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ زَائِدَةٍ ﴿دَابَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ ﴿إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أَيُّ: مَالِكُهَا وَقَاهِرُهَا، فَلَا نَفْعَ وَلَا ضَرَرَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَخَصَّ النَّاصِيَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَخَذَ بِنَاصِيَتِهِ يَكُونُ فِي غَايَةِ الذُّلِّ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ٥٦ ﴿أَيُّ: طَرِيقَ الْحَقِّ، وَالْعَدْلِ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِينَ، أَيُّ: تُعْرِضُوا ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ بِإِشْرَاكِكُمْ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ ٥٧ ﴿رَقِيبٌ. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿نَجِّنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ ﴿هِدَايَةٍ﴾ مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٥٨ ﴿شَدِيدٍ. ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى آثَارِهِمْ، أَيُّ: فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ وَانظُرُوا إِلَيْهَا ٥٩، ثُمَّ وَصَفَ أَحْوَالَهُمْ فَقَالَ: ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ جَمَعَ؛ لِأَنَّ مَنْ عَصَى رَسُولًا عَصَى جَمِيعَ الرُّسُلِ؛ لِإِشْرَاكِهِمْ فِي أَصْلِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ ﴿وَاتَّبِعُوا﴾ أَيُّ: اسْفَلُوا ﴿أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ٦٠ ﴿مُعَارِضٍ لِلْحَقِّ مِنْ رُؤُسَائِهِمْ. ﴿وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لَعْنَةً عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا﴾ جَحَدُوا ﴿رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا﴾ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ ٦١ * ﴿و﴾ أَرْسَلْنَا ﴿إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ مِنَ الْقَبِيلَةِ ﴿صَلِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحُدُوهُ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ﴾ ابْتَدَأَ خَلْقَكُمْ ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ جَعَلَكُمْ عُمَرَاءَ تَسْكُنُونَ بِهَا ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ مِنَ الشَّرِكِ ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا﴾ ارْجِعُوا ﴿إِلَيْهِ﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ﴾ مِنْ خَلْقِهِ بِعِلْمِهِ ٦٢ ﴿مُجِيبٌ﴾ ٦٣ ﴿لَمَنْ سَأَلَهُ. ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ نَرْجُو أَنْ تَكُونَ سَيِّدًا ﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الَّذِي صَدَرَ مِنْكَ ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿مُرِيبٌ﴾ ٦٤ ﴿مُوقِعٌ فِي الرَّيْبِ. ﴿قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ﴾ بَيَانٍ ﴿مِنْ

(١) أي: برحمة عظيمة كائنة منا؛ لأنه لا ينجو أحد إلا برحمة الله. [الشوكاني (٢/ ٥٧٤)].

(٢) أنت اسم الإشارة باعتبار القبيلة على ما قيل، فالإشارة إلى ما في الذهن وصيغة البعيد لتحقيرهم أو لتنزيلهم منزلة البعيد لعدمهم، أو الإشارة إلى قبورهم ومصارعهم، وحيث الإشارة للبعيد المحسوس، والإسناد مجازي أو هو من مجاز الحذف، أي: تلك قبور عاد، وجوز أن يكون بتقدير أصحاب تلك عاد، والجملة مبتدأ وخبر، وكان المقصود الحث على الاعتبار بهم والاعتناض بأحوالهم. [الآلوسي (٦/ ٢٨٤)].

(٣) أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه، من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. [السعدي (ص: ٣٨٤)].

رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً نُّبُوَّةً ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي﴾ يَمْنَعُنِي ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ أَي: عَذَابِهِ ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي﴾ بِأَمْرِكُمْ لِي بِذَلِكَ ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ تَضْلِيلٍ. ﴿وَيَقَوْمُ هَذِهِ نَافَةٌ لَكُمْ آيَةٌ﴾ حَالٌ عَامِلُهُ الْإِشَارَةُ ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ عَقَرٍ ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٤﴾ إِنْ عَقَرْتُمُوهَا. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا «قَدَارٌ» بِأَمْرِهِمْ ﴿فَقَالَ﴾ صَالِحٌ: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ عِشُوا ﴿فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ ثُمَّ تَهْلِكُونَ ﴿ذَلِكَ وَعَدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿١٥﴾ فِيهِ. ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ وَهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ﴾ نَجَّيْنَاهُمْ ﴿مِنْ خِزْيٍ يَوْمِيذٍ﴾ بِكَسْرِ الْمِيمِ إِعْرَابًا، وَفَتْحِهَا بِنَاءً؛ لِإِضَافَتِهِ إِلَى مَبْنِيٍّ وَهُوَ الْأَكْثَرُ ﴿١٦﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ﴿١٧﴾ الْغَالِبُ. ﴿وَآخِذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَثَمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكْبِ مَيِّتِينَ. ﴿كَانَ﴾ مُخَفَّفَةً، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: كَانَتْهُمْ ﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَا﴾ فِي دَارِهِمْ ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ﴾ ﴿١٩﴾ بِالصَّرْفِ وَتَرْكِهِ، عَلَى مَعْنَى: الْحَيِّ، وَالْقَلِيلَةِ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى﴾ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بَعْدَهُ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ مَصْدَرٌ ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيدٍ﴾ ﴿٢٠﴾ مَشُويٍّ. ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ بِمَعْنَى أَنْكَرَهُمْ ﴿وَأَوَّحَسَ﴾ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خَوْفًا ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ﴾ ﴿٢١﴾ لِنَهْلِكَهُمْ. ﴿وَأَمْرَانَهُ﴾ أَي: امْرَأَةَ إِبْرَاهِيمَ «سَارَةَ» ﴿قَائِمَةً﴾ تَخْدُمُهُمْ ﴿فَضَحِكْتَ﴾ اسْتَبْشَارًا بِهَلَاكِهِمْ ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءَ﴾ بَعْدَ ﴿إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَدِهِ، تَعِيشَ إِلَى أَنْ تَرَاهُ. ﴿قَالَتْ يَوِیْلَتِي﴾ كَلِمَةٌ تُقَالُ عِنْدَ أَمْرِ عَظِيمٍ، وَالْأَلْفُ مُبْدَلَةٌ مِنْ يَاءٍ الْإِضَافَةِ ﴿ءَالِدٌ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ لِي تَسْعُ وَتَسْعُونَ سَنَةً ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ لَهُ مِائَةٌ أَوْ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَنَضَبُهُ عَلَى الْحَالِ، وَالْعَامِلُ فِيهِ مَا فِي «ذَا» مِنَ الْإِشَارَةِ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢٣﴾ أَنْ يُوَلَدَ وَلَدٌ لِهَرَمَيْنِ. ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قُدْرَتِهِ؟ ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ﴾

(١) أي: في اللغة.

(٢) أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق، كما قال في آية البقرة: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ومن هاهنا استدلل من استدلل بهذه الآية، على أن الذبيح إنما هو إسماعيل، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق؛ لأنه وقعت الإشارة به، وأنه سيولد له يعقوب، فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده. ووعد الله حق لا خلف فيه، فيمتنع أن يؤمر بذبح هذا والحالة هذه، فتعين أن يكون هو إسماعيل وهذا من أحسن الاستدلال وأصححه وأبينه، والله الحمد. [ابن كثير (٤/ ٣٣٤)].

(٣) قالت الملائكة لها: لا تعجبي من أمر الله ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. [ابن كثير (٤/ ٣٣٤)].

وَبَرَكَّتُهُ وَ عَلَيْنَا يَا أَهْلَ الْبَيْتِ بَيْتَ إِبْرَاهِيمَ ^(١) إِنَّهُ وَ حَمِيدٌ مَحْمُودٌ ^(٢) مَجِيدٌ ^(٣) كَرِيمٌ. فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَالْخَوْفُ ^(٤) وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى بِالْوَلَدِ أَخَذَ ^(٥) يُجَادِلُنَا يُجَادِلُ رُسُلَنَا ^(٦) فِي شَأْنِ قَوْمِ لُوطٍ ^(٧) إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ ^(٨) كَثِيرُ الْأَنَاءِ ^(٩) أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ^(١٠) رَجَّاعٌ، فَقَالَ لَهُمْ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا ثَلَاثُمِائَةِ مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا مِائَتًا مُؤْمِنٍ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَتَهْلِكُونَ قَرْيَةً فِيهَا أَرْبَعَةٌ عَشَرَ مُؤْمِنًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا مُؤْمِنٌ وَاحِدٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: إِنْ فِيهَا لُوطًا، قَالُوا: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا إِلَى آخِرِهِ ^(١١). فَلَمَّا أَطَالَ مُجَادَلَتَهُمْ قَالُوا: ^(١٢) يَبْنَؤُا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ^(١٣) الْجِدَالِ ^(١٤) إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ^(١٥) بِهِلَاكِهِمْ ^(١٦) وَإِنَّهُمْ لَآتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ^(١٧) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ ^(١٨) حَزَنَ بِسَبَبِهِمْ ^(١٩) وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ^(٢٠) صَدْرًا؛ لِأَنَّهُمْ حَسَنُ الْوُجُوهِ فِي صُورَةِ أَضْيَافٍ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ قَوْمُهُ ^(٢١) وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ^(٢٢) شَدِيدٌ. ^(٢٣) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ ^(٢٤) لَمَّا عَلِمُوا بِهِمْ ^(٢٥) يُهْرَعُونَ ^(٢٦) يُسْرِعُونَ ^(٢٧) إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ ^(٢٨) كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢٩) السَّيِّئَاتِ ^(٣٠) وَهِيَ إِيَّانُ الرِّجَالِ فِي الْأَدْبَارِ ^(٣١) قَالَ لُوطٌ: ^(٣٢) يَقَوْمُ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي ^(٣٣) فَتَزَوَّجُوهُنَّ ^(٣٤) هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَخْزُونِ ^(٣٥) تَفْضَحُونَ ^(٣٦) فِي ضَيْفِي ^(٣٧) أَضْيَافِي ^(٣٨) أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ^(٣٩) يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ. ^(٤٠) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ^(٤١) حَاجَةٍ ^(٤٢) وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ^(٤٣) مِنْ إِيَّانِ الرِّجَالِ. ^(٤٤) قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ^(٤٥) طَاقَةً ^(٤٦) أَوْ عَآوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ^(٤٧) عَشِيرَةٍ تَنْصُرُنِي لَبَطَشْتُ بِكُمْ. فَلَمَّا رَأَتْ الْمَلَائِكَةُ ذَلِكَ ^(٤٨) قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ^(٤٩) بِسُوءٍ ^(٥٠) فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ ^(٥١) طَائِفَةٍ ^(٥٢) مِنْ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ^(٥٣) لِنَلَّا يَرَى عَظِيمَ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ ^(٥٤) إِلَّا أَمْرَاتُكَ ^(٥٥) بِالرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ ^(٥٦) أَحَدٍ ^(٥٧)، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ إِسْتِثْنَاءٌ مِنَ الْأَهْلِ، أَيْ: فَلَا تَسْرِ بِهَا ^(٥٨) إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ^(٥٩) فَقِيلَ: لَمْ يَخْرُجْ بِهَا، وَقِيلَ: خَرَجَتْ وَالتَفَتَتْ، فَقَالَتْ: وَاقَوْمَاهُ،

(١) وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خاطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة... وهو ظاهر جلي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿يٰٓنِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٣٠] ثم بقوله: أهل البيت. [ابن عطية (٣/ ١٩١)].

(٢) انظر تفسير الطبري (٧/ ٧٧).

(٣) يرشدهم إلى نسايتهم، فإن النبي ﷺ للأمة بمنزلة الوالد للرجال والنساء، فأرشدتهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة، كما قال لهم في الآية الأخرى: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَلَمِينَ﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٣٣﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦]. [ابن كثير (٤/ ٣٣٧)].

فَجَاءَهَا حَجَرٌ فَفَتَلَهَا، وَسَلَّاهُمْ عَنْ وَفَاتِ هَلَاقِهِمْ؟ فَقَالُوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فَقَالَ: أُرِيدُ أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴿بِهَلَاكِهِمْ﴾ ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: قُرَاهُمْ ﴿سَافِلَهَا﴾ أَيُّ: بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ وَأَسْقَطَهَا مَقْلُوبَةً إِلَى الْأَرْضِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ﴾ طِينٍ طَبَخَ بِالنَّارِ ﴿مَنْضُودٍ﴾ ﴿٨٢﴾ مُتَّابِعٍ. ﴿مُسَوَّمَةٍ﴾ مُعَلَّمَةٍ عَلَيْهَا إِسْمٌ مَنْ يُرْمَى بِهَا ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ظَرْفٌ لَهَا ﴿وَمَا هِيَ﴾ الْحِجَارَةُ أَوْ بِلَادُهُمْ ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٣﴾ * وَ﴿أَرْسَلْنَا﴾ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴿وَحَدُّهُ﴾ ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَانَكُمْ بِخَيْرٍ ﴿نِعْمَةً تُغْنِيكُمْ عَنِ التَّطْفِيفِ﴾ ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ ﴿٨٤﴾ بِكُمْ يَهْلِكُكُمْ، وَوَصَفُ الْيَوْمِ بِهِ مَجَازٌ لِقُورِهِ فِيهِ. ﴿وَيَقَوْمُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ أَتَمُّوهُمَا ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لَا تَنْقُصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٨٥﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ مِنْ «عَثِي» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ أَفْسَدَ، وَمُفْسِدِينَ حَالٌ مُّوَكَّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِهَا ﴿تَعْتُوا﴾، ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ﴾ رِزْقُهُ الْبَاقِي لَكُمْ بَعْدَ إِيفَاءِ الْكِيلِ وَالْوَزْنِ ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مِنَ الْبَخْسِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٨٦﴾ رَقِيبٌ أَجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، إِنَّمَا بُعِثْتُ نَذِيرًا ﴿قَالُوا﴾ لَهُ إِسْتَهْزَاءً: ﴿يَشْعِيبُ أَصْلَوْتِكَ تَأْمُرُكَ﴾ بِتَكْلِيفٍ ﴿أَنْ نَّتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿أَوْ﴾ نَّتْرِكَ ﴿أَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ الْمَعْنَى: هَذَا أَمْرٌ بَاطِلٌ، لَا يَدْعُو إِلَيْهِ دَاعِي خَيْرٍ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ ﴿٨٧﴾ قَالُوا ذَلِكَ إِسْتَهْزَاءً. ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ حَلَالًا، أَفَاشُوهُ بِالْحَرَامِ مِنَ الْبَخْسِ وَالتَّطْفِيفِ؟ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ وَأَذْهَبَ ﴿إِلَى مَا أَنهَلَكُمْ عَنْهُ﴾ فَأَرْتَكِبُهُ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ لَكُمْ بِالْعَدْلِ ﴿مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي﴾ قُدْرَتِي عَلَى ذَلِكَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﴿٨٨﴾ أَرْجِعْ. ﴿وَيَقَوْمُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ يَكْسِبَنَّكُمْ ﴿شِقَاقِي﴾ خِلَافِي، فَاعِلٌ «يَجْرِمُ»، وَالضَّمِيرُ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ، وَالثَّانِي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾ أَيُّ: مَنَازِلُهُمْ أَوْ زَمَنُ هَلَاقِهِمْ ﴿مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٩﴾ فَاعْتَبِرُوا. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾

(١) قال [تعالى] في الآية الأخرى: ﴿حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣] أي: مستحجرة قوية شديدة. [ابن كثير (٤/ ٣٤٠)].

(٢) بسعة تغنيكم عن البخس، أو بنعمة حقها أن تفضلوا على الناس شكرا عليها لا أن تنقصوا حقوقهم، أو بسعة فلا تزيلوها بما أنتم عليه

وهو في الجملة علة للنهي. [البيضاوي (٣/ ١٤٤)].

إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴿٩٠﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَدُودٌ ﴿٩١﴾﴾ مُحِبٌّ لَهُمْ. ﴿قَالُوا﴾ إِذَا نَا بَقْلَةً الْمُبَالَاة: ﴿يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ﴾ نَفَهُمْ
 ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ ذَلِيلًا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿لَرَجَمْنَاكَ﴾ بِالْحِجَارَةِ ﴿وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩٢﴾﴾ كَرِيمٍ عَنِ الرَّجْمِ، وَإِنَّمَا رَهْطُكَ هُمْ الْأَعَزَّةُ. ﴿قَالَ يَقُومُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فَتَرَكُوا
 قَتْلِي لِأَجْلِهِمْ، وَلَا تَحْفَظُونِي لِلَّهِ ﴿وَأَتَّخِذْتُمُوهُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا﴾ مَبْنُودًا خَلْفَ ظُهُورِكُمْ لَا تَرَاقِبُونَهُ ﴿إِنَّ
 رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٣﴾﴾ عِلْمًا فَيَجَازِيكُمْ. ﴿وَيَقُومُوا أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ عَلَى
 حَالَتِي ^(١) ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ﴾ مَوْصُولَةٌ مَفْعُولُ الْعِلْمِ ﴿يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا﴾ اُنْتَظِرُوا
 عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٤﴾﴾ مُنْتَظِرٌ. ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿نَحْنُ شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ
 بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ صَاحَ بِهِمْ جَبْرِيلُ ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بَارِكِينَ عَلَى
 الرُّكْبِ مَيِّتِينَ. ﴿كَانَ﴾ مُحَقَّقَةً، أَي: كَانَهُمْ ﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾ يُقِيمُوا ﴿فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٦﴾﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴿بُرْهَانٍ بَيْنٍ ظَاهِرٍ. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ
 فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٨﴾﴾ سَدِيدٍ. ﴿يَقْدُمُ﴾ يَتَقَدَّمُ ﴿قَوْمُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فَيَتَّبِعُونَهُ كَمَا اتَّبَعُوهُ فِي الدُّنْيَا ﴿فَأَوْرَدَهُمْ﴾
 أَدْخَلَهُمْ ﴿الْتَّارَ وَبَشَسَ الْوَرْدُ الْمُرُودُ ﴿٩٩﴾﴾ هِيَ. ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ﴾ أَي: الدُّنْيَا ﴿لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ لَعْنَةً
 ﴿بَشَسَ الرِّفْدُ﴾ الْعَوْنُ ﴿الْمَرْفُودُ ﴿١٠٠﴾﴾ رَفْدُهُمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ﴾
 يَا مُحَمَّدُ ﴿مِنْهَا﴾ أَي: الْقُرَى ﴿قَائِمٌ﴾ هَلَكَ أَهْلُهُ دُونَهُ ﴿وَ﴾ مِنْهَا ﴿حَصِيدٌ ﴿١٠١﴾﴾ هَلَكَ بِأَهْلِهِ فَلَا أَثَرَ لَهُ؛ كَالزَّرْعِ
 الْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالشَّرْكِ ﴿فَمَا أَغْنَتْ﴾
 دَفَعَتْ ﴿عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ
 رَبِّكَ﴾ عَذَابُهُ ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا ﴿غَيْرَ تَضْيِيبٍ ﴿١٠٢﴾﴾ تَخْسِيرٍ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَخْذِ ﴿أَخَذَ رَبُّكَ
 إِذَا أَخَذَ الْقُرَى﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ بِالذُّنُوبِ، أَي: فَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنْ أَخْذِهِ شَيْءٌ ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ
 ﴿١٠٣﴾﴾ رَوَى الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ

(١) ﴿أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ﴾ أي: على غاية تمكينكم واستطاعتكم... وإنما قاله عليه السلام ردًا لما ادعوا أنهم أقوياء قادرون على رجمه، وأنه ضعيف فيما بينهم لا عزة له، أو على ناحيتكم وجهتكم التي أنتم عليها، من قولهم: مكان ومكانة كمقام ومقامة، والمعنى: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمشاقة لي، وسائر ما أنتم عليه مما لا خير فيه، وابدلوا جهدكم في مضارتي وإيقاع ما في نيتكم وإخراج ما في أمنيته من القوة إلى الفعل. ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ على مكاني حسبما يؤيدني الله ويوفقني بأنواع التأييد والتوفيق. [أبو السعود (٤/٢٣٦)].

يُفْلِتُهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢] آيَةً^(١). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنَ الْقَصَصِ ﴿لَآيَةً﴾ لَعِبْرَةً ﴿لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ﴾ أَي: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَ تَجْمُوعُ لَهُ﴾ فِيهِ ﴿النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(١٣) يَشْهَدُهُ جَمِيعُ الْخَلَائِقِ. ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾^(١٤) لَوَقْتٍ مَعْلُومٍ عِنْدَ اللَّهِ. ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذَلِكَ الْيَوْمُ ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِينَ ﴿نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ تَعَالَى ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أَي: الْخَلْقِ ﴿شَقِئٌ وَ مِنْهُمْ﴾^(١٥) ﴿سَعِيدٌ﴾^(١٥) كُتِبَ كُلُّ فِي الْأَزْلِ^(١٦). ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ صَوْتُ شَدِيدٌ ﴿وَشَهِيْقٌ﴾^(١٦) صَوْتُ ضَعِيفٌ^(١٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أَي: مُدَّةَ دَوَامِهِمَا فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا﴾ غَيْرُ ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مُدَّتَيْهِمَا مِمَّا لَا مُتَهَيُّ لَهُ، وَالْمَعْنَى: خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعَلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾^(١٧) * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا بِفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا﴾ غَيْرُ ﴿مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ، وَدَلَّ عَلَيْهِ فِيهِمْ قَوْلُهُ: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوذٍ﴾^(١٨) مَقْطُوعٍ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّأْوِيلِ هُوَ الَّذِي ظَهَرَ وَهُوَ خَالٍ مِنَ التَّكْلُفِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ^(١٩). ﴿فَلَا تَكُ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شَكٌّ ﴿مِمَّا يَعْبُدُ

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِئٌ وَسَعِيدٌ﴾، سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا نبي الله، فعلى ما نعمل؟ على شيء قد فرغ منه، أو على شيء لم يفرغ منه؟ قال: «بَلْ عَلَى شَيْءٍ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ وَجَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ يَا عُمَرُ، وَلَكِنْ كُلُّ مُسِيرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ». أخرجه أحمد (٥١٤٠)، والترمذي (٢١٣٥).

(٣) الزفير: إخراج الأنفاس بدفع وشدة بسبب ضغط التنفس. والشهيق: عكسه وهو اجتلاب الهواء إلى الصدر بشدة، لقوة الاحتياج إلى التنفس. وخص بالذكر من أحوالهم في جهنم الزفير والشهيق تنفيراً من أسباب المصير إلى النار؛ لما في ذكر هاتين الحالتين من التشويه بهن، وذلك أخوف لهم من الألم. [ابن عاشور (١٢/١٦٥)].

(٤) العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت: هذا دائم دوام السماوات والأرض، وكذلك يقولون: هو باق ما اختلف الليل والنهار، ... يعنون بذلك كلمة: «أبداً»، فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم. [الطبري (١٢/٥٧٨)]. قلت: ويحتمل أن المراد بما دامت السماوات والأرض: الجنس؛ لأنه لا بد في عالم الآخرة من سماوات وأرض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]. [ابن كثير (٤/٣٥١)] [وقيل: خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله، ألا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها ... فالاستثناء على هذا، راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها. [السعدي (ص: ٣٨٩)]. وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في هذا الاستثناء ثلاثة أقوال: قيل إنه على طريق التآدب مع الله كقولك: إن شاء الله، وإن كان الأمر واجباً، وقيل: المراد به زمان خروج المذنبين من النار، ويكون الذين شقوا على هذا يعم الكفار والمذنبين، وقيل: استثنى مدة كونهم

هَؤُلَاءِ مِنْ الْأَصْنَامِ، إِنَّمَا نُعَذِّبُهُمْ كَمَا عَذَّبْنَا مَنْ قَبْلَهُمْ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ أَي: كَعِبَادَتِهِمْ ﴿مَنْ قَبْلَ﴾ وَقَدْ عَذَّبْنَاهُمْ ﴿وَأَنَا لَمُوقُوهُمْ﴾ مِثْلَهُمْ ﴿نَصِيبُهُمْ﴾ حَظُّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أَي: تَامًا. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بِالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ، كَالْقُرْآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لِلْخَلَائِقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أَي: الْمُكَذِّبُونَ بِهِ ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾ ﴿مَوْجٍ فِي الرِّيَّةِ﴾. ﴿وَإِنْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿كُلًّا﴾ أَي: كُلَّ الْخَلَائِقِ ﴿لَمَّا﴾ «مَا» زَائِدَةٌ، وَاللَّامُ مُوَطَّئَةٌ لِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، أَوْ فَارِقَةٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ ﴿لَمَّا﴾ بِمَعْنَى: «إِلَّا»، فَ «إِنْ» نَافِيَةٌ ﴿لِيُوفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ﴾ أَي: جَزَاءَهَا ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿عَالِمٌ بِبَوَاطِنِهِ كَظَوَاهِرِهِ﴾. ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ عَلَى الْعَمَلِ بِأَمْرِ رَبِّكَ وَالِدُّعَاءِ إِلَيْهِ ﴿كَمَا أَمَرْتُ وَ﴾ لِيَسْتَقِمَّ ﴿مَنْ تَابَ﴾ آمَنَ ﴿مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ تُجَاوِزُوا حُدُودَ اللَّهِ ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿فَيَجَازِيكُمْ بِهِ﴾ ﴿وَلَا تَرْكُنُوا﴾ تَمِيلُوا ﴿إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِمَوَدَّةٍ، أَوْ مُدَاهَنَةٍ، أَوْ رِضًا بِأَعْمَالِهِمْ ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾ تُصِيبُكُمْ ﴿النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أُولِيَاءَ﴾ يَحْفَظُونَكُمْ مِنْهُ ﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ﴾ ﴿تُمْنَعُونَ مِنْ عَذَابِهِ﴾. ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ الْغَدَاةَ وَالْعَشَاءَ، أَي: الصُّبْحَ وَالظُّهْرَ وَالْعَصْرَ ﴿وَزُلْفَا﴾ جَمْعُ زُلْفَةٍ، أَي: طَائِفَةٍ ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ أَي: الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ﴿إِنْ أَحْسَنْتَ﴾ كَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ﴿يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ الذُّنُوبَ الصَّغَائِرَ، نَزَلَتْ فِيمَنْ قَبْلَ أَجْنَبِيَّةٍ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ أَلَيْ هَذَا؟ فَقَالَ: «لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ». رَوَاهُ الشَّيْخَانُ^(١)، ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ﴾ ﴿عِظَةٌ لِلْمُتَعِظِينَ﴾. ﴿وَأَصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى أَدَى قَوْمِكَ أَوْ عَلَى الصَّلَاةِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بِالصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ. ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَا ﴿كَانَ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ أَصْحَابُ دِينٍ وَفَضْلٍ ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ الْمُرَادُ بِهِ النَّفْيُ، أَي: مَا كَانَ فِيهِمْ ذَلِكَ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ ﴿قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ نَهَوْنَا فَتَنَجَّوْا، وَ«مِنْ» لِلْبَيَانِ ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْفَسَادِ وَتَرَكَ النَّهْيَ ﴿مَا أَثَرِفُوا﴾ نَعَّمُوا ﴿فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ

في الدنيا وفي البرزخ، وأما الاستثناء في أهل الجنة فيصح فيه القول الأول والثالث دون الثاني. [ابن جزي (٣٧٨/١)].

(١) الركون: هو المحبة والمودة والميل بالقلب. [السمعاني (٤٦٤/٢)]. وقيل: خاصة وإن معنى الآية النهي عن الركون إلى المشركين وإنهم المرادون بالذين ظلموا. وقد روي ذلك عن ابن عباس، وقيل إنها عامة في الظلمة من غير فرق بين كافر ومسلم، وهذا هو الظاهر من

الآية، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. [الشوكاني (٦٠١/٢)].

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٦) ومسلم (٢٧٦٣).

الْفَرَى يَظْلِمُ مِنْهُ لَهَا ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ١١٧ ﴿مُؤْمِنُونَ﴾ ١١٨ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ١١٩ ﴿أَهْلَ دِينٍ وَاحِدٍ﴾ ١٢٠ ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ ١٢١ ﴿فِي الدِّينِ﴾ ١٢٢ ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾ ١٢٣ ﴿أَرَادَ لَهُمُ الْخَيْرَ فَلَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ ١٢٤ ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ ١٢٥ ﴿أَيُّ: أَهْلَ الْإِخْتِلَافِ لَهُ، وَأَهْلَ الرَّحْمَةِ لَهَا﴾ ١٢٦ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ ١٢٧ ﴿وَهِيَ﴾ ١٢٨ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ١٢٩ ﴿وَكُلًّا﴾ ١٣٠ ﴿نُصِبَ بِ﴾ ١٣١ ﴿تَقْصُ﴾ ١٣٢ ﴿وَتَنْوِينُهُ عِوَضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيُّ: كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ﴾ ١٣٣ ﴿تَقْصُ﴾ ١٣٤ ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا﴾ ١٣٥ ﴿بَدَلٌ مِنْ﴾ ١٣٦ ﴿كُلًّا﴾ ١٣٧ ﴿نُتِبْتُ﴾ ١٣٨ ﴿نُطْمِنُ﴾ ١٣٩ ﴿بِهِ فُؤَادَكَ﴾ ١٤٠ ﴿قَلْبَكَ﴾ ١٤١ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ ١٤٢ ﴿الْأَنْبَاءُ، أَوْ الْآيَاتِ﴾ ١٤٣ ﴿الْحَقُّ وَمَوْعِظَةُ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٤٤ ﴿خُصُّوا بِالذِّكْرِ لَانْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي الْإِيمَانِ، بِخِلَافِ الْكُفَّارِ﴾ ١٤٥ ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ ١٤٦ ﴿حَالَتِكُمْ﴾ ١٤٧ ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ ١٤٨ ﴿عَلَى حَالَتِنَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ﴾ ١٤٩ ﴿وَأَنْتَظِرُونَ﴾ ١٥٠ ﴿عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ﴾ ١٥١ ﴿إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ ١٥٢ ﴿ذَلِكَ﴾ ١٥٣ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٥٤ ﴿أَيُّ: عِلْمٌ مَا غَابَ فِيهِمَا﴾ ١٥٥ ﴿وَالْيَهُ يَرْجِعُ﴾ ١٥٦ ﴿بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ: يَعُودُ، وَلِلْمَفْعُولِ: يُرَدُّ﴾ ١٥٧ ﴿الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ ١٥٨ ﴿فَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ عَصَى﴾ ١٥٩ ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ ١٦٠ ﴿وَحْدَهُ﴾ ١٦١ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ ١٦٢ ﴿ثِقْ بِهِ، فَإِنَّهُ كَافِيكَ﴾ ١٦٣ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ١٦٤ ﴿وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِوَفَّتِهِمْ، وَفِي قِرَاءَةِ بِالْفَوْقَانِيَّةِ.

(١) أي: لا يقع إهلاك الله ظالما لقوم مصلحين. والمصلحون مقابل المفسدين في قوله قبله: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿وَكُنَّا نُجْرِمِينَ﴾، فالله تعالى لا يهلك قوما ظالما لهم، ولكن يهلك قوما ظالمين أنفسهم. قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] والمراد: الإهلاك العاجل الحال بهم في غير وقت حلول أمثاله، دون الإهلاك المكتوب على جميع الأمم، وهو فناء أمة وقيام أخرى في مدد معلومة حسب سنن معلومة. [ابن عاشور (١٨٦/١٢)].

(٢) لذلك الاختلاف خلقهم فخلق فريقا للجنة وفريقا للسعير، كما نص عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٩]، ومن حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ الْمَلَكَ، فَيُؤْمِرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيَقُولُ: أَكْتُبْ عَمَلَهُ، وَأَجَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَشَقِيَّتِي أَمْ سَعِيدٌ». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣). ومن حديث عائشة رضي الله عنها: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْجَنَّةَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، وَخَلَقَ النَّارَ وَخَلَقَ لَهَا أَهْلًا، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلَابِ آبَائِهِمْ». أخرجه مسلم (٢٦٦٢) ... والإرادة في قوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ إرادة كونية قدرية، والإرادة في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إرادة شرعية دينية، [فلا تعارض]. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ١٧١)].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اخْتَصَمَتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضَعْفَةُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ؟ وَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ. فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحِمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ. وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أَنْتِ قَسَمُكَ مِنْ أَشَاءٍ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا. فَأَمَّا الْجَنَّةُ فَلَا يَزَالُ فِيهَا فَضْلٌ، حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا يَسْكُنُ فَضْلَ الْجَنَّةِ، وَأَمَّا النَّارُ فَلَا تَزَالُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ، فَيَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، وَعَزَّتْكَ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦).

سُورَةُ يُوسُفَ

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَإِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١) ﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنَ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿الْمُبِينِ﴾
 ﴿١﴾ الْمُظْهِرِ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعْقِلُونَ﴾^(٢)
 تَفْقَهُونَ مَعَانِيَهُ^(٣). ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا﴾ بِإِحَاثِنَا ﴿إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةً،
 أَيُّ: وَإِنَّهُ ﴿كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾^(٤). أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يَعْقُوبَ ﴿يَا أَبَتِ﴾ بِالْكَسْرِ دَلَالَةً
 عَلَى يَأِ الْإِضَافَةِ الْمَحْذُوفَةِ، وَالْفَتْحُ دَلَالَةٌ عَلَى أَلِفٍ مَحْذُوفَةٍ قُلِبَتْ عَنْ أَلْيَاءٍ ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ فِي الْمَنَامِ ﴿أَحَدَ عَشَرَ
 كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ﴾ تَأْكِيدُ ﴿لِي سَجِدِينَ﴾^(٥) جُمِعَ بِأَلْيَاءٍ وَالتَّوْنُ لِلْوَصْفِ بِالسُّجُودِ الَّذِي هُوَ مِنْ
 صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ. ﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ يَحْتَالُونَ فِي هَلَاكِكَ حَسَدًا،
 لِعِلْمِهِمْ بِتَأْوِيلِهَا مِنْ أَنَّهُمْ الْكَوَكِبُ وَالشَّمْسُ أُمُّكَ وَالْقَمَرُ أَبُوكَ^(٦) ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَنِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٧) ظَاهِرُ
 الْعَدَاوَةِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا رَأَيْتُ ﴿يَحْتَبِيكَ﴾ يَخْتَارُكَ ﴿رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا ﴿وَيُتِمُّ
 نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَعَلَى آلٍ يَعْقُوبَ﴾ أَوْلَادِهِ ﴿كَمَا آتَمَّهَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْحَقَ^(٨)
 إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾^(٩) فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي﴾ خَبَرِ ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ وَهُمْ أَحَدَ عَشَرَ
 ﴿ءَايَاتٍ﴾ عِبْرٌ ﴿لِلنَّاسِ الَّذِينَ﴾^(١٠) عَنْ خَبَرِهِمْ. أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالُوا﴾ أَيُّ: بَعْضُ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِبَعْضِهِمْ ﴿لِيُوسُفَ﴾ مُبْتَدَأُ
 ﴿وَأَخُوهُ﴾ شَقِيقُهُ بِنِيَامِينَ ﴿أَحَبُّ﴾ خَبَرٌ ﴿إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عَصَبَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ﴾ خَطَأٍ ﴿مُبِينٍ﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: لكي تفهموه، وتحيطوا بمعانيه، ولا يلتبس عليكم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ [فصلت: ٤٤]، قال بعضهم: نزل أشرف الكتب، بأشرف اللغات، على أشرف الرسل، بسفارة أشرف الملائكة، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض، وفي أشرف شهور السنة، وهو رمضان، فأكمل له الشرف من كل الوجوه. [القاسمي (١٤٥/٦)].

(٣) الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن «فعلى» كالسقىا والبشرى وألفه للتأنيث ولذلك لم يصرف، نهى يعقوب ابنه يوسف عن أن يقص رؤياه على أخوته لأنه قد علم تأويلها وخاف أن يقصها عليهم فيفهمون تأويلها ويحصل منهم الحسد له. [الشوكاني (٧/٣)].

﴿٨﴾ يَنْبِئُ بِإِثَارِهِمَا عَلَيْنَا. ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أَي: بِأَرْضٍ بَعِيدَةٍ ﴿يَحُلْ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ بِأَنْ يُقْبَلَ عَلَيْكُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ لِعَيْرِكُمْ ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَي: بَعْدَ قَتْلِ يُوسُفَ، أَوْ طَرْحِهِ ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ ﴿٩﴾ بِأَنْ تَتُوبُوا^(١). ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هُوَ يَهُوذَا ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ﴾ اطْرَحُوهُ ﴿فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ﴾ مُظْلِمِ الْبُئْرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْجَمْعِ ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ الْمَسَافِرِينَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٠﴾ مَا أَرَدْتُمْ مِنَ التَّفْرِيقِ، فَانْكُفُوا بِذَلِكَ. ﴿قَالُوا يَتَابْنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ ﴿١١﴾ لِقَائِمُونَ بِمَصَالِحِهِ. ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا﴾ إِلَى الصَّحَرَاءِ ﴿نَرْتَعُ وَنَلْعَبُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ فِيهِمَا، نَشْطُ وَنَتَسَّعُ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا أَي: ذَهَابَكُمْ ﴿بِهِ﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ «الْجِنْسُ» وَكَانَتْ أَرْضُهُمْ كَثِيرَةَ الذَّنَابِ ﴿وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ ﴿١٣﴾ مَشْغُولُونَ. ﴿قَالُوا لَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَكْلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ عَاجِزُونَ، فَأَرْسَلَهُ مَعَهُمْ. ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا﴾ عَزَمُوا ﴿أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَبَتِ الْجُبِّ﴾ وَجَوَابُ «لَمَّا» مَحْذُوفٌ، أَي: فَعَلُوا ذَلِكَ؛ بِأَنْ نَزَعُوا قَمِيصَهُ بَعْدَ ضَرْبِهِ وَإِهَانَتِهِ وَإِرَادَةِ قَتْلِهِ، وَأَذْلَوْهُ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى نِصْفِ الْبُئْرِ أَلْقَوْهُ لِيَمُوتَ، فَسَقَطَ فِي الْمَاءِ ثُمَّ أَوَى إِلَى صَخْرَةٍ، فَنَادَوْهُ فَأَجَابَهُمْ يَظُنُّ رَحْمَتَهُمْ، فَأَرَادُوا رِضْخَهُ بِصَخْرَةٍ، فَمَنَعَهُمْ يَهُوذَا^(٢) ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ فِي الْجُبِّ وَحْيَ حَقِيقَةٍ، وَلَهُ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً أَوْ دُونَهَا، تَطْمِينًا لِقَلْبِهِ ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ﴾ بَعْدَ الْيَوْمِ ﴿بِأَمْرِهِمْ﴾ بِصَنِيعِهِمْ ﴿هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ بِكَ حَالِ الْإِنْبَاءِ. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً﴾ وَقَتِ الْمَسَاءِ ﴿يَبْكُونَ﴾

(١) أي: تائبين إلى الله عما جنيتهم، فيكون صلاحكم فداء عن معصية قتله أو طرحه، أو تصلح دنياكم، وتتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم ... قال ابن كثير: اعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف، وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك. ومن الناس من يزعم أنهم أوحى إليهم بعد ذلك، وفي هذا نظر، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل. ولم يذكر واسوى قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهذا فيه احتمال؛ لأن بطون بني إسرائيل يقال لهم الأسباط، كما يقال للعرب قبائل، وللعجم شعوب. يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بني إسرائيل، فذكرهم إجمالاً لأنهم كثيرون، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف. ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم. والله أعلم. [القاسمي (١٥٥/٦)].

(٢) هذه التفصيلات من أقاصيص الإسرائيليات، وما يأتي عن بني إسرائيل ويحكى عنهم ذكر أهل العلم أنه على ثلاثة أقسام: قسم يوافق ما في القرآن فيصدق، وهكذا ما وافق السنة الصحيحة، وقسم يخالف القرآن والسنة، فهذا باطل مكذب، وقسم ثالث ليس في القرآن والسنة ما يدل على صدقه ولا على كذبه، فهذا يروى ويحكى ولا يصدق ولا يكذب، كما قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ». أخرجه البخاري (٤٤٨٥)، فما لم يرد في الكتاب والسنة ما يدل على صدقه وكذبه فإنه موقوف لا يكذب ولا يصدق، ولكن يحكى من باب التعجب لقوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنِّي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ». أخرجه البخاري (٣٤٦١).

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ نَزِمِي ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾ ثِيَابِنَا ﴿فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ بِمُصَدِّقٍ ﴿لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧﴾ عِنْدَكَ، لَا تَهَمَّتْنَا فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لِمَحَبَّةِ يُوسُفَ، فَكَيْفَ وَأَنْتَ تُسَيِّءُ الظَّنَّ بِنَا. ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيهِ﴾ مَحَلُّهُ نَصَبٌ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، أَيُّ: فَوْقَهُ ﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ أَيُّ: ذِي كَذِبٍ، بَانَ ذَبَحُوا سَخْلَةً وَلَطَّخُوهُ بِدَمِهَا، وَذَهَلُوا عَنْ شَقِّهِ، وَقَالُوا إِنَّهُ دَمُهُ ﴿قَالَ﴾ يَعْقُوبُ لَمَّا رَأَاهُ صَحِيحًا وَعَلِمَ كَذِبَهُمْ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فَفَعَلْتُمُوهُ بِهِ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لَا جَزَعَ فِيهِ^(١)، وَهُوَ خَيْرٌ مُبْتَدَأٍ مُحَذُوفٍ، أَيُّ: أَمْرِي ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ الْمَطْلُوبُ مِنْهُ الْعَوْنُ ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ تَذَكُّرُونَ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ. ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ مُسَافِرُونَ مِنْ مَدِينٍ إِلَى مِصْرَ، فَتَزَلُّوا قَرِيبًا مِنْ جُبِّ يُوسُفَ ﴿فَارْسَلُوا وَارِدَهُمُ﴾ الَّذِي يَرُدُّ الْمَاءَ لِيَسْتَقِي مِنْهُ ﴿فَأَدْلَى﴾ أَرْسَلَ ﴿ذُلُوهُ﴾ فِي الْبَثْرِ، فَتَعَلَّقَ بِهَا يُوسُفَ فَأَخْرَجَهُ، فَلَمَّا رَأَاهُ ﴿قَالَ يَبْشُرِي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يَبْشُرِي﴾ وَنَدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَيُّ: أُحْضِرِي فَهَذَا وَقْتُكَ ﴿هَذَا عَلِمْتُ﴾ فَعَلِمَ بِهِ إِخْوَتُهُ فَاتَّوهُ^(٢) ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ أَيُّ: أَخَفَوْا أَمْرَهُ جَاعِلِيهِ ﴿بِضْعَةٍ﴾ بِأَنْ قَالُوا: هَذَا عَبْدُنَا أَبَقَ، وَسَكَتَ يُوسُفَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقْتُلُوهُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ ﴿بَاعُوهُ مِنْهُمْ﴾ بِثَمَنِ بَخْسٍ ﴿نَاقِصٍ﴾ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ عَشْرِينَ، أَوْ اثْنَيْنِ وَعَشْرِينَ ﴿وَكَانُوا﴾ أَيُّ: إِخْوَتُهُ ﴿فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فَجَاءَتْ بِهِ السَّيَّارَةُ إِلَى مِصْرَ، فَبَاعَهُ الَّذِي اشْتَرَاهُ بِعَشْرِينَ دِينَارًا وَزَوْجِي نَعْلٍ وَثَوْبَيْنِ. ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ وَهُوَ قَطْفِيرُ الْعَزِيزِ ﴿لَا مَرَاتِي﴾ زُلَيْخَا ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ مُقَامُهُ عِنْدَنَا ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ وَكَانَ حَصُورًا^(٣) ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْجُبِّ، وَعَظَفْنَا عَلَيْهِ قَلْبَ الْعَزِيزِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا، عَظَفَ عَلَى مُقَدَّرٍ مُتَعَلِّقٍ بِ﴿مَكَّنَّا﴾

(١) ذكر الله الصبر الجميل، والصفح الجميل، والهجر الجميل، فالصبر الجميل الذي لا شكوى معه، والهجر الجميل الذي لا أذى معه، والصفح الجميل الذي لا عتاب معه. [مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ١٨٣)].

(٢) أي: أسر الوارد وأصحابه الذين كانوا معه يوسف عن بقية الرفقة فلم يظهره لهم، وقيل: أنهم لم يخفوه ولكن أخفوا وجدانهم له في الجب وزعموا أنه دفعه إليهم أهل الماء ليسيحوه لهم بمصر. وقال مجاهد: أسره التجار بعضهم من بعض، وقيل: ضمير الفاعل في أسروه لإخوة يوسف وضمير المفعول ليوسف وذلك أنه كان يأتيه أخوه يهوذا كل يوم بطعام فأتاه يوم خروجه من البئر فلم يجده فأخبر إخوته فأتوا الرفقة وقالوا هذا غلام أبق منا فاشتروه منهم، وسكت يوسف مخافة أن يأخذوه فيقتلوه. وعن ابن عباس: يعني إخوة يوسف أسروا شأنه وكتبوا أن يكون أخاهم، وكتب يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته، واختار البيع فباعه إخوته بثمان بخس والأول أولى. [صديق حسن (٦/ ٣٠٣)].

(٣) قيل: كان العزيز حصوراً لا يأتي النساء أو كان عقيماً لا يولد له. [صديق حسن (٦/ ٣٠٦)].

أَيُّ: لِنُمَلِّكَهُ، أَوْ «الْوَاوُ» زَائِدَةٌ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ تَعَالَى لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْكُفَّارُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١١. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ وَثَلَاثٌ ١٢ ﴿عَاتَيْنَهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فَقَهَّاهَا فِي الدِّينِ، قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ١٣ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٤ ﴿لَا نَفْسِهِمْ﴾. ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا هِيَ زُلَيْخَا ﴿عَنْ نَفْسِهِ﴾ أَيُّ: طَلَبَتْ مِنْهُ أَنْ يُوَاقِعَهَا ﴿وَعَلَّقَتْ الْأَبْوَابَ﴾ لِلْبَيْتِ ﴿وَقَالَتْ﴾ لَهُ: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أَيُّ: هَلُمَّ، وَاللَّامُ: لِلتَّيْسِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكَسْرِ الْهَاءِ، وَأُخْرَى بِضَمِّ التَّاءِ ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُ﴾ الَّذِي اشْتَرَانِي ﴿رَبِّي﴾ سَيِّدِي ﴿أَحْسَنَ مَثْوًى﴾ مُقَامِي فَلَا أَخُوْنُهُ فِي أَهْلِهِ ﴿إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الشَّانُ ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ١٥ الزُّنَاةُ. ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ قَصَدَتْ مِنْهُ الْجِمَاعَ ﴿وَهُمْ بِهَا﴾ قَصَدَ ذَلِكَ ١٦ ﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ

(١) قال الراغب: وفيه تنبيه على أن الإنسان إذا بلغ هذا القدر يتقوى خلقه الذي هو عليه فلا يكاد يزايله ولم يقل هنا واستوى كما قال في شأن موسى في سورة القصص لأن موسى كان قد بلغ أربعين سنة وهي مدة النبوة فقد استوى وتهايا لحمل أعباء الرسالة وأسرار النبوة وأما يوسف فلم يكن إذ ذاك بلغ هذا السن. [صديق حسن (٣٠٨/٦)].

(٢) قيل: جعلناه المستولي على الحكم، فكان يحكم في سلطان الملك، أي: وآتيناه علما بالحكم. وقال مجاهد: العقل والفهم والنبوة. وقيل: الحكم النبوة، والعلم علم الدين، وقيل: علم الرؤيا، ومن قال: أوتي النبوة صبيا، قال: لما بلغ أشده زدناه فهما وعلما. [القرطبي].

(٣) ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام هم بأن يفعل مع تلك المرأة مثل ما همت هي به منه، ولكن القرآن العظيم بين براءته عليه الصلاة والسلام من الوقوع فيما لا ينبغي حيث بين شهادة كل من له تعلق بالمسألة ببراءته، وشهادة الله له بذلك واعتراف إبليس به. أما الذين لهم تعلق بتلك الواقعة فهم: يوسف، والمرأة، وزوجها، والنسوة، والشهود. أما جزم يوسف بأنه بريء من تلك المعصية فذكره تعالى في قوله: ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾.... وأما اعتراف المرأة بذلك ففي قولها للنسوة: ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِي﴾ فَاسْتَعْصَمَ.... وأما اعتراف زوج المرأة ففي قوله: ﴿قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.... وأما اعتراف الشهود بذلك ففي قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾، وأما شهادة الله جل وعلا ببراءته ففي قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. فإن قيل: قد يستتم دلالة القرآن على براءته عليه السلام مما لا ينبغي في الآيات المتقدمة، ولكن ماذا تقولون في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا﴾؟ فالجواب من وجهين: الأول: إن المراد بـ«هم يوسف بها» خاطر قلبي صرف عنه وازع التقوى، وقال بعضهم: هو الميل الطبيعي والشهوة الغريزية المزمومة بالتقوى، وهذا لا معصية فيه؛ لأنه أمر جبلي لا يتعلق به التكليف، كما في الحديث عنه ﷺ: أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تَلْمِزْنِي فِيمَا لَا أَمْلِكُ». أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، يعني ميل القلب الطبيعي... بخلاف هم امرأة العزيز، فإنه هم عزم وتصميم، بدليل أنها شقت قميصه من دبر وهو هارب عنها، ولم يمنعها من الوقوع فيما لا ينبغي إلا عجزها عنه. ومثل هذا التصميم على المعصية معصية يؤاخذ بها صاحبها، بدليل الحديث الثابت في الصحيح عنه ﷺ من حديث أبي بكرة (رضي الله عنه): «إِذَا اتَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا، فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قالوا: يا

رَبِّهِ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُثِّلَ لَهُ يَعْقُوبُ فَضْرَبَ صَدْرَهُ فَخَرَجَتْ شَهْوَتُهُ مِنْ أَنَامِلِهِ^(١)، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَرَيْنَاهُ الْبُرْهَانَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ الزَّنَى ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(٢) فِي الطَّاعَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ «الَلَامِ»، أَيِ: الْمُخْتَارِينَ. ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ بَادَرَ إِلَيْهِ يُوسُفُ لِلْفِرَارِ وَهِيَ لِلتَّشَبُّثِ بِهِ، فَأَمْسَكَتْ ثَوْبَهُ وَجَذَبَتْهُ إِلَيْهَا ﴿وَقَدَّتْ﴾ شَقَّتْ ﴿قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا﴾ وَجَدَا ﴿سَيِّدَهَا﴾ رَوْجَهَا ﴿لَدَا الْبَابِ﴾ فَتَرَهَتْ نَفْسَهَا، ثُمَّ ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ زِنَا ﴿إِلَّا أَنْ يُسَجَّنَ﴾ يُحْبَسَ فِي سَجْنٍ ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٣) مُؤَلِّمٌ بِأَنْ يُضْرَبَ. ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ مُتَبَرِّئًا: ﴿هِيَ رَاوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ ابْنُ عَمَّهَا، رُويَ أَنَّهُ كَانَ فِي الْمَهْدِ^(٤)، فَقَالَ: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ قُدَّامَ ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾^(٥) وَإِنْ كَانَ

رسول الله، قد عرفنا القاتل فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». أخرجه البخاري (٧٠٨٣)، ومسلم (٢٨٨٨). فصرح ﷺ بأن تصميم عزمه على قتل صاحبه معصية أدخله الله بسببها النار.... والجواب الثاني وهو اختيار أبي حيان: أن يوسف لم يقع منه هم أصلاً، بل هو منفي عنه لوجود البرهان. قال مقيده عفا الله عنه: هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أجرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأن الغالب في القرآن وفي كلام العرب: أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدل عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه،.... وعلى هذا القول: فمعنى الآية، وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، أي: لولا أن رآه هم بها، فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، فما قبل لولا دليل الجواب، أي: لولا أن ربطنا على قلبها لكادت تبدي به. [الشنقيطي (٣/٦٦)].

(١) اختلف في هذا البرهان الذي رآه ما هو، فقيل: أن زليخا قامت عند أن همت به وهم بها إلى صنم لها في زاوية البيت فسترته بثوب فقال ما تصنعين؟ قالت: استحي من إلهي هذا أن يراني على هذه الصورة، فقال يوسف: أنا أولى إن استحي من الله تعالى.... وقيل: نودي يا يوسف أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء، وقيل: رأى صورة يعقوب على الجدار عاضاً على أناملته يتوعده... وقيل: مثل له يعقوب فضرب بيده في صدره فخرجت شهوته من أنامله، وقيل: رأى جبريل... قال الخفاجي: هذا مع ما في القصص ونحوه مما لا يليق ذكره، وتركه أحسن منه كله مما لا أصل له والنص ناطق بخلافه، والبرهان ما عنده من العلم الدال على تحريم ما همت به وإنه لا يمكن الهم فضلاً عن الوقوع فيه، هذا هو الذي يجب اعتقاده والحمل عليه. اهـ... والحاصل أنه رأى شيئاً حال بينه وبين ما هم به والله أعلم بما هو وقد أطال المفسرون في تعيين البرهان الذي رآه بلا دليل يدل عليه من السنة المطهرة واختلفت أقوالهم في ذلك اختلافاً كثيراً. [صديق حسن (٦/٣١٤)].

(٢) قال ابن عباس ؓ: تكلم أربعة صغار: عيسى ابن مريم عليه السلام، وصاحب جريج، وشاهد يوسف، وابن ماشطة ابنة فرعون. أخرجه أحمد (٢٨٢١)، والطبراني (١٢٢٨٠). وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف، وكونه لم يتكلم قط، ثم تكلم بذلك كرامة ليوسف عليه السلام. [ابن جزي (١/٣٨٥)].

قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ خَلْفٍ ﴿فَكَذَّبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٢٧ ﴿فَلَمَّا رَءَا﴾ زَوْجَهَا ﴿قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ﴾ أَيُّ: قَوْلِكَ: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿مِنْ كَيْدُكَ﴾ أَيُّهَا النَّسَاءُ ﴿إِنَّ كَيْدُكَ عَظِيمٌ﴾ ٢٨ ﴿ثُمَّ قَالَ: يَا يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الْأَمْرُ وَلَا تَذْكُرْهُ، لِئَلَّا يَشْبَعَ ﴿وَأَسْتَغْفِرِي﴾ يَا زُلَيْخَا ﴿لِذَنْبِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ٢٩ ﴿الْآتَمِينَ﴾ ٣٠. وَاشْتَهَرَ الْخَبِيرُ وَشَاعَ ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةُ مِصْرَ ﴿أَمْرَأْتُ الْعَزِيزِ تُرَوِّدُ فَتْلَهَا﴾ عَبْدَهَا ﴿عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ تَمَيِّزٌ، أَيُّ: دَخَلَ حُبُّهُ شِغَافَ قَلْبِهَا، أَيُّ: غَلَا فُهُ ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ خَطِئًا﴾ ٣١ ﴿مُبِينٍ﴾ ٣٢ ﴿بَيْنَ بَحْبَهَا إِيَّاهُ.﴾ ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ غَيَّبَتْ لَهَا ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ﴾ أَعَدَّتْ ﴿لَهُنَّ مُتَكِّئًا﴾ طَعَامًا يَقْطَعُ بِالسَّكِينِ، لِئَلَّا تَكْأَ عِنْدَهُ، وَهُوَ الْأَثْرُجُ ﴿وَوَاتَتْ﴾ أَعْطَتْ ﴿كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ لِيُوسُفَ:﴾ ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ أَعْظَمْنَهُ ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بِالسَّكَاكِينِ وَلَمْ يَشْعُرْنَ بِالْأَلَمِ لَشُغْلِ قُلُوبِهِنَّ بِيُوسُفَ ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تَزَيُّبًا لَهُ ﴿مَا هَذَا﴾ أَيُّ: يُوسُفُ ﴿بَشَرًا إِنَّ﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ٣٣ ﴿لِمَا حَوَاهُ مِنَ الْحُسْنِ الَّذِي لَا يَكُونُ عَادَةً فِي النَّسَمَةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّهُ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ» ٣٤.﴾ ﴿قَالَتْ﴾ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ لَمَّا رَأَتْ مَا حَلَّ بِهِنَّ: ﴿فَذَلِكُنَّ﴾ فَهَذَا هُوَ ﴿الَّذِي لُمْتُنِي فِيهِ﴾ فِي حُبِّهِ، بَيَانُ لِعُذْرِهَا ﴿وَلَقَدْ رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ اِمْتَنَعَ ﴿وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ بِهِ ﴿لَيَسْجَنَ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ ٣٥ ﴿الَّذِيلِينَ. فَقُلْنَا لَهُ: أَطْعَمْ مَوْلَاتِكَ،﴾ ﴿قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ﴾ أَمِلُ ﴿إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ﴾ أَصِرُ ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ٣٦ ﴿الْمُذْنِبِينَ، وَالْقَصْدُ بِذَلِكَ الدُّعَاءِ، فَلِذَا قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ دُعَاؤُهُ ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِلْقَوْلِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ٣٧ ﴿بِالْفِعْلِ. ثُمَّ بَدَأَ﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْأَيَّاتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى بَرَاءَةِ يُوسُفَ أَنْ يَسْجُنُوهُ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿لَيَسْجُنَنَّهُ وَحَتَّى﴾ إِلَى ﴿حِينَ﴾ ٣٨ ﴿يَنْقَطِعُ فِيهِ كَلَامُ النَّاسِ. فَسُجِنَ﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٌ ﴿غُلَامَانِ لِلْمَلِكِ، أَحَدُهُمَا سَاقِيهِ وَالْآخَرُ صَاحِبُ طَعَامِهِ، فَرَأَيَاهُ يُعْبَرُ الرَّؤْيَا فَقَالَا: لَنَخْتَبِرَنَّهُ﴾ ٣٩ ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا﴾ وَهُوَ السَّاقِي: ﴿إِنِّي أَرْنِي أَغْصِرُ خَمْرًا﴾

(١) قال أبو بكر الأصم: إن ذلك الزوج كان قليل الغيرة فاكتفى منها بالاستغفار. قال صاحب الكشاف: وإنما قال من الخاطئين بلفظ التذكير، تغليبا للذكور على الإناث، ويحتمل أن يقال: المراد إنك من نسل الخاطئين، فمن ذلك النسل سرى هذا العرق الخبيث فيك. والله أعلم. [الرازي (١٨/٤٤٧)].

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٣) كان تعبير الرؤيا من فنون علمائهم فلذلك أيد الله به يوسف عليه السلام بينهم. وهذان الفتيان توسما من يوسف عليه السلام كمال

أَيُّ: عَنَّا ﴿وَقَالَ الْآخَرُ﴾ وَهُوَ صَاحِبُ الطَّعَامِ: ﴿إِنِّي أَرْنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا﴾ خَبَرَنَا ﴿بِتَأْوِيلِهِ﴾ بِتَعْبِيرِهِ ﴿إِنَّا نَرْنِكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٦ قَالَ ﴿لَهُمَا مُخْبِرًا أَنَّهُ عَالِمٌ بِتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ فِي مَنَامِكُمَا ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ فِي الْيَقَظَةِ ﴿قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ تَأْوِيلُهُ ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ فِيهِ حَتْ عَلَى إِيمَانِهِمَا، ثُمَّ قَوَاهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ﴾ دِينَ ﴿قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ﴾ تَأْكِيْدٌ ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ ﴿يَنْبَغِي﴾ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ زَائِدَةٍ ﴿شَيْءٍ﴾ لِعِصْمَتِنَا ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوْحِيدُ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْكَفَّارُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ٣٨ اللَّهُ فَيُشْرِكُونَ. ثُمَّ صَرَحَ بِدُعَائِهِمَا إِلَى الْإِيمَانِ فَقَالَ: ﴿يَصْحَبِي﴾ سَاكِنِي ﴿السَّجْنِ﴾ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ٣٩ خَيْرٌ، اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: غَيْرِهِ ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا﴾ سَمَّيْتُمْ بِهَا أَصْنَامًا ﴿أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ بِعِبَادَتِهَا ﴿مِنْ سُلْطَنٍ﴾ حُجَّةٍ وَبَرَهَانٍ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿الْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ ﴿إِلَّا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿أَمَرَ﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ ﴿التَّوْحِيدُ﴾ الدِّينُ الْقَيِّمُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْكَفَّارُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٤٠ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فَهُمْ يُشْرِكُونَ. ﴿يَصْحَبِي﴾ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا أَيُّ: السَّاقِي فَيَخْرُجُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ﴾ سَيِّدَهُ ﴿خَمْرًا﴾ عَلَى عَادَتِهِ ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ فَيَخْرُجُ بَعْدَ ثَلَاثٍ ﴿فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاكُمَا، فَقَالَا: مَا رَأَيْنَا شَيْئًا، فَقَالَ: ﴿قُضِيَ﴾ تَمَّ ﴿الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ ٤١ سَأَلْتُمَا عَنْهُ صَدَقْتُمَا، أَمْ كَذَبْتُمَا^(١). ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ﴾ أَيْقَنَ ﴿أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وَهُوَ السَّاقِي: ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ سَيِّدِكَ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّ فِي السَّجْنِ غَلَامًا مَّحْبُوسًا ظَلَمًا، فَخَرَجَ ﴿فَأَنْسَهُ﴾ أَيُّ: السَّاقِي ﴿الشَّيْطَانُ ذَكَرَ﴾ يُوسُفَ عِنْدَ رَبِّهِ فَلَبِثَ ﴿مَكَثَ يُوسُفُ﴾ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ٤٢ قِيلَ: سَبْعًا، وَقِيلَ: اثْنَتَيْ عَشْرَةَ. ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ مَلِكُ مِصْرَ الرَّيَّانُ بْنُ الْوَلِيدِ: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ أَيُّ: رَأَيْتُ ﴿سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ﴾ يَتَبَلَّغُهُنَّ ﴿سَبْعٌ﴾ مِنَ الْبَقَرِ ﴿عِجَافٌ﴾ جَمْعُ عَجَفَاءَ ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ﴾ أَيُّ: سَبْعَ سُنبُلَاتٍ

العقل والفهم فظنا أنه يحسن تعبير الرؤيا ولم يكونا علما منه ذلك من قبل، وقد صادفا الصواب، ولذلك قالوا: ﴿إِنَّا نَرْنِكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي المحسنين التعبير، أو المحسنين الفهم. [ابن عاشور (١٢/٢٦٩)].

(١) قال مقاتل بن سليمان: فكره الخباز تعبير رؤياه، فقال: ما رأيت شيئا، إنما كنت ألعب. فقال له يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ يقول: رأيتما أو لم تريا فقد وقع بكما ما عبرت لكما. [مقاتل (٢/٣٣٥)].

﴿يَا بَسِطْ﴾ قَدْ اتَوْتُ عَلَى الْخُضْرِ، وَعَلَتْ عَلَيْهَا ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ﴾ بَيَّنُّوا لِي تَعْبِيرَهَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ ٤٣ ﴿فَاعْبُرُواَهَا﴾ ﴿قَالُوا﴾ هَذِهِ ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أَخْلَاطُ ٤٤ ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ﴾ ٤٥ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴿أَيُّ: مِنَ الْفَتَيْنِ وَهُوَ السَّاقِي﴾ ﴿وَأَذْكُرْ﴾ فِيهِ إِبْدَالُ «التَّاءِ» فِي الْأَصْلِ «دَالًا»، وَإِدْغَامُهَا فِي «الدَّالِ»، أَيُّ: تَذَكَّرَ ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ حِينَ حَالَ يُوسُفَ، قَالَ: ﴿أَنَا أَنْبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ﴾ فَأَرْسَلُونِ ٤٥ ﴿فَأَرْسَلُوهُ﴾ فَأَتَى يُوسُفَ فَقَالَ: يَا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ الْكَثِيرُ الصَّدَقِ ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ﴾ أَيُّ: الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ٤٦ ﴿تَعْبِيرَهَا﴾ ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ أَيُّ: اِزْرَعُوا ﴿سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ مُتَابِعَةٌ، وَهِيَ تَأْوِيلُ السَّبْعِ السَّمَانِ ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ أَيُّ: اِتْرْكُوهُ ﴿فِي سُنبُلِهِ﴾ لِيَتَلَا يَفْسُدَ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ٤٧ ﴿فَاذْرُسُوهُ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَيُّ: السَّبْعِ الْمُخَصِّبَاتِ ﴿سَبْعَ شِدَادٍ﴾ مُجْدِبَاتٌ صِعَابٌ، وَهِيَ تَأْوِيلُ السَّبْعِ الْعِجَافِ ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ مِنَ الْحَبِّ الْمَزْرُوعِ فِي السِّنِينَ الْمُخَصِّبَاتِ، أَيُّ: تَأْكُلُونَهُ فِيهِنَّ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ ٤٨ ﴿تَذَخَّرُونَ﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ أَيُّ: السَّبْعِ الْمُجْدِبَاتِ ﴿عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ ٤٩ ﴿الْأَعْنَابُ وَغَيْرَهَا لِخِصْبِهِ﴾ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ وَأَخْبَرَهُ بِتَأْوِيلِهَا: ﴿أُنْتُونِي بِهِ﴾ أَيُّ: بِالَّذِي عَبَّرَهَا ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ﴾ أَيُّ: يُوسُفُ ﴿الرَّسُولُ﴾ وَطَلَبَهُ لِلْخُرُوجِ ﴿قَالَ﴾ قَاصِدًا إِظْهَارَ بَرَاءَتِهِ: ﴿أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ﴾ أَنْ يَسْأَلَ ﴿مَا بَالُ﴾ حَالِ ﴿النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي﴾ سَيِّدِي ٥٠ ﴿بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ٥١ ﴿فَرَجَعَ فَأَخْبَرَ الْمَلِكَ فَجَمَعَهُنَّ﴾ ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ﴾ شَأْنُكُنَّ ﴿إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مَيْلًا إِلَيْكُنَّ؟ ﴿فُلْنِ حَشَشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا

(١) قال ابن الأنباري: ومعنى الآية: أنهم نفوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له من الرؤيا، ولم ينفوا عن أنفسهم علم تأويل ما يصح منها، فعنوا بقولهم: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ هذه منامات كاذبة لا يصح تأويلها، وما نحن بتأويل الأحلام التي هذا وصفها بعالمين، إذ كنا نعلم تأويل ما يصح، هذا معنى قول أكثر المفسرين: الكلبي وغيره، ونحوه قال ابن عباس في رواية عطاء، وهو اختيار الزجاج؛ لأنه قال: إنهم قالوا له رؤياك أخلاط، وليس للرؤيا المختلطة عندنا تأويل، فعلى هذا لم يقرؤا بالجهل والعجز عن تأويل الأحلام، وإنما قالوا: إن رؤياك فاسدة ولا تأويل للفاسدة عندنا، وذهب آخرون إلى أنهم قالوا: هذه منامات مختلطة لا نعلمها نحن؛ إذ لم تكن من أهل العبارة، إنما يعلمها من خصص بالنفاذ في البصر، وحسن استخراج ما يغمض من تأويلها، ذهب إلى هذا المعنى مقاتل بن سليمان ونفر معه. [الواحد (١٢) / ١٣٠].

(٢) فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهن مغنياً عن التصريح، وقيل: المراد بالرب هنا الملك وجعله رباً لنفسه لكونه مريباً له، والأول أولى وفيه تعظيم كيدهن والوعيد لهن على كيدهن. [صديق حسن (٦) / ٣٥٢].

عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أُمْرَأْتُ الْعَزِيزِ أَلَنْ حَصَحَصَ ﴿٥١﴾ وَضَحَ ﴿الْحَقُّ أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾
 ﴿٥٢﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فَأَخْبَرَ يُوسُفَ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: طَلَبُ الْبَرَاءَةِ ﴿لِيَعْلَمَ﴾ الْعَزِيزُ
 ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ﴾ فِي أَهْلِهِ^(١) ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾^(٢)، ثُمَّ تَوَاضَعَ لِلَّهِ، فَقَالَ: ﴿*وَمَا
 أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ مِنَ الزَّلَلِ ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ الْجَنَسَ ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ كَثِيرَةُ الْأَمْرِ ﴿بِالسُّوءِ إِلَّا مَا﴾ بِمَعْنَى «مَنْ» ﴿رَحِمَ رَبِّي﴾
 فَعَصَمَهُ ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣) وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴿أَجْعَلُهُ خَالِصًا لِي دُونَ شَرِيكِ،
 فَجَاءَهُ الرَّسُولُ وَقَالَ: أَجِبِ الْمَلِكَ، فَقَامَ وَودَّعَ أَهْلَ السَّجْنِ وَدَعَا لَهُمْ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَلَبَسَ ثِيَابًا حَسَنًا، وَدَخَلَ عَلَيْهِ
 ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ﴾ لَهُ: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾^(٤) ذُو مَكَانَةٍ وَأَمَانَةٍ عَلَى أَمْرِنَا، فَمَاذَا تَرَى أَنْ نَفْعَلَ؟ قَالَ:
 اجْمَعْ الطَّعَامَ وَارْزَعْ زَرْعًا كَثِيرًا فِي هَذِهِ السِّنِينَ الْمُخْصِبَةِ، وَادَّخِرِ الطَّعَامَ فِي سُنْبُلِهِ، فَتَأْتِي إِلَيْكَ الْخَلْقُ لِيَمْتَارُوا مِنْكَ.
 فَقَالَ: وَمَنْ لِي بِهَذَا؟ ﴿قَالَ﴾ يُوسُفُ لَهُ: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾^(٥) ذُو
 حِفْظٍ وَعِلْمٍ بِأَمْرِهَا، وَقِيلَ: كَاتِبٌ حَاسِبٌ^(٦). ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَانِعَامِنَا عَلَيْهِ بِالْخَلَاصِ مِنَ السَّجْنِ ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
 الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ يَنْزِلُ ﴿مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ بَعْدَ الضِّيقِ وَالْحَبْسِ، وَفِي الْقِصَّةِ: أَنَّ الْمَلِكَ تَوَجَّهَ وَخَتَمَهُ
 وَوَلَّاهُ مَكَانَ الْعَزِيزِ وَعَزَلَهُ وَمَاتَ بَعْدُ، فَزَوَّجَهُ أَمْرَأَةً فَوَجَدَهَا عَذْرَاءً، وَوَلَدَتْ لَهُ وَلَدَيْنِ^(٧)، وَأَقَامَ الْعَدْلَ بِمِصْرَ وَدَانَتْ

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغير واحد: تقول الآن: تبين الحق وظهر وبرز. ﴿أَنَا رَاودَتْهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أَيُّ: في قوله: ﴿هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾، ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ تقول: إنما اعترفت بهذا على نفسي، ذلك ليعلم زوجي أن لم أخنه في نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة، فامتنع؛ فلهذا اعترفت ليعلم أي بريئة، ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ تقول المرأة: ولست أبرئ نفسي، فإن النفس تتحدث وتتمنى؛ ولهذا راودته لأنها أماراة بالسوء، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أَيُّ: إلا من عصمه الله تعالى... وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام. وقد حكاه الماوردي في تفسيره، وانتدب لنصره الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية، رحمه الله، فأفرده بتصنيف على حدة. [ابن كثير (٤/٣٩٤)].

(٢) صفتان تعلمان وجوه المعرفة والضبط للخزائن وقيل: حفيظ للحساب عليم بالألسن، واللفظ أعم من ذلك، ويستدل بذلك أنه يجوز للرجل أن يعرف بنفسه ويمدح نفسه بالحق إذا جهل أمره وإذا كان في ذلك فائدة. [ابن جزي (١/٣٩٠)].

(٣) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٧/٢١٦١)، والطبري في جامع البيان (١٦/١٥١). وورد نحوه عن زيد بن أسلم التابعي الجليل، وعن وهب بن منبه المعروف بالرواية عن الإسرائيليات. نقل ذلك السيوطي في الدر المنثور (٤/٥٥٣). وقال ابن القيم رحمه الله: من ترك لله شيئاً عوضه الله خيراً منه، كما ترك يوسف الصديق عليه السلام امرأة العزيز لله، واختار السجن على الفاحشة، فعوضه الله أن مكَّنه في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء، وأتته المرأة صاغرة سائلة رغبة في الوصل الحلال، فتزوجها فلما دخل بها، قال: هذا خير مما كنت تريد.

لَهُ الرَّقَابُ ﴿٥٦﴾ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ مِّنْ أَجْرِ الدُّنْيَا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾. وَدَخَلْتُ سِنِّي الْقَحْطِ، وَأَصَابَ أَرْضَ كَنْعَانَ وَالشَّامِ ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ إِلَّا بِنِيَامِينَ، لِيَمْتَارُوا لَمَّا بَلَغَهُمْ أَنَّ عَزِيزَ مِصْرَ يُعْطِي الطَّعَامَ بِشَمْنِهِ ﴿فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ أَنَّهُمْ إِخْوَتُهُ ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ لَا يَعْرِفُونَهُ لِبُعْدِ عَهْدِهِمْ بِهِ وَظَنُّهُمْ هَلَاكُهُ، فَكَلَّمُوهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَقَالَ كَالْمُنْكَرِ عَلَيْهِمْ: مَا أَقْدَمَكُمْ بِلَادِي؟ فَقَالُوا: لِلْمِيرَةِ، فَقَالَ: لَعَلَّكُمْ عُيُونُ؟ قَالُوا: مَعَازُ اللَّهِ، قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: مِنْ بِلَادِ كَنْعَانَ، وَأَبُونَا يَعْقُوبُ نَبِيُّ اللَّهِ، قَالَ: وَلَهُ أَوْلَادٌ غَيْرُكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، كُنَّا اثْنِي عَشَرَ فَذَهَبَ أَصْغَرُنَا هَلَكًا فِي الْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ أَحَبَّنَا إِلَيْهِ، وَبَقِيَ شَقِيقُهُ فَاحْتَبَسَهُ لِيَسْتَلَى بِهِ عَنْهُ، فَأَمَرَ بِإِنزَالِهِمْ وَإِكْرَامِهِمْ. ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ﴾ وَفَى لَهُمْ كَيْلَهُمْ ﴿قَالَ أَتُتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أَيُّ: بِنِيَامِينَ لِأَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا قُلْتُمْ ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أْتَمُّهُ مِنْ غَيْرِ بَخْسٍ ﴿وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أَيُّ: مِيرَةٍ ﴿وَلَا تَقْرُبُونِ﴾ ﴿٦٠﴾ نَهْيٌ، أَوْ عَطْفٌ عَلَى مَحَلِّ ﴿فَلَا كَيْلَ﴾، أَيُّ: تُحْرَمُوا وَلَا تَقْرُبُوا. ﴿قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سَنَجْتَهُدُ فِي طَلَبِهِ مِنْهُ ﴿وَأَنَا لَفَاعِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ. ﴿وَقَالَ لِفَتْنِيَّتِهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِفَتْنِيَّتِهِ﴾ غِلْمَانِهِ ﴿أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ﴾ الَّتِي أَتَوْا بِهَا ثَمَنَ الْمِيرَةِ وَكَانَتْ دَرَاهِمَ ﴿فِي رِحَالِهِمْ﴾ أَوْعِيَّتِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وَفَرَّغُوا أَوْعِيَّتَهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ إِلَيْنَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِلُّونَ إِمْسَاكَهَا. ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَبْنَابَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ إِنْ لَمْ تُرْسِلْ أَخَانَا إِلَيْهِ ﴿فَارْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ بِالْثَوْنِ وَالْيَاءِ ﴿وَأَنَا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ﴿مَا﴾ ءَامَنْتُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ يُوسُفَ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ وَقَدْ فَعَلْتُمْ بِهِ مَا فَعَلْتُمْ ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿حَفِظًا﴾ تَمِيزٌ، كَقَوْلِهِمْ: «اللَّهُ دَرُّهُ فَارِسًا» ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ فَأَرْجُو أَنْ يَمُنَّ بِحِفْظِهِ. ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَبْنَابَانَا مَا نَبْغِي﴾ ﴿مَا﴾ اسْتَفْهَامِيَّةٌ، أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ نَطْلُبُ مِنْ إِكْرَامِ الْمَلِكِ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا، وَقُرِئَ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ ﴿خِطَابًا لِّعَقُوبَ، وَكَانُوا ذَكَرُوا لَهُ إِكْرَامَهُ لَهُمْ﴾ هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلُنَا ﴿نَأْتِي بِالْمِيرَةِ لَهُمْ وَهِيَ الطَّعَامُ

فتأمل كيف جزاه الله سبحانه وتعالى على ضيق السجن، أن مكَّنه في الأرض ينزل منها حيث يشاء، وأذل له العزيز امرأته، وأقرت المرأة والنسوة ببراءته، وهذه سنته تعالى في عباده قديمًا وحديثًا إلى يوم القيامة. انتهى من روضة المحبين (ص: ٤٤٥). وهذا لا يعني القطع بثبوت هذه القصة، بل الظاهر أنها مأخوذة عن أهل الكتاب، وقد أمرنا بعدم تصديقهم وعدم تكذيبهم أيضًا، قال النبي ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تُكْذِبُوهُمْ وَفُؤُلُوا أَمَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْهَنَاءُ وَالْهَيْكُمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». رواه البخاري (٤٤٨٥).

﴿وَنَحْفِظُ أَحَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لِأَحِينَا ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ ﴿سَهْلٌ عَلَى الْمَلِكِ لِسَخَائِهِ﴾. ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ وَ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ عَهْدًا ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ بِأَنْ تَحْلِفُوا ﴿لَتَأْتِيَنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ بِأَنْ تَمُوتُوا أَوْ تُغْلَبُوا فَلَا تُطِيقُوا الْإِثْيَانَ بِهِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ بِذَلِكَ ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿وَكَيْلٌ شَهِيدٌ، وَأَرْسَلَهُ مَعَهُمْ.﴾ ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا﴾ مِصْرَ ﴿مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لِئَلَّا تُصِيبَكُمْ الْعَيْنُ ﴿وَمَا أَغْنَى﴾ أَدْفَعُ ﴿عَنْكُمْ﴾ بِقَوْلِي ذَلِكَ ﴿مِّنَ اللَّهِ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿شَيْءٍ﴾ قَدَّرَهُ عَلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَفَقَةٌ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ بِهِ وَثَقْتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾. ﴿قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أَيُّ: مُتَفَرِّقِينَ ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِّنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: قَضَائِهِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿شَيْءٍ إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا﴾ وَهِيَ: إِرَادَةُ دَفْعِ الْعَيْنِ شَفَقَةً ﴿وَأَنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْكُفَّارُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِلَهَامَ اللَّهِ لِأَصْفِيَائِهِ﴾. ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى﴾ ضَمَّ ﴿إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴿تَحْزَنُ﴾ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿مِنَ الْحَسَدِ لَنَا، وَأَمْرُهُ أَنْ لَا يُخْبِرَهُمْ، وَتَوَاطَأَ مَعَهُ عَلَى أَنَّهُ سَيَحْتَالُ عَلَى أَنْ يُبْقِيَهُ عِنْدَهُ.﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ﴾

(١) أي: مكيل قليل لا يكفيننا، استقلوا ما كيل لهم فأرادوا أن يضاعفوه بالرَّجوع إلى الملك ويزدادوا إليه ما يكال لأخيهم، ويجوز أن تكون الإشارة إلى ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي: ذلك شيء قليل لا يضابقنا فيه الملك ولا يتعاضده، وقيل: إنه من كلام يعقوب ومعناه، إن حمل بعير شيء يسير لا يخاطر لمثله بالولد. [البضاوي (١٦٩/٣)].

(٢) أكثر المفسرين على أنه خاف العين: لأنه كانوا أعطوا جمالا وقوة وامتداد قامة، هذا قول ابن عباس وغيره من المفسرين، والعين حق. وقد روي عن النبي أنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أُعِذُكُمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَّامَةٍ». أخرجه البخاري (٣٣٧١). وفي الباب أخبار كثيرة، وفي بعض الآثار: «الْعَيْنُ حَقٌّ تَدْخُلُ الْجَمَلَ الْقَدْرَ وَالرَّجُلَ الْقَبْرَ». أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠)، والخطيب في تاريخه (٩/ ٢٤٤). وفي الآية قول آخر: وهو أنه خاف عليهم ملك مصر إذا رأى قوتهم واجتماعهم أن يحبسهم أو يقتلهم... والصحيح هو الأول. [السمعاني (٤٧/٣)].

(٣) الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَلَهَا﴾ منقطع، والمعنى ولكن حاجة كانت في نفسه وهي شفقتهم ومحبتهم لسلامتهم أظهرها يعقوب لهم ووصاهم بها غير معتقد إن للتدبير الذي دبره لهم تأثير أي دفع ما قضاه الله عليهم. [صديق حسن (٣٧٠/٦)]. ﴿وَأَنَّهُ لَدُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: علم جليل، لتعليمنا إياه بالوحي، ونصب الأدلة، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر، وأن التدبير له حظ من التأثير. وفي تأكيد الجملة بـ «إِنْ» و«اللام» وتنكير العلم، وتعليقه بالتعليم المسند إلى ذاته سبحانه؛ من الدلالة على شأن يعقوب عليه السلام، وعلو مرتبة علمه وفخامته ما لا يخفى، أفاده أبو السعود. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فيظنون الأسباب مؤثرات. [القاسمي (١٩٨/٦)].

هِيَ صَاعٌ مِنَ الذَّهَبِ مُرَصَّعٌ بِالْجَوْهَرِ^(١) ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بِنِيَامِينَ ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نَادَى مُنَادٍ بَعْدَ انْفِصَالِهِمْ عَنْ مَجْلِسِ يُوسُفَ: ﴿أَيُّهَا الْعَيْرُ﴾ الْقَافِلَةُ ﴿إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ۖ﴾ قَالُوا وَ ﴿قَدْ أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا﴾ مَا الَّذِي ﴿تَفْقِدُونَ ۖ﴾ هـ. ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صَوَاعَ﴾ صَاعٌ ﴿الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ مِنَ الطَّعَامِ ﴿وَأَنَا بِهِ﴾ بِالْحِمْلِ ﴿زَعِيمٌ ۖ﴾ كَفِيلٌ. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ قَسَمَ فِيهِ مَعْنَى التَّعَجُّبِ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ۖ﴾ مَا سَرَفْنَا قَطُّ. ﴿قَالُوا﴾ أَيِ: الْمُوَذَّنُ وَأَصْحَابُهُ: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أَيِ: السَّارِقُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ۖ﴾ فِي قَوْلِكُمْ: «مَا كُنَّا سَارِقِينَ»، وَوُجِدَ فِيكُمْ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ﴾ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ ﴿مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ﴾ يُسْتَرَقُّ، ثُمَّ أَكَّدَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَهُوَ﴾ أَيِ: السَّارِقُ ﴿جَزَاؤُهُ﴾ أَيِ: الْمَسْرُوقُ لَا غَيْرَ، وَكَانَتْ سُنَّةَ آلِ يَعْقُوبَ^(٢) ﴿كَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۖ﴾ بِالسَّرِقَةِ. فَضَرَفُوا إِلَى يُوسُفَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَّتِهِمْ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ﴾ فَفَتَشَهَا ﴿قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ لِئَلَّا يَتَّهِمَ ﴿ثُمَّ أَسْتَخْرَجَهَا﴾ أَيِ: السَّقَايَةَ ﴿مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ﴾ الْكَيْدُ ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ عَلَّمْنَاهُ الْإِحْتِيََالَ فِي أَخْذِ أَخِيهِ^(٣) ﴿مَا كَانَ﴾ يُوسُفُ ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رَقِيقًا عَنِ السَّرِقَةِ ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ حُكْمَ مَلِكِ مِصْرَ، لِأَنَّ جَزَاءَهُ عِنْدَهُ الضَّرْبُ وَتَغْرِيمُ مِثْلِي الْمَسْرُوقِ لَا الْإِسْتِرْقَاقُ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَخَذَهُ بِحُكْمِ أَبِيهِ، أَيِ: لَمْ يَتِمَّ كُنْ مِنْ أَخْذِهِ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ بِإِلْهَامِهِ سُؤَالَ إِخْوَتِهِ وَجَوَابِهِمْ بِسُتْتِهِمْ ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ بِالْإِضَافَةِ وَالتَّنْوِينِ فِي الْعِلْمِ كَيُوسُفَ ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ ﴿عَلِيمٌ ۖ﴾ أَعْلَمُ مِنْهُ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى اللَّهِ

(١) السقاية: هي إناء من فضة في قول الأكثرين. وقيل: من ذهب قاله ابن زيد كان يشرب فيه، ويكيل للناس به من عزة الطعام إذ ذاك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد. [ابن كثير (٤/٤٠٠)].

(٢) هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق، وكان في دين مصر أن يضرب ويضعف عليه الغرم، فعلم يوسف أن إخوته -لثقتهم ببراءة ساحتهم- سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهمة على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من الصلاح في الأجل، وبوحي لا محالة وإرادة من الله محتتهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويقويه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾. وقيل: إنما أوحى إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدوها، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجحه الطبري، وتفتيش الأوعية يرد عليه. وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. [ابن عطية (٣/٢٦٣)].

(٣) قال ابن الأعرابي: الكيد التدبير بالباطل وبالحق، وقيل: الكيد هنا جزاء الكيد، يعني: كما فعلوا بيوسف عليه السلام في الابتداء فعلنا بهم، وقيل غير ذلك والأول أولى، وفي الآية دليل على جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما صورته صورة الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف ذلك شرعاً ثابتاً. [صديق حسن (٦/٣٧٧)].

تَعَالَى. ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ ۚ أَيُّ: يُوسُفُ وَكَانَ سَرَقَ لِأَبِي أُمِّهِ صَنَمًا مِنْ ذَهَبٍ فَكَسَرَهُ
لَيْلًا يَعْبُدُهُ ۚ ﴿٧٧﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ ۚ وَلَمْ يُبْدِهَا ۚ يُظْهِرُهَا ﴿لَهُمْ﴾ وَالضَّمِيرُ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ ﴿قَالَ﴾ فِي
نَفْسِهِ: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا﴾ مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ لَسَرَقْتِكُمْ أَخَاكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ وَظَلَمَكُمْ لَهُ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَا
تَصِفُونَ ۝ ٧٧﴾ تَذْكُرُونَ مِنْ أَمْرِهِ. ﴿قَالُوا يَتَّيْنُهَا الْعَزِيزُ إِنْ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ يُحِبُّهُ أَكْثَرُ مِنَّا، وَيَتَسَلَّى بِهِ عَنْ وَلَدِهِ
الْهَالِكِ وَيُحْزِنُهُ فِرَاقُهُ ﴿فَخَذَ أَحَدُنَا﴾ اسْتَعْبَدَهُ ﴿مَكَانَهُ ۚ﴾ بَدَلًا مِنْهُ ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ ٧٨﴾ فِي أَفْعَالِكَ.
﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَرِ حُذِفَ فِعْلُهُ وَأُضِيفَ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيُّ: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ ﴿أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ
وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ۚ﴾ لَمْ يَقُلْ: «مَنْ سَرَقَ» تَحَرُّزًا مِنَ الْكَذِبِ ﴿إِنَّا إِذَا﴾ إِنْ أَخَذْنَا غَيْرُهُ ﴿لَنَظْلِمُونَ ۝ ٧٩﴾ فَلَمَّا
اسْتَيْسَسُوا ۚ يَسُّوْا ﴿مِنْهُ خَلَصُوا﴾ اعْتَرَلُوا ﴿حَيًّا﴾ مَصْدَرٌ يَصْلُحُ لِلوَاحِدِ وَغَيْرِهِ، أَيُّ: يُنَاجِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿قَالَ
كَبِيرُهُمْ﴾ سِنَّا «رُوبِيلٌ»، أَوْ رَأْيَا «يَهُودَا» ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا﴾ عَهْدًا ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ فِي
أَخِيكُمْ ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ وَقِيلَ: ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، ﴿فَلَنْ أُبْرَحَ﴾
أُفَارِقَ ﴿الْأَرْضَ﴾ أَرْضَ مِصْرَ ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بِالْعَوْدَةِ إِلَيْهِ ﴿أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي﴾ بِخَلَاصِ أَخِي ﴿وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ ۝ ٨٠﴾ أَعْدَلُهُمْ. ﴿أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَتَّيْنَانَا إِنْ أَبْنَاكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا﴾ عَلَيْهِ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾
تَيَقُّنًا مِنْ مُشَاهَدَةِ الصَّاعِ فِي رَحْلِهِ ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لِمَا غَابَ عَنَّا حِينَ إِعْطَاءِ الْمَوْثِقِ ﴿حَافِظِينَ ۝ ٨١﴾ وَلَوْ عَلِمْنَا
أَنَّهُ يَسْرِقُ لَمْ نَأْخُذْهُ. ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ هِيَ مِصْرُ، أَيُّ: أَرْسَلْ إِلَى أَهْلِهَا فَاسْأَلْهُمْ ﴿وَالْعِيرَ﴾ أَيُّ:
أَصْحَابِ الْعِيرِ ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وَهُمْ قَوْمٌ مِنْ كُتْعَانَ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ ٨٢﴾ فِي قَوْلِنَا، فَارْجِعُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا لَهُ ذَلِكَ.
﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ﴾ زَيَّتْ ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فَعَلْتُمُوهُ، اِتَّهَمَهُمْ لِمَا سَبَقَ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾
صَبْرِي ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ بِيُوسُفَ وَأَخَوَيْهِ ﴿جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِحَالِي ﴿الْحَكِيمُ ۝ ٨٣﴾ فِي صُنْعِهِ.
﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تَارِكًا خُطَابَهُمْ ﴿وَقَالَ يَتَّاسَفَى﴾ «الْأَلْفُ» بَدَلٌ مِنْ «يَاءٍ» الْإِضَافَةِ، أَيُّ: يَا حُزْنِي ﴿عَلَى يُوسُفَ
وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ﴾ اِنْمَحَقَ سَوَادُهُمَا وَبَدَّلَ بَيَاضًا مِنْ بُكَائِهِ ﴿مِنَ الْحُزَنِ﴾ عَلَيْهِ ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ ۝ ٨٤﴾ مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ

(١) في البحر لابن المنير أن ما ذكر في تفسير السرقه تكلف لا يسوغ نسبة مثله إلى بيت النبوة ولا إلى أحد من الأشراف فالواجب تركه، وإليه ذهب مكِّي وفسره بعضهم بأن يسرق فقد سرق مثله من بني آدم، وذكر له نظائر في الحديث، قال الخفاجي وهو كلام حقيق بالقبول. [صديق حسن (٦/ ٣٨٠)]. وإنما قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ بهتاناً ونفياً للمعرة عن أنفسهم. وليس ليوسف عليه السلام يومئذ سرقه قبل. ولم يكن إخوة يوسف عليه السلام أنبياء. [ابن عاشور (١٣/ ٣٤)].

لَا يُظْهِرُ كَرْبَهُ. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ لَا ﴿تَفْتَوُوا﴾ تَرَالِ ﴿تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا﴾ مُشْرِفًا عَلَى الْهَلَاكِ لَطُولَ مَرَضِكَ، وَهُوَ مَصْدَرٌ يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَغَيْرُهُ ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ ٨٥ ﴿الْمَوْتَى﴾. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي﴾ هُوَ عَظِيمُ الْحُزَنِ الَّذِي لَا يُصْبِرُ عَلَيْهِ حَتَّى يُبَيِّتَ إِلَى النَّاسِ ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لَا إِلَى غَيْرِهِ فَهُوَ الَّذِي تَنْفَعُ الشَّكْوَى إِلَيْهِ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٨٦ ﴿مِنْ أَنْ رُؤْيَا يَوْسُفَ صِدْقٌ وَهُوَ حَيٌّ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أَطْلُبُوا خَبْرَهُمَا ﴿وَلَا تَأْيَسُوا﴾ تَقْنَطُوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ رَحْمَتِهِ ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٧ ﴿فَانْطَلَقُوا نَحْوَ مِصْرَ لِيُوسُفَ﴾. ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَيْنَا الضَّرُّ﴾ الْجُوعُ ﴿وَجِئْنَا بِضَلْعَةٍ مُزْجَجَةٍ﴾ مَذْفُوعَةٍ، يَذْفَعُهَا كُلُّ مَنْ رَأَاهَا لِرَدَائِعِهَا، وَكَانَتْ دَرَاهِمَ زُيُوفًا أَوْ غَيْرَهَا ﴿فَأَوْفٍ﴾ أَيْمٌ ﴿لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بِالْمُسَامَحَةِ عَنْ رَدَاءَةِ بَضَاعَتِنَا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ ٨٨ ﴿يُشِيهِمْ﴾، فَرَّقَ لَهُمْ وَأَدْرَكَتْهُ الرَّحْمَةُ وَرَفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. ثُمَّ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ تَوْبِيحًا: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ مِنَ الضَّرْبِ وَالْبَيْعِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَأَخِيهِ﴾ مِنْ هَضْمِكُمْ لَهُ بَعْدَ فِرَاقِ أَخِيهِ ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ٨٩ ﴿مَا يُؤُولُ إِلَيْهِ أَمْرُ يَوْسُفَ﴾. ﴿قَالُوا﴾ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوهُ لِمَا ظَهَرَ مِنْ شِمَائِلِهِ مُسْتَشْتَبِينَ: ﴿أَأَنَّكَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ﴾ أَنْعَمَ ﴿اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بِالْإِجْتِمَاعِ ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ﴾ يَخْفِ اللَّهُ ﴿وَيُصْبِرِ﴾ عَلَى مَا يَنَالُهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٩٠ ﴿فِيهِ وَضَعَ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ﴾. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ﴾ فَضَّلَكَ ﴿اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بِالْمُلْكِ وَغَيْرِهِ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَيْ: إِنَّا ﴿كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ ٩١ ﴿أَتَمِّينَ فِي أَمْرِكَ فَاذْكُرْنَا اللَّهُ لَكَ﴾. ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ﴾ عَتَبَ ﴿عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مَظَنَّةُ التَّثْرِبِ فَغَيَّرَهُ أَوَّلَى ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ٩٢. وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِ، فَقَالُوا: ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ، فَقَالَ: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ وَهُوَ قَمِيصُ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي لَبَسَهُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ كَانَ فِي عُنُقِهِ فِي الْجُبِّ وَهُوَ مِنَ الْجَنَّةِ أَمْرُهُ جَبْرِيلُ بِإِسْمَالِهِ، وَقَالَ: إِنَّ فِيهِ رِيحَهَا، وَلَا يُلْقَى عَلَى مُبْتَلَى إِلَّا عَوْفِي ٩٣ ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ﴾ يَصِرُ ﴿بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٩٤ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ خَرَجَتْ مِنْ عَرِيشِ مِصْرَ ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لِمَنْ حَصَرَ مِنْ

(١) فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين. [السعدي (ص: ٤٠٤)].

(٢) وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو منه بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بعد، ولو كان من قميص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولو جده كل أحد. [ابن عطية (٣/ ٢٧٨)].

بَيْنِهِ وَأَوْلَادِهِمْ: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ أَوْصَلَتْهُ إِلَيْهِ «الضَّبَا» بِإِذْنِهِ تَعَالَى مِنْ مَسِيرِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، أَوْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ أَكْثَرَ ﴿لَوْلَا أَن تَفْنَدُونِ﴾ ٩٥ ﴿تُسَفَّهُونَ لَصَدَقْتُمُونِي﴾ ﴿قَالُوا﴾ لَهُ: ﴿تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ﴾ خَطَاكَ ﴿الْقَدِيمِ﴾ ٩٥ ﴿مِنْ إِفْرَاطِكَ فِي مَحَبَّتِهِ، وَرَجَاءِ لِقَائِهِ، عَلَى بُعْدِ الْعَهْدِ.﴾ ﴿فَلَمَّا أَنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ يَهُوذَا بِالْقَمِيصِ، وَكَانَ قَدْ حَمَلَ قَمِيصَ الدَّمِ، فَأَحَبَّ أَنْ يُفْرِحَهُ كَمَا أَحْزَنَهُ ﴿الْقَدَمُ﴾ طَرَحَ الْقَمِيصَ ﴿عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّتْ﴾ رَجَعَ ﴿بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٩٦ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ٩٧ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٩٨ ﴿أَخْرَجَ ذَلِكَ إِلَى السَّحَرِ لِيَكُونَ أَقْرَبَ إِلَى الْإِجَابَةِ، وَقِيلَ: إِلَى لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ. ثُمَّ تَوَجَّهُوا إِلَى مِصْرَ وَخَرَجَ يُوسُفُ وَالْأَكَابِرُ لِتَلْقِيهِمْ﴾ ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ فِي مَضْرِبِهِ ﴿ءَاوَى﴾ ضَمَّ ﴿إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ أَبَاهُ وَأُمُّهُ أَوْ خَالَتُهُ ﴿وَقَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ ٩٩ ﴿فَدَخَلُوا وَجَلَسَ يُوسُفُ عَلَى سَرِيرِهِ.﴾ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ السَّرِيرِ ﴿وَوُحِّدُوا﴾ أَيُّ: أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ ﴿لَهُ سُجْدًا﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ، لَا وَضْعَ جَبْهَةٍ، وَكَانَ تَحِيَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إِلَيَّ ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لَمْ يَقُلْ: «مِنَ الْجُبِّ»، تَكْرُمًا لِئَلَّا يَخْجَلَ إِخْوَتُهُ ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ الْبَادِيَةِ ١٠٠ ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَّغَ﴾ أَفْسَدَ ﴿الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ بِخَلْقِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ١٠١ ﴿فِي صُنْعِهِ. وَأَقَامَ عِنْدَهُ أَبُوهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، أَوْ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَكَانَتْ مُدَّةُ فِرَاقِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ، أَوْ أَرْبَعِينَ، أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً، وَحَضَرَهُ الْمَوْتُ فَوَصَّى يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلَهُ وَيَدْفِنَهُ عِنْدَ أَبِيهِ، فَمَضَى بِنَفْسِهِ وَدَفَنَهُ ثَمَّةً، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ وَأَقَامَ بَعْدَهُ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَلَمَّا تَمَّ أَمْرُهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَدُومُ تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمُلْكِ الدَّائِمِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ تَعْبِيرُ الرُّؤْيَا ﴿فَاطِرُ﴾ خَالِقُ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ﴾ مُتَوَلِّي صَالِحِي ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقْنِي﴾

(١) هذه الآية يدل ظاهرها على أن بعض الأنبياء ربما بعث من البادية، وقد جاء في موضع آخر ما يدل على خلاف ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]. وأجيب عن هذا بأجوبة: منها أن يعقوب نبي من الحضرة، ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية. ومنها أن المراد بالبدو نزول موضع اسمه بدا... وهذا القول مروى عن ابن عباس، ولا يخفى بعد هذا القول كما نبه عليه الآلوسي في تفسيره. ومنها أن البدو الذي جاءوا منه مستند للحضر، فهو في حكمه، والله تعالى أعلم. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ١٧٥)].

بِالصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ مِنْ آبَائِي، فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ أَسْبُوعًا أَوْ أَكْثَرَ^(١) وَمَاتَ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً، وَتَشَاحَّ الْمِصْرِيُّونَ فِي قَبْرِهِ فَجَعَلُوهُ فِي صُنْدُوقٍ مِنْ مَرَمَرٍ وَدَفَنُوهُ فِي أَعْلَى النَّيْلِ لِنَعْمِ الْبَرَكَاتِ جَانِبِيهِ^(٢) فَسُبْحَانَ مَنْ لَا انْقِصَاءَ لِمُلْكِهِ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ أَمْرِ يُوسُفَ ﴿مِنْ أَتْبَاءِ﴾ أَخْبَارِ ﴿الْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ عَنْكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ لَدَى إِخْوَةِ يُوسُفَ ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ فِي كَيْدِهِ، أَيُّ: عَزَمُوا عَلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾^(٣) بِهِ، أَيُّ: لَمْ تَحْضُرْهُمْ فَتَعَرَّفَ قِصَّتَهُمْ فَتُخْبِرَ بِهَا، وَإِنَّمَا حَصَلَ لَكَ عِلْمُهَا مِنْ جِهَةِ الْوَحْيِ. ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ عَلَى إِيْمَانِهِمْ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿مِنْ أَجْرِ﴾ تَأْخُذُهُ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥) وَكَأَيِّنْ ﴿وَكَمْ﴾ مِنْ عَايَةٍ دَالَّةٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يُشَاهِدُونَهَا ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٦) لَا يَتَفَكَّرُونَ بِهَا. ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾ حَيْثُ يَقْرُونَ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٧) بِهِ، بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَلِذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَّتِهِمْ: «لَيْتَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلِكٌ»، يَعْنُونَهَا. ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ﴾ نِقْمَةٌ تَغْشَاهُمْ ﴿مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٨) بِوَقْتِ إِيْتَانِهَا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ وَفَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿أَدْعُوا إِلَى﴾ دِينِ ﴿اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ ﴿أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ آمَنَ بِي عَظَفَ عَلَى ﴿أَنَا﴾ الْمُبْتَدَأُ الْمُخْبَرُ عَنْهُ بِمَا قَبْلَهُ ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ﴾ تَزْيِيهَا لَهُ عَنِ الشُّرَكَاءِ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٩) مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِهِ أَيْضًا. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوْحَىٰ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ وَكَسْرِ الْحَاءِ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لَا مَلَائِكَةً ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ الْأَمْصَارِ؛ لِأَنَّهُمْ أَعْلَمَ وَأَحْلَمَ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْبَوَادِي لِجَفَائِهِمْ وَجَهْلِهِمْ^(١٠) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أَهْلُ مَكَّةَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾

(١) وليس في اللفظ ما يدل أنه طلب الوفاة في الحال ولهذا ذهب الجمهور إلى أنه لم يتمن الموت بهذا الدعاء في الحال، وإنما دعا ربه أن يتوفاه على دين الإسلام ويلحقه بالصالحين من عباده عند حضور أجله. [صديق حسن (٦/٤٠٧)].

(٢) راجع التعليق على آية (١٥) من هذه السورة.

(٣) هذه الآية تتضمن الرد على مستغربي إرسال الرسل من البشر، كالتائفة التي قالت: ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وكالتائفة التي اقترحت ملكًا، وغيرهما. و ﴿الْقُرَى﴾: المدن، وخصصها دون القوم المتولين أهل العمود، فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود... وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن... والتبدي مكرهه إلا في الفتن وحين يفر بالدين، كقوله ﷺ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفْرُدُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». [أخرجه البخاري (١٩)]... ويعترض هذا ببدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين: أحدهما:

فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ^{٢٨} أَي: آخِرُ أَمْرِهِمْ مِنْ إِهْلَاكِهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾
 أَي: الْجَنَّةُ ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ اللَّهُ ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾^{٢٩} بِالْيَأْيِ وَالتَّاءِ، يَا أَهْلَ مَكَّةَ هَذَا فَتَوَمُّنُونَ. ﴿حَتَّى﴾ غَايَةُ لِمَا
 دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أَي: فَتَرَاحَى نَصْرُهُمْ، حَتَّى ﴿إِذَا اسْتَيْسَسَ﴾ يَسَّ ﴿الرُّسُلُ وَظَنُوا﴾
 أَتَيْنَ الرُّسُلَ ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ بِالتَّشْدِيدِ تَكْذِيبًا لَا إِيمَانَ بَعْدَهُ، وَالتَّخْفِيفِ، أَي: ظَنَّ الْأُمَمُ أَنَّ الرُّسُلَ أَخْلَفُوا مَا
 وَعَدُوا بِهِ مِنَ النَّصْرِ^{٣٠} ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّى﴾ بِنُورَيْنِ مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا، وَبِنُورٍ مُشَدَّدًا مَاضٍ^{٣١} ﴿مَنْ نَشَاءُ وَلَا يَرُدُّ
 بَأْسَنَا﴾ عَذَابُنَا ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾^{٣٢} الْمُشْرِكِينَ. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أَي: الرُّسُلِ ﴿عِبْرَةٌ لِأُولَى
 الْأَلْبَابِ﴾ أَصْحَابِ الْعُقُولِ^{٣٣} ﴿مَا كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ يُخْتَلَقُ ﴿وَلَكِنْ﴾ كَانَ ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي
 بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قَبْلَهُ مِنَ الْكُتُبِ ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ تَبَيَّنَ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ ﴿وَهَدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةً
 لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^{٣٤} خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِإِنْفَاعِهِمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ.

أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو بقر وفي منازل وربوع، والثاني: أنه إنما جعله بدوا بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر. [ابن عطية (٢٨٦/٣)].

(١) هذه الآية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم. وهذا الباب عظيم، وخطره جسيم، ينبغي الوقوف، عليه لئلا يزل الإنسان فيكون في سواء الجحيم. [القرطبي (٢٧٥/٩)]. ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ متصل بالمعنى بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾، إلى قوله: ﴿عَقِبُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، ويأسهم: يحتمل أن يكون من إيمان قومهم أو من النصر، والأول أحسن ﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا﴾ قرئ بتشديد الذال وتخفيفها، فأما التشديد فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل، والظن يحتمل أن يكون على بابه، أو بمعنى اليقين: أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيئسوا من إيمانهم، وأما التخفيف، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم، أي: ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو من النصرة عليهم. [ابن جزي (٣٩٧/١)].

(٢) ظاهر كلام المؤلف أن القراءات الثلاث سبعة، والصحيح أن القراءة الأولى شاذة وهي قراءة التشديد مع النونين.

(٣) وإنما كان هذا القصص عبرة لما اشتمل عليه من الإخبارات المطابقة للواقع مع بعد المدة بين النبي ﷺ وبين الرسل الذين قص حديثهم ومنهم يوسف عليه السلام وإخوته وأبوه مع كونه لم يطلع على أخبارهم ولا اتصل بأخبارهم، وعبرة الكرخي وجه الاعتبار بقصصهم أنه قال في أول السورة: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ ثم قال هاهنا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ وذلك تنبيه على أن حسن هذه القصة إنما هو لأجل حصول العبرة منها ومعرفة الحكمة والقدرة. [صديق حسن (٤٢٠/٦)].

سُورَةُ الرَّعْدِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةَ، وَ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ الْآيَةَ. أَوْ مَدَنِيَّةٌ إِلَّا ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الْآيَتَيْنِ.

ثَلَاثٌ، أَوْ أَرْبَعٌ، أَوْ خَمْسٌ، أَوْ سِتٌّ، وَأَرْبَعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَرْءُ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١) ﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنُ، مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ: ﴿الْحَقُّ﴾ لَا شَكَّ فِيهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيِ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢) ﴿بِأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى﴾. ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أَيِ: الْعَمَدَ جَمْعَ «عِمَادٍ» وَهُوَ: الْأُسْطُوَانَةُ، وَهُوَ صَادِقٌ بِأَنَّهُ لَا عَمَدَ أَصْلًا^(٣) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِهِ^(٤) ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذَلَّلَ ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يَقْضِي أَمْرَ مُلْكِهِ ﴿يُفَصِّلُ﴾ يُبَيِّنُ ﴿الْآيَاتِ﴾ دِلَالَاتِ قُدْرَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿يَلْقَاءَ رَبِّكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿تُوفِقُونَ﴾^(٥) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) كقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] أي: مع هذا البيان والجلال والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق. [ابن كثير (٤/٤٢٨)].

(٣) ظاهر هذه الآية الكريمة قد يفهم منه أن السماء مرفوعة على عمد، ولكننا لا نراها، ونظير هذه الآية قوله أيضا في أول سورة لقمان: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْقُلُوبُ فِي الْأَرْضِ رَوَّاسٍ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان: ١٠]. واختلف العلماء في قوله: ترونها على قولين: أحدهما أن لها عمدا ولكننا لا نراها، كما يشير إليه ظاهر الآية، وممن روي عنه هذا القول ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد، كما قاله ابن كثير. وروي عن قتادة أيضا أن المعنى أنها مرفوعة بلا عمد أصلا، وهو قول إياس بن معاوية، وهذا القول يدل عليه تصريحه تعالى في سورة الحج أنه هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]. قال ابن كثير: فعلى هذا يكون قوله: ترونها تأكيد للنفي ذلك، أي: هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها كذلك، وهذا هو الأكمل في القدرة. [الشنقيطي (٣/٨٩)].

(٤) انظر التعليق على تفسير الآية (٥٤) من سورة الأعراف.

بَسَطَ^(١) «الْأَرْضَ وَجَعَلَ» خَلَقَ «فِيهَا رَوَاسِيَ» جِبَالًا ثَوَابِتَ «وَأَنْهَرَ^ط وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحِينَ^ط أَنْثِينَ» مِنْ كُلِّ نَوْعٍ «يُغْشَى» يَغْطِي «الَّيْلَ» بِظُلْمَتِهِ «الْتَّهَارَ^ع إِنَّ فِي ذَلِكَ» الْمَذْكُورِ «لَآيَاتٍ» دِلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(٢) فِي صُنْعِ اللَّهِ. «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ» بَقَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ «مُتَجَوِّرَاتٌ» مُتَلَصِّقَاتٌ، فَمِنْهَا طَيِّبٌ وَسَبْخٌ، وَقَلِيلٌ الرِّيعِ وَكَثِيرُهُ، وَهُوَ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى «وَجَنَّاتٌ» بَسَاتِينُ «مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ» بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى «جَنَّاتٍ»، وَالْجَرُّ عَلَى «أَعْنَابٍ»، وَكَذَا قَوْلُهُ: «وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ» جَمْعُ «صِنُو» وَهِيَ: النَّخْلَاتُ يَجْمَعُهَا أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَتَشَعَّبُ فُرُوعُهَا «وَعِزُّ صِنْوَانٍ» مُفْرَدَةٌ^(٣) «نُسْقَى» بِالنَّاءِ، أَيِ: الْجَنَّاتُ وَمَا فِيهَا، وَالْيَاءِ، أَيِ: الْمَذْكُورُ «بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفِضٍ» بِالنُّونِ وَالْيَاءِ «بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ» بِضَمِّ الْكَافِ وَسُكُونِهَا، فَمِنْ حُلْوٍ وَحَامِضٍ وَهُوَ مِنْ دَلَائِلِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى «إِنَّ فِي ذَلِكَ» الْمَذْكُورِ «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»^(٤) يَتَدَبَّرُونَ. «*وَإِنْ تَعَجَّبَ» يَا مُحَمَّدٌ مِنْ تَكْذِيبِ الْكَفَّارِ لَكَ «فَعَجَبٌ» حَقِيقٌ بِالْعَجَبِ «قَوْلُهُمْ» مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ: «أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ»؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِنْشَاءِ الْخَلْقِ وَمَا تَقَدَّمَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَتِهِمْ، وَفِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيقُ، وَتَحْقِيقُ الْأُولَى وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكُهَا، وَفِي قِرَاءَةِ بِالِاسْتِفْهَامِ فِي الْأَوَّلِ وَالْخَبَرِ فِي الثَّانِي، وَأُخْرَى عَكْسُهُ «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»^(٥). وَنَزَلَ فِي اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ اسْتِهْزَاءً: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْسَّيِّئَةِ» الْعَذَابَ «قَبْلَ الْحَسَنَةِ» الرَّحْمَةِ «وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ» جَمْعُ الْمَثَلَةِ بِوزنِ السَّمَرَةِ، أَيِ:

(١) أي: بسطها وجعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض لإخراج النعم الكثيرة منها. قال الشهاب: استدلل به بعضهم على تسطيح الأرض، وأنها غير كروية بالفعل. وأن من أثبت أنه مقضى طبعها، ورد بأنه ثبت كرويتها بأدلة عقلية، لكنه لعظم جرمها يشهد كل قطعة وقطر منها كأنه مسطح، وهكذا كل دائرة عظيمة. [القاسمي (٢٥٦/٦)].

(٢) هذا قول جميع أهل اللغة والتفسير، فالصنوان جمع صنو وهي النخلات يجمعها أصل واحد وتشعب فروعها، فالصنو المفرد واحد هذه النخلات، قال ابن الأعرابي: الصنو المثل. ومنه قوله ﷺ: «عَمَّ الرَّجُلُ صِنُو أَبِيهِ». أخرجه البخاري (١٤٦٨)، ومسلم (٩٨٣). فمعنى الآية على هذا أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وقد لا تكون. قال في الكشف: جمع صنو وهي النخلة لها رأسان وأصلها واحد، وقيل: الصنوان المجتمع وغير الصنوان المتفرق. [صديق حسن (١٥/٧)].

(٣) محل الإعجوبة، أن القطع المتجاورة تثبت نباتًا مختلفًا، منه الحلو والعذب والحامض البعيد من الحلاوة، وشربها واحد ومكانها مجتمع لا تفاوت بينها ولا تباین، وفي هذا أوضح آية على نفاذ قدرة الله. [الواحيدي (٢٨٨/١٢)].

عُقُوبَاتُ أَمْثَلِهِمْ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلٰی﴾ مَعَ ﴿طُلُمِهِمْ﴾ وَإِلَّا لَمْ يَتْرُكْ عَلَى ظَهْرِهَا دَابَّةً ﴿وَأَنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ﴿٦﴾ لِمَنْ عَصَاهُ. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَالنَّاقَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ مُخَوِّفُ الْكَافِرِينَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِيْتَانُ الْآيَاتِ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿٧﴾ نَبِيٌّ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ بِمَا يُعْطِيهِ مِنَ الْآيَاتِ، لَا بِمَا يَقْتَرِحُونَ. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى﴾ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَوَاحِدٍ وَمُتَعَدِّدٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمَا تَغِيضُ﴾ تَنْقُصُ ﴿الْأَرْحَامُ﴾ مِنْ مَّدَّةِ الْحَمْلِ ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ مِنْهُ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ ﴿٨﴾ بِقَدَرٍ وَحَدٍّ لَا يَتَجَاوَزُهُ. ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿الْكَبِيرِ﴾ الْعَظِيمِ ﴿الْمُتَعَالِ﴾ ﴿٩﴾ عَلَى خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ^(١) بِيَاءٍ وَدُونَهَا. ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ مُسْتَسِرٌّ ﴿بِالْإِيلِ﴾ بِظَلَامِهِ ﴿وَسَارِبٌ﴾ ظَاهِرٌ بِذَهَابِهِ فِي سَرَبِهِ، أَيُّ: طَرِيقِهِ ﴿بِالنَّهَارِ﴾ ﴿١٠﴾ لَهُوَ لِلْإِنْسَانِ ﴿مُعَقَّبَتٌ﴾ مَلَائِكَةٌ تَتَعَقَّبُهُ ﴿مِّن بَيْن يَدَيْهِ﴾ قُدَّامِهِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ وَرَأْيِهِ ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: بِأَمْرِهِ مِنَ الْجَنِّ وَغَيْرِهِمْ^(٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ لَا يَسْلُبُهُمْ نِعْمَتَهُ ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ الْحَالَةِ الْجَمِيلَةِ، بِالْمَعْصِيَةِ ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ عَذَابًا ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ مِنْ الْمُعَقَّبَاتِ وَلَا غَيْرِهَا ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ لِمَنْ أَرَادَ اللَّهُ بِهِمْ سُوءًا ﴿مِّنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: غَيْرِ اللَّهِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَالِ﴾ ﴿١١﴾ يَمْنَعُهُ عَنْهُمْ. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمُسَافِرِينَ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي الْمَطَرِ ﴿وَيُنشِئُ﴾ يَخْلُقُ

(١) أي: العظيم الذي كل شيء دونه، المتعالي عما يقوله المشركون، أو المستعلي على كل شيء بقدرته وعظمته وقهره، أو المتعالي عن الخلق باستوائه على عرشه ومبايئته عن خلقه وهو الأولي. [صديق حسن (٧/٢٥)].

(٢) قال الفراء في هذا قولان: أحدهما: أنه على التقديم والتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. والثاني: أن كون الحفظة يحفظونه هو مما أمر الله به، قال الزجاج: المعنى حفظهم إياه من أمر الله، أي: مما أمرهم به، لا أنهم يقدر أن يدفعوا أمر الله. قال ابن الأنباري: وفي هذا قول آخر وهو أن «من» بمعنى «الباء» أي: يحفظونه بأمر الله وإعانتة واستظهاره السفاقي، وقيل: أن «من» بمعنى «عن» أي: يحفظونه عن أمر الله، بمعنى من عند الله لا من عند أنفسهم كقوله: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ﴾ [قريش: ٤] أي: عن جوع. وقيل: يحفظونه عن ملائكة العذاب، وقيل: يحفظونه من الجن والأنس فهي على بابها، واختار ابن جرير أن المعقبات المواكب والحراس والجلالزة بين أيدي الأمراء في حول السلطان على معنى أن ذلك لا يدفع عنه القضاء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله ويأذن الله، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحداً من أمر الله ومما قضاه الله عليه إلا بأمره وإذنه، وعن قتادة مثله. [صديق حسن (٧/٢٨)].

﴿السَّحَابَ الثِّقَالَ ١٢﴾ بِالْمَطَرِ. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ﴾ هُوَ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ يَسُوفُهُ مُلْتَبِسًا^(١) ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أَيُّ: يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أَيُّ: اللَّهُ ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وَهِيَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ السَّحَابِ ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ فَتَحْرِقُهُ، نَزَلَ فِي رَجُلٍ بَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ مَنْ يَدْعُوهُ فَقَالَ: مَنْ رَسُولُ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ؟ أَمِنْ ذَهَبٍ أَوْ مِنْ فِضَّةٍ أَمْ نُحَاسٍ؟ فَنَزَلَتْ بِهِ صَاعِقَةٌ فَذَهَبَتْ يَحْفَفُ رَأْسِهِ^(٢) ﴿وَهُمْ﴾ أَيُّ: الْكَافِرُ ﴿يُجَدِّلُونَ﴾ يُخَاصِمُونَ النَّبِيَّ ﷺ ﴿فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ١٣﴾ الْقُوَّةُ أَوْ الْأَخْذُ. ﴿لَهُ﴾ تَعَالَى ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أَيُّ: كَلِمَتُهُ وَهِيَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ^(٣)، يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ وَهُمْ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ مِمَّا يَطْلُبُونَهُ ﴿إِلَّا﴾ اسْتِجَابَةً ﴿كَبَسِطَ﴾ أَيُّ: كَاسْتِجَابَةً بِاسِطٍ ﴿كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ عَلَى شَفِيرِ الْبُرِّ يَدْعُوهُ ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ بِارْتِفَاعِهِ مِنَ الْبُرِّ إِلَيْهِ ﴿وَمَا هُوَ بِبَلِغٍ﴾ أَيُّ: فَاهُ أَبَدًا، فَكَذَلِكَ مَا هُمْ بِمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ^(٤) ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ عِبَادَتُهُمْ الْأَصْنَامَ أَوْ حَقِيقَةُ الدُّعَاءِ ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ ١٤﴾ ضَيَاعٍ. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا﴾ كَالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَكَرْهًا﴾ كَالْمُنَافِقِينَ، وَمَنْ أَكْرَهَ بِالسَّيْفِ ﴿وَيَسْجُدُ لَهُمْ بِالْغُدُقِ﴾ الْبَكَرِ ﴿وَالْأَصَالِ ١٥﴾ الْعَشَايَا^(٥). ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ: ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ

(١) أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسيحه. قال ابن عباس رضي الله عنه: من سمع صوت الرعد فقال: سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعلي ديتة. [البغوي]. وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقٌ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «رَجْرَجَةُ السَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى حَيْثُ أُمِرَ». قالوا: صدقت. أخرجه الترمذي (٣١١٧).

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) (كشف الأستار) وقال الهيثمي في المجمع (٤٢ / ٧): رجاله رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة. (٣) قراءة شاذة.

(٤) شبه إجابة الأصنام لمن عبدتهم بإجابة الماء لمن بسط إليه كفيه، وأشار إليه بالإقبال إلى فيه، ولا يبلغ فمه على هذا أبدًا؛ لأن الماء جماد لا يعقل المراد، فكذلك الأصنام. [ابن جزي (٤٠٢ / ١)]. وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي ييسط كفيه إلى الماء ليلبغ فاه من أحسن الأمثلة... فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجُحْلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. [السعدي (ص: ٤١٥)]. (٥) جمع ظل والمراد به من له ظل منهم كالإنسان لا الجن ولا الملك إذ لا ظل لهما والمعنى سجوده حقيقة تبعًا لصاحبه حيث صار لازمًا لا ينفك عنه، قال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله فظله يسجد لله، وقال ابن الأباري: ولا يبعد أن يخلق الله تعالى

اللَّهُ ﴿إِنْ لَمْ يَقُولُوا لَا جَوَابَ غَيْرُهُ﴾ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِّنْ دُونِهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وَتَرَكْتُمْ مَالَكُمَا؟ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٍ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ الْكَافِرُ وَالْمُؤْمِنُ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ الْكُفْرُ وَالْإِيمَانُ؟ لَا ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُهُ الْخَلْقُ﴾ أَي: خَلَقَ الشُّرَكَاءَ بِخَلْقِ اللَّهِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فَاعْتَقَدُوا اسْتِحْقَاقَ عِبَادَتِهِمْ بِخَلْقِهِمْ، اسْتَفْهَامٌ إِنكَارٍ، أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا الْخَالِقُ ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ فِيهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهْرُ ۝١٦﴾ لِعِبَادِهِ. ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَقَالَ: ﴿أَنْزَلَ﴾ تَعَالَى ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مَطَرًا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ بِمِقْدَارِ مِلْئِهَا ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ عَالِيًا عَلَيْهِ، هُوَ مَا عَلَى وَجْهِهِ مِنْ قَدَرٍ وَنَحْوِهِ ﴿وَمِمَّا تُوقِدُونَ﴾ بِالنَّارِ وَالْيَاءِ ﴿عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ مِنْ جَوَاهِرِ الْأَرْضِ، كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ ﴿أَبْنِغَاءَ﴾ طَلَبَ ﴿حِلْيَةٍ﴾ زِينَةٍ ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ يُتَمَتَّعُ بِهِ، كَالْأَوَانِي إِذَا أُدْبِيتَ ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أَي: مِثْلُ زَبَدِ السَّيْلِ وَهُوَ حَبْطُهُ، الَّذِي يَنْفِيهِ الْكِبَرُ ﴿كَذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أَي: مِثْلَهُمَا ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ مِنَ السَّيْلِ، وَمَا أُوقِدَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ ﴿فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ بَاطِلًا مَرَمِيًّا بِهِ ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ مِنَ الْمَاءِ وَالْجَوَاهِرِ ﴿فَيَمَكُثُ﴾ يَبْقَى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ زَمَانًا، كَذَلِكَ الْبَاطِلُ يَضْمَحِلُّ وَيَنْمَحِقُ وَإِنْ عَلَا عَلَى الْحَقِّ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ، وَالْحَقُّ ثَابِتٌ بَاقٍ^(١)

للظلال عقولاً وأفهاماً تسجد بها لله سبحانه كما جعل للجبال أفهاماً حتى اشتغلت بتسبيحه، فظل المؤمن يسجد لله طوعاً وظل الكافر يسجد لله كرهاً. وقيل: المراد بالسجود ميلان الظلال من جانب إلى جانب آخر وطولها تارة وقصرها أخرى بسبب ارتفاع الشمس ونزولها والأول أولى. ﴿بِالْعُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أَي: البكر والعشايا وخصهما بالذكر لأنه يزداد ظهور الظلال فيهما وهما ظرف للسجود المقدر، أي: ويسجد ظلّاهم في هذين الوقتين، وقيل: لأنهما طرفا النهار فيدخل وسطه فيما بينهما، والغدو بالضم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس والغدوة والغداة أول النهار، وقيل: إلى نصف النهار. والآصال جمع أصيل وهو العشية والآصال العشايا جمع عشية وهي ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس. وفي معنى هذه الآية قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُوا ظُلُلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ كَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]، قيل: وهذه السجدة من عزائم سجود التلاوة، فيسن للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءته واستماعه لهذه السجدة. [صديق حسن (٣٧/٧)].

(١) ذكر الله مثلين مائي وناري في سورة الرعد، ولكن في حق المؤمنين؛ فشبه الوحي الذي أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء كثيراً وقلب صغير إنما يسع بحسبه كالوادي الصغير، فسالت أودية بقدرها، واحتملت قلوب من الهدى والعمل بقدرها؛ وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه

﴿كَذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿يَضْرِبُ﴾ يُبَيِّنُ ﴿اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ١٧ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَجَابُوهُ بِالطَّاعَةِ ﴿الْحُسْنَى﴾ الْجَنَّةِ ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وَهُمْ الْكُفَّارُ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتَدُوا بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ وَهُوَ الْمُواخَذَةُ بِكُلِّ مَا عَمِلُوهُ، لَا يُغْفَرُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴿وَمَا أُولَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ ١٨ ﴿الْفِرَاشُ هِيَ. وَنَزَلَ فِي حَمْزَةٍ وَأَبِي جَهْلٍ﴾: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ فَمَنْ بِهِ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ لَا يَعْلَمُهُ وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ، لَا ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَعَطَّ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ١٩ ﴿أَصْحَابُ الْعُقُولِ﴾. ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الْمَأْخُودِ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي عَالَمِ الذَّرِّ، أَوْ كُلِّ عَهْدٍ ٢٠ ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ٢١ بَرَكِ الْإِيمَانِ، أَوْ الْفَرَائِضِ. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالرَّحِمِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أَيُّ: وَعِيدُهُ ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ٢٢ ﴿تَقَدَّمَ﴾. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْبَلَاءِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿أَبْتِغَاءَ﴾

فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء، فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها؛ وهكذا يضرب الله الحق والباطل. ثم ذكر المثل الناري فقال: ﴿وَمِمَّا يُؤْفُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أَبْتِغَاءَ حَلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ وهو الخبث الذي يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد فتخرجه النار وتميزه وتفصله عن الجوهر الذي يتنفع به فيرمى وي طرح ويذهب جفاء؛ وكذلك الشهوات والشبهات يرميها قلب المؤمن وي طرحها ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزيد والغناء والخبث، ويستقر في قرار الوادي الماء الصافي الذي يستقي منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم، كذلك يستقر في قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه ويتنفع به غيره؛ ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلها، والله الموفق. [إعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ٢٧٢)].

(١) [وقيل: نزل في عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن المغيرة المخزومي]. [مقاتل (٢/ ٣٧٥)]. وحمل الآية على العموم أولى، وإن كان السبب مخصوصاً والمعنى: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصر الحق ولا يتبعه. وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل [الخازن (٣/ ١٤)].

(٢) هذا مشروع في بيان صفاتهم المقتضية إنعامهم وإكرامهم، فذكر لهم ثمان صفات هي كالتالي: الوفاء بالعهود وعدم نقضها: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ إذ «لَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ». أخرجه أحمد (١٢٥٦٧). ووصل ما أمر الله به أن يوصل من الإيمان والإسلام والإحسان والأرحام: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾. وخشية الله المقتضية لطاعته: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾. والخوف من سوء الحساب يوم القيامة المقتضي لمحاسبة النفس على الصغيرة والكبيرة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾. والصبر طلباً لمرضاة الله على الطاعات وعن المعاصي، وعلى البلاء: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾. وإقامة الصلاة وهي أداؤها في أوقاتها جماعة بكامل الشروط والأركان والسنن والآداب: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾. والاتفاق مما رزقهم الله في الزكاة والصدقات الواجبة والمندوبة: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾. ودفع السيئة بالحسنة فيدروون سيئة الجهل عليهم بحسنة الحلم، وسيئة الأذى بحسنة الصبر ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾. [أبو بكر الجزائري (٣/ ٢٣)].

طَلَبَ ﴿وَجْهَ رَبِّهِمْ﴾ لَا غَيْرَ مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا﴾ فِي الطَّاعَةِ ﴿مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَعُونَ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ كَالْجَهْلِ بِالْحِلْمِ، وَالْأَذَى بِالصَّبْرِ ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أَيِ: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. هِيَ: ﴿جَنَّتْ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هُمْ ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أَمَنَ ﴿مِنْ عَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِعَمَلِهِمْ، يَكُونُونَ فِي دَرَجَاتِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ ^(١) ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ أَوْ الْقُصُورِ، أَوْ أَنْ أَوَّلَ دُخُولِهِمْ لِلتَّهْنَةِ ^(٢). يَقُولُونَ: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ هَذَا الثَّوَابُ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ بِصَبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ عُقْبَاكُمْ. ﴿وَالَّذِينَ يَنفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْكَفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الْبُعْدُ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ الْعَاقِبَةُ السَّيِّئَةُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ جَهَنَّمُ. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿وَفَرِحُوا﴾ أَيِ: أَهْلُ مَكَّةَ، فَرَحَ بَطِرٍ ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيِ: بِمَا نَالُوهُ فِيهَا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي﴾ جَنْبِ حَيَاةِ ﴿الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴿٢٦﴾﴾ شَيْءٌ قَلِيلٌ، يُتَمَتَّعُ بِهِ وَيَذْهَبُ. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كَالْعَصَا وَالْيَدِ وَالنَّاقَةِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ إِضْلَالَهُ، فَلَا تُغْنِي عَنْهُ آيَاتُ شَيْئًا ﴿وَيَهْدِي﴾ يُرْشِدُ ﴿إِلَيْهِ﴾ إِلَى دِينِهِ ﴿مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ رَجَعَ إِلَيْهِ. وَيُبَدِّلُ مِنْ ﴿مَنْ﴾: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ﴾ تَسْكُنُ ﴿قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيِ: وَعَدِهِ ^(٣) ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ أَيِ: قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ ﴿طُوبَى﴾ مَصْدَرٌ مِنَ الطَّيِّبِ، أَوْ شَجَرَةٍ فِي الْجَنَّةِ يَسِيرُ الرَّكَبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا ^(٤) ﴿لَهُمْ وَحُسْنُ مَثَابٍ ﴿٢٩﴾﴾ مَرْجِعٍ. ﴿كَذَلِكَ﴾

(١) كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

(٢) قيل: في أول دخولهم قاله السيوطي، والتقييد بهذا لم نره لغيره من المفسرين. بل في كلام غيره ما يدل على عدمه. [صديق حسن (٤٨/٧)].

(٣) رأى آخرون أن المراد ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ القرآن؛ لأنه يسمى ذكراً، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] لأنه آية بينة تسكن القلوب، وتثبت اليقين فيها. وهذا المعنى يناسب قوله: ﴿لَوْلَا أَنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الرعد: ٢٧] أي: هؤلاء ينكرون كونه آية، والمؤمنون يعلمون أنه أعظم آية تطمئن لها قلوبهم ببرد اليقين.

قال الشهاب: وهو أنسب الوجوه. [القاسمي (٢٨٢/٦)].

(٤) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك، وأمن بك، قال ﷺ: «طوبى لمن»

كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ قَبْلَكَ ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوهُ﴾ تَقْرَأُ ﴿عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾
 أَي: الْقُرْآنَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ حَيْثُ قَالُوا لِمَا أُمِرُوا بِالسُّجُودِ لَهُ: «وَمَا الرَّحْمَنُ؟» ﴿قُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدُ:
 «هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ وَنَزَلَ لِمَا قَالُوا لَهُ: «إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَسَيِّرْ عَنَّا جِبَالَ مَكَّةَ وَاجْعَلْ
 لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا وَعُيُونًا لِنَغْرِسَ وَنَزْرَعَ، وَابْعَثْ لَنَا آبَاءَنَا الْمَوْتَى يُكَلِّمُونَا أَنَّكَ نَبِيٌّ»، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾
 نُقِلَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿أَوْ قُطِعَتْ﴾ شَقَّقَتْ ﴿بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ بِأَنْ يُحْيَوْا، لَمَّا آمَنُوا ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾
 لَا لغيرِهِ، فَلَا يُؤْمِنُ إِلَّا مَنْ شَاءَ إِيْمَانَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَإِنْ أَوْتُوا مَا افْتَرَحُوا، وَنَزَلَ لِمَا أَرَادَ الصَّحَابَةُ إِظْهَارَ مَا افْتَرَحُوا طَمَعًا
 فِي إِيْمَانِهِمْ: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِيسْ﴾ يَعْلَمُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَي: أَنَّهُ ﴿لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ إِلَى
 الْإِيْمَانِ مِنْ غَيْرِ آيَةٍ ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا﴾ بِصُنْعِهِمْ، أَي: كُفْرِهِمْ
 ﴿قَارِعَةً﴾ دَاهِيَةً تَقْرَعُهُمْ بِصُنُوفِ الْبَلَاءِ، مِنْ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْحَرْبِ وَالْجَدْبِ ﴿أَوْ تَحُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ بِجَيْشِكَ ﴿قَرِيبًا
 مِنْ دَارِهِمْ﴾ مَكَّةَ ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٣١﴾ وَقَدْ حَلَّ بِالْحَدِيثِيَّةِ حَتَّى
 أَتَى فَتَحَ مَكَّةَ. ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كَمَا اسْتَهْزَيْ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ أَمَهَلْتُ
 ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بِالْعُقُوبَةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٣٢﴾ أَي: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقَعُهُ، فَكَذَلِكَ أَفْعَلُ بِمَنْ اسْتَهْزَأَ
 بِكَ. ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ﴾ رَقِيبٌ ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَهُوَ اللَّهُ، كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ مِنْ
 الْأَصْنَامِ؟ لَا، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُومُهُمْ﴾ لَهُ مَنْ هُمْ ﴿أَمْ﴾ بَلْ أَمْ ﴿تَنْبِئُونَهُ﴾ تَخْبِرُونَ اللَّهَ ﴿بِمَا﴾
 أَي: بِشَرِيكَ ﴿لَا يَعْلَمُ﴾ هُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ، أَي: لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ لَوْ كَانَ لَعَلِمَهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿أَمْ﴾
 بَلْ تُسَمُّوهُمْ شُرَكَاءَ ﴿بِظَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بِظَنٍّ بَاطِلٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْبَاطِنِ ﴿بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾
 كُفْرُهُمْ ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ طَرِيقِ الْهُدَى ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أَشَدُّ مِنْهُ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: عَذَابِهِ ﴿مِنْ وَاقٍ ۝٣٤﴾ مَانِعٍ. ﴿مَثَلُ﴾
 صِفَةُ ﴿الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحذُوفٌ، أَي: فِيمَا يُقْصَصُ عَلَيْكُمْ ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا﴾
 مَا يُؤْكَلُ فِيهَا ﴿دَائِمٌ﴾ لَا يَفْنَى ﴿وِظْلُهَا﴾ دَائِمٌ لَا تَنْسَخُهُ شَمْسٌ لِعَدَمِهَا فِيهَا ﴿تِلْكَ﴾ أَي: الْجَنَّةُ ﴿عُقْبَى﴾ عَاقِبَةُ

رَأَيْتُ وَأَمِنَ بِي، ثُمَّ طُوبَى، ثُمَّ طُوبَى لِمَنْ آمَنَ بِي وَلَمْ يَرِنِي، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَمَا طُوبَى؟ قَالَ ﷺ: «شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ
 عَامٍ». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١١٦٧٣)، وَأَبُو يَعْلَى (١٣٧٤).

﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشُّرَكَاءَ ﴿وَعُقِبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ٣٥ ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَعَبِيرِهِ مِنْ مُؤْمِنِي الْيَهُودِ ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ لِمُوَافَقَتِهِ مَا عِنْدَهُمْ ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْكَ بِالْمُعَادَاةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ ﴿مَنْ يُنْكِرْ بَعْضَهُ﴾ كَذَكَرِ الرَّحْمَنِ وَمَا عَدَا الْقَصَصِ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ﴾ فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ ﴿أَنْ﴾ أَيْ: بِأَنْ ﴿أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ٣٦ ﴿مَرْجِعِي﴾. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ الْإِنْزَالِ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيْ: الْقُرْآنَ ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ تَحْكُمُ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أَيْ: الْكُفَّارِ فِيمَا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ مِنْ مِلَّتِهِمْ فَرَضًا ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ زَائِدَةٍ﴾ وَلِيٍّ نَاصِرٍ ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ ٣٧ ﴿مَانِعٍ مِنْ عَذَابِهِ﴾ ٣٨. وَنَزَلَ لَمَّا عَيَّرُوهُ بِكَثْرَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أَوْلَادًا، وَأَنْتَ مِنْهُمْ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لِأَنَّهُمْ عَبِيدُ مَرْبُوبُونَ ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ مُدَّةٌ ﴿كِتَابٌ﴾ ٣٨ مَكْتُوبٌ فِيهِ تَحْدِيدُهُ. ﴿يَمْحُوا اللَّهُ﴾ مِنْهُ ﴿مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، فِيهِ مَا يَشَاءُ مِنَ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ٣٩ ﴿أَصْلُهُ الَّذِي لَا يَتَغَيَّرُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ مَا كَتَبَهُ فِي الْأَزَلِ﴾ ٤٠. ﴿وَإِنْ مَا﴾ فِيهِ إِدْعَاؤُ نُونٍ ﴿إِنْ﴾ الشَّرْطِيَّةِ فِي «مَا» الْمَزِيدَةِ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: فَذَاكَ ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ قَبْلَ تَعَذِّيهِمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ مَا عَلَيْكَ إِلَّا التَّبْلِيغُ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ٤١ إِذَا صَارُوا إِلَيْنَا فَنُجَازِيهِمْ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أَيْ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ نَقْصِدُ أَرْضَهُمْ ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بِالْفَتْحِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ فِي خَلْقِهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿لَا مُعَقَّبَ﴾ لَا رَادَّ ﴿لِحُكْمِهِ﴾ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٤٢ وَقَدْ مَكَرَ

(١) هو حث للنبي ﷺ على تبليغ الرسالة والقيام بما أمر به ويتضمن ذلك تحذير غيره من المكلفين لأن من هو أرفع منزلة وأعظم قدرا وأعلى مرتبة إذا حذر كان غيره ممن هو دونه بطريق الأولى. [الخازن (٣/ ٢٢)].

(٢) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب. فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ. [السعدي (ص: ٤١٩)].

(٣) معناه: ألم يروا أنا نأتي أرض هؤلاء بالفتح عليك فننقصها بما يدخل في دينك من القبائل والبلاد المجاورة لهم، فما يؤمنهم أن نمكنك منهم أيضا كما فعلنا بمجاوريهم؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأتى إلا بأن تقدر نزول هذه الآية بالمدينة. ومن قال: إن

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿مِنْ الْأُمَمِ بَأَنبِيَائِهِمْ، كَمَا مَكَرُوا بِكَ﴾ ^(١) ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ وَلَيْسَ مَكْرُهُمْ كَمَكْرِهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى
 ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فَيَعِدُّ لَهَا جَزَاءَهُ وَهَذَا هُوَ الْمَكْرُ كُلُّهُ؛ لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿وَسَيَعْلَمُ
 الْكَافِرُ﴾ الْمُرَادُ بِهِ الْجِنْسُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الْكُفْرُ﴾، ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ۖ﴾ ^(٢) أَي: الْعَاقِبَةُ الْمَحْمُودَةُ فِي الدَّارِ
 الْآخِرَةِ، أَلَهُمْ أَمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ^(٣). ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لَكَ ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كَفَى بِاللَّهِ
 شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۖ﴾ مِنْ مُؤْمِنِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ^(٤).

الأرض اسم جنس جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يحله الله بالكفرة، هذا قول ابن عباس أيضا ومجاهد، وقالت فرقة:
 الانتقاص هو بموت البشر، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضا والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص هو
 بموت الأخيار والعلماء، قال ذلك ابن عباس أيضا ومجاهد، وكل ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيء: خياره. [ابن عطية
 (٣/٣١٩)]. قال عطاء وجماعة: نقصانها موت العلماء، وذهاب الفقهاء. عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله
 ﷺ يقول: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِرَاعًا يَنْتَرِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ يَقْبِضُ الْعُلَمَاءَ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جُهَالًا
 فَسَلُّوا فَأَقْتُوا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا». أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣). [البغوي (٤/٣٢٧)].

(١) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ
 يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى:
 ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ
 بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠-٥٢]. [ابن كثير (٤/٤٧٣)].

(٢) يقول تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كقوله:
 ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقوله
 تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۖ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ
 خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٠-٥٢]. [ابن كثير (٤/٤٧٣)].

(٣) أي: علم جنس الكتاب السماوي كالتوراة والإنجيل، فإن أهلها العالمين بهما كانوا يعلمون صحة رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر
 بذلك من أسلم منهم كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي وكعب الأحبار وتميم الداري ونحوهم، وقد كان المشركون من العرب يسألون
 أهل الكتاب ويرجعون إليهم فأرشدهم الله سبحانه في هذه الآية إلى أن أهل الكتاب يعلمون ذلك. [صديق حسن (٧/٧٥)].

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ الْآيَتِينَ، إِحْدَى أَوْ ثِنْتَانِ أَوْ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١)، هَذَا الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾
 الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿بِإِذْنِ﴾ بِأَمْرِ^(٢) ﴿رَبِّهِمْ﴾ وَيُبَدِّلُ مِنْ ﴿إِلَى النُّورِ﴾: ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقِ ﴿الْعَزِيزِ﴾
 الْغَالِبِ ﴿الْحَمِيدِ﴾^(٣) الْمَحْمُودِ. ﴿اللَّهُ﴾ بِالْجَرِّ: بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٍ وَمَا بَعْدَهُ صِفَةٌ، وَالرَّفْعُ: مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ ﴿الَّذِي لَهُ﴾
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿مُلْكًا وَخَلْقًا وَعِيدًا﴾ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ^(٤) ﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتْ
 ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يَخْتَارُونَ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ
 ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أَيِ: السَّبِيلِ ﴿عَوَجًا﴾ مُعَوَّجَةً ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾^(٥) عَنِ الْحَقِّ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا﴾
 بِلِسَانٍ ﴿بَلَاغَةً﴾ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ^(٦) لِيُفَهِّمَهُمْ مَا آتَى بِهِ^(٧) ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾
 فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾^(٨) فِي صُنْعِهِ^(٩). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ التَّسْعِ، وَقُلْنَا لَهُ ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ﴾ بِنِعْمِهِ^(١٠) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التَّذْكِيرِ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قال الزجاج: بما أذن لك من تعليمهم ودعائهم إلى الإيمان. [الشوكاني (١١١/٣)].

(٣) فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعاً: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] ... فإن لم تكن للعرب حجة، فلغيرهم الحجة. قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة؛ لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل؛ فبقي أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول؛ لأنهم أقرب إليه. فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم ... ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف. [الزمخشري (٥٣٩/٢)].

(٤) أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك. [ابن كثير (٤٧٧/٤)]. قال ابن عباس رضي الله عنه: جعل المشيئة إليه وحده لا شريك له. [الواحدي (٤٠٠/١٢)].

(٥) أي: أُنذِرهم بوقائعهم التي وقعت على الأمم قبلهم، كقوم نوح ولوط. ومنه: أيام العرب؛ لحروبها وملاحمها؛ لأنها تعظم بها الأيام.

﴿لَا يَتِي لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿شُكُورٍ ٥﴾ لِلنَّعَمِ. ﴿وَأَذْكُرُ﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَخِّجُونَ أَبْنَاءَكُمْ ﴿الْمَوْلُودِينَ﴾ وَيَسْتَحْيُونَ ﴿يَسْتَبْقُونَ﴾ ﴿فَسَاءَ كُفُّكُمْ﴾ لِقَوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَةِ: إِنَّ مَوْلِدًا يُوَلَّدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ ذَهَابِ مُلْكِ فِرْعَوْنَ ^(١) ﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ الْإِنْجَاءِ أَوْ الْعَذَابِ ﴿بَلَاءٌ﴾ إِنْعَامٌ أَوْ إِبْتِلَاءٌ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ ﴿أَعْلَمَ﴾ رَبُّكُمْ لَبِنِ شَكْرْتُمْ ﴿نِعْمَتِي بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَةِ﴾ ﴿لَا زِيْدَنَّكُمْ وَلَبِنِ كَفَرْتُمْ﴾ جَحَدْتُمْ النِّعْمَةَ بِالْكَفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ لِأَعْدَابِنَاكُمْ، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧﴾ وَقَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿حَمِيدٌ ٨﴾ مَحْمُودٌ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيرٌ ﴿نَبَأًا﴾ خَبَرٌ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ قَوْمِ هُودٍ وَثَمُودٍ﴾ قَوْمٍ صَالِحٍ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ لِكَثْرَتِهِمْ ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ عَلَى صِدْقِهِمْ ﴿فَرَدُّوا﴾ أَي: الْأُمَمُ ﴿أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أَي: إِلَيْهَا لِيَعْصُوا عَلَيْهَا مِنْ شِدَّةِ الْغَيْظِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ فِي زَعْمِكُمْ ﴿وَأَنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ٩﴾ مَوْجِعٌ فِي الرَّيْبَةِ. ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٍ، أَي: لَا شَكَّ فِي تَوْحِيدِهِ، لِلدَّلَائِلِ الظَّاهِرَةِ عَلَيْهِ ^(٢) ﴿فَاطِرِ﴾ خَالِقِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ﴾ إِلَى طَاعَتِهِ ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ، فَإِنَّ

وقيل: أيامه: نعمائهم عليهم. فتكون الآية بعدها تفصيلا لها. وقيل: هي أعم من النعماء والبلاء. والوجه الأول أولى فيما أراه؛ لاختصاص كل آية بمقام، والتأسيس خير من التأكيد. وفي الالتفات من التكلم إلى الغيبة، بالإضافة إلى الاسم الجليل، إيدان بفخامة شأنها. قال أبو بكر ابن العربي: هذه الآية في الوعظ المرقق للقلوب. [القاسمي (٢٩٩/٦)].

(١) المراد بالعذاب هنا غير المراد به في سورة «البقرة» و «الأعراف» لأنه مفسر بالتذبيح والقتل ثمة، ومعطوف عليه التذبيح هنا، وهو إما جنس العذاب أو استعبادهم أو استعمالهم بالأعمال الشاقة. [البيضاوي (١٩٣/٣)].

(٢) قدم متعلق الشك للاهتمام به، ولو قال: «أشك في الله؟» لم يكن له هذا الوقع. [ابن عاشور (١٩٨/١٣)]. يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم من المجادلة، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له، قالت الرسل: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ وهذا يحتمل شيئين، أحدهما: أفي وجوده شك، فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده؛ ولهذا قالت لهم الرسل ترشدكم إلى طريق معرفته بأنه ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقها وابتدعها على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لها من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه. والمعنى الثاني في قولهم: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ﴾ أي: أفي إلهيته وتفرد بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو، وحده لا شريك له؛ فإن غالب

الْإِسْلَامَ يُغْفِرُ بِهِ مَا قَبْلَهُ، أَوْ «تَبْعِيضِيَّةٌ» لِإِخْرَاجِ حُقُوقِ الْعِبَادِ «وَيُؤَخِّرُكُمْ» بِلَا عَذَابٍ «إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى» أَجَلِ الْمَوْتِ ^(١) «قَالُوا إِنْ» مَا «أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا» مِنَ الْأَصْنَامِ «فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ» ^(٢) حُجَّةٍ ظَاهِرَةٍ عَلَى صِدْقِكُمْ. «قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ» مَا «نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ» كَمَا قُلْتُمْ «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ» بِالنُّبُوَّةِ «وَمَا كَانَ» مَا يَنْبَغِي «لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ» بِأَمْرِهِ ^(٣)؛ لِأَنَّا عِبِيدُ مَرْبُوبُونَ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ^(٤) يَتَّقُوا بِهِ. «وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ» أَي: لَا مَانِعَ لَنَا مِنْ ذَلِكَ «وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنْصَبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا» عَلَى أَذَاكُمْ «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ» ^(٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودَنَّ «لَتَصِيرَنَّ» فِي مِلَّتِنَا «دِينَنَا» فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ^(٦) الْكَافِرِينَ. «وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ» أَرْضَهُمْ «مِنْ بَعْدِهِمْ» بَعْدَ هَلَاكِهِمْ «ذَلِكَ» النَّصْرُ وَإِرَاثُ الْأَرْضِ «لِمَنْ خَافَ مَقَامِي» أَي: مَقَامَهُ بَيْنَ يَدَيَّ «وَخَافَ وَعِيدِ» ^(٧) بِالْعَذَابِ. «وَأَسْتَفْتَحُوا» اسْتَنْصَرَ الرُّسُلَ بِاللَّهِ عَلَى قَوْمِهِمْ «وَحَابَّ» خَسِرَ «كُلُّ جَبَّارٍ مُتَكَبِّرٍ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ» «عَنِيدٍ» ^(٨) مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ. «مِنْ وَرَائِهِ» أَي: أَمَامَهُ «جَهَنَّمَ» يَدْخُلُهَا «وَيُسْقَى» فِيهَا «مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ» ^(٩) هُوَ: مَا يَسِيلُ مِنْ جَوْفِ أَهْلِ النَّارِ، مُخْتَلِطًا بِالْقَيْحِ وَالْدَّمِ. «يَتَجَرَّعُهُ» يَبْتَلَعُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ لِمَرَارَتِهِ «وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ» يَزْدَرِدُهُ لِقُبْحِهِ وَكَرَاهَتِهِ «وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ» أَي: أَسْبَابُهُ الْمُقْتَضِيَّةُ لَهُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ «مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ» بَعْدَ ذَلِكَ الْعَذَابِ «عَذَابٌ غَلِيظٌ» ^(١٠) قَوِيٌّ مُتَّصِلٌ. «مِثْلُ» صِفَةُ «الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» مُبْتَدَأٌ، وَيُبَدَّلُ مِنْهُ «أَعْمَلُهُمْ» الصَّالِحَةُ: كَصِلَةٍ وَصَدَقَةٍ فِي عَدَمِ الْإِنْتِفَاعِ بِهَا «كَرَمَادٍ أَسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ» شَدِيدِ هُبُوبِ الرِّيحِ، فَجَعَلَتْهُ هَبَاءً مَثُورًا لَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ، وَالْمَجْرُورُ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ «لَا يَقْدَرُونَ» أَي: الْكَفَّارُ «مِمَّا كَسَبُوا» عَمَلُوا فِي الدُّنْيَا «عَلَى شَيْءٍ» أَي: لَا يَجِدُونَ لَهُ ثَوَابًا لِعَدَمِ شَرْطِهِ ^(١١) «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ» الْهَلَاكُ «الْبَعِيدُ» ^(١٢) أَلَمْ تَرَ «تَنْظُرُ يَا

الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقرهم من الله زلفى. [ابن كثير (٤/ ٤٨٢)].

(١) انظر التعليق على آية (٤) من سورة نوح.

(٢) أي: بمشيئته وإرادته وليس ذلك في قدرتنا، وقيل: بأمره لنا بالإتيان، أي: إذنه لنا فيه، والأول أولى. [صديق حسن (٧/ ٩٣)].

(٣) المثل مستعار للصفة التي فيها غرابة. شبه تعالى أعمالهم اللاتي كانوا يعملونها لأوثانهم أو يراؤون بها كإنفاق الأموال وعقر الإبل للضيغان، في حبوطنها؛ لكونها على غير تقوى وإيمان برماد طيرته الريح العاصف. وقوله تعالى: «لَا يَقْدَرُونَ» إلخ، مستأنف، فذلك للتمثيل بمعنى المقصود منه ومحصل وجهه ... أي: لا يرون له أثرا من ثواب، كما لا يقدر، من الرماد المطير في الريح، على شيء. قال

مُخَاطَبًا، اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرٍ ﴿أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿خَلَقَ﴾، ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١١﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ١٢﴾ شَدِيدٍ. ﴿وَبَرِّزُوا﴾ أَيُّ: الْخَلَائِقُ، وَالتَّعْبِيرُ فِيهِ وَفِيمَا بَعْدَهُ بِالْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ﴾ الْآتِبَاعُ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الْمَتَّبِعِينَ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ «تَابِعٍ» ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَوُونَ﴾ دَافِعُونَ ﴿عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (مِنْ) الْأُولَى: لِلتَّيْسِينَ، وَالثَّانِيَةُ: لِلتَّبَعِيضِ ﴿قَالُوا﴾ الْمَتَّبِعُونَ ﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ﴾ لَدَعَوْنَاكُمْ إِلَى الْهُدَى ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنَ﴾ زَائِدَةٌ ﴿مُحِصٍ ١٣﴾ مَلْجَأٍ. ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ إِبْلِيسُ ﴿لَمَّا فُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وَأَدْخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ، وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ بِالْبُعْثِ وَالْجَزَاءِ فَصَدَقَكُمْ ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ أَنَّهُ غَيْرُ كَائِنٍ ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿سُلْطَانٍ﴾ قُوَّةٍ وَقُدْرَةٍ أَفْهَرُكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِي ١٤ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ عَلَى إِجَابَتِي ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بِمُغِيثِكُمْ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي﴾ بِفَتْحِ «الْيَاءِ» وَكَسْرِهَا ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّايَ مَعَ اللَّهِ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٥﴾ مُؤْلَمٌ. ﴿وَأَدْخِلِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ﴿فِيهَا يَأْذُنُ رَبَّهُمْ﴾ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا ﴿مِنْ اللَّهِ وَمِنَ الْمَلَائِكَةِ وَفِيمَا بَيْنَهُمْ﴾ سَلَامٌ ١٦ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرُ ﴿كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ وَيُبَدِّلُ مِنْهُ ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ أَيُّ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هِيَ النَّخْلَةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿وَفَرَعُهَا﴾ غُصْنُهَا ﴿فِي السَّمَاءِ ١٧﴾ تُؤْتِي ﴿تُعْطِي﴾ أَكْلَهَا ﴿ثَمَرَهَا﴾ كُلَّ حِينٍ يَأْذُنُ رَبِّهَا بِإِرَادَتِهِ، كَذَلِكَ كَلِمَةُ الْإِيمَانِ ثَابِتَةٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَعَمَلُهُ يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنَالُهُ بَرَكَتُهُ وَثَوَابُهُ كُلُّ وَقْتٍ ﴿وَيَضْرِبُ﴾ يَبِينُ ﴿اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

أبو السعود: الاكتفاء ببيان عدم رؤية الأثر لأعمالهم للأصنام، مع أن لها عقوبات هائلة؛ للتصريح ببطان اعتقادهم وزعمهم أنها شفعاء لهم عند الله تعالى، وفيه تهكم بهم. وفي توصيف الضلال بالبعد، إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ... وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]. [القاسمي (٣٠٨/٦)].

(١) السلطان المنفي في هذا الموضع: هو الحجة والبرهان ... كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كان لي من حجة أحتج بها عليكم. أي: ما أظهرت لكم حجة إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي، وصدقتم مقالتي، واتبعتموني بلا برهان ولا حجة. فأما السلطان الذي أثبتته في قوله: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠]. فهو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال، وتمكنه منهم ... كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَعُهُمْ أَرْأَى﴾ [مريم: ٨٣]. [إغاثة اللفهان لابن القيم (١/١٧١)].

يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ يَتَعَطَّوْنَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هِيَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هِيَ الْحَنْظَلُ ﴿أُجْتُثَّتْ﴾ اسْتُؤْصِلَتْ ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ ﴿٢٦﴾ مُسْتَقَرٌّ وَثَبَاتٌ، كَذَلِكَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ لَا ثَبَاتَ لَهَا وَلَا فَرْعَ وَلَا بَرَكَهَ. ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ هُوَ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: فِي الْقَبْرِ لَمَّا يَسْأَلُهُمُ الْمَلَكَانِ عَنْ: رَبِّهِمْ، وَدِينِهِمْ، وَنَبِيِّهِمْ، فَيُجِيبُونَ بِالصَّوَابِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّيْخَيْنِ ^(١) ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ الْكُفَّارَ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْجَوَابِ بِالصَّوَابِ، بَلْ يَقُولُونَ: «لَا نَدْرِي». كَمَا فِي الْحَدِيثِ ^(٢) ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ * أَلَمْ تَرَ ﴿تَنْظُرُ﴾ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴿أَيُّ: شُكْرَهَا﴾ ﴿كُفْرًا﴾ هُمْ كُفَّارٌ قُرَيْشٍ ﴿وَأَحْلَوْا﴾ أَنْزَلُوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ بِإِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٢٨﴾ الْهَلَاكِ. ﴿جَهَنَّمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ﴿٢٩﴾ الْمَقَرُّ هِيَ. ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بِفَتْحِ «الْيَاءِ» وَضَمِّهَا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بِدُنْيَاكُمْ قَلِيلًا ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ مَرْجِعَكُمْ ﴿إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِدَاءٍ ﴿فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ ﴿٣١﴾ مُخَالَةً، أَيُّ: صَدَاقَةٌ تَنْفَعُ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ الْسُّفْنَ ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ﴾ بِالرُّكُوبِ وَالْحَمَلِ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بِإِذْنِهِ ^(٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴿جَارِيَيْنِ فِي فَلَكِهِمَا لَا يَفْتُرَانِ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ لَتَسْكُنُوا فِيهِ ﴿وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٣﴾ لَتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْلِهِ. ﴿وَأَتْلُوكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ عَلَى حَسَبِ

(١) عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ وذكر قبض روح المؤمن: «يَأْتِيهِ آتٍ، يَعْنِي فِي قَبْرِهِ، يَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ يَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. قَالَ: فَيَسْتَهْرُهُ، يَقُولُ: مَا رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فَنَتِهِ تَعْرِضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ اللَّهُ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، يَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، وَدِينِي الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ، يُقَالُ لَهُ: صَدَقْتَ». أخرجه البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٢) قال ﷺ: «إِنَّ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ... الْحَدِيثُ فِيهِ «فَيَأْتِيهِ آتٍ يَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ يَقُولُ: لَا أَدْرِي، يَقُولُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتُ، وَيَأْتِيهِ آتٍ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتَنِّسُ الرِّيحِ، يَقُولُ: أَبْشِرْ بِهِوَانٍ مِنَ اللَّهِ وَعَذَابٍ مُّقِيمٍ». أخرجه أحمد (١٨٦١٤).

(٣) بمشيئته التي بها نيط كل شيء، وتخصيصه بالذكر على ما ذكره بعض المحققين للتخصيص على أن ذلك ليس بمزاولة الأعمال واستعمال الآلات كما يترأى من ظاهر الحال، ويندرج في تسخير الفلك كما في البحر تسخير وكذا تسخير الرياح. [الآلوسي (٧/ ٢١١)].

مَصَالِحِكُمْ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ بِمَعْنَى إِنْغَامِهِ﴾ ﴿لَا تَحْصُوهَا﴾ لَا تُطِيقُوا عَدَّهَا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ الْكَافِرَ ﴿لَظُلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿٣٦﴾ كَثِيرُ الظُّلْمِ لِنَفْسِهِ بِالْمَعْصِيَةِ، وَالْكَفْرِ لِنِعْمَةِ رَبِّهِ. ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ مَكَّةَ ﴿ءَامِنًا﴾ ذَا أَمْنٍ، وَقَدْ أَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فَجَعَلَهُ حَرَمًا لَا يُسْفَكَ فِيهِ دَمُ إِنْسَانٍ، وَلَا يُظْلَمُ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهُ، وَلَا يُخْتَلَى خَلَاهُ ﴿وَاجْبُنِي﴾ بَعْدَنِي ﴿وَبَنِي﴾ عَنْ ﴿أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿٣٧﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَيُّ الْأَصْنَامِ ﴿أَصْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ مِنْ أَهْلِ دِينِي ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٣٨﴾ هَذَا قَبْلَ عِلْمِهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ^(١). ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَيُّ: بَعْضَهَا وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ مَعَ أُمِّهِ هَاجَرَ ﴿بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ هُوَ مَكَّةُ ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الطُّوفَانِ^(٢) ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً﴾ قُلُوبًا ﴿مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي﴾ تَمِيلُ وَتَحْنُ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَوْ قَالَ: «أَفْئِدَةً النَّاسِ»، لَحَنَّتْ إِلَيْهِ فَارِسُ وَالرُّومُ وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ. ﴿وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ الطَّائِفِ إِلَيْهِ^(٣). ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي﴾ نُسِرُ ﴿وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿٤٠﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى، أَوْ كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ^(٤). ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي﴾ أَعْطَانِي ﴿عَلَى﴾ مَعَ ﴿الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ﴾ وُلِدَ وَلَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً ﴿وَإِسْحَاقَ﴾ وُلِدَ وَلَهُ مِائَةٌ وَاثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ

(١) قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ وإذا كان ذلك كذلك، فقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ معناه: بتوبتك على الكفرة حتى يؤمنوا، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعانيين ولا لعانيين، وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]. [ابن عطية (٣/ ٣٤١)].

(٢) فإن قيل: ما وجه قوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ ولم يكن هناك بيت حيثئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه: أحدها: أن الله تعالى حرم موضع البيت منذ خلق السماوات والأرض، قاله ابن السائب. والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يرفع أيام الطوفان. والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا ذكرهم ابن جرير. [ابن الجوزي (٢/ ٥١٥)]. [وقيل: هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها، وذلك قبل بناء البيت، وهذا كان بعد بنائه، تأكيداً ورغبة إلى الله. [ابن كثير (٤/ ٥١٣)].

(٣) المراد عمارة قرى بقرب مكة لتحصل تلك الثمار، وقيل يحتمل أن يكون المراد جلب الثمرات إلى مكة بطريق النقل والتجارة فهو كقوله تعالى: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]. [الخازن (٣/ ٤١)].

(٤) قال جمهور المفسرين هو من كلام الله سبحانه تصديقاً لما قاله إبراهيم ... وإنما ذكر السماوات والأرض لأنها المشاهدتان للعباد، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه خافية. [صديق حسن (٧/ ١٢٧)].

الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَاجْعَلْ ﴿مِنْ دُرِّيَّتِي﴾ مَنْ يُقِيمُهَا، وَأْتِي بِ ﴿مِنْ﴾ لِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ أَنَّ مِنْهُمْ كُفَّارًا ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ الْمَذْكُورَ. ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ عَدَاوَتُهُمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ^(١)، وَقِيلَ: أَسَلَمْتَ أُمُّهُ، وَقُرِئَ: ﴿وَالِدِي﴾ مُفْرَدًا، وَ﴿وَالِدَيَّ﴾^(٢) ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ﴾ يَثْبُتُ ﴿الْحِسَابُ﴾ ﴿٤١﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ بِإِلَاءِ عَذَابٍ ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٢﴾ لِهَوْلِ مَا تَرَى، يُقَالُ: شَخَصَ بَصَرُ فُلَانٍ، أَيُّ: فَتَحَهُ فَلَمْ يُغْمِضْهُ. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مُسْرِعِينَ حَالًا ﴿مُقْنِعِي﴾ رَافِعِي ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ إِلَى السَّمَاءِ ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ بَصَرُهُمْ ﴿وَأَفْئَدَتُهُمْ﴾ قُلُوبُهُمْ ﴿هَوَاءٌ﴾ ﴿٤٣﴾ خَالِيَةٌ مِنَ الْعَقْلِ لِفَزَعِهِمْ^(٣). ﴿وَأَنْذِرْ﴾ خَوْفَ يَا مُحَمَّدُ ﴿النَّاسِ﴾ الْكُفَّارَ ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا﴾ بِأَنْ تَرُدَّنَا إِلَى الدُّنْيَا ﴿إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ فَيَقَالُ لَهُمْ تَوْبِيخًا: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ حَلَفْتُمْ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مَا لَكُمْ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿زَوَالٍ﴾ ﴿٤٤﴾ عَنْهَا إِلَى الْآخِرَةِ. ﴿وَسَكَنْتُمْ﴾ فِيهَا ﴿فِي مَسَكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ مِنَ الْعُقُوبَةِ فَلَمْ تَزْجُرُوا ﴿وَضَرَبْنَا﴾ بَيْنَنَا ﴿لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ ﴿٤٥﴾ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ تَعْتَبِرُوا. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَكْرَهُمْ﴾ حَيْثُ أَرَادُوا قَتْلَهُ أَوْ تَقْيِيدَهُ أَوْ إِخْرَاجَهُ ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أَيُّ: عِلْمُهُ، أَوْ جَزَاؤُهُ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿كَانَ مَكْرَهُمْ﴾ وَإِنْ عَظُمَ ﴿لِتَرْوُلٍ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ ﴿٤٦﴾ الْمَعْنَى: لَا يُعْبَأُ بِهِ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ. وَالْمُرَادُ بِالْجِبَالِ هُنَا قِيلَ: حَقِيقَتُهَا، وَقِيلَ: شَرَائِعُ الْإِسْلَامِ الْمُشَبَّهَةٌ بِهَا فِي الْقَرَارِ وَالثَّبَاتِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ لَامٍ ﴿لِتَرْوُلٍ﴾ وَرَفْعِ الْفِعْلِ، فَ﴿إِنْ﴾ مُحَقَّقَةٌ، وَالْمُرَادُ: تَعْظِيمُ مَكْرِهِمْ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْمَكْرِ كُفْرُهُمْ، وَيُنَاسِبُهُ عَلَى الثَّانِيَةِ: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠]، وَعَلَى الْأَوَّلِ: مَا قُرِئَ:

(١) بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه، وبين في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو لله فلما علم ذلك تبرأ منه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. [الشنقيطي (٣/ ١٣٥)].

(٢) قراءتان شاذتان.

(٣) ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غُلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئَدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم قد صعدت إلى الحناجر لكنها مملوءة من كل هم وغم وحزن وقلق. [السعدي (ص: ٤٢٧)].

﴿وَمَا كَانَ﴾^(١) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غَالِبٌ لَا يَعْجزُهُ شَيْءٌ ﴿ذُو أَنْتِقَامٍ﴾
 ﴿٤٧﴾ ﴿مِمَّنْ عَصَاهُ. أَذْكَرَ﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ﴿هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، فَيَحْشَرُ النَّاسُ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ نَقِيَّةٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ، وَرَوَى مُسْلِمٌ حَدِيثَ: سَأَلَ النَّبِيُّ ﷺ أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ قَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ»^(٢) ﴿وَبَرَزُوا﴾ خَرَجُوا مِنَ الْقُبُورِ ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٣) وَتَرَى ﴿يَا مُحَمَّدُ: تُبْصِرُ﴾ الْمُجْرِمِينَ ﴿الْكَافِرِينَ﴾ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ ﴿مَشْدُودِينَ مَعَ شَيَاطِينِهِمْ﴾ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ الْقَيْودِ أَوْ الْأَغْلَالِ. ﴿سَرَابِيلُهُمْ﴾ قُمَصُهُمْ ﴿مِنْ قَطْرَانٍ﴾ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ لاشتعال النارِ ﴿وَتَغَشَّى﴾ تَعْلُو ﴿وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾^(٤) لِيَجْزِيَ ﴿مُتَعَلِّقٌ بِ﴾ ﴿بَرَزُوا﴾، ﴿اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٥) يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَدَرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ^(٦) ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ أَي: أَنْزَلَ لِتَبْلِيغِهِمْ ﴿وَلِيُنْذِرُوا بِهِ﴾ وَلِيَعْلَمُوا بِمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الذَّلَالِ: يَتَّعِظُ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٧) أَصْحَابُ الْعُقُولِ^(٨).

(١) أي: قرئ بقراءة شاذة: ﴿وَمَا كَانَ مَكْرَهُمْ﴾.

(٢) الحديث الأول أخرجه البخاري (٦١٥٦)، ومسلم (٢٧٩٠). والثاني أخرجه مسلم (٢٧٩١).

(٣) انظر إلى التعليق على هذا القول عند الآية (٢٠٢) من سورة البقرة. [وقال ابن كثير (٤/٥٢٣): ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْتُمْ وَلَا بَعُثْتُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم.

(٤) قدرت صفات الآيات المشار إليها باسم الإشارة على ترتيب عقلي بحسب حصول بعضها عقب بعض، فابتدئ بالصفة العامة وهي حصول التبليغ، ثم ما يعقب حصول التبليغ من الإنذار، ثم ما ينشأ عنه من العلم بالوحدانية لما في خلال هذه السورة من الدلائل، ثم بالتذكير فيما جاء به ذلك البلاغ وهو تفاصيل العلم والعمل، وهذه المراتب هي جامع حكمة ما جاء به الرسول ﷺ موزعة على من بلغ إليهم، ويختص المسلمون بمضمون قوله ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾. [ابن عاشور (١٣/٢٥٥)].

سُورَةُ الْحَجَرِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١) ﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «مِنْ» ﴿وَقُرْءَانٍ مُبِينٍ﴾ ^(٢) مُظْهِرٍ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ. ﴿رُبَّمَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿يَوَدُّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا عَايَنُوا حَالَهُمْ وَحَالَ الْمُسْلِمِينَ ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ^(٣) وَرَبِّ لِلتَّكْثِيرِ، فَإِنَّهُ يَكْثُرُ مِنْهُمْ تَمَنَّى ذَلِكَ، وَقِيلَ: لِلتَّقْلِيلِ فَإِنَّ الْأَهْوَالَ تُدْهِشُهُمْ فَلَا يُفِيقُونَ حَتَّى يَتَمَنَّوْا ذَلِكَ إِلَّا فِي أَحْيَانٍ قَلِيلَةٍ. ﴿ذَرُّهُمْ﴾ أَتْرَكَ الْكَفَّارَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بِدُنْيَاهُمْ ﴿وَيُلْهِمُهُمْ﴾ يَشْغُلُهُمْ ﴿الْأَمَلُ﴾ بِطُولِ الْعُمُرِ وَغَيْرِهِ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ^(٤) عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ^(٥). ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أَجَلٌ ﴿مَعْلُومٌ﴾ ^(٦) مَحْدُودٌ لِهَلَاكِهَا. ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ ^(٧) يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيُّ: كُفَّارٌ مَكَّةَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ الْقُرْآنُ فِي رَعْمِهِ ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ^(٨) لَوْ مَا هَلَّا ﴿تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ^(٩) فِي قَوْلِكَ إِنَّكَ نَبِيٌّ، وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا تَنْزَّلُ﴾ فِيهِ حَذْفُ إِحْدَى التَّائِينَ ﴿الْمَلَكَةِ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ أَيُّ: حِينَ نَزُولِ الْمَلَائِكَةِ بِالْعَذَابِ ﴿مُنْظَرِينَ﴾ ^(١٠) مُؤَخَّرِينَ. ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تَأْكِيدٌ لِاسْمِ «إِنَّا»، أَوْ فَضْلٌ ﴿نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ ^(١١) مِنَ التَّبْدِيلِ وَالتَّخْرِيفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ رُسُلًا ﴿فِي شِعَابِ﴾ فَرَقِ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ذكر هذا كثير من المفسرين، انظر: الناسخ والمنسوخ لأبي القاسم هبة الله بن سلامة ص (٥٨)، المحرر الوجيز: (٨ / ٢٨١)، زاد المسير: (٤ / ٣٨٢). وبعض العلماء توسعوا كثيرا في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدتهم بالعذاب بالنسخ، وجعلوا آية القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح. [انظر: علوم القرآن، للدكتور عدنان محمد زرزور ص: (٢١٠-٢١٢)]. [وقد هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون، فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم ... كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]. [الشقيطي (٣ / ١٤٠)].

﴿الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾ كَاسْتَهْزَأَ قَوْمُكَ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ ﷺ. ﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ ۝﴾ أَي: مِثْلَ إِدْخَالِنَا التَّكْذِيبَ فِي قُلُوبِ أَوْلِيكَ، نُدْخِلُهُ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ أَي: كُفَّارِ مَكَّةَ. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۝﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ. ﴿وَقَدْ خَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ۝﴾ أَي: سُنَّةُ اللَّهِ فِيهِمْ، مِنْ تَعْذِيهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ مِثْلُهُمْ. ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ﴾ فِي الْبَابِ ﴿يَعْرُجُونَ ۝﴾ يَصْعَدُونَ. ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ سُدَّتْ﴾ أَبْصَرْنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿يُخِيلُ إِلَيْنَا ذَلِكَ ۝﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴿إِنِّي عَشَرَ: الْحَمَلُ وَالثَّوْرَ وَالْجُوزَاءَ وَالسَّرَطَانَ وَالْأَسَدَ وَالسُّنْبُلَةَ وَالْمِيزَانَ وَالْعَقْرَبَ وَالْقَوْسَ وَالْجَدْيَ وَالذَّلَّوْ وَالْحُوتَ، وَهِيَ مَنَازِلُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ: الْمَرْيَخُ وَلَهُ الْحَمَلُ وَالْعَقْرَبُ، وَالزُّهْرَةُ وَلَهَا الثَّوْرُ وَالْمِيزَانُ، وَعُطَارِدُ وَلَهُ الْجُوزَاءُ وَالسُّنْبُلَةُ، وَالْقَمَرُ وَلَهُ السَّرَطَانُ، وَالشَّمْسُ وَلَهَا الْأَسَدُ، وَالْمُشْتَرِي وَلَهُ الْقَوْسُ وَالْحُوتُ، وَزُحْلٌ وَلَهُ الْجَدْيُ وَالذَّلَّوْ وَزَيْنَتُهَا﴾ بِالْكَوَاكِبِ ﴿لِلنَّظِيرِينَ ۝﴾ وَحَفِظْنَاهَا ﴿بِالشُّهْبِ﴾ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿مَرْجُومٍ ۝﴾ إِلَّا ﴿لَكِنْ﴾ ﴿مَنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ خَطِفُهُ ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴿كَوْكَبٌ يُضِيءُ، يُحْرِقُهُ أَوْ يَنْقُبُهُ أَوْ يُحْبِلُهُ ۝﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بَسَطْنَاهَا ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لَيْثًا تَتَحَرَّكُ بِأَهْلِهَا ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝﴾ مَعْلُومٌ مُقَدَّرٌ. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ﴾ بِأَلْيَاءٍ مِنَ الثَّمَارِ وَالْحُبُوبِ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ﴾ مِنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَزَقِينَ ﴿مَنْ أَلْعَبِيدُ، وَالذَّوَابُّ، وَالْأَنْعَامُ فَإِنَّمَا يَرْزُقُهُمُ اللَّهُ ۝﴾ ﴿وَأَنْ﴾ مَا ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِ ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝﴾ عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ. ﴿وَأَرْسَلْنَا

(١) المعنى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره إلا من استرق السمع فإنه تتبعه وتلحقه الشهب فتقتله أو تخبله أو تحرقه أو تنقبه، ومعنى ﴿فَاتَّبَعَهُ﴾: تبعه ولحقه أو أدركه، و«الشهاب» الكوكب نفسه أو النار المشتعلة الساطعة منه كما في قوله: ﴿بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ [النمل: ٧]... واختلف هل كان رمى بالشهب قبل المبعث فقال الأكثرون نعم: وقيل: لا، وإنما ذلك بعد المبعث، قال الزجاج: والرمي بالشهب من آيات النبي ﷺ مما حدث بعد مولده لأن الشعراء في القديم لم يذكروه في أشعارهم والجمع بين هذين القولين إن الرمي بالنجوم كان موجوداً قبل مبعث النبي ﷺ فلما بعث شدد ذلك وزيد في حفظ السماء وحراستها صوناً لأخبار الغيوب. [صديق حسن (١٥٥/٧)].

(٢) قال الله فيهم: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. [الماوردي (١٥٤/٣)]. ومعناه: جعلنا فيها معاش لكم، وجعلنا فيها من لستم فيها برازقين، وهي الدواب والطيور والوحوش. وفي الآية قول آخر: وهو أنا جعلنا لكم فيها معاش، وجعلنا لكم أيضاً الدواب والطيور والأنعام، وكفيناكم رزقها، فإن قال قائل: قد قال: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَزَقِينَ﴾، و«من» إنما يقال فيمن يعقل لا فيمن لا يعقل؟ والجواب عنه: أن العبيد والمماليك قد دخلوا في هؤلاء، والعرب إذا جمعت بين من يعقل وبين من لا يعقل غلبت من يعقل. [السمعي (١٣٤/٣)].

الرَّيْحِ لَوَاقِحَ ﴿٢١﴾ تُلْقَحُ السَّحَابَ، فَيَمْتَلِئُ مَاءً ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ السَّحَابَ مَاءً﴾ مَطَرًا ﴿فَأَسْقَيْنَكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ أَي: لَيْسَتْ خَزَائِنُهُ بِأَيْدِيكُمْ. ﴿وَأَنَا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ الْبَاقُونَ نَرِثُ جَمِيعَ الْخَلْقِ. ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمُ﴾ أَي: مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ الْمُسْتَأْخِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٥﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدَمَ ﴿مِنْ صَلْصَلٍ﴾ طِينٍ يَابِسٍ، يُسَمَّعُ لَهُ صَلْصَلَةٌ إِذَا نُفِرَ ﴿مِنْ حَمٍ﴾ طِينٍ أَسْوَدَ ﴿مَسْنُونٍ﴾ ﴿٢٦﴾ مُتَغَيَّرٍ ^(١). ﴿وَالْجَانَّ﴾ أَبَا الْجِنِّ، وَهُوَ إِبْلِيسُ ^(٢) ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ ^(٣) هِيَ نَارُ لَا دُخَانَ لَهَا، تَنْفُذُ مِنَ الْمَسَامِ. ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِيقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴿أَنَّمَتُهُ﴾ ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أَجْرَيْتُ ﴿فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ فَصَارَ حَيًّا، وَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَشْرِيفٌ لِآدَمَ ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ ^(٤). ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ فِيهِ تَأْكِيدَانِ. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿أَبَى﴾ اِمْتَنَعَ مِنْ ﴿أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قَالَ ﴿تَعَالَى﴾: ﴿يَتَّيَبَّلِيسُ مَا لَكَ﴾ مَا مَعَكَ ﴿أَلَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْجُدَ ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمٍ مَّسْنُونٍ﴾ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا أَي: مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ مِنَ السَّمَاوَاتِ ^(٥) ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾

(١) ظاهر هذه الآية أن آدم خلق من صلصال، أي: طين يابس. وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك، كقوله تعالى: ﴿مِّنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وكقوله: ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. والجواب أنه ذكر أطوار ذلك التراب، فذكر طوره الأول بقوله: ﴿مِنْ تُرَابٍ﴾، ثم بل فصار طينا لازبا، ثم خمر فصار حمًا مسنونا، ثم ييس فصار صلصالا كالفخار. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ١٨٥)].

(٢) قال الحسن: يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام. وسمي «جانا» لتواريه عن الأعين. عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ جَعَلَ إِبْلِيسَ يُطِيفُ بِهِ قَبْلَ أَنْ يُنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَتِمَّالِكُ». أخرجه مسلم (٢٦١١). [القرطبي (٢٣/١٠)]. ومعنى «لَا يَتِمَّالِكُ» أي: لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل لا يملك نفسه عند الغضب. [الخازن (٣٧٦/٤)] وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٣) قوله: «بالانحناء» فيه نظر؛ لأن السجود هو الوقوع على الأرض، وهو ظاهر الآية، ولكن يقال: إن هذا السجود للغير تحية كان جائزا ولكنه نسخ بعد ذلك. [ابن عثيمين تفسير الحجر (ص: ٢٣٦)].

(٤) قيل: الظاهر أن الضمير للسماء وإن لم يجر لها ذكر، وأيد بظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٣]، وقيل: لزمره الملائكة

﴿٣٤﴾ مَطْرُودٌ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٣٥﴾ الْجَزَاءُ. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ أَيُّ: النَّاسِ. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَفْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ وَقَتِ الْفَتْخَةِ الْأُولَى. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ أَيُّ: بِإِغْوَاثِكَ لِي، وَالْبَاءُ لِلْقَسَمِ^(١) وَجَوَابُهُ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الْمَعَاصِي ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾. وَهُوَ: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قُوَّةٌ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ الْكَافِرِينَ^(٢). ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ أَيُّ: مَنْ أَتَّبَعَكَ مَعَكَ. ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أَطْبَاقٍ^(٣) ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهَا﴾ مِنْهُمْ جُزْءٌ ﴿نَصِيبٌ مَّقْسُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴿بَسَاتِينَ﴾ ﴿وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ تَجْرِي فِيهَا. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أَيُّ: سَالِمِينَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ، أَوْ مَعَ سَلَامٍ، أَيُّ: سَلَّمُوا وَأَدْخُلُوا ﴿ءَامِنِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ مِنْ كُلِّ فَرْعٍ. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ حَقْدٍ^(٤) ﴿إِخْوَانًا﴾ حَالٍ مِنْ «هُمْ» ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ حَالٍ أَيْضًا، أَيُّ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَعَا بَعْضٍ

عليهم السلام ويلزم خروجه من السماء إذ كونه بانزوائه عنهم في جانب لا يعد خروجاً في المتبادر وكفى به قرينة، وقيل: للجنة لقوله تعالى: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولوقوع الوسوسة فيها، ورُدَّ بأن وقوعها كان بعد الأمر بالخروج. [الآلوسي (٧/ ٢٩١)].

(١) [وقيل:] الباء للسببية، أي: لأغوينهم بسبب إغواثك لي ... والضمير لذرية آدم. [ابن جزي (١/ ٤١٨)].

(٢) استثنى سبحانه من عباده هؤلاء وهم المتبعون لإبليس ﴿مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] عن طريق الحق الواقعين في الضلال، وهو موافق لما قاله إبليس اللعين من قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾. ويمكن أن يقال بين الكلامين فرق، فكلام الله سبحانه فيه نفي سلطان إبليس على جميع عباده إلا من اتبعه من الغاوين، فيدخل في ذلك المخلصون وغيرهم ممن لم يتبع إبليس، وكلام إبليس اللعين يتضمن إغواء الجميع إلا المخلصين، فدخل فيهم من لم يكن مخلصاً ولا تابعاً لإبليس غاوياً. والحاصل أن بين المخلصين والغاوين التابعين لإبليس طائفة لم تكن مخلصه ولا غاوية تابعة لإبليس، وقد قيل إن الغاوين المتبعين لإبليس هم المشركون ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]، قال أبو السعود: وفيه مع كونه تحقيقاً لما قاله اللعين تفخيم لشأن المخلصين، وبيان لمزلتهم، ولا تقطع مخالب الإغواء عنهم وإن إغواءه للغاوين ليس بطريق السلطان بل بطريق اتباعهم له بسوء اختيارهم. [صديق حسن (٧/ ١٧١)].

(٣) الظاهر أن السبعة مستعملة في الكثرة فيكون كقوله: ﴿وَالْمَلَكُ يُدْخِلُونَهُمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]، أو أريد بالأبواب الكناية عن طبقات جهنم؛ لأن الأبواب تقتضي منازل ... وجملة ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ صفة لـ «أبواب» وتقسيمها بالتعيين يعلمه الله تعالى. وضمير منهم عائد لـ ﴿مَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، أي: لكل باب فريق يدخل منه، أو لكل طبقة من النار قسم من أهل النار مقسوم على طبقات أقسام النار. [ابن عاشور (١٤/ ٥٣)].

(٤) انظر التعليق على آية (٤٣) من سورة الأعراف.

لِدَوْرَانِ الْأَسْرَةِ بِهِمْ^(١) ﴿لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ تَعَبٌ ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(٢) أَبَدًا. ﴿نَبِيُّ﴾ خَبْرٌ يَا مُحَمَّدُ
 ﴿عِبَادِي أَتَىٰ أَنَا الْغَفُورُ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الرَّحِيمُ﴾^(٣) بِهِمْ. ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ لِلْعَصَاةِ ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(٤) الْمُؤْلِمُ.
 ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٥) وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ اثْنَا عَشَرَ أَوْ ثَلَاثَةٌ، مِنْهُمْ جِبْرِيلُ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا
 سَلَامًا﴾ أَيُّ: هَذَا اللَّفْظُ ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ فَلَمْ يَأْكُلُوا: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾^(٦) خَائِفُونَ.
 ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ﴾ لَا تَخَفْ ﴿إِنَّا﴾ رُسُلُ رَبِّكَ ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾^(٧) ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ، هُوَ إِسْحَاقُ كَمَا ذَكَرَ فِي
 سُورَةِ «هُودٍ»^(٨). ﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي﴾ بِالْوَلَدِ ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ حَالٌ، أَيُّ: مَعَ مَسِّهِ إِيَّايَ ﴿فِيمَ﴾ فَبِأَيِّ شَيْءٍ
 ﴿تُبَشِّرُونَ﴾^(٩) اسْتَفْهَامٌ تَعَجُّبٍ. ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفٰنِطِينَ﴾^(١٠) الْآيِسِينَ.
 ﴿قَالَ وَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا ﴿يَقْنِطُ﴾ بِكَسْرِ «النُّونِ» وَفَتْحِهَا ﴿مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(١١) الْكَافِرُونَ. ﴿قَالَ فَمَا
 خَطْبُكُمْ﴾ شَأْنُكُمْ ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٢) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ^(١٣) كَافِرِينَ، أَيُّ: قَوْمٍ لُوطٍ لِأَهْلَائِهِمْ.
 ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١٤) لِإِيمَانِهِمْ. ﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾^(١٥) الْبَاقِينَ فِي
 الْعَذَابِ لِكُفْرِهَا^(١٦). ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ﴾ أَيُّ: لُوطًا ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٧) قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾^(١٨) لَا
 أَعْرِفُكُمْ. ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا﴾ أَيُّ: قَوْمُكَ ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾^(١٩) يَشْكُونَ، وَهُوَ الْعَذَابُ. ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ
 وَإِنَّا لَصٰدِقُونَ﴾^(٢٠) فِي قَوْلِنَا. ﴿فَاسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ امْشِرْ خَلْفَهُمْ ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ
 أَحَدٌ﴾ لِئَلَّا يَرَىٰ عَظِيمٌ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ ﴿وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾^(٢١) وَهُوَ الشَّامُ. ﴿وَقَضَيْنَا﴾ أَوْحَيْنَا ﴿إِلَيْهِ ذَلِكَ
 الْأَمْرَ﴾ وَهُوَ: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾^(٢٢) حَالٌ، أَيُّ: يَتِمُّ اسْتِصْالُهُمْ فِي الصَّبَاحِ. ﴿وَجَاءَ أَهْلُ
 الْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةِ سُدُومَ، وَهُمْ قَوْمُ لُوطٍ، لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّ فِي بَيْتِ لُوطٍ مُّرَدًّا حَسَنًا، وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(٢٣)
 حَالٌ، طَمَعًا فِي فِعْلِ الْفَاحِشَةِ بِهِمْ. ﴿قَالَ﴾ لُوطٌ: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ صٰئِفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾^(٢٤) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزَوْنَ
 ﴿٢٥﴾ بِقَصْدِكُمْ إِيَّاهُمْ يَفْعَلِ الْفَاحِشَةَ بِهِمْ. ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعٰلَمِينَ﴾^(٢٦) عَنْ إِضَافَتِهِمْ. ﴿قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي

(١) انظر التعليق على آية (٤٤) من سورة الصافات.

(٢) سورة هود آية (٧١).

(٣) الغابر يقال: بمعنى الباقي، وبمعنى الذاهب، وإنما أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم، وهو لله وحده لما لهم من القرب والاختصاص

بالله، لا سيما في هذه القضية، كما تقول خاصة الملك للملك: دبرنا كذا، ويحتمل أن يكون حكاية عن الله. [ابن جزي (١/٤١٩)].

إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ﴿٧١﴾ مَا تُرِيدُونَ مِنْ قِضَاءِ الشَّهْوَةِ فَتَرَوُوهُنَّ^(١). قَالَ تَعَالَى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيُّ: وَحَيَاتِكَ^(٢) ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ يَتَرَدَّدُونَ. ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صَيْحَةُ جِبْرِيلَ ﴿مُشْرِقِينَ﴾ ﴿٧٣﴾ وَقَتِ شُرُوقِ الشَّمْسِ. ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: قُرَاهُمْ ﴿سَافِلَهَا﴾ بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيلُ إِلَى السَّمَاءِ، وَأَسْقَطَهَا مَقْلُوبَةً إِلَى الْأَرْضِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ﴿٧٤﴾ طِينٍ طَبِخَ بِالنَّارِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ لِلنَّاطِرِينَ الْمُعْتَبِرِينَ. ﴿وَإِنَّهَا﴾ أَيُّ: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿لَبَسِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾ طَرِيقِ قُرَيْشٍ إِلَى الشَّامِ لَمْ تَنْدَرِسْ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ؟ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ لَعِبْرَةً ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ مُخَفَّفَةٌ، أَيُّ: إِنَّهُ ﴿كَانَ أَصْحَبُ الْأَيْكَةِ﴾ هِيَ: غَيْضَةُ شَجَرٍ بِقُرْبِ مَدِينٍ، وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ شُعَيْبًا. ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بِأَنْ أَهْلَكْنَاهُمْ بِشِدَّةِ الْحَرِّ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَيُّ: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ وَالْأَيْكَةُ ﴿لِبِأَمَامٍ﴾ طَرِيقِ ﴿مُبِينٍ﴾ ﴿٧٩﴾ وَاضِحٍ، أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ؟ ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وَادِّينَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ، وَهُمْ ثَمُودُ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ صَالِحًا؛ لِأَنَّهُ تَكْذِيبٌ لِّبَاقِي الرُّسُلِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَعَاتَيْنَاهُمُ عَايَتَنَا﴾ فِي النَّاقَةِ ﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿٨١﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا. ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا عَامِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَتِ الصَّبَاحِ. ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ دَفَعَ ﴿عَنْهُمْ﴾ الْعَذَابُ ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ مِنْ بِنَاءِ الْحُصُونِ، وَجَمْعِ الْأَمْوَالِ. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ لَا مَحَالَةَ، فَيَجَازِي كُلَّ أَحَدٍ بِعَمَلِهِ ﴿فَاصْفَحْ﴾ يَا مُحَمَّدُ عَنْ قَوْمِكَ ﴿الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إِعْرَاضًا لَا جَزَعَ فِيهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السَّيْفِ^(٣). ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٦﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ. ﴿وَلَقَدْ عَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ قَالَ ﷺ: «هِيَ الْفَاتِحَةُ». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٤)؛ لِأَنَّهُا تُثْنِي فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٨٧﴾ لَا

(١) انظر التعليق على آية (٧٨) من سورة هود.

(٢) قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير في هذا أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ. وكذا حكى إجماع المفسرين على هذا المعنى أبو بكر بن العربي فقال: قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى هاهنا بحياة محمد ﷺ تشريفاً له، قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله سبحانه بحياة أحد غير محمد ﷺ لأنه أكرم البرية عنده. وقد جاءت الأحاديث الصحيحة في النهي عن القسم بغير الله، فليس لعباده أن يقسموا بغيره، وهو سبحانه يقسم بما شاء من مخلوقاته ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. [صديق حسن (٧/ ١٨٥)].

(٣) قال مجاهد وقتادة وغيرهما: كان هذا قبل القتال. وهو كما قالوا فإن هذه مكة، والقتال إنما شرع بعد الهجرة. [ابن كثير (٤/ ٥٤٥)].

(٤) أخرجه البخاري (٤٧٠٤).

تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا ۖ أَصْنَفًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ۚ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا ۖ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ ۚ
 أَلَنْ جَانِبَكَ ۖ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ ۖ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْكُمْ ۖ ﴿الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٩﴾ أَلَبَيْنُ الْإِنذَارِ ۖ ﴿كَمَا
 أَنْزَلْنَا ۖ الْعَذَابَ ۖ عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ ﴿٩٠﴾ أَلِيَهُودِ وَالنَّصَارَى ۖ ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ ۖ أَي ۖ كُتِبَهُمُ الْمُنْزَلَةَ عَلَيْهِمْ
 ۖ عِصِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أَجْزَاء ۖ حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضٍ ۖ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ۖ وَقِيلَ ۖ الْمُرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ اقْتَسَمُوا طُرُقَ مَكَّةَ يَصُدُّونَ
 النَّاسَ عَنِ الْإِسْلَامِ ۖ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ۖ فِي الْقُرْآنِ سِحْرٌ ۖ وَبَعْضُهُمْ ۖ كَهَانَةٌ ۖ وَبَعْضُهُمْ ۖ شَعْرٌ ۖ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ
 ﴿٩٢﴾ سَوَالٍ تَوْبِيخٍ ۖ ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٣﴾ فَاصْدَعْ ۖ يَا مُحَمَّدُ ۖ ﴿بِمَا تُوْمَرُ﴾ بِهِ ۖ أَي ۖ أَجْهَرُ بِهِ وَأَمْضِيهِ ۖ ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ
 الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ هَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ۖ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ ﴿٩٥﴾ بِكَ ۖ يَا هَلا كُنَّا كُلًّا مِنْهُمْ بَاقَةً ۖ وَهُمْ ۖ «الْوَلِيدُ
 بْنُ الْمَغِيرَةِ وَالْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ وَعَدِي بْنُ قَيْسٍ وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ وَالْأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَعُوثَ» ۖ ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ
 اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ صِفَةً ۖ وَقِيلَ ۖ مُبْتَدَأٌ ۖ وَلِتَضْمِنَهُ مَعْنَى الشَّرْطِ دَخَلَتْ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ ۖ وَهُوَ ۖ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾
 عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ ۖ ﴿وَلَقَدْ ۖ لِلتَّحْقِيقِ ۖ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ مِنْ الْأَسْتِهْزَاءِ وَالتَّكْذِيبِ ۖ ﴿٣﴾
 ﴿فَسَبِّحْ ۖ مُلْتَبِسًا ۖ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَي ۖ قُل ۖ «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ۖ ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ الْمُصَلِّينَ ۖ ﴿وَاعْبُدْ
 رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ﴿٩٩﴾ الْمَوْتُ ۖ ﴿٤﴾

(١) ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَي ۖ لَا تَبَالِ بِهِمْ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ إِذَا لَامُوكَ عَلَى إِظْهَارِ الدَّعْوَةِ ... وَلَيْسَ لِلنَّسَخِ وَجْهٌ لِأَن مَعْنَى الْإِعْرَاضِ
 تَرْكُ الْمُبَالَاهَةِ بِهِمْ وَالْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ ۖ فَلَا يَكُونُ مَنْسُوخًا. [صديق حسن (٧/ ٢٠٠)].

(٢) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ۖ مَا زَالَ النَّبِيُّ ﷺ مُسْتَخْفِيًا ۖ حَتَّى نَزَلَتْ ۖ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَقَوْلُهُ ۖ
 ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ أَي ۖ بَلَغَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَى الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ
 يَرِيدُونَ أَنْ يَصُدُّوكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ ... فَإِنَّ اللَّهَ كَافِيكَ إِيَّاهُمْ ۖ وَحَافِظُكَ مِنْهُمْ ۖ كَمَا قَالَ تَعَالَى ۖ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
 مِنْ رَبِّكَ ۚ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]. [ابن كثير (٤/ ٥٥١)].

(٣) لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ قَوْمَهُ يَهْزَوْنَ وَيَسْفَهُونَ ۖ أَعْلَمَهُ بِمَا يَعْلَمُهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ ۖ مِنْ ضَيْقِ صَدْرِهِ وَانْقِبَاضِهِ بِمَا يَقُولُونَ ۖ لِأَنَّ الْجَبَلَةَ الْبَشَرِيَّةَ
 وَالْمَزَاجَ الْإِنْسَانِيَّ يَقْتَضِي ذَلِكَ. ثُمَّ أَعْلَمَهُ بِمَا يَزِيلُ ضَيْقَ الصَّدْرِ وَالْحُزْنَ ۖ وَذَلِكَ أَمْرُهُ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ وَالصَّلَاةِ ۖ كَمَا قَالَ تَعَالَى ۖ
 ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وَقَالَ ۖ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ... وَقَدْ رَوَى فِي شِمَائِلِهِ صَلَوَاتُ اللَّهِ
 عَلَيْهِ ۖ أَنَّهُ كَانَ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَرَعَ إِلَى الصَّلَاةِ ۖ تَأْوِيلًا لَمَّا ذَكَرَ. [القاسمي (٦/ ٣٤٧)].

(٤) قَالَ الزَّجَاجُ ۖ الْمَعْنَى اعْبُدْ رَبَّكَ أَبَدًا ۖ لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ اعْبُدْ رَبَّكَ بِغَيْرِ تَوْقِيتٍ لَجَازَ إِذَا عَبْدَ الْإِنْسَانُ مَرَّةً أَنْ يَكُونَ مُطِيعًا. [الواحدي
 (١٢/ ٦٧٦)] وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ مَرْيَمَ ۖ ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

سُورَةُ النَّحْلِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ إِلَى آخِرِهَا، مِائَةٌ وَثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا اسْتَبْطَأَ الْمُشْرِكُونَ الْعَذَابَ نَزَلَ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ﴾ أَي: السَّاعَةُ، وَ﴿أَتَى﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ، أَي: قَرَبَ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ تَطْلُبُوهُ قَبْلَ حِينِهِ، فَإِنَّهُ وَقَعَ لَا مَحَالَةَ ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهًا لَهُ ﴿وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ١ ﴿بِهِ غَيْرُهُ﴾. ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أَي: جَبْرِيلَ ﴿بِالرُّوحِ﴾ بِالْوَحْيِ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ٢ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ ﴿أَنْ﴾ مُفَسَّرَةٌ ﴿أَنْذِرُوا﴾ خَوْفُوا الْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ، وَأَعْلَمُوهُمْ ﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ ٣ ﴿خَافُونَ﴾. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: مُحِقًّا ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٤ ﴿بِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ﴾. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ إِلَى أَنْ صِيرَهُ قَوِيًّا شَدِيدًا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ ﴿مُبِينٌ﴾ ٥ ﴿بَيْنَهَا فِي نَفْيِ الْبَعْثِ. قَائِلًا: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]. ﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ «الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ» وَنَضَبُهُ يَفْعَلُ يُفَسِّرُهُ: ﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ مِنْ جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مَا تَسْتَدْفِنُونَ بِهِ مِنَ الْأَكْسِيَةِ وَالْأَرْدِيَةِ مِنْ أَشْعَارِهَا وَأَصْوَفِهَا ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ مِنَ النَّسْلِ وَالذَّرِّ وَالرُّكُوبِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٦ ﴿قَدَّمَ الظَّرْفَ لِلْفَاصِلَةِ﴾. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ زِينَةٌ ﴿حِينَ تَرِيحُونَ﴾ تَرْدُونَهَا إِلَى مُرَاحِهَا بِالْعَشِيِّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٧ ﴿تُخْرِجُونَهَا إِلَى الْمَرْعَى بِالْغَدَاةِ﴾. ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أَحْمَالَكُمْ ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَلَغِيهِ﴾ وَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَلَى غَيْرِ الْإِبِلِ ﴿إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ بِجَهْدِهَا ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٨ ﴿بِكُمْ حَيْثُ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾. ﴿وَ﴾ خَلَقَ ﴿الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَالتَّعْلِيلُ بِهِمَا بِتَعْرِيفِ النَّعْمِ لَا يُنَافِي خَلْقَهَا لِغَيْرِ ذَلِكَ، كَالْأَكْلِ فِي الْخَيْلِ، الثَّابِتُ فِي حَدِيثِ

(١) الروح هو الوحي، الذي من جملته القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] والتعبير عنه بالروح على نهج الاستعارة. فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل. و﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ بيان للروح، أو حال منه، أو صفة، أو متعلق ب﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿مِنْ﴾ للسببية. و﴿أَنْ أَنْذِرُوا﴾ بدل من الروح. أي: أخبروهم بالتوحيد والتقوى. [القاسمي (٣٥٠/٦)].

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال في هذه الآية: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ أي: فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري. [ابن كثير (٥٥٦/٤)].

الصَّحِيحِينَ^(١) «وَيَخْلُقْ مَا لَا تَعْلَمُونَ^(٨)» مِنَ الْأَشْيَاءِ الْعَجِيبَةِ. «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ» أَي: بَيَانُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ «وَمِنْهَا» أَي: السَّبِيلِ «جَائِزٌ» حَائِذٌ عَنِ الْإِسْتِفَامَةِ «وَلَوْ شَاءَ» هِدَايَتُكُمْ «لَهَدَيْتُكُمْ» إِلَى قَصْدِ السَّبِيلِ «أَجْمَعِينَ^(٩)» فَتَهْتَدُونَ إِلَيْهِ بِاخْتِيَارٍ مِنْكُمْ. «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ» تَشْرَبُونَهُ «وَمِنْهُ شَجَرٌ» يَنْبُتُ بِسَبِيهِ «فِيهِ تُسِيمُونَ^(١٠)» تَرَعُونَ دَوَابَّكُمْ. «يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ» الْمَذْكُورِ «لَآيَةً» دَالَّةٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^(١١)» فِي صُنْعِهِ فَيُؤْمِنُونَ. «وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ» بِالنَّضْبِ عَطْفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ، وَالرَّفْعُ مُبْتَدَأٌ «وَالْقَمَرَ^ط وَالنُّجُومَ» بِالْوَجْهِينِ «مُسَخَّرَاتٍ» بِالنَّضْبِ حَالٌ، وَالرَّفْعُ خَبَرٌ «بِأَمْرِهِ^{١٢}» بِإِرَادَتِهِ^(١٣) «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١٤)» يَتَدَبَّرُونَ. «و» سَخَّرَ لَكُمْ «مَا ذَرَأَ» خَلَقَ «لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» مِنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ «مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ^{١٥}» كَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَأَخْضَرَ وَغَيْرَهَا^(١٦) «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ^(١٧)» يَتَعَفَّوْنَ. «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ» ذَلَّلَهُ لِرُكُوبِهِ وَالْغَوْصِ فِيهِ «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا» هُوَ السَّمَكُ «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا^{١٨}» هِيَ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ «وَتَرَى» تُبْصِرُ «الْفُلْكَ» السَّفْنَ «مَوَاحِرَ فِيهِ» تَمْخُرُ الْمَاءَ، أَي: تَشْقُهُ بِجَرِيهَا فِيهِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً، بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ «وَلِتَبْتَغُوا» عَطْفٌ عَلَى «لِتَأْكُلُوا» تَطْلُبُوا «مِنْ فَضْلِهِ» تَعَالَى بِالتَّجَارَةِ «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(١٩)» اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ. «وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا» جِبَالًا ثَوَابِتَ لَهَا «أَنَّ» لَا «تَمِيدَ» تَتَحَرَّكَ «بِكُمْ وَ» جَعَلَ فِيهَا «أَنْهَرًا» كَالنَّيْلِ، «وَسُبُلًا» طُرُقًا «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٢٠)» إِلَى مَقَاصِدِكُمْ. «وَعَلَّمَتْ» تَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى الطُّرُقِ، كَالْجِبَالِ بِالنَّهَارِ «وَبِالنُّجُومِ» بِمَعْنَى النُّجُومِ «هُمْ يَهْتَدُونَ^(٢١)» إِلَى الطُّرُقِ وَالْقِبْلَةِ بِاللَّيْلِ. «أَفَمَنْ يَخْلُقُ» وَهُوَ اللَّهُ «كَمَنْ لَا يَخْلُقُ» وَهُوَ الْأَصْنَامُ، حَيْثُ تُشْرِكُونَهَا مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ؟ لَا «أَفَلَا تَذْكُرُونَ^(٢٢)» هَذَا فَتُؤْمِنُوا. «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» تَضْبِطُوهَا، فَضْلًا أَنْ تُطِيقُوا شُكْرَهَا «إِنَّ اللَّهَ

(١) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: نَحَرْنَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ قَرَسًا فَأَكَلْنَاهُ. أخرجه البخاري (٥٥١٠)، ومسلم (١٩٤٢).

(٢) بأمر الله تجري في فلكها لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. [الطبري (١٨٤/١٤)]. فتجري على نمط متحد يستدل بها العباد على مقادير الأوقات ويهتدون بها ويعرفون أجزاء الزمان، ولا تصرف لها في نفسها فضلاً عن غيرها، وفيه رد على الفلاسفة والمنجمين لأنهم يعتقدون أن هذه النجوم هي الفعالة المتصرفة في العالم السفلي فأخبر سبحانه أنها مذلات تحت قهره وإرادته. [صديق حسن (٢١٧/٧)].

(٣) أي: هيئاته ومناظره، فإن ذرة هذه الأشياء على اختلاف الألوان والأشكال مع تساوي الكل في الطبيعة الجسمية آية عظيمة دالة على وجود الصانع سبحانه وتفرده. [الشوكاني (١٨٣/٣)].

لَتَغْفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ حَيْثُ يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ مَعَ تَقْصِيرِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴿بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَهُمْ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾ يُصَوِّرُونَ مِنَ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا ﴿شَيْئًا وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ ﴿لَا رُوحَ فِيهِمْ، خَبَرٌ ثَانٍ ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيِ: الْأَصْنَامُ ﴿أَيَّانَ﴾ وَقَتَ ﴿يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٢١﴾ أَيِ: الْخَلْقُ، فَكَيْفَ يُعْبَدُونَ؟ إِذْ لَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا الْخَالِقُ الْحَيُّ الْعَالِمُ بِالْغَيْبِ. ﴿إِلَهُكُمْ﴾ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ مِنْكُمْ ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي ذَاتِهِ وَلَا صِفَاتِهِ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ جَا حِدَةً لِلْوَحْدَانِيَّةِ ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ مُتَكَبِّرُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فَيَجَازِيهِمْ بِذَلِكَ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ^(١). وَنَزَلَ فِي النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ^(٢): ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَّا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ ﴿ذَا﴾ مَوْصُولَةٌ ﴿أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ﴾ أَكَاذِبُ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِضْلَالًا لِلنَّاسِ. ﴿لِيَحْمِلُوا﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذُنُوبُهُمْ ﴿كَامِلَةً﴾ لَمْ يُكَفِّرْ مِنْهَا شَيْءٌ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ﴾ بَعْضِ ﴿أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ لِأَنَّهُمْ دَعَوْهُمْ إِلَى الضَّلَالِ فَاتَّبَعُوهُمْ فَاشْتَرَكُوا فِي الْإِثْمِ ﴿أَلَا سَاءَ﴾ بِسَسْ ﴿مَا يَزِرُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ يَحْمِلُونَهُ حَمْلُهُمْ هَذَا. ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ وَهُوَ «نَمْرُودُ» بَنَى صَرْحًا طَوِيلًا لِيَصْعَدَ مِنْهُ إِلَى السَّمَاءِ لِيُقَاتِلَ أَهْلَهَا ﴿فَاتَى اللَّهُ﴾ قَصَدَ ﴿بُنَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ الْأَسَاسِ فَأَرْسَلَ عَلَيْهِ الرِّيحَ وَالزَّلْزَلَةَ فَهَدَمَتْهُ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ أَيِ: وَهُمْ تَحْتَهُ ﴿وَأَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِأَلْفِهِمْ، وَقِيلَ: هَذَا تَمَثِيلٌ لِإِفْسَادِ مَا أَبْرَمُوهُ مِنَ الْمَكْرِ بِالرُّسُلِ^(٣). ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ يُذِلُّهُمْ ﴿وَيَقُولُ﴾ اللَّهُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ الْمَلَائِكَةِ تَوْبِيخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ﴾ تُخَالِفُونَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فِيهِمْ﴾ فِي شَأْنِهِمْ؟ ﴿قَالَ﴾ أَيِ: يَقُولُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ يَقُولُونَهُ شِمَاتَةً بِهِمْ. ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمْ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿الْمَلَكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿فَأَلْقُوا السَّلَمَ﴾ انْقَادُوا وَاسْتَسَلَّمُوا عِنْدَ الْمَوْتِ قَائِلِينَ: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ شِرْكٍ، فَتَقُولُ

(١) أي: لا يحب هؤلاء الذين يستكبرون عن توحيد الله والاستجابة لأنبياؤه، [الشوكاني (١٨٨/٣)]. بل يغيظهم أشد البغض،

وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. [السعدي (ص: ٤٣٧)].

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان (٢/٤٦٣-٤٦٥).

(٣) والأولى أن الآية عامة في جميع المبطلين الماكرين الذين يحاولون إلحاق الضرر بالمحقين المؤمنين، ومعنى المكر هنا الكيد والتدبير

الذي لا يطابق الحق، وفي هذا وعيد للكفار المعاصرين له ﷺ بأن مكرهم سيعود عليهم. [صديق حسن (٧/٢٣١)].

الْمَلَائِكَةُ: ﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى﴾ مَاوًى ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿الشِّرْكَ﴾ ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بِالْإِيمَانِ ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ حَيَاةٌ طَيِّبَةٌ ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، قَالَ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ هِيَ. ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٌ، مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ ﴿يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ﴾ الْجَزَاءُ ﴿يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ نَعْتُ ﴿تَتَوَقَّعُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ طَاهِرِينَ مِنَ الْكُفْرِ ﴿يَقُولُونَ﴾ لَهُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ هَلْ مَا ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُ الْكُفَّارُ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لِقَبْضِ أَرْوَاحِهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الْعَذَابِ أَوْ الْقِيَامَةِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَيْهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ، كَذَبُوا رُسُلَهُمْ فَأُهْلِكُوا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ بِالْكَفْرِ. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أَيِ: جَزَاؤُهَا ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ أَيِ: الْعَذَابِ. وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ﴾: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ، فإِشْرَاكُنَا وَتَحْرِيمُنَا بِمَشِيتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَيِ: كَذَبُوا رُسُلَهُمْ فِيمَا جَاءُوا بِهِ ﴿فَهَلْ﴾ فَمَا ﴿عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٣٥﴾ الْإِبْلَاغُ الْبَيِّنُ، وَلَيْسَ عَلَيْهِمُ الْهِدَايَةُ. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ كَمَا بَعَثْنَاكَ فِي هَؤُلَاءِ ﴿أَنْ﴾ أَيِ: بَانَ ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحُدُّهُ ﴿وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ﴾ الْأَوْتَانَ أَنْ تَعْبُدُوهَا ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فَامَنَّ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ﴾ وَجَبَتْ ﴿عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿فَسِيرُوا﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ رُسُلَهُمْ مِنَ الْهَلَاكِ. ﴿إِنْ تَحْرِصْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿عَلَى هُدَاهُمْ﴾ وَقَدْ أَصْلَهُمُ اللَّهُ، لَا تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَلِلْفَاعِلِ ﴿مَنْ يَضِلُّ﴾ مَنْ يَرِيدُ إِضْلَالَهُ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ مَانِعِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أَيِ: غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَى﴾ يَبْعَثُهُمْ ﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مَصْدَرَانِ مُوَكَّدَانِ مَضُوبَانِ بِفِعْلِهِمَا الْمُقَدَّرِ، أَيِ: وَعَدَ ذَلِكَ وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيِ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ. ﴿لَيَبِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ الْمُقَدَّرِ ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ﴾ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿فِيهِ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ بِتَعْدِيهِمْ وَإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ. ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ﴾ أَيِ: أَرَدْنَا إِيجَادَهُ، وَ ﴿قَوْلُنَا﴾ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ: ﴿أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿٤١﴾ أَي: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةِ النَّصْبِ عَطْفًا عَلَى ﴿نَقُولُ﴾، وَالْآيَةُ لِتَقْرِيرِ الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ لِإِقَامَةِ دِينِهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بِالْأَذَى مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﴿لَسَوْنَتَهُمْ﴾ نَزَلَهُمْ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ دَارًا ﴿حَسَنَةً﴾ هِيَ الْمَدِينَةُ ﴿وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ﴾ أَي: الْجَنَّةُ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ أَي: الْكُفَّارُ، أَوِ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنِ الْهَجْرَةِ، مَا لِلْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْكَرَامَةِ لَوَافَقُوهُمْ. هُمْ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَالْهَجْرَةَ لِإِظْهَارِ الدِّينِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ لَا مَلَائِكَةً ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ الْعُلَمَاءَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَأَنْتُمْ إِلَى تَصْدِيقِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ تَصْدِيقِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَي: أَرْسَلْنَاهُمْ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَةِ ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الْكُتُبِ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لِتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فِيهِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ فِي ذَلِكَ فَيَعْتَبِرُوا. ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا﴾ الْمَكْرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، مِنْ تَقْسِيدِهِ أَوْ قَتْلِهِ أَوْ إِخْرَاجِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْأَنْفَالِ ﴿٣﴾ ﴿أَنْ يَخْشِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ كَقَارُونَ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ أَي: مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِإِلَيْهِمْ، وَقَدْ أَهْلَكُوا بَبْدَرٍ وَلَمْ يَكُونُوا يَقْدُرُونَ ذَلِكَ. ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَلَابِهِمْ﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ لِلتَّجَارَةِ ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ بِفَاتِي الْعَذَابِ. ﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى خَوْفٍ﴾ تَقْصُ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى يَهْلِكَ الْجَمِيعُ، حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ أَوِ الْمَفْعُولِ ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤٨﴾ حَيْثُ لَمْ يَعَاجِلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لَهُ ظِلٌّ كَشَجَرَةٍ وَجَبَلٍ ﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ تَتَمَلَّلُ ﴿ظِلُّهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾ جَمْعُ شِمَالٍ، أَي: عَنْ جَانِبَيْهِمَا أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ ﴿سُجَّدًا لِلَّهِ﴾ حَالٌ، أَي: خَاضِعِينَ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهُمْ ﴿وَهُمْ﴾ أَي: الظَّلَالُ ﴿دَاخِرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ صَاغِرُونَ، نَزَّلُوا مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ. ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أَي: نَسَمَةٍ تَدْبُ عَلَيْهَا، أَي: تَخْضَعُ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهَا، وَغَلَبَ فِي الْإِتْيَانِ بِ«مَا» مَا لَا يَعْقِلُ لِكَثْرَتِهِ ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ خَصَّهُمُ بِالذِّكْرِ تَفْضِيلًا ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ يَتَكَبَّرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. ﴿يَخَافُونَ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ، حَالٌ مِنْ صَمِيرٍ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ حَالٌ مِنْ

(١) وقوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١] معناه: رسلا إلى الملائكة، أو إلى الرسل. [أبو السعود (١١٦/٥)].

(٢) الآية (٣٠) من سورة الأنفال.

(٣) انظر حاشية تفسير آية (١٥) من سورة الرعد.

﴿هُم﴾ أَي: عَالِيًّا عَلَيْهِم بِالْقَهْرِ^(١) ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ بِهِ. ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ تَأْكِيدُ ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أَتَى بِهِ لِإِثْبَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ﴿فَإِنِّي فَارْهَبُونِ﴾ ﴿٥٢﴾ خَافُونَ دُونَ غَيْرِي، وَفِيهِ الْإِنْفَاتُ عَنْ الْغَيْبَةِ. ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَلَهُ الدِّينُ﴾ الطَّاعَةُ ﴿وَاصْبِرْ﴾ دَائِمًا، حَالٌ مِنَ الدِّينِ ﴿وَالْعَامِلُ فِيهِ مَعْنَى الظَّرْفِ﴾ أَفْعَزَ اللَّهُ تَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ، وَالْإِسْتِنْفَاهُ لِلْإِنْكَارِ وَالتَّوْبِيخِ. ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ لَا يَأْتِي بِهَا غَيْرُهُ، وَ«مَا» شَرْطِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ﴾ أَصَابَكُمْ ﴿الضَّرُّ﴾ الْفَقْرُ وَالْمَرَضُ ﴿فَإِلَيْهِ تَجَرُّونَ﴾ ﴿٥٤﴾ تَرْفَعُونَ أَصْوَاتَكُمْ بِالْإِسْتِغَاثَةِ وَالِدُعَاءِ، وَلَا تَدْعُونَ غَيْرَهُ. ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضَّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ بِاجْتِمَاعِكُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، أَمْرٌ تَهْدِيدٌ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ عَاقِبَةُ ذَلِكَ. ﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أَي: الْمُشْرِكُونَ ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ تَضَرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَهِيَ: الْأَصْنَامُ ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ، بِقَوْلِهِمْ: «هَذَا لِلَّهِ، وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا» ﴿تَاللَّهِ لَنُسْأَلَنَّ﴾ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، وَفِيهِ الْإِنْفَاتُ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِذَلِكَ. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ بِقَوْلِهِمْ: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ» ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهَا لَهُ عَمَّا زَعَمُوا ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَي: الْبُنُونَ، وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ رَفْعٍ أَوْ نَصْبٍ بِ«يَجْعَلُ». الْمَعْنَى يَجْعَلُونَ لَهُ الْبَنَاتِ الَّتِي يَكْرَهُونَهَا وَهُوَ مُنْزَعٌ عَنِ الْوَلَدِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُمُ الْإِبْنَاءَ الَّذِينَ يَخْتَارُونَهُمْ، فَيَخْتَصُّونَ بِالْأَسْنَى^(٢)، كَقَوْلِهِ: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمُ أَلْرَبَّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُنُونَ﴾ [الصفات: ١٤٩]. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَى﴾ تُوَلَّدُ لَهُ ﴿ظَلَّ﴾ صَارَ ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ مُتَغَيِّرًا تَغْيِيرَ مُعْتَمٍ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿٥٩﴾ مُمْتَلِئٌ عَمَّا. فَكَيْفَ تُنْسَبُ الْبَنَاتُ إِلَيْهِ تَعَالَى؟ ﴿يَتَوَارَى﴾ يَخْتَفِي ﴿مِنَ الْقَوْمِ﴾ أَي: قَوْمِهِ ﴿مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ خَوْفًا مِنَ التَّغْيِيرِ، مُتَرَدِّدًا فِيمَا يَفْعَلُ بِهِ ﴿أَيْمَسْكُهُ﴾ يَتْرُكُهُ بِلَا قَتْلِ ﴿عَلَى هُونٍ﴾ هَوَانٍ وَذُلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ بَأَن يَدُّهُ ﴿أَلَا سَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ حُكْمُهُمْ هَذَا، حَيْثُ نَسَبُوا لِخَالِقِهِمُ الْبَنَاتِ الَّلَاتِي هُنَّ عِنْدَهُمْ بِهَذَا الْمَحَلِّ. ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أَي: الْكُفَّارِ ﴿مَثَلُ السَّوْءِ﴾ أَي: الصِّفَةُ السُّوْأَى، بِمَعْنَى: الْقَبِيحَةِ، وَهِيَ: وَأَدُّهُمْ الْبَنَاتُ مَعَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِنَّ لِلنِّكَاحِ ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ الصِّفَةُ الْعُلْيَا، وَهُوَ: أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿٦١﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾

(١) مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره. [السعدي (ص: ٤٤٢)].

(٢) الأرفع، أي: الذكور.

بِالْمَعَاصِي ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ أَي: الْأَرْضِ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدْبُ عَلَيْهَا ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ﴾ عَنْهُ ﴿سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ ١١ ﴿عَلَيْهِ.﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴿لَا أَنْفُسِهِمْ، مِنَ النَّبَاتِ وَالشَّرَائِكِ فِي الرِّيَاسَةِ وَإِهَانَةِ الرُّسُلِ﴾ وَتَصِفُ ﴿تَقُولُ﴾ ﴿الْسِّتْنَتُهُمْ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿الْكُذْبُ﴾ وَهُوَ: ﴿أَنَّ لَهُمْ الْحُسْنَى﴾ عِنْدَ اللَّهِ، أَي: الْجَنَّةَ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَمَّا رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠]، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا جَرَمَ﴾ حَقًّا ﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ ١٢ ﴿مَتْرُكُونَ فِيهَا أَوْ مُقَدَّمُونَ إِلَيْهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ بِكَسْرِ «الرَّاءِ» أَي: مُتَجَاوِزُونَ الْحَدَّ.﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ ﴿رُسُلًا﴾ ﴿فَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ السَّيِّئَةَ فَرَأَوْهَا حَسَنَةً، فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ مُتَوَلِّي أُمُورِهِمْ ﴿الْيَوْمَ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ١٣ ﴿مُؤَلَّمٌ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْيَوْمِ يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى حِكَايَةِ الْحَالِ الْآتِيَةِ، أَي: لَا وَلِيَّ لَهُمْ غَيْرُهُ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْ نَصْرِ نَفْسِهِ فَكَيْفَ يَنْصُرُهُمْ.﴾ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ ﴿يَا مُحَمَّدُ﴾ الْكِتَابَ ﴿الْقُرْآنَ﴾ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴿لِلنَّاسِ﴾ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿مِنْ أَمْرِ الدِّينِ﴾ وَهُدًى ﴿وَعُظْفٌ عَلَى﴾ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ١٤ ﴿بِهِ.﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ ﴿بِالنَّبَاتِ﴾ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِهَا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَايَةً﴾ دَالَّةٌ عَلَى الْبَعْثِ ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ١٥ ﴿سَمَاعٌ تَدْبُرُ.﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴿اعْتَبَارًا﴾ ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بَيَانٌ لِلْعِبْرَةِ ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أَي: الْأَنْعَامِ ﴿مِنْ﴾ لِلْإِبْتِدَاءِ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ ﴿بَيْنَ فَرْثٍ﴾ ثُفْلِ الْكَرْشِ ﴿وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا﴾ لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الْفَرْثِ وَالْدَمِّ، مِنْ طَعْمٍ أَوْ رِيحٍ أَوْ لَوْنٍ، وَهُوَ بَيْنَهُمَا ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ١٦ ﴿سَهْلَ الْمُرُورِ فِي حَلْقِهِمْ لَا يُغْصُ بِهِ.﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ ﴿ثَمَرٌ﴾ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا ﴿خَمْرًا يُسَكِّرُ، سُمِّيَتْ بِالْمَصْدَرِ وَهَذَا قَبْلَ تَحْرِيمِهَا﴾ ١٧ ﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كَالثَّمَرِ وَالزَّبِيبِ وَالْخَلِّ وَالِدَّبْسِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَايَةً﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَتِهِ

(١) السكر ما يسكر، هذا هو المشهور في اللغة. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر. وأراد بالسكر الخمر، وبالرزق الحسن جميع ما يؤكل ويشرب حلالاً من هاتين الشجرتين. وقال بهذا القول ابن جبير والنخعي والشعبي وأبو ثور. وقد قيل: إن السكر الخل بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام. وقيل: السكر العصير الحلو الحلال، وسمي سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا إذا بقي، فإذا بلغ الإسكار حرم. قال ابن العربي: أسد، هذه الأقوال قول ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى: أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداءً منكم، وما أحل لكم اتفاقاً أو قصداً إلى منفعة أنفسكم. والصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدني. قلت: فعلى أن السكر الخمر أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الآية محكمة وهو حسن. [القرطبي (١٠/١٢٨)].

تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٦٧) يَتَذَكَّرُونَ. ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ وَحْيَ الْإِلَهَامِ^(١) ﴿أَنْ﴾ مُّفَسِّرَةً أَوْ مَصَدِرَةً ﴿أَتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ تَأْوِينَ إِلَيْهَا ﴿وَمِنَ الشَّجَرِ﴾ بُيُوتًا ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^(٦٨) أَي: النَّاسُ يَبْنُونَ لَكَ مِنَ الْأَمَاكِنِ وَإِلَّا لَمْ تَأْوِ إِلَيْهَا^(٢). ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي﴾ اُدْخُلِي ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طُرُقَهُ فِي طَلَبِ الْمَرْعَى ﴿ذُلًّا﴾ جَمْعُ ذُلُولٍ حَالٌ مِنَ السُّبُلِ، أَي: مُسَخَّرَةً لَكَ فَلَا تَعْسُرْ عَلَيْكَ وَإِنْ تَوَعَّرَتْ، وَلَا تَضِلِّي عَلَى الْعُودِ مِنْهَا وَإِنْ بَعُدَتْ، وَقِيلَ: مِنْ الضَّمِيرِ فِي ﴿اسْلُكِي﴾، أَي: مُنْقَادَةً لِمَا يُرَادُ مِنْكَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ هُوَ الْعَسَلُ ﴿فُتَخَلِّفُ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءً لِلنَّاسِ﴾ مِنَ الْأَوْجَاعِ، قِيلَ: لِبَعْضِهَا كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ تَنكِيرُ ﴿شِفَاءً﴾، أَوْ لِكُلِّهَا بِضَمِّمَتِهِ إِلَى غَيْرِهِ، أَقُولُ: وَبِدُونِهَا بِنَيْتِهِ، وَقَدْ أَمَرَ بِهِ ﷺ مِنْ اسْتِطْلَاقِ عَلَيْهِ بَطْنُهُ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٦٩) فِي صُنْعِهِ تَعَالَى. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِكُمْ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ﴾ أَيِ أَحْسَنِهِ مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ ﴿لَكِنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَصِرْ بِهِذِهِ الْحَالَةِ^(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِتَدْيِيرِ خَلْقِهِ ﴿قَدِيرٌ﴾^(٧٠) عَلَى مَا يُرِيدُهُ. ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾

(١) الوحي: الكلام الخفي والإشارة الدالة على معنى كلامي، ومنه سمي ما يلقيه الملك إلى الرسول وحيا؛ لأنه خفي عن أسمع الناس. وأطلق الوحي هنا على التكوين الخفي الذي أودعه الله في طبيعة النحل، بحيث تنساق إلى عمل منظم مرتب بعرضه على بعض لا يختلف فيه آحادها، تشبيها للإلهام بكلام خفي يتضمن ذلك الترتيب الشبيه بعمل المتعلم بتعليم المعلم، أو المؤتمر بإرشاد الأمر، الذي تلقاه سرا، فإطلاق الوحي استعارة تمثيلية. [ابن عاشور (٢٠٥/١٤)].

(٢) اتخاذ البيوت هو أول مراتب الصنع الدقيق الذي أودعه الله في طبائع النحل؛ فإنها تبني بيوتا بنظام دقيق، ثم تقسم أجزاءها أقساما متساوية بأشكال مسدسة الأضلاع، بحيث لا يتخلل بينها فراغ تنساب منه الحشرات؛ لأن خصائص الأشكال المسدسة إذا ضم بعضها إلى بعض أن تتصل فتصير قطعة واحدة، وما عداها من الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم تتصل، وحصلت بينها فرج، ثم تغشي على سطوح المسدسات بمادة الشمع، وهو مادة دهنية متميعة أقرب إلى الجمود، تتكون في كيس دقيق جدا تحت بطن النحلة العاملة فترفعه النحلة بأرجلها إلى فمها، وتمضغه، وتضع بعضه لصق بعض لبناء المسدس المسمى بالشهد لتمنع تسرب العسل منها. ولما كانت بيوت النحل معروفة للمخاطبين اكتفي في الاعتبار بها بالتنبيه عليها والتذكير بها. وأشار إلى أنها تتخذ في أحسن البقاع من الجبال أو الشجر أو العرش دون بيوت الحشرات الأخرى، وذلك لشرفها بما تحتويه من المنافع، وبما تشتمل عليه من دقائق الصنعة. [ابن عاشور (٢٠٦/١٤)].

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٧٧)، ومسلم (٤١٠٧).

(٤) ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ^(٢) [التين: ٤-٥]، وعن السدي

فَمِنْكُمْ غَنِيٌّ وَفَقِيرٌ، وَمَالِكٌ وَمَمْلُوكٌ ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا﴾ أَي: الْمَوَالِي ﴿بِرَأْدَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾
 أَي: بِجَاعِلِي مَا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ وَغَيْرِهَا شِرْكََةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَمَالِكِهِمْ ﴿فَهُمْ﴾ أَي: الْمَمَالِيكُ وَالْمَوَالِي ﴿فِيهِ
 سَوَاءٌ﴾ شُرَكَاءُ، الْمَعْنَى: لَيْسَ لَهُمْ شُرَكَاءُ مِنْ مَمَالِكِهِمْ فِي أَمْوَالِهِمْ، فَكَيْفَ يَجْعَلُونَ بَعْضَ مَمَالِكِ اللَّهِ شُرَكَاءَ لَهُ؟
 ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۖ﴾ (٧١) يَكْفُرُونَ، حَيْثُ يَجْعَلُونَ لَهُ شُرَكَاءَ. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
 فَخَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ضُلْعِ آدَمَ، وَسَائِرَ النَّاسِ مِنْ نُطْفِ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً
 أَوْلَادَ الْأَوْلَادِ ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مِنْ أَنْوَاعِ الثَّمَارِ وَالْحُبُوبِ وَالْحَيَوَانِ ﴿أَفِالْبَاطِلِ﴾ الْصَّنَمِ ﴿يُؤْمِنُونَ
 وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۖ﴾ (٧٢) بِإِشْرَاكِهِمْ. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ
 السَّمَوَاتِ﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿شَيْئًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿رِزْقًا﴾، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (٧٣) يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ،
 وَهُمْ الْأَصْنَامُ. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَشْبَاهًا تُشْرِكُونَهُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أَنْ لَا مِثْلَ لَهُ ﴿وَأَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧٤) ذَلِكَ. ﴿*ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ وَيُبْدِلُ مِنْهُ: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ صِفَةً تُمَيِّزُهُ مِنَ الْحُرِّ، فَإِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ ﴿لَا
 يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ لِعَدَمِ مُلْكِهِ ﴿وَمَنْ﴾ نَكْرَةً مَوْصُوفَةً، أَي: حُرًّا ﴿رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا
 وَجَهْرًا﴾ أَي: يَتَصَرَّفُ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ، وَالْأَوَّلُ مِثْلُ الْأَصْنَامِ، وَالثَّانِي مِثْلُهُ تَعَالَى ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أَي: الْعَبِيدُ الْعَجَزَةُ،
 وَالْحُرُّ الْمُتَصَرِّفُ، لَا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ
 الْعَذَابِ فَيُشْرِكُونَ. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ وَيُبْدِلُ مِنْهُ: ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ وَلَدٌ أَخْرَسَ ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾
 لِأَنَّهُ لَا يَفْهَمُ وَلَا يُفْهَمُ ﴿وَهُوَ كُلٌّ﴾ ثَقِيلٌ ﴿عَلَى مَوْلَاهُ﴾ وَلِيِّ أَمْرِهِ ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ﴾ يَصْرِفُهُ ﴿لَا يَأْتِ﴾ مِنْهُ ﴿بِخَيْرٍ﴾
 يَنْجَحُ، وَهَذَا مِثْلُ الْكَافِرِ ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ﴾ أَي: الْأَبْكَمُ الْمَذْكُورُ ﴿وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أَي: وَمَنْ هُوَ نَاطِقٌ نَافِعٌ
 لِلنَّاسِ، حَيْثُ يَأْمُرُ بِهِ وَيَحُثُّ عَلَيْهِ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٦) وَهُوَ الثَّانِي الْمُؤْمِنُ لَا، وَقِيلَ: هَذَا مِثْلُ

قال: هو الخرف ... وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح وغيره أنه: كان يتعوذ بالله أن يرد إلى أرذل العمر. [صديق حسن (٧/٢٧٨)].

(١) أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً ثم أوجده الله وليس له من وجوده سوى العدم فلا تخلق ولا ترزق ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله فإنها باطلة فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟ [السعدي (ص: ٤٤٤)].

(٢) يعني أن مثل هؤلاء في إشراكهم، مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك يتصرف في ماله كيف يشاء، ولا مساواة بينهما، مع أنهما سيان في البشرية والمخلوقية لله. فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات. [القاسمي (٦/٣٩١)].

لِلَّهِ وَالْأَبْكَمُ لِلْأَصْنَامِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ لِلْكَافِرِ وَلِلْمُؤْمِنِ^(١). ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: عِلْمُ مَا غَابَ فِيهِمَا
﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ لِأَنَّهُ بِلَفْظِ: «كُنْ» فَيَكُونُ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٧٧ ﴿وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ
﴿وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ٧٨ هُ عَلَى ذَلِكَ فَتَوَمَّنُوا. ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ
مِثْلَ اللَّاتِ لِلطَّيْرَانِ﴾ فِي جَوِّ السَّمَاءِ أَي: الْهَوَاءِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿مَا يُمَسِّكُهُنَّ﴾ عِنْدَ قَبْضِ أَجْنِحَتَيْهِنَّ أَوْ
بَسْطِهَا أَنْ يَقَعْنَ ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٧٩ هِيَ خَلَقَهَا بِحَيْثُ يُمَكِّنُهَا الطَّيْرَانُ،
وَخَلَقَ الْجَوَّ بِحَيْثُ يُمَكِّنُ الطَّيْرَانُ فِيهِ وَإِمْسَاكُهَا. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ مَوْضِعًا تَسْكُنُونَ فِيهِ
﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ كَالْخِيَامِ وَالْقَبَابِ ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ لِلْحَمْلِ ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ سَفَرِكُمْ
﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أَي: الْغَنَمِ ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أَي: الْإِبِلِ ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أَي: الَّعَمَزِ ﴿أَثْنًا﴾ مَتَاعًا
لِّبُيُوتِكُمْ، كَبُسْطٍ وَأَكْسِيَةٍ ﴿وَمَتَاعًا﴾ تَتَمَتَّعُونَ بِهِ ﴿إِلَى حِينٍ﴾ ٨٠ يَبْلَى فِيهِ. ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ مِنْ
الْبُيُوتِ وَالشَّجَرِ وَالْغَمَامِ﴾ ظُلُلًا ﴿جَمْعُ ظُلٍّ تَقِيكُمْ حَرَّ الشَّمْسِ﴾ ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكَنَّا﴾ جَمْعُ «كَنْ»
وَهُوَ مَا يُسْتَكَنُّ فِيهِ، كَالْغَارِ وَالسَّرَبِ^(٢) ﴿وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ﴾ قُمَصًا ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ أَي: وَالْبَرْدَ ﴿وَسَرَابِيلَ
تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ حَرْبَكُمْ، أَي: الطَّعْنَ وَالضَّرْبَ فِيهَا، كَالدَّرُوعِ وَالْجَوَاشِنِ^(٣) ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا خَلَقَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ

(١) يقال هنا كما قيل في المثل السابق: إنه حيث لم يستو الفريقان في الفضل والشرف مع استوائهما في الماهية والصورة فلا يُحكم بأن
الصنم الذي لا ينطق ولا يسمع وهو عاجز لا يقدر على شيء كل على عابده يحتاج إلى أن يحمله ويضعه ويمسح عنه الأذى إذا وقع عليه
ويخدمه وإن وجهه إلى أي مهم من مهماته لا ينفعه ولا يأت له به لا يساوي رب العالمين وهو هو في استحقاق العبودية أخرى وأولى،
وقيل: هذا تمثيل للمؤمن والكافر فالأبكم هو الكافر ومن يأمر بالعدل هو المؤمن، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأيا ما كان فليس
المراد برجلين رجلان معينان بل رجلان متصفان بما ذكر من الصفات مطلقا، وما روي من أن الأبكم أبو جهل والامر بالعدل عمار أو
الأبكم أبي بن خلف والامر عثمان بن مظعون فقال أبو حيان: لا يصح إسناده، وما أخرج ابن جرير وابن عساكر وغيرهما عن ابن عباس
أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ إلخ في عثمان بن عفان ومولى له كافر وهو أسيد بن أبي العيص كان يكره الإسلام
وكان عثمان ينفي عليه ويكفله ويكفيه المؤنة وكان الآخر ينهيه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما فبعد تحقق صحته لا يضرنا في إرادة
الموصوفين مطلقا بحيث يدخل فيهما من ذكر فقد صرحوا بأن خصوص السبب لا ينافي العموم. [الآلوسي (٧/٤٣٤)].

(٢) السرب: بيت في الأرض لا منفذ له. والمراد المغارة. [المصباح المنير (١/٢٧٢)].

(٣) الجواشن: جمع جوشن، وهو ما ينسج من الدروع على قدر الصدر. [أساس البلاغة للزمخشري (١/١٥٦)].

﴿يَتِمُّ نِعْمَتَهُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِخَلْقِ مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تُسَلِّمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ تَوَحَّدُونَهُ. ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِسْلَامِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٨٢﴾ الْإِبْلَاجُ الْبَيِّنُ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ^(١). ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: يُقَرِّونَ بِأَنَّهَا مِنْ عِنْدِهِ ﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بِإِسْرَاحِهِمْ ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ وَادْكُرْ ﴿يَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ هُوَ نَبِيُّهَا يَشْهَدُ لَهَا وَعَلَيْهَا، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي الْإِعْتِدَارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ الْعُتْبَى، أَيُّ: الرُّجُوعَ إِلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا ﴿الْعَذَابَ﴾ النَّارَ ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ الْعَذَابُ ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ يُمَهِّلُونَ عَنْهُ إِذَا رَأَوْهُ. ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَغَيْرِهَا ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا﴾ نَعْبُدُهُمْ ﴿مِنْ دُونِكَ﴾ فَالْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ أَيُّ: قَالُوا لَهُمْ: ﴿إِنَّكُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ فِي قَوْلِكُمْ: «إِنَّكُمْ عَبْدَتُمُونَا»، كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَا كَانُوا إِلَّا نَارًا يَعْْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: ٨٢]. ﴿وَالْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ﴾ أَيُّ: اسْتَسَلَّمُوا لِحُكْمِهِ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ مِنْ أَنَّ إِلَهُتَهُمْ تَشْفَعُ لَهُمْ. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ النَّاسَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ دِينِهِ ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ الَّذِي اسْتَحَقُّوه بِكُفْرِهِمْ، قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «عَقَارِبُ أَنْبِيَائِهَا كَالنَّخْلِ الطَّوَالِ»^(٢) ﴿بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ بِصَدِّهِمُ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿وَادْكُرْ﴾ يَوْمَ نَبَعْتُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أَيُّ: قَوْمِكَ^(٣) ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿تَبَيَّنَا﴾ بَيَانًا ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَمْرِ

(١) ﴿الْمُبِينُ﴾ أَيُّ: الواضح وليس عليك غير ذلك وصرف الخطاب إلى رسول الله ﷺ تسلياً له، وهذا قبل الأمر بالقتال فتكون الآية منسوخة بالحكم وهو لا يظهر إلا لو قدر جواب الشرط فأعرض عنهم ولا تقتاتلهم مع أن أكثر المفسرين قدروه بقولهم فلا عتب عليك ولا مؤاخذه في عدم إيمانهم لأنك بلغت ما أمرت بتبليغه وهديتهم من الله لا إليك، وهذا لا ينافي أن يكون مأموراً بقتالهم. [صديق حسن (٢٩٤/٧)].

(٢) أخرجه الحاكم (٣٨٧/٢)، والطبراني في الكبير (٩١٠٤)، وابن أبي شيبة (٣٤١٣٨)، والبيهقي في البعث والنشور (٥٤٦).

(٣) أي: اذكر ذلك اليوم وهو له وما منحك الله فيه من الشرف العظيم والمقام الرفيع. وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة «النساء» فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. فقال له رسول الله ﷺ: «حَسْبُكَ»، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فالتفت فإذا عيناه تذرفان. أخرجه البخاري (٥٠٥٠)، ومسلم (٨٠٠). [ابن كثير (٥٩٤/٤)].

الشَّيْءِ^(١) ﴿وَهْدَى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةً وَبُشْرَى﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أَلْتَوْحِيدِ أَوْ الْإِنْصَافِ ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ، أَوْ «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ»، كَمَا فِي الْحَدِيثِ^(٢) ﴿وَإِيتَايَ﴾ إِعْطَاءِ ﴿ذِي الْقُرْبَى﴾ الْقَرَابَةِ خَصَّهُ بِالذِّكْرِ اهْتِمَامًا بِهِ ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ الزَّنى ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ شَرْعًا مِنْ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿وَالْبَغْيِ﴾ الظُّلْمِ لِلنَّاسِ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ اهْتِمَامًا كَمَا بَدَأَ بِالْفَحْشَاءِ كَذَلِكَ ﴿يَعْظُمُ﴾ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ تَتَعَطُّونَ، وَفِيهِ إِدْعَامُ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، وَفِي الْمُسْتَدْرَكِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ: «هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٌ فِي الْقُرْآنِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ»^(٣). ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْبَيْعِ وَالْإِيمَانِ وَغَيْرِهَا ﴿إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تَوْثِيقُهَا ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمْ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ بِالْوَفَاءِ حَيْثُ حَلَفْتُمْ بِهِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ﴿٩١﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ﴾ أَفْسَدَتْ ﴿غَزَاهَا﴾ مَا غَزَلَتْهُ ﴿مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ إِحْكَامٍ لَهُ وَبَرٍّ ﴿أَنْكَثَا﴾ حَالٌ جَمْعُ «نَكَثَ» وَهُوَ: مَا يُنْكَثُ، أَيُّ: يُحْلُ إِحْكَامُهُ، وَهِيَ أَمْرٌ حَقٌّ مِنْ مَكَّةَ كَانَتْ تَغْزِلُ طُولَ يَوْمِهَا ثُمَّ تَنْقُضُهُ ﴿تَتَخَذُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَكُونُوا﴾، أَيُّ: لَا تَكُونُوا مِثْلَهَا فِي اتِّخَاذِكُمْ ﴿أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾ هُوَ مَا يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ وَلَيْسَ مِنْهُ، أَيُّ: فَسَادًا وَخَدِيعَةً ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بِأَنْ تَنْقُضُوهَا ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: لِأَنْ ﴿تَكُونُ أُمَّةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿هِيَ أَرْبَى﴾ أَكْثَرُ ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ وَكَانُوا يُحَالِفُونَ الْحُلَفَاءَ، فَإِذَا وَجَدَ أَكْثَرُ مِنْهُمْ

(١) في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يشي في الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبيدها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتشمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين وانتفع به المسلمون فصار هدى لهم يهتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح. [السعدي (ص: ٤٤٦)].

(٢) قال: يا رسول الله، ما الإحسان؟ قال ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٥٦/٢). فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء. [السعدي (ص: ٤٤٧)]. ولذلك اعتاد الخطباء قراءتها على المنابر يوم الجمعة؛ لأنها عظة جامعة للمأمورات والمنهيات.

وَأَعَزُّ نَقْضُوا حَلْفَ أَوْلَئِكَ وَحَالَفُوهُمْ^(١) ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ﴾ يَخْتَبِرُكُمْ ﴿اللَّهُ بِهِ﴾ أَي: بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ لِيَنْظُرَ الْمُطِيعُ مِنْكُمْ وَالْعَاصِي، أَوْ يَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى لِيَنْظُرَ: أَتَقُونَ أَمْ لَا ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أَي: الدُّنْيَا، مِنْ أَمْرِ الْعَهْدِ وَغَيْرِهِ، بَأَنْ يُعَذِّبَ النَّاكِثَ وَيُثِيبَ الْوَافِيَ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَهْلَ دِينٍ وَاحِدٍ ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ سُؤَالًا تَبْكِيْتِ﴾ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿لِتَجَازُوا عَلَيْهِ﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا ﴿فَتَزَلَّ قَدَمٌ﴾ أَي: أَفْذَأُكُمْ عَنْ مَحَبَّةِ الْإِسْلَامِ ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ اسْتِقَامَتِهَا عَلَيْهَا ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾ أَي: الْعَذَابَ ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: بِصَدِّكُمْ عَنِ الْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، أَوْ بِصَدِّكُمْ غَيْرَكُمْ عَنْهُ لِأَنَّهُ يُسْتَنْ بِكُمْ ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ مِنَ الدُّنْيَا بَأَنْ تَقْضُوهُ لِأَجَلِهِ ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِمَّا فِي الدُّنْيَا ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ فَلَا تَنْقُضُوا. ﴿مَا عِنْدَكُمْ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿يَنْفَدُ﴾ يَفْنَى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ دَائِمٌ ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ بِالْيَأْسِ وَالنُّونِ﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴿مِنَ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ﴾ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أَحْسَنُ بِمَعْنَى: حَسَنٌ.﴾ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ قِيلَ: هِيَ حَيَاةُ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِالْقَنَاعَةِ، أَوْ الرِّزْقِ الْحَلَالِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴿أَي: أَرَدْتَ قِرَاءَتَهُ﴾ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿أَي: قُلْ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»﴾. ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ تَسَلُّطٌ ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ بِطَاعَتِهِ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿مُشْرِكُونَ﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ بِنَسْخِهَا وَإِنْزَالِ

(١) ﴿أَنْكَثًا﴾ جمع نكث بكسر النون ما ينكث فتلته ليغزل ثانياً بمعنى منكوث، أي: منقوض، يقال: نكث الرجل العهد نكثاً من باب قتل نقضه ونبذه فانكث، قال ابن قتيبة: هذه الآية متعلقة بما قبلها والتقدير وأوفوا بعهد الله ولا تنقضوا الأيمان فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم مثل امرأة غزلت غزلاً وأحكمتها ثم جعلته أنكاثاً، أي: أقطاعاً وأجزاء. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَنَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ قال الجوهري: الدخل المكر والخديعة، وقال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل، وقيل: الدخل ما أدخل في الشيء على فساد، وقال الزجاج: غشاً وغلا، وقيل: أصل الدخل العيب والعيب ليس من الشيء الذي يدخل فيه ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةً﴾ أَي: بَأَنْ تَكُونَ جَمَاعَةً أَوْ لِأَجْلِ وَجَدَانِكُمْ أُمَّةً هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ جَمَاعَةً، أَي: أَكْثَرُ عِدداً مِنْهَا وَأَوْفَرُ مَالاً، يُقَالُ: رَبِي الشَّيْءُ يَرْبُو إِذْ كَثُرَ، قَالَ الْفَرَاءُ: الْمَعْنَى لَا تَعْدُوا بِقَوْمٍ لَقَلْتُمْ وَكَثَرْتُمْ أَوْ لَقَلْتُمْ وَكَثَرْتُمْ وَقَدْ عَزَزْتُمُوهُمْ بِالْإِيمَانِ، قِيلَ: وَقَدْ كَانَتْ قَرِيشٌ إِذَا رَأَوْا شَوْكَةً فِي أَعَادِي حِلْفَانِهِمْ نَقَضُوا عَهْدَهُمْ وَحَالَفُوا أَعْدَاءَهُمْ قَالَهُ مُجَاهِدٌ، وَقِيلَ: هُوَ تَحْذِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَغْتَرُوا بِكَثْرَةِ قَرِيشٍ وَسَعَةِ أَمْوَالِهِمْ فَيَنْقُضُوا بَيْعَةَ النَّبِيِّ ﷺ. [صديق حسن (٧/٣٠٧)].

عَبْرَهَا لِمَصْلَحَةِ الْعِبَادِ ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا﴾ أَي: الْكُفَّارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ كَذَّابٌ، تَقُولُهُ مِنْ عِنْدِكَ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ حَقِيقَةُ الْقُرْآنِ وَفَائِدَةُ النَّسْخِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ جِبْرِيلُ ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿نَزَّلَهُ﴾، ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِإِيمَانِهِمْ بِهِ ﴿وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ وَلَقَدْ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بَشَرٌ﴾ وَهُوَ قَيْنُ نَصْرَانِيٍّ، كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْخُلُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِسَانٌ لُّغَةٌ﴾ الَّذِي يُلْحِدُونَ ﴿يَمِيلُونَ﴾ إِلَيْهِ ﴿أَنَّهُ يُعَلِّمُهُ﴾ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا الْقُرْآنُ ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ ذُو بَيَانٍ وَفَصَاحَةٍ، فَكَيْفَ يُعَلِّمُهُ أَعْجَمِيٌّ؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ مُؤَلِّمٌ. ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ، بِقَوْلِهِمْ: هَذَا مِنْ قَوْلِ الْبَشَرِ ﴿وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وَالتَّأَكُّيدُ بِالتَّكْرَارِ، وَ«إِنَّ» وَغَيْرُهُمَا رَدُّ لِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾. ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ﴾ عَلَى التَّلَفُّظِ بِالْكَفْرِ، فَتَلَفَّظَ بِهِ ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ وَ«مَنْ» مُبْتَدَأٌ أَوْ شَرْطِيَّةٌ، وَالْخَبَرُ أَوْ الْجَوَابُ: لَهُمْ وَعِيدٌ شَدِيدٌ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ لَهُ، أَي: فَتَحَهُ وَوَسَّعَهُ، بِمَعْنَى: طَابَتْ بِهِ نَفْسُهُ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ ذَلِكَ أَلْوَعِيدُ لَهُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ

(١) القين: هو الحداد الذي يصنع السلاح، [قال الشوكاني (٣/ ٢٣٢)]: وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذا البشر الذي زعموا عليه ما زعموا فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً حداداً رومياً فأسلم، وكان قريش إذا سمعوا من النبي ﷺ أخبار القرون الأولى مع كونه أُمياً قالوا إنما يعلمه جبر. وقيل: اسمه عايش أو يعيش عبد لبني الحضرمي وكان يقرأ الكتب الأعجمية، وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي، وقيل: عنوا سلمان الفارسي، وقيل: عنوا نصرانياً بمكة اسمه بلعام وكان يقرأ التوراة، وقيل: عنوا رجلاً نصرانياً كان اسمه أبا ميسرة يتكلم بالرومية، وفي رواية اسمه عداس وقيل: أرادوا بالبشر غلامين اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر، وكانا صيقلين يعملان السيوف بمكة، وكانا يقرآن كتاباً لهم، وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل وكان النبي ﷺ يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه فقال المشركون إنما يتعلم منهما؛ قاله عبد الله بن مسلم الحضرمي. قال النحاس: وهذه الأقوال غير متناقضة لأنه يجوز أنهم زعموا أنهم جميعاً يعلمونه ولكن لا يمكن الجمع باعتبار قول من قال أنه سلمان لأن هذه الآية مكية وهو إنما أتى النبي ﷺ بالمدينة.

(٢) أي: تَلَفَّظَ وَتَكَلَّمَ بِالْكَفْرِ أَوْ فَعَلَ فَعَلَ كَفْرًا سِوَاءَ كَانِ مَخْتَاراً فِي ذَلِكَ أَوْ مَكْرَهاً عَلَيْهِ فَلَا سِتْهَاءَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ مُتَصِلٌ. وقال القرطبي: أجمع المفسرون وأهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر. وذهب الحسن البصري والأوزاعي والشافعي وسحنون إلى أن هذه الرخصة إنما جاءت في القول وأما في الفعل فلا رخصة مثل أن يكره على السجود لغير الله، ويدفعه ظاهر الآية فإنها عامة فيمن أكره من غير فرق بين القول والفعل كما تقدم، والمعنى إلا من كفر بإكراهه والحال أن قلبه مطمئن بالإيمان لم تتغير عقيدته. [صديق حسن (٧/ ٣١٩)].

أَسْتَحْبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٧٧﴾ اخْتَارُوهَا ﴿عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ عَمَّا يُرَادُّ بِهِمْ. ﴿لَا جَرَمَ﴾ ﴿حَقًّا﴾ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨٠﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا فَتِنَا﴾ عَذَّبُوا وَتَلَفَّظُوا بِالْكَفْرِ، وَفِي قِرَاءَةِ: بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، أَي: كَفَرُوا أَوْ فَتَنُوا النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَي: الْفِتْنَةِ ﴿لَعَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿بِهِمْ﴾، وَخَبَرٌ ﴿إِنَّ﴾ الْأُولَى دَلَّ عَلَيْهِ خَبَرُ الثَّانِيَةِ. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِلُ﴾ تُحَاجُّ ﴿عَنْ نَفْسِهَا﴾ لَا يُهْمُهَا غَيْرُهَا وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَتُوفَى كُلُّ نَفْسٍ﴾ جَزَاءً ﴿مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿شَيْئًا﴾. ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ وَبَدَّلَ مِنْهُ ﴿قَرْيَةً﴾ هِيَ مَكَّةُ، وَالْمُرَادُ أَهْلُهَا ﴿كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ مِنَ الْغَارَاتِ لَا تَهَاجُّ ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ لَا يُحْتَاجُّ إِلَى الْإِنْتِقَالِ عَنْهَا لِضِيقِ أَوْ خَوْفِ ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا﴾ وَاسِعًا ﴿مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ بِتَكْذِيبِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَآذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ﴾ فَقَحَطُوا سَبْعَ سِنِينَ ﴿وَالْخَوْفِ﴾ بِسَرَايَا النَّبِيِّ ﷺ ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْجُوعُ وَالْخَوْفُ ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿فَكُلُوا﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاطِلٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ﴾ أَي: لَوْصَفِ أَلْسِنَتِكُمْ ﴿الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ لِمَا لَمْ يُحِلَّهُ اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهُ ﴿لَتَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بِنِسْبَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾. لَهُمْ ﴿مَتْنَعٌ قَلِيلٌ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي

(١) ضرب مضمّن معنى: «جعل» ولذا عُدِّي إلى مفعولين، وقد اختلف المفسرون هل المراد بهذا القرية قرية معينة أو المراد قرية غير معينة. قال الزمخشري: بل كل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فكفروا وتولوا فأنزل الله بهم نقمته، ونحوه في البيضاوي. قال القرطبي: إنه مثل مضروب لأي قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة، ويجوز أن تكون في قرى الأولين قرية كانت هذه حالها فضر بها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها. وذهب الأكثرون إلى الأول وصرحوا بأنها مكة، وذلك لما دعا عليهم رسول الله ﷺ وقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُصْرٍ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُونُسَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥). فابتلوا بالقحط حتى أكلوا العظام، والثاني أرجح لأن تنكير قرية يفيد بذلك، ومكة تدخل في هذا العموم البدلي دخلاً أولاً. وأيضاً يكون الوعيد أبلغ والمثل أكمل وغير مكة مثلاً، وعلى فرض إرادتها ففي المثل إنذار لغيرها من مثل عاقبتها. [صديق حسن (٣٢٤ / ٧)].

(٢) انظر تفسير الآيتين (١٧٢-١٧٣) من سورة البقرة.

الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ١١٧﴾ مُؤَلَّمٌ. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ أَي: الْيَهُودِ ﴿حَرَمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي آيَةٍ: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦] إِلَى آخِرِهَا ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بِتَحْرِيمِ ذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١١٨﴾ بِارْتِكَابِ الْمَعَاصِي الْمُوجِبَةِ لِذَلِكَ. ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ الشَّرْكَ ﴿بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابُوا﴾ رَجَعُوا ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلَهُمْ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أَي: الْجَهْلَةِ أَوْ التَّوْبَةِ ﴿لَعَفُورٌ﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيمٌ ١١٩﴾ بِهِمْ. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ إِمَامًا قُدْوَةً جَامِعًا لِخِصَالِ الْخَيْرِ ^(١) ﴿قَانِتًا﴾ مُطِيعًا ﴿لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا إِلَى الدِّينِ الْقَيِّمِ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ أَجْتَبَاهُ إِصْطَفَاهُ ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٢١﴾ وَعَاتَيْنَاهُ فِيهِ الْفَاتُ عَنْ الْغِيَةِ ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ هِيَ الشَّاءُ الْحَسَنُ فِي كُلِّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ﴿وَأَنَّهُ وَفِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ١٢٢﴾ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. ﴿ثُمَّ أُوحِيََا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ﴾ دِينَ ﴿إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ كُرِّرَ رَدًّا عَلَى زَعْمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ. ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ فُرْصَ تَعْظِيمِهِ ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَهُمْ الْيَهُودُ، أُمِرُوا أَنْ يَتَفَرَّغُوا لِلْعِبَادَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالُوا: لَا نُرِيدُهُ، وَاخْتَارُوا السَّبْتَ، فَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ فِيهِ ^(٢) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١٢٤﴾ مِنْ أَمْرِهِ، بَأَنْ يُثِيبَ الطَّائِعَ وَيُعَذِّبَ الْعَاصِيَ بِانْتِهَاكِ حُرْمَتِهِ. ﴿ادْعُ﴾ النَّاسَ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ دِينِهِ ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ مَوَاعِظِ الْقُرْآنِ أَوْ الْقَوْلِ الرَّقِيقِ ﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي﴾ أَي:

(١) قال ابن الأعرابي: يقال للرجل العالم أمة، والأمة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر المفسرين معنى الأمة: المعلم للخير. وبه قال ابن مسعود، وعلى هذا فمعنى كون إبراهيم أمة أنه كان معلمًا للخير أو جامعًا لخِصَالِ الْخَيْرِ أو عالمًا بما علمه الله من الشرائع. وقيل: أنه كان مؤمنًا وحده والناس كلهم كفار، فلهذا المعنى كان أمة وحده... قال مجاهد: قيل بمعنى مأموم، أي: الذي يؤمّه الناس ليأخذوا منه الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]، وحكى ابن الجوزي عن ابن الأنباري أنه قال: هذا مثل قول العرب: فلان رحمة وعلامة ونسابة يقصدون بهذا التأنيث التناهي في المعنى الذي يصفونه به، والعرب توقع الأسماء المبهمة على الجماعة وعلى الواحد، كقوله ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩] وإنما ناداه جبريل وحده، وإنما سمي إبراهيم أمة لأنه اجتمع فيه من صفات الفضل وسمات الخير والأخلاق الحميدة ما اجتمع من أمة. [صديق حسن (٧/ ٣٣٤)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَبْدَأُ اللَّهُ بِأَنْفُسِهِمْ أَوْ تُؤْتَى الْكِتَابُ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمُ الَّذِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ، فَالْنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدَاً، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ». أخرجه البخاري (٦٦٢٤) ومسلم (٨٥٥).

الْمُجَادَلَةِ الَّتِي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ كَالدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ بِآيَاتِهِ، وَالدُّعَاءِ إِلَى حُجَجِهِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَي: عَالِمٌ ﴿بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿١٢٥﴾ فَيَجَازِيهِمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ^(١). وَنَزَلَ لَمَّا قُتِلَ حَمَزَةُ وَمُثَلِّ بِهِ فَقَالَ ﷺ وَقَدْ رَأَى: «الْأُمُتُ لَنْ يَسْبِعِينَ مِنْهُمْ مَكَانَكَ». ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ عَنْ الْإِنْتِقَامِ ﴿لَهُوَ﴾ أَي: الصَّبْرُ ﴿خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ فَكَفَّ ﷺ وَكَفَّرَ عَنْ يَمِينِهِ. رَوَاهُ الْبَزَارُ ^(٢). ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ بِتَوْفِيقِهِ ^(٣) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الْكُفَّارِ، وَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا لِحَرْصِكَ عَلَى إِيْمَانِهِمْ ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ أَي: لَا تَهْتَمَّ بِمَكْرِهِمْ، فَإِنَّا نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ بِالطَّاعَةِ وَالصَّبْرِ، بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ ^(٤).

(١) قال بعضهم: لا حاجة إلى دعوى النسخ إذ الأمر بالمجادلة ليس فيه تعريض للنهي عن المقاتلة. [صديق حسن (٧/ ٣٤٠)].

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣/ ١٣ - ١٤). والبخاري في مسنده (١٧٩٥). والطبراني في الكبير (٢٩٣٦). قال ابن كثير (٤/ ٦١٤): هذا إسناد فيه ضعف لأن صالحاً هو ابن بشير المري ضعيف عند الأئمة، وقال البخاري: هو منكر الحديث.

(٣) أمر نبيه ﷺ صريحاً بما ندب إليه غيره تعريضاً من الصبر لأنه ﷺ أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشؤون سبحانه ووثوقه به تعالى فقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على ما أصابك من جهتهم من فنون الآلام والأذى وعانيت من إغراضهم بعد الدعوة عن الحق بالكلية ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأشياء، أي: وما صبرك ملابساً ومصحوباً بشيء من الأشياء إلا بذكر الله تعالى والاستغراق بمراقبة شؤونه والتبتل إليه سبحانه بمجامع الهمة، وفيه من تسلية النبي ﷺ وتهوين مشاق الصبر عليه وتشريفه ما لا مزيد عليه أو إلا بمشيئته المبنية على حكم بالغة مستتبعة لعواقب حميدة فالتسليية من حيث اشتماله على غايات جليلة قاله شيخ الإسلام. وقال غير واحد: أي إلا بتوفيقه ومعاونته فالتسليية من حيث تيسير الصبر وتسهيله ولعل ذلك أظهر مما تقدم. [الآلوسي (٧/ ٤٩١)].

(٤) أي: معهم بتأييده ونصره ومعاونته وهذه معية خاصة، كقوله: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْتِ مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]، وقوله لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وقول النبي ﷺ للصديق وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وأما المعية العامة فالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]. [ابن كثير (٤/ ٦١٥)].

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ الْآيَاتِ الثَّمَانِ، مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سُبْحَنَ﴾ أَي: تَزَيَّهَ ﴿الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿لَيْلًا﴾ نُصِبَ عَلَى الظَّرْفِ، وَالْإِسْرَاءُ: سَيْرُ اللَّيْلِ، وَفَائِدَةُ ذِكْرِهِ الْإِشَارَةُ بِتَنْكِيرِهِ إِلَى تَقْلِيلِ مُدَّتِهِ ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: مَكَّةَ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، لِبُعْدِهِ مِنْهُ ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ بِالثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ ﴿لِنُرِيَهُ وَمِنْ عَآيَتِنَا﴾ عَجَائِبِ قُدْرَتِنَا ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أَي: الْعَالِمُ بِأَقْوَالِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَفْعَالِهِ^(١)، فَانْعَمَ عَلَيْهِ بِالْإِسْرَاءِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى اجْتِمَاعِهِ بِالْأَنْبِيَاءِ وَغُرُوجِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَرُؤْيَا عَجَائِبِ الْمَلَكُوتِ، وَمُنَاجَاتِهِ لَهُ تَعَالَى فَإِنَّهُ ﷺ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبُغْلِ يَضَعُ حَافِرُهُ عِنْدَ مُنْتَهَى طَرَفِهِ فَرَكْبَتُهُ، فَسَارَ بِي حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ فَرَبَطْتُ الدَّابَّةَ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي تَرَبَّطُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ، قَالَ جِبْرِيلُ: أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ. قَالَ: ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ قَيْلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ:

(١) ذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسراء ومقام الدعوة ومقام التحدي، فقال في مقام الإسراء: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ ولم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه. وقال في مقام الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وقال في مقام التحدي: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح: «اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ عَبْدُ غَفَرِ اللَّهِ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ». أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣). فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكمال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن اسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم. [مفتاح دار السعادة لابن القيم (١/ ١٠)].

(٢) أي: جوانبه بركات الدين والدنيا؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيمهم ومنمى الزروع والثمار. فاستنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها. فبركته إذن مضاعفة؛ لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم. [القاسمي (٤٢٩/ ٦)].

(٣) يعني تعالى نفسه بأنه هو السميع لأقوال عباده البصير بأعمالهم وأحوالهم، فاقتضت حكمته هذا الإسراء العجيب ليزداد الذين آمنوا إيماناً، وليرتاب المرتابون ويزدادون كفراً وعناداً. [أبو بكر الجزائري (١٧٣/ ٣)].

جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِأَدَمَ فَرَحَّبَ بِي،
وَدَعَا لِي بِالْخَيْرِ، ثُمَّ عُرِجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟
قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوْ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا بِأَبْنِي الْخَالَةِ يَحْيَى وَعِيسَى فَرَحَّبَا بِي، وَدَعَوَا لِي
بِالْخَيْرِ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ:
مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، وَإِذَا هُوَ قَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ فَرَحَّبَ
بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟
قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوْ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ
بِنَا السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوْ قَدْ بُعِثَ
إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهَارُونَ، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ،
فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوْ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ
إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى، فَرَحَّبَ بِي، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، ثُمَّ عُرِجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ:
مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، فَقِيلَ: أَوْ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا
أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ، فَإِذَا هُوَ مُسْتَنِدٌ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ
ذَهَبَ إِلَى سِدْرَةِ الْمُتَهَيَّ، فَإِذَا أَوْرَاقُهَا كَأَذَانِ الْفِيلَةِ، وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقَلَالِ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَهَا تَغَيَّرَ فَمَا
أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصِفَهَا مِنْ حُسْنِهَا، قَالَ: فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ مَا أَوْحَى، وَفَرَضَ عَلَيَّ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
خَمْسِينَ صَلَاةً، فَتَرَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً فِي كُلِّ يَوْمٍ،
وَلَيْلَةٍ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، وَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ:
فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي، فَقُلْتُ: أَيُّ رَبِّ خَفَّفَ عَنْ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قَالَ مَا فَعَلْتَ؟ فَقُلْتُ:
قَدْ حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ فَلَمْ أَرْزُلْ أَرْجِعْ بَيْنَ
رَبِّي، وَبَيْنَ مُوسَى، وَيَحُطُّ عَنِّي خَمْسًا خَمْسًا حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِكُلِّ صَلَاةٍ
عَشْرٌ فَلَنِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ
وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ فَتَرَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى
رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ فَقُلْتُ قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ،

وَاللَّفْظُ لِمُسْلِمٍ^(١)، وَرَوَى الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ»^(٢). قَالَ تَعَالَى: «وَعَاثَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» التَّوْرَةَ «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ» لـ «أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا»^(٣) «يُفَوِّضُونَ إِلَيْهِ أَمْرَهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: «تَتَّخِذُوا» بِالْفَوْقَانِيَّةِ الْتِفَاتًا فَ «أَنْ» زَائِدَةٌ وَالْقَوْلُ مُضْمَرٌ. يَا «ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ» فِي السَّفِينَةِ «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا»^(٤) كَثِيرَ الشُّكْرِ لَنَا، حَامِدًا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ. «وَقَضَيْنَا» أَوْ حِينًا^(٥) «إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ» التَّوْرَةَ «لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ» أَرْضِ الشَّامِ بِالْمَعَاصِي «مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا»^(٦) «تَبْعُونَ بَغْيًا عَظِيمًا». «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا» أُولَى مَرَّتِي الْفَسَادِ «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ» أَصْحَابَ قُوَّةٍ فِي الْحَرْبِ وَالْبَطْشِ «فَجَاسُوا» تَرَدَّدُوا لِطَلَبِكُمْ «خِلَالَ الدِّيَارِ» وَسَطَ دِيَارِكُمْ لِيَقْتُلُوكُمْ وَيَسْبُوكُمْ «وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا»^(٧) وَقَدْ أَفْسَدُوا الْأُولَى بِقَتْلِ زَكَرِيَّا، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ جَالُوتَ وَجُنُودَهُ فَقَتَلُوهُمْ وَسَبَّوْا أَوْلَادَهُمْ وَخَرَّبُوا بَيْتَ الْمَقْدِسِ. «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ» الدَّوْلَةَ وَالْغَلْبَةَ «عَلَيْهِمْ» بَعْدَ مِائَةِ سَنَةٍ بِقَتْلِ جَالُوتَ «وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا»^(٨) عَشِيرَةً. وَقُلْنَا: «إِنْ أَحْسَنْتُمْ» بِالطَّاعَةِ «أَحْسَنَتُمْ لَأَنفُسِكُمْ» لِأَنَّ ثَوَابَهُ لَهَا «وَإِنْ أَسَأْتُمْ» بِالْفَسَادِ «فَلَهَا» إِسَاءَتُكُمْ «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ» الْمَرَّةِ «الْآخِرَةِ» بَعَثْنَاهُمْ «لِيَسْتَوْا وَجُوهَكُمْ» يُخْرِضُونَكُمْ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، حُزْنَا يَظْهَرُ فِي وَجُوهِكُمْ «وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ» بَيْتَ الْمَقْدِسِ «فَيُخْرِبُوهُ» كَمَا دَخَلُوهُ «وَيُخْرِبُوهُ» وَخَرَّبُوهُ «أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيَتَّبِعُوا» يُهْلِكُوا «مَا عَلَوْا» غَلَبُوا عَلَيْهِ «تَتَّبِعُوا»^(٩) إِهْلَاكًا، وَقَدْ أَفْسَدُوا ثَانِيًا بِقَتْلِ يَحْيَى، فَبَعَثَ عَلَيْهِمْ بُخْتَنَصْرَ فَقَتَلَ مِنْهُمْ أَلُوفًا وَسَبَى ذُرِّيَّتَهُمْ وَخَرَّبَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. وَقُلْنَا فِي

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٧)، ومسلم (١٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٤) مطولاً، وأحمد (٢٦٣٤). قال البيهقي: في حديث شريك زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعني قوله: ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى. قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم في حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل أصح. وهذا الذي قاله البيهقي هو الحق في هذه المسألة، فإن أبا ذر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ قال ﷺ: «نُورٌ أُنِيَ أَرَاهُ». وفي رواية: «رَأَيْتُ نُورًا». أخرجه مسلم (١٧٨).

(٣) قيل: إن قضينا هنا بمعنى علمنا وأخبرنا، كما قيل في: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ» [الحجر: ٦٦]، والكتاب على هذا التوراة، وقيل: قضينا إليه من القضاء والقدر، والكتاب على هذا اللوح المحفوظ، الذي كتبت فيه مقادير الأشياء، و «إِلَى» بمعنى «عَلَى»، «لَتُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ» هذه الجملة بيان للمقضي، وهي في وضع جواب قضينا إذا كان من القضاء والقدر، لأنه جرى مجرى القسم، وإن كان بمعنى أعلمنا فهو جواب قسم محذوف، تقديره: والله لتفسدن، والجملة في موضع معمول قضينا. [ابن جزي (١/٤٤١)].

الْكِتَابِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم﴾ بَعْدَ الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ إِنْ تُبْتَغُوا ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إِلَى الْفَسَادِ ﴿عُدْنَا﴾ إِلَى الْعُقُوبَةِ، وَقَدْ عَادُوا بِتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَسُلِّطَ عَلَيْهِمْ بِقَتْلِ قُرَيْظَةَ وَنَفْيِ النَّصِيرِ وَضَرْبِ الْجَزْيَةِ عَلَيْهِمْ ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨﴾ مَحْبَسًا وَسَجْنًا. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾ أَيُّ: لِلطَّرِيقَةِ الَّتِي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ أَعْدَلُ وَأَصَوَّبُ^(١) ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ٩﴾ وَيُخْبِرُ ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٠﴾ مُؤَلِّمًا هُوَ النَّارُ. ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ إِذَا ضَجَرَ ﴿دُعَاءَهُ﴾ أَيُّ: كَدْعَائِهِ لَهُ ﴿بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ الْجِنْسُ ﴿عَجُولًا ١١﴾ بِالدُّعَاءِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَدَمِ النَّظَرِ فِي عَاقِبَتِهِ^(٢). ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ﴾ دَالَّتَيْنِ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ طَمَسْنَا نُورَهَا بِالظَّلَامِ لِنَسْكُنُوا فِيهِ، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أَيُّ: مُبْصَرًا فِيهَا بِالضُّوءِ ﴿لَتَبْتَغُوا﴾ فِيهِ ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بِالْكَسْبِ ﴿وَلَتَعْلَمُوا﴾ بِهِمَا ﴿عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ لِلْأَوْقَاتِ ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿فَصَلَّنَاهُ تَفْصِيلًا ١٢﴾ بَيْنَاهُ تَبَيَّنًا. ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ﴾ عَمَلُهُ^(٣) يَحْمِلُهُ ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ خُصَّ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّ اللَّزُومَ فِيهِ أَشَدُّ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَفِي عُنُقِهِ وَرَقَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ»^(٤). ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا﴾ مَكْتُوبًا فِيهِ عَمَلُهُ ﴿يَلْقَاهُ مَنشُورًا ١٣﴾ صِفَتَانِ لـ ﴿كِتَابًا﴾. وَيُقَالُ لَهُ: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ

(١) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم، أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب... وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة. [الشنقيطي (٣/ ٤٨٧)].

(٢) المعنى ذم، وعتاب لما يفعله الناس عند الغضب من الدعاء على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وأنهم يدعون بالشَّرِّ في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت الثبت. [ابن جزي (١/ ٤٤٢)]. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وفي الحديث: «لَا تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَا عَلَى أَمْوَالِكُمْ، أَنْ تَوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً إِجَابَةً يَسْتَجِيبُ فِيهَا». أخرجه مسلم (٣٠٠٩). [ابن كثير (٥/ ٤٩)].

(٣) في معنى الطائر وجهان معروفان من التفسير: الأول: أن المراد بالطائر: العمل، من قولهم: طار له سهم إذا خرج له، أي: أَلْزَمْنَاهُ مَا طَارَ لَهُ مِنْ عَمَلِهِ. الثاني: أن المراد بالطائر ما سبق له في علم الله من شقاوة أو سعادة، والقولان متلازمان؛ لأن ما يطير له من العمل هو سبب ما يؤول إليه من الشقاوة أو السعادة. [الشنقيطي (٣/ ٥٥٠)].

(٤) من طريق أبي داود أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (١٧٤٣)، وأخرجه الطبري (١٤/ ٥٢٠) عن واصل به.

عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مُحَاسِبًا. ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾؛ لَأَنَّ ثَوَابَ اهْتِدَائِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾؛ لَأَنَّ إِثْمَهُ عَلَيْهَا ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وَارِثَةً﴾ آثَمَةً، أَي: لَا تَحْمِلُ ﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ أَحَدًا ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ﴿يُبَيِّنُ لَهُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ مُنْعَمِيهَا، بِمَعْنَى: رُؤَسَائِهَا بِالطَّاعَةِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِنَا ﴿فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ فَخَرَجُوا عَنْ أَمْرِنَا ﴿فَحَقَّقَ عَلَيْهَا الْقَوْلَ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ ﴿أَهْلَكْنَاهَا بِإِهْلَاكِ أَهْلِهَا وَتَخْرِيبِهَا. ﴿وَكَمْ﴾ أَي: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿عَالِمًا بِبَوَاطِنِهَا وَظَوَاهِرِهَا وَ«بِهِ» يَتَعَلَّقُ بِذُنُوبٍ﴾. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ أَي: الدُّنْيَا ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ التَّعَجِيلُ لَهُ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿لَهُ﴾ بِإِعَادَةِ الْجَارِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ يَدْخُلُهَا ﴿مَذْمُومًا﴾ مَلُومًا ﴿مَذْهُورًا﴾ ﴿مَطْرُودًا عَنِ الرَّحْمَةِ. ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ عَمِلَ عَمَلَهَا الَّلَّائِقَ بِهَا ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حَالٌ ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ ﴿عِنْدَ اللَّهِ، أَي: مَقْبُولًا مَثَابًا عَلَيْهِ. ﴿كُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿ثُمَّ﴾ نُعْطِي ﴿هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ﴾ بَدَلٌ ﴿مِنْ﴾ مُتَعَلِّقٍ بِ﴿ثُمَّ﴾ ﴿عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ﴾ فِيهَا ﴿مَحْظُورًا﴾ مَمْنُوعًا عَنْ أَحَدٍ. ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فِي الرِّزْقِ وَالْجَاهِ ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ﴾ أَعْظَمُ ﴿دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ ﴿مِنَ الدُّنْيَا فَيَنْبَغِي الْأَعْتَاءُ بِهَا دُونَهَا. ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ ﴿لَا

(١) إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ [الملك: ٨-٩]. [ابن كثير (٥/٢٥)].

(٢) قيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمرا قديرا، كقوله تعالى: ﴿أَتْلَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب. وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة. [ابن كثير]. والصواب الذي يشهد له القرآن، وعليه جمهور العلماء أن الأمر في قوله: أمرنا هو الأمر الذي هو ضد النهي، وأن متعلق الأمر محذوف لظهوره، والمعنى: أمرنا مترفيها بطاعة الله وتوحيده، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاءوا به، فخرجوا عن طاعة أمر ربهم، وعصوه وكذبوا رسله، وهذا القول الذي هو الحق في هذه الآية تشهد له آيات كثيرة؛ كقوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فتصريحه جل وعلا بأنه لا يأمر بالفحشاء دليل واضح على أن قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا﴾، أي: أمرناهم بالطاعة فعصوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأن الله لا يأمر بالفحشاء. [الشنقيطي (٥/٦١)].

نَاصِرَ لَكَ. ﴿٢١﴾ وَقَضَىٰ أَمْرَ رَبِّكَ أَلَّا ﴿٢٢﴾ أَيُّ: بَانَ لَا ﴿٢٣﴾ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ﴿٢٤﴾ أَنْ تُحْسِنُوا ﴿٢٥﴾ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا ﴿٢٦﴾ بَانَ تَبَرُّوهُمَا ﴿٢٧﴾ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا ﴿٢٨﴾ فاعِلٌ ﴿٢٩﴾ أَوْ كِلَاهُمَا ﴿٣٠﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿٣١﴾ يَبْلُغَنَّ ﴿٣٢﴾ فَأَحَدُهُمَا بَدَلٌ مِنْ أَلْفِهِ ﴿٣٣﴾ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ ﴿٣٤﴾ بِنَفْسِكَ الْفَاءِ وَكَسَرِهَا مُنَوَّنًا وَغَيْرَ مُنَوَّنٍ، مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: تَبًّا وَقُبْحًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَنْهَرُهُمَا ﴿٣٦﴾ تَزْجُرُهُمَا ﴿٣٧﴾ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٣٨﴾ جَمِيلًا لَيِّنًا. ﴿٣٩﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ ﴿٤٠﴾ أَلِنْ لَهُمَا جَانِبَكَ الذَّلِيلَ ﴿٤١﴾ ﴿مِنْ الرَّحْمَةِ﴾ أَيُّ: لِرَفْقَتِكَ عَلَيْهِمَا ﴿٤٢﴾ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمْهُمَا كَمَا ﴿٤٣﴾ رَحِمَاني حِينَ ﴿٤٤﴾ رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٤٥﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴿٤٦﴾ مِنْ إِضْمَارِ الْبَرِّ وَالْعُقُوقِ ﴿٤٧﴾ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴿٤٨﴾ طَائِعِينَ لِلَّهِ ﴿٤٩﴾ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ ﴿٥٠﴾ الرَّجَّاعِينَ إِلَى طَاعَتِهِ ﴿٥١﴾ عَفُورًا ﴿٥٢﴾ لِمَا صَدَرَ مِنْهُمْ فِي حَقِّ الْوَالِدَيْنِ مِنْ بَادِرَةٍ وَهُمْ لَا يُضْمِرُونَ عُقُوقًا. ﴿٥٣﴾ وَءَاتِ ﴿٥٤﴾ أَعْطِ ﴿٥٥﴾ ذَا الْقُرْبَىٰ ﴿٥٦﴾ الْقَرَابَةَ ﴿٥٧﴾ حَقَّهُ ﴿٥٨﴾ مِنَ الْبَرِّ وَالصَّلَةِ ﴿٥٩﴾ وَالْمُسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴿٦٠﴾ بِالْإِنْفَاقِ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿٦١﴾ إِنْ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ ﴿٦٢﴾ أَيُّ: عَلَى طَرِيقَتِهِمْ ﴿٦٣﴾ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٦٤﴾ شَدِيدَ الْكُفْرِ لِنِعْمِهِ،

(١) فلا تتضجر مما يستقدر منهما وتستقل من مؤنتهما، وهو صوت يدل على تضجر. وقيل: هو اسم الفعل الذي هو أتضجر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين وتنوينه في قراءة نافع وحفص للتكثير. وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالفتح على التخفيف. وقرئ به منونا وبالضم للإتباع كمنذ منونا وغير منون، والنهي عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الإيذاء قياسا بطريق الأولى. [البضاوي (٢/٢٥٢)].

(٢) تذلل لهما وتواضع. وفيه استعارة مكنية وتخيلية. فشبّه الذل بطائر تشبها مضمرًا، وأثبت له الجناح تخيلا، والخفض ترشيحا. و«خفضه» ما يفعله إذا ضم أفراده للتربية. أو استعارة تصريحية في المفرد وهو الجناح، والخفض ترشيح. و«الجناح» الجانب كما يقال: «جناحا العسكر» وخفضه مجاز، كما يقال: «لين الجانب» و«منخفض الجانب». وإضافة الجناح إلى الذل للبيان؛ لأنه صفة مبيته. أي: جناحك الذليل. وفيه مبالغة لأنه وصف بالمصدر. فكأنه جعل عين الذل. أو التركيب استعارة تمثيلية. فيكون مثلا لغاية التواضع. وسر ذكر الجناح وخفضه، تصوير الذل كأنه مشاهد محسوس. و﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ الرَّحْمَةِ﴾ ابتدائية على سبيل التعليل. أي: من فرط رحمتك لهما، وعطفك عليهما، لكبرهما وافتقارهما اليوم، إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالألمس. وافتقار المرء إلى من كان مفتقرا له، غاية في الضراعة والمسكنة، فيرحمه أشد رحمة. [القاسمي (٦/٤٥٤)].

(٣) المراد بالأخوة المماثلة التامة وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به، وهذا غاية المذمة لأنه لا شر من الشياطين، والعرب تقول لكل من هو ملازم سنة قوم هو أخوهم. قال ابن مسعود: التبذير إنفاق المال في غير حقه ... وعن علي عليه السلام قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان.

[صديق حسن (٧/٣٨١)].

فَكَذَلِكَ أَخْوَهُ الْمُبْدِرُ. ﴿وَأَمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أَي: الْمَذْكُورِينَ مِنْ ذِي الْقُرْبَى وَمَا بَعْدَهُمْ فَلَمْ تُعْطِهِمْ ﴿أَتَيْغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أَي: لِطَلَبِ رِزْقٍ تَنْتَظِرُهُ يَأْتِيكَ فَتُعْطِيهِمْ مِنْهُ ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ ﴿١٨﴾ لِنَيْسَانِ سَهْلًا، بِأَنْ تَعِدَهُمْ بِالْإِعْطَاءِ عِنْدَ مَجِيءِ الرِّزْقِ. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ أَي: لَا تُمْسِكْهَا عَنِ الْإِنْفَاقِ كُلِّ الْإِمْسَاكِ ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا﴾ فِي الْإِنْفَاقِ ﴿كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا﴾ رَاجِعٌ لِلأَوَّلِ ﴿مَحْسُورًا﴾ ﴿٢٩﴾ مُنْقَطِعًا لَا شَيْءَ عِنْدَكَ، رَاجِعٌ لِلثَّانِي ^(١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿٣٠﴾ عَالِمًا بِبَوَاطِينِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ فَيَرْزُقُهُمْ عَلَى حَسَبِ مَصَالِحِهِمْ. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ بِالْأَوْدِ ﴿خَشْيَةً﴾ مَخَافَةَ ﴿إِمْلَاقٍ﴾ فَقَرٍ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَتْ خِطَاءً﴾ إِنَّمَا ﴿كَبِيرًا﴾ ﴿٣١﴾ عَظِيمًا. ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّوْنَىٰ﴾ أَبْلَغُ مِنْ: «لَا تَأْتَوْهُ» ^(٢) ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ قَبِيحًا ﴿وَسَاءَ﴾ بِنْسِ ﴿سَبِيلًا﴾ ﴿٣٢﴾ طَرِيقًا هُوَ. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ لَوَارِثَهُ ﴿سُلْطَانًا﴾ تَسَلَّطًا عَلَى الْقَاتِلِ ﴿فَلَا يُسْرِف﴾ يَتَجَاوَزِ الْحَدَّ ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ بِأَنْ يَقْتُلَ غَيْرَ قَاتِلِهِ أَوْ بَغَيْرِ مَا قُتِلَ بِهِ ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا عَاهَدْتُمْ اللَّهَ أَوِ النَّاسَ ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٤﴾ عَنْهُ. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أَمْتُوهُ ﴿إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ الْمِيزَانِ السَّوِيِّ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

(١) أي: لا تمسك يدك عن النفقة والعطية لمن له حق ممن تقدم، بمنزلة المشدودة يده إلى عنقه، الذي لا يقدر على الأخذ بها والإعطاء: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: بالتبذير والسرف. قال ابن كثير: أي: لا تسرف في الإنفاق، فتعطي غير طاقتك وتخرج أكثر من دخلك: ﴿فَتَقْعُدَ﴾ أي: فتبقى: ﴿مَلُومًا﴾ يلومك الفقراء والقرابة: ﴿مَحْسُورًا﴾ أي: نادما، من «الحسرة» أو منقطعاً بك لا شيء عندك، من «حسره السفر» إذا بلغ منه الجهد وأثر فيه. وفي النهيين استعارتان تمثيلتان شبه في الأولى فعل الشحيح في منعه، بمن يده مغلولة لعنقه، بحيث لا يقدر على مدها. وفي الثانية شبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً. وهو ظاهر. [القاسمي (٤٥٧/٦)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ، كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تَدْيِهِمَا إِلَى تَرَفِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبْعَتِ -أَوْ: وَفَرَتْ- عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ. وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوسِّعُهَا فَلَا تَسْغُ». أخرجه البخاري (١٤٤٣)، ومسلم (١٠٢١).

(٢) بمباشرة مبادئ القرية أو البعيدة فضلاً عن مباشرة، والنهي عن قربانه على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه، ولأن قربانه داع إلى مباشرة، وفسره الراغب بوطء المرأة من غير عقد شرعي، وجاء فيه المد والقصر، وإذا مد يصح أن يكون مصدر المفاعلة، وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرمة مطلقاً كما قال شيخ الإسلام بأنه اعتبار أنه قتل للأولاد لما أنه تضييع للأنسب فإن من لم يثبت نسبه ميت حكماً. [الآلوسي (٦٦/٨)].

﴿٣٥﴾ مَا لَا. ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ تَتَّبِعْ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ﴾ الْقَلْبَ ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ ﴿٣٦﴾ صَاحِبُهُ مَاذَا فَعَلَ بِهِ^(١). ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أَي: ذَا مَرَحٍ بِالْكِبَرِ وَالْخِيَلَاءِ ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ تَتَّقِبُهَا حَتَّى تَبْلُغَ آخِرَهَا بِكِبَرِكَ ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ ﴿٣٧﴾ الْمَعْنَى أَنَّكَ لَا تَبْلُغُ هَذَا الْمَبْلَغَ فَكَيْفَ تَخْتَالُ. ﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ^(٢) ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ أَلْمَوْعِظَةِ ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ﴿٣٩﴾ مَطْرُودًا عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. ﴿أَفَاصْفَكُمْ﴾ أَخْلَصَكُمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَكَةِ إِنثًا﴾ بَنَاتٍ لِنَفْسِهِ بِزَعْمِكُمْ ﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ﴾ بِذَلِكَ ﴿قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾ مِنَ الْأَمْثَالِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ يَتَعَذَّبُوا ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ ﴿٤١﴾ عَنِ الْحَقِّ^(٣). ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَّغَوْا﴾ طَلَبُوا ﴿إِلَى ذِي الْعَرْشِ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿سَبِيلًا﴾ ﴿٤٢﴾ لِيُقَاتِلُوهُ^(٤). ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تَزْيِيهَا

(١) أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل ثبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى. [السعدي (ص: ٤٥٧)].

(٢) إشارة إلى الخصال الخمس والعشرين المذكورة. من قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ ... ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ يعني المنهي عنه فإن المذكورات مأمورات ومنه. وقرأ الحجازيان والبصريان ﴿سَيِّئُهُ﴾ على أنها خبر كان والاسم ضمير ﴿كُلِّ﴾، و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما نهى عنه خاصة وعلى هذا قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من ﴿سَيِّئُهُ﴾ أو صفة لها محمولة على المعنى، فإنه بمعنى سيئا وقد قرئ به، ويجوز أن يتصب مكروها على الحال من المستكن في ﴿ذَلِكَ﴾ أو في الظرف على أنه صفة ﴿سَيِّئُهُ﴾، والمراد به المبعوض المقابل للمرضي، لا ما يقابل المراد، لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى. [البيضاوي (٣/ ٢٥٥)].

(٣) يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن أي: نوع الأحكام ووضحها وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلوكه وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس إلا نفورا عن آيات الله لبغضهم للحق ومحبتهم ما كانوا عليه من الباطل حتى تعصبوا لباطلهم ولم يعيروا آيات الله لهم سمعا ولا ألقوا لها بالا. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئا كثيرا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً. [السعدي (ص: ٤٥٨)].

(٤) ﴿قُلْ﴾ لهم في شأن الاستدلال على إبطال التعدد الذي زعموه وإثبات الوحدانية ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا﴾ أي: كوناً مشابهة لما ﴿يَقُولُونَ﴾ والمراد بالمشابهة الموافقة والمطابقة، قرئ بالتحية وبالفوقية على الخطاب للقائلين بأن مع الله آلهة أخرى ﴿إِذَا﴾ قال

لَهُ ﴿وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُقُولُونَ﴾ مِنَ الشُّرَكَاءِ ﴿عُلُوءًا كَبِيرًا﴾ ١٣ ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ۖ تَزُهُهُ ۖ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ۖ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ ۖ مُتَّبِعًا ۖ بِحَمْدِهِ ۚ﴾ أَيُّ يَقُولُ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ﴾ تَفْهَمُونَ ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ بِلُغَتِكُمْ ١٤ ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ١٥ ﴿حَيْثُ لَمْ يُعَاجِلْكُمْ

الزمخشري: هي دالة على أن ما بعدها وهو ﴿لَا تَبْتَغُوا﴾ جواب لمقالة المشركين وجزاء للو ﴿إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ﴾ هو الله سبحانه ﴿سَبِيلًا﴾ طريقاً للمغالبة والمقاتلة والممانعة ليزيلوا ملكه كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض من المقاتلة والمصالوة عند تعددهم. وقيل: معناه إذا لا بتغت الآلهة إلى الله القربة والزلفة عنده لأنهم دونه، والمشركون إنما اعتقدوا أنها تقربهم إلى الله، والظاهر المعنى الأول، ومثله معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَٰهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] وحاصل الدليل أنه قياس استثنائي يستثنى فيه نقيض التالي ليتنج نقيض المقدم، وحذف منه كل من الاستثنائية والنتيجة والتقدير لكنهم لم يطلبوا طريقاً لقتاله فلم يكن. هناك تعدد. [صديق حسن (٧/٣٩٥)].

(١) ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ ۖ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ قال فيهن بضمير العقلاء لإسناده إليها التسييح الذي هو فعل العقلاء، وقد أخبر سبحانه عن السماوات والأرض بأنها تسبحه، وكذلك من فيها من مخلوقاته الذين لهم عقول وهم الملائكة من الإنس والجن وغيرهم من الأشياء التي لا تعقل. ففيه دلالة على أن الأكوان بأسرها دالة شاهدة بتلك النزاهة، ولكن المشركين لا يفهمون تسييحها، فالتقصيد من هذا توبيخهم وتقريعهم على اتباعهم الشركاء لله مع أن كل شيء ممن عداهم ينزهه عن كل نقص ... ثم زاد ذلك تعميماً وتأكيذاً فقال: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ ۖ بِحَمْدِهِ﴾ فيشمل كل ما يسمى شيئاً كائناً ما كان ... وقيل: أنه يحمل قوله: ﴿وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ على الملائكة والثقلين ويحمل قوله: ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ﴾ على ما عدا ذلك من المخلوقات. وقد اختلف أهل العلم في هذا العموم هل هو مخصوص أم لا، فقالت طائفة: ليس بمخصوص، وحملوا التسييح على تسييح الدلالة لأن كل مخلوق يشهد على نفسه ويدل غيره بأن الله خالق قادر. وقالت طائفة: هذا التسييح على حقيقته والعموم على ظاهره، والمراد أن كل المخلوقات تسبح لله هذا التسييح الذي معناه التنزيه، وإن كان البشر لا يسمعون ذلك لكونهم محجوبين عن سماعه ولا يفهمونه لكونه بغير لغاتهم. وهذا يقتضي أن تسييح الجماد بلسان المقال وهو الذي اختاره الخازن وأثبتته بأحاديث متعددة ... ويؤيد هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ﴾ بالتاء والياء ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ فإنه لو كان المراد تسييح الدلالة لكان أمراً مفهوماً لكل أحد. وأجيب بأن المراد بقوله: ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾ الكفار الذين يعرضون عن الاعتبار، وقالت طائفة: هذا العموم مخصوص بالملائكة والثقلين دون الجمادات، وقيل: خاص بالأجسام النامية فيدخل النباتات ... ويؤيد حمل الآية على العموم قوله: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ونحو ذلك من الآيات. وثبت في الصحيح: «أنهم كانوا يسمعون تسييح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله ﷺ». أخرجه البخاري (٣٥٧٩). وهكذا حديث: «حنين الجذع». أخرجه البخاري (٣٥٨٣). وحديث: «أن حجراً بمكة كان يسلم على النبي ﷺ». أخرجه مسلم (٢٢٧٧). وكلها في الصحيح ... ومدافعة عموم هذه الآية بمجرد الاستبعادات، ليس دأب من يؤمن بالله سبحانه ويؤمن بما جاء من عنده. [الشوكاني (٣/٢٧٤)].

بِالْعُقُوبَةِ. ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ٤٥﴾ أَي: سَاتِرًا لَكَ عَنْهُمْ فَلَا يَرَوْنَكَ، نَزَلَ فِيمَنْ أَرَادَ الْفَتْكَ بِهِ ﷺ. ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَغْطِيَةً ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ، أَي: فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿وَفِي عَازَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلًا فَلَا يَسْمَعُونَهُ ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ٤٦﴾ عَنْهُ. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ بِسَبِيهِ مِنَ الْهَزْءِ ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قِرَاءَتِكَ ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ يَتَنَاجَوْنَ بَيْنَهُمْ، أَي: يَتَحَدَّثُونَ ﴿إِذْ﴾ بِذَلِكَ مِنْ «إِذْ» قَبْلَهُ ﴿يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ فِي تَنَاجِيهِمْ ﴿إِنْ﴾ مَا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ٤٧﴾ مَخْذُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ بِالْمَسْحُورِ وَالْكَاهِنِ وَالشَّاعِرِ ﴿فَضْلُوا﴾ بِذَلِكَ عَنِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨﴾ طَرِيقًا إِلَيْهِ. ﴿وَقَالُوا﴾ مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩﴾ * قُلْ لَهُمْ: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يَعْظُمُ عَنْ قَبُولِ الْحَيَاةِ، فَضْلًا عَنِ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ، فَلَا بُدَّ مِنْ إِجَادِ الرُّوحِ فِيكُمْ ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ إِلَى الْحَيَاةِ ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا؛ لِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْبَدْءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ، بَلْ هِيَ أَهْوَنُ ﴿فَسَيَنْغُضُونَ﴾ يُحَرِّكُونَ ﴿إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ تَعَجُّبًا ﴿وَيَقُولُونَ﴾ اسْتَهْزَأَ: ﴿مَتَى هُوَ﴾ أَي: الْبَعْثُ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ يُنَادِيكُمْ مِنَ الْقُبُورِ عَلَى لِسَانِ إِسْرَافِيلَ ﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ فَتَجِيبُونَ دَعْوَتَهُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿بِحَمْدِهِ﴾ بِأَمْرِهِ، وَقِيلَ: وَلَهُ الْحَمْدُ ﴿وَتَنْظُنُونَ﴾ وَتَنْظُنُونَ إِنْ مَا لَبِثْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا ٥٢﴾ لَهَوْلٍ مَا تَرَوْنَ. ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿يَقُولُوا﴾ لِلْكَفَّارِ الْكَلِمَةَ ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ﴾ يُفْسِدُ ﴿بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٣﴾ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ^(١). وَالْكَلِمَةُ

(١) فِي مَعْنَاهُ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ نَبِيَهُ ﷺ أَنَّهُ يَسْتَرُهُ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا أَرَادُوا بِهِ شَرًّا، وَيَحْجِبُهُ مِنْهُمْ، وَالْآخَرُ: أَنَّهُ يَحْجِبُ الْكُفَّارَ عَنْ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَهَذَا أَرْجَحُ لِمَا بَعْدَهُ، وَالْمَسْتُورُ هُنَا قِيلَ: مَعْنَاهُ مَسْتُورٌ عَنْ أَعْيُنِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ وَكَفَايَتِهِ فَهُوَ مِنَ الْمَغْيِبَاتِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ سَاتِرٌ. [ابن جُزَيٍّ (١/٤٤٧)].

(٢) هَذَا مِنْ لُطْفِهِ بِعِبَادِهِ حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْسَعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَقَالَ: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وَهَذَا أَمْرٌ بِكُلِّ كَلَامٍ يَقْرُبُ إِلَى اللَّهِ مِنْ قِرَاءَةٍ وَذِكْرٍ وَعِلْمٍ وَأَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ وَنَهْيٍ عَنْ مَنْكَرٍ وَكَلَامٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ مَعَ الْخَلْقِ عَلَى اخْتِلَافِ مَرَاتِبِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ، وَأَنَّهُ إِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ حَسَنَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِأَيْثَارِ أَحْسَنِهِمَا إِنْ لَمْ يُمْكِنِ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا. وَالْقَوْلُ الْحَسَنُ دَاعٍ لِكُلِّ خَلْقٍ جَمِيلٍ وَعَمَلٌ صَالِحٌ فَإِنْ مِنْ مَلِكٍ لِسَانُهُ مَلِكٌ جَمِيعٍ أَمْرُهُ. [السَّعْدِيُّ (ص: ٤٦٠)]. وَهَذَا تَأْدِيبٌ عَظِيمٌ فِي مَرَاqَبَةِ اللِّسَانِ، وَمَا يَصْدُرُ مِنْهُ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَهُ بِأَعْمَالٍ تَدْخُلُهُ الْجَنَّةُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلُّهُ؟»

الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ هِيَ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَشَأْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانِ ﴿أَوْ إِنْ يَشَأْ تَعَذِّبَكُمْ﴾ يُعَذِّبُكُمْ بِالمَوْتِ عَلَى الْكُفْرِ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۝٥٤﴾ فَتَجْبِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَيُخَصُّهُمْ بِمَا شَاءَ عَلَى قَدْرِ أَحْوَالِهِمْ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ بِتَخْصِيصِ كُلِّ مِنْهُمْ بِفَضِيلَةٍ، كَمُوسَى بِالكَلَامِ، وَإِبْرَاهِيمَ بِالْخَلَّةِ، وَمُحَمَّدٍ بِالإِسْرَاءِ ۝٥٥﴾ وَعَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۝٥٦ قُلْ لَهُمْ: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ إِلَهَةٌ﴾ (مِنْ دُونِهِ) ﴿كَالْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَعَزِيرٍ﴾ (فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٧) لَهُ إِلَى غَيْرِكُمْ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ هُمْ إِلَهَةٌ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ الْقُرْبَةَ بِالطَّاعَةِ ﴿أَيُّهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنْ وَآوِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ أَيُّ: يَبْتَغِيهَا الَّذِي هُوَ ﴿أَقْرَبُ﴾ إِلَيْهِ فَكَيْفَ بغيرِهِ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۝٥٨﴾ كَعَبِيدِهِمْ، فَكَيْفَ يَدْعُونَهُمْ إِلَهَةً؟ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْذُورًا ۝٥٩﴾ وَإِنْ مَا (مِنْ قَرِيَةٍ) أُرِيدَ أَهْلُهَا (إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ) بِالمَوْتِ (أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا) بِالقَتْلِ وَغَيْرِهِ (كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ) اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ (مَسْطُورًا ۝٦٠) مَكْتُوبًا. (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ) الَّتِي اقْتَرَحَهَا أَهْلُ مَكَّةَ (إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ) لَمَّا أَرْسَلْنَاهَا فَأَهْلَكْنَاهُمْ، وَلَوْ أَرْسَلْنَاهَا إِلَى هَؤُلَاءِ لَكَذَّبُوا بِهَا

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، قال: قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «تَكَلَّمْتَ أَمُكْ وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَالَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ السِّتَمِ». أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦). والمقصد الأهم من هذا التأديب تأديب الأمة في معاملة بعضهم بعضا بحسن المعاملة، وإلانة القول؛ لأن القول ينم عن المقاصد بقريته قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾، ثم تأديبهم في مجادلة المشركين اجتنابا لما تثيره المشادة والغلظة من ازدياد مكابرة المشركين، وتصلبهم فذلك من نزغ الشيطان بينهم وبين عدوهم، قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. [ابن عاشور (١٣٢/١٥)].

(١) وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين [البخاري (٣٤١٤)، مسلم (٢٣٧٣)] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لَا تَفْضَلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ»؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصية، لا بمقتضى الدليل، فإنه إذا دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، ولا خلاف أن محمدا ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم. [ابن كثير (٨٧/٥)].

(٢) وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله والنصح فيها وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب. [السعدي (ص: ٤٦٠)].

وَاسْتَحَقُّوا الْإِهْلَاكَ، وَقَدْ حَكَمْنَا بِإِمْنِهِمْ لِاتِّمَامِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ (وَعَاثَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ) آيَةً (مُبْصِرَةً) بَيْنَهُ وَاضِحَةً (فَظَلَمُوا) كَفَرُوا (بِهَا) فَأَهْلَكُوا (وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ) الْمُعْجَزَاتِ (إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩) (لِلْعِبَادِ لِيُؤْمِنُوا. (وَ) اذْكُرْ (إِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ) عِلْمًا وَقُدْرَةً، فَهُمْ فِي قَبْضَتِهِ، فَلَبَّغَهُمْ وَلَا تَخَفْ أَحَدًا، فَهُوَ يَعِصُوكَ مِنْهُمْ (وَمَا جَعَلْنَا الرُّعْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ) عِيَانًا لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ (إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ) أَهْلِ مَكَّةَ إِذْ كَذَّبُوا بِهَا وَارْتَدَّ بَعْضُهُمْ لَمَّا أَخْبَرَهُمْ بِهَا (وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ) وَهِيَ الزَّقُّومُ الَّتِي تَنْبُتُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لَهُمْ، إِذْ قَالُوا النَّارُ تَحْرِقُ الشَّجَرَ فَكَيْفَ تَنْبُتُ^(١) (وَنُحَوِّفُهُمْ) بِهَا (فَمَا يَزِيدُهُمْ) تَخْوِيفُنَا (إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠) (وَ) اذْكُرْ (إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتُ طِينًا ٦١) نَصَبُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ، أَي: مِنْ طِينٍ. (قَالَ أَرَأَيْتَكَ) أَي: أَخْبَرْنِي (هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ) فَضَّلْتَ (عَلَى) بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَ (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ) [الأعراف: ١٢] (لَيْنٌ) لَمْ قَسَمِ (أَخْرَجْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأُحْتَنِكَ) لَأَسْتَأْصِلَنَّ (ذُرِّيَّتَهُ) بِالْإِغْوَاءِ (إِلَّا قَلِيلًا ٦٢) مِنْهُمْ مِمَّنْ عَصَمْتَهُ. (قَالَ) تَعَالَى لَهُ: (أَذْهَبَ) مُنْظَرًا إِلَى وَقْتِ النَّفْخَةِ الْأُولَى^(٢) (فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَأُكُمْ) أَنْتَ وَهُمْ (جَزَاءَ مَوْفُورًا ٦٣) (وَإِفْرًا كَامِلًا. (وَأَسْتَفِزُّ) اسْتَخِفَّ (مَنْ أَسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ) بِدُعَائِكَ بِالْغِنَاءِ وَالْمَزَامِيرِ وَكُلِّ دَاعٍ إِلَى الْمَعْصِيَةِ (وَأَجْلِبْ) صَحَّ (عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ) وَهُمْ الرُّكَّابُ وَالْمُشَاةُ فِي الْمَعَاصِي (وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ) الْمُحَرَّمَةِ كَالرَّبَا وَالْغُصْبِ (وَالْأَوْلَادِ) مِنَ الزَّوْجِ (وَعَدَهُمْ) بِأَنْ لَا بَعَثَ وَلَا جَزَاءَ (وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ) بِذَلِكَ (إِلَّا غُرُورًا ٦٤) (بَاطِلًا. (إِنَّ عِبَادِي) الْمُؤْمِنِينَ (لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) تَسَلُّطُ وَقُوَّةٌ (وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥) (حَافِظًا لَهُمْ مِنْكَ. (رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي) يُجْرِي (لَكُمْ أَلْفَلَكَ) أَلْسُنُ (فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا) تَطْلُبُوا (مِنْ فَضْلِهِ) تَعَالَى بِالتَّجَارَةِ (إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ٦٦) (فِي تَسْخِيرِهَا لَكُمْ. (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ) الشَّدَّةُ (فِي الْبَحْرِ) خَوْفَ الْعَرَقِ (ضَلَّ) غَابَ عَنْكُمْ (مَنْ تَدْعُونَ) تَعْبُدُونَ مِنَ الْآلِهَةِ، فَلَا تَدْعُونَهُ (إِلَّا إِيَّاهُ) تَعَالَى، فَإِنَّكُمْ

(١) بين أن هذا هو المراد من كون الشجرة المذكورة فتنة لهم، بقوله: (أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ٦٣

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤) الآية [الصفات: ٦٢ - ٦٤] وهو واضح كما ترى. [الشقيطي (٣/٧١٣)].

(٢) ليس من الذهاب الذي هو ضد المجيء، وإنما معناه امض لشأنك الذي اخترته خذلانًا وتخليه بينه وبين ما سولته نفسه، أمره بأوامر خمسة القصد بها التهديد والاستدراج لا التكليف، لأنها كلها معاص والله لا يأمر بها؛ والمعنى اذهب منظرًا إلى وقت النفخة الأولى مع أن غرضه الإمهال والإنظار إلى النفخة الثانية، وغرضه بذلك طلب ألا يموت أصلاً لأنه يعلم أنه لا موت بعد النفخة الثانية. [صديق حسن (٧/٤١٨)].

تَدْعُونَهُ وَحْدَهُ لِأَنَّكُمْ فِي شِدَّةٍ لَا يَكْشِفُهَا إِلَّا هُوَ ﴿فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ﴾ مِنَ الْغَرَقِ وَأَوْصَلَكُمْ ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ عَنْ التَّوْحِيدِ ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ٦٧﴾ جَحُودًا لِلنِّعَمِ ١٠٠ ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ أَيِ: الْأَرْضِ كَقَارُونَ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أَيِ: يَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ كَقَوْمِ لُوطٍ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ٦٨﴾ حَافِظًا مِنْهُ. ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ أَيِ: فِي الْبَحْرِ ﴿فِيهِ تَارَةً﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أَيِ: رِيحًا شَدِيدَةً لَا تَمُرُّ بِشَيْءٍ إِلَّا قَصَفَتْهُ فَتَكْسِرُ فُلَكُمْ ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ بِكُفْرِكُمْ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ٦٩﴾ نَاصِرًا وَتَابِعًا يُطَالِبُنَا بِمَا فَعَلْنَا بِكُمْ. ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا﴾ فَضَّلْنَا ﴿بَنِي آدَمَ﴾ بِالْعِلْمِ وَالنُّطْقِ وَاعْتِدَالِ الْخَلْقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَمِنْهُ طَهَارَتُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ ١٠١ ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ عَلَى الدَّوَابِّ ﴿وَالْبَحْرِ﴾ عَلَى السُّفُنِ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ كَالْبَهَائِمِ وَالْوُحُوشِ ﴿تَفْضِيلًا ٧٠﴾ فَ «مَنْ» بِمَعْنَى «مَا»، أَوْ عَلَى بَابِهَا وَتَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَالْمُرَادُ تَفْضِيلُ الْجِنْسِ، وَلَا يَلْزَمُ تَفْضِيلُ أَفْرَادِهِ إِذْ هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ ١٠٢. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ بِنَبِيِّهِمْ فَيَقَالُ يَا أُمَّةَ فَلَانٍ، أَوْ بِكِتَابِ أَعْمَالِهِمْ، فَيَقَالُ: يَا صَاحِبَ

(١) أي: ذهب عن أوهامكم وخواطركم كل من تدعونه وتعبّدونه، إلا إياه وحده. فإنكم لا تذكرون سواه. فطرة فطر الله الخلق عليها. وهذه الآية مما يستدل بها على الرجوع إلى الفطرة الصحيحة. وقد استدلل لكثير من الأصول بها، كما يعلم ذلك من كلام الأئمة في مسائل شتى. كمسألة وجود الخالق وعلوه، والمعاد وغيرها. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ﴾ أي: من الغرق ﴿إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أي: عن التوحيد: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ أي: بأنعم الله. والجملة كالتعليل للإعراض. قال الشهاب: وفيه لطف، حيث أعرض عن خطابهم بخصوصهم. وذكر أن جنس الإنسان مجبول على هذا، فلما أعرضوا أعرض الله عنهم. [القاسمي (٤٧٦/٦)].

(٢) تضعيف كرم، أي: جعلنا لهم كرما، أي: شرفا وفضلا. وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة. والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله. [القرطبي (٢٩٣/١٠)].

(٣) الفرق بين التفضيل والتكريم بالعموم والخصوص؛ فالتكريم منظور فيه إلى تكريمه في ذاته، والتفضيل منظور فيه إلى تشریفه فوق غيره، على أنه فضله بالعقل الذي به استصلاح شئونه، ودفع الأضرار عنه وبأنواع المعارف والعلوم، هذا هو التفضيل المراد. وأما نسبة التفاضل بين نوع الإنسان، وأنواع من الموجودات الخفية عنا كالملائكة والجن فليست هنا، وإنما تعرف بأدلة توقيفية من قبل الشريعة، فلا تفرض هنا مسألة التفضيل بين البشر والملائكة المختلف في تفاصيلها. [ابن عاشور (١٦٦/١٥)].

الْشَّرُّ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ^(١) ﴿فَمَنْ أَوْقَى﴾ مِنْهُمْ ﴿كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وَهُمْ السُّعَدَاءُ أُولُو الْبَصَائِرِ فِي الدُّنْيَا ﴿فَأُولَئِكَ يَقرءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقِصُونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ﴿فَتِيلًا ۝٧١﴾ قَدَرِ قَشْرَةِ النَّوَاةِ^(٢). ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أَيِ: الدُّنْيَا ﴿أَعْمَى﴾ عَنِ الْحَقِّ ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ عَنِ طَرِيقِ النَّجَاةِ وَقِرَاءَةِ الْكِتَابِ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ۝٧٢﴾ أَبْعَدُ طَرِيقًا عَنْهُ. وَنَزَلَ فِي ثَقِيفٍ وَقَدْ سَأَلُوهُ ﷺ أَنْ يُحَرِّمَ وَاذِيَهُمْ وَالْحَوَا عَلَيْهِ: ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةً ﴿كَادُوا﴾ قَارَبُوا ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ لَيْسْتَ تَزِلُونَكَ ﴿عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا﴾ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ ﴿لَا تَخْذُوكَ خَلِيلًا ۝٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ عَلَى الْحَقِّ بِالْعَصْمَةِ ﴿لَقَدْ كِدْتَ﴾ قَارَبْتَ ﴿تَرَكُنْ﴾ تَمِيلُ ﴿إِلَيْهِمْ شَيْئًا﴾ رُكُونًا ﴿قَلِيلًا ۝٧٤﴾ لِشِدَّةِ احْتِيَالِهِمْ وَالْحَاجِهِمْ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَرَكُنْ وَلَا قَارَبَ^(٣). ﴿إِذَا﴾ لَوْ رَكَنْتَ ﴿لَا دَفْنَكَ﴾

(١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْيَالِهِمْ﴾ قال بعض العلماء: المراد ﴿بِإِمْيَالِهِمْ﴾ هنا كتاب أعمالهم. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢]، وقوله: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الباقية: ٢٨]، وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ الآية [الكهف: ٤٩]، وقوله: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَخُزِّجْ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، واختار هذا القول ابن كثير ... وعزاه لابن عباس وأبي العالية والضحاك والحسن، وعن قتادة ومجاهد: أن المراد ﴿بِإِمْيَالِهِمْ﴾ بينهم، ويدل لهذا القول قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧] ... وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالْنَبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ الآية [الزمر: ٦٩] ... وقال بعض أهل العلم: ﴿بِإِمْيَالِهِمْ﴾ أي: بكتابتهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع؛ وممن قال به: ابن زيد، واختاره ابن جرير. وقال بعض أهل العلم: ﴿بِإِمْيَالِهِمْ﴾ أي: ندعو كل قوم بمن يأتون به، فأهل الإيمان أئمتهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأهل الكفر أئمتهم ساداتهم وكبارهم من رؤساء الكفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْثَارِ﴾ الآية [القصص: ٤١]، وهذا الأخير أظهر الأقوال عندي، والعلم عند الله تعالى. فقد رأيت أقوال العلماء في هذه الآية وما يشهد لها من قرآن، وقوله بعد هذا: ﴿فَمَنْ أَوْقَى كَتَبَهُ بِيَمِينِهِ﴾ من القرائن الدالة على ترجيح ما اختاره ابن كثير من أن الإمام في هذه الآية كتاب الأعمال. [الشنقيطي (٧٢٨/٣)].

(٢) أي: لا ينقصون من أجورهم قدر فتيل وهو: القشرة التي في شق النواة، أو هو عبارة عن أقل شيء، وفي النواة أمور ثلاثة: فتيل وهو الخيط الذي في الحز الكائن فيها طولاً، والقطير وهو قشرة النواة، والتقير وهو الخيط الذي في النقرة التي في ظهرها. [صديق حسن (٤٢٩/٧)].

(٣) قال القفال رحمه الله بعد ذكره ما روي في سبب نزولها: ويمكن أيضاً تأويلها من غير تقييد بسبب يضاف نزولها فيه؛ لأن من المعلوم أن المشركين كانوا يسعون في إبطال أمر رسول الله ﷺ بأقصى ما يقدرون عليه. فتارة كانوا يقولون: إن عبدت آلهتنا عبدنا إلهك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝﴾ [الكافرون: ١-٢] وقوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وعرضوا عليه الأموال الكثيرة والنساء الجميلة ليرك ادعاء النبوة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [طه: ١٣١] ودعوه إلى طرد المؤمنين عن

ضِعْفٌ ﴿عَذَابِ﴾ الْحَيَاةِ وَضِعْفٌ ﴿عَذَابِ﴾ الْمَمَاتِ ﴿أَيُّ﴾ مِثْلِي مَا يُعَذَّبُ غَيْرَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ٧٥ ﴿مَا نَعَا مِنْهُ. وَنَزَلَ لَمَا قَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَالْحَقْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا أَرْضُ الْأَنْبِيَاءِ» ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ ﴿كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ الْمَدِينَةِ ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا﴾ لَوْ أَخْرَجُوكَ ﴿لَا يَلْبُثُونَ خِلْفَكَ﴾ فِيهَا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٧٦ ﴿ثُمَّ يَهْلِكُونَ. سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ أَيُّ: كَسَبْنَا فِيهِمْ، مِنْ إِهْلَاكِ مَنْ أَخْرَجَهُمْ ﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ٧٧ ﴿تَبْدِيلًا. أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أَيُّ: مِنْ وَفْتِ زَوَالِهَا ﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إِقْبَالَ ظُلُمَتِهِ، أَيُّ: «الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ وَالْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ» ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ ٧٨ ﴿تَشْهَدُهُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ﴾. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ فَصَلِّ ﴿بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فَرِيضَةً زَائِدَةً لَكَ دُونَ أَمَّتِكَ، أَوْ فَضِيلَةً عَلَى الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَةِ ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ﴾ يُقِيمَكَ

نفسه فأُنزل الله تعالى قوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] فيجوز أن تكون هذه الآيات نزلت في هذا الباب. وذلك أنهم قصدوا أن يفتنوه عن دينه، وأن يزيلوه عن منهجه. فبين تعالى أنه يشبهه على الدين القويم والمنهج المستقيم. وعلى هذا الطريق. فلا حاجة في تفسير هذه الآيات، إلى شيء من تلك الروايات. والله أعلم... وقال القاضي: معنى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبْتَئَنَّاكَ﴾ الآية، إنك كنت على صدد الركون إليهم، لقوة خداعهم وشدة احتيالهم. لكن أدرتكم عصمتنا فمنعت أن تقرب من الركون، فضلا عن أن تركز عليهم. وهو صريح في أنه ﷺ ما هم بإجابتهم، مع قوة الداعي إليها، ودليل على أن العصمة بتوفيق الله وحفظه. وجاء في «حواشي جامع البيان» ما مثاله بالحرف: من الفوائد الجليلة في هذه الآية، أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك، بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوما. فإنها شعائر الكفر والشرك. وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثانا وطواغيت تعبد من دون الله. والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذور والتقييل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض، مع القدرة على إزالتها. وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وأعظم شرك عندها وبها. فإن اللات - على ما نقله ابن خزيمة عن مجاهد - رجل كان يلت لهم السويق فمات. فعكفوا على قبره يعبدونه ويعظمونه. ولم يقولوا: إن اللات خلقت السماوات والأرض، بل كان شركهم باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه، من النذور لها، والشرك بها، والتمسح بها، وتقبيلها، واستلامها. وما طلبوا من رسول الله ﷺ إلا مجرد مس آلهتهم، كما قالوا نؤمن بك إن تمس آلهتنا، وما التمسوا منه إلا التمتع باللات سنة من غير عبادة، فتوعد بهذا الوعيد الشديد والتهديد الأكيد أن لو ركن إليهم. فالرزية كل الرزية ما ابتلي به القبوريون من أهل هذا الزمان. فإنهم لم يدعوا شيئا مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام، إلا فعلوه بالقبور. فإننا لله وإنا إليه راجعون. [القاسمي (٦/ ٤٨٠)].

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «فَضَّلُ صَلَاةِ الْجَمِيعِ عَلَى صَلَاةِ الْوَاحِدِ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً، وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ». ويقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا. أخرجه البخاري (٤٧١٧).

﴿رَبُّكَ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ ٧٩ ﴿يَحْمَدُكَ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، وَهُوَ مَقَامُ الشَّفَاعَةِ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ﴾ ٨٠. وَنَزَلَ لَمَّا أَمَرَ بِالْهَجْرَةِ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي الْمَدِينَةَ﴾ ﴿مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ إِذْخَالًا مَرْضِيًّا لَا أَرَى فِيهِ مَا أَكْرَهُ ﴿وَأُخْرِجْنِي﴾ مِنْ مَكَّةَ ﴿مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ إِخْرَاجًا لَا أَلْتَفِتُ بِقَلْبِي إِلَيْهَا ٨١ ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ ٨٢ قُوَّةً تَنْصُرُنِي بِهَا عَلَى أَعْدَائِكَ ٨٣. ﴿وَقُلْ﴾ عِنْدَ دُخُولِكَ مَكَّةَ: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ الْإِسْلَامُ ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ بَطَلَ الْكُفْرُ ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ٨٤ مُمْضِحًا زَائِلًا، وَقَدْ دَخَلَهَا ﷺ وَحَوْلَ الْبَيْتِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ صَنَمًا، فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَيَقُولُ ذَلِكَ حَتَّى سَقَطَتْ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ ٨٥. ﴿وَنُزِّلُ مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ مِنْ

(١) قال ابن جرير: «قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقوم به ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم» ... قال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبي نجيع، عن مجاهد. وقاله الحسن البصري. وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذي قال الله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قلت: لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث رাকা إلى المحشر، وله اللواء الذي آدم فمن دونه تحت لوائه، وله الحوض الذي ليس في الموقف أكثر واردا منه، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتي لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعدما يسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «كُنْتُ لَهَا» حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول: «أَنَا لَهَا، أَنَا لَهَا». أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣). ومن ذلك أنه يشفع في أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع في الجنة، كما ثبت في صحيح مسلم. وفي حديث الصور: إن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته، وهو أول داخل إليها وأمه قبل الأمم كلهم. ويشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن الله تعالى في الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنيون والمؤمنون، فيشفع هو في خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه في ذلك. عن آدم بن علي، سمعت ابن عمر يقول: إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاما محمودا. أخرجه البخاري (٤٧١٨). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قَالَ: «هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ لِأُمَّتِي فِيهِ». أخرجه أحمد (٤٤٤). [ابن كثير (١٠٤/٥)].

(٢) المدخل: دخوله إلى المدينة، والمخرج خروجه من مكة، وقيل: المدخل في القبر، والمخرج إلى البعث، واختار ابن عطية أن يكون على العموم في جميع الأمور. [ابن جزي (١/٤٥٣)].

(٣) حجة تنصرنى على من خالفني أو ملكا ينصر الإسلام على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣]، ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. [البيضاوي (٣/٢٦٤)].

(٤) أخرجه البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١).

الضَّلَالَةِ^(١) ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾^(٢) لِكُفْرِهِمْ بِهِ^(٣). ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الْكَافِرِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنِ الشُّكْرِ ﴿وَنَا بِجَانِبِهِ﴾ ثَنَى عِطْفُهُ مُتَبَخِّرًا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الْفَقْرُ وَالشَّدَّةُ ﴿كَانَ يُوَسَّسًا﴾^(٤) فَنُوطًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ^(٥). ﴿قُلْ كُلُُّّ مِنَّا وَمِنْكُمْ﴾ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ طَرِيقَتَهُ ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾^(٦) طَرِيقًا فَيْثِيَّةً. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ ﴿عَنِ الرُّوحِ﴾ الَّذِي يَحْيَا بِهِ الْبَدَنُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أَيُّ: عِلْمِهِ، لَا تَعْلَمُونَهُ ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٧) بِالنَّسْبَةِ إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى^(٨).

(١) «من» لا ابتداء الغاية قاله أبو حيان، ويصح أن تكون لبيان الجنس قاله الزمخشري وابن عطية وأبو البقاء، فإن جميع القرآن شفاء، وقدم على المبين للاهتمام وأبو حيان ينكر جوازه لأن التي للبيان لا بد أن يتقدمها ما تبينه لا أن تتقدم هي عليه فالمختار هو الأول، وقيل: للتبويض وأنكره بعض المفسرين لاستلزامه أن بعضه لا شفاء فيه، ورده ابن عطية بأن المبعوض هو إنزاله. واختلف أهل العلم في معنى كونه شفاء على قولين: الأول: أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها وذهاب الريب وكشف الغطاء عن الأمور الدالة على الله سبحانه. الثاني: أنه شفاء عن الأمراض الظاهرة بالرقى والتعوذ ونحو ذلك والتبرك بقراءته يدفع كثيراً من الأدواء والأسقام يدل عليه ما روي عن النبي ﷺ في فاتحة الكتاب وما يدريك أنها رقية، ولا مانع من حمل الشفاء على معنيين من باب عموم المجاز أو من باب حمل المشترك على معنييه. [صديق حسن (٤٤٤/٧)].

(٢) والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِيْنَ ءَامَنُوا هُدًى وَشَفَآءٌ وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيْٓ ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّٓ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]. [ابن كثير (١١٢/٥)].

(٣) إشارة إلى السبب في وقوع هؤلاء الضالين في أودية الضلال. وهو حب الدنيا وإيثارها على الأخرى، وكفران نعمه تعالى، بالإعراض عن شكرها، والجزع واليأس من الفرج عند مس شر قضى عليه. وكل ذلك مما ينافي عقد الإيمان. فإن المؤمن ينظر بعين البصيرة، ويشاهد قدرة الله تعالى في كلتا الحالتين. ويتيقن في الحالة الأولى؛ أن الشكر رباط النعم. وفي الثانية أن الصبر دفاع النقم. فيشكر ويصبر. ويعلم أن المنعم يقدر، فلم يعرض عند النعمة بطرا وأشرا. ولم يغفل عن المنعم ولم يجزع عند النعمة جزعا وضجرا. فالآية وصف للجنس باعتبار بعض أفرادهم ممن هو على هذه الصفة. كقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾^(١) وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ^(٢) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ^(٣) [هود: ٩-١١]. [القاسمي (٤٩٩/٦)].

(٤) السائلون اليهود، وقيل: قريش بإشارة اليهود، والروح هنا عند الجمهور هو الذي في الجسم، وقد يقال فيه: النفس، وقيل: الروح هنا جبريل، وقيل: القرآن، والأول هو الصواب لدلالة ما بعده على ذلك ﴿قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أَي: من الأمور التي استأثر الله بها ولم يطلع عليها خلقه، وكانت اليهود قد قالت لقريش أسألوه عن الروح، فإن لم يجيبكم فيه بشيء فهو نبي، وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن الروح مما انفرد الله بعلمه، وقال ابن بريدة: لقد مضى النبي ﷺ وما يعرف الروح، ولقد كثر اختلاف الناس في النفس والروح، وليس في أقوالهم في ذلك ما يعول عليه ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ خطاب عام لجميع الناس، لأن علمهم قليل بالنظر إلى علم الله. [ابن جزي (٤٥٣/١)].

﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿شِنَّا لَنَذْهَبَنَّ بِأَلَدِي أَوْحِينَا إِلَيْكَ﴾ أَي: مِنْ الْقُرْآنِ بِأَنْ نَمُحُوهُ مِنَ الصُّدُورِ وَالْمَصَاحِفِ ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ ٨٦ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أَبْقَيْنَاهُ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ ٨٧ ﴿عَظِيمًا، حَيْثُ أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَأَعْطَاكَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْفَضَائِلِ. ﴿قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ﴾ فِي الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ٨٨ ﴿مُعِينًا، نَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ [الأنفال: ٣١] ٨٩. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ صِفَةً لِمَحْذُوفٍ، أَي: مَثَلًا مِنْ جِنْسِ كُلِّ مَثَلٍ ٩٠؛ لِيَتَّعِظُوا ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ ٩١ ﴿جُحُودًا لِلْحَقِّ. ﴿وَقَالُوا﴾ عَطَفَ عَلَى ﴿أَبَى﴾: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ٩٢ ﴿عَيْنًا يَنْبُعُ مِنْهَا الْمَاءُ. ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا﴾ وَسَطَهَا ﴿تَفْجِيرًا﴾ ٩٣ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ قِطْعًا ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ ٩٤ ﴿مُقَابَلَةً وَعَيْنًا فَتَرَاهُمْ. ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ﴾ ذَهَبٍ ﴿أَوْ تَرْقَى﴾ تَصْعَدَ ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ عَلَى السَّلَمِ ﴿وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ لَوْ رَقِيتَ فِيهَا ﴿حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا﴾ مِنْهَا ﴿كِتَابًا﴾ فِيهِ تَصْدِيقُكَ ﴿نَقْرُؤُهُ﴾ قُلْ ﴿لَهُمْ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ تَعْجَبُ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٥ ﴿كَسَائِرِ الرُّسُلِ؟ وَلَمْ يَكُونُوا يَأْتُونَ بَابَهُ إِلَّا يَازُنِ اللَّهُ. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أَي: قَوْلُهُمْ مُنْكَرِينَ: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ٩٦ ﴿وَلَمْ يَبْعَثْ مَلَكًا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ﴾ بَدَلُ الْبَشَرِ ﴿مَلَائِكَةٌ يُمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ٩٧ ﴿إِذْ لَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمٍ رَسُولٌ إِلَّا مِنْ جِنْسِهِمْ، يُمَكِّنُهُمْ مُحَاطَبَتُهُ وَالْفَهْمُ عَنْهُ. ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ عَلَى صِدْقِي ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ٩٨ ﴿عَالِمًا بِبَوَاطِنِهِمْ وَظَوَاهِرِهِمْ. ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ

(١) نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظاهروا، فإن هذا أمر لا يستطيع، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق، الذي لا نظير له، ولا مثال له، ولا عدیل له. [ابن كثير]. وفي تقاصر قوى هؤلاء جميعهم عن ذلك، مع طول الزمن، دليل قاطع على أنه ليس مما اعتيد صدوره عن البشر، بل هو كلام عالم الغيب والشهادة. [القاسمي].

(٢) أي: ردنا القول فيه بوجوه مختلفة زيادة في التقرير والبيان، وكررنا بكل مثل يوجب الاعتبار من الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهي، وأفاصيص الأولين والجنة والنار والقيامة، وقيل: من كل معنى هو كالمثل في غرابته وحسنه ووقوعه موقعاً في الأنفس، والأول أولى. [صديق حسن (٧/ ٤٥٢)].

يُضِلُّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ يَهْدُونَهُمْ ﴿مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ مَا شِئْنَا ^(١) ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّا وُتُّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ سَكَنَ لَهَا ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ^(٢) تَلْهَبًا وَاشْتَعَالًا. ﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا﴾ مُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَّتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ^(٣) * أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مَعَ عِظْمَيْهَا ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيُّ: الْإِنْسَانِي فِي الصَّغَرِ ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا﴾ لِلْمَوْتِ وَالْبَعْثِ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ^(٤) جُحُودًا لَهُ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ مِنَ الرِّزْقِ وَالْمَطَرِ ﴿إِذَا لَأْمَسَكُمْ﴾ لَبَخَلْتُمْ ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ خَوْفَ نَفَادِهَا بِالْإِنْفَاقِ فَتَفْتَقَرُوا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾ ^(٥) بَخِيلًا ^(٦). ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَهِيَ: ﴿الْيَدُ، وَالْعَصَا، وَالطُّوفَانُ، وَالْجَرَادُ، وَالْقُمَّلُ، وَالضَّفَادِعُ، وَالْدَّمُ أَوْ الطَّمَسُ، وَالسِّنِينَ، وَنَقْصُ الثَّمَرَاتِ﴾﴾ ﴿فَسُئِلَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ عَنْهُ سُؤَالَ تَقْرِيرٍ لِلْمُشْرِكِينَ عَلَىٰ صِدْقِكَ، أَوْ فَقَلْنَا لَهُ: إِسْأَلٌ، وَفِي قِرَاءَةِ بَلْفُظِ الْمَاضِي ^(٧) ﴿إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ^(٨) مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَىٰ عَقْلِكَ. ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ الْآيَاتِ ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ عَبْرًا وَلَكِنَّكَ تُعَانِدُ، وَفِي قِرَاءَةِ بَضْمِ التَّاءِ ﴿وَإِنِّي

(١) فيه وجهان: أحدهما: أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم، من قول العرب: قدم القوم على وجوههم إذا أسرعوا. الثاني: أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه. وهذا هو الصحيح، لحديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، الذين يحشرون على وجوههم، أيحشر الكافر على وجهه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أليس الذي أمشاه على الرجلين قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمَشِّيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قال قتادة حين بلغه: بلى وعزة ربنا. أخرجه البخاري (٦٥٢٣)، ومسلم (٢٨٠٦). [القرطبي (١٠/٣٣٣)].

(٢) يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم قل لهم يا محمد: لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكنكم خشية الإنفاق. قال ابن عباس، وقاتلة: أي: الفقر، أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبدا؛ لأن هذا من طباعكم وسجايكم، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقاتلة: أي: بخيلا منوعا. وقال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣]

أي: لو أن لهم نصيبا في ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا، ولا مقدار فقير، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ^(٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ^(١٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ^(١١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ ^(١٢) [المعارج: ١٩ - ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة في القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه وجوده وإحسانه، وقد جاء في الصحيحين: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ». أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣). [ابن كثير (٥/١٢٤)].

(٣) قراءة شاذة.

لَا تُظَنُّكَ يَفِرُّعُونَ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ هَالِكًا أَوْ مَصْرُوفًا عَنِ الْخَيْرِ. ﴿فَأَرَادَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ﴾ يُخْرِجَ مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَأَعْرِضْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ اأَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴿أَيِ: السَّاعَةِ﴾ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ جَمِيعًا أَنْتُمْ وَهُمْ. ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيِ: الْقُرْآنَ ﴿وَبِالْحَقِّ﴾ الْمُسْتَمِلَ عَلَيْهِ ﴿نَزَلَ﴾ كَمَا أَنْزَلَ لَمْ يَغْتَرِهِ تَبْدِيلٌ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ ﴿١٠٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ. ﴿وَقُرْءَانًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ يُفَسِّرُهُ ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ نَزَلْنَاهُ مُفْرَقًا فِي عِشْرِينَ سَنَةً أَوْ ثَلَاثٍ ﴿لِتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ مَهْلٍ وَتُؤَدِّهَ لِيَفْهَمُوهُ ﴿وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ ﴿١٠٦﴾ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ عَلَى حَسَبِ الْمَصَالِحِ^(١). ﴿قُلْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قَبْلَ نَزُولِهِ وَهُمْ مُؤْمِنُوا أَهْلَ الْكِتَابِ^(٢) ﴿إِذَا يُنْزَلُ عَلَيْهِمْ يُخْرِجُونَ لِلْأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا ﴿تَنْزِيلًا لَهُ

(١) ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيِ: بِالْحَقِيقَةِ أَنْزَلْنَاهُ كِتَابًا مِنْ لَدُنَّا فَإِنْ تَذَهَبُونَ؟ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُو يَعْلَمُهُ﴾ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ^(٣) [النساء: ١٦٦]، ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أَيِ: مَتَلَبَسًا بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ ثَبَاتٌ نِظَامِ الْعَالَمِ عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ. وَهُوَ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ وَمَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ وَكُلِّ مَا خَالَفَ الْبَاطِلَ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]. [القاسمي (٥٢٠/٦)].

(٢) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: نَزَلَ الْقُرْآنُ إِلَى السَّمَاءِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مِنْ رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا أَحْدَثُوا شَيْئًا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُمْ جَوَابًا فَرَفَقَهُ اللَّهُ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً... وَعَنْهُ ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ فَصَلَّنَاهُ عَلَى مُكْثٍ بِأَمْدٍ. قَالَ فِي الْجَمَلِ وَبِالتَّشْدِيدِ قَرَأَ عَلِيٌّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَفِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّ التَّضْعِيفَ لِلتَّكْثِيرِ، أَيِ: فَرَقْنَا آيَاتِهِ بَيْنَ أَمْرٍ وَنَهْيٍ وَحُكْمٍ وَأَحْكَامٍ وَمَوَاعِظٍ وَأَمْثَالٍ وَقِصَصٍ وَأَخْبَارٍ مَاضِيَةٍ وَمُسْتَقْبَلَةٍ. وَالثَّانِي: أَنَّهُ دَالٌ عَلَى التَّفْرِيقِ وَالتَّنْجِيمِ. انْتَهَى. ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ الْعِلَّةَ لِقَوْلِهِ فَرَقْنَاهُ فَقَالَ: ﴿لِتَقْرَأُوهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أَيِ: عَلَى تَطَاوُلٍ فِي الْمُدَّةِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، عَلَى الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، أَوْ أَنْزَلْنَاهُ آيَةً وَآيَةً وَسُورَةً وَسُورَةً، وَمَعْنَاهُ عَلَى الْقِرَاءَةِ الْأُولَى عَلَى تَرْسُلٍ وَتَمَهُّلٍ وَتَوَدُّدٍ فِي التَّلَاوَةِ؛ فَإِنْ ذَلِكَ أَقْرَبُ إِلَى الْفَهْمِ وَأَسْهَلُ لِلْحِفْظِ... ﴿وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ التَّأْكِيدُ بِالْمَصْدَرِ لِلْمَبَالِغَةِ وَالْمَعْنَى أَنْزَلْنَاهُ مَنْجَمًا مُفْرَقًا فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً عَلَى حَسَبِ الْحَوَادِثِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ، وَلَوْ أَخَذُوا بِجَمِيعِ الْفَرَائِضِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ لَنَفَرُوا وَلَمْ يَطِيقُوا. [صديق حسن (٤٦٦/٧)].

(٣) أَمْرٌ بِاحْتِقَارِهِمْ وَعَدَمِ الْاِكْتِرَافِ بِهِمْ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: سَوَاءٌ آمَنْتُمْ أَوْ لَمْ تَتُؤْمِنُوا، لَكُنْكُمْ لَسْتُمْ بِحُجَّةٍ، وَإِنَّمَا الْحُجَّةُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ قَبْلِهِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ يَعْنِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقِيلَ: الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْحَنِيفِيَّةِ قَبْلَ الْبَعْثَةِ كَزَيْدِ بْنِ عَمْرٍو وَبْنِ نَفِيلٍ، وَوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَعْلِيلٌ لِمَا تَقْدَمُ، وَالْمَعْنَى: إِنْ لَمْ تَتُؤْمِنُوا بِهِ أَنْتُمْ، فَقَدْ آمَنَ بِهِ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكُمْ. [ابن جُزَيٍّ (٤٥٦/١)].

عَنْ خُلْفِ الْوَعْدِ ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةً ﴿كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا﴾ بِنُزُولِهِ وَبَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿لَمَفْعُولًا﴾ ١٧٨ وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ ﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ الْقُرْآنُ ﴿خُشوعًا﴾ ١٧٩ تَوَاضَعًا لِلَّهِ. وَكَانَ ﷺ يَقُولُ: «يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ»، فَقَالُوا: يَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهَيْنِ وَهُوَ يَدْعُو إِلَهًا آخَرَ مَعَهُ، فَزَلَّ: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ أَيُّ: سَمُوهُ بَإِيْهِمَا، أَوْ نَادُوهُ بِأَنْ تَقُولُوا: «يَا اللَّهُ يَا رَحْمَنُ» ﴿آيَا﴾ شَرْطِيَّةٌ ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ، أَيُّ: أَيِّ هَذَيْنِ ﴿تَدْعُوا﴾ فَهُوَ حَسَنٌ، دَلَّ عَلَى هَذَا ﴿فَلَهُ﴾ أَيُّ: فَلِمَسْمَاهُمَا ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وَهَذَانِ مِنْهَا، فَإِنَّهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِيمُنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ، الرَّافِعُ، الْمُعِزُّ، الْمَذِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْغَفُورُ، الشَّكُورُ، الْعَلِيُّ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيزُ، الْمُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الْكَرِيمُ، الرَّقِيبُ، الْمُجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْحَكِيمُ، الْوَدُودُ، الْمَجِيدُ، الْبَاعِثُ، الشَّهِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْقَوِيُّ، الْمُتَيْنُ، الْوَلِيُّ، الْحَمِيدُ، الْمُحْصِي، الْمُبْدِي، الْمُعِيدُ، الْمُحْيِي، الْمُمِيتُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْوَاجِدُ، الْمَاجِدُ، الْوَاحِدُ، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ، الْقَادِرُ، الْمُقْتَدِرُ، الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخِّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْوَالِي، الْمُتَعَالِي، الْبَرُّ، التَّوَّابُ، الْمُتَّقِمُ، الْعَفُو، الرَّؤُوفُ، مَالِكُ الْمُلْكِ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، الْمُقْسِطُ، الْجَامِعُ، الْغَنِيُّ، الْمُغْنِي، الْمَانِعُ، الضَّارُّ، النَّافِعُ، النُّورُ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي، الْوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ بِقِرَاءَتِكَ بِهَا فَيَسْمَعَكَ الْمُشْرِكُونَ فَيَسُبُّوكَ، وَيَسُبُّوا الْقُرْآنَ وَمَنْ أَنْزَلَهُ ﴿وَلَا تُخَافُ﴾ تُسِرُّ ﴿بِهَا﴾ لِيَسْتَفِيعَ

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان (٨٠٨)، والحاكم (٤١). ونقل النووي اتفاق العلماء على أن أسماء الله تعالى ليست محصورة في هذا العدد. واستدلوا على عدم حصر أسماء الله تعالى الحسنى في هذا العدد بما ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَا ضَرَفِي حُكْمُكَ، عَدْلُ فِي قَضَائِكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلِمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا». أخرجه أحمد (٣٧٠٤). فقوله رضي الله عنه: «أَوْ اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»، دليل على أن من أسماء الله تعالى الحسنى ما استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وهذا يدل على أنها أكثر من تسعة وتسعين. وأما قوله رضي الله عنه: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء، لكن معناه أن من أحصى من أسمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يدخل الجنة، فقوله: «مَنْ أَحْصَاهَا» تكميل للجملة الأولى وليست استثنائية منفصلة. [انظر القول المفيد للشيخ ابن عثيمين (١٨٦/٢)].

أَصْحَابِكَ ﴿وَابْتَغِ﴾ اِقْصِدْ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْجَهْرَ وَالْمَخَافَةَ ﴿سَبِيلًا﴾ ﴿طَرِيقًا وَسَطًا﴾. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فِي الْآلُوهِيَّةِ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ﴾ يَنْصُرُهُ ﴿مِّنْ أَجْلِ﴾ ﴿الذَّلِّ﴾ أَيُّ: لَمْ يَذَلَّ فَيَحْتَاجَ إِلَى نَاصِرٍ ﴿وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ﴿عَظُمَهُ عَظَمَةً تَامَّةً﴾، عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَالذَّلِّ وَكُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَتَرْتِيبُ الْحَمْدِ عَلَى ذَلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَتَفَرُّدِهِ فِي صِفَاتِهِ، وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ عَنْ مُعَاذِ الْجُهَنِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «آيَةُ الْعِزِّ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ»^(١)، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ. قَالَ مُؤَلِّفُهُ: هَذَا آخِرُ مَا كَمَلْتُ بِهِ تَفْسِيرَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَلْفَهُ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْعَالِمُ الْمُحَقِّقُ جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَدْ أَفْرَعْتُ فِيهِ جُهْدِي وَبَذَلْتُ فِكْرِي فِيهِ فِي نَفَائِسِ أَرَاهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى تَجْدِي، وَأَلْفَتُهُ فِي مَدَّةٍ قَدَرِ مِيعَادِ الْكَلِيمِ، وَجَعَلْتُهُ وَسِيلَةً لِلْفَوْزِ بِجَنَاتِ النَّعِيمِ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مُسْتَمَادٌ مِنَ الْكِتَابِ الْمُكْمَلِ، وَعَلَيْهِ فِي الْآيِ الْمُتَشَابِهَةِ الْإِعْتِمَادُ وَالْمَعْوَلُ، فَرَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا نَظَرَ بَعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى خَطَأٍ فَأُطْلِعَنِي عَلَيْهِ وَقَدْ قُلْتُ:

لَمَّا أَبْدَيْتُ مَعَ عَجْزِي وَضَعْفِي

حَمَدْتُ اللَّهَ رَبِّي إِذْ هَدَانِي

وَمَنْ لِي بِالْقَبُولِ وَلَوْ بِحَرْفٍ

فَمَنْ لِي بِالْخَطَأِ فَأَرَدَ عَنْهُ

هَذَا وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي خَلْدِي أَنْ أُنْعَرِضَ لِذَلِكَ لِعِلْمِي بِالْعَجْزِ عَنِ الْخَوْصِ فِي هَذِهِ الْمَسَالِكِ وَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ نَفْعًا جَمًّا وَيَفْتَحَ بِهِ قُلُوبًا غُلْفًا وَأَعْيُنًا عُمِيًّا وَآذَانًا صُمًّا، وَكَأَنِّي بِمَنْ اعْتَادَ الْمُطَوَّلَاتِ وَقَدْ أَضْرَبَ عَنْ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ، وَأَصْلُهَا حَسَمًا وَعَدَلًا إِلَى صَرِيحِ الْعِنَادِ وَلَمْ يُوْجَّهْ إِلَى دَقَائِقِهَا فَهَمًّا ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]، رَزَقَنَا اللَّهُ بِهِ هِدَايَةً إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ وَتَوْفِيقًا، وَاطَّلَاعًا عَلَى دَقَائِقِ كَلِمَاتِهِ وَتَحْقِيقًا، وَجَعَلَنَا بِهِ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، وَفُرِغَ مِنْ تَأْلِيفِهِ يَوْمَ الْأَحَدِ عَاشِرِ شَوَّالٍ سَنَةِ سَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَكَانَ الْإِبْتِدَاءُ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ مُسْتَهْلَ رَمَضَانَ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَفُرِغَ

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ قال: كان إذا

صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبية ﷺ:

﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُتُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه

عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾. أخرجه البخاري (٢٧٢٢)، ومسلم (٤٤٦).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٦٣٤)، والطبراني (٤٢٩).

مِنْ تَبْيِضِهِ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ سَادِسِ صَفَرٍ سَنَةِ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ^(١).

(١) جاء في بعض النسخ بعد هذا زيادة، وهي: قَالَ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْخَطِيبُ الطُّوْحِيُّ: أَخْبَرَنِي صَدِيقِي الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ كَمَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ أَخُو شَيْخِنَا الشَّيْخِ جَلَالِ الدِّينِ الْمَحَلِّيِّ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - أَنَّهُ رَأَى أَخَاهُ الشَّيْخَ جَلَالَ الدِّينِ الْمَذْكُورَ فِي النَّوْمِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ صَدِيقُنَا الشَّيْخُ الْعَلَامَةُ الْمُحَقِّقُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ مُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ، وَقَدْ أَخَذَ الشَّيْخُ هَذِهِ التَّكْمِلَةَ فِي يَدِهِ وَتَصَفَّحَهَا وَيَقُولُ لِمُصَنِّفِهَا الْمَذْكُورِ أَيُّهَا أَحْسَنُ وَضِيعِي أَوْ وَضِعُكَ؟ فَقَالَ: وَضِيعِي، فَقَالَ: أَنْظُرْ وَعَرِّضْ عَلَيْهِ مَوَاضِعَ فِيهَا وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى اعْتِرَاضٍ فِيهَا بِلُطْفٍ، وَمُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ كُلَّمَا أوردَ عَلَيْهِ شَيْئًا يُجِيبُهُ وَالشَّيْخُ يَبْتَسِمُ وَيَضْحَكُ، قَالَ شَيْخُنَا الْإِمَامُ الْعَلَامَةُ جَلَالُ الدِّينِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ السُّيُوطِيُّ مُصَنِّفُ هَذِهِ التَّكْمِلَةِ: الَّذِي أَعْتَقَدُهُ وَأَجْزِمُ بِهِ أَنَّ الْوَضْعَ الَّذِي وَضَعَهُ الشَّيْخُ جَلَالُ الدِّينِ الْمَحَلِّيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قِطْعَتِهِ أَحْسَنُ مِنْ وَضِيعِي أَنَا بِطَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَيْفَ وَغَالِبُ مَا وَضَعْتُهُ هُنَا مُقْتَبَسٌ مِنْ وَضِيعِهِ وَمُسْتَفَادٌ مِنْهُ لَا مَرِيَّةَ عِنْدِي فِي ذَلِكَ، وَأَمَّا الَّذِي رُويَ فِي الْمَنَامِ الْمَكْتُوبِ أَعْلَاهُ فَلَعَلَّ الشَّيْخَ أَشَارَ بِهِ إِلَى الْمَوَاضِعِ الْقَلِيلَةِ الَّتِي خَالَفتُ وَضَعَهُ فِيهَا لِنُكْتَةٍ وَهِيَ يَسِيرَةٌ جَدًّا مَا أَظُنُّهَا تَبْلُغُ عَشْرَةَ مَوَاضِعَ مِنْهَا أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ فِي سُورَةِ «ص» وَالرُّوحُ جِسْمٌ لَطِيفٌ يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ بِنُفُودِهِ فِيهِ، وَكُنْتُ تَبِعْتُهُ أَوَّلًا فَذَكَرْتُ هَذَا الْحَدِّ فِي سُورَةِ الْحَجْرِ، ثُمَّ ضَرَبْتُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] الْآيَةِ، فَهِيَ صَرِيحَةٌ أَوْ كَالصَّرِيحَةِ فِي أَنَّ الرُّوحَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى لَا نَعْلَمُهُ فَالْإِنْسَانُ عَنْ تَعْرِيفِهَا أَوَّلَى، وَلِذَا قَالَ الشَّيْخُ تاجُ الدِّينِ بْنُ السُّبْكِيِّ فِي جَمْعِ الْجَوَامِعِ: وَالرُّوحُ لَمْ يَتَكَلَّمْ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ ﷺ فَنَمَسِكَ عَنْهَا. وَمِنْهَا أَنَّ الشَّيْخَ قَالَ فِي سُورَةِ الْحَجِّ: الصَّابِئُونَ فِرْقَةٌ مِنَ الْيَهُودِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَزِدْتُ أَوْ النَّصَارَى بَيَانًا لِقَوْلِ ثَانٍ. فَإِنَّهُ الْمَعْرُوفُ خُصُوصًا عِنْدَ أَصْحَابِنَا الْفُقَهَاءِ، وَفِي الْمُنْهَاجِ: وَإِنْ خَالَفتِ السَّامِرَةُ الْيَهُودَ وَالصَّابِئَةَ النَّصَارَى فِي أَصْلِ دِينِهِمْ، وَفِي شَرْحِهِ أَنَّ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نَصَّ عَلَى أَنَّ الصَّابِئِينَ فِرْقَةٌ مِنَ النَّصَارَى، وَلَا أَسْتَحْضِرُ إِلَّا مَوْضِعًا ثَالِثًا فَكَانَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُشِيرُ إِلَى مِثْلِ هَذَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ، وَإِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَأْبَى.

سُورَةُ الْكَهْفِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ الْآيَةَ، مِائَةٌ وَعَشْرُ آيَاتٍ أَوْ خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ﴾ هُوَ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ، ثَابِتٌ ﴿لِلَّهِ﴾ تَعَالَى، وَهَلِ الْمُرَادُ الْإِعْلَامُ بِذَلِكَ لِلْإِيمَانِ بِهِ، أَوِ الثَّنَاءُ بِهِ، أَوْ هُمَا؟
 اِحْتِمَالَاتٌ، أَفِيدُهَا الثَّالِثُ ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ﴾ أَيُّ: فِيهِ ﴿عَوَجًا﴾
 ﴿١﴾ اِخْتِلَافًا أَوْ تَنَاقُضًا، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الْكِتَابِ. ﴿قِيَمًا﴾ مُسْتَقِيمًا، حَالٌ ثَانِيَةٌ مُؤَكِّدَةٌ ﴿لِيُنْذِرَ﴾ يُخَوِّفُ بِالْكِتَابِ
 الْكَافِرِينَ ﴿بِأَسَا﴾ عَذَابًا ﴿شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ مِّنْ قِبَلِ اللَّهِ ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾
 ﴿٢﴾ مَكْثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَيُنْذِرَ﴾ مِّنْ جُمْلَةِ الْكَافِرِينَ ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾
 مَا لَهُمْ بِهِ. بِهَذَا الْقَوْلِ ﴿مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَائِهِمْ﴾ مِّنْ قَبْلِهِمُ الْقَائِلِينَ لَهُ ﴿كَبُرَتْ﴾ عَظُمَتْ ﴿كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾
 ﴿كَلِمَةً﴾ تَمَيِّزُ مُفَسِّرٍ لِلضَّمِيرِ الْمُبْتَهَمِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، أَيُّ: مَقَالَتُهُمُ الْمَذْكُورَةُ ﴿إِنْ﴾ مَا يَقُولُونَ ﴿فِي ذَلِكَ﴾
 ﴿إِلَّا﴾ مَقُولًا ﴿كَذِبًا﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعٌ﴾ مُهْلِكٌ ﴿نَفْسَكَ عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ﴾ بَعْدَهُمْ، أَيُّ: بَعْدَ تَوَلَّيْهِمْ عَنْكَ ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾
 الْقُرْآنِ ﴿أَسَفًا﴾ غَيْظًا وَحُزْنًا مِنْكَ لِحِرْصِكَ عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾
 مِّنَ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْأَنْهَارِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿زِينَةً لَّهَا لِيَبْلُوهُمْ﴾ لِنَخْتَبِرَ النَّاسَ نَاطِرِينَ إِلَى ذَلِكَ ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فِيهِ، أَيُّ: أَزْهَدُ لَهُ. ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا﴾
 فُتَاتًا ﴿جُرْزًا﴾ ﴿٨﴾ يَابِسًا لَا يُنْبِتُ. ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ أَيُّ: ظَنَنْتَ ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ الْغَارِ فِي الْجَبَلِ ﴿وَالرَّقِيمِ﴾
 اللَّوْحِ الْمَكْتُوبِ فِيهِ أَسْمَاؤُهُمْ وَأَنْسَابُهُمْ^(١)، وَقَدْ سُئِلَ ﷺ عَنْ قِصَّتِهِمْ ﴿كَانُوا﴾ فِي قِصَّتِهِمْ ﴿مِنْ﴾ جُمْلَةِ ﴿ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾
 ﴿٩﴾ خَبِيرٌ كَانَ وَمَا قَبْلَهُ حَالٌ. أَيُّ: كَانُوا عَجَبًا دُونَ بَاقِي الْآيَاتِ أَوْ أَعْجَبَهَا؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. أُذَكِّرُ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾
 جَمْعُ فَتَى - وَهُوَ الشَّابُّ الْكَامِلُ - خَائِفِينَ عَلَىٰ إِيْمَانِهِمْ مِنْ قَوْمِهِمُ الْكُفَّارِ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ﴾
 مِّنْ قَبْلِكَ ﴿رَحْمَةً وَهَيِّئْ﴾ أَصْلَحْ ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هِدَايَةً. ﴿فَضْرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ﴾ أَيُّ: أَنْمَأْنَاهُمْ ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾
 ﴿١١﴾ مَعْدُودَةً. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أَيْقَظْنَاهُمْ ﴿لِتَعْلَمَ﴾ عِلْمَ مُشَاهَدَةٍ ﴿أَيُّ

(١) قال سعيد بن جبير: هو لوح كتب فيه أسماء أصحاب الكهف وقصصهم، وهذا أظهر الأقاويل، ثم وضعوه على باب الكهف. [البغوي (٥/١٤٥)].

الْحَزِينِ ﴿الْفَرِيقَيْنِ الْمُخْتَلَفَيْنِ فِي مَدَّةِ لُبْثِهِمْ﴾^(١) ﴿أَحْصَى﴾ أَفْعُلُ بِمَعْنَى: «أَضْبَطَ» ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ لِبُثِّهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ ﴿أَمَدًا﴾ ﴿غَايَةً﴾. ﴿تَحْنُ نَقْصُ﴾ نَقْرَأُ ﴿عَلَيْكَ نَبَأُهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾
 ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قَوَيْنَاهَا عَلَى قَوْلِ الْحَقِّ ﴿إِذْ قَامُوا﴾ بَيْنَ يَدَيِ مَلِكِهِمْ وَقَدْ أَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ
 ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾^(١٤) أَي: قَوْلًا
 ذَا شَطَطٍ، أَي: إِفْرَاطٍ فِي الْكُفْرِ إِنْ دَعَوْنَا إِلَهًا غَيْرَ اللَّهِ فَرَضًا. ﴿هَؤُلَاءِ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿قَوْمُنَا﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿اتَّخَذُوا مِنْ
 دُونِهِ ءِلَٰهَةً لَّوَلَا﴾ هَلَا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى عِبَادَتِهِمْ ﴿بِسُلْطَنِ بَيْنٍ﴾ بِحُجَّةِ ظَاهِرَةٍ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أَي: لَا أَحَدَ
 أَظْلَمُ ﴿مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾^(١٥) بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ إِلَيْهِ تَعَالَى. قَالَ بَعْضُ الْفِتْيَةِ لِبَعْضٍ: ﴿وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْفُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾^(١٦) بِكَسْرِ
 الْمِيمِ وَفَتْحِ الْفَاءِ وَبِالْعَكْسِ، مَا تَرْتَفِقُونَ بِهِ مِنْ غَدَاءٍ وَعَشَاءٍ. ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوَّرُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ،
 وَالتَّخْفِيفِ، تَمِيلُ ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ نَاحِيَّتَهُ ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ﴾ تَتَرَكَّبُ وَتَتَجَاوَزُ
 عَنْهُمْ فَلَا تُصِيبُهُمُ الْبَتَّةُ ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ مُتَّسِعٌ مِنَ الْكَهْفِ، يَنَالُهُمْ بَرْدُ الرِّيحِ وَنَسِيمُهَا ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مِنْ
 ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ دَلَائِلُ قُدْرَتِهِ^(١٧) ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾^(١٧) وَتَحْسَبُهُمْ لَوْ
 رَأَيْتَهُمْ ﴿أَيْقَظًا﴾ أَي: مُتَبَهِّينَ؛ لِأَنَّ أَعْيُنَهُمْ مُفْتَحَةٌ، جَمْعُ «يَقِظُ» بِكَسْرِ الْقَافِ ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نِيَامٌ جَمْعُ «رَاقِدٌ»

(١) من قوم الفتية أهل الهدى وأهل الضلالة فالمراد بالحزبين الفريقان من المؤمنين والكافرين المختلفين في مدة لبثهم، وقيل: المراد نفس أصحاب الكهف لا أهل المدينة اختلفوا بعد انتباههم كم لبثوا، وقيل: المراد بالحزبين الملوك الذين تداولوا المدينة ملكًا بعد ملك وأصحاب الكهف، وقيل: إن أصحاب الكهف حزب وأصحابهم حزب، وقال الفراء: أن طائفتين من المسلمين في زمان أصحاب الكهف اختلفوا في مدة لبثهم. [صديق حسن (١٧/٨)].

(٢) قيل: هنا كلام محذوف تقديره: فأوى القوم إلى الكهف ومكثوا فيه، وضرب الله على آذانهم، ومعنى تزاور: تميل وتزوغ، ومعنى تقرضهم: تقطعهم، أي: تبعد عنهم، وهو بمعنى القطع، وذات اليمين والشمال أي: جهته، ومعنى الآية: أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها، ولا عند غروبها لئلا يحترقوا بحرهما، فقيل: إن ذلك كرامة لهم وخرق عادة، وقيل: كان باب الكهف شامليًا يستقبل بنات نعش، فلذلك لا تصيبهم الشمس، والأول أظهر لقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾، ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أَي: فِي مَوْضِعٍ وَاسِعٍ، وَذَلِكَ مِفْتَاحٌ لِإِصَابَةِ الشَّمْسِ، وَمَعَ ذَلِكَ حَجَبَهَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ الْإِشَارَةُ إِلَى حَجَبِ الشَّمْسِ عَنْهُمْ إِنْ كَانَ خَرَقَ عَادَةً، وَإِنْ كَانَ لَكُونُ بَابِهِمْ إِلَى الشَّمَالِ فَالْإِشَارَةُ إِلَى أَمْرِهِمْ بِجَمَلَتِهِ. [ابن جزي (١/٤٦٠)].

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ لئَلَّا تَأْكُلَ الْأَرْضُ لُحُومَهُمْ ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ يَدَيْهِ ﴿بِالْوَصِيدِ﴾^(١) بِنِجَاءِ الْكَهْفِ، وَكَانُوا إِذَا انْقَلَبُوا انْقَلَبَ مَعَهُمْ، وَهُوَ مِثْلُهُمْ فِي النَّوْمِ وَالْيَقَظَةِ ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مِنْهُمْ رُعبًا﴾^(٢) بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَضَمِّهَا، مَنَعَهُمُ اللَّهُ بِالرُّعْبِ مِنْ دُخُولِ أَحَدٍ عَلَيْهِمْ^(٣). ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا فَعَلْنَا بِهِمْ مَا ذَكَرْنَا ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ أَيَقْظَنَاهُمْ ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ عَنْ حَالِهِمْ وَمُدَّةِ لَبْنِهِمْ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾؛ لِأَنَّهُمْ دَخَلُوا الْكَهْفَ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَبُعِثُوا عِنْدَ غُرُوبِهَا، فَظَنُّوا أَنَّهُ غُرُوبُ يَوْمِ الدُّخُولِ، ثُمَّ ﴿قَالُوا﴾ مُتَوَقِّفِينَ فِي ذَلِكَ: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ بِسُكُونِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا، بِفَضِّتِكُمْ ﴿هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يُقَالُ إِنَّهَا الْمَسْمَاةُ الْآنَ «طَرَسُوسَ» بَفَتْحِ الرَّاءِ ﴿فَلْيَنْظُرْ أَهْلُهَا أَرْكَى طَعَامًا﴾ أَي: أَيُّ أَطْعَمَةِ الْمَدِينَةِ أَحَلَّ ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلِيَتَلَطَّفَ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾^(٤) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ يَقْتُلُوكُمْ بِالرَّجْمِ ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا﴾ أَي: إِنْ عُدْتُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴿أَبَدًا﴾ وَكَذَلِكَ ﴿كَمَا بَعَثْنَاهُمْ﴾ أَعَثَرْنَا ﴿أَطْلَعْنَا﴾ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أَي: قَوْمُهُمْ ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقٌّ﴾ بِطَرِيقٍ: أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى إِنْجَامِهِ الْمُدَّةَ الطَّوِيلَةَ، وَابْتِقَائِهِمْ عَلَى حَالِهِمْ بِلَا غِذَاءٍ، قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ﴾ لَا شَكَّ ﴿فِيهَا إِذْ﴾ مَعْمُولٌ لـ ﴿أَعَثَرْنَا﴾ ﴿يَتَنَزَّعُونَ﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُ ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ﴾ أَمْرُ الْفِتْيَةِ فِي الْبِنَاءِ حَوْلَهُمْ ﴿فَقَالُوا﴾ أَي: الْكَافِرُ ﴿أَبْنُوا عَلَيْهِمْ﴾ أَي: حَوْلَهُمْ ﴿بُنَيْنًا﴾ يَسْتُرُهُمْ ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أَمْرُ الْفِتْيَةِ، وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿لَتَنَخِذَنَّ﴾ عَلَيْهِمْ حَوْلَهُمْ ﴿مَسْجِدًا﴾^(٥) يُصَلَّى فِيهِ وَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى بَابِ الْكَهْفِ^(٦). ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أَي: الْمُتَنَزَّعُونَ فِي عَدَدِ

(١) أي: لما حَفَهمُ اللهُ تعالى من الرعب واكتنفهم من الهيبة. وقيل: لوحشة مكانهم، وكأنهم آواهم اللهُ إلى هذا المكان الوحش في الظاهر لينفر الناس عنهم. وقيل: كان الناس محجوبين عنهم بالرعب، لا يجسر أحد منهم على الدنو إليهم. وقيل: الفرار منهم لطول شعورهم وأظفارهم، ... وهذا بعيد، لأنهم لما استيقظوا قال بعضهم لبعض: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ودل هذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها، إلا أن يقال: إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم. قال ابن عطية: والصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم آية، فلم يبل لهم ثوب ولم تغير صفة، ولم ينكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم. [القرطبي (١٠/٣٧٣)].

(٢) طوي هنا وصف العثور عليهم، وذكر عودهم إلى الكهف؛ لعدم تعلق الغرض بذكره، إذ ليس موضع عبرة؛ لأن المصير إلى مرقدهم وطرو الموت عليهم شأن معتاد لكل حي ... والذين غلبوا على أمرهم ولادة الأمور بالمدينة، فضمير ﴿أَمْرُهُمْ﴾ يعود إلى ما عاد إليه ضمير

الْفِتْيَةِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَي: يَقُولُ بَعْضُهُمْ: هُمْ «ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ» أَي: بَعْضُهُمْ «خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ» وَالْقَوْلَانِ لِنَصَارَى نَجْرَانَ «رَجْمًا بِالْغَيْبِ» أَي: ظَنَّا فِي الْغَيْبَةِ عَنْهُمْ، وَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى الْقَوْلَيْنِ مَعًا وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ، أَي: لِيُظْهِرَ ذَلِكَ «وَيَقُولُونَ» أَي: الْمُؤْمِنُونَ «سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ» الْجُمْلَةُ مِنَ الْمُبْتَدَأِ وَخَبَرُهُ صِفَةُ «سَبْعَةٌ» بِزِيَادَةِ الْوَائِ، وَقِيلَ: تَأْكِيدًا وَدَلَالَةً عَلَى لُصُوقِ الصِّفَةِ بِالْمَوْصُوفِ، وَوَصَفُ الْأَوَّلَيْنِ بِالرَّجْمِ دُونَ الثَّالِثِ؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَرْضِيٌّ وَصَحِيحٌ «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ» قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَا مِنَ الْقَلِيلِ»^(١)، وَذَكَرَهُمْ سَبْعَةً «فَلَا تُمَارِ» تُجَادِلُ «فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرًا» بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ» تَطْلُبُ الْفِتْيَا «مِنْهُمْ» مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ «أَحَدًا»^(٢). وَسَأَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ عَنْ خَبَرِ أَهْلِ الْكَهْفِ؟ فَقَالَ: «أُخْبِرْكُمْ بِهِ غَدًا»، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَتَزَلَّ: «وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائٍ» أَي: لِأَجْلِ شَيْءٍ «إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا»^(٣) أَي: فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ» أَي: إِلَّا مُلْتَبِسًا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَنْ تَقُولَ: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» «وَأَذْكُرْ رَبَّكَ»

«فَقَالُوا» أَي: الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِ الْقَائِلِينَ: «اتَّبُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا». وَإِنَّمَا رَأَوْا أَنْ يَكُونَ الْبِنَاءُ مَسْجِدًا لِيَكُونَ إِكْرَامًا لَهُمْ، وَيَدُومَ تَعَهُدُ النَّاسُ كَهْفَهُمْ، وَقَدْ كَانَ اتِّخَاذُ الْمَسَاجِدِ عَلَى قُبُورِ الصَّالِحِينَ مِنْ سُنَّةِ النَّصَارَى، «وَنَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا فِي الْحَدِيثِ يَوْمَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزَ قَبْرُهُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٤٤١)، وَمُسْلِمٌ (٥٢٩)، أَي: لِأَبْرَزَ فِي الْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ، وَلَمْ يَجْعَلْ وَرَاءَ جِدَارِ الْحِجْرَةِ. وَاتِّخَاذُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ، وَالصَّلَاةُ فِيهَا مِنْهُي عَنْهُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ ذَرِيعَةٌ إِلَى عِبَادَةِ صَاحِبِ الْقَبْرِ أَوْ شَبِيهِ بِفَعْلٍ مِنْ يَعْبُدُونَ صَالِحِي مِلَّتِهِمْ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الذَّرِيعَةُ مَخْصُوصَةً بِالْأَمْوَاتِ؛ لِأَنَّ مَا يَعْزُضُ لِأَصْحَابِهِمْ مِنَ الْأَسْفِ عَلَى فَقْدَانِهِمْ يَعْثُفُ عَلَى الْإِفْرَاطِ فِيمَا يَحْسِبُونَ أَنَّهُ إِكْرَامٌ لَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ثُمَّ يَتَنَاسَى الْأَمْرَ، وَيُظَنُّ النَّاسُ أَنَّ ذَلِكَ لِحَاصِيَةِ فِي ذَلِكَ الْمَيِّتِ، وَكَانَ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ سُنَّةَ لِأَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ، فَإِنْ كَانَ شَرْعًا لَهُمْ فَقَدْ نَسَخَهُ الْإِسْلَامُ، وَإِنْ كَانَ بَدْعًا مِنْهُمْ فِي دِينِهِمْ فَاجْدُرَ. [ابن عاشور (٢٨٩/١٥)]. وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْبِنَاءَ عَلَى قَبْرِ النَّبِيِّ وَالْوَلِيِّ مَدْعَاةٌ لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ. فَفِيهِ فَتْحٌ لِبَابِ الشُّرْكِ وَتَوَسُّلٌ إِلَيْهِ بِأَقْرَبِ وَسِيلَةٍ. وَهَلْ أَصْلُ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَّا ذَلِكَ؟ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا» [نوح: ٢٣] قَالَ: هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ فِي قَوْمِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، فَلَمَّا طَالَ فِيهِمْ الْأَمَدُ عَبْدُوهُمْ، فَهَؤُلَاءِ لَمَّا قَصَدُوا الْإِتِّفَاعَ بِالْمَوْتِ، قَادَهُمْ ذَلِكَ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ... وَتَلَقَّاهُ عَنْهُمْ مَنْ تَلَقَّاهُ مِنْهُمْ لَمْ يَحْطِ عِلْمًا بِالشُّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَوَسَائِلِهِ. وَمِنْ هَاهُنَا يَظْهَرُ سِرُّ مَقْصُودِ النَّبِيِّ ﷺ بِنَهْيِهِ عَنْ تَعْظِيمِ الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا وَالسَّرْجِ. وَلَعَنَهُ فَاعِلُ ذَلِكَ وَإِخْبَارُهُ بِشِدَّةِ غَضَبِ اللَّهِ عَلَيْهِ. وَنَهْيُهُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَيْهَا، وَنَهْيُهُ عَنْ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ عِيدًا. وَسُؤَالُهُ رَبَّهُ تَعَالَى أَلَّا يَجْعَلَ قَبْرَهُ وَثْنًا يَعْبُدُ. فَهَذَا نَهْيُهُ عَنْ تَعْظِيمِ الْقُبُورِ. وَذَلِكَ تَعْلِيمُهُ وَإِرْشَادُهُ لِلزَّائِرِ أَنْ يَقْصِدَ نَفْعَ الْمَيِّتِ وَالدَّعَاءَ لَهُ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ، لَا الدَّعَاءَ بِهِ وَلَا الدَّعَاءَ عِنْدَهُ. [القاسمي (١٦/٧)].

(١) انظر الدر المشور (٣٩٣/٤).

أَي: مَشِيَّتُهُ مُعْلَقًا بِهَا ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ التَّعْلِيقُ بِهَا، وَيَكُونُ ذِكْرُهَا بَعْدَ النَّسْيَانِ كَذِكْرِهَا مَعَ الْقَوْلِ، قَالَ الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ: مَا دَامَ فِي الْمَجْلِسِ ^(١) ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ مِنْ خَبَرِ أَهْلِ الْكَهْفِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوتِي ﴿رَشَدًا ۝٢٤﴾ هِدَايَةً، وَقَدْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ. ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ بِالتَّوْنِ ﴿سِنِينَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ لـ ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾، وَهَذِهِ السَّنُونَ الثَّلَاثُمِائَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَهْفِ شَمْسِيَّةٌ، وَتَزِيدُ الْقَمَرِيَّةُ عَلَيْهَا عِنْدَ الْعَرَبِ تِسْعَ سِنِينَ وَقَدْ ذُكِرَتْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥﴾ أَي: تِسْعَ سِنِينَ، فَالثَّلَاثُمِائَةُ الشَّمْسِيَّةُ ثَلَاثُمِائَةُ وَتِسْعُ قَمَرِيَّةٌ. ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ مِمَّنْ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُوَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: عِلْمُهُ ﴿أَبْصَرَ بِهِ﴾ أَي: بِاللَّهِ هِيَ صِغَةُ تَعَجُّبٍ ﴿وَأَسْمِعْ﴾ بِهِ كَذَلِكَ، بِمَعْنَى: مَا أَبْصَرَهُ وَمَا أَسْمَعَهُ، وَهُمَا عَلَى جِهَةِ الْمَجَازِ ^(٢)، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ شَيْءٌ ﴿مَا لَهُمْ﴾ لِأَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ نَاصِرٍ ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۝٢٦﴾ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الشَّرِيكِ. ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٧﴾ مَلْجَأًا. ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ احْسِنَهَا ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ﴾ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَجْهَهُ﴾ تَعَالَى لَا شَيْئًا مِنْ أَعْرَاضِ الدُّنْيَا، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ ^(٣) ﴿وَلَا تَعُدْ﴾ تَنْصَرِفْ ﴿عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ عَبَّرَ بِهِمَا عَنْ صَاحِبَيْهِمَا ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَي: الْقُرْآنِ، هُوَ عَيْتُهُ بَنُ

(١) انظر الدر المنثور (٤/ ٣٩٤).

(٢) هذا يسميه النحويون فعل تعجب، فـ ﴿أَبْصَرَ﴾ بمعنى: ما أبصره، وـ ﴿أَسْمِعْ﴾ بمعنى: ما أسمع، وهو غاية ما يكون من علو هذين الوصفين؛ البصر والسمع، فالله تبارك وتعالى يبصر كل شيء، يبصر ديب النمل على الصفاة السوداء في ظلمة الليل، يبصر ما لا تدركه أعين الناس مما هو أخفى وأدق، كذلك في السمع يسمع كل شيء، يعلم السر وأخفى من السر، ويعلم الجهر، ﴿وَأَنْ تَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص: ٥٢)].

(٣) أي: اجلس مع الذين يذكرون الله ... ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت في أشرف قريش، حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، عن سعد ابن أبي وقاص قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. أخرجه مسلم (٢٤١٣). [ابن كثير (٥/ ١٥٢)].

حِصْنٍ وَأَصْحَابُهُ^(١) ﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ فِي الشَّرْكِ ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا^(٢)﴾. ﴿وَقُلْ﴾ لَهُ وَلَا صَحَابِهِ: هَذَا الْقُرْآنُ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ أَيِ: الْكَافِرِينَ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ مَا أَحَاطَ بِهَا ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ كَعَكَرِ الزَّيْتِ ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾ مِنْ حَرِّهِ إِذَا قُرِبَ إِلَيْهَا ﴿بُئْسَ الشَّرَابُ﴾ هُوَ ﴿وَسَاءَتْ﴾ أَيِ: النَّارُ ﴿مُرْتَفَقًا^(٣)﴾ مُتَكَأً، تَمَيِّزٌ مُنْقُولٌ عَنِ الْفَاعِلِ، أَيِ: قَبَحَ مُرْتَفَقُهَا، وَهُوَ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ الْآتِي فِي ﴿وَحَسُنْتَ مُرْتَفَقًا﴾ وَإِلَّا فَأَيُّ إِرْتِفَاقٍ فِي النَّارِ؟ ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا^(٤)﴾ الْجُمْلَةُ خَبَرٌ ﴿إِنَّ﴾ وَفِيهَا إِقَامَةُ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ، وَالْمَعْنَى: أَجْرُهُمْ، أَيِ: نُشِيبُهُمْ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٌ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ قِيلَ: ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ، وَقِيلَ: لِلتَّبَعِيزِ، وَهِيَ: جَمْعُ «أَسْوَرَةٍ» كَأَحْمَرَةٍ جَمْعُ سَوَارٍ ﴿مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ﴾ مَا رَقَّ مِنَ الدِّيَاجِجِ ﴿وَاسْتَبْرَقَ﴾ مَا غَلَطَ مِنْهُ، وَفِي آيَةِ «الرَّحْمَنِ»: ﴿بَطَّائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤] ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جَمْعُ «أَرِيكَةٍ»، وَهِيَ: السَّرِيرُ فِي الْحَجَلَةِ^(٥) وَهِيَ: بَيْتٌ يُزَيَّنُ بِالثِّيَابِ وَالشُّتُورِ لِلْعُرُوسِ ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ الْجَزَاءُ الْجَنَّةُ ﴿وَحَسُنْتَ مُرْتَفَقًا^(٦)﴾ * وَأَضْرِبْ ﴿اجْعَلْ﴾ لَهُمْ لِلْكَفَّارِ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مَثَلًا لِرَجُلَيْنِ﴾ بَدَلٌ، وَهُوَ وَمَا بَعْدَهُ تَفْسِيرٌ لِلْمَثَلِ ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ الْكَافِرِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ بُسْتَانَيْنِ ﴿مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا^(٧)﴾ يُقْتَاتُ بِهِ. ﴿كَلْنَا الْجَنَّتَيْنِ﴾ كَلْنَا مُفْرَدٌ يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ مُبْتَدَأً ﴿ءَاتَتْ﴾ خَبَرُهُ ﴿أُكْلَاهَا﴾ ثَمَرَهَا ﴿وَلَمْ تَطْلِمِ﴾ تَنْقُصُ ﴿مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا﴾ أَيِ: شَقَقْنَا ﴿خِلَالَهُمَا نَهَرًا^(٨)﴾ يَجْرِي بَيْنَهُمَا. ﴿وَكَانَ لَهُوَ﴾ مَعَ الْجَنَّتَيْنِ ﴿ثَمَرٌ﴾ بَفَتْحِ الثَّاءِ وَالْمِيمِ، وَبِضْمِّهِمَا، وَبِضْمِّ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي، وَهُوَ جَمْعُ «ثَمَرَةٍ» كَشَجَرَةٍ وَشَجَرٍ، وَخَشَبَةٍ وَخَشَبٍ، وَبَدَنَةٍ وَبَدَنٍ ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ الْمُؤْمِنِ ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يُفَاخِرُهُ ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا^(٩)﴾ عَشِيرَةٌ. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ بِصَاحِبِهِ يَطُوفُ بِهِ فِيهَا وَيُرِيهِ أَثْمَارَهَا، وَلَمْ يَقُلْ: «جَنَّتِي» إِرَادَةً لِلرَّوَضَةِ، وَقِيلَ: إِكْتِفَاءً بِالْوَاحِدَةِ ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ تَنْعَدِمَ ﴿هَذِهِ أَبَدًا^(١٠)﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ فِي الْآخِرَةِ عَلَى زَعْمِكَ ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا^(١١)﴾ مَرْجِعًا. ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يُجَاوِبُهُ ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾

(١) سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل: من أهل مكة، وقيل: عيينة بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية. [ابن عطية (٣/٥١٢)].

(٢) الحجلة بالتحريك: بيت كالقبة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار، وتجمع على حجال. [غريب الحديث لابن الأثير (١/٣٤٦)].

لَأَنَّ آدَمَ خَلَقَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مَنِيَّ ﴿ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ﴾ عَدَلَكَ وَصَيَّرَكَ ﴿رَجُلًا﴾ ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا أَصْلُهُ «لَكِنَّا أَنَا» نُقِلَتْ حَرَكَةُ الهمزة إلى التَّوْنِ، أَوْ حُذِفَتِ الهمزة ثُمَّ أُدْغِمَتِ النُّونُ فِي مِثْلِهَا ﴿هُوَ﴾ ضَمِيرُ الشَّانِ تُفَسِّرُهُ الْجُمْلَةُ بَعْدَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَا أَقُولُ ﴿اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا هَلَّا ﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾ عِنْدَ إِعْجَابِكَ بِهَا: هَذَا ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ، فَيَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، لَمْ يَرَفِهِ مَكْرُوهًا»^(١). ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا﴾ ضَمِيرُ فَضْلِ بَيْنِ الْمَفْعُولَيْنِ ﴿أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَلَدًا﴾ ﴿٣٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴿جَوَابُ الشَّرْطِ﴾ ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا﴾ جَمْعُ «حُسْبَانَةٍ» أَي: صَوَاعِقَ ﴿مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ ﴿٤٠﴾ أَرْضًا مَلْسَاءَ لَا يَثْبُتُ عَلَيْهَا قَدَمٌ. ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا﴾ بِمَعْنَى: غَائِرًا، عَطْفٌ عَلَى ﴿يُرْسِلَ﴾ دُونَ «تُصْبِحُ»؛ لِأَنَّ غُورَ الْمَاءِ لَا يَتَسَبَّبُ عَنِ الصَّوَاعِقِ ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُوَ طَلَبًا﴾ ﴿٤١﴾ حِيلَةً تُدْرِكُهَا بِهَا. ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بِأَوْجِهٍ الضَّبْطِ السَّابِقَةِ مَعَ جَنَّتِهِ بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَتْ^(٢) ﴿فَأُصْبِحَ يَقْلِبُ كَفَّيْهِ﴾ نَدَمًا وَتَحَسُّرًا^(٣) ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ فِي عِمَارَةِ جَنَّتِهِ ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَى غُرُوشِهَا﴾ دَعَائِمُهَا لِلْكَرَمِ، بِأَنَّ سَقَطَتْ ثُمَّ سَقَطَ الْكَرْمُ^(٤) ﴿وَيَقُولُ يَدِي لِلنَّبِيِّ﴾ لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَهُوَ فِئَةٌ﴾ جَمَاعَةٌ ﴿يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ عِنْدَ هَلَاكِهَا ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ ﴿٤٣﴾ عِنْدَ هَلَاكِهَا بِنَفْسِهِ. ﴿هُنَالِكَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الْوَلَايَةُ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ: الْنُصْرَةُ، وَبِكَسْرِهَا: الْمُلْكُ ﴿لِلَّهِ الْحَقُّ﴾ بِالرَّفْعِ: صِفَةُ الْوَلَايَةِ، وَبِالْجَرِّ: صِفَةُ الْجَلَالَةِ ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ مِنْ ثَوَابِ غَيْرِهِ لَوْ كَانَ يُثِيبُ ﴿وَحَيْرٌ عُقْبًا﴾ ﴿٤٤﴾ بِضَمِّ الْقَافِ وَسُكُونِهَا عَاقِبَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَنَضْبُهُمَا عَلَى

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الشكر» (١)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٩٩٥)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٧)، بلفظ: «مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً مِنْ أَهْلٍ أَوْ مَالٍ أَوْ وَلَدٍ فَيَقُولُ: مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. فَيَرَى فِيهِ آفَةٌ دُونَ الْمَوْتِ» وَكَانَ يَتَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

(٢) أي: أمواله كالتنقد والمواشي وهذا راجع لقوله: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ وأصل الإحاطة من إحاطة العدو بالشخص كما في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] وهي عبارة عن إهلاكه وإفناؤه، وهو معطوف على مقدر كأنه قيل: فوقع ما توقعه المؤمن فهلكت جنته بالصواعق وغور الماء وأحيط بثمره، أي: أحاط العذاب والهلاك بثمره. [الشوكاني (٣/ ٣٤١)].

(٣) يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وذلك فعل المتلهف المتأسف على فائت أو خسارة أو نحوها، ومن عبر بـ «يصفق» فلم يتقن. [ابن عطية (٣/ ٥١٩)].

(٤) الكرّم: العنب. [انظر: مجمل اللغة لابن فارس (٣/ ٧٨٢)].

الْتَمِيزِ. ﴿وَأَضْرَبَ﴾ صَيَّرَ ﴿لَهُمْ﴾ لِقَوْمِكَ ﴿مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿كَمَاءٍ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ﴾ تَكَثَّفَ بِسَبَبِ نَزُولِ الْمَاءِ ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أَوْ امْتَزَجَ الْمَاءُ بِالنَّبَاتِ فَرَوِيَ وَحَسُنَ ﴿فَأَصْبَحَ﴾ صَارَ النَّبَاتُ ﴿هَشِيمًا﴾ يَابِسًا مُتَفَرِّقَةً أَجْزَاؤُهُ ﴿تَذَرُوهُ﴾ تَتَرُّهُ وَتَفَرِّقُهُ ﴿الرَّيْحُ﴾ فَتَذْهَبُ بِهِ، الْمَعْنَى: شَبَّهَ الدُّنْيَا بِنَبَاتٍ حَسُنَ فَيَسَّ فَتَكْسَرُ فَفَرَّقَتْهُ الرِّيحُ^(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الرَّيْحُ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ۝٤٥﴾ قَادِرًا. ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَتَجَمَّلُ بِهِمَا فِيهَا ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ هِيَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، زَادَ بَعْضُهُمْ: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢) ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ أَيُّ: مَا يَأْمُلُهُ الْإِنْسَانُ وَيَرْجُوهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَأُذْكَرُ﴾ يَوْمَ تُسِيرُ الْجِبَالُ يُذْهَبُ بِهَا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَتَصِيرُ هَبَاءً مُنْبَثًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ وَكَسْرِ الْيَاءِ وَنَصْبِ ﴿الْجِبَالِ﴾ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ ظَاهِرَةً لَيْسَ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ جَبَلٍ

(١) يقول تعالى لنبئهم أصلاً، ولمن قام بوراثته بعده تبعاً: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار. وأن مثل هذه الحياة الدنيا، كمثل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وجوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح، أو سعى أعماله، هنالك يعرض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدرتي أنك قد مت، ولا بد أن تموت، فأبي: الحاليتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل، لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهي النفس وتلد الأعين؟ فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسارته. [السعدي (ص: ٤٧٨)].

(٢) أي: والأعمال التي تبقى ثمراتها الأخروية، من الاعتقادات والأخلاق والعبادات الكاملات، خير عند ربك من المال والبنين، في الجزاء والفائدة وخير مما يتعلق بهما من الأمل. فإن ما ينال بهما من الآمال الدنيوية، أمرها إلى الزوال. وما ينال بالباقيات الصالحات من منازل القرب الرباني والنعيم الأبدي، لا يزول ولا يحول... [و] وقع في كلام السلف تفسير ﴿الْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ﴾ بالصلوات وأعمال الحج والصدقات والصوم والجهاد والعق، وقوله: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر» والكلام الطيب، وبغيرهما، مما روي مرفوعاً وموقوفاً. والمرفوع من ذلك كله لم يخرج في الصحيحين. وكله على طريق التمثيل. وإن اللفظ الكريم يتناولها لكونها من أفرادها. [القاسمي (٧/ ٣٩)].

وَلَا غَيْرُهُ^(١) ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿فَلَمْ نُعَادِرْ﴾ نَتْرُكْ ﴿مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٢٧) وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا ﴿حَالًا، أَي: مُصْطَفَيْنَ كُلِّ أُمَّةٍ صَفًّا، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أَي: فُرَادَى «حُفَاةً عَرَاةً غُرْلًا»^(٣)، وَيُقَالُ لِمُنْكَرِي الْبَعْثِ: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَ﴾ نَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَي: أَنَّهُ ﴿لَنْ تَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾^(٤٨) لِلْبَعْثِ. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ كِتَابُ كُلِّ امْرِئٍ فِي يَمِينِهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِي شِمَالِهِ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ ﴿مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ﴾ عِنْدَ مُعَايِنَتِهِمْ مَا فِيهِ مِنَ السَّيِّئَاتِ ﴿يَا﴾ لِلتَّيْسِ ﴿وَيَلْتَنَّا﴾ هَلَكْتَنَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَا فِعْلَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ مِنْ ذُنُوبِنَا ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ عَدَّهَا وَاثْبَتَهَا تَعَجَّبُوا مِنْهُ فِي ذَلِكَ ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ مُثَبَّتًا فِي كِتَابِهِمْ ﴿وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤٩) لَا يُعَاقِبُهُ بِغَيْرِ جُرْمٍ، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ مُؤْمِنٍ ﴿وَإِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سُجُودَ انْحِنَاءٍ، لَا وَضَعَ جَبْهَةٍ، تَحِيَّةً لَهُ ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ قِيلَ: هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَلَا سِتْنَاءَ مُتَّصِلٌ،

(١) ما ذكره جل وعلا في هذه الآية الكريمة: من أن يوم القيامة يختل فيه نظام هذا العالم الدنيوي، فتسير جباله، وتبقى أرضه بارزة لا حجر فيها ولا شجر، ولا بناء ولا وادي ولا علم، ذكره في مواضع أخر كثيرة، فذكر أنه يوم القيامة يحمل الأرض والجبال من أماكنهما، ويدكهما دكة واحدة، وذلك في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾^(١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً^(١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ^(١٥) [الحاقة: ١٣ - ١٥]. وما ذكره من تسيير الجبال في هذه الآية الكريمة ذكره أيضا في مواضع أخر، كقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾^(١٦) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا^(١٧) [الطور: ٩ - ١٠]، وقوله: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]. ثم ذكر في مواضع أخر أنه جل وعلا يفتتها حتى تذهب صلابتها الحجرية وتلين، فتكون في عدم صلابتها ولينها كالعهن المنفوش، وكالرمل المتهائل، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾^(١٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ^(١٩) [المعارج: ٨ - ٩]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾^(٢٠) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ^(٢١) [القارعة: ٤ - ٥]، والعهن: الصوف، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيرًا مَهِيلًا﴾^(٢٢) [المزمل: ١٤]. ثم ذكر جل وعلا أنه يجعلها هباء وسرابا. قال: ﴿وَبُئِسَ لِلْجِبَالِ بَسًّا﴾^(٢٣) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا^(٢٤) [الواقعة: ٥ - ٦]، وقال: ﴿وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾، البروز: الظهور، أي: ترى الأرض ظاهرة منكشفة لذهاب الجبال والظراب والآكام، والشجر والعمارات التي كانت عليها. وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه أيضا في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾^(٢٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا^(٢٦) لَا تَبْقَى فِيهَا غِوَجًا وَلَا أَمْتًا^(٢٧) [طه: ١٠٥ - ١٠٧]، وأقوال العلماء في معنى ذلك راجعة إلى شيء واحد، وهو أنها أرض مستوية لا نبات فيها، ولا بناء ولا ارتفاع ولا انحدار. [الشقيطي (٤/ ١٤٢)].

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

وَقِيلَ: هُوَ مُنْقَطِعٌ وَإِبْلِيسُ هُوَ أَبُو الْجِنِّ، فَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ذُكِرَتْ مَعَهُ بَعْدُ، وَالْمَلَائِكَةُ لَا ذُرِّيَّةَ لَهُمْ^(١) ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾^(٢) أَي: خَرَجَ عَنْ طَاعَتِهِ بِتَرْكِ السُّجُودِ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ﴾ الْخِطَابُ لِأَدَمَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَالْهَاءُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِإِبْلِيسَ ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ﴾ تُطِيعُونَهُمْ ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أَي: أَعْدَاءٌ، حَالٌ ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾^(٣) إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ فِي إِطَاعَتِهِمْ، بَدَلٌ إِطَاعَةِ اللَّهِ. ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ﴾ أَي: إِبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: لَمْ أَحْضَرْ بَعْضَهُمْ خَلْقَ بَعْضٍ ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ﴾ الشَّيَاطِينَ ﴿عَضْدًا﴾^(٤) أَعَوَانًا فِي الْخَلْقِ فَكَيْفَ تُطِيعُونَهُمْ. ﴿وَيَوْمَ﴾ مَنصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» ﴿يَقُولُ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ الْأَوْثَانَ ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لِيَشْفَعُوا لَكُمْ بِزَعَمِكُمْ ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لَمْ يُجِيبُوهُمْ ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ الْأَوْثَانِ وَعَابِدِيهَا ﴿مَوْبِقًا﴾^(٥) وَادِيًّا مِنْ أَوْدِيَةِ جَهَنَّمَ يَهْلِكُونَ فِيهِ جَمِيعًا، وَهُوَ مِنْ: «وَبَقَ» بِالْفَتْحِ هَلَكٌ^(٦). ﴿وَرَعَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا﴾ أَي: أَتَيْنُوا ﴿أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أَي: وَاقِعُونَ فِيهَا ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾^(٧) مَعْدَلًا. ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ بَيْنَنَا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ صِفَةً لِمَحْذُوفٍ، أَي: مَثَلًا مِنْ جِنْسِ كُلِّ مَثَلٍ لِيَتَعَبَّطُوا^(٨) ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ﴾ أَي: الْكَافِرُ

(١) قوله في هذه الآية الكريمة، ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، ظاهر في أن سبب فسقه عن أمر ربه كونه من الجن، وقد تقرر في الأصول في مسلك النص وفي مسلك الإيماء والتنبيه: أن الفاء من الحروف الدالة على التعليل، كقولهم: سرق فقطعت يده، أي: لأجل سرقة. وكذلك قوله هنا: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ﴾ أي: لعله كينونته من الجن؛ لأن هذا الوصف فرق بينه وبين الملائكة؛ لأنهم امثلوا الأمر وعصاوه؛ ولأجل ظاهر هذه الآية الكريمة ذهب جماعة من العلماء إلى أن إبليس ليس من الملائكة في الأصل بل من الجن، وأنه كان يتعبد معهم، فأطلق عليه اسمهم لأنه تبع لهم، كالحليف في القبيلة يطلق عليه اسمها. والخلاف في إبليس هل هو ملك في الأصل وقد مسخه الله شيطانا، أو ليس في الأصل بملك، وإنما شمله لفظ الملائكة لدخوله فيهم وتعبده معهم مشهور عند أهل العلم. وحجة من قال: إن أصله ليس من الملائكة أمران: أحدهما عصمة الملائكة من ارتكاب الكفر الذي ارتكبه إبليس. كما قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦]، ... والثاني: أن الله صرح في هذه الآية الكريمة بأنه من الجن، والجن غير الملائكة. قالوا: وهو نص قرآني في محل النزاع. [الشتيطي (١٥٤/٤)].

(٢) ﴿مَوْبِقًا﴾ أي: مهلكا يشتركون فيه، وهو النار. أو عداوة هي في الشدة نفس الهلاك. كقول عمر رضي الله عنه: «لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا»، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ عَالِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾^(١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا^(٢) [مريم: ٨١-٨٢] قال ابن كثير: وأما إن جعل الضمير في قوله: ﴿يَبْنِيهِمْ﴾ عائدا إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه:

إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِرُونَ﴾ [الروم: ١٤]. [القاسمي (٢٢٩/٥)].

(٣) يحتمل وجهين: أحدهما: ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني: ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية، وقد تقدم في «سبحان»

﴿أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا ۝٥٤﴾ خُصُومَةً فِي الْبَاطِلِ^(١)، وَهُوَ تَمَيُّزُ مَنْقُولٍ مِنْ اسْمٍ «كَانَ»، أَلْمَعْنَى: وَكَانَ جَدَلُ الْإِنْسَانِ أَكْثَرَ شَيْءٍ فِيهِ. ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ مَفْعُولُ ثَانٍ ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ فَاعِلٌ، أَي: سُنَّتَانِ فِيهِمْ وَهِيَ الْإِهْلَاكُ الْمَقْدَرُ عَلَيْهِمْ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قَبْلًا ۝٥٥﴾ مُقَابَلَةٌ وَعِيَانًا وَهُوَ الْقَتْلُ يَوْمَ بَدْرٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ «قِيلَ» أَي: أَنْوَاعًا. ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لِّلْكَافِرِينَ ﴿وَيُجَدِّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وَنَحْوَهُ ﴿لِيُذْهِبُوا بِهِ﴾ لِيُطْلُوا بِجَدَالِهِمْ ﴿الْحَقُّ﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَاتَّخَذُوا عَآيَتِي﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿وَمَا أَنْذَرُوا﴾ بِهِ مِنَ النَّارِ ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ سُخْرِيَّةٌ. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مَا عَمِلَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أَغْطِيَةً ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أَي: مِنْ أَنْ يَفْهَمُوا الْقُرْآنَ، أَي: فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ ثِقَلًا فَلَا يَسْمَعُونَهُ ﴿وَأَنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا﴾ أَي: بِالْجَعْلِ الْمَذْكُورِ^(٢) ﴿أَبَدًا ۝٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ فِيهَا ﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۝٥٨﴾ مَلْجَأًا. ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى﴾ أَي: أَهْلُهَا كَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمَا ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ﴾ لِإِهْلَاكِهِمْ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْمِيمِ أَي: لِإِهْلَاكِهِمْ ﴿مَوْعِدًا ۝٥٩﴾ وَ﴿أَذْكُرُ﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى ﴿هُوَ ابْنُ عِمْرَانَ﴾ لِفَتْنِهِ ﴿يُوشَعَ بْنِ نُونٍ، كَانَ يَتَّبِعُهُ وَيَخْدُمُهُ وَيَأْخُذُ عَنْهُ الْعِلْمَ: ﴿لَا أَبْرَحُ﴾ لَا أَزَالُ أَسِيرُ ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ مُلْتَقَى بَحْرِ الرُّومِ وَبَحْرِ فَارِسَ مِمَّا يَلِي الْمَشْرِقَ، أَي: الْمَكَانَ الْجَامِعَ لِذَلِكَ^(٣) ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ دَهْرًا طَوِيلًا فِي بُلُوغِهِ إِنْ

[سورة الإسراء آية (٨٩)]، فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. [القرطبي (٥/١١)].

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قال قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: مِنْ مُحَاظَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى. قَالَ: يَقُولُ: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي. قَالَ يَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهَدَاءَ. قَالَ: فَيُخْتَمَ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطَقِي. قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قَالَ: ثُمَّ يُخْلَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ. قَالَ: يَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنْ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ. أخرجه مسلم (٢٩٦٩).

(٢) أي: وجعلنا فيها ثقلًا يمنعهم من استماعه. والجملة تعليل لإعراضهم ونسيانهم، بأنهم مطبوع على قلوبهم. وذلك لإيثارهم الضلال على الهدى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. [القاسمي (٧/٤٥)].

(٣) مجمع البحرين لا ينبغي أن يختلف في أنه مكان من أرض فلسطين، والأظهر أنه مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية فإنه النهر العظيم

بَعْدَ. ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ نَسِيَ يُوشَعُ حَمْلَهُ عِنْدَ الرَّحِيلِ، وَنَسِيَ مُوسَى تَذَكِيرُهُ ﴿فَاتَّخَذَ﴾ الْحُوتُ ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ أَيُّ: جَعَلَهُ بِجَعَلِ اللَّهِ ﴿سَرَبًا ۖ﴾ أَيُّ: مِثْلَ السَّرَبِ، وَهُوَ: الشَّقُّ الطَّوِيلُ لَا نَفَاذَ لَهُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمْسَكَ عَنِ الْحُوتِ جَرِي الْمَاءِ، فَانْجَابَ عَنْهُ فَبَقِيَ كَالْكُوَّةِ لَمْ يَلْتَمِمْ، وَجَمَدَ مَا تَحْتَهُ مِنْهُ^(١) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ ذَلِكَ الْمَكَانَ، بِالسَّيْرِ إِلَى وَقْتِ الْغَدَاءِ مِنْ ثَانِي يَوْمٍ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿لِفَتْنَةٍ آتَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ هُوَ مَا يُؤْكَلُ أَوَّلَ النَّهَارِ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ﴾ تَعَبًا، وَحُصُولُهُ بَعْدَ الْمَجَاوَزَةِ. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ﴾ أَيُّ: تَنَبَّهَ ﴿إِذْ أَوْيَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ بِذَلِكَ الْمَكَانِ ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنَسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ يُبَدِّلُ مِنَ «الْهَاءِ»: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ بِدَلِّ اشْتِمَالٍ، أَيُّ: أَنَسَانِي ذِكْرُهُ ﴿وَاتَّخَذَ﴾ الْحُوتُ ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيُّ: يَتَعَجَّبُ مِنْهُ مُوسَى وَفَتَاهُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي بَيَانِهِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: فَقَدْنَا الْحُوتَ ﴿مَا﴾ أَيُّ: الَّذِي ﴿كُنَّا نَبِغُ﴾ نَطْلُبُهُ، فَإِنَّهُ عَلَامَةٌ لَنَا عَلَى وُجُودِ مَنْ نَطْلُبُهُ ﴿فَارْتَدَّا﴾ رَجَعَا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ يَقْصَصَانَهَا ﴿قَصَصًا ۖ﴾. فَاتَيْنَا الصَّخْرَةَ ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هُوَ الْحَضِرُ ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ بُيُوتَةً فِي قَوْلٍ، وَوَلَايَةً فِي آخَرٍ، وَعَلَيْهِ أَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ^(٢) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ مِنْ قِيلِنَا ﴿عِلْمًا ۖ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، أَيُّ: مَعْلُومًا مِنَ الْمُعْجِيَّاتِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ حَدِيثًا: «أَنَّ مُوسَى قَامَ خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرِدَّ الْعِلْمُ إِلَيْهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّ لِي عَبْدًا بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ كَيْفَ لِي بِهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ مَعَكَ حُوتًا فَتَجْعَلُهُ فِي مِكَتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحُوتَ فَهُوَ ثَمٌّ، فَأَخَذَ حُوتًا فَجَعَلَهُ فِي مِكَتَلٍ، ثُمَّ انْطَلَقَ وَانْطَلَقَ مَعَهُ فَوَشَعُ بْنُ نُونٍ

الذي يمر بجانب الأرض التي نزل بها موسى عليه السلام وقومه، وكانت تسمى عند الإسرائيليين بحر الجليل، فإن موسى عليه السلام بلغ إليه بعد مسير يوم وليلة راجلا؛ فعلمنا أنه لم يكن مكانا بعيدا جدا، وأراد موسى أن يبلغ ذلك المكان؛ لأن الله أوحى إليه أن يجد فيه العبد الذي هو أعلم منه فجعله ميقاتا له. ومعنى كون هذا العبد أعلم من موسى عليه السلام أنه يعلم علوما من معاملة الناس لم يعلمها الله لموسى، فالتفاوت في العلم في هذا المقام تفاوت بفنون العلوم، وهو تفاوت نسبي. [ابن عاشور (٣٦٢/١٥)].

(١) أي: اتخذ الحوت سبيلا سربا، وهو النفق الذي يكون في الأرض للضب ونحوه من الحيوانات. قال سعيد بن جبير: أثره يابس في البحر كأنه في جحر، وذلك أن الله سبحانه أمسك جرية الماء على الموضع الذي انسرب فيه الحوت فصار كالطاق، فشبه مسلك الحوت في البحر مع بقاءه وانجباب الماء عنه بالسرب الذي هو الكوة المحفورة في الأرض. [صديق حسن (٧٦/٨)].

(٢) هل هو من العباد الصالحين؟ أو من الأولياء الذين لهم كرامات؟ أو من الأنبياء؟ أو من الرسل؟ كل ذلك ممكن، لكن النصوص تدل على أنه ليس برسول ولا نبي، إنما هو عبد صالح أعطاه الله تعالى كرامات؛ ليتبين بذلك أن موسى لا يحيط بكل شيء علما، وأنه يفوته من العلم شيء كثير. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص: ١١٢)].

حَتَّى أَتَيَا الصَّخْرَةَ وَوَضَعَا رَأْسَيْهِمَا فَنَامَا، وَاضْطَرَبَ الْحُوتُ فِي الْمِكْتَلِ فَخَرَجَ مِنْهُ فَسَقَطَ فِي الْبَحْرِ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا، وَأَمْسَكَ اللَّهُ عَنِ الْحُوتِ جَرِيَةَ الْمَاءِ، فَصَارَ عَلَيْهِ مِثْلُ الطَّاقِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نَسِيَ صَاحِبَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ بِالْحُوتِ، فَاَنْطَلَقَا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمَا وَلَيْلَتِهِمَا حَتَّى إِذَا كَانَا مِنَ الْغَدَاةِ، قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ: ﴿ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾، قَالَ: وَكَانَ لِلْحُوتِ سَرَبًا وَلِمُوسَى وَلِفَتَاهُ عَجَبًا^(١) إِلَى آخِرِهِ. ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رَشَدًا﴾^(٢٦) أَي: صَوَابًا أَرشُدْ بِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِ الشَّيْنِ، وَسَأَلَهُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِي الْعِلْمِ مَطْلُوبَةٌ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٢٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٢٨﴾ فِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ عَقِبَ هَذِهِ الْآيَةِ: «يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ عِلْمَكُهُ لَا أَعْلَمُهُ»، وَقَوْلُهُ: ﴿خُبْرًا﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: لَمْ تُحِطْ، أَي: لَمْ تُخْبِرْ حَقِيقَتَهُ. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي﴾ أَي: وَغَيْرَ عَاصٍ ﴿لَكَ أَمْرًا﴾^(٢٩) تَأْمُرُنِي بِهِ، وَقَيْدٌ بِالْمَشِيئَةِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ نَفْسِهِ فِيمَا اِتَّزَمَ، وَهَذِهِ عَادَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ أَنْ لَا يَتَّقُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ^(٣٠). ﴿قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بَفَتْحِ اللَّامِ وَتَشْدِيدِ النُّونِ ﴿عَنْ شَيْءٍ﴾ تُنْكِرُهُ مِنِّي فِي عِلْمِكَ وَاصْبِرْ ﴿حَتَّى أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾^(٣١) أَي: أَذْكُرُهُ لَكَ بِعِلَّتِهِ، فَقَبِلَ مُوسَى شَرْطَهُ رِعَايَةً لِأَدَبِ الْمُتَعَلِّمِ مَعَ الْعَالِمِ. ﴿فَاَنْطَلَقَا﴾ يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ الَّتِي مَرَّتْ بِهِمَا ﴿خَرَقَهَا﴾ الْخَضِرُ بِأَنْ اِقْتَلَعَ لَوْحًا أَوْ لَوْحَيْنِ مِنْهَا مِنْ جِهَةِ الْبَحْرِ بِفَأْسٍ، لَمَّا بَلَغَتْ أَلْجَ ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أَخَرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ وَرَفْعِ ﴿أَهْلَهَا﴾ ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾^(٣٢) أَي: عَظِيمًا مُنْكَرًا، رُوي أَنَّ الْمَاءَ لَمْ يَدْخُلْهَا. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣٣) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ أَي: غَفَلْتُ عَنِ التَّسْلِيمِ لَكَ وَتَرَكْتُ الْإِنْكَارَ عَلَيْكَ ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي﴾ تُكَلِّفْنِي ﴿مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾^(٣٤) مَشَقَّةً فِي صُحْبَتِي إِيَّاكَ، أَي: عَامِلْنِي فِيهَا بِالْعَفْوِ وَالْيُسْرِ. ﴿فَاَنْطَلَقَا﴾ بَعْدَ خُرُوجِهِمَا مِنَ السَّفِينَةِ يَمْشِيَانِ ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ لَمْ يَبْلُغِ الْحِنْثَ يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ أَحْسَنُهُمْ وَجْهًا ﴿فَقَتَلَهُ﴾ الْخَضِرُ بِأَنْ ذَبَحَهُ بِالسَّكِينِ مُضْطَجِعًا، أَوْ اِقْتَلَعَ رَأْسَهُ بِيَدِهِ، أَوْ ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالْجِدَارِ أَقْوَالٌ، وَآتَى هُنَا بِالْفَاءِ الْعَاطِفَةَ لِأَنَّ الْقَتْلَ عَقِبَ اللَّقْيِ،

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٦)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) التقييد بقوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» شامل للصبر ونفي المعصية، وقيل: أن التقييد بالمشيئة مختص بالصبر لأنه أمر مستقبل لا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفي المعصية معزوم عليه في الحال، ويجاب عنه بأن الصبر ونفي المعصية متفقان في كون كل واحد منهما معزومًا عليه في الحال وفي كون كل واحد منهما لا يدري كيف حاله فيه في المستقبل. [صديق حسن (٨٢/٨)].

وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾: ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ أَي: طَاهِرَةً لَمْ تَبْلُغْ حَدَّ التَّكْلِيفِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿زَكِيَّةً﴾ بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ بِلا أَلِفٍ ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أَي: لَمْ تَقْتُلْ نَفْسًا ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ﴾ ﴿٧٤﴾ بِسُكُونِ الْكَافِ وَضَمِّهَا، أَي: مُنْكَرًا. ﴿* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ﴾ ﴿٧٥﴾ زَادَ ﴿لَكَ﴾ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِعَدَمِ الْعُذْرِ هُنَا. وَلِهَذَا ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أَي: بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ لَا تَتَرَكْنِي أَتْبَعُكَ ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، مِنْ قِبَلِي ﴿عُذْرًا ۖ﴾ ﴿٧٦﴾ فِي مُفَارَقَتِكَ لِي. ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ هِيَ أَنْطَاكِيَّةُ ﴿أَسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا﴾ طَلَبَا مِنْهُمْ الطَّعَامَ ضِيَافَةً ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيَّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ ارْتِفَاعُهُ مِائَةُ ذِرَاعٍ ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَّ﴾ أَي: يَقْرُبُ أَنْ يَسْقُطَ لِمِيلَانِهِ ﴿فَأَقَامَهُ﴾ الْخَضِرُ بِيَدِهِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ ﴿٧٧﴾ جُعِلَ حَيْثُ لَمْ يُضَيَّفُونَا مَعَ حَاجَتِنَا إِلَى الطَّعَامِ. ﴿قَالَ﴾ لَهُ الْخَضِرُ: ﴿هَذَا فِرَاقُ﴾ أَي: وَقْتُ فِرَاقِ ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فِيهِ إِضَافَةٌ «بَيْنَ» إِلَى غَيْرِ مُتَعَدِّ، سَوَّغَهَا تَكْرِيرُهُ بِالْعُطْفِ بِالْوَاوِ ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ قَبْلَ فِرَاقِي لَكَ ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ﴾ ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ عَشْرَةَ ﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ بِهَا مَوْاجِرَةٌ لَهَا طَلَبًا لِلْكَسْبِ ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ إِذَا رَجَعُوا، أَوْ أَمَامَهُمْ الْآنَ ﴿مَلِكٌ﴾ كَافِرٌ ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صَالِحَةٍ ﴿غَضَبًا ۖ﴾ ﴿٧٩﴾ نَصَبَهُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمُبِينِ لِنَوْعِ الْأَخْذِ ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۖ﴾ ﴿٨٠﴾ فَإِنَّهُ كَمَا فِي حَدِيثِ مُسْلِمٍ: «طُبِعَ كَافِرًا وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَهُمَا»^(١)؛ ذَلِكَ لِمَحَبَّتِهِمَا لَهُ يَتَّبَعَانِهِ فِي ذَلِكَ ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿رَبَّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً﴾ أَي: صَلَاحًا وَتَقَى ﴿وَأَقْرَبَ﴾ مِنْهُ ﴿رُحْمًا ۖ﴾ ﴿٨١﴾ بِسُكُونِ الْحَاءِ وَضَمِّهَا، أَي: رَحْمَةً، وَهِيَ: الْبُرِّ بِوَالِدَيْهِ، فَأَبْدَلَهُمَا تَعَالَى جَارِيَةً تَزَوَّجَتْ نَبِيًّا، فَوَلَدَتْ نَبِيًّا، فَهَدَى اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أُمَّةً. ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ مَالٌ مَدْفُونٌ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ﴾ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴿فَحَفِظَا بِصَلَاحِهِ فِي أَنْفُسِهِمَا وَمَالَهُمَا﴾ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أَي: إِيْنَاسَ رُشْدِهِمَا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ عَامِلُهُ «أَرَادَ» ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ﴾ أَي: مَا ذَكَرَ، مِنْ خَرَقِ السَّفِينَةِ وَقَتْلِ الْغُلَامِ وَإِقَامَةِ الْجِدَارِ ﴿عَنْ أَمْرِي﴾ أَي: اخْتِيَارِي، بَلْ بِأَمْرِ إِلَهَامٍ مِنَ اللَّهِ ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ﴾ ﴿٨٢﴾ يُقَالُ: اسْطَاعَ وَاسْتَطَاعَ، بِمَعْنَى: «أَطَاقَ»، فَفِي هَذَا وَمَا قَبْلَهُ جَمْعُ بَيْنِ اللَّغَتَيْنِ، وَنَوَعَتِ الْعِبَارَةُ فِي: «فَأَرَدْتُ، فَأَرَدْنَا، فَأَرَادَ» رَبُّكَ. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ أَي: الْيَهُودُ ﴿عَنْ

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦١).

ذِي الْقُرَيْنِ ﴿٨٦﴾ اسْمُهُ الْإِسْكَندَرُ، وَلَمْ يَكُنْ نَبِيًّا ﴿قُلْ سَأْتَلُوا﴾ سَأْفُصُّ ﴿عَلَيْكُمْ مِنْهُ﴾ مِنْ حَالِهِ ﴿ذِكْرًا﴾ ﴿٨٧﴾ خَبْرًا. ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ بِتَسْهِيلِ السَّيْرِ فِيهَا ﴿وَعَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَخْتَاجُ إِلَيْهِ ﴿سَبَبًا﴾ ﴿٨٨﴾ طَرِيقًا يُوصِلُهُ إِلَى مُرَادِهِ. ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿٨٩﴾ سَلَكَ طَرِيقًا نَحْوَ الْغَرْبِ. ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ مَوْضِعَ غُرُوبِهَا ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذَاتِ حَمَاقَةٍ، وَهِيَ: الطِّينُ الْأَسْوَدُ، وَغُرُوبُهَا فِي الْعَيْنِ: فِي رَأْيِ الْعَيْنِ، وَإِلَّا فَهِيَ أَعْظَمُ مِنَ الدُّنْيَا ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا﴾ أَيِ: الْعَيْنِ ﴿قَوْمًا﴾ كَافِرِينَ ﴿قُلْنَا يَذَا الْقُرَيْنِ﴾ بِالْهَامِ ﴿إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ﴾ الْقَوْمَ بِالْقَتْلِ ﴿وَأَمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ ﴿٩٠﴾ بِالْأَسْرِ. ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بِالْشَّرْكِ ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ نَقْتُلُهُ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ ﴿٩١﴾ بِسُكُونِ الْكَافِ وَضَمِّهَا، أَيِ: شَدِيدًا فِي النَّارِ. ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ، وَالْإِضَافَةُ لِلْبَيَانِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنَصْبِ ﴿جَزَاءٍ﴾ وَتَوْنِيهِ، قَالَ الْفَرَّاءُ: نَصَبُهُ عَلَى التَّفْسِيرِ، أَيِ: لِجَهَةِ النَّسَبَةِ ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ ﴿٩٢﴾ أَيِ: نَأْمُرُهُ بِمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿٩٣﴾ نَحْوَ الْمَشْرِقِ^(١). ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ مَوْضِعَ طُلُوعِهَا ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ﴾ هُمُ الزَّنَجُ^(٢) ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا﴾ أَيِ: الشَّمْسِ ﴿سِتْرًا﴾ ﴿٩٤﴾ مِنْ لِبَاسٍ وَلَا سَقْفٍ؛ لِأَنَّ أَرْضَهُمْ لَا تَحْمِلُ بِنَاءً، وَلَهُمْ سُرُوبٌ يَغِيُونَ فِيهَا عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَيَظْهَرُونَ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا. ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيِ: الْأَمْرُ كَمَا قُلْنَا ﴿وَقَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ أَيِ: عِنْدَ ذِي الْقُرَيْنِ مِنَ الْآلَاتِ وَالْجُنْدِ وَغَيْرِهِمَا ﴿خَبْرًا﴾ ﴿٩٥﴾ عِلْمًا. ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ ﴿٩٦﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا هُنَا وَبَعْدُ^(٣): جَبَلَانِ بِمُنْقَطَعِ بِلَادِ التُّرْكِ^(٤)، سَدَّ الْإِسْكَندَرُ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أَيِ: أَمَامَهُمَا ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ ﴿٩٧﴾ أَيِ: لَا يَفْهَمُونَهُ إِلَّا بَعْدَ بَطْءٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْيَاءِ وَكُسْرِ

(١) دون شمالها وجنوبها؛ لأن الشمال والجنوب ليس محلاً للسكنى، أقصاه من الشمال وأقصاه من الجنوب كله ثلج، ليس فيه سكان، السكان يتبعون الشمس من المشرق للمغرب أو من المغرب إلى المشرق. [ابن عثيمين تفسير الكهف (ص: ١٢٩)].

(٢) هم على ما قيل: قوم من الزنج، وقيل: من الهنود، وعن مجاهد من لا يلبس الثياب من السودان. [الآلوسي (٨/ ٣٥٧)]. [والمقصود أنها تطلع على قوم] بدائنين لم تساعدهم الأرض التي يعيشون عليها على التحضر فلذا هم لا يبنون الدور ولا يلبسون الثياب، ولكن يسكنون الكهوف والمغارات والسراديب وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا﴾ أي الشمس ﴿سِتْرًا﴾. [أبو بكر الجزائري (٣/ ٢٨٣)].

(٣) أي: قراءة: ﴿السَّدَّيْنِ﴾ في هذه الآية، و﴿سَدًّا﴾ في آية (٩٤).

(٤) وقيل: هما بموضع من الأرض لا نعلمه وكم فيها من أرض مجهولة. [الآلوسي (٨/ ٣٥٩)].

الْقَافِ. ﴿قَالُوا يَدَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ، هُمَا إِسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ فَلَمْ يَنْصَرِفَا ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِالنَّهْبِ وَالْبَغْيِ عِنْدَ خُرُوجِهِمَ إِلَيْنَا ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعْلًا مِنَ الْمَالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَرْجًا﴾، ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۖ﴾ حَاجِزًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْنَا. ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِنُؤْنٍ مِنْ غَيْرِ إِدْغَامٍ ﴿فِيهِ رَبِّي﴾ مِنَ الْمَالِ وَغَيْرِهِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِنْ خَرْجِكُمْ الَّذِي تَجْعَلُونَهُ لِي فَلَا حَاجَةَ بِي إِلَيْهِ، وَأَجْعَلْ لَكُمْ السَّدَّ تَبَرُّعًا ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ لِمَا أَطْلَبُهُ مِنْكُمْ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۖ﴾ حَاجِزًا حَصِينًا. ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ قِطْعَهُ عَلَى قَدْرِ الْحِجَارَةِ الَّتِي يَبْنِي بِهَا، فَبَنَى بِهَا وَجَعَلَ بَيْنَهَا الْحَطَبَ وَالْفَحْمَ ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصُّدُوفَيْنِ﴾ بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَفَتْحِهِمَا وَضَمَّ الْأَوَّلِ وَسُكُونِ الثَّانِي، أَي: جَانِبِي الْجَبَلَيْنِ بِالْبِنَاءِ وَوَضَعَ الْمَنَافِخَ وَالنَّارَ حَوْلَ ذَلِكَ ﴿قَالَ أَنْفِخُوا﴾ فَتَفَخَّخُوا ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ﴾ أَي: الْحَدِيدَ ﴿نَارًا﴾ أَي: كَالنَّارِ ﴿قَالَ ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۖ﴾ هُوَ النَّحَاسُ الْمَذَابُ، تَنَازَعَ فِيهِ الْفَعْلَانِ وَحُذِفَ مِنَ الْأَوَّلِ لِإِعْمَالِ الثَّانِي، فَأَفْرَغَ النَّحَاسُ الْمَذَابَ عَلَى الْحَدِيدِ الْمَحْمِيٍّ فَدَخَلَ بَيْنَ زُبْرِهِ فَصَارَ شَيْئًا وَاحِدًا ﴿فَمَا اسْطَبْعُوا﴾ أَي: يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴿أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ يَعْلُوا ظَهْرَهُ لَا رِثَاعَهُ وَمَلَأَسْتَهُ ﴿وَمَا اسْطَبْعُوا لَهُ نَقَبًا ۖ﴾ خَرْقًا، لِصَلَاتِهِ وَسَمَكِهِ. ﴿قَالَ﴾ ذُو الْقُرْنَيْنِ: ﴿هَذَا﴾ أَي: السَّدُّ، أَي: الْإِقْدَارُ عَلَيْهِ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّي﴾ نِعْمَةٌ^(١)؛ لِأَنَّهُ مَانِعٌ مِنْ خُرُوجِهِمْ ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بِخُرُوجِهِمُ الْقَرِيبَ مِنَ الْبَعْثِ ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مَذْكُوكًا مَبْسُوطًا ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي﴾ بِخُرُوجِهِمْ وَغَيْرِهِ ﴿حَقًّا ۖ﴾ كَانَتْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ خُرُوجِهِمْ﴾ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ يَخْتَلِطُ بِهِ لِكَثْرَتِهِمْ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أَي: الْقَرْنَ لِلْبَعْثِ ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ﴾ أَي: الْخَلَائِقَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿جَمْعًا ۖ﴾ وَعَرْضْنَا ﴿قَرْنًا﴾ جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ۖ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴿بَدَلٌ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ أَي: الْقُرْآنِ، فَهُمْ عُمِّي لَا يَهْتَدُونَ بِهِ ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۖ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا مِنَ النَّبِيِّ مَا يَنْتَلُوهُ عَلَيْهِمْ؛ بُغْضًا لَهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِهِ. ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ أَي: مَلَائِكَتِي وَعِيسَى وَعُزَيْرًا ﴿مِنْ دُونِ أَوْلِيَائِ﴾ أَرْبَابًا، مَفْعُولٌ ثَانٍ لـ ﴿يَتَّخِذُوا﴾، وَالْمَفْعُولُ الثَّانِي لـ ﴿أَفَحَسِبَ﴾ مَحْذُوفٌ، الْمَعْنَى: أَظُنُّوا أَنَّ الْإِتِّخَاذَ الْمَذْكُورَ لَا

(١) فلما فعل هذا الفعل الجميل ... أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أَي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة ازداد شكرهم وإقرارهم، واعتترفهم بنعمة الله ... بخلاف أهل التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشرا ويطرا. كما قال قارون لما آتاه الله قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. [السعدي (ص: ٤٨٦)].

يُغْضِبُنِي وَلَا أَعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ؟ كَلَّا ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ﴾ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ ﴿نُزْلًا ١١٢﴾ أَي: هِيَ مُعَدَّةٌ لَهُمْ كَالْمَنْزِلِ الْمَعْدِّ لِلضَّيْفِ. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ١١٣﴾ تَمَيِّزُ طَائِفَةِ الْمُتَمَيِّزِ. وَيَسْتَهْمُ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بَطَلَ عَمَلُهُمْ ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ﴾ يَطْنُونَ ﴿أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ١١٤﴾ عَمَلًا يُجَازُونَ عَلَيْهِ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بِدَلَالِ تَوْحِيدِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلِقَائِهِ﴾ أَي: وَبِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ بَطَلَتْ ﴿فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ١١٥﴾ أَي: لَا نَجْعَلُ لَهُمْ قَدْرًا. ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْأَمْرُ الَّذِي ذَكَرْتُ مِنْ حُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ وَغَيْرِهِ مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: ﴿جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا ١١٦﴾ أَي: مَهْزُوءًا بِهِمَا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ هُوَ وَسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَاهَا، وَالْإِضَافَةُ إِلَيْهِ لِلْبَيَانِ ﴿نُزْلًا ١١٧﴾ مَنْزِلًا. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ﴾ يَطْلُبُونَ ﴿عَنْهَا حِوَلًا ١١٨﴾ تَحَوُّلًا إِلَى غَيْرِهَا. ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أَي: مَآؤُهُ ﴿مِدَادًا﴾ هُوَ مَا يُكْتَبُ بِهِ ﴿لَكَلِمَتِ رَبِّي﴾ الدَّلَالَةُ عَلَى حِكْمِهِ وَعَجَائِبِهِ بِأَن تَكْتَبَ بِهِ ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ فِي كِتَابَتِهَا ﴿قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، تَفْرُغَ ﴿كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ أَي: الْبَحْرُ ﴿مَدَدًا ١١٩﴾ زِيَادَةً فِيهِ لَنَفِدَ وَلَمْ تَفْرُغْ هِيَ^(١)، وَنَضْبُهُ عَلَى التَّمْيِيزِ. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ أَدَمِي ﴿مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ «أَنَّ الْمَكْنُوفَةَ بِـ «مَا» بَاقِيَةٌ عَلَى مَصْدَرِيَّتِهَا، وَالْمَعْنَى: يُوحَىٰ إِلَيَّ وَحْدَانِيَّةُ الْإِلَهِ ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ يَأْمُلُ ﴿لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ﴾ أَي: فِيهَا بِأَن يَرَائِي^(٢) ﴿أَحَدًا ١٢٠﴾^(٣).

(١) وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة منقضية منتهية، وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأبي سعة وعظمة تصوراتها القلوب فالله فوق ذلك. [السعدي (ص: ٤٨٨)].

(٢) قال الماوردي: قال جميع أهل التأويل في تفسير هذه الآية إن المعنى لا يرأى بعمله أحداً. وأقول إن دخول الشرك الجلي الذي كان يفعله المشركون تحت هذه الآية هو المقدم على دخول الشرك الخفي الذي هو الرياء. ولا مانع من دخول هذا الخفي تحتها إنما المانع من كونه هو المراد بهذه الآية. [الشوكاني (٣/ ٣٧٥)].

(٣) المقبول [من الأعمال] ما كان لله خالصاً وللسنة موافقاً، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما... قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك، فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. [أعلام الموقعين لابن القيم (٢/ ٥١٦)].

سُورَةُ مَرْيَمَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ إِلَّا سَجَدَتْهَا فَمَدَنِيَّةٌ، أَوْ ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الْآيَتَيْنِ فَمَدَنِيَّتَانِ، وَهِيَ ثَمَانٌ أَوْ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَهَيْعَصَ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١). هَذَا ﴿ذَكَرَ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُو﴾ مَفْعُولٌ ﴿رَحْمَتِ﴾ ﴿زَكْرِيَّا ٢﴾ بَيَانٌ لَهُ ^(٢). ﴿إِذْ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿رَحْمَتِ﴾ ﴿نَادَى رَبَّهُ وَنِدَاءً﴾ مُشْتَمِلًا عَلَى دُعَاءٍ ﴿خَفِيًّا ٣﴾ سِرًّا جَوْفَ اللَّيْلِ؛ لِأَنَّهُ أَسْرَعُ لِلْإِجَابَةِ ^(٣). ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ﴾ ضَعْفَ ﴿الْعَظْمِ﴾ جَمِيعُهُ ^(٤) ﴿مِنِّي وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ﴾ مِنِّي ﴿شَيْبًا﴾ تَمَيِّزُ مُحَوَّلٌ عَنِ الْفَاعِلِ، أَيِ: اِنْتَشَرَ الشَّيْبُ فِي شَعْرِي كَمَا يَنْتَشِرُ شُعَاعُ النَّارِ فِي الْحَطَبِ ^(٥)، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُوكَ ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَايِكَ﴾ أَيِ: بِدُعَائِي إِيَّاكَ ﴿رَبِّ شَقِيًّا ٤﴾ أَيِ: خَائِبًا فِيمَا مَضَى، فَلَا تُخَيِّنِي فِيمَا يَأْتِي. ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْلَى﴾ أَيِ: الَّذِينَ يَلُونِي فِي النَّسَبِ كَبَنِي الْعَمِّ ﴿مِنْ وَرَأَى﴾ أَيِ: بَعْدَ مَوْتِي عَلَى الدِّينِ أَنْ يُضَيِّعُوهُ، كَمَا شَاهَدْتُهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ تَبْدِيلِ الدِّينِ ﴿وَكَاْنَتْ أُمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ لَا تَلِدُ ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِنْ عِنْدِكَ ﴿وَلِيًّا ٥﴾ ابْنًا. ﴿يَرِثُنِي﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الْأَمْرِ، وَبِالرَّفْعِ صِفَةُ وَلِيًّا ﴿وَيَرِثُ﴾ بِالْوَجْهِينِ ﴿مِنْ ءَالٍ يَعْقُوبُ ٦﴾ جَدِّي، الْعِلْمُ وَالنُّبُوَّةُ ^(٧) ﴿وَأَجْعَلْهُ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وصفه بالعبودية تشريفًا له، وإعلامًا له بتخصيصه وتقريبه، ونصب عبده على أنه مفعول لرحمة، فإنها مصدر أضيف إلى الفاعل، ونصب المفعول، وقيل: هو مفعول بفعل مضمر، تقديره: رحمة عبده، وعلى هذا يوقف على ما قبله وهذا ضعيف، وفيه تكلف الإضمار من غير حاجة إليه، وقطع العامل عن العمل بعد تهيئته له. [ابن جُزَيٍّ (١/٤٧٧)].

(٣) لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان، والإخفاء أشد إخباطًا وأكثر إخلاصًا، أو لثلاث يلام على طلب الولد في إبان الكبر، أو لثلاث يطلع عليه مواله الذين خافهم، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته. [البضاوي (٤/٥)].

(٤) ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه، وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته، ولأنه أشد ما في الإنسان وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن. ووحد العظم قصدًا إلى الجنس المفيد لشمول الوهن لكل فرد من أفراد العظام. [القرطبي (١١/٧٦)].

(٥) الاشتغال في الأصل انتشار شعاع النار، فشبه به انتشار بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة، ثم أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية بأن حذف المشبه به، وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها. قال الزجاج: يقال للشيب إذا كثر جدًا. قد اشتغل رأس فلان. [الشوكاني (٣/٣٧٩)].

(٦) اختلفوا في هذا الإِثْر؛ قال الحسن: معناه يرثني مالي ويرث من آل يعقوب النبوة والحبورة. وقيل: أراد ميراث النبوة والعلم. وقيل: أراد

رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ أَي: مَرْضِيًّا عِنْدَكَ. قَالَ تَعَالَى فِي إِجَابَةِ طَلِبِهِ الْإِبْنِ الْحَاصِلِ بِهِ رَحْمَتُهُ: ﴿يَزَكِّرِيَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾
يَرِثُ كَمَا سَأَلْتَ ﴿أَسْمُهُو يُحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ أَي: مُسَمًّى بِيَحْيَى^(١). ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى﴾ كَيْفَ
﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ مِنْ «عَتَا» يَسَس، أَي: نِهَآيَةَ السِّنِّ مِائَةً
وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَبَلَغَتْ امْرَأَتُهُ ثَمَانِي وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَأَصْلُ عِتِيٍّ: «عُتُوٌّ»، وَكُسِرَتِ التَّاءُ تَخْفِيفًا، وَقُلِبَتِ الْوَاوُ الْأُولَى
يَاءً لِمُنَاسَبَةِ الْكُسْرَةِ، وَالثَّانِيَةُ يَاءٌ لِتُدْغَمَ فِيهَا الْيَاءُ. ﴿قَالَ: الْأَمْرُ ﴿كَذَلِكَ﴾ مِنْ خَلَقِ غُلَامٍ مِنْكُمْ﴾ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى
هَيْنٍ ﴿أَي: بِأَنْ أَرَدَ عَلَيْكَ قُوَّةَ الْجَمَاعِ، وَأَفْتَقَ رَحِمَ امْرَأَتِكَ لِلْعُلُوقِ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَبْلَ
خَلْقِكَ. وَلَا ظَهَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْقُدْرَةَ الْعَظِيمَةَ أَلْهَمَهُ السُّؤَالَ لِيُجَابَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهَا. وَلَمَّا تَأَقَّتْ نَفْسُهُ إِلَى سُرْعَةِ الْمُبَشِّرِ بِهِ
﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَي: عَلَامَةً عَلَى حَمْلِ امْرَأَتِي ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ عَلَيْهِ ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾ أَي: تَمْتَنِعَ مِنْ
كَلَامِهِمْ بِخِلَافِ ذِكْرِ اللَّهِ ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ أَي: بِأَيَّامِهَا كَمَا فِي آلِ عِمْرَانَ: ﴿ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] ﴿سَوِيًّا ﴿١٠﴾
حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ ﴿تُكَلِّمُ﴾، أَي: بِلَا عِلَّةٍ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾ أَي: الْمَسْجِدِ، وَكَانُوا يَنْتَظِرُونَ فَتْحَهُ
لِيُصَلُّوا فِيهِ بِأَمْرِهِ عَلَى الْعَادَةِ ﴿فَأَوْحَى﴾ أَسَارَ ﴿إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ صَلُّوا ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ أَوَائِلَ النَّهَارِ وَأَوَاخِرَهُ
عَلَى الْعَادَةِ، فَعَلِمَ بِمَنْعِهِ مِنْ كَلَامِهِمْ حَمْلَهَا بِيَحْيَى وَبَعْدَ وَلَادَتِهِ بِسَتَيْنِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ﴾

إرث الجبورة، لأن زكريا كان رأس الأخبار. [البغوي (٢١٩/٥)]. [فزكريا] خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا
يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدرا من أن
يشفق على ماله ... هذا وجه. والوجه الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالا، ولا سيما
الأنبياء، فإنهم كانوا أزهدي شيء في الدنيا. والوجه الثالث: أنه قد ثبت في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا نُورِثُ مَا تَرَكْنَاهُ
صَدَقَةً». أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩). وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نَحْنُ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ». أخرجه
الترمذي (١٦١٠). وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ عَالِ
يَعْقُوبَ﴾، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أَي: فِي النُّبُوَّةِ، إِذْ لَوْ كَانَ فِي الْمَالِ لَمَا خَصَّهُ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِ بِذَلِكَ. [ابن كثير (٢١٢/٥)].

(١) فاعِل بمعنى مفعول، أي: مسمى يحيى، قال أكثر المفسرين: معناه لم نسّم أحداً قبله يحيى. وقال مجاهد وابن عباس وجماعة: معناه
أنه لم يجعل له مثلاً ولا نظيراً، فيكون على هذا مأخوذ من المساماة أو السمو، ورد هذا بأنه يقتضي تفضيله على إبراهيم وموسى. وقيل:
معناه لم تلد عاقر مثله، والأول أولى. وفي إخباره سبحانه بأنه لم يُسم بهذا الاسم قبله أحداً فضيلة له من جهتين. الأولى: أن الله سبحانه هو
الذي تولى تسميته به ولم يكلها إلى الأبوين، وسماه بخصوص يحيى لأنه به حيي رحم أمه بعد موته بالعقم، والجهة الثانية: أن تسميته باسم
لم يوضع لغيره تفيد تشريفه وتعظيمه. [صديق حسن (١٣٨/٨)].

أَيُّ: التَّوْرَةَ ﴿يَقُوَّةٌ﴾ بِجَدٍّ ﴿وَعَاتَيْنَهُ الْحُكْمَ﴾ النُّبُوَّةُ ﴿١١﴾ ﴿صَبِيًّا﴾ ﴿١٢﴾ ابْنِ ثَلَاثِ سِنِينَ ﴿٣﴾. ﴿وَحَنَانًا﴾ رَحْمَةً لِلنَّاسِ ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿وَزَكَاةً﴾ صَدَقَةً عَلَيْهِمْ ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٣﴾ رُوي أَنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَطِيئَةً وَلَمْ يَهَمَّ بِهَا. ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ أَيُّ: مُحْسِنًا إِلَيْهِمَا ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا﴾ مُتَكَبِّرًا ﴿عَصِيًّا﴾ ﴿١٤﴾ عَاصِيًا لِرَبِّهِ. ﴿وَسَلَّمَ﴾ مِنَّا ﴿عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ ﴿١٥﴾ أَيُّ: فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمَخُوفَةِ الَّتِي يَرَى فِيهَا مَا لَمْ يَرَهُ قَبْلَهَا، فَهُوَ آمِنٌ فِيهَا. ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿مَرْيَمَ﴾ أَيُّ: خَبَرَهَا ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿أَنْتَبَذْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ ﴿١٦﴾ أَيُّ: اعْتَزَلْتُ فِي مَكَانٍ نَحْوَ الشَّرْقِ مِنَ الدَّارِ. ﴿فَاتَّخَذْتُ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أَرْسَلْتُ سِتْرًا تَسْتُرُ بِهِ، لِتُقْلَى رَأْسُهَا أَوْ ثِيَابُهَا أَوْ تَغْتَسِلَ مِنْ حَيْضِهَا ﴿فَارْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ جِبْرِيلَ ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ بَعْدَ لُبْسِهَا ثِيَابَهَا ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ ﴿١٧﴾ تَامَّ الْخَلْقِ. ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ فَتَتَّهَى عَنِّي بِتَعَوُّذِي. ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِیَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ﴿١٩﴾ بِالنُّبُوَّةِ. ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ بِتَرْوُجٍ ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ﴿٢٠﴾ زَانِيَةً. ﴿قَالَ الْأَمْرُ بِكَذَلِكَ﴾ مِنْ خَلْقِ غُلَامٍ مِنْكَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أَيُّ: بِأَنْ يَنْفَخَ بِأَمْرِي جِبْرِيلُ فِيكَ فَتَحْمِلِي بِهِ، وَلَكُونَ مَا ذُكِرَ فِي مَعْنَى الْعَلَّةِ، عَطَفَ عَلَيْهِ: ﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ لِمَنْ آمَنَ بِهِ ﴿وَكَانَ﴾ خَلْقُهُ ﴿أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٢١﴾ بِهِ فِي عِلْمِي. فَفَنَخَ جِبْرِيلُ فِي جَنْبِ دِرْعِهَا فَأَحْسَتْ بِالْحَمْلِ فِي بَطْنِهَا مُصَوَّرًا ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ﴾ تَحْتَ ﴿بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ ﴿٢٢﴾ بَعِيدًا مِنْ أَهْلِهَا. ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ جَاءَ بِهَا ﴿الْمَخَاضُ﴾ وَجَعُ الْوِلَادَةِ ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ لِتَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فَوَلَدَتْ، وَالْحَمْلُ وَالتَّصَوُّيرُ وَالْوِلَادَةُ فِي سَاعَةٍ ﴿٣﴾ ﴿قَالَتْ يَبْ﴾ لِلتَّيْسِ ﴿لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ الْأَمْرِ ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ ﴿٢٣﴾ شَيْئًا مَتْرُوكًا لَا يَعْرِفُ وَلَا يُذَكِّرُ. ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾

(١) أي: أعطيناها الحكم، وللعلماء في المراد بالحكم أقوال متقاربة، مرجعها إلى شيء واحد، وهو أن الله أعطاه الفهم في الكتاب، أي: إدراك ما فيه والعمل به في حال كونه صبيًا. [الشنقيطي (٤/ ٢٨٦)].

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أعطى الفهم، والعبادة، وهو ابن سبع سنين. [الدر المنثور (٥/ ٤٨٤)].

(٣) اختلف المفسرون في مدة حمل عيسى عليه السلام فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر، قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر. [وعن] ابن عباس وسئل عن حمل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت. وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب كل شيء بحسبه، كما قال تعالى: ... ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] فالمشهور الظاهر والله على كل شيء قدير أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن. [ابن كثير (٥/ ٢٢٢)].

أَيُّ: جَبْرِيلُ، وَكَانَ أَسْفَلَ مِنْهَا ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ٢٤﴾ نَهْرَ مَاءٍ كَانَ قَدْ انْقَطَعَ. ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ بِجُذْعِ النَّخْلَةِ﴾ كَانَتْ يَابِسَةً وَالْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿تَسْقُطُ﴾ أَصْلُهُ بَتَاءَيْنِ قُلِبَتِ الثَّانِيَةُ سِينًا وَأُذْغِمَتْ فِي السَّيْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: تَرْكُهَا^(١) ﴿عَلَيْكَ رُطْبًا﴾ تَمَيِّزُ ﴿جَنِيًّا ٢٥﴾ صِفَتُهُ. ﴿فَكُلِي﴾ مِنَ الرُّطْبِ ﴿وَأَشْرِي﴾ مِنَ السَّرِيِّ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بِالْوَلَدِ، تَمَيِّزُ مُحَوَّلٍ مِنَ الْفَاعِلِ، أَيُّ: لَتَقَرَّرْ عَيْنُكَ بِهِ، أَيُّ: تَسْكُنُ فَلَا تَطْمَحِ إِلَى غَيْرِهِ ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامٌ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الزَّائِدَةُ ﴿تَرَيْنَ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ لَامُ الْفِعْلِ وَعَيْنُهُ وَالْقِيَّتْ حَرَكْتُهَا عَلَى الرَّاءِ، وَكُسِرَتْ يَاءُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فَيَسْأَلُكَ عَنْ وَلَدِكَ ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أَيُّ: إِمْسَاكًا عَنِ الْكَلَامِ فِي شَأْنِهِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْإِنْسَانِيِّ بِدَلِيلٍ ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا ٢٦﴾ أَيُّ: بَعْدَ ذَلِكَ. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ حَالٌ، فَرَأَوْهُ ﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ٢٧﴾ عَظِيمًا حَيْثُ أَتَيْتِ بِوَلَدٍ مِنْ غَيْرِ أَبِي. ﴿يَاأُخْتُ هَارُونَ﴾ هُوَ رَجُلٌ صَالِحٌ، أَيُّ: يَا شَبِيهَتَهُ فِي الْعِفَّةِ ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ أَيُّ: زَانِيًا ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ٢٨﴾ أَيُّ: زَانِيَةً، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْوَلَدُ؟ ﴿فَأَشَارَتْ﴾ لَهُمْ ﴿إِلَيْهِ﴾ أَنْ كَلَّمُوهُ ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأُمْهِدِ صَبِيًّا ٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ أَيُّ: الْإِنْجِيلَ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ أَيُّ: نَفَاعًا لِلنَّاسِ، إِخْبَارٌ بِمَا كُتِبَ لَهُ ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ أَمَرَنِي بِهِمَا ﴿وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴿مَنْصُوبٌ بِـ﴾ ﴿جَعَلَنِي﴾ مُقَدَّرًا ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ مُتَعَاظِمًا ﴿شَقِيًّا ٣٢﴾ عَاصِيًا لِرَبِّهِ. ﴿وَالسَّلَامُ﴾ مِنَ اللَّهِ ﴿عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ٣٣﴾ يُقَالُ فِيهِ مَا تَقَدَّمَ فِي السَّيِّدِ يَحْيَى^(٢). قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ بِالرَّفْعِ: خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ، أَيُّ: قَوْلُ ابْنِ مَرْيَمَ، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرٍ: «قُلْتُ»، وَالْمَعْنَى: الْقَوْلُ الْحَقُّ ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّرُونَ ٣٤﴾ مِنَ الْمَرِيَةِ، أَيُّ: يَشْكُونَ، وَهُمْ النَّصَارَى، قَالُوا: إِنَّ عِيسَى ابْنُ اللَّهِ. كَذَّبُوا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ تَنْزِيهَا لَهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ أَيُّ: أَرَادَ أَنْ يُحْدِثَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

(١) أَيُّ: تَرَكَ التَّاءَ الْمَقْلُوبَةَ سِينًا.

(٢) أَيُّ: مَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ (١٥). وَقَوْلُهُ: «السَّيِّدُ يَحْيَى»، فِي إِطْلَاقٍ لَفْظِ «السَّيِّدِ» مُطْلَقًا بِدُونِ إِضَافَةٍ حَدِيثٌ عَنْ مَطْرِفٍ، قَالَ: قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٤٨٠٦). فِي هَذَا الْحَدِيثِ لَمْ يَنْهَهُمُ ﷺ عَنْ قَوْلِهِمْ: «أَنْتَ سَيِّدُنَا»، بَلْ أَذِنَ لَهُمْ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ» لَكِنْ نَهَاهُمْ أَنْ يَسْتَجْرِبَهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَتَرَقَوْا مِنَ السِّيَادَةِ الْخَاصَّةِ إِلَى السِّيَادَةِ الْعَامَةِ الْمَطْلُوقَةِ؛ لِأَنَّ «سَيِّدَنَا» سِيَادَةً خَاصَّةً مُضَافَةً، وَ«السَّيِّدُ» سِيَادَةً عَامَةً مُطْلَقَةٌ غَيْرُ مُضَافَةٍ. [القول المفيد لابن عثيمين (٢/٥١٥)].

﴿٣٥﴾ بِالرُّفْعِ بِتَقْدِيرٍ: «هُوَ»، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرٍ: «أَنْ»، وَمِنْ ذَلِكَ خَلَقَ عِيسَى مِنْ غَيْرِ أَبِي. ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ بَفَتْحِ ﴿أَنْ﴾ بِتَقْدِيرٍ: «أَذْكُرُ»، وَيَكْسِرُهَا بِتَقْدِيرٍ: «قُلْ»، بِدَلِيلٍ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧] ﴿هَذَا﴾ الْمَذْكُورُ ﴿صِرَاطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿٣٦﴾ مُؤَدِّ إِلَى الْجَنَّةِ. ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أَيِ: النَّصَارَى، فِي عِيسَى أَهْوَابُنُ اللَّهِ، أَوْ إِلَهَ مَعَهُ، أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ^(١) ﴿فَوَيْلٌ﴾ فَشِدَّةٌ عَذَابٍ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِمَا ذُكِرَ أَوْ غَيْرِهِ ﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٣٧﴾ أَيِ: حُضُورِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهِ. ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ بِهِمْ، صِغَتَا تَعَجُّبٍ بِمَعْنَى: مَا أَسْمَعَهُمْ، وَمَا أَبْصَرَهُمْ ﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ﴾ مِنْ إِقَامَةِ الظَّاهِرِ مَقَامَ الْمُضْمَرِ ﴿الْيَوْمَ﴾ أَيِ: فِي الدُّنْيَا ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ أَيِ: بَيْنَ بِهِ صُمُّوا عَنْ سَمَاعِ الْحَقِّ وَعَمُّوا عَنْ إِبْصَارِهِ، أَيِ: اعْجَبَ مِنْهُمْ يَا مُخَاطَبُ فِي سَمْعِهِمْ وَإِبْصَارِهِمْ فِي الْآخِرَةِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا صُمًّا عُمِّيًّا. ﴿وَأَنْذِرْهُمْ﴾ خَوْفَ يَا مُحَمَّدُ كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿يَوْمَ الْحُسْرَى﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يَتَحَسَّرُ فِيهِ الْمُسِيءُ عَلَى تَرْكِ الْإِحْسَانِ فِي الدُّنْيَا ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لَهُمْ فِيهِ بِالْعَذَابِ ﴿وَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عَنْهُ ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ بِهِ. ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ تَأْكِيدُ ﴿نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ مِنَ الْعُقَلَاءِ وَغَيْرِهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَالَّذِينَ يُرْجَعُونَ﴾ فِيهِ لِلْجَزَاءِ. ﴿وَأَذْكُرْ﴾ لَهُمْ ﴿فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيِ: خَبْرَهُ ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ مُبَالِغًا فِي الصِّدْقِ ﴿نَبِيًّا﴾ ﴿٤٠﴾ وَيُنْدِلُ مِنْ «خَبْرِهِ». ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزَرَ ﴿يَتَابَتِ﴾ «الْتَأَاءُ» عَوْضُ عَنْ «يَاءٍ» الْإِضَافَةِ، وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا، وَكَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ﴿لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ﴾ لَا يَكْفِيكَ ﴿شَيْئًا﴾ ﴿٤١﴾ مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضَرٍّ. ﴿يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا﴾ طَرِيقًا ﴿سَوِيًّا﴾ ﴿٤٢﴾ مُسْتَقِيمًا. ﴿يَتَابَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ بِطَاعَتِكَ إِيَّاهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ ﴿٤٣﴾ كَثِيرَ الْعَصْيَانِ. ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابُ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ إِنْ لَمْ تَتَّبَعْ ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ ﴿٤٤﴾ نَاصِرًا وَقَرِينًا فِي النَّارِ. ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ فَتَعْيِيهَا ﴿لَنْ لَمْ تَنْتَهَ﴾ عَنْ التَّعَرُّضِ لَهَا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بِالْحِجَارَةِ أَوْ بِالْكَلَامِ الْقَبِيحِ، فَاحْذَرْنِي ﴿وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ ﴿٤٥﴾ دَهْرًا طَوِيلًا. ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ مِنِّي، أَيِ: لَا أَصِيبُكَ بِمَكْرُوهِه ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾

(١) أي: اختلف قول أهل الكتاب في عيسى، بعد بيان أمره ووضوح حاله. وأنه عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. فأصرت اليهود منهم على بهت أمه وقرفه بالسحر. وانقسمت النصارى في أمره انقسامًا يفوت الحصر. وكله ضلال وشرك وكفر. وقد هدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه. وهذا من فضله تعالى ومنه. [القاسمي (٩٧/٧)].

﴿٤٧﴾ مِنْ حَفِيٍّ، أَي: بَارًّا فَيَجِيبُ دُعَائِي، وَقَدْ أَوْفَى بِوَعْدِهِ الْمَذْكُورِ فِي الشُّعْرَاءِ: ﴿وَأَغْفِرْ لَائِي﴾ [الشعراء: ٨٦]، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي «بَرَاءة»^(١) ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا﴾ أَعْبُدْ ﴿رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿شَقِيًّا﴾^(٢) ﴿كَمَا شَقِيتُمْ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ﴾^(٣). ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بِأَن ذَهَبَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ ابْنَيْنِ يَأْتِسُ بِهِمَا ﴿إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ وَكُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾^(٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ﴾ لِلثَّلَاثَةِ ﴿مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أَلْمَالُ وَالْوَلَدُ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾^(٥) رَفِيعًا، هُوَ: الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي جَمِيعِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ^(٦). ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ بِكُسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا، مِنْ أَخْلَصَ فِي عِبَادَتِهِ، وَأَخْلَصَهُ اللَّهُ مِنَ الدَّنَسِ ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾^(٧) وَنَدَيْنَاهُ بِقَوْلٍ: ﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠] ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿الْأَيْمَنِ﴾ أَي: الَّذِي يَلِي يَمِينَ مُوسَى حِينَ أَقْبَلَ مِنْ مَدِينِ وَقَرَّبْنَاهُ نَحِيًّا^(٨) ﴿مُنَاجِيًّا﴾ بِأَن أَسْمَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَلَامَهُ^(٩) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ نِعْمَتَيْنَا^(١٠) ﴿أَخَاهُ هَارُونَ﴾ بَدَلًا أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿نَبِيًّا﴾^(١١) ﴿حَالٌ هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالْهَيْمَةِ، إِجَابَةٌ لِسُؤَالِهِ أَنْ يُرْسَلَ أَخَاهُ مَعَهُ، وَكَانَ أَسَنَ مِنْهُ.﴾ ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ لَمْ يَعْذْ شَيْئًا إِلَّا وَفَى بِهِ، وَانْتَظَرَ مِنْ وَعْدِهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ حَوْلًا حَتَّى رَجَعَ إِلَيْهِ فِي مَكَانِهِ^(١٢) ﴿وَكَانَ رَسُولًا﴾ إِلَى جُرْهُمِ ﴿نَبِيًّا﴾^(١٣) ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أَي: قَوْمَهُ ﴿بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ

(١) قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٢) فيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم، مع التواضع لله بكلمة «عسى» وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على أن الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى. [القاسمي (١٠٢/٧)].

(٣) أي: الثناء الحسن قاله ابن عباس، عبر عنه باللسان لكونه يوجد به، كما عبر باليد عن العطية، وإضافته إلى الصدق ووصفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقاء بما يقال فيهم من الثناء على ألسن العباد، ففي اللسان مجاز مرسل من إطلاق اسم الآلة وإرادة ما ينشأ منها. والمعنى: وجعلنا لهم ثناء صادقًا يذكرهم الأمم كلها إلى يوم القيامة، بما لهم من الخصال المرضية، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة، وهذا توبيخ لكفار مكة إذ كان مقتضى ترضيهم وثنائهم على المذكورين أن يتبعوهم في الدين مع أنهم لم يفعلوا. [صديق حسن (١٦٨/٨)].

(٤) والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم. [السعدي (ص: ٤٩٦)].

(٥) في ﴿مِنْ﴾ وجهان: أحدهما أنها تعليلية، أي: من أجل رحمتنا، والثاني أنها تبعيضية، أي: بعض رحمتنا. [صديق حسن (١٦٩/٨)].

(٦) مما يبين من القرآن شدة صدقه في وعده: أنه وعد أباه بصبره له على ذبحه ثم وفي بهذا الوعد، ومن وفي بوعده في تسليم نفسه للذبح فإن ذلك من أعظم الأدلة على عظيم صدقه في وعده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا

رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ أَصْلُهُ «مَرْضُوءٌ» قُلِبَتِ الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ وَالضَّمَّةُ كَسْرَةً. ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ هُوَ جَدُّ أَبِي نُوحٍ ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ هُوَ حَيٌّ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ أَوِ السَّادِسَةِ أَوِ السَّابِعَةِ، أَوْ فِي الْجَنَّةِ، أُدْخِلَهَا بَعْدَ أَنْ أُذِيقَ الْمَوْتَ وَأُحْيِيَ وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا^(١). ﴿أُولَئِكَ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ صِفَةٌ لَهُ ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ بَيَانٌ لَهُمْ، وَهُوَ فِي مَعْنَى الصِّفَةِ، وَمَا بَعْدَهُ إِلَى جُمْلَةِ الشَّرْطِ صِفَةٌ لـ ﴿النَّبِيِّينَ﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿مِنَ ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ أَيُّ: إِدْرِيسُ ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ فِي السَّفِينَةِ، أَيُّ: إِبْرَاهِيمَ ابْنُ ابْنِهِ سَامٍ ﴿وَمِنَ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أَيُّ: إِسْمَاعِيلُ وَإِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ ﴿وَمِنَ ذُرِّيَةِ إِسْرَءِيلَ﴾ هُوَ يَعْقُوبُ، أَيُّ: مُوسَى وَهَارُونَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ أَيُّ: مِنْ جُمْلَتِهِمْ^(٢)، وَخَبَرُ ﴿أُولَئِكَ﴾ ﴿إِذَا تَتَلَّاهُمْ عَلَى آيَاتِ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ ﴿٥٨﴾ جَمْعُ سَاجِدٍ وَبَاكِ، أَيُّ: فَكُونُوا مِثْلَهُمْ، وَأَصْلُ بُكِيٍّ «بُكُوءٌ»^(٣) قُلِبَتِ الْوَاوُ يَاءً وَالضَّمَّةُ كَسْرَةً^(٤). ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ بَرَكِهَا كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي

تَرَى قَالَ يَتَأَبَّتْ أَفْعَلٌ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِرِينَ ﴿[الصفات: ١٠٢] فهذا وعده. وقد بين تعالى وفاءه به في قوله:

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ الآية [الصفات: ١٠٣]، والتحقيق أن الذبيح هو إسماعيل. [الشقيطي (٣/٤٣٧)].

(١) قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهما وغيرهما: يعني السماء الرابعة. وفي الحديث: «ثُمَّ عَرَجَ بَنَّا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾». أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) واعلم أنه تعالى أثنى على كل واحد ممن تقدم ذكره من الأنبياء بما يخصه من الثناء، ثم جمعهم آخرًا فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ الخ، فرتب تعالى أحوال الأنبياء... منبهاً بذلك على أنهم كما فضلوا بأعمالهم فلهم منزلة في الفضل بولادتهم من هؤلاء الأنبياء، ثم بين أنهم ﴿مِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ منبهاً بذلك على أنهم خصوا بهذه المنازل لهداية الله لهم، ولأنه اختارهم للرسالة. [صديق حسن (٨/١٧٣)].

(٣) على وزن «فُعُول» كـ «فُعُود» جمع قاعد.

(٤) أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، مع ما لهم من علو الرتبة، وسمو الزلفى عنده تعالى، وفي الآية استحباب السجود والبكاء عند سماع التلاوة. قال ابن كثير: أجمع العلماء على مشروعية السجود ههنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم. وروى ابن جرير وابن أبي حاتم: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ سورة مريم فسجد. وقال: هذا السجود فأين البكي. [القاسمي (٧/١٠٥)].

(٥) أي: أخرجوها عن وقتها، قاله الأكثر، وهو ألا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا العصر حتى يأتي المغرب، وقيل: أضاعوا الوقت، وقيل: كفروا بها وجحدوا وجوبها، وقيل: لم يأتوا بها على الوجه المشروع. وقيل: تركوها كاليهود والنصارى، والظاهر أن من أخر الصلاة عن وقتها أو ترك فرضاً من فروضها أو شرطاً من شروطها أو ركناً من أركانها فقد أضاعها، ويدخل تحت الإضاعة من تركها بالمرة أو جحدوها

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ٥٩﴾ هُوَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ، أَي: يَقَعُونَ فِيهِ^(١). ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ^(٢) ﴿مَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ﴾ يُنْقَضُونَ ﴿شَيْئًا ٦٠﴾ مِنْ ثَوَابِهِمْ. ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٌ، بَدَلٌ مِنْ «الْجَنَّةِ» ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ، أَي: غَائِبِينَ عَنْهَا ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ﴾ أَي: مَوْعُودُهُ ﴿مَأْتِيًّا ٦١﴾ بِمَعْنَى آتِيًّا، وَأَصْلُهُ «مَأْتَوِيٌّ»، أَوْ مَوْعُودُهُ هُنَا الْجَنَّةُ يَأْتِيهِ أَهْلُهَا. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ مِنَ الْكَلَامِ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ يَسْمَعُونَ ﴿سَلَامًا ٦٢﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ^(٣) ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ٦٣﴾ أَي: عَلَى قَدَرِهِمَا فِي الدُّنْيَا، وَلَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَهَارٌ وَلَا لَيْلٌ، بَلْ ضَوْءٌ وَنُورٌ أَبَدًا^(٤). ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ نُعْطِي وَنُنْزِلُ ﴿مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ٦٤﴾ بِطَاعَتِهِ. وَنَزَلَ لَمَّا تَأَخَّرَ الْوَحْيُ أَيَّامًا وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِجَبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟»^(٥): ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أَي: أَمَامَنَا مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلَفْنَا﴾ مِنْ أُمُورِ

دخولاً أولياً. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقيل في اليهود وقيل في النصارى وقيل في قوم من أمة محمد ﷺ يأتون في آخر الزمان. وقال بالأولين السدي. وقال بالثالث مجاهد. [صديق حسن (٨/ ١٧٥)].

(١) الإطلاق المشهور هو أن الغي الضلال، وفي المراد بقوله: ﴿غَيًّا﴾ في الآية أقوال متقاربة، منها أن الكلام على حذف مضاف، أي: فسوف يلقون جزاء غي، ولا شك أنهم سيلقون جزاء ضلالهم، وممن قال بهذا القول: الزجاج، ونظير هذا التفسير قوله تعالى: ﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨]. [الشنقيطي (٤/ ٣٨٧)].

(٢) مما فرط منه من تضييع الصلاة واتباع الشهوات فرجع إلى طاعة الله... والاستثناء منقطع قاله الزجاج وجرى أبو حيان وغيره على أنه متصل، وهو ظاهر الآية، لما روي عن قتادة أنها في حق هذه الأمة، ويجوز أن يحمل على التغليظ، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧] وبهذا التأويل يحسن قول قتادة. إن هذا الكلام نازل في شأن أمة محمد ﷺ، وقيل: في هذا الاستثناء دليل على أن الآية في الكفرة لا في المسلمين. [صديق حسن (٨/ ١٧٧)].

(٣) معناه: لكن يسمعون سلاماً. فإن قيل: أيجوز استثناء السلام من اللغو؟ وهو ليس من جنسه؟ قلنا: هو استثناء منقطع. وذكر الأزهري أن تقديره: لا يسمعون فيها لغواً، لا يسمعون إلا سلاماً. وأما السلام فهو تسليم بعضهم على بعض، وقيل: تسليم الله عليهم. [السمعي (٣/ ٣٠٣)].

(٤) أي: يؤتون بأرزاقهم على مقدار طرفي النهار من الدنيا إذ لا ليل ولا نهار ثم، لأنهم في النور أبداً وإنما يعرفون مقدار النهار برفع الحجب ومقدار الليل بإرخائها، والرزق بالبكرة والعشي أفضل العيش عند العرب فوصف الله جنته بذلك، وقيل: أراد دوام الرزق كما تقول أنا عند فلان بكرة وعشيا تريد الدوام. [النسفي (٢/ ٣٤٤)].

(٥) أخرجه البخاري (٣٠٤٦).

الدُّنْيَا ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أَي: مَا يَكُونُ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، أَي: لَهُ عِلْمُ ذَلِكَ جَمِيعِهِ ^(١) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ بِمَعْنَى نَاسِيًّا، أَي: تَارِكًا لَكَ بِتَأْخِيرِ الْوَحْيِ عَنْكَ. هُوَ ﴿رَبُّ﴾ مَالِكِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أَي: اصْبِرْ عَلَيْهَا ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ^(٢) أَي: مُسَمًّى بِذَلِكَ؟ لَا ^(٣). ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ﴾ الْمُنْكَرُ لِلْبَعْثِ، أَيُّ بَنٍ خَلَفَ أَوْ الْوَلِيدُ بَنُ الْمَغِيرَةِ، النَّازِلُ فِيهِ الْآيَةُ: ﴿أَءِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهَا بَوَجهَيْهَا وَبَيْنَ الْأُخْرَى ﴿مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ^(٤) مِنْ الْقَبْرِ، كَمَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ؟ فَالْأَسْتَفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا أَحْيَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَا زَائِدَةٌ لِلتَّكْيِيدِ وَكَذَا اللَّامُ. وَرُدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ﴾ أَصْلُهُ «يَتَذَكَّرُ» أَبْدَلَتْ التَّاءُ ذَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي الذَّالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: تَرَكُّهَا وَسُكُونُ الذَّالِ وَضَمُّ الْكَافِ ﴿أَنَا خَلَقْتُهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ ^(٥) فَيُسْتَدَلُّ بِالْإِبْتِدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ أَي: الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ أَي: نَجْمَعُ كُلًّا مِنْهُمْ وَشَيْطَانُهُ فِي سِلْسِلَةٍ ﴿ثُمَّ لَنَحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ مِنْ خَارِجِهَا ﴿حِثِّيًّا﴾ ^(٦) عَلَى الرُّكْبِ جَمْعُ جَاثٍ، وَأَصْلُهُ «جُثُو» أَوْ «جُثُوِي» مِنْ جَثَا يَجْثُو أَوْ يَجْثِي لُغَتَانِ. ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ ^(٧) ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ ^(٨) جَرَاءَةً. ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا﴾ أَحَقُّ بِجَهَنَّمَ، الْأَشَدُّ

(١) والمعنى: أن الله سبحانه هو المحيط بكل شيء، لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، فلا تقدم على أمر إلا بإذنه، وقال: ﴿مَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾، ولم يقل: «ما بين ذينك» لأن المراد ما بين ما ذكرنا كما في قوله سبحانه: ﴿عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]. [الشوكاني (٣/ ٤٠٤)].

(٢) أي: هل تعلم لله مساويا ومماثلا من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بال عقل. أي: لا تعلم له مساويا ولا مشابها، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى. [السعدي (ص: ٤٩٨)].

(٣) ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾، أي: لنستخرجن ﴿مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾ أي: من كل أمة أهل دين واحد، وأصل الشيعة فعلة كفرقة، وهي الطائفة التي شاعت غيرها، أي: تبعته في هدى أو ضلال؛ تقول العرب: شاعه شياعا: إذا تبعه. وقوله تعالى: ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ أي: لنستخرجن ولنميزن من كل طائفة من طوائف الغي والفساد أعصاهم فأعصاهم، وأعصاهم فاعتصاهم، فيبدأ بتعذيبه وإدخاله النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال، وهذا هو الظاهر في معنى الآية الكريمة: أن الرؤساء القادة في الكفر يعذبون قبل غيرهم ويشدد عليهم العذاب لضلالهم وإضلالهم. وقد جاءت آيات من كتاب الله تعالى تدل على هذا، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨] ... وقوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ

وغيره منهم ﴿صَلِيًّا ٧٠﴾ دُخُولًا وَاحْتِرَاقًا فَبَدَأَ بِهِمْ، وَأَصْلُهُ «صُلُوِيٌّ» مِنْ صَلِيَ بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿وَإِنْ﴾ أَيُّ: مَا ﴿مِنْكُمْ﴾ أَحَدٌ ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أَيُّ: دَاخِلُ جَهَنَّمَ^(١) ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ٧١﴾ حَتْمُهُ وَقَضَى بِهِ لَا يَتْرُكُهُ. ﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشُّرَكَ وَالْكَفَرِ مِنْهَا ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ بِالْشُّرِكِ وَالْكَفَرِ ﴿فِيهَا جِثْيًا ٧٢﴾ عَلَى الرُّكْبِ. ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ ﴿ءَايَاتُنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وَاضِحَاتٍ حَالٍ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ نَحْنُ وَأَنْتُمْ ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ مَنْزِلًا وَمَسْكَنًا، بِالْفَتْحِ مِنْ «قَامَ»، وَبِالضَّمِّ مِنْ «أَقَامَ» ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ٧٣﴾ بِمَعْنَى النَّادِي، وَهُوَ مُجْتَمَعُ الْقَوْمِ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ. يَعْنُونَ: نَحْنُ، فَكَوْنُ خَيْرًا مِنْكُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ﴾ أَيُّ: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَيُّ: أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ مَالًا وَمَتَاعًا ﴿وَرِعْيَا ٧٤﴾ مَنْظَرًا، مِنَ «الرُّؤْيَا» فَكَمَا أَهْلَكْنَاهُمْ لِكُفْرِهِمْ نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ^(٢). ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ شَرُّ جَوَابُهُ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ بِمَعْنَى الْخَبَرِ، أَيُّ: يَمُدُّ ﴿لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ فِي الدُّنْيَا يَسْتَدْرِجُهُ ﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ كَالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿وَأِمَّا السَّاعَةَ﴾ الْمُسْتَمَلَّةَ عَلَى جَهَنَّمَ فَيَدْخُلُونَهَا ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ٧٥﴾ أَعْوَانًا، أَهْمُ أَمْ الْمُؤْمِنُونَ؟ وَجُنْدُهُمُ الشَّيَاطِينُ، وَجُنْدُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ. ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ

عِلْمُ الْأَسَاءِ مَا يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]. [الشقيطي (٤/ ٤٣٣)].

(١) هذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكما حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ... واختلف في معنى الورود، فقليل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعد، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردا وسلاما. وقيل: الورود، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كل بحسب تقواه. [السعدي (ص: ٤٩٨)]. عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية قال: قال رسول الله ﷺ: «يَرُدُّ النَّاسُ كُلَّهُمُ النَّارَ، ثُمَّ يُصْدَرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ، فَأُولَئِهِمْ كَلَمَحُ الْبَرَقِ، ثُمَّ كَالرَّيْحِ، ثُمَّ كَحُضْرِ الْفَرَسِ، ثُمَّ كَالرَّاكِبِ فِي رَحْلِهِ، ثُمَّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، ثُمَّ كَمَشْيِهِ». أخرجه الترمذي (٣١٥٩)، وأحمد (٤١٤١).

(٢) المعنى: أن هؤلاء الكفرة إذا تليت عليهم آياته تعالى بينة الحجة واضحة البرهان على مقاصدها، أعرضوا وأخذوا يحتجون على فضل ما هم عليه بكونهم أوفر حظا من الدنيا، لكونهم أحسن منازل وأرفع دورا وأعمر ناديا ... أي: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون في دار الأرقم بن أبي الأرقم على الحق؟ كما قال تعالى مخبرا عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وقال قوم نوح: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. [القاسمي (٧/ ١٠٩)].

الَّذِينَ اهْتَدَوْا ۖ بِالإِيمَانِ ۖ هُدًى ۖ بِمَا يُنَزَّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ ۖ ﴿٧٥﴾ وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَةُ ۖ هِيَ الطَّاعَةُ تَبْقَى لِصَاحِبِهَا ۖ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ۖ ﴿٧٦﴾ أَيُّ: مَا يُرَدُّ إِلَيْهِ وَيَرْجِعُ بِخِلَافِ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ، وَالْخَيْرِيَّةُ هُنَا فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا﴾. ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ الْقَائِلُ هُوَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ ﴿وَقَالَ﴾ لِحَبَابِ بْنِ الْأَرْتِّ الْقَائِلِ لَهُ: «تُبْعْتُ بَعْدَ الْمَوْتِ»، وَالْمُطَالِبُ لَهُ بِمَالٍ ﴿لَأُوتِيَنَّ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ الْبَعْثِ ﴿مَا لَا وَوَلَدًا﴾ ﴿٧٧﴾ فَأَفْضِيكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أُظْلِعَ الْغَيْبَ﴾ أَيُّ: أَعْلَمَهُ وَأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ، وَاسْتُغْنِيَ بِهِمْزَةُ الْإِسْتِفْهَامِ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ فَحُذِفَتْ ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ بِأَنْ يُؤْتَى مَا قَالَهُ. ﴿كَلَّا﴾ أَيُّ: لَا يُؤْتَى ذَلِكَ ﴿سَنَكْتُبُ﴾ نَأْمُرُ بِكُتْبِ ﴿مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿٧٩﴾ نَزِيدُهُ بِذَلِكَ عَذَابًا فَوْقَ عَذَابِ كُفْرِهِ. ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ مِنَ الْمَالِ وَالْوَلَدِ ﴿وَيَأْتِينَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَرَدًّا﴾ ﴿٨٠﴾ لَا مَالَ لَهُ وَلَا وَلَدَ. ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ أَيُّ: كَفَّارُ مَكَّةَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الْأَوْثَانَ ﴿ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدُونَهُمْ ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ ﴿٨١﴾ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللَّهِ بِأَلَّا يُعَذَّبُوا. ﴿كَلَّا﴾ أَيُّ: لَا مَانِعَ مِنْ عَذَابِهِمْ ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ أَيُّ: أَلَا إِلَهَهُ ﴿بِعِبَادَتِهِمْ﴾ أَيُّ: يَنْفُونَهَا كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣] ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ ﴿٨٢﴾ أَعْوَانًا وَأَعْدَاءَ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾ سَلْطَنَاهُمْ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزُهُمْ﴾ تُهَيِّجُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي ﴿أَزًّا﴾ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ بَطَلَبِ الْعَذَابِ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ الْآيَامَ وَاللَّيَالِي أَوْ الْأَنْفَاسَ ﴿عَذًّا﴾ ﴿٨٤﴾ إِلَى وَقْتِ عَذَابِهِمْ. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ بِإِيمَانِهِمْ ﴿إِلَى الرَّحْمَنِ وَقْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ جَمْعُ «وَافِدٍ» بِمَعْنَى: رَاكِبٍ^(١). ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ ﴿٨٦﴾ جَمْعُ «وَارِدٍ» بِمَعْنَى: مَاشٍ عَطْشَانٍ. ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أَيُّ: النَّاسُ ﴿الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٨٧﴾ أَيُّ: «شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ»^(٢). ﴿وَقَالُوا﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ ﴿٨٨﴾. قَالَ

(١) الهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح. فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورا آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَبَزَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدرثر: ٣١]، ﴿وَإِذَا ثَلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. [السعدي (ص: ٤٩٩)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرِيقٍ: رَاغِبِينَ رَاهِبِينَ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ، وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَعَشْرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ، وَتَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمُ النَّارُ، تَبِيَتْ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا، وَتَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا، وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا، وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا». أخرجه البخاري (٦٥٢٢)، ومسلم (٢٨٦١).

(٣) أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وقد أخبر أنه لا تنفعهم

تَعَالَى لَهُمْ: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩﴾ أَي: مُنْكَرًا عَظِيمًا. ﴿تَكَادُ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ۝ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ ۝ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ بِالْإِنْشِقَاقِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ ۝ مِنْهُ وَتَنْشِقُ الْأَرْضُ وَتَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا ۝٩٠﴾ أَي: تَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ. مِنْ أَجْلِ ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٩١﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢﴾ أَي: مَا يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ. ﴿إِنْ ۝٩٣﴾ أَي: مَا ﴿كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا ءَاتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ ذَلِيلًا خَاضِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْهُمْ: عَزِيزٌ وَعِيسَى. ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤﴾ فَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَبْلَغُ جَمِيعِهِمْ، وَلَا وَاحِدٌ مِنْهُمْ. ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ بِلَا مَالٍ، وَلَا نَصِيرٍ يَمْنَعُهُ^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ، يَتَوَادُّونَ وَيَتَحَابُّونَ وَيُحِبُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى^(٢). ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ ۝ أَي: الْقُرْآنَ ۝ بِلِسَانِكَ ۝ الْعَرَبِيِّ ۝ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ۝ الْفَائِزِينَ بِالْإِيمَانِ ۝ وَتُنذِرَ ۝ تَخَوْفَ ۝ بِهِ ۝ قَوْمًا لَدًّا ۝٩٧﴾ جَمْعُ «الْدِّ»، أَي: جَدِلٍ بِالْبَاطِلِ، وَهُمْ كُفَّارٌ مَكَّةَ^(٣). ﴿وَكَمْ ۝ أَي: كَثِيرًا ۝ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ ۝ أَي: أُمَّةٍ مِّنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِهِمُ الرُّسُلَ ۝ هَلْ تُحِسُّ ۝ تَجِدُ ۝ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۝٩٨﴾ صَوْتًا خَفِيًّا؟ لَا، فَكَمَا أَهْلَكْنَا أَوْلَئِكَ نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ.

شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهدا بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهدا فآمن به وبرسله واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وسمى الله الإيمان به واتباع رسله عهدا، لأنه عهد في كتبه وعلى السنة رسله، بالجزاء الجميل لمن اتبعهم. [السعدي (ص: ٥٠٠)].

(١) كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

(٢) هذا من نعمه على عباده، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم ودا، أي: محبة وودادا في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب ود يسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ فَيَنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، قَالَ: ثُمَّ يَضَعُ لَهُ الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ». أخرجه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧). وإنما جعل الله لهم ودا لأنهم ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه. [السعدي (ص: ٥٠١)].

(٣) قال ابن الأنباري: وخص اللد بالإنذار؛ لأنهم إذا قامت عليه الحجة صار غيرهم لاحقا بهم من أجل أن الذي لا عناد عنده يسرع انقياده، فالمقصود بالإنذار هؤلاء اللد المخاصمون. [الواحدي (١٤/ ٣٤٢)].

سُورَةُ طه

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَخَمْسٌ وَثَلَاثُونَ، أَوْ أَرْبَعُونَ، أَوْ وَثْنَانِ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١). ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لِتَشْقَى﴾ ^(٢) لِسَعْبٍ بِمَا فَعَلْتَ بَعْدَ نَزُولِهِ، مِنْ طُولِ قِيَامِكَ بِصَلَاةِ اللَّيْلِ، أَيْ: خَفَّفَ عَنْ نَفْسِكَ ^(٣). ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ أَنْزَلْنَاهُ ﴿تَذْكِرَةً﴾ بِهِ ﴿لِمَنْ يَخْشَى﴾ ^(٤) يَخَافُ اللَّهَ. ﴿تَنْزِيلًا﴾ بَدَّلَ مِنَ اللَّفْظِ بِفَعْلِهِ النَّاصِبِ لَهُ ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ ^(٥) جَمْعُ «عُلْيَا» كَكُوبَرَى وَكُوبَرٍ. هُوَ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وَهُوَ فِي اللُّغَةِ: سَرِيرُ الْمَلِكِ ﴿أُسْتَوَى﴾ ^(٦) اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِهِ ^(٧). ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ^(٨) هُوَ التُّرَابُ النَّدِيّ، وَالْمُرَادُ الْأَرْضُ وَالسَّبْعُ لِأَنَّهَا تَحْتَهُ ﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ﴾ فِي ذِكْرِ أَوْ دُعَاءٍ، فَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنِ الْجَهْرِ بِهِ ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ^(٩) مِنْهُ، أَيْ: مَا حَدَّثَتْ بِهِ النَّفْسَ وَمَا خَطَرَ وَلَمْ تُحَدِّثْ بِهِ، فَلَا تُجْهِدْ نَفْسَكَ بِالْجَهْرِ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ ^(١٠) التَّسْعَةُ وَالتَّسْعُونَ الْوَارِدُ بِهَا الْحَدِيثُ ^(١١)، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثٌ «الْأَحْسَنُ». ﴿وَهَلْ﴾ قَدْ ﴿أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ ^(١٢) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ﴿لَا مَرَاتِهِ﴾ ﴿أَمْكُثُوا﴾ هُنَا، وَذَلِكَ فِي مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ طَالِبًا مِصْرَ ﴿إِنِّيْ ءَانَسْتُ﴾ أَبْصَرْتُ ﴿نَارًا لَّعَلِّيْ ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ﴾ بِشُعْلَةٍ فِي رَأْسِ فَيْلَةٍ، أَوْ عُودٍ ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ ^(١٣) أَيْ: هَادِيًا يَدُلُّنِي

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) قيل: إن النبي ﷺ قام في الصلاة حتى تورمت قدماه، فنزلت الآية تخفيفاً عنه، فالشقاء على هذا إفراط التعب في العبادة، وقيل: المراد به التأسف على كفر الكفار، واللفظ عام في ذلك كله، والمعنى أنه نفى عنه جميع أنواع الشقاء في الدنيا والآخرة، لأنه أنزل عليه القرآن الذي هو سبب السعادة. [ابن جزي (٥/٢)].

(٣) عن مالك: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، قال البغوي: أهل السنة يقولون الاستواء على العرش صفة الله بلا كيف يجب على الرجل الإيمان به ويكل العلم به إلى الله عز وجل، وعن الثوري والأوزاعي والليث وابن عيينة وابن المبارك وغيرهم في أمثال هذه الآيات التي جاءت في الصفات أقروها كما جاءت بلا كيف. [صديق حسن (٨/٢١٢)]. وأن المسلك الأسلم في ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

[ابن كثير (٥/٢٧٣)]. [ف] الرحمن على عرشه ارتفع وعلا. [الطبري (١٦/١١)].

(٤) انظر التعليق على تفسير آية (١١٠) من سورة الإسراء.

عَلَى الطَّرِيقِ، وَكَانَ أَخْطَاَهَا لظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَقَالَ: «لَعَلَّ» لِعَدَمِ الْجَزْمِ بِوَفَاءِ الْوَعْدِ. ﴿فَلَمَّا أَتَتْهَا﴾ وَهِيَ شَجَرَةٌ عَوْسَجٍ ﴿نُودَى يَمُوسَى ۝١١﴾ بِكَسْرِ الهمزة بِتَأْوِيلِ ﴿نُودَى﴾ بِ «قِيلَ»، وَبِفَتْحِهَا بِتَقْدِيرِ الْبَاءِ ﴿أَنَا﴾ تَأْكِيدُ لِبَاءِ الْمُتَكَلِّمِ^(١) ﴿رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ الْمُطَهَّرِ أَوْ الْمُبَارَكِ ﴿طَوَى ۝١٢﴾ بَدَلُ، أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ، بِالتَّوِينِ وَتَرْكِهِ، مَصْرُوفٌ بِاعْتِبَارِ الْمَكَانِ، وَغَيْرُ مَصْرُوفٍ لِلتَّائِيثِ بِاعْتِبَارِ الْبُقْعَةِ مَعَ الْعَلَمِيَّةِ. ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ مِنْ قَوْمِكَ ﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۝١٣﴾ إِلَيْكَ مِّنِّي. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۝١٤﴾ فِيهَا. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ عَنِ النَّاسِ^(٢)، وَيُظْهِرُ لَهُمْ قُرْبَهَا بِعَلَامَاتِهَا ﴿لِتُجْزَى﴾ فِيهَا ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۝١٥﴾ بِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ. ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ يَصْرِفَنَّكَ ﴿عَنْهَا﴾ أَيُّ: عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ فِي انْكَارِهَا ﴿فَتَرَدَى ۝١٦﴾ أَيُّ: فَتَهَلَّكَ إِنْ صُدِدَتْ عَنْهَا. ﴿وَمَا تِلْكَ﴾ كَائِنَةُ ﴿بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ۝١٧﴾ إِلَّا سِتْفَهَامٌ لِلتَّقْرِيرِ؛ لِيُرْتَبَ عَلَيْهِ الْمُعْجِزَةُ فِيهَا. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّوْا﴾ اعْتَمِدُوا ﴿عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ الْوُثُوبِ وَالْمَشْيِ ﴿وَأَهْشَى﴾ أَخْبِطُ وَرَقَ الشَّجَرِ ﴿بِهَا﴾ لِيَسْقُطَ ﴿عَلَى غَنَمِي﴾ فَتَأْكُلَهُ ﴿وَلِي فِيهَا مَنَارِبٌ﴾ جَمْعُ مَأْرِيَةٍ مِثْلُ الرِّاءِ، أَيُّ: حَوَائِجُ ﴿أُخْرَى ۝١٨﴾ كَحَمْلِ الزَّادِ وَالسَّقَاءِ وَطَرْدِ الْهَوَامِّ، زَادَ فِي الْجَوَابِ بَيَانَ حَاجَاتِهِ بِهَا. ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ۝١٩﴾ فَالْقَلْبُهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ﴿ثُعْبَانٌ عَظِيمٌ﴾ تَسْعَى ﴿تَسْعَى ۝٢٠﴾ تَمْشِي عَلَى بَطْنِهَا سَرِيعًا كَسُرْعَةِ الثُّعْبَانِ الصَّغِيرِ الْمُسَمَّى بِ «الْجَانِّ» الْمُعَبَّرِ بِهِ فِيهَا فِي آيَةٍ أُخْرَى^(٣). ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ مِنْهَا ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا﴾ مَنْصُوبٌ بِتَرْعِ الْخَافِضِ، أَيُّ: إِلَى حَالَتِهَا ﴿الْأُولَى ۝٢١﴾ فَادْخَلَ يَدَهُ فِي فَمِهَا فَعَادَتْ عَصَاً، وَتَبَيَّنَ أَنَّ مَوْضِعَ الدِّخَالِ مَوْضِعُ مَسْكِهَا بَيْنَ شُعْبَتَيْهَا، وَأَرَى ذَلِكَ السَّيِّدُ مُوسَى^(٤) لِيَلَّا يَجْزَعَ إِذَا انْقَلَبَتْ حَيَّةً لَدَى فِرْعَوْنَ. ﴿وَأَضْمُمُ يَدَكَ﴾ أَلْيَمْنِي بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أَيُّ:

(١) فَعَرَفَ أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَيْسَ هَذَا النِّدَاءُ وَالْخُطَابُ هُوَ الَّذِي وَقَعَ فِيهِ الصَّعَقَةُ وَدَكَ الْجَبَلُ كَمَا تَقْدُمُ ذِكْرَهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ، بَلْ هَذَا غَيْرُهُ؛ إِذْ هَذَا أَوَّلُ بَدْءِ رِسَالَتِهِ، وَذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ بَعْدَ غَرَقِ فِرْعَوْنَ حِينَ أَعْطَاهُ اللَّهُ التَّوْرَةَ. [صَدِيقُ حَسَنِ (٢١٩/٨)].

(٢) ﴿أَكَّادُ أُخْفِيهَا﴾ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفْسِّرِينَ: أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ وَمُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ. وَقَالَ الْمُبَرِّدُ وَقُطْرِبُ: هَذَا عَلَى عَادَةِ مُخَاطَبَةِ الْعَرَبِ، يَقُولُونَ إِذَا بِالْغَوَا فِي كِتْمَانِ الشَّيْءِ: كَتَمْتُهُ حَتَّى مِنْ نَفْسِي، أَيُّ: لَمْ أَطْلَعْ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَمَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِالْغِ فِي اخْتِفَاءِ السَّاعَةِ فَذَكَرَهُ بِأَبْلَغِ مَا تَعَرَفَهُ الْعَرَبُ وَالْمَعْنَى فِي اخْتِفَائِهَا التَّهْوِيلُ وَالتَّخْوِيفُ؛ وَكَذَلِكَ الْمَعْنَى فِي إِخْفَاءِ وَقْتِ الْمَوْتِ عَلَى الْإِنْسَانِ لِيَكُونَ عَلَى حَذَرٍ. [صَدِيقُ حَسَنِ (٢٢١/٨)].

(٣) قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠].

(٤) انْظُرِ التَّعْلِيقَ عَلَى آيَةِ (٣٤) مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ.

جَنَبِكَ الْأَيْسَرَ تَحْتَ الْعُضْدِ إِلَى الْإِطِ، وَأَخْرِجَهَا ﴿تَخْرُجُ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَمَةِ ﴿بَيَضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أَي: بَرَصٍ، تُضِيءُ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُعْشِي الْبَصَرَ ﴿آيَةً أُخْرَى ٢٢﴾ وَهِيَ وَ«بَيَضَاءُ» حَالَانِ مِنْ ضَمِيرِ ﴿تَخْرُجُ﴾. ﴿لِنُرِيكَ﴾ بِهَا إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ لِإِظْهَارِهَا ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ الْآيَةُ ﴿الْكُبْرَى ٢٣﴾ أَي: الْعُظْمَى عَلَى رِسَالَتِكَ، وَإِذَا أَرَادَ عَوْدَهَا إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى ضَمَمَهَا إِلَى جَنَاحِهِ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَخْرِجَهَا. ﴿أَذْهَبُ﴾ رَسُولًا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وَمَنْ مَعَهُ ﴿إِنَّهُ طَعَى ٢٤﴾ جَاوَزَ الْحَدَّ فِي كُفْرِهِ إِلَى ادِّعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ. ﴿قَالَ رَبِّ أشرح لي صَدْرِي ٢٥﴾ وَسَعُهُ لِيَحْمِلَ الرِّسَالَةَ. ﴿وَيَسِّرْ سَهْلٌ﴾ إِلَى أَمْرِي ﴿٢٦﴾ لِأَبْلُغَهَا. ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ حَدَّثْتُ مِنْ إِخْتِرَاقِهِ بِجَمْرَةٍ وَضَعَهَا فِيهِ وَهُوَ صَغِيرٌ^(١). ﴿يَفْقَهُوا﴾ يَفْهَمُوا ﴿قَوْلِي ٢٨﴾ عِنْدَ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ. ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مُّعِينًا عَلَيْهَا﴾ مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ ﴿مَفْعُولٌ ثَانٍ﴾ أَخِي ﴿٣٠﴾ عَطْفُ بَيَانٍ. ﴿أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ٣١﴾ ظَهْرِي. ﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ٣٢﴾ أَي: الرِّسَالَةَ، وَالْفِعْلَانِ بِصِغَتَيِ الْأَمْرِ وَالْمُضَارِعِ الْمَجْزُومِ، وَهُوَ جَوَابُ الطَّلَبِ. ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ﴾ تَسْبِيحًا ﴿كَثِيرًا ٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ ﴿ذِكْرًا ٣٤﴾ كَثِيرًا ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ٣٥﴾ عَالِمًا فَأَنْعَمْتَ بِالرِّسَالَةِ. ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ٣٦﴾ مِّنَّا عَلَيْكَ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ٣٧﴾ إِذْ لِلتَّلْعِيلِ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ﴾ مَنَامًا، أَوْ إِلَهَامًا، لَمَّا وَلَدْتِكَ وَخَافَتْ أَنْ يَقْتُلَكَ فِرْعَوْنُ فِي جُمْلَةٍ مِّنْ يُؤَلِّدُ ﴿مَا يُوحَىٰ ٣٨﴾ فِي أَمْرِكَ. وَيُؤَدِّلُ مِنْهُ: ﴿أَن أَقْذِفِيهِ﴾ أَلْقِيهِ ﴿فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ﴾ بِالتَّابُوتِ ﴿فِي أَلْيَمٍ﴾ بَحْرِ أَلْيَمٍ ﴿فَلْيُلْقِيهِ أَلْيَمٌ بِالسَّاحِلِ﴾ أَي: شَاطِئِهِ، وَالْأَمْرُ بِمَعْنَى الْخَبَرِ ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ وَهُوَ فِرْعَوْنُ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾ بَعْدَ أَنْ أَخَذَكَ ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ لِيُحِبَّ فِي النَّاسِ، فَأَحَبَّكَ فِرْعَوْنُ وَكُلُّ مَنْ رَأَكَ ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ٣٩﴾ تُرَبَّى عَلَى رِعَايَتِي وَحِفْظِي لَكَ^(٢). ﴿إِذْ﴾ لِلتَّلْعِيلِ ﴿تَمْشِي أُخْتُكَ﴾ مَرِيْمٌ لِّتَعْرِفَ مِنْ خَبْرِكَ، وَقَدْ أَحْضَرُوا مَرَاضِعَ وَأَنْتَ لَا تَقْبَلُ ثَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ﴿فَتَقُولُ

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت في لسانه رتة. وذلك أنه كان في حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمه، وأخذ بلحيته ففتتها، فقال فرعون لأسية: هذا عدوي فهات الذباحين. فقالت أسية: على رسلك فإنه صبي لا يفرق بين الأشياء. ثم أتت بطستين فجعلت في أحدهما جمرًا وفي الآخر جوهرا فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمره ووضعها في فيه على لسانه، فكانت تلك الرتة. [القرطبي (١١/ ١٩٢)]. وقيل: كانت العقدة في لسانه عليه السلام خلقة. [الآلوسي (٨/ ٤٩٧)].

(٢) قوله تعالى في قصة موسى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ فسرها أهل السنة: أي على رعايته سبحانه وتوفيقه للقائمين على تربيته عليه الصلاة والسلام. وهكذا قوله سبحانه للنبي ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] أي: أنك تحت كلاءتنا وعنايتنا وحفظنا. وليس هذا كله من التأويل، بل ذلك من التفسير المعروف في لغة العرب وأساليبها. [مجموع فتاوى ومقالات الشيخ ابن باز: (٤/ ١٢٩)].

هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَأَجِيبْتَ، فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقِيلَ تَذِيهَا ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ ۖ بِلِقَائِكَ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ هُوَ الْقَبْطِيُّ بِمِصْرَ، فَاعْتَمَمْتَ لِقَتْلِهِ مِنْ جِهَةِ فِرْعَوْنَ ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ اخْتَبَرْنَاكَ بِالْإِيقَاعِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ، وَخَلَصْنَاكَ مِنْهُ ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ عَشْرًا ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ بَعْدَ مَجِيئِكَ إِلَيْهَا مِنْ مِصْرَ عِنْدَ شُعَيْبِ النَّبِيِّ وَتَزَوُّجِكَ بِابْنَتِهِ ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ فِي عِلْمِي بِالرَّسَالَةِ، وَهُوَ أَرْبَعُونَ سَنَةً مِنْ عُمْرِكَ ﴿يَمُوسَىٰ ۖ وَأَصْطَنَعْتُكَ﴾ اخْتَرْتُكَ ﴿لِنَفْسِي ۖ﴾ بِالرَّسَالَةِ. ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ﴾ إِلَى النَّاسِ ﴿بِآيَاتِي﴾ التَّسْعِ ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ تَفْتَرَا ﴿فِي ذِكْرِي﴾ بِتَسْيِخٍ وَغَيْرِهِ. ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ بِادِّعَائِهِ الرَّبُّوبِيَّةَ. ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ فِي رُجُوعِهِ عَنْ ذَلِكَ ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَعَطَّى ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ ۖ اللَّهُ فَيَرْجِعَ، وَالتَّرَجُّعُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا لِعِلْمِهِ تَعَالَىٰ بِأَنَّهُ لَا يَرْجِعُ. ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾ أَيُّ: يَعَجَلَ بِالْعُقُوبَةِ ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ ۖ عَلَيْنَا، أَيُّ: يَتَكَبَّرُ. ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا بِعَوْنِي ۖ﴾ ﴿أَسْمِعْ﴾ مَا يَقُولُ ﴿وَأَرَىٰ﴾ مَا يَفْعَلُ. ﴿فَأَتْيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إِلَى الْأَشَامِ ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ أَيُّ: خَلَّ عَنْهُمْ، مِنْ اسْتِعْمَالِكَ إِيَّاهُمْ فِي أَشْغَالِكَ الشَّقَاقَةِ، كَالْحَفْرِ وَالْبِنَاءِ وَحَمْلِ الثَّقِيلِ ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ بِحُجَّةٍ﴾ مِنْ رَبِّكَ ﴿عَلَىٰ صِدْقِنَا بِالرَّسَالَةِ وَالسَّلَامِ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ ۖ أَيُّ: السَّلَامَةُ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ مَا جِئْنَا بِهِ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ ۖ أَعْرَضَ عَنْهُ. فَأَتْيَاهُ وَقَالَ جَمِيعَ مَا ذَكَرَ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ ۖ اِقْتَصَرَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ الْأَصْلُ، وَلَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ بِالتَّرْبِيَةِ. ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ مِنَ الْخَلْقِ حَلْقَهُ﴾ الَّذِي هُوَ عَلَيْهِ، مُتَمَيِّزٌ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ۖ الْحَيَوَانَ مِنْهُ إِلَىٰ مَطْعَمِهِ، وَمَشْرَبِهِ، وَمَنْكَحِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿فَمَا بَالُ حَالِ الْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿الْأُولَىٰ﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَهُودٍ وَلُوطٍ وَصَالِحٍ، فِي عِبَادَتِهِمْ الْأَوْثَانَ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ: ﴿عِلْمُهَا﴾ أَيُّ: عِلْمُ حَالِهِمْ مَحْفُوظٌ ﴿عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَا يَضِلُّ﴾ يَغِيبُ ﴿رَبِّي﴾ عَنْ شَيْءٍ ﴿وَلَا يَنْسَىٰ﴾ رَبِّي شَيْئًا. هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ فِي جُمْلَةِ الْخَلْقِ ﴿الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فِرَاشًا ﴿وَسَلَكَ﴾ سَهْلَ ﴿لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مَطَرًا، قَالَ تَعَالَىٰ تَنْمِيمًا لِمَا وَصَفَهُ بِهِ مُوسَىٰ، وَخِطَابًا لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أَصْنَافًا ﴿مِنْ نَبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ صِفَةً ﴿أَزْوَاجًا﴾، أَيُّ:

(١) أي: لا تخافا منه، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علي من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأبيدي. [ابن كثير (٢٩٦/٥)].

مُخْتَلَفَةً اللَّوْانِ وَالطَّعُومِ وَغَيْرِهِمَا، وَشَتَّى جَمْعٌ «شَتَّى» كَمَرِيضٍ وَمَرَضَى مِنْ شَتَّى الْأَمْرِ تَفَرَّقَ. ﴿كُلُوا﴾ مِنْهَا
 «وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ» فِيهَا، جَمْعٌ «نَعَمٍ» وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، يُقَالُ: رَعَتِ الْأَنْعَامُ وَرَعَيْتُهَا، وَالْأَمْرُ لِلإِبَاحَةِ
 وَتَذْكِيرِ النِّعْمَةِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «أَخْرَجْنَا»، أَيِ: مُبْسِحِينَ لَكُمْ الْأَكْلَ وَرَعِي الْأَنْعَامَ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكَورِ
 مِنَّا ﴿لَآيَاتٍ﴾ لِّعِبْرَةٍ ﴿لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ٥٤ ﴿لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ، جَمْعٌ «نُهْيَةٍ» كَغُرْفَةٍ وَغُرْفٍ، سُمِّيَ بِهِ الْعَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَى
 صَاحِبَهُ عَنِ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ. ﴿* مِنْهَا﴾ أَيِ: مِنَ الْأَرْضِ ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾
 مَقْبُورِينَ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ ﴿تَارَةً﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَى﴾ ٥٥ ﴿كَمَا أَخْرَجْنَاكُمْ عِنْدَ إِبْتِدَاءِ خَلْقِكُمْ.
 «وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ﴾ أَيِ: أَبْصَرْنَا فِرْعَوْنَ ﴿ءَايَاتِنَا كُلَّهَا﴾ التَّسْعَ ﴿فَكَذَّبَ﴾ بِهَا وَزَعَمَ أَنَّهَا سِحْرٌ ﴿وَأَبَى﴾ ٥٦ ﴿أَنْ يُوحِّدَ
 اللَّهَ تَعَالَى. «قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِنَا» مِصْرَ، وَيَكُونُ لَكَ الْمُلْكُ فِيهَا «بِسِحْرِكَ يَمُوسَى» ٥٧ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ
 بِسِحْرِ مِثْلِهِ» يُعَارِضُهُ ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ لِذَلِكَ ﴿لَّا نُخْلِفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا﴾ مَنصُوبٌ بِنَزْعِ
 الْخَافِضِ «فِي» ﴿سَوَى﴾ ٥٨ ﴿بِكَسْرِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ، أَيِ: وَسَطًا تَسْتَوِي إِلَيْهِ مَسَافَةُ الْجَائِي مِنَ الطَّرَفَيْنِ. «قَالَ» مُوسَى:
 «مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ» يَوْمٌ عِيدٌ لَهُمْ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَجْتَمِعُونَ ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ يُجْمَعُ أَهْلُ مِصْرَ ﴿ضَحَى﴾ ٥٩
 ﴿وَقَتَّهُ لِلنَّظَرِ فِيمَا يَقَعُ. «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ» أَذْبَرَ ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ» أَيِ: ذَوِيَ كَيْدِهِ مِنَ السَّحَرَةِ ﴿ثُمَّ أَتَى﴾ ٦٠ ﴿بِهِمْ
 الْمَوْعِدَ. «قَالَ لَهُمْ مُوسَى» وَهُمْ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ حَبْلٌ وَعَصَا: ﴿وَيَلِكُمْ﴾ أَيِ: أَلَزَمَكُمْ اللَّهُ الْوَيْلَ ﴿لَا
 تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» بِإِشْرَاكِ أَحَدٍ مَعَهُ ﴿فَيُسْحِتْكُمْ﴾ بِضَمِّ أَلْيَاءِ وَكَسْرِ الْحَاءِ وَبِفَتْحِهِمَا، أَيِ: يُهْلِكْكُمْ
 «بِعَذَابٍ» مِنْ عِنْدِهِ «وَقَدْ خَابَ» خَسِرَ ﴿مَنْ أَفْتَرَى﴾ ٦١ ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ. «فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ» فِي مُوسَى
 وَأَخِيهِ «وَأَسْرُوا التَّجْوَى﴾ ٦٢ ﴿أَيِ: الْكَلَامَ بَيْنَهُمْ فِيهِمَا. «قَالُوا» لِأَنْفُسِهِمْ: ﴿إِنَّ هَذَيْنِ﴾ لِأَبِي عَمْرٍو، وَلِغَيْرِهِ:
 «هَذَانِ» وَهُوَ مُوَافِقٌ لِلْعَةِ مَنْ يَأْتِي فِي الْمَشْنَى بِالْأَلْفِ فِي أَحْوَالِهِ الثَّلَاثَةِ ﴿لَسَحَرَيْنِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ
 أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ ٦٣ ﴿مُؤْنْتُ «أُمَثَلٌ» بِمَعْنَى أَشْرَفَ، أَيِ: بِأَشْرَافِكُمْ، بِمِثْلِهِمَا إِلَيْهِمَا
 لِيُغْلِبِيَهُمَا. «فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ» مِنَ السَّحْرِ، بِهَمْزَةٍ وَضَلٍ وَفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ «جَمَعَ»، أَيِ: لَمْ، وَبِهَمْزَةٍ قَطْعٍ وَكَسْرِ الْمِيمِ
 مِنْ «أَجْمَعَ» أَحْكَمَ ﴿ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا﴾ حَالٌ، أَيِ: مُصْطَفَيْنَ ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿الْيَوْمَ مِنْ أَسْتَعْلَى﴾ ٦٤ ﴿غَلَبَ. «قَالُوا
 يَمُوسَى» اخْتَرِ ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَى﴾ عَصَاكَ أَوْ لَا ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ ٦٥ ﴿عَصَاهُ. «قَالَ بَلْ أَقْتُوا﴾ فَالْقُوا
 ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ أَصْلُهُ «عُصُوءٌ» قُلِبَتِ الْوَاوَانِ يَاءَيْنِ، وَكُسِرَتِ الْعَيْنُ وَالصَّادُ ﴿يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ
 أَنَّهَا﴾ حَيَاتٌ ﴿تَسْعَى﴾ ٦٦ ﴿عَلَى بَطُونِهَا. «فَأَوْجَسَ﴾ أَحْسَسَ ﴿فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ ٦٧ ﴿أَيِ: خَافَ، مِنْ جِهَةِ

أَنْ سِحْرُهُمْ يَكُونُ مِنْ جَنْسٍ مُعْجَزَتِهِ، أَنْ يَلْتَسِسَ أَمْرُهُ عَلَى النَّاسِ فَلَا يُؤْمِنُوا بِهِ. ﴿قُلْنَا﴾ لَهُ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ ﴿٦٨﴾ عَلَيْهِم بِالْغَلَبَةِ. ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ وَهِيَ عَصَاهُ ﴿تَلْقَفُ﴾ تَبْتَلِعُ ﴿مَا صَنَعُوا﴾ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرِ ﴿أَيُّ: جِنْهُهُ﴾ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٦٩﴾ بِسِحْرِهِ فَالْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَتَلَقَّتْ كُلُّ مَا صَنَعُوهُ. ﴿فَالْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ خَرُّوا سَاجِدِينَ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى﴾ ﴿٧٠﴾ قَالَ ﴿فِرْعَوْنُ: ﴿ءَاْمَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا ﴿لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْ أَنَّهُوَ لَكَيْبِرُكُمْ﴾ مُعَلِّمُكُمْ ﴿الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ حَالٌ، بِمَعْنَى: مُخْتَلِفَةً، أَيُّ: الْأَيْدِي الْيُمْنَى وَالْأَرْجُلَ الْيُسْرَى ﴿وَلَا صَلَبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ التَّخْلِ﴾ أَيُّ: عَلَيْهَا ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَتَيْنَا﴾ يَعْنِي نَفْسَهُ وَرَبَّ مُوسَى ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ ﴿٧١﴾ أَدْوَمَ عَلَى مُخَالَفَتِهِ. ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ﴾ نَخْتَارَكَ ﴿عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِ مُوسَى ﴿وَالَّذِي فَطَرْنَا﴾ خَلَقْنَا قَسَمٌ أَوْ عَطْفٌ عَلَى ﴿مَا﴾ ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ أَيُّ: اصْنَعْ مَا قُلْتَهُ ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٧٢﴾ النَّصْبُ عَلَى الْإِتْسَاعِ، أَيُّ: فِيهَا وَتُجْزَى عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا﴾ مِنَ الْإِشْرَافِ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ تَعَلَّمَا وَعَمَلَا لِمُعَارَضَةِ مُوسَى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ﴾ مِنْكَ ثَوَابًا إِذَا أَطِيعَ ﴿وَأَبْقَى﴾ ﴿٧٣﴾ مِنْكَ عَذَابًا إِذَا عُصِيَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ كَافِرًا، كَفَرَعُونَ ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحُ ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ ﴿٧٤﴾ حَيَاةً تَنْفَعُهُ. ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الْفَرَائِضَ وَالنَّوَافِلَ ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ ﴿٧٥﴾ جَمْعٌ عَلِيًّا مُؤَنَّثٌ أَعْلَى. ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ﴾ أَيُّ: إِقَامَةٌ، بَيَانٌ لَهُ ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿٧٦﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعَبَادِي﴾ بِهَمْزَةٍ قَطْعٍ مِنْ «أَسْرَى»، وَبِهَمْزَةٍ وَصْلٍ وَكَسْرِ النُّونِ مِنْ «سَرَى» لُغْتَانِ، أَيُّ: سَرِبَهُمْ لَيْلًا مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَاضْرِبْ﴾ اجْعَلْ ﴿لَهُمْ﴾ بِالضَّرْبِ بَعْصَاكَ ﴿طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ أَيُّ: يَابَسًا، فَاْمَثَلْ مَا أَمَرَ بِهِ وَأَيَّسَ اللَّهُ الْأَرْضَ فَمَرُّوا فِيهَا ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا﴾ أَيُّ: أَنْ يَدْرِكَكَ فِرْعَوْنُ ﴿وَلَا تَخْشَى﴾ ﴿٧٧﴾ غَرَقًا. ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴿فَعَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ﴾ أَيُّ: الْبَحْرِ ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ ﴿٧٨﴾ فَأَغْرَقَهُمْ. ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى عِبَادَتِهِ ﴿وَمَا هَدَى﴾ ﴿٧٩﴾ بَلْ أَوْقَعَهُمْ فِي الْهَلَاكِ، خِلَافَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا أَهْدَيْكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]. ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَذَابِكُمْ﴾ فِرْعَوْنُ بِإِغْرَاقِهِ ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ فَنُوتِي مُوسَى

التَّورَةَ لِلْعَمَلِ بِهَا ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الِّمْنَ وَالسَّلْوى﴾ (٨٠) ﴿هُمَا التَّرْنَجِينُ وَالطَّيْرُ السَّمَانِي﴾ (١) بِتَخْفِيفِ الِّمِمِ وَالْقَصْرِ، وَالْمُنَادَى مَنْ وَجَدَ مِنَ الْيَهُودِ زَمَنَ النَّبِيِّ ﷺ وَخُوطِبُوا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى أَجْدَادِهِمْ زَمَنَ النَّبِيِّ مُوسَى. تَوَطَّئَةً لِقَوْلِهِ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أَي: الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْكُمْ ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ بِأَنْ تَكْفُرُوا النِّعْمَةَ بِهِ ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ بِكُسْرِ الْحَاءِ، أَي: يَجِبُ، وَبِضْمِّهَا، أَي: يَنْزِلُ ﴿وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ بِكُسْرِ اللَّامِ وَضَمِّهَا ﴿فَقَدْ هَوَى﴾ (٨١) سَقَطَ فِي النَّارِ. ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾ مِنَ الشَّرِكِ ﴿وَعَامَنَ﴾ وَحَدَّ اللَّهُ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ يَصْدُقُ بِالْفَرْضِ وَالنَّفْلِ ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ (٨٢) بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَى مَا ذُكِرَ إِلَى مَوْتِهِ. ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ﴾ لِمَجِيءِ مِيعَادِ أَخَذِ التَّورَةِ ﴿يَمُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ أَي: بِالْقُرْبِ مِنِّي يَأْتُونَ ﴿عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (٨٤) عَنِّي، أَي: زِيَادَةً فِي رِضَاكَ. وَقَبْلَ الْجَوَابِ أَتَى بِالْإِعْذَارِ بِحَسَبِ ظَنِّهِ، وَتَخَلَّفَ الْمَظْنُونُ لَمَّا ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أَي: بَعْدَ فِرَاقِكَ لَهُمْ ﴿وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) فَعَبَدُوا الْعِجْلَ. ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَنَ﴾ مِنْ جَهْتِهِمْ ﴿أَسْفَا﴾ شَدِيدَ الْحُزْنِ ﴿قَالَ يَقَوْمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أَي: صِدْقًا أَنَّهُ يُعْطِيكُمْ التَّورَةَ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ مُدَّةُ مُفَارَقَتِي إِيَّاكُمْ ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ﴾ يَجِبُ ﴿عَلَيْكُمْ غَضَبُ رَبِّكُمْ﴾ بِعِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ ﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ (٨٦) وَتَرَكْتُمْ الْمَجِيءَ بَعْدِي. ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا﴾ مُثَلَّثُ الِّمِمِ (٢)، أَي: بِقُدْرَتِنَا أَوْ أَمْرِنَا ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا﴾ بِفَتْحِ الْحَاءِ مُخَفَّفًا، وَبِضْمِّهَا وَكُسْرِ الِّمِمِ مُشَدَّدًا ﴿أَوْزَارًا﴾ أَثْقَالًا ﴿مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أَي: حُلِيِّ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، اسْتَعَارَهَا مِنْهُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْلَةً عُرْسٍ فَبَقِيَتْ عِنْدَهُمْ ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ طَرَحْنَاهَا فِي النَّارِ بِأَمْرِ السَّامِرِيِّ ﴿فَكَذَلِكَ﴾ كَمَا أَلْقَيْنَا ﴿أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) مَا مَعَهُ مِنْ حُلِيِّهِمْ، وَمِنْ التُّرَابِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ أَثَرِ حَافِرِ فَرَسِ جَبْرِيلَ، عَلَى الْوَجْهِ الْآتِي: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا﴾ صَاغَهُ مِنَ الْحُلِيِّ ﴿جَسَدًا﴾ لَحْمًا وَدَمًا (٣) ﴿لَهُ خَوَارٌ﴾ أَي: صَوْتُ يُسْمَعُ، أَي: انْقَلَبَ كَذَلِكَ بِسَبَبِ التُّرَابِ الَّذِي أَثَرُهُ الْحَيَاةُ فِيمَا يُوضَعُ فِيهِ وَوَضَعُهُ

(١) انظر التعليق على تفسير آية (٥٧) من سورة البقرة.

(٢) أي: بالحركات الثلاث الفتح والضم والكسر للميم.

(٣) الجسد: الجسم ذو الأعضاء سواء كان حيا أم لا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ [ص: ٣٤]. قيل: هو شق طفل ولدته إحدى نسائه كما ورد في الحديث. قال الزجاج: الجسد هو الذي لا يعقل ولا يميز إنما هو الجثة، أي: أخرج لهم صورة عجل مجسدة بشكله وقوائمه وجوانبه، وليس مجرد صورة منقوشة على طبق من فضة أو ذهب... والإخراج: إظهار ما كان محجوبا. والتعبير بالإخراج إشارة إلى أنه صنعه بحيلة مستورة عنهم حتى أتمه. والخوار: صوت البقر. وكان الذي صنع لهم العجل عارفا بصناعة الحيل التي كانوا

بَعْدَ صَوْغِهِ فِي فَمِهِ ﴿فَقَالُوا﴾ أَي: السَّامِرِيُّ وَاتَّبَاعُهُ ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ ٨٨ ﴿مُوسَىٰ رَبَّهُ هُنَا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُخَفِّفُونَ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ أَي: أَنَّهُ ﴿لَا يَرْجِعُ﴾ الْعِجْلُ ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أَي: لَا يَرُدُّ لَهُمْ جَوَابًا ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا﴾ أَي: دَفَعَهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ ٨٩ ﴿أَي: جَلَبَهُ، أَي: فَكَيْفَ يَتَّخِذُ إِلَهًا؟ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْجِعَ مُوسَىٰ ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي﴾ فِي عِبَادَتِهِ ﴿وَاطِيعُوا أَمْرِي﴾ ٩٠ ﴿فِيهَا. ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ﴾ نَزَالَ ﴿عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ عَلَىٰ عِبَادَتِهِ مُقِيمِينَ ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ٩١ ﴿قَالَ﴾ مُوسَىٰ بَعْدَ رُجُوعِهِ: ﴿يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ٩٢ ﴿بِعِبَادَتِهِ. ﴿أَفَلَا تَتَّبِعِينَ﴾ ٩٣ ﴿لَا زَائِدَةَ﴾ أَفَعَصَيْتُ أَمْرِي ﴿٩٤﴾ بِإِقَامَتِكَ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ﴾ هَارُونُ: ﴿يَبْنُومُ﴾ كَسَرَ الْمِيمِ وَفَتَحَهَا أَرَادَ «أُمِّي» وَذَكَرَهَا أَعْطَفَ لِقَلْبِهِ ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحَيَّتِي﴾ وَكَانَ أَخَذَهَا بِشِمَالِهِ ﴿وَلَا بِرَأْسِي﴾ وَكَانَ أَخَذَ شَعْرَهُ بِيَمِينِهِ غَضَبًا ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ لَوْ اتَّبَعْتُكَ وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَنِي جَمْعٌ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْعِجْلَ ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَتَغْضَبَ عَلَيَّ﴾ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴿تَنْتَظِرْ﴾ ٩٥ ﴿قَوْلِي﴾ ٩٦ ﴿فِيمَا رَأَيْتَهُ فِي ذَلِكَ. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ﴾ شَأْنُكَ الدَّاعِي إِلَىٰ مَا صَنَعْتَ ﴿يَسْمِرُنِي﴾ ٩٧ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ بِالْإِيَاءِ وَالتَّاءِ، أَي: عَلِمْتُ مَا لَمْ يَعْلَمُوهُ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ تُرَابٍ﴾ ٩٨ ﴿أَثَرٍ﴾ حَافِرِ فَرَسٍ ﴿الرَّسُولِ﴾ جِبْرِيلَ ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أَلْقَيْتُهَا فِي صُورَةِ الْعِجْلِ الْمَصَاغِ ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ﴾ زَيَّنَتْ ﴿لِي نَفْسِي﴾ ٩٩ ﴿وَأَلْقَيْتُ فِيهَا أَنْ أَخَذَ قَبْضَةً مِّنْ تُرَابٍ مَا ذَكَرَ، وَأَلْقَيْتُهَا عَلَىٰ مَا لَا رُوحَ لَهُ فَيَصِيرُ لَهُ رُوحٌ، وَرَأَيْتُ قَوْمَكَ طَلَبُوا مِنْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ إِلَهًا، فَحَدَّثْتَنِي نَفْسِي أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْعِجْلُ إِلَهُهُمْ﴾ ١٠٠ ﴿قَالَ﴾

يصنعون بها الأصنام ويجعلون في أجوافها وأعناقها منافذ كالزمارات تخرج منها أصوات إذا أطلقت عندها رياح بالكير ونحوه. وصنع لهم السامري صنما على صورة عجل؛ لأنهم كانوا قد اعتادوا في مصر عبادة العجل ... فلما رأوا ما صاغه السامري في صورة معبود عرفوه من قبل ورأوه يزيد عليه بأن له خوارا، رسخ في أوهامهم الآفته أن ذلك هو الإله الحقيقي الذي عبروا عنه بقولهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨]؛ لأنهم رأوه من ذهب أو فضة، فتوهموا أنه أفضل من العجل ... وإذ قد كانوا يشبثون إليها محجوبا عن الأبصار وكانوا يتطلبون رؤيته، فقالوا لموسى: ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَكَ جَهْرَةٌ﴾ [النساء: ١٥٣]، حينئذ توهموا أن هذه ضالتهم المنشودة. [ابن عاشور (٢٨٦/١٦)].

(١) فيه قولان: أحدهما: أن الرسول جبريل. وفي معرفته قولان: أحدهما: لأنه رآه يوم فلق البحر فعرفه. الثاني: أن حين ولدته أمه جعلته في غار حذرا عليه من فرعون حين كان يقتل بني إسرائيل وكان جبريل يغذوه صغيرا لأجل البلوى، فعرفه حين كبر، فأخذ قبضة تراب من حافر فرسه وشدها في ثوبه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ يعني فألقيتها، وفيه وجهان: أحدهما: أنه ألقاها فيما سبكه من الحلي بصياغة العجل حتى خار بعد صياغته. الثاني: أنه ألقاها في جوف العجل بعد صياغته حتى ظهر خواره، فهذا تفسيره على قول من جعل الرسول جبريل. والقول الثاني: أن

لَهُ مُوسَى: ﴿فَاذْهَبْ﴾ مِنْ بَيْنِنَا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾ أَي: مُدَّةَ حَيَاتِكَ ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ لِمَنْ رَأَيْتَهُ: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أَي: لَا تَقْرُبْنِي، فَكَانَ يَهِيمُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَإِذَا مَسَّ أَحَدًا أَوْ مَسَّهُ أَحَدٌ حُمًّا جَمِيعًا ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾ لِعَذَابِكَ ﴿لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَي: لَنْ تَغِيبَ عَنْهُ، وَبِفَتْحِهَا أَي: بَلْ تُبْعَثْ إِلَيْهِ ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ﴾ أَصْلُهُ «ظَلَلْتُ» بِلَامَيْنِ أُولَاهُمَا مَكْسُورَةٌ حُذِفَتْ تَخْفِيفًا، أَي: دُمْتَ ﴿عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أَي: مُقِيمًا تَعْبُدُهُ ﴿لَنَحْرِقَنَّهُ﴾ بِالنَّارِ ﴿ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ نُذِرْتَهُ فِي هَوَاءِ الْبَحْرِ، وَفَعَلَ مُوسَى بَعْدَ ذَبْحِهِ مَا ذَكَرَهُ. ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٩٨﴾ تَمَيِّزُ مُحَوَّلٍ مِنَ الْفَاعِلِ، أَي: وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ. ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: كَمَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ هَذِهِ الْقِصَّةَ ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ﴾ أَخْبَارٍ ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مِنَ الْأَمَمِ ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ﴾ أَعْطَيْنَاكَ ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا ﴿ذِكْرًا﴾ ﴿٩٩﴾ قُرْآنًا. ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فَلَمْ يُؤْمَرْ بِهِ ﴿فَإِنَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرَرًا﴾ ﴿١٠٠﴾ حِمْلًا ثَقِيلًا مِنَ الْإِثْمِ. ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أَي: فِي عَذَابِ الْوَرَرِ ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ ﴿١٠١﴾ تَمَيِّزُ مُفَسَّرٍ لِلصَّمِيرِ فِي ﴿سَاءَ﴾، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: «وَرَرُهُمْ»، وَاللَّامُ لِلْيَانِ وَيُبدَلُ مِنْ «يَوْمَ الْقِيَمَةِ». ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ ﴿وَنُخْشِرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿١٠٢﴾ عِيُونُهُمْ، مَعَ سَوَادٍ وَجُوهِهِمْ^(١). ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَتَسَارُونَ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿لَبِثْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ ﴿١٠٣﴾ مِنَ اللَّيَالِي بِأَيَّامِهَا. ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا

الرسول موسى، وأن أثره شريعته التي شرعها وسنته التي سنّها، وأن قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ أَي: طرحت شريعة موسى ونبذت سنته، ثم اتخذت العجل جسداً له خوار. [الماوردي (٤٢٣/٣)]. وعلى هذا المعنى فسر أبو مسلم الأصفهاني، ورجحه الزمخشري بتقديمه في الذكر على تفسير الجمهور، واختاره الفخر ... فقوله: ﴿بَصُرْتُ﴾ بمعنى علمت واهتديت، أي: اهتديت إلى علم ما لم يعلموه، وهو علم صناعة التماثيل والصور الذي به صنع العجل، وعلم الحيل الذي أوجد به خوار العجل. وكانت القبضة بمعنى النصيب القليل، وكان الأثر بمعنى التعليم، أي: الشريعة، وكان «نبذت» بمعنى أهملت ونقضت، أي: كنت ذا معرفة إجمالية من هدي الشريعة فانخلعت عنها بالكفر ... والمعنى: أنه اعترف أمام موسى بصنعه العجل واعترف بأنه جهل فضل، واعتذر بأن ذلك سولته له نفسه. [ابن عاشور (٢٩٦/١٦)].

(١) والزرقة الخضرة في العين كعين السنور ... والزرقة أسوأ ألوان العين، وأبغضها إلى العرب ولذلك قالوا في صفة العدو: «أسود الكبد أصهب السبال أزرق العين». وقال الفراء: زرقاً أي: عميّاً، وقال الأزهرى: عطاشاً، وهو قول الزجاج لأن سواد العين يتغير بالعطش إلى الزرقة ... وقيل: هو كناية عن شخوص البصر من شدة الحرص، والقول الأول أولى، والجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿وَنُخْشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء: ٩٧] ما قيل من أن ليوم القيامة حالات ومواطن تختلف فيها صفاتهم ويتنوع عندها عذابهم، قال ابن عباس: فيه حالات يكونون في حال زرقاً، وفي حال عميّاً. [صديق حسن (٢٧٥/٨)].

يَقُولُونَ ﴿فِي ذَلِكَ، أَي: لَيْسَ كَمَا قَالُوا﴾ ﴿إِذْ يَقُولُ امْثُلُهُمْ﴾ ﴿أَعْدَلُهُمْ﴾ ﴿طَرِيقَةً﴾ فِيهِ: ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ ﴿١٠٥﴾
يَسْتَقِيلُونَ لُبُّهُمْ فِي الدُّنْيَا جِدًّا، لِمَا يُعَايِنُونَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا. ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ كَيْفَ تَكُونُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ؟ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿بِأَنْ يُفْتَّتَهَا كَالرَّمْلِ السَّائِلِ ثُمَّ يُطِيرُهَا بِالرِّيَّاحِ﴾ ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا﴾
مُنْبَسِطًا ﴿صَفْصَفًا﴾ ﴿١٠٧﴾ مُسْتَوِيًا. ﴿لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا﴾ انْخِفَاضًا ﴿وَلَا أَمْتًا﴾ ﴿١٠٨﴾ اِرْتِفَاعًا. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أَي: يَوْمَ إِذْ
نُسِفَتِ الْجِبَالُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ أَي: النَّاسُ بَعْدَ الْقِيَامِ مِنَ الْقُبُورِ ﴿الدَّاعِيَ﴾ إِلَى الْمَحْشَرِ بِصَوْتِهِ وَهُوَ إِسْرَافِيلُ يَقُولُ:
هَلُمُّوا إِلَى عَرَضِ الرَّحْمَنِ ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَي: لَا تَبَاعِهِمْ، أَي: لَا يَقْدِرُونَ إِلَّا يَتَّبِعُوا ﴿وَخَشَعَتِ﴾ سَكَنتِ
﴿الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ ﴿١٠٩﴾ صَوْتٌ وَطءٌ الْأَقْدَامِ فِي نَقْلِهَا إِلَى الْمَحْشَرِ كَصَوْتِ أَخْفَافِ الْإِبِلِ
فِي مَشْيِهَا ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾ أَحَدًا ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ أَنْ يُشْفَعَ لَهُ ﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١١٠﴾ بِأَنْ
يَقُولَ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١). ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ﴾
بِهِ عِلْمًا ﴿١١١﴾ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ﴾ خَضَعَتْ ﴿لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ أَي: لِلَّهِ ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خَسِرَ ﴿مَنْ﴾
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١٢﴾ أَي: شَرَكَا. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الطَّاعَاتِ ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ بِيَزَادَةٍ فِي

(١) الداعي: هو الملك الذي يدعوهم إلى الحضور للحساب. قال بعض أهل العلم: يناديهم أيتها العظام النخرة، والأوصال المتفرقة،
واللحوم المتمزقة، قومي إلى ربك للحساب، والجزاء، فيسمعون الصوت ويتبعونه. ومعنى ﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾ أَي: لَا يَحِيدُونَ عَنْهُ، وَلَا
يَمِيلُونَ يَمِينًا، وَلَا شِمَالًا. وقيل: لَا عِوَجَ لدعاء الملك عن أحد، أَي: لَا يَعْدِلُ بدعائه عن أحد، بل يدعوهم جميعًا. وما ذكره جل وعلا في
هذه الآية الكريمة من اتباعهم للداعي للحساب، وعدم عدولهم عنه بينه في غير هذا الموضع، وزاد أنهم يسرعون إليه كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ﴾
﴿عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ تُكْرِهُونَ﴾ ﴿٦﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ
الْكُفْرُ هَذَا يَوْمَ عِيسَى ﴿٨﴾ [القمر: ٦ - ٨]، والإيهام: الإسراع: وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٩﴾ يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿١٠﴾ [ق: ٤١ - ٤٢]. [الشنقيطي (٤/ ٦٤١)].

(٢) أي: رضي قوله في الشفاعة، أو رضي لأجله قول الشافع، والمعنى: إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له وكان له قول
يرضى، ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ﴾
﴿عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]... وفيه دلالة على أنه لا يشفع أحد لأحد إلا لمن يأذن الله له فيها، فلا شفاعة إلا بإذن منه سبحانه، وهذا يدل على أنه
لا يشفع لغير المؤمنين، وبه صرح البغوي، وهذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة في حق الفاسق، لأن قوله ورضي له قولاً،
يكفي في صدقه أن يكون الله تعالى قد رضي له قولاً واحداً من أقواله. والفاسق قد رضي الله من أقواله شهادة أن لا إله إلا الله، فوجب أن
تكون الشفاعة نافعة له بعد الإذن، لأن الاستثناء من النفي إثبات. والجملة تفسير لمن يؤذن في الشفاعة له. [صديق حسن (٨/ ٢٧٩)].

سَيِّئَاتِهِ ﴿وَلَا هُضْمًا ۝١١٣﴾ بِنَقْصٍ مِنْ حَسَنَاتِهِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ﴾، أَي: مِثْلَ إِنْزَالِ مَا ذُكِرَ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿فُرْءَانَا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا﴾ كَرَرْنَا ﴿فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الشَّرْكَ ﴿أَوْ يُحْدِثُ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٤﴾ بِهَلَاكِ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ فَيَعْتَبِرُوا. ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ﴾ أَي: بِقِرَاءَتِهِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أَي: يَفْرُغَ جَبْرِيلُ مِنْ إِبْلَاغِهِ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٥﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ، فَكُلَّمَا نَزَلَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ زَادَ بِهِ عِلْمُهُ. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ وَصَيْنَاهُ إِلَّا يَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ مِنْ قَبْلِ ﴿أَي: قَبْلَ أَكْلِهِ مِنْهَا﴾ ﴿فَنَسِيَ﴾ تَرَكَ عَهْدَنَا ﴿وَلَمْ نَحْذَرْ لَهُ عَزْمًا ۝١١٦﴾ حَزْمًا وَصَبْرًا عَمَّا نَهَيْنَاهُ عَنْهُ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ وَهُوَ أَبُو الْإِنِّ كَانَ يَصْحَبُ الْمَلَائِكَةَ وَيَعْبُدُ اللَّهَ مَعَهُمْ ^(١) ﴿أَبَى ۝١١٧﴾ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]. ﴿فَقُلْنَا يَتَّخِذُكُمْ إِنْ هَذَا عَدُوٌّ لَكُمْ وَلَزُوجِكُمْ حَوَاءَ بِالْمَدِّ﴾ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ^(٢) ﴿تَتَعَبَ بِالْحَرْثِ وَالزَّرْعِ وَالْحَصْدِ وَالطَّحْنِ وَالْخَبْزِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَاقْتَصَرَ عَلَى شَقَائِهِ؛ لِأَنَّ الرَّجُلَ يَسْعَى عَلَى زَوْجَتِهِ﴾ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ۝١١٨﴾ وَأَنَّكَ ﴿بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِهَا، عَطْفٌ عَلَى اسْمٍ﴾ ﴿إِنَّ﴾ وَجُمْلَتُهَا ﴿لَا تَطْمَؤُنَّ فِيهَا﴾ تَعْطَشُ ﴿وَلَا تَضْحَى ۝١١٩﴾ لَا يَحْصُلُ لَكَ حَرٌّ شَمْسِ الضُّحَى، لِإِنْتِفَاءِ الشَّمْسِ فِي الْجَنَّةِ. ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أَي: الَّتِي يُخَلَّدُ مَنْ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ۝١٢٠﴾ لَا يَفْنَى، وَهُوَ لَا زَمَ الْخُلُودِ. ﴿فَأَكَلَا﴾ أَي: آدَمَ وَحَوَاءَ ﴿مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهُمَا﴾ أَي: ظَهَرَ لِكُلِّ مِنْهُمَا قُبْلُهُ وَقَبْلُ الْآخَرِ وَدُبُرُهُ، وَسُمِّيَ كُلُّ مِنْهُمَا سَوْءًا؛ لِأَنَّ انْكِشَافَهُ يَسُوءُ صَاحِبَهُ ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ أَخَذَا يُلْزِقَانِ ^(٣) ﴿عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ لِيَسْتَرِيَا بِهِ ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝١٢١﴾ بِالْأَكْلِ مِنَ الشَّجَرَةِ. ﴿ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ قَرَّبَهُ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَبْلَ تَوْبَتِهِ ﴿وَهَدَى ۝١٢٢﴾ أَي: هَدَاهُ إِلَى الْمَدَاوِمَةِ عَلَى التَّوْبَةِ. ﴿قَالَ أَهْبِطَا﴾ أَي: آدَمَ وَحَوَاءَ بِمَا اشْتَمَلْتُمَا عَلَيْهِ مِنْ ذُرِّيَّتِكُمَا ﴿مِنْهَا﴾ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿جَمِيعًا﴾ بَعْضُكُمْ ﴿بَعْضُ الدَّرَجَةِ﴾ لِبَعْضِ عَدُوٍّ مِنْ ظَلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿فِيمَا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونٍ ﴿إِنْ﴾ الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الْمَرْبُودَةِ ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿فَلَا يَضِلَّ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يَشْقَى ۝١٢٣﴾ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ الْقُرْآنِ فَلَمْ يُؤْمَرْ بِهِ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ بِالتَّنْوِينِ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: ضَيِّقَةً، وَفُسِّرَتْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (٣٤) من سورة البقرة.

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (٢٢) من سورة الأعراف.

فِي حَدِيثٍ: بِعَذَابِ الْكَافِرِ فِي قَبْرِهِ ^(١) ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ أَي: الْمَعْرِضَ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ^(٢) أَي: أَعْمَى الْبَصَرِ ^(٣). ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ^(٤) فِي الدُّنْيَا وَعِنْدَ الْبَعْثِ. ﴿قَالَ﴾ الْأَمْرُ ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا﴾ تَرَكْتَهَا، وَلَمْ تُؤْمِنْ بِهَا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مِثْلَ نَسْيَانِكَ آيَاتِنَا ﴿الْيَوْمَ تُنسى﴾ ^(٥) تُتْرَكُ فِي النَّارِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ وَمِثْلَ جَزَائِنَا مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْقُرْآنِ ﴿نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾ أَشْرَكَ ﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ﴾ مِنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْقَبْرِ ﴿وَأَبْقَى﴾ ^(٦) أَدْوَمَ. ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ يَتَيَّنْ ﴿لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ مَفْعُولٌ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ أَي: كَثِيرًا إِهْلَاكُنَا ﴿قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ أَي: الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ ﴿يَمْشُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَغَيْرِهَا فَيَعْتَبِرُوا، وَمَا ذَكَرَ مِنْ أَخَذِ «إِهْلَاكِ» مِنْ فِعْلِهِ الْخَالِي عَنْ حَرْفِ مَصْدَرِيٍّ لِرِغَايَةِ الْمَعْنَى، لَا مَانِعَ مِنْهُ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ لِعِبْرًا ﴿لِلأُولَى الَّذِينَ﴾ ^(٧) لِدَوِي الْعُقُولِ. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ إِلَى الْآخِرَةِ ﴿لَكَانَ﴾ الْإِهْلَاكُ ﴿لِزَمًا﴾ لَزَامًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ^(٨) مُضْرُوبٌ لَهُمْ، مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمُسْتَسْرِ فِي «كَانَ»، وَقَامَ الْفَصْلُ بِخَبَرِهَا مَكَانَ التَّكْيِيدِ. ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ الْقِتَالِ ^(٩) ﴿وَسَبِّحْ﴾ صَلِّ ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حَالٌ، أَي: مُلْتَبِسًا بِهِ ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ صَلَاةِ الصُّبْحِ ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ صَلَاةِ الْعَصْرِ ﴿وَمِنْ ءَانَائِ اللَّيْلِ﴾ سَاعَاتِهِ ﴿فَسَبِّحْ﴾ صَلِّ الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ عَطَفٌ عَلَى مَحَلٍّ ﴿مِنْ ءَانَائِ﴾ الْمَنْصُوبِ، أَي: صَلِّ الظُّهْرَ؛ لِأَنَّ وَقْتُهَا يَدْخُلُ بِزَوَالِ الشَّمْسِ، فَهُوَ طَرَفُ النِّصْفِ الْأَوَّلِ وَطَرَفُ النِّصْفِ الثَّانِي ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ ^(١٠) بِمَا تُعْطَى مِنَ الثَّوَابِ ^(١١). ﴿وَلَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾ أَصْنَافًا ﴿مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ زِينَتَهَا وَبَهْجَتَهَا ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾

(١) انظر الدر المنثور (٤/ ٥٥٦).

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (١٠٢) من سورة طه.

(٣) من أنك ساحر كذاب شاعر كاهن ونحو ذلك من مطاعنهم الباطلة، والمعنى: لا تحتفل بهم فإن لعذابهم وقتاً مضروباً بألا يتقدم ولا يتأخر، وأنهم معذبون لا محالة فَتَسَلَّ واصبر. وقيل: هذا منسوخ بآية القتال. وقيل: إنها محكمة. قال الشهاب: الفاء سببية، والمراد بالصبر عدم الاضطراب لما صدر عنهم لا ترك القتال حتى تكون الآية منسوخة. [صديق حسن (٨/ ٢٩٣)].

(٤) أي: رجاء أن تنال ما به ترضى نفسك، من رفع ذكرك. ونقهرك على عدوك وبلوغ أمنيته من ظهور توحيد ربك وهذا كقوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥]. [القاسمي (٧/ ١٦٦)]. ولعل من الله واجبة. [مكي بن أبي طالب (٧/ ٤٧١٩)].

فِيهِ ﴿بَانَ يَطْغَوْا﴾ ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ﴾ مِمَّا أُوتُوهُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَبْقَى﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿أَدْوَمٌ﴾. ﴿وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ﴾ إَصْبِرْ ﴿عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ﴾ نَكَلُكَ ﴿رِزْقًا﴾ لِنَفْسِكَ وَلَا لِغَيْرِكَ ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿لِلتَّقْوَى﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿لَأَهْلِهَا﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿يَأْتِينَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ مِمَّا يَقْتَرِحُونَهُ ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿بَيِّنَةٌ﴾ بَيَانٌ ﴿مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿١٣٣﴾ الْمُسْتَمِلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنْ أَنْبَاءِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَإِهْلَاكِهِمْ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ. ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قَبْلَ مُحَمَّدٍ الرَّسُولِ ﴿لَقَالُوا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿رَبَّنَا لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الْمُرْسَلُ بِهَا ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَنْزِلَ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَنُخْزِي﴾ ﴿١٣٤﴾ فِي جَهَنَّمَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿كُلُّ﴾ مِنَّا وَمِنْكُمْ ﴿مُتَرَبِّصٌ﴾ مُتَظَرٌّ مَا يُوُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ ﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ﴾ فِي الْقِيَامَةِ ﴿مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ﴾ الطَّرِيقِ ﴿السَّوِيِّ﴾ الْمُسْتَقِيمِ ﴿وَمَنْ أَهْتَدَى﴾ ﴿١٣٥﴾ مِنْ الضَّلَالَةِ أَنْحَنُ أَمْ أَنْتُمْ.

(١) أي: لا تمد عينيك معجبا، ولا تكرر النظر مستحسنا إلى أحوال الدنيا والممتعين بها، من المآكل والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والبيوت المزخرفة، والنساء المجملات، فإن ذلك كله زهرة الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابا بأبصار المعرضين، ويتمتع بها بقطع النظر عن الآخرة القوم الظالمون، ثم تذهب سريعا، وتمضي جميعا، وتقتل محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنة واختبارا، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ [الكهف: ٧-٨]. [السعدي (ص: ٥١٦)]. في الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، حين ألى منهم فراه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس في البيت إلا صبرة من قرظ، وأهب معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فقال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه؟ فقال: «أَوْفِي شَكِّ أَنْتَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟ أَوَلَيْكَ قَوْمٌ عَجَّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا». أخرجه البخاري (٤٩١٣). فكان ﷺ أزهى الناس في الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، في عباد الله، ولم يدخر لنفسه شيئا لعد. [ابن كثير (٣٢٦/٥)].

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧] قال بعض المفسرين: معنى الآية: أقبل مع أهلك على الصلاة واستعينوا بها على خصاصتكم. ولا تهتموا بأمر الرزق والمعيشة، فإن رزقك مكفي من عندنا، ونحن رازقوك. وهذا المعنى لا تدل عليه الآية منطوقا ولا مفهوما. وفيه حض على القعود عن الكسب، ومستند للكسالى القانعين بسكنى المساجد عن السعي المأمور به. وقد قال تعالى في وصف المتقين: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] إشارة إلى جمعهم بين الفضيلتين: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]. [القاسمي (١٦٨/٧)].

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَإِحْدَى أَوْ اثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ﴾ قَرَبَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ أَهْلَ مَكَّةَ، مُنْكَرِي الْبَعْثِ ﴿حِسَابُهُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ عَنْهُ ﴿مُعْرِضُونَ﴾
 ﴿١﴾ عَنْ التَّائِبِ لَهُ بِالْإِيمَانِ. ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ﴾ شَيْئًا فَشَيْئًا، أَي: لَفْظِ قُرْآنٍ^(١) ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ
 وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٢﴾ يَسْتَهْزِئُونَ. ﴿لَاهِيَةً﴾ غَافِلَةً ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ عَنْ مَعْنَاهُ ﴿وَأَسْرُوا التَّجْوَى﴾ أَي: الْكَلَامَ ﴿الَّذِينَ

(١) استدلل بهذه الآية من ذهب إلى حدوث كلامه تعالى المسموع. وهم المعتزلة والكرامية والأشعرية. فأما المعتزلة فقالوا إنما كان القرآن حادثا لكونه مؤلفا من أصوات وحروف. فهو قائم بغيره، وقالوا: معنى كونه متكلما، أنه موجد لتلك الحروف والأصوات في الجسم. كاللوح المحفوظ أو كجبريل أو النبي عليه الصلاة والسلام، أو غيرهم كشجرة موسى. وأما الكرامية، فلما رأوا ما التزمه المعتزلة مخالفا للعرف واللغة، ذهبوا إلى أن كلامه صفة له مؤلفة من الحروف والأصوات الحادثة القائمة بذاته تعالى. فذهبوا إلى حدوث الدال والمدلول. وجوزوا كونه تعالى محلا للحوادث. والأشعرية قالوا: إن الكلام المتلو دال على الصفة القديمة النفسية، التي هي الكلام عندهم حقيقة. قالوا: فما نزل على الأنبياء من الحروف والأصوات، وسمعوها وبلغوها إلى أممهم، هو محدث موصوف بالتغير والتكثر والنزول. لا مدلولها التي هي تلك الصفة القديمة. والمسألة شهير ما للعلماء فيها. والقصد أن الآية المذكورة رآها من ذكر، حجة فيما ذهب إليها. وقد عد الإمام ابن تيمية، عليه الرحمة والرضوان، هذا الاحتجاج من الأغلاط، وعبارته في كتابه (مطابقة المنقول للمعقول): احتج من يقول بأن القرآن أو عبارة القرآن مخلوقة، بهذه الآية، مع أن دلالة الآية على نقيض قولهم، أقوى منها على قولهم. فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث، وبعضه ليس بمحدث، وهو ضد قولهم. والحدوث في لغة العرب العام ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام. فإن العرب يسمون ما تجدد حادثا، وما تقدم على غيره قديما. وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى: ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩] وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥] وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَنَسِيْقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١] وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾^(٢) أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ^(٣) [الشعراء: ٧٥-٧٦] انتهى. [القاسمي (١٧٤/٧)]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: السلف قالوا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء. فبينوا أن كلام الله قديم، أي: جنسه قديم لم يزل. ولم يقل أحد منهم: إن نفس الكلام المعين قديم، ولا قال أحد منهم القرآن قديم. بل قالوا: إنه كلام الله منزل غير مخلوق. وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته، كان القرآن كلامه، وكان منزلا منه غير مخلوق، ولم يكن مع ذلك أزليا قديما بقدم الله، وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء؛ فجنس كلامه قديم. فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التي اضطرب فيها أهل الأرض. [مجموع الفتاوى (١٢/٥٤)].

ظَلَمُوا ﴿بَدَلٌ مِنْ وَارٍ﴾ ﴿أَسْرُوا النَّجْوَى﴾ ﴿هَلْ هَذَا﴾ أَيُّ: مُحَمَّدٌ ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ ﴿فَمَا يَأْتِي بِهِ سِحْرٌ﴾ ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ﴾ ﴿تَبِعُونَهُ﴾ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّهُ سِحْرٌ﴾ ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ ﴿كَأَنَّا﴾ ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ ﴿لِمَا أَسْرَوْهُ﴾ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿بِهِ﴾ ﴿بَلْ﴾ ﴿لِلْإِنْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ﴾ ﴿قَالُوا﴾ ﴿فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ: هُوَ﴾ ﴿أَضْغَثُ أَحْلَمٍ﴾ ﴿أَخْلَاطُ رَأَاهَا فِي النَّوْمِ﴾ ﴿بَلْ أَفْتَرْتَهُ﴾ ﴿إِخْتَلَقَهُ﴾ ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ ﴿فَمَا أَتَى بِهِ شِعْرٌ﴾ ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ ﴿كَالْنَّاقَةِ وَالْعَصَا وَالْيَدِ﴾ ﴿قَالَ تَعَالَى:﴾ ﴿مَا ءَامَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ﴾ ﴿أَيُّ: أَهْلِهَا﴾ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ ﴿بِتَكْذِيبِهَا مَا آتَاهَا مِنَ الْآيَاتِ﴾ ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿لَا﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي﴾ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْيَاءِ وَفَتْحِ الْحَاءِ﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ﴿لَا مَلَائِكَةَ﴾ ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ ﴿الْعُلَمَاءَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ، وَأَنْتُمْ إِلَى تَصْدِيقِهِمْ أَقْرَبُ مِنْ تَصْدِيقِ الْمُؤْمِنِينَ بِمُحَمَّدٍ﴾ ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ﴾ ﴿أَيُّ: الرُّسُلَ﴾ ﴿جَسَدًا﴾ ﴿بِمَعْنَى أَجْسَادًا﴾ ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ ﴿بَلْ يَأْكُلُونَهُ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا خَلِيدِينَ﴾ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ ﴿بِإِنْجَائِهِمْ﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾ ﴿أَيُّ: الْمُصَدِّقِينَ لَهُمْ﴾ ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ﴾ ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ ﴿يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ﴾ ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ ﴿لَآئِنِ بُلِغْتُمْ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿فَتُؤْمِنُوا بِهِ﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ ﴿مِنْ قَرِيَةٍ﴾ ﴿أَيُّ: أَهْلِهَا﴾ ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ ﴿كَافِرَةً﴾ ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَاءِ﴾ ﴿أَيُّ: شَعَرَ أَهْلَ الْقَرِيَةِ بِالْإِهْلَاكِ﴾ ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿يَهْرَبُونَ مُسْرِعِينَ﴾ ﴿فَقَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ اسْتَهِزَّاءٌ:﴾ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ﴾ ﴿نُعْمَتُمْ﴾ ﴿فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ ﴿شَيْئًا مِنْ دُنْيَاكُمْ عَلَى الْعَادَةِ﴾ ﴿قَالُوا يَ﴾ ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ ﴿وَيْلَنَا﴾ ﴿هَلَاكَنَا﴾ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿بِالْكَفْرِ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ﴾ ﴿الْكَلِمَاتُ﴾ ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ ﴿يَدْعُونَ بِهَا وَيُرَدُّدُونَهَا﴾ ﴿حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا﴾ ﴿كَالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ بِالْمَنَاجِلِ، بَانَ قُتُلُوا بِالسِّيُوفِ﴾ ﴿خَلِيدِينَ﴾ ﴿مَيِّتِينَ كَخُمُودِ النَّارِ إِذَا طُفِئَتْ﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾

(١) وهذه الآية وإن كان سببها خاصا بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه. وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهي عن سؤال المعروف بالجهل وعدم العلم، ونهي له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبيه. [السعدي (ص: ٥١٩)].

(٢) صيتكم كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، أو موعظتكم، أو ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الأخلاق. [البيضاوي (٤/ ٤٧)].

عَائِشِينَ، بَلْ دَالِّينَ عَلَى قُدْرَتِنَا وَنَافِعِينَ عِبَادَنَا. ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ أَي: مَا يُلْهَى بِهِ مِنْ زَوْجَةٍ أَوْ وَلَدٍ ﴿لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ مِنْ عِنْدِنَا مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٧﴾ ذَلِكَ، لَكِنَّا لَمْ نَفْعَلْهُ فَلَمْ نُرِدْهُ. ﴿بَلْ نَقْذِفُ﴾ نَزْمِي ﴿بِالْحَقِّ﴾ الْإِيمَانَ ﴿عَلَى الْبَاطِلِ﴾ الْكُفْرِ ﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ يُذْهِبُهُ ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ذَاهِبٌ، وَ«دَمَغَهُ» فِي الْأَصْلِ أَصَابَ دِمَاغَهُ بِالضَّرْبِ وَهُوَ مَقْتُلٌ ﴿وَلَكُمْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿الْوَيْلُ﴾ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ ﴿مِمَّا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ اللَّهُ بِهِ، مِنْ الزَّوْجَةِ وَالْوَلَدِ. ﴿وَلَهُ﴾ تَعَالَى ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلَكًا ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أَي: الْمَلَائِكَةُ مُبْتَدَأُ خَبْرِهِ ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ لَا يَعْيُونَ. ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ عَنْهُ، فَهُوَ مِنْهُمْ كَالنَّفْسِ مِنَّا، لَا يَشْغُلُنَا عَنْهُ شَاغِلٌ. ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى: «بَلْ» لِلاِنتِقَالِ وَهَمْزَةُ الْإِنْكَارِ ﴿اتَّخَذُوا إِلَهًا﴾ كَائِنَةً ﴿مِنْ الْأَرْضِ﴾ كَحَجَرٍ وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ﴿هُمْ﴾ أَي: الْأِلَهَةُ ﴿يُنْشِرُونَ ۝٢١﴾ أَي: يُخَيِّونَ الْمَوْتَى؟ لَا، وَلَا يَكُونُ إِلَهًا إِلَّا مَنْ يُخَيِّ الْمَوْتَى. ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا﴾ أَي: السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿لَفَسَدَتَا﴾ أَي: خَرَجَتَا عَنْ نِظَامِهِمَا الْمُشَاهِدِ؛ لِوُجُودِ التَّمَانُعِ بَيْنَهُمَا عَلَى وَفْقِ الْعَادَةِ عِنْدَ تَعَدُّدِ الْحَاكِمِ، مِنَ التَّمَانُعِ فِي الشَّيْءِ وَعَدَمِ الْإِتِّفَاقِ عَلَيْهِ ١١ ﴿فَسُبْحَنَّ﴾ تَنَزَّيْهِ ﴿اللَّهُ رَبِّ﴾ خَالِقِ ﴿الْعَرْشِ﴾ الْكُرْسِيِّ ١٢ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ الْكُفَّارُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الشَّرِيكِ لَهُ وَغَيْرِهِ. ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ۝٢٣﴾ عَنْ أَعْمَالِهِمْ. ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ تَعَالَى، أَي: سِوَاهُ ﴿إِلَهَةً﴾ فِيهِ إِسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ عَلَى ذَلِكَ وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ﴾ أَي: أُمَّتِي، وَهُوَ الْقُرْآنُ ﴿وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي﴾ مِنَ الْأُمَمِ، وَهُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ كُتُبِ اللَّهِ، لَيْسَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مِمَّا قَالُوا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ تَوْحِيدَ اللَّهِ ﴿فَهُمْ مُعْرِضُونَ ۝٢٤﴾ عَنِ النَّظَرِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِأَلْيَاءٍ وَفَتَحِ الْحَاءِ ﴿إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

(١) وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة، ولا معارضة، فدل ذلك، على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور، غير ممكن، فإذا يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَّ لِلَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]. [السعدي (ص: ٥٢١)].

(٢) انظر إلى التعليق على تفسير آية (٢٥٥) من سورة البقرة.

﴿٥٥﴾ أَي: وَحَدُّونَ. ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ﴾ هُمْ ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿عِنْدَهُ، وَالْعُبُودِيَّةُ تُنَافِي أَلْوَلَادَةَ.﴾ ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ لَا يَأْتُونَ بِقَوْلِهِمْ إِلَّا بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ أَي: بَعْدَهُ. ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا عَمِلُوا، وَمَا هُمْ عَامِلُونَ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ تَعَالَى أَنْ يُشْفَعَ لَهُ^(١) ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾ تَعَالَى ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ خَائِفُونَ. ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: اللَّهُ، أَي: غَيْرُهُ وَهُوَ إِنْ لَيْسَ دَعَا إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ وَأَمَرَ بِطَاعَتِهَا ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ﴾ كَمَا نَجْزِيهِ ﴿نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَي: الْمُشْرِكِينَ. ﴿أَوَلَمْ﴾ بِوَاوٍ وَتَرْكُهَا ﴿يَر﴾ يَعْلَمُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ «سَدًّا» بِمَعْنَى: مَسْدُودَةً ﴿فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَبْعًا وَالْأَرْضَ سَبْعًا، أَوْ فَتَقَّ السَّمَاءَ أَنْ كَانَتْ لَا تُمَطِّرُ فَأَمْطَرَتْ، وَفَتَقَّ الْأَرْضَ أَنْ كَانَتْ لَا تُنْبِتُ فَأَنْبَتَتْ^(٢) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ النَّازِلِ مِنَ السَّمَاءِ وَالنَّابِعِ مِنَ الْأَرْضِ ﴿كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ مِنْ نَبَاتٍ وَغَيْرِهِ، أَي: فَالْمَاءُ سَبَبٌ لِحَيَاتِهِ ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ بِتَوْحِيدِي. ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ لـ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحَرَّكَ ﴿بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ الرَّوَاسِيَ ﴿فَجَا جَا﴾ مَسَالِكَ ﴿سُبُلًا﴾ بَدَلًا، طُرُقًا نَافِذَةً وَاسِعَةً^(٣) ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ فِي الْأَسْفَارِ. ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ لِلْأَرْضِ كَالسَّقْفِ

(١) من جزئيات وصفهم، بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل، إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول ﷺ، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. [السعدي (ص: ٥٢١)].

(٢) هذا القول قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى: الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في «رأى» أنها بصرية، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها، فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر وإنباته به أنواع النبات. القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله، أي: وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي. القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ [الطارق: ١١-١٢] لأن المراد بالرجع المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع انشقاق الأرض عن النبات، وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ [عبس: ٢٤-٢٦]. واختار هذا القول ابن جرير، وابن عطية، وغيرهما؛ للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منتهى خلقه، وقدرته على البعث. [الشنقيطي (٤/ ٧٠٣)].

(٣) المعنى: وجعلنا في الأرض فجاجاً. ولما كان ﴿فَجَا جَا﴾ معناه واسعة كان في المعنى وصفاً للسبيل، فلما قدم على موصوفه انتصب

لَبِيتَ ﴿مَحْفُوظًا﴾ عَنِ الْوُقُوعِ ﴿وَهُمْ عَنْ عَائِيَّتِهَا﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهَا فَيَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَهَا لَا شَرِيكَ لَهُ. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عَوِضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَتَابِعِهِ، وَهُوَ النُّجُومُ ﴿فِي فَلَكٍ﴾ أَي: مُسْتَدِيرٍ كَالطَّاحُونَةِ فِي السَّمَاءِ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ يَسِيرُونَ بِسُرْعَةٍ، كَالسَّابِحِ فِي الْمَاءِ، وَلِلتَّشْبِيهِ بِهِ أَتَى بِضَمِيرٍ جَمْعٍ مَنْ يَعْقِلُ^(١). وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ الْكُفَّارُ إِنَّ مُحَمَّدًا سَيِّمُوتُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ أَي: الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ فِيهَا؟ لَا، فَالْجُمْلَةُ الْأَخِيرَةُ مَحَلُّ الِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ. ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَنَبْلُوكُمْ﴾ نَحْتَرِكُمْ ﴿بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ كَفَقْرٍ وَغَنَى، وَسَقَمٍ وَصِحَّةٍ ﴿فِتْنَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَي: لِنَنْظُرَ أَتَصْبِرُونَ وَتَشْكُرُونَ، أَمْ لَا ﴿وَالَّذِينَ تَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ فَنَجَازِيكُمْ. ﴿وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَا يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴿أَي: مَهْزُوءًا بِهِ، يَقُولُونَ: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ الْهَتَكُمْ﴾ أَي: يَعِيْهَا ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ لَهُمْ ﴿هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿كَفَرُوا﴾ ﴿٣٦﴾ بِهِ، إِذْ قَالُوا مَا نَعْرِفُهُ. وَنَزَلَ

على الحال. والمقصود إتمام المنة بتسخير سطح الأرض ليسلكوا منها طرقا واسعة، ولو شاء لجعل مسالك ضيقة بين الجبال كأنها الأودية. [ابن عاشور (١٧/٥٧)].

(١) مستأنفة استئنافا بيانيا؛ لأنه لما ذكر الأشياء المتضادة بالحقائق أو بالأوقات ذكرا مجملا في بعضها الذي هو آيات السماء، ومفصلا في بعض آخر وهو الشمس والقمر، كان المقام مثيرا في نفوس السامعين سؤالا عن كيفية سيرها، وكيف لا يقع لها اصطدام أو يقع منها تخلف عن الظهور في وقته المعلوم، فأجيب بأن كل المذكورات له فضاء يسير فيه لا يلاقي فضاء سير غيره، وضمير ﴿يَسْبَحُونَ﴾ عائِد إلى عموم آيات السماء وخصوص الشمس والقمر، وأجري عليها ضمير جماعة الذكور باعتبار تذكير أسماء بعضها مثل القمر والكوكب. وقال في الكشف: إنه روعي فيه وصفها بالسباحة التي هي من أفعال العقلاء فأجري عليها أيضا ضمير العقلاء، يعني فيكون ذلك ترشicha للاستعارة. وقوله تعالى: ﴿فِي فَلَكٍ﴾ ظرف مستقر خبر عن ﴿كُلٌّ﴾، و﴿كُلٌّ﴾ مبتدأ وتنوينه عوض عن المضاف إليه، أي: كل تلك، فهو معرفة تقديرًا، وهو المقصود من الاستئناف بأن يفاد أن كلا من المذكورات مستقر في فلك لا يصادم فلك غيره، وقد علم من لفظ ﴿كُلٌّ﴾ ومن ظرفية ﴿فِي﴾ أن لفظ ﴿فَلَكٍ﴾ عام، أي: لكل منها فلكه، فهي أفلاك كثيرة. وجملة ﴿يَسْبَحُونَ﴾ في موضع الحال. والسبح: مستعار للسير في متسع، لا طرائق فيه متلاقية كطرائق الأرض، وهو تقرب لسير الكواكب في الفضاء العظيم. والفلك فسرهُ أهل اللغة بأنه مدار النجوم، وكذلك فسرهُ المفسرون لهذه الآية، ... والأصل الأصيل في ذلك كله فلكة المغزل، بفتح الفاء وسكون اللام، وهي خشبة مستديرة في أعلاها مسمار مثني يدخل فيه الغزل ويدار لينفث الغزل. ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ فيه محسن بديعي، فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة، ومثله قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ فَكَبَّرَ﴾ [المدرثر: ٣] بطرح واو العطف، وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف. [ابن عاشور (١٧/٦٠)].

فِي اسْتِعْجَالِهِمُ الْعَذَابَ ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أَي: أَنَّهُ لِكَثْرَةِ عَجَلِهِ فِي أَحْوَالِهِ كَأَنَّهُ خُلِقَ مِنْهُ ^(١) ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ مَوَاعِيدِي بِالْعَذَابِ ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ ^(٣٧) فِيهِ فَأَرَاهُمْ الْقَتْلَ بَيِّنًا. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بِالْقِيَامَةِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٣٨) فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ﴾ يَدْفَعُونَ ﴿عَنْ وُجُوهِهُمْ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ^(٣٩) يُمْنَعُونَ مِنْهَا فِي الْقِيَامَةِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: مَا قَالُوا ذَلِكَ. ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ الْقِيَامَةُ ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تُخَيِّرُهُمْ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ^(٤٠) يُمَهَّلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْدَرَةٍ. ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ^(٤١) وَهُوَ الْعَذَابُ، فَكَذَا يَحِيقُ بِمَنِ اسْتَهْزَأَ بِكَ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَنْ يَكْلُوْكُمْ﴾ يَحْفَظُكُمْ ﴿بِالْبَلِّ وَالْهَاجِرِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ نَزَلَ بِكُمْ، أَي: لَا أَحَدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَالْمُخَاطَبُونَ لَا يَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ لِانْكَارِهِمْ لَهُ ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: الْقُرْآنِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ^(٤٢) لَا يَتَفَكَّرُونَ فِيهِ. ﴿أَمْ﴾ فِيهَا مَعْنَى الْهَمْزَةِ لِلْانْكَارِ، أَي: أَمْ لَهُمْ عَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ ﴿مِمَّا يَسْؤُوهُمْ﴾ ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ أَي: أَلَهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنْهُ غَيْرُنَا؟ لَا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أَي: أَلِلَّهِةٌ نَصَرَ أَنْفُسِهِمْ ﴿فَلَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وَلَا هُمْ ﴿أَي: الْكُفَّارُ﴾ ﴿مِنَّا﴾ مِنْ عَذَابِنَا ﴿يُصْحَبُونَ﴾ ^(٤٣) يُجَارُونَ، يُقَالُ: صَحَبَكَ اللَّهُ، أَي: حَفِظَكَ وَأَجَارَكَ. ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ بِمَا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴿فَاغْتَرَوْا بِذَلِكَ﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ﴿نَقْصِدُ أَرْضَهُمْ﴾ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿بِالْفَتْحِ عَلَى النَّبِيِّ﴾ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ^(٤٤) لَا بَلِ النَّبِيُّ وَأَصْحَابُهُ ^(١). ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ مِنْ اللَّهِ لَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِي ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَاءِ ﴿مَا يُنذَرُونَ﴾ ^(٤٥) أَي: هُمْ لِتَرْكِهِمُ الْعَمَلِ بِمَا

(١) كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه. كقولك: خلق زيد من الكرم، تنزيلا لما طبع عليه من الأخلاق، منزلة ما طبع هو منه من الأركان، إيذانا بغاية لزومه له، وعدم انفكاكه عنه، فالآية استعارة مكنية، بتشبيه العجل لكونه مطبوعا عليه، بمادته. ويجوز أن تكون تصريحية. والمراد بالإنسان الجنس. ومن عجلته مبادرته إلى الكفر واستعجال الوعيد. [القاسمي (٧/ ١٩٤)].

(٢) اختلف المفسرون في معناه، ... وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧]. وقال الحسن البصري: يعني بذلك ظهور الإسلام على الكفر. والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يعني: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون. [ابن كثير (٥/ ٣٤٥)].

سَمِعُوهُ مِنَ الْإِنذَارِ، كَالصُّمِّ. ﴿٤٦﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ ﴿٤٧﴾ وَقَعَتْ خَفِيفَةً ﴿٤٨﴾ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰ لِلتَّيْبَةِ ﴿٤٩﴾ وَيَلَنَّا هَلَاكَنَا ﴿٥٠﴾ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥١﴾ بِالْإِشْرَاقِ وَتَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ. ﴿٥٢﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴿٥٣﴾ ذَوَاتِ الْعَدْلِ ﴿٥٤﴾ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴿٥٥﴾ أَيُّ: فِيهِ ﴿٥٦﴾ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴿٥٧﴾ مِنْ نَقْصِ حَسَنَةٍ، أَوْ زِيَادَةِ سَيِّئَةٍ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ كَانَ الْعَمَلُ ﴿٥٩﴾ مِثْقَالَ زَنَةِ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴿٦٠﴾ بِمَوْزُونٍ بِهَا ﴿٦١﴾ وَكَفَىٰ بِنَا حَسِبِينَ ﴿٦٢﴾ مُحْصِينَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ﴿٦٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ ﴿٦٤﴾ أَيُّ: التَّوْرَةَ الْفَارِقَةَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ﴿٦٥﴾ وَضِيَآءَ ﴿٦٦﴾ بِهَا ﴿٦٧﴾ وَذِكْرًا ﴿٦٨﴾ عِظَةً بِهَا ﴿٦٩﴾ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٧٠﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿٧١﴾ عَنِ النَّاسِ، أَيُّ: فِي الْخَلَاءِ عَنْهُمْ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ ﴿٧٣﴾ أَيُّ: أَهْوَالِهَا ﴿٧٤﴾ مُشْفِقُونَ ﴿٧٥﴾ خَائِفُونَ. ﴿٧٦﴾ وَهَذَا ﴿٧٧﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿٧٨﴾ ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴿٨٠﴾ الْإِسْتِنْفَامُ فِيهِ لِلتَّوْبِخِ. ﴿٨١﴾ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ ﴿٨٢﴾ أَيُّ: هُدَاهُ قَبْلَ بُلُوغِهِ ﴿٨٣﴾ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٨٤﴾ بِأَنَّهُ أَهْلٌ لِّذَلِكَ. ﴿٨٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴿٨٦﴾ الْأَصْنَامُ ﴿٨٧﴾ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٨٨﴾ أَيُّ: عَلَىٰ عِبَادَتِهَا مُقِيمُونَ. ﴿٨٩﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٩٠﴾ فَاتَّبَعْنَاهُمْ بِهَمٍّ. ﴿٩١﴾ قَالَ لَهُمْ: ﴿٩٢﴾ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ ﴿٩٣﴾ بِعِبَادَتِهَا ﴿٩٤﴾ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٥﴾ بَيْنَ. ﴿٩٦﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴿٩٧﴾ فِي قَوْلِكَ هَذَا ﴿٩٨﴾ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٩٩﴾ فِيهِ. ﴿١٠٠﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ ﴿١٠١﴾ رَبُّ مَالِكِ ﴿١٠٢﴾ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴿١٠٣﴾ خَلَقَهُنَّ عَلَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ ﴿١٠٥﴾ الَّذِي قُلْتُهُ ﴿١٠٦﴾ مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿١٠٧﴾ بِهِ. ﴿١٠٨﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿١٠٩﴾ فَجَعَلَهُمْ بَعْدَ ذَهَابِهِمْ إِلَىٰ مُجْتَمَعِهِمْ فِي يَوْمٍ عِيدٍ لَهُمْ ﴿١١٠﴾ جُنْدًا ﴿١١١﴾ بِضَمِّ الْجِيمِ وَكَسْرِهَا، فُتَاتًا بِفَأْسٍ ﴿١١٢﴾ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴿١١٣﴾ عُلِقَ الْفَأْسُ فِي عُنُقِهِ ﴿١١٤﴾ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴿١١٥﴾ أَيُّ: إِلَى الْكَبِيرِ ﴿١١٦﴾ يَرْجِعُونَ ﴿١١٧﴾ فَيَرَوْنَ مَا فَعَلَ بِغَيْرِهِ. ﴿١١٨﴾ قَالُوا ﴿١١٩﴾ بَعْدَ رُجُوعِهِمْ وَرُؤْيَيْهِمْ مَا فَعَلَ: ﴿١٢٠﴾ مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٢١﴾ فِيهِ. ﴿١٢٢﴾ قَالُوا ﴿١٢٣﴾ أَيُّ: بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ﴿١٢٤﴾ سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذْكُرُهُمْ ﴿١٢٥﴾ أَيُّ: يَعِيَّهُمْ ﴿١٢٦﴾ يُقَالُ لَهُوَ إِبْرَاهِيمُ ﴿١٢٧﴾ قَالُوا فَاتُّوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ ﴿١٢٨﴾ أَيُّ: ظَاهِرًا ﴿١٢٩﴾ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿١٣٠﴾ عَلَيْهِ أَنَّهُ الْفَاعِلُ. ﴿١٣١﴾ قَالُوا ﴿١٣٢﴾ لَهُ بَعْدَ إِيْيَانِهِ: ﴿١٣٣﴾ ءَأَنْتَ ﴿١٣٤﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلَهَا وَإِدْخَالَ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ وَالْأُخْرَىٰ وَتَرْكِهِ ﴿١٣٥﴾ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٣٦﴾ قَالَ ﴿١٣٧﴾ سَاكِتًا عَنْ فِعْلِهِ: ﴿١٣٨﴾ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَلُّوهُمْ ﴿١٣٩﴾ عَنْ فَاعِلِهِ ﴿١٤٠﴾ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿١٤١﴾ فِيهِ تَقْدِيمُ جَوَابِ الشَّرْطِ، وَفِيمَا قَبْلَهُ تَعْرِضٌ لَهُمْ بِأَنَّ الصَّنَمَ الْمَعْلُومَ عَجْزُهُ عَنِ الْفِعْلِ لَا يَكُونُ إِلَهًا. ﴿١٤٢﴾ فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ ﴿١٤٣﴾ بِالتَّفَكُّرِ ﴿١٤٤﴾ فَقَالُوا ﴿١٤٥﴾ لَأَنْفُسِهِمْ: ﴿١٤٦﴾ إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿١٤٧﴾ أَيُّ:

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ كُلُّهُنَّ فِي اللَّهِ: قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات:

بِعِبَادَتِكُمْ مَنْ لَا يَنْطِقُ. ﴿ثُمَّ نَكْسُوْا﴾ مِنْ اللَّهِ ^(١) ﴿عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أَيُّ: رُدُّوْا إِلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَقَالُوا: وَاللَّهِ ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ ^(٢) أَيُّ: فَكَيْفَ تَأْمُرُنَا بِسُؤَالِهِمْ. ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: بَدَلَهُ ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ^(٣) شَيْئًا إِذَا لَمْ تَعْبُدُوهُ. ﴿أَفَبِ بَكْسِرِ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا بِمَعْنَىٰ مَصْدَرٍ، أَيُّ: نَتَنَا وَقُبْحًا﴾ لَكُمْ وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ^(٤) أَنْ هَذِهِ الْأَصْنَامَ لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَلَا تَصْلُحُ لَهَا، وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ. ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ أَيُّ: إِبْرَاهِيمَ ﴿وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ أَيُّ: بِتَحْرِيقِهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ ^(٥) نُصْرَتَهَا. فَجَمَعُوا لَهُ الْحَطَبَ الْكَثِيرَ وَأَضْرَمُوا النَّارَ فِي جَمِيعِهِ وَأَوْثَقُوا إِبْرَاهِيمَ وَجَعَلُوهُ فِي مَنْجَنِيْقٍ وَرَمَوْهُ فِي النَّارِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا يِنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ^(٦) فَلَمْ تُحْرِقْ مِنْهُ غَيْرَ وَثَاقِهِ، وَذَهَبَتْ حَرَارَتُهَا وَبَقِيَتْ إِضَاءَتُهَا، وَبَقَوْلِهِ: ﴿وَسَلَامًا﴾ سَلَامٌ مِنَ الْمَوْتِ بِرَدِّهَا. ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ وَهُوَ التَّحْرِيقُ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ ^(٧) فِي مُرَادِهِمْ. ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا﴾ ابْنَ أَخِيهِ هَارَانَ مِنَ الْعِرَاقِ ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ^(٨) بِكَثْرَةِ الْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ، وَهِيَ: الشَّامُ، نَزَلَ إِبْرَاهِيمُ بِفِلَسْطِينَ، وَلُوطٌ بِالْمُؤَنَفَكَةِ، وَبَيْنَهُمَا يَوْمٌ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ ذُرِّيَّةً﴾ لَإِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ سَأَلَ وَلَدًا كَمَا ذُكِرَ فِي الصَّافَاتِ ^(٩) ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أَيُّ: زِيَادَةً عَلَى الْمَسْئُولِ، أَوْ هُوَ وَلَدُ الْوَلَدِ ﴿وَكُلًّا﴾ أَيُّ: هُوَ وَوَلَدَاهُ ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ ^(١٠) أَنْبِيَاءً. ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إِلَىٰ دِينِنَا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ

٨٩] وَلَمْ يَكُنْ سَقِيمًا، وَقَوْلُهُ لِسَارَةَ: أُخْتِي. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣٤٣٧)، وَأَخْرَجَهُ بَنُحُوهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٧)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٧١).

(١) أَيُّ: رَجَعُوا إِلَىٰ جَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، شَبَّهَ سَبْحَانَهُ عَوْدَهُمْ إِلَى الْبَاطِلِ بِصِيرُورَةِ أَسْفَلِ الشَّيْءِ أَعْلَاهُ. وَقِيلَ: الْمَعْنَى أَنَّهُ طَاطَأُوا رُءُوسَهُمْ خِجْلَةً مِنْ إِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْلُ نَكْسُوا رُءُوسَهُمْ بِفَتْحِ الْكَافِ؛ وَإِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَيْهِمْ حَتَّىٰ يَصِحَّ هَذَا التَّفْسِيرُ، بَلْ قَالَ: نَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ. [الشُّوْكَانِيُّ (٤٨٩/٣)].

(٢) فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصَّافَاتِ: ١٠٠].

(٣) قَالَ مُجَاهِدٌ وَعَطَاءٌ: مَعْنَى النَّافِلَةِ الْعَطِيَّةُ، وَهِيَ جَمِيعًا مِنْ عَطَاءِ اللَّهِ نَافِلَةٌ يَعْنِي عَطَاءٌ، قَالَ الْحَسَنُ وَالضُّحَّاكُ: فَضْلًا. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَبِي بَنٍ كَعْبٍ وَأَبِي زَيْدٍ وَقَتَادَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: النَّافِلَةُ هُوَ يَعْقُوبُ لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَعْطَاهُ إِسْحَاقَ بِدَعَائِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصَّافَاتِ: ١٠٠]، وَزَادَ يَعْقُوبُ وَلَدَ الْوَلَدِ [كَمَا قَالَ: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هُود: ٧١]]. وَالنَّافِلَةُ الزِّيَادَةُ، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يَعْنِي: إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ. [الْبَغَوِيُّ (٣٣٠/٥)].

وَإِتَاءَ الزَّكَاةِ ﴿٧٣﴾ أَي: أَنْ تَفْعَلَ وَتُقَامَ وَتُؤْتَى مِنْهُمْ وَمِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَحَذَفُ هَاءِ «إِقَامَةٍ» تَخْفِيفٌ ﴿وَكَأَنَّا لَنَا عَبِيدٌ﴾^(١) وَلَوْ طَاءَ اتَيْنَهُ حُكْمًا ﴿فَصَلَا بَيْنَ الْخُصُومِ﴾ ﴿وَعِلْمًا وَحَيْنَهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ﴾ أَي: أَهْلِهَا^(٢)، الْأَعْمَالُ ﴿الْحَبِيثُ﴾ مِنَ اللُّوَاطِ وَالرَّمِي بِالْبُنْدُقِ وَاللَّعِبِ بِالطُّيُورِ^(٣) وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾ مَصْدَرُ «سَاءَهُ» نَقِضُ سَرَّهُ ﴿فَلَسِقِينَ﴾^(٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴿بِأَنَّا أَنْجَيْنَاهُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ ﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٥) ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿نُوحًا﴾ وَمَا بَعْدَهُ بِدَلٍّ مِنْهُ: ﴿إِذْ نَادَى﴾ دَعَا عَلَى قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي﴾ [نوح: ٢٦] إِلَى آخِرِهِ ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ فَتَجَبَّنَا وَأَهْلَهُ ﴿الَّذِينَ فِي سَفِينَتِهِ﴾ ﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾^(٦) أَي: الْغَرَقِ وَتَكْذِيبِ قَوْمِهِ لَهُ. ﴿وَنَصَرْنَاهُ﴾ مَنَعْنَاهُ ﴿مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا﴾ الدَّالَّةُ عَلَى رِسَالَتِهِ، أَنْ لَا يَصِلُوا إِلَيْهِ بِسُوءٍ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٧) ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أَي: قَصَّتَهُمَا، وَيُبْدَلُ مِنْهُمَا: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ هُوَ زَرْعٌ أَوْ كَرْمٌ ﴿إِذْ نَفَسْتُ فِيهِ غَمَمَ الْقَوْمِ﴾ أَي: رَعْنَهُ لَيْلًا بِلَا رَاعٍ بِأَنَّا انْفَلَتْنَا ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾^(٨) فِيهِ اسْتِعْمَالُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ لِاثْنَيْنِ، قَالَ دَاوُدُ: لِصَاحِبِ الْحَرْثِ رِقَابُ الْغَنَمِ، وَقَالَ سُلَيْمَانُ: يَنْتَفِعُ بِدَرَاهَا وَنَسْلِهَا وَصُوفِهَا إِلَى أَنْ يَعُودَ الْحَرْثُ كَمَا كَانَ بِإِصْلَاحِ صَاحِبِهَا فَيُرْدُّهَا إِلَيْهِ ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أَي: الْحُكُومَةَ ﴿سُلَيْمَانَ﴾ وَحُكْمَهُمَا بِاجْتِهَادٍ وَرَجَعَ دَاوُدُ إِلَى سُلَيْمَانَ، وَقِيلَ بِوَحْيٍ، وَالثَّانِي نَاسِخٌ لِلأَوَّلِ ﴿وَكُلًّا﴾ مِنْهُمَا ﴿عَاتَيْنَا﴾ هُ ﴿حُكْمًا﴾ نُبُوَّةً ﴿وَعِلْمًا﴾ بِأُمُورِ الدِّينِ ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ كَذَلِكَ سُخْرًا لِلتَّسْبِيحِ مَعَهُ لِأَمْرِ بِهِ إِذَا وَجَدَ فِتْرَةً لِيَنْشَطَ لَهُ ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٩) تَسْخِيرُ تَسْبِيحِهِمَا مَعَهُ وَإِنْ كَانَ عَجَبًا عِنْدَكُمْ، أَي: مُجَابَوْبُهُ لِلْسَّيِّدِ دَاوُدَ^(١٠). ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ﴾ وَهِيَ الدَّرْعُ لِأَنَّهَا تُلْبَسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ صَنَعَهَا وَكَانَ قَبْلَهَا صَفَائِحُ ﴿لَكُمْ﴾ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿لِيُحْصِنَكُمْ﴾ بِالنُّونِ لِلَّهِ، وَبِالتَّحْتَانِيَّةِ لِدَاوُدَ، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ لِلْبُوسِ ﴿مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ حَرَبِكُمْ مَعَ أَعْدَائِكُمْ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿شَاكِرُونَ﴾^(١١) نَعْبِي بِتَصَدِيقِ الرَّسُولِ؟، أَي: إِشْكُرُونِي بِذَلِكَ. ﴿وَ﴾ وَسَخَرْنَا ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿رُحَاءً﴾ [ص: ٣٦]، أَي: شَدِيدَةَ الْهُبُوبِ وَخَفِيفَتَهُ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ

(١) القرية [هي] سدوم ... والمراد من القرية أهلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. [ابن عاشور (١٧/ ١١٢)].

(٢) يعني: اللواطة، وكانت أشنع أفعالهم. وبها استحقوا الإهلاك. ولذا ذهب بعض الفقهاء إلى رمي اللوطي منكسا من مكان عال، وطرح

الحجارة عليه، كما فعل بهم. [القاسمي (٧/ ٢٠٦)].

(٣) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ وَهِيَ السَّمَاءُ ^(١) ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ ^(٢) مِنْ ذَلِكَ عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنْ مَا يُعْطِيهِ سُلَيْمَانُ يَدْعُوهُ إِلَى الْخُضُوعِ لِرَبِّهِ، فَفَعَلَهُ تَعَالَى عَلَى مُقْتَضَى عِلْمِهِ. ﴿و﴾ سَخَرْنَا ﴿مِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ يَدْخُلُونَ فِي الْبَحْرِ فَيُخْرِجُونَ مِنْهُ الْجَوَاهِرَ لِسُلَيْمَانَ ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَي: سِوَى الْعَوَصِ، مِنَ الْبَنَاءِ وَغَيْرِهِ ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ ^(٣) مِنْ أَنْ يُفْسِدُوا مَا عَمَلُوا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا فَرَّغُوا مِنْ عَمَلٍ قَبْلَ اللَّيْلِ أَفْسَدُوهُ إِنْ لَمْ يَشْتَغَلُوا بِغَيْرِهِ ^(٤). ﴿*﴾ ﴿و﴾ أَذْكَرُ ﴿أَيُّوبَ﴾ وَيُذِلُّ مِنْهُ ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ لَمَّا أُتْبِلَ بِفَقْدِ جَمِيعِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ، وَتَمَزَّقَ جَسَدِهِ، وَهَجَرَ جَمِيعَ النَّاسِ لَهُ إِلَّا زَوْجَتَهُ، سِنِينَ ثَلَاثًا أَوْ سَبْعًا أَوْ ثَمَانِي عَشْرَةَ، وَضِيقَ عَيْشِهِ ﴿أَيَّ﴾ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ بِتَقْدِيرِ الْيَاءِ ﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ أَي: الشَّدَّةُ ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ^(٥) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴿دُعَاةُ﴾ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ ﴿أَوْلَادَهُ الذُّكُورَ وَالْإِنَاثَ﴾ بِأَنْ أُحْيُوا لَهُ وَكُلُّ مِنَ الصَّنَفَيْنِ ثَلَاثٌ أَوْ سَبْعٌ ^(٦) وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴿مِنْ زَوْجَتِهِ، وَزَيْدٍ فِي شَبَابِهَا﴾ «وَكَانَ لَهُ أَنْدَرٌ لِلْقَمْحِ وَأَنْدَرٌ لِلشَّعِيرِ، فَبَعَثَ اللَّهُ سَحَابَتَيْنِ أَفْرَعْتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى أَنْدَرِ الْقَمْحِ الذَّهَبَ، وَأَفْرَعْتَ الْأُخْرَى عَلَى أَنْدَرِ الشَّعِيرِ الْوَرَقَ، حَتَّى فَاضَ» ^(٧) ﴿رَحْمَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ صِفَةٌ ﴿وَذِكْرَى لِلْعَبِيدِينَ﴾ ^(٨) لِيَصْبِرُوا فَيَتَابُوا. ﴿و﴾ أَذْكَرُ ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ^(٩) عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنْ مَعَاصِيهِ. ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ مِنَ النَّبُوَّةِ ^(١٠) ﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ^(١١) لَهَا، وَسُمِّيَ ذَا الْكِفْلِ؛ لِأَنَّهُ تَكْفَلَ بِصِيَامِ جَمِيعِ نَهَارِهِ وَقِيَامِ جَمِيعِ لَيْلِهِ، وَأَنْ يَقْضِيَ بَيْنَ النَّاسِ وَلَا يَغْضَبَ، فَوَفَّى بِذَلِكَ، وَقِيلَ: لَمْ

(١) وكانت مسكنه وموضع ملكه، فخص في الآية الرجوع إليها لأنه يدل على الانتقال منها. [ابن جزي (٢/٢٧)].

(٢) أي: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل في قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو محكم فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿وَعَاخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٨]. [ابن كثير (٥/٣٥٩)].

(٣) الإيتاء: عطاء، أي: أعطيناه أهله، وأهل الرجل أهل بيته وقرباته. وفهم من تعريف الأهل بالإضافة أن الإيتاء إرجاع ما سلب منه من أهل، يعني بموت أولاده وبناته، وهو على تقدير مضاف بين من السياق، أي: مثل أهله بأن رزق أولادا بعدد ما فقد، وزاده مثلهم فيكون قد رزق أربعة عشر ابنا وست بنات من زوجه التي كانت بلغت سن العقم. [ابن عاشور (١٧/١٢٨)].

(٤) تفسير الطبري (٢٣/١٠٧) وأخرجه البزار في مسنده (٢٣٥٧).

(٥) أهل السنة والجماعة يثبتون لله سبحانه وتعالى صفة الرحمة على حقيقتها، وأما أهل الكلام ... فهم ينفون حقيقتها ويفسرون الرحمة في حقه بنحو ما يفسرون به المحبة، يفسرونها بالإرادة، أو بما يخلق الله من النعم والمنافع التي يتنفع بها العباد وينفون حقيقة الرحمة. [شرح العقيدة الواسطية للشيخ البراك (ص: ٢٥)].

يَكُنْ نَبِيًّا^(١). ﴿وَاذْكُرْ﴾ ﴿ذَا النُّونِ﴾ صَاحِبَ الْحُوتِ وَهُوَ يُؤْنَسُ بْنُ مَتَّى، وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ لِقَوْمِهِ، أَيُّ: غَضَبَانَ عَلَيْهِمْ مِمَّا قَاسَى مِنْهُمْ، وَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: نَقْضِي عَلَيْهِ بِمَا قَضَيْنَاهُ مِنْ حَبْسِهِ فِي بَطْنِ الْحُوتِ، أَوْ نُضِيقَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ^(٢) ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَظُلْمَةُ الْبَحْرِ وَظُلْمَةُ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٣) فِي ذَهَابِي مِنْ بَيْنِ قَوْمِي بِلَا إِذْنٍ. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ يَبْلُغُ الظُّلُمَاتِ ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا نَجَّيْنَاهُ ﴿نُجَى الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤) مِنْ كَرْبِهِمْ إِذَا اسْتَعَاثُوا بِنَا دَاعِينَ. ﴿وَاذْكُرْ﴾ ﴿زَكَرِيَّا﴾ وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أَيُّ: بِلَا وَلَدٍ يَرِثُنِي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(٥) الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِكَ. ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ نِدَاءُهُ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ يَحْيَى ﴿وَلَدًا مُصَلِّحًا لَهُ رُوحَهُ﴾ فَاتَتْ بِالْوَلَدِ بَعْدَ عُمْمِهَا ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيُّ: مَنْ ذَكَرَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴿كَانُوا يُسْرِعُونَ﴾ يُبَادِرُونَ ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الطَّاعَاتِ ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا﴾ فِي رَحْمَتِنَا ﴿وَرَهْبًا﴾ مِنْ عَذَابِنَا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(٦) مُتَوَاضِعِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ. ﴿وَاذْكُرْ مَرْيَمَ﴾ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا حَفِظَتْهُ مِنْ أَنْ يُنَالَ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أَيُّ: جِبْرِيلَ، حَيْثُ نَفَخَ فِي جَنْبِ دُرْعِهَا فَحَمَلَتْ بَعِيسَى ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾^(٧) الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ، حَيْثُ وَلَدَتْهُ مِنْ غَيْرِ فَحْلٍ. ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ أَيُّ: مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ دِينُكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ، أَيُّ: يَجِبُ أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حَالٌ لَزِمَةٌ ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(٨) وَحُدُونِ. ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾ أَيُّ: بَعْضُ الْمُخَاطَبِينَ

(١) قال ابن كثير: أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام. وقد تقدم ذكره في سورة مريم. وكذا إدريس عليه السلام. وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلاً وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير في ذلك، فالله أعلم. وذهب بعض المحققين إلى أن ذا الكفل هو حزقيل عليه السلام. [القاسمي (٧/٢١٤)].

(٢) ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ بفتح النون وكسر الدال؛ واختلف في معنى الآية على هذه القراءة، فقيل: معناها أنه وقع في ظنه أن الله تعالى لا يقدر على معاقبته، وقد حكى هذا القول عن الحسن وسعيد بن جبير، وهو قول مردود؛ فإن هذا الظن بالله كفر ومثل ذلك لا يقع من الأنبياء عليهم السلام. وذهب جمهور العلماء إلى أن معناها ظن أن لن نضيق عليه كقوله: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦] أي يضيق، ومنه قوله: ﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] يقال يقدر وقدر وقرر وقرر، أي: ضيق، وقيل: هو من القدر الذي هو القضاء والحكم دون القدرة والاستطاعة، أي: ظن أن لن نقضي عليه العقوبة، قاله قتادة ومجاهد، واختاره الفراء والزجاج. قال ثعلب: هو من القدير ليس من القدرة يقال منه قدر الله لك الخير يقدره قدراً؛ ويؤيده قراءة عمر بن عبد العزيز والزهري «نُقَدِّرَ» بضم النون وتشديد الدال من التقدير، وحكى هذا عن ابن عباس، ويؤيده قراءة قتادة والأعرج «يُقَدِّرَ» مبنياً للمفعول من التقدير. [الشوكاني (٣/٤٩٦)].

﴿أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أَي: تَفَرَّقُوا أَمْرَ دِينِهِمْ مُتَخَالِفِينَ فِيهِ، وَهُمْ طَوَائِفُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ (١٣) أَي: فَنَجَازِيهِ بِعَمَلِهِ. ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ﴾ أَي: لَا جُحُودَ ﴿لِسَعْيِهِ﴾ وَإِنَّا لَهُو كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ بِأَنْ نَأْمُرَ الْحَفْظَةَ بِكُتْبِهِ، فَنَجَازِيهِ عَلَيْهِ. ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أُرِيدَ أَهْلُهَا ﴿أَنَّهُمْ لَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ (٩٥) أَي: مُمْتَنِعٌ رُجُوعُهُمْ إِلَى الدُّنْيَا. ﴿حَتَّى﴾ غَايَةً لِامْتِنَاعِ رُجُوعِهِمْ ﴿إِذَا فُتِحَتْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ: إِسْمَانِ أَعْجَمِيَّانِ لِقَبِيلَتَيْنِ، وَيَقْدَرُ قَبْلَهُ مُضَافٌ، أَي: سَدُّهُمَا وَذَلِكَ قُرْبَ الْقِيَامَةِ ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾ مُرْتَفِعٍ مِنَ الْأَرْضِ ﴿يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) يُسْرِعُونَ. ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أَي: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ أَي: الْقِصَّةُ (٩٧) ﴿شَخْصَةً أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِشِدَّتِهِ، يَقُولُونَ: ﴿يَا لِلتَّبِيهِ وَبَلَّغْنَا﴾ هَلَاكَنَا ﴿قَدْ كُنَّا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ الْيَوْمِ ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٩٨) أَنْفَسْنَا بِتَكْذِيبِنَا لِلرُّسُلِ. ﴿إِنَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ وَقُودُهَا ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ (٩٩) دَاخِلُونَ فِيهَا. ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْأَوْثَانُ﴾ (١٠٠) ﴿عَالِهَةً﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ ﴿مَا وَرَدُوهَا﴾ دَخَلُوهَا ﴿وَكُلُّ﴾ مِنْ الْعَابِدِينَ وَالْمَعْبُودِينَ ﴿فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٠١) لَهُمْ ﴿لِلْعَابِدِينَ﴾ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿شَيْئًا لِشِدَّةِ غَلِيَانِهَا﴾ وَنَزَلَ لَمَّا قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: «عُبِدَ عَزِيرٌ، وَالْمَسِيحُ، وَالْمَلَائِكَةُ فَهُمْ فِي النَّارِ» (١٠٢)، عَلَى مُقْتَضَى مَا تَقَدَّمَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

(١) أي: وحرام على أهل قرية فسقوا عن أمر ربهم، فأهلكهم بذنوبهم، أن يرجعوا إلى أهلهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١] وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٥٠] وزيادة «لا» هنا لتأكيد معنى النفي من «حرام» وهذا من أساليب التنزيل البديعة البالغة النهاية في الدقة. وسر الإخبار بعدم الرجوع مع وضوحه، هو الصدع بما يزعجهم ويؤسفهم ويلوعهم من الهلاك المؤبد، وفوات أمنيته الكبرى، وهي حياتهم الدنيا. وجعل أبو مسلم هذه الآية من تنمة ما قبلها، و«لا» فيها على بابها. وهي مع «حرام» من قبيل نفي النفي. فيدل على الإثبات. والمعنى: وحرام على القرية المهلكة، عدم رجوعها إلى الآخرة. بل واجب رجوعها للجزاء. فيكون الغرض إبطال قول من ينكر البعث. وتحقيق ما تقدم أنه لا كفران لسعي أحد. وأنه سبحانه سيحييه، وبعمله يجزيه. واللفظ الكريم يحتمله ويتضح فيه. إلا أن الأول لرعاية النظائر من الآي أولى. وأما ذكر سواهما، فلا يدل عليه السياق ولا النظر. وفيه ما يخل بالبلاغة من التعقيد وفوات سلاسة التعبير. [القاسمي (٢٢٣/٧)].

(٢) إذا هنا للمفاجأة، والضمير عند سيبويه ضمير القصة، وعند الفراء، للأبصار، وشاخصة من الشخوص وهو: إحداد النظر من الخوف. [ابن جزي (٣٠/٢)].

(٣) مستأنفة استئنافا ابتدائيا دعا إليه مقابلة حكاية حال الكافرين وما يقال لهم يوم القيامة بحكاية ما يلقاه الذين آمنوا يوم القيامة وما يقال لهم. فالذين سبقت لهم الحسنى هم الفريق المقابل لفريق القرية التي سبق في علم الله إهلاكها، ولما كان فريق القرية هم المشركين والفريق

سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ۖ الْمُنَزَّلَةُ ۖ الْحُسْنَى ۖ وَمِنْهُمْ مَنْ ذُكِرَ ۖ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٣١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ صَوْتَهَا ﴿١٣٢﴾ وَهُمْ فِيهَا أَشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ ۖ مِنَ النَّعِيمِ ۖ خَالِدُونَ ﴿١٣٣﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ۖ وَهُوَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْعَبْدِ إِلَى النَّارِ ۖ وَتَتَلَقَّيْلُهُمْ ۖ تَسْتَقْبِلُهُمُ ۖ الْمَلَائِكَةُ ۖ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ مِنَ الْقُبُورِ، يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣٤﴾ فِي الدُّنْيَا. ۖ يَوْمَ ۖ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ ۖ نَطَوَى السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجْلِ ۖ اسْمُ مَلِكٍ ۖ لِلْكِتَابِ ۖ صَحِيفَةُ ابْنِ آدَمَ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ، أَوِ السَّجِلُ الصَّحِيفَةُ وَالْكِتَابُ بِمَعْنَى الْمَكْتُوبِ وَاللَّامُ بِمَعْنَى عَلَى، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِلْكِتَابِ ۖ جَمْعًا﴾ ﴿١٣٥﴾ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ۖ مِنْ عَدَمٍ ۖ نُعِيدُهُ ۖ بَعْدَ إِعْدَامِهِ، فَالْكَافُ مُتَعَلِّقَةٌ بِـ «نُعِيدُ» وَضَمِيرُهُ عَائِدٌ إِلَى ﴿أَوَّلَ﴾ وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ ۖ وَعَدَا عَلَيْنَا ۖ مَنْصُوبٌ بِـ «وَعَدْنَا» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ، وَهُوَ مُؤَكَّدٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ مَا وَعَدْنَاهُ. ۖ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ بِمَعْنَى الْكِتَابِ، أَيِ: كُتِبَ اللَّهُ الْمُنَزَّلَةُ ۖ (مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ) بِمَعْنَى: أُمُّ الْكِتَابِ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ ۖ ﴿أَنَّ الْأَرْضَ ۖ أَرْضُ الْجَنَّةِ﴾ ﴿١٣٧﴾ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٣٨﴾ عَامٌّ فِي كُلِّ

المقابل له هم المؤمنون. ولا علاقة لهذه الجملة بجملة ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ ولا هي مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل قوله تعالى ﴿الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ عام يعم كل مؤمن مات على الإيمان والعمل الصالح. [ابن عاشور (١٧/ ١٥٥)]. كما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) أي: حسها وحركة تلهبها. والحسيس والحس: الحركة. وقال الليث: الحس والحسيس تسمعه من الشيء يمر منك قريباً ولا تراه... وقال أبو عبيدة: الحسيس والحس والجرس واحد، وهو الصوت الخفي الذي لا يحس. والظاهر أن هذا مطلق لا يسمعون حسيها أبداً. وقال بعض المفسرين: يعني إذا نزلوا منازلهم من الجنة. وعلى هذا كأنهم قبل دخول الجنة يسمعون حس النار. [الواحدي (١٥/ ٢١٤)]. (٢) قال ابن عباس: الفزع الأكبر: النفخة الأخيرة بدليل قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧] قال الحسن: حين يؤمر بالعباد إلى النار. قال ابن جريج: حين يذبح الموت وينادي يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. وقال سعيد بن جبيرة والضحاك: هو أن تطبق عليهم جهنم وذلك بعد أن يخرج الله منها من يريد أن يخرج به. [البغوي (٥/ ٣٥٧)].

(٣) السجل الصحيفة، والكتاب مصدر: أي: كما يطوي السجل ليكتب فيه، أو ليصان الكتاب الذي فيه، وقيل: السجل رجل كاتب وهذا ضعيف، وقيل: هو ملك في السماء الثانية: ترفع إليه الأعمال، وهذا أيضاً ضعيف. [ابن جزي (٢/ ٣٠)].

(٤) قد اختلف في معنى هذه الآية فقيل: المراد أرض الجنة، قاله ابن عباس رضي الله عنه، واستدل القائلون بهذا بقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقيل: هي الأرض المقدسة، وقيل: هي أرض الأمم الكافرة، يرثها نبينا عليه السلام وأمته بفتحها، وقيل: المراد بذلك بنو إسرائيل بدليل قوله سبحانه: ﴿وَأَوْثَقْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي

صَالِحٍ. ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿لَبَلَاغًا﴾ كِفَايَةً فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ﴿لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ ١٦٦ ﴿عَامِلِينَ بِهِ.﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ أَي: لِلرَّحْمَةِ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ ١٦٧ ﴿الْإِنْسِ وَالْجِنِّ بَكَ﴾ ١٦٨. ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أَي: مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ فِي أَمْرِ إِلَهِ إِلَّا وَحْدَانِيَّتُهُ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ١٦٨ ﴿مُقَادُونَ لِمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ وَحْدَانِيَّةِ إِلَهِ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ.﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا عَنْ ذَلِكَ ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ﴾ أَعْلَمْتُكُمْ بِالْحَرْبِ ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ حَالٍ مِنَ الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ، أَي: مُسْتَوِينَ فِي عِلْمِهِ لَا أَسْتَبِدُّ بِهِ دُونَكُمْ لِتَتَأَهَّبُوا ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تَوَعَدُونَ﴾ ١٦٩ ﴿مِنَ الْعَذَابِ، أَوِ الْقِيَامَةِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَيْهِ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُهُ اللَّهُ.﴾ إِنَّهُ ﴿تَعَالَى﴾ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ ١٧٠ ﴿أَنْتُمْ وَغَيْرُكُمْ مِنَ السِّرِّ.﴾ وَإِنْ ﴿مَا﴾ ﴿أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ أَي: مَا أَعْلَمْتُكُمْ بِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ وَقْتُهُ ﴿فِتْنَةً﴾ اخْتِبَارٌ ﴿لَكُمْ﴾ لِيُرَىٰ كَيْفَ صُنْعُكُمْ ﴿وَمَتَّعٌ﴾ تَمَتُّعٌ بِهِ ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ ١٧١ ﴿أَي: إِنْضَاءِ أَجَالِكُمْ، وَهَذَا مُقَابِلٌ لِلْأَوَّلِ الْمُتَرَجِّحِ بِـ «لَعَلَّ» وَلَيْسَ الثَّانِي مَحَلًّا لِلتَّرَجُّحِ.﴾ قُلْ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾ قُلْ ﴿رَبِّ أَحْكُم﴾ بَيْنِي وَبَيْنَ مُكَذِّبِي ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالْعَذَابِ لَهُمْ أَوْ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ، فَعَذَّبُوا بِدَرٍ وَأُحِدٍ وَحَيْنٍ وَالْأَحْزَابِ وَالْخَنْدَقِ، وَنَصَرَ عَلَيْهِمْ ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ١٧٢ ﴿مِنْ كَذِبِكُمْ عَلَىٰ اللَّهِ فِي قَوْلِكُمْ:﴾ اتَّخَذَ وَلَدًا، وَعَلَيَّ فِي قَوْلِكُمْ: «سَاحِرٌ»، وَعَلَى الْقُرْآنِ فِي قَوْلِكُمْ: «شِعْرٌ» ١٧٣.

بَرَكْنَا فِيهَا ﴿[الأعراف: ١٣٧]. والظاهر أن هذا تبشير لأُمَّة ﷺ بوراثه أرض الكافرين، وعليه أكثر المفسرين. [الشوكاني (٥٠٨/٣)].

(١) أي: وما أَرْسَلْنَاكَ بهذه الحنيفية والدين الفطري، إلا حال كونك رحمة للخلق، فإن ما بعثت به سبب لسعادة الدارين. وفي جعله نفس الرحمة مبالغة جلية. وجوز كون ﴿رَحْمَةً﴾ مفعولا له. أي: للرحمة، فهو نبي الرحمة. [القاسمي (٢٢٦/٧)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ لَعْنًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً». أخرجه مسلم برقم (٢٥٥٩).

(٢) أي: تصفونه بالسستكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد، وغير ذلك. كما قال تعالى: ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢] وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ١١٦]. [الشنقيطي (٤٧١/٤)].

سُورَةُ الْحَجِّ

مَكَّةَ إِلَّا ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ﴾ الْآيَتِينَ، أَوْ إِلَّا ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أَلَسْتُ بِآيَاتٍ فَمَدَنِيَّاتٍ، وَهِيَ أَرْبَعُ أَوْ سِتُّ أَوْ سَبْعُ أَوْ ثَمَانٌ وَسَبْعُونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيُّ: عِقَابَهُ بِأَن تَطِيعُوهُ ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ أَيُّ: الْحَرَكَةَ الشَّدِيدَةَ لِلْأَرْضِ، الَّتِي يَكُونُ بَعْدَهَا طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا الَّذِي هُوَ قُرْبُ السَّاعَةِ ﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فِي إِزْعَاجِ النَّاسِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعِقَابِ. ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ بِسَبَبِهَا ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ بِالْفِعْلِ ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أَيُّ: تَنْسَاهُ ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ أَيُّ: حُبْلَى ﴿حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ مِنَ الشَّرَابِ ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فَهُمْ يَخَافُونَهُ. وَنَزَلَ فِي النَّصْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَجَمَاعَتِهِ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَالُوا: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَالْقُرْآنُ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، وَأَنْكَرُوا الْبَعْثَ، وَإِحْيَاءَ مَنْ صَارَ تُرَابًا ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ فِي جِدَالِهِ ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ أَيُّ: مُتَمَرِّدٍ. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قُضِيَ عَلَى الشَّيْطَانِ ﴿أَنَّهُ مِّنْ تَوَلَّاهُ﴾ أَيُّ: اتَّبَعَهُ ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ﴾ يَدْعُوهُ ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أَيُّ: النَّارِ. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ﴾ أَيُّ: أَصْلَكُمُ آدَمَ ﴿مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ﴾ خَلَقْنَا ذُرِّيَّتَهُ

(١) اختلف المفسرون في «الزلزلة» المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَرَوْنَهَا﴾ عائد على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا، وقالت فرقة: «الزلزلة» في يوم القيامة، واحتجت بحديث أنس ... إذ قرأ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنَّهُ الْيَوْمَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ لَأَدَمَ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ». أخرجه أحمد (١٩٨٨٤)، والترمذي (٣٤٤٠) ... وهذا الحديث لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن النبي ﷺ قرأ الآية المتضمنة ابتداء أمر الساعة، ثم قصد في تذكيره وتخويفه إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأويل ألا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإن أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أن النقاش ذكر أن المراد بـ ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ﴾ من مات من الإناث ولدها في جوفها وهذا ضعيف. [ابن عطية (١٠٦/٤)].

(٢) لما نفى سبحانه عنهم السكر أوضح السبب الذي لأجله شابهوا السكارى فقال: ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فبسبب هذه الشدة والهول العظيم طاشت عقولهم واضطربت أفهامهم فصاروا كالسكارى، بجامع سلب كمال التمييز وصحة الإدراك. [صديق حسن (١١/٩)].

﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مِنْي ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وَهِيَ الدَّمُ الْجَامِدُ ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ وَهِيَ لَحْمَةٌ قَدَرُ مَا يَمْضَغُ ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾ مُصَوَّرَةٍ تَامَّةِ الْخَلْقِ ﴿وَعَبْرَ مُخَلَّقَةٍ﴾ أَي: غَيْرَ تَامَّةِ الْخَلْقَةِ ﴿لِتُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ كَمَالَ قُدْرَتِنَا؛ لِتَسْتَدِلُّوا بِهَا فِي إِبْتِدَاءِ الْخَلْقِ عَلَى إِعَادَتِهِ ^(١) ﴿وَنُقِرُّ﴾ مُسْتَأْنَفٌ ﴿فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وَقَتِ خُرُوجِهِ ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ﴾ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿طِفْلًا﴾ بِمَعْنَى أَطْفَالًا ﴿ثُمَّ﴾ نُعَمِّرُكُمْ ﴿لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ﴾ أَي: الْكَمَالَ وَالْقُوَّةَ وَهُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿وَمِنْكُمْ مَن يَتَوَفَّى﴾ يَمُوتُ قَبْلَ بُلُوغِ الْأَشَدِّ ﴿وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أَحْسَهُ مِنَ الْهَرَمِ وَالْخَرَفِ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ قَالَ عِكْرِمَةُ: مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ لَمْ يَصِرْ بِهَذِهِ الْحَالَةِ ^(٢) ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ يَابِسَةً ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ تَحَرَّكَتْ ﴿وَرَبَتْ﴾ اِرْتَفَعَتْ وَزَادَتْ ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ﴾ زَائِدَةً ﴿كُلِّ زَوْجٍ﴾ صِنْفٍ ﴿بِهَيْجٍ﴾ ^(٣) حَسَنِ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنْ بَدْءِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ إِلَى آخِرِ إِحْيَاءِ الْأَرْضِ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ الدَّائِمُ ^(٤) ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٥) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ شَكٍّ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ^(٦). وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ مَعَهُ ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ^(٧) لَهُ نُورٌ مَعَهُ. ﴿ثَانِي عِظْفِهِ﴾ حَالٌ، أَي: لَا وَبِي عُنْقَهُ تَكْبَرًا عَنِ الْإِيمَانِ، وَالْعِظْفُ: الْجَانِبُ عَنْ يَمِينٍ أَوْ شِمَالٍ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: دِينِهِ ﴿لَهُ﴾ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ عَذَابٌ فُقِيتَ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ^(٨) أَي: الْإِحْرَاقَ بِالنَّارِ. وَيُقَالُ لَهُ:

(١) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤَمَّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكُتِّبَ رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٢٠٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٤٣).

(٢) وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَصِيرُ مِنْ بَعْدِ أَنْ كَانَ ذَا عِلْمٍ بِالْأَشْيَاءِ وَفَهْمٍ لَهَا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا فَهْمَ كَهَيْئَتِهِ الْأُولَى فِي أَوَانِ الطُّفُولِيَّةِ مِنْ سَخَافَةِ الرَّأْيِ وَقِلَّةِ الْفَقْهِ وَالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ فَيَنْسَى مَا يَعْلَمُهُ، وَيَنْكُرُ مَا يَعْرِفُهُ. [الْبَيْضاوي (٤/٦٥)]. وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ^(١) ثُمَّ رَدَّدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ^(٢) [التين: ٤-٥].

(٣) أَي: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ عَلَى أَطْوَارٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَتَصْرِيفِهِ فِي أَحْوَالٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا، حَاصِلٌ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَحْدَهُ فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. الْمُحَقِّقُ لِمَا سِوَاهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَهِيَ مِنْ آثَارِ أَلُوْهِيَّتِهِ وَشَوْؤُنِهِ الذَّاتِيَّةِ وَحْدَهُ؛ وَمَا سِوَاهُ مِمَّا يَعْبُدُ بَاطِلًا، لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. [الْقَاسِمِيُّ (٧/٢٣٣)].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أَي: قَدَّمْتَهُ، عَبَّرَ عَنْهُ بِهِمَا دُونَ غَيْرِهِمَا لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَزَاوُلُ بِهِمَا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ﴾ أَي: بِذِي ظُلْمٍ ﴿لِّلْعَبِيدِ ۝١٢﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أَي: شَكٍّ فِي عِبَادَتِهِ، شُبَّهَ بِالْحَالِ عَلَىٰ حَرْفِ جَبَلٍ فِي عَدَمِ ثَبَاتِهِ ١٢ ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ صِحَّةٌ وَسَلَامَةٌ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿أَطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ مِحْنَةٌ وَسَقَمٌ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ﴾ أَي: رَجَعَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا﴾ بِفَوَاتٍ مَا أَمَّلَهُ مِنْهَا ﴿وَالْآخِرَةَ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۝١٣﴾ الْبَيِّنُ. ﴿يَدْعُوا﴾ يَعْبُدُ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الصَّنَمِ ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ﴾ إِنْ لَمْ يَعْبُدْهُ ﴿وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ إِنْ عَبَدَهُ ﴿ذَلِكَ﴾ الدُّعَاءُ ﴿هُوَ الضَّلَلُ الْبُعِيدُ ۝١٤﴾ عَنِ الْحَقِّ. ﴿يَدْعُوا لَمَن﴾ أَلَامَ زَائِدَةٌ ﴿ضُرُّهُ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ﴾ إِنْ نَفَعَ بِتَخِيلِهِ ﴿لِبَيْسِ الْمَوْلَى﴾ هُوَ أَي: النَّاصِرُ ﴿وَلِبَيْسِ الْعَشِيرِ ۝١٥﴾ الصَّاحِبُ هُوَ. وَعَقَّبَ ذِكْرَ الشَّاكِّ بِالْخُسْرَانِ، بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالثَّوَابِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الْفُرُوضِ وَالنَّوَافِلِ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ١٤ ﴿مِنَ إِكْرَامٍ مَّن يُطِيعُهُ، وَإِهَانَةٍ مَّن يَعْصِيهِ. ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ أَي: مُحَمَّدًا نَبِيَّهُ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ بِحَبْلِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أَي: سَقَفِ بَيْتِهِ يَشُدُّ فِيهِ وَفِي عُنُقِهِ ﴿ثُمَّ لَيَقَطَّعَ﴾ أَي: لَيَخْتَنَقَ بِهِ، بَأَن يَقَطَّعَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَرْضِ كَمَا فِي «الصَّحَاحِ» ١٥ ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ فِي عَدَمِ نُصْرَةِ النَّبِيِّ ﴿مَا يَغِیْظُ ۝١٦﴾ مِنْهَا، الْمَعْنَى فَلْيَخْتَنَقْ غَيْظًا مِنْهَا فَلَا بُدَّ مِنْهَا ١٦. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلُ إِنْزَالِنَا الْآيَةَ السَّابِقَةَ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ

(١) قال أكثر المفسرين الحرف الشك. وأصله من حرف الشيء، أي: طرفه. مثل حرف الجبل والحائط فإن القائم عليه غير مستقر. والذي يعبد الله على حرف قلق في دينه على غير ثبات وطمأنينة كالذي هو على حرف الجبل ونحوه يضطرب اضطراباً ويضعف قيامه. فقيل للشاك في دينه إنه يعبد الله على حرف. أي: مترزلاً لأنه على غير يقين من وعده ووعيده بخلاف المؤمن لأنه يعبد على يقين وبصيرة فلم يكن على حرف. ففي الآية استعارة تمثيلية. وقيل: الحرف الشرط. والشرط هو قوله: ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ﴾ دنيوي من رخاء وصحة وعافية وسلامة وخصب وكثرة مال ﴿أَطْمَأَنَّ بِهِ ۖ﴾ أَي: ثبت على دينه واستمر على عبادته أو اطمأن قلبه بذلك الخير الذي أصابه وسكن إليه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ أَي: شيء يفتن به من مكروه يصيبه في أهله وماله أو نفسه ومعيشته كالجذب والمرض وسائر المحن. ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ۚ﴾ أَي: ارتد ورجع إلى الوجه الذي كان عليه من الكفر. [الشوكاني (٣/ ٥٢٠)].

(٢) أي: كتاب «تاج اللغة وصحاح العربية» للجوهري.

(٣) والقول الثاني: أن الضمير في ﴿يَنْصُرُهُ﴾ عائد إلى ﴿مَن﴾، والمعنى على هذا من ظنَّ بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله، فليختنق وليمت بغيظه، فإنه لا يقدر على غير ذلك، فموجب الاختناق على هذا القنوط والسخط من القضاء، وسوء الظن بالله حتى يئأس

الْبَاقِي ﴿١٦﴾ عَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ ﴿١٧﴾ هَذَاهُ مَعْطُوفٌ عَلَى هَاءٍ ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿وَالصَّبِيَّانَ﴾ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ^(١) ﴿وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بِإِذْخَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَإِذْخَالِ غَيْرِهِمُ النَّارَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ عَمَلِهِمْ ﴿شَهِيدٌ﴾ ﴿٢٠﴾ عَالِمٌ بِهِ عِلْمٌ مُّشَاهِدَةٌ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعَلَّمَ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أَي: تَخَضَّعَ لَهُ بِمَا يُرَادُ مِنْهَا ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، بِيَزَادَةٍ عَلَى الْخُضُوعِ فِي سُجُودِ الصَّلَاةِ ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ وَهُمْ الْكَافِرُونَ؛ لِأَنَّهُمْ أَبَوْا السُّجُودَ الْمُتَوَقَّفَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ﴾ يُشَقِّهِ ﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ مُسْعِدٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٢١﴾ مِنَ الْإِهَانَةِ وَالْإِكْرَامِ. ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ خَصْمٌ، وَالْكَفَّارُ الْخَمْسَةُ خَصْمٌ ^(٢)، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ ﴿أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ أَي: فِي دِينِهِ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن تَارٍ﴾ يَلْبَسُونَهَا، يَعْنِي أُحِيطَتْ بِهِمُ النَّارُ ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ﴿٢٢﴾ الْمَاءُ الْبَالِغُ نَهَايَةَ الْحَرَارَةِ. ﴿يُصْهَرُ﴾ يُذَابُ ﴿بِهِ﴾ مَا فِي بُطُونِهِمْ ﴿مِن شُحُومٍ وَغَيْرِهَا﴾ ﴿و﴾ تُسَوَّى بِهِ ﴿الْجُلُودُ﴾ ﴿٢٣﴾ وَلَهُمْ مَقْمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢٤﴾ لِّضَرْبِ رُءُوسِهِمْ. ﴿كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ أَي: النَّارِ ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ يَلْحَقُهُمْ بِهَا ﴿أُعِيدُوا فِيهَا﴾ رُدُّوا إِلَيْهَا بِالْمَقَامِعِ ﴿و﴾ قِيلَ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٢٥﴾ أَي: الْبَالِغُ نَهَايَةَ الْإِحْرَاقِ. وَقَالَ فِي الْمُؤْمِنِينَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

من نصره، ولذلك فسر بعضهم ﴿أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾ بمعنى: «أَن لَّن يَرْزُقَهُ»، وهذا القول أرجح من الأول لوجهين: أحدهما: أَن هذا القول مناسب لمن يعبد الله على حرف، لأنه إِذَا أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ وَقُتِظَ، حَتَّى ظَنَّ أَنَّ اللَّهَ لَن يَنْصُرَهُ، فَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ مُتَصِلًا بِمَا قَبْلَهُ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ قَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ أَي: الْأُمُورُ بِيَدِ اللَّهِ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتَسَخَّطَ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ، وَلَا يَنْقَلِبَ إِذَا أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الضَّمِيرَ فِي يَنْصُرُهُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَعُودُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ فَلَا يَعُودُ عَلَى مَذْكَورِ قَبْلِهِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَذْكُرْ قَبْلَ ذَلِكَ بَحِثَ يَعُودُ الضَّمِيرُ عَلَيْهِ، وَلَا يَدُلُّ سِيَاقُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ دَلَالَةً ظَاهِرَةً. [ابن جُزَيٍّ (٢/ ٣٥)].

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة.

(٢) أي: اليهود والنصارى والصابئون والمجوس والذين أشركوا، وقيل: المراد بالخصمين هم الذين برزوا يوم بدر... وقد كان أبو ذر يقسم أن هذه الآية نزلت في هؤلاء المتبارزين، وقد ثبت في صحيح البخاري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: أنا أول من يجشون بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. وقال قيس بن عباد: وفيهم أنزلت: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هم الذين تبارزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة، أو أبو عبيدة بن الحارث، وشيبة بن ربيعة وعتبة والوليد بن عتبة. أخرجه البخاري (٣٩٦٥). [صديق حسن (٩/ ٢٨)].

الَّذِينَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۚ بِالْجِرِّ، أَي: مِنْهُمَا بَأَنْ يُرْصَعَ
 اللَّوْلُؤُ بِالذَّهَبِ، وَبِالنَّصَبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلٍّ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ هُوَ الْمُحَرَّمُ لِبَسُهُ عَلَى
 الرِّجَالِ فِي الدُّنْيَا^(١). ﴿وَهُدُوءًا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وَهُوَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ﴿وَهُدُوءًا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ
 ﴿٢٤﴾ أَي: طَرِيقِ اللَّهِ الْمَحْمُودَةِ وَدِينِهِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طَاعَتِهِ ﴿وَعَنِ الْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ﴾ مَنْسَكًا وَمَتَعَبَدًا ﴿لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكِيفُ﴾ الْمَقِيمُ ﴿فِيهِ وَالْبَادِ﴾ الطَّارِئُ^(٢) ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
 بِالْحَادِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ ﴿بِظُلْمٍ﴾ أَي: بِسَبَبِهِ، بِأَنْ ارْتَكَبَ مِنْهَا وَلَوْ بِشْتَمِ الْخَادِمِ^(٣) ﴿نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(٤) مُؤْلِمٍ،
 أَي: بَعْضُهُ، وَمِنْ هَذَا يُؤْخَذُ خَبَرٌ ﴿إِنَّ﴾، أَي: نَذِيقُهُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. ﴿وَأَذْكُرُ﴾ إِذْ بَوَّأْنَا ﴿بَيْنَا﴾ لِلْبَرَاهِيمِ مَكَانَ
 الْبَيْتِ ﴿لِبَيْنَيْهِ، وَكَانَ قَدْ رُفِعَ مِنْ زَمَنِ الطُّوفَانِ^(٥)، وَأَمْرَانَهُ﴾ «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» مِنَ الْأَوْثَانِ

(١) غير الأسلوب حيث لم يقل: «ويلبسون فيها حريراً» للمحافظة على الفواصل، وللدلالة على أن التحرير ثيابهم المعتادة في الجنة، فإن
 العدول إلى الجملة الاسمية يدل على الدوام. [صديق حسن (٣٢/٩)]. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي
 الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ». أخرجه البخاري (٥٨٣٢)، ومسلم (٢٠٧٣).

(٢) العاكف: المقيم في البلد، والبادي: القادم عليه من غيره، والمعنى: أن الناس سواء في المسجد الحرام، لا يختص به أحد دون أحد
 وذلك إجماع، وقال أبو حنيفة: حكم سائر مكة في ذلك كالمسجد الحرام، فيجوز للقادم أن ينزل منها حيث شاء، وليس لأحد فيها ملك،
 والمراد عنده بالمسجد الحرام جميع مكة، وقال مالك وغيره: ليست الدور في ذلك كالمسجد، بل هي مملكة. [ابن جزي (٣٧/٢)].

(٣) يشمل الإلحاد الإشراف ومنع الناس من عمارته، واقتراف الآثام. وتدل الآية على أن الواجب على من كان فيه، أن يضبط نفسه، ويسلك
 طريق السداد والعدل في جميع ما يهم به ويقصده. وقد ذهب بعض السلف إلى أن السيئة في الحرم أعظم منها في غيره، وأنها تضاعف فيه،
 وإن هم بها فيه أخذ بها. [القاسمي (٢٣٩/٧)]. والباء في قوله: ﴿بِالْحَادِ﴾ لأجل أن الإرادة مضمنة معنى الهم؛ أي: ومن يهمل فيه بإلحاد،
 ... فهذه الآية الكريمة مخصصة لعموم قوله ﷺ: «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ» الحديث. أخرجه أحمد (٢٥١٩). وعليه
 فهذا التخصيص لشدة التغليظ في المخالفة في الحرم المكي، ووجه هذا ظاهر ... ويحتمل أن يكون معنى الإرادة في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ
 بِالْحَادِ﴾ العزم المصمم على ارتكاب الذنب فيه، والعزم المصمم على الذنب ذنب يعاقب عليه في جميع بقاع الله؛ مكة وغيرها. والدليل
 على أن إرادة الذنب إذا كانت عزمًا مصممًا عليه أنها كارتكابه حديث أبي بكره الثابت في الصحيح قال ﷺ: «إِذَا اتَّقَى الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَهُمَا
 فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ». قالوا: يا رسول الله، قد عرفنا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». أخرجه البخاري

(٣١)، ومسلم (٢٨٨٨). [الشنقيطي (٦٣/٥)].

(٤) انظر التعليق على تفسير آية (٩٧) من سورة آل عمران.

﴿لِلظَّالِمِينَ وَالْقَائِمِينَ﴾ الْمُقِيمِينَ بِهِ ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ٢٦ ﴿جَمْعُ رَاكِعٍ وَسَاجِدٍ الْمُصَلِّينَ﴾ ﴿وَأَذِّنْ﴾ نَادٍ ﴿فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ فَنَادَى عَلَى جَبَلِ أَبِي قَيْسٍ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ بَنَى بَيْتًا وَأَوْجَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ إِلَيْهِ فَاجِئُوا رَبَّكُمْ»، وَانْفَتَحَ بَوَّاجُهُ يَمِينًا وَشِمَالًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا فَاجَابَهُ كُلُّ مَنْ كُتِبَ لَهُ أَنْ يَحُجَّ مِنْ أَصْلَابِ الرِّجَالِ وَأَرْحَامِ الْأُمَمَاتِ لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ^(١)، وَجَوَابُ الْأَمْرِ ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ مُشَاةً جَمْعُ «رَاجِلٍ» كَقَائِمٍ وَقِيَامٍ ﴿وَرُكْبَانًا﴾ عَلَى كُلِّ ضَامِرٍ أَي: بِعَيْرٍ مَهْزُولٍ وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى ﴿يَأْتِينَ﴾ أَي: الضَّوَامِرُ حَمَلًا عَلَى الْمَعْنَى ﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ ٢٧ طَرِيقٍ بَعِيدٍ. ﴿لَيَشْهَدُوا﴾ أَي: لِيَحْضُرُوا ﴿مَنْفَعٌ لَهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالتَّجَارَةِ، أَوْ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ فِيهِمَا، أَقْوَالُ^(٢) ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ أَي: عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ أَوْ يَوْمِ عَرَفَةَ أَوْ يَوْمِ النَّحْرِ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، أَقْوَالُ ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ الَّتِي تُنَحَرُ فِي يَوْمِ الْعِيدِ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إِذَا كَانَتْ مُسْتَحَبَّةً ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ٢٨ أَي: الشَّدِيدَ الْفَقْرِ. ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أَي: يُزِيلُوا أَوْسَاحَهُمْ وَشَعَثَهُمْ، كَطُولِ الظُّفْرِ ﴿وَلْيُوفُوا﴾ بِاللَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿نُذُورَهُمْ﴾ مِنَ الْهَدَايَا وَالضَّحَايَا ﴿وَلْيَطُوفُوا﴾ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ٢٩ أَي: الْقَدِيمِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ. ﴿ذَلِكَ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ، أَي: الْأَمْرُ، أَوْ الشَّأْنُ ذَلِكَ الْمَذْكُورُ ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ هِيَ مَا لَا يَحِلُّ انْتِهَاكُهُ ﴿فَهُوَ﴾ أَي:

(١) المراد بالحج: القصد إلى بيت الله. وصار لفظ الحج علما بالغلبة على الحضور بالمسجد الحرام لأداء المناسك. ومن حكمة مشروعيته تلقي عقيدة توحيد الله بطريق المشاهدة للهيكَل الذي أقيم لذلك حتى يرسخ معنى التوحيد في النفوس؛ لأن للنفوس ميلا إلى المحسوسات ليتقوى الإدراك العقلي بمشاهدة المحسوس. فهذه أصل في سنة المؤثرات لأهل المقصد النافع. وفي تعليق فعل ﴿يَأْتُوكَ﴾ بضمير خطاب إبراهيم دلالة على أنه كان يحضر موسم الحج كل عام يبلغ للناس التوحيد وقواعد الحنيفية. روي أن إبراهيم لما أمره الله بذلك اعتلى جبل أبي قيس وجعل إصبعيه في أذنيه ونادى: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا». وذلك أقصى استطاعته في امتثال الأمر بالتأذين. وقد كان إبراهيم رحالة فلعله كان ينادي في الناس في كل مكان يحل فيه. [ابن عاشور (١٧/٢٤٣)]. وقيل: إن الخطاب لبنيينا محمد ﷺ، والمعنى أعلمهم يا محمد بوجوب الحج عليهم، وعلى هذا فالخطاب لإبراهيم انتهى عند قوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقيل: إن خطابه انتهى عند قوله: ﴿مَكَانَ الْبَيْتِ﴾، وما بعده خطاب لبنيينا محمد ﷺ أمره أن يقول ذلك في حجة الوداع. عن أبي هريرة رَوَاهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا». أخرجه مسلم (١٣٣٧). [الشوكاني (٣/٥٣٠)].

(٢) وقيل: هو عموم، أي: ليحضرُوا منافع لهم، أي: ما يرضي الله تعالى من أمر الدنيا والآخرة، قال مجاهد وعطاء واختاره ابن العربي، فإنه يجمع ذلك كله من نسك وتجارة ومغفرة ومنفعة دنيا وأخرى. ولا خلاف في أن المراد بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨] التجارة. [القرطبي (١٢/٤١)].

تَعْظِيمُهَا ﴿حَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمَ﴾ أَكْلًا بَعْدَ الذَّبْحِ ﴿إِلَّا مَا يُتَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تَحْرِيمُهُ فِي ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] آيَةٌ فَلَا سِتْنَاءَ مُنْقَطِعَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا وَالتَّحْرِيمُ لِمَا عَرَضَ مِنَ الْمَوْتِ وَنَحْوِهِ ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ، أَيِ: الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ ﴿أَيِ: الشَّرْكَ بِاللَّهِ فِي تَلْبِيسَتِكُمْ، أَوْ شَهَادَةَ الزُّورِ.﴾ ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ مُسْلِمِينَ، عَادِلِينَ عَنْ كُلِّ دِينٍ سِوَى دِينِهِ ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ تَأْكِيدٌ لِمَا قَبْلَهُ، وَهُمَا حَالَانِ مِنَ الْوَاوِ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ سَقَطًا﴾ ﴿مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ﴾ أَيِ: تَأْخُذُهُ بِسُرْعَةٍ ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ أَيِ: تُسْقِطُهُ ﴿فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ ﴿بَعِيدٍ فَهُوَ لَا يُرْجَى خَلَاصُهُ.﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ «الْأَمْرُ»: مُبْتَدَأٌ ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا﴾ أَيِ: فَإِنَّ تَعْظِيمَهَا، وَهِيَ: الْبُذْنُ الَّتِي تُهْدَى لِلْحَرَمِ بَأَنْ تُسْتَحْسَنَ وَتُسْتَسَمَنَ ﴿مِنَ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ﴿مِنْهُمْ، وَسُمِّيَتْ شَعَائِرَ لِإِشْعَارِهَا بِمَا تُعْرِفُ بِهِ أَنَّهَا هَدْيٌ، كَطَعْنِ حَدِيدٍ بِسَنَامِهَا.﴾ ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كَرُّوْبِهَا وَالْحَمْلُ عَلَيْهَا مَا لَا يَضُرُّهَا ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وَقَتِ نَحْرِهَا ﴿ثُمَّ فَحِلُّهَا﴾ أَيِ: مَكَانُ حِلِّ نَحْرِهَا ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ ﴿أَيِ: عِنْدَهُ، وَالْمُرَادُ الْحَرَمُ جَمِيعُهُ.﴾ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أَيِ: جَمَاعَةٍ مُؤْمِنَةٍ سَلَفَتْ قَبْلَكُمْ ﴿جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ مَصْدَرٌ، وَبِكَسْرِهَا اسْمٌ مَكَانٍ، أَيِ: ذَبْحًا قُرْبَانًا، أَوْ مَكَانَهُ ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ عِنْدَ ذَبْحِهَا ﴿فَاللَّهُكُمْ إِلَهًُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ انْقَادُوا ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ ﴿الْمُطِيعِينَ الْمُتَوَاضِعِينَ﴾ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ﴾ خَافَتْ ﴿قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ مِنَ الْبَلَايَا ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ فِي أَوْقَاتِهَا ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ ﴿يَتَصَدَّقُونَ.﴾ ﴿وَالْبُذْنُ﴾ جَمْعُ «بَذَنَةٍ» وَهِيَ الْإِبِلُ ﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أَعْلَامَ دِينِهِ ﴿لَكُمْ فِيهَا حَيْرٌ﴾ نَفْعٌ فِي الدُّنْيَا كَمَا تَقَدَّمَ، وَأَجْرٌ فِي الْعُقْبَى ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ عِنْدَ نَحْرِهَا ﴿صَوَافٍ﴾ قَائِمَةٌ عَلَى ثَلَاثِ مَعْقُولَةِ الْيَدِ الْيُسْرَى ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سَقَطَتْ إِلَى الْأَرْضِ بَعْدَ النَّحْرِ وَهُوَ وَقْتُ الْأَكْلِ مِنْهَا ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ إِنْ شِئْتُمْ ﴿وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ﴾ الَّذِي يَقْنَعُ بِمَا يُعْطَى وَلَا يَسْأَلُ وَلَا يَتَعَرَّضُ ﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ وَالسَّائِلَ أَوْ الْمُعْتَرِضَ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيِ: مِثْلَ ذَلِكَ التَّسْخِيرِ ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ بِأَنْ تُنَحَرَ وَتُرَكَّبَ وَإِلَّا لَمْ تُطَقْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿إِنْعَامِي عَلَيْكُمْ.﴾ ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا﴾ أَيِ: لَا يُرْفَعَانِ إِلَيْهِ ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ أَيِ: يُرْفَعُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ الْعَمَلُ الصَّالِحُ الْخَالِصُ لَهُ مَعَ الْإِيمَانِ ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِكُمْ﴾ اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَكُمْ ﴿أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينِهِ وَمَنَاسِكِ حَجِّهِ﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿أَيِ: الْمُؤَحِّدِينَ.﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ غَوَائِلَ الْمُشْرِكِينَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ فِي أَمَانَتِهِ ﴿كَفُورٍ﴾ لِنِعْمَتِهِ، وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ، الْمَعْنَى:

أَنَّهُ يُعَافِيهِمْ^(١). ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ﴾ أَي: لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُقَاتِلُوا وَهَذِهِ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿ظَلَمُوا﴾ لِظُلْمِ الْكَافِرِينَ إِيَّاهُمْ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٢). هُمْ ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ فِي الْإِخْرَاجِ، مَا أَخْرَجُوا ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا﴾ أَي: بِقَوْلِهِمْ ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾ وَحَدَّهُ، وَهَذَا الْقَوْلُ حَقٌّ، فَالْإِخْرَاجُ بِهِ إِخْرَاجٌ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِدَلِّ بَعْضٍ مِنَ النَّاسِ﴾ ﴿بِبَعْضٍ لَّهَدَمْتُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ لِلتَّكْثِيرِ وَبِالتَّخْفِيفِ ﴿صَوْمِعُ﴾ لِلرُّهْبَانِ ﴿وَبِيعُ﴾ كَنَائِسُ لِلنَّصَارَى ﴿وَصَلَوْتُ﴾ كَنَائِسُ لِلْيَهُودِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ﴿وَمَسْجِدُ﴾ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ أَي: الْمَوَاضِعَ الْمَذْكُورَةَ ﴿أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ وَتَنْقَطِعُ الْعِبَادَاتُ بِخَرَابِهَا^(٣) ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أَي: يَنْصُرُ دِينَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿عَزِيزٌ﴾^(٤) مَنِعٌ فِي سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ. ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بِنَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: جَوَابُ الشَّرْطِ، وَهُوَ وَجَوَابُهُ صَلَوةُ الْمُؤْصُولِ، وَيُقَدَّرُ قَبْلَهُ «هُمْ» مُبْتَدَأُ ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(٥) أَي: إِلَيْهِ مَرْجِعُهَا فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ إِلَى آخِرِهِ^(٦)، فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ «قَوْمٍ» بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى ﴿وَعَادٌ﴾ قَوْمُ هُودٍ ﴿وَتَمُودٌ﴾^(٧) قَوْمُ صَالِحٍ. ﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ﴾^(٨) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ قَوْمُ شُعَيْبٍ ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ كَذَبَهُ الْقَبْطُ، لَا قَوْمَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، أَي: كَذَّبَ هَؤُلَاءِ رُسُلَهُمْ فَلَكَ أُسُوءَةُ بِهِمْ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَنْمَهَلْتُهُمْ بِتَأْخِيرِ الْعِقَابِ لَهُمْ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾^(٩) أَي: انْكَارِي عَلَيْهِمْ تَكْذِيبَهُمْ بِإِهْلَاكِهِمْ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَي: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقَعُهُ. ﴿فَكَأَيِّنْ﴾ أَي: كَمْ ﴿مِّنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أَي: أَهْلَهَا بِكُفْرِهِمْ ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سُقُوفُهَا ﴿وَكَم مِّنْ بُرٍّ مُّعْظَلَةٍ﴾ مَتْرُوكَةٌ بِمَوْتِ أَهْلِهَا ﴿وَقَصِرَ مَشِيدُ﴾^(١٠) رَفِيعُ خَالٍ بِمَوْتِ أَهْلِهِ. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ

(١) أي: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق، ولا يفي بما قال. والكفر: الجحد للنعم، فلا يعترف بها. [ابن كثير (٤٣٣/٥)].

(٢) المعنى: لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء بعضهم ببعض، وإقامة الحدود لاستولى أهل الشرك وذهبت مواضع العبادة من الأرض، وقيل المعنى: لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع والبيع، وفي زمن محمد ﷺ المساجد. قال ابن عطية: هذا أصوب ما قيل في تأويل هذه الآية فعلى هذا إنما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ. [صديق حسن (٥٧/٩)].

(٣) أي: إلى آخر الآيات القادمة إلى آية (٤٤).

﴿فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ مَا نَزَلَ بِالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَهُمْ ﴿أَوْ عَادَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أَخْبَارُهُمْ بِالْإِهْلَاكِ وَخَرَابِ الدِّيَارِ فَيَعْتَبِرُوا ﴿فَإِنَّهَا﴾ أَي: الْقِصَّةُ ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ تَأْكِيدُ. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ، فَأَنْزَلَهُ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ﴾ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ بِالْعَذَابِ ﴿كَأَلَفَ سَنَةً مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ، فِي الدُّنْيَا. ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ الْمُرَادُ أَهْلُهَا ﴿وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾﴾ الْمَرْجِعُ. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ بَيْنَ الْإِنذَارِ، وَأَنَا بَشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَتِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِإِبْطَالِهَا ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مَنِ اتَّبَعَ النَّبِيَّ، أَي: يَسُبُّونَهُمْ إِلَى الْعَجْزِ، وَيُسَبِّطُونَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، أَوْ مُقَدِّرِينَ عَجْزَنَا عَنْهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مُسَابِقِينَ لَنَا، أَي: يَطْنُونَ أَنْ يَفُوتُونَا بِإِنْكَارِهِمْ الْبُعْثَ وَالْعِقَابَ ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ النَّارِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ هُوَ: نَبِيِّ أَمَرَ بِالتَّلْيِغِ ﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ أَي: لَمْ يُؤْمَرْ بِالتَّلْيِغِ ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ قَرَأَ ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ قِرَاءَتِهِ مَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ مِمَّا يَرْضَاهُ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِمْ، وَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ ﷺ فِي سُورَةِ «النَّجْمِ» بِمَجْلِسٍ مِنْ فُرُشٍ بَعْدَ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] بِالْقَاءِ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ ﷺ بِهِ: «تِلْكَ الْغَرَائِقُ الْعُلَا وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَى»، فَفَرَحُوا بِذَلِكَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ جِبْرِيلُ بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ ذَلِكَ فَحَزَنَ فَسَلَّى بِهَذِهِ الْآيَةِ لِيَطْمَئِنَّ^(١). ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ﴾ يُبْطِلُ ﴿مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ

(١) فيه دليل بين على ثبوت التغير بين الرسول والنبي. وسئل النبي ﷺ عن الأنبياء فقال: «مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرَّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ». أخرجه أحمد (٢٢٢٨٨)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٩٦٢)، والطبراني (٧٨٧١)، والفرق بينهما أن الرسول الذي أرسل إلى الخلق بإرسال جبريل إليه عياناً ومحاورة شفاهاً، والنبي الذي يكون وحيه إلهاماً أو مناماً. وقيل: الرسول من بعث بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أمر أن يدعو إلى شريعة من قبله ولم ينزل عليه كتاب. ولا بد لهما جميعاً من المعجزة الظاهرة. [صديق حسن (٦٦/٩)].

(٢) قد ذكر كثير من المفسرين في تفسير هذه الآية قصة الغرائق، وهذا القول الذي زعمه كثير من المفسرين: وهو أن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ، هذا الشرك الأكبر والكفر البواح الذي هو قولهم: «تلك الغرائق العُلَا وَإِنَّ شَفَاعَتَهُنَّ لَتَرْتَجَى»، يعنون: اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، الذي لا شك في بطلانه في نفس سياق آيات «النجم» التي تخللها إلقاء الشيطان المزعوم قرينة قرآنية واضحة على بطلان هذا القول؛ لأن النبي ﷺ قرأ بعد موضع الإلقاء المزعوم بقليل قوله تعالى، في اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم: ٢٣] وليس من المعقول أن النبي ﷺ يسب آلهتهم هذا السب العظيم في سورة النجم متأخراً عن ذكره لها بالخير المزعوم، إلا وغضبوا، ولم يسجدوا؛ لأن العبرة بالكلام الأخير، مع أنه قد دلت آيات

ءَايَاتِهِ^{٥٢} يُثَبِّتُهَا^{٥٣} وَاللَّهُ عَلِيمٌ^{٥٤} بِالْقَاءِ الشَّيْطَانِ مَا دُكِرَ^{٥٥} (حَكِيمٌ^{٥٦}) فِي تَمَكِّنِهِ مِنْهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ. ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ مِحْنَةً ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ وَنِفَاقٌ ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: الْمُشْرِكِينَ عَنْ قَبُولِ الْحَقِّ ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿لَنَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾^{٥٧} خِلَافٍ طَوِيلٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ جَرَى عَلَى لِسَانِهِ ذِكْرُ آلِهَتِهِمْ بِمَا يُرْضِيهِمْ ثُمَّ أَبْطَلَ ذَلِكَ^{٥٨}. ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ التَّوْحِيدَ وَالْقُرْآنَ ﴿أَنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ﴾ تَطْمَئِنَّ ﴿لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^{٥٩} أَي: دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيَةٍ﴾ شَكٍّ ﴿مِنْهُ﴾ أَي: الْقُرْآنِ، بِمَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ثُمَّ أَبْطَلَ^{٦٠} ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أَي: سَاعَةً مَوْتِهِمْ أَوْ الْقِيَامَةَ فَجَاءَةً ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ

قرآنية على بطلان هذا القول، وهي الآيات الدالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطانا على النبي ﷺ، وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^{٦١} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ^{٦٢} [النحل: ٩٩ - ١٠٠]، وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأى سلطان له أكبر من ذلك. ومن الآيات الدالة على بطلان ذلك القول المزعوم قوله تعالى في النبي ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ^{٦٣} إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^{٦٤} [النجم: ٣ - ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ^{٦٥} لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^{٦٦} [فصلت: ٤١ - ٤٢] فهذه الآيات القرآنية تدل على بطلان القول المزعوم. واعلم: أن مسألة الغرائق مع استحالتها شرعا، ودلالة القرآن على بطلانها لم تثبت من طريق صالح للاحتجاج، وصرح بعدم ثبوتها خلق كثير من علماء الحديث كما هو الصواب، قال الشوكاني في هذه القصة: ولم يصح شيء من هذا، ولا يثبت بوجه من الوجوه. فالذي يظهر لنا أنه الصواب، وأن القرآن يدل عليه دلالة واضحة، وإن لم يتبته له من تكلم على الآية من المفسرين: هو أن ما يلقيه الشيطان في قراءة النبي ﷺ: الشكوك والوساوس المانعة من تصديقها وقبولها، كإلقائه عليهم أنها سحر أو شعر، أو أساطير الأولين، وأنها مفتراة على الله ليست منزلة من عنده. والدليل على هذا المعنى: أن الله بين أن الحكمة في الإلقاء المذكور امتحان الخلق، لأنه قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾، ثم قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾، وهذا يدل على أن الشيطان يلقي عليهم، أن الذي يقرؤه النبي ﷺ ليس بحق فيصده الأَشْقِيَاءُ، ويكون ذلك فِتْنَةً لَهُمْ، ويكذبه المؤمنون الذين أُوتُوا الْعِلْمَ، ويعلمون أنه الحق لا الكذب؛ كما يزعم لهم الشيطان في إلقائه: فهذا الامتحان لا يناسب شيئا زاده الشيطان من نفسه في القراءة، والعلم عند الله تعالى. وعلى هذا القول، فمعنى نسخ ما يلقي الشيطان: إزالته وإبطاله، وعدم تأثيره في المؤمنين الذين أُوتُوا الْعِلْمَ. ومعنى يحكم آياته: يتقنها بالإحكام، فيظهر أنها وحي منزل منه بحق، ولا يؤثر في ذلك محاولة الشيطان صد الناس عنها بإلقائه المذكور. [الشنقيطي بتصرف (٥/ ٧٩٤)].

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) انظر التعليق السابق.

عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَوْمٌ بَدْرٌ، لَا خَيْرَ فِيهِ لِلْكَافِرِ، كَالرَّيْحِ الْعَقِيمِ الَّتِي لَا تَأْتِي بِخَيْرٍ، أَوْ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لَا لَيْلَ بَعْدَهُ. ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿لِلَّهِ﴾ وَخَدَهُ، وَمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْإِسْتِقْرَارِ نَاصِبٌ لِلظَّرْفِ ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ بِالْمُجَازَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ بِمَا بَيَّنَّ بَعْدَهُ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٥٦﴾ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ﴿٥٧﴾ شَدِيدٌ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ. ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: طَاعَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَزِيدَنَّ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ هُوَ رِزْقُ الْجَنَّةِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ أَفْضَلُ الْمُعْطِينَ. ﴿لَيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَيُّ: إِدْخَالًا، أَوْ مَوْضِعًا ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بِنِّيَاتِهِمْ ﴿حَلِيمٌ﴾ ﴿٥٩﴾ عَنْ عِقَابِهِمْ. الْأَمْرُ ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي قَصَصْنَاهُ عَلَيْكَ ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ جَازَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ ظُلْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، أَيُّ: قَاتَلَهُمْ كَمَا قَاتَلُوهُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ مِنْهُمْ، أَيُّ: ظَلِمَ بِإِخْرَاجِهِ مِنْ مَنَزِلِهِ ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ﴾ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿غَفُورٌ﴾ ﴿٦٠﴾ لَهُمْ عَنْ قِتَالِهِمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ. ﴿ذَلِكَ﴾ النَّصْرُ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أَيُّ: يُدْخِلُ كُلًّا مِنْهُمَا فِي الْآخِرِ بِأَنْ يَزِيدَ بِهِ، وَذَلِكَ مِنْ أَثَرِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى الَّتِي بِهَا النَّصْرُ^(١) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بَصِيرٌ﴾ ﴿٦١﴾ بِهِمْ، حَيْثُ جَعَلَ فِيهِمُ الْإِيمَانَ فَأَجَابَ دُعَاءَهُمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ النَّصْرُ أَيْضًا ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وَهُوَ الْأَصْنَامُ ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الزَّائِلُ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ أَيُّ: الْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ^(٢) ﴿الْكَبِيرُ﴾ ﴿٦٢﴾ الَّذِي يَصْغُرُ كُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ^(٣). ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعَلَّمَ ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ مَطَرًا ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ بِالنَّبَاتِ، وَهَذَا مِنْ أَثَرِ

(١) الباء للسببية، أي: ذلك النصر بسبب أنه سبحانه قادر، ومن كمال قدرته إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل. قاله الرازي. وقال البيضاوي: قادر على قلب الأمور بعضها على بعض، جارية عادته على المداولة بين الأشياء المتعاندة، وعبر عن الزيادة بالإيلاج لأن زيادة أحدهما تستلزم نقصان الآخر. [صديق حسن (٧٦/٩)].

(٢) العلي في ذاته فهو عال على جميع المخلوقات، وفي قدره فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته. [السعدي (ص: ٥٤٣)].

(٣) وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السموات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه،

قُدْرَتِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِعِبَادِهِ فِي إِخْرَاجِ النَّبَاتِ بِالْمَاءِ ﴿حَبِيرٌ﴾ ﴿١٣﴾ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ عِنْدَ تَأْخِيرِ الْمَطَرِ. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ عَلَى جِهَةِ الْمُلْكِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ عِبَادِهِ ﴿الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٤﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعَلَّمَ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْبَهَائِمِ ﴿وَالْفُلُكَ﴾ السُّفْنَ ﴿تَجْرَى فِي الْبَحْرِ﴾ لِلرُّكُوبِ وَالْحَمَلِ ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بِإِذْنِهِ ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ مِنْ ﴿أَنْ﴾ أَوْ لَيْلًا ﴿تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فَتَهْلِكُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ فِي التَّسْخِيرِ وَالْإِمْسَاكِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بِالْإِنْشَاءِ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عِنْدَ انْتِهَاءِ آجَالِكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عِنْدَ الْبَعْثِ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكِ ﴿لَكَفُورٌ﴾ ﴿١٦﴾ لِنِعَمِ اللَّهِ بِتَرْكِهِ تَوْحِيدَهُ. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا، شَرِيعَةً ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ عَامِلُونَ بِهِ ﴿فَلَا يُنْزِعَنَّكَ﴾ يُرَادُ بِهِ: لَا تُنَازِعْهُمْ ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ أَيِ: أَمْرِ الذَّبِيحَةِ، إِذْ قَالُوا: مَا قَتَلَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَأْكُلُوهُ مِمَّا قَتَلْتُمْ ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ إِلَى دِينِهِ ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى﴾ دِينَ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فِي أَمْرِ الدِّينِ ﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ مِنَ التَّكْذِيبِ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ^(١). ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ بِأَنْ يَقُولَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ خِلَافَ قَوْلِ الْآخَرِ. ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الْإِسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ﴾ أَيِ: مَا ذَكَرَ ﴿فِي كِتَابٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أَيِ: عِلْمُ مَا ذَكَرَ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢٠﴾ سَهْلٌ. ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنْزَلْ بِهِ﴾ هُوَ الْأَصْنَامُ ﴿سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أَنَّهَا آلِهَةٌ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بِالْإِشْرَاكِ ﴿مِنْ تَصِيرٍ﴾ ﴿٢١﴾ يَمْنَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ. ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ أَيِ: الْإِنْكَارَ لَهَا، أَيِ: أَثَرُهُ مِنَ الْكَرَاهَةِ وَالْعُبُوسِ ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أَيِ: يَقَعُونَ فِيهِمْ بِالْبَطْشِ ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ أَيِ: بِأَكْرَهَ إِلَيْكُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْمَتْلُوِّ عَلَيْكُمْ، هُوَ: ﴿التَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِأَنْ مَصِيرَهُمْ إِلَيْهَا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٢٢﴾ هِيَ. ﴿يَنَآيَهَا النَّاسُ﴾ أَيِ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ هُوَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيِ: غَيْرُهُ وَهُمْ الْأَصْنَامُ ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ إِسْمُ جِنْسٍ وَاحِدُهُ

وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعارا للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها. [السعدي (ص: ٥٤٣)].

(١) ﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ﴾ آية مودعة نسختها آية السيف، أي: وإن أبوا للجأهم إلا المجادلة بعد اجتهدك ألا يكون بينك وبينهم تنازع فادفعهم بأن الله أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما تستحقون عليها من الجزاء، وهذا وعيد وإنذار ولكن برفق ولين ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ خطاب من الله للمؤمنين والكافرين، أي: يفصل بينكم بالثواب والعقاب، ومسلاة لرسول الله ﷺ بما كان يلقي منهم. [أبو حيان (١٠/٥٢٦)].

«ذُبَابَةٌ»، يَقَعُ عَلَى الْمَذَكِرِ وَالْمُؤَنَّثِ «وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ» لَخَلِقَهُ «وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا» مِمَّا عَلَيْهِمْ مِنَ الطَّيِّبِ وَالزَّعْفَرَانِ الْمُلَطَّخِينَ بِهِ «لَا يَسْتَنْقِذُوهُ» لَا يَسْتَرِدُّوهُ «مِنْهُ» لِعَجْزِهِمْ، فَكَيْفَ يُعْبُدُونَ شُرَكَاءَ اللَّهِ تَعَالَى؟ هَذَا أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ عَبَّرَ عَنْهُ بِـ «ضَرْبِ مَثَلٍ»، «ضَعْفُ الطَّالِبِ» الْعَابِدِ «وَالْمَطْلُوبُ» (٧٣) «الْمَعْبُودُ». «مَا قَدَرُوا اللَّهَ» عَظَمُوهُ «حَقَّ قَدْرِهِ» عَظَمَتِهِ، إِذْ أَشْرَكُوا بِهِ مَا لَمْ يَمْتَنِعْ مِنَ الذُّبَابِ وَلَا يَتَنَصَّفُ مِنْهُ «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ» (٧٤) غَالِبٌ. «اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ» رُسُلًا، نَزَلَ لَمَّا قَالَ الْمُشْرِكُونَ: «أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا» [ص: ٨] «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ» لِمَقَالَتِهِمْ «بَصِيرٌ» (٧٥) بِمَنْ يَتَّخِذُهُ رَسُولًا؛ كَ «جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدٍ» وَغَيْرِهِمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّم. «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» أَي: مَا قَدَّمُوا وَمَا خَلَّفُوا، وَمَا عَمِلُوا وَمَا هُمْ عَامِلُونَ بَعْدُ «وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (٧٦) يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا» أَي: صَلُّوا «وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ» وَحُدُّوهُ «وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ» كَصَلَةِ الرَّحِمِ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٧٧) تَفُوزُونَ بِالْبَقَاءِ فِي الْجَنَّةِ. «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ» لِإِقَامَةِ دِينِهِ «حَقَّ جِهَادِهِ» بِاسْتِفْرَاقِ الطَّاقَةِ فِيهِ^(١)، وَنُصِبَ «حَقٌّ» عَلَى الْمَصْدَرِ «هُوَ أَجْتَبَدَكُمْ» اخْتَارَكُمْ لِدِينِهِ «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» أَي: ضَيْقٍ بِأَنْ سَهَّلَهُ عِنْدَ الضَّرُورَاتِ؛

(١) تخصيصه الذباب، لمهانتة وضعفه واستقذاره. وهذا من أبلغ ما أنزل في تجهيل المشركين. حيث وصفوا بالإلهية التي تقتضي الاقتدار على المقدورات كلها، والإحاطة بالمعلومات عن آخرها، صوراً وتمائيل، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه الله تعالى وأذله، ولو اجتمعوا لذلك: «وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ» أَي: هذا الخلق الأقل الأذل، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا: «ضَعْفُ الطَّالِبِ» أَي: الصنم يطلب ما سلب منه: «وَالْمَطْلُوبُ» أَي: الذباب بما سلب. وهذا كالتسوية بينهم وبين الذباب في الضعف. ولو حققت وجدت الطالب أضعف وأضعف. فإن الذباب حيوان وهو جماد. وهو غالب وذلك مغلوب. وجوز أن يراد بالطالب عابد الصنم، وبالمطلوب معبوده. قيل: وهو أنسب بالسياق لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم. فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذليل. واختار الوجه الأول الزمخشري. لما فيه من التهكم، بجعل الصنم طالبا على الفرض تهكما وأنه أضعف من الذباب لأنه مسلوب وجماد، وذلك حيوان بخلافه. [القاسمي (٧/ ٢٧٥)].

(٢) المبالغة في الأمر بهذا الجهاد باستفراغ الطاقة لأنه أضاف الحق إلى الجهاد، والأصل إضافة الجهاد إلى الحق، أي: جهاداً خالصاً لله، فعكس ذلك لقصد المبالغة، وأضاف الجهاد إلى الضمير اتساعاً أو لاختصاصه به سبحانه من حيث كونه مفعولاً له ومن أجله، وقيل: المراد بـ «حق جهاده» هو أن لا يخافوا في الله لومة لائم، وقيل: المراد به استفراغ ما في وسعهم في إحياء دين الله، وقال مقاتل والكلبي: إن الآية منسوخة بقوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦]، كما أن قوله: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ» [آل عمران: ١٠٢] منسوخ بذلك، ورد ذلك بأن التكليف مشروط بالقدرة فلا حاجة إلى المصير إلى النسخ. [صديق حسن (٩/ ٨٨)].

كَالْقَصْرِ، وَالتَّيْمِّمِ، وَأَكْلِ الْمَيْتَةِ، وَالْفِطْرِ لِلْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْكَافِ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ ﴿هُوَ﴾ أَيِ: اللَّهُ ﴿سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ: قَبْلَ هَذَا الْكِتَابِ ﴿وَفِي هَذَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ ﴿وَتَكُونُوا﴾ أَنْتُمْ ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أَنْ رُسُلَهُمْ بَلَّغْتَهُمْ ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ دَاوِمُوا عَلَيْهَا ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ ثِقُوا بِهِ ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ وَمُتَوَلِّي أُمُورِكُمْ ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ هُوَ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ ﴿٧٨﴾ أَنَا نَاصِرُكُمْ.

(١) اختلف في مرجع الضمير الذي هو لفظ «هو» من قوله: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ﴾ فقال بعضهم: «الله»... وهذا القول مروي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد وعطاء، والضحاك، ومقاتل بن حيان، وقتادة، كما نقله عنهم ابن كثير، وقال بعضهم هو أي: (إبراهيم)، واستدل لهذا بقول إبراهيم وإسماعيل: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وبهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، كما نقله عنه ابن كثير... وفي هذه الآيات قرينتان تدلان على أن قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم غير صواب. إحداهما: أن الله قال: ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾، أي: القرآن، ومعلوم أن إبراهيم لم يسمهم المسلمين في القرآن، لنزوله بعد وفاته بأزمان طويلة كما نبه على هذا ابن جرير. القرينة الثانية: أن الأفعال كلها في السياق المذكور راجعة إلى الله، لا إلى إبراهيم... فإن قيل: الضمير يرجع إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور للضمير المذكور: هو إبراهيم. فالجواب: أن محل رجوع الضمير إلى أقرب مذكور محله ما لم يصرف عنه صارف، وهنا قد صرف عنه صارف؛ لأن قوله: ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن، دليل على أن المراد بالذي سماهم المسلمين فيه: هو الله لا إبراهيم، وكذلك سياق الجمل المذكورة قبله نحو: ﴿هُوَ أَجْتَبَلَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ يناسبه أن يكون هو سماكم أي: الله، المسلمين.... [وفي الحديث]: «فَادْعُوا بِدَعْوَةِ اللَّهِ الَّتِي سَمَّاكُمْ بِهَا الْمُسْلِمِينَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَادَ اللَّهِ». أخرجه النسائي في الكبرى (١١٣٤٩). [الشنقيطي (٨١٨/٥)].

(٢) اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ يتعلق بقوله: ﴿أَرْكَعُوا وَأَسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧] أو بقوله: ﴿أَجْتَبَلَكُمْ﴾ أي ليكون الرسول، أي: محمد ﷺ شهيدا على الأمة الإسلامية بأنها آمنت به، وتكون الأمة الإسلامية شاهدة على الناس، أي: على الأمم بأن رسلهم بلغوهم الدعوة فكفر بهم الكافرون. ومن جملة الناس القوم الذين كفروا بمحمد ﷺ. وقدمت شهادة الأمة في آية البقرة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول. فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم. [ابن عاشور (٣٥٢/١٧)].

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَثَمَانِي أَوْ تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ لِلتَّحْقِيقِ أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ مُتَوَاضِعُونَ ^(١). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مِنَ الْكَلَامِ وَغَيْرِهِ مُعْرِضُونَ ٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ مُؤَدُّونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥﴾ عَنِ الْحَرَامِ. ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ﴾ أَي: مِنْ زَوْجَاتِهِمْ ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أَي: السَّرَارِي ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦﴾ فِي إِيَابِنِهِنَّ. ﴿فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ مِنَ الزَّوْجَاتِ وَالسَّرَارِي، كَالِاسْتِمْنَاءِ بِيَدِهِ ^(٢) ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧﴾ الْمُتَجَاوِزُونَ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُمْ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ جَمْعًا وَمُفْرَدًا وَعَهْدِهِمْ﴾ فِيمَا بَيْنَهُمْ، أَوْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ مِنْ صَلَاةٍ وَغَيْرِهَا ﴿رَاعُونَ ٨﴾ حَافِظُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ جَمْعًا وَمُفْرَدًا يُحَافِظُونَ ٩﴾ يُقِيمُونَهَا فِي أَوْقَاتِهَا. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠﴾ لَا غَيْرُهُمْ. ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ هُوَ جَنَّةٌ أَعْلَى الْجَنَانِ ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾ فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى الْمَعَادِ، وَيُنَاسِبُهُ ذِكْرُ الْمَبْدَأِ بَعْدَهُ. ﴿وَ﴾ اللَّهُ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ آدَمَ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ هِيَ مِنْ سَلَلَتُ الشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ، أَي: اسْتَخْرَجْتُهُ مِنْهُ وَهُوَ خُلَاصَتُهُ ﴿مِنْ طِينٍ ١٢﴾ مُتَعَلِّقٍ بِـ ﴿سُلَالَةٍ﴾، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴿أَي: الْإِنْسَانَ نَسْلَ آدَمَ﴾ نُطْفَةً ﴿مِنِّيَّا﴾ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ هُوَ الرَّحِمُ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عِلْقَةً دَمًا جَامِدًا ﴿فَخَلَقْنَا الْعِلْقَةَ مُضْغَةً﴾ لَحْمَةً قَدَرُ مَا يُمَضَّغُ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عِظْمًا﴾ وَ ﴿الْعِظْمُ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَ ﴿خَلَقْنَا﴾ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثِ بِمَعْنَى: صَيَّرْنَا ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ١٤﴾ أَي: الْمُقَدِّرِينَ، وَمُمَيِّزٍ ﴿أَحْسَنُ﴾

(١) الخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضرا القربة، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متأدبا بين يدي ربه، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتتفي بذلك الوسوس والأفكار الرديّة، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثابا عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها. [السعدي (ص: ٥٤٧)].

(٢) أي: المتجاوزون إلى ما لا يحل لهم فسمى سبحانه من نكح ما لا يحل عاديا. وقد دلت هذه الآية على تحريم نكاح المتعة. واستدل بها بعض أهل العلم على تحريم الاستمناء لأنه من وراء لما ذكر، فهو حرام عند الجمهور. [الشوكاني (٣/ ٥٦١)].

مَحْذُوفٌ لِلْعِلْمِ بِهِ، أَي: خَلَقًا. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ ١٥ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ ١٦ ﴿لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ أَي: سَمَاوَاتٍ جَمْعُ «طَرِيقَةٍ» لِأَنَّهَا طُرُقُ الْمَلَائِكَةِ ١٧ ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ﴾ الَّتِي تَحْتَهَا ﴿غَفْلِينَ﴾ ١٨ ﴿أَنْ تَسْقُطَ عَلَيْهِمْ فَتُهْلِكَهُمْ بَلْ نُمَسِّكُهَا كَايَةً: ﴿وَيُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ مِنْ كِفَايَتِهِمْ ﴿فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ ١٩ ﴿فَيَمُوتُونَ مَعَ دَوَابِّهِمْ عَطَشًا. ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَبٍ﴾ هُمَا أَكْثَرُ فَوَاكِهِ الْعَرَبِ لَكُمْ فِيهَا فَوْكِهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَصَيْفًا وَشِتَاءً. ﴿وَأَنْشَأْنَا شَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ جَبَلٌ، بِكَسْرِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا، وَمَنْعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ لِلْبُقْعَةِ ٢١ ﴿تُنْبِتُ﴾ مِّنَ الرَّبَاعِيِّ وَالثَّلَاثِيِّ ﴿بِالدُّهْنِ﴾ الْبَاءُ زَائِدَةٌ عَلَى الْأَوَّلِ، وَمُعْدِيَّةٌ عَلَى الثَّانِي، وَهِيَ شَجَرَةُ الزَّيْتُونِ ﴿وَصَبِغٌ لِلْأَكْلِينَ﴾ ٢٢ ﴿عَطْفٌ عَلَى «الدُّهْنِ»، أَي: إِدَامٍ يَصْبُغُ اللَّقْمَةَ بِعَمْسِهَا فِيهِ، وَهُوَ الزَّيْتُ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ الْأَبَلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ﴾ لَعِبْرَةٌ عِظَةٌ تَعْتَبِرُونَ بِهَا تَسْقِيكُمْ﴾ بِفَتْحِ النَّونِ وَضَمِّهَا ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ أَي: اللَّبَنِ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ مِّنَ الْأَصْوَابِ وَالْأَوْبَارِ وَالْأَشْعَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٢٣ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ أَي: السُّفُنِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ أَطِيعُوهُ وَوَحِّدُوهُ ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ وَهُوَ اسْمُ ﴿مَا﴾ وَمَا قَبْلَهُ الْخَبَرُ، وَ﴿مِّنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ٢٥ ﴿تَخَافُونَ عُقُوبَتَهُ بِعِبَادَتِكُمْ غَيْرَهُ. ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ لَا تَبَاعِهِمْ: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ﴾ يَتَشَرَّفَ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بِأَنْ يَكُونَ مَتَّبِعًا وَأَنْتُمْ أَتْبَاعُهُ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أَلَّا يُعْبَدَ غَيْرُهُ ﴿لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ بِذَلِكَ لَا بَشَرًا ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ نُوحٌ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٦ ﴿أَي: الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿إِنْ هُوَ﴾ مَا نُوحٌ ﴿إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ حَالَةٌ جُنُونٍ ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ﴾ اِنْتَظِرُوهُ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٢٧ ﴿إِلَىٰ زَمَنٍ مَّوْتِهِ. ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ عَلَيْهِمْ ﴿بِمَا كَذَّبُونَ﴾ ٢٨ ﴿بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّايَ بِأَنْ تُهْلِكَهُمْ. قَالَ تَعَالَىٰ مُجِيبًا دُعَاءَهُ: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ﴾ السَّفِينَةَ

(١) الطرائق هي السماوات، قال الخليل والفراء والزجاج: سميت طرائق لأنها طورق بعضها فوق بعض، كمطارقة المنعل، وكل ما فوقه مثله، فهو طريقه، قاله البيضاوي، قال أبو عبيدة: طارقت الشيء جعلت بعضه فوق بعض، والعرب تسمي كل شيء فوق شيء طريقه، وقيل: لأنها طرائق الملائكة في العروج والهبوط وال الطيران، قاله الرازي، وقيل: لأنها طرائق الكواكب ومتقلباتها. [صديق حسن (٩/ ١٠٥)].

(٢) هو جبل بفلسطين، أو بين مصر وأيلة - بفتح الهمزة - محل معروف يسمى اليوم «العقبة» وهو على مراحل من مصر. قاله الشهاب «والشجرة» شجرة الزيتون، نسبت إلى الطور لأنه مبدؤها. أو لكثرتها فيه. [القاسمي (٧/ ٢٨٦)].

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بِمَرَأَى مِنَّا وَحِفْظِنَا^(١) ﴿وَوَحِينَا﴾ أَمْرِنَا ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَفَارَ التَّوَرُّ﴾ لِلْخَبَازِ بِالْمَاءِ^(٢) وَكَانَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِّنُوحٍ ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا﴾ أَي: ادْخُلْ فِي السَّفِينَةِ ﴿مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، أَي: مِنْ كُلِّ أَنْوَاعِهِمَا ﴿اثنَيْنِ﴾ ذَكَرًا وَأُنْثَى وَهُوَ مَفْعُولٌ وَ﴿مِنْ﴾ مُتَعَلِّقَةٌ بِ﴿اسْلُكْ﴾، وَفِي الْقِصَّةِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَسَرَ لِنُوحٍ السَّبَاعَ وَالطَّيْرَ وَغَيْرَهُمَا، فَجَعَلَ يَضْرِبُ بِيَدَيْهِ فِي كُلِّ نَوْعٍ فَتَقَعُ يَدُهُ الْيُمْنَى عَلَى الذَّكَرِ وَالْيُسْرَى عَلَى الْأُنْثَى فَيَحْمِلُهُمَا فِي السَّفِينَةِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿كُلِّ﴾ بِالتَّنْوِينِ، فَ﴿زَوْجَيْنِ﴾ مَفْعُولٌ وَ﴿اثنَيْنِ﴾ تَأْكِيدٌ لَهُ ﴿وَأَهْلَكَ﴾ زَوْجَتَهُ وَأَوْلَادَهُ ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ بِالْإِهْلَاكِ، وَهُوَ: زَوْجَتُهُ وَوَلَدُهُ كَنَعَانُ، بِخِلَافِ سَامٍ وَحَامٍ وَيَافِثَ فَحَمَلَهُمْ وَزَوْجَاتِهِمْ ثَلَاثَةً، وَفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، قِيلَ: كَانُوا سِتَّةَ رِجَالٍ وَنِسَاؤُهُمْ، وَقِيلَ: جَمِيعُ مَنْ كَانَ فِي السَّفِينَةِ ثَمَانِيَةً وَسَبْعُونَ، نِصْفُهُمْ رِجَالٌ وَنِصْفُهُمْ نِسَاءٌ ﴿وَلَا تُخْطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا بِتَرْكِ إِهْلَاكِهِمْ ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِفُونَ﴾ ٧٧ ﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ﴾ اعْتَدَلْتَ ﴿أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٧٨ ﴿الْكَافِرِينَ وَإِهْلَاكِهِمْ﴾. ﴿وَقُلْ﴾ عِنْدَ تَزْوُلِكَ مِنَ الْفُلِّ: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ الرَّاي: مَصْدَرٌ أَوْ اسْمُ مَكَانٍ، وَيفْتَحِ الْمِيمُ وَكسِرِ الرَّاي: مَكَانُ التَّزْوُلِ ﴿مُبَارَكًا﴾ ذَلِكَ الْإِنْزَالُ أَوْ الْمَكَانُ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ٧٩ مَا ذَكَرَ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ مِنْ أَمْرِ نُوحٍ وَالسَّفِينَةِ وَإِهْلَاكِ الْكُفَّارِ ﴿لَايَةٍ﴾ دَلَالَةٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا ضَمِيرُ الشَّانِ ﴿كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ ٨٠ مُخْتَبِرِينَ قَوْمَ نُوحٍ بِإِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ وَوَعْظِهِ. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا﴾ قَوْمًا ﴿ءَاخِرِينَ﴾ ٨١ هُمْ عَادٌ. ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ هُودًا ﴿أَنْ﴾ بِأَنَّ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ٨٢ عِقَابُهُ فَتُؤْمِنُوا. ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ بِالْمَصِيرِ إِلَيْهَا ﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ﴾ نَعَمْنَاهُمْ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ٨٣ وَ﴿اللَّهُ﴾ لَبِنٌ أَطْعَمَ بَشَرًا مِثْلَكُمْ فِيهِ قَسَمٌ

(١) هذا تعبير عن دلالة الكلام، ومعنى: تجري بمراى منا: تجري والله يرهاها بعينه التي لا تنام، وليس هذا تأويلا للعين، ولا نفيا

للعين؛ بل هذا يتضمن إثبات العين؛ لأن العين بها تكون الرؤية. [توضيح مقاصد العقيدة الواسطية (ص: ٨٤) البراك].

(٢) انظر التعليق على تفسير آية (٤٠) من سورة هود.

(٣) قال أكثر المفسرين: إن هؤلاء هم عاد قوم هود لمجيء قصتهم على أثر قصة نوح في غير هذا الموضع؛ ولقوله في الأعراف: ﴿وَأَذْكُرُوا

إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقيل: هم ثمود لأنهم الذين أهلكوا بالصيحة، وقد قال سبحانه في هذه القصة

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾، وقيل: هم أصحاب مدين قوم شعيب، لأنهم ممن أهلك بالصيحة. [الشوكاني (٣/ ٥٧١)].

وَشَرُّطٌ، وَالْجَوَابُ لِأَوَّلِهِمَا وَهُوَ مُغْنٍ عَنِ جَوَابِ الثَّانِي ﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ أَي: إِذَا أَطَعْتُمُوهُ ﴿لَخَسِرُونَ ٣٦﴾ أَي: مَغْبُونُونَ. ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ٣٧﴾ هُوَ خَبَرٌ ﴿أَنْكُمْ﴾ الْأُولَى، وَ﴿أَنْكُمْ﴾ الثَّانِيَةُ تَأْكِيدٌ لَهَا لَمَّا طَالَ الْفَصْلُ ﴿* هِيَ هَاتِ هَاتِ﴾ إِسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ بِمَعْنَى مَصْدَرٍ، أَي: بَعْدَ بَعْدَ ﴿لَمَّا تُوَعِدُونَ ٣٨﴾ مِنْ الْإِخْرَاجِ مِنَ الْقُبُورِ وَاللَّامُ زَائِدَةٌ لِلْيَاسَنِ. ﴿إِنْ هِيَ﴾ أَي: مَا الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ بِحَيَاةِ آبَائِنَا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٣٩﴾ إِنْ هُوَ أَي: مَا الرَّسُولُ ﴿إِلَّا رَجُلٌ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ٤٠﴾ مُصَدِّقِينَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ٤١﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ مِنْ الزَّمَانِ وَمَا زَائِدَةٌ ﴿لَيُصْبِحَنَّ﴾ لَيَصِيرَنَّ ﴿نَدِيمِينَ ٤٢﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ صَيْحَةُ الْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ كَأَنَّهُ ﴿بِالْحَقِّ﴾ فَمَاتُوا ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ وَهُوَ نَبْتُ يَسٍ، أَي: صَيَّرْنَاهُمْ مِثْلَهُ فِي الْيَسِّ ﴿فَبَعْدًا﴾ مِنْ الرَّحْمَةِ ﴿لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٤٣﴾ الْمَكْذِبِينَ. ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا﴾ أَي: أُمَّمًا ﴿ءَاخِرِينَ ٤٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا بِأَنْ تَمُوتَ قَبْلَهُ ﴿وَمَا يَسْتَخِرُونَ ٤٥﴾ عَنْهُ ذِكْرُ الضَّمِيرِ بَعْدَ تَأْنِيهِ رِعَايَةِ لِمَعْنَى. ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ بِالتَّوَيِّنِ وَعَدَمِهِ، مُتَتَابِعِينَ بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ زَمَانٌ طَوِيلٌ ﴿كُلٌّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوَاوِ ﴿رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ فِي الْهَلَاكِ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ٤٦﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ، وَهِيَ: الْيَدُ وَالْعَصَا وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْآيَاتِ. ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا وَبِاللَّهِ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَلِيلِينَ ٤٨﴾ قَاهِرِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالظُّلْمِ. ﴿فَقَالُوا أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ٤٩﴾ مُطِيعُونَ خَاضِعُونَ. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴿التَّوْرَةَ﴾ لَعَلَّهُمْ ﴿قَوْمُهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يَهْتَدُونَ ﴿٥١﴾ بِهِ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَأَوْتِيَهَا بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، جُمْلَةً وَاحِدَةً. ﴿وَجَعَلْنَا أَبْنَى مَرْيَمَ﴾ عِيسَى ﴿وَأُمَّهُوَ عَائِشَةُ﴾ لَمْ يَقُلْ: «آيَتَيْنِ» لِأَنَّ الْآيَةَ فِيهِمَا وَاحِدَةٌ، وَلَادَتُهُ مِنْ غَيْرِ فَحُلٍ ﴿وَوَآوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ﴾ مَكَانٍ مُرْتَفِعٍ، وَهُوَ: بَيْتُ الْمَقْدِسِ أَوْ دِمَشْقُ أَوْ فَلَسْطِينُ، أَقْوَالٌ ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أَي: مُسْتَوِيَةٍ يَسْتَقَرُّ عَلَيْهَا سَاكِنُوهَا ﴿وَمَعِينٍ ٥٢﴾ وَمَاءٍ جَارٍ ظَاهِرٍ تَرَاهُ الْعُيُونُ. ﴿يَنَآيَهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الْحَلَالَاتِ ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ مِنْ فَرَضٍ وَنَفْلِ ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥٣﴾ فَأَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿وَاعْلَمُوا﴾ «أَنَّ هَذِهِ» أَي: مِلَّةَ الْإِسْلَامِ ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ دِينُكُمْ أَيُّهَا الْمُخَاطَبُونَ، أَي: يَجِبُ أَنْ تَكُونُوا عَلَيْهَا أُمَّةً وَاحِدَةً حَالٌ لَزِمَةٌ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَخْفِيفِ الثَّوْنِ، وَفِي أُخْرَى بِكُسْرِ هَمْزَةٍ ﴿إِنَّ﴾ مُشَدَّدَةً اسْتِثْنَاءً ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ٥٤﴾ فَاحْذَرُونِ. ﴿فَتَقَطَّعُوا﴾ أَي: الْآتِبَاعَ ﴿أَمْرَهُمْ﴾ دِينَهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «تَقَطَّعُوا»، أَي:

أَحْزَابًا مُتَخَالِفِينَ، كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمَا ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أَي: عِنْدَهُمْ مِنَ الدِّينِ ﴿فَرِحُونَ﴾ ٥٣ ﴿مَسْرُورُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَذَرَهُمْ﴾ أَتْرَكَ كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ صَلَاتِهِمْ ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٥٥ أَي: حِينَ مَوْتِهِمْ. ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ﴾ نُعْطِيهِمْ ﴿مِنْ مَالٍ وَبَيْنٍ﴾ ٥٦ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ نُسَارِعُ ﴿نُعْجِلُ﴾ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴿لَا﴾ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ أَنَّ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجٌ لَهُمْ ١١. ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ﴾ خَوْفِهِمْ مِنْهُ ﴿مُشْفِقُونَ﴾ ٥٧ ﴿خَائِفُونَ مِنْ عَذَابِهِ﴾ ٥٨ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الْقُرْآنِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٨ ﴿يُصَدِّقُونَ﴾ ٥٩ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ٥٩ مَعَهُ غَيْرُهُ. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ يُعْطُونَ ﴿مَاءً آتَوْا﴾ أَعْطَوْا مِنَ الصَّدَقَةِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾ خَائِفَةٌ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ ١٢ ﴿أَنَّهُمْ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ لَمْ أَجَرَ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَجْعُونَ﴾ ٦٠ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ ١٣. ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ طَاقَتَهَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ فَإِنَّمَا فَلْيَصِلْ جَالِسًا، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَصُومَ فَلْيَأْكُلْ ١٤ ﴿وَلَدَيْنَا﴾ عِنْدَنَا ﴿كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ بِمَا عَمِلْتَهُ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ تُسَطَّرُ فِيهِ

(١) عطف على مقدر ينسحب إليه الكلام، أي: إضراب انتقالي عن الحسابان المستفهم عنه، استفهام تقييد، والمعنى: كلا لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً كالبهائم التي لا تفهم ولا تعقل، فإن ما حولناهم من النعم وأمددناهم به من الخيرات، إنما هو استدراج لهم واستجرا إلى زيادة الإثم ليزدادوا إثماً، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وهم يحسبونه مسارة لهم في الخيرات. [صديق حسن (١٢٨/٩)].

(٢) عن عبد الرحمن الهمداني: أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ﴾، قالت عائشة رضي الله عنها: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال ﷺ: «لَا يَا بِنْتُ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيَصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ». أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨). وقال الحسن البصري: عملوا والله بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم. [السمعاني (٤٨٠/٣)].

(٣) فيه معنيان: أحدهما أنهم يبادرون إلى فعل الطاعات، والآخر أنهم يتعجلون ثواب الخيرات، وهذا مطابق للآية المتقدمة، لأنه أثبت فيهم ما نفى عن الكفار من المسارة ﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ فيه المعنيان المذكوران في يسارعون للخيرات، وقيل: معناه سبقت لهم السعادة في الأزل. [ابن جرير (٥٣/٢)].

(٤) جملة مستأنفة سبقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة، أي: عادتنا جارية على أن لا تكلف نفساً من النفوس إلا ما في وسعها، على أن المراد استمرار النفي بمعونة المقام لا نفي الاستمرار... أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده إلا ما في وسعهم، فإن لم يبلغوا في فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا وسعهم. قال مقاتل: من لم يستطع القيام فليصل

الْأَعْمَالُ ﴿وَهُمْ﴾ أَي: النَّفُوسُ الْعَامِلَةُ ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ شَيْئًا مِنْهَا، فَلَا يُنْقَصُ مِنْ ثَوَابِ أَعْمَالِ الْخَيْرَاتِ وَلَا يَزَادُ فِي السَّيِّئَاتِ. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿فِي عَمْرَةٍ﴾ جَهَالَةٍ ﴿مِنْ هَذَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾ ﴿فِي حَتَّى﴾ إِبْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أَغْنِيَاءَهُمْ وَرُؤَسَاءَهُمْ ﴿بِالْعَذَابِ﴾ أَي: السَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ ﴿إِذَا هُمْ يَخْرُونَ﴾ ﴿يَضْجُونَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ: ﴿لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تَنْصُرُونَ﴾ لَا تُنْعَوْنَ. ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَتِي﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ تَرْجِعُونَ الْقَهْقَرَى. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿بِهِ﴾ أَي: بِالْبَيْتِ، أَوِ الْحَرَمِ، بِأَنَّهُمْ أَهْلُهُ فِي أَمْنٍ، بِخِلَافِ سَائِرِ النَّاسِ فِي مَوَاطِنِهِمْ ﴿سَمِرًا﴾ حَالٌ، أَي: جَمَاعَةٌ تَتَحَدَّثُونَ فِي اللَّيْلِ حَوْلَ الْبَيْتِ ﴿تَهْجُرُونَ﴾ مِنْ الثَّلَاثَةِ تَتْرُكُونَ الْقُرْآنَ، وَمِنْ الرُّبَاعِيِّ، أَي: تَقُولُونَ غَيْرَ الْحَقِّ فِي النَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا﴾ أَصْلُهُ «يَتَدَبَّرُوا» فَادْغَمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ ﴿الْقَوْلِ﴾ أَي: الْقُرْآنَ الدَّالَّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ الْإِسْتِفْهَامُ فِيهِ لِلتَّقْرِيرِ بِالْحَقِّ، مِنْ صِدْقِ النَّبِيِّ، وَمَجِيءِ الرُّسُلِ لِلْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَمَعْرِفَةِ رَسُولِهِمْ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ، وَأَنْ لَا جُنُونَ بِهِ ﴿بَلْ﴾ لِلانْتِقَالِ ﴿جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أَي: الْقُرْآنُ الْمُشْتَمِلُ عَلَى التَّوْحِيدِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ

قاعدا، ومن لم يستطع القعود فليوم إيماء. [أبو السعود (٦/١٤١)].

(١) العذاب الذي أخذهم ربهم به، قيل: هو عذاب يوم بدر بالقتل والأسر، وقيل: الجوع والقحط الشديد الذي أصابهم، لما دعا عليهم رسول الله ﷺ فقال: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُصْرٍ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ سِنِينَ كَسَنِي يُوسُفَ». أخرجه البخاري (٦٢٠٠)، ومسلم (٦٧٥). فأصابهم بسبب دعوته ﷺ من الجوع الشديد، عذاب أليم، وأظهرها عندي أنه أخذهم بالعذاب يوم القيامة. وقد بين تعالى في هاتين الآيتين أنه أخذ مترفيهم بالعذاب، والمترفون هم أصحاب النعمة والرفاهية في دار الدنيا، وهذا المعنى أشار له بقوله: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١-١٣] ... وقوله: يجأرون، الجؤار: الصراخ باستغاثة، والعرب تقول: جأر الثور يجأر: صاح، فالجؤار كالخوار ... فمعنى الآية الكريمة: أن المنعمين في الدنيا من الكفار، إذا أخذهم الله بالعذاب يوم القيامة، صاحوا مستصرخين مستغيثين، يطلبون الخلاص مما هم فيه، وصراخهم واستغاثتهم المشار له هنا، جاء في آيات آخر كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدِيقًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [فاطر: ٣٦-٣٧] فقوله: يصطرخون: يفتعلون من الصراخ، مستغيثين يريدون الخروج مما هم فيه، بدليل قوله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَدِيقًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فهذا الصراخ المذكور في هذه الآية العام للمترفين وغيرهم، هو الجؤار المذكور عن المترفين هنا. [الشنقيطي (٥/٨٧١)].

الْحَقُّ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ بِأَنْ جَاءَ بِمَا يَهْوُونَهُ مِنَ الشَّرِّ يَكِ وَالْوَلَدَ لِلَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ خَرَجَتْ عَنْ نِظَامِهَا الْمُشَاهِدِ، لَوْجُودِ التَّمَانِعِ فِي الشَّيْءِ عَادَةً عِنْدَ تَعَدُّدِ الْحَاكِمِ ^(٧١) ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ
بِذِكْرِهِمْ﴾ أَي: الْقُرْآنِ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُهُمْ وَشَرَفُهُمْ ﴿فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ^(٧٢) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا ﴿أَجْرًا عَلَى مَا
جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ﴾ ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ﴾ أَجْرُهُ وَثَوَابُهُ وَرِزْقُهُ ﴿خَيْرٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَرْجًا﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ
أُخْرَى: ﴿خَرَجًا﴾ فِيهِمَا ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرِّزْقَيْنِ﴾ ^(٧٣) أَفْضَلُ مَنْ أُعْطِيَ وَآجَرَ. ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ
﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ^(٧٤) أَي: دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بِالْبَعْثِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾
أَي: الطَّرِيقِ ﴿لَنَكُوبَنَّ﴾ ^(٧٥) عَادِلُونَ ^(٧٦). ﴿* وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ جُوعٍ أَصَابَهُمْ بِمَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ
﴿لَلْجُوعِ﴾ تَمَادَوْا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ ضَلَالَتِهِمْ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ ^(٧٧) يَتَرَدَّدُونَ. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ الْجُوعِ ﴿فَمَا
أَسْتَكْبَرُوا﴾ تَوَاضَعُوا ﴿لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ^(٧٨) يَرْغَبُونَ إِلَى اللَّهِ بِالْذُّعَاءِ. ﴿حَتَّى﴾ إِبْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
ذَا﴾ صَاحِبَ ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ هُوَ يَوْمٌ بَدْرٍ بِالْقَتْلِ ^(٧٩) ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ^(٨٠) آيِسُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ. ﴿وَهُوَ الَّذِي

(١) اختلف العلماء في المراد بالحق في هذه الآية، فقال بعضهم: الحق: هو الله تعالى، ومعلوم أن الحق من أسمائه الحسنى، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] ... وكون المراد بالحق في الآية: هو الله عزاه القرطبي للأكثرين، وممن قال به: مجاهد وابن جريج، وأبو صالح، والسدي، وروى عن قتادة، وغيرهم. وعلى هذا القول فالمعنى لو أجابهم الله إلى تشريع ما أحبوا تشريعه وإرسال من اقترحوا إرساله، بأن جعل أمر التشريع وإرسال الرسل ونحو ذلك تابعا لأهوائهم الفاسدة، لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن؛ لأن أهواءهم الفاسدة وشهواتهم الباطلة، لا يمكن أن تقوم عليها السماء والأرض وذلك لفساد أهوائهم، واختلافها ... القول الثاني: أن المراد بالحق في الآية: الحق الذي هو ضد الباطل المذكور في قوله قبله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠] وهذا القول الأخير اختاره ابن عطية، وأنكر الأول. وعلى هذا القول فالمعنى: أنه لو فرض كون الحق متبعا لأهوائهم، التي هي الشرك بالله، وادعاء الأولاد، والأنداد له ونحو ذلك لفسد كل شيء؛ لأن هذا الفرض يصير به الحق، هو أبطل الباطل، ولا يمكن أن يقوم نظام السماء والأرض على شيء، هو أبطل الباطل؛ لأن استقامة نظام هذا العالم لا يمكن إلا بقدرة وإرادة إله هو الحق منفرد بالتشريع، والأمر والنهي كما لا يخفى على عاقل والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٨٧٨/٥)].

(٢) لعادلون عنه فإن خوف الآخرة أقوى البواعث على طلب الحق وسلوك طريقه. [البيضاوي (٩٢/٤)]. وقال الحسن: تاركون له. وقال قتادة: حائرون. وقال الكلبي: معرضون، وهذه أقوال متقاربة المعنى. [أبو حيان (٥٧٦/٧)].

(٣) قيل: إن هذا العذاب هو الجوع بالقحط، وأن الباب ذا العذاب الشديد المتوعد به بعد هذا يوم بدر، وهذا مردود بأن العذاب الذي أصابهم إنما كان بعد بدر، وقيل: إن العذاب الذي أخذهم هو يوم بدر، والباب المتوعد به هو القحط، وقيل: الباب ذو العذاب الشديد:

أَنْشَأَ ﴿لَكُمْ السَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ ﴿وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ تَأْكِيدٌ لِلْقَلَّةِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ تُبْعَثُونَ. ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي﴾ بِنَفْخِ الرُّوحِ فِي الْمُضْغَةِ ﴿وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بِالسَّوَادِ وَالْبَيَاضِ، وَالزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ صُنْعُهُ تَعَالَى فَتَعْتَبِرُوا. ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَيُّ الْأَوَّلُونَ: ﴿أَعِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ لَا، وَفِي الْهَمْزَتَيْنِ التَّحْقِيقُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ. ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا﴾ أَيُّ: أَلْبَعَثُ بَعْدَ الْمَوْتِ ﴿مِنْ قَبْلُ إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ﴾ أَكَاذِيبُ ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ كَالْأَضَاحِيكِ وَالْأَعَاجِيبِ، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ. ﴿قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ مِنَ الْخَلْقِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ خَالِقَهَا وَمَالِكَهَا. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ لَهُمْ﴾: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الدَّالِ: تَتَعِظُونَ، فَتَعْلَمُوا أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى الْخَلْقِ إِبْتِدَاءً قَادِرٌ عَلَى الْإِحْيَاءِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ الْكُرْسِيِّ ﴿سَيَقُولُونَ اللَّهُ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ تَحْذَرُونَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ. ﴿قُلْ مَنْ مِنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾ مُلْكُ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَالتَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ يَحْمِي وَلَا يُحْمَى عَلَيْهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾: ﴿لِلَّهِ﴾ بِلَامِ الْجَرِّ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، نَظْرًا إِلَى أَنَّ الْمَعْنَى: مَنْ لَهُ مَا ذَكَرَ ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾ تُخْدَعُونَ وَتُضَرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ عِبَادَةَ اللَّهِ وَحْدَهُ، أَيُّ: كَيْفَ يُخَيَّلَ لَكُمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ؟ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ فِي نَفْيِهِ. وَهُوَ: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا﴾ أَيُّ: لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ انْفَرَدَ بِهِ، وَمَنْعَ الْآخَرِ مِنَ الْإِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهِ ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾

عذاب الآخرة، وهذا أرجح، ولذلك وصفه بالشدة لأنه أشد من عذاب الدنيا، وقال: ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي يائسون من الخير، وإنما يقع لهم اليأس في الآخرة كقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ١٢]. [ابن جزي (٢/٥٥)].

(١) العرش العظيم، يعني: الذي هو سقف المخلوقات، وفي الحديث: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَإِنَّ الْكُرْسِيَّ بِمَا فِيهِ بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْعَرْشِ كَبَلِّكَ الْحَلْقَةُ فِي تِلْكَ الْفَلَاةِ». رواه الطبري في تفسيره (٣٩٩/٥).

(٢) هذا برهان على الوحدةانية، ويبانه أن يقال: لو كان مع الله إلهًا آخر لانفرد كل واحد منهما بمخلوقاته عن مخلوقات الآخر، واستبد كل واحد منهما بملكه، وطلب غلبة الآخر والعلو عليه كما ترى حال ملوك الدنيا، ولكن لما رأينا جميع المخلوقات مرتبطة بعضها ببعض حتى كأن العالم كله كرة واحدة: علمنا أن مالكة ومدبره واحد، لا إله غيره. وليس هذا البرهان بدليل التمانع كما فهم ابن عطية وغيره، بل هو دليل آخر، فإن قيل:

مُغَالَبَةً كَفَعَلَ مُلُوكِ الدُّنْيَا ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ تَنْزِيهَا لَهُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٩١ ﴿هُ بِهِ مِمَّا ذُكِرَ﴾ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ، بِالْجَرِّ: صِفَةً، وَالرَّفْعِ: خَبَرٌ «هُوَ» مُقَدَّرًا ﴿فَتَعَلَّى﴾ تَعَظَّمَ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٩٢ ﴿هُ مَعَهُ﴾ ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَامٌ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الزَّائِدَةُ ﴿تُرِيَنِي مَا يُوعَدُونَ﴾ ٩٣ ﴿هُ مِنَ الْعَذَابِ، هُوَ صَادِقٌ بِالْقَتْلِ يَبْدُرُ﴾ ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ٩٤ ﴿فَأَهْلِكَ بِإِهْلَاكِهِمْ﴾ ﴿وَإِنَّا عَلَى أَنْ تُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ٩٥ أَدْفَعَ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ أَي: الْحَلَّةِ، مِنَ الصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ﴿السَّيِّئَةِ﴾ أَذَاهُمْ إِيَّاكَ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ٩٦ أَي: يَكْذِبُونَ وَيَقُولُونَ، فَنجازيهم عليه. ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ﴾ أَعْتَصِمُ ﴿بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ ٩٧ نَزَغَاتِهِمْ بِمَا يُوسُوسُونَ بِهِ. ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ﴾ ٩٨ ﴿فِي أُمُورِي؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَحْضُرُونَ بِسُوءٍ﴾ ﴿حَتَّى﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ ﴿إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ وَرَأَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ آمَنَ ٩٩ ﴿قَالَ رَبِّ أَرْجِعُونِي﴾ ١٠٠ أَلْجَمُ لِلتَّعْظِيمِ. ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ بِأَنْ أَشْهَدَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَكُونُ ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ ضِيعَتْ مِنْ عُمْرِي، أَي: فِي مُقَابَلَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ أَي: لَا رُجُوعَ ﴿إِنَّهَا﴾ أَي: رَبِّ أَرْجِعُونِ ﴿كَلِمَةً هُوَ قَابِلُهَا﴾ وَلَا فَائِدَةٌ لَهُ فِيهَا ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أَمَامَهُمْ ﴿بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ يَصُدُّهُمْ عَنِ الرَّجُوعِ ﴿إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ ١٠١ وَلَا رُجُوعَ بَعْدَهُ. ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ﴾ الْقَرْنَ النَّفْخَةِ الْأُولَى أَوِ الثَّانِيَةَ ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ يَتَفَاخَرُونَ بِهَا ١٠٢ ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ١٠٣ عَنْهَا، خِلَافَ حَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِمَا يَشْغَلُهُمْ مِنْ عِظَمِ الْأَمْرِ عَنْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ مَوَاطِنِ الْقِيَامَةِ، وَفِي بَعْضِهَا يُفَيِّقُونَ، وَفِي آيَةٍ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٥٠] ١٠٤، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾

«إِذَا» لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى كَلَامٍ هُوَ جَزَاءٌ وَجَوَابٌ، فَكَيْفَ دَخَلَتْ هُنَا وَلَمْ يَتَقَدَّمْ قَبْلُهَا شَرْطٌ وَلَا سَوْالٌ سَائِلٌ؟ فَالْجَوَابُ: أَنَّ الشَّرْطَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ

لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ وَإِنَّمَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾، وَهُوَ جَوَابٌ لِلْكَفَارِ الَّذِينَ وَقَعَ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ. [ابن جُرَيْجٍ (٥٦/٢)].

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ إِلَّا رَأَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا، وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةٌ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٦٩).

(٢) الْمَعْنَى: أَنَّهُ يَنْقَطِعُ يَوْمَئِذٍ التَّعَاطُفُ وَالشَّفَقَةُ الَّتِي بَيْنَ الْقَرَابَةِ؛ لِاشْتِغَالِ كُلِّ أَحَدٍ بِنَفْسِهِ. [ابن جُرَيْجٍ (٥٧/٢)].

(٣) السَّوَالُ: قَالَ: ﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ مَعَ أَنَّهُ ذَكَرَ فِي آيَاتٍ أُخْرَى أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ يَتَسَاءَلُونَ؟ الْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: الْأَوَّلُ: هُوَ قَوْلُ مَنْ قَالَ:

إِنْ نَفَى السَّوَالُ بَعْدَ النَّفْخَةِ الْأُولَى، وَقَبْلَ الثَّانِيَةِ، وَإِثْبَاتُهُ بَعْدَهُمَا مَعًا، وَهَذَا الْجَوَابُ فِيمَا يَظْهَرُ لَا يَخْلُو مِنْ نَظَرٍ. الثَّانِي: أَنَّ نَفْيَ السَّوَالِ عِنْدَ

اشْتِغَالِهِمْ بِالْصِّعْقِ وَالْمَحَاسِبَةِ، وَالْجَوَازِ عَلَى الصَّرَاطِ وَإِثْبَاتِهِ فِيمَا عَدَا ذَلِكَ وَهُوَ عَنِ السَّدِيِّ، مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. الثَّلَاثُ: أَنَّ السَّوَالِ الْمُنْفِي سَوْالٌ خَاصٌّ، وَهُوَ سَوْالُ بَعْضِهِمُ الْعَفْوَ مِنْ بَعْضٍ، فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْحَقُوقِ، لِقَنُوطِهِمْ مِنَ الْإِعْطَاءِ، وَلَوْ

بِالْحَسَنَاتِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ١٠٢ ﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بِالسَّيِّئَاتِ ﴿فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فَهُمْ ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ١٠٣ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿تُحْرِقُهَا﴾ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ شَمَرَتْ شِفَاهُهُمُ الْعُلْيَا وَالسُّفْلَى عَنْ أَسْنَانِهِمْ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي﴾ مِنَ الْقُرْآنِ ﴿تُنْتَلَى عَلَيْكُمْ﴾ تُخَوِّفُونَ بِهَا ﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ١٠٥ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴿وَفِي قِرَاءَةِ﴾ ﴿شَقَوْتُنَا﴾ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَأَلْفٍ، وَهُمَا مَصْدَرَانِ بِمَعْنَى ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ ١٠٦ ﴿عَنِ الْهَدَايَةِ﴾ ١٠٧ ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا﴾ إِلَى الْمُخَالَفَةِ ﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ١٠٨ قَالَ ﴿لَهُمْ بِلِسَانِ مَالِكٍ﴾ بَعْدَ قَدْرِ الدُّنْيَا مَرَّتَيْنِ ١٠٩: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا﴾ أَبْعَدُوا فِي النَّارِ أَذْلَاءَ ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ ١١٠ ﴿فِي رَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ، لِيَنْقَطِعَ رَجَاؤُهُمْ.﴾ ١١١ ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَآغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ١١٢ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا ﴿بِضْمِّ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا مَصْدَرٌ، بِمَعْنَى: «الْهَزْءُ»، مِنْهُمْ: «بِلَالٌ وَصُهَيْبٌ وَعَمَّارٌ وَسَلْمَانٌ﴾ ١١٣ ﴿حَتَّىٰ أَنسَوَكُمُ ذِكْرِي﴾ فَتَرَكْتُمُوهُ لَا شَيْعَالَكُمْ بِالْإِسْتِهْزَاءِ بِهِمْ، فَهُمْ سَبَبُ الْإِنْسَاءِ فَنُسِبَ إِلَيْهِمْ ١١٤ ﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ ١١٥ إِيَّيْ جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ ﴿النَّعِيمَ الْمُقِيمَ﴾ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَىٰ

كان المسؤول أبا أو ابنا أو أما أو زوجة، ذكر هذه الأوجه الثلاثة صاحب الإنقان. [دفع إيهام الاضطراب للشقطي (ص: ٢٣٠)].

(١) أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع، ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفيه، كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. [السعدي (ص: ٥٦٠)].

(٢) هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار، يقول: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا﴾ أي: امكثوا فيها صاغرين مهانين أذلاء. ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ أي: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندي. قال العوفي، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه. [ابن كثير (٤٩٨/٥)].

(٣) فالكفار يسخرون من ضعفاء المؤمنين في الدنيا حتى ينسيهم ذلك ذكر الله، والإيمان به فيدخلون بذلك النار. وما ذكره تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين أشار له في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرُمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ ١١٦ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿١١٧﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٠]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣]، وكل ذلك احتقار منهم لهم، وإنكارهم أن الله يمن عليهم بخير... وقوله تعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] وكل ذلك احتقار منهم لهم، وقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ والسخري بالضم والكسر: مصدر سخر منه، إذا استهزأ به على سبيل الاحتقار، قال الزمخشري في ياء النسب: زيادة في الفعل، كما قيل في الخصوصية بمعنى الخصوص، ومعناه: أن الياء المشددة في آخره تدل على زيادة سخرهم منهم ومبالغتهم في ذلك. [الشقطي (٩٠٥/٥)].

اسْتَهْزَأْتُمْ بِهِمْ وَأَذَاكُمُ إِلَٰهَهُمْ ﴿١١٦﴾ بِكْسِرِ الْهَمْزَةِ ﴿هُمُ الْفَٰزِزُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ بِمَطْلُوبِهِمْ اسْتِنَافٌ، وَبِفَتْحِهَا مَفْعُولٌ ثَانٍ لِّ ﴿جَزَيْتُهُمْ﴾. ﴿قُلْ﴾ تَعَالَى لَهُمْ بِلِسَانٍ مَّالِكٍ^(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فِي الدُّنْيَا وَفِي قُبُورِكُمْ ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ ﴿١١٨﴾ تَمِيزٌ. ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ شَكُّوا فِي ذَلِكَ، وَاسْتَقْصَرُوهُ لِعِظَمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ الْمُحْصِينَ أَعْمَالِ الْخَلْقِ. ﴿قُلْ﴾ تَعَالَى بِلِسَانٍ مَّالِكٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾ أَيِ: مَا ﴿لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنكُم كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٢٠﴾ مِقْدَارُ لُبِثِكُمْ مِنَ الطُّولِ كَانَ قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَى لُبِثِكُمْ فِي النَّارِ. ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ لَا لِحِكْمَةٍ ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ، لَا بَلْ لِنَتَّبِعَكُم بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَتَرْجِعُوا إِلَيْنَا وَنَجَازِي عَلَى ذَلِكَ. ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ عَنِ الْعَبَثِ وَغَيْرِهِ مِمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ ﴿١٢٢﴾ الْكُرْسِيِّ: هُوَ السَّرِيرُ الْحَسَنُ^(٢) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ لَا مَفْهُومَ لَهَا ﴿فَاتَّمَّا حِسَابُهُ﴾ جَزَاؤُهُ ﴿عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ لَا يَسْعُدُونَ^(٣). ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ الْمُؤْمِنِينَ، فِي الرَّحْمَةِ زِيَادَةٌ عَنِ الْمَغْفِرَةِ ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ أَفْضَلُ رَاحِمٍ.

(١) انظر التعليق على الآية (١٠٨) من هذه السورة.

(٢) انظر التعليق على الآية (٨٧) من هذه السورة.

(٣) لما كان أعظم ما دعا الله إليه توحيده، وكان أصل ضلالة المشركين إشراكهم أعقب وصف الله بالعلو العظيم والقدرة الواسعة ببيان أن الحساب الواقع بعد البعث ينال الذين دعوا مع الله آلهة دعوى لا عذر لهم فيها؛ لأنها عرية عن البرهان، أي: الدليل، لأنهم لم يشبوا الله الملك الكامل إذ أشركوا معه آلهة، ولم يشبوا ما يقتضي له عظيم التصرف إذ أشركوا معه تصرف آلهة. فقلوه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ حال من ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾، وهي حال لازمة؛ لأن دعوى الإله مع الله لا تكون إلا عرية عن البرهان. ونظير هذا الحال قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٌ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، والقصر في قوله: ﴿فَاتَّمَّا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ قصر حقيقي. وفيه إثبات الحساب وأنه لله وحده في تخطيطهم وتهديدهم. ويجوز أن يكون القصر إضافيا تطمينا للنبي ﷺ بأن الله لا يؤاخذهم باستمرارهم على الكفر كقلوه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، وهذا أسعد بقلوه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾ [المؤمنون: ١١٨]. ويدل على ذلك تذييله بجملة ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. وفيه ضرب من رد العجز على الصدر إذ افتتحت السورة بـ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وختمت بـ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وهو نفي الفلاح عن الكافرين ضد المؤمنين. [ابن عاشور (١٨/١٣٦)].

سُورَةُ النُّورِ

مَدِينَةٍ وَهِيَ ثِتَانٍ أَوْ أَرْبَعٌ وَسِتُّونَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذِهِ «سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا» مُخَفَّفَةٌ وَمُشَدَّدَةٌ لِكثَرَةِ الْمَفْرُوضِ فِيهَا «وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ» وَاضِحَاتِ الدَّلَالَةِ «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾» بِإِذْعَامِ النَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الدَّالِّ تَعِظُونَ. «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي» أَي: غَيْرَ الْمُحْصَنَيْنِ لِرَجْمِهِمَا بِالسَّنَةِ، وَ«أَل» فِيْمَا ذَكَرَ مَوْصُولَةٌ، وَهُوَ مُبْتَدَأٌ وَلِشَبْهِهِ بِالشَّرْطِ دَخَلَتْ الْفَاءُ فِي خَبَرِهِ، وَهُوَ: «فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ» أَي: ضَرْبَةٍ، يُقَالُ: جَلَدَهُ ضَرْبَ جَلْدَةٍ، وَيزَادُ عَلَى ذَلِكَ بِالسَّنَةِ تَغْرِيبُ عَامٍ^(١)، وَالرَّقِيقُ عَلَى النِّصْفِ مِمَّا ذَكَرَ «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ» أَي: حُكْمِهِ، بِأَنْ تَتْرَكُوا شَيْئًا مِنْ حَدِّهِمَا «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» أَي: يَوْمِ الْبَعْثِ، فِي هَذَا تَحْرِيطُ عَلَى مَا قَبْلَ الشَّرْطِ، وَهُوَ جَوَابُهُ أَوْ دَالٌّ عَلَى جَوَابِهِ^(٢) «وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا» الْجَلْدَ «طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾» قِيلَ: ثَلَاثَةٌ، وَقِيلَ: أَرْبَعَةٌ، عَدَدُ شُهُودِ الزَّانِي^(٣). «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ» يَتَزَوَّجُ «إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ» أَي: الْمُنَاسِبُ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَا ذَكَرَ

(١) عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما، في الأعراسين اللذين أتيا رسول الله ﷺ فقال أحدهما: يا رسول الله، إن ابني كان عسيفا - يعني أجيلا - على هذا فزني بامرأته، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا قُضِيَ بَيْنَكُمَا بِكِتَابِ اللَّهِ: الْوَلِيدَةُ وَالْغَنَمُ رَدُّ عَلَيْكَ، وَعَلَى ابْنِكَ جَلْدُ مِائَةٍ وَتَغْرِيبُ عَامٍ. وَاغْدِيَا أُتَيْسُ - لِرَجُلٍ مِّنْ أَسْلَمَ - إِلَى امْرَأَةِ هَذَا، فَإِنْ اعْتَرَفَتْ فَارْجُمُهَا». فغدا عليها فاعترفت، فرجمها. أخرجه البخاري (٢٣١٤)، ومسلم (١٦٩٧).

(٢) نهانا تعالى أن تأخذنا رافة بهما في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رافة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمانه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع. [السعدي (ص: ٥٦١)].

(٣) ندبا، والطائفة الفرقة التي تكون حافة حول الشيء من الطوف، وأقلها ثلاثة، لأنه أقل الجمع، وقيل: اثنان. قاله عكرمة. وقيل: واحد. قاله مجاهد. وقيل: أربعة لأنهم عدد شهود الزنا. وقيل: عشرة. قال ابن عباس: الطائفة الرجل فما فوقه، ولا يجب على الإمام حضور رجم، ولا على الشهود، لأنه ﷺ أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما، وإنما خص المؤمنين بالحضور لأن ذلك أفصح، والفاسق بين صلحاء قومه أخجل، وتسمية الجلد عذابا دليل على أنه عقوبة. [صديق حسن (١٦٧/٩)].

﴿وَحَرَّمَ ذَٰلِكَ﴾ أَي: نِكَاحُ الزَّوَانِي ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) ﴿الْأَخْيَارِ، نَزَلَ ذَٰلِكَ لَمَّا هَمَّ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ أَنْ يَتَرَوَّجُوا بَغَايَا الْمُشْرِكِينَ وَهُنَّ مُوسِرَاتٍ لِّیُنْفِقْنَ عَلَیْهِمْ، فَقِيلَ: التَّحْرِيمُ خَاصٌّ بِهِمْ، وَقِيلَ: عَامٌّ. وَنُسِخَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيِّمَى مِنْكُمْ﴾ [النور: ٣٢].^(١) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْعَفِيفَاتِ بِالزَّنى ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ عَلَى زَنَاھُنَّ بِرُؤُوسِهِنَّ ﴿فَاجْلِدُوهُمْ﴾ أَي: كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُنَّ ﴿ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ فِي شَيْءٍ ﴿أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٤) ﴿لَا تَيَّابُنَّ كَبِيرَةً﴾. ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلُهُمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ قَذْفُهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ (٥) ﴿بِهِمْ بِالْهَامِهِمُ التَّوْبَةُ، فِيهَا يَنْتَهِي فَسْقُهُمْ وَتَقْبُلُ شَهَادَتُهُمْ، وَقِيلَ: لَا تَقْبَلُ، رُجُوعًا بِالِاسْتِثْنَاءِ إِلَى الْجُمْلَةِ الْأَخِيرَةِ. ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ بِالزَّنى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ﴾ عَلَيْهِ ﴿إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ وَقَعَ ذَٰلِكَ لِجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ﴿فَشَهَدَتْ أَحَدَهُمْ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ﴾ نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ ﴿بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٦) ﴿فِيمَا رَمَى بِهِ زَوْجَتَهُ مِنَ الزَّنى. ﴿وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٧) فِي ذَٰلِكَ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: تَدْفَعُ عَنْهُ حَدَّ الْقَذْفِ. ﴿وَيَذَرُوهَا﴾ أَي: يَدْفَعُ ﴿عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ أَي: حَدَّ الزَّنى الَّذِي ثَبَتَ بِشَهَادَتِهِ ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ﴾ (٨) ﴿فِيمَا رَمَاهَا بِهِ مِنَ الزَّنى. ﴿وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٩) فِي ذَٰلِكَ. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾

(١) هذا القول الذي هو أن المراد بالنكاح في الآية التزويج لا الوطء في نفس الآية قرينة تدل على عدم صحته، وتلك القرينة هي ذكر المشرک والمشركة في الآية؛ لأن الزاني المسلم لا يحل له نكاح مشرکه، وكذلك الزانية المسلمة لا يحل لها نكاح المشرک، فنكاح المشرکه والمشرک لا يحل بحال، وذلك قرينة على أن المراد بالنكاح في الآية التي نحن بصددھا الوطء الذي هو الزنى، لا عقد النكاح؛ لعدم ملائمة عقد النكاح لذكر المشرک والمشرکه، والقول بأن نكاح الزاني للمشرکه، والزانية للمشرک منسوخ ظاهر السقوط؛ لأن سورة النور مدنية، ولا دليل على أن ذلك أحل بالمدينة ثم نسخ، والنسخ لا بد له من دليل يجب الرجوع إليه. [الشنقيطي (٦/ ٨٠)].

(٢) هذا حد القذف، وهو الفرية التي عبر الله عنها بالرمي، والمحصنات يراد بهن هنا العفاف من النساء، وخصهن بالذكر لأن قذفهن أكثر وأشنع من قذف الرجال، ودخل الرجال في ذلك بالمعنى إذ لا فرق بينهم، وأجمع العلماء على أن حكم الرجال والنساء هنا واحد، وقيل: إن المعنى؛ يرمون الأنفس المحصنات، فيعم اللفظ على هذا النساء والرجال. [ابن جرير (٢/ ٦١)].

(٣) فأوجب على القاذف إذا لم يقيم بيته على صحة ما قاله ثلاثة أحكام: أحدها: أن يجلد ثمانين جلدة. الثاني: أنه ترد شهادته دائماً. الثالث: أن يكون فاسقاً ليس بعدل، لا عند الله ولا عند الناس. [ابن كثير (٦/ ١٤)].

(٤) هذه الآيات في قذف الرجل لامرأته فيجب اللعان بذلك، وسببها أن رجلاً قال: يا رسول الله الرجل يجد مع امرأته رجلاً أيقن أنه يقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فسكت عنه نبي الله ﷺ، ثم عاد فقال مثل ذلك، فقال رسول الله ﷺ قد أنزل فيك وفي صاحبك فأتني بها فأتني بها فتلاعنا

بِالسَّتْرِ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ بِقَبُولِهِ التَّوْبَةَ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ ﴿حَكِيمٌ﴾ ﴿١٠﴾ فِيمَا حَكَمَ بِهِ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ لَيْسَ
 الْحَقُّ فِي ذَلِكَ، وَعَاجَلَ بِالْعُقُوبَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أَسْوَأَ الْكَذِبِ عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمُّ
 الْمُؤْمِنِينَ بِقَذْفِهَا ﴿عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: «حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي وَمِسْطَحٌ وَحَمْنَةُ
 بِنْتُ جَحْشٍ» ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ غَيْرِ الْعُصْبَةِ ﴿شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يَأْجُرُكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَيُظْهِرُ
 بَرَاءَةَ عَائِشَةَ وَمَنْ جَاءَ مَعَهَا مِنْهُ وَهُوَ صَفْوَانُ، فَإِنَّهَا قَالَتْ: «كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ،
 فَفَرَّغَ مِنْهَا وَرَجَعَ وَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، وَأَذَنَ بِالرَّحِيلِ لَيْلَةً فَمَشَيْتُ وَقَضَيْتُ شَأْنِي، وَأَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَإِذَا عِقْدِي انْقَطَعَ
 - هُوَ بِكْسِرِ الْمُهِمْلَةِ الْقِلَادَةُ - فَرَجَعْتُ التَّمِسُّهُ، وَحَمَلُوا هَوْدَجِي - هُوَ مَا يُرْكَبُ فِيهِ - عَلَى بَعِيرِي يَحْسَبُونَنِي فِيهِ،
 وَكَانَتِ النِّسَاءُ خِيفًا إِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلُقَةَ - هُوَ بَضْمُ الْمُهِمْلَةِ وَسُكُونِ اللَّامِ - مِنَ الطَّعَامِ، أَيُّ: الْقَلِيلِ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي
 وَجِئْتُ بَعْدَ مَا سَارُوا، فَجَلَسْتُ فِي الْمَنْزِلِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَقْدُونَنِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَغَلَبَتْنِي
 عَيْنَايَ فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ قَدْ عَرَّسَ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَادَّلَجَ - هُمَا بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَالذَّالِ أَيُّ: نَزَلَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ
 لِلِاسْتِرَاحَةِ فَسَارَ مِنْهُ - فَأَصْبَحَ فِي مَنْزِلِهِ فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ - أَيُّ: شَخْصَهُ - فَعَرَفَنِي حِينَ رَأَيْتِي - وَكَانَ يَرَانِي

وفرق رسول الله ﷺ بينهما. أخرجه البخاري (٤٧٤٦)، ومسلم (١٤٩٢). وموجب اللعان عند مالك شيئان: أحدهما أن يدعي الزوج أنه
 رأى امرأته تزني. والآخر أن ينفي حملها ويدعى الاستبراء قبله، فإذا تلاعن الزوج تعلق به ثلاثة أحكام: نفي حد القذف عنه، وانتفاء سبب
 الولد منه، ووجوب حد الزنا عليها إن لم تلاعن، فإن تلاعن سقط الحد عنها، ولفظ الآية عام في الزوجات الحرائر والمماليك،
 والمسلمات والكافرات والعدول وغيرهم، وبذلك أخذ مالك واشترط في الزوج الإسلام واشترط أبو حنيفة أن يكونا مسلمين حرين
 عدلين... فيقول الزوج أربع مرات: أشهد بالله لقد رأيت هذه المرأة تزني، أو أشهد بالله ما هذا الحمل مني؛ ولقد زنت وإني في ذلك لمن
 الصادقين، ثم يقول في الخامسة لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وزاد أشهد أن يقول: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو... ويدفعه التعان
 المرأة، وهي أن تقول أربع مرات: أشهد بالله ما زنيت، وإنه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول في الخامس: غضب الله عليها إن كان من
 الصادقين، ويتعلق بالتعانها ثلاثة أحكام: دفع الحد عنها، والتفريق بينها وبين زوجها، وتأبيد الحرمة. [ابن جزي (٢/٦١)].

(١) أخرجه البخاري في قصة الإفك (٢٦٦١).

(٢) ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بشاهد من أهلها، وموسى بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة بهذه
 الآي العظام في كتابه المعجز؛ المتلو على وجه الدهر، بهذه المبالغات؛ فانظر كم بينها وبين تبرة أولئك حيث لم يرض لها براءة صبي ولا
 نبي. حتى برأها بكلامه من القذف والبهتان؛ وما ذاك إلا لإظهار علو منزلة رسوله. والتنبيه على أنافة محله صلى الله عليه وآله وأصحابه
 أجمعين. [صديق حسن (٩/١٩٣)].

قَبْلَ الْحِجَابِ - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي - أَي: قَوْلُهُ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ - فَخَمَرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي - أَي: عَطَيْتُهُ بِالْمَلَاءَةِ - وَاللَّهُ مَا كَلَّمَنِي بِكَلِمَةٍ وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حِينَ أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ وَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَ مَا نَزَلُوا مُوْغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ - أَي: مِنْ أَوْغَرَ وَاقِفِينَ فِي مَكَانٍ وَغَرٍّ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ - فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فِيَّ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي إِبْنِ سَلُولَ. انْتَهَى قَوْلُهَا. رَوَاهُ الشَّيْخَانُ^(١)، قَالَ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ﴾ أَي: عَلَيْهِ ﴿مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ أَي: تَحَمَّلَ مُعْظَمَهُ فَبَدَأَ بِالْخَوْضِ فِيهِ وَأَشَاعَهُ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي - ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١١) هُوَ النَّارُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ﴾ أَي: ظَنَّ بَعْضُهُمْ بَعْضٍ ﴿خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾^(١٢) كَذِبٌ بَيْنٌ، فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْخِطَابِ، أَي: ظَنَنْتُمْ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ وَقُلْتُمْ^(١٣). ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿جَاءُوا﴾ أَي: الْعُصْبَةُ ﴿عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ شَاهِدُوهُ ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَي: فِي حُكْمِهِ ﴿هُمُ الْكَذِبُونَ﴾^(١٤) فِيهِ. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ، أَي: خُضْتُمْ ﴿فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١٥) فِي الْآخِرَةِ. ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنَتِكُمْ﴾ أَي: يَرَوِيهِ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ، وَحُذِفَ مِنَ الْفِعْلِ إِحْدَى التَّائِينَ، وَ﴿إِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِ﴿مَسَّكُمْ﴾، أَوْ بِ﴿أَفَضْتُمْ﴾ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا لَا إِثْمَ فِيهِ ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(١٦) فِي الْإِثْمِ^(١٧). ﴿وَلَوْلَا﴾

(١) قصة الحديث أخرجها البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠)، وهي هنا مختصرة مع زيادات تفسير الغريب.

(٢) العدول عن ضمير الخطاب في إسناد فعل الظن إلى المؤمنين التفتات، فمقتضى الظاهرة أن يقال: ظننتم بأنفسكم خيرا، فعدل عن الخطاب للاهتمام بالتوبيخ فإن الالتفات ضرب من الاهتمام بالخبر، وليصرح بلفظ الإيمان، دلالة على أن الاشتراك في الإيمان يقتضي ألا يصدق مؤمن على أخيه وأخته في الدين ولا مؤمنة على أخيها وأختها في الدين قول عائب ولا طاعن. وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في مؤمن أن يبين الأمر فيها على الظن لا على الشك، ثم ينظر في قرائن الأحوال وصلاحيه المقام فإذا نسب سوء إلى من عرف بالخير ظن أن ذلك إفك وبهتان حتى يتضح البرهان. وفيه تعريض بأن ظن السوء الذي وقع هو من خصال النفاق التي سرت لبعض المؤمنين عن غرور وقلة بصارة فكفى بذلك تشنيعا له. [ابن عاشور (١٨/ ١٧٤)].

(٣) ﴿عَظِيمٌ﴾ في الوزر واستجرار العذاب، فهذه ثلاثة آثام مترتبة علق بها مس العذاب العظيم، تلقي الإفك بالسستهم والتحدث به من غير تحقق واستصغارهم لذلك، وهو عند الله عظيم. [البيضاوي (١٠١/ ٤)]. فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم؟ قلت: معناه أن الشيء المعلوم يكون علمه في القلب، فيترجم عنه اللسان. وهذا الإفك ليس إلا قولاً يجري على ألسنتكم ويدور في أفواهكم من غير ترجمة عن علم به في القلب، كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. [الزمخشري (٣/ ٢١٩)].

هَلَا ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ﴾ مَا يَنْبَغِي ﴿لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ﴾ هُوَ لِلتَّعْجِيبِ هُنَا ^(١) ﴿هَذَا بُهْتَنٌ﴾ كَذِبٌ ﴿عَظِيمٌ﴾ ^(٢) يَعْظُمُ اللَّهُ يَنْهَأَكُمْ ﴿أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣) تَتَعَزَّوْنَ بِذَلِكَ. ﴿وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ ^(٤) فِيهِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ بِاللِّسَانِ ﴿فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِنِسْيَتِهَا إِلَيْهِمْ، وَهُمْ الْعُصْبَةُ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْحَدِّ لِلْقَذْفِ ﴿وَالْآخِرَةِ﴾ بِالنَّارِ لِحَقِّ اللَّهِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ انْتِفَاءَهَا عَنْهُمْ ﴿وَأَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِفْكِ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ ^(٥) وَجُودَهَا فِيهِمْ. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ ﴿وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٦) بِكُمْ لَعَاجَلَكُمْ بِالْعُقُوبَةِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَيُّ: طُرُقَ تَزِينِهِ ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ أَيْ: الْمَتَّبِعُ ﴿يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَيْ: الْقَبِيحِ ﴿وَالْمُنْكَرِ﴾ شَرًّا بِاتِّبَاعِهِمَا ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ﴾ أَيُّهَا الْعُصْبَةُ بِمَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِفْكِ ﴿مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أَيْ: مَا صَلَحَ وَطَهَّرَ مِنْ هَذَا الذَّنْبِ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي﴾ يُطَهِّرُ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنَ الذَّنْبِ يَقْبُولُ تَوْبَتَهُ مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ بِمَا قُلْتُمْ ﴿عَلِيمٌ﴾ ^(٧) بِمَا قَصَدْتُمْ. ﴿وَلَا يَأْتِلِ﴾ يَخْلِفُ ﴿أُولُوا الْفَضْلِ﴾ أَصْحَابُ الْغَنَى ﴿مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ﴾ لَا ﴿يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ نَزَلَتْ فِي أَبِي بَكْرٍ حَلَفَ أَنْ لَا يُنْفِقَ عَلَى مِسْطَحٍ، وَهُوَ ابْنُ خَالَتِهِ مَسْكِينٌ مُهَاجِرٌ بِدَرِيٍّ، لَمَّا خَاضَ فِي الْإِفْكِ بَعْدَ أَنْ كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَنَاسٌ مِنَ الصَّحَابَةِ أَقْسَمُوا أَنْ لَا يَتَصَدَّقُوا عَلَى مَنْ تَكَلَّمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِفْكِ ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ^(٨) لِلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: «بَلَى أَنَا أَحَبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي»، وَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ مَا كَانَ يُنْفِقُهُ عَلَيْهِ ^(٩). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ﴾ بِالزَّنَى ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ الْعَفَافَاتِ ﴿الْغَفْلَاتِ﴾ عَنِ الْفَوَاحِشِ بِالْأَلَا يَقَعُ فِي قُلُوبِهِنَّ فِعْلُهَا ^(١٠)

(١) هذا تأديب آخر بعد الأول: الأمر بالظن خيرا، أي: إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيرا، وألا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالا فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَقُلْ أَوْ تَعْمَلْ». أخرجه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧). [ابن كثير (٢٩/٦)].

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٧٩).

(٣) ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ العفاف... والإجماع على أن حكم المحصنين من الرجال حكم المحصنات من النساء في حد القذف، ﴿الْغَفْلَاتِ﴾ أي: اللاتي غفلن عن الفاحشة بحيث لا تخطر ببالهن ولا يفتن لهن، وفي ذلك من الدلائل على كمال النزاهة، وطهارة الجيب ما لم يكن في المحصنات. [صديق حسن (٩/١٩٠)]. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُفْبَقَاتِ». قيل: يا رسول الله، وما هن؟

﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٣) يَوْمَ ﴿نَاصِبُهُ﴾ لَا سِتْقَارَ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ لَهُمْ ﴿تَشْهَدُ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٤) مِنْ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَهُوَ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ يُجَازِيهِمْ جَزَاءَهُ الْوَاجِبَ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ (٢٥) حَيْثُ حَقَّقَ لَهُمْ جَزَاءَهُ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِيهِ، وَمِنْهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي، وَالْمُحْصَنَاتُ هُنَا أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يُذَكَّرْ فِي قَذْفِهِنَّ تَوْبَةً وَمَنْ ذُكِرَ فِي قَذْفِهِنَّ أَوَّلَ سُورَةِ التَّوْبَةِ غَيْرُهُنَّ (٢٦). ﴿الْخَبِيثَاتُ﴾ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنْ الْكَلِمَاتِ ﴿لِلْخَبِيثِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَالْخَبِيثُونَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿لِلْخَبِيثَاتِ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿وَالْطَّيِّبَاتُ﴾ مِمَّا ذُكِرَ ﴿لِلطَّيِّبِينَ﴾ مِنَ النَّاسِ ﴿وَالطَّيِّبُونَ﴾ مِنْهُمْ ﴿لِلطَّيِّبَاتِ﴾ مِمَّا ذُكِرَ، أَيِ: الْأَلْفِ بِالْخَبِيثِ مِثْلُهُ وَبِالطَّيِّبِ مِثْلُهُ ﴿أُولَئِكَ﴾ الطَّيِّبُونَ وَالطَّيِّبَاتُ مِنَ النِّسَاءِ وَمِنْهُمْ عَائِشَةُ وَصَفْوَانُ ﴿مُبَرَّعُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أَيِ: الْخَبِيثُونَ وَالْخَبِيثَاتُ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِيهِمْ ﴿لَهُمْ﴾ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتِ ﴿مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٢٦) فِي الْجَنَّةِ، وَقَدْ افْتَحَرَتْ عَائِشَةُ بِأَشْيَاءَ مِنْهَا: «أَنَّهَا خُلِقَتْ طَيِّبَةً، وَوُعِدَتْ مَغْفِرَةً، وَرِزْقًا كَرِيمًا». ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ أَيِ: تَسْتَأْذِنُوا ﴿وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ يَقُولُ الْوَاحِدُ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَذْخُلُ» كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ (٢٧)، ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الدَّالِ، خَيْرِيَّتُهُ فَتَعْمَلُوا بِهِ. ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ يَأْذَنُ لَكُمْ ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ بَعْدَ الْإِسْتِئْذَانِ ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ﴾ أَيِ: ارْجِعُوا ﴿أَرْكَى﴾ أَيِ: خَيْرٌ ﴿لَكُمْ﴾ مِنَ الْقُعُودِ عَلَى الْبَابِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الدُّخُولِ بِإِذْنٍ وَغَيْرِ إِذْنٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ (٢٨) فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾

قال: «الشُّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسَّحَرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(١) هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات - خرج مخرج الغالب - المؤمنات. فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة، ولا سيما التي كانت سبب النزول، وهي عائشة بنت الصديق ﷺ. وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورمها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآيات، فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن. وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي، والله أعلم. [ابن كثير (٣١/٦)].

(٢) عن رجل من بني عامر استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألج؟ فقال النبي ﷺ لخادمه «أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، فقل له: قُلِ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، أَأَدْخُلُ؟» فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم، أأَدْخُلُ؟ فأذن له النبي ﷺ فدخل. أخرجه أبو داود (٤٥٠٨).

فِيهَا مَتَعٌ أَي: مَنْفَعَةٌ لَكُمْ بِاسْتِكْنَانٍ وَغَيْرِهِ، كَيُوتِ الرُّبُطُ وَالْخَانَاتِ الْمُسَبَّلَةِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ تَظْهِرُونَ ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ تَخْفُونَ فِي دُخُولِ غَيْرِ بَيُوتِكُمْ مِنْ قَصْدِ صَلَاحٍ أَوْ غَيْرِهِ، وَسَيَأْتِي أَنَّهُمْ إِذَا دَخَلُوا بَيُوتَهُمْ يُسَلِّمُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ. ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ نَظَرُهُ، وَ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُمْ فِعْلُهُ بِهَا ﴿ذَلِكَ أَزْكَى﴾ أَي: خَيْرٌ ﴿لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿بِالْأَبْصَارِ وَالْفُرُوجِ فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ نَظَرُهُ ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَهُنَّ فِعْلُهُ بِهَا ﴿وَلَا يُبْدِينَ﴾ يُظْهِرْنَ ﴿زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ وَهُوَ الْوَجْهُ وَالْكَفَّانِ، فَيَجُوزُ نَظَرُهُ لِأَجْنَبِيٍّ إِنْ لَمْ يُخَفِ فِتْنَةً فِي أَحَدٍ وَجْهَيْنِ، وَالثَّانِي يَحْرُمُ لِأَنَّهُ مَظْنَةُ الْفِتْنَةِ، وَرُجِحَ حَسْمًا لِلْبَابِ ﴿وَلْيَضْرِبْنَ خُمُرَهُنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ أَي: يَسْتُرْنَ الرُّؤُوسَ وَالْأَعْنَاقَ وَالصُّدُورَ بِالْمَقَانِعِ ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ الْخَفِيَّةَ وَهِيَ مَا عَدَا الْوَجْهَ وَالْكَفَّيْنِ ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ جَمْعُ بَعْلٍ، أَي: زَوْجٍ ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ

(١) أظهر ما في «من» أن تكون للتبعض، وذلك أن أول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنما يغض فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعض، ويؤيد هذا التأويل ما روي من قوله ﷺ لعلي بن أبي طالب (عليه السلام): «لَا تُتَبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فَإِنَّ الْأَوَّلَى لَكَ وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةُ» الحديث. أخرجه أبو داود (٢١٤٩)، والترمذي (٢٧٧٧)، وأحمد (٢٢٩٧٤). وقال جرير بن عبد الله: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «أَصْرِفْ بَصْرَكَ». أخرجه أبو داود (٢١٤٨)، وأحمد (١٩٢٢٠). ويصح أن تكون «من» لبيان الجنس، ويصح أن تكون لابتداء الغاية، والبصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه. [ابن عطية (٤/ ١٧٧)].

(٢) أي: يجب عليهم حفظها عما يحرم عليهم ولا يحل لهم. وقيل: المراد ستر فروجهم عن أن يراها من لا تحل له رؤيتها، ولا مانع من إرادة المعنيين، فالكل يدخل تحت حفظ الفرج، وقيل: وجه المجهيء بـ«من» في الأبصار دون الفروج أنه موسع في النظر فإنه لا يحرم منه إلا ما استثنى، ألا ترى أن المحارم لا بأس بالنظر إلى شعورهن وصدورهن؟... بخلاف حفظ الفرج، فإنه مضيق فيه. فإنه لا يحل منه إلا ما استثنى. وقيل: الوجه أن غض البصر كله كالمتعذر، بخلاف حفظ الفرج، فإنه ممكن على الإطلاق، قال أبو العالية: كل ما في القرآن من حفظ الفرج فهو عن الزنا إلا ما في هذا الموضع فإنه أراد به الاستتار حتى لا يقع بصر الغير عليه. [صديق حسن (٩/ ٢٠٢)].

(٣) اعلم أولاً أن كلام العلماء في هذه الآية يرجع جميعه إلى ثلاثة أقوال: الأول: أن المراد بالزينة ما تتزين به المرأة خارجاً عن أصل خلقتها، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شيء من بدنها؛ كقول ابن مسعود (رضي الله عنه)، ومن وافقه: إنها ظاهر الثياب؛ لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهي ظاهرة بحكم الاضطرار، كما ترى. وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة. القول الثاني: أن المراد بالزينة: ما تتزين به، وليس من أصل خلقتها أيضاً، لكن النظر إلى تلك الزينة يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة، وذلك كالحضاب والكحل، ونحو ذلك؛ لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع الملابس له من البدن، كما لا يخفى. القول الثالث: أن المراد

أَبْنَائِهِمْ أَوْ أِبْنَاءَ بُعُولَتِهِمْ أَوْ إِخْوَانِهِمْ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِمْ أَوْ نِسَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿فَيَجُوزُ لَهُمْ نَظَرُهُ إِلَّا مَا بَيْنَ السَّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ﴾^(١)، فَيَحْرُمُ نَظَرُهُ لِغَيْرِ الْأَزْوَاجِ، وَخَرَجَ بِـ ﴿نِسَائِهِمْ﴾ الْكَافِرَاتُ^(٢) فَلَا يَجُوزُ

بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذي هو من أصل خلقتها؛ كقول من قال: إن المراد بما ظهر منها الوجه والكفان. وهذا القول الأخير، توجد في الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول، وهي أن الزينة في لغة العرب، هي ما تزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها: كالحلي، والحلل. فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر، ولا يجوز الحمل عليه، إلا بدليل يجب الرجوع إليه، وبه تعلم أن قول من قال: الزينة الظاهرة: الوجه، والكفان خلاف ظاهر معنى لفظ الآية، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول، فلا يجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه. ولفظ الزينة يكثر تكرره في القرآن العظيم مراداً به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها، ولا يراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين بها؛ كقوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ حُذُوًا زَيْنَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصْرِبْنَ أَزْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، وغيرها من الآيات فلفظ الزينة فيها كلها يراد به ما يزين به الشيء وهو ليس من أصل خلقتها كما ترى، وكون هذا المعنى هو الغالب في لفظ الزينة في القرآن، يدل على أن لفظ الزينة في محل النزاع يراد به هذا المعنى، الذي غلبت إرادته في القرآن العظيم، وبه تعلم أن تفسير الزينة في الآية بالوجه والكفين، فيه نظر. وإذا علمت أن المراد بالزينة في القرآن ما يزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة، وأن من فسروها من العلماء بهذا اختلفوا على قولين، فقال بعضهم: هي زينة لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة كظاهر الثياب. وقال بعضهم: هي زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة؛ كالكحل والخضاب، ونحو ذلك. وأظهر القولين المذكورين عندي قول ابن مسعود رضي الله عنه: أن الزينة الظاهرة هي ما لا يستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية، وإنما قلنا إن هذا القول هو الأظهر؛ لأنه هو أحوط الأقوال، وأبعدها عن أسباب الفتنة، وأطهرها لقلوب الرجال والنساء، ولا يخفى أن وجه المرأة هو أصل جمالها ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها؛ كما هو معلوم والجاري على قواعد الشرع الكريم، هو تمام المحافظة، والابتعاد من الوقوع فيما لا ينبغي. واعلم أن الحديث الذي عند أبي داود، وهو حديث عائشة رضي الله عنها في دخول أسماء على النبي ﷺ في ثياب رقاق، وأنه قال لها: «إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ يَصْلَحْ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا»، وأشار إلى وجهه وكفيه، حديث ضعيف عند أهل العلم بالحديث؛ قال ابن كثير فيه: قال أبو داود، وأبو حاتم الرازي: هو مرسل، وخالد بن دريك لم يسمع من عائشة رضي الله عنها. [الشنقيطي (٦/ ٢١٤)].

(١) المراد موضع الزينة وهو الوجه واليد والذراع لأن فيها السوار والقلب، والعضد وهو موضع الدمليج، والنحر والصدر موضع القلادة، والساق موضع الخلخال، فافتضى ذلك إباحة النظر للمذكورين في الآية إلى هذه المواضع وهي مواضع الزينة الباطنة، لأنه خص في أول الآية إباحة الزينة الظاهرة للأجنيين، وروي عن ابن مسعود والزبير رضي الله عنهما: القرط والقلادة والسوار والخلخال. [أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٤٠٩)].

(٢) اختلف المفسرون فيها، فمنهم من قال: إن الإضافة للنوع. ومنهم من قال: إن الإضافة للجنس. فعلى القول الأول: لا يجوز للمرأة المسلمة أن تبدي زينتها للكافرة، السبب؟ لأنها ليست من نوعها، فلا يجوز إبدائها، ولأنها في الحقيقة الكافرة غير مؤمنة قد تغري بها الفساق والكفار إذا رأوها تتجمل وتبهي وتبدي الزينة. والقول الثاني: أن المراد بنسائهن، النساء اللاتي من جنسهن. وعليه فيجوز للمرأة أن

لِلْمُسْلِمَاتِ الْكَشْفُ لَهُنَّ، وَشَمَلٌ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ الْعَبِيدُ ﴿أَوِ التَّبِيعِينَ﴾ فِي فُضُولِ الطَّعَامِ ﴿غَيْرِ﴾ بِالْجَرِّ صِفَةً، وَالنَّصْبِ اسْتِثْنَاءً ﴿أُولَى الْإِرْبَةِ﴾ أَصْحَابِ الْحَاجَةِ إِلَى النِّسَاءِ ﴿مِنَ الرِّجَالِ﴾ بِأَنْ لَمْ يَتَشَرَّ ذَكَرُ كُلِّ ﴿أَوْ الطِّفْلِ﴾ بِمَعْنَى الْأَطْفَالِ ﴿الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا﴾ يَطْلَعُوا ﴿عَلَى عَوْرَتِ النِّسَاءِ﴾ لِلْجَمَاعِ، فَيَجُوزُ أَنْ يُبْدِينَ لَهُمْ، مَا عَدَا مَا بَيْنَ السَّرَّةِ وَالرُّكْبَةِ ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ مِنْ خَلْخَالٍ يَتَقَعَّقُ ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِمَّا وَقَعَ لَكُمْ مِنَ النَّظَرِ الْمَمْنُوعِ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ ﴿٣١﴾ تَنْجُونَ مِنْ ذَلِكَ لِقَبُولِ التَّوْبَةِ مِنْهُ، وَفِي الْآيَةِ تَغْلِيْبُ الذُّكُورِ عَلَى الْإِنَاثِ. ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ﴾ جَمْعُ أَيْمٍ وَهِيَ مَنْ لَيْسَ

تُبْدِي مَا خَفِيَ مِنْ زِينَتِهَا لِجَمِيعِ النِّسَاءِ؛ مِنْ مَوْنَاتٍ وَغَيْرِ مَوْنَاتٍ، وَهَذَا هُوَ الْأَقْرَبُ، وَاحْتِمَالُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْكَافِرَةَ تُغْرِي بِهَا الْفَسَاقَ وَالْكَفَّارَ هَذَا وَارِدٌ، لَكِنْ هَذَا الْإِحْتِمَالُ أَيْضًا وَارِدٌ فِي الْمُسْلِمَاتِ. [ابن عثيمين تفسير النور (ص: ١٧٦)].

(١) العبيد: فيهم ثلاثة أقوال: منع رؤيتهم لسيدتهم وهو قول الشافعي، والجواز: وهو قول ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، والجواز بشرط أن يكون العبد وُغْدًا وهو مذهب مالك. [ابن جزي (٢/ ٦٧)].

(٢) التابع هو الذي يتبع أهل البيت إما لكونه خادماً عندهم، وإما لكونه يتلقى فضول الطعام منهم. لكن التابعين يجوز إبداء الزينة لهم بشرط؛ ألا يكون لهم إربة يعني: حاجة في النساء. وقول المؤلف: «بأن لم يتشرَّ ذَكَرُ كُلِّ»، ما هو العلامة؟ ليس العلامة ألا يتشرَّ ذكره، بل العلامة ألا يُعْرِفَ مِنْهُ مِيلَ إِلَى النِّسَاءِ؛ لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَمِيلُ إِلَى النِّسَاءِ وَإِنْ كَانَ ذَكَرُهُ لَا يَتَشَرَّ ... فالعلامة ألا يوجد منه ميل إلى النساء إطلاقاً لا عند قيام ذكره ولا عند عدم قيامه. لذلك الصحيح في هذه المسألة أننا نعلم عدم حاجته بعدم ميله إلى النساء. [ابن عثيمين تفسير النور (ص: ١٨٠)]. عن أم سلمة؛ أن مخثاً كان عندها ورسول الله ﷺ في البيت. فقال لأخي أم سلمة: يا عبد الله بن أبي أمية، إن فتح الله عليكم الطائف غداً، فإني أدلك على بنت غيلان، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان. قال فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «لَا يَدْخُلُ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ». أخرجه البخاري (٤٣٢٤)، ومسلم (٢١٨٠).

(٣) والراجح أنهم يبدين فقط: موضع الزينة وهو الوجه واليد والذراع، على ما سبق ذكره من قول الجصاص، وهو الذي رجحه بعض الصحابة.

(٤) أي: لا تضرب المرأة برجلها إذا مشت ليسمع صوت خلخالها من يسمعه من الرجال فيعلمون أنها ذات خلخال، فإن ذلك مما يورث الرجال ميلاً إليهن، ويوهم أن لهن ميلاً إلى الرجال وهذا سد لباب المحرمات وتعليم للأحوط وإلا فصوت النساء ليس بعورة عند الشافعي، فضلاً عن صوت خلخالهن، وقال الزجاج: وسماع هذه الزينة أشد تحريكاً للشهوة من إبدائها، قال ابن عباس في الآية: وهو أن تقرع الخلخال بالآخر عند الرجال أو تكون في رجلها خلخال، فتحركهن عند الرجال، فنهى الله عن ذلك، لأنه من عمل الشيطان. وسماع صوت الزينة كإظهارها ومنه سمي صوت الحلى وسواساً فنبه به على أن الذي لأجله نهى عنه به ما عليهن من الحلي وغيره. وفي القرطبي: من فعل ذلك منهن فرحاً بحليهن فهو مكروه، ومن فعل ذلك منهن تبرجاً وتعرضاً للرجال فهو حرام مذموم. [صديق حسن (٩/ ٢١١)].

لَهَا زَوْجٌ بَكَرًا كَانَتْ أَوْ ثِيْبًا، وَمَنْ لَيْسَ لَهُ زَوْجٌ، وَهَذَا فِي الْأَحْرَارِ وَالْحَرَائِرِ ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ﴿مِنْ عِبَادِكُمْ
وَأَمَّا بَيْكُمُ﴾ وَعِبَادٌ مِنْ جُمُوعِ «عَبْدٍ» ﴿إِنْ يَكُونُوا﴾ أَي: الْأَحْرَارُ ﴿فُقَرَاءُ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ﴾ بِالتَّزْوِجِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَاللَّهُ
وَاسِعٌ ﴿لِخَلْقِهِ﴾ ﴿عَلِيمٌ ۝٣٢﴾ بِهِمْ. ﴿وَلَيْسَتَغْفِفَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ مَا يَنْكِحُونَ بِهِ مِنْ مَهْرٍ وَنَفَقَةٍ، عَنِ الزَّوْنِ
﴿حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ﴾ يُوسِّعَ عَلَيْهِمْ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ فَيَنْكِحُونَ ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ﴾ بِمَعْنَى الْمَكَاتِبَةِ ﴿مِمَّا
مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أَي: أَمَانَةً وَقُدْرَةً عَلَى الْكَسْبِ لِأَدَاءِ مَالِ
الْكِتَابَةِ، وَصِيغَتُهَا مَثَلًا: «كَاتِبْتُكَ عَلَى الْفَيْنِ فِي شَهْرَيْنِ، كُلُّ شَهْرٍ أَلْفٌ فَإِذَا أَذَيْتَهَا فَانْتَ حُرٌّ، فَيَقُولُ: قَبِلْتُ»
﴿وَأَتَوْهُمْ﴾ أَمْرٌ لِلسَّادَةِ ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ﴾ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي أَدَاءِ مَا التَّزَمُوهُ لَكُمْ، وَفِي مَعْنَى الْإِيْتَاءِ
حَطُّ شَيْءٍ مِمَّا التَّزَمُوهُ ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ﴾ أَي: إِمَاءَكُمْ ﴿عَلَى الْبِغَاءِ﴾ الزَّوْنِ ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ تَعَفُّفًا عَنْهُ،
وَهَذِهِ الْإِرَادَةُ مَحَلُّ الْإِكْرَاهِ فَلَا مَفْهُومَ لِلشَّرْطِ ١١ ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ بِالْإِكْرَاهِ ﴿عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
أَبِي كَانَ يُكْرَهُ جَوَارِيَهُ عَلَى الْكَسْبِ بِالزَّوْنِ ١٢ ﴿وَمَنْ يُكْرِهْنَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِنَّ غَفُورٌ﴾ لَهُنَّ ﴿رَحِيمٌ
۝٣٣﴾ بِهِنَّ. ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ بَفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَيْنَ فِيهَا مَا ذُكِرَ أَوْ بَيَّنَّتُهُ
﴿وَمَثَلًا﴾ خَبْرًا عَجَبِيًّا وَهُوَ خَبْرُ عَائِشَةَ ﴿مَنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أَي: مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِمْ، أَي: أَخْبَارِهِمْ
الْعَجَبِيَّةِ كَخَبْرِ يُوسُفَ وَمَرْيَمَ ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٤﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾،
﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ﴾ إِلَى آخِرِهِ، ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ

(١) لَأَن الْإِكْرَاهَ لَا يَتَصَوَّرُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ إِرَادَتِهِنَّ لِلتَّحَصُّنِ، فَإِنْ مِنْ لَمْ تَرُدَّ التَّحَصُّنَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَقَالَ لَهَا مَكْرَهَةٌ عَلَى الزَّوْنِ، وَالْمَرَادُ
بِالتَّحَصُّنِ هُنَا التَّعَفُّفُ وَالتَّزْوِجُ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْقَيْدَ رَاجِعٌ إِلَى الْإِيْمَانِ. قَالَ الزَّجَاجُ، وَالحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ: فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ، وَتَأْخِيرٌ، أَي:
«وَأَنْكِحُوا الْإِيْمَانِ مِنْكُمْ، وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ، إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا». وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الشَّرْطَ مَلْغَى، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الشَّرْطَ بِاعْتِبَارِ مَا
عَلَيْهِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَهُنَّ، وَهَنْ يَرُدْنَ التَّعَفُّفَ، وَلَيْسَ لِتَخْصِيصِ النَّهْيِ بِصُورَةِ إِرَادَتِهِنَّ التَّعَفُّفَ عَنِ الزَّوْنِ، وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الشَّرْطَ خَرَجَ
مَخْرَجَ الْغَالِبِ لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنَّ الْإِكْرَاهَ لَا يَكُونُ إِلَّا عِنْدَ إِرَادَةِ التَّحَصُّنِ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْهُ جَوَازُ الْإِكْرَاهِ عِنْدَ عَدَمِ إِرَادَةِ التَّحَصُّنِ، وَهَذَا الْوَجْهُ أَقْوَى
هَذِهِ الْوُجُوهِ. فَإِنَّ الْأُمَّةَ قَدْ تَكُونُ غَيْرَ مُرِيدَةٍ لِلْحَلَالِ، وَلَا لِلْحَرَامِ، كَمَا فِيمَنْ لَا رَغْبَةَ لَهَا فِي النِّكَاحِ، وَالصَّغِيرَةِ، فَتُوصَفُ بِأَنَّهَا مَكْرَهَةٌ عَلَى
الزَّوْنِ مَعَ عَدَمِ إِرَادَتِهَا لِلتَّحَصُّنِ، فَلَا يَتِمُّ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ الْإِكْرَاهَ إِلَّا عِنْدَ إِرَادَةِ التَّحَصُّنِ إِلَّا أَنْ يَقَالَ إِنَّ الْمَرَادَ بِالتَّحَصُّنِ هُنَا مُجَرَّدُ
التَّعَفُّفِ. [صَدِيقُ حَسَنِ (٢١٩/٩)].

(٢) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ جَارِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَنِ سُلُولٍ يَقَالُ لَهَا مَسِيكَةٌ، وَأُخْرَى يَقَالُ لَهَا أَمِيمَةٌ، فَكَانَ يَكْرَهُهُمَا عَلَى الزَّوْنِ، فَشَكَا ذَلِكَ
إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣٠٢٩).

تَعُودُوا إِلَى آخِرِهِ، وَتَخْصِيصُهَا بِالْمُتَّقِينَ لِأَنَّهُمُ الْمُتَّقُونَ بِهَا. ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: مُنُورُهُمَا بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ^(١) ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أَي: صِفَتُهُ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ ﴿كَمِشْكُوتٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ هِيَ: الْقَنْدِيلُ، وَالْمِصْبَاحُ: السَّرَاجُ، أَي: الْفَتِيلَةُ الْمَوْقُودَةُ، وَالْمِشْكَاةُ: الطَّاقَةُ غَيْرُ النَّافِذَةِ، أَي: الْأَنْبُوبَةُ فِي الْقَنْدِيلِ ﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا﴾ وَالنُّورُ فِيهَا ﴿كَوَكَبٍ دَرِيٍّ﴾ أَي: مُضِيءٌ بِكَسْرِ الدَّالِ وَضَمِّهَا، مِنْ «الدَّرءِ» بِمَعْنَى: الدَّفْعِ، لِدَفْعِهَا الظَّلَامَ، وَبِضَمِّهَا وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ مَنْسُوبٌ إِلَى «الدَّرءِ» اللَّوْلُؤُ ﴿تَوَقَّدَ﴾ الْمِصْبَاحُ بِالْمَاضِي، وَفِي قِرَاءَةٍ بِمُضَارَعِ «أَوْقَدَ» مَبْنِيًا لِلْمَفْعُولِ بِالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِي أُخْرَى ﴿تَوَقَّدَ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ، أَي: الزُّجَاجَةُ ﴿مِنْ﴾ زَيْتٍ ﴿شَجَرَةٍ مَبْرُكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ بَلْ بَيْنَهُمَا فَلَا يَتِمَكَّنُ مِنْهَا حَرٌّ وَلَا بَرْدٌ مُضِرَّانِ ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيُّءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لِصَفَائِهِ ﴿نُّورٌ﴾ بِهِ ﴿عَلَى نُورٍ﴾ بِالنَّارِ، وَنُورُ اللَّهِ، أَي: هُدَاهُ لِلْمُؤْمِنِ نُورٌ عَلَى نُورِ الْإِيمَانِ^(٢) ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ﴾ أَي: دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبْ﴾ يُبَيِّنُ ﴿اللَّهُ الْأَمْثَلُ لِلنَّاسِ﴾ تَقْرِيْبًا لِأَفْهَامِهِمْ لِيَعْتَبِرُوا فَيُؤْمِنُوا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٥﴾ وَمِنْهُ ضَرْبُ الْأَمْثَالِ. ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿يُسَبِّحُ﴾ الْآتِي ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ تُعْظَمَ ﴿وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِفَتْحِ الْمَوْحَدَةِ وَكَسْرِهَا، أَي: يُصَلِّي ﴿لَهُ﴾ فِيهَا بِالْعُدُوِّ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى «الْعُدَوَاتِ» أَي: الْبُكْرِ ﴿وَالْأَصَالِ ۝٣٦﴾ الْعَشَايَا مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ. ﴿رِجَالٌ﴾ فَاعِلٌ ﴿يُسَبِّحُ﴾ بِكَسْرِ الْبَاءِ، وَعَلَى فَتْحِهَا نَائِبُ الْفَاعِلِ ﴿لَهُ﴾، وَرِجَالٌ فَاعِلٌ فِعْلٌ مُقَدَّرٌ جَوَابُ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَنْ يُسَبِّحُهُ؟ ﴿لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجْرَةً﴾ شِرَاءُ

(١) قال السدي في قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فبنوره أضاءت السماوات والأرض. وفي الحديث الذي رواه محمد بن إسحاق في السيرة، عن رسول الله ﷺ أنه قال في دعائه يوم آذاه أهل الطائف: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظلماتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحُلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ». أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية (١/ ٤٢٠). وفي الصحيحين، عن ابن عباس رضيهما: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قِيَمُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ». أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩). وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه». [ابن كثير (٥٨/٦)].

(٢) وجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، فطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره. [السعدي (ص: ٥٦٨)].

﴿وَلَا يَبْعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ حَذْفُ هَاءٍ﴾ «إِقَامَةٌ» تَخْفِيفٌ ﴿وَإِتْيَاءِ الرِّكَوَةِ﴾ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ ﴿تَضْطَرُّبُ﴾ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٢٧﴾ مِنَ الْخَوْفِ، الْقُلُوبُ بَيْنَ النَّجَاةِ وَالْهَلَاكِ، وَالْأَبْصَارُ بَيْنَ نَاحِيَتَيِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ أَي: ثَوَابُهُ، وَ ﴿أَحْسَنَ﴾ بِمَعْنَى: حَسَنٍ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ يُقَالُ فَلَانٌ يُنْفِقُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَي: يُوسِّعُ كَأَنَّهُ لَا يَحْسَبُ مَا يُنْفِقُهُ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ جَمْعُ «قَاعٍ»، أَي: فِي فَلَاةٍ، وَهُوَ شِعَاعٌ يَرَى فِيهَا نِصْفُ النَّهَارِ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ شِبْهُ الْمَاءِ الْجَارِي ﴿يَحْسَبُهُ﴾ يَظُنُّهُ ﴿الظَّمْثَانُ﴾ أَي: الْعَطْشَانُ ﴿مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ مِمَّا حَسِبَهُ، كَذَلِكَ الْكَافِرُ يَحْسَبُ أَنَّ عَمَلَهُ كَصَدَقَةٍ يَنْفَعُهُ، حَتَّى إِذَا مَاتَ وَقَدِمَ عَلَى رَبِّهِ لَمْ يَجِدْ عَمَلَهُ، أَي: لَمْ يَنْفَعْهُ ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أَي: عِنْدَ عَمَلِهِ ﴿فَوَقَّاهُ حِسَابَهُ﴾ أَي: جَازَاهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٩﴾ أَي: الْمَجَازَاةُ. ﴿أَوِ﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمُ السَّيِّئَةُ ﴿كَظَلُمْتُ فِي بَحْرِ لُبِّي﴾ عَمِيقٌ ﴿يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ﴾ أَي: الْمَوْجُ ﴿مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ﴾ أَي: الْمَوْجُ الثَّانِي ﴿سَحَابٌ﴾ أَي: غَيْمٌ. هَذِهِ ﴿ظَلُمْتُ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظَلَمَةُ الْبَحْرِ، وَظَلَمَةُ الْمَوْجِ الْأَوَّلِ، وَظَلَمَةُ الثَّانِي، وَظَلَمَةُ السَّحَابِ، ﴿إِذَا أَخْرَجَ﴾ النَّاطِرُ ﴿يَدَهُ﴾ فِي هَذِهِ الظُّلُمَاتِ ﴿لَمْ يَكُذِّ يَرِلْهَا﴾ أَي: لَمْ يَقْرُبْ مِنْ رُؤْيَيْهَا ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ ﴿٣٠﴾ أَي: مَنْ لَمْ يَهْدِهِ اللَّهُ لَمْ يَهْتَدِ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وَمِنَ السَّيِّحِ صَلَاةُ ﴿وَالطَّيْرِ﴾ جَمْعُ طَائِرٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿صَفَّتْ﴾ حَالٌ بِاسِطَاتٍ أَجْنَحَتْهُنَّ ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ﴾ اللَّهُ ﴿صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾ فِيهِ تَغْلِيْبُ الْعَاقِلِ. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَزَائِنُ الْمَطَرِ وَالرِّزْقِ وَالنَّبَاتِ ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٣٢﴾ الْمَرْجِعُ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْجِي سَحَابًا﴾ يُسَوِّفُهُ بِرَفْقٍ ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ يَضُمُّ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ، فَيَجْعَلُ الْقِطْعَ الْمُتَفَرِّقَةَ قِطْعَةً وَاحِدَةً ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ الْمَطَرُ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ مَخَارِجُهُ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رَائِدَةٍ﴾ جِبَالٍ فِيهَا ﴿فِي السَّمَاءِ بَدَلٌ بِإِعَادَةِ الْجَارِ﴾ ﴿مِنْ بَرْدٍ﴾ أَي: بَعْضُهُ ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ يَقْرُبُ ﴿سَنَا بَرْقِهِ﴾ لَمَعَانُهُ ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ ﴿٣٣﴾ النَّاطِرَةُ لَهُ، أَي: يَخْطِفُهَا. ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أَي: يَأْتِي بِكُلِّ مِنْهُمَا بَدَلٌ الْآخِرِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ التَّقْلِيْبِ ﴿لَعِبْرَةً﴾ دَلَالَةً ﴿لِلأُولَى الْأَبْصَرِ﴾ ﴿٣٤﴾ لِأَصْحَابِ الْبَصَائِرِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ﴾ أَي: حَيَوَانٍ ﴿مِّنْ مَّاءٍ﴾ أَي: نُطْفَةٍ ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ كَالْحَيَّاتِ وَالْهَوَامِّ ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ﴾ كَالْإِنْسَانِ وَالطَّيْرِ

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ۖ كَالْهَآئِمِّ وَالْأَنْعَامِ﴾ ^(١) ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٢) لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ۖ أَيُّ: بَيِّنَاتٍ هِيَ الْقُرْآنُ ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ طَرِيقٍ﴾ ^(٣) مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ أَيُّ: دِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أَيُّ: الْمَنَافِقُونَ ﴿ءَاْمَنَّا﴾ صَدَقْنَا ﴿بِاللَّهِ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿وَبِالرَّسُولِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿وَأَطَعْنَا﴾ هُمَا فِيمَا حَكَمَا بِهِ ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ يُعْرِضُ ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ عَنْهُ ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ﴾ الْمَعْرِضُونَ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٤٧) ﴿الْمَعْهُودِينَ الْمُوَافِقِ قُلُوبُهُمْ لَا لَسْتِهِمْ. وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الْمُبَلَّغِ عَنْهُ ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ^(٤٨) ﴿عَنِ الْمَجِيءِ إِلَيْهِ. وَإِنْ يَكُن لَّهُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ^(٤٩) مُسْرِعِينَ طَائِعِينَ. ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ كُفْرٌ ﴿أَمْ أَرْتَابُوا﴾ أَيُّ: شَكُّوا فِي بُرْهَانِهِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ فِي الْحُكْمِ، أَيُّ: يُظْلَمُوا فِيهِ، لَا ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ^(٥٠) بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: الْقَوْلُ اللَّائِقُ بِهِمْ ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ بِالْإِجَابَةِ ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٥١) النَّاجُونَ. ﴿وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ﴾ يَخَافُهُ ﴿وَيَتَّقَهُ﴾ بِسُكُونِ الْهَاءِ وَكَسْرِهَا، بِأَن يُطِيعَهُ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ^(٥٢) بِالْجَنَّةِ. ﴿وَاقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ﴾ غَايَتَهَا ﴿لَبِنُ أَمْرَتِهِمْ﴾ بِالْجِهَادِ ﴿لِيَخْرُجَنَّ قُلٌ﴾ لَهُمْ: ﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَّعْرُوفَةً﴾ لِلنَّبِيِّ خَيْرٌ مِّن قَسَمِكُمْ الَّذِي لَا تَصْدُقُونَ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ^(٥٣) مِّن طَاعَتِكُمْ بِالْقَوْلِ، وَمُخَالَفَتِكُمْ بِالْفِعْلِ. ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عَنْ طَاعَتِهِ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ، خِطَابٌ لَهُمْ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِّنَ التَّبْلِغِ ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ مِّن طَاعَتِهِ ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ^(٥٤) أَيُّ: التَّبْلِغُ السَّيْنُ. ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ بَدَلًا عَنِ الْكُفَّارِ ﴿كَمَّا أَسْتَخْلَفَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَالْمَفْعُولِ ﴿الَّذِينَ مِّن قَبْلِهِمْ﴾ مِّن بَنِي إِسْرَآئِيلَ، بَدَلًا عَنِ الْجَبَابِرَةِ ﴿وَلَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ وَهُوَ الْإِسْلَامُ بِأَن يُظْهِرَهُ عَلَىٰ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَيُوسِّعَ لَهُمْ فِي الْبِلَادِ فَيَمْلِكُوهَا ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِّن بَعْدِ

(١) ولم يتعرض سبحانه لما يمشي على أكثر من أربع لقلته. وقيل: لأن المشي على أربع فقط، وإن كانت القوائم كثيرة، وقيل: ليس في القرآن ما يدل على عدم المشي على أكثر من أربع لأنه لم ينف ذلك، ولا جاء بما يقتضي الحصر، وفي مصحف أبي: «ومنهم من يمشي على أكثر»، فعم بهذه الزيادة جميع ما يمشي على أكثر من أربع، كالسرطان، والعنكب، والحيوان المعروف بأربع وأربعين، وكثير من خشاش الأرض كالعقارب. وقيل: إنما لم يتعرض لهذا القسم لدخوله في قوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أَيُّ: مما ذكر هنا، ومما لم يذكره.

خَوْفِهِمْ ﴿مِنَ الْكُفَّارِ﴾ (أَمَّا) وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ لَهُمْ بِمَا ذُكِرَ، وَأَتْنَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ هُوَ مُسْتَأْنَفٌ فِي حُكْمِ التَّغْلِيلِ ﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الْإِنْعَامِ مِنْهُمْ بِهِ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وَأَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهِ قَتْلَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَصَارُوا يَقْتُلُونَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا إِخْوَانًا^(١). ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أَي: رَجَاءَ الرَّحْمَةِ. ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْفَاعِلُ الرَّسُولُ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ﴾ لَنَا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ بِأَنْ يَفُوتُونَا ﴿وَمَا وَهُمْ﴾ مَرْجِعُهُمْ ﴿النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ الْمَرْجِعُ هِيَ. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيْسَتْ ذُنُوبُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ مِنَ الْعَبِيدِ وَالْإِمَاءِ ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ مِنَ الْأَحْرَارِ وَعَرَفُوا أَمْرَ النِّسَاءِ ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ فِي ثَلَاثَةِ أَوْقَاتٍ ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ أَي: وَقْتَ الظُّهْرِ ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ بِالرَّفْعِ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ بَعْدَهُ مُضَافٌ وَقَامَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، أَي: هِيَ أَوْقَاتٌ، وَبِالنَّصْبِ بِتَقْدِيرِ «أَوْقَاتٍ» مَنْصُوبًا بَدَلًا مِنْ مَحَلِّ مَا قَبْلَهُ قَامَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَهِيَ لِإِلْقَاءِ الثِّيَابِ تَبْدُو فِيهَا الْعَوْرَاتُ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الْمَمَالِكُ وَالصَّبِيَّانُ ﴿جُنَاحٌ﴾ فِي الدُّخُولِ عَلَيْكُمْ بِغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ أَي: بَعْدَ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ، هُمْ ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿بَعْضُكُمْ﴾ طَائِفٌ ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ وَالْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بَيَّنَّ مَا ذُكِرَ ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَي: الْأَحْكَامَ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِأُمُورِ خَلْقِهِ ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ بِمَا دَبَّرَهُ لَهُمْ، وَآيَةُ الْاسْتِئْذَانِ، قِيلَ: مَنْسُوخَةٌ، وَقِيلَ: لَا، وَلَكِنْ تَهَاوَنَ النَّاسُ فِي تَرْكِ الْاسْتِئْذَانِ^(٢). ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ﴾ أَيُّهَا الْأَحْرَارُ ﴿الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ ﴿كَمَا أَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: الْأَحْرَارُ الْكِبَارُ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ

(١) عن أبي العالية قال: الكفر بهذه النعمة ليس الكفر بالله، ولذلك قال الفاسقون ولم يقل الكافرون. قال أهل التفسير: أول من كفر بهذه النعمة، وجحد حقها الذين قتلوا عثمان فلما قتلوه غير الله ما بهم من الأمن وأدخل عليهم الخوف حتى صاروا يقتلون بعد أن كانوا إخوانًا والقصة معروفة. [صديق حسن (٢٥٧/٩)].

(٢) وهذه الآية محكمة، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: تركها الناس، وكذلك ترك الناس قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأبى الناس إلا أن الأكرم هو الأنسب... وهذه العبارة بترك الناس إغلاظ وزجر، إذ لم تلتزم حق الالتزام، وإلا فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماء المكتوب في تواليفهم، أعني أن الكرم التقوى، وأما أمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحجب أغنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حد آخر، وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: كان العمل بهذه الآية واجبا إذ كانوا لا غلق ولا أبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب. [ابن عطية (٤/١٩٣)].

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴿قَعَدْنَ عَنِ الْحَيْضِ وَالْوَلَدِ لِكِبَرِهِنَّ﴾ ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ لَذَلِكَ ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ مِنَ الْجِلْبَابِ وَالرِّدَاءِ وَالْقِنَاعِ فَوْقَ الْخِمَارِ ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ﴾ مُظْهِرَاتِ ﴿بِزِينَةٍ﴾ خَفِيفَةٍ كَقِلَادَةٍ وَسَوَارٍ وَخَلْخَالٍ ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ﴾ بِأَنْ لَا يَضَعْنَهَا ﴿خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ^(١). ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فِي مُؤَاكَلَةِ مُقَابِلِهِمْ ﴿وَلَا﴾ حَرَجٌ ﴿عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ بُيُوتِ أَوْلَادِكُمْ ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أَي: خَزَنَتُمُوهُ لِغَيْرِكُمْ^(٢) ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وَهُوَ: مَنْ صَدَقَكُمْ فِي مَوَدَّتِهِ، الْمَعْنَى: يَجُوزُ الْأَكْلُ مِنْ بُيُوتِ مَنْ ذَكَرَ وَإِنْ لَمْ يَحْضُرُوا، إِذَا عَلِمَ رِضَاهُمْ بِهِ ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿أَوْ أَشْتَاتًا﴾ مُتَفَرِّقِينَ جَمْعُ «شَتَّ»، نَزَلَ فِيمَنْ تَحَرَّجَ أَنْ يَأْكُلَ وَحْدَهُ، وَإِذَا لَمْ يَجِدْ مَنْ يُؤَاكَلُهُ يَتَرَكُ الْأَكْلَ^(٣) ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ لَكُمْ، لَا أَهْلَ فِيهَا ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أَي: قُولُوا: «السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ»، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَرُدُّ عَلَيْكُمْ^(٤)، وَإِنْ كَانَ بِهَا أَهْلٌ فَسَلِّمُوا عَلَيْهِمْ ﴿تَحِيَّةً﴾ مَصْدَرُ: «حَيًّا» ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ يَثَابُ عَلَيْهَا ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أَي: يُفَصِّلُ لَكُمْ مَعَالِمَ دِينِكُمْ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ لِكَيْ تَفْهَمُوا ذَلِكَ^(٥). ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ﴾ أَي: الرَّسُولِ

(١) أي: والتي قعدت عن الحيض والولادة لكبر سنهن بحيث أصبحت لا ترجو نكاحاً ولا يرجو منها ذلك فهذه ليس عليها إثم ولا حرج في أن تضع خمارها من فوق رأسها، أو عباءتها من فوق ثيابها التي على جسمها حال كونها غير متبرجة، أي: مظهرة زينة لها كخضاب الديدن والأساور في المعصمين والخالخل في الرجلين، أو أحمر الشفتين، وما إلى ذلك مما هو زينة يجب ستره وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ أي: ومن لازمت خمارها وعجارها ولم تظهر للأجانب كاشفة وجهها ومحاسنها خير لها حالاً ومالاً، وحسبها ان يختار الله لها فما اختاره لها لن يكون إلا خيراً في الدنيا والآخرة فعلى المؤمنات أن يخترن ما اختار الله لهن. [أبو بكر الجزائري (٣/٥٨٩)].

(٢) أي: البيوت التي تملكون التصرف فيها. بإذن أربابها وذلك كالوكلاء، والخزان فيهم فإنهم يملكون التصرف في بيوت من أذن لهم بدخول بيته وإعطائهم مفتاحه، وقيل: المراد بها بيوت المماليك. [الشوكاني (٤/٦٢)].

(٣) وهذا نفى للحرص، لا نفى للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام. [السعدي (ص: ٥٧٥)].

(٤) عن قتادة قال: إذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد، فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فإن الملائكة ترد عليك. أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٨٤٥٥).

(٥) لتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل

﴿عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ كَخُطْبَةِ الْجُمُعَةِ ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ لِعُرُوضِ عُذْرِ لَهُمْ ﴿حَتَّىٰ يَسْتَذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ أَمْرِهِمْ ﴿فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ بِالْإِنْصِرَافِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٦٢ ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ بَأَن تَقُولُوا: «يَا مُحَمَّدٌ»، بَلْ قُولُوا: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ» فِي لَيْنٍ وَتَوَاضُعٍ وَخَفَضِ صَوْتٍ ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا﴾ أَي: يَخْرُجُونَ مِنَ الْمَسْجِدِ فِي الْخُطْبَةِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ خُفِيَةٍ مُسْتَرِينَ بِشَيْءٍ، وَ﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أَي: اللَّهُ أَوْ رَسُولُهُ ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ بَلَاءٌ ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٦٣ ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾. ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ﴾ أَيَّهَا الْمُكَلَّفُونَ ﴿عَلَيْهِ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ ﴿و﴾ يَعْلَمُ ﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فِيهِ الْفِتَنَاتُ عَنِ الْخِطَابِ، أَي: مَتَى يَكُونُ ﴿فَيَنْبِئُهُمْ﴾ فِيهِ ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَغَيْرِهَا ﴿عَلِيمٌ﴾ ٦٤.

المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك. وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: أن «العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ» فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه. [السعدي (ص: ٥٧٥)].

(١) أي: عن أمر رسول الله ﷺ، سبيله هو ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا ما كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَهُوَ رَدٌّ». أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨). أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنا أو ظاهرا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا، جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ اللَّاتِي يَقَعْنَ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجِزُهُنَّ وَيَغْلِبُهُنَّ وَيَتَحَمَّنَ فِيهَا». قال: «فَذَلِكَ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا أَخَذْتُ بِحُجْرَتِكُمْ عَنِ النَّارِ هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي وَتَقْتَحِمُونَ فِيهَا». أخرجه مسلم (٢٢٨٤). [ابن كثير (٩٠ / ٦)]. وهذه الآية الكريمة قد استدلت بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو العذاب الأليم، وحذرهم من مخالفة الأمر، وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، ما لم يصرف عنه صارف؛ لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير. [الشنقيطي (٢٨١ / ٦)].

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴿٢﴾ إِلَىٰ ﴿رَحِيمًا﴾ فَمَدَنِيٌّ، وَهِيَ سَبْعٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَالَى ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾ الْقُرْآنَ؛ لِأَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ﴾ أَيِ: الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ﴿نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ مُخَوِّفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْلَقَ ﴿فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ ﴿٢﴾ سَوَاءٌ تَسْوِيَةً. ﴿وَاتَّخِذُوا﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيِ: اللَّهِ، أَيِ: غَيْرِهِ ﴿ءَالِهَةً﴾ هِيَ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ أَيِ: دَفْعَهُ ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ أَيِ: جَرَّهُ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ أَيِ: إِمَاتَةً لِأَحَدٍ وَإِحْيَاءً لِأَحَدٍ ﴿وَلَا تُشُورًا﴾ ﴿٣﴾ أَيِ: بَعَثًا لِلْأَمْوَاتِ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا﴾ أَيِ: مَا الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿أُفْتَرِنَاهُ﴾ مُحَمَّدٌ ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ وَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ﴿٤﴾ كُفْرًا وَكَذِبًا، أَيِ: بِهِمَا. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيْضًا: هُوَ ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَكَاذِبُهُمْ جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ ﴿أَكْتَتَبَهَا﴾ انْتَسَخَهَا مِنْ ذَلِكَ الْقَوْمِ بغيره ﴿فَهِيَ تُمَلَّى﴾ تُقْرَأُ ﴿عَلَيْهِ﴾ لِيَحْفَظَهَا ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٥﴾ غُدُوَّةً وَعَشِيًّا. قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ الْعِيبِ﴾ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿٦﴾ بِهِمْ. ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ ﴿٧﴾ يُصَدِّقُهُ. ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ﴾ مِنَ السَّمَاءِ يُنْفِقُهُ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَشْيِ فِي الْأَسْوَاقِ لِطَلَبِ الْمَعَاشِ ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ بُسْتَانٌ ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ أَيِ: مِنْ ثَمَارِهَا فَيَكْتَفِي بِهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿نَأْكُلُ﴾ بِالنُّونِ أَيِ: نَحْنُ، فَيَكُونُ لَهُ مَزِيَّةٌ عَلَيْنَا بِهَا ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ أَيِ: الْكَافِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿إِنْ﴾ مَا

(١) لو احتجَّ المعتزلة والجهمية الذين يقولون: إنَّ القرآن مخلوق بهذه الآية، نُجيبهم بأحد وجهين: الوجه الأول أن يُقال: إنَّ هذا من باب العام المراد به الخاص؛ يعني كلَّ شيءٍ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُخْلَقَ، هذا وجه، وبهذا أجاب كثيرٌ من السلف، قال الله عن ريح عاد: ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، ومع ذلك هي لم تدمر السماء ولا الأرض ولا المساكن؛ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف ٢٥]. والبعض الآخر من العلماء يقول: الآية على عمومها، والقرآن غير داخلٍ إطلاقًا حتى نحتاج إلى إخراجها؛ لماذا؟ لأنَّه إذا كان خالقًا فالخالق غير المخلوق، والقرآن كلام الله، وكلام الله من صفاته، وصفات الخالق غير مخلوقة؛ لأنَّ الصفة تابعة للموصوف. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص: ٢٤)].

﴿تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝٨﴾ مَخْدُوعًا مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ﴾ بِالْمَسْحُورِ، وَالْمُحْتَاجِ إِلَى مَا يُنْفِقُهُ، وَإِلَى مَلِكٍ يَقُومُ مَعَهُ بِالْأَمْرِ ﴿فَضْلُوا﴾ بِذَلِكَ عَنِ الْهُدَى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾ طَرِيقًا إِلَيْهِ. ﴿تَبَارَكَ﴾ تَكَثَّرَ خَيْرٌ ﴿الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾ الَّذِي قَالُوهُ مِنَ الْكَثْرِ وَالْبُسْتَانِ ﴿جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يُعْطِيَهُ إِيَّاهَا فِي الْآخِرَةِ ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بِالْجَزْمِ ﴿لَكَ قُصُورًا ۝١٠﴾ أَيضًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ اسْتِنْفَافًا. ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ الْقِيَامَةِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ نَارًا مُسْتَعْرَةً، أَي: مُشْتَدَّةً. ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا﴾ غَلِيَانًا، كَالْغَضْبَانِ إِذَا عَلَى صَدْرِهِ مِنَ الْغَضَبِ ﴿وَزَفِيرًا ۝١٢﴾ صَوْتًا شَدِيدًا، وَسَمَاعُ التَّغِيْظِ: رُؤْيَتْهُ وَعِلْمُهُ^(١). ﴿وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ بَأَنْ يُضَيَّقَ عَلَيْهِمْ، وَ﴿مِنْهَا﴾ حَالٌ مِنْ ﴿مَكَانًا﴾ لِأَنَّهُ فِي الْأَصْلِ صِفَةٌ لَهُ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مُصَفِّدِينَ قَدْ قُرِنَتْ، أَي: جُمِعَتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ فِي الْأَغْلَالِ، وَالتَّشْدِيدُ لِلتَّكْثِيرِ ﴿دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝١٣﴾ هَلَاكًا. فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ۝١٤﴾ لِعَذَابِكُمْ. ﴿قُلْ أَذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ مِنَ الْوَعِيدِ وَصِفَةِ النَّارِ ﴿خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ﴾ هَا ﴿الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ﴾ فِي عِلْمِهِ تَعَالَى ﴿جَزَاءٌ﴾ ثَوَابًا ﴿وَمَصِيرًا ۝١٥﴾ مَرَجَعًا. ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ﴾ حَالٌ لَا زِمَّةٌ ﴿كَانَ﴾ وَعْدُهُمْ مَا ذَكَرَ ﴿عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ۝١٦﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ وُعدَ بِهِ: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، أَوْ تَسْأَلُهُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ [غافر: ٨]. ﴿وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ﴾ بِالنُّونِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَعِيسَى وَعَزِيرٍ وَالْجِنِّ ﴿فَيَقُولُ﴾ تَعَالَى بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَالنُّونِ، لِلْمَعْبُودِينَ إِثْبَاتًا لِلْحُجَّةِ عَلَى الْعَابِدِينَ:

(١) الفاعل هي السعير، وفيه دليل على أنها ترى، وهذه الرؤية يجب أن نحملها على المعنى الحقيقي. ولا يمكن أن نقول: إن هذا من باب الاستعارة، وإنه معنى مجازي؛ لأنه من الجائز أن يخلق الله تعالى فيها إدراك الرؤية، وإن كانت هي ليست من ذوات الرؤية في العادة، ولكن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، كما أن الأرض تسمع وتحدث ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]، وإنها تتغيظ وتسمع لتغيظها صوتٌ مثل تغيظ الإنسان الغضبان، إذا امتلأ صدره غضبًا فإنك تسمع له صوتًا من الغضب. وهذا دليل على شدة حَقِّهَا -والعياذ بالله- على أهلها، وأنها كما قال الله تعالى في سورة تبارك: ﴿إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ [الملك: ٧]، [المؤلف يقول: (وَسَمَاعُ التَّغِيْظِ: رُؤْيَتْهُ وَعِلْمُهُ) هذا ليس بصحيح وإن كان محتملاً، لكن المعنى الأولي أن تُحْمَلَ الرؤية على الحقيقة، هذا هو الواجب. وقد مرَّ علينا من قواعد التفسير، بل من قواعد كل كلام: أنه يجب أن يُحْمَلَ على ظاهره وعلى حقيقته ما لم يوجد دليل يصرف عن الحقيقة أو الظاهر. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص: ٦٢)].

﴿ءَأَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالَ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِه ﴿أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ أَوْعَتُمُوهُمْ فِي الضَّلَالِ بِأَمْرِكُمْ إِيَّاهُمْ بِعِبَادَتِكُمْ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝١٧﴾ طَرِيقَ الْحَقِّ بِأَنْفُسِهِمْ؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ تَزِيهًا لَكَ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِكَ ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي﴾ يَسْتَقِيمُ ﴿لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ﴾ أَيُّ: غَيْرِكَ ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ، وَمِنْ زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ وَمَا قَبْلَهُ الثَّانِي، فَكَيْفَ نَأْمُرُ بِعِبَادَتِنَا؟ ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَآبَاءَهُمْ﴾ مِنْ قَبْلِهِمْ بِإِطَالَةِ الْعُمُرِ وَسَعَةِ الرِّزْقِ ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ تَرَكُوا الْمَوْعِظَةَ وَالْإِيمَانَ بِالْقُرْآنِ ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝١٨﴾ هَلَكَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ﴾ أَيُّ: كَذَّبَ الْمَعْبُودُونَ الْعَابِدِينَ ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ أَنَّهُمْ إِلَهَةٌ ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَالْفَوْقَانِيَّةِ، أَيُّ: لَا هُمْ وَلَا أَنْتُمْ ﴿صَرَفًا﴾ دَفْعًا لِلْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ مِنْعًا لَكُمْ مِنْهُ ﴿وَمَنْ يَظْلِمْ﴾ يُشْرِكْ ﴿مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝١٩﴾ شَدِيدًا فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فَأَنْتَ مِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ قِيلَ لَهُمْ مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ بَلِيَّةٌ إِبْتِلَاءُ الْغَنِيِّ بِالْفَقِيرِ، وَالصَّحِيحِ بِالْمَرِيضِ، وَالشَّرِيفِ بِالْوَضِيعِ، يَقُولُ الثَّانِي فِي كُلِّ: مَا لِي لَا أَكُونُ كَالْأَوَّلِ فِي كُلِّ ۝٢٠ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلَى مَا تَسْمَعُونَ مِمَّنْ إِبْتَلَيْتُمْ بِهِمْ؟ اسْتَغْنَاهُمْ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَيُّ: اصْبِرُوا ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝٢١﴾ بِمَنْ يَصْبِرُ وَبِمَنْ يَجْرُعُ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ لَا يَخَافُونَ الْبَعْثَ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَيِكَةُ﴾ فَكَانُوا رُسُلًا إِلَيْنَا ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾ فَيُخْبِرُنَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا﴾ تَكَبَّرُوا ﴿فِي﴾ شَأْنِ ﴿أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا﴾ طَعَنُوا ﴿عُتَوْا كَبِيرًا ۝٢٢﴾ بِطَلَبِهِمْ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فِي الدُّنْيَا، وَ«عَتَوْا» بِالْوَاوِ عَلَى أَصْلِهِ، بِخِلَافِ «عُتِيَ» بِالِإِبْدَالِ فِي «مَرِيَمَ» ۝٢٣. ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَكَةَ﴾ فِي جُمْلَةِ الْخَلَائِقِ، هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَنَضْبُهُ بِ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أَيُّ: الْكَافِرِينَ، بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ الْبُشْرَى بِالْجَنَّةِ ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ۝٢٤﴾ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ شِدَّةٌ، أَيُّ: عَوْدًا مُعَاذًا يَسْتَعِيدُونَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَدِمْنَا﴾ عَمَدَنَا ﴿إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ مِنَ الْخَيْرِ، كَصَدَقَةٍ وَصِلَةٍ رَحِمٍ وَقَرَى ضَيْفٍ وَإِعَاثَةٍ مَلْهُوفٍ، فِي الدُّنْيَا ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ۝٢٥﴾ هُوَ مَا يُرَى فِي الْكُوَى الَّتِي عَلَيْهَا الشَّمْسُ كَالْغُبَارِ الْمَفْرَقِ،

(١) الرسول فتنة للمرسل إليهم واختبار للمطيعين من العاصين والرسول فتناهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، وهكذا

سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار. [السعدي (ص: ٥٨٠)].

(٢) في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨].

أَيُّ: مِثْلُهُ فِي عَدَمِ النَّفْعِ بِهِ، إِذْ لَا ثَوَابَ فِيهِ لِعَدَمِ شَرْطِهِ، وَيَجَازُونَ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا^(١). ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾^(٢) مِنْهُمْ، أَيُّ: مَوْضِعَ قَائِلَةٍ فِيهَا، وَهِيَ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفَ النَّهَارِ فِي الْحَرِّ، وَأُخِذَ مِنْ ذَلِكَ انْقِضَاءُ الْحِسَابِ فِي نِصْفِ نَهَارٍ كَمَا وَرَدَ فِي حَدِيثٍ^(٣). ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: كُلِّ سَمَاءٍ ﴿بِالْعَمِيمِ﴾ أَيُّ: مَعَهُ وَهُوَ غَيْمٌ أَيْضُ ﴿وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ﴾ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ ﴿تَنْزِيلًا﴾^(٤) هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَنُصِبَهُ بِـ «أَذْكَرَ» مُقَدَّرًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِشَدِيدِ شَيْنٍ ﴿تَشَقُّقُ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا، وَفِي أُخْرَى ﴿نُزِّلُ﴾ بِنُونِ الثَّانِيَةِ سَاكِنَةً وَضَمُّ اللَّامِ، وَنُصِبَ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾. ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِحَقِّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لَا يَشْرُكُهُ فِيهِ أَحَدٌ ﴿وَكَانَ﴾ الْيَوْمُ ﴿يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾^(٥) بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ الْمُشْرِكُ عِقْبَهُ﴾ بَنُ أَبِي مُعَيْطٍ كَانَ نَطَقَ بِالشَّهَادَتَيْنِ ثُمَّ رَجَعَ، إِرْضَاءً لِأَبِي بَنِي خَلْفٍ^(٦) ﴿عَلَى يَدَيْهِ﴾ نَدَمًا وَتَحَسُّرًا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿يَقُولُ يَ﴾ لِلتَّيْبَةِ ﴿لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿سَبِيلًا﴾^(٧) طَرِيقًا إِلَى الْهُدَى. ﴿يَوَيْلَ لِي﴾ أَلْفُهُ عَوْضٌ عَنْ يَأٍ الْإِصَافَةِ، أَيُّ: وَيَلَتِي، وَمَعْنَاهُ: هَلَكْتِي ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا﴾ أَيُّ: أَيْيًا ﴿حَلِيلًا﴾^(٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ أَيُّ: الْقُرْآنِ ﴿بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ بِأَنْ رَدَّنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ الْكَافِرَ﴾ خَذُولًا ﴿١٩﴾ بِأَنْ يَتْرُكُهُ وَيَتَّبِعَ مِنْهُ عِنْدَ الْبَلَاءِ. ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ مُحَمَّدٌ: ﴿يَرْبِّ إِنَّا قَوْمِي﴾ قُرَيْشًا ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^(٩) مَتْرُوكًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَعَلْنَا لَكَ عَدُوًّا مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ قَبْلَكَ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ لَكَ ﴿وَنَصِيرًا﴾^(١٠) نَاصِرًا لَكَ عَلَى أَعْدَائِكَ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ كَالْتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، قَالَ تَعَالَى: نَزَّلْنَاهُ ﴿كَذَلِكَ﴾ مُتَفَرِّقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ نُقْوَى قَلْبَكَ ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾^(١١) أَيُّ: أَتَيْنَا بِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ

(١) وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا، فتكون أبعد من القبول حيثئذ. [ابن كثير (١٠٣/٦)].

(٢) انظر التعليق على تفسير آية (٢٠٢) من سورة البقرة.

(٣) وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأتقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(١٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا^(١٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا^(١٨) [الأحزاب: ٦٦-٦٨] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم. [ابن كثير (١٠٨/٦)].

بِتَمَهْلٍ وَتَوَدَّةٍ، لِيَسِيرَ فَهَمِهِ وَحِفْظِهِ. ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ ﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الدَّافِعِ لَهُ ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ٣٣﴾ بَيَانًا. هُمْ ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أَيُّ: يُسَاقُونَ ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرُّ مَكَانًا﴾ هُوَ جَهَنَّمَ ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا ٣٤﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا مِنْ غَيْرِهِمْ، وَهُوَ كُفْرُهُمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ٣٥﴾ مُعِينًا. ﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أَيُّ: الْقَبْطِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، فَذَهَبَا إِلَيْهِمْ بِالرَّسَالَةِ فَكَذَّبُوهُمَا ﴿فَدَمَّرْنَاهُمْ نَدْمِيرًا ٣٦﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ إِهْلَاكًا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿قَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ نُوحًا لَطُولِ لُبِّهِ فِيهِمْ فَكَانَهُ رُسُلٌ، أَوْ لِأَنَّ تَكْذِيبَهُ تَكْذِيبٌ لِبَاقِي الرُّسُلِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمَجِيءِ بِالتَّوْحِيدِ ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ جَوَابُ ﴿لَمَّا﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ﴾ بَعْدَهُمْ ﴿ءَايَةً﴾ عِبْرَةً ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ٣٧﴾ مُؤْلَمًا، سِوَى مَا يَحِلُّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿عَادًا﴾ قَوْمَ هُودٍ ﴿وَتَمُودًا﴾ قَوْمَ صَالِحٍ ﴿وَأَصْحَابِ الرَّسِّ﴾ اسْمُ بئرٍ وَبَنِيهِمْ قِيلَ شُعَيْبٌ وَقِيلَ غَيْرُهُ، كَانُوا قُودًا حَوْلَهَا فَانْهَارَتْ بِهِمْ وَبِمَنَازِلِهِمْ ﴿وَقُرُونًا﴾ أَقْوَامًا ﴿بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ٣٨﴾ أَيُّ: بَيْنَ عَادٍ وَأَصْحَابِ الرَّسِّ. ﴿وَكُلًّا صَبَرْنَا لَهُ الْأَمَثِلَ﴾ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فَلَمْ نُهْلِكْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْإِنذَارِ ﴿وَكُلًّا تَبَرْنَا تَنْبِيرًا ٣٩﴾ أَهْلَكْنَا إِهْلَاكًا بِتَكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ أَيُّ: مَرَّ كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمِطِرَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ﴾ مَصْدَرُ سَاءٍ، أَيُّ: بِالْحِجَارَةِ، وَهِيَ: عُظْمَى قُرَى قَوْمٍ لُوطٍ فَأَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَهَا لِفِعْلِهِمُ الْفَاحِشَةَ ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى الشَّامِ فَيَعْتَبِرُوا، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ يَخَافُونَ ﴿نُشُورًا ٤٠﴾ بَعَثًا فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن﴾ مَا ﴿يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ مَهْزُوءًا بِهِ، يَقُولُونَ: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ فِي دَعْوَاهُ، مُحْتَقِرِينَ لَهُ عَنِ الرَّسَالَةِ. ﴿إِن﴾ مُحْخَفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: إِنَّهُ ﴿كَاذِبٌ لِّضَلَّتْنَا﴾ يَصْرِفُنَا ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لَصَرَفْنَا عَنْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ عِيَانًا فِي الْآخِرَةِ ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٢﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا، أَهْمُ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ. ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أَخْبِرْنِي ﴿مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ أَيُّ: مَهْوِيَهُ، قُدِّمَ الْمَفْعُولُ الثَّانِي؛ لِأَنَّهُ أَهْمُ، وَجُمْلَةُ ﴿مَنْ اتَّخَذَ﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلٌ لـ ﴿رَأَيْتَ﴾، وَالثَّانِي ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ حَافِظًا تَحْفَظُهُ عَنْ اتِّبَاعِ هَوَاهُ؟ لَا. ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سَمَاعَ تَقْهَمِ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ مَا تَقُولُ لَهُمْ ﴿إِن﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ أَخْطَأُ طَرِيقًا مِنْهَا؛ لِأَنَّهُ تَنْقَادُ لِمَنْ يَتَعَهَّدُهَا، وَهُمْ لَا يُطِيعُونَ مَوْلَاهُمْ الْمُنْعِمَ عَلَيْهِمْ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرُ ﴿إِلَى﴾ فِعْلٍ ﴿رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ مِنْ وَقْتِ الْإِسْفَارِ إِلَى وَقْتِ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مُقِيمًا لَا يَزُولُ بِطُلُوعِ الشَّمْسِ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: الظِّلَّ ﴿دَلِيلًا ٤٥﴾ فَلَوْلَا الشَّمْسُ مَا عُرِفَ

الظِّل ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ﴾ أَي: الظِّلَّ الْمَمْدُودَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ ﴿٤٦﴾ خَفِيًّا بِطُلُوعِ الشَّمْسِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِبَاسًا﴾ سَاتِرًا كَاللَّبَاسِ ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ رَاحَةً لِلْأَبْدَانِ بِقَطْعِ الْأَعْمَالِ ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ ﴿٤٧﴾ مَنْشُورًا فِيهِ لَا يَبْتَغَاءُ الرِّزْقَ وَغَيْرِهِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الرَّيْحَ﴾ ﴿نُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ مُتَفَرِّقَةً قَدَامَ الْمَطَرِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الشَّيْنِ تَخْفِيفًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَفَتْحِ النُّونِ مَصْدَرًا، وَفِي أُخْرَى بِسُكُونِهَا وَضَمِّ الْمُوحِدَةِ بَدَلِ النُّونِ، أَي: مُبَشِّرَاتٍ، وَمُفْرَدُ الْأُولَى «نُشُورٌ» كَ «رَسُولٌ» وَالْأَخِيرَةُ «بَشِيرٌ» ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ ﴿٤٨﴾ مُطَهَّرًا. ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيِّتًا﴾ بِالتَّخْفِيفِ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكُورُ وَالْمُؤَنَّثُ، ذَكَرَهُ بِاعْتِبَارِ الْمَكَانِ ﴿وَنُسْقِيهِهُ﴾ أَي: الْمَاءَ ﴿مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا﴾ إِبِلًا وَبَقَرًا وَغَنَمًا ﴿وَأَنَاسِيَ كَثِيرًا﴾ ﴿٤٩﴾ جَمْعُ إِنْسَانٍ، وَأَصْلُهُ «أَنَاسِينُ» فَأَبْدَلَتِ النُّونُ يَاءً وَأُدْغِمَتْ فِيهَا أَلْيَاءُ، أَوْ جَمْعُ «إِنْسِيٍّ». ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ﴾ أَي: الْمَاءَ ﴿بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا﴾ أَصْلُهُ «يَتَذَكَّرُوا» أُدْغِمَتْ التَّاءُ فِي الذَّالِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿لِيَذَكَّرُوا﴾ بِسُكُونِ الذَّالِ وَضَمِّ الْكَافِ، أَي: نِعْمَةً اللَّهُ بِهِ ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٥٠﴾ جُحُودًا لِلنَّعْمَةِ، حَيْثُ قَالُوا: «مُطَرِّنَا بَنُو كَذَا»^(١). ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿٥١﴾ يُخَوِّفُ أَهْلَهَا، وَلَكِنْ بَعَثْنَاكَ إِلَى أَهْلِ الْقَرْيِ كُلِّهَا نَذِيرًا لِيَعْظُمَ أَجْرُكَ. ﴿فَلَا تُطْعِ الْكَافِرِينَ﴾ فِي هَوَاهُمْ ﴿وَجَهْدُهُمْ بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ ﴿٥٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ﴿أَرْسَلَهُمَا مُتَجَاوِرَيْنِ﴾ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ ﴿شَدِيدُ الْعَذُوبَةِ﴾ وَهَذَا مِلْحٌ أَجَاجٌ ﴿شَدِيدُ الْمُلُوحَةِ﴾ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ حَاجِزًا لَا يَخْتَلِطُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ﴿وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ ﴿٥٣﴾ سِتْرًا مَمْنُوعًا بِهِ اخْتِلَاطُهُمَا. ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ مِنَ الْمَنِيِّ إِنْسَانًا ﴿فَجَعَلَهُ نَسَبًا﴾ ذَا نَسَبٍ ﴿وَصَهْرًا﴾ ذَا صَهْرٍ، بِأَنْ يَتَزَوَّجَ ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى طَلَبًا لِلتَّنَاسُلِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ ﴿٥٤﴾ قَادِرًا عَلَى مَا يَشَاءُ^(٢). ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ بِعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ بِتَرْكِهَا وَهُوَ

(١) عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا، عَلَى أَثَرِ سَمَاءٍ أَصَابَتْهُمْ مِنَ اللَّيْلِ: «اتَّذَرُونَّ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ»، قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرِّنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرِّنَا بَنُو كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧١).

(٢) كلمة «على ما يشاء» نحن نعرف أن من الناس من يكون هذا القيد دالًّا على بدعة ارتكبتها؛ لأن القدرية يقولون: إن الله سبحانه وتعالى لا يقدر إلا على ما يشاء، وإنه لا يشاء أفعال العباد، وعلى هذا فلا يكون قادرًا عليها. ولا شك أن هذا قول تبطله النصوص والعقل، فالله هو الذي يهدي ويضل، وما معنى الهداية والإضلال إلا أنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء حتى فيما يتعلق بأفعال العبد. لهذا نرى أن تقييد القدرة بالمشيئة لا ينبغي ولا يليق للوجوه الآتية: أولاً: أن الله سبحانه وتعالى أطلق هذا الوصف لنفسه بدون قيد، ولا ينبغي لنا أن نقيده ما أطلقه الله؛

الْأَصْنَامُ ﴿٥٥﴾ وَكَانَ الْكَافِرَ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٦﴾ مُعِينًا لِلشَّيْطَانِ بِطَاعَتِهِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾
بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ ﴿٥٦﴾ مُخَوِّفًا مِنَ النَّارِ. ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيُّ: عَلَى تَبْلِيغِ مَا أَرْسَلْتُ بِهِ ﴿مِنْ أَجْرِ إِلَّا﴾ لَكِنْ
﴿مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿٥٧﴾ طَرِيقًا بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي مَرْضَاتِهِ تَعَالَى، فَلَا أَمْنُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ
الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْهُ﴾ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أَيُّ: قُلْ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾
خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ عَالِمًا، تَعَلَّقْ بِهِ ﴿بِذُنُوبٍ﴾. هُوَ ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِنْ أَيَّامِ
الدُّنْيَا، أَيُّ: فِي قَدَرِهَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ تَمَّ شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ، وَلَوْ شَاءَ لَخَلَقَهُنَّ فِي لَمَحَةٍ، وَالْعُدُولُ عَنْهُ لَتَعْلِيمِ خَلْقِهِ التَّشَبُّتِ
﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ هُوَ فِي اللُّغَةِ سَرِيرُ الْمُلْكِ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بَدَلٌ مِنْ ضَمِيرِ ﴿أَسْتَوَىٰ﴾، أَيُّ: اسْتَوَاءً يَلِيْقُ بِهِ^(١)
﴿فَسْأَلُ﴾ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ﴿بِهِ﴾ بِالرَّحْمَنِ ﴿خَبِيرًا﴾ ﴿٥٩﴾ يُخْبِرُكَ بِصِفَاتِهِ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿أَسْجُدُوا
لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ بِالْفُوقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَالْأَمْرُ مُحَمَّدٌ وَلَا نَعْرِفُهُ؟ لَا ﴿وَرَادَهُمْ﴾ هَذَا
الْقَوْلُ لَهُمْ ﴿تُفَوِّرًا﴾ ﴿٦٠﴾ عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ﴾ تَعَاطَمَ ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ اِثْنِي عَشَرَ:
الْحَمَلُ وَالثَّوْرُ وَالْجُوزَاءُ وَالسَّرَطَانُ وَالْأَسَدُ وَالسُّنْبُلَةُ وَالْمِيزَانُ وَالْعَقْرَبُ وَالْقَوْسُ وَالْجَدْيُ وَالذَّلْوُ وَالْحُوتُ، وَهِيَ
مَنَازِلُ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ السَّيَّارَةِ: الْمَرِيخِ وَلَهُ الْحَمَلُ وَالْعَقْرَبُ، وَالزُّهْرَةُ: وَلَهَا الثَّوْرُ وَالْمِيزَانُ، وَعُطَارِدُ: وَلَهُ الْجُوزَاءُ
وَالسُّنْبُلَةُ، وَالْقَمَرُ: وَلَهُ السَّرَطَانُ، وَالشَّمْسُ: وَلَهَا الْأَسَدُ، وَالْمُشْتَرَى: وَلَهُ الْقَوْسُ وَالْحُوتُ، وَزُحَلُ: وَلَهُ الْجَدْيُ
وَالذَّلْوُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ أَيُّضًا ﴿سِرَاجًا﴾ هُوَ الشَّمْسُ ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ ﴿٦١﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سُرْجًا﴾ بِالْجَمْعِ، أَيُّ: نِيرَاتٍ،
وَخُصَّ الْقَمَرُ مِنْهَا بِالذِّكْرِ لِنَوْعِ فَضِيلَةٍ. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أَيُّ: يَخْلُفُ كُلُّ مِثْلِهِمَا الْآخَرَ ﴿لَمَنْ
أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ كَمَا تَقَدَّمَ، مَا فَاتَهُ فِي أَحَدِهِمَا مِنْ خَيْرٍ فَيَفْعَلُهُ فِي الْآخَرِ ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ ﴿٦٢﴾
أَيُّ: شُكْرًا لِنِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ فِيهِمَا. ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ صِفَاتٌ لَهُ إِلَى ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ﴾ غَيْرُ

لأن صفات الله توقيفية يتوقف فيها على ما ورد. الثاني: أنه خلاف طريقة الرسول ﷺ وأصحابه، بل طريقة الرسل كلهم؛ لأنهم يقولون:
﴿رَبَّنَا أَتَمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحریم ٨]، لا يقولون: إنك على ما تشاء قدير. الثالث: أنه يوهم أن القدرة
تتعلق بما يشاء فقط، وعلى هذا فيكون ما لا يشاؤه ليس بمقدور الله، وهذا معنى باطل، فهو قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، لكن ما شاء
كان وما لم يشأ لم يكن، فهو قادر على الأمرين جميعًا، ليس على ما يشاء فقط. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص: ٢٢٤)].

(١) معناه صحيح، لكن يحتاج إلى تكميل، وهو أن يُفسَّرَ يعني يُصَرِّحَ ويوضح معنى الاستواء. فيقال: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ عَلَا عَلَيْهِ
على وجه يليق به. [ابن عثيمين تفسير الفرقان (ص: ٢٤١)].

الْمُعْتَرِضِ فِيهِ^(١) ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أَي: بِسَكِينَةٍ وَتَوَاضَعٍ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ بِمَا يَكْرَهُونَهُ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾^(٢) أَي: قَوْلًا يَسْلَمُونَ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ. ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا﴾ جَمْعُ سَاجِدٍ ﴿وَقِيَمًا﴾^(٣) بِمَعْنَى: قَائِمِينَ يُصَلُّونَ بِاللَّيْلِ. ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾^(٤) أَي: لَا زِمًا. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ بُسْتٌ﴾ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا^(٥) هِيَ، أَي: مَوْضِعٌ اسْتِقْرَارٌ وَإِقَامَةٌ. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا﴾ عَلَى عِيَالِهِمْ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ بَفَتْحِ أَوَّلِهِ وَضَمِّهِ، أَي: لَمْ يُضَيِّقُوا ﴿وَكَانَ﴾ إِنْفَاقُهُمْ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْإِسْرَافِ وَالْإِقْتَارِ ﴿قَوْمًا﴾^(٦) وَسَطًا. ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قَتْلَهَا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أَي: مَا ذَكَرَ مِنَ الثَّلَاثَةِ ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾^(٧) أَي: عُقُوبَةً^(٨). ﴿يُضَعَفُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾ بِجَزْمِ الْفَعْلَيْنِ «بَدَلًا»، وَبِرَفْعِهِمَا «اسْتِثْنَاءً» ﴿مُهَانًا﴾^(٩) حَالٌ. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مِنْهُمْ ﴿فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمُ﴾ الْمَذْكُورَةَ ﴿حَسَنَاتٍ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١٠) أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَمَنْ تَابَ﴾ مِنْ ذُنُوبِهِ، غَيْرَ مَنْ ذَكَرَ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾^(١١) أَي: يَرْجِعُ إِلَيْهِ رُجُوعًا، فَيَجَازِيهِ خَيْرًا^(١٢). ﴿وَالَّذِينَ لَا

(١) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والأخروية بعد بيان حال النافرين عن عبادته والسجود له، والإضافة للتشريف، وهو مبتدأ خبره ما بعده من الموصول، وما عطف عليه، وقيل: هو ما في آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة الإشارة. [أبو السعود (٦/٢٢٨)].

(٢) عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: سئل رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةً أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ». قال عبد الله: وأنزل الله تصديق ذلك: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾. أخرجه البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (٨٦).

(٣) لا يقال: من قام فإنه يقوم، فكيف قال من تاب فإنه يتوب؟ فقال ابن عباس: المعنى من آمن من أهل مكة وهاجر ولم يكن قتل وزنى بل عمل صالحا وأدى الفرائض فإنه يتوب إلى الله متابا، أي: فإني قدمتهم وفضلتهم على من قاتل النبي ﷺ واستحل المحارم. وقال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾ ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملا صالحا فله حكم التائبين أيضا. وقيل: أي من تاب بلسانه ولم يحقق ذلك بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحا فحقق توبته بالأعمال الصالحة فهو الذي تاب إلى الله متابا، أي: تاب حق التوبة وهي النصوح ولذا أكد بالمصدر. ف﴿مَتَابًا﴾ مصدر معناه التأكيد، كقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] أي: فإنه يتوب إلى الله حقا فيقبل الله توبته حقا. [القرطبي (١٣/٧٩)].

يَشْهَدُونَ الزُّورَ ﴿٧٢﴾ أَي: الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ مِنَ الْكَلَامِ الْقَبِيحِ وَغَيْرِهِ ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ ﴿٧٣﴾ مُعْرِضِينَ عَنْهُ. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ وَعُظُّوا ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: الْقُرْآنِ ﴿لَمْ يَخْرُوْا﴾ يَسْقُطُوا ﴿عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ﴿٧٤﴾ بَلْ خَرُّوا سَامِعِينَ نَاطِرِينَ مُتَنَفِّعِينَ^(١). ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا بِالْجَمْعِ وَالْإِفْرَادِ﴾ ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ لَنَا بِأَنْ نَرَاهُمْ مُطِيعِينَ لَكَ ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٧٥﴾ فِي الْخَيْرِ. ﴿أُولَئِكَ يُحْزَنُ الْغُرْفَةُ﴾ الدَّرَجَةُ الْعُلْيَا فِي الْجَنَّةِ ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَيُلْقُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ مَعَ فَتْحِ الْيَاءِ ﴿فِيهَا﴾ فِي الْغُرْفَةِ ﴿تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ ﴿٧٦﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنْتَ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٧٧﴾ مَوْضِعَ إِقَامَةٍ لَهُمْ. وَ﴿أُولَئِكَ﴾ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرٌ ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ الْمُبْتَدَأُ. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ ﴿يَعْبُوءُ﴾ يَكْتَرِثُ ﴿بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ إِيَّاهُ فِي الشَّدَائِدِ فَيَكْشِفُهَا^(٢) ﴿فَقَدْ﴾ أَي: فَكَيْفَ يَعْبَأُ بِكُمْ وَقَدْ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ الرُّسُولَ وَالْقُرْآنَ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ الْعَذَابُ ﴿لِرِزَامًا﴾ ﴿٧٨﴾ مُلَازِمًا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ بَعْدَ مَا يَحِلُّ بِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَقَتِلَ مِنْهُمْ يَوْمَ بَدْرٍ سَبْعُونَ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ دَلٌّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهَا.

(١) قال ابن قتيبة: المعنى لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يبصروها، قال ابن جرير: ليس ثمَّ خورور، بل كما يقال: «قعد يكي»، وإن كان غير قاعد. قال ابن عطية: كأن المستمع للذكر قائم، فإذا أعرض عنه كان ذلك خوروراً، وهو السقوط على غير نظام. [صديق حسن (٩/ ٣٥٤)].

(٢) يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية، وفي معنى الدعاء هنا ثلاثة أقوال: الأول: أن المعنى إن الله لا ييالي بكم لولا عبادتكم له، فالدعاء بمعنى العبادة وهذا قريب من معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] الثاني: أن الدعاء بمعنى الاستغاثة والسؤال، والمعنى لا ييالي الله بكم، ولكن يرحمكم إذا استغثتم به ودعوتموه ويكون على هذين القولين خطاباً لجميع الناس من المؤمنين والكافرين، لأن فيهم من يعبد الله ويدعوه، أو خطاباً للمؤمنين خاصة، لأنهم هم الذين يدعون الله ويعبدونه، ولكن يضعف هذا بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، الثالث: أنه خطاب للكفار خاصة والمعنى على هذا: ما يعبا بكم ربي لولا أن يدعوكم إلى دينه، والدعاء على هذا بمعنى الأمر بالدخول في الدين، وهو مصدر مضاف إلى المفعول، وأما على القول الأول والثاني فهو مصدر مضاف إلى الفاعل. [ابن جزي (٢/ ٨٧)].

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَالشُّعَرَاءُ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَمَدَنِيٌّ، وَهِيَ مِائَتَانِ وَسَبْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١). ﴿تِلْكَ﴾ أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: مِنْ ﴿الْمُبِينِ ٢﴾ الْمُظْهِرِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿لَعَلَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بَخِيعُ نَفْسِكَ﴾ قَاتِلَهَا غَمًّا مِنْ أَجْلِ ﴿أَلَّا يَكُونُوا﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿مُؤْمِنِينَ ٣﴾ وَ«لَعَلَّ» هُنَا لِلِإِشْفَاقِ، أَي: أَشْفِقُ عَلَيْهَا بِتَخْفِيفِ هَذَا الْغَمِّ. ﴿إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ بِمَعْنَى الْمَضَارِعِ، أَي: تَظَلَّلْ، أَي: تَدُومُ﴾ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَضِيعِينَ ^(٤) ﴿فَيُؤْمِنُونَ، وَلَكَّمَا وَصِفَتِ الْأَعْنَاقُ بِالْخُضُوعِ الَّذِي هُوَ لَا رَبَّابِيَّاهَا جُمِعَتِ الصِّفَةُ مِنْهُ جَمْعُ الْعُقُلَاءِ ^(٥). ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ﴾ قُرْآنٍ ﴿مَنْ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ﴾ صِفَةً كَاشِفَةً ^(٦) ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٧﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِهِ ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ﴾ عَوَاقِبُ ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أَي: كَثِيرًا ﴿مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ ٩﴾ نَوْعٍ حَسَنِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ١٠﴾ دَلَالَةً عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ١١﴾ فِي عِلْمِ اللَّهِ، وَ﴿كَانَ﴾ قَالَ سَيِّوِيهِ: زَائِدَةٌ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ ذُو الْعِزَّةِ يَتَّقِمُ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿الرَّحِيمُ ١٢﴾ يَرْحَمُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَ﴾ أَذْكَرَ يَا مُحَمَّدُ لِقَوْمِكَ ﴿إِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ لَيْلَةً رَأَى النَّارَ وَالشَّجَرَةَ ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنَّ ﴿أَنْتَ الْقَوْمَ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً، ولكننا لا نفعل ذلك؛ لأننا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَا فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ^(١٨) [هود: ١١٨-١١٩]، فنفذ قدره، ومضت حكمته، وقامت حاجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم. [ابن كثير (٦/١٣٥)].

(٣) الصفة الكاشفة هي التي تبين الواقع، ولا تُقيد الموصوف؛ لأن الصفات منها صفة مقيدة تخرج ما سواه، ومنها صفة كاشفة تبين حقيقة أمره، فهنا يقول المؤلف: إن كلمة ﴿مُحَدَّثٍ﴾ صفة كاشفة؛ لأن القرآن ما يأتيهم من ذكر محدث، كلمة ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ تدل على محدث فلا مفهوم لها؛ لأنه إذا كان يأتيهم، وجب أن يكون مُحَدَّثًا؛ لأن يأتيانه إياهم صار محدثًا؛ ووجه ذلك ظاهر أنها صفة كاشفة؛ لأنه لو كان غير مُحَدَّثٍ ما صحَّ أن يقول: وما يأتيهم إذ هو آت من الأصل. وقوله: ﴿مُحَدَّثٍ﴾ ظاهر الآية الكريمة أن المحدث هو الذكر نفسه، فيكون في الآية دلالة على أن الله تعالى يتكلم بالقرآن حين إنزاله. [ابن عثيمين تفسير الشعراء (ص: ٢٧)].

الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ رَسُولًا. ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مَعَهُ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ ﴿أَلَا﴾ الْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ ﴿يَتَّقُونَ﴾ ﴿١١﴾ اللَّهُ بِطَاعَتِهِ فَيُوحِّدُهُ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لِي ﴿وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ بِإِدَاءِ الرِّسَالَةِ، لِلْعُقْدَةِ الَّتِي فِيهِ ﴿فَأَرْسِلْ إِلَيَّ﴾ أَخِي ﴿هَارُونَ﴾ ﴿١٣﴾ مَعِيَ. ﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ﴾ بِقَتْلِ الْقَبْطِيِّ مِنْهُمْ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾ بِهِ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿كَلَّا﴾ لَا يَقْتُلُونَكَ ﴿فَازْهَبَا﴾ أَيُّ: أَنْتَ وَأَخُوكَ، فَفِيهِ تَغْلِيبُ الْحَاضِرِ عَلَى الْغَائِبِ ﴿بِأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ ﴿١٥﴾ مَا تَقُولُونَ وَمَا يُقَالُ لَكُمْ، أَجْرِيَا مَجْرَى الْجَمَاعَةِ. ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا﴾ كَلَّا مِنَّا ﴿رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ إِلَيْكَ. ﴿أَنْ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿أُرْسِلْ مَعَنَا﴾ إِلَى الشَّامِ ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿١٧﴾ فَأَتِيَاهُ فَقَالَا لَهُ مَا ذُكِرَ. فَ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ أَيُّ: فِي مَنَازِلِنَا ﴿وَلِيدًا﴾ صَغِيرًا قَرِيبًا مِنَ الْوِلَادَةِ بَعْدَ فِطَامِهِ ﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ ﴿١٨﴾ ثَلَاثِينَ سَنَةً، يَلْبَسُ مِنْ مَلَابِسِ فِرْعَوْنَ وَيَرْكَبُ مِنْ مَرَاحِيهِ وَكَانَ يُسَمَّى ابْنَهُ^(١). ﴿وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ هِيَ قَتْلُهُ الْقَبْطِيِّ ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٩﴾ الْجَاهِدِينَ لِنِعْمَتِي عَلَيْكَ بِالتَّرْبِيَةِ وَعَدَمِ الْإِسْتِعْبَادِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿فَعَلْتَهَا إِذَا﴾ أَيُّ: حَيْثُ ﴿وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ عَمَّا آتَانِي اللَّهُ بَعْدَهَا، مِنَ الْعِلْمِ وَالرِّسَالَةِ^(٢). ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُّتْهَا عَلَيَّ أَصْلُهُ: تَمُنُّ بِهَا عَلَيَّ ﴿أَنْ عَبَدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿٢٢﴾ بَيَانٌ لـ ﴿تِلْكَ﴾، أَيُّ: اتَّخَذْتَهُمْ عِبِيدًا وَلَمْ تَسْتَعْبِدْنِي، لَا نِعْمَةٌ لَكَ بِذَلِكَ لِظُلْمِكَ بِاسْتِعْبَادِهِمْ، وَقَدَّرَ بَعْضُهُمْ أَوَّلَ الْكَلَامِ هَمْزَةً اسْتِفْهَامٍ لِلْإِنْكَارِ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لِمُوسَى ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي قُلْتَ إِنَّكَ رَسُولُهُ، أَيُّ: أَيُّ شَيْءٍ هُوَ؟ وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ سَبِيلٌ لِلْخَلْقِ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا يَعْرِفُونَهُ بِصِفَاتِهِ، أَجَابَهُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعْضِهَا^(٣). ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أَيُّ: خَالَقَ ذَلِكَ

(١) هذا على جهة المن عليه والاحتقار، أي: ربيناك صغيرا، أو لم تقتلك في جملة من قتلنا فلبثت فينا سنين، فمتى كان هذا الذي تدعيه؟ [ابن عطية (٤/٢٢٧)].

(٢) أي: الجاهلين قاله ابن عباس، فنفي عليه الصلاة والسلام عن نفسه الكفر، وأخبر أنه فعل ذلك على الجهل قبل أن يأتيه العلم الذي علمه الله، وقيل: المعنى من الجاهلين أن تلك الوكرة تبلغ القتل، وقال أبو عبيدة: من الناسين، وقيل: من المخطئين. قال ابن جرير: العرب تضع الضلال موضع الجهل والجهل موضع الضلال. [صديق حسن (٩/٣٦٩)].

(٣) يقول تعالى مخبرا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، وكانوا يجحدون الصانع ويعتقدون أنه لا رب

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ٢٤﴾ بِأَنَّهُ تَعَالَى خَالِقُهُ فَاْمِنُوا بِهِ وَحْدَهُ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ﴾ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ: ﴿أَلَا تَسْتَمْعُونَ ٢٥﴾ جَوَابُهُ الَّذِي لَمْ يُطَابِقِ السُّؤَالَ^(١). ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ٢٦﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِيمَا قَبْلَهُ يَغِیْظُ فِرْعَوْنَ^(٢)، وَلِذَلِكَ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ٢٧﴾ قَالَ مُوسَى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨﴾ أَنَّهُ كَذَلِكَ فَاْمِنُوا بِهِ وَحْدَهُ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿لَئِنْ اتَّخَذَتِ الْإِلَٰهَ غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ٢٩﴾ كَانَ سِجْنُهُ شَدِيدًا، يَحْسِبُ الشَّخْصَ فِي مَكَانٍ تَحْتَ الْأَرْضِ وَحْدَهُ، لَا يُبْصِرُ وَلَا يَسْمَعُ فِيهِ أَحَدًا ﴿قَالَ﴾ لَهُ مُوسَى: ﴿أَوَلَوْ﴾ أَيُّ: أَتَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَوْ ﴿جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ٣٠﴾ بُرْهَانٍ بَيْنَ عَلَى رِسَالَتِي. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ لَهُ: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ٣١﴾ فِيهِ. ﴿فَالْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ٣٢﴾ حَيَّةٌ عَظِيمَةٌ. ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ أَخْرَجَهَا مِنْ جَبِيهِ ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ ذَاتُ شُعَاعٍ ﴿لِلنَّظِيرِينَ ٣٣﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَمَةِ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ ﴿لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ فَأَتَقَّ فِي عِلْمِ السِّحْرِ. ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ ﴿أَخَّرَ أَمْرَهُمَا﴾ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦ ﴿جَامِعِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ٣٧﴾ يُفْضِلُ مُوسَى فِي عِلْمِ السِّحْرِ. ﴿فَجَمَعَ السَّحَرَةَ لِمِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ٣٨﴾ وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَى مِنْ يَوْمِ الزَّيْنَةِ. ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ٤٠﴾ إِلَّا سَتِفَهُامٌ لِلْحَثِّ عَلَى الْاجْتِمَاعِ، وَالتَّرَجُّيِ عَلَى تَقْدِيرِ غَلَبَتِهِمْ،

لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسرهُ علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُمُوسَى ٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ٥٠﴾ [طه: ٤٩-٥٠]. ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سألَهُ عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها. [ابن كثير (١٣٨/٦)].

(١) أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه: أن لكم إلهًا غيري؟ [ابن الجوزي (٣٣٨/٣)].

(٢) وخص من العام المتقدم أنفسهم وآباءهم لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه ومن ولد منه. وهي أظهر دلالة على القادر فأوضح لهم أن فرعون مربوط لا رب كما يدعيه. والمعنى أن هذا الرب الذي أدعوكم إليه هو الذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم، فكيف تعبدون من هو واحد منكم؟ مخلوق كخلقكم، وله آباء قد فنوا كأبائكم، فلم يجبه فرعون عند ذلك بشيء يعتد به، بل جاء بما يشكك قومه ويخيل إليهم أن هذا الذي قاله موسى مما لا يقوله العقلاء. [صديق حسن (٣٧١/٩)].

لِيَسْتَمِرُّوا عَلَى دِينِهِمْ فَلَا يَتَّبِعُوا مُوسَى. ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهِينِ﴾ ﴿لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا أَتَى: حِينَئِذٍ ﴿لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴿بَعْدَ مَا قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّمَا أَن تُلْقَى وَإِنَّمَا أَن تَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾﴾ [الأعراف: ١١٥] ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَلَا مَرَّ مِنْهُ لِلَّذِينَ بِتَقْدِيمِ الْقَائِمِ تَوْشِيًا بِهِ إِلَى إِظْهَارِ الْحَقِّ. ﴿فَالْقُوا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ ﴿بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِيَتَيْنِ مِنَ الْأَصْلِ: تَبْتَلِعُ﴾ ﴿مَا يَأْكُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ يَقْلِبُونَهُ بِتَمَوِيهِهِمْ فَيُخِيلُونَ أَنَّ حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ حَيَاتٌ تَسْعَى. ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَحَاجِدِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ لَعَلِمِهِمْ بِأَنَّ مَا شَاهَدُوهُ مِنَ الْعَصَا لَا يَتَأْتَى بِالسَّحْرِ. ﴿قَالَ﴾ فِرْعَوْنُ: ﴿ءَامَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِدْخَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا ﴿لَهُ﴾ لِمُوسَى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ﴾ أَنَا ﴿لَكُمْ إِنَّهُوَ لَكَيْبُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ السَّحَرَ﴾ فَعَلَّمَكُمْ شَيْئًا مِنْهُ وَغَلَبَكُمْ بِآخِرِ ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ مَا يَنَالُكُمْ مِنِّي ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أَي: يَدُ كُلِّ وَاحِدٍ الْيُمْنَى وَرِجْلُهُ الْيُسْرَى ﴿وَلَأَصْلَبَنَّنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرٌ ﴿لَا ضَرَرَ عَلَيْنَا فِي ذَلِكَ﴾ ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا﴾ بَعْدَ مَوْتِنَا بِأَيِّ وَجْهِ كَانَ ﴿مُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿رَاجِعُونَ فِي الْآخِرَةِ﴾. ﴿إِنَّا نَظْمَعُ﴾ نَرْجُو ﴿أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا﴾ أَي: بِأَنَّ ﴿كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فِي زَمَانِنَا﴾. ﴿* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى﴾ بَعْدَ سِنِينَ أَقَامَهَا بَيْنَهُمْ يَدْعُوهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى الْحَقِّ، فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَّا عُتْوًا ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِكُسْرِ النُّونِ وَوَصْلِ هَمْزَةٍ ﴿أَسْرٍ﴾ مِنْ «سَرَى» لُغَةً فِي «أَسْرَى»، أَي: سَرِبَهُمْ لَيْلًا إِلَى الْبَحْرِ ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، فَيَلْجُونَ وَرَاءَكُمْ الْبَحْرَ، فَأَنْجِيَكُمْ وَأَغْرِقُهُمْ ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ﴾ حِينَ أُخْبِرَ بِسِيرِهِمْ ﴿فِي الْمَدَائِنِ﴾ قِيلَ: كَانَ لَهُ أَلْفُ مَدِينَةٍ وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ قَرْيَةٍ ﴿حَشِيرِينَ﴾ ﴿٥١﴾ جَامِعِينَ الْجَيْشِ. قَائِلًا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ﴾ طَائِفَةٌ ﴿قَلِيلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قِيلَ: كَانُوا سِتِّمِائَةَ أَلْفٍ وَسَبْعِينَ أَلْفًا وَمُقَدَّمَةٌ جَيْشِهِ سَبْعُمِائَةَ أَلْفٍ، فَقَلَّلَهُمْ

- (١) أي: أنهم أول من آمن من قوم فرعون بعد ظهور الآية أو من أهل المشهد. وقال الفراء أول مؤمني زمانهم، وأنكره الزجاج، وقال: قد روي أنه آمن معهم ستمائة ألف وسبعون ألفًا، وهم الذين عناهم فرعون بقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. [الشوكاني (٤/ ١١٦)].
- (٢) هذه قصة أخرى من أحوال موسى في دعوة فرعون، فالواو لعطف القصة، ولا تفيد قرب القصة من القصة فقد لبث موسى زمانًا يطالب فرعون بإطلاق بني إسرائيل ليخرجوا من مصر، وفرعون يماطل في ذلك حتى رأى الآيات التسع كما تقدم في سورة الأعراف. ونظير بعض هذه الآية تقدم في سورة طه. وزادت هذه بقوله: ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ أي: أعلم الله موسى أن فرعون سيتبعهم بجنده كما في آية سورة طه. والقصد من إعلامه بذلك تشجيعه. [ابن عاشور (١٩/ ١٢٩)].

بِالْظَّرِّ إِلَى كَثْرَةِ جَيْشِهِ. ﴿وَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ٥٥﴾ فَأَعْلُونَ مَا يَغِيظُنَا. ﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ ٥٦﴾ مُتَقِظُونَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿حَذِرُونَ﴾ مُسْتَعِدُّونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أَي: فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ مِنْ مِصْرَ، لِيَلْحَقُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ ﴿مِنْ جَنَّتٍ﴾ بَسَاتِينَ كَانَتْ عَلَى جَانِبِي النَّيْلِ ﴿وَعُيُونٍ ٥٧﴾ أَنَهَارٍ جَارِيَةٍ فِي الدُّورِ مِنَ النَّيْلِ. ﴿وَكُنُوزٍ﴾ أَمْوَالٍ ظَاهِرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَسُمِّيَتْ كُنُوزًا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْهَا^(١) ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ٥٨﴾ مَجْلِسٍ حَسَنٍ لِلْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ يَحْقُقُهُ أَتْبَاعُهُمْ. ﴿كَذَلِكَ ٥٩﴾ أَي: إِخْرَاجَنَا كَمَا وَصَفْنَا ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ٥٩﴾ بَعْدَ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ. ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ لِحَقْوِهِمْ ﴿مُشْرِقِينَ ٦٠﴾ وَقَتَ شُرُوقِ الشَّمْسِ. ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ﴾ رَأَى كُلُّ مِثْلِهِمَا الْآخَرَ ﴿قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ٦١﴾ يُدْرِكُنَا جَمْعُ فِرْعَوْنَ، وَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿كَلَّا ٦٢﴾ أَي: لَنْ يُدْرِكُونَا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾ بِنَصْرِهِ ﴿سَيَهْدِينِ ٦٣﴾ طَرِيقَ النِّجَاةِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فَضْرَبَهُ ﴿فَانْفَلَقَ﴾ فَانْشَقَّ اثْنِي عَشَرَ فِرْقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ٦٤﴾ الْجَبَلِ الضَّخْمِ بَيْنَهُمَا مَسَالِكُ سَلَكَوْهَا، لَمْ يَبْتَلِ مِنْهَا سُرْجُ الرَّاكِبِ وَلَا لَيْدُهُ. ﴿وَأَزَلَفْنَا﴾ قَرَّبْنَا ﴿ثُمَّ﴾ هُنَاكَ ﴿الْآخِرِينَ ٦٥﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، حَتَّى سَلَكَوا مَسَالِكَهُمْ. ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ٦٦﴾ بِإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الْبَحْرِ عَلَى الْهَيْئَةِ الْمَذْكُورَةِ. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ٦٧﴾ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ، بِإِطْبَاقِ الْبَحْرِ عَلَيْهِمْ، لَمَّا تَمَّ دُخُولُهُمْ فِي الْبَحْرِ وَخُرُوجُ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿لَايَةً ٦٨﴾ عِبْرَةً لِمَنْ بَعْدَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٦٩﴾ بِاللَّهِ تَعَالَى، لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ غَيْرُ: أَسِيَّةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَحَزْقِيلَ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمَ بِنْتِ نَامُوصِي الَّتِي دَلَّتْ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٢). ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فَانْتَقَمَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِإِغْرَاقِهِمْ ﴿الرَّحِيمُ ٧٠﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ فَانْجَاهَهُمْ مِنَ الْغَرَقِ. ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أَي: كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿نَبَأَ﴾ خَبَرَ ﴿إِبْرَاهِيمَ ٧١﴾. وَيُبْدِلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ٧٢﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا ٧٢ صَرَّحُوا بِالْفِعْلِ لِيُعْطِفُوا عَلَيْهِ: ﴿فَنَظَّلْ لَهَا عَلَيْكَ ٧٣﴾ نَقِيمُ نَهَارًا عَلَى

(١) المراد بالكنوز الأموال الظاهرة من الذهب والفضة، وسميت كنوزاً لأنه لم يعط حق الله منها، وفي الشهاب: المراد بها إما الأموال التي تحت الأرض، وخصها لأن ما فوقها انطمس، أو مطلق المال الذي لم يؤد منه حق الله لأنه يقال له كنز، والأول أوفق باللغة، والثاني مروى عن السلف فلا وجه للتحكم هنا. [صديق حسن (٩/ ٣٨٢)].

(٢) عظام يوسف هذا خطأ؛ لأنه ثبت أن الله حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ، فكيف يقال: إنه ما بقي إلا عظامه؟! فالحاصل أن مثل هذه الإسرائيليات يُؤَسَفُ مِنَ الْمُؤَلِّفِ وَمَنْ غَيْرِهِ أَنْ يَنْقُلُوهَا. [ابن عثيمين تفسير الشعراء (ص: ١٤٧)]. [وقيل المعنى: وما كان أكثر قومك يا محمد مؤمنين بما أتاك الله من الحق المبين، فسابق في علمي أنهم لا يؤمنون. [الطبري (١٧/ ٥٨٨)].]

عِبَادَتِهَا، زَادُوهُ فِي الْجَوَابِ افْتِخَارًا بِهِ. ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمُ إِذْ﴾ حِينَ ﴿تَدْعُونَ﴾ ٧٢ ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكُمُ﴾ إِنْ عَبَدْتُمُوهُمْ ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ ٧٣ ﴿كُمُ إِنْ لَمْ تَعْبُدُوهُمْ؟﴾ ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ ٧٤ ﴿أَيُّ: مِثْلُ فِعْلِنَا.﴾
 ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٧٥ أَنْتُمْ وَعِبَاؤُكُمْ الْأَقْدُمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي ﴿لَا أَعْبُدُهُمْ﴾ إِلَّا ﴿لِكِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٧٧ فَإِنِّي أَعْبُدُهُ. ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ ٧٨ إِلَى الدِّينِ. ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ٨١ وَالَّذِي أَطْمَعُ ﴿أَرْجُو﴾ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ٨٢ الْجَزَاءِ. ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ عِلْمًا ﴿وَالْحَقِّقْنِي بِالصَّلَاحِينَ﴾ ٨٣ ﴿أَيُّ: النَّبِيِّينَ.﴾ ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ٨٤ الَّذِينَ يَأْتُونَ بَعْدِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ٨٥. ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ ٨٥ مِمَّنْ يُعْطَاهَا. ﴿وَأَغْفِرْ لِأَيِّ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٨٦ بِأَنْ تَتُوبَ عَلَيْهِ فَتَغْفِرَ لَهُ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، كَمَا ذَكَرَ فِي سُورَةِ بَرَاءةٍ ٣. ﴿وَلَا تُخْزِنِي﴾ تَفْضُحْنِي ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ٨٧ النَّاسُ. قَالَ تَعَالَى فِيهِ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ٨٨ أَحَدًا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ٨٩ مِنَ الشَّرِّ وَالنَّفَاقِ، وَهُوَ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ. ﴿وَأَزَلَّتِ الْجَنَّةُ قُرْبَتِ﴾ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠ فَيَرُونَهَا. ﴿وَبَرَزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أَظْهَرَتْ ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ ٩١ الْكَافِرِينَ. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ ٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿أَيُّ: غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ﴾ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ٩٣ بِدَفْعِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ؟ لَا. ﴿فَكُذِّبُوا﴾ أُلْقُوا ﴿فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ ٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَتْبَاعُهُ وَمَنْ أَطَاعَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ ٩٥ قَالُوا ﴿أَيُّ: الْغَاوُونَ﴾ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ مَعَ مَعْبُودِيهِمْ ﴿تَاللَّهِ إِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَيُّ: إِنَّهُ ﴿كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٩٧ بَيِّنٍ. ﴿إِذْ﴾ حَيْثُ ﴿نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٨ فِي الْعِبَادَةِ. ﴿وَمَا أَضَلَّنَا﴾ عَنْ الْهُدَى ﴿إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ ٩٩ ﴿أَيُّ: الشَّيَاطِينُ، أَوْ أَوْلُونَا الَّذِينَ اقْتَدَيْنَا بِهِمْ.﴾ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ١٠٠ كَمَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾

(١) أي: اجعل لي ثناء حسنًا وذكرًا جميلًا وجاهًا وصيتًا وقبولًا عامًا في الأمم الآخرين، الذين يأتون بعدي في الدنيا يبقى أثره إلى يوم القيامة. قال القتيبي: وضع اللسان موضع القول على الاستعارة، لأن القول يكون بها، وقد تكنى العرب بها عن الكلمة، وقد أعطى الله سبحانه إبراهيم ذلك بقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨]، وأجاب دعاءه فإن كل أمة تتمسك به وتعظمه. وكل أهل الأديان يتولونه ويشنون عليه، خصوصًا هذه الأمة وخصوصًا في كل تشهد من تشهدات الصلوات. [صديق حسن (٩/ ٣٩١)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَسْتَعْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

حَمِيمٍ ﴿١١١﴾ يَهْمُهُ أَمْرُنَا. ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً رَاجِعَةً إِلَى الدُّنْيَا فَفَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٢﴾ ﴿لَوْ هُنَا لِّلْتَمَنِّي وَنَكُونُ﴾ جَوَابُهُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَذْكَورٍ مِّنْ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ﴾ ﴿لَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١١٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١١٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٥﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَجِيِّءِ بِالتَّوْحِيدِ^(١)، أَوْ لِأَنَّهُ لَطُولُ لَيْلِيَّةٍ فِيهِمْ كَأَنَّهُ رُسُلٌ، وَتَأْنِيثُ ﴿قَوْمٌ﴾ بِاعْتِبَارِ مَعْنَاهُ، وَتَذْكِيرُهُ بِاعْتِبَارِ لَفْظِهِ. ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ نَسَبًا ﴿نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ اللَّهُ. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١١٧﴾ عَلَى تَبْلِيغِ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١١٨﴾ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ. ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِهِ ﴿مِنْ أَجْرٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَجْرِي﴾ أَيُّ: ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٢٠﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا. ﴿*قَالُوا أَنُؤْمِنُ﴾ نَصَدَّقُ ﴿لَكَ﴾ لِقَوْلِكَ ﴿وَاتَّبَعَكَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَأَتَّبَعَكَ﴾ جَمْعُ «تَابِعَ» مُبْتَدَأُ ﴿الْأَرْدُلُونَ﴾ ﴿١٢١﴾ السَّفَلَةُ، كَالْحَاكَةِ وَالْأَسَاكِفَةِ. ﴿قَالَ وَمَا عَلِمِي﴾ أَيُّ عِلْمٍ لِي ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٢﴾ إِنْ مَا ﴿حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي﴾ فَيَجَازِيهِمْ ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ ﴿١٢٣﴾ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ مَا عَيَّرْتُمُوهُمْ. ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٤﴾ إِنْ مَا ﴿أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٢٥﴾ بَيْنَ الْإِنْذَارِ. ﴿قَالُوا لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ يَنُوحُ﴾ عَمَّا نَقُولُ لَنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ ﴿١٢٦﴾ بِالْحِجَارَةِ، أَوْ بِالشَّتَمِ. ﴿قَالَ﴾ نُوحٌ: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّابُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أَيُّ: احْكُمْ ﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٨﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَّعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ﴾ ﴿١٢٩﴾ الْمَمْلُوءِ مِنَ النَّاسِ وَالْحَيَوَانِ وَالطَّيْرِ ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ بَعْدَ انْجَائِهِمْ ﴿الْبَاقِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ مِنْ قَوْمِهِ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٢﴾ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٣٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ مَا ﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ﴿مَكَانٍ مُّرْتَفِعٍ

(١) كما يدل لذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ الآية [النحل: ٣٦]، وقد بين تعالى أن مكذب بعضهم مكذب للجميع بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [النساء: ١٥٠-١٥١]. ويأتي مثل هذا الإشكال، والجواب في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٤]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٢]. وكذلك في قصة لوط وشعيب، على الجميع وعلى نبينا الصلاة والسلام. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ٢٤٢)].

﴿آيَةٌ﴾ بِنَاءٍ عَلَمًا لِلْمَارَّةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ ١٢٨ ﴿بِمَنْ يَمُرُّ بِكُمْ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ ١٢٩، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «تَبْنُونَ». وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴿لِلْمَاءِ تَحْتَ الْأَرْضِ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ كَأَنَّكُمْ ﴿تَخْلُدُونَ﴾ ١٣٠ ﴿فِيهَا لَا تَمُوتُونَ.﴾ ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بِضَرْبٍ أَوْ قَتَلَ﴾ ﴿بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ ١٣١ ﴿مِنْ غَيْرِ رَافَةٍ.﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ ١٣٢ ﴿فِيمَا أَمَرْتَكُمْ بِهِ.﴾ ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ ﴿بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ ١٣٣ ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيْنَ ١٣٤ وَجَنَّتِ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونِ ١٣٥﴾ أَنْهَارٍ. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ١٣٥ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِنِ عَصَيْتُمْوَنِي.﴾ ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا﴾ مُسْتَوٍ عِنْدَنَا ﴿أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ ١٣٦ ﴿أَصْلًا، أَي: لَا تَرْعَوِي لَوْعَظِكَ.﴾ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا﴾ الَّذِي خَوْفُنَا بِهِ ﴿إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣٧ ﴿أَي: اخْتِلَافُهُمْ وَكَذِبُهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْخَاءِ وَاللَّامِ، أَي: مَا هَذَا الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ لَا نُبْعَثُ إِلَّا خُلِقَ الْأَوَّلِينَ، أَي: طَبِيعَتُهُمْ وَعَادَتُهُمْ.﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ١٣٨ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا بِالرَّيْحِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٣٩ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٤٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٤٣ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٤٤ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ مَا ﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ١٤٥ أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا مِنْ الْخَيْرَاتِ ﴿ءَامِنِينَ﴾ ١٤٦ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ١٤٧ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ١٤٨ لَطِيفٌ لَيْنٌ وَتَنَحُّتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ١٤٩ بَطْرِينَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرِهِينَ﴾ حَازِقِينَ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ١٥٠ ﴿فِيمَا أَمَرْتُمْ بِهِ.﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ بِالْمَعَاصِي ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ١٥٢ بِطَاعَةِ اللَّهِ. ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ١٥٣ الَّذِينَ سَحَّرُوا كَثِيرًا حَتَّى غَلَبَ عَلَى عَقْلِهِمْ. ﴿مَا أَنْتَ﴾ أَيْضًا ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بَآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ١٥٤ ﴿فِي رَسُولِكَ.﴾ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾ نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ ﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ١٥٥ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥٦ بِعَظَمِ الْعَذَابِ. ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ عَقَرَهَا بَعْضُهُمْ بِرِضَاهُمْ ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ ١٥٧ عَلَى عَقَرِهَا. ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ الْمَوْعُودُ بِهِ فَهَلَكُوا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٥٨ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٥٩﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٦١ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٦٢ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ١٦٣ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى

(١) أي: ببنائها لا للحاجة إليها. بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة. ولهذا أنكر عليهم ذلك. لأنه تضييع للزمان وإتعاث للأبدان في غير فائدة. واشتغال بما هم في غنى عنه. وبما في الشغف به انصراف عن الجد في العمل، وصرف للأموال في غير ما خلقت له، من النظر للنفس والأهل والدين. [القاسمي (٧/ ٤٦٧)].

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ أَيُّ النَّاسِ ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ﴾ أَقْبَالَهُنَّ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَلَالَ إِلَى الْحَرَامِ. ﴿قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَلُوطُ﴾ عَنْ إِنْكَارِكَ عَلَيْنَا ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ مِنْ بَلَدَتِنَا. ﴿قَالَ﴾ لُوطُ ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ الْمُبْغِضِينَ. ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ أَيُّ: مِنْ عَذَابِهِ^(١). ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ إِلَّا عَجُوزًا ﴿إِمْرَأَتُهُ﴾ فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾ الْبَاقِينَ أَهْلَكْنَاهَا. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ أَهْلَكْنَاهُمْ. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ حِجَارَةً مِنْ جُمْلَةٍ إِلَّا هَلَاكَ ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ مَطَرُهُمْ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّيْكَةِ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ: بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ وَالْقَاءِ حَرَكَتِهَا عَلَى اللَّامِ وَفَتْحِ الْهَاءِ، هِيَ غِيْضَةُ شَجَرَةٍ قُرْبَ مَدْيَنَ﴾ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ ﴿لَمْ يَقُلْ: أَخُوهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ ﴿مَا﴾ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ ﴿أَتَمُّوهُ﴾ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ النَّاقِصِينَ. ﴿وَزِنُوا بِالْقُسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ الْمِيزَانِ السَّوِيِّ. ﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ لَا تُنْقِصُوهُمْ مِنْ حَقِّهِمْ شَيْئًا ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ، مِنْ «عَثِي» بِكَسْرِ الْمُلْتَهَةِ أَفْسَدَ، وَ «مُفْسِدِينَ» حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ لِمَعْنَى عَامِلِهَا ﴿تَعْتُوا﴾. ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ﴾ الْخَلِيقَةَ ﴿الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ ﴿مُحَقَّقَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: إِنَّهُ﴾ تَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَذِبِيِّنَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا ﴿بِسُكُونِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا، قِطْعًا﴾ مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ فِي رِسَالَتِكَ. ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ هِيَ سَحَابَةٌ أَظْلَمَتْهُمْ بَعْدَ حَرِّ شَدِيدٍ أَصَابَهُمْ، فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ نَارًا فَاحْتَرَقُوا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ جِبْرِيلُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ بَيِّنٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِشَدِيدٍ ﴿نَزَلَ﴾ وَنُصِبَ ﴿الرُّوحُ﴾ وَالْفَاعِلُ اللَّهُ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ ذِكْرُ الْقُرْآنِ الْمُنَزَّلِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿لَفِي زُبُرٍ﴾ كُتِبَ ﴿الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ كَالْتَّوْرَةِ

(١) يدل عليه أن الاستجابة من الله كانت في نجاته من عذاب ذنوبهم. قال المفسرون: أي من عقوبة صنيعهم. [الواحي (١١٢/١٧)].

وَالْإِنْجِيلَ^(١٩٧). ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ ﴿ءَايَةٌ﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿أَنْ يَعْلَمَهُوْا عَلَّمْتُوْا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ مِمَّنْ آمَنُوا، فَإِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِذَلِكَ، وَ﴿يَكُنْ﴾ بِالتَّحْتَانِيَّةِ وَنَضَبِ ﴿ءَايَةٌ﴾، وَبِالْفَوْقَانِيَّةِ وَرَفْعِ ﴿ءَايَةٌ﴾. ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ جَمْعُ أَعْجَمٍ. ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ﴾ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٩٩) أَنْفَةً مِنْ اتِّبَاعِهِ. ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيُّ: مِثْلُ إِدْخَالِنَا التَّكْذِيبَ بِهِ بِقِرَاءَةِ الْأَعْجَمِ ﴿سَلَكْنَاهُ﴾ أَدْخَلْنَا التَّكْذِيبَ بِهِ ﴿فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٢٠٠) كُفَّارِ مَكَّةَ بِقِرَاءَةِ النَّبِيِّ^(٢٠١). ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾^(٢٠٢) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ^(٢٠٣) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ^(٢٠٤) مُمְهَلُونَ لِنُؤْمِنَ؟ فَيَقَالُ لَهُمْ: لَا، قَالُوا مَتَى هَذَا الْعَذَابُ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾^(٢٠٥) أَفَرَأَيْتَ أَخْبِرْنِي ﴿إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾^(٢٠٦) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ^(٢٠٧) مِنَ الْعَذَابِ. ﴿مَا﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ بِمَعْنَى: أَيُّ شَيْءٍ ﴿أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾^(٢٠٨) فِي دَفْعِ الْعَذَابِ أَوْ تَخْفِيفِهِ، أَيُّ: لَمْ يُغْنِ. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ﴾^(٢٠٩) رُسُلٌ تُنْذِرُ أَهْلَهَا. ﴿ذَكَرْنَاهُ﴾ عِظَةً لَهُمْ ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾^(٢١٠) فِي إِهْلَاكِهِمْ بَعْدَ إِنْذَارِهِمْ. وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ: ﴿وَمَا نَنْزَلُ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿الشَّيْطَانُ﴾^(٢١١) وَمَا يَتَّبِعِيْ يَصْلُحْ ﴿لَهُمْ﴾ أَنْ يَنْزِلُوا بِهِ ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾^(٢١٢) ذَلِكَ. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ﴾ لِكَلَامِ الْمَلَائِكَةِ ﴿لَمَعْرُوْلُونَ﴾^(٢١٣) مَحْجُوبُونَ بِالشُّهْبِ. ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾^(٢١٤) إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ الَّذِي دَعَوَكَ إِلَيْهِ. ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢١٥) وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ جَهَارًا، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٢١٦).

(١) ﴿لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أَيُّ: ذَكَرَ إِنْزَالَ الْقُرْآنَ، قَالَهُ أَكْثَرُ الْمَفْسُرِينَ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: ذَكَرَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَنَعْتَهُ... ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ﴾ مَعْنَاهُ: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ لَآءِ الْمُنْكَرِينَ عِلْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ آيَةً، أَيُّ: عَلَامَةٌ وَدَلَالَةٌ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يُخْبِرُونَ بِوُجُودِ ذِكْرِهِ فِي كِتَابِهِمْ، وَهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَأَصْحَابُهُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَعَثَ أَهْلَ مَكَّةَ إِلَى الْيَهُودِ وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلُوهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَقَالُوا: إِنْ هَذَا لَزَمَانُهُ، وَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوْرَةِ نَعْتَهُ وَصِفَتَهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آيَةً عَلَى صِدْقِهِ. [البغوي (٦/ ١٢٩)].

(٢) سَلَكْنَاهُ مَعْنَاهُ: أَدْخَلْنَاهُ، وَالضَّمِيرُ فِيهِ لِلْكَفَرِ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالَهُ الْحَسَنُ، وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلتَّكْذِيبِ، وَقِيلَ: لِلْقُرْآنِ وَرَجَحَ أَنَّهُ الْمَتَبَادِرُ إِلَى الذَّهْنِ، وَالْمَجْرُمُونَ أَرَادَ بِهِ مُجْرِمِي كُلِّ أُمَّةٍ، أَيُّ: أَنَّ هَذِهِ عَادَةُ اللَّهِ فِيهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ، فَكُفَّارِ قَرِيشَ كَذَلِكَ. [الثعالبي (٤/ ٢٣٧)].

(٣) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، صَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصِّفَاءِ فَجَعَلَ يَبْأِي: «يَا بَنِي فَهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ» - لِبَطْنِ قَرِيشَ - حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقَرِيشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تَرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ كُتُبُكُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ مَا جَرَبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبَا لَكَ سَائِرُ الْيَوْمِ أَلْهَذَا جَمْعَتُنَا؟ فَتَزَلَّتْ: ﴿تَبَّتْ يُدَى أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا

﴿وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ﴾ أَلِنْ جَانِبَكَ ﴿لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢١٥﴾ ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ عَشِيرَتُكَ ﴿فَقُلْ لَهُمْ:﴾ ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢١٦﴾ ﴿مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ.﴾ ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ بِالْأَوَّالِ وَالْفَاءِ ﴿عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿٢١٧﴾
 اللَّهُ، أَيُّ: فَوَضَّ إِلَيْهِ جَمِيعَ أُمُورِكَ. ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿٢١٨﴾ إِلَى الصَّلَاةِ. ﴿وَتَقْلُبُكَ﴾ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ قَائِمًا وَقَاعِدًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا ﴿فِي السَّجْدَيْنِ﴾ ﴿٢١٩﴾ الْمَصْلِينِ^(١). ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أَنْبِئُكُمْ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٢٢١﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ مِنَ الْأَصْلِ. ﴿تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كَذَّابٍ ﴿أَثِيمٍ﴾ ﴿٢٢٢﴾ فَاجِرٍ، مِثْلُ مُسْلِمَةٍ وَغَيْرِهِ مِنَ الْكَهَنَةِ. ﴿يُلْقُونَ﴾ أَيُّ: الشَّيَاطِينُ ﴿السَّمْعَ﴾ أَيُّ: مَا سَمِعُوهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْكَهَنَةِ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ ﴿٢٢٣﴾ يَضُمُّونَ إِلَى الْمَسْمُوعِ كَذِبًا كَثِيرًا، وَكَانَ هَذَا قَبْلَ أَنْ حُجِبَتِ الشَّيَاطِينُ عَنِ السَّمَاءِ. ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ ﴿٢٢٤﴾ فِي شِعْرِهِمْ، فَيَقُولُونَ بِهِ وَيَرَوُونَهُ عَنْهُمْ، فَهُمْ مَذْمُومُونَ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمَ ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ مِنْ أَوْدِيَةِ الْكَلَامِ وَفُنُونِهِ ﴿يَهيمُونَ﴾ ﴿٢٢٥﴾ يَمْضُونَ فَيَجَاوِزُونَ الْحَدَّ مَدْحًا وَهَجَاءً. ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ فَعَلْنَا ﴿مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٢٦﴾ أَيُّ: يَكْذِبُونَ. ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مِنَ الشُّعْرَاءِ ﴿وَذَكَّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أَيُّ: لَمْ يَشْغَلْهُمْ الشُّعْرُ عَنِ الذِّكْرِ ﴿وَأَنْتَصَرُوا﴾ بِهَجْوِهِمُ الْكُفَّارَ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بِهَجْوِ الْكُفَّارِ لَهُمْ فِي جُمْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلْيَسُوا مَذْمُومِينَ^(٢)، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِنَ الشُّعْرَاءِ وَغَيْرِهِمْ ﴿أَيُّ مُنْقَلَبٍ﴾ مَرْجِعٍ ﴿يَنْقَلِبُونَ﴾ ﴿٢٢٧﴾ يَرْجِعُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

كَسَبَ ﴿[المسد: ١-٢]﴾. أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).

(١) قال مجاهد وقتادة: في المصلين. وقال ابن عباس: أي في أصلاّب الآباء، آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نيبا. [القرطبي (١٣/١٤٤)].
 (٢) اعلم أن الشعر في نفسه ينقسم إلى أقسام فقد يبلغ ما لا خير فيه منه إلى قسم الحرام. وقد يبلغ ما فيه خير منه إلى قسم الواجب، وقد وردت أحاديث في ذمه وذهم الاستكثار منه، ووردت أحاديث أخر في إباحته وتجويزه. [الشوكاني (٤/١٤٠)] أخرج مسلم (٢٢٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَأَنْ يَمْتَلِيَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا يَرِيهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمْتَلِيَ شِعْرًا». وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: إن الله قد أنزل في الشعراء ما أنزل فكيف ترى فيه؟ فقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَاهِدُ بَسِيفِهِ وَلِسَانِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَكَأَنَّ مَا تَرْمُونَهُمْ بِهِ نَضْحُ النَّبْلِ». أخرجه أحمد (٢٧١٧٤). وعن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ حِكْمَةً». أخرجه البخاري (٦١٤٥). وقالت عائشة: الشعر كلام فمنه حسن ومنه قبيح، فخذ الحسن ودع القبيح.

سُورَةُ النَّملِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ ثَلَاثٌ أَوْ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَتَسْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طس﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١) ﴿تِلْكَ﴾ أَي: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْقُرْآنِ﴾ آيَاتُ مِنْهُ ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ^(٢) مُظْهِرٍ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، عَطْفٌ بِزِيَادَةِ صِفَةٍ. هُوَ ﴿هُدًى﴾ هَادٍ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ^(٣) الْمُصَدِّقِينَ بِهِ بِالْجَنَّةِ ^(٤). ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ يَأْتُونَ بِهَا عَلَى وَجْهِهَا ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ يُعْطُونَ ﴿الزَّكَاةَ﴾ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ^(٥) ﴿يَعْلَمُونَهَا بِالِاسْتِدْلَالِ وَأُعِيدَ﴾ هُمْ ﴿لَمَّا فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْخَبَرِ.﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ ﴿الْقَبِيحَةَ، بِتَرْكِيبِ الشَّهْوَةِ حَتَّى رَأَوْهَا حَسَنَةً﴾ ^(٦) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ ^(٧) يَتَحَيَّرُونَ فِيهَا لِقُبْحِهَا عِنْدَنَا. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أَشَدُّهُ فِي الدُّنْيَا الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾ ^(٨) لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّارِ الْمُؤَبَّدَةِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِنَّكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿لَتَلَقَى الْقُرْآنَ﴾ يُلْقَى عَلَيْكَ بِشِدَّةٍ ﴿مِنْ لَدُنْ﴾ مِنْ عِنْدِ ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ^(٩) فِي ذَلِكَ. أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ زَوْجَتِهِ عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنْ مَدِينٍ إِلَى مِصْرَ ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ﴾ أَبْصَرْتُ مِنْ بَعِيدٍ ﴿نَارًا سَاءَتِ عَلَيْكُمْ مِنْهَا نَجْبَتِي﴾ عَنْ حَالِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ ضَلَّهَا ﴿أَوْ ءَاتِيَكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ﴾ بِالْإِضَافَةِ لِلْيَبَانَ وَتَرَكَهَا، أَي: شُعْلَةٌ نَارٍ فِي رَأْسِ فَتِيلَةٍ أَوْ عُودٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ^(١٠) تَسْتَدْفِئُونَ مِنَ الْبَرْدِ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءٍ لَا فِعْعَالٍ، مِنْ «صَلَّى بِالنَّارِ» بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿بُورِكَ﴾ أَي: بَارَكَ اللَّهُ ﴿مَنْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الإيمان ليس مجرد التصديق فقط، بل الإيمان الموجود في القرآن لا بد فيه من قبول وإذعان مع التصديق، والدليل أن أبا طالب كان مصدقاً لما جاء به الرسول ﷺ يقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ دِينَ مُحَمَّدٍ مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْ لَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِدَارٌ مَسْبَبَةٌ لَرَأَيْتَنِي سَمَحًا بِذَلِكَ مُبِينًا

إذن لم يقبل ولم يذعن، فلم يكن مؤمناً، فكلما وجدت الإيمان في كتاب الله فالمراد به التصديق المستلزم للقبول والإذعان، وليس مجرد التصديق فقط. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ١٧)].

(٣) أي: حسناً لهم ما هم فيه، ومددنا لهم في غيهم فهم يتيهون في ضلالهم. وكان هذا جزاء على ما كذبوا به من الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. [ابن كثير (١٧٨/٦)].

فِي النَّارِ أَيُّ: مُوسَى ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ^(١) أَوِ الْعَكْسُ، وَ«بَارَكَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ وَبِالْحَرْفِ، وَيَقْدَرُ بَعْدَ «فِي»: «مَكَانٍ»^(٢) ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) مِنْ جُمْلَةِ مَا نُودِيَ، وَمَعْنَاهُ تَنْزِيهِ اللَّهِ مِنَ الشُّؤْءِ. ﴿يَمُوسَى إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الشَّأْنُ ﴿أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤) وَأَلْقِ عَصَاكَ ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تَتَحَرَّكُ ﴿كَأَنَّهُمَا جَانٌّ﴾ حَيَّةٌ خَفِيفَةٌ ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ يَرْجِعُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ مِنْهَا﴾ إِنَّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ عِنْدِي ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾^(٥) مِنْ حَيَّةٍ وَغَيْرِهَا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ ظَلَمَ﴾ نَفْسَهُ ﴿ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا﴾ أَتَاهُ ﴿بَعْدَ سُوءٍ﴾ أَيُّ: تَابَ ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٦) أَقْبَلُ التَّوْبَةَ وَأَغْفِرُ لَهُ. ﴿وَأَدْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ طَوْقٌ قَمِيصِكَ ﴿تَخْرُجْ﴾ خِلَافَ لَوْنِهَا مِنْ الْأَدَمَةِ ﴿بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ بَرَصٍ، لَهَا شُعَاعٌ يُغْشِي الْبَصَرَ، آيَةٌ ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ﴾ مُرْسَلًا بِهَا ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ^(٧) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً أَيُّ: مُضِيَّةً وَاضِحَةً ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾^(٨) بَيْنَ ظَاهِرٍ. ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ لَمْ يَقْرَأُوا ﴿وَقَدْ﴾ أَسْتَيْقَنْتَهَا أَنْفُسُهُمْ أَيُّ: تَيَقَّنُوا أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ تَكَبَّرَا عَنِ الْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ مُوسَى، رَاجِعٌ إِلَى الْجَحْدِ ﴿فَانْظُرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٩) الَّتِي عَلِمْتَهَا مِنْ إِهْلَاكِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسَلِيمَانَ ابْنَهُ﴾ عِلْمًا بِالْقَضَاءِ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْطِقِ الطَّيْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَقَالَا﴾ شُكْرًا لِلَّهِ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَتَسْخِيرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ ﴿عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١٠) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ النُّبُوَّةَ وَالْعِلْمَ دُونَ بَاقِي أَوْلَادِهِ ﴿وَقَالَ يَتَابِئُهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ أَيُّ: فَهَمَ أَصْوَاتِهِ ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تَوَاتَاهُ الْأَنْبِيَاءُ وَالْمُلُوكُ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمُوتَى ﴿لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾^(١١) أَلْبَيْنُ الظَّاهِرِ. ﴿وَحُشِرَ﴾ جُمِعَ ﴿لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ﴾ فِي مَسِيرِهِ لَهُ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(١٢) يُجْمَعُونَ ثُمَّ يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ﴾ هُوَ بِالطَّائِفِ أَوْ بِالشَّامِ، نَمْلُهُ صِغَارٌ أَوْ كِبَارٌ ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ مَلِكَةُ النَّمْلِ وَقَدْ رَأَتْ جُنْدَ سُلَيْمَانَ: ﴿يَتَابِئُهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ يَكْسِرَنَّكُمْ ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٣) بِهِلَاكِكُمْ، وَنَزَلَ النَّمْلُ مَنْزِلَةَ الْعُقَلَاءِ فِي الْخِطَابِ بِخِطَابِهِمْ. ﴿فَتَبَسَّمَ﴾ سُلَيْمَانُ

(١) المنادي هو الله عز وجل، والنداء لا يلزم منه القرب أو البعد، وقد يكون الله ناداه من بعيد ثم قرب به نجيا، مثلما قال الله تعالى: ﴿وَلَنَذِيرَنَّهُ

مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ٥٦)].

(٢) ﴿فِي﴾ لِلظَّرْفِيَّةِ وَ«النَّارِ» ظَرْفٌ، فَهَلْ مُوسَى فِي النَّارِ؟ الْمُؤَلَّفُ قَدْرُ لِهَذَا، يَعْنِي: مَنْ فِي مَكَانِ النَّارِ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِي النَّارِ حَقِيقَةً لَاحْتَرَقَ،

وَلَكِنْ يَقْدَرُ مَكَانَ. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ٥٧)].

إِبْتِدَاءً ﴿ضَاحِكًا﴾ اِنْتِهَاءً^(١) ﴿مَنْ قَوْلَهَا﴾ وَقَدْ سَمِعَهُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ حَمَلَتْهُ إِلَيْهِ الرِّيحُ^(٢)، فَحَبَسَ جُنْدَهُ حِينَ أَشْرَفَ عَلَى وَادِيهِمْ حَتَّى دَخَلُوا بُيُوتَهُمْ، وَكَانَ جُنْدُهُ رُكْبَانًا وَمُشَاةً فِي هَذَا الْمَسِيرِ ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ بِهَا ﴿عَلَى وَعَلَى وَلَدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(٣) ﴿الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ.﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴿لِيرَى الْهُدْهُدَ الَّذِي يَرَى الْمَاءَ تَحْتَ الْأَرْضِ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ بِنَقَرِهِ فِيهَا فَتَسْتَخْرِجُهُ الشَّيَاطِينُ لِحَاجَتِ سُلَيْمَانَ إِلَيْهِ لِلصَّلَاةِ، فَلَمْ يَرَهُ﴾ فَقَالَ مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ﴿أَيَّ: أَعْرَضَ لِي مَا مَنَعَنِي مِنْ رُؤْيَيْهِ﴾ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿فَلَمْ أَرَهُ لِعَيْبَتِهِ. فَلَمَّا تَحَقَّقَهَا قَالَ: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا﴾ أَيَّ: تَعَذِّيًا ﴿شَدِيدًا﴾ بِنَتْفِ رِيشِهِ وَذَنَبِهِ، وَرَمِيهِ فِي الشَّمْسِ فَلَا يَمْتَنِعُ مِنَ الْهَوَامِّ^(٤) ﴿أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ﴾ بِقَطْعِ حُلُقُومِهِ ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِي﴾ بَنُونَ مُشَدَّدَةٍ مَكْسُورَةٍ أَوْ مَفْتُوحَةٍ يَلِيهَا نُونٌ مَكْسُورَةٌ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾^(٥) بِرُهَا نِ بَيْنَ ظَاهِرٍ عَلَى عُدْرِهِ. ﴿فَمَكَثَ﴾ بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِهَا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يَسِيرًا مِنَ الزَّمَنِ، وَحَضَرَ لِسُلَيْمَانَ مُتَوَاضِعًا بَرَفَعَ رَأْسَهُ وَإِرْخَاءَ ذَنَبِهِ وَجَنَاحِيهِ، فَعَفَا عَنْهُ وَسَأَلَهُ عَمَّا لَقِيَ فِي عَيْبَتِهِ ﴿فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ أَيَّ: أَطْلَعْتُ عَلَى مَا لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ﴾ بِالضَّرَفِ وَتَرْكِهِ، قَبِيلَةً بِالْيَمَنِ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّ لَهُمْ بِاعْتِبَارِهِ ضَرْفَ ﴿بَنِي﴾ خَبَرَ ﴿يَقِينٍ﴾^(٦) إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ أَيَّ: هِيَ مَلِكَةٌ لَهُمْ اسْمُهَا بَلْقِيسُ ﴿وَأُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يَخْتَاجُ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ مِنَ الْأَلَةِ وَالْعُدَّةِ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ﴾ سَرِيرٌ ﴿عَظِيمٌ﴾^(٧) طُولُهُ ثَمَانُونَ ذِرَاعًا وَعَرْضُهُ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا وَارْتِفَاعُهُ ثَلَاثُونَ ذِرَاعًا، مَضْرُوبٌ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، مُكَلَّلٌ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبَرْجَدِ الْأَخْضَرِ وَالزُّمُرْدِ، وَقَوَائِمُهُ مِنَ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ وَالزَّبَرْجَدِ

(١) الضحك ثلاثة أنواع: ابتدائي: التبسم. ووسط: الضحك. والمنتهي: القهقهة. والقهقهة ما تليق بالإنسان العاقل الرزين، والتبسم هو أكثر ضحك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والضحك يكون من الأنبياء أحيانًا، فهنا تبسم ضاحكًا. المؤلف رحمه الله يرى أن سليمان ﷺ كان له مرحلتان، ابتداءً بالتبسم وانتهى بالضحك، ويحتمل أن يكون «تبسم ضاحكًا» أي: ضحك متبسمًا. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ١٢٤)].

قال مقاتل: كان ضحك سليمان من قول النملة تعجبًا، لأن الإنسان إذا رأى ما لا عهد له به تعجب وضحك. [البغوي (٦/ ١٥٢)].

(٢) هذا العلم مأخوذ من أهل الكتاب. وقد أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم. فإن ترخص مترخص بالرواية عنهم لمثل ما روي: «حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ». أخرجه أبو داود (٣٦٦٢)، وأحمد (١٠١٣٤)، فليس ذلك مما يتعلق بتفسير كتاب الله سبحانه بلا شك، بل فيما يذكر عنهم من القصص الواقعة لهم. [صديق حسن (١٠/ ٣٠)].

(٣) انظر التعليق السابق.

الْأَخْضَرِ وَالزُّمُرْدِ، عَلَيْهِ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ بَابٌ مُغْلَقٌ^(١). ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ طَرِيقَ الْحَقِّ ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾^(٢) ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ أَيُّ: أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ فَزِيدَتْ «لَا» وَأُدْغِمَ فِيهَا نُونٌ «أَنْ» كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وَالْجُمْلَةُ فِي مَحَلِّ مَفْعُولٍ ﴿يَهْتَدُونَ﴾ بِإِسْقَاطِ «إِلَى» ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَخْبُوءِ مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ﴾ فِي قُلُوبِهِمْ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^(٣) ﴿بِالْإِسْتِخْفَاءِ﴾. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) اِسْتِنَافُ جُمْلَةٍ ثَنَاءٍ مُشْتَمِلٍ عَلَى عَرْشِ الرَّحْمَنِ فِي مُقَابَلَةِ عَرْشِ بَلْقِيسَ، وَبَيْنَهُمَا بَوْنٌ عَظِيمٌ^(٥). ﴿* قَالَ﴾ سُلَيْمَانُ لِلْهُدْهِدِ: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ﴾ فِيمَا أَخْبَرْتَنَا بِهِ ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦) أَيُّ: مِنْ هَذَا النَّوعِ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ: «أَمْ كَذَبْتَ فِيهِ»، ثُمَّ دَلَّاهُمْ عَلَى الْمَاءِ فَاسْتُخْرِجَ وَارْتَوَوْا وَتَوَضَّؤُوا وَصَلَّوْا، ثُمَّ كَتَبَ سُلَيْمَانُ كِتَابًا صُورَتُهُ: «مِنْ عَبْدِ اللَّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ إِلَى بَلْقِيسَ مَلِكَةِ سَبَأَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ السَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَلَا تَعْلَوْا عَلَيَّ، وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ»، ثُمَّ طَبَعَهُ بِالْمِسْكِ وَخَتَمَهُ بِخَاتَمِهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْهُدْهِدِ: ﴿أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: بَلْقِيسَ وَقَوْمَهَا ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ انْصَرَفَ ﴿عَنْهُمْ﴾ وَقَفَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ ﴿فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾^(٧) يَرُدُّونَ مِنَ الْجَوَابِ، فَأَخَذَهُ وَأَتَاهَا وَحَوْلَهَا جُنْدُهَا، وَأَلْقَاهُ فِي حِجْرِهَا، فَلَمَّا رَأَتْهُ أُرْعِدَتْ وَخَضَعَتْ خَوْفًا، ثُمَّ وَقَفَتْ عَلَى مَا فِيهِ. ثُمَّ ﴿قَالَتْ﴾ لِأَشْرَافِ قَوْمِهَا: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلُوكُ إِنِّي﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَقَلْبِ الثَّانِيَةِ وَآوَا ﴿أُلْقَى إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾^(٨) مَخْتُومٌ. ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ﴾ أَيُّ: مَضْمُونُهُ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٩) أَلَا تَعْلَوْا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ^(١٠) قَالَتْ يَأَيُّهَا الْمَلُوكُ أَفْتُونِي بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَقَلْبِ الثَّانِيَةِ وَآوَا، أَيُّ: أَشِيرُوا عَلَيَّ ﴿فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا﴾ قَاضِيَتُهُ ﴿حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾^(١١) تَحْضُرُونَ. ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أَيُّ: أَصْحَابُ شِدَّةٍ فِي الْحَرْبِ ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(١٢) نَاظِعُكِ. ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾^(١٣) أَيُّ: مُرْسَلُو الْكِتَابِ^(١٤). ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٥) مِنْ قَبُولِ الْهَدِيَّةِ أَوْ رَدِّهَا؛ إِنْ كَانَ مَلِكًا قَبْلَهَا

(١) انظر التعليق السابق.

(٢) ظاهر أنه من قول الهدهد، ... ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع؟ ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت مع التأمل. [القرطبي (١٣/ ١٨٧)].

(٣) أرادت أن هذه عاداتهم المستمرة التي لا تتغير، لأنها كانت في بيت الملك القديم؛ فسمعت نحو ذلك ورأت. قال ابن الأثير: الوقف

أَوْ نَبِيًّا لَمْ يَفْبَلْهَا، فَأَرْسَلَتْ خَدَمًا ذُكُورًا وَإِنَاثًا أَلْفًا بِالسَّوِيَّةِ، وَخَمْسِمِائَةَ لَبَنَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَتَاجًا مُكَلَّلًا بِالْجَوَاهِرِ، وَمِسْكًَا وَعَنْبَرًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ، مَعَ رَسُولٍ بَكْتَابٍ، فَأَسْرَعَ الْهَدُودُ إِلَى سُلَيْمَانَ يُخْبِرُهُ الْخَبَرُ، فَأَمَرَ أَنْ تُضْرَبَ لِبَنَاتُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَنْ تُبْسَطَ مِنْ مَوْضِعِهِ إِلَى تِسْعَةِ فَرَاسِخَ مِيدَانًا، وَأَنْ يَبْنُوا حَوْلَهُ حَائِطًا مُشْرِفًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَأَنْ يُؤْتَى بِأَحْسَنِ دَوَابِّ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَعَ أَوْلَادِ الْجِنِّ عَنْ يَمِينِ الْمِيدَانِ وَشِمَالِهِ. ﴿فَلَمَّا جَاءَ﴾ الرَّسُولُ بِالْهَدِيَّةِ وَمَعَهُ أَتْبَاعُهُ ﴿سُلَيْمَنْ قَالَ أَتُمِدُّونِي بِمَالٍ فَمَا عَاتَنِ اللَّهُ﴾ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ ﴿خَيْرٌ مِمَّا عَاتَلَكُمْ﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ٣٦﴾ لِفَخْرِكُمْ بِزَخَارِفِ الدُّنْيَا. ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ بِمَا آتَيْتَ مِنَ الْهَدِيَّةِ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ﴾ لَا طَاقَةَ ﴿لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا﴾ مِنْ بِلَدِهِمْ سَبَأٌ سُمِّيَتْ بِاسْمِ أَبِي قَيْلَتِهِمْ ﴿أَذَلَّةٌ وَهُمْ صَغِيرُونَ ٣٧﴾ إِنْ لَمْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَيْهَا الرَّسُولُ بِالْهَدِيَّةِ جَعَلَتْ سَرِيرَهَا دَاخِلَ سَبْعَةِ أَبْوَابٍ دَاخِلَ قَصْرِهَا، وَقَصْرَهَا دَاخِلَ سَبْعَةِ قُصُورٍ، وَأَغْلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَجَعَلَتْ عَلَيْهَا حَرَسًا، وَتَجَهَّزَتْ لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ لَتَنْظُرَ مَا يَأْمُرُهَا بِهِ، فَارْتَحَلَتْ فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قِيلٍ^(١) مَعَ كُلِّ قِيلٍ أُلُوفٌ كَثِيرَةٌ إِلَى أَنْ قَرِبَتْ مِنْهُ عَلَى فَرَسٍ شَعْرَ بِهَا. ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ﴾ فِي الْأَهْمَزَتَيْنِ مَا تَقَدَّمَ ﴿يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ٣٨﴾ مُتَقَادِينَ طَائِعِينَ؟ فَلْيَأْخُذْهُ قَبْلَ ذَلِكَ لَا بَعْدَهُ. ﴿قَالَ عَفَرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ﴾ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّدِيدُ: ﴿أَنَا عَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ الَّذِي تَجْلِسُ فِيهِ لِلْقَضَاءِ، وَهُوَ مِنَ الْعَدَاةِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ﴾ أَيُّ: عَلَى حَمْلِهِ ﴿أَمِينٌ ٣٩﴾ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْجَوَاهِرِ وَغَيْرِهَا، قَالَ سُلَيْمَانُ: أُرِيدُ أَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ. ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الْمُنَزَّلُ وَهُوَ «أَصْفُ بْنُ بَرْخِيَا» كَانَ صَدِيقًا يَعْلَمُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمَ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أُجِيبَ ﴿أَنَا عَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ إِذَا نَظَرْتَ بِهِ إِلَى شَيْءٍ، قَالَ لَهُ: انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ رَدَّ بَطْرَفَهُ فَوَجَدَهُ مَوْضُوعًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَفِي نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ دَعَا أَصْفُ بِالْإِسْمِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَأْتِيَ اللَّهُ بِهِ فَحَصَلَ بَأَنْ جَرَى تَحْتَ الْأَرْضِ حَتَّى نَبَعَ تَحْتَ كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ^(٢) ﴿فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا﴾ سَاكِنًا ﴿عِنْدَهُ قَالَ هَذَا﴾ أَيُّ: الْإِتْيَانُ لِي بِهِ ﴿مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي﴾ لِيَخْتَبِرَنِي

على قوله: ﴿أَذَلَّةٌ﴾ وقف تام، فقال الله عز وجل تحقيقاً وتصديقاً لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾. وقيل: هذه الجملة من تمام كلامها، فيكون من جملة مقول قولها أكدت به ما قبله، وعلى الأول مستأنفة لا محل لها من الإعراب. [صديق حسن (١٠/ ٤١)].

(١) القيل: الملك من ملوك حمير. [تاج العروس (٣٠/ ٣٠٨)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر ٥٠]. فالله تبارك وتعالى إذا أجاب الداعي لا يحتاج إلى مدة ولا إلى مهلة، ولكن مع ذلك يقدر الله تبارك وتعالى الأمور بأسبابها... وقوله: «انظر إلى السماء»، «ففي نظره إلى السماء دعا أصف بالاسم الأعظم»،

﴿أَشْكُرُ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالَ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ الْأُخْرَى وَتَرْكِه ﴿أَمْ أَكْفُرُ﴾^ط النِّعْمَةَ ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ أَي: لِأَجْلِهَا لِأَنَّ ثَوَابَ شُكْرِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ النِّعْمَةَ ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ﴾ عَنْ شُكْرِهِ ﴿كَرِيمٌ﴾ ﴿بِالْإِفْضَالِ عَلَى مَنْ يَكْفُرُهَا﴾ ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أَي: غَيَّرُوهُ إِلَى حَالٍ تُنْكِرُهُ إِذَا رَأَتْهُ ﴿نَنْظُرُ أَتَهْتَدِي﴾ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾^{١١} إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يُغَيِّرُ عَلَيْهِمْ، قَصَدَ بِذَلِكَ اخْتِبَارَ عَقْلِهَا، لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ فِيهِ شَيْئًا^(١٠)، فَغَيَّرُوهُ بزيادةٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ﴾ لَهَا: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ أَي: أَمِثْلُ هَذَا عَرْشِكَ؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أَي: فَعَرَفْتُهُ، وَشَبَّهَتْ عَلَيْهِمْ كَمَا شَبَّهُوا عَلَيْهَا، إِذْ لَمْ يَقُلْ: أَهَذَا عَرْشُكَ؟ وَلَوْ قِيلَ: هَذَا، قَالَتْ: نَعَمْ^(١٢)، قَالَ سُلَيْمَانُ لَمَّا رَأَى لَهَا مَعْرِفَةً وَعِلْمًا: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾^{١٣} وَصَدَّهَا عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ﴿مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^{١٤} قِيلَ لَهَا: ﴿أَدْخِلِي الصَّرْحَ﴾ هُوَ سَطْحٌ مِنْ زُجَاجٍ أَبْيَضَ شَفَافٍ، تَحْتَهُ مَاءٌ عَذْبٌ جَارٍ فِيهِ سَمَكٌ، إِصْطَنَعَهُ سُلَيْمَانُ لَمَّا قِيلَ لَهُ: إِنَّ سَاقِيَهَا وَرَجْلَيْهَا كَقَدَمَيِ الْحِمَارِ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ مِنَ الْمَاءِ ﴿وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا﴾ لِتَخُوضَهُ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ عَلَى سَرِيرِهِ فِي صَدْرِ الصَّرْحِ، فَرَأَى سَاقِيَهَا وَقَدَمَيْهَا حَسَانًا ﴿قَالَ﴾ لَهَا: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ﴾ مُمَلَّسٌ ﴿مِنْ قَوَارِيرٍ﴾ أَي: زُجَاجٍ، وَدَعَاَهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِعِبَادَةِ غَيْرِكَ ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ كَائِنَتْهُ ﴿مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^{١٥} وَأَرَادَ تَزَوُّجَهَا فَكَّرَهُ شَعْرُ سَاقِيهَا، فَعَمِلَتْ لَهُ الشَّيَاطِينُ الثُّورَةَ فَأَزَّالَتْهُ بِهَا^(١٦)، فَتَزَوَّجَهَا وَأَحَبَّهَا وَأَقْرَبَهَا عَلَى مُلْكِهَا، وَكَانَ يَزُورُهَا فِي كُلِّ شَهْرٍ مَرَّةً وَيُقِيمُ عِنْدَهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَانْقَضَى مُلْكُهَا بِانْقِضَاءِ

«نبت من تحت الكرسي»، كل هذا لا ينبغي الجزم به، بل يقال: إن الله على كل شيء قدير. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ٢١٥)].

(١) ﴿نَنْظُرُ﴾ فقرأ بالجزم على الجواب، وبالرفع على الاستئناف، واختلفوا في ﴿أَتَهْتَدِي﴾ على وجهين: أحدهما: أتعرف أنه عرشها أم لا؟ الثاني: أتعرف به نبوة سليمان أم لا؟ ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ وذلك كالذم ولا يليق إلا بطريقة الدلالة، فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار متفقاً من المكان البعيد إلى هناك، وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام، ويعرف بذلك أيضاً فضل عقلها لأغراض كانت له، فعند ذلك سألتها. [الرازي (٥٥٨/٢٤)].

(٢) قال عكرمة: كانت حكيمة: قال: إن قلت: هو خشيت أن أكذب، وإن قلت: لا خشيت أن أكذب، فقالت: كأنه هو. [الواحيدي (٢٤٧/١٧)].

(٣) [ورد في أثر] منكر غريب جداً، ولعله من أوهام عطاء بن السائب على ابن عباس، والله أعلم. والأقرب في مثل هذه السياقات أنها متلفاه عن أهل الكتاب، مما يوجد في صحفهم، كروايات كعب ووهب سامحهما الله تعالى فيما نقلاه إلى هذه الأمة من أخبار بني إسرائيل، ... مما حرف وبدل ونسخ. وقد أغنانا الله سبحانه عن ذلك بما هو أصح منه وأنفع وأوضح وأبلغ، والله الحمد والمنة. [ابن كثير (١٩٧/٦)].

مُلْكٍ سَلِيمًا، رُوي أَنَّهُ مَلَكَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةِ سَنَةٍ، وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ وَخَمْسِينَ سَنَةً، فَسُبْحَانَ مَنْ لَا انْقِصَاءَ لِدَوَامِ مُلْكِهِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾ مِنَ الْقَبِيلَةِ ﴿صَلِّحًا أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ وَحَدُّهُ ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ٤٥﴾ فِي الدِّينِ فَرِيقٌ مُؤْمِنُونَ مِنْ حِينَ إِرْسَالِهِ إِلَيْهِمْ وَفَرِيقٌ كَافِرُونَ. ﴿قَالَ﴾ لِلْمُكَذِّبِينَ: ﴿يَقُومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أَي: بِالْعَذَابِ قَبْلَ الرَّحْمَةِ، حَيْثُ قُلْتُمْ: إِنْ كَانَ مَا أَتَيْنَا بِهِ حَقًّا فَاتِنَا بِالْعَذَابِ ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ﴾ مِنَ الشَّرِّ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ فَلَا تُعَذِّبُونَ. ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا﴾ أَصْلُهُ «تَطَيَّرْنَا» أَذْغَمَتِ النَّاءُ فِي الطَّاءِ وَاجْتَلَبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ، أَي: تَشَاءُ مِنَّا ﴿بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ، حَيْثُ قَحَطُوا الْمَطَرَ وَجَاعُوا ﴿قَالَ طَطِيرُكُمْ﴾ شُؤْمُكُمْ ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أَتَاكُمْ بِهِ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ٤٧﴾ تُخْتَبَرُونَ بِالْخَيْرِ وَالشَّرِّ. ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ مَدِينَةُ ثَمُودَ ﴿تِسْعَةُ رَهْطٍ﴾ أَي: رِجَالٍ ﴿يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْمَعَاصِي، مِنْهَا قَرْضُهُمُ الدَّنَانِيرَ وَالْدَرَاهِمَ ^(١) ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ ٤٨﴾ بِالطَّاعَةِ. ﴿قَالُوا﴾ أَي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿تَقَاسَمُوا﴾ أَي: اِحْلِفُوا ﴿بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ بِالنُّونِ، وَالتَّاءُ وَضَمُّ التَّاءِ الثَّانِيَةِ ﴿وَأَهْلَهُ﴾ أَي: مَنْ آمَنَ بِهِ، أَي: نَقْتُلُهُمْ لَيْلًا ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ﴾ بِالنُّونِ، وَالتَّاءُ وَضَمُّ اللَّامِ الثَّانِيَةِ ﴿لَوْلِيَّهِ﴾ أَي: وَلِيِّ دِمِهِ ﴿مَا شَهِدْنَا﴾ حَضَرْنَا ﴿مُهِلِكَ أَهْلِهِ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَي: إِهْلَاكَهُمْ، أَوْ هَلَاكَهُمْ، فَلَا نَذْرِي مَنْ قَتَلَهُمْ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ٤٩﴾ وَمَكْرُوا فِي ذَلِكَ ﴿مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ أَي: جَازَيْنَاهُمْ بِتَعْجِيلِ عُقُوبَتِهِمْ ^(٢) ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ٥١﴾ بِصِيحَةِ جَبْرِيلَ، أَوْ بِرَمِي الْمَلَائِكَةِ بِحِجَارَةٍ يَرَوْنَهَا وَلَا يَرَوْنَهُمْ. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ

(١) قيل: إنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم ولفظ الفساد أعم من ذلك. [ابن جزي (٢/ ١٠٤)]. وهم الذين اتفقوا على عقر الناقة،

وهم غواة قوم صالح، ورأسهم قدار بن سالف، وهو الذي تولى عقرها، كانوا يعملون بالمعاصي. [البغوي (٦/ ١٧٠)].

(٢) الصحيح في هذه المسألة الذي عليه أهل السنة والجماعة: أن الله تعالى يوصف بالمكر لا على الإطلاق، فلا يقال: إن الله مكر؛ لأنه على الإطلاق يتضمن صفة الذم، وإنما يقال: مكرٌ بمن يمكر به أو بمن يستحق المكر، وحيثُ يكون صفة مدح. والصفات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: أحدها: صفاتٌ حسنى بكل حال، فهذه ثابتةٌ لله على وجه الإطلاق، كالسمع، والبصر، والعلم، والحياة، والقدرة، وما أشبه ذلك. والثاني: صفاتٌ نقصٍ على كل حال أو صفاتٌ سوءٍ على كل حال، فهذه يُنزه الله عنها على كل حال، مثل: الظلم، والغوب، والجهل، والعمى، والموت، والمرض، والجوع، والعطش، والولادة، والوزير والشريك وما إلى ذلك، هذه ينزه الله عنها في كل حال. والثالث: صفاتٌ ذات وجهين؛ تكون مدحًا في حال، وتكون ذمًا في حال، فهذه لا يوصف الله بها بإطلاق، ولا تنفى عنه على الإطلاق، مثل: المكر، والخداع، والاستهزاء، والسخرية، وأمثالها، هذه لا يوصف الله بها على كل حال، ولا تنفى عنه في كل حال، بل يوصف بها حيث تكون كمالًا، وتنفى عنه حيث تكون نقصًا. [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ٢٩٤)].

حَاوِيَةً ﴿٥١﴾ أَي: خَالِيَةً، وَنَضَبُهُ عَلَى الْحَالِ وَالْعَامِلِ فِيهَا مَعْنَى الْإِشَارَةِ ﴿بِمَا ظَلَمُوا﴾ بِظُلْمِهِمْ، أَي: كُفْرِهِمْ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّعِبْرَةٍ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ قُدِّرْنَا فَيَتَعَطُّونَ. ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بِصَالِحٍ، وَهُمْ أَرْبَعَةُ آلَافٍ ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ الشَّرْكَ. ﴿وَلَوْطًا﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» مُقَدَّرًا قَبْلَهُ، وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُحِشَةَ﴾ أَي: اللَّوْطَ ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ أَي: يُبْصِرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا إِنَّهُمَا كَا فِي الْمَعْصِيَةِ. ﴿أَيْنَكُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ عَاقِبَةُ فِعْلِكُمْ. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ﴾ أَهْلُهُ ﴿مِّنْ قَرَيْتِكُمْ﴾ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ مِنْ أَدْبَارِ الرِّجَالِ. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ قَدَرْنَاهَا﴾ جَعَلْنَاهَا بِتَقْدِيرِنَا ﴿مِّنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ هُوَ حِجَارَةُ السَّجِيلِ أَهْلَكْتَهُمْ ﴿فَسَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ بِالْعَذَابِ مَطَرُهُمْ. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى هَلَاكِ الْكُفَّارِ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ هُمْ ﴿ءَالِلَهُ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَيْنِ وَإِنْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِه١ ﴿خَيْرٌ﴾ لِمَنْ يَعْبُدُهُ ﴿أَمَّا تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، أَي: أَهْلُ مَكَّةَ بِهِ، أَي: الْإِلَٰهَةُ خَيْرٌ لِّعَابِدِيهَا٢؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهِ الْغَنَاءَ﴾ إِلَى التَّكْلِمْ ﴿بِهِ﴾ حَدَاقٍ ﴿جَمْعُ حَدِيقَةٍ﴾، وَهُوَ: الْبُسْتَانُ الْمَحُوطُ ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ حُسْنٍ ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ لِعَدَمِ قُدْرَتِكُمْ عَلَيْهِ ﴿أَلَيْسَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي مَوَاضِعِهِ السَّبْعَةِ ﴿مَعَ اللَّهِ﴾ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ؟ أَي: لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ غَيْرَهُ. ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ أَي: لَا تَمِيدُ بِأَهْلِهَا ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا﴾ فِيمَا بَيْنَهَا ﴿أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوْسِي﴾ جِبَالًا أَثْبَتَ بِهَا الْأَرْضَ ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ بَيْنَ الْعَذْبِ وَالْمِلْحِ، لَا يَخْتَلِطُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ تَوْحِيدَهُ. ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾ الْمَكْرُوبَ الَّذِي مَسَّهُ الضَّرُّ ﴿إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى «فِي»، أَي: يَخْلُفُ كُلُّ قَرْنٍ الْقَرْنَ الَّذِي قَبْلَهُ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا﴾

(١) وهم من المحلي إذ لا يصح من هذه القراءات إلا اثنتان الثانية والثالثة أما الأولى والرابعة فلا تصح.

(٢) على وجه الرد على المشركين، فدخلت خير التي يراد بها التفضيل لتبكيته وتعنيفهم، مع أنه معلوم أنه لا خير فيما أشركوا أصلاً، ثم

أقام عليهم الحجة بأن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وبغير ذلك مما ذكره إلى تمام هذه الآيات. [ابن جزي (١٠٥/٢)].

مَا تَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ تَتَعَطَّوْنَ بِالْمُوقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ، وَفِيهِ إِدْعَامُ النَّاءِ فِي الدَّالِ وَ ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ لِتَقْلِيلِ الْقَلِيلِ. ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ﴾ يُرْشِدُكُمْ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ بِالنُّجُومِ لَيْلًا، وَبِعَلَامَاتِ الْأَرْضِ نَهَارًا ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قَدَامَ الْمَطَرِ ﴿أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ بِهِ غَيْرُهُ. ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ﴾ فِي الْأَرْحَامِ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَإِنْ لَمْ تَعْتَرِفُوا بِالْإِعَادَةِ لِقِيَامِ الْبَرَاهِينِ عَلَيْهَا ﴿وَمَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ بِالْمَطَرِ﴾ وَالْأَرْضِ ﴿بِالنَّبَاتِ﴾ ﴿أَءَلَهُ مَعَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: لَا يَفْعَلُ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا إِلَهَ مَعَهُ ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حُجَّتَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ أَنْ مَعِيَ إِلَهًا فَعَلَّ شَيْئًا مِمَّا ذُكِرَ. وَسَأَلُوهُ عَنْ وَقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ، فَتَرَلَّ: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ ﴿الْغَيْبِ﴾ أَيُّ: مَا غَابَ عَنْهُمْ ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أَيُّ: الْكُفَّارُ كَغَيْرِهِمْ ﴿أَيَّانَ﴾ وَقْتُ ﴿يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلْ بِمَعْنَى: «هَلْ» ﴿أَذْرَكَ﴾ بِوزْنِ «أَكْرَمَ»، وَفِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى: ﴿أَذْرَكَ﴾ بِتَشْدِيدِ الدَّالِ، وَأَصْلُهُ «تَذَارَكَ» أُبْدِلَتْ النَّاءُ دَالًا وَأُدْغِمَتْ فِي الدَّالِ وَاجْتَلِبَتْ هَمْزَةُ الْوَصْلِ، أَيُّ: بَلَغَ وَلَحِقَ، أَوْ تَتَابَعَ وَتَلَا حَقَّ ﴿عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: بِهَا، حَتَّى سَأَلُوا عَنْ وَقْتِ مَجِيئِهَا، لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ مِنْ عَمَى الْقَلْبِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِمَّا قَبْلَهُ، وَالْأَصْلُ «عَمِيُونَ» اسْتَشْفَلَتِ الضَّمَّةُ عَلَى الْيَاءِ فَنَقَلَتْ إِلَى الْمِيمِ بَعْدَ حَذْفِ كَسْرِتِهَا. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْضًا فِي إِنْكَارِ الْبَعْثِ: ﴿أَءَذَا كُنَّا تُرَابًا وَعَابَاؤُنَا أَنِنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ مِنَ الْقُبُورِ. ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَعَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ، أَيُّ: مَا سَطَرَ مِنَ الْكَذِبِ. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ بِإِنْكَارِهِمْ وَهِيَ هَلَاكُهُمْ بِالْعَذَابِ. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَيُّ: لَا تَهْتَمَّ بِمَكْرِهِمْ عَلَيْكَ، فَأَنَا نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ فِيهِ. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ﴾ قَرَبٌ ﴿لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ فَحَصَلَ لَهُمُ الْقَتْلُ بِيَدْرِ، وَبَاقِي الْعَذَابِ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ وَمِنْهُ تَأْخِيرُ الْعَذَابِ عَنِ الْكُفَّارِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ فَالْكُفَّارُ لَا يَشْكُرُونَ تَأْخِيرَ الْعَذَابِ لِإِنْكَارِهِمْ وَقُوعَهُ. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تُخْفِيهِ ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ بِالْأَسْتِثْمِ﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿الِهَاءُ لِلْمُبَالَغَةِ﴾ أَيُّ: شَيْءٌ فِي غَايَةِ الْخَفَاءِ عَلَى النَّاسِ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ بَيْنَ، هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، وَمَكْنُونُ عِلْمِهِ تَعَالَى، وَمِنْهُ تَعْذِيبُ الْكُفَّارِ. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أَلَمْؤُودِينَ فِي زَمَانٍ نَبِيًّا ﴿أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ أَيُّ: بَيَّانِ مَا ذُكِرَ عَلَى وَجْهِهِ الرَّافِعِ لِلِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ

لَوْ أَخَذُوا بِهِ وَأَسْلَمُوا. ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ مِنَ الْعَذَابِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ كَغَيْرِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿بِحُكْمِهِ﴾ أَي: عَدْلِهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿٧٨﴾ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ، فَلَا يُمْكِنُ أَحَدًا مُخَالَفَتُهُ كَمَا خَالَفَ الْكُفَّارُ فِي الدُّنْيَا أَنْبِيََاءَهُ. ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ثِقْ بِهِ ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ ﴿٧٩﴾ أَي: الدِّينِ الْبَيِّنِ، فَالْعَاقِبَةُ لَكَ بِالنَّصْرِ عَلَى الْكُفَّارِ. ثُمَّ ضَرَبَ أَمْثَالًا لَهُمْ بِالْمَوْتِ^(١) وَالصُّمِّ وَالْعُمَى فَقَالَ: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَاءِ ﴿وَلَوْ أُمْدِرِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَلَتِهِمْ إِنْ ﴿مَا﴾ ﴿تُسْمِعُ﴾ سَمَاعَ إِفْهَامٍ وَقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ مُخْلِصُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ. ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ حَقَّ الْعَذَابُ أَنْ يَنْزَلَ بِهِمْ فِي جُمْلَةِ الْكُفَّارِ ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ أَي: تُكَلِّمُ الْمَوْجُودِينَ حِينَ خُرُوجِهَا بِالْعَرَبِيَّةِ، تَقُولُ لَهُمْ مِنْ جُمْلَةٍ كَلَامِهَا عَنَّا: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ كُفَّارٌ مَّكَّةَ، وَعَلَى قِرَاءَةِ فَتْحِ هَمْزَةٍ ﴿أَنَّ﴾ تُقَدَّرُ الْبَاءُ بَعْدَ ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ ﴿كَأَنَّا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ أَي: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ^(٢)، وَبِخُرُوجِهَا يَنْقَطِعُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ

(١) أي: لا تسمع الكفار الذين أُمات الله قلوبهم، وكتب عليهم الشقاء في سابق علمه إسماع هدى وانتفاع ... ومن القرائن القرآنية الدالة على ما ذكرنا، أنه جل وعلا قال بعده: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَلَتِهِمْ﴾ فمقابلته جل وعلا بالإسماع المنفي في الآية عن الموتى بالإسماع المثبت فيها لمن يؤمن بآياته، فهو مسلم ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ دليل واضح على أن المراد بالموت في الآية موت الكفر والشقاء، واعلم أن استقراء القرآن العظيم يدل على هذا المعنى؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦] وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم أن المراد بالموتى الكفار. [الشنقيطي (٦/ ٤٦٠)].

(٢) هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق، يخرج الله لهم دابة من الأرض قيل: من مكة. وقيل: من غيرها. فتكلم الناس على ذلك. قال ابن عباس، والحسن، وقتادة وروى عن علي: تكلمهم كلاما، أي: تخاطبهم مخاطبة. وقال عطاء الخراساني: تكلمهم فتقول لهم: ﴿أَنَّ النَّاسَ كَأَنَّا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾. واختاره ابن جرير. وفي هذا القول نظر لا يخفى، والله أعلم. وقال ابن عباس في رواية تجرحهم. وعنه رواية، قال: كُلا تفعل يعني هذا وهذا، وهو قول حسن، ولا منافاة، والله أعلم ... عن عبد الله بن عمرو قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ آيَاتِ خُرُوجِ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ صُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَلَا أُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا﴾. أخرجه مسلم (٢٩٤١)، ورواه الإمام أحمد (٧٩٣٧) وقال: «فَتَخْطُمُ أَنْفَ الْكَافِرِ بِالْخَاتَمِ، وَتَجْلُو وَجْهَ الْمُؤْمِنِ بِالْعَصَا، حَتَّى إِنَّ أَهْلَ الْخَوَانِ الْوَاحِدِ لَيَجْتَمِعُونَ فَيَقُولُ هَذَا: يَا مُؤْمِنُ، وَيَقُولُ هَذَا: يَا كَافِرُ». [ابن كثير (٦/ ٢١٠)].

الْمُنْكَرِ، وَلَا يُؤْمِنُ كَافِرٌ^(١)، كَمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نُوحٍ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. ﴿وَ﴾
 اذْكُرْ ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ جَمَاعَةً ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا﴾ وَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمُ الْمُتَّبِعُونَ ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾^(٢)
 أَيُّ: يُجْمَعُونَ بِرَدِّ آخِرِهِمْ إِلَى أَوَّلِهِمْ ثُمَّ يُسَاقُونَ. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا﴾ مَكَانَ الْحِسَابِ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ: ﴿أَكْذَبْتُمْ﴾
 أَنْبِيَائِي ﴿بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا﴾ مِنْ جَهَةِ تَكْذِيبِكُمْ ﴿بِهَا عِلْمًا أَمَّا﴾ فِيهِ إِدْعَاؤُ «مَا» الِاسْتِفْهَامِيَّةِ ﴿ذَا﴾ مَوْصُولٌ، أَيُّ: مَا
 الَّذِي ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) مِمَّا أَمَرْتُمْ بِهِ. ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ﴾ حَقَّ الْعَذَابِ ﴿عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أَيُّ: أَشْرَكُوا ﴿فَهُمْ لَا
 يَنْطِقُونَ﴾^(٤) إِذْ لَا حُجَّةَ لَهُمْ. ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا﴾ خَلْقَنَا ﴿الْإِلَّٰلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾ كَغَيْرِهِمْ ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا﴾
 بِمَعْنَى: يُبْصَرُ فِيهِ لِيَتَصَرَّفُوا فِيهِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٥) خُصُّوا بِالذِّكْرِ
 لِإِنْتِفَاعِهِمْ بِهَا فِي الْإِيمَانِ بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الْقَرْنِ النَّفْخَةِ الْأُولَى مِنْ إِسْرَافِيلَ ﴿فَفَزِعَ مَنْ
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ خَافُوا الْخَوْفَ الْمُفْضِي إِلَى الْمَوْتِ كَمَا فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿فَصَعَقَ﴾^(٦) وَالتَّعْيِيرُ فِيهِ
 بِالْمَاضِي لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ أَيُّ: جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَمَلَكُ الْمَوْتِ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُمْ
 الشُّهَدَاءُ إِذْ هُمْ ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿وَكُلٌّ﴾ تَنْوِينُهُ عَوَظٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَيُّ: وَكُلُّهُمْ
 بَعْدَ إِحْيَائِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أَنَّهُ﴾ بِصِيغَةِ الْفَعْلِ وَاسْمِ الْفَاعِلِ ﴿دَاخِرِينَ﴾^(٧) صَاغِرِينَ، وَالتَّعْيِيرُ فِي الْإِثْنَانِ بِالْمَاضِي
 لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهِ. ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ﴾ تُبْصَرُهَا وَقْتَ النَّفْخَةِ ﴿تَحْسِبُهَا﴾ تَظُنُّهَا ﴿جَامِدَةً﴾ وَاقِفَةً مَكَانَهَا لِعِظَمِهَا ﴿وَهِيَ تَمُرُّ
 مَرَّ السَّحَابِ﴾ الْمَطَرِ إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ، أَيُّ: تَسِيرُ سِيرُهُ حَتَّى تَفْعَ عَلَى الْأَرْضِ، فَتَسْتَوِي بِهَا مَبْسُوسَةً^(٨)، ثُمَّ تَصِيرُ
 كَالْعِهْنِ، ثُمَّ تَصِيرُ هَبَاءً مَشُورًا ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَصْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ أُضِيفَ إِلَى فَاعِلِهِ بَعْدَ حَذْفِ عَامِلِهِ،
 أَيُّ: صَنَعَ اللَّهُ ذَلِكَ صُنْعًا ﴿الَّذِي أَتَقَنَ﴾ أَحْكَمَ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ صَنَعَهُ ﴿إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٩) بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، أَيُّ:
 أَعْدَاؤُهُ مِنَ الْمَعْصِيَةِ، وَأَوْلِيَائُهُ مِنَ الطَّاعَةِ. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ أَيُّ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَلَهُ خَيْرٌ﴾ ثَوَابٌ

(١) نقول: إيماننا بهذا أن نقول: إنه إذا وقع القول على الناس باستحقاق العذاب أخرج الله لهم هذه الدابة التي تكلمهم، ولا نزيد على هذا،
 ولا نقول: ينقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا نقول: إنه لا يؤمن كافر؛ لأن ذلك أمر يحتاج إلى توقيف. [ابن عثيمين تفسير
 النمل (ص: ٤٦٤)].

(٢) قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

(٣) «البس» الفت، يقال: بس الشيء إذا فته حتى يصير فتاتًا، ويقال: بس السوق إذا لثته بالسمن أو بالزيت. [الشوكاني (١٧٧/٥)]. ومنه
 قوله تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ [الواقعة: ٥].

﴿مِنْهَا﴾ أَي: بِسَبِّهَا وَلَيْسَ لِلتَّفْصِيلِ، إِذْ لَا فِعْلَ خَيْرٍ مِنْهَا وَفِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، ﴿وَهُمْ﴾ أَي: الْجَاءُونَ بِهَا ﴿مِنْ فَرْعٍ يَوْمِيذٍ﴾ بِالْإِضَافَةِ وَكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، وَ﴿فَزِعَ﴾ مُنَوَّنًا وَفَتْحِ الْمِيمِ ﴿ءَامِنُونَ﴾ ٨٨ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ أَي: الشَّرِّ ﴿فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ بِأَنْ وَلَيْتَهَا، وَذُكِرَتْ أَلْوَجُوهُ لِأَنَّهَا مَوْضِعُ الشَّرَفِ مِنَ الْحَوَاسِّ فَغَيَّرَهَا مِنْ بَابِ أَوْلَى، وَيُقَالُ لَهُمْ تَبَكُّيًّا: ﴿هَلْ﴾ أَي: مَا ﴿تُحْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءً ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٩٠ ﴿مِنْ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي﴾. قُلْ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ أَي: مَكَّةَ ﴿الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ أَي: جَعَلَهَا حَرَمًا آمِنًا^(١)، لَا يُسْفَكُ فِيهَا دَمُ إِنْسَانٍ وَلَا يُظْلَمُ فِيهَا أَحَدٌ وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا وَلَا يُخْتَلَى خَلَاؤها، وَذَلِكَ مِنَ النَّعْمِ عَلَى قُرَيْشٍ أَهْلِهَا فِي رَفْعِ اللَّهِ عَنْ بَلَدِهِمُ الْعَذَابَ وَالْفِتْنَ الشَّائِعَةَ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَرَبِ ﴿وَلَهُوَ﴾ تَعَالَى ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ فَهُوَ رَبُّهُ وَخَالِقُهُ وَمَالِكُهُ ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ٩١ ﴿لِلَّهِ بَتَوْحِيدِهِ﴾. ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ عَلَيْكُمْ تِلَاوَةُ الدَّعْوَى إِلَى الْإِيمَانِ ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى﴾ لَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أَي: لِأَجْلِهَا فَإِنَّ ثَوَابَ إِهْتِدَائِهِ لَهُ ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَى ﴿فَقُلْ﴾ لَهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ ٩٢ ﴿الْمُخَوِّفِينَ فَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا التَّبْلِيغُ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ^(٢)﴾. ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيَرْبِّكُمْ ءَايَتُهُ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ فَأَرَاهُمْ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرِ الْقَتْلِ وَالسَّيِّ وَضَرَبَ الْمَلَائِكَةُ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ، وَعَجَّلَهُمُ اللَّهُ إِلَى النَّارِ^(٣) ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ٩٣ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، وَإِنَّمَا يُنْهَلُهُمْ لَوْقَتِهِمْ.

(١) أي: جعلها حرماً آمناً، لا يقاتل فيها أحد ولا يتتهك حرمتها، ونسب تحريمها هنا إلى الله؛ لأنه بسبب قضائه وأمره، ونسبه النبي ﷺ إلى إبراهيم عليه السلام في قوله: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ». أخرجه البخاري (٣٣٦٧)، ومسلم (١٣٦٥). لأن إبراهيم هو الذي أعلم الناس بتحريمها، فليس بين الحديث والآية تعارض وقد جاء في حديث آخر أن: «مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». أخرجه البخاري (٤٣١٣)، ومسلم (١٣٥٣). [ابن جزي (١٠٨/٢)].

(٢) المؤلف رحمه الله يسلك هذا المسلك كثيراً في مثل هذه الآية، ويقول: «قبل الأمر بالقتال». وهذا يتضمن أن تكون الآية منسوخة، لا يعمل بها، ولكن هذا قول في غاية الضعف، والصواب: أن هذا يقال حتى بعد الأمر بالقتال. فالنبي ﷺ عليه الإنذار والتبليغ، وليس عليه الهداية، والرسول ﷺ يقرأ في كل جمعة غالباً أو كثيراً: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ ٩١ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ ٩٢ [الغاشية: ٢١-٢٢]، ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ٩٣ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ٩٤ [الغاشية: ٢٥-٢٦] وكيف تكون مثل هذه الآيات التي تكرر على المسلمين في جمعاتهم تكون منسوخة؟ [ابن عثيمين تفسير النمل (ص: ٥٣٥)].

(٣) أي: في أنفسكم وفي غيركم، كما قال [تعالى]: ﴿سَرِّبَهُمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دلائل قدرته ووحدانيته في أنفسكم وفي السماوات وفي الأرض، نظيره قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ١٠١ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ١٠٢ [الذاريات: ٢٠-٢١]. [القرطبي (٢٤٦/١٣)].

سُورَةُ الْقَصَصِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ﴾ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِالْجُحْفَةِ، وَإِلَّا ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ إِلَى ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾، وَهِيَ سَبْعٌ أَوْ ثَمَانٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَمَ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ^(١). ﴿تِلْكَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: «مِنْ» ﴿الْمُبِينِ ٢﴾ الْمُظْهِرُ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿نَتْلُوا﴾ نَقُصُّ ﴿عَلَيْكَ مِنْ نَبَأٍ﴾ خَبَرِ ﴿مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ الصَّدَقِ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣﴾ لِأَجْلِهِمْ لِأَنَّهُمْ الْمُتَتَّبِعُونَ بِهِ. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا﴾ تَكَبَّرَ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا﴾ فِرْقًا فِي خِدْمَتِهِ ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ هُمْ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴿يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ﴾ يَسْتَبْقِيهِنَّ أَحْيَاءَ؛ لِقَوْلِ بَعْضِ الْكَهَنَةِ لَهُ: إِنَّ مَوْلودًا يُولَدُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَكُونُ سَبَبَ ذَهَابِ مُلْكِكَ ﴿إِنَّهُوَ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ٤﴾ بِالْقَتْلِ وَغَيْرِهِ. ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً، يُقْتَدَى بِهِمْ فِي الْخَيْرِ ﴿وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ٥﴾ مُلْكَ فِرْعَوْنَ. ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضِ مِصْرَ وَالشَّامِ ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَيَرَى﴾ بِفَتْحِ التَّحْتَانِيَّةِ وَالرَّاءِ، وَرَفْعِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ ﴿مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ٦﴾ يَخَافُونَ، مِنَ الْمَوْلُودِ الَّذِي يَذْهَبُ مُلْكُهُمْ عَلَى يَدَيْهِ. ﴿وَأَوْحَيْنَا﴾ وَحْيَ إِبْرَاهِيمَ أَوْ مَنَامٍ ﴿إِلَىٰ أُمِّ مُوسَى﴾ وَهُوَ الْمَوْلُودُ الْمَذْكُورُ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِوِلَادَتِهِ غَيْرُ أُخْتِهِ ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتُ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ الْبَحْرِ، أَيُّ: النَّيْلِ ﴿وَلَا تَخَافِ﴾ غَرَقَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنِي﴾ لِفِرَاقِهِ ﴿إِنَّا رَأَوُوهٗ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ٧﴾ فَأَرْضَعَتْهُ ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ لَا يَبْكِي، وَخَافَتْ عَلَيْهِ فَوَضَعَتْهُ فِي تَابُوتٍ مَطْلَبٍ بِالْقَارِ مِنْ دَاخِلٍ مُمَهَّدٍ لَهُ فِيهِ وَأَغْلَقَتْهُ وَأَلْقَتْهُ فِي بَحْرِ النَّيْلِ لَيْلًا ﴿فَالْتَقَطَهُۥ﴾ بِالتَّابُوتِ صَيْحَةً اللَّيْلِ ﴿ءَالُ﴾ أَعْوَانُ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ فَوَضَعُوهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَفُتِحَ وَأُخْرِجَ مُوسَى مِنْهُ وَهُوَ يَمْصُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ لَبَنًا^(٢) ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ﴾ فِي عَاقِبَةِ الْأَمْرِ^(٣) ﴿عَدُوًّا﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وأما كونه يمص من إِبْرَاهِيمَ لَبَنًا، فهذا من الأمور الإسرائيلية التي لا تُصَدَّق ولا تُكْذَب. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص: ٣٢)].

(٣) اللام لام التعليل المعروفة بلام كي، وذلك على سبيل الحقيقة لا المجاز، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وإيضاح ذلك أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ صريح في أن الله تعالى يصرف مشيئة العبد وقدرته

يَقْتُلُ رِجَالَهُمْ ﴿وَحَزَنًا﴾ يَسْتَعْبِدُ نِسَاءَهُمْ^(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْحَاءِ وَسُكُونِ الزَّايِ، لُغَتَانِ فِي الْمَصْدَرِ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى: إِسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ «حَزَنَهُ» كَأَحْزَنَهُ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ﴾ وَزِيرُهُ ﴿وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَطِئِينَ﴾^(٨) مِنْ «الْخَطِيئَةِ»، أَيِ: عَاصِينَ فَعُوقِبُوا عَلَى يَدَيْهِ. ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ وَقَدْ هَمَّ مَعَ أَعْوَانِهِ بِقَتْلِهِ: هُوَ ﴿قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ فَأَطَاعُوهَا^(٩) ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٩) بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمْ مَعَهُ. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَى﴾ لَمَّا عَلِمَتْ بِالتَّقَاطُطِ ﴿فَرِغًا﴾ مِمَّا سِوَاهُ^(١٠) ﴿إِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيِ: إِنَّهَا ﴿كَادَتْ لِتُبْدِيَ بِهِ﴾ أَيِ: بِأَنَّهُ ابْنُهَا ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ بِالصَّبْرِ، أَيِ: سَكَّنَاهُ ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١) الْمَصْدَقِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ، وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ دَلٌّ عَلَيْهِ مَا قَبَلَهَا. ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ﴾ مَرِيَمَ: ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبِعِي أَمْرَهُ حَتَّى تَعْلَمِي خَبْرَهُ ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ﴾ أَبْصَرَتْهُ ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ اخْتِلَاسًا ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(١٢) أَنَّهَا أُخْتُهِ وَأَنَّهَا تَرْقُبُهُ. ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيِ: قَبْلَ رَدِّهِ إِلَى أُمِّهِ، أَيِ: مَنَعْنَاهُ مِنْ قَبُولِ نَدْيٍ مُرْضِعَةٍ غَيْرِ أُمِّهِ، فَلَمْ يَقْبَلْ نَدْيَ وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَرَاضِعِ الْمُحْضَرَةِ لَهُ ﴿فَقَالَتْ﴾ أُخْتُهِ: ﴿هَلْ أَذْلَكُكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ﴾ لَمَّا رَأَتْ حُنُوهُمْ عَلَيْهِ ﴿يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ بِالْإِرْضَاعِ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾^(١٣) وَفُسِّرَتْ ضَمِيرُ ﴿لَهُ﴾ بِالْمَلِكِ جَوَابًا لَهُمْ، فَأَجِيبَتْ فَجَاءَتْ بِأُمِّهِ فَقَبِلَ ثَدْيِهَا، وَأَجَابَتْهُمْ عَنْ قَبُولِهِ بِأَنَّهَا طَبِيبَةُ الرِّيحِ طَبِيبَةُ اللَّبَنِ، فَأُذِنَ لَهَا بِإِرْضَاعِهِ فِي بَيْتِهَا فَرَجَعَتْ بِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بِلِقَائِهِ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ حِينَئِذٍ ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾

بمشيئته جل وعلا، إلى ما سبق به علمه، وقد صرف مشيئة فرعون وقومه بمشيئته جل وعلا إلى التقاطعهم موسى؛ ليجعله لهم عدوا وحزنا، فكانه يقول: قدرنا عليهم التقاطع بمشيئتنا ليكون لهم عدوا وحزنا، وهذا معنى واضح، لا لبس فيه ولا إشكال، كما ترى... وبهذا التحقيق تعلم أن ما يقوله كثير من المفسرين، وينشدون له الشواهد من أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ لام العاقبة والصيرورة خلاف الصواب، وأن ما يقوله البيانيون من أن اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ فيها استعارة تبعية في متعلق معنى الحرف، خلاف الصواب أيضا. [الشنقيطي (٦/٥٠٠)].

(١) [أي: يكون لهم عدوا في دينهم، وحزنا على ما ينالهم منه من المكروه]. [الطبري (١٨/١٦٢)].

(٢) كان قولها لهذا القول عند رؤيتها له، لما وصل إليها وأخرجته من التابوت، وخاطبت بقولها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ فرعون ومن عنده من قومه... قيل: إنها قالت: هذا الولد أكبر من سنه، وأنت تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي. [صديق حسن (١٠/٩٢)].

(٣) أي: خاليا من العقل. لما دهمها من فرط الجزع، وأطار عقلها من الدهش، لما بلغها وقوعه في يد فرعون... قال الزمخشري: ويجوز، وأصبح فؤادها فارغا من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه. إن كادت لتبدي بأنه ولدها، لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت. لولا أنا طامنا قلبها وسكنا قلقه الذي حدث به من شدة الفرح والابتهاج، لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله، لا بتبني فرعون وتعطفه. [القاسمي (٧/٥١٥)].

بَرَدَهُ إِلَيْهَا ﴿حَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَي: النَّاسِ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣﴾ بِهَذَا الْوَعْدِ، وَلَا بَانَ هَذِهِ أُخْتُهُ وَهَذِهِ أُمُّهُ^(١)، فَمَكَثَ عِنْدَهَا إِلَى أَنْ فَطَمَتْهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهَا أُجْرَتَهَا لِكُلِّ يَوْمٍ دِينَارٌ، وَأَخَذَتْهَا لِأَنَّهَا مَالُ حَرْبِي، فَاتَتْ بِهِ فِرْعَوْنَ فَتَرَبَّى عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]. ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ وَهُوَ ثَلَاثُونَ سَنَةً، أَوْ وَثَلَاثٌ ﴿وَأَسْتَوَى﴾ بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ حِكْمَةً ﴿وَعِلْمًا﴾ فَقَهَا فِي الدِّينِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيًّا ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجَزَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٤﴾ لَا نَفْسِهِمْ. ﴿وَدَخَلَ﴾ مُوسَى ﴿الْمَدِينَةَ﴾ مَدِينَةَ فِرْعَوْنَ وَهِيَ: «مَنْفُ» بَعْدَ أَنْ غَابَ عَنْهَا مُدَّةٌ ﴿عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ وَقَتَ الْقِيلُولَةِ ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أَي: إِسْرَائِيلِي ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ أَي: قِبْطِي يُسَخِّرُ إِسْرَائِيلِيًّا لِيَحْمِلَ حَطْبًا إِلَى مَطْبَخِ فِرْعَوْنَ ﴿فَاسْتَغْتَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فَقَالَ لَهُ مُوسَى: خَلِّ سَبِيلَهُ، فَقِيلَ إِنَّهُ قَالَ لِمُوسَى: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَحْمِلَهُ عَلَيْكَ ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى﴾ أَي: ضَرَبَهُ بِجَمْعِ كَفٍّ وَكَانَ شَدِيدَ الْقُوَّةِ وَالْبَطْشِ ﴿فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ أَي: قَتَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَصْدَ قَتْلِهِ^(٢)، وَدَفَنَهُ فِي الرَّمْلِ ﴿قَالَ هَذَا﴾ أَي: قَتَلَهُ ﴿مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ الْمُهَيِّجِ غَضَبِي ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ﴾ لِابْنِ آدَمَ ﴿مُضِلٌّ﴾ لَهُ ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ بَيْنَ الْإِضْلَالِ. ﴿قَالَ﴾ نَادِمًا: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بِقَتْلِهِ ﴿فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ أَي: الَّتِي تَصِفُ بِهِمَا أَزَلًا وَأَبَدًا. ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ﴾ بِحَقِّ إِنْعَامِكَ ﴿عَلَيَّ﴾ بِالْمَغْفِرَةِ اعْصِمْنِي ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ عَوْنًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ الْكَافِرِينَ بَعْدَ هَذِهِ إِنْ عَصَمْتَنِي^(٣). ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يَتَنَظَّرُ مَا يَنَالُهُ مِنْ جِهَةِ الْقَتِيلِ ﴿فَإِذَا الَّذِي اُسْتَنْصَرُهُ

(١) استمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يترى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليها. وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله، صدقًا وحقًا. [السعدي (ص: ٦١٢)].

(٢) أي: قتلته، ولم يرد أن يقتله ولكن وافقت وكزته الأجل، فندم وقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أَي: إِنْ الْغَضَبُ الَّذِي أَوْجَبَ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الشَّيْطَانِ، ثُمَّ اعترف واستغفر فغفر الله له، فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ اسْتَغْفَرَ مِنَ الْقَتْلِ وَكَانَ الْمَقْتُولُ كَافِرًا؟ فَالْجَوَابُ أَنَّهُ لَمْ يُوْذَنْ لَهُ فِي قَتْلِهِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿إِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُؤْمَرْ بِقَتْلِهَا﴾. أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤). [ابن جزي (٢/ ١١٠)].

(٣) قال عليه السلام معاهد الرب عز وجل: «رب بنعمتك علي وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون معينا للمجرمين»، هذا أحسن ما تؤول، وقال الطبري: إنه قسم، أقسم بنعمة الله تبارك وتعالى. ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإنه غير متمكن في قوله: ﴿فَلَنْ أَكُونَ﴾؛

بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ ﴿١٧﴾ يَسْتَعِثُّ بِهِ عَلَى قِبْطِيٍّ آخَرَ ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٨﴾ بَيْنَ الْغَوَايَةِ لِمَا فَعَلْتَهُ بِالْأَمْسِ وَالْيَوْمِ. ﴿فَلَمَّا أَنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لِمُوسَى وَالْمُسْتَعِثُّ بِهِ ﴿قَالَ﴾ الْمُسْتَعِثُّ ظَنًّا أَنَّهُ يَبْطِشُ بِهِ لِمَا قَالَ لَهُ ﴿يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنَّ﴾ مَا ﴿تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فَسَمِعَ الْقَبْطِيُّ ذَلِكَ فَعَلِمَ أَنَّ الْقَاتِلَ مُوسَى، فَانْطَلَقَ إِلَى فِرْعَوْنَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَأَمَرَ فِرْعَوْنَ الذَّبَّاحِينَ بِقَتْلِ مُوسَى، فَأَخَذُوا فِي الطَّرِيقِ إِلَيْهِ. ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ﴾ هُوَ مُؤْمِنٌ آلِ فِرْعَوْنَ ﴿مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ آخِرَهَا ﴿يَسْعَى﴾ يُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ مِنْ طَرِيقٍ أَقْرَبَ مِنْ طَرِيقِهِمْ ﴿قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنَ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ يَأْتِمِرُونَ بِكَ ﴿يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ﴾ لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرَجَ ﴿مِنَ الْمَدِينَةِ﴾ إِلَى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فِي الْأَمْرِ بِالْخُرُوجِ. ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لِحُوقِ طَالِبٍ أَوْ غَوْتِ اللَّهِ إِيَّاهُ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢١﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ. ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ قَصَدَ بَوَجهِهِ ﴿تَلَقَّاهُ مَدْيَنَ﴾ جِهَتَهَا وَهِيَ قَرْيَةُ شُعَيْبٍ مَّسِيرَةً ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ مِنْ مِصْرَ، سُمِّيَتْ بِمَدْيَنَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ طَرِيقَهَا ﴿قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿٢٢﴾ أَيُّ: قَصَدَ الطَّرِيقَ، أَيُّ: الطَّرِيقَ الْوَسْطَ إِلَيْهَا، فَأَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِيَدِهِ عَنَزَةٌ فَاْنْطَلَقَ بِهِ إِلَيْهَا^(١). ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾ بَرَّ فِيهَا، أَيُّ: وَصَلَ إِلَيْهَا ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً﴾ جَمَاعَةً ﴿مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مَوَاشِيَهُمْ ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ سِوَاهُمْ﴾ أَمْرَاتَيْنِ تَذُودَانِ ﴿تَمْنَعَانِ أَغْنَامَهُمَا عَنِ الْمَاءِ﴾ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى لَهُمَا: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أَيُّ: مَا شَأْنُكُمَا لَا تَسْقِيَانِ؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ﴾ جَمْعُ «رَاعٍ»، أَيُّ: يَرْجِعُوا مِنْ سَقْيِهِمْ، خَوْفَ الزَّحَامِ فَنَسْقِي، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُصْدِرُ﴾ مِنَ الرُّبَاعِيِّ، أَيُّ: يَصْرِفُوا مَوَاشِيَهُمْ عَنِ الْمَاءِ ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَسْقِيَ. ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ مِنْ بئرٍ أُخْرَى بِقُرْبِهِمَا، رَفَعَ حَجَرًا عَنْهَا لَا يَرْفَعُهُ إِلَّا عَشْرَةُ أَنْفُسٍ ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾ انْصَرَفَ ﴿إِلَى الظِّلِّ﴾ لِسَمَرَةٍ مِنْ شِدَّةِ حَرِّ الشَّمْسِ وَهُوَ جَائِعٌ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ طَعَامٍ ﴿فَقِيرٌ﴾ ﴿٢٤﴾ مُحْتَاجٌ، فَرجَعْنَا إِلَى أَبِيهِمَا فِي زَمَنِ أَقَلِّ مِمَّا كَانَتَا تَرْجِعَانِ فِيهِ، فَسَأَلَهُمَا عَنْ ذَلِكَ فَأَخْبَرَتَاهُ بِمَنْ سَقَى لَهُمَا، فَقَالَ لِأَحَدَاهُمَا: ادْعِ لِي. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ أَيُّ: وَاضِعَةً كُمِ دِرْعَهَا عَلَى وَجْهَهَا حَيَاءً مِنْهُ ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي

لأن القسم لا يتلقى بـ «لن»، والفاء تمنع أن تنزل «لن» منزلة «لا» أو «ما» فتأمله، ... واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في منع خدمة أهل

الجور ومعونتهم في شيء من أمرهم، ورأوا أنها تتناول ذلك، نص عليه عطاء بن أبي رباح. [ابن عطية (٤/ ٢٨١)].

(١) وقيل: أراد سبيل الهدى وهذا أظهر، ويدل كلامه هذا على أنه كان عارفاً بالله قبل نبوته. [ابن جزي (٢/ ١١١)].

يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۖ فَأَجَابَهَا مُنْكَرًا فِي نَفْسِهِ أَخَذَ الْأُجْرَةَ؛ كَانَتْهَا فَصَدَّتِ الْمُكَافَأَةَ إِنْ كَانَ مِمَّنْ يُرِيدُهَا، فَمَشَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَضْرِبُ ثَوْبَهَا فَتُكْشَفُ سَاقَيْهَا، فَقَالَ لَهَا: امْشِي خَلْفِي وَدَلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ فَفَعَلَتْ^(١)، إِلَى أَنْ جَاءَ آبَاها وَهُوَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعِنْدَهُ عَشَاءٌ، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ فَتَعَشَّ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ عَوْضًا مِمَّا سَقَيْتَ لَهُمَا، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَطْلُبُ عَلَى عَمَلٍ خَيْرَ عَوْضًا، قَالَ: لَا، عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نُقْرِي الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَأَكَلْ وَأَخْبَرَهُ بِحَالِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْمَقْصُوصِ، مِنْ قِتْلِهِ الْقِبْطِيِّ وَقَصْدِهِمْ قَتْلَهُ وَخَوْفِهِ مِنْ فِرْعَوْنَ ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ إِذْ لَا سُلْطَانَ لِفِرْعَوْنَ عَلَى مَدِينٍ. ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ وَهِيَ الْمُرْسَلَةُ الْكُبْرَى أَوْ الصُّغْرَى ﴿يَأْتَبْتُ أَسْتَجِرُّهُ﴾ اتَّخَذَهُ أَجِيرًا يَرَعَى غَنَمَنَا، بَدَلْنَا ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ ﴿٥٦﴾ أَي: اسْتَأْجِرْهُ لِقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ^(٢)، فَسَأَلَهَا عَنْهُمَا فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، مِنْ رَفْعِهِ حَجَرَ الْبَرِّ، وَمِنْ قَوْلِهِ لَهَا: «امْشِي خَلْفِي»، وَزِيَادَةِ أَنَّهَا لَمَّا جَاءَتْهُ وَعَلِمَ بِهَا صَوَّبَ رَأْسَهُ فَلَمْ يَرْفَعْهُ فَرَغَبَ فِي إِنْكَاحِهِ. فَ ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾ وَهِيَ الْكُبْرَى أَوْ الصُّغْرَى ﴿عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ تَكُونَ أَجِيرًا لِي فِي رَعْيِ غَنَمِي ﴿ثَمَنِي حَبِجٌ﴾ أَي: سِنِينَ ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا﴾ أَي: رَعْيِ عَشْرِ سِنِينَ ﴿فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ التَّمَامُ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْهِ﴾ بِاشْتِرَاطِ الْعَشْرِ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ^(٣) ﴿مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ الْوَافِينَ بِالْعَهْدِ. ﴿قَالَ﴾ مُوسَى: ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي قُلْتَهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ﴾ الثَّمَانِ أَوِ الْعَشْرِ

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢١/١٨)، وابن أبي حاتم (٢٩٦٥/٩).

(٢) وهذان الوصفان هما رُكْنان في كُلِّ عمل، فكلُّ عملٍ لا بدَّ فيه من هذين الأمرين، ما يكون إلا بهما، وهما: القوة والأمانة، فبالقوة يكون الفعل، وبالأمانة يكون تمام الفعل، وأما مَنْ ليس قوياً لا يفعل، ومن ليس أميناً لا يُتِمُّ الفعل وقد لا يفعله أصلاً، ولذلك إذا كان الإنسان قوياً أميناً حصل به تمام الفعل. وهذان الوصفان أساسيان في كل ولاية؛ في الخلافة، والإمارة، والإدارة، والوكالة، والوصية، وغير ذلك، كل ولاية لازم فيها من الأمرين: القوة والأمانة. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص: ١٠٦)]، وقولها كلام حكيم جامع؛ لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر، فقد تم المقصود، وهو كلام جرى مجرى المثل، وصار مطروفاً للناس، وكان ذلك تعليلاً للاستئجار، وكأنها قالت: استأجره لأمانته وقوته، وصار الوصفان منبهين عليه. [أبو حيان (٢٩٩/٨)].

(٣) لا ينبغي أن نحمله على التبرك، بل نحمله على التعليق الحقيقي بالمشيئة؛ لأن عزم الإنسان على الشيء مجزوم به، لكن تنفيذ الشيء لا يستطيع أن يجزم به الإنسان أبداً مهما كان العمل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِي إِنْ فَعِلْتُ ذَلِكَ غَدًا﴾ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، فالذي نرى أن هذا التعليق على حقيقته ليس للتبرك، لماذا؟ لأن تنفيذ هذا الشيء ليس بيد صاحب مدين، فإن الأمور قد تطلق. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص: ١١٤)].

وَمَا رَائِدُهُ أَيُّ: رَعِيهِ ﴿قَضَيْتُ﴾ بِهِ، أَيُّ: فَرَعْتُ مِنْهُ ﴿فَلَا عُدُونَ عَلَيَّ﴾ بِطَلَبِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ﴾
 أَنَا وَأَنْتَ ﴿وَكَيْلٌ﴾ ٢٨ ﴿حَفِظْتُ أَوْ شَهِدْتُ، فَتَمَّ الْعَقْدُ بِذَلِكَ، وَأَمَرَ شُعَيْبُ ابْنَتَهُ أَنْ تُعْطِيَ مُوسَى عَصًا يَدْفَعُ بِهَا السَّبَاعَ
 عَنْ غَنَمِهِ وَكَانَتْ عِصْيُ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُ، فَوَقَعَ فِي يَدِهَا عَصَا آدَمَ مِنْ آسِ الْجَنَّةِ فَأَخَذَهَا مُوسَى بِعِلْمِ شُعَيْبٍ ١﴾. ﴿فَلَمَّا
 قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ أَيُّ: رَعِيَهُ وَهُوَ ثَمَانٍ أَوْ عَشْرُ سِنِينَ وَهُوَ الْمَظْنُونُ بِهِ ﴿وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ زَوْجَتَهُ بِإِذْنِ أَبِيهَا
 نَحْوَ مَصْرَ ﴿ءَانَسَ﴾ بَصَرَ مِنْ بَعِيدٍ ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ﴾ اسْمُ جَبَلٍ ﴿نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ هُنَا ﴿إِنِّي ءَانَسْتُ
 نَارًا لَعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ عَنِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ قَدْ أَخْطَأَهَا ﴿أَوْ جَذْوَةً﴾ بِثَلَاثِ الْجِيمِ: قِطْعَةً وَشُعْلَةً ﴿مِّنَ النَّارِ
 لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ٢٩ ﴿تَسْتَدْفِنُونَ، وَالطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الْإِفْتَعَالِ مِنْ «صَلَّى النَّارَ» بِكَسْرِ اللَّامِ وَفَتْحِهَا. ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا
 نُودِيَ مِنْ شَطِئِ﴾ جَانِبِ ﴿الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ لِمُوسَى ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ﴾ لِمُوسَى لِسَمَاعِهِ كَلَامَ اللَّهِ فِيهَا ﴿مِنْ
 الشَّجَرَةِ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿شَطِئِ﴾ بِإِعَادَةِ الْجَارِ لِنَبَاتِهَا فِيهِ وَهِيَ شَجَرَةُ عَنَابٍ أَوْ عُلْقِيٍّ أَوْ عَوْسَجٍ ﴿أَنْ﴾ مُفَسَّرَةٌ لَا مُحَقَّقَةٌ
 ﴿يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ٣٠ وَأَنْ أَلْقَى عَصَاكَ ﴿فَالْقَاهَا﴾ فَلَمَّا رَأَاهَا نَهَزَتْ ﴿تَحَرَّكَ﴾ كَانَتْهَا جَانٌّ
 وَهِيَ الْحَيَّةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ سُرْعَةِ حَرَكَتِهَا ﴿وَلَّى مُدْبِرًا﴾ هَارِبًا مِنْهَا ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ أَيُّ: يَرْجِعْ، فَنُودِيَ ﴿يَمُوسَى أَقْبِلْ
 وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ ٣١ ﴿أَسْلُكَ﴾ أَذْخَلَ ﴿يَدَكَ﴾ الْيَمْنَى بِمَعْنَى الْكَفِّ ﴿فِي جَيْبِكَ﴾ هُوَ طَوْقُ الْقَمِيصِ،
 وَأَخْرَجَهَا ﴿تَخْرُجُ﴾ خِلَافَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَمَةِ ﴿بِيَضَاءٍ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أَيُّ: بَرَصٍ، فَأَدْخَلَهَا وَأَخْرَجَهَا تُضِيءُ
 كَشُعَاعِ الشَّمْسِ تُغْشِي الْبَصَرَ ﴿وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ بِفَتْحِ الْحَرْفَيْنِ وَسُكُونِ الثَّانِي مَعَ فَتْحِ الْأَوَّلِ
 وَضَمِّهِ، أَيُّ: الْخَوْفِ الْحَاصِلِ مِنْ إِضَاءَةِ الْيَدِ بَأَنٍ تُدْخِلُهَا فِي جَيْبِكَ فَتَعُودُ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْجَنَاحِ
 لِأَنَّهَا لِلْإِنْسَانِ كَالْجَنَاحِ لِلطَّائِرِ ﴿فَذَنِّكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، أَيُّ: الْعَصَا وَالْيَدُ، وَهُمَا مُؤَنَّثَانِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْمُشَارَ
 بِهِ إِلَيْهِمَا الْمُبْتَدَأَ لِتَذْكِيرِ خَبَرِهِ ﴿بُرْهَنَانِ﴾ مُرْسَلَانِ ﴿مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٣٢
 قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ﴿هُوَ الْقَبْطِيُّ السَّابِقُ﴾ ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ ٣٣ ﴿بِهِ.﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي
 لِسَانًا ﴿أَبِينُ﴾ فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴿مُعِينًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الدَّالِ بِلا هَمْزَةٍ ﴿يُصَدِّقُنِي﴾ بِالْجَزْمِ جَوَابُ الدُّعَاءِ، وَفِي
 قِرَاءَةٍ: بِالرَّفْعِ وَجُمْلَتُهُ صِفَةٌ ﴿رِدْءًا﴾، ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ٣٤ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ ﴿نُقُوكَ﴾ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ

(١) هذه من الإسرائيليات اللي لا تصدق. هل نأخذ من الآية أن موسى عليه الصلاة والسلام أخذ عصا؟ لا يوجد في الآية دليل أنه أخذ

عصا، تم العقد بهذا وصار يعمل له. [ابن عثيمين تفسير القصص (ص: ١١٩)].

لَكُمْ سُلْطَانًا عَلَيْهِ ﴿فَلَا يَصْلُونَ إِلَيْكُمْ﴾ بِسُوءٍ إِذْ هَبَا ﴿بَيَّيْنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ ٣٥ ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ حَالٍ﴾ ﴿قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى﴾ ﴿مُخْتَلَقٌ وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا كَائِنًا﴾ ﴿فِي﴾ ﴿أَيَّامٍ﴾ ﴿ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ ٣٦ ﴿وَقَالَ﴾ ﴿بَوَاوِ وَبِدُونَهَا﴾ ﴿مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ﴾ ﴿أَيُّ عَالِمٍ﴾ ﴿بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ﴾ ﴿الْصَّمِيرُ لِلرَّبِّ﴾ ﴿وَمَنْ﴾ ﴿عَظُفٌ عَلَى «مَنْ» قَبْلَهَا﴾ ﴿تَكُونُ﴾ ﴿بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ﴾ ﴿لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ ﴿أَيُّ الْعَاقِبَةِ الْمَحْمُودَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ﴾ ﴿أَيُّ وَهُوَ أَنَا فِي الشَّقِيِّينَ، فَأَنَا مُحِقٌّ فِيمَا جِئْتُ بِهِ﴾ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ٣٧ ﴿الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ﴾ ﴿فَاطْبُخْ لِي الْآجَرَ﴾ ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ ﴿قَصْرًا عَالِيًا﴾ ﴿لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ ﴿أَنْظُرْ إِلَيْهِ وَأَقِفْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَذِبِينَ﴾ ٣٨ ﴿فِي إِدْعَائِهِ إِلَهَا آخَرَ وَأَنَّهُ رَسُولُهُ﴾ ﴿وَأَسْتَكَبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿أَرْضِ مِصْرَ﴾ ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يَرْجِعُونَ﴾ ٣٩ ﴿بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ﴾ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ ﴿طَرَحْنَاهُمْ﴾ ﴿فِي الْيَمِّ﴾ ﴿الْبَحْرِ الْمَالِحِ، فَعْرِفُوا﴾ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ٤٠ ﴿حِينَ صَارُوا إِلَى الْهَلَاكِ﴾ ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿أَيْمَةً﴾ ﴿بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ يَاءً رُوسَاءَ فِي الشَّرِكِ﴾ ﴿يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ﴾ ﴿بِدُعَائِهِمْ إِلَى الشَّرِكِ﴾ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ ٤١ ﴿بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ﴾ ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ ﴿خِزْيَا﴾ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ ٤٢ ﴿الْمُبْعَدِينَ﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ ﴿التَّوْرَةَ﴾ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ ﴿قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرَهُمْ﴾ ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ ﴿حَالٍ مِنْ﴾ ﴿الْكِتَابِ﴾ ﴿جَمْعٌ بِصِيرَةٍ وَهِيَ: نُورُ الْقَلْبِ، أَيُّ: أَنْوَارًا لِلْقُلُوبِ﴾ ﴿وَهْدَى﴾ ﴿مِنَ الضَّلَالَةِ لِمَنْ عَمِلَ بِهِ﴾ ﴿وَرَحْمَةً﴾ ﴿لِمَنْ آمَنَ بِهِ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٤٣ ﴿يَتَعِظُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ﴾ ﴿يَا مُحَمَّدٌ﴾ ﴿بِجَانِبِ﴾ ﴿الْجَبَلِ أَوْ الْوَادِي أَوْ الْمَكَانِ﴾ ﴿الْغُرْبِيِّ﴾ ﴿مِنْ مُوسَى حِينَ الْمُنَاجَاةِ﴾ ﴿إِذْ قَضَيْنَا﴾ ﴿أَوْحَيْنَا﴾ ﴿إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ ﴿بِالرَّسَالَةِ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ٤٤ ﴿لِذَلِكَ، فَفَعَلَمَهُ فَتُخْبِرَ بِهِ﴾ ﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا﴾ ﴿أُمَمًا مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ﴿فَتَتَطَاوَلُ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ ﴿أَيُّ: طَالَتْ أَعْمَارُهُمْ، فَنَسُوا الْعُهُودَ وَانْدَرَسَتْ الْعُلُومُ وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، فَجِئْنَا بِكَ رَسُولًا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ خَبَرَ مُوسَى وَغَيْرِهِ﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا﴾ ﴿مُقِيمًا﴾ ﴿فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ ﴿خَبَرٌ ثَانٍ، فَتَعْرِفُ قِصَّتَهُمْ فَتُخْبِرُ بِهَا﴾ ﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ ٤٥ ﴿لَكَ وَإِلَيْكَ بِأَخْبَارِ الْمُتَقَدِّمِينَ﴾ ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ ﴿الْجَبَلِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ﴿حِينَ﴾ ﴿نَادَيْنَا﴾ ﴿مُوسَى: أَنْ﴾ ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] ﴿وَلَكِن﴾ ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِشِدَارِ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ ﴿وَهُمْ أَهْلُ مَكَّةَ﴾ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٤٦ ﴿يَتَعِظُونَ﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ ﴿عُقُوبَةٌ﴾ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿مِنَ الْكُفْرِ﴾

وغيره ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا هَٰذَا﴾ ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الْمُرْسَل بِهَا ﴿وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ، وَمَا بَعْدَهُ مُبْتَدَأٌ، وَالْمَعْنَى: لَوْلَا إِلَّا صَابَةُ الْمُسَبَّبِ عَنْهَا، أَي: قَوْلُهُمْ، أَوْ لَوْلَا قَوْلُهُمْ الْمُسَبَّبُ عَنْهَا، أَي: لِعَاجِلِنَاهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَلَمَّا أَرْسَلْنَاكَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ مُحَمَّدٌ^(٢) ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا﴾ هَٰذَا ﴿أَوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ مِنْ آيَاتِ: كَالْيَدِ الْبَيْضَاءِ وَالْعَصَا وَغَيْرِهِمَا، أَوِ الْكِتَابِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ حَيْثُ ﴿قَالُوا﴾ فِيهِ وَفِي مُحَمَّدٍ: ﴿سَاحِرَانِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَحْرَانِ﴾ أَي: الْقُرْآنُ وَالتَّوْرَةُ ﴿تَظْهَرَا﴾ تَعَاوَنَا ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ﴾ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْكِتَابَيْنِ ﴿كَافِرُونَ﴾^(٣) قُلْ لَهُمْ: ﴿فَاتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أَي: مِنَ الْكِتَابَيْنِ ﴿اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) فِي قَوْلِكُمْ. ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دُعَاكَ، بِالْإِثْنَيْنِ بِكِتَابٍ ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي كُفْرِهِمْ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: لَا أَحَدَ أَضَلُّ مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾^(٥) الْكَافِرِينَ. * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا بَيْنَا ﴿لَهُمُ الْقَوْلُ﴾ الْقُرْآنَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦) يَتَعَطَّوْنَ فَيُؤْمِنُوا. ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿هُمْ بِهِ يَوْمِنُونَ﴾^(٧) أَيْضًا، نَزَلَتْ فِي جَمَاعَةٍ أَسْلَمُوا، مِنَ الْيَهُودِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ وَمِنَ النَّصَارَى قَدِمُوا مِنَ الْحَبَشَةِ وَمِنَ الشَّامِ. ﴿وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾^(٨) مُوحِّدِينَ. ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ بِإِيمَانِهِمْ بِالْكِتَابَيْنِ^(٩) ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بِصَبْرِهِمْ عَلَى الْعَمَلِ بِهِمَا ﴿وَيَذَرُونَ﴾ بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةِ مِنْهُمُ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(١٠) يَتَصَدَّقُونَ. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ الشَّتْمَ وَالْأَذَى مِنَ الْكُفَّارِ ﴿أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ سَلَامٌ مُتَارِكَةٌ، أَي: سَلِمْتُمْ مِنَّا مِنَ الشَّتْمِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾^(١١) لَا نَضَحَبُهُمْ. وَنَزَلَ فِي حَرْصِهِ ﷺ عَلَى إِيْمَانِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ^(١٢) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هِدَايَتُهُ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ

(١) يعني القرآن ونبوة محمد ﷺ. [ابن جزي (١١٥/٢)].

(٢) عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَرَجُلٌ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ثُمَّ أَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ آدَى حَقَّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَحَقَّ سَيِّدِهِ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ». أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).

(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّهِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعِيرَنِي قَرِيشَ، يَقُولُونَ: إِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ الْجَزَعِ، لِأَقْرَرْتَ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾. أخرجه مسلم (٢٥).

أَعْلَمُ عَالَمٌ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوا أَيُّ قَوْمِهِ إِنْ تَتَّبِعِ الْهْدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا ﴿٥٧﴾ نَسْرَعُ مِنْهَا بِسُرْعَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يَأْمُنُونَ فِيهِ مِنَ الْإِغَارَةِ وَالْقَتْلِ الْوَاقِعِينَ مِنْ بَعْضِ الْعَرَبِ عَلَى بَعْضٍ ﴿مُجِبِّي﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالنَّحْنَانِيَّةِ ﴿إِلَيْهِ ثَمَرَتْ كُلُّ شَيْءٍ﴾ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ﴿رِزْقًا﴾ لَهُمْ ﴿مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أَنَّ مَا نَقُولُهُ حَقٌّ. ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أَيُّ: فِي عَيْشَتِهَا، وَأُرِيدَ بِالْقَرْيَةِ أَهْلُهَا ﴿فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لِلْمَارَّةِ يَوْمًا أَوْ بَعْضُهُ ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ مِنْهُمْ. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾ بِظُلْمِ أَهْلِهَا ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ﴾ أَيُّ: أَعْظَمَهَا ﴿رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بِتَكْذِيبِ الرُّسُلِ. ﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أَيُّ: تَمَتَّعُونَ وَتَتَزَيَّنُونَ بِهِ أَيَّامَ حَيَاتِكُمْ ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وَهُوَ ثَوَابُهُ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ، أَنَّ الْبَاقِيَ خَيْرٌ مِنَ الْفَانِي. ﴿أَقْمِنَ وَعَدْنَاهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَقِيهِ﴾ مُصِيبُهُ، وَهُوَ الْجَنَّةُ ﴿كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فَيَزُولُ عَنْ قَرِيبٍ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ النَّارَ، الْأَوَّلُ الْمُؤْمِنُ وَالثَّانِي الْكَافِرُ، أَيُّ: لَا تَسَاوَىٰ بَيْنَهُمَا. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ اللَّهُ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ هُمْ شُرَكَائِي. ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بِدُخُولِ النَّارِ، وَهُمْ رُؤَسَاءُ الضَّلَالَةِ: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ هُمْ، مُبْتَدَأٌ وَصِفَةٌ، ﴿أَغْوَيْنَهُمْ﴾ خَبَرُهُ، فَغَوُوا ﴿كَمَا غَوَيْنَا﴾ لَمْ نُكْرِهِهُمْ عَلَى الْغَيِّ ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ﴾ مِنْهُمْ ﴿مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ﴿مَا﴾ نَافِيَةٌ، وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لِلْفَاصِلَةِ ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أَيُّ: الْأَصْنَامَ الَّذِينَ تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ دُعَاءَهُمْ ﴿وَرَأَوْا﴾ هُمْ ﴿الْعَذَابَ﴾ أَبْصَرُوهُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾﴾ فِي الدُّنْيَا مَا رَأَوْهُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ إِلَيْكُمْ. ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ الْأَخْبَارُ الْمُنْجِيَّةُ فِي الْجَوَابِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لَمْ يَجِدُوا خَبْرًا لَهُمْ فِيهِ نَجَاةٌ ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ عَنْهُ فَيَسْكُتُونَ. ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿وَعَامَنَ﴾ صَدَّقَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أَدَّى الْفَرَائِضَ ﴿فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ النَّاجِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿مَا كَانَ لَهُمْ﴾ لِلْمُشْرِكِينَ

(١) إن كانت الإبادة للقرى بالإطلاق في كل زمن فأمها في هذا الموضع عظيمها وأفضلها التي هي بمثابة مكة في عصر محمد ﷺ، وإن كانت مكة أم القرى كلها أيضا من حيث هي أول ما خلق من الأرض، ومن حيث فيها البيت، ومعنى الآية أن الله تبارك وتعالى يقيم الحجة على عباده بالرسول، فلا يعذب إلا بعد نذارة، وبعد أن يتمادى أهل القرى في ظلم وطغيان. والظلم: هنا يجمع الكفر والمعاصي والتقصير في الجهاد، وبالجمله وضع الباطل موضع الحق. [ابن عطية (٦/٦٠١)].

﴿الْخَيْرَةُ﴾ الْإِخْتِيَارُ فِي شَيْءٍ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٦٨ ﴿عَنِ إِشْرَاحِهِمْ﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴿تَسِرُّ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْكُفْرِ وَغَيْرِهِ﴾ وَمَا يُعْلِنُونَ ٦٩ ﴿بِالْسَّتِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ الْقَضَاءُ النَّافِذُ فِي كُلِّ شَيْءٍ ﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾ ٧٠ ﴿بِالشُّشُورِ﴾ ﴿قُلْ﴾ لِأَهْلِ مَكَّةَ: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أَيُّ: أَخْبِرُونِي ﴿إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دَائِمًا ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ بَزَعِمُكُمْ ﴿يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ﴾ نَهَارٍ تَطْلُبُونَ فِيهِ الْمَعِيشَةَ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ٧١ ﴿ذَلِكَ سَمَاعَ نَهْمِهِمْ، فَتَرَجِعُوا عَنِ الْإِشْرَاقِ﴾ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ بَزَعِمُكُمْ ﴿يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ﴾ تَسْتَرِيحُونَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ التَّعَبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ٧٢ ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْخَطِإِ فِي الْإِشْرَاقِ فَتَرَجِعُوا عَنْهُ﴾ ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ﴾ تَعَالَى ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ فِي اللَّيْلِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴿فِي النَّهَارِ بِالْكَسْبِ﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٣ ﴿النَّعْمَةُ فِيهِمَا﴾ ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ٧٤ ﴿ذِكْرٌ ثَانِيًا لِنَبِيِّ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَنَزَعْنَا﴾ أَخْرَجْنَا ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وَهُوَ نَبِيُّهُمْ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ بِمَا قَالُوهُ ٧٥ ﴿فَقُلْنَا﴾ لَهُمْ: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ عَلَى مَا قُلْتُمْ مِنَ الْإِشْرَاقِ ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ﴾ فِي الْإِلَهِيَّةِ ﴿لِلَّهِ﴾ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ٧٥ ﴿فِي الدُّنْيَا مِنْ أَنَّ مَعَهُ شَرِيكًا تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ﴾ ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ ابْنُ عَمِّهِ أَوْ ابْنُ خَالَتِهِ وَآمَنَ بِهِ ﴿فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ بِالْكِبَرِ وَالْعُلُوِّ وَكَثْرَةِ الْمَالِ ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ﴾ تَثْقُلُ ﴿بِالْعُصْبَةِ﴾ الْجَمَاعَةِ ﴿أُولَى﴾ أَصْحَابِ ﴿الْقُوَّةِ﴾ أَيُّ: تَثْقُلُهُمْ فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ، وَعِدَّتُهُمْ قِيلَ: سَبْعُونَ، وَقِيلَ: أَرْبَعُونَ، وَقِيلَ: عَشْرَةٌ، وَقِيلَ: غَيْرُ ذَلِكَ، اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ بِكَثْرَةِ الْمَالِ فَرَحَ بَطَرٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ٧٦ ﴿بِذَلِكَ﴾ ﴿وَابْتَغِ﴾ اُطْلُبْ ﴿فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْمَالِ ﴿الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَلَا تَنَسْ﴾ تَتْرُكْ ﴿نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: أَنْ تَعْمَلَ فِيهَا لِلْآخِرَةِ ٧٧ ﴿وَأَحْسِنْ﴾ لِلنَّاسِ بِالصَّدَقَةِ ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ﴾ تَطْلُبْ ﴿الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ ٧٧ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ ٧٨ ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾

(١) ومثله قوله سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١].

(٢) وقال الحسن وقتادة: معناه لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال، وطلبك إياه، وهذا أُلصق بمعنى النظم القرآني. [صديق حسن

(١٠/١٥٠).]

(٣) أي: إن الله لا يحب بغاة البغي والمعاصي. [الطبري (١٨/ ٣٢٥)].

أُوتِيَتْهُ» أَي: الْمَالُ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أَي: فِي مُقَابَلَتِهِ وَكَانَ أَعْلَمَ بِنِي إِسْرَائِيلَ بِالتَّوْرَةِ بَعْدَ مُوسَى وَهَارُونَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ لِلْمَالِ، أَي: هُوَ عَالِمٌ بِذَلِكَ وَيُهْلِكُهُ اللَّهُ ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ٧٨ ﴿لِعَلِمِهِ تَعَالَى بِهَا فَيَدْخُلُونَ النَّارَ بِلا حِسَابٍ.﴾
﴿فَخَرَجَ﴾ قَارُونَ ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ بِاتِّبَاعِهِ الْكَثِيرِينَ رُكْبَانًا، مُتَحَلِّينَ بِمَلَابِسِ الذَّهَبِ وَالْحَرِيرِ عَلَى خِيُولٍ وَبِغَالٍ مُتَحَلِّينَ ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَلنِّسِيبِ﴾ لِنِسْبِهِ ﴿لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ﴾ نَصِيبٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ ٧٩ ﴿وَإِيفَ فِيهَا.﴾ وَقَالَ ﴿لَهُمْ﴾ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿بِمَا وَعَدَ اللَّهُ فِي الْآخِرَةِ:﴾ (وَيَلْكُمْ) كَلِمَةُ زَجَرٍ ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ مِمَّا أُوتِيَ قَارُونُ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَا يُلْقَاهَا﴾ أَي: الْجَنَّةُ الْمُثَابُ بِهَا ﴿إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ ٨٠ ﴿عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ.﴾ (فَخَسَفْنَا بِهِ) بِقَارُونِ ﴿وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرُهُ بِأَنْ يَمْنَعُوا عَنْهُ أَهْلَاكَ. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ٨١ مِنْهُ. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أَي: مِنْ قَرِيبٍ ﴿يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْطِشُ﴾ يُوسِّعُ ﴿الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، وَ«وَيَ» اسْمُ فِعْلٍ، بِمَعْنَى: أَعْجَبُ، أَي: أَنَا، وَ«الْكَافُ» بِمَعْنَى: الْإِلَامِ ﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ ٨٢ لِنِعْمَةِ اللَّهِ كَقَارُونِ. ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ أَي: الْجَنَّةُ ﴿تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ بِالْبَغْيِ ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ بِعَمَلِ الْمَعَاصِي ﴿وَالْعَقِيبَةُ﴾ الْمَحْمُودَةُ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٨٣ عِقَابَ اللَّهِ بِعَمَلِ الطَّاعَاتِ. ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحُسْنَةِ فَلَهُ وَخَيْرٌ مِنْهَا﴾ ثَوَابٌ بِسَبَبِهَا، وَهُوَ: عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا﴾ جَزَاءُ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٨٤ أَي: مِثْلُهُ. ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أَنْزَلَهُ ﴿لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ إِلَىٰ مَكَّةَ، وَكَانَ قَدْ

(١) ومعنى الآية: ... أن الذين كانوا يتمنون منزلة قارون ندموا على تمنيهما لما رأوا سوء عاقبته وامتلكهم العجب من تلك القصة ومن خفي تصرفات

الله تعالى في خلقه، وعلموا وجوب الرضى بما قدر للناس من الرزق، فخطب بعضهم بعضا بذلك وأعلنوه. [ابن عاشور (١٨٨/٢٠)].

(٢) عن علي رضي الله عنه قال: إن الرجل ليعجبه من شرك نعله أن يكون أجود من شرك صاحبه، فيدخل في قوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ تَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره؛ فإن ذلك مذموم، كما ثبت في الصحيح، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». أخرجه مسلم (٢٨٦٥). وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجميل فهذا لا بأس به، فقد ثبت أن رجلا قال: يا رسول الله، إني أحب أن يكون ردائي حسنا ونعلي حسنة، أفمن الكبر ذلك؟ فقال: «لَا، إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ». أخرجه مسلم (٩١). [ابن كثير (٢٥٨/٦)].

اَشْتَاَقَهَا^(١) ﴿قُلْ رَبِّيْ اَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدٰى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ ﴿٨٥﴾ نَزَلَ جَوَابًا لِّقَوْلِ كُفَّارٍ مَّكَهَ لَهٗ: ﴿اِنَّكَ فِي ضَلٰلٍ﴾، اَي: فَهُوَ الْجَائِي بِالْهُدٰى، وَهُمْ فِي الضَّلٰلِ، وَ ﴿اَعْلَمُ﴾ بِمَعْنٰى: عَالِمٌ. ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوْا اَنْ يُّلْقٰى اِلَيْكَ الْكِتٰبُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿اِلَّا﴾ لَكِنْ اُلْقِيَ اِلَيْكَ ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُوْنَنَّ ظٰهِيْرًا﴾ مُعِيْنًا ﴿لِّلْكَافِرِيْنَ ﴿٨٦﴾﴾ عَلَى دِيْنِهِمُ الَّذِي دَعَوْكَ اِلَيْهِ^(٢). ﴿وَلَا يَصُدُّكَ﴾ اَصْلُهُ «يَصُدُّوْنَكَ» حُذِفَتْ تُوْنُ الرَّفْعِ لِلْجَازِمِ وَالْوَاوُ لِلْفَاعِلِ لِاِلْتِقَائِهَا مَعَ النَّوْنِ السَّاكِنَةِ ﴿عَنْ ءَايٰتِ اللّٰهِ بَعْدَ اِذْ اُنْزِلَتْ اِلَيْكَ﴾ اَي: لَا تَرْجِعْ اِلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَادْعُ﴾ النَّاسَ ﴿اِلَى رَبِّكَ﴾ بِتَوْحِيْدِهِ وَعِبَادَتِهِ ﴿وَلَا تَكُوْنَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿٨٧﴾﴾ بِاِعَانَتِهِمْ^(٣)، وَلَمْ يُؤَثِّرِ الْجَازِمُ فِي الْفِعْلِ لِبَنَائِهِ. ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ تَعْبُدُ ﴿مَعَ اللّٰهِ اِلٰهًا ءَاخَرَ لَا اِلٰهَ اِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ اِلَّا اِيَّاهُ^(٤) ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ اَلْقَضَاءُ النَّافِذُ ﴿وَالِيْهِ تَرْجِعُوْنَ ﴿٨٨﴾﴾ بِالنُّشُوْرِ مِنْ قُبُوْرِكُمْ.

(١) ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ اَي: اُنْزِلَهُ عَلَيْكَ وَاَثْبَتَهُ، وَقِيلَ الْمَعْنٰى: اَعْطَاكَ الْقُرْآنَ، وَالْمَعْنٰى مُتَقَارِبٌ، وَقِيلَ: فَرَضَ عَلَيْكَ اَحْكَامَ الْقُرْآنِ، فَهِيَ عَلَى حَذْفِ مِضَافٍ ﴿لَرَأٰدُكَ اِلَى مَعَادٍ﴾ الْمَعَادُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعَادُ اِلَيْهِ، فَقِيلَ: يَعْنِي مَكَّةَ، وَالآيَةُ نَزَلَتْ حِيْنَ الْهَجْرَةِ، فَفِيْهَا وَعْدُ بِالرَّجُوْعِ اِلَى مَكَّةَ وَفَتْحِهَا، وَقِيلَ: يَعْنِي الْآخِرَةَ فَمَعْنَاهَا اِعْلَامٌ بِالْحَشْرِ، وَقِيلَ: يَعْنِي الْجَنَّةَ. [ابن جُزَيٍّ (٢/ ١٢٠)].

(٢) ﴿ظٰهِيْرًا﴾ اَي: مُعِيْنًا ﴿لِّلْكَافِرِيْنَ﴾ بِالْمَكْثِ بَيْنَ ظَهْرَانِيْهِمْ، اَوْ بِالْفَتُوْرِ عَنِ الْجَهْدِ فِي دَعَائِهِمْ، يَأْسًا مِنْهُمْ لَمَّا تَرٰى مِنْ بَعْدِهِمْ مِنَ الْاِجَابَةِ وَاِنْ طَالَ اِنْذَارُكَ، لَا تَمَلْ اَنْتَ كَمَا لَمْ نَمَلْ نَحْنُ، فَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ، وَتَابَعْنَا لَهُمُ الْوَعْظَ وَالْقَصَّ، وَنَحْنُ قَادِرُوْنَ عَلَى اِهْلَاكِهِمْ فِي لَحْظَةٍ، وَهَدَايَتِهِمْ فِي اَقْلٍ لَمْحَةٍ. [البَقَاعِي (١٤/ ٣٧٩)].

(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمَا: الْخُطَابُ فِي الظَّاهِرِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمُرَادُ بِهِ اَهْلُ دِيْنِهِ، اَي: لَا تَظَاهَرُوا الْكُفَّارَ وَلَا تَوَافَقُوْهُمْ. [البَغَوِي (٦/ ٢٢٨)].

(٤) اِنْخِبَارٌ بِاَنَّهُ الدَّائِمُ الْبَاقِي الْحَيُّ الْقَيُّوْمُ، الَّذِي تَمُوْتُ الْخَلَائِقُ وَلَا يَمُوْتُ، كَمَا قَالَ تَعَالٰى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَاَنٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقٰى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلٰلِ وَالْاِكْرَامِ ﴿٦٧﴾﴾ [الرَّحْمٰن: ٢٦-٢٧]، فَعَبَّرَ بِالْوَجْهِ عَنِ الذَّاتِ، وَهَكَذَا قَوْلُهُ هَا هُنَا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ اَي: اِلَّا اِيَّاهُ... وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالثَّوْرِيُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ اِلَّا وَجْهَهُ﴾ اَي: اِلَّا مَا اُرِيْدُ بِهِ وَجْهَهُ، وَحَكَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيْحِهِ كَالْمَقْرَّرِ لَهُ. [ابن كَثِيْر (٦/ ٢٦١)].

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ تَسْعُ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ ^(١). ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا﴾ أَي: بِقَوْلِهِمْ ﴿ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ٢﴾ يُخْتَبَرُونَ بِمَا يَتَّبِعُنَّ بِهِ حَقِيقَةُ إِيْمَانِهِمْ، نَزَلَ فِي جَمَاعَةٍ آمَنُوا فَأَذَاهُمْ الْمُشْرِكُونَ. ^(٢) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي إِيْمَانِهِمْ عِلْمٌ مُشَاهَدَةٌ ﴿وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَذِبِينَ ٣﴾ فِيهِ. ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ الشَّرْكَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ يَفُوتُونَا فَلَا نَنْتَقِمَ مِنْهُمْ ﴿سَاءَ﴾ بِئْسَ ﴿مَا﴾ الَّذِي ﴿يَحْكُمُونَ ٤﴾ ۝ هُ حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا﴾ يَخَافُ ﴿لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ بِهٖ﴾ لَاتٍ ﴿فَلْيَسْتَعِدَّ لَهُ﴾ وَهُوَ السَّمِيعُ ﴿لَاَقُولِ الْعِبَادِ﴾ الْعَلِيمُ ٥ ﴿بِأَفْعَالِهِمْ.﴾ وَمَنْ جَاهَدَ جِهَادَ حَرْبٍ، أَوْ نَفْسٍ ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ لِأَنَّ مَنَفْعَةَ جِهَادِهِ لَهُ، لَا لِلَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ٦﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَعَنِ عِبَادَتِهِمْ. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ بِعَمَلِ الصَّالِحَاتِ ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ بِمَعْنَى: «حَسَنًا» وَنَضْبُهُ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْبَاءِ ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ٧﴾ وَهُوَ الصَّالِحَاتُ. ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ أَي: إِيْصَاءً ذَا حُسْنٍ، بِأَنْ يَبْرَهُمَا ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ﴾ بِإِشْرَاكِهِ ﴿عِلْمٌ﴾ مُوَافَقَةٌ لِلْوَاقِعِ فَلَا مَفْهُومَ لَهُ ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ فِي الْإِشْرَاكِ ﴿إِلَّا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾ فَأُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ٩﴾ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوَّلِيَاءِ بِأَنْ نَحْشُرَهُمْ مَعَهُمْ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ﴾ أَي: أَذَاهُمْ لَهُ ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ فِي الْخَوْفِ مِنْهُ، فَيُطِيعُهُمْ فَيَنَافِقُ ﴿وَلِينَ﴾ لَا مَقَسَمٍ ﴿جَاءَ نَصْرٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فَعَنِمُوا ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حَذَفَتْ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِإِلْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الْإِيْمَانِ فَأَشْرِكُونَا فِي الْغَنِيمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوَلَيْسَ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) في الحديث الصحيح: «أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ فِي الْبَلَاءِ». أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، والنسائي في السنن الكبرى (٧٤٨١)، وأحمد (١٤٨١). وهذه الآية كقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. [ابن كثير (٢٦٣/٦)].

اللَّهُ بِأَعْلَمَ أَيُّ بَعَالِمٍ ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠﴾ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنَّفَاقِ؟ بَلَى. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿بِقُلُوبِهِمْ﴾ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿١١﴾ فَيَجَازِي الْفَرِيقَيْنِ، وَاللَّامُ فِي الْفَعْلَيْنِ لَامٌ قَسَمٍ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ طَرِيقَنَا فِي دِينِنَا ﴿وَلَنَحْمِلْ خَطَايَكُمْ﴾ فِي اتِّبَاعِنَا إِنْ كَانَتْ، وَالْأَمْرُ بِمَعْنَى: الْخَبَرِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ فِي ذَلِكَ. ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أَوْزَارَهُمْ ﴿وَأَنْثَقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ بِقَوْلِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾، وَإِضْلَالِهِمْ مُقْلِدِيهِمْ ﴿وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿١٣﴾ يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ، سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، وَاللَّامُ فِي الْفَعْلَيْنِ لَامٌ قَسَمٍ، وَحُذِفَ فَاعِلُهُمَا: الْوَاوُ وَنُونُ الرَّفْعِ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ وَعُمُرُهُ أَرْبَعُونَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ يَدْعُوهُمْ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ فَكَذَّبُوهُ ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ أَيِ: الْمَاءِ الْكَثِيرِ، طَافَ بِهِمْ وَعَلَاهُمْ فَغَرِقُوا ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مُشْرِكُونَ. ﴿فَأَنجَيْنَاهُ﴾ أَيِ: نُوحًا ﴿وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أَيِ: الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ فِيهَا ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ عِبْرَةً ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٥﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ النَّاسِ إِنْ عَصَوْا رُسُلَهُمْ، وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ سِتِينَ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ حَتَّى كَثُرَ النَّاسُ. ﴿وَإِذْ ذَكَرْنَا إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ خَافُوا عِقَابَهُ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٦﴾ الْخَيْرُ مِنْ غَيْرِهِ. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيِ: غَيْرِهِ ﴿أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ تَقُولُونَ كَذِبًا: ﴿إِنَّ الْأَوْثَانَ شُرَكَاءُ لِلَّهِ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَرْزُقُوكُمْ ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أَطْلَبُوهُ مِنْهُ ﴿وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ﴾ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا﴾ أَيِ: تُكَذِّبُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنْ قَبْلِي ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٨﴾ إِلَّا الْبَلَاغُ الْبَيِّنُ، فِي هَاتَيْنِ الْقِصَّتَيْنِ تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَ تَعَالَى فِي قَوْمِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ، يَنْظُرُوا

(١) الضمير للسفينة، ومعنى كونها آية أنها دليل على وقوع الطوفان عذاباً من الله للمكذبين الرسل، فكانت السفينة آية ماثلة في عصور جميع الأمم الذين جاءتهم الرسل بعد نوح موعظة للمكذبين وحجة للمؤمنين. وقد أبقي الله بقية السفينة إلى صدر الأمة الإسلامية، ففي صحيح البخاري: قال قتادة: بقيت بقايا السفينة على الجودي حتى نظرتها أوائل هذه الأمة. ويقال: إنها دامت إلى أوائل الدولة العباسية ثم غمرتها الثلوج. وكان الجودي قرب «باقردي» وهي قرية من جزيرة ابن عمر بالموصل شرقي دجلة... وقال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥]. وإنما قال للعالمين الشامل لجميع سكان الأرض؛ لأن من لم يشاهد بقايا سفينة نوح يشاهد السفن فيتذكر سفينة نوح وكيف كان صنعها بوحي من الله لإنجاء نوح ومن شاء الله نجاته؛ ولأن الذين من أهل قريتها يخبرون عنها تنقل أخبارهم فتصير متواترة. [ابن عاشور (٢٠/٢٢٢)].

﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ هُوَ بِضَمِّ أَوَّلِهِ، وَقُرِئَ: بِفَتْحِهِ^(١) مِنْ بَدَأَ وَأَبْدَأَ بِمَعْنَى، أَي: يَخْلُقُهُمْ إِبْتِدَاءً ﴿ثُمَّ﴾ هُوَ ﴿يُعِيدُهُمْ﴾ أَي: الْخَلْقَ كَمَا بَدَأَهُمْ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورَ مِنَ الْخَلْقِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٢) فَكَيْفَ يُنْكِرُونَ الثَّانِي. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ لِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَأَمَاتَهُمْ ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ مَدًّا وَقَصْرًا مَعَ سُكُونِ الشَّيْنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) وَمِنْهُ الْبَدْءُ وَالْإِعَادَةُ. ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ تَعَذِّيبُهُ ﴿وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ رَحْمَتُهُ^(٤) ﴿وَالِيهِ تُقْلَبُونَ﴾^(٥) تُرَدُّونَ. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ رَبِّكُمْ عَنْ إِدْرَاكِكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ لَوْ كُنْتُمْ فِيهَا، أَي: لَا تَفُوتُونَهُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾^(٦) يَنْصُرُكُمْ مِنْ عَذَابِهِ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنِ وَالْبَعْثِ ﴿أُولَئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي﴾ أَي: جَنَّتِي^(٧) ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٨) مُؤْلِمٌ. قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ الَّتِي قَذَفُوهُ فِيهَا، بَأَنْ جَعَلَهَا عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أَي: إِنْجَائِهِ مِنْهَا ﴿لَايَةً﴾ هِيَ عَدَمُ تَأْثِيرِهَا فِيهِ مَعَ عِظَمِهَا، وَإِحْمَادُهَا وَإِنْشَاءُ رَوْضٍ مَكَانَهَا فِي زَمَنِ يَسِيرٍ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٩) يُصَدِّقُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لِأَنَّهُمْ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا. ﴿وَقَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ تَعْبُدُونَهَا، وَ«مَا» مَصْدَرِيَّةٌ ﴿مَوَدَّةً بَيْنَكُمْ﴾ خَبَرٌ ﴿إِنَّ»، وَعَلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ: مَفْعُولٌ لَهُ وَ«مَا» كَافَّةٌ، الْمَعْنَى: تَوَادَدْتُمْ عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ

(١) قراءة شاذة.

(٢) أي: هو الحاكم المتصرف، الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فله الخلق والأمر، مهما فعل فعدل؛ لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن: «إِنَّ اللَّهَ لَوْ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَآوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ». أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧). [ابن كثير (٦/ ٢٧٠)].

(٣) حولها إلى الرحمة المخلوقة لا إلى الرحمة التي هي صفة الله عز وجل؛ وذلك لأن الرحمة المضافة إلى الله قد يراد بها دار رحمته فتكون مخلوقة كما في الحديث القدسي أن الله قال للجنة: «أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشْأَاءِ». أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، وتطلق على الرحمة التي هي وصف الله عز وجل وحيث تكون صفة من صفات الله غير مخلوقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، والظاهر أن المراد بها هنا الرحمة التي هي صفته؛ لأنه إذا أطلقت الرحمة مضافة إلى الله فالمراد بها الصفة، لا نحملها على أنها بمعنى موضع الرحمة إلا إذا وجدت قرينة فنعمل بهذه القرينة وإلا فالأصل أنها صفة من صفات الله. وما ذكره المؤلف فهو محتمل. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص: ١٠١)].

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ ﴿يَتَّبِعُ الْقَادَةُ مِنَ الْأَتْبَاعِ﴾ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿يَلْعَنُ الْأَتْبَاعُ الْقَادَةَ﴾ وَمَا وَلَكُمْ مَصِيرُكُمْ جَمِيعًا ﴿الَّتَارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ تَلَصُّرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ مَا نَعِينُ مِنْهَا. ﴿فَقَامَنَ لَهُ﴾ صَدَقَ بِإِبْرَاهِيمَ ﴿لُوطٌ﴾ وَهُوَ ابْنُ أَخِيهِ هَارَانَ ﴿وَقَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ مِنْ قَوْمِي ﴿إِلَى رَبِّي﴾ أَيُّ: إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي، وَهَجَرَ قَوْمَهُ وَهَاجَرَ مِنْ سَوَادِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ فِي خَلْقِهِ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ بَعْدَ إِسْحَاقَ ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ﴾ فَكُلُّ الْأَنْبِيَاءِ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ ﴿وَالْكِتَابَ﴾ بِمَعْنَى الْكِتَابِ، أَيُّ: «التَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ، وَالزَّبُورَ، وَالْقُرْآنَ» ﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا﴾ وَهُوَ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي كُلِّ أَهْلِ الْأَدْيَانِ ﴿٢٧﴾ ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. ﴿وَأَذْكُرُ﴾ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الْمُنْكَرِ﴾ بِمَعْنَى الْفَاحِشَةِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ

(١) لم يؤمن به من قومه سواه، وسارة امرأة إبراهيم الخليل. لكن يقال: كيف الجمع بين هذه الآية، وبين الحديث الوارد في الصحيح: «أَنَّ إِبْرَاهِيمَ حِينَ مَرَّ عَلَى ذَلِكَ الْجَبَّارِ، فَسَأَلَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ سَارَةَ: مَا هِيَ مِنْهُ؟ فَقَالَ: هِيَ أُخْتِي، ثُمَّ جَاءَ إِلَيْهَا فَقَالَ لَهَا: إِنِّي قَدْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّكَ: أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبْنِي، فَإِنَّهُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَحَدٌ مُؤْمِنٌ غَيْرُكَ وَغَيْرِي، فَأَنْتِ أُخْتِي فِي الدِّينِ». أخرجه مسلم (٢٣٧١). وكان المراد من هذا والله أعلم أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك. [ابن كثير (٢٧٢/٦)].

(٢) معنى إيتاء الأجر في الدنيا أنه أعطي فيها الأولاد في غير أوانه وأخبر الله باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه، ويزداد به سروره. وقيل: أجره في الدنيا: إن أهل الملل كلها تدعيه، وتقول: هو منهم، ويشنون عليه الثناء الحسن، ويذكره أهل الإسلام في آخر كل تشهد إلى آخر الدهر، وقيل: أعطاه في الدنيا عملاً صالحاً، وعاقبة حسنة، وفيه دليل على أن الله تعالى قد يعطي الأجر في الدنيا. وعن ابن عباس قال: إن الله وصى أهل الأديان بدينه، فليس من أهل الأديان دين إلا وهم يقولون إبراهيم ويرضون به، وقال: أجر الدنيا الذكر الحسن، وقال أيضاً: الولد الصالح والثناء. [صديق حسن (١٠/١٨٥)].

(٣) في الموضع الثاني آية (٢٩) أجمع القراء على الاستفهام.

(٤) أي: في مجالسكم، المنكر فيه أربعة أوجه: أحدها: هو أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، قالته عائشة رضي الله عنها. الثاني: أنهم كانوا يأخذون من يمر بهم ويسخرون منه روته أم هانئ عن النبي ﷺ. الثالث: أنهم كانوا يجامعون الرجال في مجالسهم، رواه منصور عن مجاهد. الرابع: هو الصفيير ولعب الحمام والجلاهق والسحاق وحل أزرار القيان في المجلس، رواه الحاكم عن مجاهد. [المأوردي (٤/٢٨٢)].

كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٩﴾ فِي اسْتِغْبَاحِ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْعَذَابَ نَازِلٌ بِفَاعِلِيهِ. ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بِتَحْقِيقِ قَوْلِي فِي انْزَالِ الْعَذَابِ ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ الْعَاصِينَ بِإِثْنَانِ الرَّجَالِ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ. ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ بِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بَعْدَهُ ﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أَيُّ: قَرْيَةِ لُوطٍ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾ كَافِرِينَ. ﴿قَالَ﴾ إِبْرَاهِيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا﴾ أَيُّ: الرُّسُلِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ. ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ حَزَنَ بِسَبَبِهِمْ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ صَدْرًا؛ لِأَنَّهُمْ حَسَنُ الْوُجُوهِ فِي صُورَةِ أَضْيَافٍ، فَخَافَ عَلَيْهِمْ قَوْمَهُ، فَأَعْلَمُوهُ أَنَّهُمْ رُسُلُ رَبِّهِ ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ وَكَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَنُصِبَ ﴿أَهْلَكَ﴾ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ الْكَافِ. ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عَذَابًا ﴿مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا﴾ بِالْفِعْلِ الَّذِي ﴿كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ بِهِ، أَيُّ: بِسَبَبِ فِسْقِهِمْ. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ ظَاهِرَةً، هِيَ آثَارُ خَرَابِهَا^(١) ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ يَتَذَكَّرُونَ. ﴿وَ﴾ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ إِخْشَوْهُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ حَالَ مُؤَكَّدَةٍ لِعَامِلِهَا، مِنْ «عَثِي» بِكَسْرِ الْمُثَلَّثَةِ، أَفْسَدَ. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزَّلْزَلَةُ الشَّدِيدَةُ ﴿فَاصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ بَارِكِينَ عَلَى الرُّكْبِ مَيِّتِينَ. ﴿وَ﴾ أَهْلَكْنَا ﴿عَادًا وَثَمُودًا﴾ بِصَرْفِ «ثَمُودَ» وَتَرْكِهِ، بِمَعْنَى: الْحَيِّ وَالْقَبِيلَةِ ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ إِهْلَاكُهُمْ ﴿مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ بِالْحَجَرِ وَالْيَمَنِ ﴿وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ سَبِيلِ الْحَقِّ ﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ ذَوِي بَصَائِرٍ^(٢). ﴿وَ﴾ أَهْلَكْنَا

(١) ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أَيُّ: أَبْقَيْنَا مِنَ الْقَرْيَةِ عِلَامَةً وَدَلَالَةً بَيِّنَةً وَهِيَ الْآثَارُ الَّتِي بَهَا مِنَ الْحِجَارَةِ الَّتِي رَجَمُوا بِهَا حَتَّى أَتْرَكَهَا أَوَائِلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَخَرَابِ الدِّيارِ، وَآثَارِ مَنَازِلِهِمُ الْخَرَبَةَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: هُوَ الْمَاءُ الْأَسْوَدُ الْبَاقِي عَلَى وَجْهِ أَرْضِهِمْ، وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى جَمِيعِ مَا ذَكَرَ. [الشوكاني (٢٣٣/٤)]. وَفِي الصَّافَاتِ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَبِالْأَيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ [الصَّافَاتِ: ١٣٧-١٣٨] فَكَانَ الْعَرَبُ يَمُرُّونَ عَلَى هَذِهِ الْقَرْيَةِ ذَاهِبِينَ وَجَائِئِينَ إِلَى الشَّامِ، فَيُرُونَ مِنْ آثَارِ الْعَذَابِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ، لَكِنْهُمْ لَا يَسْتَبْصِرُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص: ١٧٦)].

(٢) بِوَاسِطَةِ الرِّسْلِ، يَعْنِي لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ عَذْرٌ لِأَنَّ الرِّسْلَ أَوْضَحُوا السَّبِيلَ قَالَهُ الرَّازِيُّ. وَقِيلَ: مُسْتَبْصِرِينَ فِي الضَّلَالَةِ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، أَيُّ: أَهْلُ بَصَائِرٍ يَتِمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ بِالاسْتِدْلَالِ لَكِنْهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا. وَقَالَ الْفَرَاءُ: كَانُوا عَقْلَاءَ أَلْبَاءِ ذَوِي بَصَائِرٍ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ بَصَائِرُهُمْ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى كَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ فِي كُفْرِهِمْ وَضَلَالَتِهِمْ مُعْجِبِينَ بِهَا، يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى هُدًى، وَيُرُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ حَقٌّ،

﴿قَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْحُجَجِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ﴾ (٣٦) ﴿فَاتَّبَعْنَاهُ عَذَابَنَا﴾ (فَكَلَّا) مِنْ الْمَذْكُورِينَ ﴿أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ رِيحًا عَاصِفَةً فِيهَا حَصَبَاءُ كَقَوْمِ لُوطٍ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذْنَاهُ الصَّيْحَةَ﴾ كَثُودَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كَقَارُونَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ كَقَوْمِ نُوحٍ وَفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ﴾ فَيُعَذِّبَهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٣٧) ﴿بَارِئًا مِنَ الذَّنْبِ﴾. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أَي: أَصْنَامًا يَرْجُونَ نَفْعَهَا ﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ لِنَفْسِهَا تَأْوِي إِلَيْهِ ﴿وَإِنْ أُوْهَنَ﴾ أَوْضَعَفَ ﴿الْبُيُوتِ لَبِيتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ لَا يَدْفَعُ عَنْهَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا، كَذَلِكَ الْأَصْنَامُ لَا تَنْفَعُ عَابِدِيهَا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) ﴿ذَلِكَ مَا عَابَدُوها﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَمَعْنِي﴾ الَّذِي ﴿يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ غَيْرِهِ ﴿مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ (٣٩) ﴿فِي صُنْعِهِ﴾. ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ فِي الْقُرْآنِ ﴿نَضْرِبُهَا﴾ نَجْعَلُهَا ﴿لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ أَي: يَفْهَمُهَا ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٠) ﴿الْمُتَدَبِّرُونَ﴾. ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ أَي: مُحِقًّا (٤١) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دَالَّةً عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٢) خُصُّوا بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُتَفَعِّلُونَ بِهَا فِي الْإِيمَانِ بِخِلَافِ الْكَافِرِينَ. ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ

فوصفهم بالاستبصار على هذا باعتبار ما عند أنفسهم، أو متبينين أن العذاب لاحق لهم بإخبار الرسل لهم، ولكنهم لجوا حتى هلكوا. [صديق حسن (١٩٢/١٠)].

(١) هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزُّز والتَّقْوَى والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتا يتقيها من الحر والبرد والآفات، ﴿وَإِنْ أُوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لَبِيتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستصرونهم، ازدادوا ضعفا إلى ضعفهم، ووهنا إلى وهنهم. فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليها، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل. فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبروا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه، كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله. ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين، ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها وظنون اعتقدوها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها. [السعدي (ص: ٦٣١)].

(٢) أي: محققا مراعىا للحكم والمصالح، مقدسا عن أن يقصد به باطلا. فالباء للملابسة، والجار والمجرور حال. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ [الدخان: ٣٨]. [الفاسمي (٥٥٦/٧)].

إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴿الْقُرْآنِ﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴿شَرْعًا، أَي: مِنْ شَأْنِهَا ذَلِكَ مَا دَامَ الْمَرْءُ فِيهَا﴾ ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي﴾ أَي: الْمُجَادَلَةِ الَّتِي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ كَالدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ بِآيَاتِهِ وَالتَّيْبِ عَلَى حُجَجِهِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بِأَنْ حَارَبُوا وَأَبَوْا أَنْ يُقَرُّوا بِالْجِزْيَةِ، فَجَالِدُوهُمْ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُسَلِّمُوا أَوْ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ ﴿وَقُولُوا﴾ لِمَنْ قَبْلَ الْإِفْرَارِ بِالْجِزْيَةِ إِذَا أَخْبَرَكُمْ بِشَيْءٍ مِمَّا فِي كُتُبِهِمْ: ﴿ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ وَلَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَالْهَنَاءُ وَالْهَكْمُ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ مُطِيعُونَ. ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ، كَمَا أُنْزِلْنَا إِلَيْهِمُ التَّوْرَةَ وَغَيْرَهَا ﴿فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَغَيْرِهِ ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أَهْلُ مَكَّةَ ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا ﴿بَعْدَ

(١) ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها. وثم في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن. فإن الله تعالى، إنما خلق الخلق لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة، كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها كما تقدم بنفسها من أكبر الذكر. [السعدي (ص: ٦٣٢)].

(٢) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بأن أفرطوا في المجادلة، ولم يتأدبوا مع المسلمين فلا بأس بالإغلاظ عليهم، والتخشين في مجادلتهم، هكذا فسر الآية أكثر المفسرين بأن المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وقيل: معنى الآية لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وسائر من آمن منهم إلا بالتي هي أحسن، يعني بالموافقة فيما حدثوكم به، من أخبار أهل الكتاب، ويكون المراد بالذين ظلموا على هذا هم الباقون على كفرهم. قال مجاهد: هذه الآية محكمة فيجوز مجادلتهم بها، وقيل: هي منسوخة بآية القتال، وبذلك قال قتادة ومقاتل، قال النحاس وغيره: من قال هي منسوخة احتج بأن الآية مكية ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك. وقول مجاهد حسن، لأن أحكام الله عز وجل لا يقال فيها إنها منسوخة، إلا بخبر يقطع العذر أو حجة من معقول، واختار هذا القول ابن العربي. [صديق حسن (١٠/ ٢٠١)].

(٣) يعني: إذا أخبروا بما لا يعلم صدقه ولا كذبه، فهذا لا نقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا، ولا على تصديقه فلعلة أن يكون باطلا، ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا... عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ يَقْرَءُونَ التَّوْرَةَ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالْعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ، وَالْهَنَاءُ وَالْهَكْمُ وَاحِدٌ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». أخرجه البخاري (٤٤٨٥). [ابن كثير (٦/ ٢٨٣)].

ظُهُورَهَا ﴿إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ ٤٧ أَي: الْيَهُودُ، وَظَهَرَ لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ وَالْجَائِي بِهِ مُحَقَّقٌ وَجَحَدُوا ذَلِكَ ^(١). ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ يَمِينُكَ إِذَا﴾ أَي: لَوْ كُنْتَ قَارِئًا كَاتِبًا ﴿لَارْتَابَ﴾ شَكَّ ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾ ٤٨ الْيَهُودُ فِيكَ، وَقَالُوا: «الَّذِي فِي التَّوْرَةِ أَنَّهُ أُمِّي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ» ^(٢) ﴿بَلْ هُوَ﴾ أَي: الْقُرْآنُ الَّذِي جِئْتَ بِهِ ﴿ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ يَحْفَظُونَهُ ^(٣) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ

(١) قد أشار قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ إلى أن من هؤلاء الذين يؤمنون بالقرآن من أهل الكتاب وأهل مكة من يكتفون إيمانهم جحوداً منهم لأجل تصلبهم في الكفر. فالتعريف في الكافرون للدلالة على معنى الكمال في الوصف المعروف، أي: إلا المتوغلون في الكفر الراسخون فيه، ليظهر وجه الاختلاف بين «ما يجحد» وبين «الكافرون»، إذ لولا الدلالة على معنى الكمال لصار معنى الكلام: وما يجحد إلا الجاحدون. وعبر عن الكتاب بالآيات؛ لأنه آيات دالة على أنه من عند الله بسبب إعجازه وتحديه وعجز المعاندين عن الإتيان بسورة مثله. وهذا يتوجه ابتداءً إلى المشركين؛ لأن جحودهم واقع، وفيه تهية لتوجهه إلى من عسى أن يجحد به من أهل الكتاب من دون أن يواجههم بأنهم كافرون؛ لأنه لم يعرف منهم ذلك الآن، فإن فعلوه فقد أوجبوا ذلك على أنفسهم. [ابن عاشور (٩/٢١)].

(٢) أي: فإن ظهور هذا الكتاب الجامع لما يكفل سعادة الدارين في شرائعه وقضياه، على أمة لم يعرف بالقراءة والتعلم، خارق للعادة. وذكر اليمين زيادة تصوير للمنفى، ونفي للتجاوز في الإسناد: ﴿إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أَي: لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَخْطُ وَيَقْرَأُ، لَقَالُوا: لَعَلَّه تَعْلَمُهُ أَوْ كَتَبَهُ بِيَدِهِ، مِنْ كِتَابٍ مَأْثُورَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ. تنبيه: قال السيوطي في «الإكليل»: في هذه الآية دليل على أنه ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وفيها رد على من زعم أنه كتب. انتهى. وقال ابن كثير: وهذه صفته في الكتب المتقدمة. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً لا يحسن الكتابة ولا يخط سطرًا ولا حرفاً بيده. بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحي والرسائل إلى الأقاليم. ومن زعم، من متأخري الفقهاء، كالقاضي ابن الوليد الباجي ومن تابعه، أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري: «ثُمَّ أَخَذَ فَكَتَبَ» وهذه محمولة على الرواية الأخرى: «ثُمَّ أَمَرَ فَكَتَبَ» ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي، وتبرأوا منه وأنشدوا في ذلك أقوالاً وخطبوا به في محافلهم. وإنما أراد الرجل أعني الباجي فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة. لا أنه كان يحسن الكتابة. وما أورده بعضهم من الحديث؛ أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة، فضعيف لا أصل له. انتهى. [القاسمي (٥٥٩/٧)].

(٣) أي: هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق، أمراً ونهيًا وخبرًا، يحفظه العلماء، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرَجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا». أخرجه البخاري (٧٢٧٤). وفي حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم (٢٨٦٥): «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي مُبْتَلِيكَ وَمُتَبِّلُكَ، وَمُتَزِّلُكَ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا...» لأنه محفوظ في الصدور، ميسر على الألسنة، مهيم على القلوب، معجز لفظاً ومعنى؛ ولهذا جاء في الكتب المتقدمة، في صفة هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم».

﴿٤٩﴾ أَيُّ: الْيَهُودُ، وَجَحَدُوا بِهَا بَعْدَ ظُهُورِهَا لَهُمْ. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيُّ: كُفَّارُ مَكَّةَ: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿عَايَتٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿عَايَتٌ﴾ كَنَاقَةِ صَالِحٍ وَعَصَا مُوسَى وَمَائِدَةِ عِيسَى ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ يُنَزِّلُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ﴿وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ بَيْنُ الْإِنذَارِ بِالنَّارِ. ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ فِيمَا طَلَبُوا ﴿أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ فَهُوَ آيَةٌ مُّسْتَمِرَّةٌ لَا انْقِضَاءَ لَهَا^(١)، بِخِلَافِ مَا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْكِتَابِ ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَى﴾ عِظَةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ﴿بِصَدْقِي﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿وَمِنْهُ حَالِي وَحَالِكُمْ﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ ﴿وَهُوَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ ﴿مِنْكُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ فِي صَفَقَتِهِمْ، حَيْثُ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لَهُ ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ عَاجِلًا ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ بِوَقْتٍ إِيَّانِهِ. ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَنَقُولُ ﴿فِيهِ﴾ «النُّونِ»، أَيُّ: نَأْمُرُ بِالْقَوْلِ، وَبِ«الْيَاءِ» ﴿يَقُولُ﴾ أَيُّ: أَلْمُوكَلِّ بِالْعَذَابِ ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ أَيُّ: جَزَاءُهُ فَلَا تَقْوُوتُونَا. ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ فِي أَيِّ أَرْضٍ تَيَسَّرَتْ فِيهَا الْعِبَادَةُ، بِأَنْ تَهَاجَرُوا إِلَيْهَا مِنْ أَرْضٍ لَمْ تَيَسَّرْ فِيهَا، نَزَلَ فِي ضِعْفَاءِ مُسْلِمِي مَكَّةَ كَانُوا فِي ضَيْقٍ مِنْ إِيْظَارِ الْإِسْلَامِ

واختار ابن جرير أن المعنى في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ عَايَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بل العلم بأنك ما كنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتاباً ولا تخطه يمينك، آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب. ونقله عن قتادة، وابن جريج. وحكى الأول عن الحسن البصري فقط. قلت: وهو الذي رواه العوفي عن عبد الله بن عباس، وقاله الضحاك، وهو الأظهر، والله أعلم. [ابن كثير (٢٨٦/٦)].

(١) أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم، الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أُمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب، فجتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، ببيان الصواب مما اختلفوا فيه، وبالحق الواضح البين الجلي، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ ءَايَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَتُنَا مِنِّي﴾ [الشعراء: ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣]... وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُورِثَهُ وَحْيًا أَوْ حَاةَ اللَّهِ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». [أخرجه البخاري (٤٩٨١) ومسلم (١٥٢)]. [ابن كثير (٢٨٧/٦)]. والاستفهام تعجيبى إنكاري. والمعنى: وهل لا يكفهم من الآيات آيات القرآن، فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول ﷺ فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية. ومقدار كل ثلاث آيات مقدار معجز، فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله. [ابن عاشور (١٤/٢١)].

بَهَا^(١). ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(٥٧) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ، بَعْدَ الْبَعْثِ^(٢). ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ نُزِّلَتْهُمْ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْمُثَلَّثَةِ بَعْدَ النُّونِ مِنَ «الْثَوِيِّ» الْإِقَامَةِ، وَتَعْدِيَّتُهُ إِلَى «غُرَفًا» بِحَذْفِ «فِي» ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ﴾ مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فِيهَا نِعَمٌ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾^(٥٨) هَذَا الْأَجْرُ. هُمْ ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ، وَالْهَجْرَةَ لِإِظْهَارِ الدِّينِ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٥٩) فَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ. ﴿وَكَايْنٍ﴾ كَمْ ﴿مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لِيُضْعِفَهَا ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُهَاجِرُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَكُمْ زَادٌ وَلَا نَفَقَةٌ ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِكُمْ ﴿الْعَلِيمُ﴾^(٦٠) بِضَمَائِرِكُمْ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ أَيِ: الْكُفَّارِ ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَاِنِّي يُؤْفَكُونَ﴾^(٦١) يُضَرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ بَعْدَ إِقْرَارِهِمْ بِذَلِكَ. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إِمْنِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ ﴿لَهُوَ﴾ بَعْدَ الْبَسْطِ لِمَنْ يَشَاءُ إِبْتِلَاءً ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٦٢) وَمِنْهُ مَحَلُّ الْبَسْطِ وَالتَّضْيِيقِ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ فَكَيْفَ يُشْرِكُونَ بِهِ؟ ﴿قُلِ﴾ لَهُمْ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى ثُبُوتِ الْحُجَّةِ عَلَيْكُمْ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٦٣) تَنَاقُضُهُمْ فِي ذَلِكَ. ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ وَأَمَّا «الْقُرْبُ» فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ لِيُظْهِرَ ثَمَرَتَهَا فِيهَا. ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ بِمَعْنَى الْحَيَاةِ^(٦٤) ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(٦٥) ذَلِكَ مَا أَثَرُوا الدُّنْيَا عَلَيْهَا. ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَاوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَيِ: الدُّعَاءِ، أَيِ: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ؛ لِأَنَّهُمْ فِي شِدَّةٍ لَا يَكْشِفُهَا إِلَّا هُوَ ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ

(١) المعنى: أنهم إن كانوا في أرض لا يقدرّون فيها على إقامة دينهم، أو يصيبهم فيها أذى الكفار، فإن أرض ربهم واسعة فليهاجروا إلى موضع منها يقدرّون فيه على إقامة دينهم، ويسلمون فيه من أذى الكفار، كما فعل رسول الله ﷺ والمسلمون. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]. [الشنقيطي (٥١٨/٦)].

(٢) تحريض على العبادة وإخلاص الدين بتذكير الموت والرجع. أو تسليّة للمهاجر إلى الله، وتشجيع له، بأن لا يبطئه عن هجرته خوف الموت بسببها. فلا المقام بأرضه يدفعه، ولا هجرته عنه تمنعه. وفيه استعارة بديعة لتشبيه الموت بأمر كربه الطعم. [القاسمي (٥٦٣/٧)].

(٣) أي: الحياة الدائمة الخالدة التي لا موت فيها، قال الواحدي وهو قول جميع المفسرين، ... وأنه مصدر، بمنزلة الحياة فيكون كالنزوان والغليان، فهي دار الحياة الباقية التي لا تزول، أو لا ينغصها موت ولا مرض ولا هم ولا غم. [صديق حسن (٢١٦/١٠)].

إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ بِهِ ^(١). ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ مِنَ النِّعْمَةِ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ بِاجْتِمَاعِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ اللَّامِ أَمْرٌ تَهْدِيدٌ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿عَاقِبَةُ ذَلِكَ﴾ ^(٢). ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَا جَعَلْنَا﴾ بَلَدَهُمْ مَكَّةَ ﴿حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ قِتْلًا وَسَيًّا دُونَهُمْ ^(٣) ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ الصَّنَمِ ﴿يُؤْمِنُونَ وَيَنْعِمُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ﴾ بِإِشْرَاقِهِمْ. ﴿وَمَنْ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بِأَنِّ أَشْرَكَ بِهِ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ النَّبِيِّ أَوْ الْكِتَابِ ﴿لَمَّا جَاءَهُهُ الْيَسُّ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ^(٤) أَيُّ: فِيهَا ذَلِكَ، وَهُوَ مِنْهُمْ ^(٥). ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ فِي حَقِّنَا ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أَيُّ: طَرِيقَ السَّيْرِ إِلَيْنَا ^(٦) ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ^(٧) الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ وَالْعَوْنِ.

(١) أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطراب يدعون له وحده لا شريك له، فهلا يكون هذا منهم دائماً، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الْدِينَ﴾ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ [الإسراء: ٦٧] ... وقد ذكر محمد بن إسحاق، عن عكرمة بن أبي جهل: أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة، اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم، أخلصوا لربكم الدعاء، فإنه لا ينجي هاهنا إلا هو. فقال عكرمة: والله إن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي غيره في البر أيضاً، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلاضعن يدي في يد محمد فلاجدنه رؤوفاً رحيماً، وكان كذلك. [ابن كثير (٦/ ٢٩٤)].

(٢) هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة؛ لأنهم لا يقصدون ذلك، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقيضه إياهم لذلك فهي لام التعليل. [ابن كثير (٦/ ٢٩٥)]. [والمعنى] ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنسبة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم. [السعدي (ص: ٦٣٥)].

(٣) امتن الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة على قريش، بأنه جعل لهم حرماً آمناً، يعني حرم مكة، فهم آمنون فيه على أموالهم ودمائهم، والناس الخارجون عن الحرم، يتخطفون قتلاً وأسراً. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء مبيناً في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن تَتَّبِعِ الْهَدْيَ مَعَكَ نَتَّخِطْفُكَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نَرْضِكَ لَهْمُ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿١﴾ [قريش: ٣-٤]. [الشنقيطي (٦/ ٥٢٠)].

(٤) أي: مكان يستقرون فيه، والاستفهام للتقرير، والمعنى أليس يستحقون الاستقرار فيها؟ وقد فعلوا ما فعلوا لأن همزة الإنكار، إذا دخلت على النفي صار إيجاباً فيرجع إلى معنى التقرير. أو ألم يصح عندهم أن جهنم مثواهم حين اجتروا مثل هذه الجراءة؟ [صديق حسن (١٠/ ٢١٩)].

(٥) هداية الدلالة والعلم، وهداية التوفيق والإرشاد، والإنسان إذا عمل بعلمه فإن الله تعالى يزيده علماً، قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]. [ابن عثيمين تفسير العنكبوت (ص: ٤١٤)].

سُورَةُ الرُّومِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّونَ أَوْ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ فِي ذَلِكَ ^(١). ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ٢﴾ وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، غَلَبَتْهَا فَارِسُ وَلَيْسُوا أَهْلَ كِتَابٍ بَلْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَفَرَحَ كُفَّارُ مَكَّةَ بِذَلِكَ، وَقَالُوا لِلْمُسْلِمِينَ: نَحْنُ نَغْلِبُكُمْ كَمَا غَلَبَتْ فَارِسُ الرُّومَ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ أَي: أَقْرَبِ أَرْضِ الرُّومِ إِلَى فَارِسَ، بِالْجَزِيرَةِ الَّتِي فِيهَا الْجَيْشَانِ وَالْبَادِي بِالْغَزْوِ الْفُرْسُ ﴿وَهُمْ﴾ أَي: الرُّومُ ﴿مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ﴾ أَضِيفَ الْمَصْدَرُ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَي: غَلَبَ فَارِسُ إِيَّاهُمْ ﴿سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فَارِسَ. ﴿فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ هُوَ مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ إِلَى التَّسْعِ أَوْ الْعَشْرِ، فَالْتَقَى الْجَيْشَانِ فِي السَّنَةِ السَّابِعَةِ مِنَ الْإِلْتِقَاءِ الْأَوَّلِ، وَغَلَبَتِ الرُّومُ فَارِسَ ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ غَلَبِ الرُّومِ وَمِنْ بَعْدِهِ، الْمَعْنَى: أَنَّ غَلَبَ فَارِسَ أَوَّلًا وَغَلَبَ الرُّومُ ثَانِيًا بِأَمْرِ اللَّهِ، أَي: إِرَادَتِهِ ^(٢) ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ أَي: يَوْمَ تَغْلِبُ الرُّومُ ﴿يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى فَارِسَ، وَقَدْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) عن نيار بن مكرم الأسلمي رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴿[الروم: ١-٤]﴾، فَكَانَتْ فَارِسَ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَاهِرِينَ لِلرُّومِ، وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ يَحْبُونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ، وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿[الروم: ٤-٥]﴾، فَكَانَتْ قَرِيشٌ تَحِبُّ ظُهُورَ فَارِسَ لِأَنَّهُمْ وَإِيَّاهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلِ كِتَابٍ وَلَا إِيْمَانٍ بِيَعِثُ، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ فِي نَوَاحِي مَكَّةَ ﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ٢ ﴿فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ، قَالَ نَاسٌ مِنْ قَرِيشَ لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: فَذَلِكَ بَيْنَا وَبَيْنَكُمْ، زَعَمَ صَاحِبُكَ أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بَضْعِ سِنِينَ، أَفَلَا نَرَاهُكَ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ: بَلَى، وَذَلِكَ قَبْلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ، فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَالْمَشْرُكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ، وَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه: كَمْ تَجْعَلُ الْبَضْعَ ثَلَاثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ، فَسَمِ بَيْنَا وَبَيْنَكَ وَسَطًا تَنْتَهِي إِلَيْهِ، قَالَ: فَسَمُوا بَيْنَهُمْ سِتَ سِنِينَ، قَالَ: فَمَضَتْ السَّتْ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا، فَأَخَذَ الْمَشْرُكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَخَلَتِ السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ، فَعَاقَبَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه تَسْمِيَةَ سِتَ سِنِينَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي بَضْعِ سِنِينَ، قَالَ: وَأَسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ. أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ (٣١٩٢).

(٣) الْمُرَادُ بِالْأَمْرِ هُنَا الْقَوْلُ، أَي: الْأَمْرُ الْكُونِيُّ وَالشَّرْعِيُّ. وَالْإِرَادَةُ لَيْسَتْ هِيَ الْقَوْلُ، فَإِنَّ الْإِرَادَةَ صِفَةٌ لَا تَسْتَلْزِمُ الْقَوْلَ؛ إِذَا إِنْ الْمُرِيدُ قَدْ يَفْعَلُ مَا أَرَادَ أَوْ قَدْ يَقُولُهُ، وَأَمَّا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ أَخْصَ مِنَ الْإِرَادَةِ، كُلُّ قَوْلٍ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِلْإِرَادَةِ، وَلَيْسَتْ كُلُّ إِرَادَةٍ مُتَضَمِّنَةً لِلْقَوْلِ. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ٢٢)].

فَرِحُوا بِذَلِكَ، وَعَلِمُوا بِهِ يَوْمَ وَقُوعِهِ يَوْمَ بَدْرِ بِنُزُولِ جَبْرِيلَ بِذَلِكَ مَعَ فَرَحِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيهِ ﴿يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مَصْدَرٌ، بَدَلٌ مِنَ اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، وَالْأَصْلُ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ النَّصْرَ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ بِهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَعَدَهُ تَعَالَى بِنَصْرِهِمْ. ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أَيُّ: مَعَاشِهَا مِنَ التِّجَارَةِ وَالزَّرَاعَةِ وَالْبِنَاءِ وَالْغَرْسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ إِعَادَةُ ﴿هُمْ﴾ تَأْكِيدٌ^(١). ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ لِيَرَجِعُوا عَنْ غَفْلَتِهِمْ ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِذَلِكَ تَفَنَّى عِنْدَ انْتِهَائِهِ وَبَعْدَهُ الْبَعْثُ ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَفِرُونَ﴾ أَيُّ: لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأَمَمِ وَهِيَ إِهْلَاكُهُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كَعَادٍ وَثَمُودَ ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حَرَّثُوهَا وَقَلَّبُوهَا لِلزَّرْعِ وَالْغَرْسِ ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرُ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ بِإِهْلَاكِهِمْ بِغَيْرِ جُرْمٍ ﴿وَلَكِنَّ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ. ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَتَوْا السُّوْأَى﴾ تَأْنِيثُ «الْأَسْوَأُ»، الْأَفْقَحُ، خَبَرٌ ﴿كَانَ﴾ عَلَى رَفْعٍ ﴿عَاقِبَةُ﴾، وَاسْمٌ ﴿كَانَ﴾ عَلَى نَصْبٍ ﴿عَاقِبَةُ﴾، وَالْمُرَادُ بِهَا جَهَنَّمَ وَإِسَاءَتُهُمْ، ﴿أَنَّ﴾ أَيُّ: بَانَ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ اللَّهُ يَبْدُوهُمُ الْخَلْقَ ﴿أَيُّ: يُشْئِي خَلْقَ النَّاسِ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أَيُّ: خَلَقَهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالنَّاءِ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿يَسْكُتُ الْمُشْرِكُونَ؛ لَا نَقْطَاعَ حُجَّتِهِمْ﴾^(٢). ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ أَيُّ: لَا يَكُونُ ﴿لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ مِمَّنْ أَشْرَكُوهُمْ

(١) معرفة الحياة الدنيا ليست بمذمة؛ لأن المؤمنين كانوا أيضا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالما آخر هو عالم الغيب. وقد اقتصر في تجهيلهم بعالم الغيب على تجهيلهم بوجود الحياة الآخرة اقتصارا بديعا حصل به التخلص من غرض الوعد بنصر الروم إلى غرض أهم وهو إثبات البعث مع أنه يستلزم إثبات عالم الغيب، ويكون مثالا لجهليلهم بعالم الغيب وذما لجهليلهم به بأنه أوقعهم في ورطة إهمال رجاء الآخرة وإهمال الاستعداد لما يقتضيه ذلك الرجاء. [ابن عاشور (٥٠ / ٢١)].

(٢) قرئ على البناء للفاعل يقال: أبلس الرجل إذا سكت، وانقطعت حجته؛ فهو قاصر لا يتعدى، قال الفراء والزجاج: المبلس الساكت المتقطع في حجته، الذي أيس أن يهتدي إليها، وقرئ مبنيا للمفعول، وفيه بعد، لأن أبلس لا يتعدى وقال الكلبي: أي يأس المشركون من كل خير حين عاينوا العذاب... وقال ابن عباس: يبلس يبتس، وعنه: يكتتب، وعنه: الإبلاس الفضيحة. [صديق حسن (٢٣١ / ١٠)].

بِاللّٰهِ، وَهُمْ: الْأَصْنَامُ، لِيَشْفَعُوا لَهُمْ ﴿شُفَعَاؤُكُمْ وَكَانُوا﴾ أَي: يَكُونُونَ ﴿بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ۝١٣﴾ أَي: مُتَبَرِّئِينَ مِنْهُمْ. وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمِيذٍ ﴿تَاكِدُ﴾ تَأَكِّدُ ﴿يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ وَالْكَافِرُونَ. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ جَنَّةٍ﴾ يُحْبَرُونَ ﴿يُسْرُونَ.﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿الْقُرْآنِ﴾ وَلِقَايِ الْأَخِرَةِ ﴿الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ﴾ ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ فَسُبْحَنَ اللَّهُ أَي: سَبَّحُوا اللَّهَ بِمَعْنَى: صَلُّوا ﴿حِينَ تُمَسُّونَ﴾ أَي: تَدْخُلُونَ فِي الْمَسَاءِ، وَفِيهِ صَلَاتَانِ الْمَغْرِبُ وَالْعِشَاءُ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧﴾ تَدْخُلُونَ فِي الصَّبَاحِ، وَفِيهِ صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعْتَرَاضٌ، وَمَعْنَاهُ: يَحْمَدُهُ أَهْلُهُمَا ﴿وَعَشِيًّا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿حِينَ﴾، وَفِيهِ صَلَاةُ الْعَصْرِ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨﴾ تَدْخُلُونَ فِي الظُّهْرِ، وَفِيهِ صَلَاةُ الظُّهْرِ. ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ كَالْإِنْسَانِ مِنَ النُّطْفَةِ وَالطَّائِرِ مِنَ الْبَيْضَةِ ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النُّطْفَةُ وَالْبَيْضَةُ ﴿مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي: يَبْسُهَا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الْإِخْرَاجُ ﴿تَخْرُجُونَ ۝١٩﴾ مِنَ الْقُبُورِ، بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ تَعَالَى الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِهِ ﴿أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أَي: أَصْلَكُمُ آدَمَ ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ﴾ مِنْ دَمٍ وَلَحْمٍ ﴿تَنْتَشِرُونَ ۝٢٠﴾ فِي الْأَرْضِ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴿فَخَلَقَتْ حَوَاءٌ مِنْ ضِلْعِ آدَمَ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ نُطْفِ الرَّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴿وَتَأْلَفُوهَا ۝٢١﴾ وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ جَمِيعًا ﴿مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢٢﴾ فِي صُنْعِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ أَي: لُغَاتِكُمْ مِنْ عَرَبِيَّةٍ وَعَجَمِيَّةٍ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَأَلَوْنَكُمْ﴾ مِنْ بَيَاضٍ وَسَوَادٍ وَغَيْرِهِمَا، وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ رَجُلٍ وَاحِدٍ وَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٣﴾ بَفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا، أَي: ذَوِي الْعُقُولِ وَأُولِي الْعِلْمِ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴿بِإِرَادَتِهِ رَاحَةً لَكُمْ وَابْتِغَاءً لَكُمْ﴾ بِالنَّهَارِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ أَي: تَصَرَّفَكُمْ فِي طَلَبِ الْمَعِيشَةِ بِإِرَادَتِهِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٤﴾ سَمَاعَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ يُرِيكُمْ أَي: إِرَاءَتُكُمْ ﴿الْبَرْقَ خَوْفًا﴾ لِلْمَسَافِرِ مِنَ الصَّوَاعِقِ ﴿وَطَمَعًا﴾ لِلْمُقِيمِ فِي الْمَطَرِ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي: يُبْسُهَا بِأَنْ تُنْبِتَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾

(١) كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ... ثم من تمام رحمته

ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبتها

لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما، وغير ذلك. [ابن كثير (٣٠٩/٦)].

الْمَذْكُورِ ﴿لَا يَتَّبِعُهُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢٥ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ بِإِذْنِهِ مِنْ غَيْرِ عَمَدٍ ٢٦ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ﴾ بِأَنْ يَنْفُخَ إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ لِلْبُعْثِ مِنَ الْقُبُورِ ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ٢٧ ﴿مِنْهَا أَحْيَاءٌ، فَخَرُّوْهُمْ مِنْهَا بِدَعْوَةٍ مِنْ آيَاتِهِ تَعَالَى﴾. ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا ﴿كُلُّ لَهُ قِنْتُونَ﴾ ٢٨ ﴿مُطِيعُونَ﴾. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ لِلنَّاسِ ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُمْ﴾ بَعْدَ هَلَاكِهِمْ ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ مِنْ الْبَدْءِ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ مِنْ أَنْ إِعَادَةَ الشَّيْءِ أَسْهَلُ مِنْ إِبْدَائِهِ، وَإِلَّا فَهَمَّا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى سَوَاءٌ فِي السَّهْوَةِ ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: الصِّفَةُ الْعُلْيَا، وَهِيَ أَنَّهُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ٢٩ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ٣٠ ﴿فِي خَلْقِهِ﴾. ﴿ضَرَبَ﴾ جَعَلَ ﴿لَكُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ ﴿مَثَلًا﴾ كَأَنَّا ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وَهُوَ ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أَي: مِنْ مَمَالِيكِكُمْ ﴿مِنْ شُرَكَاءَ﴾ لَكُمْ ﴿فِي مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ مِنْ الْأَمْوَالِ

(١) فسرهُ بقوله: من غير عمد، وهذا يدل على أنه ذهب إلى أن المراد بالقيام هنا القيام الحسي، يعني: أن تبقى غير واقعة على الأرض، بل هي ممسكة بأمر الله سبحانه وتعالى بغير عمد، ... والصواب ... أنه يشمل القيام الحسي والقيام المعنوي، فالسماوات قائمة بأمر الله قياما حسيا بما فيها من الانظام بما خلق الله عز وجل من الأفلاك المتضمنة للشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، وكذلك الأرض قائمة قياما حسيا بما أودع الله تعالى فيها من مصالح الخلق، من أشجار ونبات وأنهار وبحار، وغير ذلك، هذا قيام حسي. فيه أيضا قيام معنوي، وهو قيام هذه بطاعة الله، فإن المعاصي إفساد في الأرض، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالسماوات أيضا والأرض تقوم بأمر الله الشرعي كما تقوم بأمره الكوني، ولا قيام للأرض ولا للسماوات إلا بالتزام أمر الله الشرعي، فحيثُتد يفسر القيام بأنه قيام حسي وقيام معنوي. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ١٣٧)].

(٢) مطيعون طاعة انقياد قاله النحاس، وقيل: مقرون بالعبودية إما بالمقال وإما بالدلالة قاله عكرمة وأبو مالك والسدي، وقيل: مصلون، وقيل: قائمون يوم القيامة، كقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] أي: للحساب قاله الربيع بن أنس، وقيل: بالشهادة أنهم عباده قال الحسن، وقيل: مطيعون لأفعاله لا يمتنع عليه شيء يريد فعله بهم، من حياة وموت ومرض وصحة فهي طاعة الإرادة، لا طاعة العبادة، وقيل: مخلصون قاله سعيد بن جبير، وقال ابن عباس: مطيعون في الحياة والنشور والموت وهم له عاصون فيما سوى ذلك من العبادة. [صديق حسن (١٠ / ٢٤١)].

(٣) كل صفة كاملة فله سبحانه وتعالى أكملها، وكل صفة نقص فإنه مُتَرَدِّة عنها، وأما قول المؤلف: «وهي أنه لا إله إلا الله» فهذا فرد من أفراد المثل الأعلى، وليس هو المثل الأعلى كله، فإن لا إله إلا الله تدل على تفرد سبحانه وتعالى بالألوهية، وهذا من المثل الأعلى، لكن المثل الأعلى أعم من ذلك، فله مثلاً القدرة الكاملة، والعلم الكامل، والحياة الكاملة، والسمع الكامل، والبصر الكامل، والحكمة البالغة، وهكذا. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ١٤٩)].

وَعَبْرَهَا ﴿فَأَنْتُمْ﴾ وَهُمْ ﴿فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أَي: أَمْثَالَكُمْ مِنَ الْأَحْرَارِ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، الْمَعْنَى لَيْسَ مَمَالِيكُكُمْ شُرَكَاءَ لَكُمْ إِلَى آخِرِهِ عِنْدَكُمْ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ بَعْضَ مَمَالِكِ اللَّهِ شُرَكَاءَ لَهُ؟ ﴿كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ﴾ نُبَيِّنُهَا مِثْلَ ذَلِكَ التَّفْصِيلِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٣٨ ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بِالْإِشْرَاكِ ﴿أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أَي: لَا هَادِيَ لَهُ ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ ٣٩ ﴿مَنْعِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾. ﴿فَاقِمِ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مَائِلًا إِلَيْهِ، أَي: أَخْلِصْ دِينَكَ لِلَّهِ أَنْتَ وَمَنْ تَبَعَكَ ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ﴾ خَلَقَتْهُ ﴿الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ وَهِيَ دِينُهُ ٤٠، أَي: الرُّمُوهَا ﴿لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ﴾ لِدِينِهِ، أَي: لَا تُبَدِّلُوهُ بِأَنْ تُشْرِكُوا ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ الْمُسْتَقِيمُ تَوْحِيدُ اللَّهِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٤١ ﴿تَوْحِيدَ اللَّهِ﴾. ﴿مُنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ تَعَالَى فِيمَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ، حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ ﴿اقِمِ﴾ وَمَا أُريدُ بِهِ، أَي: أَقِيمُوا ﴿وَاتَّقُوا﴾ خَافُوا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٤٢ ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾ بَدَلُ بِإِعَادَةِ الْجَارِ ﴿فَرَقُوا دِينَهُمْ﴾ بِاخْتِلَافِهِمْ فِيمَا يَعْبُدُونَهُ ﴿وَكَانُوا شِيعًا﴾ فَرَقًا فِي ذَلِكَ ﴿كُلِّ حِزْبٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿فَرِحُونَ﴾ ٤٣ ﴿مَسْرُورُونَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَرَقُوا﴾ أَي: تَرَكُوا دِينَهُمُ الَّذِي أُمِرُوا بِهِ. ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿ضُرٌّ﴾ شِدَّةٌ ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ﴾ رَاجِعِينَ ﴿إِلَيْهِ﴾ دُونَ غَيْرِهِ ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ بِالْمَطَرِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ ٤٤ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ أُريدُ بِهِ التَّهْدِيدُ ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٤٥ ﴿عَاقِبَةُ تَمَتُّعِكُمْ﴾ فِيهِ الْفِتَاتُ عَنِ الْغِيَّةِ. ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ حُجَّةً وَكِتَابًا ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ تَكَلَّمَ دَلَالَةً ﴿بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ٤٦ أَي: يَأْمُرُهُمُ بِالْإِشْرَاكِ؟ لَا. ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ﴾ كُفَّارَ مَكَّةَ وَعَبْرَهُمْ ﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً ٤٧ ﴿فَرِحُوا بِهَا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ ٤٨ ﴿وَإِنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً﴾ شِدَّةٌ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ٤٩ ﴿يَنَاسُونَ مِنْ

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجَّسَّانِهِ، كَمَا تُنْتَجِ الْبَهِيمَةُ بِهَيْمَةٍ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاء؟». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» [الروم: ٣٠]. أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٢) يشمل جميع النعم من مال، وأولاد، وأمن، ورخاء في العيش، وغير ذلك. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ٢١٣)].

(٣) احترازًا من الفرح بنعمة الله فرح شكر؛ لأن هذا لا يذم كما قال الله تعالى: «قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا» [يونس: ٥٨]، فأمر الله تعالى أن نفرح بفضل الله ورحمته، وعلى هذا فالفرح نوعان؛ فرح ببطر يؤدي إلى الأشر والاستكبار عن الحق والتعالي عن الخلق، هذا هو المذموم، والثاني: فرح شكر، يكون الإنسان فرحًا بنعمة الله، لكن هذا الفرح يحمله على شكر النعمة. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ٢١٣)].

الرَّحْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَشْكُرَ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَيَرْجُو رَبَّهُ عِنْدَ الشَّدَّةِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ امْتِحَانًا، ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ ابْتِلَاءً، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٧﴾
بِهَا. ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى﴾ الْقَرَابَةَ ﴿حَقَّهُ﴾ مِنَ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ الْمُسَافِرِ مِنَ الصَّدَقَةِ، وَأُمَّةُ النَّبِيِّ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ﴾ أَي: ثَوَابُهُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
﴿٣٨﴾ الْفَائِزُونَ. ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبًّا﴾ بِأَنْ يُعْطَى شَيْءٌ هَبَةً أَوْ هَدِيَّةً؛ لِيُطْلَبَ أَكْثَرُ مِنْهُ، فَسُمِّيَ بِاسْمِ الْمَطْلُوبِ مِنَ الزِّيَادَةِ فِي الْمَعَامَلَةِ ﴿لِيَرْبُؤُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ الْمُعْطِينَ، أَي: لِيَزِيدَ ﴿فَلَا يَرْبُؤُوا﴾ يَزْكُو ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ لَا ثَوَابَ فِيهِ لِلْمُعْطِينَ ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ﴾ صَدَقَةٍ ﴿تُرِيدُونَ﴾ بِهَا ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ثَوَابُهُمْ بِمَا أَرَادُوهُ، فِيهِ الْإِنْفَاتُ عَنِ الْخِطَابِ. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ﴾
مِمَّنْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ﴿مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ لَا ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ بِهِ. ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ﴾ أَي: الْفَقَارُ بِقَحْطِ الْمَطَرِ وَقِلَّةِ النَّبَاتِ ﴿وَالْبَحْرِ﴾ أَي: الْبِلَادِ الَّتِي عَلَى الْأَنْهَارِ بِقِلَّةِ مَائِهَا ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ بِالْأَيِّامِ وَالنُّونِ ﴿بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أَي: عُقُوبَتَهُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤١﴾
يَتُوبُونَ. ﴿قُلْ﴾ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ فَأُهْلِكُوا بِإِشْرَاقِهِمْ، وَمَسَاكِنُهُمْ وَمَنَازِلُهُمْ خَاوِيَةً. ﴿فَاقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فِيهِ إِدْعَامُ النَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ، يَتَفَرَّقُونَ بَعْدَ الْحِسَابِ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ وَبِأَلْ كُفْرِهِ وَهُوَ النَّارُ ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ يُوْطِنُونَ مَنَازِلَهُمْ فِي الْجَنَّةِ. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ يُبَيِّهُهُمْ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٤٥﴾ أَي: يُعَاقِبُهُمْ^(١). ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ﴾ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ بِمَعْنَى: لِيُبَشِّرَكُمْ بِالْمَطَرِ ﴿وَلِيُذِيقَكُمْ﴾ بِهَا ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ الْمَطَرُ وَالْخَضْبُ ﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ﴾ السُّفُنُ بِهَا ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ الرِّزْقَ بِالتَّجَارَةِ فِي الْبَحْرِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(١) أي: النظر إليه يوم القيامة، وهو الغاية القصوى. [ابن كثير (٣١٨/٦)].

(٢) التمهيد بمعنى التوطئة، ومنه قولهم: هذا طريق ممهد، يعني: موطأً محسنًا لأجل أن تطأه الأقدام... وذلك لأن الذين يعملون صالحًا

يتوصلون بعملهم الصالح إلى دخول الجنة، فيسهل لهم الطريق الذي يوصلهم إليها. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ٢٧٦)].

(٣) هذه الجملة علة لجملة محذوفة إذ التقدير: ويجزي الكافرين بعدله وهو سوء العذاب لأنه لا يحب الكافرين. [أبو بكر الجزائري (١٨٦/٤)].

﴿٤٦﴾ هَذِهِ النِّعَمَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ فَتَوَحَّدُوهُ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَاتِ، عَلَى صِدْقِهِمْ فِي رَسُولَتِهِمْ إِلَيْهِمْ فَكَذَّبُوهُمْ ﴿فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا﴾ أَهْلَكْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوهُمْ ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ بِإِهْلَاكِهِمْ، وَإِنْجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ تَزْعِجُهُ ﴿٤٨﴾ فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴿مِنْ قَلَّةٍ وَكَثْرَةٍ﴾ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا ﴿بِفَتْحِ السِّينِ وَسُكُونِهَا، قِطْعًا مُتَفَرِّقَةً﴾ ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ﴾ الْمَطَرَ ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أَي: وَسَطِهِ ﴿٤٩﴾ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بِالْوَدْقِ ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ يَفْرَحُونَ بِالْمَطَرِ. ﴿وَإِنْ﴾ وَقَدْ ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ﴾ تَأْكِيدٌ ﴿لِمُبْلِسِينَ﴾ ﴿٥١﴾ آيِسِينَ مِنْ أَنْزَالِهِ. ﴿فَانْظُرْ إِلَى أَثَرِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَثَرِ﴾ ﴿رَحْمَتِ اللَّهِ﴾ أَي: نِعْمَتِهِ بِالْمَطَرِ ﴿٥٢﴾ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي: يُبْسِطُهَا بِأَنْ تُنْبِتَ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الْمُحْيِي الْأَرْضَ ﴿لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٣﴾ وَلَيْنَ﴾ لَأَمْ قَسَمَ ﴿أَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ مُضِرَّةً عَلَى نَبَاتٍ ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظُلُومًا﴾ صَارُوا جَوَابُ الْقَسَمِ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أَي: بَعْدَ اصْفَرَارِهِ ﴿يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ يَجْحَدُونَ النِّعْمَةَ بِالْمَطَرِ ﴿٥٥﴾. ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْإِيَاءِ ﴿وَلَوْأَ مُدْبِرِينَ﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَدِ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ﴾ مَا ﴿تُسْمِعُ﴾ سَمَاعٍ إِنْهَامٍ وَقَبُولٍ ﴿إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ مُخْلِصُونَ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ ﴿٥٧﴾. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ﴾ آخَرَ

(١) أي: ينشره. [البغوي (٦/٢٧٦)].

(٢) أي: سحابا تخينا قد طبق بعضه فوق بعض. [السعدي (ص: ٦٤٤)].

(٣) نقطا صغارا متفرقة، لا تنزل جميعا فتفسد ما أتت عليه. [السعدي (ص: ٦٤٤)].

(٤) الرحمة في مثل هذا يصح أن تكون اسما للمخلوق ويصح أن تكون من صفات الله؛ فإن كان المراد الأثر المباشر فالمراد بالرحمة المطر؛ لأن هذا النبات نبت بماذا؟ بالمطر، وإن كان المراد السبب غير المباشر فالمراد بالرحمة صفة الله؛ يعني لكون الله جل وعلا رحيفا فهذه من آثار الرحمة أنه ينزل المطر، وتنبت به الأرض، ويزول به القحط، فالآية صالحة لهذا ولهذا. [ابن عثيمين تفسير الروم (ص: ٣١٨)].

(٥) وهذه الجملة سبقت للتنبيه على أن الكفران مطبوع في نفوسهم بحيث يعاودهم بأدنى سبب، فهم إذا أصابتهم النعمة استبشروا ولم يشكروا، وإذا أصابتهم البأساء أسرعوا إلى الكفران، فصور لكفرهم أعجب صورة وهي إظهارهم إياه بحدثان ما كانوا مستبشرين منه إذ يكون الزرع أخضر والأمل في الارتقاء منه قريبا فيصيبه إعصار فيحترق فيضجون من ذلك وتكون حالهم حالة من يكفر بالله وتجري على أقوالهم عبارات السخط والقنوط. [ابن عاشور (٢١/١٢٤)].

(٦) يقول تعالى: كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون، وهم مع ذلك مدبرون

وَهُوَ ضَعْفُ الطُّفُولَةِ ﴿قُوَّةٌ﴾ أَي: قُوَّةُ الشَّبَابِ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ضَعْفَ الْكِبَرِ وَشَيْبَ الْهَرَمِ وَالضَّعْفُ فِي الثَّلَاثَةِ بِضَمِّ أَوَّلِهِ وَفَتْحِهِ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ مِنَ الضَّعْفِ وَالْقُوَّةِ وَالشَّبَابِ وَالشَّيْبَةِ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بِتَدْوِيرِ خَلْقِهِ ﴿الْقَدِيرُ ٥٤﴾ عَلَى مَا يَشَاءُ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ﴾ يَحْلِفُ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَبِثُوا﴾ فِي الْقُبُورِ ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ٥٥﴾ يُصْرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ الْبَعْثِ، كَمَا صُرِفُوا عَنِ الْحَقِّ الصِّدْقِ فِي مُدَّةِ اللَّبَثِ^(١). ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ^(٢): ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فِيمَا كَتَبَهُ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾ الَّذِي أَنْكَرْتُمُوهُ ﴿وَلَكِنَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٥٦﴾ وَقُوْعُهُ. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَذِرَتُهُمْ﴾ فِي إِنْكَارِهِمْ لَهُ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ٥٧﴾ لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ «الْعُتْبَى»، أَي: الرَّجُوعُ إِلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ^(٣). ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ

عنك، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق، وردهم عن ضلالتهم، بل ذلك إلى الله تعالى، فإنه بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء، ويهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وليس ذلك لأحد سواه؛ ولهذا قال: ﴿إِنْ تُسْمِعْ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أَي: خاضعون مستجيبون مطيعون، فأولئك هم الذين يستمعون الحق ويتبعونه، وهذا حال المؤمنين، والأول مثل الكافرين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]. [ابن كثير (٦/ ٣٢٤)].

(١) قال ابن كثير: يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم، وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم. انتهى. وقال الشهاب: المراد من قوله: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ تشابه حالهم في الكذب، وعدم الرجوع إلى مقتضى العلم؛ لأن مدار أمرهم على الجهل والباطل، والغرض من سوق الآية، وصف المجرمين بالتمادي في الباطل، والكذب الذي ألفوه. انتهى. وقيل: كان قسمهم استقلالاً لأجل الدنيا، لما عاينوا الآخرة، تأسفاً على ما أضاعوا في الدنيا. [القاسمي (٨/ ٢٢)].

(٢) اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم، فقيل: الملائكة، وقيل: الأنبياء، وقيل: علماء الأمم، وقيل مؤمنو هذه الأمة، ولا مانع من الحمل على الجميع. [الشوكاني (٤/ ٢٦٧)].

(٣) قال الزمخشري: من قولك: استعنتني فلان فأعتبته: أي: استرضاني فأرضيته، وذلك إذا كان جانياً عليه، وحقيقته: أعتبته: أزلت عتبه ... والمعنى: لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة وطاعة، ومثله قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الباقية: ٣٥]. فإن قلت: كيف جعلوا غير مستعنيين في بعض الآيات، وغير معتبين في بعضها؟ وقوله: ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؟ قلت: أما كونهم غير مستعنيين فهذا معناه، وأما كونهم غير معتبين فمعناه أنهم غير راضين بما هم فيه، فشبهت حالهم بحال قوم جني عليهم، فهم عاتبون على الجاني، غير راضين منه. فإن يستعتبوا الله: أي: يسألوه إزالة ما هم فيه، فما هم من المجابين إلى إزالته. وقال ابن عطية: هذا

مَثَلٍ ﴿تَنْبِيْهَا لَهُمْ﴾ ^(١) ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿جِئْتَهُمْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿بِآيَةٍ﴾ مِثْلَ الْعَصَا وَالْيَدِ لِمُوسَى ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَالْوَاوُ ضَمِيرُ الْجَمْعِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْهُمْ: ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنْتُمْ﴾ أَيُّ: مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ ^(٥٨) أَصْحَابُ أَبَاطِيلَ. ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ^(٥٩) التَّوْحِيدَ، كَمَا طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ هَؤُلَاءِ ^(٦٠). ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِنَصْرِكَ عَلَيْهِمْ ﴿حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ ^(٦١) بِالْبَعْثِ، أَيُّ: لَا يَحْمِلَنَّكَ عَلَى الْخِيفَةِ وَالطَّيْشِ بِتَرْكِ الصَّبْرِ ^(٦٢)، أَيُّ: لَا تَتْرُكْهُ.

إخبار عن هول يوم القيامة، وشدة أحواله على الكفرة في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يعطون عتبي، وهو الرضا. [أبو حيان (٤٠٣/٨)].
(١) أي: وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن، كصفة المبعوثين يوم القيامة، وقصصهم وما يقولون وما يقال لهم، وما لا ينفع من اعتذارهم ولا يسمع من استعتابهم، وكذا ضربنا لهم من كل مثل من الأمثال التي تدلهم على توحيد الله، وصدق رسله، واحتججنا عليهم بكل حجة تدل على بطلان الشرك وفيه إشارة إلى إزالة الأعذار، والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار. [صديق حسن (٢٦٩/١٠)].

(٢) أي: مثل ذلك الطبع وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال حتى يسموا المحققين مبطلين وهم أعرق خلق الله في تلك الصفة. [النسفي (٧٠٨/٢)].

(٣) الله تعالى قد بين في بعض الآيات القرآنية أنه يخاطب النبي ﷺ بخطاب لا يريد به نفس رسول الله ﷺ، وإنما يريد به التشريع. ومن أصرح الآيات في ذلك قوله تعالى مخاطبا له ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ الآية [الإسراء: ٢٣]، ومعلوم أن والديه قد ماتا قبل نزول هذه الآية بزمن طويل، فلا وجه البتة لاشتراط بلوغهما، أو بلوغ أحدهما الكبر عنده، بل المراد تشريع بر الوالدين لأمته، بخطابه ﷺ. وبهذا تعلم أن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾، يراد به التشريع لأمته؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهي عنه. [الشنقيطي (٥٤٢/٦)].

سُورَةُ لُقْمَانَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ إِلَّا ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ الْآيَتِينَ فَمَدَنِيَّتَانِ، وَهِيَ أَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿تِلْكَ﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْآيَاتُ ﴿ءَايَاتُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿الْحَكِيمِ ٢﴾ ذِي الْحِكْمَةِ^(٢)، وَالْإِضَافَةُ بِمَعْنَى: «مِنْ». هُوَ ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ بِالرَّفْعِ ﴿لِلْمُحْسِنِينَ ٣﴾ وَفِي قِرَاءَةِ الْعَامَّةِ بِالنَّصْبِ حَالًا مِنْ الْآيَاتِ، الْعَامِلِ فِيهَا مَا فِي ﴿تِلْكَ﴾ مِنْ مَعْنَى الْإِشَارَةِ. ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ بَيَانٌ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤﴾ ﴿هُمْ﴾ الثَّانِي تَوْكِيدٌ. ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥﴾ الْفَائِزُونَ. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أَيُّ: مَا يُلْهِى مِنْهُ عَمَّا يَعْنِي^(٣) ﴿لِيَصِلَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَنْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير. من إحكامها: أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها: أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، والتحريف. ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها، نبي من الأنبياء، ولم يأت علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه. ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيرا ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء، مع ذكر مضرته. ومن إحكامها: أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة، وتحتكم، فتعمل بالحزم. ومن إحكامها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض، ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبرا، وأعمل فيها العقل تفكرا، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزما لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد. ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا من وفقه الله تعالى وعصمه. [السعدي (ص: ٦٤٦)].

(٣) لهو الحديث: الغناء، وبهذا فسر ابن مسعود وابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد الآية ... وذكره أبو الفرج الجوزي عن الحسن وسعيد بن جبير وقتادة والنخعي. قلت: هذا أعلى ما قيل في هذه الآية، وحلف على ذلك ابن مسعود بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات إنه الغناء. وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول. وروى شعبة وسفيان عن الحكم وحماد عن إبراهيم قال: قال عبد الله بن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب، وقاله مجاهد، وزاد: إن لهو الحديث في الآية الاستماع إلى الغناء وإلى مثله من الباطل. وقال الحسن: لهو الحديث المعازف والغناء. وقال القاسم بن محمد: الغناء باطل والباطل في النار. [القرطبي (١٤ / ٥١)].

سَبِيلِ اللَّهِ ﴿طَرِيقِ الْإِسْلَامِ﴾ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا بِالنَّضْبِ عَطْفًا عَلَى «يُضِلُّ»، وَبِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى «يَشْتَرِي» ﴿هُزُؤًا﴾ مَهْزُوءًا بِهَا ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٦﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ مُتَكَبِّرًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ صَمَمًا، وَجُمَلْنَا التَّشْبِيهِ حَالًا مِنْ صَمِيرٍ ﴿وَلَّىٰ﴾، أَوْ الثَّانِيَةُ بَيَانٌ لِلأُولَىٰ ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ أَعْلِمْهُ ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ ٧﴾ مُؤْلِمٍ، ذِكْرُ الْبَشَارَةِ تَهَكُّمٌ بِهِ، وَهُوَ النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ كَانَ يَأْتِي الْحِيرَةَ يَتَجَرُّ فَيَشْتَرِي كُتُبَ أَخْبَارِ الْأَعَاجِمِ وَيُحَدِّثُ بِهَا أَهْلَ مَكَّةَ، وَيَقُولُ: إِنَّ مُحَمَّدًا يُحَدِّثُكُمْ أَحَادِيثَ عَادٍ وَثُمُودَ، وَأَنَا أُحَدِّثُكُمْ أَحَادِيثَ فَارِسَ وَالرُّومِ، فَيَسْتَمْلِحُونَ حَدِيثَهُ وَيَتَرَكُونَ اسْتِمَاعَ الْقُرْآنِ ٨. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ التَّعِيمِ ٩﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا ٩ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيِ: مُقَدَّرًا خُلُودُهُمْ فِيهَا إِذَا دَخَلُوهَا ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أَيِ: وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ، وَحَقَّهُ حَقًّا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الَّذِي لَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ فَيَمْنَعُهُ مِنْ إِنْجَازِ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ﴿الْحَكِيمُ ١٠﴾ الَّذِي لَا يَضَعُ شَيْئًا إِلَّا فِي مَحِلِّهِ. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أَيِ: الْعَمَدُ جَمْعُ «عِمَادٍ» وَهُوَ الْأُسْطُوَانَةُ، وَهُوَ صَادِقٌ بِأَنْ لَا عَمَدَ أَصْلًا ١١ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جِبَالًا مُرْتَفَعَةً ١٢ ﴿أَنْ﴾ لَا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحَرَّكَ ﴿بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا فِيهِ الْنِّفَاتِ عَنِ الْغِيَةِ﴾ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ١٣ ﴿صَنَفٍ حَسَنٍ﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ أَيِ: مَخْلُوقَهُ ﴿فَارُونِي﴾ أَخْبِرُونِي يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ غَيْرُهُ، أَيِ: آلِهَتُكُمْ حَتَّىٰ أَشْرَكْتُمُوهَا بِهِ تَعَالَى، وَ«مَا» اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٌ مُبْتَدَأٌ، وَ«ذَا» بِمَعْنَى: الَّذِي بِصَلْتِهِ خَبَرُهُ، وَ«أَرُونِي» مُعَلِّقٌ عَنِ الْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدٌّ مَسَدٌ الْمَفْعُولَيْنِ ﴿بَلْ﴾ لِلانْتِقَالِ ﴿الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ١٤﴾ بَيْنَ بِإِشْرَاكِهِمْ وَأَنْتُمْ مِنْهُمْ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ مِنْهَا: الْعِلْمُ وَالِدِّيَانَةُ وَالْإِصَابَةُ فِي الْقَوْلِ، وَحِكْمُهُ كَثِيرَةٌ مَأْثُورَةٌ، كَانَ يُفْتِي قَبْلَ بَعْثِ دَاوُدَ، وَأَدْرَكَ زَمَنَهُ وَأَخَذَ عَنْهُ الْعِلْمَ وَتَرَكَ الْفُتْيَا، وَقَالَ فِي ذَلِكَ: «أَلَا أَكْتَفِي إِذَا كُفِّتُ؟»

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (ص: ٢٣٢) عن الكلبي ومقاتل، وهما متهمان بالكذب. وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَبِيعُوا الْقَيْنَاتِ وَلَا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلَا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ، وَتَمْنُهُنَّ حَرَامٌ»، في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ الآية. أخرجه الترمذي (١٢٨٢)، وأحمد (٢٢٢٨٠). قال ابن القيم: إن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد عن القاسم فعبيد الله ابن زحر ثقة والقاسم ثقة وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات. [إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٢)].

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (٢) من سورة الرعد.

(٣) أي: من مظاهر قدرته وحكمته إلقاء الجبال الرواسي على الأرض لتحفظ توازنها حتى لا تميل بأهلها فيفسد ويسقط ما عليها وتنعدم الحياة عليها وهو معنى ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي: تميل، وإذا مالت تصدع كل ما عليها وخرب. [أبو بكر الجزائري (٤/ ٢٠١)].

وَقِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «الَّذِي لَا يُيَالِي إِنْ رَأَى النَّاسُ مُسِيئًا»^(١) «أَنْ» أَيُّ: وَقُلْنَا لَهُ: أَنْ «أَشْكُرُ لِلَّهِ» عَلَى مَا أَعْطَاكَ مِنَ الْحِكْمَةِ «وَمَنْ يَشْكُرُ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ» لِأَنَّ ثَوَابَ شُكْرِهِ لَهُ «وَمَنْ كَفَرَ» النِّعْمَةُ «فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ» عَنْ خَلْقِهِ «حَمِيدٌ ۝١٢» مَحْمُودٌ فِي صُنْعِهِ. «وَ» اذْكُرْ «إِذْ قَالَ لِقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَى» تَصْغِيرُ إِشْفَاقٍ «لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ بِاللَّهِ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣» فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَأَسْلَمَ. «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ» أَمَرْنَاهُ أَنْ يَبْرَهُمَا «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ» فَوَهَنْتَ «وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ» أَيُّ: ضَعُفْتَ لِلْحَمْلِ، وَضَعُفْتَ لِلطَّلَقِ، وَضَعُفْتَ لِلْوِلَادَةِ «وَفَصَّلْهُ» أَيُّ: فَطَّمَهُ «فِي عَامَيْنِ» وَقُلْنَا لَهُ: «أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ۝١٤» أَيُّ: الْمَرْجِعُ. «وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» مُوَافَقَةُ لِلْوَاقِعِ «فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا» أَيُّ: بِالْمَعْرُوفِ، أَلْبَرِّ وَالصَّلَةِ «وَاتَّبِعْ سَبِيلَ» طَرِيقَ «مَنْ أَنَابَ» رَجَعَ «إِلَى» بِالطَّاعَةِ «ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥» فَأَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، وَجُمْلَةُ الْوَصِيَّةِ وَمَا بَعْدَهَا إِعْتِرَاضٌ. «يَبْنَى إِلَيْهَا» أَيُّ: الْخَصْلَةُ السَّيِّئَةُ «إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ» أَيُّ: فِي أَخْفَى مَكَانٍ مِنْ ذَلِكَ «يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» فَيَحَاسِبُ عَلَيْهَا «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ» بِاسْتِخْرَاجِهَا «خَبِيرٌ ۝١٦» بِمَكَانِهَا. «يَبْنَى أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ» بِسَبَبِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ «إِنَّ ذَلِكَ» الْمَذْكُورَ «مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝١٧» أَيُّ: مَعْزُومَاتِهَا الَّتِي يُعْزَمُ عَلَيْهَا لُجُوبُهَا. «وَلَا تُصَعِّرْ» وَفِي قِرَاءَةٍ: «تُصَعِّرْ» «خَدَّكَ لِلنَّاسِ» لَا تَمِلْ وَجْهَكَ عَنْهُمْ تَكْبَرًا «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» أَيُّ: خِيَلًا «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» مُتَبَخَّرٍ فِي مَشْيِهِ «فَخُورٍ ۝١٨» عَلَى النَّاسِ. «وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ» تَوَسَّطْ فِيهِ بَيْنَ الدَّيْبِ وَالْإِسْرَاعِ، وَعَلَيْكَ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ

(١) اختلف في لقمان، هل هو عربي؟ أم أعجمي؟ مشتق من اللقم، فمن قال: إنه أعجمي منعه للتعريف والعجمة. ومن قال: إنه عربي منعه للتعريف ولزيادة الألف والنون. قال الحفناوي: والأول أظهر... والحكمة التي آتاه الله هي الفقه، والعقل، والإصابة في القول... وقد ذكر جماعة من أهل الحديث روايات عن جماعة من الصحابة والتابعين تتضمن كلمات من مواعظ لقمان وحكمه. ولم يصح عن رسول الله ﷺ من ذلك شيء، ولا يثبت إسناد صحيح إلى لقمان بشيء منها حتى نقبله، وقد حكى الله سبحانه من مواعظه لابنه ما حكاه في هذا الموضع، وفيه كفاية... ولم يكن نبيًا، حتى يكون ما نقل عنه من شرع من قبلنا، ولا صح إسناده ما روي عنه من الكلمات، حتى يكون ذكر ذلك من تدوين كلام الحكمة التي هي ضالة المؤمن. [صديق حسن (١٠/ ٢٨١)].

(٢) أي: من المحن والبلايا، أو فيما أمرت به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأن الداعي إلى الحق معرض لإيصال الأذى إليه، وهو أظهر. ويطابقه آية: «وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ» [العصر: ٣]. [القاسمي (٨/ ٣١)].

﴿وَأَغْضَضْ﴾ اخْفِضْ ﴿مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أَفْبَحَهَا ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (١٩) ﴿أَوَّلُهُ زَفِيرٌ وَآخِرُهُ شَهيقٌ﴾ (١).
 ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تَعْلَمُوا يَا مُخَاطَبِينَ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ لِتَسْتَعْمُوا بِهَا
 ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الثَّمَارِ وَالْأَنْهَارِ وَالْدَّوَابِّ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أَوْسَعَ وَأَتَمَّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَةً﴾ وَهِيَ حُسْنُ
 الصُّورَةِ وَتَسْوِيَةُ الْأَعْضَاءِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ ﴿وَبَاطِنَةً﴾ هِيَ الْمَعْرِفَةُ وَغَيْرُهَا (٢) ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: أَهْلِ مَكَّةَ ﴿مَنْ
 يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى﴾ مِنْ رَسُولٍ ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ (٣) ﴿أَنْزَلَهُ اللَّهُ، بَلْ بِالتَّقْلِيدِ﴾. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
 اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَتَبِعُونَهُمْ﴾ وَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ
 إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) ﴿أَيُّ: مُوجِبَاتِهِ، لَا. * وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: يَقْبَلُ عَلَى طَاعَتِهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾
 مُوَحِّدٌ (٥) ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ بِالطَّرْفِ الْأَوْثَقِ الَّذِي لَا يُخَافُ انْقِطَاعَهُ (٦) ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَقِبَةُ الْأُمُورِ
 (٧)﴾ مَرْجِعُهَا. ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿كُفْرُهُ﴾ لَا تَهْتَمَّ بِكُفْرِهِ ﴿إِنَّمَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
 إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٨) ﴿أَيُّ: بِمَا فِيهَا كَغَيْرِهِ، فَمَجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿نُمتَّعُهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿قَلِيلًا﴾ أَيَّامَ حَيَاتِهِمْ
 ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٩) ﴿وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ، لَا يَجِدُونَ عَنْهُ مَحِيصًا. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَا مَقْسَمٍ
 ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي الْأَمْثَالِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِاتِّقَاءِ
 السَّاكِنِينَ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ عَلَى ظُهُورِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمُ بِالْتَّوْحِيدِ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٠) ﴿وَجُوبُهُ عَلَيْهِمْ.

(١) تعليل للأمر على أبلغ وجهه وأكده، مبني على تشبيهه الرافعين أصواتهم بالحمير، وتمثيل أصواتهم بالنهاق، وإفراط في التحذير عن رفع الصوت، والتنفير عنه، وإفراد الصوت مع إضافته إلى الجمع لما أن المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع، بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الأجناس. [أبو السعود (٧٣/٧)].

(٢) قرأ جمهور الناس: ﴿نِعْمَةً﴾ على الأفراد، فقال مجاهد: المراد «لا إله إلا الله»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد «الإسلام»، والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. [ابن عطية (٣٥٢/٤)].

(٣) ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعاً، قد اتبع فيه الرسول ﷺ. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله، بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها، بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه، فإنه يراه. أو ومن يسلم وجهه إلى الله، بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم. والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل. [السعدي (ص: ٦٥٠)].

(٤) أي: تعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب، وهو تمثيل لحال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يترقى إلى شاطئ جبل فتمسك بأوثق عرى الجبل المتدلي منه. [أبو السعود (٧٤/٧)].

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعِيدًا، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ فِيهِمَا غَيْرُهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿الْحَمِيدُ ٣٦﴾ الْمَحْمُودُ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ عَطْفٌ عَلَى إِسْمٍ﴾ ﴿أَنَّ﴾ ﴿يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ مِدَادًا ﴿مَا نَفِدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ الْمُعَبَّرُ بِهَا عَنْ مَعْلُومَاتِهِ ^(١)، بِكِتَابِهَا بِتِلْكَ الْأَقْلَامِ بِذَلِكَ الْمِدَادِ وَلَا بِأَكْثَرٍ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَاتِهِ تَعَالَى غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿حَكِيمٌ ٣٧﴾ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ. ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ خَلْقًا وَبَعْثًا؛ لِأَنَّهُ بِكَلِمَةٍ «كُنْ» فَيَكُونُ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يَسْمَعُ كُلَّ مَسْمُوعٍ ﴿بَصِيرٌ ٣٨﴾ يُبْصِرُ كُلَّ مُبْصَرٍ، لَا يَشْغَلُهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعَلَّمَ يَا مُخَاطَبُ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ﴾ يَدْخُلُ ﴿الَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يَدْخُلُهُ ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ كُلَّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنَ الْآخِرِ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا﴾ بِحَرَكَةٍ ﴿فِي فَلَكِهِ﴾ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴿هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ﴾ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورُ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بِالْإِلَهِاءِ وَالتَّاءِ، يَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلِ﴾ الزَّائِلِ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ بِالْقَهْرِ ^(٢) ﴿الْكَبِيرُ ٣٩﴾ الْعَظِيمُ. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُكَ﴾ السَّفْنَ ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِرَبِّكُمْ﴾ يَا مُخَاطَبِينَ بِذَلِكَ ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴿عِبْرًا﴾ ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ ﴿شَكُورٍ ٤٠﴾ لِنِعْمَتِهِ. ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ﴾ أَيُّ: عَلَا الْكُفَّارُ ﴿مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ كَالْجِبَالِ الَّتِي تُظِلُّ مَنْ

(١) عبَّر المؤلف بقوله: إنَّ المراد بالكلمات المعلومات -معلومات الله- يعني: ما نفذ ما يعلمه. لكن هذا تحريفٌ ظاهر للقرآن؛ الله يقول: ما نفذت كلماته، والكلمات هي التي تُكتب، أمَّا المعلومات فقد تُكتب وقد لا تُكتب، فهل كل معلوماتك تكتبها؟! لكن كلماتك إذا أردت أن تعبر عنها للغير تنطق بها وتكتبها. [ابن عثيمين تفسير لقمان (ص: ١٦٤)]، وفي الآية اختصار تقديره: ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر يكتب بها كلام الله ما نفذت كلمات الله. [البغوي (٦/ ٢٩٢)]. فهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر، أضعافا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة. وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية. والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئا منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل. [السعدي (ص: ٦٥٠)].

(٢) وبذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم. [السعدي (ص: ٦٥١)].

تَحْتَهَا ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَي: الدَّعَاءُ بِأَنْ يُنَجِّيَهُمْ، أَي: لَا يَدْعُونَ مَعَهُ غَيْرُهُ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَمِنْهُمْ بَاقٍ عَلَى كُفْرِهِ ^(١) ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾ وَمِنْهَا الْإِنجَاءُ مِنَ الْمَوْجِ ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ غَدَّارٍ﴾ ﴿كَفُورٍ﴾ ^(٢) لِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي﴾ يُغْنِي ﴿وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ﴾ فِيهِ شَيْئًا ﴿وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ﴾ فِيهِ ﴿شَيْئًا إِنْ وَعَدَ اللَّهُ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ عَنِ الْإِسْلَامِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ﴾ فِي حِلْمِهِ وَإِمْهَالِهِ ﴿الْعُرُورُ﴾ ^(٣) الشَّيْطَانُ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مَتَى تَقُومُ ﴿وَيُنْزِلُ﴾ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿الْغَيْثَ﴾ بِوَقْتٍ يَعْلَمُهُ ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أَذْكَرُ أَمْ أُنْثَى ^(٤)، وَلَا يَعْلَمُ وَاحِدًا مِنَ الثَّلَاثَةِ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَيَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وَيَعْلَمُهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بِكُلِّ شَيْءٍ ﴿خَبِيرٌ﴾ ^(٥) بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ، رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ حَدِيثًا: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسَةٌ، إِنْ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ» ... إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ^(٦).

(١) أي: فقسم مقتصد، أي: عدل موفٍ في البر، بما عاهد عليه الله في البحر من إخلاص الدين له، باقٍ على ذلك بعد أن نجاه الله من هول البحر، وأخرجه إلى البر سالمًا. قال الحسن: معنى مقتصد مؤمن متمسك بالتوحيد والطاعة. وقال مجاهد: مقتصد في القول مضمحل للكفر. وقال الرازي: المقتصد المتوسط بين السابق بالخيرات، والظالم لنفسه، وهو الذي تساوت سيئاته وحسناته، وقيل: متوسط بين الكفر والإيمان، لأنه انزجر بعض الانزجار، ومنهم باقٍ على كفره لأن بعضهم كان أشد قولاً، وأعلى افتراء من بعض، والأولى ما ذكرناه. [صديق حسن (١٠/٣٠١)].

(٢) عبر بـ ﴿مَا﴾؛ لأنها أعم وأشمل من «من»، إذ «من» تختص بالعاقل، ومن جهة أخرى ﴿مَا﴾ تختص بالصفات، و«من» بالذوات، ألم تر إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء ٣] ... قال: ﴿مَا طَابَ﴾ دون (من)؛ لأن النكاح يرتكز على صفة المرأة ... فالجنين الذي في الرحم ليس العلم المختص به بمجرد كونه ذكراً أو أنثى، لا، هناك أبلغ من ذلك، وهو صفات هذا الجنين، ماذا يكون شقياً أم سعيداً، طويل العمر أم قصير العمر؟ هل عمله صالح، أو عمله فاسد؟ ولهذا الآن يطلعون على علمه بكونه ذكراً أم أنثى، يعرفون ذلك قبل أن يولد، فعلى هذا يتبين بلاغة القرآن. [ابن عثيمين تفسير لقمان (ص: ٢٠٤)].

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٢٧) بلفظ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي عَدِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ».

سُورَةُ السَّجْدَةِ

مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْم ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ مُبْتَدَأً ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكٍّ ﴿فِيهِ﴾ خَبْرٌ أَوَّلٌ ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢﴾ خَبْرٌ ثَانٍ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ مُحَمَّدٌ لَا ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ بِهِ ﴿قَوْمًا مَّا نَافِيَهُ﴾ أَتَنْهَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ بِإِنذَارِكَ. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلَهَا الْأَحَدُ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ هُوَ فِي اللَّغَةِ سَرِيرُ الْمُلْكِ، اِسْتَوَاءَ يَلِيقُ بِهِ^(٢) ﴿مَا لَكُمْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿مِّنْ دُونِهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ اِسْمُ ﴿مَا﴾ بِزِيَادَةِ «مِنْ»، أَي: نَاصِرٌ ﴿وَلَا شَفِيعَ﴾ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤﴾ هَذَا فَتَوَمَّنُوا بِهِ. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ مُدَّةَ الدُّنْيَا ﴿ثُمَّ يَعْزُجُ﴾ يَرْجِعُ الْأَمْرَ وَالتَّدْبِيرَ^(٣) ﴿إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾ فِي الدُّنْيَا، وَفِي سُورَةِ «سَالٍ» خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ^(٤)، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لِشِدَّةِ أَهْوَالِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةِ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الاستواء ورد في سبع مواضع من القرآن الكريم والأصل الراجح أن نعتقد ما ورد به القرآن ولا نؤوله ولا نصرفه عن وجهه وهو نص وظاهر في أن الله تعالى فوق العرش، ... وردَّت الجهمية هذه الصفة الثابتة له سبحانه، وتبعها المعتزلة، ورد عليهم الحافظ ابن القيم في إعلام الموقعين بثمانية عشر وجهًا، يطول ذكرها، ... فالاستواء على العرش، وكونه تعالى فوق الخلق عاليًا عليهم، قد نطق به القرآن الكريم في مواطن يكثر حصرها، ويطول نشرها، وكذلك صرح به رسول الله ﷺ في غير حديث، بل هذا مما يجده كل فرد من أفراد الناس في نفسه، ويحسه في فطرته، وتجذبه إليه طبيعته، كما تراه في كل من استغاث بالله سبحانه، والتجأ إليه، ووجه دعائه إلى جنبه الرفيع، وعزه المنيع، فإنه يشير عند ذلك بكفه، أو يرمي بطرفه، يستوى في ذلك عند عروض أسباب الأدعية، وحدوث بواعث الاستغاثة، ووجود مقتضيات الانزعاج، وظهور دواعي الالتجاء، عالم الناس وجاهلهم، وباديهم وحاضرهم، ... فالاستواء ثابت على ما نطق به الكتاب والسنة من دون تكيف، ولا تعطيل، ولا تشبيه، ولا تمثيل، والمؤول غير مقتد بالسلف، ولا واقف في طريق النجاة. [صديق حسن (١١/ ١٠)].

(٣) أي: يصعد إليه. [القاسمي (٣٨/ ٨)].

(٤) عن ابن عباس رضيهما عن أن يوم الألف في سورة «الحج»: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، هو أحد الأيام الستة التي خلق الله فيها السماوات والأرض، ويوم الألف في سورة «السجدة»: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْزُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(١). ﴿ذَلِكَ﴾ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أَيُّ: مَا غَابَ عَنِ الْخَلْقِ وَمَا حَضَرَ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْمَنِيعُ فِي مُلْكِهِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ بِأَهْلِ طَاعَتِهِ. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ بَفَتْحِ اللَّامِ فِعْلًا مَاضِيًا صِفَةً، وَيُسْكُونُهَا بَدَلُ اسْتِمَالٍ ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ آدَمَ ﴿مِنْ طِينٍ﴾ ٧ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ ذُرِّيَّتَهُ ﴿مِنْ سُلَالَةٍ﴾ عَلَقَةٍ ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ٨ ﴿ضَعِيفٍ هُوَ النَّطْفَةُ﴾. ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ أَيُّ: خَلَقَ آدَمَ ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ أَيُّ: جَعَلَهُ حَيًّا حَسَّاسًا بَعْدَ أَنْ كَانَ جَمَادًا ٩ ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ﴾ أَيُّ: لِدُرِّيَّتِهِ ﴿السَّمْعَ﴾ بِمَعْنَى الْأَسْمَاعِ ﴿وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ١٠ ﴿مَا زَايِدَةٌ مُؤَكَّدَةٌ لِلْقَلَّةِ﴾. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيُّ: مُنْكَرُوا الْبَعْثَ ﴿أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ غَبْنَا فِيهَا، بِأَنْ صِرْنَا تَرَابًا مُخْتَلِطًا بِتُرَابِهَا ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ اسْتَفْهَامٌ إِنكَارٌ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿كَافِرُونَ﴾ ١١ * ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿يَتَوَفَّنَا مَلَكٌ أَلَمَّوتِ الَّذِي وَكَلَّ بِكُمْ﴾ أَيُّ: يَقْبِضُ أَرْوَاحَكُمْ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ١٢ ﴿أَحْيَاءٌ فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ﴾. ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ مُطَاطَبُوهَا حَيَاءً ١٣، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ مَا أَنْكَرْنَا مِنَ الْبَعْثِ ﴿وَسَمِعْنَا﴾ مِنْكَ تَصْدِيقَ الرَّسُلِ فِيمَا

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعْدُونَ﴾ [السجدة: ٥]، هو مقدار سير الأمر وعروجه إليه تعالى، ويوم الخمسين ألفا ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] هو يوم القيامة. [وقيل: أن المراد بجميعها يوم القيامة، وأن اختلاف زمن اليوم إنما هو باعتبار حال المؤمن، وحال الكافر؛ لأن يوم القيامة أخف على المؤمن منه على الكافر، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ ١ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ٢] [المدثر: ٩-١٠]. [الشنقيطي (٥/ ٧٨٤)]. وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معناه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقدار ذلك اليوم في عروج ذلك الأمر إليه ونزوله إلى الأرض ألف سنة مما تعدون من أيامكم خمس مئة في النزول وخمس مئة في الصعود، لأن ذلك أظهر معانيه وأشبهها بظاهر التنزيل. [الطبري (١٨/ ٥٩٦)].

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: يوما كان مقداره خمسين ألف سنة، ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيَهَا فِي الدُّنْيَا». أخرجه أحمد (١١٧١٧)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤).

(٢) أضافه إليه تعالى تشريفا له، وإيدانا بأنه خلق عجيب، وصنع بديع، وأن له شأنا، ... وإن أقصى ما تنتهي إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارة بالإضافة إليه تعالى، وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]. [أبو السعود (٧/ ٨١)].

(٣) يعني: عند الله عز وجل، وهم بين يديه يوم القيامة، ولكن ناكسوها يقول المؤلف: «حياء» وفي النفس من هذا التفسير شيء، ولكن

كَذَّبْنَاهُمْ فِيهِ ﴿فَارْجِعْنَا﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿نَعْمَلْ صَلِحًا﴾ فِيهَا ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿١٣﴾ الْآنَ، فَمَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ وَلَا يَرْجِعُونَ^(١)، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾: لَرَأَيْتَ أَمْرًا فَظِيْعًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ فَتَهْتَدِي بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ بِاخْتِيَارٍ مِنْهَا^(٢) ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ وَهُوَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ﴾ الْجِنَّ ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿١٣﴾. وَتَقُولُ لَهُمُ الْحَزَنَةُ^(٣) إِذَا دَخَلُوهَا: ﴿فَذُوقُوا﴾ الْعَذَابَ^(٤) ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: بِتَرْكِكُمْ الْإِيمَانَ بِهِ ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ تَرَكْنَاكُمْ فِي الْعَذَابِ^(٥) ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الدَّائِمِ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ مِنَ الْكُفْرِ

الظاهر أنهم ناكسوها ذلاً وخضوعاً لسلطان الله، بدليل قوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾ أما «حياء» فالحياء محمود، لكن كونهم ناكسوها ذلاً هذا هو الواقع ... كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى ٤٥]. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص: ٦٣)]. والناكس: الذي يجعل أعلى شيء إلى أسفل ... ونكس الرؤوس علامة الذل والندامة، وذلك مما يلاقون من التقرير والإهانة. [ابن عاشور (٢١/٢٢١)].

(١) لأن كل من شاهد العذاب فإنه لا ينفعه الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ﴾ [النساء: ١٨] ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر عمره قبل أن يحل به أجله فلا يستطيع الخلاص. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص: ٦٤)].

(٢) كل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشتيتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة، تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتاً لا تغير فيه. [السعدي (ص: ٦٥٤)].

(٣) هذا هو القول الذي وجب من الله، وحق على عباده، ونفذ فيه قضاؤه، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطى كل نفس هداها، وإنما قضى عليهم بهذا لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى، وقدم الجن لأن المقام مقام تحقير، ولأن الجهنميين منهم أكثر فيما قيل ... والظاهر أنها لعموم الأفراد، والتعريف فيهما للعهد، والمراد عصاتهم، ويؤيده قوله في آية أخرى خطاباً لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] قاله الشهاب. [صديق حسن (١١/٢٢)].

(٤) الصواب: أن هذا القول من قول الله عز وجل، يقول لهم تقرّباً وتوبيخاً وتنديماً أيضاً. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص: ٧٤)].

(٥) واستعار الذوق للإحساس، وقد يعبر بالذوق عما يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساس الذائقة بذاق المطعوم. [صديق حسن (١١/٢٣)].

(٦) أي: إنا سنعاملكم معاملة الناس؛ لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء، بل من باب المقابلة، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَسْئَلُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجنّة: ٣٤]. [ابن كثير (٦/٣٦٢)]. والدليل على إطلاق النسيان على الترك قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ

وَالْتَكْذِيبِ. ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا﴾ وَعُظُوا ﴿بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: قَالُوا: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ تَرْتَفِعُ ﴿عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مَوَاضِعِ الْأَضْطِجَاعِ بِفُرْشِهَا لِصَلَاتِهِمْ بِاللَّيْلِ تَهَجُّدًا^(١) ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا﴾ مِنْ عِقَابِهِ ﴿وَطَمَعًا﴾ فِي رَحْمَتِهِ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ يَتَصَدَّقُونَ. ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ﴾ خُبْرِي ﴿لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مَا تَقَرَّبَ بِهِ أَعْيُنُهُمْ^(٢)، وَفِي قِرَاءَةِ: بِسُكُونِ «الْيَاءِ» مُضَارِعٌ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿١٨﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنُونَ وَالْفَاسِقُونَ. ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا﴾ هُوَ مَا يُعَدُّ لِلضَّيْفِ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا بِالْكَفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿فَمَا أُولَئِهِمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى عَذَابَ الدُّنْيَا، بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالْجَذْبِ سِنِينَ وَالْأَمْرَاضِ ﴿دُونَ﴾ قَبْلَ ﴿الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ عَذَابِ الْآخِرَةِ ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أَيُّ: مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ﴿يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٢١﴾ إِلَى الْإِيمَانِ. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ

فَنَسِيهِمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وهذه الآية ﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ بمعنى تركناكم، وليس معناها ذهول القلب عن معلوم، كقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فالنسيان المُنْبَت له هو الترك، والنسيان المنفي عنه هو الذهول عن الشيء. [ابن عثيمين تفسير السجدة (ص: ٧٥)].

(١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه، ونحن نسير، فقلت: يا نبي الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار. قال: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسِرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ». ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جَنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ». ثم قرأ: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْمَلُونَ﴾. ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» فقلت: بلى، يا رسول الله. فقال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فقلت: بلى، يا نبي الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به. فقال: «تَكَلَّمْتُ أُمْلَكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ». أخرجه الترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٣٩٤)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وأحمد (٢٢٠١٦).

(٢) قال الزجاج: يقال أقر الله عينك، أي: صادف فؤادك ما تحبه ... قيل: أخفوا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم. [صديق حسن (٩/ ٣٥٥)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ». قال أبو هريرة: فافروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾. أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

رَبِّهِ ۖ الْقُرْآنَ ۖ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ۚ أَيُّ: لَا أَحَدَ أَظْلَمَ مِنْهُ ۖ ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ الْمُشْرِكِينَ ۖ ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ ۖ وَلَقَدْ
 ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ۖ التَّوْرَةَ ۖ ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شَكُّ ۖ ﴿مِّن لَّقَائِهِ﴾ وَقَدْ اِتَّقِيَ لِيلَةَ الْإِسْرَاءِ ۖ ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾
 أَيُّ: مُوسَى، أَوِ الْكِتَابَ ۖ ﴿هُدًى﴾ هَادِيًا ۖ ﴿لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ ۖ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ
 يَاءً، قَادَةً ۖ ﴿يَهْدُونَ﴾ النَّاسَ ۖ ﴿بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ عَلَى دِينِهِمْ وَعَلَى الْبَلَاءِ مِنْ عَدُوِّهِمْ ۖ ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةِ عَلَى
 قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا ۖ ﴿يُوقِنُونَ﴾ ۖ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ وَتَخْفِيفِ الْمِيمِ. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ ﴿مِّنْ أَمْرِ الدِّينِ﴾. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أَيُّ: يَتَبَيَّنُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ إِهْلَاكَنَا
 كَثِيرًا ۖ ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الْأَمَمِ بِكُفْرِهِمْ ۖ ﴿يَمْشُونَ﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ۖ ﴿لَهُمْ﴾ ۖ ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ فِي أَسْفَارِهِمْ إِلَى الشَّامِ
 وَغَيْرِهَا فَيَعْتَبِرُوا ۖ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ دَلَالَاتٍ عَلَى قُدْرَتِنَا ۖ ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ ۖ ﴿سَمَاعٌ تَدْبُرُ وَاتَّعَظُ﴾. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾
 أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ ۖ الْيَابِسَةِ الَّتِي لَا نَبَاتَ فِيهَا ۖ ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعُمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾
 أَفَلَا يُبْصِرُونَ ۖ ﴿هَذَا فَعَلِمُوا أَنَّا نَقْدِرُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ﴾. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 ۖ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ۖ ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ بِإِنْزَالِ الْعَذَابِ بِهِمْ ۖ ﴿لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾
 ۖ ﴿يُمْهَلُونَ لِتَوْبَةٍ أَوْ مَعْدَرَةٍ﴾. ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ إِنْزَالَ الْعَذَابِ بِهِمْ ۖ ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ﴾ ۖ ﴿بِكَ حَادِثَ﴾
 مَوْتٍ أَوْ قَتْلٍ فَيَسْتَرْيَحُونَ مِنْكَ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ ۖ.

(١) ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: أي من كل من اتصف بالإجرام، وكسب الأمور المذمومة، وإن لم يكن بهذه المثابة ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾ فكيف
 ممن هو أظلم من كل ظالم وأشد جرماً من كل جارم، ففي الجملة إثبات الانتقام منه بطريق برهاني ... وفسر البغوي المجرمين هنا
 بالمشركين. وقال الطيبي عليه الرحمة بعد حكايته: ولا ارتياب أن الكلام في ذم المعرضين، وهذا الأسلوب أذم، لأنه يقر أن الكافر إذا
 وصف بالظلم، والإجرام حمل على نهاية كفره وغاية تمرده. [الآلوسي (١١/ ١٣٤)].

(٢) أي: لقاء الكتاب الذي هو القرآن، وعود الضمير إلى الكتاب المتقدم، والمراد غيره على طريق الاستخدام، أو إرادة العهد، أو تقدير
 مضاف، أي: تلقي مثله، أي: فلا تكن في مرية من كونه وحياً متلقى من لدنه تعالى. والمعنى: إنا آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب، ولقيناه
 من الوحي مثل ما لقيناك، فلا تكن في شك من أنك لقيت مثله. ونبيه ﷺ عن الشك، المقصود به نبي أمته، والتعريض بمن صدر منه مثله.
 [القاسمي (٨/ ٤٣)].

(٣) يعني: الأنبياء الذين كانوا فيهم. وقال قتادة: أتباع الأنبياء. [البغوي (٦/ ٣٠٩)].

(٤) وقيل: غير منسوخة إذ يقع الإعراض مع الأمر بالقتال. [صديق حسن (١١/ ٣٧)].

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ ذُمْ عَلَى تَقْوَاهُ^(١) ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فِيمَا يُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِمَا يَكُونُ قَبْلَ كَوْنِهِ ﴿حَكِيمًا ۝١﴾ فِيمَا يَخْلُقُهُ. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّخْتَانِيَّةِ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فِي أَمْرِكَ ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ حَافِظًا لَكَ، وَأُمْتُهُ تَبِعَ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ رَدًّا عَلَى مَنْ قَالَ مِنَ الْكُفَّارِ: «إِنَّ لَهُ قَلْبَيْنِ، يَعْقِلُ بِكُلِّ مَنَّهُمَا أَفْضَلَ مِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ»^(٢) ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ وَبِلَا يَاءٍ﴾ تُظَاهَرُونَ ﴿بِلَا أَلِفٍ قَبْلَ الْهَاءِ وَبِهَا، وَالتَّاءُ الثَّانِيَّةُ فِي الْأَصْلِ مُدْغَمَةٌ فِي الظَّاءِ﴾ مِنْهُنَّ ﴿يَقُولُ الْوَاحِدُ مَثَلًا لِّزَوْجَتِهِ: «أَنْتِ عَلَيَّ كَظْهَرِ أُمِّي»﴾ أُمَّهَاتِكُمْ أَيِ: كَالْأُمَّهَاتِ فِي تَحْرِيمِهَا بِذَلِكَ، أَلْمُعَدَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ طَلَاقًا، وَإِنَّمَا تَجِبُ بِهِ الْكَفَّارَةُ بِشَرْطِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سُورَةِ «الْمُجَادَلَةِ»^(٣) ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ﴾ جَمْعُ «دَعِيٍّ» وَهُوَ مَنْ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ إِنَّمَا لَهُ ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ حَقِيقَةً ﴿ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أَيِ: الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ، قَالُوا لَمَّا تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ زَيْنَبَ بِنْتَ جَحْشٍ، الَّتِي كَانَتْ امْرَأَةً لِّزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ الَّذِي تَبَنَاهُ النَّبِيُّ ﷺ قَالُوا: «تَزَوَّجَ مُحَمَّدٌ امْرَأَةً ابْنِهِ»، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝٤﴾ سَبِيلَ الْحَقِّ. لَكِنْ ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ﴾

(١) هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلا بد أن ياتر من دونه بذلك بطريق الأولى. وقد قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله. [ابن كثير ٣٧٥/٦].

(٢) تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة إذا مال بها إلى جهة لم يمل إلى غيرها وليس للعبد قلبان يطيع الله ويتبع أمره ويتوكل عليه بأحدهما والآخر لغيره بل ليس إلا قلب واحد فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة والتقوى ربه وإلا انصرف ذلك إلى غيره، ثم استطراد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه واستطراد منه إلى أنه لم يجعل دعيه ابنه فانظر ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذي تسجد له العقول والألباب. [روضة المحبين لابن القيم (ص: ٤٠٣)].

(٣) سورة المجادلة الآية (٢).

أَعْدَلُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ ﴿بُنُو عَمِّكُمْ﴾ (١) ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ ﴿فِي ذَلِكَ﴾ ﴿وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ ﴿فِيهِ، وَهُوَ بَعْدَ النَّهْيِ﴾ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ ﴿لِمَا كَانَ مِنْ قَوْلِكُمْ قَبْلَ النَّهْيِ﴾ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿بِكُمْ فِي ذَلِكَ﴾ ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ ﴿فِيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، وَدَعَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ إِلَى خِلَافِهِ﴾ ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ﴿فِي حُرْمَةِ نِكَاحِهِنَّ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ ﴿ذَوُو الْقُرَابَاتِ﴾ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ ﴿فِي الْإِزْثِ﴾ ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ ﴿أَيُّ: مِنَ الْإِزْثِ بِالْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ الَّذِي كَانَ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ فَنَسَخَ﴾ (٢) ﴿إِلَّا﴾ ﴿لَكِنْ﴾ ﴿أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ ﴿بِوَصِيَّةٍ فَجَائِزٌ﴾ (٣) ﴿كَانَ ذَلِكَ﴾ ﴿أَيُّ: نَسْخُ

(١) الواو للتقسيم وهي بمعنى «أو» فتصلح لمعنى التخيير، أي: فإن لم تعلموا آباءهم فادعوهم إن شئتم ياخوان وإن شئتم ادعوهم موالي إن كانوا كذلك. وهذا توسعة على الناس. وفي للظرفية المجازية، أي: إخوانكم أخوة حاصلة بسبب الدين كما يجمع الطرف محتوياته، أو تجعل في التعليل والتسبب، أي: إخوانكم بسبب الإسلام. والمراد بالولاء في قوله: ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ ولاء المحالفة لا ولاء العتق، فالمحالفة مثل الأخوة. وهذه الآية ناسخة لما كان جاريا بين المسلمين ومن النبي ﷺ من دعوة المتبينين إلى الذين تبوؤهم، فهو من نسخ السنة الفعلية والتقريرية بالقرآن. وذلك مراد من قال: إن هذه الآية نسخت حكم التبيين. [ابن عاشور (٢١/٢٦٣)].

(٢) أي: هو أحق بهم، وأرف، وأشفق في كل ما دعاهم إليه من أمور الدين والدنيا، فإن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أمورهم، وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم... عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿الَّتِي أُولَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا، فَلْيَرِثْهُ عَصْبَتُهُ مَنْ كَانُوا، وَمَنْ تَرَكَ دِينًا، أَوْ ضِيَاعًا، فَلْيَأْتِنِي، فَأَنَا مَوْلَاهُ». أخرجه البخاري (٢٢٦٩). وقد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». أخرجه البخاري (١٤). [صديق حسن (١١/٤٦)].

(٣) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما وغيره: كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه، للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ... وعن الزبير بن العوام قال: أنزل الله، عز وجل، فينا خاصة معشر قريش والأنصار: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان، فواخيناهم ووارثناهم... قال الزبير: وواخيت أنا كعب بن مالك، فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى، فوالله يا بني، لو مات يومئذ عن الدنيا، ما ورثه غيري، حتى أنزل الله هذه الآية فينا معشر قريش والأنصار خاصة، فرجعنا إلى موارثنا. [ابن كثير (٦/٣٨١)].

(٤) قال في الخازن: إن الله لما نسخ التوارث بالحلف، والإخاء، والهجرة، أباح أن يوصي الرجل لمن تولاه بما أحب من ثلث ماله، ويجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: لكن فعل المعروف للأولياء لا بأس به وضمن ﴿تَفْعَلُوا﴾ معنى توصلوا أو تسدوا، فعُدِّي بـ«إلى». وقال مجاهد: أراد بالمعروف النصرة وحفظ الحرمه. [صديق حسن (١١/٤٩)].

الْإِثْمَ بِالْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةَ بِإِثْمِ ذَوِي الْأَرْحَامِ ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ ٦ وَأُرِيدَ بِالْكِتَابِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ٧. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ﴾ حِينَ أُخْرِجُوا مِنْ صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ جَمْعُ ذَرَّةٍ - وَهِيَ أَصْغَرُ النَّمْلِ - ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بَأَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَيَدْعُوا إِلَى عِبَادَتِهِ، وَذِكْرُ الْخَمْسَةِ مِنَ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ٨ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَقًا غَلِيظًا﴾ ٩ شَدِيدًا بِالْوَفَاءِ بِمَا حَمَلُوهُ، وَهُوَ الْيَمِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ. ﴿لَيَسْأَلَ﴾ اللَّهُ ﴿الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ فِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ، تَبَكُّيًا لِلْكَافِرِينَ بِهِمْ ﴿وَأَعَدَّ﴾ تَعَالَى ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ بِهِمْ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٠ مُؤَلِّمًا، هُوَ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَخَذْنَا﴾. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ مِنَ الْكُفَّارِ مَتَحَزَّبُونَ أَيَّامَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ﴿مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿بَالِتَاءٍ مِنَ حَفْرِ الْخَنْدَقِ، وَبِالْيَأْسِ مِنَ تَحْزِينِ الْمُشْرِكِينَ﴾ ١١ ﴿بَصِيرًا﴾ ١٢ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴿مِنَ أَعْلَى الْوَادِي وَأَسْفَلِهِ، مِنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ ١٣ ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ مَالَتْ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى عَدُوِّهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ جَمْعُ «حَنْجَرَةٍ» وَهِيَ: مُتَتَهَى الْحُلُقُومِ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ ﴿وَتُظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ ١٤ الْمُخْتَلَفَةَ بِالنَّصْرِ وَالْيَأْسِ. ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ اخْتَبِرُوا الْيَسِينَ الْمُخْلِصُ مِنْ غَيْرِهِ ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ حُرِّكُوا ﴿زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ١٥ مِنْ شِدَّةِ الْفَزَعِ. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ ضَعُفُ اعْتِقَادٍ: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ ١٦ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أَي: الْمُنَافِقُونَ ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ هِيَ أَرْضُ الْمَدِينَةِ، وَلَمْ تُصَرَفَ لِلْعَلَمِيَّةِ ١٧ ﴿بَاطِلًا﴾. ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾

(١) أي: هذا الحكم، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض، حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول، الذي لا يبدل ولا يغير. قاله مجاهد وغير واحد. وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي، وقضائه القدري الشرعي. [ابن كثير (٦/٣٨٢)].

(٢) هو الميثاق بتبليغ الرسالة والقيام بالشرائع، وقيل: هو الميثاق الذي أخذه حين أخرج بني آدم من صلب آدم كالذر، والأول أرجح لأنه هو المختص بالأنبياء. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. [ابن جزي (٢/١٤٦)].

(٣) ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم أصحاب الشرائع المشهورة، والكتب المذكورة، ومن أولي العزم من الرسل وتقدير ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من الشريف له والتعظيم ما لا يخفى. [صديق حسن (١١/٥٠)].

وَوَزَنَ الْفِعْلَ ﴿لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا، أَي: لَا إِقَامَةَ وَلَا مَكَانَةَ ﴿فَارْجِعُوا﴾ إِلَى مَنَازِلِكُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا خَرَجُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى «سَلْعٍ» - جَبَلٍ خَارِجِ الْمَدِينَةِ - لِلْقِتَالِ ﴿وَيَسْتَعِزُّونَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ الَّذِينَ فِي الرَّجُوعِ﴾ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴿غَيْرَ حَصِينَةٍ يُخْشَى عَلَيْهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ﴾ مَا يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ مِنْ الْقِتَالِ. ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أَي: الْمَدِينَةُ ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ نَوَاحِيهَا ﴿ثُمَّ سِيلُوا﴾ أَي: سَأَلَهُمُ الدَّاخِلُونَ ﴿الْفِتْنَةَ﴾ الشَّرْكَ ﴿لَا تَوَهَا﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَي: أَعْطَوْهَا وَفَعَلُوهَا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ ١٤ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلُّونَ الْأَدْبَرَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ ١٥ ﴿عَنِ الْوَفَاءِ بِهِ. ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا﴾ إِنْ فَرَرْتُمْ ﴿لَا تُمْتَعُونَ﴾ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ فِرَارِكُمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٦ ﴿بَقِيَّةَ أَجَالِكُمْ. ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ يُجِيرُكُمْ ﴿مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ هَلَاكًا وَهَزِيمَةً ﴿أَوْ﴾ يُصِيبُكُمْ بِسُوءٍ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ ﴿بِكُمْ رَحْمَةً﴾ خَيْرًا ١٧ ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿وَلِيًّا﴾ يَنْفَعُهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ١٨ ﴿يَدْفَعُ الضَّرَّ عَنْهُمْ﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ الْمُشْطِبِينَ ﴿مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ﴾ تَعَالَوْا ﴿إِنِّي نَا وَلا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ الْقِتَالِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٩ ﴿رِيَاءَ وَسُمْعَةٍ. ﴿أَشْحَةً عَلَيْكُمْ﴾ بِالْمُعَاوَنَةِ، جَمْعُ «شَحِيحٍ» وَهُوَ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿يَأْتُونَ﴾، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي﴾ كَنْظَرٍ، أَوْ كَدَوْرَانِ الَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ٢٠ ﴿أَي: سَكَرَاتِهِ﴾ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ وَحِزَتِ الْغَنَائِمُ ﴿سَلَقُوكُمْ﴾ آذَوْكُمْ أَوْ ضَرَبُوكُمْ ﴿بِالْأَسِنَّةِ جِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ أَي: الْغَنِيمَةِ يَطْلُبُونَهَا ﴿أُولَئِكَ لَمْ يُولُوا﴾ حَقِيقَةً ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الْإِحْبَاطُ ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ٢١ ﴿بِإِرَادَتِهِ. ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿لَمْ يَذْهَبُوا﴾ إِلَى مَكَّةَ لِخَوْفِهِمْ مِنْهُمْ ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كَرَّةً أُخْرَى ﴿يَوَدُّوْا﴾ يَتَمَنَّوْا ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ أَي: كَانُوا فِي الْبَادِيَةِ ﴿يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾ أَخْبَارِكُمْ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ﴾ هَذِهِ الْكَرَّةَ ﴿مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٢٢ ﴿رِيَاءَ وَخَوْفًا مِنَ التَّعْيِيرِ. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ﴾ بِكُسْرِ الهمزة وَضَمِّهَا ﴿حَسَنَةً﴾ إِقْدَاءً بِهِ فِي الْقِتَالِ

(١) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ أَي: يَثْرِب: ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا﴾ أَي: بَأَن دَخَلَ عَلَيْهِمُ الْعَدُوُّ مِنْ سَائِرِ جَوَانِبِهَا، وَأَخَذَ فِي النَّهْبِ وَالسَّلْبِ ﴿ثُمَّ سِيلُوا﴾ الْفِتْنَةَ أَي: الرَّجْعَةَ إِلَى الْكُفْرِ ﴿لَا تَوَهَا﴾ أَي: لَفَعَلُوهَا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أَي: وَمَا تَوَقَّفُوا بِإِعْطَائِهَا إِلَّا رِيثَمَا يَكُونُ السُّؤَالُ وَالْجَوَابُ؛ أَي: فَهَمْ لَا يَحْفَظُونَ عَلَى الْإِيمَانِ وَلَا يَسْتَمْسِكُونَ بِهِ، مَعَ أَدْنَى خَوْفٍ وَفَرَعٍ. وَهَذَا مَتَهَى الذَّمِّ لَهُمْ. [القاسمي (٥٦/٨)].

(٢) اسْتَفْهَامٌ فِي مَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا أَحَدٌ يَمْنَعُكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ وَقُدْرَةٍ جَلِّ جَلَالِهِ إِنْ خَيْرًا وَإِنْ شَرًّا، فَجَعَلَتِ الرَّحْمَةُ قَرِينَةَ السُّوءِ فِي الْعَصْمَةِ مَعَ أَنَّهُ لَا عَصْمَةَ إِلَّا مِنَ السُّوءِ لَمَّا فِي الْعَصْمَةِ مِنَ مَعْنَى الْمَنْعِ. [الآلوسي (١٦٠/١١)].

وَالثَّبَاتِ فِي مَوَاطِنِهِ ﴿لِمَنْ﴾ بَدَّلَ مِنْ ﴿لَكُمْ﴾ ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ﴾ يَخَافُهُ ﴿وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا﴾ ﴿١١﴾
 بِخِلَافٍ مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ مِنْ
 الْإِتِّلَاءِ وَالنَّصْرِ ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فِي الْوَعْدِ ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ تَصَدِّيقًا بِوَعْدِ اللَّهِ ﴿وَتَسْلِيمًا﴾
 ﴿١٢﴾ لِأَمْرِهِ. ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ مِنَ الثَّبَاتِ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ
 نَحْبَهُ﴾ مَاتَ، أَوْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ﴾ ذَلِكَ ﴿وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ﴿١٣﴾ فِي الْعَهْدِ، وَهُمْ بِخِلَافِ
 حَالِ الْمُنَافِقِينَ^(١). ﴿لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ﴾ بِأَن يُمِيتَهُمْ عَلَىٰ نَفَقِهِمْ ﴿أَوْ
 يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لِمَنْ تَابَ^(٢) ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿١٤﴾ بِهِ. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيِ: الْأَحْزَابِ
 ﴿بَغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ مُرَادُهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بِالرَّيْحِ وَالْمَلَائِكَةِ ﴿وَكَانَ
 اللَّهُ قَوِيًّا﴾ عَلَىٰ إِيجَادِ مَا يُرِيدُهُ ﴿عَزِيزًا﴾ ﴿١٥﴾ غَالِبًا عَلَىٰ أَمْرِهِ. ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَهَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَيِ:
 فُرَيْطَةَ ﴿مِنَ صِيَاصِهِمْ﴾ حُصُونَهُمْ جَمْعُ «صِيصَةٍ»، وَهُوَ مَا يُتَحَصَّنُ بِهِ ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الْخَوْفَ
 ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ مِنْهُمْ وَهُمْ الْمُقَاتِلَةُ ﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ، أَيِ: الدَّرَارِيِّ. ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ
 وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا﴾ بَعْدُ، وَهِيَ خَيْبَرُ أُخِذَتْ بَعْدَ فُرَيْطَةَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ
 قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ ﴿وَهُنَّ تَسْعُ﴾، وَطَلَبْنَ مِنْهُ مِنْ زِينَةِ الدُّنْيَا مَا لَيْسَ عِنْدَهُ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ
 أُمْتَعِكُنَّ﴾ أَيِ: مُتْعَةِ الطَّلَاقِ ﴿وَأُسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ أَطْلَقْكُنَّ مِنْ غَيْرِ ضَرَارٍ. ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ﴾ بِإِرَادَةِ الْآخِرَةِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿١٨﴾ أَيِ:

(١) عن أنس رضي الله عنه قال: «غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرين الله ما أصنع. فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين. ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد، قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعا وثمانين: ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثل به المشركون فما عرفه أحد إلا أخته بينانه. قال أنس: كنا نرى أو نظن: أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ إلى آخر الآية». أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣).

(٢) تعليل للمنطوق والمعرض به، فكأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى، والتوبة عليهم مشروطة بتوبتهم أو المراد بها التوفيق للتوبة. [البضاوي (٢٢٩/٤)].

الْجَنَّةَ، فَاخْتَرَنَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا^(١). ﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَيُّ: بُيِّنَتْ أَوْ هِيَ بَيِّنَةٌ ﴿يُضَعَّفُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَفِي أُخْرَى: ﴿نُضَعَّفُ﴾ بِالنُّونِ مَعَهُ وَنَضَبِ ﴿الْعَذَابِ﴾ ﴿لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ ضِعْفَيْنِ عَذَابٍ غَيْرِهِنَّ، أَيُّ: مِثْلِيهِ^(٢) ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ * وَمَنْ يَقْنُتْ ﴿يُطِيعُ﴾ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا تُوْتَهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴿أَيُّ: مِثْلِي ثَوَابٍ غَيْرِهِنَّ مِنَ النَّسَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّحْتَانِيَّةِ فِي ﴿تَعْمَلْ﴾ وَ ﴿تُوْتَهَا﴾ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ ﴿٣﴾ فِي الْجَنَّةِ زِيَادَةً. ﴿يَنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَ كَأَحَدٍ﴾ كَجَمَاعَةٍ^(٣) ﴿مِنَ النَّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ﴾ اللَّهُ فَإِنَّكُنَّ أَعْظَمُ^(٤) ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ لِلرِّجَالِ ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ نِفَاقٌ ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ ﴿٣٢﴾ مِنْ غَيْرِ خُضُوعٍ^(٥). ﴿وَقُرْنِ﴾ بِكَسْرِ الْقَافِ وَفَتْحِهَا ﴿فِي

(١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «دخل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسا يبابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر رضي الله عنه فدخل، ثم أقبل عمر رضي الله عنه، فاستأذن فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما ساكتا، قال: فقال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة، فقامت إليها، فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هَنِّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنِي النَّفَقَةَ»، فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها يجأ عنقها، فقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة رضي الله عنها يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِرِزْوَانِكِ﴾ حتى بلغ: ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال فبدأ بعائشة رضي الله عنها، فقال ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أَحِبُّ أَنْ لَا تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكَ؟» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفليك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله، ورسوله، والدار الآخرة، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت. قال: لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثني معلما ميسرا». أخرجه مسلم (١٤٧٨).

(٢) يقول تعالى واعظا نساء النبي ﷺ، اللاتي اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، واستقر أمرهن تحت رسول الله ﷺ أن يخبرهن بحكمهن وتخصيصهن دون سائر النساء، بأن من يأت منهن بفاحشة مبينة قال ابن عباس: وهي الشوز وسوء الخلق. وعلى كل تقدير فهو شرط، والشرط لا يقتضي الوقوع بكفوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... فلما كانت محلتهن رفيعة، ناسب أن يجعل الذنب لو وقع منهن مغلظا، صيانة لجناهن وحجابهن الرفيع. [ابن كثير (٤٠٨/٦)].

(٣) أصل أحد وحد بمعنى الواحد، ثم وضع في النفي العام مستويا فيه المذكر والمؤنث والواحد والكثير، والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل. [البضاوي (٢٣١/٤)].

(٤) فضلهن الله على النساء بشرط التقوى، وقد حصل لهن التقوى فحصل التفضيل على جميع النساء، إلا أنه يخرج من هذا العموم فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ومريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون لشهادة رسول الله ﷺ لكل واحدة منهن بأنها سيدة نساء عالمها. [ابن جزي (١٥١/٢)].

(٥) هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك. [ابن كثير (٤٠٨/٦)].

بُيُوتِكُنَّ ﴿مِنْ الْقَرَارِ، وَأَصْلُهُ «أَقْرَرَنْ» بِكَسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا مِنْ «قَرَرْتُ» بَفَتْحِ الرَّاءِ وَكَسْرِهَا نُقِلَتْ حَرَكَةُ الرَّاءِ إِلَى الْقَافِ وَحُذِفَتْ مَعَ هَمْزَةِ الْوَصْلِ «وَلَا تَبَرَّجْنَ» بِتَرْكِ إِحْدَى التَّائِينَ مِنْ أَصْلِهِ «تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةُ الْأُولَى» أَي: مَا قَبْلَ الْإِسْلَامِ، مِنْ إِظْهَارِ النِّسَاءِ مَحَاسِنِهِنَّ لِلرِّجَالِ، وَالْإِظْهَارُ بَعْدَ الْإِسْلَامِ مَذْكُورٌ فِي آيَةٍ: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا» [النور: ٣١]، «وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ ﴿الْإِثْمَ، يَا «أَهْلَ الْبَيْتِ» أَي: نِسَاءَ النَّبِيِّ ﷺ «وَيُطَهِّرَكُمُ» مِنْهُ «تَطْهِيرًا» ٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتَنَلَّى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ ﴿الْقُرْآنِ «وَالْحِكْمَةِ» السُّنَّةِ «إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا» بِأَوْلِيَائِهِ «خَبِيرًا» ٣٤﴾ بِجَمِيعِ خَلْقِهِ. «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ الْمُطِيعَاتِ «وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ» فِي الْإِيمَانِ «وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ» عَلَى الطَّاعَاتِ «وَالْخَاشِعِينَ» الْمُتَوَاضِعِينَ «وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَفِظَاتِ» عَنِ الْحَرَامِ «وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً» لِلْمَعَاصِي «وَأَجْرًا عَظِيمًا» ٣٥﴾ عَلَى الطَّاعَاتِ ٣٦. «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ» بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ «لَهُمُ الْخَيْرَةُ» أَي: الْإِخْتِيَارُ «مِنْ أَمْرِهِمْ» خِلَافَ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَحْشٍ وَأُخْتِهِ زَيْنَبَ خَطْبَاهَا النَّبِيُّ لَزِيدِ بْنِ حَارِثَةَ، فَكَرَّهَا ذَلِكَ حِينَ عَلِمَا لِظْنَهُمَا قَبْلَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَهَا لِنَفْسِهِ ثُمَّ رَضِيًا ٣٧، لِآيَةٍ: «وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا» ٣٨﴾ بَيْنًا، فَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ لَزِيدٍ، ثُمَّ وَقَعَ بَصَرُهُ عَلَيْهَا بَعْدَ حِينَ فَوَّعَ فِي نَفْسِهِ حُبَّهَا وَفِي نَفْسِ زَيْدٍ كَرَاهَتُهَا، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: أُرِيدُ

(١) روى الترمذي (٣٢١١): «أن أم عمارَةَ الأنصارية أتت النبي ﷺ فقالت: ما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية». والمقصود من أصحاب هذه الأوصاف المذكورة النساء، وأما ذكر الرجال فلا إشارة إلى أن الصنفين في هذه الشرائع سواء ليعلموا أن الشريعة لا تختص بالرجال لا كما كان معظم شريعة التوراة خاصة بالرجال إلا الأحكام التي لا تتصور في غير النساء، فشريعة الإسلام بعكس ذلك، الأصل في شرائعها أن تعم الرجال والنساء إلا ما نص على تخصيصه بأحد الصنفين، ولعل بهذه الآية وأمثالها تقرر أصل التسوية فأغنى عن التنبيه عليه في معظم أقوال القرآن والسنة، ولعل هذا هو وجه تعدد الصفات المذكورة لثلاثيهم التسوية في خصوص صفة واحدة. [ابن عاشور (٢٢/٢٠)].

(٢) معظم الروايات على أن هذه الآية نزلت في شأن خطبة زينب بنت جحش على زيد بن حارثة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «انطلق رسول الله ﷺ يخطب على فتاه زيد بن حارثة زينب بنت جحش فاستنكفت وأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فأنزل الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ» الآية، فتابعته ورضيت»؛ لأن تزويج زينب بزيد بن حارثة كان قبل الهجرة فتكون هذه الآية نزلت بمكة، ويكون موقعها في هذه السورة التي هي مدنية إلحاقاً لها بها لمناسبة أن تكون مقدمة لذكر تزويج رسول الله ﷺ زينب الذي يظهر أنه وقع بعد وقعة الأحزاب، وقد علم الله ذلك من قبل فقد رُفِعَ له الأحوال التي حصلت من بعد. [ابن عاشور (٢٢/٢٦)].

فَرَأَاهَا، فَقَالَ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾^(١). كَمَا قَالَ تَعَالَى. ﴿وَإِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ «اذْكُرْ» ﴿تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بِالْإِسْلَامِ ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بِالْإِعْتِقَاقِ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ كَانَ مِنْ سَبِي الْجَاهِلِيَّةِ، اشْتَرَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ الْبُعْثَةِ وَأَعْتَقَهُ وَتَبَّاهُ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فِي أَمْرِ طَلَاقِهَا ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ مُظْهِرُهُ مِنْ مَحَبَّتِهَا، وَأَنْ لَوْ فَارَقَهَا زَيْدٌ تَزَوَّجَتْهَا^(٢) ﴿وَتُخْشَى النَّاسَ﴾ أَنْ يَقُولُوا تَزَوَّجَ زَوْجَةَ ابْنِهِ ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَتَزَوَّجَهَا وَلَا عَلَيْكَ مِنْ قَوْلِ النَّاسِ، ثُمَّ طَلَّقَهَا زَيْدٌ وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ حَاجَةً^(٣) ﴿زَوَّجْنَاهَا﴾ فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ بِغَيْرِ إِذْنٍ^(٤)، وَأَشْبَعَ الْمُسْلِمِينَ خُبْرًا وَلَحْمًا ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ مَقْضِيَةً ﴿مَفْعُولًا﴾^(٥) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ﴿أَحَلَّ﴾ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ أَي: كَسَنَةَ اللَّهِ، فَنُصِبَ بَنَزِعُ الْخَافِضِ ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا

(١) التحقيق إن شاء الله في هذه المسألة هو أن الله أعلم نبيه ﷺ بأن زيدا يطلق زينب، وأنه يزوجه إياه ﷺ، وهي في ذلك الوقت تحت زيد، فلما شكها زيد إليه ﷺ قال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، فعاتبه الله على قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ بعد علمه أنها ستصير زوجته هو ﷺ، وخشي مقالة الناس أن يقولوا: لو أظهر ما علم من تزويجه إياها أنه يريد تزويج زوجته ابنة في الوقت الذي هي فيه في عصمة زيد. والدليل على هذا أمران: الأول: أن الله جل وعلا قال: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾، وهذا الذي أبداه الله جل وعلا هو زواجه إياها في قوله: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾، ولم يبد جل وعلا شيئاً مما زعموه أنه أحبها، ولو كان ذلك هو المراد لأبداه الله تعالى كما ترى. الأمر الثاني: أن الله جل وعلا صرح بأنه هو الذي زوجه إياها، وأن الحكمة الإلهية في ذلك التزويج هي قطع تحريم أزواج الأدعياء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ الآية، فقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾، تعليل صريح لتزويجه إياها لما ذكرنا، وكون الله هو الذي زوجه إياها لهذه الحكمة العظيمة صريح في أن سبب زواجه إياها ليس هو محبته لها التي كانت سبباً في طلاق زيد لها كما زعموا، ويوضحه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ الآية؛ لأنه يدل على أن زيدا قضى وطره منها، ولم تبق له بها حاجة، فطلقها باختياره، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٦/ ٦٤١)].

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) قضاء الوطر في اللغة بلوغ متهمي ما في النفس من الشيء يقال قضى وطراً منه إذا بلغ ما أراد من حاجته فيه... والمراد هنا أنه قضى وطره منها بنكاحها والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت عنه همته وطابت عنها نفسه. وقيل: المراد به الطلاق لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. [الشوكاني (٤/ ٣٢٧)].

(٤) يعني لم نحوجك إلى ولي من الخلق يعقد لك عليها تشریفاً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا تقدير صدق ولا شيء مما هو معتبر في النكاح في حق أمته، وهذا من خصوصياته ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع المسلمين. [صديق حسن (١١/ ٩٧)].

مِنْ قَبْلُ ﴿مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ لَا حَرَجَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ تَوْسِعَةً لَهُمْ فِي النِّكَاحِ﴾ (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ) فَعَلُهُ ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (٣٨) ﴿مَقْضِيًّا﴾ (الَّذِينَ) نَعْتُ لـ (الَّذِينَ) قَبْلَهُ ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ فَلَا يَخْشَوْنَ مَقَالَ النَّاسِ فِيمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩) حَافِظًا لِأَعْمَالِ خَلْقِهِ وَمَحَاسِبِهِمْ. ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ فَلَيْسَ أَبَا زَيْدٍ^(١)، أَي: وَالِدُهُ فَلَا يَحْرُمُ عَلَيْهِ التَّزْوُجُ بِزَوْجَتِهِ زَيْنَبَ ﴿وَلَكِن﴾ كَانَ ﴿رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتِمَ النَّبِيِّينَ﴾ فَلَا يَكُونُ لَهُ ابْنٌ رَّجُلٌ بَعْدَهُ يَكُونُ نَبِيًّا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ التَّاءِ، كـ «آلَةِ الْخَتَمِ» أَي: بِهِ خُتِمُوا^(٢) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (٤٠) مِنْهُ أَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا نَزَلَ السَّيِّدُ^(٣) عِيسَى يَحْكُمُ بِشَرِيعَتِهِ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (٤١) أَي: أَذْكُرُوهُ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (٤٢) أَوَّلَ النَّهَارِ وَآخِرَهُ^(٤). ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾ أَي: يَرْحَمُكُمْ^(٥) ﴿وَمَلَائِكَتُهُ﴾ أَي: يَسْتَغْفِرُونَ لَكُمْ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ﴾ لِيُدِيمَ

(١) قال الإمام أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي: كان يقال زيد بن محمد: حتى نزل ﴿أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقال: أنا زيد بن حارثة وحرّم عليه أنا زيد بن محمد، فلما نزع هذا الشرف وهذا الفخر منه، وعلم الله وحشته من ذلك شرفه بخصيصة لم يكن يختص بها أحد من أصحاب النبي ﷺ وهو أنه سمّاه في القرآن، أي: في هذه الآية، فذكره الله تعالى باسمه في الذكر الحكيم، حتى صار اسمه قرآناً يتلى في المحاريب، ونوه به غاية التنويه، فكان في هذا تأنيس له وعوض من الفخر بأبوة محمد ﷺ. [صديق حسن (١١/٩٦)].

(٢) فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأخرى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة ... عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». أخرجه مسلم (٥٢٣). وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الرِّسَالََةَ وَالنَّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ، فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ». أخرجه الترمذي (٢٢٧٢)، وأحمد (١٣٨٢٤). [ابن كثير (٦/٤٢٨)].

(٣) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٤) عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَا أُبَيِّنُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرِ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، ذَكَرَ اللَّهُ». أخرجه الترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠)، وأحمد (١٤٤١).

(٥) هذا تهيج إلى الذكر، أي: إنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم، كقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ: مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَالٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَالٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ». أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥). والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة، حكاها البخاري عن أبي العالية. ورواه أبو جعفر الرازي، عن

إِخْرَاجُهُ إِيَّاكُمْ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ أَي: الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ أَي: الْإِيمَانِ ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝١٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ مِنْهُ تَعَالَى ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ بِلِسَانِ الْمَلَائِكَةِ ۝١٤ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝١٥﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ عَلَى مَنْ أَرْسَلْتَ إِلَيْهِمْ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ مَنْ صَدَّقَكَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا ۝١٦﴾ مُنْذِرًا مَنْ كَذَّبَكَ بِالنَّارِ. ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ إِلَى طَاعَتِهِ ۝١٧ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بِأَمْرِهِ ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝١٨﴾ أَي: مِثْلُهُ فِي الْإِهْتِدَاءِ بِهِ ۝١٩. ﴿وَكَثِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝٢٠﴾ هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فِيمَا يُخَالِفُ شَرِيعَتَكَ ﴿وَدَعْ﴾ أَتْرُكْ ﴿أَذْنَهُمْ﴾ لَا تُجَازِهِمْ عَلَيْهِ إِلَى أَنْ تُؤْمَرَ فِيهِمْ بِأَمْرٍ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ فَهُوَ كَافِيكَ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝٢١﴾ مَقْضَا إِلَيْهِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿تَمْسُوهُنَّ﴾ أَي: تُجَامِعُوهُنَّ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا﴾ تُحْصُونَهَا بِالْأَقْرَاءِ وَغَيْرِهَا ﴿فَمَتَّعُوهُنَّ﴾ أَعْطَوْهُنَّ مَا

الرَّيْبُ بْنُ أَنَسٍ عَنْهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ: الرَّحْمَةُ وَرَدَّ بِقَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧] ... وَأَمَّا الصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَبِمَعْنَى الدُّعَاءِ لِلنَّاسِ وَالِاسْتِغْفَارِ، كَقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ۝٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْقُورُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾. [غافر: ٧-٩]. [ابن كثير (٤٣٦/٦)].

(١) أَي: يَحْيَوْنَ يَوْمَ لِقَائِهِ، بِالمَوْتِ أَوِ الْخُرُوجِ مِنَ الْقَبْرِ أَوْ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِسَلَامٍ؛ تَبَشِيرًا بِالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ مَكْرُوهٍ وَآفَةٍ، وَالْإِضَافَةُ إِمَّا مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَالْمَحْيَى لَهُمْ، إِمَّا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ، لِقَوْلِهِ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] تَعْظِيمًا لَهُمْ وَتَفْضُلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا تَفْضُلُ عَلَيْهِمْ بِصَنُوفِ الْإِكْرَامِ، وَإِمَّا الْمَلَائِكَةُ لِآيَةِ: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝١٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ ۝١٣﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] أَوْ مِنْ إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ لِفَاعِلِهِ؛ أَي: تَحِيَّةٍ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِالسَّلَامِ، وَقَدْ يَسْتَدِلُّ لَهُ بَايَةٌ: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [يونس: ١٠]. [القاسمي (٩١/٨)].

(٢) قَوْلُ الْمُؤَلَّفِ: «إِلَى طَاعَتِهِ» فِيهِ نَظَرٌ بَلِ الْأَوَّلَى أَنْ تَبْقَى الْآيَةُ عَلَى ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى الْوَصُولِ إِلَيْهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ، وَلَا وَصُولَ إِلَيْهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ إِلَّا بِامْتِنَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ فَهُوَ دَاعٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٣٤٠)].

(٣) هَذَا النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَبْلَغَهُ بِالنِّدَاءِ الْأَوَّلِ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِذَاتِهِ، وَبِالنِّدَاءِ الثَّانِي مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَزْوَاجِهِ وَمَا تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالتَّذْكِيرِ، نَادَاهُ بِأَوْصَافٍ أَوْدَعَهَا سُبْحَانُهُ فِيهِ لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِهِ وَزِيَادَةِ رَفْعَةِ مَقْدَارِهِ وَبَيِّنَ لَهُ أَرْكَانَ رِسَالَتِهِ، فَهَذَا الْغَرَضُ هُوَ وَصَفِ تَعَلُّقَاتِ رِسَالَتِهِ بِأَحْوَالِ أُمَّتِهِ وَأَحْوَالِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ. وَذَكَرَ لَهُ هُنَا خَمْسَةَ أَوْصَافٍ هِيَ: شَاهِدٌ. وَمُبَشِّرٌ. وَنَذِيرٌ. وَدَاعٍ إِلَى اللَّهِ. وَسِرَاجٌ مُنِيرٌ. فَهَذِهِ الْأَوْصَافُ يَنْطَوِي إِلَيْهَا وَتَنْطَوِي عَلَى مَجَامِعِ الرِّسَالَةِ الْمُحَمَّدِيَةِ فَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ عَلَيْهَا مِنْ بَيِّنِ أَوْصَافِهِ الْكَثِيرَةِ. [ابن عاشور (٥٢/٢٢)].

يَسْتَمْتِعَنَّ بِهِ، أَي: إِنْ لَمْ يُسَمَّ لَهُنَّ أَصْدَقُهُ، وَإِلَّا فَلَهُنَّ نِصْفُ الْمُسَمَّى فَقَطْ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ ﴿وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝١٩﴾ خَلُّوا سَبِيلَهُنَّ مِنْ غَيْرِ إِضْرَارٍ. ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ﴾ مُهُورُهُنَّ ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ بِالسَّبْيِ، كَصَفِيَّةَ وَجُوَيْرِيَةَ ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَهَاجِرْنَ ﴿وَأُمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ يَطْلُبُ نِكَاحَهَا بِغَيْرِ صَدَاقٍ ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ النَّكَاحُ بِلَفْظِ الْهَبَةِ مِنْ غَيْرِ صَدَاقٍ ^(١) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ مِنَ الْأَحْكَامِ بِأَنْ لَا يَزِيدُوا عَلَى أَرْبَعِ نِسْوَةٍ، وَلَا يَتَزَوَّجُوا إِلَّا بِوَلِيِّيَّ وَشُهُودٍ وَمَهْرٍ ﴿و﴾ فِيهِ ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ بِشِرَاءٍ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ تَكُونَ الْأَمَةُ مِمَّنْ تَحِلُّ لِمَالِكِهَا كَالْكِتَابِيَّةِ، بِخِلَافِ الْمَجُوسِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ، وَأَنْ تُسْتَبْرَأَ قَبْلَ الْوُطْءِ ﴿لِكَيْلَا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَ ذَلِكَ ﴿يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ضَيْقٌ فِي النَّكَاحِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا يَعْسُرُ التَّحَرُّزُ عَنْهُ ﴿رَحِيمًا ۝٢٠﴾ بِالتَّوَسُّعَةِ فِي ذَلِكَ. ﴿*تُرْجَى﴾ بِالْهَمْزَةِ وَالْيَاءِ، بَدَلَهُ: تُؤَخَّرُ ﴿مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ أَي: أَزْوَاجَكَ عَنْ نَوَيْتِهَا ﴿وَتُتَوَّى﴾ تَضُمُّ ﴿إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ مِنْهُنَّ فَتَأْتِيهَا ﴿وَمَنْ أَبْتَغَيْتَ﴾ طَلَبْتَ ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ مِنَ الْقِسْمَةِ ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ فِي طَلَبِهَا وَضَمِّهَا إِلَيْكَ، خَيْرٌ فِي ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ كَانَ الْقِسْمُ وَاجِبًا عَلَيْهِ ^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ التَّخْيِيرُ ﴿أَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَنْ تَقَرَّرَ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْنَهُنَّ﴾ مَا ذَكَرَ الْمُخَيَّرَ فِيهِ ﴿كُلُّهُنَّ﴾ تَأْكِيدٌ لِلْفَاعِلِ فِي ﴿يَرْضَيْنَ﴾ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ

(١) قوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ يحتمل أن تكون صفة لقوله: ﴿وَأُمْرَأَةً مُؤْمِنَةً﴾ ويحتمل أن تكون مفعولاً لفعل محذوف، والتقدير: جعلناها خالصة لك؛ أي: هذه الشريعة جعلناها خالصة لك، والخالص من الشيء هو الذي لا يخالطه غيره؛ فمعنى ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ يعني: لا يشاركك أحد فيها فيما إذا وهبت امرأة نفسها لأحد فإنها لا تحل له، وهل المراد بـ«الخالص» هنا أن يتزوج بلا مهر ولا ولي أو أن يقع ذلك بلفظ الهبة؟ الصحيح الأول؛ أن الخالص هو أن يكون ذلك بدون مهر ولا ولي ولا شهود على القول باشتراط الشهود؛ لأن الهبة ما هي؟ هي التبرع بلا عوض؛ فالمقصود المعنى لا اللفظ؛ يعني: أن الذي اختصَّ به الرسول ﷺ هو أن المرأة تأتي إليه وتقول: وهبت نفسي لك ويأخذها، وهذا قد وقع فعلاً أكثر من مرة؛ تأتي النساء إلى الرسول ﷺ ويهبن أنفسهن له، فالخالص للرسول والخاص به هو أن يكون النكاح مجاناً بلا ولي ولا شهود. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٣٧٤)].

(٢) اختلف في المراد بهذا الإرجاء والإيواء، فقليل إن ذلك في القسمة بينهما، أي: تكثر لمن شئت، وتقل لمن شئت، وقيل: إنه في الطلاق، أي: تمسك من شئت وتطلق من شئت؛ وقيل: معناه تتزوج من شئت، وتترك من شئت، والمعنى على كل قول: توسعة على النبي ﷺ، وإباحة له أن يفعل ما يشاء، وقد اتفق الناقلون على أنه ﷺ كان يعدل في القسمة بين نسائه، أخذاً منه بأفضل الأخلاق مع إباحة الله له. [ابن جزي (٢/ ١٥٥)].

مَا فِي قُلُوبِكُمْ» مِنْ أَمْرِ النِّسَاءِ وَالْمَيْلِ إِلَى بَعْضِهِنَّ، وَإِنَّمَا خَيْرَنَاكِ فِيهِنَّ تَسِيرًا عَلَيْكَ فِي كُلِّ مَا أَرَدْتَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَلِيمًا ٥١﴾ عَنْ عِقَابِهِمْ. ﴿لَا تَحِلُّ﴾ بِالنِّسَاءِ وَالْيَاءِ ﴿لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ بَعْدَ التَّسْعِ الَّتِي اخْتَرْنَاكَ^(١) ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ﴾ بِتَرْكِ إِحْدَى التَّائِينَ فِي الْأَصْلِ ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بِأَنْ تُطَلِّقَهُنَّ أَوْ بَعْضَهُنَّ، وَتَنْكِحَ بَدَلَ مَنْ طَلَّقْتَ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ مِنَ الْإِمَاءِ فَتَحِلُّ لَكَ، وَقَدْ مَلَكَ ﷺ بَعْدَهُنَّ مَارِيَةً، وَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ وَمَاتَ فِي حَيَاتِهِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ٥٢﴾ حَفِظًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ فِي الدُّخُولِ بِالْدُّعَاءِ ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ فَتَدْخُلُوا ﴿غَيْرَ نَظِيرِينَ﴾ مُتَظَرِّينَ ﴿إِنَّهُ﴾ نَضَجَهُ، مَصْدَرُ: أَنِّي يَأْنِي ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا﴾ تَمَكُّثُوا ﴿مُسْتَنْسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ مِنْ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الْمَكْثُ ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ أَنْ يُخْرِجَكُمْ ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أَنْ يُخْرِجَكُمْ، أَيُّ: لَا يَتْرُكُ بَيَانَهُ^(٢)، وَقُرِئَ: ﴿يَسْتَحْيِي﴾ بِيَاءٍ وَاحِدَةٍ^(٣) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ أَيُّ:

(١) من بعد التسع، لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج، كما أن الأربع نصاب أمته، ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ بالطلاق، والمعنى: ولا أن تستبدل هؤلاء التسع أزواجا آخر، بكلهن، أو بعضهن، كرامة لهن، وجزاء على ما اخترن ورضين، فقصر رسول الله ﷺ عليهن، وهن التسع التي مات عنهن: عائشة، حفصة، أم حبيبة، سودة، أم سلمة، صفية، ميمونة، زينب بنت جحش، جويرية... وعن عائشة، وأم سلمة: ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل له أن يتزوج من النساء ما شاء. يعني أن الآية نسخت، ونسخها إما بالسنّة، أو بقوله: ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف. [النسفي (٤٠/٣)].

(٢) يقول المؤلف: «أن يخرجكم» هكذا قال المؤلف، إن الله لا يستحي أن يخرجكم، وفيما قاله نظر، بل الصواب: ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقِّ﴾ أن يبينه لكم؛ لأن المقام هنا ليس مقام إخراج، المقام مقام تبين لما يجب على هؤلاء الذين استأذنوا على الرسول ﷺ، فالمعنى: ... لا يستحي أن يبين لكم ما يلزمكم فتخرجوا. ثم قال المؤلف عفا الله عنه: «أي لا يترك بيانه» أي: لا يترك بيان الحق ... حيث فسر الحياء بلازمه وهو الترك؛ لأن من لازم الحياء من الشيء أن يدعه الحيي منه ... وفي قوله: «لا يترك بيانه» مع قوله: «أن يخرجكم» فيه شيء من التناقض؛ لأنه جعل المستحي منه هنا «بيان الحق»، وجعله بالأول «الإخراج»، والصواب قوله الثاني، أي: لا يستحي من بيان الحق، لكن تفسيره الاستحياء بالترك هذا باطل؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، والواجب علينا فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته أن نجريها على ظاهرها اللائق بالله سبحانه وتعالى، معندين أنه لا مثل له في هذه الصفة، ومبتعدين عن تكيفها. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٤٢٦)]. عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ، أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا». أخرجه أحمد (٢٣٢٠٢) وأبو داود (١٤٨٨)، والترمذي (٣٥٥٦)، وابن ماجه (٣٨٦٥).

(٣) قراءة شاذة.

أَزْوَاجَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿مَتَعَا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ سِتْرٍ ﴿ذَلِكَ لِكُمْ أَظْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ مِنَ الْخَوَاطِرِ الْمُرِيَّةِ^(١) ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ بِشَيْءٍ ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ ذَنْبًا﴾^(٢) ﴿عَظِيمًا﴾^(٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ مِنْ نِكَاحِهِنَّ بَعْدَهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾^(٤) فَيَجَازِيَكُمْ عَلَيْهِ. ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنَاتِ ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ مِنَ الْأَمَاءِ وَالْعَبِيدِ، أَنْ يَرَوْهُنَّ وَيُكَلِّمُوهُنَّ مِنْ غَيْرِ حِجَابٍ ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ﴾ فِيمَا أُمِرْتُمْ بِهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾^(٥) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ^(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(٧) أَيِ: قُولُوا: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلِّمْ»^(٨). ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَهُمْ الْكُفَّارُ، يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا هُوَ مُنَزَّ عَنْهُ مِنَ الْوَلَدِ

(١) قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنا أعلم الناس بهذه الآية آية الحجاب، لما أهديت زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت، صنع طعاما ودعا القوم، فقعدها يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِيرٍ إِنَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾، فضرِبَ الحجاب وقام القوم». أخرجه البخاري (٤٥١٢)، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) هو تقرير لحكم أمومة أزواجه للمؤمنين السالف في قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾... وتقييد العظيم بكونه عند الله للتهويل والتخويف؛ لأنه عظيم في الشناعة. وعلة كون تزوج أحد المسلمين إحدى نساء النبي ﷺ إثما عظيما عند الله، أن الله جعل نساء النبي ﷺ أمهات للمؤمنين فافتضى ذلك أن تزوج أحد المسلمين إحداهن له حكم تزوج المرأة أمه، وذلك إثم عظيم. [ابن عاشور (٩٣/٢٢)]. وفيه من تعظيمه تعالى لشأن رسوله ﷺ، وإيجاب حرمة حيا وميتا، ما لا يخفى. ولذلك بالغ تعالى في الوعيد. [الآلوسي (٢٤٩/١١)].

(٣) قال البخاري: قال أبو العالية: صلاة الله: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يصلون: يبركون. هكذا علقه البخاري عنهما... والمقصود من هذه الآية: أن الله سبحانه أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملائكة الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه. ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعا. [ابن كثير (٤٥٧/٦)].

(٤) الآية تدل على وجوب الصلاة والسلام عليه في الجملة، وقيل: تجب الصلاة كلما جرى ذكره لقوله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ». أخرجه الترمذي (٣٥٤٥)... وتجاوز الصلاة على غيره تبعا. وتكره استقلالا لأنه في العرف صار شعارا للذكر الرسول ﷺ ولذلك كره أن يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزا وجليلا. [البيضاوي (٢٣٨/٤)].

وَالشَّرِيكَ وَيَكْذِبُونَ رَسُولَهُ^(١) ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أَعَدَّهُمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ ﴿٥٧﴾ ذَا إِهَانَةٍ وَهُوَ النَّارُ. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾ يَرْمُونَهُمْ بِغَيْرِ مَا عَمِلُوا ﴿فَقَدْ أَحْتمَلُوا بُهْتَنَا﴾ تَحَمَّلُوا كَذِبًا ﴿وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾ ﴿٥٨﴾ بَيِّنًا. ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ جَمْعُ جَلْبَابٍ وَهِيَ الْمَلَأَةُ الَّتِي تَشْتَمِلُ بِهَا الْمَرْأَةُ، أَيُّ: يُرْخِنُ بَعْضَهَا عَلَى الْوُجُوهِ إِذَا خَرَجْنَ لِحَاجَتِهِنَّ إِلَّا عَيْنًا وَاحِدَةً ﴿ذَلِكَ أَدْنَى﴾ أَقْرَبُ إِلَى ﴿أَنْ يُعْرَفْنَ﴾ بِأَنَّهُنَّ حَرَائِرُ ﴿فَلَا يُؤْذِينَ﴾ بِالْتَّعَرُّضِ لَهُنَّ، بِخِلَافِ الْإِمَاءِ فَلَا يُغْطِينَ وَجُوهَهُنَّ فَكَانَ الْمُنَافِقُونَ يَتَعَرَّضُونَ لَهُنَّ^(٢) ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سَلَفَ مِنْهُنَّ مِنْ تَرْكِ السِّتْرِ ﴿رَحِيمًا﴾ ﴿٥٩﴾ بِهِنَّ إِذْ سَتَرَهُنَّ. ﴿*لَيْن﴾ لَامٌ قَسَمٌ^(٣) ﴿لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عَنْ نِفَاقِهِمْ ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ بِالزُّنَى^(٤)

(١) إذاية الله هي بالإشراك به ونسبة الصاحبة والولد به، وليس معنى إذايته أنه يضره الأذى، لأنه تعالى لا يضره شيء ولا ينفعه شيء... ورد في الحديث: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَشْتَمِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَمِيَ، وَيَكْذِبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ، أَمَا شَتَمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأْنِي». أخرجه البخاري (٤٩٧٤). وأما إذاية رسول الله ﷺ فهي التعرض له بما يكره من الأقوال أو الأفعال. [ابن جزي (١٥٨/٢)].

(٢) لتسترهن بالعفة، فلا يتعرض لهن، ولا يلقين بما يكرهن؛ لأن المرأة إذا كانت في غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها بخلاف المتبرجة، فإنها مطموع فيها. [أبو حيان (٥٠٤/٨)]. ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ دل على وجود أذية، إن لم يحتجب، وذلك، لأنهن إذا لم يحتجن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض. [السعدي (ص: ٦٧١)]. قال الزمخشري: الجلباب ثوب واسع، أو سعة من الخمار، ودون الرداء، تلو به المرأة على رأسها ويقي منه ما ترسله على صدرها، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل، ثم قال: ومعنى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ يرخينها عليهن ويغطين بها وجوههن وأعطافهن، يقال إذا زل عن وجه المرأة: أدنى ثوبك على وجهك... عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويبدين عينا واحدة. وأخرج ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان، من السكينة. وعليهن أكسية سود يلبسهنها. [القاسمي (١١٢/٨)].

(٣) يقول المؤلف: «لام قسم» يعني لام موطئة للقسم، وليست هي أداة القسم، بل القسم محذوف والتقدير: والله لئن لم ينته، أو: وربك لئن لم ينته؛ فهي موطئة للقسم. وإنما قال المؤلف: «لام قسم» لثلاثيهم وأهم أنها لام الابتداء. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٤٩٣)].

(٤) قوله: «بالزنى» وهذا بناء على أن قوله: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ أن المراد الأذية بالتعرض لهن بالفاحشة؛ فالمعنى: ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ هم الذين يتعرضون للنساء بطلب الفاحشة والزنى، ويحتمل أن يكون المعنى أعم مما قال المؤلف؛ أي: في قلوبهم مرض من الشك وسوء الخلق وغير ذلك، وهو أعم وأحسن. [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٤٩٣)]. أي: مرض شك أو شهوة. [السعدي (ص: ٦٧١)].

﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُهُمْ: «قَدْ أَتَاكُمْ الْعَدُوُّ وَسَرَايَاكُمْ قُتِلُوا أَوْ هُزِمُوا»^(١) ﴿لَنُغَرِّبَنَّكَ بِهِمْ﴾ لَنَسْلُطَنَّكَ عَلَيْهِمْ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ يُسَاكِنُونَكَ ﴿فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) ﴿ثُمَّ يُخْرِجُوكَ﴾^(٣) ﴿مَلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدِينَ عَنِ الرَّحْمَةِ ﴿أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾ وَجِدُوا ﴿أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْتِيلًا﴾^(٤) ﴿أَيَّ الْحُكْمِ فِيهِمْ هَذَا عَلَى جَهَةِ الْأَمْرِ بِهِ﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ أَيَّ: سَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ ﴿فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، فِي مُنَافِقِيهِمُ الْمُرْجِفِينَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٥) مِنْهُ. ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ﴾ أَيَّ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ مَتَى تَكُونُ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُعْلَمُكَ بِهَا، أَيَّ: أَنْتَ لَا تَعْلَمُهَا ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ﴾ تَوْجَدُ^(٦) ﴿قَرِيبًا﴾^(٧) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ أَبْعَدَهُمْ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾^(٨) ﴿نَارًا شَدِيدَةً يَدْخُلُونَهَا﴾ ﴿خَالِدِينَ﴾ مُقَدَّرًا خُلُودَهُمْ ﴿فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْفَظُهُمْ عَنْهَا ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾^(٩) يَدْفَعُهَا عَنْهُمْ. ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَ﴾ لِلتَّسْبِيهِ ﴿لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾^(١٠) وَقَالُوا﴾ أَيَّ: الْأَتْبَاعُ مِنْهُمْ ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَادَاتِنَا﴾ جَمْعُ الْجَمْعِ ﴿وَكَبَرَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ﴾^(١١) طَرِيقَ الْهُدَى. ﴿رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أَيَّ: مِثْلِي عَذَابِنَا ﴿وَالْعَنُوهُمْ﴾ عَذَّبُهُمْ ﴿لَعْنَا كَثِيرًا﴾^(١٢) عَذَّاهُ. وَفِي قِرَاءَةٍ بِالْمَوْحَدَةِ^(١٣)، أَيَّ: عَظِيمًا. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا﴾ مَعَ نَبِيِّكُمْ ﴿كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى﴾ يَقُولُهُمْ مَثَلًا: «مَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ أَدْرُ» ﴿فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ بِأَنْ وَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ لِيُغْتَسِلَ فَفَرَّ الْحَجَرُ بِهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ مَلَأٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَدْرَكَهُ مُوسَى فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَاسْتَرَّ بِهِ، فَرَأَوْهُ وَلَا أَدْرَهُ بِهِ^(١٤) وَهِيَ: نَفْخَةٌ فِي الْخُصْيَةِ ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(١٥) ذَا جَاهٍ، وَمِمَّا أُودِيَ بِهِ نَبِيُّنَا ﷺ أَنَّهُ قَسَمَ قَسَمًا، فَقَالَ

(١) الرجفة هي الزلزلة، والمرجف هو الذي يقول: قد أتاكم العدو، وإن لكم عدوا كثيرا، وسراياكم قد قتلت وما أشبه ذلك، يدخل الخوف والرعب في قلوب الناس، وسمي ذلك إرجافا؛ لأنه يزلزل ثقة الإنسان بنفسه وبإخوانه؛ ولأنه يزلزل أمنه وطمأنينته، [ابن عثيمين تفسير الأحزاب (ص: ٤٩٤)].

(٢) أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلا، بأن تقتلهم أو تنفيهم. وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد منه. [السعدي (ص: ٦٧١)].

(٣) قد أوضح جل وعلا اقترابها في آيات أخر، كقوله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ الآية [القمر: ١]، وقوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. [الشنقيطي (٦/ ٦٦٥)].

(٤) أي: ﴿كَبِيرًا﴾ بدل ﴿كَثِيرًا﴾.

(٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ عُرَاءَ، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَكَانَ مُوسَى ﷺ يَغْتَسِلُ وَحْدَهُ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَمْنَعُ مُوسَى أَنْ يَغْتَسِلَ مَعَنَا إِلَّا أَنَّهُ أَدْرُ، فَذَهَبَ مَرَّةً يَغْتَسِلُ، فَوَضَعَ ثَوْبَهُ عَلَى حَجَرٍ، فَفَرَّ الْحَجَرُ بِثَوْبِهِ، فَخَرَجَ مُوسَى فِي إِثْرِهِ،

رَجُلٌ: هَذِهِ قِسْمَةٌ مَّا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ تَعَالَى فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: «يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١). «يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ صَوَابًا. «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ» يَتَقَبَّلَهَا «وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ نَالَ غَايَةَ مَطْلُوبِهِ. «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ» الصَّلَوَاتِ وَغَيْرَهَا، بِمَا فِي فِعْلِهَا مِنَ الثَّوَابِ وَتَرْكِهَا مِنَ الْعِقَابِ «عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ» بِأَنْ خُلِقَ فِيهِمَا فَهَمَّا وَنُطْقًا «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ» خَفْنَ «مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ» آدَمُ بَعْدَ عَرْضِهَا عَلَيْهِ «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا» لِنَفْسِهِ بِمَا حَمَلَهُ «جَهُولًا» ﴿٧٢﴾ بِهِ^(٢). «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ» اللَّامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِ«عَرَضْنَا» الْمُتَرَتِّبِ عَلَيْهِ حَمْلُ آدَمَ «الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ» الْمُضِيِّعِينَ الْأَمَانَةَ «وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ» الْمُؤَدِّينَ الْأَمَانَةَ «وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا» لِلْمُؤْمِنِينَ «رَحِيمًا» ﴿٧٣﴾ بِهِمْ.

يَقُولُ: تُوْبِي يَا حَجْرُ، حَتَّى نَظَرْتُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى مُوسَى، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا بِمُوسَى مِنْ بَأْسٍ، وَأَخَذَ ثَوْبَهُ، فَطَفَّقَ بِالْحَجَرِ ضَرْبًا. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَنَدَبَ بِالْحَجَرِ، سِتَّةَ أَوْ سَبْعَةَ، ضَرْبًا بِالْحَجَرِ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٧٨)، وَمُسْلِمٌ (٣٣٩).

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٣٣٦)، وَمُسْلِمٌ (١٠٦٢).

(٢) ذَكَرَ جُلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ عَرَضَ الْأَمَانَةَ، وَهِيَ التَّكْلِيفُ مَعَ مَا يَتْبَعُهَا مِنْ ثَوَابٍ وَعِقَابٍ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ، وَأَنَّهُنَّ أَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا، أَيْ: خَفْنَ مِنْ عَوَاقِبِ حَمْلِهَا أَنْ يَنْشَأَ لَهُنَّ مِنْ ذَلِكَ عَذَابُ اللَّهِ وَسَخَطُهُ، وَهَذَا الْعَرَضُ وَالْإِبَاءُ، وَالْإِشْفَاقُ كُلُّهُ حَقٌّ، وَقَدْ خُلِقَ اللَّهُ لِلْسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ إِدْرَاكًَا يَعْلَمُهُ هُوَ جُلَّ وَعَلَا وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُهُ، ... كَمَا قَالَ تَعَالَى: «وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ» [الإسراء: ٤٤]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: «وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِنْسَانِ آدَمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، رَاجِعٌ لِلْفُظ: الْإِنْسَانِ، مَجْرَدًا عَنْ إِرَادَةِ الْمَذْكُورِ مِنْهُ، الَّذِي هُوَ آدَمُ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ أَيْ الْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَحْفَظُ الْأَمَانَةَ «كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، أَيْ: كَثِيرَ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَمْرَانِ: أَحَدُهُمَا: قَرِينَةُ قَرَأَتِهِ دَالَّةٌ عَلَى انْتِسَامِ الْإِنْسَانِ فِي حَمْلِ الْأَمَانَةِ الْمَذْكُورَةِ إِلَى مَعَذِبٍ وَمَرْحُومٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَهُ، مُتَصِلًا بِهِ: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا» [الأحزاب: ٧٣]، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ الظُّلُومَ الْجَهْلَ مِنَ الْإِنْسَانِ هُوَ الْمَعَذِبُ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ، وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ، وَالْمُشْرِكُونَ وَالْمُشْرِكَاتُ، دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ. وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: لِيُعَذِّبَ: لَامُ التَّعْلِيلِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: «وَحَمَلَهَا الْإِنْسَنُ». الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَسْلُوبَ الْمَذْكُورَ - الَّذِي هُوَ رَجُوعُ الضَّمِيرِ إِلَى مَجْرَدِ اللَّفْظِ دُونَ اعْتِبَارِ الْمَعْنَى التَّفْصِيلِي - مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ، وَقَدْ جَاءَ فِعْلًا فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ» [فاطر: ١١]؛ لِأَنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: «وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ»، رَاجِعٌ إِلَى لَفْظِ الْمَعْمَرِ دُونَ مَعْنَاهِ التَّفْصِيلِي؛ كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ. [الشَّنَقِطِيُّ (٦/٦٦٦)].

سُورَةُ سَبَا

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الْآيَةُ فَمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الثَّنَاءُ بِمَضْمُونِهِ، مِنْ ثُبُوتِ الْحَمْدِ وَهُوَ الْوَصْفُ بِالْجَمِيلِ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ كَالدُّنْيَا، يَحْمَدُهُ أَوْلِيَاؤُهُ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي فِعْلِهِ ﴿الْحَبِيرُ ①﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كَمَا وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كَنَبَاتٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ مِنْ رِزْقٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ مِنْ عَمَلٍ وَغَيْرِهِ ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ﴾ بِأَوْلِيَائِهِ ﴿الْغَفُورُ ②﴾ لَهُمْ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ الْقِيَامَةُ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ﴾ بِالْجَرِّ: صِفَةً، وَالرَّفْعُ: خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ، وَ﴿عَلَامٌ﴾ بِالْجَرِّ ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ يَغِيبُ ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ﴾ وَزْنٍ ﴿ذَرَّةٍ﴾ أَصْغَرَ نَمْلَةٍ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ③﴾ يَبِينُ، هُوَ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿لِيَجْزِيَ﴾ فِيهَا ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾ حَسَنٌ فِي الْجَنَّةِ. ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي﴾ إِبْطَالِ ﴿ءَايَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ هُنَا وَفِيمَا

(١) أخبر تعالى عن نفسه الكريمة: أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠]. ولهذا قال هاهنا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبده وتحت قهره وتصرفه، كما قال:

﴿وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل: ١٣]. [ابن كثير (٦/٤٩٤)].

(٢) قد تكرر في القرآن اتباع ذكر الساعة بذكر انفراده تعالى بعلمها لأن الكافرين بها جعلوا من عدم العلم بها دليلاً سفسطائياً على أنها ليست بواقعة ولذلك سماها القرآن «الواقعة» في قوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ① لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ②﴾ [الواقعة: ١-٢] والعزوب: الخفاء. ومادته تحوم حول معاني البعد عن النظر وفي مضارعه ضم العين وكسرهما. قرأ الجمهور بضم الزاي، وقرأه الكسائي بكسر الزاي ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: لا يعزب عن علمه. وفي سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]. وفي سورة الأنبياء: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وأشار بقوله: ﴿مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ إلى تقريب معنى إمكان الحشر لأن الكافرين أحوالهم بعلّة أن الأجساد تصير رفاتا وتراباً فلا تمكن إعادتها فنبهوا إلى أن علم الله محيط بأجزائها. [ابن عاشور (٢٢/١٤٠)].

يَأْتِي: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي: مُقَدِّرِينَ عَجَزَنَا، أَوْ مُسَائِقِينَ لَنَا فَيَقُوتُونَا، لِيُظَنَّهُمْ أَنْ لَا بَعْثَ وَلَا عِقَابَ ^(١) ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ﴾ سَيِّءُ الْعَذَابِ ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلِّمٌ، بِالْجَرِّ وَالرَّفْعِ صِفَةٌ لِّ ﴿رَّجْزٍ﴾ أَوْ ﴿عَذَابٍ﴾. ﴿وَيَرَىٰ﴾ يَعْلَمُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مُؤْمِنُو أَهْلِ الْكِتَابِ كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ ﴿الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: الْقُرْآنَ ﴿هُوَ﴾ فَضْلٌ ﴿الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقِ ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ^(٢) أي: اللَّهُ ذِي الْعِزَّةِ الْمَحْمُودَةِ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: قَالَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ جِهَةِ التَّعْجِيبِ لِبَعْضٍ ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخْبِرُكُمْ أَنْكُمْ ﴿إِذَا مَرِئْتُمْ﴾ قُطِعْتُمْ ﴿كُلَّ مُمْرَقٍ﴾ بِمَعْنَى: تَمْزِيقٍ ^(٣) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ^(٤) أَفْتَرَىٰ ﴿بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِإِسْتِفْهَامٍ وَاسْتِغْنِي بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ﴾ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴿جُنُونَ تَخِيلُ بِهِ ذَلِكَ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ الْمُسْتَمْلَةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿فِي الْعَذَابِ﴾ فِيهَا ﴿وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ ^(٥) عَنِ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا. ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مَا فَوْقَهُمْ وَمَا تَحْتَهُمْ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ إِنَّ نَاشِئَ نَحْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا ﴿سُكُونِ السَّيْنِ وَفَتْحِهَا، قِطْعًا﴾ ﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ بِأَلْيَاءٍ ^(٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَرِيَّ ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ ^(٧) رَاجِعٍ إِلَىٰ رَبِّهِ، تَدُلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى الْبَعْثِ وَمَا يَشَاءُ ^(٨). ﴿*وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ نُبُوَّةً وَكِتَابًا، وَقُلْنَا: ﴿يَجِبَالُ أَوتِى﴾ رَجْعِي

(١) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا بِآيَاتِنَا﴾ أي: بِالطَّعْنِ فِيهَا وَنَسَبَتِهَا إِلَى السَّحَرِ وَالشَّعْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ أي: مُقَدِّرِينَ الْغَلْبَةِ وَالْعَجْزِ فِي زَعْمِهِمُ الْفَاسِدِ وَظَنَّهُمُ الْبَاطِلُ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ﴾ وَهُوَ أَسْوَأُ الْعَذَابِ وَ ﴿مِّنَ﴾ لِلْيَانِ ﴿أَلِيمٌ﴾ بِالرَّفْعِ صِفَةٌ عَذَابٍ، وَبِالْجَرِّ صِفَةٌ لِّ ﴿رَّجْزٍ﴾، قِرَاءَتَانِ ... وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ طَعْنِهِمْ وَصَدِّهِمُ بِالسَّعْيِ، تَمْثِيلٌ لِّحَالِهِمْ. فَإِنَّ الْمَكْذَبَ آتٍ بِإِخْفَاءِ آيَاتِ بَيِّنَاتٍ، فَيَحْتَاجُ إِلَى السَّعْيِ الْعَظِيمِ، وَالْجِدِّ الْبَلِغِ، لِيُرْجَعَ كَذِبُهُ لَعَلَّهُ يَعْبُزُ الْمَتَمَسِّكُ بِهِ. [القاسمي (١٣٤/٨)].

(٢) ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ أي: هَلْ نُرْشِدُكُمْ إِلَى رَجُلٍ يَعْنُونَ مُحَمَّدًا ﷺ وَالتَّعْبِيرُ بِرَجُلٍ الْمُنْكَرُ مِنْ بَابِ التَّجَاهُلِ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مِنْهُ إِلَّا أَنَّهُ رَجُلٌ وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَشْهُرُ مِنَ الشَّمْسِ قَالَهُ الشَّهَابُ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: كَانُوا يَقْصِدُونَ بِذَلِكَ السَّخَرِيَّةَ وَالْهَزَاةَ. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يُخْبِرُكُمْ بِأَمْرٍ عَجِيبٍ وَنَبَأٍ غَرِيبٍ هُوَ أَنْكُمْ ﴿إِذَا مَرِئْتُمْ كُلَّ مُمْرَقٍ﴾ أي: فَرَقْتُمْ كُلَّ تَفْرِيقٍ وَقُطِعْتُمْ كُلَّ تَقْطِيعٍ وَصَرْتُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ رِفَاتًا وَتَرَابًا، وَقَالَ الْكَرْخِيُّ: أي: كُلِّ مَكَانٍ تَمْزِيقٍ مِنَ الْقُبُورِ، وَبِطَوْنِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ. ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: تَخْلُقُونَ وَتَنْشِئُونَ خَلْقًا جَدِيدًا، وَتَبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءً، وَتَعُودُونَ إِلَى الصُّورِ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا بَعْدَ أَنْ تَمْزُقَ أَجْسَادُكُمْ كُلَّ تَمْزِيقٍ، قَالَ هَذَا الْقَوْلُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِهْزَاءً بِمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مِنَ الْبَعْثِ، وَأَخْرَجُوا الْكَلَامَ مَخْرَجَ التَّلْهِيقِ بِهِ وَالتَّضَاحِكِ مِمَّا يَقُولُهُ مِنْ ذَلِكَ. [صديق حسن (١٦٥/١)].

(٣) الْأَفْعَالُ الثَّلَاثَةُ هِيَ: ﴿نَشَأُ﴾، ﴿نَحْسِفُ﴾، ﴿نُسْقِطُ﴾.

(٤) انظر التعليق على آية (١٧) من سورة المائدة.

﴿مَعَهُ﴾ بِالتَّسْيِيحِ ﴿وَالطَّيْرِ﴾ بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى مَحَلِّ «الْجِبَالِ»، أَي: وَدَعَوْنَاهَا تُسَبِّحُ مَعَهُ ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ١٠﴾ فَكَانَ فِي يَدِهِ كَالْعَجِينِ. وَقُلْنَا: ﴿أَنْ أَعْمَلْ﴾ مِنْهُ ﴿سَبِغَتِ﴾ دُرُوعًا كَوَامِلَ يَجُرُّهَا لَابِسُهَا عَلَى الْأَرْضِ ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ١١﴾ أَي: نَسَجَ الدُّرُوعَ، قِيلَ لِصَانِعِهَا «سَرَادٌ» أَي: اجْعَلْهُ بِحَيْثُ تَتَنَاسَبُ حِلَقُهُ ﴿وَأَعْمَلُوا﴾ أَي: أَلْ دَاوُدَ مَعَهُ ﴿صَلِيحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٢﴾ فَأَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿و﴾ سَخَرْنَا ﴿لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ وَقِرَاءَةُ الرَّفْعِ بِتَقْدِيرٍ: تَسْخِيرِ ﴿غُدُوَّهَا﴾ مَسِيرُهَا مِنَ الْغُدْوَةِ بِمَعْنَى: الصَّبَاحِ إِلَى الزَّوَالِ ﴿شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا﴾ سَيْرُهَا مِنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ ﴿شَهْرٌ ١٣﴾ أَي: مَسِيرَتُهُ ﴿وَأَسْلَنَّا﴾ أَذْبَنًا ﴿لَهُو عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أَي: النَّحَاسَ فَأَجْرِيَتْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بِلَيْالِيهِنَّ كَجَرِي الْمَاءِ، وَعَمَلُ النَّاسِ إِلَى الْيَوْمِ مِمَّا أُعْطِيَ سُلَيْمَانُ ١٤ ﴿وَمَنْ أَلْجِنَ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنٍ﴾ بِأَمْرِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغُ يَعْدِلُ ﴿مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ لَهُ بِطَاعَتِهِ ﴿نَذْفُهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ١٥﴾ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا أَنْ يَضْرِبَهُ مَلَكٌ بِسَوْطٍ مِنْهَا ضَرْبَةً تُحْرِقُهُ. ﴿يَعْمَلُونَ لَهُو مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ﴾ أَيْنِيَّةٌ مُرْفَعَةٌ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِدَرَجٍ ﴿وَتَمَثِيلٌ﴾ جَمْعُ «تِمَثَالٍ» وَهُوَ: كُلُّ شَيْءٍ مَثَلْتُهُ بِشَيْءٍ، أَي: صُورًا مِنْ نَحَاسٍ وَزُجَاجٍ وَرُخَامٍ وَلَمْ يَكُنْ اتِّخَاذُ الصُّوَرِ حَرَامًا فِي شَرِيعَتِهِ ١٦ ﴿وَجَفَانٍ﴾ جَمْعُ «جَفَنَةٍ» ﴿كَالْجَوَابِ﴾ أَي: أَي: جَمْعُ «جَابِيَةٍ» وَهُوَ حَوْضٌ كَبِيرٌ يَجْتَمِعُ عَلَى الْجَفَنَةِ أَلْفُ

(١) «فأجريت الثلاثة أيام بلباليهن كجري الماء» هذا التقدير يحتاج إلى توقيف؛ يعني أن الله أجراها له ثلاثة أيام فقط قد نقول: إن الله سبحانه وتعالى أسأل له عين القطر يتصرف فيها كما يشاء، وهذا يقتضي أن تكون هذه الإسالة مستمرة حيث ما أَرادها وجدها، وهذا هو الأقرب، ولا يمكن أن نحددها بثلاثة أيام إلا بدليل من الشرع إما من الكتاب أو من السنة، وليس في الكتاب تحديد وكذلك ليس في السنة، فالأولى أن نجعلها على ظاهرها قال المؤلف: «وعمل الناس إلى اليوم مما أعطى سليمان» معنى عمل الناس إلى اليوم؟ يعني أن انتفاع الناس بهذا النحاس وتذويبه حتى يكون كالماء هذا أثره من عمل سليمان؛ يعني أن النحاس إنما ذاب من وقت سليمان إلى اليوم. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ١٠١)].

(٢) وهذا مبني على أن المراد بالتمثيل تماثيل ما يحرم تصويره كالحيوان من إنسان وغيره، ولكن نقول: إن هذا لا يلزم؛ أي: لا يلزم أن يكون المراد بالتمثيل هي صور الحيوان؛ فمن الجائز أن ينحتوا له مما ذكر من النحاس والزجاج والرخام أن ينحتوا له أشياء على صور شجر، ويقال: إن هذا تمثال... وما أشبه ذلك،... وهناك أيضًا مجسمات على صورة حيوان؛ أسد، أو جمل، أو بقر، أو ما أشبه ذلك، هذا أيضًا تمثال. فنحن الآن نقول: إن كان قوله: ﴿مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٌ﴾ إنه عام لتمثال الحيوان والأشجار وغيرها فنحتاج حينئذ أن نجيب بما أجاب به المؤلف، وهو أن الصور في شريعته ليست حرامًا، ولكن ما دام الأمر غير لازم. إذ من الممكن أن تكون التماثيل التي يأمرهم بها تماثيل أشياء يجوز تصويرها فلا حاجة إلى هذا الجواب. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ١١٣)]. قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «يحتمل أن يقال: إن التماثيل كانت على صورة النقوش لغير ذوات الأرواح، وإذا كان اللفظ محتملاً، لم يتعين الحمل على المعنى المشكل. روى البخاري (٤٣٤)، ومسلم (٥٢٨)، حديث عائشة رضي الله عنها في قصة الكنيسة التي كانت بأرض الحبشة، وما فيها من التصاوير،

رَجُلٍ يَأْكُلُونَ مِنْهَا ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَتْ﴾ ثَابِتَاتٍ لَهَا قَوَائِمٌ لَا تَحَرَّكُ عَنْ أَمَاكِنِهَا تَتَّخِذُ مِنَ الْجِبَالِ بِالْيَمَنِ يُصْعَدُ إِلَيْهَا بِالسَّلَالِمِ، وَقُلْنَا: ﴿اعْمَلُوا﴾ يَا ﴿عَالِ دَاوُدَ﴾ بِطَاعَةِ اللَّهِ ﴿شُكْرًا﴾ لَهُ عَلَى مَا آتَاكُمْ ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ ﴿١٣﴾ الْعَامِلُ بِطَاعَتِي شُكْرًا لِنِعْمَتِي. ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ عَلَى سُلَيْمَانَ ﴿الْمَوْتَ﴾ أَي: مَاتَ، وَمَكَثَ قَائِمًا عَلَى عَصَاهُ حَوْلًا مَيِّتًا، وَالْجَنُّ تَعْمَلُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ الشَّاقَّةَ عَلَى عَادَتِهَا لَا تَشْعُرُ بِمَوْتِهِ، حَتَّى أَكَلَتِ الْأَرْضُ عَصَاهُ فَخَرَّ مَيِّتًا ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ مَصْدَرُ «أُرِضَتِ الْخَشَبَةُ» بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ أَكَلَتْهَا الْأَرْضُ ﴿تَأْكُلُ مِنْسَائَتُهُ﴾ بِالْهَمْزِ وَتَرْكِهِ بِالْف: «عَصَاهُ» لِأَنَّهَا يُنْسَأُ: يُطْرَدُ وَيُزْجَرُ بِهَا ﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ مَيِّتًا ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ انْكَشَفَتْ لَهُمْ ﴿أَن﴾ مُخَفَّفَةٌ، أَي: أَنَّهُمْ ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ وَمِنْهُ مَا غَابَ عَنْهُمْ مِنْ مَوْتِ سُلَيْمَانَ ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ ﴿١٤﴾ الْعَمَلُ الشَّقِيقُ لَهُمْ، لِظَنِّهِمْ حَيَاتَهُ خِلَافَ ظَنِّهِمْ عِلْمَ الْغَيْبِ، وَعِلْمُ كَوْنِهِ سَنَةً بِحِسَابِ مَا أَكَلَتْهُ الْأَرْضُ مِنَ الْعَصَا بَعْدَ مَوْتِهِ يَوْمًا وَلَيْلَةً مَثَلًا. ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ بِالصَّرْفِ وَعَدَمِهِ قَبِيلَةٌ سُمِّيَتْ بِاسْمِ جَدِّ لَهُمْ مِنْ الْعَرَبِ ﴿فِي مَسْكِنِهِمْ﴾ بِالْيَمَنِ ﴿ءَايَةٌ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿جَنَّاتٍ﴾ بَدَلُ ﴿عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ عَنْ يَمِينٍ وَادِيهِمْ وَشِمَالِهِ، وَقِيلَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ عَلَى مَا رَزَقَكُمْ مِنَ النِّعْمَةِ فِي أَرْضٍ سَبَاءَ ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ لَيْسَ فِيهَا سَبَاحٌ وَلَا بُعُوضَةٌ وَلَا ذُبَابَةٌ وَلَا بُرْغُوثٌ وَلَا عَقْرَبٌ وَلَا حَيَّةٌ وَيَمُرُّ الْغَرِيبُ فِيهَا وَفِي ثِيَابِهِ قَمَلٌ فَيَمُوتُ لَطِيبٌ هَوَائِهَا^(١) ﴿وَاللَّهُ﴾ رَبُّ غَفُورٍ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا عَنْ شُكْرِهِ وَكَفَرُوا ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ جَمْعُ «عَرِمَةٍ» وَهُوَ مَا يُمَسِّكُ الْمَاءَ مِنْ بِنَاءٍ وَغَيْرِهِ إِلَى وَقْتِ حَاجَتِهِ، أَي: سَيْلٌ وَادِيهِمْ الْمَمْسُوكُ بِمَا ذُكِرَ فَأَغْرَقَ جَنَّتِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ^(٢) ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ﴾ تَنْبِيْهُ ذَوَاتِ، مُفْرَدٌ عَلَى الْأَصْلِ ﴿أَكُلِ خَمْطٍ﴾ مُرَّ بَشِعٍ

وَأَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الْعَبْدُ الصَّالِحُ أَوْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ». فَإِنْ ذَلِكَ يَشْعُرُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذَلِكَ جَائِزًا فِي ذَلِكَ الشَّرْعِ، مَا أَطْلَقَ عَلَيْهِ ﷺ أَنْ الَّذِي فَعَلَهُ شَرُّ الْخَلْقِ، فَدَلَّ عَلَى أَنْ فَعَلَ صُورَ الْحَيَوَانَ فَعَلَ مُحَدَّثًا، أَحَدُهُ عِبَادَ الصُّورِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ» انتهى، من «فتح الباري» (١٠/٣٨٢).

(١) هي بلدة طيبة، أما كونه غريب يأتي من البر وفي ثيابه القمل فيموت القمل لطيب الهواء، فالله أعلم، لكن نقول: لا شك أن وصف الله إياها بالطيبة أنها من أحسن البلاد في هوائها، وفي قراها وفي حرها، ليس فيها الحر الشديد ولا القَرَّ القارص، وليس فيها عفونة الهواء والماء وما أشبه ذلك، فحُذِّبَ بِمَا شَتَّ مِنْ طِيبِ الْمَسْكَنِ فِي كُلِّ مَا يُسَمَّى طَيِّبًا. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ١٣٠)].

(٢) أي: سيل الأمر العرم، أي: الصعب والمطر الشديد أو الوادي أو السكر الذي يحبس الماء أو هو البناء الرصين المبني بين الجبلين لحفظ ماء الأمطار وخرنها، وقد ترك فيه أثقاب على مقدار ما يحتاجون إليه في سقيهم، فلما طغوا أهلكتهم الله بخراب هذا البناء، فانهال

بِإِضَافَةٍ ﴿أَكُلِ﴾ بِمَعْنَى مَأْكُولٍ وَتَرْكِهَا، وَيُعْطَفُ عَلَيْهِ ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ ١٦ ﴿ذَلِكَ﴾ التَّبْدِيلُ ﴿جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا﴾ بِكَفَرِهِمْ ﴿وَهَلْ يُجْزَى إِلَّا الْكُفُورُ﴾ ١٧ ﴿بِالْيَاءِ، وَالنُّونِ مَعَ كَسْرِ الزَّايِ وَنَصْبِ﴾ ﴿الْكَفُورِ﴾ أَيُّ: مَا يُنَاقَشُ إِلَّا هُوَ^(١). ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ سَبَأٍ وَهُمْ بِالْيَمَنِ ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ بِالْمَاءِ وَالشَّجَرِ، وَهِيَ: قُرَى الشَّامِ الَّتِي يَسِيرُونَ إِلَيْهَا لِلتَّجَارَةِ ﴿قُرَى ظَهْرَةَ﴾ مُتَوَاصِلَةً مِنَ الْيَمَنِ إِلَى الشَّامِ ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ بِحَيْثُ يَقِيلُونَ فِي وَاحِدَةٍ وَيَسِيرُونَ فِي أُخْرَى إِلَى انْتِهَاءِ سَفَرِهِمْ، وَلَا يَحْتَاجُونَ فِيهِ إِلَى حَمَلٍ زَادٍ وَمَاءٍ، أَيُّ: وَقُلْنَا ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأيَّامًا ءَامِينَ﴾ ١٨ ﴿لَا تَخَافُونَ فِي لَيْلٍ وَلَا فِي نَهَارٍ﴾ ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿بَعْدُ﴾ ﴿بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ إِلَى الشَّامِ اجْعَلْهَا مَفَاوِزَ؛ لِيَتَطَاوَلُوا عَلَى الْفُقَرَاءِ بِرُكُوبِ الرِّوَا حِلٍ وَحَمَلِ الزَّادِ وَالْمَاءِ فَبَطَرُوا النِّعْمَةَ^(٢) ﴿وَوَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ فَرَقْنَاهُمْ فِي الْبِلَادِ كُلِّ التَّفْرِيقِ^(٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَآيَاتٍ﴾ عِبْرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عَنِ الْمَعَاصِي ﴿شَكُورٍ﴾ ١٩ ﴿عَلَى النِّعَمِ﴾ ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: الْكَفَارِ مِنْهُمْ سَبَأٌ ﴿إِلَيْسَ ظَنُّهُ﴾ أَنَّهُمْ بِإِغْوَائِهِ يَتَّبِعُونَهُ ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾ فَذَ ﴿صَدَقَ﴾

عليهم تيار مائه، فأغرق بلادهم وأفسد عمرانهم وأرضهم، واضطر من نجا منهم للنزوح عنها. كما قال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ أَيُّ: ثمر مر، أو شبع لا يؤكل: ﴿وَأَثْلٍ﴾ شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ وهو شجر النبق؛ أَيُّ: قلة لا تسمن ولا تغني من جوع، فهذا تبديل النعم بالنقم، لمن لم يشكر النعم. [القاسمي (١٣٨/٨)].

(١) أَيُّ: وما نجازي هذا الجزاء بسلب النعمة ونزول النعمة إلا الشدائد الكفر المتبالغ، قرأ الجمهور: بضم التحتية وفتح الزاي على البناء للمفعول، وقرئ: بالنون وكسر الزاي مبنياً للفاعل، وهو الله سبحانه، والكفور على الأولى مرفوع، وعلى الثانية منصوب، وظاهر الآية أنه لا يجازي إلا الكفور، مع كون أهل المعاصي يجازون، وقد قال قوم إن معنى الآية أنها لا يجازي هذا الجزاء وهو الاصطلام والإهلاك إلا من كفر، وقال مجاهد: إن المؤمن تكفر عنه سيئاته والكافر يجازى بكل عمل عمله، وقال طاووس: هو المناقشة في الحساب، وأما المؤمن فلا يناقش. وقال الحسن: إن المعنى أنه يجازي الكافر مثلاً بمثل ورجح هذا الجواب النحاس. [الشوكاني (٣٦٨/٤)].

(٢) بطروا النعمة، وسموا أطيب العيش، وملوا العافية، فطلبوا الكد والتعب، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل، مكان المن والسلوى. وقالوا: لو كان جنى جناننا أبعد لكان أجدر أن نشتهي، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً ليركبوا فيها الرواحل، ويتزودوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء. فعجل الله تعالى لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعا لا يسمع فيها داع ولا محيب. [أبو السعود (١٢٩/٧)].

(٣) أَيُّ: فرقناهم في البلاد حتى ضرب المثل بفرقتهم يقال: «تفرقوا أيدي سبأ» واليد: الطريق، وفي الحديث: «إِنَّ سَبَأَ رَجُلٌ وَلَدَ عَشْرَةَ مِنْ الْعَرَبِ فَيَأْمَنُ مِنْهُمْ سِتَّةً، وَتَشَاءُ مِنْهُمْ أَرْبَعَةٌ». أخرجه الترمذي (٣٢٢٢). [ابن جزي (١٦٥/٢)].

بِالتَّخْفِيفِ فِي ظَنِّهِ، أَوْ ﴿صَدَقَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ظَنَّهُ، أَي: وَجَدَهُ صَادِقًا ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى لَكِنْ ﴿فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) لِلْبَيَانِ، أَي: هُمُ الْمُؤْمِنُونَ لَمْ يَتَّبِعُوهُ. ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ﴾ تَسْلِيْطٍ ﴿إِلَّا لِّتَعْلَمَ﴾ عِلْمٌ ظُهُورٍ^(٢) ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ فَتُجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ﴾^(٣) رَقِيبٌ. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ لِّكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أَي: زَعَمْتُمُوهُمْ آلِهَةً ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ لِيَنْفَعُوْكُمْ بِزَعْمِكُمْ، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَزَنَ ﴿ذَرَّةً﴾ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾ شَرِكَةٍ ﴿وَمَا لَهُ﴾ تَعَالَى ﴿مِنْهُمْ﴾ مِنَ الْآلِهَةِ ﴿مَنْ ظَهَرَ﴾^(٤) مُعِينٌ. ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ﴾ تَعَالَى، رَدًّا لِقَوْلِهِمْ إِنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ عِنْدَهُ^(٥) ﴿إِلَّا لِمَنْ أْذَنَ﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا ﴿لَهُ﴾ فِيهَا^(٦) ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرَغَ﴾

(١) اللام هنا يحتمل أن تكون للتعليل أو للعاقبة، وعلى كلا التقديرين فيها إشكال؛ الإشكال هو أن ظاهرها تجدد علم الله، ومعلوم أن علم الله أزلي أبدي، أي: قديم مستمر، لا بد أن يستمر، فكيف صحَّ أن تكون اللام هنا للتعليل أو للعاقبة؟ يقول المؤلف في تفسيرها: (علم ظهور)؛ وذلك لأن تعلُّق علم الله بالشيء له حالان: الحال الأولى: قبل وجوده. والحال الثانية: بعد وجوده. فتعلق علم الله به بعد الوجود يُسمَّى علم ظهور، أي: علمه بعد أن ظهر وبان، وعلم الله تعالى قبل وجوده علمٌ تقدير، أي: أنه قدَّر أن يكون، وعلم التقدير ثابت بلا شك، فإن الله لن يزل ولا يزال عالمًا بكل ما يكون. فإذا قلنا: إن العلم علمٌ تقدير وعلم ظهور زال الإشكال، وصار علم الله للشيء بعد وقوعه بأنه ظهر ووقع، وعلم الله قبل وقوعه علمًا بأنه سيقع، وفرق بين المتعلقين. وقيل: إن المراد بالعلم هنا: العلم الذي يترتب عليه الجزاء، وذلك لا يكون إلا بعد الامتحان، فإن علم الله تعالى بالشيء قبل أن يقع علم لا يترتب عليه لا ثواب ولا عقاب؛ لأن المكلف لم يؤمر ولم ينه، فإذا أمر ففعل أو أمر فلم يفعل حيث صار مثابًا أو معاقبًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَتُبْلَوُنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: ٣١]، ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وعلى هذا الوجه يكون علم الله تعالى علمين: علم معناه أن الله تعالى عالم بأن هذا الشيء سيقع، ولكن لا يترتب عليه الثواب والعقاب. وعلم يترتب عليه الثواب والعقاب، وذلك لا يكون إلا بعد امتحان المكلف به وهل يفعل أو لا يفعل؛ يعني: هل يمثل أو لا يمثل. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ١٥٣)].

(٢) هذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأندادهم، وأوثانهم، من البشر، والشجر، وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها، تبينها حاسما لمواد الشرك، قاطعا لأصوله، لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء، هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعو غير الله، لا مالكا للنفع والضرر، ولا شريكا للمالك، ولا عوناً وظهيرا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء، وهذه العبادة، ضلالا في العقل، باطلا في الشرع. [السعدي (ص: ٦٧٨)].

(٣) استثناء مفرغ من أعم الأحوال، أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبين ونحوهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أن هؤلاء لا يشفعون إلا لمن يستحق الشفاعة لا للكافرين، ويجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له، أي: لأجله وفي شأنه من المستحقين للشفاعة لهم لا من عداهم من غير

بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ كُشِفَ عَنْهَا الْفَرْعُ بِالْأَذْنِ فِيهَا ﴿قَالُوا﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ اسْتِشَارًا: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ فِيهَا؟ ﴿قَالُوا﴾ الْقَوْلُ ﴿الْحَقُّ﴾ أَيُّ: قَدْ أَذِنَ فِيهَا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ فَوَقَّ خَلْقَهُ بِالْقَهْرِ ﴿الْكَبِيرُ﴾ ﴿الْعَظِيمُ﴾. ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالنَّبَاتِ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ إِنْ لَمْ يَقُولُوا لَا جَوَابَ غَيْرُهُ ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أَيُّ: أَحَدَ الْفَرِيقَيْنِ ﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿يَبِّينُ﴾ فِي الْإِنْبَاهِمِ تَلَطَّفٌ بِهِمْ دَاعٍ إِلَى الْإِيمَانِ إِذَا وَفَّقُوا لَهُ ﴿قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا﴾ أَذْنَبْنَا ﴿وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿لَا نَأْتِي بِرِثْوَنٍ مِنْكُمْ﴾. ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يَحْكُمُ ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ فَيَدْخُلُ الْمُحَقِّقِينَ الْجَنَّةَ، وَالْمُبْطِلِينَ النَّارَ

المستحقين لها. قيل: والمراد بقوله لا تنفع الشفاعة أنها لا توجد أصلاً إلا لمن أذن له، وإنما علق النفي بنفعها لا بوقوعها تصريحاً بنفي ما هو غرضهم من وقوعها. [صديق حسن (١١/ ١٨٨)].

(١) ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته. ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركون. وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي، سمعته الملائكة، فصعقوا، وخرروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق. فيكون المعنى على هذا: أن المشركون الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم العلي الكبير، الذي من عظمته وجلاله أن الملائكة الكرام، والمقرئين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق، عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق. فما بال هؤلاء المشركون، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعالى العلي الكبير، عن شرك المشركون وإفكهم وكذبهم. [السعدي (ص: ٦٧٨)].

(٢) هذه ملاطفة وتنزل في المجادلة إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر حتى يعلم من هو على الحق ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين. [ابن جزي (٢/ ١٦٦)].

(٣) أي: إنما أَدْعُوكُمْ إلى ما فيه خير لكم ونفع، ولا ينالني من كفركم وترككم لإجابتي ضرر، وهذا كقوله سبحانه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وفي إسناد الجرم إلى المسلمين ونسبة مطلق العمل إلى المخاطبين مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص والطاعة المحضة وأعمال الكفار من المعصية البينة والإثم الواضح، من الإنصاف ما لا يقادر قدره، والمقصود المهادنة والمたركة، وقد قيل: نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف. [الشوكاني (٤/ ٣٧٤)].

﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ الْحَاكِمُ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿٢٦﴾ بِمَا يَحْكُمُ بِهِ^(١). ﴿قُلْ أَرُونِي﴾ أَعْلَمُونِي ﴿الَّذِينَ أَحَقُّنَا بِهِ شُرَكَاءَ﴾ فِي الْعِبَادَةِ^(٢) ﴿كَلَّا﴾ رَدُّعٌ لَهُمْ عَنِ اعْتِقَادِ شَرِيكَ لَهُ ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢٧﴾ فِي تَدْبِيرِهِ لَخَلْقِهِ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً﴾ حَالٌ مِنَ النَّاسِ «قُدِّمَ لِلْإِهْتِمَامِ^(٣)» ﴿لِلنَّاسِ بَشِيرًا﴾ مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ بِالْعَذَابِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: كُفَّارٌ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ فِيهِ. ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ عَلَيْهِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا

(١) ﴿ثُمَّ يَفْتَحْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: يقضي بالعدل؛ لأن أحد فريقينا على هدى والآخر على ضلال، فيتين يومئذ المهتدي منا من الضال، ويجزي كلا بعمله، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفِقُونَ^(١٤)﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم ١٤-١٦] ولهذا قال سبحانه: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الحاكم العادل العليم بالقضاء بين خلقه؛ لأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تُعرفه المحق من المبطل. [القاسمي (١٤٧/٨)].

(٢) في هذا ما سبق من أنه من آداب المناظرة سلوك التحدي فيما يُعلم امتناعه من الخصم؛ لأنك إذا تحديته بأمر لا يمكن وظهر عجزه تبين بطلان دعواه... يعني أعلموني ماذا خلقوا؟ ماذا نفخوا؟ لم يخلقوا شيئاً، ولم ينفخوا، ولم يدفعوا ضرراً كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ^(٢٠)﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢٠-٢١] وقال إبراهيم لأبيه: ﴿يَنَابِتٌ لَمْ تَعْبُدْ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ١٨٩)].

(٣) المعنى أن الله أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الناس، وهذه إحدى الخصال التي أعطاه الله دون سائر الأنبياء، وإعراب ﴿كَافَّةً﴾ حال من الناس قدمت للاهتمام، هكذا قال ابن عطية، وقال الزمخشري: ذلك خطأ لأن تقدم حال المجرور عليه لا يجوز، وتقديره عنده: وما أرسلناك إلا رسالة عامة للناس، فكافة صفة للمصدر المحذوف، وقال الزجاج: المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار، والتبشير، فجعله حالاً من الكاف، والتاء على هذا للمبالغة كالتاء في رواية وعلامة. [ابن جزي (١٦٦/٢)]. أي: وما أرسلناك إلا رسالة عامة لجميع الخلائق من المكلفين، تبشر من أطاعك بالجنة، وتنذر من عصاك بالنار، كقوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَتَائِبُهَا النَّاسُ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]... وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَإِنَّمَا رَجُلٌ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيَصِلْ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُعْتَصَمُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَيُعْتَصَمُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً». أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١). [القاسمي (١٤٨/٨)].

الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ أَيُّ: تَقَدَّمَهُ كَالْتَوَرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الدَّلَالِينَ عَلَى الْبَعْثِ لِانْكَارِهِمْ لَهُ^(١)، قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَوْفُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ الْآتِبَاعُ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الرُّؤَسَاءُ: ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ﴾ صَدَدْتُمُونَا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) بِالنَّبِيِّ. ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا﴾ أَنْحُنْ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ۚ لَا ﴿بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ﴾^(٣) فِي أَنْفُسِكُمْ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أَيُّ: مَكْرٌ فِيهِمَا مِنْكُمْ بِنَا ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُؤُنْدَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿وَأَسْرُوا﴾ أَيُّ: الْفَرِيقَانِ ﴿التَّدَامَةَ﴾ عَلَىٰ تَرْكِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أَيُّ: أَخْفَاهَا كُلٌّ عَنْ رَفِيقِهِ مَخَافَةَ التَّعْيِيرِ ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِي النَّارِ ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يُجْزَوْنَ إِلَّا﴾ جَزَاءَ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٤) فِي الدُّنْيَا. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ رُؤَسَاؤُهَا الْمُتَتَعِمُونَ^(٥) ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٦) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا ۚ مِمَّنْ آمَنَ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾^(٧) قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ يَبْسُطْهُ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ اِمْتَحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ اِئْتِلَاءً ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٨) ذَلِكَ^(٩). ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾ قُرْبَىٰ، أَيُّ: تَقَرِّبِيًا^(١٠) ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءٌ

(١) قيل: إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه، فلما سألوه فوافق ما قال أهل الكتاب قال المشركون: لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع، وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم، فظهر بهذا تناقضهم وقلة علمهم. [القرطبي (١٤/ ٣٠٢)]. ويحتمل أن يراد بقوله: ﴿وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ: ما يأتي مما أخبر به، فإن ما بين يدي الشيء مستقبله، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥] والمعنيان صحيحان، وإذا كانت الآية تحتل معنيين صحيحين لا يتنافيان وجب حملها على الجميع؛ لأن القرآن شامل واسع. [ابن عثيمين تفسير سبأ (ص: ٢٠٢)].

(٢) تسلياً لرسول الله ﷺ مما مني به من قومه، وتخصيص المتنعمين بالكذب لأن الداعي المعظم إليه التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا والانهماك في الشهوات والاستهانة بمن لم يحظ منها، ولذلك ضمو التهكم والمفاخرة إلى الكذب. [البضاوي (٤/ ٢٤٨)].

(٣) أي: يضيق عليه حسب ما اقتضته حكمته ومشيتته في عبادته، من يحب ومن لا يحب، وهو أعلم بمقتضياته وشؤونه، فلا يقاس على ذلك أمر الثواب والعذاب، اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، ولذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك. فيزعمون أن مدار البسط الكرامة، والتضييق الهوان. ويجهلون أن مناط الفوز والقرب منه تعالى، إنما هو الكمالات النفسية، وذلك بصدق الإيمان وحسن الاتباع. [القاسمي (٨/ ١٥١)].

(٤) ﴿زُلْفَىٰ﴾ مصدر بمعنى القرب، كأنه قال: تقربكم قربي ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ﴾ استثناء من المفعول في تقربكم، والمعنى: أن الأموال لا

الْضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا) أَي: جَزَاءُ الْحَسَنَةِ مَثَلًا بِعَشْرِ فَاكْتَرَّ (وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ) مِنَ الْجَنَّةِ (ءَامِنُونَ ٣٧) مِنَ الْمَوْتِ وَغَيْرِهِ^(١)، وَفِي قِرَاءَةٍ: (الْغُرْفَةِ) بِمَعْنَى الْجَمْعِ. (وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا) الْقُرْآنِ بِالْإِبْطَالِ (مُعْجِزِينَ) لَنَا، مُقَدِّرِينَ عَجَزَنَا، وَأَنَّهُمْ يَفْتُونَنَا (أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ (يُوسِّعُهُ) لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (إِمْتِحَانًا) وَيَقْدِرُ (يُضَيِّقُهُ) لَهُ (بَعْدَ الْبَسْطِ، أَوْ لِمَنْ يَشَاءُ إِبْتِلَاءً) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي الْخَيْرِ (فَهُوَ يُخْلِفُهُ) وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ٣٩) يُقَالُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْزُقُ عَائِلَتَهُ، أَي: مِنْ رِزْقِ اللَّهِ^(٢). (وَأَذْكُرُ) يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا أَي: الْمُشْرِكِينَ (ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَكُمْ) بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَتَيْنِ وَإِدْالِ الْأُولَى يَاءً وَإِسْقَاطِهَا (كَانُوا يَعْبُدُونَ ٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ (تَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الشَّرِّكَ) (أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ) أَي: لَا مَوْلَاةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ مِنْ جِهَتِنَا^(٣) (بَلْ) لِلْإِنْتِقَالِ (كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ) الشَّيَاطِينَ أَي: يُطِيعُونَهُمْ فِي عِبَادَتِهِمْ إِيَّانَا (أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ٤١) مُصَدِّقُونَ فِيمَا يَقُولُونَ لَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: (فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ) أَي: بَعْضُ الْمَعْبُودِينَ لِبَعْضِ الْعَابِدِينَ (نَفْعًا) شَفَاعَةً (وَلَا ضَرًّا) تَعْدِيًّا (وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا) كَفَرُوا: (ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢) وَإِذَا تُلَّتِ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا الْقُرْآنُ (بَيِّنَاتٍ) وَاضِحَاتٍ بِلِسَانِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ (قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ) مِنَ الْأَصْنَامِ (وَقَالُوا مَا هَذَا) الْقُرْآنُ (إِلَّا إِفْكٌ) كَذِبٌ (مُفْتَرًى) عَلَى اللَّهِ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ) الْقُرْآنُ (لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ) مَا (هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٤٣)

تقرب إلا المؤمن الصالح الذي يفقهها في سبيل الله، وقيل: الاستثناء منقطع، والأول أحسن. [ابن جرير (١٦٨/٢)].

(١) أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه... عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تَرَى ظُهُورَهَا مِنْ بَطُونِهَا، وَبَطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسِ نِيَامًا». أخرجه الترمذي (١٩٨٤). [ابن كثير (٥٢٢/٦)].

(٢) لما كان يقال في الإنسان: إنه يرزق عياله والأمير جنده، قال: (وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) والرازق من الخلق يرزق، لكن ذلك من مال يملك عليهم ثم ينقطع، والله تعالى يرزق من خزائن لا تنفد ولا تنهاى. ومن أخرج من عدم إلى الوجود فهو الرازق على الحقيقة، كما قال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ» [الذاريات: ٥٨]. [القرطبي (٣٠٨/١٤)].

(٣) أي: يقول تقريباً للمشركين وتوبيخاً لمن عبد غير الله عز وجل كما في قوله لعيسى: «أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَهْلِي إِلَهِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» [المائدة: ١١٦] وإنما خصص الملائكة بالذكر مع أن بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام لأنهم أشرف معبودات المشركين، قال النحاس: والمعنى أن الملائكة إذا كذبتهم كان في ذلك تبكيت للمشركين وتقريع للكافرين. [صديق حسن (٢٠٤/١١)].

بَيْنُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ۖ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَمِنْ أَيْنَ كَذَّبُوكَ﴾. ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾ أَي: هَؤُلَاءِ ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ مِنَ الْقُوَّةِ، وَطُولِ الْعُمُرِ، وَكَثْرَةِ الْمَالِ ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ إِلَيْهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿٤٥﴾ إِنْكَارِي عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةَ وَالْإِهْلَاكَ، أَي: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقَعُهُ. ﴿*قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُ بَوَاحِدَةٍ﴾ هِيَ ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أَي: لِأَجْلِهِ ﴿مَتْنِي﴾ أَي: اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ﴿وَفَرَادَى﴾ وَاحِدًا وَاحِدًا ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ فَتَعَلَّمُوا ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ﴾ مُحَمَّدٍ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ جُنُونٍ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ﴾ أَي: قَبْلَ ﴿عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ ﴿٤٦﴾ فِي الْآخِرَةِ إِنْ عَصَيْتُمُوهُ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿مَا سَأَلْتُكُمْ﴾ عَلَى الْإِنذَارِ وَالتَّبْلِيغِ ﴿مِّنْ أَجْرِ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَي: لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿إِنْ أَجَرِي﴾ مَا ثَوَابِي ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٤٧﴾ مُطْلَعٌ يَعْلَمُ صِدْقِي. ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يُلْقِيهِ إِلَى أَنْبِيَائِهِ ﴿عَلَّمَ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٤٨﴾ مَا غَابَ عَنْ خَلْقِهِ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ الْإِسْلَامُ ﴿وَمَا يُبْدِي الْبَاطِلُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ ﴿٤٩﴾ أَي: لَمْ يَبْقَ لَهُ أَثَرٌ. ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ عَنْ الْحَقِّ﴾ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي ﴿أَي: إِثْمٌ ضَلَّالِي عَلَيْهَا﴾ وَإِنْ أَهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ﴿مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿قَرِيبٌ﴾ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ ﴿يَا مُحَمَّدُ﴾ إِذْ فِرْعَوْنُ ﴿عِنْدَ الْبَعْثِ لَرَأَيْتَ أَمْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لَهُمْ مِنَّا، أَي: لَا يَفُوتُونَنَا ﴿وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ﴿٥١﴾ أَي: الْقُبُورِ. ﴿وَقَالُوا ءَأَمَّا بِهِ﴾ بِمُحَمَّدٍ أَوْ الْقُرْآنِ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ بِوَاوٍ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلَهَا، أَي: تَنَاوُلُ الْإِيمَانِ ﴿مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ عَنْ مَحَلِّهِ،

(١) الآية: في معناها وجهين: أحدهما: ليس عندهم كتب تدل على صحة أقوالهم، ولا جاءهم نذير يشهد بما قالوه؛ فأقولهم باطلة إذ لا حجة لهم عليها، فالقصد على هذا ردا عليهم، والآخر: أنهم ليس عندهم كتب ولا جاءهم نذير فهم محتاجون إلى من يعلمهم وينذرهم ولذلك بعث الله إليهم محمداً ﷺ، فالقصد على هذا إثبات نبوة محمد ﷺ. [ابن جزي (١٦٨/٢)].

(٢) ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾ وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال، أو ما بلغ أولئك عشر ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي﴾ فكيف كان نكيرهم إنكارهم إنكارهم بالتدوير فكيف كان نكيرهم فليحذر هؤلاء من مثله، ولا تكرير في كذب لأن الأول للتكثير والثاني للتكذيب، أو الأول مطلق والثاني مقيد ولذلك عطف عليه بالفاء. [البضاوي (٢٥٠/٤)].

(٣) إن قيل: مقتضى المقابلة مع الجملة قبلها، أن يقال: «وإن اهتديت فإنما أهتدي لها». فلم عدل عنها إلى ما ذكر؟ قيل: إن المقابلة تكون باللفظ وتكون بالمعنى. وما هنا من الثاني، بيانه أن النفس كل ما عليها فهو بها، أي: كل ما هو وبال عليها، وضار لها، فهو بسببها ومنها لأنها الأمانة بالسوء، وكل ما هو لها مما ينفعها فبهداية ربها وتوفيقه إياها. وهذا حكم عام لكل مكلف، وإنما أمر رسول الله ﷺ أن يسند ذلك إلى نفسه؛ لأن الرسول إذا دخل في عمومهم مع علو محله وسداد طريقته كان غيره أولى به. [القاسمي (١٥٦/٨)].

إِذْ هُمْ فِي الْآخِرَةِ وَمَحِلُّهُ الدُّنْيَا^(١). ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ يَرْمُونَ ﴿بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾ أَي: بِمَا غَابَ عِلْمُهُ عَنْهُمْ غَيْبَةً بَعِيدَةً، حَيْثُ قَالُوا فِي النَّبِيِّ: سَاحِرٌ شَاعِرٌ كَاهِنٌ، وَفِي الْقُرْآنِ: سِحْرٌ شَعْرٌ كَهَانَةٌ^(٢). ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ مِنَ الْإِيمَانِ، أَي: قَبُولِهِ^(٣) ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ أَشْبَاهِهِمْ فِي الْكُفْرِ ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مَُّرِيبٍ ۝٥٤﴾ مَوْقِعِ الرِّيَّةِ لَهُمْ فِيمَا آمَنُوا بِهِ الْآنَ، وَلَمْ يَعْتَدُوا بِدَلَالِيهِ فِي الدُّنْيَا^(٤).

(١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا﴾ أَي: هَؤُلَاءِ الْمَكْذُوبُونَ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوِ الْبَعْثِ أَوْ ظُهُورِ الْحَقِّ وَسُلْطَانِهِ، وَدُخُولِهِمْ تَحْتَ أَسْرِهِ: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أَي: لَهُمْ، يَهْرَبُ أَوْ التَّجَاءُ؛ إِذْ لَا وَزَرَ لَهُمْ وَلَا مَلْجَأَ: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَي: مِنْ ظَهْرِ الْأَرْضِ إِلَى بَطْنِهَا إِذَا مَاتُوا، أَوْ مِنَ الْمَوْقِفِ إِلَى النَّارِ إِذَا بَعَثُوا، أَوْ ظَفَرَهُمْ بِسَهْوَةٍ بَعْدَ تَعَذُّرِهِ. ﴿وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ﴾ أَي: بِمُحَمَّدٍ ﷺ أَوِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاطُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أَي: وَمِنْ أَيْنَ لَهُمْ تَنَاوُلُ الْإِيمَانِ وَقَدْ بَعَدُوا عَنْ مَحَلِّ قَبُولِهِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ صَارُوا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَهِيَ دَارُ الْجَزَاءِ لَا دَارَ الْإِبْتِلَاءِ... قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: التَّنَاطُشُ وَالتَّنَاطُلُ، أَخْوَانُ، إِلَّا أَنَّ التَّنَاطُشَ، تَنَاوُلُ سَهْلٍ لِّشَيْءٍ قَرِيبٍ... وَهَذَا تَمَثُّلٌ لَطْلِبُهُمْ مَا لَا يَكُونُ، وَهُوَ أَنْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَمَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانُهُمْ فِي الدُّنْيَا، مَثَلَتْ حَالَهُمْ بِحَالٍ مَنْ يَرِيدُ أَنْ يَتَنَاوَلَ الشَّيْءَ مِنْ غُلُوَّةٍ - وَهُوَ السَّهْمُ إِذَا رَمَيْتَ بِهِ أَبْعَدَ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ -، كَمَا يَتَنَاوَلُهُ الْآخَرُ مِنْ قَيْسِ ذِرَاعٍ، تَنَاوَلَا سَهْلًا لَا تَعَبَ فِيهِ. انْتَهَى. أَي: فِيهِ اسْتِعَارَةٌ تَمَثُّلِيَّةٌ؛ شَبَّهَ إِيْمَانَهُمْ حَيْثُ لَا يَقْبَلُ، بِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ يُمْكِنُ أَخْذُهُ، فَلَمَّا بَعْدَ عَنْهُ فَرَسَخًا، مَدَّ يَدَهُ لَتَنَاوَلَهُ. [القاسمي (١٥٦/٨)].

(٢) جملة ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَي: كَيْفَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ فِي وَقْتِ الْفَوَاتِ وَالْحَالِ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ فِي وَقْتِ التَّمَكُّنِ، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ [القلم: ٤٣]. ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ عَطَفَ عَلَى كَفَرُوا فِيهِ حَالٌ ثَانِيَةٌ. وَالتَّقْدِيرُ: وَكَانُوا يَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ. وَاخْتِيَارُ صِبْغَةِ الْمَضَارِعِ لِحِكَايَةِ الْحَالَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ﴾ [هود: ٣٨]. وَالْقَذْفُ: الرَّمْيُ بِالْيَدِ مِنْ بَعْدِ. وَهُوَ هُنَا مُسْتَعَارٌ لِلْقَوْلِ بِدُونِ تَرَوٍ وَلَا دَلِيلٍ، أَيِ يَتَكَلَّمُونَ فِيهِمَا غَابَ عَنِ الْقِيَاسِ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ إِذْ أَحَالُوا الْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ. [ابن عاشور (٢٤٤/٢٢)].

(٣) قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمَا: يَعْنِي: الْإِيمَانُ. وَقَالَ السُّدِّي: هِيَ التَّوْبَةُ. وَهَذَا اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، مِنْ مَالٍ وَزَهْرَةٍ وَأَهْلٍ. وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ. وَهُوَ قَوْلُ الْبَخَارِيِّ وَجَمَاعَةٍ. وَالصَّحِيحُ: أَنَّهُ لَا مَنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ؛ فَإِنَّهُ قَدْ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهْوَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا طَلِبُوهُ فِي الْآخِرَةِ، فَمَنْعُوا مِنْهُ. [ابن كثير (٥٢٩/٦)].

(٤) تَعْلِيلٌ لِمَا قَبْلَهُ، أَي: فِي شَكٍّ مَوْقِعٍ فِي الرِّيَّةِ، أَوْ ذِي رِيَّةٍ مِنْ أَمْرِ الرِّسْلِ وَالْبَعْثِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، أَوْ فِي التَّوْحِيدِ وَمَا جَاءَتْهُمْ بِهِ الرِّسْلُ مِنَ الدِّينِ، يُقَالُ: أَرَابَ الرَّجُلُ إِذَا صَارَ ذَا رِيَّةٍ فَهُوَ مُرِيبٌ، وَقِيلَ: هُوَ مِنَ الرِّيبِ الَّذِي هُوَ الشُّكُّ وَالتَّهْمَةُ، فَهُوَ كَمَا يُقَالُ: عَجَبٌ عَجِيبٌ وَشَعْرٌ شَاعِرٌ، وَهَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْذِبُ عَلَى الشُّكِّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. [صديق حسن (٢١٤/١١)].

سُورَةُ فَاطِرٍ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسُ أَوْسِتٍ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ حَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى نَفْسَهُ بِذَلِكَ كَمَا بَيَّنَّ فِي أَوَّلِ سُورَةِ «سَبَأٍ» ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خَالِقَهُمَا عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَبَقَ^(١) ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا﴾ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ^(٢) ﴿أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ﴾ فِي الْمَلَكِئَةِ وَغَيْرِهَا ﴿مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ ﴿كَرَزِقٍ وَمَطَرٍ﴾ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ^(٤) أَي: بَعْدَ إِمْسَاكِهِ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾^(٥) فِي فِعْلِهِ. ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بِإِسْكَانِكُمْ الْحَرَمَ، وَمَنْعِ الْغَارَاتِ عَنْكُمْ ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ﴾ مِنْ زَائِدَةٍ، وَ﴿خَلْقٍ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿غَيْرُ اللَّهِ﴾ بِالرَّفْعِ وَالْجَرِّ، نَعْتُ لِ﴿خَلْقٍ﴾ لَفْظًا وَمَحَلًّا، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: ﴿يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الْمَطَرُ ﴿و﴾ مِنْ ﴿الْأَرْضِ﴾ النَّبَاتُ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَي: لَا خَالِقَ رَازِقَ غَيْرُهُ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآئِنِّي تُؤَفِّكُونَ﴾^(٦) مِنْ أَيْنَ تُصْرَفُونَ عَنْ تَوْحِيدِهِ، مَعَ إِفْرَارِكُمْ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ^(٧). ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي مَجِيئِكَ بِالتَّوْحِيدِ وَالبُعْثِ وَالحِسَابِ وَالعِقَابِ ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾ فِي ذَلِكَ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(٨) فِي الْآخِرَةِ، فَيَجَازِي الْمُكَذِّبِينَ وَيَنْصُرُ الْمُرْسَلِينَ. ﴿يَأْتِيهَا

(١) الظاهر أن هذا ليس من معنى الفطر لغة، وإنما أخذوه من المعنى وسياق الكلام، وأصل الفطر في اللغة الشق عن الشيء مطلقاً... ومنه فطر ناب البعير إذا طلع فهو بعير فاطر، وتفطر الشيء تشقق، وقيل: الشق طويلاً فكانه شق العدم بإخراجهما منه،... والفطر أيضاً ابتداء والاختراع، وهو المراد هنا. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت لا أدري ما فاطر حتى أتاني أعربان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول ابتدأتها وعنه الفاطر البديع، والمعنى: الحمد لله مبدع السموات والأرض ومخترعهما، والمقصود من هذا: أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم فهو قادر على الإعادة، وإنما حمد سبحانه وتعالى نفسه بذلك تعظيماً له وتعليماً لعباده كيفية الشاء عليه. [صديق حسن (١١/٢١٧)].

(٢) أي: أرسلهم إلى من شاء من خلقه وفيما شاء وبما شاء من أمره ونهيه، والرسل هم هاهنا: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. [مكي بن أبي طالب (٩/٥٩٤٧)]. فالأصح: إلى الأنبياء وغيرهم، يقول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام ٦١]... فهم رسل إلى الأنبياء وإلى غيرهم، فتخصيص الآية بالأنبياء يعتبر قصوراً في التفسير. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص: ١٢)].

(٣) «الفاء» في قوله تعالى: ﴿فَآئِنِّي تُؤَفِّكُونَ﴾ لترتيب إنكار عدولهم عن التوحيد إلى الإشراك على ما قبلها، كأنه قيل: وإذا تبين تفردته تعالى بالألوهية والخالقية والرازقية فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك. [أبو السعود (٧/١٤٣)].

النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِذَلِكَ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ فِي حِلْمِهِ وَإِمهَالِهِ﴾ ﴿الْغُرُورُ﴾ ﴿الشَّيْطَانُ﴾. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَلَا تُطِيعُوهُ ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ﴾ أَتْبَاعَهُ فِي الْكُفْرِ ﴿لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿النَّارِ الشَّدِيدَةِ﴾. ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿هَذَا بَيَانٌ مَا لِمُؤَافَقِي الشَّيْطَانِ، وَمَا لِمُخَالَفِيهِ. وَنَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ وَغَيْرِهِ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بِالتَّمْوِيهِ ﴿فَرَأَاهُ حَسَنًا﴾ «مَنْ» مُبْتَدَأٌ، خَبَرُهُ: كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ؟ لَا، دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى الْمُزَيَّنِ لَهُمْ ﴿حَسَرَاتٍ﴾ بِاعْتِمَادِكَ أَنْ لَا يُؤْمِنُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿فِيَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الرِّيحَ﴾ ﴿فَتَثِيرُ سَحَابًا﴾ الْمُضَارِعُ لِحِكَايَةِ الْحَالِ الْمَاضِيَةِ، أَي: تُزْعِجُهُ ﴿فَسُقْنَهُ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغِيَةِ ﴿إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ، لَا نَبَاتَ بِهَا ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ مِنَ الْبَلَدِ ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُسَيِّهَا، أَي: أَثْبَتْنَا بِهِ الزَّرْعَ وَالْكَلَاءَ ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ ﴿أَي: الْبَعْثُ وَالْإِحْيَاءُ﴾. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أَي: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَلَا تُنَالُ مِنْهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، فَلْيُطِعه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ يَعْلَمُهُ^(١)، وَهُوَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وَنَحْوُهَا ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ يَقْبَلُهُ^(٢) ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾ الْمَكْرَاتِ ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ بِالنَّبِيِّ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، مِنْ تَقْسِيدِهِ أَوْ قَتْلِهِ أَوْ إِخْرَاجِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي الْأَنْفَالِ^(٣) ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ ﴿يَهْلِكُ﴾.

(١) «الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» يتناول كل كلام يتصف بكونه طيباً من ذكر الله وأمر بمعروف ونهي عن منكر وتلاوة وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد أو بالتحميد والتمجيد. [الشوكاني (٤ / ٣٩١)]. والمراد بالآية ما هو ظاهرها أن الكلم الطيب يصعد إلى الله يعني يعرج إلى الله عز وجل ...؛ لأن الله عز وجل في العلو، وأدلة العلو قد بُيِّنَتْ في العقائد، وأنها خمسة أنواع: الكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطرة، كلها مُتَّفَقَةٌ عَلَى علو الله سبحانه وتعالى بذاته. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص: ٨٤)].

(٢) «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» أَي: يرفع الكلم الطيب ... ووجهه: أنه لا يقبل الكلم الطيب إلا مع العمل الصالح. وقيل: إن فاعل يرفعه هو الكلم الطيب، ومفعوله العمل الصالح، ووجهه أن العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، وقيل: إن فاعل يرفعه ضمير يعود إلى الله عز وجل، والمعنى أن الله يرفع العمل الصالح على الكلم الطيب، لأن العمل يحقق الكلام، وقيل: العمل الصالح يرفع صاحبه وهو الذي أراد العزة، وقال قتادة: المعنى أن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه، أي: يقبله، فيكون قوله والعمل الصالح مبتدأ وخبره يرفع، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه. [صديق حسن (١١ / ٢٢٧)].

(٣) الأنفال آية (٣٠).

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أَي: مَنِ بَخَلَقِ ذُرِّيَّتِهِ مِنْهَا ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حَالٌ، أَي: مَعْلُومَةٌ لَهُ ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ﴾ أَي: مَا يُزَادُ فِي عُمُرٍ طَوِيلٍ الْعُمُرِ ﴿وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ أَي: ذَلِكَ الْمُعَمَّرُ، أَوْ مُعَمَّرٍ آخَرَ^(١) ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هَيِّنٌ. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ شَدِيدُ الْعَذْوَةِ ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾ شُرْبُهُ ﴿وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ شَدِيدُ الْمِلْحَةِ ﴿وَمِنْ كُلِّ مِنْهُمَا﴾ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا ﴿هُوَ

(١) أما كون الضمير في قوله تعالى: ﴿عُمُرِهِ﴾ يعود على معمر آخر فهذا لا إشكال فيه؛ لأنه يكون معمرًا فيكون الثاني ناقصًا، لكن الإشكال إذا قلنا: إن الضمير يعود على المعمر نفسه فكيف يكون معمرًا وهو في الوقت نفسه منقوص من عمره؟ الجواب: هذا محل إشكال فيما يظهر؛ لذلك اختلف المفسرون رحمهم الله في توجيهه؛ فقال بعضهم: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ إن النقص هنا في مقابل الزيادة؛ لأن الإنسان كلما تقدم يومًا في الدنيا نقص عمره باعتبار آخر عمره؛ مثلاً الذي له عشر سنوات فإذا صار له إحدى عشرة، وقدر أنه سيموت في عشرين سنة، فهذا نقص، لأنه كلما زاد من وجه نقص من وجه آخر. فالمعنى: أنه يكتب نقصه كما تكتب زيادته، وإلى هذا ذهب بعض التابعين رحمهم الله. ولكن آخرين من أهل العلم من المفسرين رحمهم الله قالوا: إن هذا حين أخبر به النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُسَاقَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ». أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٥٥٧). وبين أن الإنسان ينقص عمره ويزاد بحسب صلة الرحم؛ مثلاً ما ينقص من عمره إذا لم يصل رحمه، ويزاد في عمره إذا وصله. والمعنى على هذا التفسير: أن زيادة العمر أو نقصه مكتوب عند الله عز وجل، فمن قدر له أن عمره يطول بصلة الرحم فسوف يقدر له أن يصل رحمه، ومن قدر له أن ينقص عمره بقطيعة الرحم فسوف يكون قاطعاً لرحمه؛ لأن المسببات مربوطة بأسبابها، معلومة عند الله. وهذا يزيل عنا الإشكال الذي أورده بعض العلماء رحمهم الله في هذا الحديث، وحاولوا أن يفسروا زيادة العمر بالبركة في عمر الإنسان، بأن الله إذا أنزل بركة في العمر وإن كان قصيراً صار خيراً من عمر طويل بلا بركة، ولكن تقدم لنا أن هذا لا يخرجهم من الإشكال؛ لأن البركة أيضاً مكتوبة، وكذلك محققها مكتوب، فلا يخرجهم ذلك من الإشكال، لا يخرجون من الإشكال إلا أن نقول: إن عمر الإنسان المطول بسبب صلة الرحم قد كتب، وقد كتب أن يصل رحمه، إذن ما الفائدة من قول الرسول ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسَيِّطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُسَاقَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»؟ الجواب: الفائدة من ذلك: الحث على صلة الرحم، كما أننا نقول: «من أحب أن يدخل الجنة فليعمل عملاً صالحاً» فلا يقول قائل: إذا كانت الجنة مكتوبة فكيف يدخلها ولم يعمل؟ كيف إذا عمل كتبت له الجنة؟ ونقول: هي مكتوبة من قبل أن يعمل، لكن قد كتبت له الجنة وكتب أن يعمل لها عملها، وعلى هذا كل ما حصل من تقديرات الله عز وجل؛ فإن هذا لا يختص بالعمر، الإشكال وارد على الجميع، ولكن الجواب عنه بسيط: وهو أن يقال: إن هذا مكتوب نتيجة لهذا السبب، وهو معلوم عند الله، أما عندنا فليس بمعلوم. إذن: يكون أحسن ما يشار إليه في الآية أن المراد ﴿مِنْ عُمُرِهِ﴾ أي: معمر، وأن الإنسان قد يزداد في عمره لسبب من الأسباب، وقد ينقص من عمره لسبب آخر. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص: ٩٨)].

السَّمَكُ ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ مِنَ الْمَلْحِ، وَقِيلَ: مِنْهُمَا^(١) ﴿حَلِيَّةٌ تَلْبَسُونَهَا﴾ هِيَ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿وَتَرَى﴾ تَبَصَّرُ ﴿الْفُلْكَ﴾ السَّفْنَ ﴿فِيهِ﴾ فِي كُلِّ مِنْهُمَا ﴿مَوَاحِرُ﴾ تَمْخُرُ الْمَاءَ، أَيُّ: تَشْقُهُ بِجَرِيهَا فِيهِ مُقْبِلَةً وَمُدْبِرَةً بِرِيحٍ وَاحِدَةٍ ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ تَعَالَى بِالتَّجَارَةِ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿يُولِجُ﴾ يُدْخِلُ اللَّهُ ﴿الَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ﴾ يُدْخِلُهُ ﴿فِي اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ مِنْهُمَا يَجْرِي﴾ فِي فَلَكِهِ ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَيُّ: غَيْرِهِ وَهُمْ الْأَصْنَامُ ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ لُفَافَةُ النَّوَاةِ. ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا﴾ فَرَضًا ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ مَا أَجَابُوكُمْ ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بِإِشْرَاكِكُمْ إِيَّاهُمْ مَعَ اللَّهِ، أَيُّ: يَتَبَرَّءُونَ مِنْكُمْ وَمِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّاهُمْ ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بِأَحْوَالِ الدَّارَيْنِ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ﴿١٤﴾ عَالِمٍ، وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى^(٢). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ بِكُلِّ حَالٍ ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عَنِ خَلْقِهِ ﴿الْحَمِيدُ﴾ ﴿١٥﴾ الْمَحْمُودُ فِي صُنْعِهِ بِهِمْ. ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٦﴾ بِذَلِكَ. ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ ﴿١٧﴾ شَدِيدٍ. ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسٌ ﴿وِازِرَةً﴾ آثِمَةً، أَيُّ: لَا تَحْمِلُ ﴿وِزْرَ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ﴾ نَفْسٌ ﴿مُثْقَلَةً﴾ بِالْوِزْرِ ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ مِنْهُ أَحَدًا لِيَحْمِلَ بَعْضُهُ ﴿لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ﴾ الْمَدْعُوُّ ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ قَرَابَةٍ كَالْأَبِ وَالْإِبْنِ، وَعَدَمُ الْحَمْلِ فِي الشَّقِيَيْنِ حُكْمٌ مِنَ اللَّهِ^(٣) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أَيُّ: يَخَافُونَهُ وَمَا رَأَوْهُ؛ لِأَنَّهُمْ الْمُتَتَعَبُونَ بِالْإِنْذَارِ

(١) فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ الْحَلِيَّةَ لَا تَخْرُجُ إِلَّا مِنَ الْبَحْرِ الْمَلْحِ دُونَ الْعَذْبِ، فَكَيْفَ قَالَ: ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ أَيُّ: مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا؟ فَالْجَوَابُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجِهٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّ ذَلِكَ تَجُوزُ فِي الْعِبَارَةِ كَمَا قَالَ: ﴿يَمَعْتَرُ الْحَيَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وَالرَّسُلُ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الْإِنْسِ. الثَّانِي: أَنَّ الْمَرْجَانَ إِنَّمَا يُوْجَدُ فِي الْبَحْرِ الْمَلْحِ حَيْثُ تَنْصَبُ أَنْهَارُ الْمَاءِ الْعَذْبِ، أَوْ يَنْزِلُ الْمَطَرُ فَلَمَّا كَانَتِ الْأَنْهَارُ وَالْمَطَرُ وَهِيَ الْبَحْرُ الْعَذْبُ تَنْصَبُ فِي الْبَحْرِ الْمَلْحِ كَانَ الْإِخْرَاجُ مِنْهُمَا جَمِيعًا. الثَّالِثُ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُ يَخْرُجُ اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ مِنَ الْمَلْحِ وَالْعَذْبِ، وَهَذَا قَوْلٌ يَبْطُلُهُ الْحَسَنُ، أَيُّ: الْوَاقِعُ. [ابن جُرَيْجٍ (٢/١٧٣)].

(٢) أَيُّ: لَا أَحَدَ يَنْبِئُكَ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ الْعَلِيمِ الْخَبِيرِ، فَاجْزَمْ بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي نَبَأَ بِهِ كَأَنَّهُ رَأَىٰ عَيْنًا، فَلَا تَشْكُ فِيهِ وَلَا تَمْتَرُ. فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ، الْأَدْلَةُ وَالْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ، الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى الْمَالُوهُ الْمَعْبُودُ، الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنَ الْعِبَادَةِ سِوَاهُ، وَأَنَّ عِبَادَةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِبَاطِلٍ، لَا تَفِيدُ عَابِدَهُ شَيْئًا. [السَّعْدِيُّ (ص: ٦٨٦)].

(٣) الْحَمْلُ عِبَارَةٌ عَنِ الذَّنْبِ، وَالْمُثْقَلَةُ الثَّقِيلَةُ الْحَمْلُ أَوْ النَّفْسُ الْكَثِيرَةُ الذَّنُوبِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَوْ دَعَتْ أَحَدًا إِلَى أَنْ يَحْمِلَ عَنْهَا ذُنُوبَهَا لَمْ يَحْمِلْ عَنْهَا، وَحُذِفَ مَفْعُولُ ﴿إِنْ تَدْعُ﴾ لِدَلَالَةِ الْمَعْنَى وَقَصْدِ الْعُمُومِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ بَيَانٌ وَتَكْمِيلٌ لِمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ... لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي. [ابن جُرَيْجٍ (٢/١٧٤)].

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَدَامُوهَا ﴿وَمَنْ تَزَكَّى﴾ تَطَهَّرَ مِنَ الشَّرِّ وَعَبَّرَهُ ﴿فَإِنَّمَا يَنْزَكِي لِنَفْسِهِ﴾ فَصَلَّاحُهُ مُخْتَصِّصٌ بِهِ
 ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ١٨ ﴿الْمَرْجِعُ، فَيَجْزِي بِالْعَمَلِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ ١٩ ﴿الْكَافِرُ
 وَالْمُؤْمِنُ. ﴿وَلَا الظُّلُمْتُ﴾ الْكُفْرُ ﴿وَلَا النُّورُ﴾ ٢٠ ﴿الْإِيمَانُ. ﴿وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ﴾ ٢١ ﴿الْجَنَّةُ وَالنَّارُ. ﴿وَمَا
 يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ الْمُؤْمِنُونَ وَلَا الْكُفَّارُ، وَزِيَادَةُ «لَا» فِي الثَّلَاثَةِ تَأْكِيدٌ ٢٢ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾
 هِدَايَتُهُ فَيَجِيئُهُ بِالْإِيمَانِ ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ٢٣ ﴿أَي: الْكُفَّارَ، شَبَّهَهُمْ بِالْمَوْتِ فَلَا يُجِيبُوا ٢٤. ﴿إِنْ﴾ مَا
 ﴿أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ٢٥ ﴿مُنْذِرٌ لَهُمْ. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ بِالْهُدَى ﴿بَشِيرًا﴾ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَنْ لَمْ يُجِبْ
 إِلَيْهِ ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا﴾ سَلَفَ ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ٢٦ ﴿نَبِيٌّ يُنْذِرُهَا ٢٧. ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿فَقَدْ
 كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ كَصُحُفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ
 ٢٨﴾ هُوَ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ٢٩
 إِنْكَارِي عَلَيْهِم بِالْعُقُوبَةِ وَالْإِهْلَاكِ؟ أَي: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقَعُهُ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمُ ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا﴾
 فِيهِ النَّفَاتُ عَنِ الْغَيْبَةِ ﴿بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ كَأَخْضَرَ وَأَحْمَرَ وَأَصْفَرَ وَغَيْرَهَا ﴿وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ جَمْعُ
 «جُدَّةٍ»، طَرِيقٌ فِي الْجَبَلِ وَغَيْرِهِ ﴿بَيْضٌ وَحُمْرٌ وَصَفْرٌ﴾ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا بِالشَّدَّةِ وَالضَّعْفِ ﴿وَعَرَابِيبٌ سُودٌ﴾ ٣٠
 عَطْفٌ عَلَى ﴿جُدَدٌ﴾، أَي: صُخُورٌ شَدِيدَةُ السَّوَادِ، يُقَالُ كَثِيرًا: أَسْوَدُ غَرِيبٌ، وَقَلِيلًا: غَرِيبٌ أَسْوَدُ. ﴿وَمِنْ النَّاسِ

(١) قال قتادة هذه كلها أمثال، أي: كما لا تستوي هذه الأشياء كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، وقد زيدت «لا» في المواضع الثلاثة خمس مرات اثنتين في الأولى واثنين في الثانية وواحدة في الثالثة. والكل لتأكيد نفي الاستواء فالزيادة شاملة لأصل زيادتهما كالأولى من الجملة الأولى ولتكريرها كالثانية منها. [صديق حسن (١١/ ٢٤٠)].

(٢) أي: كما لا يسمع ويتنفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم. [ابن كثير (٦/ ٥٤٣)].

(٣) معناه أن الله قد بعث إلى كل أمة نبيا يقيم عليهم الحجة، فإن قيل: كيف ذلك وقد كان بين الأنبياء فترات وأزمنة طويلة؟ ألا ترى أن بين عيسى ومحمد ﷺ ستمائة سنة لم يبعث فيها نبي؟ فالجواب أن دعوة عيسى ومن تقدمه من الأنبياء كانت قد بلغتهم فقامت عليهم الحجة. فإن قيل: كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] فالجواب أنهم لم يأتهم نذير معاصر لهم، فلا يعارض ذلك من تقدم قبل عصرهم، وأيضا فإن المراد بقوله: ﴿وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أن نبوة محمد ﷺ ليست ببدع فلا ينبغي أن تنكر، لأن الله أرسله كما أرسل من قبله، والمراد بقوله: ﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنهم محتاجون إلى الإنذار، لكونهم لم يتقدم من ينذرهم فاختلف سياق الكلام فلا تعارض بينهما. [ابن جزي (٢/ ١٧٤)].

وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَنُهُ كَذَلِكَ ۖ كَاخْتِلَافِ الشَّمَارِ وَالْجِبَالِ ۖ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ
 بِخِلَافِ الْجَهَّالِ^(١)، كَكُفَّارِ مَكَّةَ ۖ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ۖ فِي مُلْكِهِ ۖ غَفُورٌ ۖ ﴿٢٨﴾ لِدُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ. ۖ إِنَّ الَّذِينَ
 يَتْلُونَ ۖ يَقْرَأُونَ^(٢) ۖ كَتَبَ اللَّهُ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۖ آدَامُوهَا^(٣) ۖ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ۖ زَكَاةً وَغَيْرَهَا
 ۖ يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّنْ تَبُورَ^(٤) ۖ تَهْلِكَ. ۖ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ ۖ ثَوَابَ أَعْمَالِهِمُ الْمَذْكُورَةِ ۖ وَيَزِيدَهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۖ إِنَّهُ
 غَفُورٌ ۖ لِدُنُوبِهِمْ ۖ شَكُورٌ^(٥) ۖ لِّطَاعَتِهِمْ. ۖ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ۖ الْقُرْآنَ ۖ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ ۖ تَقَدَّمَ مِنْ الْكِتَابِ ۖ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ^(٦) ۖ عَالِمٌ بِالْبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ. ۖ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ۖ أَعْطَيْنَا
 ۖ الْكِتَابَ ۖ الْقُرْآنَ ۖ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ وَهُمْ أُمَمٌ ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ بِالتَّقْصِيرِ فِي الْعَمَلِ بِهِ
 ۖ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ۖ يَعْمَلُ بِهِ أَغْلَبَ الْأَوْقَاتِ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ۖ يَضُمُّ إِلَى الْعِلْمِ التَّعْلِيمَ وَالْإِرْشَادَ إِلَى
 الْعَمَلِ^(٧) ۖ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ بِإِرَادَتِهِ ۖ ذَلِكَ ۖ أَيُّ: إِيْرَائِهِمُ الْكِتَابَ ۖ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ^(٨) ۖ جَنَّتْ عَدْنٌ ۖ أَيُّ: إِقَامَةِ

(١) إذ شرط الخشية معرفة المخشي والعلم بصفاته وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ولذلك قال ﷺ: «إِنِّي أَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَاتَّقَاكُمْ لَهُ». أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١). ولذلك أتبعه بذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وتقديم المفعول لأن المقصود حصر الفاعلية ولو أخر انعكس الأمر. [البضاوي (٢٥٨/٤)].

(٢) الصواب أن التلاوة أعم من القراءة، فالتلاوة نوعان تلاوة لفظية وهي القراءة، وتلاوة عملية وهي اتباع القرآن تصديقاً للخبر وامتنالاً للأمر؛ ولهذا يقال: تلاه بمعنى تبعه؛ أي: جاء بعده... والتلاوة العملية تستلزم فهم المعنى، لأنه لا يمكن أن يعمل إلا بما يفهم، وعلى هذا يكون فعل الصحابة ﷺ تطبيقاً لهذه الآية تماماً؛ لأنهم لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل قالوا: «فَعَلَّمَنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا». أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار (١٤٥٢) والفريابي في فضائل القرآن (١٦٩). [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص: ٢٠٤)].

(٣) أي: أتوا بها مستقيمة، فيشمل فعل الصلاة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها ومستحباتها، ويشمل الإدامة،... فالرجل الذي جاء يصلي ولا يطمئن كان يصلي هذه الصلاة منذ أسلم والرسول ﷺ قال له: «صَلِّ؛ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ». أخرجه البخاري (٦٢٥١)، ومسلم (٣٩٧). مع أنه يديم الصلاة ويصلي لكنه لم يصل حيث إنه لم يأت بها قائمة على الوجه المطلوب، فالصواب أن الإقامة هنا بمعنى أن يفعلها على الوجه المطلوب منه. [ابن عثيمين تفسير فاطر (ص: ٢٠٥)].

(٤) «ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا» يعني أمة محمد ﷺ، والتورث عبارة عن أن الله أعطاهم الكتاب بعد غيرهم من الأمم «فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ» قال عمر وابن مسعود وابن عباس وكعب وعائشة ﷺ وأكثر المفسرين هذه الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ: الظالم لنفسه العاصي والسابق التقى والمقتصد بينهما وقال الحسن: السابق من رجحت حسناته على سيئاته، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته، وجميعهم يدخلون الجنة... فإن قيل: لم قدم الظالم

﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ اَلثَّلَاثَةُ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ، خَبِرٌ ﴿جَنَّتْ﴾ اَلْمُبْتَدَأُ ﴿يُحْلَوْنَ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ ﴿فِيهَا مِنْ﴾ بَعْضِ
 ﴿أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ مُرْصَعٍ بِالذَّهَبِ ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزْنَ
 جَمِيعَهُ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شُكُورٌ﴾ ﴿٣٤﴾ لِلطَّاعَاتِ. ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ اَلْمَقَامَةِ﴾ اَلْإِقَامَةِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ لَا
 يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴿تَعَبٌ﴾ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ إِعْيَاءٌ مِنَ اَلتَّعَبِ لِعَدَمِ اَلتَّكْلِيفِ فِيهَا، وَذَكَرَ اَلثَّانِي اَلتَّابِعَ
 لِاَلْأَوَّلِ لِلتَّصْرِيحِ بِنَفْيِهِ. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بِاَلْمَوْتِ ﴿فَيَمُوتُوا﴾ يَسْتَرِيحُوا ﴿وَلَا
 يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ طَرْفَةً عَيْنٍ ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿يُجْزَىٰ كُلُّ كَفُورٍ﴾ ﴿٣٦﴾ كَافِرٍ، بِاَلْيَاءِ وَاَلنُّونِ اَلْمَفْتُوحَةِ
 مَعَ كَسْرِ اَلزَّايِ وَنَصْبِ ﴿كُلِّ﴾. ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا﴾ يَسْتَعِثُونَ بِشِدَّةٍ وَعَوِيلٍ، يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا
 نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا﴾ وَقْتًا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ
 اَلنَّذِيرُ﴾ اَلرَّسُولُ ﴿فَمَا أَجَبْتُمْ﴾ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ ﴿اَلْكَافِرِينَ﴾ ﴿مِنْ تَصِيرٍ﴾ ﴿٣٧﴾ يَدْفَعُ اَلْعَذَابَ عَنْهُمْ. ﴿إِنَّ اَللَّهَ
 عَلِيمُ غَيْبِ اَلسَّمَوَاتِ وَاَلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ اَلصُّدُورِ﴾ ﴿٣٨﴾ بِمَا فِي اَلْقُلُوبِ، فَعَلِمَهُ بِغَيْرِهِ أَوَّلَىٰ بِالنَّظَرِ إِلَىٰ حَالِ
 اَلنَّاسِ. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي اَلْأَرْضِ﴾ جَمْعُ خَلِيفَةٍ، أَيُّ: يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ مِنْكُمْ
 ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أَيُّ: وَبَالَ كُفْرِهِ ﴿وَلَا يَزِيدُ اَلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ غَضَبًا ﴿وَلَا يَزِيدُ
 اَلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٣٩﴾ لِلْآخِرَةِ. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اَللَّهِ﴾
 أَيُّ: غَيْرِهِ وَهُمْ اَلْأَصْنَامُ، الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ اَللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿أَرُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿مَاذَا خَلَقُوا مِنْ اَلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
 شِرْكٌ﴾ شِرْكٌ مَعَ اَللَّهِ ﴿فِي﴾ خَلْقِ ﴿اَلسَّمَوَاتِ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ حُجَّةٍ ﴿مِنْهُ﴾ بِأَنَّ لَهُمْ مَعِيَ شِرْكَةً؟
 لَا شَيْءَ مِنْ ذَلِكَ ﴿بَلْ إِنَّ﴾ مَا ﴿يَعِدُ اَلظَّالِمُونَ﴾ اَلْكَافِرُونَ ﴿بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ ﴿٤٠﴾ بِاطْلَا، بِقَوْلِهِمْ:
 اَلْأَصْنَامُ تَشْفَعُ لَهُمْ. ﴿إِنَّ اَللَّهَ يُمْسِكُ اَلسَّمَوَاتِ وَاَلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أَيُّ: يَمْنَعُهُمَا مِنَ اَلزَّوَالِ ﴿وَلَيْنَ﴾ لَا مُقَسِّمٍ
 ﴿زَالَتَا إِنْ﴾ مَا ﴿أَمْسَكُهُمَا﴾ يُمْسِكُهُمَا ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: سِوَاهُ ﴿إِنَّهُوَ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ ﴿٤١﴾ فِي تَأْخِيرِ

ووسط المقتصد وآخر السابق؟ فالجواب: أنه قدم الظالم لنفسه رفقا به لئلا يئس وآخر السابق لئلا يعجب بنفسه، وقال الزمخشري: قدم
 الظالم لكثرة الظالمين وآخر السابق لقلة السابقين. [ابن جزي (٢/ ١٧٥)].

(١) ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ الآية توبيخ لهم وإقامة حجة عليهم، وقيل: إن مدة التذكير ستون سنة، وقيل: أربعون، وقيل: البلوغ، والأول أرجح
 لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ عَمَّرَهُ اللهُ سِتِّينَ سَنَةً، فَقَدْ أَعَذَرَ اللهُ إِلَيْهِ فِي الْعُمُرِ». أخرجه البخاري (٦٤١٩). ﴿وَجَاءَكُمُ اَلنَّذِيرُ﴾ يعني النبي
 ﷺ، وقيل: يعني الشيب، لأنه نذير بالموت، والأول أظهر. [ابن جزي (٢/ ١٧٧)].

عِقَابِ الْكَفَّارِ. ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غَايَةَ اجْتِهَادِهِمْ فِيهَا ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رَسُولٌ ﴿لَيَكُونَنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ وَغَيْرِهِمْ، أَي: أَيِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِمَا رَأَوْا مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، إِذْ ﴿قَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿مَا زَادَهُمْ﴾ مَجِيئُهُ ﴿إِلَّا نُفُورًا ۖ﴾ تَبَاعُدًا عَنِ الْهُدَىٰ. ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿وَمَكَرَ﴾ الْعَمَلِ ﴿السَّيِّئِ﴾ مِنَ الشَّرِّ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ يُحِيطُ ﴿الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ وَهُوَ الْمَاكِرُ وَوَصَفُ الْمَكْرِ بِالسَّيِّئِ أَصْلٌ، وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ، قِيلَ: اسْتِعْمَالُ آخِرِ قُدْرٍ فِيهِ مُضَافٌ حَذَرًا مِنَ الْإِضَافَةِ إِلَى الصِّفَةِ^(١) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِيهِمْ مِنْ تَعْذِيهِمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ۖ﴾ أَي: لَا يُبَدَّلُ بِالْعَذَابِ غَيْرُهُ، وَلَا يُحَوَّلُ إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فَأَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ يَسْبِقُهُ وَيَقُوتُهُ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِالْأَشْيَاءِ كُلِّهَا ﴿قَدِيرًا ۖ﴾ عَلَيْهَا. ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا﴾ أَي: الْأَرْضِ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ نَسَمَةٍ تَدْبُ عَلَيْهَا ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ۖ﴾ فَيُجَازِيهِمْ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، بِإِثَابَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْكَافِرِينَ.

(١) قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ السَّيِّئُ﴾ يدل على أن المكر هنا شيء غير السيئ للزوم المغايرة بين المضاف والمضاف إليه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ يدل على أن المراد بالمكر هنا هو السيئ بعينه لا شيء آخر، فالتنافي بين التركيب الإضافي والتركيب التقيدي ظاهر. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن التحقيق جواز إضافة الشيء إلى نفسه إذا اختلفت الألفاظ، لأن المغايرة بين الألفاظ ربما كفت في المغايرة بين المضاف والمضاف إليه، فالظاهر أنه أسلوب من أساليب العربية بدليل كثرة وروده ... كقوله: ﴿وَالْدَارُ الْآخِرَةُ﴾ [الأعراف: ١٦٩] والدار هي الآخرة. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٢٦٧)].

سُورَةُ يَسْ

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا﴾ آيَةٌ، أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَتَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَس ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢﴾ الْمُحْكَمِ بَعْجِبِ النَّظْمِ وَبَدِيعِ الْمَعَانِي. ﴿إِنَّكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ عَلَى مُتَعَلِّقٍ بِمَا قَبْلَهُ ﴿صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤﴾ أَي: طَرِيقَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ التَّوْحِيدِ وَالْهُدَى، وَالتَّكْيِيدُ بِالْقَسَمِ وَغَيْرِهِ رَدُّ لِقَوْلِ الْكُفَّارِ لَهُ: ﴿لَسْتُ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]. ﴿تَنْزِيلُ الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الرَّحِيمِ ٥﴾ بِخَلْقِهِ، خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ، أَي: الْقُرْآنُ. ﴿لِتُنذِرَ﴾ بِهِ ﴿قَوْمًا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿تَنْزِيلِ﴾ ﴿مَا أَنْذَرَ آبَاؤُهُمْ﴾ أَي: لَمْ يُنْذِرُوا فِي زَمَنِ الْفِتْرِ ﴿فَهُمْ﴾ أَي: الْقَوْمُ ﴿غَفْلُونَ ٦﴾ عَنِ الْإِيمَانِ وَالرُّشْدِ^(٢). ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَى أَكْثَرِهِمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ أَي: الْأَكْثَرُ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾ بِأَنْ تُضَمَّ إِلَيْهَا الْأَيْدِي؛ لِأَنَّ الْغُلَّ يَجْمَعُ أَيْدَى إِلَى الْعُنُقِ ﴿فَهِيَ﴾ أَي: الْأَيْدِي مَجْمُوعَةٌ ﴿إِلَى الْأَذْقَانِ﴾ جَمْعُ «ذَقْنٍ» وَهِيَ مُجْتَمِعُ اللَّحْيَيْنِ ﴿فَهُمْ مُقْمَحُونَ ٨﴾ رَافِعُونَ رُؤُوسَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ خَفْضَهَا وَهَذَا تَمْثِيلٌ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَا يُدْعِنُونَ لِلْإِيمَانِ وَلَا يَخْفِضُونَ رُؤُوسَهُمْ لَهُ. ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩﴾ تَمْثِيلٌ أَيْضًا لِسَدِّ طَرِيقِ الْإِيمَانِ عَلَيْهِمْ^(٣). ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الذين في زمن الفترة منهم من عنده علم من الرسالة لكنه عاند، وبقي على ما كان عليه آباؤه كالذين شهد لهم النبي ﷺ بالنار، فإننا نعلم علم اليقين أن هؤلاء قد قامت عليهم الحجة، ولولا ذلك ما كانوا من أهل النار... وآخرون لا ندري عنهم شيئاً؛ فالواجب أن نتوقف في أمرهم، ونقول: الله أعلم بما كانوا عاملين، وأصح الأقوال فيهم أنهم يمتحنون يوم القيامة بتكاليف الله أعلم بها، فمن أطاع منهم دخل الجنة ومن عصى دخل النار. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ٢١)].

(٣) المراد بالآية الكريمة: أن هؤلاء الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علم الله المذكورين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ صرفهم الله عن الإيمان صرفاً عظيماً مانعاً من وصوله إليهم؛ لأن من جعل في عنقه غل، وصار الغل إلى ذقنه، حتى صار رأسه مرفوعاً لا يقدر أن يطاقطه، وجعل أمامه سداً، وخلفه سداً، وجعل على بصره الغشاوة لا حيلة له في التصرف، ولا في جلب نفع لنفسه، ولا في دفع ضررها، فالذين أشقاهم الله بهذه المثابة لا يصل إليهم خير. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة من كونه جل وعلا يصرف الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة في علمه عن الحق ويحول بينهم وبينه، جاء موضحاً في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا

الْهَمَزَيْنِ وَإِدْأَلِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِلُهَا وَإِدْخَالَ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ ﴿أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١٠)
 إِنَّمَا تُنْذِرُ يَنْفَعُ إِنْذَارُكَ ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾ خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ
 وَأَجْرِ كَرِيمٍ﴾^(١١) هُوَ الْجَنَّةُ. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ لِلْبَعْثِ ﴿وَنَكْتُبُ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(١٢) ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ فِي
 حَيَاتِهِمْ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ لِيُجَازُوا عَلَيْهِ ﴿وَعَاثَرَهُمْ﴾ مَا أُسْتُنَ بِهِ بَعْدَهُمْ^(١٣) ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ نَصَبَهُ يَفْعَلُ يُفَسِّرُهُ ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾
 ضَبَطْنَاهُ ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^(١٤) كِتَابٍ بَيْنَ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ. ﴿وَأَضْرِبْ﴾ اجْعَلْ ﴿لَهُمْ مَثَلًا﴾ مَفْعُولٌ أَوَّلُ
 ﴿أَصْحَابِ﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿الْقَرْيَةِ﴾ أَنْطَاكِيَّةَ ﴿إِذْ جَاءَهَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْ ﴿أَصْحَابِ الْقَرْيَةِ﴾
 ﴿الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٥) أَي: رُسُلُ عِيسَى. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ مِنْ ﴿إِذْ﴾ الْأُولَى إِلَى
 آخِرِهِ ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ بِالْتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، قَوَيْنَا الْإِثْنَيْنِ ﴿بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾^(١٦) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ
 مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾^(١٧) قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ جَارِ مَجْرَى الْقَسَمِ، وَزِيدَ
 التَّكْذِيبُ بِهِ وَبِالْإِلَامِ عَلَى مَا قَبْلَهُ لِرِيزَادَةِ الْإِنْكَارِ فِي ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾^(١٨) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٩) التَّلْيِغُ

جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ
 غِشَاوَةً﴾ [البقرة: ٧]. [الشنقيطي (٦/٧١٢)].

(١) اللوح المحفوظ انتهت كتابته، ولا يمكن أن تصاغ ﴿نَكْتُبُ﴾ لشيء انتهى، فالصواب نكتب في صحائف الأعمال، والذين يكتبون:
 الملائكة بأمر الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ٤٧)].

(٢) أي: ما أبقوه من الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت كمن سن سنة حسنة كعلم علموه أو كتاب صفوه، أو حبس حبسوه، أو بناء
 بنوه من مسجد أو رباط، أو قنطرة، أو نحو ذلك، أو السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها، كمن سن سنة سيئة كوظيفة وظيفها بعض الظلام
 على المسلمين وسكة أحدثها فيها تخسيرهم، وشيء أحدث فيه صد عن ذكر الله من الحان وملاه ونحو ذلك. قال مجاهد وابن زيد: نظيره
 قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]، وقوله: ﴿يَبْئُوهُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقيل: المراد
 بالآية آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين، قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية لأنها نزلت في ذلك [فعن
 أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى
 وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَعَاثَرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ آثَارَكُمْ تُكْتُبُ فَلَا تَنْتَقِلُوا» أخرجه الترمذي (٣٢٢٦)، ويجاب عنه
 بأن الاعتبار بعموم الآية لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر، والإحياء هو المعبر والكتابة مؤكدة معظمه
 لأمره، فلهذا قدم الإحياء. [صديق حسن (١١/٢٧٥)].

الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ بِالْأَدَلَّةِ الْوَاضِحَةِ، وَهِيَ: إِبْرَاءُ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ وَالْمَرِيضِ وَإِحْيَاءُ الْمَيِّتِ ^(١). ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا﴾ تَشَاءُ مِنَّا ﴿بِكُمْ﴾ لَا نَقْطَاعَ الْمَطَرِ عَنَّا بِسَبِّكُمْ ﴿لَيْن﴾ لَا مَقَسَمٍ ﴿لَمْ تَنْتَهُوا لَزَجْمَتَكُمْ﴾ بِالْحِجَارَةِ ﴿وَلَيْمَسَنَّكُمْ مِنَّا عَذَابُ أَلِيمٍ ١٨﴾ مُؤَلِّمٌ. ﴿قَالُوا طَيَّرْنَاكُمْ﴾ شُؤْمُكُمْ ﴿مَعَكُمْ﴾ بِكُفْرِكُمْ ﴿أَيْن﴾ هَمْزَةُ اسْتِفْهَامٍ دَخَلَتْ عَلَى «إِنْ» الشَّرْطِيَّةِ وَفِي هَمْزَتِهَا التَّحْقِيقُ وَالتَّسْهِيلُ وَإِدْخَالُ أَلْفٍ بَيْنَهَا بَوَجهِيهَا وَبَيْنَ الْأُخْرَى ﴿ذُكِّرْتُمْ﴾ وَعُظِّمَتْ وَخُوفَتْ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَي: تَطَيَّرْتُمْ وَكَفَرْتُمْ، وَهُوَ مَحَلُّ الاسْتِفْهَامِ وَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ١٩﴾ مُتَجَاوِزُونَ الْحَدَّ بِشُرْكِكُمْ. ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ﴾ هُوَ حَبِيبُ النَّجَّارِ، كَانَ قَدْ آمَنَ بِالرُّسُلِ وَمَنْزِلُهُ بِأَقْصَى الْبَلَدِ ^(٢) ﴿يَسْعَى﴾ يَشْتَدُّ عَدْوًا لَمَّا سَمِعَ بِتَكْذِيبِ الْقَوْمِ الرُّسُلَ ﴿قَالَ يَقُومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ٢٠﴾ اتَّبِعُوا تَأْكِيدٌ لِلأَوَّلِ ﴿مَنْ لَا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا﴾ عَلَى رِسَالَتِهِ ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ ٢١﴾ فَقِيلَ لَهُ: أَنْتَ عَلَى دِينِهِمْ. فَقَالَ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ خَلَقَنِي، أَي: لَا مَانِعَ لِي مِنْ عِبَادَتِهِ الْمَوْجُودِ مُقْتَضِيهَا، وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ ٢٢﴾ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيَجَازِيكُمْ بِكُفْرِكُمْ. ﴿ءَاتَاخِذْ﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ مِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ أَصْنَامًا ﴿ءَالِهَةً إِنْ يُرْذِنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَعَتُهُمْ﴾ الَّتِي زَعَمْتُمُوهَا ﴿شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونَ ٢٣﴾ صِفَةُ ﴿ءَالِهَةٍ﴾. ﴿إِنِّي إِذَا﴾ أَي: إِنْ عَبَدْتُ غَيْرَ اللَّهِ ﴿لَنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢٤﴾ بَيِّنٌ. ﴿إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ٢٥﴾ أَي: اِسْمَعُوا قَوْلِي، فَارْجَمُوهُ فَمَاتَ. ﴿قِيلَ﴾ لَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ: ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ وَقِيلَ: دَخَلَهَا حَيًّا ^(٣)

(١) يقولون: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة، وإن لم تحبوا فستعلمون غيب ذلك، والله أعلم. [ابن كثير (٥٦٩/٦)].

(٢) التقدير: من بعيد المدينة، أي: طرف المدينة، وفائدة ذكر أنه جاء من أقصى المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في قلب المدينة لأن قلب المدينة هو مسكن حكامها وأخبار اليهود وهم أبعد عن الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليهم الرسل، وعامة سكانها تبع لعظمائهم لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف أطراف سكان المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان أطراف المدينة غالبهم عملة أنفسهم لقرىهم من البدو... وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصددهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترفق وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة، ووصف الرجل بالسعي يفيد أنه جاء مسرعاً وأنه بلغه هم أهل المدينة برجم الرسل أو تعذيبهم، فأراد أن ينصحبهم خشية عليهم وعلى الرسل، وهذا ثناء على هذا الرجل يفيد أنه ممن يقتدى به في الإسراع إلى تغيير المنكر. [ابن عاشور (٣٦٥/٢٢)].

(٣) اختلف هل دخلها حين موته كالشهداء؟ أو هل ذلك بمعنى البشارة بالجنة ورؤيته لمقعده منها. [ابن جزي (١٨١/٢)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَقُومِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته في قوله: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ٢٦﴾ بِمَا عَفَرُ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ

﴿قَالَ يَ﴾ حَرْفُ تَنْبِيهِ ﴿لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ٢٦ ﴿بِمَا غَفَر لِي رَبِّي﴾ بِغُفْرَانِهِ ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمَكْرَمِينَ﴾ ٢٧ ﴿وَمَا﴾ نَافِيَةٌ ﴿أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ﴾ أَي: حَبِيبٍ ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿مِنْ جُنْدٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أَي: مَلَائِكَةٍ لِإِهْلَاكِهِمْ ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ ٢٨ ﴿مَلَائِكَةً لِإِهْلَاكِ أَحَدٍ﴾. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿كَانَتْ﴾ عُقُوبَتُهُمْ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صَاحَ بِهِمْ جَبْرِيلُ ﴿فَإِذَا هُمْ خُمُودُونَ﴾ ٢٩ ﴿سَاكِتُونَ مَيِّتُونَ﴾. ﴿يَحْسِرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ هَؤُلَاءِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ كَذَّبُوا الرُّسُلَ فَأُهْلِكُوا، وَهِيَ شِدَّةُ التَّأَلُّمِ وَنَدَاؤُهَا مَجَازٌ، أَي: هَذَا أَوَانُكَ فَاحْضَرِي^(١) ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٣٠ ﴿مَسُوقٌ لِّبَيِّنَاتٍ سَبَّحًا؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى اسْتِهْزَائِهِمُ الْمُؤَدِّي إِلَى إِهْلَاكِهِمُ الْمُسَبِّبُ عَنْهُ الْحَسْرَةُ﴾. ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ الْقَائِلُونَ لِلنَّبِيِّ: ﴿لَسْتُ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣] وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، أَي: عَلِمُوا ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّةٌ، بِمَعْنَى: كَثِيرًا، مَعْمُولَةٌ لِمَا بَعْدَهَا مُعْلَقَةٌ لِمَا قَبْلَهَا عَنِ الْعَمَلِ، وَالْمَعْنَى: «أَنَا» ﴿أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾ كَثِيرًا ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ الْأُمَمِ ﴿أَنَّهُمْ﴾ أَي: الْمُهْلَكِينَ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أَي: الْمُكْذِبِينَ ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾ ٣١ ﴿أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ، وَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ﴾ إِلَى آخِرِهِ: بَدَلٌ مِّمَّا قَبْلَهُ بِرِعايَةِ الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ. ﴿وَإِنْ﴾ نَافِيَةٌ أَوْ مُخَفِّفَةٌ ﴿كُلُّ﴾ أَي: كُلُّ الْخَلَاقِ، مُبْتَدَأٌ ﴿لَّمَّا﴾ بِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى: إِلَّا، أَوْ بِالتَّخْفِيفِ فَالْأَمُّ فَارِقَةٌ وَ«مَا» مَزِيدَةٌ ﴿جَمِيعٌ﴾ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ، أَي: مَجْمُوعُونَ ﴿لَدَيْنَا﴾ عِنْدَنَا فِي الْمَوْقِفِ بَعْدَ بَعْثِهِمْ ﴿مُحْضَرُونَ﴾ ٣٢ ﴿لِلْحِسَابِ خَبَرٌ ثَانٍ﴾. ﴿وَعَايَةٌ لَهُمْ﴾ عَلَى الْبَعْثِ، خَبَرٌ مُّقَدَّمٌ ﴿الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، ﴿أَحْيَيْنَاهَا﴾ بِالْمَاءِ، مُبْتَدَأٌ ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ كَالْحِنْطَةِ ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ ٣٣ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾ ٣٤ ﴿أَي: بَعْضَهَا﴾. ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ بِفَتْحَتَيْنِ وَضَمَّتَيْنِ، أَي: ثَمَرِ الْمَذْكُورِ مِنَ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ أَي: لَمْ تَعْمَلِ الشَّمَرُ^(٢) ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ٣٥

الْمُكْرَمِينَ ٢٧. [ابن كثير (٥٧٢/٦)].

(١) نداء للحسرة كأنه قال: يا حسرة احضري فهذا وقتك، وهذا التفجع عليهم استعارة في معنى التهويل والتعظيم لما فعلوا من استهزائهم بالرسول، ويحتمل أن يكون من كلام الملائكة، أو المؤمنين من الناس، وقيل: المعنى يا حسرة العباد على أنفسهم. [ابن جزي (١٨١/٢)].
والمستهزئون بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين أحقاء بأن يتحسروا على أنفسهم حيث فوتوا عليها السعادة الأبدية وعوضوها العذاب المقيم، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس، وأبي، وعلي بن الحسين، والضحاك، ومجاهد، والحسن ﴿يَحْسِرَةُ الْعِبَادِ﴾ والحسرة على ما قال الراغب: الغم على ما فات والندم عليه؛ كأن المتحسر انحسر عنه قواه من فرط ذلك أو أدركه إعياء عن تدارك ما فرط منه، وفي البحر: هي أن يركب الإنسان من شدة الندم ما لا نهاية بعده حتى يبقى حسيرا. [الآلوسي (٤/١٢)].

(٢) عطف على الثمر والمراد ما يتخذ منه كالعصير والدبس ونحوهما، وقيل «ما» نافية والمراد أن الثمر بخلق الله لا بفعلهم، ويؤيد الأول

أَنعَمَهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ. ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الْأَصْنَافَ ﴿كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾ مِنَ الْحُبُوبِ وَغَيْرِهَا ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ مِنَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَجِيبَةِ الْغَرِيبَةِ. ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ﴾ عَلَى الْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ ﴿الَّلَّيْلُ نَسْلَخُ﴾ نَفْصِلُ ﴿مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ دَاخِلُونَ فِي الظَّلَامِ. ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ إِلَى آخِرِهِ، مِنْ جُمْلَةِ آيَاتِهِ لَهُمْ، أَوْ آيَةٍ أُخْرَى، وَالْقَمَرُ كَذَلِكَ ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أَي: إِلَيْهِ لَا تَجَاوِزُهُ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: جَرِيهَا ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْعَلِيمِ﴾ ﴿٣٨﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ وَهُوَ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ يُفَسِّرُهُ مَا بَعْدَهُ ﴿قَدَرْنَاهُ﴾ مِنْ حَيْثُ سِيرُهُ ﴿مَنَازِلَ﴾ ثَمَانِيَّةً وَعَشْرِينَ مَنَزَلًا فِي ثَمَانٍ وَعَشْرِينَ لَيْلَةً مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَيَسْتَرُّ لَيْلَتَيْنِ إِنْ كَانَ الشَّهْرُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَلَيْلَةً إِنْ كَانَ تِسْعَةً وَعَشْرِينَ يَوْمًا ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ فِي آخِرِ مَنَازِلِهِ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ ﴿٣٩﴾ أَي: كَعُودِ الشَّمَارِيخِ إِذَا عَتَقَ فَإِنَّهُ يَدُقُّ وَيَتَقَوَّسُ وَيَصْفَرُّ. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي﴾ يَسْهَلُ وَيَصْحُحُ ﴿لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ فَتَجْتَمَعَ مَعَهُ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فَلَا يَأْتِي قَبْلَ انْقِضَائِهِ ﴿وَكُلٌّ﴾ تَنَوُّيْنُهُ عَوُضٌ عَنِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، أَي: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ ﴿فِي فَلَكٍ﴾ مُسْتَدِيرٍ ﴿يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ يَسِيرُونَ^(١)، نَزَّلُوا مَنَزِلَةً الْعُقَلَاءِ. ﴿وَعَايَةُ لَهُمْ﴾ عَلَى قُدْرَتِنَا ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أَي: آبَاءُهُمُ الْأُصُولُ ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ أَي: سَفِينَةِ نُوحٍ ﴿الْمَشْحُونِ﴾ ﴿٤١﴾ الْمَمْلُوءِ. ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ﴾ أَي: مِثْلَ فَلَكِ نُوحٍ، وَهُوَ مَا عَمِلُوهُ عَلَى شَكْلِهِ مِنَ السُّفُنِ الصَّغَارِ وَالْكِبَارِ، بِتَعْلِيمِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ فِيهِ^(٢). ﴿وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مَعَ إِيجَادِ

قراءة الكوفيين غير حفص بلا هاء فإن حذفه من الصلة أحسن من غيرها. [اليضاوي (٢٦٨/٤)].

(١) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أَي: لِحَدِّهَا مَوْقَتٌ مَقْدَرٌ يَتَّهِى إِلَيْهِ دَوْرُهَا اليَوْمِي أَوِ السَّنَوِي، شَبَهَ بِمُسْتَقَرِّ الْمَسَافِرِ إِذَا قَطَعَ مَسِيرَهُ. فَاَلْمُسْتَقَرُّ اسْمُ مَكَانٍ تَقْطَعُهُ فِي حَرَكَتِهَا الدَّائِمَةِ ثُمَّ تَعُودُ. وَوَجْهَ الشَّبَهِ الْإِتِّهَاءُ إِلَى مَحَلِّ مُعَيَّنٍ، وَاللَّامُ تَعْلِيلِيَّةٌ، أَوْ بِمَعْنَى «إِلَى». وَقِيلَ مُسْتَقَرُّهَا: مُنْقَطِعُ جَرِيهَا عِنْدَ خَرَابِ الْعَالَمِ. وَمُسْتَقَرُّ عَلَيْهِ اسْمُ زَمَانٍ: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ أَي: ذَلِكَ الْجَرِي الْمَتَضَمِّنُ لِلْحَكْمِ، وَالْمَصَالِحِ، وَالْمَنَافِعِ، وَالْمَدْهَشِ نِظَامِ سِيرِهِ وَإِحْكَامِهِ بِلاِ اخْتِلَالٍ، تَقْدِيرُ الْغَالِبِ بِقُدْرَتِهِ عَلَى كُلِّ مَقْدُورٍ، الْمَحِيطُ عِلْمًا بِكُلِّ مَعْلُومٍ. [القاسمي (١٨٤/٨)].

(٢) النجوم هنا غير مذكورة، والصواب: من الشمس والقمر؛ لأنه لا ذكر للنجوم هنا... وقوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ «أي: يسرون» المعنى أدق مما قال المؤلف؛ لأن السبح هو العوم في الماء، فكأن هذه عائمة في الفلك الواسع تدور، ليست تسير على أرض مسطحة أو على ماء، بل هي تعوم في هذا الأفق. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ١٤٧)].

(٣) أَي: وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا يَمِثِّلُ الْفَلَكَ مَا يَرْكَبُونَهُ عَلَى أَنْ «مَا» هِيَ الْمَوْصُولَةُ وَ«مِنْ» زَائِدَةٌ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمَفْسَرِينَ: هِيَ الْإِبِلُ خَلَقَهَا لَهُمْ لِلرَّكُوبِ فِي الْبَرِّ مِثْلَ السُّفُنِ الْمَرْكُوبَةِ فِي الْبَحْرِ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الْإِبِلَ سَفَائِنَ الْبَرِّ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى وَخَلَقْنَا لَهُمْ سَفَنًا أَمْثَالَ تِلْكَ السُّفُنِ يَرْكَبُونَهَا، قَالَهُ الْحَسَنُ وَالضَّحَّاكُ وَأَبُو مَالِكٍ، وَقَالَ النُّحَاسُ: وَهَذَا أَصَحُّ لِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالإِسْنَادِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

السُّفْنِ ﴿فَلَا صَرِيحَ﴾ مُغِيثَ ﴿لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ ٤٣ ﴿يُنَجُونَ﴾. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ٤٤ ﴿أَيُّ: لَا يُنَجِّيهِمْ إِلَّا رَحْمَتُنَا لَهُمْ وَتَمَتُّعُنَا إِيَّاهُمْ بِلَذَائِهِمْ إِلَىٰ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ﴾ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا كَغَيْرِكُمْ ﴿وَمَا خَلَقَكُمْ﴾ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ ٤٥ ﴿أَعْرَضُوا. ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ٤٦ ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ أَيُّ: قَالَ فَقَرَاءُ الصَّحَابَةِ ﴿لَهُمْ أَنْفِقُوا﴾ عَلَيْنَا ﴿مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ مِنْ الْأَمْوَالِ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اسْتَهْزَأَ بِهِمْ ﴿أَنْطَعُمْ مِنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ فِي مُعْتَقَدِكُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿أَنْتُمْ﴾ فِي قَوْلِكُمْ لَنَا ذَلِكَ، مَعَ مُعْتَقَدِكُمْ هَذَا ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ٤٧ ﴿بَيْنَ، وَلِلتَّصْرِيحِ بِكُفْرِهِمْ مَوْقِعٌ عَظِيمٌ﴾ ٤٨ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤٩ ﴿فِيهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ: مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ وَهِيَ نَفْخَةُ إِسْرَافِيلَ الْأُولَى ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ ٥٠ ﴿بِالتَّشْدِيدِ أَصْلُهُ «يَخِصِّمُونَ» نُقِلَتْ حَرَكَةُ التَّاءِ إِلَى الْخَاءِ وَأُذْغِمَتْ فِي الصَّادِ، أَيُّ: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ عَنْهَا، بِتَخَاصُمٍ وَتَبَايُعٍ وَأَكْلٍ وَشُرْبٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: «يَخِصِّمُونَ» كَيَضْرِبُونَ، أَيُّ: يَخِصِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ أَيُّ: أَنْ يُوصُوا ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٥١ ﴿مِنْ أَسْوَاقِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ، بَلْ يَمُوتُونَ فِيهَا﴾ ٥٢ ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هُوَ قَرْنُ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ لِلْبَعْثِ، وَبَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ سَنَةً ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أَيُّ: الْمَقْبُورُونَ ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ الْقُبُورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ ٥٣ ﴿يَخْرُجُونَ بِسُرْعَةٍ﴾ ٥٤ ﴿قَالُوا﴾ أَيُّ: الْكُفَّارُ مِنْهُمْ: ﴿يَلِ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿وَلَكِنَّا﴾ هَلَاكِنَّا، وَهُوَ مُصَدَّرٌ لَا

﴿وَاللَّهُ﴾ ... قلت: والعموم أولى ولا وجه للتخصيص، فيشمل كل ما يركب حيواناً كان أو جماداً دخاناً كان أو ريحاً، كالعجلات الحادثة في هذا الزمان، وما سيحدث في المستقبل بتلاحق الأفكار وتعامل الأيدي والأنظار. [صديق حسن (١١/٢٩٩)].

(١) لأن الإظهار في موضع الإضمار في هذه الآية للتصريح بكفرهم. ومثل هذه المقالة لا تصدر إلا من كافر، فيكون الكفر عاماً لكل من قال هذه المقالة. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ١٦٩)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ وَلَا يَطُوبُ يَانِهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ أَنْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ مِنْ تَحْتِهَا فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي فِيهِ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتُهُ إِلَىٰ فِيهِ فَلَا يَطْعُمُهُ». أخرجه البخاري (٦٥٠٦)، ومسلم (٢٩٥٤).

(٣) «النسل والنسلان» الإسراع في السير يقال: نسل الذئب ينسل كضرب يضرب، ويقال: ينسل بالضم أيضاً وهو الإسراع في المشي. [صديق حسن (١١/٣٠٥)]. أي: يعدون مسرعين، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] ولا منافاة بين هذا وما في آية: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] لأنهما في زمان واحد متقارب. [القاسمي (٨/١٨٩)]. ويسرعون بطريق الإجبار دون الاختيار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. [أبو السعود (٧/١٧١)].

فَعَلْ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا^١﴾؛ لَأَنَّهُمْ كَانُوا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ نَائِمِينَ لَمْ يُعَذِّبُوا^(١) ﴿هَذَا﴾ أَيُّ: الْبَعْثُ ﴿مَا﴾
 أَيُّ: الَّذِي ﴿وَعَدَ﴾ بِهِ ﴿الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ﴾ فِيهِ ﴿الْمُرْسَلُونَ^(٢)﴾ أَقْرُوا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِفْرَارُ، وَقِيلَ: يُقَالُ لَهُمْ
 ذَلِكَ^(٣). ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا﴾ عِنْدَنَا ﴿مُحْضَرُونَ^(٤)﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ
 شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا ﴿جَزَاءَ﴾ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^(٥)﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ بِسُكُونٍ الْغَيْنِ وَصَمَّهَا عَمَّا
 فِيهِ أَهْلُ النَّارِ مِمَّا يَتَلَدَّدُونَ بِهِ كَافِتِصَاضِ الْأَبْكَارِ لَا شُغْلَ يَتَعَبُونَ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ لَا نَصَبَ فِيهَا ﴿فَكَهْنُونَ^(٦)﴾
 نَاعِمُونَ^(٧) خَبَرٌ ثَانٍ لـ ﴿إِنْ﴾ وَالْأَوَّلُ ﴿فِي شُغْلٍ﴾. ﴿هُمْ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ﴾ جَمْعُ ظِلَّةٍ أَوْ ظِلٍّ خَبَرٌ، أَيُّ:
 لَا تُصِيبُهُمُ الشَّمْسُ^(٨) ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ جَمْعُ أَرِيكَةٍ وَهُوَ السَّرِيرُ فِي الْحَجَلَةِ^(٩) أَوِ الْفُرْشِ فِيهَا ﴿مُتَكُونُونَ^(١٠)﴾ خَبَرٌ
 ثَانٍ مُتَعَلِّقٌ ﴿عَلَى﴾. ﴿لَهُمْ فِيهَا فَلَكَهَّةٌ وَلَهُمْ﴾ فِيهَا ﴿مَا يَدَّعُونَ^(١١)﴾ يَتَمَنَّوْنَ. ﴿سَلَامٌ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿قَوْلًا﴾ أَيُّ: بِالْقَوْلِ،
 خَبَرُهُ: ﴿مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ^(١٢)﴾ بِهِمْ، أَيُّ: يَقُولُ لَهُمْ: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». ﴿وَقُلْ: ﴿أَمْتَلِزُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ^(١٣)﴾
 أَيُّ: انْفَرِدُوا عَنِ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ اخْتِلَاطِهِمْ بِهِمْ. ﴿* أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ أَمَرْتُكُمْ ﴿يَبْنَئِ عَادَمَ﴾ عَلَى لِسَانِ رُسُلِي
 ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ لَا تُطِيعُوهُ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ^(١٤)﴾ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ. ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ وَحْدُونِي
 وَأَطِيعُونِي ﴿هَذَا صِرَاطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ^(١٥)﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبَلًّا﴾ خَلَقًا جَمْعُ «جِبَلٍ» كَقَدِيمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ:

(١) قال ابن عطية هذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في معنى قولهم: ﴿مِنْ مَّرْقَدِنَا^١﴾ أنها استعارة وتشبيه به يعني أن قبورهم شبهت
 بالمضاجع، لكونهم فيها على هيئة الرقاد، وإن لم يكن رقاد في الحقيقة. [ابن جزي (١٨٤/٢)]. [أي: يعنون: من قبورهم التي كانوا
 يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها، فلما عاينوا ما كذبوه في محشرهم ﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا^١﴾ وهذا لا ينفي عذابهم
 في قبورهم؛ لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد. [ابن كثير (٥٨١/٦)].

(٢) ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ اختلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفرة لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا
 يكذبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراء: هو من قول الملائكة، وقال
 قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقرير. [ابن عطية (٤٥٨/٤)]. [وهذا القول الأخير] أشبه بظاهر التنزيل، وهو أن
 يكون من كلام المؤمنين، لأن الكفار في قيلهم ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا^١﴾ دليل على أنهم كانوا بمن بعثهم من مرقدهم جهلاً ولذلك من
 جهلهم استثبتوا، ومحال أن يكونوا استثبتوا ذلك إلا من غيرهم، ممن خالفت صفته صفتهم في ذلك. [الطبري (٤٥٨/١٩)].

(٣) قرئ بالألف ومعناه أصحاب فاكهة، وبغير ألف وهو من الفكاهة بمعنى الراحة والسرور. [ابن جزي (١٨٥/٢)].

(٤) والمعنى ... هم في ظلال ليس عندهم شمس تصهرهم أو تسخن الجو، وإنما هو أنوار. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ٢٠٠)].

(٥) الحجلة بالتحريك: بيت كالقبة يستر بالثياب وتكون له أزرار كبار، وتجمع على حجال. [غريب الحديث لابن الأثير (٣٤٦/١)].

بِضَمِّ الْبَاءِ^(١) ﴿كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ عَدَاوَتُهُ وَإِضْلَالُهُ، أَوْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ فَنُومُوا. وَيُقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾^(١٣) بِهَا. ﴿أَصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ ﴿أَي: الْكُفَّارِ، لِقَوْلِهِمْ: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿وَتَكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ وَغَيْرَهَا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١٥) فَكُلُّ عُضْوٍ يَنْطِقُ بِمَا صَدَرَ مِنْهُ^(١٦). ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ لَأَعْمَيْنَاهُمْ طَمَسًا﴾^(١٧) ﴿فَاسْتَبَقُوا﴾ ابْتَدَرُوا ﴿الصِّرَاطَ﴾ الطَّرِيقَ ذَاهِبِينَ كَعَادَتِهِمْ ﴿فَأَنَّى﴾ فَكَيْفَ ﴿يُبْصِرُونَ﴾^(١٨) حِينَئِذٍ، أَي: لَا يُبْصِرُونَ^(١٩). ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ﴾ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ، أَوْ حِجَارَةً ﴿عَلَى مَكَانَتِهِمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مَكَانَتِهِمْ﴾ جَمْعُ «مَكَانَةٍ» بِمَعْنَى: مَكَانٍ، أَي: فِي مَنَازِلِهِمْ^(٢٠) ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾^(٢١) أَي: لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَهَابٍ وَلَا مَجِيءٍ. ﴿وَمَنْ تَعْمِرُهُ﴾ بِإِطَالَةِ أَجَلِهِ ﴿نَنكِسُهُ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿نُنَكِّسُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ مِنَ

(١) الْجِبَلُ: الْأُمَّةُ الْعَظِيمَةُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: أَقْلَهَا عَشْرَةُ آلَافٍ وَلَا نِهَايَةَ لِأَكْثَرِهَا. [ابن جُزَيٍّ (٢/ ١٨٥)].

(٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَضَحَكْتُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «مِنْ مُجَادَلَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: لَا أُجِزُ عَلَيْكَ إِلَّا شَاهِدًا مِنْ نَفْسِي. فَيَقُولُ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِبًا، وَبِالْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. فَيَخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ بِعَمَلِهِ، ثُمَّ يُخَلِّي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، فَيَقُولُ: بَعْدًا لَكُنَّ وَشُحْقًا، فَنَعْنُ كُنْتُ أَنَا ضِلُّ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٩٦٩).

(٣) قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: أَرَادَ الْأَعْيُنَ حَقِيقَةً، وَالْمَعْنَى: لِأَعْمِيَانِهِمْ فَلَا يَرَوْنَ كَيْفَ يَمْشُونَ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا مِجَاسَةُ الْمَسْخِ الْحَقِيقِيِّ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَرَادَ أَعْيُنَ الْبَصَائِرِ، وَالْمَعْنَى: وَلَوْ شِئْنَا لَخْتَمْنَا عَلَيْهِمْ بِالْكَفْرِ فَلَمْ يَهْتَدِ مِنْهُمْ أَحَدٌ. وَ«الطَّمَسُ» إِذْهَابُ الْأَثَارِ مِنَ الْمَشْيِ وَالْهَيْئَاتِ حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ، أَي: جَعَلْنَا جُلُودَ وَجُوهَهُمْ مُتَّصِلَةً حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ تَكُنْ فِيهَا عَيْنٌ قَطُّ. [ابن عطية (٤/ ٤٦١)].

(٤) الْمَعْنَى لِأَعْمِيَانِهِمْ فَلَا يَبْصِرُونَ طَرِيقًا إِلَى تَصَرُّفِهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَلَا غَيْرِهَا. وَهَذَا اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ... وَقَدْ رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ، وَتَأْوِيلُهَا عَلَى أَنَّهَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَمَدَّ الصِّرَاطَ، نَادَى مُنَادٌ لِيَقُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُومُونَ بِهِمْ وَفَاجِرُهُمْ يَتَبَعُونَهُ لِيَجُوزُوا الصِّرَاطَ، فَإِذَا صَارُوا عَلَيْهِ طَمَسَ اللَّهُ أَعْيُنَ فَجَارِهِمْ، فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَمَنْ أَيْنَ يَبْصِرُونَهُ حَتَّى يَجَاوِزُوهُ. [القرطبي (١٥/ ٤٩)].

(٥) الْمَسْخُ تَبْدِيلُ الْخَلْقَةِ، أَي: تَغْيِيرُ الصُّورَةِ وَإِبْطَالُ الْقُوَى إِلَى حَجَرٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْجِمَادِ أَوْ بَهِيمَةٍ. وَالْمَكَانَةُ الْمَكَانُ أَي: لَوْ شِئْنَا لَبَدَّلْنَا خَلْقَهُمْ عَلَى الْمَكَانِ الَّذِي هُمْ فِيهِ، قِيلَ: وَالْمَكَانَةُ أَخْصُ مِنَ الْمَكَانِ كَالْمَقَامَةِ وَالْمَقَامُ، قَالَ الْحَسَنُ: أَي: لِأَقْعَدْنَاهُمْ، وَقِيلَ: لِمَسْخَانِهِمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي فَعَلُوا فِيهِ الْمَعْصِيَةَ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى لَوْ نَشَاءُ لِأَهْلَكْنَاهُمْ فِي مَسَاكِنِهِمْ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ سَلَامٍ: هَذَا كُلُّهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. [صديق حسن (١١/ ٣١٥)].

«التَّنْكِيسِ» ﴿فِي الْخَلْقِ﴾ أَي: خَلَقَهُ، فَيَكُونُ بَعْدَ قُوَّتِهِ وَشَبَابِهِ ضَعِيفًا وَهَرِمًا^(١) ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ «أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْلُومِ عِنْدَهُمْ قَادِرٌ عَلَى الْبَعْثِ، فَيُؤْمِنُوا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أَي: النَّبِيَّ ﴿الشَّعْرَ﴾ رَدُّ لِقَوْلِهِمْ: «إِنَّ مَا آتَى بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ شِعْرٌ» ﴿وَمَا يَنْبَغِي﴾ يَسْهَلُ ﴿لَهُ﴾ الشَّعْرُ^(٢) «إِنْ هُوَ» لَيْسَ الَّذِي آتَى بِهِ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ مُظْهِرٌ لِلْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا. ﴿لِيُنْذِرَ﴾ بِالْبَاءِ وَالتَّاءِ بِهِ ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ يَعْقِلُ مَا يُخَاطَبُ بِهِ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَيَحِقُّ الْقَوْلُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٠﴾ وَهُمْ كَالْمَيِّتِينَ لَا يَعْقِلُونَ مَا يُخَاطَبُونَ بِهِ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا، وَالْأَسْتَفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَالْوَاوُ لِلْعَطْفِ ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ عَمَلْنَاهُ بِلَا شَرِيكَ وَلَا مُعِينٍ ﴿أَنْعَمًا﴾ هِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ضَابِطُونَ^(٣). ﴿وَدَلَّلْنَاهَا﴾ سَخَّرْنَاهَا

(١) أي: بتناقض قواه وضعف بنيته حتى يرجع في حال شبيهة بحال الصبي في ضعف جسده وقلة عقله وخلوه من العلم، كما قال عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥] «ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: من قدر على ذلك، قدر على الشمس والمسخ، وأن يفعل ما يشاء. [القاسمي (١٩٣/٨)].

(٢) رد وإبطال لما كانوا يقولونه في حقه ﷺ من أنه شاعر، وما يقوله شعر، أي: ما علمناه الشعر بتعليم القرآن على معنى أن القرآن ليس بشعر، فإن الشعر كلام متكلف موضوع، ومقال مزخرف مصنوع منسوج على منوال الوزن والقافية، مبني على خيالات وأوهام واهية، فأين ذلك من التنزيل الجليل الخطر، المنزه عن مماثلة كلام البشر، المشحون بفنون الحكم والأحكام الباهرة، الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومن أين اشتبه عليهم الشئون، واختلط بهم الظنون؟ ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَلَّا يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]. ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ وما يصح له الشعر، ولا يتأتى له لو طلبه، أي: جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأت له، كما جعلناه أميا لا يهتدي للخط. [أبو السعود (١٧٧/٧)].

(٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار والتعجب من حالهم، والواو للعطف على مقدر كما في نظائره، والرؤية هي القلبية، أي: أولم يعلموا بالتفكر والاعتبار ﴿أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: لأجلهم. انتفاعهم ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ أي: مما أبدعناه وعملناه من غير واسطة ولا شركة ... وقوله: ﴿أَنْعَمًا﴾ مفعول خلقنا، وهي جمع نعم، وهي: البقر والغنم والإبل وإنما خصصها بالذكر وإن كانت الأشياء كلها من خلق الله وإيجاده؛ لأن النعم أكثر أموال العرب والنفع بها أعم. ثم ذكر سبحانه المنافع المترتبة على خلق الأنعام فقال: ﴿فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ﴾ أي: ضابطون قاهرون، يتصرفون بها كيف شاءوا، ولو خلقناها وحشية لنفرت عنهم ولم يقدرُوا على ضبطها، أو المراد أنها صارت في أملاكهم ومعدودة في جملة أموالهم المنسوبة إليهم نسبة الملك، وهذا أظهر. [صديق حسن (١١/٣٢٠)]. وليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق هذه الأنعام بيده، لو كان أراد ذلك سبحانه وتعالى ... لقال: مما عملنا بأيدينا كما قال تعالى في آدم يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص ٧٥]، فهذا أضاف الخلق إلى نفسه وجعل المخلوق به اليد. أما هنا فأضاف العمل إلى اليد ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيْدِينَا﴾ فهو كقوله تعالى: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى ٣٠] وما أشبهها مما يضاف فيه الفعل إلى اليد والمراد الإنسان. [ابن عثيمين تفسير يس (ص: ٢٥٨)].

﴿لَهُمْ فِيهَا رِكَوبُهُمْ﴾ مَرْكُوبُهُمْ ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ ٧٢ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كَأَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴿وَمَشَارِبٌ﴾ مِنْ لَبَنٍ جَمْعُ «مَشْرَبٍ» بِمَعْنَى: شُرْبٍ، أَوْ مَوْضِعِهِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ ٧٣ ﴿الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِهَا فَيُؤْمِنُوا، أَيْ: مَا فَعَلُوا ذَلِكَ.﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيْ: غَيْرِهِ أَصْنَامًا ﴿ءَالِهَةً﴾ يَعْبُدُونَهَا ﴿لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾ ٧٤ ﴿يُمنَعُونَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِشَفَاعَةِ آلِهَتِهِمْ بِزَعْمِهِمْ.﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿أَيْ: آلِهَتُهُمْ، نَزَّلُوا مَنَزِلَةَ الْعُقَلَاءِ﴾ ﴿نَصَرَهُمْ وَهُمْ﴾ أَيْ: آلِهَتُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿لَهُمْ جُنْدٌ﴾ بِزَعْمِهِمْ نَصَرَهُمْ ﴿مُخَضَّرُونَ﴾ ٧٥ ﴿فِي النَّارِ مَعَهُمْ.﴾ ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾ لَكَ: ﴿لَسْتُ مُرْسَلًا﴾ [الرعد: ٤٣]، وَغَيْرَ ذَلِكَ ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ ٧٦ ﴿مِنْ ذَلِكَ وَغَيْرِهِ فَتَجَازِيهِمْ عَلَيْهِ.﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَنُ﴾ يَعْلَمُ، وَهُوَ: الْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ ﴿أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ إِلَى أَنْ صَيَّرْنَاهُ شَدِيدًا قَوِيًّا ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ﴾ شَدِيدُ الْخُصُومَةِ لَنَا ﴿مُبِينٌ﴾ ٧٧ ﴿بَيْنَهَا فِي نَفْيِ الْبَعْثِ.﴾ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾ مِنْ الْمَنِيِّ، وَهُوَ أَغْرَبُ مِنْ مَثَلِهِ ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ ٧٨ ﴿أَيْ: بِآلِيَةٍ، وَلَمْ يَقُلْ رَمِيمَةً بِالنَّاءِ لِأَنَّهُ اسْمٌ لَا صِفَةٌ، رُوي أَنَّهُ أَخَذَ عَظْمًا رَمِيمًا فَفَتَّهْهُ، وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَتَرَى يُحْيِي اللَّهُ هَذَا بَعْدَ مَا بَلِيَ وَرَمَ؟ فَقَالَ ﷺ: نَعَمْ وَيُدْخِلُكَ النَّارَ﴾ ٧٩ ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ أَيْ: مَخْلُوقٍ ﴿عَلِيمٌ﴾ ٨٠ ﴿مُجْمَلًا وَمُقَصَّلًا قَبْلَ خَلْقِهِ وَبَعْدَ خَلْقِهِ.﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ﴾ فِي جُمْلَةِ النَّاسِ ﴿مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾ الْأَمْرُخَ وَالْعَفَارِ أَوْ كُلِّ شَجَرٍ إِلَّا الْعُنَابَ ٨١ ﴿نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ ٨٢ ﴿تَقْدَحُونَ، وَهَذَا دَالٌّ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ، فَإِنَّهُ جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ وَالْخَشَبِ فَلَا الْمَاءُ يُطْفِئُ النَّارَ وَلَا النَّارُ تُحْرِقُ الْخَشَبَ.﴾ ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مَعَ عِظَمِهِمَا ﴿بِقَدْرِ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَيْ: الْإِنْسَانِي فِي الصَّغَرِ؟ ﴿بَلَى﴾ أَيْ: هُوَ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، أَجَابَ نَفْسَهُ ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الْكَثِيرُ الْخَلْقِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ٨٣ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ.﴾ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ﴾ شَأْنُهُ ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ أَيْ: خَلَقَ شَيْئًا ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٨٤ ﴿أَيْ: فَهُوَ يَكُونُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنَّصْبِ عَطْفًا عَلَى يَقُولٍ﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ﴾ مُلْكُ، زِيدَتْ الْوَاوُ وَالنَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: الْقُدْرَةُ عَلَى ﴿كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٨٥ ﴿تُرَدُّونَ فِي الْآخِرَةِ.﴾

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٣١ / ٢٢).

(٢) وذلك أن الشجر المعروف بالمرخ والشجر المعروف بالعفرار إذا قطع منهما عودان وضرب أحدهما على الآخر انقدحت منهما النار وهما أخضران. [الشوكاني (٤ / ٤٤٠)].

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مَكِّيَّةٌ، مِائَةٌ وَاثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝۱﴾ الْمَلَائِكَةُ تَصَفُّ نُفُوسَهَا فِي الْعِبَادَةِ ۝۱ أَوْ أَجْنَحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ تَنْتَظِرُ مَا تُؤْمَرُ بِهِ ۝۲ ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝۳﴾ الْمَلَائِكَةُ تَزْجُرُ السَّحَابَ، أَيُ: تَسُوِّقُهُ. ﴿فَالْتَلِيَّتِ جَمَاعَةً قُرْءِ الْقُرْآنِ تَتْلُوهُ ۝۴﴾ ذِكْرًا ۝۵ ﴿مَصْدَرٌ مِنْ مَعْنَى التَّلَايَاتِ ۝۶﴾. ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿لَوَاحِدٌ ۝۷﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ۝۸ ﴿أَيُ: وَالْمَغَارِبِ لِلشَّمْسِ، وَلَهَا كُلُّ يَوْمٍ مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ ۝۹﴾. ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ۝۱۰﴾ أَيُ:

(١) قال رسول الله ﷺ: «أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قُلْنَا: وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْمُقَدَّمَةَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (٤٣٠).

(٢) افتتح تعالى هذه السورة بالقسم ببعض مخلوقاته، إظهار العظم شأنها وكبر فوائدها، وتنبئها إلى الاعتبار بصفاتها وما تستدعيه من سمتها. ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾ جمع صافّة، أي: طائفة صافّة، أو جماعة صافّة. فيكون في المعنى جمع الجمع، أو على تأنيث مفردة، باعتبار أنه ذات ونفس. والمراد بالصفات الملائكة؛ لقيامها مصطفة في مقام العبودية لمالك الملك. من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصفات: ١٦٥] أو لصفها أجنحتها في الهواء واقفة منتظرة لأمر الله تعالى. [القاسمي (٨/ ٢٠٠)].

(٣) أي: الملائكة التي تتلو القرآن كما قال ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير والسدي، وقيل: المراد جبريل وحده فذكر بلفظ الجمع تعظيمًا له مع أنه لا يخلو من أتباع له من الملائكة، وقال قتادة: المراد كل من تلا ذكر الله وكتبه، وقيل: المراد آيات القرآن ووصفها بالتلاوة وإن كانت متلوة، كما في قوله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]. وقيل: لأن بعضها يتلو بعضها ويتبعه. وذكر الماوردي: أن التلايات هم الأنبياء يتلون الذكر على أممهم؛ وانتصاب ذكرًا على أنه مفعول به، ويجوز أن يكون مصدرًا كما قبله، قيل: وهذه الفاء في قوله: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾، ﴿فَالْتَلِيَّتِ﴾ إما لترتيب الصفات أنفسها في الوجود، أو لترتيب موصوفاتها في الفضل؛ وفي الكل نظر. [الشوكاني (٤/ ٤٤٣)].

(٤) جمع المشارق باعتبار اختلاف مطلع الشمس في أيام نصف سنة دورتها وهي السنة الشمسية وهي مائة وثمانون شرقًا باعتبار أطول نهار في السنة الشمسية وأقصره مكررة مرتين في السنة، ابتداء من الرجوع الشتوي إلى الرجوع الخريفي، وهي مطالع متقاربة ليست متحدة، فإن المشرق اسم لمكان شروق الشمس وهو ظهورها فإذا راعوا الجهة دون الفصل قالوا: ﴿الْمَشْرِقِ﴾ بالإنفراد، وإذا روعي الفصلان الشتاء والصيف قيل: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ﴾، على أن جمع ﴿الْمَشْرِقِ﴾ قد يكون بمراعاة اختلاف المطالع في مبادئ الفصول الأربعة. والآية صالحة للاعتبارين ليعتبر كل فريق من الناس بها على حسب مبالغ علمهم. [ابن عاشور (٢٣/ ٨٦)].

بِضَوِّهَا أَوْ بِهَا، وَالْإِضَافَةُ لِلْيَبَانِ، كَقِرَاءَةِ: تَنْوِينِ ﴿زَيْنَةَ﴾ الْمَيِّتَةِ بِـ ﴿الْكَوَاكِبِ﴾. ﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ،
 أَيُّ: حِفْظُهَا بِالشُّهْبِ ﴿مِنْ كُلِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِالْمُقَدَّرِ ﴿شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ٧﴾ عَاتٍ خَارِجٍ عَنِ الطَّاعَةِ. ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾
 أَيُّ: الشَّيَاطِينُ، مُسْتَأْنَفٌ وَسَمَاعُهُمْ هُوَ فِي الْمَعْنَى الْمَحْفُوظِ عَنْهُ ﴿إِلَى الْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى﴾ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاءِ، وَعُدِّي
 السَّمَاعُ بِـ ﴿إِلَى﴾ لِتَضَمُّنِهِ مَعْنَى الْإِصْغَاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ وَالسَّيْنِ أَصْلُهُ «يَسْمَعُونَ» أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي السَّيْنِ
 ﴿وَيُقَذَّفُونَ﴾ أَيُّ: الشَّيَاطِينُ بِالشُّهْبِ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ٨﴾ مِنْ آفَاقِ السَّمَاءِ. ﴿دُحُورًا﴾ مَصْدَرٌ «دَحَرَهُ»، أَيُّ:
 طَرَدَهُ وَابْعَدَهُ، وَهُوَ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ ٩﴾ دَائِمٌ. ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ مَصْدَرٌ،
 أَيُّ: الْمَرَّةَ، وَالِاسْتِثْنَاءُ مِنْ ضَمِيرِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ: لَا يَسْمَعُ إِلَّا الشَّيْطَانُ، الَّذِي سَمِعَ الْكَلِمَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَأَخَذَهَا
 بِسُرْعَةٍ ﴿فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ﴾ كَوَكَبٌ مُضِيءٌ ﴿ثَاقِبٌ ١٠﴾ يَثْقُبُهُ أَوْ يُحْرِقُهُ أَوْ يَخْبِلُهُ. ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ اسْتَخْبَرَ كُفَّارَ مَكَّةَ
 تَقْرِيرًا أَوْ تَوْبِيخًا ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا فِيهِمَا، وَفِي الْإِتْيَانِ بِـ
 ﴿مَنْ﴾ تَغْلِيْبُ الْعُقَلَاءِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ﴾ أَيُّ: أَصْلَهُمْ آدَمَ ﴿مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ ١١﴾ لَازِمٌ يُلْصَقُ بِالْيَدِ، الْمَعْنَى: أَنَّ
 خَلْقَهُمْ ضَعِيفٌ، فَلَا يَتَكَبَّرُوا بِانْكَارِ النَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ الْمُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِهِمُ الْيَسِيرِ. ﴿بَلْ﴾ لِلِانْتِقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرَ،
 وَهُوَ الْإِخْبَارُ بِحَالِهِ وَحَالِهِمْ ﴿عَجِبْتَ﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيُّ: مَنْ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاكَ ﴿وَهُمْ﴾ يَسْخَرُونَ
 ﴿١٢﴾ مِنْ تَعَجُّبِكَ. ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ وَعُظُوا بِالْقُرْآنِ ﴿لَا يَذْكُرُونَ ١٣﴾ لَا يَتَعَذَّلُونَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ كَانَشِقَاقِ الْقَمَرِ
 ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ١٤﴾ يُسْتَهْزَءُونَ بِهَا. ﴿وَقَالُوا﴾ فِيهَا: ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ١٥﴾ بَيِّنٌ. وَقَالُوا مُنْكَرِينَ
 لِلْبُعْثِ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَيْنَا لَمَبْعُوثُونَ ١٦﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيقُ، وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ
 وَإِدْخَالُ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ. ﴿أَوَءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ١٧﴾ بِسُكُونِ الْوَاوِ عَطْفًا بِـ «أَوْ»، وَبِفَتْحِهَا وَالْهَمْزَةُ
 لِلِاسْتِفْهَامِ وَالْعَطْفُ بِـ «الْوَاوِ» وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ مَحَلٌّ «إِنَّ» وَاسْمُهَا، أَوِ الضَّمِيرُ فِي ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وَالْفَاصِلُ هَمْزَةٌ
 الْإِسْتِفْهَامِ. ﴿قُلْ نَعَمْ﴾ تُبْعَثُونَ ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ١٨﴾ صَاغِرُونَ. ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ ضَمِيرٌ مُبْهَمٌ يُفَسِّرُهُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ أَيُّ:
 صَيْحَةٌ ﴿وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ﴾ أَيُّ: الْخَلَائِقُ أَحْيَاءٌ ﴿يَنْظُرُونَ ١٩﴾ مَا يُفَعَّلُ بِهِمْ. ﴿وَقَالُوا﴾ أَيُّ: الْكُفَّارُ ﴿يَبْ﴾ لِلتَّيْسِ
 ﴿وَيْلَنَا﴾ هَلَاكُنَا، وَهُوَ مَصْدَرٌ لَا فِعْلَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ وَتَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ٢٠﴾ يَوْمُ الْحِسَابِ
 وَالْجَزَاءِ. ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ٢١﴾. وَيُقَالُ لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿* أَحْشَرُوا الَّذِينَ
 ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْشَّرِّ ﴿وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ قُرَنَاءَهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَيُّ: غَيْرِهِ
 مِنَ الْأَوْثَانِ ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾ دُلُّوهُمْ وَسُوقُوهُمْ ﴿إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ٢٣﴾ طَرِيقِ النَّارِ. ﴿وَقَفُّوهُمْ﴾ احْبِسُوهُمْ عِنْدَ

الْصِّرَاطِ ﴿١٢٦﴾ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿١٢٧﴾ عَنْ جَمِيعِ أَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ. وَيُقَالُ لَهُمْ تَوَيْخًا: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ لَا يَنْصُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَحَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا. وَيُقَالُ عَنْهُمْ: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ ﴿١٢٩﴾ مُنْقَادُونَ أَذِلَّاءُ. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ يَتَلَاوُمُونَ وَيَتَخَاصِمُونَ. ﴿قَالُوا﴾ أَيِ: الْآتِبَاعُ مِنْهُمْ لِلْمَتَّبِعِينَ ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ ﴿١٣١﴾ عَنِ الْجِهَةِ الَّتِي كُنَّا نَأْمَنُكُمْ مِنْهَا لِحَلْفِكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى الْحَقِّ^(١) فَصَدَّقْنَاكُمْ وَاتَّبَعْنَاكُمْ، الْمَعْنَى: أَنَّكُمْ أَضَلَلْتُمُونَا. ﴿قَالُوا﴾ أَيِ: الْمُتَّبِعُونَ لَهُمْ ﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّمَا يَصْدُقُ الْإِضْلَالُ مِنَّا أَنْ لَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَرَجَعْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَيْنَا. ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ تَقْهَرُكُمْ عَلَى مُتَابَعَتِنَا ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ ضَالِّينَ مِثْلَنَا. ﴿فَحَقَّ﴾ وَجَبَ ﴿عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا﴾ بِالْعَذَابِ، أَيِ: قَوْلُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] ﴿إِنَّا﴾ جَمِيعًا ﴿لَذَائِقُونَ﴾ ﴿١٣٤﴾ الْعَذَابَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ، وَنَشَأَ عَنْهُ قَوْلُهُمْ: ﴿فَاغْوَيْنَاكُمْ﴾ الْمُعَلَّلَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا كُنَّا غَوِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿١٣٦﴾ أَيِ: لَا شَرَّاحِيهِمْ فِي الْغَوَايَةِ. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ كَمَا نَفْعَلُ بِهِؤُلَاءِ ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ غَيْرِ هَؤُلَاءِ، أَيِ: نُعَذِّبُهُمُ الْآتِبَاعُ مِنْهُمْ وَالْمَتَّبِعُونَ. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيِ: هَؤُلَاءِ، بِقَرِينَةٍ مَا بَعْدَهُ ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٣٨﴾ وَيَقُولُونَ أَتِنَا فِي هَمْزِيَّتِهِ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ ﴿١٣٩﴾ أَيِ: لِأَجْلِ مُحَمَّدٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٤٠﴾ الْجَائِينَ بِهِ، وَهُوَ: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢). ﴿إِنَّكُمْ﴾ فِيهِ الْإِنْفَاتُ ﴿لَذَائِقُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿١٤١﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا جَزَاءً ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٤٢﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٤٣﴾ أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ اسْتِثْنَاءً مُنْقَطِعٌ. أَيِ: ذَكَرَ جَزَائِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ ﴿١٤٤﴾ بُكْرَةً وَعَشِيًّا. ﴿فَوَاكِهُ﴾ بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِلرِّزْقِ وَهُوَ مَا يُؤْكَلُ تِلْكَذَا، لَا لِحِفْظِ صِحَّةٍ؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ مُسْتَغْنَوْنَ عَنْ حِفْظِهَا بِخَلْقِ أَجْسَامِهِمْ لِلْأَبَدِ ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿١٤٥﴾ بِثَوَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ﴿١٤٦﴾ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿١٤٧﴾ لَا يَرَى بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ^(٣). ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ ﴿بِكَاوِسٍ﴾ هُوَ الْإِنَاءُ بِشَرَابِهِ ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ ﴿١٤٨﴾ مِنْ خَمْرِ يَجْرِي عَلَى

(١) وهذا كقول الله تعالى عن الشيطان: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٦٥)].

(٢) الذين جاؤوا قبله: لأنه جاء بمثل ما جاؤوا به، ويحتمل أن يكون صدقهم لأنهم أخبروا بنبوته، فظهر صدقهم لما بعث ﷺ. [ابن جزي]

[١٩١/٢].

(٣) ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم قد صفت قلوبهم، ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتادب بعضهم مع بعض فلم يستدبره، أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب، ما دل عليه ذلك التقابل. [السعدي ص: ٧٠٢].

وَجْهِ الْأَرْضِ كَأَنَّهُارِ الْمَاءِ. ﴿بَيْضَاءَ﴾ أَشَدَّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ ﴿لَذَّةٌ لِّلَّذِينَ﴾ ﴿لِّلشَّرِيبِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَةٌ عِنْدَ الشَّرْبِ. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ مَا يَغْتَالُ عُقُولَهُمْ ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ بَفَتْحِ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، مِنْ نَزَفَ الشَّارِبُ وَأَنْزَفَ، أَيُّ: يَسْكُرُونَ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصِرَتِ الْأُفُوفُ﴾ حَابِسَاتُ الْأَعْيُنِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، لَا يَنْظُرْنَ إِلَى غَيْرِهِمْ لِحُسْنِهِمْ عِنْدَهُنَّ ﴿عَيْنٌ﴾ ﴿٤٨﴾ ضَخَامُ الْأَعْيُنِ حَسَانُهَا. ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ فِي اللَّوْنِ ﴿بَيْضٌ﴾ لِلنَّعَامِ ﴿مَكُونٌ﴾ ﴿٤٩﴾ مَسْتُورٌ بِرِيشِهِ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ غُبَارٌ، وَلَوْنُهُ وَهُوَ الْبَيَاضُ فِي صُفْرَةٍ، أَحْسَنُ أَلْوَانِ النِّسَاءِ. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ أَمْرُ الْجَنَّةِ﴾ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ عَمَّا مَرَّ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا. ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ﴿٥١﴾ صَاحِبٌ يُنْكِرُ الْبَعْثَ^(١). ﴿يَقُولُ﴾ لِّي تَبَكِّيًّا: ﴿أَإِنَّا لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَا﴾ فِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الثَّلَاثَةِ مَوَاضِعَ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَمَدِينُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ مَجْزِيُّونَ وَمُحَاسِبُونَ، أَنْكَرَ ذَلِكَ أَيْضًا. ﴿قَالَ﴾ ذَلِكَ الْقَائِلُ لِأَخَوَانِهِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطْلِعُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ مَعِيَ إِلَى النَّارِ لِنَنْظُرَ حَالَهُ؟ يَقُولُونَ: لَا. ﴿فَأُطْلِعَ﴾ ذَلِكَ الْقَائِلُ مِنْ بَعْضِ كَوَى الْجَنَّةِ ﴿فَرَّاهُ﴾ أَيُّ: رَأَى قَرِينَهُ ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٥٥﴾ فِي وَسْطِ النَّارِ. ﴿قَالَ﴾ لَهُ تَشْمِيَّتًا: ﴿تَاللَّهِ إِنِّي لَمُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ﴾ ﴿كِدْتَ﴾ قَارَبْتَ ﴿لِتَرْدِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ لَتَهْلِكُنِي بِأَغْوَاثِكَ. ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ أَيُّ: إِنْعَامُهُ عَلَيَّ بِالْإِيمَانِ ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ مَعَكَ فِي النَّارِ. وَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى ﴿الَّتِي فِي الدُّنْيَا﴾ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ هُوَ اسْتِفْهَامٌ تَلْذُذٍ وَتَحَدُّثٍ بِنِعْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَأْيِيدِ الْحَيَاةِ وَعَدَمِ التَّعْذِيبِ^(٢). ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الَّذِي ذَكَرْتُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ ﴿لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ قِيلَ: يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ، وَقِيلَ: هُمْ يَقُولُونَهُ^(٣). ﴿أَذَلِكِ﴾ الْمَذْكُورُ لَهُمْ ﴿خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ وَهُوَ مَا يُعَدُّ لِلنَّازِلِ مِنْ ضَيْفٍ وَغَيْرِهِ ﴿أَمْ

(١) ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ فِي الدُّنْيَا يَنْكُرُ الْبَعْثَ. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانَ شَيْطَانًا. وَقَالَ الْآخَرُونَ: كَانَ مِنَ الْإِنْسِ. وَقَالَ مُقَاتِلٌ: كَانَا أَخَوَيْنِ. وَقَالَ الْبَاقُونَ: كَانَا شَرِيكَيْنِ أَحَدُهُمَا كَافِرٌ اسْمُهُ قَطْرُوسٌ، وَالْآخَرُ مُؤْمِنٌ اسْمُهُ يَهُودَا، وَهُمَا اللَّذَانِ قَصَّ اللَّهُ تَعَالَى خَبْرَهُمَا فِي سُورَةِ الْكَهْفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَصْرَبُ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الْكَهْفُ: ٣٢]. [البغوي (٤١/٧)].

(٢) أَيُّ: يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُ، مُبْتَهَجًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ بِالْخُلُودِ الدَّائِمِ فِيهَا وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْعَذَابِ؛ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى الْإِثْبَاتِ وَالتَّقْرِيرِ، أَيُّ: يَقُولُ لِقَرِينِهِ الْمُعَذَّبِ: أَفْتَرَعَمُ أَنَا لِسْنَا نَمُوتُ سِوَى الْمَوْتِ الْأُولَى، وَلَا بَعْثَ بَعْدَهَا وَلَا عَذَابَ. [السَّعْدِيُّ (ص: ٧٠٣)].

(٣) ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْمُؤْمِنِ، أَوْ مِنْ كَلَامِهِ وَكَلَامِ رَفِيقَتِهِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَذَلِكَ يَحْتَمِلُ هَذِهِ الْوُجُوهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ الَّذِي بَعْدَهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فَيَكُونُ مُتَصِلًا بِهِ، وَلِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْعَمَلِ إِنَّمَا هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الدُّنْيَا فَفِيهِ تَحْضِيضٌ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ. [ابن جُرَيْجٍ (١٩٢/٢)].

شَجَرَةُ الزُّقُومِ ﴿٦٢﴾ الْمُعَدَّةُ لِأَهْلِ النَّارِ^(١)، وَهِيَ مِنْ أَحَبِّ الشَّجَرِ الْمُرِّ بِتُهَامَةٍ^(٢)، يُنْبِتُهَا اللَّهُ فِي الْجَحِيمِ كَمَا سَيَأْتِي. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ بِذَلِكَ ﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ أَي: الْكَافِرِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، إِذْ قَالُوا: «النَّارُ تُحْرِقُ الشَّجَرَ، فَكَيْفَ تُنْبِتُهُ؟» ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٤﴾ أَي: قَعْرِ جَهَنَّمَ وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَى دَرَكَاتِهَا. ﴿طَلْعُهَا﴾ الْمُسَبَّهَةُ بِطَلْعِ النَّخْلِ ﴿كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ﴿٦٥﴾ الْحَيَاتِ الْقَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ^(٣). ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أَي: الْكَفَّارُ ﴿لَا يَكُونُونَ مِنْهَا﴾ مَعَ قُبْحِهَا لِشِدَّةِ جُوعِهِمْ ﴿فَمَا لَوْ مِنْهَا الْبُطُونُ﴾ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ أَي: مَاءٍ حَارٍّ يَشْرَبُونَهُ، فَيَخْتَلِطُ بِالْمَأْكُولِ مِنْهَا فَيَصِيرُ شَوْبًا لَهُ^(٤). ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾ يُفِيدُ أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا لِشُرْبِ الْحَمِيمِ وَأَنَّهُ خَارِجُهَا^(٥). ﴿إِنَّهُمْ أَفْوَءٌ﴾ وَجَدُوا ﴿ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَى عَائِثِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ يُزَعَجُونَ إِلَى

(١) قد يحتمل أن يكون المراد بذلك شجرة واحدة معينة، كما قال بعضهم من أنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم كما أن شجرة طوبى ما من دار في الجنة إلا وفيها منها غصن. وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر، يقال له: الزقوم، كقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةٍ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني الزيتون. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَهِهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٥١﴾ لَا يَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ [الواقعة: ٥١-٥٢]. [ابن كثير (١٨/٧)].

(٢) ﴿الزُّقُومُ﴾ أي: التي حاصلها الألم والغم... قال الواحدي: وهو شيء مر كربه يكره أهل النار على تناوله فهم يترقمونه فهي على هذا مشتقة من التزقم؛ وهو البلع على جهد لكرهتها وتنبتها؛ واختلف فيها: هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب؟ أم لا؟ على قولين أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهمامة من أحبث الشجر، وقال غيره: بل هو كل نبات قاتل، وقيل: شجرة مسمومة متى مست جسد أحد تورم فمات والإضافة من إضافة المسمى إلى الاسم. القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. [الشوكاني (٤/٤٥٦)].

(٣) الواجب علينا إجراء القرآن على ظاهره، وأن نقول: المراد بالشياطين، الشيطان المعروف، وإنما شُبِّهَتْ برؤوس الشياطين مع عدم رؤية الناس لها؛ لأن كل أحد يعرف أن ما يُنسب إلى الشيطان فهو قبيح منفر، لا يركن إليه أحد، فالتشبيه هنا تشبيه بما يُتخيل فكراً، لا بما يُعلم حساً، وعلى هذا فهو من أبلغ ما يكون من التشبيه القبيح. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ١٤٩)]. فشبه المحسوس بالتخيل؛ وإن كان غير مرئي للدلالة على أنه غاية في القبح كما يقولون في تشبيهه من يستقبحونه كأنه شيطان، وفي تشبيهه من يستحسنونه كأنه ملك كما في قوله تعالى: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. [صديق حسن (١١/٣٩٣)].

(٤) الشوب الخلط، قال الفراء: يقال شاب طعامه وشرابه إذا خلطهما بشيء يشوبها شوباً وشيابة، وقال ابن عباس: شوباً مزجاً، أي: يخالط طعامهم ويشاب بالحميم وهو الماء الحار، فأخبر الله سبحانه أنه يشاب لهم طعامهم من تلك الشجرة بالماء الحار ليكون أقطع لعذابهم وأشنع لحالهم، كما في قوله: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]. [صديق حسن (١١/٣٩٤)].

(٥) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرهم ﴿لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتهما أو إلى نفسها، فإن الزقوم والحميم نُزِلَ يقدم إليهم قبل دخولهم، وقيل:

﴿وَلَقَدْ صَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ ۖ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ.﴾ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ۖ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿مِنَ الرُّسُلِ مُخَوِّفِينَ.﴾ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ ۖ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿الْكَافِرِينَ، أَي: عَاقِبَتُهُمُ الْعَذَابُ.﴾
 ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ۖ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿أَي: الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنَ الْعَذَابِ لِإِخْلَاصِهِمْ فِي الْعِبَادَةِ، أَوْ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْلَصَهُمْ لَهَا عَلَى قِرَاءَةِ فَتَحِ اللَّامِ.﴾ ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوحًا﴾ بِقَوْلِهِ: رَبِّ ﴿أَتَى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر: ١٠] ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ۖ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿لَهُ نَحْنُ، أَي: دَعَانَا عَلَى قَوْمِهِ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالْغَرَقِ.﴾ ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۖ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿أَي: الْغَرَقِ.﴾
 ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۖ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ نَسْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ: سَامٌ وَهُوَ أَبُو الْعَرَبِ وَالْفُرسِ وَالرُّومِ، وَحَامٌ وَهُوَ أَبُو السُّودَانِ، وَيَافِثٌ وَهُوَ أَبُو التُّرْكِ وَالْخَزَرِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمَا هُنَالِكَ ۖ﴾ ﴿وَتَرَكْنَا﴾
 أَبْقَيْنَا ﴿عَلَيْهِ﴾ ثَنَاءً حَسَنًا ﴿فِي الْآخِرِينَ ۖ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأُمَمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.﴾ ﴿سَلَّمَ﴾ مِنَّا ﴿عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ۖ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْرَى الْمُحْسِنِينَ ۖ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۖ﴾ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾
 ﴿كُفَّارَ قَوْمِهِ.﴾ ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أَي: مِمَّنْ تَابَعَهُ فِي أَصْلِ الدِّينِ ﴿لِإِبْرَاهِيمَ ۖ﴾ ﴿وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بَيْنَهُمَا، وَهُوَ أَلْفَانِ وَسِتِّمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً، وَكَانَ بَيْنَهُمَا هُوْدٌ وَصَالِحٌ.﴾ ﴿إِذْ جَاءَ﴾ أَي: تَابَعَهُ وَقَتَ مَجِيئِهِ ﴿رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۖ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿مِنَ الشَّكِّ وَغَيْرِهِ.﴾ ﴿إِذْ قَالَ﴾ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الْمُسْتَمِرَّةِ لَهُ ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ مُوبِّخًا: ﴿مَا الَّذِي تَعْبُدُونَ ۖ﴾ ﴿٨٥﴾
 ﴿أَفِئْكَ﴾ فِي هَمَزَتَيْهِ مَا تَقَدَّمَ ﴿ءَالِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ۖ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿وَأَفِئْكَ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، وَ﴿ءَالِهَةً﴾ مَفْعُولٌ بِهِ لـ ﴿تُرِيدُونَ﴾،

الحميم خارج عنها لقوله تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۖ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۖ﴾ [الرحمن: ٤٣] - ٤٤ [يوردون إليه كما تورد الإبل إلى الماء ثم يردون إلى الجحيم]. [البيضاوي (١٢/٥)].

(١) أي: من غير أن يتدبروا أنهم على الحق أو لا، مع ظهور كونهم على الباطل بأدنى تأمل والإهرع الإسراع الشديد، وقال الفراء: الإسراع برعدة، وقال أبو عبيدة: يهرعون يستحثون من خلفهم، يقال: جاء فلان يهرع إلى النار إذا استحثه البرد إليها، وقال المفضل: يزعجون من شدة الإسراع، قال الزجاج: هرع وأهرع إذا استحث وأزعج، والمعنى يتبعون آباءهم في سرعة كأنهم يزعجون إلى اتباع آبائهم وذلك في الدنيا. [صديق حسن (٣٩٥/١١)]. أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب، ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. [السعدي (ص: ٧٠٤)].

(٢) وقيل: إنه كان لمن مع نوح ذرية كما يدل عليه قوله: ﴿ذُرِّيَّةً مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]، وقوله: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمُّهُمْ سَتُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هود: ٤٨]، فيكون على هذا معنى الآية: ذريته وذرية من معه دون ذرية من كفر، فإن الله أغرقهم فلم يبق لهم ذرية. [الشوكاني (٤٥٩/٤)].

وَالْإِفْكُ): أَسْوَأُ الْكَذِبِ، أَي: اتَّعَبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ؟ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٧) إِذْ عَبْدْتُمْ غَيْرَهُ أَنَّهُ يَتْرُكُكُمْ بِلاَ عِقَابٍ؟ لا، وَكَانُوا أَجْجَامِينَ فَخَرَجُوا إِلَى عِيدِ لَهُمْ وَتَرَكُوا طَعَامَهُمْ عِنْدَ أَصْنَامِهِمْ زَعَمُوا التَّبَرُّكَ عَلَيْهِ فَإِذَا رَجَعُوا أَكَلُوهُ، وَقَالُوا لِلَّيْسِيْدِ^(١) إِبْرَاهِيمَ أُخْرِجْ مَعَنَا. ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ (٨٨) إِيهَامًا لَهُمْ أَنَّهُ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا لِيَتَّبِعُوهُ^(٢). ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ (٨٩) عَلِيلٌ، أَي: سَأْسَقَمْتُ^(٣). ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ إِلَى عِيدِهِمْ ﴿مُذْبِرِينَ﴾ (٩٠) فَرَاغَ مَالٍ فِي خُفْيَةٍ إِلَى آلهَتِهِمْ ﴿هِيَ الْأَصْنَامُ وَعِنْدَهَا الطَّعَامُ﴾ ﴿فَقَالَ﴾ اسْتَهِزَاءً ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) فَلَمْ يَنْطِقُوا. فَقَالَ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٩٢) فَلَمْ يُجِبْ. ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ (٩٣) بِالْقُوَّةِ^(٤) فَكَسَّرَهَا، فَبَلَغَ قَوْمَهُ مِمَّنْ رَأَاهُ. ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِقُونَ﴾ (٩٤) أَي: يُسْرِعُونَ الْمَشْيَ، فَقَالُوا لَهُ: نَحْنُ نَعْبُدُهَا وَأَنْتَ تَكْسِرُهَا. ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مُوبِّخًا: ﴿اتَّعَبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (٩٥) مِنَ الْحِجَارَةِ وَغَيْرِهَا أَصْنَامًا. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٦) مِنْ نَحْتِكُمْ وَمَنْحُوتِكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ، وَ«مَا»: مُصْدَرِيَّةٌ، وَقِيلَ: مَوْصُولَةٌ، وَقِيلَ: مَوْصُوفَةٌ^(٥). ﴿قَالُوا﴾ بَيْنَهُمْ: ﴿أَبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا﴾ فَاْمْلَأُوهُ حَطَبًا وَأَضْرِبُوا بِهِ النَّارَ فَإِذَا

(١) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٢) قال الخليل والمبرد: تقول العرب لكل من نظر في أمره وتدبر ماذا يفعل قد نظر في النجوم، هذا قول، والقول الثاني: أنه كان نجم يطلع في ذلك الزمان، وكان كل من نظر إليه يزعمون أنه يصيبه الطاعون، ويقال: إنه كان زحل؛ فقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أَي: نظر إلى النجم: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَي: أصابني الطاعون على ما تزعمون، وكانوا يفرون من المطعون فرارا عظيما، يزعمون أنه يعدي، ذكره السدي. والقول الثالث: أن معنى قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أَي: فيما نجم له من الأمر، أَي: ظهر. والقول الرابع: أن قوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أَي: ينظر في النجوم على ما ينظر فيه أهل النجوم، وكأيدهم بذلك عن دينه، وكانوا أهل نجوم، يزعمون أن الأحكام تصدر منها، والحوادث تكون عنها؛ فنظر في النجوم، وقال هذه المقالة ليركوه، ويتوصل بذلك إلى كيد أصنامهم. [السمعاني (٤/ ٤٠٤)].

(٣) ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ أَي: ضعيف. فأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، غَيْرَ ثَلَاثِ كَذَبَاتٍ: ثَبَّتَنِي فِي ذَاتِ اللَّهِ، قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَقَوْلُهُ فِي سَارَةِ: هِيَ أُخْتِي». أخرجه البخاري (٥٠٨٤)، ومسلم (٢٣٧١). فهو ليس من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله، حاشا وكلا وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا، وإنما هو من المعارض في الكلام لمقصد شرعي ديني، كما جاء في الحديث: «إِنَّ فِي الْمَعَارِضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ». أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٩٩). [ابن كثير (٧/ ٢٥)].

(٤) قال الواحدي: قال المفسرون يعني بيده اليمنى يضربهم بها، وقال الضحاك والربيع ابن أنس: المراد باليمين اليمين التي حلفها حين قال: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٧]. [صديق حسن (١١/ ٤٠٢)].

(٥) ذهب قوم إلى أن «ما» مصدرية والمعنى: الله خلقكم وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وقيل: إنها موصولة

إِلْتَهَبَ ﴿فَالْقُوَّةُ فِي الْحَجِيمِ﴾ ٩٧ ﴿النَّارِ الشَّدِيدَةِ﴾ ﴿فَارَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ بِالْقَائِهِ فِي النَّارِ لِتُهْلِكَهُ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ ٩٨ ﴿الْمَقْهُورِينَ فَخَرَجَ مِنَ النَّارِ سَالِمًا﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ مُهَاجِرٌ إِلَيْهِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ٩٩ ﴿إِلَى حَيْثُ أَمَرَنِي رَبِّي بِالْمَصِيرِ إِلَيْهِ وَهُوَ الشَّامُ﴾ فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ، قَالَ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ وَلَدًا ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١٠٠ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ١٠١ ﴿أَيُّ: ذِي حِلْمٍ كَثِيرٍ﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أَيُّ: أَنْ يَسْعَى مَعَهُ وَيُعِينَهُ، قِيلَ: بَلَغَ سَبْعَ سِنِينَ، وَقِيلَ: ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ﴿قَالَ يَبْنِيَّ إِنِّي أَرَى﴾ أَيُّ: رَأَيْتُ ﴿فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُ﴾ وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ حَقٌّ، وَأَفْعَالُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ مِنَ الرَّأْيِ، شَاوَرَهُ لِيَأْتَسَّ بِالذَّبْحِ وَيَتَقَادَ لِلْأَمْرِ بِهِ ١٠٢ ﴿قَالَ يَنَابِتُ﴾ التَّاءُ عَوْضٌ عَنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ بِهِ ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ ١٠٣ ﴿عَلَى ذَلِكَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ خَضَعَا وَانْقَادَا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ ١٠٤ صَرَعه عَلَيْهِ، وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ جَبِينَانِ بَيْنَهُمَا الْجَبْهُةُ، وَكَانَ ذَلِكَ بِمَنَى، وَأَمَرَ السَّكَّانَ عَلَى حَلْقِهِ فَلَمْ تَعْمَلْ شَيْئًا بِمَنْعٍ مِنَ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ. ﴿وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَبَارِكْهُمْ﴾ ١٠٥ قَدْ صَدَقْتَ الرَّعْيَا بِمَا أَتَيْتَ بِهِ مِمَّا أَمَكَّنَكَ مِنْ أَمْرِ الذَّبْحِ، أَيُّ: يَكْفِيكَ ذَلِكَ، فَجُمَلَةُ نَادَيْنَاهُ جَوَابٌ لـ «مَا» بِزِيَادَةِ الْوَاوِ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاكَ ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ١٠٦ ﴿لَا نَفْسِهِمْ بِامْتِثَالِ الْأَمْرِ بِإِفْرَاجِ الشَّدَةِ عَنْهُمْ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذَّبْحُ الْمَأْمُورَ بِهِ ﴿لَهُوَ الْبَلَتُ الْمُبِينُ﴾ ١٠٧ أَيُّ: الْإِخْتِبَارُ الظَّاهِرُ. ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾ أَيُّ: الْمَأْمُورَ بِذَبْحِهِ وَهُوَ إِسْمَاعِيلُ أَوْ

بمعنى «الذي»، والمعنى: الله خلقكم وخلق أصنامكم التي تعملونها، وهذا ألقى بسياق الكلام، وأقوى في قصد الاحتجاج على الذين عبدوا الأصنام، وقيل: إنها نافية، وقيل: إنها استفهامية، وكلاهما باطل. [ابن جزي (٢/ ١٩٥)]. [و] أعمال العباد مخلوقة لله؛ لقوله: ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ سواء جعلنا «ما» مصدرية أو موصولة، إن جعلناها مصدرية فالأمر واضح، خلقكم وخلق عملكم، وإن جعلناها موصولة فلأن خلق المعمول فرع عن خلق العمل، فإذا كان معمولك الذي باشرت أنت عمله مخلوقا لله فكيف بعملك الذي كان من عند الله. وفي هذه الآية رد على القدرية الذين أنكروا أن يكون لله سبحانه وتعالى شأن في أعمال بني آدم، وقالوا: إن الإنسان مستقل بعمله ليس فيه إرادة ولا خلق. وفي الآية أيضا رد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله؛ لقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ حيث أضاف العمل إليهم، وإضافة العمل إلى الإنسان تقتضي أنه هو العامل وهو الفاعل حقيقة وهو كذلك، فالإنسان في الواقع هو الذي يعمل ويفعل ويريد ويختار، فالآية تؤيد مذهب أهل السنة والجماعة الذين قالوا: إن الإنسان له قدرة واختيار، وإيجاد لعمله، ولكن الذي خلقه وخلق هذه القدرة والإرادة هو الله، ففعله يضاف إلى الله خلقا وتقديرًا، ويضاف إليه إيجادا ومباشرة، فهو مضاف للعبد باعتبار، ومضاف إلى الله باعتبار آخر. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٢١٦)].

(١) إن قيل: لم شاورة في أمر هو حتم من الله؟ فالجواب: أنه لم يشاورة ليرجع إلى رأيه، ولكن ليعلم ما عنده فثبت قلبه ويوطن نفسه على الصبر. [ابن جزي (٢/ ١٩٦)].

إِسْحَاقَ قَوْلَانِ^(١) ﴿بَذِجْ﴾ بِكَبْشٍ ﴿عَظِيمٍ﴾^(١٧) مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ الَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيلُ جَاءَ بِهِ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَذَبَحَهُ السَّيِّدُ^(٢) إِبْرَاهِيمُ مُكَبَّرًا^(٣). ﴿وَتَرَكْنَا﴾ أَبَقَيْنَا ﴿عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾^(١٨) ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَّمَ﴾ مِنَّا ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(١٩) كَذَلِكَ ﴿كَمَا جَزَيْنَاهُ﴾ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿لِأَنفُسِهِمْ﴾. ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٠) وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ أُسْتَدِلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الذَّبِيحَ غَيْرُهُ ﴿نَبِيًّا﴾ حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ، أَيُّ: يُوجَدُ مُقَدَّرًا نُبُوَّتُهُ ﴿مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٢١) وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ بِتَكثِيرِ ذُرِّيَّتِهِ ﴿وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ وَلَدِهِ بِجَعْلِنَا أَكْثَرَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَسْلِهِ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ مُؤْمِنٌ ﴿وَطَائِلٌ لِّنَفْسِهِ﴾ كَافِرٌ ﴿مُبِينٌ﴾^(٢٢) بَيْنَ الْكُفْرِ^(٢٣). ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾^(٢٤) بِالنُّبُوَّةِ. ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) القول الراجح أن الذبيح إسماعيل لعدة أوجه منها: ما سيأتي في كلام المؤلف في قوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، حيث قال المؤلف: «استدل بذلك على أن الذبيح غيره». ومنها: أن الله تعالى قال في إسحاق: بشرناه ﴿بِعِلْمٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]، وفي الذبيح قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِعِلْمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠١] وهذا غير هذا؛ لأن الذي وصف بالحلم هو الذي صبر على الذبح وتنفيذ أمر الله عز وجل. ومنها: أن الله وصف إسماعيل بأنه صادق الوعد ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وهذا الوصف إنما يقال في أمر عظيم صدق به الإنسان، والوعد الذي وعد هو قوله لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وقد وفي بذلك. ومنها: أن الله سبحانه وتعالى بشر بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فقال: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتُ فَلَبَسَ ثِيَابًا يَبْسُفُ بِهَا وَجْهَهُ لَمَمًا﴾ [هود: ٧١]، ولو كان إسحاق هو الذي أمر بذبحه لكان هناك تناقض؛ لأنه كيف يؤمر بذبحه وقد بشر بآبائه، أي: بإسحاق؛ لأن يعقوب ابن إسحاق، فإذا كان قد بشر بأن له ولدا اسمه يعقوب فلا يليق أن يؤمر بذبحه. ومنها: قوله هنا: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾ [الصافات: ١١٢] بعد أن ذكر قصة الذبح كاملة، ولا يمكن أن يكون في القرآن تكرار. ومنها: أن الله تعالى قال في إسحاق: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ وإذا كان قد بشر بأنه نبي فإنه لا يليق ولا يسوغ أن يأمر بذبحه بعد أن بشر بنبوته. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٢٤٤)].

(٢) انظر التعليق على آية (٣٤) من سورة مريم.

(٣) هذا قول ليس عليه دليل صحيح، وأن هذا الفداء كان من بهيمة الأنعام الموجودة في وقته، وليس هناك دليل على أنه من الجنة ولا على أن في الجنة كباشًا، فالصواب أنه ذبح من ذبح الدنيا أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأن يذبحه، وظاهر الآية الكريمة أنه ذبحه فداء عن إسماعيل، ويجوز أيضًا أن يكون مع الفداء شكرًا لله سبحانه وتعالى على نعمته بهذا البلاء المبين. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٢٤٣)].

(٤) أي: محسن في عمله بالإيمان والتوحيد، وظالم لها بالكفر والمعاصي، لما ذكر الله سبحانه البركة في الذرية بين أن كون الذرية من هذا العنصر الشريف والمحتد المبارك، ليس بنافع لهم ولا يجري أمر الخبث والطيب على العرق والعنصر. فقد ولد البر الفاجر والفاجر البر، وهذا مما يهدم أمر الطباع والعناصر، بل إنما يتنفعون بأعمالهم لا بأبائهم فإن اليهود والنصارى وإن كانوا من ولد إسحاق فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الضلال المبين، وإن العرب وإن كانوا من ولد إسماعيل فقد ماتوا على الشرك إلا من أنقذه الله بالإسلام، وفيه تنبيه على أن

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ١١٥﴾ أَي: اسْتِعْبَادِ فِرْعَوْنَ إِيَّاهُمْ. ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾ عَلَى الْقَبْطِ ﴿فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ١١٦﴾
 وَءَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ١١٧﴾ الْبَلِيغَ الْبَيَانَ فِيمَا أَتَى بِهِ مِنَ الْحُدُودِ وَالْأَحْكَامِ وَغَيْرِهَا، وَهُوَ: التَّوْرَةُ.
 ﴿وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ﴾ الطَّرِيقَ ﴿الْمُسْتَقِيمَ ١١٨﴾ وَتَرَكْنَا ﴿أَبَقَيْنَا﴾ عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ١١٩﴾ ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَامٌ﴾
 مِنَّا ﴿عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ١٢٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ ﴿كَمَا جَزَيْنَاهُمَا﴾ نَجْزَى الْمُحْسِنِينَ ١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٢٢﴾
 وَإِنَّ إِيَّاسَ ﴿بِالْهَمَزَةِ أَوَّلَهُ وَتَرَكَهَا﴾ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾ قِيلَ: هُوَ ابْنُ أَخِي هَارُونَ أَخِي مُوسَى، وَقِيلَ: غَيْرُهُ^(١)،
 أُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ بِبَعْلَبَكَّ وَنَوَاحِيهَا. ﴿إِذْ﴾ مَنْصُوبٌ بِـ ﴿أَذْكُرُ﴾ مُقَدَّرًا ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ أَلَا تَتَّقُونَ ١٢٤﴾ اللَّهُ. ﴿أَتَدْعُونَ﴾
 بَعْلًا ﴿إِسْمَ لَصْنٍ لَهُمْ مِنْ ذَهَبٍ، وَبِهِ سُمِّيَ الْبَلَدُ أَيْضًا مُضَافًا إِلَى «بَكَّ»، أَي: أَتَعْبُدُونَهُ﴾ وَتَذَرُونَ ﴿تَتْرَكُونَ﴾ أَحْسَنَ
 الْخَلِيقِينَ ١٢٥﴾ فَلَا تَعْبُدُونَهُ. ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ١٢٦﴾ بَرَفَعَ الثَّلَاثَةَ عَلَى إِصْمَارٍ «هُوَ»، وَبَنَصَبَهَا
 عَلَى الْبَدَلِ مِنْ «أَحْسَنَ». ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٢٧﴾ فِي النَّارِ. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ١٢٨﴾ أَي:
 الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ١٢٩﴾ ثَنَاءً حَسَنًا. ﴿سَلَامٌ﴾ مِنَّا ﴿عَلَى إِيَّاسِينَ ١٣٠﴾
 هُوَ «إِيَّاسُ» الْمُتَقَدِّمُ ذِكْرُهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ، فَجَمِعُوا مَعَهُ تَغْلِيًّا، كَقَوْلِهِمْ لِلْمُهَلَّبِ وَقَوْمِهِ: «الْمُهَلَّبُونَ»، وَعَلَى قِرَاءَةِ:
 ﴿عَالِ يَاسِينَ﴾ بِالْمَدِّ، أَي: أَهْلِهِ وَالْمُرَادُ بِهِ: «إِيَّاسُ» أَيْضًا. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُ ﴿نَجْزَى الْمُحْسِنِينَ ١٣١﴾ إِنَّهُ
 مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٣﴾. أُذْكِرُ ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
 الْغَابِرِينَ ١٣٥﴾ أَي: الْبَاقِينَ فِي الْعَذَابِ^(٢). ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا﴾ أَهْلَكْنَا ﴿الْآخِرِينَ ١٣٦﴾ كُفَّارَ قَوْمِهِ. ﴿وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ﴾
 عَلَيْهِمْ ﴿عَلَى آثَارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فِي أَسْفَارِكُمْ﴾ مُصْبِحِينَ ١٣٧﴾ أَي: وَفَتْ الصَّبَاحَ، يَعْنِي: بِالنَّهَارِ. ﴿وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا﴾
 تَعْقِلُونَ ١٣٨﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ مَا حَلَّ بِهِمْ فَتَعْتَبِرُوا بِهِ. ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ ﴿هَرَبَ﴾ إِلَى الْفُلِّ
 الْمَشْحُونِ ١٤٠﴾ السَّفِينَةِ الْمَمْلُوءَةِ حِينَ غَاضَبَ قَوْمُهُ لَمَّا لَمْ يَنْزِلْ بِهِمُ الْعَذَابُ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِهِ، فَكَرِبَ السَّفِينَةُ
 فَوَقَفَتْ فِي لُجَّةِ الْبَحْرِ، فَقَالَ الْمَلَأُحُونَ: هُنَا عَبْدُ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ تُظْهِرُهُ الْقُرْعَةُ^(٣). ﴿فَسَاهَمَ﴾ قَارَعَ أَهْلَ السَّفِينَةِ ﴿فَكَانَ﴾

الظلم في أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ولا نقيصة، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ويعاقب على ما اجتاحت يده لا على ما وجد من أصله
 وفرعه. [صديق حسن (١١/٤١٦)].

(١) إِيَّاس من ذرية هارون وقيل إنه إدريس، وقد أخطأ من قال: إنه إِيَّاس المذكور في أجداد النبي ﷺ. [ابن جُزَي (٢/١٩٦)].

(٢) هي زوجة لوط لم تكن على دينه. [السعدي (ص: ٧٠٧)].

(٣) ما ذكره المؤلف ليس عليه دليل، وهو من الأسرائيليات البعيدة، بل إن هذه السفينة المشحونة لما كانت في عرض البحر وهي مشحونة

مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٦١﴾ الْمَغْلُوبِينَ بِالْقُرْعَةِ فَالْقُوَّةُ فِي الْبَحْرِ. ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾ اِتْلَعَهُ ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿١٦٢﴾ أَي: آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَابِهِ إِلَى الْبَحْرِ وَرُكُوبِهِ السَّفِينَةَ بِلَا إِذْنٍ مِنْ رَبِّهِ ^(١). ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ﴿١٦٣﴾ الذَّاكِرِينَ بِقَوْلِهِ كَثِيرًا فِي بَطْنِ الْحُوتِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». ﴿لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿١٦٤﴾ لَصَارَ بَطْنُ الْحُوتِ قَبْرًا لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَتَبَذْنَاهُ﴾ أَلْقَيْنَاهُ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بِوَجْهِ الْأَرْضِ، أَي: بِالسَّاحِلِ مِنْ يَوْمِهِ أَوْ بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَوْ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَوْ عَشْرِينَ أَوْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ﴿١٦٥﴾ عَلِيلٌ كَالْفَرْخِ الْمُمَعَّطِ ^(٢). ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ﴾ ﴿١٦٦﴾ وَهِيَ الْقَرْعُ تُظِلُّهُ بِسَاقٍ عَلَى خِلَافِ الْعَادَةِ فِي الْقَرْعِ مُعْجَزَةً لَهُ ^(٣)، وَكَانَتْ تَأْتِيهِ وَعَلَّةٌ صَبَاحًا وَمَسَاءً يَشْرَبُ مِنْ لَبْنِهَا حَتَّى قَوِيَ. ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ﴾ بَعْدَ ذَلِكَ كَقَبْلِهِ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَوَى مِنْ أَرْضِ الْمُوصِلِ ﴿إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ﴾ بَلْ ﴿يَزِيدُونَ﴾ ﴿١٦٧﴾ عَشْرِينَ أَوْ ثَلَاثِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفًا. ﴿فَقَامُوا﴾ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ الْمَوْعُودِينَ بِهِ ﴿فَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ أَبْقَيْنَاهُمْ مُّتَّعِينَ بِمَا لَهُمْ ﴿إِلَى حِينٍ﴾ ﴿١٦٨﴾ تَنْقِضِي آجَالَهُمْ فِيهِ. ﴿فَأَسْتَفْتِهِمْ﴾ اسْتَخْبَرَ كُفَّارَ مَكَّةَ تَوْبِيخًا لَهُمْ ﴿الرَّبِّكَ الْبَنَاتُ﴾ بَرَعِمَهُمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَلَهُمُ الْبُنُونَ﴾ ﴿١٦٩﴾ فَيَخْصُصُونَ

مملوءة وصارت في لجة البحر ثقل الحمل، وإذا ثقل الحمل فلا بد من أحد أمرين؛ إما أن يخفف الحمل وإما أن يغرق الجميع، ولا شك أن تخفيف الحمل أولى من غرق الجميع؛ لأنه إذا خفف الحمل نجا من بقي، وإذا بقي الحمل على ما هو عليه غرق الجميع، وبقاء البعض أولى من هلاك الكل، وهذا أمر عقلي اقترعوا يعني ليس إلقاء بعضهم في البحر أولى من إلقاء الآخر، فلا سبيل حينئذ إلى التخلص من هذه المشكلة إلا بالقرعة فاقرعوا. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٢٩٧)]. وأصل الإباق الهرب من السيد، لكن لما كان هربه من قومه بغير إذن ربه وصف به فهو استعارة تصريحية أو مجاز مرسل من استعمال المقيد في المطلق، وقال المبرد: تأويل ابق «تباعده» أي: ذهب إليه. ومن ذلك قولهم: عبد أبق. وقد اختلف أهل العلم: هل كانت رسالته قبل التقام الحوت إياه أو بعده؟ [صديق حسن (١١/ ٤٢٢)].

(١) وكان الواجب أن يصبر، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَذَرَكَهُ نِعْمَةً مِّنْ رَبِّهِ لَتُبَذَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ [القلم: ٤٨-٤٩]. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٢٩٩)].
(٢) وقيل: كان قد بلي لحمه ورق عظمه ولم تبق له قوة، وقد استشكل بعض المفسرين الجمع بين ما وقع هنا من قوله: ﴿فَتَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾، وقوله في موضع آخر: ﴿لَوْلَا أَنْ تَذَرَكَهُ نِعْمَةً مِّنْ رَبِّهِ لَتُبَذَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]، فإن هذه الآية تدل على أنه لم ينبذ بالعراء، وأجاب النحاس وغيره: بأن الله سبحانه أخبر ههنا أنه نبذ بالعراء وهو غير مذموم، ولولا رحمته عز وجل لنبذ بالعراء وهو مذموم. [صديق حسن (١١/ ٤٢٤)].

(٣) أي: أنبتناها فوقه لتظله وتقيه حر الشمس، واليقطين، القرع وإنما خصه الله به لأنه يجمع برد الظل ولين اللمس وكبر الورق، وأن الذباب لا يقربه، فإن لحم يونس لما خرج من البحر كان لا يحتمل الذباب. [ابن جزي (٢/ ١٩٨)].

بِالْأَسْنَى^(١). ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنْثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾^(١٥٠) خَلَقْنَا، فَيَقُولُونَ ذَلِكَ. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ كَذِبِهِمْ ﴿لَيَقُولُونَ﴾^(١٥١) وَلَدَ اللَّهُ ﴿بِقَوْلِهِمْ﴾ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾^(١٥٢) فِيهِ. ﴿أَصْطَفَى﴾ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ لِلْإِسْتِفْهَامِ وَاسْتِغْنِي بِهَا عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ فَحُذِفَتْ، أَيِ: اخْتَارَ ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾^(١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾^(١٥٥) بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الدَّالِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنْزَعٌ عَنِ الْوَلَدِ. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطٰنٌ مُّبِينٌ﴾^(١٥٦) حُجَّةٌ وَاضِحَةٌ أَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا. ﴿فَاتَّوَا بِكِتَابِكُمْ﴾ التَّوْرَةَ فَأَرُونِي ذَلِكَ فِيهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٥٧) فِي قَوْلِكُمْ ذَلِكَ. ﴿وَجْعَلُوا﴾ أَيِ: الْمُشْرِكُونَ ﴿بَيْنَهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَبَيْنَ الْجَنَّةِ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةِ لِاجْتِنَانِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ ﴿فَسَبَّ﴾ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ أَيِ: قَائِلِي ذَلِكَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾^(١٥٨) لِلنَّارِ يُعَذَّبُونَ فِيهَا^(٣). ﴿سُبْحٰنَ اللَّهِ﴾ تَزْيِيهَا لَهُ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١٥٩) بِأَنَّ لِلَّهِ وَلَدًا ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾^(١٦٠) أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ، إِسْتِنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيِ: فَإِنَّهُمْ يُزَيِّهُونَ اللَّهَ تَعَالَى عَمَّا يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ. ﴿فَاتَّكُمُ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾^(١٦١) مِنْ الْأَصْنَامِ. ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أَيِ: عَلَى مَعْبُودِكُمْ، وَعَلَيْهِ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بِفَتْنَيْنِ﴾^(١٦٢) أَيِ: أَحَدًا. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾^(١٦٣) فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى^(٣). قَالَ جِبْرِيلُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَامِنًا﴾ مَعَشَرَ الْمَلَائِكَةِ أَحَدٌ ﴿إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾^(١٦٤) فِي السَّمَاوَاتِ نَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ لَا تَجَاوِزُهُ. ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾^(١٦٥) أَقْدَامَنَا فِي الصَّلَاةِ^(٤). ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾^(١٦٦)

(١) أي: بالأشرف، وهذا حكم باطل جائر، ولهذا قال الله تعالى في سورة النجم: ﴿الْكُفْرُ أَذْكَرُ وَلَهُ الْأَنْفَى﴾^(١) تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى

﴿[النجم: ٢١-٢٢] أَيِ: جَائِرَةٌ. [ابن عثيمين تفسير الصافات (ص: ٣١٦)].

(٢) أي: قريبا منه. قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن. وكذا قال قتادة وابن زيد، ثم أشار إلى أن لا نسبة تقتضي النسب بوجه ما، عدا عن استحالة ذلك عقلا، بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾ أَيِ: المنسوب إليهم هذا النسب ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أَيِ: في النار يوم القيامة. لكون الجنة كالجن، علما في الأغلب للفرقة الفاسقة عن أمر ربها من عالم الشياطين، أي: فالمنسوب إليهم يتبرؤون من هذه النسبة، لما يعلمون من أنفسهم أنهم من أهل السعير، لا من عالم الأرواح الطاهرة، فما بال هؤلاء المشركين يهرفون بما لا يعرفون؟ وفسر بعضهم ﴿الْجِنَّةُ﴾ بالملائكة المحدث عنها قبل. والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ للكفرة. ولعل ما ذكرناه أولى، لخلوه عن تشبث الضمائر، ولموافقته للأغلب من استعمال الجن والجنة. [القاسمي (٨/ ٢٣٠)].

(٣) أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحدا إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي، والمقصود من هذا، بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى، أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفليحين. [السعدي (ص: ٧٠٨)].

(٤) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ ثَلَاثًا، جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا،

الْمُنْزَهُونَ اللَّهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ. ﴿وَأَنَّ﴾ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ ﴿كَانُوا﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ﴿لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾
 كِتَابًا ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿أَي: مِنْ كُتُبِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ﴿الْعِبَادَةُ لَهُ. قَالَ تَعَالَى:
 ﴿فَكْفَرُوا بِهِ﴾ بِالْكِتَابِ الَّذِي جَاءَهُمْ وَهُوَ الْقُرْآنُ الْأَشْرَفُ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ.
 ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ بِالنَّصْرِ ﴿لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿وَهِيَ: ﴿لَا غَلِبَنَّا أَنَا وَرُسُلُنَا﴾ [المجادلة: ٢١]. أَوْ هِيَ
 قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ ﴿وَأَنَّ جُنْدَنَا﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿لَهُمُ الْغَلِبُونَ﴾ ﴿الْكُفَّارَ بِالْحُجَّةِ وَالنُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ
 فِي الدُّنْيَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِرْ بَعْضُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾. ﴿فَقَوْلَ عَنْهُمْ﴾ أَي: أَعْرِضْ عَنْ كُفَّارِ مَكَّةَ ﴿حَتَّى حِينٍ﴾
 ﴿تُؤْمَرُ فِيهِ بِقِتَالِهِمْ. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ إِذَا نَزَلَ بِهِمُ الْعَذَابُ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿عَاقِبَةُ كُفْرِهِمْ. فَقَالُوا اسْتَهْزَأَ:
 مَتَى نَزُولُ هَذَا الْعَذَابِ؟ قَالَ تَعَالَى تَهْدِيدًا لَهُمْ: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ بِفَنَائِهِمْ،
 قَالَ الْفَرَاءُ: الْعَرَبُ تَكْتَفِي بِذِكْرِ السَّاحَةِ عَنِ الْقَوْمِ ﴿فَسَاءَ﴾ بِشَسِّ صَبَاحًا ﴿صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾ ﴿فِيهِ إِقَامَةُ الظَّاهِرِ
 مَقَامِ الْمُضْمَرِ﴾. ﴿وَقَوْلَ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ﴾ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ﴿كُرَّرَ تَأْكِيدًا لِتَهْدِيدِهِمْ وَتَسْلِيَةٍ لَهُ ﷺ.
 ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ الْعَلِيَّةِ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿بِأَنَّ لَهُ وَلَدًا. ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿الْمُبَلِّغِينَ عَنِ
 اللَّهِ التَّوْحِيدَ وَالشَّرَائِعَ. ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عَلَى نَصْرِهِمْ وَهَلَاكِ الْكَافِرِينَ.

وَجُعِلَتْ لَنَا تُرْبُهَا طَهُورًا، إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ. أخرجه مسلم (٥٢٢). وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فقال: «أَلَا تَصِفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ؟» قالوا: يا رسول الله، وكيف تصف عند ربهم؟ قال: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ». أخرجه مسلم (٤٣٠).

(١) قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١].

(٢) ذكر الصباح لأنه من علائق الهيئة المشبه بها، فإن شأن الغارة أن تكون في الصباح ولذلك كان نذير المجيء بغارة عدو ينادي: «يا صباحاه» نداء ندبة وتفجع. [ابن عاشور (١٩٧/٢٣)]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ حين خرج إلى خيبر، أتاها ليلاً وكان إذا جاء قوماً بليل لم يغز حتى يصبح، قال: فلما أصبح خرجت يهود خيبر بمساحيها ومكاتلها، فلما رأوا النبي ﷺ قالوا: محمد، والله، محمد والخميس، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبْتُ خَيْرٌ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». أخرجه البخاري (٩٤٧)، ومسلم (١٣٦٥).

(٣) سئل محمد بن سحنون عن معنى ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ لم جاز ذلك والعزة من صفات الذات، ولا يقال: «رب القدرة» ونحوها من صفات ذاته جل وعز؟ قال: العزة تكون صفة ذات وصفة فعل، فصفة الذات نحو قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وصفة الفعل نحو قوله: ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ والمعنى: رب العزة التي يتعاز بها الخلق فيما بينهم فهي من خلق الله عز وجل. [القرطبي (١٤٠/١٥)].

سُورَةُ ص

مَكِّيَّةٌ، سِتُّ أَوْ ثَمَانٍ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿صَّ﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١) ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٢) أَي: الْبَيَانِ أَوْ الشَّرَفِ، وَجَوَابُ هَذَا الْقَسَمِ مَحذُوفٌ، أَي: مَا الْأَمْرُ كَمَا قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ مِنْ تَعُدُّدِ الْأَلِهَةِ^(٣) ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فِي عِزَّةٍ﴾ حَمِيَّةٍ وَتَكَبُّرٍ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَشِقَاقٍ﴾^(٤) خِلَافٍ وَعَدَاوَةٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿كَمْ﴾ أَي: كَثِيرًا ﴿أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ﴾ أَي: أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ ﴿فَنَادَوْا﴾ حِينَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾^(٥) أَي: لَيْسَ الْحِينَ حِينَ فِرَارٍ، وَالتَّاءُ زَائِدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «نَادَوْا» أَي: اسْتَغَاثُوا، وَالْحَالُ أَنْ لَا مَهْرَبَ وَلَا مَنْجَى، وَمَا عَتَبَرُ بِهِمْ كُفَّارُ مَكَّةَ. ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَيُخَوِّفُهُمْ بِالنَّارِ بَعْدَ الْبَعْثِ وَهُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَقَالَ الْكَاذِبُونَ﴾ فِيهِ وَضْعُ الظَّاهِرِ مَوْضِعَ الْمُضْمَرِ ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾^(٦) أَجْعَلَ الْأَلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا حَيْثُ قَالَ لَهُمْ قُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، أَي: كَيْفَ يَسْعُ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(٧) أَي: عَجِيبٌ. ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ مِنْ مَجْلِسِ اجْتِمَاعِهِمْ عِنْدَ أَبِي طَالِبٍ وَسَمَاعِهِمْ فِيهِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قُولُوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ﴿أَنْ أَمْشُوا﴾ أَي: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: امْشُوا ﴿وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ اثْبُتُوا عَلَىٰ عِبَادَتِهَا ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمَذْكُورَ مِنْ التَّوْحِيدِ ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾^(٨) مِنَّا. ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أَي: مِلَّةِ عِيسَى^(٩) ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا﴾ أَخْتَلَقُ^(١٠) ﴿كَذِبٌ﴾. ﴿أَنْزِلْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكِهِ ﴿عَلَيْهِ﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ مِنَ التَّفْسِيرِ مَعْرُوفَانِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ. أَحَدُهُمَا: أَنَّ الذِّكْرَ بِمَعْنَى الشَّرَفِ ... وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أَي: شَرَفٌ لَكُمْ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ. الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الذِّكْرَ اسْمٌ مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى التَّذْكِيرِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ فِيهِ التَّذْكِيرَ وَالْمَوَاعِظَ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ وَاخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ. [الشنقيطي (٢/ ٣٩٤)].

(٣) هَذَا أَيْضًا مِمَّا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ كَلَامِهِمْ، أَي: مَا سَمِعْنَا بِالتَّوْحِيدِ فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ، وَالْمُرَادُ بِالْمِلَّةِ الْآخِرَةِ مِلَّةُ النَّصَارَى، لِأَنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ مِلَّةُ مُوسَى وَغَيْرِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ بِالتَّثْلِيثِ لَا بِالتَّوْحِيدِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ مِلَّةُ قَرِيشَ، أَي: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الَّتِي أَدْرَكْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، وَقِيلَ: الْمُرَادُ الْمِلَّةُ الْمُنْتَظَرَةُ إِذْ كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنَ الْأَحْبَارِ وَالْكَهَانِ أَنَّ رَسُولًا يَبْعَثُ يَكُونُ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ. [ابن جُرَيْي (٢/ ٢٠٢)].

عَلَى مُحَمَّدٍ ﴿الذِّكْرُ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿مَنْ بَيَّنَّنَا﴾ وَلَيْسَ بِأَكْبَرِنَا وَلَا أَشْرَفِنَا، أَي: لَمْ يُتْرَلْ عَلَيْهِ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي﴾ وَحَيِّي - الْقُرْآنَ - حَيْثُ كَذَّبُوا الْجَائِي بِهِ ﴿بَلْ لَّمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ ۝٨﴾ وَلَوْ ذَاقُوهُ لَصَدَّقُوا النَّبِيَّ ﷺ فِيمَا جَاءَ بِهِ، وَلَا يَنْفَعُهُمُ التَّصَدِيقُ حِينَئِذٍ. ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ﴾ الْغَالِبِ ﴿الْوَهَّابِ ۝٩﴾ مَنِ الْنُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا فَيُعْطُوهَا مَنْ شَاءَوا. ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إِنْ زَعَمُوا ذَلِكَ ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ۝١٠﴾ الْمَوْصِلَةِ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَأْتُوا بِالْوَحْيِ فَيَخْصُوا بِهِ مَنْ شَاءُوا، وَ ﴿أَمْ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ. ﴿جُنْدٌ مَا﴾ أَي: هُمْ جُنْدٌ حَقِيرٌ ﴿هُنَالِكَ﴾ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ ﴿مَهْزُومٌ﴾ صِفَةٌ ﴿جُنْدٌ﴾ ﴿مِّنَ الْأَحْزَابِ ۝١١﴾ صِفَةٌ ﴿جُنْدٌ﴾ أَيْضًا، أَي: كَالْأَجْنَادِ مِنْ جِنْسِ الْأَحْزَابِ الْمُتَحَرِّضِينَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَكَ، وَأَوْلَيْكَ قَدْ قُهِرُوا وَأَهْلِكُوا فَكَذًا نُهْلِكُ هَؤُلَاءِ. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثٌ ﴿قَوْمٌ﴾ بِاعْتِبَارِ الْمَعْنَى ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ۝١٢﴾ كَانَ يَتَدَلَّ كُلُّ مَنْ يَعْصِبُ عَلَيْهِ أَرْبَعَةُ أَوْتَادٍ، يَشُدُّ إِلَيْهَا يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَيَعَذِّبُهُ^(١). ﴿وَتَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ﴾ أَي: الْغِيْصَةِ وَهُمْ قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ ۝١٣﴾ إِنْ مَا ﴿كُلُّ﴾ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ﴾؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبُوا جَمِيعَهُمْ؛ لِأَنَّ دَعْوَتَهُمْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ ﴿فَحَقٌّ﴾ وَجَبَ ﴿عِقَابِ ۝١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ يَنْتَظِرُ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هِيَ نَفْخَةُ الْقِيَامَةِ تُحِلُّ بِهِمْ الْعَذَابَ ﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ۝١٥﴾ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَضَمِّهَا، رُجُوعٌ. ﴿وَقَالُوا﴾ لَمَّا نَزَلَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الحاقة: ١٩] إِلَى آخِرِهِ ﴿رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾ أَي: كِتَابَ أَعْمَالِنَا ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ۝١٦﴾ قَالُوا ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ أَي: الْقُوَّةَ فِي الْعِبَادَةِ، «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَيَقُومُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَنَامُ ثُلُثَهُ وَيَقُومُ سُدُسَهُ»^(٢) ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝١٧﴾ رَجَّاعٌ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِتَسْبِيحِهِ﴾ بِالتَّسْبِيحِ ﴿وَالْعِشْيَ﴾ وَقَتِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴿وَالْإِشْرَاقِ ۝١٨﴾ وَقَتِ صَلَاةِ الصُّحَى وَهُوَ أَنْ تَشْرِقَ الشَّمْسُ وَيَتَنَاهَى ضَوْؤُهَا. ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ السَّخَّرْنَا ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ مَجْمُوعَةً إِلَيْهِ تُسَبِّحُ مَعَهُ ﴿كُلُّ﴾ مِّنَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ ﴿لَهُ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ رَجَّاعٌ إِلَى طَاعَتِهِ بِالتَّسْبِيحِ. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ قُوَّتَهُ بِالْحَرَسِ وَالْجُنُودِ، وَكَانَ يَحْرُسُ مِحْرَابَهُ فِي

(١) قال ابن عباس: كانت له أوتاد وخشب يلعب بها وعليها، وقيل: كانت له أوتاد يسمرها في الناس لقتلهم، وقيل: أراد المباني العظام الثابتة،

ورجحه ابن عطية، وقال الزمخشري: إن ذلك استعارة في ثبات الملك كقول القائل: في ظل ملك ثابت الأوتاد. [ابن جرير (٢/٢٠٣)].

(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).

كُلَّ لَيْلَةٍ ثَلَاثُونَ أَلْفَ رَجُلٍ ﴿وَأَتَيْنَهُ الْحِكْمَةَ﴾ النُّبُوَّةَ وَالْإِصَابَةَ فِي الْأُمُورِ ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ ﴿الْبَيَانَ الشَّافِي فِي كُلِّ قَصْدٍ﴾. ﴿*وَهَلْ﴾ مَعْنَى إِلَّا سَتَفْهَامُ هُنَا التَّعْجِيبُ وَالتَّشْوِيقُ إِلَى اسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ ﴿أَتْلُكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿نَبُؤًا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ ﴿مِحْرَابَ دَاوُدَ، أَيِ: مَسْجِدِهِ حَيْثُ مُنِعُوا الدُّخُولَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ لِشُغْلِهِ بِالْعِبَادَةِ، أَيِ: خَبَرَهُمْ وَقَصَّتْهُمْ.﴾ ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ نَحْنُ ﴿خَصْمَانِ﴾ قِيلَ: فَرِيقَانِ لِيُطَابِقَ مَا قَبْلَهُ مِنْ ضَمِيرِ الْجَمْعِ، وَقِيلَ: اِثْنَانِ وَالضَّمِيرُ بِمَعْنَاهُمَا، وَالْخَصْمُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَكَثْرَتِهِ، وَهُمَا مَلَكَانِ جَاءَا فِي صُورَةِ خَصْمَيْنِ وَقَعَ لَهُمَا مَا ذَكَرَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرَضِ لِتَنْبِيهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُ وَكَانَ لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ امْرَأَةً وَطَلَبَ امْرَأَةً شَخْصٍ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا وَتَرَوَّجَهَا وَدَخَلَ بِهَا ﴿بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُمَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ تَجُرُ ﴿وَاهْدِنَا﴾ أَرْشَدْنَا ﴿إِلَى سَوَاءٍ الصِّرَاطِ﴾ وَسَطِ الطَّرِيقِ الصَّوَابِ. ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ أَيِ: عَلَى دِينِي ﴿لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعَجَةً﴾ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ الْمَرْأَةِ ﴿وَلِيَ نَعَجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أَيِ: اجْعَلْنِي كَافِلَهَا ﴿وَعَزَّنِي﴾ غَلَبَنِي ﴿فِي الْخِطَابِ﴾ أَيِ: الْجِدَالِ، وَأَقْرَهُ الْآخِرُ عَلَى ذَلِكَ. ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ﴾ لِيُضْمَمَهَا ﴿إِلَى نِعَاجِهِ﴾ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ الشُّرَكَاءِ ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ ﴿مَا﴾ لِتَأْكِيدِ الْقَلَّةِ، فَقَالَ الْمَلَكَانِ صَاعِدَيْنِ فِي صُورَتَيْهِمَا إِلَى السَّمَاءِ: قَضَى الرَّجُلُ عَلَى نَفْسِهِ، فَتَنَّبَهُ دَاوُدُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَضَنَّ﴾ أَيِ: أَيَقَنَ ﴿دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّهُ﴾ أَوْقَعَنَاهُ فِي فِتْنَةٍ، أَيِ: بَلِيَّةٍ بِمَحَبَّتِهِ تِلْكَ الْمَرْأَةَ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ أَيِ: سَاجِدًا ﴿وَأَنَابَ﴾ ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى﴾ أَيِ:

(١) ﴿الْحِكْمَةَ﴾: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أراد بـ ﴿الْحِكْمَةَ﴾: النبوة، وقال أبو العالية: الحكمة؛ العلم الذي لا ترده العقول ... واختلف الناس في ﴿فَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهمه. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام وشريح، والشعبي: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه، والبينة على المدعي، وقال زياد، والشعبي أيضا: أراد قول: «أما بعد» فإنه أول من قالها ... والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه وبينه، لا يأخذه في ذلك حصر ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدرکها، فكان كلامه عليه السلام فصلا، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ﴾ [الطارق: ١٣]، ويزيد محمد عليه السلام على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تخصص عليه السلام به في قوله: «وَأُعْطِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣). فإنها في الخلال التي لم يؤت بها أحد قبله. [ابن عطية (٤/ ٤٩٧)].

(٢) قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن أبي حاتم

زِيَادَةَ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ ٥٥﴾ مَرْجِعٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ تُدَبَّرُ أَمْرُ النَّاسِ ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ أَيُّ: هَوَى النَّفْسِ ﴿فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: عَنِ الدَّلَائِلِ الدَّلَالَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا﴾ بِنِسْيَانِهِمْ ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ ٥٦﴾ الْمُرْتَبِ عَلَيْهِ تَرْكُهُمُ الْإِيمَانَ وَلَوْ أَتَقَنُوا يَوْمَ الْحِسَابِ لَا مَنُوا فِي الدُّنْيَا. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ أَيُّ: عَبَثًا ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: خَلَقَ مَا ذَكَرَ لَا لَشَيْءٍ ٥٧ ﴿ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فَوَيْلٌ﴾ وَادٍ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ٥٨﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ٥٩﴾ نَزَلَ لَمَّا قَالَ كُفَّارُ مَكَّةَ لِلْمُؤْمِنِينَ إِنَّا نُعْطِي فِي الْآخِرَةِ مِثْلَ مَا تُعْطُونَ، وَ

هنا حديثاً لا يصح سنده؛ لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد وإن كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضاً. [ابن كثير (٦٠/٧)]. ولكي يستقيم هذا الباطل قالوا: إن المراد بالنعجة هي: المرأة، وأن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة، والحق: أن الآيات ليس فيها شيء مما ذكروا، وليس هذا في شيء من كتب الحديث المعتمدة، وهي التي عليها المعول، وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها إلى الرمز والإشارة. والتفسير الصحيح للآيات: أن داود عليه السلام كان قد وزع مهام أعماله، ومسئوليته نحو نفسه، ونحو الرعية على الأيام، وخص كل يوم بعمل، فجعل يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء وفصل الخصومات، ويوماً للاشتغال بشئون نفسه وأهله، ويوماً لوعظ بني إسرائيل ففي يوم العبادة: بينما كان مشغولاً بعبادة ربه في محرابه، إذ دخل عليه خصمان تسورا عليه من السور، ولم يدخلوا من المدخل المعتاد، فارتاع منهما، وفزع فرعاً لا يليق بمثله من المؤمنين، فضلاً عن الأنبياء المتوكلين على الله غاية التوكل، الواقفين بحفظه، ورعايته ومثل الأنبياء في علو شأنهم، وقوة ثقتهم بالله والتوكل عليه ألا تعلق نفوسهم بمثل هذه الظنون بالأبرياء، إلا أنه ظن بهما سوءاً، وأنهما جاءا ليقتلاه، أو يغيبا به شراً، ولكن تبين له أن الأمر على خلاف ما ظن، وأنهما خصمان جاءا يحتكمان إليه، فلما قضى بينهما، وتبين له أنهما بريئان مما ظن بهما، استغفر ربه، وخر ساجداً لله تعالى؛ تحقيقاً لصدق توبته والإخلاص له، وأناب إلى الله غاية الإنابة. فالرجلان خصمان حقيقة، وليسا ملكين كما زعموا، والنعاج على حقيقتها، وليس ثمة رموز ولا إشارات، وهذا التأويل هو الذي يوافق نظم القرآن ويتفق وعصمة الأنبياء، فالواجب الأخذ به، ونبد الخرافات، والأباطيل، التي هي من صنع بني إسرائيل، وتلقفها القصاص وأمثالهم ممن لا علم عندهم، ولا تمييز بين الغث والسمين. [الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبه (ص: ٢٦٤)].

(١) يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحده ثم يجمعهم ليوم الجمع فيشيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ: الَّذِينَ لَا يَرُونَ بَعَثًا وَلَا مَعَادًا وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ هَذِهِ الدَّارَ فَقَطْ ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ أَيُّ: وَبَلْ لَهُمْ يَوْمَ مَعَادِهِمْ وَنَشُورِهِمْ مِنَ النَّارِ الْمَعْدَةُ لَهُمْ. [ابن كثير (٦٣/٧)].

﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ^(١). ﴿كِتَبٌ﴾ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَي: هَذَا ﴿أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا﴾ أَصْلُهُ ﴿يَتَدَّبَّرُوا﴾ أَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ ﴿ءَايَاتِهِ﴾ يَنْظُرُوا فِي مَعَانِيهَا فَيُؤْمِنُوا ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾ يَتَعَبَّرَ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢) أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ﴾ ابْنَهُ ﴿نَعَمْ الْعَبْدُ﴾ أَي: سُلَيْمَانُ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣) رَجَاعٌ فِي التَّسْيِيحِ وَالذِّكْرِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ^(٤). ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ﴾ هُوَ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ ﴿الصَّافِنَتُ﴾ الْخَيْلُ جَمْعُ «صَافِيَةٍ» وَهِيَ الْقَائِمَةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَأَقَامَتِ الْأُخْرَى عَلَى طَرَفِ الْحَافِرِ، وَهُوَ مِنْ: صَفَنَ يَصْفِنُ صُفُونًا ﴿الْحِيَادُ﴾^(٥) جَمْعُ جَوَادٍ وَهُوَ السَّابِقُ، الْمَعْنَى: أَنَّهَا إِذَا أُسْتُوقِفَتْ سَكَتَتْ وَإِنْ رَكَضَتْ سَبَقَتْ، وَكَانَتْ أَلْفَ فَرَسٍ عُرِضَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الظُّهْرَ لِإِرَادَتِهِ الْجِهَادَ عَلَيْهَا الْعَدُوَّ، فَعِنْدَ بُلُوغِ الْعَرَضِ مِنْهَا تِسْعِمَائَةٍ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَلَمْ يَكُنْ صَلَّى الْعَصْرَ فَاعْتَمَ. ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ﴾ أَي: أَرَدْتُ ﴿حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أَي: الْخَيْلِ ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ أَي: صَلَاةِ الْعَصْرِ ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أَي: الشَّمْسُ ﴿بِالْحِجَابِ﴾^(٦) أَي: اسْتَرَتْ بِمَا يَحْجُبُهَا عَنِ الْأَبْصَارِ. ﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ أَي: الْخَيْلَ الْمَعْرُوضَةَ، فَرُدُّوَهَا ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ بِالسَّيْفِ ﴿بِالسُّوقِ﴾ جَمْعُ سَاقٍ ﴿وَالْأَعْنَاقِ﴾^(٧) أَي: ذَبَحَهَا وَقَطَعَ أَرْجُلَهَا تَقَرُّبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ اشْتَغَلَ بِهَا عَنِ الصَّلَاةِ، وَتَصَدَّقَ بِلَحْمِهَا فَعَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا وَأَسْرَعَ، وَهِيَ الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ كَيْفَ يَشَاءُ^(٨). ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ ابْتَلَيْنَاهُ بِسَلْبِ مُلْكِهِ وَذَلِكَ لِتَزَوُّجِهِ بِامْرَأَةٍ هَوَاهَا وَكَانَتْ تَعْبُدُ الصَّنَمَ فِي

(١) ﴿أَمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ﴾ كِلَاهُمَا، مَنْقُطَةٌ وَأَمْ الْمَنْقُطَةُ، فِيهَا لِعُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ ثَلَاثَةُ مَذَاهِبٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهَا بِمَعْنَى هَمْزَةِ اسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِ. الثَّانِي: أَنَّهَا بِمَعْنَى بَلِّ الْإِضْرَابِيَّةِ. وَالثَّالِثُ: أَنَّهَا تَشْمَلُ مَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالْإِضْرَابِ مَعًا، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ. وَعَلَيْهِ فَالْإِضْرَابُ بِهَا هُنَا انْتِقَالِي لَا إِطَالِي وَوَجْهَ الْإِنْكَارِ بِهَا عَلَيْهِمْ وَاضِحٌ؛ لِأَنَّهُ مِنْ ظَنِّ بِاللَّهِ الْحَكِيمِ الْخَبِيرِ، أَنَّهُ يَسَاوِي بَيْنَ الصَّالِحِ الْمَصْلُحِ، وَالْمُفْسَدِ الْفَاجِرِ، فَقَدْ ظَنَّا قَبِيحًا جَدِيرًا بِالْإِنْكَارِ. وَقَدْ بَيَّنَّ جُلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى، فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَذَمَّ حَكَمٌ مِنْ يَحْكُمُ بِهِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْجَاثِيَةِ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الْجَاثِيَةِ: ٢١]. [الشَّنْقِيطِيُّ (٣٢/٧)].

(٢) أَي: رَجَاعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّوْبَةِ كَمَا يَشْعُرُ بِهِ السِّيَاقُ، أَوْ إِلَى التَّسْيِيحِ مَرْجِعٌ لَهُ أَوْ إِلَى مَرْضَاتِهِ عَزَّ وَجَلَّ تَعْلِيلٌ لِلْمَدْحِ. [الْأَلُوسِي (١٨٢/١٢)].
(٣) أَثْنَى اللَّهُ عَلَى سُلَيْمَانَ بِأَنَّهُ نَعِمَ الْعَبْدُ لِلَّهِ، وَعَلَّلَ لَتِلْكَ الْأَفْضَلِيَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أَي: كَثِيرُ الْاَوْبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِذِكْرِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ عِنْدَ الْغَفْلَةِ وَالنِّسْيَانِ الْعَارِضِ لِلْعَبْدِ، وَأَشَارَ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعِشِيِّ الصَّافِنَتُ الْجِيَادُ﴾ أَي: الْخَيْلَ الْقَوِيَّةَ عَلَى السَّيْرِ الَّتِي إِذَا وَقَفَتْ تَأْتِي أَنْ تَقِفَ عَلَى أَرْبَعٍ كَالْحَمِيرِ بَلْ تَقِفَ عَلَى ثَلَاثٍ وَتَرْفَعِ الرَّابِعَةَ، وَالْجِيَادُ هِيَ السَّرِيعَةُ الْعَدُوُّ، وَهَذَا الْعَرَضُ كَانَ اسْتِعْرَاضًا مِنْهَا لَهَا إِعْدَادًا لَغَزْوِ أَرَادَهُ فَاسْتَعْرَضَ خَيْلَهُ فَانْشَغَلَ بِذَلِكَ عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَقَدْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ﴾ أَي: اسْتَرَتْ الشَّمْسُ ﴿بِالْحِجَابِ﴾ أَي: بِالْأَفَقِ الَّذِي حَجَبَهَا عَنْ أَعْيُنِ النَّازِرِينَ، فَندِمَ لَذَلِكَ وَقَالَ:

دَارِهِ مِنْ غَيْرِ عِلْمِهِ، وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ فَزَعَهُ مَرَّةً عِنْدَ إِرَادَةِ الْخَلَاءِ وَوَضَعَهُ عِنْدَ أَمْرِهِ الْمُسَمَّاةِ بِالْأَمِينَةِ عَلَى عَادَتِهِ فَجَاءَهَا جِنِّي فِي صُورَةِ سُلَيْمَانَ فَأَخَذَهُ مِنْهَا ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ هُوَ ذَلِكَ الْجِنِّي وَهُوَ «صَخْر» أَوْ غَيْرُهُ، جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَغَيْرُهَا، فَخَرَجَ سُلَيْمَانُ فِي غَيْرِ هَيْئَتِهِ فَرَأَهُ عَلَى كُرْسِيِّهِ وَقَالَ لِلنَّاسِ أَنَا سُلَيْمَانُ فَأَتَكْرَاهُ ﴿ثُمَّ أَنَابَ ٣٦﴾ رَجَعَ سُلَيْمَانُ إِلَى مُلْكِهِ بَعْدَ أَيَّامٍ بَانَ وَصَلَ إِلَى الْخَاتَمِ فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي﴾ لَا يَكُونُ ﴿لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ أَيُّ: سِوَايَ^(١)، نَحْوُ: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الباقية: ٢٣] أَيُّ: سِوَى اللَّهِ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً لَّيِّنَةً ﴿حَيْثُ أَصَابَ ٣٦﴾ أَرَادَ. ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ﴾ يَبْنِي الْأَبْنِيَةَ الْعَجِيَّةَ ﴿وَعَوَاصٍ ٣٧﴾ فِي الْبَحْرِ يَسْتَخْرِجُ اللَّوْلُؤَ. ﴿وَعَاخِرِينَ﴾ مِنْهُمْ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ مَشْدُودِينَ ﴿فِي الْأَصْفَادِ ٣٨﴾ الْقَيْدِ بِجَمْعِ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ. وَقُلْنَا لَهُ:

﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أَيُّ: الْخَيْلِ ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ وَصَلَى الْعَصْرَ، ثُمَّ عَادَ إِلَى إِكْمَالِ الْاسْتِعْرَاضِ فَرَدَّهَا رَجَالَهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ يَمْسَحُ بِيَدِهِ سَوْقَهَا وَأَعْنَاقَهَا حَتَّى أَكْمَلَ اسْتِعْرَاضَهَا، [عن ابن عباس رضي الله عنه والزهري وابن كيسان وقطرب: طفق يمسح أعراف الخيل وسوقها بيده حبا لها]، وهذا وجه الأوبة التي وصف بها سليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. [أبو بكر الجزائري (٤/٤٤٨)]. وقوله تعالى: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ فِيهِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا: عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ، قَالَهُ عَلِيٌّ رضي الله عنه. الثَّانِي: عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: حَتَّى تَوَارَتْ الشَّمْسُ بِالْحِجَابِ. الثَّانِي: تَوَارَتْ الْخَيْلُ بِالْحِجَابِ. وَالْحِجَابُ اللَّيْلُ يَسْمَى حِجَابًا لِأَنَّهُ يَسْتُرُ مَا فِيهِ. [الماوردي (٩٣/٥)].

(١) هذه الخرافات من أكاذيب بني إسرائيل، قال الإمام القاضي عياض في (الشفاء): «ولا يصح ما نقله الإخباريون من تشبه الشيطان به، وتسلمته على ملكه، وتصرفه في أمته بالجور في حكمه؛ لأن الشياطين لا يسلطون على مثل هذا، وقد عصم الأنبياء من مثله»، وكذلك الإمام الحافظ الناقد: ابن كثير في تفسيره قال بعد أن ذكر الكثير منها: «وهذه كلها من الإسرائيليات»، والصحيح المتعين في تفسير الفتنة هو ما جاء في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ لَا طُوفَنَ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً تَحْمِلُ كُلُّ امْرَأَةٍ فَارِسًا يَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَلَمْ يَقُلْ وَلَمْ تَحْمِلْ شَيْئًا إِلَّا وَاحِدًا سَاقِطًا أَحْدُ شَقِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: لَوْ قَالَهَا لَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ». فهذا هو المتعين في تفسير الآية، وخير ما يفسر به كلام الله هو ما صح عن رسول الله، وقد بينت بعض الروايات: أن الترك كان نسيانًا، والمراد بصاحبه: الملك كما جاء في بعضها. [الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير لمحمد أبو شهبه (ص: ٢٧٥)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ عَفْرِيَّتًا مِّنَ الْجِنِّ تَقَلَّتْ عَلَى الْبَارِحَةِ - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - لَيَقْطَعَنَّ عَلَيَّ الصَّلَاةَ فَأَمْكِنَنِي اللَّهُ مِنْهُ وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى سَارِيَةٍ مِّنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا وَتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾». أخرجه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١).

﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ﴾ أَعْطِ مِنْهُ مَنْ شِئْتَ ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ عَنِ الْإِعْطَاءِ ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ٣٩ ﴿أَيُّ: لَا حِسَابَ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ. ٤٠﴾ ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ ٤١ ﴿تَقَدَّمَ مِثْلُهُ ٤٢﴾. ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ وَآتَىٰ﴾ ٤٣ ﴿بِأَنِّي﴾ مَسْنَى الشَّيْطَانِ بِنُصْبٍ ﴿بِضُرٍّ﴾ وَعَذَابٍ ﴿٤٤﴾ أَلَمِ، وَنَسَبَ ذَلِكَ إِلَى الشَّيْطَانِ وَإِنْ كَانَتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مِنْ اللَّهِ تَأْدِبًا مَعَهُ تَعَالَى. وَقِيلَ لَهُ: ﴿أَرْكُضْ﴾ اضْرِبْ ﴿بِرَجْلِكَ﴾ الْأَرْضَ، فَضَرَبَ فَتَبِعَتْ عَيْنُ مَاءٍ، فَقِيلَ: ﴿هَذَا مُعْتَسِلٌ﴾ مَاءٌ تَغْتَسِلُ بِهِ ﴿بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ ٤٥ ﴿تَشْرَبُ مِنْهُ، فَاعْتَثِلْ وَشَرِبَ فَذَهَبَ عَنْهُ كُلُّ دَاءٍ كَانَ بِبَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ ٤٦ أَيُّ: أَحْيَا اللَّهُ لَهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أَوْلَادِهِ ٤٧ وَرَزَقَهُ مِثْلَهُمْ ﴿رَحْمَةً﴾ نِعْمَةً ٤٨ ﴿مِنَّا وَذَكَّرَىٰ﴾ عِظَةً ﴿لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ٤٩ لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ. ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ هُوَ حُزْمَةٌ مِنْ حَشِيشٍ أَوْ قِضْبَانٍ ﴿فَاضْرِبْ بِهِ﴾ زَوْجَتَكَ، وَكَانَ قَدْ حَلَفَ لِيُضْرِبَ بِهَا مِائَةَ ضَرْبَةٍ لِإِبْطَائِهَا عَلَيْهِ يَوْمًا ﴿وَلَا تَحْتِثْ﴾ بِتَرْكِ ضَرْبِهَا، فَأَخَذَ مِائَةَ عُودٍ مِنَ الْإِذْخِرِ ٥٠ أَوْ غَيْرِهِ فَضْرِبَ بِهَا بِهِ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ﴾ أَيُّوبُ ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ٥١

(١) اختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ فقال قتادة: إشارة إلى ما فعله بالجن، فامنن على من شئت منهم، وأطلقه من وثاقه وسرحه من خدمته، أو أمسك أمره كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليه من جماعهن، وقال الحسن: أشار إلى جميع ما أعطاه من الملك، وأمره بأن يمن على من يشاء ويمسك عمن يشاء، فكأنه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم منه أن مشيئته إنما تتصرف بحكم طاعة الله. وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية. [ابن عطية (٤/ ٥٠٦)].

(٢) في الآية (٢٥) من هذه السورة.

(٣) جعل المؤلف الهبة بمعنى الإحياء، ولكن في هذا نظراً؛ لأن الإحياء يحتاج إلى ثبوت الإمامة من قبل، وليس في الآية ما يدل على هذا، بل إن الله وهب له أهله حيث أووا إليه بعد أن شردوا منه بسبب المرض. [ابن عثيمين تفسير ص (ص: ١٨٥)].

(٤) إن كان عائداً على الأهل ومن وهب له من جديد فهي رحمة مخلوقة، والرحمة قد تطلق على المخلوق كما قال الله تعالى في الجنة: ﴿أَنْتَ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءٍ﴾ أخرجه البخاري (٧٤٤٩)، ومسلم (٢٨٤٦). وعلى هذا فتفسير المؤلف للرحمة بالنعمة صحيح. إذن كلام المؤلف لا يمكن أن يُخَطَأَ على الإطلاق حيث فسّر الرحمة بالنعمة، ومعروف أن الأشاعرة يفسرون رحمة الله بالنعمة أو بالإحسان، ولا يرون أن الله رحمة هي صفته، فكلام المؤلف لا يُتَّقَدُّ من كل وجه؛ لاحتمال أن يكون المراد بالرحمة ما وهب الله له من الأهل ومثلهم معهم، يعني أنها يراد بها الموهوب والموهوب لا شك أنه مخلوق. أما إذا أردنا ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ الرحمة التي هي صفة الله، أي: أن هذا ناشئ عن رحمته التي نحن متصفون بها وهو الرب عز وجل فإن تفسير المؤلف ليس بصحيح؛ لأن الرحمة حيث تكون صفة من صفات الله ليست نعمة خلقاً بائناً عن الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير ص (ص: ١٨٦)].

(٥) «الإذخر» بكسر الهمزة: حشيشة طيبة الرائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب. [النهاية لابن الأثير (١/ ٣٣)].

رَجَّاعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي﴾ أَصْحَابَ الْقُوَى فِي الْعِبَادَةِ ﴿وَالْأَبْصَرِ ٥٥﴾ الْبَصَائِرِ فِي الدِّينِ، وَفِي قِرَاءَةِ: ﴿عَبْدَنَا﴾ وَ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ بَيَانٌ لَهُ، وَمَا بَعْدَهُ عَطْفٌ عَلَى ﴿عَبْدَنَا﴾. ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ هِيَ ﴿ذِكْرَى الدَّارِ ٥٦﴾ الْآخِرَةِ، أَيُّ: ذِكْرُهَا وَالْعَمَلُ لَهَا، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ وَهِيَ لِلْبَيَانِ. ﴿وَأَنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ﴾ الْمُخْتَارِينَ ﴿الْأَخْيَارِ ٥٧﴾ جَمْعُ خَيْرٍ بِالتَّشْدِيدِ. ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ﴾ وَهُوَ نَبِيٌّ، وَاللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ اخْتَلَفَ فِي نُبُوَّتِهِ، قِيلَ: كَفَلَ مِائَةَ نَبِيِّ فَرُّوا إِلَيْهِ مِنَ الْقَتْلِ ^(١) ﴿وَكُلُّ﴾ أَيُّ: كُلُّهُمْ ﴿مِّنَ الْأَخْيَارِ ٥٨﴾ جَمْعُ خَيْرٍ بِالتَّسْقِيلِ. ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ لَهُمْ بِالشَّأْنِ الْجَمِيلِ هُنَا ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الشَّامِلِينَ لَهُمْ ﴿لِحُسْنِ مَّآبٍ ٥٩﴾ مَرَجِعٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ بَدَلٌ أَوْ عَطْفٌ بَيَانٌ لِّ﴿حُسْنِ مَّآبٍ﴾ ﴿مُفْتَحَةٌ لَهُمْ﴾ الْآبُوتُ ﴿٦٠﴾ مِنْهَا. ﴿مُتَكِّينَ فِيهَا﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفِكَهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ٥١﴾ * وَعِنْدَهُمْ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ ﴿حَابِسَاتُ الْبَصَائِرِ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ﴾ ﴿أُتْرَابٍ ٥٢﴾ أَسْنَانُهُنَّ وَاحِدَةٌ وَهُنَّ بَنَاتُ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً، جَمْعُ «تَرْبٍ». ﴿هَذَا﴾ الْمَذْكُورُ ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بِالْغَيْبَةِ، وَبِالْخِطَابِ الْتِفَاتًا ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ ٥٣﴾ أَيُّ: لِأَجْلِهِ. ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ٥٤﴾ أَيُّ: انْقِطَاعُ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنْ «رِزْقُنَا» أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ لِّ﴿إِنَّ﴾ أَيُّ: دَائِمًا، أَوْ دَائِمٌ. ﴿هَذَا﴾ الْمَذْكُورُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ ﴿لَشَرِّ مَّآبٍ ٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ ٥٦﴾ الْفِرَاشُ. ﴿هَذَا﴾ أَيُّ: الْعَذَابُ الْمَفْهُومُ مِمَّا بَعْدَهُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ﴾ أَيُّ: مَاءٌ حَارٌّ مُحْرِقٌ ﴿وَعَسَاقُ ٥٧﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ. ﴿وَأُخْرُ﴾ بِالْجَمْعِ وَالْأَفْرَادِ ﴿مِنْ شَكْلِهِ﴾ أَيُّ: مِثْلُ الْمَذْكُورِ مِنَ الْحَمِيمِ وَالْعَسَاقِ ﴿أَزْوَاجٍ ٥٨﴾ أَصْنَافُ، أَيُّ: عَذَابُهُمْ مِنْ أَنْوَاعٍ مُخْتَلَفَةٍ. وَيُقَالُ لَهُمْ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ بِاتِّبَاعِهِمْ: ﴿هَذَا فَوْجٌ﴾ جَمْعُ ﴿مُفْتَحِمٌ﴾ دَاخِلٌ ﴿مَعَكُمْ﴾ النَّارَ بِشِدَّةٍ، فَيَقُولُ الْمُتَّبِعُونَ: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أَيُّ: لَا سَعَةَ عَلَيْهِمْ ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ٥٩﴾ قَالُوا: أَيُّ: الْآتِبَاعُ ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ﴾ أَيُّ: الْكُفَرُ ﴿لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ٦٠﴾ لَنَا وَلَكُمْ النَّارُ. ﴿قَالُوا﴾ أَيْضًا: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرِذْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ أَيُّ: مِثْلُ عَذَابِهِ عَلَى كُفْرِهِ ﴿فِي النَّارِ ٦١﴾ وَقَالُوا: أَيُّ: كُفَّارُ مَكَّةَ وَهُمْ فِي النَّارِ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مِّنَ الْأَشْرَارِ ٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا بِضَمِّ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا، كُنَّا نَسْخَرُ بِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْيَأَى لِلنَّسَبِ، أَيُّ: أَمَفَقُودُونَ هُمْ ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾

(١) «قيل» تدلُّ على أنه ضعيف، فالظاهر أن معنى «ذا الكفل» يعني: ذا العمل، صاحب العمل الكثير والجد والنشاط. [ابن عثيمين تفسير

مَالَتْ ﴿عَنْهُمْ الْأَبْصَرُ﴾ ٦٣ ﴿فَلَمْ نَرَهُمْ، وَهُمْ فَقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ وَصُهَيْبٍ وَسَلْمَانَ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ﴾ وَاجِبٌ وَقُوْعُهُ ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ ٦٤ ﴿كَمَا تَقَدَّمَ. ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِكُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ﴾ مُخَوِّفٌ بِالنَّارِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ٦٥ ﴿لِخَلْقِهِ. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ﴿الْغَفَّارُ﴾ ٦٦ ﴿لَأَوْلِيَائِهِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿هُوَ نَبَوًّا عَظِيمٌ﴾ ٦٧ ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ ٦٨ ﴿أَيُّ: الْقُرْآنِ الَّذِي أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ وَجِئْتُكُمْ فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُ إِلَّا بَوْحِي^(١). وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةِ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ٦٩ ﴿فِي شَأْنِ آدَمَ، حِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] إِلَى آخِرِهِ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿يُوحَىٰ﴾ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا﴾ أَيُّ: أَنِّي ﴿نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ٧٠ ﴿بَيْنَ الْإِنذَارِ. أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ ٧١ ﴿هُوَ آدَمَ. ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أَتَمَمْتُهُ ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أَجْرَيْتُ^(٢) ﴿فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ فَصَارَ حَيًّا، وَإِضَافَةُ الرُّوحِ إِلَيْهِ تَشْرِيفٌ لِآدَمَ، وَالرُّوحُ: جِسْمٌ لَطِيفٌ يَحْيَا بِهِ الْإِنْسَانُ بِنُفُودِهِ فِيهِ^(٣) ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ﴾ ٧٢ ﴿سُجُودَ تَحِيَّةٍ بِالْإِنْحِنَاءِ^(٤) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ٧٣ ﴿فِيهِ تَأْكِيدَانِ. ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ هُوَ أَبُو الْجِنِّ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿أَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ٧٤ ﴿فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالَ يَبَايِلِسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ أَيُّ: تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ؟ وَهَذَا تَشْرِيفٌ لِآدَمَ فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ تَوَلَّى اللَّهُ خَلْقَهُ^(٥) ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ الْآنَ عَنِ السُّجُودِ؟ إِسْتَفْهَامٌ تَوِيخٍ ﴿أَمْ كُنْتَ

(١) النبأ: الخبر، ويعني به ما تضمنته الشريعة من التوحيد والرسالة والدار الآخرة، وقيل: هو القرآن، وقيل: هو يوم القيامة والأول أعم وأرجح. [ابن جزي (٢/٢١٣)].

(٢) كأنه رحمه الله أوّل معنى الآية، أوّل النفخ بالإجراء، ولكن هذا خلاف ظاهر الآية، فظاهر الآية أن الله تعالى نفخ فيه من روحه، وهذا النفخ نثبته على ظاهره لكن بدون أن يكون مماثلاً لنفخ المخلوقين، وتفسيره بالإجراء تفسير باللازم؛ لأنه إذا نفخ فيه الروح لزم أن تجري في البدن وتسري فيه. [ابن عثيمين تفسير ص (ص: ٢٣٥)].

(٣) تعريف الروح مما استأثر الله بعلمه، لذا لم يتابع السيوطي شيخه المحلي في هذا التعريف، وانظر التعليق على آية (٨٥) من سورة الإسراء.

(٤) انظر التعليق على آية (٢٩) من سورة الحجر.

(٥) معنى الآية أن الله تعالى خلق آدم بيده، وخلق غير آدم من الشياطين والملائكة بكلمته؛ أي: بقوله: «كن»، ... وهذا هو وجه الميزة، والخصيصة لآدم. [ابن عثيمين تفسير ص (ص: ٢٣٩)]. ولفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع. مفردا، ومشئ، ومجموعا. فالمفرد: كقوله: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، والمشئ كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾، والمجموع كقوله: ﴿عَمِلْتُ أَيْدِينَا﴾ [يس: ٧١]، فحيث ذكر اليد مشئة. أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدِي﴾، وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم

مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ الْمُتَكَبِّرِينَ فَتَكَبَّرْتَ عَنِ السُّجُودِ لِكَوْنِكَ مِنْهُمْ. ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا ﴿مِنَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: مِنَ السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٨﴾ مَطْرُودٌ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٧٩﴾ الْجَزَاءُ. ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ أَيُّ النَّاسِ. ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٢﴾ وَقَتِ الْفَتْخَةِ الْأُولَى. ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٤﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ. ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ ﴿٨٥﴾ بِنَصْبِهِمَا، وَرَفَعَ الْأَوَّلِ وَنَصَبِ الثَّانِي، فَنَصَبُهُ بِالْفِعْلِ بَعْدَهُ، وَنَصَبُ الْأَوَّلِ، قِيلَ: بِالْفِعْلِ الْمَذْكُورِ، وَقِيلَ: عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيُّ: أَحَقُّ الْحَقِّ، وَقِيلَ: عَلَى نَزْعِ حَرْفِ الْقَسَمِ، وَرَفَعُهُ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ مَحذُوفٌ الْخَبَرُ، أَيُّ: فَالْحَقُّ مِنِّي. وَقِيلَ: فَالْحَقُّ قَسَمِي، وَجَوَابُ الْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ﴾ بِذُرِّيَّتِكَ ﴿وَمِمَّنْ تَبَعَكَ مِنْهُمْ﴾ أَيُّ: النَّاسِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿مِنْ أَجْرِ﴾ جُعِلَ ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ ﴿٨٦﴾ الْمُتَقَوِّلِينَ الْقُرْآنَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي. ﴿إِنْ هُوَ﴾ أَيُّ: مَا الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ لِلنَّاسِ وَالْجِنِّ وَالْعُقَلَاءِ دُونَ الْمَلَائِكَةِ. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿نَبَأَهُ﴾ خَبَرَ صَدِّقِهِ ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ ﴿٨٨﴾ أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَ«عَلِمَ» بِمَعْنَى: عَرَفَ، وَاللَّامُ قَبْلَهَا لَامُ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: وَاللَّهُ.

يعد الفعل بالباء. فهذه ثلاثة فروق: فلا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿عَمِلْتُ أَيْدِيًا﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿عَمِلْتُ أَيْدِيًا﴾ ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثبتت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه. كقوله: ﴿بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠] ... وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما بشرته يده ... وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يوم القيامة، «يَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ». أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤). [الصواعق المرسلة لابن القيم (١/ ٩٢)].

(١) ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض. [ابن عطية (٤/ ٥١٥)].

(٢) لأن المراد بالذكر الموعظة والتخويف، وتذكير العواقب، وهذا إنما يناسب المكلفين، وهم الثقلان فقط. [صديق حسن (١٢/ ٧٣)].

(٣) أي: عند ظهور الإسلام، وانتشاره، ودخول الناس فيه أفواجا أفواجا، من صحة خبره، وأنه الحق والصدق. وهذا من أجل معجزات القرآن؛ لأنه من الغيوب التي ظهر مصداقها؛ إذ كان زمن الإخبار به زمن قلة من المؤمنين، وخوف من المشركين، فلم يمحض ربح من الزمن حتى أبدل الله قلتهم كثرة، وضعفهم قوة، وخوفهم أمنا، وكمونهم ظهورا وانتشارا. فصدق الله العظيم، وصدق نبيه الكريم، وحقت كلمة الله على الكافرين، والحمد لله رب العالمين. [القاسمي (٨/ ٢٧٧)].

سُورَةُ الزُّمَرِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُلْ يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾ آيَةٌ فَمَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ، مُبْتَدَأٌ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿أَنْزَلْ﴾ ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿٢﴾ مِنَ الشِّرْكِ، أَيُّ: مُوَحِّدًا لَهُ ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ لَا يَسْتَحِقُّهُ غَيْرُهُ ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ الْأَصْنَامَ﴾ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ وَهُمْ كُفَّارٌ مَكَّةَ، قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ قُرْبَى، مُصَدَّرٌ بِمَعْنَى: تَقْرِيْبًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، فَيَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَالْكَافِرِينَ النَّارَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ فِي نِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَى اللَّهِ ﴿كَفَّارٌ﴾ ﴿٣﴾ بِعِبَادَتِهِ غَيْرِ اللَّهِ. ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كَمَا قَالُوا: ﴿أَتَتَّخِذُ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] ﴿لَا صُطْفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وَاتَّخَذَهُ وَلَدًا، غَيْرَ مَنْ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَعُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ، وَالْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيْهًا لَهُ عَنِ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ﴿٤﴾ لِخَلْقِهِ. ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿خَلَقَ﴾ ﴿يُكْوِّرُ﴾ يَدْخُلُ ﴿الَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ﴾ يَدْخُلُهُ ﴿عَلَى اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي فِي فَلَكَهِ﴾ ﴿لَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ، الْمُتَّقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ ﴿الْغَفُّرُ﴾ ﴿٥﴾ لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أَيُّ: آدَمَ ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ حَوَاءَ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ﴾ الْإِبِلَ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمَ وَالضَّأْنَ وَالْمَعْزَ ﴿ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ مِنْ كُلِّ زَوْجَانِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، كَمَا بَيَّنَّ فِي سُورَةِ «الْأَنْعَامِ» ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أَيُّ: نُطْفَا ثُمَّ عَلَقًا ثُمَّ مُضْغًا ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ هِيَ: ظُلْمَةُ الْبَطْنِ وَظُلْمَةُ الرَّحِمِ وَظُلْمَةُ الْمَشِيْمَةِ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ ﴿٦﴾ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ. ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ وَإِنْ أَرَادَهُ مِنْ بَعْضِهِمْ ﴿وَأِنْ تَشْكُرُوا﴾ اللَّهُ فَتُوْمِنُوا ﴿يَرْضَاهُ﴾

(١) سورة الأنعام آية (١٤٣).

(٢) يريد به بالإرادة الكونية لا الإرادة الشرعية، وهذا رد على قول مبتدع يقولون: إن الله لا يريد إلا ما يرضى، وأما ما لا يرضاه فلا يريد به، وعلى هذا القول الباطل تكون المعاصي واقعة بغير إرادة الله، ولا شك أن هذا قول يبطله نصوص كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ

بُسْكُونِ الْهَاءِ وَضَمِّهَا مَعَ إِشْبَاعِ وَدُونِهِ، أَيِ: الشُّكْرِ ﴿لَكُمْ وَلَا تَزِرُ﴾ نَفْسُ ﴿وَازِرَةٌ وَزِرٌ﴾ نَفْسٍ ﴿أُخْرَى﴾ أَيِ: لَا تَحْمِلُهُ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٧﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ أَيِ: الْكَافِرُ ﴿ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ﴾ تَضَرَّعَ ﴿مُنِيْبًا﴾ رَاجِعًا ﴿إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً﴾ أَعْطَاهُ إِنْعَامًا ﴿مِنْهُ نَسِيَ﴾ تَرَكَ ﴿مَا كَانَ يَدْعُو﴾ يَتَضَرَّعُ ﴿إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وَهُوَ اللَّهُ فَ﴿مَا﴾ فِي مَوْضِعِ «مَنْ» ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شُرَكَاءَ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّهَا ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ بَقِيَّةِ أَجَلِكَ ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ٨﴾ أَمِنْ ﴿بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ﴾ هُوَ قَنْتٌ ﴿قَائِمٌ بِوِطَائِفِ الطَّاعَاتِ﴾ عَائِنَاءُ اللَّيْلِ ﴿سَاعَاتِهِ﴾ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴿فِي الصَّلَاةِ﴾ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ﴿أَيِ: يَخَافُ عَذَابَهَا﴾ وَيَرْجُوا رَحْمَةً ﴿جَنَّةٍ ٩﴾ رَبِّهِ كَمَنْ هُوَ عَاصٍ بِالْكَفْرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَمِنْ﴾ بِمَعْنَى: «بَلْ» وَ«الْهَمْزَةُ» ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيِ: لَا يَسْتَوِيَانِ، كَمَا لَا يَسْتَوِي الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَعَبَّطُ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ ١٠﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿قُلْ يِعْبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ أَيِ: عَذَابُهُ بِأَنْ تُطِيعُوهُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ بِالطَّاعَةِ ﴿حَسَنَةً﴾ هِيَ الْجَنَّةُ ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾ فَهَاجِرُوا إِلَيْهَا مِنْ بَيْنِ الْكُفَّارِ وَمُشَاهِدَةِ الْمُنْكَرَاتِ ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَمَا يُنْتَلُونَ بِهِ ﴿أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ١١﴾ بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَلَا مِيزَانٍ ١٢. ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ١٣﴾ مِنَ الشِّرْكِ. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ﴾ أَيِ: بِأَنْ ﴿أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ١٤﴾ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ. ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ١٦ مِنَ الشِّرْكِ. ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ١٧﴾ غَيْرِهِ، فِيهِ تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَإِذَانٌ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

يَهْدِيهِ وَيُشْرَحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] فالله عز وجل يريد لهذا وهذا، لكن بالإرادة الكونية؛ لأن الكل ملكه سبحانه وتعالى. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٦٦)].

(١) المراد بالرحمة هنا رحمة الله التي هي فعله؛ يعني يرجو أن يرحمه الله بالأمرين؛ بالنجاة من النار ويدخول الجنة، هذا المعنى أحسن؛ لأن المتبادر في الغالب لمعنى الرحمة أن تكون فعل الله؛ يعني أن الله يرحمك. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ١٠٠)].

(٢) هذا يحتمل وجهين أحدهما أن الصابر يوفي أجره ولا يحاسب على أعماله، فهو من الذين يدخلون الجنة بغير حساب الثاني أن أجر الصابرين بغير حصر بل أكثر من أن يحصر بعدد أو وزن وهذا قول الجمهور. [ابن جزي (٢/٢١٨)]. وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعده الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر ومحله عند الله، وأنه معين على كل الأمور. [السعدي (ص: ٧٢٠)].

أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١٥﴾ بَتَخْلِيدِ الْأَنْفُسِ فِي النَّارِ، وَبِعَدَمِ وُصُولِهِمْ إِلَى الْحُورِ الْمُعَدَّةِ لَهُمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١٦﴾ الْبَيِّنُ. ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ طَبَاقٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ مِّنَ النَّارِ ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ لِيَتَّقُوهُ، يَدُلُّ عَلَيْهِ: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ ﴿الْأَوْتَانَ﴾ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا ﴿أَقْبِلُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ وَهُوَ مَا فِيهِ فَلَاحُهُمْ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ ﴿١٩﴾ أَصْحَابُ الْعُقُولِ. ﴿أَفَمَن حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أَي: ﴿لَا مَلَأَن جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] ﴿أَفَأَنْتُ تُنْقِذُ﴾ تُخْرِجُ ﴿مَن فِي النَّارِ﴾ ﴿٢٠﴾ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَأَقِيمَ فِيهِ الظَّاهِرُ مَقَامَ الْمُضْمَرِ وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، وَالْمَعْنَى: لَا تَقْدِرُ عَلَى هِدَايَتِهِ فَتُنْقِذُهُ مِنَ النَّارِ. ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بِأَن أَطَاعُوهُ ﴿لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أَي: مِّنْ تَحْتِ الْغُرْفِ الْفُوقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ مَصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْوَعْدَ﴾ ﴿٢١﴾ وَعَدَهُ. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعْلَمُ ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ﴾ أَدْخَلَهُ أَمْكَنَةً نَّبْعٍ ﴿فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يَبْسُ ﴿فَتَرْتَهُ﴾ بَعْدَ الْخُضْرَةِ مَثَلًا ﴿مُضْغَرًّا ثُمَّ يُجْعَلُهُ حُطْمًا﴾ فَنَاتًا ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ﴾ تَذَكِيرًا ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٢٢﴾ يَتَذَكَّرُونَ بِهِ؛ لِدَلَالَتِهِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُدْرَتِهِ. ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ فَاهْتَدَى ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ كَمَنْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِهِ، دَلَّ عَلَى هَذَا: ﴿فَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: عَنِ قَبُولِ الْقُرْآنِ ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٢٣﴾ يَبِّنُ. ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ بَدَلٌ مِّنْ ﴿أَحْسَنَ﴾، أَي: قُرْآنًا ﴿مُتَشَبِّهًا﴾ أَي: يُشَبِّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي النِّظْمِ وَغَيْرِهِ ﴿مَثَانِي﴾ ثُبَيِّ فِيهِ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ وَغَيْرُهُمَا ﴿تَقْشَعُرُ مِنْهُ﴾ تَرْتَعِدُ عِنْدَ ذِكْرِ وَعِيدِهِ ﴿جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ يَخَافُونَ ﴿رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ﴾ تَطْمَئِنُّ ﴿جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَي: عِنْدَ ذِكْرِ وَعِيدِهِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْكِتَابُ ﴿هُدًى﴾ اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٤﴾ أَفَمَن يَتَّقِي﴾ يَلْقَى ﴿بِوَجْهِهِ سَوْءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أَي: أَشَدَّهُ بِأَن يُلْقَى فِي النَّارِ مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، كَمَن أَمِنَ مِنْهُ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أَي:

(١) من رشاقة ألفاظ القرآن إشار كلمة «شرح» للدلالة على قبول الإسلام لأن تعاليم الإسلام وأخلاقه وآدابه تكسب المسلم فرحاً بحاله ومسرة برضى ربه واستخفافاً للمصائب والكوارث لجزمه بأنه على حق في أمره وأنه مثاب على ضربه وأنه راج رحمة ربه في الدنيا والآخرة ولعدم مخالطة الشك والحيرة ضميره. [ابن عاشور (٢٣/ ٣٨٠)].

كُفَّارٍ مَكَّةَ ﴿دُوفُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ٢٤: أَي: جَزَاءُهُ. ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ رُسُلَهُمْ فِي إِيَّانِ الْعَذَابِ ﴿فَاتَّهَمُوا الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ٢٥: مِنْ جِهَةٍ لَا تَخْطُرُ بِأَلْفِهِمْ. ﴿فَادَّاهَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ﴾ الذَّلَّ وَالْهَوَانَ، مِنَ الْمَسْخِ وَالْقَتْلِ وَغَيْرِهِمَا ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ٢٦: عَذَابُهَا مَا كَذَّبُوا. ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ٢٧: يَتَعِظُونَ. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مُؤَكَّدَةٌ ﴿غَيْرِ ذِي عِوَجٍ﴾ أَي: لَبْسٍ وَاخْتِلَافٍ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ٢٨: الْكُفْرَ. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ لِلْمُشْرِكِ وَالْمُوحِدِ ﴿مَثَلًا رَجُلًا﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَثَلًا﴾ ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ﴾ مُتَنَازِعُونَ سَيِّئَةُ أَخْلَاقِهِمْ ﴿وَرَجُلًا سَلِيمًا﴾ خَالِصًا ﴿لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ تَمَيزٌ، أَي: لَا يَسْتَوِي الْعَبْدُ لِحِمَاةٍ وَالْعَبْدُ لِوَاحِدٍ، فَإِنْ الْأَوَّلُ إِذَا طَلَبَ مِنْهُ كُلٌّ مِنْ مَالِكِيهِ خِدْمَتَهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَحِيرَ فِيمَنْ يَخْدُمُهُ مِنْهُمْ وَهَذَا مَثَلٌ لِلْمُشْرِكِ، وَالثَّانِي مَثَلٌ لِلْمُوحِدِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وَحْدَهُ ٢٩: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٠: مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْعَذَابِ فَيُشْرِكُونَ. ﴿إِنَّكَ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ٣١: سَتَمُوتُ وَيَمُوتُونَ فَلَا شِمَاتَةَ بِالْمَوْتِ، نَزَلَتْ لَمَّا اسْتَبَطُوا مَوْتَهُ ﷺ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَكُمْ مِنَ الْمَظَالِمِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ٣٢: * ﴿فَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدَ ﴿أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ ﴿وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿إِذْ جَاءَهُهُ الْيُسُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ ٣٣: بَلَى. ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالْصِّدْقِ﴾ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ فَالَّذِي بِمَعْنَى الَّذِينَ ٣٤: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ ٣٥: الشَّرْكُ. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٣٦: لَا نَفْسِهِمْ بِإِيمَانِهِمْ. ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٣٧

(١) والقصد أن توحيد المعبود فيه توحيد الوجهة، ودرء الفرقة. كما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿عَارَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قال أبو السعود: تقرير لما قبله من نفي الاستواء بطريق الاعتراض، وتنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية بتوفيق الله تعالى. وأنها نعمة جليلة موجهة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته. أو على أن بيانه تعالى بضرب المثل، أن لهم المثل الأعلى، وللمشركين مثل السوء. صنع جميل ولطف تام منه عز وجل، مستوجب لحمده وعبادته. [القاسمي (٢٨٧/٨)].

(٢) قيل: الذي جاء بالصدق النبي ﷺ، والذي صدق به أبو بكر. وقيل: الذي جاء بالصدق جبريل، والذي صدق به محمد ﷺ. وقيل: الذي جاء بالصدق الأنبياء، والذي صدق به المؤمنون. واختار ابن عطية أن يكون على العموم، وجعل الذي للجنس، كأنه قال: الفريق الذي؛ لأنه في مقابلة من كذب على الله وكذب بالصدق والمراد به العموم. [ابن جزي (٢٢١/٢)]. ويؤيده قراءة ابن مسعود ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالْصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ﴾. [الشوكاني (٥٣١/٤)].

﴿أَسْأَلُكَ﴾ وَ ﴿أَحْسِنَ﴾ بِمَعْنَى: السَّيِّئِ وَالْحَسَنِ^(١). ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ أَي: النَّبِيُّ؟ بَلَى ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾
 الْخِطَابُ لَهُ ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: الْأَصْنَامِ أَنْ تَقْتُلَهُ أَوْ تَخْبِلَهُ ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَمَنْ يَهْدِ
 اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غَالِبٍ عَلَى أَمْرِهِ ﴿ذِي أَنْتِقَامٍ ۖ﴾ مِنْ أَعْدَائِهِ، بَلَى. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ
 ﴿سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي:
 الْأَصْنَامِ ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيَّهِ ۚ لَا﴾ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتَهُ ۚ لَا،
 وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ فِيهِمَا﴾ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿يَتَّقُ الْوَارِثُونَ﴾. ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى
 مَكَانَتِكُمْ﴾ حَالَتِكُمْ ﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾ عَلَى حَالَتِي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ﴾ مَنْ ﴿مَوْصُولُهُ مَفْعُولُ الْعِلْمِ﴾ يَأْتِيهِ عَذَابٌ
 يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ يُنْزَلُ ﴿عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ﴾ دَائِمٌ هُوَ عَذَابُ النَّارِ وَقَدْ أَخْرَاهُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
 الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «أَنْزَلُ» ﴿فَمَنْ أَهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ۖ وَفَمَنْ ضَلَّ فَاتِّمَامُ يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا
 أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ﴾ فَتَجْبِرُهُمْ عَلَى الْهَدَى. ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَ﴾ يَتَوَفَّى ﴿الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي
 مَنَامِهَا﴾ أَي: يَتَوَفَّاها وَقْتَ النَّوْمِ ﴿فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي:
 وَقْتَ مَوْتِهَا، وَالْمُرْسَلَةُ نَفْسُ التَّمْيِيزِ، تَبْقَىٰ بِدُونِهَا نَفْسُ الْحَيَاةِ، بِخِلَافِ الْعَكْسِ^(٢) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ
 ﴿لَآيَاتٍ﴾ لِّدَلَالَاتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۖ﴾ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَىٰ الْبَعْثِ، وَقُرَيْشٌ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي
 ذَلِكَ. ﴿أَمْرٌ﴾ بَلْ ﴿اتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: الْأَصْنَامِ آلِهَةً ﴿شُفَعَاءَ﴾ عِنْدَ اللَّهِ بِرَعْمِهِمْ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ يَشْفَعُوا﴾

(١) إضافة الأحسن إلى ما بعده ليست من إضافة المفضل إلى المفضل عليه بل من إضافة الشيء إلى بعضه قصداً إلى التوضيح من غير اعتبار تفضيل، قال مقاتل: يجزيهم بالمحاسن من أعمالهم ولا يجزيهم بالمساوئ، وعم الأحسن جميع حسناتهم، ولولا هذا التأويل لاقتضى النظم أنه يكفر عنهم أقبح السيئات فقط ويجزيهم على أفضل الحسنات فقط. [صديق حسن (١٢/١١٦)].

(٢) أي يقبضها لكنه ليس قبضاً تاماً، بل قبضاً مقيداً، ولهذا تجد النائم له إحساس من وجه وليس له إحساس من وجه آخر، فباعتبار القوى الظاهرة لا إحساس له، لا يرى ولا يسمع، وباعتبار القوى الباطنة، وأنه لو نبه لانتبه يكون حياً، فصلة الروح بالنائم غير صلتها باليقظان وغير صلتها بالميت، فهي وسط بين الحي اليقظان وبين الميت. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٢٩٨)].

(٣) قال ابن عباس رضي الله عنهما: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَأَرْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادُكَ الصَّالِحِينَ». أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤). [ابن كثير (٧/١٠٢)].

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ مِنَ الشَّفَاعَةِ وَغَيْرِهَا ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ٤٣ ﴿أَنْتُمْ تَعْبُدُونَهُمْ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ؟ لَا﴾. ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ أَي: هُوَ مُخْتَصٌّ بِهَا، فَلَا يَشْفَعُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٤٤ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أَي: دُونَ إِلَهِتِهِمْ ﴿أُشْمِئِزَّتْ﴾ نَفَرَتْ وَانْقَبَضَتْ ﴿قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: الْأَصْنَامُ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ٤٥ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ بِمَعْنَى: يَا اللَّهُ ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُبْدِعَهُمَا ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ٤٦ ﴿مِنْ أَمْرِ الدِّينِ، إِهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ ٤٧. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ٤٨ ﴿يَظُنُّونَ﴾ ٤٩. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٥٠ ﴿أَي: الْعَذَابُ. ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسُ ﴿ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ﴾ أَعْطَيْنَاهُ ﴿نِعْمَةً﴾ إِنْعَامًا ﴿مِمَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنَ اللَّهِ ﴿بِأَنِّي لَهُ أَهْلٌ﴾ ﴿بَلْ هِيَ﴾ أَي: الْقَوْلَةُ ﴿فِتْنَةٌ﴾ بَلِيَّةٌ يُتَكَلَّمُ بِهَا الْعَبْدُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥١ ﴿أَنَّ التَّخْوِيلَ اسْتِدْرَاجٌ وَامْتِحَانٌ. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ، كَقَارُونَ وَقَوْمِهِ الرَّاظِينَ بِهَا ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٥٢ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ أَي: جَزَاؤُهَا ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ أَي: قُرَيْشٍ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ٥٣ ﴿بِفَاتَيْنِ عَذَابًا، فَحَطَّطُوا سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ وَسَّعَ عَلَيْهِمْ. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ امْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِلَاءً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ٥٤ ﴿يَه. ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ بِكُسْرِ النَّوْنِ وَفَتْحِهَا، وَقُرِئَ بِضَمِّهَا ٥٥: تَيَاسَوْا ﴿مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ لِمَنْ تَابَ مِنَ الشَّرِكِ ٥٦ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ٥٧ وَأَنْبِئُوا﴾

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠).

(٢) أي: ظهر لهم يوم القيامة خلاف ما كانوا يظنون لأنهم كانوا يظنون ظنونا كاذبة. قال الزمخشري: المراد بذلك تعظيم العذاب الذي يصيبهم، أي: ظهر لهم من عذاب الله ما لم يكن في حسابهم فهو كقوله في الوعد: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وقيل: معناها عملوا أعمالا حسبوها حسنات، فإذا هي سيئات، وقال الحسن: ويل لأهل الربا من هذه الآية وهذا على أنها في المسلمين والظاهر أنها في الكفار. [ابن جزي ٢/٢٢٣].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها،

إِرجِعُوا ﴿٥٥﴾ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا﴾ أَخْلِصُوا الْعَمَلَ ﴿لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ بِمَنْعِهِ إِنْ لَمْ تُتُوبُوا. ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ هُوَ الْقُرْآنُ ﴿مَنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ قَبْلَ إِيْتَانِهِ بَوَقْتِهِ. بَادِرُوا قَبْلَ ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي﴾ أَصْلُهُ «يَا حَسْرَتِي» أَيُّ: نَدَامَتِي ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: طَاعَتِهِ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيُّ: وَإِنِّي ﴿كُنْتُ لِمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ بِدِينِهِ وَكِتَابِهِ. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ بِالطَّاعَةِ فَاهْتَدَيْتُ ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٩﴾﴾ عَذَابُهُ. ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ رَجَعَةً إِلَى الدُّنْيَا ﴿فَأَكُونُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾﴾ الْمُؤْمِنِينَ. فَيَقَالُ لَهُ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾ الْقُرْآنُ، وَهُوَ سَبَبُ الْهِدَايَةِ ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ تَكَبَّرْتَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهَا ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾﴾ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴿بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ﴾ وَجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلْيَسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٢﴾﴾ عَنِ الْإِيمَانِ؟ بَلَى. ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ﴾ مِنْ جَهَنَّمَ ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشَّرْكَ ﴿بِمَقَازَتِهِمْ﴾ أَيُّ: بِمَكَانِ فَوْزِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ بِأَنْ يُجْعَلُوا فِيهِ ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾﴾ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٤﴾﴾ مُتَصَرِّفٌ فِيهِ كَيْفَ يَشَاءُ. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَيُّ: مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهَا مِنْ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهِمَا ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ مُتَّصِلٌ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ. ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ غَيْرٌ ﴿مَنْصُوبٌ بِ﴾ ﴿أَعْبُدُ﴾ الْمَعْمُولُ لـ ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بُنُونٍ وَاحِدَةٍ، وَبُنُوَيْنِ بِإِدْغَامٍ وَفَكٌّ. ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ

وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زيد البحر. ولا يصح حمل هذه الآية على غير التوبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه... عن ابن عباس رضي الله عنه: أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثرُوا، وزنوا فأكثرُوا. فأتوا محمداً صلوات الله عليه فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزل قوله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾. أخرجه البخاري (٤٨١٠) ومسلم (١٢٢). [ابن كثير (١٠٦/٧)].

(١) الجنب بمعنى الجانِب لغة، وإذا كان بمعنى الجانِب لغة فلا حاجة إلى التأويل، يكون المعنى: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: فِي جَانِبِ اللَّهِ، وجانب الله يعني حقه، وهذا التفصيل الذي ذكرناه هو مؤداه كما قال المؤلف رحمه الله: «يعني طاعته» لكن إذا فسرنا الجنب بالطاعة خرجنا به عن المعنى المطابق للفظ، أما إذا قلنا: الجنب لغة بمعنى الجانِب فإننا فسرناه بما دلت عليه الكلمة لغة، والجانِب من المعلوم أن جانب الله عز وجل، أَيُّ: حقه وشرعه. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٣٩٩)].

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ۖ وَاللَّهُ ﴿لَيْنٌ أَشْرَكْتُ﴾ يَا مُحَمَّدُ فَرَضًا ^(١) ﴿لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿١٥﴾ بَلِ
 اللَّهُ ۖ وَحْدَهُ ﴿فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٦﴾ إِنْعَامُهُ عَلَيْكَ. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ مَا عَرَفُوهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ،
 أَوْ مَا عَظَّمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، حِينَ أَشْرَكُوا بِهِ غَيْرَهُ ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا﴾ حَالٌ، أَي: السَّبْعُ ﴿قَبَضْتُهُ﴾ أَي: مَقْبُوضَةٌ لَهُ،
 أَي: فِي مُلْكِهِ وَتَصَرَّفِهِ ^(٢) ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾ مَجْمُوعَاتٌ ﴿بِيَمِينِهِ﴾ بِقُدْرَتِهِ ^(٣) ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٧﴾ مَعَهُ. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ النَّفْخَةُ الْأُولَى ﴿فَصَعِقَ﴾ مَاتَ ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
 إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ وَغَيْرِهِمَا ^(٤) ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ﴾ أَي: جَمِيعُ الْخَلَائِقِ الْمَوْتَى
 ﴿قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ يَنْتَظِرُونَ مَا يَفْعَلُ بِهِمْ. ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ أَضَاءَتْ ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ حِينَ يَتَجَلَّى اللَّهُ لِفَصْلِ
 الْقَضَاءِ ^(٥) ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ كِتَابُ الْأَعْمَالِ لِلْحِسَابِ ﴿وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ أَي: أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ يَشْهَدُونَ

(١) كلام على سبيل الفرض والمراد به تهيج الرسل وإقنات الكفرة والإشعار على حكم الأمة، وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والآخران للجواب، وإطلاق الإحباط يحتمل أن يكون من خصائصهم لأن شركهم أقبح، وأن يكون على التقيد بالموت كما صرح به في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧] وعطف الخسران عليه من عطف المسبب على السبب. [البضاوي (٥/٤٨)].

(٢) كل شيء في ملكه وتصرفه، الأرض والسماء يوم القيامة وقبل يوم القيامة، لكن القَبْضَةُ بمعنى المقبوضة... فالأرض يوم القيامة قبضة الله عز وجل، وقد جاء ذلك مبيناً في حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه في قصة النبي صلى الله عليه وسلم مع حَبْرٍ من أحبار اليهود: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أخرجه البخاري (٧٤١٥)، ومسلم (٢٧٨٦). [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٤٤٨)].

(٣) هذا تحريف على مذهب من لا يؤمنون بصفات الله سبحانه وتعالى الْحَبَرِيَّة، والصواب أن المراد باليمين اليد اليمنى. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٤٥١)].

(٤) كما أبهم الله عز وجل لا تتعرض للتفصيل؛ لأنه ليس هناك دليل صحيح صريح في تعيين هؤلاء المستثنين. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٤٦٠)].
 (٥) بنور الله الذي هو نوره، وليس بنور مخلوق، فإضافة النور إلى الرب عز وجل من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: أن الله جل وعلا ينير الأرض بنوره. [ابن عثيمين تفسير الزمر (ص: ٤٦٣)].

لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ^(١) ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ أَي: الْعَدْلِ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٢) شَيْئًا. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أَي: جَزَاءُهُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ عَالِمٌ ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٣) فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِعُغْفٍ ﴿إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ جَمَاعَاتٍ مُتَفَرِّقَةً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾ ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ الْقُرْآنَ وَغَيْرُهُ ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ أَي: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩] آيَةً. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٤) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ ﴿فَبُئْسَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٥) جَهَنَّمَ. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بِطُفٍّ ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ الْوَاوُ فِيهِ لِلْحَالِ بِتَقْدِيرِ «قَدْ» ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ حَالٌ ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾^(٦) مُقَدَّرِينَ الْخُلُودَ فِيهَا، وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ مُقَدَّرٌ، أَي: دُخُولُهَا وَسَوْقُهُمْ وَفَتْحُ الْأَبْوَابِ قَبْلَ مَجِيئِهِمْ تَكْرِمَةً لَهُمْ، وَسَوْقُ الْكُفَّارِ وَفَتْحُ أَبْوَابِ جَهَنَّمَ عِنْدَ مَجِيئِهِمْ لِيَتَقَىٰ حَرُّهَا إِلَيْهِمْ إِهَانَةً لَهُمْ. ﴿وَقَالُوا﴾ عُطِفَ عَلَى «دُخُولِهَا» الْمَقْدَرِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ﴾ بِالْجَنَّةِ ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أَي: أَرْضَ الْجَنَّةِ^(٧) ﴿تَنْبَوُّا﴾ نَزَلَ ﴿مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ لِأَنَّهَا كُلُّهَا لَا يُخْتَارُ فِيهَا مَكَانٌ عَلَى مَكَانٍ ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾^(٨) ﴿الْجَنَّةُ﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّينَ ﴿حَالٌ﴾ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ مِنْهُ﴾ يُسَبِّحُونَ ﴿حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ حَاقِّينَ﴾ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ، أَي: يَقُولُونَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بَيْنَ جَمِيعِ الْخَلَائِقِ ﴿بِالْحَقِّ﴾ أَي: الْعَدْلِ، فَيَدْخُلُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ، وَالْكَافِرِينَ النَّارَ ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩) خَتَمَ اسْتِقْرَارُ الْفَرِيقَيْنِ بِالْحَمْدِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ^(١٠).

(١) ﴿بِالتَّبَيُّنِ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يَشْهَدُونَ عَلَى الْأُمَمِ بِأَنَّهُمْ بَلَّغُوهُمْ رَسُولَاتِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، ﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ أَي: الشَّهَادَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْحَفِظَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْعِبَادِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. [ابن كثير (١١٨/٧)].

(٢) أَي: أَرْضُ الْجَنَّةِ قَالَهُ قَتَادَةُ وَأَبُو الْعَالِيَةِ، كَأَنَّهُ صَارَتْ مِنْ غَيْرِهِمْ إِلَيْهِمْ، فَمَلَكُوهَا وَتَصَرَّفُوا فِيهَا تَصَرَّفَ الْوَارِثُ فِيَمَا يَرِثُهُ، فِيهِ الْكَلَامُ تَجُوزُ. وَقِيلَ: إِنَّهُمْ وَرَثُوا الْأَرْضَ الَّتِي كَانَتْ لِأَهْلِ النَّارِ لَوْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ، قَالَه أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ، وَقِيلَ: إِنَّهَا أَرْضُ الدُّنْيَا فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿تَنْبَوُّوا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أَي: أَيْنَ شِئْنَا حَلَلْنَا، فَنِعْمَ الْأَجْرُ أَجْرُنَا عَلَى عَمَلِنَا. [ابن كثير (١٢٣/٧)].

(٣) الْقَائِلُونَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ، حَمَدُوا اللَّهَ عَلَى قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ النَّارِ بِالْحَقِّ كَمَا قَالَ: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وَقِيلَ: الْقَائِلُونَ هُمُ الْمَلَائِكَةُ حَمَدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى عَدْلِهِ فِي الْحُكْمِ وَقَضَائِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْحَقِّ. [صديق حسن (١٥٤/١٢)].

سُورَةُ غَافِرٍ أَوْ الْمُؤْمِنِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾ الْآيَتِينَ، خَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ ^(١). ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنَ، مُبْتَدَأُ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ خَبْرُهُ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْعَلِيمِ ٢﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ لَهُمْ، مَصْدَرُ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لِلْكَافِرِينَ، أَيُّ: مُشَدِّدُهُ ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أَيُّ: الْإِنْعَامِ الْوَاسِعِ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ عَلَى الدَّوَامِ بِكُلِّ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَإِضَافَةُ الْمُشْتَقِّ مِنْهَا لِلتَّعْرِيفِ كَالْآخِرَةِ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٣﴾ الْمَرْجِعُ ^(٢). ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ٤﴾ لِلْمَعَاشِ سَالِمِينَ، فَإِنَّ عَاقِبَتَهُمُ النَّارُ. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ ٥﴾ كَعَادٍ وَثَمُودَ وَغَيْرِهِمَا ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ٦﴾ يَقْتُلُوهُ ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا﴾ يُزِيلُوا ﴿بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ٧﴾ بِالْعِقَابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ٨﴾ لَهُمْ، أَيُّ: هُوَ وَاقِعٌ مَوْقَعَهُ. ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٩﴾ أَيُّ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩] آيَةً ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ١٠﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿كَلِمَتُ﴾. ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ ١١﴾ مُبْتَدَأُ ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ ١٢﴾ عُطِفَ عَلَيْهِ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ خَبْرُهُ ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ١٣﴾ مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ، أَيُّ: يَقُولُونَ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ١٤﴾ تَعَالَى بِصَافِرِهِمْ، أَيُّ: يُصَدِّقُونَ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) وجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بهذه الأوصاف أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن، من المعاني. فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله، وصفاته، وأفعاله، وهذه أسماء، وأوصاف، وأفعال. وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده. وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك، من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ وإما إخبار عن نعمة الشديدة، وعما يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات. [السعدي (ص: ٧٣١)].

بِوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أَي: وَسِعَتْ رَحْمَتُكَ كُلَّ شَيْءٍ، وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ مِنَ الشَّرِّ ﴿وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ﴾ دِينَ الْإِسْلَامِ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧﴾ النَّارِ. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٍ ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ﴾ عَظُفٌ عَلَى «هُمْ» فِي ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، أَوْ فِي ﴿وَعَدْتَهُمْ﴾ ﴿مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أَي: عَذَابَهَا ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ ﴿مَنْ قَبْلَ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ يَمْقُتُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ﴾ ﴿لَمَقْتُ اللَّهُ﴾ إِيَّاكُمْ ﴿أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ ﴿إِمَاتَيْنِ﴾ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ ﴿إِحْيَاءَتَيْنِ﴾ لَا تَنْهَمُ نُطْفًا أَمْوَاتٌ فَأُحْيُوا ثُمَّ أُمِيتُوا ثُمَّ أُحْيُوا لِلْبَعْثِ ۝١١﴾ ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ بِكُفْرِنَا بِالْبَعْثِ ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾ مِنَ النَّارِ وَالرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا لِنُطِيعَ رَبَّنَا ﴿مِنْ سَبِيلٍ ۝١٢﴾ طَرِيقٍ؟ وَجَوَابُهُمْ: لَا. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَي: الْعَذَابُ الَّذِي أَنْتُمْ فِيهِ ﴿بِأَنَّهُ ۝١٣﴾ أَي: بِسَبَبِ أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا ﴿إِذَا دَعَى اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ بِتَوْحِيدِهِ ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ﴾ يُجْعَلُ لَهُ شَرِيكٌ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ تُصَدِّقُوا بِالْإِشْرَاقِ ﴿فَالْحُكْمُ﴾ فِي تَعْذِيبِكُمْ ﴿لِلَّهِ الْعَلِيِّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿الْكَبِيرِ ۝١٤﴾ الْعَظِيمِ. ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ﴾ دَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ بِالْمَطَرِ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ يَتَعَبَّرُ ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝١٥﴾ يَرْجِعُ عَنِ الشَّرِّ. ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾ أَعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مِنَ الشَّرِّ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٦﴾ إِخْلَاصَكُمْ مِنْهُ. ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ أَي: اللَّهُ عَظِيمُ الصِّفَاتِ، أَوْ رَافِعُ دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ ۝١٧﴾ ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خَالِقُهُ ﴿يُلْقَى الرُّوحَ﴾ الْوَحْيِ ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أَي: قَوْلِهِ ۝١٨﴾ ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ

(١) ومثل هذه الآية قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

(٢) رفيع اسم فاعل أو صفة مشبهة فاعلها يعود على الله عز وجل المذكور في قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وعلى هذا فلا يصح أن تفسر بأن المراد رافع درجات المؤمنين؛ لأنه على هذا التفسير تكون الدرجات درجات غيره، درجات المؤمنين، ولا يصح أن تفسر رفيع الدرجات بعظيم الصفات لما بينهما من الفرق العظيم. والصواب أنه سبحانه هو رفيع الدرجات، ويدل لهذا ويعينه قوله: ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: صاحب العرش، والعرش هو أعلى المخلوقات، فكأنه قال: رفيع الدرجات فوق العرش، وهذا هو المتعين. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ١٥٩)].

(٣) يعني أن الوحي من قول الله عز وجل يقول فيسمع جبريل ثم ينزل به إلى من شاء الله سبحانه وتعالى ... ولم يبين من هؤلاء، ولكننا نعلم أنهم الأنبياء؛ لأنهم هم الذين يُلْقَى إِلَيْهِمُ الْوَحْيُ سواء كانوا رسلاً أم غير رسل. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ١٦١)].

عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ^(١) يُخَوِّفَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، النَّاسَ ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾^(٢) بِحَذْفِ الْيَاءِ وَإِثْبَاتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِتَلَاقِي أَهْلَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ وَالظَّالِمِ وَالْمُظْلَمِ فِيهِ. ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾^(٣) خَارِجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ^(٤) ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمُ﴾ يَقُولُهُ تَعَالَى، وَيُجِيبُ نَفْسَهُ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٥) أَي: لِخَلْقِهِ ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٦) يُحَاسِبُ جَمِيعَ الْخَلْقِ فِي قَدَرِ نِصْفِ نَهَارٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا لِحَدِيثِ بَذَلِكَ^(٧). ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مِنْ أَزَفِ الرَّحِيلِ قَرَبٍ^(٨) ﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ تَرْتَفِعُ خَوْفًا ﴿لَدَى﴾ عِنْدَ ﴿الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ مُمْتَلِئِينَ غَمًّا حَالًا مِنَ ﴿الْقُلُوبِ﴾، عُوِمِلَتْ بِالْجَمْعِ بَالْيَاءِ وَالنُّونِ مُعَامَلَةً أَصْحَابِهَا^(٩) ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ مُحِبٍّ ﴿وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ﴾^(١٠) لَا مَفْهُومٌ لِلْوَصْفِ إِذْ لَا شَفِيعَ لَهُمْ أَصْلًا ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠]، أَوْ لَهُ مَفْهُومٌ بِنَاءً عَلَى زَعْمِهِمْ أَنَّ لَهُمْ شَفَعَاءَ، أَي: لَوْ شَفَعُوا فَرَضًا لَمْ يُقْبَلُوا. ﴿يَعْلَمُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ بِمُسَارَقَتِهَا النَّظَرَ إِلَى مُحَرَّمٍ ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(١١) الْقُلُوبُ. ﴿وَاللَّهُ يَفْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ، بَالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ وَهُمْ الْأَصْنَامُ ﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ فَكَيْفَ يَكُونُونَ شُرَكَاءَ لِلَّهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لَأَقْوَالِهِمْ ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١٢) بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿* أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿مِنْكُمْ﴾ ﴿قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ مَصَانِعٍ وَقُصُورٍ ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾^(١٣)

(١) المعنى أخصص مما قال، بل المعنى: يوم هم بارزون؛ أي: ظاهرون ليس لهم ظل يظلمهم؛ لا من شجر ولا حجر، ولا بيت ولا غيره؛ لأن البارز هو الظاهر الذي لا يحجبه دونه شيء، وهم بارزون في ذلك اليوم، وتدنو الشمس منهم مقدار ميل، ويعرق الناس في ذلك اليوم على قدر أعمالهم، منهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل إلى ركبته، ومنهم من يصل إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إجماعاً على حسب أعمالهم. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ١٦٦)].

(٢) انظر التعليق على الآية (٢٠٢) من سورة البقرة.

(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ [النجم: ٥٧] أي: قربت الساعة. [الشوكاني (٤/ ٥٥٧)].

(٤) ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ معناه أن القلوب قد صعدت من الصدور، لشدة الخوف حتى بلغت الحناجر، فيحتمل أن يكون ذلك حقيقة أو مجاز عبر به عن شدة الخوف. والحناجر جمع حنجرة وهي الحلق ﴿كَظِيمِينَ﴾ أي: محزونين حزناً شديداً كقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] وقيل: معناه يكظمون حزنهم، أي: يطمعون أن يخفوه، والحال تغلبهم، وانتصابه على الحال من أصحاب القلوب، لأن معناه قلوب الناس، أو من المفعول في أنذرهم أو من القلوب. وجمعها جمع المذكر لما وصفها بالكظم الذي هو من أفعال العقلاء. [ابن جزي (٢/ ٢٢٩)].

عَذَابُهُ. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ٢٢ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ٢٣ ﴿بُرْهَانٍ بَيْنٍ ظَاهِرٍ.﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَمَلَنَ وَقَرُونُ فَقَالُوا ﴿هُوَ سَحِرٌ كَذَّابٌ﴾ ٢٤ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا﴾ اسْتَبَقُوا ﴿نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ٢٥ ﴿هَلَاكِ.﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ عَنْ قَتْلِهِ ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ لِيَمْنَعَهُ مِنِّي ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ مِنْ عِبَادَتِكُمْ إِيَّايَ، فَتَسْبِعُونَهُ ﴿وَأَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ٢٦ ﴿مِنْ قَتْلِ وَغَيْرِهِ﴾، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿أَوْ﴾ وَفِي أُخْرَى: بَفَتْحِ الْيَاءِ وَالْهَاءِ وَضَمِّ الدَّالِ. ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ لِقَوْمِهِ وَقَدْ سَمِعَ ذَلِكَ: ﴿إِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ٢٧ ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قِيلَ: هُوَ ابْنُ عَمِّهِ ﴿يَكْتُمُ إِيمَنَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ﴾ أَي: لِأَنْ ﴿يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ أَي: ضَرُّ كَذِبِهِ ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ عَاجِلًا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ ﴿كَذَّابٌ﴾ ٢٨ ﴿مُفْتَرٍ.﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ غَالِبِينَ، حَالٌ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أَرْضٍ مِصْرَ ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ﴾ عَذَابِهِ إِنْ قَتَلْتُمْ أَوْلِيَاءَهُ ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ أَي: لَا نَاصِرَ لَنَا ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أَي: مَا أَشِيرُ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِمَا أَشِيرُ بِهِ عَلَى نَفْسِي ٢٩، وَهُوَ قَتْلُ مُوسَى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

(١) أي: يوقع بين الناس الخلاف والفتنة، جعل اللعين ظهور ما دعا إليه موسى وانتشاره في الأرض واهتداء الناس إليه فساد، وليس الفساد إلا ما هو عليه هو ومن تابعه، والمعنى: أنه لا بد من وقوع أحد الأمرين أو وقوع الأمرين جميعاً. [صديق حسن (١٢/ ١٨٠)].

(٢) أي: إن كان موسى كاذباً في دعوى الرسالة فلا يضركم كذبه، فلا شيء تقتلون، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا﴾ بعد أن كان قد آمن به؟ فالجواب أنه لم يقل ذلك على وجه التأكيد له، وإنما قاله على وجه الفرض والتقدير، وقصد بذلك المحاجة لقومه، فقسم أمر موسى إلى قسمين، ليقم عليهم الحجة في ترك قتله على كل وجه من القسمين، ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ قيل: إن بعض هنا بمعنى كل وذلك بعيد، وإنما قال بعض ولم يقل كل مع أن الذي يصيبهم هو كل ما يعدهم ليلاطفهم في الكلام، ويبعد عن التعصب لموسى، ويظهر النصيحة لفرعون وقومه، فيرتجى إجابتهم للحق. [ابن جزي (٢/ ٢٣١)].

(٣) أي: ما أشير عليكم إلا بما أرى لنفسي، قاله ابن زيد، وهذا تفسير لمآل المعنى، والتفسير المطابق لجوهر اللفظ ما قال الضحاك: ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب، وهو قتل موسى والرؤية هنا هي القلبية الاعتقادية، لا البصرية العينية، فتعدى لمفعولين ثانيهما: ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾. [صديق حسن (١٢/ ١٨٤)].

الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ طَرِيقَ الصَّوَابِ. ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أَي: يَوْمِ حِزْبٍ بَعْدَ حِزْبٍ. ﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿مِثْلَ﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿مِثْلَ﴾ قَبْلَهُ، أَي: مِثْلَ جَزَاءِ عَادَةٍ مَنْ كَفَرَ قَبْلَكُمْ مِنْ تَعَذِّيهِمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقُومِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ بِحَذْفِ الْيَاءِ وَإِثْبَاتِهَا، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْثُرُ فِيهِ نِدَاءُ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَصْحَابِ النَّارِ وَبِالْعَكْسِ، وَالنِّدَاءُ بِالسَّعَادَةِ لِأَهْلِهَا وَبِالشَّقَاوَةِ لِأَهْلِهَا، وَغَيْرُ ذَلِكَ. ﴿يَوْمَ تُنْزَلُونَ مُدِيرِينَ﴾ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِلَى النَّارِ ﴿مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ﴾ أَي: مِنْ عَذَابِهِ ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ مَانِعٍ ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ مُوسَى، وَهُوَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ فِي قَوْلٍ، عَمَرَ إِلَى زَمَنِ مُوسَى، أَوْ يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ فِي قَوْلٍ^(١) ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ﴾ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أَي: فَلَنْ تَزَالُوا كَافِرِينَ بِيُوسُفَ وَغَيْرِهِ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ إِضْلَالِكُمْ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ مُشْرِكٌ ﴿مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ شَاكٌّ فِيمَا شَهِدَتْ بِهِ الْبَيِّنَاتُ. ﴿الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ مُعْجَزَاتِهِ، مُبْتَدَأٌ ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿أَتْلَهُمْ كِبْرًا﴾ جِدَالُهُمْ، خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ ﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ﴾ مِثْلَ إِضْلَالِهِمْ ﴿يَطْبَعُ﴾ يَخْتِمُ ﴿اللَّهُ﴾ بِالضَّلَالِ ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ بِنَوْنٍ ﴿قَلْبٍ﴾ وَدُونِهِ، وَمَتَى تَكَبَّرَ الْقَلْبُ تَكَبَّرَ صَاحِبُهُ وَبِالْعَكْسِ، وَ ﴿كُلِّ﴾ عَلَى الْقَرَاءَتَيْنِ: لِعُمُومِ الضَّلَالِ جَمِيعِ الْقُلُوبِ، لَا لِعُمُومِ الْقَلْبِ. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا﴾ بِنَاءً عَالِيًا ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابِ ﴿٣٦﴾﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ طُرُقَهَا الْمَوْصِلَةَ إِلَيْهَا ﴿فَأَطْلِعْ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى ﴿أَبْلُغْ﴾، وَبِالنَّصْبِ جَوَابًا لـ ﴿أَنِ﴾ ﴿إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ﴾ أَي: مُوسَى ﴿كَذِبًا﴾ فِي أَنَّ لَهُ إِلَهًا غَيْرِي، قَالَ فِرْعَوْنُ ذَلِكَ تَمْوِيهَاً ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾

(١) حكى المؤلف رحمه الله قولين في المراد بيوسف، فقليل: إنه يوسف بن يعقوب وأنه عُمِّرَ إلى زمن موسى، وهذا قول باطل لا إشكال فيه؛ لأنه لو كان الأمر كذلك لكان يأتي موسى ويتصل به؛ لأنهم كلاهما رسول. القول الثاني: أنه يوسف وجده يوسف بن يعقوب، يوسف بن إبراهيم بن يوسف وهذا أيضًا لا دليل عليه، والصواب أن المراد به يوسف بن يعقوب وأنه لم يُعَمَّرَ إلى زمن موسى، وأنه مات في زمنه، لكنه جاء أسلافهم؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام أخذته المارة الذين مروا بالبئر الذي أُلْقِيَ فيها وذهبوا به إلى مصر، والقصة معروفة في سورة كاملة. فإن قال إنسان: كيف يخاطبهم فيقول: جاءكم، ويوسف بن يعقوب قَبْلَهُمْ بأزمان كثيرة؟ فيقال: إن ما حصل للأسلاف فهو للأخلاف، يعني: أن ما جاء أسلافهم فهو كالذي جاءهم، ودليل ذلك أن الله يخاطب بني إسرائيل في عهد النبي ﷺ بما حصل لأسلافهم في عهد موسى. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ٢٧٦)].

وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴿طَرِيقِ الْهُدَى بَفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا﴾ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ۝٣٧﴾ ﴿خَسَارٍ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِي
ءَامَنَ يَقُومِ اتَّبِعُونِي﴾ بِإِثْبَاتِ أَلْيَاءٍ وَحَذْفِهَا ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۝٣٨﴾ تَقَدَّمَ^(١) ﴿يَقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
مَتَّعٌ﴾ تَمَتُّعٌ يَزُولُ ﴿وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۝٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ
ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِضَمِّ أَلْيَاءٍ وَفَتْحِ الْخَاءِ وَبِالْعَكْسِ ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ
۝٤٠﴾ رِزْقًا وَاسِعًا بِلَا تَبِعَةٍ. ﴿* وَيَقُومُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۝٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ
وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَالِبِ عَلَى أَمْرِهِ ﴿الْغَفَرِ ۝٤٢﴾ لِمَنْ تَابَ. ﴿لَا جَرَمَ﴾
حَقًّا ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ لِأَعْبُدَهُ ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾ أَي: اسْتِجَابَةُ دَعْوَةٍ ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَّرَدَّنَا﴾
مَرْجِعَنَا ﴿إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿هُم أَصْحَابُ النَّارِ ۝٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ إِذَا عَايَيْتُمُ الْعَذَابَ ﴿مَا أَقُولُ
لَكُمْ وَأُقَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٤٤﴾ قَالَ ذَلِكَ لَمَّا تَوَعَّدُوهُ بِمُخَالَفَةِ دِينِهِمْ. ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ
مَا مَكُرُوا﴾ بِهِ مِنَ الْقَتْلِ ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِئَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قَوْمِهِ مَعَهُ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ ۝٤٥﴾ الْغَرْقُ. ثُمَّ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا﴾ يُخَوِّفُونَ بِهَا ﴿عُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ صَبَاحًا وَمَسَاءً^(٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ يُقَالُ: ﴿ادْخُلُوا﴾ يَا ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾
وَفِي قِرَاءَةٍ: بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْخَاءِ، أَمْرٌ لِلْمَلَائِكَةِ ﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ ۝٤٦﴾ عَذَابَ جَهَنَّمَ. ﴿وَاذْكُرْ﴾ إِذْ يَتَحَاجُّونَ
يَتَخَاصَمُ الْكُفَّارُ ﴿فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ جَمْعُ تَابِعٍ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّغْنُونَ﴾
دَافِعُونَ ﴿عَنَّا نَصِيْبًا﴾ جَزَاءٌ ﴿مِّنَ النَّارِ ۝٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ۝٤٨﴾
فَادْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ وَالْكَافِرِينَ النَّارَ. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ أَي:

(١) آية (٢٩) من هذه السورة.

(٢) أخرج البخاري (١٣٧٩) ومسلم (٦٥) وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ
بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ. يُقَالُ لَهُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ». زاد ابن مردويه: ثم قرأ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾. وعرضهم عليها إحراقهم بها، يقال عرض الإمام الأسارى على
السيف إذا قتلهم به، أي: في هذين الوقتين يعذبون بالنار، وفيما بين ذلك إما أن يعذبوا بجنس آخر أو ينفس عنهم، ويجوز أن يكون غدوًّا
وعشيًّا عبارة عن الدوام. واحتج بعض أهل العلم على إثبات عذاب القبر بهذه الآية أعادنا الله تعالى منه بمنه وكرمه، وبه قال مجاهد وعكرمة
ومحمد بن كعب كلهم. [صديق حسن (١٢/١٩٦)].

قَدَرِ يَوْمٍ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ ٤٩ ﴿قَالُوا﴾ أَي: الْخَزَنَةُ تَهَكُّمًا ٥٠ ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أَي: فَكَفَرُوا بِهِمْ ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أَنْتُمْ، فَإِنَّا لَا نَشْفَعُ لِلْكَافِرِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا دَعَوْا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ٥١ ﴿إِنْعَادًا﴾. ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ ٥٢ ﴿جَمْعُ «شَاهِدٍ» وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ، يَشْهَدُونَ لِلرُّسُلِ بِالْبَلَاغِ، وَعَلَى الْكُفَّارِ بِالتَّكْذِيبِ ٥٣.﴾ ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ بِالْيَأْسِ وَالنَّاءِ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ عَذْرُهُمْ لَوْ اعْتَذَرُوا ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أَي: الْبُعْدُ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ٥٤ ﴿الْآخِرَةِ، أَي: شِدَّةُ عَذَابِهَا.﴾ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾ التَّوْرَةَ وَالْمُعْجَزَاتِ ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴿الْكِتَابَ﴾ ٥٥ ﴿التَّوْرَةَ.﴾ ﴿هُدًى﴾ هَادِيًا ﴿وَذَكَرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ ٥٦ ﴿تَذَكُّرًا لِأَصْحَابِ الْعُقُولِ.﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِنَصْرِ أَوْلِيَائِهِ ﴿حَقٌّ﴾ وَأَنْتَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ لِيُسْتَنَبَكَ ﴿وَسَبِّحْ﴾ صَلِّ مُتَلَبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ﴾ وَهُوَ مِنْ بَعْدِ الزَّوَالِ ﴿وَالْإِبْكَرِ﴾ ٥٧ ﴿الصلوات الخمس ٥٨.﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿بِعِزِّ سُلْطَانٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿أَنَّهُمْ إِنْ﴾ مَا ﴿فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ تَكَبُّرٌ وَطَمَعٌ أَنْ يَغْلُوا عَلَيْكَ ﴿مَا هُمْ بِبَالِيغِيهِ فَاسْتَعِذْ﴾ مِنْ شَرِّهِمْ ﴿بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿الْبَصِيرُ﴾ ٥٩ ﴿بِأَحْوَالِهِمْ. وَنَزَلَ فِي مُنْكَرِي الْبَعْثِ:﴾ ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إِبْتِدَاءً ﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ مَرَّةً ثَانِيَةً وَهِيَ الْإِعَادَةُ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أَي: الْكُفَّارَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٦٠ ﴿ذَلِكَ فَهُمْ كَالْأَعْمَى، وَمَنْ يَعْلَمُهُ كَالْبَصِيرِ.﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ لَا ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وَهُوَ الْمُحْسِنُ ﴿وَلَا الْمُسِيءُ﴾ فِيهِ زِيَادَةٌ لَا ﴿قَلِيلًا

(١) هكذا قال المؤلف: «تهكما» ويحتمل أنهم قالوا ذلك تقريعا وتوبيخا وتنديما وليس تهكما، لأن الأمر واقع، فهم يقررونهم بشيء حاصل تنديما لهم ليزدادوا حزنا. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ٣٥٧)].

(٢) الأشهاد، جمع شهيد، كشریف وأشراف، أو جمع شاهد، كصاحب وأصحاب، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]. وقال: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والظاهر أنه من الشهادة. وقيل: من المشاهدة، بمعنى الحضور. [أبو حيان (٩/ ٢٦٥)]. وفي ﴿الْأَشْهُدُ﴾ ثلاثة أقاويل: أحدها: أنهم الملائكة شهدوا للأنبياء بالإبلاغ، وعلى الأمم بالتكذيب، قاله مجاهد والسدي. الثاني: أنهم الملائكة والأنبياء، قاله قتادة. الثالث: أنهم أربعة: الملائكة والنبیون والمؤمنون والأجساد. [الماوردي (٥/ ١٦٠)].

(٣) أي: دم على تنزيه الله متلبسًا بحمده، وقيل: المراد الصلوات الخمس، والعشي هو من بعد الزوال، وفيه أربع صلوات، والإبكار من الفجر إلى الزوال، وفيه صلاة واحدة. [صديق حسن (١٢/ ٢٠١)].

مَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ يَتَعَطَّوْنَ بِالْيَأْسِ وَالْتَّاءِ، أَي: تَذَكَّرُهُمْ قَلِيلٌ جِدًّا. ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ بِهَا. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أَي: اُعْبُدُونِي أَتُبْكُم، بِقَرِينَةٍ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَضَمِّ الْخَاءِ وَبِالْعَكْسِ ﴿جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ صَاغِرِينَ. ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إِسْنَادُ الْإِبْصَارِ إِلَيْهِ مَجَازِيٌّ؛ لِأَنَّهُ يُبْصِرُ فِيهِ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٦١﴾ اللَّهُ فَلَا يُؤْمِنُونَ. ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ مَعَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ؟ ﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ﴾ أَي: مِثْلُ إِنْكَ هَؤُلَاءِ إِنْكَ ﴿الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ مُعْجَزَاتِهِ ﴿يَحْجَدُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ ﴿اعْبُدُوهُ﴾ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ مِنَ الشِّرْكِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴿تَعْبُدُونَ﴾ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ﴾ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ ﴿مِن رَّبِّي وَأَمَرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ﴾ بِخَلْقِ أَبِيكُمْ آدَمَ مِنْهُ ﴿ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ﴾ مَنِيٍّ ﴿ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ﴾ دَمٍ غَلِيظٍ ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ بِمَعْنَى: أَطْفَالًا ﴿ثُمَّ يُبَيِّقُكُمْ﴾ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ﴿تَكْمُلُ قُوَّتُكُمْ مِّنَ الثَّلَاثِينَ سَنَةً إِلَى الْأَرْبَعِينَ﴾ ﴿ثُمَّ لِيَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ بِضَمِّ الشَّيْنِ وَكَسْرِهَا ﴿وَمِنْكُمْ مَّن يُوَفِّي مِن قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ الْأَشَدِّ وَالشَّيْخُوخَةِ، فَعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ لِتَعِيشُوا ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ وَقَفًا مَحْدُودًا ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ دَلَائِلُ التَّوْحِيدِ فَتَوَمَّنُوا. ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أَرَادَ إِيجَادَ شَيْءٍ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن فَيَكُونُ﴾ ﴿٦٧﴾ بِضَمِّ النَّونِ وَفَتْحِهَا، بِتَقْدِيرِ «أَنْ» أَي: يُوجَدُ عَقِبَ الْإِرَادَةِ الَّتِي هِيَ مَعْنَى الْقَوْلِ الْمَذْكُورِ ﴿٦٨﴾. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

(١) ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ رَدًّا عَلَيْهِمْ فِيمَا طَلَبُوهُ مِنْكَ وَهُوَ عِبَادَةُ آلِهَتِهِمْ: ﴿إِنِّي نُهِيتُ﴾ نَهِيًَا عَامًّا بِبِرَاهِينِ الْعُقُولِ وَنَهِيًَا خَاصًّا بِأَدْلَةِ الْقَوْلِ ﴿أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ أَي: تَعْبُدُونَ ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وَهِيَ الْأَصْنَامُ ثُمَّ بَيَّنَّ وَجْهَ النِّهْيِ فَقَالَ ﴿لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي﴾ وَهِيَ الْأَدْلَةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالنَّقْلِيَّةُ فَإِنَّمَا تَوْجِبُ التَّوْحِيدَ ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: اسْتَسْلِمَ لَهُ بِالْإِخْلَاصِ. [صديق حسن (٢/٢٠٩)].

(٢) يريد أن ينفي بذلك القول، يعني: أن قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ وَكُن﴾ إنما يريد أن يقول، فإن مذهب الأشاعرة أن الكلام هو المعنى القائم بالنفس، وليس شيئًا يُسْمَعُ، وليس توجيهًا يُصَدَّرُ إِلَى الْمَوْجِهِ إِلَيْهِ، مع أن الآية صريحة: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ قَوْلٌ صَرِيحٌ مُّصَدَّرٌ، ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. والصواب أنه يقول: قولًا مسموعًا يسمعه الموجه إليه، فيمثل أمر الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ٤٧٢)]. فالظاهر في هذا المعنى الحقيقي، وأنه يقول سبحانه هذا اللفظ وليس في ذلك مانع ولا جاء ما يوجب تأويله، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ

يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ الْقُرْآنِ ﴿أَتَى﴾ كَيْفَ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿١﴾. الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ بِالْقُرْآنِ ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ، وَهُمْ كُفَّارٌ مَكَّةَ ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ عِقَابَهُ تَكْذِيبِهِمْ. ﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ ﴿إِذِ﴾ بِمَعْنَى: «إِذَا» ﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿الْأَغْلُلِ﴾ فَتَكُونُ فِي الْأَعْنَاقِ، أَوْ مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، أَي: فِي أَرْجُلِهِمْ، أَوْ خَبَرُهُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾ ﴿٧١﴾ أَي: يُجْرَوْنَ بِهَا. ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾ أَي: جَهَنَّمَ ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ يُوقَدُونَ. ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ تَبَكُّيتًا: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿مَعَهُ وَهِيَ الْأَصْنَامُ﴾ ﴿قَالُوا ضَلُّوا﴾ غَابُوا ﴿عَنَّا﴾ فَلَا نَرَاهُمْ ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ أَنْكُرُوا عِبَادَتَهُمْ إِيَّاهَا ﴿ثُمَّ أُخْضِرَتْ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أَي: وَقُودُهَا ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلُ إِضْلَالِ هَؤُلَاءِ الْمُكْذِبِينَ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٧٤﴾. وَيُقَالُ لَهُمْ أَيْضًا: ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْعَذَابُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ مِنَ الْإِشْرَاقِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ تَتَوَسَّعُونَ فِي الْفَرَحِ. ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئَسَ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴿بِعَذَابِهِمْ﴾ ﴿حَقٌّ فِيمَا نُرِيَنَّكَ﴾ فِيهِ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ مُدْغَمَةٌ، وَ«مَا» زَائِدَةٌ تُؤَكِّدُ مَعْنَى الشَّرْطِ أَوَّلَ الْفِعْلِ، وَالنُّونُ تُؤَكِّدُ آخِرَهُ ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ فِي حَيَاتِكَ وَجَوَابِ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَي: فَذَلِكَ ﴿أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ﴾ أَي: قَبْلَ تَعْذِيبِهِمْ ﴿فَالْيَنَّا

إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. [الشوكاني (١/١٥٦)].

(١) تعجب من أحوالهم الشنيعة وآرائهم الركيكة، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن وبسائر الكتب والشرائع، وترتيب الوعيد على ذلك كما أن ما سبق من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَدِّلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ إلخ. بيان لا ابتناء جدالهم على مبنى فاسد لا يكاد يدخل تحت الوجود هو الأمانة الفارغة فلا تكرير فيه، أي: انظر إلى هؤلاء المكابرين المجادلين في آياته تعالى الواضحة الموجبة للإيمان بها الزاجرة عن الجدال فيها، كيف يصرفون عنها مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها وانتفاء الصوارف عنها بالكلية. [أبو السعود (٧/٢٨٤)].

(٢) أي: لم تكن نعبد شيئاً، قالوا هذا بعد ما تبين لهم ما كانوا فيه من الضلالة والجهالة، وأنهم كانوا يعبدون ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وليس هذا إنكاراً منهم لوجود الأصنام التي كانوا يعبدونها، بل اعتراف منهم بأن عبادتهم إياها كانت باطلة، كقولك: حسبته شيئاً فلم يكن كذلك، وقال المحلي: «أنكروا عبادتهم إياها» انتهى. وهذا المعنى بعيد في مقام الحساب والعرض على رب العالمين. [صديق حسن (١٢/٢١٤)].

(٣) ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَي: ذَلِكَ الْإِضْلَالُ الْمَدْلُولُ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ أَوِ الْعَذَابُ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أَي: تظهرون في الدنيا من الفرح بمعاصي الله والسرور بمخالفة رسله وكتبه، وقيل: بما كنتم تفرحون به من المال والأتباع والصحة، وقيل: من إنكار البعث والعذاب، وقيل: المراد بالفرح هنا البطر والتكبر ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ المراد بالمرح الزيادة في البطر، وقال مجاهد وغيره: تبطرون وتأشرون. [الشوكاني (٤/٥٧٥)].

يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ فَنَعَذِّبُهُمْ أَشَدَّ الْعَذَابِ، فَالْجَوَابُ الْمَذْكُورُ لِلْمَعْطُوفِ فَقَطُّ. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ رُوي أَنَّهُ تَعَالَى بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ نَّبِيِّ: أَرْبَعَةَ آلَافٍ نَّبِيِّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةَ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ^(١) ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ مِنْهُمْ ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ لِأَنَّهُمْ عِيدٌ مَّرْبُوبُونَ ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بِنُزُولِ الْعَذَابِ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿قُضِيَ﴾ بَيْنَ الرُّسُلِ وَمُكَذِّبِيهَا ﴿بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ أَي: ظَهَرَ الْقَضَاءُ وَالْخُسْرَانُ لِلنَّاسِ، وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَبْلَ ذَلِكَ. ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ﴾ قِيلَ: الْإِبِلَ خَاصَّةً هُنَا، وَالظَّاهِرُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ وَلَكُم فِيهَا مَنَافِعُ ﴿مِنَ الدَّرِّ وَالنَّسْلِ وَالْوَبْرِ وَالصُّوفِ﴾ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ ﴿هِيَ حَمْلُ الْأَثْقَالِ إِلَى الْبِلَادِ﴾ ﴿وَعَلَيْهَا﴾ فِي الْبَرِّ ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾ السُّفُنِ فِي الْبَحْرِ ﴿تُحْمَلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ ءَايَاتِ اللَّهِ أَي: الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿تُنْكِرُونَ﴾ ﴿٨١﴾ اسْتَفْهَامُ تَوْيِيحٍ، وَتَذَكِيرُ «أَيَّ» أَشْهَرُ مِنْ تَأْنِيهِ. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَأْتَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ مَصَانِعَ وَقُصُورٍ ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿الْمُعْجَزَاتِ الظَّاهِرَاتِ﴾ ﴿فَرِحُوا﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿بِمَا عِنْدَهُمْ﴾ أَي: الرُّسُلِ ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾ فَرَحَ اسْتِهْزَاءٍ وَضَحِكٍ مُنْكَرِينَ لَهُ^(٢) ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ أَي: الْعَذَابُ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أَي: شِدَّةَ عَذَابِنَا ﴿قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ ﴿نَضَبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ يَفْعَلُ مُقَدَّرٍ مِنْ لَفْظِهِ﴾ ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ فِي الْأُمَمِ أَنْ لَا يَنْفَعَهُمْ الْإِيْمَانُ وَقَدْ نَزَلَ الْعَذَابُ^(٣) ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ تَبَيَّنَ خُسْرَانُهُمْ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَهُمْ خَاسِرُونَ فِي كُلِّ وَقْتٍ قَبْلَ ذَلِكَ.

(١) «رُوي» بصيغة التمرريض؛ لأن هذا لا يصح؛ كيف يكون من بني إسرائيل وهم متأخرون عن أمم كثيرة أربعة آلاف، ومن سائر الناس أربعة آلاف؟! هذا بعيد، بل إن الله أرسل في كل وقت وحين ما تقوم به الحجة. [ابن عثيمين تفسير غافر (ص: ٥٢٤)].

(٢) في تفسير علمهم وجوه: أحدها: أنه ما كانوا يعتقدون من أنهم لا يبعثون ولا يحاسبون، والثاني: أنه علمهم بمنافع الدنيا ووجوه كسبها، والثالث: أنه علم الفلاسفة الذين يحتقرون علوم الشرائع. [ابن جزي (٢/ ٢٣٦)].

(٣) المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة، قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب. [السعدي (ص: ٧٤٣)].

سُورَةُ فَصَّلَتْ

مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ ^(١). ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٢﴾ مُبْتَدَأُ. ﴿كِتَابٌ﴾ خَبَرُهُ ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾
يُنَبِّتُ بِالْأَحْكَامِ وَالْقَصَصِ وَالْمَوَاعِظِ ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِّنَ ﴿كِتَابٍ﴾ بِصِفَتِهِ ﴿لِقَوْمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِهِ ﴿فُصِّلَتْ﴾
﴿يَعْلَمُونَ ٣﴾ يَفْهَمُونَ ذَلِكَ وَهُمْ الْعَرَبُ. ﴿بَشِيرًا﴾ صِفَةُ ﴿قُرْءَانًا﴾ ﴿وَنَذِيرًا﴾ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا
يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ سَمَاعٌ قَبُولٌ. ﴿وَقَالُوا﴾ لِلنَّبِيِّ ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾ أَعْطِيَةٍ ﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ ثِقَلٌ
﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ خِلَافٌ فِي الدِّينِ ﴿فَاعْمَلْ﴾ عَلَى دِينِكَ ﴿إِنَّا عَمِلُونَ ٥﴾ عَلَى دِينِنَا. ﴿قُلْ إِنَّمَا
أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿وَأَسْتَغْفِرُوهٗ وَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ
عَذَابٍ ﴿لِّلْمُشْرِكِينَ ٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ تَأْكِيدٌ ﴿كَفَرُونَ ٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ مَقْطُوعٌ. ﴿قُلْ إِنِّي كُنتُ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهَا
بُوجْهِهَا وَبَيْنَ الْأُولَى ﴿لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الْأَحَدِ وَالْإِثْنَيْنِ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا﴾ شُرَكَاءَ
﴿ذَلِكَ رَبُّ﴾ مَالِكٌ ﴿الْعَلَمِينَ ٩﴾ جَمْعُ «عَالَمٍ» وَهُوَ مَا سِوَى اللَّهِ، وَجُمِعَ لِاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ بِالْبَيَاءِ وَالنُّونِ تَغْلِيًّا
لِلْعُقُلَاءِ. ﴿وَجَعَلَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ وَلَا يَجُوزُ عَطْفُهُ عَلَى صِلَةِ «الَّذِي» لِلْفَاصِلِ الْأَجْنَبِيِّ ^(٢) ﴿فِيهَا رَوَاسِي﴾ جِبَالًا ثَوَابِتَ
﴿مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا﴾ بِكَثْرَةِ الْمِيَاهِ وَالزُّرُوعِ وَالضُّرُوعِ ﴿وَقَدَّرَ﴾ قَسَمَ ﴿فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ لِلنَّاسِ وَالْبَهَائِمِ ﴿فِي﴾
تَمَامٍ ﴿أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ أَيُّ: أَلْجَعْلُ وَمَا ذُكِرَ مَعَهُ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَةِ وَالْأَرْبَعَةِ ﴿سَوَاءً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، أَيُّ:
إِسْتَوَتْ الْأَرْبَعَةُ إِسْتَوَاءً لَا تَزِيدُ وَلَا تَنْقُصُ ﴿لِّلْسَائِلِينَ ١٠﴾ عَنْ خَلْقِ الْأَرْضِ بِمَا فِيهَا ^(٣). ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ﴾ قَصْدٌ ^(٤)

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) إذا جعلناه مستأنفاً لم يكن الكلام متظماً، والصواب أنه على خلاف ما قال المؤلف: أن ﴿جَعَلَ﴾ معطوفة على ﴿خَلَقَ﴾، والفاصل الأجنبى

هنا لا يضر إما أنه لا يضر مطلقاً كما قيل به، وإما أنه لا يضر؛ لأنه في مضمون الكلام والكلام واحد. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٦٥)].

(٣) يريد أن الأربعة كملت باليومين الأولين، فخلق الأرض في يومين وجعل فيها ما ذكر في يومين، فتلك أربعة أيام. [ابن جزي (٢/ ٢٣٨)].

(٤) هذا أحد القولين في هذه الجملة أنها بمعنى «قصد» لكن قصداً كاملاً؛ وذلك لأن ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ تدل على الكمال كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا

﴿إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ بِخَارٍ مُرْتَفِعٌ ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا﴾ إِلَى مُرَادِي مُنْكَمَا ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيِ: طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكَرِهَتَيْنِ ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا﴾ بِمَنْ فِينَا ﴿طَائِعِينَ ۝١١﴾ فِيهِ تَغْلِبُ الْمَذَكَّرُ الْعَاقِلُ أَوْ نَزَلَتْ لِحِطَابِهِمَا مِنْزِلَتُهُ ۝١١ ﴿فَقَضَلَهُنَّ﴾ الضَّمِيرُ يَرْجِعُ إِلَى السَّمَاءِ؛ لِأَنَّهَا فِي مَعْنَى الْجَمْعِ الْإِلَهَ إِلَيْهِ، أَيِ: صَيَّرَهَا ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ الْخَمِيسِ وَالْجُمُعَةِ فَرَّغَ مِنْهَا فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْهُ، وَفِيهَا خَلَقَ آدَمَ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ هُنَا ﴿سَوَاءً﴾ ۝١٢، وَوَافَقَ مَا هُنَا آيَاتِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ الَّذِي أَمَرَ بِهِ مَنْ فِيهَا مِنَ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ ۝١٣ ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ بِنُجُومٍ ﴿وَحِفْظًا﴾ مَنْصُوبٌ بِفَعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيِ: حَفِظْنَاهَا مِنْ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ السَّمْعَ بِالشُّهْبِ ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْعَلِيمِ ۝١٤﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ أَيِ: كُفَّارُ مَكَّةَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ﴾ خَوْفَتُكُمْ ﴿صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۝١٥﴾ عَذَابًا يُهْلِكُكُمْ مِثْلَ الَّذِي أَهْلَكَهُمْ. ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَيِ: مُقْبِلِينَ عَلَيْهِمْ وَمُذْبِرِينَ عَنْهُمْ، فَكَفَرُوا كَمَا سَيَأْتِي، وَالْإِهْلَاكُ فِي زَمَنِهِ فَقَطْ ﴿أ﴾ ن، أَيِ: بَانَ ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ عَلَيْنَا

بَلَعُ أَشَدَّهُ وَأَسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، والقول الثاني أن ﴿أَسْتَوَى﴾ بمعنى «استوى على» على السماء، أي: علا عليها، ولكن المعنى الذي سلكه المؤلف أرجح أنه قصد إلى السماء بإرادة تامة مستوية؛ لأن «إلى» تفيد الغاية و«على» تفيد الاستعلاء، ومعلوم أن السماوات لم تكن خُلِقَتْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ، ثُمَّ إِنَّا لَوْ قُلْنَا: إِنَّ ﴿أَسْتَوَى﴾ بِمَعْنَى «على» كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ حِينَ خُلِقَ الْأَرْضُ لَيْسَ عَالِيًا عَلَى السَّمَاءِ، مَعَ أَنَّ عُلُوَّ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَ لَزَامَ لِدَاتِهِ. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٧٤)].

(١) لا يخفى ما يسبق إلى الذهن من منافاة هذه الحال وصاحبها، لأنها جمع مذكر عاقل وصاحبها ضمير تشبيه لغير عاقل، ولو طابقت صاحبها في التشبيه حسب ما يسبق إلى الذهن، لقال: «أتينا طائعتين» والجواب وهو الأظهر عندي، أن جمعه للسماوات والأرض، لأن السماوات سبع والأرضين كذلك، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، فالتشبيه لفظية تحتها أربعة عشر فردا. وأما إتيان الجمع على صيغة جمع العقلاء، فلأن العادة في اللغة العربية أنه إذا وصف غير العاقل بصفة تختص بالعاقل أجري عليه حكمه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لما كان السجود في الظاهر من خواص العقلاء أجرى حكمهم على الشمس والقمر والكواكب لوصفها به. [دفع إيهام الاضطراب للشقراطي (ص: ٢٧٦)].

(٢) هنا لم يقل: في يومين سواء لماذا؟ لأن بعض اليومين خُلِقَ فِيهِ آدَمُ، هَذَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْمُؤَلِّفُ، وَفِيهِ نَظَرُ ظَاهِرٍ، لِأَنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنَّ آدَمَ خُلِقَ حِينَ خُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، يَعْنِي: فِي الْأَيَّامِ السَّتَةِ الَّتِي خُلِقَتْ فِيهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَهَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ خَطَأٌ، بَلْ إِنَّهُ خُلِقَ بَعْدَ ذَلِكَ. نَعَمْ خُلِقَ آدَمُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ كَمَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، لَكِنَّا لَيْسَتْ الْجُمُعَةُ الَّتِي تَمَّ بِهَا خُلُقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٧٩)].

(٣) أي: ورتب مقررا في كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة، وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو. [ابن كثير (١٦٧/٧)].

﴿مَلَكِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ عَلَى زَعْمِكُمْ ﴿كَفَرُونَ﴾ ١٦ ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا﴾
 لَمَّا خُوفُوا بِالْعَذَابِ ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أَي: لَا أَحَدَ، كَانَ وَاحِدُهُمْ يَقْلَعُ الصَّخْرَةَ الْعَظِيمَةَ مِنَ الْجَبَلِ يَجْعَلُهَا حَيْثُ
 يَشَاءُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَعْلَمُوا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْمُعْجَزَاتِ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ١٥
 فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ﴿بَارِدَةً شَدِيدَةً الصَّوْتِ﴾ بِلا مَطَرٍ ١١ ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا
 مَشْهُومَاتٍ عَلَيْهِمْ ﴿لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ الدَّلُّ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أَشَدُّ ﴿وَهُمْ لَا
 يَنْصَرُونَ﴾ ١٦ ﴿بِمَنْعِهِ عَنْهُمْ﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ ﴿بَيْنَا لَهُمْ طَرِيقَ الْهَدَى﴾ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى ﴿اخْتَارُوا الْكُفْرَ
 عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ الْمُهِينِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ١٧ وَنَحْنُ مِنْهَا ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ ١٨ ﴿وَاللَّهُ﴾ اذْكُرْ ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ﴾ بِالْإِيَاءِ وَالنُّونِ الْمَفْتُوحَةِ وَضَمُّ الشَّيْنِ وَفَتْحُ الْهَمْزَةِ ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ
 إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ١٩ ﴿يُسَاقُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا زَايَدَهُ﴾ جَاءَ وَهِيَ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ
 بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٢٠ وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ أَي: أَرَادَ نُطْقَهُ
 ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ٢١ قِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ الْجُلُودِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى كَالَّذِي
 بَعْدَهُ ٢٢، وَمَوْقِعُهُ قَرِيبٌ مِمَّا قَبْلَهُ؛ بِأَنَّ الْقَادِرَ عَلَىٰ إِنْشَائِكُمْ إِبْدَاءً، وَإِعَادَتِكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ أَحْيَاءً، قَادِرٌ عَلَىٰ إِنْطَاقِ
 جُلُودِكُمْ وَأَعْضَائِكُمْ. ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ عَنِ ارْتِكَابِكُمُ الْفَوَاحِشِ مِنْ ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا
 أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ لَا تَكُنْ لَمْ تُوقِنُوا بِالْبَعْثِ ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ﴾ عِنْدَ اسْتِتَارِكُمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا

(١) في معنى الصرصر لعلماء التفسير وجهان معروفان. أحدهما: أن الريح الصرصر هي الريح العاصفة الشديدة الهبوب التي يسمع لهبوبها صوت شديد، وعلى هذا؛ فالصرصر من الصرة التي هي الصيحة المزعجة. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ أَمْرَأَتُهُ فِي صَرَ﴾ [الذاريات: ٢٩] أي: في صيحة، ومن هذا المعنى صرير الباب والقلم، أي: صوتهما. الوجه الثاني: أن الصرصر من الصر الذي هو البرد الشديد المحرق، ومنه على أصح التفسيرين قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾ الآية [آل عمران: ١١٧]، أي: فيها برد شديد محرق. والأظهر أن كلا القولين صحيح، وأن الريح المذكورة جامعة بين الأمرين، فهي عاصفة شديدة الهبوب، باردة شديدة البرد. وقد بين تعالى في بعضها عدد الأيام والليالي التي أرسل عليهم الريح فيها، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ [الحاقة: ٦-٨]. [الشنقيطي (١٣٠/٧)].

(٢) ﴿قَالُوا﴾ مجيبين لهم معتردين: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما ينطق من مخلوقاته، فشهدنا عليكم بما عملتم من القبائح، وقيل: المعنى ما نطقنا باختيارنا بل أنطقنا الله والأول أولى، والمعنى: أن نطقنا ليس بعجيب من قدرة الله. [صديق حسن (٢٤١/١٢)].

مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ مَبْتَدَأٌ ﴿طُنُكُمُ﴾ بَدَلٌ مِنْهُ ﴿الَّذِي طَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ نَعْتُ الْبَدَلِ، وَالْخَبَرُ ﴿أَرَدْنَكُمْ﴾
 أَيُّ: أَهْلَكَكُمْ ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا عَلَى الْعَذَابِ ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى﴾ مَأْوًى ﴿لَهُمْ وَإِنْ
 يَسْتَعْتِبُوا﴾ يَطْلُبُوا الْعُتْبَى، أَيُّ: الرِّضَا ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ الْمَرْضِيِّينَ. ﴿* وَقَيُّضْنَا﴾ سَبَبْنَا ﴿لَهُمْ قُرْآنًا﴾
 مِنَ الشَّيَاطِينِ ﴿فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَاتَّبَعَ الشَّهَوَاتِ ﴿وَمَا خَلَفَهُمْ﴾ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ، بِقَوْلِهِمْ:
 لَا بَعَثَ وَلَا حِسَابَ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بِالْعَذَابِ وَهُوَ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [الأعراف: ١٨] آيَةً ﴿فِي﴾ جُمْلَةٍ
 ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ﴾ هَلَكْتُ ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا عِنْدَ قِرَاءَةِ
 النَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ ائْتُوا بِاللَّغَطِ وَنَحْوِهِ، وَصَيَّحُوا فِي زَمَنِ قِرَاءَتِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾
 ﴿٢٦﴾ فَيَسْكُتُ عَنِ الْقِرَاءَةِ. قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿فَلَنَذِقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا
 يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ أَيُّ: قُبِحَ جَزَاءُ عَمَلِهِمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ، وَأَسْوَأُ الْجَزَاءِ ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ
 الثَّانِيَةِ، وَإِبْدَالِهَا وَآوًا ﴿النَّارُ﴾ عَطْفٌ بَيَانٍ لِـ ﴿جَزَاءِ﴾ الْمُخْبِرِ بِهِ عَنْ ﴿ذَلِكَ﴾ ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أَيُّ: إِقَامَةٌ لَا
 انْتِقَالَ مِنْهَا ﴿جَزَاءِ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفِعْلِهِ الْمَقْدَرِ ﴿بِمَا كَانُوا يَكَايَتُنَا﴾ الْقُرْآنَ ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا فِي النَّارِ ﴿رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ أَيُّ: إِبْلِيسَ وَقَابِيلَ، سَنَّا الْكُفْرَ وَالْقَتْلَ ﴿نَجْعَلُهُمَا
 تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ فِي النَّارِ ﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿٢٩﴾ أَيُّ: أَشَدَّ عَذَابًا مِنَّا. ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾
 عَلَى التَّوْحِيدِ، وَغَيْرِهِ مِمَّا وَجَبَ عَلَيْهِمْ ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ عِنْدَ الْمَوْتِ ﴿أ﴾ نَ، أَيُّ: بَانَ ﴿لَا تَخَافُوا﴾ مِنَ
 الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَهُ ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا خَلَفْتُمْ مِنْ أَهْلِ وَوَلَدٍ، فَنَحْنُ نَخْلُقُكُمْ فِيهِ ﴿وَابْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ
 تُوعَدُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا أَيُّ: نَحْفَظُكُمْ فِيهَا ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أَيُّ: نَكُونُ مَعَكُمْ فِيهَا حَتَّى
 تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ ﴿٣١﴾ تَطْلُبُونَ. ﴿نُزُلًا﴾ رِزْقًا مُهِينًا،

(١) ﴿وَقَيُّضْنَا﴾ أصل التقييض التيسير والتهيئة، أي: هيأنا ﴿لَهُمْ﴾ أي: لكفار قريش وغيرهم ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين بمنزلة الإخلاء لهم
 جمع «قرين» بمعنى: نظير، كقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال الزجاج: سببنا
 لهم قرناء حتى أضلوهم، وقيل: سلطنا عليهم قرناء، وقيل: قدرنا، والمعاني متقاربة، أي: يلازمونهم ويستولون عليهم استيلاء القبيض على
 البيض، والقبيض: قشر البيض الأعلى. [صديق حسن (١٢/ ٢٤٥)].

(٢) معنى ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾: كل من أغوانا من الجن والإنس، وقيل: المراد ولد آدم الذي سن القتل وإبليس الذي أمر بالكفر والعصيان،
 وهذا باطل لأن ولد آدم مؤمن عاصي، وإنما طلب هؤلاء من أضلهم بالكفر. [ابن جزي (٢/ ٢٤٠)].

مَنْصُوبٌ بِـ «جَعَلَ» مُقَدَّرًا «مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ» (٣٢) أَي: اللَّهُ. «وَمَنْ أَحْسَنُ» أَي: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ «قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ» بِالتَّوْحِيدِ «وَعَمَلٍ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ «فِي جُزْئَاتِهِمَا؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمَا فَوْقَ بَعْضٍ» (أَدْفَعُ) السَّيِّئَةَ «بِالَّتِي» أَي: بِالْخُصْلَةِ الَّتِي «هِيَ أَحْسَنُ» كَالْغَضَبِ بِالصَّبْرِ، وَالْجَهْلِ بِالْحِلْمِ، وَالْإِسَاءَةَ بِالْعَفْوِ «فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (٣٤) أَي: فَيَصِيرُ عَدُوَّكَ كَالصَّدِيقِ الْقَرِيبِ فِي مَحَبَّتِهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ، فَ «الَّذِي» مُبْتَدَأٌ وَ «كَأَنَّهُ» الْخَبَرُ، وَ «إِذَا» ظَرْفٌ لِمَعْنَى التَّشْبِيهِ. «وَمَا يُلْقِيهَا» أَي: يُؤْتِي الْخُصْلَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ «إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ» ثَوَابٍ «عَظِيمٍ» (٣٥) وَ «وَمَا» فِيهِ إِدْغَامٌ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الزَّائِدَةُ «يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ» أَي: يَصْرِفُكَ عَنِ الْخُصْلَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَيْرِ صَارِفٌ «فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ» جَوَابُ الشَّرْطِ، وَجَوَابُ الْأَمْرِ مَحْذُوفٌ، أَي: يَدْفَعُهُ عَنْكَ «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ» لِلْقَوْلِ «الْعَلِيمُ» (٣٦) بِالْفِعْلِ. «وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ» أَي: الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ «إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا عَنْ السُّجُودِ لِلَّهِ وَحْدَهُ «فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» أَي: فَالْمَلَائِكَةُ «يُسَبِّحُونَ» يُصَلُّونَ «لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمُونَ» (٣٨) لَا يَمْلُون. «وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً» يَابِسَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ» تَحَرَّكَتْ «وَرَبَّتْ» انْتَفَخَتْ وَعَلَتْ (٣٩) «إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤٠) إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ مِنْ

(١) والمعنى: أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان فادفع بها السيئة التي ترد عليك من بعض أعدائك، كما لو أساء إليك رجل إساءة فالحسنة أن تعفو عنه والتي هي أحسن أن تحسن إليه مكان إساءته إليك، مثل أن يذمك فتمدحه، أو يقتل ولدك فتفتدي ولده من يد عدوه، ووضع التي هي أحسن موضع الحسنة ليكون أبلغ في الدفع بالحسنة، لأن من دفع بالحسنى هان عليه الدفع بما دونها. [النيسابوري (٥٩/٦)].

(٢) «خَاشِعَةً» يَابِسَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، مِطَامَنَةً، وَهِيَ أَنْسَبُ بِلَفْظِ خَاشِعَةٍ، وَالْخَاشِعَةُ الْيَابِسَةُ الْجَدْبَةُ الْجَامِدَةُ، وَقِيلَ: الْغُبَاءُ الَّتِي لَا تَنْبَتُ، قَالَ الْأَزْهَرِيُّ. إِذَا بَسَّتِ الْأَرْضُ وَلَمْ تَمْطُرْ، قِيلَ: قَدْ خَشَعَتْ وَالْخُشُوعُ التَّذَلُّلُ وَالتَّقَاصُرُ، فَاسْتَعِيرَ لِحَالِ الْأَرْضِ إِذَا كَانَتْ قَحْطَةً لَا نَبَاتَ فِيهَا، كَمَا وَصَفَهَا بِالْهُمُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» [الحج: ٥] وَهُوَ خِلَافُ وَصْفِهَا بِالْاهْتِزَازِ وَالرَّبْوِ، كَمَا قَالَ: «فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ» أَي: مَاءَ الْمَطَرِ أَوْ غَيْرِهِ «أَهْتَزَّتْ» تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ حَرَكَةً عَظِيمَةً كَثِيرَةً سَرِيعَةً فَكَانَ كَمَنْ يَعَالِجُ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ، يُقَالُ اهْتَزَّ الْإِنْسَانُ إِذَا تَحَرَّكَ. «وَرَبَّتْ» انْتَفَخَتْ وَعَلَتْ قَبْلَ أَنْ تَنْبَتَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، أَي: تَصَدَّعَتْ عَنِ النَّبَاتِ بَعْدَ مَوْتِهَا، وَعَلَى هَذَا فِي الْكَلَامِ تَقْدِيمٌ وَتَأْخِيرٌ، وَتَقْدِيرُهُ: رَبَّتْ وَاهْتَزَّتْ، وَقِيلَ: الْاهْتَزَازُ وَالرَّبْوُ قَدْ يَكُونَانِ قَبْلَ خُرُوجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ وَقَدْ يَكُونَانِ بَعْدَهُ، وَمَعْنَى الرَّبْوِ لُغَةُ الارتفاع. كَمَا يُقَالُ لِلْمَوْضِعِ الْمُرْتَفِعِ: رَبْوَةٌ وَرَابِيَةٌ فَالنَّبَاتُ يَتَحَرَّكُ لِلرَّبْوِ ثُمَّ يَزْدَادُ فِي جِسْمِهِ بِالْكِبَرِ طَوْلًا وَعَرْضًا. [صديق حسن (٢٥٦/١٢)].

الْحَدَّ وَلَحَدَ ﴿فِي ءَايَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ بِالتَّكْذِيبِ ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ فَجَازِيهِمْ ﴿أَقْمَنَ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي
ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ الْقُرْآنِ
﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نُجَازِيهِمْ ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤٢﴾ مَنيعٌ. ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ﴾ أَي:
لَيْسَ قَبْلَهُ كِتَابٌ يُكْذِبُهُ وَلَا بَعْدَهُ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٣﴾ أَي: اللَّهُ الْمَحْمُودُ فِي أَمْرِهِ. ﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾ مَن
التَّكْذِيبِ ﴿إِلَّا﴾ مِثْلُ ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٤﴾
لِلْكَافِرِينَ. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الذِّكْرُ ﴿قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿فُصِّلَتْ﴾ بَيِّنَاتٌ ﴿ءَايَاتُهُ﴾ حَتَّى نَفْهَمَهَا
﴿ع﴾ قُرْآنٌ ﴿أَعْجَمِيٌّ وَ﴾ نَبِيٌّ ﴿عَرَبِيٌّ﴾؟ اسْتَفْهَامُ انْكَارٍ مِنْهُمْ، بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَةِ الثَّانِيَةِ وَقَلْبِهَا أَلْفًا بِإِشْبَاعٍ وَدُونِهِ ^(١) ﴿قُلْ
هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى﴾ مِنَ الصَّلَاةِ ﴿وَشِفَاءٌ﴾ مِنَ الْجَهْلِ ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْ﴾ ثَقُلْ فَلَا
يَسْمَعُونَهُ ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فَلَا يَفْهَمُونَهُ ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَي: هُمْ كَالْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَفْهَمُ مَا يُنَادِي بِهِ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ بِالتَّضْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ
كَالْقُرْآنِ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ لِلْخَلَائِقِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ فِي
الدُّنْيَا فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أَي: الْمُكْذِبِينَ بِهِ ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٦﴾ مَوْعٍ فِي الرِّيَّةِ. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا
فَلِنَفْسِهِ﴾ عَمَلٌ ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ أَي: فَضَرَّرَ إِسَاءَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٤٧﴾ أَي: بِذِي
ظُلْمٍ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]. ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مَتَى تَكُونُ؟ لَا
يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَةٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ أَوْعِيَّتَهَا جَمْعُ «كِم» بِكَسْرِ الْكَافِ
إِلَّا يَعْلَمُهُ ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ﴾ أَعْلَمْنَاكَ الْآنَ
﴿مَامِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٨﴾ أَي: شَهِيدٌ بَأَنَّ لَكَ شَرِيكًا. ﴿وَضَلَّ﴾ غَابَ ﴿عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ ﴿مِن قَبْلُ﴾
فِي الدُّنْيَا مِنَ الْأَصْنَامِ ﴿وَضُنُّوا﴾ أَتَقْنُوا ﴿مَا لَهُمْ مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٩﴾ مَهْرَبٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَالنَّفْيُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ مُعَلَّقٌ
عَنِ الْعَمَلِ وَجُمْلَةُ النَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدَّ الْمَفْعُولَيْنِ. ﴿لَّا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾ أَي: لَا يَرَالُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الْمَالَ

(١) تحقيق الهمزة الثانية أن تقول: ﴿ءَاْعَجَمِيٌّ﴾ كما هي القراءة المشهورة، «وقلبها أَلْفًا بِإِشْبَاعٍ» ﴿ءَاْعَجَمِيٌّ﴾ قلبنا الثانية أَلْفًا، «ودونه»

﴿ءَاْعَجَمِيٌّ﴾ بمعنى أنك تمد الألف مدًا طبيعيًا أو تمدّها مدًا زائدًا على ذلك، والمد الطبيعي قوله: «ودونه» والمد الزائد قوله: «بإشباع»

وعلى هذا فيكون فيها ثلاث قراءات. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٢٦٠)].

وَالصَّحَّةَ، وَغَيْرُهُمَا ﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الْفَقْرُ وَالشَّدَّةُ ﴿فَيَتَوَسَّسُ قَنُوطٌ﴾ ٤٩ ﴿مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَهَذَا وَمَا بَعْدَهُ فِي الْكَافِرِينَ﴾ ٥٠. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ آتَيْنَاهُ ﴿رَحْمَةً﴾ غِنَى وَصِحَّةً ﴿مِمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ﴾ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ ﴿مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ أَيُّ: بِعَمَلِي ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ﴾ لَمْ قَسَمِ ﴿رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ أَيُّ: الْجَنَّةَ ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ٥١ شَدِيدٍ، وَاللَّامُ فِي الْفَعْلَيْنِ لَمْ قَسَمِ. ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الْجِنْسِ ﴿أَعْرَضَ﴾ عَنِ الشُّكْرِ ﴿وَنَاءَ بِجَانِبِهِ﴾ ثَنَى عِظْفُهُ مُتَبَخِّتِرًا، وَفِي قِرَاءَةِ بَتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ ٥٢ ﴿كَثِيرٌ﴾ ٥٣. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ﴾ أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ﴾ خِلَافٍ ﴿بَعِيدٍ﴾ ٥٤ ﴿عَنِ الْحَقِّ، أَوْ قَعَ هَذَا مَوْقِعَ «مِنْكُمْ» بَيَانًا لِحَالِهِمْ. ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ النَّيِّرَاتِ وَالنَّبَاتِ وَالْأَشْجَارِ ٥٥ ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِنْ لَطِيفِ الصَّنْعَةِ وَبَدِيعِ الْحِكْمَةِ ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿الْحَقُّ﴾ الْمُنَزَّلُ مِنَ اللَّهِ بِالْبُعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ، فَيَعَاقِبُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ وَبِالْجَائِي بِهِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فَاعِلٌ ﴿يَكْفٍ﴾ ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٥٦ ﴿بَدَلٌ مِنْهُ، أَيُّ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ فِي صَدَقِكَ أَنَّ رَبَّكَ لَا يَغِيبُ عَنْهُ شَيْءٌ مَا. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ﴾ شَكٌّ ﴿مَنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ لِانْكَارِهِمُ الْبُعْثَ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ﴾ تَعَالَى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ ٥٧ عِلْمًا وَقُدْرَةً، فَيُجَازِيهِمْ بِكُفْرِهِمْ.

(١) وهذا صفة الكافر لقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد بلغ في يأسه من جهة البنية والتكرير وما في القنوط من ظهور أثر اليأس. [البيضاوي (٥/ ٧٤)].

(٢) أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد، فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]. [ابن كثير (٧/ ١٨٦)].

(٣) الآيات جمع آية، وهي في اللغة العلامة، والمراد بآيات الله علاماته الدالة على كمال علمه وحكمته وقدرته، وغير ذلك من مقتضيات ربوبيته. واعلم أن آيات الله تعالى نوعان: آيات شرعية؛ وهي ما جاءت به الرسل، ومنها هذا القرآن الكريم، وآيات كونية؛ وهي الدالة على كمال الله تبارك وتعالى في العلم والخلق، وكل ما يتعلق بربوبيته، وهي ما يعجز البشر عن مثله، فالبشر كلهم عاجزون عن أن يخلقوا أرضاً، أو سماءً، أو نجوماً، أو شمساً، أو قمراً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] هذه آيات كونية؛ لأنه يعجز عن مثلها البشر، والآيات الشرعية مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]. [ابن عثيمين تفسير فصلت (ص: ٣٣١)].

سُورَةُ الشُّورَى

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ﴾ الْآيَاتِ الْأَرْبَعُ، ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١ عَسَقَ ٢﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ ^(١). ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الْإِيحَاءِ ﴿يُوحَى إِلَيْكَ وَ﴾ أَوْحَى ﴿إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾ فَاعِلُ الْإِيحَاءِ ﴿الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ ٣﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَيْدًا ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ عَلَى خَلْقِهِ ﴿الْعَظِيمُ ٤﴾ الْكَبِيرُ. ﴿تَكَادُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ﴾ بِالتَّوْنِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالتَّاءِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ أَي: تَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ فَوْقَ الَّتِي تَلِيهَا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ تَعَالَى ^(٢) ﴿وَالْمَلَكُوتُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: مُلَابِسِينَ لِلْحَمْدِ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾ لِأَوْلِيَائِهِ ﴿الرَّحِيمُ ٥﴾ بِهِمْ. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: الْأَصْنَامَ ﴿أَوْلِيََاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ﴾ مُحْصٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لِيُجَازِيَهُمْ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ٦﴾ تُحْصِلُ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ، مَا عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ مِثْلَ ذَلِكَ الْإِيحَاءِ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنْذِرَ﴾ تُخَوِّفُ ﴿أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَي: أَهْلَ مَكَّةَ، وَسَائِرَ النَّاسِ ﴿وَتُنْذِرَ﴾ النَّاسَ ﴿يَوْمَ الْجُمُعِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُجْمَعُ فِيهِ الْخَلَائِقُ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهِ فَرِيقٌ﴾ مِنْهُمْ ﴿فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ٧﴾ النَّارِ. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أَي: عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ﴾ الْكَافِرُونَ ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٨﴾ يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ. ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أَي: الْأَصْنَامَ ﴿أَوْلِيََاءَ﴾ أُمَّ مُنْقَطِعَةً بِمَعْنَى: «بَلِ» الَّتِي لِلْإِتِّقَالِ وَالْهَمْزَةُ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) سبب مقاربة السماوات للتفطر في هذه الآية الكريمة فيه للعلماء وجهان كلاهما يدل له القرآن: الوجه الأول: أن المعنى: تكاد السماوات يتفطرن خوفا من الله، وهيبة وإجلالا، ويدل لهذا الوجه قوله تعالى قبله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾؛ لأن علوه وعظمته سببت للسماوات ذلك الخوف والهيبة والإجلال، حتى كادت تتفطر. الوجه الثاني: أن المعنى تكاد السماوات يتفطرن من شدة عظم الفرية التي افترها الكفار على خالق السماوات والأرض جل وعلا من كونه اتخذ ولدا سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وهذا الوجه جاء موضحا في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُجِرُوا لِلْبَيْتِ هَذَا ٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ٩١﴾ [مريم: ٨٨-٩١]. [الشنقيطي (٧/ ١٦٢)].

لِلْإِنكَارِ، أَي: لَيْسَ الْمُتَّخِذُونَ أَوْلِيَاءَ ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ أَي: النَّاصِرُ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَالْفَاءُ لِمُجَرَّدِ الْعَطْفِ ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنَ الدِّينِ وَغَيْرِهِ ﴿فَحُكْمُهُ﴾ مَرْدُودٌ ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ، قُلْ لَهُمْ: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ١٠﴾ أَرْجِعْ. ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُبْدِعُهُمَا ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ حَيْثُ خَلَقَ حَوَاءَ مِنْ ضِلَعِ آدَمَ ﴿وَمِنْ الْأَنْعَمِ أَزْوَاجًا﴾ ذُكُورًا وَإِنَاثًا ﴿يَذَرُوكُمْ﴾ بِالْمُعْجَمَةِ: يَخْلُقُكُمْ ﴿فِيهِ﴾ فِي الْجَعْلِ الْمَذْكُورِ، أَي: يَكْثُرُكُمْ بِسَبَبِهِ بِالتَّوَالِدِ وَالضَّمِيرُ لِلْإِنْسَانِيِّ وَالْأَنْعَامِ بِالتَّغْلِيبِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الْكَافُ زَائِدَةٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا مِثْلَ لَهُ ^(١) ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لِمَا يُقَالُ ﴿الْبَصِيرُ ١١﴾ لِمَا يَفْعَلُ. ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: مَفَاتِيحُ خَزَائِنِهِمَا مِنَ الْمَطَرِ وَالنَّبَاتِ، وَغَيْرِهِمَا ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يُوسِّعُهُ ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ اِمْتِحَانًا ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يُضَيِّقُهُ لِمَنْ يَشَاءُ اِئْتِلَاءً ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢﴾ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴿هُوَ أَوَّلُ أَنْبِيَاءِ الشَّرِيعَةِ﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿هَذَا هُوَ الْمَشْرُوعُ الْمُوصَى بِهِ، وَالْمَوْحَى إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُوَ التَّوْحِيدُ ^(٢)﴾ كَبُرَ عَظَمُ ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ مِنَ التَّوْحِيدِ ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾

(١) المراد بذكر المثل هنا المبالغة في النفي بطريق الكناية فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفية عنه أولى، كقولهم: مثلك لا يبخل وغيرك لا يوجد، فإن الكناية باب مسلوكة للعرب ومهيج مألوف لهم، قال ابن قتيبة: العرب تقيم المثل مقام النفس، فتقول: مثلي لا يقال له هذا، أي: أنا لا يقال لي، وقيل: المراد بالمثل الصفة، فيكون المعنى: ليس مثل صفته تعالى شيء من الصفات التي لغيره وهو محمل سهل. ومن فهم هذه الآية الكريمة حق فهمها، وتدبرها حق تدبرها مشى بها عند اختلاف المختلفين في الصفات على طريقة بيضاء واضحة، ويزداد بصيرة إذا تأمل معنى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فإن هذا الإثبات بعد ذلك النفي للمثل، قد اشتمل على برد اليقين، وشفاء الصدور، واثلاج القلوب، فأقدر يا طالب الحق قدر هذه الحجة النيرة، والبرهان القوي، فإنك تحطم بها كثيراً من البدع، وتهشم بها رؤوساً من الضلالة، وترغم بها آناف طوائف من القاصرين المتكلفين، والمتكلمين المتأولين. [صديق حسن (١٢ / ٢٨١)]. [فالله] ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه ... وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. [السعدي (ص: ٧٥٤)].

(٢) الدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وفي الحديث: «نَحْنُ مَعْشَرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عَلَاتٍ دِينَنَا وَاحِدٌ». أخرجه البخاري (٣٤٤٢). أي: القدر

إِلَى التَّوْحِيدِ ﴿مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِ إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ ١٣ ﴿يُقْبَلُ إِلَى طَاعَتِهِ. ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ أَي: أَهْلُ الْأَدْيَانِ فِي الدِّينِ، بِأَنْ وَحَّدَ بَعْضُ وَكَفَرَ بَعْضُ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ بِالتَّوْحِيدِ ﴿بَغْيًا﴾ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ بِتَأْخِيرِ الْجَزَاءِ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بِتَعْدِيبِ الْكَافِرِينَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وَهُمْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ ﴿مُرِيبٍ﴾ ١٤ ﴿مُوقِعٍ فِي الرِّيَّةِ. ﴿فَلِذَلِكَ﴾ التَّوْحِيدِ ﴿فَادْعُ﴾ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ ﴿وَأَسْتَقِمْ﴾ عَلَيْهِ ﴿كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي تَرْكِهِ ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ﴾ أَي: بِأَنْ أَعْدِلَ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ فِي الْحُكْمِ ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ فَكُلُّ يُجَازَى بِعَمَلِهِ ﴿لَا حُجَّةَ﴾ خُصُومَةٍ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْجِهَادِ ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ فِي الْمَعَادِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ ١٥ ﴿الْمَرْجِعُ﴾. ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ﴾ يُجَادِلُونَ ﴿فِي﴾ دِينِ ﴿اللَّهُ﴾ نَبِيِّهِ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَسْتَجِيبَ لَهُ﴾ بِالْإِيمَانِ لظُهُورِ مُعْجَزَتِهِ، وَهُمْ الْيَهُودُ ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ بَاطِلَةٌ ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ١٦ ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿أَنْزَلَ﴾ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ الْعَدْلَ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُعْلِمُكَ ﴿لَعَلَّ السَّاعَةَ﴾ أَي: إِتْيَانَهَا ﴿قَرِيبٌ﴾ ١٧ ﴿وَلَعَلَّ مُعَلِّقٌ لِلْفِعْلِ عَنِ الْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدٌّ مَسَدِّ الْمَفْعُولَيْنِ. ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ يَقُولُونَ: مَتَى تَأْتِي؟ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهَا غَيْرُ آتِيَةٍ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ﴾ خَائِفُونَ ﴿مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ إِلَّا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ يُجَادِلُونَ ﴿فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ١٨ ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ بَرَّهْمَ وَفَاجِرِهِمْ، حَيْثُ لَمْ يُهْلِكْهُمْ جُوعًا بِمَعَاصِيهِمْ ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ كُلِّ مِنْهُمْ مَا يَشَاءُ ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾ عَلَى مُرَادِهِ ﴿الْعَزِيزُ﴾ ١٩ ﴿الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ. ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿حَرْتَ الْآخِرَةِ﴾ أَي: كَسَبَهَا وَهُوَ الثَّوَابُ ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بِالتَّضْعِيفِ فِيهِ بِالْحَسَنَةِ

المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. [ابن كثير (١٩٥/٧)].

(١) ﴿لَا حُجَّةَ﴾ أَي: لَا خُصُومَةَ ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لِأَنَّ الْحَقَّ قَدْ ظَهَرَ وَوَضَحَ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُحَاجَّةِ مَجَالٌ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ إِلَّا مَا يَدُلُّ عَلَى الْمِتَارَكَةِ فِي الْمَقَاوِلَةِ، وَالْمُحَاجَّةُ لَا مَطْلَقًا حَتَّى تَكُونَ مَنْسُوخَةً، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ أَبَاطِلِهِمْ بِالْحُجَّةِ مُجَارَاةً لَهُمْ عَلَى زَعْمِهِمُ الْبَاطِلَ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: الْخُطَابُ لِلْيَهُودِ، وَقِيلَ: لِلْكَفَّارِ عَلَى الْعُمُومِ. ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ فِي الْمَحْشَرِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي: الْمَرْجِعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُجَازَى كُلًّا بِعَمَلِهِ، وَهَذَا مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ، وَقِيلَ: لَيْسَتْ بِمَنْسُوخَةٍ لِأَنَّ الْبَرَاهِينَ قَدْ ظَهَرَتْ وَالْحُجَجُ قَدْ قَامَتْ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعِنَادُ وَبَعْدَ الْعِنَادِ لَا حُجَّةَ وَلَا جِدَالَ. [صديق حسن (٢٨٨/١٢)].

إِلَى الْعَشْرِ وَأَكْثَرَ ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ بِلا تَضْعِيفٍ، مَا قُسِمَ لَهُ ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٥﴾ أَمْ ﴿بَلْ﴾ لَهُمْ ﴿لِكُفَّارٍ مَكَّةَ﴾ ﴿شُرَكَؤُا﴾ هُمْ شَيَاطِينُهُمْ ﴿شَرَعُوا﴾ أَيِ: الشُّرَكَاءُ ﴿لَهُمْ﴾ لِلْكَفَّارِ ﴿مِنْ﴾ الَّذِينَ ﴿الْفَاسِدِ﴾ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ ﴿كَالشُّرِكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ أَيِ: الْقَضَاءِ السَّابِقِ، بَانَ الْجَزَاءُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْتَعَذِيبِ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٦﴾ مُؤَلَّمٌ. ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خَائِفِينَ ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ فِي الدُّنْيَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، أَنْ يُجَازَوْا عَلَيْهَا ﴿وَهُوَ﴾ أَيِ: الْجَزَاءُ عَلَيْهَا ﴿وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا مَحَالَةَ ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أَنْزَلَهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ دُونَهُمْ ٢٧ ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٨﴾ ذَلِكَ الَّذِي يَبْشُرُ ﴿مِنَ الْبَشَارَةِ﴾ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلًا، بِهِ ﴿اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ عَلَى تَبْلِغِ الرِّسَالَةِ﴾ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴿إِسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، أَيِ: لَكِنْ أَسْأَلُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا قَرَابَتِي الَّتِي هِيَ قَرَابَتُكُمْ أَيْضًا، فَإِنَّ لَهُ فِي كُلِّ بَطْنٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَرَابَةً ٢٩﴾ وَمَنْ يَقْتَرِفْ يَكْتَسِبْ ﴿حَسَنَةً﴾ طَاعَةً ﴿نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بِتَضْعِيفِهَا ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلذُّنُوبِ ﴿شَكُورٌ ٣٠﴾ لِلْقَلِيلِ فَيُضَاعِفُهُ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ يَقُولُونَ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا بِنِسْبَةِ الْقُرْآنِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ﴾ يَرْبِطُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ بِالصَّبْرِ عَلَىٰ أَذَاهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ وَغَيْرِهِ،

(١) جمع روضة، قال أبو حيان: اللغة الكثيرة تسكين الواو، ولغة هذيل فتحها والروضة الموضع النزه الكثير الخضرة، وروضة الجنة أطيب مساكنها كما أنها في الدنيا أحسن أمكنتها، وفيه تنبيه على أن عصاة المسلمين من أهل الجنة؛ لأنه خص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأنهم في روضات الجنات وهي البقاع الشريفة من الجنة، والبقاع التي دون تلك الأوصاف لا بد وأن تكون مخصوصة بمن كان دون الذين آمنوا وعملوا الصالحات. [صديق حسن (١٢/ ٢٩٥)].

(٢) فيه خمسة أوجه: أحدها: معناه ألا تؤذوني في نفسي لقرايتي منكم، وهذا لقريش خاصة لأنه لم يكن بطن من قريش إلا بينهم وبين رسول الله ﷺ قرابة، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وأبو مالك. الثاني: معناه إلا أن تؤدوا قرايتي، وهذا قول علي بن الحسين وعمرو بن شعيب والسدي. الثالث: معناه إلا أن توادوني وتؤازروني كما توادون وتؤازرون قرايتكم، قاله ابن زيد. الرابع: معناه إلا أن تتوددوا وتتقربوا إلى الله بالطاعة والعمل الصالح، قاله الحسن، وقتادة. الخامس: معناه إلا أن تودوا قرايتكم وتصلوا أرحامكم، قاله عبد الله بن القاسم. [الماوردي (٥/ ٢٠٢)]. والحق تفسير الآية بما فسر بها الإمام حبر الأمة، وترجمان القرآن، عبد الله بن عباس، كما رواه عنه البخاري رحمه الله ولا تنكر الوصاة بأهل البيت، والأمر بالإحسان إليهم، واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذرية طاهرة، من أشرف بيت وجد على وجه الأرض، فخرا وحسبا ونسبا، ولا سيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجليلة، كما كان عليه سلفهم، كالعباس وبنيه، وعلي وأهل بيته وذريته، رضي الله عنهم أجمعين. [ابن كثير (٧/ ٢٠١)].

وَقَدْ فَعَلَ^(١) ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ الَّذِي قَالُوهُ ﴿وَيُحِقُّ الْحَقَّ﴾ يُثَبِّتُهُ ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى نَبِيِّهِ^(٢) ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ﴿٢٤﴾ بِمَا فِي الْقُلُوبِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ الْمَتَابِ عَنْهَا ﴿وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ بِالْبَاءِ وَالنَّاءِ. ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يُجِيبُهُمْ إِلَى مَا يَسْأَلُونَ ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّنْ فَضْلِهِ﴾ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴿جَمِيعَهُمْ﴾ ﴿لَبَعَثُوا﴾ جَمِيعُهُمْ، أَي: طَعَوْا ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنْزِلُ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَضِدِّهِ، مِّنَ الْأَرْزَاقِ ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ فَيَسْطُهَا لِبَعْضِ عِبَادِهِ دُونَ بَعْضٍ، وَيَنْشَأُ عَنِ الْبَسْطِ الْبَغْيُ ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ الْمَطَرَ ﴿مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ يَسُوءُ مِنْ نُّزُولِهِ ﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ يَسْطُطُ مَطَرُهُ ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ الْمُحْسِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الْحَمِيدُ﴾ ﴿٢٨﴾ الْمَحْمُودُ عِنْدَهُمْ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ﴾ خَلْقُ ﴿مَا بَثَّ﴾ فَرَقَ وَنَشَرَ ﴿فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ هِيَ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ﴾ لِلْحَشْرِ ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٩﴾ فِي الضَّمِيرِ تَغْلِبُ الْعَاقِلِ عَلَى غَيْرِهِ. ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾ بَلِيَّةٍ وَشِدَّةٍ ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أَي: كَسَبْتُمْ مِنَ الذُّنُوبِ، وَعَبَّرَ بِالْأَيْدِي لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَرَاوُلَ بِهَا ﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٠﴾ مِنْهَا فَلَا يُجَازِي عَلَيْهِ، وَهُوَ تَعَالَى أَكْرَمُ مَنْ أَنْ يُثْنِيَ الْجَزَاءُ فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا غَيْرُ الْمُذْنِبِينَ فَمَا يُصِيبُهُمْ فِي الدُّنْيَا؛ لِرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَمَا أَنْتُمْ﴾ يَا مُشْرِكِينَ ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ اللَّهُ هَرَبًا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ فَتَقَوُّنَهُ ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٣١﴾ يَدْفَعُ عَذَابَهُ عَنْكُمْ. ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ الْجَوَارِ﴾ السُّفُنُ ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٣٢﴾ كَالْجِبَالِ فِي الْعِظَمِ. ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ﴾ يَصِرْنَ ﴿رَوَاكِدَ﴾ ثَوَابِتَ لَا تَجْرِي ﴿عَلَى ظَهْرِهِ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ هُوَ الْمُؤْمِنُ يُصْبِرُ فِي الشَّدَّةِ وَيَشْكُرُ فِي الرَّخَاءِ. ﴿أَوْ يُوبِقْهُمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُسْكِنِ﴾، أَي: يُغْرِقُهُمْ بِعَصْفِ الرِّيحِ بِأَهْلِهِمْ ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ أَي: أَهْلُهُمْ مِنَ الذُّنُوبِ ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ﴿٣٤﴾

(١) للمفسرين في بيان هذا التفریع وترتبه على ما قبله أفهام عديدة لا يخلو معظمها عن تكلف وضعف اقتناع. والوجه في بيانه: تقدير: فكيف يكون الافتراء منك على الله والله لا يقر أحدا أن يكذب عليه فلو شاء لختم على قلبك، أي: سلبك العقل الذي يفكر في الكذب فتفحم عن الكلام فلا تستطيع أن تقول عليه، أي: وليس ثمة حائل يحول دون مشيئة الله ذلك لو افترت عليه، فيكون الشرط كناية عن انتفاء الافتراء لأن الله لا يقر من يكذب عليه كلاما، فحصل بهذا النظم إيجاز بديع، وتكون الآية قريبا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٦﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]. [ابن عاشور (٨٦/٢٥)].

(٢) أي يحق الإسلام بما أنزله من القرآن وقد فعل الله تعالى ذلك فمحا باطلهم. وأعلى كلمة الإسلام. [الخازن (٩٩/٤)].

مِنْهَا فَلَا يُغْرِقُ أَهْلَهُ. ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بِالرَّفْعِ مُسْتَأْنَفٌ، وَبِالنَّصْبِ مَعْطُوفٌ عَلَى تَعْلِيلٍ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: يُغْرِقُهُمْ لِيَتَّقَمَ مِنْهُمْ، وَيَعْلَمُ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ قَحِيصٍ﴾ (٣٥) مَهْرَبٍ مِنَ الْعَذَابِ، وَجُمْلَةُ النَّفْيِ سَدَّتْ مَسَدًا مَفْعُولًا لِي ﴿يَعْلَمُ﴾ وَالنَّفْيُ مُعَلَّقٌ عَنِ الْعَمَلِ. ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ﴾ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ مِنْ أَثَابِ الدُّنْيَا ﴿فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُ بِهَا ثُمَّ يَزُولُ ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٣٦). وَيُعْطَفُ عَلَيْهِمْ: ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كِبِيرَ الْأَثَمِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ مُوجِبَاتِ الْحُدُودِ، مِنْ عَطْفِ الْبَعْضِ عَلَى الْكُلِّ ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٣٧) يَتَجَاوَزُونَ. ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أَجَابُوهُ إِلَى مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْعِبَادَةِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَدَامُوهَا^(١) ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ الَّذِي يَبْدُو لَهُمْ ﴿شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ يَتَشَاوَرُونَ فِيهِ وَلَا يَعْجَلُونَ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾ (٣٨) فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَمَنْ ذَكَرَ صِنْفٌ. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ الْظُلْمُ ﴿هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ (٣٩) صِنْفٌ، أَيُّ: يَتَّقِمُونَ مِمَّنْ ظَلَمَهُمْ بِمِثْلِ ظُلْمِهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَزَا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلُهَا﴾ سُمِّيتِ الثَّانِيَةُ سَيِّئَةً لِمُشَابَهَتِهَا لِلأُولَى فِي الصُّورَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ فِيمَا يُقْتَضَى فِيهِ مِنَ الْجَرَاحَاتِ، قَالَ بَعْضُهُمْ: وَإِذَا قَالَ لَهُ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، فَيَجِيبُهُ: أَخْزَاكَ اللَّهُ ﴿فَمَنْ عَفَا﴾ عَنْ ظَالِمِهِ ﴿وَأَصْلَحَ﴾ الْوُدُّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَغْفُورِ عَنْهُ ﴿فَاجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ يَاجِرُهُ لَا مَحَالَةَ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤٠) أَيُّ: الْبَادِيْنَ بِالظُّلْمِ فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِمْ عِقَابُهُ. ﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أَيُّ: ظَلَمَ الظَّالِمُ إِيَّاهُ ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١) مُوَاحِذَةً. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ﴾ يَعْمَلُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ بَغْيًا الْحَقِّ﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٤٢) مُؤْلَمٌ. ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ﴾ فَلَمْ يَتَّصِرْ ﴿وَعَفَرَ﴾ تَجَاوَزَ ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الصَّبْرَ وَالتَّجَاوُزَ ﴿لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣) أَيُّ: مَعَزُومَاتِهَا، بِمَعْنَى: الْمَطْلُوبَاتِ شَرْعًا. ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ أَيُّ: أَحَدٍ يَلِي هِدَايَتَهُ بَعْدَ إِضْلَالِ اللَّهِ إِيَّاهُ ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ﴾ إِلَى الدُّنْيَا ﴿مِّنْ سَبِيلٍ﴾ (٤٤) طَرِيقٌ. ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: النَّارِ ﴿خَشِيعِينَ﴾ خَائِفِينَ مُتَوَاضِعِينَ ﴿مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ﴾ إِلَيْهَا ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ ضَعِيفِ النَّظَرِ مُسَارِقَةً، وَ﴿مِنْ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ، أَوْ بِمَعْنَى: الْبَاءِ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا

(١) ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أَتَوْا بِهَا مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي طَلَبَ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ هُنَاكَ فَرَقًا بَيْنَ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَبَيْنَ إِدَامَةِ الصَّلَاةِ، نَعَمْ إِدَامَتُهَا مِنْ إِقَامَتِهَا لَا شَكَّ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ الْإِقَامَةُ هِيَ الْإِدَامَةُ، إِذْ الْإِقَامَةُ مَعْنَاهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالصَّلَاةِ مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْوَجْهِ الْمَطْلُوبِ. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص: ٢٨٦)].

(١) أما خسرانهم لأنفسهم فلكونهم صاروا في النار معذيين بها، وأما خسرانهم لأهلهم فلا أنهم إن كانوا معهم في النار فلا يتفعون بهم وإن كانوا في الجنة فقد حيل بينهم وبينهم، وقيل: خسران الأهل أنهم لو آمنوا لكان لهم في الجنة أهل من الحور العين. [الشوكاني (٤/٦٢٢)].

(٢) الآية على كلام المؤلف منسوخة... والصحيح أنها لم تنسخ، والبلاغ واجب عليه ﷺ حتى بعد الأمر بالجهاد، ولا يتنافيان، لا ينافي أن يكون عليه البلاغ وأن يكون مأموراً بالجهاد. ولكن من حكمة الله عز وجل أن الله لم يفرض الجهاد إلا حين قويت الأمة الإسلامية، لم يفرض الجهاد في مكة، وإنما فرضه في المدينة حين صار للأمة الإسلامية دولة مستقلة تستطيع أن تجاهد، فهذا من الحكمة، ويعبر عنه أنه من باب التدرج في التشريع، ومن باب الحكمة في التشريع. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص: ٣٣٠)].

(٣) أي: بليغ السرور للنعم نساء له، ينسى بأول صدمة من النعمة جميع ما تقدم له من النعم، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة، فإن كان في نعمه أشر وبطر، وإن كان في نعمه أيسر وقنط، وهذا حال الجنس من حيث هو، ومن وفقه الله جنبه ذلك كما قال ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا الْمُؤْمِنُ إِنَّ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». أخرجه مسلم (٢٩٩٩). [البقاعي (٧/ ٣٥١)].

رَسُولًا ﴿مَلَكًا كَجِبْرِيلَ﴾ ^(١) ﴿فَيُوحِي﴾ الرَّسُولَ إِلَى الْمُرْسَلِ إِلَيْهِ، أَي: يُكَلِّمُهُ ﴿بِإِذْنِهِ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ اللَّهُ ﴿إِنَّهُ وَعَلَى﴾ عَنْ صِفَاتِ الْمُحَدِّثِينَ ^(٢) ﴿حَكِيمٌ﴾ ^(٣) فِي صُنْعِهِ. ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ إِحْيَائِنَا إِلَى غَيْرِكَ مِنَ الرُّسُلِ ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿رُوحًا﴾ هُوَ الْقُرْآنُ بِهِ تَحْيَا الْقُلُوبُ ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ الَّذِي نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ تَعْرِفُ قَبْلَ الْوَحْيِ إِلَيْكَ ﴿مَا أَلَكِتَبُ﴾ الْقُرْآنُ ﴿وَلَا الْإِيمَنُ﴾ أَي: شِرَاعُهُ وَمَعَالِمُهُ ^(٤)، وَالنَّفْيُ مُعْلَقٌ لِلْفِعْلِ عَنِ الْعَمَلِ، وَمَا بَعْدَهُ سَدٌّ مَسَدِّ الْمَفْعُولَيْنِ ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾ أَي: الرُّوحَ، أَوِ الْكِتَابَ ﴿نُورًا تَهْدِي بِهِ﴾ مَنْ تَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَى﴾ تَدْعُو بِالْوَحْيِ إِلَيْكَ ﴿إِلَى صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ^(٥) دِينَ الْإِسْلَامِ ^(٦). ﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ ^(٧) تَرْجِعُ.

(١) هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عز وجل، وهو أنه تعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل، كما جاء في صحيح ابن حبان، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي: إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْكُمَلَ رِزْقُهَا وَأَجَلُهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ». أخرجه البغوي في شرح السنة (١٤ / ٣٠٤). وقوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ كما كلم موسى عليه السلام، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم، فحجب عنها. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَآءِ حِجَابٍ، وَإِنَّهُ كَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا» الحديث. أخرجه الترمذي (٣٠١٠). وكان أبوه قد قتل يوم أحد، ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا. وقوله: ﴿أَوْ يُرْسَلْ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ كما ينزل جبريل عليه السلام وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم السلام. [ابن كثير (٢١٧/٧)].

(٢) هذا التفسير يوهم أن كل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق؛ فالسمع لا يثبت للخالق، والبصر، وكل صفة للمخلوق لا تثبت للخالق، ولذلك لو قال المؤلف رحمه الله: ﴿إِنَّهُ وَعَلَى﴾ عن مماثلة المخلوقين وصفات النقص لكان أهون، مع أننا نقول: إنه علي بذاته وصفاته؛ فذاته فوق كل شيء، وصفاته هي المثل الأعلى، هذا هو الصواب. [ابن عثيمين تفسير الشورى (ص: ٣٥١)].

(٣) أي: ما كنت تعلم ما هو هذا الكتاب الذي هو القرآن العظيم، وما كنت تدري ما الإيمان الذي هو تفاصيل هذا الدين الإسلامي، حتى علمته. ومعلوم أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان شامل للقول والعمل مع الاعتقاد. فهو ﷺ ما كان يعرف تفاصيل الصلوات المكتوبة، ولا صوم رمضان، ولم يكن يعرف تفاصيل الزكاة، ولا تفاصيل الحج ونحو ذلك، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَا الْإِيمَنُ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]، إلى غير ذلك من الآيات. [الشنقيطي (٢١٤/٧)].

(٤) شبه الكتاب بالنور لمناسبة الهدى به لأن الإيمان والهدى والعلم تشبه بالنور، والضلال والجهل والكفر تشبه بالظلمة، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. [ابن عاشور (٢٥/١٥٤)].

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ إِلَّا ﴿وَسَقُلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ الْآيَةَ، تِسْعٌ وَثَمَانُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿وَالْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿الْمُبِينِ ٢﴾ الْمُظْهِرِ طَرِيقَ الْهُدَى، وَمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أَوْ جَدْنَا الْكِتَابَ^(٢) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ بِلُغَةِ الْعَرَبِ ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿تَعْقِلُونَ ٣﴾ تَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ مُثَبَّتٌ ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أَصْلِ الْكِتَابِ، أَيِ: اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(٣) ﴿لَدَيْنَا﴾ بَدَلْ عِنْدَنَا ﴿لَعَلَّيْ﴾ عَلَى الْكِتَابِ قَبْلَهُ ﴿حَكِيمٌ ٤﴾ ذُو حِكْمَةٍ بِالْغَةِ. ﴿أَفَنْضِرُ﴾ نَمْسِكُ ﴿عَنْكُمْ الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿صَفْحًا﴾ إِمْسَاكًا، فَلَا تُؤْمَرُونَ وَلَا تُنْهَوْنَ لِأَجْلِ ﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ٥﴾ مُسْرِفِينَ؟ لَا. ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ٦﴾ وَمَا كَانَ ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ أَتَاهُمْ ﴿مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ٧﴾ كَاسْتَهْزَأَ قَوْمُكَ بِكَ، وَهَذَا تَسْلِيَةٌ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾ مِنْ قَوْمِكَ ﴿بَطْشًا﴾ قُوَّةً ﴿وَمَضًى﴾ سَبَقَ فِي آيَاتِ ﴿مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ٨﴾ صِفَتُهُمْ فِي الْإِهْلَاكِ فَعَاقِبَةُ قَوْمِكَ كَذَلِكَ. ﴿وَلَيْنَ﴾ لَأَمْ قَسَمِ ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ ﴿خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ٩﴾ آخِرُ جَوَابِهِمْ، أَيِ: اللَّهُ ذُو الْعِزَّةِ وَالْعِلْمِ. زَادَ تَعَالَى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فِرَاشًا كَالْمَهْدِ لِلصَّبِيِّ ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠﴾ إِلَى مَقَاصِدِكُمْ فِي أَسْفَارِكُمْ. ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أَيِ: بِقَدْرِ حَاجَتِكُمْ إِلَيْهِ، وَلَمْ يُنَزِّلْهُ طُوفَانًا ﴿فَأَنْشَرْنَا﴾ أَحْيَيْنَا ﴿بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ﴾ أَيِ: مِثْلَ هَذَا الْإِحْيَاءِ ﴿تُخْرِجُونَ ١١﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) معنى جعلناه أي: سميناه ووصفناه، ولذلك تعدى إلى مفعولين. وقال السدي: المعنى: أنزلناه قرآنًا. وقال مجاهد: قلناه. وقال سفيان

الثوري: بيناه عربيا. وكذا قال الزجاج، أي: أنزل بلسان العرب؛ لأن كل نبي أنزل كتابه بلسان قومه. [الشوكاني (٤/٦٢٦)].

(٣) سُمِّيَ أُمًّا؛ لأنه مرجع لجميع ما يُكْتَبُ من بعده، والكتابة أنواع؛ الكتابة العظمى العامة الشاملة: ما كتب في اللوح المحفوظ. ﴿لَدَيْنَا﴾

أي: عندنا، والظرف هنا حال من ﴿أُمِّ الْكِتَابِ﴾؛ يعني أن الذي لدى الله في هذه الآية هو أم الكتاب؛ أي: اللوح المحفوظ عند الله عز وجل،

وهو محفوظ من التغير والتبديل؛ لأنه أم الكتاب. وأما الكتب التي جاءت بها الملائكة ففيها تغيير وتبديل كما قال عز وجل: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص: ٤٣)].

مِنْ قُبُورِكُمْ أَحْيَاءَ. ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ الْأَصْنَافَ ﴿كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْفُلْكِ﴾ السُّفُنِ ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ كَالْإِبِلِ ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ حُذِفَ الْعَائِدُ اخْتِصَارًا، وَهُوَ مَجْرُورٌ فِي الْأَوَّلِ، أَيِ: «فِيهِ»، مَنْصُوبٌ فِي الثَّانِي. ﴿لِتَسْتَوُوا﴾ لِتَسْتَقِرُّوا ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذَكَرَ الضَّمِيرَ وَجَمَعَ الظَّهَرَ نَظْرًا لِلْفِطْرِ: ﴿مَا﴾ وَمَعْنَاهَا ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَمُنْصَرِفُونَ. ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ حَيْثُ قَالُوا: «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ»؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الْوَالِدِ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَىٰ ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ الْقَائِلَ مَا تَقَدَّمَ ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ بَيْنَ ظَاهِرِ الْكُفْرِ. ﴿أَمْرٌ﴾ بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ، وَالْقَوْلُ مُقَدَّرٌ، أَيِ: أَتَقُولُونَ ﴿أَتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ لِنَفْسِهِ ﴿وَأَصْفَدَكُمْ﴾ أَخْلَصَكُمْ ﴿بِالْبَنِينَ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّازِمُ مِنْ قَوْلِكُمُ السَّابِقِ، فَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُنْكَرِ. ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا﴾ جَعَلَ لَهُ شَبَهَا يَنْسَبُ الْبَنَاتِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ يُشَبُّ الْوَالِدَ، الْمَعْنَى: إِذَا أُخْبِرَ أَحَدُهُمْ بِالْبَنَاتِ تَوَلَّدَ لَهُ ﴿ظَلٌّ﴾ صَارَ ﴿وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ مُتَغَيِّرًا تَغْيِيرَ مُغْتَمٍّ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ مُمْتَلِئٌ عَمَّا، فَكَيْفَ يَنْسَبُ الْبَنَاتُ إِلَيْهِ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ. ﴿أَوْ﴾ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ وَوَاوُ الْعُطْفِ بِجُمْلَةٍ، أَيِ: يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ﴿مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ﴾ الزَّيْنَةُ ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ ﴿١٨﴾ مُظْهِرِ الْحُجَّةِ لِضَعْفِهِ عَنْهَا بِالْأُنُوثَةِ. ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا﴾ أَحْضَرُوا ﴿خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ بِأَنَّهُمْ إِنَاثٌ ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ عَنْهَا فِي الْآخِرَةِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا الْعِقَابُ. ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أَيِ: الْمَلَائِكَةُ، فَعِبَادَتُنَا إِيَّاهُمْ بِمَشِيَّتِهِ فَهُوَ رَاضٍ بِهَا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾

- (١) يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولدا، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له كفوا أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة. ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد. [السعدي (ص: ٧٦٣)].
- (٢) احتج سبحانه على هؤلاء الذين جعلوا له البنات بأن أحدهم لا يرضى بالبنات، وإذا بشر بالأنثى حصل له من الحزن والكآبة ما ظهر منه السواد على وجهه، فإذا كان أحدكم لا يرضى بالإناث بناتا، فكيف تجعلونها لي؟! كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]. ثم ذكر سبحانه ضعف هذا الجنس الذي جعلوه له وأنه أنقص الجنسين ولهذا يحتاج في كماله إلى الحلية وأضعفهما بيانا، فقال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فأشار بنشأتها في الحلية إلى أنهم ناقصات فيحتجن إلى حلية يكملن بها، وأنهن عبيات فلا يبين عن حجتهم وقت الخصومة. [الصواعق المرسلات لابن القيم (١/ ٢٤٥)].

الْمَقُولِ مِنَ الرِّضَا بِعِبَادَتِهَا ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنَّ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ١٠ يَكْذِبُونَ فِيهِ، فَيَتَرْتَّبُ عَلَيْهِمُ الْعِقَابُ بِهِ ١١. ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ ﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ١٢ أَيِ: لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ. ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ ١٣ مِلَّةٍ ﴿وَإِنَّا﴾ مَا شُونَ ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ ١٤ بِهِمْ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ.

(١) في هذه الآية الكريمة إشكال معروف، ووجهه أن قول الكفار الذي ذكره الله عنهم هنا، أعني قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ هو بالنظر إلى ظاهره كلام صحيح؛ لأن الله لو شاء أن لا يعبدوهم ما عبدوهم ... وجه الإشكال، أن الله صرح بكذبهم في هذه الدعوى التي ظاهرها حق، قال تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ ... والجواب عن هذا أن مراد الكفار بقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ أن الله لما كان قادرا على منعهم من الشرك، وهدايتهم إلى الإيمان، ولم يمنعهم من الشرك دل ذلك على أنه راض منهم بالشرك في زعمهم. قالوا: لأنه لو لم يكن راضيا به لصرفنا عنه، فتكذيب الله لهم في الآيات المذكورة منصب على دعواهم أنه راض به، والله جل وعلا يكذب هذه قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]. فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية تستلزم الرضى، وهو زعم باطل، وهو الذي كذبهم الله فيه. وقد أشار تعالى إلى هذه حيث قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿أَيِ: آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا يَدُلُّ عَلَى أَنَا رَاضُونَ مِنْهُمْ بِذَلِكَ الْكُفْرِ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَنْ هَذَا إِضْرَابَ إِطْطَالٍ مَبِينًا أَنَّ مُسْتَدْتَهُمْ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى الْكَاذِبَةِ هُوَ تَقْلِيدُ آبَائِهِمُ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أَيِ: شَرِيعَةٍ وَمِلَّةٍ، وَهِيَ الْكُفْرُ وَعِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ فَقَوْلُهُ عَنْهُمْ: ﴿مُهْتَدُونَ﴾ هُوَ مُصَبِّحُ التَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا يَرْضَى بِالْإِهْتِدَاءِ لَا بِالضَّلَالِ. فَالْإِهْتِدَاءُ الْمَرْغُوبُ أَسَاسُهُ تَقْلِيدُ الْأَبَاءِ الْأَعْمَى ... قَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ النَّحْلِ بَعْدَ ذِكْرِ دَعْوَاهُمْ الْمَذْكُورَةِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. فَأَوْضَحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَاضِيًا بِكُفْرِهِمْ، وَأَنَّهُ بَعَثَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا، وَأَمْرَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَيَجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، أَيِ يَتَّبَاعِدُوا عَنْ عِبَادَةِ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ. وَأَنَّ اللَّهَ هَدَى بَعْضَهُمْ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ بَعْضَهُمْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، أَيِ: ثَبَتَ عَلَيْهِ الْكُفْرُ وَالشَّقَاءُ. وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأَنْعَام: ١٤٩]. فَمَلِكُهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لِلتَّوْفِيقِ وَالْهُدَايَةِ، هُوَ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَى خَلْقِهِ، يَعْنِي فَمَنْ هَدَيْنَاهُ وَتَفَضَّلْنَا عَلَيْهِ بِالتَّوْفِيقِ، فَهُوَ فَضْلٌ مِنَّا وَرَحْمَةٌ. وَمَنْ لَمْ نَفْعَلْ لَهُ ذَلِكَ فَهُوَ عَدْلٌ مِنَّا وَحُكْمَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ دِينًا عَلَيْنَا، وَلَا وَاجِبًا مُسْتَحَقًّا يَسْتَحِقُّهُ عَلَيْنَا، بَلْ إِنْ أَعْطَيْنَا ذَلِكَ فَفَضْلٌ، وَإِنْ لَمْ نَعْطِهِ فَعَدْلٌ. وَحَاصِلُ هَذَا أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَدَرُ مَقَادِيرِ الْخَلْقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، وَعَلِمَ أَنَّ قَوْمًا صَائِرُونَ إِلَى الشَّقَاءِ وَقَوْمًا صَائِرُونَ إِلَى السَّعَادَةِ، فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ. وَأَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَى الْجَمِيعِ بِعَثِّ الرُّسُلِ وَتَأْيِيدِهِمُ بِالْمُعْجَزَاتِ الَّتِي لَا تَرُكُ فِي الْحَقِّ لِبَسًا، فَقَامَتْ عَلَيْهِمْ حُجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ بِذَلِكَ. ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى وَفَّقَ مِنْ شَاءِ تَوْفِيقَهُ، وَلَمْ يَوْفُقْ مِنْ سَبَقِ لَهُمْ فِي عِلْمِهِ الشَّقَاءُ الْأَزَلِيُّ، وَخَلَقَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قُدْرَةً وَإِرَادَةً يَقْدِرُ بِهَا عَلَى تَحْصِيلِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَصَرَفَ قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ إِلَى مَا سَبَقَ لَهُمْ فِي عِلْمِهِ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ الْمُسْتَوْجِبَةِ لِلْسَّعَادَةِ، وَأَعْمَالِ الشَّرِّ الْمُسْتَوْجِبَةِ لِلشَّقَاءِ. فَاتُّوا كُلُّ مَا أَتَوْا وَفَعَلُوا كُلُّ مَا فَعَلُوا، طَائِعِينَ مَخْتَارِينَ، غَيْرَ مُجْبُورِينَ وَلَا مُقَهَّورِينَ ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الْإِنْسَان: ٣٠]. [الشنقيطي (٧/٢٣٦)].

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴿١٣﴾ مُنْعَمٌ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٤﴾ ﴿وَأَنَا عَلَىٰ عَاقِبَتِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝١٥﴾ ﴿مُتَّبِعُونَ ۝١٦﴾ ﴿قُلْ لَّهُمْ: ﴿أ﴾ تَتَّبِعُونَ ذَلِكَ ﴿وَلَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ عَابَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ ۝١٧﴾ أَنْتَ وَمَنْ قَبْلَكَ ﴿كَافِرُونَ ۝١٨﴾ ۝١٩﴾ قَالَ تَعَالَىٰ تَخْوِيفًا لَهُمْ: ﴿فَأَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ ۝٢٠﴾ أَي: مِنَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ قَبْلَكَ ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝٢١﴾ وَ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّنْكُمْ بَرِيءٌ ۝٢٢﴾ ﴿مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴿خَلَقَنِي ۝٢٤﴾ ﴿فَإِنَّهُ سَيَّهْدِينِ ۝٢٥﴾ يُرْشِدُنِي لِدِينِهِ ۝٢٦﴾ ﴿وَجَعَلَهَا ۝٢٧﴾ أَي: كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَّهْدِينِ﴾ [الصفات: ٩٩]

﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ۝٢٨﴾ فِي ذُرِّيَّتِهِ، فَلَا يَزَالُ فِيهِمْ مَنْ يُوحِّدُ اللَّهَ ﴿لَعَلَّهُمْ ۝٢٩﴾ أَي: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿يَرْجِعُونَ ۝٣٠﴾ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ إِلَىٰ دِينِ إِبْرَاهِيمَ أَبِيهِمْ ۝٣١﴾ ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ ۝٣٢﴾ الْمُشْرِكِينَ ﴿وَعَابَاءَهُمْ ۝٣٣﴾ وَلَمْ أَعْجَلْهُمْ بِالْعُقُوبَةِ ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ ۝٣٤﴾ وَالْقُرْآنُ ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٣٥﴾ مُظْهِرٌ لَهُمُ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ، وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ۝٣٦﴾ ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ ۝٣٧﴾ الْقُرْآنُ ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ ۝٣٨﴾ كَافِرُونَ ۝٣٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا ۝٤٠﴾ هَلَّا ﴿نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ ۝٤١﴾ مِنْ آيَةٍ مِنْهُمَا ﴿عَظِيمٍ ۝٤٢﴾ أَي: الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بِمَكَّةَ، أَوْ عُرْوَةَ بْنِ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيِّ بِالطَّائِفِ ١﴾ ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۝٤٣﴾ الْنُبُوَّةَ ٢﴾ ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝٤٤﴾ فَجَعَلْنَا بَعْضَهُمْ غَنِيًّا وَبَعْضَهُمْ فَقِيرًا ٣﴾ ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ ۝٤٥﴾ بِالْغِنَى ﴿فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمُ الْغَنِيُّ ۝٤٦﴾ بَعْضًا ٤﴾ الْفَقِيرَ ﴿سُخْرِيًّا ۝٤٧﴾ مُسَخَّرًا فِي الْعَمَلِ لَهُ بِالْأَجْرَةِ، وَالْيَأَىٰ لِلنَّسَبِ، وَقُرَىٰ بِكَسْرِ السَّيْنِ ٥﴾ ﴿وَرَحِمْتُ رَبِّكَ ۝٤٨﴾ أَي: الْجَنَّةَ ٦﴾ ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٤٩﴾ فِي الدُّنْيَا ٧﴾ ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ۝٥٠﴾ عَلَى الْكُفْرِ ﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ ۝٥١﴾ بَدَلًا ٨﴾ ﴿لِمَنْ ۝٥٢﴾ ﴿سَقَفًا ۝٥٣﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَسُكُونِ الْقَافِ وَبِضْمِهِمَا جَمْعًا ٩﴾ ﴿مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ ۝٥٤﴾ كَالدَّرَجِ مِنْ فِضَّةٍ ١٠﴾ ﴿عَلَيْهَا يَطْهَرُونَ ۝٥٥﴾ ١١﴾ ﴿يَعْلُونَ إِلَى السَّطْحِ ۝٥٦﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا ١٢﴾ ﴿مِّنْ فِضَّةٍ ۝٥٧﴾ ﴿و﴾ جَعَلْنَا لَهُمْ ﴿سُرُرًا ۝٥٨﴾ مِنْ فِضَّةٍ جَمْعُ «سَرِيرٍ» ١٣﴾ ﴿عَلَيْهَا يَتَكَئُونَ ۝٥٩﴾ وَزُخْرُفًا ١٤﴾ ذَهَبًا، الْمَعْنَى: لَوْلَا خَوْفُ الْكُفْرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ مِنْ إِعْطَاءِ الْكَافِرِ مَا ذُكِرَ لَأَعْطَيْنَاهُ ذَلِكَ لِقَلَّةِ

(١) أي: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم في أعينهم من القريتين؟ والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان. [ابن كثير (٧/٢٢٦)].

(٢) أي: أهم الخزان لرحمة الله، ويبداهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟ [السعدي (ص: ٧٦٤)].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) ينبغي أن يقال: رحمة الله أعم من هذا، حتى رحمة الله تعالى للعبد هدايته للإسلام والإيمان خير مما يجمعون، فالأولى التعميم دون

التخصيص. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص: ١٣٣)].

خَطَرَ الدُّنْيَا عِنْدَنَا، وَعَدَمَ حَظَّهُ فِي الْآخِرَةِ فِي النَّعِيمِ ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ﴿كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا﴾ بِالتَّخْفِيفِ فَ «مَا» زَائِدَةٌ، وَبِالتَّشْدِيدِ بِمَعْنَى «إِلَّا» فَ «إِنْ» نَافِيَةٌ ﴿مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّعُ بِهَا ثُمَّ يَزُولُ ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الْجَنَّةُ ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ٣٥ وَمَنْ يَعُشْ يُعْرِضُ ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ﴿نُقِیْضُ﴾ نُسِبَ ﴿لَهُو شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ﴾ ٣٦ لَا يَفَارِقُهُ ١. ﴿وَأَتَتْهُمْ﴾ أَيِ: الشَّيَاطِينِ ﴿لِيُصْذَبُوا بِهِمْ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ أَيِ: طَرِيقِ الْهُدَى ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ ٣٧ فِي الْجَمْعِ رِعَايُهُ مَعْنَى ﴿مَنْ﴾. ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ الْعَاشِي بِقَرِينِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿قَالَ﴾ لَهُ: ﴿يَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ أَيِ: مِثْلَ بُعْدِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿فَبُئْسَ الْقَرِينُ﴾ ٣٨ أَنْتَ لِي. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ﴾ أَيِ: الْعَاشِينَ تَمَنِّيَكُمْ وَنَدَمَكُمْ ﴿الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾ أَيِ: تَبَيَّنَ لَكُمْ ظُلْمُكُمْ بِالْإِشْرَاقِ فِي الدُّنْيَا ﴿أَنكُمْ﴾ مَعَ قُرْنَائِكُمْ ﴿فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ٣٩ عِلَّةٌ بِتَقْدِيرِ اللَّامِ لِعَدَمِ النَّفْعِ، وَ﴿إِذْ﴾ بَدَلٌ مِنَ «الْيَوْمِ» ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ٤٠ يَبِينُ، أَيِ: فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْعَاءُ نُونٍ «إِنْ» الشَّرْطِيَّةُ فِي «مَا» الْمَزِيدَةُ ﴿نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ بِأَنْ نُمِيتَكَ قَبْلَ تَعَذِّبِهِمْ ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ ٤١ فِي الْآخِرَةِ. ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ﴾ فِي حَيَاتِكَ ﴿الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى عَذَابِهِمْ ﴿مُقْتَدِرُونَ﴾ ٤٢ قَادِرُونَ. ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ أَيِ: الْقُرْآنِ ٣ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ٤٣ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّشَرَفٍ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ لِنُزُولِهِ بِلُغَتِهِمْ ٣ ﴿وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ﴾ ٤٤ عَنْ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ. ﴿وَسْأَلُ مَنْ

(١) يعش من قولك: عشي الرجل إذا أظلم بصره، والمراد به هنا ظلمة القلب والبصيرة، وقال الزمخشري: يعشى بفتح الشين إذا حصلت الآفة في عينه، ويعشو بضم الشين إذا نظر نظرة الأعشى، وليس به آفة، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك: عمي وتعمى، فمعنى القراءة بالضم: يتجاهل ويجهل معرفته بالحق، والظاهر أن ذلك عبارة عن الغفلة وإهمال النظر، و﴿ذِكْرُ الرَّحْمَنِ﴾ قال الزمخشري يريد به القرآن، وقال ابن عطية: يريد به ما ذكر الله به عبادته من المواعظ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ويحتمل عندي أن يريد ذكر العبد لله، [ابن جزي (٢/٢٥٨)]. ﴿نُقِیْضُ لَهُو شَيْطَانًا﴾ أَيِ: نَحْ لَهُ شَيْطَانًا لِيَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ اسْتِيلَاءُ الْقِيْضِ عَلَى الْبَيْضِ وَهُوَ الْقَشْرُ الْأَعْلَى ﴿فَهُوَ لَهُو قَرِينٌ﴾ دَائِمًا لَا يَفَارِقُهُ وَلَا يَزَالُ يُوَسْوِسُهُ وَيَغْوِيهِ وَهَذَا عِقَابٌ عَلَى الْكُفْرِ بِالتَّخْتِمْ وَعَدَمِ الْفَلَاحِ. [الآلوسي (١٣/٨١)].

(٢) تسلية له ﷺ وأمر له ﷺ أو لأمته بالدوام على التمسك بالآيات والعمل بها، والفاء في جواب شرط مقدر، أي: إذا كان أحد هذين الأمرين واقعا لا محالة فاستمسك بالذي أوحيناه إليك. [الآلوسي (١٣/٨٤)]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

(٣) الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للقرآن أو للإسلام، والذكر هنا بمعنى الشرف، وقوم النبي ﷺ هم قريش وسائر العرب، فإنهم نالوا بالإسلام شرف الدنيا والآخرة، وكيفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك، وورد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ

أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴿٤٥﴾ أَيُّ غَيْرِهِ ﴿ءَالِهَةٌ يُعْبَدُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ قِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، بَأَنَّ جَمَعَ لَهُ الرُّسُلَ لَيْلَةً الْإِسْرَاءِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَمَمٌ مِنْ أَيِّ أَهْلِ الْكِتَابِينَ، وَلَمْ يَسْأَلْ، عَلَى وَاحِدٍ مِنَ الْقَوْلَيْنِ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ مِنَ الْأَمْرِ بِالسُّؤَالِ التَّكْرِيرُ لِمُشْرِكِي قُرَيْشٍ أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ وَلَا كِتَابٌ بِعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ^(١). ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أَيُّ: الْقَبْطِ ﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا الدَّلَالَةِ عَلَى رِسَالَتِهِ ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْعَذَابِ، كَالطُّوفَانِ وَهُوَ مَاءٌ دَخَلَ بُيُوتَهُمْ وَوَصَلَ إِلَى حُلُوقِ الْجَالِسِينَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَالْجَرَادُ ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ قَرِيبَتُهَا الَّتِي قَبْلَهَا ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ عَنِ الْكُفْرِ. ﴿وَقَالُوا﴾ لِمُوسَى لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ: ﴿يَنَآيَهُ السَّاحِرُ﴾ أَيُّ: الْعَالَمِ الْكَامِلِ؛ لِأَنَّ السَّحَرَ عِنْدَهُمْ عِلْمٌ عَظِيمٌ^(٢) ﴿أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ مِنْ كَشْفِ الْعَذَابِ عَنَّا، إِنْ آمَنَّا ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ أَيُّ: مُؤْمِنُونَ. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ بِدُعَاءِ مُوسَى ﴿عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ، وَيَصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ. ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ﴾ افْتِخَارًا ﴿فِي قَوْمِهِ﴾ قَالَ يَقُومِ الْيَسَّى لِي مُلْكٌ مُصَرٌّ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ مِنَ النَّبْلِ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أَيُّ: تَحْتَ قُصُورِي ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ عَظَمَتِي؟ ﴿أَمْ﴾ بَلْ تُبْصِرُونَ، وَحِينَئِذٍ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا﴾ أَيُّ: مُوسَى ﴿الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ ضَعِيفٌ حَقِيرٌ ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ﴿٥٢﴾ يُظْهِرُ كَلَامَهُ،

الآية علم رسول الله ﷺ أن الأمر بعده لقريش، ويحتمل أن يريد بالذكر التذكير والموعظة، فقومه على هذا أمته كلهم وكل من بعث إليهم. [ابن جزي (٢/ ٢٦٠)]. ومثله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠].

(١) المقصود من هذا الأمر هو إقامة الحجة على المشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر؛ يقول للنبي ﷺ: أسأل جميع الرسل السابقين؛ هل جعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون حتى يقوم هؤلاء المشركون فيعبدون مع الله غيره؟ ففيه إقامة الحجة على المشركين؛ أن جميع الرسل السابقين ليس فيهم مَنْ يُحِلُّ الإِشْرَاقَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: كَيْفَ يَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ مِنَ الرُّسُلِ قَبْلَهُ وَهُوَ لَمْ يَدْرِكْهُمْ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَسَالِيبِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ إِنْ تَسَأَلَ عَلَى الْفَرْضِ، وَالتَّقْدِيرِ: فَلَنْ تَجَابَ بِ«نَعَمْ»، بَلْ سَيَكُونُ الْجَوَابُ «لَا»، فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّحْدِيدِ لِهَؤُلَاءِ الْمَشْرُكِينَ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلَى حَقٍّ. [ابن عثيمين تفسير الزخرف (ص: ١٦٨)].

(٢) مخاطبتهم موسى بوصف الساحر مخاطبة تعظيم تزلفاً إليه لأن الساحر عندهم كان هو العالم وكانت علوم علمائهم سحرية، أي: ذات أسباب خفية لا يعرفها غيرهم وغير أتباعهم، ألا ترى إلى قول ملاً فرعون له: ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧]... وفي آية الأعراف قالوا: ﴿يَمُوسَى أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]، ولا تنافي ما هنا لأن الخطاب خطاب إلحاح فهو يتكرر ويعاد بطرق مختلفة. [ابن عاشور (٢٥/ ٢٢٧)].

لِلْثَغَةِ بِالْجَمْرِ الَّتِي تَنَاوَلَهَا فِي صَغَرِهِ^(١). ﴿فَلَوْلَا﴾ هَلَا ﴿أُلْقِيَ عَلَيْهِ﴾ إِنْ كَانَ صَادِقًا ﴿أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ﴾ جَمْعُ
 أَسُورَةٍ كَأَغْرِبَةِ جَمْعِ «سَوَارٍ»، كَعَادَتِهِمْ فَيَمْنُ يُسَوِّدُونَهُ أَنْ يُلْبِسُوهُ أَسُورَةَ ذَهَبٍ وَيُطَوِّقُونَهُ طَوْقَ ذَهَبٍ ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ
 الْمَلَكُ الْمُقَرَّنِينَ ٥٣﴾ مُتَابِعِينَ يَشْهَدُونَ بِصِدْقِهِ. ﴿فَاسْتَخَفَّ﴾ اسْتَفْزَرَ فِرْعَوْنُ^(٢) ﴿قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ فِيمَا يُرِيدُ
 مِنْ تَكْذِيبِ مُوسَى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ٥٤﴾ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا ﴿أَغْضَبُونَا﴾ أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٥
 فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا جَمْعُ سَالِفٍ كَخَادِمٍ وَخَدَمٍ، أَيُّ: سَابِقِينَ عِبْرَةً ﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ٥٦﴾ * ﴿بَعْدَهُمْ يَتِمَثَّلُونَ بِحَالِهِمْ
 فَلَا يُقْدِمُونَ عَلَى مِثْلِ أَعْمَالِهِمْ. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ﴾ جُعِلَ ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ حِينَ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: «رَضِينَا أَنْ تَكُونَ إِلَهَتُنَا مَعَ عِيسَى لِأَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ» ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ أَيُّ: الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْهُ﴾ مِنَ الْمَثَلِ ﴿يَصِدُّونَ ٥٧﴾ يَضْجُونَ فَرَحًا بِمَا سَمِعُوا^(٣). ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا
 خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أَيُّ: عِيسَى؟ فَتَرَضَى أَنْ تَكُونَ إِلَهَتُنَا مَعَهُ ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾ أَيُّ: الْمَثَلِ ﴿لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ خُصُومَةً بِالْبَاطِلِ،
 لِعِلْمِهِمْ أَنَّ «مَا» لِيُغَيِّرَ الْعَاقِلَ، فَلَا يَتَنَاوَلُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾ شَدِيدُو الْخُصُومَةِ. ﴿إِنْ
 هُوَ مَا عِيسَى﴾ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴿بِالنَّبُوءَةِ﴾ وَجَعَلْنَاهُ ﴿بِوُجُودِهِ مِنْ غَيْرِ أَبِي﴾ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ٥٩ ﴿أَيُّ:
 كَالْمَثَلِ لِغَرَائِثِهِ، يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَشَاءُ. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ بَدَلَكُمْ ﴿مَلَائِكَةً فِي
 الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ ٦٠﴾ بَانَ نُهْلِكَكُمْ. ﴿وَأَنَّهُ﴾ أَيُّ: عِيسَى ﴿لَعَلَّمْ لِلسَّاعَةِ﴾ تُعْلَمُ بِنُزُولِهِ ﴿فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا﴾ تَشْكُنَّ

(١) انظر التعليق على تفسير آية (٢٧) من سورة طه.

(٢) الخفة مستعارة للانتقال من حالة التأمل في خلع طاعة فرعون والتشاغل في اتباعه إلى التعجيل بالامثال له كما يخف الشيء بعد التشاغل.
 والمعنى يرجع إلى أنه استخف عقولهم فأسرعوا إلى التصديق بما قاله بعد أن صدقوا موسى في نفوسهم لما رأوا آياته نزولا ورفعا. والمراد بـ
 «قومه» هنا بعض القوم، وهم الذين حضروا مجلس دعوة موسى هؤلاء هم الملأ الذين كانوا في صحبة فرعون. [ابن عاشور (٢٥/ ٢٣٣)].
 (٣) قال الواحدي: أكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت في مجادلة ابن الزبيري مع النبي ﷺ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال ابن الزبيري: خصمتك ورب الكعبة أليست النصراني يعبدون المسيح؟ واليهود عزيزاً؟ وبنو مليح
 الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضىنا أن نكون نحن وألهتنا معهم، ففرحوا به، وضحكوا وارتفعت أصواتهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ
 لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَتَاهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية المذكورة هنا، ولا يخف أنك أن ما قاله ابن الزبيري مندفع من أصله،
 وباطل برمته فإن الله سبحانه قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يقل: ومن تعبدون، حتى يدخل في ذلك العقلاء كال المسيح وعزير والملائكة، قال
 الشهاب: ابن الزبيري هو عبد الله الصحابي المشهور، وهذه القصة على تقدير صحتها كانت قبل إسلامه. [صديق حسن (١٢/ ٣٦٥)].

فِيهَا، حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِلْجَزْمِ، وَوَاوُ الضَّمِيرِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ ﴿و﴾ وَقُلْ لَهُمْ: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ عَلَى التَّوْحِيدِ ﴿هَذَا﴾ الَّذِي أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿صِرَاطٌ﴾ طَرِيقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمْ ﴿يَصْرِفَنَّكُمْ عَنْ دِينِ اللَّهِ﴾ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ٦٢ ﴿بَيْنَ الْعَدَاوَةِ﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ بِالْمُعْجَزَاتِ وَالشَّرَائِعِ ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ بِالنُّبُوَّةِ وَشَرَائِعِ الْإِنْجِيلِ ﴿وَلَا بُيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِنْ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَغَيْرِهِ، فَبَيَّنَ لَهُمْ أَمْرَ الدِّينِ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ طَرِيقٌ ﴿مُسْتَقِيمٌ﴾ ٦٤ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فِي عِيسَى: أَهوَ اللَّهُ أَوْ ابْنُ اللَّهِ أَوْ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ؟ ﴿فَوَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كَفَرُوا بِمَا قَالُوهُ فِي عِيسَى ﴿مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ٦٥﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ: كُفَّارُ مَكَّةَ، أَيُّ: مَا يَنْتَظِرُونَ ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بَدَلٌ مِنَ ﴿السَّاعَةِ﴾ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾ بِوَقْتِ مَجِيئِهَا قَبْلَهُ. ﴿الْأَخْلَاءُ﴾ عَلَى الْمَعْصِيَةِ فِي الدُّنْيَا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ٦٧﴾ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ عَلَى طَاعَتِهِ فَإِنَّهُمْ أَصْدِقَاءُ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ٦٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا نَعْتُ لـ «عِبَادِي» ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ٦٩﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ مُبْتَدَأُ ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ زَوْجَاتُكُمْ ﴿مُحْبَرُونَ ٧٠﴾ تُسْرُونَ وَتُكْرَمُونَ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ. ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَحَافٍ بِقِصَاصٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ جَمْعُ «كُوبٍ» وَهُوَ: إِنَاءٌ لَا عُرْوَةَ لَهُ، لِيَشْرَبَ الشَّارِبُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ﴾ تَلَذُّدًا ﴿وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ نَظَرًا ﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا أَيُّ: بَعْضُهَا ﴿تَأْكُلُونَ ٧٣﴾ وَكُلُّ مَا يُؤْكَلُ يَخْلُفُ بَدَلُهُ. ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ٧٤﴾ لَا يُفْتَرُونَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ٧٥ سَاكِتُونَ سُكُوتَ يَأْسٍ. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ٧٦﴾ وَنَادَوْا يَمْلِكُ هُوَ خَازِنُ النَّارِ ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ لِيَمْتَنَّا ٧٧ ﴿قَالَ﴾ بَعْدَ أَلْفِ سَنَةٍ ٧٨: ﴿إِنَّكُمْ مَكِينُونَ ٧٧﴾ مُقِيمُونَ فِي الْعَذَابِ دَائِمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جِئْتُكُمْ﴾ أَيُّ: أَهْلَ مَكَّةَ ﴿بِالْحَقِّ﴾ عَلَى لِسَانِ الرَّسُولِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوا؟ أَيُّ: كُفَّارُ مَكَّةَ أَحْكَمُوا ﴿أَمْرًا﴾

(١) أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:

٣٦]. [ابن كثير (٧/ ٢٤١)].

(٢) في مدة ما بين نداءهم وجوابه أربعة أفاويل: أحدها: أربعون سنة، قاله عبد الله بن عمرو. الثاني: ثمانون سنة، قاله السدي. الثالث: مائة

سنة، قاله نوف. الرابع: ألف سنة، قاله ابن عباس؛ لأن بعد ما بين النداء والجواب أخزى لهم وأذل. [الماوردي (٥/ ٢٤٠)].

فِي كَيْدٍ مُّحَمَّدٍ النَّبِيِّ ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ ٧٩ ﴿مُحْكِمُونَ كَيْدَنَا فِي إِهْلَاكِهِمْ﴾ ٨٠. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ مَا يُسِرُّونَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ وَمَا يَجْهَرُونَ بِهِ بَيْنَهُمْ ﴿بَلَىٰ﴾ نَسْمَعُ ذَلِكَ ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الْحَفَظَةُ ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عِنْدَهُمْ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ٨١ ﴿ذَلِكَ﴾. ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ فَرَضًا ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ ٨٢ ﴿لِلْوَلَدِ﴾ لَكِنْ ثَبَتَ أَنَّ لَا وَلَدَ لَهُ تَعَالَى، فَانْتَفَتَ عِبَادَتُهُ ٨٣. ﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الْكَرْسِيِّ ٨٤ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ٨٥ ﴿يَقُولُونَ﴾ مِنَ الْكَذِبِ بِنِسْبَةِ الْوَلَدِ إِلَيْهِ. ﴿فَذَرَهُمْ يُخَوِّضُوا﴾ فِي بَاطِلِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ ٨٦ ﴿فِيهِ الْعَذَابُ﴾ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ هُوَ ﴿فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِسْقَاطِ الْأُولَى وَتَسْهِيلِهَا كَالْيَاءِ، أَيْ: مَعْبُودٌ ﴿وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ﴾ وَكُلٌّ مِنَ الظَّرْفَيْنِ مُتَعَلِّقٌ بِمَا بَعْدَهُ ٨٧ ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي تَدْبِيرِ خَلْقِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ٨٨ بِمَصَالِحِهِمْ. ﴿وَتَبَارَكَ﴾ تَعَظَّمَ ﴿الَّذِي لَهُ﴾ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴿مَتَىٰ تَقُومُ﴾ ﴿وَالِيهِ يُرْجَعُونَ﴾ ٨٩ ﴿بِالْيَاءِ وَالنَّاءِ﴾. ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يَعْبُدُونَ، أَيْ: الْكُفَّارُ ﴿مِنَ﴾

(١) أي: فإننا محكمو نصره وحمايته، والإبرام: أن تجمع خيطين ثم تفتلها فتلا متقنا، والبريم: خيط فيه لوانان. [ابن عطية (٥/ ٦٥)]. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

(٢) احتجاج ورد على الكفار، على تقدير قولهم، ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنت أنا أول من يعبد ذلك الولد... ولكن ليس للرحمن ولد، فلست بعباد إلا الله وحده، وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم؛ لأنه علق عبادة الولد بوجوده، ووجوده محال فعبادته محال... [وهي] طريقة معروفة في البراهين والأدلة، وهو الذي عَوَّلَ عليه الزمخشري، وقال الطبري: هو ملاطفة الخطاب ونحوه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقال ابن عطية: منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ [النحل: ٢٧] يعني: شركائي على قولكم. [ابن جزي (٢/ ٢٦٤)].

(٣) انظر التعليق على تفسير آية (١٢٩) من سورة التوبة.

(٤) الجار والمجرور في الموضوعين متعلق بـ «إله» لأنه بمعنى معبود، أو مستحق للعبادة والمعنى وهو الذي معبود في السماء ومعبود في الأرض، أو مستحق للعبادة في السماء والعبادة في الأرض وبما تقرر من أن المراد بـ «إله» معبود اندفع ما قيل هذا يقتضي تعدد الآلهة لأن النكرة إذا أعيدت نكرة تعددت؛ كقولك: أنت طالق وطلقت وإيضاح الاندفاع أن الإله هنا بمعنى المعبود؛ وهو تعالى معبود فيهما والمغايرة إنما هي بين معبوديته في السماء ومعبوديته في الأرض، لأن المعبودية من الأمور الإضافية فيكفي التباين فيها من أحد الطرفين؛ فإذا كان العابد في السماء غير العابد في الأرض صدق أن معبوديته في السماء غير معبوديته في الأرض، مع أن المعبود واحد، وفيه دلالة على اختصاصه باستحقاق الألوهية، فإن التقديم يدل على الاختصاص أفاده الكرخي. [صديق حسن (١٢/ ٣٧٩)]. كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣].

دُونِهِ ﴿أَيُّ: مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (الشَّفَعَةَ) ﴿لَا أَحَدٍ﴾ (إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ) ﴿أَيُّ: قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»﴾ (وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾) بِقُلُوبِهِمْ مَا شَهِدُوا بِهِ بِالْإِسْتِثْمِ، وَهُمْ عِيسَى وَعَزِيزُ وَالْمَلَائِكَةُ، فَإِنَّهُمْ يَشْفَعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ^(١). ﴿وَلَيْنَ﴾ (لَمْ قَسَمِ) ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ (حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ وَوَاوُ الضَّمِيرِ) ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (٨٧) يُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ^(٢). ﴿وَقِيلَهُ﴾ (أَيُّ: قَوْلَ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ، وَنَصْبُهُ عَلَى الْمَصْدَرِ يَفْعَلُهُ الْمُقَدَّرُ، أَيُّ: وَقَالَ ﴿يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْفَحْ﴾ (أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ مِنْكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِقِتَالِهِمْ^(٣)) ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩) بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، تَهْدِيدٌ لَهُمْ.

(١) أي: كل من دعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه، مقرا بقلبه، عالما بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. [السعدي (ص: ٧٧٠)]. [وقيل: هذا استثناء منقطع، أي: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له. [ابن كثير (٧/ ٢٤٣)].

(٢) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له. ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فأقرارهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك. [السعدي (ص: ٧٧٠)].

(٣) أي: أمري تسليم منكم، ومتاركة لكم، وقال الفراء إن سلام مرفوع بإضمار عليكم، قال عطاء: يريد مداراة حتى ينزل حكمي، ومعناه المتاركة كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، فليس في الآية مشروعية السلام على الكفار كما قيل، وقال قتادة: أمره بالصفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفح منسوخاً بالسيف، وقيل: هي محكمة لم تنسخ. [الشوكاني (٤/ ٦٥٠)]. فالقتال في المحل الذي يجب فيه القتال والصفح عن الجهلة والإعراض عنهم وصف كريم، وأدب سماوي، لا يتعارض مع ذلك، والعلم عند الله تعالى. [الشنقيطي (٧/ ٣٣٦)].

سُورَةُ الدُّخَانِ

مَكِّيَّةٌ، وَقِيلَ: إِلَّا ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ الْآيَةُ، وَهِيَ سِتُّ أَوْ سَبْعٌ أَوْ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ۝١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿وَالْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿الْمُبِينِ ۝٢﴾ الْمُظْهِرِ الْحَلَالِ مِنَ الْحَرَامِ. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ﴾ هِيَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، أَوْ لَيْلَةُ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ^(٢)، نَزَلَ فِيهَا مِنْ أُمِّ الْكِتَابِ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى سَّمَاءِ الدُّنْيَا^(٣) ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٣﴾ مُخَوِّفِينَ بِهِ. ﴿فِيهَا﴾ أَي: فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ أَوْ لَيْلَةِ النِّصْفِ مِنْ شَعْبَانَ ﴿يُفْرَقُ﴾ يُفْصَلُ ﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ مُحْكَمٍ مِنَ الْأَرْزَاقِ وَالْأَجَالِ وَغَيْرِهِمَا الَّتِي تَكُونُ فِي السَّنَةِ إِلَى مِثْلِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ^(٤). ﴿أَمْرًا﴾ فَرَقًا ﴿مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾ أَرْسَلْنَا مُحَمَّدًا وَمَنْ قَبْلَهُ. ﴿رَحْمَةً﴾ رَأْفَةً بِالْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ ﴿مَنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِأَقْوَالِهِمْ ﴿الْعَلِيمُ ۝٦﴾ بِأَفْعَالِهِمْ. ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بَرَفَعَ ﴿رَبُّ﴾ خَبَرْنَا ثَلَاثًا، وَبَجَرَهُ بَدَلًا مِنْ ﴿رَبِّكَ﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿مُوقِنِينَ ۝٧﴾ بِأَنَّهُ تَعَالَى رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَأَيَّقِنَا بِأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُهُ. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ أَلْبَعَثَ ﴿يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ اسْتِهْزَاءً بِكَ يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبَعَ يُوسُفَ»^(٥). قَالَ تَعَالَى: ﴿فَارْتَقِبْ﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) هي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وكان ذلك في شهر رمضان، كما قال: تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥] ... ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان - كما روي عن عكرمة - فقد أبعد النجعة فإن نص القرآن أنها في رمضان. [ابن كثير (٧/٢٤٦)].

(٣) انظر التعليق على تفسير آية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٤) أي: يفصل ويبين من قولهم فرقت الشيء أفرقه فرقًا، والأمر الحكيم المحكم المبرم الذي لا يحصل فيه تغيير ولا نقص، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت، وبسط وقبض، وخير وشر، ورزق وأجل، ونصر وهزيمة، وخصب وقحط، وغير ذلك من أقسام الحوادث وجزئياتها في أوقاتها وأماكنها، ويبين ذلك للملائكة من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل فيجدونه سواء، فيزدادون بذلك إيمانًا، كذا قال مجاهد وقتادة والحسن وغيرهم. [صديق حسن (١٢/٣٨٩)].

(٥) عن مسروق قال: دخلت على عبد الله رضي الله عنه ثم قال: إن رسول الله ﷺ لما دعا قريشا كذبوه واستعصوا عليه، فقال: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَيْهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبَعَ يُوسُفَ»، فأصابتهم سنة حصت يعني كل شيء حتى كانوا يأكلون الميتة، فكان يقوم أحدهم، فكان يرى بينه وبين السماء مثل

لَهُمْ ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ فَأَجْدَبَتِ الْأَرْضُ وَاشْتَدَّ بِهِمُ الْجُوعُ، إِلَى أَنْ رَأَوْا مِنْ شِدَّتِهِ كَهَيْئَةِ الدَّخَانِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ فَقَالُوا: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ مُصَدِّقُونَ نَبِيِّكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى﴾ أَي: لَا يَنْفَعُهُمُ الْإِيمَانُ عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝١٣﴾ بَيْنَ الرِّسَالَةِ. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ﴾ أَي: يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ بَشَرٌ ﴿مُجْنُونٌ ۝١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ ﴿أَي: الْجُوعَ عَنْكُمْ زَمَنًا قَلِيلًا﴾ فَكَشَفَ عَنْهُمْ ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝١٥﴾ إِلَى كُفْرِكُمْ، فَعَادُوا إِلَيْهِ. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ هُوَ يَوْمٌ بَدْرٌ ﴿إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ۝١٦﴾ مِنْهُمْ، وَالْبَطْشُ الْأَخْذُ بِقُوَّةٍ. ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ بَلَوْنَا ﴿قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ مَعَهُ ﴿وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿كَرِيمٌ ۝١٧﴾ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى. ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿أَدَّوْا إِلَيَّ﴾ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ، أَي: أَظْهَرُوا إِيْمَانَكُمْ لِي يَا ﴿عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨﴾ عَلَى مَا أُرْسِلْتُ بِهِ. ﴿وَأَنْ لَا تَعْلَوْا﴾ تَتَجَبَّرُوا ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ بِتَرْكِ طَاعَتِهِ ﴿إِنِّي ءَاتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ بُرْهَانٍ ﴿مُبِينٍ ۝١٩﴾ بَيْنَ عَلَى رِسَالَتِي، فَتَوَعَّدُوهُ بِالرَّجْمِ. فَقَالَ: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾ بِالْحِجَارَةِ. ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ تُصَدِّقُونِي ﴿فَاعْتَزِّلُونِ ۝٢١﴾ فَاتْرُكُوا أَذَايَ. فَلَمْ يَتْرُكُوهُ ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ۝٢٢﴾ مُشْرِكُونَ. فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَسْرِ﴾ بِقَطْعِ الْهَمْزَةِ وَوَضَلِهَا ﴿بِعِبَادِي﴾ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿لِيَلَّا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ ۝٢٣﴾ يَتَّبِعُكُمْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ. ﴿وَاتْرِكِ الْبَحْرَ﴾ إِذَا قَطَعْتَهُ أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ﴿رَهْوًا﴾ سَاكِئًا مُنْفَرَجًا حَتَّى يَدْخُلَهُ الْقَبْطُ ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرِقُونَ ۝٢٤﴾ فَاطْمَآنَ بِذَلِكَ فَأَغْرَقُوا. ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ بَسَاتِينَ﴾ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ تَجْرِي. ﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦﴾ مَجْلِسٍ حَسَنِ. ﴿وَنَعْمَةٍ﴾ مُتْعَةٍ ﴿كَانُوا فِيهَا فَكِيهِينَ ۝٢٧﴾ نَاعِمِينَ. ﴿كَذَلِكَ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ، أَي: الْأَمْرُ ﴿وَأُورِثْنَهَا﴾ أَي: أَمْوَالُهُمْ ﴿قَوْمًا آخَرِينَ ۝٢٨﴾ أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ. ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ يَبْكِي عَلَيْهِمْ بِمَوْتِهِمْ مُصَلَّاهُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَمُصْعَدُ عَمَلِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۝٢٩﴾ مُؤَخَّرِينَ لِلتَّوْبَةِ. ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ۝٣٠﴾ قَتَلَ الْأَبْنَاءَ وَاسْتِخْدَامِ النِّسَاءِ. ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ قِيلَ: بَدَلٌ مِنَ

الدخان من الجهد والجوع، ثم قرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابَ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ قال عبد الله: أفيكشف عنهم العذاب يوم القيامة؟ قال: والبطشة الكبرى يوم بدر. أخرجه البخاري (٤٨٢٢)، ومسلم (٢٧٩٨).

(١) قال الزمخشري: إذا مات رجل خطير، قالت العرب في تعظيم مهلكه: بكت عليه السماء والأرض... وذلك على سبيل التمثيل والتخييل. مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه. [القاسمي (٤١٨/٨)].

﴿الْعَذَابِ﴾ بِتَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَي: عَذَابٍ، وَقِيلَ: حَالٌ مِنَ ﴿الْعَذَابِ﴾ ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أَي: مُتَكَبِّرًا مُسْرِفًا ﴿مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ ٣١ وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ ﴿أَي: بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ مِنَّا بِحَالِهِمْ ﴿عَلَى الْعَلَمِينَ﴾ ٣٢ ﴿أَي: عَالِمِي زَمَانِهِمْ، أَي: الْعُقَلَاءِ﴾. ﴿وَعَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْأَلَيْتِ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ﴾ ٣٣ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ، مِّنْ فَلَقِ الْبَحْرِ وَالْمَنِّ وَالسَّلْوَىٰ وَغَيْرِهَا. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ ٣٤ ﴿إِنْ هِيَ﴾ مَا الْمَوْتَةُ الَّتِي بَعْدَهَا الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ أَي: وَهُمْ نُطْفُءُ ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ٣٥ بِمَبْعُوثِينَ أَحْيَاءَ بَعْدَ الثَّانِيَةِ. ﴿فَاتُّوا بِآبَائِنَا﴾ أَحْيَاءَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٣٦ أَنَا نُبْعَثُ بَعْدَ مَوْتِنَا، أَي: نَحْيَا. قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هُوَ نَبِيِّ أَوْ رَجُلٍ صَالِحٍ ٣٧ ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الْأُمَمِ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ لِكُفْرِهِمْ، وَالْمَعْنَى: لَيْسُوا أَقْوَىٰ مِنْهُمْ وَأَهْلَكُوا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ ٣٧ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعَيْنٍ ٣٨ ﴿بَخَلَقِ ذَلِكَ، حَالٌ﴾. ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي: مُحِقِّينَ فِي ذَلِكَ، لِيُسْتَدَلَّ بِهِ عَلَى قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٣٩ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَفْصِلُ اللَّهُ فِيهِ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤٠ ﴿لِلْعَذَابِ الدَّائِمِ﴾. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَىٰ عَن مَّوْلَىٰ﴾ بَقَرَاتِهِ أَوْ صَدَاقَةٍ، أَي: لَا يَدْفَعُ عَنْهُ ﴿شَيْئًا﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ٤١ يُنْمَعُونَ مِنْهُ، وَيَوْمَ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمِ الْفَصْلِ﴾. ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ، فَإِنَّهُ يَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِبُ فِي إِنْتِقَامِهِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿الرَّحِيمُ﴾ ٤٢ بِالْمُؤْمِنِينَ. ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزُّقُومِ﴾ ٤٣ هِيَ مِنْ أَحَبِّ الشَّجَرِ الْمُرِّ بُتْهَامَةً، يُنْبِتُهَا اللَّهُ تَعَالَىٰ فِي الْجَحِيمِ ٤٤. ﴿طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ ٤٤ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَصْحَابِهِ ذَوِي الْأَيْمِ الْكَبِيرِ. ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أَي: كَذُرْدِي الزَّيْتِ الْأَسْوَدِ، خَبْرٌ ثَانٍ ﴿تَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾ ٤٥ بِالْفَوْقَانِيَّةِ خَبْرٌ ثَالِثٌ، وَبِالتَّحْتَانِيَّةِ حَالٌ مِنَ ﴿الْمُهْلِ﴾. ﴿كَغَلِي الْحَمِيمِ﴾ ٤٦ أَي: الْمَاءِ الشَّدِيدِ الْحَرَارَةِ. ﴿خُذُوهُ﴾ يُقَالُ لِلزَّبَانِيَّةِ: خُذُوا الْأَيْمَ ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ بِكَسْرِ التَّاءِ وَضَمِّهَا، جُرُّهُ بِغُلْظَةٍ وَشِدَّةٍ ﴿إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ٤٧ وَسَطِ النَّارِ. ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ﴾ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٤٨ ﴿أَي: مِنْ

(١) من ملوك اليمن، سمي تبعاً لكثرة أتباعه، وقيل: كل واحد من ملوك اليمن يسمى تبعاً لأنه يتبع صاحبه الذي قبله، كما سمي في الإسلام خليفة، وقيل: المراد بقوم تبع جميع أتباعه لا واحد بعينه، وكان تبع هذا يعبد النار فأسلم ودعا قومه وهم حمير إلى الإسلام فكذبوه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْبُوا تَبَعًا؛ فَإِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ». الحديث حسن لغيره، أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والرويان في «المسند»

(١١١٣)، والطبراني (٦٠١٣). [الخازن (٤/ ١١٩)]

(٢) انظر التعليق على آية (٦٢) من سورة الصافات.

الْحَمِيمِ الَّذِي لَا يُفَارِقُهُ الْعَذَابُ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِمَّا فِي آيَةِ: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].^(١) وَيُقَالُ لَهُ: ﴿ذُقْ﴾ أَيِ: الْعَذَابِ ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٢) بَزَعِمِكَ، وَقَوْلِكَ: مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ وَأَكْرَمُ مِنِّي^(٣). وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿إِنَّ هَذَا الَّذِي تَرَوْنَ مِنَ الْعَذَابِ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾^(٤) فِيهِ تَشْكُونُ. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ مَجْلِسٍ﴾^(٥) ﴿أَمِينٍ﴾^(٦) يُؤْمَنُ فِيهِ الْخَوْفُ. ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَعُيُونٍ﴾^(٧) يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ أَيِ: مَا رَقَّ مِنَ الدِّيَاجِ وَمَا غُلِظَ مِنْهُ ﴿مُتَقَبِّلِينَ﴾^(٨) حَالًا، أَيِ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ، لِدَوْرَانِ الْأَسْرَةِ بِهِمْ. ﴿كَذَلِكَ﴾ يُقَدَّرُ قَبْلَهُ: الْأَمْرُ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ مِنَ التَّزْوِيجِ، أَوْ قَرَنَاهُمْ ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾^(٩) بِنِسَاءٍ بِيضٍ وَاسِعَاتِ الْأَعْيُنِ حَسَانِهَا. ﴿يَدْعُونَ﴾ يَطْلُبُونَ الْخَدَمَ ﴿فِيهَا﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ، أَنْ يَأْتُوا ﴿بِكُلِّ فَلَكَهَةٍ﴾ مِنْهَا ﴿ءَامِنِينَ﴾^(١٠) مِنْ انْقِطَاعِهَا وَمَضَرَّتِهَا وَمِنْ كُلِّ مَخُوفٍ، حَالًا. ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أَيِ: الَّتِي فِي الدُّنْيَا بَعْدَ حَيَاتِهِمْ فِيهَا، قَالَ بَعْضُهُمْ: ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى: «بَعْدَ»^(١١) ﴿وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾^(١٢) فَضْلًا مَصْدَرٌ بِمَعْنَى: تَفَضُّلاً، مَنْصُوبٌ بِ«تَفَضَّلَ» مُقَدَّرًا ﴿مَنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(١٣) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ سَهْلَنَا الْقُرْآنَ ﴿بِلِسَانِكَ﴾ بِلُغَتِكَ، لِتَفْهَمَهُ الْعَرَبُ عَنْكَ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١٤) يَتَعَذُّونَ فَيُؤْمِنُوا، لَكِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ. ﴿فَارْتَقِبْ﴾ انْتَظِرْ هَلَاكَهُمْ ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾^(١٥) هَلَاكَكَ، وَهَذَا قَبْلَ نَزُولِ الْأَمْرِ بِجَهَادِهِمْ^(١٦).

- (١) فعل الصب لا يتعدى إلى العذاب لأن العذاب أمر معنوي لا يصب. فالصب مستعار للتقوية والإسراع فهو تمثيلية اقتضاها ترويع الأثيم حين سماعها، فلما كان المحكي هنا القول الذي يسمعه الأثيم صيغ بطريقة التمثيلية تهويلاً، بخلاف قوله: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩] الذي هو إخبار عنهم في زمن هم غير سامع فيه فلم يؤت بمثل هذه الاستعارة إذ لا مقتضى لها. [ابن عاشور (٢٥/ ٣١٥)].
- (٢) أي: قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ. وقال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أي لست بعزيز ولا كريم. [ابن كثير (٧/ ٢٦٠)].
- (٣) قدر قوم «إلا» بـ «سوى»، وضعف ذلك الطبري، وقدرها بـ «بعد»، وليس تضعيفه بصحيح، بل يصح المعنى بسوى ويتسق، وأما معنى الآية: فبين أنه تعالى نفى عنهم ذوق الموت، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا. [ابن عطية (٥/ ٧٨)].
- (٤) قال المحلي: «وهذا قبل الأمر بجهادهم»، أي: فهو منسوخ، وليس بصحيح؛ لأن رفع الإباحة الأصلية ليس نسخاً، إنما النسخ رفع حكم ثبت في الشرع بحكم آخر. [صديق حسن (١٢/ ٤١٤)].

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الْآيَةِ، وَهِيَ سِتُّ أَوْ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١). ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ مُبْتَدَأُ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ خَبْرُهُ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمِ﴾
 ﴿٢﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: فِي خَلْقِهِمَا ﴿لَآيَاتٍ﴾ دَالَّةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى
 ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ﴾ أَي: فِي خَلْقِ كُلِّ مِنْكُمْ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ عَلَقَةٍ ثُمَّ مُضْغَةٍ إِلَى أَنْ صَارَ إِنْسَانًا ﴿و﴾ خَلَقَ
 ﴿مَا يَبْتُ﴾ يَفَرِّقُ فِي الْأَرْضِ ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ هِيَ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ النَّاسِ وَغَيْرِهِمْ ﴿ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
 ﴿٤﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿و﴾ فِي ﴿اُخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ذَهَابِهِمَا وَمَجِيئِهِمَا ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ﴾ مَطَرٍ؛
 لِأَنَّهُ سَبَبُ الرِّزْقِ ﴿فَآحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ﴾ تَقْلِيلِهَا مَرَّةً جَنُوبًا وَمَرَّةً شِمَالًا وَبَارِدَةً وَحَارَةً
 ﴿ءَايَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥﴾ الدَّلِيلَ فَيُؤْمِنُونَ. ﴿تِلْكَ﴾ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ ﴿ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ حُجَجُهُ الدَّالَّةُ عَلَى
 وَحْدَانِيَّتِهِ ﴿نَتْلُوهَا﴾ نَقُصُّهَا ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿نَتْلُو﴾ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ﴾ أَي: حَدِيثِهِ وَهُوَ الْقُرْآنُ
 ﴿وَأَيَّتِهِ﴾ حُجَجِهِ ﴿يُؤْمِنُونَ ٦﴾ أَي: كَفَّارُ مَكَّةَ، أَي: لَا يُؤْمِنُونَ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالتَّاءِ. ﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةُ عَذَابٍ ﴿لِكُلِّ﴾
 ﴿أَفَّاكٍ﴾ كَذَّابٍ ﴿أُثِيمٍ ٧﴾ كَثِيرِ الْإِثْمِ. ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ عَلَى كُفْرِهِ ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾
 مُتَكَبِّرًا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٨﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا﴾ أَي: الْقُرْآنِ ﴿شَيْئًا﴾
 اتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ أَي: مَهْزُوءًا بِهَا ﴿أُولَئِكَ﴾ أَي: الْأَفَّاكُونَ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ٩﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ أَي:
 أَمَامَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا ﴿جَهَنَّمَ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ مِنَ الْمَالِ وَالْفِعَالِ ﴿شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ﴾
 اللَّهِ ﴿أَي: الْأَصْنَامِ﴾ ﴿أُولِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ هَذَا ﴿أَي: الْقُرْآنُ﴾ ﴿هُدًى﴾ مِنَ الضَّلَالَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾
 بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ ﴿حَظٌّ﴾ ﴿مِنْ رَجْزٍ﴾ أَي: عَذَابٍ ﴿أَلِيمٌ ١١﴾ مُوجِعٌ. ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ﴾

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) جملة ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ بيان لجملة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾. وفي قوله: ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ﴾ تحقيق لحصول العذاب وكونه قريبا منهم وأنهم غافلون عن اقترابه كغفلة المرء عن عدو يتبعه من ورائه ليأخذه فإذا نظر إلى أمامه حسب نفسه آمنا. ففي الورا استعارة تمثيلية للاقتراب والغفلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]. [ابن عاشور (٢٥/ ٣٣٣)].

لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ ﴿١٢﴾ السُّفُنَ ﴿فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ بِإِذْنِهِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا بِالتَّجَارَةِ ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ ﴿مِنْ شَمْسٍ وَقَمَرٍ وَنُجُومٍ وَمَاءٍ وَغَيْرِهِ﴾ ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ مِنْ دَابَّةٍ وَشَجَرٍ وَنَبَاتٍ وَأَنْهَارٍ
 وَغَيْرِهَا، أَيُّ: خَلَقَ ذَلِكَ لِمَنْفَعِكُمْ ﴿جَمِيعًا﴾ تَأْكِيدُ ﴿مِنْهُ﴾ حَالٌ، أَيُّ: سَخَّرَهَا كَائِنَةً مِنْهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿١٤﴾ فِيهَا فَيُؤْمِنُونَ. ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ يَخَافُونَ ﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ وَقَائِعَهُ،
 أَيُّ: اغْفِرُوا لِلْكَفَّارِ مَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَذَى لَكُمْ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِجِهَادِهِمْ^(١) ﴿لِيَجْزِيَ﴾ أَيُّ: اللَّهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ
 ﴿قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿١٥﴾ مَنْ أَلْغَرَ لِلْكَفَّارِ أَذَاهُمْ. ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ عَمِلَ ﴿وَمَنْ أَسَاءَ
 فَعَلَيْهَا﴾ إِسَاءَتُهُ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٦﴾ تَصِيرُونَ، فَيَجْزِي الْمُصْلِحَ وَالْمُسِيءَ. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ
 الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَةَ ﴿وَالْحُكْمَ﴾ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ ﴿وَالنُّبُوَّةَ﴾ لِمُوسَى وَهَارُونَ مِنْهُمْ ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾
 الْحَلَالَاتِ كَالْمَنِّ وَالسَّلْوَى ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧﴾ عَالَمِي زَمَانِهِمُ الْعُقَلَاءُ. ﴿وَعَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ
 الْأَمْرِ﴾ أَيُّ: أَمْرَ الدِّينِ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَبَعَثَهُ مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ فِي بَعَثِهِ
 ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: لِبَغْيٍ حَدَثَ بَيْنَهُمْ حَسَدًا لَهُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿١٨﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ ﴿يَا مُحَمَّدٌ﴾ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ طَرِيقَةٍ ﴿مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أَمْرَ الدِّينِ ﴿فَاتَّبِعْهَا وَلَا
 تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ^(٢). ﴿إِنَّهُمْ لَنُغْنُوا﴾ يَدْفَعُوا ﴿عَنْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ
 ﴿شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿هَذَا﴾ الْقُرْآنُ
 ﴿بَصِيرٌ لِلنَّاسِ﴾ مَعَالِمٌ يَتَّبِعُونَ بِهَا فِي الْأَحْكَامِ وَالْحُدُودِ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿٢١﴾ بِالْبَعْثِ. ﴿أَمْ﴾

(١) [قيل:] نسختها آية القتال... والأقرب أن يقال: إنه محمول على ترك المنازعة، وعلى التجاوز فيما يصدر عنهم من الكلمات المؤذية.

[ابن عادل الحنبلي (١٧/ ٣٥٥)]. ولأن احتمال الأذى مندوب إليه على كل حال. [ابن جزي (٢/ ٢٧١)].

(٢) ﴿وَعَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أَيُّ: حججا وبراهين، وأدلة قاطعات، تأبى الاختلاف، ولكن أبوا إلا الاختلاف: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أَيُّ: ظلما وتعديا منهم، لطلب الحظوظ العاجلة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أَيُّ: بالمؤاخذه والمجازاة. قال ابن كثير: وهذا فيه تحذير لهذه الأمة، أن تسلك مسلكهم، وأن تقصد منهجهم؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ أَيُّ: على طريقة وسنة ومنهاج من أمر الدين، الذي أمرنا به من قبلك من رسلنا: ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ أَيُّ: تلك الشريعة الثابتة بالدلائل والحجج ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني المشركين، وما هم عليه من الأهواء التي

لا حجة عليها. [القاسمي (٨/ ٤٢٩)].

بِمَعْنَى هَمْزَةِ الْإِنْكَارِ ﴿حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ اِكْتَسَبُوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ ﴿أَنْ تَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً﴾ خَبَرٌ ﴿فَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مُبْتَدَأٌ وَمَعْطُوفٌ، وَالْجُمْلَةُ بَدَلٌ مِنَ الْكَافِ، وَالضَّمِيرُ اِنْ لِلْكَفَّارِ، الْمَعْنَى: اَحْسِبُوا اَنْ نَجْعَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي خَيْرٍ كَالْمُؤْمِنِينَ؟ أَي: فِي رَغْدٍ مِنَ الْعَيْشِ مُسَاوٍ لِعَيْشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، حَيْثُ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ: «لَئِنْ بُعِثْنَا لَنُعْطَى مِنَ الْخَيْرِ مِثْلَ مَا تُعْطُونَ»، قَالَ تَعَالَى عَلَى وَفْقِ اِنْكَارِهِ بِالْهَمْزَةِ: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ١١ ﴿أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ عَلَى خِلَافِ عَيْشِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَالْمُؤْمِنُونَ فِي الْآخِرَةِ فِي الثَّوَابِ بِعَمَلِهِمُ الصَّالِحَاتِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَ﴿مَا﴾ مُصَدِّرِيَّةٌ، أَي: بِسِّسٍ حُكْمًا حُكْمُهُمْ هَذَا. ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ«خَلَقَ» لِيَدُلَّ عَلَى قُدْرَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿وَلِكُلِّ جَزَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْمَعَاصِي وَالطَّاعَاتِ فَلَا يُسَاوِي الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٢ أَفْرَءَيْتَ ﴿أَخْبِرْنِي﴾ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴿مَا يَهْوَاهُ مِنْ حَجَرٍ بَعْدَ حَجَرٍ يَرَاهُ أَحْسَنَ﴾ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ مِنْهُ تَعَالَى، أَي: عَالِمًا بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الضَّلَالَةِ قَبْلَ خَلْقِهِ ﴿وَحَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ فَلَمْ يَسْمَعْ الْهُدَىٰ وَلَمْ يَعْقِلْهُ، فَلَا يَتَمَكَّرُ فِي الْآيَاتِ ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ ظُلْمَةً فَلَمْ يُبْصِرِ الْهُدَىٰ، وَيُقَدَّرُ هُنَا الْمَفْعُولُ الثَّانِي لـ ﴿رَعَيْتَ﴾ أَي: أَيُّهُتَدِي؟ ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أَي: بَعْدَ إِضْلَالِهِ إِيَّاهُ، أَي: لَا يَهْتَدِي ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ١٣ تَتَعَطَّوْنَ، فِيهِ إِذْغَامٌ إِحْدَى النَّائِنِ فِي الدَّالِ. ﴿وَقَالُوا﴾ أَي: مُنْكَرُوا الْبَعْثَ ﴿مَا هِيَ﴾ أَي: الْحَيَاةُ ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الَّتِي فِي الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴿أَي: يَمُوتُ بَعْضٌ وَيَحْيَا بَعْضٌ، بَأَنْ يُوَلَّدُوا﴾ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿أَي: مُرُورُ الزَّمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ﴾ الْمَقُولِ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ١٤ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا مِنَ الْقُرْآنِ، الدَّالَّةُ عَلَى قُدْرَتِنَا عَلَى الْبَعْثِ ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وَاضِحَاتٍ، حَالٌ ﴿مَا كَانَ حُجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتُتُوا بِبَابِنَا﴾ أَحْيَاءُ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٥ ﴿أَنَا نُبْعَثُ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ حِينَ كُنْتُمْ نُطْفًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ﴾ أَحْيَاءَ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ﴾ شَكٍّ ﴿فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وَهُمْ الْقَائِلُونَ مَا ذَكَرَ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ١٦ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْدِلُ مِنْهُ ﴿يَوْمَئِذٍ يُخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ﴾ ١٧ الْكَافِرُونَ، أَي: يَظْهَرُ خُسْرَانُهُمْ بِأَنْ يَصِيرُوا إِلَى النَّارِ. ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ﴾ أَي: أَهْلَ دِينٍ ﴿جَاثِيَةً﴾ عَلَى الرُّكْبِ أَوْ مُجْتَمِعَةً ١٨ ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ كِتَابِ

(١) مستوفزة والمستوفز الذي لا يصيب الأرض منه إلا ركبته، وأطراف أنامله قال الضحاك: وذلك عند الحساب، وقيل: معنى جاثية مجتمعة، قاله ابن عباس، وقال الفراء: المعنى وترى أهل كل دين مجتمعين، وقال عكرمة متميزة عن غيرها، وقال مؤرج: معناه بلغة قریش

أَعْمَالُهَا^(١)، وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) أَي: جَزَاءُهُ. ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ دِيْوَانُ الْحَفَظَةِ ﴿يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ﴾ نُثَبِّتُ وَنَحْفَظُ ﴿مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣) فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ^(٤) جَنَّتِهِ^(٥) ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾^(٦) الْبَيِّنُ الظَّاهِرُ. ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي﴾ الْقُرْآنُ ﴿تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾^(٧) كَافِرِينَ. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ أَيُّهَا الْكُفَّارُ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿حَقٌّ وَالسَّاعَةُ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصَبِ ﴿لَا رَيْبَ﴾ شَكَّ ﴿فِيهَا﴾ فُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ﴾ مَا ﴿نَنْظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ قَالَ الْمُبَرِّدُ: أَصْلُهُ «إِنْ نَحْنُ إِلَّا نَظْنُ ظَنًّا» ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾^(٨) أَنَهَا آتِيَةٌ. ﴿وَبَدَأَ﴾ ظَهَرَ ﴿لَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ فِي الدُّنْيَا، أَي: جَزَاؤُهَا ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ﴾ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ^(٩) أَي: الْعَذَابُ. ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِلْكُمْ﴾ نَتَرَكُكُمْ فِي النَّارِ ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أَي: تَرَكْتُمْ الْعَمَلَ لِلْقَائِهِ^(١٠) ﴿وَمَا أَوْلَيْكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ تَصْرِيحٍ﴾^(١١) مِنْهَا. ﴿ذَلِكُمْ بِأَنكُمُ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿هُزُوءًا وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ حَتَّىٰ فُلْتُمْ: لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَلِلْمَفْعُولِ ﴿مِنْهَا﴾ مِنَ النَّارِ ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(١٢) أَي: لَا يُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يُرْضُوا رَبَّهُمْ بِالتَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ يَوْمَئِذٍ. ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ الْوُصْفُ بِالْجَمِيلِ عَلَىٰ وَفَاءٍ وَعَدِهِ فِي الْمُكْذِبِينَ ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١٣) خَالِقُ مَا ذُكِرَ، وَالْعَالَمُ: مَا سِوَى اللَّهِ. وَجَمِيعَ لَاخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِ، وَ﴿رَبِّ﴾ بَدَلٌ. ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ﴾ الْعِظَمَةُ ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ حَالُ أَي: كَانَتْهُ فِيهِمَا ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١٤) تَقَدَّمَ^(١٥).

خاضعة، وقال الحسن: باركة على الركب، والجنو الجلوس على الركب، تقول: جثا يجنو ويجنو جثواً وجثاً إذا جلس على ركبته، والأول أولى. [الشوكاني (١٣/٥)].

(١) أي: إلى صحائف أعمالها، وقيل: الكتاب المنزل عليها، والأول أرجح. [ابن جزي (٢٧٣/٢)].

(٢) التي من جملتها الجنة قاله البيضاوي، وهذا تفصيل لحال الفريقين، فالمؤمنون يدخلهم الله برحمته الجنة. [صديق حسن (٤٣٤/١٢)].

(٣) الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: «أَلَمْ أَزُوجْكَ؟ أَلَمْ أُكْرِمَكَ؟ أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذْرَكَ تَرَأْسَ وَتَرْبَعٍ؟» فَيَقُولُ: بَلَى، يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: أَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِي؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَالْيَوْمَ أَنَسَاكَ كَمَا نَسِيتِي. أخرجه مسلم (٢٩٦٨). [ابن كثير (٢٧٢/٧)].

(٤) أي: الآية (٢) من هذه السورة.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ آيَةٌ، وَإِلَّا ﴿٢﴾ فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ ﴿٣﴾ آيَةٌ، وَإِلَّا ﴿٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴿٥﴾ الثَّلَاثَ آيَاتٍ، وَهِيَ أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ ^(١). ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾ الْقُرْآنِ، مُبْتَدَأُ ﴿مِنْ اللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمِ﴾
 ﴿٢﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا﴾ خَلْقًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ لِيَدُلَّ عَلَى قُدْرَتِنَا وَوَحْدَانِيَّتِنَا
 ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إِلَى فَنَائِهِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا﴾ خُوفُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾ ٣ قُلْ
 أَرَأَيْتُمْ ﴿أَخْبِرُونِي﴾ ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ تَعْبُدُونَ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: الْأَصْنَامِ مَفْعُولٌ أَوَّلُ ﴿أُرُونِي﴾ أَخْبِرُونِي، تَأْكِيدُ
 ﴿مَاذَا خَلَقُوا﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ بَيَانُ ﴿مَا﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مُشَارَكَةٌ ﴿فِي﴾ خَلْقِ ﴿السَّمَوَاتِ﴾ مَعَ اللَّهِ، وَ
 ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى: هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ ﴿أُنْتَوِي بِكِتَابٍ﴾ مُنَزَّلٍ ﴿مِّن قَبْلِ هَذَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿أَوْ آثَرَةٍ﴾ بَقِيَّةٍ ﴿مِّنْ عِلْمٍ﴾ يُؤْتَرُ
 عَنِ الْأَوَّلِينَ بِصَحَّةِ دَعْوَاكُمْ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ أَنَّهَا تَقْرُبُكُمْ إِلَى اللَّهِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٤ فِي دَعْوَاكُمْ. ﴿وَمَنْ﴾
 اسْتَفْهَمَ بِمَعْنَى الْفَنَى، أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا﴾ يَعْبُدُ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ ﴿مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ وَ
 إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وَهُمْ الْأَصْنَامُ لَا يُجِيبُونَ عَابِدِيهِمْ إِلَى شَيْءٍ يَسْأَلُونَهُ أَبَدًا ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ﴾ عِبَادَتِهِمْ ﴿غَفْلُونَ﴾
 ٥ لَانَّهُمْ جَمَادٌ لَا يَعْقِلُونَ. ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا﴾ أَيُّ: الْأَصْنَامُ ﴿لَهُمْ﴾ لِعَابِدِيهِمْ ﴿أَعْدَاءٌ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ﴾
 بِعِبَادَةِ عَابِدِيهِمْ ﴿كَافِرِينَ﴾ ٦ جَا حِدِينَ ^(٢). ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أَيُّ: أَهْلُ مَكَّةَ ﴿ءَايَاتُنَا﴾ الْقُرْآنُ ﴿يَتَّبِعْتِ﴾
 ظَاهِرَاتٍ، حَالٌ ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْهُمْ ﴿لِلْحَقِّ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنِ ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ٧ بَيْنَ ظَاهِرٍ.
 ﴿أَمْ﴾ بِمَعْنَى «بَلْ» وَهَمْزَةُ الْإِنْكَارِ ﴿يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ﴾ فَرَضًا ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ
 اللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْئًا﴾ أَيُّ: لَا تَقْدِرُونَ عَلَى دَفْعِهِ عَنِّي، إِنْ عَذَّبَنِي اللَّهُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تَقُولُونَ
 فِي الْقُرْآنِ ﴿كَفَى بِهِ﴾ تَعَالَى ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لِمَنْ تَابَ ﴿الرَّحِيمُ﴾ ٨ بِهِ، فَلَمْ يُعَاجِلْكُمْ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الضمير في كانوا للأصنام، أي: تنبرأ الأصنام من الذين عبدوها، وإنما ذكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء لأنه أسند إليهم ما يسند إلى العقلاء، من الاستجابة والغفلة والعداوة. [ابن جزي (٢/ ٢٧٤)].

بِالْعُقُوبَةِ. ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا﴾ بِدِيعَا ﴿مِّنَ الرُّسُلِ﴾ أَي: أَوَّلُ مُرْسَلٍ، قَدْ سَبَقَ قَبْلِي كَثِيرُونَ مِنْهُمْ، فَكَيْفَ تُكَذِّبُونَنِي؟ ﴿وَمَا أَذِرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا، أَخْرُجْ مِنْ بَلَدِي أَمْ تُقْتَلُ كَمَا فَعَلَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، أَوْ تَرْمُونَ بِالْحِجَارَةِ أَمْ يُخَسِّفُ بِكُمْ كَالْمُكَذِّبِينَ قَبْلَكُمْ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ أَي: الْقُرْآنَ، وَلَا أَبْتَدِعُ مِنْ عِنْدِي شَيْئًا ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٩ ﴿بَيْنَ الْإِنذَارِ.﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أَخْبِرُونِي مَاذَا حَالَكُمْ ﴿إِنْ كَانَ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ جُمْلَةً حَالِيَةً ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ ١٠ ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أَي: عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿فَتَأْمَنُ﴾ الشَّاهِدُ ﴿وَأُسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ بِمَا عُطِفَ عَلَيْهِ: أَلَسْتُمْ ظَالِمِينَ؟ دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ١١ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَي: فِي حَقِّهِمْ ﴿لَوْ كَانَ﴾ الْإِيمَانُ ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا﴾ أَي: الْقَائِلُونَ ﴿بِهِ﴾ أَي: بِالْقُرْآنِ ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿إِفْكٌ﴾ كَذِبٌ ﴿قَدِيمٌ﴾ ١٢ ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ مُّوسَىٰ﴾ أَي: التَّوْرَةُ ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ حَالًا ﴿وَهَذَا﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لِلْكِتَابِ قَبْلَهُ ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي: ﴿مُصَدِّقٌ﴾، ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَي: مُشْرِكِي مَكَّةَ ﴿وَهُوَ﴾ ﴿بُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ ١٣ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٤ ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ ﴿جَزَاءً﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفَعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَي: يُجْزَوْنَ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَلَدَيْهِ حُسْنًا ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ﴾: ﴿إِحْسَنًا﴾ أَي: أَمْرُهُ أَنْ يُحْسِنَ إِلَيْهِمَا، فَصَبَّ ﴿إِحْسَنًا﴾ عَلَى الْمَصْدَرِ بِفَعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، وَمِثْلُهُ: ﴿حُسْنًا﴾، ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أَي: عَلَى مَشَقَّةٍ ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ﴾ مِنَ الرَّضَاعِ ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَقْلَ مُدَّةِ الْحَمْلِ، وَالْبَاقِي أَكْثَرُ مُدَّةِ الرَّضَاعِ، وَقِيلَ: إِنْ حَمَلَتْ بِهِ سِتَّةٌ أَوْ تِسْعَةٌ أَرْضَعَتْهُ الْبَاقِي ﴿حَتَّىٰ﴾ غَايَةً لِجُمْلَةٍ مُّقَدَّرَةٍ، أَي: وَعَاشَ حَتَّىٰ ﴿إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ هُوَ كَمَالُ قُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ، أَقْلُهُ ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً أَوْ ثَلَاثُونَ

(١) هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فالمعنى: أَرَأَيْتُمْ إِنْ اجْتَمَعَ كَوْنُ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، مَعَ شَهَادَةِ شَاهِدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ، ثُمَّ آمَنَ بِهِ هَذَا الشَّاهِدُ وَكَفَرْتُمْ أَنْتُمْ، أَلَسْتُمْ أَضَلُّ النَّاسِ وَأَظْلَمُ النَّاسِ؟ وَاخْتَلَفَ فِي الشَّاهِدِ الْمَذْكُورِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: أَحَدُهَا أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، فَقِيلَ: عَلَى هَذَا إِنْ الْآيَةُ مَدْنِيَّةٌ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَسْلَمَ بِالْمَدِينَةِ، وَقِيلَ: إِنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَأَخْبَرَ بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ وَقُوعِهَا ثُمَّ وَقَعَتْ عَلَى حَسَبِ مَا أَخْبَرَ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ يَقُولُ فِي نَزْلِ الْآيَةِ. الثَّانِي: أَنَّهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ بِمَكَّةَ. الثَّلَاثُ: أَنَّهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَجَحَ ذَلِكَ الطَّبْرِي. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿مِثْلِهِ﴾ لِلْقُرْآنِ، أَي: يَشْهَدُ عَلَى مِثْلِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعْدِ، وَالضَّمِيرُ فِي «آمَنَ» لِلشَّاهِدِ فَإِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ أَوْ الرَّجُلُ الْآخَرُ فَيُؤْمِنُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيُؤْمِنُ بِهِ هُوَ تَصَدِيقُهُ بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَتَبَشِيرِهِ بِهِ. [ابن جُرَيْجٍ (٢/ ٢٧٥)].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ أَي: تَمَامَهَا وَهُوَ أَكْثَرُ الْأَشْدِّ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إِلَى آخِرِهِ، نَزَلَ فِي أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ^(١) لَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً بَعْدَ سِتِّينَ مِنْ مَبْعَثِ النَّبِيِّ ﷺ آمَنَ بِهِ ثُمَّ آمَنَ أَبَوَاهُ ثُمَّ ابْنُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ وَابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو عَتِيقٍ ﴿أُوزِعْنِي﴾ أَلْهِمْنِي ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ﴾ بِهَا ﴿عَلَى وَعَلَى وَلَدَتِي﴾ وَهِيَ نِعْمَةُ التَّوْحِيدِ ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ فَأَعْتَقَ تِسْعَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُعَذِّبُونَ فِي اللَّهِ ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ فَكُلُّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ^(١٥) أُولَئِكَ أَي: قَائِلُو هَذَا الْقَوْلِ أَبُو بَكْرٍ وَغَيْرُهُ ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ﴾ بِمَعْنَى: حَسَنَ ^(٢) ﴿مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ حَالٌ، أَي: كَائِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ ﴿وَعَدَ الصِّدِّيقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ^(١٦) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ [التوبة: ٧٢]. ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ﴾ أُرِيدَ بِهِ الْجَنَسُ ﴿أَفِ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ وَفَتْحِهَا بِمَعْنَى مَصْدَرٍ، أَي: نَتَنَا وَقُبْحًا ﴿لَكُمْ﴾ أَتَصَجَّرُ مِنْكُمْ ﴿أَتَعِدَانِي﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِدْغَامِ ﴿أَنْ أُخْرَجَ﴾ مِنَ الْقَبْرِ ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ﴾ الْأُمَمُ ﴿مِنْ قَبْلِي﴾ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنَ الْقُبُورِ وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ ﴿يَسْأَلَانِهِ الْغُوثَ بُرْجُوعِهِ، وَيَقُولَانِ: إِنْ لَمْ تَرْجَعْ﴾ وَيَلِكْ أَي: هَلَكَ، بِمَعْنَى: هَلَكْتَ ﴿ءَامِنُ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بِهِ ﴿حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا﴾ أَي: الْقَوْلُ بِالْبَعْثِ ﴿إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ^(١٧) أَكَاذِبُهُمْ. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ وَجَبَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿فِي أَمْرِ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ ^(١٨) وَلِكُلِّ مِنْ جِنْسِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿دَرَجَاتٍ﴾ فَدَرَجَاتُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْجَنَّةِ عَالِيَةٌ، وَدَرَجَاتُ الْكَافِرِينَ فِي النَّارِ سَافِلَةٌ ﴿مِمَّا عَمِلُوا﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْكَافِرُونَ مِنَ الْمَعَاصِي ﴿وَلِيُوفِّيَهُمْ﴾ أَي: اللَّهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالنُّونِ ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾ أَي: جَزَاءَهَا ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ^(١٩) شَيْئًا يُنْقَصُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَيُزَادُ لِلْكَافِرِ. ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ بِأَنْ تُكْشَفَ لَهُمْ، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بِهَمْزَةٍ وَهَمْزَتَيْنِ، وَبِهَمْزَةٍ وَمَدَّةٍ، وَبِهِمَا وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ ﴿طَيَّبَتْكُمْ﴾ بِاشْتِغَالِكُمْ بِلَذَائِكُمْ ﴿فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ﴾ تَمَتَّعْتُمْ ﴿بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أَي: الْهُوانِ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ تَتَكَبَّرُونَ ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ ^(٢٠) بِهِ، وَتُعَذِّبُونَ بِهَا. ﴿*وَأَذْكُرُ أَحَا عَادٍ﴾ هُوَ هُوْدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿إِذْ﴾ إِلَى آخِرِهِ، بَدَلُ اسْتِمَالٍ ﴿أَنْذَرَ قَوْمَهُ﴾ خَوَّفَهُمْ

(١) اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؟ فقال الكلبي ومقاتل والضحاك: إنها نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ، وقال الحسن البصري:

إنها عامة في جميع المؤمنين. ومعنى الآية: هو الإرشاد إلى شكر الله ودعاء الوالدين. [السمعي (١٥٤/٥)].

(٢) فالقبول ليس قصراً على أفضل عباداتهم وأحسنها، بل يعم كل طاعاتهم فاضلها ومفضلها، والقبول هو الرضا بالعمل والإثابة عليه، وقيل: إن

اسم التفضيل على معناه، ويراد به ما يثاب العبد عليه من الأعمال، لا ما لا يثاب عليه، كالمباح فإنه حسن، وليس بأحسن. [صديق حسن (٢٤/١٣)].

﴿بِالْأَحْقَافِ﴾ وَادِّ بِالْيَمَنِ بِهِ مَنَازِلُهُمْ ﴿وَقَدْ خَلَّتِ التُّدُرُ﴾ مَضَتْ الرُّسُلُ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أَي: مِنْ قَبْلِ هُوْدٍ وَمِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَقْوَامِهِمْ ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ قَالَ: ﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ وَجُمْلَةُ ﴿وَقَدْ خَلَّتْ﴾ مُعْتَرِضَةٌ ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إِنْ عَبْدْتُمْ غَيْرَ اللَّهِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ٢١ ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ لِنَتَصْرِفَنَّا عَنْ عِبَادَتِهَا ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ مِنَ الْعَذَابِ عَلَى عِبَادَتِهَا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ٢٢ ﴿فِي أَنَّهُ يَأْتِينَا﴾ قَالَ هُوْدٌ: ﴿إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ هُوَ الَّذِي يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِيكُمْ الْعَذَابُ ﴿وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ إِلَيْكُمْ ﴿وَلَكِنِّي أَرْنُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ ٢٣ ﴿بِاسْتِعْجَالِكُمُ الْعَذَابَ﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ أَي: مَا هُوَ الْعَذَابُ ﴿عَارِضًا﴾ سَحَابًا عَرَضَ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا أَي: مُمَطِّرٌ إِيَّانَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ ٢٤ ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ رِيحٌ ﴿بَدَلٌ مِنْ﴾ مَا، ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ٢٥ ﴿مُؤَلَّمٌ﴾ ٢٦ ﴿تَذَمُّرٌ﴾ تَهْلِكُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ مَرَّتَ عَلَيْهِ ٢٧ ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ بِإِرَادَتِهِ، أَي: كُلُّ شَيْءٍ أَرَادَ إِهْلَاكُهُ بِهَا، فَأَهْلَكَتْ رِجَالَهُمْ وَنِسَاءَهُمْ وَصِغَارَهُمْ وَأُمُومَهُمْ، بِأَنْ طَارَتْ بِذَلِكَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَزَقَتْهُ، وَبَقِيَ هُوْدٌ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ﴾ كَمَا جَزَيْنَاهُمْ ﴿نَجْزَى الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ٢٨ ﴿غَيْرُهُمْ﴾ ٢٩ ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّا فِيهَا﴾ فِي الَّذِي ﴿إِنْ﴾ نَافِيَةٌ أَوْ زَائِدَةٌ ﴿مَكَنَّاكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿فِيهِ﴾ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْمَالِ ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا﴾ بِمَعْنَى: أَسْمَاعًا ﴿وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ قُلُوبًا ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَي: شَيْئًا مِنَ الْإِعْنَاءِ، وَ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَةٌ ﴿إِذْ﴾ مَعْمُولَةٌ لـ ﴿أَغْنَى﴾ وَأَشْرَبَتْ مَعْنَى التَّلْعِيلِ ﴿كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ بِحُجَجِهِ الْبَيِّنَةِ ﴿وَحَاقَ﴾ نَزَلَ ﴿بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ٣٠ أَي: الْعَذَابُ. ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾ أَي: مِنْ أَهْلِهَا كَثُودَ وَعَادٍ وَقَوْمَ لُوطٍ ﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ﴾ كَرَرْنَا الْحُجَجَ الْبَيِّنَاتِ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ٣١ ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَا ﴿نَصَرَهُمْ﴾ بِدَفْعِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أَي: غَيْرِهِ ﴿قُرْبَانًا﴾ مُتَقَرَّبًا بِهِمْ إِلَى اللَّهِ ﴿ءَالِهَةً﴾ مَعَهُ، وَهُمْ الْأَصْنَامُ، وَمَفْعُولٌ

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا حتى أرى منه لهواته إنما كان يتبسّم، وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف ذلك في وجهه قلت يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأته عرفت في وجهك الكراهية، قال: «يا عائشة، ما يؤمّنني أن يكون فيه عذاب، قد عذّب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: «هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا»». أخرجه البخاري (٣٢٠٦)، ومسلم (٨٩٩).

(٢) عموم يراد به الخصوص. [ابن جزيّ (٢/٢٧٨)]. [أي: كل شيء مستعمل في كثرة الأشياء فإن «كلا» تأتي كثيرا في كلامهم بمعنى الكثرة. والمعنى: تدمر ما من شأنه أن تدمره الريح من الإنسان والحيوان والديار. [ابن عاشور (٢٦/٥٠)].

اتَّخَذَ الْأَوَّلُ ضَمِيرٌ مَحذُوفٌ يَعُودُ عَلَى الْمَوْصُولِ، أَي: «هُمْ» وَ «قُرْبَانًا» الثَّانِي وَ «الْهَتَاءُ» بَدَلٌ مِنْهُ «بَلْ ضَلُّوا» غَابُوا «عَنْهُمْ» عِنْدَ نَزُولِ الْعَذَابِ «وَذَلِكَ» أَي: اتَّخَذَهُمُ الْأَصْنَامَ آلِهَةً قُرْبَانًا «إِفْكُهُمْ» كَذِبُهُمْ «وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (٢٨) «يَكْذِبُونَ وَ «مَا» مَصْدَرِيَّةٌ أَوْ مَوْصُولَةٌ وَالْعَائِدُ مَحذُوفٌ، أَي: فِيهِ. «وَ» اذْكُرْ «إِذْ صَرَفْنَا» أَمَلْنَا «إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ» جَنَّ نَصِيبِينَ بِالْيَمَنِ أَوْ جَنَّ نِينَوَى، وَكَانُوا سَبْعَةً أَوْ تِسْعَةً «وَكَانَ ﷺ يَبْطِنُ نَخْلَةً يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ الْفَجْرَ». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ (١) «يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا» أَي: قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ «أَنْصِتُوا» اصْغُوا لَا سِتْمَاعِهِ «فَلَمَّا قُضِيَ» فُرِغَ مِنْ قِرَاءَتِهِ «وَلَوْ» رَجَعُوا «إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ» (٢٩) «مُخَوِّفِينَ قَوْمَهُمُ الْعَذَابَ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا، وَكَانُوا يَهُودًا وَقَدْ أَسْلَمُوا» (٣٠). «قَالُوا يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا» هُوَ الْقُرْآنُ «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» أَي: تَقَدَّمَهُ كَالْتَوَرَةِ «يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ» الْإِسْلَامِ «وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ» (٣١) «أَي: طَرِيقَهُ. «يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ» مُحَمَّدًا ﷺ «إِلَى الْإِيمَانِ» وَعَامِنُوا بِهِ «يَغْفِرْ لَكُمْ» اللَّهُ «مِنْ ذُنُوبِكُمْ» أَي: بَعْضَهَا؛ لِأَنَّ مِنْهَا الْمَظَالِمَ وَلَا تُغْفَرُ إِلَّا بِرِضَا أَصْحَابِهَا «وَيُجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (٣٢) مُؤْلِمٍ. «وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ» أَي: لَا يُعْجِزُ اللَّهُ بِالْهَرَبِ مِنْهُ فَيَفُوتُهُ «وَلَيْسَ لَهُ» لِمَنْ لَا يُجِيبُ «مِنْ دُونِهِ» أَي: اللَّهُ «أُولِيَاءُ» أَنْصَارٌ يَدْفَعُونَ عَنْهُ الْعَذَابَ «أُولَئِكَ» الَّذِينَ لَمْ يُجِيبُوا «فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (٣٣) «بَيْنَ ظَاهِرٍ. «أَوَلَمْ يَرَوْا» يَعْلَمُوا، أَي: مُنْكَرُوا الْبَعْثِ «أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُمْ» لَمْ يَعْجِزْ عَنْهُ «بِقَدَرٍ» خَبِرَ

(١) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: هَبَطُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ يَبْطِنُ نَخْلَةً، فَلَمَّا سَمِعُوهُ، قَالُوا: أَنْصِتُوا. قَالَ: صَه، وَكَانُوا تِسْعَةً أَحَدُهُمْ زَوْبِعَةُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٧٧٣)، وَمُسْلِمٌ (٤٤٩).

(٢) أَي: رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَأَنْذَرُوهُمْ مَا سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَقَوْلِهِ: «لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» [التوبة: ١٢٢]. وَقَدْ اسْتَدَلَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ فِي الْجَنِّ نَذْرٌ، وَلَيْسَ فِيهِمْ رَسَلٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِنَّ لَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولًا؛ لِقَوْلِهِ: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» [يوسف: ١٠٩]، وَقَالَ: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ» [الفرقان: ٢٠]، وَقَالَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ» [العنكبوت: ٢٧]. فَكُلُّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ بَعْدَ إِبْرَاهِيمَ فَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ وَسَلَالَتِهِ، فَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: «يَلْمِزُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ» [الأَنْعَامِ: ١٣٠]، فَالْمُرَادُ مِنْ مَجْمُوعِ الْجَنِّسَيْنِ، فَيَصْدُقُ عَلَى أَحَدِهِمَا وَهُوَ الْإِنْسُ، كَقَوْلِهِ: «يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» [الرحمن: ٢٢] أَي: أَحَدُهُمَا. [ابن كثير (٣٠٢/٧)].

﴿أَنَّ﴾ وَزِيدَتِ الْبَاءُ فِيهِ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي قُوَّةٍ: «أَلَيْسَ اللَّهُ بِقَادِرٍ» ﴿عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى﴾ هُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ٣٣ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ ﴿بِأَن يُعَذِّبُوا بِهَا، يُقَالُ لَهُمْ: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ التَّعَذِيبُ﴾ بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ﴾ عَلَى أَذَى قَوْمِكَ ﴿كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْمِ﴾ ذُوو الثَّبَاتِ وَالصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ قَبْلَكَ، فَتَكُونَ ذَا عَزْمٍ، وَ﴿مِنَ﴾ لِلْبَيَانِ فَكُلُّهُمْ ذُوو عَزْمٍ، وَقِيلَ: لِلتَّبَعِيزِ فَلَيْسَ مِنْهُمْ آدَمُ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، وَلَا يُؤْنَسُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] ^(١)، ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ لِقَوْلِكَ نَزُولِ الْعَذَابِ بِهِمْ، قِيلَ: كَأَنَّهُ ضَجَرَ مِنْهُمْ فَأَحَبَّ نَزُولَ الْعَذَابِ بِهِمْ، فَأَمَرَ بِالصَّبْرِ وَتَرَكَ الْإِسْتِعْجَالَ لِلْعَذَابِ، فَإِنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ لَا مَحَالَةَ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ لَطُولُهُ ﴿لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي الدُّنْيَا فِي ظَنِّهِمْ ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ ﴿بَلَّغٌ﴾ تَبْلِيغٌ مِنَ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ^(٢) ﴿فَهَلْ﴾ أَي: لَا ﴿يُهْلِكُ﴾ عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَي: الْكَافِرُونَ﴾ ^(٣).

(١) أولو العزم: أصحاب العزم، أي: المتصفون به. والعزم: نية محققة على عمل أو قول دون تردد. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]... والعزم المحمود في الدين: العزم على ما فيه تركية النفس وصلاح الأمة، وقوامه الصبر على المكروه وباعثه التقوى، وقوته شدة المراقبة بأن لا يتهاون المؤمن عن محاسبته نفسه قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَدَيِّهِ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. وهذا قبل هبوط آدم إلى عالم التكليف، وعلى هذا تكون ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ الرُّسُلِ﴾ تبعيضية. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كل الرسل أولو عزم، وعليه تكون ﴿مِنَ﴾ بيانية. وهذه الآية اقتضت أن محمدا صلوات الله عليه من أولي العزم لأن تشبيهه الصبر الذي أمر به بصبر أولي العزم من الرسل يقتضي أنه مثلهم؛ لأنه ممثّل لأمر ربه، فصبره مثيل لصبرهم، ومن صبر صبرهم كان منهم لا محالة. [ابن عاشور (٦٧/٢٦)].

(٢) ﴿بَلَّغٌ﴾ معناه: كأنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، ذلك لبث بلاغ لهم في الدنيا إلى آجالهم، أي: لبث بلاغهم إلى آجالهم، ثم حذف المضاف مثل ﴿وَسَّيْلَ الْقَرِيَّةِ﴾ [يوسف: ٨٢]. وقيل المعنى: هذا القرآن، أو هذه التلاوة والإنذار بلاغ لهم، أي: كفاية لهم، أن تكفروا واعتبروا وتذكروا. وقيل بلاغ: معناه: قليل، تقول العرب: ما معه من الزاد إلا بلاغ؛ أي: قليل، وقيل المعنى: هذا الذي وعظوا به بلاغ. وقرأ عيسى بن عمر: (بلاغاً) بالنصب، جعله نعتاً لساعة، وقيل: نصبه على المصدر. وقرأ أبو مجلز (بَلَّغٌ) على الأمر. [مكي بن أبي طالب (٦٨٧٣/١١)].

(٣) قال الزجاج: تأويله: لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون، ولهذا قال قوم: ما في الرجاء لرحمة الله آية أقوى من هذه الآية. [البغوي (٢٧٣/٧)].

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مَدِينَةٍ إِلَّا ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ﴾ الْآيَةِ، أَوْ مَكَّةَ، وَهِيَ ثَمَانُ أَوْ تِسْعٌ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ ﴿وَصَدُّوا﴾ غَيْرُهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: الْإِيمَانِ ﴿أَضَلَّ﴾ أَخْبَطَ ﴿أَعْمَلَهُمْ﴾^(١) كَاطْعَامِ الطَّعَامِ وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، فَلَا يَرُونَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا، وَيُجْزَوْنَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: الْأَنْصَارُ وَغَيْرُهُمْ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ أَي: الْقُرْآنِ ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرُ عَنْهُمْ﴾ غَفَرَ لَهُمْ ﴿سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾^(٢) حَالَهُمْ، فَلَا يَعْصُونَهُ^(٣). ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: إِضْلَالُ الْأَعْمَالِ وَتَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾ الشَّيْطَانَ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الْقُرْآنَ ﴿مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الْبَيَانِ ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾^(٤) يَبِينُ أَحْوَالَهُمْ، فَالْكَافِرُ يُحْبَطُ عَمَلُهُ وَالْمُؤْمِنُ يُغْفَرُ زَلُّهُ. ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾ مَصْدَرٌ، بَدَلٌ مِنَ اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، أَي: فَاضْرِبُوا رِقَابَهُمْ، أَي: أَقْتُلُوهُمْ، وَعَبَّرَ بِضَرْبِ الرِّقَابِ لِأَنَّ الْغَالِبَ فِي الْقَتْلِ أَنْ يَكُونَ بِضَرْبِ الرِّقَبَةِ ﴿حَتَّى إِذَا أَثْنَتُمُوهُمْ﴾ أَكْثَرْتُمْ فِيهِمُ الْقَتْلَ ﴿فَشُدُّوا﴾ فَاْمْسِكُوا عَنْهُمْ، وَأَسْرُواهُمْ وَشَدُّوا ﴿الْوَتَاقَ﴾ مَا يُوثِقُ بِهِ الْأَسْرَى ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ﴾ مَصْدَرٌ بَدَلٌ مِنَ اللَّفْظِ بِفِعْلِهِ، أَي: تَمْنُونَ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِهِمْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴿وَإِمَّا فِدَاءً﴾ تَفَادُونَهُمْ بِمَالٍ أَوْ أَسْرَى مُسْلِمِينَ ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ﴾ أَي: أَهْلُهَا ﴿أَوْزَارَهَا﴾ أَثْقَالَهَا مِنَ السَّلَاحِ وَغَيْرِهِ، بِأَنْ يُسَلِّمَ الْكُفَّارُ أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْعَهْدِ، وَهَذِهِ غَايَةُ الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ﴿ذَلِكَ﴾^(٥) خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ، أَي: الْأَمْرُ فِيهِمْ مَا ذَكَرَ ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ بِغَيْرِ قِتَالٍ ﴿وَلَكِنْ﴾ أَمَرَكُمْ بِهِ ﴿لِيَبْلُؤَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ مِنْهُمْ فِي الْقِتَالِ، فَيَصِيرَ مَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ

(١) جعل مكارمهم كصلة الرحم وفك الأسارى وحفظ الجوار ضالة، أي: ضائعة محبطة بالكفر، أو مغلوبة مغمورة فيه كما يضل الماء في اللبن، أو ضالًا لا حيث لم يقصدوا به وجه الله، أو أبطل ما عملوه من الكيد لرسوله والصد عن سبيله بنصر رسوله وإظهار دينه على الدين كله. [البيضاوي ١١٩/٥]. كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

(٢) قيل: معناه أصلح حالهم وشأنهم، وحقيقة البال خاطر الذي في القلب، وإذا صلح القلب صلح الجسد كله، فالمعنى: إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى. [ابن جزي (٢/٢٨٠)].

وَمِنْهُمْ إِلَى النَّارِ ۖ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ قُتِلُوا ۖ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قَتَلُوا﴾، آيَةُ نَزَلَتْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقَدْ فَشَا فِي الْمُسْلِمِينَ الْقَتْلُ وَالْجَرَاحَاتُ ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ﴾ يُحِيطُ ﴿أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ سَيَهْدِيهِمْ ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَى مَا يَنْفَعُهُمْ وَيُضْلِحُ بِأَلْهَمٍ ۖ﴾ حَالَهُمْ فِيهِمَا، وَمَا فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يُقْتَلْ، وَأُذِرْ جُوا فِي ﴿قَتَلُوا﴾ تَغْلِيًا ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا﴾ بَيْنَهَا ﴿لَهُمْ ۖ﴾ ﴿فَيَهْتَدُونَ إِلَى مَسَاكِينِهِمْ مِنْهَا وَأَزْوَاجِهِمْ وَخُدَمِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلَالٍ ۖ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ ۖ أَيُّ دِينِهِ وَرَسُولَهُ ۖ يَنْصُرْكُمْ﴾ عَلَى عَدُوِّكُمْ ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۖ﴾ ﴿يُثَبِّتْكُمْ فِي الْمَعْرَكِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ «تَعَسُوا» يَدُلُّ عَلَيْهِ ﴿فَتَعَسَا لَهُمْ﴾ أَيُّ: هَلَاكًا وَخِيَةً مِنَ اللَّهِ ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ ﴿عُطِفَ عَلَى «تَعَسُوا»﴾ ﴿ذَلِكَ﴾ التَّعَسُّ وَالْإِضْلَالُ ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى التَّكَالِيفِ ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ۖ﴾ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أَهْلَكَ أَنْفُسَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴿وَالْكَافِرِينَ أَمْثَلَهَا ۖ﴾ أَمْثَالُ عَاقِبَةِ مَا قَبْلَهُمْ. ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفَهَرُ الْكَافِرِينَ ﴿بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى﴾ وَلِيِّ وَنَاصِرٍ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ فِي الدُّنْيَا وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ۖ أَيُّ: لَيْسَ لَهُمْ هُمْ إِلَّا بَطُونُهُمْ وَفُرُوجُهُمْ وَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى الْآخِرَةِ ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ۖ﴾ ﴿مَنْزِلٌ وَمَقَامٌ وَمَصِيرٌ ۖ﴾ ﴿وَكَايْنٍ﴾ وَكَمْ ﴿مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أُرِيدَ بِهَا أَهْلُهَا ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ﴾ مَكَّةَ أَيُّ: أَهْلِهَا ﴿الَّتِي أَخْرَجْتَكَ﴾ رُوعِي لَفْظُ ﴿قَرْيَةٍ﴾ ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ رُوعِي مَعْنَى ﴿قَرْيَةٍ﴾ الْأُولَى ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ۖ﴾ مِنْ إِهْلَاكِهَا. ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَتِهِ حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ﴾ مِنْ رَبِّهِ ۖ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فَرَأَهُ حَسَنًا وَهُمْ كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۖ﴾ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، أَيُّ: لَا مُمَاثِلَةَ بَيْنَهُمَا. ﴿مَثَلُ﴾ أَيُّ: صِفَةُ ﴿الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الْمُشْتَرَكُ بَيْنَ دَاخِلِيهَا، مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ كَضَارِبٍ

(١) كما ذكر حكمته في شرعية الجهاد في سورتي «آل عمران» و «براءة» في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. وقال في سورة براءة: ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ۖ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]. [ابن كثير (٣٠٨/٧)].

(٢) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ فَيَحْبُسُونَ عَلَى فَنَظَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْصُ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَطَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا أَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا». أخرجه البخاري (٦٥٣٥).

وَحَذِرْ، أَي: غَيْرِ مُتَعَيِّرٍ، بِخِلَافِ مَاءِ الدُّنْيَا فَيَتَعَيَّرُ لِعَارِضٍ ﴿وَأَنْهَرُ مِّن لَّبَنِ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾ بِخِلَافِ لَبَنِ الدُّنْيَا لِيُخْرُجَ مِنَ الضُّرُوعِ ﴿وَأَنْهَرُ مِّنْ خَمْرٍ لَّدَّةٍ﴾ لَذِيذَةٍ ﴿لِلشَّارِبِينَ﴾ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا فَإِنَّهَا كَرِيهَةٌ عِنْدَ الشُّرْبِ ﴿وَأَنْهَرُ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ بِخِلَافِ عَسَلِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِ النَّحْلِ يُخَالِطُهُ الشَّمْعُ وَغَيْرُهُ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾ أَصْنَافٌ ﴿مِّن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِمَا ذَكَرَ، بِخِلَافِ سَيِّدِ الْعَبِيدِ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَعَ إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ سَاحِطًا عَلَيْهِمْ ﴿كَمَنْ هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ﴾ خَبَرٌ مُّبْتَدَأٌ مُّقَدَّرٌ، أَي: أَمْنٌ هُوَ فِي هَذَا النَّعِيمِ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أَي: شَدِيدَ الْحَرَارَةِ ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ۝١٥﴾ أَي: مَصَارِيَهُمْ فَخَرَجَتْ مِنْ أَدْبَارِهِمْ وَهُوَ جَمْعٌ مَعَى بِالْقَصْرِ، وَالْفُهُ عَنْ يَاءٍ، لِقَوْلِهِمْ: مَعْيَانُ. ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارِ ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ فِي خُطْبَةٍ الْجُمُعَةِ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ لِعُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ اسْتَهْزَأَ وَسُخِّرِيَّةٌ ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَي: السَّاعَةِ، أَي: لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۝١٦﴾ فِي النِّفَاقِ ^(١). ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿زَادَهُمُ﴾ اللَّهُ ﴿هُدًى وَعَآتِهِمْ تَقْوَلُوهُمْ ۝١٧﴾ أَلْهَمَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بِهِ النَّارَ ^(٢). ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ مَا يَنْتَظِرُونَ، أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْ ﴿السَّاعَةِ﴾ أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴿بَغْتَةً﴾ فَجَاءَةً ^(٣) ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ عَلَامَاتُهَا، مِنْهَا بَعْثَةُ النَّبِيِّ ﷺ وَانْشِقَاقُ الْقَمَرِ وَالْدُّخَانُ ^(٤) ﴿فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ السَّاعَةُ ﴿ذِكْرُهُمْ ۝١٨﴾

(١) أي: قريبا، وهذا في غاية الذم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهتدون فيها إلا الباطل. [السعدي (ص: ٧٨٦)].

(٢) ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمُ هُدًى﴾ أي: والذين قصدوا الهداية وفقهم الله لها فهداهم إليها، وثبتهم عليها وزادهم منها، ﴿وَعَآتِهِمْ تَقْوَلُوهُمْ﴾ أي: ألهمهم رشدهم. [ابن كثير (٧/ ٣١٥)].

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُّسِيًّا، أَوْ غِنًى مُّطْغِيًّا، أَوْ مَرَضًا مُّفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُّفْنِدًا، أَوْ مَوْتًا مُّجْهَزًا، أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةُ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمْرٌ». أخرجه الترمذي (٢٣٠٦).

(٤) ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: أمارات اقترابها، كقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِرِ الْأُولَى ۝٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَرْزَاقَ ۝٥٧﴾ [النجم: ٥٦-٥٧]... وقوله: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة؛ لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله به الدين، وأقام به الحجة على العالمين. وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤت به نبي قبله، كما هو مبسوط في موضعه... عن سهل بن سعد قال: رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا، بالوسطى والتي تليها: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ

تُذَكِّرُهُمْ، أَي: لَا يَنْفَعُهُمْ. ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ أَي: دُمْ يَا مُحَمَّدٌ عَلَى عِلْمِكَ بِذَلِكَ النَّافِعِ فِي الْقِيَامَةِ^(١) ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ لِأَجْلِهِ، قِيلَ لَهُ ذَلِكَ مَعَ عِصْمَتِهِ لَتَسْتَنِّ بِهِ أُمَّتَهُ، وَقَدْ فَعَلَهُ قَالَ ﷺ: «إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢). ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فِيهِ إِكْرَامٌ لَهُمْ بِأَمْرِ نَبِيِّهِمْ بِالْإِسْتِغْفَارِ لَهُمْ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمُنْتَصِرَكُمْ لِإِسْغَالِكُمْ فِي النَّهَارِ﴾ ﴿وَمَتَّوْنَكُمْ﴾^(٣) مَا وَاَكُم إِلَى مَصَاجِعِكُمْ بِاللَّيْلِ، أَي: هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَاحْذَرُوهُ، وَالْخِطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ. ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ طَلَبًا لِلْجِهَادِ: ﴿لَوْلَا﴾ هَلَّا ﴿تُرِلَتْ سُورَةٌ﴾ فِيهَا ذِكْرُ الْجِهَادِ ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ أَي: لَمْ يُسَخَّ مِنْهَا شَيْءٌ ﴿وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ﴾ أَي: طَلَبُهُ ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أَي: شَكٌّ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ خَوْفًا مِنْهُ وَكَرَاهَةً لَهُ، أَي: فَهُمْ يَخَافُونَ مِنَ الْقِتَالِ وَيَكْرَهُونَهُ ﴿فَأُولَى لَهُمْ﴾^(٤) مُبْتَدَأٌ. خَبَرُهُ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أَي: حَسَنٌ لَكَ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ أَي: فُرِضَ الْقِتَالُ ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ فِي الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

كَهَاتَيْنِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٦). [ابن كثير (٣١٥/٧)].

(١) العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفة، بمعنى ما طلب منه علمه، وتماهه أن يعمل بمقتضاه. وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنا من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته ... الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالآلوهية. الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية ... الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها. الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعبادها نفعا ولا ضرا ... السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا، ورأيا وصوابا، وعلماء وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون قد شهدوا لله بذلك. الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الألفية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه ... هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره. [السعدي (ص: ٧٨٧)].

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٣٤٠)، وابن ماجه (٣٨١٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٤٥٠). وعن عبد الله بن سرجس قال: أتيت النبي ﷺ فأكلت معه من طعام، فقلت: غفر الله لك يا رسول الله، قال: «وَلَكَ»، فقيل: استغفر لك يا رسول الله ﷺ؟ قال: «نَعَمْ وَلَكُمْ»، وقرأ: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾. أخرجه مسلم (٢٣٤٦).

﴿١٦﴾ وَجُمْلَةُ «لَوْ» جَوَابُ «إِذَا». ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بَفَتْحِ السَّيْنِ وَكَسْرِهَا، وَفِيهِ التَّفَاتُ عَنْ الْغِيَةِ إِلَى الْخِطَابِ، أَيِ: لَعَلَّكُمْ ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنْ الْإِيمَانِ ﴿أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ ﴿١٧﴾ أَيِ: تَعُودُوا إِلَى أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الْبَغْيِ وَالْقِتَالِ^(١). ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيِ: الْمُفْسِدُونَ ﴿الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ﴾ عَنْ اسْتِمَاعِ الْحَقِّ ﴿وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ ﴿٢٢﴾ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى. ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ فَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿عَلَى قُلُوبٍ﴾ لَهُمْ ﴿أَقْفَالُهَا﴾ ﴿٢٤﴾ فَلَا يَفْهَمُونَهُ^(٢). ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا﴾ بِالنِّفَاقِ ﴿عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ زَيْنَ ﴿لَهُمْ وَأُمْلَى لَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ بِضَمِّ أَوَّلِهِ، وَفَتْحِهِ وَاللَّامِ، وَالْمُمْلَى الشَّيْطَانُ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى فَهُوَ الْمُضِلُّ لَهُمْ^(٣). ﴿ذَلِكَ﴾ أَيِ: إِضْلَالُهُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أَيِ: لِلْمُشْرِكِينَ ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أَمْرُ الْمَعَاوَنَةِ عَلَى عِدَاوَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَتَثْبِيطِ النَّاسِ عَنِ الْجِهَادِ مَعَهُ، قَالُوا ذَلِكَ سِرًّا فَأَظْهَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْعِ «سِرٍّ»، وَبِكَسْرِهَا مَصْدَرٌ. ﴿فَكَيْفَ﴾ حَالُهُمْ ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ حَالَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ ظُهُورُهُمْ بِمَقَامِعٍ مِنْ حَدِيدٍ. ﴿ذَلِكَ﴾ التَّوْفِيُّ عَلَى الْحَالَةِ الْمَذْكُورَةِ ﴿بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ أَيِ: الْعَمَلَ بِمَا يُرْضِيهِ ﴿فَأَخْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ يُظْهِرُ أَحْقَادَهُمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ﴾ عَرَفْنَاكُمْ، وَكَرَّرْتُ اللَّامُ فِي: ﴿فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ عَلَامَتِهِمْ ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ الْوَاوُ لِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَمَا بَعْدَهَا

(١) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، فَقَالَ: نَعَمْ، أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَذَلِكَ لَكَ». ثُمَّ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]. أخرجه البخاري (٧٥٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤).

(٢) قال ابن جرير: أي: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التي يعظهم بها في آي القرآن الذي أنزله على نبيه عليه السلام، ويتفكرون في حججه التي بينها لهم في تنزيله، فيعلموا بها خطأ ما هم عليه مقيمون ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: فلا يصل إليها ذكر، ولا ينكشف لها أمر. وتنكير القلوب للإشعار بفرط جهالتها ونكرها، كأنها مبهمه منكورة. والأقفال مجاز عما يمنع الوصول، وإضافتها إلى القلوب لإفادة الاختصاص المميز لها عما عداها، وللإشارة إلى أنها لا تشبه الأقفال المعروفة؛ إذ لا يمكن فتحها أبدا. [القاسمي (٤٧٦/٨)].

(٣) ﴿وَأُمْلَى لَهُمْ﴾ أي: مد لهم في الآمال والأمانى ووعدهم طول العمر، وقيل: إن الذي أُملى لهم هو الله عز وجل على معنى أنه لم يعاجلهم بالعقوبة، قرأ الجمهور ﴿أُمْلَى﴾ على البناء للفاعل، وقرئ على البناء للمفعول، أي: أمهلوا ومد في عمرهم، واختار القول بأن الفاعل هو الله الفراء والمفضل، والأولى اختيار أنه الشيطان لتقدم ذكره قريبا. [صديق حسن (٧٢/١٣)].

جَوَابُهُ ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أَي: فِي مَعْنَاهُ، إِذَا تَكَلَّمُوا عِنْدَكَ بِأَنْ يَعْزِضُوا بِمَا فِيهِ تَهْجِينُ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ^(١) ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٢) وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِالْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ عِلْمَ ظُهُورِ ﴿الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ﴿وَنَبْلُوَنَّ﴾ نُظْهِرَ ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣) مِنْ طَاعَتِكُمْ وَعِصْيَانِكُمْ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ، بِالْيَأْسِ وَالنُّونِ فِي الْأَفْعَالِ الثَّلَاثَةِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ﴾ طَرِيقِ ﴿اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ خَالَفُوهُ ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾ هُوَ مَعْنَى سَبِيلِ اللَّهِ ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾^(٤) يُبْطِلُهَا مِنْ صَدَقَةٍ وَنَحْوِهَا، فَلَا يَرُونَ لَهَا فِي الْآخِرَةِ ثَوَابًا^(٥)، نَزَلَتْ فِي الْمُطْعَمِينَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، أَوْ فِي قُرَيْظَةَ وَالنَّصِيرِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٦) بِالْمَعَاصِي مَثَلًا^(٧). ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طَرِيقِهِ وَهُوَ الْهُدَى ﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾^(٨) نَزَلَتْ فِي أَصْحَابِ الْقَلْبِ. ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ تَضَعُفُوا ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ وَكَسْرِهَا، أَي: الصُّلْحِ مَعَ الْكُفَّارِ إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ حَذَفَ مِنْهُ وَآوَا لَمْ الْفِعْلِ، الْأَعْلَوْنَ الْقَاهِرُونَ ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْرِ ﴿وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ﴾ يُنْقِصُكُمْ ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾^(٩) أَي: ثَوَابَهَا. ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أَي: الْإِسْتِغَالُ فِيهَا ﴿لَعِبٌّ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ اللَّهُ وَذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾^(١٠) جَمِيعُهَا، بَلْ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ فِيهَا. ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾ يُبَالِغُ فِي طَلَبِهَا ﴿تَبْخُلُوا وَيُخْرِجْ﴾ الْبُخْلَ ﴿أَضْغَنْكُمْ﴾^(١١) لِدِينِ الْإِسْلَامِ. ﴿هَآأَنْتُمْ﴾ يَا ﴿هَؤُلَاءِ﴾ تُدْعَوْنَ لِتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا فُرِضَ عَلَيْكُمْ ﴿فَمِنْكُمْ مَّنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ يُقَالُ بَخَلَ عَلَيْهِ وَعَنْهُ ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ عَنْ نَفَقَتِكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾ إِلَيْهِ ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنْ طَاعَتِهِ ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أَي: يَجْعَلُهُمْ بَدَلَكُمْ ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾^(١٢) فِي التَّوَلَّى عَنْ طَاعَتِهِ، بَلْ مُطِيعِينَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(١) لحن القول أسلوبه، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية، ومنه قيل للمخطئ: لحن لأنه يعدل بالكلام عن الصواب. [البيضاوي (١٢٤/٥)].

(٢) المراد بهذه الأعمال ما صورته صورة أعمال الخير، كإطعام الطعام، وسائر ما كانوا يفعلونه من الخير، وإن كانت باطلة من الأصل، لأن الكفر مانع، وقيل: المراد بالأعمال المكاييد التي نصبوها لإبطال دين الله والغوائل التي كانوا يبغونها برسول الله ﷺ. [الشوكاني (٤٩/٥)].

(٣) الظاهر النهي عن كل سبب من الأسباب التي توصل إلى بطلان الأعمال، كائناً ما كان، من غير تخصيص بنوع معين، عن أبي العالية قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، حتى نزلت هذه الآية، فخافوا أن يبطل الذنب العمل، وفي لفظ فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم. [صديق حسن (٧٧/١٣)].

سُورَةُ الْفَتْحِ

مَدِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ قَضَيْنَا بِفَتْحِ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ عَنُودَ بِجِهَادِكَ ﴿فَتَحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ ﴿بَيْنًا ظَاهِرًا﴾^(١). ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ﴾ بِجِهَادِكَ ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مِنْهُ، لِتُرْغَبَ أُمَّتُكَ فِي الْجِهَادِ، وَهُوَ مُؤَوَّلٌ لِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْقَاطِعِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَاللَّامِ لِلْعَلَّةِ الْغَائِيَّةِ فَمَدْخُولُهَا مُسَبَّبٌ لَا سَبَبٌ^(٢) ﴿وَيُتِمَّ﴾ بِالْفَتْحِ الْمَذْكُورِ ﴿نِعْمَتُهُ﴾ إِنْعَامُهُ ﴿عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ﴾ بِهِ ﴿صِرَاطًا﴾ طَرِيقًا ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿يُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ.﴾ ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ بِهِ ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ﴿٣﴾ ﴿ذَا عَزَّ لَا ذُلَّ مَعَهُ.﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ الطَّمَأْنِينَةَ ﴿فِي

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مرجعه من الحديدية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحرروا الهدي بالحديدية فقال عليه السلام: «لَقَدْ أَنْزَلْتُ عَلَيَّ آيَةً هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعِهَا». أخرجه مسلم (١٧٨٦).

(٢) يقول: إنا حكمنا لك يا محمد حكما لمن سمعه أو بلغه على من خالفك وناصبك من كفار قومك، وقضينا لك عليهم بالنصر والظفر، لتشكر ربك، وتحمده على نعمته بقضائه لك عليهم، وفتحه ما فتح لك، ولتسبحه وتستغفره، فيغفر لك بفعالك ذلك ربك، ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك ما شكرته واستغفرته. وإنما اخترنا هذا القول في تأويل هذه الآية لدلالة قول الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا^(٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر: ١-٣] على صحته، إذ أمره تعالى ذكره أن يسبح بحمد ربه إذا جاء نصر الله وفتح مكة، وأن يستغفره، وأعلمه أنه تواب على من فعل ذلك، ففي ذلك بيان واضح أن قوله تعالى ذكره: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إنما هو خبر من الله جل ثناؤه نبيه صلى الله عليه وسلم عن جزائه له على شكره له، على النعمة التي أنعم بها عليه من إظهاره له ما فتح، لأن جزاء الله تعالى عباده على أعمالهم دون غيرها. وبعد ففي صحة الخبر عنه صلى الله عليه وسلم: أنه كان يقوم حتى ترم قدماه، فقيل له: يا رسول الله تفعل هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا». أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩). الدلالة الواضحة على أن الذي قلنا من ذلك هو الصحيح من القول، وأن الله تبارك وتعالى، إنما وعد نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم غفران ذنوبه المتقدمة، فتح ما فتح عليه، وبعده على شكره له، على نعمه التي أنعمها عليه. وكذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم: «إِنِّي لَا أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةً مَرَّةً». أخرجه مسلم (٢٧٠٢). ولو كان القول في ذلك أنه من خبر الله تعالى نبيه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر على غير الوجه الذي ذكرنا، لم يكن لأمره إياه بالاستغفار بعد هذه الآية، ولا لاستغفار نبي الله صلى الله عليه وسلم ربه جل جلاله من ذنوبه بعدها معنى يعقل، إذ الاستغفار معناه: طلب العبد من ربه عز وجل غفران ذنوبه، فإذا لم يكن ذنوب تغفر لم يكن لمسألته إياه غفرانها معنى، لأنه من المحال أن يقال: اللهم اغفر لي ذنبا لم أعمله. [الطبري (٢٣٦/٢١)].

قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ﴿بَشَرَاتٍ الْدِّينِ، كُلَّمَا نَزَّلَ وَاحِدَةً مِنْهَا آمَنُوا بِهَا وَمِنْهَا الْجِهَادُ﴾ ١ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فَلَوْ أَرَادَ نَصْرَ دِينِهِ بِغَيْرِكُمْ لَفَعَلَ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ ٢ ﴿فِي صُنْعِهِ، أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿لِيُدْخَلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَي: أَمَرَ بِالْجِهَادِ ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ٣ وَيُعَذِّبُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوءِ ﴿بِفَتْحِ السَّيْنِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، ظَنُّوا أَنَّهُ لَا يَنْصُرُ مُحَمَّدًا ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ عَلَيْهِمْ دَايِرَةُ السَّوءِ ﴿بِالذَّلِّ وَالْعَذَابِ﴾ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ ﴿أَبْعَدَهُمْ﴾ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٤ ﴿أَي: مَرَجَعًا. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿حَكِيمًا﴾ ٥ ﴿فِي صُنْعِهِ، أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا﴾ عَلَى أُمَّتِكَ فِي الْقِيَامَةِ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ ٦ مُنْذِرًا مُخَوِّفًا فِيهَا مَنْ عَمِلَ سُوءًا بِالنَّارِ. ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بِالْبَيِّاتِ وَالتَّاءِ فِيهِ وَفِي الثَّلَاثَةِ بَعْدَهُ ﴿وَيُعَزِّرُوهُ﴾ يَنْصُرُوهُ، وَقَرِئَ: بِزَايَيْنِ مَعَ الْفَوْقَانِيَةِ ٧ ﴿وَيُوقِّرُوهُ﴾ يُعْظِمُوهُ وَضَمِيرُهُمَا لِلَّهِ أَوْ لِرَسُولِهِ ﴿وَيُسَبِّحُوهُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ٨ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بِيَعَةِ الرِّضْوَانِ بِالْحَدِيثِيَّةِ ٩ ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ هُوَ نَحْوُ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الَّتِي بَايَعُوا بِهَا النَّبِيَّ، أَي: هُوَ تَعَالَى مُطَّلِعٌ عَلَى مُبَايَعَتِهِمْ فَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ١٠ ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ نَقَضَ الْبَيْعَةَ ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ﴾

(١) ما دلت عليه هذه الآية الكريمة من أن الإيمان يزيد دلت عليه آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ ءَايَتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، إلى غير ذلك من الآيات، والحق الذي لا شك فيه أن الإيمان يزيد وينقص، كما عليه أهل السنة والجماعة، وقد دل عليه الوحي من الكتاب والسنة. [الشنقيطي (٧/ ٦٤٠)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له، وهي بيعة الرضوان بالحديثية، فإنهم بايعوه تحت الشجرة على قتال قريش، فبايعه جماعة على الموت منهم سلمة بن الأكوع، وبايعه جماعة على أن لا يفروا منهم معقل بن يسار، والحديثية قرية ليست كبيرة بينها وبين مكة أقل من مرحلة أو مرحلة سميت ببئر هناك، وقد جاء في الحديث أن الحديثية بئر، قال مالك: هي من الحرم وقال ابن القصار: بعضها من الحل ويجوز في الحديثية التخفيف والتشديد، والأول أفصح وعامة المحدثين يشددونها. [صديق حسن (١٣/ ٩٣)].

(٤) أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله ﷺ كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

يَرْجِعْ وَيَالَ نَفْسِهِ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِيهِ﴾ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ١٠ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴿حَوْلَ الْمَدِينَةِ أَيُّ: الَّذِينَ خَلَفَهُمُ اللَّهُ عَنْ صُحْبَتِكَ لَمَّا طَلَبْتَهُمْ لِيُخْرِجُوا مَعَكَ إِلَى مَكَّةَ خَوْفًا مِنْ تَعَرُّضِ قُرَيْشٍ لَكَ عَامَ الْحُدَيْيَةِ إِذَا رَجَعْتَ مِنْهَا: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾ عَنْ الْخُرُوجِ مَعَكَ ﴿فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ اللَّهُ مِنْ تَرْكِ الْخُرُوجِ مَعَكَ، قَالَ تَعَالَى مُكَذِّبًا لَهُمْ: ﴿يَقُولُونَ بِالسِّتِهِمْ﴾ أَيُّ: مِنْ طَلَبِ الْإِسْتِغْفَارِ وَمَا قَبْلَهُ ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فَهُمْ كَاذِبُونَ فِي اعْتِدَارِهِمْ ﴿قُلْ فَمَنْ﴾ اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيُّ: لَا أَحَدَ ﴿يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ بَفَتْحِ الضَّادِ وَضَمِّهَا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ١١ أَيُّ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ^(١). ﴿بَلْ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلِاتِّتْقَالِ مِنْ غَرَضٍ إِلَى آخَرٍ ﴿ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيُّ: أَنَّهُمْ يُسْتَأْصَلُونَ بِالْقَتْلِ فَلَا يَرْجِعُونَ ﴿وَوَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ هَذَا وَغَيْرِهِ ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ ١٢ جَمْعُ بَائِرٍ، أَيُّ: هَالِكِينَ عِنْدَ اللَّهِ بِهَذَا الظَّنِّ. ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ ١٣ نَارًا شَدِيدَةً. ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ١٤ أَيُّ: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِمَا ذُكِرَ^(٢). ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ الْمَذْكُورُونَ ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ هِيَ مَغَانِمُ خَيْرٍ ﴿لِتَأْخُذُوهَا ذُرُونَا﴾ أَتْرَكُونَا ﴿تَتَّبِعْكُمْ﴾ لِتَأْخُذَ مِنْهَا ﴿يُرِيدُونَ﴾ بِذَلِكَ ﴿أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ، أَيُّ: مَوَاعِيدِهِ بِغَنَائِمِ خَيْرِ أَهْلِ الْحُدَيْيَةِ خَاصَّةً ﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: قَبْلَ عَوْدِنَا ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أَنْ نُصِيبَ مَعَكُمْ مِنَ الْغَنَائِمِ فَقُلْتُمْ ذَلِكَ ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ مِنَ الدِّينِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ١٥ مِنْهُمْ^(٣). ﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الْمَذْكُورِينَ

وَالْقُرَّانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]. [ابن كثير (٣٢٩/٧)].

(١) أي: إن تخلفكم ليس لما زعمتم، بل كان الله خبيراً بجميع ما تعملونه من الأعمال التي من جملتها تخلفكم، وقد علم أن تخلفكم لم يكن لذلك، بل للشك والنفاق وما خطر لكم من الظنون الفاسدة الناشئة عن عدم الثقة بالله. [الشوكاني (٥/٥٧)].

(٢) قال ابن جرير: هذا من الله جل ثناؤه حث لهؤلاء الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ، على التوبة، والمراجعة إلى أمر الله، في طاعة رسوله ﷺ. يقول لهم: بادروا بالتوبة من تخلفكم عن رسول الله ﷺ، فإن الله يغفر للتائبين؛ لأنه لم يزل ذا عفو عن عقوبة التائبين إليه من ذنوبهم، ومعاصيهم من عباده، وذا رحمة بهم أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد توبتهم منها. [الفاسمي (٨/٤٩٤)].

(٣) أي: لا يعلمون إلا علماً قليلاً، وهو علمهم بأمر الدنيا، وقيل: لا يفقهون من أمر الدين إلا فقهاً قليلاً، وهو ما يصنعونه نفاقاً بظواهرهم دون بواطنهم، والفرق بين الإضرابين: أن الأول رد أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم، وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة

اخْتَبَارًا ﴿سَتُدْعُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ﴾ أَصْحَابِ ﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قِيلَ: هُمْ بَنُو حَنِيفَةَ أَصْحَابُ الْيَمَامَةِ، وَقِيلَ: فَارِسُ
وَالرُّومُ^(١) ﴿تَقْتُلُونَهُمْ﴾ حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ، هِيَ الْمَدْعُو إِلَيْهَا فِي الْمَعْنَى ﴿أَوْ﴾ هُمْ ﴿يُسْلِمُونَ﴾ فَلَا تُقَاتِلُونَ ﴿فَإِنْ تَطِيعُوا﴾
إِلَىٰ قِتَالِهِمْ ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٦﴾ ﴿لَيْسَ
عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ فِي تَرْكِ الْجِهَادِ^(٢) ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ فِي الْبِلَاءِ وَالنُّونِ﴾ جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ بِالْبِلَاءِ وَالنُّونِ ﴿عَذَابًا أَلِيمًا
۝١٧﴾ * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ ﴿تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هِيَ سَمُرَةٌ، وَهُمْ أَلْفٌ وَثَلَاثُمِائَةٍ أَوْ
أَكْثَرُ، ثُمَّ بَايَعَهُمْ عَلَى أَنْ يُنَاجِزُوا قُرَيْشًا وَلَا يَفِرُّوا وَعَلَى الْمَوْتِ^(٣) ﴿فَعَلِمَ﴾ اللَّهُ ﴿مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ

الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أعم منه، وهو الجهل وقلة الفقه، وفيه إن الجهل غاية في الدم، وحب الدنيا ليس من شيمة العالم العاقل. [صديق حسن (١٣/١٠٢)].

(١) اختلف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال الأول: أنهم هوازن ومن حارب النبي ﷺ في غزوة خيبر، والثاني: أنهم الروم إذ دعا رسول الله ﷺ إلى قتالهم في غزوة تبوك، والثالث: أنهم أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق، والرابع: أنهم الفرس، ويتقوى الأول والثاني بأن ذلك ظهر في حياة رسول الله ﷺ، وقوى المنذر بن سعيد القول الثالث بأن الله جعل حكمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية، قال: وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة، قلت: وكذلك هو موجود في كفار العرب، إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوي ذلك. [ابن جزي (٢/٢٨٨)].

(٢) يعني: زمن الحديبية، حيث دعيتم فتخلفتم. [ابن كثير (٧/٣٣٩)].

(٣) أي: ليس على هؤلاء المعذورين بهذه الأعذار حرج في التخلف عن الغزو وترك الجهاد لعدم استطاعتهم، قال مقاتل: عذر الله أهل الزمالة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية، والخرج الإثم. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: كنت أكتب لرسول الله ﷺ وإني لواضع القلم على أذني إذا أمر بالقتال إذ جاء أعمى فقال: كيف لي وأنا ذاهب البصر؟ فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ الآية، قال: هذا في الجهاد وليس عليهم من جهاد إذا لم يطيقوا. أخرجه الطبراني في الكبير (٤٩٢٦). ... وهذه أعذار صحيحة ظاهرة، لأن أصحابها لا يقدر على الكر والفر، وهناك أعذار أخر ... موضعها كتب الفقه دون التفسير. [صديق حسن (١٣/١٠٤)].

(٤) أي: رضي الله عنهم وقت تلك البيعة، وهي بيعة الرضوان وكانت بالحديبية، وهذه الشجرة هي سمرة كانت بها، وقيل: سدره، وكانت البيعة على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفرّوا وروى أنه بايعهم على الموت وأتى بصيغة المضارع لاستحضار صورة المبايعة ... وفي الصحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما أن الشجرة أخفيت، والحكمة في ذلك أن لا يحصل الافتتان بها لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمنت تعظيم الجهال لها، حتى ربما اعتقدوا أن لها قوة نفع أو ضرر، كما نشاهد الآن فيما دونها، ولذلك أشار ابن عمر بقوله: كان خفاؤها رحمة من الله، كذا في الفتح وشرح المواهب. [صديق حسن]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح): روى ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر رضي الله عنه بلغه أن قوما يأتون الشجرة، فيصلون عندها، فتوعدهم، ثم أمر بقطعها، فقطعت. ولا ينافي ما تقدم، لاحتمال أن هؤلاء علموا مكانها، أو توهموها،

﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ هُوَ فَتْحُ خَيْرٍ بَعْدَ انْصِرَافِهِمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَّةِ. ﴿وَمَعَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ مِنْ خَيْرٍ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ^(١). ﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ مِنَ الْفُتُوحَاتِ ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ غَنِيمَةُ خَيْرٍ ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ فِي عِيَالِكُمْ لَمَّا خَرَجْتُمْ وَهَمَّتْ بِهِمُ الْيَهُودُ، فَقَذَفَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴿وَلِتَكُونَ﴾ أَي: الْمُعْجَلَةُ عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَي: فَعَلَ ذَلِكَ لِتَشْكُرُوهُ ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فِي نَصْرِهِمْ ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ أَي: طَرِيقَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَتَفْوِيزِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ تَعَالَى. ﴿وَأُخْرَى﴾ صِفَةُ ﴿مَعَانِمَ﴾ مُقَدَّرًا مُبْتَدَأً ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ هِيَ مِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ^(٢) ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ عِلْمٌ أَنَّهَا سَتَكُونُ لَكُمْ ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾ أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ. ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْحُدَيْبِيَّةِ ﴿لَوَلَوْ الْأَذْبَرُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يَحْرُسُهُمْ ﴿وَلَا نَصِيرًا ۝٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَضْمُونِ الْجُمْلَةِ قَبْلَهُ، مِنْ هَزِيمَةِ الْكَافِرِينَ وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَي: سَنَّ اللَّهُ ذَلِكَ سُنَّةً ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾ مِنْهُ. ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ بِالْحُدَيْبِيَّةِ ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ فَإِنَّ ثَمَانِينَ مِنْهُمْ طَافُوا بِعَسْكَرِكُمْ لِيُصِيبُوا مِنْكُمْ فَأُخِذُوا وَأُتِيَ بِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَفَا عَنْهُمْ وَخَلَّى سَبِيلَهُمْ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الصُّلْحِ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ، أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ^(٣). ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أَي: عَنْ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ﴿وَالْهَدْيِ﴾

فاتخذوها مسجداً، ومكاناً مقدساً، فقطعها عمر حالئذ، صونا لعقيدتهم من الشرك، لأن الاجتماع على العبادة حولها يفضي إلى عبادتها بعد، كما أفضى نصب الأوثان إلى عبادتها، وكان أول أمرها لتعظيم مسمياتها، وإجلال مثال أصحابها. [القاسمي (٤٩٨/٨)].

(١) أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيم، يتلي بعضهم ببعض، ويمتنح المؤمن من الكافر. [السعدي (ص: ٧٩٣)].

(٢) عن قتادة: هي مكة. قال ابن جرير: وهذا القول الذي قاله قتادة، أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل. وذلك أن الله أخبر هؤلاء الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة أنه محيط بقرية لم يقدروا عليها، ومعقول أنه لا يقال لقوم، لم يقدروا على هذه المدينة، إلا أن يكونوا قد راموها فتعذرت عليهم. فأما وهم لم يرموها فتعذر عليهم، فلا يقال إنهم لم يقدروا عليها. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معلوماً أن رسول الله ﷺ لم يقصد قبل نزول هذه الآية عليه، خير لحرب، ولا وجه إليها لقتال أهلها جيشاً ولا سرية، علم أن المعنى بقوله: ﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ غيرها، وأنها هي التي عالجها ورامها فتعذرت، فكانت مكة وأهلها كذلك، وأخبر الله تعالى نبيه والمؤمنين، أنه أحاط بها وبأهلها، وأنه فاتحها عليهم. [القاسمي (٥٠٠/٨)].

(٣) ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بعمليكم أو بجمع ما تعملونه ومنه العفو بعد الظفر ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم عليه. وقرأ أبو عمرو ﴿يَعْمَلُونَ﴾

مَعْطُوفٌ عَلَى «كُم» ﴿مَعْكُوفًا﴾ مَحْبُوسًا حَالٌ ﴿أَنْ يَبْلُغَ مُحِلَّهُ﴾ أَي: مَكَانُهُ الَّذِي يُنَحَرُ فِيهِ عَادَةً وَهُوَ الْحَرَمُ بِدَلِّ اشْتِمَالٍ ﴿وَلَوْلَا رِجَالُ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءُ مُؤْمِنَاتٍ﴾ مَوْجُودُونَ بِمَكَّةَ مَعَ الْكُفَّارِ ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أَي: تَقْتُلُوهُمْ مَعَ الْكُفَّارِ لَوْ أَذِنَ لَكُمْ فِي الْفَتْحِ بِدَلِّ اشْتِمَالٍ مِنْ: «هُمْ» ﴿فَتَصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ﴾ أَي: إِثْمٌ ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مِنْكُمْ بِهِ، وَضَمَائِرُ الْغِيَةِ لِلصَّنْفَيْنِ بَتَغْلِيْبِ الذُّكُورِ وَجَوَابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحْذُوفٌ، أَي: لِأَذْنِ لَكُمْ فِي الْفَتْحِ لَكِنْ لَمْ يُؤْذَنَ فِيهِ حِينَئِذٍ ﴿لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ كَالْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ تَمَيَّزُوا عَنِ الْكُفَّارِ ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ حِينَئِذٍ بِأَنْ نَأْذُنَ لَكُمْ فِي فَتْحِهَا ﴿عَذَابًا أَلِيمًا ۝﴾ مُؤَلِّمًا. ﴿إِذْ جَعَلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ «عَذَّبْنَا» ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَاعِلٌ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ﴾ الْأَنَفَةُ مِنَ الشَّيْءِ ﴿حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ بِدَلِّ مِنْ: الْحَمِيَّةِ، وَهِيَ صَدُّهُمْ النَّبِيَّ وَأَصْحَابِهِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَصَالِحُوهُمْ عَلَى أَنْ يَعُودُوا مِنْ قَابِلٍ، وَلَمْ يُلْحَقْهُمْ مِنَ الْحَمِيَّةِ مَا لَحِقَ الْكُفَّارَ حَتَّى يُقَاتِلُوهُمْ^(١) ﴿وَالزَّمَهُمْ﴾ أَي: الْمُؤْمِنِينَ ﴿كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» وَأُضِيفَتْ إِلَى التَّقْوَى لِأَنَّهَا سَبَبُهَا ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ بِالْكَلِمَةِ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَأَهْلُهَا﴾ عَطْفٌ تَفْسِيرِيٌّ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝﴾ أَي: لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِذَلِكَ، وَمِنْ مَعْلُومِهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ أَهْلُهَا^(٢). ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي النَّوْمِ عَامَ الْحُدَيْبِيَّةِ قَبْلَ خُرُوجِهِ أَنَّهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ وَيَخْلُقُونَ وَيَقْصُرُونَ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ فَفَرَحُوا، فَلَمَّا خَرَجُوا مَعَهُ وَصَدَّهُمُ الْكُفَّارُ بِالْحُدَيْبِيَّةِ وَرَجَعُوا وَشَقَّ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَرَأَى بَعْضُ الْمُنَافِقِينَ نَزَلَتْ، وَقَوْلِهِ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِـ ﴿صَدَقَ﴾ أَوْ حَالٌ مِنَ الرُّؤْيَا، وَمَا بَعْدَهَا تَفْسِيرٌ لَهَا ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ لِلتَّبَرُّكِ ﴿ءَامِنِينَ مُخْلَقِينَ رُءُوسَكُمْ﴾ أَي: جَمِيعَ شُعُورِهَا ﴿وَمُقَصِّرِينَ﴾ بَعْضَ شُعُورِهَا، وَهُمَا حَالَانِ مُقَدَّرَتَانِ ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أَبَدًا ﴿فَعَلِمَ﴾ فِي الصُّلْحِ ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ مِنَ الصَّلَاحِ ﴿فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أَي: الدُّخُولِ ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ۝﴾ هُوَ

بياء الغيبة فالكلام عليه تهديد للكفار. [الآلوسي (٢٦٦/١٣)].

(١) أنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين. والسكينة تشمل الطمأنينة والسكون إلى الحق والثبات والشجاعة عند البأس. وقد بين في هذه السورة الكريمة أن محل إنزال السكينة هو القلوب، وذلك في قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤]. [الشنقيطي (٦٤٤/٧)].

(٢) فيعلم سبحانه حق كل شيء واستئذنه لما يستأذنه فيسوق عز وجل الحق إلى مستحقه والمستأهل إلى مستأذله، أو فيعلم هذا ويعلم ما تقتضيه الحكمة والمصلحة من إنزال السكينة والرضا بالصلح فيكون تذييلاً لجميع ما تقدم. [الآلوسي (٢٧٣/١٣)].

فَتَحْ خَيْرٌ وَتَحَقَّقَتْ الرُّؤْيَا فِي الْعَامِ الْقَابِلِ^(١). ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ أَي: دِينِ الْحَقِّ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ عَلَى جَمِيعِ بَاقِي الْأَدْيَانِ^(٢) ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٨﴾ أَنْكَ مُرْسَلٌ بِمَا ذَكَرَ. كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مُبْتَدَأُ ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خَبَرُهُ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أَي: أَصْحَابُهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُبْتَدَأُ، خَبَرُهُ ﴿أَشِدَّاءُ﴾ غِلَظُ ﴿عَلَى الْكُفَّارِ﴾ لَا يَرْحَمُونَهُمْ ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ خَبَرُ ثَانٍ، أَي: مُتَعَاظِفُونَ مُتَوَادُّونَ كَالْوَالِدِ مَعَ الْوَلَدِ^(٣) ﴿تَرْتَهُمْ﴾ تُبْصِرُهُمْ ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ حَالَانِ ﴿يَبْتَغُونَ﴾ مُسْتَأْنَفٌ يَطْلُبُونَ ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ﴾ عَلَامَتُهُمْ، مُبْتَدَأُ ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ خَبَرُهُ، وَهُوَ: نُورٌ وَبَيَاضٌ يُعْرَفُونَ بِهِ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ سَجَدُوا فِي الدُّنْيَا^(٤) ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَا تَعَلَّقَ بِهِ الْخَبَرُ، أَي: كَائِنَةٌ، وَأَعْرَبَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِهِ الْمُتَقِلِّ إِلَى الْخَبَرِ ﴿ذَلِكَ﴾ الْوَصْفُ الْمَذْكُورُ ﴿مَثْلُهُمْ﴾

(١) وقيل: بيعة الرضوان، وقيل: صلح الحديبية، وهذا هو الأصح لأن عمر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: أفتح هو يا رسول الله؟ قال: نعم. وقيل: هو فتح مكة وهذا ضعيف، لأن معنى قوله: ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ قبل دخول المسجد الحرام، وإنما كان فتح مكة بعد ذلك، فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمره القضية عام سبعة وفتح مكة عام ثمانية. [ابن جرير (٢/٢٩٢)].

(٢) ليعليه على جنس الدين بجميع أفراده التي هي الأديان المختلفة بنسخ ما كان حقا من بعض الأحكام المتبدلة بتبدل الأعصر وإظهار بطلان ما كان باطلا، أو بتسليط المسلمين على أهل سائر الأديان إذ ما من أهل دين إلا وقد قهرهم المسلمون، وفيه فضل تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم من البلاد ويتيح لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة. [أبو السعود (٨/١١٣)].

(٣) كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار، رحيمًا برا بالأخيار، غضوبا عبوسا في وجه الكافر، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ، إِذَا أَشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَى وَالسَّهْرِ». أخرجه البخاري (٣٠١١) ومسلم (٢٥٨٦). وقال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وشبك بين أصابعه. أخرجه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥). [ابن كثير (٧/٣٦٠)].

(٤) السيمة: العلامة، وفيها لغتان المد والقصر، أي: يظهر علامتهم في جباههم من أثر السجود في الصلاة لكثرة التعبد بالليل والنهار، وقال الضحاك: إذا سهر الرجل أصبح مصفراً فجعل هذا هو السيمة، وقال الزهري: مواضع السجود أشد وجوههم بياضاً، وقال مجاهد: هو الخشوع والتواضع وبالأول - أعنى كونه ما يظهر في الجباه من كثرة السجود - قال به سعيد بن جبير ومالك، وقال ابن جريج: هو الوقار، وقال الحسن: إذا رأيتهم رأيتهم مرضى وما هم بمرضى، وقيل: هو البهاء في الوجه وظهور الأنوار عليه، وبه قال سفيان الثوري، قال ابن عباس: أما إنه ليس الذي ترونه، ولكنه سيما الإسلام وسمته وخشوعه، وعنه قال: هو السميت الحسن. [صديق حسن (١٣/١١٩)].

صَفَتَهُمْ، مُبْتَدَأُ ﴿فِي التَّوْرَةِ﴾ خَبَرُهُ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ مُبْتَدَأُ خَبَرُهُ ﴿كَزَرَعَ أَخْرَجَ شَطْئَهُ﴾ بِسُكُونِ الطَّاءِ وَفَتْحِهَا فَرَاخَهُ ﴿فَأَزْرَهُ﴾ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ قَوَاهُ وَأَعَانَهُ ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ غَلِظَ ﴿فَاسْتَوَى﴾ قَوِيَ وَاسْتَقَامَ ﴿عَلَى سُوقِهِ﴾ أَصُولِهِ جَمْعُ سَاقٍ ﴿يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ﴾ أَي: زُرَّاعُهُ لِحُسْنِهِ، مَثَلُ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ بَدَأُوا فِي قِلَّةٍ وَضَعُفٍ فَكَثَرُوا وَقَوُوا عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ ^(١) ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَي: شَبَّهُوا بِذَلِكَ ^(٢) ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾ الصَّحَابَةَ، وَ«مِنْ» لِبَيَانِ الْجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّهُمْ كُلُّهُمْ بِالصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ ^(٣) ﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ ^(٤) الْجَنَّةَ، وَهُمَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ أَيْضًا فِي آيَاتٍ ^(٥).

(١) هذه الآية الكريمة قد بين الله فيها أنه ضرب المثل في الإنجيل للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم كالزراع يظهر في أول نباته رقيقاً ضعيفاً متفرقاً، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشدد وتعجب جودته أصحاب الزراعة، العارفين بها، فكذلك النبي ﷺ وأصحابه كانوا في أول الإسلام في قلة وضعف ثم لم يزلوا يكثرون ويزدادون قوة حتى بلغوا ما بلغوا... وما تضمنته الآية الكريمة من المثل المذكور في الإنجيل المضروب للنبي ﷺ وأصحابه بأنهم يكونون في مبدأ أمرهم في قلة وضعف، ثم بعد ذلك يكثرون ويقوون جاء موضحاً في آيات من كتاب الله تعالى كقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ [الأنفال: ٢٦]. [الشنقيطي (٧/٦٤٥)].

(٢) تعليل لما دل عليه المثل المتقدم من قوة المسلمين، فهو يتعلق بفعل يدل عليه الكلام تقديره: جعلهم الله كذلك ليغيب بهم الكفار. [ابن جزي (٢/٢٩٣)].

(٣) معنى: ﴿مِنْهُمْ﴾ للبيان، كقوله تعالى: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]. وقال ابن عطية: وقوله ﴿مِنْهُمْ﴾ لبيان الجنس وليست للتبعض؛ لأنه وعد مدح الجميع... وذكر عند مالك بن أنس رجل يتنقص الصحابة، فقرأ مالك هذه الآية وقال: من أصبح بين الناس في قلبه غيظ من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية. [أبو حيان (٩/٥٠٣)].

(٤) أي: بعد الصحابة من التابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١] ونحو ذلك من الآيات. [صديق حسن (١٣/١٢٤)].

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا﴾ مِنْ «قَدَّمَ» بِمَعْنَى: تَقَدَّمَ، أَي: لَا تَقْدِمُوا بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الْمُبَلَّغُ عَنْهُ، أَي: بِغَيْرِ إِذْنِهِمَا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ﴾ لِقَوْلِكُمْ ﴿عَلِيمٌ ۝١﴾ بِفِعْلِكُمْ، نَزَلَتْ فِي مُجَادَلَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَأْمِيرِ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَوْ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبُدٍ^(١). وَنَزَلَ فِي مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إِذَا نَطَقْتُمْ ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إِذَا نَطَقَ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ إِذَا نَاجَيْتُمُوهُ ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ بَلْ دُونَ ذَلِكَ إِجْلَالًا لَهُ^(٢) ﴿أَنْ تَحْبِطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ أَي: خَشْيَةَ ذَلِكَ بِالرَّفْعِ وَالْجَهْرِ الْمَذْكُورَيْنِ. وَنَزَلَ فِي مَنْ كَانَ يَخْفِضُ صَوْتَهُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَغَيْرِهِمَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ﴾ اخْتَبَرَ ﴿قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ أَي: لِيَتَّعِظَ مِنْهُمْ^(٣) ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ الْجَنَّةُ. وَنَزَلَ فِي قَوْمٍ جَاءُوا وَقْتَ الظَّهِيرَةِ وَالنَّبِيُّ ﷺ

(١) عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمر القعقاع بن معبد، وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمر الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافاً، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ حتى انقضت الآية. أخرجه البخاري (٤٨٤٧). قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا نها أن يتكلموا بين يدي كلامه، وهذا يشمل معارضة السنة والكتاب بالرأي، والتقليد أيضاً. [صديق حسن (١٣/ ١٣٠)].

(٢) المراد حقيقة رفع الصوت، لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام، لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير... قال المفسرون: المراد من الآية تعظيم النبي ﷺ وتوقيره، وأن لا ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً وهذا نهي عن قول، كما أن قوله: ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ نهي عن فعل. [صديق حسن (١٣/ ١٣١)]. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية، جلس ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بيته وقال: أنا من أهل النار واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أبا عمرو ما شأن ثابت أشتكى؟ فقال سعد: إنه لجاري وما علمت له شكوى، قال: فأتاه سعد فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أي من أرفعكم صوتاً على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». أخرجه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩).

(٣) قال الفراء: أي: أخلصها للتقوى. وقال الأخفش: أي: اختصها للتقوى. وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: طهرهم من كل قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف

فِي مَنَزِلِهِ فَنَادَوْهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ حُجَرَاتِ نِسَائِهِ ﷺ جَمْعُ «حُجْرَةٍ»، وَهِيَ: مَا يُحْجَرُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ بِحَائِطٍ وَنَحْوِهِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَادَى خَلْفَ حُجْرَةٍ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوهُ فِي أَيِّ حُجْرَةٍ، مُنَادَاةَ الْأَعْرَابِ بِغُلْظَةٍ وَجَفَاءٍ ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ١) فِيمَا فَعَلُوهُ، مَحَلَّكَ الرَّفِيعِ وَمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ التَّعْظِيمِ ٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ ٣) ﴿أَنَّهُمْ﴾ فِي مَحَلِّ رَفَعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ، وَقِيلَ: فَاعِلٌ لِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: ثَبَتَ ﴿حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ٤) لِمَنْ تَابَ مِنْهُمْ. وَنَزَلَ فِي الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ وَقَدْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ مُصَدِّقًا، فَخَافَهُمْ لِتَرَةِ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَرَجَعُ، وَقَالَ: إِنَّهُمْ مَنَعُوا الصَّدَقَةَ وَهَمُّوا بِقَتْلِهِ فَهَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بِغَزْوِهِمْ، فَجَاؤُوا مُنْكَرِينَ مَا قَالَهُ عَنْهُمْ ٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ خَيْرٌ ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ صِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَتَتَّبِعُوا﴾ مِنَ الثَّبَاتِ ٦) ﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَيُّ: خَشِيَةَ ذَلِكَ ﴿بِجَهْلَةٍ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ، أَيُّ: جَاهِلِينَ ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ تَصِيرُوا ﴿عَلَى مَا فَعَلْتُمْ﴾ مِنَ الْخَطَا بِالْقَوْمِ ﴿نَدِيمِينَ﴾ ٧) وَأَرْسَلَ ﷺ إِلَيْهِمْ بَعْدَ عَوْدِهِمْ إِلَى بِلَادِهِمْ خَالِدًا، فَلَمْ يَرِ فِيهِمْ إِلَّا الطَّاعَةَ وَالْخَيْرَ، فَأَخْبَرَ النَّبِيَّ بِذَلِكَ. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فَلَا تَقُولُوا الْبَاطِلَ، فَإِنَّ اللَّهَ يُخْبِرُهُ بِالْحَالِ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ﴾ الَّذِي تُخْبِرُونَ بِهِ عَلَى خِلَافِ الْوَاقِعِ،

من الله والتقوى. وقال عمر رضي الله عنه: أذهب عن قلوبهم الشهوات. والامتحان افتعال من محنت الأديم محنا حتى أوسعته. فمعنى: ﴿أَمْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ وسعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة، أي: اختبرتها حتى خلصت.

ففي الكلام حذف يدل عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كل شيء جهده فقد محنته. [القرطبي (٣٠٩/١٦)].

(١) أكثر المفسرين على أن الآية نزلت في قوم حفاة أجلاف من بني تميم قدموا على النبي ﷺ لعداء ذرارٍ لهم سبيت، وكان النبي ﷺ قد نام للقاتلة، فجعلوا ينادونه: يا محمد اخرج إلينا، ولم يعلموا في أي حجرة هو من حجر نساءه، فكانوا يطوفون على الحجر وينادونه: يا محمد اخرج إلينا، وهذا قول جابر وابن عباس والمقاتلين ومجاهد والكلبي. [الواحدي (٣٤٧/٢٠)]. فكان في فعلهم ذلك جفاء وبدادة وقلة توفير... ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون فيهم قليل ممن يعقل ونفي العقل عن أكثرهم لا عن جميعهم، والآخر أن يكون جميعهم ممن لا يعقل، وأوقع القلة موضع النفي والأول أظهر في مقتضى اللفظ. والثاني أبلغ في الذم. [ابن جزي (٢٩٥/٢)].

(٢) أخرجه أحمد (١٨٤٥٩).

(٣) ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ قرأ الجمهور من التبين، وقرئ: ﴿فَتَتَّبِعُوا﴾ من التثبت، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت الإفادة وعدم العجلة، والتبصر بالأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر، وفي تنكير الفاسق والنبا شيع في الفساق والأبناء كأنه قال: أي فاسق جاءكم بأي نأ فتوقفوا فيه، وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة، ولا تعتمدوا على قول الفساق لأن من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه. [صديق حسن (١٣٦/١٣)].

فَإِذَا تَبَّ عَلَى ذَلِكَ مُقْتَضَاهُ ﴿لَعَنْتُمْ﴾ لَا تُنْمِتُمْ دُونَهُ إِثْمَ التَّسَبُّبِ إِلَى الْمُرْتَبِ ^(١) ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَزَيْنَهُ﴾ حَسَنَهُ ﴿فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ اسْتِدْرَاكٌ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى دُونَ اللَّفْظِ؛ لِأَنَّ مَنْ حُبَّ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ إِلَى آخِرِهِ، غَايَرَتْ صِفَتُهُ صِفَةً مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ^(٢) ﴿أُولَئِكَ هُمْ﴾ فِيهِ الْفِتَاتُ عَنِ الْخِطَابِ ﴿الرَّاشِدُونَ﴾ ^(٣) الثَّابِتُونَ عَلَى دِينِهِمْ. ﴿فَضَلَا مِنَ اللَّهِ﴾ مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِهِ الْمُقَدَّرِ، أَيُّ: أَفْضَلُ ﴿وَنِعْمَةً﴾ مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بِهِمْ ﴿حَكِيمٌ﴾ ^(٤) فِي إِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي قَضِيَّةٍ: هِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَكِبَ حِمَارًا وَمَرَّ عَلَى ابْنِ أَبِي، فَبَالَ الْحِمَارُ فَسَدَّ ابْنُ أَبِي أَنْفَهُ، فَقَالَ ابْنُ رَوَاحَةَ: وَاللَّهِ لَبُولُ حِمَارِهِ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْ مِسْكِكَ، فَكَانَ بَيْنَ قَوْمَيْهِمَا ضَرْبٌ بِالْأَيْدِي وَالنَّعَالِ وَالسَّعْفِ ^(٥) ﴿أَفْتَتَلُوا﴾ جُمِعَ نَظَرًا إِلَى الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ جَمَاعَةٌ، وَقُرِئَ: ﴿أَفْتَتَلْنَا﴾ ^(٦) ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثَنِي نَظَرًا إِلَى اللَّفْظِ ^(٧) ﴿فَإِنْ بَغَتْ﴾ تَعَدَّتْ ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ﴾ تَرَجَعَ ﴿إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الْحَقُّ ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾

(١) أي: لشقيتكم، والعنت المشقة، وإنما قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ ولم يقل: ﴿لَوْ أَطَاعَكُمْ﴾، للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته ﷺ لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب أن يطيعوه هم لا أن يطيعهم هو، وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خير وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناس في رأيهم لهلكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره. [ابن جرير (٢/٢٩٦)].

(٢) وفي هذه الآية لطيفة وهو أن الله سبحانه وتعالى ذكر هذه الثلاثة الأشياء في مقابلة الإيمان الكامل وهو ما اجتمع فيه ثلاثة أمور، إقرار باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان. [صديق حسن (١٣/١٣٩)].

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ، لو أتيت عبد الله بن أبي؟ فانطلق إليه نبي الله ﷺ وركب حماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرض سبخة، فلما انطلق إليه النبي ﷺ قال: إليك عني، فوالله لقد أذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحاً منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. أخرجه البخاري (٢٦٩١) ومسلم (١٧٩٩).

(٤) قراءة شاذة.

(٥) سماهم مؤمنين مع الاقتال. وبهذا استدلل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم. وهكذا ثبت في صحيح البخاري من حديث الحسن، عن أبي بكر أن رسول الله ﷺ خطب يوماً ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فَتَنَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». أخرجه البخاري (٢٧٠٤). فكان كما قال ﷺ، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق، بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة. [ابن كثير (٧/٣٧٤)].

بِالْإِنصَافِ ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ اَعْدِلُوا ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿فِي الدِّينِ﴾ ^(١) ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ إِذَا تَنَازَعَا، وَقُرِئَ: ﴿إِخْوَتَكُمْ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ ^(٢) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿٢﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ ﴿الآيَةُ نَزَلَتْ فِي وَفْدِ تَمِيمٍ حِينَ سَخَرُوا مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ كَعَمَّارٍ وَصَهْبٍ ^(٣)، وَالسُّخْرِيَّةِ: الْإِزْدِرَاءُ وَالْإِخْتِقَارُ ﴿قَوْمٍ﴾ أَيُّ: رِجَالٍ مِنْكُمْ ﴿مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ عِنْدَ اللَّهِ ^(٤) ﴿وَلَا نِسَاءً﴾ مِنْكُمْ ﴿مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لَا تَعْيِبُوا فِتْنَابُوا، أَيُّ: لَا يَعْيبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ لَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِلَقَبٍ يَكْرَهُهُ، وَمِنْهُ: يَا فَاسِقُ وَيَا كَافِرُ ﴿بِئْسَ الْأَسْمُ﴾ أَيُّ: الْمَذْكُورِ مِنَ السُّخْرِيَّةِ وَاللَّمَزِ وَالتَّنَابُزِ ﴿الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ بَدَلٌ مِنْ «الْإِسْمِ»، لِإِفَادَتِهِ أَنَّهُ فَسَقَ لِتَكَرُّرِهِ عَادَةً ^(٥) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ﴾ مِنْ ذَلِكَ ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أَيُّ: مُؤَثَّمٌ وَهُوَ كَثِيرٌ كَظَنَّ

(١) هذا عقد، عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون، ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له، ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ أمرًا بحقوق الأخوة الإيمانية: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعَ أَحَدُكُمْ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -، حَسْبُ أَمْرِي مُسْلِمٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ». أخرجه مسلم (١٦٦٣). وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَيْتَانِ يُشَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا» وشبك ﷺ بين أصابعه. أخرجه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥). ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييدا لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفريق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم. [السعدي (ص: ٨٠٠)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) أورده السيوطي في الدر: (٥٦٣/٧).

(٤) ينهى تعالى عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْصُ النَّاسِ». ويروى: «وَعَمَطُ النَّاسِ». أخرجه مسلم (٩١). والمراد من ذلك: احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرا عند الله وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له. [ابن كثير (٣٧٦/٧)].

(٥) أي: بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسق بعد دخولهم الإيمان أو اشتغالهم به، فإن الاسم ههنا بمعنى الذكر من قولهم: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم، والمراد به: ... أن التنازع فسق والجمع بينه وبين الإيمان قبيح. [أبو السعود (٨/١٢١)].

السَّوءِ بِأَهْلِ الْخَيْرِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ كَثِيرٌ، بِخِلَافِهِ بِالْفُسَاقِ مِنْهُمْ فَلَا إِثْمَ فِيهِ، فِي نَحْوِ مَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ^(١) ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى التَّائِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمَعَايِبَهُمْ بِالْبَحْثِ عَنْهَا ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ لَا يَذْكُرُهُ بِشَيْءٍ يَكْرَهُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ^(٢) ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَيُّ: لَا يَحْسُبُ بِهِ ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أَيُّ: فَاعْتِيَابُهُ فِي حَيَاتِهِ كَأَكْلِ لَحْمِهِ بَعْدَ مَمَاتِهِ، وَقَدْ عُرِضَ عَلَيْكُمُ الثَّانِي فَكَرِهْتُمُوهُ، فَافْكُرْهُوا الْأَوَّلَ^(٣) ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أَيُّ: عِقَابِهِ فِي الْإِعْتِيَابِ بِأَنْ تَتُوبُوا مِنْهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾ قَابِلُ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ ﴿رَحِيمٌ بِهِمْ﴾. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ آدَمُ وَحَوَاءُ ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا﴾ جَمْعُ شَعْبٍ بَفَتْحِ الشَّيْنِ هُوَ أَعْلَى طَبَقَاتِ النَّسَبِ ﴿وَقَبَائِلَ﴾ هِيَ دُونَ الشُّعُوبِ وَبَعْدَهَا الْعِمَائِرُ ثُمَّ الْبُطُونُ ثُمَّ الْأَفْخَادُ ثُمَّ الْفَصَائِلُ آخِرَهَا، مِثَالُهُ: خُزَيْمَةُ شَعْبٌ، كِنَانَةُ قَبِيلَةٌ، قُرَيْشٌ عِمَارَةٌ بِكَسْرِ الْعَيْنِ، قُصَيٌّ بَطْنٌ، هَاشِمٌ فَخْذٌ، الْعَبَّاسُ فَصِيلَةٌ

(١) فيه تأديب عظيم يبطل ما كان فاشيا في الجاهلية من الظنون السيئة والتهمة الباطلة وأن الظنون السيئة تنشأ عنها الغيرة المفرطة والمكائد، والاعتقالات، والطعن في الأنساب، والمبادأة بالقتال حذرا من اعتداء مظنون ظنا باطلا، ... وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة قال تعالى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] ... وقال النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». أخرجه البخاري (٦٠٦٦)، ومسلم (٢٥٦٣). ولما جاء الأمر في هذه الآية باجتنباب كثير من الظن علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة، فوجب التمهيص والفحص لتمييز الظن الباطل من الظن الصادق. والمراد بـ«الظن» هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس، وحذف المتعلق لتذهب نفس السامع إلى كل ظن ممكن هو إثم. [ابن عاشور (٢٦/٢٥١)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ما الغيبة؟ قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهْتَهُ». أخرجه أبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي (١٩٣٥).

(٣) شبه الله الغيبة بأكل لحم ابن آدم ميتا، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم، ثم زاد في تقييده أن جعله ميتا لأن الجيفة مستقدرة، ويجوز أن يكون ميتا حال من الأخ أو من لحمه، وقيل: فكرهتموه إخبار عن حالهم بعد التقرير. كأنه لما قرره قال: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ أجابوا فقالوا: لا نحب ذلك، فقال لهم: فكرهتموه، وبعد هذا محذوف تقديره: فكذلك فاكروهوا الغيبة التي هي تشبهه، وحذف هذا لدلالة الكلام عليه، وعلى هذا المحذوف يعطف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، قال أبو علي الفارسي، وقال الرماني: كراهة هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحق أن يجاب لأنه بصير عالم، والطبع أعمى جاهل، وقال الزمخشري: في هذه الآية مبالغات كثيرة منها الاستفهام الذي معناه التقرير، ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة، ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم، والإشعار بأن أحد من الأحدين لا يحب ذلك، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتا، ومنها أنه لم يقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخا له. [ابن جزي (٢/٢٩٨)].

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ حُذِفَ مِنْهُ إِحْدَى التَّائِينَ لِيَعْرِفَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا لَا لِيَتَفَاخَرُوا بِعُلُوِّ النَّسَبِ وَإِنَّمَا الْفَخْرُ بِالتَّقْوَى ^(١) ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِكُم﴾ ﴿خَيْرٌ ۝﴾ ﴿بِوَاطِنِكُمْ﴾ ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ نَفَرٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ﴿ءَامَنَّا﴾ صَدَقْنَا بِقُلُوبِنَا ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ انْقَدْنَا ظَاهِرًا ^(٢) ﴿وَلَمَّا﴾ أَي: لَمْ ﴿يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ إِلَى الْآنَ، لَكِنَّهُ يَتَوَقَّعُ مِنْكُمْ ﴿وَأَنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرُسُولَهُ﴾ بِالْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ ﴿لَا يُلْتَكُمُ بِالْهَمَزِ وَتَرْكِهِ وَيَبْدَلُهُ أَلِفًا﴾ لَا يَنْقُصُكُمْ ﴿مَنْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أَي: مَنْ ثَوَّابَهَا ﴿شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيمٌ ۝﴾ بِهِمْ. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: الصَّادِقُونَ فِي إِيْمَانِهِمْ كَمَا صَرَّحَ بِهِ بَعْدُ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ يَشْكُوا فِي الْإِيمَانِ ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فَجَاهَدُهُمْ يَظْهَرُ بِصَدَقِ إِيْمَانِهِمْ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝﴾ فِي إِيْمَانِهِمْ، لَا مَنْ قَالُوا آمَنَّا، وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُمْ غَيْرُ الْإِسْلَامِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بَدَّلَكُمْ﴾ مُضَعَّفٌ «عَلِمَ» بِمَعْنَى شَعَرَ، أَي: أَتَشْعُرُونَهُ بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ فِي قَوْلِكُمْ: آمَنَّا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴿مِنْ غَيْرِ قِتَالٍ بِخِلَافٍ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ أَسْلَمَ بَعْدَ قِتَالِهِ مِنْهُمْ﴾ ﴿قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الْخَافِضِ الْبَاءِ، وَيَقْدَرُ قَبْلَ «أَنْ» فِي الْمَوْضَعَيْنِ ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝﴾ فِي قَوْلِكُمْ: آمَنَّا. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُومَا يَعْمَلُونَ ۝﴾ بِالْبَيَاءِ وَالتَّاءِ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهُ.

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف بنو الله بنو نبي الله ابن خليل الله»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قالوا: نعم، قال: «فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَتَهُوا». أخرجه البخاري (٤٦٨٩)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٢) استفيد من هذه الآية الكريمة: أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان، فترقى من الأعم إلى الأخص، ثم للأخص منه. عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أعطى رسول الله ﷺ رجلاً ولم يعط رجلاً منهم شيئاً، فقال سعد: يا رسول الله، أعطيت فلاناً وفلاناً ولم تعط فلاناً شيئاً، وهو مؤمن؟ فقال النبي ﷺ: «أَوْ مُسْلِمٌ» حتى أعادها سعد ثلاثاً، والنبي ﷺ يقول: «أَوْ مُسْلِمٌ»، ثم قال النبي ﷺ: «إِنِّي لَأُعْطِي رَجُلًا وَأَدْعُ مَنْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُمْ، لَا أُعْطِيهِ شَيْئًا مَخَافَةَ أَنْ يُكْبَرُوا فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ». أخرجه البخاري (٢٧) ومسلم (١٥٠). فقد فرق النبي ﷺ بين المسلم والمؤمن، فدل على أن الإيمان أخص من الإسلام... ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً؛ لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادعوا في ذلك. [ابن كثير (٣٨٩/٧)].

سورة ق

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ ﴿٢﴾ الْآيَةَ فَمَدَنِيَّةٌ، خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً ﴿٣﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق﴾ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿٢﴾ الْكَرِيمِ ﴿٣﴾. مَا أَمَنَ كُفَّارَ مَكَّةَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ﴿٤﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ﴿٥﴾ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَخُوفُهُمْ بِالنَّارِ بَعْدَ الْبَعْثِ ﴿٦﴾ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا ﴿٧﴾ الْإِنذَارُ ﴿٨﴾ شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٩﴾ أَيْدَا ﴿١٠﴾ بِتَحْقِيقِ الْهُمَزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهِينِ ﴿١١﴾ مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴿١٢﴾ تَرْجِعُ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿١٤﴾ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ. ﴿١٥﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ ﴿١٦﴾ تَأْكُلُ ﴿١٧﴾ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿١٨﴾ هُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ، فِيهِ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ الْمُقَدَّرَةِ ﴿١٩﴾. ﴿٢٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴿٢١﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿٢٢﴾ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ ﴿٢٣﴾ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ

(١) هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ... والدليل ما رواه أوس بن حذيفة قال: سألت أصحاب رسول الله ﷺ كيف يحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده. فإذا عدت ثمانيا وأربعين سورة فالتى بعدهن سورة (ق)، بيانه: ثلاث: «البقرة وآل عمران والنساء». وخمس: «المائدة والأنعام والأعراف والأنفال وبراءة». وسبع: «يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل». وتسع: «سبحان والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان». وإحدى عشرة: «الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان وألم السجدة وسبأ وفاطر ويس». وثلاث عشرة: «الصفات وص والزمر وغافر وحم السجدة وحم عسق والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف والقتال والفتح والحجرات». ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة (رضي الله عنهم)، فتعين أن أوله سورة (ق). [القاسمي (٣/٩)].

(٢) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٣) المجيد: ذو المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد، أو لأن من علم معانيه وامثل أحكامه مجد. [البيضاوي (١٣٩/٥)].
(٤) هذا رد على الكفار في إنكارهم للبعث معناه: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم من لحومهم وعظامهم فلا يصعب علينا بعثهم، قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الْأَرْضُ، إِلَّا عَجَبَ الذَّنْبِ مِنْهُ خُلِقَ، وَفِيهِ يَرْكَبُ». أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥). وقيل: المعنى قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم، والأول قول ابن عباس والجمهور وهو أظهر. [ابن جزي (٢/٣٠٠)].

(٥) حافظ لتفاصيل الأشياء كلها أو محفوظ من التغير، والمراد: إما تمثيل علمه تعالى بكليات الأشياء جزئياتها بعلم من عنده كتاب محيط يتلقى منه كل شيء، أو تأكيد لعلمه تعالى بها بشبوتها في اللوح المحفوظ عنده. [أبو السعود (١٢٦/٨)].

(٦) إضراب أتبع الإضراب الأول، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم، وهو التكذيب بالحق، الذي هو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة، من غير تفكير، ولا تدبر. [النسفي (٣/٣٦٢)].

وَالْقُرْآنَ ﴿فِي أَمْرِ مَرْيَمَ ۖ﴾ ^(١) مُضْطَرِبٍ ۖ قَالُوا مَرْءٌ سَاحِرٌ وَسِحْرٌ ۖ وَمَرْءٌ شَاعِرٌ وَشِعْرٌ ۖ وَمَرْءٌ كَاهِنٌ وَكَهَانَةٌ ۖ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾ بِعُيُونِهِمْ مُعْتَبِرِينَ بِعُقُولِهِمْ حِينَ أَنْكَرُوا الْبُعْثَ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ كَانَتْهُ ﴿فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ بِأَعْيُنِنَا ﴿وَزَيَّلْنَاهَا﴾ بِالْكَوَكِبِ ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۖ﴾ ^(٢) شُقُوقٍ تَعْيِيهَا. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ كَيْفَ ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ دَحَوْنَاهَا عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ^(٣) ﴿وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِي﴾ جَبَالًا تَثْبَتَهَا ^(٤) ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ صِنْفٍ ﴿بِهَيْجٍ ۖ﴾ ^(٥) يُنْهَجُ بِهِ لِحُسْنِهِ. ﴿تَبْصِرَةً﴾ مَفْعُولٌ لَهُ، أَي: فَعَلْنَا ذَلِكَ تَبْصِيرًا مِنَّا ﴿وَذِكْرَى﴾ تَذْكِيرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۖ﴾ ^(٦) رَاجِعٍ إِلَى طَاعَتِنَا ^(٧). ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ كَثِيرَ الْبَرَكَةِ ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿وَحَبَّ الزَّرْعِ﴾ ﴿الْحَصِيدِ﴾ ^(٨) الْمَحْصُودِ. ﴿وَالَّتِخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ طَوَالًا حَالٌ مُقَدَّرَةٌ ﴿لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۖ﴾ ^(٩)

(١) يقال للشيء المخلّى قد اختلط بعضه ببعض: مريج، ومنه قوله ﷺ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُعْرَبُلُونَ فِيهِ غَرْبَلَةً، يَبْقَى مِنْهُمْ حُثَالَةٌ، قَدْ مَرَجَتْ عُهْدُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ، وَاخْتَلَفُوا فَكَانُوا هَكَذَا». وشبك بين أصابعه. أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في (٤٨٠) مختصراً، وأخرجه موصولاً أبو داود (٤٣٤٢)، وابن ماجه (٣٩٥٧)، وأحمد (٦٥٠٨) ... وأصله على هذا من قوله: مرج الشيء، إذا أرسله وخلاه، ومرج دابته، خلاها، ومنه قوله: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٩]، والمريج المهمل والمهمل يختلط، فسمي المختلط مريجاً. [الواحدى (٣٨١/٢٠)].

(٢) المد: البسط، أي: بسطنا الأرض فلم تكن مجموع نتوءات إذ لو كانت كذلك لكان المشي عليها مرهقا. والمراد: بسط سطح الأرض وليس المراد وصف حجم الأرض لأن ذلك لا تدركه المشاهدة ولم ينظر فيه المخاطبون نظر التأمل فيستدل عليهم بما لا يعلمونه فلا يعتبر في سياق الاستدلال على القدرة على خلق الأمور العظيمة، ولا في سياق الامتنان بما في ذلك الدليل من نعمة فلا علاقة لهذه الآية بقضية كروية الأرض. [ابن عاشور (٢٨٨/٢٦)].

(٣) الرسو: الثبات والقرار. وفائدة هذا الوصف زيادة التنبيه إلى بديع خلق الله إذ جعل الجبال متداخلة مع الأرض ولم تكن موضوعة عليها وضعا كما توضع الخيمة لأنها لو كانت كذلك لتزلزلت وسقطت وأهلكت ما حوالها. [ابن عاشور (٢٨٨/٢٦)].

(٤) حذف متعلق تبصرة وذكرى ليعم كل ما يصلح أن يتبصر في شأنه بدلائل خلق الأرض وما عليها، وأهم ذلك فيهم هو التوحيد والبعث كما هو السياق تصرّحا وتلويحا. وإنما كانت التبصرة والذكرى علة للأفعال المذكورة لأن التبصرة والذكرى من جملة الحكم التي أوجد الله تلك المخلوقات لأجلها. وليس ذلك بمقتضى انحصار حكمة خلقها في التبصرة والذكرى، لأن أفعال الله تعالى لها حكم كثيرة علمنا بعضها وخفي علينا بعض ... والتبصير: جعل المرء مبصرا وهو هنا مجاز في إدراك النفس إدراكا ظاهرا للأمر الذي كان خفيا عنها فكانها لم تبصره ثم أبصرته. والمنيب: الراجع، والمراد هنا الراجع إلى الحق بطاعة الله فإذا انحرف أو شغله شاغل ابتدر الرجوع إلى ما كان فيه من الاستقامة والامتثال فلا يفارقه حال الطاعة وإذا فارقه قليلا آب إليه وأتاب. وخص العبد المنيب بالتبصرة والذكرى وإن كان فيما ذكر من أحوال الأرض إفادة التبصرة والذكرى لكل أحد؛ لأن العبد المنيب هو الذي يتنفع بذلك فكانه هو المقصود من حكمة تلك الأفعال. وهذا تشريف للمؤمنين وتعريض بإهمال الكافرين التبصر والتذكر. [ابن عاشور (٢٩٠/٢٦)].

مُتْرَاكِبٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ. ﴿رَزَقًا لِلْعِبَادِ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا﴾ يَسْتَوِي فِيهِ الْمَذْكُورُ وَالْمَوْثُوتُ ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيُّ: مِثْلُ هَذَا الْإِحْيَاءِ ﴿الْخُرُوجِ﴾ ﴿١١﴾ مِنَ الْقُبُورِ فَكَيْفَ تُنْكِرُونَهُ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ نَظَرُوا وَعَلِمُوا مَا ذُكِرَ. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ الْفِعْلِ لِمَعْنَى ﴿قَوْمٌ﴾ ﴿وَأَصْحَابُ الرِّيسِ﴾ هِيَ بَيْتَرُ كَانُوا مُقِيمِينَ عَلَيْهَا بِمَوَاشِيهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَبَيْنَهُمْ قِيلَ: حَنْظَلَةُ بْنُ صَفْوَانَ، وَقِيلَ: غَيْرُهُ ﴿وَتَمُودُ﴾ ﴿١٢﴾ قَوْمٌ صَالِحٌ. ﴿وَعَادٌ﴾ قَوْمٌ هُودٍ ﴿وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْغِيْضَةِ قَوْمٌ شُعَيْبٍ ﴿وَقَوْمُ ثُبَيْعٍ﴾ هُوَ مَلِكٌ كَانَ بِالْيَمَنِ، أَسْلَمَ وَدَعَا قَوْمَهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَكَذَّبُوهُ ﴿كُلُّ﴾ مِنَ الْمَذْكُورِينَ ﴿كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ كَقُرَيْشٍ ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ ﴿١٤﴾ وَجَبَ نَزُولُ الْعَذَابِ عَلَى الْجَمِيعِ فَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ مِنْ كُفْرِ قُرَيْشٍ بِكَ. ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أَيُّ: لَمْ نَعْيَ بِهِ فَلَا نَعْيًا بِالْإِعَادَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ شَكٌّ ﴿مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الْبَعْثُ^(١). ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ حَالِ بَقَائِهِ «نَحْنُ»﴾ ﴿مَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿تُوسُّوسُ﴾ تُحَدِّثُ ﴿بِهِ﴾ أَلْبَاءُ زَائِدَةٌ أَوْ لِلتَّعْدِيدِ وَالضَّمِيرُ لِلْإِنْسَانِ ﴿نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ بِالْعِلْمِ^(٢) ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ ﴿١٦﴾ الْإِضَافَةُ لِلْيَبَانِ وَالْوَرِيدَانِ عِرْقَانِ بِصَفْحَتَيْ الْعُنُقِ. ﴿إِذْ﴾ نَاصِبُهُ ﴿أُذْكَرُ﴾ مُقَدَّرًا ﴿يَتَلَقَّى﴾ يَأْخُذُ وَيُثَبِّتُ ﴿الْمُتَلَقِّيَّانِ﴾ الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِالْإِنْسَانِ مَا يَعْمَلُهُ ﴿عَنِ

(١) ﴿أَفَعَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أَيُّ: أَفَعَجَزْنَا عَنِ الْإِبْدَاءِ حَتَّى نَعْجِزَ عَنِ الْإِعَادَةِ؟! فَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ. قَالَ الشَّهَابُ: الْعِي هُنَا بِمَعْنَى الْعَجْزِ، لَا التَّعَبِ. قَالَ الْكَسَائِيُّ: تَقُولُ: أَعْيَيْتَ مِنَ التَّعَبِ، وَعْيَيْتَ مِنْ انْقِطَاعِ الْحِيلَةِ، وَالْعَجْزُ عَنِ الْأَمْرِ. وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ وَالْأَفْصَحُ، وَإِنْ لَمْ يَفْرُقْ بَيْنَهُمَا كَثِيرٌ. وَ«الْخَلْقِ الْأَوَّلِ» هُوَ الْإِبْدَاءُ عَلَى مَا ذُكِرَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مُتَأَخِّرًا عَنْهُ، وَبَدَلَ لَهُ آيَةً: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْجِ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الْأَحْقَافُ: ٣٣] الْآيَةُ. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عَطَفَ عَلَى مُقَدَّرٍ، يَدُلُّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هُمْ مُعْتَرِفُونَ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، فَلَا وَجْهَ لِإِنْكَارِهِمُ لِلثَّانِي، بَلْ هُمْ اخْتَلَطَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ وَالتَّبَسُّ؛ لِأَنَّهُمْ فَهَمُّهُمْ إِعَادَةَ مَا مَاتَ وَتَفَرَّقَ أَجْزَاؤُهُ وَإِعْرَاضَهُمْ عَنِ سُلْطَانِ الْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ، وَسَهُولَةِ ذَلِكَ فِي الْمَقْدُورَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ. [الْقَاسِمِيُّ (٩/ ١٠)].

(٢) ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يَعْنِي: مَلَائِكَتُهُ تَعَالَى أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ. وَمَنْ تَأَوَّلَهُ عَلَى الْعِلْمِ فَإِنَّمَا فَرَّغَ لَئَلَا يَلْزَمُ حُلُولُ أَوْ اتِّحَادُ، وَهُمَا مُنْفِيَانِ بِالْإِجْمَاعِ، تَعَالَى اللَّهُ وَتَقَدَّسَ، وَلَكِنَّ اللَّفْظَ لَا يَقْتَضِيهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ: وَأَنَا أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كَمَا قَالَ فِي الْمُحْتَضَرِ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٨٥] يَعْنِي مَلَائِكَتُهُ. وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الْحَجَرُ: ٩]، فَالْمَلَائِكَةُ نَزَلَتْ بِالذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِهِ إِلَيْهِ بِإِقْدَارِ اللَّهِ لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَلِلْمَلِكِ لَمَةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَمَا أَنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَةً وَكَذَلِكَ: «الشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٠٣٩)، وَمُسْلِمٌ (٢١٧٤). كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ؛ وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يَعْنِي: الْمَلَائِكَيْنِ الَّتِي يَكْتَبَانِ عَمَلَ الْإِنْسَانِ. [ابْنُ كَثِيرٍ (٧/ ٣٩٨)].

الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ ﴿١٧﴾ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ أَي: قَاعِدَانِ وَهُوَ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ مَا قَبْلَهُ^(١). ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ حَافِظٌ ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ حَاضِرٌ، وَكُلُّ مِنْهُمَا بِمَعْنَى الْمُشْتَى^(٢). ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ غَمْرَتُهُ وَشَدَّتْهُ بِالْحَقِّ﴾ مِنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ حَتَّى يَرَاهُ الْمُنْكَرُ لَهَا عِيَانًا، وَهُوَ نَفْسُ الشَّدَّةِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: الْمَوْتُ ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ نَحِيدٌ ﴿١٩﴾ تَهَرَّبُ وَتَفْرَعُ. ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لِلْبَعْثِ ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: يَوْمُ النَّفْخِ ﴿يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ لِلْكَفَّارِ بِالْعَذَابِ. ﴿وَجَاءَتْ فِيهِ كُلُّ نَفْسٍ إِلَى الْمَحْشَرِ﴾ مَعَهَا سَائِقٌ ﴿مَلَكٌ يُسَوِّفُهَا إِلَيْهِ﴾ وَشَهِيدٌ ﴿يَشْهَدُ عَلَيْهَا بِعَمَلِهَا وَهُوَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ وَغَيْرُهَا^(٣). وَيُقَالُ لِلْكَافِرِ^(٤): ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ النَّازِلِ بِكَ الْيَوْمَ ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ أَرْزَأْنَا غَفْلَتَكَ بِمَا تُشَاهِدُهُ الْيَوْمَ ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢١﴾ حَادُّ تَذَرِكُ بِهِ مَا أَنْكَرْتَهُ فِي الدُّنْيَا. ﴿وَقَالَ

(١) أي: قاعد، ولم يقل: قعيدان، لأنه أراد: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتمى بأحدهما عن الآخر، هذا قول أهل البصرة. وقال أهل الكوفة: أراد: قعودا، كالرسول فجعل للاثنتين والجمع، كما قال الله تعالى في الاثنتين: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، لا القاعد الذي هو ضد القائم. وقال مجاهد: القعيد الرصيد. [البغوي (٧/٣٥٨)].

(٢) أي: ما يتكلم من كلام فيلفظه ويرميه من فيه إلا لدى ذلك اللفظ ملك يرقب قوله ويكتب، والرقيب الحافظ المتبع لأمر الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير وشر، فكتب الخير هو ملك اليمين. وكتب الشر ملك الشمال. والعتيد الحاضر المهيأ. قال الجوهري: العتيد المهيأ. ومنه: ﴿وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مُتَّكِنًا﴾ [يوسف: ٣١] والمراد ههنا أنه معد للكتابة مهيأ لها. والإفراد في رقيب عتيد مع اطلاعهما معاً على ما صدر منه لما أن كل منهما رقيب لما فوض إليه لا لما فوض لصاحبه كما ينبى عنه قوله: عتيد. وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص. [صديق حسن (١٣/١٦٩)]. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿٢٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿٢١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢]. وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شيء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ عن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا سَخَطَهُ إِلَى يَوْمٍ يَلْقَاهُ». أخرجه: مالك (٢٨١٨)، والترمذي (٢٣١٩). [ابن كثير (٧/٣٩٨)].

(٣) السائق ملك يسوقه، وأما الشهيد فقيل: ملك آخر يشهد عليه وهو الأظهر، وقيل: صحائف الأعمال، وقيل: جوارح الإنسان. [ابن جزي (٢/٣٠٢)].

(٤) وقيل: للإنسان مطلقاً، لقوله: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ والمقصود أنه كشف الغطاء عن البر والفاجر، ورأى كل ما يصير إليه. وعول ابن جرير في الأولوية عليه. قال الزمخشري: جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى بها جسده كله، أو غشاوة غطى بها عينيه، فهو لا يبصر شيئاً، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها، فيبصر ما لم يبصره من الحق. [القاسمي (٩/٢٠)].

قَرِينُهُ ﴿١﴾ الْمَلِكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: ﴿هَذَا مَا﴾ أَي: الَّذِي ﴿لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٢﴾﴾ حَاضِرٌ. فَيَقَالُ لِمَالِكٍ: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾
 أَي: أَلْقِ أَلْقَى، أَوْ «الْقَيْنَ»، وَبِهِ قَرَأَ الْحَسَنُ^(١)، فَأُبْدِلَتِ النَّونُ أَلِفًا ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيْدٍ ﴿٣﴾﴾ مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ. ﴿مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ﴾
 كَالزَّكَاةِ ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظَالِمٍ ﴿مُرِيْبٍ ﴿٤﴾﴾ شَاكٍّ فِي دِينِهِ. ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ مُبْتَدَأٌ ضَمَّنَ مَعْنَى الشَّرْطِ،
 خَبَرُهُ: ﴿فَالْقِيَا فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٥﴾﴾ * قَالَ قَرِينُهُ ﴿الشَّيْطَانُ ﴿٦﴾ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾ أَضَلَّتْهُ ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي﴾
 ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٧﴾﴾ فَدَعَوْتُهُ فَاسْتَجَابَ لِي، وَقَالَ: هُوَ أَطْعَانِي بِدُعَائِهِ لَهُ. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أَي: مَا
 يَنْفَعُ الْخِصَامُ هُنَا ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿بِالْوَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ بِالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ لَوْ لَمْ تُؤْمِنُوا، وَلَا بُدَّ مِنْهُ.
 ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ يُغَيَّرُ ﴿الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ فِي ذَلِكَ ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٩﴾﴾ فَأَعَذَّبَهُمْ بِغَيْرِ جُزْمٍ، وَ«ظَلَامٍ» بِمَعْنَى: ذِي
 ظُلْمٍ. لِقَوْلِهِ: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿يَوْمَ﴾ نَاصِبُهُ «ظَلَامٍ» ﴿نَقُولُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاءِ ﴿لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾
 اسْتَفْهَامٌ تَحْقِيقٌ لَوَعْدِهِ بِمَلَأِهَا ﴿وَتَقُولُ﴾ بِصُورَةِ الاسْتِفْهَامِ كَالسُّوَالِ: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿١٠﴾﴾ أَي: فِي؟ لَا أَسْعُ غَيْرَ
 مَا امْتَلَأَتْ بِهِ، أَي: قَدْ امْتَلَأَتْ^(٢). ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ﴾ قُرْبَتْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ مَكَانًا ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿١١﴾﴾ مِنْهُمْ فَيَرَوْنَهَا^(٣).
 وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا﴾ الْمَرْئِي ﴿مَا تُوْعَدُونَ﴾ بِالنَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الدُّنْيَا وَيُبَدَّلُ مِنْ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قَوْلُهُ: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رَجَاعٍ
 إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﴿حَفِيزٍ ﴿١٢﴾﴾ حَافِظٍ لِحُدُودِهِ. ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ خَافَهُ وَلَمْ يَرَهُ ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾
 ﴿١٣﴾ مُقْبِلٍ عَلَى طَاعَتِهِ. وَيُقَالُ لِلْمُتَّقِينَ أَيُّضًا: ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ سَالِمِينَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ أَوْ مَعَ سَلَامٍ، أَي: سَلَّمُوا
 وَأَدْخُلُوا ﴿ذَلِكَ﴾ الْيَوْمَ الَّذِي حَصَلَ فِيهِ الدُّخُولُ ﴿يَوْمَ الْخُلُودِ ﴿١٤﴾﴾ الدَّوَامُ فِي الْجَنَّةِ. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا﴾
 مَزِيدٌ ﴿١٥﴾ زِيَادَةٌ عَلَى مَا عَمِلُوا وَطَلَبُوا^(٤). ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أَي: أَهْلَكْنَا قَبْلَ كَفَّارِ قُرَيْشٍ قُرُونًا، أَي:

(١) قراءة شاذة.

(٢) إنما تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ. وقيل: لا مزيد، أي: ليس عندي موضع للزيادة، فهي على هذا قد امتلأت والأول أظهر وأرجح.
 [ابن جزي (٣٠٣/٢)]. وقد وعدنا الله ملائها، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. [السعدي
 (ص: ٨٠٦)]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُلْقَى فِي النَّارِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ قَدَمَهُ فِيهَا فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ».
 أخرجه البخاري (٤٨٤٨).

(٣) وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت. [ابن كثير (٤٠٦/٧)].

(٤) كقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]. عن صهيب بن سنان الرومي: «أنها النظر إلى وجه الله الكريم... وعن
 أنس بن مالك في قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قال: «يظهر لهم الرب عز وجل في كل جمعة». [ابن كثير (٤٠٧/٧)].

أَمَّا كَثِيرَةٌ مِنَ الْكُفَّارِ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فُتُوشًا ﴿٣٦﴾ فِي الْبَلَدِ هَلْ مِنْ تَحِيصٍ ﴿٣٧﴾ لَهُمْ أَوْ لِعِزِّهِمْ مِنَ الْمَوْتِ فَلَمْ يَجِدُوا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَذْكُورٍ﴾ ﴿لَذِكْرِي﴾ لَعِظَةً ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ عَقْلٌ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ اسْتَمَعَ الْوَعْظَ ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ﴿حَاضِرُ الْقَلْبِ﴾. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلَهَا الْأَحَدُ وَآخِرَهَا الْجُمُعَةُ ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ﴿تَعَبٌ، نَزَلَ رَدًّا عَلَى الْيَهُودِ فِي قَوْلِهِمْ: «إِنَّ اللَّهَ اسْتَرَحَ يَوْمَ السَّبْتِ»، وَانْتِفَاءُ التَّعَبِ عَنْهُ لِتَنَزُّهِهِ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ﴾، وَلَعَدَمِ الْمُمَاسَّةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. ﴿فَاصْبِرْ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ ﴿عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ أَي: الْيَهُودَ وَغَيْرُهُمْ مِنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّكْذِيبِ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ صَلِّ حَامِدًا ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ أَي: صَلَاةُ الصُّبْحِ ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ ﴿أَي: صَلَاتِي الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أَي: صَلِّ الْعِشَاءَيْنِ ﴿وَادْبَرْ السُّجُودِ﴾ ﴿بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ جَمْعُ «دَبَّرَ»، وَكَسْرِهَا مَصْدَرٌ «أَدْبَرَ»، أَي: صَلِّ النَّوَافِلَ الْمَسْنُونَةَ عَقِبَ الْفَرَائِضِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ حَقِيقَةُ التَّسْبِيحِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ مُلَابِسًا لِلْحَمْدِ. ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يَا مُخَاطَبُ بِقَوْلِي ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ﴾ هُوَ إِسْرَافِيلُ ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مِنَ السَّمَاءِ وَهُوَ صَخْرَةٌ بَيْنَ الْمَقْدِسِ أَقْرَبُ مَوْضِعٍ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ، يَقُولُ: أَيَّتَهَا

(١) راجع تفصيل ذلك في تفسير سورة فصلت الآيات (٩-١٢).

(٢) أي: مماثلة صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فأثبت لنفسه السمع والبصر وهما مما يتصف بهما المخلوق، ونفى عن نفسه مماثلة شيء من خلقه. وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، فلا ند له ولا نظير. ومن المعلوم أن الله ذاتا لا تشبه ذوات المخلوقين، وأنه لا يلزم من إثبات الذات له ما يلزم من ذات المخلوق، فالذي صرف التشبيه عن إثبات الذات لله، هو نفسه الذي يصرف التشبيه عن إثبات جميع صفاته. فلما علم قطعاً مباينة الخالق للمخلوق في الذات والوجود، علم مباينته لخلقته في الصفات، إذ الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، والله عز وجل ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كانت له ذات حقيقة لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقة لا تماثل صفات سائر الذوات. فلا يلزم من صفات الله تعالى ما يلزم من صفات المخلوق، إذ المخلوق تلزمه أمور من النقص لنقص أصله وفقره وذله وضعفه، ولا يلزم هذا في صفة جبار السماوات والأرض، ومبدع كل شيء وخالقه، الذي لا تحيط بكنه ذاته وصفاته العقول، ولا تدركه الأوهام والظنون. [الأشاعرة في ميزان أهل السنة لفصيل الجاسم ص: ٣٦٠].

(٣) كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. [ابن كثير (٧/٤٠٩)].

الْعِظَامُ الْبَالِيَةُ وَالْأَوْصَالُ الْمُتَقَطَّعَةُ وَاللُّحُومُ الْمُتَمَزِّقَةُ وَالشُّعُورُ الْمُتَفَرِّقَةُ، إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَجْتَمِعْنَ لِفَصْلِ الْقِصَاصِ^(١).
 ﴿يَوْمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿يَوْمَ﴾ قَبْلَهُ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ أَيُّ: الْخَلْقُ كُلُّهُمْ ﴿الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ بِالْبَعْثِ، وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ
 إِسْرَافِيلَ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ قَبْلَ نِدَائِهِ وَبَعْدَهُ^(٢) ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: يَوْمُ النِّدَاءِ وَالسَّمَاعِ ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾^(٣) مِنْ الْقُبُورِ،
 وَنَاصِبٌ ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ مُقَدَّرًا، أَيُّ: يَعْلَمُونَ عَاقِبَةَ تَكْذِيبِهِمْ. ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَالْيَنَّا الْمَصِيرُ﴾^(٤) يَوْمَ بَدَلٌ مِنْ
 ﴿يَوْمَ﴾ قَبْلَهُ وَمَا بَيْنَهُمَا اعْتِرَاضٌ ﴿تَشْتَقُّ﴾ بِتَخْفِيفِ الشَّيْنِ وَتَشْدِيدِهَا بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا ﴿الْأَرْضُ
 عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ جَمْعُ «سَرِيعٍ»، حَالٌ مِنْ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: فَيَخْرُجُونَ مُسْرِعِينَ^(٥) ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾^(٦) فِيهِ فَضْلٌ
 بَيْنَ الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةِ بِمُتَعَلِّقِهَا لِلَاخْتِصَاصِ، وَ﴿ذَلِكَ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَعْنَى الْحَشْرِ الْمُخْبِرِ بِهِ عَنْهُ، وَهُوَ الْإِحْيَاءُ بَعْدَ
 الْفَنَاءِ وَالْجَمْعُ لِلْعَرْضِ وَالْحِسَابِ^(٧). ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أَيُّ: كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ تُجْبِرُهُمْ
 عَلَى الْإِيمَانِ، وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾^(٨) وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ.

(١) ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف، أي: استمع النداء والصوت أو الصيحة وهي صيحة القيامة،
 وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل... وقيل: استمع نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب، أي: يسمع الجميع فلا
 يبعد أحد عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن فكأنما ينادي في آذانهم. [القرطبي (١٧/٢٧)]. أخرج ابن عساكر، والواسطي
 في فضائل بيت المقدس عن يزيد بن جابر أن إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول: يا أيها العظام النخرة إلى آخره... وقوله: ﴿مِنْ
 مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ هو صخرة بيت المقدس على ما روي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة... وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل
 إلا بوحى، ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال. [الآلوسي (١٣/٣٤٣)].

(٢) «ويحتمل أن تكون قبل نداءه وبعده» قاله الجلال المحلي، وهذا غير مستقيم لأن بعثهم وإحياءهم كان بصيحة واحدة كما في قوله
 تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ [يس: ٥٣] قال الكلبي: معنى بالحق بالبعث، وهو حال من الواو، أي: يسمعون متلبسين بالحق،
 أو من الصيحة، أي: متلبسة بالحق، وقال مقاتل: يعني أنها كائنة حقًا. [صديق حسن (١٣/١٣٤)].

(٣) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ». أخرجه البخاري (٢٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٤). وما تضمنته
 هذه الآية الكريمة... جاء موضحا في آيات أخر من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ
 يُوفُضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. [الشنقيطي (٧/٦٩٦)].

(٤) ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هين، وتقديم الظرف للاختصاص فإن ذلك لا يتيسر إلا على العالم القادر لذاته الذي لا يشغله شأن عن شأن، كما
 قال الله تعالى: ﴿مَا خَلَقْكُمْ وَلَا بَعَثْكُمْ إِلَّا كُنُفُسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]. [البيضاوي (٥/١٤٥)].

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ مَكِّيَّةٌ، سِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّرِّيَّتِ﴾ الرِّيحِ تَذْرُو التُّرَابَ وَغَيْرَهُ ﴿ذَرَوْا﴾ مَصْدَرٌ، وَيُقَالُ: تَذْرِيهِ ذَرِيًّا تَهْبُّ بِهِ. ﴿فَالْحَمِلَتِ﴾ السُّحُبِ تَحْمِلُ الْمَاءَ ﴿وَقَرَأَ﴾ ثَقَلًا مَفْعُولٌ «الْحَامِلَاتِ». ﴿فَالْجَرِيَّتِ﴾ السُّفُنِ تَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ﴿يُسْرًا﴾ بِسُهُولَةٍ، مَصْدَرٌ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيُ: مُيسَّرَةً. ﴿فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا﴾ الْمَلَائِكَةُ تُقَسِّمُ الْأَرْزَاقَ وَالْأَمْطَارَ وَغَيْرَهَا بَيْنَ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ^(١). ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ «مَا» مَصْدَرِيَّةٌ، أَيُ: وَعَدَهُمْ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ ﴿لَصَادِقٌ﴾ لَوْعْدٌ صَادِقٌ. ﴿وَإِنَّ الدِّينَ﴾ الْجَزَاءُ بَعْدَ الْحِسَابِ ﴿لَوْ قِيعٌ﴾ لَا مَحَالَةَ. ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ جَمْعُ «حَبِيكَةٍ» كَطَرِيقَةٍ وَطَرِيقٍ، أَيُ: صَاحِبَةِ الطَّرِيقِ فِي الْخِلْقَةِ كَالطَّرِيقِ فِي الرَّمْلِ^(٢). ﴿إِنَّكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ فِي شَأْنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ ﴿لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ قِيلَ: شَاعِرٌ سَاحِرٌ كَاهِنٌ، شِعْرٌ سِحْرٌ كَهَانَةٌ. ﴿يُؤْفَكُ﴾ يُصْرَفُ ﴿عَنْهُ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ، أَيُ: عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ صُرِفَ عَنِ الْهِدَايَةِ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى^(٣). ﴿قُتِلَ الْخَرَّصُونَ﴾ لَعِنَ الْكَذَّابُونَ

(١) تقسم الأمر وتديره بإذن الله. [السعدي (ص: ٨٠٨)]. وثبت عن علي بن أبي طالب عليه السلام: أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة عن رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك. فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّرِّيَّتِ ذَرَوْا﴾ قال: الريح. قال: ﴿فَالْحَمِلَتِ وَقَرَأَ﴾ قال: السحاب. قال: ﴿فَالْجَرِيَّتِ يُسْرًا﴾ قال: السفن. قال: ﴿فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا﴾ قال: الملائكة. [ابن كثير (٤١٣/٧)]. (٢) قال ابن عباس وقتادة وعكرمة: ذات الخلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكه، قال سعيد بن جبير: ذات الزينة. قال الحسن: حبكت بالنجوم. قال مجاهد: هي المتقنة البنيان. وقال مقاتل والكلبي والضحاك: ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبعدها من الناس، وهي جمع حباك وحبكة. [البغوي (٣٧١/٧)].

(٣) معنى يؤفك: يصرف، والضمير في عنه يحتمل أربعة أوجه أحدها: أن يكون للنبي ﷺ أو للقرآن أو للإسلام، والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، أي: من سبق في علم الله أنه مصروف. الثاني: أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين، والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف. الثالث: أن يكون الضمير للقول المختلف، والمعنى: يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام من قضى الله بسعادته، وهذا القول حسن، إلا أن عرف الاستعمال في أفك ويؤفك إنما هو في العرف من خير إلى شر، وهذا من شر إلى خير. الرابع: أن يكون الضمير للقول المختلف، وتكون عن سببية، والمعنى: يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الإيمان. [ابن جزي (٣٠٦/٢)].

أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْمُخْتَلَفِ^(١). ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ جَهْلٍ يَغْمُرُهُمْ﴾ ﴿سَاهُونَ﴾^(١١) غَافِلُونَ عَنْ أَمْرِ الْآخِرَةِ. ﴿يَسْأَلُونَ﴾ النَّبِيَّ اسْتِهْزَاءً ﴿أَيَّانَ يَوْمَ الدِّينِ﴾^(١٢) أَي: مَتَى مَجِيئُهُ؟ وَجَوَابُهُمْ: يَجِيءُ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^(١٣) أَي: يُعَذَّبُونَ فِيهَا، وَيُقَالُ لَهُمْ حِينَ التَّعَذُّبِ: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ ﴿تَعَذِّبُكُمْ﴾ ﴿هَذَا﴾ الْعَذَابُ ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾^(١٤) فِي الدُّنْيَا اسْتِهْزَاءً. ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ بَسَاتِينَ﴾ ﴿وَعُيُونٍ﴾^(١٥) تَجْرِي فِيهَا. ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ فِي خَبَرٍ ﴿إِنَّ﴾ ﴿مَا آتَاهُمْ﴾ ﴿أَعْطَاهُمْ﴾ ﴿رَبُّهُمْ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ أَي: دُخُولِهِمُ الْجَنَّةَ ﴿مُحْسِنِينَ﴾^(١٦) فِي الدُّنْيَا. ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾^(١٧) يَنَامُونَ وَ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ، وَ﴿يَهْجَعُونَ﴾ خَبَرٌ «كَانَ»، وَ﴿قَلِيلًا﴾ ظَرْفٌ، أَي: يَنَامُونَ فِي زَمَنِ يَسِيرٍ مِنَ اللَّيْلِ وَيُصَلُّونَ أَكْثَرَهُ. ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^(١٨) يَقُولُونَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا»^(١٩). ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(٢٠) الَّذِي لَا يَسْأَلُ لِتَعْفُفِهِ^(٢١). ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ مِنَ الْجِبَالِ وَالْبَحَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالنَّبَاتِ وَغَيْرِهَا ﴿ءَايَاتٌ﴾ دَلَالَاتٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾^(٢٢) ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ آيَاتٌ أَيْضًا مِنْ مَبْدَأِ خَلْقِكُمْ إِلَى مُتَهَاةٍ، وَمَا فِي تَرْكِيبِ خَلْقِكُمْ مِنَ الْعَجَائِبِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٢٣) ذَلِكَ، فَتَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى صَانِعِهِ وَقُدْرَتِهِ. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أَي: الْمَطَرُ

(١) هذا دعاء عليهم، وحكى الواحدي عن المفسرين جميعاً: أن المعنى: لعن الكذابين، والمراد بالكذابين أصحاب القول المختلف، وأصل هذا التركيب الوعد بالقتل، أجري مجرى اللعن، واستعمل بمعناه تشبيهاً للملعون. الذي يفوته كل خير وسعادة بالمقتول الذي تفوته الحياة، وكل نعمة، وقال ابن الأنباري: والقتل إذا أخبر به عن الله كان بمعنى اللعنة؛ لأن من لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك ... والخراصون الكذابون، الذين يتخرصون فيما لا يعلمون. [صديق حسن (١٣/١٩٢)].

(٢) قال مجاهد، وغير واحد: يصلون. وقال آخرون: قاموا الليل، وأخروا الاستغفار إلى الأسحار. كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]، فإن كان الاستغفار في صلاة فهو أحسن. وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَاتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى سُؤْلُهُ؟ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ». أخرجه مسلم (٧٥٨). [ابن كثير (٧/٤١٨)].

(٣) الحق هنا نوافل الصدقات، وقيل: المراد الزكاة وهذا بعيد؛ لأن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة، وقيل: إن الآية منسوخة بالزكاة، وهذا لا يحتاج إليه لأن النسخ إنما يكون مع التعارض، ولا تعارض بين الزكاة والنوافل. وتسمية النوافل بالحق كقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وإن كان غير واجب، وقال بعض العلماء: حق سوى الزكاة. ورجحه ابن عطية. واختلف الناس في المحروم حتى قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم، وقيل: المحروم الذي ليس له في بيت المال سهم، وقيل: الذي اجتاحت ثمرته، وقيل: الذي ماتت ماشيته، والمعنى الجامع لها أن المحروم هو الفقير المستور الحال. [ابن جزي (٢/٣٠٨)].

الْمُسَبَّبُ عَنْهُ النَّبَاتُ الَّذِي هُوَ رِزْقٌ ﴿٢٢﴾ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مِنَ الْمَاءِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، أَي: مَكْتُوبٌ ذَلِكَ فِي السَّمَاءِ. ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ﴾ أَي: مَا تُوعَدُونَ ﴿لَحَقُّ مِثْلُ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ بَرَفَعِ ﴿مِثْلُ﴾ صِفَةً، وَ ﴿مَا﴾ زَائِدَةٌ، وَبِفَتْحِ اللَّامِ مُرَكَّبَةٌ مَعَ ﴿مَا﴾، الْمَعْنَى: مِثْلُ نُطْقِكُمْ فِي حَقِيقَتِهِ، أَي: مَعْلُومِيَّتِهِ عِنْدَكُمْ ضَرُورَةٌ صُدُورُهُ عَنْكُمْ^(١). ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ خِطَابُ النَّبِيِّ ﷺ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ مَلَائِكَةٌ اثْنَا عَشَرَ أَوْ عَشْرَةٌ أَوْ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ جَبْرِيلُ. ﴿إِذْ﴾ ظَرَفٌ لِـ ﴿حَدِيثِ ضَيْفِ﴾ ﴿دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أَي: هَذَا اللَّفْظُ ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أَي: هَذَا اللَّفْظُ^(٢) ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ لَا نَعْرِفُهُمْ، قَالَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ خَبْرٌ مُبْتَدَأٌ مُقَدَّرٌ، أَي: هَؤُلَاءِ. ﴿فَرَاغَ﴾ مَالَ ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ سِرًّا ﴿فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾ ﴿٢٧﴾ وَفِي سُورَةِ هُودٍ: ﴿بِعَجَلٍ حَنِيدٍ﴾ [هود: ٦٩] أَي: مَشُويٍّ. ﴿فَقَرَّبَهُوَ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ عَرَضَ عَلَيْهِمُ الْأَكْلَ فَلَمْ يُجِيبُوا. ﴿فَأَوْجَسَ﴾ أَضْمَرَ فِي نَفْسِهِ ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴿وَكَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿٢٩﴾ ذِي عِلْمٍ كَثِيرٍ، وَهُوَ إِسْحَاقُ كَمَا ذَكَرَ فِي هُودٍ^(٣). ﴿فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ﴾ سَارَّةٌ ﴿فِي صَرَّةٍ﴾ صَيِّحَةٍ حَالٍ، أَي: جَاءَتْ صَائِحَةً ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لَطَمَتْهُ ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ ﴿٣٠﴾ لَمْ تَلِدْ قَطُّ، وَعُمْرُهَا تِسْعٌ وَتِسْعُونَ سَنَةً وَعُمْرُ إِبْرَاهِيمَ مِائَةٌ سَنَةً أَوْ عُمْرُهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً وَعُمْرُهَا تِسْعُونَ سَنَةً ﴿قَالُوا كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلُ قَوْلِنَا فِي الْبَشَارَةِ ﴿قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ﴾ فِي صُنْعِهِ ﴿الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣١﴾ بِخَلْقِهِ. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ شَأْنُكُمْ ﴿أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٣﴾ كَافِرِينَ هُمْ قَوْمٌ لُوطٍ. ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن طِينٍ﴾ ﴿٣٤﴾ مَطْبُوحٍ بِالنَّارِ. ﴿مُسَوَّمَةً﴾ مُعَلَّمَةً عَلَيْهَا اسْمٌ مِّن يُّرْمَى بِهَا ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ ظَرَفٌ لَهَا ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ بِإِيتَانِهِمُ الذُّكُورَ مَعَ كُفْرِهِمْ. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ أَي: قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿مِّن

(١) يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون. [ابن كثير]. وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه وهو أبر المقسمين، وأكدته بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانة والبرهانية ما جعله معاناً مشاهداً بالبصائر وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له ولا تأخذ له أهبة. [التبيان في إيمان القرآن لابن القيم (١/٦٣٩)].

(٢) الرفع أقوى وأثبت من النصب، فردّه أفضل من التسليم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾ [النساء:

٨٦]، فالخليل اختار الأفضل. [ابن كثير (٧/٤٢٠)].

(٣) سورة هود الآيات (٦٩-٧٦).

﴿الْمُؤْمِنِينَ ٣٥﴾ لِإِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٦﴾ وَهُمْ لَوِطُوا وَابْتَتَاهُ وَصِفُوا بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، أَيُّ: هُمْ مُصَدِّقُونَ بِقُلُوبِهِمْ عَامِلُونَ بِجَوَارِحِهِمُ الطَّاعَاتِ^(١). ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ بَعْدَ إِهْلَاكِ الْكَافِرِينَ ﴿آيَةً﴾ عَلَامَةً عَلَى إِهْلَاكِهِمْ ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ٣٧﴾ يَفْعَلُونَ مِثْلَ فِعْلِهِمْ. ﴿وَفِي مُوسَى﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿فِيهَا﴾، الْمَعْنَى: وَجَعَلْنَا فِي قِصَّةِ مُوسَى آيَةً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ مُلْتَبِسًا ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ٣٨﴾ بِحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ. ﴿فَتَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿بِرُكْنِهِ﴾ مَعَ جُنُودِهِ؛ لِأَنَّهُمْ لَهُ كَالرُّكْنِ ﴿وَقَالَ﴾ لِمُوسَى: هُوَ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ ﴿طَرَحْنَاهُمْ﴾ فِي الْيَمِّ الْبَحْرِ فَغَرِقُوا ﴿وَهُوَ﴾ أَيُّ: فِرْعَوْنَ ﴿مُكَلِّمٌ ٤٠﴾ آتٍ بِمَا يُلَامُ عَلَيْهِ مِنْ تَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَدَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ. ﴿وَفِي﴾ إِهْلَاكِ ﴿عَادٍ﴾ آيَةً ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ٤١﴾ هِيَ الَّتِي لَا خَيْرَ فِيهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَحْمِلُ الْمَطَرَ وَلَا تَلْقَحُ الشَّجَرَ وَهِيَ الدَّبُورُ^(٢). ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ﴾

(١) كل مؤمن مسلم، ومن ذلك قوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] وقد أوضح الفرق رسول الله ﷺ بين الإسلام والإيمان في الحديث الثابت في الصحيحين [أخرجه البخاري (٤٧٧٧) ومسلم (٩) بالفاظ مختلفة] وغيرهما من طرق أنه سئل عن الإسلام فقال: «شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيْمُ الصَّلَاةِ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، وسئل عن الإيمان فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ». فالمرجع في الفرق بينهما هو الذي قاله الصادق المصدوق ولا التفات إلى غيره مما قاله أهل العلم في رسم كل واحد منهما برسوم مضطربة مختلفة متناقضة. وأما ما في الكتاب العزيز من اختلاف مواضع استعمال الإسلام والإيمان فذلك باعتبار المعاني اللغوية، والاستعمالات العربية، والواجب تقديم الحقيقة الشرعية على اللغوية، والحقيقة الشرعية هي هذه التي أخبرنا بها رسول الله ﷺ، وأجاب سؤال السائل له عن ذلك بها، قال الكرخي: فيه إشارة إلى ما قاله الخطابي وغيره: أن المسلم قد يكون مؤمناً وقد لا يكون، والمؤمن مسلم دائماً فهو أخص، وبهذا يستقيم تأويل الآيات والأحاديث. [صديق حسن (١٣/٢٠٤)].

(٢) وهي التي لا خير فيها ولا بركة لا تلقح شجراً ولا تحمل مطراً إنما هي ريح العذاب والإهلاك، قال علي: هي النكباء وهي كل ريح هبت بين ريحين لتتكبها وانحرفها عن مهاب الرياح المعروفة، وهي رياح متعددة لا ريح واحدة، قال ابن عباس: الريح العقيم الشديدة التي لا تلقح شيئاً، وعنه قال: لا تلقح الشجر ولا تثير السحاب، واختلف فيها فقيل: الجنوب، والأظهر أنها الدبور، لقوله ﷺ: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا وَاهْلِكْتُ عَادًا بِالدَّبُورِ». أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠). والعقم ههنا مستعار للمعنى المذكور على سبيل التبعية، شبه ما في الريح من الصفة التي تمنع من إنشاء مطر أو إلقاح شجر بما في المرأة من الصفة المذكورة التي تمنع من الحمل ... أو سماها عقيماً؛ لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أفاده الكرخي، وفي الشهاب أصل العقم اليبس المانع من قبول الأثر، كما قاله الراغب، وهو فعيل، بمعنى فاعل أو مفعول، فلما أهلكتهم وقطعت نسلهم شبه ذلك الإهلاك بعدم الحمل لما فيه من إذهاب النسل، وهذا هو المراد هنا. [صديق حسن (١٣/٢٠٦)].

نَفْسٍ أَوْ مَالٍ ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ ٤٢ ﴿كَالْبَالِي الْمَتَفَتِّ﴾. ﴿وَفِي إِهْلَاكِ ﴿ثَمُودَ﴾ آيَةً﴾ ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾
 بَعْدَ عَقْرِ النَّاقَةِ: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ ٤٣ ﴿إِلَىٰ انْقِضَاءِ أَجَالِكُمْ كَمَا فِي آيَةٍ: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:
 ٦٥]. ﴿فَعَتُوا﴾ تَكَبَّرُوا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أَي: عَنْ اللَّهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّعِقَةَ﴾ بَعْدَ مُضِيِّ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ،
 أَي: الصَّيْحَةُ الْمُهْلِكَةُ ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ٤٤ ﴿أَي: بِالنَّهَارِ. ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ مَا قَدَرُوا عَلَى النَّهْضِ حِينَ
 نَزُولِ الْعَذَابِ ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ ٤٥ ﴿عَلَىٰ مَنْ أَهْلَكَهُمْ. ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ﴾ بِالْجَرِّ عُطِفَ عَلَى ﴿ثَمُودَ﴾، أَي: وَفِي
 إِهْلَاكِهِمْ بِمَاءِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَةً، وَبِالنَّصْبِ، أَي: وَأَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ ﴿مَنْ قَبْلُ﴾ أَي: قَبْلَ إِهْلَاكِ هَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ
 ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ ٤٦ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ بِقُوَّةٍ ٤٧ ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ٤٨ قَادِرُونَ، يُقَالُ: آدَ الرَّجُلُ يَيْدُ:
 قَوِي، وَأَوْسَعَ الرَّجُلُ: صَارَ ذَا سِعَةٍ وَقُوَّةٍ. ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مَهْدْنَاهَا ﴿فَنِعْمَ الْمُهْدُونَ﴾ ٤٩ ﴿نَحْنُ. ﴿وَمِنْ كُلِّ
 شَيْءٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِقَوْلِهِ: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ صَنَفَيْنِ، كَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالسَّهْلِ
 وَالْجَبَلِ، وَالصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ، وَالْحُلُوِّ وَالْحَامِضِ، وَالنُّورِ وَالظُّلْمَةِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ٥٠ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ
 مِنَ الْأَصْلِ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ فَرْدٌ فَتَعْبُدُونَهُ. ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: إِلَى ثَوَابِهِ مِنْ عِقَابِهِ بِأَنْ تُطِيعُوهُ وَلَا
 تَعْصُوهُ ٥١ ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ٥٢ بَيْنَ الْإِنْذَارِ. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾
 ٥٣ ﴿يُقَدَّرُ قَبْلَ﴾ ﴿فَفِرُّوا﴾: ﴿قُلْ لَهُمْ﴾. ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا﴾ هُوَ ﴿سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾

(١) ليست من آيات الصفات المعروفة بهذا الاسم، لأن قوله: ﴿بِأَيْدٍ﴾ ليس جمع «يد»: وإنما «الأيدي» القوة، فوزن قوله هنا ﴿بِأَيْدٍ﴾
 «فعل»، ووزن الأيدي «أفعل»، فالهمزة في قوله: ﴿بِأَيْدٍ﴾ في مكان الفاء، والياء في مكان العين، والذال في مكان اللام، ولو كان قوله تعالى:
 ﴿بِأَيْدٍ﴾ جمع «يد» لكان وزنه أفعلا، فتكون الهمزة زائدة والياء في مكان الفاء، والذال في مكان العين، والياء المحذوفة لكونه منقوصا هي
 اللام. والأيدي، والآد في لغة العرب بمعنى القوة، و«رجل أيد» قوي، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي قويناه به،
 فمن ظن أنها جمع «يد» في هذه الآية فقد غلط غلطا فاحشا، والمعنى: والسماء بنيناها بقوة. [الشنقيطي (٧/ ٧١٠)].

(٢) لما دعا العباد النظر إلى آياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرا
 وباطنا، إلى ما يحبه ظاهرا وباطنا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله فمن
 استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المراهوب، وحصل له، نهاية المراد والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فرارا؛ لأن
 في الرجوع لغيره، أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه، أنواع المحاب والأمن والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره،
 إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه، إلا الله تعالى فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه. [السعدي (ص: ٨١١)].

﴿٥٢﴾ أَي: مِثْلَ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ بِقَوْلِهِمْ: «إِنَّكَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ»، تَكْذِيبُ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ رُسُلَهُمْ بِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ. ﴿أَتَوَصَّوْا﴾ كُلَّهُمْ ﴿بِهِ﴾ اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ جَمَعَهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ طُغْيَانُهُمْ^(١). ﴿فَتَوَلَّ﴾ أَعْرِضَ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ لِأَنَّكَ بَلَّغْتَهُمُ الرِّسَالَهَ. ﴿وَذَكِّرْ﴾ عِظْ بِالْقُرْآنِ ﴿فَإِنَّ الدَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ مَنْ عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يُؤْمِنُ^(٢). ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ عَدَمُ عِبَادَةِ الْكَافِرِينَ؛ لِأَنَّ الْغَايَةَ لَا يَلْزَمُ وُجُودَهَا كَمَا فِي قَوْلِكَ: «بَرَيْتُ هَذَا الْقَلَمَ لَا كُتِبَ بِهِ»، فَإِنَّكَ قَدْ لَا تَكْتُبُ بِهِ^(٣). ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ لِي وَلَا أَنْفُسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ وَلَا أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرَهُمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ ﴿٥٨﴾ الشَّدِيدُ. ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ، مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ﴿ذُنُوبًا﴾ نَصِيبًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿مِثْلَ ذُنُوبٍ﴾ نَصِيبِ ﴿أَصْحَابِهِمْ﴾ الْهَالِكِينَ قَبْلَهُمْ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ بِالْعَذَابِ إِنْ أَخَّرْتَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَوَيْلٌ﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ ﴿فِي يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ أَي: يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

(١) الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتعجيب من حالهم أي: هل أوصى أولهم آخرهم بالكذب وتواطؤوا عليه حتى قالوه جميعاً متفقين عليه؟ أو الاستفهام للنفي، أي: ما وقع منهم وصية بذلك لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن التواصي إلى ما جمعهم من الطغيان، أي: لم يتواصوا بذلك بل جمعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكفر، فهو إضراب انتقالي. [صديق حسن (١٣/ ٢١٠)].

(٢) أخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ﴿٩١﴾ سَيِّدُكَرٌّ مَنْ يَخْشَى ﴿٩٢﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿٩٣﴾ [الأعلى: ٩ - ١١] وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة، التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية، لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم. [السعدي (ص: ٨١٢)].

(٣) التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: إلا لأمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليعتقدهم أحسن عملاً، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم. قال تعالى في أول سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وقال تعالى في أول سورة الكهف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]. فتصريحه جل وعلا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملاً، يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾. [الشقيطي (٧/ ٧١٤)].

سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالطُّورِ ١﴾ أَي: الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُوسَى. ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ ٣﴾ أَي: التَّوْرَةِ، أَوْ الْقُرْآنِ ٤﴾. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ٥﴾ هُوَ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ أَوْ السَّادِسَةِ أَوْ السَّابِعَةِ بِحِيَالِ الْكَعْبَةِ يَزُورُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ بِالطَّوَافِ وَالصَّلَاةِ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ أَبَدًا ٦﴾. ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ٧﴾ أَي: السَّمَاءِ. ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ٨﴾ أَي: الْمَمْلُوءِ ٩﴾. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ١٠﴾ لَنَازِلٌ بِمُسْتَحِقِّهِ ١١﴾. ﴿مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ١٢﴾ عَنْهُ. ﴿يَوْمَ مَعْمُورٌ ١٣﴾

(١) القسم للتأكيد وتحقيق الوعيد، ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام. والطور: الجبل باللغة السريانية قاله مجاهد. وأدخل في العربية وهو من الألفاظ المعربة الواقعة في القرآن. وغلب علما على طور سيناء الذي ناجى فيه موسى عليه السلام، وأنزل عليه فيه الألواح المشتملة على أصول شريعة التوراة. فالقسم به باعتبار شرفه بنزول كلام الله فيه ونزول الألواح على موسى وفي ذكر الطور إشارة إلى تلك الألواح لأنها اشتهرت بذلك الجبل فسميت «طور» المعرب بتوراة. وأما الجبل الذي خوطب فيه موسى من جانب الله فهو جبل حوريب، واسمه في العربية «الزبير» ولعله بجانب الطور كما في قوله تعالى: ﴿عَآئِسٍ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، والقسم بالطور توطئة للقسم بالتوراة التي أنزل أولها على موسى في جبل الطور. والمراد بـ ﴿وَكُتِبَ مَسْطُورٍ ٢﴾ فِي رَقٍّ مَنَشُورٍ ٣﴾ التوراة كلها التي كتبها موسى عليه السلام بعد نزول الألواح، وتكثير كتاب للتعظيم. والرق: الصحيفة تتخذ من جلد مرقق أبيض ليكتب عليه. والمنشور: المبسوط غير المطوي. وكان اليهود يكتبون التوراة في رقروق ملصق بعضها ببعض أو مخيط بعضها ببعض، فتصير قطعة واحدة ويطوونها طيا أسطوانيا لتحفظ، فإذا أرادوا قراءتها نشروا مطويها، ومنه ما في حديث الرجم: «فشروا التوراة». وليس مراد بكتاب مسطور القرآن؛ لأن القرآن لم يكن يومئذ مكتوبا سطورا ولا هو مكتوبا في رق. [ابن عاشور (٣٦/٢٧)].

(٢) قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ». أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٤).

(٣) أي: الموقد المحمي من السجر وهو إيقاد النار في التنور ومنه قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] وقد ورد أن البحار تسجر يوم القيامة فتكون نارا فيزداد بها في نار جهنم، وقيل: المسجور المملوء بالماء وهو البحر المحيط كما ذكره العمادي، قيل: إنه من أسماء الأضداد، يقال بحر مسجور، أي: مملوء، وبحر مسجور، أي: فارغ خال... والأول أولى. [صديق حسن (٢١٩/١٣)].

(٤) هذا جواب القسم، ويعني عذاب الآخرة. [ابن جزي (٣١١/٢)].

لِ «وَأَقِمْ» ﴿تَمُورُ السَّمَاءِ مَوْرًا﴾ ﴿٩﴾ تَتَحَرَّكُ وَتَدُورُ. ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ تَصِيرُ هَبَاءً مَثُورًا^(١)، وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿فَوَيْلٌ﴾ شِدَّةُ عَذَابٍ ﴿يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١١﴾ لِلرُّسُلِ. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ﴾ بَاطِلٍ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَيُّ: يَتَشَاغِلُونَ بِكُفْرِهِمْ^(٢). ﴿يَوْمَ يُدْعُونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ ﴿١٣﴾ يُدْفَعُونَ بِعُنفٍ، بَدَلٌ مِنْ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ تَبْكِيًا: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿١٤﴾ أَفْسَحَرُ هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي تَرَوْنَ كَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي الْوَحْيِ: «هَذَا سِحْرٌ»^(٣) ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا عَلَيْهَا ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ صَبْرُكُمْ وَجَزَعُكُمْ ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ لِأَنَّ صَبْرَكُمْ لَا يَنْفَعُكُمْ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أَيُّ: جَزَاءُهُ^(٤). ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَعِيمٍ﴾ ﴿١٧﴾ فَلَكِهِنَّ مُتَلَذَّذِينَ ﴿بِمَا﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿ءَاتَلَهُمْ﴾ أَعْطَاهُمْ ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَّاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٨﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿ءَاتَلَهُمْ﴾ أَيُّ: بِإِتْيَانِهِمْ وَوَقَايَتِهِمْ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ حَالٌ، أَيُّ: مُتَهَنِّتِينَ ﴿بِمَا﴾ الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ ﴿كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٩﴾ مُتَكِينِينَ ﴿حَالٌ مِنَ الصَّيْرِ الْمُسْتَكِينِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ بَعْضُهَا إِلَى جَنْبِ بَعْضٍ ﴿وَزَوَّجْنَاهُمْ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿فِي جَنَّتٍ﴾، أَيُّ: قَرَّانَاهُمْ ﴿بِحُجُورٍ عِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ عِظَامُ الْأَعْيُنِ حَسَانُهَا. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿وَاتَّبَعْتُهُمْ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿ءَامَنُوا﴾ ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الصَّغَارُ وَالْكِبَارُ ﴿بِإِيمَانٍ﴾ مِنَ الْكِبَارِ، وَمِنْ الْآبَاءِ فِي الصَّغَارِ، وَالْخَبَرُ: ﴿الْحَقَّقْنَا بِهِمْ

(١) المور بفتح الميم وسكون الواو: التحرك باضطراب، ومور السماء هو اضطراب أجسامها من الكواكب واختلال نظامها وذلك عند انقراض عالم الحياة الدنيا. وسير الجبال: انتقالها من مواضعها بالزلازل التي تحدث عند انقراض عالم الدنيا، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا﴾ [الزلزلة: ١]. [ابن عاشور (٢٧/٤١)].

(٢) أي: في تردد في الباطل واندفاع فيه يلهون، لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً، والمعنى: أنهم يخوضون في أمر محمد ﷺ بالتكذيب والاستهزاء، وقيل: يخوضون في أسباب الدنيا، ويعرضون عن الآخرة، والخوض من المعاني الغالبة، فإنه يصلح للخوض في كل شيء إلا أنه غلب في الخوض في الباطل. [صديق حسن (١٣/٢٢١)]. كما قال تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥].

(٣) ﴿أَفْسَحَرُ هَذَا﴾ توبيخ وتقرع لهم حيث كانوا يسمونه سحراً، كأنه قيل: كنتم تقولون للقرآن الناطق بهذا سحر فهذا أيضاً سحر، وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ ﴿أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: أم أنتم عمي عن المخبر عنه كما كنتم عمياً عن الخبر، أو أم سدت أبصاركم كما سدت في الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٥]. [أبو السعود (٨/١٤٧)].

(٤) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن الكفار معذبون في النار لا محالة، سواء صبروا أو لم يصبروا، فلا ينفعهم في ذلك صبر ولا جزع، وقد أوضح هذا المعنى في قوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]. [الشنقيطي (٧/٧٢٩)].

ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿١﴾ الْمَذْكُورِينَ فِي الْجَنَّةِ فَيَكُونُونَ فِي دَرَجَتِهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا تَكْرِمَةً لِلْأَبَاءِ بِاجْتِمَاعِ الْأَوْلَادِ إِلَيْهِمْ ﴿وَمَا أَلْتَنَّهُمْ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا: نَقَضْنَاهُمْ ﴿مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿شَيْءٍ﴾ يُزَادُ فِي عَمَلِ الْأَوْلَادِ ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ﴾ مِنْ عَمَلٍ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ ﴿رَهِيْنٌ ۝٢١﴾ مَرْهُونٌ، يُؤَاخِذُ بِالشَّرِّ وَيَجَازِي بِالْخَيْرِ ^(١). ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ زِدْنَاهُمْ فِي وَقْتٍ بَعْدَ وَقْتٍ ﴿بِفَكْهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ وَإِنْ لَمْ يُصِرَّ حُوا بِطَلَبِهِ. ﴿يَتَنَزَّعُونَ﴾ يَتَعَاطُونَ بَيْنَهُمْ ﴿فِيهَا﴾ أَيُّ: الْجَنَّةِ ﴿كَأَنَّا﴾ حَمْرًا ﴿لَا لَعُوْ فِيهَا﴾ أَيُّ: بِسَبَبِ شُرْبِهَا يَقَعُ بَيْنَهُمْ ﴿وَلَا تَأْتِيْمٌ ۝٢٣﴾ بِهِ يَلْحَقُهُمْ بِخِلَافِ حَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿* وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿عِلْمَانٌ﴾ أَرْقَاءُ ﴿لَهُمْ كَأَنَّهُمْ﴾ حُسْنًا وَلَطَافَةً ﴿لَوْلَوْ مَكْنُونٌ ۝٢٤﴾ مَصُونٌ فِي الصَّدَفِ؛ لِأَنَّهُ فِيهَا أَحْسَنُ مِنْهُ فِي غَيْرِهَا. ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥﴾ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ وَمَا وَصَلُوا إِلَيْهِ تَلَذُّذًا وَاعْتِرَافًا بِالنِّعْمَةِ. ﴿قَالُوا﴾ إِيْمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ الْوُصُولِ: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مُشْفِقِينَ ۝٢٦﴾ خَائِفِينَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ. ﴿فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بِالْمَغْفِرَةِ ﴿وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧﴾ أَيُّ: النَّارِ لِدُخُولِهَا فِي الْمَسَامِ. وَقَالُوا إِيْمَاءٌ أَيْضًا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا ﴿نَدْعُوهُ﴾ نَعْبُدُهُ مُوَحِّدِينَ ﴿إِنَّهُ﴾ بِالْكَسْرِ اسْتِنْفَافًا وَإِنْ كَانَ تَعْلِيلًا مَعْنَى، وَبِالْفَتْحِ تَعْلِيلًا لَفْظًا ﴿هُوَ الْبَرُّ﴾ الْمُحْسِنُ الصَّادِقُ فِي وَعْدِهِ ﴿الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ الْعَظِيمُ الرَّحْمَةُ. ﴿فَذَكِّرْ﴾ دُمْ عَلَى تَذَكِيرِ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَرْجِعْ عَنْهُ لِقَوْلِهِمْ لَكَ: «كَاهِنٌ مَجْنُونٌ» ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْكَ ﴿بِكَاهِنٍ﴾ خَبَرَ «مَا» ﴿وَلَا مَجْنُونٍ ۝٢٩﴾ مَعْطُوفٌ عَلَيْهِ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿يَقُولُونَ﴾ هُوَ ﴿شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ۝٣٠﴾ حَوَادِثُ الدَّهْرِ، فَيَهْلِكُ كَعِيره مِنَ الشُّعْرَاءِ. ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ هَلَاكِي ﴿فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ هَلَاكِكُمْ، فَعُدُّبُوا بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَالتَّرَبُّصُ: الْإِنْتِظَارُ ^(٢). ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ﴾ عَقُولُهُمْ

(١) أي: حال كون الذرية متلبسة بإيمان استقلالي أو تبعية، أما الذرية الكافرة فلا تتبع آباءها، وهذا على أن «الباء» للملابسة، لكن جمهور المفسرين على أنها للسببية أو بمعنى «في»، وبهذا الاعتبار لا يظهر دخول الأولاد الكبار، فإن إيمانهم استقلالي لا تبعية كالصغار، وقال أبو السعود: أي: اتبعتهم ذريتهم بإيمان قاصر عن رتبة إيمان الآباء، واعتبار هذا القيد للإيدان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل أصالة لا إلحاقًا. والذرية هنا تصدق على الآباء وعلى الأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله أكثر ألحق به من دونه في العمل، ابنًا كان أو أبًا، وهو منقول عن ابن عباس وغيره. [صديق حسن (١٣/ ٢٢٤)]. [وقيل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ أي: اقتفت آثارهم في الإيمان والعمل الصالح ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: في الجنات والنعيم، وأما من قال في معناها: إن المؤمن ترفع له ذريته فيلحقون به، إن كانوا دونه في العمل، فلا تقتضيه الآية تصريحًا ولا تلويحًا. [القاسمي (٩/ ٥١)].

(٢) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ أي: حوادث الدهر أو الموت؛ لأن المنون قد يراد به الدهر، وريبه: صروفه. وقد يراد به

﴿بِهَذَا﴾ أَي: قَوْلِهِمْ لَهُ: «سَاحِرٌ كَاهِنٌ مَجْنُونٌ»، أَي: لَا تَأْمُرُهُمْ بِذَلِكَ ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ٣٢ ﴿بِعِنَادِهِمْ.﴾
 ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ؟ لَمْ يَخْتَلِقْهُ ﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٣٣ ﴿اسْتَكْبَارًا.﴾ فَإِنْ قَالُوا: اخْتَلَقَهُ ﴿فَلْيَأْتُوا
 بِحَدِيثٍ﴾ مُخْتَلَقٍ ﴿مِثْلِهِ﴾ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ٣٤ ﴿فِي قَوْلِهِمْ﴾ ٣٥. ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ ﴿أَمْ هُمْ
 الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ ﴿أَنْفُسُهُمْ، وَلَا يُعْقِلُ مَخْلُوقٌ بِغَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا مَعْدُومٌ يَخْلُقُ، فَلَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ خَالِقٍ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ، فَلَمْ
 لَا يُوحِدُونَهُ وَيُؤْمِنُونَ بِرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ﴾ ٣٦. ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وَلَا يَقْدِرُ عَلَى خَلْقِهِمَا إِلَّا اللَّهُ الْخَالِقُ، فَلَمْ
 لَا يَعْبُدُونَهُ؟ ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ ٣٧ ﴿بِهِ، وَإِلَّا لَا آمَنُوا بِنَبِيِّهِ.﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ﴾ مِنَ النَّبُوءَةِ وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهِمَا،
 فَيَخْصُصُوا مَنْ شَاءُوا بِمَا شَاءُوا ﴿أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ﴾ ٣٧ ﴿الْمُتَسَلِّطُونَ الْجَبَّارُونَ، وَفِعْلُهُ: «سَيَطَرَ»، وَمِثْلُهُ: بَيَطَرَ
 وَبَيَّرَ ٣٨. ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مَرَقَى إِلَى السَّمَاءِ ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أَي: عَلَيْهِ كَلَامَ الْمَلَائِكَةِ، حَتَّى يُمَكِّنَهُمْ مَنَازِعَةَ النَّبِيِّ
 بِزَعْمِهِمْ إِنْ ادَّعَوْا ذَلِكَ ﴿فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ﴾ مُدَّعِيِ الْإِسْتِمَاعِ عَلَيْهِ ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ٣٨ ﴿بِحُجَّةٍ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ،
 وَلِشِبِّهِ هَذَا الزَّعْمِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُ أَلْبَنَاتُ﴾ بِزَعْمِكُمْ ﴿وَلَكُمْ أَلْبَنُونَ﴾ ٣٩ ﴿تَعَالَى
 اللَّهُ عَمَّا زَعَمْتُمُوهُ.﴾ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا﴾ عَلَى مَا جِئْتَهُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ ﴿فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ﴾ غَرَمَ ذَلِكَ ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ٤٠
 فَلَا يُسْلِمُونَ ٤١. ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أَي: عِلْمُهُ ﴿فَهُمْ يَكْتُتُونَ﴾ ٤١ ﴿ذَلِكَ، حَتَّى يُمَكِّنَهُمْ مَنَازِعَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

الموت، وربيّه نزوله ﴿قُلْ تَرَبُّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ أَي: حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ فِيكُمْ، وَالْأَمْرُ لِلتَّهَكُّمِ بِهِمِ وَالتَّهْدِيدِ. [القاسمي (٥٢/٩)].
 (١) تحداهم في سورة الطور هذه به كله في قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾ الآية. وتحداهم في سورة هود بعشر سور منه في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ
 سُورٍ مِثْلِهِ﴾ مُفْتَرِيَتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿الآية [هود: ١٣]. وتحداهم بسورة واحدة من هذا القرآن في سورة البقرة في قوله:
 ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ٢٣]، وبين في سورة بني إسرائيل أنهم لا يقدرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ
 فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٨]. [الشنقيطي (٧٣٧/٧)].

(٢) هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أَي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم
 أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً. عن محمد بن جبير ابن مطعم، عن أبيه قال:
 سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ ٣٥ أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا
 يُوقِنُونَ ٣٦ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ أَمْ هُمُ الْمُصِيطِرُونَ ٣٧ ﴿كاد قلبي أن يطير. أخرجه البخاري (٤٨٥٤). [ابن كثير (٤٣٧/٧)].

(٣) لم يأت على مفعيل إلا خمسة ألفاظ، أربعة صفة اسم فاعل مهيمن ومسيطر ومسيطر، وواحد اسم جبل، وهو المحيمر، قال في الصحاح:
 المسيطر المسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد أحواله ويكتب عمله. وأصله من السطر لأن الكتاب يسطر. [صديق حسن (٢٣٣/١٣)].

(٤) أي: مجهودون بحملهم ذلك المغرم الثقيل ومتعبون ومغتمون، من أثقله الحمل أتعبه لكن هذا الثقل معنوي لأن العادة أن من غرم

الْبَعْثِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ بِزَعْمِهِمْ. ﴿٤٢﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴿٤٣﴾ بَكَ لِيُهْلِكَوكَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ ﴿٤٤﴾ قَالَتَيْنِ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٥﴾ الْمَغْلُوبُونَ الْمُهْلَكُونَ، فَحَفِظَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ ثُمَّ أَهْلَكَهُمْ بِبَدْرِ. ﴿٤٦﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٧﴾ بِهِ مِنَ الْإِلَهَةِ، وَالْإِسْتِفْهَامِ بِأَمٍّ فِي مَوَاضِعِهَا لِلتَّقْبِيحِ وَالتَّوْبِيخِ. ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا ﴿٤٩﴾ بَعْضًا ﴿٥٠﴾ مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴿٥١﴾ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿٥٢﴾ فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴿٥٣﴾ [الشعراء: ١٨٧] أَيْ: تَعْذِيْبًا لَهُمْ ﴿٥٤﴾ يَقُولُوا ﴿٥٥﴾ هَذَا ﴿٥٦﴾ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٥٧﴾ مُتْرَاكِبٌ تُرْتَوِي بِهِ، وَلَا يُؤْمِنُوا^(١). ﴿٥٨﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٥٩﴾ يَمُوتُونَ. ﴿٦٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي ﴿٦١﴾ بَدَلٌ مِّنَ ﴿٦٢﴾ يَوْمِهِمْ ﴿٦٣﴾ عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٦٤﴾ يُمْنَعُونَ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿٦٦﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿٦٧﴾ عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ ﴿٦٨﴾ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ مَوْتِهِمْ، فَعَذَّبُوا بِالْجُوعِ وَالْقَحْطِ سَبْعَ سِنِينَ، وَبِالْقَتْلِ يَوْمَ بَدْرِ ﴿٦٩﴾ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ أَنَّ الْعَذَابَ يَنْزِلُ بِهِمْ. ﴿٧١﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴿٧٢﴾ بِإِمْهَالِهِمْ وَلَا يَضِقْ صَدْرُكَ ﴿٧٣﴾ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴿٧٤﴾ بِمَرَأَىٰ مِنَّا تَرَاكٌ وَنَحْفُظُكَ^(٢) ﴿٧٥﴾ وَسَبِّحْ ﴿٧٦﴾ مُتَبَسِّئًا ﴿٧٧﴾ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴿٧٨﴾ أَيْ: قُلْ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ» ﴿٧٩﴾ حِينَ تَقُومُ ﴿٨٠﴾ مِنْ مَنَامِكَ أَوْ مِنْ مَجْلِسِكَ. ﴿٨١﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴿٨٢﴾ حَقِيقَةً أَيْضًا ﴿٨٣﴾ وَإِذْبَرِ الْجُومِ ﴿٨٤﴾ مَصْدَرٌ، أَيْ: عَقَبَ غُرُوبَهَا سَبَّحَهُ أَيْضًا، أَوْ صَلَّ فِي الْأَوَّلِ الْعِشَاءَيْنِ، وَفِي الثَّانِي الْفَجْرَ، وَقِيلَ: الصُّبْحُ^(٣).

إنسانًا ما لا يصير الغارم مغتمًا منه وكارهًا له فلا يسمع قوله، ولا يمثله. [صديق حسن (١٣/ ٢٣٤)].

(١) وهو من قيل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤- ١٥]... المقصود أن العناد شيمتهم فرع عليه أن أمر الله ﷻ بأن يتركهم... أي: أن لا يسأل الله إظهار ما اقترحوه من الآيات؛ لأنهم لا يقترحون ذلك طلبًا للحجة ولكنهم يكابرون، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦- ٩٧]. وليس المراد ترك دعوتهم وعرض القرآن عليهم. [ابن عاشور (٢٧/ ٨٠)].

(٢) قال الزجاج: إنك بحيث نراك ونحفظك ونرعاك، فلا يصلون إليك، وإنما جمع لفظ الأعين مع أن مدلوله واحد، وهو المصدر لمناسبة نون العظمة. [صديق حسن (١٣/ ٢٣٧)]. وهذا كما يقول القائل لمن أشفق عليه وأحبه: أنت في عيني، ومن المعلوم أن مثل هذا الأسلوب لا يعني أن مخاطبه حال في عينه، بل المعنى: أنت مني على مرأى وعلى رقابة وعلى حماية. وفي هذه الآية: إثبات العين لله عز وجل، وهي حقيقة، لكنها لا تماثل أعين الخلق أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. [ابن عثيمين تفسير الطور (ص: ٢٠٢)].

(٣) والآية تشير إلى أوقات الرغائب من النوافل وهي صلاة الفجر والأشفاق بعد العشاء وقيام آخر الليل. وقيل: أشارت إلى الصلوات الخمس بوجه الإجمال وبينته السنة. [ابن عاشور (٢٧/ ٨٦)].

سُورَةُ النَّجْمِ

مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَسِتُّونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّجْمِ﴾ الثُّرَيَّا ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ ١ ﴿غَابَ﴾ ٢. ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ عَنْ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ ﴿وَمَا غَوَى﴾ ٣ ﴿مَا لَا بَسَ﴾ «الْغَيِّ» وَهُوَ: جَهْلٌ مِنْ اعْتِقَادٍ فَاسِدٍ ٤. ﴿وَمَا يَنْطِقُ﴾ بِمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ﴿عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ٥ ﴿هَوَىٰ نَفْسِهِ﴾. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ ٦ ﴿إِلَيْهِ﴾. ﴿عَلَّمَهُ﴾ إِيَّاهُ مَلَكٌ ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ٧ ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ ٨ أَوْ مَنْظَرٍ حَسَنِ، أَيُّ: جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ ٩ ﴿اسْتَقَرَّ﴾ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى ١٠ ﴿أَفْقَ الشَّمْسِ﴾، أَيُّ: عِنْدَ مَطْلَعِهَا عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَرَأَاهُ النَّبِيُّ ﷺ وَكَانَ بِحِرَاءَ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ إِلَى الْمَغْرِبِ، فَحَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ١١ وَكَانَ قَدْ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا فَوَاعَدَهُ بِحِرَاءَ، فَتَزَلَّ جِبْرِيلُ لَهُ فِي صُورَةِ الْأَدَمِيِّينَ ١٢. ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ قَرَّبَ مِنْهُ

(١) يقسم تعالى بالنجم عند هويته، أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجيبة، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلو لا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل البهيم. [السعدي (ص: ٨١٨)].

(٢) هذا جواب القسم، والخطاب لقريش، وصاحبكم هو النبي ﷺ، فنفي عنه الضلال والغي، والفرق بينهما: أن الضلال بغير قصد، والغي بقصد وتكسب. [ابن جزي (٢/٣١٦)].

(٣) ومنه قول النبي ﷺ: «لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لَغَنِيٍّ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ». أخرجه أبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢)، وأصل المرة من مراتر الجبل وهي فتله وإحكام عمله. [الثعالبي (٥/٣٢٢)]. ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

(٤) قال رسول الله ﷺ: «فِينَا أَنَا أَمْشِي، إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ رُعبًا» أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١). وقال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَاةٌ جَنَاحٌ». تفسير الطبري (٢٧/٢٧).

(٥) عن ابن عباس رضيهما الله عنهما قال: سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته، فقال: ادع ربك. قال: فدعاه، قال: فطلع عليه سواد من قبل المشرق، قال: فجعل يرتفع ويتشر، قال: فلما رآه النبي ﷺ صعق، فأنابه فنعشه، ومسح البزاق عن شدة. أخرجه أحمد (٢٩٦٥). وقول المحلي: «فَتَزَلَّ جِبْرِيلُ لَهُ فِي صُورَةِ الْأَدَمِيِّينَ» أي: بعد ذلك حتى لا يصعق.

﴿فَتَدَلَّى﴾ (٨) ﴿زَادَ فِي الْقُرْبِ﴾ (٩) ﴿فَكَانَ مِنْهُ﴾ ﴿قَابٌ﴾ قَدَرٌ ﴿قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (١٠) ﴿مِنْ ذَلِكَ﴾ (١١) حَتَّى أَفَاقَ وَسَكَنَ رُوعُهُ. ﴿فَأَوْحَى﴾ تَعَالَى ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ جِبْرِيلَ ﴿مَا أَوْحَى﴾ (١٢) جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَذْكُرِ الْمُوحَى تَفْخِيمًا لِّشَأْنِهِ (١٣). ﴿مَا كَذَبَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ أَنْكَرَ ﴿الْفُؤَادُ﴾ فُؤَادَ النَّبِيِّ ﴿مَا رَأَى﴾ (١٤) بِبَصَرِهِ مِنْ صُورَةِ جِبْرِيلَ. ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ أَتَجَادَلُونَهُ وَتَعْلِبُونَهُ ﴿عَلَى مَا يَرَى﴾ (١٥) خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ الْمُنْكَرِينَ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ لِجِبْرِيلَ. ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ عَلَى صُورَتِهِ (١٦) ﴿نَزَلَهُ﴾ مَرَّةً ﴿أُخْرَى﴾ (١٧) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٨) لَمَّا أُسْرِيَ بِهِ فِي السَّمَاوَاتِ، وَهِيَ شَجَرَةٌ

(١) تدلى: انخفض من علو قليلا، أي: ينزل من طبقات إلى ما تحتها كما يتدلى الشيء المعلق في الهواء بحيث لو رآه الراي يحسبه متدليا، وهو ينزل من السماء غير منقوض. [ابن عاشور (٩٦/٢٧)].

(٢) هذه الصيغة تستعمل في اللغة لإثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه، كقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألين من الحجارة، بل هي مثلها أو تزيد عليها في الشدة والقسوة ... وهذا الذي قلناه من أن هذا المقرب الداني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ، إنما هو جبريل، عليه السلام، هو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأبي هريرة ... وروى مسلم في صحيحه، عن ابن عباس أنه قال: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». أخرجه مسلم (١٧٦). فجعل هذه إحداهما. وجاء في حديث شريك بن أبي نمر، عن أنس في حديث الإسراء: «ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى» ولهذا تكلم كثير من الناس في متن هذه الرواية، وذكروا أشياء فيها من الغرابة، فإن صح فهو محمول على وقت آخر وقصة أخرى، لا أنها تفسر لهذه الآية؛ فإن هذه كانت ورسول الله ﷺ في الأرض لا ليلة الإسراء؛ ولهذا قال بعده: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَهُ أُخْرَى﴾ (١٧) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٨) فهذه هي ليلة الإسراء والأولى كانت في الأرض. [ابن كثير (٤٤٦/٧)].

(٣) ولم يبين ما أوحى به تعظيما له؛ لأن الإبهام يأتي مرادًا به التفضيم والتعظيم، ومنه قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ اللَّيْلِ مَا عَاشِيَهُمْ﴾ [طه ٧٨] أي: غشيهم شيء عظيم. [ابن عثيمين تفسير النجم (ص: ٢٠٨)].

(٤) هذه هي المرة الثانية التي رأى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء ... عن عامر قال: أتى مسروق عائشة فقال: يا أم المؤمنين، هل رأى محمد ﷺ ربه عز وجل؟ قالت: سبحان الله لقد قف شعري لما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب: من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، ومن أخبرك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، ومن أخبرك أن محمدا قد كتم، فقد كذب، ثم قرأت: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولكنه رأى جبريل في صورته مرتين. أخرجه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧). عن مسروق قال: كنت عند عائشة فقلت: أليس الله يقول: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَهُ أُخْرَى﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله ﷺ عنها، فقال: «إِنَّمَا ذَاكَ جِبْرِيلُ». لم يره في صورته التي خلق عليها إلا مرتين، رآه

نَبِّ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، لَا يَتَجَاوَزُهَا أَحَدٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ^(١). ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ تَأْوِي إِلَيْهَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ أَرْوَاحُ الشُّهَدَاءِ أَوِ الْمُتَّقُونَ. ﴿إِذْ﴾ حِينَ ﴿يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ ﴿١٦﴾ مِنْ طَيْرٍ وَغَيْرِهِ^(٢)، وَ﴿إِذْ﴾ مَعْمُولَةٌ لـ ﴿رَعَاهُ﴾. ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ﴾ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَمَا طَغَى﴾ ﴿١٧﴾ أَيُّ: مَا مَالَ بَصْرُهُ عَنْ مَرِيئِهِ الْمَقْصُودِ لَهُ، وَلَا جَاوَزَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ^(٣). ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ فِيهَا ﴿مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ ﴿١٨﴾ الْعِظَامِ، أَيُّ: بَعْضُهَا، فَرَأَى مِنْ عَجَائِبِ الْمَلَكُوتِ رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أَفْقَ السَّمَاءِ، وَجَبْرِيلَ لَهُ سِتْمَاتُهُ جَنَاحٌ^(٤). ﴿أَفْرَأَيْتُمْ أَلَّا لِلَّهِ أَلْعَزَىٰ﴾ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةٌ الثَّالِثَةُ ﴿لَلَّتَيْنِ قَبْلَهَا﴾ ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ ﴿٢٠﴾ صِفَةُ ذِمٍّ لِلثَّالِثَةِ^(٥)، وَهِيَ أَصْنَامٌ مِنْ حِجَارَةٍ كَانِ الْمُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَهَا وَيَزْعُمُونَ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ

منهبطا من السماء إلى الأرض، سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض. أخرجه مسلم (١٧٧). [ابن كثير (٧/ ٤٥١)].

(١) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُتَهَيِّ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ بَنَقَهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الْفِيلَةِ، يَخْرُجُ مِنْ سَاقِهَا نَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، وَنَهْرَانِ بَاطِنَانِ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، مَا هَذَا؟ قَالَ: أَمَّا النَّهْرَانِ الْبَاطِنَانِ فِئِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ فَالْنَّبِيلُ وَالْفَرَاتُ». أخرجه البخاري معلقاً (٥٦١٠)، وأخرجه موصولاً مسلم (١٦٢). وعند مسلم: «فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ مَا غَشِيَتْ، فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يُحْسِنُ يَصِفُهَا مِنْ حُسْنِهَا». أخرجه مسلم (١٦٢). وفي سبب تسميتها سدرة المتهى خمسة أوجه: أحدها: لأنه ينتهي علم الأنبياء إليها، ويعزب علمهم عما وراءها، قاله ابن عباس. الثاني: لأن الأعمال تنتهي إليها وتقبض منها، قاله الضحاك. الثالث: لانتهاه الملائكة والنبيين إليها ووقوفهم عندها، قاله كعب. الرابع: لأنه ينتهي إليها كل من كان على سنة رسول الله ﷺ ومنهاجه، قاله الربيع بن أنس. الخامس: لأنه ينتهي إليها كل ما يهبط من فوقها ويصعد من تحتها، قاله ابن مسعود. [الماوردي (٥/ ٣٩٥)].

(٢) فيه إيهام لقصد التعظيم، قال ابن مسعود: غشيتها فراش من ذهب، وقيل: كثرة الملائكة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ». أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣). وهذا أولى أن تفسر به الآية. [ابن جزي (٢/ ٣١٨)].

(٣) وهذا كمال الأدب منه ﷺ أَنْ قَامَ مَقَامًا أَقَامَهُ اللَّهُ فِيهِ، وَلَمْ يَقْصُرْ عَنْهُ وَلَا تَجَاوَزَهُ وَلَا حَادَ عَنْهُ، وَهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الْأَدَبِ الْعَظِيمِ، الَّذِي فَاقَ فِيهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَإِنَّ الْإِخْلَالَ يَكُونُ بِأَحَدِ هَذِهِ الْأُمُورِ: إِمَّا أَلَّا يَقُومَ الْعَبْدُ بِمَا أَمَرَ بِهِ، أَوْ يَقُومَ بِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْرِيطِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الْإِفْرَاطِ، أَوْ عَلَى وَجْهِ الْحَيْدَةِ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مُتَنَفِيَةٌ عَنْهُ ﷺ. [السعدي (ص: ٨١٨)].

(٤) أخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر وجماعة: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ: رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ مِنَ الْجَنَّةِ قَدْ سَدَّ الْأَفْقَ. وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ: رَأَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الصُّورَةِ الَّتِي هُوَ بِهَا، وَالَّذِي يَنْبَغِي أَلَّا يَحْمِلَ ذَلِكَ عَلَى الْحَصْرِ كَمَا لَا يَخْفَى فَقَدْ رَأَى ﷺ آيَاتِ كِبَرِي لَيْلَةِ الْمَعْرَاجِ لَا تَحْصَى وَلَا تَكَادُ تَسْتَقْصَى. [الآلوسي (١٤/ ٥٢)].

(٥) يعني أن مناة تثلثهما، أي: تكمل اللات والعزى ليصير الجميع ثلاثة. [المفصل لقباوة (ص: ١٨٦٣)].

(٦) أي: المتأخرة في الرتبة، وهي وضعية المقدار، ولهذا قال عنها المحلي: «صفة ذم». [المفصل لقباوة (ص: ١٨٦٣)]. وانظر بطلان قصة الغرانيق حاشية تفسير آية (٥٢) من سورة الحج.

اللَّهُ، وَمَفْعُولٌ «أَرَأَيْتَ» الْأَوَّلُ: اللَّاتَ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ، وَالثَّانِي: مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: أَخْبِرُونِي أَلِهَهِ الْأَصْنَامِ قُدْرَةً عَلَى شَيْءٍ مَا، فَتَعْبُدُونَهَا دُونَ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ. وَلَمَّا زَعَمُوا أَيْضًا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ مَعَ كَرَاهَتِهِمُ الْبَنَاتِ، نَزَلَتْ: ﴿الْكُفْرُ وَالْأُنْثَى ۖ تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى ۝﴾ جَائِزَةٌ، مِنْ: ضَاوَهُ يَضِيزُهُ، إِذَا ظَلَمَهُ وَجَارَ عَلَيْهِ^(١). ﴿إِنْ هِيَ﴾ أَيُّ: مَا الْمَذْكُورَاتُ ﴿إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهُنَّ﴾ أَيُّ: سَمَّيْتُمْ بِهَا^(٢) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا﴾ أَيُّ: بِعِبَادَتِهَا ﴿مِنْ سُلْطَانٍ﴾ حُجَّةٍ وَبُرْهَانٍ ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِي عِبَادَتِهَا ﴿إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ مِمَّا زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ، مِنْ أَنَّهَا تَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ۝﴾ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ بِالْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ، فَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ. ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ﴾ أَيُّ: لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ ﴿مَا تَمَنَّى ۝﴾ مِنْ أَنَّ الْأَصْنَامَ تَشْفَعُ لَهُمْ؟ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ^(٣). ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ۝﴾ أَيُّ: الدُّنْيَا، فَلَا يَقَعُ فِيهَا إِلَّا مَا يُرِيدُهُ تَعَالَى. ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ﴾ أَيُّ: وَكَثِيرٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ وَمَا أَكْرَمَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴿لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ﴾ لَهُمْ فِيهَا ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ مِنْ عِبَادِهِ ﴿وَيَرْضَى ۝﴾ عَنَّهُ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَا تَوْجَدُ مِنْهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْإِذْنِ فِيهَا: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]^(٤). ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ۝﴾ حَيْثُ قَالُوا:

(١) قال البغوي: ليس في كلام العرب «فعلى» بكسر الفاء في النعوت، إنما تكون في الأسماء مثل: ذكرى وشعري، قال المؤرج: كرهوا ضم الضاد في «ضيزى»، وخافوا انقلاب الياء واوًا، وهي من بنات الواو، فكسروا الضاد لهذه العلة، كما قالوا في جمع الأبيض بيض، وكذا قال الزجاج، وقيل: هي مصدر كـ «ذكرى» فيكون المعنى: قسمة ذات جور وظلم، قال ابن عباس: ضيزى جائرة لا حق فيها، وقيل: عوجاء غير معتدلة. [صديق حسن (١٣/٢٥٧)].

(٢) الضمير للأصنام، أي: ما هي باعتبار الألوهية إلا أسماء تطلقونها عليها لأنهم يقولون إنها آلهة وليس فيها شيء من معنى الألوهية، أو للصفة التي تصفونها بها من كونها آلهة وبنات وشفعاء، أو للأسماء المذكورة فإنهم كانوا يطلقون اللات عليها باعتبار استحقاقها للعكوف على عبادتها، والعزى لعزتها، ومناة لاعتقادهم أنها تستحق أن يتقرب إليها بالقرابين. [البياضوي (٥/١٥٩)].

(٣) أي: ليس ما يشتهي من الأمور التي منها طمعه الفارغ في شفاعة الأنداد، وتعبته في دفاع اليقين بالظن، وتركه نفسه وهوها بلا شرع يقيده ولا مهيمن يزعه. فإن ذلك من المحالات في نظر العقل السليم، كقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. [القاسمي (٩/٧٦)].

(٤) أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله، موافقا فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذا لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين. [السعدي (ص: ٨٢٠)].

«هُم بَنَاتُ اللَّهِ». ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ﴾ بِهَذَا الْمَقُولِ ﴿مِنْ عِلْمٍ إِنْ﴾ مَا ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ فِيهِ ﴿إِلَّا الظَّنُّ﴾ الَّذِي تَخَيَّلُوهُ ﴿وَأَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (٢٨) ﴿أَيُّ: عَنِ الْعِلْمِ فِيمَا الْمَطْلُوبُ فِيهِ الْعِلْمُ. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿وَلَمْ يَرِدْ إِلَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (٢٩) ﴿وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ﴾ (٣٠) ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: طَلَبُ الدُّنْيَا ﴿مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أَيُّ: نِهَايَةُ عِلْمِهِمْ أَنْ أَتَرَوْا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ (٣١) ﴿عَالَمٌ بِهِمَا فَيَجَارِيهِمَا. ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيُّ: هُوَ مَالِكٌ لِدَلِكِ وَمِنْهُ الضَّالُّ وَالْمُهْتَدِي، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (٣٢) ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ مِنَ الشَّرِّ وَغَيْرِهِ ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ بِالْتَّوْحِيدِ وَغَيْرِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ ﴿بِالْحُسْنَى﴾ (٣٣) ﴿أَيُّ: الْجَنَّةِ﴾ (٣٤) ﴿وَبَيْنَ الْمُحْسِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ هُوَ صِغَارُ الذُّنُوبِ، كَالنَّظَرَةِ وَالْقُبْلَةِ وَاللَّمَسَةِ، فَهُوَ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ، وَالْمَعْنَى: لَكِنَّ اللَّمَمَ يُغْفَرُ بِاجْتِنَابِ الْكِبَائِرِ﴾ (٣٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ بِذَلِكَ وَبِقَبُولِ التَّوْبَةِ، وَنَزَلَ فِيمَنْ كَانَ يَقُولُ: «صَلَاتُنَا

(١) أي: أترك مجادلهم فقد بلغت وأتيت بما كان عليك، وأكثر المفسرين يقولون: بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: «فأعرض» منسوخ بآية القتال وهو باطل، فإن الأمر بالإعراض موافق لآية القتال، فكيف ينسخ به. [الرازي (٢٨/ ٢٦٠)].

(٢) معترضة، والمعنى: إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ليجزي، وقيل: هي لام العاقبة، أي: وعاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي الله كلا منهما بعمله. [الشوكاني (٥/ ١٣٥)].

(٣) ﴿الَّذِينَ أَسْتَوُوا﴾ هم الذين خالفوا المأمور أو ارتكبوا المحذور، هذا الضابط، هؤلاء أساؤوا ليجزيهم بما عملوا السيئة بسيئة لا تزيد، أو يغفو عز وجل لمن يستحق العفو، وهو كل من مات على غير الشرك مستحق للعفو، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فلا يمكن أن يزيد سيئة لم يعملها الإنسان، ولهذا قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ بدون زيادة، ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ولم يقل: «بما عملوا»؛ لأن فضل الله أوسع من أعمالنا، فإذا فعلت حسنة يضاعفها الله إلى عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. [ابن عثيمين تفسير النجم (ص: ٢٢٩)].

(٤) أظهر الأقوال في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ أن المراد باللمم صغائر الذنوب، ومن أوضح الآيات القرآنية في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١]. فدللت على أن اجتناب الكبائر سبب لغفران الصغائر، وخير ما يفسر به القرآن القرآن. ويدل لهذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما الثابت في الصحيح قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزَّانِ أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ فَرَأَى الْعَيْنُ النَّظَرَ وَزَانَ اللِّسَانُ الْمَنْطِقَ وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ». أخرجه البخاري (٦٦١٢)، ومسلم (٢٦٥٧). وعلى هذا القول فلا استثناء في قوله: ﴿إِلَّا اللَّمَمَ﴾ منقطع؛ لأن اللمم الذي هو الصغائر على هذا القول لا يدخل في الكبائر والفواحش. واعلم أن أهل العلم اختلفوا في حد الكبيرة؛ فقال بعضهم: هي كل ذنب استوجب حداً من حدود الله. وقال بعضهم: هي كل ذنب

صِيَامَنَا حَجَّنَا: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَي: عَالِمٌ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴿أَي: خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنَ التُّرَابِ﴾ ﴿وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جَمْعُ جَنِينٍ ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ لَا تَمْدَحُوهَا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْجَابِ، أَمَّا عَلَى سَبِيلِ الْإِعْتِرَافِ بِالنِّعْمَةِ فَحَسَنٌ ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ أَي: عَالِمٌ ﴿بِمَنْ أَتَقَى﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿عَنِ الْإِيمَانِ، أَي: ارْتَدَّ لَمَّا غَيَّرَ بِهِ، وَقَالَ: إِنِّي خَشِيتُ عِقَابَ اللَّهِ، فَضَمِنَ لَهُ الْمُعِيرُ أَنْ يَحْمِلَ عَنْهُ عَذَابَ اللَّهِ إِنْ رَجَعَ إِلَى شِرْكِهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ مَالِهِ كَذَا فَرَجَعَ.﴾ ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا﴾ مِنَ الْمَالِ الْمُسَمَّى ﴿وَأَكْدَى﴾ ﴿٣٤﴾ مَنَعَ الْبَاقِي، مَاخُذٌ مِنَ «الْكُدْيَةِ» وَهِيَ: أَرْضٌ صُلْبَةٌ كَالصَّخْرَةِ، تَمْنَعُ حَافِرَ الْبُيْرِ إِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا مِنَ الْحَفْرِ. ﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى﴾ ﴿٣٥﴾ يَعْلَمُ مِنْ جُمْلَتِهِ أَنْ غَيْرَهُ يَتَحَمَّلُ عَنْهُ عَذَابَ الْآخِرَةِ؟ لَا، وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ أَوْ غَيْرُهُ، وَجُمْلَةٌ ﴿أَعِنْدَهُ﴾ الْمَفْعُولُ الثَّانِي لِـ «رَأَيْتَ» بِمَعْنَى: أَخْبَرَنِي. ﴿أَمْ﴾ بَلْ ﴿لَمْ يُبَيِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ ﴿٣٦﴾ أَسْفَارِ التَّوْرَةِ أَوْ صُحُفِ قَبْلَهَا. ﴿و﴾ صُحُفِ ﴿إِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ ﴿٣٧﴾ تَمَّمَ مَا أُمِرَ بِهِ، نَحْوُ: ﴿وَإِذْ أَبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وَيَبَيَّنُ «مَا»: ﴿أَلَا تَرَوْا زُرَّةً وَزُرَّةً أُخْرَى﴾ ﴿٣٨﴾ إِلَى آخِرِهِ، وَأَنْ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَي: لَا تَحْمِلُ نَفْسُ ذَنْبٍ غَيْرَهَا. ﴿وَأَنْ﴾ أَي: أَنَّهُ ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٣٩﴾ مِنْ خَيْرٍ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ سَعْيِ غَيْرِهِ لِلْخَيْرِ شَيْءٌ. ﴿وَأَنَّ﴾

جاء الوعيد عليه بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. واختار بعض المتأخرين حد الكبيرة بأنها هي كل ذنب دل على عدم اكتراث صاحبه بالدين. والأظهر عندي في ضابط الكبيرة: أنها كل ذنب اقترن بما يدل على أنه أعظم من مطلق المعصية، سواء كان ذلك الوعيد عليه بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب، أو كان وجوب الحد فيه، أو غير ذلك مما يدل على تغليظ التحريم وتوكيده. [الشنقيطي (٧/ ٢٠٩)].

(١) وفي وأتم ما التزمه أو أمر به، أو بالغ في الوفاء بما عاهد الله، وتخصيصه بذلك لاحتماله ما لم يحتمله غيره كالصبر على نار نمرود حتى أتاه جبريل عليه السلام حين ألقي في النار فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وذبح الولد وأنه كان يمشي كل يوم فرسخا يرتاد ضيفا فإن وافقه أكرمه وإلا نوى الصوم، وتقديم موسى عليه الصلاة والسلام لأن صحفه وهي التوراة كانت أشهر وأكبر عندهم. [البيضاوي (٥/ ١٦١)].

(٢) هذه الآية الكريمة تدل على أنه لا يتنفع أحد بعمل غيره. وقد جاءت آية أخرى تدل على أن بعض الناس ربما انتفع بعمل غيره وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ﴾ [الطور: ٢١]، ورفع درجات الأولاد... بعمل آبائهم لا بعمل أنفسهم. اعلم أولا أن ما روي عن ابن عباس من أن هذا كان شرعا لمن قبلنا، فنسخ في شرعنا غير صحيح، بل آية: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ﴾ محكمة، كما أن القول بأن المراد بالإنسان خصوص الكافر غير صحيح أيضا. والجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أن الآية إنما دلت على نفي ملك الإنسان لغير سعيه، ولم تدل على نفي انتفاعه بسعي غيره،... وبين الأمرين فرق ظاهر، لأن سعي الغير ملك لساعيه، إن شاء بذله لغيره فانتفع به ذلك الغير، وإن شاء أبقاه لنفسه. وقد أجمع العلماء على انتفاع الميت بالصلاة عليه والدعاء له والحج عنه ونحو ذلك، مما ثبت الانتفاع بعمل الغير فيه. الثاني: أن إيمان الذرية هو السبب الأكبر في رفع درجاتهم، إذ لو كانوا كفارا لما حصل لهم ذلك، وهذا الوجه يشير إليه قوله

سَعِيَهُ سَوْفَ يُرَى ﴿٤٠﴾ يُبْصَرُ فِي الْآخِرَةِ. ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ ﴿٤١﴾ الْأَكْمَلُ، يُقَالُ: جَزَيْتُهُ سَعِيَهُ وَسِعِيَهُ^(١).
 ﴿وَأَنَّ﴾ بِالْفَتْحِ عَطْفًا وَقُرْئَ بِالْكَسْرِ^(٢) اسْتِثْنَاءً، وَكَذَا مَا بَعْدَهَا، فَلَا يَكُونُ مَضْمُونُ الْجُمْلَةِ فِي الصُّحُفِ عَلَى الثَّانِي
 ﴿إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ ﴿٤٢﴾ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ بَعْدَ الْمَوْتِ فَيَجْزَاهُ بِهِمْ. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ﴾ مِنْ شَاءَ أَفْرَحَهُ ﴿وَأَبْكَى﴾
 ﴿٤٣﴾ مِنْ شَاءَ أَحْزَنَهُ^(٣). ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿وَأَحْيَا﴾ ﴿٤٤﴾ لِلْبَعْثِ. ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ الصَّنَفَيْنِ
 ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ﴿٤٥﴾ مِنْ نُطْفَةٍ مَنِيٍّ ﴿إِذَا تُمْنَى﴾ ﴿٤٦﴾ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ. ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشَاءَ﴾ بِالْمَدِّ وَالْفَصْرِ
 ﴿الْأُخْرَى﴾ ﴿٤٧﴾ الْخَلْقَةَ الْآخِرَةَ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْخَلْقَةِ الْأُولَى. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى﴾ النَّاسَ بِالْكَفَايَةِ بِالْأَمْوَالِ ﴿وَأَفْنَى﴾
 ﴿٤٨﴾ أَعْطَى الْمَالَ الْمَتَّخَذَ قُنْيَةً. ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ ﴿٤٩﴾ هُوَ كَوَكَّبَ خَلْفَ الْجُوزَاءِ، كَانَتْ تُعْبَدُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.
 ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ ﴿٥٠﴾ وَفِي قِرَاءَةِ بِإِذْغَامِ التَّنْوِينِ فِي اللَّامِ وَضَمِّهَا بِلاَ هَمْزَةٍ، هِيَ قَوْمٌ عَادٍ، وَالْأُخْرَى قَوْمُ
 صَالِحٍ. ﴿وَتَمُودًا﴾ بِالصَّرْفِ اسْمٌ لِلْأَبِ، وَبِلاَ صَرْفِ اسْمٍ لِلْقَبِيلَةِ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿عَادًا﴾ ﴿فَمَا أَبْقَى﴾ ﴿٥١﴾
 مِنْهُمْ أَحَدًا. ﴿وَقَوْمٌ نُوحٌ مِنْ قَبْلُ﴾ أَيُّ: قَبْلَ عَادٍ وَتَمُودَ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْعَى﴾ ﴿٥٢﴾ مِنْ عَادٍ
 وَتَمُودَ، لِطُولِ لُبِّ نُوحٍ فِيهِمْ، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] وَهُمْ مَعَ عَدَمِ إِيْمَانِهِمْ
 بِهِ يُؤْذُونَهُ وَيَضْرِبُونَهُ. ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وَهِيَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿أَهْوَى﴾ ﴿٥٣﴾ أَسْقَطَهَا بَعْدَ رَفْعِهَا إِلَى السَّمَاءِ مَقْلُوبَةً إِلَى
 الْأَرْضِ بِأَمْرِ جَبْرِيلَ بِذَلِكَ. ﴿فَغَشَّاهَا﴾ مِنَ الْحِجَارَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿مَا غَشَّى﴾ ﴿٥٤﴾ أَبْنَهُمْ تَهْوِيلًا، وَفِي هُودٍ: ﴿جَعَلْنَا

تعالى: ﴿وَاتَّبَعْتَهُمْ دُرَيْتُهُمْ يَابِسِينَ﴾. الثالث: أن السعي الذي حصل به رفع درجات الأولاد ليس للأولاد كما هو نص قوله تعالى: ﴿وَأَنْ
 لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ولكنه من سعي الآباء فهو سعي للآباء أقر الله عيونهم بسببه، بأن رفع إليهم أولادهم ليتمتعوا في الجنة برويتهم،
 فالآية تصدق الأخرى ولا تنافيها. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ٣٠٠)].

(١) قال الشاعر: (إِنْ أَجَزَ عَلَقَمَةُ بْنُ سَعْدٍ سَعِيَهُ لَمْ أَجْزِهِ بِبِلَاءٍ يَوْمٍ وَاحِدٍ) فجمع بين اللغتين. [البغوي (٧/٤١٧)].

(٢) قراءة شاذة.

(٣) الضحك: أثر سرور النفس، والبكاء: أثر الحزن، وكل من الضحك والبكاء من خواص الإنسان وكلاهما خلق عجيب دال على انفعال
 عظيم في النفس. وليس لبقية الحيوان ضحك ولا بكاء... ويُشِيرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ أَسْبَابَ فَرْحِهِ وَنَكَدِهِ وَأَلْهَمَهُ
 إِلَى اجْتِلَابِ ذَلِكَ بِمَا فِي مَقْدُورِهِ وَجَعَلَ حُدَا عَظِيمًا مِنْ ذَلِكَ خَارِجًا عَلَى مَقْدُورِ الْإِنْسَانِ وَذَلِكَ لَا يَمْتَرِي فِيهِ أَحَدٌ إِذَا تَأَمَّلَ وَفِيهِ مَا يَرِشِدُ
 إِلَى الْإِقْبَالِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ لِيَقْدَرَ لِلنَّاسِ أَسْبَابَ الْفَرْحِ، وَيُدْفَعُ عَنْهُمْ أَسْبَابُ الْحُزْنِ وَإِنَّمَا جَرَى ذِكْرُ هَذَا فِي هَذَا الْمَقَامِ لِمُنَاسَبَةِ
 أَنَّ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى لِسَعْيِ النَّاسِ: بَعْضُهُ سَارٌ لِفَرِيقٍ وَبَعْضُهُ مُحْزَنٌ لِفَرِيقٍ آخَرَ. [ابن عاشور (٢٧/١٤٢)].

عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٨٢﴾ [هود: ٨٢]. ﴿فَبِأَيِّ آءَاءِ رَبِّكَ﴾ أَنْعَمِهِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ ﴿تَتَمَارَى﴾ ﴿٥٥﴾ تَشَكُّكُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَوْ تَكْذِبُ^(١). ﴿هَذَا﴾ مُحَمَّدٌ ﴿نَذِيرٌ مِّنَ النَّذِيرِ الْأُولَى﴾ ﴿٥٦﴾ مِّنْ جَنْسِهِمْ، أَيُّ: رَسُولٌ كَالرُّسُلِ قَبْلَهُ، أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ كَمَا أُرْسِلُوا إِلَى أَقْوَامِهِمْ. ﴿أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ﴾ ﴿٥٧﴾ قَرَبَتِ الْقِيَامَةُ^(٢). ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ نَفْسٌ ﴿كَاشِفَةٌ﴾ ﴿٥٨﴾ أَيُّ: لَا يَكْشِفُهَا وَيُظْهِرُهَا إِلَّا هُوَ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُجْلِيهَا لَوْفَتُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]. ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنِ ﴿تَعْجَبُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ تَكْذِيبًا. ﴿وَنَضْحَكُونَ﴾ اسْتِهْزَاءً ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ لِسَمَاعٍ وَعَدِهِ وَوَعِيدِهِ. ﴿وَأَنْتُمْ سَمِدُونَ﴾ ﴿٦١﴾ لَاهُونَ غَافِلُونَ عَمَّا يُطَلَّبُ مِنْكُمْ^(٣). ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴿وَأَعْبُدُوا﴾ ﴿٦٢﴾ وَلَا تَسْجُدُوا لِلْأَصْنَامِ وَلَا تَعْبُدُوهَا^(٤).

(١) سُمِّيَ هَذِهِ الْأُمُورُ الْمَذْكُورَةُ آءَاءَ، أَيُّ: نِعَمًا مَعَ كَوْنِ بَعْضِهَا نِعْمًا لَا نِعَمًا، لِأَنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ، وَيَكُونُ فِيهَا انْتِقَامٌ مِنَ الْعَصَاةِ، وَفِي ذَلِكَ نَصْرَةٌ لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ. [الشوكاني (١٤١/٥)].

(٢) سَمَّاها أَرْفَةُ لِقَرَبِ قِيَامِهَا، وَقِيلَ: لَدُنْهَا مِنَ النَّاسِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ [القمر: ١] أَخْبَرَهُمْ بِذَلِكَ لِيَسْتَعِدُّوا لَهَا. [صديق حسن (٢٧٨/١٣)].

(٣) أَيُّ: لَاهُونَ عَمَّا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ، مَعْرُضُونَ عَنْ آيَاتِهِ كِبَرًا. قَالَ مُجَاهِدٌ: كَانُوا يَمْرُونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ غَضَابًا مَبْرُطِينَ، أَيُّ: شَامَخِينَ. وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: هُوَ الْغَنَاءُ: كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ تَغْنَوُا وَلَعَبُوا، وَهِيَ لُغَةٌ أَهْلِ الْيَمَنِ. يَقُولُونَ: اسْمِدْنَا: تَغْنُنَا. وَالْمَالُ وَاحِدٌ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْعِبَارَةُ عَنْهُ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مِمَّا كَانَ يَصْدُرُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. [القاسمي (٨٤/٩)].

(٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ بِالنَّجْمِ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٨٦٢).

سُورَةُ الْقَمَرِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ﴾ الْآيَةُ، وَهِيَ خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ قَرَبَتِ الْقِيَامَةُ^(١) ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾^(٢) انْفَلَقَ فَلَقَتَيْنِ عَلَى أَبِي قُبَيْسٍ وَقَيْقَعَانَ، آيَةٌ لَهُ ﷺ وَقَدْ سُئِلَهَا فَقَالَ: «اشْهَدُوا». رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٣). ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ أَيُّ: كُفَّارٌ قُرَيْشٍ ﴿ءَايَةً﴾ مُعْجَزَةٌ لَهُ ﷺ كَانِشِقَاقِ الْقَمَرِ ﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا﴾ هَذَا ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾^(٤) قَوِيٌّ مِنْ «الْمِرَّة» الْقُوَّةُ، أَوْ دَائِمٌ^(٥). ﴿وَكَذَّبُوا﴾ النَّبِيَّ ﷺ ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ فِي الْبَاطِلِ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾^(٦) بِأَهْلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ^(٧). ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ أَخْبَارٌ إِهْلَاكِ الْأُمَمِ الْمَكْذُوبَةِ رُسُلُهُمْ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾^(٨) لَهُمْ، إِسْمٌ مَصْدَرٌ أَوْ إِسْمٌ مَكَانٍ، وَالِدَّالُ بَدَلٌ مِنْ تَاءِ الْإِفْتِعَالِ، وَازْدَجَرْتُهُ وَزَجَرْتُهُ نَهَيْتُهُ بِغِلْظَةٍ، وَ«مَا» مَوْصُولَةٌ أَوْ مَوْصُوفَةٌ. ﴿حِكْمَةٌ﴾ خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ، أَوْ بَدَلٌ مِنْ «مَا»، أَوْ مِنْ «مُزْدَجَرٍ»، «بَلِغَةٌ» تَامَةٌ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ تَنْفَعُ فِيهِمْ ﴿الْتُّدْرُ﴾^(٩) جَمْعُ نَذِيرٍ بِمَعْنَى مُنْذِرٍ، أَيُّ: الْأُمُورِ الْمُنْذَرَةُ لَهُمْ، وَ«مَا» لِلنَّفْيِ أَوْ لِلِاسْتِفْهَامِ الْإِنْكَارِيِّ وَهِيَ عَلَى الثَّانِي مَفْعُولٌ مُقَدَّمٌ. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هُوَ فَائِدَةٌ مَا قَبْلَهُ

(١) يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها. كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، وعن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ هَكَذَا» وأشار بإصبعه: السبابة والوسطى. أخرجه البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠). [ابن كثير (٧/ ٤٧٠)].

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٦٩)، ومسلم (٢٨٠٠).

(٣) هذه الضمائر لقريش والآية المشار إليها انشقاق القمر، وعند ذلك قالت قريش: سحر محمد القمر، ومعنى مستمر: دائم، وقيل: معناه ذاهب يزول عن قريب، وقيل: شديد وهو على هذا المعنى من المِرَّة وهي القوة. [ابن جزي (٢/ ٣٢٢)].

(٤) استئناف مسوق لإقناعتهم عما علقوا به أمانتهم الفارغة من عدم استقرار أمره ﷺ حسبما قالوا: سحر مستمر ببيان ثباته ورسوخه، أي: وكل أمر من الأمور مستمر، أي: منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة ومن جملتها أمر النبي ﷺ فسيصير إلى غاية يتبين عندها حقيقته وعلو شأنه، وإيهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به. وقيل: المعنى: كل أمر من أمرهم وأمره ﷺ مستمر، أي: سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا وشقاوة أو سعادة في الآخرة، وقرئ بالفتح على أنه مصدر أو اسم مكان أو اسم زمان، أي: ذو استقرار أو ذو موضع استقرار أو ذو زمان استقرار، وبالكسر والجر على أنه صفة أمر وكل عطف على الساعة، أي: اقتربت الساعة وكل أمر مستمر. [أبو السعود (٨/ ١٦٧)].

وَتَمَّ بِهِ الْكَلَامُ^(١) ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ هُوَ إِسْرَافِيلُ، وَنَاصِبٌ ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ بَعْدُ، ﴿إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾^(٢) بِضَمِّ الْكَافِ وَسُكُونِهَا، أَيُّ: مُنْكَرٍ تُنْكَرُهُ النَّفُوسُ لِشِدَّتِهِ وَهُوَ الْحِسَابُ. ﴿خَشِعًا﴾ أَيُّ: ذَلِيلًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خُشَعًا﴾ بِضَمِّ الْخَاءِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ مُشَدَّدَةً ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ حَالٌ مِنَ الْفَاعِلِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾ أَيُّ: النَّاسُ ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ الْقُبُورِ ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾^(٣) لَا يَذَرُونَ أَيْنَ يَذْهَبُونَ مِنَ الْخَوْفِ وَالْحِيرَةِ، وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ فَاعِلِ ﴿يَخْرُجُونَ﴾. وَكَذَا قَوْلُهُ: ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أَيُّ: مُسْرِعِينَ مَا دَيْنِ أَعْنَاقَهُمْ ﴿إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ﴾ مِنْهُمْ: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾^(٤) صَعْبٌ عَلَى الْكَافِرِينَ، كَمَا فِي الْمُدَّثَرِ: ﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾^(٥) عَلَى الْكَافِرِينَ [المدثر: ٩-١٠]^(٦). ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أَيُّ: قَبْلَ قُرَيْشٍ ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تَأْنِيثُ الْفِعْلِ لِمَعْنَى ﴿قَوْمٌ﴾، ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نُوحًا ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ﴾^(٧) انْتَهَرُوهُ بِالسَّبِّ وَغَيْرِهِ^(٨). ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَتَى﴾ أَيُّ: بَانِي ﴿مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرُ﴾^(٩) فَفَتْحْنَا بِالَّتَخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾^(١٠) مُنْصَبٌّ انْصِبَابًا شَدِيدًا. ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ تَنْبُعٌ ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ مَاءُ السَّمَاءِ

(١) ها هنا وقف تام. [البغوي (٤٢٧/٧)]. والفاء للسببية والمسبب التولي أو الأمر به والسبب عدم الإغناء أو العلم به، والمراد بالتولي إما عدم القتال، فالآية منسوخة، وإما ترك الجدل للجدال فهي محكمة. [الآلوسي (٧٩/١٤)].

(٢) قد عد سبعة من مظاهر الأحوال: أولها: دعاء الداعي فإنه مؤذن بأنهم محضرون إلى الحساب ... الثاني: أنه يدعو إلى شيء عظيم، لأن ما في لفظ شيء من الإبهام يشعر بأنه مهول ... وثالثها: وصف شيء بأنه نكر، أي: موصوف بأنه تنكره النفوس وتكرهه ... ورابعها: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ أَيُّ: ذليلة ينظرون من طرف خفي لا تثبت أحداقهم في وجوه الناس، وهي نظرة الخائف المفتضح ... وخامسها: تشبيههم بالجراد المنتشر في الاكتظاظ واستتار بعضهم ببعض من شدة الخوف زيادة على ما يفيد التشبيه من الكثرة والتحريك. وسادسها: وصفهم بمهطعين، والمهطع: الماشي سريعا ماداً عنقه، وهي مشية مذعور غير ملتفت إلى شيء ... وسابعها: قولهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وهو قول من أثر ما في نفوسهم من خوف. وعسر: صفة مشبهة من العسر وهو الشدة والصعوبة ... وأبهم ﴿شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾ للتحويل، وذلك هو أحوال الحساب وإهانة الدفع ومشاهدة ما أعد لهم من العذاب ... والأجداث: جمع جدث وهو القبر، وقد جعل الله خروج الناس إلى الحشر من مواضع دفنهم في الأرض، كما قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] ... والجراد: اسم جمع واحده جرادة ... والمراد هنا الدبى وهو فراخ الجراد قبل أن تظهر له الأجنحة، لأنه يخرج من ثقب في الأرض هي مبيضات أصوله فإذا تم خلقه خرج من الأرض يزحف بعضه فوق بعض ... وهذا التشبيه تمثيلي لأنه تشبيه هيئة خروج الناس من القبور متراممين بهيئة خروج الجراد متعاطلا يسير غير ساكن. [ابن عاشور (١٧٧/٢٧)]. وذكر المنتشر على لفظ الجراد، نظيرها: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [الفارعة: ٤] وأراد أنهم يخرجون فرعين لا جهة لأحد منهم يقصدها، كالجراد لا جهة لها، تكون مختلطة بعضها في بعض. [البغوي (٤٢٨/٧)].

(٣) أي: زجروه بالشتم والتخويف، وقالوا له: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنُوحْ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]. [ابن جزي (٣٢٣/٣)].

وَالْأَرْضِ ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ﴾ حَالٍ ﴿قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾ فُضِيَ بِهِ فِي الْأَزَلِ، وَهُوَ هَلَاكُهُمْ عَرَفًا. ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ أَي: نُوحًا ﴿عَلَىٰ سَفِينَةٍ﴾ ذَاتِ الْوُجِ وَدُسْرِ ۝١٣﴾ وَهُوَ مَا تُشَدُّ بِهِ الْأَلْوَا حُ مِنَ الْمَسَامِيرِ وَغَيْرَهَا، وَاحِدُهَا «دِسَارٍ» كَكِتَابٍ. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ بِمَرَأَىٰ مِنَّا^(١)، أَي: مَحْفُوظَةً ﴿جَزَاءً﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَي: أُغْرِقُوا انْتِصَارًا ﴿لِّمَن كَانَ كُفْرًا ۝١٤﴾ وَهُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقُرِئَ: ﴿كَفَرًا﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ^(٢)، أَي: أُغْرِقُوا عِقَابًا لَهُمْ. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا﴾ أَبَقَيْنَا هَذِهِ الْفِعْلَةَ ﴿آيَةً﴾ لِّمَن يَعْتَبِرُ بِهَا، إِذْ شَاعَ خَبَرُهَا وَاسْتَمَرَّ ﴿فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ۝١٥﴾ مُعْتَبِرٍ وَمُتَعَطِّ بِهَا، وَأَصْلُهُ «مُذَكِّرٌ» أَبْدَلَتْ التَّاءَ دَالًا مُّهِمَلَةً، وَأُدْغِمَتْ فِيهَا. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦﴾ أَي: إِنذَارِي، اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ، وَ«كَيْفَ» خَبَرٌ كَانَ، وَهِيَ لِلسُّؤَالِ عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى: حَمَلُ الْمُخَاطَبِينَ عَلَى الْإِقْرَارِ بِوُقُوعِ عَذَابِهِ تَعَالَى بِالْمُكَذِّبِينَ لِنُوحٍ مَوْقِعَهُ. ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ سَهَّلْنَاهُ لِلْحِفْظِ وَهَيَّأْنَاهُ لِلتَّذْكَرِ ﴿فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ۝١٧﴾ مُتَعَطِّ بِهِ وَحَافِظٌ لَهُ، وَالِاسْتَفْهَامُ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَي: إِحْفَظُوهُ وَاتَّعِظُوا بِهِ، وَلَيْسَ يُحْفَظُ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ عَنْ ظَهْرِ الْقَلْبِ غَيْرُهُ^(٣). ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾

(١) أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ منه لها عن الغرق ونظر وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل. [السعدي (ص: ٨٢٥)]. كما في قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَ﴾ بِأَعْيُنِنَا [هود: ٣٧].
(٢) قراءة شاذة.

(٣) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ﴾ إلخ جملة قسمية وردت في آخر القصص الأربع تقرير المضمون ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ﴾ إلخ وتيسرها على أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الادكار كافية في الازدجار، ومع ذلك لم يحصل فيها اعتبار، أي: وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم وشحنه بأنواع المواعظ والعبر وصرفنا فيه من الوعيد والوعد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتذكر والاعتاظ ﴿فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ﴾ إنكار ونفي للمتعتظ على أبلغ وجه وآكده يدل على أنه لا يقدر أحد أن يجيب المستفهم بنعم، وقيل: المعنى سهلنا القرآن للحفظ لما اشتمل عليه من حسن النظم وسلاسة اللفظ وشرف المعاني وصحتها وعروها عن الوحشي ونحوه فله تعلق بالقلوب وحلاوة في السمع فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ ومن هنا قال ابن جبير: لم يستظهر شيء من الكتب الإلهية غير القرآن، وأخرج ابن المنذر، وجماعة عن مجاهد أنه قال: يسرنا القرآن هونا قراءته. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنه: لولا أن الله تعالى يسره على لسان آدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله تعالى. [الآلوسي (١٤/ ٨٣)]. فإن قلت: ما فائدة تكرير قوله: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرٍ ۝١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّدْكِرٍ ۝١٧﴾؟ قلت: فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ادكارا واعتاظا، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة، وهكذا حكم التكرير، كقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣] عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن، وقوله: ﴿قَوْلِيلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات، وكذلك تكرير الأنباء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة القلوب، مصورة للأذهان،

نَبِيَّهُمْ هُودًا فَعُدُّبُوا ﴿١٨﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿١٩﴾ إِنَّذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قَبْلَ نَزْوِلِهِ، أَي: وَقَعَ مَوْقَعَهُ. وَقَدْ بَيَّنَّهٖ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أَي: شَدِيدَةَ الصَّوْتِ ﴿فِي يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ شَوْمٍ ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ ﴿٢٠﴾ دَائِمٍ الشَّوْمِ أَوْ قَوِيٍّ، وَكَانَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ آخِرَ الشَّهْرِ ^(١). ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ﴾ تَقْلَعُهُمْ مِنْ حُفْرِ الْأَرْضِ الْمُنْدَسِّينَ فِيهَا وَتَصْرَعُهُمْ عَلَى رُؤُوسِهِمْ فَتَدُقُّ رِقَابَهُمْ، فَتُبَيِّنُ الرَّأْسَ عَنِ الْجَسَدِ ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وَحَالَهُمْ مَا ذُكِرَ ﴿أَعْجَازُ﴾ أَصُولُ ﴿نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ ﴿٢١﴾ مُنْقَطِعٍ سَاقِطٍ عَلَى الْأَرْضِ، وَشُبِّهُوا بِالنَّخْلِ لِطُولِهِمْ، وَذُكِرَ هُنَا وَأَنْتَ فِي الْحَاقَّةِ: ﴿نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] مُرَاعَاةً لِلْفَوَاصِلِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ^(٢). ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٢٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٤﴾ جَمْعُ «نَذِيرٍ»، بِمَعْنَى: مُنْذِرٍ، أَي: بِالْأُمُورِ الَّتِي أَنْذَرَهُمْ بِهَا نَبِيُّهُمْ صَالِحٌ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيَتَّبِعُوهُ. ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْإِشْتِغَالِ ﴿مِمَّا وَاحِدًا﴾ صِفَتَانِ لـ ﴿بَشْرًا﴾ ﴿تَتَّبِعُهُ﴾ مُفَسَّرٌ لِلْفِعْلِ النَّاصِبِ لَهُ، وَالْإِسْتِفْهَامُ بِمَعْنَى النَّفْيِ، الْمَعْنَى: كَيْفَ تَتَّبِعُهُ وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَّا وَلَيْسَ بِمَلِكٍ؟ ^(٣) أَي: لَا تَتَّبِعُهُ ﴿إِنَّا

مذكورة غير منسية في كل أوان. [الزمخشري (٤/٤٣٩)].

(١) أريد بـ ﴿يَوْمٍ نَحْسٍ﴾ أول أيام الريح التي أرسلت على عاد إذ كانت أيام ... كما في قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقوله: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَلِيَّةٍ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]. والنحس: سوء الحال. وإضافة يوم إلى نحس من إضافة الزمان إلى ما يقع فيه، كقولهم: يوم تحلاق اللحم، ويوم فتح مكة. وإنما يضاف اليوم إلى النحس باعتبار المنحوس، فهو يوم نحس للمعذبين ويوم نصر للمؤمنين، ومصائب قوم عند قوم فوائد. وليس في الأيام يوم يوصف بنحس أو بسعد لأن كل يوم تحدث فيه نحوس لقوم وسعود لآخرين، وما يروى من أخبار في تعيين بعض أيام السنة للنحس هو من أغلاط القصاصين فلا يلقي المسلم الحق إليها سمعه. [ابن عاشور (٢٧/١٩٢)].

(٢) النزاع: الإزالة بعنف لئلا يبقى اتصال بين المزال وبين ما كان متصلًا به، ومنه نزع الثياب. والأعجاز: جمع عجز: وهو أسفل الشيء، وشاع إطلاق العجز على آخر الشيء لأنهم يعتبرون الأجسام منتصبة على الأرض، فأولاهها ما كان إلى السماء وآخرها ما يلي الأرض. وشبه الناس المطر وحون على الأرض بأصول النخيل المقطوعة التي تقلع من منابتها لموتها إذ تزول فروعها ويتحات ورقها فلا يبقى إلا الجذوع الأصلية فلذلك سميت أعجازا. ومنقعر: اسم فاعل انقعر مطاوع قعره، أي: بلغ قعره بالحفر، يقال: قعر البئر إذا انتهى إلى عمقها، أي: كأنهم أعجاز نخل قعرت دواخله وذلك يحصل لعود النخل إذا طال مكثه مطروحا. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وكلمة: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ في موضع الحال من الناس، ووجه الوصف بمنقعر الإشارة إلى أن الريح صرعتهم صرعا تفلقت منه بطونهم وتطايرت أمعاؤهم وأفندتهم فصاروا جثثا فرغا. وهذا تفضيع لحالهم، ومثله لهم لتخويف من يراهم. [ابن عاشور (٢٧/١٩٣)].

(٣) فإن قلت: كيف أنكروا أن يتبعوا بشرا منهم واحدا؟ قلت: قالوا أبشرا: إنكارا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية، وطلبوا أن يكون من جنس

إِذَا ﴿١﴾ إِنَّ اتَّبَعْنَاهُ ﴿لَفِي ضَلَالٍ﴾ ذَهَابٍ عَنِ الصَّوَابِ ﴿وَسُعْرٍ ٢٤﴾ جُنُونٍ ^(١). ﴿أَلْقَى﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكِهِ ﴿الذِّكْرُ﴾ الْوَحْيِ ﴿عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أَي: لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ فِي قَوْلِهِ: إِنَّهُ أَوْحِيَ إِلَيْهِ مَا ذَكَرَ ﴿أَشْرُ ٢٥﴾ مُكَبَّرٌ بَطْرٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿مَنْ الْكُذَّابُ الْأَشْرُ ٢٦﴾ وَهُوَ هُمْ، بِأَنْ يُعَذَّبُوا عَلَى تَكْذِيبِهِمْ نَبِيَّهُمْ صَالِحًا. ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ مُخْرِجُوهَا مِنَ الْهَضْبَةِ الصَّخْرَةِ كَمَا سَأَلُوا ﴿فِتْنَةً﴾ مِحْنَةً ﴿لَهُمْ﴾ لِنَحْتَبِرَهُمْ ^(٢) ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ يَا صَالِحُ، أَي: انْتَظِرْ مَا هُمْ صَانِعُونَ وَمَا يُصْنَعُ بِهِمْ ﴿وَأَصْطَبِرُ ٢٧﴾ الطَّاءُ بَدَلٌ مِنْ تَاءٍ الْإِفْتِعَالِ، أَي: اصْبِرْ عَلَى أَذَاهُمْ. ﴿وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ﴾ مَقْسُومٌ ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ النَّاقَةِ، يَوْمَ لَهُمْ وَيَوْمٌ لَهَا ﴿كُلُّ شَرْبٍ﴾ نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ ﴿مُحْتَضَرٌ ٢٨﴾ يَحْضُرُ الْقَوْمُ يَوْمُهُمْ، وَالنَّاقَةُ يَوْمُهَا. فَمَادُوا عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ مَلُّوهُ فَهَمُّوا بِقَتْلِ النَّاقَةِ ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ قَدَارًا لِيَقْتُلَهَا ﴿فَتَعَالَى﴾ تَتَاوَلَ السَّيْفُ ﴿فَعَقَرَ ٢٩﴾ بِهِ النَّاقَةَ، أَي: قَتَلَهَا مُوَافَقَةً لَهُمْ. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ ٣٠﴾ إِنْذَارِي لَهُمْ بِالْعَذَابِ قَبْلَ نُزُولِهِ، أَي: وَقَعَ مَوْقَعُهُ. وَبَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ٣١﴾ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ لِعَنْمِهِ حَظِيرَةً مِنْ يَابِسِ الشَّجَرِ وَالشُّوكِ، يَحْفَظُظُهُنَّ فِيهَا مِنَ الدُّثَاثِ وَالسَّبَاعِ، وَمَا سَقَطَ مِنْ ذَلِكَ فَدَاسَتْهُ هُوَ الْهَشِيمُ ^(٣).

أعلى من جنس البشر وهم الملائكة، وقالوا: ﴿مَنَّا﴾ لَأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنْهُمْ كَانَتْ الْمَمَائِلُ أَقْوَى، وقالوا واحدا إنكارا لَأَن تَتَّبِعَ الْأُمَّةَ رَجُلًا وَاحِدًا. أو أرادوا واحدا من أفئدتهم ليس بأشرفهم وأفضلهم، ويدل عليه قولهم: ﴿أَلْقَى الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أَي: أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ مِنْ بَيْنِنَا وَفِينَا مِنْهُ هُوَ أَحَقُّ مِنْهُ بِالِاخْتِيَارِ لِلنَّبُوَةِ. [الزمخشري (٤/٤٣٧)].

(١) أي: عذاب وعناء وشدة، كذا قال الفراء وغيره، وقال أبو عبيدة: وهو جمع سعير، وهو لهب النار، والسعر الجنون يذهب كذا وكذا لما يتلهب به من الحدة، وقال مجاهد: شعر بعد عن الحق، وقال السدي: في احتراق، وقيل: المراد به هنا الجنون، من قولهم: ناقة مسعورة، أي: كأنها من شدة نشاطها مجنونة، وقال ابن عباس: في شقاء. [صديق حسن (١٣/٢٩٨)].

(٢) في هذا إشارة إلى أن الله تعالى قد يظهر للإنسان من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، حتى إذا استكبر كان استكباره عن علم، فكان عقابه أشد وأوجع، ولهذا جعل الله الناقة فتنة؛ لأنها أظهرت الحق لهم، ولكن لم يقبلوا. [ابن عثيمين تفسير القمر (ص: ٢٨١)].

(٣) الصيحة: الصاعقة وهي المعبر عنها بـ «الطاغية» في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بـ «الرجفة»، وهي صاعقة عظيمة خارقة للعادة أهلكتهم، ولذلك وصفت بواحدة للدلالة على أنها خارقة للعادة إذ أتت على قبيلة كاملة وهم أصحاب الحجر. وكانوا بمعنى: «صاروا»، وتجيء كان بمعنى «صار» حين يراد بها كون متحدد لم يكن من قبل. والهشيم: ما ييس وجف من الكلال ومن الشجر، وهو مشتق من «الهشم» وهو الكسر، لأن اليابس من ذلك يصير سريع الانكسار. والمراد هنا شيء خاص منه وهو ما جف من أغصان العضاة والشوك وعظيم الكلال كانوا يتخذون منه حظائر لحفظ أغنامهم من الريح والعادية ولذلك أضيف الهشيم إلى المحتظر. وهو بكسر الظاء المعجمة:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۚ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝﴾ أي: بِالْأُمُورِ الْمُنْدَرَةِ لَهُمْ عَلَى لِسَانِهِ. ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ رِيحًا تَرْمِيهِمْ بِالْحَصْبَاءِ، وَهِيَ صِغَارُ الْحِجَارَةِ الْوَاحِدُ دُونِ مِلءِ الْكَفِّ، فَهَلَكُوا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وَهُمْ ابْنَتَاهُ مَعَهُ ﴿نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝﴾ مِنَ الْأَسْحَارِ، أَي: وَقْتَ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ^(١)، وَلَوْ أَرِيدَ مِنْ يَوْمٍ مُعَيَّنٍ لَمُنِعَ مِنَ الصَّرْفِ؛ لِأَنَّهُ مَعْرِفَةٌ مَعْدُولٌ عَنِ «السَّحَرِ»؛ لِأَنَّ حَقَّهُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِ«الْ» وَهَلْ أُرْسِلَ الْحَاصِبُ عَلَى آلِ لُوطٍ أَوْ لَا؟ قَوْلَانِ، وَعُبِّرَ عَنِ الْإِسْتِثْنَاءِ عَلَى الْأَوَّلِ بِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ، وَعَلَى الثَّانِي بِأَنَّهُ مُنْقَطِعٌ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْجِنْسِ تَسْمُحًا^(٢). ﴿تَعَمَّةٌ﴾ مَصْدَرٌ، أَي: إِنْعَامًا ﴿مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلَ ذَلِكَ الْجَزَاءِ ﴿نَجَزِي مَنْ شَكَرَ ۝﴾ أَنْعَمْنَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، أَوْ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَطَاعَهُمَا. ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ﴾ خَوْفَهُمْ لُوطٌ ﴿بَطُشَّتِنَا﴾ أَخَذْتَنَا إِيَّاهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿فَتَمَارَوْا﴾ تَجَادَلُوا وَكَذَّبُوا ﴿بِالنُّذُرِ ۝﴾ بِإِنْذَارِهِ. ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ﴾ أَنْ يُخْلِيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَتَوْهُ فِي صُورَةِ الْأَضْيَافِ لِيَخْبُثُوا بِهِمْ، وَكَانُوا مَلَائِكَةً ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أَعْمَيْنَاهَا وَجَعَلْنَاهَا بِلا شَيْءٍ كَبَاقِي الْوَجْهِ، بَأَن صَفَقَهَا جِبْرِيلُ بِجَنَاحِهِ^(٣) ﴿فَذُوقُوا﴾ فَقَلْنَا لَهُمْ: ذُوقُوا ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ ۝﴾

الذي يعمل الحظيرة وبينها، وذلك بأنه يجمع الهشيم ويلقيه على الأرض ليرصفه بعد ذلك سياجا لحظيرته، فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يسيح ولذلك قال كهشيم المحتظر ولم يقل: كهشيم الحظيرة، لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصنف وقبل أن تتخذ منه الحظيرة. [ابن عاشور (٢٧/٢٠٢)].

(١) وذكر بسحر، أي: في وقت السحر للإشارة إلى إنجائهم قبيل حلول العذاب بقومهم، لقوله بعده: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾. [ابن عاشور (٢٧/٢٠٤)].

(٢) ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه متصل، ويكون المعنى: أنه أرسل الحاصب على الجميع إلا أهله، فإنه لم يرسل عليهم. والثاني: أنه منقطع. قال شهاب الدين: ولا أدري ما وجهه، فإن الانقطاع وعدمه عبارة عن عدم دخول المستثنى في المستثنى منه، وهذا داخل ليس إلا. وقال أبو البقاء: هو استثناء منقطع. وقيل: متصل؛ لأن الجميع أرسل عليهم الحاصب فهلكوا إلا آل لوط. وعلى الوجه الأول يكون الحاصب لم يرسل على آل لوط. انتهى. وهو كلام مشكل. قال ابن الخطيب: الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وهو يعود على قوم لوط فيقتضي أن آله كذبوا، لكن قد يكون أهله قليلاً فعمهم ظاهر اللفظ فبين بالاستثناء خروجهم لأن المقصود بيان هلاكهم ومن نجا، أو يكون الاستثناء من كلام مدلول عليه، أي: فما أنجينا من الحاصب إلا آل لوط، ويكون الإرسال عليهم والإهلاك عاما، فكان الحاصب أهلك من كان الإرسال عليه مقصوداً وغيرهم، كالأطفال والدواب. والمراد بآل لوط: من تبع على دينه إلا بنتاه. [ابن عادل الحنبلي (١٨/٢٧٠)].

(٣) وقيل: لا، بل أعماهم الله مع صحة أبصارهم فلم يروهم. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل، فقالوا: لقد رأيناهم

إِنذَارِي وَتَخَوِّفِي، أَي: ثَمَرَتُهُ وَفَائِدَتُهُ. ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وَفَتَ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ ﴿عَذَابٌ مُسْتَقَرٌّ﴾^(١) ﴿دَائِمٌ مُتَّصِلٌ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ﴾. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذْرِي﴾^(٢) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ مَعَهُ ﴿الْشُّدْرُ﴾^(٣) ﴿الْإِنذَارُ عَلَى لِسَانِ مُوسَى وَهَارُونَ فَلَمْ يُؤْمِنُوا. بَلْ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ التَّسْعِ الَّتِي أُوتِيَهَا مُوسَى ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿أَخَذَ عَزِيزٍ﴾ قَوِيٍّ ﴿مُقْتَدِرٍ﴾^(٤) قَادِرٍ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يَا قُرَيْشُ ﴿خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيائِكُمْ﴾ الْمَذْكُورِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ إِلَى فِرْعَوْنَ، فَلَمْ يُعَذِّبُوا؟ ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ يَا كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿بِرَاءَةٌ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿فِي الزُّبُرِ﴾^(٥) الْكُتُبِ؟ وَالْإِسْتِفْهَامُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ. ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أَي: كُفَّارُ قُرَيْشٍ ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جَمْعُ ﴿مُنْتَصِرٍ﴾^(٦) عَلَى مُحَمَّدٍ. وَلَمَّا قَالَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ: ﴿إِنَّا جَمْعٌ مُنْتَصِرٌ﴾. نَزَلَ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْلُونَ الدَّبْرُ﴾^(٧) فَهَزِمُوا بِبَدْرٍ، وَنَصَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ. ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ بِالْعَذَابِ ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ أَي: عَذَابُهَا ﴿أَذْهَى﴾ أَعْظَمُ بَلِيَّةٍ ﴿وَأَمْرٌ﴾^(٨) أَشَدُّ مَرَارَةً مِنَ عَذَابِ الدُّنْيَا. ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ﴾ هَلَاكٍ بِالْقَتْلِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَسُعْرٍ﴾^(٩) نَارٍ مُسْعِرَةٍ بِالتَّشْدِيدِ، أَي: مُهَيِّجَةٍ فِي الْآخِرَةِ. ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾^(١٠) إِيصَابَةَ جَهَنَّمَ لَكُمْ^(١١). ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ﴾ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ يَفْسَرُهُ ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١٢) بِتَقْدِيرٍ، حَالٌ مِنْ ﴿كُلِّ﴾، أَي: مُقَدَّرًا، وَقُرِئَ: ﴿كُلُّ﴾^(١٣) بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأُ خَبَرِهِ ﴿خَلَقْنَاهُ﴾^(١٤). ﴿وَمَا أَمَرْنَا﴾ لَشَيْءٍ نُرِيدُ وَجُودَهُ ﴿إِلَّا وَاحِدَةً كَلِمَةً بِالْبَصْرِ﴾^(١٥) فِي السَّرْعَةِ، وَهِيَ قَوْلُ:

حين دخلوا البيت فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم. [القرطبي (١٧/١٤٤)].

(١) المستقر: الثابت الدائم الذي يجري على قوة واحدة لا يقلع حتى استأصلهم. [ابن عاشور (٢٧/٢٠٧)].

(٢) كقولك: «وجد مس الحمى، وذاق طعم الضرب»، لأن النار إذا أصابتهم بحرها، فكأنها تمسهم مساً بذلك، و ﴿سَقَرَ﴾ غير منصرف

للتأنيث والتعريف، لأنها علم لجهنم، من «سقرته النار» إذا لوحته. [النسفي (٣/٤٠٧)].

(٣) قراءة شاذة.

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمونهم في القدر، فنزلت: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ يَوْمَ

يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾. أخرجه مسلم (٢٦٥٦). قال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ

بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ». أخرجه مسلم (٢٦٥٥/١٨). [قال ابن كثير (٧/٤٨٢)]: ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على

إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية وبما شاكلها من الآيات، وما ورد في معناها

من الأحاديث الثابتات على الفرقة القدريّة الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة.

«كُنْ» فَيُوجَدُ، «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [يس: ٨٢]. «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاءَكُمْ» أَشْبَاهَكُمْ فِي الْكُفْرِ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ «فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴿٥١﴾» اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى الْأَمْرِ، أَي: اذْكُرُوا وَاتَّعِظُوا. «وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ» أَي: الْعِبَادُ مَكْتُوبٌ «فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾» كُتِبَ الْحَفْظَةُ. «وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ» مِنَ الذَّنْبِ أَوْ الْعَمَلِ «مُسْتَطَرٌّ ﴿٥٣﴾» مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(١). «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ بَسَاتِينَ ﴿٥٤﴾ وَنَهَرٍ ﴿٥٥﴾» أُريدَ بِهِ الْجَنُّسُ، وَفُرِي: بِضَمِّ النُّونِ وَالْهَاءِ جَمْعًا^(٢) كَأَسَدٍ وَأُسْدٍ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْ أَنْهَارِهَا الْمَاءَ وَاللَّبَنَ وَالْعَسَلَ وَالْحَمْرَ. «فِي مَقْعِدِ صِدْقٍ» مَجْلِسٍ حَقٌّ لَا لَغْوَ فِيهِ وَلَا تَأْتِيمَ، أُريدَ بِهِ الْجَنُّسُ، وَفُرِي: «مَقْعِدٍ»^(٣) الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ فِي مَجَالِسَ مِنَ الْجَنَّاتِ سَالِمَةٍ مِنَ اللَّغْوِ وَالتَّائِيمِ، بِخِلَافِ مَجَالِسِ الدُّنْيَا فَقَلَّ أَنْ تَسْلَمَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَعْرَبَ هَذَا خَبْرًا ثَانِيًا وَبَدَلًا، وَهُوَ صَادِقٌ بِدَلِّ الْبَعْضِ وَغَيْرِهِ «عِنْدَ مَلِيكَ» مِثَالُ مُبَالِغَةٍ، أَي: عَزِيزِ الْمُلْكِ وَاسِعِهِ^(٤) «مُقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾» قَادِرٍ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَ«عِنْدَ» إِشَارَةٌ إِلَى الرُّتْبَةِ مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى^(٥).

(١) أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. [السعدي (ص: ٨٢٨)]. أخرج مسلم (٢٦٥٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ».

(٢) قراءة شاذة.

(٣) قراءة شاذة.

(٤) أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يبلغ به النبي ﷺ قال: «الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُّوا». أخرجه مسلم (١٨٢٧). [ابن كثير (٤٨٧/٧)].

(٥) عند ذي مُلْكٍ مقتدر على ما يشاء، وهو الله ذو القوة المتين، تبارك وتعالى. [الطبري (١٦٧/٢٢)].

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الْآيَةُ فَمَدِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتُّ أَوْ ثَمَانٌ وَسَبْعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ اللَّهُ تَعَالَى ١. ﴿عَلَّمَ ٢﴾ مَنْ شَاءَ ٣ ﴿الْقُرْآنَ ٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٥ ﴿أَيُّ: الْجِنْسِ.﴾ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٦﴾ النَّطْقَ ٧. ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٨﴾ بِحِسَابٍ يَجْرِيَانِ. ﴿وَالنَّجْمُ ٩﴾ مَا لَا سَاقَ لَهُ مِنَ النَّبَاتِ ﴿وَالشَّجَرُ ١٠﴾ مَا لَهُ سَاقٌ ﴿يَسْجُدَانِ ١١﴾ يَخْضَعَانِ لِمَا يُرَادُ مِنْهُمَا ١٢. ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ١٣﴾ أَثَبَتَ الْعَدْلَ. ﴿أَلَّا تَطْغَوْا ١٤﴾ أَيُّ: لِأَجْلِ أَنْ لَا تَجُورُوا ﴿فِي الْمِيزَانِ ١٥﴾ مَا يُوزَنُ بِهِ. ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ بِالْعَدْلِ وَلَا تَحْسِرُوا الْمِيزَانَ ١٦﴾ تُنْقِصُوا الْمَوْزُونَ ١٧. ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا ١٨﴾ أَثَبَتَهَا ﴿لِلْأَنَامِ ١٩﴾ لِلخَلْقِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَغَيْرِهِمْ. ﴿فِيهَا

(١) هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله، ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والآخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره، ويقول: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. [السعدي (ص: ٨٢٨)].

(٢) تعديد نعمة، أي: هو مَنْ به، وعلمه الناس، وخص حفاظه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ». أخرجه الترمذي (٢٩٠٩)، وأحمد (١٣١٧). [ابن عطية (٥/ ٢٢٣)].

(٣) إيماء بأن خلق البشر وما يميز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضمير وإفهام الغير لما أدركه لتلقي الوحي وتعرف الحق وتعلم الشرع، وإخلاء الجمل الثلاث التي هي أخبار مترادفة لـ ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عن العاطف لمجيئها على نهج التعديد. [اليضاوي (٥/ ١٧٠)].

(٤) الذي يظهر لي صوابه أن المراد بالنجم هو نجوم السماء، والدليل على ذلك أن الله جل وعلا في سورة الحج صرح بسجود نجوم السماء والشجر، ولم يذكر في آية من كتابه سجود ما ليس له ساق من النبات بخصوصه. ونعني بآية الحج قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ﴾ الآية [الحج: ١٨]. [الشقيطي (٧/ ٧٨٧)].

وهذه النجوم العليا التي نشاهدها في السماء هي تسجد لله عز وجل سجوداً حقيقياً، لكننا لا نعلم كيفية؛ لأن هذا من الأمور التي لا تدركها العقول، والشجر يسجد لله عز وجل سجوداً حقيقياً لكن لا ندري كيف ذلك، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. [ابن عثيمين تفسير الرحمن (ص: ٣٠٣)].

(٥) الميزان هنا مراد به العدل، مثل الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥] لأنه الذي وضعه الله، أي: عينه لإقامة نظام الخلق، فالوضع هنا مستعار بالجعل فهو كالإنزال. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٣٨)].

فَكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ﴿١١﴾ الْمَعْهُودُ ﴿ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ﴿١٢﴾ أَوْعِيَّةٌ طَلْعُهَا. ﴿وَالْحَبُّ﴾ كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرُ ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ أَلْتَبَنُ ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ ﴿١٣﴾ الْوَرَقُ الْمَشْمُومُ^(١). ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ﴾ نَعِمَ ﴿رَبِّكُمَا﴾ أَيُّهَا الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴿تُكْذِبَانِ﴾ ﴿١٤﴾ ذُكِرَتْ إِحْدَى وَثَلَاثِينَ مَرَّةً، وَالْإِسْتِفْهَامُ فِيهَا لِلتَّقْرِيرِ، لِمَا رَوَى الْحَاكِمُ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَرَأَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سُورَةَ الرَّحْمَنِ حَتَّى خَتَمَهَا، ثُمَّ قَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ سُكُوتًا، لِلْجِنِّ كَانُوا أَحْسَنَ مِنْكُمْ رَدًّا، مَا قَرَأْتُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ آيَةً مِنْ مَرَّةٍ: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ إِلَّا قَالُوا: وَلَا بَشْيَءٍ مِنْ نِعَمِكَ رَبَّنَا نَكْذِبُ فَلَكَ الْحَمْدُ»^(٢). ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ آدَمَ ﴿مِنْ صَلَاسِلٍ﴾ طِينٍ يَابِسٍ يُسْمَعُ لَهُ صَلَاسَةٌ، أَيْ: صَوْتُ إِذَا تَقَرَّرَ ﴿كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿١٥﴾ وَهُوَ مَا طُبِخَ مِنَ الطِّينِ. ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أَبَا الْجِنِّ وَهُوَ إِبْلِيسُ ﴿مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ ﴿١٦﴾ هُوَ لَهْبُهَا الْخَالِصُ مِنَ الدُّخَانِ^(٣). ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ ﴿١٧﴾ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ ﴿مَشْرِقُ الشِّتَاءِ وَمَشْرِقُ الصَّيْفِ﴾ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٨﴾ كَذَلِكَ^(٤). ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكْذِبَانِ﴾ ﴿١٩﴾ مَرْجٍ أَرْسَلَ ﴿الْبَحْرَيْنِ﴾ الْعَذْبَ وَالْمِلْحَ^(٥) ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ﴿٢٠﴾ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ. ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حَاجِزٌ مِنْ قُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ ﴿٢١﴾ لَا يَبْغِي وَاحِدٌ مِنْهُمَا عَلَى الْآخَرِ فَيَخْتَلِطَ بِهِ^(٦). ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ

(١) الحَبُّ: يعني الذي يؤكل من الحنطة والذرة والدخن والرز وغير ذلك. وقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ﴾ أي: ما يحصل من ساقه عند يسسه وهو ما يعرف بالتبني؛ لأنه يُعصف، أي: تطؤه البهائم بأقدامها حتى يعصف. [قال تعالى: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾]، ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ هو الشجر ذو الرائحة الطيبة، فذكر الله في الأرض الفواكه والنخل والحَبُّ والريحان؛ لأن كل واحد من هذه الأربع له اختصاص يختص به، وكل ذلك من أجل مصلحة العباد ومنفعتهم. [ابن عثيمين تفسير الرحمن (ص: ٣٠٥)].

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٢١٥)، والحاكم (٣٧٦٦)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (١/ ٢٢١).

(٣) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِنْ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ». أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

(٤) المشرق: جهة شروق الشمس، والمغرب: جهة غروبها وتثنية المشرقين والمغربين باعتبار أن الشمس تطلع في فصلي الشتاء والربيع من سمت وفي فصلي الصيف والخريف من سمت آخر وبمرعاة وقت الطول ووقت القصر وكذلك غروبها وهي فيما بين هذين المشرقين والمغربين ينتقل طلوعها وغروبها في درجات متقاربة فقد يعتبر ذلك فيقال: المشرق والمغرب كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]. [ابن عاشور (٢٧/ ٢٤٧)]. وفيهما من النعم والفوائد التي لا تحصى، كاختلاف الفصول، وحدوث ما يناسب كل فصل فيه من الخيرات والبركات التي بها قوام العالم. [القاسمي (٩/ ١٠٤)].

(٥) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢].

(٦) الله تعالى جعل بينهما برزخا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ ﴿مِنْهُمَا﴾ مِنْ مَجْمُوعِهِمَا الصَّادِقِ بِأَحَدِهِمَا وَهُوَ الْمَلْحُ ﴿٢٢﴾ «اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ» ﴿٢٣﴾ خَرَزُ أَحْمَرٍ أَوْ صِغَارُ اللَّؤْلُؤِ. ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٤﴾ «الْمُنَشَّاتُ» الْمُحَدَّثَاتُ ﴿فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ﴾ ﴿٢٥﴾ كَالْجِبَالِ عِظْمًا وَارْتِفَاعًا. ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٦﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا ﴿أَيُّ: الْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانِ﴾ ﴿فَإِنْ﴾ هَالِكٌ وَعَبْرٌ ﴿مَنْ﴾ تَغْلِيًّا لِلْعُقَلَاءِ. ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذَاتُهُ ﴿ذُو الْجَلَالِ الْعَظَمَةِ﴾ ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنْعَمِهِ عَلَيْهِمْ﴾. ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٧﴾ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿بِنُطْقٍ أَوْ حَالٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، مِنْ الْقُوَّةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالرِّزْقِ وَالْمَغْفِرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ﴾ ﴿كُلِّ يَوْمٍ﴾ وَقْتُ ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ﴿أَمْرٍ، يُظْهِرُهُ عَلَى وَفْقٍ مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ، مِنْ: إِحْيَاءٍ وَإِمَاتَةٍ، وَإِعْزَازٍ وَإِذْلَالٍ، وَإِغْنَاءٍ وَإِعْدَامٍ، وَإِجَابَةِ دَاعٍ وَإِعْطَاءِ سَائِلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ﴾ ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٨﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴿سَنَقْصِدُ لِحِسَابِكُمْ﴾ ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾. ﴿فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿٢٩﴾ يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا ﴿تَخْرُجُوا﴾ ﴿مِنْ أَقْطَارٍ﴾ نَوَاحِي ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا﴾ أَمْرٌ تَعْجِيزٌ ﴿لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا

أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان. [السعدي (ص: ٨٣٠)].

(١) وإنما قيل: منهما مع أنه يخرج من أحدهما، وهو الملح، لأنه لا متراجهما يكون خارجا منهما حقيقة، أو أنه نسب لهما ما هو لأحدهما، كما يسند إلى الجماعة ما صدر من واحد منهم. قال الناصر: وهذا هو الصواب، ومثله: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وإنما أريد إحدى القريتين. [القاسمي (٩/ ١٠٥)].

(٢) يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السماوات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدا... قال الشعبي: إذا قرأت ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجلس فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]... قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء. [ابن كثير (٧/ ٤٩٤)].

(٣) أي: استقر سبحانه في شأن كل وقت من الأوقات و«اليوم» عبارة عن الوقت، و«الشأن» هو الأمر، ومن جملة شؤونه سبحانه إعطاء أهل السماوات والأرض ما يطلبونه منه، على اختلاف حاجاتهم، وتباين أغراضهم... ولا وجه لتخصيص شأن دون شأن، بل الآية تدل على أنه سبحانه كل يوم في شأن من الشؤون له، أي شأن كان من غير تعيين وشؤونه سبحانه لا تحصى، ولا يعلمها إلا هو، فالعموم أولى وأنسب بمقام القدرة وكمالها. وقيل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يقضي يوم السبت شأنا. [صديق حسن (١٣/ ٣٢٧)].

﴿يُسْطَلْنَ﴾ ٣٣ ﴿بِقُوَّةٍ، وَلَا قُوَّةَ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ﴾ ٣٤ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٥ ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظُ مِّنْ نَّارٍ﴾
 هُوَ لَهَبُهَا الْخَالِصُ مِنَ الدُّخَانِ أَوْ مَعَهُ ﴿وَنَحَّاسٌ﴾ أَيُّ: دُخَانٌ لَا لَهَبَ فِيهِ ﴿فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ ٣٥ ﴿تَمْتَتِعَانِ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ
 يَسُوقُكُم إِلَى الْمَحْشَرِ﴾ ٣٦ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٦ ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ ٣٧ ﴿انْفَرَجَتْ أَبْوَابُ لُتْرُولِ الْمَلَائِكَةِ﴾
 ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ ٣٧ أَيُّ: مِثْلَهَا مُحَمَّرَةً ﴿كَالِدِهَانٍ﴾ ٣٧ ﴿كَالْأَدِيمِ الْأَحْمَرِ عَلَى خِلَافِ الْعَهْدِ بِهَا، وَجَوَابُ «إِذَا» فَمَا
 أَعْظَمَ الْهَوْلَ﴾ ٣٨ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٣٨ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ ٣٩ ﴿عَنْ ذَنْبِهِ،

(١) أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم: ﴿يَلْمَعَشَرَ
 الْحَيْنَ وَالْإِنْسَ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذا مسلكا تخرجون به عن ملك الله وسلطانه،
 ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم
 نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همسا، وفي ذلك الموقف يستوي
 الملوك والمماليك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء. [السعدي (ص: ٨٣٠)]. وهذا الخطاب يقال لهما في الآخرة، وقيل: في
 الدنيا، ويرجح كونه في الآخرة قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوَاظُ مِّنْ نَّارٍ وَنَحَّاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ﴾ فإن هذا الإرسال إنما هو في القيامة... وكذا
 قوله: ﴿إِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾. [صديق حسن (١٣/ ٣٢٩)].

(٢) «الشواظ» اللهب الذي لا دخان معه، قال مجاهد: الشواظ اللهب الأخضر المنقطع من النار، وقال الضحاك: هو الدخان الذي يخرج
 من اللهب، ليس بدخان الحطب، وقال الأخفش وأبو عمرو: هو النار، والدخان جميعا وقال ابن عباس: هو لهب النار، وقيل: هو اللهب
 الخالص... و«النحاس» الصفر المذاب، يصب على رؤوسهم قاله مجاهد وقادة وغيرهما، وقال سعيد بن جبير: وهو الدخان الذي لا
 لهب له، وبه قال الخليل. وقال الضحاك: هو دردي الزيت المغلي، وقال ابن عباس: هو دخان النار. [صديق حسن]. والمعنى على كل
 قول: لو ذهبتم هارين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ولهذا قال: ﴿فَلَا
 تَنْتَصِرَانِ﴾. [ابن كثير (٧/ ٤٩٧)].

(٣) وردة: أي حمراء كلون الورد، وقوله: كالدهان: فيه قولان معروفان للعلماء: الأول منهما: أن الدهان هو الجلد الأحمر، وعليه فالمعنى
 أنها تصير وردة متصفة بلون الورد مشابة للجلد الأحمر في لونه. والثاني: أن الدهان هو ما يدهن به... وقد أوضحه الله في غير هذا الموضع
 وذلك في قوله تعالى في المعارج: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٨] والمهل شيء ذائب على كلا القولين، سواء قلنا: إنه دردي
 الزيت وهو عكره، أو قلنا إنه الذائب من حديد أو نحاس أو نحوهما. وقد أوضح تعالى في الكهف أن المهل شيء ذائب يشبه الماء، شديد
 الحرارة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]. وما
 ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة من انشقاق السماء يوم القيامة جاء موضحا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:

١]، وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١]. [الشنقيطي (٧/ ٨٠٢)].

وَيُسْأَلُونَ فِيهِ وَقْتٍ آخَرَ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] ^(١) وَ«الْجَانُّ» هُنَا وَفِيمَا سَيَأْتِي بِمَعْنَى الْجَنِّيِّ، وَالْإِنْسُ فِيهِمَا بِمَعْنَى الْإِنْسِيِّ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ^(٢) يُعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمَا سَوَادِ الْوُجُوهِ وَزُرْقَةِ الْعُيُونِ ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ^(٣) فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(٤) ﴿تُضَمُّ نَاصِيَةٍ كُلٌّ مِنْهُمَا إِلَى قَدَمَيْهِ مِنْ خَلْفٍ أَوْ قُدَّامٍ وَيُلْقَى فِي النَّارِ ^(٥). وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ^(٦) يَطُوفُونَ ﴿يَسْعَوْنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ مَاءٍ حَارٌّ ﴿ءَانِ﴾ ^(٧) شَدِيدِ الْحَرَارَةِ، يُسْقَوْنَهُ إِذَا اسْتَعَاثُوا مِنْ حَرِّ النَّارِ ^(٨)، وَهُوَ مَقْصُوصٌ كَ «قَاضٍ». ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ^(٩) وَلَمَنْ خَافَ ﴿أَيُّ: لِكُلِّ مِنْهُمَا أَوْ لِمَجْمُوعِهِمَا﴾ ﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْحِسَابِ، فَتَرَكَ مَعْصِيَتَهُ ^(١٠) ﴿جَنَّتَانِ﴾ ^(١١) فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١٢) ذَوَاتَا ﴿تَنْبِيْهُ ذَوَاتٍ﴾ عَلَى الْأَصْلِ وَلَا مَهْمَا يَاءُ ﴿أَفَنَانِ﴾ ^(١٣) أَغْصَانٍ، جَمْعُ «فَنٍ» كَطَلَلٍ. ﴿فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ^(١٤) فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ^(١٥) فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ^(١٦) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ ﴿فِي الدُّنْيَا أَوْ كُلِّ مَا يُتَمَكَّنُ بِهِ﴾ ﴿زَوْجَانِ﴾ ^(١٧)

(١) السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المغفرة إذ لا يحتاج إلى ذلك، لأن المجرمين يعرفون بسيماهم، ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صحافتهم، وأما السؤال الثابت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وغيره، فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ، فلا تعارض بين المنفي والمثبت، وقيل: إن ذلك باختلاف المواطن والأول أحسن. [ابن جزي (٢/ ٣٣٠)].

(٢) هذه الجملة جارية مجرى التعليل لعدم السؤال والسيما العلامة، قال الحسن: سيماهم سواد الوجوه، وزرقة الأعين، كما في قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] ... وقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ النواصي شعور مقدم الرأس والمعنى أنها تجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي وتلقيهم الملائكة في النار، ... وقيل: تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بنواصيهم، وتجرحهم على وجوههم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ [القمر: ٤٨]، وتارة تأخذ بأقدامهم وتجرحهم على رؤوسهم. قال ابن عباس: تأخذ الزبانية بناصيته وقدميه، ويجمع فيكسر كما يكسر الحطب في التنور. [صديق حسن (١٣/ ٣٣٤)].

(٣) أي: تارة يعذبون في الجحيم، وتارة يسقون من الحميم، وهو الشراب الذي هو كالتحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ ^(١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ^(٢) [غافر: ٧١-٧٢]. [ابن كثير (٧/ ٥٠٠)]. [ومعنى] ﴿ءَانِ﴾ أي: انتهى حره، واشتد غليانه. وكل شيء قد أدرك وبلغ فقد أنى، ومنه قوله: ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ [الأحزاب: ٥٣] يعني إدراكه وبلوغه. [القاسمي (٩/ ١١٢)].

(٤) عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ أَيْتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا رَدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ». أخرجه البخاري (٤٨٧٨) ومسلم (١٨٠).

نَوْعَانِ: رَطْبٍ وَيَاسٍ، وَالْمُرُّ مِنْهُمَا فِي الدُّنْيَا كَالْحَنْظَلِ حُلْوٍ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٣﴾ مُتَكَيِّنٌ ﴿حَالٌ عَامِلُهُ مَحْذُوفٌ، أَيُّ: يَتَنَعَّمُونَ﴾ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴿مَا غُلِظَ مِنَ الدِّيَابِاجِ وَخَشَنَ وَالظَّهَائِرُ مِنَ السُّنْدُسِ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ﴾ ثَمَرُهُمَا ﴿دَانٍ ٥٤﴾ قَرِيبٌ، يَنَالُهُ الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٥﴾ فِيهِنَّ ﴿فِي الْجَنَّتَيْنِ وَمَا اشْتَمَلَتَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَلَالِيِّ وَالْقُصُورِ﴾ قَصِيرَاتُ الظَّرْفِ ﴿الْعَيْنِ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ الْمُتَكَيِّنِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ٥٦﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ ﴿يَفْتَضُّهُنَّ، وَهُنَّ مِنَ الْحُورِ أَوْ مِنْ نِسَاءِ الدُّنْيَا الْمُنْشَاتِ ٥٧﴾ ﴿إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٥٩ ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ﴾ صَفَاءً ﴿وَالْمَرْجَانُ ٦٠﴾ اللَّوْلُؤُ بَيَاضًا. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦١﴾ هَلْ ﴿مَا﴾ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ بِالطَّاعَةِ ﴿إِلَّا الْإِحْسَنُ ٦٢﴾ بِالنَّعِيمِ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٣﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا ﴿الْجَنَّتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ جَنَّاتٍ ٦٤﴾ أَيْضًا لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ٦٥. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٦﴾ مُدْهَمَّتَانِ ٦٦ ﴿سُودَاوَانِ مِنْ شِدَّةِ خُضْرَتِهِمَا.﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٧﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ٦٨ ﴿فَوَارَتَانِ بِالْمَاءِ لَا تَنْقَطِعَانِ.﴾ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٦٩﴾ فِيهِمَا فَكْهَةٌ وَخُلٌّ وَرَمَانٌ ٧٠ ﴿هُمَا مِنْهَا، وَقِيلَ: مِنْ غَيْرِهَا ٧١﴾. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧٢﴾ فِيهِنَّ ٧٢ أَيُّ: الْجَنَّتَيْنِ وَقُصُورِهِمَا ﴿خَيْرَاتٌ ٧٣﴾

(١) صفة لموصوف محذوف تقديره نساء، وشاع المدح بهذا الوصف في الكلام حتى نزل منزلة الاسم، ف«قاصرات الطرف» نساء في نظرهن مثل القصور والغض خلقة فيهن، وهذا نظير ما يقول الشعراء من المولدين: مراض العيون، أي: مثل المراض خلقة. والقصور: مثل الغض من صفات عيون المها والظباء. [ابن عاشور (٢٧/٢٦٩)].

(٢) المعنى أنهم أبكار، و﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ معناه لم يفتضهن، وقيل: الطمث الجماع سواء كان لبكر أو غيرها، ونفي أن يطمثهن إنس أو جان، مبالغة وقصدًا للعموم، فكأنه قال لم يطمثهن شيء، وقيل: أراد لم يطمث نساء الإنس إنس ولم يطمث نساء الجن جن، وهذا القول يفيد بأن الجن يدخلون الجنة ويتلذذون فيها بما يتلذذ البشر. [ابن جزي (٢/٣٣١)].

(٣) اختلف الناس في معنى ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا﴾، فقال ابن زيد وغيره: معناه أن هاتين دون تينك في المنزلة والقدر، والأوليان جنتا السابقين والأخريان جنتا أصحاب اليمين، قال الرماني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنات الأربع للخائف مقام ربه تعالى، وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: من دونهما في القرب إلى المنعمين، وهاتان المؤخرتان في الذكر أفضل من الأولين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هذه بالنضج والأخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مدهماتين من شدة النعمة والأولين ذواتا أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مدهامة. وأكثر الناس على التأويل الأول، وهذه استدلالات ليست بقواطع، وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأولين. [ابن عطية (٥/٢٣٤)].

(٤) حكى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: الرمان ليس من الفاكهة، وكذلك الرطب؛ لأنهما أفردا بالذكر عن الفاكهة، وذكر الفراء هذا أيضا،

أَخْلَاقًا ﴿حِسَانٌ﴾ ٧٠ ﴿وُجُوهًا﴾ ٧١. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٢ ﴿حُورٌ﴾ شَدِيدَاتُ سَوَادِ الْعُيُونِ وَيَبَاضُهَا ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ مَسْتُورَاتٌ ﴿فِي الْحِيَامِ﴾ ٧٣ مِنْ دُرٍّ مُجَوَّفٍ، مُضَافَةٌ إِلَى الْقُصُورِ شَبِيهَةٌ بِالْخُدُورِ. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٤ ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ ٧٥ ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٦ ﴿مُتَكِّينَ﴾ أَيُّ: أَزْوَاجُهُنَّ، وَإِعْرَابُهُ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرٍ﴾ جَمْعُ رَفْرَفَةٍ، أَيُّ: بُسْطٍ أَوْ وَسَائِدَ ﴿وَعَبَقَرِيَّ حِسَانٍ﴾ ٧٦ جَمْعُ عَبَقَرِيَّةٍ، أَيُّ: طَنَافِسٍ ٧٧. ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ٧٧ تَبَرَّكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿تَقَدَّمَ، وَلَفْظُ﴾ ٧٨ ﴿أَسْمُ﴾ زَائِدٌ ٧٩.

وهذا عن ابن عباس قول غريب، والأكثر على أن الجميع فاكهة؛ لأن الفاكهة ما يتفكه به، والإفراد بالذكر للتنبيه على نوع فضل، لا أنه ليس من الفاكهة، وهو مثل قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، ومثل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: ٩٨]. [السمعاني (٣٣٧/٥)].

(١) ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أي: خَيْرَاتٍ فَخَفَّتْ لِأَن خَيْرًا الَّذِي بِمَعْنَى آخِرٍ لَا يَجْمَعُ، وَقَدْ قُرِئَ عَلَى الْأَصْلِ. ﴿حِسَانٌ﴾ حِسَانُ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ. [البياضوي (١٧٥/٥)].

(٢) الطنفسة بكسر الطاء والفاء وبضمهما، وبكسر الطاء وفتح الفاء: البساط الذي له خمل رقيق، وجمعه طننافس. [النهاية (١٤٠/٣)].

(٣) قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذِي الْعِظَمَةِ وَالْكَبَرِيَاءِ ... عَنْ رِبْعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْظُّوَابِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (١٧٥٩٦). ... أَيُّ: الزَمُوا. وَيُقَالُ: الْإِلْظَاظُ هُوَ الْإِلْحَاحُ ... وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَلِمَ لَا يَقْعُدُ - يَعْنِي: بَعْدَ الصَّلَاةِ - إِلَّا قَدَرَ مَا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٩٢).

[ابن كثير (٥١٠/٧)]. وَقَرَأَ الْجَمْهُورُ بِالْجَرِّ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلرَّبِّ سُبْحَانَهُ، وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْأَسْمِ، وَتَبَارَكَ تَفَاعُلٌ مِنَ الْبَرَكَةِ، قَالَ الرَّازِيُّ: وَأَصْلُ التَّبَارِكِ مِنَ التَّبَرُّكِ، وَهُوَ الدَّوَامُ وَالثَّبَاتُ وَمِنْهُ بَرَكُ الْبَعِيرِ وَبَرَكَةُ الْمَاءِ، فَإِنَّ الْمَاءَ يَكُونُ دَائِمًا، وَالْمَعْنَى: دَامَ اسْمُهُ وَثَبَتَ أَوْ دَامَ الْخَيْرُ عِنْدَهُ، لِأَنَّ الْبَرَكَةَ وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الثَّبَاتِ لَكِنَّهَا تَسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ، أَوْ يَكُونُ مَعْنَاهُ عِلًا وَارْتِفَاعُ شَأْنِهِ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ تَنْزِيهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَقْدِيسُهُ. وَإِذَا كَانَ هَذَا التَّبَارِكُ مَنْسُوبًا إِلَى اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا ظَنُّكَ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ. وَقِيلَ: الْاسْمُ بِمَعْنَى الصِّفَةِ، وَقِيلَ: هُوَ مَقْحَمٌ. [الشوكاني (١٧٣/٥)].

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

مَكِّيَّةٌ إِلَّا ﴿أَفْبَهَذَا الْحَدِيثِ﴾ آيَةٌ، وَ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ آيَةٌ، وَهِيَ سِتُّ أَوْ سَبْعٌ أَوْ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ آيَةً^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ١ ﴿قَامَتِ الْقِيَامَةُ﴾ ٢ ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ ٣ ﴿نَفْسٌ تَكْذِبُ بِأَنْ تَنْفِيهَا، كَمَا نَفَتْهَا فِي الدُّنْيَا﴾ ٤ ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ ٥ ﴿أَيُّ: مُظْهَرَةٌ لِحَفْضِ أَقْوَامٍ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ، وَلِرَفْعِ آخَرِينَ بِدُخُولِهِمُ الْجَنَّةِ﴾ ٦ ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا﴾ ٧ ﴿حُرَّكَتْ حَرَكَةً شَدِيدَةً﴾ ٨ ﴿وُئِسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا﴾ ٩ ﴿فُتَّتْ﴾ ١٠ ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً﴾ ١١ ﴿غُبَارًا﴾ ١٢ ﴿مُنْبَثًّا﴾ ١٣ ﴿مُتَشَرِّيًا﴾ ١٤ ﴿وَإِذَا الثَّانِيَةُ بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى﴾ ١٥ ﴿وَكُنْتُمْ﴾ ١٦ ﴿فِي الْقِيَامَةِ﴾ ١٧ ﴿أَزْوَاجًا﴾ ١٨ ﴿أَصْنَافًا﴾ ١٩ ﴿ثَلَاثَةً﴾ ٢٠ ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٢١ ﴿وَهُمُ الَّذِينَ يُؤْتُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ مُبْتَدَأً، خَبَرُهُ﴾ ٢٢ ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٢٣ ﴿تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِمْ بِدُخُولِهِمُ الْجَنَّةِ﴾ ٢٤ ﴿وَأَصْحَابُ﴾

(١) عن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله قد شئت، قال: «شِئْتَنِي هُوَذَا، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». أخرجه الترمذي (٣٢٩٧). قال مسروق من أراد أن يعلم نأ الأولين والآخرين، ونأ أهل الجنة ونأ أهل النار، ونأ أهل الدنيا ونأ أهل الآخرة فليقرأ سورة الواقعة. [الثعلبي (٤٠٢/٢٥)].

(٢) قال محمد بن كعب: خففت أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، ورفعت أقواماً كانوا في الدنيا مخفوضين، والعرب تستعمل الخفض والرفع في المكان والمكانة، والعز والإهانة، ونسبة الخفض والرفع إليها على طريق المجاز، والخافض والرافع في الحقيقة هو الله سبحانه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ» تخفض ناساً وترفع آخرين، وعنه قال: أسمعت القريب والبعيد، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: الساعة خففت أعداء الله إلى النار، ورفعت أولياء الله إلى الجنة. [صديق حسن (٣٥٦/١٣)].

(٣) يقال: رجه يريجه رجاً إذا حركه، والرجة الاضطراب. وارتج البحر وغيره اضطرب، قال المفسرون: ترتج كما يرتج الصبي في المهد حتى ينهدم كل ما عليها، وينكسر كل شيء من الجبال وغيرها. [الشوكاني (١٧٧/٥)]. وهذه كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١].

(٤) أي: فتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لته، [وهذا الوجه يشهد له قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤]، أو سيقت وسيرت من بس الغنم إذا ساقها، [وهذا الوجه تشهد له آيات من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]، وقوله: ﴿وَتُسِيرُ الْجِبَالُ سِيرًا﴾ [الطور: ١٠]. [البضاوي (١٧٧/٥)].

(٥) الهباء ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا تكاد ترى إلا في الشمس إذا دخلت على كوة قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو ما يتطاير من حوافر الدواب من التراب، وقيل: ما تطاير من شرر النار فإذا طفى لم يوجد شيئاً، والمنبث المتفرك. [ابن جزي (٣٣٣/٢)].

الْمُشْتَمَةِ ﴿٩﴾ أَي: الشَّمَالِ بَأَن يُؤْتَى كُلُّ مِنْهُمْ كِتَابُهُ بِشِمَالِهِ ﴿مَا أَصْحَبُ الْمُشْتَمَةِ ﴿٩﴾﴾ تَحْقِيرٌ لِّشَانِهِمْ بِدُخُولِهِمُ النَّارَ. ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ إِلَى الْخَيْرِ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ^(١) مُبْتَدَأُ ﴿السَّابِقُونَ ﴿١١﴾﴾ تَأْكِيدٌ لِتَعْظِيمِ شَأْنِهِمْ. وَالْخَبَرُ: ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾ مُبْتَدَأُ، أَي: جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ السَّابِقُونَ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَهَذِهِ الْأُمَّةُ^(٢). وَالْخَبَرُ: ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ مَنَسُوجَةٌ بِقُضْبَانِ الذَّهَبِ وَالْجَوَاهِرِ. ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ حَالَانِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي الْخَبَرِ^(٣). ﴿يُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ﴾ لِلْخِدْمَةِ ﴿وَلَدُنْهُمْ مَخْلَدُونَ ﴿١٧﴾﴾ عَلَى شَكْلِ الْأَوْلَادِ لَا يَهْرُمُونَ. ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أَقْدَاحٍ لَا عُرَالَهَا ﴿وَأُبَارِيقٍ﴾ لَهَا عُرَا وَخَرَاطِيمُ ﴿وَكَاوِسٍ﴾ إِنَاءٌ شُرِبَ الْخَمْرِ ﴿مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ أَي: خَمْرٍ جَارِيَةٍ مِنْ مَنَبَعٍ لَا يَنْقَطِعُ أَبَدًا. ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ بَفَتْحِ الزَّايِ وَكَسْرِهَا، مِنْ نَزَفِ الشَّارِبِ وَأَنْزَفَ، أَي: لَا يَحْصُلُ لَهُمْ مِنْهَا صُدَاعٌ، وَلَا ذَهَابٌ عَقْلٍ بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿وَفِيهَا مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ وَ﴿لَهُمْ لِلْأَسْتِمَاعِ ﴿حُورٌ﴾ نِسَاءٌ شَدِيدَاتُ سَوَادِ الْعُيُونِ وَبَيَاضُهَا ﴿عَيْنٌ ﴿٢٢﴾﴾ ضَخَامُ الْعُيُونِ كُسِرَتْ عَيْنُهُ بَدَلَ ضَمِّهَا لِمَجَانَسَةِ الْإِيَاءِ، وَمُقَرَّدُهُ «عَيْنَاءُ» كَحَمَرَاءَ، وَفِي قِرَاءَةِ بَجَرٍّ: ﴿حُورٍ عَيْنٍ﴾. ﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلِيِّ الْمَكُونِ ﴿٢٣﴾﴾ الْمَصُونِ. ﴿جَزَاءٌ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ أَوْ مَصْدَرٌ، وَالْعَامِلُ الْمُقَدَّرُ، أَي: جَعَلْنَا لَهُمْ مَا ذَكَرَ لِلْجَزَاءِ أَوْ جَزَيْنَاهُمْ ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا فِي الْجَنَّةِ ﴿لَغَوَا﴾ فَاحِشًا مِنَ الْكَلَامِ ﴿وَلَا تَأْتِيْمًا ﴿٢٥﴾﴾ مَا يُؤْرَثُ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿قِيلًا﴾ قَوْلًا ﴿سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾

(١) المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢٢]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل. [ابن كثير (٥١٧/٧)].

(٢) يعني أمة محمد ﷺ، وعلى هذا القول تكون قلة هذه الأمة باعتبار كثرة الأمم السابقة، وليس المعنى أن الذين يدخلون الجنة من الأمم السابقين باعتبار كل نبي أكثر من الذين يدخلون الجنة من هذه الأمة. وقيل: المراد بالأولين أول هذه الأمة؛ أي: ثلثة من أول هذه الأمة، وقليل من آخرها، وهذا القول هو الصحيح، بل هو المتعين؛ لأن النبي ﷺ قال: «إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». أخرجه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١). أي: نصفهم، ... وعلى هذا فلا يصح أن نقول: قليل من هذه الأمة وكثير من الأمم السابقة، بل نقول: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ أي: كثير من هذه الأمة من أولها، وقليل من آخرها. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص: ٣٣١)].

(٣) والمراد كما قال مجاهد: لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه وهو وصف لهم بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق ورعاية الآداب وصفاء البواطن. [الآلوسي (١٤/١٣٦)].

بَذَلٌ مِنْ ﴿قِيلًا﴾ فَإِنَّهُمْ يَسْمَعُونَهُ^(١). ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ﴾ شَجَرِ النَّبَقِ ﴿مَخْضُودٍ﴾
 ﴿٢٨﴾ لَا شَوْكَ فِيهِ. ﴿وَطَلْحٍ﴾ شَجَرِ الْمَوْزِ ﴿مَنْضُودٍ﴾^(٢) بِالْحَمَلِ مِنْ أَسْفَلِهِ إِلَى أَعْلَاهُ. ﴿وِظَلٍّ مَمْدُودٍ﴾^(٣)
 دَائِمٍ^(٤). ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾^(٥) جَارٍ دَائِمًا. ﴿وَفَكْهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾^(٦) لَا مَقْطُوعَةٍ فِي زَمَنِ ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(٧) بِشَمَنِ.
 ﴿وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ﴾^(٨) عَلَى السَّرْرِ. ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً﴾^(٩) أَي: الْحُورَ الْعَيْنَ مِنْ غَيْرِ وَلَادَةٍ^(١٠). ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ
 أَبْكَارًا﴾^(١١) عَذَارَى، كُلَّمَا أَتَاهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ وَجَدُوهُنَّ عَذَارَى وَلَا وَجَعَ. ﴿عُرْبًا﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ وَسُكُونِهَا جَمْعُ
 «عُرُوبٍ» وَهِيَ الْمُتَحَبِّبَةُ إِلَى زَوْجِهَا عَشْقًا لَهُ ﴿أَتْرَابًا﴾^(١٢) جَمْعُ «تَرْبٍ»، أَي: مُسْتَوِيَاتٍ فِي السِّنِّ^(١٣). ﴿لَا أَصْحَابُ
 الْيَمِينِ﴾^(١٤) صَلََّةٌ ﴿أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ أَوْ «جَعَلْنَاهُنَّ». وَهُنَّ^(١٥): ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(١٦) وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(١٧) وَأَصْحَابُ
 الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ رِيحَ حَارَّةٍ مِنَ النَّارِ تَنْفُذُ فِي الْمَسَامِّ ﴿وَحَمِيمٍ﴾^(١٨) مَاءٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ.

(١) قال القاشاني: أي: قولاً هو سلام في نفسه منزّه عن النقائص، مبرأ عن الفضول والزوائد، أو قولاً يفيد سلامة السامع من العيوب والنقائص، ويوجب سروره وكرامته، ويبين كماله وبهجته، لكون كلامهم كله معارف وحقائق، وتحايا ولطائف... والتكرير للدلالة على فشو السلام بينهم وكثرته، لأن المراد: سلاماً بعد سلام، كقرأت النحو باباً باباً، فيدل على تكرره وكثرته. [القاسمي (١٢٢/٩)].

(٢) «السدر» شجر معروف، وهو الذي يقال له: شجر أم غيلان، وهو من العضاه، له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هجر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأنه مخضود، أي: مقطوع الشوك لا أذى فيه... و«الطلح» كذلك من العضاه شجر عظام كثير الشوك وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مباينة لحال الدنيا، و«منضود» معناه: مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه... قال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظله بارد طيب. و«الظل الممدود» معناه: الذي لا تنسخه شمس، ويفسر ذلك في قول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿وِظَلٍّ مَمْدُودٍ﴾». أخرجه البخاري (٤٨٨١)، ومسلم (٢٨٢٦). [ابن عطية (٢٤٣/٥)].

(٣) الضمير لنساء الجنة، فإن سياق الكلام يقتضي ذلك، وإن لم يتقدم ذكرهن، ولكن تقدم ذكر الفرش وهي تدل على النساء، وأما من قال: إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها، وقيل: يعود على الحور العين المذكورة قبل هذا وذلك بعيد، فإن ذلك في وصف جنات السابقين، وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين، ومعنى إنشاء النساء أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خلقاً آخر في غاية الحسن، بخلاف الدنيا فالعجوز ترجع شابة والقيحة ترجع حسنة. [ابن جزي (٣٣٦/٢)].

(٤) كأنهن شبهن في التساوي بالترائب التي هي ضلوع الصدر أو كآتهن وقعن معا على التراب، أي: الأرض، وهن بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذا أزواجهن. عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعاً: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْداً مُردّاً مُكْحَلِينَ أَبْنَاءَ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ». أخرجه الترمذي (٢٥٤٥)، وأحمد (٢٢١٠٦). والمراد بذلك كمال الشباب. [الألوسي (١٤٢/١٤)].

(٥) يعني: جماعة من أول هذه الأمة، وجماعة من الآخرين. فذكر في السابقين أنهم جماعة من الأولين، وقليل من الآخرين، لأن السابق في آخر الأمة قليل، وأما أصحاب اليمين يكون جماعة من أول الأمة، وجماعة من آخر الأمة. [السمرقندي (٣٩٤/٣)].

﴿وَزَلَّ مِنَ يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ دُخَانَ شَدِيدِ السَّوَادِ. ﴿لَا بَارِدَ﴾ كَغَيْرِهِ مِنَ الظَّلَالِ ﴿وَلَا كَرِيمٍ ۝٤٤﴾ حَسَنِ الْمَنْظَرِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿مُتْرَفِينَ ۝٤٥﴾ مُنْعَمِينَ لَا يَتَعَبُونَ فِي الطَّاعَةِ^(١). ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ﴾ الذَّنْبِ ﴿الْعَظِيمِ ۝٤٦﴾ أَيِ: الشَّرِّ^(٢). ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧﴾ فِي الْهَمَزَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيقُ وَتَسْهِيلُ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالُ أَلِفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ. ﴿أَوَعَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ۝٤٨﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ لِلْعُطْفِ، وَالْهَمْزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَهُوَ فِي ذَلِكَ وَفِيمَا قَبْلَهُ لِلِاسْتِبْعَادِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الْوَاوِ عَطْفًا بِ «أَوْ»، وَالْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ مَحَلٌّ «إِنْ» وَاسْمُهَا. ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ۝٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَتٍ لَوْفَتْ ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ أَيِ: يَوْمِ الْقِيَامَةِ. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝٥١﴾ لَا كِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ۝٥٢﴾ بَيَانُ لِلشَّجَرِ^(٣). ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ مِنَ الشَّجَرِ ﴿الْبُطُونَ ۝٥٣﴾ فَشَرِبُوا عَلَيْهِ أَيِ: الزُّقُومِ الْمَأْكُولِ ﴿مِنْ الْحَمِيمِ ۝٥٤﴾ فَشَرِبُوا شَرَبَ بِفَتْحِ

(١) الترف في العيش ليس جريمة في ذاته وكم من مؤمن عاش في ترف، وليس كل كافر مترفا في عيشه، فلا يكون الترف سببا مستقلا في تسبب الجزاء الذي عوملوا به. فتأويل هذا التعليل: إما بأن يكون الإتراف سببا باعتبار ضميمته ما ذكر بعده إليه بأن كان إصرارهم على الحنث وتكذيبهم بالبعث جريمتين عظيمتين لأنهما محفوظتان بكفر نعمة الترف التي خولهم الله إياها على نحو قوله تعالى: ﴿وَتَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] فيكون الإتراف جزء سبب وليس سببا مستقلا، وفي هذا من معنى قوله تعالى: ﴿وَدَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١]. وإما أن يراد بأن الترف في العيش علق قلوبهم بالدنيا واطمأنوا بها فكان ذلك ممليا على خواطرهم إنكار الحياة الآخرة، فيكون المراد الترف الذي هذا الإنكار عارض له وشديد الملازمة له، فوازنه وازن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢]. وفسر مترفين بمعنى متكبرين عن قبول الحق. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٠٥)].

(٢) أي: الذنب العظيم من الأقاويل الباطلة والعقائد الفاسدة، التي استحقوا بها العذاب المخلد، والعقاب المؤبد. وفسره السبكي بالقسم على إنكار البعث المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨] قال الشهاب: وهو تفسير حسن؛ لأن الحنث وإن فسر بالذنب مطلقا أو الذنب العظيم فالمعروف استعماله في عدم البر بالقسم، ولذا تأثره بما كانوا يعتقدونه من إنكار البعث بقوله: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾. [القاسمي (٩/ ١٢٤)].

(٣) زقوم ببيان للشجر، وسُمِّي زقوماً؛ لأن الإنسان والحياء بالله إذا أكله يتزقمه تزقماً لشدة بلعه، لا يبتلعه بسهولة. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص: ٣٤٠)]. مشتقة من التزقم؛ وهو البلع على جهد لكرهتها وننتها، واختلف فيها: هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب؟ أم لا؟ على قولين أحدهما: أنها معروفة من شجر الدنيا، فقال قطرب: إنها شجرة مرة كريهة الرائحة تكون بتهامة من أخبث الشجر ... القول الثاني: أنها غير معروفة في شجر الدنيا. [الشوكاني (٤/ ٤٥٦)].

السَّيْنِ وَضَمَّهَا مَصْدَرٌ ﴿٥٥﴾ الْإِبِلِ الْعِطَاشِ جَمْعُ «هَيْمَانَ» لِلذَّكَرِ وَ«هَيْمَى» لِلْأُنْثَى كَعَطْشَانَ وَعَطَشَى^(١).
 ﴿هَذَا نُزْلُهُمْ﴾ مَا أَعَدَّ لَهُمْ ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٥٦﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أَوْجَدْنَاكُمْ مِنْ عَدَمٍ ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا
 ﴿تُصَدِّقُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ بِالْبَعْثِ إِذِ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْشَاءِ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ تُرِيقُونَ مِنَ الْمَنِيِّ فِي
 أَرْحَامِ النِّسَاءِ. ﴿ءَأَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِه
 فِي الْمَوَاضِعِ الْأَرْبَعَةِ^(٢) ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾ أَيِ: الْمَنِيِّ بَشَرًا ﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَرْنَا بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ
 ﴿بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ﴿٦٠﴾ بِعَاجِزِينَ^(٣). ﴿عَلَى﴾ عَنْ ﴿أَنْ نُبَدِّلَ﴾ نَجْعَلُ ﴿أَمْثَلَكُمْ﴾ مَكَانَكُمْ
 ﴿وَنُنْشِئَكُمْ﴾ نَخْلُقَكُمْ ﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦١﴾ مِنَ الصُّورِ كَالْقِرْدَةِ وَالْخَنَازِيرِ^(٤). ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾
 وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ السَّيْنِ ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ^(٥). ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾
 ﴿٦٣﴾ تُثِيرُونَ فِي الْأَرْضِ وَتُلْقُونَ الْبَذَرَ فِيهَا. ﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ تُنْبِتُونَهُ ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
 حُطَمًا ﴿نَبَاتًا يَابِسًا لَا حَبَّ فِيهِ﴾ ﴿فَطَلْتُمْ﴾ أَصْلُهُ «ظَلَلْتُمْ» بِكَسْرِ اللَّامِ حُذِفَتْ تَخْفِيفًا، أَيِ: أَقَمْتُمْ نَهَارًا ﴿تَفْكَّهُونَ﴾
 ﴿٦٥﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ إِحْدَى التَّائِيْنِ فِي الْأَصْلِ تَعَجُّبُونَ مِنْ ذَلِكَ^(٦). وَتَقُولُونَ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ نَفَقَةَ زَرْعِنَا. ﴿بَلْ

(١) إعادة فشاربون تأكيد لفظي لنظيره، وفائدة هذا التوكيد زيادة تقرير ما في هذا الشرب من الأعجوبة وهي أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى
 الأهيم، فيزيدهم تفضيلاً لأمعائهم لإفادة التعجب من حالهم تعجباً ثانياً بعد الأول، فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهي
 الحرارة أمر عجيب، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم في الإكثار أمر عجيب أيضاً، فكانتا صفتين مختلفتين. [ابن عاشور (٢٧/٣١١)].

(٢) المواضع الأربعة هي: هذه الآية، والآيات: (٦٤، ٦٨، ٧٢). [قباوة (ص: ١٨٩٩)].

(٣) المسبوق على الشيء هو المغلوب عليه؛ بحيث لا يقدر عليه. [ابن جزي (٢/٣٣٧)].

(٤) من صور وأشكال أخرى، فكيف نعجز عن إعادتهم؟ قال الشهاب: والظاهر أن قوله: ﴿وَنُنْشِئَكُمْ﴾ المراد به إذا بدلناكم بغيركم، لا
 في الدار الآخرة، كما توهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]. [القاسمي (٩/١٢٥)].
 (٥) النشأة الأولى: هي ابتداء الخلق من نقطة، ثم من علقه، ثم من مضغة، ولم تكونوا قبل ذلك شيئاً، أو الترابية لأبيكم آدم، واللحمية
 لأبكم حواء، والنطفية لكم، وكل منها تحويل من شيء إلى غيره، ... ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: فهلا تذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة
 الأخرى وتقيسونها على النشأة الأولى؟ فإن من قدر على الأولى يقدر على الثانية، فإنها أقل كلفة من الأولى في العادة، ... وفيه دليل على
 صحة القياس حيث جهلهم في ترك قياس النشأة الأخرى على الأولى. [صديق حسن (١٣/٣٧٦)].

(٦) معناه تدمون وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده. يقال: تحنت إذا زال الحنث
 عنه، وتخرج وتحوب، وتأثم، ومنه تفكه. وهذا البناء يقال للداخل في الشيء كتعلم وتحلم، وللخارج منه كتخرج وتأثم. [التبيان في أيمان

نَحْنُ فَحَرُّوْمُونَ ﴿٦٧﴾ مَمْنُوعُونَ رِزْقَنَا. ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ السَّحَابِ جَمْعُ «مُزْنَةٍ» ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ مِلْحًا، لَا يُمَكِّنُ شُرْبُهُ ﴿فَلَوْلَا﴾ فَهَلَّا ﴿تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ تُخْرِجُونَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ^(١). ﴿ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا﴾ كَالْمَرْخِ وَالْعَفَارِ وَالْكَلِخِ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ لِنَارِ جَهَنَّمَ ﴿وَمَتَّعًا﴾ بِلُغَةٍ ﴿لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ لِلْمُسَافِرِينَ، مِنْ أَقْوَى الْقَوْمِ، أَي: صَارُوا بِالْقَوَاءِ بِالْمَدِّ وَالْقَصْرِ، أَي: الْقَفْرِ، وَهُوَ مَفَازَةٌ لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا مَاءً^(٢). ﴿فَسَبِّحْ﴾ نَزَّهُ ﴿بِاسْمِ﴾ زَائِدَةٌ ﴿رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ اللَّهُ^(٣). ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ بِمَسَاقِطِهَا لِغُرُوبِهَا^(٤). ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقَسَمَ بِهَا ﴿لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أَي: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ ذَوِي الْعِلْمِ لَعَلِمْتُمْ عِظَمَ هَذَا الْقَسَمِ. ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: أَلَمْ تَلَوْا عَلَيْكُمْ ﴿لَقَرَأَنُّ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ مَصُونٍ وَهُوَ الْمُصْحَفُ. ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ ﴿إِلَّا

القرآن لابن قيم الجوزية (١/ ٤١٥)].

(١) تورون: مضارع أورى الزند إذا حكه بمثله يستخرج منه النار، كانوا يضعون عودا من شجر النار ويحكونه من أعلاه بعود مثله فتخرج النار من العود الأسفل. [ابن عاشور (٣٢٦/٢٧)]. وللعرب شجرتان: إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر، تاتر من بينهما شرر النار. [ابن كثير (٥٤١/٧)].

(٢) عن مجاهد قوله: ﴿لِلْمُقْوِينَ﴾ المستمتعين، الناس أجمعين. وكذا ذكر عن عكرمة. وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع. ثم من لطف الله تعالى أن أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك في متاعه وبين ثيابه، فإذا احتاج إلى ذلك في منزله أخرج زنده وأورى، وأوقد ناره فأطبخ بها واصطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات. فلهذا أفرد المسافرون وإن كان ذلك عاما في حق الناس كلهم. وقد يستدل له ... [بحديث]: «الْمُسْلِمُونَ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: النَّارِ وَالْكَالِ وَالْمَاءِ». أخرجه أبو داود (٣٤٧٧)، وأحمد (٢٣١٣٢). [ابن كثير (٥٤٣/٧)].

(٣) الفاء لترتيب ما بعدها من ذكر الله سبحانه وتزيهه على ما قبلها مما عدده من النعم التي أنعم بها على عباده، وجحود المشركين لها، وتكذيبهم بها، وقيل: قل سبحانه ربي العظيم. وجاء مرفوعاً: أنه لما نزلت هذه الآية قال ﷺ: «اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ». أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤). وسبح متعدي بنفسه ويحرف الجر، فالباء زائد والاسم باق على معناه، أو بمعنى الذات أو بمعنى الذكر، قال الكرخي قالوا: كما يجب تزيه ذاته وصفاته عن النقائص يجب تزيه الألفاظ الموضوعه لها عن سوء الأدب. [صديق حسن (٣٨٠/١٣)].

(٤) أي: محال وقوعها من ثواب وسيارة. والوقوع يطلق على السقوط، أي: الهوى، فمواقع النجوم مواضع غروبها فيكون في معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] والقسم بذلك مما شمله قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْتَرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]. وجعل مواقع النجوم بهذا المعنى مقسما به لأن تلك المساقط في حال سقوط النجوم عندها تذكر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كل ليلة لا يختل ولا يتخلف، وتذكر بعظمة الكواكب وتداولها خلفه بعد أخرى، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الرجوع إلى القسم بمبدعه. [ابن عاشور (٣٣٠/٢٧)].

﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ ٧٩ ﴿الَّذِينَ طَهَّرُوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأَحْدَاثِ ١﴾. ﴿تَنْزِيلٌ﴾ مُنَزَّلٌ ﴿مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٨٠ ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ﴾
 الْقُرْآنِ ﴿أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ ٨١ ﴿مُتَهَافُونَ مُكَذِّبُونَ﴾ ٣. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ مِنَ الْمَطَرِ، أَي: شُكْرُهُ ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾
 ٨٢ ﴿بِسُقْيَا اللَّهِ، حَيْثُ قُلْتُمْ: «مُطَرِّنا بَنُو كَذَا» ٣﴾. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿إِذَا بَلَغَتِ الرَّوْحُ وَقَتَ النَّزْعِ﴾ ﴿الْحُلُقُومِ﴾ ٨٣
 هُوَ مَجْرَى الطَّعَامِ. ﴿وَأَنْتُمْ﴾ يَا حَاضِرِي الْمَيِّتِ ﴿حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ﴾ ٨٤ ﴿إِلَيْهِ.﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ بِالْعِلْمِ ٤
 ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ ٨٥ ﴿مِنَ الْبَصِيرَةِ، أَي: لَا تَعْلَمُونَ ذَلِكَ ٥﴾. ﴿فَلَوْلَا﴾ ﴿إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ٨٦

(١) اختلف العلماء في الكتاب المكنون، فقليل: إنه اللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢ ﴿[البروج: ٢١ - ٢٢]﴾. وقيل: المراد به الكتب التي بأيدي الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ٣ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ٥ ﴿كَرَامٍ بَرَرَةٍ ٦﴾ [عبس: ١٢ - ١٦]، وهذا القول رجَّحه ابن القيم رحمه الله في كتابه: التبيان في أقسام القرآن. وأكثر المفسرين على أن المراد به: اللوح المحفوظ. ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ أي: لا يمس هذا الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة، طهرهم الله تعالى من الشرك والمعاصي؛ ولهذا لا تقع من الملائكة معصية بل هم ممثلون لأمر الله، قائمون به على ما أراد الله ... وذهب بعض المفسرين إلى قول غريب وقال: المراد بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا طاهر، ولكن هذا قول ضعيف، لا تدل عليه الآية؛ لأنه لو كان المراد ذلك لقال: «إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» - يعني: المتطهرين - ولكنه قال: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من قبل الله عز وجل، فهذا القول ضعيف، ولولا أنه يوجد في بعض التفاسير التي بأيدي الناس ما تعرضنا له؛ لأنه لا قيمة له، والصواب أن المراد بذلك الملائكة. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص: ٣٤٨)].

(٢) أي: مكذبون تكذيب منافق. والمدمن والمداهن بمعنى واحد، والمداهن هو ذو الوجهين، وهو الذي يكون قلبه خلاف لسانه، ولسانه خلاف قلبه. ويقال: المدهنون: هم الذين يدفعون الصديق والحق بأحسن وجه يقدر عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] يعني: تكذب فيكذبون، وترائي فيراءون. [السمعي (٥/ ٣٦٠)].

(٣) عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرِّنا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوَاعِبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطَرِّنا بَنُو كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوَاعِبِ». أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٤) أي: بملائكتنا ﴿وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترونهم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. [ابن كثير (٥٤٨/٧)]. والله يضيف الشيء إلى نفسه وهو من فعل الملائكة؛ لأنهم رُسُلُه، ففعلهم فعله، ألم تر إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨] المراد: قرأه جبريل، لكنه أضاف فعل جبريل إليه؛ لأنه بأمره، وهو الذي أرسله به. [ابن عثيمين تفسير الواقعة (ص: ٣٥٢)].

(٥) قال جمهور السلف: يعني ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة، أو لا تدركون كنه ما يقاسيه. [القاسمي (٩/ ١٣٣)].

مَجْزِيَيْنَ بِأَنْ تُبْعَثُوا، أَي: غَيْرَ مَبْعُوثَيْنِ بِزَعْمِكُمْ. ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ تَرُدُّونَ الرُّوحَ إِلَى الْجَسَدِ بَعْدَ بُلُوغِ الْحُلُقُومِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فِيمَا زَعَمْتُمْ، ﴿فَلَوْلَا﴾ الثَّانِيَةُ تَأْكِيدٌ لِلأُولَى وَ﴿إِذَا﴾ ظَرْفٌ لـ «تَرْجِعُونَ» الْمُتَعَلِّقُ بِهِ الشَّرْطَانِ، وَالْمَعْنَى: هَلَّا تَرْجِعُونَهَا إِنْ نَفَيْتُمْ الْبَعْثَ صَادِقِينَ فِي نَفْسِهِ، أَي: لِيَسْتَفِي عَنْ مَحَلِّهَا الْمَوْتُ كَالْبَعْثِ^(١). ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ﴾ أَلَمِيَّتُ ﴿مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحُ﴾ أَي: فَلَهُ إِسْتِرَاحَةٌ ﴿وَرِيحَانُ﴾ رِزْقٌ حَسَنٌ ﴿وَجَنَّتْ نَعِيمٍ﴾ ﴿٨٩﴾ وَهَلِ الْجَوَابُ لـ «أَمَّا» أَوْ لـ «إِنْ» أَوْ لِهَمَا؟ أَقُولُ. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٩٠﴾ فَسَلَّمَ لَكَ﴾ أَي: لَهُ سَلَامَةٌ مِنَ الْعَذَابِ ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ﴿٩١﴾ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مِنْهُمْ. ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ﴿٩٢﴾ فَنُزِّلَ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَّةٌ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ مِنْ إِضَافَةِ الْمَوْصُوفِ إِلَى صِفَتِهِ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٩٦﴾ تَقَدَّمَ^(٢).

(١) هذه الآية تحتاج إلى تفسير، فإنها سيقت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب، ولا بد أن يكون الدليل مستلزماً لمدلوله، بحيث يتقل ذهن منه إلى المدلول، لما بينهما من التلازم، فيكون الملزوم دليلاً على لازمه، ولا يجب العكس. ووجه الاستدلال: أنهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بربهم، وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته، فإما أن يقولوا بأن لهم ربا قاهراً متصرفاً فيهم، ... وإما أن لا يقولوا برب هذا شأنه، فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور، والدين الأمري والجزائي، وإن أنكروه كفروا به، فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم، ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد، فهلا يقدر على دفع الموت عنهم إذا جاءهم، وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم، ... وهذه غاية التعجيز لهم، إذ بين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها، ولو اجتمع على ذلك الثقلان، فيا لها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه، وتصرفه في عبادته، ونفوذ أحكامه فيهم. [الداء والدواء لابن القيم (٢٠٦)].

(٢) ذكر الله تعالى في هذه الآيات حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة، وحال كل امرئ منهم، فأما المرء من «السابقين المقربين» فسيلقى عند موته روحاً وريحاناً، والروح: الرحمة والسعة والفرج والفرح، ومنه: روح الله، والريحان: الطيب، وهو دليل النعيم. [وأما «أصحاب اليمين»] ليس في أمرهم إلا السلام والنجاة من العذاب، وهذا كما تقول في مدح رجل: أما فلان فناهيك به، أو بحسبك أمره، فهذا يقتضي جملة غير مفصلة من مدحه، وقد اضطربت عبارات المتأولين في قوله تعالى: ﴿فَسَلَّمَ لَكَ﴾ ... فهذه الكاف في ﴿لَكَ﴾ إما أن تكون للنبي ﷺ وهو الأظهر ثم لكل معتبر فيها من أمته، وإما أن تكون لمن يخاطبه من أصحاب اليمين، وغير هذا مما قيل فيه تكلف. و«المكذبون الضالون» هم الكفار أصحاب الشمال والمشأمة، و«النزل»: أول شيء يقدم للضيف، و«التصلية» أن تباشر بهم النار، و«الجحيم» معظم النار وحيث تراكمها. [ابن عطية (٥/ ٢٥٤)]، وقوله: «تقدم»، أي: الآية (٧٤) من هذه السورة.

سُورَةُ الْحَدِيدِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، وَهِيَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: نَزَّهَهُ كُلُّ شَيْءٍ، فَاللَّهُ مُزِيدٌ، وَجِيءَ بِـ ﴿مَا﴾ دُونَ «مَنْ» تَغْلِيظًا لِلْأَكْثَرِ^(١)
 ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ ١﴾ فِي صُنْعِهِ. ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي﴾ بِالْإِنْشَاءِ ﴿وَيُمِيتُ﴾
 بَعْدَهُ^(٢) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ ﴿قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِلا بَدَايَةٍ﴾ وَالْآخِرُ ﴿بَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ بِلا نِهَايَةٍ﴾
 وَالظَّاهِرُ ﴿بِالْأَدَلَّةِ عَلَيْهِ﴾ وَالْبَاطِنُ ﴿عَنْ إِدْرَاكِ الْحَوَاسِّ ٣﴾ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾
 وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا، أَوَّلُهَا الْأَحَدُ وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ^(٤) ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الْكَرْسِيِّ^(٥) اسْتَوَاءً
 يَلِيقُ بِهِ^(٦) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ﴾ يَدْخُلُ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ كَالْمَطَرِ وَالْأَمْوَاتِ ﴿وَمَا يُخْرِجُ مِنْهَا﴾ كَالنَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ ﴿وَمَا

(١) هذا التسييح المذكور هنا وفي أوائل سائر السور المسبحات يحتمل أن يكون حقيقة، أو أن يكون بلسان الحال؛ لأن كل ما في السماوات والأرض دليل على وجود الله وقدرته، وحكمته، والأول أرجح لقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْيِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذكر التسييح هنا وفي الحشر والصف بلفظ سبح الماضي، وفي الجمعة والتغابن بلفظ يسبح المضارع، وكل واحد منهما يقتضي الدوام. [ابن جزي (٢/٣٤٣)].

(٢) أي: يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه. [القاسمي (٩/١٣٧)].

(٣) في الحديث عن النبي ﷺ قال: «أَنْتَ الْأَوَّلُ لَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ لَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ لَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ لَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ». أخرجه مسلم (٢٧١٣). ﴿الْأَوَّلُ﴾ يعني: ليس قبله شيء؛ لأنه لو كان قبله شيء لكان الله مخلوقاً، وهو عز وجل الخالق، ولهذا فسر النبي ﷺ الأول بأنه الذي ليس قبله شيء، كل الموجودات بعد الله عز وجل، ليس أحد مع الله ولا قبل الله. ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء؛ لأنه لو كان بعده شيء لكان ما يأتي بعده غير مخلوق لله،... فهو الذي ليس بعده شيء. إذن: هو الأول لا ابتداء له، الآخر لا انتهاء له، ليس بعده شيء. ﴿وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ الظاهر: [أي:] كل المخلوقات تحته جل وعلا، فليس فوقه شيء. الباطن: ... يعني ما يحول دونه شيء، خبير عليم بكل شيء،... فالأول والآخر اشتملا على عموم الزمان، والظاهر والباطن على عموم المكان. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص: ٣٦١)].

(٤) انظر التعليق على آية (٥٤) من سورة الأعراف.

(٥) انظر التعليق على آية (١٢٩) من سورة التوبة.

(٦) هو الذي أنشأ السماوات السبع والأرضين، فدبرهن وما فيهن، ثم استوى على عرشه فارتفع عليه وعلا. [القاسمي (٩/١٣٨)].

يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿كَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ﴾ ﴿وَمَا يَعْرِجُ﴾ يَصْعَدُ ﴿فِيهَا﴾ كَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَالسَّيِّئَةِ ^(١) ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ بِعِلْمِهِ ^(٢) ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ^(٣) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿وَالْمَوْجُودَاتُ جَمِيعَهَا﴾ ^(٤) ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ﴾ يَدْخُلُهُ ﴿فِي النَّهَارِ﴾ فَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ اللَّيْلُ ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ فَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ النَّهَارُ ^(٥) ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ^(٦) بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ ^(٧) ﴿ءَامِنُوا﴾ دَاوِمُوا عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ مِنْ مَالٍ مَنْ تَقَدَّمَكُمْ وَسَيَخْلُفُكُمْ فِيهِ مَنْ بَعْدَكُمْ، نَزَلَ فِي غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ وَهِيَ غَزْوَةُ تَبُوكَ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ إِشَارَةً إِلَى عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ^(٨) ﴿لَهُمْ

(١) ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والرحمة والعذاب والمطر وغيرها، ﴿وَمَا يَعْرِجُ فِيهَا﴾ أي: يصعد إليها من الملائكة وأعمال العباد [الصالحات] والدعوات، وقول المحلي: «كالأعمال الصالحة والسيئة» اعترضه القاري بأن الذي يرفع من الأعمال هو الصالح كما في قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]. [صديق حسن (١٣/٣٩٨)].

(٢) كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧] وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا تواعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم. [السعدي (ص: ٨٣٧)].

(٣) أي: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها، ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. [ابن كثير (٨/١٠)].

(٤) تذكير للمشركين بأن المتصرف في سبب الفناء هو الله تعالى فإنهم يعتقدون أن الليل والنهار هما اللذان يفتيان الناس، قال الأعشى: «ألم تروا إرما وعادا أفناهما الليل والنهار»، وحكى الله عنهم قولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجبالية: ٢٤]، فلما قال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، أبطل بعده اعتقاد أهل الشرك أن للزمان الذي هو تعاقب الليل والنهار والمعبر عنه بالدهر تصرفا فيهم، وهذا معنى اسمه تعالى: «المدير». [ابن عاشور (٢٧/٣٦٦)].

(٥) بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها. [أبو السعود (٨/٢٠٤)].

(٦) لأنه جهز جيش العسرة يومئذ، ولفظ الآية مع ذلك عام وحكمها باق لجميع الناس، وقوله: ﴿مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ يعني أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله؛ لأنه خلقها، ولكنه متعكم بها وجعلكم خلفاء بالتصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء، فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكمها أن تنفقوها فيه، ويحتمل أن يكون ﴿جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ﴾ عمن كان قبلكم فورثتم عنه الأموال، فأنفقوها قبل أن تخلفوها لمن بعدكم، كما خلفها لكم من كان قبلكم، والمقصود على كل وجه: تحريض على الإنفاق وتزهيد في الدنيا. [ابن جزي (٢/٣٤٤)].

أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ ﴿٨﴾ خِطَابٌ لِلْكَفَّارِ، أَي: لَا مَانِعَ لَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ ﴿٩﴾ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ ﴿١٠﴾ بِضِمِّ الْهَمْزَةِ وَكَسْرِ الْخَاءِ، وَبِفَتْحِهَا وَنَضْبِ مَا بَعْدَهُ ﴿مِثْقُكُمْ﴾ عَلَيْهِ، أَي: أَخَذَهُ اللَّهُ فِي عَالَمِ الدَّرَجَاتِ حِينَ أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨﴾ أَي: مُرِيدِينَ الْإِيمَانَ بِهِ فَبَادِرُوا إِلَيْهِ ^(١). ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ آيَاتِ الْقُرْآنِ ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ﴾ فِي إِخْرَاجِكُمْ مِنَ الْكُفْرِ إِلَى الْإِيمَانِ ﴿لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ ﴿بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ﴾ ﴿أَلَا﴾ فِيهِ إِدْغَامُ نُونٍ ﴿أَنْ﴾ فِي لَامٍ ﴿لَا﴾ ﴿تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِمَا فِيهِمَا فَتَصِلُ إِلَيْهِ أَمْوَالُكُمْ مِنْ غَيْرِ أَجْرِ الْإِنْفَاقِ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أَنْفَقْتُمْ فَتَوْجَرُونَ ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ﴾ لِمَكَّةَ ^(٢) ﴿وَقَتْلَ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا وَكُلًّا﴾ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي قِرَاءَةِ بِالرَّفْعِ مُبْتَدَأُ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْحُسَيْنَ﴾ الْجَنَّةَ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ^(٣) ﴿فَيَجَازِيَكُمْ بِهِ﴾. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ بِإِنْفَاقِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ يُنْفِقَهُ لِلَّهِ ^(٤) ﴿فَيُضْعِفَهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ: ﴿فَيُضْعِفُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ ﴿لَهُ﴾ مِنْ عَشْرِ إِلَى أَكْثَرٍ مِنْ سَبْعِمِائَةٍ كَمَا ذُكِرَ فِي الْبَقَرَةِ ^(٥) ﴿وَلَهُ﴾ مَعَ الْمَضَاعِفَةِ ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ مُقْتَرَنٌ بِهِ رِضًا وَإِقْبَالًا. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَمَامَهُمْ ﴿و﴾

(١) يعني أخذ الله ميثاقكم: العهد أن تؤمنوا به، وبرسله، فصار هناك سببان للإيمان: الأول: دعوة النبي ﷺ إليه. والثاني: الميثاق الذي أخذه الله علينا، وذلك بما أعطانا عز وجل من الفطرة والعقل والفهم الذي ندرك به ما ينفعنا ويضرنا، هذا هو الصحيح في معنى الميثاق، وقيل: إنه الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم حين أخرجهم من ظهره، إن صح الحديث الوارد في ذلك. فالله تعالى ينكر على من لم يؤمن ويقول: ما الذي حملك على ألا تؤمن وقد تمت أسباب وجوب الإيمان بدعوة الرسول ﷺ وأخذ الميثاق. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص: ٣٧٨)].

(٢) لأن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفاً، والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد، ويؤخذ من الآية أن من أنفق في شدة أعظم أجراً ممن أنفق في حال الرخاء. [ابن جزي (٢/ ٣٤٤)].

(٣) قال أبو السعود: ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في سبيله، بعد الأمر به، والتوبيخ على تركه، وبيان درجات المتفقيين، أي: من ذا الذي ينفق ماله في سبيله تعالى رجاء أن يعوضه، فإنه كمن يقرضه، وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه، وتحري أكرم المال وأفضل الجهات له. فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً في أفضل جهات الإنفاق؛ وذلك إما بالتجاوز في الفعل، فيكون استعارة تبعية تصريحية، أو في مجموع الجملة، فيكون استعارة تمثيلية، وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة في القتال، وآخرون على نفقة العيال. قال ابن كثير: والصحيح أنه أعم من ذلك، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة، وعزيمة صادقة، دخل في عموم هذه الآية. [القاسمي (٩/ ١٤٤)].

(٤) الآية (٢٦١) من سورة البقرة.

يَكُونُ ﴿بِأَيْمَنِهِمْ﴾ وَيُقَالُ لَهُمْ^(١): ﴿بُشِّرْ لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتُ﴾ أَي: اُدْخُلُوهَا ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا ﴿أَبْصِرُونَا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: يَفْتَحِ الْهَمْزَةَ وَكَسَرَ الظَّاءِ، أَمْهَلُونَا ﴿نَقْتَبِسُ﴾ نَأْخِذِ الْقَبَسَ وَالْإِضَاءَةَ ﴿مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ﴾ لَهُمْ اسْتَهِزَّاءٌ بِهِمْ^(٢): ﴿أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ فَارْجِعُوا ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ﴾ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِسُورٍ﴾ قِيلَ: هُوَ سُورَةُ الْأَعْرَافِ^(٣) ﴿لَهُ وَبَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ مِنْ جِهَةِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ مِنْ جِهَةِ الْمُنَافِقِينَ ﴿مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾^(٤) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ﴿عَلَى الطَّاعَةِ﴾ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِالْإِنْفَاقِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ الدَّوَائِرَ ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ شَكَّكْتُمْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ﴿وَعَرَّيْتُمْ الْأُمَانِي﴾ الْأَطْمَاعَ ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الْمَوْتُ ﴿وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الشَّيْطَانُ^(٥). ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ﴾ بِالْإِيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَاؤَلِكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴿أُولَى بِكُمْ﴾ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ^(٦) ﴿هِيَ﴾. ﴿* أَلَمْ يَأْنِ﴾ يَحْنُ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الصَّحَابَةِ

(١) إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحيث تدرى المؤمنين والمؤمنات ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَنِهِمْ﴾ فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويشيرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بُشِّرْ لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿فَلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب، ونجوا من كل شر ومرهوب. [السعدي (ص: ٨٣٩)].

(٢) يحتمل أن يكون هذا من قول المؤمنين، أو قول الملائكة ومعناه الطرد للمنافقين، والتهكم بهم. [ابن جزي (٢/ ٣٤٥)].

(٣) ضمن «ضرب» في الآية معنى الحجز فعدي بالباء، أي: ضرب بينهم سور للحجز به بين المنافقين والمؤمنين، خلقه الله ساعتئذ قطعاً لأطماعهم، ﴿وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصَرُونَ﴾، فحق بذلك التمثيل الذي مثل الله به حالهم في الدنيا بقوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وأن الحيرة وعدم رؤية المصير عذاب أليم... واعلم أن هذا السور المذكور في هذه الآية غير الحجاب الذي ذكر في سورة الأعراف. [ابن عاشور (٢٧/ ٣٨٣)]. وهو حائط بين الجنة والنار ﴿لَهُ﴾ أي: لذلك السور ﴿بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: في باطن ذلك السور الرحمة وهي الجنة ﴿وَوَظَاهِرُهُ﴾ أي: خارج ذلك السور ﴿مِنْ قِبَلِهِ﴾ أي: من قبل ذلك الظاهر ﴿الْعَذَابُ﴾ وهو النار. [البغوي (٨/ ٣٦)].

(٤) وعبر عنه بصيغة المبالغة التي هي المفعول لكثرة غروره لبني آدم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. [السنقيطي (٧/ ٨٦٧)].

(٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيها المنافقون ﴿فِدْيَةٌ﴾ تفدون بها أنفسكم من النار، وقيل: عوض وبدل، وقيل: إيمان وتوبة، والأول أولى ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ظاهراً وباطناً، وإنما عطف الكافر على المنافق وإن كان المنافق كافراً في الحقيقة لأن المنافق أبطن الكفر والكافر أظهره

لَمَّا أَكْثَرُوا الزَّمَانَ ^(١) ﴿أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿مِنْ أَلْحَقِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿تَخْشَعَ﴾ ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ﴾ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ الزَّمَنُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَنْبِيَائِهِمْ ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ لَمْ تَلِنْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ أَعْلَمُوا ﴿خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمَذْكُورِينَ﴾ ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ بِالنَّبَاتِ، فَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِقُلُوبِكُمْ يَرُدُّهَا إِلَى الْخُشُوعِ ^(٢) ﴿قَدْ

فصار غير المنافق بهذا الاعتبار فحسن عطفه على المنافق ﴿مَأُولُكُمْ﴾ أي: منزلكم الذي تأوون إليه. [صديق حسن (١٣/ ٤١٠)].

(١) يقول الله تعالى: أما أن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ إلا أربع سنين. أخرجه مسلم (٣٠٢٧). [وعن] شدد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ﴾. أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٤٠٩)، وأخرج نحوه عبد الرزاق (٢/ ٢٧٥) [ابن كثير (٨/ ١٩)]. والخشوع في أصل اللغة الانخفاض، والذل، والسكون، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ [طه: ١٠٨] أي سكنت، وذلت، وخضعت، ... والخشوع: قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل، والجمعية عليه ... وقال الجنيد: الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب. وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره. [مدارج السالكين لابن قيم الجوزية (٢/ ١٩٣)].

(٢) هو هنا يشير إلى أن الكلام الذي بعده مغزى عظيم غير ظاهر، وذلك أنه أريد به تمثيل حال احتياج القلوب المؤمنة إلى ذكر الله بحال الأرض الميتة في الحاجة إلى المطر، وحال الذكر في تركية النفوس واستنارتها بحال الغيث في إحياء الأرض الجذبة. ودل على ذلك قوله بعده: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وإلا فإن إحياء الله الأرض بعد موتها بما يصيها من المطر لا خفاء فيها فلا يقتضي أن يفتح الإخبار عنه بمثل ﴿أَعْلَمُوا﴾ إلا لأن فيه دلالة غير مألوفة وهي دلالة التمثيل، ... وقوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، استعارة تمثيلية مصرحة ويتضمن تمثيلية مكنية بسبب تضمنه تشبيه حال ذكر الله والقرآن في إصلاح القلوب بحال المطر في إصلاحه الأرض بعد جدها. وطوي ذكر الحالة المشبه بها ورمز إليها بلازمها وهو إسناد إحياء الأرض إلى الله لأن الله يحيي الأرض بعد موتها بسبب المطر كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل: ٦٥]. والمقصود الإرشاد إلى وسيلة الإنابة إلى الله والحث على تعهد النفس بالموعظة، والتذكير بالإقبال على القرآن وتدبره وكلام الرسول ﷺ وتعليمه وأن في اللجأ إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ نجاة وفي المفزع إليهما عصمة وقد قال النبي ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي» أخرجه البزار (٨٩٩٣)، وقال ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أُخْرَى، إِنْمَاءً هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمَسِّكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَهَّ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ». أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢). [ابن عاشور (٢٧/ ٣٩٣)].

بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ ﴿الدَّالَّةِ عَلَى قُدْرَتِنَا بِهَذَا وَغَيْرِهِ﴾ ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ ﴿مَنْ﴾ «التَّصَدَّقِ» أَدْغَمَتْ
التَّاءُ فِي الصَّادِ، أَيِ: الَّذِينَ تَصَدَّقُوا ﴿وَالْمُصَّدِّقَاتِ﴾ اللَّاتِي تَصَدَّقْنَ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَخْفِيفِ الصَّادِ فِيهِمَا مِنَ التَّصَدِيقِ
وَالْإِيمَانِ ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ رَاجِعٌ إِلَى الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِالتَّغْلِيبِ، وَعَطَفَ الْفِعْلَ عَلَى الْإِسْمِ فِي صِلَةِ «أَلْ» لِأَنَّهُ فِيهَا
حَلٌّ مَحَلَّ الْفِعْلِ، وَذَكَرَ الْقَرْضَ بِوَضْفِهِ بَعْدَ التَّصَدِّقِ تَقْيِيدًا لَهُ ﴿قَرْضًا حَسَنًا يُضَعَّفُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعَّفُ﴾
بِالتَّشْدِيدِ، أَيِ: قَرْضُهُمْ ﴿لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ
الْمُبَالِغُونَ فِي التَّصَدِيقِ ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ مِنَ الْأُمَمِ ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِنَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٩﴾ النَّارِ. ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهُمْ وَزِينَةٌ﴾ تَزِينٌ ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أَيِ: الْأَشْتِغَالُ فِيهَا^(١)، وَأَمَّا الطَّاعَاتُ وَمَا

(١) عطف على معنى الفعل في المحلى باللام؛ لأن معناه: الذين أصدقوا، أو صدقوا وهو على الأول للدلالة على أن المعتبر هو التصديق المقرون بالإخلاص. [البيضاوي (١٨٨/٥)].

(٢) أي: يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك. [ابن كثير (٢٢/٨)].

(٣) الإيمان عند أهل السنة وهو ما دل عليه الكتاب والسنة: هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء. [السعدي (ص: ٨٤٠)].

(٤) جوز في ﴿الشَّهَدَاءُ﴾ وجهان: أحدهما: أن يكون معطوفاً على ما قبله، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء، وهو الظاهر، لأن الأصل الوصل لا التفكيك. والثاني: أن يكون مبتدأ، خبره ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ و﴿الشَّهَدَاءُ﴾ حيثنذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم، أو الذين قتلوا في سبيل الله. واختار الوجه الثاني ابن جرير، قال: لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم شهيد، لا بمعنى غيره، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه، فيكون ذلك وجهاً، وإن كان فيه بعض البعد، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل، فتأويل قوله: ﴿وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ إذن: والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أو أهلكوا في سبيله، عند ربهم لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم. [القاسمي (١٤٨/٩)].

(٥) لما ذكر حال الفريقين في الآخرة حقر أمور الدنيا أعني ما لا يتوصل به إلى الفوز الآجل، بأن بين أنها أمور خيالية قليلة النفع سريعة الزوال؛ لأنها لعب يتعب الناس فيه أنفسهم جداً إتعاب الصبيان في الملاعب من غير فائدة، وهو يلهون به أنفسهم عما يهمهم وزينة كالملابس الحسنة والمراكب البهية والمنازل الرفيعة، وتفاخر بالأنساب أو تكاثر بالعدد والعدد. [البيضاوي (١٨٩/٥)]. كما قال تعالى: ﴿رُبَّنَّ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَلَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

يُعِينُ عَلَيْهَا فَمِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿كَمَثَلِ﴾ أَي: هِيَ فِي إِعْجَابِهَا لَكُمْ وَاضْمِحَالِهَا، كَمَثَلِ ﴿غَيْثٍ﴾ مَطَرٍ ﴿أَعْجَبَ الْكَفَّارَ﴾ الزَّرَّاعَ^(١) ﴿نَبَاتُهُ﴾ النَّاشِئُ عَنْهُ ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ﴾ يَبْسُ ﴿فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا﴾ فَتَاتًا يَضْمَحِلُّ بِالرِّيَّاحِ ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لِمَنْ أَثَرَ عَلَيْهَا الدُّنْيَا ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ لِمَنْ لَمْ يُؤْثِرْ عَلَيْهَا الدُّنْيَا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ مَا التَّمَتُّعُ فِيهَا ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(٢) سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴿لَوْ وُصِّلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى، وَالْعَرْضُ السَّعَةِ﴾^(٣) ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٤) مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ﴿بِالْجَدْبِ﴾ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴿كَالْمَرَضِ وَفَقْدِ الْوَلَدِ﴾ ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ يَعْنِي اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ نَخْلُقَهَا، وَيُقَالُ فِي النِّعْمَةِ كَذَٰلِكَ^(٥) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٦) لِكَيْلَا ﴿كَيِّ﴾ نَاصِبَةٌ لِلْفِعْلِ بِمَعْنَى «أَنْ»، أَي: أَخْبَرَ تَعَالَى بِذَٰلِكَ، لِئَلَّا ﴿تَأْسَوْا﴾ تَحْزَنُوا ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا﴾ فَرَحَ بَطَرٍ، بَلْ فَرَحَ شُكْرٍ عَلَى النِّعْمَةِ^(٧) ﴿بِمَا ءَاتَاكُمْ﴾ بِالْمَدِّ: أَعْطَاكُمْ، وَبِالْقَصْرِ: جَاءَكُمْ مِنْهُ ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ مُتَكَبِّرٍ بِمَا أُوتِيَ ﴿فَخُورٍ﴾^(٨) بِهِ عَلَى النَّاسِ. ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بِهِ، لَهُمْ وَعَيْدٌ شَدِيدٌ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ ضَمِيرُ فَضْلٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُقُوطِهِ ﴿الْغَنِيِّ﴾ عَنْ غَيْرِهِ ﴿الْحَمِيدُ﴾^(٩) لِأَوْلِيَائِهِ. ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾

(١) أي: الزراع، لأنهم يكفرون البذر، أي: يغطونه بالتراب، كما يستر الكافر حقيقة أنوار الإيمان بما يحصل منه من الجحد والطغيان. [صديق حسن (١٣/٤١٦)]. أي: يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث؛ وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها. [ابن كثير (٨/٢٤)].

(٢) انظر إلى التعليق على آية (١٣٣) من سورة آل عمران.

(٣) المعنى أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، قال رسول الله ﷺ: «قَدَّرَ اللَّهُ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَغَرَّشَهُ عَلَى الْمَاءِ». أخرجه مسلم (٢٦٥٣). والمصيبة هنا عبارة عن كل ما يصيب من خير أو شر، وقيل: أراد به المصيبة في العرف وهو ما يصيب من الشر، وخص ذلك بالذكر لأنه أهم على الناس، وفي الأرض يعني القحوط والزلازل وغير ذلك، وفي أنفسكم يعني الموت، والفقر، وغير ذلك و﴿نَّبْرَأَهَا﴾ معناه: نخلقها والضمير يعود على المصيبة أو على أنفسكم أو على الأرض، وقيل: يعود على جميعها لأن المعنى صحيح في كلها. [ابن جزي (٢/٣٤٨)].

(٤) قيل: والفرح والحزن المنهى عنهما هما اللذان يتعدى فيهما إلى ما لا يجوز، وإلا فليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً، والحزن صبراً، وإنما يلزم من الحزن الجزع المنافي للصبر، ومن الفرح الأشد المطغي الملهي عن الشكر. [صديق حسن (١٣/٤١٩)].

الْمَلَائِكَةَ^(١) إِلَى الْأَنْبِيَاءِ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الْقَوَاطِعِ ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ بِمَعْنَى الْكِتَابِ ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ أَلْعَدَلَ
 ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴿أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَعَادِنِ^(٢)﴾ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴿يُقَاتِلُ بِهِ﴾ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ
 وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ ﴿عِلْمٌ مُشَاهِدَةٌ، مَعْطُوفٌ عَلَى لِيَقُومَ النَّاسُ ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ بِأَنْ يَنْصُرَ دِينَهُ بِآلَاتِ الْحَرْبِ مِنَ الْحَدِيدِ
 وَغَيْرِهِ ﴿وَرُسُلُهُ بِالْغَيْبِ﴾ حَالٌ مِنْ هَاءٍ ﴿يَنْصُرُهُ﴾، أَي: غَائِبًا عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَنْصُرُونَهُ وَلَا
 يُبْصِرُونَهُ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٣)﴾ لَا حَاجَةَ لَهُ إِلَى النَّصْرَةِ، لَكِنَّهَا تَنْفَعُ مَنْ يَأْتِي بِهَا. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
 وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا التُّبُوءَ وَالْكِتَابَ﴾ يَعْنِي الْكِتَابَ الْأَرْبَعَةَ: التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْفُرْقَانَ، فَإِنَّهَا فِي ذُرِّيَّةِ
 إِبْرَاهِيمَ ﴿فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ^(٤)﴾ ثُمَّ قَفَيْنَا عَلَى أَثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَعَاتَيْنَاهُ
 الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً هِيَ رَفُضُ النِّسَاءِ وَاتِّخَاذُ الصَّوَامِ^(٥) ﴿أَبْتَدَعُوهَا﴾
 مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِهِمْ ﴿مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا﴾ مَا أَمَرْنَاهُمْ بِهَا ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ فَعَلُوهَا ﴿أَتَبَغَاءَ رِضْوَانِ﴾ مَرْضَاةِ ﴿اللَّهِ﴾ فَمَا

(١) قاله الزمخشري والمحلي، وفيه بعد، وجمهور المفسرين على حمل الرسل على البشر ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات البينة، والشرائع
 الظاهرة ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ المراد الجنس، فدخل فيه كتاب كل رسول ﴿وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قال قتادة ومقاتل بن حيان:
 الميزان العدل، والمعنى أمرناكم بالعدل كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]. [صديق حسن (١٣/ ٤٢١)].
 (٢) ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾ أي: خلقناه كما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً زُورًا﴾ وهذا قول الحسن، والمعنى أنه خلقه وأخرجه
 من المعادن، وعلم الناس صنعته... ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه تتخذ منه آلات الحرب، قال الزجاج: يمتنع به ويحارب، والمعنى أنه تتخذ
 منه آلة للدفع وآلة للضرب، قال مجاهد: فيه جنة وسلاح وقوة وشدة ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: أنهم يتفجعون به في كثير مما يحتاجون إليه، مثل
 السكين والفأس والإبرة وآلات الزراعة والتجارة والعمارة، قال البيضاوي: ما من صناعة إلا والحديد آلتها، أي: له دخل في آلتها، وهذا
 الحصر كلي كما هو مشاهد. [صديق حسن (١٣/ ٤٢١)].

(٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ على دينه، وهم الحواريون وأتباعهم ﴿رَأْفَةً﴾ أي: مودة، فكان يود بعضهم بعضاً ﴿وَرَحْمَةً﴾ يتراحمون
 بها، وقيل: هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس، فالأن الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم، وحرفوا
 الكلم عن مواضعه، وأصل الرأفة اللين، والرحمة الشفقة، وقيل: الرأفة أشد الرحمة. [القرطبي (١٧/ ٢٦٢)]. ولهذا كان النصراني ألين من
 غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً أَبْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة،
 ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدتهم بذلك رضا الله
 تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم
 قيامهم بما فرضوه على أنفسهم. فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم. [السعدي (ص: ٨٤٢)].

رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا^ط إِذْ تَرَكَهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَكَفَرُوا بدينِ عِيسَى وَدَخَلُوا فِي دِينِ مَلِكِهِمْ، وَبَقِيَ عَلَى دِينِ عِيسَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَأَمَنُوا بِنَبِيِّنَا ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ﴾ مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِعِيسَى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ مُحَمَّدٍ ﷺ وَعِيسَى ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نَصِيبَيْنِ ﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لَا يَمَانِكُمْ بِالنَّبِيِّينَ^(١) ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ عَلَى الصِّرَاطِ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿لَّا يَلَّامُ يَكْمًا﴾ أَي: أَعْلَمَكُمْ بِذَلِكَ لِيَعْلَمَ ﴿أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ التَّوْرَةِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ، ﴿أَنَّ نُحْفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا صَمِيرُ الشَّانِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ﴾ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴿خِلَافَ مَا فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَحِبَّاءُ اللَّهِ وَأَهْلُ رِضْوَانِهِ﴾ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ يُعْطِيهِ ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ فَاتَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ^(٢) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٢٩﴾.

(١) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرُهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَآمَنَ بِي فَلَهُ أَجْرَانِ...» الحديث. أخرجه البخاري (٩٧) ومسلم (١٥٤). وافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبي حكيم، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير. وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجراً مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: ضعفين، وزادهم: ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم... ومما يؤيد هذا القول [حديث] أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ الذي فيه: «مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عَمَلًا فَقَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ الْيَهُودُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ قِيرَاطٍ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ، ثُمَّ قَالَ مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ أَلَا فَاتْنُمُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ إِلَى مَغْرِبِ الشَّمْسِ عَلَى قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، أَلَا لَكُمْ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ، فَغَضِبَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا وَأَقْلُ عَطَاءً، قَالَ اللَّهُ هَلْ ظَلَمْتُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا قَالُوا لَا. قَالَ فَإِنَّهُ فَضَّلِي أُعْطِيَ مَنْ شِئْتُ». أخرجه البخاري (٣٤٥٩). ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا يَلَّامُ يَكْمًا﴾ يَكْمًا أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ أي: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله، ولا على إعطاء ما منع الله، ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. [ابن كثير (٣٢/٨)]. وقد زعم بعض المفسرين أن هذه الآية في أهل الكتاب؛ لأنه قال: ﴿وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ ولكن هذا قول ضعيف جداً، ولا يمكن أن ينادي الله عز وجل أهل الكتاب وهم كفرة بوصف الإيمان أبداً، يعني: لا يمكن أن يكون المراد بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يا أيها اليهود والنصارى؛ لأنهم حين نزول القرآن إذا بقوا على يهوديتهم ونصرانيتهم ليسوا مؤمنين. [ابن عثيمين تفسير الحديد (ص: ٤٢٩)].

(٢) في الآية (٢٨) من هذه السورة.

سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ

مَدَنِيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ تَرَايَعُكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴿فِي زَوْجِهَا﴾ الْمُظَاهَرِ مِنْهَا، وَكَانَ قَالَ لَهَا: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهَرِ أُمِّي، وَقَدْ سَأَلَتِ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَأَجَابَهَا بِأَنَّهَا حَرُمَتْ عَلَيْهِ عَلَى مَا هُوَ الْمَعْهُودُ عَنْهُمْ مِنْ أَنَّ الظَّهَرَ مُوجِبُهُ فِرْقَةٌ مُؤَبَّدَةٌ، وَهِيَ خَوْلَةٌ بِنْتُ ثَعْلَبَةَ وَهُوَ أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ﴿وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ وَحَدَّثَهَا وَفَاقَتْهَا وَصَبِيَّةٌ صَغِيرًا إِنْ ضَمَّتْهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا أَوْ إِلَيْهَا جَاعُوا ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ تَرَايَعُكُمَا ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ١ ﴿عَالِمٌ﴾ ﴿الَّذِينَ يَظْهَرُونَ﴾ أَصْلُهُ «يَظْهَرُونَ» أَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفِ بَيْنَ الطَّاءِ وَالْهَاءِ الْخَفِيفَةِ، وَفِي أُخْرَى كَ «يَقَاتِلُونَ» وَفِي الْمَوْضِعِ الثَّانِي كَذَلِكَ ﴿مِنْكُمْ مِّنْ نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي﴾ بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ وَبِلَا يَاءٍ ﴿وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ﴾ بِالظَّهَرِ ﴿لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ كَذِبًا ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ٢ ﴿لِلْمُظَاهَرِ بِالْكَفَّارَةِ﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَظْهَرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ أَيُّ: فِيهِ، بَانَ يُخَالِفُوهُ بِإِمْسَاكِ الْمُظَاهَرِ مِنْهَا الَّذِي هُوَ خِلَافُ مَقْصُودِ الظَّهَارِ مِنْ وَصْفِ الْمَرْأَةِ بِالتَّحْرِيمِ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أَيُّ: إِعْتَاقُهَا عَلَيْهِ ﴿مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا﴾ بِالْوُطْءِ ﴿ذَلِكَ تُوَعِّظُونَ بِهِ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٣ ﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ رَقَبَةً ﴿فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ أَيُّ: الصِّيَامَ ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ عَلَيْهِ، أَيُّ: مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا حَمَلًا

(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية. أخرجه البخاري (٧٣٨٥). والله عز وجل من اسمائه السميع وهو متضمن لصفة السمع لله عز وجل فهو سميع ذو سمع، بلا تكييف ولا تشبيه ولا تأويل، فهو سميع لأصوات عباده لا يشغله سمع عن سمع، ولا تختلف عليه اللغات والمطالب، ولا تشبهه عليه الأصوات، فالسر عنده علانية؛ قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [الرعد: ١٠]، والاختفاء والظهور عنده سواء؛ لأنه يسمع السر كما يسمع الجهر، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كنا مع رسول الله ﷺ، فكنا إذا أشرقنا على واد، هللنا وكبرنا، ارتفعت أصواتنا، فقال النبي ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْجِعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمًّا وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ». أخرجه البخاري (٢٩٩٢).

لِلْمُطَلَّقِ عَلَى الْمُقَدِّ، لِكُلِّ مَسْكِينٍ مُدٌّ مِنْ غَالِبِ قُوتِ الْبَلَدِ^(١) ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: التَّخْفِيفُ فِي الْكِفَارَةِ ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ

(١) عن خويلة بنت ثعلبة قالت: في والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة، قالت: كنت عنده وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه، قالت: فدخل علي يوما فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت علي كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي فإذا هو يريدني عن نفسي. قالت: قلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلص إلي وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه. قالت: فواثبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يَا خُوَيْلَةُ ابْنُ عَمِّكَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَاتَّقِيَ اللَّهَ فِيهِ». قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سري عنه، فقال لي: «يَا خُوَيْلَةُ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي صَاحِبِكَ». ثم قرأ علي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكَى إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مُرِيهِ فَلْيُعْتِقْ رَقَبَةً». قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق. قال: «فَلْيَصُمْ شَهْرَيْنِ مُتَابِعَيْنِ». قالت: فقلت: والله إنه شيخ كبير، ما به من صيام. قال: «فَلْيَطْعَمْ سِتِّينَ مَسْكِينًا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ». قالت: فقلت: يا رسول الله، ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فَإِنَّا سَنُعِينَهُ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ». قالت: فقلت: يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر، قال: «فَقَدْ أَصَبْتَ وَأَحْسَنْتَ، فَادْهَبِي فَصَدَّقِي بِهِ عَنْهُ، ثُمَّ اسْتَوْصِي بِابْنِ عَمِّكَ خَيْرًا». قالت: ففعلت. أخرجه أحمد (٢٧٣١٩)، وأبو داود (٢٢١٤، ٢٢١٥). ويقال فيها: خولة بنت مالك بن ثعلبة. وقد تصغر فيقال: خويلة. ولا منافاة بين هذه الأقوال، فالأمر فيها قريب. والله أعلم. هذا هو الصحيح في سبب نزول صدر هذه السورة، فأما حديث سلمة بن صخر فليس فيه أنه كان سبب النزول، ولكن أمر بما أنزل الله في هذه السورة، من العتق أو الصيام، أو الإطعام، عن سلمة بن صخر الأنصاري قال: كنت امرأ قد أوتيت من جماع النساء ما لم يؤت غيري، فلما دخل رمضان تظهرت من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقا من أن أصيب في ليلتي شيئا فأتابع في ذلك إلى أن يدركني النهار، وأنا لا أقدر أن أنزع، فبينما هي تخدمني من الليل إذ تكشف لي منها شيء، فوثبت عليها، فلما أصبحت غدوت على قومي فأخبرتهم خبري، وقلت: انطلقوا معي إلى النبي ﷺ فأخبره بأمري. فقالوا: لا والله لا نفعل؛ نتخوف أن ينزل فينا أو يقول فينا رسول الله ﷺ مقالة يبقى علينا عارها، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك. قال: فخرجت حتى أتيت النبي ﷺ، فأخبرته خبري. فقال لي: «أَنْتَ بِذَاكَ». فقلت: أنا بذاك. فقال «أَنْتَ بِذَاكَ». فقلت: أنا بذاك. قال «أَنْتَ بِذَاكَ». قلت: نعم، ها أنا ذا فأمض في حكم الله تعالى فإني صابر له. قال: «أَعْتَقْ رَقَبَةً». قال: فضربت صفحة رقبتني بيدي وقلت: لا والذي بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها. قال: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ». قلت: يا رسول الله، وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام؟ قال: «فَصَدَّقْ». فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بتنا ليلتنا هذه وحشى ما لنا عشاء. قال: «ادْهَبِي إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَقُلْ لَهُ فَلْيَدْفَعْهَا إِلَيْكَ، فَاطْعِمِ عَنْكَ مِنْهَا وَسَقًا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مَسْكِينًا، ثُمَّ اسْتَعِنْ بِسَائِرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى عِيَالِكَ». قال: فرجعت إلى قومي فقلت: وجدت عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إلي. فدفعوها إلي. أخرجه أحمد (٣٧/٤)، وأبي داود (٢٢١٣)، وابن ماجه (٢٠٦٢)، والترمذي (٣٢٩٩). [ابن كثير (٣٥/٨)].

وَرَسُولُهُ ﴿وَتِلْكَ﴾ أَي: الْأَحْكَامُ الْمَذْكُورَةُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بِهَا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥﴾ مُؤَلَّمٌ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ يُخَافُونَ ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ كِتُوبًا﴾ أَدْلُوا ﴿كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فِي مُخَالَفَتِهِمْ رُسُلَهُمْ ﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ دَالَّةٌ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بِالْآيَاتِ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ ٦﴾ ذُو إِهَانَةٍ. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ ﴿تَعْلَمُ﴾ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴿بِعِلْمِهِ ٧﴾ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ ﴿تَنْظُرُ﴾ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَجَّوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ﴿هُمْ الْيَهُودُ، نَهَاَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ مِنْ تَنَاجِيهِمْ، أَي: تَحَدَّثِهِمْ سِرًّا نَاطِرِينَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيُوقِعُوا فِي قُلُوبِهِمُ الرِّيْبَةَ﴾ إِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ ﴿أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ ﴿وَهُوَ قَوْلُهُمْ: «السَّامُ عَلَيْكَ»، أَي: الْمَوْتُ ٧﴾ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا ﴿هَلَّا﴾ يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴿مِنَ التَّحِيَّةِ وَأَنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيِّ، إِنَّ كَانَ نَبِيًّا﴾ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ هِيَ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا

(١) والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسروه فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. [السعدي (ص: ٨٤٥)]. والمعية نوعان: عامة. وهي: معية العلم والإحاطة. كقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]. وخاصة: وهي معية القرب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨] فهذه معية قرب. تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ. وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد. لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة. وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة. [مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٢٥٤)]. وتخصيص العددين بالذكر إما لخصوص الواقعة فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين وإما لبناء الكلام على أغلب عادات المتناجين وقد عمم الحكم بعد ذلك فقليل: ﴿وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: مما ذكر كالواحد والاثنين. ﴿وَلَا أَكْثَرُ﴾ كالسنة وما فوقها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم، ... ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ من الأماكن ولو كانوا تحت الأرض فإن علمه تعالى بالأشياء ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة قربا وبعدا. [أبو السعود (٨/ ٢١٨)].

(٢) كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: السام عليك يا محمد بدلاً من السلام عليكم. والسام: الموت. وهو ما أرادوه بقولهم، وكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وَعَلَيْكُمْ». فسمعتهم عائشة رضي الله عنها يوماً فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ أَوْ الْفُحْشَ»، فقالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ؟ رَدَدْتُ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَجَابُ لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ فِيَّ». أخرجه البخاري (٦٠٣٠). [ابن جزي (٢/ ٣٥٣)].

تَتَنَجَّوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنْجَوا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا التَّجَوُّىٰ بِالْإِثْمِ وَنَحْوِهِ ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ بِغُرُورِهِ ﴿لِيَحْزَنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيْسَ هُوَ بِبَصَّارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَي: إِرَادَتِهِ ^(١) ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا﴾ تَوَسَّعُوا ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ الذِّكْرِ حَتَّىٰ يَجْلِسَ مَنْ جَاءَكُمْ ^(٢)، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿الْمَجْلِسِ﴾ ﴿فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾ قُومُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْخَيْرَاتِ ^(٣) ﴿فَأَنْشُرُوا﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الشَّيْنِ فِيهِمَا ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾ بِالطَّاعَةِ فِي ذَلِكَ ﴿و﴾ يَرْفَعُ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ فِي الْجَنَّةِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ أَرَدْتُمْ مُنَاجَاةَهُ ﴿فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ﴾ قَبْلَهَا ﴿صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَظْهَرَ﴾ لِدُنُوبِكُمْ ﴿فَإِنْ لَّمْ تَجِدُوا﴾ مَا تَصَدَّقُونَ بِهِ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ لِمُنَاجَاتِكُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿بِكُمْ، يَعْنِي: فَلَا عَلَيْكُمْ فِي الْمُنَاجَاةِ مِنْ غَيْرِ صَدَقَةٍ. ثُمَّ نُسِخَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلْفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالَ أَلْفٍ بَيْنَ الْمُسَهَّلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِه، أَي: خِفْتُمْ مِنْ ﴿أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَتْ﴾ لِفَقْرٍ ﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ الصَّدَقَةُ ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ رَجَعَ بِكُمْ عَنْهَا ﴿فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أَي: دَاوِمُوا عَلَى ذَلِكَ ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ * ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُرُ ﴿إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ هُمُ الْمُنَافِقُونَ ﴿قَوْمًا﴾ هُمُ الْيَهُودُ ﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ﴾ أَي: الْمُنَافِقُونَ ﴿مِنْكُمْ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ مِنَ الْيَهُودِ، بَلْ هُمْ مُدْبِدُونَ ^(٤) ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ أَي: قَوْلُهُمْ: إِنَّهُمْ

(١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً فَلَا يَتَجَانَّ اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزَنُ». أخرجه

البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (١٧٦٨). [ابن كثير (٤٥ / ٨)]. وإذن الله، يعني: بقضاء الله وقدره. [الطبري (٤٧٦ / ٢٢)].

(٢) الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه قال رضي الله عنه: «مَنْ سَبَقَ إِلَى مَا لَمْ يُسَبِّقْ إِلَيْهِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ». أخرجه أبو داود (٣٠٧١). ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذ فيخرجه الضيق عن موضعه. ... عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَقْعَدِهِ، ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفَسَّحُوا، وَتَوَسَّعُوا». أخرجه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧).

[القرطبي (٢٩٧ / ١٧)].

(٣) أي: إذا قيل لكم: ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، واختلف في هذا النشوز المأمور به، فقليل: إذا دعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعة، وقيل: إذا أمروا بالقيام من مجلس رسول الله ﷺ، لأنه كان يحب الانفراد أحيانا، وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام، وقيل: المراد القيام في المجلس للتوسع. [ابن جزي (٣٥٤ / ٢)].

(٤) كقوله فيهم: «مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ» [النساء: ١٤٣].

مُؤْمِنُونَ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ١٥ ﴿أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ فِيهِ﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ١٥ ﴿مِنَ الْمَعَاصِي﴾ ﴿أَتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ سَتْرًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ﴿فَصَدُّوا﴾ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: الْجِهَادِ فِيهِمْ بِقَتْلِهِمْ وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ ١٦ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ١٦ ﴿ذُو إِهَانَةٍ﴾ لَّنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴿مِنْ عَذَابِهِ﴾ شَيْئًا ﴿مِنَ الْإِغْنَاءِ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ﴾ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾ مِنْ نَفْعِ حَلْفِهِمْ فِي الْآخِرَةِ كَالدُّنْيَا ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ ١٨ ﴿أَسْتَحْوَذَ﴾ اسْتَوْلَى ﴿عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ بِطَاعَتِهِمْ لَهُ ﴿فَأَنسَلَهُمْ ذِكْرُ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أَتْبَاعُهُ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٩ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾ يُخَالِفُونَ ﴿اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ٢٠ ﴿الْمَغْلُوبِينَ﴾ ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَوْ قَضَى ﴿لَا غَلْبَ لَنَا وَرُسُلِي﴾ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ٢١ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ﴿يُصَادِقُونَ﴾ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴿بَلْ يَقْصِدُونَ لَهُمُ الْبُغْوَ وَيَقَاتِلُونَهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا وَقَعَ لَجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ﴿أُولَئِكَ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤَادُّونَهُمْ ﴿كَتَبَ﴾ أَثَبَتْ ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ﴾ بِنُورٍ ﴿مِنْهُ﴾ تَعَالَى ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِتَوَابِهِ ٢٢ ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ يَتَّبِعُونَ أَمْرَهُ وَيَجْتَنِبُونَ نَهْيَهُ ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ٢٣ ﴿الْفَائِزُونَ﴾.

(١) ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين اتخذوا أيمانهم جنة، والأيمان جمع يمين، وهي الحلف، والجنة هي الترس الذي يتقي به المقاتل وقع السلاح. والمعنى أنهم جعلوا الأيمان الكاذبة، وهي حلفهم للمسلمين إنهم معهم وإنهم مخلصون في باطن الأمر ترسا لهم يتقون به الشر الذي ينزل بهم لو صرحوا بكفرهم. وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الظاهر أنه من صد المتعدية، وأن المفعول محذوف، أي: فصدوا غيرهم ممن أطاعهم كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ [الأحزاب: ١٨] ... والحمل على التأسيس أولى من الحمل على التأكيد. [الشنقيطي (٧/ ٨٨١)].

(٢) سر بديع، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر في الله عوضهم الله بالرضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم، والفوز العظيم، والفضل العميم. [ابن كثير (٨/ ٥٥)].

سُورَةُ الْحَشْرِ
مَدِينَةُ، أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: نَزَّهَهُ فَالْإِلَهِاتُ مَزِيدَةٌ وَفِي الْإِتْيَانِ بِـ ﴿مَا﴾ تَغْلِيْبٌ لِلْأَكْثَرِ ^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ^(٢) فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ ^(٣). ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هُمْ بَنُو النَّضِيرِ مِنَ الْيَهُودِ ﴿مِنْ دَيْرِهِمْ﴾ مَسَاكِنُهُمْ بِالْمَدِينَةِ ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ هُوَ حَشْرُهُمْ إِلَى الشَّامِ، وَآخِرُهُ أَنْ أَجْلَاهُمْ عُمُرٌ فِي خِلَافَتِهِ إِلَى خَيْرٍ ^(٤) ﴿مَا ظَنَنْتُمْ﴾ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ﴾ خَبَرٌ ﴿أَنْ﴾ ﴿حُصُونُهُمْ﴾ فَاعِلُهُ تَمَّ بِهِ الْخَبَرُ ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿فَأَتْلَهُمُ اللَّهُ﴾ أَمْرُهُ وَعَذَابُهُ ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ لَمْ يَخْطُرْ بِأَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةٍ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقَذَفَ﴾ أَلْقَى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ بِسُكُونِ الْعَيْنِ وَضَمِّهَا، الْخَوْفَ بِقَتْلِ سَيِّدِهِمْ كَعَبِ بْنِ الْأَشْرَفِ ^(٥)

(١) [هي كما] في صدر سورة الحديد، وقد كرر الموصول ههنا لزيادة التقرير والتنبيه على استقلال كل من الفريقين بالتسييح. [أبو السعود (٢٢٤/٨)].

(٢) يخبر تعالى أن جميع ما في السماوات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقده، ويصلي له ويوحده كقوله: ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: منبع الجنباب ﴿الْحَكِيمُ﴾ في قدره وشرعه. [ابن كثير (٥٦/٨)].

(٣) الصواب «من خير».

(٤) بين تعالى السبب الحقيقي لإخراجهم في قوله تعالى: ﴿فَأَتْلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾، وهذا من أهم أسباب إخراجهم؛ لأنهم في موقف القوة وراء الحصون، لم يتوقع المؤمنون خروجهم، وظنوا هم أنهم مانعتهم حصونهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقد كان هذا الإخراج من الله إياهم بوعده سابق من الله لرسوله في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وبهذا الإخراج تحقق كفاية الله لرسوله ﷺ منهم، فقد كفاهم إياهم بإخراجهم من ديارهم، فكان إخراجهم حقا من الله تعالى، وبوعده مسبق من الله لرسوله ﷺ. وقد أكد هذا بقوله تعالى مخاطبا للمسلمين في خصوصهم: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦] وتسلط الرسول ﷺ هو بما بين ﷺ في قوله: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١). وهو ما يتمشى مع قوله تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾. وجملة هذا السياق هنا يتفق مع السياق في سورة الأحزاب عن بني

﴿يُحَرِّبُونَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ مِنْ أَخْرَبَ ﴿بُيُوتَهُمْ﴾ لِيَنْقُلُوا مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْهَا مِنْ خَشَبٍ وَغَيْرِهِ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٠﴾ وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ ﴿قَضَى﴾ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ ﴿الْخُرُوجَ مِنَ الْوَطَنِ﴾ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ، كَمَا فَعَلَ بِقَرِيطَةَ مِنَ الْيَهُودِ ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ ١١ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا﴾ خَالَفُوا ﴿اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ لَهُ. ﴿مَا قَطَعْتُمْ﴾ يَا مُسْلِمُونَ ﴿مِنْ لِينَةٍ﴾ نَخْلَةٍ ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: خَيْرِكُمْ فِي ذَلِكَ ﴿وَلِيُخْزِيَ﴾ بِالْإِذْنِ فِي الْقَطْعِ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ ١٣ ﴿الْيَهُودَ فِي اعْتِرَاضِهِمْ بِأَنْ قَطَعَ الشَّجَرِ الْمُثْمِرِ فَسَادُ﴾ ﴿وَمَا أَفَاءَ﴾ رَدَّهُ ﴿اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ﴾ أَسْرَعْتُمْ يَا مُسْلِمُونَ ﴿عَلَيْهِ مِنْ﴾ زَائِدَةٍ ﴿خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إِبِلٍ، أَيُّ: لَمْ تُقَاسُوا فِيهِ مَشَقَّةً ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ١٤ ﴿فَلَا حَقَّ لَكُمْ فِيهِ، وَيَخْتَصُّ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَمَنْ ذَكَرَ مَعَهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْأَصْنَافِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمُهُ مِنْ أَنْ لِكُلِّ مِنْهُمْ خُمُسُ الْخُمْسِ وَلَهُ ﷺ الْبَاقِي يَفْعَلُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، فَأَعْطَى مِنْهُ الْمُهَاجِرِينَ وَثَلَاثَةً مِنَ الْأَنْصَارِ لِفَقْرِهِمْ. ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ كَالصَّفَرَاءِ وَوَادِي الْقُرَى وَيَنْبَعِ ﴿فَلِلَّهِ﴾ يَأْمُرُ فِيهِ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي﴾ صَاحِبِ ﴿الْقُرْبَى﴾ قَرَابَةِ النَّبِيِّ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ ﴿وَالْيَتَامَى﴾ أَطْفَالُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَلَكَتْ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ فُقَرَاءُ ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ ذَوِي الْحَاجَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ الْمُنْقَطِعِ فِي سَفَرِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَيُّ: يَسْتَحِقُّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَالْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمُهُ، مِنْ أَنْ لِكُلِّ مِنَ الْأَرْبَعَةِ خُمُسُ الْخُمْسِ وَلَهُ الْبَاقِي ﴿كَيْ لَا﴾ ﴿كَيْ﴾ بِمَعْنَى اللَّامِ وَ«أَنْ» مُقَدَّرَةٌ بَعْدَهَا ﴿يَكُونَ﴾ الْفِيءُ، عَلَيْهِ لِقْسِمِهِ كَذَلِكَ ﴿دَوْلَةً﴾ مُتَدَاوِلَةً ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَاءَ أَنْتُمْ﴾ أَعْطَاكُمْ ﴿الرَّسُولُ﴾ مِنْ الْفِيءِ وَغَيْرِهِ ﴿فَخُذُوهُ وَمَا نَهَكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ١٥ ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَيُّ: اعْجَبُوا ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ﴾ ١٦ ﴿فِي إِيْمَانِهِمْ. ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾ أَيُّ: الْمَدِينَةَ ﴿وَالْإِيْمَانَ﴾

قريظة سواء بسواء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ ١٧ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴿[الأحزاب: ٢٦-٢٧]، وعليه ظهرت حقيقة إسناد إخراجهم لله تعالى: ﴿فَأَتْلَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ كما أنه هو تعالى الذي رد الذين كفروا بغيتهم لم ينالوا خيرا، بما أرسل عليهم من الرياح، والجنود، وهو الذي كفى المؤمنين القتال، وهو تعالى الذي أنزل بني قريظة من صياصيعهم، وورث المؤمنين ديارهم وأموالهم، وكان الله على كل شيء قديرا. [عطية سالم (٨/ ١٤)].

أَيُّ: أَلْفُوهُ وَهُمْ الْأَنْصَارُ^(١) ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾ ﴿حَسَدًا﴾ ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ أَيُّ: أَتَى النَّبِيُّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِ بَنِي النَّضِيرِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِمْ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حَاجَةً إِلَى مَا يُؤْثِرُونَ بِهِ^(٢) ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾ حَرَصَهَا عَلَى الْمَالِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴿مِنْ بَعْدِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ حَقْدًا ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٤) * أَلَمْ تَرَ ﴿تَنْظُرْ﴾ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿وَهُمْ بَنُو النَّضِيرِ وَإِخْوَانُهُمْ فِي الْكُفْرِ﴾ ﴿لَيْنٌ﴾ لَمْ قَسَمَ فِي الْأَرْبَعَةِ ﴿أَخْرِجْتُمْ﴾ مِنَ الْمَدِينَةِ ﴿لَتَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ﴾ فِي خِذْلَانِكُمْ ﴿أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ

(١) كلام مستأنف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة من جملتها محبتهم للمهاجرين ورضاهم باختصاص الفيء بهم أحسن رضا وأكمل، ومعنى تبوءهم الدار: أنهم اتخذوا المدينة، والإيمان مباءة وتمكنوا فيها أشد تمكن على تنزيل الحال منزلة المكان. وقيل: ضمن التبوء معنى اللزوم. وقيل: تبوءوا الدار وأخلصوا الإيمان، كقول من قال: «علفتها تبنا وماء باردا». وقيل: المعنى تبوءوا دار الهجرة ودار الإيمان فحذف المضاف إليه من الأول وعوض منه اللام. وقيل: سمي المدينة بالإيمان لكونها مظهره ومنتشأه. [أبو السعود (٢٢٩/٨)].

(٢) ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: في كل شيء من أسباب المعاش، والإيثار تقديم الغير على النفس في حظوظ الدنيا رغبة في حظوظ الآخرة، وذلك ينشأ عن قوة اليقين ووكيد المحبة والصبر على المشقة، يقال: آثرته بكذا، أي: خصصته به وفضلته، والمعنى: ويقدمون المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: حاجة وفقير، والخصاصة مأخوذة من خصاص البيت وهي الفرج التي تكون فيه، وقيل: مأخوذة من الاختصاص وهو الانفراد بالأمر، فالخصاصة الانفراد بالحاجة. أخرج البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أن رجلا أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلا الماء فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟» فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياننا، قال: هيئي طعامك وأصلحي فراشك ونومي صبيانك إذا أرادوا العشاء، فهيأت طعامها وأصلحت فراشها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، وجعلا يريانه كأنهما يأكلان وباتا طاويين فلما أصبحا غدا على رسول الله ﷺ فقال: «لَقَدْ ضَحِكَ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ عَجِبَ اللَّيْلَةُ مِنْ فَعَالِكُمَا»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾. [صديق حسن (٥٢/١٤)].

(٣) هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة: ﴿وَالسَّبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٠] فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية... وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء. [ابن كثير (٧٢/٨)].

فَوَيْلٌ لَّكُمْ ﴿١١﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ اللَّامُ الْمَوْطِئَةُ ﴿لَنْصَرَنَكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَنْ نَّصُرَهُمْ ﴿أَي: جَاءُوا لِنَصْرِهِمْ﴾ ﴿لِيُؤَلَّنَ الْأَذْبَرُ﴾ وَاسْتَغْنِي بِجَوَابِ الْقَسَمِ الْمُقَدَّرِ عَنْ جَوَابِ الشَّرْطِ فِي الْمَوَاضِعِ الْخَمْسَةِ ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ ﴿١٢﴾ أَي: الْيَهُودُ. ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ خَوْفًا ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ أَي: الْمُنَافِقِينَ ﴿١٣﴾ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَقْتُلُونَكُمْ﴾ أَي: الْيَهُودُ ﴿جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جِدْبٍ﴾ سُورٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿جُدْبٍ﴾ ﴿بَأْسُهُمْ﴾ حَرْبُهُمْ ﴿بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحَسُّبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مُجْتَمِعِينَ ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ مُتَفَرِّقَةٌ خِلَافَ الْحَسْبَانِ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿١٥﴾. مَثَلُهُمْ فِي تَرَكِ الْإِيمَانِ ﴿كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ بَزَمَنٍ قَرِيبٍ، وَهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عُقُوبَتَهُ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْقَتْلِ وَغَيْرِهِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ مُؤَلَّمٌ فِي الْآخِرَةِ. مَثَلُهُمْ أَيْضًا فِي سَمَاعِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَتَخَلُّفِهِمْ عَنْهُمْ ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦﴾ كَذِبًا مِنْهُ وَرِيَاءً. ﴿فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا﴾ أَي: الْغَاوِي وَالْمُغْوِي، وَقُرِئَ: بِالرَّفْعِ ﴿١٧﴾ ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ أَي: الْكَافِرِينَ. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

(١) أي: لأنتم يا معاشر المسلمين أشد خوفًا وخشية في صدور المنافقين أو صدور اليهود، أو صدور الجميع ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من رهبة الله، والرهبة هنا بمعنى المرهوبة، لأنها مصدر من المبني للمفعول وفيه دلالة على نفاقهم، يعني أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيأ في صدورهم منه ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: ما ذكر من الرهبة الموصوفة بسبب عدم فقههم بشيء من الأشياء، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه هو الذي سلطكم عليهم، فهو أحق بالرهبة منه دونكم. [الشوكاني (٥/٢٤٣)].

(٢) ﴿لَا يَقْتُلُونَكُمْ﴾ اليهود والمنافقون ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جِدْبٍ﴾ لفرط رهبتهم ﴿بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: وليس ذلك لضعفهم وجبنهم فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضًا، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم ولأن الشجاع يجبن والعزیز يذل إذا حارب الله ورسوله ﴿تَحَسُّبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقين ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم واختلاف مقاصدهم ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحهم وإن تشتت القلوب يوهن قواهم. [البيضاوي (٥/٢٠١)].

(٣) أي: هؤلاء اليهود كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع فإن رسول الله ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، فكانوا أمثالهم. وقيل: يعني أهل بدر الكفار، فإنهم قبلهم ومثلاً لهم في أن غلبوا وقهروا. والأول أرجح: لأن قوله: ﴿قَرِيبًا﴾ يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة، وذلك أوقع على بني قينقاع، وأيضاً فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليق لأنهم يهود مثلهم، وأخرجوا من ديارهم كما فعل بهم وذلك هو المراد بقوله: ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وقريباً ظرف زمان. [ابن جرير (٢/٣٦٢)].

(٤) قراءة شاذة.

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٨ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ ﴿تَرَكُوا طَاعَتَهُ﴾ فَأَنفَسَهُمْ ﴿فَأَنفَسَهُمْ﴾ أَنْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ١٩ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ وَجَعَلْ فِيهِ تَمِيزًا كَالْإِنْسَانِ ﴿لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا﴾ مُتَشَقِّقًا ﴿مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ﴾ الْمَذْكُورَةُ ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٢١ ﴿فَيُؤْمِنُونَ﴾. ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ٢٢ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ الطَّاهِرُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿السَّلَامُ﴾ ذُو السَّلَامَةِ مِنَ النَّقَائِصِ ﴿الْمُؤْمِنُ﴾ الْمُصَدِّقُ رُسُلَهُ بِخَلْقِ الْمُعْجَزَةِ لَهُمْ ﴿الْمُهَيِّمُ﴾ مَنْ هَيَمَنَ يَهَيِّمُنْ إِذَا كَانَ رَقِيبًا عَلَى الشَّيْءِ، أَيِ: الشَّهِيدُ عَلَى عِبَادِهِ بِأَعْمَالِهِمْ ﴿الْعَزِيزُ﴾ الْقَوِيُّ ﴿الْجَبَّارُ﴾ جَبَرَ خَلْقَهُ عَلَى مَا أَرَادَ ﴿الْمُتَكَبِّرُ﴾ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِ ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ﴾ نَزَهَ نَفْسَهُ ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٢٣ ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ الْمُنْشِئُ مِنَ الْعَدَمِ ﴿الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التَّسْعَةُ وَالتَّسْعُونَ الْوَارِدُ بِهَا الْحَدِيثُ^(١)، وَالْحُسْنَى مُؤَنَّثُ الْأَحْسَنِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ٢٤ ﴿تَقَدَّمَ أَوَّلُهَا﴾.

(١) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾ يدل على أنه لم ينزل، وأنه ذكر على سبيل المثال؛ ليتفكر الناس في أمره كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتُ﴾ الآية [الرعد: ٣١]. [عطية سالم (٨/ ٦٢)]. أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه. [ابن كثير (٨/ ٧٨)].

(٢) أي: له الأسماء الكثيرة جدا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله، ومع ذلك فكلها حسنى، أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسننها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها. ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيه من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته. [السعدي (ص: ٨٥٤)].

(٣) أي: في أول السورة.

سُورَةُ الْمُتَحَنَّةِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثَ عَشْرَةِ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ﴾ تُوَصِّلُونَ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ قَصَدَ النَّبِيُّ ﷺ غَزْوَهُمْ، الَّذِي أَسْرَهُ إِلَيْكُمْ وَوَرَى بِحُجَيْنٍ ﴿بِالْمُودَّةِ﴾ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، كَتَبَ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا بِذَلِكَ، لِمَا لَهُ عِنْدَهُمْ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَهْلِ الْمُشْرِكِينَ، فَاسْتَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّنْ أَرْسَلَهُ مَعَهُ بِإِعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ وَقَبْلَ عُدْرٍ حَاطِبٍ فِيهِ^(١) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ أَي: دِينَ الْإِسْلَامِ وَالْقُرْآنِ ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ مِنْ مَكَّةَ بِتَضْيِيقِهِمْ عَلَيْكُمْ ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنْ آمَنْتُمْ ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا لِلْجِهَادِ ﴿فِي سَبِيلِي وَأَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَي: فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ﴾ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أَي: إِسْرَارَ خَبَرِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝﴾ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْهُدَى، وَالسَّوَاءُ فِي الْأَصْلِ: الْوَسْطُ. ﴿إِنْ يَتَّقِفُوكُمْ﴾ يَنْظُرُوا بِكُمْ ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بِالْقَتْلِ وَالضَّرْبِ ﴿وَالسِّنَتُهُمُ بِالْأَسْوَى﴾ بِالسَّبِّ وَالشَّتْمِ ﴿وَوَدُّوا﴾ تَمَنَّوْا ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ ﴿قَرَابَاتُكُمْ﴾ وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لِأَجْلِهِمْ أَسْرَرْتُمْ الْخَبَرَ، مِنْ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُفَصَّلُ﴾ بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِلِ ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُمْ فَتَكُونُونَ فِي الْجَنَّةِ، وَهُمْ فِي جُمْلَةِ الْكُفَّارِ فِي النَّارِ ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ ﴿بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَضَمِّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ، قُدُوءٌ﴾ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾ أَي: بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا﴾ جَمْعُ

(١) ذكر كثير من المفسرين، رحمهم الله، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يدا عندهم لا شكاً ونفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب. وعاتب حاطباً، فاعتذر ﷺ بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاته الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً، ويتنزه الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه. [السعدي (ص: ٨٥٤)].

(٢) الأسوة هو الذي يقتدى به، فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل عليه السلام وبالذين معه في عداوة الكفار والتبري منهم، ومعنى: ﴿وَالَّذِينَ

«بَرِيءٌ» كَظَرِيفٍ ﴿مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أَنْكَرْنَاكُمْ ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ وَآوًا ﴿حَتَّى تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ مُسْتَشْنَى مِنْ ﴿إِسْوَةٍ﴾ فَلَيْسَ لَكُمْ النَّاسِي بِهِ فِي ذَلِكَ بِأَنْ تَسْتَغْفِرُوا لِلْكَفَّارِ^(١)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ﴾ أَيُّ: مِنْ عَذَابِهِ وَتَوَابِهِ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ كَنَى بِهِ عَنْ أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ لَهُ غَيْرَ الْإِسْتِغْفَارِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ مُسْتَشْنَى مِنْ حَيْثُ الْمُرَادُ مِنْهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ ظَاهِرِهِ مِمَّا يُتَأَسَّى فِيهِ ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الفتح: ١١] وَاسْتَغْفَارُهُ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي بَرَاءَةٍ^(٢) ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ مِنْ مَقُولِ الْخَلِيلِ وَمَنْ مَعَهُ. أَيُّ: وَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيُّ: لَا تَظْهَرْهُمْ عَلَيْنَا فَيَطْنُونَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ فَيَفْتِنُونَا، أَيُّ: تَذَهَبَ عَقُولُهُمْ بِنَا ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فِي مُلْكِكَ وَصُنْعِكَ. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ جَوَابُ قَسَمٍ مُقَدَّرٍ ﴿فِيهِمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْ «كُمْ» بِإِعَادَةِ الْجَارِ ﴿يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أَيُّ: يَخَافُهُمَا أَوْ يَطْنُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ بِأَنْ يُوَالِيَ الْكُفَّارَ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ عَنْ خَلْقِهِ﴾ ﴿الْحَمِيدُ﴾ ﴿لَأَهْلٍ طَاعَتِهِ﴾ ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ﴾ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ طَاعَةً لِلَّهِ تَعَالَى ﴿مَوَدَّةً﴾ بِأَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِيمَانِ، فَيَصِيرُوا لَكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ فَعَلَهُ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لَهُمْ مَا سَلَفَ ﴿رَحِيمٌ﴾ ﴿يَهُدِيهِمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُواكُمْ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْ «الَّذِينَ» وَتُقْسِطُوا ﴿تُقْضُوا﴾ إِلَيْهِمْ بِالْقِسْطِ، أَيُّ: بِالْعَدْلِ وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِجِهَادِهِمْ^(٣) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿الْعَادِلِينَ﴾. ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ

مَعَهُ﴾ مِنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النَّاسِ، وَقِيلَ: الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ كَانُوا فِي عَصْرِهِ وَقَرِيبًا مِنْ عَصْرِهِ، وَرَجَحَ ابْنُ عَطِيَّةٍ هَذَا الْقَوْلَ بِمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لَزَوْجَتِهِ: «لَيْسَ عَلَيَّ وَجْهَ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرِكَ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٣٥٨)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٧١). [ابن جُرَيْجٍ (٢/٣٦٥)].

(١) قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: أَيُّ: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أَسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، مِنْ مَبَايِنَةِ الْكُفَّارِ وَمَعَادَاتِهِمْ، وَتَرَكْ مَوَالَاتِهِمْ، إِلَّا فِي قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، فَإِنَّهُ لَا أَسْوَةَ لَكُمْ فِيهِ فِي ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ. يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرَهُ: فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ، تَبَرَّؤُوا مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ الْمُشْرِكِينَ بِهِ، وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ، وَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ، حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَتَبَرَّؤُوا عَنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ. [الْقَاسِمِيُّ (٩/٢٠٥)].

(٢) هُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

(٣) قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ التَّأْوِيلِ: هِيَ مُحْكَمَةٌ. وَاحْتَجَّوْا بِأَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سَأَلَتْ النَّبِيَّ ﷺ: هَلْ تَصِلُ أَمَّا حِينَ قَدِمْتَ عَلَيْهَا مُشْرِكَةً؟

قَتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ وَظَهَرُوا ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِّنَ
 ﴿الَّذِينَ﴾، أَي: تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١﴾﴾ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ
 الْمُؤْمِنَاتُ ﴿بِالْبَسِثِينَ﴾ ﴿مُهَجِرَاتٍ﴾ مِنَ الْكُفَّارِ، بَعْدَ الصُّلْحِ مَعَهُمْ فِي الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ
 يُرَدُّ ﴿فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ بِالْحَلْفِ عَلَى أَنَّهُنَّ مَا خَرَجْنَ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، لَا بُغْضًا لِأَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّارِ وَلَا عِشْقًا لِرَجَالِ
 مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُحْلِفُهُنَّ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ﴾ ظَنَنْتُمُوهُنَّ بِالْحَلْفِ ﴿مُؤْمِنَاتٍ
 فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ﴾ تَرُدُّوهُنَّ ﴿إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُنَّ﴾ أَي: أَعْطُوا الْكُفَّارَ أَزْوَاجَهُنَّ
 ﴿مَا أَنْفَقُوا﴾ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمُهْرِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ بِشَرْطِهِ ﴿إِذَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾
 مُهُورَهُنَّ ﴿وَلَا تُمَسِّكُوا﴾ بِالشَّدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿بِعَصْرِ الْكُوفِرِ﴾ زَوَّجَاتِكُمْ لِقَطْعِ إِسْلَامِكُمْ لَهَا بِشَرْطِهِ، أَوْ
 اللَّاحِقَاتِ بِالْمُشْرِكِينَ مُرْتَدَّاتٍ لِقَطْعِ إِرْتِدَادِهِنَّ نِكَاحَكُم بِشَرْطِهِ ﴿وَسَأَلُوا﴾ أَطْلُبُوا ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ عَلَيْهِنَّ مِنَ
 الْمُهْرِ، فِي صُورَةِ الْإِرْتِدَادِ مِمَّنْ تَزَوَّجَهُنَّ مِنَ الْكُفَّارِ ﴿وَلَيْسَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ عَلَى الْمُهَاجِرَاتِ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ
 يُؤْتُونَهُ ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ بِهِ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢﴾﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ أَي:
 وَاحِدَةٌ فَأَكْثَرُ مِنْهُنَّ، أَوْ شَيْءٌ مِّنْ مُُّهُورِهِنَّ بِالذَّهَابِ ﴿إِلَى الْكُفَّارِ﴾ مُرْتَدَّاتٍ ﴿فَعَاقِبْتُمْ﴾ فَعَزَّوْتُمْ وَغَنِمْتُمْ ﴿فَقَاتُوا
 الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ﴾ مِنَ الْغَنِيمَةِ ﴿مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ لِفَوَاتِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَةِ الْكُفَّارِ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِءَ

قال: «نعم» أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣). وقيل: إن الآية فيها نزلت. [القرطبي (١٨/ ٥٩)]. فبعد نزول الآيات الكريمات،
 المهيججة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن
 ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ
 يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِينِكُمْ أَن تَرْوُوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أَي: لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ، وَالْمُكَافَأَةِ بِالْمَعْرُوفِ،
 وَالْقِسْطِ لِلْمُشْرِكِينَ، مِنْ أَقَارِبِكُمْ وَغَيْرِهِمْ، حَيْثُ كَانُوا بِحَالٍ لَمْ يَتَّصِبُوا الْقِتَالَ كُمْ فِي الدِّينِ وَالْإِخْرَاجِ مِنْ دِيَارِكُمْ، فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ
 تَصْلُوهُمْ، فَإِنْ صَلَّيْتُمْ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ، لَا مَحْذُورَ فِيهَا وَلَا مَفْسَدَةَ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْأَبْوِينَ الْمُشْرِكِينَ إِذَا كَانَ وَلَدُهُمَا مُسْلِمًا: ﴿وَإِنْ
 جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]. [السعدي (ص: ٨٥٦)].

(١) وهو انقضاء العدة فيما إذا كانت المسلمة مدخولاً بها، والولي والشاهدان وبقية شروط الصحة في المدخول بها وغيرها، لأنهن قد صرن
 من أهل دينكم، وإن كان أزواجهن الكفار لم يطلقوهن لانفساخ العقد بالإسلام. [صديق حسن (١٤/ ٨٦)].

﴿مُؤْمِنُونَ ١١﴾ وَقَدْ فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ الْإِيتَاءِ لِلْكَفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ ارْتَفَعَ هَذَا الْحُكْمُ ^(١). ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكَنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كَمَا كَانَ يُفْعَلُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ وَأَدِ الْبَنَاتِ، أَيِ: دَفْنِهِنَّ أَحْيَاءَ خَوْفَ الْعَارِ وَالْفَقْرِ ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أَيِ: بِوَلَدٍ مَلْقُوطٍ يَنْسُبْنَهُ إِلَى الزَّوْجِ وَوُصِفَ بِصِفَةِ الْوَلَدِ الْحَقِيقِيِّ، فَإِنَّ الْأُمَّ إِذَا وَضَعَتْهُ سَقَطَ بَيْنَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا ﴿وَلَا يَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هُوَ مَا وَافَقَ طَاعَةَ اللَّهِ كَتَرَكَ النِّيَاحَةِ وَتَمَزِيقِ الثِّيَابِ وَجَزِّ الشُّعُورِ وَشَقِّ الْجَنْبِ وَخَمْسِ الْوَجْهِ ﴿فَبَايِعُهنَّ﴾ فَعَلَ ذَلِكَ ﷺ بِالْقَوْلِ وَلَمْ يُصَافِحْ وَاحِدَةً مِنْهُنَّ ^(٢) ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هُمُ الْيَهُودُ ﴿قَدْ يَسُوءُ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ مِنْ ثَوَابِهَا مَعَ إِيْقَانِهِمْ بِهَا لِعِنَادِهِمُ النَّبِيَّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِصِدْقِهِ ﴿كَمَا يَسِسُ الْكُفَّارُ﴾ الْكَائِنُونَ ﴿مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ١٣﴾ أَيِ: الْمَقْبُورِينَ، مِنْ خَيْرِ الْآخِرَةِ إِذْ تُعْرَضُ عَلَيْهِمْ مَقَاعِدُهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ لَوْ كَانُوا آمَنُوا وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنَ النَّارِ ^(٣).

(١) هذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية، قد ارتفعت لأنها نزلت في قضايا معينة، وهي مهادنة النبي ﷺ مع مشركي العرب ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة فلا تجوز مهادنة المشركين من العرب، إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف، وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس لأن الله قال في المشركين: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في أهل الكتاب: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال النبي ﷺ في المجوس: «سُنُوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الْكِتَابِ». أخرجه مالك في الموطأ (٧٥٦)، وعبد الرزاق (١٠٠٢٥)، وابن أبي شيبة (١٠٧٦٥)، والبخاري (١٠٥٦). [ابن جرير (٣٦٨/٢)].

(٢) وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم، لأنه أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون ترك هذه الشروط، لأنها قد تقرر وعلمت من الشرع بالضرورة فلا حاجة إلى اشتراطها. [ابن جرير (٣٦٩/٢)].

(٣) ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأحلاء و ﴿قَدْ يَسُوءُ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أَيِ: مِنْ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا فِي حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وقوله: ﴿كَمَا يَسِسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ فيه قولان، أحدهما: كما يسس الكفار الأحياء من قرباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه. والقول الثاني: معناه: كما يسس الكفار الذين هم في القبور من كل خير. [ابن كثير (١٠٣/٨)].

سُورَةُ الصَّفِّ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعُ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: نَزَّهَهُ فَالْإِلَاحُ مَزِيدَةٌ وَجِيءَ بِ﴿مَا﴾ دُونَ «مَنْ» تَغْلِيظًا لِلْأَكْثَرِ ^(١) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ ۝١﴾ فِي صُنْعِهِ ^(٢). ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾ فِي طَلَبِ الْجِهَادِ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ إِذْ إِنهَازَمْتُمْ بِأَحَدٍ. ﴿كَبُرَ عَظُمٌ﴾ مَقْتًا تَمَيِّزُ ﴿عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا﴾ فَاعِلُ كَبُرَ ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ﴿يَنْصُرُ وَيُكْرِمُ ۝٤﴾ ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ حَالٌ، أَي: صَافِينَ ﴿كَأَنَّهُمْ بُنْيَنٌ مَرْصُوصٌ ۝٥﴾ مُلْزَقٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ثَابِتٌ ^(٦). ﴿وَ﴾ أَذْكَرُ ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُومِرْ لِمَ تُوذُونَنِي﴾ قَالُوا: «إِنَّهُ أَدْرُ»، أَي: مُتَّفَخٌ الْخُصِيَّةَ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ^(٧)، وَكَذَّبُوهُ ﴿وَقَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ الْجُمْلَةُ حَالٌ، وَالرَّسُولُ يُحْتَرَمُ ^(٨)

(١) وجه التعبير في بعض السور بلفظ الماضي كهذه السورة، وفي بعضها بالمضارع، وفي بعضها بلفظ الأمر، الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات ماضيها ومستقبلها وحالها ... وأعاد الموصول هنا وفي الحشر والجمعة والتغابن جرياً على الأصل، وأسقطه في الحديد موافقة لقوله فيها: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يقل: «سبح لله السماوات والأرض وما فيهما» فيكون أكثر مبالغة لأن المراد بالسماوات جهة العلو فيشمل السماء وما فيها، وبالأرض جهة السفلى فيشمل الأرض وما فيها. [صديق حسن (١٤/٩٧)].

(٢) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره. [السعدي (ص: ٨٥٨)].

(٣) قال أكثر المفسرون: إن المؤمنين قالوا: وددنا أن الله يخبرنا بأحب الأعمال إليه، حتى نعمله، ولو ذهبت فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله هذه الآية. [الواحيدي (٢١/٤٣١)]. وانظر التعليق على آية (٢٢٢) من سورة البقرة في اثبات صفة المحبة لله.

(٤) اختلف علماء التفسير في المراد بالبنيان المرصوص، فنقل بعضهم عن الفراء: أنه المتلاحم بالرصاص لشدة قوته، والجمهور: أنه المتلاصق المتراس المتساوي. والواقع أن المراد بالتشبيه هنا هو وجه الشبه، ولا يصح أن يكون هنا هو شكل البناء لا في تلاحمه بالرصاص، وعدم انفكاكه ولا تساويه وتراصه؛ لأن ذلك يتنافى وطبيعة الكر والفر في أرض المعركة، ولكل وقعة نظامها حسب موقعها. والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن وجه الشبه المراد هنا هو عموم القوة والوحدة. قال الزمخشري: يجوز أن يريد استواء بنائهم في الثبات حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان المرصوص. [عطية سالم (٨/١٠٦)].

(٥) انظر نص الحديث وتخرجه عند تفسير آية (٦٩) من سورة الأحزاب.

(٦) في هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، لَقَدْ أُوذِيَ

﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ عَدَلُوا عَنِ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أَمَالَهَا عَنْ الْهُدَى عَلَى وَفْقِ مَا قَدَّرَهُ فِي الْأَزَلِ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١﴾ الْكَافِرِينَ فِي عِلْمِهِ ﴿٢﴾. ﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ﴾ لَمْ يَقُلْ: «يَا قَوْمِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَةٌ» ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ قَبْلِي ﴿مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ جَاءَ أَحْمَدُ الْكَفَّارَ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الْآيَاتِ وَالْعَلَامَاتِ ﴿٣﴾ ﴿قَالُوا هَذَا﴾ أَي: الْمَجِيءُ بِهِ ﴿سِحْرٌ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿سَاحِرٌ﴾ أَي: الْجَائِي بِهِ ﴿مُبِينٌ﴾ ﴿٤﴾ بَيْنَ. ﴿وَمَنْ﴾ أَي: لَا أَحَدَ ﴿أُظْلِمَ﴾ أَشَدُّ ظُلْمًا ﴿مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ﴾ بِنِسْبَةِ الشَّرِيكِ وَالْوَلَدِ إِلَيْهِ، وَوَصَفَ آيَاتِهِ بِالسَّحْرِ ﴿وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ مَنصُوبٌ بِـ «أَنْ» مُقَدَّرَةٌ وَاللَّامُ مَزِيدَةٌ ﴿نُورِ اللَّهِ﴾ شَرَعَهُ وَبَرَاهِينَهُ ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بِأَقْوَالِهِمْ: إِنَّهُ سِحْرٌ وَشَعْرٌ وَكِهَانَةٌ ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّهُ﴾ مُظْهِرُ ﴿تُورِهِ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِصْفَةِ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٦﴾ ذَلِكَ. ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ﴾ يُعْلِيهِ ﴿عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ جَمِيعِ الْأَدْيَانِ الْمُخَالَفَةِ لَهُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧﴾ ذَلِكَ. ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدْلَكُم عَلَى تَجَرَّةٍ تُنَجِّيْكُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٨﴾

بَاكَّرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ. أخرجه البخاري (٤٣٣٥). وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَحِيهَا﴾ [الأحزاب: ٦٩]. [ابن كثير (١٠٩/٨)].

(١) أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاع الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]. [ابن كثير (١٠٩/٨)].

(٢) يعني: التوراة قد بشرت بي، وأنا مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملاء بني إسرائيل مبشرا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة. وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي وَأَنَا الْعَاقِبُ». أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤). وقد قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا ءَاتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه. [ابن كثير (١٠٩/٨)].

مُؤْلِمٍ. فَكَانَتْهُمْ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ تَدُومُونَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ فافْعَلُوهُ^(١). ﴿يَغْفِرُ﴾ جَوَابُ شَرْطِ مُقَدَّرٍ، أَي: إِنْ تَفْعَلُوهُ يَغْفِرُ ﴿لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٌ ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿و﴾ يُؤْتِكُمْ نِعْمَةً ﴿أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَيِّنَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ﴾. ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ﴾ لِدِينِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ ﴿كَمَا﴾ الْمَعْنَى: كَمَا كَانَ الْحَوَارِيُّونَ كَذَلِكَ، الدَّالُّ عَلَيْهِ: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: مَنْ الْأَنْصَارُ الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعِيَ مُتَوَجِّهًا إِلَى نُصْرَةِ اللَّهِ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاءُ عِيسَى، وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِهِ، وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنَ «الْحَوَارِ» وَهُوَ الْبَيَاضُ الْخَالِصُ، وَقِيلَ: كَانُوا قَصَّارِينَ يُحَوِّرُونَ الثِّيَابَ، أَي: يَبْيِضُونَهَا ﴿فَقَامَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بِعِيسَى، وَقَالُوا: إِنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ رُفِعَ إِلَى السَّمَاءِ ﴿وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ لِّقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ رَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَاقْتَتَلَتِ الطَّائِفَتَانِ﴾ ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ قَوَيْنَا ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الطَّائِفَةِ الْكَافِرَةِ ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ ﴿١٢﴾ غَالِبِينَ^(٢).

(١) التجارة هنا فسرت بالإيمان بالله ورسوله، وبذل المال والنفس في سبيل الله، فما هي المعارضة الموجودة في تلك التجارة الهامة، بينها تعالى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، فهنا مبايعة، وهنا بشرى وهنا فوز عظيم... وحقيقة هذه التجارة أن رأس مال الإنسان حياته ومنتهاه مماته. وقد قال ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا». أخرجه مسلم (٢٢٣). [عطية سالم (٨/ ١١٢)].

(٢) قيل: اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام. [الآلوسي (١٤/ ٢٨٦)]. [وقيل] أي: غالبن عليهم بالبراهين الواضحة، والحجج الظاهرة، والسلطة القاهرة، وفيه بشارة للمؤمنين بالتأييد الرباني لهم، ما داموا متناصرين على الحق، مجتمعين عليه، غير متفرقين عنه ولا متخاذلين، كما وقع لسلفهم، اتفقوا فملكوا، وإلا فإذا تفرقوا هلكوا. [القاسمي (٩/ ٢٢٥)].

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنَزِّهُهُ، فَاللَّامُ زَائِدَةٌ ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فِي ذِكْرِ ﴿مَا﴾ تَغْلِيْبٌ لِلْأَكْثَرِ ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ﴾ الْمُنَزَّهَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ. ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ الْعَرَبِ، وَالْأُمِّيُّ: مَنْ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ كِتَابًا ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرُهُمْ مِنَ الشَّرْكِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ مَا فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ ﴿وَأَن﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَي: وَإِنَّهُمْ ﴿كَانُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قَبْلَ مَجِيئِهِ ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿يَبِّينَ﴾ ﴿وَعَاخِرِينَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿الْأُمِّيِّينَ﴾، أَي: الْمَوْجُودِينَ ﴿مِنْهُمْ﴾ وَالْآتِينَ مِنْهُمْ بَعْدَهُمْ ﴿لَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ فِي السَّابِقَةِ وَالْفَضْلِ ﴿٣﴾

(١) قال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ». أخرجه البخاري (١٩١٣)، ومسلم (١٠٨٠). ﴿رُسُلًا مِنْهُمْ﴾ أي: من أنفسهم ومن جنسهم ومن جملتهم، كما في قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] وما كان حي من أحياء العرب إلا ولرسول الله ﷺ، فيهم قرابة، وقد والوه، ووجه الامتنان بكونه منهم أن ذلك أقرب إلى الموافقة لأن الجنس أميل إلى جنسه وأقرب إليه، وقيل: أميًا مثلهم وإنما كان أميًا لأن نعته في كتب الأنبياء: «النبي الأمي»، وكونه بهذه الصفة أبعد من توهم الاستعانة بالكتابة على ما أتى به من الوحي والحكمة، ولكون حاله مشاكلة لحال أمته الذين بعث فيهم، وذلك أقرب إلى صدقه، والاقتصار هنا في المبعوث إليهم على الأميين لا ينافي أنه مرسل إلى غيرهم لأن ذلك مستفاد من دليل آخر كقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. [صديق حسن (١٤/ ١٣٠)].

(٢) أي: علم القرآن وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقًا، وأحسنهم هديًا وسميًا، اهتموا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين، فله عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ، أكمل نعمة، وأجل منحة. [السعدي (ص: ٨٦٢)].

(٣) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَأَنْزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْجُمُعَةِ: ﴿وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قَالُوا: مِنْ هُم يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَلَمْ يَرِاجِعْهُمْ حَتَّى سَأَلَ ثَلَاثًا، وَفِينَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى سَلْمَانَ ثُمَّ قَالَ: «لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ -أَوْ: رَجُلٌ- مِنْ هَؤُلَاءِ». أخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦). ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله: ﴿وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس؛ ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم، يدعوهم إلى الله عز وجل، وإلى اتباع ما جاء به؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله: ﴿وَعَاخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ قال: هم

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝﴾ فِي مُلْكِهِ وَصُنْعِهِ، وَهُمْ التَّابِعُونَ وَالْإِقْتَصَارُ عَلَيْهِمْ كَافٍ فِي بَيَانِ فَضْلِ الصَّحَابَةِ الْمَبْعُوثِ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ بُعِثَ إِلَيْهِمْ وَأَمَنُوا بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ لِأَنَّ كُلَّ قَرْنٍ خَيْرٌ مِمَّنْ يَلِيهِ^(١). ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ النَّبِيُّ وَمَنْ ذَكَرَ مَعَهُ^(٢) ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ ﴿كُلُّوا الْعَمَلَ بِهَا﴾ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴿لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ نِعَتِهِ ﷺ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ﴾ ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ أَيُّ: كُتِبَ فِي عَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِهَا^(٣) ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الْمَصَدِّقَةُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَخْصُوصُ بِالذِّمِّ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: هَذَا الْمَثَلُ ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلْ يَأَيُّهَا

الأعاجم، وكل من صدق النبي ﷺ من غير العرب. [ابن كثير (١١٦/٨)].

(١) قَالَ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٦٥٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٣٣).

(٢) الْإِشَارَةُ إِلَى جَمِيعِ الْمَذْكُورِ مِنْ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْآيَاتِ وَالتَّرَكِيَةِ وَتَعْلِيمِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالْإِنْقَازِ مِنَ الضَّلَالِ وَمِنْ إِفَاضَةِ هَذِهِ الْكِمَالَاتِ عَلَى الْأَمِينِ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ سَابِقَةُ عِلْمٍ وَلَا كِتَابٍ، وَمِنْ لِحَاقِ أُمَّمٍ آخَرِينَ فِي هَذَا الْخَبَرِ فَرَالَ اخْتِصَاصُ الْيَهُودِ بِالْكِتَابِ وَالشَّرِيعَةِ، وَهَذَا أَجْدَعُ لِأَنَّهُمْ إِذَا حَالُوا أَنْ يَجِيءَ رَسُولٌ أَمِيٌّ بِشَرِيعَةٍ إِلَى أُمَّةٍ أَمِيَّةٍ فَضْلًا عَنْ أَنْ نَلْتَحِقَ بِأَمِيَّةٍ أَمٍّ عَظِيمَةٍ كَانُوا أَمَكْنَ فِي الْمَعَارِفِ وَالسُّلْطَانِ. وَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى هُدًى اللَّهُ أَنْ يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣] يَخْتَصُّ بِهِ. وَهَذَا تَهْمِيدٌ وَمَقْدَمَةٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حَمَلُوا التَّوْرَةَ﴾. [ابن عاشور (٢١٣/٢٨)].

(٣) كَمَا أَنَّ الْحِمَارَ لَا يَنْتَفِعُ بِتِلْكَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الَّتِي فِي تِلْكَ الْكُتُبِ الْمَحْمُولَةِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَكَذَلِكَ الْيَهُودُ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَلَفُوا بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِظْهَارِ صِفَاتِهِ لِلنَّاسِ فَخَانُوا، وَحَرَفُوا وَبَدَلُوا فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ مَا فِي كِتَابِهِمْ مِنَ الْعُلُومِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦] فَقَدْ جَحَدُوا رِسَالَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ فَلَمْ يَنْفَعَهُمْ عِلْمُهُمْ بِهِ. وَالَّذِي يَنْبَغِي التَّنْبِيهِ عَلَيْهِ هُوَ أَنَّ أَكْثَرَ الْمَفْسُرِينَ يَجْعَلُهُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ الْمَفْرَدِ، وَأَنْ وَجْهَ الشَّبَهِ فِيهِ مَفْرَدٌ وَهُوَ عَدَمُ الْإِنْتِفَاعِ بِالْمَحْمُولِ، كَالْبَيْتِ الَّذِي فِيهِ:

كَالْعَيْسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ

وَالَّذِي يَظْهَرُ وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ التَّشْبِيهِ التَّمْثِيلِيِّ؛ لِأَنَّ وَجْهَ الشَّبَهِ مَرْكَبٌ مِنْ مَجْمُوعٍ كَوْنِ الْمَحْمُولِ كِتَابًا نَافِعَةً، وَالْحَامِلِ حِمَارًا لَا عِلَاقَةَ لَهُ بِهَا بِخِلَافِ مَا فِي الْبَيْتِ، لِأَنَّ الْعَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ تَنْتَفِعَ بِالْمَاءِ لَوْ حَصَلَتْ عَلَيْهِ، وَالْحِمَارُ لَا يَنْتَفِعُ بِالْأَسْفَارِ وَلَوْ نَشَرَتْ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِنْ مَوْجِبَاتِ نَقْلِ النُّبُوَّةِ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَلِيَّةٌ أَنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى حَدِّ الْإِلْبَاسِ مِنْ انْتِفَاعِهِمْ بِأَمَانَةِ التَّبْلِيغِ وَالْعَمَلِ، فَتَقْلَهَا اللَّهُ إِلَى قَوْمٍ أَحَقَّ بِهَا وَبِالْقِيَامِ بِهَا. [عطية سالم (١١٧/٨)].

الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ تَعَلَّقَ بِهِ «تَمَنُّوا» الشَّرْطَانِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ قَيْدٌ فِي الثَّانِي، أَيُّ: إِنْ صَدَقْتُمْ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ، وَالْوَلِيُّ يُؤَثِّرُ الْآخِرَةَ وَمَبْدُوهَا الْمَوْتُ، فَتَمَنُّوهُ. ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنْ كُفْرِهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمُسْتَلْزِمِ لِكَذِبِهِمْ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٧﴾ الْكَافِرِينَ. ﴿قُلْ إِنْ الْمَوْتُ الَّذِي تُفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ﴾ الْفَاءُ زَائِدَةٌ ﴿مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ السَّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ ﴿فَيَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨﴾ فَيَجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ﴾ بِمَعْنَى: فِي ﴿يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾ فَاْمْضُوا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أَيُّ: الصَّلَاةِ ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ أَتْرَكُوا عَقْدَهُ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩﴾ أَنَّهُ خَيْرٌ فافعلوه. ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أَمْرٌ بِإِبَاحَةِ ﴿وَابْتَغُوا﴾ اُطْلُبُوا الرِّزْقَ ﴿مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ذَكَرًا ﴿كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠﴾ تَفُوزُونَ. كَانَ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَدِمَتْ عِيرٌ وَضُرِبَ لِقْدُومُهَا الطَّبْلُ عَلَى الْعَادَةِ، فَخَرَجَ لَهَا النَّاسُ مِنْ الْمَسْجِدِ غَيْرِ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا، فَزَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾ أَيُّ: التَّجَارَةَ لِأَنَّهَا مَطْلُوبُهُمْ دُونَ اللَّهْوِ ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ فِي الْخُطْبَةِ ﴿قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ مِنَ الثَّوَابِ ﴿خَيْرٌ﴾ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴿مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿١١﴾ يُقَالُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْزُقُ عَائِلَتَهُ، أَيُّ: مِنْ رِزْقِ اللَّهِ تَعَالَى. (٣).

- (١) الفرار من الشيء في معجى العادة سبب الفوت عليه فجاء بالفاء لإفادة أن الفرار سبب الملاقة مبالغة في عدم الفوت وتعكيسا للحال. [الآلوسي (٢٩١ / ١٤)]. أي: إِنْ فررتُمْ مِنَ الْمَوْتِ بَعْدَ تَمَنِّيهِ فَلَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ تَنْجُونَ مِنْهُ وَهُوَ مَلَا قِيَكُمْ لَا مُحَالَةً، وَمَلَا قِيَكُمْ بِمَعْنَى مَدْرَكَكُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. [عطية سالم (٨ / ١٢٠)].
- (٢) عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَدِمَتْ عِيرُ الْمَدِينَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ، فَخَرَجَ النَّاسُ وَبَقِيَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا فَزَلَّتْ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٨٩٩)، وَمُسْلِمٌ (٨٦٣). وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: كَانَتْ الْجَوَارِي إِذَا نَكَحْنَ يَمُرْنَ بِالْمِزَامِيرِ وَالطَّبْلِ فَاَنْفَضُوا إِلَيْهَا، فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجْرَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فَقَدْ قِيلَ إِنْ ذَلِكَ تَكَرَّرَ مِنْهُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَا شَكَّ أَنَّ خُرُوجَهُمْ كَانَ تَارَةً لِأَجْلِ مَجِيءِ الْعِيرِ وَتَارَةً لِحُضُورِ اللَّهِ... وَضَمِيرُ ﴿إِلَيْهَا﴾ عَائِدٌ إِلَى التَّجَارَةِ لِأَنَّهَا أَهَمُّ عِنْدَهُمْ مِنَ اللَّهِوِ وَلِأَنَّ الْحَدِيثَ الَّذِي نَزَلَتْ الْآيَةُ عَنْهُ... وَلَعَلَّ التَّقْسِيمَ الَّذِي أَفَادَتْهُ ﴿أَوْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوْ لَهْوًا﴾ تَقْسِيمٌ لِأَحْوَالِ الْمُنْفَضِينَ إِذْ يَكُونُ بَعْضُهُمْ مِنْ ذَوِي الْعَائِلَاتِ خَرَجُوا لِيَمْتَارُوا لِأَهْلِهِمْ، وَبَعْضُهُمْ مِنَ الشَّبَابِ لَا هِمَّةَ لَهُمْ فِي الْمِيرَةِ وَلَكِنْ أَحْبَبُوا حُضُورَ اللَّهِوِ. [ابن عاشور (٢٢٨ / ٢٢٨)].
- (٣) فَمِنْهُ اُطْلُبُوا الرِّزْقَ، وَإِلَيْهِ تَوَسَّلُوا بِعَمَلِ الطَّاعَةِ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِيلِ الرِّزْقِ، وَأَعْظَمُ مَا يَجْلِبُهُ. وَتَعَدُّهُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يُقَالُ: كُلُّ إِنْسَانٍ يَرْزُقُ عَائِلَتَهُ، أَيُّ: مِنْ رِزْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَّا فَالرَّازِقُ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ. [صديق حسن (١٤٢ / ١٤)].

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ

مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ بِالسَّتِمْهُمْ، عَلَى خِلَافِ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ^(١) ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ﴾ يَعْلَمُ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ ^(٢) ﴿فِيمَا أَضْمَرُوا مَخَالِفًا لِمَا قَالُوا﴾. ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ سِتْرَةً عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَدِمَائِهِمْ ﴿فَصَدُّوا﴾ بِهَا ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أَي: عَنِ الْجِهَادِ فِيهِمْ ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(٣) ﴿ذَلِكَ﴾ أَي: سُوءُ عَمَلِهِمْ ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا﴾ بِاللِّسَانِ ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بِالْقَلْبِ ^(٤)، أَي: اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِهِ ﴿فَطُبِعَ﴾ خَتَمٌ ^(٥) ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بِالْكَفْرِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ^(٦) ﴿الْإِيمَانَ﴾. ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لِجَمَالِهَا ﴿وَأِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لِفَصَاحَتِهِ ﴿كَانَتْهُمْ﴾ مِنْ عِظَمِ أَجْسَامِهِمْ فِي تَرْكِ التَّقَهُمِ ﴿خُشْبٌ﴾ بِسُكُونِ الشَّيْنِ وَضَمِّهَا ﴿مُسْتَدَّةٌ﴾ مُمَالَةٌ إِلَى الْجِدَارِ ^(٧) ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ تُصَاحُ كِنْدَاءٍ فِي الْعَسْكَرِ وَإِنْشَادِ ضَالَّةٍ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لِمَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الرَّعْبِ أَنْ يَنْزَلَ فِيهِمْ مَا يُبَيِّحُ دِمَاءَهُمْ ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُمْ﴾ فَإِنَّهُمْ يُفْشُونَ سِرَّكَ لِلْكَفَّارِ ﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿أَتَى يُؤَفِّكُونَ﴾ ^(٨) ﴿كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنِ الْإِيمَانِ بَعْدَ قِيَامِ الْبُرْهَانِ﴾. ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا﴾ مُعْتَذِرِينَ ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَلَا﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، عَطَفُوا ﴿رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يُعْرِضُونَ عَنْ ذَلِكَ ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ ^(٩) سَوَاءً عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَنْفَعَكَ أَسْأَلُكَ عَنْ هَمْزَةِ الْوَصْلِ

(١) لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليقى جاههم، وتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة. [السعدي (ص: ٨٦٤)].

(٢) ﴿ءَامَنُوا﴾ باللسان في الظاهر نفاقاً ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بالقلب في الباطن، فثم للترتيب الإخباري لا الإيجادي، أو أظهروا الإيمان للمؤمنين وأظهروا الكفر للكافرين، وهذا صريح في كفر المنافقين. [صديق حسن (١٤٦/١٤)].

(٣) أي: فلا يصل إلى قلوبهم هدى، ولا يخلص إليها خير، فلا تعي ولا تهتدي. [ابن كثير (١٢٦/٨)].

(٤) قال الزمخشري: إنما شبههم بالخشب المستندة إلى حائط، لأن الخشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة، بخلاف الخشب التي في سقف أو مغروسة في جدار؛ فإن فيها حيثئذ منفعة. فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة. [ابن جزي (٣٧٧/٢)].

﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ٦ ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لَا أَصْحَابَهُمْ مِنَ الْأَنْصَارِ: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴿حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِالرِّزْقِ، فَهُوَ الرِّازِقُ لِلْمُهَاجِرِينَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ٧ ﴿يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا﴾ أَي: مِنْ غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ﴾ عَنَّا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ﴿مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ عَنَّا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ الْغَلَبَةُ ﴿وَلِرَسُولِهِ﴾ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨ ﴿ذَلِكَ﴾ ٩ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ﴾ تَشْغَلْكُمْ ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ١٠ ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ فِي الزَّكَاةِ ﴿مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا﴾ بِمَعْنَى «هَلَا» أَوْ «لَا» زَائِدَةٌ وَ«لَوْ» لِلتَّمَنِّيِ ﴿أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْ﴾ بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الصَّادِ اتَّصَدَّقَ بِالزَّكَاةِ ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ١١ ﴿بِأَنْ أَحْجَّ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَا قَصَرَ أَحَدٌ فِي الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ إِلَّا سَأَلَ الرَّجْعَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ﴾ ١٢ ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ١٣ ﴿بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ﴾ ١٤.

(١) عن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في غزاة، قال سفيان: يرون أنها غزوة بني المصطلق فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى جَاهِلِيَّةٍ؟» قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتَهَةٌ»، فسمع ذلك عبد الله بن أبي فقال: أوقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». أخرجه البخاري (٣٥١٨)، ومسلم (٢٥٨٤). زاد الترمذي (٣٣١٥): فقال له ابنه عبد الله بن عبد الله: والله لا تتقلب حتى تقرأ أنك الذليل ورسول الله العزيز ففعل.

(٢) ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه. [السعدي (ص: ٨٦٥)].

(٣) وكذلك لا يقدمها عليه؛ كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]. وبين تعالى عدم تأخيرهم مع أنهم وعدوا بأنهم يصدقون ويكونون من الصالحين، مشيراً للسبب في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأن شيمتهم الكذب وخلف الوعد، وأن هذا دأب أمثالهم كما بينه تعالى في قوله: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسْلَ أَوَّلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]. أي: لو أخرهم لن يصدقوا، ولن يكونوا من الصالحين، والله تعالى محيط علمه بما سيكون، كإحاطته بما قد كان. [عطية سالم (٨/ ١٩٣)].

سُورَةُ التَّغَابِنِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانِي عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ أَيُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ۖ فِي أَصْلِ الْخَلْقَةِ، ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ وَيُعِيدُكُمْ عَلَى ذَلِكَ ۖ ۝ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ

(١) المعنى: أن الله هو الذي خلقكم وقدر على قوم منكم الكفر، وعلى قوم منكم الإيمان، ثم بعد ذلك يهدي كلا لما قدره عليه كما قال: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، فيسر الكافر إلى العمل بالكفر، ويسر المؤمن للعمل بالإيمان، كما قال ﷺ: «اعْمَلُوا فُكُلٌ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ». أخرجه مسلم (٢٦٤٨). ومن المعلوم أن هذا النص من مآزق القدرية والجبرية، وأن أهل السنة يؤمنون أن كلا بقدر الله ومشيتته، كما قال ابن تيمية في العقيدة الواسطية: وهم أهل السنة وسط بين قول: إن العبد مجبور على عمله لا اختيار له كالورقة في مهب الريح. وبين قول: إن العبد يخلق فعله بنفسه، ويفعل ما يريد بمشيئته. وأهل السنة يقولون بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]. وقد ذكر القرطبي أقوال الطائفتين من أهل العلم، ولكل طائفة ما استدلت به، الأولى: عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ كَافِرًا وَخَلَقَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا فِي بَطْنِ أُمِّهِ مُؤْمِنًا». أخرجه الطبراني (١٠٥٤٣). وبما في الصحيح من قوله ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ. وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا». أخرجه البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣). وقال: قال علماؤنا: تعلق العلم الأزلي بكل معلوم، فيجري ما علم وأراد وحكم. الثانية: ما جاء في قوله: وقال جماعة من أهل العلم: إن الله خلق الخلق ثم كفروا وآمنوا، قالوا: وتمام الكلام: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾، ثم وصفهم فقال: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾. وكقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ﴾ [النور: ٤٥]، قالوا: فالله خلقهم والمشي فعلهم. واختاره الحسين بن الفضل، قال: لأنه لو خلقهم كافرين ومؤمنين لما وصفهم بفعلهم، واحتجوا بقوله ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ» الحديث. أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨). وبالنظر في هاتين المقاليتين نجد الآتي: أولاً: التشبيه في المقالة الثانية لا يسلم؛ لأن وصف الدواب في حالة المشي ليس وصفا فعليا، وإنما هو من ضمن خلقه تعالى لها ولم يكن منها فعل في ذلك. ثانياً: ما استدلت به كل طائفة من الحديثين لا تعارض بينهما؛ لأن الحديث الأول: «إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ» لبيان المصير والتمهي، وفق العلم الأزلي والإرادة القدرية. والحديث الثاني لبيان مبدأ وجود الإنسان في الدنيا وأنه يولد على الفطرة حينما يولد، أما مصيره فبحسب ما قدر الله عليه. وقد نقل القرطبي كلاما للزجاج وقال عنه: هو أحسن الأقوال ونصه: إن الله خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، مع أن الله خالق

صُورَكُمْ^٦ إِذْ جَعَلَ شَكْلَ الْأَدَمِيِّ أَحْسَنَ الْأَشْكَالِ ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾^٧ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٨﴾ بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَسْرَارِ وَالْمُعْتَقَدَاتِ^(١). ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿نَبَأٌ﴾ خَبِرَ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ﴾ عُقُوبَةَ الْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا ﴿وَلَهُمْ﴾ فِي الْآخِرَةِ ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢) مُؤَلَّمٌ. ﴿ذَلِكَ﴾ أَيُّ: عَذَابُ الدُّنْيَا ﴿بِأَنَّهُ﴾ ضَمِيرُ الشَّأْنِ ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْحُجَجِ الظَّاهِرَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ أُرِيدَ بِهِ الْجِنْسُ﴾ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ﴿عَنِ الْإِيمَانِ﴾ ﴿وَأَسْتَغْنَى اللَّهُ﴾ عَنْ إِيْمَانِهِمْ ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عَنْ خَلْقِهِ ﴿حَمِيدٌ﴾^(٣) مَحْمُودٌ فِي أَعْمَالِهِ. ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: أَنَّهُمْ ﴿لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾^(٤) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْثُورِ ﴿الْقُرْآنِ﴾ ﴿الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٥). أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يَغْنِبُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ بِأَخْذِ مَنَازِلِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ فِي الْجَنَّةِ لَوْ آمَنُوا^(٦) ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالنُّونِ فِي الْفِعْلَيْنِ ﴿جَنَّتِ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الكفر، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، مع أن الله خالق الإيمان. والكافر يكفر ويختار الكفر بعد أن خلق الله إياه؛ لأن الله تعالى قدر ذلك عليه وعلمه منه، لأن وجود خلاف المقدر عجز، ووجود خلاف المعلوم جهل. قال القرطبي: وهذا أحسن الأقوال، وهو الذي عليه جمهور الأمة. ولعل مما يشهد لقول الزجاج قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٦]. هذا حاصل ما قاله علماء التفسير، وهذا الموقف كما قدمنا من مأزق القدر والجبر، وقد زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام، وبتأمل النص وما يكتنفه من نصوص في السياق مما قبله وبعده، نجد الجواب الصحيح والتوجيه السليم، وذلك ابتداء من قوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فكون الملك له لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، وكونه على كل شيء قدير يفعل في ملكه ما يريد. ثم قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. [عطية سالم (٨/ ١٩٥)].

(١) كررت «ما» في قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفي قوله: ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تأكيداً وتعميماً، وللاختلاف لأن تسبيح ما في السماوات مخالف لتسبيح ما في الأرض كثرة وقلة، وأسرارنا مخالفة لعلانيتنا، ولم تكرر في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لعدم اختلاف علمه تعالى، إذ علمه بما تحت الأرض كعلمه بما فوقها وعلمه بما كان كعلمه بما يكون. [صديق حسن (١٤/ ١٦٣)].

(٢) التغابن مستعار من تغابن الناس في التجارة، وذلك إذا فاز السعداء بالجنة، فكأنهم غبنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء، فالتغابن على هذا بمعنى الغبن، وليس على المتعارف في صيغة تفاعل من كونه بين اثنين، كقولك تضارب وتقاتل إنما هي فعل واحد كقولك: تواضع، قال ابن عطية والزمخشري: يعني نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء، والتغابن على هذا بين اثنين، قال: وفيه تهكم بالأشقياء، لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغبن للسعداء. [ابن جزي (٢/ ٣٨١)].

الَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كُفِّرُوا وَهُمْ عَلَيْهَا يَمْتَرُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴿الْقُرْآنِ﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ هِيَ. ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بِقَضَائِهِ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ فِي قَوْلِهِ: «إِنَّ الْمُصِيبَةَ بِقَضَائِهِ» ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ لِلصَّبْرِ عَلَيْهَا ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٢﴾ أَلَيْسَ. ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ أَنْ تُطِيعُوهُمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْخَيْرِ، كَالْجِهَادِ وَالْهَجْرَةِ، فَإِنَّ سَبَبَ نَزُولِ الْآيَةِ الْإِطَاعَةُ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ عَنْهُمْ فِي تَشْيِطِهِمْ إِيَّاكُمْ عَنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ مُعْتَلِينَ بِمَشَقَّةِ فِرَاقِكُمْ عَلَيْهِمْ ﴿وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ

(١) هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، بقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. [السعدي (ص: ٨٦٧)].

(٢) في الحديث: «عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ، لَا يَقْضِي اللَّهُ لَهُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ». أخرجه مسلم (٢٩٩٩) ... وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. [ابن كثير (٨/ ١٣٧)].

(٣) يقول تعالى مخبرا عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهم به عن العمل الصالح، كقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني على دينكم ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبهم، فأنزل الله هذه الآية. [ابن كثير (٨/ ١٣٩)].

لَكُمْ شَاغِلَةٌ عَنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٥﴾ فَلَا تَفُوتُوهُ بِاشْتِغَالِكُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ^(١). ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ نَاسِخَةٌ^(٢) لِقَوْلِهِ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ سَمَاعَ قَبُولٍ ﴿وَأَطِيعُوا﴾ اللَّهَ ﴿وَأَنْفِقُوا﴾ فِي الطَّاعَةِ ﴿خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ﴾ خَيْرٌ «يَكُنْ» مُقَدَّرَةٌ، جَوَابُ الْأَمْرِ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٦﴾ الْفَائِزُونَ. ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ تَصَدَّقُوا عَنْ طِيبِ قَلْبٍ^(٣) ﴿يُضَعِّفْهُ لَكُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿يُضَعِّفُهُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ بِالْوَاحِدَةِ عَشْرًا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ وَأَكْثَرَ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ مَا يَشَاءُ ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ مُجَازٍ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿حَلِيمٌ﴾ ﴿١٧﴾ فِي الْعِقَابِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ﴾ الْسَّرُّ ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الْعَلَانِيَةِ ﴿الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ ﴿١٨﴾ فِي صُنْعِهِ.

(١) أي: بلاء واختبار وشغل عن الآخرة ومحنة، يحملونكم على كسب الحرام وتناوله، ومنع حق الله، والوقوع في العظائم، وغصب مال الغير، وأكل الباطل ونحو ذلك، فلا تطيعوهم في معصية الله، ولم يذكر من هنا كما ذكر في: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما، وقدم الأموال على الأولاد لأن فتنة المال أكثر، وترك ذكر الأزواج في الفتنة قال البقاعي: لأن منهن من تكون صلاحًا وعونًا على الآخرة. عن أبي بريدة رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبر فحملهما واحداً من ذا الشق وواحداً من ذا الشق، ثم صعد المنبر فقال: «صَدَقَ اللَّهُ ﴿أَتَمَّ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيِّينِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا». أخرجه أبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، والنسائي (١٤١٣)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وأحمد (٢٢٩٩٥). [صديق حسن (١٤/١٧٢)].

(٢) أي: ما أظنتم وبلغ إليه جهدكم، وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم قتادة والربيع بن أنس والسدي وابن زيد إلى أن هذه الآية ناسخة لقوله سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، لأن معناه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر، فخفف الله عنهم وأنزل هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي محكمة ولا نسخ فيها، ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فيه حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم. [صديق حسن (١٤/١٧٢)]. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَمَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ». أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) سمى الله معاملته مع عبده قرضاً وبيعاً وشراءً وتجارة. ومعنى ذلك كله أن العبد يعمل لوجه الله والله جل وعلا يعطيه ثواب ذلك العمل، قال تعالى: ﴿إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعِفْهُ لَكُمْ﴾. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة: ١١١]. وقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنْجِيَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠-١١]، مع قوله تعالى: ﴿تَجَرَّةٌ لَّنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩]. والقرض الحسن هو ما يكون من الكسب الطيب خالصاً لوجه الله. [عطية سالم (٨/٢٠٦)].

سُورَةُ الطَّلَاقِ

مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثَ عَشْرَةِ آيَةٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ الْمُرَادُ أُمَّتُهُ بِقَرِينَةٍ مَا بَعْدَهُ، أَوْ قُلْ لَهُمْ^(١): ﴿إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أَي: أَرَدْتُمُ الطَّلَاقَ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ لَا وَلَهَا، بَأَنْ يَكُونَ الطَّلَاقُ فِي طَهْرٍ لَمْ تُمْسَ فِيهِ لِتَفْسِيرِهِ ﷺ بِذَلِكَ. رَوَاهُ الشَّيْخَانِ^(٢) ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ اِحْفَظُوهَا، لِتُرَاجِعُوا قَبْلَ فَرَاعِهَا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ أَطِيعُوهُ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ مِنْهَا حَتَّى تَنْقُضِيَ عِدَّتَهُنَّ ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ﴾ زِنَا ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا، أَي: بَيَّنَتْ أَوْ بَيَّنَّه فَيَخْرُجْنَ لِإِقَامَةِ الْحَدِّ عَلَيْهِنَّ^(٣) ﴿وَتِلْكَ﴾ الْمَذْكُورَاتُ ﴿حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا

(١) خطاب لرسول الله ﷺ بلفظ الجمع تعظيماً له، أو خطاب له ولأُمته، والتقدير: يا أيها النبي وأُمته، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه، أو خطاب لأُمته فقط بعد ندائه ﷺ، وهو من تلوين الخطاب خاطب به أُمته بعد أن خاطبه، أو أنه على إضمار قول، أي: يا أيها النبي قل لأمتك، أو خص النبي ﷺ بالنداء وعم بالخطاب، لأن النبي إمام أُمته وقودتهم، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: يا فلان افعلوا كيت وكيت اعتباراً لتقدمه وإظهاراً لرأسه بكلام حسن قاله الزمخشري، قال السمين: وهذا هو معنى القول الثالث الذي تقدم. وقال المحلي: المراد أُمته بقريته ما بعده، قال الحفناوي: فكأنه قيل: يا أيها الأُمّة إذا طلقتم الخ. وهذا الأسلوب سلكه الكازروني، وفي نسخة من تفسير المحلي المراد أُمته بزيادة الواو، يعني أن في الكلام اكتفاء على حد قوله تعالى: ﴿سَرَبِيلَ تَقِيكُمْ الْخَرَّ﴾ [النحل: ٨١] [أي: والبرد] فعلى هذا لفظ النبي لا تجوز فيه، بل هو منادى مع أُمته، وهذا الوجه قرره السمين كما تقدم، والمعنى إذا أردتم تطليقهن وعزمتهم عليه على تنزيل المقبل على الأمر المشارف له منزلة الشارع فيه، وإنما احتيج لهذا التجوز ليصح قوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ لأن الشيء لا يترتب على نفسه، ولا يؤمر أحد بتحصيل الحاصل، والمراد بالنساء، المدخول بهن ذوات الأقراء، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن بالكلية، وأما ذوات الأشهر فسيأتين في قوله: ﴿وَالَّتِي يَبْسُنُ﴾ الخ. [صديق حسن (١٧٧/١٤)].

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٠٨)، ومسلم (١٤٧١).

(٣) اختلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي؟ على خمسة أقوال: الأول: أنها الزنا فتخرج لإقامة الحد، قاله الليث بن سعد والشعبي. الثاني: أنه سوء الكلام مع الأصهار فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذ حفظاً للنسب، قاله ابن عباس ويؤيده قراءة أبي بن كعب: «إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ». الثالث: أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك، فمتى فعلت شيئاً من ذلك سقط حقها في السكنى، قاله ابن عباس أيضاً وإليه مال الطبري. الرابع: أنه الخروج عن بيتها خروج انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى قاله ابن الفرس، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة. الخامس: أنه النشوز قبل الطلاق، فإذا

تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ **﴿أَمْرًا ١﴾** مُرَاجَعَةً فِيمَا إِذَا كَانَ وَاحِدَةً أَوْ اثْنَتَيْنِ. **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾** قَارِبْنَ انْقِضَاءِ عِدَّتِهِنَّ **﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾** بِأَنْ تَرَاغِبُوهُنَّ **﴿بِمَعْرُوفٍ﴾** مِنْ غَيْرِ ضَرَارٍ **﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾** تُرْكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِيَ عِدَّتُهُنَّ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ بِالْمُرَاجَعَةِ **﴿وَأَشْهِدُوا ذَوْيَ عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾** عَلَى الْمُرَاجَعَةِ أَوْ الْفِرَاقِ **﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾** لَا لِلْمَشْهُودِ عَلَيْهِ أَوْ لَهُ **﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ﴾** مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا **﴿٢﴾** مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ^(١). **﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾** يَخْطُرُ بِيَالِهِ **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾** فِي أُمُورِهِ **﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾** كَافِيهِ ^(٢) **﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ﴾** مُرَادِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِضَافَةِ **﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ كَرِخَاءً وَشِدَّةً﴾** **﴿قَدْرًا ٣﴾** مِيقَاتًا ^(٣). **﴿وَالَّتِي﴾** بِهَمْزَةٍ وَيَاءٍ، وَبِلَا يَاءٍ فِي الْمَوْضِعَيْنِ **﴿يَسْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ﴾** بِمَعْنَى الْحَيْضِ **﴿مِنْ نِّسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبْتُمْ﴾** شَكَّكْتُمْ فِي عِدَّتِهِنَّ **﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ﴾** لِصِغَرِهِنَّ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَالْمَسْأَلَتَانِ فِي غَيْرِ الْمَتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ، أَمَّا هُنَّ فَعِدَّتُهُنَّ مَا فِي آيَةٍ: **﴿يَتَرَبَّصْنَ بَأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾** [البقرة: ٢٣٤] **﴿وَأُولَتْ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾** انْقِضَاءُ عِدَّتِهِنَّ مُطْلَقَاتٍ أَوْ مَتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ **﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ٤﴾** فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. **﴿ذَلِكَ﴾** الْمَذْكُورُ فِي الْعِدَّةِ **﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾** حُكْمُهُ **﴿أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ٥﴾** أَسْكِنُوهُنَّ

طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى، قاله قتادة. [ابن جزي (٢/ ٣٨٤)].

(١) أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي: من جهة لا تخطر بباله. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو علي هذه الآية: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٢﴾** وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ **﴿الطلاق: ٢-٣﴾** حتى فرغ من الآية، ثم قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ أَخَذُوا بِهَا كَفَّتْهُمْ». وقال: فجعل يتلوها ويردها علي حتى نعست. أخرجه أحمد (٢١٥٩١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، وابن ماجه (٤٢٢٠). وعن شتير بن شكل قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾** [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجاً: **﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾**. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْإِسْتِغْفَارِ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرْجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ». أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه (٣٨١٩). [ابن كثير (٨/ ١٤٦)].

(٢) أي: من فوض إليه أمره كفاه ما أهمه. وقيل: أي من اتقى الله وجانب المعاصي وتوكل عليه، فله فيما يعطيه في الآخرة من ثوابه كفاية. ولم يرد الدنيا، لأن المتوكل قد يصاب في الدنيا وقد يقتل. [القرطبي (١٨/ ١٦١)].

(٣) المراد تقديره قبل وجوده، أو مقداراً من الزمان، وهذا بيان لوجوب التوكل عليه تعالى وتفويض الأمر إليه عز وجل لأنه إذا علم أن كل شيء من الرزق وغيره لا يكون إلا بتقديره تعالى لا يبقى إلا التسليم للقدر. [الآلوسي (١٤/ ٣٣٢)].

أَيُّ: الْمُطَلَّاتِ ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ﴾ أَيُّ: بَعْضُ مَسَاكِنِكُمْ ^(١) ﴿مَنْ وَجَدَكُمْ﴾ أَيُّ: سَعَيْتُمْ، عَطْفُ بَيَانٍ أَوْ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ بِإِعَادَةِ الْجَارِ وَتَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيُّ: أَمَكِنَهُ سَعَيْتُمْ لَا مَا دُونَهَا ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ الْمَسَاكِينُ فَيَحْتَجْنَ إِلَى الْخُرُوجِ أَوْ النَّفَقَةِ فَيَقْتَدِينَ مِنْكُمْ ﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أَوْلَادَكُمْ مِنْهُنَّ ﴿فَاتَّوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ عَلَى الْإِرْضَاعِ ﴿وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ﴾ وَبَيْنَهُنَّ ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بِجَمِيلٍ فِي حَقِّ الْأَوْلَادِ، بِالتَّوَافُقِ عَلَى أَجْرِ مَعْلُومٍ عَلَى الْإِرْضَاعِ ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فِي الْإِرْضَاعِ فَاَمْتَنِعِ الْأَبُ مِنَ الْأُجْرَةِ وَالْأُمُّ مِنْ فِعْلِهِ﴾ فَسُتَرْضَعُ لَهُ ^(٢) لِلْأَبِ ﴿أُخْرَى ^(٣)﴾ وَلَا تُكْرَهُ الْأُمُّ عَلَى إِرْضَاعِهِ. ﴿لِيَنْفِقَ﴾ عَلَى الْمُطَلَّاتِ وَالْمَرْضِعَاتِ ﴿ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ ضَيْقُهُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ﴾ أَعْطَاهُ ﴿اللَّهُ﴾ عَلَى قَدَرِهِ ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ^(٤)﴾ وَقَدْ جَعَلَهُ بِالْفَتْوحِ ^(٥). ﴿وَكَايْنٍ﴾ هِيَ كَافُ الْجَرِّ دَخَلَتْ عَلَى «أَيٍّ» بِمَعْنَى: «كَمْ» ﴿مِنْ قَرِيَةٍ﴾ أَيُّ: وَكَثِيرٌ مِنَ الْقُرَى ﴿عَتَتْ﴾ عَصَتْ، يَعْنِي: أَهْلُهَا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا﴾ فِي الْآخِرَةِ، وَإِنْ لَمْ تَجِئْ لِيَتَحَقَّقْ وَقُوعُهَا ﴿حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَابًا نُّكَرًا ^(٦)﴾ بِسُكُونِ الْكَافِ وَضَمِّهَا فَطِيعًا وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ. ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عُقُوبَتُهُ ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ^(٧)﴾ خَسَارًا وَهَلَاكًا. ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تَكْرِيرٌ لِلْوَعْدِ تَوْكِيدًا ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أَصْحَابَ الْعُقُولِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ نَعَتْ لِلْمُنَادَى أَوْ بَيَانٌ لَهُ ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ^(٨)﴾ هُوَ الْقُرْآنُ. ﴿رَسُولًا﴾ أَيُّ: مُحَمَّدًا ﷺ مَنْصُوبٌ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: وَأَرْسَلَ ﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَكَسْرِهَا كَمَا تَقَدَّمَ ﴿لِيُخْرِجَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بَعْدَ مَجِيءِ الذِّكْرِ وَالرَّسُولِ ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ الْكُفْرِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الْإِيمَانِ الَّذِي قَامَ بِهِمْ بَعْدَ الْكُفْرِ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ النَّوْنِ ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ^(٩)﴾ هُوَ رِزْقُ الْجَنَّةِ الَّتِي لَا يَنْقُطُ نَعِيمُهَا. ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ يَعْنِي سَبْعَ أَرْضِينَ ^(١٠) ﴿يَنْزِلُ الْأَمْرُ﴾

(١) قُدر الإسكان بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره. [السعدي (ص: ٨٧١)].

(٢) وعدمه تعالى ووعدته حق لا يخلفه، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ^(١)﴾ [الشرح: ٥-٦]. [ابن كثير (٨/ ١٥٤)].

(٣) جاء في بيان السماوات أنها سبع طباق، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ^(١)﴾ [الملك: ٣]. وبين الحديث في الإسرائء

أن ما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وجاء لفظ السماء مفردا وجمعا، فالمفرد كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس:

٥]. وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ^(١)﴾ [البقرة: ٢٢]. أما الأرض فلم يأت لفظها إلا مفردا، ولم يأت تفصيلها

الْوَحْيِ ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَنْزِلُ بِهِ جِبْرِيلُ مِنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ إِلَى الْأَرْضِ السَّابِعَةِ ^(١) ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ، أَي: أَعْلَمَكُمْ بِذَلِكَ الْخَلْقِ وَالتَّنْزِيلِ ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ^(٢).

كتفصيل السماء سبعا طباقا، فاختلف في المثلية فجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها مثلية تامة عددا وطباقا وخلقا، وقيل: عددا وأقاليم يفصلها البحار، وقيل: عددا طباقا متراكمة كطبقات البصلة مثلا، وقد جاء في السنة أن الأرض سبع أرضين كما في حديث: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الْأَرْضِ شَيْئًا طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ». أخرجه البخاري (٢٤٥٢). وفي حديث موسى لما قال: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ: كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُ هَذَا، قَالَ: قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخْصِنِي بِهِ، قَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامَرَهُنَّ غَيْرِي، وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كَفَّةٍ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كَفَّةٍ مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١٠٦٧٠). فهذه أحاديث صحيحة أثبتت أن الأرضين سبع، ولم يأت تفصيل للكيفية ولا للهيئة فثبت عندنا العدد ولم يثبت غيره، فثبتته ونكل غيره لعلم الله تعالى... والمهم من السياق والغرض الأساسي، تنبيه الخلق على عظم قدرة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. [عطية سالم (٨/٢١٧)].

(١) الضمير عائد على السماوات والأرضين عند الجمهور، أو على السماوات والأرض عند من يقول إنها أرض واحدة قاله السمين، قال المحلي في تفسيره: ينزل به جبريل من السماء السابعة إلى الأرض السابعة انتهى، قال علي القاري: لم نجد هذا القول لغيره من المفسرين إذ غاية من فسر الأمر بالوحي قال في تفسير قوله: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ أي: بين هذه الأرض العليا التي هي أولاهها، وبين السماء السابعة التي هي أعلاها انتهى، قال سليمان الجمل: وهذا التوقف من القاري مبني على أن المراد بالوحي وحي التكليف بالأحكام، وليس بلازم لإمكان حمله على وحي التصرف في الكائنات، وعبارة الخطيب والأكثر على أن الأمر هو القضاء والقدر فعلى هذا يكون المراد بقوله: ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها، فيجري أمر الله وقضاؤه بينهما، وينفذ حكمه فيهن. [صديق حسن (١٤/١٩٩)].

(٢) كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة وأسمائه الحسنى وعبدوه وأحبوه وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر معرفة الله وعبادته، فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك، الظالمون المعرضون. [السعدي (ص: ٨٧٢)].

سُورَةُ التَّحْرِيمِ
مَدِينَةُ، اثْنَتَا عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ مِنْ أَمَتِكَ مَارِيَةَ الْقُبُطِيَّةِ، لَمَّا وَقَعَهَا فِي بَيْتِ حَفْصَةَ وَكَانَتْ غَائِبَةً فَجَاءَتْ وَشَقَّ عَلَيْهَا كَوْنُ ذَلِكَ فِي بَيْتِهَا وَعَلَى فِرَاشِهَا، حَيْثُ قُلْتُ: هِيَ حَرَامٌ عَلَيَّ^(١) ﴿تَبْتَغِي﴾ بِتَحْرِيمِهَا ﴿مَرْضَاتٍ أَزْوَاجَكَ﴾ أَي: رِضَاهُنَّ ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿عَفَرَ لَكَ هَذَا التَّحْرِيمَ. ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ﴾ شَرَعَ ﴿لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ تَحْلِيلَهَا بِالْكَفَّارَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ «الْمَائِدَةِ»^(٢)، وَمِنْ الْأَيْمَانِ تَحْرِيمُ الْأَمَةِ، وَهَلْ كَفَّرَ ﷺ؟ قَالَ مُقَاتِلٌ: أَعْتَقَ رَقَبَةً فِي تَحْرِيمِ مَارِيَةَ، وَقَالَ الْحَسَنُ: لَمْ يُكْفَرْ لِأَنَّهُ ﷺ مَغْفُورٌ لَهُ ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ نَاصِرُكُمْ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ وَ﴿اذْكُرْ﴾ إِذْ أَسَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ هِيَ حَفْصَةُ ﴿حَدِيثًا﴾ هُوَ تَحْرِيمُ مَارِيَةَ، وَقَالَ لَهَا: لَا تُفْشِيهِ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ عَائِشَةُ ظَنًّا مِنْهَا أَنْ لَا حَرَجَ فِي ذَلِكَ ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ﴾ أَطْلَعَهُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عَلَى الْمُنْبَأِ بِهِ ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ﴾ لِحَفْصَةَ ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ تَكْرُمًا مِنْهُ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ﴾ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿أَي: اللَّهُ. ﴿إِنْ تَتُوبَا﴾ أَي: حَفْصَةُ وَعَائِشَةُ ﴿إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ مَالَتْ إِلَى تَحْرِيمِ مَارِيَةَ، أَي: سَرَّكُمَا ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَةِ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ وَذَلِكَ ذَنْبٌ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ، أَي: تُقْبَلَا، وَأُطْلَقَ «قُلُوبٌ» عَلَى

(١) فِي سَبَبِ نَزُولِهَا رَوَايَتَانِ هَذِهِ وَالرَّوَايَةُ الْأُخْرَى: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبِ ابْنَةِ جَحْشٍ، وَيَمْكُثُ عِنْدَهَا، فَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ عَنْ أَيْتَانَا دَخَلَ عَلَيْهَا فَلْتَقِلَ لَهُ: أَكَلْتُ مَغْفِيرٍ، إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغْفِيرٍ، قَالَ ﷺ: «لَا، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَشْرَبُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبِ ابْنَةِ جَحْشٍ، فَلَنْ أَعُودَ لَهُ، وَقَدْ حَلَفْتُ، لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٩١٢). وَالرَّوَايَةُ الْأُولَى أَشْهَرُ، وَعَلَيْهَا تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي فَهْمِ السُّورَةِ، وَقَدْ خَرَجَ الرَّوَايَةُ الثَّانِيَةُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ... وَإِنَّمَا وَقَعَ الْعِتَابُ عَلَى تَضْيِيقِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى نَفْسِهِ، وَامْتِنَاعِهِ مِمَّا كُنَ لَهُ فِيهِ أَرْبَ. [ابْنُ جُرَيْجٍ (٢/٣٨٩)]. وَالِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَمْ تُحَرِّمْ﴾ مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنَى النِّفْيِ، أَي: لَا يَوْجَدُ مَا يَدْعُو إِلَى أَنْ تَحْرِمَ عَلَى نَفْسِكَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا التَّزَمَ عَدَمَ الْعُودِ إِلَى مَا صَدَرَ مِنْهُ التَّزَامُ بِإِيمَانٍ أَوْ بِدُونِ إِيمَانٍ أَرَادَ الْإِمْتِنَاعَ مِنْهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَاصِدًا بِذَلِكَ تَطْمِينِ أَزْوَاجِهِ اللَّائِي تَمَالَأْنَ عَلَيْهِ لِفَرْطِ غَيْرَتِهِنَّ، أَي: لَيْسَتْ غَيْرَتُهُنَّ مِمَّا تَجِبُ مَرَاعَاتُهُ فِي الْمَعَاشِرَةِ إِنْ كَانَتْ فِيهَا لَا هُضْمَ فِيهِ لِحَقُوقِهِمْ... وَلَيْسَ مَعْنَى التَّحْرِيمِ هُنَا نِسْبَةُ الْفِعْلِ إِلَى كَوْنِهِ حَرَامًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الْأَعْرَافُ: ٣٢]، ... وَلَا يَخْطُرُ بِأَلِّ أَحَدٍ أَنْ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ أَنَّكَ غَيْرَتْ إِبَاحَتَهُ حَرَامًا عَلَى النَّاسِ أَوْ عَلَيْكَ. [ابْنُ عَاشُور (٢٨/٣٤٦)].

(٢) سورة المائدة الآية (٨٩).

قَلْبَيْنِ وَلَمْ يُعَبِّرْ بِهِ لَا سِتْقَالَ الْجَمْعِ بَيْنَ تَنْتِيهِنِ فِيمَا هُوَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ ﴿وَإِنْ تَظْهَرَا﴾ بِإِدْعَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِي الظَّاءِ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِدُونِهَا: تَتَعَاوَنَا ﴿عَلَيْهِ﴾ أَيِ: النَّبِيِّ فِيمَا يَكْرَهُهُ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ فَضْلٌ ^(١) ﴿مَوْلَاهُ﴾ نَاصِرُهُ ﴿وَجَبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ اسْمِ «إِنَّ» فَيَكُونُونَ نَاصِرِيهِ ﴿وَالْمَلَكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ بَعْدَ نَصْرِ اللَّهِ وَالْمَذْكُورِينَ ﴿ظَهِيرٌ﴾ ﴿ظَهَرَ﴾ أَغْوَانُ لَهُ فِي نَصْرِهِ عَلَيْهِمَا. ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ أَيِ: طَلَّقَ النَّبِيُّ أَزْوَاجَهُ ﴿أَنْ يُبَدِّلَهُ﴾ بِالشَّدِيدِ، وَالتَّخْفِيفِ ﴿أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ خَيْرٌ ﴿عَسَى﴾ وَالْجُمْلَةُ جَوَابُ الشَّرْطِ، وَلَمْ يَقَعْ التَّبْدِيلُ لِعَدَمِ وَقْعِ الشَّرْطِ ^(٢) ﴿مُسْلِمَتٍ﴾ مُقَرَّاتٍ بِالْإِسْلَامِ ﴿مُؤْمِنَتٍ﴾ مُخْلِصَاتٍ ﴿قَلَنْتِ﴾ مُطِيعَاتٍ ﴿تَتَبَتِ عِبْدَتِ سَبِيحَتِ﴾ صَائِمَاتٍ أَوْ مُهَاجِرَاتٍ ﴿تَتَبَتِ وَأُبْكَارًا﴾ يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوًا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ بِالْحَمْلِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ الْكُفَّارُ ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ كَأَصْنَافِهِمْ مِنْهَا، يَعْنِي: أَنَّهَا مُفْرِطَةُ الْحَرَارَةِ تَتَقَدُّ بِمَا ذَكَرَ، لَا كَنَارِ الدُّنْيَا تَتَقَدُّ بِالْحَطَبِ وَنَحْوِهِ ﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ﴾ خَزَنَتُهَا عِدَّتُهُمْ تِسْعَةَ عَشَرَ كَمَا سَيَأْتِي فِي «الْمُدَّثِّرِ» ^(٣) ﴿غَلَاظٌ﴾ مِنْ غِلَظِ الْقَلْبِ ﴿شِدَادٌ﴾ فِي الْبَطْشِ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ بَدَلُ مَنْ الْجَلَالَةِ، أَيِ: لَا يَعْصُونَ أَمْرَ اللَّهِ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ^(٤) تَاكِيدٌ، وَالْآيَةُ تَخْوِيفٌ لِلْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْإِرْتِدَادِ، وَلِلْمُنَافِقِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِسْتِغْنَاءِ دُونَ قُلُوبِهِمْ. ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ يُقَالُ لَهُمْ ذَلِكَ عِنْدَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، أَيِ: لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ^(٥) أَيِ: جَزَاءُهُ. ﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ بَفَتْحِ النَّوْنِ وَضَمِّهَا صَادِقَةً، بَأَنَّ لَا يُعَادُ إِلَى الذَّنْبِ وَلَا يُرَادُ الْعُودُ إِلَيْهِ ﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ تَرْجِيَةٌ تَقَعُ ﴿أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ بَسَاتِينَ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ﴾ بِإِدْخَالِ النَّارِ ﴿النَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أَمَامَهُمْ ^(٦) ﴿وَيَكُونُ﴾ بِأَيْمَنِهِمْ يَقُولُونَ مُسْتَأْنَفٌ: ﴿رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورُنَا﴾ إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْمُنَافِقُونَ يُطْفَأُ نُورُهُمْ ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾ رَبَّنَا ﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ^(٧) يَتَابِعُهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكُفَّارِ ﴿بِالسَّيْفِ﴾ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّةِ﴾ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ ﴿بِالْإِتِّهَارِ وَالْمَقْتِ

(١) أي: ضمير فصل.

(٢) الله تعالى كان عالماً أنه لا يطلقهن، ولكن أخبر عن قدرته أنه إن طلقهن أبدل خيراً منهن تخويفاً لهن، وهذا كقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ

قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. [الواحدى (٢٢/٢٠)].

(٣) سورة المدثر الآية (٣٠).

(٤) انظر التعليق على آية (١٢) من سورة الحديد.

﴿وَمَا لَهُمْ بِهِمْ وَيَبْسُ الْمُصِيرُ ۝﴾ هِيَ. ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أُمَرَاتُ نُوحٍ وَأُمَرَاتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا﴾ فِي الدِّينِ إِذْ كَفَرَتَا وَكَانَتْ امْرَأَةً نُوحٍ وَاسْمُهَا «وَاهِلَةُ» تَقُولُ لِقَوْمِهِ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ، وَامْرَأَةُ لُوطٍ وَاسْمُهَا «وَاعِلَةُ» تَدُلُّ قَوْمَهُ عَلَى أَضْيَافِهِ إِذَا نَزَلُوا بِهِ لَيْلًا بِإِيقَادِ النَّارِ وَنَهَارًا بِالتَّدْخِينِ ۝﴾ ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾ أَي: نُوحٌ وَلُوطٌ ﴿عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ ﴿شَيْئًا وَقِيلَ لَهُمَا: ﴿أَدْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝﴾﴾ مِنْ كُفَارِ قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ لُوطٍ. ﴿وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أُمَرَاتُ فِرْعَوْنَ﴾ آمَنَتْ بِمُوسَى وَاسْمُهَا «أَسِيَّةُ» فَعَذَّبَهَا فِرْعَوْنُ بِأَنْ أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرَجْلَيْهَا وَأَلْقَى عَلَى صَدْرِهَا رَحَى عَظِيمَةً وَاسْتَقْبَلَ بِهَا الشَّمْسُ، فَكَانَتْ إِذَا تَفَرَّقَ عَنْهَا مَنْ وَكَلَ بِهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَةُ ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ فِي حَالِ التَّعَذِيبِ ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فَكُشِفَ لَهَا فَرَأَتْهُ فَسَهَّلَ عَلَيْهَا التَّعَذِيبَ ۝﴾ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ وَتَعَذِّيبِهِ ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝﴾ أَهْلَ دِينِهِ فَقَبَضَ اللَّهُ رُوحَهَا، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: رُفِعَتْ إِلَى الْجَنَّةِ حَيَّةً فَهِيَ تَأْكُلُ وَتَشْرَبُ ۝﴾ ﴿وَمَرِيَمَ﴾ عَطْفٌ عَلَى امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ﴿أَبْنَتْ عِمْرَانَ﴾ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا حَفِظَتْهُ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أَي: جِبْرِيلُ حَيْثُ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا، بِخَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى فَعَلُهُ الْوَاصِلِ إِلَى فَرْجِهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى ۝﴾ ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ شَرَائِعِهِ ﴿وَكُتِبَ لَهُ﴾ الْمُنَزَّلَةُ ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَلِيلِينَ ۝﴾ مِنَ الْقَوْمِ الْمُطِيعِينَ.

(١) قال عكرمة والضحاك. بالكفر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت امرأة نوح تقول للناس إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وعنه: ما بغت امرأة نبي قط. وهذا إجماع من المفسرين فيما ذكر القشيري. إنما كانت خيانتهم في الدين وكانتا مشركتين. وقيل: كانتا منافقتين. وقيل: خيانتهم النيمة إذا أوحى الله إليهما شيئاً أفشاه إلى المشركين، قاله الضحاك. [القرطبي (١٨/ ٢٠٢)].

(٢) وصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرِيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَحَدِيدَةُ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الشَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». أخرجه البخاري (٥٤١٨) ومسلم (٢٤٣١). [السعدي (ص: ٨٧٤)].

(٣) وظاهره أنها رفعت بجسدها وهو لا يصح. [الآلوسي (١٤/ ٣٥٨)].

(٤) قال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها. وهي في قراءة أبي: «فنفخنا في جيبها من روحنا». وكل خرق في الثوب يسمى جيباً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها. [القرطبي (١٨/ ٢٠٤)]. وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافة مخلوق إلى خالقه، وفي ذلك تشريف له. [ابن جزي (٢/ ٣٩٣)].

سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَبَارَكَ﴾ تَنَزَّاهُ عَنْ صِفَاتِ الْمُحْدَثِينَ^(١) ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾ فِي تَصَرُّفِهِ^(٢) ﴿الْمُلْكُ﴾ السُّلْطَانُ وَالْقُدْرَةُ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ فِي الدُّنْيَا ﴿وَالْحَيَاةَ﴾ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ هُمَا فِي الدُّنْيَا، فَالْنُّطْفَةُ تَعْرِضُ لَهَا الْحَيَاةُ وَهِيَ مَا بِهِ الْإِحْسَاسُ، وَالْمَوْتُ ضِدُّهَا أَوْ عَدَمُهَا قَوْلَانِ، وَالْخَلْقُ عَلَى الثَّانِي بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ^(٤) ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لِيَخْتَبِرَكُمْ فِي الْحَيَاةِ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أَطْوَعُ لِلَّهِ^(٥) ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فِي انتِقَامِهِ مِمَّنْ عَصَاهُ ﴿الْغَفُورُ﴾^(٦) لِمَنْ تَابَ إِلَيْهِ.

(١) البركة نوعان: أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة. والمفعول منها: مبارك وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله تعالى. والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة والفعل، منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل ... فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعظم ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيما هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس. فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره وأين أحدهما من الآخر لفظا ومعنى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب مجد والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل وبارك من باب أعطى وأنعم، ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي ليشتمل المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها من قبله وهذا فرع على تبارك في نفسه. [بدائع الفوائد لابن القيم (٢/٦٨٢)].

(٢) أي: تعظم الذي بيده ملك الدنيا والآخرة، وسلطانهما، نافذ فيهما أمره وقضاؤه، وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز. [القاسمي (٩/٢٨٤)].

(٣) استدلل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فسمى الحال الأول وهو العدم موتا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾. [ابن كثير (٨/١٧٦)].

(٤) فيجازيكم على ذلك، وقيل: المعنى ليلوكم ربكم أيكم أكثر ذكرا للموت وأحسن استعدادا وأشد منه خوفا، وقيل: أيكم أحسن عقلا وأسرع إلى طاعة الله وأورع عن محارم الله؛ وقيل: أخلص عملا وأصوبه والخالص إذا كان لله والصواب إذا كان على السنة، وقيل: أزهد في الدنيا وأترك لها؛ والعموم أولى. قال الزجاج: اللام متعلقة بخلق الحياة لا بخلق الموت، وقال الفراء: إن قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لم يقع على «أي» لأن فيما بين البلوى و«أي» إضمار فعل، كما تقول: بلوكم لأنظر أيكم أطوع، ومثله ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي:

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنْ غَيْرِ مُمَاسَّةٍ ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ﴾ لَهْنٌ أَوْ لَغَيْرِ هُنَّ ﴿مِنْ تَقَوُّتٍ﴾ تَبَايُنٍ وَعَدَمُ تَنَاسُبٍ ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾ أَعِدْهُ إِلَى السَّمَاءِ ﴿هَلْ تَرَى﴾ فِيهَا ﴿مِنْ فُطُورٍ﴾ ٣ ﴿صُدُوعٍ وَشُقُوقٍ﴾. ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ كَرَّةً بَعْدَ كَرَّةٍ ﴿يَنْقَلِبُ﴾ يَرْجِعُ ﴿إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ ذَلِيلًا لِعَدَمِ إِدْرَاكِ حَلَلٍ ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ ٤ ﴿مُنْقَطِعٌ عَنْ رُؤْيَا خَلَلٍ﴾. ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ الْقُرْبَى إِلَى الْأَرْضِ ﴿بِمَصْبِيحٍ﴾ بِنُجُومٍ ٥ ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ مَرَاجِمَ ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ إِذَا اسْتَرْفَوْا السَّمْعَ بِأَنْ يَنْفَصَلَ شِهَابٌ عَنِ الْكَوْكَبِ كَالْقَبَسِ يُؤْخَذُ مِنَ النَّارِ فَيَقْتُلُ الْجَنِّيَّ أَوْ يَخْبِلُهُ، لَا أَنَّ الْكَوْكَبَ يَزُولُ عَنْ مَكَانِهِ ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ ٦ ﴿النَّارِ الْمُوقَدَةِ﴾. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ٦ هِيَ. ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ صَوْتًا مُنْكَرًا كَصَوْتِ الْحِمَارِ ٧ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ ٧ تَغْلِي. ﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ﴾ وَقُرِئَ: ﴿تَتَمَيِّزُ﴾ ٨ عَلَى الْأَصْلِ: تَتَقَطَّعُ

سَلَمُهُمْ ثُمَّ أَنْظَرَ أَيُّهُمْ؛ فـ «أَيُّكُمْ» فِي الْآيَةِ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ أَحْسَنُ، لِأَنَّ الاسْتِفْهَامَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ مَا قَبْلَهُ وَإِيرَادُ صِيغَةِ التَّفْضِيلِ مَعَ أَنَّ الْإِبْتِلَاءَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ أَعْمَالِهِمُ الْمُنْقَسِمَةِ إِلَى الْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ لَا إِلَى الْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ فَقَطْ لِلإِذْنِ أَنَّ الْمُرَادَ بِالذَّاتِ وَالْمَقْصِدُ الْأَصْلِي مِنَ الْإِبْتِلَاءِ هُوَ ظُهُورُ كَمَالِ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ. [صديق حسن (١٤/ ٢٣٠)].

(١) الْمَصَابِيحُ جَمْعُ مَصْبَاحٍ وَاسْمُ الْكَوَاكِبِ مَصَابِيحٌ لِأَنَّهَا تُضِيءُ كِإِضَاءَةِ السَّرَاجِ، فِيهِ الْكَلَامُ اسْتِعَارَةٌ تَصْرِيحِيَّةٌ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْمَصْبَاحِ كَمَا فِي الْمَخْتَارِ «السَّرَاجِ» ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ هَذِهِ فَائِدَةٌ أُخْرَى غَيْرُ الْفَائِدَةِ الْأُولَى وَهِيَ كَوْنُهَا زِينَةٌ لِلسَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَالْمَعْنَى أَنَّهَا تَرْجِمُ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ يَسْتَرْقُونَ السَّمْعَ،... وَجَمْعُ الْمَصْدَرِ بِاعْتِبَارِ أَنْوَاعِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ فِي جَعْلِنَاهَا إِلَى الْمَصَابِيحِ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ: جَعْلِنَاهَا شَهَبًا وَهِيَ نَارُهَا الْمُقْتَبَسَةُ مِنْهَا لَا هِيَ نَفْسُهَا لِقَوْلِهِ: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْحُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ﴾ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿[الصفات: ١٠] وَوَجْهٌ هَذَا أَنَّ الْمَصَابِيحَ الَّتِي زَيْنَ اللَّهُ بِهَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا لَا تَزُولُ عَنْ مَكَانِهَا وَلَا يَرْجُمُ بِهَا بَلْ يَنْفَصِلُ شِهَابٌ عَنِ الْكَوْكَبِ فَيَقْتُلُ الْجَنِّيَّ أَوْ يَخْبِلُهُ. كَذَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ جَوَابًا لِمَنْ سَأَلَهُ كَيْفَ تَكُونُ الْمَصَابِيحُ زِينَةً وَهِيَ رُجُومٌ؟ قَالَ الْقَشِيرِيُّ: وَأَمَثَلُ مَنْ قَوْلُهُ هَذَا أَنَّ نَقُولَ هِيَ زِينَةٌ قَبْلَ أَنْ تَرْجُمَ بِهَا الشَّيَاطِينُ. قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللَّهُ النُّجُومَ لثَلَاثَ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يَهْتَدِي بِهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِيهَا بِغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهَا لَا يَعْلَمُ وَتَعْدَى وَظَلَمَ. [صديق حسن (١٤/ ٢٣٣)].

(٢) الشَّهِيقُ: تَرَدُّدُ الْأَنْفَاسِ فِي الصَّدْرِ لَا تَسْتَطِيعُ الصُّعُودَ لِبُكَاءٍ وَنَحْوِهِ أَطْلُقَ عَلَى صَوْتِ التَّهَابِ نَارِ جَهَنَّمَ الشَّهِيقَ تَفْظِيْعَالَهُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ يَقْتَضِي أَنَّ الشَّهِيقَ شَهِيْقُهَا؛ لِأَنَّ أَصْلَ اللَّامِ أَنْ تَكُونَ لَشَبِّهِ الْمَلِكِ. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٣)]. [وقيل: لِأَنَّهَا مِمَّنْ تَقْدُمُ طَرَحَهُمْ فِيهَا... فَإِنَّهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا بِأَصْوَاتِ الْحَيَوَانَاتِ الْمُنْكَرَةِ الصَّوْتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ﴾ [هود: ١٠٦]. [القاسمي (٩/ ٢٨٩)].

(٣) قِرَاءَةُ شَاذَةٍ.

﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ غَضَبًا عَلَى الْكَافِرِ^(١) ﴿كَلَّمَ الْأَلْفَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ جَمَاعَةً مِنْهُمْ ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾^(٨) رَسُولٌ يُنذِرُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ﴾ مَا ﴿أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾^(٩) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ لِلْكَفَّارِ حِينَ أُخْبِرُوا بِالتَّكْذِيبِ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْكَفَّارِ لِلنَّذْرِ^(١٠). ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ أَي: سَمَاعُ تَفَهُمٍ ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ أَي: عَقْلُ تَفَكُّرٍ ﴿مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١١) فَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الْإِعْتِرَافُ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وَهُوَ تَكْذِيبُ النَّذْرِ ﴿فَسُحْقًا﴾ بِسُكُونِ الْحَاءِ وَضَمِّهَا ﴿لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٢) فَبَعْدًا لَهُمْ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ يَخَافُونَهُ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ فِي غَيْبَتِهِمْ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ فَيُطِيعُونَهُ سِرًّا فَيَكُونُ عَلَانِيَةً أَوْلَىٰ^(١٣) ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١٤) أَي: الْجَنَّةُ. ﴿وَأَسِرُّوا﴾ أَيُّهَا النَّاسُ ﴿قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١٥) بِمَا فِيهَا فَكَيْفَ بِمَا نَطَقْتُمْ بِهِ، وَسَبَبُ نَزُولِ ذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَسِرُّوا قَوْلَكُمْ لَا يَسْمَعَكُمْ إِلَهٌ مُحَمَّدٌ». ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مَا تُسِرُّونَ، أَي: أَيْتَنَّفِي عِلْمُهُ بِذَلِكَ^(١٦) ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ فِي عِلْمِهِ ﴿الْخَبِيرُ﴾^(١٧) فِيهِ، لَا. ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا﴾ سَهْلَةً لِلْمَشْيِ فِيهَا ﴿فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ جَوَانِبِهَا ﴿وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ الْمَخْلُوقُ لِأَجْلِكُمْ ﴿وَالْيَهُ النُّشُورُ﴾^(١٨) مِنَ الْقُبُورِ لِلْجَزَاءِ. ﴿ءَأَمِنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمَزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْأُخْرَى وَتَرْكِهِ

(١) الغيظ أشد الغضب. وقوله: ﴿تَكَاذُؤٌ مِّنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٨] ... مثلت حالة فورانها وتصاعد ألسنة لهيبها ورطمها ما فيها والتهام من يلقون إليها، بحال مغتاض شديد الغيظ لا يترك شيئاً مما غاظه إلا سلط عليه ما يستطيع من الأضرار. [ابن عاشور (٢٩/٢٤)].

(٢) أي: في ذهاب عن الحق وبعد عن الصواب، وخطأ عظيم لا يقادر قدره. وهذا يحتمل أن يكون من كلام الكفار للنذر، وأن يكون من كلام الخزنة للكفار على إرادة القول، ومرادهم بالضلال الهلاك أو سمووا جزاء الضلال باسمه كما يسمى جزاء السيئة والاعتداء سيئة، وهذا يسمى المشاكلة في علم البيان، وأن يكون من كلام الرسل للكفرة وقد حكوه للخزنة، والاحتمال الأول هو الذي استظهره جمهور المفسرين. [صديق حسن (١٤/٢٣٦)].

(٣) يحتمل معنيين: أحدهما: بالغيب الذي أخبروا به من الحشر والصراط والميزان والجنة والنار، فأمنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحنا إلى هذا قتادة. والمعنى الثاني: أنهم يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ... فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعباداتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأول مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أخرى أن يفعلوها علانية. [ابن عطية (٥/٣٤٠)].

(٤) ألا يعلم ما في الصدور من خلقها. وقيل: ﴿مَنْ﴾ يرجع إلى المخلوق، أي: ألا يعلم الله مخلوقه؟ [البغوي (٨/١٧٨)].

وَابْدَأَهَا أَلْفًا ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ سُلْطَانَهُ وَقُدْرَتَهُ ^(١) ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ ﴿بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾
 ﴿١٦﴾ ﴿تَتَحَرَّكُ بِكُمْ وَتَرْتَفِعُ فَوْقَكُمْ﴾. ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ ﴿عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾
 رِيحًا تَرْمِيكُمْ بِالْحَصْبَاءِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ مُعَايِنَةِ الْعَذَابِ ﴿كَيْفَ نَذِيرٍ﴾ ^(١٧) ﴿إِنْذَارِي بِالْعَذَابِ، أَيُّ: أَنَّهُ حَقٌّ.
 وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ مِنْ الْأُمَمِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ﴾ ^(١٨) ﴿إِنْكَارِي عَلَيْهِمْ بِالْكَذِبِ عِنْدَ إِهْلَاكِهِمْ،
 أَيُّ: أَنَّهُ حَقٌّ. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يَنْظُرُوا ﴿إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ﴾ فِي الْهَوَاءِ ﴿صَفَّتْ﴾ بِأَسْطَاتٍ أَجْنَحَتْهُمْ ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾
 أَجْنَحَتْهُمْ بَعْدَ الْبَسْطِ، أَيُّ: وَقَابِضَاتٍ ^(١٩) ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ عَنِ الْوُقُوعِ فِي حَالِ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ ﴿إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾
 بِقُدْرَتِهِ ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ ^(٢٠) ﴿الْمَعْنَى: أَلَمْ يَسْتَدِلُّوا بِثُبُوتِ الطَّيْرِ فِي الْهَوَاءِ عَلَى قُدْرَتِنَا أَنْ نَفْعَلَ بِهِمْ مَا تَقَدَّمَ
 وَغَيْرُهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾. ﴿أَمْنٌ﴾ مُبْتَدَأٌ ﴿هَذَا﴾ خَبَرُهُ ﴿الَّذِي﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿هَذَا﴾ ﴿هُوَ جُنْدٌ﴾ أَعْوَانٌ ﴿لَكُمْ﴾ صَلَةُ
 ﴿الَّذِي﴾ ﴿يَنْصُرُكُمْ﴾ صِفَةُ ﴿جُنْدٍ﴾ ﴿مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ أَيُّ: غَيْرُهُ يَدْفَعُ عَنْكُمْ عَذَابَهُ، أَيُّ: لَا نَاصِرَ لَكُمْ ﴿إِنْ﴾

(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي: عذاب من في السماء إن عصيته. [البغوي (١٧٨/٨)]. وهو الله. [الطبري (١٢٩/٢٣)]. قال عليه السلام: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً». أخرجه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤). وقوله عليه السلام: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ». أخرجه الترمذي (١٩٢٤). وحديث الجارية قال لها عليها السلام: «أَتَيْنَ اللَّهُ؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟» قالت: أنت رسول الله، قال: «اعْتَقِهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ». أخرجه مسلم (٥٣٧).

(٢) أي: تضطرب وتتحرك بكم على خلاف ما كانت عليه من السكون والاطمئنان، وقيل: تهوي بهم، وقيل: تجيء وتذهب، والأول أولى. [صديق حسن (٢٤٠/١٤)].

(٣) تنبيه على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها، وصفات جمع صاففة وهي التي تبسط جناحها للطيران، والقبض: ضم الجناحين إلى الجنب وعطف يقبض على صافات، لأن الفعل في معنى الاسم تقديره: قابضات. فإن قيل: لِمَ لم يقل قابضات على طريقة صافات؟ فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذكر بصيغة اسم الفاعل لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطائر قليلاً للاستراحة والاستعانة، فذكر بلفظ الفعل لقلته. [ابن جزي (٣٩٦/٢)].

(٤) وفي هذا إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهوي المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبل هؤلاء فلو لم يشركوا به ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطير من الهوي. ومعنى إمساك الله إياها: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وهي ريشات عشر هي مقادير ريش الجناح، وفي الخوافي وهي ما دونها من الجناح إلى منتهى ريشه، وما خلقه من شكل أجسادها المعين على نفوذها في الهواء؛ فإن ذلك كله بخلق الله إياها مانعا لها من السقوط. [ابن عاشور (٣٩/٢٩)].

مَا ﴿الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ ١٠ ﴿عَرَّهْمُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ الْعَذَابَ لَا يَنْزِلُ بِهِمْ.﴾ ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾
 الرَّحْمَنُ ﴿رِزْقَهُ﴾ أَي: الْمَطَرُ عَنْكُمْ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ، أَي: فَمَنْ يَرْزُقُكُمْ، أَي: لَا رَازِقَ
 لَكُمْ غَيْرُهُ ١١ ﴿بَلْ لَجُّوا﴾ تَمَادَوْا ﴿فِي عُتُوٍّ﴾ تَكَبَّرَ ﴿وَنُفُورٍ﴾ ١٢ تَبَاعَدَ عَنِ الْحَقِّ. ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا﴾ وَاقِعًا ﴿عَلَىٰ
 وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ مُعْتَدِلًا ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ﴾ طَرِيقٍ ﴿مُسْتَقِيمٍ﴾ ١٣ وَخَبَرٌ «مَنْ» الثَّانِيَةِ مَحذُوفٌ دَلَّ
 عَلَيْهِ خَبَرُ الْأُولَى، أَي: أَهْدَى، وَالْمَثَلُ فِي الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ابْتِهَامًا عَلَى هُدَى ١٤. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ
 ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ الْقُلُوبَ ﴿فَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ ١٥ ﴿مَا﴾ مَزِيدَةٌ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ
 مُخْبِرَةٌ بِقَلَّةِ شُكْرِهِمْ جِدًّا عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ. ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ١٦
 لِلْحِسَابِ. ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ وَعَدُ الْحَشْرِ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ١٧ فِيهِ. ﴿قُلْ إِنَّمَا
 أَعْلَمُ﴾ بِمَجِيئِهِ ﴿عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ١٨ بَيْنَ الْإِنذَارِ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أَي: الْعَذَابَ بَعْدَ الْحَشْرِ ﴿زُلْفَةً﴾
 قَرِيبًا ﴿سَيِّئٌ﴾ اسْوَدَّتْ ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ﴾ أَي: قَالَ الْخَزَنَةُ لَهُمْ: ﴿هَذَا﴾ أَي: الْعَذَابُ ﴿الَّذِي كُنْتُمْ
 بِهِ﴾ بِإِنذَارِهِ ﴿تَدْعُونَ﴾ ١٩ أَنْكُمْ لَا تَبْعَثُونَ، وَهَذِهِ حِكَايَةُ حَالٍ تَأْتِي، عَبَّرَ عَنْهَا بِطَرِيقِ الْمُضِيِّ لِتَحَقُّقِ وَقُوعِهَا. ﴿قُلْ

(١) أي: من الذي يدر عليكم الرزق من المطر وغيره. [صديق حسن (١٤/ ٢٤٣)]. الجواب: لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا الله.
 وقد صرح تعالى بهذا السؤال وجوابه في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾ [سبا: ٢٤]. أي: لا أحد سواه
 سبحانه لا إله إلا هو، قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]...
 وفيه رد على أولئك الذين يطلبون عند غيره الرزق، كما في قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]. وقد جمع الأمرين توبيخهم وتوجيههم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ
 إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:
 ١٧]. [عطية سالم (٨/ ٢٤٢)].

(٢) هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي:
 لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا﴾ أي: متصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي:
 على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة. هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة. فالْمُؤْمِنُ يحشر يمشي سوبا على
 صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم. [ابن كثير (٨/ ١٨١)]. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ
 يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]، عن أنس رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: «الَّذِينَ لَا
 أَمْشَاهُمْ عَلَىٰ أَرْجُلِهِمْ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُمْ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ». أخرجه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦).

أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ ﴿٢٨﴾ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِعَذَابِهِ كَمَا تُقْصِدُونَ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فَلَمْ يُعَذِّبْنَا ﴿فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٩﴾ أَيُّ: لَا مُجِيرَ لَهُمْ مِنْهُ^(١). ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ﴾ بِالتَّائِ وَالْيَاءِ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الْعَذَابِ ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ بَيْنَ أَنْحُنْ أَمْ أَنْتُمْ أَمْ هُمْ. ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غَائِرًا فِي الْأَرْضِ ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ ﴿٣١﴾ جَارٍ تَنَالُهُ الْأَيْدِي وَالِدَّلَاءُ كَمَا تَكُونُ، أَيُّ: لَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى فَكَيْفَ تُنْكِرُونَ أَنْ يَبْعَثَكُمْ، وَيُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ الْقَارِئُ عَقِبَ مَعِينٍ: «اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ^(٢)، وَتَلَيْتَ هَذِهِ آيَةَ عِنْدَ بَعْضِ الْمُتَجَبِّرِينَ، فَقَالَ: تَأْتِي بِهِ الْفُؤُوسُ وَالْمَعَاوِلُ، فَذَهَبَ مَاءُ عَيْنِهِ وَعَمِيَ، نَعُودُ بِاللَّهِ مِنَ الْجَرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى آيَاتِهِ.

(١) لما كان المكذبون للرسول ﷺ، الذين يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول لهم: أنتم وإن حصلت لكم أمانيتكم وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟ فإذا، تعبكم وحرصكم على هلاك غير مفيدة، ولا مجد لكم شيئاً. [السعدي (ص: ٨٧٨)]. والمعنى إنا مع إيماننا بين الخوف والرجاء. فمن يجيركم مع كفركم من العذاب، ووضع الظاهر موضع المضمرة للتسجيل عليهم بالكفر وبيان أنه السبب في عدم نجاتهم. وتعليل نفي الإجارة به. [صديق حسن (١٤/٢٤٨)].

(٢) لم نقف على هذا الحديث، وقد استحسنت هذا القول الشريفي في مغني المحتاج، قال رحمه الله: ويسن للقارئ في الصلاة وخارجها إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله الرحمة، أو بآية عذاب أن يستعيد منه، أو بآية تسيح أن يسبح، أو بآية مثل أن يتفكر، وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، قال: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين. وإذا قرأ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥] قال: آمنت بالله. وإذا قرأ: ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] قال: الله رب العالمين. [مغني المحتاج (١/٣٩٠)]. وذكر مثله الرملي في نهاية المحتاج، وابن حجر الهيتمي في تحفة المحتاج ولعل حجتهم في ذلك، حديث حذيفة رضي الله عنه قال: صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيمِ»، وَفِي سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى»، قَالَ: وَمَا مَرَّ بآيَةِ رَحْمَةٍ إِلَّا وَقَفَ عِنْدَهَا فَسَأَلَ، وَلَا آيَةَ عَذَابٍ إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْهَا. أخرجه مسلم (٧٧٢).

سُورَةُ الْقَلَمِ
مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿نَّ﴾ أَحَدُ حُرُوفِ الْهِجَاءِ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمُرَادِهِ بِهِ^(١) ﴿وَالْقَلَمِ﴾ الَّذِي كُتِبَ بِهِ الْكَاتِبَاتِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(٢) ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٣) أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّالِحِ. ﴿مَا أَنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾^(٤) أَيُّ: انْتَفَى الْجُنُونُ عَنْكَ بِسَبَبِ إِنْعَامِ رَبِّكَ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا، وَهَذَا رَدُّ لِقَوْلِهِمْ: إِنَّهُ مَجْنُونٌ^(٥). ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾^(٦) مَقْطُوعٌ. ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ دِينٍ﴾^(٧) عَظِيمٍ^(٨) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ^(٩) بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ^(١٠) مَصْدَرٌ كَالْمَعْقُولِ، أَيُّ: الْمَفْتُونُ بِمَعْنَى الْجُنُونِ، أَيُّ: أَبَاكَ أَمْ بِهِمْ^(١١). ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ

(١) انظر التعليق على تفسير الآية (١) من سورة البقرة.

(٢) الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به كقوله: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ^(٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ^(٥) [العلق: ٥-٣]. فهو قسم منه تعالى، وتنبه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: يعني: وما يكتبون. [ابن كثير (٨/ ١٨٧)].

(٣) هذا جواب القسم وهو نفي، وكان المشركون يقولون للنبي ﷺ إنه مجنون، به شيطان. وهو قولهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] فأنزل الله تعالى ردا عليهم وتكذيبا لقولهم ما أنت بنعمة ربك بمجنون، أي: برحمة ربك. والنعمة ها هنا الرحمة. ويحتمل ثانيا: أن النعمة ها هنا قسم، وتقديره: ما أنت ونعمة ربك بمجنون، لأن الواو والباء من حروف القسم. وقيل: هو كما تقول: ما أنت بمجنون، والحمد لله. وقيل: معناه ما أنت بمجنون، والنعمة لربك، كقولهم: سبحانهك اللهم وبحمدك، أي: والحمد لله. [القرطبي (١٨/ ٢٢٥)].

(٤) عن جبير بن نفير قال: حجبت فدخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن. أخرجه أحمد (٢٥٨١٣). ... ومعنى هذا أنه عليه السلام صار امتثال القرآن أمرا ونهيا سجية له وخلقاً تطبعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه. هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ». أخرجه أحمد (٨٩٥٢). [ابن كثير (٨/ ١٨٩)].

(٥) قيل معناه: بأيكم المجنون، فـ «المفتون» مفعول بمعنى المصدر، كما يقال: ما بفلان مجلود ومعقول، أي: جلادة وعقل. وهذا معنى قول الضحاك ورواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: الباء بمعنى «في» مجازة: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ في أي الفريقين المجنون في فريقك أم في فريقهم؟ وقيل: الباء بمعنى «مع» و«المفتون» هو الشيطان. والمعنى: مع أيكم الشيطان مع المؤمنين أم مع الكافرين؟ وهذا معنى قول مجاهد. وقال الآخرون: زائدة، معناه: أيكم المفتون؟ أي: المجنون الذي فتن بالجنون، وهذا قول قتادة. [البغوي (٨/ ١٩١)].

بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ لَهُ، وَأَعْلَمُ بِمَعْنَى: عَالِمٌ. ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوْا﴾ تَمَنَّوْا ﴿لَوْ﴾ مَصْدَرِيَّةٌ ﴿تُذْهِنُ﴾ تَلِينُ لَهُمْ ﴿فَيُذْهِنُونُ ﴿٩﴾﴾ يَلِينُونَ لَكَ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿تُذْهِنُ﴾، وَإِنْ جُعِلَ جَوَابُ التَّمَنِّي الْمَفْهُومِ مِنْ ﴿وَدُّوْا﴾ قُدِّرَ قَبْلَهُ بَعْدَ الْفَاءِ «هُمْ»^(١). ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كَثِيرِ الْحَلْفِ بِالْبَاطِلِ ﴿مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ حَقِيرٍ. ﴿هَمَّازٍ﴾ عِيَابٍ، أَيُّ: مُغْتَابٍ ﴿مَشَآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ سَاعٍ بِالْكَلامِ بَيْنَ النَّاسِ عَلَى وَجْهِ الْإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ. ﴿مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ بَخِيلٍ بِالْمَالِ عَنْ الْحَقُوقِ ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظَالِمٍ ﴿أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾ أَثِمٌ. ﴿عُتْلٍ﴾ غَلِيظٍ جَافٍ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ دَعِيٌّ^(٢) فِي قُرَيْشٍ وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ ادَّعَاهُ أَبُوهُ بَعْدَ ثَمَانِي عَشْرَةِ سَنَةٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ وَصَفَ أَحَدًا بِمَا وَصَفَهُ بِهِ مِنَ الْعُيُوبِ فَالْحَقَّ بِهِ عَارًا لَا يُفَارِقُهُ أَبَدًا، وَتَعَلَّقَ بِـ ﴿زَنِيمٍ﴾ الظَّرْفُ قَبْلَهُ. ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ أَيُّ: لَأَنْ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا﴾ الْفُرْآنُ ﴿قَالَ﴾ هِيَ ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ أَيُّ: كَذَبَ بِهَا، لِإِنْعَامِنَا عَلَيْهِ بِمَا ذَكَرَ، وَفِي قِرَاءَةٍ ﴿ءَانُ﴾ بِهِمْزَتَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ. ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرُطُومِ ﴿١٦﴾﴾ سَنَجْعَلُ عَلَى أَنْفِهِ عِلَامَةً يُعَيَّرُ بِهَا مَا عَاشَ، فَخُطِمَ أَنْفُهُ بِالسَّيْفِ يَوْمَ بَدْرٍ^(٣). ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾ اِمْتَحَنَّا أَهْلَ مَكَّةَ بِالْفَقْهِ وَالْجُوعِ. ﴿كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الْبُسْتَانَ ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ يَقْطَعُونَ ثَمَرَتَهَا ﴿مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾ وَقَتِ الصَّبَاحِ كَيْ لَا يَشْعُرَ بِهِمْ الْمَسَاكِينُ، فَلَا يُعْطُونَهُمْ مِنْهَا مَا كَانَ أَبُوهُمْ يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْهَا. ﴿وَلَا يَسْتَشْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ يَمِينُهُمْ بِمَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى^(٤)،

(١) المداهنة هي الملاينة والمدارة فيما لا ينبغي، ورُوي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت الآية ولم يتصب فيدهنون في جواب التمني؛ بل رفعه بالعطف على تذهن قاله ابن عطية، وقال الزمخشري: هو خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم يدهنون. [ابن جزي (٢/٣٩٩)].
(٢) أي: هو بعد ما عد من معاييه ومثالبه الثمانية دعِيٌّ ملصق مستلحق بالقوم، وليس هو منهم، مأخوذ من الزنمة المتدلّية في حلق الشاة أو الماعز، وقال سعيد بن جبير: الزنيم المعروف بالشر، وقيل: هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة. وقيل: هو الظلوم. وهذه البعدية في الرتبة لا في الخارج، قال الشهاب فبعد هنا كـ «ثم» للتراخي في الرتبة قال أبو السعود وفيه دلالة على أن دعوته أشد معاييه وأقبح قبائحها؛ وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في الأخنس بن شريق لأنه حليف ملحق في بني زهرة؛ وقيل: في الوليد بن المغيرة وبه قال الجمهور، وقيل: في أبي جهل بن هشام، وقيل: في الأسود ابن عبد يغوث، قاله ابن عباس. [صديق حسن (١٤/٢٦١)].

(٣) أصل الخرطوم: أنف السبع ثم استعير للإنسان استخفافاً به، وتقبيحاً له، والمعنى: نجعل له سمة، وهي العلامة على خرطومه، واختلف في هذه السمة قيل: هي الضربة بالسيف يوم بدر، وقيل: علامة من نار تجعل على أنفه في جهنم. وقيل: علامة تجعل على أنفه يوم القيامة ليعرف بها. [ابن جزي (٢/٤٠٠)].

(٤) في معناه ثلاثة أقوال: أحدها لم يقولوا إن شاء الله حين حلفوا ليصر منها، والآخر: لا يستشنون شيئاً من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم، والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا يتبهون عنه، أي: لا يرجعون عنه. [ابن جزي (٢/٤٠٠)].

وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، أَي: وَشَأْنُهُمْ ذَلِكَ. ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَافٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ نَارٌ أَحْرَقَتْهَا لَيْلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٩)
 فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) كَاللَّيْلِ الشَّدِيدِ الظُّلُمَةِ، أَي: سَوْدَاءَ (١). ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ (٢١) أَنْ أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ
 غَلَّتْكُمْ تَفْسِيرٌ لِلتَّنَادِي، أَوْ ﴿أَنْ﴾ مَّصْدَرِيَّةٌ، أَي: بِأَنْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِمِينَ﴾ (٢٢) مُرِيدِينَ الْقَطْعَ، وَجَوَابُ الشَّرْطِ دَلَّ
 عَلَيْهِ مَا قَبْلَهُ ﴿فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ﴾ (٢٣) يَتَسَارُونَ ﴿أَنْ لَا يَدْخُلْنَهَا أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِّسْكِينَ﴾ (٢٤) تَفْسِيرٌ لِّمَا
 قَبْلَهُ، أَوْ ﴿أَنْ﴾ مَّصْدَرِيَّةٌ، أَي: بِأَنْ ﴿وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ﴾ مَنَعَ لِلْفُقَرَاءِ (٢) ﴿قَدِيرِينَ﴾ (٢٥) عَلَيْهِ فِي ظَنِّهِمْ. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾
 سَوْدَاءٌ مُحْتَرِقَةٌ ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ﴾ (٢٦) عَنْهَا، أَي: لَيْسَتْ هَذِهِ، ثُمَّ قَالُوا لَمَّا عَلِمُوها: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ (٢٧)
 ثَمَرُهَا، بِمَنَعِنَا الْفُقَرَاءَ مِنْهَا. ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ خَيْرِهِمْ: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ لَوْلَا﴾ هَلَا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ (٢٨) اللَّهَ تَائِسِينَ ﴿قَالُوا
 سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٢٩) بِمَنَعِنَا الْفُقَرَاءَ حَقَّهُمْ. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ﴾ (٣٠) قَالُوا يَبْ لِلتَّبِيهِ
 ﴿وَيْلَنَا﴾ هَلَاكُنَا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (٣١) عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَنَا بِالْشَّدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ ﴿خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾
 (٣٢) لِيَقْبَلَ تَوْبَتَنَا وَيُرِدَّ عَلَيْنَا خَيْرًا مِنْ جَنَّتِنَا، رُوِيَ أَنَّهُمْ أُبْدِلُوا خَيْرًا مِنْهَا. ﴿كَذَلِكَ﴾ أَي: مِثْلُ الْعَذَابِ لَهُؤُلَاءِ
 ﴿الْعَذَابُ﴾ لِمَنْ خَالَفَ أَمْرَنَا مِنْ كُفَّارٍ مَكَّةَ وَغَيْرِهِمْ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) عَذَابُهَا مَا
 خَالَفُوا أَمْرَنَا. وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا: ﴿إِنْ بُعِثْنَا نُعْطَى أَفْضَلَ مِنْكُمْ﴾: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ التَّعِيمِ﴾ (٣٤) أَفْجَعَلُ
 الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) أَي: تَابِعِينَ لَهُمْ فِي الْعَطَاءِ. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (٣٦) هَذَا الْحُكْمَ الْفَاسِدَ.
 ﴿أَمْ﴾ أَي: بَلْ أَمْ ﴿لَكُمْ كِتَابٌ﴾ مُتْرَلٌ ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) أَي: تَقْرَأُونَ. ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ (٣٨)

(١) فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، أَي: صَارَتْ كَالشَّيْءِ الَّذِي صرمت ثماره، أَي: قُطِعَتْ. وقال الفراء: كالصريم كالليل المظلم، والمعنى: أنها
 حُرقت فصارت كالليل الأسود، قال: والصريم الرماد الأسود بلغة خزيمية، وقال الأخفش: أي كالصبح الصريم من الليل يعني أنها ليست
 وابتضت بلا شجر، وقال المبرد: الصريم الليل والصريم النهار، أي: ينصرم هذا عن هذا وذاك عن هذا، وقيل: سمي الليل صريماً لأنه
 يقطع بظلمته عن التصرف، وقال المؤرج: الصريم الرملة لأنها لا يثبت عليها شيء يتنفع به، وقال الحسن: صرم منها الخير، أي: قطع.
 [صديق حسن (١٤/٢٦٥)].

(٢) الحرد يكون بمعنى المنع والغضب والقصد، قال قتادة ومقاتل والكلبي والحسن ومجاهد: الحرد هنا بمعنى القصد لأن القاصد إلى
 الشيء حارد... وقال أبو عبيدة والمبرد والقتبي: ﴿عَلَى حَرْدٍ﴾ على منع، من قولهم: حردت الإبل حرداً إذا قلت ألبانها. وقال السدي
 وسفيان والشعبي: على غضب، وعن قتادة ومجاهد أيضاً: على حسد، وقال الحسن أيضاً: على حاجة وفاقه، وقيل: على انفراد، وبه قال
 الأصمعي وغيره. وقد فسر الآية الكريمة بجميع ما ذكرت. [صديق حسن (١٤/٢٦٦)].

تَخْتَارُونَ. ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَنْ﴾ عُهُودٌ ﴿عَلَيْنَا بَلِغَةٌ﴾ وَثِيقَةٌ ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ مُتَعَلِّقٌ مَعْنَى بِـ ﴿عَلَيْنَا﴾ وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مَعْنَى الْقَسَمِ، أَيْ: أَقْسَمْنَا لَكُمْ، وَجَوَابُهُ ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ بِهِ لَانْفُسَكُمْ. ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ﴾ الْحُكْمِ الَّذِي يَحْكُمُونَ بِهِ لَانْفُسِهِمْ، مِنْ أَنَّهُمْ يُعْطُونَ فِي الْآخِرَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿زَعِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾ كَفِيلٌ لَهُمْ. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ مُوَافِقُونَ لَهُمْ فِي هَذَا الْمَقُولِ، يَكْفُلُونَ لَهُمْ بِهِ، فَإِنْ كَانَ كَذَلِكَ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ الْكَافِلِينَ لَهُمْ بِهِ ﴿إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ ﴿٤١﴾. أَذْكَرُ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ شِدَّةِ الْأَمْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، يُقَالُ: كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقٍ إِذَا اشْتَدَّ الْأَمْرُ فِيهَا^(١) ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ امْتِحَانًا لِإِيمَانِهِمْ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ تَصِيرُ ظُهُورُهُمْ طَبَقًا وَاحِدًا. ﴿خَشِيعَةً﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرٍ ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾، أَيْ: ذَلِيلَةً ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ لَا يَرَفَعُونَهَا ﴿تَرَهَّقُهُمْ﴾ تَغْشَاهُمْ ﴿ذَلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ فَلَا يَأْتُونَ بِهِ بِأَلَّا يُصَلُّوا. ﴿فَذَرْنِي﴾ دَعْنِي ﴿وَمَنْ يُكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الْقُرْآنِ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ نَأْخُذُهُمْ قَلِيلًا قَلِيلًا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴿أَمْهَلُهُمْ﴾ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٤﴾ شَدِيدٌ لَا يُطَاقُ. ﴿أَمْ﴾ بَلْ أ ﴿تَسْأَلُهُمْ﴾ عَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها... إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ فروي عن ابن عباس وطائفة أن المراد به: الشدة، أن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات؛ للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين، ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات، فإنه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾ نكرة في الإثبات لم يضيفها إلى الله، ولم يقل: عن ساقه، فمع عدم التعريف بالإضافة، لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر، ومثل هذا ليس بتأويل، إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها ومعناها المعروف. [مجموع الفتاوى (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥)]. وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: يحتمل أن يراد بذلك ساق الله، ويحتمل أن يراد بالساق الشدة، وقد قال السلف بهذين القولين. [شرح العقيدة السفارينية (١/ ٢٦٢)]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُكْشَفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ لَيْسَ سَجْدُ فِعْوَ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا». ورد هذا الحديث من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، واختلف أصحاب زيد بن أسلم في رواية كلمة «الساق»، فرواه عنه سعيد بن أبي هلال بلفظ: «ساقه»، ورواه عنه حفص بن ميسرة، وعبد الرحمن بن إسحاق، وهشام بن سعد، وخارجة بن مصعب الضبعي بلفظ: «ساق»، ورواية سعيد بن أبي هلال في صحيح البخاري (٤٩١٩)، ورواية حفص بن ميسرة في صحيح مسلم (١٨٣)، ورواية عبد الرحمن بن إسحاق في مسند أحمد (١١١٢٧)، ورواية هشام بن سعد في المستدرک للحاكم (٨٧٣٦)، ورواية خارجة بن مصعب الضبعي في مسند الطيالسي (٢٢٩٣)، فأكثر الرواة رَوَوْا هذا الحديث بلفظ: «ساق»، فهي الأصح كما قال الإسماعيلي والألباني؛ [ينظر: فتح الباري لابن حجر (٨/ ٦٦٤)، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٢/ ١٢٧، ١٢٨)].

﴿أَجْرًا فَهُمْ مِّنْ مَّعْرَمٍ﴾ مِمَّا يُعْطُونَكَ ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ٤٦ ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ لِدَلِيلِكَ﴾ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ أَلَلَّوْحُ الْمَحْفُوظُ الَّذِي فِيهِ الْغَيْبُ ﴿فَهُمْ يَكْتُوبُونَ﴾ ٤٧ ﴿مِنْهُ مَا يَقُولُونَ﴾ ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ فِي الصَّخْرِ وَالْعَجَلَةِ وَهُوَ يُنْسِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ٤٨ ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دَعَا رَبَّهُ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ٤٩ ﴿مَمْلُوءٌ غَمًّا فِي بَطْنِ الْحُوتِ﴾ ﴿لَوْلَا أَن تَدْرَكَهُ﴾ أَدْرَكَهُ ﴿نِعْمَةٌ﴾ رَحْمَةٌ ﴿مِّنْ رَبِّهِ لَنُبَذَ﴾ مِنْ بَطْنِ الْحُوتِ ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ بِالْأَرْضِ الْفَضَاءِ ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ٥٠ لَكِنَّهُ رَحِمَ فَنَبَذَ غَيْرَ مَذْمُومٍ ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ بِالنَّبَوَّةِ ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ٥١ ﴿وَأَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِهَا﴾ بِأَبْصَرِهِمْ ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظْرًا شَدِيدًا﴾ يَكَادُ أَنْ يَصْرَعَكَ وَيُسْقِطَكَ مِنْ مَكَانِكَ ٥٢ ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿وَيَقُولُونَ﴾ حَسَدًا: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ ٥٣ بِسَبَبِ الْقُرْآنِ الَّذِي جَاءَ بِهِ. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ مَوْعِظَةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾ ٥٤ ﴿الْجِنُّ وَالْإِنْسُ لَا يَخْذُلُ بِسَبَبِهِ جُنُونَ﴾ ٥٥.

(١) يعني: ذا النون، وهو يونس بن متى عليه السلام، حين ذهب مغاضبا على قومه، فكان من أمره ما كان من ركوبه في البحر والتقام الحوت له، وشرود الحوت به في البحار وظلمات غمرات اليم، وسماعه تسييح البحر بما فيه للعلي القدير، الذي لا يرد ما أنفذه من التقدير، فحينئذ نادى في الظلمات ﴿أَن لَّآ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. قال الله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ١٤٣ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤] وقال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، والسدي: وهو مغموم. وقال عطاء الخراساني، وأبو مالك: مكروب. [ابن كثير (٢٠١/٨)].

(٢) قد قال غير واحد من المفسرين: إنه الإصابة بالعين فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ، وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك، قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك. [بدائع الفوائد لابن القيم (٢٠٣١/٢)].

(٣) المعنى: يقولون ذلك اعتلا لا لأنفسهم إذ لم يجدوا في الذكر الذي يسمعون مدخلا للطعن فيه فانصرفوا إلى الطعن في صاحبه ﷺ بأنه مجنون ليتنقلوا من ذلك إلى أن الكلام الجاري على لسانه لا يوثق به؛ ليصرفوا دهماءهم عن سماعه، فلذلك أبطل الله قولهم: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾، بقوله: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾، أي: ما القرآن إلا ذكر للناس كلهم وليس بكلام المجانين، ويتنقل من ذلك إلى أن الناطق به ليس من المجانين في شيء. [ابن عاشور (١٠٨/٢٩)].

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى أَوْ اثْنَتَانِ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ۝١﴾ أَي: الْقِيَامَةُ الَّتِي يَحِقُّ فِيهَا مَا أَنْكَرَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ، أَوِ الْمُظْهَرَةُ لِذَلِكَ ^(١). ﴿مَا الْحَاقَّةُ ۝٢﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهَا وَهُوَ مُبْتَدَأٌ. وَخَبَرُ الْحَاقَّةِ: ﴿وَمَا أَذْرُكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا الْحَاقَّةُ ۝٣﴾ زِيَادَةُ تَعْظِيمٍ لِشَأْنِهَا، فَ﴿مَا﴾ الْأُولَى مُبْتَدَأٌ، وَمَا بَعْدَهَا خَبَرُهُ، وَ﴿مَا﴾ الثَّانِيَةُ وَخَبَرُهَا فِي مَحَلِّ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ «أَذْرَى». ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ۝٤﴾ الْقِيَامَةُ لِأَنَّهَا تَفْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا. ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝٥﴾ بِالصَّيْحَةِ الْمُجَاوِزَةِ لِلْحَدِّ فِي الشَّدَّةِ ^(٢). ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ شَدِيدَةٍ الصَّوْتِ ۝٦﴾ عَاتِيَةٍ ^(٣) قُوَّةٍ شَدِيدَةٍ عَلَى عَادٍ، مَعَ قُوَّتِهِمْ وَشِدَّتِهِمْ ^(٤). ﴿سَخَّرَهَا﴾ أَرْسَلَهَا بِالْقَهْرِ ﴿عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلُهَا مِنْ صُبْحِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ لِثَمَانٍ بَقِيْنَ مِنْ شَوَالٍ، وَكَانَتْ فِي عَجْرِ الشِّتَاءِ ﴿حُسُومًا﴾ مُتَابِعَاتٍ شُبَّهَتْ بِتَابِعِ فِعْلِ الْحَاسِمِ، فِي إِعَادَةِ الْكَيِّ عَلَى الدَّاءِ كَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى حَتَّى يَنْحَسِمَ ^(٥) ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى﴾ مَطْرُوحِينَ هَالِكِينَ ﴿كَانَتْهُمْ أَعْجَانُ﴾ أُصُولُ ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ

(١) الحاقة من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالى أمرها فقال: ﴿وَمَا أَذْرُكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾. [ابن كثير (٢٠٨/٨)].
 (٢) وقيل: الطاغية مصدر فكأنه قال: أهلكوا بطغيانهم، فهو كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]، وقيل: هي صفة لمحذوف تقديره أهلكوا بسبب الفعلة الطاغية، أو الفئة الطاغية، والباء على هذين القولين سببية، وعلى القول الأول كقولك: قتلت زيداً بالسيف. [ابن جزي (٤٠٤/٢)].

(٣) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكْتُ عَادٌ بِالْدَّبُورِ». أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).
 (٤) يجوز أن يكون جمع حاسم مثل قعود جمع قاعد، وشهود جمع شاهد، غلب فيه الأيام على الليالي؛ لأنها أكثر عدداً إذ هي ثمانية أيام، وهذا له معان: أحدها: أن يكون المعنى: يتابع بعضها بعضاً، أي: لا فصل بينها كما يقال: صيام شهرين متتابعين ... قيل: والحسوم مشتق من حسم الداء بالمكواة إذ يكوى ويتابع الكي أياماً، فيكون إطلاقه استعارة، ولعلها من مبتكرات القرآن. المعنى الثاني: أن يكون من الحسم وهو القطع، أي: حاسمة مستأصلة. ومنه سمي السيف حساماً؛ لأنه يقطع، أي: حسمتهم فلم تبق منهم أحداً. وعلى هذين المعنيين فهو صفة لـ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ أو حال منها. المعنى الثالث: أن يكون حسوم مصدراً كالشكور والدخول فيتنصب على المفعول لأجله، وعامله: ﴿سَخَّرَهَا﴾ أي: سخرها عليهم لاستئصالهم وقطع دابرهم. وكل هذه المعاني صالحة لأن يذكر مع هذه الأيام، فإيثار هذا اللفظ من تمام بلاغة القرآن وإعجازه. [ابن عاشور (١١٧/٢٩)].

﴿٧﴾ سَاقِطَةٍ فَارِغَةٍ^(١). ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ ﴿٨﴾ صِفَةُ «نَفْسٍ» مُقَدَّرَةٍ، أَوِ التَّاءُ لِلْمُبَالَغَةِ، أَيُّ: بَاقٍ؟ لَا. ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ﴾ أَتْبَاعُهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بَفَتْحِ الْقَافِ وَسُكُونِ الْبَاءِ، أَيُّ: مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ﴾ أَيُّ: أَهْلُهَا، وَهِيَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿بِالْحَاطِئَةِ﴾ ﴿٩﴾ بِالْفَعْلَاتِ ذَاتِ الْخَطَأِ. ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ: لُوطًا وَغَيْرَهُ ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ ﴿١٠﴾ زَائِدَةٌ فِي الشَّدَّةِ عَلَى غَيْرِهَا. ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ عَلَا فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، مِنْ الْجِبَالِ وَغَيْرِهَا زَمَنَ الطُّوفَانِ ﴿حَمَلْنَكُمْ﴾ يَعْنِي آبَاءَكُمْ إِذْ أَنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ^(٢) ﴿فِي الْجَارِيَةِ﴾ ﴿١١﴾ السَّفِينَةِ الَّتِي عَمَلَهَا نُوحٌ، وَنَجَا هُوَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فِيهَا وَغَرِقَ الْآخَرُونَ. ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾ أَيُّ: هَذِهِ الْفَعْلَةُ، وَهِيَ إِنْجَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَإِهْلَاكُ الْكَافِرِينَ ﴿لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ عِظَةً ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وَلِتَحْفَظَهَا ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ ﴿١٢﴾ حَافِظَةٌ لِّمَا تَسْمَعُ. ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ لِلْفَصْلِ بَيْنَ الْخَلْقِ وَهِيَ الثَّانِيَةُ^(٣). ﴿وُحِمِلَتْ﴾ رُفِعَتْ ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا﴾ دُكَّتَا ﴿دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ قَامَتِ الْقِيَامَةُ. ﴿وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ﴿١٦﴾ ضَعِيفَةٌ^(٤). ﴿وَالْمَلَكُ﴾ يَعْنِي الْمَلَائِكَةَ ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ جَوَانِبِ السَّمَاءِ^(٥) ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ الْمَذْكُورِينَ ﴿يَوْمَئِذٍ

(١) انظر التعليق على آية (٢٠) من سورة القمر.

(٢) خاطب الذين نزل فيهم القرآن، وإنما حمل أجدادهم نوحا وولده، لأن الذين خوطبوا بذلك ولد الذين حملوا في الجارية، فكان حمل الذين حملوا فيها من الأجداد حملا لذريتهم. [الطبري (٢٣/ ٢٢١)].

(٣) هذه النفخة نفخة الفزع، قال ابن عباس: وهي النفخة الأولى التي يحصل عنها خراب العالم، ويؤيد ذلك قوله: ﴿وُحِمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾، وقال ابن المسيب ومقاتل: هي النفخة الآخرة، وعلى هذا لا يكون الدك بعد النفخ، والواو لا ترتب. وروي ذلك عن ابن عباس أيضا، ولما كانت مرة أكدت بقوله: ﴿وَاحِدَةً﴾. [أبو حيان (١٠/ ٢٥٧)].

(٤) أي: انشقت جنبها وانصدعت ونفطرت بنزول ما فيها من الملائكة فهي في ذلك اليوم ضعيفة مسترخية ساقطة القوة من هول ذلك اليوم بعد ما كانت محكمة، قال الزجاج: يقال لكل ما ضعف جداً قد وهي فهو واه، وقال الفراء: وَهِيهَا تَشَقُّقُهَا، وقال ابن عباس رضي الله عنه: واهية متخرقة، أي: متساقطة خفيفة لا تتماسك ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]. [صديق حسن (١٤/ ٢٩١)].

(٥) أي: جنس الملك واقفون على أطرافها وجوانبها التي لم تسقط وهؤلاء من جملة المستثنى بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال القاضي: لعل هلاك الملائكة أثر ذلك، وقيل: يحيون بالنفخة الثانية ويقفون على أرجائها الباقية وهي جمع «رجى» مقصور وتثنيته رجوان مثل قفى وقفوان. والمعنى: أنها لما تشققت السماء وهي مساكنهم لجأوا إلى أطرافها قال الضحاك إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقق وتكون الملائكة على حافاتها حتى يأمرهم الرب فينزلون إلى الأرض ويحيطون بها ومن عليها، وقال سعيد بن جبير: المعنى والملك على حافات الدنيا، أي: ينزلون إلى الأرض، وقيل: إذا صارت السماء قطعاً يقف الملائكة على تلك القطع التي ليست

ثَمَنِيَّةٌ ﴿١٧﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ مِنْ صُفُوفِهِمْ^(١). ﴿يَوْمَئِذٍ نَعْرُضُونَ﴾ لِلْحِسَابِ ﴿لَا تَخْفَى﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾
 ﴿١٨﴾ مِنَ السَّرَائِرِ ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ فَيَقُولُ ﴿خِطَابًا لِّجَمَاعَتِهِ لِمَا سَرَّ بِهِ﴾ ﴿هَآؤُمْ﴾ خُذُوا ﴿أَقْرَأُوا﴾
 كِتَابِيهِ ﴿١٩﴾ تَنَازَعَ فِيهِ: ﴿هَآؤُمْ﴾، وَ﴿أَقْرَأُوا﴾. ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ﴾ تَيَقَّنْتُ^(٢) ﴿أَنِّي مُلْقٍ حِسَابِيهِ﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾^(٣) مَرْضِيَّةٍ. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾^(٤) قُطُوفُهَا ثِمَارُهَا ﴿دَانِيَةٍ﴾^(٥) قَرِيبَةٌ يَتَنَاولُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ.
 فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ حَالٌ، أَي: مُتَهَنِّئِينَ ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(٦) الْمَاضِيَةِ فِي الدُّنْيَا^(٧).
 ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ فَيَقُولُ يَدٌ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ﴾^(٨) وَلَمْ أُدْرِ مَا حِسَابِيهِ ﴿يَلَيَّتَهَا﴾
 أَي: الْمَوْتَةُ فِي الدُّنْيَا ﴿كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾^(٩) الْقَاطِعَةَ لِحَيَاتِي بِأَنْ لَا أُبْعَثَ. ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ﴾^(١٠) هَلَكَ عَنِّي
 سُلْطَانِيهِ^(١١) قُوَّتِي وَحُجَّتِي، وَهَاءُ: «كِتَابِيهِ وَحِسَابِيهِ وَمَالِيهِ وَسُلْطَانِيهِ» لِلسَّكْتِ، تَثْبُتُ وَقَفًا وَوَصْلًا اتِّبَاعًا
 لِلْمُصْحَفِ الْأَمَامِ وَالنَّقْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَذَفَهَا وَصَلًا. ﴿خُذُوهُ﴾ خِطَابٌ لِحَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴿فَعْلُوهُ﴾^(١٢) اجْمَعُوا يَدَيْهِ إِلَى
 عُنُقِهِ فِي الْغُلِّ. ﴿ثُمَّ الْجَحِيمِ﴾ النَّارِ الْمُحْرِقَةِ ﴿صَلُّوهُ﴾^(١٣) أَدْخِلُوهُ. ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ بِذِرَاعِ

متشقة في أنفسها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: على حافاتها على ما لم يهي منها. [صديق حسن (١٤/٢٩٢)].

(١) أي: يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة. ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش: العرش العظيم، أو: العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء، والله أعلم بالصواب. [ابن كثير (٨/٢١٢)]. والعرش محمول من الملائكة قبل ذلك، قال رضي الله عنه: «وَلَكِنَّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ سَبَّحَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ سَمَاءِ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقُولُ الَّذِينَ يُلُونَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ لِحَمَلَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُجِيبُونَهُمْ». أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

(٢) قال الضحاك: كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك، قال مجاهد: ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك، قال الحسن: في هذه الآية أن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل للآخرة، وأن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل. قيل: والتعبير بالظن للإشعار بأنه لا يقدح في الاعتقاد ما يهيجس في النفس من الخطرات التي لا تنفك عنها العلوم النظرية غالبًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ظننت أي: أيقنت، قال النسفي: وإنما أجرى الظن مجرى العلم لأن الظن الغالب يقوم مقام العلم في العبادات والأحكام، ولأن ما يدرك بالاجتهاد قلما يخلو عن الوسواس والخواطر وهي تفضي إلى الظنون، فجاز إطلاق لفظ الظن عليها لما لا يخلو عنه. [صديق حسن (١٤/٢٩٥)].

(٣) من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة، من صلاة وصيام وصدقة وحج وإحسان إلى الخلق، وذكر الله وإنابة إليه. فالأعمال جعلها الله سببا لدخول الجنة ومادة لتعيمها وأصلا لسعادتها. [السعدي (ص: ٨٨٣)].

الْمَلِكِ^(١) ﴿فَاسْأَلْكُوهُ^(٣٢)﴾ أَذْخَلُوهُ فِيهَا بَعْدَ إِدْخَالِهِ النَّارَ، وَلَمْ تَمْنَعْ الْفَاءَ مِنْ تَعَلُّقِ الْفِعْلِ بِالظَّرْفِ الْمُتَقَدِّمِ^(٣). ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ^(٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ^(٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَمِيمٌ^(٣٥)﴾ قَرِيبٌ يَنْتَفِعُ بِهِ^(٣٦). ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ^(٣٦)﴾ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ أَوْ شَجَرٍ فِيهَا. ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ^(٣٧)﴾ الْكَافِرُونَ^(٣٨). ﴿فَلَا﴾ «لَا» زَائِدَةٌ «أَقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ^(٣٨)» مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ. ﴿وَمَا لَا تُبْصِرُونَ^(٣٩)﴾ مِنْهَا، أَيُّ: بِكُلِّ مَخْلُوقٍ. ﴿إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنُ ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ^(٤٠)﴾ أَيُّ: قَالَهُ رَسُولُهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى^(٤١). ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ

(١) معنى ذرعها، أي: طولها، واختلف في هذا الذراع، فقيل: إنه الذراع المعروف، وقيل: بذراع الملك، وقيل: في الذراع سبعون باعاً، كل باع ما بين مكة والكوفة، والله در الحسن البصري في قوله: الله أعلم بأي ذراع هي. وجعلها سبعين ذراعاً لإرادة وصفها بالطول، فإن السبعين من الأعداد التي تقصد بها العرب الكثير، ويحتمل أن تكون هذه السلسلة لكل واحد من أهل النار، أو تكون بين جميعهم. [ابن جزي (٢/٤٠٧)].

(٢) فاجعلوه فيها بحيث يكون كأنه السلك، أي: الحبل الذي يدخل في ثقب الخرزات بعسر لضيق ذلك الثقب إما بإحاطتها بعنقه أو بجميع بدنه بأن تلف عليه، يقال: سلكته الطريق إذا أدخلته فيه، ولم تمنع الفاء من تعلق الفعل أي الداخلة عليه بالظرف المتقدم وهو ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾، وتقديمها كتقديم «الجحيم» للدلالة على التخصيص والاهتمام بذكر أنواع ما يعذبون به؛ وثم لتفاوت ما بينها في الشدة لا للدلالة على تراخي المدة. [صديق حسن (١٤/٢٩٨)].

(٣) خبر ﴿فَلَيْسَ﴾، قوله: له ولا يكون الخبر قوله: ﴿هَهُنَا﴾ لأن المعنى يصير: ليس ها هنا طعام إلا من غسلين، ولا يصح ذلك، لأن ثم طعاماً غيره. وها هنا متعلق بما في له من معنى الفعل. والحميم ها هنا القريب، أي: ليس له قريب يرق له ويدفع عنه. وهو مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار، كأنه الصديق الذي يرق ويحترق قلبه له. والغسلين فعلين من الغسل، فكأنه يغسل من أبدانهم، وهو صديد أهل النار السائل من جروحهم وفروجهم، عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الضحاك والربيع بن أنس: هو شجر يأكله أهل النار. والغسل بالكسر: ما يغسل به الرأس من خطمي وغيره، الأخفش: ومنه الغسلين، وهو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم. وزيد فيه الياء والنون كما زيد في عفرين. وقال قتادة: هو شر الطعام وأبشعه. ابن زيد: لا يعلم ما هو ولا الزقوم. وقال في موضع آخر: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيعٍ﴾ [الغاشية: ٦] يجوز أن يكون الصريع من الغسلين. وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، والمعنى فليس له اليوم ها هنا حميم إلا من غسلين، ويكون الماء الحار. ولا طعام، أي: وليس لهم طعام ينتفعون به. [القرطبي (١٨/٢٧٣)].

(٤) بالهمز اسم فاعل من خطى، وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك، والمخطئ الذي يفعله غير متعمد. وقرأ الحسن والزهري والعتكي وطلحة في نقل: بياء مضمومة بدلا من الهمزة. وقرأ أبو جعفر وشيبة وطلحة ونافع: بخلاف عنه، بضم الطاء دون همز، فالظاهر اسم فاعل من خطى كقراءة من همز. وقال الزمخشري: ويجوز أن يراد: الذين يتخطون الحق إلى الباطل ويتعدون حدود الله. انتهى. فيكون اسم فاعل من خطا يخطو، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة: ١٦٨]. [أبو حيان (١٠/٢٦٤)].

(٥) يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من

قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ فِي الْفِعْلَيْنِ، وَ ﴿مَّا﴾ زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ آمَنُوا بِأَشْيَاءَ يَسِيرَةٍ وَتَذَكَّرُواهَا، مِمَّا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَةِ وَالْعَفَافِ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ شَيْئًا. بَلْ هُوَ ﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ ﴿٤٤﴾ أَي: النَّبِيُّ ﴿عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ﴾ ﴿٤٥﴾ بِأَنَّ قَالَ عَنَّا مَا لَمْ نَقُلْهُ^(١). ﴿لَا خِذْنَا﴾ لَبَلْنَا ﴿مِنْهُ﴾ عِقَابًا ﴿بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٤٦﴾ بِالْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ^(٢). ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ ﴿٤٧﴾ نِيَاطُ الْقَلْبِ وَهُوَ عِرْقٌ مُّتَّصِلٌ بِهِ إِذَا انْقَطَعَ مَاتَ صَاحِبُهُ. ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾ هُوَ اسْمُ «مَا»، وَ«مِنْ» زَائِدَةٌ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ وَ ﴿مِنْكُمْ﴾ حَالٌ مِنْ ﴿أَحَدٍ﴾ ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ مَانِعِينَ، خَبَرٌ «مَا» وَجُمِعَ لِأَنَّ ﴿أَحَدٍ﴾ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ بِمَعْنَى الْجَمْعِ، وَضَمِيرُ ﴿عَنْهُ﴾ لِلنَّبِيِّ ﷺ، أَي: لَا مَانِعَ لَنَا عَنْهُ مِنْ حَيْثُ الْعِقَابِ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٥٠﴾ بِالْقُرْآنِ وَمُصَدِّقِينَ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥١﴾ إِذَا رَأَوْا ثَوَابَ الْمُصَدِّقِينَ وَعِقَابَ الْمُكَذِّبِينَ بِهِ. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ﴿٥٢﴾ أَي: لِلْيَقِينِ الْحَقُّ^(٣). ﴿فَسَبِّحْ﴾ نَزَّهُ ﴿بِاسْمِ﴾ أَلْبَاءَ زَائِدَةٌ ﴿رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٥٣﴾ سُبْحَانَهُ.

المغيبات عنهم: إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله، الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، فقال: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٣٠﴾ يعني: محمداً، أضافه إليه على معنى التبليغ؛ لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل؛ ولهذا أضافه في سورة التكوين إلى الرسول الملكي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ [التكوين: ١٩-٢١] وهذا جبريل، عليه السلام. [ابن كثير (٢١٧/٨)].

(١) هو على سبيل الافتراض بالنسبة للنبي ﷺ... وقد جاء الافتراض في القرآن فيما هو أعظم من ذلك. كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. [عطية سالم (٢٦٣/٨)].

(٢) قيل: «من» صلة، مجازة: لأخذناه وانتقمنا منه باليمين، أي: بالحق، كقوله: ﴿كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾ [الصفات: ٢٨] أي: من قبل الحق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأخذناه بالقوة والقدر. قال الشماخ في عرابة ملك اليمن: «إذا ما راية رفعت لمجد... تلقاها عرابة باليمين» أي: بالقوة، عبر عن القوة باليمين لأن قوة كل شيء في يمينه. وقيل: معناه لأخذنا بيده اليمنى، وهو مثل معناه: لأذللناه وأهاناه، كالسلطان إذا أراد الاستخفاف ببعض من يريد يقول لبعض أعوانه: خذ بيده فأقمه. [البغوي (٢١٤/٨)].

(٣) «حق اليقين» هو منتهى العلم، إذ اليقين ثلاث درجات: الأولى: علم اليقين. والثانية: عين اليقين. والثالثة: حق اليقين، كما في التكاثر: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ [التكاثر: ٥-٧] فهاتان درجتان، والثالثة: إذا دخلوها كان حق اليقين، ومثله في الدنيا: العلم بوجود الكعبة والتوجه إليها في الصلاة، ثم رؤيتها عين اليقين، ثم بالدخول فيها يكون حق اليقين. [عطية سالم (٢٦٣/٨)].

سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ، أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ دَعَا دَاعٍ ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ قَالَ: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ﴾ [الأَنْفَال: ٣٢] آيَةً. ﴿مَنْ اللَّهُ﴾ مُتَّصِلٌ بِـ ﴿وَاقِعٍ﴾ ﴿ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾﴾ مَصَاعِدِ الْمَلَائِكَةِ وَهِيَ السَّمَاوَاتُ^(١). ﴿تَعْرُجُ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿الْمَلَكِيَّةُ وَالرُّوحُ﴾ جَبْرِيلُ ﴿إِلَيْهِ﴾ إِلَى مَهْبِطِ أَمْرِهِ مِنَ السَّمَاءِ^(٢) ﴿فِي يَوْمٍ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ أَيْ: يَقَعُ الْعَذَابُ بِهِمْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْكَافِرِ، لِمَا يَلْقَى فِيهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَكُونُ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ^(٣). ﴿فَاصْبِرْ﴾ وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ ﴿صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾﴾ أَيْ: لَا جَزَعَ فِيهِ^(٤). ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ أَيْ:

(١) جمع معرج وهو المصعد إلى علو كالسلم، والمدارج التي يُرتقى بها، قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة، وقيل: هي المراقي إلى السماء، وهذا أظهر لأنه فسرهما بما بعدها من عروج الملائكة. [ابن جزي (٤٠٩/٢)].

(٢) تصعد الملائكة والروح وهو جبريل عليه السلام إليه، يعني إلى الله جل وعز، والهاء في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ عائدة على اسم الله. [الطبري (٢٥١/٢٣)].

(٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فقيل: ما أطول هذا اليوم، فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُ لَيُخَفَّفُ عَلَى الْمُؤْمِنِ حَتَّى يَكُونَ أَخَفَّ عَلَيْهِ مِنْ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ يُصَلِّيهَا فِي الدُّنْيَا». أخرجه أحمد (١١٧١٧)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وابن حبان (٧٣٣٤). [البغوي (٢٢١/٨)]. واختلف في هذا اليوم على قولين: أحدهما أنه يوم القيامة، والآخر: أنه في الدنيا. والصحيح أنه يوم القيامة لقول رسول الله ﷺ في حديث مانع الزكاة: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ». أخرجه مسلم (٩٨٧). [ابن جزي (٤١٠/٢)].

(٤) فيه أربع تأويلات: أحدها: أنه الصبر الذي ليس فيه جزع، قاله مجاهد. الثاني: أنه الصبر الذي لا بث فيه ولا شكوى. الثالث: أنه الانتظار من غير استعجال، قاله ابن بحر. الرابع: أنه المجاملة في الظاهر، قاله الحسن. وفيما أمر بالصبر عليه قولان: أحدهما: أمر بالصبر على ما قذفه المشركون من أنه مجنون وأنه ساحر وأنه شاعر، قاله الحسن. الثاني: أنه أمر بالصبر على كفرهم، وذلك قبل أن يفرض جهادهم، قاله ابن زيد. [الماوردي (٩١/٦)].

الْعَذَابَ ﴿بَعِيدًا ٦﴾ غَيْرِ وَاقِعٍ. ﴿وَنَرْنَاهُ قَرِيبًا ٧﴾ وَاقِعًا لَا مَحَالَةَ. ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ مَطَّحًا مُتَعَلِّقًا بِمَحْدُوفٍ تَقْدِيرُهُ يَقَعُ﴾ ﴿كَالْمُهْلِ ٨﴾ كَذَائِبِ الْفِضَّةِ ١١. ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ٩﴾ كَالصُّوفِ فِي الْخِفَّةِ وَالطَّيْرَانِ بِالرَّيْحِ ١٢. ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ١٠﴾ قَرِيبٌ قَرِيبُهُ، لَا شَتَّاعٍ كُلُّ بِحَالِهِ. ﴿يُبْصِرُونَهُمْ ١٣﴾ أَيُّ: يُبْصِرُ الْأَحْمَاءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَعَارَفُونَ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ ١٤. ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ ١٥﴾ يَتَمَنَّى الْكَافِرُ ﴿لَوْ﴾ بِمَعْنَى: «أَنْ» ﴿يَفْتَدِيَ مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِكَسْرِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا﴾ ﴿بِئْنِيهِ ١٦﴾ وَصَحْبَتِهِ ١٧. ﴿زَوْجَتِهِ﴾ وَأَخِيهِ ١٨. ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ عَشِيرَتَهُ لِفَصْلِهِ مِنْهَا ١٩. ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ ٢٠﴾ تَضُمُّهُ. ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ٢١﴾ ذَلِكَ الْإِفْتِدَاءُ عَطْفٌ عَلَى ﴿يَفْتَدِي﴾. ﴿كَلَّا﴾ رَدُّ لِمَا يَوَدُّهُ ﴿إِنَّهَا﴾ أَيُّ: النَّارُ ﴿لَظَى ٢٢﴾ اسْمٌ لِحَبْنَةٍ لَا تَنْهَا تَتَلَطَّى، أَيُّ: تَتَلَهَّبُ عَلَى الْكُفَّارِ. ﴿نَزَاعَةً لِلشَّوَى ٢٣﴾ جَمْعُ شَوَاةٍ وَهِيَ جِلْدَةُ الرَّأْسِ ٢٤. ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ٢٥﴾ عَنِ الْإِيمَانِ بِأَنْ تَقُولَ: «إِلَيَّ إِلَيَّ». ﴿وَجَمَعَ﴾ الْمَالَ ﴿فَأَوْعَى ٢٦﴾ أَمْسَكَهُ فِي وَعَائِهِ وَلَمْ يُؤَدِّ حَقَّ اللَّهِ مِنْهُ. ﴿* إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ٢٧﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ. وَتَفْسِيرُهُ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ٢٨﴾ وَقَتَ مَسِّ الشَّرِّ. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ٢٩﴾ وَقَتَ مَسِّ الْخَيْرِ،

(١) المهمل: هو دُردي الزيت شبه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة، وقيل: هو ما أذيب من الفضة ونحوها، شبه السماء به في تلونه. [ابن جزي (٢/٤١٠)].

(٢) أي: كالصوف المصبوغ، ولا يقال للصوف «عهن» إلا إذا كان مصبوغاً، قال الحسن تكون الجبال كالصوف الأحمر، وهو أضعف الصوف، وقيل: العهن الصوف ذو الألوان فشبه الجبال به في تكونها ألواناً كما في قوله: ﴿جُدُّ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ﴾ [فاطر: ٢٧] فإذا بست وطيرت في الهواء أشبهت العهن المنفوش إذا طيرته الريح، وهذه الأقوال في معنى العهن في اللغة، وأول ما تغير الجبال تصير رملاً مهياً ثم عهنًا منفوشاً ثم هباءً متثورًا. [صديق حسن (١٤/٣١٢)].

(٣) استئناف أو حال تدل على أن المانع من هذا السؤال هو التشاغل دون الخفاء، أو ما يغني عنه من مشاهدة الحال كيباض الوجه وسواده وجمع الضميرين لعموم الحميم. [البضاوي (٥/٢٤٥)].

(٤) الفصيلة: الأقرباء الأدنون من القبيلة، وهم الأقرباء المفصول منهم، أي: المستخرج منهم، فشملت الآباء والأمهات ... ولم يذكر الأبوين لدخولهما في الفصيلة قصداً للإيجاز. [ابن عاشور (٢٩/١٦١)].

(٥) ﴿لِلشَّوَى﴾ الأطراف، وهي اليدين والرجلان، ويقال للرامي إذا لم يصب المقتل أشوى، أي: أصاب الشوى، والشوى أيضاً جلد الرأس، واحدها شواة ... هذا قول أهل اللغة، قال مقاتل: تنزع النار الهامة والأطراف فلا تترك لحماً ولا جلداً إلا أحرقت، وقال سعيد بن جبیر: العصب والعقب ولحم الساقين واليدين، وقال ثابت البناني: لمكارم وجه بني آدم. واعلم أن النار إذا أفتت هذه الأعضاء، فالله تعالى يعيدها مرة أخرى، كما قال: ﴿كَلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦]. [الرازي (٣٠/٦٤٣)].

أَيُّ: الْمَالِ لِحَقِّ اللَّهِ مِنْهُ. ﴿٢٢﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٣﴾ أَيُّ: الْمُؤْمِنِينَ. ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ مُوَظُّونَ^(١).
 ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ ﴿٢٥﴾ هُوَ الزَّكَاةُ. ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ ﴿٢٦﴾ أَلْتَعَفَّفَ عَنِ السُّؤَالِ فَيَحْرُمُ. ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿٢٧﴾ الْجَزَاءِ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ خَائِفُونَ. ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ ﴿٢٩﴾ نَزْوُهُ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴿مِنْ الْإِمَاءِ﴾ ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣٢﴾ أَلْتَجَاوَزُونَ الْحَالَ إِلَى الْحَرَامِ^(٢). ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ﴾ ﴿٣٣﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْإِفْرَادِ مَا اتُّمِنُوا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ أَلْمَأْخُودِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ﴿رَاعُونَ﴾ ﴿٣٤﴾ حَافِظُونَ. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ﴾ ﴿٣٥﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْجَمْعِ ﴿قَائِمُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ يُقِيمُونَهَا وَلَا يَكْتُمُونَهَا. ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ بِأَدَائِهَا فِي أَوْقَاتِهَا^(٣). ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ حَالٌ، أَيُّ: مُدِيمِي النَّظَرِ. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ مِنْكَ ﴿عَزِيزِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ حَالٌ أَيْضًا، أَيُّ: جَمَاعَاتٍ حَلَقًا حَلَقًا، يَقُولُونَ اسْتَهِزَاءً بِالْمُؤْمِنِينَ: لَيْنَ دَخَلَ هَؤُلَاءِ الْجَنَّةَ لَنَدْخُلْنَهَا قَبْلَهُمْ^(٤).

(١) وصف الله تعالى من استثناهم من الإنسان الهلوع بتسع صفات: اثنتان منها تختص بالصلاة، وهما الأولى والأخيرة؛ مما يدل على أهمية الصلاة، ووجوب شدة الاهتمام بها. وهذا من المسلمات في الدين؛ لمكانتها من الإسلام، وفي وصفهم هنا بأنهم: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، وفي الأخير: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]. قال في الكشف: الدوام عليها المواظبة على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل. وقد بدأ الله أولئك المستثنين وختمهم بالصلاة، مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير، ومبدأ لهذا المذكور كله؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فهي عون على كل خير. ولقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهي سياج من كل منكر، فجمعت طرفي المقصد شرعا، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر، أي: جلب المصالح ودرء المفاسد؛ ولذا فقد عني بها النبي ﷺ كل عنايتها، كما هو معلوم، إلى الحد الذي جعلها الفارق والفصل بين الإسلام والكفر في قوله ﷺ: «الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ». أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجه (١٠٧٩)، وأحمد (٢٢٩٨٧). [عطية سالم (٨/٢٦٨)].

(٢) انظر التعليق على آية (٧) من سورة المؤمنون.

(٣) وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى. [السعدي (ص: ٨٨٧)].

(٤) أي: عن يمين النبي ﷺ وعن شماله جماعات متفرقة وعزيرين جمع عزة وهي العصبية من الناس، وقيل: أصلها عزوة من العزوة، وكأن

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَيُطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۖ كَلَّا ۚ رَدُّعٌ لَهُمْ عَنْ طَمَعِهِمْ فِي الْجَنَّةِ ۖ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ ۖ كَغَيْرِهِمْ ۖ مِمَّا يَعْلَمُونَ ۖ﴾ ﴿٣٩﴾ مِنْ نُطْفٍ فَلَا يُطْمَعُ بِذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ وَإِنَّمَا يُطْمَعُ فِيهَا بِالتَّقْوَى ۖ ﴿فَلَا ۖ لَا﴾ زَائِدَةٌ ﴿أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ۖ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَسَائِرِ الْكَوَاكِبِ ۖ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ۖ﴾ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ نَأْتِي بَدَلَهُمْ

كل فرقة تعتري إلى غير من تعتري إليه الفرقة الأخرى، وقال في الصحاح: العزة الفرقة من الناس، والهاء عوض عن الياء والجمع عزي وعزون، قال ابن عباس رضي الله عنه: عزين العصب من الناس معرضين يستهزئون به، عن جابر رضي الله عنه قال دخل علينا رسول الله ﷺ المسجد ونحن خلق متفرون، فقال: «مالي أراكم عزين؟». أخرجه مسلم (٤٣٠). [صديق حسن (١٤/ ٤٢١)]. يقول تعالى منكرا على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وما أيده الله به من المعجزات الباهرات، ثم هم مع هذا كله فارون منه، متفرون عنه، شاردون يمينا وشمالا فرقا فرقا، وشيعا شيعا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ۖ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۖ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ۖ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] وهذه مثلها؛ فإنه قال تعالى: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطِعِينَ ۖ أَي: فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد ﷺ **﴿مُهْطِعِينَ﴾** أي: مسرعين نافرين منك، كما قال الحسن البصري: **﴿مُهْطِعِينَ﴾** أي: منطلقين، **﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾** واحدها عزة، أي: متفريقين. وهو حال من مهطعين، أي: في حال تفرقهم واختلافهم. [ابن كثير (٨/ ٢٢٨)]. [وقيل: نزلت لأن رسول الله ﷺ كان يصلي عند الكعبة أحيانا ويقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفترو غير ذلك. [ابن عطية (٥/ ٣٧٠)].

(١) كناية عن المني الذي خلق الإنسان منه، وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه: أحدها: تحقير الإنسان والرد على المتكبرين. الثاني: الرد على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة؛ كأنه يقول: إنا خلقناكم مما خلقنا منه الناس، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح؛ لأنكم سواء في الخلقة. الثالث: الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين، فهو قادر على أن يعيدهم كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنِيِّ يُمْنَى﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة. [ابن جزي (٢/ ٤١٢)].

(٢) يعني مشرق كل يوم من أيام السنة ومغربها، وقال ابن عباس رضي الله عنه: للشمس كل يوم مطلع تطلع فيه وكل يوم مغرب تغرب فيه غير مطلعها بالأمس. وغير مغربها بالأمس، وقيل مشرق كل نجم ومغربها. [صديق حسن (١٤/ ٣٢٢)]. ومجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعين، وتارة مشيين وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك. فالأول كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾، والثاني كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، والثالث كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الأفراد والجمع والشية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن الكريم وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغربها في أيام السنة، وهي متعددة وحيث أفردت كان المراد أفقي المشرق والمغرب وحيث ثنيا كان المراد شرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء. فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقا واحدا ومشرق هبوطها بجملته مشرقا

﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ بِعَاجِزِينَ عَن ذَٰلِكَ ۖ﴾ ﴿فَذَرُهُمْ أَتْرُكُهُمْ﴾ ﴿يَخُوضُوا﴾ فِي بَاطِلِهِمْ ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فِي دُنْيَاهُمْ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ فِيهِ الْعَذَابُ. ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ الْقُبُورِ ﴿سِرَاعًا﴾ إِلَى الْمَحْشَرِ ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصَبٍ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ: شَيْءٍ مَنْصُوبٍ كَعَلِمٍ أَوْ رَايَةٍ ﴿يُوفُضُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ يُسْرِعُونَ ۖ ﴿خَشِيعَةً﴾ ذَلِيلَةً ﴿أَبْصَرُهُمْ تَرَهَقُهُمْ﴾ تَغْشَاهُمْ ﴿٣﴾ ذَلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ الْخَبَرُ، وَمَعْنَاهُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۖ ﴿٤﴾.

واحدا ويقابلها مغربا فهذا وجه اختلاف هذه في الأفراد والتشبيه والجمع. [بدائع الفوائد لابن القيم (١/١٢٢)].

(١) أي: يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه، فإن قدرته صالحة لذلك، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: بعاجزين. كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۖ ﴿٣٠﴾ بَلَىٰ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۖ ﴿٣١﴾﴾ [القيامة: ٣-٤]. وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۖ ﴿٣٢﴾ عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ أَمَثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٦٠-٦١]. واختار ابن جرير: ﴿عَلَيَّ أَنْ تُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها، كقوله: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]. والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه، والله أعلم. [ابن كثير (٨/٢٢٩)].

(٢) وقرأ الحسن البصري: ﴿نُصَبٍ﴾ بضم النون والصاد، وهو الصنم، أي: كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون، يتدرون، أيهم يستلمه أول. وهذا مروي عن مجاهد، ويحيى بن أبي كثير، ومسلم البطين وقاتدة، والضحاك، والربيع بن أنس، وأبي صالح، وعاصم بن بهدلة، وابن زيد، وغيرهم. [ابن كثير (٨/٢٣٠)].

(٣) وصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم، وقريب من هذا قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٤-٢٥]، ونظيره قوله: ﴿وَتَرَهَقُهُمْ ذَلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]... وهذا كله يدل على ارتباط الظاهر بالباطن قدرا وشرعا. [التبيان في أيمان القرآن لابن القيم (١/٢٩٨)].

(٤) أي: يوعدون في الدنيا على السنة الرسل قد حاق وحضر ووقع بهم من عذابه ما وعدهم الله به وإن كان مستقبلا فهو في حكم الذي قد وقع لتحقيق وقوعه، قال الخطيب وهذا هو العذاب الذي سألو عنه أول السورة فقد رجع آخرها على أولها. [صديق حسن (١٤/٣٢٥)].

سُورَةُ نُوحٍ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانٌ أَوْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ﴾ أَي: بِإِنذارٍ ^(١) ﴿قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴿عَذَابُ أَلِيمٍ ۝١﴾
 مُؤْلَمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. ﴿قَالَ يَقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝٢﴾ بَيْنُ الْإِنذارِ. ﴿أَنْ﴾ أَي: بِأَنْ أَقُولَ لَكُمْ: ﴿اعْبُدُوا
 اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴿مَنْ﴾ زَائِدَةٌ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يُغْفِرُ بِهِ مَا قَبْلَهُ، أَوْ تَبَعِيَّةً لِإِخْرَاجِ
 حُقُوقِ الْعِبَادِ ^(٢) ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ بِلَا عَذَابٍ ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَجَلِ الْمَوْتِ ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ﴾ بِعَذَابِكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا
 ﴿إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ ذَلِكَ لَا مُتَّسَمٌ ^(٣). ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ أَي: دَائِمًا
 مُتَّصِلًا. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦﴾ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي
 ءِاذَانِهِمْ﴾ لَيْلًا يَسْمَعُوا كَلَامِي ﴿وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ غَطَّوْا رُؤُوسَهُمْ بِهَا لَيْلًا يُبْصِرُونِي ﴿وَأَصْرُوا﴾ عَلَى كُفْرِهِمْ
 ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ تَكَبَّرُوا عَنِ الْإِيمَانِ ﴿أَسْتَكْبَرًا ۝٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا ^(٨) ﴿أَي: بِأَعْلَى صَوْتِي.﴾ ثُمَّ إِنِّي
 أَعْلَنْتُ لَهُمْ صَوْتِي ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الْكَلَامَ ^(٩) ﴿إِسْرَارًا ۝٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴿مِنْ الشَّرْكِ﴾ إِنَّهُ كَانَ

(١) كان جميع أهل الأرض من الآدميين أهل عصره، ولذلك لما كفروا أغرق الله أهل الأرض جميعاً، ونوح أول رسول أرسله الله بالنهي عن عبادة غير الله، لأن عبادة غيره إنما حدثت في زمن نوح، وإلا فمن المعلوم أن قبله رسلاً آدم و شيث وإدريس. [صديق حسن (١٤/ ٣٢٩)].
 (٢) من هنا للتبعيض، أي: يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا؛ لأن الإسلام يَجِبُ ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم، لأن ذلك في مشيئة الله تعالى، وقيل: إن من هنا زائدة وذلك باطل لأن من لا تزداد عند سيئويه إلا في غير الواجب. وقيل: هي لبيان الجنس، وقيل: لا ابتداء الغاية، وهذان القولان ضعيفان في المعنى، والأول هو الصحيح لأن التبعض فيه متجه. [ابن جزي (٢/ ٤١٣)].
 (٣) قوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ثم قال: ﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ فالأول: مجوز للتأخير، والثاني: يمنع منه؟ جوابه: قيل: الأول: أجل الموت بالنسبة إلى كل واحد. والثاني: أجلهم جميعاً بالاستئصال. [كشف المعاني في المتشابه من المثاني لابن جماعة (ص: ٣٦٦)].

(٤) ذكر أولاً أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة ﷺ، قال ابن عطية: الجهر دعائهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار دعاء كل واحد على حدة. [ابن جزي (٢/ ٤١٤)].

عَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴿١١﴾ الْمَطَرَ، وَكَانُوا قَدْ مُنِعُوهُ ﴿عَلَيْكُمْ مَدْرَارًا﴾ ﴿١٢﴾ كَثِيرَ الدَّرُورِ ﴿١٣﴾. ﴿وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾ ﴿بَسَاتِينَ﴾ ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا﴾ ﴿١٤﴾ جَارِيَةً. ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ﴿١٥﴾ أَيُّ: تَأْمَلُونَ وَقَارَ اللَّهِ إِيَّاكُمْ بِأَنْ تُوْمِنُوا ﴿١٦﴾. ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ﴿١٧﴾ جَمْعُ «طَوْرٍ» وَهُوَ الْحَالُ، فَطَوْرًا نُظْفَةٌ وَطَوْرًا عِلْقَةٌ إِلَى تَمَامِ خَلْقِ الْإِنْسَانِ، وَالنَّظَرُ فِي خَلْقِهِ يُوجِبُ الْإِيمَانَ بِخَالِقِهِ. ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تَنْظُرُوا ﴿كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ ﴿١٨﴾ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ. ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ أَيُّ: فِي مَجْمُوعِهِنَّ الصَّادِقِ بِالسَّمَاءِ الدُّنْيَا ﴿نُورًا﴾ وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٩﴾ مِصْبَاحًا مُضِيئًا، وَهُوَ أَقْوَى مِنْ نُورِ الْقَمَرِ ﴿٢٠﴾. ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ﴾ خَلَقَكُمْ ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ إِذْ خَلَقَ أَبَاكُمْ آدَمَ مِنْهَا ﴿نَبَاتًا﴾ ﴿٢١﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴿مَقْبُورِينَ﴾ ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ لِلْبَعْثِ ﴿إِخْرَاجًا﴾ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢٣﴾ مَبْسُوطَةً. ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ طُرُقًا ﴿فَجَاجًا﴾ ﴿٢٤﴾ وَاسِعَةً. ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ

(١) أي: يرسل ماء السماء عليكم، ففيه إضممار، وقيل: المراد بالسماء المطر، والمدرار الدرور، وهو التحلب بالمطر، وانتصابه إما على الحال من السماء ولم يؤنث لأن مفعلا لا يؤنث بل يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول امرأة مئناث ومذكارة، أو على أنه نعت لمصدر محذوف، أي: إرسالاً مدراراً... وفي هذه الآية دليل على أن الاستغفار من أعظم أسباب المطر، وحصول أنواع الأرزاق، [قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَزِمَ الاستِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ فَرْجٍ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»]. أخرجه أبو داود (١٥١٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٢٩٠)، وابن ماجه (٣٨١٩). [صديق حسن (١٤/٣٣٤)].

(٢) أي: عظمة، قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، والضحاك، وقال ابن عباس رضي الله عنه: لا تعظمون الله حق عظمته، أي: لا تخافون من بأسه ونقمته. [ابن كثير (٨/٢٣٣)].

(٣) منور الوجه الأرض في ظلمة الليل وجعله فيهن مع أنه في إحداهن وهي السماء الدنيا كما يقال زيد في بغداد وهو في بقعة منها. [الآلوسي (١٥/٨٣)].

(٤) الإخبار عن القمر بأنه نور مبالغة في وصفه بالإضاءة بمنزلة الوصف بالمصدر. والقمر ينير ضوءه الأرض إنارة مفيدة بخلاف غيره من نجوم الليل فإن إنارتها لا تجدي البشر. والسراج: المصباح الزاهر نوره الذي يوقد بفتيلة في الزيت يضيء التهاها المعدل بمقدار بقاء مادة الزيت تغمرها. والإخبار عن الشمس من التشبيه بالبلغ... وفي جعل القمر نورا إيماء إلى أن ضوء القمر ليس من ذاته فإن القمر مظلم وإنما يستضيء بانعكاس أشعة الشمس على ما يستقبلها من وجهه بحسب اختلاف ذلك الاستقبال من تبعض وتمازج وهو أثر ظهوره هلالا ثم اتساع استنارته إلى أن يصير بدرا، ثم ارتجاع ذلك، وفي تلك الأحوال يضيء على الأرض إلى أن يكون المحاق. وبعكس ذلك جعلت الشمس سراجا لأنها ملتبهة وأنوارها ذاتية فيها صادرة عنها إلى الأرض وإلى القمر مثل أنوار السراج تملأ البيت وتلمع أواني الفضة ونحوها مما في البيت من الأشياء المقابلة. [ابن عاشور (٢٩/٢٠٣)].

(٥) هذا استدلال وامتنان، ولذلك علق بفعل ﴿جَعَلَ﴾ مجرور بلام التعليل وهو ﴿لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم. والبساط: ما يفرش للنوم عليه

عَصَوْنِي وَاتَّبِعُوا^(١) أَي: السَّفَلَةُ وَالْفُقَرَاءُ ﴿مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوُلْدُهُ﴾ وَهُمْ الرُّؤَسَاءُ الْمُنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَ «وُلْدٌ» بِضَمِّ الْوَاوِ وَسُكُونِ اللَّامِ وَبِفَتْحِهِمَا، وَالْأَوَّلُ قِيلَ: جَمْعُ «وَلَدٍ» بِفَتْحِهِمَا كَخَشَبٍ وَخَشَبٍ، وَقِيلَ: بِمَعْنَاهُ كَبْخُلٍ وَبَخْلٍ ﴿إِلَّا خَسَارًا^(٢)﴾ طُغْيَانًا وَكُفْرًا^(٣). ﴿وَمَكْرُوا﴾ أَي: الرُّؤَسَاءُ ﴿مَكْرًا كُبَارًا^(٤)﴾ عَظِيمًا جَدًّا، بَأَن كَذَّبُوا نُوْحًا وَآذَوْهُ وَمَنِ اتَّبَعَهُ. ﴿وَقَالُوا﴾ لِلْسَّفَلَةِ: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ وَضَمِّهَا ﴿وَلَا سُوءَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا^(٥)﴾ هِيَ أَصْنَائُهُمْ^(٦). ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ بِهَا ﴿كَثِيرًا﴾ مِنَ النَّاسِ، بَأَن أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا^(٧)﴾ عَظْفًا عَلَى ﴿قَدْ أَضَلُّوا﴾ دَعَا عَلَيْهِمْ لَمَّا أُوحِيَ إِلَيْهِ: ﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. ﴿مِمَّا﴾ «مَا» صِلَةٌ ﴿خَطِيلُهُمْ﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿خَطِيئَتِهِمْ﴾ بِالْهَمْزِ ﴿أُغْرِقُوا﴾ بِالطُّوْفَانِ ﴿فَادْخُلُوا نَارًا﴾ عُوِقُوا بِهَا عَقِبَ الْإِغْرَاقِ تَحْتَ الْمَاءِ ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ﴾ أَي: غَيْرِ ﴿اللَّهِ أَنْصَارًا^(٨)﴾ يَمْنَعُونَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ. ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا^(٩)﴾ أَي: نَازِلَ دَارٍ، وَالْمَعْنَى: أَحَدًا. ﴿إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(١٠)﴾ مَنْ يَفْجُرُ وَيَكْفُرُ، قَالَ ذَلِكَ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنَ الْإِيْحَاءِ إِلَيْهِ^(١١). ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدِي﴾ وَكَانَا مُؤْمِنَيْنِ ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بَيْتِي﴾ مَنْزِلِي أَوْ مَسْجِدِي ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا^(١٢)﴾ هَالَكًا، فَأَهْلِكُوا.

والجلوس من ثوب أو زربية، فالإخبار عن الأرض ببساط تشبيه بليغ، أي: كالبساط. ووجه الشبه تناسب سطح الأرض في تعادل أجزائه بحيث لا يوجع أرجل الماشين ولا يقض جنوب المضطجعين، وليس المراد أن الله جعل حجم الأرض كالبساط؛ لأن حجم الأرض كروي، وقد نبه على ذلك بالعلة الباعثة في قوله: ﴿لَكُمْ﴾، والعلة الغائبة في قوله: ﴿لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا﴾ وحصل من مجموع العلتين الإشارة إلى جميع النعم التي تحصل للناس من تسوية سطح الأرض مثل الحرث والزرع، وإلى نعمه خاصة وهي السير في الأرض وخصت بالذكر لأنها أهم لاشتراك كل الناس في الاستفادة منها. [ابن عاشور (٢٠٥/٢٩)].

(١) في وصفهم بذلك إشعار بأنهم إنما اتبعوهم لوجهتهم الحاصلة لهم؛ بسبب الأموال والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شبهة مصححة للاتباع. [أبو السعود (٤٠/٩)].

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما «ود»: فكانت لكلب بدومة الجندل؛ وأما «سواع»: فكانت لهذيل، وأما «يعوق» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، أما «يعوق»: فكانت لهمدان، وأما «نسر»: فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصباباً وسموها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتسخ العلم عبت. أخرجه البخاري (٤٩٢٠). [ابن كثير (٢٣٤/٨)].

(٣) أي: في تفسير الآية (٢٤) من هذه السورة.

سُورَةُ الْجِنِّ

مَكِّيَّةٌ، ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ ﴿أَوْحِيَ إِلَيَّ﴾ أَيُّ: أُخْبِرْتُ بِالْوَحْيِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ﴿أَنَّهُ﴾ الضَّمِيرُ لِلشَّانِ ﴿أَسْتَمَعَ﴾ لِقِرَائَتِي ﴿نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ جَنَّ نَصِيِّينَ وَذَلِكَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِيَطْنِ نَخْلَةٍ، مَوْضِعٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ، وَهُمْ الَّذِينَ ذُكِرُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الْآيَةُ^(١) ﴿فَقَالُوا﴾ لِقَوْمِهِمْ لَمَّا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝﴾ يُتَعَجَّبُ مِنْهُ فِي فَصَاحَتِهِ وَغَزَارَةِ مَعَانِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ الْإِيمَانِ وَالصَّوَابِ^(٢) ﴿فَأَمَّا بِهِ ۖ وَلَنْ تُشْرِكَ ۖ بَعْدَ الْيَوْمِ﴾ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝ ﴿وَأَنَّهُ ۖ﴾ الضَّمِيرُ لِلشَّانِ فِيهِ وَفِي الْمَوْضِعَيْنِ بَعْدَهُ ﴿تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ تَزَرَّ جَلَالُهُ وَعَظَمَتُهُ عَمَّا نُسِبَ إِلَيْهِ ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً ۖ زَوْجَةً ۖ وَلَا وَلَدًا ۝﴾ وَأَنَّهُ ۖ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴿جَاهِلُنَا﴾ عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۝ ﴿غَلَوْنَا فِي الْكَذِبِ ۖ بَوَصَفِهِ بِالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ۖ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ﴾ مُحَقَّقَةٌ، أَيُّ:

(١) اختلف هل رآهم النبي ﷺ أم لم يرهم، فظاهر القرآن أنه لم يرهم لأن المعنى قل يا محمد لأمتك أوحى إلي على لسان جبريل أنه استمع نفر من الجن، ومثله قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس رضيهما قال: ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن وما رآهم. وروى ابن مسعود رضي الله عنه: أنه رآهم، ورجحه العلماء والحق صحتهما وإن الأول وقع أولاً ثم نزلت السورة، ثم أمر بالخروج إليهم، قال عكرمة والسورة التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ هي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]... والنفر اسم للجماعة ما بين الثلاثة إلى العشرة، قال البغوي كانوا تسعة وقيل سبعة... أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقيل: حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها لتعرفوا ما هذا الأمر الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له قالوا هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك رجعوا إلى قومهم فقالوا يا قومنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ تُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝﴾ [الجن: ١-٢] فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وإنما أوحى إليه قول الحق. [صديق حسن (١٤/٣٤٩)].

(٢) الرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم. [السعدي (ص: ٨٩٠)].

أَنَّهُ ﴿لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ﴿٥﴾ بِوَصْفِهِ بِذَلِكَ حَتَّى تَبَيَّنَا كَذِبَهُمْ بِذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ ﴿بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ حِينَ يَنْزِلُونَ فِي سَفَرِهِمْ بِمَخُوفٍ، فَيَقُولُ كُلُّ رَجُلٍ: «أَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْمَكَانِ مِنْ شَرِّ سَفَهَائِهِ» ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ بِعَوْدِهِمْ بِهِمْ ﴿رَهَقًا﴾ ﴿٦﴾ فَقَالُوا: «سُدْنَا الْجِنَّ وَالْإِنْسَ». ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ أَيِ: الْجِنُّ ﴿ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ﴾ يَا إِنْسُ ﴿أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيِ: أَنَّهُ ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ ﴿٧﴾ بَعْدَ مَوْتِهِ. قَالَ الْجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ رُفْنَا اسْتِرَاقَ السَّمْعِ ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ ﴿٨﴾ نُجُومًا مُحَرَّقَةً ﴿وَذَلِكَ لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ. ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ أَيِ: قَبْلَ مَبْعَثِهِ ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدَ لِّلسَّمْعِ﴾ أَيِ: نَسْتَمِعُ ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا﴾ ﴿٩﴾ أُرْصِدَ لَهُ لِيُرْمَى بِهِ. ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أُرِيدَ﴾ بَعْدَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ ﴿بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾ خَيْرًا ﴿١١﴾. ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ بَعْدَ اسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أَيِ: قَوْمٌ غَيْرُ صَالِحِينَ ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ ﴿١٢﴾ فِرْقًا مُخْتَلِفِينَ مُسْلِمِينَ وَكَافِرِينَ ﴿١٣﴾. ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيِ: أَنَّهُ ﴿لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ ﴿١٤﴾ أَيِ:

(١) اللمس: حقيقته الجس باليد، ويطلق مجازا على اختبار أمر؛ لأن إحساس اليد أقوى إحساس، فشبه به الاختبار على طريق الاستعارة. [ابن عاشور (٢٩/٢٢٧)].

(٢) جمع شهاب، وهي الشعلة المقتبسة من نار الكواكب. [أبو السعود (٩/٤٤)].

(٣) هذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل، والخير أضافوه إلى الله عز وجل. وقد ورد في الصحيح: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ». أخرجه مسلم (٧٧١). وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذا رمي بنجم فاستنار، فقال ﷺ: «مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» فقلنا: كنا نقول: يولد عظيم، يموت عظيم، فقال: «فَإِنَّهُ لَا يُرْمَى بِهِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنْ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ لَهُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، ثُمَّ سَأَلَ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّادِسَةِ أَهْلُ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالَ: فَيُخْبِرُونَهُمْ ثُمَّ يَسْتَخْبِرُ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَبْلُغَ الْخَبْرُ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَتَخْتَفِ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَيَرْمُونَ فَيَقْدِفُونَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَحَرِّفُونَهُ وَيَزِيدُونَ». أخرجه مسلم (٢٢٢٩). وهذا هو السبب الذي حملهم على تطلب السبب في ذلك، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها، فوجدوا رسول الله ﷺ يقرأ بأصحابه في الصلاة، فعرفوا أن هذا هو الذي حفظت من أجله السماء، فأمن من آمن منهم، وتمرد في طغيانه من بقي. [ابن كثير (٨/٢٤٠)].

(٤) أي: جماعات متفرقة وفرقا شتى، وأصنافا مختلفة وذوي مذاهب متفاوتة، والقدة القطعة من الشيء وصار القوم قددا إذا تفرقت أحوالهم، واستعمال القدد في الفرق مجاز، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أهواء شتى. وقال سعيد بن المسيب: كانوا مسلمين ويهودا ونصارى ومجوسا، وكذا قال

لَا نَقُوتُهُ كَاتِبِينَ فِي الْأَرْضِ، أَوْ هَارِبِينَ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ. ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى﴾ الْقُرْآنَ ﴿ءَامَنَّا بِهِ ۚ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۚ فَلَا يَخَافُ ۚ بِتَقْدِيرِ ۚ هُوَ﴾ بَعْدَ أَلْفَاءٍ ﴿بِخَسَا﴾ نَقْصًا مِنْ حَسَنَاتِهِ ﴿وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾ ظُلْمًا بِالزِّيَادَةِ فِي سَيِّئَاتِهِ. ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ الْجَائِرُونَ بِكُفْرِهِمْ ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ۝١٤﴾ قَصِدُوا هِدَايَةً. ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ وَقُودًا^(١). وَ«أَنَا» وَ«أَنْتَهُمْ» وَ«أَنْتَ» فِي اثْنِي عَشَرَ مَوْضِعًا هِيَ: ﴿وَأَنْتَ وَتَعَالَى﴾ ﴿وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ وَمَا بَيْنَهُمَا بِكَسْرِ الِهِمَزَةِ اسْتِنَافًا، وَبِفَتْحِهَا بِمَا يُوجِّهُ بِهِ. قَالَ تَعَالَى فِي كُفَّارِ مَكَّةَ: ﴿وَأَ﴾ نَ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَي: «وَأَنْتَهُمْ» وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى «أَنْتَ اسْتَمَعَ»، ﴿لَوِ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ أَي: طَرِيقَةِ الْإِسْلَامِ ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ۝١٦﴾ كَثِيرًا مِنَ السَّمَاءِ وَذَلِكَ بَعْدَ مَا رُفِعَ الْمَطَرُ عَنْهُمْ سَبْعَ سِنِينَ^(٢). ﴿لَنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَخْتَبِرَهُمْ ﴿فِيهِ﴾ فَنَعْلَمَ كَيْفَ شُكْرُهُمْ، عِلْمٌ ظُهُورٍ ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ ۚ﴾ الْقُرْآنِ ﴿نَسْلُكُهُ﴾ بِالْثَوْنِ وَالْيَاءِ: نُدْخِلُهُ ﴿عَذَابًا صَعَدًا ۝١٧﴾ شَاقًّا. ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ﴾ مَوَاضِعَ الصَّلَاةِ ﴿لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا فِيهَا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ بِأَنْ تُشْرِكُوا، كَمَا كَانَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى إِذَا دَخَلُوا كَنَائِسَهُمْ وَبَيْعَهُمْ أَشْرَكُوا^(٣). ﴿وَأَنْتَ وَ

مجاهد: قال الحسن: الجن أمثالكم قدرية ومرجئة وخوارج ورافضة وشيعة وسنية وكذا قال السدي. [صديق حسن (١٤/٣٥٨)].

(١) يعني الظالمين، يقال قسط الرجل إذا جار، وأقسط بالألف إذا عدل. هاهنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن، وأما قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ يحتمل أن يكون من بقية كلامهم. أو يكون ابتداء كلام الله تعالى وهو الذي اختاره ابن عطية، وأما قوله: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَمُّوا﴾ فهو من كلام الله باتفاق وليس من كلامهم. [ابن جُزَيٍّ (٢/٤١٩)].

(٢) الماء الغدق الكثير وذلك استعارة في توسيع الرزق، والطريقة هي طريقة الإسلام وطاعة الله، فالمعنى لو استقاموا على ذلك توسع الله أرزاقهم، فهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقيل: هي طريقة الكفر، والمعنى على هذا: لو استقاموا على الكفر توسع الله عليهم في الدنيا أملاكهم استدراجًا، ويؤيد هذا قوله: ﴿لَنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ والأول أظهر، والضمير في ﴿اسْتَقَمُّوا﴾ يحتمل أن يكون للمسلمين، أو القاسطين المذكورين، أو لجميع الجن، أو للجن الذين سمعوا النبي ﷺ، أو لجميع الخلق. [ابن جُزَيٍّ (٢/٤١٩)].

(٣) أي: وأوحى إلي أن المساجد مختصة بالله، وقال الخليل التقدير: ولأن المساجد، والمساجد الموضع التي بنيت للصلاة فيها، جمع مسجد بكسر الجيم وهو موضع السجود، قال سعيد بن جبیر: قالت الجن كيف لنا أن نأتي المساجد ونشهد معك الصلاة ونحن ناؤون فنزلت، وقال الحسن: أراد بها كل البقاع لأن الأرض جعلت كلها مسجدًا للنبي ﷺ، وقال سعيد بن المسيب وطلق بن حبيب: أراد بالمساجد الأعضاء التي يسجد عليها العبد، وهي القدمان والركبتان واليدان والجهة والأنف، وهو على هذا جمع مسجد بالفتح يقول هذه أعضاء أنعم الله بها عليك فلا تسجد بها لغيره فتجحد نعمة الله، وكذا قال عطاء، وقيل: المساجد هي الصلاة لأن السجود من جملة أركانها

بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ اسْتِثْنَاءً، وَالضَّمِيرُ لِلشَّانِ ﴿لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ﴾ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ ﷺ ﴿يَدْعُوهُ﴾ يَعْبُدُهُ بِبَطْنِ نَخْلَةٍ ﴿كَادُوا﴾ أَيِ: الْجِنُّ الْمُسْتَمِعُونَ لِقِرَاءَتِهِ ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ وَضَمِّهَا جَمْعُ «لِبَدَةٍ» كَاللَّبْدِ فِي رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا إِزْدَحَامًا حَرَصًا عَلَى سَمَاعِ الْقُرْآنِ^(١). ﴿قُلْ﴾ مُجِيبًا لِلْكَفَّارِ فِي قَوْلِهِمْ: «ارْجِعْ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ»، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿قُلْ﴾، ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ إِلَهًا ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۖ﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا غِيًّا ﴿وَلَا رَشَدًا ۖ﴾ خَيْرًا. ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ﴾ مِنْ عَذَابِهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴿أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ﴾ أَيِ: غَيْرُهُ ﴿مُلْتَحِدًا ۖ﴾ مُلتَجَأًا. ﴿إِلَّا بَلَاغًا﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنْ مَفْعُولِ ﴿أَمْلِكُ﴾، أَيِ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ إِلَّا الْبَلَاغَ إِلَيْكُمْ ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ أَيِ: عَنْهُ ﴿وَرِسَالَتِهِ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿بَلَاغًا﴾، وَمَا بَيْنَ الْمُسْتَشْنَى مِنْهُ وَالْإِسْتِثْنَاءِ اعْتِرَاضٌ لِتَأْكِيدِ نَفْيِ الْإِسْطِطَاعَةِ ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي التَّوْحِيدِ فَلَمْ يُؤْمِنْ ﴿فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «مَنْ» فِي «لَهُ» رِعَايَةً لِمَعْنَاهَا، وَهِيَ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ وَالْمَعْنَى: يَدْخُلُونَهَا مُقَدَّارَ خُلُودِهِمْ^(٢) ﴿فِيهَا أَبَدًا ۖ﴾ حَتَّى إِذَا رَأَوْا ﴿حَتَّى﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ فِيهَا مَعْنَى الْغَايَةِ لِمُقَدَّرِ قَبْلَهَا، أَيِ: لَا يَزَالُونَ عَلَى كُفْرِهِمْ إِلَى أَنْ يَرَوْا^(٣) ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ بِهِ مِنَ الْعَذَابِ

قاله الحسن، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن يوم نزلت هذه الآية في الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس، وقيل: المراد بها البيوت التي تبنيتها أهل الملل للعبادة، والقول بأنها البيوت المبنية للعبادة أظهر الأقوال إن شاء الله تعالى وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإضافة المساجد إلى الله إضافة تشريف وتكريم وقد تنسب إلى غيره تعريفاً. [صديق حسن (١٤/ ٣٦٢)].

(١) أي: جماعات بعضها فوق بعض، تعجبا مما رأوه من عبادته، واقتداء أصحابه به، وإعجابا بما تلا من القرآن؛ لأنهم رأوا ما لم يروا مثله، وسمعوا بما لم يسمعوا بنظيره. فالضمير في ﴿كَادُوا﴾ للجن ... وجوز رجوعه للمشركين بمكة، والمعنى: لما قام رسولنا يعبد الله وحده، مخالفا للمشركين في عبادتهم الآلهة من دونه، كاد المشركون لتظاهروا عليهم، وتعاونهم على عداوته، يزدحمون عليه متراكمين، حكاة الزمخشري، ثم قال: ﴿لِبَدًا﴾ جمع لبدة، وهو ما تلبد بعضه على بعض، ومنها لبدة الأسد. [القاسمي (٩/ ٣٣٤)]. وقيل: تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه. وهذا قول ثالث، وهو مروي عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقول ابن زيد، واختيار ابن جرير، وهو أظهر لقوله بعده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾. [ابن كثير (٨/ ٢٤٥)].

(٢) ﴿أَبَدًا﴾ تأكيد لمعنى الخلود، أي: خالدين فيها بلا نهاية. [الشوكاني (٥/ ٣٧٢)].

(٣) كانوا إذا سمعوا آيات الوعد بنصر الرسول ﷺ والمسلمين في الدنيا والآخرة، وآيات الوعيد للمشركين بالانزهار وعذاب الآخرة وعذاب الدنيا استسخروا من ذلك وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِتْلًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، فهم مغرورون بالاستدراج والإمهال فلذلك عقب وعيدهم بالغاية المفادة من ﴿حَتَّى﴾ فالغاية هنا متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام من سخرية الكفار من

﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عِنْدَ حُلُولِهِ بِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿مَنْ أضعَفُ نَاصِرًا وَأَقْلُ عَدَدًا﴾ ﴿٢٥﴾ أَعْوَانًا، أَهْمُ أَمِ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ، أَوْ أَنَا أَمْ هُمْ عَلَى الثَّانِي^(١). فَقَالَ بَعْضُهُمْ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ فَتَزَلْ: ﴿قُلْ إِنْ﴾ أَيُّ: مَا أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعِدُونَ ﴿مِنَ الْعَذَابِ﴾ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٦﴾ غَايَةً وَأَجَلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا هُوَ^(٢). ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ﴾ مَا غَابَ عَنِ الْعِبَادِ ﴿فَلَا يُظْهِرُ﴾ يُطْلِعُ ﴿عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٦﴾ مِنَ النَّاسِ. ﴿إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ﴾ مَعَ إِطْلَاعِهِ عَلَى مَا شَاءَ مِنْهُ مُعْجَزَةٌ لَهُ ﴿يَسْأَلُ﴾ يَجْعَلُ وَيَسِيرُ ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ: الرَّسُولِ ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ ﴿٢٧﴾ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَهُ حَتَّى يُبْلَغَهُ فِي جُمْلَةِ الْوَحْيِ^(٣). ﴿لِيَعْلَمَ﴾ اللَّهُ عِلْمَ ظُهُورِ ﴿أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَيُّ: أَنَّهُ ﴿قَدْ أَبْلَغُوا﴾ أَيُّ: الرَّسُلُ ﴿رِسَالَتِ رَبِّهِمْ﴾ رُوعِي بِجَمْعِ الضَّمِيرِ مَعْنَى «مِنْ» ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عَطَفَ عَلَى مُقَدَّرٍ، أَيُّ: فَعَلِمَ ذَلِكَ ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ ﴿٢٨﴾ تَمَيِّزٌ وَهُوَ مُحَوَّلٌ مِنَ الْمَفْعُولِ، وَالْأَصْلُ: أَحْصَى عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ.

الوعيد واستضعافهم المسلمين في العدد والعدد، فإن ذلك يفهم منه أنهم لا يزالون يحسبون أنهم غالبون فأتزون حتى إذا رآوا ما يوعدون تحققوا إخفاق آمالهم. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٤٥)].

(١) أي: بل المشركين لا ناصر لهم بالكلية، وهم أقل عددا من جنود الله عز وجل. [ابن كثير (٨/ ٢٤٦)].

(٢) فإيا الله ما أعظم كلام الرسل حيث يستضعفون أنفسهم ويذكرون قوتهم من جهة مولا لهم الذي بيده الملك وله جنود السماوات والأرض بخلاف الجبابرة فإنهم لا كلام لهم إلا في تعظيم أنفسهم، وازدراء غيرهم. [صديق حسن (١٤/ ٣٦٧)]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَذْرِي أَقْرَبُ مَا تُوعِدُونَ﴾ يعني قيام الساعة. وقيل: عذاب الدنيا، أي: لا أدري ف «إِنْ» بمعنى: «ما» أو «لا»، أي: لا يعرف وقت نزول العذاب ووقت قيام الساعة إلا الله، فهو غيب لا أعلم منه إلا ما يعرفه الله. [القرطبي (١٩/ ٢٧)].

(٣) قوله تعالى: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ أَرْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴿فَإِنَّهُ يُظْهِرُهُ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ غَيْبِهِ، لِأَنَّ الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض الغائبات، وفي التنزيل: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩]... ليكون ذلك دالا على نبوته. وليس المنجم ومن ضاهاه ممن يضرب بالحصي وينظر في الكتب ويزجر بالطير ممن ارتضاه من رسول فيطلعه على ما يشاء من غيبه، بل هو كافر بالله مفتر عليه بحدسه وتخمينه وكذبه. ﴿فَإِنَّهُ يُسْأَلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ يعني ملائكة يحفظونه عن أن يقرب منه شيطان، فيحفظ الوحي من استراق الشياطين والإلقاء إلى الكهنة. [القرطبي (١٩/ ٢٧)].

سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ

مَكِّيَّةٌ، أَوْ إِلَّا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَمَدَنِيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ أَوْ عِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١﴾ النَّبِيُّ، وَأَصْلُهُ «الْمُتَزَّمِّلُ» أُدْغِمَتِ النَّاءُ فِي الرَّايِ، أَي: الُمْتَلَفُّ بِشَبَابِهِ حِينَ مَجِيءِ الْوَحْيِ لَهُ، خَوْفًا مِنْهُ لِهَيْبَتِهِ. ﴿فَمِ اللَّيْلِ ۝٢﴾ صَلَّ ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٣﴾ نِصْفَهُ ۝٤ بَدَلٌ مِنْ ﴿قَلِيلًا﴾ وَقَلَّتْهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْكُلِّ ﴿أَوْ انْقُصَ مِنْهُ ۝٥﴾ مِنَ النِّصْفِ ﴿قَلِيلًا ۝٦﴾ إِلَى الثُّلُثِ. ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۝٧﴾ إِلَى الثَّلَاثِينَ وَأَوَّلِ التَّخِيرِ ۝٨ ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ ۝٩﴾ تَبَّتْ فِي تِلَاوَتِهِ ۝١٠ ﴿تَرْتِيلًا ۝١١﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ۝١٢ أَي: قُرْآنًا ﴿ثَقِيلًا ۝١٣﴾ مَهِيًا أَوْ شَدِيدًا لِمَا فِيهِ مِنَ التَّكَالِيفِ ۝١٤. ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ۝١٥﴾ الْقِيَامَ بَعْدَ النَّوْمِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً ۝١٦﴾ مُوَافَقَةً السَّمْعِ لِلْقَلْبِ عَلَى تَفْهَمِ الْقُرْآنِ ﴿وَأَقُومُ قِيْلًا ۝١٧﴾ أُبَيِّنُ قَوْلًا. ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝١٨﴾ تَصَرُّفًا فِي أَشْغَالِكَ لَا تَفْرُغُ فِيهِ لِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ. ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ ۝١٩﴾ أَي: قُل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» فِي ابْتِدَاءِ قِرَاءَتِكَ ۝٢٠ ﴿وَتَبَتَّلْ ۝٢١﴾ انْقَطَعَ ﴿إِلَيْهِ ۝٢٢﴾ فِي الْعِبَادَةِ ۝٢٣ ﴿تَبَتَّلًا ۝٢٤﴾ مَصْدَرُ «تَبَتَّلَ» جِيءَ بِهِ رِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ وَهُوَ مَلْزُومُ التَّبَتُّلِ. هُوَ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٢٥﴾ مُوَكَّلًا لَهُ أُمُورَكَ ۝٢٦. ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ۝٢٧﴾ أَي: كُفَارَ مَكَّةَ مِنْ أَذَاهُمْ ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝٢٨﴾ لَا جَزَعَ فِيهِ

(١) أي: أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل، لا حرج عليك في ذلك. [ابن كثير (٨/ ٢٥٠)].

(٢) الترتيل هو التمهّل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك مُعَيَّنٌ عَلَى التَّفَكُّرِ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ، بِخِلَافِ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يَفْقَهُ صَاحِبُهُ مَا يَقُولُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ حَرْفًا حَرْفًا، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ رَحْمَةً إِلَّا وَقَفَ وَسَأَلَ، وَلَا يَمُرُّ بِآيَةٍ عَذَابًا، إِلَّا وَقَفَ وَتَعَوَّذَ. [ابن جُرَيْجٍ (٢/ ٤٢٣)].

(٣) قال بعض المفسرين: إن الثقل في وزن الثواب، وقيل: في التكاليف به، وقيل: أثناء نزول الوحي عليه، وكل ذلك ثابت للقرآن الكريم. [عطية سالم (٨/ ٣٥٨)].

(٤) أي: دم على ذكره ليلا ونهارا. قال الزمخشري: وذكر الله يتناول كل ما كان من ذكر طيب: تسييح وتهليل وتكبير وتمجيد وتوحيد وصلاة وتلاوة قرآن، ودراسة علم، وغير ذلك مما كان رسول الله ﷺ يستغرق به ساعات ليله ونهاره. [القاسمي (٩/ ٣٤٢)].

(٥) التبتل المأمور به: الانقطاع إلى الله بإخلاص العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، والتبتل المنهي عنه: هو سلوك مسلك النصارى في ترك النكاح والترهب في الصوامع، لكن عند فساد الزمان «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرٌ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَقْرُبُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». أخرجه البخاري (١٩). [القرطبي (١٩/ ٤٥)].

(٦) أي: هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل، كما قال في الآية الأخرى:

وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِهِمْ^(١). ﴿وَذَرْنِي﴾ أُرْكَنِي ﴿وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْمَفْعُولِ، أَوْ مَفْعُولٌ مَعَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَا كَافِيكُهُمْ، وَهُمْ صَنَادِيدُ قُرَيْشٍ ﴿أُولَى النِّعْمَةِ﴾ التَّنْعِمُ^(٢) ﴿وَمَهْلُهُمْ قَلِيلًا﴾^(٣) مِنَ الزَّمَنِ، فَقَتِلُوا بَعْدَ يَسِيرٍ مِنْهُ بِبَدْرِ. ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا﴾ قِيُودًا ثِقَالًا، جَمْعُ «نِكَلٍ» بِكَسْرِ النُّونِ ﴿وَجَحِيمًا﴾^(٤) نَارًا مُحْرِقَةً. ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ يَغْصُ بِهِ فِي الْحَلْقِ، وَهُوَ: الزَّقُّومُ أَوِ الصَّرِيعُ أَوِ الْغَسْلِينُ أَوْ شَوْكٌ مِنْ نَارٍ لَا يَخْرُجُ وَلَا يَنْزِلُ ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٥) مُؤْلِمًا زِيَادَةً عَلَى مَا ذُكِرَ لِمَنْ كَذَبَ النَّبِيَّ ﷺ. ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ تَرْزُلُ ﴿الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رَمَلًا مُجْتَمِعًا ﴿مَهِيلًا﴾^(٦) سَائِلًا بَعْدَ اجْتِمَاعِهِ، وَهُوَ مِنْ هَالٍ يَهِيلُ، وَأَصْلُهُ «مَهْيُولٌ» أُسْتُقِلَتِ الضَّمَّةُ عَلَى الْيَاءِ فَنُقِلَتْ إِلَى الْهَاءِ، وَحُذِفَتِ الْوَاوُ ثَانِي السَّاكِنِينَ لِزِيَادَتِهَا، وَقُبِلَتِ الضَّمَّةُ كَسْرَةً لِمُجَانَسَةِ الْيَاءِ^(٧). ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ﴿رَسُولًا﴾ هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَا يَصْدُرُ مِنْكُمْ مِنَ الْعِصْيَانِ ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾^(٨) هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾^(٩) شَدِيدًا. ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿يَوْمًا﴾ مَفْعُولٌ ﴿تَتَّقُونَ﴾، أَيُّ: عَذَابُهُ، أَيُّ: بِأَيِّ حِصْنٍ تَتَحَصَّنُونَ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ ﴿يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾^(١٠) جَمْعُ «أَشِيبَ» لَشِدَّةِ هَوْلِهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَالْأَصْلُ فِي شَيْنٍ «شَيْبَ» الضَّمُّ، وَكُسِرَتْ لِمُجَانَسَةِ الْيَاءِ، وَيُقَالُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ: «يَوْمٌ يَشِيبُ نَوَاصِي الْأَطْفَالِ» وَهُوَ مَجَازٌ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ فِي الْآيَةِ الْحَقِيقَةُ^(١١). ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ﴾ ذَاتُ انْفِطَارٍ، أَيُّ: انْشِقَاقٍ ﴿بِهِ﴾ بِذَلِكَ الْيَوْمِ لَشِدَّتِهِ ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ تَعَالَى

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وكقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وآيات كثيرة في هذا المعنى، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله، وتخصيصه بالتوكل عليه. [ابن كثير (٨/ ٢٥٥)].

(١) وقيل: إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ وأما الصبر فمأمور به في كل وقت. [ابن جزي (٢/ ٢٤٢)].
 (٢) يحتمل قوله تعالى: ﴿أُولَى النِّعْمَةِ﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أنه قال تعريفًا لهم إن المبالغين في التكذيب هم أولو النعمة. الثاني: أنه قال ذلك تعليلاً، أي: الذين أطغى هم أولو النعمة. الثالث: أنه قال توبيخاً أنهم كذبوا ولم يشكروا من أولاهم النعمة. [الماوردي (٦/ ١٢٩)].
 (٣) الرجف: الزلزلة والاضطراب، والمراد: الرجف المتكرر المستمر، وهو الذي يكون به انفرط أجزاء الأرض وانحلالها. والكثيب: الرمل المجتمع كالربوة، أي: تصوير حجارة الجبال دقاقاً. ومهيل: اسم مفعول من هال الشيء هَيْلاً، إذا نثره وصبه... وجيء بفعل ﴿كَانَتْ﴾ في قوله: ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ للإشارة إلى تحقيق وقوعه حتى كأنه وقع في الماضي. ووجه مخالفته لأسلوب ﴿تَرْجُفُ﴾ أن صيرورة الجبال كتباً أمر عجيب غير معتاد، فلعله يستبعده السامعون، وأما رجف الأرض فهو معروف، إلا أن هذا الرجف الموعود به أعظم ما عرف جنسه. [ابن عاشور (٢٩/ ٢٧١)].

(٤) وهو وصف له باعتبار ما يقع فيه من الأهوال والأحزان؛ لأنه شاع أن الهم مما يسرع به الشيب، فلما أريد وصف هم ذلك اليوم بالشدة

بِمَجِيءِ ذَلِكَ ﴿مَفْعُولًا ١٨﴾ أَيُّ هُوَ كَائِنْ لَا مَحَالَةَ. ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ الْآيَاتِ الْمُخَوِّفَةِ ﴿تَذَكُّرٌ﴾ عِظَةٌ لِلْخَلْقِ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ١٩﴾ طَرِيقًا بِالْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ. ﴿*إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ﴾ أَقَلِّ ﴿مِنْ ثُلثِي اللَّيْلِ وَنِصْفِهِ وَثُلُثِيهِ﴾ بِالْجَرِّ عَطْفٌ عَلَىٰ ﴿ثُلْثِي﴾، وَبِالنَّصْبِ عَطْفٌ عَلَىٰ ﴿أَدْنَىٰ﴾، وَقِيَامُهُ كَذَلِكَ نَحْوُ مَا أُمِرَ بِهِ أَوَّلَ السُّورَةِ ﴿وَمَا يَفْعَلُ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ عَطْفٌ عَلَىٰ ضَمِيرِ ﴿تَقُومُ﴾، وَجَازَ مِنْ غَيْرِ تَأْكِيدٌ لِلْفَصْلِ، وَقِيَامُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَذَلِكَ لِلتَّأْسِي بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى مِنَ اللَّيْلِ وَكَمْ بَقِيَ مِنْهُ فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ احْتِيَاظًا، فَقَامُوا حَتَّىٰ انْتَفَخَتْ أَفْدَامُهُمْ سَنَةً أَوْ أَكْثَرَ، فَخَفَّفَ عَنْهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ﴾ يُحْصِي ﴿الَّيْلَ وَالنَّهَارَ عِلْمَ أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: أَنَّهُ ﴿لَنْ تُخْصَوْهُ﴾ أَيُّ: اللَّيْلَ لَتَقُومُوا فِيَمَا يَجِبُ الْقِيَامُ فِيهِ إِلَّا بِقِيَامِ جَمِيعِهِ وَذَلِكَ يَشُقُّ عَلَيْكُمْ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ رَجَعَ بِكُمْ إِلَى التَّخْفِيفِ ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ فِي الصَّلَاةِ بِأَنْ تَصَلُّوا مَا تَيَسَّرَ ﴿عِلْمَ أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْذُوفٌ، أَيُّ: أَنَّهُ ﴿سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يُسَافِرُونَ ﴿يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ يَطْلُبُونَ مِنْ رِزْقِهِ بِالتَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا ﴿وَعَاخَرُونَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَكُلٌّ مِنَ الْفَرَقِ الثَّلَاثَةِ يَشُقُّ عَلَيْهِمْ مَا ذُكِرَ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ، فَخَفَّفَ عَنْهُمْ بِقِيَامِ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ، ثُمَّ نَسَخَ ذَلِكَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ١) ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ الْمَفْرُوضَةَ ﴿وَعَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ بِأَنْ تُنْفِقُوا مَا سِوَى الْمَفْرُوضِ مِنَ الْمَالِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ عَنْ طَيْبِ قَلْبٍ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا﴾ مِمَّا خَلَفْتُمْ، وَهُوَ فَضْلٌ وَمَا بَعْدَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَةً يُشَبِّهُهَا لِامْتِنَاعِهِ مِنَ التَّعْرِيفِ ٢) ﴿وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ٣٠﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ.

البالغة أقواها أسند إليه يشيب الولدان الذين شعرهم في أول سواده. وهذه مبالغة عجيبة، وهي من مبتكرات القرآن، والشيب كناية عن هذا الهول فاجتمع في الآية مجازان عقليان، وكناية ومبالغة. [ابن عاشور (٢٧٥/٢٩)].

(١) للأحاديث الصحيحة المصرحة بقول السائل لرسول الله ﷺ هل على غيرها يعني الصلوات الخمس، فقال: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ». أخرجه البخاري (٢٦٧٨)، ومسلم (١١). فدللت على عدم وجوب غيرها فارتفع بهذا وجوب قيام الليل وصلاته على الأمة، كما ارتفع وجوب ذلك على النبي ﷺ بقوله: ﴿وَمَنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]. [الشوكاني (٣٨٦/٥)].

(٢) قال النبي ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟»، قالوا يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه، قال: «فَإِنَّ مَالَهُ مَا قَدَّمَ، وَمَالٌ وَارِثُهُ مَا أَخَّرَ». أخرجه البخاري (٦٤٤٢).

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ
مَكِّيَّةٌ، خَمْسٌ وَخَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ النَّبِيُّ ﷺ، وَأَصْلُهُ «الْمُدَّثِّرُ» أَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الدَّالِ، أَيِ: الُمْتَلَفُّ بِشَبَابِهِ عِنْدَ نَزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ ^(١). ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ خَوْفُ أَهْلِ مَكَّةَ النَّارِ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ عَظَّمَ عَنْ إِشْرَاكِ الْمُشْرِكِينَ. ﴿وِثْيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ عَنِ النَّجَاسَةِ أَوْ قَصَرَهَا خِلَافَ جَرِّ الْعَرَبِ ثِيَابَهُمْ خِيَلَاءَ قُرْبَمَا أَصَابَتْهَا نَجَاسَةٌ ^(٢). ﴿وَالرُّجْزَ﴾ فَسَّرَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْأَوْثَانِ ^(٣) ﴿فَاهْجُرْ ۝٥﴾ أَيِ: دُمَ عَلَى هَجْرِهِ. ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ بِالرَّفْعِ حَالٌ، أَيِ: لَا تُعْطِ شَيْئًا لِتَطْلُبَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَهَذَا خَاصٌّ بِهِ ﷺ لِأَنَّهُ مَأْمُورٌ بِأَجْمَلِ الْأَخْلَاقِ وَأَشْرَفِ الْأَدَابِ ^(٤). ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾

(١) أي: تغشى بها من الرعب الذي حصل له من رؤية الملك عند نزول الوحي ... قال الخطيب اختلف في أول ما نزل من القرآن اختلافاً طويلاً، وتحقيق المعتمد منه وطريق الجمع بين الأحاديث المتناقضة فيه أن أول ما نزل على الإطلاق: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وأول ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إلى ﴿فَاهْجُرْ﴾. [صديق حسن (١٤/٤٠١)].

(٢) فيه ثلاثة أقوال، أحدها أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة، واختلف في هذا هل يحمل على الوجوب، فتكون إزالة النجاسة واجبة، أو على الندب فتكون سنة، والآخر أنه يراد به الطهارة من الذنوب والعيوب، فالثياب على هذا مجاز، الثالث: أن معناه لا تلبس الثياب من مكسب خبيث. [ابن جرير (٢/٤٢٧)].

(٣) عن جابر بن عبد الله، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ برفع الراء، وقال: «هي الأوثان». أخرجه الحاكم (٢٩٩٢). و«الرُّجْزُ» بكسر الراء كالرجس، والسين والزاي يتبادلان، لأنهما من حروف الصغير. و«الرجس» اسم للقيح المستقذر، كني به عن عبادة الأوثان خاصة، لقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠] أو عن كل ما يستكره من الأفعال والأخلاق، والجملة من جوامع الكلم في مكارم الأخلاق، كأنه قيل: اهجر الجفاء والسفه وكل قبيح، ولا تتخلق بأخلاق هؤلاء المشركين المستعملين للرجز. [القاسمي (٩/٣٥٢)].

(٤) قال ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وأبو الأحوص، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم. وروي عن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿وَلَا تَمْنُنْ أَنْ تَسْتَكْثِرَ﴾، وقال الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وكذا قال الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير. وقال خفيف، عن مجاهد في قوله: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ قال: لا تضعف أن تستكثر من الخير، قال تمنن في كلام العرب: تضعف. وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضاً من الدنيا. فهذه أربعة أقوال، والأظهر القول الأول، والله أعلم.. [ابن كثير (٨/٢٦٤)].

عَلَى الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي^(١). ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ^(٢)﴾ نُفِخَ فِي الصُّورِ وَهُوَ الْقَرْنُ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ^(٣). ﴿فَذَلِكِ﴾ أَي: وَقْتُ النَّقْرِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ الْمُبْتَدَأُ، وَبُنِيَ لِإِضَافَتِهِ إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ، وَخَبَرُ الْمُبْتَدَأِ: ﴿يَوْمَ عَسِيرٍ﴾ وَالْعَامِلُ فِي «إِذَا» مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْجُمْلَةُ، أَي: اِشْتَدَّ الْأَمْرُ. ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ^(٤)﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، أَي: فِي عُسْرِهِ. ﴿ذَرْنِي﴾ اُتْرَكْنِي ﴿وَمَنْ خَلَقْتُ﴾ عَطَفْتُ عَلَى الْمَفْعُولِ أَوْ مَفْعُولٍ مَعَهُ ﴿وَحِيدًا^(٥)﴾ حَالٌ مِنْ «مَنْ» أَوْ مِنْ ضَمِيرِهِ الْمَحْذُوفِ مِنْ «خَلَقْتُ» مُنْفَرِدًا بِأَهْلِ وَلَا مَالٍ وَهُوَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ. ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا^(٦)﴾ وَاسِعًا مُتَّصِلًا مِنَ الزُّرُوعِ وَالضُّرُوعِ وَالتَّجَارَةِ. ﴿وَبَيْنَ عَشْرَةٍ أَوْ أَكْثَرَ﴾ شُهُودًا ﴿يَشْهَدُونَ الْمَحَافِلَ وَتُسْمَعُ شَهَادَاتُهُمْ^(٧)﴾. ﴿وَمَهَّدْتُ﴾ بَسَطْتُ ﴿لَهُ﴾ فِي الْعَيْشِ وَالْعُمُرِ وَالْوَلَدِ ﴿تَمْهِيدًا^(٨)﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ^(٩) كَلَّا لَا أَزِيدُهُ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يَتِنَّا﴾ الْقُرْآنَ ﴿عَنِيدًا^(١٠)﴾ مُعَانِدًا. ﴿سَأَرْهُقُهُ﴾ أَكْلَفُهُ ﴿صَعُودًا^(١١)﴾ مَشَقَّةً مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ جَبَلًا مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيهِ ثُمَّ يَهْوِي أَبَدًا^(١٢). ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ فِيمَا يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ الَّذِي

(١) أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى، فامثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنة على الناس بعد منة الله من غير أن يطلب منهم على ذلك جزاء ولا شكورا، وصبر الله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. [السعدي (ص: ٨٩٥)].

(٢) ﴿النَّاقُورِ﴾ فاعول من النقر كأنه من شأنه أن ينقر فيه للتصويت، والنقر في كلام العرب الصوت ... ويقولون: نقر باسم الرجل إذا دعاه، والمراد هنا النفخ في الصور، والمراد النفخة الثانية، وقيل: الأولى. [الشوكاني (٥/ ٣٩٠)]. ورجح أنه يوم الثانية لأنه الذي يختص عسره بالكافرين، وأما وقت النفخة الأولى فحكمه الذي هو الإصعاق يعم البر والفاجر وهو على المشهور مختص بمن كان حيا عند وقوع النفخة. [الآلوسي (١٥/ ١٣٥)]. قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد والشعبي، وزيد بن أسلم، والحسن، وقتادة، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدي، وابن زيد: ﴿النَّاقُورِ﴾ الصور. قال مجاهد: وهو كهية القرن ... وعن ابن عباس: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾ فقال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ تَقَمَّ الْقُرْنُ وَحَنَا جِبْهَتَهُ وَأَصْغَى سَمْعُهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ»، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا». أخرجه أحمد (١٩٣٤٥). [ابن كثير (٨/ ٢٦٤)].

(٣) قال مجاهد: لا يغيثون، أي: حضورا عنده لا يسافرون في التجارات، بل مواليتهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم، يتمتع بهم ويتملى بهم. [ابن كثير (٨/ ٢٦٥)].

(٤) عن النبي ﷺ قال: «الصَّعُودُ جَبَلٌ مِنْ نَارٍ يَصْعَدُ فِيهِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، ثُمَّ يَهْوِي فَهُوَ كَذَلِكَ». أخرجه أحمد والترمذي وابن جرير وابن

سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ﴿وَقَدَّرَ ١٨﴾ فِي نَفْسِهِ ذَلِكَ. ﴿فَقُتِلَ ١٩﴾ لَعْنِ وَعُدْبَ ﴿كَيْفَ قَدَّرَ ٢٠﴾ عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ تَقْدِيرُهُ. ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢١﴾ ثُمَّ نَظَرَ ٢٢ فِي وُجُوهِ قَوْمِهِ أَوْ فِيمَا يَقْدَحُ بِهِ فِيهِ. ﴿ثُمَّ عَبَسَ ٢٣﴾ قَبْضَ وَجْهِهِ وَكَلَّحَهُ ضَيْقًا بِمَا يَقُولُ ﴿وَبَسَرَ ٢٤﴾ زَادَ فِي الْقَبْضِ وَالْكُلُوحِ. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ ٢٥﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿وَأَسْتَكْبَرَ ٢٦﴾ تَكَبَّرَ عَنِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ ﴿فَقَالَ ٢٧﴾ فِيمَا جَاءَ بِهِ: ﴿إِنْ ٢٨﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ٢٩﴾ يُنْقَلُ عَنِ السَّحَرَةِ. ﴿إِنْ ٣٠﴾ مَا ﴿هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ٣١﴾ كَمَا قَالُوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ ٣٢﴾ [النحل: ١٠٣]. ﴿سَأُصْلِيهِ ٣٣﴾ أَدْخِلْهُ ﴿سَقَرَ ٣٤﴾ جَهَنَّمَ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ٣٥﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهَا. ﴿لَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ ٣٦﴾ شَيْئًا مِنْ لَحْمٍ وَلَا عَصَبٍ إِلَّا أَهْلَكَتْهُ، ثُمَّ يَعُودُ كَمَا كَانَ. ﴿لَوَاحِئُهُ لِلْبَشَرِ ٣٧﴾ مُحَرَّقَةٌ لِظَاهِرِ الْجِلْدِ. ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ٣٨﴾ مَلَكًا خَزَنَتُهَا، قَالَ بَعْضُ الْكُفَّارِ وَكَانَ قَوِيًّا شَدِيدَ الْبَاسِ: أَنَا أَكْفَيْكُمْ سَبْعَةَ عَشَرَ وَاكْفُونِي اثْنَيْنِ ٣٩. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ٤٠﴾

المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي، قال الترمذي بعد إخراج غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج. قال ابن كثير وفيه غرابة ونكارة انتهى. [الشوكاني (٥/ ٣٩٥)]. [والمعنى] أي: سأغشيه عقبة شاقة المصعد. وهو مثل لما يلقى من العذاب الشاق الصعب الذي لا يطاق، قاله الزمخشري. قال الشهاب: ومعنى كونه مثلاً، أنه شبه ما يسوقه الله له من المصائب، بتكليف الصعود في الجبال الوعرة الشاهقة، وأطلق لفظه عليه. فهو استعارة تمثيلية. [القاسمي (٩/ ٣٥٣)].

(١) روى جمهور من المفسرين أن الوليد سمع من القرآن ما أعجبه ومدحه، ... حتى كاد أن يقارب الإسلام، ودخل إلى أبي بكر الصديق ﷺ مراراً، فجاءه أبو جهل فقال: يا وليد، أشعرت أن قريشاً قد ذمتك بدخولك إلى ابن أبي قحافة، وزعمت أنك إنما تقصد أن تأكل طعامه؟ وقد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد، وما يخلصك عندهم إلا أن تقول في هذا الكلام قولاً يرضيهم، ففتنه أبو جهل فافتن، وقال: افعل ذلك، ثم فكر فيما عسى أن يقول في القرآن، فقال: أقول هو شعر، ما هو شعر، أقول: هو كاهن، ما هو بكاهن، أقول: هو سحر يؤثر، هو قول البشر، أي: ليس منزلاً من عند الله تعالى، قال أكثر المفسرين: فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ٢١﴾ هو دعاء عليه وتقييح لحاله، أي أنه ممن يستحق ذلك. [ابن عطية (٥/ ٣٩٤)].

(٢) التمييز محذوف، والمتبادر إلى الذهن أنه ملك. ألا ترى العرب وهم الفصحاء كيف فهموا منه أن المراد ملك حين سمعوا ذلك، فقال أبو جهل لقريش: ثكلتكم أمهاتكم، أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أن خزنة النار تسعة عشر وأنتم الدهم، أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم، فقال أبو الأشد بن أسيد بن كلدة الجمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني اثنين. فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ٤٠﴾ أي: ما جعلناهم رجالاً من جنسكم يطاقون، وأنزل الله تعالى في أبي جهل: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأُولَى ٣٤﴾ [القيامة: ٣٤]. وقيل: التمييز المحذوف صنفاً من الملائكة، وقيل: نقيباً، ومعنى ﴿عَلَيْهَا ٣٨﴾ يتولون أمرها، وإليهم جماع زبانياتها، فالذي يظهر من العدد ومن الآية بعد ذلك ومن الحديث، أن هؤلاء هم النقباء. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ٤١﴾ وقوله ﷺ: ﴿يُؤْتِي بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ

أَيُّ: فَلَا يُطَافُونَ كَمَا يَتَوَهَّمُونَ ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ ذَلِكَ ﴿إِلَّا فِتْنَةً﴾ ضَلَالًا ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِأَن يَقُولُوا: لِمَ كَانُوا تِسْعَةَ عَشَرَ؟ ﴿لَيْسَتَيْنِ﴾ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أَيُّ: الْيَهُودُ صَدَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي كَوْنِهِمْ تِسْعَةَ عَشَرَ الْمُؤَافِقِ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ^(١) ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿إِيمَانًا﴾ تَصَدِيقًا لِمُؤَافَقَتِهِ مَا أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا فِي كِتَابِهِمْ ﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنْ غَيْرِهِمْ فِي عَدَدِ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ شَكٌّ بِالْمَدِينَةِ^(٢) ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بِمَكَّةَ: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا﴾ الْعَدَدِ ﴿مَثَلًا﴾ سَمَوُهُ لِعَرَاتِهِ بِذَلِكَ، وَأُعْرِبَ حَالًا ﴿كَذَلِكَ﴾ أَيُّ: مِثْلُ إِضْلَالِ مُنْكَرِ هَذَا الْعَدَدِ، وَهَدْيِ مُصَدِّقِهِ ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ فِي قُوَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ ﴿إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ﴾ أَيُّ: سَقَرٌ ﴿إِلَّا ذِكْرِي﴾ عِظَةٌ ﴿لِلْبَشَرِ﴾^(٣) ﴿كَلَّا﴾ اسْتِفْتَاخٌ بِمَعْنَى: أَلَا ﴿وَالْقَمَرِ﴾^(٤) وَاللَّيْلِ إِذَا بَفَتَحَ الذَّالِ ﴿دَبَّرَ﴾^(٥) جَاءَ بَعْدَ النَّهَارِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: إِذَا أَدْبَرَ بِسُكُونِ الذَّالِ بَعْدَهَا هَمْزَةٌ، أَيُّ: مَضَى. ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ﴾^(٦) ظَهَرَ. ﴿إِنِّهَا﴾ أَيُّ: سَقَرٌ ﴿لِإِحْدَى الْكَبِيرِ﴾^(٧) الْبَلَايَا الْعِظَامِ. ﴿نَذِيرًا﴾ حَالٌ مِنْ «إِحْدَى الْكَبِيرِ» وَذُكِّرَ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى: الْعَذَابِ ﴿لِلْبَشَرِ﴾^(٨) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ ﴿بَدَلٌ مِنَ﴾ ﴿لِلْبَشَرِ﴾ ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ إِلَى الْخَيْرِ أَوْ الْجَنَّةِ بِالْإِيمَانِ ﴿أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾^(٩) إِلَى الشَّرِّ أَوْ النَّارِ بِالْكَفْرِ^(١٠). ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(١١) مَرْهُونَةٌ مَأْخُودَةٌ بِعَمَلِهَا فِي النَّارِ^(١٢). ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾^(١٣) وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ فَنَاجُونَ مِنْهَا كَاتِبُونَ. ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾^(١٤) بَيْنَهُمْ. ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١٥) وَحَالِهِمْ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ بَعْدَ إِخْرَاجِ

لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُؤْنَهَا. أخرجه مسلم (٢٨٤٢). [أبو حيان (١٠ / ٣٣٢)].

(١) المراد بهم اليهود والنصارى لموافقة ما نزل من القرآن لما عندهم. [صديق حسن (١٤ / ٤١٥)].

(٢) المرض عبارة عن الشك، وأكثر ما يطلق الذين في قلوبهم مرض على المنافقين. فإن قيل: هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة، فالجواب من وجهين: أحدهما: أن معناه يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب، والآخر: أن يريد من كان بمكة من أهل الشك. [ابن جزي (٢ / ٤٢٩)].

(٣) معنى إضافة المشيئة إلى المخاطبين: التهديد، كقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. [الواحيدي (٢٢ / ٤٥١)].

(٤) في سورة الطور قوله تعالى: ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١] وهذه الآية تقتضي عموم رهن كل إنسان بعمله ... نظرا للشمول المدلول عليه بلفظة: «كل»، وقد جاءت آية سورة المدثر تدل على عدم شمولها لأصحاب اليمين، وهي قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ^(٣٩) فآية «الطور» تخصصها آية «المدثر» والتخصيص بيان، كما تقرر في الأصول. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٢٩٧)].

الْمُوحِّدِينَ مِنَ النَّارِ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ أَدْخَلَكُمْ ﴿فِي سَقَرٍ﴾ ٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ ٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ فِي الْبَاطِلِ ﴿مَعَ الْخَاطِئِينَ﴾ ٤٥ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ٤٦ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ٤٧. ﴿حَتَّى أَتَنَّا الْيَقِينَ﴾ ٤٨. ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفِيعِينَ﴾ ٤٩ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَالْمَعْنَى: لَا شَفَاعَةَ لَهُمْ. ﴿فَمَا مُبْتَدَأُ لَهُمْ﴾ خَبْرُهُ مُتَعَلِّقٌ بِمَحْذُوفٍ إِنْتَقَلَ ضَمِيرُهُ إِلَيْهِ ﴿عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ٥٠ حَالٍ مِنَ الضَّمِيرِ، وَالْمَعْنَى: أَيْ شَيْءٍ حَصَلَ لَهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِنْعَاطِ. ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ٥١ وَخَشِيَّةٌ. ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ٥٢ أَسَدٍ، أَيْ: هَرَبَتْ مِنْهُ أَشَدُّ الْهَرَبِ ٥٣. ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ ٥٤ أَيْ: مِنْ اللَّهِ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ النَّبِيِّ كَمَا قَالُوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُوهُ﴾ [الإسراء: ٩٣] ٥٥. ﴿كَلَّا﴾ ٥٦ رَدْعٌ عَمَّا أَرَادُوهُ ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ ٥٧ أَيْ: عَذَابَهَا. ﴿كَلَّا﴾ ٥٨ إِسْتِفْتَاَحٌ ﴿إِنَّهُ﴾ ٥٩ أَيْ: الْقُرْآنُ ﴿تَذْكَرَةٌ﴾ ٦٠ عِظَةٌ. ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ ٦١ قَرَأَهُ فَانْعَظَ بِهِ ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ بِالْيَاءِ وَالْتَاءِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى﴾ ٦٢ بِأَنْ يُنْفَى ﴿وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ ٦٣ بِأَنْ يَغْفَرَ لِمَنْ اتَّقَاهُ ٦٤.

(١) وإنما أخر التكذيب بيوم تعظيماً له لأنه أعظم جرائمهم. [ابن جزي (٢/ ٤٣٠)].

(٢) وهو الموت كما في قوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] وبه قال ابن عباس رضي الله عنه، وهذا غاية في الأمور الأربعة. [صديق حسن (١٤/ ٤٢١)].

(٣) شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بدیع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرمي نفرت منه أشد النفور. وهذا غاية الذم لهؤلاء، فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها، وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة؛ فإنها لشدة نفورها قد استنفرت بعضها بعضاً وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد فكانها تواصلت بالنفور، وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى أن القسورة استنفرتها وحملها على النفور بياسه وشدته. [إعلام الموقعين لابن القيم (١/ ١٢٦)].

(٤) أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبي ﷺ. قاله مجاهد وغيره، كقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَمًا حِينُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وفي رواية عن قتادة: يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل. [ابن كثير (٨/ ٢٧٤)].

(٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ وقال: «قَالَ رَبُّكُمْ: أَنَا أَهْلُ أَنْ أَتَقَى، فَلَا يُجْعَلُ مَعِيَ إِلَهٌ، فَمَنْ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ مَعِيَ إِلَهًا كَانَ أَهْلًا أَنْ أَغْفِرَ لَهُ». أخرجه الترمذي (٣٣٢٨)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٠)، وابن ماجه (٤٢٩٩)، وأحمد (١٢٤٤٢).

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ أَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا زَائِدَةٌ فِي الْمَوْضِعَيْنِ^(١)﴾ أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَمَةِ^(٢) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ^(٣)﴾ الَّتِي تَلُومُ نَفْسَهَا وَإِنْ اجْتَهَدَتْ فِي الْإِحْسَانِ^(٤)، وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، أَيُّ: لَتُبْعَثَنَّ. دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ أَيُّ: الْكَافِرُ ﴿أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ^(٥)﴾ لِلْبُعْثِ وَالْإِحْيَاءِ. ﴿بَلَىٰ﴾ نَجْمَعُهَا ﴿قَدَرَيْنِ﴾ مَعَ جَمْعِهَا ﴿عَلَىٰ أَنْ تُسَوَّىٰ بَنَانُهُ^(٦)﴾ وَهُوَ الْأَصَابِعُ، أَيُّ: نُعِيدَ عِظَامَهَا كَمَا كَانَتْ مَعَ صِغَرِهَا فَكَيْفَ بِالْكَبِيرَةِ^(٧). ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ﴾ أَلَّا زَائِدَةٌ وَنَصْبُهُ

(١) ليست ﴿لَا﴾ ها هنا نافية، ولا زائدة وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، وكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعاً للاستفتاح. فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم. [السعدي (ص: ٨٩٨)].

(٢) هي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سميت «لوامة» لكثرة تردها وتلومها وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء. [السعدي (ص: ٨٩٨)].

(٣) كل المفسرين على أن المعنى نجعل بنانه متساوية ملتحمة كخف البعير، أي: لا يستطيع أن يتناول بها شيئاً ولا يحسن بها عملاً. وهذا في الواقع لم نفهم له وجهها مع السياق، فهو وإن كان دالاً على قدرة الله وعجز العبد. ولكن السياق في إنكار البعث واستبعاده ومجيء نظير ذلك في سورة «يس»، يرشد إلى أن سبحانه قادر بعد موت العبد وتلاشيها في التراب وتحول عظامه رميماً، فهو قادر على أن يعيده تماماً، كما أنشأه أول مرة، ومن ضمن تلك الإعادة أن يسوي بنانه، أي: يعدلها وينشئها كما كانت أول مرة، والعلم عند الله تعالى. ويرشد له قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ومن الخلق ما كان عليه خلق هذا الإنسان المكذب المعترض، فهو سبحانه يعيده على ما كان عليه تماماً، وهذا أبلغ في القدرة وأبلغ في الإلزام يوم القيامة. والعلم عند الله. [عطية سالم (٨/ ٣٧٢)]. فأريد بالتسوية إعادة خلق البنان مقومة متقنة، فالتسوية كناية عن الخلق لأنها تستلزمه فإنه ما سوي إلا وقد أعيد خلقه، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]. والبنان أصابع اليدين والرجلين أو أطراف تلك الأصابع، وهو اسم جمع بنانة. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٤١)]. وهو تنبيه على التأمل في لطف تفصيل الأنامل ويديع صنعها الموجب للقطع بأن صانعها قادر على ما يريد. [البقاعي (٢١/ ٨٩)]. تلك البصمة التي تعتبر ختمًا إلهيًا جعله الخالق سبحانه وتعالى علامة جماعية فارقة للإنسان دون غيره من المخلوقات المعروفة لنا، كما جعله ميزة فردية لكل واحد من بني الإنسان تحدد شخصيته تحديداً قاطعاً، وتفردته عن غيره إفراداً مميزاً يتجاوز حدود الصفات الموروثة والمميزة لكل عرق ودم ولون، وذلك طيلة حياته.

بِ«أَنَّ» مُقَدَّرَةً، أَي: أَنْ يُكَذَّبَ ﴿٥﴾ «أَمَامَهُ» أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ^(١). دَلَّ عَلَيْهِ: ﴿يَسْأَلُ أَيَّانَ﴾ مَتَى ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ﴿٦﴾ سَوْأَلِ اسْتِهْزَاءٍ وَتَكْذِيبٍ. ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ ﴿٧﴾ بِكُسْرِ الرَّاءِ وَفَتْحِهَا، دَهْشَ وَتَحَيَّرَ لِمَا رَأَى مِمَّا كَانَ يُكَذِّبُ بِهِ^(٢). ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ﴾ ﴿٨﴾ أَظْلَمَ وَذَهَبَ ضَوْؤُهُ. ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ ﴿٩﴾ فَطَلَعَا مِنَ الْمَغْرِبِ أَوْ ذَهَبَ ضَوْؤُهُمَا وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٣). ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾ ﴿١٠﴾ الْفِرَارُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عَنْ طَلَبِ الْفِرَارِ ﴿لَا وَزَرَ﴾ ﴿١١﴾ لَا مَلْجَأَ يَتَحَصَّنُ بِهِ^(٤). ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ ﴿١٢﴾ مُسْتَقَرُّ الْخَلَائِقِ فَيَحَاسِبُونَ وَيُجَازَوْنَ. ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ ﴿١٣﴾ بِأَوَّلِ عَمَلِهِ وَآخِرِهِ. ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ ﴿١٤﴾ شَاهِدٌ، تَنْطِقُ جَوَارِحُهُ بِعَمَلِهِ وَ«الْهَاءُ» لِلْمُبَالَغَةِ فَلَا بُدَّ مِنْ جَزَائِهِ^(٥). ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ ﴿١٥﴾ جَمْعُ «مَعْدِرَةٍ» عَلَىٰ غَيْرِ قِيَاسٍ، أَي: لَوْ جَاءَ بِكُلِّ

فالأية بذلك تؤكد على إعادة بصمة كل بنان مع بعث كل ميت تأكيداً على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في كل من الخلق والبعث، كما تشير إلى دقة تسوية البنان وإلى أهمية ذلك في حياة الإنسان. [من آيات الإعجاز العلمي للنجار (ص: ١٥٩)].

(١) هذه الجملة معطوفة على ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾ ويجوز أن يكون استفهاماً مثلها أو تكون خبراً، وليست ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله؛ وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده، و﴿لَيَفْجُرْ﴾: معناه ليفعل أفعال الفجور، وفي معنى ﴿أَمَامَهُ﴾ ثلاثة أقوال: أحدها أنه عبارة عما يستقبل من الزمان، أي: يفجر بقية عمره، الثاني: أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته، يقال: «مشى فلان قدامه» إذا لم يرجع عن شيء يريده، والضمير على هذين القولين يعود على الإنسان، الثالث: أن الضمير يعود على يوم القيامة. والمعنى: يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة. [ابن جزي (٢/ ٤٣٢)].

(٢) قرئ ﴿بَرِقَ﴾ بكسر الراء وفتحها؛ فبالكسر: فزع ودهش، أصله من برق الرجل، إذا نظر إلى البرق فدهش بصره، ... وبالفتح: شق بصره، وهو من البريق، أي: لمع بصره من شدة شخوصه. قال أبو حيان: والواقع أنه لا مانع من إرادة المعنيين ما دامت القراءتان صحيحتين، وقد يشهد لهذا النص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ^(١) [إبراهيم: ٤٢ - ٤٣]. قال ابن كثير: ينظرون من الفرع هكذا وهكذا، لا يستقر لهم بصر من شدة الرعب. [عطية سالم (٨/ ٣٧٢)].

(٣) وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبادان مسخران، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين. [السعدي (ص: ٨٩٩)].

(٤) أي: لا ملجأ ولا معين، وعبر المفسرون عن «الْوَزَرَ» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: وهو كان وزر فرار العرب في بلادهم فلذلك استعمل. والحقيقة أنه «الملجأ» جبلا كان أو حصناً أو سلاحاً أو رجلاً أو غيره. [ابن عطية (٥/ ٤٠٣)].

(٥) فيه ثلاث تأويلات: أحدها: أنه شاهد على نفسه بما تقدم به الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، الثاني: أن جوارحه شاهدة عليه بعمله، قاله ابن عباس رضي الله عنه، كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، الثالث: معناه بصير بعيوب الناس غافل عن عيب نفسه فيما يستحقه لها وعليها

مَعْدَرَةٍ مَا قُبلَتْ مِنْهُ. قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ﴾ بِالْقُرْآنِ قَبْلَ فَرَاحِ جَبْرِيلَ مِنْهُ ﴿لِسَانَكَ لِتَعَجَّلَ بِهِ﴾ ﴿١٦﴾ خَوْفَ أَنْ يَنْفِلَتْ مِنْكَ. ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ﴾ فِي صَدْرِكَ ﴿وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿١٧﴾ قِرَاءَتِكَ إِيَّاهُ، أَيُّ: جَرِيَانُهُ عَلَى لِسَانِكَ. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ عَلَيْكَ بِقِرَاءَةِ جَبْرِيلَ ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿١٨﴾ اسْتَمِعْ قِرَاءَتَهُ، فَكَانَ ﷺ يَسْتَمِعُ ثُمَّ يَقْرُؤُهُ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ﴿١٩﴾ بِالتَّفْهِيمِ لَكَ، وَالْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا أَنْ تِلْكَ تَضَمَّنَتْ الْإِعْرَاضَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَهَذِهِ تَضَمَّنَتْ الْمُبَادَرَةَ إِلَيْهَا بِحِفْظِهَا. ﴿كَلَّا﴾ اسْتِفْتَا حِمْيَرٍ بِمَعْنَى: «أَلَا» ﴿بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ ﴿٢٠﴾ الدُّنْيَا بِالْيَأْءِ وَالتَّاءِ فِي الْفَعْلَيْنِ. ﴿وَيَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ﴿٢١﴾ فَلَا يَعْمَلُونَ لَهَا. ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ﴾ أَيُّ: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿نَاصِرَةٌ﴾ ﴿٢٢﴾ حَسَنَةٌ مُضِيئَةٌ. ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاضِرَةٌ﴾ ﴿٢٣﴾ أَيُّ: يَرُونَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي الْآخِرَةِ. ﴿وَوُجُوهُ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ ﴿٢٤﴾ كَالِحَةٌ شَدِيدَةُ الْعُبُوسِ. ﴿تَظُنُّ﴾ ﴿تُوقِنُ﴾ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ دَاهِيَةٌ عَظِيمَةٌ تَكْسِرُ فِقَارَ الظَّهْرِ. ﴿كَلَّا﴾ بِمَعْنَى: «أَلَا» ﴿إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ التَّرَاقِيَّ﴾ ﴿٢٦﴾ عِظَامَ الْحَلَقِ^(١). ﴿وَقِيلَ﴾ قَالَ مَنْ حَوْلَهُ: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ ﴿٢٧﴾ يَرْقِيهِ لِيُشْفَى. ﴿وَضُنَّ﴾ أَيُّقِنَ مَنْ بَلَغَتْ نَفْسُهُ ذَلِكَ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ فِرَاقُ الدُّنْيَا. ﴿وَأَلْتَفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ ﴿٢٩﴾ أَيُّ: إِحْدَى سَاقَيْهِ بِالْأُخْرَى عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ أَلْتَفَتَتْ شِدَّةَ فِرَاقِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ إِقْبَالِ الْآخِرَةِ^(٢). ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ ﴿٣٠﴾ أَيُّ: السَّوْقُ وَهَذَا يُدَلُّ عَلَى الْعَامِلِ فِي ﴿إِذَا﴾،

من ثواب وعقاب. [الماوردي (١٥٤/٦)].

(١) أي: تراه عياناً، كما رواه البخاري (٧٤٣٥)، رحمه الله، في صحيحه: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا». وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحاح، من طرق متواترة عند أئمة الحديث، لا يمكن دفعها ولا منعها؛ لحديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما: أن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هَلْ تَصَابُرُونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُمَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا. قال: «فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَذَلِكَ». أخرجه البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢). وعن جرير رضي الله عنه قال: نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تَصَابُرُونَ فِي رُؤْيَا، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تَغْلِبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَقَبْلَ غُرُوبِهَا، فَافْعَلُوا». أخرجه البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣) ... ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن، ... وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام. وهذا الأناام. [ابن كثير (٢٨٠/٨)].

(٢) عن بسر بن جحاش: أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: بُنِيَ آدَمُ أُنَى تُعْجِرُنِي وَقَدْ خَلَقْتَنِي مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ وَمَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَيَدٌ فَجَمَعْتَ وَمَنْعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ التَّرَاقِيَّ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ وَأَنْتَى أَوْ أَنْ الصَّدَقَةَ». أخرجه أحمد (١٧٨٤٤).

(٣) أي: التفت ساقه بساقه عند نزول الموت به، وقال جمهور المفسرين المعنى تتابعت عليه الشدائد ... والعرب لا تذكر الساق إلا في الشدائد الكبار والمحن العظام، ومنه قولهم قامت الحرب على ساق ... وقال الشعبي وغيره: المعنى التفت ساق الإنسان عند الموت من

وَالْمَعْنَى: إِذَا بَلَغَتِ النَّفْسُ الْحُلُقُومَ تُسَاقُ إِلَى حُكْمِ رَبِّهَا. ﴿فَلَا صَدَقَ﴾ الْإِنْسَانُ ﴿وَلَا صَلَّى﴾ ٣١ أَي: لَمْ يُصَدِّقْ وَلَمْ يُصَلِّ ٣١. ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بِالْقُرْآنِ ﴿وَتَوَلَّى﴾ ٣٢ عَنْ الْإِيمَانِ. ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ ٣٣ يَتَبَخَّرُ فِي مَشْيَيْهِ إِعْجَابًا. ﴿أَوَّلَى لَكَ﴾ فِيهِ الْتِفَاتٌ عَنِ الْغِيَةِ، وَالْكَلِمَةُ اسْمُ فِعْلٍ وَاللَّامُ لِلتَّيْسِينَ، أَي: وَلَيْكَ مَا تَكْرَهُ ﴿فَأَوَّلَى﴾ ٣٤ أَي: فَهُوَ أَوْلَى بِكَ مِنْ غَيْرِكَ ٣٤. ﴿ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ ٣٥ تَأْكِيدٌ. ﴿أَيَحْسَبُ﴾ يَظُنُّ ﴿الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ٣٦ هَمَلًا لَا يُكَلِّفُ بِالْشَّرَائِعِ؟ أَي: لَا يَحْسَبُ ذَلِكَ. ﴿أَلَمْ يَكْ﴾ أَي: كَانَ ﴿نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى﴾ ٣٧ بِأَلْيَاءٍ، وَالتَّاءُ تُصَبُّ فِي الرَّحِمِ. ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ أَلْمَنِيَّ ﴿عَلَقَةً فَحَلَقَ﴾ اللَّهُ مِنْهَا الْإِنْسَانَ ﴿فَسَوَّى﴾ ٣٨ عَدَلَ أَعْضَاءَهُ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ﴾ مِنَ أَلْمَنِيَّ الَّذِي صَارَ عَلَقَةً قِطْعَةً دَمٍ ثُمَّ مُضْغَةً، أَي: قِطْعَةً لَحْمٍ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ النُّوعَيْنِ ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ٣٩ يَجْتَمِعَانِ تَارَةً وَيَنْفَرِدُ كُلُّ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ تَارَةً. ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ أَلْفَعَالٌ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ ٤٠ قَالَ ﷺ: بَلَى ٣.

شدة الكرب، وقال قتادة: أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب إحدى رجله على الأخرى. [صديق حسن (١٤/٤٤٦)].

(١) أي: لم يصدق الإنسان المذكور في أول هذه السورة بالرسالة ولا بالقرآن، ولا صلى لربه، أي: الصلاة الشرعية، فهو ذم له بترك العقائد والفروع. [صديق حسن (١٤/٤٤٧)]. وفعل ﴿صَدَّقَ﴾ مشتق من التصديق، أي: تصديق الرسول ﷺ والقرآن وهو المناسب لقوله ﴿وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾. والمعنى: فلا آمن بما جاء به الرسول ﷺ... وعطف ﴿وَلَا صَلَّى﴾ على نفي التصديق تشويها له بأن حاله مبائن لأحوال أهل الإسلام. والمعنى: فلم يؤمن ولم يسلم. [ابن عاشور (٢٦/٣٦١)].

(٢) ويل لك من الولي، وأصله أولئك الله ما تكرهه واللام مزيدة كما في ﴿رَدَفَ لَكُمْ﴾ [النمل: ٧٢]، أو أولى لك الهلاك. وقيل: أفعل من الويل بعد القلب أدنى من أدون، أو فعلى من آل يؤول بمعنى عقباك النار. [البيضاوي]. عن سعيد بن جبير، قال: سألت ابن عباس عن قول الله: ﴿أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى﴾ شيء قاله رسول الله ﷺ لأبي جهل من قبل نفسه، أم أمره الله به؟ قال: بلى، قاله من قبل نفسه، ثم أنزله الله. أخرجه النسائي في الكبرى (١١٥٧٤).

(٣) في الحديث: «وَمَنْ قَرَأَ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدْرِ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى». أخرجه أبو داود (٨٨٧)، وأحمد (٧٣٩١)، والترمذي (٣٣٤٧). وفي إسناده رجل مجهول.

سُورَةُ الْإِنْسَانِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ آدَمُ ﴿حِينَ مِنَ الدَّهْرِ﴾ أَرْبَعُونَ سَنَةً ﴿لَمْ يَكُنْ﴾ فِيهِ ﴿شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ ﴿١﴾ كَانَ فِيهِ مُصَوَّرًا مِنْ طِينٍ لَا يُذَكَّرُ، أَوِ الْمَرَادُ بِالْإِنْسَانِ الْجِنْسُ وَبِالْحِينَ مُدَّةُ الْحَمْلِ^(١). ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أَخْلَاطٍ، أَيٍّ: مِنْ مَاءِ الرَّجُلِ وَمَاءِ الْمَرْأَةِ الْمُخْتَلِطَيْنِ الْمُتَمَزِّجَيْنِ ﴿تَبْتَلِيهِ﴾ نَحْبِرُهُ بِالتَّكْلِيفِ، وَالْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ أَوْ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَيٍّ: مُرِيدِينَ إِيْتِلَاءَهُ حِينَ تَأَهَّلَهُ ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴿بَيْنَا لَهُ طَرِيقُ الْهُدَى﴾ بَعَثَ الرَّسُلَ^(٣) ﴿إِمَّا شَاكِرًا﴾ أَيٍّ: مُؤْمِنًا ﴿وَأِمَّا كَفُورًا﴾ ﴿٣﴾ حَالَانِ مِنَ الْمَفْعُولِ، أَيٍّ: بَيْنَا لَهُ فِي حَالِ شُكْرِهِ أَوْ كُفْرِهِ الْمَقْدَرَةُ^(٤)، وَإِمَّا لِتَفْصِيلِ الْأَحْوَالِ. ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ هَيَأْنَا ﴿لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا﴾ يُسْحَبُونَ بِهَا فِي النَّارِ ﴿وَأَغْلَلْنَا﴾ فِي أَعْنَاقِهِمْ تُشَدُّ فِيهَا السَّلَاسِلُ ﴿وَسَعِيرًا﴾ ﴿٤﴾ نَارًا مُسْعِرَةً، أَيٍّ: مُهَيَّجَةً يُعَذِّبُونَ بِهَا. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ جَمْعُ بَرٍّ أَوْ بَارٍّ وَهُمْ الْمُطِيعُونَ ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ هُوَ إِنَاءٌ شُرِبَ الْخَمْرُ وَهِيَ فِيهِ، وَالْمَرَادُ «مِنْ خَمْرٍ» تَسْمِيَةً لِلْحَالِ بِاسْمِ الْمَحَلِّ وَ﴿مِنْ﴾ لِلتَّبْعِيضِ ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ مَا تُمَزَّجُ بِهِ^(٥) ﴿كَافُورًا﴾ ﴿٥﴾ عَيْنًا ﴿بَدَلٌ مِنْ﴾ ﴿كَافُورًا﴾ فِيهَا رَائِحَتُهُ ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ مِنْهَا ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ أَوْلِيَائُهُ ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٦﴾ يَقُودُونَهَا حَيْثُ

(١) ﴿هَلْ﴾ هُنَا بِمَعْنَى التَّحْقِيرِ لَا لِتَجْزِئَةِ الْمَجْرَدِ الْاسْتِفْهَامِ، وَقِيلَ: ﴿هَلْ﴾ بِمَعْنَى: قُلْ، وَالْإِنْسَانُ هُنَا جِنْسٌ، وَالْحِينَ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ حِينَ كَانَ مَعْدُومًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ، وَقِيلَ: الْإِنْسَانُ هُنَا آدَمُ، وَالْحِينَ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ حِينَ كَانَ طِينًا قَبْلَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهِ الرُّوحُ وَهَذَا ضَعِيفٌ، لَوْ جُهِينَ: أَحَدُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ وَهُوَ هُنَا جِنْسُهَا بِاتِّفَاقٍ؛ إِذْ لَا يَصِحُّ هُنَا فِي آدَمَ، وَالْآخِرُ أَنْ مَقْصِدُ الْآيَةِ تَحْقِيرُ الْإِنْسَانِ. [ابن جُرَيْي (٢/٤٣٦)].

(٢) كَقَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فَصَلَتْ: ١٧]، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [الْبَلَد: ١٠]، أَيٍّ: بَيْنَا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَطَرِيقَ الشَّرِّ. [ابن كَثِير (٨/٢٨٦)].

(٣) كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْمَلِك: ٢].

(٤) قِيلَ إِنَّمَا أَرَادَ الْكَافُورُ فِي بَيَاضِهِ وَطِيبِ رَائِحَتِهِ وَبَرْدِهِ، لِأَنَّ الْكَافُورَ لَا يَشْرَبُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الْكَهْف: ٩٦] أَيٍّ: كِنَارًا، وَقَالَ ابْنُ كَيْسَانَ: طِيبُهَا الْمَسْكُ وَالْكَافُورُ وَالزَّنَجِيلُ، وَقَالَ مَقَاتِلُ: لَيْسَ هُوَ كَافُورُ الدُّنْيَا وَإِنَّمَا سَمَّى اللَّهُ مَا عِنْدَهُ بِمَا عِنْدَكُمْ حَتَّى تَهْتَدِيَ لَهُ الْقُلُوبُ. [الشُّوْكَانِي (٥/٤١٨)].

شَاءُوا مِنْ مَنَازِلِهِمْ^(١). ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فِي طَاعَةِ اللَّهِ ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾^(٢) مُتَشَرِّيًا. ﴿وَيُطْعَمُونَ
الطَّعَامَ عَلَى حَيْهٍ﴾ أَيِ: الطَّعَامَ وَشَهْوَتِهِمْ لَهُ ﴿مِسْكِينًا﴾ فَقِيرًا ﴿وَيَتِيمًا﴾ لَا أَبَ لَهُ ﴿وَأَسِيرًا﴾^(٣) يَعْنِي الْمَحْبُوسَ
بِحَقٍّ. ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ لِيُطْلَبَ ثَوَابُهُ ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾^(٤) شُكْرًا فِيهِ عِلَّةُ الْأَطْعَامِ
وَهَلْ تَكَلَّمُوا بِذَلِكَ، أَوْ عَلِمَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ فَأَتْنَى عَلَيْهِمْ بِهِ؟ قَوْلَانِ^(٥). ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾ تَكَلَّحَ الْوُجُوهُ
فِيهِ، أَيِ: كَرِيهِهِ الْمُنْظَرِ لِشِدَّتِهِ ﴿قَمَطِيرًا﴾^(٦) شَدِيدًا فِي ذَلِكَ^(٧). ﴿فَوَقَّاهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ﴾ أَعْطَاهُمْ
﴿نَضْرَةً﴾ حُسْنًا وَإِضَاءَةً فِي وُجُوهِهِمْ ﴿وَسُرُورًا﴾^(٨) وَجَزَلَهُمْ بِمَا صَبَرُوا بِصَبْرِهِمْ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿جَنَّةً﴾ أَدْخَلُوهَا
﴿وَحَرِيرًا﴾^(٩) أَلْبَسُوهُ. ﴿مُتَّكِنِينَ﴾ حَالٌ مِنْ مَرْفُوعٍ ﴿أَدْخَلُوهَا﴾ الْمُقَدَّرِ ﴿فِيهَا عَلَى الْأَرْبَابِ﴾ الْكُرْرُ فِي الْحِجَالِ^(١٠)
﴿لَا يَرَوْنَ﴾ لَا يَجِدُونَ، حَالٌ ثَانِيَةٌ ﴿فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾^(١١) لَا حَرًّا وَلَا بَرْدًا، وَقِيلَ الزَّمْهَرِيرُ الْقَمَرُ^(١٢) فَهِيَ

(١) هي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شاءوا، وكيف أرادوا، فإن شاءوا صرّفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى
الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات الموقنات. [السعدي (ص: ٩٠١)].
(٢) على إرادة القول بلسان الحال أو المقال إزاحة لتوهم المن وتوقع المكافأة المنقصة للأجر. وعن عائشة رضي الله عنها: أنها كانت تبعث بالصدقة

إلى أهل بيت ثم تسأل المبعوث ما قالوا، فإن ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليقبى ثواب الصدقة لها خالصاً عند الله. [البيضاوي (٥/ ٢٧٠)].

(٣) العبوس: صفة مشبهة لمن هو شديد العبس، أي: كلوح الوجه وعدم انطلاقه، ووصف اليوم بالعبوس على معنى الاستعارة، شبه اليوم
الذي تحدث فيه حوادث تسوؤهم برجل يخالطهم يكون شرس الأخلاق عبوساً في معاملته. والقمطير: الشديد الصعب من كل شيء. وعن
ابن عباس رضي الله عنهما القمطير: المقبض بين عينيه. مشتق من قمطر القاصر إذا اجتمع، أو قمطر المتعدي إذا شد القربة بوكاء ونحوه، ومنه سمي
السفط الذي توضع فيه الكتب قمطراً وهو كالمحفظة. وميم قمطير أصلية فوزنه فعلليل مثل زنجبيل، يقال: قمطر للشعر، إذا تهيأ له وجمع
نفسه. والجمهور جعلوا ﴿قَمَطِيرًا﴾ وصف ﴿يَوْمًا﴾ ومنهم من جعلوه وصف ﴿عَبُوسًا﴾ أي: شديد العبوس. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٨٦)].

(٤) متكئين: حال من ضمير الجمع في ﴿جَزَلَهُمْ﴾، أي: هم في الجنة متكئون على الأرائك. والالتكاء: جلسة بين الجلوس والاضطجاع
يستند فيها الجالس على مرفقه وجنبه ويمد رجله وهي جلسة ارتياح، وكانت من شعار الملوك وأهل البذخ، ولهذا قال النبي ﷺ: «أَمَّا أَنَا
فَلَا أَكُلُ مُتَّكِنًا». أخرجه البخاري (٥٣٩٨). والأرائك: جمع أريكة بوزن سفينة، والأريكة: سرير عليه وسادة معها ستر وهو حجلته،
والحجلة بفتحيتين وبتقديم الحاء المهملة على الجيم: كلة تنصب فوق السرير لتقي الحر والشمس، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان معه
حجلة. وقيل: كل ما يتوسد ويفترش مما له حشو يسمى أريكة وإن لم تكن له حجلة، وفي الإتيان عن ابن الجوزي: أن الأريكة السرير
بالحبشية. [ابن عاشور (٢٩/ ٣٨٨)].

(٥) قال ثعلب: الزمهرير بلغة طيء القمر. [ابن عطية (٥/ ٤٤١)].

مُضِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ شَمْسٍ وَلَا قَمَرٍ. ﴿وَدَانِيَةً قَرِيبَةً، عَطْفٌ عَلَى مَحَلٍّ﴾ ﴿لَا يَرَوْنَ﴾، أَي: غَيْرَ رَائِينَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مِنْهُمْ ﴿ظِلُّهَا﴾ شَجَرُهَا ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ ﴿١٤﴾ أُذُنِيَتْ ثَمَارُهَا فَيَنَالُهَا الْقَائِمُ وَالْقَاعِدُ وَالْمُضْطَجِعُ ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾ فِيهَا ﴿بِنَانِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أَقْدَاحٍ بِلَا عُرَى ﴿كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ أَي: أَنَّهَا مِنْ فِضَّةٍ يُرَى بَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا كَالزُّجَاجِ ﴿١٦﴾ ﴿قَدَّرُوهَا﴾ أَي: الطَّائِفُونَ ﴿تَقْدِيرًا﴾ ﴿١٦﴾ عَلَى قَدَرِ رِيِّ الشَّارِبِينَ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَذَلِكَ أَلَدُّ الشَّرَابِ ﴿١٧﴾. ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا خَمْرًا﴾ ﴿١٧﴾ ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ مَا تُمَزَّجُ بِهِ ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿١٧﴾ عَيْنًا ﴿بَدَلٌ مِنْ زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿فِيهَا نُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ ﴿١٨﴾ يَعْنِي أَنَّ مَاءَهَا كَالزَنْجَبِيلِ الَّذِي تَسْتَلْذُ بِهِ الْعَرَبُ سَهْلُ الْمَسَاغِ فِي الْحَلْقِ ﴿١٩﴾. ﴿وَيُطَوَّفُ عَلَيْهِمْ وَلَدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بِصِفَةِ الْوِلْدَانِ لَا يَشْيُونَ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ﴾

(١) أي: في وصف القوارير في الصفاء وفي بياض الفضة، فصفاءها صفاء الزجاج ولونها الفضة، قال ابن عباس رضي الله عنه: آية من فضة وصفاءها كصفاء القوارير، وعنه قال ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء إذ الذي في الجنة أشرف وأعلى. [صديق حسن (٤٦٨/١٤)].

(٢) يجوز أن يكون ضمير الجمع عائدا إلى ﴿الْأَبْرَارِ﴾ أو ﴿عِبَادُ اللَّهِ﴾ الذي عادت إليه الضمائر المتقدمة في قوله: ﴿يُفَجَّرُونَ﴾، و﴿يُفَجَّرُونَ﴾ إلى آخر الضمائر، فيكون معنى التقدير: رغبته أن تجيء على وفق ما يشتهون. ويجوز أن يكون الضمير عائدا إلى نائب الفاعل المحذوف المفهوم من بناء ﴿يُطَافُ﴾ للنائب، أي: الطائفون عليهم بها قدروا الآنية والأكواب، أي: قدروا ما فيها من الشراب على حسب ما يطلبه كل شارب منهم وماله إلى معنى الاحتمال الأول. وكان مما يعد في العادة من حذق الساقى أن يعطي كل أحد من الشرب ما يناسب رغبته. و﴿تَقْدِيرًا﴾ مفعول مطلق مؤكد لعامله للدلالة على وفاء التقدير وعدم تجاوزه المطلوب ولا نقصيره عنه. [ابن عاشور (٣٩٤/٢٩)].

(٣) الكأس هو الإناء الذي فيه الخمر، وإذا كان خالياً عن الخمر فلا يقال له كأس. والمعنى أن أهل الجنة يسقون في الجنة كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل، وقد كانت العرب تستلذ مزيج الشراب بالزنجبيل لطيب رائحته، ... وقال مقاتل: هو زنجبيل لا يشبه الدنيا، أي: يلذع الحلق فتصعب إساغته. قلت: وكذلك ما في الجنان من الأشجار والثمار والقصور والنساء والحدود والمأكولات والمشروبات والملبوسات لا يشبه ما في الدنيا إلا في مجرد الاسم، لكن الله سبحانه وتعالى يرغب الناس ويطمعهم بأن يذكر لهم أحسن شيء وألذ وأطيب مما يعرفونه في الدنيا لأجل أن يرغبوا ويسعوا فيما يوصلهم إلى هذا النعيم المقيم. [صديق حسن (٤٧١/١٤)].

(٤) وصف، قيل: مشتق من السلاسة وهي السهولة واللين، فيقال: ماء سلسل، أي: عذب بارد، قيل: زيدت فيه الباء والياء، أي: زيدتا في أصل الوضع على غير قياس. قال أبو العلاء: السلسيل الماء السهل المساغ. وعندي أن هذا الوصف ركب من مادتي السلاسة والسبالة، يقال: سبلت السماء، إذا أمطرت، فسيل: فعيل بمعنى مفعول، ركب من كلمتي السلاسة والسيل لإرادة سهولة شربه ووفرة جريه. وهذا من الاشتقاق الأكبر وليس باشتقاق تصريفي. فهذا وصف من لغة العرب عند محققى أهل اللغة. وقال ابن الأعرابي: لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، فهو عنده من مبتكرات القرآن الجارية على أساليب الكلام العربي. [ابن عاشور (٣٩٦/٢٩)].

لِحُسْنِهِمْ وَانْتَشَارِهِمْ فِي الْخِدْمَةِ ﴿لَوْلُوا مَنشُورًا ١٩﴾ مِنْ سِلْكِهِ أَوْ مِنْ صَدْفِهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ^(١). ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ﴾ أَي: وَجِدْتَ الرُّؤْيَةَ مِنْكَ فِي الْجَنَّةِ ﴿رَأَيْتَ﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾ ﴿نَعِيمًا﴾ لَا يُوصَفُ ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا ٢٠﴾ وَاسِعًا لَا غَايَةَ لَهُ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فَوْقَهُمْ، فَنَضَبُهُ عَلَى الظَّرْفِيَّةِ، وَهُوَ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ بَعْدَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِسُكُونِ الْيَاءِ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ خَبَرٌ، وَالضَّمِيرُ الْمُتَّصِلُ بِهِ لِلْمَطُوفِ عَلَيْهِمْ ﴿ثِيَابٌ سُندُسٌ﴾ حَرِيرٌ ﴿خُضْرٌ﴾ بِالرَّفْعِ ﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ بِالْجَرِّ مَا غُلِظَ مِنَ الدِّيَاجِ فَهُوَ الْبَطَائِنُ، وَالسُّنْدُسُ الظَّهَائِرُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: عَكْسُ مَا ذُكِرَ فِيهِمَا، وَفِي أُخْرَى بَرَفَعِهِمَا، وَفِي أُخْرَى بَجَرَّهِمَا ﴿وَحُلُّوْا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ﴾ وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ لِلْإِيْذَانِ بَأَنَّهُمْ يُحَلِّوْنَ مِنَ النَّوْعَيْنِ مَعًا وَمُفَرَّقًا ﴿وَسَقَلَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ٢١﴾ مُبَالِغَةٌ فِي طَهَارَتِهِ وَنَظَافَتِهِ، بِخِلَافِ خَمْرِ الدُّنْيَا. ﴿إِنَّ هَذَا﴾ النَّعِيمَ ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ ﴿تَأْكِيْدٌ لِاسْمِ﴾ ﴿إِنَّ﴾، أَوْ فَضْلٌ ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ٢٣﴾ خَبَرٌ ﴿إِنَّ﴾ أَي: فَصَّلْنَاهُ وَلَمْ نُزِّلْهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ^(٢). ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ عَلَيْكَ بِتَبْلِيغِ رِسَالَتِهِ ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارِ ﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ٢٤﴾ أَي: عُتْبَةَ بَنِ رِبْعَةَ وَالْوَلِيدَ بَنَ الْمُغِيرَةَ قَالَا لِلنَّبِيِّ ﷺ: ارْجِعْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ كُلُّ أَثِمٍ وَكَافِرٍ، أَي: لَا تُطِعْ أَحَدَهُمَا أَيًّا كَانَ فِيمَا دَعَاكَ إِلَيْهِ مِنْ إِثْمٍ أَوْ كُفْرٍ ^(٣). ﴿وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ فِي الصَّلَاةِ ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾ يَعْنِي: الْفَجَرَ وَالظُّهْرَ وَالْعَصْرَ. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ﴾ يَعْنِي: الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ ﴿وَسَبِّحْهُ

(١) أي: إذا نظرت إليهم ظنتهم لمزيد حسنهم وصفاء ألوانهم ونضارة وجوههم، وانبثاثهم في مجالسهم، لؤلؤاً مفرقاً، قال عطاء يريد في بياض اللون وحسنه، واللؤلؤ إذا نثر من الخيط على البساط كان أحسن منه منظوماً. قال أهل المعاني: إنما شبهوا الانتشار لأنهم في الخدمة ولو كانوا صفاً لشبهوا بالمنظوم، قيل: إنما شبههم بالمشور لأنهم سراع في الخدمة، بخلاف الحور العين فإنه شبههن بـ«اللؤلؤ المكنون» لأنهن لا يمتحن بالخدمة. [الشوكاني (٤٢٣/٥)].

(٢) ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿تَنْزِيلًا﴾: يدل على التكرار بخلاف ﴿أَنْزَلْنَا﴾ [البقرة: ٩٩]، وقد بين تعالى أنه أنزل القرآن في ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وهنا إثبات التنزيل. وقد بين تعالى كيفية التنزيل في قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. وقد بين تعالى الحكمة في هذا التفريق على مكث في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. [عطية سالم (٣٩٧/٨)].

(٣) أو هنا للتنويع، فالمعنى لا تطع النوعين، فاعلاً للإثْم ولا كفوراً، وقيل: هي بمعنى الواو، أي: جامعاً للوصفين لأن هذه في حالة الكفار، وروى أنه الآية نزلت في أبي جهل، وقيل: أن الأثم عتبة بن ربيعة، والكفور الوليد بن المغيرة، والأحسن أنها على العموم، لأن لفظها عام، وإن كان سبب نزولها خاصاً. [ابن جزي (٤٤٠/٢)].

لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ صَلَّيْنَا لَكَ فِيهِ كَمَا تَقَدَّمَ ﴿٢٧﴾ مِنْ ثُلُثَيْهِ أَوْ نِصْفِهِ أَوْ ثُلُثَيْهِ. ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أَلَدُنَّا
 وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٨﴾ شَدِيدًا، أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَعْمَلُونَ لَهُ. ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا قُوَّةَنَا
 أَسْرَهُمْ﴾ أَعْضَاءَهُمْ وَمَفَاصِلَهُمْ ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا﴾ جَعَلْنَا ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾ فِي الْخَلْقَةِ بَدَلًا مِنْهُمْ بِأَنْ نُهْلِكَهُمْ ﴿تَبْدِيلًا
 ﴿٢٩﴾ تَأْكِيدٌ وَوَقَعَتْ ﴿إِذَا﴾ مَوْقِعَ ﴿إِنْ﴾ نَحْوُ ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ﴾ [النساء: ١٣٣]؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، وَ﴿إِذَا﴾
 لِمَا يَقَعُ. ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ السُّورَةُ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عِظَةٌ لِلْخَلْقِ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿٣٠﴾ طَرِيقًا بِالطَّاعَةِ.
 ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ اتَّخَذَ السَّبِيلَ بِالطَّاعَةِ ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ذَلِكَ ﴿٣١﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بِخَلْقِهِ
 ﴿حَكِيمًا﴾ ﴿٣٢﴾ فِي فِعْلِهِ. ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ جَنَّتِهِ ﴿٣٣﴾ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ ﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ نَاصِبُهُ فِعْلٌ مُقَدَّرٌ،
 أَي: أَوْعَدَ، يُفَسَّرُ: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ﴿٣٤﴾ مُؤْلَمًا، وَهُمْ الْكَافِرُونَ. ﴿٣٥﴾

(١) في سورة المزمل الآيات (١-٤).

(٢) أي: وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة، وبدلناهم فأعدناهم خلقًا جديدًا. وهذا استدلال بالبداية على الرجعة. وقال ابن زيد، وابن جرير: أي:
 وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم، كقوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ قَدِيرًا [النساء: ١٣٣]
 وكقوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠]. [ابن كثير (٨/٢٩٤)].
 (٣) أي: لا يقدر أحد أن يهدي نفسه، ولا يدخل في الإيمان ولا يجر لنفسه نفعًا، ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣١﴾ أي: عليم
 بمن يستحق الهداية فيسيرها له، ويقض له أسبابها، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة؛ ولهذا
 قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. [ابن كثير (٨/٢٩٥)]. قال ابن جرير: أي: وما تشاءون اتخاذ السبيل إلى ربكم إلا أن يشاء الله
 ذلك لكم، لأن الأمر إليه لا إليكم، أي: لأن ما لم يشأ الله وقوعه من العبد، لا يقع من العبد، وما شاء منه وقوعه، وقع. وهو رديف: «مَا شَاءَ
 اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ». أخرجه أبو داود (٥٠٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٨٤٠). [القاسمي (٩/٣٨٠)].

(٤) أي: يدخل في رحمته من يشاء أن يدخله فيها، أو يدخل في جنته من يشاء من عباده لأنها برحمته تنال. [صديق حسن (١٤/٤٨١)].
 (٥) أي: يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهدي فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له. [ابن كثير (٨/٢٩٥)]. عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:
 «قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ حتى ختمها ثم قال: «إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أُطِيتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ
 تَبْطَأَ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعِ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهُ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَصَحَحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَدَذَّتُمْ بِالنِّسَاءِ
 عَلَى الْفُرْشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعِدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، والترمذي (٢٤٦٥)، وابن ماجه (٤١٩٠).

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ
مَكِّيَّةٌ، خَمْسُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١﴾ أَي: الرِّيحِ مُتَّابِعَةٍ كَعُرْفِ الْفَرَسِ يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضًا، وَنَضْبُهُ عَلَى الْحَالِ. ﴿فَالْعَصْفَاتِ عَصْفًا ۝٢﴾ الرِّيحِ الشَّدِيدَةِ. ﴿وَالنَّشْرِاتِ نَشْرًا ۝٣﴾ الرِّيحِ تَنْشُرُ الْمَطَرَ. ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤﴾ أَي: آيَاتِ الْقُرْآنِ تَفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. ﴿فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ أَي: الْمَلَائِكَةِ تَنْزِلُ بِالْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ، أَوْ الرُّسُلِ يُلقُونَ الْوَحْيَ إِلَى الْأُمَمِ. ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ أَي: لِلْإِعْذَارِ وَالْإِنْذَارِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي قِرَاءَةِ بِضَمِّ ذَالِ ﴿نُذْرًا﴾، وَقُرِئَ بِضَمِّ ذَالِ ﴿عُذْرًا﴾^(١). ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ ۝٧﴾ أَي: يَا كُفَّارَ مَكَّةَ مِنَ الْبَعْثِ وَالْعَذَابِ ﴿لَوْعَةً ۝٨﴾ كَائِنُ لَا مَحَالَةَ. ﴿فَإِذَا الْتُجُومٌ طُمِسَتْ ۝٩﴾ مُحِي نُورَهَا. ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝١٠﴾ شُقَّتْ. ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُفِفَتْ ۝١١﴾ فَتَّتْ وَسُيِّرَتْ. ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِثَتْ ۝١٢﴾ بِالْوَاوِ وَبِالْهَمْزَةِ بَدَلًا مِنْهَا، أَي: جُمِعَتْ لَوَقْتٍ^(٢). ﴿لَا أَمِّي يَوْمٍ ۝١٣﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿أَجَلَتْ ۝١٤﴾ لِلشَّهَادَةِ عَلَى أُمَمِهِمْ بِالتَّبْلِيغِ. ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ ۝١٥﴾ بَيْنَ الْخَلْقِ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ جَوَابٌ ﴿إِذَا ۝١٦﴾ أَي: وَقَعَ الْفَصْلُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ۝١٧﴾ تَهْوِيلٌ لِسَانِهِ. ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٨﴾ هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ. ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ۝١٩﴾ بِتَكْذِيبِهِمْ، أَي: أَهْلَكْنَاهُمْ ﴿ثُمَّ نَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ۝٢٠﴾ مِمَّنْ كَذَّبُوا، كَكُفَّارِ

(١) قراءة شاذة.

(٢) الأظهر أن: ﴿الْمُرْسَلَاتِ﴾ هي الرياح، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]، وهكذا العاصفات هي: الرياح، يقال: عصفت الريح إذا هبت بتصويت، وكذا الناشرات هي: الرياح التي تنشر السحاب في آفاق السماء، كما يشاء الرب عز وجل. وقوله: ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا ۝٤﴾ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ۝٥﴾ عُدْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات: ٤-٦] يعني: الملائكة قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومسروق، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، والثوري. ولا خلاف هاهنا؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل، تفرق بين الحق والباطل، والهدى والغي، والحلال والحرام، وتلقي إلى الرسل وحيا فيه إعدار إلى الخلق، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره. [ابن كثير (٨/٢٩٧)].

(٣) المعنى: جعل لها وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩]. [الشوكاني (٥/٤٣١)].

مَكَّةَ فَهُلِكُهُمْ ﴿كَذَلِكَ﴾ مِثْلَ مَا فَعَلْنَا بِالْمُكَذِّبِينَ ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٨﴾ بِكُلِّ مَنْ أَجْرَمَ فِيمَا يَسْتَقْبِلُ فَنُهْلِكُهُمْ
 ﴿وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٩﴾ تَأْكِيدٌ. ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿٢٠﴾ ضَعِيفٍ وَهُوَ الْمَنِيُّ. ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي
 قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ ﴿٢١﴾ حَرِيزٍ وَهُوَ الرَّحِمُ. ﴿إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ وَقْتُ الْوِلَادَةِ. ﴿فَقَدَرْنَا﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿فَنِعْمَ
 الْقَادِرُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ نَحْنُ. ﴿وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ ﴿٢٥﴾ مَصْدَرُ كَفَتَ، بِمَعْنَى: ضَمٌّ، أَيِ:
 ضَامَّةً. ﴿أَحْيَاءَ﴾ عَلَى ظَهْرِهَا ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿٢٦﴾ فِي بَطْنِهَا. ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شِمَخَاتٍ﴾ جِبَالًا مُرْتَفِعَاتٍ ﴿٢٧﴾
 ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ عَذْبًا. ﴿وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ وَيُقَالُ لِلْمُكَذِّبِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَى
 مَا كُنْتُمْ بِهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ هُوَ دُخَانُ جَهَنَّمَ إِذَا ارْتَفَعَ افْتَرَقَ
 ثَلَاثَ فِرْقٍ لِعِظَمِهِ. ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ كَنِينٍ يُظِلُّهُمْ مِنْ حَرِّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ يَرُدُّ عَنْهُمْ شَيْئًا ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾ ﴿٣١﴾

(١) تكرار قوله تعالى في هذه السورة: ﴿قَوْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ قيل: ذلك بمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعد على التكذيب يؤكد ذلك الذي في الآية. [ابن عطية (٤١٨/٥)].

(٢) المعنى: فقدرنا الخلق، كقوله تعالى: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ [عبس: ١٩] ... والفاء في قوله: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ للتفريع على قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ أَيِ: جعلناه في الرحم إلى انتهاء أمد الحمل، فقدرنا أطوار خلقكم حتى أخرجناكم أطفالاً. والفاء في ﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ للتفريع على «قدرنا»، أَيِ: تفريع إنشاء ثناء، أَيِ: فدل تقديرنا على أننا نعم القادرون، أَيِ: كان تقديرنا تقدير أفضل قادر، وهذا تنويه بذلك الخلق العجيب بالقدرة. [ابن عاشور (٤٣٢/٢٩)].

(٣) والرواسي الثوابت، والشامخات الطوال، ومنه يقال: شمخ بأنفه إذا رفعه كبرا. [القرطبي (١٦٢/١٩)]. والمعنى: جبالا ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فثبتها الله بالجبالات الراسيات الشامخات أَيِ: الطوال العراض. [السعدي (ص: ٩٠٤)].

(٤) أريد بالظل دخان جهنم لكثافته، فعبر عنه بالظل تهكما بهم لأنهم يتشوقون ظلا يأوون إلى برده. وأفرد «ظل» هنا لأنه جعل لهم ذلك الدخان في مكان واحد ليكونوا مترابين تحته لأن ذلك التراص يزيدهم ألما. والشعب: اسم جمع «شعبة» وهي الفريق من الشيء والطائفة منه، أَيِ: ذي ثلاث طوائف وأريد بها طوائف من الدخان فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها لشدة انضغاطه في خروجه منها. [ابن عاشور (٤٣٥/٢٩)].

(٥) تهكم بهم؛ لأن الظل لا يكون إلا ظليلا، أَيِ: مظلالا؛ فنفيه عنه للدلالة على أن جعله ظلا تهكم بهم، ولأنه ربما يتوهم أن فيه راحة لهم، فنفي هذا الاحتمال بقوله: ﴿لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ أَيِ: لا يرد عنهم من لهب النار شيئا. والمعنى أنه لا يظلمهم من حرها ولا يكتفون من لهبها. [القاسمي (٣٨٥/٩)].

النَّارِ. ﴿إِنَّهَا﴾ أَي: النَّارُ ﴿تَرْمِي بِشَرِّ﴾ هُوَ مَا تَطَايَرَ مِنْهَا ﴿كَالْقَصْرِ﴾ ﴿٣٢﴾ مِنَ الْبِنَاءِ فِي عِظَمِهِ وَارْتِفَاعِهِ ^(١). ﴿كَأَنَّهُ جِمَلَتٌ﴾ جَمْعُ «جِمَالَةٍ» جَمْعُ «جَمَلٍ»، وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿جِمَلَتٌ﴾ ﴿صُفْرٌ﴾ ﴿٣٣﴾ فِي هَيْئَتِهَا وَلَوْنِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «شَرَارُ النَّارِ أَسْوَدُ كَالْقَيْرِ» ^(٢)، وَالْعَرَبُ تُسَمِّي سُودَ الْإِبِلِ صُفْرًا لِشَوْبِ سَوَادِهَا بِصُفْرَةٍ، فَقِيلَ: صُفْرٌ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى سُودٍ لِمَا ذَكَرَ، وَقِيلَ: لَا، وَالشَّرُّ جَمْعُ «شَرَارَةٍ»، وَالْقَيْرُ: الْقَارُ ^(٣). ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ هَذَا أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ فِيهِ بَشْيٌ ^(٤). ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ فِي الْعُذْرِ ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿يُؤْذَنُ﴾ مِنْ غَيْرِ تَسَبُّبٍ عَنْهُ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي حِزِّ النَّفْيِ، أَي: لَا إِذْنَ فَلَا عِذَارَ. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُنَاكُمْ ﴿أَيُّهَا الْمُكَذِّبُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ﴾ ﴿وَالْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ قَبْلَكُمْ، فَتَحَاسِبُونَ وَتُعَذِّبُونَ جَمِيعًا. ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ الْعَذَابِ عَنْكُمْ ﴿فَكِيدُون﴾ ﴿٣٩﴾ فَافْعَلُواهَا. ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلِّ﴾ أَي: تَكَثُّفِ أَشْجَارٍ، إِذْ لَا شَمْسٌ يُظِلُّ مِنْ حَرِّهَا ^(٥) ﴿وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤١﴾ نَابِغَةٍ مِنَ الْمَاءِ. ﴿وَفَوْكَهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ

(١) أي: كل شررة من شررها التي ترمي بها كالقصر من القصور في عظمها، والشرر ما تطاير من النار متفرقًا، والقصر البناء العظيم، وقيل: القصر جمع قصرة ساكنة الصاد مثل جمر وجمرة وتمر وتمرّة وهي الواحدة من جزل الحطب الغليظ، قال سعيد بن جبير والضحاك وهي أصول الشجر العظام، وقيل أعناقها. [الشوكاني (٥/ ٤٣٤)].

(٢) لم أجده مرفوعاً بهذا اللفظ، وفي الموقوف على أبي هريرة رضي الله عنه قوله: أَتَرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هَذِهِ لَهَا أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ وَالْقَارُ الرَّفْتُ. أخرجه مالك في الموطأ (١٨٢٦). وفي المرفوع قوله عليه السلام: «أَوْقَدَ عَلَى النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ». أخرجه الترمذي (٢٥٩١).

(٣) في «الجماليات» قولان أحدهما: أنها جمع «جمال» شبه بها الشرر وُصِفَ على ظاهره؛ لأن لون النار يضرب إلى الصفرة. وقيل: صفر هنا بمعنى سود، يقال: جمل أصفر، أي: أسود. وهذا أليق بوصف جهنم. الثاني: أن الجمالات قطع النحاس الكبار، فكأنه مشتق من الجملة. وقرئ: «جُمالات» بضم الجيم وهي قُلُوس السفن وهي حبالها العظام. [ابن جزي (٢/ ٤٤٣)].

(٤) هذه الآية الكريمة تدل على أن أهل النار لا ينطقون ولا يعتذرون. وقد جاءت آيات تدل على أنهم ينطقون ويعتذرون، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، إلى غير ذلك من الآيات. والجواب عن هذا من أوجه: الأول: أن القيامة مواطن ففي بعضها ينطقون وفي بعضها لا ينطقون. الثاني: أنهم لا ينطقون بما لهم فيه فائدة وما لا فائدة فيه كالعدم. الثالث: أنهم بعد أن يقول الله لهم: ﴿أَخْسَأُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ [المؤمنون: ١٠٨] ينقطع نطقهم ولم يبق إلا الزفير والشهيق. قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، وهذا الوجه الثالث راجع للوجه الأول. [دفع إيهام الاضطراب للشنقيطي (ص: ٣٣٥)].

(٥) أي: في ظلال الأشجار وظلال القصور لا كالظل الذي للكفار من الدخان ومن النار، قال مقاتل والكلبي: المراد بالمتقين الذين يتقون

﴿٤٢﴾ فِيهِ إِعْلَامٌ بِأَنَّ الْمَأْكَلَ وَالْمَشْرَبَ فِي الْجَنَّةِ بِحَسَبِ شَهَوَاتِهِمْ بِخِلَافِ الدُّنْيَا فَبِحَسَبِ مَا يَجِدُ النَّاسُ فِي الْأَعْلَابِ. وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا﴾ حَالًا، أَي: مُتَهَنِّينَ ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ مِنَ الطَّاعَةِ^(١). ﴿إِنَّا كَذَلِكُ﴾ كَمَا جَزَيْنَا الْمُتَّقِينَ^(٢) ﴿نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٤٤﴾ وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا﴾ خِطَابٌ لِلْكَفَّارِ فِي الدُّنْيَا ﴿قَلِيلًا﴾ مِنَ الزَّمَانِ وَغَايَتُهُ إِلَى الْمَوْتِ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ ﴿إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ارْكَعُوا﴾ صَلُّوا ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ لَا يُصَلُّونَ^(٣). ﴿وَيُلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ أَي: لَا يُمْكِنُ إِيمَانُهُمْ بِغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِ اللَّهِ بَعْدَ تَكْذِيبِهِمْ بِهِ، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الْإِعْجَازِ الَّذِي لَمْ يَشْتَمَلِ عَلَيْهِ غَيْرُهُ^(٤).

الشرك بالله لأن السورة من أولها إلى آخرها في تقرير الكفار على كفرهم. [صديق حسن (١٥/٢١)].

(١) فيه النص على أن عملهم في الدنيا سبب في تمتعهم بنعيم الجنة في الآخرة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وجاء في الحديث: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦). ولا معارضة بين النصين، إذ الدخول بفضل من الله وبعد الدخول يكون التوارث، وتكون الدرجات، ويكون التمتع بسبب الأعمال. فكلهم يشتركون في التفضل من الله عليهم بدخول الجنة، ولكنهم بعد الدخول يتفاوتون في الدرجات بسبب الأعمال. [عطية سالم (٨/٤٠٣)].

(٢) المراد بالمحسنين المتقون السابق ذكرهم إلا أنه وضع الظاهر موضع الضمير مدحا لهم بصفة الإحسان أيضا مع الإشعار بعلّة الحكم.

[الآلوسي (١٥/١٩٧)].

(٣) قيل: هي حكاية عن حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فانصرفوا أصلا بهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال قتادة في آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، ... والذي أقول: إن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة إنما كان لأن كثيرا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراهما هيئة منكرة، لما كان في أخلاقهم من العجرفة. [ابن عطية (٥/٤٢١)].

(٤) أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن، فبأي كلام يؤمنون به؟! كقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]. [ابن كثير (٨/٣٠١)].

سُورَةُ النَّبَاِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ﴾ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ ^(١) ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(٢) يَسْأَلُ بَعْضُ قُرَيْشٍ بَعْضًا. ﴿عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ ^(٣) بَيَانٌ لِّذَلِكَ الشَّيْءِ، وَالْإِسْتِفْهَامُ لِتَفْخِيمِهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْقُرْآنِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى الْبَعْثِ وَغَيْرِهِ. ﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ ^(٤) فَالْمُؤْمِنُونَ يُشَبِّهُونَهُ وَالْكَافِرُونَ يُنْكِرُونَهُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ ^(٥) مَا يَحِلُّ بِهِمْ عَلَى انْكَارِهِمْ لَهُ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ^(٦) تَأْكِيدٌ وَجِيءَ فِيهِ بِـ ﴿ثُمَّ﴾ لِلْإِذْنِ بِأَنَّ الْوَعِيدَ الثَّانِي أَشَدُّ مِنَ الْأَوَّلِ. ثُمَّ أَوْمَأَ تَعَالَى إِلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ فَقَالَ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا﴾ ^(٧) فِرَاشًا كَالْمِهْدِ. ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ^(٨) تَثَبَّتْ بِهَا الْأَرْضُ كَمَا تَثَبَّتْ الْخِيَامُ بِالْأَوْتَادِ وَالْإِسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ^(٩) ذُكُورًا وَإِنَاثًا. ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ ^(١٠) رَاحَةً لِإِبْدَانِكُمْ. ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ ^(١١) سَاتِرًا بِسَوَادِهِ. ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ^(١٢) وَقْتًا لِلْمَعَاشِ. ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا﴾ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴿شَدَادًا﴾ ^(١٣) جَمْعُ شَدِيدَةٍ، أَيُّ: قُوَّةٍ مُحْكَمَةٍ لَا يُؤَثِّرُ فِيهَا مُرُورُ الزَّمَانِ. ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾ مُنِيرًا ﴿وَهَاجًا﴾ ^(١٤) وَقَادًا يَغْنِي الشَّمْسَ. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾ السَّحَابَاتِ الَّتِي حَانَ لَهَا أَنْ تُمَطِّرَ كَالْمُعْصِرِ: الْجَارِيَةِ الَّتِي دَنَتْ مِنَ الْحَيْضِ ﴿مَاءً تَجَاجًا﴾ ^(١٥) صَبَابًا. ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا﴾ كَالْحِنْطَةِ ﴿وَنَبَاتًا﴾ ^(١٦)

(١) أصل ﴿عَمَّ﴾ «عَنْ مَا»، ثُمَّ أَدْغَمَتِ النُّونُ فِي الْمِيمِ وَحَذَفَتْ أَلْفَ «مَا» لِأَنَّهَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَتَقْدِيرُهَا: عَنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَسَاءَلُونَ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا هُنَا مَجْرَدُ الْاسْتِفْهَامِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَفْخِيمُ الْأَمْرِ. وَالضَّمِيرُ فِي يَتَسَاءَلُونَ لِكِفَارِ قُرَيْشٍ، أَوْ لَجَمِيعِ النَّاسِ مَعْنَاهُ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. [ابن جُزَيٍّ (٢/٤٤٤)].

(٢) مِنْ إِتِمَامِ الْاسْتِدْلَالِ الَّذِي قَبْلَهُ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَةِ؛ لِأَنَّ كَوْنَ اللَّيْلِ لِبَاسًا حَالَةً مَهِيئَةً لِتَكْيِيفِ النَّوْمِ وَمَعِينَةً عَلَى هَوَانِهِ وَالْإِنْتِفَاعِ بِهِ؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ ظِلْمَةٌ عَارِضَةٌ فِي الْجَوِّ مِنْ مَزَايِلَةِ ضَوْءِ الشَّمْسِ عَنْ جُزْءٍ مِنْ كُرَةِ الْأَرْضِ، وَبِتِلْكَ الظِّلْمَةِ تَحْتَجِبُ الْمَرِثَاتُ عَنِ الْإِبْصَارِ فَيَعْسِرُ الْمَشْيَ وَالْعَمَلَ وَالشَّغْلَ وَيَنْحَطُّ النَّشَاطُ، فَتَنْهَى الْأَعْصَابَ لِلْخُمُولِ ثُمَّ يَغْشَاهَا النَّوْمُ، فَيَحْصُلُ السَّبَاتُ بِهَذِهِ الْمَقْدَمَاتِ الْعَجَبِيَّةِ، فَلَا جَرَمَ كَانَ نِظَامُ اللَّيْلِ آيَةً عَلَى انْفِرَادِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْخَلْقِ وَبِدْيَعِ تَقْدِيرِهِ. [ابن عاشور (٣٠/١٩)].

(٣) الْوَهَاجُ الْمَضِيءُ الْمَتَلَأَلِيُّ مِنْ قَوْلِهِمْ وَهَجَ الْجَوْهَرُ، أَيُّ: تَلَأَلًا، وَيُقَالُ وَهَجَ يُوْهَجُ كَوَجَلِ يُوْجَلُ وَكَوْعَدِ يَعْدُ، قَالَ الزَّجَاجُ: الْوَهَاجُ الْوَقَادُ، وَهُوَ الَّذِي وَهَجَ، يُقَالُ: وَهَجَتِ النَّارُ تَهْجًا وَوَهْجَانًا، قَالَ مِقَاتِلٌ: جَعَلَ فِيهِ نَوْرًا وَحَرًّا، وَالْوَهْجُ يَجْمَعُ النُّورَ وَالْحَرَارَةَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَهَاجًا مُضِيئًا. [صَدِيقُ حَسَنِ (١٥/٣٢)].

(٤) أَيُّ: مَنْصَبًا بِكَثْرَةٍ، يُقَالُ: ثَجَّ الْمَاءُ، أَيُّ: سَالَ بِكَثْرَةٍ، وَثَجَّهُ، أَيُّ: أَسَالَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الْحَجِّ الْعَجُّ وَالثَّجُّ». أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ

كَالْتَيْنِ. ﴿وَجَنَّتِ﴾ ﴿بَسَاتِينَ﴾ ﴿أَلْفَا ۝١٦﴾ مُلْتَمَّةً جَمْعُ «أَفِيفٍ» كَشْرِيفٍ وَأَشْرَافٍ. ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ﴾ بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿كَانَ مِيقَتًا ۝١٧﴾ وَقَتًا لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ^(١). ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ الْقَرْنِ بَدَلٌ مِنْ «يَوْمَ الْفُصْلِ»، أَوْ بَيَانٌ لَهُ، وَالنَّافِخُ إِسْرَافِيلُ ﴿فَتَأْتُونَ﴾ مِنْ قُبُورِكُمْ إِلَى الْمَوْقِفِ ﴿أَفْوَاجًا ۝١٨﴾ جَمَاعَاتٍ مُخْتَلِفَةً^(٢). ﴿وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيفِ، شُقِّقَتْ لِتُزَوِّلَ الْمَلَائِكَةُ ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩﴾ ذَاتَ أَبْوَابٍ^(٣). ﴿وُسِيرَتِ الْجِبَالُ﴾ ذُهِبَ بِهَا عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ هَبَاءً، أَيْ: مِثْلَهُ فِي خِفَّةِ سَيْرِهَا^(٤). ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١﴾ رَاصِدَةً أَوْ مُرْصَدَةً.

(٢٩٩٨)، وابن ماجه (٢٨٩٦). أي: رفع الصوت بالتلبية، وصب دماء الهدى. [أبو السعود (٨٨/٩)].

(١) يعني موقوتاً لأجل معدود، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]، وما ظنك بشيء له أجل معدود وأنت ترى الأجل كيف يذهب سريعاً يوماً بعد يوم حتى ينتهي الإنسان إلى آخر مرحلة، فكَذَلِكَ الدنيا كلها تسير يوماً بعد يوم حتى تنتهي إلى آخر مرحلة، وكل شيء معدود فإنه ينتهي. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٩)].

(٢) النفخ في الصور للبعث، وهذا معلوم، وتأتون أفواجا: قد بين حال هذا المجيء مثل قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، وقوله: ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ۝٧ مَهْطَعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٧-٨]، والأفواج هنا قيل: الأمم المختلفة كقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧١]، ولكن الآية بتاء الخطاب: ﴿فَتَأْتُونَ﴾ مما يشعر بأن الأفواج في هذه الأمة. [عطية سالم (٨/٤٠٩)]. و﴿أَفْوَاجًا﴾ حال من ضمير «تأتون»، والأفواج: جمع فوج بفتح الفاء وسكون الواو، والفوج: الجماعة المتصاحبة من أناس مقسمين باختلاف الأغراض، ... قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ [الملك: ٨] الآية. والمعنى: فتأتون مقسمين طوائف وجماعات، وهذا التقسيم بحسب الأحوال. [ابن عاشور (٣٠/٣١)].

(٣) قال الشهاب المراد بالفتح ليس ما عرف من فتح الأبواب، وهو موافق لقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] و﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وعبر عن الشقيق بالفتح إشارة إلى كمال قدرته حتى كان تشقيق هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ كما في قوله: ﴿وَيَوْمَ نَشَقُّ السَّمَاءَ بِالْغَمَمِ وَنُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقيل: معنى فتحت قطعت فصارت قطعاً كالأبواب، وقيل: أبوابها طرقها، وقيل: تنحل وتتناثر حتى تصير فيها أبواب وطرق، وقيل: أن لكل عبد بابين في السماء باب لرزقه وباب لعمله، فإذا قامت القيامة انفتحت الأبواب. وظاهر قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أنها صارت كلها أبواباً، وليس المراد ذلك بل المراد أنها صارت ذات أبواب كثيرة. [صديق حسن (١٥/٣٤)].

(٤) أي: فصارت بعد تسييرها مثل سراب فترى بعد تفتتها وارتفاعها في الهواء كأنها جبال وليست بجبال بل غبار غليظ متراكم يرى من بعيد كأنه جبل كالسراب يرى كأنه بحر مثلاً وليس به، فالكلام على التشبيه البليغ، والجامع أن كلا من الجبال والسراب يرى على كل شيء وليس هو بذلك الشيء، وجوز أن يكون وجه الشبه التخلخل؛ إذ تكون بعد تسييرها غباراً منتشرًا كما قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٢٢ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ۝٢٣﴾ [الواقعة: ٥-٦]. [الآلوسي (١٥/٢١٣)].

﴿لِّلظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ فَلَا يَتَجَاوَزُونَهَا ﴿مَتَابًا ٢٢﴾ مَرَجَعًا لَهُمْ فَيَدْخُلُونَهَا ^(١). ﴿لِّلشَّيْثِينَ﴾ حَالٌ مُّقَدَّرَةٌ، أَي: مُقَدَّرًا لُبُّهُمْ ﴿فِيهَا أَحْقَابًا ٢٣﴾ دُھُورًا لَا نِهَآيَةَ لَهَا جَمْعُ «حُقْبٍ» بِضَمِّ أَوَّلِهِ ^(٢). ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ نَوْمًا ^(٣) وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ مَا يُشْرَبُ تَلَذُّذًا. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿حَمِيمًا﴾ مَاءٌ حَارًّا غَايَةَ الْحَرَارَةِ ﴿وَعَسَاقًا ٢٥﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالشَّدِيدِ، مَا يَسِيلُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ فَإِنَّهُمْ يَذُوقُونَهُ جُوزُوا بِذَلِكَ. ﴿جَزَاءً وَفَاقًا ٢٦﴾ مُوَافِقًا لِعَمَلِهِمْ، فَلَا ذَنْبَ أَعْظَمَ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَا عَذَابَ أَعْظَمَ مِنَ النَّارِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ﴾ لَا يَخَافُونَ ﴿حِسَابًا ٢٧﴾ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثِ. ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الْقُرْآنِ ﴿كِذَابًا ٢٨﴾ تَكْذِيبًا. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ ضَبَطْنَاهُ ﴿كِتَابًا ٢٩﴾ كَتَبْنَاهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ لِنُجَازِي عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ تَكْذِيبُهُمْ بِالْقُرْآنِ ^(٤). ﴿فَذُوقُوا﴾ أَي: فَيَقَالُ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عِنْدَ وَقُوعِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ: ذُوقُوا جَزَاءَكُمْ ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ٣٠﴾ فَوْقَ عَذَابِكُمْ ^(٥). ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١﴾ مَكَانَ فَوْزٍ فِي

(١) فيه قولان: أحدهما: مرجعا ومقلبا، قاله السدي. الثاني: مأوى ومنزلا، قاله قتادة. والمراد بالطاغين من طغى في دينه بالكفر أو في دنياه بالظلم. [الماوردي (١٨٦/٦)].

(٢) جمع حقبة أو حقب وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدود، وقيل: إنها محدودة ثم اختلف في مقدارها ... وعلى القول بالتحديد فالمعنى أنهم يبقون فيها أحقابا، كلما انقضى حقب جاء إلى آخر إلى غير نهاية، وقيل: إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي، ثم نسخ بقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبا: ٣٠] وهذا خطأ؛ لأن الأخبار لا تنسخ، وقيل: هي في عصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار، وهذا خطأ؛ لأنها في الكفار لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [النبا: ٢٨]، وقيل: معناه أنهم يبقون أحيانا لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً، ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب، [قال تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ٥٧﴾ وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ ٥٨﴾ [ص: ٥٧-٥٨]]. [ابن جزي (٢/٤٤٥)]. وأحقاب: جمع حقب بضمين، وهو زمن طويل ... [قال تعالى: ﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾ [الكهف: ٦٠]. وجمعه هنا مراد به الطول العظيم؛ لأن أكثر استعمال الحقب والأحقاب أن يكون في حيث يراد توالي الأزمان، ويبين هذا الآيات الأخرى الدالة على خلود المشركين، فجاءت هذه الآية على المعروف الشائع في الكلام كناية به عن الدوام دون انتهاء. [ابن عاشور (٣٠/٣٦)].

(٣) البرد: ضد الحر، وهو تنفيس للذين عذابهم الحر، أي: لا يغاثون بنسيم بارد، والبرد ألد ما يطلبه المحرور. وعن مجاهد والسدي وأبي عبيدة ونفر قليل تفسير البرد بالنوم، وأنشدوا شاهدين غير واضحين، وأيا ما كان فحمل الآية عليه تكلف لا داعي إليه. [ابن عاشور (٣٠/٣٧)].

(٤) فلا يخشى المجرمون أن عذابهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَ لَنَا مَا هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. [السعدي (ص: ٩٠٦)]. وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢].

(٥) أي: يقال لأهل النار: ذوقوا ما أنتم فيه، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه، ﴿وَعَاخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَاحٌ﴾ [ص: ٥٨] ... عن عبد الله بن عمرو

الْجَنَّةِ^(١). ﴿حَدَائِقُ﴾ بَسَاتِينَ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَفَازًا﴾، أَوْ بَيَانٌ لَهُ ﴿وَأَعْنَبًا﴾^(٢) عَطْفٌ عَلَى ﴿مَفَازًا﴾^(٣). ﴿وَكَوَاعِبُ﴾ جَوَارِي تَكَعَّبَتْ تُدْيِهِنَّ جَمْعُ «كَاعِبٍ» ﴿أَثَرَابًا﴾^(٤) عَلَى سَنٍّ وَاحِدٍ، جَمْعُ «تَرْبٍ» بِكَسْرِ التَّاءِ وَسُكُونِ الرَّاءِ^(٥). ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾^(٦) خَمْرًا مَالِئَةً مَحَالَّهَا، وَفِي سُورَةِ «الْقَتَالِ»: ﴿وَأَنْهَرُ مِنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥]. ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أَيِ: الْجَنَّةِ عِنْدَ شُرْبِ الْخَمْرِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَحْوَالِ ﴿لَغَوًا﴾ بَاطِلًا مِنَ الْقَوْلِ ﴿وَلَا كِذْبًا﴾^(٧) بِالتَّخْفِيفِ، أَيِ: كِذْبًا، وَبِالتَّشْدِيدِ، أَيِ: تَكْذِيبًا مِنْ وَاحِدٍ لَغَيْرِهِ، بِخِلَافِ مَا يَقَعُ فِي الدُّنْيَا عِنْدَ شُرْبِ الْخَمْرِ. ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ﴾ أَيِ: جَزَائِهِمُ اللَّهُ بِذَلِكَ جَزَاءً ﴿عَطَاءً﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿جَزَاءً﴾ ﴿حِسَابًا﴾^(٨) أَيِ: كَثِيرًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَعْطَانِي فَأَحْسَبُنِي، أَيِ: أَكْثَرَ عَلَيَّ حَتَّى قُلْتُ: حَسْبِي^(٩). ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بِالْجَرِّ وَالرَّفْعِ ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ﴾ كَذَلِكَ، وَبَرَفْعِهِ مَعَ

﴿وَاللَّهِ﴾ قال: لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه: ﴿فَدُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ قال: فهم في مزيد من العذاب أبدا. [ابن كثير (٣٠٧/٨)].
(١) قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: متترها. وقال مجاهد، وقتادة: فازوا، فنجوا من النار. والأظهر هاهنا قول ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأنه قال بعده: ﴿حَدَائِقُ﴾ وهي البساتين من النخيل وغيرها. [ابن كثير (٤٩٦/٥)].

(٢) انتصابهما على أنهما بدل اشتغال من ﴿مَفَازًا﴾ أو بدل كل من كل على طرق المبالغة بجعل نفس هذه الأشياء مفازا، ويجوز أن يكون النصب بإضمار أعني، وإذا كان مفازا بمعنى الفوز فيقدر مضاف، أي: فوز حدائق، وهي جمع حديقة وهي البستان المحوط عليه فيه أنواع الشجر المثمر، والأعنان جمع عنب، أي: كروم أعنان، والتكرير يدل على تعظيم ذلك العنب. قال المحلي: ﴿وَأَعْنَبًا﴾ عطف على ﴿مَفَازًا﴾ أي: ذكرت بعد الحدائق تنويها لعظم شأنها وإلا فهي من جملة الحدائق، قال القاري: وهذا بعيد جدا والظاهر عطفه على حدائق وكذا كواعب وكأسا انتهى. [صديق حسن (٤١/١٥)].

(٣) ﴿وَكَوَاعِبُ﴾ جمع كاعب وهي المرأة التي تكعب ثديها واستدار مع ارتفاع يسير ويكون ذلك في سن البلوغ وأحسن التسوية. ﴿أَثَرَابًا﴾ أي: لدات ينشأن معا تشبيها في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهن معا على التراب، أي: الأرض. [الآلوسي (٢١٨/١٥)].

(٤) في حق الكفار قال: ﴿جَزَاءً وَفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وفي حق المؤمنين قال: ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾. ففي الأول بيان أن مجازاتهم وفق أعمالهم ولا يظلم ربك أحدا. وفي الثاني بيان بأن هذا النعيم عطاء من الله وتفضل عليهم به من الأصل، وهو المفاز المفسر في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ زُحْرَحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. ودخول الجنة ابتداء عطاء من الله كما في حديث: «لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ». أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٣٨١٦). وقوله: ﴿حِسَابًا﴾: إشعار بأن تفاوت أهل الجنة في الجنة بالحساب ونتائج الأعمال. وقيل: ﴿حِسَابًا﴾ بمعنى كفاية، حتى يقول كل واحد منهم: حسبي حسبي. أي: كافي. [عطية سالم (٤١٢/٨)].

جَرَّ ﴿رَبِّ﴾ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ أَي: أَلْخَلَقَ ﴿مِنْهُ﴾ تَعَالَى ﴿خِطَابًا ٣٧﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَاطِبَهُ خَوْفًا مِنْهُ^(١).
 ﴿يَوْمَ﴾ ظَرْفُ لَ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ جَبْرِيلُ أَوْ جُنْدُ اللَّهِ^(٢) ﴿وَالْمَلَكُ صَفًا﴾ حَالٌ، أَي: مُصْطَفَيْنَ ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ أَي: أَلْخَلَقَ ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ فِي الْكَلَامِ ﴿وَقَالَ﴾ قَوْلًا ﴿صَوَابًا ٣٨﴾ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ،
 كَأَن يَشْفَعُوا لِمَنْ ارْتَضَى. ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾ الثَّابِتُ وَقُوعُهُ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ٣٩﴾ مَرْجِعًا، أَي: رَجَعَ إِلَى اللَّهِ بِطَاعَتِهِ لِيَسْلَمَ مِنَ الْعَذَابِ فِيهِ^(٣). ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَكُمْ﴾ أَي: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾
 عَذَابَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الْآتِي، وَكُلُّ آتٍ قَرِيبٌ ﴿يَوْمَ﴾ ظَرْفُ لَ ﴿عَذَابًا﴾ بِصِفَتِهِ ﴿يَنْظُرُ الْمَرْءُ﴾ كُلُّ امْرِئٍ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ حَرْفُ تَنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ٤٠﴾ يَعْنِي: فَلَا أَعَذَّبَ، يَقُولُ ذَلِكَ عِنْدَمَا يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْبَهَائِمِ بَعْدَ الْإِقْتِصَاصِ مِنْ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ: كُونِي تُرَابًا^(٤).

(١) أي: لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه، كقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥]. [ابن كثير (٣٠٩/٨)].

(٢) أي: جبريل عليه السلام، وهو المعبر عنه بروح القدس في آية أخرى، وفيه أقوال آخر نقلها ابن جرير. وما ذكرناه أصوبها؛ والتزيل يفسر بعضه بعضا. ثم رأيت الرازي نقل عن القاضي اختياره، قال: لأن القرآن دل على أن هذا الاسم اسم جبريل عليه السلام. وثبت أن القيام صحيح من جبريل، والكلام صحيح منه، ويصح أن يؤذن له، فكيف يصرف هذا الاسم عنه إلى خلق لا نعرفه، أو إلى القرآن الذي لا يصح وصفه بالقيام؟! وقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ صَفًا﴾ قال القاشاني: أي: صافين في مراتبهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصفات: ١٦٤]، وقال الرازي: يحتمل أن يكون المعنى صفا واحدا، ويحتمل أنه صفان، ويجوز صفوفا. والصف في الأصل مصدر، فينبى عن الواحد والجمع، ورجح بعضهم الأخير لآية: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا﴾ [الفجر: ٢٢] انتهى. [القاسمي (٣٩٣/٩)].

(٣) أي: من شاء عمل عملا يؤوب به إلى الله، ويرجع به إلى الله، وذلك العمل الصالح الموافق لمرضاة الله تعالى، وقوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ قيدتها آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ٣٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٧)].

(٤) المعنى أنه يتمنى أنه كان ترابا في الدنيا فلم يخلق ولم يكلف، أو ترابا يوم القيامة فلم يبعث، ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء فيبلغ من عذاب الله أن يؤخذ للجَمَاء من القرناء ثم يقول كوني ترابا فذلك حين يقول الكافر: ﴿لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾. [صديق حسن (٤٦/١٥)].

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

مَكِّيَّةٌ، سِتُّ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِعُ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ ﴿١﴾ ﴿غَرَقًا﴾ نَزْعًا بِشِدَّةٍ. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ﴾ نَشِطًا ﴿٢﴾ الْمَلَائِكَةُ تَنْشِطُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ: تَسْلُهَا بِرَفْقٍ. ﴿وَالسَّابِقَاتِ سَبْحًا﴾ ﴿٣﴾ الْمَلَائِكَةُ تَسْبَحُ مِنَ السَّمَاءِ بِأَمْرِ تَعَالَى، أَيُّ: تَنْزِلُ. ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾ ﴿٤﴾ الْمَلَائِكَةُ تَسْبِقُ بِأَرْوَاحِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْجَنَّةِ. ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ﴿٥﴾ الْمَلَائِكَةُ تُدَبِّرُ أَمْرَ الدُّنْيَا، أَيُّ: تَنْزِلُ بِتَدْيِيرِهِ ﴿٦﴾، وَجَوَابُ هَذِهِ الْأَقْسَامِ مَحْذُوفٌ، أَيُّ: لَتُبْعَثَنَّ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ. وَهُوَ عَامِلٌ فِي: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ

(١) النازعات: جمع نازعة، والنزع: جذب الشيء بقوة من مقره، كنزع القوس عن كبده، ويستعمل في المحسوس والمعنوي، فمن الأول نزع القوس كما قدمنا، ومنه قوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ [الأعراف: ١٠٨]، وقوله: ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]، ... ومن المعنوي قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧]، ... والإغراق: المبالغة، والاستغراق: الاستيعاب. [عطية سالم (٨/ ٤١٥)].

(٢) قوله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرَقًا﴾ الواو للقسام، والمقسم به محذوف، ذكرت صفاته في كل المذكورات، إلى قوله: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾. وقد اختلف في المقسم به فيها كلها، ... قد ذكر في الجلالين المعنى الأول منها فقط، والذي يشهد له السياق والنصوص الأخرى: أن كلا من ﴿النَّازِعَاتِ﴾ و﴿النَّشِيطَاتِ﴾: هم الملائكة، وهو ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد، وهي صفات لها في قبض الأرواح. ودلالة السياق على هذا المعنى هو أنهما وصفان متقابلان: الأول نزع بشدة، والآخر نشاط بخفة، فيكون النزع غرقاً لأرواح الكفار، والنشاط بخفة لأرواح المؤمنين، وقد جاء ذلك مفسراً في قوله تعالى في حق نزع أرواح الكفار: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبِرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى في حق المؤمنين: ﴿يَنَالُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٧﴾ أَرْجَعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. وهذا يتناسب كل المناسبة مع آخر السورة التي قبلها إذ جاء فيها: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠]، ونظر المرء ما قدمت يداه يبدأ من حالة النزع حينما يثقل اللسان عن النطق في حالة الحشرجة، حين لا تقبل التوبة عند المعاينة لما سيؤول إليه، فينظر حيثئذ ما قدمت يداه، وهذا عند نزع الروح أو نشاطها. والله تعالى أعلم. [عطية سالم (٨/ ٤١٥)]. وهذه الإقسامات بالملائكة الكرام، وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه، الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك، ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان، وأنه

الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ بِهَا يَرْجِفُ كُلُّ شَيْءٍ، أَي: يَتَرَلْزَلُ، فَوُصِفَتْ بِمَا يَحْدُثُ مِنْهَا. ﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ وَيَنْهَمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً﴾ وَالْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ الرَّاجِفَةِ، فَالْيَوْمُ وَاسِعٌ لِلنَّفْخَتَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، فَصَحَّ ظَرْفِيَّتُهُ لِلْبُعْثِ الْوَاقِعِ عَقِبَ الثَّانِيَةِ. ﴿قُلُوبٌ يَوْمِيذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ خَائِفَةٌ قَلِقَةٌ. ﴿أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ ذَلِيلَةٌ لِهَوْلٍ مَا تَرَى. ﴿يَقُولُونَ﴾ أَي: أَرْبَابُ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ اسْتِهْزَاءً وَإِنْكَارًا لِلْبُعْثِ: ﴿أَيْنَا﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَتَسْهِيلِ الثَّانِيَةِ وَإِدْخَالِ أَلْفٍ بَيْنَهُمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَي: أُنْزِدُ بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ؟ وَالْحَافِرَةُ اسْمٌ لِأَوَّلِ الْأَمْرِ، وَمِنْهُ رَجَعَ فَلَانٌ فِي حَافِرَتِهِ، إِذَا رَجَعَ مِنْ حَيْثُ جَاءَ. ﴿أَيْنَا كُنَّا عِظْمًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿نَخِرَةً﴾ بِالْيَاءِ مُتَمَتِّةً، نَحْيَا؟ ﴿قَالُوا تِلْكَ﴾ أَي: رَجَعْتَنَا إِلَى الْحَيَاةِ ﴿إِذَا﴾ إِنْ صَحَّتْ ﴿كَرَّةٌ﴾ رَجَعَةٌ ﴿خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ذَاتُ خُسْرَانٍ. قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أَي: الرَّدِيفَةُ الَّتِي يَعْقُبُهَا الْبُعْثُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ نَفْخَةٌ ﴿وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا نُفِخَتْ: ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ أَي: كُلُّ الْخَلَائِقِ ﴿بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ بَوَجْهِ الْأَرْضِ أَحْيَاءَ، بَعْدَ مَا كَانُوا يَبْطِنُهَا أَمْوَاتًا. ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿حَدِيثُ مُوسَى ﴿١٥﴾ عَامِلٌ فِي: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اسْمُ الْوَادِي بِالتَّنْوِينِ وَتَرْكِهِ. فَقَالَ: ﴿أَذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ تَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الْكُفْرِ. ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ﴾ أَدْعُوكَ ﴿إِلَىٰ أَنْ تَزْكَى ﴿١٨﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا، تَتَطَهَّرُ مِنَ الشَّرِّ، بِأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أَذْلَكَ عَلَىٰ مَعْرِفَتِهِ بِبُرْهَانٍ ﴿فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَتَخَافُهُ. ﴿فَارْنُ الْآيَةَ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ مِنْ آيَاتِهِ التَّسْعِ، وَهِيَ

أقسم على الملائكة، لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة، ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده. [السعدي (ص: ٩٠٨)].

(١) الأربعون لم تحدد بسنة، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ، قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَيْتُ. وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبَ ذَنْبِهِ، فِيهِ يُرْكَبُ الْخَلْقُ». أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٢) أكثر المفسرين على أنها الحياة الأولى، يقال: عاد في حافرتة رجع في طريقه، كأن محياه الأول حفر طريقه بمشيئه فيها، وعليه لا علاقة له بحفرة القبر، وإنما هو تعبير عربي عن العودة في الأمر... وقد دلت الآية بعدها، إلى أن المراد بالحافرة العودة إلى الحياة مرة أخرى، في قوله: ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذَا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: ١٢]. والكرة: هي العودة إلى الحياة الأولى، وهي ما قبل حفرة القبر من تكرار الحياة السابقة. والله تعالى أعلم. [عطية سالم (٨/ ٤١٨)].

(٣) الساهرة الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجري فيها، من قولهم: عين ساهرة للتي يجري ماؤها وفي ضدها نائمة، أو لأن سالكها يسهر خوفاً. [البيضاوي (٥/ ٢٨٣)].

الْيَدِ أَوْ الْعَصَا^(١). ﴿فَكَذَّبَ﴾ فِرْعَوْنُ مُوسَى ﴿وَعَصَى﴾ ^(٢١) اللَّهُ تَعَالَى. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عَنِ الْإِيمَانِ ﴿يَسْعَى﴾ ^(٢٢) فِي الْأَرْضِ بِالْفُسَادِ. ﴿فَحَشَرَ﴾ جَمَعَ السَّحَرَةَ وَجُنْدَهُ ﴿فَنَادَى﴾ ^(٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ^(٢٤) لَا رَبَّ فَوْقِي. ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ أَهْلَكَهُ بِالْغَرَقِ ﴿نَكَالَ﴾ عُقُوبَةً ﴿الْآخِرَةِ﴾ أَي: هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿وَالْأُولَى﴾ ^(٢٥) أَي: قَوْلُهُ قَبْلَهَا: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وَكَانَ بَيْنَهُمَا أَرْبَعُونَ سَنَةً^(٢٦). ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُورِ ﴿لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى﴾ ^(٢٧) اللَّهُ تَعَالَى. ﴿ءَأَنْتُمْ﴾ بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَالِ الثَّانِيَةِ أَلِفًا وَتَسْهِيلِهَا وَإِدْخَالِ أَلِفٍ بَيْنَ الْمُسْهَلَةِ وَالْأُخْرَى وَتَرْكِهِ، أَي: مُنْكَرُوا الْبَعْثِ ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾ أَشَدُّ خَلْقًا^(٢٨) ﴿بَنَلَهَا﴾ ^(٢٩) بَيَّانُ لِكَيْفِيَّةِ خَلْقِهَا. ﴿رَفَعَ سَمَكَهَا﴾ تَفْسِيرٌ لِكَيْفِيَّةِ الْبِنَاءِ، أَي: جَعَلَ سَمَتَهَا فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ رَفِيعًا، وَقِيلَ: سَمَكُهَا سَقْفُهَا ﴿فَسَوَّلَهَا﴾ ^(٣٠) جَعَلَهَا مُسْتَوِيَةً بِلا عَيْبٍ. ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أَظْلَمَهُ ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ ^(٣١) أَبْرَزَ نُورَ شَمْسِهَا، وَأُضِيفَ إِلَيْهَا اللَّيْلُ لِأَنَّهُ ظِلُّهَا، وَالشَّمْسُ لِأَنَّهَا سِرَاجُهَا. ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَلَهَا﴾ ^(٣٢) بَسَطَهَا وَكَانَتْ مَخْلُوقَةً قَبْلَ السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ دَحْوٍ^(٣٣). ﴿أَخْرَجَ﴾

(١) لا ينافي هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه: ٥٦] وكل آياته كبرى لأن الإخبار هنا عما أراه له أول ملاقاته إياه وهو العصا واليد، ثم أردف ذلك برؤية الكل. ولا مساغ لحمل الآية على مجموع معجزاته فإن ما عدا هاتين الآيتين من الآيات التسع إنما ظهر على يده عليه السلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما في سورة الأعراف، ولا ريب في أن هذا مطلع القضية وأمر السحرة مترقب بعده. [صديق حسن (١٥/٦٢)].

(٢) أي: انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين في الدنيا، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَنْسُ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. هذا هو الصحيح في معنى الآية، أن المراد بقوله: ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ أي: الدنيا والآخرة، وقيل: المراد بذلك كلمته الأولى والثانية. وقيل: كفره وعصيانه. والصحيح الذي لا شك فيه الأول. [ابن كثير (٨/٣١٥)].

(٣) الاستفهام تقريرى. والمقصود من التقرير إلجائهم إلى الإقرار بأن خلق السماء أعظم من خلقهم، أي: من خلق نوعهم وهو نوع الإنسان وهم يعلمون أن الله هو خالق السماء فلا جرم أن الذي قدر على خلق السماء قادر على خلق الإنسان مرة ثانية، فيستج ذلك أن إعادة خلق الأجساد بعد فنائها مقدورة لله تعالى لأنه قدر على ما هو أعظم من ذلك، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، ذلك أن نظرهم العقلي غيبت عليه العادة فجعلوا ما لم يألفوه محالا، ولم يلتفتوا إلى إمكان ما هو أعظم مما أحالوه بالضرورة. [ابن عاشور (٣٠/٨٣)].

(٤) الأرض خلقت قبل السماء، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل. وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، وغير واحد، واختاره ابن جرير... عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿دَحَلَهَا﴾ دحيتها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق فيها الأنهار،

حَالٍ بِإِضْمَارٍ «قَدْ»، أَي: مُخْرِجًا ﴿مِنْهَا مَاءَهَا﴾ بِتَفْجِيرِ عِيُونِهَا ﴿وَمَرَعَهَا﴾ ﴿٣١﴾ مَا تَرَعَاهُ النَّعْمُ مِنَ الشَّجَرِ وَالْعُشْبِ، وَمَا يَأْكُلُهُ النَّاسُ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالثَّمَارِ، وَإِطْلَاقُ الْمَرَعَى عَلَيْهِ اسْتِعَارَةٌ. ﴿وَالْجِبَالُ أُرْسُلَهَا﴾ ﴿٣٢﴾ أَثْبَتَهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ لِتَسْكُنَ. ﴿مَتَعًا﴾ مَفْعُولٌ لَهُ لِمُقَدَّرٍ، أَي: فَعَلَ ذَلِكَ مُتَعَةً، أَوْ مَصْدَرٌ، أَي: تَمَتُّعًا ﴿لَكُمْ وَلَا نَعْمِيكُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ جَمْعُ «نَعْمٍ» وَهِيَ: الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ. ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ ﴿٣٤﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ^(١). ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِذَا» ﴿مَا سَعَى﴾ ﴿٣٥﴾ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أُظْهِرَتْ ﴿الْجَحِيمُ﴾ النَّارُ الْمُحْرِقَةُ ﴿لِمَنْ يَرَى﴾ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ رَاءٍ^(٢). وَجَوَابُ «إِذَا»: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى﴾ ﴿٣٧﴾ كَفَرَ ﴿وَعَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٣٨﴾ بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ. ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿٣٩﴾ مَأْوَاهُ. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ قِيَامَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿وَنَهَى النَّفْسَ الْآمَّارَةَ﴾ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿الْمُرْدِي بِاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ. ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ ﴿٤١﴾ وَحَاصِلُ الْجَوَابِ: فَالْعَاصِي فِي النَّارِ وَالْمُطِيعُ فِي الْجَنَّةِ. ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أَي: كُفَّارُ مَكَّةَ ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ ﴿٤٢﴾ مَتَى وَقُوعُهَا وَقِيَامُهَا. ﴿فِيمَ﴾ فِي أَيِّ شَيْءٍ ﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ ﴿٤٣﴾ أَي: لَيْسَ عِنْدَكَ عِلْمُهَا حَتَّى تَذْكُرَهَا. ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَلُهَا﴾ ﴿٤٤﴾ مُتَهَيَّ عِلْمُهَا لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ^(٣). ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ إِنَّمَا يَنْفَعُ إِذْذَارُكَ ﴿مَنْ يَخْشَاهَا﴾ ﴿٤٥﴾ يَخَافُهَا. ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ فِي قُبُورِهِمْ ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ ﴿٤٦﴾ عَشِيَّةً يَوْمٍ أَوْ بُكْرَتَهُ، وَصَحَّ إِضَافَةُ الضُّحَىٰ إِلَى الْعَشِيِّ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْمَلَابَسَةِ إِذْهُمَا طَرَفَا النَّهَارِ، وَحَسَّنَ الْإِضَافَةَ وَقُوعُ الْكَلِمَةِ فَاصِلَةً.

وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام. [ابن كثير (٣١٦/٨)].

(١) هو يوم القيامة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفضع، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَىٰ وَأَمْرٌ﴾ [القمر:

٤٦]. [ابن كثير (٣١٧/٨)].

(٢) أي: أظهرت النار المحرقة إظهاراً بيناً مكشوفاً لا تخفى على أحد، قال مقاتل: فكشف عنها الغطاء فينظر إليها الخلق، وقيل: لمن يرى من الكفار لا من المؤمنين. والظاهر أنها تبرز لكل راء، فأما المؤمن فيعرف برؤيتها قدر نعمة الله عليه بالسلامة منها، وأما الكافر فيزداد غمًا إلى غمه وحسرة إلى حسرته. [صديق حسن (٦٩/١٥)].

(٣) أي: ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين، ﴿ثَقُلْتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعُتَّةٌ يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال هاهنا: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَلُهَا﴾ ولهذا لما سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨). [ابن كثير (٣١٨/٨)].

سُورَةُ عَبَسَ

مَكِّيَّةٌ، اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ﴾ النَّبِيُّ: كَلَحَ وَجْهُهُ^(١) ﴿وَتَوَلَّى﴾^(٢) أَعْرَضَ؛ لِأَجْلِ: ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾^(٣) عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَقَطَعَهُ عَمَّا هُوَ مَشْغُولٌ بِهِ مِمَّنْ يَرْجُو إِسْلَامَهُ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ الَّذِينَ هُوَ حَرِيصٌ عَلَى إِسْلَامِهِمْ، وَلَمْ يَدِرِ الْأَعْمَى أَنَّهُ مَشْغُولٌ بِذَلِكَ، فَنَادَاهُ: عَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ، فَانصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى بَيْتِهِ، فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ بِمَا نَزَلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ^(٤)، فَكَانَ بَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ لَهُ إِذَا جَاءَ: «مَرَحَبًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي»^(٥)، وَيَبْسُطُ لَهُ رِدَاءَهُ. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُعَلِّمُكَ ﴿لَعَلَّهُ يَزَيِّرُ﴾^(٦) فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الزَّايِ، أَيُّ: يَتَطَهَّرُ مِنَ الذُّنُوبِ بِمَا يَسْمَعُ مِنْكَ. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ فِيهِ إِدْغَامُ التَّاءِ فِي الْأَصْلِ فِي الدَّالِ، أَيُّ: يَتَعَطَّرُ ﴿فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى﴾^(٧) الْعِظَةُ الْمَسْمُوعَةُ مِنْكَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: يَنْصَبُ ﴿تَنْفَعُهُ﴾ جَوَابُ التَّرَجُّيِ. ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعْنَى﴾ بِالْمَالِ. ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾^(٨) وَفِي قِرَاءَةٍ بِشَدِيدِ الصَّادِ بِإِدْغَامِ التَّاءِ الثَّانِيَةِ فِي الْأَصْلِ فِيهَا: تُقْبَلُ وَتَتَعَرَّضُ. ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَيِّرُ﴾^(٩) يُؤْمِنُ. ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾^(١٠) حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «جَاءَ». ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾^(١١) اللَّهُ حَالٌ مِنْ فَاعِلٍ «يَسْعَى» وَهُوَ الْأَعْمَى. ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾^(١٢) فِيهِ حَذْفُ التَّاءِ الْأُخْرَى فِي الْأَصْلِ، أَيُّ: تَشَاغَلَ. ﴿كَلَّا﴾ لَا تَفْعَلْ مِثْلَ ذَلِكَ ﴿إِنَّهَا﴾ السُّورَةُ أَوْ الْآيَاتِ ﴿تَذَكَّرُ﴾^(١٣) عِظَةُ لِلْخَلْقِ^(١٤). ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾^(١٥) حَفِظَ ذَلِكَ فَاتَّعَطَّ بِهِ ﴿فِي صُحُفٍ﴾ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ ﴿إِنَّهَا﴾ وَمَا قَبْلَهُ إِعْتِرَاضٌ ﴿مُكْرَمَةٍ﴾^(١٦) عِنْدَ اللَّهِ. ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ فِي السَّمَاءِ ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾^(١٧) مُنْزَهَةً عَنْ مَسِّ الشَّيَاطِينِ. ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾^(١٨)

(١) أي: كَلَحَ بوجهه وقطب وأعرض، وقرئ: ﴿عَبَسَ﴾ بالتشديد، جيء في هذه المواضع بضمائر الغائب إجلالاً له ﷺ ولطفًا به لما في المشافهة بناء الخطاب ما لا يخفى. [صديق حسن (١٥/٧٥)].

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أنزل: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ، فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني. وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأسا؟ فيقول: لا، ففي هذا أنزل». أخرجه الترمذي (٣٣٣١)، وصححه.

(٣) ذكره الديلمي في الفردوس (٦٥١٠) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) فيه وجهان، أحدهما: أن هذا الكلام المتقدم تذكرة أو موعظة للنبي ﷺ، والآخر أن القرآن تذكرة لجميع الناس، فلا ينبغي أن يؤثر فيه أحد على أحد، وهذا أرجح لأنه يناسبه [ما بعده]. [ابن جزي (٢/٤٥٣)].

كَتَبَتْ يَنْسَخُونَهَا مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ^(١). ﴿كَرَامَ بَرَرَةٍ﴾^(٢) مُطِيعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَهُمْ الْمَلَائِكَةُ. ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ لَعْنُ الْكَافِرِ ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾^(٣) اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ، أَي: مَا حَمَلَهُ عَلَى الْكُفْرِ^(٤). ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾^(٥) اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ. ثُمَّ بَيَّنَّ فَقَالَ: ﴿مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾^(٦) عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً إِلَى آخِرِ خَلْقِهِ. ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ﴾^(٧) أَي: طَرِيقَ خُرُوجِهِ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ^(٨) ﴿يَسَّرَهُ﴾^(٩) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ^(١٠) جَعَلَهُ فِي قَبْرِ يَسْتُرُهُ^(١١). ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ﴾^(١٢) لِلْبَعْثِ^(١٣).

(١) قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد: هي الملائكة. وقال وهب بن منبه: هم أصحاب محمد ﷺ، وقال قتادة: هم القراء. وقال ابن جريج، عن ابن عباس: السفرة بالنبطية: القراء. وقال ابن جرير: الصحيح أن السفرة الملائكة، والسفرة يعني بين الله وبين خلقه، ومنه يقال: السفير: الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير، ... قال البخاري: سفرة: الملائكة. سفرت: أصلحت بينهم. وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله وتأديته كالسفير الذي يصلح بين القوم ... عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله ﷺ: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكَرَامِ الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨). [ابن كثير (٣٢١/٨)].

(٢) ﴿قُتِلَ﴾ أَي: لعن. وقيل: عذب. والإنسان الكافر. روى الأعمش عن مجاهد قال: ما كان في القرآن ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ﴾ فإنما عني به الكافر ... وروى أبو صالح عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ﴿مَا أَكْفَرُهُ﴾ أَي شي أكفره؟ وقيل: ما تعجب، وعادة العرب إذا تعجبوا من شيء قالوا: قاتله الله ما أحسنه! وأخزاه الله ما أظلمه، والمعنى: أعجبوا من كفر الإنسان لجميع ما ذكرنا بعد هذا. وقيل: ما أكفره بالله ونعمه مع معرفته بكثرة إحسانه إليه على التعجب أيضا، قال ابن جريج: أي: ما أشد كفره، وقيل: ما استفهام أي: أي شي دعاه إلى الكفر، فهو استفهام توبيخ. وما تحتمل التعجب، وتحتمل معنى «أي»، فتكون استفهاما. [القرطبي (٢١٧/١٩)].

(٣) أي: يسر له الطريق إلى الخير والشر، وقال السدي ومقاتل وعطاء وقتادة: يسره للخروج من بطن أمه، قال بعضهم: إن رأس المولود في بطن أمه من فوق ورجليه من تحت فهو في بطن أمه على الانتصاب، فإذا جاء وقت خروجه انقلب بإلهام من الله تعالى، ذكره الرازي والأول أولى، ومثله قوله: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] وانتصاب السبيل بمضمر يدل عليه الفعل المذكور، أي: يسر السبيل يسره. [صديق حسن (٨٢/١٥)].

(٤) أي: جعله ذا قبر توارى فيه جيفته تكرمة له ولم يجعله مطروحا على الأرض يستقذره من يراه وتقسمه السباع والطيور إذا ظفرت به كسائر الحيوان، والمراد من جعله ذا قبر أمره عز وجل بدفنه، يقال: قبر الميت إذا دفنه بيده، وأقبره إذا أمر بدفنه أو مكن منه، ففي الآية إشارة إلى مشروعية دفن الإنسان وهي مما لا خلاف فيه، ... وعد الإماتة من النعم لأنها وصلة في الجملة إلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم، وخصت هذه النعم بالذكر لما فيها من ذكر أحوال الإنسان من ابتدائه إلى انتهائه وما تتضمن من النعم التي هي محض فضل من الله فإذا تأمل ذلك العاقل علم قبح الكفر وكفران نعم الرب سبحانه وتعالى فشكره جل وعلا بالإيمان والطاعة. [الآلوسي (٢٤٧/١٥)].

(٥) أي: بعثه بعد مماته وأحياه؛ وإنما قال: ﴿إِذَا شَاءَ﴾ لأن وقت البعث غير معلوم لأحد، فهو موكول إلى مشيئة تعالى، متى شاء أن يحيي الخلق أحياءهم. قال الشهاب: وتخصيص النشور به دون الإماتة والإقبار، لأن وقتها معين إجمالا، على ما هو المعهود في الأعمار الطبيعية. [القاسمي (٤٠٩/٩)].

﴿كَلَّا﴾ حَقًّا ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ لَمْ يَفْعَلْ ﴿مَا أَمَرُهُ﴾ ٢٣ ﴿بِهِ رَبُّهُ﴾ ٢٤ ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ﴾ نَظَرَ إِعْتِبَارٍ ﴿إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٥ ﴿كَيْفَ قُدِّرَ وَدُبِّرَ لَهُ﴾. ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ﴾ مِنَ السَّحَابِ ﴿صَبًّا﴾ ٢٦ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ ﴿بِالنَّبَاتِ﴾ ٢٧ ﴿شَقًّا﴾ ٢٨ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ٢٩ ﴿كَالْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٣٠ ﴿هُوَ الْقَتُّ الرَّطْبُ﴾ ٣١ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٣٢ وَحَدَائِقِ غُلْبًا ٣٣ ﴿بَسَاتِينَ كَثِيرَةً الْأَشْجَارِ﴾ ٣٤ ﴿وَفَلَكِهَةً وَأَبًّا﴾ ٣٥ مَا تَرَعَاهُ الْبَهَائِمُ، وَقِيلَ: التَّبْنُ ٣٦. ﴿مَتَعًا﴾ مُتَعَةً أَوْ تَمْتِيعًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي

(١) ﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر عما هو عليه من التكبر والتجبر والترفع والإصرار على إنكار التوحيد والبعث والحساب، أي: ليس الأمر كما يقول، ﴿لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرُهُ﴾ الله به من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، وقيل المراد الإنسان على العموم، وأنه لم يفعل ما أمره الله به مع طول المدة لأنه لا يخلو من تقصير، قال الحسن: أي حقاً لم يعمل ما أمر به، ... قال ابن الأنباري: الوقف على ﴿كَلَّا﴾ قبيح، والوقف على ﴿أَمَرُهُ﴾ و﴿أَنْشَرُهُ﴾ جيد، و﴿كَلَّا﴾ على هذا بمعنى: حقاً. وقيل المعنى: لما يقض جميع أفراد الإنسان ما أمره بل أحل به، بعضها بالكفر، وبعضها بالعصيان، وما قضى ما أمره الله به إلا القليل. وقال بعضهم: ما لابن آدم والفخر، أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قدرة، وهو بينهما حامل عذرة. [صديق حسن (١٥/٨٣)].

(٢) عن ابن عباس أنه قال: هو الفصفصة، وقيدها الخليل بالرطبة وقال: إذا ييست فهي القت وسميت بمصدر قضبه؛ أي: قطعه مبالغة كأنها لتكرر قطعها وتكثره نفسه القطع، وضعف هذا من فسر الأب بما يشمل ذلك وقيل هو كل ما يقضب ليأكله ابن آدم غضا من النبات. [الآلوسي (١٥/٢٤٩)]. فهو كل ما أكل من النبات رطبا، كالقثاء والخيار ونحوهما. سمي قضبا لأنه يقضب، أي: يقطع مرة بعد أخرى. [القاسمي (٩/٤١٠)].

(٣) الغلب: جمع غلباء، وهي مؤنث الأغلب، وهو غليظ الرقبة، يقال غلب كفرح، يوصف به الإنسان والبعير، وهو هنا مستعار لغلظ أصول الشجر، فوصف الحدائق به إما على تشبيه الحديقة في تكاثف أوراق شجرها والتفافها بشخص غليظ الأوداج والأعصاب فتكون استعارة، وإما على تقدير محذوف، أي: غلب شجرها، فيكون نعتا سببيا وتكون الاستعارة في تشبيه كل شجرة بامرأة غليظة الرقبة، وذلك من محاسن الحدائق لأنها تكون قد استكملت قوة الأشجار كما في قوله: ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبي: ١٦]. وخصت الحدائق بالذكر لأنها مواضع التنزه والاختراف، ولأنها تجمع أصنافا من الأشجار. [ابن عاشور (٣٠/١٣٢)].

(٤) أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار. قال ابن عباس: الفاكهة: كل ما أكل رطبا. والأب ما أنبت الأرض، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس، وفي رواية عنه: هو الحشيش للبهائم. وقال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو مالك: الأب: الكلال. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبني آدم. وعن عطاء: كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب ... عن أنس قال: قرأ عمر بن الخطاب ﴿وَفَلَكِهَةً وَأَبًّا﴾ قال: عرفنا ما الفاكهة، فما الأب؟ فقال: لعمر ك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف ... وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض، لقوله: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ٢٩ وَحَدَائِقِ غُلْبًا ٣٠ وَفَلَكِهَةً وَأَبًّا ٣١. وعن إبراهيم التيمي قال: سئل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿وَفَلَكِهَةً وَأَبًّا﴾ فقال: أي سماء تظلني، وأي أرض

السُّورَةِ قَبْلَهَا^(١) ﴿لَكُمْ وَلَآ نَعْمِكُمْ^(٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّآخَةُ^(٣)﴾ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ^(٤). ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ^(٥)
وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ^(٦) وَصَحْبَتِهِ^(٧) زَوْجَتِهِ^(٨) وَبَنِيهِ^(٩)﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بَدَلٌ مِنْ «إِذَا». وَجَوَابُهَا دَلٌّ عَلَيْهِ^(١٠): ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ
يَوْمَ يَوْمٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ^(١١)﴾ حَالٌ يَشْغُلُهُ عَنْ شَأْنٍ غَيْرِهِ، أَيِ: اشْتَغَلَ كُلُّ وَاحِدٍ بِنَفْسِهِ^(١٢). ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ^(١٣)﴾
مُضِيَّةٌ. ﴿صَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ^(١٤)﴾ فَرِحَةٌ وَهُمْ الْمُؤْمِنُونَ. ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ^(١٥)﴾ غُبَارٌ. ﴿تَرَهَقَهَا^(١٦)
تَغْشَاهَا﴾ قَتَرَةٌ^(١٧)﴾ ظُلْمَةٌ وَسَوَادٌ. ﴿أُولَئِكَ﴾ أَهْلُ هَذِهِ الْحَالَةِ ﴿هُمْ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ^(١٨)﴾ أَيِ: الْجَامِعُونَ بَيْنَ
الْكُفْرِ وَالْفُجُورِ^(١٩).

تقلمي إن قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وهذا منقطع بين إبراهيم التيمي والصدّيق. [ابن كثير (٨/ ٣٢٤)].

(١) الآية (٣٣) من سورة النازعات.

(٢) يعني صيحة يوم القيامة، وسميت صاخة لشدة صوتها لأنها تصخ الأذان، أي: تصمها فلا تسمع، وقيل: لأنها تصخ لها الأسماع من قولك أصاخ إلى كذا، أي: استمع إليه، والأول أصح، قال الخليل: الصاخة صيحة تصخ الأذان حتى تصمها لشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة مأخوذ من الصك الشديد يقال، صكه الحجر إذا صكه به، وقال ابن عباس: الصاخة من أسماء يوم القيامة. قال ابن الأعرابي: الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة، وهذا من بديع الفصاحة والفاء للدلالة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها من فنون النعم، وجواب «إذا» محذوف يدل عليه قوله الآتي: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: فإذا جاءت الصاخة اشتغل كل أحد بنفسه. [صدّيق حسن (١٥/ ٨٧)].

(٣) الآية ذكر فرار الإنسان من أحبائه، ورتبهم على ترتيبهم في الحنو والشفقة فبدأ بالأقل وختم بالأكثر، لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل من تقدم ذكره؛ وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه؛ وقيل: إن فراره منهم لثلا يطالبوه بالتبعات، والأول أرجح وأظهر. [ابن جزي (٢/ ٤٥٤)].

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تُحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ مُّشَاةٍ غُرْلًا» فقالت امرأة: أيبصر، أو يرى بعضنا عورة بعض؟ قال: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾. أخرجه الترمذي (٣٣٣٢).

(٥) أتبع وصف ﴿الْكُفْرَةَ﴾ بوصف ﴿الْفَجْرَةَ﴾ مع أن وصف الكفر أعظم من وصف الفجور لما في معنى الفجور من خسارة العمل فذكر وصفاهم الدالان عن مجموع فساد الاعتقاد وفساد العمل. وذكر وصف ﴿الْفَجْرَةَ﴾ بدون عاطف يفيد أنهم جمعوا بين الكفر والفجور. [ابن عاشور (٣٠/ ١٣٨)].

سُورَةُ التَّكْوِيرِ مَكِّيَّةٌ، تِسْعٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ١ ﴿لُفَّتْ وَذُهِبَ بِنُورِهَا﴾ ٢ ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ ٣ ﴿انْفَضَّتْ وَتَسَاقَطَتْ عَلَى الْأَرْضِ﴾ ٤ ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ ٥ ﴿ذُهِبَ بِهَا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ فَصَارَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا﴾ ٦ ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ﴾ النُّوْثُ ﴿الْحَوَامِلُ﴾ ٧ ﴿عُطِّلَتْ﴾ ٨ ﴿تَرَكَّتْ بِلَا رَاعٍ أَوْ بِلَا حَلَبٍ، لِمَا دَهَاهُمْ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَمْ يَكُنْ مَالٌ أَعْجَبَ إِلَيْهِمْ مِنْهَا﴾ ٩ ﴿وَإِذَا

(١) اختلف في معنى ﴿كُوِّرَتْ﴾ هنا أكثر من عشرة أقوال، وكلها تدور على نهاية أمرها. فقيل: لف بعضها على بعض، فانطمس نورها. وقيل: حجب بكاره، أي: لفت بها... وقيل: اضمحلت. وقيل: نكست... والذي يشهد له القرآن، أن هذا كله راجع إلى تغير حالها في آخر أمرها؛ لأن الله تعالى جعل لها أجلا مسمى، ومعنى ذلك أنها تنتهي إليه على الوجه الذي يعلمه سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ كُلٌّ لِّیَجْرِيَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]. فمفهومه: أنه إذا جاء هذا الأجل توقفت عن جريانها. وهو ما يشير إليها قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، أي: بعد أن لم يجتمعا قط، وما كان لهما أن يجتمعا قبل ذلك الوقت، كما في قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]، ولعل أقرب الأقوال المنقولة في ذلك هو القول بأنه بمعنى: نكست. أي: ردت إلى حيث أتت، كما في الحديث، فتطلع من مغربها، وعليه فتجتمع مع القمر. [عطية سالم (٨/٤٣٧)].

(٢) أي: تهاقت وتناثرت. وقال أبو عبيدة: انصبت كما تنصب العقاب إذا انكسرت... ويحتمل أن يكون انكدارها طمس آثارها. وسميت النجوم نجوما لظهورها في السماء بضوئها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: انكدت تغيرت فلم يبق لها ضوء لزوالها عن أماكنها. والمعنى متقارب. [القرطبي (١٩/٢٢٧)]. ويشهد للأول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]. ويشهد للثاني: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]؛ لأنها إذا تناثرت وذهبت من أماكنها وتغير نظامها، فقد ذهب نورها وطمست. [عطية سالم (٨/٤٣٨)].

(٣) يعني: قلعت عن الأرض وسُيِّرَتْ في الهواء كقوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، يعني: خالية ليس عليها شيء من الماء والشجر وغيرها. [السمرقندي (٣/٥٥٠)]. فإن هذه الجبال العظيمة الصلبة العالية الرفيعة تكون هباءً يوم القيامة وتُسَيَّرُ كما قال الله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبا: ٢٠]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٧٠)].

(٤) وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما تكون على العرب، وليس يعطلها أهلها إلا حال القيامة. وهذا على وجه المثل، لأن في القيامة لا تكون ناقة عشراء، ولكن أراد به المثل، أن هول يوم القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه. وقيل: إنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضا، ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبتوا بها، ولم يهتمهم أمرها. وخوطبت العرب بأمر العشار، لأن مالها وعيشها أكثره من الإبل. وروى الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه: عطلت: عطلها أهلها،

﴿لَوْحُوشٌ حُشِرَتْ ٥﴾ جُمِعَتْ بَعْدَ الْبَعْثِ لِيُقْتَصَرَ لِبَعْضٍ مِنْ بَعْضٍ، ثُمَّ تَصِيرُ تُرَابًا^(١). ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ٦﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أَوْقَدَتْ فَصَارَتْ نَارًا^(٢). ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ٧﴾ قُرِنَتْ بِأَجْسَادِهَا^(٣). ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ ٨﴾ الْجَارِيَةُ تُدْفَنُ حَيَّةً خَوْفَ الْعَارِ أَوْ الْحَاجَةِ ﴿سُيِّلَتْ ٩﴾ تَبْكِيَةً لِقَاتِلِهَا^(٤). ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ١٠﴾ وَقُرِئَ بِكَسْرِ

لاشتغالهم بأنفسهم. [القرطبي (١٩/٢٢٨)].

(١) كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨] ... قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مُحْشُورَةً﴾ [ص: ١٩]، أي: مجموعة. [ابن كثير (٨/٣٣١)]. قال ﷺ: «لَتُؤَدَّنَ الْحُقُوفُ إِلَىٰ أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّىٰ يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقُرْنَاءِ». أخرجه مسلم (٢٥٨٢). وعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: يحشر الخلائق كلهم. يوم القيامة البهائم والدواب والطير وكل شيء، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجماة من القرناء، ثم يقول: كوني ترابا، فذلك حين يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ [النبا: ٤٠].

(٢) فيه ثلاثة أقوال: أحدها ملئت وفجر بعضها إلى بعض حتى تعود بحراً واحداً، والآخر: ملئت نيراناً لتعذيب أهل النار، والثالث: فرغت من مائها وييسرت. وأصله من سَجَرْتُ التَّنُورَ إِذَا مَلَأْتَهَا، فالقول الأول والثاني أليق بالأصل. والأول والثالث موافق لقوله: ﴿فُجِّرَتْ﴾. [ابن جزي (٢/٤٥٥)]. ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأن يقال: ﴿الْبِحَارُ﴾ جمع بحر، وجمعت لعظمتها وكثرتها، فإنها تمثل ثلاثة أرباع الأرض تقريباً أو أكثر، هذه البحار العظيمة إذا كان يوم القيامة فإنها تسجر، أي: توقد ناراً، تشتعل ناراً عظيمة، وحينئذ تبيس الأرض ولا يبقى فيها ماء. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٧٠)].

(٣) فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن التزويج بمعنى التنويع لأن الأزواج هي الأنواع، فالمعنى جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن، والثاني: زوجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين، والثالث: زوجت الأرواح والأجساد، أي: ردت إليها عند البعث. والأول هو الأرجح، لأنه روي عن النبي ﷺ وعن عمر بن الخطاب وابن عباس. [ابن جزي (٢/٤٥٦)]. عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: الضرباء، كل رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله، وذلك بأن الله عز وجل يقول: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ٥ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ٩ وَالسَّيْفُونَ السَّيْفُونَ ١٠﴾ [الواقعة: ٧-١٠]، قال: هم الضرباء. أخرجه ابن مردويه في تفسيره، كما في الدر المنثور (٨/٤٢٩). ... وفي رواية عن النعمان قال: سئل عمر (رضي الله عنه) عن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ فقال: يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار، فذلك تزويج الأنفس. وقال العوفي، عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في قوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قال: ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة. [ابن كثير (٨/٣٣٢)].

(٤) كانوا يفعلون ذلك خشية من إغارة العدو عليهم فيسي نساءهم، ولخشية الإملاق في سني الجذب؛ لأن الذكر يحتال للكسب بالغارة وغيرها والأُنثى عالة على أهلها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: ٥٨-٥٩].

النَّاءِ^(١) حِكَايَةً لِّمَا تُخَاطَبُ بِهِ، وَجَوَابُهَا أَنْ تَقُولَ: قُتِلْتُ بِلَا ذَنْبٍ. ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ﴾ صُحُفُ الْأَعْمَالِ ﴿نُشِرَتْ﴾^(٢) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، فَتَحَتَ وَبُسِطَتْ^(٣). ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾^(٤) نَزَعَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا كَمَا يُنَزَعُ الْجِلْدُ عَنْ الشَّاةِ^(٥). ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ﴾ النَّارُ ﴿سُعِرَتْ﴾^(٦) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، أُجِّجَتْ. ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرْلِفَتْ﴾^(٧) قُرِبَتْ لِأَهْلِهَا لِيَدْخُلُوهَا^(٨)، وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ أَوَّلُ السُّورَةِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا. ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ﴾ أَي: كُلُّ نَفْسٍ وَقْتَ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿مَا أَحْضَرْتُ﴾^(٩) مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ^(١٠). ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ «لَا» زَائِدَةٌ ﴿بِالْحُنَّسِ﴾^(١١) الْجَوَارِ

[ابن عاشور (٣٠/١٤٥)]. فإن سأل سائل: كيف يصح أن يسأل من لا ذنب له ولا عقل، فأبي فائدة في سؤالها عن ذلك، وما وجه الحكمة فيه؟ والجواب من وجهين: أحدهما: أن يكون المراد أن قاتلها طوالب بالحجة في قتلها، وسئل عن قتله لها بأي ذنب كان، على سبيل التوبيخ والتعنيف وإقامة الحجة. فالقتلة هاهنا هم المسؤولون على الحقيقة، لا المقتولة، وإنما المقتولة مسؤول عنها. ويجري هذا مجرى ... قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤] أي: مطالباً به مسؤولاً عنه. والوجه الآخر: أن يكون السؤال توجه إليها على الحقيقة، على سبيل التوبيخ له، والتفريع له، والتنبيه له، على أنه لا حجة له في قتلها. ويجري هذا مجرى قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُنِي إِلَهُينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] على طريق التوبيخ لقومه، وإقامة الحجة عليهم. [القاسمي (٩/٤١٣)].

(١) قراءة شاذة.

(٢) أي: فتحت بعد أن كانت مطوية، والمراد صحف الأعمال التي كتبت الملائكة فيها ما فعل أهلها من خير وشر، تطوى بالموت، وتشر في يوم القيامة، فيقف كل إنسان على صحيفته، فيعلم ما فيها، فيقول: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. [القرطبي (١٩/٢٣٤)].

(٣) في يوم القيامة تكشف، يعني: تزال عن مكانها كما يكشف الجلد عند سلخ البعير عن اللحم، يكشفها الله عز وجل ثم يطويها جل وعلا يمينه، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿كَطَى السَّجَلِ لِلْكَتِّبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] يعني: كما يطوي السجل الكتب، يعني الكاتب إذا فرغ من كتابته طوى الورقة حفظاً لها عن التمزق وعن المحي. فالسمااء تكشف يوم القيامة ويبقى الأمر فضاء، إلا أن الله تعالى يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، يكون بدل السماء التي فوقنا العرش. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٧٣)]. قال رسول الله ﷺ: «يَقْبُضُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ مُلُوكُ الْأَرْضِ؟». أخرجه البخاري (٤٨١٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٤) أي: قربت إلى المتقين وأدنت منهم ليدخلوها، قال الحسن: إنهم يقربون منها لا أنها تزول عن موضعها، وقال ابن زيد: معنى أزلفت تزينت، والأول أولى لأن الزلفى القرب في كلام العرب. قيل: هذه الأمور الإثنا عشر ست منها في الدنيا وهي من أول السورة إلى قوله: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، وست في الآخرة هي ﴿وَإِذَا الْتُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ إلى هنا. [صديق حسن (١٥/١٠١)]. [وقيل: أن ظاهره اتصال طي السماء بإعادة الخلق، فتصير الأشرط التي تحصل قبل البعث سبعة والأحداث التي تقع بعد البعث خمسة]. [ابن عاشور (٣٠/١٥٠)].

(٥) هذا جواب «إذا» المكررة في المواضع قبل هذا، ومعناه: علمت كل نفس ما أحضرت من عمل، فلفظ النفس مفرد يراد به الجنس والعموم،

الْكُنُوسِ ﴿١٦﴾ هِيَ النُّجُومُ الْخَمْسَةُ: زُحْلُ وَالْمُشْتَرِي وَالْمَرِيخُ وَالزُّهْرَةُ وَعُطَارِدُ، تَخْنُسُ بِضَمِّ النُّونِ، أَي: تَرْجِعُ فِي مَجْرَاهَا وَرَاءَهَا، بَيْنَمَا تَرَى النَّجْمَ فِي آخِرِ الْبُرْجِ إِذْ كَرَّرَ رَاجِعًا إِلَى أَوَّلِهِ، وَتَكْنُسُ بِكَسْرِ النُّونِ: تَدْخُلُ فِي كِنَاسِهَا، أَي: تَغِيبُ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي تَغِيبُ فِيهَا^(١). ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ أَقْبَلَ بِظَلَامِهِ أَوْ أَدْبَرَ. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ائْتَدَّ حَتَّى يَصِيرَ نَهَارًا بَيِّنًا^(٢). ﴿إِنَّهُ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿لَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ جَبْرِيلُ أُضِيفَ إِلَيْهِ لِنَزُولِهِ بِهِ. ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ أَي: شَدِيدِ الْقُوَى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أَي: اللَّهِ تَعَالَى ﴿مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ذِي مَكَانَةٍ، مُتَعَلِّقٌ بِهِ عِنْدَ﴾. ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ تُطِيعُهُ الْمَلَائِكَةُ فِي السَّمَاوَاتِ ﴿أَمِينٍ ﴿٢١﴾ عَلَى الْوَحْيِ. ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ مُحَمَّدٌ ﷺ عُطِفَ عَلَى ﴿إِنَّهُ﴾ إِلَى آخِرِ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ ﴿بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ^(٣). ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾ رَأَى مُحَمَّدٌ ﷺ جَبْرِيلَ

وقال ابن عطية: إنما أفردها لبيان حقارتها وذلتها، وقال الزمخشري: هذا من عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحجر: ٢] ومعناه التكثير، وكذلك هنا معناه أعم الجموع ﴿مَا أَحْضَرْتُ﴾ عبارة عن الحسنات والسيئات. [ابن جزي (٢/٤٥٦)]. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿يُنَبِّئُ الْإِنْسَانَ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيِّئَاتُهُ رُبُّهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجَمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ مِنْ عَمَلِهِ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(١) قد يظن بعض الناس أن «لا» نافية، وليس كذلك، بل هي مُشَبِّهَةٌ لِلْقَسَمِ، ويؤتى بها في مثل هذا التركيب للتأكيد. فالمعنى: ﴿أَقْسِمُ بِالْخُنُوسِ﴾، وَالْخُنُوسُ جمع خائسة، وهي النجوم التي تَخْنُسُ، أي: ترجع، فبينما تراها في أعلى الأفق إذا بها راجعة إلى آخر الأفق، وذلك والله أعلم لارتفاعها وبعدها، فيكون ما تحتها من النجوم أسرع منها في الجري بحسب رؤية العين. وقوله: ﴿الْجَوَارِ﴾ أصلها «الجواري» بالياء، لكن حُذِفَتِ الياء للتخفيف، و﴿الْكُنُوسِ﴾ هي التي تكس، أي: تدخل في مغييها، فأقسم الله بهذه النجوم، ثم أقسم بالليل والنهار. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٧٥)].

(٢) عسعس الليل عسعاسا وعسعة، قال مجاهد عن ابن عباس ؓ: أقبل بظلامه، وقال مجاهد أيضا عن ابن عباس ؓ: أعاد بظلامه، وأدبر ظلامه، وقاله زيد بن أسلم وجزم به الفراء وحكى عليه الإجماع. وقال المبرد، والخليل: هو من الأضداد، يقال: عسعس، إذا أقبل بظلامه، وعسعس، إذا أدبر ظلامه. قال ابن عطية: قال المبرد: أقسم الله بإقبال الليل وإدباره معا. وبذلك يكون إثارة هذا الفعل لإفادته كلا حالين صالحين للقسم به فيهما؛ لأنهما من مظاهر القدرة إذ يعقب الظلام الضياء، ثم يعقب الضياء الظلام، وهذا إيجاز. وعطف عليه القسم بالصبح حين تنفسه، أي: انشفاق ضوئه لمناسبة ذكر الليل، ولأن تنفس الصبح من مظاهر بديع النظام الذي جعله الله في هذا العالم. والتنفس: حقيقته خروج النفس من الحيوان، استعير لظهور الضياء مع بقايا الظلام على تشبيهه بخروج الضياء بخروج النفس على طريقة الاستعارة المصروفة، أو لأنه إذا بدا الصباح أقبل معه نسيم فجعل ذلك كالتنفس له على طريقة المكنية بتشبيهه الصبح بذئ نفس مع تشبيهه بالنسيم بالأنفاس. [ابن عاشور (٣٠/١٥٤)].

(٣) الخطاب لأهل مكة والمراد بصاحبكم رسول الله ﷺ، والمعنى وما محمد يا أهل مكة بمجنون، وذكره بوصف الصحبة للإشعار بأنهم

عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ ٢٣﴾ الْبَيِّنَ وَهُوَ الْأَعْلَىٰ بِنَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ ^(١). ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَي: مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ أَي: مَا غَابَ مِنَ الْوَحْيِ وَخَبَرِ السَّمَاءِ ﴿بِضُنَيْنِ ٢٤﴾ بِمُتَّهِمٍ، وَفِي قِرَاءَةٍ بِالضَّادِ، أَي: بِبَخِيلٍ فَيَنْتَقِصُ شَيْئًا مِنْهُ. ﴿وَمَا هُوَ﴾ أَي: الْقُرْآنُ ﴿بِقَوْلِ شَيْطَانٍ﴾ مُسْتَرِقِ السَّمْعِ ﴿رَجِيمٍ ٢٥﴾ مَرْجُومٍ. ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ٢٦﴾ فَبِأَيِّ طَرِيقٍ تَسْلُكُونَ فِي إِنْكَارِكُمُ الْقُرْآنَ وَإِعْرَاضِكُمْ عَنْهُ. ﴿إِنْ﴾ مَا ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عِظَةٌ ﴿لِّلْعَالَمِينَ ٢٧﴾ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ. ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمُ﴾ بَدَلٌ مِّنَ «الْعَالَمِينَ» بِإِعَادَةِ الْجَارِ ﴿أَن يَسْتَقِيمَ ٢٨﴾ بِاتِّبَاعِ الْحَقِّ. ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ الْإِسْتِقَامَةَ عَلَى الْحَقِّ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٩﴾ الْخَلَائِقِ اسْتِقَامَتَكُمْ عَلَيْهِ ^(٢).

عالمون بأمره، وأنه ليس مما يروونه به من الجنون وغيره في شيء، وأنهم افتروا عليه ذلك عن علم منهم بأنه أعقل الناس وأكملهم... والمقصود رد قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨]. [صديق حسن (١٥/١٠٦)].

(١) يعني: ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح ﴿بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ أَي: البين، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء، وهي المذكورة في قوله: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ١٠﴾ [النجم: ٥-١٠]. والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء؛ لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهي الأولى، وأما الثانية وهي المذكورة في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ١٦﴾ [النجم: ١٣-١٦]، فذلك إنما ذكرت في سورة النجم، وقد نزلت بعد سورة الإسراء. [ابن كثير (٨/٣٣٩)].

(٢) ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمُ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أَي: من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن، فإنه منجاة له وهداية، ولا هداية فيما سواه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أَي: ليست المشيئة موكولة إليكم، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله عز وجل رب العالمين. [ابن كثير (٨/٣٤٠)]. أَي: أعلمهم أن المشيئة في التوفيق إليه وأنهم لا يقدرُونَ على ذلك إلا بمشيئة الله، وفيه إعلَامُ أَن أَحَدًا لَا يَعْمَلُ خَيْرًا إِلَّا بِتَوْفِيقِ اللَّهِ وَلَا شَرًّا إِلَّا بِخِذْلَانِهِ. [البغوي (٨/٣٥١)]. أَي: وما تشاؤون شيئًا من فعالكم، إلا أَن يشاء الله تمكينكم من مشيئكم وإقداركم عليها والتخليفة بينكم وبينها. وفائدة هذا الإخبار هو الإعلَامُ بِالافتقارِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وأنه لا قدرة للعبد على ما لم يقدره الله عز وجل؛ فهو خاضع لسلطان مشيئته، مقهور تحت تدبيره وإرادته. [القاسمي (٩/٤٢١)]. ومثل هذا قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] والآيات القرآنية في هذا المعنى كثير. [صديق حسن (١٥/١٠٩)]. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَن يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأَى عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾، وَ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْشَقَّتْ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦).

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ
مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ١ ﴿إِنْشَقَّتْ﴾ ٢. ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ ٣ ﴿انْقَضَتْ وَتَسَاقَطَتْ﴾ ٤. ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ ٥ ﴿فُتِحَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَصَارَتْ بَحْرًا وَاحِدًا وَاخْتَلَطَ الْعَذْبُ بِالْمِلْحِ﴾ ٦. ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ ٧ ﴿قَلْبَ تَرَابِهَا وَبُعِثَ مَوْتَاهَا﴾ ٨. وَجَوَابُ ﴿إِذَا﴾ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا: ﴿عَلِمْتُ نَفْسٌ﴾ أَي: كُلُّ نَفْسٍ وَفَتْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿مَا قَدَّمْتُ﴾ مِنَ الْأَعْمَالِ ﴿وَمَا﴾ ﴿أَخَّرْتُ﴾ مِنْهَا فَلَمْ تَعْمَلْهُ ٩. ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ الْكَافِرُ ﴿مَا غَرَّكَ﴾

(١) أي: انشقت، كما في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، قيل: هيبة لله. وقيل: لنزول الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ وَنُزِلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]... [ومثله: ﴿السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٨]. ومثل الانفطار والانشقاق: الانفراج، كقوله: ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩]. [عطية سالم (٨/٤٤٩)].

(٢) أي: إذا انقضت وتساقطت متفرقة، يقال نثرت الشيء انثره نثرًا، والانتثار استعارة لإزالة الكواكب حيث شبهت بجواهر قطع سلكها، وهي مصرحة أو مكنية. [صديق حسن (١٥/١١٣)].

(٣) فيه ثلاثة أقاويل: أحدها: ييسر، قاله الحسن. الثاني: خلطت فصارت بحرا واحدا، وهذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، قال: وهو سبعة أبحر فتصير بحرا واحدا. الثالث: فجر عذبا في مالحها: ومالحها في عذبا، قاله قتادة. ويحتمل رابعا: أي: فاضت. [الماوردي (٦/٢٢٠)].

(٤) أي: نبشت على الموتى الذين فيها، وقال الزمخشري: أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء والمعنى بحثت وأخرج موتاهها. [ابن جزي (٢/٤٥٨)]. أي: بعثت من فيها. كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩]. وقد دل هذا اللفظ على سرعة

الانتشار، كبعثرة الحب من الكف كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]. [عطية سالم (٨/٤٤٩)].

(٥) المعنى: أنها علمته عند نشر الصحف لأنه وقت واحد من عند البعث إلى عند مصير أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار، ... ومعنى: ﴿مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ﴾ ما قدمت من عمل خير أو شر، أو أخرت من سنة حسنة أو سيئة؛ لأن لها أجر ما سنته من السنن الحسنة وأجر من عمل بها، وعليها وزر ما سنته من السنن السيئة ووزر من عمل بها. وقال قتادة: ما قدمت من معصية وأخرت من طاعة، وقيل: ما قدم من فرض وآخر من فرض، وقيل: أول عمله وآخره. وقيل: أن النفس تعلم عند البعث بما قدمت وأخرت علما إجماليا لأن المطيع يرى آثار السعادة، والعاصي يرى آثار الشقاوة، وأما العلم التفصيلي فإنما يحصل عند نشر الصحف. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما قدمت من خير وما أخرت من سنة صالحة يعمل بها بعده فإن له مثل أجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا أو سنة سيئة يعمل بها بعده فإن عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيئا، وعن ابن عباس رضي الله عنهما نحوه. وأخرج الحاكم (٦/٣٩٠) وصححه

بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ حَتَّىٰ عَصَيْتَهُ^(١). ﴿الَّذِي خَلَقَكَ﴾ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ ﴿فَسَوَّكَ﴾ جَعَلَكَ مُسْتَوِيَّ الْخَلْقَةِ سَالِمَ الْأَعْضَاءِ ﴿فَعَدَلَكَ﴾^(٧) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، جَعَلَكَ مُعْتَدِلَ الْخَلْقِ مُتَنَاسِبَ الْأَعْضَاءِ، لَيْسَتْ يَدٌ أَوْ رِجْلٌ أَطْوَلَ مِنَ الْأُخْرَى. ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا﴾ زَائِدَةٌ^(٨) ﴿شَاءَ رَكَّبَكَ﴾^(٩) كَلَّا رَدُّعٌ عَنِ الْإِغْتِرَارِ بِكَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ أَيُّ: كُفَّارَ مَكَّةَ ﴿بِالَّذِينَ﴾^(١٠) بِالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾^(١١) مِنَ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِكُمْ. ﴿كِرَامًا﴾ عَلَى اللَّهِ ﴿كَتَبِينَ﴾^(١٢) لَهَا. ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(١٣) جَمِيعُهُ^(١٤). ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ﴾ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ اسْتَنْ خَيْرًا، فَاسْتَنْ بِهِ، فَلَهُ أَجْرُهُ، وَمِثْلُ أَجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ، غَيْرُ مُتَقَصِّصٍ مِنْ أَجُورِهِمْ، وَمَنْ اسْتَنْ شَرًّا فَاسْتَنْ بِهِ، فَعَلَيْهِ وَزُرُّهُ، وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرُ مُتَقَصِّصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»، وتلا حذيفة «عَلِمْتُ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ». كما أخرجه ابن ماجه (٢٠٤)، وأحمد (٢٣٢٨٩) بدون ذكر الآية [صديق حسن (١١٤/١٥)].

(١) ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ﴾ خطاب لجنس بني آدم ﴿مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ هذا توبيخ وعتاب معناه: أي شيء عرك بربك حتى كفرت به أو عصيته، أو غفلت عنه فدخل في العتاب الكفار وعصاة المؤمنين، ومن يغفل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين. وروي أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿مَا عَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فقال: «عَرَّهُ جَهْلُهُ». أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص: ١٥١)، والثعلبي في تفسيره (١٠/١٤٦). وقال عمر: غره جهله وحمقه. وقرأ: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقيل: غره الشيطان المسلط عليه. وقيل: غره ستر الله عليه، وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه. ولا تعارض بين هذه الأقوال لأن كل واحد منهما مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قومًا وبعضها يغر قومًا آخرين، فإن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟ فالجواب: أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع شكرًا لإحسانه ومقابلة لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمة وأضاع الشكر الواجب. [ابن جزي (٤٥٨/٢)].

(٢) المجرور يتعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ و «ما» زائدة، والمعنى: ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح، والطول والقصر، والذكورة والأنوثة، وغير ذلك من اختلاف الصور. [ابن جزي (٤٥٩/٢)]. قال تعالى: ﴿قَالَ لَهُو صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]، أي: هذه أطوار الإنسان في خلقته. ومما يشهد لحسن الخلقة وكمال الصورة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. واختلاف الصور إنما هو من آيات الله وابتداء من الرحم، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]. وفي اختلاف الصور على تشابهها من أعظم آيات الله تعالى. [عطية سالم (٤٥٠/٨)].

(٣) كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾^(١٧) مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^(١٨) [ق: ١٧-١٨]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [مریم: ٧٩]. قيل: أن هذه الكتابة لإقامة الحجة على الإنسان، كما في قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مِنْ شُورًا﴾^(١٩) أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا^(٢٠) [الإسراء: ١٣-١٤]. وقيل: يحفظون بدن الإنسان، قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١] وقال تعالى: ﴿لَهُو مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]. [عطية سالم (٤٥٠/٨)].

فِي إِيْمَانِهِمْ ﴿لَفِي نَعِيمٍ ١٣﴾ جَنَّةٍ. ﴿وَإِنَّ الْفُجَارَ﴾ الْكُفَّارَ ﴿لَفِي جَحِيمٍ ١٤﴾ نَارٍ مُّحْرَقَةٍ. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَدْخُلُونَهَا وَيُقَاسُونَ حَرَّهَا ﴿يَوْمَ الدِّينِ ١٥﴾ الْجَزَاءِ. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ١٦﴾ بِمُخْرَجِينَ^(١). ﴿وَمَا أَذْرَكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا يَوْمَ الدِّينِ ١٧﴾ ثُمَّ مَا أَذْرَكَ مَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٨﴾ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ^(٢). ﴿يَوْمٌ بِالرَّفْعِ، أَي: هُوَ يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ مِنَ الْمَنْفَعَةِ ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ١٩﴾ لَا أَمْرَ لِّغَيْرِهِ فِيهِ، أَي: لَمْ يُمْكِنْ أَحَدًا مِنَ التَّوَسُّطِ فِيهِ بِخِلَافِ الدُّنْيَا^(٣).

(١) فيه قولان: أحدهما: أن معناه لا يخرجون منها إذا دخلوها، والآخر: لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها لأنهم يعرضون عليها غدواً وعشيا. [ابن جزي]. قال ﷺ: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». أخرجه البخاري (٣٢٤٠)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) كرهه تعظيماً لشأنه وتفخيماً لقدره وتهويلاً لأمره كما في قوله: ﴿الْقَارِعَةُ ١٨﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿١٩﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢٠﴾ [القارعة: ١-٣]، و﴿الْحَاقَّةُ ١٩﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢٠﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢١﴾ [الحاقة: ١-٣] والمعنى: أي شيء جعلك دارياً ما يوم الدين، قال الكلبي الخطاب للإنسان الكافر. [صديق حسن (١١٩/١٥)].

(٣) أي: لشدة هوله وضعف الخلائق، كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] ... ونحو ذلك. وقوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ ظاهر هذه الآية تقييد الأمر بالظرف المذكور، ولكن الأمر لله في ذلك اليوم، وقبل ذلك اليوم، كما في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أي: يتصرف في خلقه بما يشاء من أمره لا يشركه أحد، كما لا يشركه أحد في خلقه. ولذا قال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ونحو ذلك. [عطية سالم (٤٥٢/٨)].

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتُّ وَثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةٌ عَذَابٍ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ^(١) ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ^(٢) الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَىٰ أَيٍّ مِنْ ﴿النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ ^(٣) الْكِيلَ. ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ أَيُّ: كَالُوا لَهُمْ ﴿أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أَيُّ: وَزَنُوا لَهُمْ ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ^(٤) يُنْقِصُونَ الْكِيلَ أَوْ الْوِزْنَ ^(٥). ﴿أَلَا﴾ اسْتَفْهَامٌ تَوْبِيخٌ ﴿يُظُنُّ﴾ يَتَيَقَّنُ ﴿أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ﴾ ^(٦) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ^(٧) أَيُّ: فِيهِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. ﴿يَوْمٌ﴾ بَدَلٌ مِنْ مَحَلٍّ ﴿لِيَوْمٍ﴾ فَنَاصِبُهُ ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ ﴿يَقُومُ النَّاسُ﴾ مِنْ قُبُورِهِمْ ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ^(٨) ﴿الْخَلَائِقِ لِأَجْلِ أَمْرِهِ وَحِسَابِهِ وَجَزَائِهِ﴾ ^(٩). ﴿كَلَّا﴾ حَقًّا ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ أَيُّ: كِتَابَ أَعْمَالِ الْكُفَّارِ ﴿لَفِي سَجِينٍ﴾ ^(١٠) قِيلَ: هُوَ كِتَابٌ جَامِعٌ لِأَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ وَالْكَفَرَةِ، وَقِيلَ: هُوَ مَكَانٌ أَسْفَلَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ وَهُوَ مَحَلُّ إِبْلِيسَ وَجُنُودِهِ ^(١١).

(١) تكررت في القرآن كثيرا، وهي على الأصح كلمة وعيد يتوعد الله سبحانه وتعالى بها من خالف أمره أو ارتكب نبيه على الوجه المقيد في الجملة التي بعدها. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٩٣)].

(٢) قال أهل اللغة: المطفف مأخوذ من الطفف وهو القليل، فالمطفف هو المقلل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن. قال الزجاج: إنما قيل للذي ينقص المكيال والميزان مطفف لأنه لا يكاد يسرق في المكيال والميزان إلا الشيء اليسير الطفيف. قال أبو عبيدة والمبرد: المطفف الذي يخس في الكيل والوزن ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «وَلَا تَطْفُقُوا الْكِيلَ إِلَّا مُنْعُوا النَّبَاتَ وَأُحْدُوا بِالسَّيْنِ». أخرجه الطبراني (١٠٩٩٢)، والدليمي في الفردوس (٢٩٧٨). وهذا الوعيد يلحق كل من يأخذ لنفسه زائدا أو يدفع إلى غيره ناقصا قليلا أو كثيرا، لكن إن لم يتب منه فإن تاب قبلت توبته، ومن فعل ذلك وأصر عليه كان مصرا على كبيرة من الكبائر، وذلك لأن عامة الخلق محتاجون إلى المعاملات وهي مبنية على أمر الكيل والوزن، فلهذا السبب عظم الله أمر الكيل والوزن. [صديق حسن (١٥/١٢٣)].

(٣) أي: يقومون حفاة عراة غرلا في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم، ويغشاهم من أمر الله ما تعجز القوى والحواس عنه ... عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ فِي رَشْحِهِ إِلَى أَنْصَافِ أُذُنَيْهِ». أخرجه البخاري (٤٩٣٨)، ومسلم (٢٨٦٢). [ابن كثير (٨/٣٤٧)].

(٤) قال العلماء: إنه مأخوذ من السجن، وهو الضيق؛ أي: في مكان ضيق، وهذا المكان الضيق هو نار جهنم والعياذ بالله كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا الْقُؤُومُ مَكَانًا ضَيِّقًا مَقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ^(١) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ^(٢) [الفرقان: ١٣ - ١٤]، وجاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل المشهور في قصة المحتضر وما يكون بعد الموت أن الله سبحانه وتعالى يقول: «اكتبوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سَجِينٍ» يعني الكافر «فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى». أخرجه ابن أبي شيبة (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤). فـ ﴿سَجِينٍ﴾ هو أسفل

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ﴾ (٨) ﴿مَا كِتَابٌ سَجِّينٌ﴾ (٩) ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ (١٠) ﴿مَخْتُومٌ﴾ (١١) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٢) ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بَيَوْمِ الدِّينِ﴾ (١٣) ﴿الْجَزَاءِ بَدَلٌ أَوْ بَيَانٌ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ (١٤) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ مُتَجَاوِزِ الْحَدِّ﴾ (١٥) ﴿أَثِيمٍ﴾ (١٦) ﴿صِغَةً مُبَالِغَةٍ﴾ (١٧) ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ ءَايَتُنَا﴾ (١٨) ﴿الْقُرْآنِ﴾ (١٩) ﴿قَالَ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٠) ﴿الْحِكَايَاتِ الَّتِي سَطَّرَتْ قَدِيمًا، جَمْعُ «أُسْطُورَةٍ» بِالضَّمِّ أَوْ «إِسْطَارَةٍ» بِالْكَسْرِ﴾ (٢١) ﴿كَلَّا﴾ (٢٢) ﴿رَدْعٌ وَزَجْرٌ لِقَوْلِهِمْ ذَلِكَ﴾ (٢٣) ﴿بَلْ رَانَ﴾ (٢٤) ﴿غَلَبَ﴾ (٢٥) ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (٢٦) ﴿فَغَشِيَهَا﴾ (٢٧) ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٢٨) ﴿مِنَ الْمَعَاصِي فَهُوَ كَالصِّدْقِ﴾ (٢٩) ﴿كَلَّا﴾ (٣٠) ﴿حَقًّا﴾ (٣١) ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمَحْجُوبُونَ﴾ (٣٢) ﴿فَلَا يَرَوْنَهُ﴾ (٣٣) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ (٣٤) ﴿لَدَاخِلُوا النَّارِ الْمُحْرِقَةِ﴾ (٣٥) ﴿ثُمَّ يُقَالُ﴾ (٣٦) ﴿لَهُمْ﴾ (٣٧) ﴿هَذَا﴾ (٣٨) ﴿أَيُّ الْعَذَابِ﴾ (٣٩) ﴿الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ (٤٠) ﴿كَلَّا﴾ (٤١) ﴿حَقًّا﴾ (٤٢) ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾ (٤٣) ﴿أَيُّ كِتَابِ أَعْمَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ﴾ (٤٤)

ما يكون من الأرض الذي هو مقر النار نعوذ بالله منها فهذا الكتاب في سجين. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٩٨)].

(١) يعني: مكتوب لا يزد فيه ولا ينقص، ولا يبدل ولا يغير، بل هذا ما لهم ومقرهم والعياذ بالله أبد الأبدن. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٩٨)].
(٢) أي: إذا سمع كلام الله من الرسول، يكذب به، ويظن به ظن السوء، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَتْهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]. [ابن كثير (٨/ ٣٥٠)].

(٣) أي: غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب، فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي. وفي الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نَكَتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً، فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، فَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُو قَلْبُهُ، فَهُوَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾». أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٨)، وابن ماجه (٤٢٤٤). [ابن جزي (٢/ ٤٦١)].

(٤) وذلك في يوم القيامة؛ فإنهم يحجبون عن رؤية الله عز وجل كما حجبا عن رؤية شريعته وآياته فأروا أنها أساطير الأولين. وهذه الآية استدلت أهل السنة والجماعة على ثبوت رؤية الله عز وجل، ووجه الدلالة ظاهر؛ فإنه ما حجب هؤلاء في حال السخط إلا وقد مكن للأبرار من رؤيته تعالى في حال الرضا، ... ورؤية الله عز وجل ثابتة بالكتاب ومتواتر السنة وإجماع الصحابة والأئمة، لا إشكال في هذا أنه تعالى يرى حقا بالعين؛ كما قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) [القيامة: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقد فسر النبي ﷺ الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله تعالى. أخرجه مسلم (١٨١). وكما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَنِيَّاتٌ مِّزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]، والمزيد هنا هو بمعنى الزيادة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وكما قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فإن نفي الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، ولهذا كانت هذه الآية مما استدلت به السلف على رؤية الله واستدل به الخلف على عدم رؤية الله، ولا شك أن الآية دليل عليهم؛ لأن الله لم ينف بها الرؤية وإنما نفى الإدراك، ونفى الإدراك يدل على ثبوت أصل الرؤية، فالحاصل أن القرآن دل على ثبوت رؤية الله عز وجل حقا بالعين. وكذلك جاءت السنة بذلك صريحة؛ حيث قال النبي ﷺ: «إِنَّكُمْ سَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا». أخرجه البخاري (٧٤٣٥). [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٠٠)].

فِي إِيْمَانِهِمْ ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ قِيلَ: هُوَ كِتَابُ جَامِعٍ لِأَعْمَالِ الْخَيْرِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمُؤْمِنِي الثَّقَلَيْنِ، وَقِيلَ: هُوَ مَكَانٌ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ تَحْتَ الْعَرْشِ^(١). ﴿وَمَا أَدْرَاكَ أَعْلَمَكَ ﴿مَا عَلِيُّونَ ١٩﴾ مَا كِتَابُ عَلِيِّينَ. هُوَ ﴿كِتَابٌ مَرْفُومٌ ٢٠﴾ مَخْتُومٌ. ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ٢١﴾ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾ جَنَّةٍ. ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ ٢٣﴾ السَّرْرِ فِي الْحِجَالِ^(٢) ﴿يَنْظُرُونَ ٢٤﴾ مَا أُعْطُوا مِنَ النَّعِيمِ. ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ٢٥﴾ بِهَجَةِ التَّنْعَمِ وَحُسْنِهِ. ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ ٢٦﴾ خَمْرٍ خَالِصَةٍ مِنَ الدَّنَسِ ﴿مَخْتُومٍ ٢٧﴾ عَلَى إِنَائِهَا لَا يَفُكُ خَتَمُهَا إِلَّا هُمْ. ﴿خِتَمُهُ مِسْكٌ ٢٨﴾ أَي: آخِرُ شَرْبِهِ يَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةُ الْمِسْكِ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ٢٩﴾ فَلْيَرْغَبُوا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ. ﴿وَمِرَاجُهُ ٣٠﴾ أَي: مَا يُمَزَّجُ بِهِ ﴿مِنْ تَسْنِيمٍ ٣١﴾. فُسِّرَ بِقَوْلِهِ: ﴿عَيْنًا﴾ فَنَضَبُهُ بِ «أَمْدَحَ» مُقَدَّرًا ﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ٣٢﴾ أَي: مِنْهَا، أَوْ ضُمِّنَ ﴿يَشْرَبُ﴾ مَعْنَى: يَلْتَذُّ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ كَأَبِي جَهْلٍ وَنَحْوِهِ ﴿كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كَعَمَّارٍ وَبِلَالٍ وَنَحْوِهِمَا ﴿يُضْحَكُونَ ٣٣﴾ اسْتَهْزَاءً بِهِمْ. ﴿وَإِذَا مَرُّوا﴾ أَي: الْمُؤْمِنُونَ ﴿بِهِمْ يَتَعَامَزُونَ ٣٤﴾ يُشِيرُ الْمُجْرِمُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَفَنِ وَالْحَاجِبِ اسْتَهْزَاءً. ﴿وَإِذَا أَنْقَلَبُوا﴾ رَجَعُوا ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ٣٥﴾ وَفِي قِرَاءَةٍ: ﴿فَكِهِينَ﴾ مُعْجِبِينَ بِذِكْرِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ. ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ﴾ رَأَوْا الْمُؤْمِنِينَ ﴿قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ٣٦﴾ لِإِيْمَانِهِمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ أَي: الْكُفَّارُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿حَافِظِينَ ٣٧﴾ لَهُمْ أَوْ لِأَعْمَالِهِمْ حَتَّى يَرُدُّوهُمْ إِلَى مَصَالِحِهِمْ. ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أَي: يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ٣٨﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ فِي الْجَنَّةِ ﴿يَنْظُرُونَ ٣٩﴾ مِنْ مَنَازِلِهِمْ إِلَى الْكُفَّارِ، وَهُمْ يُعَذِّبُونَ فَيَضْحَكُونَ مِنْهُمْ كَمَا ضَحِكَ الْكُفَّارُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا^(٣). ﴿هَلْ تُوبَ﴾ جُوزِي ﴿الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٤٠﴾ نَعَمْ.

(١) عَلِيُّونَ اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات، وهذا جمع منقول من صفة علي، على وزن فعيل للمبالغة... وهو مشتق من العلو لأنه سبب في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه مرفوع في مكان علي. [ابن جزي (٢/٤٦٢)].

(٢) انظر في معنى الحجال التعليق على آية (٣١) من سورة الكهف.

(٣) أصل التسنيم في اللغة: الارتفاع فهي عين ماء تجري من علو إلى أسفل، ومنه سنام البعير لعلوه من بدنه، ومنه تسنيم القبور. قال ابن عباس رضي الله عنه: لما سئل عن هذا: هذا مما قاله الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: عين في الجنة تمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفًا. [صديق حسن (١٥/١٣٧)].

(٤) أي: إلى الله عز وجل، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون، ليسوا بضالين، بل هم من أولياء الله المقربين، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته. [ابن كثير (٨/٣٥٤)].

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ

مَكِّيَّةٌ، ثَلَاثٌ أَوْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ۖ وَأَذْنَتْ ۖ سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي الْاِنْشِقَاقِ ۖ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ ١ أَي: وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ. ٢ ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ﴾ ٣ ﴿زِيدَ فِي سَعَتِهَا كَمَا يُمَدُّ الْأَدِيمُ وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهَا بِنَاءٌ وَلَا جَبَلٌ ۖ﴾ ٤ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ۖ مِنَ الْمَوْتَى إِلَى ظَاهِرِهَا ۖ وَتَخَلَّتْ ۖ﴾ ٥ عَنْهُ. ﴿وَأَذْنَتْ ۖ سَمِعَتْ وَأَطَاعَتْ فِي ذَلِكَ ۖ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ﴾ ٦ وَذَلِكَ كُلُّهُ يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَجَوَابُ ﴿إِذَا ۖ﴾ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهَا مَحذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ مَا بَعْدَهُ، تَقْدِيرُهُ: لَقِيَ الْإِنْسَانُ عَمَلَهُ. ﴿يَنَاقُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ ۖ جَاهِدٌ فِي عَمَلِكَ ۖ إِلَى ۖ لِقَاءِ رَبِّكَ ۖ وَهُوَ الْمَوْتُ ۖ كَذْحَا فَمُلْقِيهِ ۖ﴾ ٧ أَي: مُلَاقٍ عَمَلِكَ الْمَذْكُورَ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ۖ كِتَابَ عَمَلِهِ ۖ بِيَمِينِهِ ۖ﴾ ٨ هُوَ الْمُؤْمِنُ. ﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۖ﴾ ٩ هُوَ عَرُضُ عَمَلِهِ عَلَيْهِ كَمَا فِي حَدِيثِ الصَّحِيحَيْنِ، وَفِيهِ: «مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ» ١٠، وَبَعْدَ الْعَرُضِ يُتَجَاوَزُ عَنْهُ. ﴿وَيُنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ ۖ فِي الْجَنَّةِ ۖ مَسْرُورًا ۖ﴾ ١١ بِذَلِكَ. ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ۖ﴾

(١) اختلف في هذا الانشقاق هل هو تشققها بالغمام، أو انفتاحها أبواباً، وجواب إذا محذوف ليكون أبلغ في التهويل، إذ يقدر السامع أقصى ما يتصوره، وحذف للعلم به، اكتفاء بما في سورة التكوين والانفطار من الجواب. وقيل: الجواب ما دل عليه، ﴿فَمُلْقِيهِ﴾: أي: إذا السماء انشقت لقي الإنسان ربه، وقيل: الجواب أذنت على زيادة الواو وهذا ضعيف، ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا﴾ معنى أذنت في اللغة: استمعت، وهو عبارة عن طاعتها لربها، وأنها انقادت لله حين أراد انشقاقها، وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدها وإلقاء ما فيها، ﴿وَحُقَّتْ﴾: أي: حق لها أن تسمع وتطيع لربها، أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة، وهذه الكلمة من قولهم: هو حقيق بكذا، أو محقوق به. أي: عليه أن يفعله، فالمعنى: يحق على السماء أن تسمع وتطيع لربها، أو يحق عليها أن تشقق، ويحتمل أن يكون أصله حقت بفتح الحاء وضم القاف على معنى التعجب، ثم أدغمت القاف في القاف التي بعدها ونقلت حركتها إلى الحاء. [ابن جزي (٢/٤٦٤)].

(٢) أي: بسطت كما تبسط الأدم ودكت جبالها وكل أمت فيها حتى صارت: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۖ﴾ ١٢ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ﴾ ١٣ [طه: ١٠٦-١٠٧] قال مقاتل سويت كمد الأديم فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها، وقيل مدت زيد في سعتها من المدد، وهو الزيادة، قال ابن عباس رضي الله عنه: تمد يوم القيامة. [صديق حسن (١٥/١٤٤)].

(٣) أخرجه البخاري (١٤١٣)، ومسلم (١٠١٦).

ظَهَرِهِ ۝ ﴿١٠﴾ هُوَ الْكَافِرُ تَغْلُ يُمْنَاهُ إِلَى عُنُقِهِ وَتَجْعَلُ يَسْرَاهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَيَأْخُذُ بِهَا كِتَابَهُ ۝ ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ۝ عِنْدَ رُؤْيَيْهِ مَا فِيهِ ۝ ﴿١٢﴾ يُنَادِي هَلَاكُهُ بِقَوْلِهِ: يَا ثُبُورَاهُ ۝ ﴿١٣﴾ وَيَصْلِي سَعِيرًا ۝ ﴿١٤﴾ يَدْخُلُ النَّارَ الشَّدِيدَةَ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِضَمِّ الْيَاءِ وَفَتْحِ الصَّادِ وَاللَّامِ الْمُشَدَّدَةِ ۝ ﴿١٥﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ ۝ عَشِيرَتِهِ فِي الدُّنْيَا ۝ ﴿١٦﴾ مَسْرُورًا ۝ ﴿١٧﴾ بَطْرًا بِاتِّبَاعِهِ لَهَوَاهُ ۝ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنَّ ۝ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَيُّ: أَنَّهُ ۝ ﴿١٩﴾ لَنْ يَحُورَ ۝ ﴿٢٠﴾ يَرْجِعَ إِلَى رَبِّهِ ۝ ﴿٢١﴾ بَلَى ۝ يَرْجِعُ إِلَيْهِ ۝ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۝ ﴿٢٢﴾ عَالِمًا بِرُجُوعِهِ إِلَيْهِ ۝ ﴿٢٣﴾ فَلَا أَقْسِمُ ۝ لَا زَائِدَةٌ ۝ ﴿٢٤﴾ بِالشَّفَقِ ۝ ﴿٢٥﴾ هُوَ الْحُمْرَةُ فِي الْأَفُقِ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ ۝ ﴿٢٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ ﴿٢٧﴾ جَمَعَ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا ۝ ﴿٢٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ ﴿٢٩﴾ اجْتَمَعَ وَتَمَّ نُورُهُ، وَذَلِكَ فِي اللَّيَالِي الْبَيْضِ ۝ ﴿٣٠﴾ لَتَرْكَبُنَّ ۝ أَيُّهَا النَّاسُ أَصْلُهُ «تَرْكَبُونَن» حُذِفَتْ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي الْأَمْثَالِ، وَالْوَاوُ لَا لِقَاءَ السَّاكِنِينَ ۝ ﴿٣١﴾ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝ ﴿٣٢﴾ حَالًا بَعْدَ حَالٍ، وَهُوَ الْمَوْتُ ثُمَّ الْحَيَاةُ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ أَحْوَالِ الْقِيَامَةِ ۝ ﴿٣٣﴾

- (١) هذه الآية الكريمة تدل على أن من لم يعط كتابه يمينه، أنه يعطاه وراء ظهره، وقد جاءت آية يفهم منها أنه يؤتاه بشماله، وهي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلِيَّتَنِي﴾ الآية [الحاقة: ٢٥]. والجواب ظاهر، وهو أنه لا منافاة بين أخذه بشماله، وإيتائه وراء ظهره، لأن الكافر تغل يمينه إلى عنقه، وتجعل يسراه وراء ظهره، فيأخذ بها كتابه. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ٣٤٤)].
- (٢) أي: كان في الدنيا مسروراً مع أهله، متنعمًا غافلاً عن الآخرة، وهذا في مقابلة ما حكى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسروراً في الجنة، وهو ضد ما حكى عن المؤمنين في الجنة من قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦]. [ابن جزي (٢/ ٤٦٥)].
- (٣) أي: أن لن يرجع إلى الله تعالى، وهو إخبار عن إنكاره بالبعث ... ومنه قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ». أخرجه مسلم (١٣٤٣). أي: النقصان بعد الزيادة، أو من فساد أمره بعد أن كان صالحاً. [السمعاني (٦/ ١٩٠)].
- (٤) يعني: بلى سعيده الله كما بدأه، ويجازيه على أعماله خيرا وشرا، فإنه ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ أي: عليمًا خبيراً. [ابن كثير (٨/ ٣٥٨)].
- (٥) يقول: والليل وما جمع مما سكن وهدأ فيه من ذي روح كان يطير، أو يدب نهاراً، يقال منه: وَسَقَتْهُ أَسْقُهُ وَسَقَا، ومنه طعام مَوْسُوقٌ، وهو المجموع في غرائر أو وعاء، ومنه الْوَسْقُ، وهو الطعام المجتمع الكثير مما يُكَالُ أو يوزن. [الطبري (٢٤/ ٢٤٥)].
- (٦) ووزن ﴿اتَّسَقَ﴾ افتعل وهو مشتق من الوسق، فكأنه امتلأ نوراً. وفي الآية من أدوات البيان لزوم ما لا يلزم، لالتزام السين قبل القاف في وسق واتسق. [ابن جزي (٢/ ٤٦٦)].

- (٧) قال البخاري: عن مجاهد قال: قال ابن عباس: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعد حال، قال هذا نبيكم ﷺ. هكذا رواه البخاري بهذا اللفظ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبي ﷺ، كأنه قال: سمعت هذا من نبيكم ﷺ، فيكون قوله: «نبيكم» مرفوعاً على الفاعلية من «قال» وهو الأظهر، والله أعلم، كما قال أنس: «لَا يَأْتِي عَامٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدُهُ شَرُّ مِنْهُ»، سمعته من نبيكم ﷺ. أخرجه البخاري (٧٠٦٨). [ابن كثير (٨/ ٣٥٩)].

﴿فَمَا لَهُمْ﴾ أَي: الْكُفَّارِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَي: أَيُّ مَانِعٍ مِنَ الْإِيمَانِ، أَوْ أَيُّ حُجَّةٍ لَهُمْ فِي تَرْكِهِ مَعَ وُجُودِ بَرَاهِينِهِ.
 ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ إِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿١١﴾ يَخْضَعُونَ بِأَن يُؤْمِنُوا بِهِ لَا عَجَازِهِ. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 يَكْذِبُونَ﴾ بِالْبَعْثِ وَغَيْرِهِ^(١). ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾ يَجْمَعُونَ فِي صُحُفِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَأَعْمَالِ
 السُّوءِ^(٢). ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أَخْبِرْهُمْ ﴿بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿٢٤﴾ مُؤْلِمٍ. ﴿إِلَّا﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ
 غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ غَيْرُ مَقْطُوعٍ وَلَا مَنْقُوصٍ، وَلَا يَمْنُنُ بِهِ عَلَيْهِمْ^(٣).

(١) أي: بالقرآن، وهو انتقال عن كونهم لا يسجدون عند قراءته إلى كونهم يكذبون به صريحا، ووضع الموصول موضع ضميرهم
 للتسجيل عليهم بالكفر والإشعار بعلّة الحكم. [الآلوسي (٢٩٢/١٥)].
 (٢) أي: بما يضمرون في قلوبهم من العناد مع علمهم بأن ما جاء به القرآن حق، ولكنهم يظهرون التكذيب به ليكون صدودهم عنه مقبولا عند
 أتباعهم وبين مجاوريهم. وأصل معنى الإيعاء: جعل الشيء وعاء والوعاء بكسر الواو الظرف لأنه يجمع فيه، ثم شاع إطلاقه على جمع الأشياء
 لثلاثتفت فصار مشعرا بالتقدير، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَى﴾ [المعارج: ١٨]، وفي الحديث: «لَا تُوعِي فَيُوعِي اللَّهُ عَلَيْهِ». أخرجه البخاري
 (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩). واستعمل في هذه الآية في الإخفاء؛ لأن الإيعاء يستلزم الإخفاء فهو هنا مجاز مرسل. [ابن عاشور (٢٣٤/٣٠)].
 (٣) ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ هذا استثناء منقطع، يعني لكن الذين آمنوا، أي: بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿لَهُمْ
 أَجْرٌ﴾ أي: في الدار الآخرة. ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قال ابن عباس: غير منقوص. وقال مجاهد، والضحاك: غير محسوب. وحاصل قولهما أنه غير
 مقطوع، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْذُوزٍ﴾ [هود: ١٠٨] ... وقال بعضهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القول الآخر عن بعضهم قد
 أنكره غير واحد؛ فإن الله عز وجل له المنّة على أهل الجنة في كل حال وأن ولحظة، وإنما دخلوها بفضلها ورحمته لا بأعمالهم، فله عليهم المنّة
 دائما سرمدًا، والحمد لله وحده أبدا، ولهذا يلهمون تسيححه وتحميده كما يلهمون النفس: ﴿وَعَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
 [يونس: ١٠]. [ابن كثير (٣٦٢/٨)]. كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَن هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:
 ١٧]. والذي يظهر والله تعالى أعلم أن كلا من المعنيين مقصود ولا مانع منه، وما ذهب إليه ابن كثير لا يتعارض مع قول الآخرين؛ لأن المن
 الممنوع هو ما فيه أذى وتنقيص، كما في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٢]، أما المن من الله تعالى على عبده، فهو
 عين الإكرام والزلفى إليه سبحانه. والعلم عند الله تعالى. [عطية سالم (٤٧٥/٨)].

سُورَةُ الْبُرُوجِ

مَكِّيَّةٌ، ثِنْتَانِ وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ١﴾ لِلْكَوَاكِبِ اثْنِي عَشَرَ بُرْجًا تَقَدَّمَتْ فِي «الْفُرْقَانِ»^(١). ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ٢﴾ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ﴿وَشَاهِدٍ ٣﴾ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴿وَمَشْهُودٍ ٤﴾ يَوْمِ عَرَفَةَ كَذَا فَسُرَّتِ الثَّلَاثَةُ فِي الْحَدِيثِ^(٢)، فَالْأَوَّلُ: مَوْعُودٌ بِهِ، وَالثَّانِي: شَاهِدٌ بِالْعَمَلِ فِيهِ، وَالثَّلَاثُ: تَشْهَدُهُ النَّاسُ وَالْمَلَائِكَةُ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحذُوفٌ صَدْرُهُ تَقْدِيرُهُ «لَقَدْ». ﴿قَتِلَ ٥﴾ لَعْنِ أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ ٥﴾ الشَّقُّ فِي الْأَرْضِ^(٣). ﴿التَّارِ ٦﴾ بَدَلُ اسْتِمَالٍ مِنْهُ ﴿ذَاتِ الْوُقُودِ ٧﴾ مَا تَوْقَدُ بِهِ. ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا ٨﴾ أَي: حَوْلَهَا عَلَى جَانِبِ الْأُخْدُودِ عَلَى الْكَرَاسِيِّ ﴿قُعُودٌ ٩﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ مِنْ تَعْذِيهِمْ بِالْإِلْقَاءِ فِي النَّارِ إِنْ لَمْ يَرْجِعُوا عَنْ إِيْمَانِهِمْ ﴿شُهُودٌ ١٠﴾ حُضُورٌ، رُوي: أَنَّ اللَّهَ أَنْجَى الْمُؤْمِنِينَ الْمُتْلِقِينَ فِي

(١) سورة الفرقان آية (٦١).

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْيَوْمُ الْمَوْعُودُ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَشَاهِدٌ يَوْمِ الْجُمُعَةِ. وَمَا طَلَعَتْ شَمْسٌ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ فِيهَا خَيْرًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِيدُ فِيهَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا أَعَادَهُ، وَمَشْهُودٌ يَوْمِ عَرَفَةَ». أخرجه الترمذي (٣٣٣٩).

(٣) قيل: إنه جواب القسم على تقدير لقتل، والأظهر أنه دليل جواب محذوف، كأنه قيل: إنهم ملعونون يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، فإن السورة وردت لتشيت المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على من قبلهم، والأخدود الخد وهو الشق في الأرض ونحوهما بناء ومعنى الحق والأحقوق. روي مرفوعاً: «أن ملكاً كان له ساحر فلما كبر ضم إليه غلاماً ليعلمه، وكان في طريقه راهب فمال قلبه إليه، فرأى في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجراً وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليه من الساحر فاقتلها فقتلها، وكان الغلام بعد يبرئ الأكهم والأبرص ويشفي من الأدواء، وعمي جليس الملك فأبرأه، فسأله الملك عمن أبرأه فقال: ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه، فدل على الراهب ففقدته بالمنشار، وأرسل الغلام إلى جبل ليطرح من ذروته، فدعا فرجف بالقوم فهلكوا ونجا، وأجلسه في سفينة ليغرق فدعا فانكفأت السفينة بمن معه فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلي حتى تجمع الناس وتصلبني وتأخذ سهماً من كنانتي وتقول: بسم الله رب هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوق في صدغه فمات، فأمن الناس برب الغلام، فأمر بأخاديد وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست فقال الصبي: يا أمه اصبري فإنك على الحق فاقتممت».

أخرجه مسلم (٣٠٠٥) [والقصة هنا مختصرة]. [البيضاوي (٣٠٠/٥)].

النَّارِ يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ قَبْلَ وَقُوعِهِمْ فِيهَا، وَخَرَجَتِ النَّارُ إِلَى مَنْ تَمَّ فَأَحْرَقَتْهُمْ^(١). ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ فِي مُلْكِهِ ﴿الْحَمِيدُ ٨﴾ ﴿الْمَحْمُودُ﴾. ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٩﴾ أَيُّ: مَا أَنْكَرَ الْكَفَّارُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا إِيْمَانَهُمْ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالْإِحْرَاقِ﴾ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ بِكُفْرِهِمْ^(٢). ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ١٠﴾ أَيُّ: عَذَابُ إِحْرَاقِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآخِرَةِ، وَقِيلَ: فِي الدُّنْيَا بِأَنْ أُخْرِجَتِ النَّارُ فَأَحْرَقَتْهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ بِالْكَفَّارِ ﴿لَشَدِيدٌ ١٢﴾ بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ^(٣). ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِيُ﴾ الْخَلْقَ ﴿وَيُعِيدُ ١٣﴾ فَلَا يُعْجِزُهُ مَا يَرِيدُ^(٤). ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لِلْمُذْنِبِينَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿الْوَدُودُ ١٤﴾ الْمَتَوَدِّدُ إِلَى

(١) قال الربيع، وأبو العالية، وابن إسحاق: بعث الله على المؤمنين ريحا فقبضت أرواحهم أو نحو هذا، وخرجت النار فأحرقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود، فعلى هذا يكون القتل حقيقة لا بمعنى اللعن، ويكون خبرا عما فعله الله بالكفار والذين أرادوا أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم. وقول هؤلاء مخالف لقول الجمهور ولما دل عليه القصص الذي ذكره. [أبو حيان (١٠/٤٤٤)].

(٢) إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود فالفتنة هنا بمعنى الإحراق، وإن كانت في كفار قريش فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب، وهذا أظهر لقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا بل ماتوا على كفرهم. وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب، وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حال كفره لقوله ﷺ: «الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ». أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠). [ابن جرير (٢/٤٦٩)].

(٣) «بحسب إرادته» قاله الجلال المحلي، وفيه إشارة إلى الرد على الفلاسفة القائلين بأنه موجب بالذات، وقد نطق القرآن بأنه ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، والجملة مستأنفة لخطاب النبي ﷺ مبينة لما عند الله سبحانه من الجزاء لمن عصاه، والمغفرة لمن أطاعه، والمعنى أن أخذه تعالى للجبابرة والظلمة شديد، والبطش الأخذ بعنف، ووصفه بالشدة يدل على، أنه قد تضاعف وتفاقم. [صديق حسن (١٥/١٦٨)]. يعني: أخذه بالعقاب شديد؛ كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، فبطش الله يعني: انتقامه وأخذه شديد عظيم، ولكنه لمن يستحق ذلك، أما من لا يستحق ذلك فإن رحمة الله تعالى أوسع، ... لكن إذا أخذ الظالم لم يفلته؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَيْمَلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلُتْهُ»، وتلا قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. أخرجه البخاري (٤٦٨٦) ومسلم (٢٥٨٣). وعلى هذا فنقول: ﴿بَطْشَ رَبِّكَ﴾ أي: فيمن يستحق البطش، أما من لا يستحقه فإن الله تعالى يعامله بالرحمة، ويعامله بالكرم، ويعامله بالجود، ورحمة الله تعالى سبقت غضبه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٣٧)].

(٤) أي: يبدئ الخلق بالنشأة الأولى، ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث، وقيل: يبدئ البطش ويعيده، أي: يبطش بهم في الدنيا والآخرة، والأول أظهر وأرجح لقوله: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤]. [ابن جرير].

أُولَآئِئِهِ بِالْكَرَامَةِ^(١). ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ خَالِقُهُ وَمَالِكُهُ ﴿الْمَجِيدُ^(١٥)﴾ بِالرَّفْعِ الْمُسْتَحَقِّ لِكَمَالِ صِفَاتِ الْعُلُوِّ^(٢). ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ^(١٦)﴾ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ^(٣). ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿حَدِيثُ الْجُنُودِ^(١٧)﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ^(١٨) ﴿بَدَلٌ مِنَ الْجُنُودِ﴾، وَاسْتَغْنِي بِذِكْرِ فِرْعَوْنَ عَنْ أَتْبَاعِهِ، وَحَدِيثِهِمْ أَنَّهُمْ أَهْلِكُوا بِكُفْرِهِمْ، وَهَذَا تَنْبِيهُ لِمَنْ كَفَرَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالْقُرْآنِ لِيَتَّعِظُوا. ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ^(١٩)﴾ بِمَا ذَكَرَ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ^(٢٠)﴾ لَا عَاصِمَ لَهُمْ مِنْهُ. ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ^(٢١)﴾ عَظِيمٌ. ﴿فِي لَوْحٍ﴾ هُوَ فِي الْهَوَاءِ فَوْقَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ﴿مَحْفُوظٌ^(٢٢)﴾ بِالْجَرِّ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِنْ تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْهُ^(٤)، طُولُهُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَعَرْضُهُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، وَهُوَ مِنْ دُرَّةٍ بَيْضَاءَ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٥).

(١) هو تعالى الودود، الواد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن ﴿الْوُدَّ﴾ بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبههم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين. بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته. [انظر البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧)]. وهذا أعظم فرح يقدر. فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه. [السعدي (ص: ٩١٨)].

(٢) ﴿الْمَجِيدُ﴾ فيه قراءتان: الرفع على أنه صفة للرب عز وجل. والجر على أنه صفة للعرش، وكلاهما معنى صحيح. [ابن كثير (٣٧٢/٨)]. (٣) هذا وصف لله تعالى بأنه الفعال لما يريد فكل ما أَرَادَهُ سبحانه فهو يفعلُه، ولا يمنعه من فعله مانع؛ لأن له ملك السموات والأرض، ولا يمنعه أحد من أن يفعل في ملكه ما يشاء؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧] ... ففي هذه الآية الكريمة إثبات إرادة الله إرادة كاملة تامة في خلقه وفيما يتعلق بأفعال الخلق، فلا يكون فعل من الناس إلا بإرادة الله، كما قال سبحانه: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ^(٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ^(٢٩)﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٤١)].

(٤) يعني اللوح المحفوظ الذي في السماء، وقرئ: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالخفض صفة للوح، وقرأ نافع: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بالرفع صفة للقرآن، أي: حفظه الله من التبديل والتغيير، أو حفظه المؤمنون في صدورهم. [ابن جزي (٤٧٠/٢)].

(٥) موقوف على ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفيه إسحاق بن بشر، قال ابن حبان: لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب. وقال الدارقطني: متروك. انظر: الضعفاء لابن حبان: (٣٧/١)، والميزان للذهبي: (١٨٤/١).

سُورَةُ الطَّارِقِ

مَكِّيَّةٌ، سَبْعَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ أَصْلُهُ كُلُّ آتٍ لَيْلًا، وَمِنْهُ النُّجُومُ لَطُلُوعِهَا لَيْلًا^(١). ﴿وَمَا أَدْرَاكَ ۝﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا الطَّارِقُ ۝﴾ مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ فِي مَحَلِّ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ «أَدْرَى» وَمَا بَعْدَ «مَا» الْأُولَى خَبَرُهَا، وَفِيهِ تَعْظِيمٌ لِسَانِ الطَّارِقِ الْمُفَسِّرِ بِمَا بَعْدَهُ. هُوَ: ﴿النَّجْمُ﴾ أَيِ: الثُّرَيَّا، أَوْ كُلِّ نَجْمٍ ﴿الثَّاقِبُ ۝﴾ الْمُضِيءُ لِثِقَبِهِ الظَّلَامَ بِضَوْوِهِ. وَجَوَابُ الْقَسَمِ: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝﴾ بِتَخْفِيفِ «مَا» فَهِيَ مَزِيدَةٌ، وَ﴿إِنْ﴾ مُحَقِّقَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَيِ: إِنَّهُ، وَاللَّامُ: فَارِقَةٌ، وَتَشْدِيدُهَا فِ ﴿إِنْ﴾: نَافِيَةٌ، وَ﴿لَّمَّا﴾ بِمَعْنَى: «إِلَّا»، وَالْحَافِظُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَحْفَظُ عَمَلَهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ^(٢). ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ ۝﴾ نَظَرَ اعْتِبَارٍ ﴿مِمَّ خُلِقَ ۝﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ جَوَابُهُ: ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝﴾ ذِي انْدِفَاقٍ مِنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ فِي رَحِمِهَا. ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ ۝﴾ لِلرَّجُلِ ﴿وَالْتَّرَائِبِ ۝﴾ لِلْمَرْأَةِ وَهِيَ عِظَامُ الصَّدْرِ^(٣). ﴿إِنَّهُ ۝﴾ تَعَالَى ﴿عَلَى رَجْعِهِ ۝﴾ بَعَثَ الْإِنْسَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ ﴿لِقَادِرٍ ۝﴾ فَإِذَا اعْتَبَرَ أَصْلَهُ عَلِمَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى

(١) أقسم سبحانه بالسماء والطارق، وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر السماء والشمس والقمر والنجوم، لأن أحوالها في أشكالها وسيرها ومطالعها ومغاربها عجيبة، والطارق هو النجم الثاقب كما صرح به التتيل ... قال الماوردي: أصل الطروق الدق فسمي قاصد الليل طارقاً لاحتياجه في الوصول إلى الدق، ثم اتسع به في كل ما ظهر بالليل كائنًا ما كان، ثم اتسع كل التوسع حتى أطلق على الصور الخالية البادية بالليل. وقال قوم إن الطروق قد يكون نهاراً ... ومنه قوله ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَارَحِمَنُ». أخرجه مالك في الموطأ مرسلًا (١٠)، وأحمد موصولاً (١٥٤٦٠). قال ابن عباس رضي الله عنهما: أقسم ربك بالطارق وكل شيء طروقك بالليل فهو طارق. [صديق حسن (١٥/١٧٥)].

(٢) قيل: ﴿حَافِظٌ﴾ لأعماله يحصيها عليه، كما في قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]. وقيل: ﴿حَافِظٌ﴾ أي: حارس، كقوله تعالى: ﴿لَهُ مَعْقَبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، والسياق يشهد للمعنيين معاً؛ لأن قوله تعالى بعده: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾ [الطارق: ٥-٧] يدل على أنه في تلك المراحل في حفظ، فهو أولاً: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٣]. وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَكَلَّ بِالرَّحِمِ مَلَكًا». الحديث. أخرجه البخاري (٣١٨)، ومسلم (٢٦٤٦). وبعد بلوغه سن التكليف يجري عليه القلم، فيحفظ عليه عمله، فلا مانع من إرادة المعنيين معاً، وليس هذا من حمل المشترك على معنييه؛ لأن كلا من المعنيين له متعلق يختص بزم من خلاف الآخر. [عطية سالم (٨/٤٩٢)].

(٣) من بين صُلب الرجل وترائبه؛ أعلى صدره، وهذا يدل على عمق مخرج هذا الماء وأنه يخرج من مكانٍ مكينٍ في الجسد، والصواب أن هذا

ذَلِكَ قَادِرٌ عَلَىٰ بَعْثِهِ. ﴿يَوْمَ تُبْلَىٰ﴾ تُخْتَبَرُ وَتُكْشَفُ ﴿السَّرَائِرُ ٩﴾ ضَمَائِرُ الْقُلُوبِ فِي الْعَقَائِدِ وَالنِّيَّاتِ ^(١). ﴿فَمَا لَهُ﴾ لِمُنْكَرِ الْبَعْثِ ﴿مِنْ قُوَّةٍ﴾ يَمْتَنِعُ بِهَا مِنَ الْعَذَابِ ﴿وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾ يَدْفَعُهُ عَنْهُ ^(٢). ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ١١﴾ الْمَطَرِ لِعَوْدِهِ كُلِّ حِينٍ ^(٣). ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ١٢﴾ الشَّقِّ عَنِ النَّبَاتِ. ﴿إِنَّهُ﴾ أَيُّ: الْقُرْآنَ ﴿لَقَوْلٍ فَصْلٍ ١٣﴾ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ١٤﴾ بِاللَّعِبِ وَالْبَاطِلِ. ﴿إِنَّهُمْ﴾ أَيُّ: الْكُفَّارَ ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾ يَعْمَلُونَ الْمَكَائِدَ لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾ أَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ^(٤). ﴿فَمَهْلٍ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكُفْرَيْنِ أَمْهَلُهُمْ﴾ تَأْكِيدٌ، حَسَنُهُ مُخَالَفَةُ اللَّفْظِ، أَيُّ: أَنْظَرُهُمْ ﴿رُؤِيدًا ١٧﴾ قَلِيلًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ لِمَعْنَى الْعَامِلِ مُصَغَّرٌ «رُودٍ» أَوْ «إِزْوَادٍ» عَلَى التَّرْخِيمِ، وَقَدْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِدَرٍّ، وَنَسَخَ الْأَمْهَالَ بِآيَةِ السَّيْفِ، أَيُّ: الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ وَالْجِهَادِ ^(٥).

الوصف لماء الرجل، وقال بعض العلماء: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾ أَيُّ: صُلْبُ الرَّجُلِ، ﴿وَالْتَرَائِبِ﴾ تَرَائِبُ الْمَرْأَةِ. وَلَكِنَّ هَذَا خِلَافُ ظَاهِرِ اللَّفْظِ، وَالصَّوَابُ أَنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ هُوَ مَاءُ الرَّجُلِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَصَفَهُ بِذَلِكَ. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٤٨)].

(١) أَيُّ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ، أَيُّ: تَظْهَرُ وَتَبْدُو، وَيَقْبَى السِّرُّ عِلَانِيَةً وَالمَكْنُونُ مَشْهُورًا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ عِنْدَ أَسْتِهِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٨٨) وَمُسْلِمٌ (١٧٣٥). [ابن كثير (٣٧٦/٨)].

(٢) يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا لِلْإِنْسَانِ «قُوَّةٌ» ذَاتِيَّةٌ، «وَلَا نَاصِرٍ» وَهِيَ الْقُوَّةُ الْخَارِجِيَّةُ، هُوَ بِنَفْسِهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَا أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فِي الدُّنْيَا يَتَسَاءَلُونَ؛ يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيَحْتَمِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، لَكِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا أَنْسَابَ؛ يَعْنِي: لَا قَرَابَةَ، لَا تَنْفَعُ الْقَرَابَةُ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٥٠)].

(٣) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الرَّجْعُ: الْمَطَرُ. وَعَنْهُ: هُوَ السَّحَابُ فِيهِ الْمَطَرُ. وَعَنْهُ: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ» تَمَطَّرَ ثُمَّ تَمَطَّرَ. وَقَالَ قَتَادَةُ: تَرْجِعُ رِزْقُ الْعِبَادِ كُلِّ عَامٍ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَهَلَكُوا وَهَلَكَتْ مَوَاشِيَهُمْ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: تَرْجِعُ نَجْمُهَا وَشَمْسُهَا وَقَمَرُهَا، يَأْتِينَ مِنْ هَاهُنَا. [ابن كثير (٣٧٦/٨)].

(٤) لَمَّا كَانَ الْهَزْلُ هُوَ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَهُوَ الْبَاطِلُ وَاللَّعِبُ قَابِلُ بَيْنِ الْفَصْلِ وَالْهَزْلِ وَإِنَّمَا يَكِيدُ الْمَكْذُوبُونَ وَيَحِيلُونَ وَيَخَادِعُونَ لِرَدِّهِ، وَلَا يَرُدُّونَهُ بِحُجَّةٍ، وَاللَّهُ يَكِيدُهُمْ كَمَا يَكِيدُونَ دِينَهُ وَرَسُولَهُ وَعِبَادَهُ، وَكَيْدُهُ سَبْحَانَهُ اسْتَدْرَاجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَالْأَمْلَاءُ لَهُمْ حَتَّى يَأْخُذَهُمْ عَلَى غَرَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنََّّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] فَالْإِنْسَانُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَكِيدَ غَيْرَهُ يَظْهَرُ لَهُ إِكْرَامُهُ وَإِحْسَانُهُ إِلَيْهِ حَتَّى يَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ فَيَأْخُذُهُ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ أَعْدَاءُ اللَّهِ بِأَوْلِيائِهِ وَدِينِهِ كَانَ كَيْدُ اللَّهِ لَهُمْ حَسَنًا لَا قَبْحَ فِيهِ، فَيُعْطِيهِمْ وَيُعَافِيهِمْ وَهُوَ يَسْتَدْرِجُهُمْ ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤]. [التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (١/١٧٣)].

(٥) فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوَادِعَةٌ نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُؤِيدًا﴾ مَعْنَاهُ: قَلِيلًا، قَالَهُ قَتَادَةُ، وَهَذِهِ حَالٌ، وَهَذِهِ اللَّفْظَةُ إِذَا تَقَدَّمَ شَيْءٌ تَصِفُهُ، كَقَوْلِكَ: سِيرَ رُؤِيدًا، وَتَقَدَّمَ فَعْلٌ يَعْمَلُ فِيهَا كَهَذِهِ الْآيَةِ، وَأَمَّا إِذَا ابْتَدَأَتْ بِهَا فَقُلْتَ: «رُؤِيدًا يَا فُلَانٌ» فَهِيَ بِمَعْنَى الْأَمْرِ بِالْتِمَهْلِ. [ابن عطية (٥/٤٦٧)].

سُورَةُ الْأَعْلَى

مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ أَي: نَزَّهَ رَبَّكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ، وَاسْمَ زَائِدٌ ﴿الْأَعْلَى﴾ ١ صِفَةٌ لـ ﴿رَبِّكَ﴾ ٢. ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ٣ مَخْلُوقَهُ جَعَلَهُ مُتَنَاسِبَ الْأَجْزَاءِ غَيْرِ مُتَفَاوِتٍ. ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ مَا شَاءَ ﴿فَهَدَى﴾ ٤ إِلَى مَا قَدَّرَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ٥. ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ ٦ أَنْبَتَ الْعُشْبَ. ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بَعْدَ الْخُضْرَةِ ﴿غُثَاءً﴾ جَافًا هَشِيمًا ﴿أَحْوَى﴾

(١) التسييح في اللغة التنزيه وذكر الاسم هنا يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون المراد المسمى ويكون الاسم صلة كالزائد، ومعنى الكلام: سبح اسم ربك، أي: نزّهه عما لا يليق به... ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه، الأول: تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة كالتشبيه والتعطيل، الثاني: تنزيه أسماء الله عن أن يسمى بها صنم أو وثن. الثالث: تنزيه أسماء الله عن أن تدرك في حال الغفلة دون خشوع. الرابع: أن المراد قول سبحان الله، ولما كان التسييح باللسان لا بد فيه من ذكر الاسم أوقع التسييح على الاسم، وهذا القول هو الصحيح، ويؤيده ما ورد عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى». أخرجه أبو داود (٨٨٣)، وأحمد (٢٠٦٦). وأنها لما نزلت قال: «اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ». أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٧٤١٤). فدل ذلك على أن المراد هو التسييح باللسان مع موافقة القلب، ولا بد في التسييح باللسان من ذكر اسم الله تعالى؛ فلذلك قال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، مع أن التسييح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه... وعلى هذا يكون موافقا في المعنى لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤]؛ لأن معناه نزّه الله بذكر اسمه... والأعلى يحتمل أن يكون صفة للرب أو للاسم والأول أظهر. [ابن جزي (٢/٤٧٣)]. و﴿الْأَعْلَى﴾ من العلو، وعلو الله عز وجل نوعان: علو صفة، وعلو ذات. أما علو الصفة فإن أكمل الصفات لله عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]. وأما علو الذات فهو أن الله تعالى فوق عباده مستو على عرشه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٥٩)].

(٢) قدر كل شيء عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، قدره في حاله وفي ماله، في ذاته وفي صفاته، كل شيء له قدر محدود، الآجال محدودة، الأحوال محدودة، الأجسام محدودة، كل شيء مقدر تقديرا. وقوله: ﴿فَهَدَى﴾ يشمل الهداية الشرعية والهداية الكونية: الهداية الكونية أن الله هدى كل شيء لما خلق له؛ قال فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾ ٥ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَتَمَّ هَدَى ٦. [طه: ٤٩-٥٠]، فكل مخلوق قد هداه الله تعالى لما يحتاج إليه؛ انظر إلى الطفل إذا خرج من بطن أمه وأراد أن يرضع، هل يقال له: ارفع رأسك، ارضع من الثدي؟ لا، لكن يهديه الله عز وجل إلى هذا الثدي يرضع منه. هذه هداية كونية؛ أنه هدى كل مخلوق لما يحتاج إليه. أما الهداية الشرعية وهي الأهم بالنسبة لبني آدم فهي أيضا بينها الله عز وجل، حتى الكفار قد هداهم الله، يعني: بين لهم قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]، والعياذ بالله، استحبوا الكفر

﴿٥﴾ أَسْوَدَ يَاسًا. ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ الْقُرْآنَ ﴿فَلَا تَنْسَى﴾ ٦ ﴿مَا تَقْرُؤُهُ.﴾ ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أَنْ تَنْسَاهُ بِنَسْخِ تِلَاوَتِهِ وَحُكْمِهِ، وَكَانَ ﷺ يَجْهَرُ بِالْقِرَاءَةِ مَعَ قِرَاءَةِ جَبْرِيلَ خَوْفَ النَّسيَانِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: لَا تَعْجَلْ بِهَا إِنَّكَ لَا تَنْسَى، فَلَا تُتَعَبُ نَفْسُكَ بِالْجَهْرِ بِهَا ﴿إِنَّهُ﴾ تَعَالَى ﴿يَعْلَمُ الْجَهْرُ﴾ مِنَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ﴿وَمَا يَخْفَى﴾ ٧ ﴿مِنْهُمَا.﴾ ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ ٨ ﴿لِلشَّرِيعَةِ السَّهْلَةِ وَهِيَ الْإِسْلَامُ﴾ ٩. ﴿فَذَكِّرْ﴾ عِظْ بِالْقُرْآنِ ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ ٩ ﴿مَنْ تَذَكَّرُهَا﴾. الْمَذْكُورُ فِي: ﴿سَيَذَكِّرُ﴾ بِهَا ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ ١٠ ﴿يَخَافُ اللَّهَ تَعَالَى، كَأَيَّة:﴾ ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]. ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ أَي: الذِّكْرَى، أَي: يَتْرُكُهَا جَانِبًا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ﴿الْأَشَقَى﴾ ١١ ﴿بِمَعْنَى الشَّقِي، أَي: الْكَافِرُ.﴾ ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ ١٢ ﴿هِيَ نَارُ الْآخِرَةِ، وَالصُّغْرَى نَارُ الدُّنْيَا.﴾ ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فَيَسْتَرِيحُ ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ ١٣ ﴿حَيَاةً هَيْنَةً.﴾ ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فَازَ ﴿مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿تَطَهَّرَ بِالْإِيمَانِ.﴾ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ مُكْبِرًا ﴿فَصَلَّى﴾ ١٥ ﴿الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَكَفَّارُ مَكَّةَ مُعْرِضُونَ عَنْهَا.﴾ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ بِالْفَوْقَانِيَّةِ وَالتَّحْتَانِيَّةِ ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿عَلَى الْآخِرَةِ.﴾ ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْجَنَّةِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ١٧ ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أَي: إِفْلَاحَ مَنْ تَزَكَّى وَكَوْنُ الْآخِرَةِ خَيْرًا ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٨ ﴿أَي: الْمُنْتَزَلَةِ قَبْلَ الْقُرْآنِ.﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ١٩ ﴿وَهِيَ عَشْرُ صُحُفٍ لِإِبْرَاهِيمَ، وَالتَّوْرَةُ لِمُوسَى﴾ ٢٠.

على الإيمان. والهداية الشرعية هي المقصودة من حياة بني آدم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنما أخبرنا الله بذلك لأجل أن نلجأ إليه في جميع أمورنا. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٦١)].

(١) أي: نوقفك للطريقة اليسرى، أي: الشريعة السمحة السهلة، التي هي أيسر الشرائع وأوفقها بحاجة البشر مدى الدهر. [القاسمي (٤٥٨/٩)].

(٢) قال الواحدي: إن نفعت أو لم تنفع، لأن النبي ﷺ بعث مبلغاً للإعذار والإنذار فعليه التذكير في كل حال نفع أو لم ينفع، ولم يذكر

الحالة الثانية كقوله: ﴿سَرَبِيلٌ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] [أي: والبرد]. [الشوكاني (٥١٥/٥)].

(٣) عن ابن عباس رضيهما قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٨ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ١٩ قال النبي ﷺ: «كَانَ كُلُّ هَذَا

- أَوْ: كَانَ هَذَا - فِي صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى». أخرجه النسائي في الكبرى (١١٦٦٨). قال أبو العالية: قصة هذه السورة في الصحف

الأولى. واختار ابن جرير أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ إشارة إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ١٤ ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ ١٥ ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا﴾ ١٦ ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ ١٧ ثم قال: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ أي: مضمون هذا الكلام ﴿لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ١٨ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾

١٩. وهذا اختيار حسن قوي. وقد روي عن قتادة وابن زيد، نحوه. والله أعلم. [ابن كثير (٣٨٣/٨)].

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ
مَكِّيَّةٌ، سِتُّ وَعِشْرُونَ آيَةً.
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ﴾ قَدْ ﴿أَتَدَّكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (١) ﴿الْقِيَامَةِ﴾ لَأَنَّهُا تَغْشَى الْخَلَائِقَ بِأَهْوَالِهَا. ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ عَبَّرَ بِهَا عَنْ الذَّوَاتِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ ﴿خَشِيعَةً﴾ (٢) ذَلِيلَةٌ (٣). ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ (٤) ذَاتُ نَصَبٍ وَتَعَبٍ بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ (٥). ﴿تَصَلَّى﴾ بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّهَا ﴿نَارًا حَامِيَةً﴾ (٦) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ عَيْنِيَّةٍ (٧) شَدِيدَةِ الْحَرَارَةِ. ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ (٨) هُوَ نَوْعٌ مِنَ الشُّوْكِ لَا تَرَعَاهُ دَابَّةٌ لِحَيْثِهِ. ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (٩) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿حَسَنَةٌ﴾. ﴿لَسَعِيهَا﴾ فِي الدُّنْيَا بِالطَّاعَةِ ﴿رَاضِيَةً﴾ (١٠) فِي الْآخِرَةِ لَمَّا رَأَتْ ثَوَابَهُ. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (١١) حَسًّا وَمَعْنَى. ﴿لَا يُسْمَعُ﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿فِيهَا لَغِيَّةٌ﴾ (١٢) أَيُّ: نَفْسٌ ذَاتُ لَغْوٍ، هَذَيَانٌ مِنَ الْكَلَامِ (١٣). ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ (١٤) بِالْمَاءِ بِمَعْنَى: عُيُونٍ. ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ (١٥) ذَاتَا وَقْدَرًا وَمَحَلًّا. ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ أَقْدَاحٌ لَا عُرَالَهَا ﴿مَوْضُوعَةٌ﴾ (١٦) عَلَى حَافَاتِ الْعُيُونِ مُعَدَّةٌ لِشُرْبِهِمْ. ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وَسَائِدٌ ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ (١٧) بَعْضُهَا بِجَنْبِ بَعْضٍ يُسْتَنَدُ إِلَيْهَا. ﴿وَزَرَائِبٌ﴾ بُسْطٌ طَنَافِسَ لَهَا خَمْلٌ (١٨) ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ (١٩) مَبْسُوطَةٌ. ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ أَيُّ: كُفَّارٌ مَكَّةَ نَظَرَ اعْتَبَارٍ ﴿إِلَى﴾

(١) الخاشعة الذليلة الخاضعة وكل متضائل ساكن يقال له خاشع، يقال خشع الصوت إذا خفي، وخشع في صلاته إذا تذلل ونكس رأسه، والمراد بالوجوه هنا أصحابها، قال المحلي: «عبر بها عن الذوات في الموضعين». أي: بالجزء عن الكل، وخص الوجه لأنه أشرف أعضاء الإنسان ولأن الذل يظهر عليه أولاً دون غيره، قال مقاتل: يعني الكفار لأنهم تكبروا عن عبادة الله، قال قتادة وابن زيد: خاشعة في النار. [صديق حسن (٢٠٠/١٥)].

(٢) قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وغيرهم، لا يقبل الله منهم اجتهداً في ضلالة، يدخلون النار يوم القيامة. وهو قول سعيد بن جبير، وزيد بن أسلم. ومعنى النصب: الدأب في العمل بالتعب... قال الحسن: لم تعمل لله في الدنيا، فأعملها وأنصبها في النار بمعالجة السلاسل، والأغلال. وبه قال قتادة، وهي رواية العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما. [البغوي (٤٠٤/٨)].

(٣) أي: لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو. كما قال تعالى: ﴿لَا لَعْوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]. [ابن كثير (٣٨٦/٨)]. قال الفراء: لا تسمع في كلام أهل الجنة كلمة تلغى لأنهم لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله تعالى على ما رزقهم من النعيم الدائم. [الشوكاني (٥٢٣/٥)].
(٤) الزرابي أعلى أنواع الفرش. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ منشورة في كل مكان. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٧٦)].

الْإِبِلَ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿١٠﴾ أَيُّ: بُسِطَتْ، فَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَصُدِّرَتْ بِالْإِبِلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ مَلَابَسَةً لَهَا مِنْ غَيْرِهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿سُطِحَتْ﴾ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ الْأَرْضَ سَطَحٌ وَعَلَيْهِ عُلَمَاءُ الشَّرْعِ، لَا كُرَةً كَمَا قَالَ أَهْلُ الْهَيْئَةِ، وَإِنْ لَمْ يَنْقُصْ رُكْنَا مِنْ أَرْكَانِ الشَّرْعِ^(١). ﴿فَذَكِّرْ﴾ هُمْ نَعَمَ اللَّهُ وَدَلَّائِلُ تَوْحِيدِهِ ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالسَّيْنِ بَدَلُ الْأَصَادِ، أَيُّ: «بِمُسْلَطٍ» وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ^(٢). ﴿إِلَّا﴾ لَكِنْ ﴿مَنْ تَوَلَّى﴾ أَعْرَضَ عَنِ الْإِيمَانِ

(١) أي: بسطت، والسطح بسط الشيء يقال لظهر البيت إذا كان مستويا سطح، قرأ الجمهور مبنيا للمفعول مخففاً، وقرأ الحسن: مشدداً، وقرأ علي بن أبي طالب وغيره: خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم الناء فيها كلها. قال المحلي: «قوله: ﴿سُطِحَتْ﴾ ظاهر في أن الأرض سطح، وعليه علماء الشرع لا كرة كما قاله أهل الهيئة وإن لم ينقص ركنًا من أركان الشرع». قال الكرخي: هي كرة بطبعها وحقيقتها لكن الله أخرجها عن طبعها بفضله وكرمه بتسطيح بعضها لإقامة الحيوانات عليها فأخرجها عما يقتضيه طبعها انتهى. وفي التكميل للشيخ رفيع الدين ابن ولي الله الدهلوي رحمه الله: أهل الشرائع يفهمون من مثل قوله تعالى: ﴿الْأَرْضُ فَرَشًا﴾ [البقرة: ٢٢]، و﴿دَحَلَهَا﴾ [النازعات: ٣٠]، و﴿سُطِحَتْ﴾ أنها سطح مستو، والحكماء يثبتون كرويتها بالأدلة الصحيحة فيتوهم الخلاف، ويدفع بأن القدر المحسوس منها في كل بقعة سطح مستو، فإن الدائرة كلما عظمت قل انجذاب أجزائها فاستواؤها باعتبار محسوسية، أجزائها، وكرويتها باعتبار معقولية جملتها انتهى. [صديق حسن (٢٠٨/١٥)]. أي: مدت مدًا واسعًا، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنیان فيها، وسلوك الطرق الموصلة إلى أنواع المقاصد فيها. واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والملاحظة، كما هو مذكور معروف عند أكثر الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة، فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة. [السعدي (ص: ٩٢٢)]. وقد استدلل بعض العلماء بهذه الآية على أن الأرض ليست كروية بل سطح ممتد، لكن هذا الاستدلال فيه نظر؛ لأن هناك آيات تدل على أن الأرض كروية، والواقع شاهد بذلك؛ فيقول الله عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥]، والتكوير: التدوير، ومعلوم أن الليل والنهار يتعاقبان على الأرض، فإذا كانا مكورين لزم أن تكون الأرض مكورة؛ وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وقد جاء في الحديث أنها يوم القيامة تمتد مد الأديم - أي: مد الجلد - حتى لا يكون فيها جبال ولا أودية ولا أشجار ولا بناء، يذكرها الرب عز وجل: ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿طه: ١٠٦-١٠٧﴾، ... يعني يوم القيامة، فهي إذن الآن غير ممدودة، إذن فما هي؟ هي مكورة. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٧٩)].

(٢) أي: فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب؛ ولهذا قال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وغيرهما: لست عليهم بجبار. وقال ابن زيد: لست بالذي تكرههم على الإيمان. ... عن جابر رضي الله عنه قال: قال

﴿وَكَفَرٌ ٢٣﴾ بِالْقُرْآنِ. ﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ٢٤﴾ عَذَابَ الْآخِرَةِ، وَالْأَصْغَرَ عَذَابُ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ ٢٥. ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ٢٦﴾ رُجُوعُهُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ. ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ٢٧﴾ جَزَاءَهُمْ لَا نَتْرُكُهُ أَبَدًا ٢٨.

رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا مَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ». ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ٢٩﴾ لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ ٣٠. أخرجه أحمد (١٤١٤١)، وأخرجه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١)، بغير ذكر الآية. [ابن كثير]. فإن الله سبحانه بعث رسوله نذيرا مبلغا لرسالات ربه فمن أطاعه فله الجنة ومن عصاه فله النار، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِيطًا ٣١﴾ إِلَّا الْبَلَاغُ ٣٢ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ٣٣﴾ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ٣٤ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ٣٥ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ٣٦ [يونس: ١٠٨] قال المفسرون: المعنى أنك لم ترسل مسلطا عليهم قاهرا لهم جبارا كالملوك بل أنت عبيدي ورسولي المبلغ رسالاتي. فمن أطاعك فله الجنة، ومن عصاك فله النار. [بدائع الفوائد لابن القيم (٦٩/٣)]. [وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ﴾ استثناء منقطع معناه لكن ﴿مَنْ تَوَلَّىٰ﴾ وكَفَرٌ ٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ ٢٤﴾، وقيل: هو استثناء من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾، والمعنى: ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئست منه فهو على هذا متصل، وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصِيطِرٍ﴾ أي: لا تسلط إلا على من تولى وكفر، وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه إذ لا موادة فيه وهذا بعيد، لأن السورة مكية والموادة بمكة ثابتة. [ابن جزي (٢/٤٧٧)].

(١) يعني: يوم القيامة؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، والعذاب الأكبر يوم القيامة، وهنا قال: ﴿الْأَكْبَرُ﴾ ولم يذكر المفضل عليه؛ يعني لم يقل: الأكبر من كذا، فهو قد بلغ الغاية في الكبر والمشقة والإهانة والعياذ بالله، كل من تولى وكفر فإن الله يعذبه العذاب الأكبر. هل هناك عذاب أصغر؟ نقول: نعم، فيه عذاب أصغر في الدنيا؛ قد يتلى المتولي المعرض بأمراض في بدنه، في عقله، في أهله، في ماله، في مجتمعه، وكل هذا بالنسبة لعذاب النار عذاب أصغر، لكن العذاب الأكبر إنما يكون يوم القيامة. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٨٣)].

(٢) كيفية الحساب... أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به... ويقرره بذنوبه... حتى إذا أقر بها قال الله تعالى: «قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ». أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨). أما الكفار... فتخصى عليهم أعمالهم ويقررون بها أمام العالم ويخزون بها، وينادى على رؤوس الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ٣٧﴾ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ٣٨ [هود: ١٨]، نعوذ بالله من الخذلان. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٨٥)].

سُورَةُ الْفَجْرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ أَي: فَجَرِ كُلِّ يَوْمٍ^(١). ﴿وَلَيْالٍ عَشْرِ ٢﴾ أَي: عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ^(٢). ﴿وَالشَّفْعِ ٣﴾ الزَّوْجِ ﴿وَالْوَتْرِ ٤﴾ بَفَتْحِ الْوَاوِ وَكَسْرِهَا لُغَتَانِ: الْفَرْدُ^(٣). ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرَ ٤﴾ مُقْبِلًا وَمُذْبِرًا^(٤). ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ ٥﴾ الْقَسَمِ ﴿قَسَمَ لِيذَى حَجَرٍ ٥﴾ عَقْلٍ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، أَي: لَتُعَذِّبَنَّ يَا كُفَّارَ مَكَّةَ^(٥). ﴿أَلَمْ تَرَ ٦﴾ تَعْلَمَ يَا مُحَمَّدُ ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦﴾

(١) أقسم الله بالفجر لأنه ابتداء النهار، وهو في الحقيقة انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله عز وجل؛ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٨٧)].

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ»، يعني عشر ذي الحجة، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «وَلَا الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ». أخرجه البخاري (٩٦٩).

(٣) روي عن النبي ﷺ أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة، وروي عنه ﷺ أنها الصلوات منها شفع ووتر، وقيل: الشفع التنفل بالصلاة مشى مشى والوتر الركعة الواحدة المعروفة، وقيل: الشفع العالم والوتر الله لأنه واحد، وقيل: الشفع آدم وحواء والوتر الله تعالى، وقيل: الشفع الصفا والمروة والوتر البيت الحرام، وقيل: الشفع أبواب الجنة لأنها ثمانية والوتر أبواب النار لأنها سبعة، وقيل: الشفع قران الحج والوتر إفراده، وقيل: المراد الأعداد منها شفع ووتر. فهذه عشرة أقوال، وقرئ «الوتر» بفتح الواو وكسرها وهما لغتان. [ابن جزي (٤٧٨/٢)]. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال النبي ﷺ: ﴿وَالْفَجْرِ ١﴾ وَلَيْالٍ عَشْرِ ٢﴾ قال: «هُوَ الصُّبْحُ، وَعَشْرُ النَّحْرِ، وَالْوَتْرُ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَالشَّفْعُ: يَوْمَ النَّحْرِ». أخرجه أحمد (١٤٥٥١)، والنسائي في الكبرى (١١٦٧٢). وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وعكرمة. واختاره النحاس، وقال: حديث أبي الزبير عن جابر رضي الله عنه هو الذي صح عن النبي ﷺ، وهو أصح إسناداً من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه. فيوم عرفة وتر، لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها. [القرطبي (٤٠/٢٠)].

(٤) أي: إذا يمضي، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ٣٣﴾ [المدثر: ٣٣]، والتقيد بذلك لما في التعاقب من قوة الدلالة على كمال القدرة ووفور النعمة؛ ففي الليل الراحة التي هي من أعظم النعم، وفي النهار المكاسب وغيرها. [القاسمي (٤٦٥/٩)].

(٥) ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ ٥﴾ أي: فيما ذكرت ﴿قَسَمَ ٥﴾ أي: مقنع ومكتفى في القسم ﴿لِيَذَى حَجَرٍ ٥﴾ لذي عقل، سمي بذلك لأنه يحجر صاحبه عما لا يحل ولا ينبغي، كما يسمى عقلاً لأنه يعقله عن القبائح، ونهى لأنه ينهى عما لا ينبغي، وأصل «الحجر» المنع؛ وجواب القسم قوله:

﴿إِرَمَ﴾ هِيَ عَادُ الْأُولَى فَ ﴿إِرَمَ﴾ عَطْفُ بَيَانٍ أَوْ بَدَلٌ، وَمَنْعُ الصَّرْفِ لِلْعَلَمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ ٧ ﴿أَيُّ: الطُّولِ، كَانَ طُولُ الطَّوِيلِ مِنْهُمْ أَرْبَعَمِائَةِ ذِرَاعٍ. ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ ٨ ﴿فِي بَطْشِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ﴾ ٩. ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا﴾ قَطَعُوا ﴿الصَّخْرَ﴾ جَمْعُ صَخْرَةٍ وَاتَّخَذُوا بُيُوتًا ﴿بِالْوَادِ﴾ ٩ ﴿وَادِي الْقَرْيِ﴾ ١٠. ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ ١٠ ﴿كَانَ يَتَدُّ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ، يَشُدُّ إِلَيْهَا يَدَيَّ وَرِجْلَيَّ مِنْ يُعَذِّبُهُ﴾ ١١. ﴿الَّذِينَ طَغَوْا﴾ تَجَبَّرُوا ﴿فِي الْبِلَادِ﴾ ١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ واعترض بين القسم وجوابه قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ قال الفراء: ألم تخبر؟ وقال الزجاج: ألم تعلم؟ ومعناه التعجب. [البغوي (٨/ ١٧٤)].

(١) هؤلاء عاد الأولى، وهم أولاد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث الله فيهم رسوله هودا عليه السلام، فكذبوه وخالفوه، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم، وأهلكهم بريح صرصر عاتية، ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازٌ نَحْلٍ حَاوِيَةٍ﴾ ٧ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٨ [الحاقة: ٧-٨]، وقد ذكر الله قصتهم في القرآن في غير ما موضع، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون. فقله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ عطف بيان؛ زيادة تعريف بهم. وقوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد، وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة وأقواهم بطشا، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم، فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وقال هاهنا: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم. قال مجاهد: إرم: أمة قديمة. يعني: عادا الأولى، كما قال قتادة بن دعامة، والسدي: إن إرم بيت مملكة عاد. وهذا قول حسن جيد قوي. وقال مجاهد، وقتادة، والكلبي في قوله: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ كانوا أهل عمود لا يقيمون. وقال العوفي، عن ابن عباس: إنما قيل لهم: ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ لطولهم. واختار الأول ابن جرير، ورد الثاني فأصاب. [ابن كثير (٨/ ٣٩٤)].

(٢) ﴿وَتَمُودَ﴾ هم قوم صالح سموا باسم جدهم تمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. قرأ الجمهور تمود بمنع الصرف على أنه اسم للقبيلة ففيه التائيث والتعريف، وقرأ يحيى بن وثاب بالصرف على أنه اسم لأبيهم. ﴿الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي: قطعوه، وقال ابن عباس: خر قوه. و«الجوب» القطع ومنه جاب البلاد إذا قطعها، ومنه سمي جيب القميص لأنه جيب، أي: قطع، قال المفسرون أول من نحت الجبال والصخور تمود فبنوا من المدائن ألفاً وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَتَنَجَّيْتُمْ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرَّهَيْنَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]، وكانوا ينحتون الجبال وينقبونها ويجعلون تلك الأنقاب بيوتاً يسكنون فيها. وقوله: ﴿بِالْوَادِ﴾ متعلق بـ ﴿جَابُوا﴾ أو بمحذوف على أنه حال من الصخر وهو وادي القرى، وهو موضع بقرب المدينة من جهة الشام، وقيل: الوادي بين جبال، وكانوا ينقبون في تلك الجبال بيوتاً ودوراً وأحواضاً، وكل منفرج بين جبال أو تلال يكون مسلكاً للسبل ومنفذاً فهو واد. [صديق حسن (١٥/ ٢٢٤)].

(٣) انظر التعليق على آية (١٢) من سورة (ص).

الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ الْقَتْلَ وَغَيْرَهُ. ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ﴾ نَوْعٍ ﴿عَذَابٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ يَرْصُدُ أَعْمَالَ الْعِبَادِ فَلَا يَفُوتُهُ مِنْهَا شَيْءٌ، لِيُجَازِيَهُمْ عَلَيْهَا. ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ﴾ الْكَافِرُ ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ اخْتَبَرَهُ ﴿رَبُّهُ﴾ فَأَكْرَمَهُ ﴿بِالْمَالِ وَغَيْرِهِ﴾ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ ضَيْقٌ ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا رَدُّعٌ أَيُّ: لَيْسَ الْإِكْرَامُ بِالْغِنَى وَالْإِهَانَةُ بِالْفَقْرِ، وَإِنَّمَا هُوَ بِالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ^(١)، وَكَفَّارُ مَكَّةَ لَا يَتَّبِعُونَ لَذَلِكَ ﴿بَلْ لَا يُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ ﴿٧﴾ لَا يُحْسِنُونَ إِلَيْهِ مَعَ غَنَاهُمْ، أَوْ لَا يُعْطُونَهُ حَقَّهُ مِنَ الْمِيرَاثِ. ﴿وَلَا يُحْضُونَ﴾ أَنْفُسَهُمْ وَلَا غَيْرُهُمْ ﴿عَلَى طَعَامٍ﴾ أَيُّ: إِطْعَامٍ ﴿الْمُسْكِينِ﴾ ﴿٨﴾ وَيَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ ﴿الْمِيرَاثِ﴾ ﴿أَكْلًا لَّمَّا﴾ ﴿٩﴾ أَيُّ: شَدِيدًا، لِلْمَهْمِ نَصِيبَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ مِنَ الْمِيرَاثِ مَعَ نَصِيبِهِمْ مِنْهُ، أَوْ مَعَ مَالِهِمْ. ﴿وَيُحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ ﴿١٠﴾ أَيُّ: كَثِيرًا فَلَا يُنْفِقُونَهُ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بِالْفَوْقَانِيَّةِ فِي الْأَفْعَالِ الْأَرْبَعَةِ. ﴿كَلَّا﴾ رَدُّعٌ لَهُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴿إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا﴾ ﴿١١﴾ زُلْزِلَتْ حَتَّى يَنْهَدِمَ كُلُّ بِنَاءٍ عَلَيْهَا وَيَنْعَدِمَ. ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ أَيُّ: أَمْرُهُ ﴿وَالْمَلَكُ﴾ أَيُّ: الْمَلَائِكَةُ ﴿صَفًّا صَفًّا﴾

(١) يقول تعالى منكرا على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله عليه في الرزق ليختبره في ذلك، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك، بل هو ابتلاء وامتحان. كما قال تعالى: ﴿أَيُّحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ دُسَارُغُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]. وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له. قال الله: ﴿كَلَّا﴾ أَيُّ: ليس الأمر كما زعم، لا في هذا ولا في هذا، فإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ويضيق على من يحب ومن لا يحب، [كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]] وإنما المدار في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك، وإذا كان فقيرا بأن يصبر. [ابن كثير (٣٩٨/٨)].

(٢) هذا المجيء هو مجيئه عز وجل؛ لأن الفعل أسند إلى الله، وكل فعل يسند إلى الله فهو قائم به لا بغيره، هذه هي القاعدة في اللغة العربية والقاعدة في أسماء الله وصفاته؛ كل ما أسنده الله إلى نفسه فهو له لا لغيره، وعلى هذا فالذي يأتي هو الله عز وجل، وليس كما حرفه أهل التعطيل حيث قالوا: جاء أمر الله. فإن هذا إخراج للكلام عن ظاهره بلا دليل، فنحن من عقيدتنا أن نجري كلام الله ورسوله على ظاهره وألا نحرف فيه، ونقول: إن الله تعالى يجيء يوم القيامة هو نفسه، ولكن كيف هذا المجيء؟ هذا هو الذي لا علم لنا به، لا ندري كيف يجيء، والسؤال عن مثل هذا بدعة كما قال الإمام مالك رحمه الله حين سئل عن قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلَى الْعَرْشِ أُسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، كيف استوى؟ فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء -يعني العرق- ثم رفع رأسه وقال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة». [أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٧)]. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ١٩٩)]. ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد ﷺ، ... وهي المقام المحمود كما ... في سورة «سبحان» فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا. [ابن كثير (٣٩٩/٨)].

﴿٢٢﴾ ۞ حَالٌ، أَي: مُصْطَفَيْنَ، أَوْ ذَوِي صُفُوفٍ كَثِيرَةٍ. ﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تَقَادُ سَبْعِينَ أَلْفَ زِمَامٍ، كُلُّ زِمَامٍ بِأَيْدِي سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ، لَهَا زَفِيرٌ وَتَغِيظٌ^(١) ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، وَجَوَابُهَا: ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ﴾ أَي: الْكَافِرُ مَا فَرَّطَ فِيهِ ﴿وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ ﴿٢٣﴾ ۞ اسْتَفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَي: لَا يَنْفَعُهُ تَذَكُّرُهُ ذَلِكَ. ﴿يَقُولُ﴾ مَعَ تَذَكُّرِهِ ﴿يَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ الْخَيْرَ وَالْإِيمَانَ ﴿لِحَيَاتِي﴾ ﴿٢٤﴾ ۞ الطَّيِّبَةُ فِي الْآخِرَةِ، أَوْ وَقْتُ حَيَاتِي فِي الدُّنْيَا. ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ﴾ بِكُسْرِ الدَّالِ ﴿عَذَابُهُ﴾ أَي: اللَّهُ ﴿أَحَدٌ﴾ ﴿٢٥﴾ ۞ أَي: لَا يَكِلُهُ إِلَى غَيْرِهِ. ﴿و﴾ وَكَذَا ﴿لَا يُوثِقُ﴾ بِكُسْرِ الثَّاءِ ﴿وَتَأْقَهُ﴾ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَفِي قِرَاءَةٍ: يَفْتَحِ الدَّالِ وَالثَّاءِ فَضْمِيرُ ﴿عَذَابُهُ﴾ وَ ﴿وَتَأْقَهُ﴾ لِلْكَافِرِ، وَالْمَعْنَى: لَا يُعَذِّبُ أَحَدٌ مِثْلَ تَعْذِيهِ، وَلَا يُوثِقُ مِثْلَ إِثْقَاهِ. ﴿يَنَازِعُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ ۞ الْأَمْنَةُ وَهِيَ الْمُؤْمِنَةُ^(٢). ﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ﴾ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَي: ارْجِعِي إِلَى أَمْرِهِ وَإِرَادَتِهِ^(٣) ﴿رَاضِيَةً﴾ بِالثَّوَابِ ﴿مَرْضِيَّةً﴾ ﴿٢٨﴾ ۞ عِنْدَ اللَّهِ بِعَمَلِكَ، أَي: جَامِعَةً بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ وَهُمَا حَالَانِ. وَيُقَالُ لَهَا فِي الْقِيَامَةِ: ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ جُمْلَةِ ﴿عِبْدِي﴾ ﴿٢٩﴾ ۞ الصَّالِحِينَ ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ ﴿٣٠﴾ ۞ مَعَهُمْ.

(١) عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجْرُونَهَا». أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٢) حقيقة الطمأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، ... فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين. [إغاثة اللهفان لابن القيم (١/١٢٨)].

(٣) وقال آخرون: إنما يقال لها ذلك عند البعث يقال: ﴿أَرْجِعِي إِلَى رَبِّكَ﴾ أَي: إِلَى صَاحِبِكَ وَجَسَدِكَ، فَيَأْمُرُ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْأَجْسَادِ، وَهَذَا قَوْلُ عِكْرَمَةَ، وَعَطَاءٍ، وَالضَّحَّاكِ، وَرَوَاةُ الْعَوْفِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ: ارْجِعِي إِلَى ثَوَابِ رَبِّكَ وَكَرَامَتِهِ، رَاضِيَةً عَنِ اللَّهِ بِمَا أَعَدَّ لَكَ، مَرْضِيَّةً، رَضِيَ عَنْكَ رَبُّكَ. [البغوي (٨/٤٢٤)]. أَي: إِلَى جَوَارِهِ وَثَوَابِهِ وَمَا أَعَدَّ لِعِبَادِهِ فِي جَنَّتِهِ ... لِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢]. [ابن كثير (٨/٤٠٠)].

سُورَةُ الْبَلَدِ مَكِّيَّةٌ، عِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا زَائِدَةَ﴾ ﴿أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ﴿مَكَّةَ﴾ ﴿وَأَنْتَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿حِلٌّ﴾ ﴿حَلَالٌ﴾ ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ﴿بِأَنْ يَحِلَّ لَكَ فِتْقَاتِلَ فِيهِ، وَقَدْ أَنْجَزَ اللَّهُ لَهُ هَذَا الْوَعْدَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ وَمَا عُطِفَ عَلَيْهِ﴾. ﴿وَوَالِدٍ﴾ أَي: أَدَمَ ﴿وَمَا وَلَدٌ﴾ ﴿أَي: ذُرِّيَّتِهِ، وَ «مَا» بِمَعْنَى «مَنْ»﴾. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أَي: الْجِنْسَ ﴿فِي كَبَدٍ﴾ ﴿نَصَبٍ وَشِدَّةٍ، يُكَابِدُ مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَشِدَائِدَ الْآخِرَةِ﴾. ﴿أَيَحْسَبُ﴾ أَيُظَنُّ الْإِنْسَانُ قُوِيَّ قُرَيْشٍ وَهُوَ أَبُو الْأَشَدِّ بْنِ كِلْدَةَ بِقُوَّتِهِ ﴿أَنْ﴾ مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاسْمُهَا مَحْدُوفٌ، أَي: أَنَّهُ ﴿لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَيْهِ. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ﴾ عَلَى عَدَاوَةِ مُحَمَّدٍ ﴿مَا لَا لُبَّاءَ﴾ ﴿كَثِيرًا بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾. ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ﴾ أَي: أَنَّهُ ﴿لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ ﴿فِيمَا أَنْفَقَهُ فَعَلِمَ قَدْرَهُ وَاللَّهُ عَالِمُ بَقْدَرِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا يَتَكَبَّرُ بِهِ، وَمُجَازِيهِ عَلَى فَعْلِهِ السَّيِّءِ﴾. ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ، أَي: جَعَلْنَا ﴿لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ ﴿بَيْنَا لَهُ طَرِيقَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ﴾. ﴿فَلَا﴾

(١) لقوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَا تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةٌ مِنْ نَهَارٍ». أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٣). والمعنى: أن الله تعالى لما ذكر القسم بمكة دل ذلك على عظيم قدرها مع كونها حراماً فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلالاً. فالمعنى: وأنت حل بهذا البلد في المستقبل كما في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، قال النسفي رحمه الله: «وكفأك دليلاً قاطعاً على أنه للاستقبال وإن تفسيره بالحال محال أن السورة مكية بالاتفاق، وأين الهجرة من وقت نزولها، فما بال الفتح». [صديق حسن (١٥/٢٣٨)].

(٢) هذا جواب القسم، والإنسان هو هذا النوع الإنساني والكبد الشدة والمشقة، يقال كابدت الأمر قاسيت شدته، والإنسان لا يزال في مكابدة الدنيا ومقاساة شدائداتها حتى يموت... وأصل الكبد الشدة ومنه تكبد اللبن إذا اشتد وغلظ... ثم استعمل في كل مشقة وشدة، قال الحسن: يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال أيضاً: يكابد الشكر على السراء ويكابد الصبر على الضراء لا يخلو عن أحدهما. [الشوكاني (٥/٥٣٩)].

(٣) الإنسان يجوز أن يراد به الجنس وهو الأظهر وقول جمهور المفسرين، فالتعريف فيه تعريف الجنس، ويكون المراد به خصوص أهل الشرك؛ لأن قوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥] إلى آخر الآيات لا يليق إلا بأحوال غير المؤمنين، فالعموم عموم عرفي، أي: الإنسان في عرف الناس يومئذ، ولم يكن المسلمون إلا نفاً قليلاً، ولذلك كثر في القرآن إطلاق الإنسان مراداً به الكافرون من الناس. [ابن عاشور (٣٠/٣٥٠)].

(٤) ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ قال القاشاني: أي: ألم نعم عليه بالآلات البدنية التي يتمكن بها من اكتساب الكمال،

فَهَلَّا ﴿أَفْتَحَمَ الْعُقْبَةَ﴾ ١١ ﴿جَارَهَا﴾ ١٢. ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ ١٣ أَعْلَمَكَ ﴿مَا الْعُقْبَةُ﴾ ١٤ ﴿الَّتِي يَفْتَحِمُهَا تَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، وَالْجُمْلَةُ اعْتِرَاضٌ. وَبَيَّنَّ سَبَبَ جَوَازِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿فَكَ رَقَبَةً﴾ ١٥ مِنْ الرِّقِّ بِأَنْ أَعْتَقَهَا. ﴿أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ ١٦ مَجَاعَةٍ. ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ ١٧ قَرَابَةٍ. ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ ١٨ لُصُوقٍ بِالتُّرَابِ لِفَقْرِهِ، وَفِي قِرَاءَةٍ: بَدَلُ الْفِعْلَيْنِ مَصْدَرَانِ مَرْفُوعَانِ مُضَافٍ الْأَوَّلِ لـ ﴿رَقَبَةً﴾، وَمُنُونُ الثَّانِي، فَيَقْدَرُ قَبْلَ ﴿الْعُقْبَةَ﴾ اقْتِحَامٌ، وَالْقِرَاءَةُ الْمَذْكُورَةُ بَيَانُهُ. ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَفْتَحَمَ﴾، وَ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرْتِيبِ الذِّكْرِيِّ، وَالْمَعْنَى: كَانَ وَقْتُ الْإِفْتِحَامِ ١٩ ﴿مِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا﴾ أَي: وَصَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ ٢٠ بِالرَّحْمَةِ عَلَى الْخَلْقِ ٢١. ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ٢٢ الْيَمِينِ ٢٣. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ ٢٤ الشَّمَالِ. ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ ٢٥ بِالْهَمْزَةِ وَالْوَاوِ بَدَلُهُ: مُطْبَقَةٌ.

ليبصر ما يعتبر به، ويسأل عما لا يعلم. [الفاسمي (٤٧٧/٩)]. ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ النجد الطريق في ارتفاع، قال المفسرون: بينا له طريق الخير وطريق الشر. [صديق حسن (٢٤٣/١٥)]. وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. (١) الاقتحام الدخول بشدة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال، الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس. [ابن جزي (٤٨٤/٢)].

(٢) ثم هنا للتراخي في الرتبة لا في الزمان، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام، ولا يصح أن يكون للترتيب في الزمان لأنه لا يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام، ولا يقبل عمل إلا من مؤمن. [ابن جزي (٤٨٥/٢)].

(٣) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أَي: آمَنُوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم. من كل قول وفعل واجب أو مستحب. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَعَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَعَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ بِأَنْ يَحْثُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى الْإِقْيَادِ لَذَلِكَ، وَالْإِتْيَانِ بِهِ كَامِلًا مُشْرَحًا بِهِ الصِّدْرُ، مُطْمَئِنَّةً بِهِ النَّفْسُ. ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ لِلْخَلْقِ، مِنْ إِعْطَاءِ مُحْتَاجِهِمْ، وَتَعْلِيمِ جَاهِلِهِمْ، وَالْقِيَامِ بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ وَالْدُنْيَوِيَّةِ، وَأَنْ يَحِبُّ لَهُمْ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَيَكْرَهُ لَهُمْ مَا يَكْرَهُ لِنَفْسِهِ. [السعدي (ص: ٩٢٤)].

(٤) الميمنة: جهة اليمين، فهي مفعلة للمكان مأخوذة من فعل «يمنه» فعلا ماضيا إذا كان على يمينه، أي: على جهة يده اليمنى، أو مأخوذة من يمينه الله يمينًا، إذا باركه، وإحدى المادتين مأخوذة من الأخرى، قيل: سميت اليد اليمنى يمينًا ويمنى لأنها أعود نفعًا على صاحبها في يسر أعماله... وسمي أهل الجنة أصحاب الميمنة وأصحاب اليمين، وسمي أهل النار ﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الشَّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]، فقوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أَي: أصحاب الكرامة عند الله. وقوله: ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ أَي: هم محقرون. وذلك كناية مبنية على عرف العرب يومئذ في مجالسهم، ولا ميمنة ولا مشأمة على الحقيقة. [ابن عاشور (٣٦٢/٣٠)].

سُورَةُ الشَّمْسِ

مَكِّيَّةٌ، خَمْسَ عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسُ وَضَحَهَا ۝١﴾ ضَوْئَهَا ^(١). ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ۝٢﴾ تَبَعَهَا طَالِعًا عِنْدَ غُرُوبِهَا ^(٢). ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَدَهَا ۝٣﴾ بَارْتِفَاعِهِ ^(٣). ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤﴾ يُغْطِيهَا بِظُلْمَتِهِ، وَ ^(٤) ﴿إِذَا ۝٥﴾ فِي الثَّلَاثَةِ لِمُجَرَّدِ الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا فِعْلُ الْقَسَمِ. ﴿وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَدَهَا ۝٦﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَلَهَا ^(٦) بَسَطَهَا ^(٦) ﴿وَنَفْسٍ ۝٧﴾ بِمَعْنَى نَفْسٍ ﴿وَمَا سَوَّلَهَا ۝٨﴾ فِي الْخَلْقَةِ، وَ ^(٨) ﴿مَا ۝٩﴾ فِي الثَّلَاثَةِ مَصْدَرِيَّةٌ، أَوْ بِمَعْنَى: «مَنْ». ﴿فَالْهَمَّا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝١٠﴾ بَيْنَ لَهَا طَرِيقَي الْخَيْرِ

(١) أقسم سبحانه بهذه الأمور، وله أن يقسم بما شاء من مخلوقاته وقال قوم إن القسم بهذه الأمور ونحوها مما تقدم ومما سيأتي هو على حذف مضاف، أي: ورب الشمس، وهكذا سائرهما، ولا ملجئ إلى هذا ولا موجب له، وقوله: ﴿وَضَحَّاهَا﴾ هو قسم ثان، وقال الرازي المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي. وقد أقسم تعالى بأنواع مخلوقاته المشتملة على المنافع العظيمة ليتأمل المكلف فيها ويشكر عليها لأن ما أقسم الله تعالى به يحصل منه وقع في القلب، وأقسم الله في هذه السورة بسبعة أشياء. انتهى. وقوله: ﴿وَضَحَّاهَا﴾ قال مجاهد: أي ضوءها وإشراقها، وأضاف الضحى إلى الشمس لأنه إنما يكون عند ارتفاعها، وكذا قال الكلبي، وقال قتادة: ضحاها نهارها كله ... قال أبو الهيثم: الضحى نقیض الظل، وهو نور الشمس على وجه الأرض، وأصله «الضحى» فاستقلوا الياء فقلبوها ألفاً، قيل: والمعروف عند العرب أن الضحى إذا طلعت الشمس وبعد ذلك قليلاً، فإذا زاد فهو الضحاه بالمد. قال المبرد: الضحى والضحوة مشتقان من الضح وهو النور فأبدلت الألف والواو من الحاء. [صديق حسن (١٥/٢٥١)].

(٢) التلو: التبع، وأريد به خلف ضوئه في الليل ضوء الشمس، أي: إذا ظهر بعد مغيبها فكأنه يتبعها في مكانها، وهذا تلو مجازي. والقمر يتبع الشمس في أحوال كثيرة منها استهلاله، ... وهو أيضا يضيء في أكثر ليالي الشهر، جعله الله عوضاً عن الشمس في عدة ليال في الإنارة، ولذلك قيد القسم بحين تلوه؛ لأن تلوه للشمس حيث تظهر منه مظاهر التلو للناظرين، فهذا الزمان مثل زمان الضحى في القسم به، فكان بمنزلة قسم بوقت تلوه الشمس، فحصل القسم بذات القمر وبتلوه الشمس. وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي: من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيرا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن. [ابن عاشور (٣٠/٣٦٦)].

(٣) فيه قولان: أحدهما: جلا الظلمة فكنى عن الظلمة من غير ذكرها، وهو كثير في كلام العرب، والقول الآخر: جلاها، أي: جلا الشمس؛ لأن النهار إذا ارتفع أضاءت الشمس وانبسطت. [السمعاني (٦/٢٣٢)].

(٤) قال الليث: الطحو كالدحو وهو البسط، وإبدال الطاء من الدال جائز، والمعنى: وسعها. قال عطاء والكلبي: بسطها على الماء. [الرازي (٣١/١٧٦)].

وَالشَّرِّ^(١)، وَأَخَّرَ التَّقْوَى رِعَايَةَ لِرُؤُوسِ الْآيِ. وَجَوَابُ الْقَسَمِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ حُذِفَتْ مِنْهُ اللَّامُ لِطُولِ الْكَلَامِ ﴿مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿١٠﴾ طَهَّرَهَا مِنَ الذُّنُوبِ. ﴿وَقَدْ خَابَ﴾ خَسِرَ ﴿مَنْ دَسَّاهَا﴾ ﴿١١﴾ أَخْفَاهَا بِالْمَعْصِيَةِ، وَأَصْلُهُ دَسَّاهَا أُبْدِلَتْ السِّينُ الثَّانِيَةُ أَلِفًا تَخْفِيفًا. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ رَسُولَهَا صَالِحًا ﴿بِطُغْيَانِهَا﴾ ﴿١٢﴾ بِسَبِّ طُغْيَانِهَا. ﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ أَسْرَعَ ﴿أَشْقَلَهَا﴾ ﴿١٣﴾ وَاسْمُهُ «قَدَارٌ» إِلَى عَقْرِ النَّاقَةِ بِرِضَاهُمْ. ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صَالِحٌ: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ﴾ أَيُّ: ذُرْوَاهَا ﴿وَسُقِيَهَا﴾ ﴿١٤﴾ وَشَرَبَهَا فِي يَوْمِهَا، وَكَانَ لَهَا يَوْمٌ وَلَهُمْ يَوْمٌ. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فِي قَوْلِهِ ذَلِكَ عَنْ اللَّهِ الْمَرْتَبِ عَلَيْهِ نَزُولُ الْعَذَابِ بِهِمْ إِنْ خَالَفُوهُ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ قَتَلُوهَا لِيَسْلَمَ لَهُمْ مَاءٌ شَرَبَهَا ﴿فَدَمَدَمَ﴾ أَطْبَقَ ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ الْعَذَابَ ﴿بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ﴿١٥﴾ أَيُّ: الدَّمَامَةِ عَلَيْهِمْ، أَيُّ: عَمَّهُمْ بِهَا فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ^(٣). ﴿وَلَا﴾ بِالْوَاوِ وَالْفَاءِ ﴿يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ﴿١٦﴾ تَبِعَتَهَا.

(١) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أَيُّ: خَلَقَهَا سَوِيَّةً مُسْتَقِيمَةً عَلَى الْفِطْرَةِ الْقَوِيمَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُبُولُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوُهُ يَهُودَانِهِ أَوْ يُنَصْرَانِهِ أَوْ يُمَجْسَانِهِ كَمَا تُوَلَّدُ الْبَيْهَمَةُ بِبَيْهَمَةٍ جَمْعَاءَ هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ؟». أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٣٨٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٦٥٨)، وَعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمَجَاشِعِيِّ رَوَاهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ فَجَاءَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٨٦٥). وَقَوْلُهُ: ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ أَيُّ: فَأَرْشَدَهَا إِلَى فُجُورِهَا وَتَقْوَاهَا، أَيُّ: بَيْنَ لَهَا ذَلِكَ، وَهَدَاهَا إِلَى مَا قَدَرَهَا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ بَيْنَ لَهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالثَّوْرِيُّ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: أَلْهَمَّهَا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: جَعَلَ فِيهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ... عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيَلِيِّ قَالَ: قَالَ لِي عُمَرَانُ بْنُ حَصِينٍ رَوَاهُ: أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ فِيهِ النَّاسُ وَيَتَكَادِحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قَضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَأَكْدَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؟ قُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قَضِيَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: فَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزَعَتْ مِنْهُ فَرَعًا شَدِيدًا، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لَيْسَ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ خَلَقَهُ وَمَلَكَ يَدَهُ، لَا يَسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يَسْأَلُونَ. قَالَ: سَدَدَكَ اللَّهُ، إِنَّمَا سَأَلْتُ لِأَخْبِرَ عَقْلَكَ، إِنْ رَجَلًا مِنْ مَزِينَةٍ أَوْ جَهِينَةٍ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ فِيهِ وَيَتَكَادِحُونَ، أَشَيْءٌ قَضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَمْ شَيْءٌ مِمَّا يَسْتَقْبِلُونَ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيِّهِمْ، وَأَكْدَتْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ؟ قَالَ: «بَلْ شَيْءٌ قَدْ قَضِيَ عَلَيْهِمْ». قَالَ: فَفِيمَ نَعْمَلُ؟ قَالَ: «مَنْ كَانَ اللَّهُ خَلَقَهُ لِأَحَدٍ الْمَنْزِلَتَيْنِ يَهَيِّئَهُ لَهَا، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ ﴿٧﴾ فَاَلْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾». أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٦٥٠). [ابن كثير (٤٤١/٨)].

(٢) نسب العقر إلى جماعة لأنهم اتفقوا عليه وباشره واحد منهم. [ابن جرير (٤٨٧/٢)].

(٣) فأطبق عليهم العذاب، وقالوا: دمدم عليه القبر، أي: أطبقه، وهو مما تكرر فيه الفاء، فوزنه ففعل لا فعلل من قولهم: ناقة مدمومة إذا لبسها الشحم وغطاها، وقال في القاموس: معناه أتم العذاب عليهم. [الألويسي (٣٦٣/١٥)].

سُورَةُ اللَّيْلِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى وَعِشْرُونَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝﴾ بِظُلْمَتِهِ كُلِّ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ۝﴾ تَكْشَفَ وَظَهَرَ وَ﴿إِذَا﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِمَجَرَّدِ الظَّرْفِيَّةِ، وَالْعَامِلُ فِيهَا فَعْلُ الْقَسَمِ. ﴿وَمَا﴾ بِمَعْنَى «مَنْ» أَوْ مُصَدَّرِيَّةٌ ﴿خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ۝﴾ أَدَمَ وَحَوَّاءَ وَكُلَّ ذَكَرٍ وَكُلَّ أُنْثَى، وَالْخُشْيُ الْمَشْكُلُ عِنْدَنَا ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَحْنَثُ بِتَكْلِيمِهِ مَنْ حَلَفَ لَا يُكَلِّمُ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى^(١). ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ عَمَلَكُمْ ﴿لَشَتَّى ۝﴾ مُخْتَلَفٌ، فَعَامِلٌ لِلْجَنَّةِ بِالطَّاعَةِ، وَعَامِلٌ لِلنَّارِ بِالْمَعْصِيَةِ. ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ﴾ حَقَّ اللَّهِ ﴿وَاتَّقَى ۝﴾ اللَّهُ. ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝﴾ أَي: بِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فِي الْمَوْضِعَيْنِ. ﴿فَسَنِّيَسِرُهُ﴾ نَهْيُهُ ﴿لِلْيَسْرَى ۝﴾ لِلْجَنَّةِ. ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بِحَقِّ اللَّهِ ﴿وَأَسْتَغْنَى ۝﴾ عَنْ ثَوَابِهِ. ﴿وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝﴾ فَسَنِّيَسِرُهُ ﴿نَهْيُهُ﴾ لِلْعُسْرَى ﴿لِلنَّارِ ۝﴾ وَمَا ﴿نَافِيَةٌ﴾ يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى^(٢) ﴿فِي النَّارِ ۝﴾ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝﴾ لَنُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَى مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ لِيُمْتَثِلَ، أَمَرْنَا بِسُلُوكِ الْأَوَّلِ وَنَهَيْنَا عَنْ إِزْتِكَابِ الثَّانِي^(٣). ﴿وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۝﴾ أَي: الدُّنْيَا، فَمَنْ طَلَبَهُمَا مِنْ غَيْرِنَا فَقَدْ أَخْطَأَ^(٤). ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ﴾

(١) قال المحلي: «والخشْيُ المشْكُلُ عِنْدَنَا ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى فَيَحْنَثُ بِتَكْلِيمِهِ مَنْ حَلَفَ لَا يَكَلِّمُ ذَكَرًا وَلَا أُنْثَى». انتهى، وعبارة الخطيب: «الخشْيُ وإنْ أَشْكَلَ أَمْرُهُ عِنْدَنَا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ غَيْرُ مُشْكَلٍ مَعْلُومٍ بِالذِّكُورَةِ أَوْ الْأُنْثَى». انتهت، وقال الكرخي: يحنث بتكليمه لأن الله تعالى لم يخلق من ذوي الأرواح من ليس ذكراً ولا أنثى، والخشي إنما هو مشكل بالنسبة إلينا، خلافاً لأي فضل الهمداني فيما حكاه وجهاً أنه نوع ثالث، ويدفعه قوله: ﴿يَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَا وَيَهْبُ لِمَنْ يَشَاءُ الدُّكُورُ﴾ [الشورى: ٤٩] ونحو ذلك قاله الأسنوي. [صديق حسن (١٥/ ٢٦٤)].

(٢) المعنى من سلك الهدى فعلى الله سبيله، ... وهذا قول مجاهد وهو أصح الأقوال في الآية، قال الواحدي: ﴿عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾ أي: إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله وإلى ثوابه وجنته. وهذا المعنى في القرآن في ثلاث مواضع هاهنا وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وفي الحجر في قوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله، فهذه أشرف الوسائل وغايتها أعلى الغايات. [التبيان في إيمان القرآن لابن القيم (١/ ١٠٦)].

(٣) الأولى متقدمة على الآخرة في الزمن، لكنه في هذه الآية آخرها: لأن الآخرة أهم من الدنيا، ... ولمراعاة الفواصل. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٣٠)].

(١) قراءة شاذة.

(٣) ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك. ولا شك أنه داخل فيها، وأولى الأمة بعمومها، فإن لفظها لفظ العموم، وهو ... مقدم الأمة وسابقتهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ... ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئها بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل؛ ولهذا قال له عروة بن مسعود وهو سيد ثقيف، يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك كانت عندي لم أجرك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم. [ابن كثير (٨/ ٤٢٢)].

سُورَةُ الضُّحَى

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالضُّحَى﴾ (١) أَي: أَوَّلِ النَّهَارِ أَوْ كُلِّهِ^(١). ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ (٢) عَطَى بِظِلَامِهِ أَوْ سَكَنَ. ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ تَرَكَكَ يَا مُحَمَّدُ ﴿رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (٣) أَبْغَضَكَ، نَزَلَ هَذَا لَمَّا قَالَ الْكُفَّارُ عِنْدَ تَأَخُّرِ الْوَحْيِ عَنْهُ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا: «إِنَّ رَبَّهُ وَدَّعَهُ وَقَلَاهُ»^(٢). ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ﴾ لَمَّا فِيهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ لَكَ ﴿مِنَ الْأُولَى﴾ (٤) الدُّنْيَا^(٣). ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرَاتِ عَطَاءً جَزِيلًا^(٤) ﴿فَتَرْضَى﴾ (٥) بِهِ، فَقَالَ ﷺ: «إِذَنْ لَا أَرْضَى وَوَاحِدٌ مِنْ أُمَّتِي فِي النَّارِ»^(٥).

(١) المراد به النهار، لقوله: والليل إذا سجدى فقابله بالليل. وفي سورة الأعراف: ﴿أَفَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ (١٧) وَأَمِنْ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ (٩٨) [الأعراف: ٩٧-٩٨] أَي: نهارة. وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله: فيه إضممار، مجازه ورب الضحى. [القرطبي (٩١/٢٠)].

(٢) عن الأسود بن قيس: سمع جندبا قال: أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ، فقال المشركون: ودع محمد. فأنزل الله: ﴿وَالضُّحَى﴾ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣). أخرجه مسلم (١٧٩٧).

(٣) وللدار الآخرة، وما أعد الله لك فيها، خير لك من الدار الدنيا وما فيها. يقول: فلا تحزن على ما فاتك منها، فإن الذي لك عند الله خير لك منها. [الطبري (٤٨٧/٢٤)].

(٤) أي: يعطيك من فواضل نعمه في العقبى حتى ترضى، وهذه عدة كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين، وظهور الأمر وإعلاء الدين، بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام، وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام، وفشو دعوته في مشارق الأرض ومغاربها، ولما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى. وبالجملة فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإكرام. [القاسمي (٤٩١/٩)].

(٥) لم نقف عليه مرفوعاً، وورد موقوفاً على ابن عباس رضيهما الله عنهما انظر الدر المنثور للسيوطي (٥٤٢/٨). وأصح ما ورد في هذا الباب مرفوعاً ما أخرجه مسلم (٢٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنِّي أَمْلَأُكَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآية. وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدَاكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى»، فقال الله عز وجل: «يَا جَبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ فَسَلْهُ مَا يُنْكِيكَ؟» فأتاه جبريل عليه السلام، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل: «إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ».

إِلَى هُنَا تَمَّ جَوَابُ الْقَسَمِ بِمُشْتَبَيْنِ بَعْدَ مَنْفِيِّنِ. ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَقْرِيرٌ، أَيُّ: وَجَدَكَ ﴿يَتِيمًا﴾ بِفَقْدِ أَبِيكَ قَبْلَ وَلَادَتِكَ أَوْ بَعْدَهَا ﴿فَقَاوَى﴾ ٦ ﴿بَانَ ضَمَّكَ إِلَى عَمِّكَ أَبِي طَالِبٍ﴾ ١. ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عَمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ ﴿فَهَدَى﴾ ٧ ﴿أَيُّ: هَذَاكَ إِلَيْهَا﴾ ٢. ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فَقِيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ ٨ ﴿أَغْنَاكَ بِمَا قَنَعَكَ بِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَغَيْرِهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ» ٣. ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ٩ ﴿بِأَخْذِ مَالِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ١٠ ﴿تَزْجُرُهُ لِفَقْرِهِ. ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ عَلَيْكَ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا ﴿فَحَدِّثْ﴾ ١١ أَخْبِرْ، وَحُذِفَ ضَمِيرُهُ ﷺ فِي بَعْضِ الْأَفْعَالِ رِعَايَةً لِلْفَوَاصِلِ ٤.

(١) عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره، ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه، ويقوي رجاؤه و«وجد» في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى: علم؛ فالمعنى ألم تكن يتيماً فأواك. وذلك أن والده ... توفي وتركه في بطن أمه، ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام، وقيل: ثمانية فكفله جده عبد المطلب، ثم مات وتركه ابن اثني عشر عاماً فكفله عمه أبو طالب، وقيل لجعفر الصادق: لم نشأ النبي ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلا يكون عليه حق لمخلوق. [ابن جزي (٢/ ٤٩٠)].

(٢) أي: غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان، فهذاك إليه وجعلك إماماً له، كما في آية: ﴿مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا أَلْكَتُبُ وَلَا أَلَايْمُنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، قال الشهاب: الفضلال مستعار من: «ضل في طريقه»، إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة، من طريق الاكتساب. [القاسمي (٩/ ٤٩٢)].

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٤) قيل: المراد بها المذكورات والتحدث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله، وإعطاء السائل كما أغناه الله، وتعليم المسترشد كما علمه الله، وهذا من شكر النعمة، أي: كما أنعم الله عليك، فتنعم أنت على غيرك ... وقيل: التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث، والنعمة هنا عامة؛ لتكثيرها وإضافتها ... ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر أو هو أولى بها، أو هو أعظمها؛ لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. [عطية سالم (٨/ ٥٧١)].

سُورَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ اسْتَفْهَامُ تَقْرِيرٍ، أَيُّ: شَرَحْنَا ﴿لَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿صَدْرَكَ﴾ ❶ بِالنُّبُوَّةِ وَغَيْرِهَا^(١). ﴿وَوَضَعْنَا﴾ حَطَطْنَا ﴿عَنْكَ وَزُرَّكَ﴾ ❷ الَّذِي أَنْقَضَ ﴿أَثْقَلَ﴾ ❸ ﴿ظَهَرَكَ﴾ ❹ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ﴾ [الفتح: ٢٢]. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ❺ بِأَنْ تُذَكَّرَ مَعَ ذِكْرِي فِي الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ وَالتَّشْهيدِ وَالْخُطْبَةِ وَغَيْرِهَا. ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ الشَّدَّةِ ﴿يُسْرًا﴾ ❻ سُهولةً. ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ❼ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاسَى مِنَ الْكُفَّارِ شِدَّةً ثُمَّ حَصَلَ لَهُ الْيُسْرُ بِنَصْرِهِ عَلَيْهِمْ^(٣). ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ مِنَ الصَّلَاةِ ﴿فَانْصَبْ﴾ ❽ اتَّعَبَ فِي الدَّعَاءِ^(٤). ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ ❾ تَضَرَّعُ^(٥).

(١) الذي يشهد له القرآن: أن الشرح هو الانسراح والارتياح. وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة. كما في قوله تعالى: ﴿أَقَمَنَّ شَرَحَ اللَّهِ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيان لشرح الصدر للإسلام. كما أن ضيق الصدر، دليل على الضلال [قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية [الأنعام: ١٢٥]]. عطية سالم (٥٧٣/٨).

(٢) قال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزر هنا: الذنوب، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وكان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل النبوة وزره صحبة قومه، وأكله من ذبائهم، ونحو هذا، وقال الضحاك، وفي كتاب النقاش: حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى. وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لهمم بها وتحسرهم عليها. [ابن عطية (٤٩٦/٥)].

(٣) عن الحسن قال: كانوا يقولون: لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين. ومعنى هذا: أن العسر معرف في الحالين، فهو مفرد، واليسر منكر فتعدد؛ ولهذا قال: لن يغلب عسر يسرين، يعني قوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ❺ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ❻ فالعسر الأول عين الثاني، واليسر تعدد. [ابن كثير (٤٣٢/٨)].

(٤) [الآية] تفرع على ما تقرر من التذكير باللطف والعناية ووعدته بتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون ملل ولا ضجر... فالمعنى: إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة... واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروق منه، وإنما هو اختلاف في الأمثلة، فحذف المتعلق هنا لقصد العموم. [ابن عاشور (٤١٦/٣٠)].

(٥) بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك، وقرئ: «فَرَّغْبُ» أي: فرغب الناس إلى طلب ثوابه. [البيضاوي (٣٢٢/٥)].

سُورَةُ التِّينِ
مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ١﴾ أَي: الْمَأْكُولَيْنِ، أَوْ جَبَلَيْنِ بِالشَّامِ يُنْبَتَانِ الْمَأْكُولَيْنِ. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ٢﴾ الْجَبَلِ الَّذِي كَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى، وَمَعْنَى ﴿سِينِينَ﴾: الْمُبَارَكُ أَوْ الْحَسَنُ بِالشَّجَارِ الْمُشْمَرَةِ. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ٣﴾ مَكَّةَ لِأَنَّ النَّاسَ فِيهَا جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ٤﴾ الْجِنْسَ ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ٥﴾ تَعْدِيلٍ لِصُورَتِهِ. ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ ٦﴾ فِي بَعْضِ أَفْرَادِهِ ﴿أَسْفَلَ سَفَلِينَ ٧﴾ كِنَايَةً عَنِ الْهَرَمِ وَالضَّعْفِ، فَيَنْقُصَ عَمَلُ الْمُؤْمِنِ عَنْ زَمَنِ الشَّبَابِ وَيَكُونَ لَهُ أَجْرُهُ^(١). لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا ٨﴾ أَي: لَكِنَّ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ٩﴾ مَقْطُوعٍ، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ مِنَ الْكِبَرِ مَا يُعْجِزُهُ عَنِ الْعَمَلِ، كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ»^(٢). ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ ١٠﴾ أَيُّهَا الْكَافِرُ ﴿بَعْدُ ١١﴾ بَعْدَ مَا ذُكِرَ مِنْ خَلْقِ الْإِنْسَانِ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، ثُمَّ رَدَّهِ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ الدَّلَالِ عَلَى الْقُدْرَةِ عَلَى الْبَعْثِ ﴿بِالَّذِينَ ١٢﴾ بِالْجَزَاءِ الْمَسْبُوقِ بِالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، أَي: مَا يَجْعَلُكَ مُكَذِّبًا بِذَلِكَ، وَلَا جَاعِلَ لَهُ. ﴿أَلَيْسَ ١٣﴾ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ١٤﴾ هُوَ أَفْضَى الْقَاضِيَيْنِ، وَحُكْمُهُ بِالْجَزَاءِ مِنْ ذَلِكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ قَرَأَ ﴿وَالَّتَيْنِ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَلْيُقِلَّ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ»^(٣).

(١) أي: ... ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾،

... كقوله: ﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٣﴾ [العصر: ١-٣]. [ابن كثير (٨/٤٣٥)].

(٢) لم أقف عليه مرفوعاً، وقد ورد موقوفاً على ابن عباس رضي الله عنهما. انظر الطبري (٣٠ / ٢٤٧). وفي الصحيح قوله ﷺ: «إِذَا مَرَضَ الْعَبْدُ أَوْ

سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا». أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٨٨٧)، وأحمد (٧٣٩١)، والترمذي (٣٣٤٧).

سُورَةُ الْعَلَقِ

مَكِّيَّةٌ، تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً. صَدْرُهَا إِلَى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَذَلِكَ بَغَارٍ حِرَاءٍ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْرَأْ﴾ أَوْجِدِ الْقِرَاءَةَ مُبْتَدَأًا^(٢) ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٣) الْخَلَائِقَ. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾^(٤) جَمْعُ «عَلَقَةٍ» وَهِيَ الْقِطْعَةُ الْيَسِيرَةُ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ^(٥). ﴿اقْرَأْ﴾ تَأْكِيدٌ لِلأَوَّلِ ﴿وَرَبَّكَ الْأَكْرَمُ﴾^(٦) الَّذِي لَا يُوَازِيهِ كَرِيمٌ، حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿اقْرَأْ﴾. ﴿الَّذِي عَلَّمَ﴾ الْخَطَّ ﴿بِالْقَلَمِ﴾^(٧) وَأَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِهِ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٨).

(١) عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يأتي غار حراء فيتحنث فيه - وهو: التعبد - الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها فتزود لمثلها حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: «فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ. قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ. فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ. فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُحْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾». الحديث أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) [النبي أمي] كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ الآية [العنكبوت: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿فَأَنَّا الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: ٢]. وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أمي لا تعارض فيه؛ لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام، وهذا إبراز للمعجزة أكثر؛ لأن الأمي بالأمر صار معلما اليوم. [عطية سالم (٩/١٣)].

(٣) العلق جمع علقه، وهي النطفة من الدم والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم، ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة بخلاف قوله: ﴿فَأَنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] لأنه أراد كل واحد على حدته، ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقه وإنما خلق من طين. [ابن جزي (٢/٤٩٦)].

(٤) في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعا وفيه: «إِدْرِيسُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ خَطَّ بِقَلَمٍ». أخرجه الحاكم (٤١٦٦)، وابن حبان (٣٦١). أي: علم الإنسان الخط بالقلم فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب، قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم، قال قتادة: بالقلم نعمة من الله عز وجل عظيمة لولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزل إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ولا أمور الدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة

﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ﴾ الْجِنْسَ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ قَبْلَ تَعْلِيمِهِ، مِنَ الْهُدَى وَالْكِتَابَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَغَيْرِهَا. ﴿كَلَّا﴾ حَقًّا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۝﴾ أَنْ رَأَاهُ ﴿أَي: نَفْسُهُ﴾ ﴿أَسْتَغْنَى ۝﴾ بِالْمَالِ، نَزَلَ فِي أَبِي جَهْلٍ، وَ «رَأَى» عِلْمِيَّةٌ، وَ ﴿أَسْتَغْنَى﴾ مَفْعُولٌ ثَانٍ، وَ ﴿أَنْ رَأَاهُ﴾ مَفْعُولٌ لَهُ^(١). ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يَا إِنْسَانُ ﴿الرُّجْعَى ۝﴾ الرُّجُوعُ، تَخْوِيفٌ لَهُ فَيَجَازِي الطَّاعِي بِمَا يَسْتَحِقُّهُ. ﴿أَرَأَيْتَ﴾ فِي الثَّلَاثَةِ مَوَاضِعَ لِلتَّعَجُّبِ ﴿الَّذِي يَنْهَى ۝﴾ هُوَ أَبُو جَهْلٍ. ﴿عَبْدًا﴾ هُوَ النَّبِيُّ ﷺ ﴿إِذَا صَلَّى ۝﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ﴿الْمَنِيِّ﴾ عَلَى الْهُدَى ﴿أَوْ﴾ لِلتَّقْسِيمِ ﴿أَمَرَ بِالتَّقْوَى ۝﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ ﴿أَي: النَّاهِي النَّبِيَّ﴾ وَتَوَلَّى ﴿وَتَوَلَّى ۝﴾ عَنِ الْإِيمَانِ. ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ۝﴾ مَا صَدَرَ مِنْهُ، أَي: يَعْلَمُهُ فَيَجَازِيهِ عَلَيْهِ، أَي: إِعْجَبَ مِنْهُ يَا مُخَاطَبُ مِنْ حَيْثُ نَهَيْهِ عَنِ الصَّلَاةِ، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ الْمَنِيَّ عَلَى الْهُدَى أَمَرَ بِالتَّقْوَى، وَمِنْ حَيْثُ أَنَّ النَّاهِي مُكَذِّبٌ مُتَوَلٍّ عَنِ الْإِيمَانِ^(٢). ﴿كَلَّا﴾ رَدُّعٌ لَهُ ﴿لَئِنْ﴾ لَمْ قَسَمَ ﴿لَمَّ يَتْنَهُ﴾ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝﴾ لَنَجْرَنَّ بِنَاصِيَتِهِ إِلَى النَّارِ^(٣). ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بَدَلُ نَكْرَةٍ مِنْ مَعْرِفَةٍ ﴿كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝﴾ وَصَفَهَا بِذَلِكَ

الله ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط لكفى به، وسمي قلمًا لأنه يقلم، أي: يقطع. [الشوكاني (٥/ ٥٧١)].

(١) نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبي جهل بعد نزول صدرها بمدة، وذلك أنه كان يطغى بكثرة ماله ويبالغ في عداوة النبي ﷺ. [ابن جزي (٢/ ٤٩٦)]. وعلة ﴿لَيَطْغَى﴾ أي: ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً، والرؤية هنا بمعنى العلم ولو كانت بصرية لا تمتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد، لأن ذلك من خواص باب علم ونحوه، قال الفراء: لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي ترد اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول رأيته وحسبته ومتى نراك خارجاً ومتى نظنك خارجاً. قيل: والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال ... قال مقاتل: كان أبو جهل إذا أصاب ما لا زاد في ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه فذلك طغيانه، وكذا قال الكلبي. قال الرازي: أول السورة يدل على مدح العلم، وآخرها يدل على ذم المال وكفى بذلك مرغبا في الدين والعلم، ومنفراً عن الدنيا والمال. [صديق حسن (١٥/ ٣١٢)].

(٢) أي: أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ويسمع كلامه، وسيجزيه على فعله أتم الجزاء. [ابن كثير (٨/ ٤٣٨)]. فهو سبحانه وتعالى يرى كل شيء مهما خفي ودق، ويعلم كل شيء مهما بعد ومهما كثر أو قل، والمقصود من هذا تهديد هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، وبيان أن الله تعالى يعلم بحاله وحال من ينهيه، وسيجزي كلا منهما بما يستحق. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٦٣)].

(٣) أوعد أبا جهل إن لم يتن عن كفره وطغيانه أن يؤخذ بناصيته فيلقى في النار، والناصية مقدم الرأس فهو كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١] والسفع هنا الجذب والقبض على الشيء، وقيل: هو الإحراق من قولك سفعته النار، وأكد لنسفع باللام والنون الخفيفة، ... ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجر إلى القلب ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أبدل ناصية من الناصية، ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزاً، والكاذب الخاطيء في الحقيقة صاحبها، والخاطيء الذي يفعل الذنب متعمداً، والمخطيء الذي

مَجَازٌ، وَالْمُرَادُ صَاحِبُهَا. ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ﴾ (١٧) أَي: أَهْلُ نَادِيهِ، وَهُوَ الْمَجْلِسُ يُتَدَي: يَتَحَدَّثُ فِيهِ الْقَوْمُ، وَكَانَ قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ لَمَّا انْتَهَرَهُ حَيْثُ نَهَاهُ عَنِ الصَّلَاةِ: «لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرَ نَادِيًا مِنِّي، لَأَمْلَأَنَّ عَلَيْكَ هَذَا الْوَادِيَ إِنْ شِئْتُ خَيْلًا جُرْدًا وَرِجَالًا مُرَدًّا»^(١). ﴿سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ (١٨) الْمَلَائِكَةُ الْغِلَظُ الشَّدَادُ لِإِهْلَاكِهِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ الزَّبَانِيَةُ عِيَانًا»^(٢). ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لَهُ ﴿لَا تُطِيعُهُ﴾ يَا مُحَمَّدُ فِي تَرْكِ الصَّلَاةِ ﴿وَأَسْجُدْ﴾ صَلِّ لِلَّهِ ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ (١٩) مِنْهُ بِطَاعَتِهِ^(٣).

يفعله بغير قصد. [ابن جُزَيٍّ (٢/٤٩٨)].

(١) عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنك عن هذا؟ وتوعده فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني؟ أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا، فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۖ﴾ (١٧) ﴿سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ﴾ (١٨) قال ابن عباس رضي الله عنه: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته. أخرجه أحمد (١/٣٢٩)، والترمذي (٣٣٤٩). (٢) عن ابن عباس رضي الله عنه: قال أبو جهل: لئن رأيت محمدا يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه. فبلغ النبي ﷺ، فقال: «لِئِنْ فَعَلَهُ لَأَخَذْتُهُ الْمَلَائِكَةُ». أخرجه البخاري (٤٩٥٨).

(٣) ﴿كَلَّا لَا تُطِيعُهُ﴾ فيما دعاك إليه من ترك الصلاة ﴿وَأَسْجُدْ﴾ أي: صل لله غير مكترث به ولا مبال بنهيهِ ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ أي: تقرب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة، وقيل: المعنى إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء، وقال زيد ابن أسلم: واسجد أنت يا محمد واقترب أنت يا أبا جهل من النار، والأول أولى. والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة وعبر عنها بالسجود لأنه أفضل أركانها بعد القيام، وقيل: سجود التلاوة، ويدل على هذا ما ثبت عنه رضي الله عنه من السجود عند تلاوة هذه الآية. [صديق حسن (١٥/٣١٧)]. وعطف عليه ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ للتنويه بما في الصلاة من مرضاة الله تعالى بحيث جعل المصلي مقربا من الله تعالى. والاقتراب: افتعال من القرب، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلف والتطلب، أي: اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة. [ابن عاشور (٣٠/٤٥٣)]. وقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَأَقْتَرِبْ﴾ ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال: ﴿وَمَنْ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦]، وقوله في وصف أصحابه رضي الله عنهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩] ... مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله، حيث وجه إليها الرسول ﷺ من أول الأمر، كما بين تعالى في قوله: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقال رضي الله عنه: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ». أخرجه مسلم (٤٨٢). [عطية سالم (٩/٢٩)].

سُورَةُ الْقَدْرِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، خَمْسُ أَوْ سِتُّ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَي: الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا^(١) ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾^(٢) أَي: الشَّرَفِ الْعَظِيمِ^(٣). ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أَعْلَمَكَ يَا مُحَمَّدٌ ﴿مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾^(٤) تَعْظِيمٌ لِسَانِهَا وَتَعْجِيبٌ مِنْهُ. ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾^(٥) لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْهُ فِي أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَتْ فِيهَا^(٦). ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ﴾ بِحَذْفِ إِحْدَى التَّائِينَ مِنَ الْأَصْلِ ﴿وَالرُّوحِ﴾ أَي: جِبْرِيلُ ﴿فِيهَا﴾ فِي اللَّيْلَةِ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بِأَمْرِهِ ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾^(٧) فَضَاهُ اللَّهُ فِيهَا لِتِلْكَ السَّنَةِ إِلَى قَابِلٍ وَ ﴿مِنْ﴾ سَبِيَّةٌ بِمَعْنَى الْبَاءِ^(٨). ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ خَيْرٌ مُقَدَّمٌ وَمُبْتَدَأٌ ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾^(٩) بَفَتْحِ اللَّامِ وَكَسْرِهَا إِلَى وَقْتِ طُلُوعِهِ، جُعِلَتْ سَلَامًا لِكَثْرَةِ السَّلَامِ فِيهَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَا تَمُرُّ بِمُؤْمِنٍ وَلَا بِمُؤْمِنَةٍ إِلَّا سَلَّمَتْ عَلَيْهِ.

(١) انظر التعليق على تفسير آية (١٨٥) من سورة البقرة.

(٢) وجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان: أحدهما: أن معنى القدر الشرف والرفعة، كما تقول العرب: فلان ذو قدر، أي: رفعة وشرف. الوجه الثاني: أنها سميت ليلة القدر؛ لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾^(٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ^(٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا^(٥) [الدخان: ٣ - ٥]. والواقع أن في السورة ما يدل للوجه الأول وهو القدر والرفعة، وهو قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾^(٦) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ^(٧). فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم ... وقوله: ﴿خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها، إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة، أي: فوق متوسط أعمار هذه الأمة. وأيضا كونها اختصت بإنزال القرآن فيها، وتنزل الملائكة والروح فيها، وبكونها سلاما هي حتى مطلع الفجر. [عطية سالم (٩/ ٣٤)].

(٣) هذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر هو اختيار ابن جرير. وهو الصواب لا ما عدها، وهو كقوله ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الْمَنَازِلِ». أخرجه الترمذي (١٦٦٧)، والنسائي (٣١٦٩)، ... وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قَدْ جَاءَكُمْ شَهْرُ رَمَضَانَ، شَهْرُ مُبَارَكٍ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ صِيَامَهُ تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ وَتُعَلَّقُ فِيهِ أَبْوَابُ النَّارِ وَتُعَلُّ فِيهِ الشَّيَاطِينُ وَفِيهِ لَيْلَةُ خَيْرٍ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ مِنْ حَرَمٍ خَيْرٌهَا فَقَدْ حُرِّمَ خَيْرٌ كَثِيرٌ». أخرجه النسائي (٢١٠٦)، وأحمد (٧١٤٨). [ابن كثير (٨/ ٤٤٣)].

(٤) ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: بكل أمر من الخير والبركة، كقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: بأمر الله. [البغوي (٨/ ٤٩١)].

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَمَانُ أَوْ تِسْعَ آيَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أَي: عَبْدَةَ الْأَصْنَامِ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَهْلِ﴾،
 ﴿مُنْفَكِينَ﴾ خَبَرٌ ﴿يَكُنِ﴾، أَي: زَائِلِينَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمْ﴾ أَي: أَتَتْهُمْ ﴿الْبَيِّنَةُ ١﴾ أَي: الْحُجَّةُ
 الْوَاضِحَةُ. ﴿رَسُولٍ مِنَ اللَّهِ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْبَيِّنَةِ، وَهُوَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ ﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ٢﴾ مِنَ الْبَاطِلِ. ﴿فِيهَا
 كُتِبَ﴾ أَحْكَامٌ مَكْتُوبَةٌ ﴿قِيَمَةٌ ٣﴾ مُسْتَقِيمَةٌ، أَي: يَتْلُو مَضْمُونَ ذَلِكَ وَهُوَ الْقُرْآنُ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.
 ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ فِي الْإِيمَانِ بِهِ ﷺ ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ٤﴾ أَي: هُوَ ﷺ أَوْ الْقُرْآنُ
 الْجَائِي بِهِ مُعْجَزَةً لَهُ، وَقَبْلَ مَجِيئِهِ ﷺ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ إِذَا جَاءَ، فَحَسَدَهُ مَنْ كَفَرَ بِهِ مِنْهُمْ. ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾
 فِي كِتَابِهِمُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أَي: أَنْ يَعْبُدُوهُ، فَحُذِفَتْ «أَنْ» وَزِيدَتْ اللَّامُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾
 مِنَ الشِّرْكِ ﴿خُنَفَاءَ﴾ مُسْتَقِيمِينَ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَدِينِ مُحَمَّدٍ إِذَا جَاءَ، فَكَيْفَ كَفَرُوا بِهِ؟ ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا
 الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينٌ﴾ أَلِمَّةٌ ﴿الْقِيَمَةُ ٥﴾ أَلْمُسْتَقِيمَةُ^(١). ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ
 جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، أَي: مُقَدَّرًا خُلُودُهُمْ فِيهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ٧ ﴿الْخَلِيقَةِ﴾ ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إِقَامَةٌ
 ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بِطَاعَتِهِ^(٢) ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بِثَوَابِهِ ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ
 رَبَّهُ ٨﴾ خَافَ عِقَابَهُ، فَانْتَهَى عَنْ مَعْصِيَتِهِ تَعَالَى^(٣).

(١) خص الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلا في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشر فهما. [السعدي (ص: ٩٣١)].

(٢) عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى، وَقَدْ أُعْطِينَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبُّ، وَآيُ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا». أخرجه مسلم (٢٨٢٩).

(٣) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَالَ: وَسَمَانِي؟ قَالَ: «نَعَمْ» فَبَكَى. أخرجه البخاري (٤٩٥٩)، ومسلم (٧٩٩).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، تِسْعُ آيَاتٍ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ حُرِّكَتْ لِقِيَامِ السَّاعَةِ ﴿زِلْزَالَهَا﴾^(١) تَحْرِيكُهَا الشَّدِيدَ الْمُنَاسِبَ لِعَظَمِهَا. ﴿وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا﴾^(٢) كُنُوزَهَا وَمَوَاتَهَا فَالْقَتَهَا عَلَى ظَهْرِهَا. ﴿وَقَالَ الْإِنْسَنُ﴾ الْكَافِرُ بِالْبَعْثِ: ﴿مَا لَهَا﴾^(٣) ﴿إِنْكَارًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ.﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذَا﴾، وَجَوَابُهَا: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾^(٤) تُخْبِرُ بِمَا عَمِلَ عَلَيْهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ. ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنْ ﴿رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾^(٥) أَي: أَمَرَهَا بِذَلِكَ، وَفِي الْحَدِيثِ: «تَشْهَدُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِكُلِّ مَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا»^(٦). ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿أَشْتَاتًا﴾ مُتَفَرِّقِينَ، فَآخِذُ ذَاتِ الْيَمِينِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَآخِذُ ذَاتِ الشِّمَالِ إِلَى النَّارِ ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾^(٧) أَي: جَزَاءُهَا مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ^(٨). ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ زِنَةَ نَمْلَةٍ صَغِيرَةٍ ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾^(٩) يَرِ ثَوَابَهُ. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١٠) يَرِ جَزَاءَهُ^(١١).

(١) سورة الزلزلة: ثمان آيات عند عدد من علماء العدد وتسع آيات عند باقيهم، والمختلف فيه لفظ: ﴿أَشْتَاتًا﴾ فمن عده آية كانت عدد الآيات عنده تسعا، ومن لم يعده كان عدد الآيات عنده ثمانية. [مقدمات في علم القراءات (ص: ٢١٨)].

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ قال: «أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمٍ كَذَا وَكَذَا، فَهَئِهِ أَخْبَارُهَا». أخرجه أحمد (٨٦٥٠).

(٣) ﴿لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ﴾ يعني: يصدر عن أشتات فيرون أعمالهم، يريهم الله تعالى أعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر... يحاسبه الله عز وجل، أما المؤمن فإن الله تعالى يخلو به وحده ويقرره بذنوبه ويقول: «تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ يَقُولُ: أَعْرِفُ، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفْ - مَرَّتَيْنِ - فَيَقُولُ: سَتَرْتُهَا فِي الدُّنْيَا وَأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، ثُمَّ تَطْوِي صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ أَوِ الْكُفَّارُ فَيُنَادَى عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]». أخرجه البخاري (٤٦٨٥)، ومسلم (٢٧٦٨). [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٨٦)].

(٤) الرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء. وذكر الله مثقال الذرة تنبيها على ما هو أكثر منه من طريق الأولى، ... وهذه الآية هي في المؤمنين، لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته، إذ لم تقبل منه. واستدل أهل السنة بهذه الآية: أنه لا يخلد مؤمن في النار، لأنه إذا خلد لم ير ثوابا على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات. ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ هذا على عموميه في حق الكافر، وأما المؤمنون فلا يجازون بذنوبهم إلا بستة شروط: وهي أن تكون ذنوبهم كبائر، وأن يموتوا قبل التوبة منها، وألا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها، وألا يشفع فيهم، وألا يكون ممن استحق المغفرة بعمل كاهل بدر، وألا يعفو الله عنهم فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. [ابن جزي (٢/ ٥٠٤)].

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَادِيَّاتِ﴾ الْخَيْلُ تَعْدُو فِي الْغَزْوِ وَتَضْبَحُ ﴿ضَبْحًا ١﴾ هُوَ صَوْتُ أَجَوَافِهَا إِذَا عَدَتْ. ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ الْخَيْلُ تُورِي النَّارَ ﴿قَدْحًا ٢﴾ بِحَوَافِرِهَا، إِذَا سَارَتْ فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الْحِجَارَةِ بِاللَّيْلِ. ﴿فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا ٣﴾ الْخَيْلُ تُغِيرُ عَلَى الْعَدُوِّ وَقْتَ الصُّبْحِ بِإِغَارَةِ أَصْحَابِهَا. ﴿فَأَتَرْنَ ٤﴾ هِيَجْنَ ﴿بِهِ ٥﴾ بِمَكَانٍ عَدُوِهِنَّ أَوْ بِذَلِكَ الْوَقْتِ ﴿نَقَعًا ٦﴾ غُبَارًا بِشِدَّةِ حَرَكَتِهِنَّ. ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ ٧﴾ بِالنَّقَعِ ﴿جَمْعًا ٨﴾ مِنْ الْعَدُوِّ، أَيُّ: صِرْنَ وَسَطَهُ، وَعُطِفَ الْفِعْلُ عَلَى الْإِسْمِ؛ لِأَنَّهُ فِي تَأْوِيلِ الْفِعْلِ، أَيُّ: وَاللَّاتِي عَدُونٌ فَأَوْرَيْنَ فَأَغْرَنَ. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ الْكَافِرَ ﴿لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٩﴾ لَكُفُورٌ يَجْحَدُ نِعْمَتَهُ تَعَالَى. ﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ ١٠﴾ أَيُّ: كُنُودُهُ ﴿لَشَهِيدٌ ١١﴾ يَشْهَدُ عَلَى نَفْسِهِ بِصُنْعِهِ. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ ١٢﴾ أَيُّ: أَلْمَالِ ﴿لَشَدِيدٌ ١٣﴾ أَيُّ: لَشَدِيدُ الْحُبِّ لَهُ، فَيُبْخَلُ بِهِ. ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ ١٤﴾ أُثِيرَ وَأُخْرِجَ ﴿مَا فِي الْقُبُورِ ١٥﴾ مِنْ الْمَوْتَى، أَيُّ: بُعْثُوا ﴿وَحُصِّلَ ١٦﴾ يُبَيَّنُّ وَأُفْرِزَ ﴿مَا فِي الصُّدُورِ ١٧﴾ الْقُلُوبِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ ١٨. ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ١٩﴾ لَعَالِمٌ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ، أُعِيدَ الضَّمِيرُ جَمْعًا نَظْرًا لِمَعْنَى الْإِنْسَانِ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ دَلَّتْ عَلَى مَفْعُولٍ ﴿يَعْلَمُ ٢٠﴾، أَيُّ: إِنَّا نُجَازِيهِ وَقْتَ مَا ذُكِرَ، وَتَعَلَّقَ «خَبِيرٌ» بِـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وَهُوَ تَعَالَى خَبِيرٌ دَائِمًا؛ لِأَنَّهُ يَوْمٌ أَلْمُجَازَاةُ.

(١) أي: ما في القلوب من النيات وأعمال القلب؛ كالتوكل، والرغبة، والرغبة، والخوف، والرجاء، وما أشبه ذلك. وهنا جعل الله عز وجل العمدة ما في الصدور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾ [الطارق: ٩-١٠]؛ لِأَنَّهُ فِي الدُّنْيَا يَعَامَلُ النَّاسَ مَعَامِلَةَ الظَّاهِرِ، حَتَّى الْمُنَافِقِ يَعَامَلُ كَمَا يَعَامَلُ الْمُسْلِمَ حَقًّا، لَكِنْ فِي الْآخِرَةِ الْعَمَلُ عَلَى مَا فِي الْقَلْبِ، وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَنِي بِقُلُوبِنَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، قَبْلَ الْأَعْمَالِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمَدَارُ، وَهُوَ الَّذِي سَيَكُونُ الْجِزَاءُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ١٦﴾ [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٢٩٤)]. ونص على الصدور هنا، مع أن المراد القلوب؛ لِأَنَّهَا هِيَ مَنَاطُ الْعَمَلِ وَمَعْقَدُ النِّيَّةِ. والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية، كما في حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧). وحديث: «أَلَا وَإنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩). ومما يدل على أن المراد بالصدور ما فيها هو القلب. قوله: ﴿فَاتَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ١٧﴾ [الحج: ٤٦]. [عطية سالم (٩/٦٨)].

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

مَكِّيَّةٌ، إِحْدَى عَشْرَةَ آيَةً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْقَارِعَةُ ١﴾ الْقِيَامَةُ الَّتِي تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا^(١). ﴿مَا الْقَارِعَةُ ٢﴾ تَهْوِيلٌ لِسَانِهَا، وَهَمَّا مُبْتَدَأٌ وَخَبْرٌ، خَبْرُ ﴿الْقَارِعَةُ ٣﴾. ﴿وَمَا أَذْرَكَ ٤﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا الْقَارِعَةُ ٥﴾ زِيَادَةُ تَهْوِيلٍ لَهَا، وَ ﴿مَا ٦﴾ الْأُولَى مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهَا خَبْرُهُ، وَ ﴿مَا ٧﴾ الثَّانِيَةُ وَخَبْرُهَا فِي مَحَلِّ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ «أَدْرَى». ﴿يَوْمَ ٨﴾ نَاصِبُهُ دَلٌّ عَلَيْهِ ﴿الْقَارِعَةُ ٩﴾، أَيُّ: تَقْرَعُ. ﴿يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ١٠﴾ كَغَوَاةِ الْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ، يَمْوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ لِلْحِيرَةِ، إِلَى أَنْ يُدْعَوْا لِلْحِسَابِ^(٢). ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ١١﴾ كَالصُّوفِ الْمُنْدُوفِ فِي خِفَّةِ سَيْرِهَا، حَتَّى تَسْتَوِيَ مَعَ الْأَرْضِ^(٣). ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ١٢﴾ بِأَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ عَلَى سَيِّئَاتِهِ. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ١٣﴾ فِي الْجَنَّةِ، أَيُّ: ذَاتِ رِضَى بِأَنْ يَرْضَاهَا، أَيُّ: مَرْضِيَّةٌ لَهُ. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ١٤﴾ بِأَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عَلَى حَسَنَاتِهِ. ﴿فَأُمُّهُ ١٥﴾ فَمَسْكَنُهُ^(٤) ﴿هَآوِيَةً ١٦﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا هِيَ^(٥) ﴿أَيُّ: مَا هَآوِيَةٌ؟ هِيَ: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ ١٧﴾ شَدِيدَةُ الْحَرَارَةِ، وَهَاءُ ﴿هِيَ ١٨﴾ لِلْسَّكْتِ ثُبُتٌ وَصَلًا وَوَقْفًا، وَفِي قِرَاءَةٍ: تُحَذَفُ وَصَلًا.

(١) قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة. سميت بها لأنها تفرع القلوب والأسماع بفنون الأفراع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض بالزلزال والتبديل، والجبال بالدك والنسف. [القاسمي (٥٣١/٩)].

(٢) الفراش هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض، ويدور حول المصباح. والمبثوث هو المنتشر المفترق. شبه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذلتهم... قال بعض العلماء: الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث، لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر؛ فيكونون حيث ﴿كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]. لأن الجراد يقصد إلى جهة واحدة. [ابن جزي (٥٠٧/٢)].

(٣) انظر مراحل إزالة الجبال التعليق على آية (٤٧) من سورة الكهف.

(٤) قيل: معناه: فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم. وعبر عنه بأمه، يعني: دماغه، روي نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنه، وعكرمة، وأبي صالح، وقتادة... وقيل: معناه: ﴿فَأُمُّهُ﴾ التي يرجع إليها، ويصير في المعاد إليها ﴿هَآوِيَةً﴾ وهي اسم من أسماء النار. قال ابن جرير: وإنما قيل: للهاوية أمه؛ لأنه لا مأوى له غيرها. وقال ابن زيد: الهاوية: النار، هي أمه ومأواه التي يرجع إليها وبأوي إليها، وقرأ: ﴿وَمَا وَلَهُمْ النَّارُ﴾ [آل عمران: ١٥١]. [ابن كثير (٤٦٨/٨)].

سُورَةُ التَّكَاثُرِ مَكِّيَّةٌ، ثَمَانُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْهَلِكُمْ﴾ شَغَلَكُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﴿التَّكَاثُرُ﴾ التَّفَاخُرُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالرِّجَالِ^(١). ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٢) بَانَ مُتُّمْ فَدُفِنْتُمْ فِيهَا، أَوْ عَدَدْتُمْ أَلْمُوتَى تَكَاثُرًا^(٣). ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٤) سُوءَ عَاقِبَةِ تَفَاخُرِكُمْ عِنْدَ النَّزْعِ ثُمَّ فِي الْقَبْرِ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾^(٥) كَلَّا حَقًّا ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾^(٦) عِلْمًا يَقِينًا عَاقِبَةَ التَّفَاخُرِ مَا اسْتَعْلَمْتُمْ بِهِ. ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(٧) النَّارَ، جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَحُذِفَ مِنْهُ لَمْ أَلْفَعْلُ وَعَيْنُهُ وَالْقَيْتَ حَرَكْتُهَا عَلَى الرَّاءِ. ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تَأْكِيدٌ ﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾^(٨) مَصْدَرٌ؛ لِأَنَّ «رَأَى» وَ«عَايَنَ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ^(٩). ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ﴾ حُذِفَ مِنْهُ نُونُ الرَّفْعِ لِتَوَالِي النُّونَاتِ وَوَاوُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ لِاتِّقَاءِ السَّاكِنِينَ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَوْمَ رُؤْيَيْهَا ﴿عَنِ النَّعِيمِ﴾^(١٠) مَا أُلْتَدَّ بِهِ فِي الدُّنْيَا مِنَ الصَّحَّةِ وَالْفَرَاغِ وَالْأَمْنِ وَالْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(١) الخطاب هنا لجميع الأمة، إلا أنه يخصص بمن شغلته أمور الآخرة عن أمور الدنيا وهم قليل، وإنما نقول: هم قليل؛ لأنه ثبت في الصحيحين أن الله تبارك وتعالى يقول يوم القيامة: «يَا آدَمُ. يَقُولُ: لَيْتَكَ وَسَعْدَيْكَ. يَقُولُ: أَخْرِجْ مِنْ دُرِّيَّتِكَ بَعَثًا إِلَى النَّارِ أَوْ بَعَثَ النَّارِ. يَقُولُ: يَا رَبِّ، وَمَا بَعَثَ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعُ مِئَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ». أخرجه البخاري (٤٧٤١)، ومسلم (٢٢٢) ... إذا فالخطاب بالعموم في مثل هذه الآية جار على أصله؛ لأن الواحد من الألف ليس بشيء بالنسبة إليه. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٠١)].

(٢) والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعود، فقال: «لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فقال: قلت: طهور؟ بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيده القبور، قال: «فَنَعَمْ إِذَا». أخرجه البخاري (٥٦٦٢). [ابن كثير (٤٧٣/٨)]. قال الشهاب: وفيها إشارة إلى تحقق البعث؛ لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره، ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها: بعثوا ورب الكعبة، وقال ابن عبد العزيز: لا بد لمن زار، أن يرجع إلى جنة أو نار. وسمى بعض البلغاء المقبرة دهليز الآخرة. [الفاسمي (٥٣٣/٩)].

(٣) المراتب ثلاث، علم يقين يحصل عن الخبر، ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر، حتى يصير العلم به عين يقين، ثم يباشره ويلاسه فيصير حق يقين، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين، فإذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف، وبرزت الجحيم للغاوين، وشاهدوهما عيانا، كان ذلك عين يقين، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾^(١١) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ^(١٢) فإذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فذلك حق اليقين. [مدارج السالكين لابن القيم (١١٩/٢)].

سُورَةُ الْعَصْرِ
مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ أَلَدَّهْرٍ أَوْ مَا بَعْدَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ أَوْ صَلَاةَ الْعَصْرِ^(١). ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٍ خُسْرٍ ٢﴾
فِي تِجَارَتِهِ^(٢). ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ٣﴾ فَلَيَسِّرْهُ لَكُمْ فَسُرَّانٍ ﴿وَتَوَاصَوْا ٤﴾ أَوْصَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا
﴿بِالْحَقِّ ٥﴾ أَيِ: الْإِيمَانِ ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٦﴾ عَلَى الطَّاعَةِ وَعَنِ الْمَعْصِيَةِ^(٣).

(١) العصر هو الزمان، وهذا هو الأصح، أقسم الله به لما يقع فيه من اختلاف الأحوال، وتقلبات الأمور، ومداولة الأيام بين الناس، وغير ذلك مما هو مشاهد في الحاضر ومتحدث عنه في الغابر، فالعصر هو الزمان الذي يعيشه الخلق، وتختلف أوقاته شدة ورخاء، وحرًا وسلمًا، وصحة ومرضا، وعملا صالحا وعملا سيئا، إلى غير ذلك. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٠٧)].

(٢) معناه: لفي غبن، ويقال: في شر، ويقال: في هلاك، والخسران هو ذهاب رأس المال، ورأس مال آدمي هو عمره ونفسه، فإذا كفر فقد ذهب رأس ماله، والإنسان هو الكافر. [السمعي (٢٧٨/٦)]. واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشغولين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها، فكانوا في الخسران والبوار، فإن قيل: إنه تعالى قال في سورة التين: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ١﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ٢﴾ [التين: ٤-٥] فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال، والانتهاى إلى النقصان، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاى إلى الكمال، فكيف وجه الجمع؟ قلنا: المذكور في سورة التين أحوال البدن، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين. [الرازي (٢٨٠/٣٢)].

(٣) التواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه. والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم. [السعدي (ص: ٩٣٤)]. قال الشافعي رحمه الله: لو تدبر الناس هذه السورة، لوسعتهم. [ابن كثير (٤٧٩/٨)].

سُورَةُ الْهُمَزَةِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، تَسَعُ آيَاتٌ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ﴾ كَلِمَةٌ عَذَابٍ، أَوْ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ﴾ (١) أَي: كَثِيرِ الْهُمَزِ وَاللَّمَزِ، أَي: الْغَيْبَةِ، نَزَلَتْ فِيْمَنْ كَانَ يَغْتَابُ النَّبِيَّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ، كَأُمَيَّةَ بْنِ خَلْفٍ وَالْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةَ وَغَيْرَهُمَا^(١). ﴿الَّذِي جَمَعَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ﴿مَا لَا وَعَدَدَهُ﴾ (٢) أَحْصَاهُ وَجَعَلَهُ عُدَّةً لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ. ﴿يَحْسَبُ﴾ لِجَهْلِهِ ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٣) جَعَلَهُ خَالِدًا لَا يَمُوتُ. ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ ﴿لِيُثْبَذْنَ﴾ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ، أَي: لِيُطْرَحَنَّ ﴿فِي الْحُطْمَةِ﴾ (٤) الَّتِي تَحْطُمُ كُلُّ مَا أُلْقِيَ فِيهَا. ﴿وَمَا أَذْرَنَكَ﴾ أَعْلَمَكَ ﴿مَا الْحُطْمَةُ﴾ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿الْمُسْعَرَةُ﴾. ﴿الَّتِي تَطْلُعُ﴾ تُشْرِفُ ﴿عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ (٦) الْقُلُوبِ فَتَحْرِقُهَا، وَالْمَهَا أَشَدُّ مِنْ أَلَمِ غَيْرِهَا لِلطُّفْهَاءِ^(٦). ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ﴾ جَمَعَ الضَّمِيرِ رِعَايَةً لِمَعْنَى «كُلُّ» ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾ (٨) بِالْهُمَزِ وَبِالْوَاوِ بَدَلُهُ: مُطَبَّقَةٌ. ﴿فِي عُمْدٍ﴾ بِضَمِّ الْحَرْفَيْنِ وَبِفَتْحِهِمَا ﴿مُمَدَّدَةٌ﴾ (٩) صِفَةٌ لِمَا قَبْلَهُ، فَتَكُونُ النَّارُ دَاخِلَ الْعَمَدِ^(٧).

(١) قال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: «الهمة» الذي يغتاب الرجل في وجهه، و«اللمزة» الذي يغتابه من خلفه... وعن مجاهد أيضاً: أن «الهمة» الذي يهزم الناس بيده، و«اللمزة» الذي يلزمهم بلسانه. وقال سفيان الثوري: يهزمهم بلسانه ويلزمهم بعينه، وقال ابن كيسان: «الهمة» الذي يؤدي جلساءه بسوء اللفظ، و«اللمزة» الذي يكسر عينه على جلسيه ويشير بيده وبرأسه ويحاجبه... وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ويدخل في ذلك من يحاكي الناس في أقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منه... والآية تعم كل من كان متصفاً بذلك ولا ينافيه نزولها على سبب خاص، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. [صديق حسن (١٥ / ٣٨١)].

(٢) قال الزمخشري: يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم، وهي أوساط القلوب. ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد، ولا أشد تألماً منه بأذى يمسه، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه. ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها موطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة. [القاسمي (٩ / ٥٤٠)].

(٣) صفة لمؤصدة، أو حال من الضمير المجرور، وإلى الوجهين أشار الزمخشري بقوله: والمعنى أنه يؤكد بأسهم من الخروج، وتيقنهم بحبس الأبد، فتؤصد عليهم الأبواب، وتمدد على العمدة، استيثاقاً في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة، موثقتين في عمدة ممددة، مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص. و«المقاطر» جمع مقطرة بالفتح، وهي جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم، وتقطر أي: يجعل كل بجنب آخر. [القاسمي (٩ / ٥٤٠)].

سُورَةُ الْفِيلِ مَكِّيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ اسْتَفْهَامٌ تَعَجُّبٌ، أَي: اِعْجَبْ^(١) ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ هُوَ مَحْمُودٌ، وَأَصْحَابُهُ أَبْرَهَةُ مَلِكَ الْيَمَنِ وَجَيْشُهُ، بَنَى بِصَنْعَاءَ كَنِيسَةً لِيَصْرِفَ إِلَيْهَا الْحَاجَّ عَنْ مَكَّةَ، فَأَخَذَتْ رَجُلٌ مِنْ كِنَانَةَ فِيهَا، وَلَطَخَ قَبْلَتَهَا بِالْعَذْرَةِ احْتِقَارًا بِهَا، فَحَلَفَ أَبْرَهَةُ لِيَهْدِمَنَّ الْكَعْبَةَ، فَجَاءَ مَكَّةَ بِجَيْشِهِ عَلَى أَفْيَالِ الْيَمَنِ مُقَدِّمًا مَحْمُودٌ، فَحِينَ تَوَجَّهُوا لِهَدْمِ الْكَعْبَةِ أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا قَصَّه فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ أَي: جَعَلَ ﴿كَيْدَهُمْ﴾ فِي هَدْمِ الْكَعْبَةِ ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ ﴿خَسَارَةٍ وَهَلَاكِ﴾. ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جَمَاعَاتٍ جَمَاعَاتٍ، قِيلَ: لَا وَاحِدَ لَهُ كـ «أَسَاطِيرَ»، وَقِيلَ: وَاحِدُهُ «إِبُولٌ» أَوْ «إِبَالٌ» أَوْ «إِبِيلٌ» كَعَجُولٍ وَمِفْتَاحٍ وَسَكِينٍ^(٢). ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ طِينٍ مَطْبُوعٍ^(٣). ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ﴾ كَوَرَقِ زَرْعٍ أَكَلَتْهُ الدَّوَابُّ وَدَاسَتْهُ وَأَفْتَتْهُ، أَي: أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ وَاحِدٍ بِحَجَرِهِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهِ اسْمُهُ، وَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ الْعَدَسَةِ وَأَصْغَرُ مِنَ الْحِمِّصَةِ، يَخْرِقُ الْبَيْضَةَ وَالرَّجُلَ وَالْفِيلَ وَيَصِلُ إِلَى الْأَرْضِ، وَكَانَ هَذَا عَامَ مَوْلِدِ النَّبِيِّ ﷺ.

(١) الاستفهام بتقرير رؤيته ﷺ بإنكار عدمها، والمراد بالرؤية هنا رؤية القلب، وهي العلم عبر عنه بالرؤية لكونه علماً ضرورياً مساوياً في القوة والجلالة للمشاهدة والعيان، وحذفت الألف من ﴿تَرَ﴾ للجازم، قال الفراء المعنى: ألم تخبر، وقال الزجاج ألم تعلم. وهو تعجيب له ﷺ بما فعله الله ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة. [صديق حسن (١٥/٣٨٩)].

(٢) كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً. وقيل: أقاطيع كالإبل المؤبلة. قال أبو عبيدة. أبابيل جماعات في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا. قال الفراء: لا واحد لها من لفظها. وقيل: واحدها إبالة. وقال الكسائي: إني كنت أسمع النحويين يقولون: واحدها أبول، مثل عجول وعجاجيل. وقيل: واحدها من لفظها إيل. [البغوي (٨/٥٤٠)].

(٣) من طين متحجر معرب «سِنَكِ كُلٌّ»، وقيل: من السجل وهو الدلو الكبير، أو من الإسجال وهو الإرسال، أو من السجل ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون. [البياضوي (٥/٣٣٩)].

(٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ولد النبي ﷺ عام الفيل، قال القرطبي: أي قبل مولده لخمسين يوماً، قال الخازن: وهذا هو القول الأصح، فإنهم يقولون ولد عام الفيل، ويجعلونه تاريخاً لمولده ﷺ. وعن قيس بن محرم قال ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل. [صديق حسن (١٥/٣٩٣)].

سُورَةُ قُرَيْشٍ
مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ ۝١ إِيْلَافِهِمْ﴾ تَأْكِيدٌ، وَهُوَ مَصْدَرُ «أَلَفَ» بِالْمَدِّ ١ ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ إِلَى الْيَمَنِ ﴿و﴾ رِحْلَةَ «الصَّيْفِ» ٢ ﴿إِلَى الشَّامِ فِي كُلِّ عَامٍ، يَسْتَعِينُونَ بِالرَّحْلَتَيْنِ لِلتَّجَارَةِ عَلَى الْمَقَامِ بِمَكَّةَ لِحِدْمَةِ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ فَخْرُهُمْ وَهُمْ وَلَدُ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ. ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ تَعَلَّقَ بِهِ ﴿لَا إِلَافَ﴾ وَالْفَاءُ زَائِدَةٌ ٣ ﴿رَبِّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٢﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ ٤ ﴿أَيَّ: مِنْ أَجَلِهِ﴾ وَءَامَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ ٥ ﴿أَيَّ: مِنْ أَجَلِهِ، وَكَانَ يُصِيبُهُمْ الْجُوعُ لِعَدَمِ الزَّرْعِ بِمَكَّةَ، وَخَافُوا جَيْشَ الْفِيلِ ٣﴾.

(١) الإيلاف: قيل من التأليف، إذ كانوا في رحلتهم يألفون الملوك في الشام واليمن، أو كانوا هم في أنفسهم مؤلفين ومجمعين، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم، ... وقيل: من الإلف والتعود، أي: ألفوا الرحلتين. فللابقاء لهم على ما ألفوه.. [عطية سالم (٩/ ١١٠)].

(٢) شكراله على هذه النعمة، والفاء هذه إما أن تكون فاء السببية؛ أي: فبسبب هاتين الرحلتين ليعبدوا رب هذا البيت، أو تكون فاء التفرع، أي: فبهذه النعم العظيمة يجب عليهم أن يعبدوا الله. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٢٢)].

(٣) معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجذب لولا لطف الله تعالى وأن جعلها بدعوة إبراهيم عليه السلام تجبي إليها ثمرات كل شيء، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. [ابن عطية (٥/ ٥٢٦)]. وفي الجمع بين إطعامهم من جوع وأمنهم من خوف، نعمة عظمية لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معا، إذ لا عيش مع الجوع، ولا أمن مع الخوف، وتكمل النعمة باجتماعهما. ولذا جاء الحديث: «مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا». أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١). [عطية سالم (٩/ ١١٢)].

سُورَةُ الْمَاعُونِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ أَوْ نِصْفُهَا وَنِصْفُهَا، سِتُّ أَوْ سَبْعُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ﴿١﴾﴾ بِالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ، أَيُّ: هَلْ عَرَفْتَهُ وَإِنْ لَمْ تَعْرِفْهُ. ﴿فَذَلِكِ﴾ بِتَقْدِيرِ «هُوَ» بَعْدَ الْفَاءِ ﴿الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ أَيُّ: يَدْفَعُهُ بِعُنْفٍ عَنْ حَقِّهِ. ﴿وَلَا يَحْضُ﴾ نَفْسَهُ وَلَا غَيْرَهُ ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾﴾ أَيُّ: إِطْعَامِهِ، نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْنِ وَائِلٍ أَوْ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ^(١). ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ غَافِلُونَ يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا ^(٢). ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾﴾ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا ^(٣). ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ كَالْإِبْرَةِ وَالْفَأْسِ وَالْقَدْرِ وَالْقَصْعَةِ ^(٤).

(١) وقيل: عام لكل من كان مكذبا بيوم الدين، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب، فإذا كان منكرا للقيامة لم يترك شيئا من المشتبهات واللذات، فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي ... واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب بالدين وصفين: أحدهما: من باب الأفعال وهو قوله: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾. والثاني: من باب التروك وهو قوله: ﴿وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ ... كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثالا واحدا تنبيهيا بذكره على سائر القبائح [الرازي (٣٠٢/٣٢)].

(٢) قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: يعني المنافقين، الذين يصلون في العلانية ولا يصلون في السر. ولهذا قال: ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ أَيُّ: الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها، ثم هم عنها ساهون، إما عن فعلها بالكلية، كما قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعا، فيخرجها عن وقتها بالكلية، كما قاله مسروق، وأبو الضحى. وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا... قال عليه السلام: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَرْفُ السَّمْسُ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا». أخرجه مسلم (٦٢٢). قال عطاء بن دينار: والحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: في صلاتهم ساهون. [ابن كثير (٤٩٣/٨)].

(٣) أي: يري الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تقية، كالفاسق، يري أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال: إنه يصلي. وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس. [القرطبي (٢١٢/٢٠)].

(٤) وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس. [ابن جرير (٥١٦/٢)]. وأكثر المفسرين [على أن] الماعون اسم لما يتعاوره الناس بينهم من الدلو والفأس والقدر، وما لا يمنع كالماء والملح ... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله ﷺ عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينهم. وعنه رضي الله عنه قال: كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر والفأس وشبهه فيمنعونهم فأنزل الله ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾. [صديق حسن (٤٠٥/١٥)].

سُورَةُ الْكَوْثَرِ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ﴾ يَا مُحَمَّدُ ﴿الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، هُوَ حَوْضُهُ تَرْدُ عَلَيْهِ أُمَّتُهُ، وَالْكَوْثَرُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْقُرْآنِ وَالشَّفَاعَةِ وَنَحْوِهَا^(١). ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ صَلَاةَ عِيدِ النَّحْرِ ﴿وَأَنْحَرْ﴾ ﴿٢﴾ نُسُكَكَ^(٢). ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أَيُّ: مُبْغِضَكَ ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ﴿٣﴾ الْمُنْقَطِعُ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ، أَوِ الْمُنْقَطِعُ الْعَقِبِ، نَزَلَتْ فِي الْعَاصِي بْنِ وَاثِلٍ سَمَى النَّبِيَّ ﷺ أَبْتَرًا عِنْدَ مَوْتِ ابْنِهِ الْقَاسِمِ^(٣).

(١) هذا خطاب للنبي ﷺ، والكوثر بقاء مبالغة من الكثرة وفي تفسيره أقوال ... ولكن الصحيح أن المراد بالكوثر الحوض لما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: أتدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه الله وهو الحوض آتيه عدد نجوم السماء. [أخرجه مسلم (٤٠٠) بلفظ: «أتدرون ما الكوثر؟... نهر وعنديه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آتيه عدد النجوم»]. [ابن جرير (٥١٧/٢)].

(٢) ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر، لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات. ولأن الصلاة تتضمن خضوع القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به. [السعدي (ص: ٩٣٥)].

(٣) في هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى: أن مبغض رسول الله ﷺ هو الأقطع. فقيل: نزلت في العاص بن واثل. قال لقريش: دعوه، فإنه أبتر لا عقب له، إذا مات استرحتم، فأنزلها الله تعالى ردا عن رسول الله ﷺ. وقد جاء مصداقها بالفعل في قوله تعالى في غزوة بدر: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُجِثَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧] فقتل صناديد قريش، وصدق الوعيد فيهم. ومثله عموم قوله تعالى: ﴿فَقُطِّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]. وجاء: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]. فهي في معناها أيضا. وبقي ذكر رسول ﷺ في عقبه من آل بيته، وفي أمته كلها. كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. [عطية سالم (٩/ ١٣١)]. وأصل البتر القطع وشاع في قطع الذنب؛ وقيل لمن لا عقب له: أبتر على الاستعارة، شبه الولد والأثر الباقي بالذنب لكونه خلفه فكأنه بعده... وحمل ﴿شَانِئَكَ﴾ على الجنس هو الظاهر... والجمهور على نزولها في العاص بن واثل، وأيا ما كان فلا ريب في ظهور عموم الحكم والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام؛ فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم فصل وانحر خالصا لوجه ربك ولا تكثر بقول الشائئ الكريه؛ فإنه هو الأبتر لا أنت، ... وفي التعبير بالأبتر دون المبتور على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة. [الآلوسي (١٥/ ٤٨١)].

سُورَةُ الْكَافِرُونَ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتُّ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ﴾ فِي الْحَالِ ﴿مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ مِنْ الْأَصْنَامِ. ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ﴾ فِي الْحَالِ ﴿مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ. ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ﴾ فِي الْإِسْتِقْبَالِ ﴿مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ فِي الْإِسْتِقْبَالِ ﴿مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ عِلْمَ اللَّهِ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَإِطْلَاقُ «مَا» عَلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ. ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الشَّرْكَ ﴿وَلِي دِينِ ﴿٦﴾﴾ الْإِسْلَامُ، وَهَذَا قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْحَرْبِ، وَحَذَفَ يَاءُ الْإِضَافَةِ الْقُرَاءَةُ السَّبْعَةُ وَفَقًا وَوَصْلًا، وَاثْبَتَهَا يَعْقُوبُ فِي الْحَالَيْنِ^(١).

(١) هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمل به المشركون، وهي آمرة بالإخلاص فيه، فقوله: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ﴾ شمل كل كافر على وجه الأرض، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفار قريش. وقيل: إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة أو ثنائهم سنة، ويعبدون معبوده سنة، فأنزل الله هذه السورة، وأمر رسوله ﷺ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ... فالرسول وأتباعه يعبدون الله بما شرعه؛ ولهذا كان كلمة الإسلام «لا إله إلا الله محمد رسول الله» أي: لا معبود إلا الله ولا طريق إليه إلا بما جاء به الرسول ﷺ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله؛ ولهذا قال لهم الرسول ﷺ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وقال: ﴿لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]. هذا قول [والثاني: ما حكاه البخاري وغيره من المفسرين أن المراد: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾﴾ في الماضي، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾﴾ في المستقبل. والثالث: أن ذلك تأكيد محض. وثم قول رابع، نصره أبو العباس بن تيمية في بعض كتبه، وهو أن المراد بقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية، ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية؛ لأن النفي بالجملة الاسمية أكد فكانه نفي الفعل، وكونه قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً. وهو قول حسن أيضاً، والله أعلم. [ابن كثير (٥٠٧/٨)]. وقد غلط في السورة خلأق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ فيها. وهذه السورة أخلصت للتوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص، والآية اقتضت البراءة المحضة وإن ما أنتم عليه من الدين لا أوافقكم عليه فإنه دين باطل، فهو مختص بكم لا تشرككم فيه، ولا تشركونا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم. [بدائع الفوائد لابن القيم (٢٤٧/١)].

سُورَةُ النَّصْرِ مَدَنِيَّةٌ، ثَلَاثُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَنَبِيُّهُ ﷺ عَلَى أَعْدَائِهِ﴾ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ فَتَحَ مَكَّةَ. ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ أَيِ: الْإِسْلَامِ ﴿أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿جَمَاعَاتٍ، بَعْدَ مَا كَانَ يَدْخُلُ فِيهِ وَاحِدٌ وَاحِدٌ وَذَلِكَ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ، جَاءَهُ الْعَرَبُ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ طَائِعِينَ﴾. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أَيِ: مُتَلَبِّسًا بِحَمْدِهِ ﴿وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ٣ ﴿وَكَانَ ﷺ بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ، وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ»، وَعَلِمَ بِهَا أَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ﴾، وَكَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فِي رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ، وَتُوفِّي ﷺ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ عَشْرِ.

(١) هذا الفتح سماه الله تعالى فتحا مبينا فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] أي: بينا عظيما واضحا. ولما حصل عرف العرب بل عرف الناس جميعا أن العاقبة لمحمد ﷺ، وأن دور قريش وأتباعها قد انقضى، فصار الناس ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ أَيِ: جماعات، بعدما كانوا يدخلون فيه أفرادا، ولا يدخل فيه الإنسان في بعض الأحيان إلا مخفيا، صاروا يدخلون أفواجا في دين الله، وصارت الوفود ترد على النبي ﷺ في المدينة من كل جانب، حتى سمي العام التاسع عام الوفود. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٤٠)].

(٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثُر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه. قالت: فقلت: يا رسول الله، أراك تكثُر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه فقال: «خَبَرَنِي رَجُلٌ أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا﴾ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾، فَتَحَ مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتِ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ٢ ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ٣. أخرجه مسلم (٤٨٤). [قال عطية سالم (١٤٢/٩): في هذه الآية دلالة الإيماء، كما قالوا: ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر رضي الله عنه مع كبار المهاجرين والأنصار، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم، ويرى في وجوههم، وسألوه وقالوا: إن لنا أولادا في سنه، فقال: إنه من حيث علمتم. وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر، قال ابن عباس: فعلمت أنه ما دعاني إلا لأمر، فسألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السورة. فقالوا: إنها بشرى بالفتح والنصر، فقال: ما تقول أنت يا ابن عباس؟ قال: فقلت، لا والله، إنها نعت إلينا رسول الله ﷺ وهو بين أظهرنا. فقال عمر: وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت، أي: أنه ﷺ جاء لمهمة، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجا، وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة. فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله، وهو مأخذ في غاية الدقة، وبيان لقول علي رضي الله عنه: أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله.

سُورَةُ الْمَسَدِ
مَكِّيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمَّا دَعَا النَّبِيُّ ﷺ قَوْمَهُ وَقَالَ: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ: «تَبَّ لَكَ أَلْهَذَا دَعْوَتَنَا»، نَزَلَ: ﴿تَبَّتْ﴾ خَسِرَتْ ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَي: جُمْلَتُهُ، وَعَبَّرَ عَنْهَا بِالْيَدَيْنِ مَجَازًا؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ الْأَفْعَالِ تَزَاوُلَ بِهِمَا^(١)، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ دُعَاءٌ ﴿وَتَبَّ﴾ ١ ﴿خَسِرَ هُوَ، وَهَذِهِ خَبْرٌ، كَقَوْلِهِمْ: أَهْلَكَهُ اللَّهُ وَقَدْ هَلَكَ. وَلَمَّا خَوَّفَهُ النَّبِيُّ بِالْعَذَابِ، فَقَالَ: «إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ ابْنُ أَخِي حَقًّا فَإِنِّي أَفْتَدِي مِنْهُ بِمَالِي وَوَلَدِي»، نَزَلَ: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ٢ ﴿أَي: وَكَسَبُهُ، أَي: وَلَدُهُ وَ﴿أَغْنَى﴾ بِمَعْنَى: يُغْنِي. ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ٣ ﴿أَي: تَلْهَبُ وَتَوَقَّدُ، فَهِيَ مَالٌ تَكْنِيْتُهُ لِتَلْهَبَ وَجْهَهُ إِشْرَاقًا وَحُمْرَةً. ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عَطْفٌ عَلَى ضَمِيرِ «يَصْلَى» سَوَّغَهُ الْفَضْلُ بِالْمَفْعُولِ وَصِفَتِهِ، وَهِيَ أُمُّ جَمِيلٍ ﴿حَمَّالَةٌ﴾ بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ ﴿الْحَطْبِ﴾ ٤ الشَّوْكُ وَالسَّعْدَانِ، تُلْقِيهِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ ﷺ. ﴿فِي جِيدِهَا﴾ عُنُقُهَا ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ٥ ﴿أَي: لَيْفٍ^(٢)، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالٌ مِّن: ﴿حَمَّالَةٌ الْحَطْبِ﴾ الَّذِي هُوَ نَعْتُ لـ «أَمْرَأَتِهِ»، أَوْ خَبْرٌ مُّبْتَدَأٌ مُّقَدَّرٌ^(٣).

(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى: «يَا صَبَاحَةَ»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصِيبُكُمْ، أَوْ مُمَسِّسُكُمْ، أَكُتِّمُ تَصَدَّقُونِي؟» قالوا: نعم. قال: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فقال أبو لهب: أَلْهَذَا جَمَعْتَنَا؟ تَبَّ لَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخرها. أخرجه البخاري (٤٩٧٢).

(٢) وقيل: المراد باليدين نفسه، وقد يعبر باليد عن النفس كما في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]. [الشوكاني (٥/٦٢٧)].

(٣) عن مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والثوري، والسدي: ﴿حَمَّالَةٌ الْحَطْبِ﴾ كانت تمشي بالنميمة، واختاره ابن جرير. وقال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعطية الجذلي، والضحاك، وابن زيد: كانت تضع الشوك في طريق رسول الله ﷺ... والصحيح الأول، والله أعلم. [ابن كثير (٨/٥١٥)].

(٤) أي: في عنقها حبل من الليف، أي: أنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة، للإفساديين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم، بمتزلة حامل الحطب الذي في عنقه حبل خشن، يشد به ما حملة إلى عنقه، حتى يستقل به. وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة... وقد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة، ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيه؛ مطاوعة لهواه وإيثارا لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال. [القاسمي (٩/٥٦٥)].

(٥) في هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة. [السعدي (ص: ٩٣٦)].

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، أَرْبَعٌ أَوْ خَمْسُ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، فَتَزَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝﴾ ١) فَاللَّهُ خَبَرٌ ﴿هُوَ﴾ وَأَحَدٌ بَدَلٌ مِنْهُ، أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ ٢). ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ ٢) مُبْتَدَأٌ وَخَبَرٌ، أَيِ: الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ عَلَى الدَّوَامِ ٣). ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ٤) لَانْتِفَاءِ مُجَانَسَتِهِ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٥) لَانْتِفَاءِ الْحُدُوثِ عَنْهُ ٦). ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ ٦) أَيِ: مُكَافِئًا وَمُمَاثِلًا ٧)، وَ﴿لَهُ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِ﴿كُفُوًا﴾ وَقَدْ مَّ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ مَحْطُ الْقَصْدِ بِالنَّفْيِ، وَأَخْرَجَ ﴿أَحَدٌ﴾ وَهُوَ اسْمٌ ﴿يَكُنْ﴾ عَنْ خَبَرِهَا رِعَايَةً لِلْفَاصِلَةِ.

(١) أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل. [السعدي (ص: ٩٣٧)].

(٢) المعنى الجامع لـ ﴿الصَّمَدُ﴾ هو: الكامل في صفاته، الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٤٩)].

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ هذا رد على كل من جعل لله ولدا فمنهم النصارى في قولهم: «عيسى ابن الله»، واليهود في قولهم: «عزيز ابن الله»، والعرب في قولهم: «الملائكة بنات الله»، وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد، وأوضحها أربعة أقوال: الأول: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده. والله تعالى ليس له جنس فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفة القدم فتبطل مقالة الكفار. والثاني: أن الوالد إنما يتخذ ولدا للحاجة إليه، والله لا يفتقر إلى شيء فلا يتخذ ولدا وإلى هذا أشار بقوله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]. الثالث: أن جميع الخلق عباد الله والعبودية تنافي البنوة وإلى هذا أشار بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. الرابع: أنه لا يكون له ولد إلا لمن له زوجة، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۗ﴾ [الأنعام: ١٠١]. [وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا رد على الذين قالوا: أنسب لنا ربك، وذلك أن كل مولود محدث، والله تعالى هو الأول... ولم يكن معه شيء غيره، فلا يمكن أن يكون مولودا تعالى عن ذلك. [ابن جزي (٢/ ٥٢٤)].

(٤) قد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية، وكلها تدور على معنى نفي المماثلة. فعن كعب وعطاء: لم يكن له مثل ولا عدل. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» [الشورى: ١١]. وعن مجاهد: أي: لا صاحبة له. وقد جاء نفي الكفء والمثل والند والعدل، فالكفء في هذه السورة، والمثل في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. والند في قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]. والعدل في قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. أي: يساوونه بغيره من العدل بكسر أوله، وهو أحد شقي حمل البعير على أحد التفسيرين، والآخر من العدول عنه إلى غيره. [عطية سالم (٩/ ١٥٤)].

سُورَةُ الْفَلَقِ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، خَمْسُ آيَاتٍ.

نَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ وَالَّتِي بَعْدَهَا لَمَّا سَحَرَ لَيْدُ الْيَهُودِيِّ النَّبِيَّ ﷺ، فِي وَتَرٍ بِهِ إِحْدَى عَشْرَةَ عُقْدَةً، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ بِذَلِكَ وَبِمَحَلِّهِ، فَأَحْضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ وَأَمَرَ بِالْتَّعَوُّذِ بِالسُّورَتَيْنِ، فَكَانَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً مِنْهَا انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ وَوَجَدَ خِفَّةً، حَتَّى انْحَلَّتِ الْعُقْدُ كُلُّهَا، وَقَامَ كَأَنَّمَا نَشَطَ مِنْ عُقَالٍ^(١).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١﴾ الصُّبْحِ^(٢). ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ مِنْ حَيَوَانَ مُكَلَّفٍ وَغَيْرِ مُكَلَّفٍ وَجَمَادٍ كَالسَّمِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ^(٣). ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾ أَيِ: اللَّيْلِ إِذَا أَظْلَمَ وَالْقَمَرِ إِذَا غَابَ^(٤). ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ ۝٤﴾ السَّوَاحِرِ

(١) أخرجه عبد بن حميد في المنتخب من مسنده (٢٧١)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٥٩٣٥). وأخرجه بنحوه أحمد (١٩٢٦٧)، والنسائي (٤٠٨٠). قيل وكانت مدة سحره ﷺ أربعين يوما وقيل ستة أشهر وقيل عاما قال الحافظ ابن حجر وهو المعتمد. قال الراغب تأثير السحر في النبي ﷺ لم يكن من حيث أنه نبي، وإنما كان في بدنه حيث أنه إنسان أو بشر كما كان يأكل ويتغوط ويغضب ويشتهي ويمرض فتأثيره فيه من حيث هو بشر لا من حيث هو نبي. وإنما يكون ذلك قادحا في النبوة لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع للنبوة كما أن جرحه وكسر ثنيته يوم أحد لم يقدح فيما ضمن الله له من عصمته في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكما لا اعتداد بما يقع في الإسلام من غلبة بعض المشركين على بعض النواحي فيما ذكر من كمال الإسلام في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. قال القاضي: ولا يجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحار. ومذهب أهل السنة أن السحر حق وله حقيقة ويكون بالقول والفعل، ويؤلم ويمرض ويقتل ويفرق بين الزوجين. [صديق حسن (٤٥٥/١٥)].

(٢) فيه أقوال: أحدها وهو الأظهر: أن الفلق هو الصبح، قال الله تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. والقول الثاني: أنه جميع الخلق. والقول الثالث: أنه بيت في النار، إذا فتح بابه صاح أهل جهنم من شدة حره، قاله كعب الحبر. والقول الرابع: جب في جهنم، قاله مجاهد. [السمعاني (٣٠٥/٦)].

(٣) وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها، من الشر الذي فيها. [السعدي (ص: ٩٣٧)].

(٤) الغاسق قيل: إنه الليل، وقيل: إنه القمر، والصحيح أنه عامٌ لهذا وهذا، أما كونه الليل فلأن الله تعالى قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وكما نعلم جميعاً أن الليل تكثر فيه الهوام والوحوش، فلذلك استعاذ من شر الغاسق؛ أي: الليل. وأما القمر فقد

تَنْفُثُ^(١) ﴿فِي الْعُقَدِ﴾^(٢) الَّتِي تَعْقِدُهَا فِي الْخَيْطِ تَنْفُخُ فِيهَا بِشَيْءٍ تَقُولُهُ مِنْ غَيْرِ رِيْقٍ، وَقَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ مَعَهُ، كَبَنَاتٍ لَيْبِدِ الْمَذْكُورِ^(٣). ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾^(٤) أَظْهَرَ حَسَدَهُ وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهُ، كَلَيْبِدِ الْمَذْكُورِ مِنَ الْيَهُودِ الْحَاسِدِينَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ الشَّامِلُ لَهَا ﴿مَا خَلَقَ﴾ بَعْدَهُ لِشِدَّةِ شَرِّهَا^(٥).

جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرَى عَائِشَةَ الْقَمَرَ وَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِيزِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا؛ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ». أخرجه الترمذي (٣٣٦٦). وإنما كان غاسقاً لأن سلطانها يكون في الليل. وقوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ هو معطوف على ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ من باب عطف الخاص على العام؛ لأن الغاسق من مخلوقات الله عز وجل. [ابن عثيمين تفسير جزء عم (ص: ٣٥٢)].

(١) أي: ومن شر النفوس السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها، فالنفثات صفة للنفوس واعتبر ذلك لمكان التأنيث مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانها منها. وقدر بعضهم النساء موصوفاً، والأول أولى ليشمل الرجال ويتضمن الإشارة السابقة ويطلق سبب النزول، فإن الذي سحره ﷺ كان رجلاً على المشهور ... وقيل: أعانه بعض النساء ولكون مثل ذلك من عمل النساء وكيدهن غلب المؤنث على المذكر هنا، وهو جائز على ما فصله الخفاجي في شرح درة الغواص. [الآلوسي (١٥/ ٥٢٠)].

(٢) النفثات هن السواحر، أي: وأعوذ برب الفلق من شر النفوس النفثات أو النساء النفثات والنفث النفخ كما يفعل ذلك من يرقى ويسحر، قيل: مع ريق، وقيل: بدون ريق، وهو دليل بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره. والعقد جمع عقدة وذلك أنهم كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها. [صديق حسن (١٥/ ٤٦٠)].

(٣) الحسد: تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ومعنى ﴿إِذَا حَسَدَ﴾: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه وحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، ... ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله ﷺ إلى الاستعاذة من شر كل مخلوقاته على العموم، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجها تحت العموم لزيادة شره ومزيد ضرره وهو «الغاسق والنفثات والحاسد»، فكان هؤلاء لما فيهم من مزيد الشر حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر، وختم بالحسد ليعلم أنه أشد وأشر، وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس وفي الأرض من قاييل، وإنما عرّف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه لأن كل نفثة شريرة فلذا عرفت النفثات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر، إنما يكون في بعض دون بعض، وكذلك كل حاسد لا يضر، وربما حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات، ذكره النسفي في المدارك. وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال: نفس ابن آدم وعينه. [صديق حسن (١٥/ ٤٦١)]. والحسد خلق مذموم طبعاً وشرعاً، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ». أخرجه ابن ماجه (٤٢١٠). ثم إن الحسد على درجات. الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به. الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها رجاء انتقالها إليه. الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة. والحاسد يضر نفسه ثلاث مضررات: أحدها: اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام. الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى، فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فعله. الثالثة: تألم قلبه من كثرة همه وغمه. [ابن جزي (٢/ ٥٢٧)].

سُورَةُ النَّاسِ مَكِّيَّةٌ أَوْ مَدَنِيَّةٌ، سِتُّ آيَاتٍ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ١﴾ خَالِقِهِمْ وَمَالِكِهِمْ، خُصُّوا بِالذِّكْرِ تَشْرِيفًا لَهُمْ، وَمُنَاسَبَةً لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْمَوْسُوسِ فِي صُدُورِهِمْ. ﴿مَلِكِ النَّاسِ ٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ٣ ﴿بَدَلَانِ أَوْ صِفَتَانِ أَوْ عَطْفًا بَيَانٍ، وَأَظْهَرَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ فِيهِمَا زِيَادَةً لِلْبَيَانِ ٤﴾. ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ الشَّيْطَانِ سُمِّيَ بِالْحَدَثِ لِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِهِ لَهُ ﴿الْخَنَّاسِ ٥﴾ لِأَنَّهُ يَخْنُسُ: يَتَأَخَّرُ عَنِ الْقَلْبِ كُلَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ ٦. ﴿الَّذِي يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ٧﴾ قُلُوبِهِمْ إِذَا غَفَلُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ. ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ٨﴾ بَيَانٌ لِلشَّيْطَانِ الْمَوْسُوسِ أَنَّهُ جِنِّي وَإِنْسِي، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]، أَوْ ﴿مِنَ الْجِنَّةِ﴾ بَيَانٌ لَهُ، ﴿وَالنَّاسِ﴾ عَطْفٌ عَلَى الْوَسْوَاسِ، وَعَلَى كُلِّ شَمَلٍ شَرٍّ لَبِيدٍ وَبَنَاتِهِ الْمَذْكُورِينَ، وَاعْتِرَاضُ الْأَوَّلِ بِأَنَّ النَّاسَ لَا يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِهِمْ النَّاسُ إِنَّمَا يُوسَّوْسُ فِي صُدُورِهِمْ الْجِنُّ، وَأُجِيبَ بِأَنَّ النَّاسَ يُوسَّوْسُونَ أَيْضًا بِمَعْنَى يَلْقَى بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ ثُمَّ تَصِلُ وَسْوَستُهُمْ إِلَى الْقَلْبِ، وَتَثْبُتُ فِيهِ بِالطَّرِيقِ الْمُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ ٧.

(١) هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل: الربوبية، والملك، والإلهية ... فأمر المستعيز أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات، من شر الوسواس الخناس، وهو الشيطان الموكل بالإنسان، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش، ... وقد ثبت في الصحيح أنه: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا قَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينَةٌ». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ، فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ». أخرجه مسلم (٢٨١٤). وثبت في الصحيح، عن أنس في قصة زيارة صفية النبي ﷺ وهو معتكف، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها، فلقه رجلان من الأنصار، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا، فقال رسول الله: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُبَيْ». فقالا سبحان الله، يا رسول الله. فقال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا»، أو قال: «شَرًّا». أخرجه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٤). [ابن كثير (٥٣٩/٨)].

(٢) لا يخفى ما بين هذين الوصفين اللذين وصف بهما هذا اللعين الخبيث من التنافي، لأن الوسواس كثير الوسوسة ليضل بها الناس، والخناس كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس. والجواب أن لكل مقام مقالا، فهو وسواس عند غفلة العبد عن ذكر ربه، خناس عند ذكر العبد ربه تعالى، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النحل: ٩٩]. [دفع إيهام الاضطراب للشقيطي (ص: ٣٨٧)].

(٣) قال ابن تيمية: و«الوسوسة» من جنس «الوشوشة» بالشين المعجمة، يقال: فلان يوسوس فلانا، وقد وشوشته إذا حدثه سرا في أذنه،

وكذلك الوسوسة، ومنه وسوسة الحلي، لكن هو بالسین المهملة، أخص... وفي الآية بيان للذي يوسوس على أنه ضربان: ضرب من الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم، وإنما نجد في أنفسنا أثرا ينسب إليهم، وضرب من الإنس كالمضللين من أفراد الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وإيحاءهم هو وسوستهم. قال ابن تيمية: فإن قيل: فإن كان أصل الشر كله من الوسواس الخناس، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس، فإنه تابع لوسواس الجن؟ قيل: بل الوسوسة نوعان: نوع من الجن، ونوع من نفوس الإنس. كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] فالشر من الجهتين جميعا. والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين. وقال أيضا: الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه، وشياطين الجن وشياطين الإنس، فليس من شرط الموسوس أن يكون مستترا عن البصر، بل قد يشاهد. [القاسمي (٥٧٩/٩)]. قدم ﴿الْحِجَّةُ﴾ على ﴿الَّتَاسِ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] لأن خبثاء الناس أشد مخالطة للأنبياء من الشياطين؛ لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ إِلَّا مَنْ آتَبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] فإن الله أراد إبلاغ وحيه لأنبيائه، فزكى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين، ولم يعصمهم من لحاق ضرر الناس بهم والكيد لهم لضعف خطره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ولكنه ضمن لرسوله النجاة من كل ما يقطع إبلاغ الرسالة إلى أن يتم مراد الله. [ابن عاشور (٦٣٥/٣٠)]. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يَرِ مِثْلُهَا قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْتَّاسِ﴾». أخرجه مسلم (٨١٤). وفي لفظ آخر عن عقبة: أن رسول الله ﷺ قال له: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِأَفْضَلِ مَا تَعُوذُ بِهِ الْمُتَعَوِّذُونَ؟» قلت: بلى. قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وَ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْتَّاسِ﴾». أخرجه النسائي (٥٤٣٢)، وأحمد (١٧٢٩٧). وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده عليه رجاء بركتها. أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢). وعن عقبة بن عامر قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة. أخرجه أبو داود (١٥٢٣)، والترمذي (٢٩٠٣). وعن عبد الله بن حبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر وظلمة، نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا، فأدركناه، فقال: «قُلْ». فلم أقل شيئا. ثم قال: «قُلْ». فلم أقل شيئا. ثم قال: «قُلْ». قلت: يا رسول الله، ما أقول؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ». أخرجه الترمذي (٣٥٧٠)، وأبو داود (٥٠٨٢). وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان. فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما. أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي (٥٤٩٤)، وابن ماجه (٣٥١١).

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

مَكِّيَّةٌ، سَبْعُ آيَاتٍ بِالْبَسْمَلَةِ إِنْ كَانَتْ مِنْهَا، وَالسَّابِعَةُ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهَا، فَالسَّابِعَةُ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ﴾ إِلَى آخِرِهَا، وَيُقَدَّرُ فِي أَوَّلِهَا: «قُولُوا» لِيَكُونَ مَا قَبْلَ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مُنَاسِبًا لَهُ بِكَوْنِهَا مِنْ مَقُولِ الْعِبَادِ^(١).

(١) يقال لها: الفاتحة، أي: فاتحة الكتاب خطأ، وبها تفتح القراءة في الصلاة، ويقال لها أيضا: أم الكتاب ... وأم القرآن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَأُمُّ الْكِتَابِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي». أخرجه البخاري (٤٧٠٤)، والترمذي (٣٣٨٩)، ولفظ البخاري: «أُمُّ الْقُرْآنِ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ». ويقال لها: الحمد، ويقال لها: الصلاة، لقوله عليه السلام عن ربه: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: حَمَدَنِي عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ قَالَ: أَتَنَى عَلَيَّ عَبْدِي، أَوْ مَجَدَّنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: قَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فَهَذِهِ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أَهْدَانَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فَهَذِهِ لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أخرجه مسلم (٣٩٥). فسميت الفاتحة: صلاة؛ لأنها شرط فيها. ويقال لها: ... الرقية؛ لحديث أبي سعيد رضي الله عنه في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم، فقال له رسول الله ﷺ: «وَمَا يَدْرِيكَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟». أخرجه البخاري (٢٢٧٦)، ومسلم (٢٢٠١). وهي مكية، قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنية، قاله أبو هريرة ومجاهد وعطاء بن يسار والزهري. ويقال: نزلت مرتين: مرة بمكة، ومرة بالمدينة، والأول أشبه لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر: ٨٧]... وهي سبع آيات بلا خلاف، ... وكلماتها خمس وعشرون كلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفا. [ابن كثير (١/ ١٠١)]. والاستعاذة قبل القراءة سنة عند الجمهور لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] واختلفوا في لفظها المختار، ولا يأتي بكثير فائدة، ومعنى أَعُوذُ بِاللَّهِ أَلْتَجِيءُ إِلَيْهِ وَأَمْتَنُ بِهِ مِمَّا أَخْشَاهُ، مِنْ «عَازِ يَعُوذُ» وَالشَّيْطَانُ أَصْلُهُ مِنْ «شَطْنٍ» أَي: تَبَاعَدُ مِنَ الرَّحْمَةِ أَوْ مِنْ شَاطِئِ إِذَا هَلَكَ وَاحْتَرَقَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى. وَالشَّيْطَانُ اسْمٌ لِكُلِّ عَاتٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، وَالرَّجِيمُ مَنْ يَرْجُمُ بِالْوَسْوسَةِ أَوْ مَرْجُومٌ بِالشَّهْبِ عِنْدَ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ أَوْ بِالْعَذَابِ أَوْ مَطْرُودٌ عَنِ الرَّحْمَةِ. وَالِاسْتِعَاذَةُ تَطَهَّرُ الْقَلْبَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ شَاغَلَ عَنِ اللَّهِ. وَمِنْ لَطَائِفِهَا أَنْ قَوْلَهُ: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» إِقْرَارٌ مِنَ الْعَبْدِ بِعَجْزِهِ وَضَعْفِهِ وَبِقُدْرَةِ الْبَارِي عَلَى دَفْعِ جَمِيعِ الْمَضَرَّاتِ. وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْبَسْمَلَةِ: هَلْ هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ كَتَبَتْ فِي أَوَّلِهَا، أَوْ هِيَ بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ أَوْ هِيَ كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ فَقَطْ دُونَ غَيْرِهَا أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِآيَةٍ فِي الْجَمِيعِ وَإِنَّمَا كَتَبَتْ لِلْفَصْلِ؟ وَالْأَقْوَالُ وَأَدْلَتُهَا مَبْسُوطَةٌ فِي مَوْضِعِ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ فِي سُورَةِ النَّمْلِ، وَقَدْ جُزِمَ قِرَاءَةُ مَكَّةَ وَالْكُوفَةِ وَفَقَهَاؤُهُمَا بِأَنَّهَا آيَةٌ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَمِنْ كُلِّ سُورَةٍ، وَخَالَفَهُمْ قِرَاءَةُ الْمَدِينَةِ وَالْبَصْرَةِ وَالشَّامِ وَفَقَهَاؤُهُمَا فَلَمْ يَجْعَلُوهَا آيَةً لَا مِنَ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ السُّورِ، وَقَالُوا إِنَّهَا آيَةٌ فَذَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ أَنْزَلَتْ لِلْفَصْلِ وَالتَّبَرُّكِ لِلْإِبْتِدَاءِ بِهَا ... وَقَدْ أَثْبَتَهَا السَّلَفُ فِي الْمَصْحَفِ مَعَ الْأَمْرِ بِتَجْرِيدِ الْقُرْآنِ عَمَّا لَيْسَ مِنْهُ، وَلِذَا لَمْ يَكْتُبُوا آمِينَ. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لَا يَعْرِفُ فَصْلَ السُّورَةِ، وَفِي رِوَايَةٍ: انْقِضَاءُ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ جُمْلَةُ خَبَرِيَّةٍ فُصِّدَ بِهَا الشَّاءُ عَلَى اللَّهِ بِمَضْمُونِهَا عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى مَالِكٌ لَجَمِيعِ الْحَمْدِ مِنَ الْخَلْقِ، أَوْ مُسْتَحَقٌّ لِأَن يَحْمَدُوهُ^(١)، وَ «اللَّهُ» عَلَّمَ عَلَى الْمَعْبُودِ بِحَقِّ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أَي: مَالِكٌ جَمِيعِ الْخَلْقِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَالِدَوَابِّ، وَغَيْرِهِمْ، وَكُلُّ مِنْهَا يُطَلَّقُ عَلَيْهِ عَالَمٌ، يُقَالُ: عَالَمُ الْإِنْسِ وَعَالَمُ الْجِنِّ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَغُلِبَ فِي جَمْعِهِ بِالْيَاءِ وَالنُّونِ أَوَّلُو الْعِلْمِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَهُوَ مِنَ الْعَلَامَةِ؛ لِأَنَّهُ عَلَامَةٌ عَلَى مُوجِدِهِ^(٣). ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٣) أَي: ذِي الرَّحْمَةِ، وَهِيَ إِرَادَةُ الْخَيْرِ لِأَهْلِهِ^(٤). ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤) أَي: الْجَزَاءِ، وَهُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهُ لَا مُلْكَ ظَاهِرًا فِيهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى بِدَلِيلٍ: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾ [غافر: ١٦]، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿مَالِكِ﴾ فَمَعْنَاهُ مَالِكُ الْأَمْرِ كُلِّهِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَوْ هُوَ مَوْصُوفٌ بِذَلِكَ دَائِمًا كَ ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ [غافر: ٣] فَصَحَّ وَقُوعُهُ صِفَةً لِمَعْرِفَةِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) أَي: نَخْصُكَ بِالْعِبَادَةِ مِنْ تَوْحِيدٍ وَغَيْرِهِ، وَنَطْلُبُ الْمَعُونَةَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَغَيْرِهَا^(٦). ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (٦) أَي: أَرْشِدْنَا إِلَيْهِ. وَيُبْدَلُ مِنْهُ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عليه «بسم الله الرحمن الرحيم»، أخرجه أبو داود (٧٨٨) والحاكم (١٣١/١) ... وأخرج مسلم (٤٠٠) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَنْزَلْتُ عَلَيَّ أَنْفَا سُورَةً، فَقَرَأَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾». [صديق حسن (١/٣٦)].

(١) ﴿الْحَمْدُ﴾ معناه: الثناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدي إلى الشاكر، وشكره حمد ما، والحمد المجرد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئاً، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثنى بالصفات، وذهب الطبري إلى أن الشكر والحمد بمعنى واحد، وذلك غير مرضي. وحكي عن بعض الناس أنه قال: الشكر ثناء على الله بأفضاله وإنعامه، والحمد ثناء بأوصافه ... وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنى بصفة قولك: الحمد لله شكراً، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكراً؛ إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم. [ابن عطية (١/٦٦)].

(٢) الرب وزنه فعل بكسر العين ثم أدغم، ومعانيه أربعة: الإله، والسيد، والمالك، والمصلح. وكلها في رب العالمين، إلا أن الأرجح معنى الإله: لاختصاصه لله تعالى، كما أن الأرجح في العالمين: أن يراد به كل موجود سوى الله تعالى، فيعم جميع المخلوقات. [ابن جزي (١/٦٤)]. لقوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٣٤﴾ [الشعراء: ٢٣-٢٤].

(٣) اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبياؤه ورسله. فهو لاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها. واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وإحكام الصفات. فيؤمنون مثلاً، بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم. فالنعم كلها، أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. [السعدي (ص: ٣٩)].

(٤) أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى لا إله إلا الله؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير

عَلَيْهِمْ» بِالْهِدَايَةِ^(١)، وَيُبَدِّلُ مِنَ «الَّذِينَ» بِصَلَتِهِ «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» وَهُمْ الْيَهُودُ «وَلَا» وَغَيْرِ «الضَّالِّينَ»^(٢) وَهُمْ النَّصَارَى^(٣)، وَنُكْتُةُ الْبَدَلِ إِفَادَةٌ أَنَّ الْمُهْتَدِينَ لَيْسُوا يَهُودًا وَلَا نَصَارَى^(٤)، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

الله تعالى في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من لا إله إلا الله بتقديم المعمول الذي هو «إِيَّاكَ» وقد تقرر في الأصول في مبحث دليل الخطاب الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث القصر: أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: «تَعْبُدُ»... كقوله: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» [النحل: ٣٦]. وقوله تعالى: «وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ» أي: لا نطلب العون إلا منك وحدك؛ لأن الأمر كله بيدك وحدك لا يملك أحد منه معك مثقال ذرة. وإتيانه بقوله: «وَإِيَّاكَ تَسْتَعِينُ» بعد قوله: «إِيَّاكَ تَعْبُدُ» فيه إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر. وهذا المعنى المشار إليه هنا جاء مبينا واضحا في آيات أخر كقوله: «فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ» [هود: ١٢٣]، وقوله: «رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمل: ٩]. [الشنقيطي (١/٤٩)].

(١) لم يبين هنا من هؤلاء الذين أنعم عليهم. وبين ذلك في موضع آخر بقوله: «فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [النساء: ٦٩]. [الشنقيطي (١/٥١)].

(٢) عن عبد الله بن شقيق، عن رجل من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، فقلت: يا رسول الله، بم أمرت؟ قال: «أُمِرْتُ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ»، قلت: يا رسول الله، من هؤلاء؟ فقال: «الْمَغْضُوبُ عَلَيْهِمْ»، يعني: اليهود، فقلت: من هؤلاء؟ قال: «الضَّالِّينَ»، يعني: النصارى. أخرجه أحمد (٢٠٣٦٦).

(٣) يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها: «آمين» ومعناه: اللهم استجب،... وليس من القرآن. بدليل أنه لم يثبت في المصاحف، والدليل على استحباب التأمين [حديث] وائل بن حجر رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ قرأ «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» فقال: «آمين»» مد بها صوته. أخرجه أبو داود (٩٣٢)، والترمذي (٢٤٨)، وأحمد (١٨٨٤٢). وفي صحيح مسلم (٤٠٤) عن أبي موسى رضي الله عنه مرفوعا: «إِذَا قَالَ الْإِمَامُ: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» فَقُولُوا: آمِينَ، يُجِبْكُمْ اللَّهُ». واعلم أن هذه السورة الكريمة قد اشتملت - وهي سبع آيات - على حمد الله تعالى وتمجيده، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العليا، وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين، وعلى إرشاد عبده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم، وإلى إخلاص العبادة له، وتوحيده بالألوهية تبارك وتعالى، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم... وتثبيتهم عليه حتى يفضي بهم إلى جنات النعيم في جوار النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. واشتملت على الترويح في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة، والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة، وهم المغضوب عليهم والضالون. [القاسمي (١/٢٣٥)].

وصف المخطوط والمطبوع والمراجع

قمت بضبط النص على عدة نسخ مطبوعة تعتبر الأفضل من حيث الضبط من بين طبعات الكتاب، وهي نسخة المطبعة العامرية ونسخة أحمد شاكر

ونسخة قباوة، وفيما أشكل رجعت إلى مخطوطات التفسير، وإليك ثبت بها:

المخطوطة رقم (١)



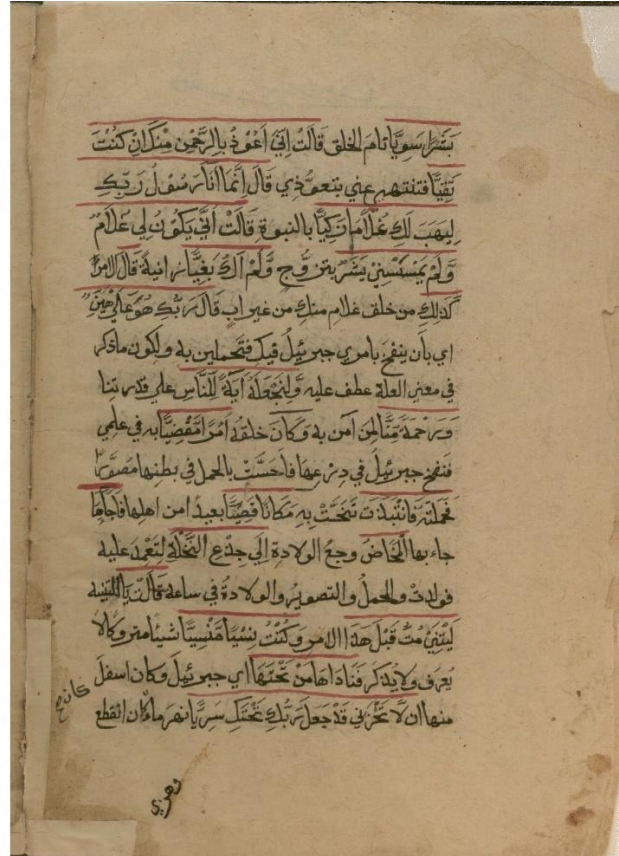
الجلالين (نسخة أولى) رقم الحفظ (٣١٦/٥٥)، تاريخ النسخ الهجري (٩٠٠هـ) تاريخ النسخ الميلادي (١٤٩٥م)، الوصف المادي: ٢٠٣ ورقة، ١٧ سطر، ٢١×٣٤ سم، تصنيف ديوي (٣، ٢٢٧ م م ت). المكتبة التابعة لها: مكتبة رباط بشير آغا، المصدر: السعودية، المدينة المنورة، مجمع الملك عبد العزيز للمكتبات الوقفية. المراجع كشف الظنون (١/ ٤٤٥)، الأعلام (٥/ ٣٣٣).

المخطوطة رقم (٢)

ما انزل اليك وما انزل من قبلك من الكتب والمفاتيح الصلوات نصيب على الله
 وفرد بالرفع والموتون الزكوة والمنسوت بالذبيحة واليوم الآخر اولئك
 سنؤتيهم بالنون والنبأ الجزاء عظيمنا هو الجنة انا اوحينا اليك كما اوحينا
 ابراهيم والنبيين من بعده وكما اوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق واسمه
 ويعقوب اذ اسلمناهم للاسباط اولاده وعيسى يوسف ويونس وهرون
 وسليمان واعطينا اياه داور زجرنا بالفتح اسم للكتاب الموت والضم مصدا
 معون زجرنا الى مكتوبنا وارسلناهم لرسلا فند قصصنا هو عليكم من
 قبل ورسلا لم نفصصهم عليك روى انه تعالى بعث ثمانية الاثني اربعة
 الا ومن بين اسمايلا واربعة الاثني اربعة الكس من سائر الناس قاله الشيخ في سورة
 غافر وطم الله موسى بالارسل واسمهم قطيما رسلا بدل من رسلا قبله بنسبتهم
 بالثواب من آمن ومنذرهم بالعقاب من كفر ارسلناهم ليلا يكون للناس
 على الله حجة فقال بعد ارسال الرسل اليهم فيقولوا ربنا لو ارسلنا السنا
 برسولا فنتبع اياته ونكون من المؤمنين فبعثناهم لنقطع عذرهم وكان
 الله عزيزا فله ملكه حكما فوضعه ونزلنا سيرة اليهود عن نبوته صلى الله
 عليه وسلم فانكروه لكن الله يهدي من يشاء ويبين نبوتك بما انزلنا اليك من القرآن
 المعجز انزله ملتصقا بجملة اعمالك به او وفيه علمه واللاذ بك
 يشهدون لان ايها وكفى بالله شهيدا على ذلك ان الدين كفووا بالله وصدوا
 الناس عن سيرة الله دين الاسلام بكتهم نعت محمد وهو اليهود قد ضلوا
 ضلالا بعيدا عن الحق ان الدين كفووا بالله وظلموا نبيه بكتان بغتة
 لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقا من الطرق الا ان يرد عنهم اي
 الطريق المودى اليها خالدين مقدرين لخلود فيها اذا دخلوها سيرا
 وكان ذلك على الله يسيرا هينا يا ايها الناس اياها هلكة قد حاكمكم الرسول
 محمد يا احسن منكم فامنوا به واقصدوا خيرا لكم ما استوفيه وان تكلفوا
 به فان الله ما في السموات والارض ملوكا وخلقنا عبيدا فلما يضره كفرهم
 وكان الله عليما بخلقه حكما في صنعهم يا اهل الكتاب لا تحفلوا

الجالين (نسخة ثانية) رقم الحفظ (٥٥٥١) تاريخ النسخ الهجري (١٠٦٣ هـ)، بخط عبد المجيد الجاوي، الوصف
 المادي: ٢٨٤ ورقة، ٢٥ سطر، ٥، ٢٠ × ١٤ سم، تصنيف ديوي (٢١٢ ت ج)، من مقتنيات مكتبة جامعة الملك
 سعود، الرياض. المراجع: كشف الظنون (١/٤٤٥)، الأعلام (٦/٢٣٠).

المخطوطة رقم (٣)



الجلالين (نسخة ثالثة) رقم الحفظ (٧٥)، تاريخ النسخ الهجري (٩٠٠)، تاريخ النسخ (الميلادي) (١٤٩٥)،
 الوصف المادي (٣٣٩ ورقة، ١٥ سطر، ٢٣،٥ × ١٥،٥ سم)، الوصف (النسخة مصححة، كتبت أسماء السور
 بالمداد الأحمر، ضبطت كلماتها بالشكل، وضعت خطوط حمراء فوق الآيات المفسرة)، تصنيف ديوي (٣، ٢٢٧
 م م ت)، المصدر: (السعودية، المدينة المنورة، مجمع الملك عبد العزيز للمكتبات الوقفية)، المراجع: (كشف
 الظنون ٤٤٥/١، الأعلام ٣٠١/٣، ٣٣٣/٥).

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
١	مقاتل	الكتاب: تفسير مقاتل بن سليمان، المؤلف: أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت ١٥٠ هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٣ هـ
٢	الطبري	الكتاب: تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»، المؤلف: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ - ٣١٠ هـ)، تحقيق: د عبد الله التركي، الناشر: دار هجر - القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م
٣	السمرقندي	الكتاب: بحر العلوم، المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي (ت ٣٧٣ هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٣
٤	الثعلبي	الكتاب: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، المؤلف: أحمد بن محمد الثعلبي، (ت ٤٢٧ هـ)، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢ هـ، - ٢٠٠٢ م
٥	مكي بن أبي طالب	الكتاب: الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، المؤلف: أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧ هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
٦	الماوردي	الكتاب: تفسير الماوردي «النكت والعيون»، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد البغدادي، الشهير بالماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان
٧	الواحدي	الكتاب: التفسير البسيط، المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت ٤٦٨ هـ)، المحقق: أصل تحقيقه في (١٥) رسالة دكتوراة بجامعة الإمام محمد بن سعود، الناشر: عمادة البحث العلمي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى ١٤٣٠ هـ
٨	السمعاني	الكتاب: تفسير القرآن، المؤلف: أبو المظفر، منصور المروزي السمعاني (ت ٤٨٩ هـ)، المحقق: ياسر بن غنيم، الناشر: دار الوطن، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ
٩	البغوي	الكتاب: تفسير البغوي «معالم التنزيل في تفسير القرآن»، المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت ٥١٠ هـ)، المحقق: محمد النمر - عثمان ضميرية - سليمان الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
١٠	الزمخشري	الكتاب: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، المؤلف: محمود الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)، ضبطه: مصطفى أحمد، الناشر: دار الريان للتراث بالقاهرة - دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ
١١	ابن عطية	الكتاب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢ هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
١٢	ابن الجوزي	الكتاب: زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
١٣	القرطبي	الكتاب: الجامع لأحكام القرآن، المؤلف: أبو عبد الله، محمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م
١٤	الرازي	الكتاب: التفسير الكبير «مفاتيح الغيب»، المؤلف: أبو عبد الله محمد الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ
١٥	البيضاوي	الكتاب: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله البيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)، المحقق: محمد المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
١٦	النسفي	الكتاب: تفسير النسفي «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، المؤلف: أبو البركات عبد الله النسفي (ت ٧١٠ هـ)، حققه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
١٧	ابن جزي	الكتاب: التسهيل لعلوم التنزيل، المؤلف: أبو القاسم، محمد ابن جزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١ هـ)، المحقق: د. عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ
١٨	أبو حيان	الكتاب: البحر المحيط في التفسير، المؤلف: أبو حيان محمد بن حيان الأندلسي (ت ٧٤٥ هـ)، المحقق: صديقي جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ
١٩	ابن كثير	الكتاب: تفسير القرآن العظيم، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
٢٠	ابن عادل الحنبلي	الكتاب: اللباب في علوم الكتاب، المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن عادل الحنبلي (ت ٧٧٥هـ)، المحقق: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
٢١	النيسابوري	الكتاب: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، المؤلف: نظام الدين الحسن بن القمي النيسابوري (ت ٨٥٠هـ)، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ
٢٢	الثعالبي	الكتاب: الجواهر الحسان في تفسير القرآن، المؤلف: أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي (ت ٨٧٥هـ)، المحقق: الشيخ محمد معوض والشيخ عادل عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٢٣	البقاعي	الكتاب: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، المؤلف: إبراهيم أبي بكر البقاعي (ت ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٢٤	السيوطي	الكتاب: الدر المنثور، المؤلف: عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت
٢٥	أبو السعود	الكتاب: تفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، المؤلف: أبو السعود العمادي بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت
٢٦	الشوكاني	الكتاب: فتح القدير، المؤلف: محمد الشوكاني اليميني (ت ١٢٥٠هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ
٢٧	الآلوسي	الكتاب: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف: شهاب الدين محمود الآلوسي (ت ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٢٨	صديق حسن	الكتاب: فتح البيان في مقاصد القرآن، المؤلف: أبو الطيب محمد صديق القنوجي (ت ١٣٠٧هـ)، راجعه: عبد الله الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
٢٩	القاسمي	الكتاب: محاسن التأويل، المؤلف: محمد القاسمي (ت ١٣٣٢ هـ)، المحقق: محمد عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٣٠	السعدي	الكتاب: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن السعدي (ت ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

ثبت مراجع التفسير		
الترقيم	الرمز	اسم الكتاب
٣١	ابن عاشور	الكتاب: التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣ هـ)، الناشر: الدار التونسية - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ
٣٢	الشنقيطي	الكتاب: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣ هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت) الطبعة: الخامسة، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م
٣٣	عطية سالم	الكتاب: تنمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن «ملحق بأضواء البيان»، المؤلف: عطية محمد سالم (المتوفى: ١٤٢٠ هـ)، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - لبنان، عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م
٣٤	ابن عثيمين	الكتاب: تفسير القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، تنبيه: كل سورة لها طبعة مستقلة
٣٥	أبو بكر الجزائري	الكتاب: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، المؤلف: جابر أبو بكر الجزائري (ت ٢٠١٨ م)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٣٦	الكتاب: مجموع الفتاوى، المؤلف: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عام النشر: ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م
٣٧	الكتاب: الأحكام في أصول الأحكام، المؤلف: أبو محمد علي بن حزم (ت ٤٥٦ هـ)، قدم له: الأستاذ الدكتور إحسان عباس، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت
٣٨	الكتاب: شرح السنة، المؤلف: أبو محمد الحسين البغوي الشافعي (ت ٥١٦ هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط - محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
٣٩	الكتاب: مدارج السالكين في منازل السائرين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١ هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م
٤٠	الكتاب: أعلام الموقعين عن رب العالمين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
٤١	الكتاب: اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١ هـ)، المحقق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٤٢	الكتاب: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٥٩ - ٧٥١هـ)، تحقيق: زاهر بن سالم بلفقيه، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م
٤٣	الكتاب: الداء والدواء، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، حققه: محمد أجمل الإصلاحي، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٤٤	الكتاب: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المحقق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٤٥	الكتاب: بدائع الفوائد، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المحقق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م (الأولى لدار ابن حزم)
٤٦	الكتاب: إغاثة اللفهان في مصايد الشيطان، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، حققه: محمد عزيز شمس، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٤٧	الكتاب: التبيان في أيمان القرآن، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المحقق: عبد الله بن سالم البطاطي، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٤٨	الكتاب: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الثالثة، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م
٤٩	الكتاب: كشف المعاني في المتشابه من المثنائي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن جماعة الكنافي (ت ٧٣٣هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء - المنصورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م
٥٠	الكتاب: فتح الباري بشرح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣ - ٨٥٢هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتصحيح تجاربه: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية - مصر، الطبعة: «السلفية الأولى»، ١٣٨٠ - ١٣٩٠هـ
٥١	الكتاب: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، المؤلف: محمد الأمين الشنقيطي (١٣٢٥ - ١٣٩٣هـ)، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الخامسة، ١٤٤١هـ - ٢٠١٩م
٥٢	الكتاب: السيرة النبوية لابن هشام، المؤلف: عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٥٣	الكتاب: أحكام القرآن، المؤلف: أحمد الجصاص الحنفي (ت ٣٧٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م
٥٤	الكتاب: أساس البلاغة، المؤلف: أبو القاسم محمود الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م
٥٥	الكتاب: مجمل اللغة لابن فارس، المؤلف: أحمد بن فارس (ت ٣٩٥هـ)، دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، دار النشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م
٥٦	الكتاب: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المؤلف: أحمد بن محمد بن علي الفيومي (ت نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت
٥٧	الكتاب: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (ت ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى لمكتبة المعارف
٥٨	الكتاب: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، المؤلف: شمس الدين، محمد الشربيني (ت ٩٧٧هـ)، حققه: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م
٥٩	الكتاب: الأشاعرة في ميزان أهل السنة، المؤلف: فيصل بن قزار الجاسم، الناشر: المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنة، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
٦٠	الكتاب: النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين الجزري ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: طاهر الزاوي - محمود الطناحي
٦١	الكتاب: كتاب العين، المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال
٦٢	الكتاب: تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: جماعة من المختصين، من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت
٦٣	الكتاب: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعتلة، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) اختصره: محمد البعلبي شمس الدين، ابن الموصلي (ت ٧٧٤هـ)، المحقق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة - مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
٦٤	الكتاب: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، المؤلف: أحمد بن حجر الهيتمي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى بمصر، عام النشر: ١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م
٦٥	الكتاب: تعليقات الشيخ البراك على المخالفات العقدية في فتح الباري، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، المحقق: عبد الرحمن السديس، الناشر: طبعته التعليقات بحاشية (فتح الباري) طبعة دار طيبة

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٦٦	الكتاب: توضيح مقاصد «العقيدة الواسطية»، لشيخ الإسلام، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، إعداد: عبد الرحمن السديس، الناشر: مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن البراك، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م
٦٧	الكتاب: التعليق والإيضاح على تفسير الجلالين، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر البراك، اعتنى به: مؤسسة وقف الشيخ عبد الرحمن البراك، الطبعة: الأولى، ١٤٤٢ هـ - ٢٠٢٠ م
٦٨	الكتاب: المناهي اللفظية، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، جمع وإعداد: فهد السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٦٩	الكتاب: القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م
٧٠	الكتاب: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، المؤلف: شمس الدين محمد الرملي (ت ١٠٠٤ هـ)، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: ط أخيرة - ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
٧١	الكتاب: المفصل في تفسير القرآن الكريم، المؤلف: فخر الدين قباوة، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون
٧٢	الكتاب: ثعلبة بن حاطب الصحابي المقتري عليه، المؤلف: عذاب محمود الحمش، الناشر: دار بدر، ط: ٢
٧٣	الكتاب: علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، المؤلف: عدنان محمد زرزور، المكتب الإسلامي، سنة النشر: ١٤٠١ - ١٩٨١
٧٤	الكتاب: نزول القرآن الكريم والعناية به في عهد الرسول ﷺ، المؤلف: محمد بن عبد الرحمن الشايع، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة
٧٥	الكتاب: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، المؤلف: محمد بن محمد بن سويلم أبو شهبه (ت ١٤٠٣ هـ)، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الرابعة
٧٦	الكتاب: من آيات الإعجاز العلمي، المؤلف: زغلول النجار، الناشر: مكتبة الشروق، الطبعة: الثالثة عشر
٧٧	الكتاب: القول المفيد على كتاب التوحيد، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية محرم ١٤٢٤ هـ
٧٨	الكتاب: لسان العرب، المؤلف: محمد بن مكرم ابن منظور (ت ٧١١ هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
٧٩	الكتاب: الهداية الربانية في شرح العقيدة الطحاوية، المؤلف: عبد العزيز الراجحي، الناشر: دار التوحيد، الرياض، ط ١، ١٤٣٠ هـ
٨٠	الكتاب: شرح العقيدة السفارينية، المؤلف: محمد بن العثيمين (ت ١٤٢١ هـ)، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ
٨١	الكتاب: مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، المؤلف: عبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: د. محمد الشويعر، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية

الترقيم	ثبت المراجع العامة
٨٢	الكتاب: روضة المحبين ونزهة المشتاقين، المؤلف: أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١) حققه: محمد عزيز شمس، الناشر: دار عطاءات العلم (الرياض) - دار ابن حزم (بيروت)، الطبعة: الرابعة، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م
٨٣	الكتاب: مقدمات في علم القراءات، المؤلف: محمد القضاة، أحمد شكرى، محمد منصور، الناشر: دار عمار - عمان (الأردن) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

فهرس الكتاب

السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص	السورة	ص
المقدمة	٥	الأنبياء	٤٢٨	فصلت	٦٤٦	الصف	٧٧٧	التكوير	٨٥٩	القارعة	٩٠٤
البقرة	١٣	الحج	٤٤٢	الشورى	٦٥٣	الجمعة	٧٨٠	الانفطار	٨٦٤	التكاثر	٩٠٥
آل عمران	٨٧	المؤمنون	٤٥٦	الزخرف	٦٦١	المنافقون	٧٨٣	المطففين	٨٦٧	العصر	٩٠٦
النساء	١٢١	النور	٤٦٧	الدخان	٦٧١	التغابن	٧٨٥	الانشقاق	٨٧٠	الهجرة	٩٠٧
المائدة	١٥٨	الفرقان	٤٨٣	الجاثية	٦٧٥	الطلاق	٧٨٩	البروج	٨٧٣	الفيل	٩٠٨
الأنعام	١٨٦	الشعراء	٤٩٢	الأحقاف	٦٧٩	التحریم	٧٩٣	الطارق	٨٧٦	قريش	٩٠٩
الأعراف	٢١٣	النمل	٥٠٣	محمد	٦٨٥	الملک	٧٩٦	الأعلى	٨٧٨	الماعون	٩١٠
الأنفال	٢٤٢	القصص	٥١٥	الفتح	٦٩١	القلم	٨٠٢	الغاشية	٨٨٠	الکوثر	٩١١
التوبة	٢٥٤	العنکبوت	٥٢٧	الحجرات	٦٩٩	الحاقة	٨٠٧	الفجر	٨٨٣	الکافرون	٩١٢
يونس	٢٧٥	الروم	٥٣٨	ق	٧٠٥	المعارج	٨١٢	البلد	٨٨٧	النصر	٩١٣
هود	٢٨٩	لقمان	٥٤٧	الذاریات	٧١٢	نوح	٨١٧	الشمس	٨٨٩	المسد	٩١٤
يوسف	٣٠٤	السجدة	٥٥٣	الطور	٧١٨	الجن	٨٢٠	اللیل	٨٩١	الإخلاص	٩١٥
الرعد	٣٢١	الأحزاب	٥٥٨	النجم	٧٢٣	المزمل	٨٢٥	الضحی	٨٩٣	الفلق	٩١٦
إبراهيم	٣٣١	سبأ	٥٧٤	القمر	٧٣١	المدثر	٨٢٨	الشرح	٨٩٥	الناس	٩١٧
الحجر	٣٣٩	فاطر	٥٨٦	الرحمن	٧٣٩	القيامة	٨٣٣	التین	٨٩٦	الفاتحة	٩٢٠
النحل	٣٤٦	یس	٥٩٤	الواقعة	٧٤٦	الإنسان	٨٣٧	العلق	٨٩٧	المراجع	٩٢٣
الإسراء	٣٦٣	الصافات	٦٠٤	الحديد	٧٥٤	المرسلات	٨٤٢	القدر	٨٨٠	الفهرس	٩٣٤
الکھف	٣٨٦	ص	٦١٧	المجادلة	٧٦٣	النبأ	٨٤٦	البينة	٩٠١		
مريم	٤٠٣	الزمر	٦٢٩	الحشر	٧٦٨	النازعات	٨٥١	الزلزلة	٩٠٢		
طه	٤١٥	غافر	٦٣٦	الممتحنة	٧٧٣	عبس	٨٥٥	العاديات	٩٠٣		